# تأملات شيخ الاسلام ابن تيمية

# في

# القرآن الكريم

# سورة النساء

# (٤)

رقية محمود غرايبة

# الفهرس

# الفهرس (٢)

# ~§§ النساء(مدنية)١٧٦ §§~

## النساء١ـ١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ
مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي
تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً{١} وَآتُواْ الْيَتَامَى
أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ
إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً{٢} وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ
مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ
فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ{٣} وَآتُواْ النَّسَاء
صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً
مَّرِيئاً{٤} وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً
وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً{٥} وَابْتَلُواْ
الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ
أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً
فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ
أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً{٦} لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا
تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً{٧} وَإِذَا حَضَرَ
الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ
لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً{٨} وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً
ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً{٩} إِنَّ الَّذِينَ

## يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً{١٠}

## أول الإسلام وآخره

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارج له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}النحل٣٦ وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}الزخرف٦٣ فجعل العبادة والتقوى لله وجعل له أن يطاع وكذلك فى مواضع كثيرة جدا من القرآن اتقوا الله اتقوا الله {وَاتَّقُواْ اللّهَ}النساء١ [1]

## {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ}

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٧٢

قال تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ}البينة٥ و قوله {وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً}التوبة٣١ و هذا إختيار الزجاج و غيره و هذا هو المعروف عن مجاهد بالإسناد الثابت قال إبن أبى حاتم ثنا أبو سعيد الأشج {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ لآمرهم و أنهاهم كذلك روي عن الربيع بن أنس قال ما خلقتهما إلا للعبادة و يدل على هذا مثل قوله {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى}القيامة٣٦ يعنى لايؤمر و لا ينهي و قوله {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ}الفرقان٧٧ أي لولا عبادتكم و قوله {مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ}النساء١٤٧ و قوله {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا}الأنعام١٣٠ إلى قوله {وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ}الأنعام١٣١ و قوله {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١}يس٦٠-٦١ الآيات وما بعدها و قالت الجن لما سمعوا القرآن {يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ {٣٠} يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ{٣١}الأحقاف٣٠-٣١ الآية و ما بعدها و قالت الجن {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً}الجن١٤ الآية و ما بعدها وقد قال فى القرآن فى غيرموضع {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ}البقرة٢١ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ}النساء١ فقد أمرهم بما خلقهم له و أرسل الرسل إلى الإنس و الجن و محمد أرسل إلى الثقلين و قرأ القرآن على الجن و قد روى أنه لما قرأ عليهم سورة الرحمن و جعل يقرأ {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}الرحمن١٣ يقولون و لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد فهذا هو المعنى الذى قصد بالآية قطعا و هو الذي تفهمه جماهير المسلمين و يحتجون بالآية عليه و يعترفون بأن الله خلقهم ليعبدوه لا ليضيعوا حقه و فى الصحيحين عن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه و سلم قال له يامعاذ أتدري ما حق الله على عبادة قال الله و رسوله أعلم قال فإن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله و رسوله أعلم قال فإن حقهم عليه أن لا يعذبهم و فى المسند عن إبن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله و حده لا شريك له و جعل رزقى تحت ظل رمحي جعل الذل و الصغار على من خالف أمرى و من تشبه بقوم فهو منهم [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٥٢-٥٣

## حكمة خلق النوع البشري على الأقسام الممكنة

قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}النساء١ فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى كما قال تعالى {وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا}النساء١ وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح فإن حواء خلقت من ضلع آدم وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم وخلق آدم أعجب من هذا وهذا وهو أصل خلق حواء [1]

## الثواب والعقاب

المدح والذم والثواب والعقاب إنما يترتب على الإيمان والعمل الصالح أو على ضد ذلك من الكفر والفسوق والعصيان قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}النساء١ وقال النبى لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لابيض على أسود ولا لأسود على على ابيض إلا بالتقوى الناس بنو آدم وآدم من تراب [2]

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٥٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ١٤٤

# كل اجتماع في العالم لا بد فيه من التحالف

ومما ينبغي أن يعرف أن كل تبديل يقع في الأديان بل كل اجتماع في العالم لا بد فيه من التحالف وهو الاتفاق والتعاقد علي ذلك من اثنين فصاعدا بنو آدم لا يمكن عيشهم إلا بالتعاقد والتحالف فأن بني آدم لا يمكن عيشهم إلا بما يشتركون فيه من جلب منفعتهم ودفع مضرتهم فاتفاقهم على ذلك هو التعاقد والتحالف ولهذا كان الوفاء بالعهود من الأمور التي اتفق أهل الأرض علي إيجابها لبعضهم علي بعض وإن كان منهم القادر الذي لا يوفي بذلك كما اتفقوا في إيجاب العدل والصدق فإذا اتفقوا وتعاقدوا علي اجتلاب الأمر الذي يحبونه ودفع الأمر الذي يكرهونه أعان بعضهم بعضا علي اجتلاب المحبوب ونصر بعضهم بعضا علي دفع المكروه ولو لم يتعاقدوا بالكلام فنفس اشتراكهم في أمر يوجب عليهم اجتلاب ما يصلح ذلك الأمر المشترك ودفع ما يضره كأهل النسب الواحد وأهل البلد الواحد فإن التناسب والتجاور يوجب التعاون علي جلب المنفعة المشتركة ودفع الضرر المشترك فصار الاشتراك بينهم تارة يثبت بفعلهم وهو التعاقد علي ما فيه خيرهم وتارة يثبت بفعل الله تعالي وقد جمع الله عز وجل هذين الأصلين في قوله تعالي{وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}النساء١ وذكر في هذه السورة الأمور التي بينهم من جهة الخلق وهي من جهة العقود كما قال تعالي {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً}الفرقان٥٤ وقال تعالى {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ {٢٠} وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ {٢١}الرعد٢٠-٢١ وقال تعالي {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ{٢٦} الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ}البقرة٢٦-٢٧ وإذا كان لا بد في كل ما يشتركون فيه من تحالف وغير تحالف من التعاون علي جلب المحبوب والتناصر لدفع المكروه فالمحبوب هو الموالي والمكروه هو المعادي فلا بد لكل بني آدم من ولاية وعداوة ولهذا جميعهم يتمادحون بالشجاعة والسماحة فإن السماحة إعانة علي وجود المحبوب بالأموال والمنافع وغير ذلك والشجاعة نصر لدفع المكروه بالقتال وغيره ولا قوام لشيء من أمور بني آدم إلا بذلك ومبني ذلك بينهم علي العدل في المشاركات والمعاوضات فظهر أن جميع أمور بني آدم لا بد فيها من تعاون بينهم ودفع ومنع لغيرهم فلا بد لهم من عقد وقدرة والعقد أصله الإرادة كما قال تعالي {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ}النساء١ أى يتعاهدون ويتعاقدون والقدرة القدرة ومعلوم أنه لا بد في كل فعل من إرادة وقدرة والمشتركون لا بد من اتفاقهم في إرادة وفي قدرة فالذي يناله بعضهم

من جلب محبوب ودفع مكروه من بعض هو بالإرادة والطوع والذي ينالونه من غيرهم من جلب محبوب ودفع مكروه وهو بالقدرة علي ذلك العدو المكروه منه كما أن الوطء بملك النكاح الذي هو عقد أصله الإرادة والطوع وبملك اليمين الذي هو قهر بالقدرة علي سبيل الكره واشتراكهم في الجلب والدفع إما أن يكون تبعا لتعاقدهم وإما أن يكون بأمر آمر مطاع فيهم فالأول هو التحالف والثاني ما يطاع بغير تحالف سواء كانت طاعته بحق أو بغير حق فالذي بحق ما أمر الله بطاعته من أنبياءه وأولي الأمر من المؤمنين وطاعة الوالدين ونحو ذلك وما يجاب به بعضهم إلي مراد بعض بحق فإن ذلك هو معني الطاعة إذ المقصود بها موافقة المطلوب وأما بغير حق فكطاعة الطواغيت وهو كل ما عظم بباطل التحالف يكون وفقا الشريعة منزلة أو شريعة غير منزلة أو سياسة وكل قوم لا تجمعهم طاعة مطاع في جميع أمورهم فلا بد لهم من التعاقد والتحالف فيما لم يأمرهم به المطاع ولهذا كانت الشريعة المنزلة من عند الله الأفعال فيها التي تجب لله وتجب لبعض الناس علي بعض تارة تجب بإيجاب الله وتارة تجب بالعقد كالنذر وكعقود المفاوضات والمشاركات فلا واجب في الشريعة إلا بشرع أو عقد وإذا لم يكونوا علي شريعة منزلة من عند الله فإما أن يكونوا علي شريعة غير منزلة أو سياسة وضعها بعض المعظمين فيهم بنوع قدرة وعلم ونحو ذلك وما بقدرة من هذه الأمور الجامعة أوجب التحالف بينهم فإنه لا ينتظم لهم أمر إلا بطاعة آمر متحالفون عليه أو يأمرهم به من يطيعونه ولهذا أنكر التحالف في الأمم الخارجة عن الشريعة وفي الخارجين عنها وفي الأمور التي لا ترد إلي الشريعة وإنما يظهر ذلك حيث تدرس آثار النبوة المطاعة فيتحالف قوم علي طاعة ملك أو شيخ أو طاعة بعضهم لبعض في أمور يتفقون عليها ويتحالفون كما كان العرب في جاهليتهم يتحالفون ومنه الحليف الذي يكون في القبيلة فيصير منهم قال الله تعالي {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً}النساء٣٣ وقال تعالي {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ{٩١} وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{٩٢}النحل٩١-٩٢ وكذلك ما يوجد من التحالف بالتآخي وغير التآخي للملوك والمشايخ وأهل الفتوة ورماة البندق وسائر المتفقين علي بعض الأمور هو داخل في هذا وأيمان التعاقد والتحالف عام لبني آدم وهم في جاهليتهم تارة يتحالفون تحالفا يحبه الله كما قال النبي لقد شهدت حلفا مع عمومتي في دار عبد الله بن جدعان ما يسرني بمثله حمر النعم أو قال ما يسرني حمر النعم وأن أنقضه ولو

دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت وفى مثل هذا ما رواه مسلم عن جبير بن مطعم عن النبى أنه قال لا حلف فى الإسلام وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة وهذا الحلف يسمي حلف المطيبين كان يقدم إلي مكة من يظلمه بعض أكابرها فيستصرخ فلا ينصره أحد حتى أنشد بعض القادمين يا آل مكة مظلوم بضاعته ببطن مكة بين الركن والحجر وكان عبد الله بن جدعان من خيارهم فاجتمعت قبائل من قريش في بيته علي التحالف للتعاون على العدل ونصر المظلوم ووضعوا أيديهم في قصعة فيها طيب فسمى حلف المطيبين فأما إذا كان القول على الشريعة التى بعث الله بها رسوله فى دينهم ودنياهم فإن ذلك يغنيهم عن التحالف إلا عليها فعليها يكون تحالفهم وتعاقدهم وتعاونهم وتناصرهم كما وصف الله به المحبين المحبوبين في قوله تعالى {فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ}المائدة٥٤ وعلي ذلك يبايع المطاعون فيهم من الأمراء والعلماء وغيرهم كما قال أبو بكر الصديق في خطبته للمسلمين أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم وبذلك أمر الله ورسوله في طاعة أولى الأمر فقال النبى على المرء المسلم السمع والطاعة في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه ما لم يؤمر بمعصية الله فإذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة وقال النبى إنما الطاعة في المعروف و لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وفى الصحيح أن عبد الله بن عمر كتب بيعته إلى عبد الملك بن مروان لما اجتمع الناس عليه لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إنى قد أقررت لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت وقد أقر بنى لما أقررت به فأخبره أنه يعاقده على ما أمر الله به من الطاعة له في طاعة الله بحسب قدرته وهذا واجب عليه بالشرع فهو تعاقد على ما أمر الله بمنزلة نفس الدخول فى الإسلام وبيعة النبى كما بايعه الأنصار وكما بايعه المسلمون تحت الشجرة وكما كان يبايع المسلمين على السمع والطاعة ويلقنهم فيما استطعتم وطاعة الرسول واجبة على الخلق بإيجاب الله بمعاقدتهم على ذلك معاقدة على طاعة الله كما قال تعالي {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ}آل عمران٨١ لكن هذا إنما كان ظاهرا فى أيام الخلفاء الراشدين وبعدهم كثرت العقود الموافقة للشريعة تارة والمخالفة لها أخري فلا جرم كان الحكم العام في جميع هذه العقود أنه يجب الوفاء فيها بما كان طاعة لله ولا يجوز الوفاء فيها بما كان معصية لله كما قال النبي في الأحاديث الصحيحة ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله ما

كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط كتاب الله أحق وشرط الله أوثق وقال من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه وفي السنن المسلمون على شرطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا فأما أمر الدين وما يحبه الله ويقرب إليه فليس لعقود بنى آدم فيه أثر بل المرجع في ذلك إلي أمر الله ورسوله فلا دين إلا ما أمر الله به ومن اتبع في ذلك عقود بنى آدم فهم الذين اتبعوا شركاءهم الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن الله به وهذه حال جميع ما ابتدع من الدين فإن الذي ابتدعه وافقه عليه غيره وحالفه فاتخذوه دينا فتدين هذا فيه يظهر حال جميع أهل البدع المخالفة للكتاب والسنة وأن الموافقة عليها هى من هذا الباب وأكثر ما ينفق بين المسلمين ما فيه حق وباطل إذ الباطل المحض لا يبقى بينهم وذلك يتضمن التحالف على غير ما أمر الله به والتبديل لدين الله بما لبس من الحق بالباطل وهذه حال اليهود والنصارى وسائر أهل الضلال فإنهم عدلوا عما أمرهم الله باتباعه فلبسوه بباطل ابتدعوه بدلوا به دين الله وتحالفوا علي ذلك الذى ابتدعوه وأما المعاملات في الدنيا فالأصل فيها أنه لا يحرم منها إلا ما حرمه الله ورسوله فلا حرام إلا ما حرم الله ولا دين إلا ما شرعه وإذا لم يحرم إلا ما حرمه الله ورسوله فكأن ما كان بدله بدون التعاقد يجب بالتعاقد فإن العقد يوجب على كل واحد من المتعاوضين والمتشاركين ما أوجبه الآخر على نفسه له المسلمون علي شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا ولهذا قال النبي المسلمون على شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا وهذا الموضع كثر فيه غلط كثير من الفقهاء بتحريم عقود وشروط لم يحرمها الله كما كثر فى الأول غلط كثير من العباد والعلماء بابتداع دين لم يشرعه الله وإيجابه بالتعاقد عليه حتى يوجبون طاعة شخص معين ميت أو حى من العلماء في كل شئ ويحرمون طاعة غيره في كل شئ نازعه فيه لمجرد عقد العامى الذي انتسب إلي هذا دون هذا وكذلك في المشايخ حتى قد يأمرونه بمخالفه ما تبين له من الشريعة لأجل العقد الذى التزمه للمذهب والطريقة فيشترطون شروطا ليست في كتاب الله ويأمرون بطاعة المخلوق في معصية الخالق وأكثر ذلك يدخله نوع من الاجتهاد الظاهر الذي فيه نوع من اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى والواجب في جميع هذه الأمور أن ما يتبين أنه طاعة لله ورسوله وجب اتباعه وما اشتبه علي الإنسان حاله سلك فيه مسلك الاجتهاد بحسب قدرته ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها واجتهاد العامة هو طلبهم للعلم من العلماء بالسؤال والاستفتاء بحسب إمكانهم فإذا كان جميع ما عليه بنو آدم لابد فيه من تعاون وتناصر وفيه ما هو شرك بالله وفيه ما هو قول على الله بغير علم وفيه ما هو إثم وبغى وفيه ما هو من الفواحش علم أنه لابد في الإيمان من التعاون والتناصر علي

فعل ما يحبه الله تعالى ودفع ما يبغضه الله تعالى وهذا هو الجهاد في سبيله وأن أمر الإيمان لا يتم بدون ذلك كما لا يتم غير الإيمان إلا بما هو من نوع ذلك فكل المتعاونين المتناصرين يجاهدون ولكن في سبيل الله تارة وفي سبيل غير الله تارة ولا صلاح لبنى آدم إلا بأن يكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هى العليا قال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه}الأنفال٣٩ وهؤلاء الذين تولوا الله فتولاهم الله والذين يدينون لغير الله هم ظالمون بتولى بعضهم بعضا كما قال تعالى {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ {١٨} إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيئاً وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ{١٩}الجاثية١٨-١٩ ولا يتم لمؤمن ذلك إلا بأن يجمع بين ما جمع الله بينه ويفرق بين ما فرق الله بينه وهذه حقيقة الموالاة والمعاداة التي مبناها علي المحبة والبغضة فالموالاة تقتضى التحاب والجمع والمعاداة تقتضى التباغض والتفرق والله سبحانه قد ذكر الموالاة والجمع بين المؤمنين فقولة تعالي {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}المائدة٥٥ وذكر العداوة بينهم وبين الكفار فقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}المائدة٥١ ثم ذكر حال المستنصرين بهم فإن الموالاة موجبها التعاون والتناصر فلا يفرق بين المؤمنين لأجل ما يتميز به بعضهم عن بعض مثل الأنساب والبلدان والتحالف علي المذاهب والطرائق والمسالك والصداقات وغير ذلك بل يعطى كل من ذلك حقه كما أمر الله ورسوله ولا يجمع بينهم وبين الكفار الذين قطع الله الموالاة بينهم وبينه فإن دين الله هو الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا والله سبحانه أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط فيحتاج المؤمن إلي معرفة العدل وهو الصراط المستقيم وإلى العمل به وإلا وقع إما في جهل وإما في ظلم [1]

## كل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه اليه

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٢١-١٣٣

{وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}النساء١ وأما سؤال المخلوق المخلوق أن يقضى حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به بخلاف سؤال العلم فإن الله أمر بسؤال العلم كما فى قوله تعالى{وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}الزخرف٤٥ وهذا لأن العلم يجب بذله فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة وهو يزكو على التعليم لا ينقص بالتعليم كما تنقص الأموال بالبذل ولهذا يشبه بالمصباح وكذلك من له عند غيره حق من عين أو دين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة لصاحبها أن يسألها ممن هى عنده وكذلك مال الفىء وغيره من الأموال المشتركة التى يتولى قسمتها ولى الأمر للرجل أن يطلب حقه منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية لأن المستولى يجب عليه أداء الحق الى مستحقه ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه كما استطعم موسى والخضر أهل القرية وكذلك الغريم له أن يطلب دينه ممن هو عليه وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه اليه فالبائع يسأل الثمن والمشترى يسأل المبيع ومن هذا الباب قوله تعالى {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}النساء١ [1]

قال الله تعالى فى كتابه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ وقال تعالى {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}البقرة١٨٨ وقال تعالى فيما ذم به بنى إسرائيل {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ}النساء١٥٥ إلى قوله {وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ}النساء١٦١ ومن أكل أموال الناس بالباطل أخذ أحد العوضين بدون تسليم العوض الآخر لأن المقصود بالعهود والعقود المالية هوالتقابض فكل من العاقدين يطلب من الآخر تسليم ما عقد عليه ولهذا قال تعالى {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ}النساء١ أي تتعاهدون وتتعاقدون وهذا هو موجب العقود ومقتضاها لأن كلا من المتعاقدين أوجب على نفسه بالعقد ما طلبه الآخر وسأله منه فالعقود موجبة للقبوض والقبوض هى المسؤولة المقصودة المطلوبة ولهذا تتم العقود بالتقابض من الطرفين حتى لو أسلم الكافران بعد التقابض فى العقود التى يعتقدون صحتها أو

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٨٦

تحاكما إلينا لم نتعرض لذلك لانقضاء العقود بموجباتها ولهذا نهى عن بيع الكالىء بالكالىء لأنه عقد وإيجاب على النفوس بلا حصول مقصود لأحد الطرفين ولا لهما ولهذا حرم الله الميسر الذى منه بيع الغرر [1]

## {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}

وقد قال تعالى {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}النساء١ فعلى قراءة الجمهور بالنصب إنما يسألون بالله وحده لا بالرحم وتساؤلهم بالله تعالى يتضمن إقسام بعضهم على بعض بالله وتعاهدهم بالله وأما على قراءة الخفض فقد قال طائفة من السلف هو قولهم أسألك بالله وبالرحم وهذا إخبار عن سؤالهم وقد يقال انه ليس بدليل على جوازه فان كان دليلا على جوازه فمعنى قوله أسألك بالرحم ليس إقساما بالرحم والقسم هنا لا يسوغ لكن بسبب الرحم أى لأن الرحم توجب لأصحابها بعضهم على بعض حقوقا كسؤال الثلاثة لله تعالى بأعمالهم الصالحة وكسؤالنا بدعاء النبى وشفاعته ومن هذا الباب ما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أن ابن أخيه عبد الله بن جعفر كان إذا سأله بحق جعفر أعطاه وليس هذا من باب الإقسام فإن الإقسام بغير جعفر أعظم بل من باب حق الرحم لأن حق الله إنما وجب بسبب جعفر وجعفر حقه على على ومن هذا الباب الحديث الذى رواه ابن ماجه عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى دعاء الخارج الى الصلاة اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا فانى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ولكن خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاك أسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى فإنه لا يغفر الذنوب الا أنت وهذا الحديث فى إسناده عطية العوفى وفيه ضعف فإن كان من كلام النبى صلى الله عليه وسلم فهو من هذا الباب لوجهين أحدهما لأن فيه السؤال لله تعالى بحق السائلين وبحق الماشين فى طاعته وحق السائلين أن يجيبهم وحق الماشين أن يثيبهم وهذا حق أوجبه الله تعالى وليس للمخلوق

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٢٦٥

أن يوجب على الخالق تعالى شيئا ومنه قوله تعالى {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}الأنعام٥٤ وقوله تعالى {وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}الروم٤٧ وقوله تعالى {وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ}التوبة١١١ وفى الصحيح فى حديث معاذ حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وفى الصحيح عن ابى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا وإذا كان حق السائلين والعابدين له هو الإجابة والإثابة بذلك فذاك سؤال لله بأفعاله كالإستعاذة بنحو ذلك فى قوله أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فالإستعاذة التى هى فعله كالسؤال بإثابته التى هى فعله وروى الطبرانى فى كتاب الدعاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله يقول يا عبدى إنما هى أربع واحدة لى وواحدة لك وواحدة بينى وبينك وواحدة بينك وبين خلقى فالتى لى أن تعبدنى لا تشرك بى شيئا والتى هى لك أجزيك بها أحوج ما تكون اليه والتى بينى وبينك منك الدعاء ومنى الإجابة والتى بينك وبين خلقى فأت الى الناس ما تحب أن يأتوه اليك وتقسيمه فى الحديث الى قوله واحدة لى وواحدة لك وهو مثل تقسيمه فى حديث الفاتحة حيث يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين نصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل والعبد يعود عليه نفع النصفين والله تعالى يحب النصفين لكن هو سبحانه يحب أن يعبد وما يعطيه العبد من الإعانة والهداية هو وسيلة الى ذلك فانما يحبه لكونه طريقا الى عبادته والعبد يطلب ما يحتاج اليه أولا وهو محتاج الى الإعانة على العبادة والهداية الى الصراط المستقيم وبذلك يصل الى العبادة الى غير ذلك مما يطول الكلام فيما يتعلق بذلك وليس هذا موضعه وان كنا خرجنا عن المراد الوجه الثانى أن الدعاء له سبحانه وتعالى والعمل له سبب لحصول مقصود العبد فهو كالتوسل بدعاء النبى والصالحين من أمته وقد تقدم أن الدعاء بالنبى والصالح اما أن يكون اقساما به أو سببا به فان كان قوله بحق السائلين عليك اقساما فلا يقسم على الله الا به وان كان سببا فهو سبب بما جعله هو سبحانه سببا وهو دعاؤه وعبادته فهذا كله يشبه بعضه بعضا وليس فى شىء من ذلك دعاء له بمخلوق من غير دعاء منه ولا عمل صالح منا وإذا قال السائل أسألك بحق الملائكة أو بحق الانبياء وحق الصالحين ولا يقول لغيره أقسمت عليك بحق هؤلاء فاذا لم يجز له أن يحلف به ولا يقسم على مخلوق به فكيف يقسم على الخالق به وإن كان لا يقسم به وانما يتسبب به فليس فى مجرد ذوات هؤلاء سبب يوجب

تحصيل مقصوده ولكن لابد من سبب منه كالايمان بالملائكة والانبياء أو منهم كدعائهم ولكن كثيرا من الناس تعودوا ذلك كما تعودوا الحلف بهم حتى يقول أحدهم وحقك على الله وحق هذه الشيبة على الله وإذا قال القائل أسألك بحق فلان أو بجاهه أى أسألك بايمانى به ومحبتى له وهذا من أعظم الوسائل قيل من قصد هذا المعنى فهو معنى صحيح لكن ليس هذا مقصود عامة هؤلاء فمن قال أسألك بايمانى بك وبرسولك ونحو ذلك أو بايمانى برسولك ومحبتى له ونحو ذلك فقد أحسن فى ذلك كما قال تعالى فى دعاء المؤمنين {رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ}آل عمران١٩٣ وكان ابن مسعود يقول اللهم أمرتنى فأطعت ودعوتنى فأجبت وهذا سحر فاغفر لى ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذين أصابهم المطر فأووا الى الغار وانطبقت عليهم الصخرة ثم دعوا الله سبحانه بأعمالهم الصالحة ففرج عنهم وهو ما ثبت فى الصحيحين[١]

## أمر سبحانه بالوفاء بالعقود

قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ}المائدة١ و العقود هى العهود و قال تعالى {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ}الأنعام١٥٢ و قال تعالى {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً}الإسراء٣٤ و قال تعالى {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً}الأحزاب١٥ فقد أمر سبحانه بالوفاء بالعقود و هذا عام و كذلك أمر بالوفاء بعهد الله و بالعهد و قد دخل فى ذلك ما عقده المرء على نفسه بدليل قوله {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ}الأحزاب١٥ فدل على ان عهد الله يدخل فيه ما عقده المرء على نفسه و ان لم يكن الله قد أمر بنفس ذلك المعهود عليه قبل العهد كالنذر و البيع إنما أمر بالوفاء به و لهذا قرنه بالصدق فى قوله {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ}الأنعام١٥٢ لأن العدل فى القول خبر يتعلق بالماضى و الحاضر و الوفاء بالعهد يكون فى القول المتعلق بالمستقبل كما قال تعالى {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ {٧٥} فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٣٩-٣٤٣

وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ{٧٦} فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ{٧٧}التوبة٧٥ -٧٧ و قال سبحانه{وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}النساء١ قال المفسرون كالضحاك و غيره تساءلون به تتعاهدون و تتعاقدون و ذلك لأن كل و احد من المتعاقدين يطلب من الآخر ما أوجبه العقد من فعل او ترك او مال او نفع و نحو ذلك و جمع سبحانه فى هذه الآية و سائر السورة أحكام الأسباب التى بين بنى آدم المخلوقة كالرحم و المكسوبة كالعقود التى يدخل فيها الصهر و ولاية مال اليتيم و نحو ذلك[1]

## الأسباب التي بين الله وعباده وبين العباد

فصل في الأسباب التي بين الله وعباده وبين العباد الخلقية والكسبية الشرعية والشرطية قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}النساء١ افتتح السورة بذكر خلق الجنس الإنساني من نفس واحدة وأن زوجها مخلوق منها وأنه بث منهما الرجال والنساء أكمل الأسباب وأجلها ثم ذكر ما بين الآدميين من الأسباب المخلوقة الشرعية كالولادة ومن الكسبية الشرطية كالنكاح ثم قال {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}النساء١ قال طائفة من المفسرين من السلف {تَسَاءلُونَ بِهِ}النساء١ تتعاهدون به وتتعاقدون وهو كما قالوا لأن كل واحد من المتعاقدين عقد البيع أو النكاح أو الهدنة أو غير ذلك يسأل الآخر مطلوبه هذا يطلب تسليم المبيع وهذا تسليم الثمن وكل منهما قد أوجب على نفسه مطلوب الآخر فكل منهما طالب من الآخر موجب لمطلوب الآخر ثم قال {وَالأَرْحَامَ}النساء١ والعهود والأرحام هما جماع الأسباب التي بين بني آدم فإن الأسباب التي بينهم أما أن تكون بفعل الله أو بفعلهم فالأول الأرحام والثاني العهود ولهذا جمع الله بينهما في مواضع مثل قوله{لاَ يَرْقُبُونَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ١٣٨-١٣٩

فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً} التوبة١٠ فالإل القرابة والرحم والذمة العهد والميثاق وقال تعالى في أول البقرة {الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ} البقرة٢٧ وقال {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ{٢٠} وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ {٢١} الرعد٢٠-٢١ إلى قوله {وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ} الرعد٢٥ وأعلم أن حق الله داخل في الحقين ومقدم عليهما ولهذا قدمه في قوله {اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم} النساء١ فإن الله خلق العبد وخلق أبويه وخلقه من أبويه فالسبب الذي بينه وبين الله هو الخلقي التام بخلاف سبب الأبوين فإن أصل مادته منهما وله مادة من غيرهما ثم إنهما لم يصوراه في الأرحام والعبد ليس له مادة إلا من أبويه والله هو خالقه وبارؤه ومصوره ورازقه وناصره وهاديه وإنما حق الأبوين فيه بعض المناسبة لذلك فلذلك قرن حق الأبوين بحقه في قوله {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} لقمان١٤ وفي قوله {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} النساء٣٦ وفي قوله {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} الإسراء٢٣ وجعل النبي التبريء من الأبوين كفرا لمناسبته للتبريء من الرب وفي الحديث الصحيح من أدعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر أخرجاه في الصحيحين وقوله كفر بالله من تبرء من نسب وإن دق وقوله لا ترغبوا عن آبائكم فان كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم فحق النسب والقرابة والرحم تقدمه حق الربوبية وحق القريب المجيب الرحمن فإن غاية تلك أن تتصل بهذا كما قال الله أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته وقال الرحم شجنة من الرحمن وقال لما خلق لله الرحم تعلقت بحقو الرحمن فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة وقد قيل في قوله {لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ} التوبة١٠ إن الإل الرب كقول الصديق لما سمع قرآن مسيلمة إن هذا كلام لم يخرج من إل وأما دخول حق الرب في العهود والعقود فكدخول العبد في الإسلام وشهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله فإن هذا عهد الإسلام وهو أشرف العهود وأوكدها وأعمها وأكملها [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ١٢-١٤

## الرحم توجب على صاحبها حقا لذى الرحم

الرحم توجب على صاحبها حقا لذى الرحم كما قال الله تعالى {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}النساء١ وقال النبى الرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله وقال لما خلق الله الرحم تعلقت بحقوى الرحمن وقالت هذام مقام العائذ بك من القطيعة فقال ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت بلى قد رضيت وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها إسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته وقد روى عن على أنه كان إذا سأله ابن أخيه بحق جعفر أبيه أعطاه لحق جعفر على على وحق ذى الرحم باق بعد موته كما فى الحديث أن رجلا قال يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما قال نعم الدعاء لهما والإستغفار لهما وإنفاذ وعدهما من بعدهما وصلة رحمك التى لا رحم لك إلا من قبلهما وفى الحديث الآخر حديث بن عمر من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى فصلة أقارب الميت وأصدقائه بعد موته هو من تمام بره [1]

## سؤال السائل بالرحم لغيره ليس هو من باب الإقسام

و قول الناس أسألك بالله وبالرحم وقراءة من قرأ {تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}النساء١ فهو من باب التسبب بها فإن الرحم توجب الصلة وتقتضي أن يصل الإنسان قرابته فسؤال السائل بالرحم لغيره متوسل إليه بما يوجب صلته من القرابة التي بينهما ليس هو من باب الإقسام ولا من باب التوسل بما لا يقتضي المطلوب بل هو توسل بما يقتضي المطلوب كالتوسل بدعاء الأنبياء وبطاعتهم وبالصلاة عليهم ومن هذا الباب ما يروى عن عبد الله بن جعفر أنه قال كنت إذا سألت عليا رضي الله عنه شيئا فلم يعطنيه قلت له بحق جعفر إلا ما أعطيتنيه فيعطينيه أو كما قال فإن بعض الناس ظن أن هذا من باب الإقسام عليه بجعفر أو

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢٢١-٢٢٢

من باب قولهم أسألك بحق أنبيائك ونحو ذلك وليس ذلك بل جعفر هو أخو علي وعبد الله هو ابنه وله عليه حق الصلة فصلة عبد الله صلة لأبيه جعفر كما ثبت في الحديث إن من البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أو يولي وقوله إن من برهما بعد موتهما الدعاء لهما والاستغفار لهما وإنفاد عهدهما من بعد موتهما وصلة رحمك التي لا رحم لك إلا من قبلهما ولو كان هذا من الباب الذي ظنوه لكان سؤاله لعلي بحق النبي وإبراهيم الخليل ونحوهما أولى من سؤاله بحق جعفر ولكان علي إلى تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبته وإجابة السائل به أسرع منه إلى إجابة السائل بغيره لكن بين المعنيين فرق فإن السائل بالنبي طالب به متسبب به فإن لم يكن في ذلك السبب ما يقتضي حصول مطلوبه وإلا كان يسأل ما به باطلا وإقسام الإنسان على غيره بشيء يكون من باب تعظيم المقسم بالمقسم به وهذا هو الذي جاء به الحديث من الأمر بإبرار المقسم وفي مثل هذا قيل إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره وقد يكون من باب تعظيم المسؤول به فالأول يشبه ما ذكره الفقهاء في الحلف الذي يقصد به الحض والمنع والثاني سؤال للمسؤل بما عنده من محبة المسؤل به وتعظيمه ورعاية حقه فإن كان ذلك مما يقتضي حصول مقصود السائل حسن السؤال كسؤال الإنسان بالرحم ومن هذا سؤال الله بالأعمال الصالحة وبدعاء أنبيائه وشفاعتهم وأما بمجرد ذوات الأنبياء والصالحين ومحبة الله لهم وتعظيمه لهم ورعايته لحقوقهم التي أنعم بها عليهم فليس في ذلك ما يوجب حصول مقصود السائل إلا بسبب بين السائل وبينهم إما محبتهم وطاعتهم فيثاب على ذلك وإما دعاؤهم له فيستجيب الله شفاعتهم فيه فالتوسل بالأنبياء والصالحين يكون بأمرين إما بطاعتهم واتباعهم وإما بدعائهم وشفاعتهم أما مجرد دعاء الداعي وتوسله بهم من غير طاعة منه لهم ولا شفاعة منهم له فلا ينفعه وإن أعظم جاه أحدهم عند الله تعالى وقد بسطت هذه المسائل في غير هذا الموضع والمقصود هنا أنه إذا كان السلف والائمة قالوا في سؤال الله بالمخلوق ما قد ذكرنا فكيف بسؤال المخلوق الميت سواء سئل الميت أن يسأل الله أو سئل قضاء الحاجة ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس إما عند قبر الميت وإما مع غيبته وصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم حسم المادة وسد الذريعة بلعنة من يتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد وأن لا يصلي عندها لله ولا يسأل إلا الله وحذر أمته ذلك فكيف إذا وقع نفس المحذور من الشرك وأسباب الشرك [1]

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٤٢١-٤٢٣

## اليتيم      فى الآدميين من فقد أباه

اليتيم      فى الآدميين من فقد أباه لأن أباه هو الذى يهذبه ويرزقه وينصره بموجب الطبع المخلوق ولهذا كان تابعا فى الدين لوالده وكان نفقته عليه وحضانته عليه والانفاق هو الرزق و      الحضانة      هى النصر لأنها الايواء ودفع الأذى فإذا عدم أبوه طمعت النفوس فيه لأن الانسان ظلوم جهول والمظلوم عاجز ضعيف فتقوى جهة الفساد من جهة قوة المقتضى ومن جهة ضعف المانع ويتولد عنه فسادان ضرر اليتيم الذى لا دافع عنه ولا يحسن اليه وفجور الآدمى الذى لا وازع له فلهذا أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه فى آيات كثيرة مثل قوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ}البقرة٨٣      وقوله {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ}البقرة١٧٧ الى قوله {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ}البقرة١٧٧ وقوله {قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ}البقرة٢١٥ وقوله {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}البقرة٢٢٠      وقوله {وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً {٢} وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى {٣} النساء٢ -٣ الى قوله {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً{٦}النساء٦ وقوله {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ}النساء٨ وقوله {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ}النساء٣٦ وقوله      قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن الى قوله وان تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما      وقوله {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠      وقوله فى الأنعام {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}الأنعام١٥٢ وقوله {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

وَالْمَسَاكِينِ}الأنفال٤١ وقوله {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً}الإسراء٣٤ وقوله {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ}الكهف٨٢ [1]

## بنت يتيمة ولها من العمر عشر سنين ولم يكن لها أحد وهي مضطرة إلى من يكفلها فهل يجوز لأحد أن يتزوجها بإذنها أم لا ؟

هذه يجوز تزويجها بكفؤ لها عند أكثر السلف والفقهاء وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في ظاهر مذهبه وغيرهما وقد دل على ذلك الكتاب والسنة كقوله تعالى {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء}النساء١٢٧ الآية وقد أخرجا تفسير هذه الآية في الصحيحين عن عائشة وهو دليل في اليتيمة وزوجها من يعدل عليها في المهر لكن تنازع هؤلاء هل تزوج بإذنها أم لا فذهب أبو حنيفة أنها تزوج بغير إذنها ولها الخيار إذا بلغت وهي رواية عن أحمد وظاهر مذهب أحمد أنها تزوج بغير إذنها إذا بلغت تسع سنين ولا خيار لها إذا بلغت لما في السنن عن النبي أنه قال اليتيمة تستأذن في نفسها فإن سكتت فقد أذنت وأن أبت فلا جواز عليها وفي لفظ لا تنكح اليتمية حتى تستأذن فإن سكتت فقد أذنت وإن أبت فلا جواز عليها

## صغيرة دون البلوغ مات أبوها هل يجوز للحاكم أو نائبه أن يزوجها أم لا وهل يثبت لها الخيار إذا بلغت أم لا ؟

إذا بلغت تسع سنين فإنه يزوجها الأولياء من العصبات والحاكم ونائبه في ظاهر مذهب أحمد وهو مذهب أبي حنيفة وغيرهما كما دل على ذلك الكتاب والسنة في مثل قوله تعالى {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ}النساء١٢٧

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ١٠٨-١٠٩

وأخرجا في الصحيحين عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله عز وجل {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ}النساء٣ قالت يا ابن أختي هذه اليتيمة في حجر وليها تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها فيعطيها فثل ما يعطيها غيره فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن على سنتهن في الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن قال عروة قالت عائشة ثم إن الناس استفتوا رسول الله بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله عز وجل {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ}النساء١٢٧ الآية قالت عائشة والذي ذكر الله أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قالها الله عز وجل {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء٣ قالت عائشة وقول الله عز وجل في الآية الأخرى {وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ}النساء١٢٧ رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجرة حيث تكون قليلة المال والحال وفي لفظ آخر إذا كانت ذات مال وجمال رغبوا في نكاحها في إكمال الصداق وإذا كانت مرغوبا عنها في قلة المال والجمال رغبوا عنها وأخذوا غيرها من النساء قال فكما يتركونها حتى يرغبوا عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها ويعطوها حقها من الصداق فهذا يبين إن الله أذن لهم أن يزوجوا اليتامى من النساء إذا فرضوا لهن صداق مثلهن ولم يأذن لهم في تزويجهن بدون صداق المثل لأنها ليست من أهل التبرع ودلائل ذلك متعددة ثم الجمهور الذين جوزوا انكاحها لهم قولان أحدهما وهو قول أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين إنها تزوج بدون اذنها ولها الخيار إذا بلغت والثاني وهو المشهور في مذهب أحمد وغيره إنها لا تزوج إلا بإذنها ولا خيار لها إذا بائت وهذا هو الصحيح الذي دلت عليه السنة كما روى أبو هريرة قال قال رسول الله تستأذن اليتيمة في نفسها فإن سكتت فهو إذنها وإن أبت فلا جواز عليها رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله قال تستأمر اليتيمة في نفسها فإن سكتت فقد أذنت وإن أبت فلا جواز عليها فهذه السنة نص في القول الثالث الذي هو أعدل الأقوال أنها تزوج خلافا لمن قال إنها لا تزوج حتى تبلغ فلا تصير يتيمة والكتاب والسنة صريح في دخول اليتيمة قبل البلوغ في ذلك إذ البالغة التي لها أمر في مالها يجوز لها أن ترضى بدون صداق المثل ولأن ذلك مدلول اللفظ وحقيقته ولأن ما بعد البلوغ وإن سمي صاحبه يتيما مجازا فغايته أن يكون داخلا في العموم وإما أن يكون المراد باليتيمة البالغة دون التي لم تبلغ فهذا لا يسوغ حمل اللفظ عليه بحال والله أعلم

## بنت يتيمة ليس لها أب ولا لها ولي إلا أخوها وسنها اثنا عشر سنة ولم تبلغ الحلم وقد عقد عليها أخوها بإذنها فهل يجوز ذلك أم لا ؟

هذا العقد صحيح في مذهب أحمد المنصوص عنه في أكثر أجوبته الذي عليه عامة أصحابه ومذهب أبي حنيفة أيضا لكن أحمد في المشهور عنه يقول إذا زوجت بإذنها وإذن أخيها لم يكن لها الخيار إذا بلغت وأبو حنيفة وأحمد في رواية يقول تزوج بلا إذنها ولها الخيار إذا بلغت وهذا أحد القولين في مذهب مالك أيضا ثم عنه رواية إن دعت حاجة إلى نكاحها ومثلها يوطأ جاز وقيل تزوج ولها الخيار إذا بلغت وقال ابن بشير اتفق المتأخرون إنه يجوز نكاحها إذا خيف عليها الفساد والقول الثالث وهو قول الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى إنها لا تزوج حتى تبلغ إذا لم يكن لها أب وجد قالوا لأنه ليس لها ولي يجبر وهي في نفسها لا إذن لها قبل البلوغ فتعذر تزويجها بإذنها وإذن وليها والقول الأول أصح بدلالة الكتاب والسنة والإعتبار فإن الله تعالى يقول {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللَّاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً}النساء١٢٧ وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها إن هذه الآية نزلت في اليتيمة تكون في حجر وليها فإن كان لها مال وجمال تزوجها ولم يقسط في صداقها فإن لم يكن لها مال لم يتزوجها فنهى أن يتزوجها حتى يقسط في صداقها من أجل رغبته عن نكاحها إذا لم يكن لها مال وقوله {قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ}النساء١٢٧ يفتيكم ونفتيكم في المستضعفين فقد أخبرت عائشة في هذا الحديث الصحيح الذي اخرجه البخاري ومسلم إن هذه الآية نزلت في اليتيمة تكون في حجر وليها وإن الله أذن له في تزويجها إذا أقسط في صداقها وقد اخبر أنها في حجرة فدل على أنها محجور عليها وايضا فقد ثبت في السنن من حديث أبي موسى وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تنكح اليتيمة حتى تستأذن فإن سكتت فقد أذنت وإن ابت فلا جواز عليها فيجوز تزويجها بإذنها ومنعه بدون إذنها وقد قال لا يتم بعد احتلاك ولو أريد باليتيم ما بعد البلوغ فبطريق المجاز فلا بد أن يعم ما قبل البلوغ وما بعده أما تخصيص لفظ اليتيم بما بعد البلوغ فلا يحتمله اللفظ بحال ولأن الصغير المميز يصح لفظه مع إذن وليه كما يصح إحرامه بالحج بإذن الولي وكما يصح تصرفه في البيع وغيره بإذن وليه عند أكثر العلماء كما دل على ذلك القرآن بقوله {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ}النساء٦ الآية فأمر بالابتلاء قبل البلوغ وذلك قد لا يأتي إلا بالبيع ولا تصح وصيته وتدبيره عند الجمهور وكذلك إسلامه كما يصح صومه وصلاته وغير ذلك

لما له في ذلك من المنفعة فإذا زوجها الولي بإذنها من كفؤ جاز وكان هذا تصرفا بإذنها وهو مصلحة لها وكل واحد من هذين مصحح لتصرف المميز والله أعلم [1]

## الرحم المحرم لها أربعة أحكام

وأما تحريم الجمع فلا يجمع بين الأختين بنص القرآن ولا بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها لا تنكح الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى فإنه قد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي نهى عن ذلك فروى أنه قال إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم بين أرحامكم ولو رضيت إحداهما بنكاح الأخرى عليها لم يجز فإن الطبع يتغير ولهذا لما عرضت أم حبيبة على النبي أن يتزوج أختها فقال لها النبي أو تحبين ذلك فقالت لست لك بمخلية وأحق من شركني في الخير أختي فقال إنها لا تحل لي فقيل له أنا نتحدث أنك ناكح درة بنت أبي سلمة فقال لو لم تكن ربيبتي في حجري لما حلت لي فإنها بنت أخي من الرضاع أرضعتني وأباها أبا سلمة ثويبة أمة أبي لهب فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن هذا متفق عليه بين العلماء والضابط في هذا إن كل امرأتين بينهما رحمه الله محرم فإنه يحرم الجمع بينهما بحيث لو كانت إحداهما ذكرا لم يجز له التزوج بالأخرى لأجل النسب فإن الرحم المحرم لها أربعة أحكام حكمان متفق عليهما وحكمان متنازع فيهما فلا يجوز ملكهما بالنكاح ولا وطئها فلا يتزوج الرجل ذات رحمه المحرم ولا يتسرى بها وهذا متفق عليه بل هنا يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب فلا تحل له بنكاح ولا ملك يمين ولا يجوز له أن يجمع بينهما في ملك النكاح فلا يجمع بين الاختين ولا بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها وهذا أيضا متفق عليه ويجوز له أن يملكهما لكن ليس له أن يتسراهما فمن حرم جمعهما في النكاح حرم جمعهما في التسري فليس له أن يتسرى الأختين ولا الأمة وعمتها والامة وخالتها وهذا هو الذي استقر عليه قول أكثر الصحابة وهو قول أكثر العلماء وهم متفقون على أنه لا يتسرى من تحرم عليه بنسب أو رضاع وإنما تنازعوا في الجمع فتوقف بعض الصحابة فيها وقال أحلتهما آية وحرمتهما آية وظن أن تحريم الجمع قد يكون كتحريم العدد فإن له يتسرى ما شاء من العدد ولا يتزوج الأ باريع فهذا تحريم عارض وهذا عارض بخلاف تحريم النسب والصهر فإنه لازم ولهذا تصير المرأة من ذوات المحارم بهذا ولا تصير من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص:٤٣-٤٨

ذوات المحارم بذلك بل أخت امرأته أجنبية منه لا يخلو بها ولا يسافر بها كما لا يخلو بما زاد على أربع من النساء لتحريم ما زاد على العدد وأما الجمهور فقطعوا بالتحريم وهو المعروف من مذاهب الأئمة الأربعة وغيرهم قالوا لأن كل ما حرم الله في الآية بملك النكاح حرم بملك اليمين وآية التحليل وهي قوله {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}النساء٣ إنما أبيح فيها جنس المملوكات ولم يذكر فيها ما يباح ويحرم من التسري كما لم يذكر ما يباح ويحرم من الممهورات والمرأة يحرم وطئها إذا كانت معتدة ومحرمة وإن كانت زوجة أو سرية وتحريم العدد كان لأجل وجوب العدل بينهن في القسم كما قال تعالى {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ}النساء٣ أي لا تجوروا في القسم هكذا قال السلف وجمهور العلماء وظن طائفة من العلماء أن المراد أن لا تكثر عيالكم وقالوا هذا يدل على وجوب نفقة الزوجة وغلط أكثر العلماء من قال ذلك لفظا ومعنى أما اللفظ فلأنه يقال عال يعول إذا جار وعال يعيل إذا افتقر وأعال يعيل إذا كثر عياله وهو سبحانه قال {تَعُولُواْ}النساء٣ لم يقل تعيلوا وأما المعنى فإن كثرة النفقة والعيال يحصل بالتسري كما يحصل بالزوجات ومع هذا فقد أباح مما ملكت اليمين ما شاء الإنسان بغير عدد لأن المملوكات لا يجب لهن قسم ولا يستحققن على الرجل وطئا ولهذا يملك من لا يحل له وطئها كام امرأته وبنتها وأخته وابنته من الرضاع ولو كان عنينا أو موليا لم يجب أن يزال ملكه عنها والزوجات عليه أن يعدل بينهن في القسم وخير الصحابة أربعة فالعدل الذي يطيقه عامة الناس ينهى إلى الأربعة وأما رسول الله فإن الله قواه على العدل فيما هو أكثر من ذلك على القول المشهور وهو وجوب القسم عليه وسقوط القسم عنه على القسم الآخر كما أنه لما كان أحق بالمؤمنين من أنفسهم احل له التزوج بلا مهر قالوا وإذا كان تحريم جمع العدد إنما حرم لوجوب العدل في القسم وهذا المعنى منتف في المملوكة فلهذا لم يحرم عليه أن يتسرى بأكثر من أربع بخلاف الجمع بين الأختين فإنه إنما كان دفعا لقطيعة الرحم بينهما وهذا المعنى موجود بين المملوكتين كما يوجد في الزوجتين فاذا جمع بينهما بالتسري حصل بينهما من التغاير ما يحصل إذا جمع بينهما في النكاح فيفضي إلى قطيعة الرحم ولما كان هذا المعنى هو المؤثر في الشرع جاز له أن يجمع بين المرأتين إذا كان بينهما حرمة بلا نسب أو نسب بلا حرمة فالأول مثل ان يجمع بين المرأة وابنة زوجها كما جمع عبدالله بن جعفر لما مات علي بن أبي طالب بين امرأة علي وابنته وهذا يباح عند أكثر العلماء الأئمة الأربعة وغيرهم فإن هاتين المرأتين وإن كانت احداهما تحرم على الأخرى فذاك تحريم المصاهرة لا بالرحم والمعنى إنما كان بتحريم قطيعة

الرحم فلم يدخل في آية التحريم لا لفظا ولا معنى وأما إذا كان بينهما رحم غير محرم مثل بنت العم والخال فيجوز الجمع بينهما لكن هل يكره فيه قولان هما روايتان عن أحمد لأن بينهما رحما غير محرم وأما الحكمان المتنازع فيهما فهل له أن يملك ذا الرحم المحرم وهل له أن يفرق بينهما في ملك فيبيع أحدهما دون الآخر هاتان فيهما نزاع وأقوال ليس هذا موضعها [1]

## {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً}

فمن تاب من هذه الاعتقادات الفاسدة وهو استحلال شيء من المحرمات او التدين بشيء منها قبل الله توبته واما من استحل ذلك او تدين به وان لم يفعله فالذي يفعل ذلك وهو معتقد للتحريم خير منه فإن هذا مؤمن مذنب واما الاستحلال لها والتدين بها فهو كفر فأما اهل الاباحة الذين لا يحرمون شيئا من الفواحش وغيرها فهؤلاء كفار من اعظم الناس كفرا وكذلك استحلال التلوط مثل من يظن ان قوله {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}النساء٣ يتناول الذكران او يظن قوله {وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ}البقرة٢٢١ هو في الموطوء لا في الزوج او يظن ان ذلك يباح في السفر او بعد اربعين يوما او نحو ذلك فهذا يكفر بإجماع المسلمين ومثل هؤلاء قد يعاقبهم الله بما عاقب به قوم لوط وقد يحشر معهم لأن دينه دينهم بخلاف المقر بتحريم ذلك فإنه مسلم واما التدين بذلك فهو اعظم من استحلاله وهؤلاء المتدينون ما يكادون يتدينون بنفس فعل الفاحشة الكبرى ولكن بمقدماتها من النظر والتلذذ به والمباشرة والعشق للنسوان الاجانب والصبيان ويزعمون ان ذلك يصفي نفوسهم وارواحهم ويرقيهم الى الدرجات العالية وفيهم من يزعم انه يخاطب من تلك الصورة وتتنزل عليه اسرار ومعارف وفيهم من يترقى لغير ذلك فيقول انه يتجلى له فيها الحقائق وربما زعم ان الله يحل فيها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا وقد يسجدون لها ومن هؤلاء من يزعم ان دحية الكلبي كان امردا وان جبريل كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة امرد ويقول له ما احب ان تأتيني الا في صورة امرد وفيهم من يتأول قوله صلى الله عليه وسلم رأيت ربي في أحسن صورة وفي صورة كذا وكذا ويجعل الأمرد ربه وهؤلاء الحلولية والاتحادية منهم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ٦٨-٧٢

من يخصه بالصور الجميلة ويقول مظاهر الجمال ومنهم من يقول بالاتحاد المطلق والحلول المطلق لكن هو يتخذ لنفسه من المظاهر ما يحبه فهو كما قال الله تعالى {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً} الفرقان٤٣ [١]

## الفرق بين باب النهي والتحريم وباب الأمر والإيجاب

فان تحريم الشيء مطلقا يقتضي تحريم كل جزء منه كما أن تحريم الخنزير والميتة والدم اقتضى ذلك وكذلك تحريم الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة يقتضي المنع من ابعاض ذلك وكذلك النهي عن لبس الحرير اقتضى النهي عن ابعاض ذلك لولا ما ورد من استثناء موضع إصبعين أو ثلاث أو أربع في الحديث الصحيح ولهذا وقع الفرق في كلام الله ورسوله وكلام سائر الناس بين باب النهي والتحريم وباب الامر والايجاب فاذا نهى عن شيء نهى عن بعضه واذا أمر بشيء كان أمرا بجميعه ولهذا كان النكاح حيث أمر به كان أمرا بمجموعه وهو العقد والوطء وكذلك إذا ابيح كما في قوله {فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ}النساء٣ {حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ}البقرة٢٣٠ {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ}النور٣٢ يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج وحيث حرم النكاح كان تحريما لأبعاضه حتى يحرم العقد مفردا والوطء مفردا كما في قوله {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ}النساء٢٢ وكما في قوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء٢٣ الآية إلى آخرها وكما في قوله لا ينكح المحرم ولا ينكح ونحو ذلك ولهذا فرق مالك وأحمد في المشهور عنه بين من حلف

---

[١] الاستقامة ج: ٢ ص: ١٩٤-١٩٦

ليفعلن شيئا ففعل بعضه انه لا يبر ومن حلف لا يفعل شيئا ففعل بعضه انه يحنث [1]

وجماع الأمر أن الاسم الواحد ينفي ويثبت بحسب الاحكام المتعلقة به فلا يجب إذا اثبت أو نفي فى حكم أن كذلك فى سائر الأحكام وهذا فى كلام العرب وسائر الأمم لأن المعنى مفهوم ولفظ النكاح وغيره فى الأمر يتناول الكامل وهو العقد والوطء كما فى قوله{فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء٣ وقوله {حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ}البقرة٢٣٠ وفى النهي يعم الناقص والكامل فينهى عن العقد مفردا وإن لم يكن وطء كقوله {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء٢٢ وهذا لأن الآمر مقصوده تحصيل المصلحة وتحصيل المصلحة إنما يكون بالدخول كما لو قال اشتر لي طعاما فالمقصود ما يحصل إلا بالشراء والقبض والناهي مقصوده دفع المفسدة فيدخل كل جزء منه لأن وجوده مفسدة وكذلك النسب والميراث معلق بالكامل منه والتحريم معلق بأدنى سبب حتى الرضاع [2]

## العقود تصح بكل ما دل على مقصودها

أن العقود تصح بكل ما دل على مقصودها من قول أو فعل هي التى تدل عليها أصول الشريعة وهي التى تعرفها القلوب و ذلك أن الله سبحانه و تعالى قال {فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء٣ و قال {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ}النور٣٢ و قال {وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ}البقرة٢٧٥و قال {فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً}النساء٤ و قال {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ و قال {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}الطلاق٦ و قال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ}البقرة٢٨٢إلى قوله {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٨٦ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٤٢٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٢١

شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {٢٨٢} وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ {٢٨٣}البقرة٢٨٢ و قال {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً}البقرة٢٤٥ و قال {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ}البقرة٢٦١ و قال {يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ}البقرة٢٧٦ و قال {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ}الحديد١٨ و قال {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}النساء٩٢ و قال {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}الطلاق١ و قال {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}البقرة٢٣١ إلى غير ذلك من الآيات المشروع فيها هذه العقود إما أمرا و إما إباحة و المنهى فيها عن بعضها كالربا فإن الدلالة فيها من وجوه أحدها أنه إكتفي بالتراضي في البيع فى قوله {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ و بطيب النفس فى التبرع فى قوله {فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً}النساء٤ فتلك الآية في جنس المعاوضات و هذه الآية فى جنس التبرعات و لم يشترط لفظا معينا و لا فعلا معينا يدل على التراضي و على طيب النفس و نحن نعلم بالاضطرار من عادات الناس فى أقوالهم و أفعالهم أنهم يعلمون التراضي و طيب النفس بطرق متعددة والعلم به ضروري فى غالب ما يعتاد من العقود و هو ظاهر فى بعضها و إذا و جد تعلق الحكم بهما بدلالة القرآن و بعض الناس قد يحمله اللدد فى نصره لقول معين على أن يجحد ما يعلمه الناس من التراضي و طيب النفس فلا عبرة بجحد مثل هذا فإن جحد الضروريات قد يقع كثيرا عن مواطأة و تلقين فى الأخبار و المذاهب فالعبرة بالفطرة السليمة التى لم يعارضها ما يغيرها و لهذا قلنا إن الأخبار المتواترة يحصل بها العلم حيث لا تواطؤ على الكذب لأن الفطر السليمة لا تتفق على الكذب فأما مع التواطؤ و الإتفاق فقد يتفق جماعات على الكذب الوجه الثانى أن هذه الأسماء جاءت فى كتاب الله و سنة رسوله معلقا بها أحكام شرعية و كل اسم فلابد له من حد فمنه ما يعلم حده باللغة كالشمس و القمر و البر و البحر و السماء و الأرض و منه ما يعلم بالشرع كالمؤمن و الكافر و المنافق و كالصلاة و الزكاة و الصيام و الحج و ما لم يكن له حد فى اللغة و لا فى الشرع فالمرجع فيه إلى عرف الناس كالقبض المذكور في قوله صلى الله عليه و سلم من ابتاع طعاما فلا يبعه حتى يقبضه و معلوم أن البيع و الإجارة و الهبة و نحوها لم يحد الشارع لها حدا لا في كتاب الله و لا سنة رسوله و لا نقل عن أحد من الصحابة و التابعين أنه عين للعقود صفة معينة من الألفاظ أو غيرها أو قال ما يدل على ذلك من أنها لا تنعقد إلا بالصيغ الخاصة بل قد قيل إن هذا القول مما يخالف الاجماع القديم و أنه من البدع و ليس لذلك حد فى لغة العرب بحيث يقال

إن أهل اللغة يسمون هذا بيعا و لا يسمون هذا بيعا حتى يدخل أحدهما في خطاب الله و لا يدخل الآخر بل تسمية أهل العرف من العرب هذه المعاقدات بيعا دليل على أنها فى لغتهم تسمى بيعا و الأصل بقاء اللغة و تقريرها لا نقلها و تغييرها فإذا لم يكن له حد فى الشرع و لا في اللغة كان المرجع فيه إلى عرف الناس و عاداتهم فما سموه بيعا فهو بيع و ما سموه هبة فهو هبة الوجه الثالث أن تصرفات العباد من الأقوال و الأفعال نوعان عبادات يصلح بها دينهم و عادات يحتاجون إليها فى دنياهم فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التى أوجبها الله أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع و أما العادات فهي ما اعتاده الناس فى دنياهم مما يحتاجون إليه و الأصل فيه عدم الحظر فلا يحظر منه إلا ما حظره الله سبحانه و تعالى [١]

## الأصل فى العقود رضى المتعاقدين

فان الأصل فى العقود رضى المتعاقدين و موجبها هو ما أوجباه على أنفسهما بالتعاقد لأن الله قال فى كتابه العزيز {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ و قال {فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً}النساء٤ فعلق جواز الأكل بطيب النفس تعليق الجزاء بشرطه فدل على أنه سبب له و هو حكم معلق على و صف مشتق مناسب فدل على ان ذلك الوصف سبب لذلك الحكم و إذا كان طيب النفس هو المبيح لأكل الصداق فكذلك سائر التبرعات قياسا عليه بالعلة المنصوصة التى دل عليها القرآن و كذلك قوله {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ لم يشترط فى التجارة إلا التراضي و ذلك يقتضي أن التراضي هو المبيح للتجارة و اذا كان كذلك فاذا تراضى المتعاقدان بتجارة او طابت نفس المتبرع بتبرع ثبت حله بدلالة القرآن إلا ان يتضمن ما حرمه الله و رسوله كالتجارة فى الخمر و نحو ذلك [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ١٤ ـ ٢١

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٩ وص: ١٥٥

## "نعم المال الصالح للرجل الصالح"

قال تعالى لنبيه واصحابه {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}آل عمران١٣٩ فاخبر انهم هم الاعلون وهم مع ذلك لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا وقال تعالى {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ}محمد٣٥ {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ}التوبة١١١ وقال {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً}النساء٥ فالشرف والمال لا يحمد مطلقا ولا يذم مطلقا بل يحمد منه ما أعان على طاعة الله وقد يكون ذلك واجبا وهو ما لابد منه فى فعل الواجبات وقد يكون مستحبا وانما يحمد اذا كان بهذه النية ويذم ما استعين به على معصية الله أو صد عن الواجبات فهذا محرم وينتقص منه ما شغل عن المستحبات واوقع فى المكروهات والله اعلم كما جاء فى الحديث من طلب هذا المال استغناء عن الناس واستعفافا عن المسالة وعودا على جاره الضعيف والارملة والمسكين لقى الله تعالى ووجهه كالقمر ليلة البدر ومن طلبه مرائيا مفاخرا مكاثرا لقى الله وهو عليه غضبان وقال التاجر الامين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقال نعم المال الصالح للرجل الصالح [١]

## "إحرص على ما ينفعك وإستعن بالله ولا تعجز"

قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم وكلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يقتضي وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة كاللباس وأنه لا يقضي غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك ولهذا قال {وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا}البقرة٢٣٣ وقال {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ}النساء٥

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص:١٤٤- ١٤٥

فالمأمور به هو المقدور للعباد وكذلك قوله {أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{١٤} يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ{١٥} أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ{١٦} البلد ١٤ -١٥ وقوله {وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ}الحج٣٦وقوله {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}الحج٢٨ وقال {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}يس٤٧ فذم من يترك المأمور به اكتفاء بما يجري به القدر ومن هنا يعرف أن السبب المأمور به أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله في وجود السبب بل الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب ولهذا لا يجب أن تقترن الحوادث بما قد يجعل سببا إلا بمشيئة الله تعالى فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فمن ظن الاستغناء بالسبب من التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل وأخل بواجب التوحيد ولهذا يخذل أمثال هؤلاء

إذا اعتمدوا على الأسباب فمن رجا نصرا أو رزقا من غير الله خذله الله كما قال علي رضي الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه وقد قال تعالى {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}فاطر٢ وقال تعالى {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}يونس١٠٧ وقال {قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}الزمر٣٨ وهذا كما أن من أخذ يدخل في التوكل تاركا لما أمر به من الأسباب فهو أيضا جاهل ظالم عاص لله يترك ما أمره فإن فعل المأمور به عبادة لله وقد قال تعالى {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}هود١٢٣ وقال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة٥ وقال {قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}الرعد٣٠ وقال شعيب عليه السلام {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}هود٨٨ وقال {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}الشورى١٠ وقال {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}الممتحنة٤ فليس من فعل شيئا أمر به وترك ما أمر به من التوكل بأعظم ذنبا ممن فعل توكلا أمر به وترك فعل ما أمر به من السبب إذ كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم وقد يكون الآخر مع أن التوكل في

الحقيقة من جملة الأسباب وقد روى أبو داود في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلي فقال المقضي عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله لا يلوم على العجز لكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن ب الله ولا تعجز فإن أصابك شيء فلا تقل لو إني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان ففي قوله صلى الله عليه وسلم احرص على ما ينفعك واستعن ب الله ولا تعجز أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين ونهى عن العجز الذي هو ضد الكيس كما قال في الحديث الآخر إن الله لا يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس وكما في الحديث الشامي الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله فالعاجز في الحديث مقابل الكيس ومن قال العاجز الذي هو مقابل البر فقد حرف الحديث ولم يفهم معناه ومنه الحديث كل شيء بقدر حتى العجز والكيس ومن ذلك ما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا سألوا الناس فقال الله تعالى {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}البقرة١٩٧ فمن فعل ما أمر به من التزود فاستعان به على طاعة الله وأحسن منه إلى من يكون محتاجا كان مطيعا لله في هذين الأمرين بخلاف من ترك ذلك ملتفتا إلى أزواد الحجيج كلا على الناس وإن كان مع هذا قلبه غير ملتفت إلى معين فهو ملتفت إلى الجملة لكن إن كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله ومواساة المحتاج فقد يكون في تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للتزود المأمور به وفي هذه النصوص بيان غلط طوائف فطائفة تضعف أمر السبب المأمور به فتعده نقصا وقدحا في التوحيد والتوكل وأن تركة من كمال التوكل والتوحيد وهم في ذلك ملبوس عليهم وقد يقترن بالغلط اتباع الهوى في إخلاد النفس إلى البطالة ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة وإما أن يتركوا لأجل ما تبتلوا له من الغلو في التوكل واجبات أو مستحبات انفع لهم من ذلك كمن يصرف همته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء أو نيل رزقه بلا سعي فقد يحصل ذلك لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعي اليسير وصرف تلك الهمة والتوجه في علم صالح أنفع له بل قد يكون أوجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أو

نحوه وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضا نقصا وانقطاعا عن الخاصة ظنا أن ملاحظة ما فرع منه في القدر هو حال الخاصة وقد قال في الحديث كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم وقال فاستكسوني أكسكم وفي الطبراني أوغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر وهذا قد يلزمه أن يجعل أيضا استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك وقولهم يوجب دفع المأمور به مطلقا بل دفع المخلوق والمأمور وإنما غلطوا من حيث ظنوا سبق التقدير يمنع أن يعون بالسبب المأمور به كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناء على أن القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة ولم يعلم أن القدر سبق بالأمور على ما هي عليه فمن قدره الله من أهل السعادة كان مما قدره الله يتيسر لعمل أهل السعادة ومن قدره من أهل الشقاء كان مما قدره أنه ييسره لعمل أهل الشقاء كما قد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال في حديث علي بن أبي طالب وعمران بن حصين وسراقة بن جعشم وغيرهم ومنه حديث الترمذي حدثنا ابن أبي عم الجواب حدثنا سفيان عن الزهري عن أبي خزامة عن أبيه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقي نسترقي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وطائفة تظن أن التوكل انما هو من مقامات الخاصة المتقربين إلى الله بالنوافل كذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها كالحب والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك وهذا ضلال مبين بل جميع هذه الأمور فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان ومن تركها بالكلية فهو إما كافر وإما منافق لكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ونصوص الكتاب والسنة طافحة بذلك وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علما وعملا بأقل لوما من التاركين لما أمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه إلى من ترك المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة إن كانت الأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة وأصولها والأمور الظاهرة كما لها وفروعها التي لا تتم إلا بها [1]

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٢٦-٤٣٠ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٧٩-١٨٣

## صرف المال فيما لا ينفع من أعظم السفه

أن بذل المال لا يجوز إلا لمنفعة فى الدين أو الدنيا وهذا أصل متفق عليه بين العلماء ومن خرج عن ذلك كان سفيها وحجر عليه عند جمهور العلماء الذين يحجرون على السفيه وكان مبذرا لماله وقد نهى الله فى كتابه عن تبذير المال {وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً}الإسراء٢٦ وهو انفاقه فى غير مصلحة وكان مضيعا لماله وقد نهى النبى عن اضاعة المال فى الحديث المتفق عليه عن المغيرة بن شعبة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال وقد قال الله تعالى فى كتابه {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً}النساء٥ وقد قال كثير من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم هذا مثل توكيل السفيه وهو أن يدفع الرجل ماله إلى ولده السفيه أو امرأته السفيهة فينفقان عليه ويكون تحت أمرهما وقال آخرون ذلك أن يسلم إلى السفيه مال نفسه فإن الله نهى عن تسليم مال نفسه إليه إلا إذا أونس منه الرشد والآية تدل على النوعين كليهما فقد نهى الله أن يجعل السفيه متصرفا لنفسه أو لغيره بالوكالة أو الولاية وصرف المال فيما لا ينفع فى الدين ولا الدنيا من أعظم السفه فيكون ذلك منهيا عنه فى الشرع [1]

## جعل الشرع بلوغ الأشد حدا للتكليف

اليتيم لموت أبيه فهذا لا يجوز تسليم ماله إليه حتى يبلغ النكاح ويؤنس منه الرشد [2]

متى آنس الوصى من اليتيم الرشد فعليه أن يدفع إليه ماله كما قال الله تعالى {فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ٣٣

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٨٨

وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً}النساء٦ [١]

قال تعالى {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ}النساء٦ الغاية هنا تدخل في المغيا لأنها بحرف حتى [٢]

لأن الله انما علق الأحكام ببلوغ الحلم بقوله تعالى {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ}النساء٦ و قوله تعالى {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ}النور٥٩ و قوله تعالى {حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}الأنعام١٥٢ و قول النبي صلى الله عليه و سلم رفع القلم عن الصبي حتى يحتلم لكن لما كان بلوغ الحلم خفيا عن غير المحتلم و كان ذلك غالبا يكون مع بلوغ خمسة عشر و إنبات شعر العانة جعل مظنته علامة قائمة مقامه في الأحكام التي تتعلق بغير هذا البالغ من الحدود و القصاص و الجهاد و الحجر و غير ذلك إذ كانوا لا يطلقون على الحقيقة غالبا فأما ما بينه و بين الله فإنه يعلم وقت احتلامه و لأن هذه الأمور تتكرر قبل الإحتلام و بعده فجاز إن يجعل ما يقارب الاحتلام في حكمه احتياطا و عموما و هذا لأن الصبي في الأصل لما كان مظنة نقص العقل و ضعف البنية جعل الشرع بلوغ الأشد حدا للتكليف لأن مظنة استكمال شرائطه غالبا [٣]

ومما قد اتفقوا على تقديم العموم فيه كقوله {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}الأنعام١٥٢ مع قوله {وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ}النساء٦ فان أكلها حرام سواء قصد بدارا كبر اليتيم أولا [٤]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ٣٢٩

[٢] شرح العمدة ج: ١ ص: ٤٦٤

[٣] شرح العمدة ج: ٤ ص: ٤٧

[٤] مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ١٠٧

## حكم الأخذ من مال اليتيم

تنازعوا في ولى اليتيم هل له أن يأخذ من مال اليتيم إذا كان غنيا أجرته مع غناه والترك أفضل أو الترك واجب على قولين ومن جوز الأخذ من مال اليتيم مع الغني جوزه للعامل على بيت مال المسلمين وجوزه للقاضي وغيره من الولاة ومن قال لا يجوز ذلك من مال اليتيم فمنهم من يجوزه من مال بيت المال كما يجوز للعامل على الزكاة الأخذ مع الغني فإن العامل على الزكاة يجوز له أخذ جعالته مع غناه وولي اليتيم قد قال تعالى فيه {وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} النساء٦ [١]

قال الله تعالى {وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا} التوبة٦٠ والعامل على الصدقة الغنى له أن يأخذ بعمالته باتفاق المسلمين والعامل في مال اليتيم قد قال الله تعالى فيه {وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} النساء٦ وهل الأمر للغنى بالاستعفاف أمر إيجاب أو أمر استحباب على قولين وولى بيت المال وناظر الوقف هل هو كعامل الصدقة أو كولي اليتيم على قولين وإذا جعل ولي الأمر كعامل الصدقة استحق مع الغنى وإذا جعل كولي اليتيم ففيه القولان فهذه ثلاثة أقوال [٢]

## الامور الجائزة مع الحاجة

أما تعليم القرآن والعلم بغير أجرة فهو أفضل الأعمال وأحبها إلى الله وهذا مما يعلم بالإضطرار من دين الإسلام ليس هذا مما يخفى على أحد ممن نشأ بديار الإسلام والصحابة والتابعون وتابعوا التابعين وغيرهم من العلماء المشهورين عند الأمة بالقرآن والحديث والفقه إنما كانوا يعلمون بغير أجرة ولم يكن فيهم من يعلم بأجرة أصلا فإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر والأنبياء صلوات الله عليهم إنما كانوا

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٢٤١

[٢] منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٢٥١

يعلمون العلم بغير أجرة كما قال نوح عليه السلام {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}الشعراء١٠٩ وتعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك بغير أجرة لم يتنازع العلماء فى أنه عمل صالح فضلا عن أن يكون جائزا بل هو من فروض الكفاية فإن تعليم العلم الذى بينه فرض على الكفاية كما قال النبى فى الحديث الصحيح بلغوا عنى ولو آية وقال ليبلغ الشاهد الغائب وإنما تنازع العلماء فى جواز الإستئجار على تعليم القرآن والحديث والفقه على قولين مشهورين هما روايتان عن أحمد إحداهما وهو مذهب أبى حنيفة وغيره أنه لا يجوز الإستئجار على ذلك والثانية وهو قول الشافعى أنه يجوز الإستئجار وفيها قول ثالث فى مذهب أحمد أنه يجوز مع الحاجة دون الغنى كما قال تعالى فى ولى اليتيم {وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ}النساء٦ ويجوز أن يعطى هؤلاء من مال المسلمين على التعليم كما يعطى الأئمة والمؤذنون والقضاة وذلك جائز مع الحاجة [1]

## "من قطع ميراثا قطع الله ميراثه من الجنة "

وفى الحديث من قطع ميراثا قطع الله ميراثه من الجنة وفى السنن عن النبى أنه قال إن الرجل ليعمل ستين سنة بطاعة الله ثم يجور فى وصيته فيختم له بسوء فيدخل النار وإن الرجل ليعمل ستين سنة بمعصية الله ثم يعدل فى وصيته فيختم له بخير فيدخل الجنة قال تعالى {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤} النساء١٣-١٤ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٢٠٦

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٤٢٥

## اذا لم يوص الميت لقرابته فينبغي إذا حضروا القسمة أن يعطوا منه

ينبغى للميت أن يوصى لقرابته الذين لا يرثونه فاذا لم يوص فينبغى إذا حضروا القسمة أن يعطوا منه كما قال تعالى {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً}النساء٨ [1]

## المراد بلفظ القسمة

القسمة قسمتان قسمة الكلي إلى أنواعه وقسمة الكل إلى أجزائه والمراد بلفظ القسمة عند الجمهور هو الثاني وبذلك جاء القرآن في مثل قوله {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً}النساء٨ ومنه باب القسمة التي يذكرها الفقهاء كقسمة المواريث والغنائم والفيء من عقار ومنقول بين المشتركين فيه فيحصل لكل واحد جزء من المقسوم موجود في الخارج غير الجزء الحاصل للشريك الآخر [2]

## التسوية بين الاصناف لا واجبة ولا مستحبة

وقد قال الله تعالى فى آية الخمس {فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}الأنفال٤١ ومثل ذلك فى آية الفيء {مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}الحشر٧ وقال فى آية الصدقات {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ}التوبة٦٠

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ٣٦٣

[2] الصفدية ج: ٢ ص: ٢٧٥

الآية فاطلق الله ذكر الاصناف وليس فى اللفظ ما يدل على التسوية بل على خلافها فمن أوجب باللفظ التسوية فقد قال ما يخالف الكتاب والسنة إلا ترى أن الله لما قال {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ}البقرة١٧٧ وقال تعالى {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ}الإسراء٢٦ وقال تعالى {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ}النساء٨ وقال تعالى {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ{٢٤} لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ{٢٥}المعارج٢٤-٢٥ وقال تعالى {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ}الحج٣٦ وأمثال ذلك لم تكن التسوية فى شيء من هذه المواضع واجبة بل ولا مستحبة فى أكثر هذه المواضع سواء كان الاعطاء واجبا أو مستحبا بل بحسب المصلحة ونحن اذا قلنا فى الهدى والاضحية يستحب ان يأكل ثلثا ويتصدق بثلث فانما ذلك إذا لم يكن هناك سبب يوجب التفضيل والا فلو قدر كثرة الفقراء لاستحببنا الصدقة الصدقة بأكثر من الثلث وكذلك إذا قدر كثرة من يهدى ا على الفقراء وكذلك الأكل فحيث كان الأخذ بالحاجة أو المنفعة كان الاعتبار بالحاجة والمنفعة بحسب ما يقع بخلاف المواريث فانها قسمت بالأنساب التى لايختلف فيها أهلها فان إسم الإبن يتناول الكبير والصغير والقوى والضعيف ولم يكن الأخذ لا لحاجته ولا لمنفعته بل لمجرد نسبه فلهذا سوى فيها بين الجنس الواحد وأما هذه المواضع فالأخذ فيها بالحاجة والمنفعة فلا يجوز أن تكون التسوية بين الاصناف لا واجبة ولا مستحبة بل العطاء بحسب الحاجة والمنفعة كما كان أصل الاستحقاق معلقا بذلك والواو تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه فى الحكم المذكور والمذكور أنه لايستحق الصدقة إلا هؤلاء فيشتركون فى أنها حلال لهم وليس إذا اشتركوا فى الحكم المذكور وهو مطلق الحل يشتركون فى التسوية فان اللفظ لا يدل على هذا بحال ومثله يقال فى كلام الواقف والموصي وكان بعض الواقفين قد وقف على المدرس والمعيد والقيم والفقهاء والمتفقهة وجرى الكلام فى ذلك فقلنا يعطى بحسب المصلحة فطلب المدرس الخمس بناء على هذا الظن فقيل له فاعطى القيم أيضا الخمس لأنه نظير المدرس فظهر بطلان حجته آخره والحمد لله رب العالمين [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص:٢٥٨- ٢٥٩

## من اقتصد فى قوله فإن الله يصلح عمله

قال تعالى {فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً}النساء٩ فمن اقتصد في قوله وتحرى القول السديد فإن الله يصلح عمله كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً {٧٠} يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ {٧١}الأحزاب٧٠-٧١ [١]

قال الله تعالى {اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً}الأحزاب٧٠ قالوا قصدا حقا و عن إبن عباس صوابا و عن قتادة و مقاتل عدلا و عن السدى مستقيما و كل هذه الأقوال صحيح فإن القول السديد هو المطابق الموافق فإن كان خبرا كان صدقا مطابقا لمخبره لا يزيد و لا ينقص و إن كان أمرا كان أمرا بالعدل الذي لا يزيد و لا ينقص و لهذا يفسرون السداد بالقصد و القصد بالعدل قال الجوهري التسديد التوفيق للسداد و هو الصواب و القصد في القول و العمل و رجل مسدد إذا كان يعمل بالسداد و القصد و المسدد المقوم و سدد رمحه و أمر سديد و أسد أي قاصد و قد إستد الشيء إستقام قال الشاعر أعلمه الرماية كل يوم فلما إستد ساعده رماني [٢]

## ليس شيء يبطل جميع الحسنات الا الردة

فالذى عليه الصحابة ومن اتبعهم باحسان وسائر أهل السنة والجماعة أنه لا يخلد فى النار من معه شيء من الايمان بل يخرج منها من معه مثقال حبة أو مثقال ذرة من إيمان وأما الخوارج ومن وافقهم من المعتزلة فيوجبون خلود من دخل النار وعندهم من دخلها خلد فيها ولا يجتمع فى حق الشخص الواحد العذاب والثواب وأهل السنة والجماعة وسائر من اتبعهم متفقون على اجتماع الأمرين فى حق خلق

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ١٤٥

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٢٣٠

كثير كما جاءت به السنن المتواترة عن النبى و أيضا فأهل السنة والجماعة لا يوجبون العذاب في حق كل من أتى كبيرة ولا يشهدون لمسلم بعينه بالنار لأجل كبيرة واحدة عملها بل يجوز عندهم ان صاحب الكبيرة يدخله الله الجنة بلا عذاب اما لحسنات تمحوا كبيرته منه أو من غيره واما لمصائب كفرتها عنه واما لدعاء مستجاب منه أو من غيره فيه وإما لغير ذلك و الوعيدية من الخوارج والمعتزلة يوجبون العذاب في حق أهل الكبائر لشمول نصوص الوعيد لهم مقل قوله {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ وتجعل المعتزلة إنفاذ الوعيد أحد الأصول الخمسة التي يكفرون من خالفها ويخالفون أهل السنة والجماعة في وجوب نفوذ الوعيد فيهم وفي تخليدهم ولهذا منعت الخوارج والمعتزلة أن يكون لنبينا شفاعة في أهل الكبائر في اخراج أهل الكبائر من النار وهذا مردود بما تواتر عنه من السنن في ذلك كقوله شفاعتي لأهل الكبائر من امتى وأحاديثه في إخراجه من النار من قد دخل وليس الغرض هنا تحرير هذه الأصول وإنما الغرض التنبيه عليها وكان ما أوقعهم في ذلك أنهم سمعوا نصوص الوعيد فرأوها عامة فقالوا يجب أن يدخل فيها كل من شملته وهو خبر وخبر الله صدق فلو أخلف وعيده كان كاخلاف وعده والكذب على الله محال فعارضهم غالية المرجئة بنصوص الوعد فانها قد تتناول كثيرا من أهل الكبائر فعاد كل فريق إلى أصله الفاسد فقال الأولون نصوص الوعد لا تتناول الا مؤمنا وهؤلاء ليسوا مؤمنين وقال الآخرون نصوص الوعيد لا تتناول الا كافرا وكل من القولين خطأ فان النصوص مثل قوله {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً}النساء١٠ لم يشترط فيها الكفر بل هي في حق المتدين بالاسلام وقوله من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة لم يشترط فيه فعل الواجبات بل قد ثبت في الصحاح وان زنى وان سرق وان شرب الخمر فهنا اضطرب الناس فأنكر قوم من المرجئة العموم وقالوا ليس في اللغة عموم وهم الواقفية في العموم من المرجئة وبعض الأشعرية والشيعية وانما التزموا ذلك لئلا يدخل جميع المؤمنين في نصوص الوعيد وقالت المقتصدة بل العموم صحيح والصيغ صيغ عموم لكن العام يقبل التخصيص وهذا مذهب جميع الخلائق من الأولين والآخرين الا هذه الشرذمة قالوا فمن عفى عنه كان مستثنى من العموم وقال قوم آخرون بل اخلاف الوعيد ليس بكذب وان العرب لا تعد عارا أو شنارا أن يوعد الرجل شرا ثم لا ينجزه كما تعد عارا أو شنارا ان يعد خيرا ثم لا ينجزه وهذا قول طوائف من المتقدمين والمتأخرين وقد احتجوا بقول كعب بن زهير يخاطب النبي نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول قالوا فهذا وعيد خاص وقد رجا فيه

العفو مخاطبا للنبي صل الله عليه وسلم فعلم ان العفو عن المتوعد جائز وان لم يكن من باب تخصيص العام والتحقيق أن يقال الكتاب والسنة مشتمل على نصوص الوعد والوعيد كما ذلك مشتمل على نصوص الأمر والنهي وكل من النصوص يفسر الآخر ويبينه فكما ان نصوص الوعد على الأعمال الصالحة مشروطة بعدم الكفر المحبط لأن القرآن قد دل على أن من ارتد فقد حبط عمله فكذلك نصوص الوعيد للكفار والفساق مشروطه بعدم التوبة لأن القرآن قد دل على أن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب وهذا متفق عليه بين المسلمين فكذلك في موارد النزاع فإن الله قد بين بنصوص معروفة ان الحسنات يذهبن السيئات وان من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وانه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه وان مصائب الدنيا تكفر الذنوب وانه يقبل الشفاعة النبي في أهل الكبائر وانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء كما بين ان الصدقة يبطلها المن والأذى وان الربا يبطل العمل وانه إنما يتقبل الله من المتقين أي في ذلك العمل ونحو ذلك فجعل السيئات ما يوجب رفع عقابها كما جعل للحسنات ما قد يبطل ثوابها لكن ليس شيء يبطل جميع السيئات إلا التوبة كما انه ليس شيء يبطل جميع الحسنات الا الردة وبهذا تبين انا نشهد بأن {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً} النساء١٠ على الاطلاق والعموم ولا نشهد لمعين أنه في النار لأنا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه لأن لحوق الوعيد بالمعين مشروط بشروط وانتفاء موانع ونحن لا نعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع في حقه فائدة الوعيد بيان أن هذا الذنب سبب مقتض لهذا العذاب والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه وانتفاء مانعه يبين هذا أنه قد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها وثبت عنه في صحيح البخاري عن عمر أن رجلا كان يكثر شرب الخمر فلعنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله فنهى عن لعن هذا المعين وهو مدمن خمر لأنه يحب الله ورسوله وقد لعن شارب الخمر على العموم[1]

كما أن نصوص الوعيد عامة فى أكل أموال اليتامى والزانى والسارق فلا نشهد بها عامة على معين بأنه من أصحاب النار لجواز تخلف المقتضى عن المتقضى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٤٧٩-٤٨٤ و مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٤٧٤

لمعارض راجح إما توبة وإما حسنات ماحية وإما مصائب مكفرة وإما شفاعة مقبولة واما غير ذلك كما قررناه فى غير هذا الموضع [1]

## الحسنة العظيمة يغفر الله بها السيئة العظيمة

وفى الصحيح عن على بن أبى طالب أن النبى صلى الله عليه و سلم أرسله و الزبير إبن العوام و قال لهما إئتيا روضة خاخ فإن بها ظعينة و معها كتاب قال على فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى لقينا الظعينة فقلنا أين الكتاب فقالت ما معي كتاب فقلنا لها لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب قال فاخرجته من عقاصها فاتينا به النبى صلى الله عليه و سلم و إذا كتاب من حاطب الى بعض المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبى صلى الله عليه و سلم فقال النبى صلى الله عليه و سلم ماهذا ياحاطب فقال والله يارسول الله مافعلت هذا ارتدادا عن دينى و لا رضاء بالكفر بعد الاسلام و لكن كنت امرأ ملصقا فى قريش و لم أكن من انفسها و كان من معك من المسلمين لهم قرابات يحمون بهم أهاليهم بمكة فاحببت إذ فاتنى ذلك منهم ان اتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى و فى لفظ و علمت أن ذلك لايضرك يعنى لأن الله ينصر رسوله و الذين آمنوا فقال عمر دعنى أضرب عنق هذا المنافق فقال النبى صلى الله عليه و سلم إنه قد شهد بدرا و مايدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم فهذه السيئة العظيمة غفرها الله له بشهود بدر فدل ذلك على أن الحسنة العظيمة يغفر الله بها السيئة العظيمة و المؤمنون يؤمنون بالوعد و الوعيد لقوله صلى الله عليه و سلم من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة و أمثال ذلك مع قوله {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ ولهذا لا يشهد لمعين بالجنة إلا بدليل خاص و لايشهد على معين بالنار إلا بدليل خاص و لا يشهد لهم بمجرد الظن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٤٨٤

من اندراجهم فى العموم لأنه قد يندرج فى العمومين فيستحق الثواب و العقاب لقوله تعالى {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨}الزلزلة ٧-٨ و العبد إذا اجتمع له سيئات و حسنات فإنه و إن استحق العقاب على سيئاته فإن الله يثيبه على حسناته و لا يحبط حسنات المؤمن لأجل ما صدر منه و إنما يقول بحبوط الحسنات كلها بالكبيرة الخوارج و المعتزلة الذين يقولون بتخليد أهل الكبائر وأنهم لايخرجون منها بشفاعة و لا غيرها و أن صاحب الكبيرة لا يبقى معه من الايمان شيء و هذه أقوال فاسدة مخالفة للكتاب و السنة المتواترة و اجماع الصحابة [١]

مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أهل السنة والجماعة ومن يدخل فيهم من الكرامية والمرجئة والشيعة ومذهب كثير من الشيعة الإمامية وغيرهم الذين يقولون إن الفاسق لا يخلد في

النار وأما من يقول بتخليده في النار كالخوارج والمعتزلة وبعض الشيعة فهؤلاء عندهم لا يجتمع في حق الشخص الواحد ثواب وعقاب وقد استفاضت السنن النبوية بأنه يخرج من النار قوم بالشفاعة ويخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأما قول الله تعالى {أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} هود١٨ فهي اية عامة كايات الوعيد بمنزلة قوله {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ وهذا يقتضي أن هذا الذنب سبب اللعن والعذاب لكن قد يرتفع موجبة لمعارض راجح إما توبة وإما حسنات ماحية وإما مصائب مكفرة [٢]

قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ وقوله {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً}النساء٣٠ وأمثال ذلك من النصوص الصريحة بدخول من فعل ذلك النار ومع هذا فلا نشهد لمعين بالنار لإمكان أنه تاب أو كانت له حسنات

---

[١]مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٦٧-٧٠

[٢]منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٥٧٠-٥٧١

محت سيئاته أو كفر الله عنه بمصائب أو غير ذلك كما تقدم بل المؤمن بالله ورسوله باطنا وظاهرا الذي قصد اتباع الحق وما جاء به الرسول إذا أخطأ ولم يعرف الحق كان أولى أن يعذره الله في الآخرة من المتعمد العالم بالذنب فإن هذا عاص مستحق للعذاب بلا ريب وأما ذلك فليس متعمدا للذنب بل هو مخطىء والله قد تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان والعقوبة في الدنيا تكون لدفع ضرره عن المسلمين وإن كان في الآخرة خيرا ممن لم يعاقب كما يعاقب المسلم المتعدي للحدود ولا يعاقب أهل الذمة من اليهود والنصارى والمسلم في الآخرة خير منهم [1]

## لا يشهد لمعين من أهل القبلة بالنار

ان نصوص الوعيد من الكتاب والسنة كثيرة جدا والقول بموجبها واجب على وجه العموم والاطلاق من غير ان يعين شخص من الأشخاص فيقال هذا ملعون ومغضوب عليه أو مستحق للنار لا سيما ان كان لذلك الشخص فضائل وحسنات فان من سوى الأنبياء تجوز عليهم الصغائر والكبائر مع امكان أن يكون ذلك الشخص صديقا أو شهيدا أو صالحا لما تقدم أن موجب الذنب يتخلف عنه بتوبة أو استغفار أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو شفاعة أو لمحض مشيئته ورحمته فاذا قلنا بموجب قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ وقوله تعالى {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً {٢٩} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً{٣٠}النساء٢٩ ـ٣٠ الى غير ذلك من آيات الوعيد أو قلنا بموجب قوله لعن الله من شرب الخمر أو عق والديه أو من غير منار الأرض أو لعن الله السارق أو لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه أو لعن الله لاوي الصدقة والمعتدى فيها أو من أحدث فى المدينة حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين أو من جر ازاره بطرا لم ينظر الله إليه يوم القيامة أو لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ومن غشنا فليس منا أو من ادعى الى غير أبيه أو

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٢٥٠

تولى غير مواليه فالجنة عليه حرام أو من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان أو من استحل مال امرىء مسلم بيمين كاذبة فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة أو لا يدخل الجنة قاطع الى غير ذلك من احاديث الوعيد لم يجز ان نعين شخصا ممن فعل بعض هذه الأفعال ونقول هذا المعين قد اصابه هذا الوعيد لإفكان التوبة وغيرها من مسقطات العقوبة ولم يجز أن نقول هذا يستلوم لعن المسلمين ولعن أمة محمد أو لعن الصديقين أو الصالحين لأنه يقال الصديق والصالح متى صدرت منه بعض هذه الأفعال فلابد من مانع يمنع لحوق الوعيد به مع قيام سببه ففعل هذه الأمور ممن يحسب انها مباحة باجتهاد أو تقليد أو نحو ذلك غايته أن يكون نوعا من أنواع الصديقين الذين أمتنع لحوق الوعيد بهم المانع كما امتنع لحوق الوعيد به لتوبة أو حسنات ماحية أو غير ذلك واعلم ان هذه السبيل هي التى يجب سلوكها فان ما سواها طريقان خبيثان احدهما القول بلحوق الوعيد لكل فرد من الأفراد بعينه ودعوى ان هذا عمل بموجب النصوص وهذا أقبح من قول الخوارج المكفرين بالذنوب والمعتزلة وغيرهم وفساده معلوم بالاضطرار وادلته معلومة فى غير هذا الموضع الثاني ترك القول والعمل بموجب احاديث رسول الله ظنا ان القول بموجبها مستلزم للطعن فيما خالفها وهذا الترك يجر الى الضلال واللحوق بأهل الكتابين الذين اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم فان النبى قال لم يعبدوهم ولكن احلوا لهم الحرام فاتبعوهم وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم ويفضي الى طاعة المخلوق فى معصية الخالق ويفضي الى قبح العاقبة وسوء التأويل المفهوم من فحوى قوله تعالى{أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ ثم إن العلماء يختلفون كثيرا فان كان كل خبر فيه تغليظ خالفه مخالف ترك القول بما فيه من التغليظ أو ترك العمل به مطلقا لزم من هذا من المحذور ما هو اعظم من ان يوصف من الكفر والمروق من الدين وان لم يكن المحذور من هذا اعظم من الذي قبله لم يكن دونه فلابد ان نؤمن بالكتاب ونتبع ما أنزل الينا من ربنا جميعه ولا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض وتلين قلوبنا لا تباع بعض السنة وتنفر عن قبول بعضها بحسب العادات والاهواء فان هذا خروج عن الصراط المستقيم الى صراط المغضوب عليهم والضالين والله يوفقنا لما يحبه ويرضاه من القول والعمل فى خير وعافية لنا

ولجميع المسلمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتخبين وازواجه امهات المؤمنين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا [1]

وحقيقة الأمر فى ذلك ان القول قد يكون كفرا فيطلق القول بتكفير صاحبه ويقال من قال كذا فهو كافر لكن الشخص المعين الذى قاله لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التى يكفر تاركها وهذا كما فى نصوص الوعيد فان الله سبحانه وتعالى يقول {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد فلا يشهد لمعين من أهل القبلة بالنار لجواز أن لا يلحقه الوعيد لفوات شرط أو ثبوت مانع فقد لا يكون التحريم بلغه وقد يتوب من فعل المحرم وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم وقد يبتلى بمصائب تكفر عنه وقد يشفع فيه شفيع مطاع وهكذا الأقوال التى يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق وقد تكون عنده ولم تثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها فمن كان من المؤمنين مجتهدا فى طلب الحق وأخطأ فان الله يغفر له خطأه كائنا ما كان سواء كان فى المسائل النظرية أو العملية هذا الذى عليه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وجماهير أئمة الاسلام [2]

## أن نفى الايمان والجنة لا يكون إلا عن كبيرة

قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ فان هذه الذنوب وأمثالها فيها وعيد خاص وكذلك كل ذنب توعد صاحبه بأنه لا يدخل الجنة ولا يشم رائحة الجنة وقيل فيه من فعله فليس

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٢٨٧-٢٩٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٣ ص: ٣٤٥-٣٤٦

منا وأن صاحبه آثم فهذه كلها من الكبائر كقوله لا يدخل الجنة قاطع وقوله لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر وقوله من غشنا فليس منا وقوله من حمل علينا السلاح فليس منا وقوله لا يزنى الزان حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن وذلك لأن نفى الايمان وكونه ليس من المؤمنين ليس المراد به ما يقوله المرجئة انه ليس من خيارنا فانه لو ترك ذلك لم يلزم أن يكون من خيارهم وليس المراد به ما يقوله الخوارج انه صار كافرا ولا ما يقوله المعتزلة من أنه لم يبق معه من الايمان شىء بل هو مستحق للخلود فى النار لا يخرج منها فهذه كلها أقوال باطلة وقد بسطنا الكلام عليها فى غير هذا الموضع ولكن المؤمن المطلق فى باب الوعد والوعيد وهو المستحق لدخول الجنة بلا عقاب وهو المؤدى للفرائض المجتنب المحارم وهؤلاء هم المؤمنون عند الاطلاق فمن فعل هذه الكبائر لم يكن من هؤلاء المؤمنين اذ هو متعرض للعقوبة على تلك الكبيرة وهذا معنى قول من قال أراد به نفى حقيقة الايمان أو نفى كمال الايمان فانهم لم يريدوا نفي الكمال المستحب فان ترك الكمال المستحب لا يوجب الذم والوعيد والفقهاء يقولون الغسل ينقسم إلى كامل ومجزىء ثم من عدل عن الغسل الكامل إلى المجزىء لم يكن مذموما فمن أراد بقوله نفى كمال الايمان انه نفى الكمال المستحب فقد غلط وهو يشبه قول المرجئة ولكن يقتضى نفى الكمال الواجب وهذا مطرد فى سائر ما نفاه الله ورسوله مثل قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}الأنفال٢ ومثل الحديث المأثور لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ومثل قوله صلى الله عليه وسلم لا صلاة إلا بأم القرآن وأمثال ذلك فانه لا ينفى مسمى الاسم إلا لانتفاء بعض ما يجب فى ذلك لا لانتفاء بعض مستحباته فيفيد هذا الكلام أن من فعل ذلك فقد ترك الواجب الذى لا يتم الايمان الواجب الا به وان كان معه بعض الايمان فان الايمان يتبعض ويتفاضل كما قال يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان و المقصود هنا أن نفى الايمان والجنة أو كونه من المؤمنين لا يكون إلا عن كبيرة أما الصغائر فلا تنفى هذا الاسم والحكم عن صاحبها بمجردها فيعرف أن هذا النفى لا يكون لترك مستحب ولا لفعل صغيرة بل لفعل كبيرة[1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٥٢-٦٥٤

# الرد على الذين يحتجون بسابق القدر

و أما قو ل الذين يحتجون بسابق القدر و يقولون إنه قد مضى الأمر و الشقى شقى و السعيد سعيد محتجين بقوله صلى الله عليه و سلم من قال لا إله إلا الله دخل الجنة و إن زنى و إن سرق فيقال له لاريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد وقد قال الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ و قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً {٢٩} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً{٣٠}النساء٢٩ -٣٠ و مثل هذا كثير فى الكتاب و السنة و العبد عليه أن يصدق بهذا و بهذا لا يؤمن ببعض و يكفر ببعض فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد و يكذبوا بالوعيد و الحرورية و المعتزلة أرادو ا أن يصدقوا بالوعيد دون الوعد وكلاهما أخطأ والذي عليه أهل السنة و الجماعة الإيمان بالوعد و الوعيد فكما أن ما توعد الله به العبد من العقاب قد بين سبحانه أنه بشروط بأن لا يتوب فإن تاب تاب الله عليه و بأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه فإنَّ{الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} هود١١٤ و بأن لا يشاء الله أن يغفر له {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فهكذا الوعد له تفسير و بيان فمن قال بلسانه لاإله إلا الله و كذب الرسول فهو كافر بإتفاق المسلمين و كذلك إن جحد شيئا مما أنزل الله فلابد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره الى الله إن شاء عذبه و إن شاء غفر له فإن إرتد عن الإسلام و مات مرتدا كان فى النار فالسيئات تحبطها التوبة و الحسنات تحبطها الردة و من كان له حسنات و سيئات فإن الله لا يظلمه بل {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨}الزلزلة ٧-٨ و الله تعالى قد يتفضل عليه و يحسن إليه بمغفرته و رحمته ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد فى النار فالزاني و السارق لا يخلد فى النار بل لا بد أن يدخل الجنة فإن النار يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان و هؤلاء المسؤول عنهم يسمون القدرية المباحية المشركين و قد جاء

فى ذمهم من الآثارما يضيق عنه هذا المكان و الله سبحانه و تعالى أعلم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم و حسبنا الله و نعم الوكيل [1]

## كل وعيد فى القرآن فهو مشروط بعدم التوبة

قال تعالى{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ و هذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعا و فيها رد على طوائف رد على من يقول إن الداعى إلى البدعة لا تقبل توبته و يحتجون بحديث إسرائيلى فيه أنه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت و هذا يقوله طائفة ممن ينتسب إلى السنة و الحديث و ليسوا من العلماء بذلك كأبى علي الأهوازي و أمثاله ممن لا يميزون بين الأحاديث الصحيحة و الموضوعة و ما يحتج به و ما لا يحتج به بل يروون كلما فى الباب محتجين و قد حكى هذا طائفة قولا في مذهب أحمد أو رواية عنه و ظاهر مذهبه مع مذاهب سائر أئمة المسلمين أنه تقبل توبته كما تقبل توبة الداعى إلى الكفر و توبة من فتن الناس عن دينهم و قد تاب قادة الأحزاب مثل أبى سفيان بن حرب و الحارث ابن هشام و سهيل بن عمرو و صفوان بن أمية و عكرمة بن أبى جهل و غيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم من قتل و كانوا من أحسن الناس إسلاما و غفر الله لهم قال تعالى {قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ}الأنفال٣٨ و عمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر و الإيذاء للمسلمين و قد قال له النبى صلى الله عليه و سلم لما أسلم يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجب ما كان قبله و فى صحيح البخارى عن ابن مسعود فى قوله {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}الإسراء٥٧ قال كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم أولئك الجن و الإنس يعبدونهم ففي هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الإسلام لهم و إن كانوا هم أضلوهم أولا و أيضا فالداعي إلى الكفر و البدعة و إن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه لكونه قبل من هذا و أتبعه و هذا عليه و زره ووزر من إتبعه إلى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم فإذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره و لا ما حمله هو لأجل إضلالهم و أما هم فسواء تاب أو لم يتب حالهم واحد و لكن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٧١

توبته قبل هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى كما تاب كثير من الكفار و أهل البدع و صاروا دعاة إلى الإسلام و السنة و سحرة فرعون كانوا أئمة فى الكفر ثم أسلموا و ختم الله لهم بخير و من ذلك توبة قاتل النفس و الجمهور على أنها مقبولة و قال إبن عباس لا تقبل و عن أحمد روايتان و حديث قاتل التسعة و التسعين في الصحيحين دليل على قبول توبته و هذه الآية تدل على ذلك و آية النساء إنما فيها وعيد فى القرآن كقوله {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ و مع هذا فهذا إذا لم يتب وكل وعيد فى القرآن فهو مشروط بعدم التوبة بإتفاق الناس فبأي و جه يكون وعيد القاتل لاحقا به و إن تاب هذا فى غاية الضعف و لكن قد يقال لا تقبل توبته بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل بل التوبة تسقط حق الله و المقتول مطالبه بحقه و هذا صحيح فى جميع حقوق الآدميين حتى الدين فإن فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه سلم أنه قال الشهيد يغفر له كل شيء إلا الدين لكن حق الآدمى يعطاه من حسنات القاتل فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات حتى يكون له ما يقابل حق المقتول و لعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول فلا بد أن يبقى له سيئات يعذب بها و هذا الذى قاله قد يقع من بعض الناس فيبقى الكلام فيمن تاب و أخلص و عجز عن حسنات تعادل حق المظلوم هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يعذب به و هذا مو ضع دقيق على مثله يحمل حديث إبن عباس لكن هذا كله لا ينافى موجب الآية و هو أن الله تعالى يغفر كل ذنب الشرك و القتل و الزنا و غير ذلك من حيث الجملة فهى عامة فى الأفعال مطلقة فى الأشخاص [1]

## لطائف لغوية

١- وقد قال تعالى {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}النساء١ فعلى قراءة الجمهور بالنصب إنما يسألون بالله وحده لا بالرحم وتساؤلهم بالله تعالى يتضمن إقسام بعضهم على بعض بالله وتعاهدهم بالله وأما على قراءة الخفض فقد قال طائفة من السلف هو قولهم أسألك بالله وبالرحم وهذا إخبار عن سؤالهم وقد يقال انه ليس بدليل على جوازه فان كان دليلا على جوازه

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٢٤-٢٧

فمعنى قوله أسألك بالرحم ليس إقساما بالرحم والقسم هنا لا يسوغ لكن بسبب الرحم أى لأن الرحم توجب لأصحابها بعضهم على بعض حقوقا كسؤال الثلاثة لله تعالى بأعمالهم الصالحة وكسؤالنا بدعاء النبى وشفاعته [1]

٢- عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل فى طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة فى طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما فى قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ{٥٤} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ{٥٥} القمر٥٤ -٥٥ وقد يقرن بها اسم آخر كقوله {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً {٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ{٣}الطلاق٢ -٣ وقوله {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ}يوسف٩٠ وقوله {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}النساء١ [2]

٣- وقال تعالى {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}النساء١ قالوا معناه يتعاهدون ويتعاقدون لان كل واحد من المعاهدين انما عاهده بامانة الله وكفالته وشهادته [3]

٤- قوله تعالى {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ{٣} وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً{٤}النساء ٣-٤ فإن الضمير هنا في خفتم وتقسطوا وانحكوا وطاب لكم وما ملكت أيمانكم إنما يتناول الأمة دون نبيها صلى الله عليه وسلم فإن النبي صلى الله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٣٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٤

[3] الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٤٣

عليه وسلم له أن يتزوج أكثر من أربع وله أن يتزوج بلا مهر كما ثبت ذلك بالنص والإجماع [1]

٥-لفظ ذوى الأرحام فى الكتاب والسنة يراد به الأقارب من جهة الأبوين فيدخل فيهم العصبة وذوو الفروض وان شمل ذلك من لا يرث بفرض ولا تعصيب ثم صار ذلك فى إصطلاح الفقهاء اسما لهؤلاء دون غيرهم فيظن من لا يعرف إلا ذلك أن هذا هو المراد بهذا اللفظ فى كلام الله ورسوله وكلام الصحابة [2]

٦- قال تعالى {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}النساء١ أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به ايجابا واستحبابا وما نهى عنه تحريما وتنزيها وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد [3]

٧- أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايفة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبا للآمر مقصودا له كما في قوله {وَاتَّقُواْ اللّهَ}النساء١ وفي قوله {وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}البقرة١٩٥ وفي قوله {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}الحديد٧ وفي قوله {اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}المائدة٧٢ وفي قوله

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٢٠١

[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢٤٦

[3] الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٩٠

{فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ}يونس٨٤ فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به [١]

٨-وقد قال تعالى {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}النساء١ على قراءة حمزة وغيره ممن خفض الأرحام وقال تفسيرها أي تساءلون به والأرحام كما يقال سألتك بالله وبالرحم ومن زعم من النحاة أنه لا يجوز العطف على الضمير المجرور إلا باعادة الجار فإنما قاله لما رأى غالب الكلام بإعادة الجار وإلا فقد سمع من الكلام العربي نثره ونظمه العطف بدون ذلك كما حكى سيبويه ما فيها غيره وفرسه ولا ضرورة هنا كما يدعى مثل ذلك في الشعر ولأنه قد ثبت في الصحيح أن عمر قال اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون [٢]

٩-والإبدال من الشيء يقتضي ترك المبدل منه إذ لا يجمع بين البدل والمبدل منه كقوله تعالى {وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ}النساء٢ [٣]

١٠- ما موصولة كقوله تعالى {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{٢} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{٣}الكافرون ٢-٣ و قوله {فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء٣ و هذا المعنى يجيء فى قوله{وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى}الليل٣ [٤]

---

[١] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥١

[٢] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٤٠٨

[٣] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ١٨٥

[٤] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٢٣٨

١١- و على هذا قوله فما وصف للأشخاص و لم يقل فمن لأن ما يراد به الصفات دون الأعيان و هو المقصود كقوله {فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء٣ و قوله {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}الكافرون٢ و قوله {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}الشمس٧ [1]

١٢- ما هي لما لا يعلم و لصفات من يعلم و لهذا تكون للجنس العام لأن شمول الجنس لما تحته هو باعتبار صفاته كما قال {فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء٣ أي الذي طاب و الطيب من النساء فلما قصد الإخبار عن الموصوف بالطيب و قصد هذه الصفة دون مجرد العين عبر ب ما و لو عبر ب من كان المقصود مجرد العين و الصفة للتعريف حتى لو فقدت لكانت غير مقصودة كما إذا قلت جاءني من يعرف و من كان أمس في المسجد و من فعل كذا و نحو ذلك فالمقصود الإخبار عن عينه و الصلة للتعريف و إن كانت تلك الصفة قد ذهبت [2]

١٣- فإن أهل اللغة يسمون بالواحد والوحيد والأحد في النفي لما يشار إليه ويميز الحس منه شيئا من شيء قال تعالى {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً}النساء٣ فسمى المرأة واحدة [3]

١٤- فان الانسان هو السفيه نفسه كما قال تعالى {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ}البقرة١٤٢ {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء}النساء٥ [4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٢٩٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٥٥ و ص ٦٠٣

[3] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٣٥

[4] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٤٤٧

١٥- قال تعالى {وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ}النساء٦ والإسراف الاعتداء ومجاوزة الحد

المباح [١]

١٦- قال تعالى {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً} النساء٨ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين واذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير واذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر فالأول كقوله {وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ}البقرة٢٧١ وقوله {فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ}المائدة٨٩ والثانى كقوله {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ}التوبة ٦٠ [٢]

١٧- ففى الحديث الصحيح أنه قال ليس المسكين هذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنا يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافا فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج وكان ذلك مشهورا عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال فبين النبى صلى الله عليه وسلم أن الذى يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته باعطاء الناس له والسؤال له بمنزلة الحرفة وهو وإن كان مسكينا يستحق من الزكاة اذا لم يعط من غيرها كفايته فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكينا وانما المسكين المحتاج الذى لا يسأل ولا يعرف فيعطى فهذا هو الذى يجب أن يقدم فى العطاء فانه مسكين قطعا وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٦٢ و مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ١١٤

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٧

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٩٩

١٨- قال تعالى {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ} النساء٨ قسمة الشيء إلى أبعاضه وأجزائه [1]

١٩- المعنى المستقيم فانه يعبر عنه بالقول السديد كما قال تعالى {فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً}النساء٩ وقال{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً}الأحزاب٧٠ والسديد الساد الصواب المطابق للحق من غير زيادة ولا نقصان وهو العدل والصدق [2]

٢٠- عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل فى طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة فى طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما فى قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ{٥٤} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ{٥٥} القمر٥٤ -٥٥ وقد يقرن بها اسم آخر كقوله {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً {٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ{٣}الطلاق٢ -٣ وقوله {فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً}النساء٩ وقوله {اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ}التوبة١١٩ وأمثال ذلك فقوله {فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً}النساء٩ مثل قوله {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ}الحديد٧ وقوله {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}البقرة٢٨٥ فعطف قولهم على الايمان كما عطف القول السديد على التقوى ومعلوم أن التقوى اذا أطلقت دخل فيها القول السديد وكذلك الايمان اذا أطلق دخل فيه السمع والطاعة لله وللرسول وكذلك قوله {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}الحديد٧ واذا أطلق الايمان بالله فى حق أمة محمد دخل فيه الايمان بالرسول وكذلك قوله {كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ}البقرة٢٨٥ واذا أطلق الايمان بالله دخل فيه الايمان بهذه التوابع وكذلك

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ٢٠٦

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٨٥

قوله {والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ}البقرة٤ وقوله {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ}البقرة١٣٦ الآية واذا قيل {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ}الأعراف١٥٨ دخل فى الايمان برسوله الايمان بجميع الكتب والرسل والنبيين وكذلك اذا قيل {وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ}الحديد٢٨ واذا قيل {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ}الحديد٧ دخل فى الايمان بالله ورسوله الايمان بذلك كله والانفاق يدخل فى قوله فى الآية الأخرى {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ}الأعراف١٥٨ كما يدخل القول السديد فى مثل قوله {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ}النساء١٣١ [1]

٢١- والجنة و النار التى تفتح و تغلق غير ما فى القلوب و لكن ما فى القلوب سبب له و دليل عليه و أثر من آثاره و قد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ و قال صلى الله عليه و سلم الذي يشرب فى آنية الذهب و الفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم فقيل يأكلون و يشربون ما سيصير نارا وقيل هو سبب النار و الله سبحانه و تعالى أعلم [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٦٧

## النساء ١١-٢١

{يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء
فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ
وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ
يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ
السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ
تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما
حَكِيماً{١١} وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن
كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ
دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ
فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ
رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا
السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ
وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ
حَلِيمٌ{١٢} تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٣}
وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ
عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤} وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ
عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ
يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً{١٥} وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ
فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّاباً
رَّحِيماً{١٦} إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ
يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً
حَكِيماً{١٧} وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ
أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ
أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{١٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن
تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ
أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ
فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً{١٩} وَإِنْ أَرَدتُّمُ

**اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً{٢٠} وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً{٢١}**

## الاسباب المثبتة للارث

فالسلف والائمة متفقون على اثبات الاسباب والحكم خلقا وامرا ففي الامر ما يقول الفقهاء الاسباب المثبتة للارث ثلاثة نسب ونكاح وولاء عتق واختلفوا فى المحالفة والاسلام على يديه وكونهما من اهل الديوان منهم من يجعل ذلك سببا للارث كأبى حنيفة ومنهم من لا يجعله سببا كمالك والشافعى وعن احمد روايتان ومثل ما يقولون ملك النصاب سبب لوجوب الزكاة والقتل العمد العدوان المحض سبب للقود والسرقة سبب للقطع ومذهب الفقهاء ان السبب له تأثير فى مسببه ليس علامة محضة وانما يقول انه علامة محضة طائفة من اهل الكلام الذين بنوا على قول جهم وقد يطلق ما يطلقونه طائفة من الفقهاء وجمهور من يطلق ذلك من الفقهاء يتناقضون تارة يقولون بقول السلف والائمة وتارة يقولون بقول هؤلاء [١]

## إمرأة توفى زوجها وخلف أولادا

للزوجة الصداق والباقى فى ذمته حكمها فيه حكم سائر الغرماء وما بقى بعد الدين والوصية النافذة إن كان هناك وصية فلها ثمنه مع الأولاد

## امرأة ماتت وخلفت زوجا وأبوين وقد احتاط الاب على التركة وذكر أنها غير رشيدة فهل للزوج ميراث منها

ما خلفته هذه المرأة فلزوجها نصفه ولأبيها الثلث والباقى للأم وهو السدس فى مذهب الأئمة الأربعة سواء كانت رشيدة أو غير رشيدة

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٨٥

## إمرأة ماتت عن أبوين وزوج وأربعة أولاد ذكور وأنثى فقال الزوج لجماعة شهود اشهدوا على أن نصيبى هو ستة لأبوى زوجتى وأولادها المذكورين بالفريضة الشرعية فما خص كل واحد منهم

إذا كان قد ملكه نصيبه الذى هو ستة أسهم لسائر الورثة على الفريضة الشرعية والباقى ثمانية عشر سهما للأبوين ثمانية أسهم وأولاده عشرة أسهم فترد تلك الستة على هذه الثمانية عشر سهما ويقسم الجميع بينهم على ثمانية عشر سهما كما يرد الفاضل عن ذوى السهام بينهم عند من يقول بالرد فان نصيب الوارث جعله لهم بمنزلة النصيب المردود بينهم

## إمرأة ماتت ولها زوج وجدة وإخوة أشقاء وإبن فما يستحق كل واحد من الميراث للزوج الربع وللجدة السدس وللإبن الباقى ولا شىء للأخوة باتفاق الأئمة وسئل عن امرأة توفيت وخلفت زوجا وابنتين ووالدتها واختين أشقاء فهل ترث الأخوات فأجاب يفرض للزوج الربع وللأم السدس وللبنتين الثلثان أصلها من اثنى عشر وتعول إلى ثلاثة عشر وأما الأخوات فلا شىء لهن مع البنات لأن الأخوات مع البنات عصبة ولم يفضل للعصبة شىء هذا مذهب الأئمة الأربعة

## امرأة ماتت وخلفت زوجا وأما وأختا شقيقة وأختا لأب وأخا وأختا لأم

المسألة على عشرة أسهم أصلها من ستة وتعول إلى عشرة وتسمى ذات الفروخ لكثرة عولها للزوج النصف وللأم السدس سهم وللشقيقة ثلاثة وللأخت من الأب السدس تكملة الثلثين ولولدى الأم الثلث سهمان فالمجموع عشرة أسهم وهذا باتفاق الأئمة الأربعة

## إمرأة ماتت وخلفت زوجا وبنتا وأما وأختا من أم فما يستحق كل واحد منهم

هذه الفريضة تقسم على أحد عشر للبنت ستة أسهم وللزوج ثلاثة أسهم وللأم سهمان ولا شىء للأخت من الأم فإنها تسقط بالبنت باتفاق الأئمة كلهم وهذا على قول من يقول بالرد كأبى حنيفة وأحمد ومن لا يقول بالرد كمالك والشافعى فيقسم عندهم على اثنى عشر سهما للبنت ستة وللزوج ثلاثة وللأم سهمان والسهم الثانى عشر لبيت المال والمقصود هنا أن النصوص شاملة لجميع الأحكام ونحن نبين

ذلك فيما هو من أشكل الأشياء لننبه به على ما سواه والفرائض من أشكلها فنقول النص والقياس وهما الكتاب والميزان دلا على أن الثلث يختص به ولد الأم كما هو قول على ومن وافقه وهو مذهب أبى حنيفة وأحمد فى المشهور عنه وروى حرب التشريك وهو قول زيد ومن وافقه وقول مالك والشافعى واختلف فى ذلك عن عمر وعثمان وغيرهما من الصحابة حتى قيل إنه اختلف فيها عن جميع الصحابة إلا عليا وزيدا فإن عليا لم يختلف عنه أنه لم يشرك وزيد لم يختلف عنه أنه يشرك قال العنبرى القياس ما قال على والاستحسان ما قال زيد قال العنبرى هذه وساطة مليحة وعبارة صحيحة فيقال النص والقياس دلا على ما قال على أما النص فقوله تعالى {فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ}النساء١٢ والمراد به ولد الأم وإذا أدخلنا فيهم ولد الأبوين لم يشتركوا فى الثلث بل زاحمهم غيرهم وإن قيل إن ولد الأبوين منهم وأنهم من ولد الأم فهو غلط والله تعالى قال {وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ}النساء١٢ الآية وفى قراءة سعد وإبن مسعود من الأم والمراد به ولد الأم بالاجماع ودل على ذلك قوله {فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ}النساء١٢ وولد الأبوين والأب فى آية فى قوله {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ}النساء١٧٦ ثم قال {وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١٧٦ وهذا حكم ولد الأبوين لا الأم باتفاق المسلمين فدل ذكره تعالى لهذا الحكم فى هذه الآية وكذلك الحكم فى تلك الآية على أن أحد الصنفين غير الآخر وإذا كان النص قد أعطى ولد الأم الثلث فمن نقصهم منه فقد ظلمهم وولد الأبوين جنس آخر وقد قال النبى الحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر وهذا يقتضى أنه إذا لم تبق الفرائض شيئا لم يكن للعصبة شيء وهنا لم تبق الفرائض شيئا وأما قول القائل إن أباهم كان حمارا فقد اشتركوا فى الأم فقول فاسد حسا وشرعا أما الحس فلأن الأب لو كان حمارا لكانت الأم أتانا ولم يكونوا من بنى آدم وإذا قيل مراده أن وجوده كعدمه فيقال هذا باطل فإن الوجود لا يكون معدوما وأما الشرع فلأن الله حكم فى ولد الأبوين بخلاف حكمه فى ولد الأم وإذا قيل فالأب إذا لم ينفعهم لم يضرهم قيل بلى قد يضرهم كما ينفعهم بدليل ما لو كان ولد الأم واحدا وولد الأبوين كثيرين فإن ولد الأم وحده يأخذ السدس والباقى يكون لهم كله ولولا الأب لتشاركوا هم وذاك الواحد فى الثلث وإذا جاز أن يكون وجود الأب ينفعهم جاز أن يحرمهم فعلم أنه يضرهم وأيضا فأصول الفرائض مبنية على أن القرابة المتصلة ذكر وأنثى لا تفرق أحكامها فالاخ من الأبوين لا يكون كأخ من أب ولا كأخ من أم ولا يعطى بقرابة الأم

وحدها كما لا يعطى بقرابة الأب وحده بل القرابة المشتركة من الأبوين وإنما يفرد إذا كان قرابة لأم منفردا مثل ابنى عم أحدهما أخ لأم فهنا ذهب الجمهور إلى أن للأخ لأم السدس ويشتركان فى الباقى وهو مأثور عن على وروى عن شريح أنه جعل الجميع للأخ من الأم كما لو كان إبن عم لأبوين والجمهور يقولون كلاهما فى بنوة العم سواء هما إبن عم من أبوين أو من أب والأخوة من الأم مستقلة ليست مقترنة حتى يجعل كأبن عم لأبوين ومما يبين الحكم فى مسألةالمشركة أن لو كان فيهن أخوات من أب لفرض لهن الثلثان وعالت الفريضة فلو كان معهن أخوهن سقطن ويسمى الأخ المشؤوم فلما صرن بوجوده يصرن عصبة صار تارة ينفعهن وتارة يضرهن ولم يجعل وجوده كعدمه فى حالة الضر كذلك قرابة الأب لما الأخوة بها عصبة صار ينفعم تارة ويضرهم أخرى فهذا مجرى العصوبة فان العصبة تارة يحوز المال كله وتارة يحوز أكثره وتارة أقله وتارة لا يبقى له شىء وهو إذا أستغرقت الفرائض المال فمن جعل العصبة تأخذ مع استغراق الفرائض المال فقد خرج عن الأصول المنصوصة فى الفرائض وقول القائل هو استحسان يقال هذا استحسان يخالف الكتاب والميزان فإنه ظلم للأخوة من الأم حيث يؤخذ حقهم فيعطاه غيرهم والمنازعون فى هذه المسألة ليس معهم حجة إلا أنه قول زيد فقد روى عن عمر أنه حكم بها فعمل بذلك من عمل من أهل المدينة وغيرها كما عملوا بمثل ذلك فى ميراث الجد والأخوة وعملوا بقول زيد فى غير ذلك من الفرائض تقليدا له وإن كان النص والقياس مع من خالفه وبعضهم يحتج لذلك بقوله أفرضكم زيد وهو حديث ضعيف لا أصل له ولم يكن زيد على عهد النبى معروفا بالفرائض حتى أبو عبيدة لم يصح فيه إلا قوله لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح وكذلك إتباعهم لزيد فى الجد مع أن جمهور الصحابة على خلافه فجمهور الصحابة موافقون للصديق فى أن الجد كالأب يحجب الأخوة وهو مروى عن بضعة عشر من الصحابة ومذهب أبى حنيفة واحد الوجهين فى مذهب الشافعى وأحمد اختاره أبو حفص البرمكى من أصحابه وحكاه بعضهم رواية عن أحمد وأما المورثون للأخوة مع الجد فهم على وإبن مسعود وزيد ولكل واحد قول انفرد به وعمر بن الخطاب كان متوقفا فى أمره والصواب بلا ريب قول الصديق لأدلة متعددة ذكرناها فى غير هذا الموضع وأما العمريتان فليس فى القرآن ما يدل على أن للأم الثلث مع الأب والزوج بل إنما أعطاها الله الثلث إذ ورثت المال هى والأب فكان القرآن قد دل على أن ما ورثته هى والأب تأخذ ثلثه والأب ثلثيه واستدل بهذا أكابر الصحابة كعمر وعثمان وعلى وإبن مسعود وزيد وجمهور العلماء على أن ما يبقى بعد فرض الزوجين يكونان فيه أثلاثا قياسا على جميع المال إذا اشتركا فيه وكما

يشتركان فيما يبقى بعد الدين والوصية ومفهوم القرآن ينفى أن تأخذ الأم الثلث مطلقا فمن أعطاها الثلث مطلقا حتى مع الزوجة فقد خالف مفهوم القرآن وأما الجمهور فقد عملوا بالمفهوم فلم يجعلوا ميراثها إذا ورثه أبوه كميراثها إذا لم يرث بل إن ورثه أبوه فلأمه الثلث مطلقا وأما إذا لم يرثه أبوه بل ورثه من دون الأب كالجد والعم والأخ فهى بالثلث أولى فإنها إذا أخذت الثلث مع الأب فمع غيره من العصبة أولى فدل القرآن على أنه إذا لم يرثه إلا الأم والأب أو عصبة غير الأب سوى الابن فلأمه الثلث وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى وأما الابن فإنه أقوى من الأب فلها معه السدس وإذا كان مع العصبة ذو فرض فالبنات والأخوات قد أعطوا الأم معهن السدس والأخت الواحدة إذا كانت هى والأم فالأم تأخذ الثلث مع الذكر من الأخوة فمع الأنثى أولى وإنما الحجب عن الثلث إلى السدس بالأخوة والواحد ليس إخوة فإذا كانت مع الأخ الواحد تأخذ الثلث فمع العم وغيره بطريق الأولى وفى الجد نزاع يروى عن إبن مسعود والجمهور على أنها مع الجد تأخذ ثلث المال وهو الصواب لأن الجد أبعد منها وهو محجوب بالأب فلا يحجبها عن شىء من حقها ومحض القياس أن الأب مع الأم كالبنت مع الأبن والأخت مع الأخ لأنهما ذكر وأنثى من جنس واحد هما عصبة وقد أعطيت الزوجة نصف ما يعطاه الزوج لأنهما ذكر وأنثى من جنس وأما دلالة الكتاب على ميراث الأم فإن الله يقول {وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ}النساء١١ فالله تعالى فرض لها بشرطين أن لا يكون له ولد وأن يرثه أبوه فكان فى هذا دلالة على أنها لا تعطى الثلث مطلقا مع عدم الولد وهذا مما يدل على صحة قول أكابر الصحابة والجمهور الذين يقولون لا تعطى فى العمريتين زوج وأبوان وزوجة وأبوان ثلث جميع المال قال إبن عباس وموافقوه فانها لو أعطيت الثلث هنا لكانت تعطاه مع عدم الولد مطلقا وهو خلاف ما دل عليه القرآن وقد روى عنه أنه قال لزيد أفى كتاب الله ثلث ما بقى أى ليس فى كتاب الله إلا سدس وثلث فيقال وليس فى كتاب الله إعطاؤها الثلث مطلقا فكيف يعطيها مع الزوجين الثلث بل فى كتاب الله ما يمنع إعطاؤها الثلث مع الأب وأحد الزوجين فإنه لو كان كذلك كان يقول فإن لم يكن له ولد فلأمه الثلث فإنها على هذا التقدير تستحق الثلث مطلقا فلما خص الثلث ببعض الحال علم أنها لا تستحق مطلقا فهذا مفهوم المخالفة الذى يسمى دليل الخطاب يدل على بطلان قول من أعطاها الثلث إلا العمريتين ولا وجه لاعطائها الثلث مع مخالفته للاجماع إلى أن قال فإن قوله {وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ}النساء١١ دل على أن لها الثلث والباقى للأب بقوله ورثه أبواه فإنه لما جعل الميراث ميراثا بينهما ثم أخرج نصيبها دل على أن الباقى نصيبه وإذا

أعطى الأب الباقى معها لم يلزم أن يعطى غيره مثل ما أعطى وإنما أعطينا سائر العصبة بقوله {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ}الأنفال٧٥ وبقوله {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ}النساء٣٣ وبقول النبى الحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر فصل وأما ميراث الأخوات مع البنات وانهن عصبة كما قال وله أخت الذى هو قول جمهور الصحابة والعلماء فقد دل عليه القرآن والسنة أيضا فان قوله تعالى {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ}النساء١٧٦ فدل على أن الأخت ترث النصف مع عدم الولد وأنه هو يرث المال كله مع عدم ولدها وذلك يقتضى أن الأخت مع الولد لا يكون لها النصف مما ترك إذ لو كان كذلك لكان لها النصف سواء كان له ولد أو لم يكن له فكان ذكر الولد تدليسا وعبثا مضرا وكلام الله منزه عن ذلك ومن هذا قوله تعالى {لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ}النساء١٧٦ وقوله {فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ}النساء١١ وإذا علم أنها مع الولد لا ترث النصف فالولد إما ذكر وإما أنثى أما الذكر فانه يسقطها كما يسقط الأخ بطريق الأولى بدليل قوله {ي وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ}النساء١٧٦ فلم يثبت له الإرث المطلق إلا إذا لم يكن لها ولد والأرث المطلق هو حوز جميع المال فدل ذلك على أنه إذا كان لها ولد لم يحز المال بل إما أن يسقط وإما أن يأخذ بعضه فيبقى إذا كان لها ولد فأما بن وإما بنت والقرآن قد بين أن البنت إنما تأخذ النصف فدل على أن البنت لا تمنعه النصف الآخر إذا لم يكن الا بنت وأخ ولما كان فتيا الله إنما هو فى الكلالة والكلالة من لا والد له ولا ولد علم أن من ليس له ولد ووالد ليس هذا حكمه ولما كان قد بين تعالى أن الأخ يحوز المال مال الأخت فيكون لها عصبة كان الأب أن يكون له عصبة بطريق الأولى وإذا كان الأب والأخ عصبة فالابن بطريق الأولى وقد قال تعالى {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ}النساء٣٣ ودل أيضا قول النبى ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر أن ما بقى بعد الفرائض لا يرثه إلا العصبة وقد علم أن الابن أقرب ثم الأب ثم الجد ثم الأخوة وقضى النبى صلى الله عليه وسلم أن أولاد بنى الأم يتوارثون دون بنى العلاقات فالأخ للأبوين أولى من الأخ للأب وإبن الابن يقوم مقام الابن وكذلك كل بنى أب أدناهم أقرب من بنى الأب الذى هو أعلى منه وأقربهم إلى الأب الأعلى فهو أقرب إلى الميت وإذا استوى فى الدرجة فمن كان لأبوين أولى ممن كان للأب فما دل القرآن على أن للأخت النصف مع عدم الولد وأنه مع ذكور ولد يكون الابن عاصبا يحجب الأخت كما يحجب أخاها بقى الأخت مع إناث الولد ليس

فى القرآن ما ينفى ميراث الأخت فى هذه الحال بقى مع البنت إما أن تسقط وإما أن يكون لها النصف وإما أن تكون عصبة ولا وجه لسقوطها فإنها لا تزاحم البنت وأخوها لا يسقط فلا تسقط هى ولو سقطت بمن هو أبعد منها من الأقارب والبعيد لا يسقط القريب ولأنها كانت تساوى البنت مع اجتماعهما والبنت أولى منها فلا تساوى بها فإنه لو فرض لها النصف لنقصت البنت عن النصف كزوج وبنت فلو فرض لها النصف لعالت فنقصت البنت عن النصف والأخوة لا يزاحمون الأولاد بفرض ولا تعصيب فإن الأولاد أولى منهم والله إنما أعطاها النصف إذا كان الميت كلالة فلما بطل سقوطها وفرضها لم يبق إلا أن تكون عصبة أولى من البعيد كالعم وابن العم وهذا قول الجمهور وقد دل عليه حديث البخارى عن بن مسعود لما ذكر له أن أبا موسى وسلمان بن ربيعة قالا فى بنت وبنت بن وأخت للبنت النصف وللأخت النصف وائت بن مسعود فانه سيتابعنا فقال لقد ضللت إذا وما أنا من المهندين لأقضين فيها بقضاء رسول الله للبنت النصف وبنت الابن السدس تكملة الثلثين وما بقى للأخت فدل ذلك على أن الأخوات مع البنات عصبة والأخت تكون عصبة بغيرها وهو أخوها فلا يمتنع أن تكون عصبة مع البنت وقوله الحقوا الفرائض بأهلها الخ فهذا عام خص منه المعتقة والملاعنة والملتقطة لقوله تحوز المرأة ثلاث مواريث عتيقها ولقيطها وولدها الذى لاعنت عليه وإذا كان عاما مخصوصا خصت منه هذه الصورة بما ذكر من الأدلة فصل

وأما ميراث البنتين فقد قال تعالى {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ}النساء١١ فدل القرآن على أن البنت لها مع أخيها الذكر الثلث ولها وحدها النصف ولما فوق اثنتين الثلثان بقيت البنت إذا كان لها مع الذكر الثلث لا الربع فأن يكون لها مع الأنثى الثلث لا الربع أولى وأحرى ولأنه قال {وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ}النساء١١ فقيد النصف بكونها واحدة فدل بمفهومه على أنه لا يكون لها إلا مع هذا الوصف بخلاف قوله {فَإِن كُنَّ نِسَاء}النساء١١ ذكر ضمير كن و ونساء وذلك جمع لم يمكن أن يقال اثنتين لأن ضمير الجمع لا يختص باثنتين ولأن الحكم لا يختص باثنتين فلزم أن يقال فوق اثنتين لأنه قد عرف حكم الثنتين وعرف حكم الواحدة وإذا كانت واحدة فلها النصف ولما فوق الثنتين الثلثان امتنع أن يكون للبنتين أكثر من الثلثين فلا يكون لهما جميع المال لكل واحدة النصف فإن الثلاث ليس لهن إلا الثلثان فكيف الثلاثة ولا يكفيها النصف لأنه لها بشرط أن تكون واحدة فلا يكون لها إذا لم تكن واحدة وهذه الدلالة تظهر من قراءة النصب {وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً}النساء١١ فإن هذا خبر كان تقديره فإن كانت بنتا

واحدة أى مفردة ليس معها غيرها {فَلَهَا النِّصْفُ}النساء١١ فلا يكون لها ذلك إذا كان معها غيرها فانتفى النصف وانتفى الجميع فلم يبق إلا الثلثان وهذه دلالة من الآية وأيضا فإن الله لما قال فى الأخوات {فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ}النساء١٧٦ كان دليلا على أن البنتين أولى بالثلثين من الأختين وأيضا فسنة رسول الله لما أعطى ابنتى سعد بن الربيع الثلثين وأمهما الثمن والعم ما بقى وهذا إجماع لا يصح فيه خلاف عن إبن عباس ودلت آية الولد على أن حكم ما فوق الاثنين حكم الاثنتين فكذلك قال فى الأخوات {فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ}النساء١٧٦ ولم يذكر ما فوقهما فإنه إذا كانت الثنتان يستحقان الثلثين فما فوقهما بطريق الأولى والأحرى بخلاف آية البنات فإنه لم يدل قوله{لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١١ إلا على أن لها الثلث مع أخيها وإذا كن اثنتين لم يستحقوا الثلث فصار بيانه فى كل من الآيتين من أحسن البيان لما دل الكلام الأول عل ميراث البنتين دون ما زاد على ذلك بين بعد ذلك ميراث ما زاد على البنتين فى آية الصيف لما دل الكلام على ميراث الأختين وكان ذلك دال بطريق الأولى على ميراث الثلاثة أو الأربعة وما زاد لم يحتج أن يذكر ما زاد على الأختين فهناك ذكر ما فوق البنتين دون البنتين وفى الآية الأخرى ذكر البنتين دون ما فوقهما لما يقتضيه حسن البيان فى كل موضوع ولما بين حكم الأخت الواحدة والأخ الواحد وحكم الأختين فصاعدا بقى بيان الابنتين فصاعدا من الصنفين ليكون البيان مستوعبا للاقسام ولفظ الأخوة وسائر جميع ألفاظ الجمع قد يعنى به الجنس من غير قصد القدر منه فيتناول الاثنين فصاعدا وقد يعنى به الثلاثة فصاعدا وفى هذه الآية إنما عنى به العدد مطلقا لأنه بين الواحدة قبل ذلك ولأن ما ذكره من الأحكام فى الفرائض فرق فيه بين الواحد والعدد وسوى فيه بين مراتب العدد الاثنين والثلاثة وقد صرح بذلك فى قوله {وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ}النساء١٢ إلى قوله {فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ}النساء١٢ فقوله {كَانُوَاْ}النساء١٢ضمير جمع وقوله {أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ}النساء١٢ أي من أخ وأخت ثم قال {فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ}النساء١٢ فذكرهم بصيغة الجمع المضمر وهو قوله فهم والمظهر وهو قوله شركاء فدل على أن صيغة الجمع فى آيات الفرائض تناولت العدد مطلقا الأثنين فصاعدا لقوله {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ}النساء١١ وقوله {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ}النساء١١ وقوله {وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء}النساء١٧٦ فصل

وأما الجدة فكما قال الصديق ليس لها فى كتاب الله شىء فان الأم المذكورة فى كتاب الله مقيدة بقيود توجب اختصاص الحكم بالأم الدنيا فالجدة وإن سميت أما لم تدخل فى لفظ الأم المذكورة فى الفرائض فأدخلت فى لفظ الأمهات فى قوله{حُرِّمَتْ

عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ}النساء٢٣ ولكن رسول الله أعطاها السدس فثبت ميراثها بسنة رسول الله ولم ينقل عنه لفظ عام فى الجدات بل ورث الجدة التى سألته فلما جاءت الثانية أبا بكر جعلها شريكة الأولى فى السدس وقد تنازع الناس فى الجدات فقيل لا يرث الاثنتان أم الأم وأم الأب كقول مالك وأبى ثور وقيل لا يرث إلا ثلاث هاتان وأم الجد لما روى إبراهيم النخعى أن النبى ورث ثلاث جدات جدتيك من قبل أبيك وجدتك من قبل أمك وهذا مرسل حسن فإن مراسيل إبراهيم من أحسن المراسيل فأخذ به أحمد ولم يرد فى النص إلا توريث هؤلاء وقيل بل يرث جنس الجدات المدليات بوارث وهو قول الأكثرين كأبى حنيفة والشافعى وغيرهما وهو وجه فى مذهب أحمد وهذا القول أرجح لأن لفظ النص وإن لم يرد فى كل جدة فالصديق لما جاءته الثانية قال لها لم يكن السدس التى أعطى إلا لغيرك ولكن هى لو خلت به فهو لها فورث الثانية والنص إنما كان فى غيرها ولأنه لا نزاع أن من علت بالأمومة ورثت فترث أم أم الأب وأم أم الأم بالاتفاق فيبقى أم أبى الجد أى فرق بينها وبين أم الجد وإن فرق بين أم الأب وأم الجد ومعلوم أن أبا الجد يقوم مقام الجد بل هو جد أعلا وكذلك الجد كالأب فأى وصف يفرق بين أم الأب وأم أبى الجد يبين ذلك أن أم أم الميت وأم أبيه بالنسبة إليه سواء فكذلك أم أم أبيه وأم أبى أبيه بالنسبة إلى أبيه سواء فوجب اشتراكهما فى الميراث وأيضا فهؤلاء جعلوا أم أم الأم وإن زادت أمومتها ترث وأم أبى الأب لا ترث ورجحوا الجدة من جهة الأم على الجدة من جهة الأب وهذا ضعيف فلم تكن أم الأم أولى به من أم الأب وأقارب الأم لم يقدموا فى شيء من الأحكام بل أقارب الأب أولى فى جميع الاحكام فكذلك فى الحضانة والصحيح أنها لا تسقط بابنها أى الأب كما هو أظهر الروايتين عن أحمد لحديث بن مسعود ولأنها ولو أدلت به فهى لا ترث ميراثه بل هى معه كولد الأم مع الأم لم يسقطوا بها وقول من قال من أدلى بشخص سقط به باطل طردا وعكسا باطل طردا بولد الأم مع الأم وعكسا بولد الابن مع عمهم وولد الأخ مع عمهم وأمثال ذلك مما فيه سقوط شخص بمن لم يدل به وإنما العلة أنه يرث ميراثه فكل من ورث ميراث شخص سقط به إذا كان أقرب منه والجدات يقمن مقام الأم فيسقطن بها وإن لم يدلين بها وأما كون بنات الابن مع البنت لهن السدس تكملة الثلثين وكذلك الأخوات من الأب مع أخت الأبوين فلأن الله قال {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ}النساء١١ وقد علم أن الخطاب تناول ولد البنين دون ولد البنات وأن قوله {أَوْلاَدِكُمْ}النساء١١ يتناول من ينسب إلى الميت وهم ولده وولد ابنته وأنه متناولهم على الترتيب يدخل فيه ولد البنين عند عدم ولد الصلب لما قد عرف من إنما أبقت

الفروض فلأولى رجل ذكر والابن أقرب من بن الابن فإذا لم تكن إلا بنت فلها النصف وبقى من نصيب البنات السدس فإذا كان هنا بنات إبن فانهن يستحققن الجميع لولا البنت فإذا أخذت النصف فالباقى لهن وكذلك فى الأخت من الابوين مع الأخت من الاب أخبر إبن مسعود أن النبى قضى للبنت بالنصف ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين وأما إذا استكملت البنات الثلثين لم يبق فرض فإن كان هناك عصبة من ولد البنين فالمال له لأنه أولى ذكر وإن كان معه أو فوقه عصبها عند جمهور الصحابة والعلماء كالأربعة وغيرهم وأما بن مسعود فإنه يسقطها لأنها لا ترث مفردة والنزاع فى الأخت للاب مع أخيها إذا أستكمل البنات الثلثين فالجمهور يجعلون البنات عصبة مع اخوانهن يقتسمون الباقى للذكر مثل حظ الأنثين سواء زاد ميراثهن بالتعصيب أو نقص وتوريثهن هنا أقوى وقول بن مسعود معروف فى نقصانهن [١]

## لما كانت اللام للتمليك وجب استيعاب الأصناف المذكورين والتسوية بينهم

أن الله لما قال في الفرائض {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١١ وقال {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ}النساء١٢ الى قوله {وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ}النساء١٢ وقال {وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١٧٦ لما كانت اللام للتمليك وجب استيعاب الأصناف المذكورين وأفراد كل صنف والتسوية بينهم فإذا كان لرجل أربع زوجات وأربعة بنين أو بنات أو أخوات أو أخوة وجب العموم والتسوية في الإفراد لأنه استحق بالنسب وهم مستوون فيه [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ٣٣٥-٣٥٥

[٢] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ١٠٢ و مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص: ٧٨

قوله {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}التوبة٥ عام في الأشخاص مطلق في أحوال الأرجل إذ قد تكون مستورة بالخف و اللفظ لم يتعرض إلى الأحوال و كذلك قوله تعالى {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ}النساء١١ عام فى الأولاد عام فى الأحوال إذ قد يكون الولد موافقا فى الدين ومخالفا وحرا وعبدا واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال [١]

## لا يجوز أن يزاد أحد من أهل الفرائض على ما قدر له

قال {آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً}النساء١١ وقال {مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ}النساء١٢ ثم قال {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤} النساء١٣-١٤ فلما خاطبهم بعدم الدراية التي لا تناسب حال الرسول وذكر بعد هذا ما يجب عليهم من طاعته فيما ذكره من مقادير الفرائض وأنهم أن أطاعوا الله ورسوله في هذه الحدود استحقوا الثواب وإن خالفوا الله والرسول استحقوا العقاب وذلك بأن يعطوا الوارث أكثر من حقه أو يمنعوا الوارث ما يستحقه دل ذلك على أن المخاطبين المسلوبين الدراية لما ذكر الموعودين على طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم المتوعدين على معصية الله ورسوله وتعدى حدوده فيما قدره من المواريث وغير ذلك لم يدخل فيهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه كما لم يدخل في نظائرها ولما كان ما ذكره من تحريم تعدي الحدود عقب ذكر الفرائض المحدوده دل على أنه لا يجوز أن يزاد أحد من أهل الفرائض على ما قدر له ودل على أنه لا تجوز الوصية لهم وكان هذا ناسخا لما أمر به أولا من الوصية للوالدين والأقربين ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث رواه أهل السنن كأبي داود وغيره ورواه أهل السير واتفقت الأمة عليه حتى ظن بعض الناس أن اية الوصية إنما نسخت بهذا الخبر لأنه لم ير

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٣٢

بين استحقاق الإرث وبين استحقاق الوصية منافاة والنسخ لا يكون إلا مع تنافى الناسخ والمنسوخ وأما السلف والجمهور فقالوا الناسخ هو اية الفرائض لأن الله تعالى قدر فرائض محدوده ومنع من تعدي حدوده فإذا أعطى الميت لوارثه أكثر مما حده الله له فقد تعدى حد الله فكان ذلك محرما فإن ما زاد على الحدود يستحقه غيره من الورثة أو العصبة فإذا أخذ حق العاصب فأعطاه لهذا كان ظالما له ولهذا تنازع العلماء فيمن ليس له عاصب هل يرد عليه أم لا فمن منع الرد قال الميراث حق لبيت المال فلا يجوز أن يعطاه غيره ومن جوز الرد قال إنما يوضع المال في بيت المال لكونه ليس له مستحق خاص وهؤلاء لهم رحم عام ورحم خاص كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ذو السهم أولى ممن لا سهم له [١]

جاءت الشريعة بأن المريض له أن يوصى بثلث ماله لغير وارث ولا يخص الوارث بزيادة على حقه من ذلك الثلث وإن كان له أن يعطيه كله للأجنبى وكذلك فى عطية الأولاد هو مأمور ان يسوى بينهم فى العطاء أو الحرمان ولا يخص بعضهم بالإعطاء من غير سبب يوجب ذلك لحديث النعمان بن بشير وغيره [٢]

## الخطأ فى دقيق العلم مغفور للأمة

ولا ريب أن الخطأ فى دقيق العلم مغفور للأمة وإن كان ذلك فى المسائل العلمية ولولا ذلك لهلك اكثر فضلاء الأمةوإذا كان الله يغفر لمن جهل تحريم الخمر لكونه نشأ بأرض جهل مع كونة لم يطلب العلم فالفاضل المجتهد فى طلب العلم بحسب ما أدركه فى زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول بحسب إمكانه هو أحق بأن يتقبل الله حسناته ويثيبه على اجتهاداته ولا يؤاخذه بما أخطأ تحقيقا لقوله {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}البقرة٢٨٦ وأهل السنة جزموا بالنجاة لكل من اتقى الله تعالى كما نطق به القرآن وإنما توقفوا فى شخص معين لعدم العلم بدخوله فى المتقين

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٢٠٣-٢٠٤

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٣٤١

وحال سائر أهل الأقوال الضعيفة الذين يحتجون بظاهر القرآن على ما يخالف السنة إذا خفئ الأمر عليهم مع إنه لم يوجد فى ظاهر القرآن ما يخالف السنة كمن قال من الخوارج لا يصلى فى السفر إلا اربعا ومن قال إن الأربع أفضل ومن قال لانحكم بشاهد ويمين وما دل عليه ظاهر القرآن حق وأنه ليس بعام مخصوص فانه ليس هناك عموم لفظى وإنما هو مطلق كقوله {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ}التوبة٥ فانه عام فى الأعيان مطلق فى الأحوال وقوله {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ}النساء١١ عام فى الأولاد مطلق فى الأحوال ولفظ الظاهر يراد به ما يظهر للأنسان وقد يراد به ما يدل عليه اللفظ فالأول يكون بحسب مفهوم الناس وفى القرآن مما يخالف الفهم الفاسد شيء كثير [1]

## الاحتجاج بالظواهر مع الاعراض عن تفسير النبى واصحابه طريق أهل البدع

قال احمد بن حنبل( في جوابه على من سأله عن الايمان ) أن الخصومة فى الدين ليست من طريق اهل السنة وأن تأويل من تأول القرآن بلا سنة تدل على معنى ما أراد الله منه أو أثر عن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرف ذلك بما جاء عن النبى أو عن اصحابه فهم شاهدوا النبى وشهدوا تنزيله وما قصة الله له فى القرآن وما عني به وما أراد به أخاص هو أم عام فأما من تأوله على ظاهره بلا دلالة من رسول الله ولا أحد من الصحابة فهذا تأويل أهل البدع لأن الآية قد تكون خاصة ويكون حكمها حكما عاما ويكون ظاهرها على العموم وإنما قصدت لشيء بعينه ورسول الله هو المعبر عن كتاب الله وما أراد واصحابه أعلم بذلك منا لمشاهدتهم الأمر وما أريد بذلك فقد تكون الآية خاصة أى معناها مثل قوله تعالى{يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١١ وظاهرها على العموم أي من وقع عليه اسم ولد فله ما فرض الله فجاءت سنة رسول الله ان لا يرث مسلم كافرا وروى عن النبى وليس بالثبت إلا أنه عن اصحابه أنهم لم يورثوا قاتلا فكان رسول الله هو المعبر عن الكتاب أن الآية إنما قصدت للمسلم لا للكافر ومن حملها على ظاهرها لزمه أن يورث من وقع عليه اسم الولد كافرا كان أو قاتلا وكذلك أحكام الوارث من الأبوين وغير ذلك مع آي كثير يطول بها الكتاب وانما استعلمت الأمة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٦٥-١٦٦

السنة من النبى ومن أصحابه إلا من دفع ذلك من أهل البدع والخوارج وما يشبههم فقد رأيت إلى ما خرجوا قلت لفظ المجمل والمطلق والعام كان فى اصطلاح الأئمة كالشافعي وأحمد وابي عبيد واسحاق وغيرهم سواء لا يريدون بالمجمل مالا يفهم منه كما فسره به بعض المتأخرين وأخطأ فى ذلك بل المجمل ما لا يكفي وحده فى العمل به وإن كان ظاهره حقا كما فى قوله تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}التوبة١٠٣ فهذه الآية ظاهرها ومعناها مفهوم ليست مما لا يفهم المراد به بل نفس ما دلت عليه لا يكفي وحده فى العمل فإن المأمور به صدقة تكون مطهرة مزكية لهم وهذا إنما يعرف ببيان الرسول ولهذا قال احمد يحذر المتكلم فى الفقه هذين الأصلين المجمل والقياس وقال أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس يريد بذلك أن لا يحكم بما يدل عليه العام والمطلق قبل النظر فيما يخصه ويقيده ولا يعمل بالقياس قبل النظر فى دلالة النصوص هل تدفعه فإن اكثر خطأ الناس تمسكهم بما يظنونه من دلالة اللفظ والقياس فالأمور الظنية لا يعمل بها حتى يبحث عن المعارض بحثا يطمئن القلب إليه وإلا اخطأ من لم يفعل ذلك وهذا هو الواقع فى المتمسكين بالظواهر والأقيسة ولهذا جعل الاحتجاج بالظواهر مع الاعراض عن تفسير النبى واصحابه طريق أهل البدع وله فى ذلك مصنف كبير وكذلك التمسك بالأقيسة مع الاعراض عن النصوص والآثار طريق اهل البدع ولهذا كان كل قول إبتدعه هؤلاء قولا فاسدا وإنما الصواب من أقوالهم ما وافقوا فيه السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان وقوله تعالى {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ}النساء١١ سماه عاما وهو مطلق فى الأحوال يعمها على طريق البدل كما يعم قوله {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}المجادلة٣ جميع الرقاب لا يعمها كما يعم لفظ الولد للأولاد ومن أخذ بهذا لم يأخذ بما دل عليه ظاهر لفظ القرآن بل أخذ بما ظهر له مما سكت عنه القرآن فكان الظهور لسكوت القرآن عنه لا لدلالة القرآن على أنه ظاهر فكانوا متمسكين بظاهر من القول لا بظاهر القول وعمدتهم عدم العلم بالنصوص التى فيها علم بما قيد وإلا فكل ما بينه القرآن وأظهره فهو حق بخلاف ما يظهر للإنسان لمعنى آخر غير نفس القرآن يسمى ظاهر القرآن كاستدلالات أهل البدع من المرجئة والجهمية والخوارج والشيعة [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٩٠-٣٩٣

## الميراث بعد وصية أو دين ولم يخصص دين الآدمى من دين الله سبحانه

فمن فرط حتى مات أخرج عنه من ماله حجة وعمرة وجملة ذلك أن من وجب عليه أن يحج بنفسه أو نائبه في حياته ففرط في ذلك حتى مات وله تركة وجب أن تخرج من ماله حجة وعمرة إذا قلنا بوجوبها وهو المشهور في المذهب وكذلك من وجب عليه ولم يفرط وهو من كان به مرض يرجى برؤه أو كان محبوسا أو ممنوعا أو كان بطريقة عاقة أو ضاق الوقت عن حجة وعمرته أو لم يكن للمرأة محرم إذا قلنا بوجوب الحج في ذمتهم ويكون هذا الحج دينا عليه يخرج من رأس ماله مقدما على الوصايا والمواريث هذا مذهب أحمد نص عليه في موضع وأصحابه كما قلنا مثل ذلك في الزكاة والصيام لأن الحج دين من الديون بدليل ماروى عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال جاء رجل من خثعم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن أبي أدركه الاسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع ركوب الرحل والحج مكتوب عليه أفأحج عنه قال أنت أكبر ولده قال نعم قال أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه أكان ذلك يجزيء عنه قال نعم قال فاحجج عنه رواه أحمد والنسائي وعن سليمان بن يسار عن الفضل بن عباس أنه كان رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله إن أمي عجوز كبيرة وإن حملتها لم تستمسك وإن ربطتها خشيت أن أقتلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيه قال نعم قال فاحجج عن أمك رواه النسائي وقال لم يسمع سليمان بن يسار من الفضل ورواه أحمد عن سليمان عن عبيد الله عن الفضل بن عباس أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن أبي أدركه الإسلام وهو شيخ كبير لا يثبت على راحلته أفأحج عنه قال أرأيت لو كان عليه دين فقضيته عنه أكان يجزيه قال نعم قال فأحجج عن أبيك وهذا أشبه بالصواب لأن الذي في حديث الفضل إنما سألت عن أمها وبدليل ما سيأتي من الأحاديث وإذا كان بمنزلة الدين دخل في عموم قوله {مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ}النساء١١ فإن الله سبحانه عم بقوله أو دين فإنها نكرة في سياق معنى النفي لأن قوله {مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ}النساء١١ في معنى قوله إنما الميراث بعد وصية أو دين ولم يخصص دين الآدمي من دين الله سبحانه ولهذا لو كان قد نذر الصدقة بمال ومات قبل أن يتصدق أخرج عنه من صلب المال وايضا عن بريدة بن الحصيب قال بينما أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتته إمرأة فقالت اني تصدقت على أمي بجارية وإنها ماتت فقال وجب أجرك وردها عليك الميرث قالت يا رسول

الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها قال صومي عنها قالت إنها لم تحج قط أفأحج عنها قال حجي عنها رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح     وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن إمرأة من جهينة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها قال نعم حجي عنها أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته إقضوا الله فالله أحق بالوفاء رواه البخاري     وعن ابن عباس قال أمرت امرأة سنان بن سلمة الجهني أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمها ماتت ولم تحج أفيجزيء أمها أن تحج عنها قال نعم لو كان على أمها دين فقضته عنها ألم يكن يجزيء عنها فلتحج عن أمها وعنه أيضا أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيها مات ولم يحج قال حجي عن أبيك وعنه قال قال رجل يا نبي الله إن أبي مات ولم يحج أفأحج عنه قال أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيه قال نعم قال فدين الله أحق رواهن النسائي فوجه الدلالة من هذه الأحاديث من وجوه     أحدها أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بفعل حجة الإسلام والحجة المنذورة عن الميت وبين أنها تجزيء عنه وهذا يدل على بقائها في ذمته وأنها لم تسقط بالموت وأنها تؤدي عنه بعد الموت     وكل ما يبقى من الحقوق بعد الموت ويؤدي بعد الموت فإنه يجب فعله بعد الموت إذا كان له ما يفعل منه وذلك لأن من يقول لا يجب فعله بعد الموت يزعم أن حجة الإسلام قد سقطت بالموت وأن الذي يفعل عنه حج تطوع له أجره وثوابه لأن الواجب زعم لا يفعل إلا بإذنه حتى لو أوصى بذلك فإن الذي يوصى به ليس هو حجة الإسلام عنده والنبي صلى الله عليه وسلم بين أن نفس الواجب هو الذي يقضي عنه     والثاني أن النبي صلى الله عليه وسلم بين أن الحج دين في ذمته وكل من عليه دين فإنه يجب أنه يقضي عنه من تركته بنص القرآن     الثالث قوله اقضوا الله فالله أحق بالوفاء وقوله في حديث اخر عن الصوم فحق الله أحق إما أن يكون معناه أن قضاء دين الله أوجب من قضاء دين الآدمي كما فسره بذلك القاضي وغيره من أصحابنا لأن وجوبه أوكد وأثبت ويرجح هذا المعنى أن وجوب الحج والزكاة آكد من وجوب قضاء دين الآدمي لأنهما من مباني الإسلام مع ظاهر قوله فالله أحق بالوفاء فعلى هذا إذا وجب قضاء دين الآدمي من تركته فأن يجب قضاء دين الله أولى وأحرى     وإما أن يكون معناه إذا كان قضاء دين الآدمي يجزيء عنه بعد الموت فدين الله أحق أن يجزىء لأن الله تعالى كريم جواد ومن يكون أحرى بقبول القضاء فحقه أولى أن يقضي لأنه أجدر أن يحصل بقضائه براءة الذمة ويرجح هذا المعنى أن القوم إنما سألوه عن جواز القضاء عن الميت لا عن وجوبه عليهم فعلى هذا إذا وجب فعل الدين عنه لبقائه وكونه يجزيء عنه بعد الموت وجب قضاء الحج ونحوه عنه لبقائه وكونه يجزيء بعد

الموت لأن معناهما واحد الرابع أن هذه الأحاديث تقتضي جواز فعل الحج المفروض عن الميت سواء وصى بذلك أولم يوص وسواء كان له تركة أو لم يكن لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسألهم عن تركة خلفوها وتقتضي أن ذلك يجزيء عنه ويؤدي عنه ما وجب عليه وهذه الأحكام بعينها أحكام ديون الآدميين الخامس أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الولي أن يحج عنه والأمر يقتضي الوجوب لا سيما وقد شبهه بالدين الذي يجب قضاؤه من تركته ولما كان الدين يجب قضاؤه إن كانت له تركة ويستحب قضاؤه إذا لم يكن له تركة فكذلك الحج وايضا فقد تقدم إجماع الصحابة أنه إذا مات وعليه صيام من رمضان أطعم عنه كما يطعم عن نفسه إذا كان شيخا كبيرا فإذا وجب الإطعام في تركته فكذلك يجب الحج من تركته ولا فرق وايضا فإن الحج حق مستقر في حياته تدخله النيابة فلم يسقط بالموت كديون الآدمي ولأنه حق واجب تصح الوصية به فلم يسقط بالموت كديون الآدميين فإن قيل إذا مات قبل الحج فقد لحقه الوعيد بدليل قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{٩} المنافقون ٩إلى قوله {وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ{١٠} المنافقون ١٠ وقوله {حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ{٩٩} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} المؤمنون١٠٠ ولأنه إذا مات قبل أن يحج مات عاصيا على كبيرة من الكبائر بل تخوف عليه أن يموت على غير الإسلام كما يذكر إن شاء الله في مسألة الفور فلو كان الحج يجب أن يفعل عنه بعد موته ويجزؤه كما يجزؤه لو فعله في حياته لكان يجوز للرجل أن يؤخره الحج إلى ما بعد الموت كما له أن يؤخر إلى آخر حياته عند من يجوز تأخيره والذي يبين ذلك أن الحج وغيره من العبادة ابتلاء للعبد وامتحان له وأمر له بأن يعبد الله وهذا القدر لا يحصل إلا بأن يقصد العبادة ويفعلها بنفسه أو يأمر من يفعلها وبالموت قد تعذر ذلك ولهذا لو حج عنه في حياته غيره بغير إذنه لم يجز عنه وهذا بخلاف دين العبد فإنه لا يفتقر إلى النية ويصح بدون إذنه لو أداه عنه غيره بغير إذنه جاز ولو اقتضاه الغريم من ماله بدون إذنه برئت ذمته وإذا كان كذلك فيجب أن تحمل الأحاديث على قوم لم يحجوا ولم يجب عليهم الحج لكونهم لم يملكوا زادا وراحلة أو على أنه وإن وجب عليهم لكن لهم ثواب وأجر ما يفعل عنهم لا أن الواجب نفسه يسقط وإذا لم يسقط الواجب لم يجب على الورثة شيء قلنا لا ريب أنه يموت عاصيا معرضا للوعيد لكن هذا لا يوجب سقوطه عنه وعدم صحته ووجوبه بعد موته كمن أخر الصلاة عامد حتى خرج وقتها أو أفطر في رمضان عمدا فإن ذلك من الكبائر وإن وجب

عليه القضاء وأجزأ عنه وكذلك من مطل الغرماء بديونهم مع اليسار حتى مات فإنه يأثم بهذا المطل والتأخير ويؤدي عنه بعد موته ويجزؤه بل عندنا لو أخره لغير عذر ثم فعله في آخر عمره أجزأ عنه وأثم بالتأخير إلا أن يتوب ويستغفر وهذا لأن الله سبحانه وتعالى أوجب عليه أن يحج وأن يكون الحج بنفسه كما أوجب عليه أن يصلي ويصوم وأن يفعل الصلاة والصوم في وقتهما فمتى تعذر عليه فعله بنفسه وهو أحد الواجبين لم يسقط الواجب الآخر وهو مطلق الحج الذي يمكن أن يفعل عنه وإذا تعذر فعل العبادة في وقتها لم يسقط نفس الفعل بل يفعل بعد الوقت فهذا الذي أخر الحج حتى مات إن لم يفعل عنه لحقه وعيد ترك الحج بالكلية وإن فعل عنه أجزأ عنه نفس الحج وبقي إثم تأخيره وتفريطه فيه وترك فعله كما يبقى على من يقضي الدين إثم المطل وأشد وسؤاله الرجعة وكونه يخاف عليه الموت على غير الإسلام حق لأن ذلك لأجل تركه الحج بنفسه وتفريطه فيه كما أن من ترك صلاة العصر متعمدا حبط عمله وإن قضاها وكما يلحق الوعيدِ {الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{٥} الماعون ٥ وإن صلوها بعد الوقت وهنا قد قضوها بأنفسهم فكيف بمن يقضي عنه غيره بغير إذنه ولأن هذا النكال وهذا الخطر والعذاب الشديد يكون حين الموت قبل أن يحج عنه فإذا حج عنه خفف عنه ذلك بدليل ولأنه ليس كل من مات يحج عنه إما لأنه قد لا يخلف مالا أو لأنه قد يتهاون الورثة في الإخراج عنه فمن كان في علم الله أنه يحج عنه يكون أمره أخف وأما كون الفرائض لا يصح فعلها إلا بنية المكلف وأمره لأن امتثال الأمر بدون ذلك محال فذلك فيما وجب أن يفعله بنفسه ولهذا لو حج عنه غيره حجة الإسلام في حياته بدون أمره لم يصح فإذا مات صار المخاطب بالوجوب غيره وهم الورثة ثم إن الله تعالى بكرمه وجوده أقام فعلهم عنه مقام فعله بنفسه وإن كان لم يفرط في التأخير لكونه معذورا وإن كان فرط قام مقامه في نفس الفعل وبقي إثم الترك عليه هو إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له وهذا لأن ما وجب أن يفعله بنفسه يستحيل أن ينوبه غيره فأما إذا كان الوجوب على غيره مثل أداء الزكاة من مال اليتيم فإن المخاطب بها هو الولي[1]

---

[1] شرح العمدة ج: ٢ ص: ١٨٣-١٩٢

# الحسنات سبب للتحليل دينا وكونا والسيئات سبب للتحريم دينا وكونا

أن الحسنات سبب للتحليل دينا وكونا والسيئات سبب للتحريم دينا وكونا فان التحريم قد يكون حمية وقد يكون عقوبة والاحلال قد يكون سعة وقد يكون عقوبة وفتنة ويختلف التحليل والتحريم باعتبار النية كما قال تعالى {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً}البقرة٢٢٨ وقال {مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ}النساء١٢ وقد كتبت فى قاعدة العهود والعقود القاعدة فى العهود الدينية فى القواعد المطلقة والقاعدة فى العقود الدنيوية فى القواعد الفقهية وفى كتاب النذر أيضا أن ما وجب بالشرع إن نذره العبد أو عاهد الله عليه أو بايع عليه الرسول أو الامام أو تحالف عليه جماعة فان هذه العهود والمواثيق تقتضي له وجوبا ثانيا غير الوجوب الثابت بمجرد الأمر الأول فتكون واجبة من وجهين بحيث يستحق تاركها من العقوبة ما يستحقه ناقض العهد والميثاق وما يستحقه عاصي الله ورسوله هذا هو التحقيق ومن قال من أصحاب احمد انه إذا نذر واجبا فهو بعد النذر كما كان قبل النذر بخلاف نذر المستحب فليس كما قال بل النذر إذا كان يوجب فعل المستحب فايجابه لفعل الواجب اولى وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بل هما وجوبان من نوعين لكل نوع حكم غير حكم الآخر مثل الجدة إذا كانت أم أم أم وأم أب أب فان فيها شيئين كل منهما تستحق به السدس وكذلك من قال من أصحاب أحمد ان الشروط التى هي من مقتضى العقد لا يصح اشتراطها أو قد تفسده حتى قال بعض أصحاب الشافعي إذا قال زوجتك على ما أمر الله به من امساك بمعروف أو تسريح باحسان كان النكاح فاسدا لأنه شرط فيه الطلاق فهذا كلام فاسد جدا فان العقود إنما وجبت موجباتها لايجاب المتعاقدين لها على أنفسهما ومطلق العقد له معنى مفهوم فاذا اطلق كانا قد اوجبا ما هو المفهوم منه فان موجب العقد هو واجب بالعقد كموجب النذر لم يوجبه الشارع ابتداء وإنما اوجب الوفاء بالعقود كما اوجب الوفاء بالنذر فاذا كان له موجب معلوم بلفظ مطلق أو يعرف المتعاقدان إيجابه بلفظ خاص كان هذا من باب عطف الخاص على العام فيكون قد أوجبه مرتين أو جعل له إيجابا خاصا يستغنى به عن الايجاب العام وفى القرآن من هذا نظائر مثل قوله {مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ}البقرة٩٨ وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}الأحزاب٧ ومثل قوله {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}البقرة٢٣٨وقوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء

الْمُؤْمِنِينَ}الأحزاب٥٩ وقوله {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ}النحل٩٠ وقوله {الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ}البقرة٢٧ فان الله أعلن عهد الله االذي امرهم به من بعد ما أخذ عليهم الميثاق بالوفاء به فاجتمع فيه الوجهان العهدي والميثاقي [1]

## الوصية للوالدين و الأقربين منسوخة بآية المواريث

و الوصية للوالدين و الأقربين منسوخة بآية المواريث كما إتفق على ذلك السلف قال تعالى {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤} النساء١٣-١٤ و الفرائض المقدرة من حدوده و لهذا ذكر ذلك عقب ذكر الفرائض فمن أعطى صاحب الفرائض أكثر من فرضه فقد تعدى حدود الله بأن نقص هذا حقه و زاد هذا على حقه فدل القرآن على تحريم ذلك و هو الناسخ [2]

وأما نسخ القرآن بالسنة فهذا لا يجوزه الشافعى ولا احمد فى المشهور عنه ويجوزه فى الراوية الاخرى وهو قول أصحاب أبى حنيفة وغيرهم وقد احتجوا على ذلك بان الوصية للوالدين والاقربين نسخها قوله إن الله أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث وهذا غلط فان ذلك انما نسخه آية المواريث كما اتفق على ذلك السلف فانه لما قال بعد ذكر الفرائض {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤}النساء١٣-١٤ فلما ذكر ان الفرائض المقدرة حدوده ونهى تعديها كان في ذلك بيان انه لا يجوز ان يزاد احد على ما فرض الله له وهذا معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم ان الله قد اعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث والا فهذا الحديث وحده انما رواه ابو داود ونحوه من أهل السنن ليس فى الصحيحين ولو

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٥٤-١٥٦

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٢٠٥

كان من اخبار الآحاد ان يجعل مجرد خبر غير معلوم الصحة ناسخا للقرآن وبالجملة فلم يثبت ان شيئا من القرآن نسخ بسنة بلا قرآن وقد ذكروا من ذلك قوله تعالى {فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً} النساء١٥ وقد ثبت فى صحيح مسلم عن النبى انه قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم وهذه الحجة ضعيفة لوجهين احدهما ان هذا ليس من النسخ المتنازع فيه فان الله مد الحكم الى غاية والنبى صلى الله عليه وسلم بين تلك الغاية لكن الغاية هنا مجهولة فصار هذا يقال انه نسخ بخلاف الغاية البينة في نفس الخطاب كقوله {ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ} البقرة١٨٧ فان هذا لا يسمى نسخا بلا ريب الوجه الثانى ان جلد الزانى ثابت بنص القرآن وكذلك الرجم كان قد أنزل فيه قرآن يتلى ثم نسخ لفظه وبقى حكمه وهو قوله والشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم وقد ثبت الرجم بالسنة المتواترة واجماع الصحابة وبهذا يحصل الجواب عما يدعى من نسخ قوله {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ} النساء١٥ الآية فان هذا ان قدر انه منسوخ فقد نسخه قرآن جاء بعده ثم نسخ لفظه وبقى حكمه منقولا بالتواتر وليس هذا من موارد النزاع فان الشافعى واحمد وسائر الائمة يوجبون العمل بالسنة المتواترة المحكمة وان تضمنت نسخا لبعض آى القرآن لكن يقولون انما نسخ القرآن بالقرآن لا بمجرد السنة ويحتجون بقوله تعالى {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} البقرة١٠٦ ويرون من تمام حرمة القرآن أن الله لم ينسخه إلا بقرآن[1]

## طاعة الرسول هو الأصل

الذى نحن مأمورين به هو طاعة الله ورسوله فعلينا أن نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما امرنا به فإن الله قد ذكر طاعته أكثر من ثلاثين موضعا من كتابه فقال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ} النساء٨٠ وقال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ} النساء٦٤ وقد أوجب السعادة لمن أطاعه بقوله {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً} النساء٦٩ وعلق السعادة والشقاوة بطاعته ومعصيته فى قوله {وَمَن يُطِعِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٣٩٧

اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {١٣} وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤}النساء١٣-١٤ وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبته من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئا وجميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وتقواه وخشيته وإلى طاعتهم كما قال نوح عليه السلام {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ}نوح٣ وقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}النور٥٢ وقال كل من نوح والنبيين {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}الشعراء١٠٨ وطاعة الرسول فيما امرنا به هو الأصل الذى على كل مسلم أن يعتمده وهو سبب السعادة كما أن ترك ذلك سبب الشقاوة وطاعته فى أمره أولى بنا من موافقته فى فعل لم يأمرنا بموافقته فيه بإتفاق المسلمين ولم يتنازع العلماء أن أمره أوكد من فعله فإن فعله قد يكون مختصا به وقد يكون مستحبا وأما أمره لنا فهو من دين الله الذى امرنا به ومن أفعاله ما قد علم أنه أمرنا أن نفعل مثله كقوله صلوا كما رأيتمونى أصلى وقوله لما صلى بهم على المنبر إنما فعلت هذا لتأتموا بى ولتعلموا صلاتى وقوله لما حج خذوا عنى مناسككم وأيضا فقد ثبت بالكتاب والسنة أن ما فعله على وجه العادة فهو مباح لنا إلا أن يقوم دليل على إختصاصه به كما قال سبحانه وتعالى {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً}الأحزاب٣٧ فأباح له أن يتزوج أمرأة دعيه ليرفع الحرج عن المؤمنين فى أزواج أدعيائهم فعلم أن ما فعله كان لنا مباحا أن نفعله ولما خصه ببعض الأحكام قال {وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}الأحزاب٥٠ فلما أحل له أن ينكح الموهوبة بين أن ذلك خالص له من دون المؤمنين فليس لأحد أن ينكح إمرأة بلا مهر غيره وفى صحيح مسلم أن رجلا سأل رسول الله أيقبل الصائم فقال له سل هذه لام سلمة فأخبرتهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فقال يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال له أما والله إننى لأتقاكم الله وأخشاكم له فلما اجابه بفعله دل ذلك على أنه يباح للأمة ما أبيح له ولهذا كان جمهور علماء الأمة على أن الله إذا أمره بأمر أو نهاه عن شىء كانت أمته أسوة له فى ذلك ما لم يقم دليل على إختصاصه بذلك فمن خصائصه ما كان من خصائص نبوته ورسالته فهذا ليس لأحد أن يقتدى به فيه فإنه لا نبى بعده وهذا مثل كونه يطاع فى كل ما يؤمر به وينهى عنه وإن لم يعلم جهة أمره حتى يقتل كل من أمر بقتله

وليس هذا لأحد بعده فولاة الأمور من العلماء والأمراء يطاعون إذا لم يأمروا بخلاف أمره ولهذا جعل الله طاعتهم فى ضمن طاعته قال الله تعالى {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ فقال {وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ لأن أولى الأمر يطاعون طاعة تابعة لطاعته فلا يطاعون إستقلالا ولا طاعة مطلقة وأما الرسول فيطاع طاعة مطلقة مستقلة فإنه {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}النساء٨٠ فقال تعالى {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ}النساء٥٩ فإذا أمرنا الرسول كان علينا أن نطيعه وأن لم نعلم جهة أمره وطاعته طاعة الله لا تكون طاعته بمعصية الله قط بخلاف غيره وقد ذكر الناس من خصائصه فيما يجب عليه ويحرم عليه ويكرم به ماليس هذا موضع تفصيله وبعض ذلك متفق عليه وبعضه متنازع فيه وقد كان صلى الله عليه وسلم إمام الأمة وهو الذى يقضى بينهم وهو الذى يقسم وهو الذى يغزو بهم وهو الذى يقيم الحدود وهو الذى يستوفى الحقوق وهو الذى يصلى بهم فالإقتداء به فى كل مرتبة بحسب تلك المرتبة فأمام الصلاة والحج يقتدى به فى ذلك وأمير الغزو يقتدى به فى ذلك والذى يقيم الحدود يقتدى به فى ذلك والذى يقضى أو يفتى يقتدى به فى ذلك [1]

## بمحمد تبين الهدي من الضلال

فإنه لا سعادة للعباد ولا نجاة في المعاد الا باتباع رسوله {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤}النساء١٣ -١٤ فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ وإنما تعبدهم بطاعته وطاعة رسوله فلا عبادة الا ما هو واجب أو مستحب في دين الله وما سوى ذلك فضلال عن سبيله ولهذا قال صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد أخرجاه في الصحيحين وقال صلى الله عليه وسلم في حديث العرباض بن ساريه الذي رواه أهل السنن وصححه الترمذي أنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٣٢٠-٣٢٤ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٥٠٩-٥١١

وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه في نحو من أربعين موضعا من القرآن كقوله تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً} النساء٨٠ وقوله تعالى }وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً {٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥} النساء٦٤ -٦٥ وقوله تعالى {قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} آل عمران٣٢ وقال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} آل عمران٣١ فجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول وجعل متابعة الرسول سببا لمحبة الله عبده وقد قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} الشورى٥٢ فما أوحاه الله إليه يهدى الله به به من يشاء من عباده كما أنه بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} سبأ٥٠ وقال تعالى {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{١٥} يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} المائدة١٥-١٦ فبمحمد تبين الكفر من الايمان والربح من الخسران والهدي من الضلال والنجاة من الوبال والغي من الرشاد والزيغ من السداد وأهل الجنة من أهل النار والمتقون من الفجار وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من سبيل المغضوب عليهم والضالين فالنفوس أحوج الى معرفة ما جاء به واتباعه منها الى الطعام والشراب فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا وذاك إذا مات حصل العذاب فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار النعيم والطريق الى ذلك الرواية والنقل إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل بل كما أن نور العين لا يرى الا مع ظهورنور قدامه فكذلك نور العقل لا يهتدي الا إذا طلعت عليه شمس الرسالة فلهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الاسلام وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجبا على جميع الأنام والله سبحانه بعث محمدا بالكتاب والسنة وبهما أتم على أمته الأمة قال تعالى {وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{١٥٠} كَمَا

أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ{١٥١} فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ{١٥٢} البقرة ١٥٠-١٥٢ وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}آل عمران١٦٤ قال تعالى {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ}البقرة٢٣١ وقال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}الجمعة٢ وقال تعالى عن الخليل {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}البقرة١٢٩ وقال تعالى {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}الأحزاب٣٤ وقد قال غير واحد من العلماء منهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي وغيرهم الحكمة هي السنة لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة والكتاب القرآن وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة وأبي ثعلة وغيرهما أنه قال لا ألفين أحدكم متكا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم القرآن فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه وفي رواية ألا وإنه مثل الكتاب ولما كان القرآن متميزا بنفسه لما خصه الله به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}الإسراء٨٨ وكان منقولا بالتواتر لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه وكان طمع الشيطان أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به بعض العباد فأقام الله تعالى الجهابذة النقاد أهل الهدي والسداد فدحروا حزب الشيطان وفرقوا بين الحق من البهتان وانتدبوا لحفظ السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان وقام كل من علماء الدين بما أنعم به عليه وعلى المسلمين مقام أهل الفقه الذين فقهوا معاني القرآن والحديث بدفع ما وقع في ذلك من الخطأ في القديم والحديث وكان من ذلك الظاهر الجلي الذي لا يسوغ عنه العدول ومنه الخفى الذي يسوغ فيه الاجتهاد للعماء العدول وقام علماء النقل والنقاد بعلم الرواية والاسناد فسافروا في ذلك الى البلاد وهجروا فيه لذيذ الرقاد وفارقوا الأموال والأولاد وأنفقوا فيه الطارف والتلاد وصبروا فيه على النوائب وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة والقصص المأثورة ما هو عند أهله معلوم ولمن طلب معرفته معروف مرسوم بتوسد أحدهم التراب وتركهم لذيذ الطعام والشراب وترك معاشرة الأهل والأصحاب والتصبر على مرارة الإغتراب ومقاساة الأهوال الصعاب

أمر حببه الله إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين الله كما جعل البيت مثابة للناس وأمنا يقصدونه من كل فج عميق ويتحملون فيه أمورا مؤلمة تحصل في الطريق وكما حبب الى أهل القتال الجهاد بالنفس والمال حكمة من الله يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين ويظهر به الهدي ودين الحق الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون فمن كان مخلصا في أعمال الدين يعملها لله كان من أولياء الله المتقين أهل النعيم المقيم كما قال تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٦٤} يونس٦٢-٦٤ وقد فسر النبي البشرى في الدنيا بنوعين أحدهما ثناء المثنين عليه الثاني الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له فقيل يا رسول الله الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن وقال البراء بن عازب سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله لهم البشرى في الحياة الدنيا فقال هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله الربان الحافظون له من الزيادة والنقصان هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين بل لهم مزية على غيرهم من أهل الايمان والأعمال الصالحات كما قال تعالى {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} المجادلة١١ قال ابن عباس يرفع الله وعلم الاسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد وجعله سلما الى الدراية فأهل الكتاب لا إسناد له يأثرون به المنقولات وهكذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات وإنما الاسناد لمن أعظم الله عليه المنة أهل الاسلام والسنة يفرقون به بين الصحيح والسقيم والمعوج والقويم وغيرهم من أهل البدع والكفار إنما عندهم منقولات يأثرونها بغير إسناد وعليها من دينهم الإعتماد وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل ولا الحالي من العاطل وأما هذه الأمة المرحومة وأصحاب هذه الأمة المعصومة فإن أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين فظهر لهم الصدق من المين كما يظهر الصبح لذي عينين عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ في دين الله معقول أو منقول وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه الى الله والرسول كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ فإذا اجتمع أهل الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقا وإذا اجتمع أهل الحديث على تصحيح حديث لم يكن الا صدقا ولكل من الطائفتين من الاستدلال على مطلوبهم بالجلي والخفي ما يعرف به من هو بهذا الأمر حفي والله تعالى يليهم الصواب في هذه القضية كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية وكما عرف

ذلك بالتجربة الوجودية فإن الله كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه لما صدقوا في موالاة الله ورسوله وماداة من عدل عنه قال تعالى {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} المجادلة٢٢ وأهل العلم المأثور عن الرسول أعظمن الناس قياما بهه الأصول لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم ولا يصدهم عن سبيل الله العظائم بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه ويتكلم في أحب الناس إليه عملا بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} النساء١٣٥ وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} المائدة٨ ولهم من التعديل والتجريح والتضعيف والتصحيح من السعي المشكور والعمل المبرور ما كان من أسباب حفظ الدين وصيانته عن إحداث المفترين وهم في ذلك على درجات منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية ومنهم أهل الفقه فيه والمعرفة بمعانيه وقد أمر النبي الأمة أن يبلغ عنه من شهد لم غاب ودعا للمبلغين بالدعاء المتجاب فقال في الحديث الصحيح بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بين اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي منعمدا فليتبوأ مقعده من النار وقال أيضا في خطبته في حجة الوداع الا ليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع وقال أيضا نصر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه الى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم اخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من روائهم وفي هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وإن لم يكن فقيها ودعاء لمن بلغه وإن كان المستمع أفقه من المبلغ لما أعطى المبلغون من النضرة ولهذا قال سفيان بن عيينة لا تجد أحد من أهل الحديث الا وفي وجهه نضرة لدعوة النبي يقال نضر ونضر والفتح أفصح ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعظون نقلة الحديث حتى قال الشافعي رضي الله عنه إذا رأيت رجلا من أهل الحديث فكأني رأيت رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليهم وسلم وإنما قال الشافعي هذا لأنهم في مقام

الصحابة من تبليغ حديث النبي وقال الشافعي أيضا أهل الحديث حفظوا فلهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا أه [1]

## الله سبحانه أوجب الجنة لمن اطاع الله ورسوله

قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ وقد أوجب طاعته وطاعة رسوله فى آى كثير من القرآن وحرم معصيته ومعصية رسوله ووعد برضوانه ومغفرته ورحمته وجنته على طاعته وطاعة رسوله وأوعد بضد ذلك على معصيته ومعصية رسوله فعلى كل أحد من عالم أو أمير أو عابد أو معامل أن يطيع الله ورسوله فيما هو قائم به من علم أو حكم أو أمر أو نهى أو عمل أو عبادة أو غير ذلك [2]

واذا كان لابد من طاعة آمر وناه فمعلوم أن دخول المرء فى طاعة الله ورسوله خير له وهو الرسول النبى الأمي المكتوب فى التوراة والانجيل الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث وذلك هو الواجب على جميع الخلق قال الله تعالى{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً {٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥}النساء٦٤ -٦٥ وقال {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ وقال {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤}النساء١٣ -١٤ وكان النبى يقول فى خطبته للجمعة ان خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكان يقول فى خطبة الحاجة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فانه لا يضر الا نفسه ولن يضر الله شيئا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٤-١١

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٣٠٩ و منهاج السنة النبوية ج: ١ ص: ٨٧ و ص: ٩٨ و

وقد بعث الله رسوله محمدا بأفضل المناهج والشرائع وأنزل عليه أفضل الكتب فأرسله الى خير أمة أخرجت للناس وأكمل له ولأمته الدين وأتم عليهم النعمة وحرم الجنة الا على من آمن به وبما جاء به ولم يقبل من أحد الا الاسلام الذى جاء به فمن ابتغى غيره دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين [1]

## {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}

في الإكتفاء بالرسالة والإستغناء بالنبى عن إتباع ما سواه إتباعا عاما وأقام الله الحجة على خلقه برسله فقال تعالى{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}النساء١٦٣ الى قوله {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ فدلت هذه الآية على أنه لا حجة لهم بعد الرسل بحال وأنه قد يكون لهم حجة قبل الرسل ف الأول يبطل قول من أحوج الخلق الى غير الرسل حاجة عامة كالأئمة و الثانى يبطل قول من أقام الحجة عليهم قبل الرسل من المتفلسفة والمتكلمة وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ فأمر بطاعة أولي الأمر من العلماء والأمراء إذا لم يتنازعوا وهو يقتضى أن إتفاقهم حجة وأمرهم بالرد عند التنازع الى الله والرسول فأبطل الرد الى امام مقلد أو قياس عقلى فاضل وقال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ}البقرة٢١٣ فبين أنه بالكتاب يحكم بين أهل الأرض فيما اختلفوا فيه وقال تعالى {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ}العنكبوت٥١ فزجر من لم يكتف بالكتاب المنزل وقال تعالى {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي}الأنعام١٣٠ الآيات وقال تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ وقال تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}الزمر ٧١ الآيات وقال تعالى {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ {٨} قَالُوا بَلَى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٦٣-٦٤

قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ {٩} الملك٨ -٩ فدلت هذه الآيات على أن من أتاه الرسول فخالفه فقد وجب عليه العذاب وإن لم يأته إمام ولا قياس وأنه لا يعذب أحد حتى يأتيه الرسول وإن أتاه إمام أو قياس وقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً} النساء٦٩ {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤} النساء١٣-١٤ الآية وقد ذكر سبحانه هذا المعنى فى غير موضع فبين أن طاعة الله ورسوله موجبة للسعادة وان معصية الله موجبة للشقاوة وهذا يبين أن مع طاعة الله ورسوله لا يحتاج الى طاعة إمام أو قياس ومع معصية الله ورسوله لا ينفع طاعة إمام أو قياس ودليل هذا الأصل كثير فى الكتاب والسنة وهو أصل الاسلام شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله وهو متفق عليه بين الذين أوتوا العلم والايمان قولا واعتقادا وإن خالفه بعضهم عملا وحالا فليس عالم من المسلمين يشك فى أن الواجب على الخلق طاعة الله ورسوله وان ما سواه إنما تجب طاعته حيث أوجبها الله ورسوله وفى الحقيقة فالواجب في الأصل إنما هو طاعة الله لكن لا سبيل إلى العلم بمأموره وبخبره كله إلا من جهة الرسل والمبلغ عنه اما مبلغ امره وكلماته فتجب طاعته وتصديقه فى جميع ما أمر وأخبر وأما ماسوى ذلك فإنما يطاع في حال دون حال كالأمراء الذين تجب طاعتهم فى محل ولايتهم ما لم يأمروا بمعصية الله والعلماء الذين تجب طاعتهم على المستفتى والمأمور فيما أوجبوه عليه مبلغين عن الله أو مجتهدين اجتهادا تجب طاعتهم فيه على المقلد ويدخل فى ذلك مشائخ الدين ورؤساء الدنيا حيث أمر بطاعتهم كاتباع أئمة الصلاة فيها وأتباع أئمة الحج فيه واتباع امراء الغزو فيه واتباع الحكام في احكامهم واتباع المشايخ المهتدين فى هديهم ونحو ذلك والمقصود بهذا الأصل أن من نصب إماما فأوجب طاعته مطلقا اعتقادا أو حالا فقد ضل فى ذلك كأئمة الضلال الرافضة الامامية حيث جعلوا في كل وقت إماما معصوما تجب طاعته فإنه لا معصوم بعد الرسول ولا تجب طاعة أحد بعده فى كل شيء والذين عينوهم من أهل البيت منهم من كان خليفة راشدا تجب طاعته كطاعة الخلفاء قبله وهو علي ومنهم أئمة فى العلم والدين يجب لهم ما يجب لنظرائهم من أئمة العلم والدين كعلى بن الحسين وأبى جعفر الباقر وجعفر إبن محمد الصادق ومنهم دون ذلك وكذلك من دعا لاتباع شيخ من مشايخ الدين فى كل طريق من غير تخصيص ولا استثناء وأفرده عن نظرائه كالشيخ عدي والشيخ أحمد والشيخ عبد القادر والشيخ حيوة ونحوهم وكذلك من دعا إلى اتباع امام من أئمة

العلم فى كل ما قاله وأمر به ونهى عنه مطلقا كالأئمة الأربعة وكذلك من أمر بطاعة الملوك والأمراء والقضاة والولاة فى كل ما يأمرون وينهون عنه من غير تخصيص ولا استثناء لكن هؤلاء لا يدعون العصمة لمتبوعيهم الاعالية اتباع المشايخ كالشيخ عدي وسعد المديني بن حمويه ونحوهما فإنهم يدعون فيهم نحوا مما تدعيه الغالية فى أئمة بني هاشم من العصمة ثم من الترجيح على النبوة ثم من دعوى الالهية وأما كثير من أتباع أئمة العلم ومشايخ الدين فحالهم وهواهم بضاهي حال من يوجب اتباع متبوعه لكنه لا يقول ذلك بلسانه ولا يعتقده علما فحاله يخالف اعتقاده بمنزلة العصاة أهل الشهوات وهؤلاء أصلح ممن يرى وجوب ذلك ويعتقده وكذلك اتباع الملوك والرؤساء هم كما أخبر الله عنهم بقوله {إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا}الأحزاب٦٧ فهم مطيعون حالا وعملا وانقيادا وأكثرهم من غير عقيدة دينية وفيهم من يقرن بذلك عقيدة دينية ولكن طاعة الرسول إنما تمكن مع العلم بما جاء به والقدرة على العمل به فإذا ضعف العلم والقدرة صار الوقت وقت فترة في ذلك الأمر فكان وقت دعوة ونبوة فى غيره فتدبر هذا الأصل فإنه نافع جدا والله أعلم وكذا من نصب القياس أو العقل أو الذوق مطلقا من أهل الفلسفة والكلام والتصوف أو قدمه بين يدي الرسول من أهل الكلام والرأي والفلسفة والتصوف فإنه بمنزلة من نصب شخصا فالاتباع المطلق دائر مع الرسول وجودا وعدما [1]

## الأمر باتباع الحكمة التى بعث بها الرسول

قد أمرنا الله تعالى بإتباع ما أنزل إلينا من ربنا وبإتباع ما يأتى منه من الهدى وقد أنزل علينا الكتاب والحكمة كما قال تعالى {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ}البقرة٢٣١ والحكمة من الهدى قال تعالى {وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}النور٥٤ والأمر باتباع الكتاب والقرآن يوجب الأمر باتباع الحكمة التى بعث بها الرسول وباتباعه وطاعته مطلقا وقال تعالى واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة وقال تعالى {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}البقرة١٢٩ وقال تعالى {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٦٧-٧١ و مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٢١

تَعْلَمُونَ}البقرة١٥١ وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ}آل عمران١٦٤ وقال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٢} وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٣}الجمعة٢-٣ وقد أمر بطاعة الرسول في نحو أربعين موضعا كقوله تعالى {قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}آل عمران٣٢ وقوله تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}النساء١٣ إلى قوله {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا}النساء١٤ وقوله تعالى {وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً}الجن٢٣ وقوله تعالى {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً {٢٧} يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً{٢٨} لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً{٢٩}الفرقان٢٧-٢٩ فهذه النصوص توجب اتباع الرسول وإن لم نجد ما قاله منصوصا بعينه فى الكتاب كما أن تلك الآيات توجب اتباع الكتاب وان لم نجد ما فى الكتاب منصوصا بعينه فى حديث عن الرسول غير الكتاب فعلينا ان نتبع الكتاب وعلينا أن نتبع الرسول واتباع أحدهما هو اتباع الآخر فإن الرسول بلغ الكتاب والكتاب أمر بطاعة الرسول ولا يختلف الكتاب والرسول ألبتة كما لا يخالف الكتاب بعضه بعضا قال تعالى {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ والأحاديث كثيرة عن النبى فى وجوب اتباع الكتاب وفى وجوب اتباع سنته كقوله لا الفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من امري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم هذا القرآن فما وجدنا فيه من حلال حللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه آلا واني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا وانه مثل القرآن أو أعظم هذا الحديث فى السنن والمسانيد مأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم من عدة جهات من حديث أبي ثعلبة وأبى رافع وأبي هريرة وغيرهم وفى صحيح مسلم عنه من حديث جابر أنه قال فى خطبة الوداع وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده كتاب الله تعالى وسنة نبيه وفى الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قيل له هل أوصى رسول الله قال لا قيل فكيف كتبه على الناس الوصية قال أوصى بكتاب الله وسنة رسول الله تفسر القرآن كما فسرت أعداد الصلوات وقدر القراءة فيها والجهر والمخافتة وكما فسرت فرائض الزكاة ونصبها وكما فسرت المناسك وقدر الطواف بالبيت والسعي ورمي الجمار ونحو ذلك وهذه السنة إذا ثبتت فإن المسلمين كلهم متفقون على وجوب اتباعها وقد يكون من سنته ما يظن أنه

مخالف لظاهر القرآن وزيادة عليه كالسنة المفسرة لنصاب السرقة والموجبة لرجم الزاني المحصن فهذه السنة أيضا مما يجب اتباعه عند الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر طوائف المسلمين إلا من نازع فى ذلك من الخوارج المارقين الذين قال فيهم النبى يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرأون القرآن لايجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجرا عند الله لمن قاتلهم يوم القيامة وقد استفاضت الأحاديث الصحيحة فى وصفهم وذمهم والأمر بقتالهم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أحمد بن حنبل صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه وقد روى مسلم في صحيحه حديثهم من عشرة أوجه كأنها هي التى أشار إليها احمد بن حنبل فإن مسلما أخذ عن أحمد وقد روى البخاري حديثهم من عدة أوجه وهؤلاء أولهم قال للنبى يا محمد اعدل فانك لم تعدل فمن جوز عليه أن يظلمه فلا يعدل كمن يوجب طاعته فيما ظلم فيه لكنهم يوجبون اتباع مابلغه عن الله وهذا من جهلهم وتناقضهم ولهذا قال النبى ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل وقال لقد خبت وخسرت إن لم أعدل أي إن اتبعت من هو غير عادل فأنت خائب خاسر وقال أيأمنني من في السماء ولا تأمنوني يقول إذا كان الله قد ائتمننى على تبليغ كلامه أفلا تأمنوني على أن أؤدي الأمانة إلى الله قال تعالى {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ}آل عمران١٦١ وفى الجملة فالقرآن يوجب طاعته فى حكمه وفي قسمه ويذم من يعدل عنه فى هذا أو هذا كما قال تعالى فى حكمه {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ [١]

## ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان

وإذا كانت الشهادتان هي أصل الدين وفرعه وسائر دعائمه وشعبه داخلة فيهما فالعبادة متعلقة بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٨٤-٨٧

وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}النساء١٣ [1]

أعمال أهل الجنة كلها تدخل فى طاعة الله ورسوله و أعمال أهل النار كلها تدخل فى معصية الله ورسوله {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤} النساء١٣-١٤ [2]

أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله فى أمره ونهيه ووعده ووعيده فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله فعلينا أن نحب الله ورسوله ونطيع الله ورسوله ونرضى الله ورسوله وفى الصحيحين عن أنس قال قال رسول الله ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب اليه ممن سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار [3]

فمعنا أصلان عظيمان أحدهما أن لا نعبد إلا الله والثانى أن لا نعبده إلا بما شرع لا نعبده بعبادة مبتدعة وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله كما قال تعالى {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} هود٧ قال الفضيل بن عياض أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا على ما أخلصه وأصوبه قال ان العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص ان يكون لله والصواب أن يكون على السنة وذلك تحقيق قوله تعالى {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}الكهف١١٠ وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول فى دعائه اللهم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٤١

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٢٤

[3] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٠٧

اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وقال تعالى{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ}الشورى٢١ وفى الصحيحين عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد وفى لفظ فى الصحيح من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد وفى الصحيح وغيره أيضا يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو كله للذى أشرك ولهذا قال الفقهاء العبادات مبناها على التوقيف كما فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قبل الحجر الاسود وقال والله انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك لما قبلتك والله سبحانه امرنا باتباع الرسول وطاعته وموالاته ومحبته وأن يكون الله ورسوله أحب الينا مما سواهما وضمن لنا بطاعته ومحبته محبة الله وكرامته فقال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}آل عمران٣١ وقال تعالى {وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}النور٥٤ وقال تعالى {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}النساء١٣وأمثال ذلك فى القرآن كثير ولا ينبغى لأحد أن يخرج فى هذا عما مضت به السنة وجاءت به الشريعة ودل عليه الكتاب والسنة وكان عليه سلف الامة وما علمه قال به وما لم يعلمه امسك عنه ولا يقفو ما ليس له به علم ولا يقول على الله ما لم يعلم فان الله تعالى قد حرم ذلك كله [1]

## بين الله فى كتابه حقوق الرسول

فقد بين الله فى كتابه حقوق الرسول من الطاعة له ومحبته وتعزيره وتوقيره ونصره وتحكيمه والرضى بحكمه والتسليم له وإتباعه والصلاة والتسليم عليه وتقديمه على النفس والأهل والمال ورد ما يتنازع فيه اليه وغير ذلك من الحقوق وأخبر أن طاعته طاعته فقال {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}النساء٨٠ وقرن بين

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٣٤ -٣٣٥

إسمه وإسمه فى المحبة فقال {أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ}التوبة٢٤ وفى الطاعة والمعصية فقال {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ}النساء١٣ [1]

واما الايات الدالة على كفر الشاتم للرسول صلى الله عليه وسلم وقتله او على احدهما اذا لم يكن معاهدا وان كان مظهرا للاسلام فكثيرة مع ان هذا مجمع عليه كما تقدم حكاية الاجماع عن غير واحد ما استدل به العلماء على ذلك قوله سبحانه {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً {٥٧} وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً{٥٨}الأحزاب٥٧ -٥٨ ودلالتها من وجوه احدها انه قرن اذاه باذاه كما قرن طاعته بطاعته فمن اذاه فقد اذا الله تعالى وقد جاء ذلك منصوصا عنه ومن آذى الله فهو كافر حلال الدم يبين ذلك ان الله تعالى جعل محبة الله ورسوله وارضاء الله ورسوله وطاعة الله ورسوله شيئا واحدا فقال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ}التوبة٢٤ وقال {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ}آل عمران١٣٢ في مواضع متعددة وقال أيضا {وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ}التوبة٦٢ فوحد الضمير وقال ايضا {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ}الفتح١٠ وقال ايضا {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}الأنفال١ وجعل شقاق الله ورسوله ومحادة الله ورسوله واذى الله ورسوله ومعصية الله ورسوله شيئا واحدا فقال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}الحشر٤ وقال {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}المجادلة٥ و المجادلة٢٠ وقال تعالى {أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ}التوبة٦٣ وقال {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين وان جهة حرمه الله ورسوله جهة واحدة فمن اذى الرسول فقد اذى الله ومن اطاعه فقد اطاع الله لان الامة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم الا بواسطة الرسول ليس لاحد منهم طريق غيره

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٦٨

ولا سبب سواه وقد اقامه الله مقام نفسه في امره ونهيه واخباره وبيانه فلا يجوز ان يفرق بين الله ورسوله في شئ من هذه الامور [1]

## لم يجيء اعداد العذاب المهين فى القران الا فى حق الكفار

لم يجىء إعداد العذاب المهين فى القرآن إلا فى حق الكفار كقوله {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء٣٧ وقوله {وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء١٠٢وقوله {أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء١٥١ وقوله {فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}البقرة٩٠ {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}آل عمران١٧٨ {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}الحج٥٧ {وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}الجاثية٩ {وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}المجادلة٥ {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}المجادلة١٦ {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ فهى والله أعلم فيمن جحد الفرائض وإستخف بها على أنه لم يذكر ان العذاب أعد له وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيدا للمؤمنين فى قوله {لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}الأنفال٦٨ وقوله {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}النور١٤ وفى المحارب {ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}المائدة٣٣ وفي القاتل {وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}النساء٩٣ وقوله {وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}النحل٩٤ وقد قال سبحانه {وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا

---

[1] الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٨٦-٨٧

يَشَاءُ}الحج١٨ وذلك لأن الإهانة اذلال وتحقير وخزى وذلك قدر زائد على ألم العذاب فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان [١]

## الرافضة موصوفون بالغلو

فإن الرافضي يجيء إلى أشخاص ظهر بصريح المعقول وصحيح المنقول أن بعضهم أكمل سيرة من بعض فيجعل الفاضل مذموما مستحقا للقدح ويجعل المفضول معصوما مستحقا للمدح كما فعلت النصارى يجيئون إلى الأنبياء صلوات الله عليهم وقد فضل الله بعضهم على بعض فيجعلون المفضول إلها والفاضل منقوصا دون الحواريين الذين صحبوا المسيح فيكون ذلك قلبا للحقائق وأعجب من ذلك أنهم يجعلون الحواريين الذين ليسوا أنبياء معصومين عن الخطأ ويقدحون في بعض الأنبياء كسليمان وغيره ومعلوم أن إبراهيم ومحمدا أفضل من نفس المسيح صلوات الله وسلامه عليهم بالدلائل الكثيرة بل وكذلك موسى فكيف يجعل الذين صحبوا المسيح أفضل من إبراهيم ومحمد وهذا من الجهل والغلو الذي نهاهم الله عنه قال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ وكذلك الرافضة موصوفون بالغلو عند الأمة فإن فيهم من أدعى الإلهية في علي وهؤلاء شر من النصارى وفيهم من أدعى النبوة فيه ومن أثبت نبيا بعد محمد فهو شبيه بأتباع مسيلمة الكذاب وأمثاله من المتنبئين إلا أن عليا رضي الله عنه بريء من هذه الدعوة بخلاف من أدعى النبوة لنفسه كمسيلمة وأمثاله وهؤلاء الإمامية يدعون ثبوت إمامته بالنص وأنه كان معصوما هو وكثير من ذريته وأن القوم ظلموه وغصبوه ودعوى العصمة تضاهي المشاركة في النبوة فإن المعصوم يجب اتباعه في كل ما يقول لا يجوز أن يخالف في شيء وهذه خاصة الأنبياء ولهذا أمرنا أن نؤمن بما أنزل اليهم فقال تعالى {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}البقرة١٣٦ فأمرنا أن نقول آمنا بما

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٦٦ و دقائق التفسير ج: ٢ ص: ٤٥٨-٤٥٩ و الصارم المسلول ج: ٢ ص: ١٠٩

أوتي النبيون وقال تعالى {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}البقرة٢٨٥ وقال تعالى {وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}البقرة١٧٧ فالإيمان بما جاء به النبيون مما أمرنا أن نقوله ونؤمن به وهذا مما اتفق عليه المسلمون أنه يجب الإيمان بكل نبي ومن كفر بنبي واحد فهو كافر ومن سبه وجب قتله باتفاق العلماء وليس كذلك من سوى الأنبياء سواء سموا أولياء أو أئمة أو حكماء أو علماء أو غير ذلك فمن جعل بعد الرسول معصوما يجب الإيمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة وإن لم يعطه لفظها ويقال لهذا ما الفرق بين هذا وبين أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا مأمورين باتباع شريعة التوراة وكثير من الغلاة في المشايخ يعتقد أحدهم في شيخه نحو ذلك ويقولون الشيخ محفوظ ويأمرون باتباع الشيخ في كل ما يفعل لا يخالف في شيء أصلا وهذا من جنس غلو الرافضة والنصارى والإسماعيلية تدعى في أئمتها أنهم كانوا معصومين وأصحاب ابن تومرت الذي ادعى أنه المهدى يقولون إنه معصوم ويقولون في خطبة الجمعة الإمام المعصوم والمهدي المعلوم ويقال إنهم قتلوا بعض من أنكر أن يكون معصوما ومعلوم أن كل هذه الأقوال مخالفة لدين الإسلام للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها فإن الله تعالى يقول {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ فلم يأمرنا بالرد عند التنازع إلا إلى الله والرسول فمن أثبت شخصا معصوما غير الرسول أوجب رد ما تنازعوا فيه إليه لأنه لا يقول عنده إلا الحق كالرسول وهذا خلاف القرآن وأيضا فإن المعصوم تجب طاعته مطلقا بلا قيد ومخالفة يستحق الوعيد والقرآن إنما أثبت هذا في حق الرسول خاصة قال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩وقال {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ فدل القرآن في غير موضع على أن من أطاع الرسول كان من أهل السعادة ولم يشترط في ذلك طاعة معصوم آخر ومن عصى الرسول كان من أهل الوعيد وإن قدر أنه أطاع من ظن أنه معصوم فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي فرق الله به بين أهل الجنة وأهل النار وبين الأبرار والفجار وبين الحق والباطل وبين الغي والرشاد والهدى والضلال وجعله القسيم الذي قسم الله به عباده إلى شقى وسعيد فمن اتبعه فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقى وليست هذه المرتبة لغيره ولهذا اتفق أهل العلم أهل الكتاب والسنة على أن كل شخص فإنه يجب تصديقه في كل ما أخبر وطاعته في كل أمر

فإنه المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهو الذي يسأل الناس عنه يوم القيامة كما قال تعالى {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ}الأعراف٦ وهو الذي يمتحن به الناس في قبورهم فيقال لأحدهم من ربك وما دينك ومن نبيك ويقال ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فيقول هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه ولو ذكر بدل الرسول من ذكره من الصحابة والأئمة والتابعين والعلماء لم ينفعه ذلك ولا يمتحن في قبره بشخص غير الرسول [١]

## خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا

## {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً{١٥} وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً{١٦}النساء١٥-١٦

قال تعالى {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً}النساء١٥ هنا الحكم المؤقت بغاية لا يعلم متى يكون [٢]

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن حطان بن عبدالله عن عبادة بن الصامت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة وزيد بن خالد أنه صلى الله عليه وسلم إختصم إليه رجلان فقال أحدهما يا رسول الله إقض بيننا بكتاب الله وقال الآخر وهو أفقه منه يا رسول الله إقض بيننا

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص:١٨٧- ١٩١

[٢] الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ١٥٢

بكتاب الله وائذن لى أن ابني كان عسيفا على هذا وأنه زنى بامرأته فإفتديت منه بمائة شاة ووليدة وإنى سالت أهل العلم فقالوا على ابنك جلد مائة وتغريب عام فقال النبى لأقضين بينكما بكتاب الله أما المائة شاة والوليدة فرد عليك وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام وإغد يا انيس على امرأة هذا فإن إعترفت فارجمها فإعترفت فرجمها فهذه المرأة أحد من رجمه النبى ورجم أيضا اليهوديين على باب مسجده ورجم ماعز بن مالك ورجم الغامدية ورجم غير هؤلاء وهذا الحديث يوافق ما فى الآية من بيان السبيل الذى جعله الله لهن وهو جلد مائة وتغريب عام فى البكر وفى الثيب الرجم لكن الذى فى هذا الحديث هو الجلد والنفى للكبر من الرجال وأما الاية ففيها ذكر الإمساك فى البيوت للنساء خاصة ومن فقهاء العراق من لا يوجب مع الحد تغريبا ومنهم من يفرق بين الرجل والمرأة كما ان أكثرهم لا يوجبون مع رجم جلد مائة ومنهم من يوجبهما جميعا كما فعل على بسراحة الهمدانية حيث جلدها ثم رجمها وقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة نبيه رواه البخارى وعن أحمد فى ذلك روايتان وهو سبحانه ذكر فى سورة النساء ما يختص بالنساء من العقوبة بالإمساك فى البيوت إلى الممات أو إلى جعل السبيل ثم ذكر ما يعم الصنفين فقال {وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا}النساء١٦ فإن الأذى يتناول الصنفين واما الإمساك فيختص بالنساء فالنساء يؤذين ويحبسن بخلاف الرجال فإنه لم يأمر فيهم بالحبس لأن المرأة يجب ان تصان وتحفظ بما لا يجب مثله فى الرجل لهذا خصت بالإحتجاب وترك إبداء الزينة وترك التبرج فيجب فى حقها الإستتار باللباس والبيوت مالا يجب فى حق الرجل لأن ظهور النساء سبب الفتنة والرجال قوامون عليهن وقوله {فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ}النساء١٥ دل على شيئين على أن نصاب الشهادة على الفاحشة أربعة وعلى أن الشهداء بها على نسائنا يجب أن يكونوا منا فلا تقبل شهادة الكفار على المسلمين وهذا لا نزاع فيه وإنما النزاع فى قبول شهادة الكفار بعضهم على بعض وفيه قولان عند أحمد أشهرهما عنده وعند أصحابه أنها لا تقبل كمذهب مالك والشافعى والثانية أنها تقبل إختارها أبوالخطاب مكن اصحاب أحمد وهو قول أبى حنيفة وهو أشبه بالكتاب والسنة وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لا تجوز شهادة أهل ملة على أهل ملة إلا أمتى فإن شهادتهما تجوز على من سواهم فإنه لم ينف شهادة أهل الملة الواحدة بعضها على بعض بل مفهوم ذلك جواز شهادة أهل الملة الواحدة بعضها على بعض ولكن فيه بيان أن المؤمنين تقبل شهادتهم على من سواهم لقوله تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}البقرة١٤٣ وفى آخر الحج مثلها وقد ثبت فى صحيح البخارى عن ابى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم

فيدعى قومه فيقال هل بلغكم فيقولون ما جاءنا من بشير ولا نذير فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته فيؤتى بكم فتشهدون أنه بلغ وكذلك فى الصحيحين من حديث انس فى شهادتهم على تلك الجنازتين وأنهم أثنوا على احدهما خيرا وعلى الأخرى شرا فقال أنتم شهداء الله فى أرضه الحديث ولهذا لما كان أهل السنة والجماعة الذين محضوا الإسلام ولم يشوبوه بغيره كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة بخلاف أهل البدع والأهواء كالخوارج والروافض فإن بينهم من العداوة والظلم ما يخرجهم عن كمال هذه الحقيقة التى جعلها الله لأهل السنة قال النبى صلى الله عليه وسلم فيهم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وإنتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وقد إستدل من جوز شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض بهذه الآية التى فى المائدة وهى قوله {يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ}المائدة١٠٦ الآية ثم قال من أخذ بظاهر هذه الآية من أهل الكوفة دلت هذه الآية على قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين فيكون فى ذلك تنبيه ودلالة على قبول شهادة بعضهم على بعض بطريق الأولى ثم نسخ الظاهر لا يوجب نسخ الفحوى والتنبيه وهذه الآية الدالة على نصوص الإمام أحمد وغيره من أئمة الحديث الموافقين للسلف فى العمل بهذه الآية وما يوافقها من الحديث أوجه وأقوى فإن مذهبه قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين فى الوصية فى السفر لأنه موضع ضرورة فإذا جازت شهادتهم لغيرهم فعلى بعضهم أجوز وأجوز ولهذا يجوز فى الشهادة للضرورة مالا يجوز فى غيرها كما تقبل شهادة النساء فيما لا يطلع عليه الرجال حتى نص احمد على قبول شهادتين فى الحدود التى تكون فى مجامعهن الخاصة مثل الحمامات والعرسات ونحو ذلك فالكفار الذين لا يختلط بهم المسلمون أولى أن تقبل شهادة بعضهم على بعض إذا حكمنا بينهم والله أمرنا أن نحكم بينهم والنبى رجم الزانيين من اليهود من غير سماع إقرار منهما ولا شهادة مسلم عليهما ولولا قبول شهادة بعضهم على بعض لم يجز ذلك والله أعلم ثم إن فى تولى مال بعضهم بعضا نزاع فهل يتولى الكافر العدل فى دينه مال ولده الكافر على قولين فى مذهب أحمد وغيره والصواب المقطوع به أن بعضهم أولى ببعض وقد مضت سنة النبى بذلك وسنة خلفائه وقوله تعالى {فَآذُوهُمَا}النساء١٦ أمر بالأذى مطلقا ولم يذكر كيفيته وصفته ولا قدره بل ذكر أنه يجب إيذاؤهما ولفظ الأذى يستعمل فى الأقوال كثيرا كقوله {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى}آل عمران١١١ وقوله {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}الأحزاب٥٧{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا}الأحزاب٥٨ {وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ}التوبة٦١ وقول النبى لا

أحد أصبر على أذى سمعه من الله ونظائر ذلك كثيرة ذكرناها فى كتاب الصارم المسلول وهذا كما قال النبى فى شارب الخمر عاقبوه وآذوه وقال {فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا} النساء١٦ والإعراض هو الإمساك عن الإيذاء فالمذنب لا يزال يؤذى وينهى ويوعظ ويوبخ ويغلظ له فى الكلام إلى أن يتوب ويطيع الله وادنى ذلك هجره فلا يكلم بالكلام الطيب كما هجر النبى والمؤمنون الثلاثة الذين خلفوا حتى ظهرت توبتهم وصلاحهم وهذه آية محكمة لا نسخ فيها فمن أتى الفاحشة من الرجال والنساء فإنه يجب إيذاؤه بالكلام الزاجر له عن المعصية إلى أن يتوب وليس ذلك محدودا بقدر ولا صفة إلا ما يكون زاجرا له داعيا إلى حصول المقصود وهو توبته وصلاحه وقد علقه تعالى على هذين الأمرين التوبة والإصلاح فإذا لم يوجدا فلا يجوز أن يكون الأمر بالإعراض موجودا فيؤذى والآية دلت على وجوب الإعراض عن الأذى فى حق من تاب وأصلح فأما من تاب بترك فعل الفاحشة ولم يصلح فقد تنازع الفقهاء هل يشترط فى قبول التوبة صلاح العمل على قولين فى مذهب أحمد وغيره وهذه تشبه قوله تعالى {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} التوبة٥ إلى قوله تعالى {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ} التوبة٥ فأمر بقتالهم ثم علق تخلية سبيلهم على التوبة والعمل الصالح وهو إقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع أنهم إذا تكلموا بالشهادتين وجب الكف عنهم ثم إن صلوا وزكوا وإلا عوقبوا بعد ذلك على ترك الفعل لأن الشارع فى التوبة شرع الكف عن أذاه ويكون الأمر فيه موقوفا على التمام وكذلك التائب من الفاحشة يشرع الكف عن أذاه إلى أن يصلح فإن اصلح وجب الإعراض عن أذاه وإن لم يصلح لم يجب الكف عن اذاه بل يجوز أو يجب أذاه وهذه الآية مما يستدل بها على التعزير بالأذى والأذى وإن كان يستعمل كثيرا فى الكلام فى مرتكب الفاحشة فليس هو مختصا به كما قال النبى لمن بصق فى القبلة إنك قد آذيت الله ورسوله وكذلك قال فى حق فاطمة إبنته يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها وكذلك قال لمن اكل الثوم والبصل إن الملائكة تتاذى مما يتاذى منه بنو آدم وقال لصاحب السهام خذ بنصالها لئلا تؤذى أحدا من المسلمين وقد قال تعالى فإذا طعمتم فإنتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى وقوله تعالى {فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا} النساء١٦ هل يكون من توبته إعترافه بالذنب فإذا ثبت الذنب بإقراره فجحد إقراره وكذب الشهود على إقراره أو ثبت بشهادة شهود هل يعد بذلك تائبا فيه نزاع فذكر الإمام أحمد أنه لا توبة لمن جحد وإنما التوبة لمن أقر وتاب وإستدل بقصة على بن أبى طالب أنه أتى بجماعة ممن شهد عليهم بالزندقة فإعترف منهم ناس فتابوا فقبل توبتهم وجحد منهم جماعة فقتلهم وقد قال النبى صلى الله لعائشة

إن كنت ألممت بذنب فإستغفرى الله وتوبى إليه فإن العبد إذا إعتراف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه رواه البخارى فمن أذنب سرا فليتب سرا وليس عليه أن يظهر ذنبه كما فى الحديث من إبتلى بشىء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله وفى الصحيح كل أمتى معافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يبيت الرجل على الذنب قد ستره الله عليه فيكشف ستر الله عنه فإذا ظهر من العبد الذنب فلابد من ظهور التوبة ومع الجحود لا تظهر التوبة فإن الجاحد يزعم أنه غير مذنب ولهذا كان السلف يستعملون ذلك فيمن أظهر بدعة أو فجورا فإن هذا أظهر حال الضالين وهذا أظهر حال المغضوب عليهم ومن أذاه منعه مع القدرة من الإمامة والحكم والفتيا الرواية والشهادة وأما بدون القدرة فليفعل المقدور عليه وقوله {وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا}النساء١٦ فأمر بإيذائهما ولم يعلق ذلك على إستشهاد أربعة كما علق ذلك فى حق النساء وإمساكهن فى البيوت ولم يأمر به هنا كما أمر به هناك وليس هذا من باب حمل المطلق على المقيد لأن ذلك لابد أن يكون الحكم واحدا مثل الإعتاق فإذا كان الحكم متفقا فى الجنس دون النوع كإطلاق الأيدى فى التيمم وتقييدها فى الوضوء إلى المرافق وإطلاق ستين مسكينا فى الإطعام وتقييد الإعتاق بالإيمان مع أن كلاهما عبادة مالية يراد بها نفع الخلق وفى ذلك نزاع بين العلماء ولم يحمل المسلمون من الصحابة والتابعين المطلق على المقيد فى قوله {وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ}النساء٢٣ وقوله تعالى {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ}النساء٢٢ قال الصحابة والتابعون وسائر أئمة الدين الشرط فى الربائب خاصة وقالوا أبهموا ما أبهم الله والمبهم هو المطلق والمشروط فيه هو المؤقت المقيد فامهات النساء وحلائل الآباء والأبناء يحرمن بالعقد والربائب لا يحرمن إلا إذا دخل بأمهاتهن لكن تنازعوا هل الموت كالدخول على قولين فى مذهب أحمد وذلك لأن الحكم مختلف والقيد ليس متساويا فى الأعيان فإن تحريم جنس ليس مثل تحريم جنس آخر يخالفه كما أن تحريم الدم والميتة ولحم الخنزير لما كان أجناسا فليس تقييد الدم بكونه مسفوحا يوجب تقييد الميتة والخنزير أن يكون مسفوحا وهنا القيد كون الربيبة مدخولا بامها والدخول بالأم لا يوجد مثله فى الحليلتين وأم المرأة إذ الدخول فى الحليلة بها نفسها وفى أم المرأة ببنتها وكذلك المسلمون لم يحملوا المطلق على المقيد فى نصب الشهادة بل لما ذكر الله فى آية الدين {رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ}البقرة٢٨٢ وفى الرجعة رجلين اقروا كلا منهما على حاله لأن سبب الحكم مختلف وهو المال والبضع وإختلاف السبب يؤثر فى نصاب الشهادة وكما فى إقامة الحد فى الفاحشة وفى القذف بها إعتبر فيه أربعة شهداء فلا يقاس بذلك عقود

الإيمان والإبضاع وذكر فى حد القذف ثلاثة أحكام جلد ثمانين وترك قبول شهادتهم أبدا وأنهم فاسقون {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٥} النور٥ وإن التوبة لا ترفع الجلد إذا طلبه المقذوف وترفع الفسق بلا تردد وهل ترفع المنع من قبول الشهادة فأكثر العلماء قالوا ترفعه وإذا إشتهر عن شخص الفاحشة بين الناس لم يرجم لما ثبت فى الصحيح عن ابن عباس أنه لما ذكر حديث الملاعنة وقول النبى إن جاءت به يشبه الزوج فقد كذب عليها وإن جاءت به يشبه الرجل الذى رماها به فقد صدق عليها فجاءت به على النعت المكروه فقال النبى لولا الإيمان لكان لى ولها شأن فقيل لابن عباس أهذه التى قال فيها رسول الله لو كنت راجما أحدا بغير بينة لرجمتها فقال لا تلك امرأة كانت تعلن السوء فى الإسلام فقد أخبر أنه لا يرجم أحدا إلا ببينة ولو ظهر عن الشخص السوء ودل هذا الحديث على أن الشبه له تأثير فى ذلك وإن لم يكن بينة وكذلك ثبت عنه أنه لما مر عليه بتلك الجنازة فأثنوا عليها خيرا إلى آخره قال أنتم شهداء الله فى أرضه وفى المسند عنه أنه قال يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار قيل يارسول الله وبم ذلك قال بالثناء الحسن والثناء االسىء فقد جعل الإستفاضة حجة وبينة فى هذه الأحكام ولم يجعلها حجة فى الرجم وكذلك تقبل شهادة اهل الكتاب على المسلمين فى الوصية فى السفر عند أحمد وكذلك شهادة الصبيان فى الجراح إذا أدوها قبل التفرق فى إحدى الروايتين وإذا شهد شاهد أنه رأى الرجل والمرأة والصبى فى لحاف أو فى بيت مرحاض أو رآهما مجردين أو محلولى السراويل ويوجد مع ذلك ما يدل على ذلك من وجود اللحاف قد خرج عن العادة إلى مكانهما أو يكون مع أحدهما أو معهما ضوء قد أظهره فرآه فأطفأه فإن إطفاءه دليل على إستخفائه بما يفعل فإذا لم يكن ما يستخفى به إلا ما شهد به الشاهد كان ذلك من أعظم البيان على ما شهد به فهذا الباب باب عظيم النفع فى الدين وهو مما جاءت به الشريعة التى اهملها كثير من القضاة والمتفقهة زاعمين أنه لا يعاقب أحد إلا بشهود عاينوا أو إقرار مسموع وهذا خلاف ما تواترت به السنة وسنة الخلفاء الراشدين وخلاف ما فطرت عليه القلوب التى تعرف المعروف وتنكر المنكر ويعلم العقلاء أن مثل هذا لا تأباه سياسة عادلة فضلا عن الشريعة الكاملة ويدل عليه قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ}الحجرات٦ ففى الآية دلالات أحدها قوله {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}الحجرات٦ فأمر بالتبين عند مجيء كل فاسق نبأ بل من الأنباء ما ينهى فيه عن التبين ومنها ما يباح فيه ترك التبين ومن الأنباء ما يتضمن العقوبة لبعض الناس لأنه علل الأمر بأنه إذا جاءنا فاسق بنبأ خشية أن نصيب قوما بجهالة فلو كان كل من أصيب بنبأ كذلك لم يحصل الفرق بين العدل

والفاسق بل هذه الأدلة واضحة على أن الإصابة بنبأ العدل الواحد لا ينهى عنها مطلقا وذلك يدل على قبول شهادة العدل الواحد فى جنس العقوبات فإن سبب نزول الاية يدل على ذلك فإنها نزلت فى إخبار واحد بأن قوما قد حابوا بالردة أو نقض العهد وفيه ايضا أنه متى إقترن بخبر الفاسق دليل آخر يدل على صدقه فقد إستبان الأمر وزوال الأمر بالتثبيت فتجوز إصابة القوم وعقوبتهم بخبر الفاسق مع قرينة إذا تبين بهما الأمور فكيف خبر الواحد العدل مع دلالة أخرى ولهذا كان أصح القولين أن مثل هذا لوث فى باب القسامة فغذا إنضاف إيمان المقسمين صار ذلك بينة تبيح دم المقسم عليه وقوله {أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ}الحجرات٦ فجعل المحذور هو الإصابة لقوم بلا علم فمتى أصيبوا بعلم زال المحذور وهذا هو المناط الذى دل عليه القرآن كما قال {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}الزخرف٨٦ وقال {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}الإسراء٣٦ وأيضا فإنه علل ذلك بخوف الندم إنما يحصل على عقوبة البرىء من الذنب كما فى سنن أبى داود ادرؤا الحدود بالشبهات فإن الإمام أن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة فإذا دار الأمر بين ان يخطىء فيعاقب برئيا أو يخطىء فيعفو عن مذنب كان هذا الخطأ خير الخطأين أما إذا حصل عنده علم أنه لم يعاقب إلا مذنبا فإنه يندم ولا يكون فيه خطأ والله أعلم وقد ذكر الشافعى وأحمد أن التغريب جاء فى السنة فى موضعين أحدهما أن النبى قال فى الزانى إذا لم يحصن جلد مائة جلدة و تغريب عام والثانى نفى المخنثين فيما روته ام سلمة أن النبى دخل عليها وعندها مخنث وهو يقول لعبد الله أخيها إن فتح الله لك الطائف غدا أدلك على إبنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقال النبى صلى الله عليه وسلم أخرجوهم من بيوتكم رواه الجماعة إلا الترمذى وفى رواية فى الصحيح لا يدخلن هؤلاء عليكم وفى رواية هذا يعرف مثل هذا لا يدخلن عليكم بعد اليوم قال ابن جريج المخنث هو هيت وهكذا ذكره غيره وقد قيل فيه إنه هنب وزعم بعضهم أنه ماتع وقيل هوان وروى الجماعة إلا مسلما أن النبى لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء وقال أخرجوهم من بيوتكم وأخرجوا فلانا وفلانا يعنى المخنثين وقد ذكر بعضهم أنهم كانوا ثلاثة بهم وهيت وماتع على عهد رسول الله ولم يكونوا يرمون بالفاحشة الكبرى إنما كان تخنيثهم وتأنيثهم لينا فى القول وخضابا فى الأيدى والأرجل كخضاب النساء ولعبا كلعبهن وفى سنن أبى داود عن أبى يسار القرشى عن أبى هاشم بن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بمخنث وقد خضب رجليه ويديه بالحناء فقال ما بال هذا فقيل يا رسول الله يتشبه بالنساء فأمر به فنفى إلى النقيع فقيل يا رسول الله ألا نقتله فقال إنى نهيت عن قتل المصلين قال أبوأسامة حماد بن اسامة والنقيع ناحية

عن المدينة وليس بالبقيع وقيل أنه الذى حماه النبى لا بل الصدقة ثم حماه عمر وهو على عشرين فرسخا من المدينة وقيل عشرين ميلا ونقيع الخضمات موضع آخر قرب المدينة وقيل هو الذى حماه عمر والنقيع موضع يستنقع فيه الماء كما فى الحديث أول جمعة جمعت بالمدينة فى نقيع الخضمات فإذا النبى قد أمر بإخراج مثل هؤلاء من البيوت فمعلوم أن الذى يمكن الرجال من نفسه والإستمتاع به وبما يشاهدونه من محاسنه وفعل الفاحشة الكبرى به شر من هؤلاء وهو أحق بالنفى من بين أظهر المسلمين وإخراجه عنهم فإن المخنث فيه إفساد للرجال والنساء لأنه إذا تشبه بالنساء فقد تعاشره النساء ويتعلمن منه وهو رجل فيفسدهن ولأن الرجال إذا مالوا إليه فقد يعرضون عن النساء ولأن المرأة إذا رأت الرجل يتخنث فقد تترجل هى وتتشبه بالرجال فتعاشر الصنفين وقد تختار هى مجامعة النساء كما يختار هو مجامعة الرجال وأما إفساده للرجال فهو أن يمكنهم من الفعل به كما يفعل بالنساء بمشاهدته ومباشرته وعشقه فإذا أخرج من بين الناس وسافر إلى بلد آخر ساكن فيه الناس ووجد هناك من يفعل به الفاحشة فهنا يكون نفيه بحبسه فى مكان واحد ليس معه فيه غيره وإن خيف خروجه فإنه يقيد إذ هذا هو معنى نفيه وإخراجه من بين الناس ولهذا تنازع العلماء فى نفى المحارب من الأرض هل هو طرده بحيث لا يأوى فى بلد او حبسه أو بحسب ما يراه الإمام من هذا وهذا ففى مذهب أحمد ثلاث روايات الثالثة اعدل وأحسن فإن نفيه بحيث لا يأوى فى بلد لا يمكن لتفرق الرعية وإختلاف هممهم بل قد يكون بطرده يقع الطريق وحبسه قد لا يمكن لأنه يحتاج إلى مؤنة إلى طعام وشراب وحارس ولا ريب أن النفى أسهل إن أمكن وقد روى إن هيتا لما إشتكى الجوع أمره النبى أن يدخل المدينة من الجمعة إلى الجمعة يسأل ما يقيته إلى الجمعة الأخرى ومعلوم أن قوله أو ينفوا من الأرض لا يتضمن نفيه من جميع الأرض وإنما هو نفيه من بين الناس وهذا حاصل بطرده وحبسه وهذا الذى جاءت به الشريعة من النفى هو نوع من الهجرة أى هجره وليس هذا كنفى الثلاثة الذين خلفوا ولا هجره كهجرهم فإنه منع الناس من مخالطتهم ومخاطبتهم حتى أزواجهم ولم يمنعهم من مشاهدة الناس وحضور مجامعهم فى الصلاة وغيرها وهذا دون النفى المشروع فإن النفى المشروع مجموع من الأمرين وذلك أن الله خلق الآدميين محتاجين إلى معاونة بعضهم بعضا على مصلحة دينهم ودنياهم فمن كان بمخالطته للناس لا يحصل منه عون على الدين بل يفسدهم ويضرهم فى دينهم ودنياهم إستحق الإخراج من بينهم وذلك أنه مضرة بلا مصلحة فإن مخالطته لهم فيها فسادهم وفساد أولادهم فإن الصبى إذا رأى صبيا مثله يفعل شيئا تشبه به وسار بسيرته مع الفساق فإن الإجتماع بالزناة واللوطيين فيه أعظم الفساد والضرر على

النساء والصبيان والرجال فيجب أن يعاقب اللوطى والزانى بما فيه تفريقه وإبعاده وجماع الهجرة هى هجرة السيئات وأهلها وكذلك هجران الدعاة الى البدع وهجران الفساق وهجران من يخالط هؤلاء كلهم أو يعاونهم وكذلك من يترك الجهاد الذى لا مصلحة لهم بدونه فإنه يعاقب بهجرهم له لما لم يعاونهم على البر والتقوى فالزناة واللوطية وتارك الجهاد واهل البدع وشربة الخمر هؤلاء كلهم ومخالطتهم مضرة على دين الإسلام وليس فيهم معاونة لا على بر ولا على تقوى فمن لم يهجرهم كان تاركا للمأمور فاعلا للمحظور فهذا ترك المأمور من الإجتماع وذلك فعل المحظور منه فعوقب كل منهما بما يناسب جرمه فإن العقوبة إنما تكون على ترك مأمور أو فعل محظور كما قال الفقهاء إنما يشرع التعزير فى معصية ليس فيها حد فإن كان فيها كفارة فعلى فعلين فى مذهب أحمد وغيره قال وما جاءت به الشريعة من المأمورات والعقوبات والكفارات وغير ذلك فإنه يفعل منه بحسب الإستطاعة فإذا لم يقدر المسلم على جهاد المشركين فإنه يجاهد من يقدر على جهاده وكذلك إذا لم يقدر على عقوبة جميع المعتدين فإنه يعاقب من يقدر على عقوبته فإذا لم يمكن النفى والحبس عن جميع الناس كان النفى والحبس عن جميع الناس كان النفى والحبس حسب القدرة مثل أن يحبس بدار لا يباشر إلا أهلها لا يخرج منها او أن لا يباشر إلا شخصا أو شخصين فهذا هو الممكن فيكون هو المامور به وأن أمكن أن يجعل فى مكان قد قل فيه القبيح ولا يعدم بالكلية كان ذلك هو المأمور به فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فالقليل من الخير خير من تركه ودفع بعض الشر خير من تركه كله وكذلك المرأة المتشبهة بالرجال تحبس شبيها بحالها إذا زنت سواء كانت بكرا أو ثيبا فإن جنس الحبس مما شرع فى جنس الفاحشة ومما يدخل فى هذا أن عمر بن الخطاب نفى نصر بن حجاج من المدينة ومن وطنه إلى البصرة لما سمع تشبيب النساء به وتشبهه بهن وكان أولا قد أمر بأخذ شعره ليزيل جماله الذى كان يفتن به النساء فلما رآه بعد ذلك من أحسن الناس وجنتين غمه ذلك فنفاه إلى البصرة فهذا لم يصدر منه ذنب ولا فاحشة يعاقب عليها لكن كان فى النساء من يفتن به فأمر بإزالة جماله الفاتن فإن إنتقاله عن وطنه مما يضعف همته وبدنه ويعلم أنه معاقب وهذا من باب التفريق بين الذين يخاف عليهم الفاحشة والعشق قبل وقوعه وليس من باب المعاقبة وقد كان عمر ينفى فى الخمر إلى خيبر زيادة فى عقوبة شاربها ومن اقوى ما يهيج الفاحشة إنشاد أشعار الذين فى قلوبهم مرض من العشق ومحبة الفواحش ومقدماتها بالأصوات المطربة فإن المغنى إذا غنى بذلك حرك القلوب المريضة إلى محبة الفواحش فعندها يهيج مرضه ويقوى بلاؤه وإن كان القلب فى عافية من ذلك جعل فيه مرضا كما قال بعض السلف الغناء رقية الزنا

ورقية الحية هى ما تستخرج بها الحية من جحرها ورقية العين والحمة هى ما تستخرج به العافية ورقية الزنا هو ما يدعو إلى الزنا ويخرج من الرجل هذا الأمر القبيح والفعل الخبيث كما أن الخمر أم الخبائث قال ابن مسعود     الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل     وقال تعالى لإبليس     وإستفزز من إستطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد     وإستفزازه إياهم بصوته يكون بالغناء كما قال من قال من السلف وبغيره من الأصوات كالنياحة وغير ذلك فإن هذه الأصوات كلها توجب إنزعاج القلب والنفس الخبيثة إلى ذلك وتوجب حركتها السريعة وإضطرابها حتى يبقى الشيطان يلعب بهؤلاء أعظم من لعب الصبيان بالكرة والنفس متحركة فإن سكنت فباذن الله وإلا فهي لا تزال متحرك وشبهها بعضهم بكرة على مستوى أملس لا تزال تتحرك عليه وفى الحديث المرفوع القلب اشد تقلبا من القدر إذا إستجمعت غليانا     وفى الحديث الآخر     مثل القلب مثل ريشه بفلاة من الأرض تحركها الريح     وفى صحيح البخارى عن سالم عن إبن عمر قال     كانت يمين رسول الله لا ومقلب القلوب     وفى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول     اللهم مصرف القلوب إصرف قلوبنا إلى طاعتك     وفى الترمذى عن أبى سفيان قال كان رسول الله يكثر أن يقول     يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك قال فقلت يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم القلوب بين أصبعين من اصابع الله يقلبها كيف يشاء [1]

## {فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ}

وقد إعتبر نصاب حد الزنا باربعة شهداء     وكذلك تعتبر صفاتهم فلا يقام حد الزنا على مسلم إلا بشهادة مسلمين لكن يقال لم يقيدها بأن يكونوا عدولا مرضيين كما قيدهم فى آية الدين بقوله     {مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء}البقرة٢٨٢     وقال فى آية الوصية  {اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ}المائدة١٠٦ وقال فى آية الرجعة  {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ}الطلاق٢ فقد أمرنا الله سبحانه بأن نحمل الشهادة المحتاج إليها لأهل العدل والرضا وهؤلاء هم الممتثلون ما أمرهم الله به بقوله  {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص:٢٩٥- ٣١٣

وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ}النساء١٣٥ الآية وفى قوله تعالى {وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ}البقرة٢٨٣ وقوله {وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ}البقرة٢٨٢ وقوله {وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ}المعارج٣٣ فهم يقومون بالشهادة بالقسط لله فيحصل مقصود الذى إستشهده الوجه الثانى أن كون شهادتهم مقبولة مسموعة لأنهم أهل العدل والرضى فدل على وجوب ذلك فى القبول والأداء وقد نهى سبحانه عن قبول شهادة الفاسق بقوله {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}الحجرات٦ الآية لكن هذا نص فى أن الفاسق الواحد يجب التبين فى خبره وأما الفاسقان فصاعدا فالدلالة عليه يحتاج إلى مقدمة أخرى وما ذكروه من عدد الشهود لا يعتبر فى الحكم بإتفاق العلماء فى مواضع وعند جمهورهم قد يحكم بلا شهود فى مواضع عند النكول والرد ونحو ذلك ويحكم بشاهد ويمين رواه أبوداود وغيره من حديث أبى هريرة ورواه مسلم من حديث ابن عباس أن رسول الله قضى بشاهد ويمين ورواه غيرهما ويدل على هذا أن الله لم يعتبر عند الأداء هذا القيد لا فى آية الزنا ولا فى آية القذف بل قال {فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ}النساء١٥ وقال {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء}النور٤ وإنما أمر بالتثبيت عند خبر الفاسق الواحد ولم يأمر به عند خبر الفاسقين فإن خبر الإثنين يوجب من الإعتقاد مالا يوجبه خبر الواحد ولهذا قال العلماء إذا إستراب الحاكم فى الشهود فرقهم وسألهم عن مكان الشهادة وزمانها وصفتها وتحملها وغير ذلك مما يتبين به إتفاقهم وإختلافهم [1]

## الايمان أفضل الاصلاح

لفظ الصلاح و الفساد فاذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير وكذلك الفساد يتناول جميع الشر وكذلك اسم المصلح والمفسد و قرن الصلاح والاصلاح بالايمان فى مواضع كثيرة كقوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}البقرة٨٢ {فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}الأنعام٤٨ ومعلوم أن الايمان أفضل الاصلاح وأفضل العمل الصالح كما جاء فى الحديث الصحيح أنه قيل يا رسول الله أى الأعمال أفضل قال ايمان بالله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٥٢-٣٥٣

وقال فى القذف {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا}النور٥ وقال {وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا}النساء١٦ ولهذا شرط الفقهاء فى أحد قوليهم فى قبول شهادة القاذف أن يصلح وقدروا ذلك بسنة كما فعل عمر بصبيغ بن عسل لما أجله سنة وبذلك أخذ أحمد فى توبة الداعى الى البدعة أنه يؤجل سنة كما أجل عمر صبيغ بن عسل [1]

## "كل من عمل سوءا فهو جاهل"

وأما السيئات فمنشؤها الجهل والظلم فإن أحدا لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة أو لهواه وميل نفسه إليها ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها أو لبغض نفسه لها وفي الحقيقة فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل وإلا فلو كان عالما علما نافعا بأن فعل هذا يضره ضررا راجحا لم يفعله فإن هذا خاصية العاقل ولهذا إذا كان من الحسنات ما يعلم أنه يضره ضررا راجحا كالسقوط من مكان عال أو في نهر يغرقه أو المرور بجنب حائط مائل أو دخول نار متأججة أو رمى ماله في البحر ونحو ذلك لم يفعله لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه ومن لم يعلم أن هذا يضره كالصبي والمجنون والساهي والغافل فقد يفعل ذلك ومن أقدم على ما يضره مع علمه من الضرر عليه فلظنه أن منفعته راجحة فأما أن يجزم بضرر مرجوح أو يظن أن الخير راجح فلا بد من رجحان الخير إما في الظن وإما في المظنون كالذي يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة للربح فإنه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر لما سافر لكنه يترجح عنده السلامة والربح وإن كان مخطئا في هذا الظن وكذلك الذنوب إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع لم يسرق وكذلك الزاني إذا جزم بأنه يرجم لم يزن والشارب يختلف حاله فقد يقدم على جلد أربع وثمانين ويديم الشرم مع ذلك ولهذا كان الصحيح أن عقوبة الشارب غير محددة بل يجوز أن تنتهي إلى القتل إذا لم ينته إلا بذلك كما جاءت بذلك الأحاديث كما هو مذكور في غير هذا الموضع وكذلك العقوبات متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله بل إما أن لا يكون جازما بتحريمه أو يكون غير جازم بعقوبته بل يرجو العفو بحسنات أو توبة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٨٦

أو بعفو الله أو يغفل عن هذا كله ولا يستحضر تحريما ولا وعيدا فيبقى غافلا غير مستحضر للتحريم والغفلة من أضداد العلم _ فالغفلة و الشهوة أصل الشر قال تعالى {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}الكهف٢٨ و الهوى و حده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل و إلا فصاحب الهوى إذا علم قطعا أن ذلك يضره ضررا راجحا انصرفت نفسه عنه بالطبع فان الله تعالى جعل فى النفس حبا لما ينفعها و بغضا لما يضرها فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضررا راجحا بل متى فعلته كان لضعف العقل ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل و ذو نهى و ذو حجى ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان لامن مجرد النفس فان الشيطان يزين لها السيئات و يأمرها بها و يذكر لها ما فيها من المحاسن التى هي منافع لامضار كما ابليس بآدم و حواء فقال {يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى {١٢٠} فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا {١٢١}طه١٢٠-١٢١ {وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}الأعراف٢٠ ولهذا قال تعالى {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ {٣٦} وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ{٣٧}الزخرف٣٦ -٣٧ و قال تعالى {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً}فاطر٨ و قال تعالى {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}الأنعام١٠٨ وقوله {زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}الأنعام١٠٨ هو بتوسيط تزيين الملائكة و الأنبياء و المؤمنين للخير و تزيين شياطين الجن و الانس للشر قال تعالى {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}الأنعام١٣٧ فأصل ما يوقع الناس فى السيئات الجهل و عدم العلم بكونها تضرهم ضررا راجحا أو ظن أنها تنفعهم نفعا راجحا و لهذا قال الصحابة رضي الله عنهم كل من عصى الله فهو جاهل و فسروا بذلك قوله تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ}النساء١٧ كقوله {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}الأنعام٥٤ و لهذا يسمى حال فعل السيئات الجاهلية فانه يصاحبها حال من حال جاهلية قال ابو العالية سألت اصحاب محمد صلى الله عليه و سلم عن هذه الآية {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ}النساء١٧ فقالوا كل من عصى الله فهو جاهل و من تاب قبيل الموت فقد تاب من قريب وعن قتادة قال اجمع اصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم على ان كل من عصى ربه فهو

فى جهالة عمدا كان او لم يكن و كل من عصى الله فهو جاهل و كذلك قال التابعون و من بعدهم قال مجاهد من عمل ذنبا من شيخ أو شاب فهو بجهالة و قال من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته و قال ايضا هو إعطاء الجهالة العمد و قال مجاهد أيضا من عمل سوءا خطأ أو إثما عمدا فهو جاهل حتى ينزع منه رواهن ابن أبي حاتم ثم قال و روى عن قتادة و عمرو بن مرة و الثوري و نحو ذلك ذلك خطأ أو عمدا وروى عن مجاهد و الضحاك قالا ليس من جهالته أن لا يعلم حلالا و لا حراما و لكن من جهالته حين دخل فيه و قال عكرمة الدنيا كلها جهالة وعن الحسن البصري أنه سئل عنها فقال هم قوم لم يعلموا مالهم مما عليهم قيل له أرأيت لو كانوا قد علموا قال فليخرجوا منها فانها جهالة قلت و مما يبين ذلك قوله تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء}فاطر٢٨ و كل من خشيه و أطاعه و ترك معصيته فهو عالم كما قال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}الزمر٩ و قال رجل للشعبى أيها العالم فقال إنما العالم من يخشى الله و قوله تعالى تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء}فاطر٢٨ يقتضي أن كل من خشى الله فهو عالم فإنه لا يخشاه إلا عالم رضي الله عنه ويقتضي أيضا أن العالم من يخشى الله كما قال السلف قال ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار جهلا [١]

_قال تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١٧ تقول طائفة جاهلية وشاعر جاهلي وذلك نسبة إلى الجهل الذي هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم فإن من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطا فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلا مركبا فإن قال خلاف الحق عالما بالحق أو غير عالم فهو جاهل أيضا كما قال تعالى {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً}الفرقان٦٣ وقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يفسق ولا يجهل ومن هذا قول بعض الشعراء ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا وهذا كثير وكذلك من عمل بخلاف الحق فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق كما قال سبحانه {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ}النساء١٧ قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم

---

[١] الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ٦٢-٦٣ و مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٨٧-٢٨٨

كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهى وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون[1]

قال تعالى {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً {٦٨} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً{٦٩} إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٧٠} الفرقان٦٨ -٧٠ فإذا كان الله يبدل سيئاتهم حسنات فالحسنات توجب مودة الله لهم وتبديل السيئات حسنات ليس مختصا بمن كان كافرا وقد قال تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١٧ قال أبو العالية سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقالوا لي كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب [2]

والأمور التى حرمها الله ورسوله من الشرك والسحر والقتل والزنا وشهادة الزور وشرب الخمر وغير ذلك من المحرمات قد يكون للنفس فيها حظ مما تعده منفعة أو دفع مضرة ولولا ذلك ما أقدمت النفوس على المحرمات التى لا خير فيها بحال وإنما يوقع النفوس فى المحرمات الجهل أو الحاجة فأما العالم بقبح الشىء والنهى عنه فكيف يفعله والذين يفعلون هذه الأمور جميعها قد يكون عندهم جهل بما فيه من الفساد وقد تكون بهم حاجة إليها مثل الشهوة إليها وقد يكون فيها من الضرر

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص:٧٧- ٧٨

[2] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٦١

أعظم مما فيها من اللذة ولا يعلمون ذلك لجهلهم أو تغلبهم أهواؤهم حتى يفعلوها والهوى غالبا يجعل صاحبه كانه لا يعلم من الحق شيئا فإن حبك للشيء يعمى ويصم ولهذا كان العالم يخشى الله وقال أبوالعالية سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله عز وجل {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ}النساء١٧ الآية فقالوا كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وليس هذا موضع البسط لبيان ما في المنهيات من المفاسد الغالبة وما في المأمورات من المصالح الغالبة بل يكفى المؤمن أن يعلم أن ما أمر الله به فهو لمصلحة محضة أو غالبة وما نهى الله عنه فهو مفسدة محضة أو غالبة وإن الله لا يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم ولا نهاهم عما نهاهم بخلابه عليهم بل أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم ولهذا وصف نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ}الأعراف١٥٧ [١]

## "إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر"

وأما قوله يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا وفي رواية وأنا أغفر الذنوب ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان أحدهما المغفرة لمن تاب كما في قوله تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {٥٣} وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ{٥٤} الزمر٥٣-٥٤ فهذا السياق مع سبب نزول الآية يبين أن المعنى لا ييأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ما كانت فإن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب وقد دخل في هذا العموم الشرك وغيره من الذنوب فإن الله تعالى يغفر ذلك لمن تاب منه قال تعالى {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ}التوبة٥ إلى قوله {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٩١ و زيارة القبور ج: ١ ص: ٥٢-٥٣

سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}التوبة٥ وقال في الآية الأخرى {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}التوبة١١ وقال {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ}المائدة٧٣ إلى قوله {أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}المائدة٧٤ وهذا القول الجامع بالمغفرة لكل ذنب للتائب منه كما دل عليه القرآن والحديث هو الصواب عند جماهير أهل العلم وإن كان من الناس من يستثني بعض الذنوب كقول بعضهم إن توبة الداعية إلى البدع لا تقبل باطنا للحديث الإسرائيلي الذي فيه فكيف من أضللت وهذا غلط فإن الله قد بين في كتابه وسنة رسوله أنه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع وقد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}البروج١٠ قال الحسن البصري انظروا إلى هذا الكرم عذبوا أولياءه وفتنوهم ثم وهو يدعوهم إلى التوبة وكذلك توبة القاتل ونحوه وحديث أبي سعيد المتفق عليه في الذي قتل تسعة وتسعين نفسا يدل على قبول توبته وليس في الكتاب والسنة ما ينافي ذلك ولا نصوص الوعيد فيه وفي غيره من الكبائر بمنافية لنصوص قبول التوبة فليست آية الفرقان بمنسوخة بآية النساء إذ لا منافاة بينهما فإنه قد علم يقينا أن كل ذنب فيه وعيد فإن لحوق الوعيد مشروط بعدم التوبة إذ نصوص التوبة مبنية لتلك النصوص كالوعيد في الشرك وأكل الربا وأكل مال اليتيم والسحر وغير ذلك من الذنوب ومن قال من العلماء توبته غير مقبولة فحقيقة قوله التي تلائم أصول الشريعة أن يراد بذلك أن التوبة المجردة تسقط حق الله من العقاب وأما حق المظلوم فلا يسقط بمجرد التوبة وهذا حق ولا فرق في ذلك بين القاتل وسائر الظالمين فمن تاب من ظلم لم يسقط بتوبته حق المظلوم لكن من تمام توبته أن يعوضه بمثل مظلمته وإن لم يعوضه في الدنيا فلا بد له من العوض في الآخرة فينبغي للظالم التائب أن يستكثر من الحسنات حتى إذا استوفى المظلومون حقوقهم لم يبق مفلسا ومع هذا فإذا شاء الله أن يعوض المظلوم من عنده فلا راد لفضله كما إذا شاء أن يغفر مادون الشرك لمن يشاء ولهذا في حديث القصاص الذي ركب فيه جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس شهرا حتى شافهه به وقد رواه الإمام أحمد وغيره واستشهد به البخاري في صحيحه وهو من جنس حديث الترمذي صحاحه أو حسانه قال فيه إذا كان يوم القيامة فإن الله يجمع الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار قبله مظلمة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة حتى أقصه منه فبين في الحديث العدل والقصاص بين أهل الجنة وأهل النار

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد أن أهل الجنة إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة وقد قال سبحانه لما قال{وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً}الحجرات١٢ والاغتياب من ظلم الأعراض قال {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}الحجرات١٢ فقد نبههم على التوبة من الاغتياب وهو من الظلم وفي الحديث الصحيح من كان عنده لأخيه مظلمة في دم أو مال أو عرض فليأته فليستحل منه قبل أن يأتي يوم ليس فيه درهم ولا دينار إلا الحسنات والسيئات فإن كان له حسنات وإلا أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم يلقى في النار أو كما قال وهذا فيما علمه المظلوم من العوض فأما إذا اغتابه أو قذفه ولم يعلم بذلك فقد قيل من شرط توبته إعلامه وقيل لا يشترط ذلك وهذا قول الأكثرين وهما روايتان عن أحمد لكن قوله مثل هذا أن يفعل مع المظلوم حسنات كالدعاء له والاستغفار وعمل صالح يهدى إليه يقوم مقام اغتيابه وقذفه قال الحسن البصري كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته وأما الذنوب التي يطلق الفقهاء فيها نفي قبول التوبة مثل قول أكثرهم لا تقبل توبة الزنديق وهو المنافق وقولهم إذا تاب المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه حدود الله وكذلك قول الكثير منهم أو أكثرهم في سائر الجرائم كما هو أحد قولي الشافعي وأصح الروايتين عن أحمد وقولهم في هؤلاء إذا تابوا بعد الرفع إلى الإمام لم تقبل توبتهم فهذا إنما يريدون به رفع العقوبة المشروعة عنهم أى لا تقبل توبتهم بحيث يخلى بلا عقوبة بل يعاقب إما لأن توبته غير معلومة الصحة بل يظن به الكذب فيها وإما لأن رفع العقوبة بذلك يفضي إلى انتهاك المحارم وسد باب العقوبة على الجرائم ولا يريدون بذلك أن من تاب من هؤلاء توبة صحيحة فإن الله لا يقبل توبته في الباطن إذ ليس هذا قول أحد من أئمة الفقهاء بل هذه التوبة لا تمنع إلا إذا عاين أمر الآخرة كما قال تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{١٧} وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ {١٨} النساء ١٧-١٨ الآية قال أبو العالية سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقالوا لي كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وأما من تاب عند معاينة الموت فهذا كفرعون الذي قال أنا الله فلما أدركه الغرقة {قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ{٩٠} آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ{٩١}يونس٩٠-٩١ وهذا استفهام إنكار بين به أن هذه التوبة ليست هي التوبة المقبولة المأمور بها فإن استفهام الإنكار إما بمعنى النفي إذا

قابل الأخبار وإما بمعنى الذم والنهي إذا قابل الإنشاء وهذا من هذا ومثله قوله تعالى {فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{٨٣} فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ{٨٤} فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا {٨٥} غافر ٨٣-٨٥ الآية بين أن التوبة بعد رؤية البأس لاتنفع وأن هذه سنة الله التي قد خلت في عباده كفرعون وغيره وفي الحديث إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر وروي ما لم يعاين وقد ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم عرض على عمه التوحيد في مرضه الذي مات فيه وقد عاد يهوديا كان يخدمه فعرض عليه الإسلام فأسلم فقال الحمد لله الذي أنقذه بي من النار ثم قال لأصحابه آووا أخاكم ومما يبين أن المغفرة العامة في الزمر هي للتائبين أنه قال في سورة النساء {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء١١٦ فقيد المغفرة بما دون الشرك وعلقها على المشيئة وهناك أطلق وعمم فدل هذا التقييد والتعليق على أن هذا في حق غير التائب ولهذا استدل أهل السنة بهذه الآية على جواز المغفرة لأهل الكبائر في الجملة خلافا لمن أوجب نفوذ الوعيد بهم من الخوارج والمعتزلة وإن كان المخالفون لهم قد أسرف فريق منهم من المرجئة حتى توقفوا في لحوق الوعيد بأحد من أهل القبلة كما يذكر عن غلاتهم أنهم نفوه مطلقا ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه ونصوص الكتاب والسنة مع اتفاق سلف الأمة وأئمتها متطابقة على أن من أهل الكبائر من يعذب وأنه لايبقى في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان [١]

ما روى ابو ادريس قال اتى على رضي الله عنه بأناس من الزنادقة ارتدوا عن الاسلام فسألهم فجحدوا فقامت عليهم البينة العدول قال فقتلهم ولم يستتبهم وقال واتى برجل كان نصرانيا واسلم ثم رجع عن الاسلام قال فسأله فأقر بما كان منه فاستتابه فتركه فقيل له كيف تستتيب هذا ولم تستتب اولئك قال ان هذا اقر بما كان منه وان اولئك لم يقروا وجحدوا حتى قامت عليهم البينة فلذلك لم استتبهم رواه الامام احمد وروى الاثرم عن ابي ادريس قال اتى علي برجل قد تنصر فاستتابه فأبى ان يتوب فقتله وأتى برهط يصلون القبلة وهم زنادقة وقد قامت عليهم بذلك الشهود العدول

---

[١] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٣٠-٤٣٣ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٨٦-١٩١ و مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٣٢٥ و رسالة في الرد على ابن العربي ج: ١ ص: ٢٠٨

فجحدوا وقالوا ليس لنا دين الا الاسلام فقتلهم ولم يستتبهم ثم قال اتدرون لم استتبت هذا النصراني استتبته لانه اظهر دينه واما الزنادقة الذين قامت عليهم البينة وجحدوني فانما قتلتهم لانهم جحدوا وقامت عليهم البينة فهذا من امير المؤمنين على رضي الله عنه بيان ان كل زنديق كتم زندقته وجحدها حتى قامت عليه البينة قتل ولم يستتب وان النبي لم يقتل من جحد زندقته من المنافقين لعدم قيام البينة ويدل على ذلك قوله تعالى {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ}التوبة١٠١ الى قوله {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً}التوبة١٠٢ فعلم ان من لم يعترف بذنبه كان من المنافقين ولهذا الحديث قال الامام احمد في الرجل يشهد عليه بالبدعة فيجحد ليست له توبة انما التوبة لمن اعترف فاما من جحدها فلا توبة له قال القاضي أبو يعلي وغيره واذا اعترف بالزندقة ثم تاب قبلت توبته لانه باعترافه يخرج عن حد الزندقة لان الزنديق هو الذي يستبطن الكفر وينكره ولا يظهره فاذا اعترف به ثم تاب خرج عن حده فلهذا قبلنا توبته ولهذا لم يقبل علي رضي الله عنه توبة الزنادقة لما جحدوا وقد يستدل على المسالة بقوله تعالى {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ}النساء١٨ الاية وروى الامام احمد باسناده عن ابي العالية في قوله تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ}النساء١٧ قال هذه في اهل الايمان {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ}النساء١٨ قال هذه في اهل النفاق {وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ}النساء١٨ قال هذه في اهل الشرك هذا مع انه الراوي عن اصحاب محمد فيما اظن انهم قالوا كل عبد اصاب ذنبا فهو جاهل بالله وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ويدل على ما قال ان المنافق اذا اخذ ليقتل ورأى السيف فقد حضره الموت بدليل دخول مثل هذا في عموم قوله تعالى {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ}البقرة١٨٠ وقوله تعالى {شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ}المائدة١٠٦ وقد قال حين حضره الموت {إِنِّي تُبْتُ الآنَ}النساء١٨ فليست له توبة كما ذكره الله سبحانه نعم ان تاب توبة صحيحه فيما بينه وبين الله لم يكن ممن قال {إِنِّي تُبْتُ الآنَ}النساء١٨ بل يكون ممن تاب من قريب لان الله سبحانه انما نفى التوبة عمن حضره الموت وتاب بلسانه فقط ولهذا قال في الاول {ثُمَّ يَتُوبُونَ}النساء١٧ وقال هنا {إِنِّي تُبْتُ الآنَ}النساء١٨فمن قال اني تبت قبل حضور الموت او تاب توبة صحيحه بعد حضور اسباب الموت صحت توبته وربما استدل بعضهم بقوله تعالى {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}غافر٨٤ الايتين وبقوله تعالى {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ}يونس٩٠ الاية

وقوله سبحانه {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا}يونس٩٨ الاية فوجه الدلالة ان عقوبة الامم الخالية بمنزلة السيف للمنافقين ثم اولئك اذا تابوا بعد معاينة العذاب لم ينفعهم فكذلك المنافق ومن قال هذا فرق بينه وبين الحربي بانا لا نقاتله عقوبة على كفره بل نقاتله ليسلم فاذا اسلم فقد اتى بالمقصود والمنافق انما يقاتل عقوبة لا ليسلم فانه لم يزل مسلما والعقوبات لا تسقط بالتوبة بعد مجئ الباس وهذا كعقوبات سائر العصاة فهذه طريقة من يقتل الساب لكونه منافقا وفيه طريقة اخرى وهي ان سب النبي بنفسه موجب للقتل مع قطع النظر عن ككونه مجرد ردة فانا قد بينا انه موجب للقتل وبينا انه جناية غير الكفر اذا لو كان ردة محضة وتبديلا للدين وتركا له لما جاز للنبي العفو عمن كان يؤذيه كما لا يجوز العفو عن المرتد ولما قتل الذين سبوه وقد عفا عمن قاتل وحارب وقد ذكرنا أدلة اخرى على ذلك فيما تقدم ولان التنقص والسب قد يصدر عن الرجل مع اعتقاد النبوة والرسالة لكن لما وجب تعزير الرسول وتوقيره بكل طريق غلظت عقوبة من انتهك عرضه بالقتل فصار قتله حدا من الحدود لان سبه نوع من الفساد في الارض كالمحاربة باليد لا لمجرد كونه بدل الدين وتركه وفارق الجماعة واذا كان كذلك لم يسقط بالتوبة كسائر الحدود غير عقوبة الكفر وتبديل الدين قال الله تعالى {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {٣٣} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٣٤}المائدة٣٣ -٣٤ فثبت بهذه الاية ان من تاب بعد ان قدر عليه لم تسقط عنه العقوبة وكذلك قال سبحانه {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {٣٨} فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٣٩}المائدة٣٨ -٣٩ فامر بقطع ايديهم جزاء على ما مضى ونكالا عن السرقة في المستقبل منهم ومن غيرهم واخبر ان الله يتوب على من تاب ولم يدرا القطع بذلك لان القطع له حكمتان الجزاء والنكال والتوبة تسقط الجزاء ولا تسقط النكال فان الجاني متى علم انه اذا تاب لم يعاقب لم يردع ذلك الفساق ولم يزجرهم عن ركوب العظائم فان اظهار التوبة والاصلاح لمقصود حفظ النفس والمال سهل ولهذا لم نعلم خلافا يعتمد في ان السارق او الزاني لو اظهر التوبة بعد ثبوت الحد عليه عند السلطان لم يسقط الحد عنه وقد رجم النبي ماعزا والغامدية واخبر بحسن توبتهما وحسن مصيرهما وكذلك لو قيل ان سب النبي يسقط بالتوبة وتجديد الاسلام لم يردع ذلك الالسن عن انتهاك عرضه ولم يزجر النفوس عن الاستحلال حرمته بل يؤذيه الانسان بما يريد ويصيب من عرضه ما شاء من انواع السب والاذى ثم يجدد اسلامه

ويظهر ايمانه وقد ينال المرء من عرضه ويقع منه تنقص له واستهزاء ببعض اقواله او اعماله وان لم يكن منتقلا من دين الى دين فلا يصعب على من هذه سبيله كلما نال من عرضه واستخف بحرمته ان يجدد اسلامه بخلاف الردة المجردة عن الدين فان سقوط القتل فيها بالعود الى الاسلام لا يوجب اجتراء الناس على الردة اذ الانتقال عن الدين عسير لا يقع الا عن شبهة قادحة في القلب او شهوة قامعة للعقل فلا يكون قبول التوبة من المرتد مجريا للنفوس على الردة ويكون ما يتوقعه من خوف القتل زاجرا له عن الكفر فانه اذا اظهر ذلك لا يتم مقصوده لعلمه بانه يجبر على العود الى الاسلام وهنا من فيه استخفاف او اجتراء او سفاهة يتمكن من انتقاص النبي وعيبه والطعن عليه كلما شاء ثم يجدد الاسلام ويظهر التوبة وبهذا يظهر ان السب والشتم يشبه الفساد في الارض الذي يوجب الحد اللازم من الزنى وقطع الطريق والسرقة وشرب الخمر فان مريد هذه المعاصي اذا علم انه تسقط عنه العقوبة اذا تاب فعلها كلما شاء كذلك من يدعوه ضعف عقله او ضعف دينه الى الانتقاص برسول الله اذا علم ان التوبة تقبل منه اتى ذلك متى شاء ثم تاب منه وقد حصل مقصوده بما قاله كما حصل مقصود اولئك بما فعلوه بخلاف مريد الردة فان مقصوده لا يحصل الا بالمقام عليها وذلك لا يحصل له اذا قتل ان لم يرجع فيكون ذلك وازعا له وهذا الوجه لا يخرج السب عن ان يكون ردة لكن حقيقته انه نوع من الردة تغلظ بما فيه من انتهاك عرض رسول الله كما قد تتغلظ ردة بعض الناس بان ينضم اليها قتل وغيره فيتحتم القتل فيها دون الردة المجردة كما يتحتم القتل في القتل من قاطع الطريق لتغلظ الجرم وان لم يتحتم قتل من قتل لغرض اخر فعوده الى الاسلام يسقط موجب الردة المحضة ويبقى خصوص السب ولابد من اقامة حده كما ان توبة القاطع قبل القدرة عليه تسقط تحتم القتل ويبقى حق اولياء المقتول من القتل الدية او العفو وهذه مناسبة ظاهرة وقد تقدم نص الشارع وتنبيهه على اعتبار هذا المعنى فان قيل تلك المعاصي يدعو اليها الطبع مع صحة الاعتقاد فلو لم يشرع عنها زاجر لتسارعت النفوس اليها بخلاف سب رسول الله فان الطباع لا تدعوا اليه الا لخلل في الاعتقاد والخلل في الاعتقاد اكثر ما يوجب الردة فعلم ان مصدره اكثر ما يكون الكفر فيلزمه عقوبة الكافر وعقوبة الكافر مشروطة بعدم التوبة واذا لم يكن اليه بمجرده باعث طبيعي لم يشرع ما يزجر عنه وان كان حراما كالاستخفاف بالكتاب والدين ونحو ذلك قلنا بل قد يكون اليه باعث طبيعي غير الخلل في الاعتقاد من الكبر الموجب للاستخفاف ببعض احواله وافعاله والغضب الداعي الى الوقيعة فيه اذا خالف الغرض بعض احكامه والشهوة الحاملة على ذم ما يخالف الغرض من اموره وغير ذلك فهذه الامور قد تدعو الانسان الى نوع من السب له وضرب من الاذى والانتقاص وان لم يصدر

الا مع ضعف الايمان به كما ان تلك المعاصي لا تصدر ايضا الامع ضعف الايمان واذا كان كذلك فقبول التوبة ممن هذه حاله يوجب اجتراء امثاله علىامثال كلماته فلا يزال العرض منهوكا الحرمة محقورة بخلاف قبول التوبة ممن يرتد انتقالا عن الدين اما الى دين اخر او الى تعطيل فانه اذا علم انه يستتاب على ذلك فان تاب والاقتل لم ينتقل بخلاف ما اذا صدر السب عن كافر به ثم امن به فان علمه بانه اذا اظهر السب لا يقبل منه الا الاسلام او السيف يزعه عن هذا السب الا ان يكون مريدا للاسلام ومتى اراد الاسلام فالاسلام يجب ما كان قبله فليس في سقوط القتل باسلام الكافر من التطريق الى الوقيعة في عرضه ما في سقوطه بتجديد اسلام من يظهر الاسلام وايضا فان سب النبي حق لادمي فلا يسقط بالتوبة كحد القذف وكسب غيره من البشر [1]

## {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}

قال تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}فاطر٢٨ والمعنى انه لا يخشاه الا عالم فقد اخبر الله ان كل من خشى الله فهو عالم كما قال فى الآية الأخرى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ}الزمر٩ والخشية أبدا متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطا كما ان الرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنا فأهل الخوف لله والرجاء له هم اهل العلم الذين مدحهم الله وقد روى عن أبى حيان التيمى انه قال العلماء ثلاثة فعالم بالله ليس عالما بأمر الله وعالم بأمر الله ليس عالما بالله وعالم بالله عالم بأمر الله فالعالم بالله هو الذى يخافه والعالم بأمر الله هو الذى يعلم امره ونهيه وفى الصحيح عن النبى انه قال والله انى لأرجو ان اكون اخشاكم لله واعلمكم بحدوده واذا كان اهل الخشية هم العلماء الممدوحون فى الكتاب والسنة لم يكونوا مستحقين للذم وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات ويدل عليه قوله تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ{١٣} وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ{١٤}إبراهيم١٣-١٤ وقوله {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ

[1] الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٦٨٧-٦٩٤

جَنَّتَانِ} الرحمن٤٦ فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف وذلك إنما يكون لأنهم ادوا الواجب فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب ولهذا يقال للفاجر لا يخاف الله ويدل على هذا المعنى قوله تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ} النساء١٧ قال أبو العالية سألت اصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لى كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وكذلك قال سائر المفسرين قال مجاهد كل عاص فهو جاهل حين معصيته وقال الحسن وقتادة وعطاء والسدى وغيرهم انما سموا جهالا لمعاصيهم لا انهم غير مميزين وقال الزجاج ليس معنى الآية انهم يجهلون انه سوء لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءا وانما يحتمل امرين احدهما انهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه والثانى انهم اقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة وآثروا العاجل على الآجل فسموا جهالا لايثارهم القليل على الراحة الكثيرة والعافية الدائمة فقد جعل الزجاج الجهل إما عدم العلم بعاقبة الفعل واما فساد الارادة وقد يقال هما متلازمان وهذا مبسوط فى الكلام مع الجهمية والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله وانما يكون جاهلا لنقص خوفه من الله إذ لو تم خوفه من الله لم يعص ومنه قول ابن مسعود رضى الله عنه كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا وذلك لأن تصور المخوف يوجب الهرب منه وتصور المحبوب يوجب طلبه فاذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا دل على انه لم يتصوره تصورا تاما ولكن قد يتصور الخبر عنه وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر عنه وكذلك اذا لم يكن المتصور محبوبا له ولا مكروها فان الانسان يصدق بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره ولا يورثه ذلك هربا ولا طلبا وكذلك اذا اخبر بما هو محبوب له ومكروه ولم يكذب المخبر بل عرف صدقه لكن قلبه مشغول بأمور اخرى عن تصور ما أخبر به فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب وفى الكلام المعروف عن الحسن البصرى ويروى مرسلا عن النبى العلم علمان فعلم فى القلب وعلم على اللسان فعلم القلب هو العلم النافع وعلم اللسان حجة الله على عبادة وقد أخرجا فى الصحيحين عن ابى موسى عن النبى انه قال مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولاريح لها ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها وهذا المنافق الذى يقرأ القرآن يحفظه ويتصور معانيه وقد يصدق انه كلام الله وان الرسول حق ولايكون مؤمنا كما ان اليهود يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وليسوا

مؤمنين وكذلك ابليس وفرعون وغيرهما لكن من كان كذلك لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة فان ذلك يستلزم العمل بموجبه لامحالة ولهذا صار يقال لمن لم يعمل بعلمه أنه جاهل كما تقدم وكذلك لفظ العقل وان كان هو فى الأصل مصدر عقل يعقل عقلا وكثير من النظار جعله من جنس العلوم فلابد ان يعتبر مع ذلك انه علم يعمل بموجبه فلا يسمى عاقلا من عرف الخير فطلبه والشر فتركه ولهذا قال اصحاب النار {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}الملك١٠ وقال عن اليهود {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ}الحشر١٤ ومن فعل ما يعلم انه يضره فمثل هذا ماله عقل فكما ان الخوف من الله يستلزم العلم به فالعلم به يستلزم خشيته وخشيته تستلزم طاعته فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه وهذا هو الذى قصدنا بيانه اولا ويدل على ذلك ايضا قوله تعالى {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى{٩} سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{١٠} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{١١} الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى{١٢} الاعلى ٩-١٢ فأخبر ان من يخشاه يتذكر والتذكر هنا مستلزم لعبادته قال الله تعالى {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ}غافر١٣ وقال {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ}ق٨ ولهذا قالوا فى قوله {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى}الأعلى١٠ سيتعظ بالقرآن من يخشى الله وفى قوله {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ}غافر١٣ انما يتعظ من يرجع الى الطاعة وهذا لان التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره فان تذكر محبوبا طلبه وان تذكر مرهوبا هرب منه ومنه قوله تعالى {وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}يس١٠ وقال سبحانه {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ}يس١١ فنفى الانذار عن غير هؤلاء مع قوله وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}يس١٠ فأثبت لهم الانذار من وجه ونفاه عنهم من وجه فان الانذار هو الاعلام بالمخوف فالانذار مثل التعليم والتخويف فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه وآخر يقول علمته فلم يتعلم وكذلك من خوفته فخاف فهذا هو الذى تم تخويفه واما من خوف فما خاف فلم يتم تخويفه وكذلك من هديته فاهتدى تم هداه ومنه قوله تعالى {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}البقرة٢ ومن هديته فلم يهتد كما قال {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}فصلت١٧ فلم يتم هداه كما تقول قطعته فانقطع وقطعته فما انقطع فالمؤثر التام يستلزم اثره فمتى لم يحصل اثره لم يكن تاما والفعل اذا صادف محلا قابلا تم والا لم يتم والعلم بالمحبوب يورث طلبه والعلم بالمكروه يورث تركه ولهذا يسمى هذا العلم الداعى ويقال الداعى مع القدرة يستلزم وجود المقدور وهو العلم بالمطلوب المستلزم لارادة المعلوم المراد وهذا كله انما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها وأما مع فسادها فقد يحس الانسان باللذيذ فلا يجد

له لذة بل يؤلمه وكذلك يلتذ بالمؤلم الفساد الفطرة و الفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعا كالممرور الذى يجد العسل مرأ فانه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التى مازجته وكذلك من فسد باطنه قال تعالى {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ {١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠}الأنعام١٠٩ وقال تعالى {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}الصف٥ وقال {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}النساء١٥٥ وقال فى الآية الأخرى {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ}البقرة٨٨ و الغلف جمع أغلف وهو ذو الغلاف الذى فى غلاف مثل الأقلف كأنهم جعلوا المانع خلقة أى خلقت القلوب وعليها أغطية فقال الله تعالى {بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ}البقرة٨٨ و {طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٥٥ وقال تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ}محمد١٦ وكذلك قالوا {قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ}هود٩١ قال {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ}الأنفال٢٣ أى لأفهمهم ما سمعوه ثم قال ولو أفهمهم مع هذه الحال التى هم عليها {لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ}الأنفال٢٣ فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا ولو فهموا لم يعملوا فنفى عنهم صحة القوة العلمية وصحة القوة العملية وقال {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}الفرقان٤٤ وقال {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}الأعراف١٧٩ وقال {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}البقرة١٧١ وقال عن المنافقين {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}البقرة١٨ ومن الناس من يقول لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق جعلوا صما بكما عمليا أو لما أعرضوا عن السمع والبصر والنطق صاروا كالصم العمى البكم وليس كذلك بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت كما قال الله تعالى {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}الحج٤٦ والقلب هو الملك والأعضاء جنوده واذا صلح صلح سائر الجسد واذا فسد فسد سائر الجسد فيبقى يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم والمعنى لا يفقهه وان فقه بعض الفقه لم يفقه فقها تاما فان الفقه التام يستلزم تأثيره فى القلب محبة المحبوب وبغض المكروه فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلا فجاز نفيه لأن ما لم يتم ينفى كقوله للذى أساء فى صلاته صل فانك لم تصل فنفى الايمان حيث نفى من هذا الباب وقد جمع الله

بين وصفهم بوجل القلب اذا ذكر وبزيادة الايمان اذا سمعوا آياته قال الضحاك زادتهم يقينا وقال الربيع بن أنس خشية وعن ابن عباس تصديقا [1]

وجميع ما يتوب العبد منه سواء كان فعلا أو تركا قد لا يكون كان عالما بأنه ينبغي التوبة منه وقد يكون كان عالما بذلك فإن الإنسان كثيرا ما يكون غير عالم بوجوب الشيء أو قبحه ثم يتبين له فيما بعد وجوبه أو قبحه وقد يكون عالما بوجوبه أو قبحه ويتركه أو يفعله لضعف المقتضى لفعل الواجب أو قوة المقتضى لفعل القبيح لكن هذا لا يكاد يقع إلا مع ضعف العلم بوجوبه وقبحه وإلا فإذا كمل العلم استلزم الإرادة الجازمة في الطرفين ولهذا قال سبحانه إنما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما سورة النساء ١٧ قال أبو العالية قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب والمؤمن لا يزال يخرج من الظلمات إلى النور ويزداد هدى فيتجدد له من العلم والإيمان ما لم يكن قبل ذلك فيتوب مما تركه وفعله والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنوب [2]

## البدعة أحب إلى إبليس من المعصية

وقد قال سبحانه {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}الأنعام٥٤ وقال {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١٧ وقال {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}النحل١١٩فهذا وان كان قال الصحابة والتابعون ان كل عاص فهو جاهل كما قد بسط فى موضع آخر فهو متناول لمن يكون علم التحريم أيضا فدل على انه يكون عاملا سوءا وان كان لم يسمع الخطاب المبين المنهى عنه وانه يتوب من ذلك فيغفر الله له ويرحمه وان كان لا يستحق العقاب إلا بعد بلوغ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:٢١- ٢٧ و مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٧٨

[2] رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٣٦-٢٣٧

الخطاب وقيام الحجة وإذا كانت التوبة والاستغفار تكون من ترك الواجبات وتكون مما لم يكن علم انه ذنب تبين كثرة ما يدخل فى التوبة والاستغفار فان كثيرا من الناس إذا ذكرت التوبة والاستغفار يستشعر قبائح قد فعلها فعلم بالعلم العام أنها قبيحة كالفاحشة والظلم الظاهر فأما ما قد يتخذ دينا فلا يعلم أنه ذنب إلا من علم أنه باطل كدين المشركين وأهل الكتاب المبدل فانه مما تجب التوبة والاستغفار منه وأهله يحسبون أنهم على هدى وكذلك البدع كلها ولهذا قال طائفة من السلف منهم الثورى البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها وهذا معنى ما روى عن طائفة أنهم قالوا إن الله حجر التوبة على كل صاحب بدعة بمعنى أنه لا يتوب منها لأنه يحسب انه على هدى ولو تاب لتاب عليه كما يتوب على الكافر ومن قال إنه لا يقبل توبة مبتدع مطلقا فقد غلط غلطا منكرا ومن قال ما اذن الله لصاحب بدعة فى توبة فمعناه ما دام مبتدعا يراها حسنة لا يتوب منها فأما إذا أراه الله أنها قبيحة فانه يتوب منها كما يرى الكافر أنه على ضلال والا فمعلوم أن كثيرا ممن كان على بدعة تبين له ضلالها وتاب الله عليه منها وهؤلاء لا يحصيهم إلا الله و الخوارج لما أرسل اليهم ابن عباس فناظرهم ورجع منهم نصفهم أو نحوه وتابوا وتاب منهم آخرون على يد عمر بن عبد العزيز وغيره ومنهم من سمع العلم فتاب وهذا كثير فهذا القسم الذى لا يعلم فاعلوه قبحه قسم كثير من أهل القبلة وهو فى غيرهم عام وكذلك ما يترك الانسان من واجبات لا يعلم وجوبها كثيرة جدا ثم إذا علم ما كان قد تركه من الحسنات من التوحيد والايمان وما كان مأمورا بالتوبة منه والاستغفار مما كان سيئة والتائب يتوب مما تركه وضيعه وفرط فيه من حقوق الله تعالى كما يتوب مما فعله من السيئات وان كان قد فعل هذا وترك هذا قبل الرسالة فبالرسالة يستحق العقاب على ترك هذا وفعل هذا والا فكونه كان فاعلا للسيئات المذمومة وتاركا للحسنات التى يذم تاركها كان تائبا قبل ذلك كما تقدم وذكرنا القولين قول من نفى الذم والعقاب وقول من أثبت الذم والعقاب فان قيل إذا لم يكن معاقبا عليها فلا معنى لقبحها قيل بل فيه معنيان أحدهما أنه سبب للعقاب لكن هو متوقف على الشرط وهو الحجة قال تعالى {وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا} آل عمران١٠٣ فلولا انقاذه لسقطوا ومن كان واقفا على شفير فهلك فهلاكه موقوف على سقوطه بخلاف ما اذا بان وبعد عن ذلك فقد بعد عن الهلاك فأصحابها كانوا قريبين إلى الهلاك والعذاب الثانى أنهم مذمومون منقوصون معيبون فدرجتهم منخفضة بذلك ولابد ولو قدر أنهم لم يعذبوا لا يستحقون ما يستحقه السليم من ذلك من كرامته ايضا وثوابه فهذه عقوبة بحرمان خير وهى احد نوعى العقوبة وهذا وان كان حاصلا لكل من ترك مستحبا فانه يفوته خيره

ففرق بين ما يفوته مالم يحصل له وبين ما ينقص ما عنده وهذا كلام عام فيما لم يعاقب عليه من الذنوب وأما من لم يرسل اليه رسول فى الدنيا فقد رويت آثار أنهم يرسل اليهم رسول فى عرصات القيامة كما قد بسط فى مواضع [1]

## "أن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات "

فليس مجرد العلم موجبا لحب المعلوم إن لم يكن فى النفس قوة أخري تلائم المعلوم وهذه القوة موجودة فى النفس وكل من القوتين تقوي بالأخر فالعلم يقوي العمل والعمل يقوي العلم فمن عرف الله وقلبه سليم أحبه وكلما إزداد له معرفة إزداد حبه له وكلما إزداد حبه له إزداد ذكره له ومعرفته بأسمائه وصفاته فإن قوة الحب توجب كثرة ذكر المحبوب كما أن البغض يوجب الاعراض عن ذكر المبغض فمن عادى الله ورسوله وحاد الله ورسوله كان ذلك مقتضيا لإعراضه عن ذكر الله ورسوله بالخير وعن ذكر ما يوجب المحبة فيضعف علمه به حتى قد ينساه كما قال تعالى {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}الحشر١٩ وقال تعالى {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}الكهف٢٨ وقد يحصل مع ذلك تصديق وعلم مع بغض ومعاداة لكن تصديق ضعيف وعلم ضعيف ولكن لولا البغض والمعاداة لأوجب ذلك من محبة الله ورسوله ما يصير به مؤمنا فمن شرط الإيمان وجود العلم التام ولهذا كان الصواب أن الجهل ببعض أسماء الله وصفاته لا يكون صاحبه كافرا إذا كان مقرا بما جاء به الرسول ولم يبلغه ما يوجب العلم بما جهله على وجه يقتضي كفره إذا لم يعلمه كحديث الذي أمر أهله بتحريقه ثم تذريته بل العلماء بالله يتفاضلون فى العلم به ولهذا يوصف من لم يعمل بعلمه بالجهل وعدم العلم قال تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ}النساء١٧ قال أبو العالية سألت أصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ومنه قول إبن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالإغترار

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٨٤-٦٨٦

بالله جهلا وقيل للشعبى أيها العالم فقال العالم من يخشي الله وقد قال تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}فاطر٢٨ وقال أبو حيان التيميى العلماء ثلاثة عالم بالله وبأمر الله وعالم بالله ليس عالما بأمر الله وعالم بأمر الله ليس عالما بالله فالعالم بالله الذي يخشاه والعالم بأمر الله الذي يعلم حدوده وفرائضه وقد قال تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}فاطر٢٨ وهذا يدل على أن كل من خشي الله فهو عالم وهو حق ولا يدل على أن كل عالم يخشاه لكن لما كان العلم به موجبا للخشية عند عدم المعارض كان عدمه دليلا على ضعف الأصل إذ لو قوى لدفع المعارض وهكذا لفظ العقل يراد به الغريزة التى بها يعلم ويراد بها أنواع من العلم ويراد به العمل بموجب ذلك العلم وكذلك لفظ الجهل يعبر به عن عدم العلم ويعبر به عن عدم العمل بموجب العلم كما قال النبى إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل إني إمرؤ صائم والجهل هنا هو الكلام الباطل بمنزلة الجهل المركب ومنه قول الشاعر ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا ومن هذا سميت الجاهلية جاهلية وهي متضمنة لعدم العلم أو لعدم العمل به ومنه قول النبى لأبي ذر إنك إمرؤ فيك جاهلية لما ساب رجلا وعيره بأمه وقد قال تعالى {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ}الفتح٢٦ فإن الغضب والحمية تحمل المرء على فعل ما يضره وترك ما ينفعه وهذا من الجهل الذي هو عمل بخلاف العلم حتى يقدم المرء على فعل ما يعلم أنه يضره وترك ما يعلم أنه ينفعه لما فى نفسه من البغض والمعاداة لأشخاص وأفعال وهو فى هذه الحال ليس عديم العلم والتصديق بالكلية لكنه لما فى نفسه من بغض وحسد غلب موجب ذلك لموجب العلم فدل على ضعف العلم لعدم موجبه ومقتضاه ولكن ذلك الموجب والنتيجة لا توجد عنه وحده بل عنه وعما فى النفس من حب ما ينفعها وبغض ما يضرها فإذا حصل لها مرض ففسدت به أحبت ما يضرها وأبغضت ما ينفعها فتصير النفس كالمريض الذي يتناول ما يضره لشهوة نفسه له مع علمه أنه يضره قلت هذا معنى ما روي عن النبى أن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات رواه البيهقى مرسلا وقد قال تعالى {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ}ص٤٥ فوصفهم بالقوة فى العمل والبصيرة فى العلم وأصل القوة قوة القلب الموجبة لمحبة الخير وبغض الشر فإن المؤمن قوته فى قلبه وضعفه فى جسمه

والمنافق قوته فى جسمه وضعفه فى قلبه فالإيمان لابد فيه من هذين الأصلين التصديق بالحق والمحبة له فهذا أصل القول وهذا أصل العمل [1]

والإنسان كما سماه النبي حيث قال أصدق الأسماء حارث وهمام فهو دائما يهم ويعمل لكنه لا يعمل إلا ما يرجو نفعه أو دفع مضرته ولكن قد يكون ذلك الرجاء مبينا على اعتقاد باطل إما في نفس المقصود فلا يكون نافعا ولا ضارا وإما في الوسيلة فلا تكون طريقا إليه وهذا جهل وقد يعلم أن هذا الشيء يضره ويفعله ويعلم أنه ينفعه ويتركه لأن ذلك العلم عارضه ما في نفسه من طلب لذة أخرى او دفع ألم آخر جاهلا ظالما حيث قدم هذا على ذاك ولهذا قال أبو العالية سألت أصحاب محمد عن قوله تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ}النساء١٧ فقالوا كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وإذا كان الإنسان لا يتحرك إلا راجيا وإن كان راهبا خائفا لم يسع إلا في النجاة ولم يهرب إلا من الخوف فالرجاء لا يكون إلا بما يلقى في نفسه من الإيعاد بالخير الذي هو طلب المحبوب أو فوات المكروه فكل بني آدم له اعتقاد فيه تصديق بشيء وتكذيب بشيء وله قصد وإرادة لما يرجوه مما هو عنده محبوب ممكن الوصول إليه أو لوجود المحبوب عنده أو لدفع المكروه عنه والله خلق العبد يقصد الخير فيرجوه بعمله فإذا كذب بالحق فلم يصدق به ولم يرج الخير فيقصده ويعمل له كان خاسرا بترك تصديق الحق وطلب الخير فكيف إذا كذب بالحق وكره إرادة الخير فكيف إذا صدق بالباطل وأراد الشر فذكر عبدالله بن مسعود أن لقلب ابن آدم لمة من الملك ولمة من الشيطان فلمة الملك تصديق بالحق وهو ما كان من غير جنس الاعتقاد الفاسد ولمة الشيطان هو تكذيب بالحق وإيعاد بالشر وهو ما كان من جنس إرادة الشر وظن وجوده أما مع رجائه إن كان مع هوى نفس وإما مع خوفه إن كان غير محبوب لها وكل من الرجاء والخوف مستلزم للآخر [2]

**{وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}**

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٣٨-٥٤١

قال تعالى {وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١٧ قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ و نحوه كما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس و رواه ابن أبى حاتم من عدة طرق لما قيل له قوله {وَكَانَ اللّهُ}النساء١٥٨ كأنه كان شيء ثم مضى فقال إبن عباس هو سمى نفسه بذلك ولم يزل كذلك هذا لفظ ابن أبى حاتم من طريق أبى معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فقال ابن عباس كذلك كان ولم يزل ومن رواية عمرو بن أبي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال سمعت الله يقول {وَكَانَ اللّهُ}النساء١٥٨ كأنه شيء كان فقال ابن عباس أما قوله {كَانَ} فإنه لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ومن رواية عبدالرحمن بن مغرا عن مجمع بن يحيى عن عمه عن ابن عباس قال قال يهودي إنكم تزعمون أن الله كان عزيزا حكيما فكيف هو اليوم فقال ابن عباس إنه كان فى نفسه عزيزا حكيما وهذه أقوال ابن عباس تبين أنه لم يزل متصفا بخبر كان ولا يزال كذلك و أن ذلك حصل له من نفسه فلم يزل متصفا فى نفسه إذا كان من لوازم نفسه و لهذا لا يزال لأنه من نفسه و قال أحمد بن حنبل لم يزل الله عالما متكلما غفورا و قال أيضا لم يزل الله متكلما إذا شاء [1]

## الكمال المطلق للإنسان

فإنه من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم و حسن القصد من أعون الأشياء على نيل العلم ودركه و العلم الشرعى من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح فإن العلم قائد والعمل سائق والنفس حرون فإن ونى قائدها لم تستقم لسائقها وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدها فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر إين يسلك فغايته أن يستطرح للقدر وإذا ترك العمل حار السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه أنه تركه فهذا حائر لا يدرى أين يسلك مع كثرة سيره وهذا حائر عن الطريق زائغ عنه مع علمه به قال تعالى {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}الصف٥ هذا جاهل وهذا ظالم قال تعالى {وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}الأحزاب٧٢ مع أن الجهل والظلم متقاربان لكن الجاهل لا يدرى أنه ظالم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص:٣٦٩- ٣٧٠ و مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٠

والظالم جهل الحقيقة المانعة له من العلم قال تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ}النساء١٧ قال أبوالعالية سألت اصحاب محمد فقالوا كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وقد روى الخلال عن أبى حيان التيمى قال العلماء ثلاثة فعالم بالله ليس عالما بأمر الله وعالم بأمر الله ليس عالما بالله وعالم بالله وبأمر الله فالعالم بالله الذى يخشاه والعالم بأمر الله الذى يعرف أمره ونهيه قلت والخشية تمنع إتباع الهوى قال تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{٤٠} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{٤١}النازعات ٤٠-٤١ والكمال فى عدم الهوى وفى العلم هو لخاتم الرسل الذى قال فيه {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{١} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{٢} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{٣} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى{٤} النجم ١-٤ فنفى عنه الضلال والغي ووصفه بأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى فنفى الهوى وأثبت العلم الكامل وهو الوحى فهذا كمال العلم وذاك كمال القصد ووصف أعداءه بضد هذين فقال تعالى {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى}النجم٢٣ فالكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علما وقصدا [١]

## الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية

ان الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية وما يذكر فى الاسرائيليات ان الله قال لداود اما الذنب فقد غفرناه واما الود فلا يعود فهذا لو عرفت صحته لم يكن شرعا لنا وليس لنا ان نبني ديننا على هذا فان دين محمد فى التوبة جاء بما لم يجيء به شرع من قبله ولهذا قال انا نبى الرحمة وانا نبى التوبة وقد رفع به من الآصار والاغلال ما كان على من قبلنا وقد قال تعالى فى كتابه {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}البقرة٢٢٢ واخبر انه تعالى يفرح بتوبة عبده التائب اعظم من فرح الفاقد لما يحتاج اليه من الطعام والشراب والمركب اذا وجده بعد اليأس فاذا كان هذا فرح الرب بتوبة التائب وتلك محبته كيف يقال انه لا يعود لمودته {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{١٤} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{١٥} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{١٦}

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥٤٤

البروج ١٤-١٦ ولكن وده وحبه بحسب ما يتقرب اليه العبد بعد التوبة فان كان ما يأتي به من محبوبات الحق بعد التوبة افضل مما كان ياتي به قبل ذلك كانت مودته له بعد التوبة اعظم من مودته له قبل التوبة وان كان انقص كان الامر انقص فإن الجزاء من جنس العمل {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}فصلت٤٦ وقد ثبت في الصحيح عن النبى انه قال يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشي بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألني لاعطينه ولئن استعاذنى لاعيذنه وما ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه ومعلوم ان افضل الاولياء بعد الانبياء هم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار وكانت محبة الرب لهم ومودته لهم بعد توبتهم من الكفر والفسوق والعصيان اعظم محبة ومودة وكلما تقربوا اليه بالنوافل بعد الفرائض احبهم وودهم وقد قال تعالى {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}الممتحنة٧ نزلت فى المشركين الذين عادوا الله ورسوله مثل اهل الاحزاب كأبي سفيان بن حرب وابى سفيان بن الحارث والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة ابن ابى جهل وصفوان بمن امية وغيرهم فانهم بعد معاداتهم لله ورسوله جعل الله بينهم وبين الرسل والمؤمنين مودة وكانوا فى ذلك متفاضلين وكان عكرمة وسهيل والحارث بن هشام اعظم مودةمن ابى سفيان بن حرب ونحوه وقد ثبت فى الصحيح ان هند امرأة ابى سفيان ام معاوية قالت والله يا رسول الله ما كان على وجه الارض اهل خباء احب الي ان يذلوا من اهل خبائك وقد اصبحت وما عل وجه الارض اهل خباء احب الى ان يعزوا من اهل خبائك فذكرر النبى صلى الله عليه وسلم لها نحو ذلك ومعلوم ان المحبة والمودة التى بين المؤمنين انما تكون تابعة لحبهم الله تعالى فان اوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض فى الله فالحب لله من كمال التوحيد والحب مع الله شرك قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ}البقرة١٦٥ فتلك المودة التى صارت بين الرسول والمؤمنين وبين الذين عادوهم من المشركين انما كانت مودة لله ومحبة لله ومن احب الله احبه الله ومن ود الله وده الله فعلم ان الله احبهم وودهم بعد التوبة كما احبوه وودوه فكيف يقال ان التائب انما تحصيل له المغفرة دون المودة وان قال قائل اولئك كانوا كفارا لم يعرفوا ان ما فعلوه محرم بل كانوا جهالا بخلاف من علم ان الفعل محرم واتاه قيل الجواب من وجهين احدهما انه ليس الامر كذلك بل كان

كثير من الكفار يعلمون ان محمدا رسول الله ويعادونه حسدا وكبرا وابو سفيان قد سمع من اخبار نبوة النبى ما لم يسمع غيره كما سمع من امية بن ابي الصلت وما سمعه من هرقل ملك الروم وقد اخبر عن نفسه انه لم يزل موقنا ان امر النبى صلى الله عليه وسلم سيظهر حتى ادخل الله عليه الاسلام وهو كاره له وقد سمع منه عام اليرموك وغيره ما دل على حسن اسلامه ومحبته لله ورسوله بعد تلك العداوة العظيمة وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً{٦٨} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً{٦٩} إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ{٧٠} الفرقان٦٨ -٧٠ فاذا كان الله يبدل سيئاتهم حسنات فالحسنات توجب مودة الله لهم وتبديل السيئات حسنات ليس مختصا بمن كان كافرا وقد قال تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١٧ قال ابو العالية سالت اصحاب رسول الله عن هذه الاية فقالوا لى كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب الوجه الثانى ان ما ذكر من الفرق بين تائب وتائب فى محبة الله تعالى للتائبين فرق لا ا صل له بل الكتاب والسنة يدل على ان الله يحب التوابين ويفرح بتوبة التائبين سواء كانوا عالمين بان ما اتوه ذنبا او لم يكونوا عالمين بذلك ومن علم ان ما اتاه ذنبا ثم تاب فلا ان يبدل وصفه المذموم بالمحمود فاذا كان يبغض الحق فلا بد ان يحبه اذا كان يحب الباطل فلا بد ان يبغضه فما يأتى به التائب من معرفة الحق ومحبته والعمل به ومن بغض الباطل واجتنابه هو من الامور التى يحبها الله تعالى ويرضاها ومحبة الله كذلك بحسب ما ياتى به العبد من محابه فكل من كان اعظم فعلا لمحبوب الحق مكان الحق اعظم محبة له وانتقاله من مكروه الحق الى محبوبه مع قوة بغض ما كان عليه عليه من الباطل وقوة حب ما انتقل اليه من حب الحق فوجب زيادة محبة الحق له ومودته اياه بل يبدل الله سيئاته حسنات لانه بدل صفاته المذمومة بالمحمودة فيبدل الله سيئاته حسنات فان الجزاء من جنس العمل وحينئذ فاذا كان اتيان التائب بما يحبه الحق اعظم من اتيان غيره كانت محبة الحق له اعظم واذا كان فعله لما يوده الله منه أعظم فعله من له قبل التوبة كانت مودة الله له بعد التوبة اعظم من مودته له قبل التوبة فكيف يقال الود لا يعود[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣٠٤-٣٠٩

## لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له

فأفضل النعم نعمة الإيمان وكل مخلوق من المخلوقات فهو الآيات التي يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة وما يصيب الإنسان ان كان يسره فهو نعمة بينة وإن كان يسوءه فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه ويثاب بالصبر عليه ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها {فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً}النساء١٩ وقد قال في الحديث والله لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له واذا كان هذا وهذا فكلاهما من نعم الله عليه الصبر على السراء والضراء والشكر عليهما وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر أما نعمة الضراء فاحتياجها إلى الصبر ظاهر وأما نعمة السراء فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء كما قال بعض السلف ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر وفي الحديث أعوذ بك من فتنة الفقر وشر فتنة الغنى والفقر يصلح عليه خلق كثير والغنى لا يصلح عليه إلا أقل منهم ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين لأن فتنة الفقر أهون وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر لكن لما كان في السراء اللذة وفي الضراء الألم اشتهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء [١]

## نفقة الزوجة مرجعها إلى العرف وليست مقدرة بالشرع

ومما ينبغى أن يعلم أن الالفاظ الموجودة فى القرآن والحديث اذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبى لم يحتج فى ذلك الى الاستدلال بأقوال اهل اللغة ولا غيرهم ولهذا قال الفقهاء الأسماء ثلاثة أنواع نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف فى قوله {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}النساء١٩ ونحو ذلك وروى عن إبن عباس أنه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من

---

[١] الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ٧٢-٧٣

كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله من ادعى علمه فهو كاذب [1]

والاعتبار المبني على العدل والصواب المقطوع به عند جمهور العلماء أن نفقة الزوجة مرجعها إلى العرف وليست مقدرة بالشرع بل تختلف باختلاف أحوال البلاد والأزمنة وحال الزوجين وعادتهما فإن الله تعالى قال {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} النساء١٩ وقال النبي صلى الله عليه وسلم خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف وقال {لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} البقرة٢٣٣ [2]

و تحقيق المناط أن يعمل بالنص والإجماع فإن الحكم معلق بوصف يحتاج فى الحكم على المعين إلى أن يعلم ثبوت ذلك الوصف فيه كما يعلم أن الله أمرنا بإشهاد ذوى عدل منا وممن نرضى من الشهداء ولكن لا يمكن تعيين كل شاهد فيحتاج أن يعلم فى الشهود المعينين هل هم من ذوى العدل المرضيين أم لا وكما أمر الله بعشرة الزوجين بالمعروف وقال النبى للنساء رزقهن وكسوتهن بالمعروف ولم يمكن تعيين كل زوج فيحتاج أن ينظر فى الأعيان ثم من الفقهاء من يقول إن نفقة الزوجة مقدرة بالشرع والصواب ما عليه الجمهور أن ذلك مردود إلى العرف كما قال لهند خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف وكما قال تعالى {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} الأنعام١٥٢ ويبقى النظر فى تسليمه إلى هذا التاجر بجزء من الربح هل هو من التى هى أحسن أم لا وكذلك قوله {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ} التوبة٦٠ يبقى هذا الشخص المعين هل هو من الفقراء المساكين المذكورين فى القرآن أم لا وكما حرم الله الخمر والربا عموما يبقى الكلام فى الشراب المعين هل هو خمر أم لا وهذا النوع مما إتفق عليه المسلمون بل العقلاء بأنه لا يمكن أن ينص الشارع على حكم كل شخص إنما يتكلم بكلام عام وكان نبينا قد أوتى جوامع الكلم [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٨٦ و مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٤٠

[2] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٢٠١ و مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ٨٣

[3] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٣٢٩

## تبين الأشياء للقلب ضد اشتباهم عليه

وتبين الأشياء للقلب ضد اشتباهم عليه كما قال      الحلال بين والحرام بين وبينهما امور مشتبهات الحديث      وقد قرىء قوله {وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}الأنعام٥٥ بالرفع والنصب أي ولتتبين انت سبيلهم      فالانسان يستبين الأشياء وهم يقولون قد بان الشيء وبينته وتبين الشيء وتبينته واستبان الشيء واستبنته كل هذا يستعمل لازما ومتعديا ومنه قوله تعالى {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}الحجرات٦      هو هنا معتد ومنه قوله {بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}النساء١٩ أي متبينة فهنا هو لازم والبيان كالكلام يكون مصدر بان الشيء بيانا ويكون اسم مصدر لبين كالكلام والسلام لسلم وبين فيكون البيان بمعنى تبين الشيء ويكون بمعنى بينت الشيء أي اوضحته وهذا هو الغالب عليه [1]

## قالت إمرأة يا أمير المؤمنين لم تحرمنا شيئا أعطانا الله إياه فى كتابه

وعمر بن الخطاب قد قال النبى فيه      إنه قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر      وروى      أنه ضرب الحق على لسانه وقلبه      وقال لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر      ومع هذا فما كان يلزم أحدا بقوله ولا يحكم فى الأمور العامة بل كان يشاور الصحابة ويراجع فتارة يقوله قولا فترده

عليه أمرأة فيرجع إليها كما أراد أن يجعل الصداق محدودا لا يزاد على صداقات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وقال من زاد جعلت الزيادة فى بيت المال وكان المسلمون يعجلون الصداق قبل الدخول لم يكونوا يؤخرونه إلا أمرا نادرا فقالت إمرأة يا أمير المؤمنين لم تحرمنا شيئا أعطانا الله إياه فى كتابه فقال وأين فقالت فى قوله تعالى {وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ

[1] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٦٥

شَيْئاً}النساء٢٠ فرجع عمر إلى قولها وقد كان حافظا للآية ولكن نسيها وقال إمرأة أصابت ورجل أخطأ [1]

قال عمر رضي الله عنه للمرأة التي عارضته في الصداق رجل أخطأ وامرأة اصابت وكان قد رأى أن الصداق ينبغي أن يكون مقدرا بالشرع فلا يزاد على صداق أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبناته كما رأى كثير من الفقهاء أن أقله مقدر بنصاب السرقة وإذا كان مقدرا بالشرع والفاضل قد بذله الزوج واستوفى عوضه والمرأة لا تستحقه فيجعل في بيت المال كما يجعل في بيت المال ثمن عصير الخمر إذا باعه المسلم وأجره من أجر نفسه لحمل الخمر ونحو ذلك على أظهر أقوال العلماء فإن من استوفى منفعة محرمة بعوضها كالذي يزني بالمرأة بالجعل أو يستمع الملاهي بالجعل أو يشرب الخمر بالجعل إن أعيد إليه جعله بعد قضاء غرضه فهذا زيادة في إعانته على المعصية فإن كان يطلبها بالعوض فإذا حصلت له هي والعوض كان ذلك أبلغ في إعانته على الإثم والعدوان وإن أعطى ذلك للبائع والمؤجر كان قد أبيح له العوض الخبيث فصار مصروف هذا المال في مصالح المسلمين وعمر إمام عدل فكان قد رأى أن الزائد على المهر الشرعي يكون هكذا فعارضته امرأة وقالت لم تمنعنا شيئا أعطانا الله إياه في كتابه فقال وأين في كتاب الله فقالت في قوله تعالى {وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً}النساء٢٠ وروى أنها قالت له أمنك نسمع أم من كتاب الله تعالى قال بل من كتاب الله فقرأت عليه الآية فقال رجل أخطأ وامرأة أصابت [2]

## "إن أعظم النساء بركة أيسرهن مؤنة"

السنة تخفيف الصداق وأن لا يزيد على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وبناته فقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن أعظم النساء بركة أيسرهن مؤنة وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خيرهن أيسرهن صداقا وعن الحسن البصري قال قال رسول الله صلى الله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٨٤-٣٨٥ و مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٢٤٤

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٦٢

عليه وسلم الزموا النساء الجمال ولا تغالوا في المهور وخطب عمر بن الخطاب الناس فقال ألا لا تغالوا في مهور النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبي صلى الله عليه وسلم ما أصدق امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية قال الترمذي حديث صحيح ويكره للرجل أن يصدق المرأة صداقا يضر به إن نقده ويعجز عن وفائه إن كان دينا قال أبو هريرة جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني تزوجت امرأة من الأنصار فقال على كم تزوجتها قال على أربع أواق فقال النبي صلى الله عليه وسلم على أربع أواق فكأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ما عندنا ما نعطيك ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه قال فبعث بعثا إلى بني عبس فبعث ذلك الرجل فيهم رواه مسلم في صحيحه والأوقية عندهم أربعون درهما وهي مجموع الصداق ليس فيه مقدم ومؤخر وعن أبي عمرو الأسلمي إنه ذكر أنه تزوج امرأة فأتي النبي صلى الله عليه وسلم يستعينه في صداقها فقال كم أصدقت قال فقالت مائتي درهم فقال لو كنتم تعرفون الدراهم من أوديتكم ما زدتم رواه الإمام أحمد في مسنده وإذا أصدقها دينا كثيرا في ذمته وهو ينوي أن لا يعطيها إياه كان ذلك حراما عليه فإنه قد روى أبو هريرة قال قال رسول صلى الله عليه وسلم من تزوج امرأة بصداق ينوي أن لا يؤديه إليها فهو زان ومن ادان دينا ينوي أن لا يقضيه فهو سارق وما يفعله بعض أهل الجفاء والخيلاء والرياء من تكثير المهر للرياء والفخر وهم لا يقصدون أخذه من الزوج وهو ينوي أن لا يعطيهم إياه فهذا منكر قبيح مخالف للسنة خارج عن الشريعة وإن قصد الزوج أن يؤديه وهو في الغالب لا يطيقه فقد حمل نفسه وشغل ذمته وتعرض لنقص حسناته وارتهانه بالدين وأهل المرأة قد آذوا صهرهم وضروه والمستحب في الصداق مع القدرة واليسا الجواب أن يكون جميع عاجله وآجله لا يزيد على مهر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ولا بناته وكان ما بين أربعمائة إلى خمسمائة بالدراهم الخالصة نحوا من تسعة عشر دينارا فهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك فقد استن بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصداق قال أبو هريرة رضي الله عنه كان صداقنا إذ كان فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر أواق وطبق بيديه وذلك أربعمائه درهم رواه الإمام أحمد في مسنده وهذا لفظ أبي داود في سننه وقال أبو سلمة قلت لعائشة كم كان صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت كان صداقه لأزواجه اثنتي عشرة أوقية ونشا قالت أتدري ما الونش قلت لا قالت نصف أوقية فذلك خمسمائة درهم رواه مسلم في صحيحه وقد تقدم عن عمر أن صداق بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نحوا من ذلك فمن دعته نفسه إلى

أن يزيد صداق ابنته على صداق بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواتي هن خير خلق الله في كل فضيلة وهن أفضل نساء العالمين في كل صفة فهو جاهل أحمق وكذلك صداق أمهات المؤمنين وهذا مع القدرة واليسار فأما الفقير ونحوه فلا ينبغي له أن يصدق المرأة إلا ما يقدر على وفائه من غير مشقة والأولى تعجيل الصداق كله للمرأة قبل الدخول إذا أمكن فإن قدم البعض وأخر البعض فهو جائز وقد كان السلف الصالح الطيب يرخصون الصداق فتزوج عبد الرحمن بن عوف في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على وزن نواة من ذهب قالوا وزنها ثلاثة دراهم وثلث وزوج سعيد بن المسيب بنته على درهمين وهي من أفضل ايم من قريش بعد أن خطبها الخليفة لابنه فأبى أن يزوجها به والذي نقل عن بعض السلف من تكثير صداق النساء فإنما كان ذلك لأن المال اتسع عليهم وكانوا يجعلون الصداق كله قبل الدخول فلم يكونوا يؤخرون منه شيئا ومن كان له يسار ووجد فأحب أن يعطي امرأته صداقا كثيرا فلا بأس بذلك كما قال تعالى {وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً}النساء٢٠ أما من يشغل ذمته بصداق لا يريد أن يؤديه أو يعجز عن وفائه فهذا مكروه كما تقدم وكذلك من جعل في ذمته صداقا كثيرا من غير وفاء له فهذا ليس بمسنون و الله أعلم [١]

## لطائف لغوية

١- فإن أهل اللغة يسمون بالواحد والوحيد والأحد في النفي لما يشار إليه ويميز الحس منه شيئا من شيء قال تعالى {وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ}النساء١١ فسمى المرأة واحدة [٢]

٢- وأما عمر فكان يشاورهم كلهم وإن كان عمر أعلم منهم وكان كثير من القضايا يقول فيها أولا ثم يتعبونه كالعمريتين والعول وغيرهما فإن عمر هو أول من أجاب في زوج وأبوين أو أمرأة وأبوين بأن للأم ثلث الباقي واتبعه أكابر الصحابة وأكابر الفقهاء كعثمان وابن مسعود وعلي وزيد والأئمة الأربعة وخفى وجه قوله

---

[١] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ١٧٨

[٢] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٣٥

على ابن عباس فأعطى الأم الثلث ووافقه طائفة وقول عمر أصوب لأن الله إنما أعطى الأم الثلث إذا ورثه أبواه كما قال {فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ}النساء١١ فأعطاها الثلث إذا ورثه أبواه والباقي بعد فرض الزوجين هو ميراث بين الأبوين يقتسمانه كما اقتسما الأصل كما لو كان على الميت دين أو وصية فإنهما يقتسمان ما يبقى أثلاثا [١]

٣- ان لفظ الجمع إما ان يكون متناولا لاثنين فصاعدا كقوله {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ}النساء١١وإما ان يراد به الثلاثة فصاعدا وهو الاصل عند الجمهور ولكن قد يراد به جنس العدد فيتناول الاثنين فصاعدا ولا يكون الجمع مختصا ب اثنين [٢]

٤-{إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً}النساء١١ عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه [٣]

٥-{وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ}النساء١٢ عليم منزه عن الجهل حليم منزه عن السفه [٤]

٦-مقابله الجمع بالجمع وهى تقتضى توزيع الأفراد على الأفراد كما فى قوله {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ}النساء١٢ أي لكل واحد نصف ما تركت زوجته وقوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ}النساء٢٣ أي حرم على كل واحد أمه ونحو ذلك [٥]

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٦١-٦٢

[٢] الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ١٧٠

[٣] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[٤] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[٥] مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ٨١

٧- قال تعالى{وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ فان الحدود فى لفظ الكتاب والسنة يراد بها الفصل بين الحلال والحرام مثل آخر الحلال وأول الحرام فيقال فى الأول {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا}البقرة٢٢٩ ويقال فى الثانى {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا}البقرة١٨٧ [١]

٨- قوله تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}النساء١٣ فيقال النهر كالقرية والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة فى السكان فى مثل قوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا}يوسف٨٢ وتارة فى المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال [٢]

٩- قال تعالى {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ} النساء ١٤فان المعصية التى يستحق صاحبها الذم والعقاب مخالفة امر الله ورسوله [٣]

١٠- قال تعالى {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ وعذابه اسم جامع لكل شر ودار العذاب الخالص هى النار [٤]

١١- وكذلك لفظ المعصية و الفسوق و الكفر فاذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق كقوله {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ وقد قيل ان التأبيد لم يذكر فى القرآن الا فى وعيد الكفار ولهذا قال {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٤٨ و السياسة الشرعية ج: ١ ص: ٩٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٦٤

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٤٥

[٤] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥

جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً} النساء٩٣ وقال فيمن يجور فى المواريث {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} النساء١٤ فهنا قيد المعصية بتعدى حدوده فلم يذكرها مطلقة [١]

١٢- فإنما يحمل المطلق على المقيد إذا كان نوعا واحدا كالعتق في الظهار والجماع واليمين على العتق في القتل وكذلك الشهادة المطلقة في قوله تعالى {فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ} النساء١٥ هي من نوع الشهادة المفسرة في قوله {مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء} البقرة٢٨٢ [٢]

قال تعالى {وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً} النساء١٧ عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه [٣]

١٣- وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى {وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} النساء٩٦ {وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً} النساء١٧ ونحو ذلك قال كان ولم يزل ولا يزال [٤]

١٤- فقوله {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ} البقرة١١٥ أى تتولوا أى تتوجهوا وتستقبلوا يتعدى الى مفعول واحد بمعنى يتولاها ونظير ولى وتولى قدم وتقدم وبين وتبين كما

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٩-٦٠

[٢] شرح العمدة ج: ١ ص: ٤١٧

[٣] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[٤] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٣٨

قال {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} الحجرات١ وقال {بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} النساء١٩ [1]

١٥- وكذلك فى المبنيات مثل ما يقولون فى أين وكيف بنيت على الفتح طلبا للتخيف لأجل الياء وكذلك فى حركات الالفاظ المبينة الأقوى له الضم وما دونه له الفتح فيقولون كره الشيء والكراهية يقولون فيها كرها بالفتح كما قال تعالى {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} آل عمران٨٣ وقال {إِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً} فصلت١١ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٢٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٢١

## النساء ٢٢-٢٨

**{وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً{٢٢} حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{٢٣} وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{٢٤} وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٢٥} يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{٢٦} وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً{٢٧} يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً{٢٨}**

## لفظ النكاح فى الأمر وفى النهي

وجماع الأمر أن الاسم الواحد ينفي ويثبت بحسب الاحكام المتعلقة به فلا يجب إذا اثبت أو نفي فى حكم أن كذلك فى سائر الأحكام وهذا فى كلام العرب وسائر الأمم لأن المعنى مفهوم ولفظ النكاح وغيره فى الأمر يتناول الكامل وهو العقد والوطء كما فى قوله{فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء٣ وقوله {حَتَّى تَنكِحَ

زَوْجاً غَيْرَهُ}البقرة٢٣٠ وفى النهي يعم الناقص والكامل فينهى عن العقد مفردا وإن لم يكن وطء كقوله {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء٢٢ وهذا لأن الآمر مقصوده تحصيل المصلحة وتحصيل المصلحة إنما يكون بالدخول كما لو قال اشتر لي طعاما فالمقصود ما يحصل إلا بالشراء والقبض والناهي مقصوده دفع المفسدة فيدخل كل جزء منه لأن وجوده مفسدة وكذلك النسب والميراث معلق بالكامل منه والتحريم معلق بأدنى سبب حتى الرضاع [1]

فان تحريم الشيء مطلقا يقتضي تحريم كل جزء منه كما أن تحريم الخنزير والميتة والدم اقتضى ذلك وكذلك تحريم الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة يقتضي المنع من ابعاض ذلك وكذلك النهي عن لبس الحرير اقتضى النهي عن ابعاض ذلك لولا ما ورد من استثناء موضع إصبعين أو ثلاث أو أربع في الحديث الصحيح ولهذا وقع الفرق في كلام الله ورسوله وكلام سائر الناس بين باب النهي والتحريم وباب الامر والايجاب فاذا نهى عن شيء نهى عن بعضه واذا أمر بشيء كان أمرا بجميعه ولهذا كان النكاح حيث أمر به كان أمرا بمجموعه وهو العقد والوطء وكذلك إذا ابيح كما في قوله {فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءْ}النساء٣ {حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ}البقرة٢٣٠ {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ}النور٣٢ يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج وحيث حرم النكاح كان تحريما لأبعاضه حتى يحرم العقد مفردا والوطء مفردا كما في قوله {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ}النساء٢٢ وكما في قوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء٢٣ وكما في قوله لا ينكح المحرم ولا ينكح ونحو ذلك ولهذا فرق مالك وأحمد في المشهور عنه بين من حلف ليفعلن شيئا ففعل بعضه انه لا يبر ومن حلف لا يفعل شيئا ففعل بعضه انه يحنث [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٢١-٤٢٢

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٨٦ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٤٢٣

# المحرمات بالنسب

أما المحرمات بالنسب فالضابط فيه أن جميع أقارب الرجل من النسب حرام عليه إلا بنات أعمامه وأخواله وعماته وخالاته وهذه الأصناف الأربعة هن اللاتي أحلهن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بقوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} الأحزاب٥٠ الآية فأحل سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم من النساء أجناسا أربعة ولم يجعل خالصا له من دون المؤمنين إلا الموهوبة التي تهب نفسها للنبي فجعل هذه من خصائصه له أن يتزوج الموهوبة بلا مهر وليس هذا لغيره باتفاق المسلمين بل ليس لغيره أن يستحل بضع امرأة إلا مع وجوب مهر كما قال تعالى {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً} النساء٢٤ واتفق العلماء على أن من تزوج امرأة ولم يقدر لها مهرا صح النكاح ووجب لها المهر إذا دخل بها وإن طلقها قبل الدخول فليس لها مهر بل لها المتعة بنص القرآن وإن مات عنها ففيها قولان وهي مسألة بروع بنت واشق التي استفتى عنها ابن مسعود شهرا ثم قال أقول فيها برأيي فإن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطئا فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه لها مهر نسائها لا وكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث فقام رجال من أشجع فقالوا نشهد إن رسول الله قضي في بروع بنت واشق بمثل ما قضيت به في هذه قال علقمة فما رأيت عبدالله فرح بشيء كفرحة بذلك وهذا الذي أجاب به ابن مسعود هو قول فقهاء الكوفة كأبي حنيفة وغيره وفقهاء الحديث كأحمد وغيره وهو أحد قولي الشافعي والقول الآخر له وهو مذهب مالك أنه لا مهر لها وهو مروي عن علي وزيد وغيرهما من الصحابة وتنازعوا في النكاح إذا شرط فيه نفي المهر هل يصح النكاح على قولين في مذهب أحمد وغيره أحدهما يبطل النكاح كقول مالك والثاني يصح ويجب مهر المثل كقول أبي حنيفة والشافعي والأولون يقولون هو نكاح الشغار الذي أبطله النبي صلى الله عليه وسلم لأنه نفى فيه المهر وجعل البضع مهرا للبضع وهذا تعليل أحمد بن حنبل في غير موضع من كلامه وهذا تعليل أكثر قدماء أصحابه والآخرون منهم من يصحح نكاح

الشغار كأبي حنيفة وقوله أقيس على هذا الأصل لكنه مخالف للنص وآثار الصحابة فإنهم أبطلوا نكاح الشغار ومنهم من يبطله ويعلل البطلان إما بدعوى التشريك في البضع وإما بغير ذلك من العلل كما يفعله أصحاب الشافعي ومن وافقهم من أصحاب أحمد كالقاضي أبي يعلى وأتباعه والقول الأول أشبه بالنص والقياس الصحيح كما قد بسط في موضعه وتنازعوا أيضا في انعقاد النكاح مع المهر بلفظ التمليك والهبة وغيرهما فجوز ذلك الجمهور كمالك وأبي حنيفة وعليه تدل نصوص أحمد وكلام قدماء أصحابه ومنعه الشافعي وأكثر متأخري أصحاب أحمد كابن حامد والقاضي ومن تبعهما ولم أعلم أحدا قال هذا قبل ابن حامد من أصحاب أحمد والمقصود هنا إن الله تعالى لم يخص رسوله صلى الله عليه وسلم إلا بنكاح الموهوبة بقوله {وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}الأحزاب٥٠ فدل ذلك على أن سائر ما أحله لنبيه حلال لأمته وقد دل على ذلك قوله {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً}الأحزاب٣٧ فلما احل امرأة المتبني لا سيما للنبي ليكون ذلك إحلالا للمؤمنين دل ذلك على أن الإحلال له إحلال لأمته وقد أباح له أقاربه بنات العم والعمات وبنات الخال والخالات وتخصيصهن بالذكر يدل على تحريم ما سواهن لا سيما وقد قال بعد ذلك {لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}الأحزاب٥٢ أي من بعد هؤلاء اللاتي أحللناهن لك وهن المذكورات في قوله تعالى {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ}النساء٢٣ فدخل في الأمهات أم أبيه وأم أمه وإن علت بلا نزاع اعلمه بين العلماء وكذلك دخل في البنات بنت ابنه وبنت ابن ابنته وإن سفلت بلا نزاع أعلمه وكذلك دخل في الأخوات الأخت من الأبوين والأب والأم ودخل في العمات والخالات عمات الأبوين وخالات الأبوين وفي بنات الأخ والأخت ولد الأخوة وإن سلف فإذا حرم عليه أصوله وفروعه وفروع أصوله البعيدة دون بنات العم والعمات وبنات الخال والخالات وأما المحرمات بالصهر فيقول كل نساء الصهر حلال له إلا أربعة أصناف بخلاف الأقارب فأقارب الإنسان كلهن حرام إلا أربعة أصناف وأقارب الزوجين كلهن حلال إلا أربعة أصناف وهن حلائل الاباء والأبناء وأمهات النساء وبناتهن فيحرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه يحرم على الرجل أم امرأته وام أمها وابيها وإن علت وتحرم عليه بنت إمرأته وهي الربيبة وبنت بنتها وإن سفلت وبنت الربيب أيضا حرام كما نص على الأئمة المشهورون الشافعي وأحمد وغيرهما ولا أعلم فيه نزاعا ويحرم عليه أن يتزوج بإمراة أبيه وإن علا وإمرأة ابنه وإن سفل فهؤلاء الأربعة هن المحرمات بالمصاهرة

في كتاب الله وكل من الزوجين يكون أقارب الآخر أصهارا له وأقارب الرجل أحماء المرأة وأقارب المرأة أختان الرجل وهؤلاء الأصناف الأربعة يحرمن بالعقد إلا الربيبة فإنها لا تحرم حتى يدخل بأمها فإن الله لم يجعل هذا الشرط إلا في الربيبة والبواقي أطلق فيهن التحريم فلهذا قال الصحابة أبهموا ما أبهم الله وعلى هذا الأئمة الأربعة وجماهير العلماء وأما بنات هاتين وأمهاتهما فلا يحرمن فيجوز له أن يتزوج بنت امرأة أبيه وابنه باتفاق العلماء فان هذه ليست من حلائل الآباء والأبناء فإن الحليلة هي الزوجة وبنت الزوجة وأمها ليست زوجة بخلاف الربيبة فإن ولد الربيب ربيب كما أن ولد الولد ولد وكذلك أم أم الزوجة أم للزوجة وبنت أم الزوجة لم تحرم فإنها ليست أما فهذا قال من قال من الفقهاء بنات المحرمات محرمات إلا بنات العمات والخالات وأمهات النساء وحلائل الآباء والأبناء فجعل بنت الربيبة محرمة دون بنات الثلاثة وهذا مما لا أعلم فيه نزاعا ومن وطئ امرأة بما يعتقده نكاحا فإنه يلحق به النسب ويثبت فيه حرمة المصاهرة باتفاق العلماء فيما أعلم وإن كان ذلك النكاح باطلا عند الله ورسوله مثل الكافر إذا تزوج نكاحا محرما في دين الإسلام فإن هذا يلحقه فيه النسب وتثبت به المصاهرة فيحرم على كل واحد منهما أصول الآخر وفروعه باتفاق العلماء وكذلك كل وطئ اعتقد أنه ليس حراما وهو حرام مثل من تزوج امرأة نكاحا فاسدا وطلقها وظن أنه لم يقع به الطلاق لخطئه أو لخطأ من أفتاه فوطئها بعد ذلك فجاءه ولد فههنا يلحقه النسب وتكون هذه مدخولا بها فتحرم وإن كانت ربيبة لم يدخل بأمها باتفاق العلماء فالكفار إذا تزوج أحدهم امرأة نكاحا يراه في دينه وأسلم بعد ذلك ابنه كما جرى للعرب الذين أسلم اولادهم وكما يجري في هذا الزمان كثيرا فهذا ليس له أن يتزوج بامراة ابنه وإن كان نكاحها فاسدا باتفاق العلماء فالنسب يتبع باعتقاد الوطئ للحل وإن كان مخطئا في اعتقاده والمصاهرة تتبع النسب فاذا ثبت النسب فالمصاهرة بطريق الأولى وكذلك حرية الولد يتبع إعتقاد أبيه فإن الولد يتبع أباه في النسب والحرية ويتبع أمه في هذا باتفاق العلماء ويتبع في الدين خيرهما دينا عند جماهير أهل العلم وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد واحد القولين في مذهب مالك فمن وطأ أمة غيره بنكاح أو وزنا كان ولده مملوكا لسيدها وإن اشترها ممن ظن أنه مالك لها أو تزوجها يظنها حرة فهذا يسمى المغرور وولدها حر باتفاق الأئمة لاعتقاده أنه يطأ من يصير الولد بوطئها حرا فالنسب والحرية يتبع إعتقاد الواطئ وإن كان مخطئا فكذلك تحريم المصاهرة وإنما تنازع العلماء في الزنا المحض هل ينشر حرمة المصاهرة فيه نزاع مشهور بين السلف والخلف التحريم قول ابي حنيفة وأحمد والجواز مذهب الشافعي وعن مالك روايتان وأما تحريم الجمع فلا يجمع بين الأختين بنص القرآن ولا بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة

وخالتها لا تنكح الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى فإنه قد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي نهى عن ذلك فروى أنه قال إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم بين أرحامكم ولو رضيت إحداهما بنكاح الأخرى عليها لم يجز فإن الطبع يتغير ولهذا لما عرضت أم حبيبة على النبي أن يتزوج أختها فقال لها النبي أو تحبين ذلك فقالت لست لك بمخلية وأحق من شركني في الخير أختي فقال إنها لا تحل لي فقيل له أنا نتحدث أنك ناكح درة بنت أبي سلمة فقال لو لم تكن ربيبتي في حجري لما حلت لي فإنها بنت أخي من الرضاع أرضعتني وأباها أبا سلمة ثويبة أمة أبي لهب فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن هذا متفق عليه بين العلماء والضابط في هذا إن كل امرأتين بينهما رحمه الله محرم فإنه يحرم الجمع بينهما بحيث لو كانت إحداهما ذكرا لم يجز له التزوج بالأخرى لأجل النسب فإن الرحم المحرم لها أربعة أحكام حكمان متفق عليهما وحكمان متنازع فيهما فلا يجوز ملكهما بالنكاح ولا وطئها فلا يتزوج الرجل ذات رحمه المحرم ولا يتسرى بها وهذا متفق عليه بل هنا يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب فلا تحل له بنكاح ولا ملك يمين ولا يجوز له أن يجمع بينهما في ملك النكاح فلا يجمع بين الاختين ولا بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها وهذا أيضا متفق عليه ويجوز له أن يملكهما لكن ليس له أن يتسراهما فمن حرم جمعهما في النكاح حرم جمعهما في التسري فليس له أن يتسرى الأختين ولا الأمة وعمتها والامة وخالتها وهذا هو الذي استقر عليه قول أكثر الصحابة وهو قول أكثر العلماء وهم متفقون على أنه لا يتسرى من تحرم عليه بنسب أو رضاع وإنما تنازعوا في الجمع فتوقف بعض الصحابة فيها وقال أحلتهما آية وحرمتهما آية وظن أن تحريم الجمع قد يكون كتحريم العدد فإن له يتسرى ما شاء من العدد ولا يتزوج الأ باريع فهذا تحريم عارض وهذا عارض بخلاف تحريم النسب والصهر فإنه لازم ولهذا تصير المرأة من ذوات المحارم بهذا ولا تصير من ذوات المحارم بذلك بل أخت امرأته أجنبية منه لا يخلو بها ولا يسافر بها كما لا يخلو بما زاد على أربع من النساء لتحريم ما زاد على العدد وأما الجمهور فقطعوا بالتحريم وهو المعروف من مذاهب الأئمة الأربعة وغيرهم قالوا لأن كل ما حرم الله في الآية بملك النكاح حرم بملك اليمين وآية التحليل وهي قوله {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}النساء٣ إنما أبيح فيها جنس المملوكات ولم يذكر فيها ما يباح ويحرم من التسري كما لم يذكر ما يباح ويحرم من الممهورات والمرأة يحرم وطئها إذا كانت معتدة ومحرمة وإن كانت زوجة أو سرية وتحريم العدد كان لأجل وجوب العدل بينهن في القسم كما قال تعالى {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ

تَعُولُواْ}النساء٣ أي لا تجوروا في القسم هكذا قال السلف وجمهور العلماء وظن طائفة من العلماء أن المراد أن لا تكثر عيالكم وقالوا هذا يدل على وجوب نفقة الزوجة وغلط أكثر العلماء من قال ذلك لفظا ومعنى أما اللفظ فلأنه يقال عال يعول إذا جار وعال يعيل إذا افتقر وأعال يعيل إذا كثر عياله وهو سبحانه قال {تَعُولُواْ}النساء٣ لم يقل تعيلوا وأما المعنى فإن كثرة النفقة والعيال يحصل بالتسري كما يحصل بالزوجات ومع هذا فقد أباح مما ملكت اليمين ما شاء الإنسان بغير عدد لأن المملوكات لا يجب لهن قسم ولا يستحققن على الرجل وطئا ولهذا يملك من لا يحل له وطئها كام امرأته وبنتها وأخته وابنته من الرضاع ولو كان عنينا أو موليا لم يجب أن يزال ملكه عنها والزوجات عليه أن يعدل بينهن في القسم وخير الصحابة أربعة فالعدل الذي يطيقه عامة الناس ينهى إلى الأربعة وأما رسول الله فإن الله قواه على العدل فيما هو أكثر من ذلك على القول المشهور وهو وجوب القسم عليه وسقوط القسم عنه على القسم الآخر كما أنه لما كان أحق بالمؤمنين من أنفسهم احل له التزوج بلا مهر قالوا وإذا كان تحريم جمع العدد إنما حرم لوجوب العدل في القسم وهذا المعنى منتف في المملوكة فلهذا لم يحرم عليه أن يتسرى بأكثر من أربع بخلاف الجمع بين الأختين فإنه إنما كان دفعا لقطيعة الرحم بينهما وهذا المعنى موجود بين المملوكتين كما يوجد في الزوجتين فاذا جمع بينهما بالتسري حصل بينهما من التغاير ما يحصل إذا جمع بينهما في النكاح فيفضي إلى قطيعة الرحم ولما كان هذا المعنى هو المؤثر في الشرع جاز له أن يجمع بين المرأتين إذا كان بينهما حرمة بلا نسب أو نسب بلا حرمة فالأول مثل ان يجمع بين المرأة وابنة زوجها كما جمع عبدالله بن جعفر لما مات علي بن أبي طالب بين امرأة علي وابنته وهذا يباح عند أكثر العلماء الأئمة الأربعة وغيرهم فإن هاتين المرأتين وإن كانت احداهما تحرم على الأخرى فذاك تحريم المصاهرة لا بالرحم والمعنى إنما كان بتحريم قطيعة الرحم فلم يدخل في آية التحريم لا لفظا ولا معنى وأما إذا كان بينهما رحم غير محرم مثل بنت العم والخال فيجوز الجمع بينهما لكن هل يكره فيه قولان هما روايتان عن أحمد لأن بينهما رحما غير محرم وأما الحكمان المتنازع فيهما فهل له أن يملك ذا الرحم المحرم وهل له أن يفرق بينهما في ملك فيبيع أحدهما دون الآخر هاتان فيهما نزاع وأقوال ليس هذا موضعها وتحريم الجمع يزول بزوال النكاح فإذا ماتت إحدى الاربع أو الأختين أو طلقها أو انفسح نكاحها وانقضت عدتها كان له أن يتزوج رابعة ويتزوج الأخت الأخرى باتفاق العلماء وإن طلقها طلاقا رجعيا لم يكن له تزوج الأخرى عند عامة العلماء الأئمة الأربعة وغيرهم وقد روى عبيدة السلماني قال لم يتفق أصحاب محمد على شيء كاتفاقهم على أن الخامسة لا تنكح في عدة الرابعة ولا

تنكح الأخت في عدة أختها وذلك لأن الرجعية بمنزلة الزوجة فإن كلا منهما يرث الآخر لكنها صائرة إلى البينونة وذلك لا يمنع كونها زوجة كما لو أحالها إلى أجل مثل أن يقول إن أعطيتني ألفا في رأس الحول فأنت طالق فإن هذه صائرة إلى بينونة صغرى ومع هذا فهي زوجة باتفاق العلماء وإذا قيل لا يمكن أن تعطيه العوض المعلق به فيدون النكاح قيل والرجعية يمكن أن يراجعها فيدوم النكاح وكذلك لو قال إن لم تلدي في هذا الشهر فأنت طالق وكانت قد بقيت على واحدة فهاهنا هي زوجة لا يزول نكاحها إلا إذا انقضى الشهر ولم تلد وإن كانت صائرة إلى بينونة وإنما تنازع العلماء هل يجوز له وطؤها كما تنازعوا في وطئ الرجعية وأما إذا كان الطلاق بائنا فهل يتزوج الخامسة في عدة الرابعة والأخت في عدة أختها هذا فيه نزاع مشهور بين السلف والخلف والجواز مذهب مالك والشافعي والتحريم مذهب أبي حنيفة وأحمد والله أعلم [1]

## حمل المطلق على المقيد

أن ذلك لابد أن يكون الحكم واحدا مثل الإعتاق فإذا كان الحكم متفقا فى الجنس دون النوع كإطلاق الأيدى فى التيمم وتقييدها فى الوضوء إلى المرافق وإطلاق ستين مسكينا فى الإطعام وتقييد الإعتاق بالإيمان مع أن كلاهما عبادة مالية يراد بها نفع الخلق وفى ذلك نزاع بين العلماء ولم يحمل المسلمون من الصحابة والتابعين المطلق على المقيد فى قوله {وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ}النساء٢٣ وقوله تعالى {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ}النساء٢٢ قال الصحابة والتابعون وسائر أئمة الدين الشرط فى الربائب خاصة وقالوا أبهموا ما أبهم الله والمبهم هو المطلق والمشروط فيه هو المؤقت المقيد فامهات النساء وحلائل الآباء والأبناء يحرمن بالعقد والربائب لا يحرمن إلا إذا دخل بأمهاتهن لكن تنازعوا هل الموت كالدخول على قولين فى مذهب أحمد وذلك لأن الحكم مختلف والقيد ليس متساويا فى الأعيان فإن تحريم جنس ليس مثل تحريم جنس آخر يخالفه كما أن تحريم الدم والميتة ولحم الخنزير لما كان أجناسا فليس تقييد الدم بكونه مسفوحا يوجب تقييد الميتة والخنزير أن يكون مسفوحا وهنا القيد كون الربيبة مدخولا بامها والدخول بالأم لا يوجد مثله فى الحليلتين وأم المرأة إذ الدخول فى الحليلة بها نفسها وفى أم المرأة ببنتها وكذلك المسلمون لم يحملوا المطلق على المقيد فى نصب الشهادة بل لما ذكر الله فى آية الدين {رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ}البقرة٢٨٢ وفى الرجعة رجلين اقروا كلا منهما على حاله لأن سبب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ٦٢-٧٢

الحكم مختلف وهو المال والبضع وإختلاف السبب يؤثر فى نصاب الشهادة وكما فى إقامة الحد فى الفاحشة وفى القذف بها إعتبر فيه أربعة شهداء فلا يقاس بذلك عقود الإيمان والإبضاع [1]

## المحرمات بالرضاع

وأما المحرمات بالرضاع فقد قال النبى يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وفى لفظ يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة وهذا مما اتفق عليه علماء المسلمين لا أعلم فيه نزاعا بين العلماء المعروفين فاذا ارتضع الطفل من امرأة خمس رضعات فى الحولين قبل الفطام صار ولدها باتفاق الأئمة وصار الرجل الذى در اللبن بوطئه أبا لهذا المرتضع باتفاق الأئمة المشهورين وهذا يسمى لبن الفحل وقد ثبت ذلك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فان عائشة كانت قد أرضعتها امرأة وكان لها زوج يقال له أبو القعيس فجاء أخوه يستأذن عليها فأبت ان تأذن له حتى سألت النبي فقال لها أيذنى له فانه عمك فقالت عائشة انما ارضعتنى المرأة ولم يرضعنى الرجل فقال إنه عمك فليلج عليك وقال يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب وإذا صار الرجل والمرأة والدى المرتضع صار كل من أولادهما أخوة المرضع سواء كانوا من الأب فقط او من المرأة او منهما أو كانوا أولادا لهما من الرضاعة فإنهم يصيرون إخوة لهذا المرتضع من الرضاعة حتى لو كان لرجل امرأتان فارضعت هذه طفلا وهذه طفلة كانا أخوين ولم يجز لأحدهما التزوج بالآخر باتفاق الأئمة الأربعة وجمهور علماء المسلمين وهذه المسألة سئل عنها ابن عباس فقال اللقاح واحد يعنى الرجل الذى وطىء المرأتين حتى در اللبن واحد ولا فرق باتفاق المسلمين بين أولاد المرأة الذين رضعوا مع الطفل وبين من ولد لها قبل الرضاعة وبعد الرضاعة باتفاق المسلمين وما يظنه كثير من الجهال أنه إنما يحرم من رضع معه هو ضلال على صاحبه إن لم يرجع عنه فان أصر على استحلال ذلك استتيب كما يستتاب سائر من اباح الاخوة من الرضاعة فان تاب والا قتل وإذا كان كذلك فجميع أقارب المرأة أقارب للمرتضع من الرضاعة أولادها اخوته وأولاد أولادها أولاد أخوته وآبائها وأمهاتها اجداده واخوتها وأخواتها اخواله وخالاته وكل هولاء حرام عليه واما بنات أخواله وخالاته من الرضاع فحلال كما يحل ذلك من النسب وأقارب الرجل أقاربه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣١٣

من الرضاع أولاد أخوته وأولادهم أولاد أخوته واخوته اعمامه وعماته وهن حرام عليه وحل له بنات عمه وبنات عماته واولاد المرتضع بمنزلته كما أن أولاد المولود بمنزلته فليس لأولاده من النسب ولارضاع ان يتزوجوا اخوته ولا اخوة أبيه لا من نسب ولارضاع لانهم أعمامهم وعماتهم واخوالهم وخالاتهم وأما اخوة المرتضع من نسب أو رضاع غير رضاع هذه المرضعة فهم اجانب منها ومن أقاربها فيجوز لأخوة هؤلاء ان يتزوجوا اولاد المرضعة كما اذا كان أخ للرجل من ابيه وأخت من امه وبالعكس جاز أن يتزوج أحدهما الاخر وهو نفسه لا يتزوج واحدا منهما فكذلك المرتضع هو نفسه لا يتزوج واحدا من أولاد مرضعه ولا احدا من أولاد والديه فان هؤلاء اخوته من الرضاع وهؤلاء أخوته من النسب ويجوز لأخوته من الرضاع ان يتزوجوا أخوته من النسب كما يجوز لاخوته من أبيه أن يتزوجوا أخوته من أمه وهذا كله متفق عليه بين العلماء ولكن بعض المنتصبين للفتيا قد يغلط فى هذه المسائل للالتباس أمرها على المستفتين ولا يذكرون ما يسألون عنه بالأسماء والصفات المعتبرة فى الشرع مثل أن يقول اثنان تراضعا هل يتزوج هذا بأخت هذا وهذا سؤال مجمل فالمرتضع نفسه ليس له أن يتزوج من أخوات الآخر اللآتى هن من أمه التى أرضعت وإن كان له أخوات من غير تلك الأم فهن أجانب من المرتضع فللمرتضع أن يتزوج منهن وكذلك إذا قيل طفل وطفلة تراضعا أو طفلان تراضعا هل يحل أن يتزوج أحدهما بأخوة الآخر ويتزوج الأخوات من الجانبين بعضهم لبعض فجواب ذلك أن اخوة كل من المتراضعين لهم أن يتزوجوا أخوات الآخر إذا لم يرتضع الخاطب من أم المخطوبة ولا المخطوبة من أم الخاطب وهذا متفق عليه بين العلماء وأما المتراضعين فليس لأحدهما أن يتزوج شيئا من أولاد المرضعة فلا يتزوج هذا بأحد من أخوة الأخر من الأم التى أرضعته أو من الأب صاحب اللبن ويجوز أن يتزوج كل منهما من اخوة الآخر الذين ليسوا من أولاد أبويه من الرضاعة فهذا جواب هذه الأقسام فان الرضيع إما أن يتزوج من إخوة المرتضع الآخر من تلك المرأة أو الرجل وإما أن يتزوج من إخوة المرتضع الآخر من النسب أو من رضاعة أخرى وإخوة الرضيع إما أن يتزوجوا من هؤلاء وإما من هؤلاء وإما من هؤلاء فأخوة الرضيع لهم أن يتزوجوا الجميع أولاد المرضعة وزوجها من نسب أو رضاعة ولأخوة هذا أن يتزوجوا باخوة هذا بل لأب هذا من النسب أن يتزوج أخته من الرضاع وأما اولاد المرضعة فلا يتزوج أحد منهن المرتضع ولا أولاده ولا يتزوج أحدا من أولاد اخوتها وأخواتها لا من نسب ولا من رضاعة فانه يكون إما عما وإما خالا وهذا كله متفق عليه بين العلماء ثم الرضاع المحرم فيه ثلاثة أقوال مشهورة هى ثلاث روايات عن أحمد أحدها انه يحرم كثيره وقليله وهى

مذهب مالك وأبى حنيفة لا طلاق القرآن والثانى لا تحرم الرضعة والرضعتان ويحرم ما فوق ذلك وهو مذهب طائفة لقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح لا تحرم الرضعة والرضعتان وروى المصة والمصتان وروى الاملاجة والاملاجتان فنفى التحريم عنهما وبقى الباقى على العموم والمفهوم والثالث انه لا يحرم إلا خمس رضعات وهو مذهب الشافعى وظاهر مذهب أحمد لحديثين صحيحين حديث عائشة إن مما نزل من القرآن عشر رضعات معلومات ثم نسخن بخمس معلومات فتوفى رسول الله والأمر على ذلك ولأمره لأمرأة أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة أن ترضع سالما مولى أبى حذيفة بن عتبة ابن ربيعة خمس رضعات ليصير محرما لها بذلك وعلى هذا فالرضعة فى مذهب الشافعى وأحمد ليست هى الشبعة وهى أن يلتقم الثدى ثم يسيبه ثم يلتقمه ثم يسيبه حتى يشبع بل إذا أخذ الثدى ثم تركه باختياره فهى رضعة سواء شبع بها أو لم يشبع إلا برضعات فاذا التقمه بعد ذلك فرضع ثم تركه فرضعة أخرى وإن تركه بغير اختياره ثم عاد قريبا ففيه نزاع *اذا ارتضع الرضيع من المرأة خمس رضعات فى الحولين صارت المرأة أمه وصار زوجها الذى جاء اللبن بوطئه أباه فصار ابنا لكل منهما من الرضاعة وحينئذ فيكون جميع أولاد المرأة من هذا الرجل ومن غيره وجميع أولاد الرجل منها ومن غيرها أخوة له سواء ولدوا قبل الرضاع أو بعده باتفاق الأئمة واذا كان أولادهما اخوته كان أولاد أولادهما أولاد اخوته فلا يجوز للمرتضع أن يتزوج أحدا من أولادهما ولا أولاد أولادهما فانهم إما إخوته واما أولاد اخوته وذلك يحرم من الولادة واخوة المرأة وأخواتها أخواله وخالاته من الرضاع وأبوها وأمها أجداده وجداته من الرضاع فلا يجوز له أن يتزوج أحدا من اخوتها ولا من أخواتها واخوة الرجل أعمامه وعماته وأبو الرجل وأمهاته أجداده وجداته فلا يتزوج باعمامه وعماته ولا باجداده وجداته لكن يتزوج بأولاد الاعمام والعمات فان جميع أقارب الرجل حرام عليه أولاد الأعمام والعمات وأولاد الخال والخالات كما ذكر الله في قوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ}الأحزاب٥٠ فهؤلاء الأصناف الأربعة هي المباحات من الأقارب فيبحن من الرضاعة وإذا كان المرتضع أبنا للمرأة وزوجها فأولاده أولادهما ويحرم على أولاده ما يحرم على الأولاد من النسب فهذه الجهات الثلاث منها تنتشر حرمة الرضاع وأما أخوة المرتضع من النسب وأبوه من النسب وأمه من النسب فهم أجانب أبيه وأمه وأخوته من الرضاع ليس بين هؤلاء وهؤلاء صلة ولا نسب ولا رضاع لأن الرجل يمكن أن يكون له أخ من أبيه وأخ من أمه ولا نسب بينهما بل

يجوز لأخيه من أبيه أن يتجوز أخاه من أمه فكيف إذا كان أخ من النسب وأخت من الرضاع فإنه يجوز لهذا أن يتزوج هذا ولهذا أن يتزوج بهذا وبها تزول الشبهة التي تعرض لبعض الناس فإنه يجوز للمرتضع أن يتزوج أخوه من الرضاعة بأمه من النسب كما يتزوج بأخته من النسب ويجوز لأخيه من النسب أن يتزوج أخته من الرضاعة وهذا لا نظير له في النسب فإن أخ الرجل من النسب لا يتزوج بأمه من النسب وأخته من الرضاع ليست بنت أبيه من النسب ولا ربيبته فلهذا جاز أن تتزوج به فيقول من لا يحقق يحرم في النسب على أخي أن يتزوج أمي ولا يحرم مثل هذا في الرضاع وهذا غلط منه فان نظير المحرم من النسب ان تتزوج أخته أو أخوه من الرضاعة بابن هذا الأخ أو بأمه من الرضاعة كما لو ارتضع هو وآخر من امرأة واللبن لفحل فانه يحرم على اخته من الرضاعة ان تتزوج اخاه واخته من الرضاعة لكونهما اخوين للمرتضع ويحرم عليهما ان يتزوجا اباه وأمه من الرضاعة لكونهما ولديهما من الرضاعة لا لكونهما أخوى ولديهما فمن تدبر هذا ونحوه زالت عنه الشبهة وأما رضاع الكبير فانه لا يحرم فى مذهب الأئمة الأربعة بل لا يحرم إلا رضاع الصغير كالذى رضع فى الحولين وفيمن رضع قريبا من الحولين نزاع بين الأئمة لكن مذهب الشافعى وأحمد أنه لا يحرم فاما الرجل الكبير والمرأة الكبيرة فلا يحرم احدهما على الآخر برضاع القرايب مثل أن ترضع زوجته لأخيه من النسب فهنا لا تحرم عليه زوجته لما تقدم من أنه يجوز له أن يتزوج بالتى هى أخته من الرضاعة لأخيه من النسب اذ ليس بينه وبينها صلة نسب ولارضاع وانما حرمت على أخيه لأنها أمه من الرضاع وليست ام نفسه من الرضاع وأم المرتضع من الرضاع لا تكون اما لاخوته من النسب لأنها إنما أرضعت الرضيع ولم ترضع غيره نعم لو كان للرجل نسوة يطأهن وارضعت كل واحدة طفلا لم يجز أن يتزوج أحدهما الآخر ولهذا لما سئل ابن عباس عن ذلك قال اللقاح واحد وهذا مذهب الأئمة الأربعة لحديث أبى القعيس الذى فى الصحيحين عن عائشة وهو معروف وتحرم عليه أم أخيه من النسب لأنها أمه أو امرأة أبيه وكلاهما حرام عليه وأما أم أخيه من الرضاعة فليست أمه ولا امرأة أبيه لأن زوجها صاحب اللبن ليس أبا لهذا لا من النسب ولا من الرضاعة فاذا قال القائل إن النبى قال يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب وأم أخيه من النسب حرام فكذلك من الرضاع قلنا هذا تلبيس وتدليس فان الله لم يقل حرمت عليكم أمهات اخواتكم وانما قال {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} النساء٢٣ وقال تعالى {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء} النساء٢٢ فحرم على الرجل أمه ومنكوحة أبيه وإن لم تكن أمه وهذه تحرم من الرضاعة فلا يتزوج أمه من الرضاعة وأما منكوحة أبيه من الرضاع فالمشهور عند الأئمة أنها

تحرم لكن فيها نزاع لكونها من المحرمات بالصهر لا بالنسب والولادة وليس الكلام هنا فى تحريمها فانه اذا قيل تحرم منكوحة أبيه من الرضاعة وفينا بعموم الحديث وأما أم أخيه التى ليست أما ولا منكوحة أب فهذه لا توجد فى النسب فلا يجوز أن يقال تحرم من النسب فلا يحرم نظيرها من الرضاعة فتبقى أم الام من النسب لأخيه من الرضاعة أو الام من الرضاعة لاخيه من النسب لا نظير لها من الولادة فلا تحرم وهذا متفق عليه بين المسلمين والله أعلم [1]

## الرضاعة المحرمة

و الرضاعة المحرمة بلاريب أن يرضع خمس رضعات فيأخذ الثدى فيشرب منه ثم يدعه ثم يأخذه فيشرب مرة ثم يدعه ولو كان ذلك فى زمن واحد مثل غدائه وعشائه وأما دون الخمس فلا يحرم فى مذهب الشافعى وقيل يحرم القليل والكثير كقول ابى حنيفة ومالك وقيل لا يحرم الا ثلاث رضعات والأقوال الثلاثة مروية عن أحمد لكن الأول اشهر عنه لحديث عائشة الذى فى الصحيحين كان مما نزل فى القرآن عشر رضعات يحرمن ثم نسخ ذلك بخمس رضعات فتوفى رسول الله والأمر على ذلك وفى المسند وغيره ايضا انه أمر امرأة ان ترضع شخصا خمس رضعات لتحرم عليه والرضاعة المحرم ما كان فى الحولين فان تمام الرضاع حولان كاملان كما قال تعالى {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}البقرة٢٣٣ وما كان بعد تمام الرضاعة فليس من الرضاعة ولهذا كان جمهور العلماء والأئمة الأربعة وغيرهم على أن رضاع الكبير لا تأثيرله واحتجوا بما فى الصحيحين عن عائشة قالت دخل على رسول الله وعندى رجل فقال من هذا يا عائشة قلت أخى من الرضاعة قال يا عائشة انظرن من اخوانكن إنما الرضاعة من المجاعة وروى الترمذى عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحرم من الرضاعة الا ما فتق الأمعاء فى الثدى وكان قبل الفطام ومعنى قوله فى الثدى اى وقته وهو الحولان كما جاء فى الحديث ان ابنى ابراهيم مات فى الثدى اى وهو فى زمن الرضاع وهذا لا يقتضى أنه لارضاع بعد الحولين ولا بعد الفطام وإن كان الفطام قبل تمام الحولين وقد ذهب طائفة من السلف والخلف الى ان ارضاع الكبير يحرم واحتجوا بما فى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ٣١-٤١

صحيح مسلم وغيره عن زينب بنت أم سلمة أن أم سلمة قالت لعائشة إنه يدخل عليك الغلام الأيفع الذى ما أحب ان يدخل على فقالت عائشة مالك فى رسول الله اسوة حسنة قالت ان امرأة ابى حذيفة قالت يارسول الله إن سالما يدخل على وهو رجل فى نفس أبى حذيفة منه شيء فقال رسول الله ارضعيه حتى يدخل عليك وفى رواية لمالك فى الموطأ قال ارضعيه خمس رضعات فكان بمنزلة ولده من الرضاعة وهذا الحديث أخذت به عائشة وأبى غيرها من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ان يأخذ به مع أن عائشة روت عنه قال الرضاعة من المجاعة لكنها رأت الفرق بين أن يقصد رضاعة او تغذية فمتى كان المقصود الثانى لم يحرم إلا ما كان قبل الفطام وهذا هو إرضاع عامة الناس وأما الأول فيجوز ان احتيج الى جعله ذا محرم وقد يجوز للحاجة مالا يجوز لغيرها وهذا قول متوجه ولبن الآدميات طاهر عند جمهور العلماء ولكن شك بعض المتأخرين فقال هو نجس [١]

## سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن بنت الزنا هل تزوج بأبيها ؟

الجواب الحمد لله مذهب الجمهور من العلماء أنه لا يجوز التزويج بها وهو الصواب المقطوع به حتى تنازع الجمهور هل يقتل من فعل ذلك على قولين والمنقول عن أحمد أنه يقتل من فعل ذلك فقد يقال هذا إذا لم يكن متأولا وأما المتأول فلا يقتل وإن كان مخطئا وقد يقال هذا مطلقا كما قاله الجمهور إنه يجلد من شرب النبيذ المختلف فيه متأولا وإن كان مع ذلك لا يفسق عند الشافعي وأحمد في إحدى الروايتين وفسقه مالك وأحمد في الرواية الأخرى والصحيح أن المتأول المعذور لا يفسق بل ولا يأثم وأحمد لم يبلغه أن في هذه المسألة خلافا فإن الخلاف فيها إنما ظهر في زمنه لم يظهر في زمن السلف فلهذا لم يعرفه والذين سوغوا نكاح البنت من الزنا حجتهم في ذلك أن قالوا ليست هذه بنتا في الشرع بدليل أنهما لا يتوارثان ولا يجب نفقتها ولا يلي نكاحها ولا تعتق عليه بالملك ونحو ذلك من أحكام النسب وإذا لم تكن بنتا في الشرع لم تدخل في آية التحريم فتبقى داخلة في قوله {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ٥٩-٦٠

وَرَاء ذَلِكُمْ}النساء٢٤ وأما حجة الجمهور فهو أن يقال قول الله تعالى {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ}النساء٢٣ الآية هو متناول لكل من شمله هذا اللفظ سواء كان حقيقة أو مجازا وسواء ثبت في حقه التوارث وغيره من الأحكام أم لم يثبت إلا التحريم خاصة ليس العموم في آية التحريم كالعموم في آية الفرائض ونحوها كقوله تعالى {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١١ وبيان ذلك من ثلاثة أوجه

أحدها أن آية التحريم تتناول البنت وبنت الابن وبنت البنت كما يتناول لفظ العمة عمة الأب والأم والجدة والجد وكذلك بنت الأخت وبنت ابن الأخت وبنت بنت الأخت ومثل هذا العموم لا يثبت لا في آية الفرائض ولا نحوها من الآيات والنصوص التي علق فيها الأحكام بالأنساب الثاني إن تحريم النكاح يثبت بمجرد الرضاعة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة وفي لفظ ما يحرم من النسب وهذا حديث متفق على صحته وعمل الأئمة به فقد حرم الله على المرأة أن تتزوج بطفل غذته من لبنها أو أن تنكح أولاده وحرم على أمهاتها وعماتها وخلاتها بل حرم على الطفلة المرتضعة من امرأة أن تتزوج بالفحل صاحب اللبن وهو الذي وطئ المرأة حتى در اللبن بوطئه فإذا كان يحرم على الرجل أن ينكح بنته من الرضاع ولا يثبت في حقها شيء من أحكام النسب سوى التحريم وما يتبعها من الحرمة فكيف يباح له نكاح بنت خلقت من مائه وأين المخلوقة من مائه من المتغذية بلبن در بوطئه فهذا يبين التحريم من جهة عموم الخطاب ومن جهة التنبيه والفحوى وقياس الأولى الثالث أن الله تعالى قال {وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ}النساء٢٣ قال العلماء احتراز عن ابنه الذي تبناه كما قال {لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً}الأحزاب٣٧ ومعلوم أنهم في الجاهلية كانوا يستلحقون ولد الزنا أعظم مما يستلحقون ولد المتبني فإذا كان الله تعالى قيد ذلك بقوله {مِنْ أَصْلاَبِكُمْ}النساء٢٣ علم أن لفظ البنات ونحوها يشمل كل من كان في لغتهم داخلا في الاسم وأما قول القائل إنه لا يثبت في حقها الميراث ونحوه فجوابه أن النسب تتبعض أحكامه فقد ثبت بعض أحكام النسب دون بعض كما وافق أكثر المنازعين في ولد الملاعنة على أنه يحرم على الملاعن ولا يرثه واختلف العلماء في استلحاق ولد الزنا إذا لم يكن فراشا على قولين كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ألحق ابن وليدة زمعة بن الأسود وكان قد أحبلها عتبة بن أبي وقاص فاختصم فيه سعد وعبد بن زمعة فقال سعد ابن أخي عهد إلي أن ابن وليدة زمعة هذا ابني فقال عبد أخي وابن وليدة أبي ولد على فراش أبي فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو لك يا عبد بن زمعة الولد للفراش وللعاهر الحجر

احتجبي منه يا سودة لما رأى من شبهه البين بعتبة فجعله أخاها في الميراث دون حرمة وقد تنازع العلماء في ولد الزنا هل يعتق بالملك على قولين في مذهب أبي حنيفة وأحمد [1]

## الرد على قول الرافضي بحل متعة النساء

قال الرافضي[2] وكالمتعتين اللتين ورد بهما القران فقال في متعة الحج {فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}البقرة١٩٦ وتأسف النبي صلى الله عليه وسلم على فواتها لما حج قارنا وقال لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى وقال في متعة النساء {فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً}النساء٢٤ واستمرت فعلهما مدة زمان النبي صلى الله عليه وسلم ومدة خلافة أبي بكر وبعض خلافة عمر إلى أن صعد المنبر وقال متعتان كانتا محللتين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليها

والجواب وأما متعة النساء المتنازع فيها فليس في الاية نص صريح بحلها فإنه تعالى قال {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً {٢٤} وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ {٢٥}النساء٢٤-٢٥ فقوله {فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ}النساء٢٤ يتناول كل من دخل بها من النساء فإنه أمر بأن يعطى جميع الصداق بخلاف المطلقة قبل الدخول التي لم يستمتع بها فإنها لا تستحق إلا نصفه وهذا كقوله تعالى {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً}النساء٢١ فجعل الإفضاء مع العقد موجبا لاستقرار الصداق يبين ذلك أنه ليس لتخصيص النكاح المؤقت بإعطاء الأجر فيه دون النكاح المؤبد معنى بل إعطاء الصداق كاملا في المؤبد أولى فلا بد أن تدل الاية على المؤبد إما بطريق التخصيص وإما بطريق العموم يدل على ذلك أنه ذكر بعد هذا نكاح الإماء فعلم أن ما ذكر كان في نكاح الحرائر مطلقا فإن قيل ففي قراءة طائفة من السلف فما استمتعتم به

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٢٢٤ -٢٢٦

[2] (الرافضي (صاحب كتاب منهاج الكرامة في معرفة الإمامة))

منهن إلى أجل مسمى قيل أولا ليست هذه القراءة متواترة وغايتها أن تكون كأخبار الاحاد ونحن لا ننكر أن المتعة أحلت في أول الإسلام لكن الكلام في دلالة القران على ذلك

الثاني أن يقال هذا الحرف إن كان نزل فلا ريب أنه ليس ثابتا من القراءة المشهورة فيكون منسوخا ويكون نزوله لما كانت المتعة مباحة فلما حرمت نسخ هذا الحرف ويكون الأمر بالإيتاء في الوقت تنبيها على الإيتاء في النكاح المطلق وغاية ما يقال إنهما قراءتان وكلاهما حق وألمر بالإيتاء في الاستمتاع إلى أجل مسمى واجب إذا كان ذلك حلالا وإنما يكون ذلك إذا كان الإستمتاع إلى أجل مسمى حلالا وهذا كان في أول الإسلام فليس في الاية ما يدل على أن الاستمتاع بها إلى أجل مسمى حلال فإنه لم يقل وأحل لكم أن تستمتعوا بهن إلى أجل مسمى بل قال {فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً}النساء٢٤ فهذا يتناول ما وقع من الاستمتاع سواء كان حلالا أو كان في وطء شبهة ولهذا يجب المهر في النكاح الفاسد بالسنة والاتفاق والمتمتع إذا اعتقد حل المتعة وفعلها فعليه المهر وأما الاستمتاع المحرم فلم تتناوله الايه فإنه لو استمتع بالمرأة من غير عقد مع مطاوعتها لكان زنا ولا مهر فيه وإن كانت مستكرهة ففيه نزاع مشهور وأما ما ذكره من نهى عمر عن متعة النساء فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حرم متعة النساء بعد الإحلال هكذا رواه الثقات في الصحيحين وغيرهما عن الزهري عن عبد الله والحسن ابنى محمد بن الحنفية عن أبيهما محمد بن الحنفية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال لابن عباس رضي الله عنه لما أباح المتعة إنك إمرؤ تائه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم المتعة ولحوم الحمر الأهلية عام خيبر رواه عن الزهري أعلم أهل زمانه بالسنة وأحفظهم لها أئمة الإسلام في زمنهم مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وغيرهما ممن اتفق المسلمون على علمهم وعدلهم وحفظهم ولم يختلف أهل العلم بالحديث في أن هذا حديث صحيح متلقى بالقبول ليس في أهل العلم من طعن فيه وكذلك ثبت في الصحيح أنه حرمها في غزاة الفتح إلى يوم القيامة وقد تنازع رواة حديث علي رضي الله عنه هل قوله عام خيبر توقيت لتحريم الحمر فقط أو له ولتحريم المتعة فالأول قول ابن عيينة وغيره قالوا إنما حرمت عام الفتح ومن قال بالاخر قال إنها حرمت ثم أحلت ثم حرمت وادعت طائفة ثالثة أنها أحلت بعد ذلك ثم حرمت في حجة الوداع فالروايات المستفيضة المتواترة متواطئة على أنه حرم المتعة بعد إحلالها والصواب أنها بعد أن حرمت لم تل وأنها إنما حرمت عام فتح مكة ولم تحل بعد ذلك ولم تحرم عام خيبر بل عام خيبر حرمت لحوم الحمر الأهلية وكان ابن عباس يبيح المتعة ولحوم الحمر فأنكر على بن أبي

طالب رضي الله عنه ذلك عليه وقال له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم متعة النساء وحرم لحوم الحمر يوم خيبر فقرن على رضي الله عنه بينهما في الذكر لما روى ذلك لابن عباس رضي الله عنهما لأن ابن عباس كان يبيحهما وقد روى ابن عباس رضي الله عنه أنه رجع عن ذلك لما بلغه حديث النهي عنهما فأهل السنة اتبعوا عليا وغيره من الخلفاء الراشدين فيما رووه عن النبي صلى الله عليه وسلم والشيعة خالفوا عليا فيما رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم واتبعوا قول من خالفه وأيضا فإن الله تعالى إنما أباح في كتابه الزوجة وملك اليمين والمتمتع بها ليست واحدة منهما فإنها لو كانت زوجة لتوارثا ولوجبت عليها عدة الوفاة ولحقها الطلاق الثلاث فإن هذه أحكام الزوجة في كتاب الله تعالى فلما انتفى عنها لوازم النكاح دل على انتفاء النكاح فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم والله تعالى إنما أباح في كتابه الأزواج وملك اليمين وحرم ما زاد على ذلك بقوله تعالى {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ{٥} إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ{٦} فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ{٧}المؤمنون٥-٦ والمسمتع بها بعد التحريم ليست زوجة ولا ملك يمين فتكون حراما بنص القران أما كونها ليست مملوكة فظاهر وأما كونها ليست زوجة فلانتفاء لوازم النكاح فيها فإن من لوازم النكاح كونه سببا للتوارث وثبوت عدة الوفاة فيه والطلاق الثلاث وتنصيف المهر بالطلاق قبل الدخول وغير ذلك من اللوازم فإن قيل فقد تكون زوجة لا ترث كالذمية والأمة قيل عندهم نكاح الذمية لا يجوز ونكاح الأمة إنما يكون عند الضرورة وهم يبيحون المتعة مطلقا ثم يقال نكاح الذمية والأمة سبب للتوارث ولكن المانع قائم وهو الرق والكفر كما أن النسب سبب للإرث إلا إذا كان الولد رقيقا أو كافرا فالمانع قائم ولهذا إذا أعتق الولد أو أسلم ورث أباه في حياته وكذلك الزوجة الذمية إذا أسلمت في حياة زوجها ورثته باتفاق المسلمين بخلاف المستمتع بها فإن نفس نكاحها لا يكون سببا للإرث فلا يثبت التوارث فيه بحال فصار هذا النكاح كولد الزنا الذي ولد على فراش زوج فإن هذا لا يلحق بالزاني بحال فلا يكون ابنا يستحق الإرث فإن قيل فالنسب قد تتبعض أحكامه فكذلك النكاح قيل هذا فيه نزاع والجمهور يسلمونه ولكن ليس في هذا حجة لهم فإن جميع أحكام الزوجية منتفية في المستمتع بها لم يثبت فيها شيء من خصائص النكاح الحلال فعلم انتفاء كونها زوجة وما ثبت فيها من الأحكام مثل لحوق النسب ووجوب الاستبراء ودرء الحد ووجوب المهر ونحو ذلك

فهذا يثبت في وطء الشبهة فعلم أن وطء المستمتع بها ليس وطئا لزوجة لكنه مع اعتقاد الحل مثل وطء الشبهة وأما كون الوطء به حلالا فهذا مورد النزاع فلا يحتج به أحد المتنازعين وإنما يحتج على الاخر بموارد النص والإجماع [١]

## الفاحشة تتناول العقود الفاحشة

والنظر إلى العورات حرام داخل فى قوله تعالى {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ}الأعراف٣٣ وفى قوله {وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ}الأنعام١٥١ فإن الفواحش وإن كانت ظاهرة فى المباشرة بالفرج أو الدبر وما يتبع ذلك من الملامسة والنظر وغير ذلك وكما فى قصة لوط {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ}الأعراف٨٠ {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ}النمل٥٤ وقوله {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً}الإسراء٣٢ فالفاحشة أيضا تتناول كشف العورة وإن لم يكن فى ذلك مباشرة كما قال تعالى {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا}الأعراف٢٨ وهذه الفاحشة هى طوافهم بالبيت عراة وكانوا يقولون لا نطوف بثياب عصينا الله فيها إلا الحمس فإنهم كانوا يطوفون فى ثيابهم وغيرهم إن حصل له ثياب من الحمس طاف فيها وإلا طاف عريانا وإن طاف بثيابه حرمت عليه فألقاها فكانت تسمى لقاء وكذلك المرأة إذا لم يحصل لها ثياب جعلت يدها على فرجها ويدها الأخرى على دبرها وطافت تقول اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدأ منه فلا أحله وقد سمى الله ذلك فاحشة وقوله فى سياق ذلك {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}الأعراف٣٣ يتناول كشف العورة أيضا وإبداءها ويؤكد ذلك أن إبداء فعل النكاح باللفظ الصريح يسمى فحشاء وتفحشا فكشف الأعضاء والفعل للبصر ككشف ذلك للسمع وكل واحد من الكشفين يسمى وصفا كما قال عليه السلام لا تنعت المرأة المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها ويقال فلان يصف فلانا وثوب يصف البشرة ثم إن كل واحد من إظهار ذلك للسمع والبصر يباح للحاجة بل يستحب إذا لم يحصل المستحب أو الواجب إلا بذلك كقول النبى لما عز أنكتها وكقوله من تعزى الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا والمقصود أن الفاحشة تتناول الفعل القبيح وتناول إظهار الفعل واعضاءه وهذا كما أن ذلك يتناول ما فحش وإن كان بعقد نكاح كقوله تعالى {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص:١٨٦-١٩٣

مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً}النساء٢٢ فأخبر أن هذا النكاح فاحشة وقد قيل أن هذا من الفواحش الباطنة فظهر أن الفاحشة تتناول العقود الفاحشة كما تتناول المباشرة بالفاحشة فإن قوله {وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء٢٢ يتناول العقد والوطء وفى قوله {مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}الأعراف٣٣ عموم لأنواع كثيرة من الأقوال والأفعال وأمر تعالى بحفظ الفرج مطلقا بقوله {وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ}النور٣٠ وبقوله {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ {٥} إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ{٦} المؤمنون٥ -٦ الآيات وقال {وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ}الأحزاب٣٥ فحفظ الفرج مثل قوله {وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ}التوبة١١٢ وحفظها هو صرفها عما لا يحل [١]

## من طلب النكاح بلا مهر لم يفعل ما أحل الله

وأصل عمدتهم كون النكاح يصح بدون تقدير الصداق كما ثبت بالكتاب والسنة والاجماع فقاسوا الذى يشرط فيه نفى المهر على النكاح الذى لم يزل تقدير الصداق فيه كما فعل أصحاب أبى حنيفة والشافعى وأكثر متأخرى أصحاب أحمد ثم طرد أبو حنيفة قياسه فصحح نكاح الشغار بناء على أنه لا يوجب إشغاره عن المهر وأما الشافعى ومن وافقه من أصحاب أحمد فتكلفوا الفرق بين الشغار وغيره لأن فيه تشريكا فى البضع أو تعليق العقد أو غير ذلك مما قد بسط فى غير هذا الموضع وبين فيه أن كل هذه فروق غير مؤثرة وان الصواب مذهب اهل المدينة مالك وغيره وهو المنصوص عن أحمد فى عامة اجوبته وعامة اكثر قدماء اصحابه أن العلة فى افساده بشرط اشغار النكاح عن المهر وأن النكاح ليس بلازم إذا شرط فيه نفى المهر أو مهر فاسد فان الله فرض فيه المهر فلم يحل لغير الرسول النكاح بلا مهر فمن تزوج بشرط انه لا يجب مهر فلم يعتبر الذى أذن الله فان الله انما اباح العقد لمن يبتغى بماله محصنا غير مسافح كما قال تعالى {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ}النساء٢٤ فمن طلب النكاح بلا مهر فلم يفعل ما أحل الله وهذا بخلاف من اعتقد انه لا بد من مهر لكن لم يقدره كما قال تعالى

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٨١-٣٨٣

{لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً}البقرة٢٣٦ فهذا نكاح المهر المعروف وهو مهر المثل__[١]

## نكاح السر بطل عند عامة العلماء

فان النكاح لم يكن على عهد النبى يكتب فيه صداق كما تكتب الديون ولا كانوا يشهدون فيه لأجل الصداق بل كانوا يعتقدونه بينهم وقد عرفوا به ويسوق الرجل المهر للمرأة فلا يبقى لها عليه دين فلهذا لم يذكر رسول الله فى نكاح التحليل الكاتب والشهود كما ذكرهم فى الربا ولهذا لم يثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الإشهاد على النكاح حديث ونزاع العلماء فى ذلك على أقوال فى مذهب أحمد وغيره فقيل يجب الإعلان أشهدوا أو لم يشهدوا فاذا أعلنوه ولم يشهدوا تم العقد وهو مذهب مالك وأحمد فى إحدى الروايات وقيل يجب الإشهاد أعلنوه أو لم يعلنوه فمتى أشهدوا وتواصوا بكتمانه لم يبطل وهذا مذهب أبى حنيفة والشافعى وأحمد فى إحدى الروايات وقيل يجب الأمران الإشهاد والإعلان وقيل يجب أحدهما وكلاهما يذكر فى مذهب أحمد وأما نكاح السر الذى يتواصون بكتمانه ولا يشهدون عليه أحدا فهو بطل عند عامة العلماء وهو من جنس السفاح قال الله تعالى {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ}النساء٢٤ وهذه المسائل مبسوطة فى موضعها[٢]

## سبب الاسترقاق هو الكفر بشرط الحرب

وفى المسند للامام أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت قسم رسول الله سبايا بنى المصطلق فوقعت جويرية بنت الحارث لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له كاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحة فاتت رسول الله وقالت يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه وقد أصابنى من البلاء مالم

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ١٢٦

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣٣ ص: ١٥٨

يخف عليك وجئتك أستعينك على كتابتى فقال رسول الله هل لك فى خير من ذلك قالت وما هو يا رسول الله قال اقضى كتابتك واتزوجك قالت نعم يا رسول الله قال قد فعلت قالت وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله تزوج جويرية بنت الحارث فارسلوا ما بأيديهم قالت فقد عتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق وما أعلم إمرأة كانت أعظم بركة على قومها منها وهذه الأحاديث ونحوها مشهور بل متواترة أن النبى كان يسبى العرب وكذلك خلفاؤه بعده كما قال الأئمة وغيرهم سبى النبى العرب وسبى أبو بكر بنى ناحية وكان يطارد العرب بذلك الاسترقاق وقد قال الله لهم {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ} النساء٢٤ وفى حديث أبى سعيد وغيره أنها نزلت فى المسبيات أباح الله لهم وطأها بملك اليمين وإذا سبيب واسترقت بدون زوجها جاز وطؤها بلا ريب وإنما فيه خلاف شاذ فى مذهب أحمد وحكى الخلاف فى مذهب مالك قال إبن المنذر أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن المرأة إذا وقعت فى ملك ولها زوج مقيم بدار الحرب أن نكاح زوجها قد انفسخ وحل لمالكها وطؤها بعد الاستبراء وأما إذا سبيت مع زوجها ففيه نزاع بين أهل العلم ومعلوم أن عامة السبى الذى كان يسبيه النبى كان فى الحرب وقد قاتل أهل الكتاب فإنه خرج لقتال النصارى عام تبوك ولم يجر بينهم قتال وقد بعث إليهم السرية التى أمر عليها زيد ثم جعفر ثم عبد الله بن رواحة ومع هذا فكان فى النصارى العرب والروم وكذلك قاتل اليهود بخيبر والنظير وقينقاع وكان فى يهود العرب وبنوا اسرائيل وكذلك يهود اليمن كان فيهم العرب وبنو اسرائيل وأيضا فسبب الاسترقاق هو الكفر بشرط الحرب فالحر المسلم لا يسترق بحال والمعاهد لا يسترق والكفر مع المحاربة موجود فى كل كافر فجاز استرقاقه كما يجوز قتاله فكل ما أباح قتل المقاتلة أباح سبي الذرية وهذا حكم عام فى العرب والعجم وهذا مذهب مالك والشافعى فى الجديد من قوليه وأحمد وأما أبو حنيفة فلا يجوز استرقاق العرب كما لا يجوز ضرب الجزية عليهم لأن العرب اختصوا بشرف النسب لكون النبى صلى الله عليه وسلم منهم واختص كفارهم بفرط عدوانه فصار ذلك مانعا من قبول الجزية كما أن المرتد لا تؤخذ منه الجزية للتغليظ ولما حصل له من الشرف بالاسلام السابق واحتج بما روى عن عمر أنه قال ليس على عربى ملك والذين نازعوه لهم قولان فى جواز استرقاق من لا تقبل منه الجزية هما روايتان عن أحمد أحداهما أن الاسترقاق كاخذ الجزية فمن لم تؤخذ منه الجزية لا يسترق وهذا مذهب أبى حنيفة وغيره وهو اختيار الخرقى والقاضى وغيرهما من أصحاب أحمد وهو قول الاصطخرى من أصحاب الشافعى وعند أبى حنيفة تقبل الجزية من كل كافر الا من مشركى العرب وهو رواية عن

أحمد فعلى هذا لا يجوز استرقاق مشركى العرب لكون الجزية لا تؤخذ منهم ويجوز استرقاق مشركى العجم وهو قول الشافعى بناء على قوله إن العرب لا يسترقون والرواية الأخرى عن أحمد أن الجزية لا تقبل الا من أهل الكتاب والمجوس كمذهب الشافعى فعلى هذا القول فى مذهب أحمد لا يجوز استرقاق أحد من المشركين لا من العرب ولا من غيرهم كاختيار الخرقى والقاضى وغيرهما وهذان القولان فى مذهب أحمد لا يمنع فيه الرق لأجل النسب لكن لأجل الدين فإذا سبى عربية فاسلمت استرقها وإن لم تسلم أجبرها على الاسلام وعلى هذا يحملون ما كان النبى والصحابة يفعلونه من استرقاق العرب وأما الرقيق الوثنى فلا يجوز اقراره عندهم برق كما يجوز بجزية وهذا كما أن الصحابة سبوا العربيات والوثنيات ووطؤهم وقد قال النبى لا توطأ حامل حتى تضع ولا غير ذات حمل حتى تستبرأ بحيضة ثم الأئمة الأربعة متفقون على أن الوطأ إنما كان بعد الاسلام وأن وطأ الوثنية لا يجوز كما لا يجوز تزويجها والقول الثانى أنه يجوز استرقاق من لا تؤخذ منهم الجزية من أهل الاوثان وهو مذهب الشافعى وأحمد فى الرواية الأخرى بناء على أن الصحابة استرقوهم ولم نعلم أنهم أجبروهم على الاسلام ولأنه لا يجوز قتلهم فلا بد من استرقاقهم والرق فيه من الغل ما ليس فى أخذ الجزية وقد تبين مما ذكرناه أن الصحيح جواز استرقاق العرب وأما الأثر المذكور عن عمر إذا كان صحيحا صريحا فى محل النزاع فقد خالفه أبو بكر وعلى فإنهم سبوا العرب ويحتمل أن يكون قول عمر محمولا على أن العرب أسلموا قبل أن يسترق رجالهم فلا يضرب عليهم رق كما أن قريشا اسلموا كلهم فلم يضرب عليهم رق لأجل إسلامهم لا لأجل النسب ولم تتمكن الصحابة من سبي نساء قريش كما تمكنوا من سبي نساء طوائف من العرب ولهذا لم يسترق منهم أحد ولم يحفظ عن النبى فى النهى عن سبيهم شىء وأما إذا تزوج العربى مملوكة فنكاح الحر للمملوكة لا يجوز إلا بشرطين خوف العنت وعدم الطول إلى نكاح حرة فى مذهب مالك والشافعى وأحمد وعللوا ذلك بأن تزوجه يفضى إلى استرقاق ولده فلا يجوز للحر العربى ولا العجمى أن يتزوج مملوكة إلا لضرورة وإذا تزوجها للضرورة كان ولده مملوكا وأما أبو حنيفة فالمانع عنده أن تكون تحته حرة وهو يفرق فى الاسترقاق بين العربى وغيره وأما إذا وطىء الأمة بزنا فان ولدها مملوك لسيدها بالاتفاق وإن كان أبوه عربيا لأن النسب غير لاحق وأما إذا وطئها بنكاح وهو يعتقدها حرة أو استبرأها فوطئها يظنها مملوكته فهنا ولده حرا سواء كان عربيا أو عجميا وهذا يسمى المغرور فولد المغرور من النكاح أو البيع حر لاعتقاده أنه وطىء زوجة حرة أو مملوكته وعليه

الفداء لسيد الأمة كما قضت بذلك الصحابة لأنه فوت سيد الأمة ملكهم فكان عليه الضمان وفى ذلك تفريع ونزاع ليس هذا موضعه والله أعلم [1]

## المختلعة ليس عليها إلا الاستبراء بحيضة لا عدة كعدة المطلقة

وقد ثبت بدلالة الكتاب وصريح السنة وأقوال الصحابة أن المختلعة ليس عليها إلا الاستبراء بحيضة لا عدة كعدة المطلقة وهو إحدى الروايتين عن أحمد وقول عثمان بن عفان وابن عباس وابن عمر في آخر قوليه وذكر السبكي أنه إجماع الصحابة وهو قول قبيصة بن ذؤيب وإسحق بن راهويه وابن المنذر وغيرهم من فقهاء الحديث وهذا هو الصحيح وأيضا فالمهاجرة من دار الكفر كالممتحنة التي أنزل الله فيها {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ}الممتحنة١٠ الآية قد ذكرنا في غير هذا الموضع الحديث المأثور فيها وأن ذلك كان يكون بعد استبرائها بحيضة مع أنها كانت مزوجة لكن حصلت الفرقة بإسلامها واختيارها فراقه لا بطلاق منه وكذلك قوله {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}النساء٢٤ فكانوا إذا سبوا المرأة أبيحت بعد الاستبراء والمسبية ليس عليها إلا الاستبراء بالسنة واتفاق الناس وقد يسمى ذلك عدة وفي السنن في حديث بريرة لما أعتقت أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن تعتد فلهذا قال من قال من أهل الظاهر كابن حزم إن من ليست بمطلقة تستبرأ بحيضة إلا هذه وهذا ضعيف فإن لفظ تعتد في كلامهم يراد به الاستبراء كما ذكرنا هذه وقد روى ابن ماجه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرها أن تعتد بثلاث حيض فقال كذا لكن هذا حديث معلول أما أولا فإن عائشة قد ثبت عنها من غير وجه أن العدة عندها ثلاثة اطهار وأنها إذا طعنت في الحيضة الثالثة حلت فكيف تروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمرها أن تعتد بثلاث حيض والنزاع بين المسلمين من عهد الصحابة إلى اليوم في العدة هل هي ثلاث حيض أو ثلاث أطهار وما سمعنا أحدا من أهل العلم احتج بهذا الحديث على أنها ثلاث حيض ولو كان لهذا أصل عن عائشة لم يخف ذلك على أهل العلم قاطبة ثم هذه سنة عظيمة تتوافر الهمم والدواعي على معرفتها لأن فيها أمرين عظيمين أحدهما أن المعتقة تحت عبد تعتد بثلاث حيض والثاني أن العدة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ٣٧٩-٣٨٣

ثلاث حيض وأيضا فلو ثبت ذلك كان يحتج به من يرى أن المعتقة إذا اختارت نفسها كان ذلك طلقة بائنة كقول مالك وغيره وعلى هذا فالعدة لا تكون إلا من طلاق لكن هذا أيضا قول ضعيف والقرآن والسنة والاعتبار يدل على أن الطلاق لا يكون إلا رجعيا وإن كل فرقة مباينة فليست من الطلقات الثلاث حتى الخلع كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع [1]

## {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء}الحرائر العفائف

{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء}النساء٢٤ الحرائر وعن ابن عباس هن العفائف فقد نقل عن ابن عباس تفسير {وَالْمُحْصَنَاتُ}النساء٢٤ بالحرائر وبالعفائف وهذا حق فنقول مما يدل على ذلك قوله تعالى {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ}المائدة٥ المحصنات قد قال أهل التفسير هن العفائف هكذا قال الشعبي والحسن والنخعي والضحاك والسدي وعن ابن عباس هن الحرائر ولفظ المحصنات إن أريد به الحرائر فالعفة داخلة في الإحصان بطريق الأولى فإن أصل المحصنة هي العفيفة التي أحصن فرجها قال الله تعالى {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا}التحريم١٢ وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ}النور٢٣ وهن العفائف قال حسان بن ثابت حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل ثم عادة العرب أن الحرة عندهم لا تعرف الزنا وإنما تعرف بالزنا الإماء ولهذا لما بايع النبي صلى الله عليه وسلم هند امرأة أبي سفيان على ألا تزني قالت أو تزني الحرة فهذا لم يكن معروفا عندهم والحرة خلاف الأمة صارت في عرف العامة أن الحرة هي العفيفة لأن الحرة التي ليست أمة كانت معروفة عندهم بالعفة وصار لفظ الإحصان يتناول الحرية مع العفة لأن الإماء لم تكن عفائف وكذلك الإسلام هو ينهي عن الفحشاء والمنكر وكذلك المرأة المتزوجة زوجها يحصنها لأنها تستكفي به ولأنه يغار عليها فصار لفظ الإحصان يتناول الإسلام والحرية والنكاح وأصله إنما هو العفة فإن العفيفة هي التي أحصن فرجها من غير

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٧٨-٧٩

صاحبها كالمحصن الذي يمتنع من غير أهله وإذا كان الله إنما أباح من المسلمين وأهل الكتاب نكاح المحصنات والبغايا لسن محصنات فلم يبح الله نكاحهن ومما يدل على ذلك قوله {إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ}المائدة٥ والمسافح الزاني الذي يسفح ماءه مع هذه وهذه المسافحة والمتخذة الخدن الذي تكون له صديقة يزني بها دون غيره فشرط في الحل أن يكون الرجل غير مسافح ولا متخذ خدن فإذا كانت المرأة بغيا وتسافح هذا وهذا لم يكن زوجها محصنا لها عن غيره إذ لو كان محصنا لها كانت محصنة وإذا كانت مسافحة لم تكن محصنة و الله إنما أباح النكاح إذا كان الرجال محصنين غير مسافحين وإذا شرط فيه أن لا يزني بغيرها فلا يسفح ماءه مع غيرها كان أبلغ وأبلغ وقال أهل اللغة السفاح الزنا قال ابن قتيبة محصنين أي متزوجين غير مسافحين قال وأصله من سفحت القربة إذا صببتها فسمى الزنا سفاحا لأنه يصب النطفة وتصب المرأة النطفة وقال ابن فارس السفاح صب الماء بلا عقد ولا نكاح فهي التي تسفح ماءها وقال الزجاج محصنين أي عاقدين التزوج وقال غيرهما متعففين غير زانين وكذلك قال في النساء {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ}النساء٢٤أن يكون الرجال محصنين غير مسافحين بكسر الصاد والمحصن هو الذي يحصن غيره ليس هو المحصن بالفتح الذي يشترط في الحد فلم يبح إلا تزوج من يكون محصنا للمرأة غير مسافح ومن تزوج ببغي مع بقائها على البغاء ولم يحصنها من غيره بل هي كما كانت قبل النكاح تبغي مع غيره فهو مسافح بها لا محصن لها وهذا حرام بدلالة القرآن فإن قيل إنما أراد بذلك إنك تبتغي بمالك النكاح لا تبتغي به السفاح فتعطيها المهر على أن تكون زوجتك ليس لغيرك فيها حق بخلاف ما إذا أعطيتها على أنها مسافحة لمن تريد وإنها صديقة لك تزني بك دون غيرك فهذا حرام قيل فإذا كان النكاح مقصوده أنها تكون له لا لغيره وهي لم تتب من الزنا لم تكن موفية بمقتضى العقد فإن قيل فإنه يحصنها بغير اختيارها فيسكنها حيث لا يمكنها الزنا قيل أما إذا أحصنها بالقهر فليس هو بمثل الذي يمكنها من الخروج إلى الرجال ودخول الرجال إليها لكن قد عرف بالعادات والتجارب أن المرأة إذا كانت لها إرادة في غير الزوج احتالت إلى ذلك بطرق كثيرة وتخفي على الزوج وربما أفسدت عقل الزوج بما تطعمه وربما سحرته أيضا وهذا كثير موجود رجال أطعمهم نساؤهم وسحرتهم نساؤهم حتى يمكن للمرأة أن تفعل ما شاءت وقد يكون قصدها مع ذلك أن لا يذهب هو إلى غيرها فهي تقصد منعه من الحلال أو من الحرام والحلال وقد تقصد أن يمكنها أن تفعل ما شاءت فلا يبقى محصنا لها قواما عليها بل تبقى هي الحاكمة عليه فإذا كان هذا موجودا فيمن تزوجت ولم تكن بغيا فكيف بمن

كانت بغيا والحكايات في هذا الباب كثيرة ويا ليتها مع التوبة يلزم معه دوام التوبة فهذا إذا أبيح له نكاحها وقيل له أحصنها واحتفظ أمكن ذلك أما بدون التوبة فهذا متعذر أو متعسر ولهذا تكلموا في توبتها فقال ابن عمر وأحمد بن حنبل يراودها على نفسها فإن أجابته كما كانت تجيبه لم تتب وقالت طائفة منهم أبو محمد لا يراودها لأنها قد تكون تابت فإذا راودها نقضت التوبة ولأنه يخاف عليه إذا راودها أن يقع في ذنب معها والذين اشترطوا امتحانها قالوا لا يعرف صدق توبتها بمجرد القول فصار كقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ}الممتحنة١٠ والمهاجر قد يتناول التائب قال النبي صلى الله عليه وسلم المهاجر من هجر ما نهى الله عنه والمهاجر من هجر السوء فهذه إذا ادعت أنها هجرت السوء امتحنت على ذلك وبالجملة لا بد أن يغلب على قلبه صدق توبتها وقوله تعالى {وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ}المائدة٥ حرم به أن يتخذ صديقة في السر تزني معه لا مع غيره وقد قال سبحانه في آية الإماء {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ}النساء٢٥ فذكر في الإماء محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان وأما الحرائر فاشترط فيهن أن يكون الرجال محصنين غير مسافحين وذكر في المائدة {وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ}المائدة٥ لما ذكر نساء أهل الكتاب وفي النساء لم يذكر إلا غير مسافحين وذلك أن الإماء كن معروفات بالزنا دون الحرائر فاشترط في نكاحهن أن يكن محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فدل ذلك أيضا على الأمة التي تبغي لا يجوز تزوجها إلا إذا تزوجها على أنها محصنة يحصنها زوجها فلا تسافح الرجال ولا تتخذ صديقا وهذا من أبين الأمور في تحريم نكاح الأمة الفاجرة مع ما تقدم وقد روي عن ابن عباس محصنات عفائف غير زوان ولا متخذات أخدان يعني أخلاء كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا ويستحلون ما خفي وعنه رواية أخرى المسافحات المعلنات بالزنا والمتخذات أخدان ذوات الخليل الواحد قال بعض المفسرين كانت المرأة تتخذ صديقا تزني معه ولا تزني مع غيره فقد فسر ابن عباس هو وغيره من السلف المحصنات بالعفائف وهو كما قالوا وذكروا أن الزنا في الجاهلية كان نوعين نوعا مشتركا ونوعا مختصا والمشترك ما يظهر في العادة بخلاف المختص فإنه مستتر في العادة ولما حرم الله المختص وهو شبيه بالنكاح فإن النكاح تختص فيه المرأة بالرجل وجب الفرق بين النكاح الحلال والحرام من اتخاذ الأخدان فإن هذه إذا كان يزني بها وحدها لم يعرف

أنها لم يطأها غيره ولم يعرف أن الولد الذي تلده منه ولا يثبت لها خصائص النكاح فلهذا كان عمر بن الخطاب يضرب على نكاح السر فإن نكاح السر من جنس اتخاذ الأخدان شبيه به لا سيما إذا زوجت نفسها بلا ولي ولا شهود وكتما ذلك فهذا مثل الذي يتخذ صديقة ليس بينهما فرق ظاهر معروف عند الناس يتميز به عن هذا فلا يشاء من يزني بامرأة صديقة له إلا قال تزوجتها ولا يشاء أحد أن يقول لمن تزوج في السر إنه يزني بها إلا قال ذلك فلا بد أن يكون بين الحلال والحرام فرق مبين قال الله تعالى {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ}التوبة١١٥ وقال تعالى{وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ}الأنعام١١٩ فإذا ظهر للناس أن هذه المرأة قد أحصنها تميزت عن المسافحات والمتخذات أخدانا وإذا كان يمكنها أن تذهب إلى الأجانب لم تتميز المحصنات كما أنه إذا كتم نكاحها فلم يعلم به أحد لم تتميز من المتخذات أخدانا وقد اختلف العلماء فيما يتميز به هذا عن هذا فقيل الواجب الإعلان فقط سواء أشهد أو لم يشهد كقول مالك وكثير من فقهاء الحديث وأهل الظاهر وأحمد في رواية وقيل الواجب الإشهاد سواء أعلن أو لم يعلن كقول أبي حنيفة والشافعي ورواية عن أحمد وقيل يجب الأمران وهو الرواية الثالثة عن أحمد وقيل يجب أحدهما وهو الرواية الرابعة عن أحمد واشتراط الإشهاد وحده ضعيف ليس له أصل في الكتاب ولا في السنة فإنه لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه حديث ومن الممتنع أن يكون الذي يفعله المسلمون دائما له شروط لم يبينها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا مما تعم به البلوى فجميع المسلمين يحتاجون إلى معرفة هذا وإذا كان هذا شرطا كان ذكره أولى من ذكر المهر وغيره مما لم يكن له ذكر في كتاب الله ولا حديث ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبين أنه ليس مما أوجبه الله على المسلمين في مناكحهم قال أحمد بن حنبل وغيره من أئمة الحديث لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الإشهاد على النكاح شيء ولو أوجبه لكان الإيجاب إنما يعرف من جهة النبي صلى الله عليه وسلم وكان هذا من الأحكام التي يجب إظهارها وإعلانها فاشتراط المهر أولى فإن المهر لا يجب تقديره في العقد بالكتاب والسنة والإجماع ولو كان قد أظهر ذلك لنقل ذلك عن الصحابة ولم يضيعوا حفظ ما لا بد للمسلمين عامة من معرفته فإن الهمم والدواعي تتوافر على نقل ذلك والذي يأمر بحفظ ذلك وهم قد حفظوا نهيه عن نكاح الشغار ونكاح المحرم ونحو ذلك من الأمور التي تقع قليلا فكيف النكاح بلا إشهاد إذا كان الله ورسوله قد حرمه وأبطله كيف لا يحفظ في ذلك نص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل لو نقل في ذلك شيء من أخبار الآحاد لكان مردودا عند من يرى مثل ذلك فإن هذا من أعظم ما تعم به البلوى أعظم من البلوى بكثير من الأحكام فيمتنع أن يكون كل نكاح للمسلمين لا

يصح إلا بإشهاد وقد عقد المسلمون من عقود الأنكحة ما لا يحصيه إلا رب السموات فعلم أن اشتراط الإشهاد دون غيره باطل قطعا [1]

## أن الامة المزوجة إذا انتقل الملك فيها ببيع أو نحو ذلك و كان مالكها معصوم الملك لم يزل عنها ملك الزوج

وقد أجمع المسلمون فيما أعلمه على جواز استثناء الجزء الشائع مثل ان يبيعه الدار إلا ربعها أو ثلثها و استثناء الجزء المعين إذا أمكن فصله بغير ضرر مثل أن يبيعه ثمر البستان إلا نخلات بعينها أو الثياب أو العبيد أو الماشية التى قد رأياها الا شيئا منها قد عيناه و اختلفوا فى استثناء بعض المنفعة كسكنى الدار شهرا او استخدام العبد شهرا أو ركوب الدابة مدة معينة او الى بلد بعينه مع اتفاق الفقهاء المشهورين و أتباعهم و جمهور الصحابة على أن ذلك قد ينفع كما إذا اشترى أمة مزوجة فان منفعة بضعها التى يملكها الزوج لم تدخل فى العقد كما اشترت عائشة بريرة و كانت مزوجة لكن هي اشترتها بشرط العتق فلم تملك التصرف فيها إلا بالعتق و العتق لا ينافى نكاحها فلذلك كان ابن عباس رضي الله عنهما و هو ممن روى حديث بريرة يرى أن بيع الأمة طلاقها مع طائفة من الصحابة تأويلا لقوله تعالى {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}النساء٢٤ قالوا فاذا ابتاعها أو اتهبها أو و رثها فقد ملكتها يمينه فتباح له و لا يكون ذلك إلا بزوال ملك الزوج و احتج بعض الفقهاء على ذلك بحديث بريرة فلم يرض أحمد هذه الحجة لأن ابن عباس رواه و خالفه و ذلك و الله أعلم لما ذكرته من أن عائشة لم تملك بريرة ملكا مطلقا ثم الفقهاء قاطبة و جمهور الصحابة على أن الامة المزوجة إذا انتقل الملك فيها ببيع او هبة أو إرث أو نحو ذلك و كان مالكها معصوم الملك لم يزل عنها ملك الزوج و ملكها المشتري و نحوه إلا منفعة البضع و من حجتهم ان البائع نفسه لو اراد أن يزيل ملك الزوج لم يمكنه ذلك فالمشتري الذي هو دون البائع لا يكون أقوى منه و لا يكون الملك الثابت للمشتري أتم من ملك البائع و الزوج معصوم لا يجوز الاستيلاء

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٨٦-٩١

على حقه بخلاف المسبية فان فيها خلافا ليس هذا موضعه لكون أهل الحرب تباح دماؤهم و أموالهم و كذلك ما ملكوه من الأبضاع [1]

## الله سبحانه شرط فى الرجال أن يكونوا محصنين غير مسافحين

فى الصحيح لا يزنى الزانى حين يزنى هو مؤمن وذلك أنه أخبر أنه لا ينكح إلا زانية أو مشركة ثم قال تعالى {وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} النور٣ فعلم أن الإيمان يمنع من ذلك ويزجر وأن فاعله إما مشرك وإما زان ليس من المؤمنين الذين يمنعهم إيمانهم من ذلك وذلك أن الزانية فيها إفساد فراش الرجل وفى مناكحتها معاشرة الفاجرة دائما ومصاحبتها والله قد أمر بهجر السوء وأهله ما داموا عليه وهذا المعنى موجود فى الزانى فإن الزانى إن لم يفسد فراش امرأته كان قرين سوء لها كما قال الشعبى من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها وهذا مما يدخل به على المرأة ضرر فى دينها ودنياها فنكاح الزانية من جهة الفراش ونكاح الزانى أشد من جهة أنه السيد المالك الحاكم على المرأة فتبقى المرأة الحرة العفيفة فى اسر الفاجر الزانى الذي يقصر فى حقوقها ويتعدى عليها ولهذا إتفق الفقهاء على إعتبار الكفاءة فى الدين وعلى ثبوت الفسخ بفوات هذه الكفاءة وإختلفوا فى صحة النكاح بدون ذلك وهما قولان مشهوران فى مذهب أحمد وغيره فإن من نكح زانية مع أنها تزنى فقد رضى بأن يشترك هو وغيره فيها ورضى لنفسه بالقيادة والدياثة ومن نكحت زان وهو يزنى بغيرها فهو لا يصون ماءه حتى يضعه فيها بل يرميه فيها وفى غيرها من البغايا فهى بمنزلة الزانية المتخذة خدنا فإن مقصود النكاح حفظ الماء فى المرأة وهذا الرجل لا يحفظ ماءه والله سبحانه شرط فى الرجال أن يكونوا محصنين غير مسافحين فقال {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ} النساء٢٤ وهذا المعنى مما لا ينبغى إغفاله فإن القرآن قد نصه وبينه بيانا مفروضا كما قال تعالى {سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا} النور١ فأما تحريم نكاح الزانية فقد تكلم فيه الفقهاء من اصحاب أحمد وغيرهم وفيه آثار عن السلف وإن كان الفقهاء قد تنازعوا فيه وليس مع من أباحه ما يعتمد عليه وقد إدعى بعضهم أن هذه الآية منسوخة بقوله {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ١٧١

مُسَافِحِينَ} النساء ٢٤ وزعموا أن البغى من المحصنات وتلك الآيات حجة عليهم فان أقل ما فى الاحصان العفة وإذا اشترط فيه الحرية فذاك تكميل للعفة والاحصان ومن حرم نكاح الامة لئلا يرق ولده كيف يبيح البغى التى تلحق به من ليس بولده وأين فساد فراشه من رق ولده وكذلك من زعم ان النكاح هنا هو الوطء والمعنى أن الزانى لايطأ الازانية أو مشركة والزانية لايطأها إلا زان أو مشرك فهو زان وهذا أبلغ فى الحجة عليهم فمن وطىء زانية أو مشركة بنكاح فهو زان وكذلك من وطئها زان فان ذم الزانى بفعله الذى هو الزنا حتى لو استكرهها أو استدخلت ذكره وهو نائم كانت العقوبة للزانى دون قرينه وهذه المسألة مبسوطة فى كتب الفقه [1]

## ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا

ان الله سبحانه أمرنا بالمعروف وهو طاعته وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر ونهى عن المنكر وهو معصيته ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور وقيد الايجاب بالاستطاعة والوسع واباح مما حرم ما يضطر المرء اليه غير باغ ولا عاد فقال تعالى اتقوا الله حق تقاته سورة آل عمران ١٠٢ وقال فاتقوا الله ما استطعتم سورة التغابن ١٦ وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه واذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم فأوجب مما امر به ما يستطاع وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث اخر انكم لن تحصوا او تستطيعوا كل ما امرتم به ولكن وقال ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا وهذا العام المجمل فصله فقال في المناكح وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ النساء ٢٥ الى قوله يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{٢٦} وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣١٦-٣١٨

وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً{٢٧} يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً{٢٨} النساء ٢٥-٢٨ [١]

## اخبر الله تعالى ان العبد يقدر على افعاله

فان الله تعالى اخبر ان العبد يقدر على افعاله كقوله {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ}النساء٢٥ فدل على ان منا من يستطع ذلك ومنا من لم يستطع وقال النبى يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء اخرجاه فى الصحيحين وقوله ان استطعت ان تعمل بالرضا مع اليقين فافعل وقوله فى الحديث الذى فى الصحيح اذا أمرتكم بامر فاتوا منه ما استطعتم [٢]

## أن الله أمر فى النكاح بأن يميز عن السفاح

ومعلوم أن كون القول أو الفعل يدل على مقصود العقد لا يختص به المسلم دون الكافر وإنما اختص المسلم بأن الله أمر فى النكاح بأن يميز عن السفاح كما قال تعالى {مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ}المائدة٥ و قال {مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ}النساء٢٥ فأمر بالولي والشهود ونحو ذلك مبالغة فى تمييزه عن السفاح وصيانة للنساء عن التشبه بالبغايا حتى شرع فيه الضرب بالدف والوليمة الموجبة لشهرته ولهذا جاء فى الأثر المرأة لا تزوج نفسها فإن البغي هي التى تزوج نفسها وأمر فيه بالاشهاد أو بالإعلان أو بهما جميعا ثلاثة أقوال

---

[١] الاستقامة ج: ٢ ص: ٣١٨

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٣٨

هي ثلاث روايات في مذهب أحمد ومن إقتصر على الاشهاد علله بأن به يحصل الإعلان المميز له عن السفاح وبأنه يحفظ النسب عند التجاحد [1]

## الشيطان جعل من الحرام ما فيه مضاهاة من للحلال

فينبغي أن يعرف أن استحقاق العباد للعذاب بالشرك فما دونه مشروط ببلاغ الرسالة في أصل الدين وفروعه ولهذا لما كثر الجهل وانتشر تزيين الشيطان لكثير من الناس أنواعا من الحرام ضاهوا بها الحلال زين الشيطان لكثير من الناس نواعا من المحرمات ضاهوا بها حلال وقد لا يعلمون أنها محرمة بغيضة إلي الله بل قد يظنون أن ذلك محبوب لله مأمور به وقد يظنون أن فيها هذا وهذا وهم في ذلك يتبعون الظن وما تهوي الأنفس وقد يعلمون تحريم ذلك ويظهرون عدم الوجه المحرم خداعا ونفاقا فهؤلاء غير المؤمن الذي يحب الله ورسوله ويأتي بالمحرم معتقدا أنه محرم وهو مبغض له خائف راج وهذه الأمور توجد في الأقسام الثلاثة ونحن نذكر أمثلة ذلك في المحرمات التي ذكرها الله في قوله تعالي {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}الأعراف٣٣ فالله سبحانه قد حرم الفواحش كما ذكر وقد قال تعالي {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ{٥} إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ{٦}المؤمنون٥-٦ فلم تبح إلا المرأة التي هي زوج أو ملك يمين وقد ذكر ما اشترطه في الحلال بقوله {غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ}النساء٢٥ وقوله {غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ}المائدة٥ كما في الصحيح عن عائشة قالت كان النكاح في الجاهلية علي أربعة أنحاء وذكرت أصحاب الرايات وهن المسافحات وأن إلحاق النسب في وطئهن كان بالقافة وذكرت التي يطأها جماعة محصورة وأن الإلحاق كان بتعيين المرأة وذكرت نكاح الاستبضاع وهو غير نكاح ذوات الأخدان وذكرت النكاح الرابع وهو النكاح المعروف الذي أحله الله فالشيطان جعل من الحرام ما فيه مضاهاة من للحلال وان سمي باسم آخر لكن المعني فيه اشتراك فالله أباح للرجل امرأته ومملوكته وكل من الرجل والمرأة زوج الآخر فذوات الأخدان بينهن وبين أخدانهن نوع ازدواج واقتران

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ١١

كذلك ولهذا ميز الله بين هذا وهذا وأخفي من ذلك مؤاخاة كثير من الرجال لكثير من النساء أو لكثير من الصبيان وقولهم إن هذه مؤاخاة لله إذا لم تكن المؤاخاة علي فعل الفاحشة كذوات الأخدان فهذا الذي يظهرونه للناس الذين يوافقونهم ويقرونهم علي ذلك ويرون كلهم أن من أحب صبيا أو امرأة لصورته وحسنه من غير فعل فاحشة فإن هذا محبة لله فهذا من الضلال والغي و تبديل الدين حيث جعل ما كرهه الله محبوبا لله وهو نوع من الشرك والمحبوب المعظم بذلك طاغوت وذلك أن اعتقاد أن التمتع بالمحبة والنظر أو نوع من المباشرة إلي المرأة الأجنبية والصبيان هو لله وهو حب في الله كفر وشرك كاعتقاد أن محبة الأنداد حب لله وأن الاجتماع علي الفاحشة تعاون علي البر والتقوى وأن الإقامة علي ذلك بالعبادة هي عبادة لله ونحو ذلك فاعتقاد أن هذه الأمور التي حرمها الله ورسوله تحريما ظاهرا أنها دين الله ومحبة الله نوع من الشرك والكفر ثم قد يكون منها من خفيها أشياء تروج علي من لم يبلغه العلم كما اشتبه علي كثير من العلماء والعباد أن استماع أصوات الملاهي تكون عبادة لله واشتبه علي من هو أضعف علما وإيمانا أن التمتع بمشاهدة هذه الصور يكون عبادة لله [1]

## نكاح السر هو من جنس نكاح البغايا

الذي عليه العلماء أنه لانكاح إلا بولي وأيما امرأة تزوجت بغير إذن وليها فنكاحها باطل فنكاحها باطل وكلا هذين اللفظين مأثور في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال غير واحد من السلف لا نكاح إلا بشاهدين وهذا مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد ومالك يوجب إعلان النكاح ونكاح السر هو من جنس نكاح البغايا وقد قال الله تعالى {مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ} النساء٢٥ فنكاح السر من جنس ذوات الأخدان وقال تعالى {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ} النور٣٢ وقال تعالى {وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى

---

[1] ـ قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٠٨-١١٠ ((تكملة الموضوع موجود في تفسير الاعراف٣٣ نفس المرجع ))

يُؤْمِنُواْ}البقرة٢٢١ فخاطب الرجال بتزويج النساء ولهذا قال من قال من السلف إن المرأة لا تنكح نفسها وإن البغي هي التي تنكح نفسها [1]

## العذاب قد يكون عذاب سماوي وقد يكون بفعل العباد

العذاب قد يكون عذاب سماوي وقد يكون بفعل العباد وذلك أن الجميع قد سماه الله عذابا كما قال تعالى في النوع الثانى {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ}البقرة٤٩ وقال تعالى {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ}التوبة١٤ وكذلك {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا}التوبة٥٢ إذ التقدير بعذاب من عنده أو بعذاب بأيدينا كما قال تعالى {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ}التوبة١٤ وعلى هذا فيكون العذاب بفعل العباد ومن ذلك قوله تعالى {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ}النور٢ إلى قوله {وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}النور٢ وقوله تعالى {فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ}النساء٢٥ ومن ذلك أنه يقال فى بلال ونحوه كانوا من المعذبين فى الأرض ويقال إن أبا بكر اشترى سبعة من المعذبين فى الله وقال السفر قطعة من العذاب [2]

## التحذير من متابعة الذين يتبعون الشهوات

و إتباع الشهوات هو إتباع ما تشتهيه النفس فإن الشهوات جمع شهوة والشهوة هى فى الأصل مصدر ويسمى المشتهى شهوة تسمية للمفعول باسم المصدر قال تعالى {وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ١٠٢-١٠٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٤٢-٤٣

تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً}النساء٢٧ فجعل التوبة فى مقابلة إتباع الشهوات فإنه يريد أن يتوب علينا أى فالله يحب لنا ذلك ويرضاه ويأمر به {وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ}النساء٢٧ وهم الغاوون أن {أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً}النساء٢٧ يعدل بكم عن الصراط المستقيم إلى إتباع الشهوات عدولا عظيما فإن أصل الميل العدول فلا بد منه للذين يتبعون الشهوات كما قال إستقيموا ولن تحصوا وإعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن رواه أحمد وإبن ماجه من حديث ثوبان فأخبر أنا لا نطيق الإستقامة أو ثوابها إذا إستقمنا وقال {وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ}النساء١٢٩ فقوله كل الميل أى يريد نهاية الميل يريد الزيغ عن الطريق والعدول عن سواء الصراط إلى نهاية الشر بل إذا بليت بذلك فتوسط وعد إلى الطريق بالتوبة كما فى الحديث عن النبى ميل المؤمن كميل الفرس فى أخيته يحول ثم يرجع إلى أخيته كذلك المؤمن يحول ثم يرجع إلى ربه قال تعالى {وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}آل عمران١٣٣ إلى قوله {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} آل عمران١٣٦ فلم يقل لا يظلمون ولايذنبون بل قال {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ} آل عمران١٣٥ أى بذنب آخر غير الفاحشة فعطف العام على الخاص كما قال موسى {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي}القصص١٦ وقالت بلقيس {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي}النمل٤٤ وقال تعالى عموما عن أهل القرى المهلكة {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ}هود١٠١ فظلموا أنفسهم بإرتكابهم ما نهوا عنه وبعصيانهم لأنبيائهم وبتركهم التوبة إلى ربهم وقوله تعالى {ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ {١٣٥} آل عمران١٣٥ ولهذا قال {وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ}النساء٢٧ ثم قال {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً}النساء٢٨ قال مجاهد وغيره يتبعون الشهوات الزنا وقال إبن زيد هم أهل الباطل وقال السدى هم اليهود والنصارى والجميع حق فإنهم قد يتبعون الشهوات مع الكفر وقد يكون مع الإعتراف بأنها معصية ثم ذكر أنه {وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً}النساء٢٨ وسياق الكلام يدل على أنه ضعيف عن ترك الشهوات فلا بد له من شهوة مباحة يستغنى بها عن المحرمة ولهذا قال طاووس ومقاتل ضعيف فى قلة الصبر عن النساء وقال الزجاج وإبن كيسان ضعيف العزم عن قهر الهوى وقيل ضعيف فى أصل الخلقة لأنه خلق من ماء مهين ويروى ذلك عن الحسن لكن لا بد أن يوجد مع ذلك أنه ضعيف عن الصبر ليناسب ما ذكر فى الآية فإنه قال {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ}النساء٢٨ وهو تسهيل التكليف بأن يبيح لكم ما تحتاجون إليه ولا تصبروا عنه كما أباح نكاح الفتيات وقد قال قبل ذلك

{ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}النساء٢٥ فهو سبحانه مع إباحته نكاح الإماء عند عدم الطول وخشية العنت قال {وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ}النساء٢٥ فدل ذلك على أنه يمكن الصبر مع خشية العنت وأنه ليس النكاح كإباحة الميتة عند المخمصة فإن ذلك لا يمكن الصبر عنه وكذلك من أباح الإستمناء عند الضرورة فالصبر عن الإستمناء أفضل فقد روى عن إبن عباس إن نكاح الإماء خير منه وهو خير من الزنا فإذا كان الصبر عن نكاح الإماء أفضل فعن الإستمناء بطريق الأولى أفضل لا سيما وكثير من العلماء أو أكثرهم يجزمون بتحريمه مطلقا وهو أحد الأقوال فى مذهب أحمد وإختاره إبن عقيل فى المفردات والمشهور عنه يعنى عن أحمد أنه محرم إلا إذا خشى العنت والثالث أنه مكروه إلا إذا خشى العنت فإذا كان الله قد قال فى نكاح الإماء وأن {وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ}النساء٢٥ ففيه أولى وذلك يدل على أن الصبر عن كلاهما ممكن فإذا كان قد أباح ما يمكن الصبر عنه فذلك لتسهيل التكليف كما قال تعالى {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً}٢٨ و الإستمناء لا يباح عند أكثر العلماء سلفا وخلفا سواء خشى العنت أو لم يخش ذلك وكلام إبن عباس وما روى عن أحمد فيه إنما هو {لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ}النساء٢٥ وهو الزنا واللواط خشية شديدة خاف على نفسه من الوقوع فى ذلك فأبيح له ذلك لتكسير شدة عنته وشهوته وأما من فعل ذلك تلذذا أو كذكرا أو عادة بأن يتذكر فى حال إستمنائه صورة كأنه يجامعها فهذا كله محرم لا يقول به أحمد ولا غيره وقد اوجب فيه بعضهم الحد والصبر عن هذا من الواجبات لا من المستحبات وأما الصبر عن المحرمات فواجب وإن كانت النفس تشتهيها وتهواها قال تعالى {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}النور٣٣ و الإستعفاف هو ترك المنهى عنه كما فى الحديث الصحيح عن أبى سعيد الخدرى عن النبى أنه قال من يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر فالمستغنى لا يستشرف بقلبه و المستعف هو الذى لا يسأل الناس بلسانه و المتصبر هو الذى لا يتكلف الصبر فأخبر أنه من يتصبر يصبره الله وهذا كانه فى سياق الصبر على الفاقة بأن يصبر على مرارة الحاجة لا يجزع مما إبتلى به من الفقر وهو الصبر فى البأساء والضراء قال تعالى {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ}البقرة١٧٧ و الضراء المرض وهو الصبر على ما إبتلى به من حاجة ومرض وخوف والصبر على ما إبتلى به بإختياره كالجهاد فإن الصبر عليه أفضل من الصبر على المرض الذى يبتلى به بغير إختياره ولذلك إذا إبتلى بالعنت فى الجهاد فالصبر على ذلك افضل من

الصبر عليه فى بلدة لأن هذا الصبر من تمام الجهاد وكذلك لو إبتلى فى الجهاد بفاقة أو مرض حصل بسببه كان الصبر عليه افضل كما قد بسط هذا فى مواضع وكذلك ما يؤذى الإنسان به فى فعله للطاعت كالصلاة والأمر بالمعروف قال فى الطاعون إذا وقع ببلد وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه فمن فعل ما أمره الله به فعرضت له فتنة من غير إختياره فإن الله يعينه عليها بخلاف من تعرض لها لكن باب التوبة مفتوح فإن الرجل قد يسأل الإمارة فيوكل إليها ثم يندم فيتوب من سؤاله فيتوب الله عليه ويعينه أما على إقامة الواجب وإما على الخلاص منها وكذلك سائر الفتن كما قال {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣وهذه الأمور تحتاج إلى بسط لا يتسع له هذا الموضع و المقصود أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا ويهدينا سنن الذين من قبلنا قال فيهم {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}الأنعام٩٠ وهم الذين امرنا ان نسأله الهداية لسبيلهم فى قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ{٧} الفاتحة٦-٧ فهو يحب لنا ويأمرنا ان نتبع صراط هؤلاء وهو سبيل من أناب إليه فذكر هنا ثلاثة أمور البيان والهداية والتوبة وقيل المراد بالسنن هنا سنن أهل الحق والباطل اى يريد أن يبين لنا سنن هؤلاء وهؤلاء فيهدى عباده المؤمنين إلى الحق ويضل آخرين فإن الهدى والضلال إنما يكون بعد البيان كما قال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}إبراهيم٤ وقال{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ}التوبة١١٥ فتكون سنن متعلقا بيبين يعنى سنن أهل الباطل لا بيهدى وأهل الحق متعلق بقوله ويهديكم وقال الزجاج السنن الطرق فالمعنى يدلكم على طاعته كما دل الأنبياء وتابعيهم وهذا اولى لأنه قد يقدم فعلين فلا يجعل الأول هو العامل وحده بل العامل إما الثانى وحده وإنما الإثنان كقوله {آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً}الكهف٩٦ أو إذا أريد هذا التقدير يبين لكم سنن الذين من قبلكم ويهديكم سننا فدل على أنه يهدينا سننهم والمراد بذلك سنن أهل الحق بخلاف قوله {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ}آل عمران١٣٧ فإنه قال بعدها {فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}آل عمران١٣٧ فإنه أراد تعريف عقوبة الظالمين بالعيان وهنا فأنزل علينا من القرآن ما يهدينا به سنن الذين من قبلنا وهم الذين أنعم الله عليهم وذكر ثلاثة امور التبيين و الهدى و التوبة لأن الإنسان أو لا يحتاج إلى معرفة الخير والشر وما امر به وما نهى عنه ثم يحتاج بعد ذلك إلى أن يهدى فيقصد الحق ويعمل به دون الباطل وهو سنن الأنبياء والصالحين ثم لا بد له بعد ذلك من

الذنوب فيريد أن يتطهر منها بالتوبة فهو محتاج إلى العلم والعمل به وإلى التوبة مع ذلك فلا بد له من التقصير او الغفلة فى سلوك تلك السنن التى هداه الله إليها فيتوب منها بما وقع من تفريط فى كل سنة من تلك السنن وهذه السنن تدخل فيها الواجبات والمستحبات فلا بد للسالك فيها من تقصير وغفلة فيستغفر الله ويتوب إليه فإن العبد لو إجتهد مهما إجتهد لا يستطيع ان يقوم لله بالحق الذى أوجبه عليه فما يسعه إلا الإستغفار والتوبة عقيب كل طاعة وقد يقال الهداية هنا البيان والتعريف أى يعرفكم سنن الذين من قبلكم من أهل السعادة والشقاوة لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه كما قال تعالى {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}البلد١٠ قال على وإبن مسعود سبيل الخير والشر وعن إبن عباس سبيل الهدى والضلال وقال مجاهد سبيل السعادة والشقاوة أى فطرناه على ذلك وعرفناه إياه والجميع واحد والنجدان الطريقان الواضحان والنجد المرتفع من الأرض فالمعنى ألم نعرفه طريق الخير والشر ونبينه له كتبيين الطريقين العاليين لكن الهدى والتبيين والتعريف فى هذه الآية يشترك فيه بنوا آدم ويعرفونه بعقولهم وأما طريق من تقدم من الأنبياء فلا بد من إخبار الله تعالى عنها كما قال {تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا}هود٤٩ لكن يجاب عن هذا بأنه لو أريد هذا المعنى لقال يريد الله ليبين لكم سنن الذين من قبلكم ولم يحتج ان يذكر الهدى إذا كان المعنى واحدا فلما ذكر أنه يريد التبيين والهدى علم أن هذا غير هذا فالتبيين التعريف والتعليم والهدى هو الأمر والنهى وهو الدعاء إلى الخير كما قال تعالى {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ}الرعد٧ أى داع يدعوهم إلى الخير كما قال تعالى {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الشورى٥٢ أى تدعوهم إليه دعاء تعليم وهداه هنا يتعدى بنفسه لأن التقدير ويلزمكم سنن الذين من قبلكم فلا تعدلوا عنها وليس المراد هنا بالهدى الإلهام كما فى قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦}الفاتحة ٦ لكونه لو أراد ذلك لوقع ولم يكن فينا ضال بل هذه إرادة شرعية أمرية بمعنى المحبة والرضا ولهذا قال الزجاج يريد ان يدلكم على ما يكون سببا لتوبتكم فعلق الإرادة بفعل نفسه فإن الزجاج ظن الإرادة فى القرآن ليست إلا كذلك وليس كما ظن بل الإرادة المتعلقة بفعله يكون مرادها كذلك فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأما الإرادة الموجودة فى أمره وشرعه فهو كقوله {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ}المائدة٦ الآية وقوله {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ}الأحزاب٣٣ ونحو ذلك فهذه إرادته لما أمر به بمعنى انه يحبه ويرضاه ويثيب فاعله لا بمعنى أنه أراد ان يخلقه فيكون كما قال{فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}الأنعام١٢٥الآية وكما قال نوح {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ

أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} هود٣٤ فهذه إرادة لما يخلقه ويكونه كما يقول المسلمون ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وهذه الإرادة متعلقة بكل حادث والإرادة الشرعية الأمرية لا تتعلق إلا بالطاعات كما يقول الناس لمن يفعل القبيح يفعل شيئا ما يريده الله مع قولهم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فإن هذه الإرادة نوعان كما قد بسط فى موضع آخر وقد يراد بالهدى الإلهام ويكون الخطاب للمؤمنين المطيعين الذين هداهم الله إلى طاعته فإن الله تعالى أراد أن يتوب عليهم ويهديهم فإهتدوا ولولا إرادته لهم ذلك لم يهتدوا كما قالوا {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}الأعراف٤٣ لكن الخطاب فى الآية لجميع المسلمين كالخطاب بآية الوضوء والخطاب لأهل البيت بقوله {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ}الأحزاب٣٣ ولهذا يهدد من لم يطعه وكما فى الصيام {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥ فهذه إرادة شرعية أمرية بمعنى المحبة والرضا لا إرادة الخلق المستلزمة للمراد لأنه لو كان كذلك لم تكن الآية خطابا إلا لمن أخذ باليسر ولمن فعل ما أمر به وكان من تخلف عن ذلك لا يدخل تحت الأمر والنهى الذى فى الآية وليس كذلك بل الحكم الشرعى لازم لجميع المسلمين فمن أطاع أثيب ومن عصى عوقب والذين أطاعوه إنما أطاعوه بهداه لهم هدى الإلهام والإعانة بأن جعلهم مهتدين كما أنه الذى جعل المصلى مصليا والمسلم مسلما ولو كانت الإرادة هنا من الإنسان مستلزمة لوقوع المراد لم يقل {وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً}النساء٢٧ فإنه حينئذ لا تأثير لإرادة هؤلاء بل وجودها وعدمها سواء كما فى قول نوح {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ} هود٣٤ فإن ما شاء الله كان وإن لم يشاء الناس وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس والمقصود بالآية تحذيرهم من متابعة الذين يتبعون الشهوات والمعنى إنى أريد لكم الخير الذى ينفعكم وهؤلاء يريدون لكم الشر الذى يضركم كالشيطان الذى يريد أن يغويكم وأتباعه هم أهل الشهوات فلا تتخذوه وذريته أولياء من دونى بل أسلكوا طرق الهدى والرشاد وإياكم وطرق الغى والفساد كما قال تعالى {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}طه١٢٣ الآيات وقوله {يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ}النساء٢٧ {وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ}مريم٥٩ فى الموضعين فإتباع الشهوة من جنس اتباع الهوى كما قال تعالى {أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إ}القصص٥٠ وقال {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ}المؤمنون٧١ وقال تعالى {وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ}المائدة٧٧ وقال تعالى {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ

لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ}محمد١٤ وقال تعالى {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}الجاثية١٨وهذا فى القرآن كثيرا و الهوى مصدر هوى يهوى هوى ونفس المهوى يسمى هوى ما يهوى فإتباعه كإتباع السبيل كما قال تعالى {وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ}المائدة٧٧ وكما فى لفظ الشهوة فإتباع الهوى يراد به نفس مسمى المصدر أى إتباع إرادته ومحبته التى هى هواه وإتباع الإرادة هو فعل ما تهواه النفس كقوله تعالى {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}لقمان١٥ وقوله {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}الأنعام١٥٣ وقال {وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء}الأعراف٣ فلفظ الإتباع يكون للآمر الناهى وللأمر والنهى وللمأمور به والمهنى عنه وهو الصراط المستقيم كذلك يكون للهوى أمر ونهى وهو أمر النفس ونهيها كما قال تعالى {إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ}يوسف٥٣ ولكن ما يأمر به من الأفعال المذمومة فأحدها مستلزم للآخر فإتباع الأمر هو فعل المأمور وإتباع أمر النفس هو فعل ما تهواه فعلى هذا يعلم أن إتباع الشهوات وإتباع الأهواء هو إتباع شهوة النفس وهواها وذلك بفعل ما تشتهيه وتهواه بل قد يقال هذا هو الذى يتعين فى لفظ إتباع الشهوات والأهواء لأن الذى يشتهى ويهوى إنما يصير موجودا بعد أن يشتهى ويهوى وإنما يذم الإنسان إذا فعل ما يشتهى ويهوى عند وجوده فهو حينئذ قد فعل ولا ينهى عنه بعد وجوده ولا يقال لصاحبه لا تتبع هواك وأيضا فالفعل المراد المشتهى الذى يهواه الإنسان هو تابع لشهوته وهواه فليست الشهوة والهوى تابعة له فإتباع الشهوات هو إتباع شهوة النفس وإذا جعلت الشهوة بمعنى المشتهى كان مع مخالفة الأصل يحتاج إلى ان يجعل فى الخارج ما يشتهى والإنسان يتبعه كالمرأة المطلوبة أو الطعام المطلوب وإن سميت المرأة شهوة والطعام أيضا كما فى قوله كل عمل إبن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلى أى يترك شهوته وهو إنما يترك ما يشتهيه كما يترك الطعام لا أنه يدع طعامه بترك الشهوة الموجودة فى نفسه فإن تلك مخلوقة فيه مجبول عليها وإنما يثاب إذا ترك ما تطلبه تلك الشهوة و حقيقة الأمر أنهما متلازمان فمن إتبع نفس شهوته القائمة بنفسه إتبع ما يشتهيه وكذلك من إتبع الهوى القائم بنفسه إتبع ما يهواه فإن ذلك من آثار الإرادة وإتباع الإرادة هو إمتثال أمرها وفعل ما تطلبه كالمأمور الذى يتبع أمر أميره ولا بد أن يتصور مراده الذى يهواه ويشتهيه فى نفسه ويتخيله قبل فعله فيبقى ذلك المثال كالإمام مع المأموم يتبعه حيث كان وفعله فى الظاهر تبع لإتباع الباطن فتبقى صورة المراد المطلوب المشتهى التى فى النفس هى المحركة للإنسان الآمرة له ولهذا يقال العلة الغائية علة فاعلية فإن الإنسان للعلة الغائية

بهذا التصور والإرادة صار فاعلا للفعل وهذه الصورة المرادة المتصور فى النفس هى التى جعلت الفاعل فاعلا فيكون الإنسان متبعا لها والشيطان يمده فى الغى فهو يقوى تلك الصورة ويقوى أثرها ويزين للناس أتباعها وتلك الصورة تتناول صورة العين المطلوبة كالمحبوب من الصور والطعام والشراب ويتناول نفس الفعل الذى هو المباشرة لذلك المطلوب المحبوب والشيطان والنفس تحب ذلك وكلما تصور ذلك المحبوب فى نفسه أراد وجوده فى الخارج فإن اول الفكر آخر العمل وأول البغية آخر الدرك ولهذا يبقى الإنسان عند شهوته وهواه أسيرا لذلك مقهورا تحت سلطان الهوى أعظم من قهر كل قاهر فإن هذا القاهر الهوائى القاهر للعبد هو صفة قائمة بنفسه لا يمكنه مفارقته البتة والصورة الذهنية تطلبها النفس فإن المحبوب تطلب النفس أن تدركه وتمثله لها فى نفسها فهو متبع للإرادة وإن كانت الذهنية والتزين من الزين والمراد التصور فى نفسه والمشتهى الموجود فى الخارج له محركان التصور والمشتهى هذا يحركه تحريك طلب وأمر وهذا يأمره أن يتبع طلبه وأمره فإتباع الشهوات والأهواء يتناول هذا كله بخلاف كل قاهر ينفصل عن الإنسان فإنه يمكنه مفارقته مع بقاء نفسه على حالها وهذا إنما يفارقه بتغير صفة نفسه ولهذا قال النبى ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه وثلاث منجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الفقر والغنا وكلمة الحق فى الغضب والرضا وقوله فى الحديث هوى متبع فيه دليل على أن المتبع هو ما قام فى النفس كقوله فى الشح المطاع وجعل الشح مطاعا لأنه هو الآمر وجعل الهوى متبعا لأن المتبع قد يكون إماما يقتدى به ولا يكون آمرا وفى الصحيحين عن النبى أنه قال إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا فبين أن الشح يأمر بالبخل والظلم والقطيعة فالبخل منع منفعة الناس بنفسه وماله و الظلم هو الإعتداء عليهم فالأول هو التفريط فيما يجب فيكون قد فرط فيما يجب وإعتدى عليهم بفعل ما يحرم وخص قطيعة الرحم بالذكر إعظاما لها لأنها تدخل فى الأمرين المتقدمين قبلها وقال المفسرين فى قوله تعالى {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ}الحشر٩ هو أن لا يأخذ شيئا مما نهاه الله عنه ولا يمنع شيئا أمره الله بأدائه فالشح يأمر بخلاف أمر الله ورسوله فإن الله ينهى عن الظلم ويأمر بالإحسان والشح يأمر بالظلم وينهى عن الإحسان وقد كان عبدالرحمن بن عوف يكثر في طوافه بالبيت وبالوقوف بعرفة أن يقول اللهم قنى شح نفسى فسئل عن ذلك فقال إذا وقيت شح نفسى وقيت الظلم والبخل والقطيعة وفى رواية عنه قال إنى أخاف أن أكون قد هلكت قال وما ذاك قال أسمع الله يقول {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ}الحشر٩ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدى

شىء فقال ليس ذاك بالشح الذى ذكره الله فى القرآن إنما الشح إن تأكل مال أخيك ظلما وإنما يكن بالبخل وبئس الشىء البخل وقد ذكر تعالى الشح فى سياق ذكر الحسد والإيثار فى قوله {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}الحشر٩ ثم قال {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}الحشر٩ فمن وقى شح نفسه لم يكن حسودا باغيا على المحسود و الحسد أصله بغض المحسود و الشح يكون فى الرجل مع الحرص وقوة الرغبة فى المال وبغض للغير وظلم له كما قال تعالى {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً{١٨} أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ {١٩}الأحزاب١٨-١٩الآيات إلى قوله {أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ} الأحزاب١٩ فشحهم على المؤمنين وعلى الخير يتضمن كراهيته وبغضه وبغض الخير يأمر بالشر وبغض الإنسان يأمر بظلمه وقطيعته كالحسد فإن الحاسد يأمر حاسده بظلم المحسود وقطيعته كابنى آدم وأخوة يوسف فالحسد والشح يتضمنان بغضا وكراهية فيأمران بمنع الواجب وبظلم ذلك الشخص فإن الفعل صدر فيه عن بغض بخلاف الهوى فإن الفعل صدر فيه عن حب أحب شيئا فإتبعه ففعله وذلك مقصوده أمر عدمى والعدم لا ينفع ولكن ذاك القصد أمر بأمر وجودى فأطيع أمره وإبن مسعود جعل البخل خارجا عن الشح والنبى جعل الشح يأمر بالبخل ومن الناس من يقول الشح و البخل سواء كما قال إبن جرير الشح فى كلام العرب هو البخل ومنع الفضل من المال وليس كما قال بل ما قاله النبى وإبن مسعود أحق أن يتبع فإن البخيل قد يبخل بالمال محبة لما يحصل له به من اللذة والتنعم وقد لا يكون متلذذا به ولا متنعما بل نفسه تضيق عن إنفاقه وتكره ذلك حتى يكون يكره أن ينفع نفسه منه مع كثرة ماله وهذا قد يكون مع التذاذه بجمع المال ومحبته لرؤيته وقد لا يكون هناك لذة أصلا بل يكره ان يفعل إحسانا إلى أحد حتى لو أراد غيره ان يعطى كره ذلك منه بغضا للخير لا للمعطى ولا للمعطى بل بغضا منه الخير وقد يكون بغضا وحسدا للمعطى أو للمعطى وهذا هو الشح وهذا هو الذى يأمر بالبخل قطعا ولكن كل بخل يكون عن شح فكل شحيح بخيل وليس كل بخيل شحيحا قال الخطابى الشح أبلغ فى المنع من البخل والبخل إنما هو من أفراد الأمور وخواص الأشياء والشح عام فهو كالوصف اللازم للانسان من قبل الطبع والجبلة وحكى الخطابى عن بعضهم أنه قال البخل أن يظن الإنسان بماله و الشح أن يظن بماله ومعروفه وقيل الشح أن يشح بمعروف غيره على غيره و البخل ان يبخل بمعروفه على غيره والذين يتبعون الشهوات ويتبعون أهواءهم يحبون ذلك ويريدونه فإتبعوا محبتهم وإرادتهم من غير علم فلم

ينظروا هل ذلك نافع لهم فى العاقبة أو ضار ولهذا قال {فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ}القصص٥٠ ثم قال {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ}القصص٥٠ و إتباع الهوى درجات فمنهم المشركون والذين يعبدون من دون الله ما يستحسنون بلا علم ولا برهان كما قال {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}الجاثية٢٣ أى يتخذ إلهه الذى يعبده وهو ما يهواه من آلهة ولم يقل إن هواه نفس إلهه فليس كل من يهوى شيئا يعبده فإن الهوى أقسام بل المراد أنه جعل المعبود الذى يعبده هو ما يهواه فكانت عبادته تابعة لهوى نفسه فى العبادة فإنه لم يعبد ما يحب أن يعبد ولا عبد العبادة التى أمر بها وهذه حال أهل البدع فإنهم عبدوا غير الله وإبتدعوا عبادات زعموا أنهم يعبدون الله بها فهم إنما أهواءهم فإن أحدهم يتبع محبة نفسه وذوقها ووجدها وهواها من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير فلو إتبع العلم والكتاب المنير لم يعبد إلا الله بما شاء ولا بالحوادث والبدع نفسه مشتغله بها والذين يسلكون فى محبة الله مسلكا ناقصا يحصل لأحدهم نوع من ذلك يسمى الإصطلام و الفناء يغيب بمحبوبه عن محبته وبمعروفه عن معرفته وبمذكوره عن ذكره حتى لا يشعر بشىء من أسماء الله وصفاته وكلامه وأمره ونهيه و منهم من قد ينتقل من هذا إلى الإتحاد فيقول أنا هو و هو أنا وأنا الله ويظن كثير من السالكين أن هذا هو غاية السالكين وان هذا هو التوحيد الذى هو نهاية كل سالك وهو غالطون فى هذا بل هذا من جنس قول النصارى ولكن ضلوا لأنهم لم يسلكوا الطريق الشرعية فى الباطن فى خبر الله وأمره وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع و المقصود أن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولى على قلب أحدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه ويبقى أسيرا ما يهواه يصرفه كيف تصرف ذلك المطلوب ولهذا قال بعض السلف ما انا على الشاب الناسك بأخوف منى عليه من سبع ضار يثب عليه من صبى حدث يجلس إليه وذلك أن النفس الصافية التى فيها رقة الرياضة ولم تنجذب إلى محبة الله وعبادته إنجذابا تاما ولا قام بها من خشية الله التامة ما يصرفها عن هواها متى صارت تحت صورة من الصور إستولت تلك الصورة عليها كما يستولى السبع على ما يفترسه فالسبع يأخذ فريسته بالقهر ولا تقدر الفريسة على الإمتناع منه كذلك ما يمثله الإنسان فى قلبه من الصور المحبوبة تبتلع قلبه وتقهره فلا يقدر قلبه على الإمتناع منه فيبقى قلبه مستغرقا فى تلك الصورة اعظم من إستغراق الفريسة فى جوف الأسد لأن المحبوب المراد هو غاية النفس له عليها سلطان قاهر و القلب يغرق فيما يستولى عليه أما من محبوب وإما من مخوف كما يوجد من محبة المال والجاه والصور والخائف من غيره يبقى قلبه وعقله مستغرقا فيه كما يغرق

الغريق فى الماء فلا بد أن يستولى عليهما ما يحيط بها من الأجسام والقلوب يستولى عليها ما يتمثل لها من المخاوف والمحبوبات والمكروهات فالمحبوب يطلبه والمكروه يدفعه والرجاء يتعلق بالمحبوب والخوف يتعلق بالمكروه ولا يأتى بالحسنات إلا الله و لايذهب السيئات إلا الله {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}يونس١٠٧ {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ}النحل٥٣ وإذا دعا العبد ربه بإعطائه المطلوب ودفع المرهوب جعل له من الإيمان بالله ومحبته ومعرفته وتوحيده ورجائه وحياة قلبه وإستنارته بنور الإيمان ما قد يكون أنفع له من ذلك المطلوب إن كان عرضا من الدنيا وأما إذا طلب منه أن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته وما يتبع ذلك فهنا المطلوب قد يكون أنفع من الطلب وهو الدعاء والمطلوب الذكر والشكر وقيام العبادة على أحسن الوجوه وغير ذلك وهذا لبسطه موضع آخر و المقصود أن القلب قد يغمره فيستولى عليه ما يريده العبد ويحبه وما يخافه ويحذره كائنا من كان ولهذا قال تعالى {بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ}المؤمنون٦٣ فهى فيما يغمرها عما أنذرت به فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الاخرة وما فيها من النعيم والعذاب الأليم قال الله تعالى {فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ}المؤمنون٥٤ اى فيما يغمر قلوبهم من حب المال والبنين المانع لهم من المسارعة فى الخيرات والأعمال الصالحة وقال تعالى {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ{١٠} الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ{١١} الذاريات١٠-١١ الآيات أى ساهون عن أمر الآخرة فهم فى غمرة عنها أى فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها ساهون عن أمر الآخرة وما خلقوا له وهذا يشبه قوله {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}الكهف٢٨ فالغمرة تكون من إتباع الهوى والسهو من جنس الغفلة ولهذا قال من قال السهو الغفلة عن الشىء وذهاب القلب عنه وهذا جماع الشر الغفلة و الشهوة فالغفلة عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير الذى هو الذكر واليقظة و الشهوة تفتح باب الشر والسهو والخوف فيبقى القلب مغمورا فيما يهواه ويخشاه غافلا عن الله رائدا غير الله ساهيا عن ذكره قد إشتغل بغير الله قد إنفرط أمره قد ران حب الدنيا على قلبه كما روى فى صحيح البخارى وغيره عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال تعس عبدالدينار تعس عبد الدرهم تعس عبدالقطيفة تعس عبد الخميصة تعس وإنتكس وإذا شيك فلا إنتقش ان اعطى رضى وإن منع سخط جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقده حتى يكون عبدالدرهم وعبد ما وصف فى هذا الحديث و القطيفة هى التى يجلس

عليها فهو خادمها كما قال بعض السلف ألبس من الثياب ما يخدمك ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه وهى كالبساط الذى تجلس عليه و الخميصة هى التى يرتدى بها وهذا من أقل المال وإنما نبه به النبى على ما هو أعلى منه فهو عبد لذلك فيه أرباب متفرقون وشركاء متشاكسون ولهذا قال أن أعطى رضى وإن منع سخط فما كان يرضى الإنسان حصوله ويسخطه فقده فهو عبده إذ العبد يرضى بإتصاله بهما ويسخط لفقدهما و المعبود الحق الذى لا إله إلا هو إذا عبده المؤمن واحبه حصل للمؤمن بذلك فى قلبه إيمان وتوحيد ومحبة وذكر وعبادة فيرضى بذلك وإذا منع من ذلك غضب وكذلك من أحب شيئا فلا بد أن يتصوره فى قلبه ويريد إتصاله به بحسب الإمكان قال الجنيد لا يكون العبد عبدا حتى يكون مما سوى الله تعالى حرا وهذا مطابق لهذا الحديث فإنه لا يكون عبدا لله خالصا مخلصا دينه لله كله حتى لا يكون عبدا سواه ولا فيه شعبة ولا أدنى جزء من عبودية ما سوى الله فإذا كان يرضيه ويسخطه غير الله فهو عبد لذلك الغير ففيه من الشرك بقدر محبته وعبادته لذلك الغير زيادة قال الفضيل بن عياض والله ما صدق الله فى عبوديته من لأحد من المخلوقين عليه ربانية وقال زيد بن عمرو بن نفيل أربا واحدا أم ألف رب أدين إذا إنقسمت الأمور الإمام أحمد والترمذى والطبرانى من حديث أسماء بنت عميس قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بئس العبد عبد تخيل وإختال ونسى الكبير المتعال بئس العبد عبد تجبر وإعتدى ونسى الجبار الأعلى بئس العبد عبد سهى ولهى ونسى المقابر والبلى بئس العبد عبد بغى وإعتدى ونسى المبدأ والمنتهى بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات بئس العبد عبد رغب يذله ويزيله عن الحق بئس العبد عبد طمع يقوده بئس العبد عبد هوى يضله قال الترمذى غريب وفى الحديث الصحيح المتقدم ما يقويه والله أعلم وكذلك أحاديث وآثار كثيرة رويت فى معنى ذلك كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ}البقرة١٦٥ وطالب الرئاسة ولو بالباطل ترضيه الكلمة التى فيها تعظيمه وإن كانت باطلا وتغضبه الكلمة التى فيها ذمه وإن كانت حقا والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه وتغضبه كلمة الباطل له وعليه لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل ويبغض الكذب والظلم فإذا قيل الحق والصدق والعدل الذى يحبه الله أحبه وأن كان فيه مخالفة هواه لأن هواه قد صار تبعا لما جاء به الرسول وإذا قيل الظلم والكذب فالله يبغضه والمؤمن يبغضه ولو وافق هواه وكذلك طالب المال ولو بالباطل كما قال تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}التوبة٥٨ وهؤلاء هم الذين قال

فيهم    تعس عبد الدينار    الحديث فكيف إذا إستولى على القلب ما هو أعظم إستعبادا من الدرهم والدينار من الشهوات والأهواء والمحبوبات التى تجذب القلب عن كمال محبته لله وعبادته لما فيها من المزاحمة والشرك بالمخلوقات كيف تدفع القلب وتزيغه عن كمال محبته لربه وعبادته وخشيته لأن كل محبوب يجذب قلب محبه إليه ويزيغه عن محبة غير محبوبه وكذلك المكروه يدفعه ويزيله ويشغله عن عبادة الله تعالى ولهذا روى الإمام أحمد فى مسنده وغيره أن النبى صلى الله عليه   ولهذا روى الإمام أحمد فى مسنده وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه    الفقر تخافون لا أخاف عليكم الفقر إنما أخاف عليكم الدنيا حتى أن قلب أحدكم إذا زاغ لا يزيغه إلا هى    وكذلك الذين يحبون العبد كأصدقائه والذين يبغضونه كأعدائه فالذين يحبونه يجذبونه إليهم فإذا لم تكن المحبة منهم له لله كان ذلك مما يقطعه عن الله والذين يبغضونه يؤذونه ويعادونه فيشتغلونه بأذاهم عن الله ولو أحسن إليه اصدقاؤه الذين يحبونه لغير الله أوجب إحسانهم إليه محبته لهم وإنجذاب قلبه إليهم ولو كان على غير الإستقامة واوجب مكافأته لهم فيقطعونه عن الله وعبادته    فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل فيكون حبه لله ولما يحبه الله وبغضه لله ولما يبغضه الله وكذلك موالاته ومعاداته وإلا فمحبة المخلوق تجذبه وحب الخلق له سبب يجذبهم به إليه ثم قد يكون هذا أقوى وقد يكون هذا أقوى فإذا كان هو غالبا لهواه لم يجذبه مغلوب مع هواه ولا محبوباته إليها لكونه غالبا لهواه ناهيا لنفسه عن الهوى لما فى قلبه من خشية الله ومحبته التى تمنعه عن إنجذابه إلى المحبوبات وأما حب الناس له فإنه يوجب أن يجذبوه هم بقولهم إليهم فإن لم يكن فيه قوة يدفعهم بها عن نفسه من محبة الله وخشيته وإلا جذبوه وأخذوه إليهم كحب امرأة العزيز ليوسف فإن قوة    يوسف    ومحبته لله وإخلاصه وخشيته كانت أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها هذا إذا أحب أحدهم صورته مع أن هنا الداعى قوى منه ومنهم فهنا المعصوم من عصمه الله وإلا فالغالب على الناس فى المحبة من الطرفين أنه يقع بعض الشر بينهم    ولهذا قال رسول الله    لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان    وقد يحبونه لعلمه او دينه أو إحسانه أو غير ذلك فالفتنة فى هذا أعظم إلا إذا كانت فيه قوة إيمانية وخشية وتوحيد تام فإن فتنة العلم والجاه والصور فتنة لكل مفتون وهم مع ذلك يطلبون منه مقاصدهم إن لم يفعلها وإلا نقص الحب أو حصل نوع بغض وربما زاد أو أدى إلى الأنسلاخ من حبه فصار مبغوضا بعد أن كان محبوبا فأصدقاء الإنسان يحبون إستخدامه وإستعماله فى أغراضهم حتى يكون كالعبد لهم وأعداؤه يسعون فى أذاه وأضراره وأولئك يطلبون منه إنتفاعهم وإن كان مضرا له مفسدا لدينه لا يفكرون فى ذلك وقليل منهم الشكور    فالطائفتان فى

الحقيقة لا يقصدون نفعه ولا دفع ضرره وإنما يقصدون أغراضهم به فإن لم يكن الإنسان عابدا الله متوكلا عليه مواليا له ومواليا فيه ومعاديا وإلا اكلته الطائفتان وأدى ذلك إلى هلاكه فى الدنيا والآخرة وهذا هو المعروف من أحوال بنى آدم وما يقع بينهم من المحاربات والمخاصمات والإختلاف والفتن قوم يوالون زيدا ويعادون عمرا وآخرون بالعكس لأجل اغراضهم فإذا حصلوا على أغراضهم ممن يوالونه وما هم طالبونه من زيد إنقلبوا إلى عمرو وكذلك أصحاب عمرو كما هو الواقع بين اصناف الناس وكذلك الرأس من الجانبين يميل إلى هؤلاء الذين يوالونه وهم إذا لم تكن الموالاة لله أضر عليه من أولئك فإن اولئك إنما يقصدون إفساد دنياه إما بقتله أو بأخذ ماله وإما بإزالة منصبه وهذا كله ضرر دنيوى لا يعتد به إذا سلم العبد وهو عكس حال أهل الدنيا ومحبيها الذين لا يعتدون بفساد دينهم مع سلامة دنياهم فهم لا يبالون بذلك وإما دين العبد الذى بينه وبين الله فهم لا يقدرون عليه واما اولياؤه الذين يوالونه للأغراض فإنما يقصدون منه فساد دينه بمعاونته على أغراضهم وغير ذلك فإن لم يفعل إنقلبوا أعداء فدخل بذلك عليه الأذى من جهتين من جهة مفارقتهم ومن جهة عداوتهم وعداوتهم أشد عليه من عداوة اعدائه لأنهم قد شاهدوا منه وعرفوا ما لم يعرفه اعداؤه فإستجلبوا بذلك عداوة غيرهم فتتضاعف العداوة وإن لم يحب مفارقتهم إحتاج إلى مداهنتم ومساعدتهم على ما يريدونه وإن كان فيه فساد دينه فإن ساعدهم على نيل مرتبة دنيوية ناله مما يعملون فيها نصيبا وافرا وحظا تاما من ظلمهم وجورهم وطلبوا منه أيضا أن يعاونهم على أغراضهم ولو فاتت أغراضه الدنيوية فكيف بالدينية أن وجدت فيه او عنده فإن الإنسان ظالم جاهل لا يطلب إلا هواه فإن لم يكن هذا فى الباطن يحسن إليهم ويصبر على اذاهم ويقضى على حوائجهم لله وتكون إستعانته عليهم بالله تامة وتوكله على الله تام وإلا افسدوا دينه ودنياه كما هو الواقع المشاهد من الناس ممن يطلب الرئاسة الدنيوية فإنه يطلب منه من الظلم والمعاصى ما ينال به تلك الرئاسة ويحسن له هذا الرأى ويعاديه أن لم يقم معه كما قد جرى ذلك مع غير واحد وذلك يجرى فيمن يحب شخصا لصورته فإنه يخدمه ويعظمه ويعطيه ما يقدر عليه ويطلب منه من المحرم ما يفسد دينه وفيمن من يحب صاحب بدعة لكونه له داعية إلى تلك البدعة يحوجه إلى أن ينصر الباطل الذى يعلم أنه باطل وإلا عاداه ولهذا صار علماء الكفار وأهل البدع من علمهم بأنهم على الباطل ينصرون ذلك الباطل لأجل الإتباع والمحبين ويعادون أهل الحق ويهجنون طريقهم فمن أحب غير الله ووالى غيره كره محب الله ووليه ومن أحب أحدا لغير الله كان ضرر أصدقائه عليه اعظم من ضرر اعدائه فإن أعداءه غايتهم أن يحولوا بينه وبين هذا

المحبوب الدنيوى والحيلولة بينه وبينه رحمة فى حقه وأصدقاؤه يساعدونه على نفى تلك الرحمة وذهابها عنه فأى صداقة هذه ويحبون بقاء ذلك المحبوب ليستعملوه فى أغراضهم وفيما يحبونه وكلاهما ضرر عليه قال تعالى {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ}البقرة١٦٦ قال الفضيل بن عياض عن ليث عن مجاهد هى المودات التى كانت لغير الله والوصلات التى كانت بينهم فى الدنيا {وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}البقرة١٦٧ فالأعمال التى أراهم الله حسرات عليهم هى الأعمال التى يفعلها بعضهم مع بعض فى الدنيا كانت لغير الله ومنها الموالاة والصحبة والمحبة لغير الله فالخير كله فى أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا ولا حول ولا قوة إلا بالله [1]

## الإستطاعة جاءت فى كتاب الله على نوعين

أن الإستطاعة جاءت فى كتاب الله على نوعين الإستطاعة المشترطة للفعل و هي مناط الأمر و النهي كقوله تعالى {وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً}آل عمران٩٧ و قوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ و قوله {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ}النساء٢٥ الآية {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً}المجادلة٤ و قوله {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ}البقرة١٨٤ و قول النبى صلى الله عليه و سلم لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب فإن الإستطاعة فى هذه النصوص لو كانت لا توجد إلا مع الفعل لوجب ألا يجب الحج إلا على من حج و لا يجب صيام شهرين إلا على من صام و لا القيام في الصلاة إلا على من قام و كان المعنى على الذين يصومون الشهر طعام مسكين و الآ ية إنما أنزلت لما كانوا مخيرين بين الصيام و الإطعام فى شهر رمضان و الإستطاعة التى يكون معها الفعل قد يقال هي المقترنة بالفعل الموجبة له و هي النوع الثاني و قد ذكروا فيها قوله تعالى {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً}الكهف١٠١ و قوله تعالى {يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥٧٠-٦٠٦ و الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٢-٢٨

مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} هود٢٠ و نحو ذلك قوله {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ {٨} وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{٩} يس٨ -٩ فإن الإستطاعة المنفية هنا سواء كان نفيها خبرا أو إبتداء ليست هي الإستطاعة المشروطة فى الأمر و النهي فإن تلك إذا إنتفت إنتفى الأمر و النهي و الوعد و الوعيد و الحمد و الذم و الثواب و العقاب و معلوم أن هؤلاء فى هذه الحال مأمورون منهيون موعودون متوعدون فعلم أن المنفية هنا ليست المشروطة فى الأمر و النهي المذكورة في قوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} التغابن١٦ لكن قد يقال الإستطاعة هنا كالإستطاعة المنفية فى قول الخضر لموسى {إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً} الكهف٦٧ فإن هذه الإستطاعة المنفية لو كان المراد بها مجرد المقارنة فى الفاعل و التارك لم يكن فرق بين هؤلاء المذمومين و بين المؤمنين و لا بين الخضر و موسى فإن كل أحد فعل أو لم يفعل لاتكون المقارنة موجودة قبل فعله و القرآن يدل على أن هذه الإستطاعة إنما نفيت عن التارك لا عن الفاعل فعلم أنها مضادة لما يقوم بالعبد من الموانع التى تصد قلبه عن إرادة الفعل و عمله و بكل حال فهذه الإستطاعة منتفية فى حق من كتب عليه أنه لايفعل بل و قضى عليه بذلك وإذا عرف هذا التقسيم أن إطلاق القول بأن العبد لا يستطيع غير ما فعل و لا يستطيع خلاف المعلوم المقدر و إطلاق القول بأن إستطاعة الفاعل و التارك سواء و أن الفاعل لايختص عن التارك بإستطاعة خاصة عرف أن كلا الإطلاقين خطأ و بدعة و لهذا إتفق سلف الأمة و أئمتها و جمهور طوائف أهل الكلام على أن الله قادر على ما علم و أخبر أنه لا يكون و على ما يمتنع صدوره عنه لعدم إرادته لا لعدم قدرته عليه [1]

والصواب الذي عليه أئمة الفقه والسنة أن القدرة نوعان نوع مصحح للفعل يمكن معه الفعل والترك وهذه هي التي يتعلق بها الأمر والنهي فهذه تحصل للمطيع والعاصي وتكون قبل الفعل وهذه تبقى إلى حين الفعل إما ببقائها عند من يقول ببقاء الأعراض وإما بتجدد أمثالها عند من يقول إن الأعرض لا تبقى وهذه قد تصلح للضدين وأمر الله لعباده مشروط بهذه الطاقة فلا يكلف الله من ليست معه هذه الطاقة وضد هذه العجز وهذه المذكورة في قول الله تعالى {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ} النساء٢٥ وقوله تعالى {وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٩١-٢٩٢

اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}التوبة٤٢ وقوله في الكفارة {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً}المجادلة٤ فإن هذا نفي لاستطاعة من لم يفعل فلا يكون مع الفعل ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب فإنما نفى استطاعة لا فعل معها وأيضا فالاستطاعة المشروطة في الشرع أخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون مما يتصور الفعل مع عدمها وإن لم يعجز عنه فالشارع ييسر على عباده ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر وما جعل عليهم في الدين من حرج والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة مرضه وتأخر برئه فهذا في الشرع غير مستطيع لأجل حصول الضرر عليه وإن كان يسميه بعض الناس مستطيعا فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل بل ينظر إلى لوازم ذلك فإذا كان الفعل ممكنا مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية كالذي يقدر أن يحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله أو يصلي قائما مع زيادة مرضه أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشته ونحو ذلك فإن كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدم المفسدة الراجحة فكيف يكلف مع العجز [١]

## حد العبد نصف حد الحر

قال تعالى {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}النساء٢٥

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٤٨-٤٩

فإذا رمى الحر محصنا بالزنا واللواط فعليه حد القذف وهو ثمانون جلدة وإن رماه بغير ذلك عوقب تعزيرا ولو كان القاذف عبدا فعليه نصف حد الحر وكذلك في جلد الزنا وشرب الخمر لأن الله تعالى قال في الإماء (فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ) وأما إذا كان الواجب القتل أو قطع اليد فإنه لا يتنصف [١]

## الإرادة نوعان

فالخبر يتضمن العلم بالمخبر به و الأمر يتضمن طلبا و إرادة للمأمور به و إن لم يكن ذلك إرادة فعل الأمر و الله تعالى أمر العباد بما أمرهم به و لكن أعان أهل الطاعة فصار مريدا لأن يخلق أفعالهم و لم يعن أهل المعصية فلم يرد أن يخلق فعالهم فهذه الإرادة الخلقية القدرية لا تستلزم الأمر و اما الإرادة بمعنى أنه يجب فعل ما أمر به و يرضاه إذا فعل و يريد من المأمور أن يفعله من حيث هو مأمور فهذه لابد منها فى الأمر و لهذا أثبت الله هذه الإرادة فى الأمر دون الأولى و لكن فى الناس من غلط فنفى الإرادة مطلقا و كلا الفريقين لم يميز بين الإرادة الخلقية و الإرادة الأمرية و القرآن فرق بين الإرادتين فقال فى الأولى {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}الأنعام١٢٥ و قال نوح و {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ}هود٣٤ و قال {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}البقرة٢٥٣ و قال {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}الكهف٣٩ و لهذا قال المسلمون ما شاء الله كان و ما لم يشا لم يكن و قال في الثانية {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥ و قال {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً}الأحزاب٣٣ و قال {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ

---

[١] السياسة الشرعية ج: ١ ص: ١٣٠

حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}المائدة٦ و قال {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {٢٦} وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً{٢٧} يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً{٢٨}النساء٢٦ -٢٨ و هذا مبسوط فى موضع آخر و المقصود هنا أنه لابد فى الأمر من طلب و إستدعاء و إقتضاء سواء قيل إن هناك إرادة شرعية و أنه لا إرادة للرب متعلقة بأفعال لعباد سوها كما تقوله المعتزلة و نحوهم من القدرية أو قيل لا إرادة للرب إلا الإرادة الخلقية القدرية التى يقال فيها ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن و أن إرادته عين نفس محبته و رضاه و أن إرادته و محبته و رضاه متعلقة بكل ما يوجد من إيمان و كفر و لا تتعلق بما لا يوجد سواء كن إيمانا أو كفرا و أنه ليس للعبد قدرة لها أثر فى و جود مقدوره و ليس فى المخلوقات قوى و أسباب يخلق بها و لا لله حكمة يخلق و يامر لأجلها كما يقول هذا و ما يشبهه جهم بن صفوان رأس لجبرية هو و من و افقه على ذلك أو بعضه من طوائف أهل الكلام و بعض متأخري الفقهاء و غيرهم المثبتين للقدر على هذه الطريقة لا على طريقة السلف و الأئمة كأبي الحسن و غيره فإن هؤلاء ناقضوا القدرية المعتزلة مناقضة ألجأتهم إلى إنكار حقيقة الأمر و النهي و الوعد و الوعيد و إن كان من يقول ببعض ذلك يتناقض و قد يثبت أحدهم من ذلك مما لا حقيقة له في المعنى وأما أئمة اصحاب مالك والشافعي وأحمد وعامة اصحاب ابى حنفية فانهم لا يقولون بقول هؤلاء بل يقولون بما اتفق عليه السلف و أئمة الفقهاء و جمهور المسلمين فيثبتون الخلق و الأمر و الإرادة الخلقية القدرية الشاملة لكل حادث و الإرادة الأمرية الشرعية المتناولة لكل ما يحبه الله و يرضاه لعباده و هو ما أمرت به الرسل و هو ما ينفع العباد و يصلحهم و يكون له العاقبة الحميدة النافعة فى المعاد الدافعة للفساد فهذه الإرادة الأمرية الشرعية متعلقة بالهيته المتضمنة لربوبيته كما أن تلك الإرادة الخلقية القدرية متعلقة بربوبيته و لهذا كان من نظر على هذه فقط و راعى هذه الخلقية الكونية القدرية دون تلك يكون له بداية بلا نهاية فيكون من الأخسرين أعمالا يحصل لهم بعض مطالبهم في لدنيا لإستعانتهم بالله إذ شهدوا ربوبيته و لا خلاق لهم في الآخرة إذ لم يعبدوا الله مخلصين له الدين و قد و قع فى هذا طوائف من أهل التصوف و الكلام و من نظر إلى الحقيقة الشرعية الأمرية دون ذلك فإنه قد يكون له عاقبة حميدة و قد يراعى الأمر لكنه يكون عاجز مخذولا حيث لم يشهد ربوبية الله و فقره إليه ليكون متوكلا عليه بريا من الحول و القوة إلا به فهذا قد يقصد أن يعبده و لا يقصد حقيقة الإستعانة به و هي حال القدرية من المعتزلة و نحوهم الذين يقرون أن الله ليس خالقا أفعال العباد و لا مريدا للكائنات

و لهذا قال أبو سليمان الداراني إنما يعجب بفعله القدري لأنه لا يرى أنه هو الخالق لفعله فأما أهل السنة الذين يقرون أن الله خالق أفعالهم و أن لله المنة عليهم فى ذلك فكيف يعجبون بها أو كما قال و الأول قد يقصد أن يستعينه و يسأله و يتوكل عليه و يبرأ من الحول و القوة إلا به و لكن لا يقصد أن يعبده بفعل ما أمر به و ترك ما نهى عنه على ألسن رسله و لا يشهد أن الله يحب أن يعبد و يطاع و أنه يفرح بتوبة التائبين و يحب المتقين و يغضب على الكفار و المنافقين بل ينسلخ من الدين أو بعضه لا سيما في نهاية أمره و هذه الحال إن طردها صاحبها كان شرا من حال المعتزلة القدرية بل إن طردها طرد حقيقيا أخرجته من الدين خروج الشعرة من العجين و هي حال المشركين و أما من هداه الله فإنه يحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة٥ و يعلم أن كل عمل لا يراد به و جه الله و لا يوافق أمره فهو مردود على صاحبه و كل قاصد لم يعنه الله فهو مصدود من مآربه فإنه يشهد أن لا إله إلا الله فيعبد الله مخلصا له الدين مستعينا بالله على ذلك مؤمنا بخلقه و أمره بقدره و شرعه فيستعين الله على طاعته و يشكره عليه و يعلم أنها منة من الله عليه و يستعيذ بالله من شر نفسه و سيئات عمله و يعلم أن ما أصابه من سيئة فمن نفسه مع علمه بأن كل شيء بقضاء الله و قدره و أن لله الحجة البالغة على خلقه و أن له فى خلقه و أمره حكمة بالغة و رحمة سابغة و هذه الأمور أصول عظيمة لبسطها موضع آخر [1]

## أهل الإيمان والطاعة أراد منهم إيمانهم وطاعتهم أمرا وخلقا

تنازع الناس فى الأمر والإرادة هل يأمر بمالا يريد أولا يأمر إلا بما يريد فإن الإرادة لفظ فيه إجمال يراد بالإرادة الكونية الشاملة لجميع الحوادث كقول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وكقوله تعالى {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء} الأنعام١٢٥ وقول نوح عليه السلام {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ} هود٣٤ ولا ريب أن الله يأمر العباد بما لايريده بهذا التفسير والمعنى كما قال تعالى {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} السجدة١٣ فدل على أنه لم يؤت كل نفس هداها مع أنه قد أمر كل نفس بهداها

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٦٢-٦٥ و مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٧٨

وكما إتفق العلماء على أن من حلف بالله ليقضين دين غريمه غدا إن شاء الله أوليردن وديعته أو غصبه أو ليصلين الظهر أو العصر إن شاء الله أو ليصومن رمضان إن شاء الله ونحو ذلك مما أمره الله به فإنه إذا لم يفعل المحلوف عليه لا يحنث مع أن الله أمره به لقوله إن شاء الله فعلم أن الله لم يشأه مع أمره به وأما الإرادة الدينية فهي بمعنى المحبة والرضى وهى ملازمة للأمر كقوله تعالى {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ} النساء٢٦ ومنه قول المسلمين هذا يفعل شيئا لا يريده الله إذا كان يفعل بعض الفواحش أى أنه لا يحبه ولا يرضاه بل ينهى عنه ويكرهه وكذلك لفظ الجبر فيه إجمال يراد به إكراه الفاعل على الفعل بدون رضاه كما يقال أن الأب يجبر المرأة على النكاح والله تعالى أجل وأعظم من أن يكون مجبرا بهذا التفسير فإنه يخلق للعبد الرضاء والإختيار بما يفعله وليس ذلك جبرا بهذا الإعتبار ويراد بالجبر خلق مافى النفوس من الإعتقادات والإرادت كقول محمد بن كعب القرظي الجبار الذى جبر العباد على ما أراد وكما في الدعاء المأثور عن علي رضى الله عنه جبار القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها والجبر ثابت بهذا التفسير فلما كان لفظ الجبر مجملا نهى الأئمة الإعلام عن إطلاق إثباته أو نفيه [1]

إن كل ما فى الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و مالم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدى و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد فى السماء و هو يقلب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاغه و هو الذى حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينه فى قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون وهو الذي جعل المسلم مسلما و المصلي مصليا قال الخليل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ} البقرة١٢٨ و قال {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي} إبراهيم٤٠ و قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا} السجدة٢٤ و قال عن آل فرعون {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} القصص٤١ و قال تعالى {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{١٩} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٣١-١٣٢

جَزُوعاً{٢٠} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{٢١} المعارج١٩-٢١ و قال {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا}هود٣٧ و قال {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ}هود٣٨ والفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبرالله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}يس٤٢ و قال {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ}النحل٨٠ الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم وقال تعالى {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ{٩٥} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{٩٦}الصافات٩٥ -٩٦ فما بمعنى الذي و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبنى دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً}الكهف١٧ و قال {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}الأنعام١٢٥ و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما بفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}النمل٨٨ و قد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى {وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}البقرة١٦٤ و قال {فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ}الأعراف٥٧ و قال تعالى {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ}المائدة١٦ [1]

وإذا قيل الأمر هل يستلزم الإرادة أم يأمر بما لا يريد قيل هو لا يستلزم الإرادة الأولى وهي إرادة الخلق فليس كل ما أمر الله به أراد أن يخلقه وأن يجعل العبد المأمور فاعلا له والقدرية تنفى أن يريد ذلك لأنه عندهم لا يجعل أحدا فاعلا ولا يخلق فعل أحد وأما أهل السنة فعندهم هو الذي جعل الأبرار أبرارا والمسلمين مسلمين وعندهم من أمره وجعله فاعلا للمأمور صار فاعلا له وإن لم يجعله فاعلا له لم يصر فاعلا له فأهل الإيمان والطاعة أراد منهم إيمانهم وطاعتهم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٧٨-٨١

أمرا وخلقا فأمرهم بذلك وأعانهم عليه وجعلهم فاعلين لذلك ولولا إعانته لهم على طاعته لما أطاعوه وأهل الكفر والمعصية أمرهم ولم يجعلهم مطيعين فلم يرد أن يخلق طاعتهم لكنه أمرهم بها وأرادها منهم إرادة شرعية دينية لكونها منفعة لهم ومصلحة إذا فعلوها ولم يرد هو أن يخلقها لما في ذلك من الحكمة وإذا كان يحبها بتقدير وجودها فقد يكون ذلك مستلزما لأمر يكرهه أو لفوات ما هو أحب إليه منه ودفعه أحب إليه من حصول ذلك المحبوب فيكون ترك هذا المحبوب لدفع المكروه أحب إليه من وجوده كما أن وجود المكروه المستلزم لوجود المحبوب يجعله مرادا لأجله إذا كان محبته له أعظم من محبته لعدم المكروه الذي هو الوسيلة وليس كل من نصحته بقولك عليك أن تعينه على الفعل الذي أمرته به فالأنبياء والصالحون دائما ينصحون الناس ويأمرونهم ويدلونهم على ما إذا فعلوه كان صلاحا لهم ولم يعاونونهم على أفعالهم وقد يكونون قادرين لكن مقتضى حكمتهم أن لا يفعلوا ذلك لأسباب متعددة والرب تعالى على كل شيء قدير لكن ما من شيء إلا وله ضد ينافيه وله لازم لا بد منه فيمتنع وجود الضدين معا أو وجود الملزوم بدون اللازم كل من الضدين مقدور لله والله قادر على أن يخلقه لكن بشرط عدم الآخر فأما وجود الضدين معا فممتنع لذاته فلا يلزم من كونه قادرا على كل منهما وجود أحدهما مع الآخر والعباد قد لا يعلمون التنافي أو التلازم فلا يكونون عالمين بالامتناع فيظنونه ممكن الوجود مع حصول المحبوب المطلوب للرب وفرق بين العلم بالإمكان وعدم العلم بالإمتناع وإنما عندهم عدم العلم بالامتناع لا العلم بالإمكان والعدم لا فاعل له فأتوا من عدم علمهم وهو الجهل الذي هو أصل الكفر وهو سبحانه إذا اقتضت حكمته خلق شيء فلا بد من خلق لوازمه ونفي أضداده فإذا قال القائل لم لم يجعل معه الضد المنافي أو لم وجد اللازم كان لعدم علمه بالحقائق وهذا مثل أن يقول القائل هلا خلق زيدا قبل أبيه فيقال له يمتنع أن يكون ابنه ويخلق قبله أو يخلق حتى يخلق أبوه والناس تظهر لهم الحكمة في كثير من تفاصيل الأمور التي يتدبرونها كما تظهر لهم الحكمة في ملوحة ماء العين وعذوبة ماء الفم ومرارة ماء الأذن وملوحة ماء البحر وذلك يدلهم على الحكمة فيما لم يعلموا حكمته فإن من رأى إنسانا بارعا في النحو أو الطب أو الحساب أو الفقه وعلم أنه أعلم منه بذلك إذا أشكل عليه بعض كلامه فلم يفهمه سلم ذلك إليه فرب العالمين الذي بهرت العقول حكمته ورحمته الذي أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا وهو أرحم الراحمين وأحكم

الحاكمين وأرحم بعباده من الوالدة بولدها كيف لا يجب على العبد أن يسلم ما جهله من حكمته إلى ما علمه منها [1]

## محو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير فى وجه العقل

ومن قال أن قدرة العبد وغيرها من الأسباب التى خلق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسبابا أو أن وجودها كعدمها وليس هناك إلا مجرد إقتران عادي كإقتران الدليل بالمدلول فقد جحد ما في خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم والعلل ولم يجعل في العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ولا فى القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ولا فى النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بها وهؤلاء ينكرون ما فى الأجسام المطبوعة من الطبائع والغرائز قال بعض الفضلاء تكلم قوم من الناس فى إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم ثم أن هؤلاء لا ينبغى للإنسان أن يقول أنه شبع بالخبز وروى بالماء بل يقول شبعت عنده ورويت عنده فإن الله يخلق الشبع والري ونحو ذلك من الحوادث عند هذه المقترنات بها عادة لا بها وهذا خلاف الكتاب والسنة فإن الله تعالى يقول {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}الأعراف٥٧ الآية وقال تعالى {وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ}البقرة١٦٤ وقال تعالى {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ}التوبة١٤ وقال {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا}التوبة٥٢ وقال {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ}ق٩ وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ}الأنعام٩٩ وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا}فاطر٢٧ وقال تعالى {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}النحل١٠ {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ{١٠} يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ {١١}النحل١٠-١١ وقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً}البقرة٢٦ إلى قوله{يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٤١٢-٤١٦ و منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ١٥٧

كَثِيراًَ}البقرة٢٦ وقال    قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{١٥} يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ{١٦}المائدة١٥-١٦ ومثل هذا فى القرآن كثير وكذلك فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم كقوله لا يموتن أحد منكم إلا آذنتموني به حتى أصلي عليه فإن الله جعل بصلاتى عليه بركه ورحمة    وقال صلى الله عليه وسلم    إن هذه القبور مملوءة على أهلها ظلمة وإن الله جاعل بصلاتي عليهم نورا    ومثل هذا كثير        ونظير هؤلاء الذين أبطلوا الأسباب المقدرة فى خلق الله من أبطل الأسباب المشروعة في أمر الله كالذين يظنون أن ما يحصل بالدعاء والأعمال الصالحة وغير ذلك من الخيرات إن كان مقدرا حصل بدون ذلك وإن لم يكن مقدرا لم يحصل بذلك وهؤلاء كالذين قالوا للنبى أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب فقال    لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له      وفى السنن أنه قيل يارسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال    هي من قدر الله   ولهذا قال من قال من العلماء الإلتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير فى وجه العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع        والله سبحانه خلق الأسباب والمسببات وجعل هذا سببا لهذا فإذا قال القائل إن كان هذا مقدرا حصل بدون السبب وإلا لم يحصل جوابه أنه مقدر بالسبب وليس مقدرا بدون السبب كما قال النبى    أإن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم    وقال    اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة        وفى الصحيحين عن إبن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق    إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذالك ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال أكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح قال فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها فبين أن هذا يدخل الجنة بالعمل الذى يعمله و يختم له به و هذا يدخل النار بالعمل الذي يعمله و يختم له به كما قال صلى الله عليه و سلم    إنما الأعمال بالخواتيم    و ذلك لأن جميع الحسنات تحبط بالردة و جميع السيئات تغفر بالتوبة و نظير ذلك من صام ثم أفطر قبل الغروب أ و صلى و أحدث عمدا قبل كمال الصلاة بطل عمله      و بالجملة فالذي عليه سلف الأمة و أئمتها ما بعث الله به رسله و أنزل كتبه فيؤمنون

بخلق الله و أمره بقدره و شرعه بحكمه الكوني و حكمه الدينى و إرادته الكونية و الدينية كما قال فى الآية الأولى {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء}الأنعام١٢٥ و قال نوح عليه السلام {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ}هود٣٤ و قال تعالى فى الإرادة الدينية {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥ و قال {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}النساء٢٦و قال {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ}المائدة٦ و هم مع إقرارهم بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وأنه خلق الأشياء بقدرته ومشيئته يقرون بأنه لا إله إلا هو لا يستحق العبادة غيره ويطيعونه ويطيعون رسله ويحبونه ويرجونه ويخشونه ويتكلون عليه وينيبون اليه ويوالون أولياءه و يعادون أعداءه و يقرون بمحبته لما أمر به ولعباده المؤمنين و رضاه بذلك و بغضه لما أنهى عنه و للكافرين وسخطه لذلك ومقته له ويقرون بما إستفاض عن النبى صلى الله عليه وسلم من أن الله أشد فرحا بتوبة عبده التائب من رجل أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فطلبها فلم يجدها فقال تحت شجرة فلما إستيقظ إذا بدابته عليها طعامه و شرابه فالله أشد فرحا بتو بة عبده من هذا براحلته فهو إلهم الذي يعبدونه وربهم الذي يسألونه كما قال تعالى {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{٢}الفاتحة٢إلى قوله{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{٥}الفاتحة٥ فهو المعبود المستعان والعبادة تجمع كمال الحب مع كمال الذل فهم يحبونه أعظم مما يحب كل محب محبوبه[1]

## من أراد الله سعادته ألهمه أن يقول كما قال آدم عليه السلام

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٣٧-١٤٠

قد أحاط ربنا سبحانه وتعالى بكل شيء علما وقدرة وحكما ووسع كل شيء رحمة وعلما فما من ذرة في السموات والأرض ولا معنى من المعاني إلا وهو شاهد لله تعالى بتمام العلم والرحمة وكمال القدرة والحكمة وما خلق الخلق باطلا ولا فعل شيئا عبثا بل هو الحكيم في أفعاله وأقواله سبحانه وتعالى ثم من حكمته ما أطلع خلقه بعضهم ومنه ما استأثر سبحانه بعلمه وإرادته قسمان إرادة أمر وتشريع وإرادة قضاء وتقدير فالقسم الأول إنما يتعلق بالطاعات دون المعاصي سواء وقعت أو لم تقع كما في قوله {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}النساء٢٦ وقوله {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥ وأما القسم الثاني وهو إرادة التقدير فهي شاملة لجميع الكائنات محيطة بجميع الحادثات وقد أراد من العالم ما هم فاعلوه بهذا المعنى لا بالمعنى الأول كما في قوله تعالى {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}الأنعام١٢٥ وفي قوله {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}هود٣٤ وفي قول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ونظائره كثيرة

وهذه الإرادة تتناول ما حدث من الطاعات والمعاصي دون ما لم يحدث كما أن الأولى تتناول الطاعات حدثت أو لم تحدث والسعيد من أراد منه تشريعا ما أراد به تقديرا والعبد الشقي من أراد به تقديرا ما أراد به تشريعا والحكم يجري على وفق هاتين الإرادتين فمن نظر إلى الأعمال بهاتين العينين كان بصيرا ومن نظر إلى القدر دون الشرع أو الشرع دون القدر كان أعور مثل قريش الذين قالوا {لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ}الأنعام١٤٨ قال الله تعالى {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ}الأنعام١٤٨ فإن هؤلاء اعتقدوا أن كل ما شاء الله وجوده وكونه وهي الإرادة القدرية فقد أمر به ورضيه دون الإرادة الشرعية ثم رأوا أن شركهم بغير شرع مما قد شاء الله وجوده قالوا فيكون قد رضيه وأمر به قال الله هكذا كذب الذين من قبلهم بالشرائع من الأمر والنهي حتى ذاقوا بأسنا {قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَاَ}الأنعام١٤٨بأن الله شرع الشرك وتحريم ما حرمتوه إن تتبعون في هذا إلا الظن وهو توهمكم أن كل ما قدره فقد شرعه {وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ}الأنعام١٤٨ أي تكذبون وتفرون بإبطال شريعته {قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ}الأنعام١٤٩ على خلقه حين أرسل الرسل إليهم فدعوهم إلى توحيده وشريعته ومع هذا فلو شاء هدى الخلق أجمعين إلى متابعة شريعته لكنه يمن على من يشاء فيهديه فضلا منه وإحسانا ويحرم من يشاء لأن المتفضل له أن يتفضل وله أن لا

يتفضل فترك تفضله على من حرمه عدل منه وقسط وله في ذلك حكمة بالغة وهو يعاقب الخلق على مخالفة أمره وإرادته الشرعية وإن كان ذلك بإرادته القدرية فإن القدر كما جرى بالمعصية جرى أيضا بعقابها كما أنه سبحانه قد يقدر على العبد أمراضا تعقبه آلاما فالمرض بقدره والألم بقدره فإذا قال العبد قد تقدمت الإرادة بالذنب فلا أعاقب كان بمنزلة قول المريض قد تقدمت الإرادة بالمرض فلا أتألم أو قد تقدمت الإرادة بأكل الحار فلا يحم مزاجي أو قد تقدمت بالضرب فلا يتألم المضروب وهذا مع أنه جهل فإنه لا ينفع صاحبه بل اعتلاله بالقدر ذنب ثان يعاقب عليه أيضا وإنما اعتل بالقدر إبليس حيث قال {بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}الحجر٣٩ وأما آدم فقال {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}الأعراف٢٣ فمن أراد الله سعادته ألهمه أن يقول كما قال آدم عليه السلام أو نحوه ومن أراد شقاوته اعتل بعلة إبليس أو نحوها فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار ومثله مثل رجل طار إلى داره شرارة نار فقال له العقلاء أطفئها لئلا تحرق المنزل فأخذ يقول من أين كانت هذه ريح ألقتها وأنا لا ذنب لي في هذه النار فما زال يتعلل حتى انتشرت وانتثرت الدار وما فيها هذه حال من شرع يحيل الذنوب على المقادير ولا يردها بالاستغفار والمعاذير بل حاله أسوأ من زلات الذنب وكان الله بخلاف الشررة فإنه لافعل له فيها و الله سبحانه يوفقنا وإياكم وسائر إخواننا لما يحبه ويرضاه ولا تنال طاعته إلا بمعونة وتترك معصيته إلا بعصمته و الله أعلم

لله حكمة بالغة فى أقضيته و أقداره و إن لم يعلمه العباد فإن الله علم علما وعلمه لعباده أو لمن يشاء منهم وعلم علما لم يعلمه لعباده {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا}البقرة٢٥٥ وهو سبحانه أراد من العباد ما هم فاعلوه إرادة تكوين كما إتفق المسلمون على أنه ما شاءالله كان و ما لم يشأ لم يكن و كما قال {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}الأنعام١٢٥ و كما قال {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ{١١٨} إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ {١١٩} هود١١٨-١١٩ و كما قال {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}البقرة٢٥٣ و كما قال {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ}إبراهيم٢٧ ولكن لم يرد المعاصي من أصحابها إرادة أمر و شرع و محبة و رضى و دين بل ذلك كما قال تعالى {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥ و كما قال تعالى {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}النساء٢٦ {وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً {٢٧} يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً{٢٨} النساء٢٧ -٢٨ و قال تعالى {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ}المائدة٦ و كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ [1]

## هل أراد الله تعالى المعصية من خلقه أم لا ؟

لفظ الإرادة مجمل له معنيان فيقصد به المشيئة لما خلقه ويقصد به المحبة والرضا لما أمر به فإن كان مقصود السائل أنه أحب المعاصي ورضيها وأمر بها فلم يردها بهذا المعنى فإن الله لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ولا يأمر بالفحشاء بل قال لما نهى عنه {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيٍّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً}الإسراء٣٨ وإن أراد أنها من جملة ما شاءه وخلقه فالله خالق كل شيء وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولايكون في الوجود إلا ما شاء وقد ذكر الله فى موضع أنه يريدها وفى موضع أنه لا يريدها والمراد بالأول أنه شاءها خلقا وبالثاني أنه لا يحبها ولا يرضاها أمرا كما قال تعالى {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}الأنعام١٢٥ وقال نوح {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ} هود٣٤ وقال فى الثانى {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥ وقال تعالى {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{٢٦} وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً{٢٧} يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً{٢٨}النساء٢٦-٢٨ وقال {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}المائدة٦ وقال {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً}الأحزاب٣٣ [2]

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٠ و مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٩٧-٢٠٢

[2] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٦٠

## "إنما بعثتم ميسرين يسروا و لا تعسروا ليعلم اليهود أن فى ديننا سعة"

قد أمر الله ورسوله بأفعال واجبة ومستحبة وإن كان الواجب مستحبا وزيادة ونهى عن أفعال محرمة او مكروهة والدين هو طاعته وطاعة رسوله وهو الدين والتقوى والبر والعمل الصالح والشرعة والمناهج وإن كان بين هذه الأسماء فروق وكذلك حمد أفعالا هي الحسنات ووعد عليها وذم أفعالا هي السيئات وأوعد عليها وقيد الأمور بالقدرة والاستطاعة و الوسع والطاقة فقال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ وقال تعالى {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}البقرة٢٨٦وقال تعالى{وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا}الطلاق٧ وكل من الآيتين وإن كانت عامه فسبب الأولى المحاسبه على ما فى النفوس وهو من جنس أعمال القلوب وسبب الثانيه الاعطاء الواجب وقال {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ}النساء٢٨ [1]

الامر والنهي الذي يسميه بعض العلماء التكليف الشرعي هو مشروط بالممكن من العلم والقدرة فلا تجب الشريعة على من لايمكنه العلم كالمجنون والطفل ولا تجب على من يعجز كالاعمى والاعرج والمريض فى الجهاد وكما لا تجب الطهارة بالماء والصلاة قائما والصوم وغير ذلك على من يعجز عنه سواء قيل يجوز تكليف مالا يطاق او لم يجز فانه لا خلاف ان تكليف العاجز الذي لا قدرة له على الفعل بحال غير واقع في الشريعة بل قد تسقط الشريعة التكليف عمن لم تكمل فيه اداة العلم والقدرة تخفيفا عنه وضبطا لمناط التكليف وان كان تكليفه ممكنا كما رفع القلم عن الصبى حتى يحتلم وان كان له فهم وتمييز لكن ذاك لانه لم يتم فهمه ولان العقل يظهر فى الناس شيئا فشيئا وهو يختلفون فيه فلما كانت الحكمة خفية ومنتشرة قيدت بالبلوغ وكما لايجب الحج الا على من ملك زادا وراحلة عند جمهور العلماء مع امكان المشي لما فيه من المشقة وكما لا يجب الصوم على المسافر مع امكانه منه تخفيفا عليه وكما تسقط الواجبات بالمرض الذي يخاف معه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٩

زيادة المرض وتاخر البرء وان كان فعلها ممكنا      لكن هذه المواضع هي مما تختلف فيها الشرائع فقد يوجب الله فى شريعة ما يشق ويحرم ما يشق تحريمه كالاصار والاغلال التى كانت على بني اسرائيل وقد يخفف فى شريعة اخرى كما قال مؤمنين     {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا}البقرة٢٨٦   وكما قال الله تعالى  {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥ وقال    {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ}المائدة٦ وقال    {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}الحج٧٨  وقال   {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ}النساء٢٨ وقال النبى لاصحابه فى قصة الاعرابي      انما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين      وقال لمعاذ وابي موسى      يسرا ولا تعسرا      وقال     ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه      وقال      لا تشددوا على انفسكم فيشدد الله عليكم فان اقواما شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ}الحديد٢٧   وقال      لا رهبانية فى الاسلام      وقال      لكني اصوم وافطر واقوم وانام واتزوج النساء واكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس مني      وقال      ان الله يحب ان يؤخذ برخصه كما يكره ان تؤتى معصيته      وروى عنه انه قال      بعثت بالحنيفية السمحة      واما كون الانسان مريدا لما امر به او كارها له فهذا لا تلتفت اليه الشرائع بل ولا امر عاقل بل الانسان مامورا بمخالفة هواه      و      الارادة      هي الفارقة بين اهل الجنة واهل النار كما قال تعالى   {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً {١٨} وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً{١٩}الإسراء١٨-١٩   وقال تعالى   {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً}القصص٨٣  وقال تعالى {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ}هود١٥ الاية وقال تعالى    {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}الأنعام٥٢   ونظائره كثيرة فان هذه الاصول ممهدة فى الكتاب والسنة وكلام العلماء والعارفين وليس الغرض هنا تقريرها      وانما الغرض شيء آخر وهو انه اذا كان التكليف مشروطا بالتمكن من العلم الذي اصله العقل وبالقدرة على الفعل فنقول كل من هذين قد يزول باسباب محظورة وباسباب غير محظوره فاذا ازال عقله بشرب الخمر اوالبنج ونحوهما لم يزل عنه بذلك ثم بما يتركه من الواجبات ويفعله من المحرمات اذا كان السكر يقتضي ذلك بخلاف ما اذا زال بسبب غير محرم كالاغماء لمرض اوخوف او سكر بشرب غير محرم مثل ان يجرع الخمر مكرها فان هذا لا اثم عليه      واما قضاء الصلاة عليه عند احمد وعند من

يقول يقضى صلاة يوم وليلة فذاك نظير وجوب قضائها على النائم والناسى ولا اثم عليهما كما قال النبى صلىالله عليه وسلم ليس في النوم تفريط وانما التفريط فى اليقظة وقال من نام عن صلاةاو نسيها فليصلها اذا ذكرها فان ذلك وقتها لاكفارة لها الا ذلك وكذلك قدرة العبد فانه لو فرط بعد وجوب الحج عليه حتى ضيع ماله بقي الحج فى ذمته وكذلك في استحلال المحرمات قال الله تعالى {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ}البقرة١٧٣ فالضرورة بسبب محظور لا تستباح بها المحرمات بخلاف الضرورة التى هي بسبب غير محظور وقد اختلف العلماء فى العاصي بسفره هل يترخص ترخص المسافر ومذهب الشافعي واحمد انه لا يترخص[١]

قال الله تعالى {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}الحج٧٨ و قال تعالى {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥ و قال تعالى {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ}النساء٢٨ و فى الصحيحين إنما بعثتم ميسرين يسروا و لا تعسروا ليعلم اليهود أن فى ديننا سعة فكل ما لا يتم المعاش إلا به فتحريمه حرج و هو منتف شرعا ومن استقرأ الشريعة في مواردها و مصادرها وجدها مبنية على قوله تعالى {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ}البقرة١٧٣ و قوله {فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}المائدة٣ فكل ما احتاج الناس إليه فى معاشهم و لم يكن سببه معصية هي ترك واجب أو فعل محرم لم يحرم عليهم لأنهم فى معنى المضطر الذى ليس بباغ ولا عاد و إن كان سببه معصية كالمسافر سفر معصية اضطر فيه الى الميتة و المنفق للمال فى المعاصي حتى لزمته الديون فانه يؤمر بالتوبة و يباح له ما يزيل ضرورته فتباح له الميتة و يقضى عنه دينه من الزكاة و إن لم يتب فهو الظالم لنفسه المحتال و حاله كحال الذين قال الله فيهم {إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}الأعراف١٦٣ و قوله {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً}النساء١٦٠ الآية و هذه قاعدة عظيمة ربما ننبه إن شاء الله عليها[٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣٤٤-٣٤٨

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٦٤

## اثبات إرادته فى الأمر مطلقا خطأ

ان الله إذا أمر العبد بشيء فقد اراده منه إرادة شرعية دينية وان لم يرده منه إرادة قدرية كونية فاثبات إرادته فى الأمر مطلقا خطأ ونفيها عن الأمر مطلقا خطأ وانما الصواب التفصيل كما جاء فى التنزيل {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} البقرة١٨٥ {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ} النساء٢٨ {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ} المائدة٦ وقال {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً} الأنعام١٢٥ وقال {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ} المائدة٤١ وقال {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} البقرة٢٥٣ [١]

## ما من بنى آدم الا من أخطأ أو هم بخطيئة

وفى الصحيح أن النبى قال ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب وفى رواية أنه مر بقوم يخذفون حجرا فقال ليس الشدة فى هذا وإنما الشدة فى أن يمتلىء أحدكم غيظا ثم يكظمه لله أو كما قال وهذا ذكره فى الغضب لأنه معتاد لبنى آدم كثيرا ويظهر للناس وسلطان الشهوة يكون فى الغالب مستورا عن أعين الناس وشيطانها خاف ويمكن فى كثير من الأوقات الإعتياض بالحلال عن الحرام وإلا فالشهوة إذا إشتغلت وإستولت قد تكون أقوى من الغضب وقد قال تعالى {وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً} النساء٢٨ أى ضعيفا عن النساء لا يصبر عنهن وفى قوله {رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ} البقرة٢٨٦ ذكروا منه العشق والعشق يفضى بأهله إلى الأمراض والإهلاك وإن كان الغضب قد يبلغ ذلك أيضا وقد دل القرآن على أن القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله فى مواضع كثيرة

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٣٥٥

كقوله فى سورة هود {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ} هود٥٢ [1]

فانه ما من بنى آدم الا من أخطأ أو هم بخطيئة الا يحيى بن زكريا و قد قال تعالى {وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً} النساء٢٨ قال طاووس فى أمر النساء و قلة صبره عنهن كما تقدم فميل النفس الى النساء عام فى طبع جميع بنى آدم و قد يبتلى كثير منهم بالميل الى الذكران كما هو المذكور عنهم فيبتلى بالميل الى المردان و إن لم يفعل الفاحشة الكبرى ابتلي بما هو دون ذلك من المباشرة و المشاهدة و لايكاد أن يسلم أحدهم من الفاحشة إما في سره و إما بينه و بين الأمرد و يحصل للنفس من ذلك ما هو معروف عند الناس وقد ذكر الناس من أخبار العشاق ما يطول وصفه فإذا ابتلى المسلم ببعض ذلك كان عليه أن يجاهد نفسه فى الله و هو مأمور بهذا الجهاد ليس أمرا أوجبه و حرمه هو على نفسه فيكون في طاعة نفسه و هواه بل هو أمر حرمه الله و رسوله و لا حيلة فيه فيصير بالمجاهدة في طاعة الله و رسوله وفي حديث رواه أبو يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا من عشق فعف و كتم و صبر ثم مات فهو شهيد و أبو يحيى في حديثه نظر لكن المعنى الذي ذكره دل عليه الكتاب و السنة فإن الله أمر بالتقوى و الصبر فمن التقوى أن يعف عن كل ماحرمه الله من نظر بعين و من لفظ بلسان و من حركة بيد و رجل و من الصبر أن يصبر عن شكوى ما به الى غير الله عز و جل فان هذا هو الصبر الجميل و أما الكتمان فيراد به شيئان أحدهما أن يكتم بثه و ألمه فلا يشكو الى غير الله فمتى شكا الى غير الله نقص صبره و هذا أعلى الكتمانين لكن هذا لا يقدر عليه كل أحد بل كثير من الناس يشكو ما به و هذا على وجهين فان شكا ذلك الى طبيب يعرف طب الأديان و مضرات النفوس و منافعها ليعالج نفسه بعلاج الايمان فهذا بمنزلة المستفتى و هذا حسن وإن شكا الى من يعينه على المحرم فهذا حرام و إن شكا الى غيره لما في الشكوى من الراحة كما يشكو المصاب مصيبته الى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه و لا الاستعانة على مصيبته فهذا ينقص صبره و لكن لايأثم مطلقا الا إذا اقترن به ما يحرم كالمصاب الذي يتسخط و الثانى أن يكتم ذلك فلا يتحدث به مع الناس لما فى ذلك من إظهار السوء و الفاحشة فإن النفوس إذا سمعت مثل هذا تحركت و تشهت و تمنت و تتيمت و الانسان متى رأى أو سمع أو تخيل من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٤٠٠-٤٠١

يفعل ما يشتهيه كان ذلك داعيا له الى الفعل و التشبه به و النساء متى رأين البهائم تنزوا الذكور منها على الاناث ملن الى الباءة و المجامعة و الرجل إذا سمع من يفعل مع المردان و النساء و رأى ذلك أو تخيله فى نفسه دعاه ذلك الى الفعل و إذا ذكر للانسان طعام اشتهاه و مال إليه و إن وصف ما يشتهيه من لباس او امرأة او مسكن أو غيره مالت نفسه إليه و الغريب عن وطنه متى ذكر بالوطن حن إليه و كل ما فى نفس الانسان محبته اذا تصوره تحركت المحبة و الطلب الى ذلك المحبوب المطلوب إما الى وصفه و إما الى مشاهدته و كلاهما يحصل به تخيل في النفس و قد يحصل التخيل بالسماع أو الرؤية أو الفكر في بعض الأمور المتعلقة به فاذا تخيلت النفس تلك الأمور المتعلقة انقلبت الى ما تخيلته فتحركت داعية المحبة سواء كانت محبة محمودة أو مذمومة ولهذا تتحرك النفوس الى الحج إذا ذكر الحجاز أو كان أوان الحج أو رأى من يذهب الى الحج من أهله و أقاربه أو أصحابه أو غيرهم و لو لم يسمع ذلك و يراه لما تحرك و لا حدث منه داعية قوته الى ذلك فتتحرك بذكر الأبرق و الأجرع و العلى و نحو ذلك لأنه رأى تلك المنازل لما كان ذاهبا الى محبوبه فصار ذكرها يذكره بالمحبوب وكذلك أصحاب المتاجر و الأموال اذا سمع أحدهم بالمكاسب تحركت داعيته الى ذلك و كذلك أهل الفرج و التنزه إذا رأوا من يقصد ذلك تحركوا إليه و هذه الدواعي كلها مركوزة في نفوس بنى آدم و الانسان ظلوم جهول و كذلك ذكر أثار رسول الله صلى الله عليه و سلم تذكر به و تحرك محبته فالمبتلى بالفاحشة و العشق إذا ذكر ما به لغيره تحركت نفس ذلك الغير الى جنس ذلك لأن النفوس مجبولة على حب الصور الجميلة فاذا تصورت جنسا تحرك اليها المحبوب ولهذا نهى الله تعالى عن اشاعة الفاحشة و كذلك أمر بستر الفواحش كما قال النبى صلى الله عليه و سلم من ابتلى من هذه القاذورات بشيء فاليسنتر بستر الله فانه من يبدلنا صفحته نقم عليه كتاب الله و قال كل أمتى معافى إلا المجاهرين و ان من المجاهرة أن يبيت الرجل على الذنب قد ستره الله فيصبح يتحدث به فما دام الذنب مستورا فعقوبته على صاحبه خاصة و إذا ظهر و لم ينكر كان ضرره عاما فكيف إذا كان في ظهوره تحريك لغيره إليه ولهذا كره الامام أحمد و غيره إنشاد الأشعار الغزل الرقيق لأنه يحرك النفوس الى الفواحش فلهذا أمر من يبتلى بالعشق أن يعف و يكتم و يصبر فيكون حينئذ ممن قال الله فيه {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}يوسف٩٠ والمقصود أنه يثاب على هذه المجاهدة و المجاهد من جاهد نفسه في الله و أما المبتدعون فى الزهد و العبادة السالكون طريق الرهبان فانهم قد يزهدون فى النكاح و فضول الطعام و المال و نحو ذلك و هذا محمود لكن عامة هؤلاء لابد أن يقعوا فى ذنوب من هذا الجنس كما نجد كثيرا منهم

يبتلى بصحبة الأحداث و ارفاق النساء فيبتلون بالميل بسطها فى كتاب و عندهم من الفواحش الباطنة و الظاهرة ما لا يوجد عند غيرهم و خيار من فيهم يميل الى الأحداث و الغناء و السماع لما يجدون في ذلك من راحة النفوس و لو اتبعوا السنة لاستراحوا من ذلك [1]

## لطائف لغوية

١-وقد ذكر الله فى كتابه الفرق بين الارادة و الأمر و القضاء و الاذن و التحريم و البعث و الارسال و الكلام و الجعل بين الكونى الذى خلقه وقدره وقضاه وان كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثبت اصحابه ولا يجعلهم من أوليائه المتقين وبين الدينى الذى امر به وشرعه واثاب عليه واكرمهم وجعلهم من اوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين وهذا من أعظم الفروق التى يفرق بها بين اولياء الله واعدائه فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من اوليائه ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من اعدائه ف الارادة الكونية هى مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة فى مشيئته وارادته الكونية والارادة الدينية هى المتضمنة لمحبته ورضاه المتناولة لما امر به وجعله شرعا ودينا وهذه مختصة بالايمان والعمل الصالح واما لفظ التحريم فقال فى الكونى {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ}القصص١٢ من قبل وقال تعالى {فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ}المائدة٢٦ وقال فى الدينى {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ}المائدة٣ وقال تعالى {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ}النساء٢٣ الآية [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٤٦٢-٤٦٦ و مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٠٧-٢١٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٧٠ و مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٤٧ و الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٥٣

٢- والله تعالى له الخلق والأمر فلفظ الإرسال والبعث والإرادة والأمر والأذن والكتاب والتحريم والقضاء والكلام ينقسم إلى خلقي وأمري وكوني وديني وأما الكتاب الديني مثل قوله{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً} النساء ٢٤ [1]

٣-مقابله الجمع بالجمع وهى تقتضى توزيع الأفراد على الأفراد كما فى قوله {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ}النساء١٢ أي لكل واحد نصف ما تركت زوجته وقوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ}النساء٢٣ أي حرم على كل واحد أمه ونحو ذلك [2]

٤-فالجدة وإن سميت أما لم تدخل فى لفظ الأم المذكورة فى الفرائض فأدخلت فى لفظ الأمهات فى قوله{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ}النساء٢٣ [3]

٥-{وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ}النساء٢٣ في الجاهلية [4]

٦- قال تعالى {إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً} النساء ٢٣ فهو المسمى نفسه بأسمائه الحسنى كما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس انه لما سئل عن قوله {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}الفتح٧ {غَفُوراً رَّحِيماً}النساء٩٦ فقال هو سمى نفسه

---

[1] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٥٢

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ٨١

[3] مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ٣٥٥

[4] شرح العمدة ج: ٣ ص: ٣٨٨

بذلك وهو لم يزل كذلك فأثبت قدم معانى أسمائه الحسنى وأنه هو الذى سمى نفسه بها [1]

٧-{إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً}النساء٢٤ عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه [2]

٨- لفظ الاجارة فيه عموم و خصوص فانها على ثلاث مراتب أحدها أن يقال لكل من بذل نفعا بعوض فيدخل فى ذلك المهر كما فى قوله تعالى {فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}النساء٢٤ [3]

ان اللفظ العام لا يقصد به بيان تفاصيل الموانع كقوله تعالى {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم}النساء٢٤ و قد علم أن العقد لا بد فيه من عدم الإحرام وعدم العدة و لا بد له من شروط و اركان [4]

٩-قال الله سبحانه {بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ}النساء٢٥ أى أنتم نوع واحد متفقون فى القصد والهدى كالروحين اللتين تتفقان فى صفاتهما وهى الجنود المجندة التى قال النبى الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف [5]

١٠- ولفظ الفتى فى اللغة هو الحدث، الشاب كما ذكر ذلك أهل اللغة ومنه قول تعالى {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ}يوسف٣٦ وقوله {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٠٥

[2] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[3] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ١٠٤

[4] شرح العمدة ج: ٤ ص: ٤٤٠

[5] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٧٣

آمَنُوا بِرَبِّهِمْ} الكهف١٣ {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ} الكهف٦٠ وقد فتى يفتى فهو فتى أى بين الفتا والأفتا من الدواب خلاف المسان وقد يعبر بالفتى عن المملوك مطلقا كما قال تعالى {مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ} النساء٢٥ [١]

١١- فقول القائل أنا من هذا وهذا مني أي أنا من نوعه وهو من نوعي لأن الشخصين لا يتحدان إلا بالنوع كما في قوله تعالى {بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ} النساء٢٥ وقوله عليه الصلاة والسلام لعلي أنت مني وأنا منك [٢]

١٢- وقد ذكر الله فى كتابه الفرق بين الارادة و الأمر و القضاء و الاذن و التحريم و البعث و الارسال و الكلام و الجعل بين الكونى الذى خلقه وقدره وقضاه وان كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثبت اصحابه ولا يجعلهم من أوليائه المتقين وبين الدينى الذى امر به وشرعه واثاب عليه واكرمهم وجعلهم من اوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين وهذا من أعظم الفروق التى يفرق بها بين اولياء الله واعدائه فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من اوليائه ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من اعدائه ف الارادة الكونية هى مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة فى مشيئته وارادته الكونية والارادة الدينية هى المتضمنة لمحبته ورضاه المتناولة لما امر به وجعله شرعا ودينا وهذه مختصة بالايمان والعمل الصالح قال الله تعالى {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء} الأنعام١٢٥ وقال نوح عليه السلام لقومه {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ} هود٣٤ وقال تعالى {وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ} الرعد١١ وقال تعالى فى الثانية {وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} البقرة١٨٥ وقال فى آية الطهارة {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} المائدة٦ ولما ذكر ما احله وما حرمه من النكاح قال

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٨٣

[٢] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٤٦

{يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {٢٦} وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً{٢٧} يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً{٢٨} النساء٢٦ ـ٢٨ [١]

١٣ـ اللآم لبيان الجملة الشرعية المتعلقة بالإرادة الشرعية كما في قوله تعالى {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ}النساء٢٦ [٢]

١٤ـ قال تعالى {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}النساء٢٦

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}الفاتحة٦ والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}البقرة٢ والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا}الأعراف٤٣ وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله {وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الأنعام٨٧ وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ}النحل١٢١ {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ}الشورى١٣ وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ}التوبة٣٣ والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا و هذا [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٦٦ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٣٢ و الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٥٠ و مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٢٤-٢٥ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٤٦ و مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٤٠

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢٣٧

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦

١٥-إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الدينى وخلقه الكونى فإن الله سبحانه خالق كل شيء ورب كل شيء ومليكه سواء فى ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته شيء ولا يكون شيء الا بمشيئته وقد فرق الله فى كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات وبين من اتبع كلماته الدينيات وذلك فى أمره وإرادته وقضائه وحكمه وإذنه وبعثه وارساله فقال فى الإرادة الدينية الشرعية {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}النساء٢٦ وقال فى الإرادة الكونية القدرية {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}الأنعام١٢٥ وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة فى مسألة الأمر الشرعى هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية وإن كان مستلزما للإرادة الدينية الشرعية [١]

١٦-قال تعالى {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}النساء٢٦

عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه [٢]

١٧-{وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}النساء٢٦فإن السنة هي العادة وهي الطريق التي تتكرر لتتسع لأنواع الناس مما يعدونه عبادة أو لا يعدونه عبادة [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤١٢ و التحفة العراقية ج: ١ ص: ٤٦

[٢] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[٣] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧٧

## النساء ٢٩-٤٣

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ
تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ
رَحِيماً{٢٩} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً{٣٠} إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً{٣١} وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ
بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ
مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيماً{٣٢} وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ
عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيداً{٣٣} الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى
بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ
بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي
الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ
كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً{٣٤} وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ
وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ
عَلِيماً خَبِيراً{٣٥} وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى
وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ
اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً{٣٦} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
عَذَاباً مُّهِيناً{٣٧} وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ
بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قِرِيناً{٣٨}
وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ
وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيماً{٣٩} إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً
يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً{٤٠} فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ
أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً{٤١} يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ
حَدِيثاً{٤٢} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ

**تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً{٤٣}**

## من أكل أموال الناس بالباطل

قال الله تعالى فى كتابه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ وقال تعالى {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}البقرة١٨٨ وقال تعالى فيما ذم به بنى إسرائيل {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ}النساء١٥٥ إلى قوله {وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ}النساء١٦١ ومن أكل أموال الناس بالباطل أخذ أحد العوضين بدون تسليم العوض الآخر لأن المقصود بالعهود والعقود المالية هوالتقابض فكل من العاقدين يطلب من الآخر تسليم ما عقد عليه ولهذا قال تعالى {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ}النساء١ أي تتعاهدون وتتعاقدون وهذا هو موجب العقود ومقتضاها لأن كلا من المتعاقدين أوجب على نفسه بالعقد ما طلبه الآخر وسأله منه فالعقود موجبة للقبوض والقبوض هى المسؤولة المقصودة المطلوبة ولهذا تتم العقود بالتقابض من الطرفين حتى لو أسلم الكافران بعد التقابض فى العقود التى يعتقدون صحتها أو تحاكما إلينا لم نتعرض لذلك لانقضاء العقود بموجباتها ولهذا نهى عن بيع الكاليء بالكاليء لأنه عقد وإيجاب على النفوس بلا حصول مقصود لأحد الطرفين ولا لهما ولهذا حرم الله الميسر الذى منه بيع الغرر [1]

## الأصل فى العقود التراضى

فان الأصل فى العقود رضى المتعاقدين و موجبها هو ما أوجباه على أنفسهما بالتعاقد لأن الله قال فى كتابه العزيز {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٢٦٤

و قال {فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً}النساء٤ فعلق جواز الأكل بطيب النفس تعليق الجزاء بشرطه فدل على أنه سبب له و هو حكم معلق على و صف مشتق مناسب فدل على ان ذلك الوصف سبب لذلك الحكم و إذا كان طيب النفس هو المبيح لأكل الصداق فكذلك سائر التبرعات قياسا عليه بالعلة المنصوصة التى دل عليها القرآن و كذلك قوله {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ لم يشترط فى التجارة إلا التراضي و ذلك يقتضي أن التراضي هو المبيح للتجارة و اذا كان كذلك فاذا تراضى المتعاقدان بتجارة او طابت نفس المتبرع بتبرع ثبت حله بدلالة القرآن إلا ان يتضمن ما حرمه الله و رسوله كالتجارة فى الخمر و نحو ذلك [1]

أن الأصل فى العقود أنها لا تصح إلا بالصيغة وهي العبارات التى قد يخصها بعض الفقهاء بإسم الإيجاب والقبول سواء في ذلك البيع والإجارة والهبة والنكاح والعتق الوقف وغير ذلك وهذا ظاهر قول الشافعي وهو قول فى مذهب أحمد يكون تارة رواية منصوصة فى بعض المسائل كالبيع والوقف ويكون تارة رواية مخرجة كالهبة والإجارة ثم هؤلاء يقيمون الإشارة مقام العبارة عند العجز عنها كما في إشارة الأخرس ويقيمون أيضا الكتابة فى مقام العبارة عند الحاجة وقد يستثنون مواضع دلت النصوص على جوازها إذا مست الحاجة إليها كما في الهدي إذا عطب دون محله فإنه ينحر ثم يضمخ نعله المعلق فى عنقه بدمه علامة للناس ومن أخذه ملكه وكذلك الهدية و نحو ذلك لكن الأصل عندهم هو اللفظ لأن الأصل في العقود هو التراضي المذكور فى قوله {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ و قوله {فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً}النساء٤ والمعاني التى في النفس لا تنضبط إلا بالألفاظ التى قد جعلت لإبانة ما في القلب إذ الأفعال من المعاطاة ونحوها تحتمل وجوها كثيرة ولأن العقود من جنس الأقوال فهي فى المعاملات كالذكر و الدعاء فى العبادات القول الثانى أنها تصح بالأفعال فيما كثر عقده بالأفعال كالمبيعات بالمعاطاة وكالوقف فى مثل من بنى مسجدا وأذن للناس فى الصلاة فيه أو سبل أرضا للدفن فيها أو بنى مطهرة وسبلها للناس وكبعض أنواع الإجارة كمن دفع ثوبه إلى غسال أو خياط يعمل بالأجرة أو ركب سفينة ملاح وكالهدية ونحو ذلك فإن هذه العقود لو لم تنعقد بالأفعال الدالة عليها لفسدت أمور الناس ولأن الناس من لدن النبى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ١٥٥

صلى الله عليه وسلم و إلى يومنا ما زالوا يتعاقدون فى مثل هذه الأشياء بلا لفظ بل بالفعل الدال على المقصود وهذا هو الغالب على أصول أبي حنيفة وهو قول فى مذهب أحمد ووجه فى مذهب الشافعي بخلاف المعاطاة فى الأموال الجليلة فإنه لا حاجة إليه ولم يجر به العرف القول الثالث أنها تنعقد بكل ما دل على مقصودها من قول أو فعل فكل ما عده الناس بيعا وإجارة فهو بيع وإجارة وإن إختلف إصطلاح الناس في الألفاظ والأفعال إنعقد العقد عند كل قوم بما يفهمونه بينهم من الصيغ والأفعال وليس لذلك حد مستمر لا فى شرع ولا فى لغة بل يتنوع بتنوع إصطلاح الناس كما تتنوع لغاتهم فإن لفظ البيع والإجارة في لغة العرب ليس هو اللفظ الذي في لغة الفرس أو الروم أو الترك أو البربر أو الحبشة بل قد تختلف أنواع اللغة الواحدة ولا يجب على الناس إلتزام نوع معين من الإصطلاحات في المعاملات ولا يحرم عليهم التعاقد بغير ما يتعاقد به غيرهم إذا كان ما تعاقدوا به دالا على مقصودهم وإن كان قد يستحب بعض الصفات وهذا هو الغالب على أصول مالك وظاهر مذهب أحمد و لهذا يصح في ظاهر مذهبه بيع المعاطاة مطلقا و إن كان قد وجد اللفظ من أحدهما والفعل من الآخر بأن يقول خذ هذا لله فيأخذه أو يقول أعطني خبزا بدرهم فيعطيه أو لم يوجد لفظ من أحدهما بأن يضع الثمن ويقبض جرزة البقل أو الحلواء أو غير ذلك كما يتعامل به غالب الناس أو يضع المتاع ليوضع له بدله فإذا وضع البدل الذي يرضي به أخذه كما يجلبه التجار على عادة بعض أهل المشرق فكل ما عده الناس بيعا فهو بيع وكذلك فى الهبة مثل الهدية ومثل تجهيز الزوجة بمال يحمل معها إلى بيت زوجها إذا كانت العادة جارية بأنه عطية لا عارية وكذلك الإجارات مثل ركوب سفينة الملاح المكاري وركوب دابة الجمال أو الحمار أو البغال المكاري على الوجه المعتاد أنه إجارة ومثل الدخول إلى حمام الحمامي يدخلها الناس بالأجرة ومثل دفع الثوب إلى غسال أو خياط يعمل بالأجر أو دفع الطعام إلى طباخ أو شواي يطبخ أو يشوي للآخر سواء شوي اللحم مشروحا أو غير مشروح حتى إختلف أصحابه هل يقع الخلع بالمعاطاة مثل أن تقول إخلعني بهذه الألف أو بهذا الثوب فيقبض العوض على الوجه المعتاد أنه رضي منه بالمعاوضة فذهب العكبريون كأبي حفص وأبي علي بن شهاب إلى أن ذلك خلع صحيح وذكروا من كلام أحمد ومن كلام غيره من السلف من الصحابة والتابعين ما يوافق قولهم ولعله هو الغالب على نصوصه بل قد نص على أن الطلاق يقع بالفعل والقول وإحتج على أنه يقع بالكتاب بقول النبى إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به قال وإذا كتب فقد عمل وذهب البغداديون الذين كانوا فى ذلك الوقت كأبي عبدالله بن حامد ومن اتبعهم كالقاضي أبي يعلى ومن سلك سبيله أنه لا تقع

الفرقة إلا بالكلام وذكروا من كلام أحمد ما إعتمدوه في ذلك بناء على أن الفرقة فسخ النكاح والنكاح يفتقر إلى لفظ فكذلك فسخه وأما النكاح فقال هؤلاء كابن حامد والقاضي وأصحابه مثل أبى الخطاب وعامة المتأخرين أنه لا ينعقد إلا بلفظ الإنكاح والتزويج كما قاله الشافعي بناء على أنه لا ينعقد بالكناية لأن الكناية تفتقر إلى نية والشهادة شرط في صحة النكاح والشهادة على النية غير ممكنة ومنعوا من إنعقاد النكاح بلفظ الهبة أو العطية أو غيرهما من ألفاظ التمليك وقال أكثر هؤلاء كابن حامد والقاضي والمتأخرين أنه لا ينعقد إلا بلفظ العربية لمن يحسنها فإن لم يقدر على تعلمها إنعقد بمعناها الخاص بكل لسان وإن قدر على تعلمها ففيه وجهان بناء على أنه مختص بهذين اللفظين وأن فيه شوب التعبد وهذا مع أنه ليس منصوصا عن أحمد فهو مخالف لأصوله ولم ينص أحمد على ذلك ولا نقلوا عنه نصا فى ذلك وإنما نقلوا قوله في رواية أبي الحارث إذا وهبت نفسها لرجل فليس بنكاح فإن الله تعالى قال {خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}الأحزاب٥٠ و هذا إنما هو نص على منع ما كان من خصائص النبى صلى الله عليه وسلم وهو النكاح بغير مهر بل قد نص أحمد فى المشهور عنه على أن النكاح ينعقد بقوله لأمته أعتقتك وجعلت عتقك صداقك وبقوله جعلت عتقك صداقك أو صداقك عتقك ذكر ذلك في غير موضع من جواباته فاختلف أصحابه فأما أبو عبدالله بن حامد فطرد قياسه وقال لابد مع ذلك من أن يقول تزوجتها أو نكحتها لأن النكاح لا ينعقد قط بالعربية إلا بهاتين الصيغتين وأما القاضى أبو يعلى وغيره فجعلوا هذه الصورة مستثناة من القياس الذي وافقوا عليه إبن حامد وأن ذلك من صور الاستحسان وذكر ابن عقيل قولا فى المذهب أنه ينعقد بغير لفظ الانكاح والتزويج لنص أحمد بهذا وهذا أشبه بنصوص أحمد وأصوله ومذهب مالك في ذلك شبيه بمذهبه فإن أصحاب مالك إختلفوا هل ينعقد بغير لفظ الانكاح و التزويج على قولين والمنصوص عنه إنما هو منع ما إختص به النبى من هبة البضع بغير مهر قال ابن القاسم وإن و هب ابنته وهو يريد إنكاحها فلا أحفظه عن مالك فهو عندى جائز وما ذكره بعض أصحاب مالك وأحمد من أنه لا ينعقد إلا بهذين اللفظين بعيد عن أصولهما فإن الحكم مبنى على مقدمتين إحداهما أن ما سوى ذلك كناية وأن الكناية تفتقر إلى النية ومذهبهما المشهور أن دلالة الحال فى الكنايات تجعلها صريحة وتقوم مقام إظهار النية ولهذا جعلا الكنايات فى الطلاق والقذف ونحوهما مع دلالة الحال كالصريح و معلوم أن دلالات الأحوال فى النكاح معروفة من إجتماع الناس لذلك و التحدث بما إجتمعوا له فإذا قال بعد ذلك ملكتكها لك بألف درهم علم الحاضرون بالاضطرار أن المراد به الانكاح وقد شاع هذا اللفظ فى عرف الناس حتى سموا عقده إملاكا وملاكا ولهذا روى الناس قول النبي لخاطب

الواهبة الذي التمس فلم يجد خاتما من حديد رووه تارة أنكحتكها بما معك من القرآن و تارة ملكتكها وإن كان النبى لم يثبت عنه أنه إقتصر على ملكتكها بل إما أنه قالهما جميعا أو قال أحدهما لكن لما كان اللفظان عندهم فى مثل هذا الموضع سواء رووا الحديث تارة هكذا وتارة هكذا ثم تعيين اللفظ العربى فى مثل هذا فى غاية البعد عن أصول أحمد ونصوصه و عن أصول الأدلة الشرعية إذ النكاح يصح من الكافر والمسلم و هو وإن كان قربة فإنما هو كالعتق والصدقة ومعلوم أن العتق لا يتعين له لفظ لا عربي ولا عجمي وكذلك الصدقة والوقف والهبة لا يتعين لها لفظ عربي بالإجماع ثم العجمي إذا تعلم العربية في الحال قد لا يفهم المقصود من ذلك اللفظ كما يفهمه من اللغة التى إعتادها نعم لو قيل تكره العقود بغير العربية لغير حاجة كما يكره سائر أنواع الخطاب بغير العربية لغير حاجة لكان متوجها كما قد روى عن مالك وأحمد والشافعي ما يدل على كراهة اعتياد المخاطبة بغير العربية لغير حاجة وقد ذكرنا هذه المسألة فى غير هذا الموضع وقد ذكر أصحاب مالك والشافعي و أصحاب أحمد كالقاضي أبي يعلى وابن عقيل والمتأخرين أنه يرجع في نكاح الكفار إلى عادتهم فما اعتقدوه نكاحا بينهم جاز إقرارهم عليه إذا أسلموا وتحاكموا إلينا إذا لم يكن حينئذ مشتملا على مانع وإن كانوا يعتقدون أنه ليس بنكاح لم يجز الاقرار عليه حتى قالوا لو قهر حربى حربية فوطئها أو طاوعته واعتقداه نكاحا أقرا عليه وإلا فلا ومعلوم أن كون القول أو الفعل يدل على مقصود العقد لا يختص به المسلم دون الكافر وإنما اختص المسلم بأن الله أمر فى النكاح بأن الله أمر فى النكاح بأن يميز عن السفاح كما قال تعالى {مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ}المائدة٥ و قال {مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ}النساء٢٥ فأمر بالولي والشهود ونحو ذلك مبالغة فى تمييزه عن السفاح وصيانة للنساء عن التشبه بالبغايا حتى شرع فيه الضرب بالدف والوليمة الموجبة لشهرته ولهذا جاء فى الأثر المرأة لا تزوج نفسها فإن البغي هي التى تزوج نفسها وأمر فيه بالاشهاد أو بالإعلان أو بهما جميعا ثلاثة أقوال هي ثلاث روايات في مذهب أحمد ومن إقتصر على الاشهاد علله بأن به يحصل الإعلان المميز له عن السفاح وبأنه يحفظ النسب عند التجاحد فهذه الأمور التى اعتبرها الشارع في الكتاب والسنة والآثار حكمتها بينة فأما إلتزام لفظ مخصوص فليس فيه أثر ولا نظر هذه القاعدة الجامعة التي ذكرناها من أن العقود تصح بكل ما دل على مقصودها من قول أو فعل هي التى تدل عليها أصول الشريعة وهي التى تعرفها القلوب و ذلك أن الله سبحانه و تعالى قال {فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء٣ و قال {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ}النور٣٢ و قال {وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ}البقرة٢٧٥و قال

{فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً}النساء٤ و قال {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ و قال {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}الطلاق٦ و قال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ}البقرة٢٨٢إلى قوله {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {٢٨٢} وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ {٢٨٣}البقرة٢٨٢ و قال {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً}البقرة٢٤٥ و قال {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ}البقرة٢٦١ و قال {يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ}البقرة٢٧٦ و قال {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ}الحديد١٨ و قال {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}النساء٩٢ و قال {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}الطلاق١ و قال {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}البقرة٢٣١ إلى غير ذلك من الآيات المشروع فيها هذه العقود إما أمرا و إما إباحة و المنهى فيها عن بعضها كالربا فإن الدلالة فيها من وجوه أحدها أنه إكتفي بالتراضي في البيع فى قوله {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ و بطيب النفس فى التبرع فى قوله {فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً}النساء٤ فتلك الآية في جنس المعاوضات و هذه الآية فى جنس التبرعات و لم يشترط لفظا معينا و لا فعلا معينا يدل على التراضي و على طيب النفس و نحن نعلم بالاضطرار من عادات الناس فى أقوالهم و أفعالهم أنهم يعلمون التراضي و طيب النفس بطرق متعددة والعلم به ضروري فى غالب ما يعتاد من العقود و هو ظاهر فى بعضها و إذا وجد تعلق الحكم بهما بدلالة القرآن و بعض الناس قد يحمله اللدد فى نصره لقول معين على أن يجحد ما يعلمه الناس من التراضي و طيب النفس فلا عبرة بجحد مثل هذا فإن جحد الضروريات قد يقع كثيرا عن مواطأة و تلقين فى الأخبار و المذاهب فالعبرة بالفطرة السليمة التى لم يعارضها ما يغيرها و لهذا قلنا إن الأخبار المتواترة يحصل بها العلم حيث لا تواطؤ على الكذب لأن الفطر السليمة لا تتفق على الكذب فأما مع التواطؤ و الإتفاق فقد يتفق جماعات على الكذب الوجه الثانى أن هذه الأسماء جاءت فى كتاب الله و سنة رسوله معلقا بها أحكام شرعية و كل اسم فلابد له من حد فمنه ما يعلم حده باللغة كالشمس و القمر و البر و البحر و السماء و الأرض و منه ما يعلم بالشرع كالمؤمن و الكافر و المنافق و كالصلاة و الزكاة و الصيام و الحج و ما لم يكن له حد فى اللغة و لا فى الشرع فالمرجع فيه إلى عرف الناس كالقبض المذكور في قوله صلى الله عليه و سلم من ابتاع طعاما فلا يبعه حتى يقبضه و معلوم

أن البيع و الإجارة و الهبة و نحوها لم يحد الشارع لها حدا لا في كتاب الله و لا سنة رسوله و لا نقل عن أحد من الصحابة و التابعين أنه عين للعقود صفة معينة من الألفاظ أو غيرها أو قال ما يدل على ذلك من أنها لا تنعقد إلا بالصيغ الخاصة بل قد قيل إن هذا القول مما يخالف الاجماع القديم و أنه من البدع و ليس لذلك حد فى لغة العرب بحيث يقال إن أهل اللغة يسمون هذا بيعا و لا يسمون هذا بيعا حتى يدخل أحدهما في خطاب الله و لا يدخل الآخر بل تسمية أهل العرف من العرب هذه المعاقدات بيعا دليل على أنها فى لغتهم تسمى بيعا و الأصل بقاء اللغة و تقريرها لا نقلها و تغييرها فإذا لم يكن له حد فى الشرع و لا في اللغة كان المرجع فيه إلى عرف الناس و عاداتهم فما سموه بيعا فهو بيع و ما سموه هبة فهو هبة الوجه الثالث أن تصرفات العباد من الأقوال و الأفعال نوعان عبادات يصلح بها دينهم و عادات يحتاجون إليها فى دنياهم فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التى أوجبها الله أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع و أما العادات فهي ما اعتاده الناس فى دنياهم مما يحتاجون إليه و الأصل فيه عدم الحظر فلا يحظر منه إلا ما حظره الله سبحانه و تعالى و ذلك لأن الأمر و النهي هما شرع الله و العبادة لابد أن تكون مأمورا بها فما لم يثبت أنه مأمور به كيف يحكم عليه بأنه عبادة و ما لم يثبت من العبادات أنه منهي عنه كيف يحكم على أنه محظور و لهذا كان أحمد و غيره من فقهاء أهل الحديث يقولون إن الأصل فى العبادات التوقيف فلا يشرع منها إلا ما شرعه الله تعالى و إلا دخلنا في معنى قوله {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ}الشورى٢١ و العادات الأصل فيها العفو فلا يحظر منها إلا ما حرمه و إلا دخلنا في معنى قوله {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً}يونس٥٩ و لهذا ذم الله المشركين الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله و حرموا ما لم يحرمه فى سورة الأنعام من قوله تعالى {وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ{١٣٦} وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ{١٣٧} وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{١٣٨}الانعام ١٣٦-١٣٨ فذكر ما ابتدعوه من العبادات و من التحريمات و في صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم قال قال الله تعالى إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين و حرمت عليهم ما أحللت لهم و أمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل

به سلطانا وهذه قاعدة عظيمة نافعة و إذا كان كذلك فنقول البيع و الهبة و الاجارة و غيرها هي من العادات التى يحتاج الناس إليها فى معاشهم كالأكل و الشرب و اللباس فإن الشريعة قد جاءت فى هذه العادات بالآداب الحسنة فحرمت منها ما فيه فساد و أوجبت ما لابد منه و كرهت ما لا ينبغى و استحبت ما فيه مصلحة راجحة فى أنواع هذه العادات و مقاديرها و صفاتها و إذا كان كذلك فالناس يتبايعون و يستأجرون كيف شاءوا ما لم تحرم الشريعة كما يأكلون و يشربون كيف شاءوا ما لم تحرم الشريعة و إن كان بعض ذلك قد يستحب أو يكون مكروها و ما لم تحد الشريعة فى ذلك حدا فيبقون فيه على الاطلاق الأصلى و أما السنة و الإجماع فمن تتبع ما و رد عن النبي صلى الله عليه و سلم و الصحابة و التابعين من أنواع المبايعات و المؤاجرات و التبرعات علم ضرورة أنهم لم يكونوا يلتزمون الصيغة من الطرفين و الآثار فى ذلك كثيرة ليس هذا موضعها إذ الغرض التنبيه على القواعد و إلا فالكلام في أعيان المسائل له موضع غير هذا فمن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم بنى مسجده و المسلمون بنوا المساجد على عهده و بعد موته و لم يأمر أحدا أن يقول و قفت هذا المسجد و لا ما يشبه هذا اللفظ بل قال النبى صلى الله عليه و سلم من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا فى الجنة فعلق الحكم بنفس بنائه و فى الصحيحين أنه لما اشترى الجمل من عبدالله بن عمر بن الخطاب قال هو لك يا عبدالله بن عمر و لم يصدر من إبن عمر لفظ قبول و كان يهدي و يهدى له فيكون قبض الهدية قبولها و لما نحر البدنات قال من شاء اقتطع مع إمكان قسمتها فكان هذا إيجابا و كان الاقتطاع هو القبول و كان يسأل فيعطي أو يعطي من غير سؤال فيقبض المعطي و يكون الاعطاء هو الإيجاب و الأخذ هو القبول في قضايا كثيرة جدا و لم يكن يأمر الآخذين بلفظ و لا يلتزم أن يتلفظ لهم بصيغة كما في إعطائه للمؤلفة قلوبهم و للعباس و غيرهم وجعل إظهار الصفات فى المبيع بمنزلة اشتراطها باللفظ فى مثل المصراة و نحوها من المدلسات و أيضا فإن التصرفات جنسان عقود و قبوض كما جمعهما النبى صلى الله عليه و سلم في قوله رحم الله عبدا سمحا إذا باع سمحا إذا اشترى سمحا إذا قضى سمحا إذا اقتضى و يقول الناس البيع و الشراء و الأخذ و العطاء و المقصود من العقود إنما هو القبض و الاستيفاء فإن المعاقدات تفيد و جوب القبض أو جوازه بمنزلة إيجاب الشارع ثم التقابض و نحوه و فاء بالعقود بمنزلة فعل المأمور به فى الشرعيات و القبض ينقسم إلى صحيح و فاسد كالعقد و تتعلق به أحكام شرعية كما تتعلق بالقبض فإذا كان المرجع فى القبض إلى عرف الناس و عاداتهم من غير حد يستوى فيه جميع الناس فى جميع الأحوال و الأوقات فكذلك العقود و إن حررت

عبارته قلت أحد نوعى التصرفات فكان المرجع فيه إلى عادة الناس كالنوع الآخر و مما يلتحق بهذا أن الاذن العرفى في الاباحة أو التمليك أو التصرف بطريق الوكالة كالإذن اللفظى فكل و احد من الوكالة و الاباحة ينعقد بما يدل عليها من قول و فعل و العلم برضى المستحق يقوم مقام إظهاره للرضى و على هذا يخرج مبايعة النبى صلى الله عليه و سلم عن عثمان بن عفان بيعة الرضوان و كان غائبا و إدخاله أهل الخندق إلى منزل أبي طلحة و منزل جابر بدون إستئذانها لعلمه أنهما راضيان بذلك و لما دعاه صلى الله عليه و سلم اللحام سادس ستة اتبعهم رجل فلم يدخله حتى استأذن اللحام الداعي و كذلك ما يؤثر عن الحسن البصرى أن أصحابه لما دخلوا منزله و أكلوا طعامه قال ذكرتمونى أخلاق قوم قد مضوا و كذلك معنى قول أبي جعفر إن الاخوان من يدخل أحدهم يده في جيب صاحبه فيأخذ منه ما شاء و من ذلك قوله صلى الله عليه و سلم لمن استوهبه كبة شعر أما ما كان لى و لبنى عبدالمطلب فقد و هبته لك و كذلك إعطاؤه المؤلفة قلوبهم عند من يقول إنه أعطاهم من أربعة الأخماس و على هذا خرج الإمام أحمد بيع حكيم بن حزام و عروة بن الجعد لما و كله النبى صلى الله عليه و سلم في شراء شاة بدينار فاشترى شاتين و باع إحداهما بدينار فإن التصرف بغير إستئذان خاص تارة بالمعاوضة و تارة بالتبرع و تارة بالانتفاع مأخذه إما إذن عرفى عام أو خاص [١]

## أن الله حرم أكل أموالنا بيننا بالباطل

أن الله حرم فى كتابه أكل أموالنا بيننا بالباطل و ذم الأحبار و الرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل و ذم اليهود على أخذهم الربا و قد نهوا عنه و أكلهم أموال الناس بالباطل و هذا يعم كل ما يؤكل بالباطل فى المعاوضات و التبرعات و ما يؤخذ بغير رضا المستحق و الاستحقاق و أكل المال بالباطل فى المعاوضة نوعان ذكرهما الله في كتابه هما الربا و الميسر فذكر تحريم الربا الذي هو ضد الصدقة في آخر سورة البقرة و سورة آل عمران و الروم و المدثر و ذم اليهود عليه في سورة النساء و ذكر تحريم الميسر فى سورة المائدة و أما الربا فتحريمه فى القرآن أشد و لهذا قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٢٧٨} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٥-١٩

وَرَسُولِهِ{٢٧٩}البقرة ٢٧٨-٢٧٩ و ذكره النبى صلى الله عليه و سلم فى الكبائر كما خرجاه فى الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه و ذكر الله أنه حرم على الذين هادوا طيبات أحلت لهم بظلمهم و صدهم عن سبيل الله و أخذهم الربا و اكلهم أموال الناس بالباطل و أخبر سبحانه أنه يمحق الربا كما يربى الصدقات و كلاهما أمر مجرب عند الناس و ذلك أن الربا أصله إنما يتعامل به المحتاج و إلا فالموسر لا يأخذ ألفا حالة بألف و مائتين مؤجلة اذا لم يكن له حاجة لتلك الألف و إنما يأخذ المال بمثله و زيادة الى أجل من هو محتاج إليه فتقع تلك الزيادة ظلما للمحتاج بخلاف الميسر فإن المظلوم فيه غير مفتقر و لا هو محتاج الى العقد و قد تخلو بعض صوره عن الظلم إذا و جد فى المستقبل المبيع على الصفة التى ظناها و الربا فيه ظلم محقق للمحتاج و لهذا كان ضد الصدقة فإن الله لم يدع الأغنياء حتى أوجب عليهم إعطاء الفقراء فإن مصلحة الغنى و الفقير فى الدين و الدنيا لا تتم إلا بذلك فاذا أربى معه فهو بمنزلة من له على رجل دين فمنعه دينه و ظلمه زيادة أخرى و الغريم محتاج الى دينه فهذا من أشد أنواع الظلم و لعظمته لعن النبى صلى الله عليه و سلم آكله و هو الآخذ و موكله و هو المحتاج المعطى للزيادة و شاهديه و كاتبه لاعانتهم عليه ثم إن النبى صلى الله عليه و سلم حرم أشياء مما يخفى فيها الفساد لافضائها الى الفساد المحقق كما حرم قليل الخمر لأنه يدعو الى كثيرها مثل ربا الفضل فإن الحكمة فيه قد تخفى اذ العاقل لا يبيع درهما بدرهمين إلا لاختلاف الصفات مثل كون الدرهم صحيحا و الدرهمين مكسورين أو كون الدرهم مصوغا أو من نقد نافق و نحو ذلك و لذلك خفيت حكمة تحريمه على ابن عباس و معاوية و غيرهما فلم يروا به بأسا حتى أخبرهم الصحابة الأكابر كعبادة بن الصامت و أبي سعيد و غيرهما بتحريم النبى صلى الله عليه و سلم لربا الفضل [1]

## العبادة المفضية الى قتل النفس بلا مصلحة مامور بها هي من قتل النفس المنهى عنه

إذا فعل ما لم يؤمر به حتى أهلك نفسه فهذا ظالم متعد بذلك مثل ان يغتسل من الجنابة فى البرد الشديد بماء بارد يغلب على ظنه انه يقتله او يصوم فى رمضان صوما يفضي الى هلاكه فهذا لا يجوز فكيف فى غير رمضان وقد روى أبو داود

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٢٢-٢٥

فى سننه فى قصة الرجل الذي اصابته جراحة فاستفتى من كان معه هل تجدون لي رخصة فى التيمم فقالوا لا نجد لك رخصة فاغتسل فمات فقال النبى قتلوه قتلهم الله هلا سألوا اذا لم يعلموا فانما شفاء العي السؤال وكذلك روى حديث عمرو بن العاص لما اصابته الجنابة فى غزوة ذات السلاسل وكانت ليلة باردة فتيمم وصلى بأصحابه بالتيمم ولما رجعوا ذكروا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال يا عمرو اصليت بأصحابك وانت جنب فقال يا رسول الله انى سمعت الله يقول {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} النساء٢٩ فضحك ولم يقل شيئا فهذا عمرو قد ذكر ان العبادة المفضية الى قتل النفس بلا مصلحة مامور بها هي من قتل النفس المنهى عنه واقره النبى على ذلك وقتل الانسان نفسه حرام بالكتاب والسنة والاجماع كما ثبت عنه فى الصحاح انه قال من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة وفى الحديث الاخر عبدي بادأنى بنفسه فحرمت عليه الجنة واوجبت له النار وحديث القاتل الذي قتل نفسه لما اشتدت عليه الجراح وكان النبى يخبر انه من اهل النار لعلمه بسوء خاتمته وقد كان لا يصلى على من قتل نفسه ولهذا قال سمرة بن جندب عن ابنه لما اخبر انه بشم فقال لو مات لم أصل عليه [1]

## القول بموجب نصوص الوعيد واجب على وجه العموم والاطلاق

ان نصوص الوعيد من الكتاب والسنة كثيرة جدا والقول بموجبها واجب على وجه العموم والاطلاق من غير ان يعين شخص من الأشخاص فيقال هذا ملعون ومغضوب عليه أو مستحق للنار لا سيما ان كان لذلك الشخص فضائل وحسنات فان من سوى الأنبياء تجوز عليهم الصغائر والكبائر مع امكان أن يكون ذلك الشخص صديقا أو شهيدا أو صالحا لما تقدم أن موجب الذنب يتخلف عنه بتوبة أو استغفار أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو شفاعة أو لمحض مشيئته ورحمته فاذا قلنا بموجب قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً} النساء١٠ وقوله تعالى {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} النساء١٤ وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً {٢٩} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص: ٢٨٠

عَلَى اللّهِ يَسِيراً{٣٠}النساء٢٩ ـ٣٠ الى غير ذلك من آيات الوعيد أو قلنا بموجب قوله لعن الله من شرب الخمر أو عق والديه أو من غير منار الأرض أو لعن الله السارق أو لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه أو لعن الله لاوي الصدقة والمعتدى فيها أو من أحدث فى المدينة حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين أو من جر ازاره بطرا لم ينظر الله إليه يوم القيامة أو لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ومن غشنا فليس منا أو من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فالجنة عليه حرام أو من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان أو من استحل مال امرىء مسلم بيمين كاذبة فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة أو لا يدخل الجنة قاطع الى غير ذلك من احاديث الوعيد لم يجز ان نعين شخصا ممن فعل بعض هذه الأفعال ونقول هذا المعين قد اصابه هذا الوعيد لإفكان التوبة وغيرها من مسقطات العقوبة ولم يجز أن نقول هذا يستلوم لعن المسلمين ولعن أمة محمد أو لعن الصديقين أو الصالحين لأنه يقال الصديق والصالح متى صدرت منه بعض هذه الأفعال فلابد من مانع يمنع لحوق الوعيد به مع قيام سببه ففعل هذه الأمور ممن يحسب انها مباحة باجتهاد أو تقليد أو نحو ذلك غايته أن يكون نوعا من أنواع الصديقين الذين أمتنع لحوق الوعيد بهم المانع كما امتنع لحوق الوعيد به لتوبة أو حسنات ماحية أو غير ذلك واعلم ان هذه السبيل هي التى يجب سلوكها فان ما سواها طريقان خبيثان احدهما القول بلحوق الوعيد لكل فرد من الأفراد بعينه ودعوى ان هذا عمل بموجب النصوص وهذا أقبح من قول الخوارج المكفرين بالذنوب والمعتزلة وغيرهم وفساده معلوم بالاضطرار وادلته معلومة فى غير هذا الموضع الثاني ترك القول والعمل بموجب احاديث رسول الله ظنا ان القول بموجبها مستلزم للطعن فيما خالفها وهذا الترك يجر الى الضلال واللحوق بأهل الكتابين الذين اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم فان النبى قال لم يعبدوهم ولكن احلوا لهم الحرام فاتبعوهم وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم ويفضي الى طاعة المخلوق فى معصية الخالق ويفضي الى قبح العاقبة وسوء التأويل المفهوم من فحوى قوله تعالى{أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ ثم إن العلماء يختلفون كثيرا فان كان كل خبر فيه تغليظ خالفه مخالف ترك القول بما فيه من التغليظ أو ترك العمل به مطلقا لزم من هذا من المحذور ما هو اعظم من ان يوصف من الكفر والمروق من الدين وان لم يكن المحذور من هذا اعظم من الذي قبله لم يكن دونه فلابد ان نؤمن بالكتاب ونتبع ما أنزل الينا من ربنا جميعه ولا نؤمن ببعض

الكتاب ونكفر ببعض وتلين قلوبنا لا تباع بعض السنة وتنفر عن قبول بعضها بحسب العادات والاهواء فان هذا خروج عن الصراط المستقيم الى صراط المغضوب عليهم والضالين والله يوفقنا لما يحبه ويرضاه من القول والعمل فى خير وعافية لنا ولجميع المسلمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتخبين وازواجه امهات المؤمنين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا [١]

قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ وقوله {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً}النساء٣٠ وأمثال ذلك من النصوص الصريحة بدخول من فعل ذلك النار ومع هذا فلا نشهد لمعين بالنار لإمكان أنه تاب أو كانت له حسنات محت سيئاته أو كفر الله عنه بمصائب أو غير ذلك كما تقدم بل المؤمن بالله ورسوله باطنا وظاهرا الذي قصد اتباع الحق وما جاء به الرسول إذا أخطأ ولم يعرف الحق كان أولى أن يعذره الله في الآخرة من المتعمد العالم بالذنب فإن هذا عاص مستحق للعذاب بلا ريب وأما ذلك فليس متعمدا للذنب بل هو مخطىء والله قد تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان والعقوبة في الدنيا تكون لدفع ضرره عن المسلمين وإن كان في الآخرة خيرا ممن لم يعاقب كما يعاقب المسلم المتعدي للحدود ولا يعاقب أهل الذمة من اليهود والنصارى والمسلم في الآخرة خير منهم [٢]

## السيئات تحبطها التوبة و الحسنات تحبطها الردة

و أما قو ل الذين يحتجون بسابق القدر و يقولون إنه قد مضى الأمر و الشقى شقى و السعيد سعيد محتجين بقوله صلى الله عليه و سلم من قال لا إله إلا الله دخل الجنة و إن زنى و إن سرق فيقال له لاريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد وقد قال الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ و قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً {٢٩} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً{٣٠}النساء٢٩ -٣٠ و مثل هذا كثير فى الكتاب و السنة و العبد

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٢٨٧-٢٩٠

عليه أن يصدق بهذا و بهذا لا يؤمن ببعض و يكفر ببعض فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد و يكذبوا بالوعيد و الحرورية و المعتزلة أرادو ا أن يصدقوا بالوعيد دون الوعد وكلاهما أخطأ والذي عليه أهل السنة و الجماعة الإيمان بالوعد و الوعيد فكما أن ما توعد الله به العبد من العقاب قد بين سبحانه أنه بشروط بأن لا يتوب فإن تاب تاب الله عليه و بأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه فإنَّ{الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ} هود١١٤ و بأن لا يشاء الله أن يغفر له {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فهكذا الوعد له تفسير و بيان فمن قال بلسانه لاإله إلا الله و كذب الرسول فهو كافر بإتفاق المسلمين و كذلك إن جحد شيئا مما أنزل الله فلابد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره الى الله إن شاء عذبه و إن شاء غفر له فإن إرتد عن الإسلام و مات مرتدا كان فى النار فالسيئات تحبطها التوبة و الحسنات تحبطها الردة و من كان له حسنات و سيئات فإن الله لا يظلمه بل {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨}الزلزلة ٧-٨ و الله تعالى قد يتفضل عليه و يحسن إليه بمغفرته و رحمته ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد فى النار فالزاني و السارق لا يخلد فى النار بل لا بد أن يدخل الجنة فإن النار يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان و هؤلاء المسؤول عنهم يسمون القدرية المباحية المشركين و قد جاء فى ذمهم من الآثارما يضيق عنه هذا المكان و الله سبحانه و تعالى أعلم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم و حسبنا الله و نعم الوكيل [1]

## إذا الرجل قطع الطريق و سرق أو أكل الحرام و نحو ذلك هل هو رزقه الذي ضمنه الله تعالى له أم لا أفتونا مأجورين؟

الحمد لله ليس هذا هو الرزق الذي أباحه الله له و لا يجب ذلك و لا يرضاه و لا أمره أن ينفق منه كقوله تعالى {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}البقرة٣ و كقوله تعالى {أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم}البقرة٢٥٤ و نحو ذلك لم يدخل فيه الحرام بل من أنفق من الحرام فإن الله تعالى يذمه و يستحق بذلك العقاب فى الدنيا و الآخرة بحسب دينه و قد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٧١

قال الله{وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ}البقرة١٨٨ و هذا أكل المال بالباطل ولكن هذا الرزق الذي سبق به علم الله و قدره كما فى الحديث الصحيح عن إبن مسعود عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه و عمله و أجله و شقي أو سعيد فكما أن الله كتب ما يعمله من خير و شر و هو يثيبه على الخير و يعاقبه على الشر فكذلك كتب ما يرزقه من حلال و حرام مع أنه يعاقبه على الرزق الحرام و لهذا كل ما فى الوجود و اقع بمشيئة الله و قدره كما تقع سائر الأعمال لكن لاعذر لأحد بالقدر بل القدر يؤمن به و ليس لأحد أن يحتج على الله بالقدر بل لله الحجة البالغة و من إحتج بالقدر على ركوب المعاصي فحجته داحضة و من إعتذر به فعذره غير مقبول كالذين قالوا {لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا}الأنعام١٤٨ و الذين قالوا {وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم}الزخرف٢٠ كما قال تعالى {أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ {٥٦} أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ{٥٧}الزمر٥٦-٥٧ و أما الرزق الذي ضمنه الله لعباده فهو قد ضمن لمن يتقيه أن يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب و أما من ليس من التقين فضمن له ما يناسبه بأن يمنحه ما يعيش به في الدنيا ثم يعاقبه فى الآخرة كما قال عن الخليل {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}البقرة١٢٦ و الله إنما أباح الرزق لمن يستعين به على طاعته لم يبحه لمن يستعين به على معصيته بل هؤلاء و إن أكلوا ما ضمنه لهم من الرزق فإنه يعاقبهم كما قال {وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}البقرة١٢٦ و قال تعالى {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ}المائدة١ فإنما أباح الأنعام لمن يحرم عليه الصيد فى الإحرام و قال تعالى {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}المائدة٩٣ فكلما أن كل حيوان يأكل ما قدر له من الرزق فإنه يعاقب على أخذ ما لم يبح له سواء كان محرم الجنس أو كان مستعينا به على معصية الله و لهذا كانت أموال الكفار غير مغصوبة بل مباحة للمؤمنين و تسمى فيئا إذا عادت إلى المؤمنين لأن الأموال إنما يستحقها من يطيع الله لا من

يعصيه بها فالمؤمنون يأخذونها بحكم الإستحقاق و الكفار يعتدون فى إنفاقها كما أنهم يعتدون فى أعمالهم فإذا عادت الى المؤمنين فقد فاءت إليهم كما يفي المال الى مستحقه[١]

## الرد على الخوارج الذين يجعلون جميع حسنات العبد وإيمانه حابطا بذنب واحد من الكبائر

لما قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان وسار على بن ابي طالب إلى العراق وحصل بين الأمة من الفتنة والفرقة يوم الجمل ثم يوم صفين ما هو مشهور خرجت الخوارج المارقون على الطائفتين جميعا وكان النبى قد أخبر بهم وذكر حكمهم قال الإمام احمد صح الحديث فى الخوارج من عشرة أوجه وهذه العشرة أخرجها مسلم فى صحيحه موافقة لاحمد وروى البخاري منها عدة أوجه وروى أحاديثهم أهل السنن والمسانيد من وجوه آخر ومن أصح حديثهم حديث علي بن ابي طالب وابي سعيد الخدري ففي الصحيحين عن علي بن ابي طالب أنه قال إذا حدثتكم عن رسول الله حديثا فوالله لأن أخر من السماء إلى الأرض أحب إلي من أن أكذب عليه وإن حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيخرج قوم فى آخر الزمان احداث الاسنان سفهاء الاحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيمتوهم فإقتلوهم فإن في قتلهم اجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة وفي الصحيحين عن ابي سعيد قال بعث علي بن ابي طالب إلى النبى من اليمن بذهيبة فى ادم مقروض لم تحصل من ترابها فقال فقسمها بين أربعة نفر فقال رجل من اصحابه كنا أحق بهذا من هؤلاء قال فبلغ ذلك النبى فقال الا تأمنوني وانا امين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساءا قال فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الازار فقال يا رسول الله اتق الله فقال ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله قال ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد يا رسول الله الا اضرب عنقه فقال لا لعله أن يكون يصلي

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٥٤٢-٥٤٤

قال خالد وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه فقال رسول الله انـي لم أومر أن انقب عن قلوب الناس ولا اشق بطونهم قال ثم نظر إليه وهو مقف فقال انه يخرج من ضئضيء هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية قال أظنه قال لئن ادركتهم لأقتلنهم قتل عاد اللفظ لمسلم ولمسلم في بعض الطرق عن ابي سعيد أن النبى ذكر قوما يكونون فى أمته يخرجون فى فرقة من الناس سيماهم التحليق ثم قال شر الخلق أو من شر الخلق يقتلهم ادنى الطائفتين إلى الحق قال ابو سعيد أنتم قتلتموهم يا اهل العراق وفى لفظ له تقتلهم اقرب الطائفتين إلى الحق وهذا الحديث مع ما ثبت فى الصحيح عن ابي بكرة أن النبى قال للحسن بن علي ان ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين فبين أن كلا الطائفتين كانت مؤمنة وأن اصطلاح الطائفتين كما فعله الحسن كان أحب إلى الله سبحانه ورسوله من اقتتالهما وأن إقتتالهما وإن لم يكن مأمورا به فعلى بن ابي طالب وأصحابه أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه وأن قتال الخوارج مما أمر به صلى الله عليه وسلم ولذلك اتفق على قتالهم الصحابة والأئمة وهؤلاء الخوارج لهم اسماء يقال لهم الحرورية لأنهم خرجوا بمكان يقال له حروراء ويقال لهم أهل النهروان لأن عليا قاتلهم هناك ومن أصنافهم الاباضية أتباع عبدالله بن اباض و الأزارقة اتباع نافع بن الأزرق و النجدات أصحاب نجدة الحروري وهم أول من كفر أهل القبلة بالذنوب بل بما يرونه هم من الذنوب واستحلوا دماء أهل القبلة بذلك فكانوا كما نعتهم النبى يقتلون اهل الاسلام ويدعون اهل الاوثان وكفروا علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان ومن والاهما وقتلوا علي بن ابي طالب مستحلين لقتله قتله عبدالرحمن بن ملجم المرادي منهم وكان هو وغيره من الخوارج مجتهدين فى العبادة لكن كانوا جهالا فارقوا السنة والجماعة فقال هؤلاء ما الناس إلا مؤمن أو كافر والمؤمن من فعل جميع الواجبات وترك جميع المحرمات فمن لم يكن كذلك فهو كافر مخلد فى النار ثم جعلوا كل من خالف قولهم كذلك فقالوا أن عثمان وعليا ونحوهما حكموا بغير ما أنزل الله وظلموا فصاروا كفارا ومذهب هؤلاء باطل بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة فإن الله سبحانه أمر بقطع يد السارق دون قتله ولو كان كافرا مرتدا لوجب قتله لأن النبى قال من بدل دينه فإقتلوه وقال لا يحل دم إمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كفر بعد إسلام وزنا بعد احصان أو قتل نفس يقتل بها وأمر سبحانه أن يجلد الزاني والزانية مائة جلدة ولو كانا كافرين لأمر بقتلهما وأمر سبحانه بأن يجلد قاذف المحصنة ثمانين جلدة ولو كان كافرا لأمر بقتله وكان النبى صلى الله عليه وسلم يجلد شارب الخمر ولم يقتله بل قد ثبت عنه فى صحيح البخارى

وغيره أن رجلا كان يشرب الخمر وكان إسمه عبدالله حمارا وكان يضحك النبى وكان كلما أتي به اليه جلده فأتي به إليه مرة فلعنه رجل فقال النبى لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله فنهي عن لعنه بعينه وشهد له بحب الله ورسوله مع أنه قد لعن شارب الخمر عموما وهذا من أجود ما يحتج به على أن الأمر بقتل الشارب فى الثالثة و الرابعة منسوخ لأن هذا أتي به ثلاث مرات وقد أعيى الأئمة الكبار جواب هذا الحديث ولكن نسخ الوجوب لا يمنع الجواز فيجوز أن يقال يجوز قتله إذا رأى الإمام المصلحة فى ذلك فان ما بين الأربعين إلى الثمانين ليس حدا مقدرا فى أصح قولي العلماء كما هو مذهب الشافعي وأحمد فى إحدي الروايتين بل الزيادة على الأربعين إلى الثمانين ترجع إلى إجتهاد الإمام فيفعلها عند المصلحة كغيرها من أنواع التعزير وكذلك صفة الضرب فانه يجوز جلد الشارب بالجريد والنعال وأطراف الثياب بخلاف الزاني والقاذف فيجوز أن يقال قتله فى الرابعة من هذا الباب و أيضا فإن الله سبحانه قال {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{٩} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{١٠}الحجرات٩ -١٠ فقد وصفهم بالإيمان والأخوة وأمرنا بالاصلاح بينهم فلما شاع فى الأمة أمر الخوارج تكلمت الصحابة فيهم ورووا عن النبى صلى الله عليه وسلم الأحاديث فيهم وبينوا ما في القرآن من الرد عليهم وظهرت بدعتهم فى العامة فجاءت بعدهم المعتزلة الذين اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري وهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزال وأتباعهما فقالوا أهل الكبائر مخلدون فى النار كما قالت الخوارج ولا نسميهم لا مؤمنين ولا كفارا بل فساق ننزلهم منزلة بين منزلتين وأنكروا شفاعة النبى لأهل الكبائر من أمته وأن يخرج من النار بعد أن يدخلها قالوا ما الناس إلا رجلان سعيد لا يعذب أو شقى لا ينعم والشقى نوعان كافر وفاسق ولم يوافقوا الخوارج على تسميتهم كفارا وهؤلاء يرد عليهم بمثل ما ردوا به على الخواج فيقال لهم كما أنهم قسموا الناس إلى مؤمن لا ذنب له وكافر لا حسنة له قسمتم الناس إلى مؤمن لا ذنب له وإلى كافر وفاسق لا حسنة له فلو كانت حسنات هذا كلها محبطة وهو مخلد فى النار لإستحق المعاداة المحضة بالقتل والاسترقاق كما يستحقها المرتد فان هذا قد أظهر دينه بخلاف المنافق وقد قال تعالى فى كتابه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فجعل ما دون ذلك الشرك معلقا بمشيئته ولا يجوز أن يحمل هذا على التائب فإن التائب لا فرق فى حقه بين الشرك وغيره كما قال سبحانه فى الآية الأخرى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا

مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً} الزمر٥٣ فهنا عمم وأطلق لأن المراد به التائب وهناك خص وعلق وقال تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ{٣٢} جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ{٣٣} وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ{٣٤}الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ{٣٥} فاطر٣٢-٣٥ فقد قسم سبحانه الأمة التى أورثها الكتاب واصطفاها ثلاثة أصناف ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات وهؤلاء الثلاثة ينطبقون على الطبقات الثلاث المذكورة فى حديث جبريل الاسلام و الايمان و الاحسان كما سنذكره ان شاء الله ومعلوم أن الظالم لنفسه ان أريد به من اجتنب الكبائر والتائب من جميع الذنوب فذلك مقتصد أو سابق فانه ليس أحد من بنى آدم يخلو عن ذنب لكن من تاب كان مقتصدا أو سابقا كذلك من اجتنب الكبائر كفرت عنه السيئات كما قال تعالى {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} النساء٣١ فلابد أن يكون هناك ظالم لنفسه موعود بالجنة ولو بعد عذاب يطهر من الخطايا فان النبى ذكر أن ما يصيب المؤمن فى الدنيا من المصائب مما يجزى به ويكفر عنه خطاياه كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه وفى المسند وغيره أنه لما نزلت هذه الآية {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ} النساء١٢٣ قال أبو بكر يا رسول الله جاءت فاطمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللأواء فذلك مما تجزون به و أيضا فقد تواترت الأحاديث عن النبى فى أنه يخرج أقوام من النار بعد ما دخلوها وأن النبى يشفع فى أقوام دخلوا النار وهذه الأحاديث حجة على الطائفتين الوعيدية الذين يقولون من دخلها من أهل التوحيد لم يخرج منها وعلى المرجئة الواقفة الذين يقولون لا ندرى هل يدخل من أهل التوحيد النار أحد أم لا كما يقول ذلك طوائف من الشيعة والأشعرية كالقاضى أبى بكر وغيره وأما ما يذكر عن غلاة المرجئة أنهم قالوا لن يدخل النار من أهل التوحيد أحد فلا نعرف قائلا مشهورا من المنسوبين الى العلم يذكر عنه هذا القول و أيضا فان النبى قد شهد لشارب الخمر المجلود مرات بأنه يحب الله ورسوله ونهى عن لعنته ومعلوم أن من أحب الله ورسوله أحبه الله ورسوله بقدر ذلك وأيضا فان الذين قذفوا عائشة أم المؤمنين كان فيهم مسطح بن اثاثة وكان من أهل بدر وقد أنزل الله فيه لما حلف أبو بكر أن لا يصله {وَلَا يَأْتَلِ

أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} النور ٢٢ وان قيل ان مسطحا وأمثاله تابوا لكن الله لم يشرط فى الأمر بالعفو عنهم والصفح والاحسان اليهم التوبة وكذلك حاطب بن أبى بلتعة كاتب المشركين باخبار النبى فلما أراد عمر قتله قال النبى أنه قد شهد بدرا وما يدريك ان الله قد أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وكذلك ثبت عنه فى الصحيح أنه قال لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة وهذه النصوص تقتضى أن السيئات مغفورة بتلك الحسنات ولم يشترط مع ذلك توبة والا فلا اختصاص لأولئك بهذا والحديث يقتضى المغفرة بذلك العمل واذا قيل ان هذا لأن أحدا من أولئك لم يكن له الا صغائر لم يكن ذلك من خصائصه أيضا وان هذا يستلزم تجويز الكبيرة من هؤلاء المغفور لهم و أيضا قد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب أحدها التوبة وهذا متفق عليه بين المسلمين قد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب منها الحسنات الماحية كما قال تعالى {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} هود ١١٤ وقال صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا إجتنبت الكبائر وقال من صام رمضان إيمانا وإحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وقال من قام ليلة القدر إيمانا وإحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وقال من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه وقال فتنة الرجل فى أهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى فرجه بفرجه وهذه الأحاديث وأمثالها فى الصحاح وقال الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وسؤالهم على هذا الوجه أن يقولوا الحسنات انما تكفر الصغائر فقط فأما الكبائر فلا تغفر الا بالتوبة كما قد جاء فى بعض الأحاديث ما اجتنبت الكبائر فيجاب عن هذا بوجوه أحدها أن هذا الشرط جاء فى الفرائض كالصلوات الخمس والجمعة وصيام رمضان وذلك ان الله تعالى يقول {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} النساء ٣١ فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات واما الأعمال الزائدة من التطوعات فلابد أن يكون لها ثواب آخر فان الله سبحانه يقول {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨} الزلزلة ٧-٨ الثانى أنه قد جاء التصريح فى كثير من الأحاديث بان المغفرة قد تكون مع الكبائر كما فى

قوله غفر له وان كان فر من الزحف وفى السنن أتينا رسول الله فى صاحب لنا قد أوجب فقال اعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار وفى الصحيحين فى حديث أبى ذر وان زنا وان سرق الثالث أن قوله لأهل بدر ونحوهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ان حمل على الصغائر أو على المغفرة مع التوبة لم يكن فرق بينهم وبين غيرهم فكما لا يجوز حمل الحديث على الكفر لما قد علم أن الكفر لا يغفر الا بالتوبة لا يجوز حمله على مجرد الصغائر المكفرة باجتناب الكبائر الرابع أنه قد جاء فى غير حديث أن أول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة الصلاة فان أكملها والا قيل أنظروا هل له من تطوع فان كان له تطوع أكملت به الفريضة ثم يصنع بسائر أعماله كذلك ومعلوم أن ذلك النقص المكمل لا يكون لترك مستحب فان ترك المستحب لا يحتاج الى جبران ولأنه حينئذ لا فرق بين ذلك المستحب المتروك والمفعول فعلم أنه يكمل نقص الفرائض من التطوعات وهذا لا ينافى من أن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة مع أن هذا لو كان معارضا للأول لوجب تقديم الأول لأنه أثبت وأشهر وهذا غريب رفعه وانما المعروف أنه فى وصية أبى بكر لعمر وقد ذكره أحمد فى رسالته فى الصلاة وذلك لأن قبول النافلة يراد به الثواب عليها ومعلوم أنه لا يثاب على النافلة حتى تؤدى الفريضة فانه اذا فعل النافلة مع نقص الفريضة كانت جبرا لها واكمالا لها فلم يكن فيها ثواب نافلة ولهذا قال بعض السلف النافلة لا تكون الا لرسول الله لأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وغيره يحتاج الى المغفرة وتأول على هذا قوله{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ}الإسراء٧٩ وليس اذا فعل نافلة وضيع فريضة تقوم النافلة مقام الفريضة مطلقا بل قد يكون عقوبته على ترك الفريضة أعظم من ثواب النافلة فان قيل العبد اذا نام عن صلاة أو نسيها كان عليه أن يصليها اذا ذكرها بالنص والاجماع فلو كان لها بدل من التطوعات لم يجب القضاء قيل هذا خطأ فان قيل هذا يقال فى جميع مسقطات العقاب فيقال اذا كان العبد يمكنه رفع العقوبة بالتوبة لم ينه عن الفعل ومعلوم أن العبد عليه أن يفعل المأمور ويترك المحظور لأن الاخلال بذلك سبب للذم والعقاب وان جاز مع اخلاله أن يرتفع العقاب بهذه الأسباب كما عليه أن يحتمى من السموم القاتلة وان كان مع تناوله لها يمكن رفع ضررها بأسباب من الأدوية والله عليم حكيم رحيم أمرهم بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم ثم اذا وقعوا فى أسباب الهلاك لم يؤيسهم من رحمته بل جعل لهم أسبابا يتوصلون بها الى رفع الضرر عنهم ولهذا قيل ان الفقيه كل الفقيه الذى لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصى الله ولهذا يؤمر العبد بالتوبة كلما أذنب قال بعضهم لشيخه إنى أذنب قال تب قال ثم أعود قال تب قال ثم أعود قال

تب قال الى متى قال الى أن تحزن الشيطان وفى المسند عن على عن النبى أنه قال ان الله يحب العبد المفتن التواب وأيضا فان من نام عن صلاة أو نسيها فصلاته اذا استيقظ أو ذكرها كفارة لها تبرأ بها الذمة من المطالبة ويرتفع عنه الذم والعقاب ويستوجب بذلك المدح والثواب وأما ما يفعله من التطوعات فلا نعلم القدر الذى يقوم ثوابه مقام ذلك ولو علم فقد لا يمكن فعله مع سائر الواجبات ثم اذا قدر أنه أمر بما يقوم مقام ذلك صار واجبا فلا يكون تطوعا والتطوعات شرعت لمزيد التقرب الى الله كما قال تعالى فى الحديث الصحيح ما تقرب الى عبدى بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه الحديث فاذا لم يكن العبد قد أدى الفرائض كما أمر لم يحصل له مقصود النوافل ولا يظلمه الله فان الله لا يظلم مثقال ذرة بل يقيمها مقام نظيرها من الفرائض كمن عليه ديون لأناس يريد أن يتطوع لهم بأشياء فان وفاهم وتطوع لهم كان عادلا محسنا وان وفاهم ولم يتطوع كان عادلا وان أعطاهم ما يقوم مقام دينهم وجعل ذلك تطوعا كان غالطا فى جعله بل يكون من الواجب الذى يستحقونه ومن العجب أن المعتزلة يفتخرون بأنهم أهل التوحيد و العدل وهم فى توحيدهم نفوا الصفات نفيا يستلزم التعطيل والإشراك وأما العدل الذي وصف الله به نفسه فهو أن لا يظلم مثقال ذرة وأنه {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨}الزلزلة٧-٨ وهم يجعلون جميع حسنات العبد وإيمانه حابطا بذنب واحد من الكبائر وهذا من الظلم الذي نزه الله نفسه عنه فكان وصف الرب سبحانه بالعدل الذي وصف به نفسه أولى من جعل العدل هو التكذيب بقدر الله [1]

## ليس من شرط المتقين أن لا يقع منهم ذنب

قال تعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{٩} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{١٠}الشمس٩-١٠ و قال {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}التوبة١٠٣ و قال {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى}الأعلى١٤ و قال{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ}النور٢١ و ليس من شرط المتقين و نحوهم أن لا يقع منهم ذنب و لا أن يكونوا معصومين من الخطأ و الذنوب فإن هذا لو كان كذلك لم يكن في الأمة متق بل من تاب من ذنوبه دخل في المتقين و من فعل ما يكفر سيئاته دخل في

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٧٩-٤٩٣

المتقين كما قال {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً} النساء ٣١ [١]

واتفقوا على أنه ليس من شرط ولي الله أن لا يكون له ذنب أصلا بل أولياء الله تعالى هم الذين قال الله فيهم {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣}يونس ٦٢-٦٣ ولا يخرجون عن التقوى بإتيان ذنب صغير لم يصروا عليه ولا باتيان ذنب كبير أو صغير إذا تابوا منه قال تعالى {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} النساء ٣١ [٢]

## الكبائر هى ما فيها حد فى الدنيا أو فى الآخرة

الكبائر هى ما فيها حد فى الدنيا أو فى الآخرة كالزنا والسرقة والقذف التى فيها حدود فى الدنيا وكالذنوب التى فيها حدود فى الآخرة وهو الوعيد الخاص مثل الذنب الذى فيه غضب الله ولعنته أو جهنم ومنع الجنة كالسحر واليمين الغموس والفرار من الزحف وعقوق الوالدين وشهادة الزور و شرب الخمر ونحو ذلك هكذا روى عن إبن عباس وسفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل وغيرهم من العلماء قال تعالى {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً} النساء ٣١ وقال تعالى {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} الشورى٣٧ وقال تعالى {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} النجم٣٢ وقال تعالى {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} الكهف٤٩ وقال تعالى {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ} القمر٥٣ و أكبر الكبائر الاشراك بالله ثم قتل النفس ثم الزنا كما قال تعالى {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ} الفرقان٦٨ الآية [٣]

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٨٥

[٢] رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٦٧

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٥٨

## العقاب نوعان

وقد تنازع الناس فى الوجوب والتحريم هل يتحقق بدون العقاب على الترك على قولين قيل لا يتحقق فانه إذا لم يعاقب كان كالمباح وقيل يتحقق فانه لابد ان يذم وان لم يعاقب وتحقيق الأمر أن العقاب نوعان نوع بالآلام فهذا قد يسقط بكثرة الحسنات ونوع بنقص الدرجة وحرمان ما كان يستحقه فهذ يحصل إذا لم يحصل الأول والله تعالى يكفر سيئات المسيء كما قال تعالى {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً}النساء٣١ فيكفرها تارة بالمصائب فتبقى درجة صاحبها كما كانت وقد تصير درجته أعلى ويكفرها بالطاعات ومن لم يأت بتلك السيئات أعلى درجة فيحرم صاحب السيئات ما يسقط بازائها من طاعته وهذا مما يتوب منه من أراد ان لا يخسر ومن فرط فى مستحبات فانه يتوب أيضا ليحصل له موجبها فالتوبة تتناول هؤلاء كلهم توبة الانسان من حسناته على أوجه احدهما أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها و الثانى أن يتوب مما كان يظنه حسنات ولم يكن كحال أهل البدع و الثالث يتوب من اعجابه ورؤيته أنه فعلها وانها حصلت بقوته وينسى فضل الله واحسانه وانه هو المنعم بها وهذه توبة من فعل مذموم وترك مأمور ولهذا قيل تخليص الأعمال مما يفسدها اشد على العالمين من طول الاجتهاد وهذا مما يبين احتياج الناس إلى التوبة دائما ولهذا قيل هى مقام يستصحبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره ولابد منه لجميع الخلق فجميع الخلق عليهم أن يتوبوا وان يستديموا التوبة قال تعالى {وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً{٧٢} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٧٣} الاحزاب ٧٢-٧٣ فغاية كل مؤمن التوبة[١]

## أن الذنب المحقق يرتفع عقابه في الآخرة بأسباب متعددة

أن الذنب المحقق يرتفع عقابه في الآخرة بأسباب متعددة منها التوبة الماحية ومنها الحسنات الماحية للذنوب فإن الحسنات يذهبن السيئات وقد قال تعالى {إِن

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٨٧

تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}النساء٣١ ومنها المصائب المكفرة ومنها دعاء المؤمنين بعضهم لبعض وشفاعة نبيهم [1]

## وعد مجتنب الكبائر باستحقاق الوعد الكريم

أن الله قال {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً}النساء٣١ فقد وعد مجتنب الكبائر بتكفير السيئات واستحقاق الوعد الكريم وكل من وعد بغضب الله أو لعنته أو نار أو حرمان جنة أو ما يقتضى ذلك فانه خارج عن هذا الوعد فلا يكون من مجتنبى الكبائر وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر إذ لو كان كذلك لم يكن له ذنب يستحق أن يعاقب عليه والمستحق أن يقام عليه الحد له ذنب يستحق العقوبة عليه [2]

## ارجح المكاسب التوكل على الله

وأما ارجح المكاسب فالتوكل على الله والثقة بكفايته وحسن الظن به وذلك أنه ينبغى للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه كما قال سبحانه فيما ياثر عنه نبيه كلكم جائع إلا من أطعمته فإستطعمونى أطعمكم يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فإستكسونى أكسكم وفيما رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا إنقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر وقد قال الله تعالى فى كتابه {وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ}النساء٣٢ وقال سبحانه{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}الجمعة١٠ وهذا وأن كان فى الجمعة فمعناه قائم فى جميع الصلوات ولهذا والله أعلم أمر النبى الذى يدخل المسجد أن يقول اللهم إفتح لى أبواب رحمتك وإذا خرج أن يقول اللهم أنى أسالك من فضلك وقد قال الخليل {فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٨٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٥٥

الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ}العنكبوت١٧ وهذا امر والأمر يقتضى الإيجاب فالإستعانة بالله واللجأ إليه فى أمر الرزق وغيره أصل عظيم ثم ينبغى له ان يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه ولا يأخذه باشراف وهلع بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذى يحتاج إليه من غير ان يكون له فى القلب مكانة والسعى فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء وفى الحديث المرفوع الذى رواه الترمذى وغيره من أصبح والدنيا أكبر همه شتت الله عليه شمله وفرق عليه ضيعته ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح والآخرة أكبر همه جمع الله عليه شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة وقال بعض السلف أنت محتاج إلى الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فإنتظمه إنتظاما قال الله تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ{٥٦} مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ{٥٧}إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ{٥٨} الذاريات ٥٦-٥٨ فأما تعيين مكسب على مكسب من صناعة او تجارة أو بناية أو حراثة او غير ذلك فهذا يختلف بإختلاف الناس ولا أعلم فى ذلك شيئا عاما لكن إذا عن للإنسان جهة فليستخر الله تعالى فيها الإستخارة المتلقاة عن معلم الخير فإن فيها من البركة ما لا يحاط به ثم ما تيسر له فلا يتكلف غيره إلا أن يكون منه كراهة شرعية [١]

## {وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ}

الناس يتفاضلون في العبودية تفاضلا عظيما وهو تفاضلهم فى حقيقة الايمان وهم ينقسمون فيه الى عام وخاص ولهذا كانت ربوبية الرب لهم فيها عموم وخصوص ولهذا كان الشرك فى هذه الامة أخفى من دبيب النمل وفى الصحيح عن النبى صلى اله عليه وسلم انه قال تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش ان اعطى رضى وان منع سخط فسماه النبى عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد القطيفة وعبد الخميصة وذكر ما فيه دعاء وخبر وهو قوله تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش والنقش اخراج الشوكة من الرجل والمنقاش ما يخرج به الشوكة وهذه حال من اذا اصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٦٢-٦٦٣

وهذه حال من عبد المال وقد وصف ذلك بانه اذا اعطى رضى واذا منع خط كما قال تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}التوبة٥٨ فراضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله وهكذا حال من كان متعلقا برئاسة او بصورة ونحو ذلك من اهواء نفسه ان حصل له رضي وان لم يحصل له سخط فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له اذا الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته فما استرق القلب واستعبده فهو عبده ولهذا يقال العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع وقال القائل اطعت مطامعى فاستعبدتنى ولو انى قنعت لكنت حرا ويقال الطمع غل فى العنق قيد فى الرجل فاذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال الطمع فقر واليأس غنى وان احدكم اذا يئس من شيء استغنى عنه وهذا امر يجده الانسان من نفسه فان الامر الذى ييأس منه لا يطلبه ولا يطمع به ولا يبقى قلبه فقيرا اليه ولا الى من يفعله واما اذا طمع فى امر من الامور ورجاه تعلق قلبه به فصار فقيرا الى حصوله والى من يظن انه سبب فى حصوله وهذا فى المال والجاه والصور وغير ذلك قال الخليل {فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}العنكبوت١٧ فالعبد لا بد له من الرزق وهو محتاج الى ذلك اذا طلب رزقه من الله صار عبدا لله فقيرا اليه وان طلبه من مخلوق صار عبدا لذلك المخلوق فقيرا اليه ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة فى الاصل وانما ابيحت للضرورة وفى النهى عنها احاديث كثيرة فى الصحاح والسنن والمسانيد كقوله لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتى يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم وقوله من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا او خموشا او كدوحا فى وجهه وقوله لا تحل المسألة الا لذى غرم مفظع او دمع موجع او فقر مدقع هذا المعنى فى الصحيح وفيه ايضا لأن يأخذ احدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من ان يسأل الناس اعطوه او منعوه وقال ما اتاك من هذا المال وانت غير سائل ولا مشرف فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك فكره اخذه من سؤال اللسان واستشراف القلب وقال في الحديث الصحيح من يستغن يغنه الله ومن يستعفف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله ما اعطى احد عطاء خيرا واوسع من الصبر واوصى خواص اصحابه ان لا يسألوا الناس شيئا وفى المسند ان ابا بكر كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولنى اياه ويقول ان خليلي امرنى ان لا اسأل الناس شيئا وفى صحيح مسلم وغيره عن عوف بن مالك ان النبى بايعه فى طائفة واسر اليهم كلمة خفية ان لا تسألوا الناس شيئا فكان بعض اولئك النفر يسقط السوط من يد احدهم ولا يقول لاحد ناولنى اياه وقد دلت النصوص على

الامر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق فى غير موضع كقوله تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{٧} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{٨}الشرح ٧-٨ وقول النبى لابن عباس اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله ومنه قول الخليل {فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ}العنكبوت١٧ ولم يقل فابتغوا الرزق عند الله لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر كانه قال لا تبتغوا الرزق الا عند الله وقد قال تعالى {وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ}النساء٣٢ والانسان لا بد له من حصول ما يحتاج اليه من الرزق ونحوه ودفع ما يضره وكلا الامرين شرع له ان يكون دعاؤه لله فله ان يسأل الله واليه يشتكى كما قال يعقوب عليه السلام {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ}يوسف٨٦ والله تعالى ذكر فى القرآن الهجر الجميل و الصفح الجميل و الصبر الجميل وقد قيل ان الهجر الجميل هو هجر بلا اذى والصفح الجميل صفح بلا معاتبة والصبر الجميل صبر بغير شكوى الى المخلوق ولهذا قرىء على احمد بن حنبل فى مرضه ان طاوسا كان يكره انين المريض ويقول انه شكوى فما ان احمد حتى مات واما الشكوى الى الخالق فلا تنافى الصبر الجميل فان يعقوب قال {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}يوسف٨٣ وقال {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ}يوسف٨٦ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ فى الفجر بسورة يونس و يوسف و النحل فمر بهذه الآية فى قراءته فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف ومن دعاء موسى اللهم لك الحمد واليك المشتكى وانت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة الا بك وفى الدعاء الذي دعا به النبى لما فعل به اهل الطائف ما فعلوا اللهم اليك اشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس انت رب المستضعفين وانت ربي اللهم الى من تكلنى الى بعيد يتجهمنى ام الى عدو ملكته امري ان لم يكن بك غضب علي فلا ابالي غير ان عاقبتك اوسع لي اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت به الظلمات وصلح عليه امر الدنيا والآخرة ان ينزل بي سخطك او يحل على غضبك لك العتبى حتى ترضى فلا حول ولا قوة الا بك وفى بعض الروايات ولا حول ولا قوة الا بك وكلما طمع العبد فى فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه فكما ان طمعه فى المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه كما قيل استغن عمن شئت تكن نظيره وافضل على من شئت تكن اميره واحتج الى من شئت تكن اسيره فكذلك طمع العبد فى ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له واعراض قلبه عن الطلب من غير الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق بحيث يكون قلبه معتمدا اما على رئاسته وجنوده واتباعه ومماليكه واما على اهله واصدقائه واما

على امواله وذخائره واما على ساداته وكبرائه كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات او يموت قال تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً} الفرقان٥٨ وكل من علق قلبه بالمخلوقات ان ينصروه او يرزقوه او ان يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك وان كان فى الظاهر اميرا لهم مدبرا لهم متصرفا بهم فالعاقل ينظر الى الحقائق لا الى الظواهر فالرجل اذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلب اسيرا لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد وهو فى الظاهر سيدها لانه زوجها وفي الحقيقة هو اسيرها ومملوكها لا سيما اذا درت بفقره اليها وعشقه لها وانه لا يعتاض عنها بغيرها انها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذى لا يستطيع الخلاص منه بل اعظم فإن اسر القلب اعظم من اسر البدن واستعباد القلب اعظم من استعباد البدن فان من استعبد بدنه واسترق لا يبالى اذا كان قلبه متريحا من ذلك مطمئنا بل يمكنه الاحتيال فى الخلاص واما اذا كان القلب الذي هو الملك رقيقا مستعبدا متيما لغير الله هذا هو الذل والاسر المحض والعبودية لما استعبد القلب وعبودية القلب واسره هي التى يترتب عليها الثواب والعقاب ان المسلم لو اسره كافر او استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك اذا كان قائما بما يقدر علي من الواجبات ومن استعبد بحق اذا ادى حق الله وحق مواليه له اجران ولو اكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالايمان لم يضره ذلك واما من استعبد قلبه صار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك ولو كان فى الظاهر ملك الناس فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب كما ان الغنى غنى النفس قال النبى ليس الغنى عن كثرة العرض وانما الغنى غنى النفس وهذا لعمري اذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة فاما من استعبد قلبه صورةمحرمة امرأة اوصبى فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه وهؤلاء من اعظم الناس عذابا واقلهم ثوابا فإن العاشق لصورة اذا بقى قلبه متعلقا بها مستعبدا لها اجتمع له من انواع الشر والفساد ما لا يحصيه الا رب العباد ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة اشد ضررا عليه ممن يفعل ذنبا ثم يتوب منه ويزول اثره من قلبه وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين كما قيل سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى افاقة من به سكران وقيل قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق اعظم مما بالمجانين العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وانما يصرع المجنون فى الحين ومن اعظم اسباب هذا البلاء اعراض القلب عن الله فان القلب اذا ذاق طعم عبادة الله والاخلاص له لم يكن عنده شىء قط احلى من ذلك ولا ألذ ولا اطيب والانسان لا يترك محبوبا الا بمحبوب آخر

يكون أحب اليه منه او خوفا من مكروه فالحب الفاسد انما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح او بالخوف من الضرر [1]

## "إن أفضل ما أكل الرجل من كسبه "

وأما قول القائل أن الأنبياء و الأولياء لم يطلبوا رزقا فليس الأمر كذلك بل عامة الأنبياء كانوا يفعلون أسبابا يحصل بها الرزق كما قال نبينا صلى الله عليه و سلم في الحديث الذي رواه أحمد فى المسند عن إبن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله و حده لاشريك له و جعل رزقى تحت ظل رمحي و جعل الذل و الصغار على من خالف أمري و من تشبه بقوم فهو منهم و قد ثبت فى الصحيح قوله صلى الله عليه و سلم إن أفضل ما أكل الرجل من كسبه و كان داود يأكل من كسبه و كان يصنع الدروع و كان زكريا نجارا و كان الخليل له ماشية كثيرة حتى أنه كان يقدم للضيف الذين لايعرفهم عجلا سمينا و هذا إنما يكون مع اليسار و خيار الأولياء المتوكلين المهاجرون و الأنصار و أبو بكر الصديق رضي الله عنه أفضل الأولياء المتوكلين بعد الأنبياء و كان عامتهم يرزقهم الله بأسباب يفعلونها كان الصديق تاجرا و كان يأخذ ما يحصل له من المغنم و لما و لى الخلافة جعل له من بيت المال كل يوم درهمان و قد أخرج ماله كله و قال له النبى صلى الله عليه و سلم ما تركت لأهلك قال تركت لهم الله و رسوله و مع هذا فما كان يأخذ من أحد شيئا لا صدقة و لا فتوحا و لا نذرا بل إنما كان يعيش من كسبه بخلاف من يدعى التوكل و يخرج ماله كله ظانا أنه يقتدي بالصديق و هو يأخذ من الناس إما بمسألة و إما بغير مسألة فإن هذه ليست حال أبى بكر الصديق بل فى المسند أن الصديق كان إذا و قع من يده سوط ينزل فيأخذه و لا يقول لأحد ناولني إياه ويقول إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئا فأين هذا ممن جعل الكدية و سؤال الناس طريقا الى الله حتى أنهم يأمرون المريد بالمسألة للخلق وقد تواترت الأحاديث عن النبى صلى الله عليه و سلم بتحريم مسألة الناس إلا عند الضروة و قال لاتحل المسألة إلا لذي غرم مقطع أو دم موجع أو فقر مدقع و قال تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{٧} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{٨} الشرح

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٨٠-١٨٧ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٧٩-٣٨٢

٨-٧ فأمره أن تكون رغبته الى الله و حده ومن هؤلاء من يجعل دعاء الله و مسألته نقصا و هو مع ذلك يسأل الناس و يكديهم و سؤال العبد لربه حاجته من أفضل العبادات و هو طريق أنبياء الله و قد أمر العباد بسؤاله فقال {وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ} النساء٣٢ و مدح الذين يدعون ربهم رغبة و رهبة من الدعاء ما هو فرض على كل مسلم كالدعاء المذكور فى فاتحة الكتاب و من هؤلاء من يحتج بما يروى عن الخليل أنه لما ألقي فى النار قال له جبرئيل هل لك من حاجة فقال أما اليك فلا قال سل قال حسبى من سؤالي علمه بحالي و أول هذا الحديث معروف و هو قوله أما إليك فلا قال سل قال حسبى من سؤالى علمه بحالى و أول هذا الحديث معروف و هو قوله أما إليك فلا و قد ثبت فى صحيح البخاري عن إبن عباس رضي الله عنه عنهما في قوله حسبنا الله و نعم الوكيل أنه قالها إبراهيم حين ألقى فى النار و قالها محمد صلى الله عليه و سلم حين قال له الناس{إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ}آل عمران١٧٣ و أما قوله حسبى من سؤالي علمه بحالي فكلام باطل خلاف ما ذكره الله عن إبراهيم الخليل و غيره من الأنبياء من دعائهم لله و مسألتهم إياه و هو خلاف ما أمر الله به عباده من سؤالهم له صلاح الدنيا و الآخرة كقولهم {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}البقرة٢٠١ و دعاء الله و سؤاله و التوكل عليه عبادة لله مشروعة بأسباب كما يقدره بها فكيف يكون مجرد العلم مسقطا لما خلقه و أمر به و الله أعلم و صلى الله على محمد و سلم [١]

## هل التوارث بالمحالفة عند عدم القرابة والولاء محكم أو منسوخ ؟؟؟

وأما المؤاخاة فان النبى صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين والأنصار لما قدم المدينة كما آخى بين سلمان الفارسى وبين أبى الدرداء وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة حتى أنزل الله تعالى {وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ}الأحزاب٦ فصاروا يتوارثون بالقرابة دون هذه المؤاخاة والمحالفة وفى ذلك أنزل الله تعالى {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ}النساء٣٣ وهذا هو المحالفة واختلف العلماء

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٥٣٧-٥٣٩

فى مثل هذه المحالفة والمؤاخاة هل التوارث بمثل ذلك عند عدم القرابة والولاء محكم أو منسوخ على قولين احدهما ان ذلك منسوخ وهو مذهب مالك والشافعى وأحمد فى اشهر الروايتين عنه ولما ثبت فى صحيح مسلم عنه أنه قال لا حلف فى الاسلام وما كان من حلف فى الجاهلية فلم يزده الاسلام الا شدة و الثانى ان ذلك محكم وهو مذهب أبى حنيفة وأحمد فى الرواية الاخرى عنه [1]

أن من الناس من يظن أن المؤاخاة وقعت بين المهاجرين بعضهم مع بعض لأنه روى فيها أحاديث لكن الصواب المقطوع به أن هذا لم يكن و كل ما روي في ذلك فإنه باطل إما إن يكون من رواية من يتعمد الكذب وإما إن يكون اخطأ فيه و لهذا لم يخرج أهل الصحيح شيئا من ذلك و الذي في الصحيح إنما هو المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار آخى و معلوم انه لو بين المهاجرين بعضهم مع بعض و بين الأنصار بعضهم مع بعض لكان هذا مما تتوفر الهمم و الدواعي على نقله و لكان يذكر في أحاديث المؤاخاة و يذكر كثيرا فكيف و ليس في هذا حديث صحيح و لا خرج أهل الصحيح من ذلك شيئا و هذه الأمور يعرفها من كان له خبرة بالأحاديث الصحيحة و السيرة المتواترة و أحوال النبي صلى الله عليه و سلم و سبب المؤاخاة و فائدتها و مقصودها وأنهم كانوا يتوارثون بذلك فآخى النبي صلى الله عليه و سلم بين المهاجرين و الأنصار كما آخى بين سعد بن الربيع و عبد الرحمن بن عوف و بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء ليقعد الصلة بين المهاجرين و الأنصار حتى انزل الله تعالى {وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} الأحزاب٦ و هي المحالفة التي انزل الله فيها {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ} النساء٣٣ و قد تنازع الفقهاء هل هي محكمة يورث بها عند عدم النسب أو لا يورث بها على قولين هما روايتان عن احمد الأول مذهب أبي حنيفة و الثاني مذهب مالك و الشافعي [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٩٩ و مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٩٥

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٣٦٣

## لا تنكح البكر حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر

وأما إجبار الأب لابنته البكر البالغه على النكاح ففيه قولان مشهوران هما روايتان عن أحمد احدهما انه يجبر البكر البالغ كما هو مذهب مالك والشافعي وهو اختيار الخرقي والقاضي وأصحابه و الثاني لا يجبرها كمذهب أبي حنيفه وغيره وهو اختيار أبي بكر عبد العزيز ابن جعفر وهذا القول هو الصواب والناس متنازعون في مناط الاءجبار هل هو البكارة أو الصغر أو مجموعها أو كل منهما على أربعة اقوال في مذهب أحمد وغيره والصحيح ان مناط الاجبار هو الصغر وان البكر البالغ لايجبرها أحد على النكاح فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تنكح البكر حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر فقيل له ان البكر تستحى فقال أذن صماتها وفي لفظ في الصحيح البكر يستأذنها أبوها فهذا نهي النبي لا تنكح حتى تستأذن وهذا يتناول الأب وغيره وقد صرح بذلك في الرواية الأخرى الصحيحة وأن الأب نفسه يستأذنها وأيضا فإن الأب ليس له أن يتصرف في مالها إذا كانت رشيدة الآ بإذنها وبضعها أعظم من مالها فكيف يجوز ان يتصرف في بضعها مع كراهتها ورشدها وأيضا فإن الصغر سبب الحجر بالنص والاجماع وأما جعل البكارة موجبة للحجر فهذا مخالف لأصول الإسلام فإن الشارع لم يجعل البكارة سببا للحجر في موضع من المواضع المجمع عليها فتعليل الحجر بذلك تعليل بوصف لا تأثير له في الشرع وايضا فإن الذين قالوا بالاجبار اضطربوا فيما إذا عينت كفوا وعين الأب كفوا آخر هل يؤخذ بتعيينها أو بتعيين الأب على وجهين في مذهب الشافعي وأحمد فمن جعل العبرة بتعيينها نقض أصله ومن جعل العبرة بتعيين الأب كان في قوله من الفساد والضرر والشر ما لايخفى فإنه قد قال النبي في الحديث الصحيح الأيم أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن واذنها صماتها وفي رواية الثيب احق بنفسها من وليها فلما جعل الثيب احق بنفسها دل على ان البكر ليست احق بنفسها بل الولي احق وليس ذلك إلا للأب والجد هذه عمدة المجبرين وهم تركوا العمل بنص الحديث وظاهره وتمسكوا بدليل خطابه ولم يعلموا مراد الرسول وذلك ان قوله الأيم احق بنفسها من وليها يعم كل ولي وهم يخصونه بالأب والجد والثاني قوله والبكر تستأذن وهم لا يوجبون استئذانها بل قالوا هو مستحب حتى طرد بعضهم قياسه وقالوا الما كان مستحبا أكتفى فيه بالسكوت وادعى انه حيث يجب استئذان البكر فلا بد من النطق وهذا قاله بعض أصحاب الشافعي واحمد وهذا مخالف لا جماع المسلمين قبلهم

ولنصوص رسول الله فإنه قد ثبت بالسنة الصحيحة المستفيضة واتفاق الأئمة قبل هؤلاء انه إذا زوج البكر اخوها أو عمها فإنه يستأذنها وإذنها صماتها وأما المفهوم فالنبي فرق بين البكر والثيب كما قال في الحديث الآخر لا تنكح البكر حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر فذكر في هذه لفظ الاذن وفي هذه لفظ الأمر وجعل إذن هذه الصمات كما أن إذن تلك النطق فهذان هما الفرقان اللذان فرق بهما النبي بين البكر والثيب لم يفرق بينهما في الاجبار وعدم الاجبار وذلك لأن البكر لما كانت تستحي ان تتكلم في أمر نكاحها لم تخطب إلى نفسها بل تخطب إلى وليها ووليها يستأذنها فتأذن له لا تأمره ابتداء بل تأذن له إذا أستأذنها واذنها صماتها وأما الثيب فقد زال عنها حياء البكر فتتكلم بالنكاح فتخطب إلى نفسها وتأمر الولي ان يزوجها فهي آمرة له وعليه ان يعطيها فيزوجها من الكفؤ إذا أمرته بذلك فالولي مأمور من جهة الثيب ومستأذن للبكر فهذا هو الذي دل عليه كلام النبي صلى الله عليه وسلم و اما تزويجها مع كراهتها للنكاح فهذا مخالف للأصول والعقول والله لم يسوغ لو ليها ان يكرهها على بيع أو إجارة إلا باذنها ولا على طعام أو شراب أو لباس لا تريده فكيف يكرهها على مباضعة ومعاشرة من تكره مباضعته ومعاشرة من تكره معاشرته والله قد جعل بن الزوجين مودة ورحمة فإذا كان لا يحصل إلا مع بغضها له ونفورها عنه فأي مودة ورحمة في ذلك ثم إنه إذا وقع الشقاق بين الزوجين فقد أمر الله ببعث حكم من أهله وحكم من أهلها و والحكمان كما سماها الله عز وجل هما حكمان عند أهل المدينة وهو أحد القولين للشافعي وأحمد وعند أبي حنيفة والقول الآخر هما وكيلان والأول اصح لأن الوكيل ليس بحكم ولا يحتاج فيه إلى أمر الأئمة ولا يشترط ان يكون من الأهل ولا يختص بحال الشقاق ولا يحتاج في ذلك إلى نص خاص ولكن إذا وقع الشقاق فلا بد من محمد ولي لهما ويتولى امرهما لتعذر أختصاص أحدهما بالحكم على الآخر فأمر الله ان يجعل امرهما إلى اثنين من اهلهما فيفعلان ما هو الأصلح من جمع بينهما وتفريق بعوض أو بغيره وهنا يملك الحكم الواحد مع الآخر الطلاق بدون إذن الرجل ويملك الحكم الآخر مع الأول بذل العوض من مالها بدون إذنها لكونهما صارا وليين لهما وطرد هذا القول ان الأب يطلق على ابنه الصغير والمجنون إذا رأى المصلحة كما هو أحدى الروايتين عن أحمد وكذلك يخالع عن ابنته إذا رأى المصلحة لها وأبلغ من ذلك انه إذا طلقهاقبل الدخول فللأب أن يعفو عن نصف الصداق إذا قيل هو الذي بيده عقده النكاح كما هو قول مالك وأحمد في أحدى لا الروايتين عنه والقرآن يدل على صحة هذا القول وليس الصداق كسائر مالها فإنه وجب في الأصل نحلة وبضعها عاد إليها من غير نقص وكان إلحاق الطلاق بالفسوخ فوجب ان لا يتنصف لكن الشارع جبرها بتنصيف

الصداق لما حصل لها من الانكسار به ولهذا جعل ذلك عوضا عن المتعة عند ابن عمر والشافعي وأحمد في إحدى الروايات عنه فأوجبوا المتعة لكل مطلقة إلا لمن طلقت بعد الفرض وقبل الدخول والمسيس فحسبها ما فرض لها وأحمد في الروية الأخرى مع أبي حنيفة وغيره لا يوجبون المتعة إلا لمن طلقت قبل الفرض والدخول ويجعلون المتعة عوضا عن نصف الصداق ويقولون كل مطلقة فإنها تأخذ صداقا الا هذه وأولئك يقولون الصداق استقر قبل الطلاق بالعقد والدخول والمتعة سببها الطلاق فتجب لكل مطلقة لكن المطلقة بعد الفرض وقبل المسيس متعت بنصف الصداق فلا تستحق الزيادة وهذا القول أقوى من ذلك القول فإن الله جعل الطلاق سبب المتعة فلا يجعل عوضا عما سببه العقد والدخول لكن يقال على هذا فالقول الثالث اصح وهو الرواية الأخرى عن أحمد ان كل مطلقة لها متعة كما دل عليه ظاهر القرآن وعمومه حيث قال {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ}البقرة٢٤١ وايضا فإنه قد قال {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً}الأحزاب٤٩ فأمر بتمتيع المطلقات قبل المسيس ولم يخص ذلك بمن لم يفرض لها مع ان غالب النساء يطلقهن بعد الفرض و أيضا فإذا كان سبب المتعة هو الطلاق فسبب المهر هو العقد فالمفوضة التي لم يسم لها مهرا يجب لها مهر المثل بالعقد ويستقر بالموت على القول الصحيح الذي دل عليه حديث بروع بنت واشق التي تزوجت ومات عنها زوجها قبل ان يفرض لها مهر وقضى لها النبي بإن لها مهر امرأة من نسائها لا وكس ولا شطط لكن هذه لو طلقت قبل المسيس لم يجب لها نصف المهر بنص القرآن لكونها لم تشترط مهرا مسمى والكسر الذي حصل لها بالطلاق انجبر بالمتعة وليس هذا موضع بسط هذه المسائل ولكن المقصود أن الشارع لا يكره المرأة على النكاح إذا لم ترده بل إذا كرهت الزوج وحصل بينهما شقاق فإنه يجعل أمرها إلى غير الزوج لمن ينظر في المصلحة من أهلها مع من ينظر في المصلحة من أهله فيخلصها من الزوج بدون أمره فكيف تؤسر معه أبدا بدون أمرها والمرأة أسيرة مع الزوج كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله وسئل رحمه الله تعالى عن بنت بالغ وقد خطبت لقرابة لها فأبت وقال أهلها للعاقد اعقد وابوها حاضر فهل يجوز تزويجها فأجاب أما إن كان الزوج ليس كفؤا لها فلا تجبر على نكاحه بلا ريب وأما إن كان كفؤا

فللعلماء فيه قولان مشهوران لكن الأظهر في الكتاب والسنة والاعتبار انها لا تجبر كما قال النبي لاتنكح البكر حتى يستأذنها أبوها وإذنها صماتها والله أعلم [1]

## أن ما بقى بعد الفرائض لا يرثه إلا العصبة

وإنما أعطينا سائر العصبة بقوله {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ} الأنفال٧٥

وبقوله {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ} النساء٣٣ وبقول النبى الحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر ولما كان قد بين تعالى أن الأخ يحوز المال مال الأخت فيكون لها عصبة كان الأب أن يكون له عصبة بطريق الأولى وإذا كان الأب والأخ عصبة فالابن بطريق الأولى وقد قال تعالى {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ} النساء٣٣ ودل أيضا قول النبى ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر أن ما بقى بعد الفرائض لا يرثه إلا العصبة وقد علم أن الابن أقرب ثم الأب ثم الجد ثم الأخوة وقضى النبى صلى الله عليه وسلم أن أولاد بنى الأم يتوارثون دون بنى العلاقات فالأخ للأبوين أولى من الأخ للأب وإبن الابن يقوم مقام الابن وكذلك كل بنى أب أدناهم أقرب من بنى الأب الذى هو أعلى منه وأقربهم إلى الأب الأعلى فهو أقرب إلى الميت وإذا استوى فى الدرجة فمن كان لأبوين أولى ممن كان للأب [2]

## من ترك أداء الواجب مع القدرة عليه فهو عاص

أن من وجب عليه حق وهو قادر على أدائه وامتنع من أدائه فإنه يعاقب بالضرب والحبس مرة بعد مرة حتى يؤدى سواء كان الحق دينا عليه أو وديعة عنده أو مال غصب أو عارية أو مالا للمسلمين أو كان الحق عملا كتمكين المرأة زوجها من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ٢٢-٢٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ٣٤٦

الإستمتاع بها وعمل الأجير ما وجب عليه من المنفعة وهذا ثابت بالكتاب والسنة والإجماع قال الله تعالى{وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ}النساء٣٤ فأباح الله سبحانه للرجل أن يضرب المرأة إذا امتنعت من الحق الواجب عليها من المباشرة وفراش زوجها وقال النبى مطل الغنى ظلم أخرجاه فى الصحيحين وقال لي الواجد يحل عرضه وعقوبته رواه أهل السنن واللي هو المطل والواجد هو القادر فأخبر صلى الله عليه وسلم أن مطل الغنى ظلم وإن ذلك يحل عرضه وعقوبته فثبت أن عقوبة المماطل مباحة وروى البخاري فى صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم صالح أهل خيبر على الصفراء والبيضاء والسلاح وسأل عم حيي بن أخطب عن كنزه فقال يا محمد أذهبته النفقات فقال للزبير دونك هذا فأخذه الزبير فمسه بشيء من العذاب فقال رأيته يأتي إلى هذه الخربة وكان فى جلد ثور لما علم النبى أن هذا الرجل الذى يعلم مكان المال الذى يستحقه النبي وقد أخفاه أمر الزبير بعقوبته حتى دلهم على المال ومن كتم ماله أولى بالعقوبة وقد ذكر هذه المسألة الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ولا أعلم فيه خلافا وقد ذكروا بأن الممتنع من أداء الواجب من الدين وغيره إذا أصر على الإمتناع فإنه يعاقب ويضرب مرة بعد مرة حتى يؤديه ولا يقتصر على ضربه مرة بل يفرق عليه الضرب فى أيام متعددة حتى يؤدى وقد أجمع العلماء على أن التعزير مشروع فى كل معصية لا حد فيها ولا كفارة والمعاصي نوعان ترك واجب وفعل محرم فمن ترك أداء الواجب مع القدرة عليه فهو عاص مستحق للعقوبة والتعزير والله سبحانه أعلم [1]

## الزوج سيد فى كتاب الله

أن العلماء متنازعون هل يجب تمليك النفقة على قولين والأظهر أنه لا يجب ولا يجب أن يفرض لها شيئا بل يطعمها ويكسوها بالمعروف وهذا القول هو الذي دلت عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال في النساء {لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}البقرة٢٣٣ كما في المملوك وقال حقها أن تطعمها إذ طعمت وتكسوها إذا اكتسيت كما قال في المماليك إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس وهذه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٣٨

عادة المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه لا يعلم قط أن رجلا فرض لزوجته نفقة بل يطعمها ويكسوها وإذا كان كذلك كان له ولاية الانفاق عليها كما له ولاية الإنفاق على رقيقه وبهائمه وقد قال الله تعالى {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء}النساء٣٤ وقال زيد بن ثابت الزوج سيد في كتاب الله وقرأ قوله {وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ}يوسف٢٥ وقال عمر بن الخطاب النكاح رق فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته ويدل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم وإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فقد أخبر أن المرأة عانية عند الرجل والعاني الأسير وأن الرجل أخذها بأمانة الله فهو مؤتمن عليها ولهذا أباح الله للرجل بنص القرآن أن يضربها وإنما يؤدب غيره من له عليه ولاية فإذا كان الزوج مؤتمنا عليها وله عليها ولاية كان القول قوله فيما اؤتمن عليه وولي عليه كما يقبل قول الولي في الإنفاق على اليتيم وكما يقبل قول الوكيل والشريك والمضارب والمساقي والمزارع فيما أنفقه على مال الشركة وإن كان في ذلك معنى المعاوضة وعقد النكاح من جنس المشاركة والمعاوضة والرجل مؤتمن فيه فقبول قوله في ذلك أولى من قبول قول أحد الشريكين وكذلك لو أخذت المرأة نفقتها من ماله بالمعروف وادعت أنه لم يعطها نفقة قبل قولها مع يمينها في هذه الصورة لأن الشارع سلطها على ذلك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لهند خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف لما قالت إن أبا سفيان رجل شحيح وإنه لا يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي فقال خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف وكذلك لو كان الزوج مسافرا عنها مدة وهي مقيمة في بيت أبيها وادعت أنه لم يترك لها نفقة ولا أرسل إليها بنفقة فالقول قولها مع يمينها وأمثال ذلك فلا بد من التفصيل في الماضي مطلقا في هذا الباب وهذه المعاني من تدبرها تبين له سر هذه المسألة فإن قبول قول النساء في عدم النفقة في الماضي فيه من الضرر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد وهو يؤول إلى أن المرأة تقيم مع الزوج خمسين سنة ثم تدعي نفقة خمسين سنة وكسوتها وتدعي أن زوجها مع يساره وفقرها لم يطعمها في هذه المدة شيئا وهذا مما يتبين الناس كذبها فيه قطعا وشريعة الاسلام منزهة عن أن يحكم فيها بالكذب والبهتان والظلم والعدوان [1]

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ١٩٩ و مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ٨٠

# " لا أرى أصل القنوت إلا الطاعة "

وقال تعالى {فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ}النساء٣٤ قال ابن قتيبة لا أرى أصل القنوت إلا الطاعة لأن جميع الخلال من الصلاة والقيام فيها والدعاء وغير ذلك يكون عنها وقال أبو الفرج قال الزجاج القنوت هو في اللغة بمعنيين أحدهما القيام والثاني الطاعة والمشهور في اللغة والإستعمال أن القنوت الدعاء في القيام فالقانت القائم بأمر الله ويجوز أن يقع في جميع الطاعات لأنه وإن لم يكن قياما على الرجلين فهو قيام بالنية قلت هذا ضعيف لا يعرف في اللغة أن مجرد القيام يسمى قنوتا والرجل يقوم ماشيا وقائما في أمور ولا يسمى قانتا وهو في الصلاة يسمى قانتا لكونه مطيعا عابدا ولو قنت قاعدا ونائما سمي قانتا وقوله تعالى {وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}البقرة٢٣٨ يدل على أنه ليس هو القيام وإنما هو صفة في القيام يكون بها القائم قانتا وهذه الصفة تكون في السجود أيضا كما قال أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما والقنوت في اللغة دوام الطاعة والمصلى إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت في ذلك كله فقول القائل إن المشهور في اللغة أنه الدعاء في القيام إنما اخذه من كون هذا المعنى شاع في اصطلاح الفقهاء إذا تكلموا في القنوت والصلاة وهذا عرف خاص ومع هذا فالفقهاء يذكرون القنوت سواء صلى قائما أو قاعدا أو مضطجعا لكن لما كان الفرض ليس يصح أن يصليه إلا قائما وصلاة القاعد على النصف من صلاة القائم صار القنوت في القيام أكثر وأشهر وإلا فلفظ القنوت في القرآن واللغة ليس مشهورا في هذا المعنى بل ولا أريد به هذا المعنى ولا هو أيضا مشتركا بل اللفظ بمعنى الطاعة أو الطاعة الدائمة ولهذا يفسره المفسرون بذلك وقد روى في ذلك حديث مرفوع رواه ابن أبي حاتم من النسخة المصرية التي يروى منها الترمذي وغيره من حديث ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة وفي تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس {فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ}النساء٣٤ مطيعات قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك وعطاء وقتادة السدي مثل ذلك وروى عن مقاتل بن حيان قال مطيعات لله ولأزواجهن في المعروف وروى عن سعيد بن جبير في قوله {وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ}الأحزاب٣٥ قال يعني المطيعين والمطيعات [1]

---

[1] رسالة في قنوت الأشياء ج: ١ ص: ٥

## الهجرة الشرعية

فالهجرة الشرعية هى من الاعمال التى أمر الله بها ورسوله فالطاعة لابد أن تكون خالصه لله أن تكون موافقة لامره فتكون خالصة لله صوابا فمن هجر لهوى نفسه أو هجر هجرا غير مأمور به كان خارجا عن هذا وما اكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ظانة أنها تفعله طاعة لله والهجر لأجل حظ الانسان لا يجوز اكثر من ثلاث كما جاء فى الصحيحين عن النبى انه قال لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام فلم يرخص فى هذا الهجر اكثر من ثلاث كما لم يرخص فى احداد غير الزوجة اكثر من ثلاث وفى الصحيحين عنه أنه قال تفتح أبواب الجنة كل أثنين وخميس فيغفر لكل عبد لايشرك بالله شيئا الا رجلا كان بينه وبين أخيه شحناء فيقال أنظروا هذين حتى يصطلحا فهذا الهجر لحق الانسان حرام وانما رخص فى بعضه كما رخص للزوج ان يهجر امرأته فى المضجع اذا نشزت وكما رخص فى هجر الثلاث فينبغى ان يفرق بين الهجر لحق الله وبين الهجر لحق نفسه فالأول مأمور به و الثانى منهى عنه لأن المؤمن أخوة وقد قال النبى فى الحديث الصحيح لاتقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله أخوانا المسلم أخو المسلم [1]

## النشوز

قال تعالى {وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ}النساء٣٤ و قوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا}المجادلة١١ إلى قوله تعالى {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}المجادلة١١ النشوز فى قوله تعالى {تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ}النساء٣٤ هو أن تنشز عن زوجها فتنفر عنه بحيث لا تطيعه إذا دعاها للفراش أو تخرج من منزله بغير اذنه و نحو ذلك مما فيه امتناع عما يجب عليها من طاعته و أما النشوز فى قوله {وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا}المجادلة١١ فهو النهوض و القيام و الارتفاع و أصل هذه المادة هو الارتفاع و الغلظ و منه النشز من الأرض و هو المكان المرتفع الغليظ و منه قوله تعالى {وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا}البقرة٢٥٩ أي نرفع بعضها

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٠٧-٢٠٨

الى بعض و من قرأ ننشرها أراد نحييها فسمى المرأة العاصية ناشزا لما فيها من الغلظ و الارتفاع عن طاعة زوجها و سمى النهوض نشوزا لأن القاعد يرتفع عن الأرض و الله أعلم [1]

## الله سبحانه لم يرض بحكم واحد بين الزوجين

والله سبحانه لم يرض بحكم واحد بين الزوجين إذا خيف الشقاق بينهما فإنه لا يعلم أيهما الظالم وليس بينهما بينة بل أمر بحكمين وإن لا يكونا متهمين بل حكما من أهل الرجل وحكما من أهل المرأة كما قال تعالى {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً}النساء٣٥ أى الحكمين {يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا}النساء٣٥ أى بين الزوجين فإن رأيا المصلحة أن يجمعا بين الزوجين جمعا وإن رأيا المصلحة أن يفرقا بينهما فرقا إما بعوض تبذله المرأة فتكون الفرقة خلعا إن كانت هى الظالمة وإن كان الزوج هو الظالم فرق بينهما بغير إختياره وأكثر العلماء على أن هذين حكمان كما سماهما الله حكمين يحكمان بغير توكيل الزوجين وهذا قول مالك والشافعى والإمام أحمد فى أحد قوليهما وقيل هما وكيلان كقول أبى حنيفة والقول الآخر فى المذهبين فهنا لما إشتبه الحق لم يجعل الله الحكم لواحد وهو فى قضية معينة بين زوجين ولو حكم حاكم واحد بين الزوجين فى أمر ظاهر لم ينفذ حكمه بإتفاق المسلمين فكيف بأمور الدين والعبادات التى يشترك فيها جميع المسلمين وقد إشتبهت على كثير من الناس هذا بإجماع المسلمين لا يحكم فيه إلا الله ورسوله [2]

## أصل السعادة ورأسها

و التوحيد هو أصل الدين الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين دينا غيره وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه {اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ} هود٥٠ وفى المسند عن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢١١

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٨٦-٣٨٧

بن عمر عن النبى أنه قال      بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم [١]

*العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه  من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله  وذلك أن العبادة     هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها  كما قال تعالى  {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه{اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}الأعراف٥٩    وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ}النحل٣٦

و كما قال تعالى    {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}النساء٣٦  وهذا هو الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل وهو الذي لا يقبل من أحد دينا غيره لا من المتقدمين ولا من المتأخرين [٢]

ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن احب شيئا ولم يذل له لم

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٥٤ و الصفدية ج: ٢ ص: ٢٤٢

[٢] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٦٢

يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا [1]

وإذا كان كذلك فأصل المحبة التي أمر الله بها هي عبادته وحده لا شريك له المحبة المحمودة التي أمر الله بها وخلق خلقه لأجلها هي ما في عبادته وحده لا شريك له إذ العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل والمحبة لما كانت جنسا لأنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر منها في حق الله ما يختص به ويليق به مثل العبادة والإنابة ونحوهما فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده وكذلك الإنابة وقد تذكر المحبة المطلقة لكن تقع فيها الشركة كما قال تعالي {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ}البقرة١٦٥ ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة في المحبة كما أن حب الله أعظم الأنواع المحمودة بل عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها وعبادة إله آخر من دونه هو أصل الشقاء ورأسه الذي لا يبقي في العذاب إلا أهله فأهل التوحيد الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يبقي منهم في العذاب أحد والذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه وعبدوا غيره هم أهل الشرك الذين قال الله تعالي فيهم {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}النساء٤٨ وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها والنهي عن هذه المحبات ولوازمها وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص أهل النوعين وأصل دعوة جميع المرسلين ، قولهم {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}الأعراف٥٩ وعلي ذلك قاتل من قاتل منهم المشركين كما قال خاتم الرسل أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٣١

وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله قال الله تعالي {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}الشورى١٣ ولهذا قال في الحديث المتفق عليه في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وفي رواية في الصحيح لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقي في النار [١]

وأما ما في القرآن من ذكر عبادته وحده ودعائه وحده والإستعانة به وحده والخوف منه وحده فكثير كقوله {وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ}الأحزاب٣٩ وقوله {فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}النحل٥١ و {وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ}البقرة٤١ [٢]

## محبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}النحل٣٦ وقد قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا [٣]

---

[١] قاعدة في المحبة ج: ١ ص:١١- ١٢

[٢] منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ٤٤٧

[٣] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٢٧

إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه فهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل وانزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة أهل الإيمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه وهذا حقيقة قول لا إله إلا الله قال تعالى {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً}النساء٣٦

فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله وحده فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته وهذا كمال المحبة لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله{وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً}النساء٣٦ والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبودا والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبودا [1]

## الذي ذاق طعم الايمان

قال تعالى {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً}النساء٣٦ ففى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا وفى الصحيحين عن النبى انه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لايحبه الا الله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده بل هى اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين وكما ان التصديق به اصل كل قول من أقوال الايمان والدين فان كل حركة فى الوجود انما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك فى قاعدة المحبة من القواعد الكبار فجميع الاعمال الايمانية الدينية لاتصدر الا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لايكون عملا صالحا بل جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه كما ثبت فى الصحيح عن النبى انه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى فانا منه برئ وهو كله للذى أشرك وثبت فى الصحيح فى حديث الثلاثة الذين هم اول

---

[1] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٦٠ -٦٣

من تسعر بهم النار القارئ المرائى والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى بل اخلاص الدين لله هو الدين الذى لايقبل الله سواه وهو الذى بعث به الأولين والأخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة اهل الايمان وهذا هو خلاصة الدعوةالنبوية وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابليس انه قال {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٨٢} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٨٣}ص٨٢ -٨٣ وقال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}الحجر٤٢ وقال {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {٩٩} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{١٠٠}النحل٩٩-١٠٠ فبين ان سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال فى قصة يوسف {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}يوسف٢٤ واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}ص٨٥ وقد قال سبحانه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ وهذه الآية فى حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لايغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء واما قوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ فتلك فى حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الآولين والآخرين انما امروا بذلك فى غير موضع كالسورة التى قرأها النبى على ابى لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{٤} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء {٥} البينة٤-٥ الآية وهذا حقيقة قول لا اله إلاالله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٢٥ وقال {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}الزخرف٤٥ وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}النحل٣٦ وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام {اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}الأعراف٥٩ وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول {اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ} لاسيما افضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا ابراهيم ومحمدا عليهما السلام فان هذا الاصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فابراهيم هوالامام الذى قال الله فيه {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً}البقرة١٢٤ وفى ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك

الله عليهم قال سبحانه {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{٢٦} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{٢٧} وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٢٨} الزخرف٢٦-٢٨ فهذه الكلمة هى كلمة الاخلاص لله وهى البراءة من كل معبود الامن الخالق الذى فطرنا كما قال صاحب يس {وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} يس ٢٢-٢٥[١]

## اذا وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى

التقوى كما فسرها الاولون والاخرون فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وقد قال تعالى فى اكبر سورة فى القرآن {الم{١} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{٢} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{٣}البقرة١-٣ الى اخرها فوصف المتقين بفعل المأمور به من الإيمان والعمل الصالح من اقام الصلاة وايتاء الزكاة وقال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}البقرة٢١ وقال {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}البقرة١٧٧ وهذه الاية عظيمة جليله القدر من أعظم آى القرآن واجمعه لامر الدين وقد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن خصال الايمان فنزلت وفى الترمذى عن فاطمة بنت قيس عنه أنه قال ان فى المال حقا سوى الزكاة وقرأ هذه الآية وقد دلت على امور أحدها انه اخبر ان الفاعلين لهذه الامور هم المتقون وعامة هذه الامور فعل مأمور به الثانى انه أخبر ان هذه الأمور هى البر واهلها هم الصادقون يعنى فى قوله آمنا وعامتها امور وجودية هى افعال

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥١

مأمور بها فعلم أن المامور به أدخل فى البر والتقوى والايمان من عدم المنهى عنه وبهذه الاسماء الثلاثة استحقت الجنة كما قال تعالى {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{١٣} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{١٤} الانفطار١٣-١٤ وقال {أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}ص٢٨ {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ}القمر٥٤ وقال {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ}السجدة١٨ وهذه الخصال المذكورة فى الآية قد دلت على وجوبها لأنه اخبر ان اهلها هم الذين صدقوا فى قولهم وهُمُ الْمُتَّقُونَ والصدق واجب والايمان واجب ايجاب حقوق سوى الزكاة وقوله {فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً}المزمل٢٠ وقوله لبنى اسرائيل{لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً}المائدة١٢ وقوله {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ}آل عمران٩٢ وقوله {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}النساء٣٦ وقوله {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ}الإسراء٢٦ فى سبحان والروم {فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ}الروم٣٨ فاتيان ذى القربى حقه صله الرحم والمسكين اطعام الجائع وابن السبيل قرى الضيف وفى الرقاب فكاك العانى واليتيم نوع من اطعام الفقير وفى البخارى عن النبى عودوا المريض واطعموا الجائع وفكوا العانى وفى الحديث الذى أفتى به أحمد لو صدق السائل ما أفلح من رده [1]

## لم يرد بعبادة الله إلا العبادة التى أمرت بها الرسل

فإن الحى لابد له من ارادة فلا يمكن حيا أن لا تكون له إرادة فإن الإرادة التى يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر إستحباب لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاص إن كانت واجبة وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركا لما هو خير له والله تعالى وصف الأنبياء والصديقين بهذه الإرادة فقال تعالى {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٣٢-١٣٤

يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}الأنعام٥٢ وقال تعالى{وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً}النساء٣٦ [1]

و قد قال تعالى {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي{٦١}يس٦٠ -٦١ الآية و قوله {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً}النساء٣٦ {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ}الزمر١٧ {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}الزمر٣ و قال {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ}يونس١٨ فهذا و نحوه كثير فى القرآن لم يرد بعبادة الله إلا العبادة التى أمرت بها الرسل و هي عبادته و حده لا شريك له و المشركون لايعبدون الله بل يعبدون الشيطان و ما يدعونه من دون الله سواء عبدوا الملائكة أوالأنبياء و الصالحين أو التماثيل و الأصنام المصنوعة فهؤلاء المشركون قد عبدوا غير الله تعالى كما أخبر الله بذلك فالعبادة والإستعانة فلله وحده لا شريك له [2]

## الأمر بعبادة الله والإحسان الى الخلق

فان الله تعالى أنعم على عباده بمحمد صلى الله عليه وسلم فهو أعظم نعمة عليهم ومن قبلها تمت عليه النعمة وأكمل له الدين وجعله من خير أمة أخرجت للناس فبعثه بالهدى ودين الحق وأنزل عليه الكتاب والحكمة وجعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من الكتب وأمر فيه بعبادة الله وبالأحسان الى خلق الله فقال تعالى {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}النساء٣٦ [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٩٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٥٨ و مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٦٩

[3] مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص: ٦

فإن الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة فالصلاة حق الحق فى الدنيا والآخرة والزكاة حق الخلق فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا فالذى شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد فى المعاش والمعاد وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد فى المعاش والمعاد فإن الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان الى عباده كما قال تعالى {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى}النساء٣٦ وهذا أمر بمعالى الأخلاق وهو سبحانه يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها وقد روى عنه أنه قال إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق رواه الحاكم فى صحيحه وقد ثبت عنه فى الصحيح صلى الله عليه وسلم أنه قال اليد العليا خير من اليد السفلى وقال اليد العليا هى المعطية واليد السفلى السائلة وهذا ثابت عنه فى الصحيح فأين الإحسان الى عباد الله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة لهم وأين التوحيد للخالق بالرغبة اليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الإشراك به بالرغبة الى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله وأين صلاح العبد فى عبودية الله والذل له والافتقار اليه من فساده فى عبودية المخلوق والذل له والافتقار اليه فالرسول صلى الله عليه وسلم أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التى تصلح أمور أصحابها فى الدنيا والآخرة ونهى عن الأنواع الثلاثة التى تفسد أمور أصحابها [1]

## القرآن أخبر بالعلم بالله والعمل له

وأما المقاصد فالقرآن أخبر بالعلم بالله والعمل له فجمع بين قوتى الإنسان العلمية والعملية الحسية والحركية الإرادية الإدراكية والإعتمادية القولية والعملية حيث قال {وَاعْبُدُواْ اللّهَ}النساء٣٦ فالعبادة لابد فيها من معرفته والإنابة اليه والتذلل له والإفتقار اليه وهذا هو المقصود واذا حصل الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة وانابة كان وبالا على صاحبه وشقاء له كما جاء فى الحديث أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه كإبليس اللعين فإنه معترف بربه مقر بوجوده لكن لما لم يعبده كان رأس الأشقياء وكل من شقى فباتباعه له كما قال {قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ}الأعراف١٨ فلا بد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص:١٩٤- ١٩٥

أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه مع أنه معترف بالرب مقر بوجوده وانما أبى واستكبر عن الطاعة والعبادة والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذى هو انابته الى الله وخشيته له حتى يكون عابدا له فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته بل هو رأس الدعوة ومقصودها وأصلها والطريقة النبوية القرآنية السنية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}البقرة٢١ وقال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده فإن الإله هو المعبود ولم يقل حتى يشهدوا أن لارب إلا الله فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له التى لها خلق الخلق وبها أمروا وكذلك قوله لمعاذ إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال نوح عليه السلام {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ}نوح٣ وكذلك الرسل فى سورة الأعراف وغيرها [1]

## قرن حق الأبوين بحقه

فإن الله خلق العبد وخلق أبويه وخلقه من أبويه فالسبب الذي بينه وبين الله هو الخلقي التام بخلاف سبب الأبوين فإن أصل مادته منهما وله مادة من غيرهما ثم إنهما لم يصوراه في الأرحام والعبد ليس له مادة إلا من أبويه والله هو خالقه وبارؤه ومصوره ورازقه وناصره وهاديه وإنما حق الأبوين فيه بعض المناسبة لذلك فلذلك قرن حق الأبوين بحقه في قوله {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}لقمان١٤ وفي قوله {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً}النساء٣٦ وفي قوله{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً}الإسراء٢٣ وجعل النبي التبريء من الأبوين كفرا لمناسبته للتبريء من الرب وفي الحديث الصحيح من أدعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر أخرجاه في الصحيحين وقوله كفر بالله من تبرء من نسب وإن دق وقوله لا ترغبوا عن آبائكم فان كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم فحق النسب والقرابة والرحم تقدمه حق الربوبية وحق القريب المجيب الرحمن فإن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٢-١٤

غاية تلك أن تتصل بهذا كما قال الله أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته وقال الرحم شجنة من الرحمن وقال لما خلق الله الرحم تعلقت بحقو الرحمن فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة [1]

## أعظم الله أمر اليتامى

اليتيم فى الآدميين من فقد أباه لأن أباه هو الذى يهذبه ويرزقه وينصره بموجب الطبع المخلوق ولهذا كان تابعا فى الدين لوالده وكان نفقته عليه وحضانته عليه والانفاق هو الرزق و الحضانة هى النصر لأنها الايواء ودفع الأذى فإذا عدم أبوه طمعت النفوس فيه لأن الانسان ظلوم جهول والمظلوم عاجز ضعيف فتقوى جهة الفساد من جهة قوة المقتضى ومن جهة ضعف المانع ويتولد عنه فسادان ضرر اليتيم الذى لا دافع عنه ولا يحسن اليه وفجور الآدمى الذى لا وازع له فلهذا أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه فى آيات كثيرة مثل قوله {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}النساء٣٦ وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ}البقرة٨٣ وقوله {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ}البقرة١٧٧ الى قوله {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ}البقرة١٧٧ وقوله {قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ}البقرة٢١٥ [2]

## المسكين

ففى الحديث الصحيح أنه قال ليس المسكين هذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنا يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافا فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ١٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ١١٠

وكان ذلك مشهورا عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال فبين النبى صلى الله عليه وسلم أن الذى يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته باعطاء الناس له والسؤال له بمنزلة الحرفة وهو وإن كان مسكينا يستحق من الزكاة اذا لم يعط من غيرها كفايته فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكينا وانما المسكين المحتاج الذى لا يسأل ولا يعرف فيعطى فهذا هو الذى يجب أن يقدم فى العطاء فانه مسكين قطعا وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله [1]

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ومن هذا الباب لفظ العبادة فاذا أمر بعبادة الله مطلقا دخل فى عبادته كل ما أمر الله به فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك فى مثل قوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ وفى قوله {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً}النساء٣٦ وقوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ}البقرة٢١ وقوله {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ}الزمر٢ {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي}الزمر١٤ وقوله {أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ}الزمر٦٤ ثم قد يقرن بها اسم آخر كما فى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة٥ وقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}هود١٢٣ وقول نوح {اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ}نوح٣ وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين واذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير واذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر فالأول كقوله {وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ}البقرة٢٧١ وقوله {فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ}المائدة٨٩ والثانى كقوله {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ}التوبة٦٠ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٩٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦-١٦٧

أن الله يبغض المختال الفخور البخيل

يكون سبب التكذيب عدم معرفة الحق و الاقرار به و سبب عدم هذا العلم والقول عدم أسبابه من النظر التام و الاستماع التام لآيات الحق و أعلامه وسبب عدم النظر و الاستماع إما عدم المقتضى فيكون عدما محضا و إما وجود مانع من الكبر أو الحسد فى النفس {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}الحديد٢٣ و هو تصور باطل و سببه عدم غنى النفس بالحق فتعتاض عنه بالخيال الباطل [1]

قوله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً {٣٦} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ {٣٧}النساء٣٦ -٣٧ {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{٢٣} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ {٢٤}الحديد٢٣-٢٤ فى النساء و فى الحديد أنه لايحب كل مختال فخور الذين يبخلون و يأمرون الناس بالبخل قد تؤولت فى البخل بالمال و المنع و البخل بالعلم و نحوه و هي تعم البخل بكل ما ينفع فى الدين و الدنيا من علم و مال و غير ذلك كما تأولوا قوله {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}البقرة٣ النفقة من المال و النفقة من العلم و قال معاذ فى العلم تعلمه لمن لا يعلمه صدقه و قال أبو الدرداء ماتصدق رجل بصدقه أفضل من موعظة يعظ بها جماعة فيتفرقون و قد نفعهم الله بها أو كما قال و فى الأثر نعمة العطية و نعمت الهدية الكلمة من الخبر يسمعها الرجل ثم يهديها إلى أخ له أو كما قال وهذه صدقة الأنبياء و ورثتهم العلماء و لهذا كان الله و ملائكته و حيتان البحر و طير الهواء يصلون على معلم الناس الخير كما أن كاتم العلم يلعنه الله و يلعنه اللاعنون و بسط هذا كثير فى فضل بيان العلم و ذم ضده والغرض هنا أن الله يبغض المختال الفخور البخيل به فالبخيل به الذي منعه و المختال إما أن يختال فلا يطلبه و لا يقبله و اما ان يختال على بعض الناس فلا يبذله و هذا كثيرا ما يقع عند بعض الناس أنه يبخل بما عنده من العلم و يختال به و أنه يختال عن أن يتعدى من غيره و ضد ذلك التواضع فى طلبه و بذله و التكرم بذلك و قد كتبنا في غير موضع الكلام على جمع الله تعالى بين الخيلاء و الفخر و بين البخل كما فى قوله {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً {٣٦} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ {٣٧}النساء٣٦ -٣٧ {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{٢٣} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٦

{٢٤}الحديد٢٣-٢٤ في النساء و الحديد و ضد ذلك الاعطاء و التقوى المتضمنة للتواضع كما قال {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى}الليل٥ و قال {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}النحل١٢٨ و هذان الأصلان هما جماع الدين العام كما يقال التعظيم لأمر الله و الرحمة لعباد الله فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع و التواضع و ذلك اصل التقوى و الرحمة لعباد الله بالاحسان إليهم و هذان هما حقيقة الصلاة و الزكاة فان الصلاة متضمنة للخشوع لله و العبودية له و التواضع له و الذل له و ذلك كله مضاد للخيلاء و الفخر و الكبر و الزكاة متضمنه لنفع الخلق و الاحسان إليهم و ذلك مضاد للبخل ولهذا و غيره كثر القران بين الصلاة و الزكاة في كتاب الله وقد ذكرنا فيما تقدم أن الصلاة بالمعنى العام تتضمن كل ما كان ذكرا لله أو دعاء له كما قال عبد الله بن مسعود ما دمت تذكر الله فأنت فى صلاة و لو كنت فى السوق و هذا المعنى و هو دعاء الله أي قصده و التوجه إليه المتضمن ذكره على وجه الخشوع والخضوع هو حقيقة الصلاة الموجودة في جميع موارد اسم الصلاة كصلاة القائم و القاعد و المضطجع و القارىء و الأمي و الناطق و الأخرس و ان تنوعت حركاتها و ألفاظها فإن اطلاق لفظ الصلاة على مواردها هو بالتواطئ المنافى للاشتراك و المجاز و هذا مبسوط في غير هذا الموضع إذ من الناس من ادعى فيها الاشتراك و منهم من ادعى المجاز بناء على كونها منقولة من المعنى اللغوي أو مزيدة أو على غير ذلك و ليس الأمر كذلك بل اسم الجنس العام المتواطئ المطلق إذا دل على نوع أو عين كقولك هذا الانسان و هذا الحيوان أو قولك هات الحيوان الذي عندك و هى غنم فهنا اللفظ قد دل على شيئين على المعنى المشترك الموجود في جميع الموارد و على ما يختص به هذا النوع أو العين فاللفظ المشترك الموجود فى جميع التصاريف على القدر المشترك و ما قرن باللفظ من لام التعريف مثلا أو غيرها دل على الخصوص و التعيين كما أن المعنى الكلى المطلق لا و جود له فى الخارج فكذلك لا يوجد في الاستعمال لفظ مطلق مجرد عن جميع الأمور المعينة فان الكلام انما يفيد بعد العقد و التركيب و ذلك تقييد و تخصيص كقولك اكرم الانسان أو الانسان خير من الفرس و مثله قوله {أَقِمِ الصَّلاَةَ} هود١١٤ و نحو ذلك و من هنا غلط كثير من الناس فى المعانى الكلية حيث ظنوا و جودها في الخارج مجردة عن القيود و في اللفظ المتواطىء حيث ظنوا تجرده فى الاستعمال عن القيود و التحقيق أنه لايوجد المعنى الكلي المطلق فى الخارج إلا معينا مقيدا و لا يوجد اللفظ الدال عليه فى الاستعمال إلا مقيدا مخصصا و إذا قدر المعنى مجردا كان محله الذهن و حينئذ يقدر له لفظ مجرد غير موجود فى الاستعمال مجردا و المقصود هنا أن اسم الصلاة فيه عموم و اطلاق و لكن لا يستعمل الا مقرونا بقيد إنما يختص ببعض

موارده كصلواتنا و صلاة الملائكة و الصلاة من الله سبحانه و تعالى و انما يغلط الناس في مثل هذا حيث يظنون أن صلاة هذا الصنف مثل صلاة هذا مع علمهم بان هذا ليس مثل هذا فإذا لم يكن مثله لم يجب أن تكون صلاته مثل صلاته و ان كان بينهما قدر متشابه كما قد حققنا هذا فى الرد على الاتحادية و الجهمية و المتفلسفة و نحوهم ومن هذا الباب اسماء الله و صفاته التى يسمى و يوصف العباد بما يشبهها كالحى و العليم و القدير و نحو ذلك     وكذلك اسم الزكاة هو بالمعنى العام كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال كل معروف صدقة و لهذا ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال     على كل مسلم صدقة     و أما الزكاة المالية المفروضة فانما تجب على بعض المسلمين فى بعض الأوقات و الزكاة المقارنة للصلاة تشاركها في أن كل مسلم عليه صدقة كما قال النبى صلى الله عليه و سلم قالوا فان لم يجد قال     يعمل بيده فينفع نفسه و يتصدق     قالوا فان لم يستطع قال     يعين صانعا او يصنع لأخرق     قالوا فان لم يستطع قال     يكف نفسه على الشر     واما قوله في الحديث الصحيح حديث ابي ذر و غيره     على كل سلامى من احدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة و كل تكبيرة صدقة و كل تهليلة صدقة و امر بالمعروف صدقة و نهى عن المنكر صدقة     فهذا إن شاء الله كتضمن هذه الأعمال نفع الخلائق فانه بمثل هذا العامل يحصل الرزق و النصر و الهدى فيكون ذلك من الصدقة على الخلق     ثم إن هذه الأعمال هي من جنس الصلاة و جنس الصلاة الذي ينتفع به الغير يتضمن المعنيين الصلاة و الصدقة ألا ترى أن الصلاة على الميت صلاة و صدقة و كذلك كل دعاء للغير و استغفار مع أن الدعاء للغير دعاء للنفس أيضا كما قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح     ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا و كل الله به ملكا كلما دعا له بدعوة قال الملك الموكل به آمين و لك بمثل

و     قول الناس الآدمى جبار ضعيف او فلان جبار ضعيف فان ضعفه يعود الى ضعف قواه من قوة العلم والقدرة واما تجبره فانه يعود الى اعتقاداته واراداته اما اعتقاده فان يتوهم فى نفسه انه أمر عظيم فوق ما هو ولا يكون ذلك وهذا هو الاختيال والخيلاء والمخيلة وهو ان يتخيل عن نفسه ما لا حقيقة له ومما يوجب ذلك مدحه بالباطل نظما ونثرا وطلبه للمدح الباطل فانه يورث هذا الاختيال     واما الارادة فارادة ان يتعظم ويعظم وهو ارادة العلو فى الأرض والفخر على الناس وهو ان يريد من العلو ما لا يصلح له ان يريده وهو الرئاسة والسلطان حتى يبلغ به الأمر الى مزاحمة الربوبية كفرعون ومزاحمة النبوة وهذا موجود فى جنس العلماء والعباد والامراء وغيرهم     وكل واحد من الاعتقاد والارادة يستلزم جنس الآخر فان من

تخيل انه عظيم اراد ما يليق بذلك الاختيال ومن اراد العلو فى الأرض فلابد ان يتخيل عظمة نفسه وتصغير غيره حتى يطلب ذلك ففى الارادة يتخيله مقصودا وفى الاعتقاد يتخيله موجودا ويطلب توابعه من الارادات وقد قال الله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}النساء٣٦ وقال النبى الكبر بطر الحق وغمط الناس فالفخر يشبه غمط الناس فان كلاهما تكبر على الناس واما بطر الحق وهو جحده ودفعه فيشبه الاختيال الباطل فانه تخيل ان الحق باطل بجحده ودفعه ثم هنا وجهان أحدهما ان يجعل الاختيال وبطر الحق من باب الاعتقادات وهو ان يجعل الحق باطلا والباطل حقا فيما يتعلق بتعظيم النفس وعلو قدرها فيجحد الحق الذى يخالف هواها وعلوها ويتخيل الباطل الذى يوافق هواها وعلوها ويجعل الفخر وغمط الناس من باب الارادات فان الفاخر يريد ان يرفع نفسه ويضع غيره وكذلك غامط الناس يؤيد هذا ما رواه مسلم فى صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال انه اوحى الى أن تواضعوا حتى لا يفخر احد على احد ولا يبغى أحد على أحد فبين ان التواضع المأمور به ضد البغى والفخر وقال فى الخيلاء التى يبغضها الله الاختيال فى الفخر والبغى فكان فى ذلك ما دل على أن الاستطالة على الناس ان كانت بغير حق فهى بغى اذ البغى مجاوزة الحد وان كانت بحق فهى الفخر لكن يقال على هذا البغى يتعلق بالارادة فلا يجوز ان يجعل هو من باب الاعتقاد وقسيمه من باب الارادة بل البغى كانه فى الأعمال والفخر فى الأقوال او يقال البغى بطر الحق والفخر غمط الناس الوجه الثانى ان يكونا جميعا متعلقين بالاعتقاد والارادة لكن الخيلاء غمط الحق يعود الى الحق فى نفسه الذى هو حق الله وان لم يكن يتعلق به حق آدمى والفخر وغمط الناس يعود الى حق الآدميين فيكون التنويع لتمييز حق الادميين مما هو حق لله لا يتعلق الادميين بخلاف الشهوة فى حال الزنا واكل مال الغير فلما قال سبحانه {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً{٣٦} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ {٣٧}النساء٣٦-٣٧ والبخل منع النافع قيد هذا بهذا وقد كتبت فيما قبل هذا من التعاليق الكلام فى التواضع والاحسان والكلام فى التكبر والبخل [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢١٢-٢٢١

## البخل جنس تحته أنواع كبائر وغير كبائر

جاء الكتاب والسنة بذم البخل والجبن ومدح الشجاعة والسماحة فى سبيله دون ما ليس فى سبيله فقال النبى شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع وقال من سيدكم يا بنى سلمة فقالوا الجد بن قيس على أنه نزنه بالبخل فقال وأى داء أدوا من البخل وفى رواية ان السيد لا يكون بخيلا بل سيدكم الابيض الجعد البراء بن معرور وكذلك فى الصحيح قول جابر بن عبد الله لابى بكر الصديق رضى الله عنهما اما ان تعطينى واما أن تبخل عنى فقال تقول واما أن تبخل عنى وأى داء أدوأ من البخل فجعل البخل من أعظم الأمراض وفى صحيح مسلم عن سلمان بن ربيعة قال قال عمر قسم النبى صلى الله عليه وسلم قسما فقلت يا رسول الله والله لغير هؤلاء أحق به منهم فقال انهم خيرونى بين ان يسألونى بالفحش وبين أن يبخلونى ولست بباخل يقول انهم يسألونى مسألة لا تصلح فان أعطيتهم والا قالوا هو بخيل فقد خيرونى بين أمرين مكرهين لا يتركونى من أحدهما الفاحشة والتبخيل والتبخيل أشد فادفع الاشد باعطائهم والبخل جنس تحته أنواع كبائر وغير كبائر قال تعالى {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}آل عمران١٨٠ وقال {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً}النساء٣٦ الى قوله {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً {٣٦} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ {٣٧}النساء٣٦ ـ٣٧ [1]

## تكره الشهرة من الثياب

فإن النبى قال إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمه عليه وقال إن الله جميل يحب الجمال ومن ترك لبس الرفيع من الثياب تواضعا لله لا بخلا ولا إلتزاما للترك مطلقا فإن الله يثيبه على ذلك ويكسوه من حلل الكرامة وتكره الشهرة من الثياب وهو المترفع الخارج عن العادة والمتخفض الخارج عن العادة فإن السلف كانوا يكرهون الشهرتين المترفع والمتخفض وفى الحديث من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة وخيار الأمور أوساطها والفعل الواحد فى الظاهر يثاب الإنسان على فعله مع النية الصالحة ويعاقب على فعله مع النية الفاسدة فمن حج ماشيا لقوته على المشي وآثر بالنفقة كان مأجورا أجرين أجر المشى وأجر

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٥٦ و الاستقامة ج: ٢ ص: ٢٦٧

الإيثار ومن حج ماشيا بخلا بالمال إضرارا بنفسه كان آثما إثمين إثم البخل وإثم الإضرار ومن حج راكبا لضعفه عن المشى وللإستعانة بذلك على راحته ليتقوى بذلك على العبادة كان مأجورا أجرين ومن حج راكبا يظلم الجمال والحمال كان آثما إثمين وكذلك اللباس فمن ترك جميل الثياب بخلا بالمال لم يكن له أجر ومن تركه متعبدا بتحريم المباحات كان آثما ومن لبس جميل الثياب إظهارا لنعمة الله وإستعانة على طاعة الله كان مأجورا ومن لبسه فخرا وخيلاء كان آثما فإن الله لا يحب كل مختال فخور ولهذا حرم إطالة الثوب بهذه النية كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من جر إزاره خيلاء لم ينظر الله يوم القيامة إليه فقال أبوبكر يا رسول الله إن طرف إزارى يسترخى إلا أن أتعاهد ذلك منه فقال يا أبا بكر إنك لست ممن يفعله خيلاء وفى الصحيحين عن النبى أنه قال بينما رجل يجر إزاره خيلاء إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة فهذه المسائل ونحوها تتنوع بتنوع علمهم وإعتقادهم والعبد مأمور أن يقول فى كل صلاة {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة٦-٧ والله سبحانه وتعالى أعلم [١]

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن لباس الحرير وتختم الذهب والشرب فى آنية الذهب والفضة واطالة الثياب الى غير ذلك من أنواع السرف والخيلاء فى النعم وذم الذين يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف وجعل فيهم الخسف والمسخ وقد قال الله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}النساء٣٦ وقال عن قارون {إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}القصص٧٦ [٢]

و يكره إسبال القميص و نحوه إسبال الرداء و إسبال السراويل و الإزار و نحوهما إذا كان على وجه الخيلاء و أطلق جماعة من أصحابنا لفظ الكراهة و صرح غير واحد منهم بان ذلك حرام و هذا هو المذهب بلا تردد قال أبو عبد الله لم احدث عن فلان كان سراويله شراك نعله و قال ما اسفل من الكعبين في النار و السراويل بمنزلة الإزار لا يجر شيئا من ثيابه فأما إن كان على غير وجه الخيلاء

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ١٣٨-١٣٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٦١ و الاستقامة ج: ٢ ص: ٢٨٠

بل كان على علة أو حاجة أو لم يقصد الخيلاء و التزين بطول الثوب و لا غير ذلك فعنه أنه لا بأس به و هو اختيار القاضي و غيره و قال في رواية حنبل جر الإزار و إرسال الرداء في الصلاة إذا لم يرد الخيلاء لا بأس به و قال ما اسفل من الكعبين في النار و السراويل بمنزلة الرداء لا يجر شيئا من ثيابه      و من أصحابنا من قال لا يحرم إذا لم يقصد به الخيلاء لكن يكره و ربما يستدل بمفهوم كلام احمد في رواية ابن الحكم في جر القميص و الإزار و الرداء سواء إذا جره لموضع الحسن ليتزين به فهو الخيلاء وأما إن كان من قبح في الساقين كما صنع ابن مسعود أو علة أو شيء لم يتعمده الرجل فليس عليه من جر ثوبه خيلاء فنفى عنه الجر خيلاء فقط     و الأصل في ذلك قوله تعالى     {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}النساء٣٦ و قوله تعالى     {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}لقمان١٨ و قال سبحانه و  {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ}الأنفال٤٧      فذم الله سبحانه و تعالى الخيلاء و المرح و البطر و إسبال الثوب تزينا موجب لهذه الأمور و صادر عنها و عن ابن عمر رضي الله عنهما إن النبي صلى الله عليه و سلم قال من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة فقال أبو بكر إن أحد شقي إزاري يسترخي ألا إن أتعاهد ذلك منه فقال انك لست ممن يفعل ذلك خيلاء متفق عليه و عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة رواه البخاري و عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال الإسبال في الإزار و القميص و العمامة من جر شيئا خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة رواه أبو داود و النسائي و ابن ماجة و عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطرا متفق عليه و في رواية لأحمد و البخاري ما اسفل من الكعبين من الإزار في النار و عن أبي هريرة قال بينما رجل يصلي مسبلا إزاره فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم اذهب فتوضأ فذهب فتوضا ثم جاء ثم قال اذهب فتوضا فقال له الرجل يا رسول الله مالك أمرته إن يتوضأ ثم سكت عنه قال أنه كان يصلي و هو مسبل إزاره و إن الله لا يقبل صلاة رجل مسبلا رواه أبو داود [1]

---

[1] شرح العمدة ج: ٤ ص: ٣٦٢-٣٦٣

من تدبر القرآن و جد بعضه يفسر بعضا

قوله تعالى {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} الهمزة١ هو الطعان العياب كما قال{هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ}القلم١١ و قال {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ}التوبة٥٨ و قال {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}التوبة٧٩ و الهمز أشد لأن الهمز الدفع بشدة و منه الهمزة من الحروف و هي نقرة في الحلق و منه {وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ}المؤمنون٩٧ و منه قول النبى صلى الله عليه و سلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه و نفخه و نفثه و قال همزه الموتة و هى الصرع فالهمز مثل الطعن لفظا و معنى و اللمز كالذم و العيب و إنما ذم من يكثر الهمز و اللمز فإن الهمزة و اللمزة هو الذي يفعل ذلك كثيرا و الهمزة و اللمزة الذي يفعل ذلك به كما فى نظائره مثل الضحكة و الضحكة و اللعبة و اللعبة وقوله {الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ}الهمزة٢ و صفه بالطعن فى الناس و العيب لهم و بجمع المال و تعديده و هذا نظير قوله {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً{٣٦} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ {٣٧}النساء ٣٦-٣٧ {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{٢٣} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ {٢٤} الحديد ٢٣-٢٤ في النساء و الحديد فإن الهمزة اللمزة يشبه المختال الفخور و الجماع المحصي نظير البخيل و كذلك نظيرهما قوله {هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ{١١} مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{١٢} عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ{١٣}القلم١١-١٣ و صفه بالكبر و البخل و كذلك قوله {وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى}الليل٨ فهذه خمس مواضع و ذلك ناشيء عن حب الشرف و المال فإن محبة الشرف تحمل إنتقاص غيره بالهمز و اللمز و الفخر و الخيلاء و محبة المال تحمل على البخل و ضد ذلك من أعطى فلم يبخل وإتقى فلم يهمز و لم يلمز و أيضا فإن المعطى نفع الناس و المتقى لم يضرهم فنفع و لم يضر و أما المختال الفخور البخيل فإنه ببخله منعهم الخير و بفخره سامهم الضر فضرهم و لم ينفعهم و كذلك الهمزة الذي جمع مالا و نظيره قارون الذي جمع مالا و كان من قوم موسى فبغى عليهم و من تدبر القرآن و جد بعضه يفسر بعضا[1]

ذكر الله سبحانه في البقرة و النساء الأقسام الأربعة فى العطاء

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٢١

لما ذكر سبحانه ما يبطل الصدقة من المن والأذى و من الرياء و مثله بالتراب على الصفوان إذا أصابه المطر و لهذا قال {وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}البقرة٢٦٤ لأن الإيمان باحدهما لا ينفع هنا بخلاف قوله فى النساء {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}النساء٣٦ إلى قوله {وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ}النساء٣٨ فإنه فى معرض الذم فذكر غايته و ذكر ما يقابله و هم {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ}البقرة٢٦٥ فالأول الاخلاص و التثبيت هو التثبت كقوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً}النساء٦٦ كقوله {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً}المزمل٨ و يشبه والله أعلم أن يكون هذا من باب قدم و تقدم كقوله {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}الحجرات١ فتبتل و تثبت لازم بمعنى ثبت لأن التثبت هو القوة و المكنة و ضده الزلزلة والرجفة فإن الصدقة من جنس القتال فالجبان يرجف و الشجاع يثبت و لهذا قال النبى صلى الله عليه و سلم و اما الخيلاء التى يحبها الله فاختيال الرجل بنفسه عند الحرب و اختياله بنفسه عند الصدقة لأنه مقام ثبات و قوة فالخيلاء تناسبه و انما الذي لايحبه الله المختال الفخور البخيل الآمر بالبخل فاما المختال مع العطاء أو القتال فيحبه وقوله {مِّنْ أَنفُسِهِمْ}البقرة٢٦٥ أي ليس المقوى له من خارج كالذي يثبت و قت الحرب لامساك اصحابه له و هذا كقوله {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}الشورى٣٧ بل تثبته و مغفرته من جهة نفسه وقد ذكر الله سبحانه في البقرة و النساء الأقسام الأربعة فى العطاء إما أن لا يعطي فهو البخيل المذموم فى النساء أو يعطى مع الكراهة و المن و الأذى فلا يكون بتثبيت و هو المذموم فى البقرة أو مع الرياء فهو المذموم فى السورتين فبقي القسم الرابع ابتغاء رضوان الله و تثبيتا من أنفسهم ونظيره الصلاة أما أن لايصلي أو يصلي رياء أو كسلان أو يصلي مخلصا و الأقسام الثلاثة الآول مذمومة وكذلك الزكاة و نظير ذلك الهجرة و الجهاد فإن الناس فيهما أربعة اقسام و كذلك {إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً}الأنفال٤٥ فى الثبات و الذكر و كذلك {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}البلد١٧ فى الصبر و المرحمة أربعة أقسام و كذلك {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ}البقرة٤٥ فهم في الصبر و الصلاة فعامة هذه الاشفاع التى في القرآن إما عملان و إما وصفان فى عمل انقسم الناس فيها قسمة رباعية ثم ان كانا عملين منفصلين كالصلاة و الصبر و الصلاة و الزكاة و نحو ذلك نفع احدهما و لو ترك الآخر و ان كانا شرطين فى عمل كالاخلاص و التثبت لم ينفع احدهما فإن المن و الأذى محبط كما أن الرياء محبط كما دل عليه القرآن و من هذا تقوى الله و حسن الخلق ف {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}النحل١٢٨ و البر و

التقوى و الحق و الصبر و أفضل الإيمان السماحة و الصبر بخلاف الاشفاع في الذم كالافك و الاثم والاختيال و الفخر و الشح و الجبن و الاثم و العدوان فإن الذم ينال احدهما مفردا ومقرونا لأن الخير من باب المطلوب وجوده لمنفعته فقد لاتحصل المنفعة الا بتمامة و الشر يطلب عدمه لمضرته و بعض المضار يضر فى الجملة غالبا و لهذا فرق في الأسماء بين الأمر و النهي و الاثبات و النفي فإذا أمر بالشيء اقتضى كماله و إذا نهى عنه اقتضى النهي عن جميع أجزائه و لهذا حيث أمر الله بالنكاح كما فى المطلقة ثلاثا حتى تنكح زوجا غيره و كما فى الاحصان فلابد من الكمال بالعقد و الدخول و حيث نهى عنه كما فى ذوات المحارم فالنهي عن كل منهما على انفراده و هذا مذهب مالك و أحمد المنصوص عنه أنه إذا حلف ليتزوجن لم يبر الا بالعقدة و الدخول بخلاف ما إذا حلف لا يتزوج فإنه يحنث بالعقدة و كذلك إذا حلف لايفعل شيئا حنث بفعل بعضه بخلاف ما إذا حلف ليفعلنه فإن دلالة الاسم على كل و بعض تختلف بإختلاف النفي و الاثبات ولهذا لما أمر الله بالطهارة و الصلاة والزكاة و الحج كان الواجب الاتمام كما قال تعالى {بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}البقرة١٢٤ و قال و ابراهيم الذي و فى ولما نهى عن القتل و الزنا و السرقة و الشرب كان ناهيا عن ابعاض ذلك بل و عن مقدماته أيضا و أن كان الاسم لايتناوله فى الاثبات و لهذا فرق فى الأسماء النكرات بين النفي و الاثبات و الأفعال كلها نكرات و فرق بين الأمر و النهي بين التكرار و غيره و قال صلى الله عليه و سلم إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم و إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإنما اختلف فى المعارف المنفية على روايتين كما فى قوله لا تأخذ الدراهم و لا تكلم الناس [1]

<u>بعض أمور أهل الكتاب التي ابتليت بها هذه الأمة</u>

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٩٤-٩٨

حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون شبرا بشبر وذراعا بذراع فقيل يا رسول الله كفارس والروم قال ومن الناس إلا أولئك فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى وهم أهل الكتاب ومضاهاة لفارس والروم وهم الأعاجم وقد كان صلى الله عليه وسلم ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء وليس هذا إخبارا عن جميع الأمة بل قد تواتر عنه أنه قال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة وأخبر صلى الله عليه وسلم ان الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة و أن الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم فيه بطاعته فعلم بخبره الصدق أن لا بد أن يكون في أمته قوم متمسكين بهديه الذي هو دين الإسلام محضا وقوم منحرفين إلى شعبة من شعب دين اليهود أو إلى شعبة من شعب دين النصارى وإن كان الرجل لا يكفر بهذا الانحراف بل وقد لا يفسق أيضا بل قد يكون الإنحراف كفرا وقد يكون فسقا وقد يكون سيئة وقد يكون خطأ وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلا وأنا أشير إلى بعض أمور أهل الكتاب والأعاجم التي ابتليت بها هذه الأمة ليجتنب المسلم الحنيف الانحراف عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم أو الضالين قال الله سبحانه {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}البقرة١٠٩ فذم اليهود على ما حسدوا المؤمنين على الهدى والعلم وقد يبتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله لعلم نافع أو عمل صالح وهو خلق مذموم مطلقا وهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب عليهم وقال الله سبحانه {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً{٣٦} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ {٣٧} النساء ٣٦-٣٧ فوصفهم بالبخل الذي هو البخل بالعلم والبخل بالمال وإن كان السياق يدل على أن البخل بالعلم هو المقصود الأكبر فلذلك وصفهم بكتمان العلم في غير آية مثل قوله تعالى {وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ}آل عمران١٨٧ الآية وقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ}البقرة١٥٩ الآية وقوله {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}البقرة١٧٤ الآية وقوله تعالى {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}البقرة١٤ فوصف المغضوب عليهم بأنهم يكتمون العلم تارة بخلا

به وتارة اعتياضا عن إظهاره بالدنيا وتارة خوفا أن يحتج عليهم بما أظهروه منه وهذا قد ابتلى به طوائف من المنتسبين إلى العلم فإنهم تارة يكتمون العلم بخلا به وكراهة أن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه وتارة اعتياضا عنه برياسة أو مال ويخاف من إظهاره انتقاص رياسته أو نقص ماله وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفه وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم وليس الغرض تفصيل ما يحب وما يحتسب بل الغرض التنبيه على مجامع يتفطن اللبيب بها لما ينفعه الله به [1]

## لم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار

لم يجيء إعداد العذاب المهين فى القرآن إلا فى حق الكفار كقوله {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء٣٧ وقوله {وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء١٠٢وقوله {أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء١٥١ وقوله {فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}البقرة٩٠ {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}آل عمران١٧٨ {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}الحج٥٧ {وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}الجاثية٩ {وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}المجادلة٥ {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}المجادلة١٦ {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ فهى والله أعلم فيمن جحد الفرائض وإستخف بها على أنه لم يذكر ان العذاب أعد له وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيدا للمؤمنين فى قوله {لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧ و اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧

أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}الأنفال٦٨ وقوله {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}النور١٤ وفى المحارب {ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}المائدة٣٣ وفي القاتل {وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}النساء٩٣ وقوله {وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}النحل٩٤ وقد قال سبحانه {وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}الحج١٨ وذلك لأن الإهانة اذلال وتحقير وخزى وذلك قدر زائد على ألم العذاب فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان [1]

ذم الرياء

وقد ذكر الله تعالى الإخلاص فى كتابه فى غير موضع كقوله تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}البينة٥ وقوله {فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{٢} أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ {٣}الزمر٢-٣ وقوله {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي}الزمر١٤ وغير ذلك من الآيات وإخلاص الدين هو أصل دين الإسلام ولذلك ذم الرياء فى مثل قوله{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{٥} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{٦}الماعون ٤-٦ وقوله {وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٤٢ وقال تعالى {كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ}البقرة٢٦٤ الآية وقوله تعالى {وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قِرِيناً}النساء٣٨ الآية [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٦٦-٣٦٧ و الصارم المسلول ج: ٢ ص: ١٠٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٢٥٧

الظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى

وهو سبحانه الحكم العدل الذي{لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً}النساء٤٠ [1]

ان فعل الله كله حسن جميل قال الله عز وجل {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}السجدة٧ وقال تعالى {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}النمل٨٨ وقال تعالى {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}الأعراف١٨٠ وقال النبى ان الله جميل يحب الجمال وهو حكم عدل قال الله تعالى {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}آل عمران١٨ وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}النساء٤٠ وقال تعالى {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}الأنعام١٨ [2]

حرم الله الظلم على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ}هود١٠١ وقوله {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً}الكهف٤٩ وقوله {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}فصلت ٤٦ وقوله {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}النساء٤٠ وقوله {قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}النساء٧٧ ونفى إرادته بقوله {وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ}آل عمران١٠٨ وقوله {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ}غافر٣١ونفى خوف العباد له بقوله {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً}طه١١٢ فإن الناس تنازعوا في معنى هذا الظلم تنازعا صاروا فيه بين طرفين متباعدين ووسط بينهما وخيار الأمور أوساطها وذلك بسبب البحث في القدر ومجامعته للشرع إذ الخوض في ذلك بغير علم تام أوجب ضلال عامة الأمم ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن التنازع فيه فذهب المكذبون بالقدر القائلون بأن الله لم يخلق أفعال العباد ولم يرد أن يكون إلا ما أمر بأن يكون وغلاتهم المكذبون بتقدم علم الله وكتابه بما سيكون من أفعال العباد من المعتزلة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٣١٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص:٣٥١- ٣٥٢

وغيرهم إلا أن الظلم منه هو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض وشبهوه ومثلوه في الأفعال بأفعال العباد حتى كانوا هم ممثلة الأفعال وضربوا لله الأمثال ولم يجعلوا له المثل الأعلى بل أوجبوا عليه وحرموا ما رأوا أنه يجب على العباد ويحرم بقياسه على العباد وإثبات الحكم في الأصل بالرأي وقالوا عن هذا إذا أمر العبد ولم يعنه بجميع ما يقدر عليه من وجوه الإعانة كان ظالما له والتزموا أنه لا يقدر أن يهدي ضالا كما قالوا إنه لا يقدر أن يضل مهتديا وقالوا عن هذا إذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما بإعانته على فعل المأمور كان ظالما إلى أمثال ذلك من الأمور التي هي من باب الفضل والإحسان جعلوا تركه لها ظلما وكذلك ظنوا أن التعذيب لمن كان فعله مقدرا ظلم له ولم يفرقوا بين التعذيب لمن قام به سبب استحقاق ذلك ومن لم يقم وإن كان ذلك الاستحقاق خلقه لحكمه أخرى عامة أو خاصة وهذا الموضع زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام فعارض هؤلاء آخرون من أهل الكلام المثبتين للقدر فقالوا ليس للظلم منه حقيقة يمكن وجودها بل هو من الأمور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدورا ولا يقال إنه هو تارك له باختياره ومشيئته وإنما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد في مكانين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما وإلا فمهما قدر في الذهن وكان وجوده ممكنا و الله قادرعليه فليس بظلم منه سواء فعله أولم يفعله وتلقى هذا القول عن هؤلاء طوائف من أهل الإثبات من الفقهاء وأهل الحديث من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ومن شراح الحديث ونحوهم وفسروا هذا الحديث بما ينبني على هذا القول وربما تعلقوا بظاهر من أقوال مأثورة كما رويناه عن إياس بن معاوية أنه قال ما ناظرت بعقلي كله أحدا إلا القدرية قلت لهم ما الظلم قالوا أن تأخذ ما ليس لك أو أن تتصرف فيما ليس لك قلت فلله كل شيء وليس هذا من إياس إلا ليبين أن التصرفات الواقعة هي في ملكه فلا يكون ظلما بموجب حدهم وهذا مما لا نزاع بين أهل الإثبات فيه فإنهم متفقون مع أهل الإيمان بالقدر على أن كل ما فعله الله هو عدل وفي حديث الكرب الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضائك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحا قالوا يا رسول الله أفلا نتعلمهن قال بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن فقد بين أن كل قضائه في عبده عدل ولهذا يقال كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ويقال أطعتك بفضلك والمنة لك وعصيتك بعلمك أو بعدلك والحجة لك

فأسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتى إلا ما غفرت لي وهذه المناظرة من إياس كما قاله ربيعة بن أبي عبد الرحمن لغيلان حين قال له غيلان نشدتك الله أترى الله يحب أن يعصى فقال نشدتك الله أترى يعصى قسرا يعني قهرا فكأنما ألقمه حجرا فإن قوله يحب أن يعصى لفظ فيه إجمال وقد لا يتأتى في المناظرة تفسير المجملات خوفا من لدد الخصم فيؤتى بالواضحات فقال أفتراه يعصى قسرا فإن هذا إلزام له بالعجز الذي لازم للقدرية ولمن هو شر منهم من الدهرية الفلاسفية وغيرهم وكذلك إياس رأى أن هذا الجواب المطابق لحدهم خاصم لهم ولم يدخل معهم في التفصيل الذي يطول وبالجملة فقوله تعالى {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً}طه١١٢ قال أهل التفسير من السلف لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم فينقص من حسناته ولا يجوز أن يكون هذا الظلم هو شيء ممتنع غير مقدور عليه فيكون التقدير لا يخاف ما هو ممتنع لذاته خارج عن الممكنات والمقدورات فإن مثل هذا إذا لم يكن وجوده ممكنا حتى يقولوا إنه غير مقدور وأراده كخلق المثل له فكيف يعقل وجوده فضلا أن يتصور خوفه حتى ينفي خوفه ثم أي فائدة في نفي خوف هذا وقد علم من سياق الكلام أن المقصود بيان أن هذا للعامل المحسن لا يجزى على إحسانه بالظلم والهضم فعلم أن الظلم والهضم المنفي يتعلق بالجزاء كما ذكره أهل التفسير وأن الله لا يجزيه إلا بعمله ولهذا كان الصواب الذي دلت عليه النصوص إن الله لا يعذب في الآخرة إلا من أذنب كما قال{لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}ص٨٥ فلو دخلها أحد من غير أتباعه لم تمتلىء منهم ولهذا ثبت في الصحيحين في حديث تحاج الجنة والنار من حديث أبي هريرة وأنس أن النار تمتلىء ممن كان ألقي فيها حتى ينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعد قولها هل من مزيد وأما الجنة فيبقى فيها فضل عمن يدخلها من أهل الدنيا فينشىء الله لها خلقا آخر ولهذا كان الصواب الذي عليه الأئمة فيمن لم يكلف في الدنيا من أطفال المشركين ونحوهم ما صح به الحديث وهو أن الله أعلم بما كانوا عاملين فلا نحكم لكل منهم بالجنة ولا لكل منهم بالنار بل هم ينقسمون بحسب ما يظهر من العلم فهم إذا كلفوا يوم القيامة في العرصات كما جاءت بذلك الآثار وكذلك قوله تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}فصلت٤٦ يدل الكلام على أنه لا يظلم محسنا فينقصه من إحسانه أو يجعله لغيره ولا يظلم مسيئا فيجعل عليه سيئات غيره بل لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وهذا كقوله{أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى{٣٦} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى{٣٧} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى{٣٨} وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى{٣٩} النجم ٣٦-٣٩ فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعاه

وكلا القولين حق على ظاهره فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعاه وكلا القولين حق على ظاهره وإن ظن بعض الناس أن تعذيب الميت ببكاء أهله عليه ينافي الأول فليس كذلك إذ ذلك النائح يعذب بنوحه لا يحمل الميت وزره ولكن الميت يناله ألم من فعل هذا كما يتألم الإنسان من أمور خارجة عن كسبه وإن لم يكن جزاء الكسب والعذاب أعم من العقاب كما قال صلى الله عليه وسلم السفر قطعة من العذاب وكذلك ظن قوم أن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي ينافي قوله {وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} النجم ٣٩ فليس الأمر كذلك فإن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالعبادات المالية ومن ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الآخر فقوله ظاهر الفساد بل ذلك بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة وقد بينا في غير هذا الموضع نحوا من ثلاثين دليلا شرعيا يبين انتفاع الإنسان بسعي غيره إذ الآية إنما نفت استحقاق السعي وملكه وليس كل ما لا يستحقه الإنسان ولا يملكه لا يجوز أن يحسن إليه مالكه ومستحقه بما ينتفع به منه فهذا نوع وهذا نوع وكذلك ليس كل ما لا يملكه الإنسان لا يحصل له من جهته منفعة فإن هذا كذب في الأمور الدينية والدنيوية وهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل في الجزاء وأنه لا يبخس عامل عمله وكذلك قوله فيمن عاقبهم {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ}هود١٠١ وقوله {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}الزخرف٧٦ بين أن عقاب المجرمين عدلا لذنوبهم لا لأنا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب والحديث الذي في السنن لو عذب الله أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم يبين أن العذاب لو وقع لكان لاستحقاقهم ذلك لا لكونه بغير ذنب وهذا يبين أن من الظلم المنفي عقوبة من لم يذنب وكذلك قوله تعالى {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ{٣٠} مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ{٣١} غافر٣٠-٣١ يبين أن هذا العقاب لم يكن ظلما لاستحقاقهم ذلك وأن الله لا يريد الظلم والأمر الذي لا يمكن القدرة عليه لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته وإنما يكون المدح بترك الأفعال إذا كان الممدوح قادرا عليها فعلم أن الله قادر على ما نزه نفسه عنه من الظلم وأنه لا يفعله [1]

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٠٢-٤٠٥

يخرج الله من النار كل من في قلبه مثقال ذرة من خير

وفي الصحيحين أيضا من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري أن ناسا في زمن رسول الله قالوا لرسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله نعم هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب قالوا لا يا رسول الله قال وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب قالوا لا يا رسول الله قال ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد ولا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغير أهل الكتاب فتدعي اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد عزيز ابن الله فيقال كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فماذا تبغون قالوا عطشنا يا رب فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون في النار ثم تدعى النصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد المسيح بن الله فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فيقال لهم ماذا تبغون فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها قال ما تنتظرون فيتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا مرتين أو ثلاثا حتى أن بعضهم ليكان أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية فتعرفونه فيقولون نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله تعالى من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فقال أنا ربكم فيقولون أنت ربنا ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم قيل يا رسول الله وما الجسر قال دحض مزلة فيه خطا طيف وكلاليب وحسك تكون فيها شوكة يقال له السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاود الخيل والركبان فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة الله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون ربما كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم اخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربما لم نذر فيها أحد ممن أمرتنا ثم يقول أرجوا فمن وجدتم في قلبه نصف دينار فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ارجعوا فأخرجوا من وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فيخرجون خلقا كثيرا

ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا     وكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤا إن شئتم     {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}النساء٤٠ فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفعت النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم في نهر في افواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل فيكون أبيض فقالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم تعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله تعالى الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول أدخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين فيقول لكم عندي أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا فيقول رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبدا وهذا سياق مسلم من حديث حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم ثم أتبعه برواية الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن سلم قال نحو حديث حفص بن ميسرة وزاد بعد قوله بغير عمل عملوه ولا خير قدموه فيقال لهم لكم ما رأيتم ومثله معه     قال أبو سعيد بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف وليس في حديث الليث فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين     ثم رواه من حديث هشام بن سعد قال حدثنا زيد بن أسلم نحو حديث حفص وقد زاد ونقص شيئا     وأخرجه البخاري من حديث زيد أيضا [1]

اخبر الله سبحانه وتعالى انه ارسله شاهدا

قال تعالى {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً}النساء٤١ الأنبياء يشهدون على أممهم [2]

والرسل هم وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ رسالاته وامره ونهيه ووعده ووعيده كما قال تعالى {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ}الأنعام٤٨ {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ}الكهف٥٦ وقال {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً{٤٥} وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً{٤٦}الاحزاب٤٥-٤٦ فاخبر انه ارسله شاهدا كما قال {لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}الحج٧٨وقال{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء

---

[1] بغية المرتاد ج: ١ ص: ٤٥٧-٤٦٠

[2] القواعد النورانية ج: ٣ ص: ٣٧٨

شَهِيداً}النساء٤١ وقال {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}البقرة١٤٣ ولما دفن النبي صلى الله عليه وسلم شهداء احد قال اما انا فشهيد على هؤلاء وقوله مبشرا ونذيرا بالوعد والوعيد وداعيا الى الله باذنه بالامر والنهى [1]

وأما شهادته للمؤمنين فهو أنها إنما تعلم من جهته بما بلغه من القرآن ويخبر به عن ربه فهو إذا شهد كان شاهدا من الله وأما شهادته عليهم بالايمان والتصديق وغير ذلك فكما في قوله{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً}النساء٤١ {وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}البقرة١٤٣ [2]

فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال قال النبى إقرأ على القرآن قلت أقرأه عليك وعليك أنزل فقال إنى أحب أن أسمعه من غيرى فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً}النساء٤١ قال حسبك فنظرت فاذا عيناه تذرفان من البكاء [3]

{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء}

والخشية من الله تكون لكمال العلم فإن الله تعالى يقول {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء}فاطر٢٨ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء وقرأ عليه ابن مسعود سورة النساء فلما بلغ إلى قوله {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً}النساء٤١ قال حسبك فنظرت إلى عينيه وهما تذرفان وقد قال تعالى {قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي

---

[1] الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٥٣٧-٥٣٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٨٤

مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٨٤

[3] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥٥٧ و مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٩٨

مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}الأحقاف٩ وفي صحيح مسلم أنه قال لما قتل عثمان ين مظعون قال ما أدري والله وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم وفي الترمذي وغيره عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله وددت أني كنت شجرة تعضد وقوله وددت أني كنت شجرة تعضد قيل إنه من قول أبي ذر لا من قول النبي صلى الله عليه وسلم وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ{٥٧} وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ{٥٨} وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ{٥٩}المؤمنون٥٧-٥٩ وفي الترمذي عن عائشة قالت قلت يا رسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف فقال لا يا بنت الصديق ولكنه الرجل يصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه [١]

## فيما تجب له الطهارتان الغسل والوضوء

فيما تجب له الطهارتان الغسل والوضوء الجواب ذلك واجب للصلاة بالكتاب والسنة والإجماع فرضها ونفلها واختلف في الطواف ومس المصحف واختلف أيضا في سجود التلاوة وصلاة الجنازة هل تدخل في مسمى الصلاة التي تجب لها الطهارة وأما الاعتكاف فما علمت أحدا قال إنه يجب له الوضوء وكذلك الذكر والدعاء فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الحائض بذلك وأما القراءة ففيها خلاف شاذ فمذهب الأربعة تجب الطهارتان لهذا كله إلا الطواف مع الحدث الأصغر فقد قيل فيه نزاع والأربعة أيضا لا يجوزون للجنب قراءة القرآن ولا اللبث في المسجد إذا لم يكن على وضوء وتنازعوا في قراءة الحائض وفي قراءة الشيء اليسير وفي هذا نزاع في مذهب الإمام أحمد وغيره كما قد ذكر في غير هذا الموضع ومذهب أهل الظاهر يجوز للجنب أن يقرأ القرآن واللبث في المسجد هذا مذهب داود وأصحابه وابن حزم وهذا منقول عن بعض السلف وأما مذهبهم فيما تجب الطهارتان فالذي ذكره ابن حزم أنها لا تجب إلا لصلاة هي ركعتان أو ركعة الوتر أو ركعة في

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ١٣-١٥

الخوف أو صلاة الجنازة ولا تجب عنده الطهارة لسجدتي السهو فيجوز عنده للجنب والمحدث والحائض قراءة القرآن والسجود فيه ومس المصحف قال لأن هذه الأفعال خير مندوب إليها فمن ادعى منع هؤلاء منها فعليه الدليل وأما الطواف فلا يجوز للحائض بالنص والإجماع وأما الحدث ففيه نزاع بين السلف وقد ذكر عبد الله بن الإمام أحمد في المناسك بإسناده عن النخعي وحماد بن أبي سليمان أنه يجوز الطواف مع الحدث الأصغر وقد قيل إن هذا قول الحنفية أو بعضهم وأما مع الجنابة والحيض فلا يجوز عند الأربعة لكن مذهب أبي حنيفة أن ذلك واجب فيه لا فرض وهو قول في مذهب أحمد وظاهر مذهبه كمذهب مالك والشافعي أنه ركن فيه والصحيح في هذا الباب ما ثبت عن الصحابة رضوان الله عليهم وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة وهو أن مس المصحف لا يجوز للمحدث ولا يجوز له صلاة الجنازة ولا يجوز له سجود التلاوة فهذه الثلاثة ثابتة عن الصحابة وأما الطواف فلا أعرف الساعة فيه نقلا خاصا عن الصحابة لكن إذا جاز سجود التلاوة مع الحدث فالطواف أولى كما قاله من قاله من التابعين قال البخاري في باب سجدة المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء وكان ابن عمر يسجد على غير وضوء ووقع في بعض نسخ البخاري يسجد على وضوء قال ابن بطال في شرح البخاري الصواب إثبات غير لأن المعروف عن ابن عمر أنه كان يسجد على غير وضوء ذكر ابن أبي شيبة حدثنا محمد بن بشا الجواب حدثنا زكريا بن أبي زائدة حدثنا أبو الحسن يعني عبيد بن الحسن عن رجل زعم أنه نسيه عن سعيد بن جبير قال كان عبد الله بن عمر ينزل عن راحلته فيهريق الماء ثم يركب فيقرأ السجدة فيسجد وما يتوضأ وذكر عن وكيع عن زكريا عن الشعبي في الرجل يقرأ السجدة على غير وضوء قال يسجد حيث كان وجهه قال ابن المنذر واختلفوا في الحائض تسمع السجدة فقال عطاء وأبو قلابة والزهري وسعيد بن جبير والحسن البصري وإبراهيم وقتادة ليس عليها أن تسجد وبه قال مالك والثوري والشافعي وأصحاب الرأي وقد روينا عن عثمان بن عفان قال تومىء برأسها وبه قال سعيد بن المسيب قال تومىء وتقول لك سجدت وقال ابن المنذر ذكر من سمع السجدة وهو على غير وضوء قال أبو بكر واختلفوا في ذلك فقالت طائفة يتوضأ ويسجد هكذا قال النخعي وسفيان الثوري وإسحق وأصحاب الرأي وقد روينا عن النخعي قولا ثانيا إنه يتيمم ويسجد وروينا عن الشعبي قولا ثالثا إنه يسجد حيث كان وجهه وقال ابن حزم وقد روي عن عثمان بن عفان وسعيد بن المسيب تومئ الحائض بالسجود وقال سعيد وتقول رب لك سجدت وعن الشعبي جواز سجود التلاوة إلى غير القبلة وأما صلاة الجنازة فقد قال البخاري قال النبي صلى الله عليه وسلم من صلى

على الجنازة وقال صلوا على صاحبكم وقال صلوا على النجاشي سماها صلاة وليس فيها ركوع ولا سجود ولا يتكلم فيها وفيها تكبير وتسليم قال وكان ابن عمر لا يصلي إلا طاهرا ولا يصلي عند طلوع الشمس ولا غروبها ويرفع يديه قال ابن بطال عرض البخاري للرد على الشعبي فإنه أجاز الصلاة على الجنازة بغير طهارة قال لأنها دعاء ليس فيها ركوع ولا سجود والفقهاء مجمعون من السلف والخلف على خلاف قوله فلا يلتفت إلى شذوذه وأجمعوا أنها لا تصلى إلا إلى القبلة ولو كانت دعاء كما زعم الشعبي لجازت إلى غير القبلة قال واحتجاج البخاري في هذا الباب حسن قلت فالنزاع في سجود التلاوة وفي صلاة الجنازة قيل هما جميعا ليسا صلاة كما قال الشعبي ومن وافقه وقيل هما جميعا صلاة تجب لهما الطهارة والمأثور عن الصحابة وهو الذي تدل عليه النصوص والقياس الفرق بين الجنازة والسجود المجرد سجود التلاوة والشكر وذلك لأنه قد ثبت بالنص لا صلاة إلا بطهور كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ وفي صحيح مسلم ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول وهذا قد دل عليه القرآن بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ}المائدة٦ الآية وقد حرم الصلاة مع الجنابه والسكر في قوله {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ}النساء٤٣ وثبت أيضا أن الطهارة لا تجب لغير الصلاة لما ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن جريج ثنا سعيد بن الحارث عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى حاجته من الخلاء فقرب له طعام فأكل ولم يمس الماء قال ابن جريج وزادني عمرو بن دينار عن سعيد بن الحرث أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له إنك لم تتوضأ قال ما أردت صلاة فأتوضأ قال عمرو سمعته من سعيد بن الحارث والذين أوجبوا الوضوء للطواف ليس معهم حجة أصلا فإنه لم ينقل أحد عن النبي صلى الله عليه وسلم لا بإسناد صحيح ولا ضعيف أنه أمر بالوضوء للطواف مع العلم بأنه قد حج معه خلائق عظيمة وقد اعتمر عمرا متعددة والناس يعتمرون معه فلو كان الوضوء فرضا للطواف لبينه النبي صلى الله عليه وسلم بيانا عاما ولو بينه لنقل ذلك المسلمون عنه ولم يهملوه ولكن ثبت في الصحيح أنه لما طاف توضأ وهذا وحده لا يدل على الوجوب فإنه قد

كان يتوضأ لكل صلاة وقد قال إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر فيتيمم لرد السلام وقد ثبت عنه في ا لصحيح أنه لما خرج من الخلاء وأكل وهو محدث قيل له ألا تتوضأ قال ما أردت صلاة فأتوضأ على أنه لم يجب عليه الوضوء إلا إذا أراد صلاة وأن وضوءه لما سوى ذلك مستحب ليس بواجب وقوله صلى الله عليه وسلم ما أردت صلاة فأتوضأ ليس إنكارا للوضوء لغير الصلاة لكن إنكار لإيجاب الوضوء لغير الصلاة فإن بعض الحاضرين قال له ألا تتوضأ فكان هذا القائل ظن وجوب الوضوء للكل فقال صلى الله عليه وسلم ما أردت صلاة فأتوضا فبين له أنه إنما فرض الله الوضوء على من قام إلى الصلاة والحديث الذي يروى ا لطواف بالبيت صلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير قد رواه النسائي وهو يروى موقوفا ومرفوعا وأهل المعرفة بالحديث لا يصححونه إلا موقوفا ويجعلونه من كلام ابن عباس لا يثبتون رفعه وبكل حال فلا حجة فيه لأنه ليس المراد به أن الطواف نوع من الصلاة كصلاة العيد والجنائز ولا أنه مثل الصلاة مطلقا فإن الطواف يباح فيه الكلام بالنص والإجماع ولا تسليم فيه ولا يبطله الضحك والقهقهة ولا تجب فيه القراءة باتفاق المسلمين فليس هو مثل الجنازة فإن الجنازة فيها تكبير وتسليم فتفتح بالتكبير وتختم بالتسليم وهذا حد الصلاة التي أمر فيها بالوضوء كما قال صلى الله عليه وسلم مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم والطواف ليس له تحريم ولا تحليل وإن كبر في أوله فكما يكبر على الصفا والمروة وعند رمي الجمار من غير أن يكون ذلك تحريما ولهذا يكبر كلما حاذى الركن والصلاة لها تحريم لأنه بتكبيرها يحرم على المصلي ما كان حلالا من الكلام أو الأكلأو الضحك أو الشرب أو غير ذلك والطواف لا يحرم شيئا بل كل ما كان مباحا قبل الطواف في المسجد فهو مباح في الطواف وإن كان قد يكره ذلك لأنه يشغل عن مقصود الطواف كما يكره في عرفة وعند رمي الجمار ولا يعرف نزاعا بين العلماء أن الطواف لا يبطل بالكلام والأكل والشرب والقهقهة كما لا يبطل غيره من مناسك الحج بذلك وكما لا يبطل الاعتكاف بذلك والاعتكاف يستحب له طهارة الحدث ولا يجب فلو قعد المعتكف وهو محدث في المسجد لم يحرم بخلاف ما إذا كان جنبا أوحائضا فإن هذا يمنعه منه الجمهور كمنعهم الجنب والحائض من اللبث في المسجد لا لأن ذلك يبطل الاعتكاف ولهذا إذا خرج المعتكف للاغتسال كان حكم اعتكافه عليه في حال خروجه فيحرم عليه مباشرة النساء في غير المسجد ومن جوز له اللبث مع الوضوء جوز للمعتكف أن يتوضأ يلبث في المسجد وهو قول أحمد بن حنبل وغيره والذي ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى الحائض عن الطواف وبعث أبا بكر أميرا على الموسم فأمر أن ينادي أن لا يحج بعد العام

مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وكان المشركون يحجون وكانوا يطوفون بالبيت عراة فيقولون ثياب عصينا الله فيها فلا نطوف فيها إلا الحمس ومن دان دينها وفي ذلك أنزل الله {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ}الأعراف٣١ وقوله {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً}الأعراف٢٨ مثل طوافهم بالبيت عراة {قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}الأعراف٢٨ ومعلوم أن ستر العورة يجب مطلقا خصوصا إذا كان في المسجد الحرام والناس يرونه فلم يجب ذلك لخصوص الطواف لكن الاستتار في حال الطواف أوكد لكثرة من يراه وقت الطواف فينبغي النظر في معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله وهو أن يعرف مسمى الصلاة التي لا يقبلها الله إلا بطهور التي أمر بالوضوء عند القيام إليها وقد فسر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث الذي في السنن عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم ففي هذا الحديث دلالتان إحداهما إن الصلاة تحريمها التكبير وتحليلها التسليم فما لم يكن تحريمه التكبير وتحليله التسليم لم يكن من الصلاة والثانية إن هذه هي الصلاة التي مفتاحها الطهور فكل صلاة مفتاحها الطهور فتحريمها التكبير وتحليلها التسليم فما لم يكن تحريمه التكبير وتحليله التسليم فليس مفتاحه الطهور فدخلت صلاة الجنازة في هذا فإن مفتاحها الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم وأما سجود التلاوة والشك الجواب فلم ينقل أحد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه أن فيه تسليما ولا أنهم كانوا يسلمون منه ولهذا كان أحمد بن حنبل وغيره من العلماء لا يعرفون فيه التسليم وأحمد في إحدى الروايتين عنه لا يسلم فيه لعدم ورود الأثر بذلك وفي الرواية الأخرى يسلم واحدة أو اثنتين ولم يثبت ذلك بنص بل بالقياس وكذلك من رأى فيه تسليما من الفقهاء ليس معه نص بل القياس أو قول بعض التابعين وقد تكلم الخطابي على حديث نافع عن ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ علينا القرآن فإذا مر بالسجدة كبر وسجد وسجدنا معه قال فيه بيان أن السنة أن يكبر للسجود وعلى هذا مذاهب أكثر أهل العلم وكذلك يكبر إذا رفع رأسه من السجود قال وكان الشافعي وأحمد يقولان يرفع يديه إذا أراد أن يسجد وعن ابن سيرين وعطاء إذا رفع رأسه من السجود يسلم وبه قال إسحق بن راهويه قال واحتج لهم في ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم تحريمها التكبير وتحليها التسليم وكان أحمد لا يعرف وفي لفظ لا يرى التسليم في هذا قلت وهذه الحجة إنما تستقيم لهم أن ذلك داخل في مسمى الصلاة لكن قد يحتجون بهذا على من يسلم أنها صلاة فيتناقض قوله وحديث ابن عمر رواه البخاري في صحيحه وليس فيه التكبير قال كان النبي

صلى الله عليه وسلم يقرأ علينا السورة فيها السجدة فيسجد ونسجد حتى ما يجد أحدنا موضع جبهته وفي لفظه حتى ما يجد أحدنا مكانا لجبهته فابن عمر قد أخبر أنهم كانوا يسجدون مع النبي صلى الله عليه وسلم ولم يذكر تسليما وكان ابن عمر يسجد على غير وضوء ومن المعلوم أنه لو كان النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه أن السجود لا يكون إلا على وضوء لكان هذا ما يعلمه عامتهم لأنهم كلهم كانوا يسجدون معه وكان هذا شائعا في الصحابة فإذا لم يعرف عن أحد منهم أنه أوجب الطهارة لسجود التلاوة وكان ابن عمر من أعلمهم وأفقههم وأتبعهم للسنة وقد بقي إلى آخر الأمر ويسجد للتلاوة على غير طهارة كان هو مما يبين أنه لم يكن معروفا بينهم أن الطهارة واجبة لها ولو كان هذا مما أوجبه النبي صلى الله عليه وسلم لكان ذلك شائعا بينهم كشياع وجوب الطهارة للصلاة وصلاة الجنازة وابن عمر لم يعرف أن غيره من الصحابة أوجب الطهارة فيها ولكن سجودها على الطهارة أفضل باتفاق المسلمين وقد يقال إنه يكره سجودها على غير طهارة مع القدرة على الطهارة فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما سلم عليه مسلم لم يرد عليه حتى تيمم وقال كرهت أن أذكر الله إلا على طهر فالسجود أوكد من رد السلام لكن كون الإنسان إذا قرأ وهو محدث يحرم عليه السجود ولا يحل له أن يسجد لله إلا بطهارة قول لا دليل عليه وما ذكر أيضا على أن الطواف ليس من الصلاة ويدل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تجزىء صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب والطواف والسجود لا يقرأ فيهما بأم الكتاب وقد قال صلى الله عليه وسلم إن الله يحدث من أمره ما يشاء وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة والكلام يجوز في الطواف والطواف أيضا ليس فيه تسليم لكن يفتتح بالتكبير كما يسجد للتلاوة بالتكبير ومجرد الإفتتاح بالتكبير لا يوجب أن يكون المفتتح صلاة فقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف على بعير كلما أتى الركن أشار إليه بشيء بيده وكبر وكذلك ثبت عنه أنه كبر على الصفا والمروة وعند رمي الجمار ولأن الطواف يشبه الصلاة من بعض الوجوه وأما الحائض فقد قيل إنما منعت من الطواف لأجل المسجد كما تمنع من الاعتكاف لأجل المسجد والمسجد الحرام أفضل المساجد وقد قال تعالى لإبراهيم {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}الحج٢٦ فأمر بتطهيره فتمنع منه الحائض من الطواف وغير الطواف وهذا من سر قول من يجعل الطهارة واجبة فيه ويقول إذا طافت وهي حائض عصمت بدخول المسجد مع الحيض ولا يجعل طهارتها للطواف كطهارتها للصلاة بل يجعله من جنس منعها أن تعتكف في المسجد وهي حائض ولهذا لم تمنع الحائض من سائر المناسك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم الحائض تقضي المناسك كلها إلا الطواف بالبيت

وقال لعائشة افعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت ولما قيل له عن صفية إنها حائض قال أحابستنا هي قيل له إنها قد أفاضت قال فلا إذا متفق عليه وقد اعترض ابن بطال على احتجاج البخاري بجواز السجود على غير وضوء بحديث ابن عباس إن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ النجم فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس وهذا السجود متواتر عند أهل العلم وفي الصحيح أيضا من حديث ابن مسعود قال قرأ النبي صلى الله عليه وسلم بمكة النجم فسجد فيها وسجد من معه غير شيخ أخذ كفا من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال يكفيني هذا قال فرأيته بعد قتل كافرا قال ابن بطال هذا لا حجة فيه لأن سجود المشركين لم يكن على وجه العبادة لله والتعظيم له وإنما كان لما ألقى الشيطان على لسان النبي صلى الله عليه وسلم من ذكر آلهتهم في قوله {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى{١٩} وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى{٢٠} النجم ١٩ ـ٢٠ فقال تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن قد ترتجى فسجدوا لما سمعوا من تعظيم آلهتهم فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم وما ألقى الشيطان على لسانه من ذلك أشفق وحزن له فأنزل تعالى تأنيسا له وتسليه عما عرض له {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ}الحج٥٢ إلى قوله {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}الحج٥٢ أي إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته فلا يستنبط من سجود المشركين جواز السجود على غير وضوء لأن المشرك نجس لا يصح له وضوء ولا سجود إلا بعد عقد الإسلام فيقال هذا ضعيف فإن القوم إنما سجدوا لما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم {أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ{٥٩} وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ{٦٠} وَأَنتُمْ سَامِدُونَ{٦١} فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا{٦٢} النجم٥٩ـ٦٢ فسجد النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه امتثالا لهذا الأمر وهو السجود لله والمشركون تابعوه في السجود وما ذكر من التمني إذا كان صحيحا فإنه هو كان سبب موافقتهم له في السجود لله ولهذا لما جرى هذا بلغ المسلمين بالحبشة ذلك فرجع منهم طائفة إلى مكة والمشركون ما كانوا ينكرون عبادة الله وتعظيمه ولكن كانوا يعبدون معه آلهة أخرى كما أخبر الله عنهم بذلك فكان هذا السجود من عبادتهم له وقد قال سجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس وأما قوله لا سجود إلا بعد عقد الإسلام فسجود الكافر بمنزلة دعائه لله وذكره له وبمنزلة صدقته وبمنزلة حجتهم لله وهم مشركون فالكفار قد يعبدون الله وما فعلوه من خير أثيبوا عليه في الدنيا فإن ماتوا على الكفر حبطت أعمالهم في الآخرة وإن ماتوا على الإيمان فهل يثابون على ما فعلوه في الكفر فيه قولان مشهوران والصحيح أنهم يثابون على ذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم لحكيم بن حزام أسلمت على ما أسلفت من خير وغير ذلك

من النصوص ومعلوم أن اليهود والنصارى لهم صلاة وسجود وإن كان ذلك لا ينفعهم في الآخرة إذا ماتوا على الكفر وأيضا فقد أخبر الله في غير موضع من القرآن عن سجود سحرة فرعون كما قال تعالى {وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ{١٢٠} قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ{١٢١} رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ{١٢٢}الأعراف١٢٠ -١٢٢ وذلك سجود مع إيمانهم وهو مما قبله الله منهم وأدخلهم به الجنة ولم يكونوا على طهارة وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بنسخه ولو قرىء القرآن على كفار فسجدوا لله سجود إيمان ب الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أو رأوا آية من آيات الإيمان فسجدوا لله مؤمنين ب الله ورسوله لنفعهم ذلك ومما يبين هذا أن السجود يشرع منفردا عن الصلاة كسجود التلاوة وسجود الشكر وكالسجود عند الآيات فإن ابن عباس لما بلغه موت بعض أمهات المؤمنين سجد وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا إذا رأينا آية أن نسجد وقد تنازع الفقهاء في السجود المطلق لغير سبب هل هو عبادة أم لا ومن سوغه يقول هو خضوع لله والسجود هو الخضوع قال تعالى {وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً} الأعراف ١٦١ قال أهل اللغة السجود في اللغة هو الخضوع وقال غير واحد من المفسرين أمروا أن يدخلوا ركعا منحنين فإن الدخول مع وضع الجبهة على الأرض لا يمكن وقد قال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ}الحج١٨وقال تعالى {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}الرعد١٥ ومعلوم أن سجود كل شيء بحسبه ليس سجود هذه المخلوقات وضع جباهها على الأرض وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي ذر لما غربت الشمس إنها تذهب فتسجد تحت العرش رواه البخاري ومسلم فعلم أن السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله وأعز ما في الإنسان وجهه فوضعه على الأرض لله غاية خضوعه ببدنه وهو غاية ما يقدر عليه من ذلك ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وقال تعالى {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}العلق١٩ فصار من جنس أذكار الصلاة التي تشرع خارج الصلاة كالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل وقراءة القرآن وكل ذلك يستحب له الطهارة ويجوز للمحدث فعل ذلك بخلاف ما لا يفعل إلا في الصلاة كالركوع فإن هذا لا يكون إلا جزءا من الصلاة وأفضل أفعال الصلاة السجود وأفضل أقوالها القراءة وكلاهما مشروع في غير الصلاة فيسرت العبادة لله لكن الصلاة أفضل الأعمال فاشترط لها أفضل الأحوال واشترط للفرض ما لم يشترط للنفل من القيام والاستقبال مع القدرة وجاز التطوع على الراحلة في السفر كما مضت به سنة النبي صلى الله عليه وسلم فإنه قد ثبت في الصحاح أنه كان يتطوع على

راحلته في السفر قبل أي وجه توجهت به وهذا مما اتفق العلماء على جوازه وهو صلاة بلا قيام ولا استقبال للقبلة فإنه لا يمكن المتطوع على الراحلة أن يصلي إلا كذلك فلو نهى عن التطوع أفضى إلى تفويت عبادة الله التي لا يقدر عليها إلا كذلك بخلاف الفرض فإنه شيء مقدر يمكنه أن ينزل له ولا يقطعه ذلك عن سفره ومن لم يمكنه النزول لقتال أو مرض أو وحل صلى على الدابة أيضا ورخص في التطوع جالسا لكن يستقبل القبلة فإن الاستقبال يمكنه مع الجلوس فلم يسقط عنه بخلاف تكليفه القيام فإنه قد يشق عليه ترك التطوع وكان ذلك تيسيرا للصلاة بحسب الإمكان فأوجب الله في الفرض ما لا يجب في النفل وكذلك السجود دون صلاة النفل فإنه يجوز فعله قاعدا وإن كان القيام أفضل وصلاة الجنازة أكمل من النفل من وجه فاشترط لها القيام بحسب الإمكان لأن ذلك لا يتعذر وصلاة النافلة فيها ركوع وسجود فهي أكمل من هذا الوجه والمقصود الأكبر من صلاة الجنازة هو الدعاء للميت ولهذا كان عامة ما فيها من الذكر دعاء واختلف السلف والعلماء هل فيها قراءة على قولين مشهورين لم يوقت النبي صلى الله عليه وسلم فيها دعاء بعينه فعلم أنه لا يتوقت فيها وجوب شيء من الأذكار وإن كانت قراءة الفاتحة فيها سنة كما ثبت ذلك عن ابن عباس فالناس في القراءة الفاتحة فيها على أقوال قيل تكره وقيل تجب والأشبه أنها مستحبة لا تكره ولا تجب فإنه ليس فيها قرآن غير الفاتحة فلو كانت الفاتحة واجبة فيها كما تجب في الصلاة التامة لشرع فيها قراءة زائدة على الفاتحة ولأن الفاتحة نصفها ثناء على الله ونصفها دعاء للمصلي نفسه لا دعاء للميت والواجب فيها الدعاء للميت وما كان تتمة كذلك والمشهور عن الصحابة أنه إذا سلم فيها سلم تسليمة واحدة لنقصها عن الصلاة التامة وقوله من صلى صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج يقال الصلاة المطلقة هي التي فيها ركوع وسجود بدليل ما لو نذر أن يصلي صلاة وهذه صلاة تدخل في قوله مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم لكنها تقيد يقال صلاة الجنازة ويقال صلوا على الميت كما قال تعالى {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ}التوبة٨٤ والصلاة على الميت قد بينها الشارع أنها دعاء مخصوص بخلاف قوله {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ}التوبة١٠٣ تلك قد بين أنها الدعاء المطلق الذي ليس له تحريم وتحليل ولا يشترط له استقبال القبلة ولا يمنع فيه من الكلام والسجود المجرد لا يسمى صلاة لا مطلقا ولا مقيدا ولهذا لا يقال صلاة التلاوة ولا صلاة الشكر فلهذا لم تدخل في قوله لا يقبل الله صلاة بغير طهور وقوله لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ فإن السجود مقصوده الخضوع والذل له وقيل لسهل بن عبد الله التستري أيسجد

القلب قال نعم سجدة لا يرفع رأسه منها أبدا ومسمى الصلاة لا بد فيه من الدعاء فلا يكون مصليا إلا بدعاء بحسب إمكانه والصلاة التي يقصد بها التقرب إلى الله لا بد فيها من قرآن وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا فالسجود لا يكون فيه قرآن وصلاة التقرب لا بد فيها من قرآن بخلاف الصلاة التي مقصودها الدعاء للميت فإنها بقرآن أكمل ولكن مقصودها يحصل بغير قرآن وأما مس المصحف فالصحيح أنه يجب له الوضوء كقول الجمهور وهذا هو المعروف عن الصحابة سعد وسلمان وابن عمر وفي كتاب عمرو بن حزم عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمس القرآن إلا طاهر وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن تناله أيديهم وقد أقر المشركين على السجود لله ولم ينكره عليهم فإن السجود لله خضوع {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}الرعد١٥ وأما كلامه فله حرمة عظيمة ولهذا ينهى أن يقرأ القرآن في حال الركوع والسجود فإذا نهى أن يقرأ في السجود لم يجز أن يجعل المصحف مثل السجود وحرمة المصحف أعظم من حرمة المسجد والمسجد يجوز أن يدخله المحدث ويدخله الكافر للحاجة وقد كان الكفار يدخلونه واختلف في نسخ ذلك بخلاف المصحف فلا يلزم إذا جاز الطواف مع الحدث أن يجوز للمحدث مس المصحف لأن حرمة المصحف أعظم وعلى هذا فما روي عن عثمان وسعيد من أن الحائض تومىء بالسجود هو لأن حدث الحائض أغلظ والركوع هو سجود خفيف كما قال تعالى {وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً}البقرة٥٨ قالوا ركعا فرخص لها في دون كمال السجود وأما احتجاج ابن حزم على أن ما دون ركعتين ليس بصلاة بقوله صلاة الليل والنهار مثنى مثنى فهذا يرويه الأزدي عن علي بن عبد الله البارقي عن ابن عمر وهو خلاف ما رواه الثقات المعروفون عن ابن عمر فإنهم رووا ما في الصحيحين أنه سئل عن صلاة الليل فقال صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الفجر فأوتر بواحدة ولهذا ضعف الإمام أحمد وغيره من العلماء حديث البارقي ولا يقال هذه زيادة من الثقة فتكون مقبولة لوجوه أحدها إن هذا متكلم فيه الثاني إن ذلك إذا لم يخالف الجمهور وإلا فإذا انفرد عن الجمهور ففيه قولان في مذهب أحمد وغيره الثالث إن هذا إذا لم يخالف المزيد عليه وهذا الحديث قد ذكر ابن عمر أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن صلاة الليل فقال صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة ومعلوم أنه لو قال صلاة الليل والنهار مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة لم يجز ذلك وإنما يجوز إذا ذكر صلاة الليل منفردة كما ثبت في الصحيحين والسائل إنما سأله عن صلاة الليل والنبي صلى الله عليه وسلم وإن كان قد يجيب عن أعم مما سئل

عنه كما في حديث البحر لما قيل له إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ من ماء البحر فقال هو الطهور ماؤه الحل ميتته لكن يكون الجواب منتظما كما في هذا الحديث وهناك هذا ذكر النهار لم يكن الجواب منتظما لأنه ذكر فيه قوله فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة وهذا ثابت في الحديث لا ريب فيه فإن قيل يحتمل أن يكون هذا قد ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس آخر كلاما مبتدأ لآخر إما لهذا السائل وإما لغيره قيل كل من روى عن ابن عمر إنما رواه هكذا فذكروا في أوله السؤال وفي آخره الوتر وليس فيه إلا صلاة الليل وهذا خالفهم فلم يذكر ما في أوله ولا ما في آخره وزاد في وسطه وليس هو من المعروفين بالحفظ والإتقان ولهذا لم يخرج حديثه أهل الصحيح البخاري ومسلم وهذه الأمور وما أشبهها متى تأملها اللبيب علم أنه غلط في الحديث وإن لم يعلم ذلك أوجب ريبة قوية تمنع الاحتجاج به على إثبات مثل هذا الأصل العظيم ومما يبين ذلك أن الوتر ركعة وهو صلاة وكذلك صلاة الجنازة وغيرها فعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد بذلك بيان مسمى الصلاة وتحديدها فإن الحد يطرد وينعكس فإن قيل قصد بيان ما يجوز من الصلاة قيل ما ذكرتم جائز وسجود التلاوة والشكر أيضا جائز فلا يمكن الاستدلال به لا على الاسم ولا على الحكم وكل قول ينفرد به المتأخر عن المتقدمين ولم يسبقه إليه أحد منهم فإنه يكون خطأ كما قال الإمام أحمد بن حنبل إياك أن تتكلم في السؤال ليس لك فيها إمام وأما سجود السهو فقد جوزه ابن حزم أيضا على غير طهارة وإلى غير القبلة كسجود التلاوة على بناء على أصله الضعيف ولهذا لا يعرف عن أحد من السلف وليس هو مثل سجود التلاوة والشكر لأن هذا سجدتان يقومان مقام ركعة من الصلاة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح حديث الشك إذا شك أحدكم فلم يدر ثلاثا صلى أم أربعا فليطرح الشك وليبن على ما تيقن ثم ليسجد سجدتين قبل أن يسلم فإن صلى خمسا شفعتا له صلاته وإلا كانتا ترغيما للشيطان وفي لفظ وإن كانت صلاته تماما كانتا ترغيما فجعلهما كالركعة السادسة التي تشفع الخامسة المزيدة سهوا ودل ذلك على أنه يؤجر عليها لأنه اعتقد أنها من تمام المكتوبة وفعلها تقربا إلى الله وإن كان مخطئا في هذا الاعتقاد وفي هذا ما يدل على أن من فعل ما يعتقده قربة بحسب اجتهاده إن كان مخطئا في ذلك أنه يثاب على ذلك وإن كان له علم أنه ليس بقربة يحرم عليه فعله وأيضا فإن سجدتي السهو يفعلان إما قبل السلام وإما قريبا من السلام فهما متصلان بالصلاة داخلان فيها فهما منها وأيضا فإنهما جبران للصلاة فكانتا كالجزء من الصلاة وأيضا فإن لهما تحليلا وتحريما فإنه يسلم منهما ويتشهد فصارتا أوكد من صلاة الجنازة وفي الجملة سجدتا السهو من جنس سجدتي الصلاة لا من جنس

سجود التلاوة والشكر ولهذا يفعلان إلى الكعبة وهذا عمل المسلمين من عهد نبيهم ولم ينقل عن أحد أنه فعلها إلى غير القبله ولا بغير وضوء كما يفعل ذلك في سجود التلاوة وإذا كان السهو في الفريضة كان عليه أن يسجدهما بالأرض كالفريضة ليس له أن يفعلهما على الراحلة وأيضا فإنهما واجبتان كما دل عليه نصوص كثيرة وهو قول أكثر الفقهاء بخلاف سجود الشكر فإنه لا يجب بالاجماع وفي استحبابه نزاع وسجود التلاوة في وجوبه نزاع وإن كان مشروعا بالإجماع فسجود التلاوة سببه القراءة فيتبعها ولما كان المحدث له أن يقرأ فله أن يسجد بطريق الأولى فإن القراءة أعظم من مجرد سجود التلاوة والمشركون قد سجدوا وما كانوا يقرأون القرآن وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ القرآن في حال الركوع والسجود فعلم أن القرآن أفضل من هذه الحال وقوله أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد إي من الأفعال فلم تدخل الأقوال في ذلك ويفرق بين الأقرب والأفضل فقد يكون بعض الأعمال أفضل من السجود وإن كان في السجود أقرب كالجهاد فإنه سنام العمل إلا أن يراد السجود العام وهو الخضوع فهذا يحصل له في حال القراءة وغيرها وقد يحصل للرجل في حال القراءة من الخشوع والخضوع ما لا يحصل له في حال السجود وهذا كقوله أقرب ما يكون الرب تعالى من عبده في جوف الليل وقوله ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل وقوله إنه يدنو عشية عرفة ومعلوم أن من الأعمال ما هو أفضل من الوقوف بعرفة ومن قيام الليل كالصلوات الخمس والجهاد في سبيل الله تعالى وقد قال تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}البقرة١٨٦ فهو قريب ممن دعاه وقد يكون غير الداعي أفضل من الداعي كما قال من شغله قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين و الله أعلم [١]

## {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ}

قال تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا}البقرة٢١٩ هذه الآية أول ما نزلت فى الخمر فانهم سألوا عنها النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية ولم يحرمها فأخبرهم أن فيها إثما وهو

---

[١] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٥٧-٧٣

ما يحصل بها من ترك المأمور وفعل المحظور وفيها منفعة وهو ما يحصل من اللذة ومنفعة البدن والتجارة فيها فكان من الناس من لم يشربها ومنهم من شرب ثم بعد هذا شرب قوم الخمر فقاموا يصلون وهم سكارى فخلطوا فى القراءة فأنزل الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ} النساء٤٣ فنهاهم عن شربها قرب الصلاة فكان منهم من تركها ثم بعد ذلك أنزل الله تعالى {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ} المائدة٩٠ فحرمها الله فى هذه الآية من وجوه متعددة فقالوا انتهينا انتهينا ومضى حينئذ أمر النبى باراقتها فكسرت الدنان والظروف ولعن عاصرها ومعتصرها وشاربها وآكل ثمنها [1]

حرم الله الخمر في الوقت الذي كانت الحكمة تقتضي تحريمها

ومن الحكمة الناشئة من الأمر أن ما أمر به و نهى عنه صار متصفا بحسن إكتسبه من الأمر و قبح إكتسبه من النهي كالخمر التى كانت لم تحرم ثم حرمت فصارت خبيثة و الصلاة إلى الصخرة التى كانت حسنة فلما نهى عنها صارت قبيحة فأما ما أمر به يحبه و يرضاه و ما نهى عنه يبغضه و يسخطه و هو إذا أحب عبدا و والاه أعطاه من الصفات الحسنة ما يمتاز بها على من أبغضه و عاداه و كذلك المكان و الزمان الذي يحبه و يعظمه كالكعبة و شهر رمضان يخصه بصفات يميزه بها على ما سواه بحيث يحصل فى ذلك الزمان و المكان من رحمته و إحسانه و نعمته ما لا يحصل فى غيره فإن قيل الخمر قبل التحريم وبعده سواء فتخصيصها بالخبث بعد التحريم ترجيح بلا مرجح قيل ليس كذلك بل إنما حرمها في الوقت الذي كانت الحكمة تقتضي تحريمها وليس معنى كون الشيء حسنا وسيئا مثل كونه أسود وأبيض بل هو من جنس كونه نافعا وضارا وملائما ومنافرا وصديقا وعدوا ونحو هذا من الصفات القائمة بالموصوف التي تتغير بتغير الأحوال فقد يكون الشيء نافعا في وقت ضارا في وقت والشيء الضار قد يترك تحريمه إذا كانت مفسدة التحريم أرجح كما لو حرمت الخمر في أول الإسلام فإن النفوس كانت قد اعتادتها عادة شديدة ولم يكن حصل عندهم من قوة الإيمان ما يقبلون ذلك التحريم ولا كان إيمانهم ودينهم تاما حتى لم يبق فيه نقص إلا ما يحصل بشرب الخمر من صدها عن ذكر الله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ١٩٢

وعن الصلاة فلهذا وقع التدريج في تحريمها فأنزل الله أولا فيها {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا}البقرة٢١٩ ثم أنزل فيها لما شربها طائفة وصلوا فغلط الإمام في القراءة آية النهي عن الصلاة سكارى ثم أنزل الله آية التحريم [١]

حد السكران

فجعل الغاية التي يزول بها حكم السكر ان يعلم ما يقول فمتى كان لا يعلم ما يقول فهو في السكر واذا علم ما يقول خرج عن حكمه فهذا اصل يجب اعتماده وهذا هو حد السكران عند جمهور العلماء قال احمد بن حنبل بما نقله عن سعيد بن جبير انه قال اذا لم يعلم بثيابه من ثياب غيره ولا نعله من نعال غيره فجعل ذلك عدم التمييز بين ثوبه وثوب غيره ويروي عن الشافعي انه قال اذا اختلط كلامه المنظوم وافشى سره المكتوم فالسكر يجمع معنيين وجود لذة وعدم تمييز والذي يقصد السكر قد يقصد احدهما وقد يقصد كلاهما وهو اثم فإن النفس لها اهواء وشهوات تلتذ بنيلها وادراكها والعقل والعلم بما في تلك الافعال من المضرة في الدنيا والاخرة يمنعها عن ذلك فإذا زال العقل الحافظ انبسطت النفس في اهوائها وحرم الله السكر لسببين ذكرهما الله في كتابه بقوله انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة سورة المائدة ٩١ فأخبر انه يوجب المفسدة الفاشية من النفس بعدم العقل ويمنع المصلحة التي لا تتم الا بالعقل التي خلق لها العبد وهي ذكر الله والصلاة وقد يكون سبب السكر من الألم كما يكون من اللذة كما قال تعالى وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد سورة الحج ٢ فأخبر انهم يرون سكارى وما هم بسكارى فإذا عرف ذلك فسبب السكر ما يوجب اللذة ويمنع العلم فمنه السكر بالأطعمه والاشربة المسكرة فإن طاعمها يحصل له بذلك لذة وسرور وهو الحامل لأكثر الناس على شربها ويغيب عقله فتغيب عنه الهموم والاحزان تلك الساعة ومن الناس من يقصد المنفعة للبدن ولكن يحصل له من المضرة بالأفعال والأقوال التي تتولد عن السكر ويمنع عن المنفعة من ذكر الله والصلاة وغيرهما ما هو اعظم اثما من منفعتها

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٢٠١

فإن اللذة لحاصلة بذكر الله والصلاة باقية دافعة للهموم والاحزان ليس دفعه اياه وقت الصلاة فقط كما قال تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة سورة البقرة ٤٥ وقال ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر سورة العنكبوت ٤٥ ففي هذه اللذة والمنفعة العظيمة الشريفة الدافعة للمضار ما يغني عن تلك القاصرة المانعة مما هو اكمل منها والجالبة لمضرة تربي عليها وهذا السكر جسماني ومن السكر ما يكون بحب الصور اما النساء واما الصبيان فإنه اذا استحكم الحب وحصل للمحب اتصال فقد يسكر كما قال بعضهم سكران سكر هوى وسكر مدامة فمتى إفاقة من به سكران ووقت الجماع ينقص تمييز اكثر الناس ايضا وهو مبدأ سكر ومن السكر ايضا ما يكون بحب الرياسة والمال او شفاء الغيظ فإنه اذا قوى ذلك اوجب سكرا وانما كانت هذه الاشياء قد توجب سكرا لأن السكر شبيه ما يوجب اللذة القاهرة التي تغمر العقل وسبب اللذة ادراك المحبوب فإذا كانت المحبة قوية وادراك المحب قويا والعقل والتمييز ضعيفا كان ذلك سببا للسكر لكن ضعف العقل تارة يكون من ضعف نفس الانسان المحب وتارة يكون من قوة السبب الوارد ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في ادراك الرياسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه [1]

<u>من لا عقل له لا يصح إيمانه ولا فرضه</u>

فمن لا عقل له لا يصح إيمانه ولا فرضه ولا نفله ومن كان يهوديا أو نصرانيا ثم جن وأسلم بعد جنونه لم يصح إسلامه لا باطنا ولا ظاهرا ومن كان قد آمن ثم كفر وجن بعد ذلك فحكمه حكم الكفار ومن كان مؤمنا ثم جن بعد ذلك أثيب على إيمانه الذى كان فى حال عقله ومن ولد مجنونا ثم إستمر جنونه لم يصح منه إيمان ولا كفر وحكم المجنون حكم الطفل إذا كان أبواه مسلمين كان مسلما تبعا لأبويه بإتفاق المسلمين وكذلك إذا كانت أمه مسلمة عند جمهور العلماء كأبى حنيفة والشافعى وأحمد وكذلك من جن بعد إسلامه يثبت لهم حكم الإسلام تبعا لآبائهم وكذلك المجنون الذى ولد بين المسلمين يحكم له بالإسلام ظاهرا تبعا لأبويه أو لأهل الدار كما يحكم بذلك للأطفال لا لأجل إيمان قام به فأطفال المسلمين ومجانينهم يوم القيامة

---

[1] الاستقامة ج: ٢ ص: ١٤٤-١٤٧

تبع لآبائهم وهذا الإسلام لا يوجب له مزية على غيره ولا أن يصير به من أولياء الله المتقين الذين يتقربون إليه بالفرائض والنوافل وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ}النساء٤٣ فنهى الله عز وجل عن قربان الصلاة إذا كانوا سكارى حتى يعلموا ما يقولون وهذه الآية نزلت بإتفاق العلماء قبل أن تحرم الخمر بالآية التى أنزلها الله فى سورة المائدة وقد روى أنه كان سبب نزولها أن بعض الصحابة صلى بأصحابه وقد شرب الخمر قبل أن تحرم فخلط فى القراءة فأنزل الله هذه الآية فإذا كان قد حرم الله الصلاة مع السكر والشرب الذى لم يحرم حتى يعلموا ما يقولون علم أن ذلك يوجب أن لا يصلى أحد حتى يعلم ما يقول فمن لم يعلم ما يقول لم تحل له الصلاة وأن كان عقله قد زال بسبب غير محرم ولهذا إتفق العلماء على أنه لا تصح صلاة من زال عقله بأى سبب زال فكيف بالمجنون وقد قال بعض المفسرين وهو يروى عن الضحاك لا تقربوها وأنتم سكارى من النوم وهذا إذا قيل أن الآية دلت عليه بطريق الإعتبار أو شمول معنى اللفظ العام وإلا فلا ريب أن سبب نزول الآية كان السكر من الخمر واللفظ صريح فى ذلك والمعنى الآخر صحيح أيضا وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا قام أحكم يصلى بالليل فإستعجم القرآن على لسانه فليرقد فإنه لا يدرى لعله يريد أن يستغفر فيسب نفسه وفى لفظ إذا قام يصلى فنعس فليرقد فقد نهى النبى عن الصلاة مع النعاس الذى يغلط معه الناعس وقد إحتج العلماء بهذا على أن النعاس لا ينقص الوضوء إذ لو نقض بذلك لبطلت الصلاة أو لوجب الخروج منها لتجديد الطهارة والنبى إنما علل ذلك بقوله فإنه لا يدرى لعله يريد أن يستغفر فيسب نفسه فعلم أنه قصد النهى عن الصلاة لمن لا يدرى ما يقول وإن كان ذلك بسبب النعاس وطرد ذلك أنه ثبت عنه فى الصحيح أنه قال لا يصلى أحدكم وهو يدافع الأخبثين ولا بحضرة طعام لما فى ذلك من شغل القلب وقال أبوالدرداء من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته فيقضيها ثم يقبل على صلاته وقلبه فارغ فإذا كانت الصلاة محرقة مع ما يزيل العقل ولو كان بسبب مباح حتى يعلم ما يقول كانت صلاة المجنون ومن يدخل فى مسمى المجنون وإن سمى مولها أو متولها أولى أن لا تجوز صلاته [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٣٧-٤٣٩

الشارع لم يرتب المؤاخذة إلا على ما يكسبه القلب من الأقوال و الأفعال الظاهرة

و المأمور نوعان نوع هو عمل ظاهر على الجوارح و هذا لايكون الا بعلم القلب و ارادته فالقلب هو الاصل فيه كالوضوء و الاغتسال و كافعال الصلاة من القيام و الركوع و السجود و أفعال الحج من الوقوف و الطواف وان كانت أقوالا فالقلب أخص بها فلا بد أن يعلم القلب وجود ما يقوله أو بما يقول و يقصده ولهذا كانت الاقوال في الشرع لا تعتبر إلا من عاقل يعلم ما يقول و يقصده فاما المجنون و الطفل الذي لايميز فأقواله كلها لغو فى الشرع لا يصح منه ايمان و لا كفر و لا عقد من العقود و لاشيء من الأقوال باتفاق المسلمين و كذلك النائم إذا تكلم فى منامه فأقواله كلها لغو سواء تكلم المجنون و النائم بطلاق أو كفر أو غيره و هذا بخلاف الطفل فإن المجنون و النائم إذا اتلف مالا ضمنه و لو قتل نفسا و جبت ديتها كما تجب دية الخطأ وتنازع العلماء فى السكران مع اتفاقهم أنه لا تصح صلاته لقوله صلى الله عليه و سلم مروهم بالصلاة لسبع و اضربوهم عليها لعشر و فرقوا بينهم فى المضاجع و هو معروف فى السنن و تنازعوا فى عقود السكران كطلاقه و في أفعاله المحرمة كالقتل و الزنا هل يجري مجرى العاقل أو مجرى المجنون أو يفرق بين أقواله و أفعاله و بين بعض ذلك و بعض على عدة أقوال معروفة و الذي تدل عليه النصوص و الأصول و أقوال الصحابة أن أقواله هدر كالمجنون لا يقع بها طلاق ولاغيره فان الله تعالى قد قال {حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ}النساء٤٣ فدل على أنه لايعلم ما يقول و القلب هو الملك الذي تصدر الأقوال و الافعال عنه فاذا لم يعلم ما يقول لم يكن ذلك صادرا عن القلب بل يجري مجرى اللغو والشارع لم يرتب المؤاخذة إلا على ما يكسبه القلب من الأقوال و الأفعال الظاهرة كما قال {يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ}البقرة٢٢٥ و لم يؤاخذ على أقوال و أفعال لم يعلم بها القلب و لم يتعمدها و كذلك ما يحدث به المرء نفسه لم يؤاخذ منه الا بما قاله أو فعله و قال قوم إن الله قد أثبت للقلب كسبا فقال {بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ}البقرة٢٢٥ فليس لله عبد اسر عملا أو أعلنه من حركة في جوارحه أو هم في قلبه إلا يخبره الله به و يحاسبه عليه ثم يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء واحتجوا بقوله تعالى {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}الإسراء٣٦ و هذا القول ضعيف شاذ فإن قوله {يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ}البقرة٢٢٥ إنما ذكره لبيان أنه يؤاخذ فى الأعمال بما كسب القلب لايؤاخذ بلغو الايمان كما قال {بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ}المائدة٨٩ فالمؤاخذة لم تقع إلا بما اجتمع فيه كسب القلب مع عمل الجوارح فاما ما وقع فى النفس فإن الله تجاوز عنه مالم يتكلم به أو يعمل و ما وقع من لفظ أو حركة بغير قصد القلب و علمه فانه لايؤاخذ به و أيضا فاذا كان السكران لايصح طلاقه و الصبى المميز

تصح صلاته ثم الصبى لايقع طلاقه فالسكران أولى و قد قال النبى صلى الله عليه و سلم لماعز لما اعترف بالحد أبك جنون قال لا ثم أمر باستنكاهه لئلا يكون سكران فدل على أن إقرار السكران باطل و قضية ماعز متأخرة بعد تحريم الخمر فان الخمر حرمت سنة ثلاث بعد احد باتفاق الناس و قد ثبت عن عثمان و غيره من الصحابة كعبد الله بن عباس أن طلاق السكران لا يقع و لم يثبت عن صحابي خلافه و الذين أوقعوا طلاقه لم يذكروا إلا مأخذا ضعيفا و عمدتهم أنه عاص بازالة عقله و هذا صحيح يوجب عقوبته على المعصية التى هي الشرب فيحد على ذلك و أما الطلاق فلا يعاقب به مسلم على المعصية و لو كان كذلك لكان كل من شرب الخمر أو سكر طلقت امرأته و إنما قال من قال إذا تكلم به طلقت فهم اعتبروا كلامه لا معصيته ثم إنه فى حال سكره قد يعتق و العتق قربة فإن صححوا عتقه بطل الفرق و ان الغوه فالغاء الطلاق أولى فان الله يحب العتق و لا يحب الطلاق ثم من علل ذلك بالمعصية لزمه طرد ذلك فيمن زال عقله بغير مسكر كالبنج و هو قول من يسوى بين البنج و السكران من أصحاب الشافعي و موافقيه كأبي الخطاب و الاكثرون على الفرق و هو منصوص أحمد و أبى حنيفةوغيرهما لأن الخمر تشتهيها النفس و فيها الحد بخلاف البنج فإنه لاحد فيه بل فيه التعزير لأنه لايشتهى كالميتة و الدم و لحم الخنزير فيها التعزير و عامة العلماء على أنه لاحد فيها إلا قولا نقل عن الحسن فهذا فيمن زال عقله وأما إذا كان يعلم ما يقول فان كان مختارا قاصدا لما يقوله فهذا هو الذي يعتبر قوله و ان كان مكرها فان اكره على ذلك بغير حق فهذا عند جمهور العلماء أقواله كلها لغو مثل كفره و ايمانه و طلاقه و غيره و هذا مذهب مالك و الشافعي و أحمد و غيرهم وأبو حنيفة و طائفة يفرقون بين ما يقبل الفسخ و ما لايقبله قالوا فما يقبل الفسخ لا يلزم من المكره كالبيع بل يقف على إجازته له و ما لا يقبل الفسخ كالنكاح و الطلاق و اليمين فإنه يلزم من المكره والجمهور ينازعون فى هذا الفرق فى ثبوت الوصف و فى تعلق الحكم به فانهم يقولون النكاح و نحوه يقبل الفسخ و كذلك العتق يقبل الفسح عند الشافعي و أحد القولين في مذهب أحمد حتى أن المكاتب قد يحكمون بعتقه ثم يفسخون العتق و يعيدونه عبدا و الايمان المنعقدة تقبل التحلة كما قال تعالى {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} التحريم٢ [١]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص:١١٥- ١١٨

لا تصح صلاة من زال عقله بأي سبب زال

وقد أنزل الله تعالى في علي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ}النساء٤٣ لما صلى فقرا وخلط [١]

فنهى الله عز وجل عن قربان الصلاة إذا كانوا سكارى حتى يعلموا ما يقولون وهذه الآية نزلت باتفاق العلماء قبل أن تحرم الخمر بالآية التي أنزلها الله في سورة المائدة وقد روي أنه كان سبب نزولها أن بعض الصحابة صلى بأصحابه وقد شرب الخمر قبل أن تحرم فخلط فغلط في القراءة فأنزل الله هذه الآية فإذا كان قد حرم الله الصلاة مع السكر والشرب الذي لم يحرم حتى يعلموا ما يقولون علم أن ذلك يوجب أن لا يصلي أحد حتى يعلم ما يقول فمن لم يعلم ما يقول لم تحل له الصلاة وإن كان عقله قد زال بسبب غير محرم ولهذا اتفق العلماء على أنه لا تصح صلاة من زال عقله بأي سبب زال فكيف بالمجنون وقد قال بعض المفسرين وهو يروي عن الضحاك لا تقربوها وأنتم سكارى من النوم وهذا إذا قيل أن الآية دلت عليه بطريق الأعتبار أو شمول معنى اللفظ العام وإلا فلا ريب أن سبب الآية كان السكر من الخمر واللفظ صريح في ذلك والمعنى الآخر صحيح أيضا وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا قام أحدكم يصلي بالليل فاستعجم القرآن على لسانه فليرقد فإنه لا يدري لعله يريد أن يستغفر فيسب نفسه وفي لفظ إذا قام يصلي فنعس فليرقد فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة مع النعاس الذي يغلط معه الناعس وقد احتج العلماء بهذا على أن النعاس لا ينقض الوضوء إذ لو نقض بذلك لبطلت الصلاة أو لوجب الخروج منها لتجديد الطهارة والنبي صلى الله عليه وسلم إنما علل ذلك بقوله فإنه لا يدري لعله يريد أن يستغفر فيسب نفسه فعلم أنه قصد النهي عن الصلاة لمن لا يدري ما يقول وإن كان ذلك بسبب النعاس وطرد ذلك أنه ثبت عنه في الصحيح أنه قال لا يصلي أحدكم وهو يدافع الأخبثين ولا بحضرة طعام لما في ذلك من شغل القلب وقال أبو الدرداء من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته فيقضيها ثم يقبل على صلاته وقلبه فارغ فإذا كانت الصلاة محرمة مع ما يزيل العقل ولو كان بسبب مباح حتى يعلم ما يقول كانت

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٢٣٧

صلاة المجنون ومن يدخل في مسمى المجنون وإن سمي مولها أو متولها أو ولي أن لا تجوز صلاته ومعلوم أن الصلاة أفضل العبادات كما في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال قلت للنبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب إلى الله قال الصلاة على وقتها قلت ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد قال حدثني بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزادني [١]

صلاة السكران الذي لا يعلم ما يقول لا تجوز باتفاق بل ولا يجوز أن يمكن من دخول المسجد لهذه الآية وغيرها فإن النهي عن قربان الصلاة وقربان مواضع الصلاة و الله أعلم [٢]

كل من بطلت عبادته لعدم عقله فبطلان عقوده أولى وأحرى

أنه لا تصح صلاته فى هذه الحالة ومن لا تصح صلاته لا يقع طلاقه وقد قال {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ}النساء٤٣ وأما قوله تعالى {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ}النساء٤٣ فهو نهى لهم أن يسكروا سكرا يفوتون به الصلاة أو نهى لهم عن الشرب قريب الصلاة أو نهى لمن يدب فيه أوائل النشوة وأما فى حال السكر فلا يخاطب بحال والدليل على أنه لا تصح تصرفاته وجوه أحدها حديث جابر بن سمرة الذى فى صحيح مسلم لما أمر النبى بإستكناه ماعز بن مالك الثانى أن عبادته كالصلاة لا تصح بالنص والإجماع فان الله نهى عن قرب الصلاة مع السكر حتى يعلم ما يقوله واتفق الناس على هذا بخلاف الشارب غير السكران فان عبادته تصح بشروطها ومعلوم أن صلاته إنما لم تصح لأنه لم يعلم ما يقول كما دل عليه القرآن فنقول كل من بطلت عبادته لعدم عقله فبطلان عقودة أولى وأحرى كالنائم والمجنون ونحوهما فانه قد تصح عبادات من لا يصح تصرفه لنقص عقله كالصبى والمحجور عليه لسفه الثالث أن جميع الأقوال والعقود مشروطة بوجود التمييز والعقل فمن لا تمييز له

---

[١] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٢٦٥-٢٦٦

[٢] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ١٢٦ و مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٥

ولا عقل ليس لكلامه فى الشرع إعتبار اصلا كما قال النبى إن فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد الا وهى القلب فاذا كان القلب قد زال عقله الذى به يتكلم ويتصرف فكيف يجوز أن يجعل له أمر ونهى أو إثبات ملك أو إزالته وهذا معلوم بالعقل مع تقرير الشارع له الرابع أن العقود وغيرها من التصرفات مشروطة بالقصود كما قال النبى إنما االاعمال بالنيات وقد قررت هذه القاعدة فى كتاب بيان الدليل على بطلان التحليل وقررت أن كل لفظ بغير قصد من المتكلم لسهو وسبق لسان وعدم عقل فانه لا يترتب عليه حكم وأما اذا قصد اللفظ ولم يقصد معناه كالهازل فهذا فيه تفصيل والمراد هنا بالقصد القصد العقلى الذى يختص بالعقل فأما القصد الحيوانى الذى يكون لكل حيوان فهذا لابد منه فى وجود الأمور الإختيارية من الألفاظ والأفعال وهذا وحده غير كاف فى صحة العقود والأقوال فان المجنون والصبى وغيرهما لهما هذا القصد كما هو للبهائم ومع هذا فأصواتهم وألفاظهم باطلة مع عدم التمييز لكن الصبى المميز والمجون الذى يميز أحيانا يعتبر قوله حين التمييز الخامس أن هذا من باب خطاب الوضع والإخبار لا من باب خطاب التكليف وذلك أن كون السكران معاقبا أو غير معاقب ليس له تعلق بصحة عقوده وفسادها فان العقود ليست من باب العبادات التى يثاب عليها ولا الجنايات التى يعاقب عليها بل هى من التصرفات التى يشترك فيها البر والفاجر والمؤمن والكافر وهي من لوازم وجود الخلق فإن العهود والوفاء بها أمر لاتتم مصلحة الآدميين الا بها لا حتياج بعض الناس الى بعض فى جلب المنافع ودفع المضار وانما تصدر عن العقل فمن لم يكن له عقل ولا تمييز لم يكن قد عاهد ولا حلف ولا باع ولا نكح ولا طلق ولا اعتق يوضع ذلك أنه معلوم أن قبل تحريم الخمر كان كلام السكران باطلا بالإتفاق ولهذا لما تكلم حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فى سكره قبل التحريم بقوله هل أنتم إلا عبيد لأبى لم يكن مؤاخذا عليه وكذالك لما خلط المخلط من المهاجرين الأولين فى سورة {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}الكافرون١ قبل النهى لم يعتب عليه وكذلك الكفار لو شربوا الخمر وعاهدوا وشرطوا لم يلتفت الى ذلك منهم بالاتفاق ومن سكر سكرا لا يعاقب عليه مثل أن يشرب مالا يعلم أنه يسكره ونحو ذلك فأما من سكر بشرب محرم فلا ريب أنه يأثم بذلك ويستحق من عقوبة الدنيا والآخرة ما جاء به أمر الله تعالى فهذا الفرق ثابت بينه وبين من سكر سكرا يعذر فيه فاما كون عهده الذى يعاهد به الآدميين

منعقدا يترتب عليه أثره ويحصل به مقصوده فهذا لا فرق فيه بين سكر المعذور وغير المعذور لان هذا إنما كان الموجب لصحته أن صاحبه فعله وهو عاقل مميز لا أنه بر وفاجر والشرع لم يجعل السكران بمنزله الصاحى أصلا [1]

علق الله ورسوله أحكاما بالسفر

وقد علق الله ورسوله أحكاما بالسفر كقوله تعالى فى التيمم {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ}النساء٤٣ وقوله فى الصوم فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}البقرة١٨٤ وقوله {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ}النساء١٠١ وقول النبى يمسح المسافر ثلاثة أيام ولياليهن وقوله لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر إلا مع زوج أو ذى محرم وقوله ان الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ولم يذكر قط فى شىء من نصوص الكتاب والسنة تقييد السفر بنوع دون نوع فكيف يجوز أن يكون الحكم معلقا بأحد نوعى السفر ولا يبين الله ورسوله ذلك بل يكون بيان الله ورسوله متناولا للنوعين وهكذا فى تقسيم السفر إلى طويل وقصير وتقسيم الطلاق بعد الدخول إلى بائن ورجعى وتقسيم الأيمان إلى يمين مكفرة وغير مكفرة وأمثال ذلك مما علق الله ورسوله الحكم فيه بالجنس المشترك العام فجعله بعض الناس نوعين نوعا يتعلق به ذلك الحكم ونوعا لا يتعلق من غير دلالة على ذلك من كتاب ولا سنة لا نصا ولا استنباطا [2]

الأحكام التى علقها الله بالسفر علقها به مطلقا

الفرق بين السفر الطويل والقصير فيقال هذا الفرق لا أصل له فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله بل الأحكام التى علقها الله بالسفر علقها به مطلقا كقوله تعالى فى آية الطهارة {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ}المائدة٦

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٣ ص: ١٠٧-١٠٩ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ١٦١

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص:١٠٩- ١١٠

وقوله تعالى فى آية الصيام {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}البقرة١٨٤ وقوله تعالى {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ}النساء١٠١ وقول النبى إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة وقول عائشة فرضت الصلاة ركعتين فأقرت صلاة السفر وزيدت فى الحضر وقول عمر صلاة الأضحى ركعتان وصلاة الفطر ركعتان وصلاة السفر ركعتان وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم وقوله صلى الله عليه وسلم يمسح المقيم يوما وليلة والمسافر ثلاثة أيام ولياليهن وقول صفوان بن عسال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا سفرا أو مسافرين أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة ولكن من غائط أو بول أو نوم وقول النبى صلى الله عليه وسلم إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم وقوله السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليتعجل الرجوع إلى أهله فهذه النصوص وغيرها من نصوص الكتاب والسنة ليس فيها تفريق بين سفر طويل وسفر قصير فمن فرق بين هذا وهذا فقد فرق بين ما جمع الله بينه فرقا لا أصل له فى كتاب الله ولا سنة رسوله وهذا الذى ذكر من تعليق الشارع الحكم بمسمى الاسم المطلق وتفريق بعض الناس بين نوع ونوع من غير دلالة شرعية له نظائر منها أن الشارع علق الطهارة بمسمى الماء فى قوله {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً}النساء٤٣ ولم يفرق بين ماء وماء ولم يجعل الماء نوعين طاهرا وطهورا ومنها أن الشارع علق المسح بمسمى الخف ولم يفرق بين خف وخف فيدخل فى ذلك المفتوق والمخروق وغيرهما من غير تحديد ولم يشترط أيضا أن يثبت بنفسه ومن ذلك أنه أثبت الرجعة فى مسمى الطلاق بعد الدخول ولم يقسم طلاق المدخول بها إلى طلاق بائن ورجعى ومن ذلك أنه أثبت الطلقة الثالثة بعد طلقتين وافتداء والافتداء الفرقة بعوض وجعلها موجبة للبينونة بغير طلاق يحسب من الثلاث وهذا الحكم معلق بهذا المسمى لم يفرق فيه بين لفظ ولفظ ومن ذلك أنه علق الكفارة بمسمى أيمان المسلمين فى قوله تعالى {ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ}المائدة٨٩ وقوله {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}التحريم٢ ولم يفرق بين يمين ويمين من أيمان المسلمين فجعل أيمان المسلمين المنعقدة تنقسم إلى مكفرة وغير مكفرة مخالف لذلك ومن ذلك أنه علق التحريم بمسمى الخمر وبين أن الخمر هى المسكر فى قوله كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ولم يفرق بين مسكر ومسكر ومن ذلك أنه علق الحكم بمسمى الإقامة كما علقه بمسمى السفر ولم يفرق بين مقيم ومقيم فجعل المقيم نوعين نوعا تجب عليه الجمعة بغيره ولا تنعقد

به ونوعا تنعقد به لا أصل له بل الواجب أن هذه الأحكام لما علقها الشارع بمسمى السفر فهى تتعلق بكل سفر سواء كان ذلك السفر طويلا أو قصيرا ولكن ثم أمور ليست من خصائص السفر بل تشرع فى السفر والحضر فإن المضطر إلى أكل الميتة لم يخص الله حكمه بسفر لكن الضرورة أكثر ما تقع به فى السفر فهذا لا فرق فيه بين الحضر والسفر الطويل والقصير فلا يجعل هذا معلقا بالسفر وأما الجمع بين الصلاتين فهل يجوز فى السفر القصير فيه وجهان فى مذهب أحمد أحدهما لا يجوز كمذهب الشافعى قياسا على القصر و الثانى يجوز كقول مالك لأن ذلك شرع فى الحضر للمرض والمطر فصار كأكل الميتة إنما علته الحاجة لا السفر وهذا هو الصواب فإن الجمع بين الصلاتين ليس معلقا بالسفر وإنما يجوز للحاجة بخلاف القصر

وأما الصلاة على الراحلة فقد ثبت فى الصحيح بل استفاض عن النبى انه كان يصلى على راحلته فى السفر قبل أى وجه توجهت به ويوتر عليها غير انه لا يصلى عليها المكتوبة وهل يسوغ ذلك فى الحضر فيه قولان فى مذهب أحمد وغيره فإذا جوز فى الحضر ففى القصر أولى وأما إذا منع فى الحضر فالفرق بينه وبين القصر والفطر يحتاج إلى دليل المقام الثانى حد السفر الذى علق الشارع به الفطر والقصر وهذا مما اضطرب الناس فيه قيل ثلاثة أيام وقيل يومين قاصدين وقيل أقل من ذلك حتى قيل ميل والذين حددوا ذلك بالمسافة منهم من قال ثمانية وأربعون ميلا وقيل ستة وأربعون وقيل خمسة وأربعون وقيل أربعون وهذه أقوال عن مالك وقد قال أبو محمد المقدسى لا أعلم لما ذهب إليه الأئمة وجها وهو كما قال رحمه الله فإن التحديد بذلك ليس ثابتا بنص ولا إجماع ولا قياس وعامة هؤلاء يفرقون بين السفر الطويل والقصير ويجعلون ذلك حدا للسفر الطويل ومنهم من لا يسمى سفرا إلا ما بلغ هذا الحد وما دون ذلك لا يسميه سفرا فالذين قالوا ثلاثة أيام احتجوا بقوله يمسح المسافر ثلاثة أيام ولياليهن وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال لا تسافر امرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا ومعها ذو محرم وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال مسيرة يومين وثبت فى الصحيح مسيرة يوم وفى السنن بريدا فدل على أن ذلك كله سفر وإذنه له فى المسح ثلاثة أيام إنما هو تجويز لمن سافر ذلك وهو لا يقتضى أن ذلك أقل السفر كما أذن للمقيم أن يمسح يوما وليلة وهو لا يقتضى أن ذلك أقل الاقامة والذين قالوا يومين اعتمدوا على قول إبن عمر وإبن عباس والخلاف فى ذلك مشهور عن الصحابة حتى عن إبن عمر وإبن عباس وما روى يا أهل مكة لا تقصروا فى أقل من أربعة برد من مكة إلى عسفان إنما هو من قول إبن عباس ورواية إبن خزيمة وغيره له مرفوعا إلى النبى باطل بلا شك عند أئمة

أهل الحديث وكيف يخاطب النبى أهل مكة بالتحديد وإنما أقام بعد الهجرة زمنا يسيرا وهو بالمدينة لا يحد لأهلها حدا كما حده لأهل مكة وما بال التحديد يكون لأهل مكة دون غيرهم من المسلمين وأيضا فالتحديد بالأميال والفراسخ يحتاج إلى معرفة مقدار مساحة الأرض وهذا أمر لا يعلمه إلا خاصة الناس ومن ذكره فإنما يخبر به عن غيره تقليدا وليس هو مما يقطع به والنبى لم يقدر الأرض بمساحة أصلا فكيف يقدر الشارع لأمته حدا لم يجر له ذكر فى كلامه وهو مبعوث إلى جميع الناس فلابد أن يكون مقدار السفر معلوما علما عاما وذرع الأرض مما لا يمكن بل هو إما متعذر وإما متعسر لأنه إذا أمكن الملوك ونحوهم مسح طريق فإنما يمسحونه على خط مستو أو خطوط منحنية انحناء مضبوطا ومعلوم أن المسافرين قد يعرفون غير تلك الطريق وقد يسلكون غيرها وقد يكون فى المسافة صعود وقد يطول سفر بعضهم لبطء حركته ويقصر سفر بعضهم لسرعة حركته والسبب الموجب هو نفس السفر لا نفس مساحة الأرض والموجود فى كلام النبى والصحابة فى تقدير الأرض بالأزمنة كقوله فى الحوض طوله شهر وعرضه شهر وقوله بين السماء والأرض خمسمائة سنة وفى حديث آخر إحدى أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة فقيل الأول بالسير المعتاد سير الإبل والاقدام والثانى سير البريد فانه فى العادة يقطع بقدر المعتاد سبع مرات وكذلك الصحابة يقولون يوم تام ويومان ولهذا قال من حده بثمانية وأربعين ميلا مسيرة يومين قاصدين بسير الابل والاقدام لكن هذا لا دليل عليه وإذا كان كذلك فنقول كل اسم ليس له حد فى اللغة ولا فى الشرع فالمرجع فيه إلى العرف فما كان سفرا فى عرف الناس فهو السفر الذى علق به الشارع الحكم وذلك مثل سفر أهل مكة إلى عرفة فإن هذه المسافة بريد وهذا سفر ثبت فيه جواز القصر والجمع بالسنة والبريد هو نصف يوم بسير الإبل والأقدام وهو ربع مسافة يومين وليلتين وهو الذى قد يسمى مسافة القصر وهو الذى يمكن الذاهب إليها أن يرجع من يومه وأما ما دون هذه المسافة إن كانت مسافة القصر محدودة بالمساحة فقد قيل يقصر فى ميل وروى عن إبن عمر أنه قال لو سافرت ميلا لقصرت قال إبن حزم لم نجد أحدا يقصر فى أقل من ميل ووجد إبن عمر وغيره يقصرون فى هذا القدر ولم يحد الشارع فى السفر حدا فقلنا بذلك اتباعا للسنة المطلقة ولم نجد أحدا يقصر بما دون الميل ولكن هو على أصله وليس هذا اجماعا فإذا كان ظاهر النص يتناول ما دون ذلك لم يضره أن لا يعرف أحدا ذهب إليه كعادته فى أمثاله وأيضا فليس فى قول إبن عمر أنه لا يقصر فى أقل من ذلك وأيضا فقد ثبت عن إبن عمر أنه كان لا يقصر فى يوم أو يومين فإما أن تتعارض أقواله أو تحمل على اختلاف الاحوال والكلام فى مقامين المقام الأول أن من سافر مثل سفر أهل مكة إلى عرفات

يقصر وأما إذا قيل ليست محدودة بالمسافة بل الاعتبار بما هو سفر فمن سافر ما يسمى سفرا قصر وإلا فلا وقد يركب الرجل فرسخا يخرج به لكشف أمر وتكون المسافة أميالا ويرجع فى ساعة أو ساعتين ولا يسمى مسافرا وقد يكون غيره فى مثل تلك المسافة مسافرا بأن يسير الإبل والأقدام سيرا لا يرجع فيه ذلك اليوم إلى مكانه والدليل على ذلك من وجوه أحدها أنه قد ثبت بالنقل الصحيح المتفق عليه بين علماء أهل الحديث أن النبى فى حجة الوداع كان يقصر الصلاة بعرفة ومزدلفة وفى أيام منى وكذلك أبو بكر وعمر بعده وكان يصلى خلفهم أهل مكة ولم يأمروهم بإتمام الصلاة ولا نقل أحد لا باسناد صحيح ولا ضعيف أن النبى قال لأهل مكة لما صلى بالمسلمين ببطن عرنة الظهر ركعتين قصرا وجمعا ثم العصر ركعتين يا أهل مكة أتموا صلاتكم ولا أمرهم بتأخير صلاة العصر ولا نقل أحد أن أحدا من الحجيج لا أهل مكة ولا غيرهم صلى خلف النبى خلاف ما صلى بجمهور المسلمين أو نقل أن النبى أو عمر قال فى هذا اليوم يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر فقد غلط وإنما نقل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال هذا فى جوف مكة لأهل مكة عام الفتح وقد ثبت أن عمر بن الخطاب قاله لأهل مكة لما صلى فى جوف مكة ومن المعلوم أنه لو كان أهل مكة قاموا فاتموا وصلوا أربعا وفعلوا ذلك بعرفة ومزدلفة وبمنى أيام منى لكان مما تتوفر الهمم والدواعى على نقله بالضرورة بل لو أخروا صلاة العصر ثم قاموا دون سائر الحجاج فصلوها قصرا لنقل ذلك فكيف إذا أتموا الظهر أربعا دون سائر المسلمين وأيضا فإنهم إذا أخذوا فى إتمام الظهر والنبى قد شرع فى العصر لكان إما أن ينتظرهم فيطيل القيام وإما أن يفوتهم معه بعض العصر بل أكثرها فكيف إذا كانوا يتمون الصلوات وهذا حجة على كل أحد وهو على من يقول إن أهل مكة جمعوا معه أظهر وذلك أن العلماء تنازعوا فى أهل مكة هل يقصرون ويجمعون بعرفة على ثلاثة أقوال فقيل لا يقصرون ولا يجمعون وهذا هو المشهور عند أصحاب الشافعى وطائفة من أصحاب أحمد كالقاضى فى المجرد وإبن عقيل فى الفصول لاعتقادهم أن ذلك معلق بالسفر الطويل وهذا قصير والثانى أنهم يجمعون ولا يقصرون وهذا مذهب أبى حنيفة وطائفة من أصحاب أحمد ومن أصحاب الشافعى والمنقولات عن أحمد توافق هذا فإنه أجاب فى غير موضع بأنهم لا يقصرون ولم يقل لا يجمعون وهذا هو الذى رجحه أبو محمد المقدسى فى الجمع وأحسن فى ذلك والثالث أنهم يجمعون ويقصرون وهذا مذهب مالك وإسحاق بن راهويه وهو قول طاووس وإبن عيينة وغيرهما من السلف وقول طائفة من أصحاب أحمد والشافعى كأبى الخطاب فى العبادات الخمس وهو الذى رجحه أبو محمد المقدسى وغيره من أصحاب أحمد فإن أبا محمد وموافقيه

رجحوا الجمع للمكى بعرفة وأما القصر فقال أبو محمد الحجة مع من أباح القصر لكل مسافر إلا أن ينعقد الاجماع على خلافه والمعلوم أن الاجماع لم ينعقد على خلافه وهو اختيار طائفة من علماء أصحاب أحمد كان بعضهم يقصر الصلاة فى مسيرة بريد وهذا هو الصواب الذى لا يجوز القول بخلافه لمن تبين السنة وتدبرها فإن من تأمل الأحاديث فى حجة الوداع وسياقها علم علما يقينا أن الذين كانوا مع النبى من أهل مكة وغيرهم صلوا بصلاته قصرا وجمعا ولم يفعلوا خلاف ذلك ولم ينقل أحد قط عن النبى أنه قال لا بعرفة ولا مزدلفة ولا منى يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر وإنما نقل أنه قال ذلك فى نفس مكة كما رواه أهل السنن عنه وقوله ذلك فى داخل مكة دون عرفة ومزدلفة ومنى دليل على الفرق وقد روى من جهة أهل العراق عن عمر أنه كان يقول بمنى يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر وليس له إسناد وإذا ثبت ذلك فالجمع بين الصلاتين قد يقال أنه لأجل النسك كما تقوله الحنفية وطائفة من أصحاب أحمد وهو مقتضى نصه فإنه يمنع المكى من القصر بعرفة ولم يمنعه من الجمع وقال فى جمع المسافر أنه يجمع فى الطويل كالقصر عنده وإذا قيل الجمع لأجل النسك ففيه قولان أحدهما لا يجمع إلا بعرفة ومزدلفة كما تقوله الحنفية والثانى أنه يجمع لغير ذلك من الأسباب المقتضية للجمع وإن لم يكن سفرا وهو مذهب الثلاثة مالك والشافعى وأحمد وقد يقال لأن ذلك سفر قصير وهو يجوز الجمع فى السفر القصير كما قال هذا وهذا بعض الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى وأحمد فان الجمع لا يختص بالسفر والنبى صلى الله عليه وسلم لم يجمع فى حجته إلا بعرفة ومزدلفة ولم يجمع بمنى ولا فى ذهابه وإيابه ولكن جمع قبل ذلك فى غزوة تبوك والصحيح أنه لم يجمع بعرفة لمجرد السفر كما قصر للسفر بل لاشتغاله باتصال الوقوف عن النزول ولاشتغاله بالمسير إلى مزدلفة وكان جمع عرفة لأجل العبادة وجمع مزدلفة لأجل السير الذى جد فيه وهو سيره إلى مزدلفة وكذلك كان يصنع فى سفره كان إذا جد به السير أخر الأولى إلى وقت الثانية ثم ينزل فيصليهما جميعا كما فعل بمزدلفة وليس فى شريعته ما هو خارج عن القياس بل الجمع الذى جمعه هناك يشرع أن يفعل نظيره كما يقوله الأكثرون ولكن أبو حنيفة يقول هو خارج عن القياس وقد علم أن تخصيص العلة إذا لم تكن لفوات شرط أو وجود مانع دل على فسادها وليس فيما جاء من عند الله اختلاف ولا تناقض بل حكم الشىء حكم مثله والحكم إذا ثبت بعلة ثبت بنظيرها وأما القصر فلا ريب أنه من خصائص السفر ولا تعلق له بالنسك ولا مسوغ لقصر أهل مكة بعرفة وغيرها إلا أنهم بسفر وعرفة عن المسجد بريد كما ذكره الذين مسحوا ذلك وذكره الأزرقى فى أخبار مكة فهذا قصر فى سفر قدره بريد وهم

لما رجعوا إلى منى كانوا فى الرجوع من السفر وإنما كان غاية قصدهم بريدا وأى فرق بين سفر أهل مكة إلى عرفة وبين سفر سائر المسلمين إلى قدر ذلك من بلادهم والله لم يرخص فى الصلاة ركعتين إلا لمسافر فعلم أنهم كانوا مسافرين والمقيم إذا اقتدى بمسافر فإنه يصلى أربعا كما قال النبى لأهل مكة فى مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر وهذا مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم من العلماء ولكن فى مذهب مالك نزاع الدليل الثانى أنه قد نهى أن تسافر المرأة إلا مع ذى محرم أو زوج تارة يقدر وتارة يطلق وأقل ما روى فى التقدير بريد فدل ذلك على أن البريد يكون سفرا كما أن الثلاثة الأيام تكون سفرا واليومين تكون سفرا واليوم يكون سفرا هذه الأحاديث ليس لها مفهوم بل نهى عن هذا وهذا وهذا الدليل الثالث أن السفر لم يحده الشارع وليس له حد فى اللغة فرجع فيه إلى ما يعرفه الناس ويعتادونه فما كان عندهم سفرا فهو سفر والمسافر يريد أن يذهب إلى مقصده ويعود إلى وطنه وأقل ذلك مرحلة يذهب فى نصفها ويرجع فى نصفها وهذا هو البريد وقد حدوا بهذه المسافة الشهادة على الشهادة و كتاب القاضى إلى القاضى و العدو على الخصم و الحضانة وغير ذلك مما هو معروف فى موضعه وهو أحد القولين فى مذهب أحمد فلو كانت المسافة محدودة لكان حدها بالبريد أجود لكن الصواب أن السفر ليس محددا بمسافة بل يختلف فيكون مسافرا فى مسافة بريد وقد يقطع أكثر من ذلك ولا يكون مسافرا الدليل الرابع أن المسافر رخص الله له أن يفطر فى رمضان وأقل الفطر يوم ومسافة البريد يذهب إليها ويرجع فى يوم فيحتاج إلى الفطر فى شهر رمضان ويحتاج أن يقصر الصلاة بخلاف ما دون ذلك فإنه قد لا يحتاج فيه إلى قصر ولا فطر إذا سافر أول النهار ورجع قبل الزوال وإذا كان غدوه يوما ورواحه يوما فإنه يحتاج إلى القصر والفطر وهذا قد يقتضى أنه قد يرخص له أن يقصر ويفطر فى بريد وإن كان قد لا يرخص له فى أكثر منه إذا لم يعد مسافرا الدليل الخامس أنه ليس تحديد من حد المسافة بثلاثة أيام بأولى ممن حدها بيومين ولا اليومان بأولى من يوم فوجب أن لا يكون لها حد بل كل ما يسمى سفرا يشرع وقد ثبت بالسنة القصر فى مسافة بريد فعلم أن فى الاسفار ما قد يكون بريدا وأدنى ما يسمى سفرا فى كلام الشارع البريد وأما ما دون البريد كالميل فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يأتى قباء كل سبت وكان يأتيه راكبا وماشيا ولا ريب أن أهل قباء وغيرهم من أهل العوالى كانوا يأتون إلى النبى بالمدينة ولم يقصر الصلاة هو ولا هم وقد كانوا يأتون الجمعة من نحو ميل وفرسخ ولا يقصرون الصلاة والجمعة على من سمع النداء والنداء قد يسمع من فرسخ وليس كل من وجبت عليه الجمعة أبيح له القصر والعوالى بعضها من المدينة

وإن كان إسم المدينة يتناول جميع المساكن كما قال تعالى {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ}التوبة١٠١ وقال {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ}التوبة١٢٠ وأما ما نقل عن إبن عمر فينظر فيه هل هو ثابت أم لا فإن ثبت فالرواية عنه مختلفة وقد خالفه غيره من الصحابة ولعله أراد إذا قطعت من المسافة ميلا ولا ريب أن قباء من المدينة أكثر من ميل وما كان إبن عمر ولا غيره يقصرون الصلاة إذا ذهبوا إلى قباء فقصر أهل مكة الصلاة بعرفة وعدم قصر أهل المدينة الصلاة إلى قباء ونحوها مما حول المدينة دليل على الفرق والله أعلم والصلاة على الراحلة إذا كانت مختصة بالسفر لا تفعل إلا فيما يسمى سفرا ولهذا لم يكن النبى يصلى على راحلته فى خروجه إلى مسجد قباء مع أنه كان يذهب إليه راكبا وماشيا ولا كان المسلمون الداخلون من العوالى يفعلون ذلك وهذا لأن هذه المسافة قريبة كالمسافة فى المصر واسم المدينة يتناول المساكن كلها فلم يكن هناك إلا أهل المدينة والأعراب كما دل عليه القرآن فمن لم يكن من الأعراب كان من أهل المدينة وحينئذ فيكون مسيره إلى قباء كأنه فى المدينة فلو سوغ ذلك سوغت الصلاة فى المصر على الراحلة وإلا فلا فرق بينهما والنبى صلى الله عليه وسلم لما كان يصلى بأصحابه جمعا وقصرا لم يكن يأمر أحدا منهم بنية الجمع والقصر بل خرج من المدينة إلى مكة يصلى ركعتين من غير جمع ثم صلى بهم الظهر بعرفة ولم يعلمهم أنه يريد أن يصلى العصر بعدها ثم صلى بهم العصر ولم يكونوا نووا الجمع وهذا جمع تقديم وكذلك لما خرج من المدينة صلى بهم بذى الحليفة العصر ركعتين ولم يأمرهم بنية قصر وفى الصحيح أنه لما صلى أحدى صلاتى العشى وسلم من اثنتين قال له ذو اليدين أقصرت الصلاة أم نسيت قال لم أنس ولم تقصر قال بلى قد نسيت قال أكما يقول ذو اليدين قالوا نعم فأتم الصلاة ولو كان القصر لا يجوز إلا إذا نووه لبين ذلك ولكانوا يعلمون ذلك والامام أحمد لم ينقل عنه فيما أعلم أنه اشترط النية فى جمع ولا قصر ولكن ذكره طائفة من أصحابه كالخرقى والقاضى وأما أبو بكر عبد العزيز وغيره فقالوا إنما يوافق مطلق نصوصه وقالوا لا يشترط للجمع ولا للقصر نية وهو قول الجمهور من العلماء كمالك وأبى حنيفة وغيرهما بل قد نص أحمد على أن المسافر له أن يصلى العشاء قبل مغيب الشفق وعلل ذلك بأنه يجوز له الجمع كما نقله عنه أبو طالب والمروذى وذكر ذلك القاضى فى الجامع الكبير فعلم أنه لا يشترط فى الجمع نية ولا تشترط أيضا المقارنة فإنه لما أباح أن تصلى العشاء قبل مغيب الشفق وعلله بأنه يجوز له الجمع لم يجز أن يراد به الشفق الأبيض لأن مذهبه المتواتر عنه أن المسافر يصلى العشاء بعد مغيب الشفق الأحمر

وهو أول وقتها عنده وحينئذ يخرج وقت المغرب عنده فلم يكن مصليا لها فى وقت المغرب بل فى وقتها الخاص وأما فى الحضر فاستحب تأخيرها إلى أن يغيب الأبيض قال لأن الحمرة قد تسترها الحيطان فيظن أن الأحمر قد غاب ولم يغب فإذا غاب البياض تيقن مغيب الحمرة فالشفق عنده فى الموضعين الحمرة لكن لما كان الشك فى الحضر لاستتار الشفق بالحيطان احتاط بدخول الأبيض فهذا مذهبه المتواتر من نصوصه الكثيرة وقد حكى بعضهم رواية عنه أن الشفق فى الحضر الأبيض وفى السفر الأحمر وهذه الرواية حقيقتها كما تقدم وإلا فلم يقل أحمد ولا غيره من علماء المسلمين أن الشفق فى نفس الأمر يختلف بالحضر والسفر وأحمد قد علل الفرق فلو حكى عنه لفظ مجمل كان المفسر من كلامه يبينه وقد حكى بعضهم رواية عنه أن الشفق مطلق البياض وما أظن هذا إلا غلطا عليه وإذا كان مذهبه أن أول الشفق إذا غاب فى السفر خرج وقت المغرب ودخل وقت العشاء وهو يجوز للمسافر أن يصلى العشاء قبل مغيب الشفق وعلل ذلك بأنه يجوز له الجمع علم أنه صلاها قبل مغيبها لا بعد مغيب الأحمر فانه حينئذ لا يجوز التعليل بجواز الجمع [1]

نهى الله عن النظر والمباشرة حال العبادة لما في ذلك من المباينة للعبادة

*أن العبادات الشرعية مثل الصلاة والصيام والحج قد شرع فيها من مجانبة جنس المباشرة المباحة في غيرها ما هو من كمالها وتمامها فقال تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً}النساء٤٣ وأعظم ذلك الحج فليس للمحرم أن يباشر فيه النساء ولا ينظر إليهم لشهوة والمعتكف قريب منه والصائم دونه والمصلى لا يصاف النساء بل يؤخرن عن صفوف الرجال ويصلين خلف الرجال قال النبي ص خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها وليس للمصلى في حال صلاته أن ينظر إلى ما يلهيه عن الصلاة لا نساء ولا غيرهم بل قد ثبت في الصحيح أنه إذا مر أمامه المرأة والحمار والكلب الأسود وضع صلاته وإن كان قد ثبت عن النبي ص أنه كان يصلي وعائشة مضطجعة في قبلته بالليل في

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص:٣٩- ٥٢

الظلمة فإذا أراد أن يسجد غمزها فاللابث غير المار ولم يكن ذلك يلهيه لأنه كان بالليل في الظلمة وكذلك مس النساء لشهوة ينقض الطهارة عند اكثر العلماء فإذا كان هذا في النظر والمباشرة المباح في غير حال العبادة نهى الله عنه حال العبادة لما في ذلك من المباينة للعبادة والمنافاة لها [1]

الوضوء لا ينتقض بمس النساء مطلقا

أما نقض الوضوء بلمس النساء فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال طرفان ووسط أضعفها أنه ينقض اللمس وإن لم يكن لشهوة إذا كان الملموس مظنة للشهوة وهو قول الشافعي تمسكا بقوله تعالى{أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}النساء٤٣ وفي القراءة الأخرى أو لمستم القول الثاني إن اللمس لا ينقض بحال وإن كان لشهوة كقول أبي حنيفة وغيره وكلا القولين يذكر رواية عن أحمد لكن ظاهر مذهبه كمذهب مالك والفقهاء السبعة أن اللمس إن كان لشهوة نقض وإلا فلا وليس في المسألة قول متوجه إلا هذا القول أو الذي قبله فأما تعليق النقض بمجرد اللمس فهذا خلاف الأصول وخلاف إجماع الصحابة وخلاف الآثار وليس مع قائله نص ولا قياس فإن كان اللمس في قوله تعالى {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}المائدة٦ إذا أريد به اللمس باليد والقبلة ونحو ذلك كما قاله ابن عمر وغيره فقد علم أنه حيث ذكر مثل ذلك في الكتاب والسنة فإنما يراد به ما كان لشهوة مثل قوله في آية الاعتكاف{وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ}البقرة١٨٧ ومباشرة المعتكف لغير شهوة لا تحرم عليه بخلاف المباشرة لشهوة وكذلك المحرم الذي هو أشد لو باشر المرأة لغير شهوة لم يحرم عليه ولم يجب عليه به دم وكذلك قوله {ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ}الأحزاب٤٩ وقوله {لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ}البقرة٢٣٦ فإنه لو مسها مسيسا خاليا من غير شهوة لم يجب به عدة ولا يستقر به مهر ولا تنتشر به حرمة المصاهرة باتفاق العلماء بخلاف ما لو مس المرأة لشهوة ولم يخل بها ولم يطأها ففي استقرار المهر بذلك نزاع معروف بين العلماء في مذهب أحمد وغيره فمن زعم أن قوله

---

[1] الاستقامة ج: ١ ص: ٣١٤-٣١٥

{أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}النساء٤٣ يتناول اللمس وإن لم يكن لشهوة فقد خرج عن اللغة التي جاء بها القرآن بل وعن لغة الناس في عرفهم فإنه إذا ذكر المس الذي يقرن فيه بين الرجل والمرأة علم أنه مس الشهوة كما أنه إذا ذكر الوطء المقرون بين الرجل والمرأة علم أنه الوطء بالفرج لا بالقدم وأيضا فإنه لا يقول إن الحكم معلق بلمس النساء مطلقا بل بصنف من النساء وهو ما كان مظنة الشهوة فأما مس من لا يكون مظنة كذوات المحارم والصغيرة فلا ينقض بها فقد ترك ما ادعاه من الظاهر واشترط شرطا لا أصل له بنص ولا قياس فإن الأصول المنصوصة تفرق بين اللمس لشهوة واللمس لغير شهوة لا تفرق بين أن يكون الملموس مظنة الشهوة أو لا يكون وهذا هو المس المؤثر في العبادات كلها كالإحرام والاعتكاف والصيام وغير ذلك وإذا كان هذا القول لا يدل عليه ظاهر اللفظ ولا القياس لم يكن له أصل في الشرع وأما من علق النقض بالشهوة فالظاهر المعروف في مثل ذلك دليل له وقياس أصول الشريعة دليل ومن لم يجعل اللمس ناقضا بحال فإنه يجعل اللمس إنما أريد به الجماع كما في قوله تعالى {وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ}البقرة٢٣٧ ونظائره كثيرة وفي السنن أن النبي قبل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ لكن تكلم فيه وأيضا فمن المعلوم أن مس الناس نساءهم مما تعم به البلوى ولا يزال الرجل يمس امرأته فلو كان هذا مما ينقض الوضوء لكان النبي بينه لأمته ولكان مشهورا بين الصحابة ولم ينقل أحد أن أحدا من الصحابة كان يتوضأ بمجرد ملاقاة يده لامرأته أو غيرها ولا نقل أحد في ذلك حديثا عن النبي فعلم أن ذلك قول باطل والله أعلم [١]

ولمس المرأة بشهوة ظاهر المذهب أن الرجل متى وقع شيء من بشرته على على بشرة انثى بشهوة انتقض وضوؤه وإن كان لغير شهوة مثل أن يقبلها رحمة لها أو يعالجها وهي مريضة أو تقع بشرته عليها سهوا وما أشبه ذلك لم ينقض وعنه ينقض اللمس مطلقا لعموم قوله {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}المائدة٦ وقراءة حمزة والكسائي أو لمستم النساء وحقيقة الملامسة التقاء البشرتين لاسيما اللمس فإنه باليد أغلب كما قال لمست بكفي كفه أطلب الغنى ولهذا قال عمر وابن مسعود رضي الله عنهما القبله من اللمس وفيها الوضوء وقال عبد الله بن عمر قبلة الرجل امرأته وجسها بيده من الملامسة ولأنه مس ينقض فلم تعتبر فيه الشهوة كمس الذكر ولأن مس النساء في الجملة مظنة خروج الخارج وأسباب الطهارة مما نيط الحكم

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٢٣٢-٢٣٧ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٤٢٥-٤٢٧

فيها بالمظان بدليل الإيلاج والنوم ومس الذكر وعنه أن مس النساء لا ينقض بحال لما روى حبيب بن أبي ثابت عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل بعض نسائه ثم يصلي ولايتوضأ رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة ورواه ابراهيم التيمي عن عائشة أخرجه أبو داود والنسائي وقد احتج به أحمد في رواية حنبل وقد تكلم هو وغيره في الطريق الأولى بأن عروة المذكور هو عروة المزني كذلك قال سفيان الثوري ما حدثنا حبيب إلا عن عروة المزني وعروة هذا لم يدرك عائشة وإن كان عروة بن الزبير فإن حبيبا لم يدركه قال اسحاق ابن راهويه لاتظنوا أن حبيبا لقى عروة وفي الثاني بأن ابراهيم التيمي لا يصح سماعه من عائشة وجواب هذا أن عامة ما في الإسناد نوع إرسال وإذا أرسل الحديث من وجهين مختلفين اعتضد أحدهما بالآخر لاسيما وقد رواه البزاز بإسناد جيد عن عطاء عن عائشة رضي الله عنهما مثله ورواه الامام أحمد عن عمرو بن شعيب عن زينب السهمية عن عائشة ولأنه مس فلم ينتقض كمس البهيمة والملامسة في الآية المراد بها الجماع كذلك قد فسرها علي وابن عباس قال سعيد بن جبير اختلف الموالي والعرب في الملامسه في الآية فقال عبيد بن عمير والعرب هي الجماع وقال عطاء والموالي هي مادون الجماع فدخلت على ابن عباس فذكرت ذلك فقال أيهما كنت قلت في الموالي قال غلبت الموالى إن الله حي كريم يكني عما يشاء وإنه كنى بالملامسة عن الجماع وفي لفظ عنه قال اللمس والمباشرة والإفضاء والرفث في كتاب الله الجماع ولأن اللمس كالمس وقد اريد به الجماع في وقله {وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ}البقرة٢٣٧ والملامسة لا تكون إلا من اثنين فيجب حملها على الجماع والصحيح الأول لأن الله تعالى أطلق ذكر مس النساء والمفهوم من هذا في عرف أهل اللغة والشرع هو المس المقصود من النساء وهو اللمس للتلذذ وقضاء الشهوة فإن اللمس لغرض آخر لايفهم من تخصيص النساء بالمس إذ لا فرق بينهن وبين غيرهن في ذلك المس واللمس وإن كان عامدا لكن نسبته إلى النساء أوحت تخصيصه بالمقصود من مسهن كما خص في الطفلة وذوات المحارم ويدل على ذلك أن كل مس ومباشرة وإفضاء ذكر في القرآن فالمراد به ما كان مع الشهوة وجميع الأحكام بمسهن مثل تحريم ذلك على المحرم والمعتكف ورجوب الفدية في الإحرام وانتشار حرمة المصاهرة وحصول الرجعة عند من يقول بذلك إنما تثبت في مس الشهوة ولايقال مس النساء في الجملة هو مظنة أن يكون لشهوة فأقيم مقامه لأننا نقول إن الحكمة إذا كانت ظاهرة منضبطة نيط الحكم بها دون مظنتها وهي هنا كذلك بدليل سائر الأحكام ولأن اللمس مع الشهوة هو المظنة لخروج المذي والمني فيقام مقامه كالنوم مع الريح بخلاف الخالي من الشهوة فإنه كنوم الجالس يسيرا ولو كان

المراد به الجماع خاصة لاكتفي بذكره في قوله {وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ}المائدة٦ ولو أعيد باسمه الخاص وهو الجنابة ليتميز به عن غيره وليعم الجنابة بالوطء وبالاختلاف وجميع المواضع المذكورة في القرآن فإن المراد بها المس لشهوة مطلقا من الجماع وما دونه كقوله {وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ}البقرة١٨٧ وقوله {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ}البقرة١٨٧ وقوله {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ}البقرة١٨٧وقوله {فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ}البقرة١٩٧ وقوله {لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ}البقرة٢٣٦ وقوله تعالى {وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ}البقرة٢٣٧ وحينئذ فيكون قوله {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}المائدة٦ يعم نوعي الحدث الأكبر والأصغر كما قال ابن عمر ويفيد التيمم لها ويدل على الوضوء مع الشهوة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر المجامع إذا لم يمن أن يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ويغسل ذكره حين كان لا ماء إلا من الماء لم يكن المس ينقض الوضوء لما أمر بذلك ثم بعد ذلك فرض الغسل وذلك زيادة على ما وجب أولا لا رفع له وروى معاذ بن جبل رضي الله عنه قال جاء رجل فقال يا رسول الله ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئا يصيب الرجل من المرأة إلا قد أصابه منها إلا أنه لم يجامعها فقال توضأ وضوءا حسنا ثم قم فصل قال فأنزل الله هذه وروى معاذ بن جبل رضي الله عنه قال جاء رجل فقال يا رسول الله ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئا يصيب الرجل من المرأة إلا قد أصابه منها إلا أنه لم يجامعها فقال توضأ وضوءا حسنا ثم قم فصل قال فأنزل الله هذه الاية {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}هود١١٤ فقال معاذ أهي خاصة أم للمسلمين عامة قال بل هي للمسلمين عامة رواه أحمد والدارقطني فأمر بالوضوء مع المباشرة دون الفرج وحديث عائشة المتقدم أن صح محمول على أن اللمس كان يراد إكراما ورحمة وعطفا أو إنه قبل أن يؤمر بالوضوء من مس النساء كما قلنا في مس الذكر ويدل على أن مجرد اللمس لاينقض ما ورت عائشة رضي الله عنها قالت كنت أنام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلاي في قبلته فإذا أراد أن يسجد غمز رجلي فقبضتها وإذا قام بسطتها والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح رواه البخاري وأبو داود والنسائي وفي لفظ للنسائي رن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوتر وإني لمعترضة بين يديه اعتراض الجنازة حتى إذا أراد أن يوتر مسني برجله وروى الحسن قال كان رسول صلى الله عليه وسلم جالسا في مسجده في الصلاة فقبض على قدم عائشة غيرا متلذذ رواه اسحاق ابن راهويه والنسائي ومتى كان اللمس لشهوة فلا فرق بين الأجنبية وذوات المحرم والكبيرة والصغيرة التي قد تشهتي فأما التي لاتشتهي أصلا فلا ينتقض لمسها

لشهوة ولمس الميتة كلمس الحية عند القاضي كما أن جماعها سواء في إيجاب الغسل وقال الشريف أبو جعفر وابن عقيل لاينقض لأنها ليست محلا للشهوة فلا ينقض لمسها كالشعر ومس البهيم بخلاف الجماع فإنه لا فرق بين محل ومحل وبين الشهوة وعدمها بدليل ما لو استدخلت المرأة ذكر نائم ولمس المرأة الرجل ينقض وضوؤها كلمسه لها في أصح الروايتين لأن لمسها أدعى إلى الحدث لفرط شهوتها والأخرى لاينقض لأن النص إنما جاء في لمس الرجل المفضي إلى المذي بخلاف المرأة وإذا قلنا بنقض وضوء اللامس فهل ينتقض وضؤ الملموس على روايتين فإذا قلنا ينقض اعتبرنا الشهوة في المشهور كما نعتبرها في اللامس حتى ينتقض وضوؤه إذا وجدت الشهوة فيه دون اللامس ولا ينتقض إذا لم توجد فيه وإن وجدت في اللامس ولا ينقض اللمس من وراء حائل وإن كان لشهوة لأن اللمس لم يوجد ومجرد الشهوة لاتنقض الوضوء كما لو وجدت في لمس البهيمة أو بنظر أوبفكر ولا ينقض لمس شعر المرأة ولاظفرها ولا سنها كما لا ينقض لمسها بالشعر والظفر والسن ولامس الرجل الرجل وإن كان أمردا ولامس المرأة المرأة في المشهور المنصوص لأنه ليس محلا للشهوة في الأصل ويتخرج أن ينقض إذا كان لشهوة لأنه لمس آدمي لشهوة وقال القاضي ينقض لمس الرجل الرجل والمرأة المرأة لأنه مباشرة لأدمي حقيقة بخلاف الشعر والظفر [1]

مس النساء هل ينقض الوضوء أم لا ؟

فيه ثلاثة أقوال للفقهاء أحدها أنه لا ينقض بحال كقول أبي حنيفة وغيره والثاني أنه إن كان له شهوة نقض وإلا فلا وهو قول مالك وغيره من أهل المدينة والثالث ينقض في الجملة وإن لم يكن بشهوة وهو قول الشافعي وغيره وعن أحمد بن حنبل ثلاث روايات كالأقوال الثلاثة لكن المشهور عنه قول مالك والصحيح في المسألة أحد قولين إما الأول وهو عدم النقض مطلقا وإما القول الثاني وهو النقض إذا كان بشهوة وأما وجوب الوضوء من مجرد لمس المرأة لغير شهوة فهو أضعف الأقوال ولا يعرف هذا القول عن أحد من الصحابة ولا روى أحد عن النبي أنه أمر المسلمين أن يتوضؤوا من ذلك مع أن هذا الأمر غالب لا يكاد يسلم فيه

---

[1] شرح العمدة ج: ١ ص: ٣١٣-٣١٩

أحد في عموم الأحوال فإن الرجل لا يزال يناول امرأته شيئا وتأخذه بيدها وأمثال ذلك مما يكثر ابتلاء الناس به فلو كان الوضوء من ذلك واجبا لكان النبي يأمر بذلك مرة بعد مرة ويشيع ذلك ولو فعل لنقل ذلك عنه ولو بأخبار الآحاد فلما لم ينقل عنه أحد من المسلمين أنه أمر أحدا من المسلمين بشيء من ذلك مع عموم البلوى به علم أن ذلك غير واجب وأيضا فلو أمرهم بذلك لكانوا ينقلونه ويأمرون به ولم ينقل عن أحد من الصحابة أنه أمر بالوضوء من مجرد المس العاري عن شهوة بل تنازع الصحابة في قوله تعالى {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء} المائدة٦ فكان ابن عباس وطائفة يقولون الجماع ويقولون الله حيي كريم يكني بما يشاء عما شاء وهذا أصح القولين وقد تنازع عبدالله بن عمر والعرب وعطاء بن أبي رباح والموالي هل المراد به الجماع أو ما دونه فقالت العرب هو الجماع وقالت الموالي هو ما دونه وتحاكموا إلى ابن عباس فصوب العرب وخطأ الموالي وكان ابن عمر يقول قبلة الرجل امرأته ومسها بيده من الملامسة وهذا قول مالك وغيره من أهل المدينة ومن الناس من يقول إن هذا قول ابن عمر وابن مسعود لكونهما كانا لا يريان التيمم للجنب فيتأولان الآية على نقض الوضوء ولكن قد صرح في الآية أن الجنب يتيمم وقد ناظر أبو موسى ابن مسعود بالآية فلم يجبه ابن مسعود بشيء وقد ذكره ذلك البخاري في صحيحه فعلم أن ذلك كان من عدم استحضاره لموجب الآية ومعلوم أن الصحابة الأكابر الذين أدركوا النبي لو كانوا يتوضؤون من مس نسائهم مطلقا ولو كان النبي أمرهم بذلك لكان هذا مما يعلمه بعض الصغار كابن عمر وابن عباس وبعض التابعين فإذا لم ينقل ذلك صاحب ولا تابع كان ذلك دليلا على أن ذلك لم يكن معروفا بينهم وإنما تكلم القوم في تفسير الآية والآية إن كان المراد بها الجماع فلا كلام وإن كان أريد بها ما هو أعم من الجماع فيقال حيث ذكر الله تعالى في كتابه مس النساء ومباشرتهن ونحو ذلك فلا يريد به إلا ما كان على وجه الشهوة واللذة وأما اللمس العاري عن ذلك فلا يعلق الله به حكما من الأحكام أصلا وهذا كقوله تعالى {وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} البقرة١٨٧ فنهى العاكف عن مباشرة النساء مع أن العلماء يعلمون أن المعتكف لو مس امرأته بغير شهوة لم يحرم ذلك عليه وقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه كان يدني رأسه إلى عائشة رضي الله عنها فترجله وهو معتكف ومعلوم أن ذلك مظنة مسه لها ومسها له وأيضا فالإحرام أشد من الاعتكاف ولو مسته المرأة لغير شهوة لم يأثم بذلك ولم يجب عليه دم وهذا الوجه يستدل به من وجهين من جهة ظاهر الخطاب ومن جهة المعنى والاعتبار فإن خطاب الله تعالى في القرآن بذكر اللمس والمس والمباشرة للنساء ونحو ذلك لا يتناول ما تجرد عن شهوة أصلا ولم يتنازع المسلمون في شيء من ذلك إلا في آية الوضوء

والنزاع فيها متأخر فيكون ما أجمعوا عليه قاضيا على ما تنازع فيه متأخروهم وأما طريق الاعتبار فإن اللمس المجرد لم يعلق الله به شيئا من الأحكام ولا جعله موجبا لأمر ولا منهيا عنه في عبادة ولا اعتكاف ولا إحرام ولا صلاة ولا صيام ولا غير ذلك ولا جعله ينشر حرمة المصاهرة ولا يثبت شيئا غير ذلك بل هذا في الشرع كما لو مس المرأة من وراء ثوبها ونحو ذلك من المس الذي لم يجعله الله سببا لإيجاب شيء ولا تحريم شيء وإذا كان كذلك كان إيجاب الوضوء بهذا مخالفا للأصول الشرعية المستقرة مخالفا للمنقول عن الصحابة وكان قولا لا دليل عليه من كتاب ولا سنة بل المعلوم من السنة مخالفته بل هذا أضعف ممن جعل المني نجسا فإن القول بنجاسة المني ضعيف فإذا كان النبي لم يأمر أحدا بغسل ما يصيب بدنه أو ثيابه من المني مع كثرة ما كان يصيب الناس من ذلك في حياته وقد أمر الحائض أن تغسل ما أصاب ثوبها من الدم مع أن ذلك قليل بالنسبة لإصابة المني للرجال ولو كان ذلك واجبا لبينه بل كان يغسل ويمسح تقذرا كما كانت عائشة رضي الله عنها تارة تغسله وتارة تفركه من ثوبه وكان سعد بن أبي وقاص وابن عباس يقولان أمطه عنك ولو بإذخرة فإنما هو بمنزلة المخاط والبصاق وكانت عمرة تغسله من ثوبه فإن كان في اعتقاده نجاسة المني فهذا نزاع بين الصحابة والسنة تفصل بينهم فإذا كانت نجاسة المني ضعيفة في السنة لكون النبي لم يأمر بذلك لعموم البلوى به لكن هذا أضعف لكون الصحابة لم يحك أحد منهم مجرد اللمس العاري عن الشهوة ناقضا وإنما تنازعوا في اللمس المعتاد للشهوة كالقبلة والغمز باليد ونحو ذلك وأيضا فإيجاب الوضوء من جنس اللمس كمس النساء ومس الذكر إن لم يعلل بكونه مظنة تحريك الشهوة وإلا كان مخالفا للأصول فأما إذا علل بتحريك الشهوة كان مناسبا للأصول وهنا للفقهاء طريقان أحدهما قول من يقول إن ذلك مظنة خروج الناقض فأقيمت المظنة مقام الحقيقة وهذا قول ضعيف فإن المظنة إنما تقام مقام الحقيقة إذا كانت الحكمة خفية وكانت المظنة تفضي إليها غالبا وكلاهما معدوم فإن الخارج لو خرج لعلم به الرجل وأيضا فإن مس الذكر لا يوجب خروج شيء في العادة أصلا فإن المني إنما يخرج بالاستمناء وذلك يوجب الغسل والمذي يخرج عقيب تفكر ونظر ومس المرأة لا الذكر فإذا كانوا لا يوجبون الوضوء بالنظر الذي هو أشد إفضاء إلى خروج المني فبمس الذكر أولى والقول الثاني أن يقال اللمس سبب تحريك الشهوة كما في مس المرأة وتحريك الشهوة يتوضأ منه كما يتوضأ من الغضب وأكل لحم الإبل لما في ذلك من أثر الشيطان الذي يطفأ بالوضوء ولهذا قال طائفة من أصحاب أبي حنيفة إنما يتوضأ إذا انتشر انتشارا شديدا وكذلك قال طائفة من أصحاب مالك يتوضأ إذا انتشر لكن هذا الوضوء من اللمس هل هو واجب أو مستحب فيه نزاع بين

الفقهاء ليس هذا موضع ذكره فإن مسألة الذكر لها موضع آخر وإنما المقصود هنا مسألة مس النساء والأظهر أيضا أن الوضوء من مس الذكر مستحب لا واجب وهكذا صرح به الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه وبهذا تجتمع الأحاديث والآثار بحمل الأمر به على الاستحباب ليس فيه نسخ قوله وهل هو إلا بضعة منك وحمل الأمر على الاستحباب أولى من النسخ وكذلك الوضوء مما مست النار مستحب في أحد القولين في مذهب أحمد وغيره وبذلك يجمع بين أمره وبين تركه فأما النسخ فلا يقوم عليه دليل بل الدليل يدل على نقيضه وكذلك خروج النجاسات من سائر البدن غير السبيلين كالوضوء من القيء والرعاف والحجامة والفصاد والجراح مستحب كما جاء عن النبي والصحابة أنهم توضؤوا من ذلك وأما الواجب فليس عليه في الكتاب والسنة ما يوجب ذلك وكذلك الوضوء من القهقهة مستحب في أحد القولين في مذهب أحمد والحديث المأثور في أمر الذين قهقهوا بالوضوء وجهه أنهم أذنبوا بالضحك ومستحب لكل من أذنب ذنبا يتوضأ ويصلي ركعتين كما جاء في السنن عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي أنه قال ما من مسلم يذنب ذنبا فيتوضأ ويصلي ركعتين ويستغفر الله إلا غفر له والله أعلم وسئل عن الرجل يمس المرأة هل ينقض الوضوء أم لا فأجاب إن توضأ من ذلك المس فحسن وإن صلى ولم يتوضأ صحت صلاته في أظهر قولي العلماء [1]

قوله {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}النساء٤٣ هل المراد به الجماع كما فسره إبن عباس وغيره وقالوا إن مس المرأة لا ينقض الوضوء لا لشهوة ولا لغير شهوة أو المراد به اللمس بجميع البشرة إما لشهوة وإما مطلقا كما نقل الأول عن إبن عمر والثالث قاله بعض العلماء وللعلماء فى هذا ثلاثة أقوال والأظهر هو القول الأول وإن الوضوء لا ينتقض بمس النساء مطلقا وما زال المسلمون يمسون نساءهم ولم ينقل أحد قط عن النبى أنه كان يأمر المسلمين بالوضوء من ذلك ولا نقل عن الصحابة على حياته أنه توضأ من ذلك ولا نقل عنه قط أنه توضأ من ذلك بل قد نقل عنه فى السنن أنه كان يقبل بعض نسائه ولا يتوضأ وقد إختلف فى صحة هذا الحديث لكن لا خلاف أنه لم ينقل عنه أنه توضأ من المس وكذلك تنازع المسلمون فى الوضوء من خروج الدم بالفصاد والحجامة والجرح والرعاف وفى القئ وفيه قولان مشهوران وقد نقل عن النبى أنه توضأ من ذلك وعن كثير من الصحابة لكن لم يثبت

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٢٣٢-٢٤٢ و مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٣٦٧-٣٧٠

قط أن النبى أوجب الوضوء من ذلك بل كان أصحابه يخرجون فى المغازى فيصلون ولا يتوضئون ولهذا قال طائفة من العلماء إن الوضوء من ذلك مستحب غير واجب وكذلك قال فى الوضوء من مس الذكر و مس المرأة لشهوة إنه يستحب الوضوء من ذلك ولا يجب وكذلك قالوا فى الوضوء من القهقهة و مما مست النار إن الوضوء من ذلك يستحب ولا يجب فمن توضأ فقد أحسن ومن لم يتوضأ فلا شيء عليه وهذا أظهر الأقوال [1]

## الرد على الذين قالوا أو بمعنى الواو

قوله تعالى {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}المائدة٦ الآية هذا مما أشكل على بعض الناس فقال طائفة من الناس أو بمعنى الواو وجعلوا التقدير وجاء أحد منكم من الغائط ولامستم النساء قالوا لأن من مقتضى أو أن يكون كل من المرض والسفر موجبا للتيمم كالغائط والملامسة وهذا مخالف لمعنى الآية فان أو ضد الواو والواو للجمع والتشريك بين المعطوف والمعطوف عليه وأما معنى أو فلا يوجب الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه بل يقتضي اثبات أحدهما لكن قد يكون ذلك مع اباحة الآخر كقوله جالس الحسن أو ابن سيرين وتعلم الفقه أو النحو ومنه خصال الكفارة يخير بينها ولو فعل الجميع جاز وقد يكون مع الحصر يقال للمريض كل هذا أو هذا وكذلك في الخبر هي لاثبات أحدهما اما مع عدم علم المخاطب وهو الشك أو مع علمه وهو الايهام كقوله تعالى {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}الصافات١٤٧ لكن المعنى الذي أراده هو الأصح وهو أن خطابه بالتيمم للمريض والمسافر وان كان قد جاء من الغائط أو جامع ولا ينبغي على قولهم أن يكون المراد أن لا يباح التيمم الا مع هذين بل التقدير بالاحتلام أو حدث بلا غائط فالتيمم هنا أولى وهو سبحانه لما أمر كل قائم الى الصلاة بالوضوء أمرهم اذا كانوا جنبا أن يطهروا وفيهم المحدث بغير الغائط كالقائم من النوم والذي خرجت منه الريح ومنهم الجنب بغير جماع بل باحتلام فالآية عمت كل محدث وكل جنب فقال تعالى {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ}المائدة٦ فتيمموا فأباح التيمم للمحدث والجنب اذا كان مريضا أو على سفر ولم يجد ماء والتيمم رخصة فقد يظن الظان أنها لا تباح الا مع خفيف الحدث

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٥٧

والجنابة كالريح والاحتلام بخلاف الغائط والجماع فان التيمم مع ذلك والصلاة معه مما تستعظمه النفوس وتهابه فقد أنكر بعض كبار الصحابة تيمم الجنب مطلقا وكثير من الناس يهاب الصلاة مع الحدث بالتيمم اذ كان جعل التراب طهورا كالماء هو مما فضل الله به محمدا وأمته ومن لم يستحكم ايمانه لا يستجيز ذلك فبين الله سبحانه أن التيمم مأمور به مع تغليظ الحدث بالغائط وتغليظ الجنابة بالجماع والتقدير وان كنتم مرضى أو مسافرين أو كان مع ذلك جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء ليس المقصود أن يجعل الغائط والجماع فيما ليس معه مرض أو سفر فانه اذا جاء أحد منكم من الغائط أو لامس النساء وليسوا مرضى ولا مسافرين فقد بين ذلك بقوله {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ}المائدة٦ وبقوله {وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ}المائدة٦ فدلت الآية على وجوب الوضوء والغسل على الصحيح والمقيم وأيضا فتخصيصه المجيء من الغائط والجماع يجوز أن يكون لا يتيمم في هذه الحالة دون ما هو أخف من ذلك من خروج الريح ومن الاحتلام فان الريح كالنوم والاحتلام يكون في المنام فهناك يحصل الحدث والجنابة والانسان نائم فاذا كان في تلك الحال يؤمر بالوضوء والغسل فاذا حصل ذلك وهو يقظان فهو أولى بالوجوب لأن النائم رفع عنه القلم بخلاف اليقظان ولكن دلت الآية على أن الطهارة تجب وان حصل الحدث والجنابة بغير اختياره كحدث النائم واحتلامه واذا دلت على وجوب طهارة الماء في الحال فوجوبها مع الحدث الذي حصل باختياره أو يقظته أولى وهذا بخلاف التيمم فانه لا يلزم اذا أباح التيمم للمعذور الذي أحدث في النوم باحتلام أو ريح أن يبيحه لمن أحدث باختياره فقال تعالى {أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}المائدة٦ ليبين جواز التيمم لهذين وان حصل حدثهما في اليقظة وبفعلهما وان كان غليظا ولو كانت أو بمعنى الواو كان تقدير الكلام ان التيمم لا يباح الا بوجود الشرطين المرض والسفر مع المجيء من الغائط والاحتلام فليلزم من هذا أن لا يباح مع الاحتلام ولا مع الحدث بلا غائط كحدث النائم ومن خرجت منه الريح فان الحكم اذا علق بشرطين لم يثبت مع أحدهما وهذا ليس مرادا قطعا بل هو ضد الحق لأنه اذا أبيح مع الغائط الذي يحصل بالاختيار فمع الخفيف وعدم الاختيار أولى فتبين أن معنى الآية وان كنتم مرضى أو على سفر فتيمموا وان كان مع ذلك قد جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء كما يقال وان كنت مريضا أو مسافرا والتقدير وان كنتم أيها القائمون الى الصلاة وأنتم مرضى أو مسافرين قد جئتم من الغائط أو لامستم النساء ولهذا قال من قال انها خطاب للقائمين من النوم ان التقدير اذا قمتم الى الصلاة أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فانه سبحانه ذكر أولا فعلهم بقوله {إِذَا قُمْتُمْ}المائدة٦ {أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}المائدة٦ الثلاثة

أفعال وقوله {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ}المائدة٦ حال لهم أي كنتم على هذه الحال كقوله وان كنتم على حال العجز عن استعمال الماء اما لعدمه أو لخوف الضرر باستعماله فتيمموا اذا قمتم الى الصلاة من النوم أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء ولكن الذي رجحناه أن قوله {إِذَا قُمْتُمْ}المائدة٦ عام اما لفظا ومعنى واما معنى وعلى هذا فالمعنى اذا قمتم الى الصلاة فتوضئوا أو اغتسلوا ان كنتم جنبا وان كنتم مرضى أو مسافرين أو فعلتم ما هو أبلغ في الحدث جئتم من الغائط أو لامستم النساء اذ التقدير وان كنتم مرضى أو مسافرين وقد قمتم الى الصلاة أو فعلتم مع القيام الى الصلاة والمرض أو السفر هذين الأمرين المجيء من الغائط والجماع فيكون قد اجتمع قيامكم الى الصلاة والمرض والسفر وأحد هذين فالقيام موجب للطهارة والعذر مبيح وهذا القيام فاذا قمتم وجب التيمم ان كان قياما مجردا أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء ولكن من الناس من يعطف قوله {أَوْ جَاء}المائدة٦ {أَوْ لاَمَسْتُمُ}المائدة٦ على قوله {إِذَا قُمْتُمْ}المائدة٦ والتقدير وإذا قمتم أو جاء أو لامستم وهذا مخالف لنظم الآية فإن نظمها يقتضي أن هذا داخل في جزاء الشرط وقوله {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ}المائدة٦ فإن الذي قاله قريب من جهة المعنى ولكن التقدير وإن كنتم إذا قمتم إلى الصلاة مرضى أو على سفر أو كان مع ذلك جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فهو تقسيم من مفرد ومركب يقول إن كنتم مرضى أو على سفر قائمين إلى الصلاة فقط بالقيام من النوم أو القعود المعتاد أو كنتم مع هذا قد جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فقوله تعالى {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ}المائدة٦ خطاب لمن قيل لهم {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ}المائدة٦ {وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ}المائدة٦ فالمعنى يا أيها القائم إلى الصلاة توضأ وإن كنت جنبا فاغتسل وإن كنت مريضا أو مسافرا تيمم أو كنت مع هذا وهذا مع قيامك إلى الصلاة وأنت محدث أو جنب ومع مرضك وسفرك قد جئت من الغائط أو لامست النساء فتيمم إن كنت معذورا وإيضاح هذا إنه من باب عطف الخاص على العام الذي يخص بالذكر لامتيازه وتخصيصه يقتضي ذلك ومثل هذا يقال إنه داخل في العام ثم ذكر بخصوصه ويقال بل ذكره خاصا يمنع دخوله في العام وهذا يجيء في العطف بأو وأما بالواو فمثل قوله تعالى {وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}البقرة٩٨ وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}الأحزاب٧ الآية ومن هذا قوله {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}العنكبوت٤٥ ونحو ذلك وأما في أو ففي مثل قوله تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ}آل عمران١٣٥ وقوله

{وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١١٠ وقوله {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً}النساء١١٢ وقوله {فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً}البقرة١٨٢ فإن الجنف هو الميل عن الحق وإن كان عامدا قال عامة المفسرين الجنف الخطأ و الإثم العمد قال أبو سليمان الدمشقي الجنف الخروج عن الحق وقد يسمى المخطئ العامد إلا أن المفسرين علقوا الجنف على المخطئ و الإثم على العامد ومثله قوله {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً}الإنسان٢٤ فإن الكفور هو الآثم أيضا لكنه عطف خاص على عام وقد قيل هما وصفان لموصوف واحد وهو أبلغ فإن عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد كقوله {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{٢} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{٣} الاعلى٢-٣ وقوله {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}الحديد٣ وقوله {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ{١} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ{٢} وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ{٣} وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ{٤} وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ{٥} المؤمنون١-٥ ونظائر هذا كثيرة قال ابن زيد الآثم المذنب الظالم والكفور هذا كله واحد قال ابن عطية هو مخير في أنه يعرف الذي ينبغي أن لا يطيعه بأي وصف كان من هذين لأن كل واحد منهم فهو آثم وهو كفور ولم يكن للأمة من الكثرة بحيث يغلب الإثم على المعاصي قال واللفظ إنما يقتضي نهي الإمام عن طاعة آثم من العصاة أو كفور من المشركين وقال أبو عبيدة وغيره ليس فيها تخيير أو بمعنى الواو وكذلك قال طائفة منهم البغوي وابن الجوزي وقال المهدي أي لا تطع من أثم أو كفر ودخول أو يوجب أن لا تطيع كل واحد منهما على انفراده ولو قال ولا تطع منهما آثما أو كفورا لم يلزم النهي إلا في حال اجتماع الوصفين وقد يقال إن الكفور هو الجاحد للحق وإن كان مجتهدا مخطئا فيكون هذا أعم من وجه وهذا أعم من وجه التمسك وقوله تعالى {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}المائدة٦ من هذا الباب فإنه خاطب المؤمنين فقال {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ}المائدة٦ وهذا يتناول المحدثين كما تقدم ثم قال {وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ}المائدة٦ ثم قال وإن كنتم مع الحدث والجنابة مرضى أو على سفر ولم تجدوا ماء فتيمموا وهذا يتناول كل محدث سواء كان قد جاء من الغائط أو لم يجئ كالمستيقظ من نومه والمستيقظ إذا خرجت منه الريح ويتناول كل جنب سواء كانت جنابته باحتلام أو جماع فقال وإن كنتم محدثون جنب مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط وهذا نوع خاص من الحدث أو لامستم النساء وهذا نوع خاص من الجنابة ثم قد يقال لفظ الجنب يتناول النوعين وخص المجامع بالذكر وكذلك القائم إلى الصلاة يتناول من جاء من الغائط ومن أحدث بدون ذلك لكن خص

الجائي بالذكر كما في قوله{فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً}البقرة١٨٢ فالآثم هو المتعمد وتخصيصه بالذكر وإن كان دخل ليبين حكمه بخصوصه ولئلا يظن خروجه عن اللفظ العام وإن كان لم يدخل فهو نوع آخر والتقدير إن كنتم مرضى أو على سفر فتيمموا وهذا معنى الآية فصل وقوله {أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ}المائدة٦ ذكر الحديث الأصغر فالمجيء من الغائط هو مجيء من الموضع الذي يقضي فيه الحاجة وكانوا ينتابون الأماكن المنخفضة وهي الغائط وهو كقولك جاء من المرحاض وجاء من الكنيف ونحو ذلك هذا كله عبارة عمن جاء وقد قضى حاجته بالبول أو الغائط والريح يخرج معهما وقد تنازع الفقهاء هل تنقض الريح لكونها تستصحب جزءا من الغائط فلا يكون على هذا نوعا آخر أو هي لا تستصحب جزءا من الغائط بل هي نفسها تنقض ونقضها متفق عليه بين المسلمين وقد دل عليه القرآن في قوله {إِذَا قُمْتُمْ}المائدة٦ سواء كان أريد القيام من النوم أو مطلقا فإن القيام من النوم مراد على كل تقدير وهو إنما نقض بخروج الريح هذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف أن النوم نفسه ليس بناقض ولكنه مظنة خروج الريح وقد ذهبت طائفة إلى أن النوم نفسه ينقض ونقض الوضوء بقليله وكثيره وهو قول ضعيف وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه كان ينام حتى يغط ثم يقوم يصلي ولا يتوضأ ويقول تنام عيناي ولا ينام قلبي فدل على أن قلبه الذي لم ينم كان يعرف به أنه لم يحدث ولو كان النوم نفسه كالبول والغائط والريح لنقض كسائر النواقض وأيضا قد ثبت في الصحيحين أن الصحابة كانوا ينتظرون الصلاة حتى تخفق رؤوسهم ثم يصلون ولا يتوضؤون وهم في المسجد ينتظرون العشاء خلف النبي وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله شغل عن العشاء ليلة فأخرها حتى رقدنا في المسجد ثم استيقظنا ثم رقدنا ثم استيقظنا ثم خرج علينا رسول الله ثم قال ليس أحد من أهل الأرض الليلة ينتظر الصلاة غيركم ولمسلم عنه قال مكثنا ذات ليلة ننتظر رسول الله لصلاة العشاء الآخرة فخرج علينا حين ذهب ثلث الليل أو بعضه ولا ندري أي شيء شغله من أهله أو غير ذلك فقال حين خرج إنكم لتنتظرون صلاة ما ينتظرها أهل دين غيركم ولولا أن يثقل على أمتي لصليت بهم هذه الساعة ثم أمر المؤذن فأقام الصلاة وصلى ولمسلم أيضا عن عائشة رضي الله عنها قالت أعتم رسول الله ذات ليلة حتى ذهب عامة الليل وحتى نام أهل المسجد ثم خرج فصلى فقال إنه لوقتها لولا أن أشق على أمتي ففي هذه الأحاديث الصحيحة أنهم ناموا وقال في بعضها إنهم رقدوا ثم استيقظوا ثم رقدوا ثم استيقظوا وكان الذين يصلون خلفه جماعة كثيرة وقد طال انتظارهم وناموا ولم يستفصل أحدا لا سئل ولا سأل الناس هل رأيتم رؤيا أو هل مكن أحدكم مقعدته أو هل كان أحدكم

مستندا وهل سقط شيء من أعضائه على الأرض فلو كان الحكم يختلف لسألهم وقد علم أنه في مثل هذا الانتظار بالليل مع كثرة الجمع يقع هذا كله وقد كان يصلي خلفه النساء والصبيان وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت أعتم رسول الله ليلة من الليالي بصلاة العشاء فلم يخرج رسول الله حتى قال عمر بن الخطاب نام النساء والصبيان فخرج رسول الله فقال لأهل المسجد حين خرج عليهم ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم وذلك قبل أن يفشو الإسلام في الناس وقد خرج البخاري هذا الحديث في باب خروج النساء إلى المسجد بالليل والغلس وفي باب النوم قبل العشاء لمن غلب عليه النوم وخرجه في باب وضوء الصبيان وحضورهم الجماعة وقال فيه إنه ليس أحد من أهل الأرض يصلي هذه الصلاة غيركم وهذا يبين أن قول عمر نام النساء والصبيان يعني والناس في المسجد ينتظرون الصلاة وهذا يبين أن المنتظرين للصلاة كالذي ينتظر الجمعة إذا نام أي نوم كان لم ينتقض وضوؤه فإن النوم ليس بناقض وإنما الناقض الحدث فإذا نام النوم المعتاد الذي يختاره الناس في العادة كنوم الليل والقائلة فهذا يخرج منه الريح في العادة وهو لا يدري إذا خرجت فلما كانت الحكمة خفية لا نعلم بها قام دليلها مقامها وهذا هو النوم الذي يحصل هذا فيه في العادة وأما النوم الذي يشك فيه هل حصل معه ريح أم لا فلا ينقض الوضوء لأن الطهارة ثابتة بيقين فلا تزول بالشك وللناس في هذه المسألة أقوال متعددة ليس هذا موضع تفصيلها لكن هذا هو الذي يقوم عليه الدليل وليس في الكتاب والسنة نص يوجب النقض بكل نوم فإن قوله العين وكاء السه فإذا نامت العينان استطلق الوكاء قد روي في السنن من حديث علي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهما وقد ضعفه غير واحد وبتقدير صحته فإنما فيه إذا نامت العينان استطلق الوكاء وهذا يفهم منه أن النوم المعتاد هو الذي يستطلق منه الوكاء ثم نفس الاستطلاق لا ينقض وإنما ينقض ما يخرج مع الاستطلاق وقد يسترخي الإنسان حتى ينطلق الوكاء ولا ينتقض وضوؤه وإنما قوله في حديث صفوان بن عسال أمرنا أن لا ننزع خفافنا إذا كنا سفرا أو مسافرين ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة لكن من غائط أو بول أو نوم فهذا ليس فيه ذكر نقض النوم ولكن فيه أن لابس الخفين لا ينزعهما ثلاثة أيام إلا من جنابة ولا ينزعهما من الغائط والبول والنوم فهو نهي عن نزعهما لهذه الأمور وهو يتناول النوم الذي ينقض ليس فيه أن كل نوم ينقض الوضوء هذا إذا كان لفظ النوم من كلام النبي فكيف إذا كان من كلام الراوي وصاحب الشريعة قد يعلم أن الناس إذا كانوا قعودا أو قياما في الصلاة أو غيرها فينعس أحدهم وينام ولم يأمر أحدا بالوضوء في مثل هذا أما الوضوء من النوم المعروف عند الناس فهو الذي يترجح معه في العادة خروج الريح

وأما ما كان قد يخرج معه الريح وقد لا يخرج فلا ينقض على أصل الجمهور الذين يقولون إذا شك هل ينقض أو لا ينقض أنه لا ينقض بناء على يقين الطهارة [1]

الشارع علق الطهارة بمسمى الماء

فان القرآن والحديث فيهما كلمات جامعة هى قواعد عامة وقضايا كلية تتناول كل ما دخل فيها وكل ما دخل فيها فهو مذكور فى القرآن والحديث باسمه العام وإلا فلا يمكن ذكر كل شىء باسمه الخاص فان الله بعث محمدا الى جميع الخلق وقال {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً}الأعراف١٥٨ وقال {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ}سبأ٢٨ وقال تعالى {الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً}الفرقان١ وقال {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}الأنبياء١٠٧ فاسم الناس و العالمين يدخل فيه العرب وغير العرب من الفرس والروم والهند والبرر فلو قال قائل إن محمدا ما أرسل الى الترك والهند والبرر لأن الله لم يذكرهم فى القرآن كان جاهلا كما لو قال ان الله لم يرسله الى بنى تميم وبنى أسد وغطفان وغير ذلك من قبائل العرب فان الله لم يذكر هذه القبائل باسماءها الخاصة وكما لو قال ان الله لم يرسله الى أبى جهل وعتبة وشيبة وغيرهم من قريش لأن الله لم يذكرهم باسماءهم الخاصة فى القرآن وكذلك قال تعالى {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً}النساء٤٣ يعم كل ما يسمى صعيدا ويعم كل ماء سواء كان من المياه الموجودة فى زمن النبى أو مما حدث بعده فلو استخرج قوم عيونا وكان فيها ماء متغير اللون والريح والطعم وأصل الخلقة وجب الاغتسال به بلا نزاع نعرفه بين العلماء وان لم تكن تلك المياه معروفة عند المسلمين على عهد النبى [2]

وأما الوضوء بالنبيذ فجمهور العلماء ينكرونه وعن أبي حنيفة فيه روايتان أيضا وإنما أخذ ذلك لحديث روي في هذا الباب حديث ابن مسعود وفيه تمرة طيبة وماء طهور والجمهور منهم من يضعف هذا الحديث ويقولون إن كان صحيحا فهو منسوخ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣٨٢-٣٨٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ٢٠٨-٢٠٩

بآية الوضوء وآية تحريم الخمر مع أنه قد يكون لم يصر نبيذا وإنما كان الماء باقيا لم يتغير أو تغير تغيرا يسيرا أو تغيرا كثيرا مع كونه ماء على قول من يجوز الوضوء بالماء المضاف كماء الباقلاء وماء الحمص ونحوهما وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في أكثر الروايات عنه وهو أقوى في الحجة من القول الآخر لأن قوله {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء}النساء٤٣ نكرة في سياق النفي فيعم ما تغير بإلقاء هذه الطاهرات فيه كما يعم ما تغير بأصل خلقته أو بما لا يمكن صونه عنه إذ شمول اللفظ لهما سواء كما يجوز التوضؤ بماء البحر وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له أنتوضأ من ماء البحر فإنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الطهور ماؤه الحل ميتته قال الترمذي حديث صحيح فماء البحر طهور مع كونه في غاية الملوحة والمرارة والزهومة فالمتغير بالطاهرات أحسن حالا منه لكن ذاك تغير أصلي وهذا طارىء وهذا الفرق لا يعود إلى اسم الماء ومن اعتبره جعل مقتضى القياس أنه لا يتوضأ بماء البحر ونحوه ولكن أبيح لأنه لا يمكن صونه عن المغيرات والأصل ثبوت الأحكام على وفق القياس لا على خلافه فإن كان هذا داخلا في اللفظ دخل الآخر وإلا فلا وهذه دلالة لفظية لا قياسية حتى يعتبر فيها المشقة وعدمها [1]

مسألة تغير الماء اليسير أو الكثير بالطاهرات

أما مسألة تغير الماء اليسير أو الكثير بالطاهرات كالأشنان والصابون والسدر والخطمي والتراب والعجين وغير ذلك مما قد يغير الماء مثل الإناء إذا كان فيه أثر سدر أو خطمى ووضع فيه ماء فتغير به مع بقاء إسم الماء فهذا فيه قولان معروفان للعلماء أحدهما أنه لا يجوز التطهير به كما هو مذهب مالك والشافعى وأحمد فى إحدى الروايتين عنه التى إختارها الخرقى والقاضى وأكثر متأخري أصحابه لأن هذا ليس بماء مطلق فلا يدخل فى قوله تعالى {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء}النساء٤٣ ثم إن أصحاب هذا القول إستثنوا من هذا أنواعا بعضها متفق عليه بينهم وبعضها مختلف فيه فما كان من التغير حاصلا بأصل الخلقة أو بما يشق صون الماء عنه فهو طهور باتفاقهم وما تغير بالأدهان والكافور ونحو ذلك ففيه قولان معروفان فى مذهب الشافعى

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٤٢٥

وأحمد وغيرهما وما كان تغيره يسيرا فهل يعفى عنه أولا يعفى عنه أو يفرق بين الرائحة وغيرها على ثلاثة أوجه الى غير ذلك من المسائل والقول الثانى أنه لا فرق بين المتغير بأصل الخلقة وغيره ولا بما يشق الإحتراز عنه ولا بمالا يشق الإحتراز عنه فما دام يسمى ماء ولم يغلب عليه أجزاء غيره كان طهورا كما هو مذهب أبى حنيفة وأحمد فى الرواية الأخرى عنه وهى التى نص عليها فى أكثر أجوبته وهذا القول هو الصواب لأن الله سبحانه وتعالى قال {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً}المائدة٦ وقوله {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء}المائدة٦ نكرة فى سياق النفي فيعم كل ما هو ماء لا فرق فى ذلك بين نوع ونوع فإن قيل ان المتغير لا يدخل فى اسم الماء قيل تناول الاسم لمسماه لا فرق فيه بين التغير الأصلى والطارىء ولا بين التغير الذى يمكن الإحتراز منه والذى لا يمكن الإحتراز منه فإن الفرق بين هذا وهذا إنما هو من جهة القياس لحاجة الناس الى استعمال هذا المتغير دون هذا فأما من جهة اللغة وعموم الإسم وخصوصه فلا فرق بين هذا وهذا ولهذا لو وكله فى شراء ماء أو حلف لا يشرب ماء أو غير ذلك لم يفرق بين هذا وهذا بل إن دخل هذا دخل هذا وإن خرج هذا خرج هذا فلما حصل الإتفاق على دخول المتغير تغيرا أصليا أو حادثا بما يشق صونه عنه علم أن هذا النوع داخل فى عموم الآية وقد ثبت بسنة رسول الله أنه قال فى البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته والبحر متغير الطعم تغيرا شديدا لشدة ملوحته فاذا كان النبي قد أخبر أن ماءه طهور مع هذا التغير كان ما هو أخف ملوحة منه أولى أن يكون طهورا وإن كان الملح وضع فيه قصدا إذ لا فرق بينهما فى الإسم من جهة اللغة وبهذا يظهر ضعف حجة المانعين فإنه لو استقى ماء أو وكله فى شراء ماء لم يتناول ذلك ماء البحر ومع هذا فهو داخل فى عموم الآية فكذلك ما كان مثله فى الصفة وأيضا فقد ثبت أن النبى أمر بغسل المحرم بماء وسدر وأمر بغسل ابنته بماء وسدر وأمر الذى أسلم أن يغتسل بماء وسدر ومن المعلوم أن السدر لابد أن يغير الماء فلو كان التغير يفسد الماء لم يأمر به وقول القائل إن هذا تغير فى محل الاستعمال فلا يؤثر تفريق بوصف غير مؤثر لا فى اللغة ولا فى الشرع فان المتغير إن كان يسمى ماء مطلقا وهو على البدن فيسمى ماء مطلقا وهو فى الإناء وإن لم يسم ماء مطلقا فى أحدهما لم يسم مطلقا فى الموضع الآخر فانه من المعلوم أن أهل اللغة لا يفرقون فى التسمية بين محل ومحل وأما الشرع فان هذا فرق لم يدل عليه دليل شرعى فلا يلتفت إليه والقياس عليه إذا جمع أو فرق أن يبين أن ما جعله مناط الحكم جمعا أو فرقا مما دل عليه الشرع وإلا فمن علق الأحكام بأوصاف جمعا وفرقا بغير دليل شرعى كان واضعا لشرع من تلقاء نفسه شارعا فى الدين ما لم يأذن

به الله ولهذا كان على القائس أن يبين تأثير الوصف المشترك الذى جعله مناط الحكم بطريق من الطرق الدالة على كون الوصف المشترك هو علة الحكم وكذلك فى الوصف الذى فرق فيه بين الصورتين عليه أن يبين تأثيره بطريق من الطرق الشرعية وأيضا فان النبى توضأ من قصعة فيها أثر العجين ومن المعلوم أنه لابد فى العادة من تغير الماء بذلك لا سميا فى آخر الأمر إذا قل الماء وإنحل العجين فان قيل ذلك التغير كان يسيرا قيل وهذا أيضا دليل فى المسألة فانه إن سوى بين التغير اليسير والكثير مطلقا كان مخالفا للنص وإن فرق بينهما لم يكن للفرق بينهما حد منضبط لا بلغة ولا شرع ولا عقل ولا عرف من فرق بين الحلال والحرام بفرق غير معلوم لم يكن قوله صحيحا وأيضا فان المانعين مضطربون إضطرابا يدل على فساد أصل قولهم منهم من يفرق بين الكافور والدهن وغيره ويقول إن هذا التغير عن مجاورة لا عن مخالطة ومنهم من يقول بل نحن نجد فى الماء أثر ذلك ومنهم من يفرق بين الورق الربيعى والخريفى ومنهم من يسوى بينهما ومنه من يسوى بين الملحين الجبلي والمائي ومنهم من يفرق بينهما وليس على شىء من هذه الأقوال دليل يعتمد عليه لا من نص ولا قياس ولا إجماع إذ لم يكن الأصل الذى تفرعت عليه مأخوذا من جهة الشرع وقد قال الله سبحانه وتعالى {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ وهذا بخلاف ما جاء من عند الله فانه محفوظ كما قال تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}الحجر٩ فدل ذلك على ضعف هذا القول وأيضا فان القول بالجواز موافق للعموم اللفظي والمعنوي مدلول عليه بالظواهر والمعانى فان تناول إسم الماء لمواقع الإجماع كتناوله لموارد النزاع فى اللغة وصفات هذا كصفات هذا فى الجنس فتجب التسوية بين المتماثلين وأيضا فانه على قول المانعين يلزم مخالفة الأصل وترك العمل بالدليل الشرعى لمعارض راجح إذ كان يقتضى القياس عندهم أنه لا يجوز إستعمال شىء من المتغيرات فى طهارتي الحدث والخبث لكن إستثنى المتغير بأصل الخلقة وبما يشق صون الماء عنه للحرج والمشقة فكان هذا موضع إستحسان ترك له القياس وتعارض الأدلة على خلاف الأصل وعلى القول الأول يكون رخصة ثابتة على وفق القياس من غير تعارض بين أدلة الشرع فيكون هذا أقوى

## مسألة تغير الماء بالنجاسات

وأما الماء إذا تغير بالنجاسات فانه ينجس بالاتفاق وأما ما لم يتغير ففيه أقوال معروفة أحدها لاينجس وهو قول أهل المدينة ورواية المدنيين عن مالك وكثير من أهل الحديث وإحدى الروايات عن أحمد إختارها طائفة من أصحابه ونصرها ابن

عقيل فى المفردات وابن البناء وغيرهما والثانى ينجس قليل الماء بقليل النجاسة وهى رواية البصريين عن مالك والثالث وهو مذهب الشافعى وأحمد فى الرواية الأخرى إختارها طائفة من أصحابه الفرق بين القلتين وغيرهما فمالك لا يحد الكثير بالقلتين والشافعى وأحمد يحدان الكثير بالقلتين والرابع الفرق بين البول والعذرة المائعة وغيرهما فالأول ينجس منه ما أمكن نزحه دون ما لم يمكن نزحه بخلاف الثانى فانه لا ينجس القلتين فصاعدا وهذا أشهر الروايات عن أحمد واختيار أكثر أصحابه والخامس أن الماء ينجس بملاقاة النجاسة سواء كان قليلا أو كثيرا وهذا قول أبى حنيفة وأصحابه لكن ما لم يصل إليه لا ينجسه ثم حدوا ما لا يصل اليه بما لا يتحرك أحد طرفيه بتحريك الطرف الآخر ثم تنازعوا هل يحد بحركة المتوضيء أو المغتسل وقدر ذلك محمد بن الحسن بمسجده فوجدوه عشرة أذرع فى عشرة أذرع وتنازعوا فى الآبار إذا وقعت فيها نجاسة هل يمكن تطهيرها فزعم المزني أنه لا يمكن وقال أبو حنيفة وأصحابه يمكن تطهيرها بالنزح ولهم فى تقدير الدلاء أقوال معروفة والسادس قول أهل الظاهر الذين ينجسون ما بال فيه البائل دون ما ألقى فيه البول ولا ينجسون ما سوى ذلك إلا بالتغير وأصل هذه المسألة من جهة المعنى أن إختلاط الخبيث وهو النجاسة بالماء هل يوجب تحريم الجميع أم يقال بل قد إستحال فى الماء فلم يبق له حكم فالمنجسون ذهبوا الى القول الأول ثم من إستثنى الكثير قال هذا يشق الإحتراز من وقوع النجاسة فيه فجعلوا ذلك موضع إستحسان كما ذهب الى ذلك طائفة من أصحاب الشافعى وأحمد وأما أصحاب أبى حنيفة فبنوا الأمر على وصول النجاسة وعدم وصولها وقدروه بالحركة أو بالمساحة فى الطول والعرض دون العمق والصواب هو القول الأول وأنه متى علم أن النجاسة قد إستحالت فالماء طاهر سواء كان قليلا أو كثير وكذلك

في المائعات وذلك لأن الله أباح الطيبات وحرم الخبائث والخبيث متميز عن الطيب بصفاته فإذا كان صفات الماء وغيره صفات الطيب دون الخبيث وجب دخوله في الحلال دون الحرام وأيضا فقد ثبت من حديث أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له أنتوضأ من بئر بضاعة وهي بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن فقال الماء طهور لا ينجسه شيء قال الإمام أحمد حديث صحيح وفي المسند أيضا عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الماء طهور لا ينجسه شيء وهذا اللفظ عام في القليل والكثير وهو عام في جميع النجاسات وأما إذا تغير بالنجاسة فإنما حرم استعماله لأن جرم النجاسة باق ففي استعماله استعمال لها بخلاف ما إذا استحالت فإن الماء طهور وليس هناك نجاسة قائمة ومما يبين ذلك أنه لو وقع خمر في ماء واستحالت ثم شربها شارب لم يكن شاربا للخمر ولم يجب

عليه حد الخمر إذا لم يبق شيء من طعمها ولونها وريحها ولو صب لبن امرأة في ماء واستحال حتى لم يبق له أثر وشرب طفل ذلك الماء لم يصر ابنها من الرضاعة وأيضا فإن هذ باق على أوصاف خلقته فيدخل في عموم قوله {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء}النساء٤٣ فإن الكلام إنما هو فيما لم يتغير بالنجاسة لا طعمه ولا ريحه ولا لونه فإن قيل فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن البول في الماء الدائم وعن الاغتسال منه قيل نهيه عن البول في الماء الدائم لا يدل على أنه ينجس بمجرد البول إذ ليس في اللفظ ما يدل على ذلك بل قد يكون نهيه لأن البول ذريعة إلى تنجيسه فإنه إذا بال هذا تغير بالبول فكان نهيا مبتدأ سدا للذريعة وأيضا فيقال نهيه عن البول في الماء الدائم يعم القليل والكثير فيقال لصاحب القلتين أتجوز بوله فيما فوق القلتين إن جوزته فقد خالفت ظاهر النص وإن حرمته فقد نقصت دليلك وكذلك يقال لمن فرق بين ما يمكن نزحه ومالا يمكن نزحه أتسوغ للحاج أن يبولوا في المصانع التي بطريق مكة إن جوزته فقد خالفت ظاهر النص وإلا نقضت قولك ويقال للمقدر بعشرة أذرع إذا كان للقرية غدير مستطيل أكثر من عشرة أذرع رقيق أتسوغ لأهل القرية البول فيه إن سوغته فقد خالفت ظاهر النص وإلا نقضت قولك وأما من فرق بين البول وبين صب البول فقوله ظاهر الفساد فإن صب البول أبلغ من أن ينهى عنه من مجرد البول إذ الإنسان قد يحتاج إلى البول في الماء وأما صب الأبوال في المياه فلا حاجة إليه فإن قيل ففي حديث القلتين أنه سئل عن الماء يكون بأرض فلاة وما ينويه من الدواب والسباع فقال إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث وفي لفظ لم ينجسه شيء وأما مفهومه إذا قلنا بدلالة مفهوم العدد فإنما يدل على أن الحكم في المسكوت مخالف الحكم في المنطوق بوجه من الوجوه ليظهر فائدة التخصيص بالمقدار ولا يشترط أن يكون الحكم في كل صورة من صور المسكوت مناقضة للحكم في كل صورة من صور المنطوق وهذا معنى قولهم المفهوم لاعموم له فلا يلزم أن كل ما لم يبلغ القلتين ينجس بل إذا قيل بالمخالفة في بعض الصور حصل المقصود وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر هذا التقدير ابتداء وإنما ذكره في جواب من سأله عن مياه الفلاة التي تردها السباع والدواب والتخصص إذا كان له سبب غير اختصاص الحكم لم يبق حجة باتفاق كقوله تعالى{وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ}الإسراء٣١ فإنه خص هذه الصورة بالنهي لأنها هي الواقعة لا لأن التحريم يختص بها وكذلك قوله{وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ}البقرة٢٨٣ فذكر الزمن في هذه الصورة للحاجة مع أنه قد ثبت سائل أن النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم مات ودرعه مرهونة فهذا رهن في الحضر فكذلك قوله إذا بلغ الماء قلتين في جواب

سائل معين بيان لما احتاج السائل إلى بيانه فلما كان حال المسؤول عنه كثيرا قد بلغ قلتين ومن شأن الكثير أنه لا يحمل الخبث فلا يبقى الخبث فيه محمولا بل يستحيل الخبث فيه لكثرته بين لهم أن ما سألتم عنه لاخبث فيه فلا ينجس ودل كلامه صلى الله عليه وسلم على أن مناط التنجيس هو كون الخبث محمولا فحيث كان الخبث محمولا موجودا في الماء كان نجسا وحيث كان الخبث مستهلكا غير محمول في الماء كان باقيا على طهارته فصار حديث القلتين موافقا لقوله الماء طهور لا ينجسه شيء والتقدير فيه لبيان صورة السؤال لا أنه أراد أن كل ما لم يبلغ قلتين فإنه يحمل الخبث فإن هذا مخالف للنص إذ ما دون القلتين قد لا يحمل الخبث ولا ينجسه شيء كقوله الماء الطهور لا ينجسه شيء وهو إنما أراد إذا لم يتغير في الموضعين وأما إذا كان قليلا فقد يحمل الخبث لضعفه وعلى هذا يخرج أمره بتطهير الإناء إذا ولغ فيه الكلب سبعا إحداهن بالتراب وبإراقته فإن قوله صلى الله عليه وسلم إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه ويغسله سبعا أولاهن بالتراب كقوله إذا قام أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإنه لا يدري أين باتت يده فإذا كان النهي عن غمس اليد في الإناء هو الإناء المعتاد للغمس وهو الواحد من آنية المياه فكذلك تلك الآنية المعتادة للولوغ وهي آنية الماء وذلك أن الكلب يلغ بلسانه شيئا بعد شيء فلا بد أن يبقى في الماء من ريقه ولعابه ما يبقى وهو لزج بلسانه شيئا بعد شيء فلا بد أن يبقى فيكون ذلك الخبث محمولا والماء يسيرا فيراق ذلك الماء لأجل كون الخبث محمولا فيه ويغسل الإناء الذي لاقاه ذلك الخبث وهذا بخلاف الخبث المستهلك المستحيل كاستحالة الخمر فإن الخمر إذا انقلبت في الدن بإذن الله كانت طاهرة باتفاق العلماء وكذلك جوانب الدن فهناك يغسل الاناء وهنا لا يغسل لأن الاستحالة حصلت في أحد الموضعين دون الآخر وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم لو أراد الفصل بين المبتدأ والذي ينجس بمجرد الملاقاة وما لا ينجس إلا بالتغير لقال إذا لم يبلغ قلتين نجس وما بلغهما لم ينجس إلا بالتغير انجر ذلك من الكلام الذي يدل على ذلك فأما مجرد قوله إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث مع أن الكثير ينجس بالاتفاق فلا يدل على هذا المقصود بل يدل على أنه في العادة لا يحمل الخبث فلا ينجسه فهو إخبار عن انتفاء سبب التنجس وبيان لكون التنجس في نفس الأمر هو حمل الخبث و الله أعلم وأما نهيه صلى الله عليه وسلم أن يغمس القائم من نوم الليل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثا فهو لا يقتضى تنجس الماء بالاتفاق بل قد يكون لإنه يؤثر في الماء أثرا أو أنه قد يفضى إلى التأثير وليس ذلك بأعظم من النهي عن البول في الماء الدائم وقد تقدم أنه لا يدل على التنجس وأيضا فان في الصحيحين عن أبي هريرة قال إذا استيقظ أحدكم من نومه فليستنشق بمنخريه

من الماء فإن الشيطان يبيت على خيشومه فأمر بالغسل معللا بمبيت الشيطان على خيشومه فعلم أن ذلك سبب للغسل غير النجاسة والحدث المعروف وقوله فإن أحدكم لا يدرى أين باتت يده يمكن أن يراد به ذلك فتكون هذه العلة من العلل المؤثرة التي شهد لها النص بالاعتبار وأما نهيه عن الاغتسال فيه بعد البول فهذا إن صح عن النبي صلى الله عليه وسلم كنهيه عن البول في المستحم ثم إذا اغتسل حصل له وسواس وربما بقي شيء من أجزاء البول فعاد عليه رشاشها وكذلك إذا بال في ماء ثم اغتسل فيه فقد يغتسل قبل الاستحالة مع بقاء أجزاء البول فنهى عنه لذلك ونهيه عن الاغتسال في الماء الدائم إن صح يتعلق بمسألة الماء المستعمل وهذا قد يكون لما فيه من تقذير الماء على غيره لا لأجل نجاسته ولا لمصيره مستعملا فإنه قد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الماء لا يجنب و الله أعلم [1]

باب التطهير والتنجيس دين الإسلام فيه وسط بين اليهود والنصارى

في إحدى الروايتين عن أحمد التي نصها في أكثر أجوبته أن الماء المتغير بالطاهر كالحمص والباقلاء لا يخرج عن كونه طهورا ما دام اسم الماء يتناوله كالماء المتغير بأصل الخلقة كماء البحر وغيره وما تغير بما يشق صونه عنه من الطحلب وورق الشجر وغيرهما فإن شمول اسم الماء في اللغة لهذه الأصناف الثلاثة واحد وقد ثبت بالسنة أن النبي قال في الذي وقصته ناقته اغسلوه بماء وسدر وكذلك قال للآتي غسلن ابنته اغسلنها بماء وسدر وللذي أسلم اغتسل بماء وسدر وهذا فيه كلام ليس هذا موضعه وإذا تبين ما ذكرناه ظهر عظيم البدعة وتغيير السنة والشرعة فيما يفعله طوائف من المنتسبين إلى العلم والدين من فرط الوسوسة في هذا الباب حتى صاروا إنما يفعلونه مضاهين لليهود بل للسامرية الذين يقولون لا مساس وباب التحليل والتحريم الذي منه باب التطهير والتنجيس دين الإسلام فيه وسط بين اليهود والنصارى كما هو وسط في سائر الشرائع فلم يشدد علينا في أمر التحريم والنجاسة كما شدد على اليهود الذين حرمت عليهم طيبات أحلت لهم بظلمهم وبغيهم بل وضعت عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم مثل قرض الثوب ومجانبة الحائض في المؤاكلة والمضاجعة وغير ذلك ولم تحل لنا الخبائث كما

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٢٤-٣٥ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٤١٢-٤١٥

استحلها النصارى الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق فلا يجتنبون نجاسة ولا يحرمون خبيثا بل غاية احدهم أن يقول طهر قلبك وصل واليهودي إنما يعتني بطهارة ظاهره لا قلبه كما قال تعالى عنهم {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ} المائدة٤١ وأما المؤمنون فإن الله طهر قلوبهم وأبدانهم من الخبائث وأما الطيبات فأباحها لهم والحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى [١]

## الطهارة من الجنابة فرض

الطهارة من الجنابة فرض ليس لأحد أن يصلي جنبا ولا محدثا حتى يتطهر ومن صلى بغير طهارة شرعية مستحلا لذلك فهو كافر ولو لم يستحل ذلك فقد اختلف في كفره وهو مستحق للعقوبة الغليظة لكن إن كان قادرا على الاغتسال بالماء اغتسل وإن كان عادما للماء ويخاف الضرر باستعماله بمرض أو خوف برد تيمم وصلى وإن تعذر الغسل والتيمم صلى بلا غسل ولا تيمم في أظهر أقوال العلماء ولا إعادة عليه والله سبحانه وتعالى أعلم [٢]

ومن المعلوم أن من الأغسال ما هو واجب كغسل الجنابة والحيض والنفاس ومنها ما هو مؤكد قد تنوزع في وجوبه كغسل الجمعة ومنها ما هو مستحب [٣]

وأما غسل الجنابة فهو قسمان كما ذكره الشيخ( أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي رضي الله عنه )رحمه الله تعالى مسألة والموجب له شيئان خروج المني وهو الماء الدافق والتقاء الختانين والأصل فيه الكتاب والسنة والإجماع أما الكتاب فقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ} النساء٤٣

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣٣١-٣٣٣

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٢٩٥

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣١١

إلى قوله تعالى {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ}النساء٤٣ وقوله تعالى {وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ}المائدة٦ إلى قوله تعالى {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ}المائدة٦ يقال رجل جنب ورجلان جنبان ورجال جنب وربما قيل أجناب وجنبون واللغة المشهورة أجنب ويقال جنب يقال سمي بذلك لأن الماء جانب محله ويقال لأنه يجتنب الصلاة ومواضعها وما أشبهها من العبادات وتجتنبه الملائكة والجنب اسم يجمع المنزل الماء والواطيء أيضا والسنة فسرت ذلك أما الأول فقد تقدم حديث علي في المذي الوضوء وفي المني الغسل وعن أم سلمة قالت جاءت أم سليم امرأة أبي طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت فقال نعم إذا رأت الماء متفق عليه وسواء خرج المني من يقظة أو نوم عن تفكر أو نظر أو مس أو غير ذلك وهذا من العلم العام الذي استفاضت به السنن واجتمعت عليه الأمة والمني هو الماء الدافق إذا خرج بشهوة وماء الرجل أبيض غليظ يشبه رائحة طلع النخل ورائحة العجين ومني المرأة أصفر رقيق فإن خرج بغير دفق وشهوة مثل أن يخرج لمرض أو إبرادة فلا غسل فيه في المسهور من نصه ومذهبه لأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال كنت رجلا مذاء فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذا حذفت الماء فاغتسل من الجنابة وإذا لم تكن حاذفا فلا تغتسل رواه أحمد وفي رواية لأحمد وأبي داود فإذا رأيت المذي فاعتبر الحذف والفضخ وهو خروجه بقوة وشدة وعجلة كما تخرج الحصاة من بين يدي الحاذف والنواة من بين مجرى الفاضح وروى سعيد في سننه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ومجاهد وعطاء قالوا دخلت أم سليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله المرأة ترى في منامها كما يرى الرجل أفيجب عليها الغسل قال هل تجد شهوة قالت لعله قال وهل ترى بللا قالت لعله قال فلتغتسل وهذا تفسير ما جاء من العمومات مثل قوله الماء من الماء وقوله إذا رأت المني فلتغتسل وبين أنه ليس بمني لفساده واستحالته أو وإن كان منيا لكان لفساده خرج عن حكمه لأنه خارج يوجب الغسل فإذا تغير عن صفة الصحة والسلامة لم يوجب كدم الاستحاضة مع دم الحيض وذكر القاضي في الجامع رواية ثانية له يوجب الغسل على أي صفة خرج بشهوة أو بغير شهوة للعمومات فيه وأخذها من نصه على أن من جامع ثم اغتسل ثم أنزل فعليه الغسل مع أن ظاهر حاله أنه يخرج بغير شهوة فصل إذا احتلم ولم ير الماء فلا غسل عليه وإن استيقظ فرأى الماء فعليه الغسل وإن استيقظ فرأى بللا لا يعلم مني هو أم مذي فإن ذكر احتلاما لزمه الغسل سواء تقدم نومه بفكر أو مسيس أم لا لأن هناك سببا قريبا يضاف الحكم إليه وإن لم يذكر احتلاما لزمه أيضا الغسل إلا أن يتقدمه بفكر أو نظر

أو لمس أو تكون به إبرادة فلا غسل عليه وعنه ما يدل على أن لا غسل عليه مطلقا لأنه يجوز أن يكون منيا وأن يكون مذيا وهو طاهر بيقين فلا تزول طهارته بالشك والصحيح الأول لما روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاما قال يغتسل وعن الرجل يرى أن قد احتلم ولا يجد البلل قال لا غسل عليه رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة واحتج به أحمد ولأن هذا الماء لا بد لخروجه من سبب وليس هناك سبب ظاهر إلا الاحتلام والماء الذي يخرج بالاحتلام في الغالب إنما هو المني فالحقت هذه الصورة المجهولة بالأعم الأغلب ولهذا إذا كان هناك سبب ظاهر يضاف إيه مثل لمس أو تفكير أو إبردة أضفناه إليه وجعلناه مذيا لأن الأصل عدم ما سواه ومن رأى في ثوبه الذي لا ينام فيه غيره منيا لزمه الغسل ويعيد ما صلى بعد آخر نومة نامها فيه إلا أن يعلم أنه قبلها فيعيد من آخر نومة يمكن أنه منها وإن كان الرائي لذلك صبيا لزمه الغسل إن كان سنه ممن يمكن البلوغ وهو استكمال ثنتي عشرة سنة أو عشر سنين أو تسع سنين على اختلاف الوجوه الثلاثة فأما إن وجد اثنان منيا في ثوب ناما فيه فلا غسل على واحد منهما في المشهور وكذلك كل اثنين تيقن الحدث من أحدهما لا بعينه لأن كل واحد منهما مكلف باعتبار نفسه ولم يتحقق زوال طهارته كما لو قال أحدهما إن كان هذا الطائر غرابا فزوجتي طالق وقال الآخر إن لم يكن غرابا فزوجتي طالق وطار ولم يعلم ما هو كن لا يأثم أحدهما صاحبه وعنه تلزمهما جميعا الطهارة لأنهما تيقنا حدث أحدهما وليس في أمرهما بالغسل كثير مشقة فإن أحس بانتقال المني عند الشهوة فأمسك ذكره فلم يخرج وجب الغسل في المشهور من الروايتين وفي الأخرى لا يجب لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا حذفت وفضخت ولم يوجد ذلك ولأنه ما لم يخرج فهو في حكم الباطن فلم يجب بتنقله فيه طهارة كالريح المتنقلة من المعدة إلى قريب المخرج ووجه الأول أنه مني انعقد وأخذ في الدفق والخروج فأشبه ما لو خرج من الاقلف المرتتق إلى ما بين القلفة والحشفة كالمرأة إذا أنزلت ولم يخرج إلى ظاهر فرجها ولأن الانتقال مظنة الإنزا والخروج فأوجب الغسل كالتقاء الختانين وأولى منه لأن الانتقال لا يتخلف عنه الخروج بل لا بد أن يخرج بل ولا يعود إلى محله ومعنى الحديث إذا أخذت في الحذف والفضخ لأنه إذا ظهر بعد ذلك وجب الغسل إجماعا ولا حذف ولا فضخ هذا يخالف الريح المترددة فإنه لا بد من ظهوره بخلاف الريح فإنها قد تعود إلى محلها فإن قلنا لا يجب الغسل فإذا خرج لزمه الغسل سواء كان قد اغتسل أو لم يغتسل قبل البول أو بعده لأنه مني انتقل بشهوة وخرج فلا بد أن يوجب الغسل كما لو خرج عقيب الانتقال بخلاف الذي ينتقل بلا شهوة وإذا قلنا يجب الغسل فاغتسل ثم خرج منه فهو كما لو اغتسل لمني خرج

بعضه ثم خرج باقيه والمشهور عنه أنه لا يوجب غسلا ثانيا حتى أن من أصحابنا من يجعله رواية واحدة لما روى سعيد عن ابن عباس أنه سئل عن الجنب يخرج منه المني بعد الغسل قال يتوضأ وكذلك ذكره الإمام أحمد عن علي ولأنه مني واحد فلا يوجب غسلين كما لو ظهر ولأن الموجب هو المني المقترن بالشهوة وهو واحد ولأن الثاني خارج عن غير شهوة فأشبه ما لو خرج لإبردة أو مرض وهذا تعليل الإمام أحمد فقال لا غسل فيه لأن الشهوة ماضية وإنما هو حدث ليس بجناية أرجو أن يجزئه الوضوء لأنه خارج من السبيل وعنه أنه يوجب الغسل ثانيا لأنه مني انتقل لشهوة فأوجب الغسل كالأول وكما لو خرج عقيب انتقاله وعنه إن خرج قبل البول اغتسل وإن خرج بعده لم يغتسل لأن ذلك يروى عن علي وقد ضعفه الإمام أحمد ولأن ما قبل البول هو بقية المني الأول وقد انتقل بشهوة وما بعد البول يجوز أن يكون بقية الأول ويجوز أن يكون غيره خرج لإبردة أو مرض وهو الأظهر لأن البول يدفع بقايا المني لأن مخرج المني تحت مخرج البول وبينهما حاجز رقيق فينعصر مخرج المني تحت مخرج البول فيخرج ما فيه والوجوب لا يثبت بالشك وعلى هذا التعليل فلا يصح مخرج هذه الرواية إلى المنتقل فإنه لا بد من خروجه قبل البول أو بعده ويمكن تعليله بأن ما خرج قبل البول يكون انتقاله إلى الذكر بدفق وشهوة كالخارج إلى باطن القلفة بخلاف ما لم يخرج إلا بعد البول فإنه حين انتقل إلى الذكر كان بغير شهوة فأشبه الخارج عن إبردة أو مرض وقد روى عنه عكس هذه الرواية لأن ما بعد البول مني جديد بخلاف ما قبله فإنه بقية الأول فأما إن وجد سبب الخروج ولم يخرج فقسمان أحدهما أنه يحتلم ثم ينزل بعد الانتباه فيجب عليه الغسل نص عليه لكن إن خرج لشهوة وجب حينئذ وإن خرج بغير شهوة ثبتنا وجوبه حين الاحتلام على المشهور لأنه حينئذ انتقل بعد الانتباه وسكون الشهوة وقبل الخروج كان جانبا ولم يعلم وعلى قولنا لا يجب إلا بالخروج يكون جنبا من حين خروجه والثاني أن يجامع ولا ينزل فيغتسل ثم ينزل بعد ذلك فيجب عليه الغسل نص عليه وهو على الطريقة المشهورة لأصحابنا محمول على ما إذا وجدت شهوة بعد الوطء حين الأنزال او قبله فيكون المنى قد انتقل بها وشهوة الجماع قصرت عنه فأما إذا لم تتجدد شهوة فهو كالمني المنتقل إذا خرج بعد انتقاله على ما تقدم وتحقيق هذه الطريقة أنه قد نص في رواية أخرى في هذه أنه إن خرج قبل البول يغتسل وإلا فلا وهذا يبين أنه لا فرق عنده في المني الخارج بعد الغسل بين أن يكون جماع أو بعد إنزال وكلامه في هذه المواضع وتعليله يقتضي ذلك وهو قول جمهور أصحابنا ومنهم من أوجبه مطلقا فعلى هذا ينبغي أن يقال بتكرر الوجوب فيما إذا خرج بعد انتقاله أو بعد وطئه لأنه منى تام قد خرج وانتقل بشهوة دون ما إذا خرج بعضه ثم

خرجت بقيته حيث كان الثاني جزاء من الأول وعلى هذا يكون كل واحد من الانتقال والخروج سببا كما أن كل واحد من الوطء والانزال سبب ويمكن على هذا أن يقال في المني الخارج بعد الانتباه هو الموجب لأنه لم يحبس بخلاف من أمسك ذكره فأما الوضوء من الخارج في جميع هذه الصور فلا بد منه لأنه خارج من السبيل فصل وأما التقاء الختانين فيوجب الغسل وهو كالإجماع لما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل متفق عليه ولمسلم وإن لم ينزل وعن أبي موسى الأشعري قال اختلف في ذلك رهط من المهاجرين والأنصار فقال الأنصاريون لا يجب الغسل إلا من الدفق أو من الماء وقال المهاجرون بل إذا خالط فقد وجب الغسل قال فقلت أنا أشفيكم فقمت فأستأذنت على عائشة فأذنت لي فقلت لها إني أريد أن أسألك عن شيء وإني استحييك فقالت لا تستحيي أن تسألني عما كنت سائلا عنه أمك قلت فما يوجب الغسل قالت عى الخبير سقطت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجلس بين شعبها الأربع ومس الختان الختانان فقد وجب الغسل رواه أحمد ومسلم يعني رجليها وشفريها وما روى من الرخصة في ذلك مثل ما رواه زيد بن خالد أنه سأل عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال أرأيت إذا جامع الرجل امرأته فلم يمن فقال عثمان رضي الله عنه يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ويغسل ذكره وقال عثمان سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فسألت عن ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه والزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله وأبي بن كعب فأمروه بذلك متفق عليه وهذا لفظ البخاري فإنه منسوخ قال أبي بن كعب إن الفتيا التي كانوا يقولون الماء من الماء رخصة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص فيها في أول الإسلام ثم أمر بالاغتسال بعدها رواه أحمد وأبو داود والترمذي ولفظه إنما كان الماء من الماء رخصة في أول الإسلام ثم نهي عنها قال الترمذي حديث حسن صحيح وعن محمود بن لبيد أنه سأل زيد بن ثابت عن الرجل يجامع أهله ثم يكسل ولا ينزل قال يغتسل قال قلت فإن أبي بن كعب كان يقول غسل عليه قال زيد إن أبيا قد نزع عن ذلك قبل أن يموت رواه أحمد وحكاه أحمد عن عثمان والصحابة المسمين معه العود إلى القول بالغسل وعن الزهري قال سألت عروة عن الذي يجامع ولا ينزل فقال حدثتني عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك ولا يغتسل وذلك قبل فتح مكة ثم اغتسل بعد ذلك وأمر الناس بالغسل رواه الدارقطني ومعنى التقاء الختانين تغيب الحشفة في الفرج سواء كانا مختونين أو ا وذلك يحصل بتحاذي الختانين لأن ختان المرأة في الجلدة التي في أعلى الفرج كعرف الديك ومحل الوطء هو مخرج الحيض والمني والولد في أسفل الفرج فإذا غابت الحشفة فيه تحاذى

الختانان فيقال التقيا ولو التزق الختان بالختان من غير إيلاج فلا غسل وكذلك قال صلى الله عليه وسلم إذا جاوز الختان الختان وجب الغسل رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وكنى عن تغييب الحشفة بمس الختان الختان لأنه يحصل معه غالبا ولو غيب الحشفة من وراء حائل وجب الغسل في أحد الوجهين وإذا قطع ذكره فأولج من الباقي بمقدار الحشفة وجب الغسل وتعلقت به أحكام الوطء من التحليل والمهر وغير ذلك وإلا فلا فأما الخصي إذا جامع فقال أحمد في خصي ومجبوب جامع امرأته لا غسل عليه لأنه قد ذهب قضيبيه فإن أنزل فعليه الغسل وقال أيضا إذا كان له ما يصل به وجب عليه الغسل وإلا إذا أنزل قيل امرأته قال إذا أنزلت قال أصحابنا إذا كان قد بقي من ذكره ما يصل به إلى المرأة وهو مقدار الحشفة وجب عليه الغسل وعليها بإيلاجه وإلا لم يجب إلا بالإنزال للماء وإن لم يلزمها يخلق منه الإنسان وسواء أولج في فرج ذكر أو أنثى في حيوان ناطق أو بهيمة حي أو ميت سواء في ذلك الفاعل والمفعول به لأنه وطء في فرج أصل فأشبه فرج المرأة ولأنه مظنة الإنزال وإن لم يكن يشتهى في الغالب لأن الإقدام على ما لا يشتهى غالبا دليل على قوة الشهوة وكذلك لو استدخلت المرأة ذكر ميت أو بهيمة وسواء في ذلك اليقظان والنائم والطائع والمكره لأن موجبات الطهارة لا يعتبر فيها القصد بدليل احتلام النائم وسبق الحدث ولا بد أن يكون الفرج أصليا فلو وطأ الخنثى المشكل أو وطىء في قبله فلا غسل عليهما لاحتمال أن يكون أولج بخلقة زائدة أو أولج في خلقة زائدة منه وكذلك لو أولج كل واحد من الخنثيين ذكره في قبل الآخر لكن لو وطأ ووطىء في قبله لزمه الغسل ولزم أحد الأخرين لا بعينه كما تقدم في مس الذكر ويجب الغسل على الصغير إذا جامع والصغيرة إذا جومعت بمعنى أنه لايبقى جنبا نص عليه وأنكر قول من لم يوجبه وفسره القاضي وجماعة من أصحابنا بتوقف مجزىء العبادات عليه ووجوبه إذا بلغ يوجب الغسل كما يوجب العدة ثم الصغيرة مثل الكبيرة في إيجاب العدة فكذلك في إيجاب الغسل ولأنا نوجب أمرها بالصلاة فكذلك أمرها بالاغتسال فإنه من لوازمه ويجب الغسل من الإيلاج على العالم والجاهل فلو مكث زمانا لا يغتسل من الوطء ولم يعلم أن الغسل عليه فإنه يحتاط في الصلاة فيعيد حتى يتيقن براءة ذمته نص عليه لأن هذا مما استفاضت به الآثار فلم يعذر به الجاهل ولم يسغ فيه الخلاف نص عليه بخلاف ما قلناه في لحوم الإبل على إحدى الروايتين فإن تلك السنة ليست في الشهرة كهذه وقد قيل إنما قال هذا في العامي الذي لم يقلد ونصه بخلاف هذا وإنما وجب

إعادة كل صلاة إذا شك في طهارتها لأنه قد تيقن الوجوب وشك في الأداء المجزىء فلا يجوز تمكنه من الصلاة والطواف ومس المصحف وقراءة القرآن ويجب الغسل إذا بلغ ولم يكن اغتسل ويغسل إذا مات شهيدا ولا خلاف في هذا كله [1]

## رجل اغتسل ولم يتوضأ فهل يجزيه ذلك أم لا؟

والأفضل أن يتوضأ ثم يغسل سائر بدنه ولا يعيد الوضوء كما كان النبي يفعل ولو اقتصر على الاغتسال من غير وضوء أجزأه ذلك في المشهور من مذهب الأئمة الأربعة لكن عند أبي حنيفة وأحمد عليه المضمضة والاستنشاق وعند مالك والشافعي ليس عليه ذلك وهل ينوي رفع الحدثين فيه نزاع بين العلماء والله أعلم [2]

## التيمم من خصائص المسلمين

قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً} النساء٤٣ وقال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} المائدة٦ والتيمم في اللغة هو القصد ومنه قوله تعالى {وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ} البقرة٢٦٧ فيه وقوله {وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ} المائدة٢ ومنه قول امرئ القيس تيممت الماء الذي دون ضارج يميل عليها الظل عرمضها طامي

---

[1] شرح العمدة ج: ١ ص: ٣٥١-٣٦١

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٢٩٩

لكن لما قال الله تعالى {فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً}النساء٤٣ {فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ}المائدة٦ كان التيمم المأمور به هو تيمم الصعيد الطيب للتمسح به فصار لفظ التيمم إذا أطلق في عرف الفقهاء انصرف إلى هذا التيمم الخاص وقد يراد بلفظ التيمم نفس مسح اليدين والوجه فسمي المقصود بالتيمم تيمما وهذا التيمم المأمور به في الآية هو من خصائص المسلمين ومما فضلهم الله به على غيرهم من الأمم ففي الصحيحين عن جابر بن عبدالله أن النبي قال أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة وهذا لفظ البخاري وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله قال فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون ولمسلم أيضا عن حذيفة بن اليماني أن النبي قال فضلت على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبيعهم وقوله تعالى {فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً}النساء٤٣ نكرة في سياق الإثبات كقوله {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}البقرة٦٧ وقوله{فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}المجادلة٣ وقوله {فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ}البقرة١٩٦ وقوله {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ}المائدة٨٩ وهذه تسمى مطلقة وهي تفيد العموم على سبيل البدل لا على سبيل الجمع فيدل ذلك على أنه يتيمم أي صعيد طيب اتفق والطيب هو الطاهر والتراب الذي ينبعث مراد من النص بالإجماع وفيما سواه نزاع سنذكره إن شاء الله تعالى [1]

## الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣٤٧

وقوله{فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ}المائدة٦ قد اتفق القراء السبعة على قراءة أيديكم بالإسكان بخلاف قوله في الوضوء {وَأَرْجُلَكُمْ}المائدة٦ فإن بعض السبعة قرأوا وأرجلكم بالنصب قالوا إنها معطوفة على المغسول تقديره فاغسلوا وجوهكم وأيديكم وأرجلكم إلى الكعبين كذلك قال علي بن أبي طالب وغيره من السلف قال أبو عبدالرحمن السلمي قرأ علي الحسن والحسين وأرجلكم إلى الكعبين بالخفض فسمع ذلك علي بن أبي طالب وكان يقضي بين الناس فقال وأرجلكم يعني بالنصب وقال هذا من المقدم المؤخر في الكلام وكذلك ابن عباس قرأها بالنصب وقال عاد الأمر إلى الغسل ولا يجوز أن يكون ذلك عطفا على المحل كما يظنه بعض الناس كقول بعض الشعراء معاوي إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديدا فإنما يسوغ في حرف التأكيد مثل المباني وأما حروف المعاني فلا يجوز ذلك فيها والباء هنا للإلصاق ليست للتوكيد ولهذا لم يقرأ القراء هنا وأيديكم كما قرأوا هناك وأرجلكم لأنه لو قال فامسحوا وجوهكم وأيديكم أو امسحوا بها لكان يكتفى بمجرد المسح من غير إيصال للطهور إلى الرأس وهو خلاف الإجماع فلما كانت الباء للإلصاق دل على أنه لا بد من إلصاق الممسوح به فدل ذلك على استعمال الطهور ولهذا كانت هذه الباء لا تدل على التبعيض عند أحد من السلف وأئمة العربية ولا قال الشافعي إن التبعيض يستفاد من الباء بل أنكر إمام الحرمين وغيره من أصحابه ذلك وحكوا كلام أئمة العربية في إنكار ذلك ولكن من قال بذلك استند إلى دلالة أخرى وقوله تعالى{مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}المائدة٦ دلت هذه الآية على أن التراب طهور كما صرحت بذلك السنة الصحيحة في قول النبي وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وعن أبي ذر أن رسول الله قال إن الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين فإذا وجد الماء فليمسه بشرته فإن ذلك خير رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وهذا لفظه وقال حديث حسن صحيح وقد اتفق المسلمون على أنه إذا لم يجد الماء في السفر تيمم وصلى إلى أن يجد الماء فإذا وجد الماء فعليه استعماله [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣٤٨-٣٥٠

# الصعيد الطيب

{فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً}النساء٤٣ وأما الصعيد ففيه أقوال فقيل يجوز التيمم بكل ما كان من جنس الأرض وإن لم يعلق بيده كالزرنيخ والنورة والجص وكالصخرة الملساء فأما ما لم يكن من جنسها كالمعادن فلا يجوز التيمم به وهو قول أبي حنيفة ومحمد يوافقه لكن بشرط أن يكون مغبرا لقوله {مِّنْهُ}المائدة٦ وقيل يجوز بالأرض وبما اتصل بها حتى بالشجر كما يجوز عنده وعند أبي حنيفة بالحجر والمدر وهو قول مالك وله في الثلج روايتان إحداهما يجوز التيمم به وهو قول الأوزاعي والثوري وقيل يجوز بالتراب والرمل وهو أحد قولي أبي يوسف وأحمد في إحدى الروايتين وروي عنه أنه يجوز بالرمل عند عدم التراب وقيل لا يجوز إلا بتراب طاهر له غبار يعلق باليد وهو قول أبي يوسف والشافعي وأحمد في الرواية الأخرى واحتج هؤلاء بقوله{فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ}المائدة٦ وهذا لا يكون إلا فيما يعلق بالوجه واليد والصخر لا يعلق لا بالوجه ولا باليد واحتجوا بأن ابن عباس قال الصعيد الطيب تراب الحرث واحتجوا بقول النبي جعلت لي الأرض مسجدا وجعلت تربتها طهورا قالوا فعم الأرض بحكم المسجد وخص تربتها وهو ترابها بحكم الطهارة قالوا ولأن الطهارة بالماء اختصت من بين سائر المائعات بما هو ماء في الأصل فكذلك طهارة التراب تختص بما هو تراب في الأصل وهما الأصلان اللذان خلق منهما آدم الماء والتراب وهما العنصران البسيطان بخلاف بقية المائعات والجامدات فإنها مركبة واحتج الأولون بقوله تعالى {صَعِيداً}المائدة٦ قالوا والصعيد هو الصاعد على وجه الأرض وهذا يعم كل صاعد بدليل قوله تعالى {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً}الكهف٨ وقوله{فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً}الكهف٤٠ واحتج من لم يخص الحكم بالتراب بأن النبي قال جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وفي رواية فعنده مسجده وطهوره فهذا يبين أن المسلم في أي موضع كان عنده مسجده وطهوره ومعلوم أن كثيرا من الأرض ليس فيها تراب حرث فإن لم يجز التيمم بالرمل كان مخالفا لهذا الحديث وهذه حجة من جوز التيمم بالرمل دون غيره أو قرن بذلك السبخة فإن من الأرض ما يكون سبخة واختلاف التراب بذلك كاختلافه بالألوان بدليل قول النبي إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنوه على قدر تلك القبضة جاء منهم الأسود والأبيض وبين ذلك وجاء منهم السهل والحزن وبين ذلك ومنهم الخبيث والطيب وبين ذلك وآدم إنما خلق من تراب والتراب الطيب والخبيث الذي يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا يجوز التيمم به فعلم أن المراد بالطيب الطاهر وهذا بخلاف

الأحجار والأشجار فإنها ليست من جنس التراب ولا تعلق باليد بخلاف الزرنيخ والنورة فإنها معادن في الأرض لكنها لا تنطبع كما ينطبع الذهب والفضة والرصاص والنحاس [1]

## إن الله جعل التيمم مطهرا كما جعل الماء مطهرا

{فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً}النساء٤٣ وأما التيمم لكل صلاة ولوقت كل صلاة ولا يصلي الفرض بالتيمم للنافلة لأن التيمم طهارة ضرورية والحكم المقدر بالضرورة مقدر بقدرها فلا يتيمم قبل الوقت ولا يبقى بعده وهو مبيح للصلاة لا رافع للحدث لأنه إذا قدر على استعمال الماء استعمله من غير تجدد حدث فعلم أن الحدث كان باقيا وإنما أبيح للضرورة فلا يستبيح إلا ما نواه فهذا هو المشهور من مذهب مالك والشافعي وأحمد وقيل بل التيمم يقوم مقام الماء مطلقا يستبيح به كما يستباح بالماء ويتيمم قبل الوقت كما يتوضأ قبل الوقت ويبقى بعد الوقت كما تبقى طهارة الماء بعده وإذا تيمم لنافلة صلى به الفريضة كما أنه إذا توضأ لنافلة صلى به الفريضة وهذا قول كثير من أهل العلم وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في الرواية الثانية وقال أحمد هذا هو القياس وهذا القول هو الصحيح وعليه يدل الكتاب والسنة والاعتبار فإن الله جعل التيمم مطهرا كما جعل الماء مطهرا فقال تعالى {فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ و}المائدة٦ الآية فأخبر تعالى أنه يريد أن يطهرنا بالتراب كما يطهرنا بالماء وقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال فضلنا على الناس بخمس جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وأحلت لنا الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وفي لفظ فأيما رجل أدركته الصلاة من أمتي فعنده مسجده وطهوره وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة وفي صحيح مسلم عن حذيفة أنه قال فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض مسجدا وتربتها لنا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣٦٤-٣٦٦

طهورا فقد بين أن الله جعل الأرض لأمته طهورا كما جعل الماء طهورا وعن أبي ذر قال قال النبي الصعيد الطيب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر سنين فإذا وجدت الماء فامسسه بشرتك فإن ذلك خير قال الترمذي حديث حسن صحيح فأخبر أن الله جعل الصعيد الطيب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر سنين فمن قال أن التراب لا يطهر من الحدث فقد خالف الكتاب والسنة وإذا كان مطهرا من الحدث امتنع أن يكون الحدث باقيا مع أن الله طهر المسلمين بالتيمم من الحدث فالتيمم رافع للحدث مطهر لصاحبه لكن رفع موقت إلى أن يقدر على استعمال الماء فإنه بدل عن الماء فهو مطهر ما دام الماء متعذرا كما أن الملتقط يملك اللقطة ما دام لم يأته صاحبها وكان ملك صاحبها ملكا مؤقتا إلى ظهور المالك فإنه كان بدلا عن المالك فإذا جاء صاحبها خرجت عن ملك الملتقط إلى ملك صاحبها وما ثبت بنص أو إجماع لا يطلب له نظير يقاس به وإنما يطلب النظير لما لا نعلمه إلا بالقياس والاعتبار فيحتاج أن نعتبره بنظير وأما ما شرعه الله ورسوله فعلينا أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا ولا نطلب لذلك نظيرا مع أن الاعتبار يوافق النص كما قال أحمد القياس أن تجعل التراب كالماء وعلى هذا القول الصحيح يتيمم قبل الوقت إن شاء ويصلي ما لم يحدث أو يقدر على استعمال الماء وإذا تيمم لنفل صلى به فريضة ويجمع بالتيمم الواحد بين فرضين ويقضي به الفائت وأصحاب القول الآخر احتجوا بآثار منقولة عن بعض الصحابة وهي ضعيفة لا تثبت ولا حجة في شيء منها ولو ثبتت وقول القائل إنها طهارة ضرورية فتقدر بقدر الحاجة قيل له نعم والإنسان محتاج أن لا يزال على طهارة فيتطهر قبل الوقت فإنه محتاج إلى زيادة الثواب ولهذا يصلي النافلة بالتيمم باتفاق المسلمين وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه تيمم لرد السلام في الحضر وقال إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر فدل على أن التيمم يكون مستحبا تارة وواجبا أخرى أي يتيمم في وقت لا يكون التيمم واجبا عليه أن يتيمم وإن كان شرطا للصلاة والتيمم قبل الوقت مستحب كما أن الوضوء قبل الوقت مستحب وأصح أقوال العلماء أنه يتيمم لكل ما يخاف فوته كالجنازة وصلاة العيد وغيرهما مما يخاف فوته فإن الصلاة بالتيمم خير من تفويت الصلاة كما أن صلاة التطوع بالتيمم خير من تفويته ولهذا يتيمم للتطوع من كان له ورد في الليل يصليه وقد أصابته جنابة والماء بارد يضره فإذا تيمم وصلى التطوع وقرأ القرآن بالتيمم كان خيرا من تفويت ذلك فقول القائل إنه حكم مقيد بالضرورة فيقدر بقدرها إن أراد به أن لا يفعل إلا عند تعذر الماء فهو مسلم وإن أراد به أنه لا يجوز التيمم إلا إذا كان التيمم واجبا فقد غلط فإن هذا خلاف السنة وخلاف إجماع المسلمين بل يتيمم للواجب ويتيمم للمستحب كصلاة التطوع وقراءة القرآن المستحبة ومس المصحف المستحب

والله قد جعله طهورا للمسلمين عند عدم الماء فلا يجوز لأحد أن يضيق على المسلمين ما وسع الله عليهم وقد أراد رفع الحرج عن الأمة فليس لأحد أن يجعل فيه حرجا كما فعله طائفة من الناس أثبتوا فيه من الحرج ما هو معلوم ولهذا كان الصواب أنه يجوز التيمم ضربة واحدة للوجه والكفين ولا يجب فيه ترتيب بل إذا مسح وجهه بباطن راحتيه أجزأ ذلك عن الوجه والراحتين ثم يمسح ظهور الكفين بعد ذلك فلا يحتاج أن يمسح راحتيه مرتين وعلى هذا دلت السنة وبسط هذه المسائل في موضع آخر والله أعلم [1]

## كل ما يباح بالماء يباح بالتيمم

وقوله {فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً} النساء٤٣ وقوله {فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} المائدة٦ دليل على أن التيمم مطهر كالماء سواء وكذلك ثبت في صحيح السنة أن النبي قال الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين فإذا وجدت الماء فأمسه بشرتك فإن ذلك خير رواه الترمذي وصححه ورواه أبو داود والنسائي وفي الصحيح عنه قال جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وهو جعل التراب طهورا في طهارة الحدث وطهارة الجنب كما قال في حديث أبي سعيد إذا أتى أحدكم المسجد فليقلب نعليه فلينظر فيهما فإن كان بهما أذى أو خبث فليدلكهما بالتراب فإن التراب لهما طهور وقال في حديث أم سلمة ذيل المرأة يطهره ما بعده فدل على أن التيمم مطهر يجعل صاحبه طاهرا كما يجعل الماء مستعمله في الطهارة طاهرا إن لم يكن جنبا ولا محدثا فمن قال إن المتيمم جنب أو محدث فقد خالف الكتاب والسنة بل هو متطهر وقوله في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أصليت بأصحابك وأنت جنب استفهام أي هل فعلت ذلك فأخبره عمرو رضي الله عنه أنه لم يفعله بل تيمم لخوفه أن يقتله البرد فسكت عنه وضحك ولم يقل شيئا فإن قيل إن هذا إنكار عليه أنه صلى مع الجنابة فإنه يدل على أن الصلاة مع الجنابة لا تجوز فإنه لم ينكر ما هو منكر فلما أخبره أنه صلى بالتيمم دل على أنه لم يصل وهو جنب فالحديث حجة على من احتج به وجعل المتيمم جنبا ومحدثا والله يقول {وَإِن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٣٦-٤٤٠

كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ}المائدة٦ فلم يجز الله له الصلاة حتى يتطهر والمتيمم قد تطهر بنص الكتاب والسنة فكيف يكون جنبا غير متطهر لكنها طهارة بدل فإذا قدر على الماء بطلت هذه الطهارة وتطهر بالماء حينئذ لأن البول المتقدم جعله محدثا والصعيد جعله مطهرا إلى أن يجد الماء فإن وجد الماء فهو محدث بالسبب المتقدم لا أن الحدث كان مستمرا ثم من قال التيمم مبيح لا رافع فإن نزاعه لفظي فإنه إن قال إنه يبيح الصلاة مع الجنابة والحدث وإنه ليس بطهور فهو يخالف النصوص والجنابة محرمة للصلاة فيمتنع أن يجتمع المبيح والمحرم على سبيل التمام فإن ذلك يقتضي اجتماع الضدين والمتيمم غير ممنوع من الصلاة فالمنع ارتفع بالاتفاق وحكم الجنابة المنع فإذا قيل بوجوده بدون مقتضاها وهو المنع فهذا نزاع لفظي فصل وفي الآية دلالة على أن المتخلي لا يجب عليه غسل فرجه بالماء إنما يجب الماء في طهارة الحدث بسبيله على أن إزالة النجو والخبث لا يتعين لها الماء فإنه على ذلك تدل النصوص إذ كان النبي أمر فيها تارة بالماء وتارة بغير الماء كما قد بسط في مواضع إذ المقصود هنا التنبيه على ما دلت عليه الآية فإن قوله {أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً}المائدة٦ نص في أنه عند عدم الماء يصلي وإن تغوط بلا غسل وقد ثبت في السنة أنه يكفيه ثلاثة أحجار وأما مع العذر فإنه قال {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ}المائدة٦ وهذا يتناول كل قائم وهو يتناول من جاء من الغائط كما يتناول من خرجت منه الريح فلو كان غسل الفرجين بالماء واجبا على القائم إلى الصلاة لكان واجبا كوجوب غسل الأعضاء الأربعة والقرآن يدل على أنه لا يجب عليه إلا ما ذكره من الغسل والمسح وهو يدل على أن المتوضئ والمتيمم متطهر والفرجان جاءت السنة بالاكتفاء فيهما بالاستجمار وقوله تعالى {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}التوبة١٠٨ يدل على أن الاستنجاء مستحب يحبه الله لا أنه واجب بل لما كان غير هؤلاء من المسلمين لا يستنجون بالماء ولم يذمهم على ذلك بل أقرهم ولكن خص هؤلاء بالمدح دل على جواز ما فعله غير هؤلاء وأن فعل هؤلاء أفضل وأنه مما فضل الله به الناس بعضهم على بعض [1]

عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف بك إذا كان عليك امراء يؤخرون الصلاة عن وقتها وينسؤن الصلاة عن وقتها قلت فماذا تأمرنى قال صل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٠٣-٤٠٦

الصلاة لوقتها فان أدركتها معهم فصل فإنها لك نافلة وعن عبادة ابن الصامت عن النبى قال سيكون عليكم أمراء تشغلهم أشياء عن الصلاة لوقتها حتى يذهب وقتها فصلوا الصلاة لوقتها وقال رجل أصلي معهم قال نعم ان شئت واجعلوها تطوعا رواه أحمد وأبو داود ورواه عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله عليه وسلم كيف بكم اذا كان عليكم أمراء يصلون الصلاة لغير ميقاتها قلت فما تأمرنى ان ادركنى ذلك يا رسول الله قال صل الصلاة لوقتها واجعل صلاتك معهم نافلة ولهذا اتفق العلماء على أن الرجل اذا كان عريانا مثل أن تنكسر بهم السفينة أو تسلبه القطاع ثيابه فانه يصلي فى الوقت عريانا والمسافر إذا عدم الماء يصلي بالتيمم فى الوقت باتفاق العلماء وان كان يجد الماء بعد الوقت وكذلك الجنب المسافر إذا عدم الماء تيمم وصلى ولا إعادة عليه بإتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم وكذلك إذا كان البرد شديدا فخاف ان اغتسل أن يمرض فإنه يتيمم ويصلي في الوقت ولا يؤخر الصلاة حتى يصلى بعد الوقت باغتسال وقد قال النبى الصعيد الطيب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر سنين فإذا وجدت الماء فامسسه بشرتك فان ذلك خير وكل ما يباح بالماء يباح بالتيمم فاذا تيمم لصلاة فريضة قرأ القرآن داخل الصلاة وخارجها وإن كان جنبا ومن امتنع عن الصلاة بالتيمم فإنه من جنس اليهود والنصارى فان التيمم لأمة محمد خاصة كما قال النبى فى الحديث الصحيح فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لي الأرض مسجدا وجعلت تربتها طهورا و أحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وفى لفظ جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره وقد تنازع العلماء هل التيمم قبل الوقت وهل يتيمم لكل صلاة أو يبطل بخروج الوقت أو يصلى ما شاء كما يصلى بالماء ولا ينقضه الا ما ينقض الوضوء أو القدرة على إستعمال الماء وهذا مذهب أبى حنيفة وأحد الأقوال فى مذهب أحمد وغيره فان النبى قال الصعيد الطيب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر سنين فاذا وجدت الماء فأمسسه بشرتك فإن ذلك خير قال الترمذى حديث حسن صحيح وإذا كان عليه نجاسة وليس عنده ما يزيلها به صلى فى الوقت وعليه النجاسة كما صلى عمر بن الخطاب وجرحه يثعب دما ولم يؤخر الصلاة حتى خرج الوقت ومن لم يجد إلا ثوبا نجسا فقيل يصلى عريانا وقيل يصلى فيه ويعيد وقيل يصلى فيه ولايعيد وهذا أصح أقوال العلماء فإن الله لم يأمر العبد أن يصلي الفرض مرتين الا اذا لم يفعل الواجب الذى يقدر عليه فى المرة الأولى مثل أن يصلى بلا طمأنينة فعليه أن يعيد الصلاة كما أمر النبى من صلى ولم يطمئن أن يعيد الصلاة وقال ارجع فصل فانك لم تصل وكذلك من نسي الطهارة وصلى بلا وضوء فعليه أن يعيد

كما أمر النبى من توضأ وترك لمعة فى قدمه لم يمسها الماء أن يعيد الوضوء والصلاة فأما من فعل ما أمر به بحسب قدرته فقد قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} التغابن١٦ وقال النبى إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ومن كان مستيقظا فى الوقت والماء بعيد منه لايدركه الا بعد الوقت فانه يصلى فى الوقت بالتيمم باتفاق العلماء وكذلك إذا كان البرد شديدا ويضره الماء البارد ولا يمكنه الذهاب إلى الحمام أو تسخين الماء حتى يخرج الوقت فإنه يصلي فى الوقت بالتيمم والمرأة والرجل فى ذلك سواء فإذا كانا جنبين ولم يمكنهما الإغتسال حتى يخرج الوقت فإنهما يصليان فى الوقت بالتيمم والمرأة الحائض إذا إنقطع دمها فى الوقت ولم يمكنها الإغتسال إلا بعد خروج الوقت تيممت وصلت فى الوقت ومن ظن أن الصلاة بعد خروج الوقت بالماء خير من الصلاة فى الوقت بالتيمم فهو ضال جاهل وإذا إستيقظ آخر وقت الفجر فإذا إغتسل طلعت الشمس فجمهور العلماء هنا يقولون يغتسل ويصلى بعد طلوع الشمس وهذا مذهب أبى حنيفة والشافعى وأحمد وأحد القولين فى مذهب مالك وقال فى القول الآخر بل يتيمم أيضا هنا ويصلى قبل طلوع الشمس

كما تقدم فى تلك المسائل لأن الصلاة فى الوقت بالتيمم خير من الصلاة بعده بالغسل والصحيح قول الجمهور لأن الوقت فى حق النائم هو من حين يستيقظ كما قال النبي من نام عن صلاة أو نسيها فليصليها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها فالوقت فى حق النائم هو من حين يستيقظ وما قبل ذلك لم يكن وقتا فى حقه وإذا كان كذلك فإذا إستيقظ قبل طلوع الشمس فلم يمكنه الإغتسال والصلاة إلا بعد طلوعها فقد صلى الصلاة فى وقتها ولم يفوتها بخلاف من إستيقظ فى أول الوقت فإن الوقت فى حقه قبل طلوع الشمس فليس له أن يفوت الصلاة وكذلك من نسي صلاة وذكرها فإنه حينئذ يغتسل ويصلى فى أي وقت كان وهذا هو الوقت فى حقه فإذا لم يستيقظ إلا بعد طلوع الشمس كما إستيقظ أصحاب النبى لما ناموا عن الصلاة عام خيبر فإنه يصلي بالطهارة الكاملة وإن أخرها إلى حين الزوال فإذا قدر أنه كان جنبا فإنه يدخل الحمام ويغتسل وإن أخرها إلى قريب الزوال ولا يصلى هنا بالتيمم ويستحب له أن ينتقل عن المكان الذى نام فيه كما إنتقل النبى وأصحابه عن المكان الذى ناموا فيه وقال هذا

مكان حضرنا فيه الشيطان وقد نص على ذلك أحمد وغيره وإن صلى فيه جازت صلاته [1]

وقد تنازع العلماء في التيمم هل يرفع الحدث رفعا مؤقتا إلى حين القدرة على استعمال الماء أم الحدث قائم ولكنه تصح الصلاة مع وجود الحادث المانع وهذه مسألة نظرية وتنازعوا هل يقوم مقام الماء فيتيمم قبل الوقت كما يتوضأ قبل الوقت ويصلي به ما شاء من فروض ونوافل كما يصلي بالماء ولا يبطل بخروج الوقت كما لا يبطل الوضوء على قولين مشهورين وهو نزاع عملي فمذهب أبي حنيفة أنه يتيمم قبل الوقت ويبقى بعد الوقت ويصلي به ما شاء كالماء وهو قول سعيد بن المسيب والحسن البصري والزهري والثوري وغيرهم وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل والقول الثاني أنه لا يتيمم قبل الوقت ولا يبقى بعد خروجه ثم من هؤلاء من يقول يتيمم لوقت كل صلاة ومنهم من يقول يتيمم لفعل كل فريضة ولا يجمع به فرضين وغلا بعضهم فقال ويتيمم لكل نافلة وهذا القول في الجملة هو المشهور من مذهب مالك والشافعي وأحمد قالوا لأنه طهارة ضرورية والحكم المقيد بالضرورة مقدر بقدرها فإذا تيمم في وقت يستغنى عن التيمم فيه لم يصح تيممه كما لو تيمم مع وجود الماء قالوا ولأن الله أمر كل قائم إلى الصلاة بالوضوء فإن لم يجد الماء تيمم وكان ظاهر الخطاب يوجب على كل قائم إلى الصلاة الوضوء والتيمم لكن لما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الصلوات كلها بوضوء واحد رواه مسلم في صحيحه دلت السنة على جواز تقديم الوضوء قبل وقت وجوبه وبقي التيمم على ظاهر الخطاب وعلل ذلك بعضهم بأنه مأمور بطلب الماء عند كل صلاة وذلك يبطل تيممه وورد عن علي وعمرو بن العاص وابن عمر مثل قولهم ولنا أنه قد ثبت بالكتاب والسنة أن التراب طهور كما أن الماء طهور وقد قال النبي الصعيد الطيب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر سنين فإذا وجدت الماء فامسه بشرتك فإن ذلك خير فجعله مطهرا عند عدم الماء مطلقا فدل على أنه مطهر للمتيمم وإذا كان قد جعل المتيمم مطهرا كما أن المتوضئ مطهر ولم يقيد ذلك بوقت ولم يقل إن خروج الوقت يبطله كما ذكر أنه يبطله القدرة على استعمال الماء دل ذلك على أنه بمنزلة الماء عند عدم الماء وهو موجب الأصول فإن التيمم بدل عن الماء والبدل يقوم مقام المبدل في أحكامه وإن لم يكن مماثلا له في صفته كصيام الشهرين فإنه بدل عن الإعتاق

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٣٢-٣٦

وصيام الثلاث والسبع فإنه بدل عن الهدي في التمتع وكصيام الثلاثة الأيام في كفارة اليمين فإنه بدل عن التكفير بالمال والبدل يقوم مقام المبدل وهذا لازم لمن يقيس التيمم على الماء في صفته فيوجب المسح على المرفقين وإن كانت آية التيمم مطلقة كما قاس عمار لما تمرغ في التراب كما تتمرغ الدابة فمسح جميع بدنه كما يغسل جميع بدنه وقد بين النبي فساد هذا القياس وأنه يجزئك من الجنابة التيمم الذي يجزئك في الوضوء وهو مسح الوجه واليدين لأن البدل لا تكون صفته كصفة المبدل بل حكمه حكمه فإن التيمم مسح عضوين وهما العضوان المغسولان في الوضوء وسقط العضوان الممسوحان والتيمم عن الجنابة يكون في هذين العضوين بخلاف الغسل والتيمم ليس فيه مضمضة ولا استنشاق بخلاف الوضوء والتيمم لا يستحب فيه تثنية ولا تثليث بخلاف لوضوء والتيمم بفارق صفة الوضوء من وجوه ولكن حكمه حكم الوضوء لأنه بدل منه فيجب أن يقوم مقامه كسائر الأبدال فهذا مقتضى النص والقياس فإن قيل الوضوء يرفع الحدث والتيمم لا يرفعه قيل عن هذا جوابان أحدهما أنه سواء كان يرفع الحدث أو لا يرفعه فإن الشارع جعله طهورا عند عدم الماء يقوم مقامه فالواجب أن يثبت له من أحكام الطهارة ما يثبت للماء ما لم يقم دليل شرعي على خلاف ذلك الوجه الثاني أن يقال قول القائل يرفع الحدث أو لا يرفعه ليس تحته نزاع عملي وإنما هو نزاع اعتباري لفظي وذلك أن الذين قالوا لا يرفع الحدث قالوا لو رفعه لم يعد إذا قدر على استعمال الماء وقد ثبت بالنص والإجماع أنه يبطل بالقدرة على استعمال الماء والذين قالوا يرفع الحدث إنما قالوا برفعه رفعا مؤقتا إلى حين القدرة على استعمال الماء فلم يتنازعوا في حكم عملي شرعي ولكن تنازعهم ينزع إلى قاعدة أصولية تتعلق بمسألة تخصيص العلة وأن المناسبة هل تنخرم بالمعارضة وأن المانع المعارض للمقتضى هل يرفعه أم لا يرفعه اقتضاؤه مع بقاء ذاته وكشف الغطاء عن هيئة النزاع أن لفظ العلة يراد به العلة التامة وهو مجموع ما يستلزم الحكم بحيث إذا وجد وجد الحكم ولا يتخلف عنه فيدخل في لفظ العلة على هذا الاصطلاح جبر العلة وشروطها وعدم المانع إما لكون عدم المانع يستلزم وصفا ثبوتيا على رأي وإما لكون العدم قد يكون جبرا من المقتضى على رأي وهذه العلة متى تخصصت وانتقضت فوجد الحكم بدونها دل على فسادها كما لو علل معلل قصر الصلاة بمطلق العذر قيل له هذا باطل فإن المريض ونحوه من أهل الأعذار لا يقصرون وإنما يقصر المسافر خاصة فالقصر دائر مع السفر وجودا وعدما ودوران الحكم مع الوصف وجودا وعدما دليل على المدار عليه للدائر وكما لو علل وجوب الزكاة بمجرد ملك النصاب قيل له هذا ينتقض بالملك قبل الحول وقد يراد بلفظ العلة ما يقتضي الحكم وإن توقف على ثبوت شروط وانتفاء موانع

وقد يعبر عن ذلك بلفظ السبب فيقال الأسباب المثبتة للإرث المناسبة هل تنخرم بالمعارضة وأن المانع المعارض للمقتضى هل يرفعه أم لا يرفعه اقتضاؤه مع بقاء ذاته وكشف الغطاء عن هيئة النزاع أن لفظ العلة يراد به العلة التامة وهو مجموع ما يستلزم الحكم بحيث إذا وجد وجد الحكم ولا يتخلف عنه فيدخل في لفظ العلة على هذا الاصطلاح جبر العلة وشروطها وعدم المانع إما لكون عدم المانع يستلزم وصفا ثبوتيا على رأي وإما لكون العدم قد يكون جبرا من المقتضى على رأي وهذه العلة متى تخصصت وانتقضت فوجد الحكم بدونها دل على فسادها كما لو علل معلل قصر الصلاة بمطلق العذر قيل له هذا باطل فإن المريض ونحوه من أهل الأعذار لا يقصرون وإنما يقصر المسافر خاصة فالقصر دائر مع السفر وجودا وعدما ودوران الحكم مع الوصف وجودا وعدما دليل على المدار عليه للدائر وكما لو علل وجوب الزكاة بمجرد ملك النصاب قيل له هذا ينتقض بالملك قبل الحول وقد يراد بلفظ العلة ما يقتضي الحكم وإن توقف على ثبوت شروط وانتفاء موانع وقد يعبر عن ذلك بلفظ السبب فيقال الأسباب المثبتة للإرث ثلاثة رحم ونكاح وولاء وعند أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين يثبت بعقد الموالاة وغيرها فالعلة هنا قد يتخلف عنها الحكم المانع كالرق والقتل واختلاف الدين فإذا أريد بالعلة هذا المعنى جاز تخصيصها لفوات شرط ووجود مانع فأما إن لم يبين المعلل بين صورة النقض وبين غيرها فرقا مؤثرا بطل تعليله فإن الحكم اقترن بالوصف تارة كما في الأصل وتخلف عنه تارة كما في الأصل ويختلف عنه تارة كما في صورة النقض والمستدل إن لم يبين أن الفرع مثل الأصل دون صورة النقض فلم يكن إلحاقه بالأصل في ثبوت الحكم أولى من إلحاقه بصورة النقض في انتفائه لأن الوصف موجود في الصور الثلاث وقد اقترن به الحكم في الواحدة دون الأخرى وشككنا في الصورة الثالثة وهذا كما لو اشترك ثلاثة في القتل فقتل الأولياء واحدا ولم يقتلوا آخر إما لبذل الدية وإما لإحسان كان له عندهم والثالث لم يعرف أهو كالمقتول أو كالمعفو عنه فإنا لا نلحقه بأحدهما إلا بدليل يبين مساواته له دون مساواته للآخر إذا عرف هذا فالأصوليون والفقهاء متنازعون في استحلال الميتة عند الضرورة فمنهم من يقول قد استحل المحظور مع قيام السبب الحاظر وهو ما فيها من حيث التغذية ومنهم من يقول الضرورة ما أزالت حكم السبب وهو التحريم إزالة اقتضاء للحظر فلم يبق في هذه الحال حاظر إذ يمتنع زوال الحظر مع وجود مقتضيه التام وفصل النزاع أنه إن أريد بالسبب الحاظر السبب التام وهو ما يستلزم الحظر فهذا يرتفع عند المخمصة فإن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع والحل ثابت في هذه الحال فيمتنع وجود السبب المستلزم له وإن أريد بالسبب المقتضي للحظر

لولا المعارض الراجح فلا ريب أن هذا موجود حال الحظر لكن المعارض الراجح أزال اقتضاءه للحظر فلم يبق في هذه الحال مقتضيا فإذا قدر زوال المخمصة عمل السبب عمله لزوال المعارض له وهكذا القول في كون التيمم يرفع الحدث أو لا يرفعه فإنه فرع على قول من يقول إنه يرفع الحدث فصاحب هذا القول إذا تبين له أنه يرفع الحدث رفعا مؤقتا إلى أن يقدر على استعمال الماء ثم يعود هذا المعنى ليس بممتنع والشرع قد دل عليه فجعل التراب طهورا والماء يكون طهورا إذا أزال الحدث وإلا مع وجود الجنابة يمتنع حصول الطهارة فصاحب هذا القول إنما قال إنه يرفع الحدث رفعا مؤقتا إلى أن يقدر على استعمال الماء ثم يعود وهذا ممكن ليس بممتنع والشرع قد دل عليه فجعل التراب طهورا وإنما يكون طهورا إذا أزال الحدث وإلا فمع بقاء الحدث لا يكون طهورا ومن قال إنه ليس برافع ولكنه مبيح والحدث هو المانع لصلاة وأراد بذلك أنه مانع تام كما يكون مع وجود الماء فهذا غالط فإن المانع التام مستلزم للمنع والمتيمم يجوز له الصلاة ليس بممنوع منها ووجود الملزوم بدون اللازم ممتنع وإن أريد أن سبب المنع قائم ولكن لم يعمل عمله لوجود الطهارة الشرعية الرافعة لمنعه فإذا حصلت القدرة على استعمال الماء حصل منعه في هذه الحال فهذا صحيح وكذلك من قال هو رافع للحدث إن أراد بذلك أنه يرفعه كما يرفعه الماء فلا يعود إلا بوجود سبب آخر كان غالطا فإنه قد ثبت بالنص والإجماع أنه إذا قدر على استعمال الماء استعمله وإن لم يتجدد بعد الجنابة الأولى جنابة ثانية بخلاف الماء وإن قال أريد برفعه أنه رفع منع المانع فلم يبق مانعا إلى حين وجود الماء فقد أصاب وليس بين القولين نزاع شرعي عملي وعلى هذا فيقال على كل من القولين لم يبق الحدث مانعا مع وجود طهارة التيمم والنبي قد جعل التراب طهورا كما جعل الماء طهورا لكن جعل طهارته مقيدة إلى أن يجد الماء ولم يشترط في كونه مطهرا شرطا آخر فالمتيمم قد صار طاهرا وارتفع منع المانع للصلاة إلى أن يجد الماء فما لم يجد الماء فالمنع زائل إذا لم يتجدد سبب آخر يوجب الطهارة كما يوجب طهارة الماء وحينئذ فيكون طهورا قبل الوقت وبعد الوقت وفي الوقت كما كان الماء طهورا في هذه الأحوال الثلاثة وليس بين هذا فرق مؤثر إلا إذا قدر على استعمال الماء فمن أبطله بخروج الوقت فقد خالف موجب الدليل وأيضا فالنبي جعل ذلك رخصة عامة لأمته ولم يفصل بين أن يقصد التيمم بفرض أو نفل أو تلك الصلاة أو غيرها كما لم يفصل في ذلك في الوضوء فيجب التسوية بينهما والوضوء قبل الوقت فيه نزاع لكن النزاع في التيمم أشهر وإذا دلت السنة الصحيحة على جواز أحد الطهورين قبل الوقت فكذلك الآخر كلاهما متطهر فعل ما أمر الله به ولهذا جاز عند عامة العلماء اقتداء المتوضئ والمغتسل بالمتيمم كما فعل

عمرو بن العاص وأقره النبي وكما فعل ابن عباس حيث وطئ جارية له ثم صلى بأصحابه بالتيمم وهو مذهب الأئمة الأربعة ومذهب أبي يوسف وغيره لكن محمد بن الحسن لم يجوز ذلك لنقص حال المتيمم وأيضا كان دخول الوقت وخروجه من غير تجدد سبب حادث لا تأثير له في بطلان الطهارة الواجبة إذ كان حال المتطهر قبل دخول الوقت وبعده سواء والشارع حكيم إنما يثبت الأحكام ويبطلها بأسباب تناسبها فكما لا يبطل الطهارة بالأمكنة لا يبطل بالأزمنة وغيرها من الأوصاف التي لا تأثير لها في الشرع فإن قيل هذا ينتقض بطهارة الماسح على الخفين وطهارة المستحاضة وذوي الأحداث الدائمة قيل أما طهارة المسح على الخفين فليست واجبة بل هو مخير بين المسح وبين الخلع والغسل ولهذا وقتها الشارع ولم يوقتها بدخول وقت صلاة ولا خروجها ولكن لما كانت رخصة ليست بعزيمة حد لها وقتا محدودا في الزمن ثلاثا للمسافر ويوما وليلة للمقيم ولهذا لم يجز المسح في الطهارة الكبرى ولهذا لما كانت طهارة المسح على الجبيرة عزيمة لم تتوقت بل يمسح عليها إلى أن يحلها ويمسح في الطهارتين الصغرى والكبرى كما يتيمم عن الحدثين الأصغر والأكبر فإلحاق التيمم بالمسح على الجبيرة أولى من إلحاقه بالمسح على الخفين وأما ذوو الأحداث الدائمة كالمستحاضة فأولئك وجد في حقهم السبب الموجب للحدث وهو خروج الخارج النجس من السبيلين ولكن لأجل الضرورة رخص لهم الشارع في الصلاة معه فجاز أن تكون الرخصة مؤقتة ولهذا لو تطهرت المستحاضة ولم يخرج منها شيء لم تنتقض طهارتها بخروج الوقت وإنما تنتقض إذا خرج الخارج في الوقت فإنها تصلي به إلى أن يخرج الوقت ثم لا تصلي لوجود الناقض للطهارة بخلاف المتيمم فإنه لم يوجد بعد تيممه ما ينقض طهارته والتيمم كالوضوء فلا يبطل تيممه إلا ما يبطل الوضوء ما لم يقدر على استعمال الماء وهذا بناء على قولنا وقول من وافقنا على التوقيت في مسح الخفين وعلى انتقاض الوضوء بطهارة المستحاضة فإن هذا مذهب الثلاثة أبي حنيفة والشافعي وأحمد وأما من لم ينقض الطهارة بهذا أو لم يوقت هذا كمالك فإنه لا يصلح لمن قال بهذا القول المعارضة بهذا وهذا فإنه لا يتوقت عنده لا هذا ولا هذا فالتيمم أولى أن لا يتوقت وقول القائل إن القائم إلى الصلاة مأمور بإحدى الطهارتين قيل نعم يجب عليه لكن إذا كان قد تطهر قبل ذلك فقد أحسن وأتى بالواجب قبل هذا كما لو توضأ قبل هذا فإن كونه على طهارة قبل الوقت إلى حين الوقت أحسن من أن يبقى محدثا وكذلك المتيمم إذا كان قد أحسن بتقديم طهارته لكونه على طهارة قبل الوقت أحسن من كونه على غير طهارة وقد ثبت بالكتاب والسنة أنها طهارة حتى ثبت في الصحيح أن النبي سلم عليه رجل فلم يرد عليه حتى تيمم ورد عليه السلام وقال كرهت أن أذكر الله إلا

على طهر وإذا كان تطهر قبل الوقت كان قد أحسن وأتى بأفضل مما وجب عليه وكان كالمتطهر للصلاة قبل وقتها وكمن أدى أكثر من الواجب في الزكاة وغيرها وكمن زاد على الواجب في الركوع والسجود وهذا كله حسن إذا لم يكن محظورا كزيادة ركعة خامسة في الصلاة والتيمم مع عدم الماء حسن ليس بمحرم ولهذا يجوز قبل الوقت للنافلة ولمس المصحف وقراءة القرآن وما ذكر من الأثر عن بعض الصحابة فبعضه ضعيف وبعضه معارض بقول غيره ولا إجماع إجماع في المسألة وقد قال تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ [١]

## تيمم الجنب

وكذلك تيمم الجنب ذهب الأئمة الأربعة وجماهير السلف والخلف إلى أنه يتيمم إذا عدم الماء في السفر إلى أن يجد الماء فإذا وجده كان عليه استعماله وقد روي عن عمر وابن مسعود إنكار تيمم الجنب وروي عنهما الرجوع عن ذلك وهو قول أكثر الصحابة كعلي وعمار وابن عباس وأبي ذر وغيرهم وقد دل عليه آيات من كتاب الله وخمسة أحاديث عن النبي منها حديث عمار بن ياسر وعمران بن حصين كلاهما في الصحيحين ومنها حديث أبي ذر الذي صححه الترمذي ومنها حديث عمرو بن العاص وحديث الذي شج فافتوه فقال النبي قتلوه قتلهم الله هلا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال ففي الصحيح عن عمر أنه قال كنا مع النبي فدعا بالوضوء فتوضأ ونودي بالصلاة فصلى بالناس فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل معتزل لم يصل مع القوم قال ما منعك يا فلان أن تصلي مع القوم قال أصابتني جنابة ولا ماء قال عليك بالصعيد فإنه يكفيك رواه البخاري ومسلم وفي الصحيحين عن عمار بن ياسر قال بعثني النبي في حاجة فأجنبت فلم أجد الماء فتمرغت في الصعيد كا تمرغ الدابة ثم أتيت النبي فذكرت ذلك له فقال إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة ثم مسح الشمال عل اليمين وظاهر كفيه ووجهه وهذا لفظ مسلم

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣٥٣-٣٥٨

فهاتان آيتان من كتاب الله وخمسة أحاديث عن رسول الله وقد عرفت مناظرة ابن مسعود في ذلك لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما ولهذا نظائر كثيرة عن الصحابة إذا عرفتها تعرف دلالة الكتاب والسنة عن الرجل العظيم القدر تحقيقا لقوله {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ ولا يرد هذا النزاع إلا إلى الله والرسول المعصوم المبلغ عن الله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى الذي هو الواسطة بين الله وبين عباده [1]

ونذكر هذا على قوله {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}النساء٤٣ المراد به الجماع كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من العرب وهو يروى عن علي رضي الله عنه وغيره وهو الصحيح في معنى الآية وليس في نقض الوضوء من مس النساء لا كتاب ولا سنة وقد كان المسلمون دائما يمسون نساءهم وما نقل مسلم واحد عن النبي أنه أمر أحدا بالوضوء من مس النساء وقول من قال إنه أراد ما دون الجماع وإنه ينقض الوضوء فقد روي عن ابن عمر والحسن باليد وهو قول جماعة من السلف في المس بشهوة والوضوء منه حسن مستحب لإطفاء الشهوة كما يستحب الوضوء من الغضب لإطفائه وأما وجوبه فلا وأما المس المجرد عن الشهوة فما أعلم للنقض به أصلا عن السلف وقوله تعالى {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}المائدة٦ لم يذكر في القرآن الوضوء منه بل إنما ذكر التيمم بعد أن أمر المحدث القائم للصلاة بالوضوء وأمر الجنب بالاغتسال فذكر الطهارة بالصعيد الطيب ولا بد أن يبين النوعين وقوله {أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ}المائدة٦ بيان لتيمم هذا وقوله {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}المائدة٦ لم يذكر واحدا منهما لبيان طهارة الماء إذا كان قد عرف أصل هذا فقوله {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ}المائدة٦ وقوله {وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ}المائدة٦ فالآية ليس فيها إلا أن اللامس إذا لم يجد الماء يتيمم فكيف يكون هذا من الحدث الأصغر يأمر من مس المرأة أن يتيمم وهو لم يأمره أن يتوضأ فكيف يأمر بالتيمم من لم يأمره بالوضوء وهو إنما أمر بالتيمم من أمره بالوضوء والاغتسال ونظير هذا يطول ومن تدبر الآية قطع بأن هذا هو المراد ودلت الآية على أن المسافر يجامع أهله وإن لم يجد الماء ولا يكره له ذلك كما قاله الله في الآية وكما دلت عليه الأحاديث حديث أبي ذر وغيره منه بل إنما ذكر التيمم بعد أن أمر المحدث القائم للصلاة بالوضوء وأمر الجنب بالاغتسال فذكر الطهارة بالصعيد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣٥١ و ص: ٤٠٢

الطيب ولا بد أن يبين النوعين وقوله {أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ}المائدة٦ بيان لتيمم هذا وقوله {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}المائدة٦ لم يذكر واحدا منهما لبيان طهارة الماء إذا كان قد عرف أصل هذا فقوله {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ}المائدة٦ وقوله {وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ}المائدة٦ فالآية ليس فيها إلا أن اللامس إذا لم يجد الماء يتيمم فكيف يكون هذا من الحدث الأصغر يأمر من مس المرأة أن يتيمم وهو لم يأمره أن يتوضأ فكيف يأمر بالتيمم من لم يأمره بالوضوء وهو إنما أمر بالتيمم من أمره بالوضوء والاغتسال ونظير هذا يطول ومن تدبر الآية قطع بأن هذا هو المراد [1]

## القرآن يقتضي أن الاغتسال كاف

وهو سبحانه أمرنا بالطهارتين الصغرى والكبرى وبالتيمم عن كل منهما فقال {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ}المائدة٦ فأمر بالوضوء ثم قال {وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ}المائدة٦ فأمر بالتطهر من الجنابة كما قال في المحيض {وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ}البقرة٢٢٢ وقال في سورة النساء {وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ}النساء٤٣ وهذا يبين أن التطهر هو الاغتسال والقرآن يدل على أنه لا يجب على الجنب إلا الاغتسال وأنه إذا اغتسل جاز له أن يقرب الصلاة والمغتسل من الجنابة ليس عليه نية رفع الحدث الأصغر كما قال جمهور العلماء والمشهور في مذهب أحمد أن عليه نية رفع الحدث الأصغر وكذلك ليس عليه فعل الوضوء ولا ترتيب ولا موالاة عند الجمهور وهو ظاهر مذهب أحمد وقيل لا يرتفع الحدث الأصغر إلا بهما وقيل لا يرتفع حتى يتوضأ روي ذلك عن أحمد والقرآن يقتضي أن الاغتسال كاف وأنه ليس عليه بعد الغسل من الجنابة حدث آخر بل صار الأصغر جزءا من الأكبر كما أن الواجب في الأصغر جزء من الواجب في الأكبر فإن الأكبر يتضمن غسل الأعضاء الأربعة ويدل على ذلك قول النبي لأم عطية واللواتي غسلن ابنته اغسلنها ثلاثا أو خمسا أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر وابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها فجعل غسل مواضع الوضوء جزءا من الغسل لكنه يقدم كما تقدم الميامن وكذلك الذين نقلوا صفة غسله كعائشة رضي الله عنها ذكرت أنه كان يتوضأ ثم يفيض الماء

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٠٢-٤٠٣

على شعره ثم على سائر بدنه ولا يقصد غسل مواضع الوضوء مرتين وكان لا يتوضأ بعد الغسل فقد دل الكتاب والسنة على أن الجنب والحائض لا يغسلان أعضاء الوضوء ولا ينويان وضوءا بل يتطهران ويغتسلان كما أمر الله تعالى وقوله {فَاطَّهَّرُواْ}المائدة٦ أراد به الاغتسال فدل على أن قوله في الحيض {حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ}البقرة٢٢٢ أراد به الاغتسال كما قاله الجمهور مالك والشافعي وأحمد وأن من قال هو غسل الفرج كما قاله داود فهو ضعيف [1]

## ذكر سبحانه وتعالى النوعين الغالبين

قال الله عز وجل {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً}النساء٤٣ فقوله {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء}النساء٤٣ يتعلق بقوله {عَلَى سَفَرٍ}النساء٤٣ لا بالمرض والمريض يتيمم وإن وجد الماء والمسافر إنما يتيمم إذا لم يجد الماء ذكر سبحانه وتعالى النوعين الغالبين الذي يتضرر باستعمال الماء والذي لا يجده وقوله {عَلَى سَفَرٍ}النساء٤٣ يعم السفر الطويل والقصير كما قاله الجمهور وقوله {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى}النساء٤٣ كقوله في آية الخوف {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ}النساء١٠٢ وقوله في الإحرام {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ}البقرة١٩٦ وفي الصيام {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}البقرة١٨٤ ولم يوقت الله تعالى وقتا في المرض والذي عليه الجمهور أنه لا يشترط فيه خوف الهلاك بل من كان الوضوء يزيد مرضه أو يؤخر برأه يتيمم وكذلك في الصيام والإحرام ومن يتضرر بالماء لبرد فهو كالمريض عند الجمهور لكن الله ذكر الضرر العام وهو المرض بخلاف البرد فإنه إنما يكون في بعض البلاد لبعض الناس الذين لا يقدرون على الماء الحار وكذلك ذكر المسافر الذي لا يجد الماء ولم يذكر الحاضر فإن عدمه في الحضر نادر لكن قد يحبس الرجل وليس عنده إلا ما يكفيه لشربه كما أن المسافر قد لا يكون معه إلا ما يكفيه لشربه وشرب دوابه فهذا عند الجمهور عادم للماء فيتيمم وقوله {أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}المائدة٦ ذكر أعظم ما يوجب الوضوء وهو قضاء الحاجة وأغلظ ما يوجب الغسل وهو ملامسة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣٩٦-٣٩٧

النساء وأمر كلا منهما إذا كان مريضا أو مسافرا لا يجد الماء أن يتيمم وهذا هو مذهب جمهور الخلف والسلف [1]

## كيفية التيمم

ومما يبين أن الترتيب يسقط إذا احتاج إلى التكرار بلا تفريط من الإنسان أن التيمم يجزئ بضربة واحدة كما دل عليه الحديث الصحيح حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما وهو مذهب أحمد بلا خلاف وهو في الصحيحين من حديث أبي موسى ومن حديث ابن أبزى ففي حديث ابن أبزى إنما كان يكفيك هكذا فضرب بكفيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه وكذلك لمسلم في حديث أبي موسى إنما كان يكفيك أن تقول هكذا وضرب بيديه إلى الأرض فنفض يديه فمسح وجهه وكفيه وللبخاري ومسح وجهه وكفيه مرة واحدة وقد اختلف الأصحاب في هذه الصفة فقيل يرتب فيمسح وجهه ببطون أصابعه وظاهر يديه براحته وقيل لا يجب ذلك بل يمسح بهما وجهه وظاهر كفيه وعلى الوجهين لا يؤخر مسح الراحتين إلى ما بعد الوجه بل يمسحهما إما قبل الوجه وإما مع الوجه وظهور الكفين ولهذا قال ابن عقيل رأيت التيمم بضربة واحدة قد أسقط ترتيبا مستحقا في الوضوء وهو أنه بعد أن مسح باطن يديه مسح وجهه وفي الصحيحين من حديث عمار بن ياسر من طريق أبي موسى رضي الله عنهما قال إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه لفظ البخاري وضرب بكفيه ضربة على الأرض ثم نفضهما ثم مسح بهما ظهر كفه بشماله أو ظهر شماله بكفه ثم مسح بهما وجهه وهذا صريح في أنه لم يمسح الراحتين بعد الوجه ولا يختلف مذهب أحمد أن ذلك لا يجب وأما ظهور الكفين فرواية البخاري صريحة في أنه مر على ظهر الكف قبل الوجه وقوله في الرواية الأخرى وظاهر كفيه يدل على أنه مسح ظاهر كل منهما براحة اليد الأخرى وقال فيها ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه قبل الوجه وقال أبو محمد فرض الراحتين سقط بإمرار كل واحدة على ظهر الكف وهذا إنما يوجب سقوط فرض باطن الراحة وأما باطن الأصابع فعلى ما ذكره سقط مع الوجه وعلى كل حال

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣٩٨-٣٩٩

فباطن اليدين يصيبهما التراب حين يضرب بهما الأرض وحين يمسح بهما الوجه وظهر الكفين وإن مسح إحداهما بالأخرى فهو ثلاث مرات ولو كان الترتيب واجبا لوجب أن يمسح باطنهما بعد الوجه وهذا لا يمكن مع القول بضربة واحدة ولو فعل ذلك للزم تكرار مسحهما مرة بعد مرة فسقط لذلك فإن التيمم لا يشرع فيه التكرار بخلاف الوضوء فإنه وإن غسل يديه ابتداء وأخذ بهما الماء لوجهه فهو بعد الوجه يغسلهما إلى المرفقين وهو يأخذ الماء بهما فيتكرر غسلهما لأن الوضوء يستحب فيه التكرار في الجملة لأنه طهارة بالماء ولكن لو لم يغسل كفيه بعد غسل الوجه فهو محل نظر فإنه يغرف بهما الماء وقد قالوا إذا نوى الاغتراف لم يصر الماء مستعملا وإن نوى غسلهما فيه صار مستعملا وإن لم ينو شيئا ففيه وجهان والصحيح أنه لا يصير مستعملا وإن نوى غسلهما فيه لمجيء السنة بذلك وهذا يقتضي أن غسلهما بنية الاغتراف لا تحصل به طهارتهما بل لا بد من غسل آخر والأقوى أن هذا لا يجب بل غسلهما بنية الاغتراف يجزئ عن تكرار غسلهما كما في التيمم وأيضا فإنه يغسل ذراعيه بيديه فيكون هذا غسلا لباطن اليد ولو قيل بل بقي غسلهما ابتداء ومع الوجه يسقط فرضهما كما قيل مثل ذلك في التيمم لكان متوجها فإنه قال في الوضوء {فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ}المائدة٦ كما قال في التيمم {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ}المائدة٦ ففي الوضوء أخر ذكر اليد لكن الرواية التي انفرد بها البخاري تبين أنه مسح ظهر الكفين قبل الوجه وسائر الروايات مجملة تقتضي أنه لما مسح لم يمسح الراحتين بعد الوجه فكذلك ظهر الكفين بل مسح ظهرهما مع بطنهما لأن مسحهما جملة أقرب إلى الترتيب فإن مسح العضو الواحد بعضه مع بعض أولى من تفريق ذلك وأيضا فتكون الراحتان ممسوحتين مع ظهر الكف والاعتداد بذلك أولى من الاعتداد بمسحهما مع الوجه وما ذكره بعض الأصحاب من انه يجعل الأصابع للوجه وبطون الراحتين لظهور الكفين خلاف ما جاءت به الأحاديث وليس في كلام أحمد ما يدل عليه وهو متعسر أو متعذر وهو بدعة لا أصل لها في الشرع وبطون الأصابع لا تكاد تستوعب الوجه وإنما احتاجوا إلى هذا ليجعلوا بعض التراب لظاهر الكفين بعد الوجه فيقال لهم كما أن الراحتين لا يمسحان بعد الوجه بلا نزاع فكذلك ظهر الكفين فإنهم وإن مسحوا ظهر الكفين بالراحتين ببطون الأصابع مسحوا مع الوجه مسح باليدين قبل الوجه كما قال ابن عقيل ولهذا اختار المجد أنه لا يجب الترتيب فيه بل يجوز مسح ظهر الكفين قبل الوجه كما دل عليه الحديث الصحيح والحديث الصحيح يدل على أنه يمسح الوجه وظاهر الكفين بذلك التراب وأن مسح ظهر الكفين بما بقي في اليدين من التراب يكفي لظهر الكفين فإن ألفاظ الحديث كلها تتعلق بأنه

يمسح وجهه بيديه ومسح اليدين إحداهما بالأخرى لم يجعل بعض باطن اليد للوجه وبعضه للكفين بل بباطن اليدين مسح وجهه ومسح كفيه ومسح إحداهما بالأخرى وأجاب القاضي ومن وافقه متابعة لأصحاب الشافعي بأنه إذا تيمم لجرح في عضو يكون التيمم فيه عند وجوب غسله فيفصل بالتيمم بين أبعاض الوضوء هذا فعل مبتدع وفيه ضرر عظيم ومشقة لا تأتي بها الشريعة وهذا ونحوه إسراف في وجوب الترتيب حيث لم يوجبه الله ورسوله والنفاة يجوزون التنكيس لغير عذر وخيار الأمور أوساطها ودين الله بين الغالي والجافي والله أعلم [1]

## هل يقوم التيمم مقام الوضوء فيما ذكر أم لا ؟

يقوم التيمم مقام الطهارة بالماء فما يبيحه الاغتسال والوضوء من الممنوعات يبيحه التيمم [2]

## رجل قد أصابته جنابة وهو في بستان ولم يكن عنده إلا ماء بارد ويخاف الضرر على نفسه باستعماله والحمام بعيد منه بحيث إذا وصل إلى الحمام واغتسل خرج الوقت فهل إذا تيمم للجنابة وتوضأ وصلى في الوقت يلزمه إعادة وهل يأثم بذلك أو يأثم إذا تيمم وهل التيمم يقوم مقام الماء فيجوز له التيمم لنافلة ويصلي بها فريضة أو يصلي فريضتين في وقتين بتيمم واحد؟

الحمد لله رب العالمين يجب على كل مسلم أن يصلي الصلوات الخمس في مواقيتها وليس لأحد قط أن يؤخر الصلاة عن وقتها لا لعذر ولا لغير عذر لكن العذر يبيح له شيئين يبيح له ترك ما يعجز عنه ويبيح له الجمع بين الصلاتين فما عجز عنه العبد من واجبات الصلاة سقط عنه قال الله تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} التغابن١٦ وقال تعالى {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا} البقرة٢٨٦ {لاَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٢٢-٤٢٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٢٨

تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا}البقرة٢٣٣ وقال لما ذكر آية الطهارة {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ}المائدة٦ الآية وقد روي في الصحيحين عن النبي أنه قال إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم فالمريض يصلي على حسب حاله كما قال النبي لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب وسقط عنه ما يعجز عنه من قيام وقعود أو تكميل الركوع والسجود ويفعل ما يقدر عليه فإن قدر على الطهارة بالماء تطهر وإذا عجز عن ذلك لعدم الماء أو خوف الضرر باستعماله تيمم وصلى ولا إعادة عليه لما يتركه من القيام والقعود باتفاق العلماء وكذلك لا إعادة إذا صلى بالتيمم باتفاقهم ولو كان في بدنه نجاسة لا يمكنه إزالتها صلى بها ولا إعادة عليه أيضا عند عامة العلماء ولو لم يجد إلا ثوبا نجسا فقيل يصلي عريانا وقيل يصلي ويعيد وقيل يصلي في الثوب النجس ولا يعيد وهو أصح أقوال العلماء وكذلك المسافر إذا لم يقدر على استعمال الماء صلى بالتيمم وقيل يعيد في الحضر وقيل يعيد في السفر وقيل لا إعادة عليه لا في الحضر ولا في السفر وهو أصح أقوال العلماء فالصحيح من أقوالهم أنه لا إعادة على أحد فعل ما أمر به بحسب الاستطاعة وإنما يعيد من ترك واجبا يقدر عليه مثل من تركه لنسيانه أو نومه كما قال النبي من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك وقد أمر النبي من توضأ وترك لمعة لم يصبها الماء من قدمه يعيد الوضوء والصلاة وما ترك لجهله بالواجب مثل من كان يصلي بلا طمأنينة ولا يعلم أنها واجبة فهذا قد اختلفوا فيه هل عليه الإعادة بعد خروج الوقت أو لا على قولين معروفين وهما قولان في مذهب أحمد وغيره والصحيح أن مثل هذا لا إعادة عليه فإن النبي قد ثبت عنه في الصحيح انه قال للأعرابي المسيء في صلاته اذهب فصل فإنك لم تصل مرتين أو ثلاثا فقال والذي بعثك بالحق لا أحسن غير هذا فعلمني ما يجزيني في صلاتي فعلمه النبي الصلاة بالطمأنينة ولم يأمره بإعادة ما مضى قبل ذلك الوقت مع قوله والذي بعثك بالحق لا أحسن غير هذا ولكن أمره أن يعيد تلك الصلاة لأن وقتها باق فهو مأمور بها أن يصليها في وقتها وأما ما خرج وقته من الصلاة فلم يأمره بإعادته مع كونه قد ترك بعض واجباته لأنه لم يكن يعرف وجوب ذلك عليه وكذلك لم يأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقضي ما تركه من الصلاة لأجل الجنابة لأنه لم يكن يعرف أنه يجوز الصلاة بالتيمم وكذلك المستحاضة قالت له إني أستحاض حيضة شديدة منكرة تمنعني الصوم والصلاة فأمرها أن تتوضأ لكل صلاة ولم يأمرها بقضاء ما تركته وكذلك الذين أكلوا في رمضان حتى تبين لأحدهم الحبال البيض من الحبال السود أكلوا بعد طلوع الفجر ولم يأمرهم بالإعادة فهؤلاء كانوا جهالا بالوجوب فلم يأمرهم بقضاء ما تركوه

في حال الجهل كما لا يؤمر الكافر بقضاء ما تركه في حال كفره وجاهليته بخلاف من كان قد علم الوجوب وترك الواجب نسيانا فهذا أمره به إذا ذكره وأمر النائم من حين يستيقظ فإنه حين النوم لم يكن مأمورا بالصلاة فلهذا كان النائم إذا استيقظ قرب طلوع الشمس يتوضأ ويغتسل وإن طلعت الشمس عند جمهور العلماء كالشافعي وأحمد وأبي حنيفة وإحدى الروايتين عن مالك بخلاف من كان مستيقظا والوقت واسع مثل الذي يكون نائما في بستان أو قرية والماء بارد يضره والحمام بعيد منه إن خرج إليه ذهب الوقت فإنه يتيمم ويصلي في الوقت ولا يؤخر الصلاة بعد خروج الوقت وكذلك لو كان في المصر وقد تعذر عليه دخول الحمام إما لكونه لم يفتح أو لبعدها عنه أو لكونه ليس معه ما يعطي الحمامي أجرته ونحو ذلك فإنه يصلي بالتيمم لأن الصلاة بالتيمم فرض إذا عجز عن الماء لعدم أو لخوف الضرر باستعماله ولا إعادة على أحد من هؤلاء ففي كثير من الضرر لا إعادة عليه باتفاق المسلمين كالمريض والمسافر وبعض الضرر تنازع فيه العلماء والصحيح أنه لا إعادة على أحد صلى بحسب استطاعته كما أمر فمن صور النزاع من عدم الماء في الحضر ومن تيمم لخشية البرد وكذلك سائر من ترك واجبا لعذر نادر غير متصل فإنه تجب عليه الإعادة عند الشافعي وأاحمد في إحدى الروايتين ولا تجب عليه الإعادة عند مالك وأكثر العلماء وأحمد في إحدى الروايتين عنه وإذا فوت الصلاة حتى خرج الوقت بأن يؤخر صلاة الليل إلى النهار والنهار إلى الليل فإنه يأثم بذلك كما قال النبي في الحديث الصحيح من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله وقد جوز بعض العلماء تأخير الصلاة في بعض الأوقات كحال المسايفة كقول أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين والذي عليه أكثر العلماء أنه لا يجوز تأخير الصلاة بحال وهو قول مالك والشافعي وأحمد في ظاهر مذهبه لكن يجوز الجمع بين الصلاتين لعذر عند أكثر العلماء كما جمع النبي بين الظهر والعصر بعرفة وبين المغرب والعشاء بمزدلفة والجمع في هذين الموضعين ثابت بالسنة المتواترة واتفاق العلماء وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي أنه كان يجمع في السفر إذا جد به السير وأنه صلى بالمدينة ثمانيا جمعا الظهر والعصر وسبعا المغرب والعشاء أراد بذلك أن لا يحرج أمته لقوله تعالى {مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}الحج٧٨ فلهذا كان مذهب الإمام أحمد وغيره من العلماء كطائفة من أصحاب مالك وغيره أنه يجوز الجمع بين الصلاتين إذا كان عليه حرج في التفريق فيجمع بينهما المريض وهو مذهب مالك وطائفة من أصحاب الشافعي ويجوز الجمع بين المغرب والعشاء في المطر عند الجمهور كمالك والشافعي وأحمد وقال أحمد يجوز إذا كان له شغل وقال القاضي أبو يعلى إذا كان له عذر يبيح له ترك الجمع والجماعة جاز الجمع فمذهب فقهاء

الحجاز وفقهاء الحديث كمالك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي ثور وابن المنذر وغيرهم يجوز الجمع بين الصلاتين في الجملة ولا يجوز التفويت بأن يؤخر صلاة النهار إلى الليل وصلاة الليل إلى النهار ومذهب طائفة من فقهاءالكوفة كأبي حنيفة وغيره أنه لا يجوز الجمع إلا بعرفة ومزدلفة وكذلك إذا تعذر فعلها في الوقت أخرها عن الوقت وقول من أمر بالجمع بين الصلاتين من غير تفويت أرجح من قول من أمر بالتفويت ولم يأمر بالجمع فإن الكتاب والسنة يدلان على أن الله أمر بفعل الصلاة في وقتها وأمر بالمحافظة عليها كما قال تعالى {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى}البقرة٢٣٨ هذه نزلت ناسخة لتأخير الصلاة يوم الخندق وقال النبي صلوا الصلاة لوقتها وقد دل الكتاب والسنة على أن المواقيت خمسة في حال الاختيار وهي ثلاثة في حال العذر ففي حال العذر إذا جمع بين الصلاتين بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء فإنما صلى الصلاة في وقتها لم يصل واحدة بعد وقتها ولهذا لم يجب عليه عند أكثر العلماء أن ينوي الجمع ولا ينوي القصر وهذا قول مالك وأبي حنيفة وأحمد في نصوصه المعروفة وهو اختيار أبي بكر عبدالعزيز ولهذا كان عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأحمد إذا طهرت الحائض في آخر النهار صلت الظهر والعصر جميعا وإذا طهرت في آخر الليل صلت المغرب والعشاء جميعا كما نقل ذلك عن عبدالرحمن بن عوف وأبي هريرة وابن عباس لأن الوقت مشترك بين الصلاتين في حال العذر فإذا طهرت في آخر النهار فوقت الظهر باق فتصليها قبل العصر وإذا طهرت في آخر الليل فوقت المغرب باق في حال العذر فتصليها قبل العشاء ولهذا ذكر الله المواقيت تارة خمسا ويذكرها ثلاثا تارة كقوله {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ}هود١١٤ الآية وهو وقت المغرب والعشاء وكذلك قال الله تعالى {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}الإسراء٧٨ والدلوك هو الزوال وغسق الليل هو اجتماع ظلمة الليل وهذا يكون بعد مغيب الشفق فأمر الله بالصلاة من الدلوك إلى الغسق فرض في ذلك الظهر والعصر والمغرب والعشاء ودل ذلك على أن هذا كله وقت الصلاة فمن الدلوك إلى المغرب وقت الصلاة ومن المغرب إلى غسق الليل وقت الصلاة وقال {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}الإسراء٧٨ لأن الفجر خصت بطول القراءة فيها ولهذا جعلت ركعتين في الحضر والسفر فلا تقصر ولا تجمع إلى غيرها فإنه عوض بطول القراءة فيها عن كثرة العدد [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٢٨-٤٣٥

## الرجل إذا لم يجد ماء أو تعذر عليه استعماله لمرض أو يخاف من الضرر من شدة البرد وأمثال ذلك فهل يتيمم أم لا؟

التيمم جائز إذا عدم الماء وخاف المرض باستعماله كما نبه الله تعالى على ذلك بذكر المريض وذكر من لم يجد الماء فمن كان الماء يضره بزيادة في مرضه لأجل جرح به أو مرض أو لخشية البرد ونحو ذلك فإنه يتيمم سواء كان جنبا أو محدثا ويصلي وإذا جاز له الصلاة جاز له الطواف وقراءة القرآن ومس المصحف واللبث في المسجد ولا إعادة عليه إذا صلى سواء كان في الحضر أو في السفر في أصح قولي العلماء فإن الصحيح أن كل من فعل ما أمر به بحسب قدرته من غير تفريط منه ولا عدوان فلا إعادة عليه لا في الصلاة ولا في الصيام ولا الحج ولم يوجب الله على العبد أن يصلي الصلاة الواحدة مرتين ولا يصوم شهرين في عام ولا يحج حجين إلا أن يكون منه تفريط أو عدوان فإن نسي الصلاة كان عليه أن يصليها إذا ذكرها وكذلك إذا نسي بعض فرائضها كالطهارة والركوع والسجود وأما إذا كان عاجزا عن المفروض كمن صلى عريانا لعدم السترة أو صلى بلا قراءة لانعقاد لسانه أو لم يتم الركوع والسجود لمرضه ونحو ذلك فلا إعادة عليه ولا فرق بين العذر النادر والمعتاد وما يدوم ومالا يدوم وقد اتفق المسلمون على أن المسافر إذا عدم الماء صلى بالتيمم ولا إعادة عليه وعلى أن العريان إذا لم يجد سترة صلى ولا إعادة عليه وعلى أن المريض يصلي بحسب حاله كما قال النبي لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب ولا إعادة عليه [1]

## رجل يصبح جنبا وليس عنده ما يدخل به الحمام ولا يمكنه أن يغتسل في بيته من أجل البرد فهل له أن يتيمم ويصلي ويقرأ القرآن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٤١

## أم لا و هل إذا فعل ذلك تجب عليه الإعادة أم لا و إذا كان عنده ما يرهنه على أجرة الحمام فهل يجب عليه ذلك أم لا ؟

الحمد لله يجوز للرجل إذا عدم الماء أو خاف الضرر باستعماله وإن كان جنبا فإذا خشي إذا اغتسل بالماء البارد أن يضره ولا يمكنه الاغتسال بالماء الحار في بيت ولا حمام ولا غيرهما جاز له التيمم ولا إعادة على الصحيح وإن أمكنه دخول الحمام بجعل وجب عليه ذلك إذا كان واجدا لأجرة الحمام من غير إجحاف في ماله كما يجب شراء الماء للطهارة وإذا كان ممن يمكنه أن يرهن عند الحمامي الطابية والميزب ويوفيه في أثناء يوم ونحو ذلك فعله وإن كان في أداء أجرة الحمام ضرر كنقص نفقة عياله وقضاء دينه صلى بالتيمم والله أعلم [1]

## رجل وقع عليه غسل ولم يكن معه في ذلك الوقت ما يدخل به الحمام ويتعذر عليه الماء البارد لشدة برده ثم إنه تيمم وصلى الفريضة وله في الجامع وظيفة فقرأ فيها ثم بعد ذلك دخل الحمام هل يأثم أم لا؟

الحمد لله رب العالمين لا يأثم بذلك بل فعل ما أمر به فإن من خاف إذا استعمل الماء البارد أن يحصل له صداع أو نزلة أو غير ذلك من الأمراض ولم يمكن الاغتسال بالماء الحار فإنه يتيمم وإن كان جنبا ويصلي عند جماهير علماء الإسلام كمالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم حتى لو كان له ورد بالليل وأصابته جنابة والماء بارد يضره فإنه يتيمم ويصلي ورده التطوع ويقرأ القرآن في الصلاة وخارج الصلاة ولا يفوت ورده لتعذر الاغتسال بالماء وهل عليه إعادة الفريضة على قولين أحدهما لا إعادة عليه وهو قول مالك وأحمد في إحدى الروايتين والثاني عليه الإعادة وهو قول الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى هذا إذا كان في الحضر وأما المسافر فهو أولى أن لا يعيد وهو مذهب الشافعي في أحد قوليه وكل من جازت له الصلاة بالتيمم جازت له القراءة واللبث في المسجد بطريق الأولى والصحيح أنه لا إعادة عليه ولا على أحد صلى على حسب استطاعته وسواء كانت

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٤٢

الجنابة من حلال أو حرام لكن فاعل الحرام عليه جنابة ونجاسة الذنب فإن تاب وتطهر بالماء أحبه الله فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وإن تطهر ولم يتب تطهر من الجنابة ولم يتطهر من نجاسة الذنب فإن تلك لا يزيلها إلا التوبة وإذا لم يكن معه ما يعطي الحمامي جاز له التيمم ويصلي بلا ريب وإذا لم يكن ممن ينظره الحمامي ولم ميجد ما يرهنه عنده ولم يقبل منه فهل عليه أن يدخل بالأجرة المؤجلة فيه قولان هما وجهان في مذهب أحمد والأظهر أنه إذا كان عادة إظهار الحمامي له أن يغتسل في الحمام كالعادة وإن منعه الحمامي من الدخول من غير ضرر من أن يوفيه حقه لبغض الحمامي ونحو ذلك دخل بغير اختيار الحمامي وأعطاه أجرته وإن لم يكن معه أجرة فمنعه لكونه لم يوفه حقه في الحال ولا هو ممن يعرفه الحمامي لينظره فهذا ليس له أن يدخل إلا برضا الحمامي وإن طابت نفس الحمامي بأخذ ماء في الإناء ولم تطب نفسه بأن يتطهر في دهاليز أبواب الحمام جاز له أن يفعل ما تطيب به نفس الحمامي دون ما لا تطيب إلا بعوض المثل وإنما يجب عليه أن يشتري الماء البارد والحار ويعطي الحمامي أجرة الدخول إذا كان الماء يبذل بثمن المثل أو بزيادة لا يتغابن الناس بمثلها مع قدرته على ذلك فإن كان محتاجا إلى ذلك لنفقته أو نفقة عياله أو وفاء دينه الذي يطالب به كان صرف ذلك إلى ما يحتاج إليه من نفقة أو قضاء دين مقدما على صرف ذلك في عوض الماء كما لو احتاج إلى الماء لشرب نفسه أو دوابه فإنه يصرفه في ذلك ويتيمم وإن كانت الزيادة على ثمن المثل لا تجحف بماله ففي وجوب بذل العوض في ذلك قولان في مذهب أحمد بن حنبل وغيره وأكثر العلماء على أنه لا يجب والله سبحانه أعلم [1]

## وسئل المرأة يجامعها بعلها ولا تتمكن من دخول الحمام لعدم الأجرة وغيرها فهل لها أن تتيمم وهل يكره لبعلها مجامعتها والحالة هذه وكذلك المرأة يدخل عليها وقت الصلاة ولم تغتسل وتخاف إن دخلت الحمام أن يفوتها الوقت فهل لها أن تصلي بالتيمم أو تصلي في الحمام ؟

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٤٣-٤٤٥

الحمد لله الجنب سواء كان رجلا أو امرأة فإنه إذا عدم الماء أو خاف الضرر باستعماله فإن كان لا يمكنه دخول الحمام لعدم الأجرة أو لغير ذلك فإنه يصلي بالتيمم ولا يكره للرجل وطء امرأته كذلك بل له أن يطأها كما له أن يطأها في السفر ويصليا بالتيمم وإذا أمكن الرجل أو المرأة أن يغتسل ويصلي خارج الحمام فعلا ذلك فإن لم يمكن ذلك مثل أن لا يستيقظ أول الفجر وإن اشتغل بطلب الماء خرج الوقت وإن طلب حطبا يسخن به الماء أو ذهب إلى الحمام فات الوقت فإنه يصلي هنا بالتيمم عند جمهور العلماء إلا أن بعض المتأخرين من أصحاب الشافعي وأحمد قالوا يشتغل بتحصيل الطهارة وإن فات الوقت وهكذا قالوا في اشتغاله بخياطة اللباس وتعلم دلائل القبلة ونحو ذلك وهذا القول خطأ فإن قياس هذا القول أن المسافر يؤخر الصلاة حتى يصلي بعد الوقت بالوضوء وأن العريان يؤخر الصلاة حتى يصلي بعد الوقت باللباس وهذا خلاف إجماع المسلمين بل على العبد أن يصلي في الوقت بحسب الإمكان وما عجز عنه من واجبات الصلاة سقط عنه وأما إذا استيقظ آخر الوقت أو إن اشتغل باستقاء الماء من البئر خرج الوقت أو إن ذهب إلى الحمام للغسل خرج الوقت فهذا يغتسل عند جمهور العلماء ومالك رحمه الله يقول بل يصلي بالتيمم محافظة على الوقت والجمهور يقولون إذا استيقظ آخر الوقت فهو حينئذ مأمور بالصلاة فالطهارة والوقت في حقه من حين استيقظ وهو ما يمكنه فعل الصلاة فيه وقد قال النبي من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها فالوقت المأمور بالصلاة فيه في حق النائم هو إذا استيقظ لا ما قبل ذلك وفي حق الناسي إذا ذكر والله أعلم وأما إذا كانت المرأة أو الرجل يمكنه الذهاب إلى الحمام لكن إن دخل لا يمكنه الخروج حتى يفوت الوقت إما لكونه مقهورا مثل الغلام الذي لا يخليه سيده يخرج حتى يصلي ومثل المرأة التي معها أولادها فلا يمكنها الخروج حتى تغسلهم ونحو ذلك فهؤلاء لا بد لهم من أحد أمور إما أن يغتسلوا ويصلوا في الحمام في الوقت وإما أن يصلوا خارج الحمام بعد خروج الوقت وإما أن يصلوا بالتيمم خارج الحمام وبكل قول من هذه الأقوال يفتي طائفة لكن الأظهر أنهم يصلون بالتيمم خارج الحمام لأن الصلاة في الحمام منهي عنها وتفويت الصلاة حتى يخرج الوقت أعظم من ذلك ولا يمكنه الخروج من هذين النهيين إلا بالصلاة بالتيمم في الوقت خارج الحمام وصار هذا كما لو لم يمكنه الصلاة إلا في موضع نجس في الوقت أو في موضع طاهر بعد الوقت إذا اغتسل أو يصلي بالتيمم في مكان طاهر في الوقت فهذا أولى لأن كلا من ذينك منهي عنه وتنازع الفقهاء فيمن حبس في موضع نجس وصلى فيه هل يعيد على قولين أصحهما أنه لا إعادة عليه بل الصحيح الذي عليه أكثر العلماء أنه إن كان قد صلى في الوقت كما أمر بحسب

الإمكان فلا إعادة عليه سواء كان العذر نادرا أو معتادا فإن الله لم يوجب على العبد الصلاة المعينة مرتين إلا إذا كان قد حصل منه إخلال بواجب أو فعل محرم فأما إذا فعل الواجب بحسب الإمكان فلم يأمره مرتين ولا أمر الله أحدا أن يصلي الصلاة ويعيدها بل حيث أمره بالإعادة لم يأمره بذلك ابتداء كمن صلى بلا وضوء ناسيا فإن هذا لم يكن مأمورا بتلك الصلاة بل اعتقاد أنه مأمور خطأ منه وإنما أمره الله أن يصلي بالطهارة فإذا صلى بغير طهارة كان عليه الإعادة كما أمر النبي الذي توضأ وترك موضع ظفر من قدمه لم يصبه الماء أن يعيد الوضوء والصلاة وكما أمر المسيء في صلاته أن يعيد الصلاة وكما أمر المصلي خلف الصف وحده أن يعيد الصلاة فأما العاجز عن الطهارة أو الستارة أو استقبال القبلة أو عن اجتناب النجاسة أو عن إكمال الركوع والسجود أو عن قراءة الفاتحة ونحو هؤلاء ممن يكون عاجزا عن بعض واجباتها فإن هذا يفعل ما قدر عليه ولا إعادة عليه كما قال تعالى{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ وكما قال النبي إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم[١]

## المرأة إذا كانت بعيدة عن الحمام وحصل لها جنابة وتخشى من الغسل في البيت من البرد هل لها أن تتيمم وتصلي وإذا أراد زوجها الجماع وتخاف من البرد عليه وعليها هل له أن يتيمم أو يغتسل مع القدرة وتتيمم هي أم يترك الجماع فإذا جامعها وأرادت الدخول إلى الحمام للتطهر هل تتيمم وتجمع بين الصلاتين أو تصلي في الحمام بالغسل وهل لها إذا طهرت من الحيض ولم تغتسل أن تتيمم ويجامعها زوجها أم لا وهل يحتاج التيمم للجنابة إلى وضوء أم لا وإذا احتاج هل يقدم الوضوء أم التيمم وهل يحتاج التيمم لكل صلاة أم يصلي الصلوات بتيمم واحد وإذا طهرت المرأة آخر النهار أو آخر الليل وعجزت عن الغسل للبرد وغيره هل تتيمم وتصلي وهل تقضي صلاة اليوم الذي طهرت فيه أو الليلة ومن أصابه جرح أو كسر وعصبه هل يمسح على العصابة أم يتيمم عن الوضوء

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٤٦-٤٤٩

للمجروح وبعض الأعضاء يعجز عن إمرار الماء عليه بسبب الجرح أو الكسر وهل يترك الجماع في هذه الحالة أو يفعله ويتيمم ولو علم أن مدة المداواة تطول فيطول تيممه وهل للمرأة أيضا منع الزوج من الجماع إذا كانت لا تقدر على الغسل أم تطيعه وتتيمم ومن وجد الحمام بعيدا متى وصل إليه خرج الوقت هل يتيمم أم يذهب إليه ولو خرج الوقت ومن خاف فوات الجماعة إذا تطهر بالماء هل يتيمم ليحصل على الجماعة أم لا ومن معه رفقة يريدون الجمع فهل الأفضل له الجمع معهم لتحصيل الجماعة أم يصلي وحده في الوقت وقد يكون هو إمامهم فأيما أفضل في حقه جمعا أم الصلاة وحده في وقت كل صلاة ومن كان له صناعة يعملها هو وصناع آخر ويشق عليه الصلاة في وقتها ويبطل الصناع هل يجمع بين الصلاتين وكذلك إذا كان في حراثة وزراعة ويشق عليه طلب الماء هل يتيمم ويصلي ومن يتيمم هل يقرأ القرآن في غير الصلاة ويصلي ورده بالليل وهل للمرأة الجنب أو الحائض أن تقرأ على ولدها الصغير ومن لم يجد ترابا هل يتيمم على البساط أو الحصير إذا كان فيهما غبار ؟

الحمد لله رب العالمين من أصابته جنابة من احتلام أو جماع حلال أو حرام فعليه أن يغتسل ويصلي فإن تعذر عليه الاغتسال لعدم الماء أو لتضرره باستعماله مثل أن يكون مريضا يزيد الاغتسال في مرضه أو يكون الهواء باردا وإن اغتسل خاف أن يمرض بصداع أو زكام أو نزلة فإنه يتيمم ويصلي سواء كان رجلا أو امرأة وليس له أن يؤخر الصلاة عن وقتها وليس للمرأة أن تمنع زوجها من الجماع بل له أن يجامعها فإن قدرت على الاغتسال وإلا تيممت وكذلك الرجل إن قدر على الاغتسال وإلا تيمم وله أن يجامعها قبل دخول الحمام فإن قدرت على أن تغتسل وتصلي خارج الحمام فعلت وإن خافت أن تفوتها الصلاة استترت في الحمام وصلت ولا تفوت الصلاة والجمع بين الصلاتين بطهارة كاملة بالماء خير من أن يفرق بين الصلاتين بالتيمم كما أمر النبي المستحاضة أن تجمع بين الصلاتين بغسل واحد وجعل ذلك خيرا من التفريق بوضوء وأيضا فالجمع بين الصلاتين مشروع لحاجة دنيوية فلأن يكون مشروعا لتكميل الصلاة أولى والجامع بين الصلاتين مصل في الوقت والنبي جمع بين الظهر والعصر بعرفة في وقت الظهر لأجل تكميل الوقوف واتصاله وإلا فقد كان يمكنه أن ينزل فيصلي فجمع بين الصلاتين لتكميل الوقوف

فالجمع لتكميل الصلاة أولى وأيضا فإنه جمع بالمدينة للمطر وهو نفسه لم يكن يتضرر بالمطر بل جمع لتحصيل الصلاة في الجماعة والجمع لتحصيل الجماعة خير من التفريق والانفراد والجمع بين الصلاتين خير من الصلاة في الحمام فإن أعطان الإبل والحمام نهى النبي عن الصلاة فيهما والجمع مشروع بل قد قال النبي من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها ثم إنه لما نام عن الصلاة انتقل وقال هذا واد حضرنا فيه الشيطان فأخر الصلاة عن الوقت المأمور به لكون البقعة حضر فيها الشيطان وتلك البقعة تكره الصلاة فيها وتجوز لكن يستحب الانتقال عنها وقد نص على ذلك أحمد بن حنبل وغيره والحمام وأعطان الإبل مسكن الشياطين ولهذا حرم الصلاة فيها والجمع مشروع للمصلحة الراجحة فإذا جمع لئلا يصلي في أماكن الشياطين كان قد أحسن والمرأة إذا لم يكن يمكنها الجمع بطهارة الماء جمعت بطهارة التيمم فإن الصلاة بالتيمم في الوقت المشروع خير من التفريق ومن الصلاة في الأماكن المنهي عنها وإذا أمكن الرجل والمرأة أن يتوضآ ويتيمما فعلا فإن اقتصرا على التيمم أجزأهما في إحدى الروايتين للعلماء ومذهب أبي حنيفة ومالك لا يجمع بين طهارة الماء وطهارة التيمم بين الأصل والبدل بل إما هذا وإما هذا ومذهب الشافعي وأحمد بل يغتسل بالماء ما أمكنه ويتيمم للباقي وإذا توضأ وتيمم فسواء قدم هذا أو هذا لكن تقديم الوضوء أحسن ويجوز أن يصلي الصلوات بتيمم واحد كما يجوز بوضوء واحد وغسل واحد في أظهر قولي العلماء وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين لقول النبي الصعيد الطيب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر سنين فإذا وجدت الماء فأمسه بشرتك فإن ذلك خير والمرأة إذا طهرت من الحيض فإن قدرت على الاغتسال وإلا تيممت وصلت فإن طهرت في آخر النهار صلت الظهر والعصر وإن طهرت في آخر الليل صلت المغرب والعشاء ولا يقضي أحد ما صلاه بالتيمم وإذا كان الجرح مكشوفا وأمكن مسحه بالماء فهو خير من التيمم وكذلك إذا كان معصوبا أو كسر عظمه فوضع عليه جبيرة فمسح ذلك بالماء خير من التيمم والمريض والجريح والمكسور إذا أصابته جنابة بجماع وغيره والماء يضره يتيمم ويصلي أو يمسح على الجبيرة ويغسل سائر بدنه إن أمكنه ويصلي وليس للمرأة أن تمنع زوجها الجماع بل يجامعها فإن قدرت على الاغتسال وإلا تيممت وصلت وإذا طهرت من الحيض لم يجامعها إلا بعد الاغتسال وإلا تيممت ووطئها زوجها ويتيمم الواطئ حيث يتيمم للصلاة وإذا دخل وقت الصلاة كطلوع الفجر ولم يمكنه إذا اغتسل أن يصلي حتى تطلع الشمس لكون الماء بعيدا أو الحمام مغلوقة أو لكونه فقيرا وليس معه أجرة الحمام فإنه يتيمم ويصلي في الوقت ولا يؤخر الصلاة حتى يفوت الوقت وأما إذا استيقظ وقد ضاق الوقت عن الاغتسال فإن كان الماء

موجودا فهذا يغتسل ويصلي بعد طلوع الشمس عند أكثر العلماء فإن الوقت في حقه من حين استيقظ بخلاف اليقظان فإن الوقت في حقه من حين طلوع الفجر ولا بد من الصلاة في وقتها ولا يجوز تأخيرها عن الوقت لأحد أصلا لا بعذر ولا بغير عذر لكن يصلي في الوقت بحسب الإمكان فيصلي المريض بحسب حاله في الوقت كما قال النبي لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب فيصلي في الوقت قاعدا ولا يصلي بعد خروج الوقت قائما وكذلك العراة كالذين انكسرت بهم السفينة يصلون في الوقت عراة ولا يؤخرونها ليصلوا في الثياب بعد الوقت وكذلك من اشتبهت عليه القبلة فيصلي في الوقت بالاجتهاد والتقليد ولا يؤخرها ليصلي بعد الوقت باليقين وكذلك من كان عليه نجاسة في بدنه أو ثوبه لا يمكنه إزالتها حتى تفوت الصلاة فيصلي بها في الوقت ولا يفوت الصلاة ليصلي طاهرا وكذلك من حبس في مكان نجس أو كان في حمام أو غير ذلك مما نهي عن الصلاة فيه ولا يمكنه الخروج منه حتى تفوت الصلاة فإنه يصلي في الوقوت ولا يفوت الصلاة ليصلي في غيره فالصلاة في الوقت فرض بحسب الإمكان والاستطاعة وإن كانت صلاة ناقصة حتى الخائف يصلي صلاة الخوف في الوقت بحسب الإمكان ولا يفوتها ليصلي صلاة أمن بعد خروج الوقت حتى في حال المقاتلة يصلي ويقاتل ولا يفوت الصلاة ليصلي بلا قتال فالصلاة المفروضة في الوقت وإن كانت ناقصة خير من تفويت الصلاة بعد الوقت وإن كانت كاملة بل الصلاة بعد تفويت الوقت عمدا لا تقبل من صاحبها ولا يسقط عنه إثم التفويت المحرم ولو قضاها باتفاق المسلمين فصل وأما إذا خاف فوات الجنازة أو العيد أو الجمعة ففي التيمم نزاع والأظهر أنه يصليها بالتيمم ولا يفوتها وكذلك إذا لم يمكنه صلاة الجماعة الواجبة إلا بالتيمم فإنه يصليها بالتيمم ومذهب أحمد في إحدى الروايتين أنه يجوز التيمم للجنازة مع أنه لا يختلف قوله في أنه يجوز أن يعيدها بوضوء فليست العلة على مذهبه تعذر الإعادة بخلاف أبي حنيفة فإنه إنما علل ذلك بتعذر الإعادة وفرق بين الجنازة وبين العيد والجمعة وأحمد لا يعلل بذلك فكيف والجمعة لا تعاد وإنما تصلى ظهرا وليست صلاة الظهر كالجمعة وكذلك إذا لم يمكنه صلاة الجمعة الواجبة إلا بالتيمم فإنه يصليها بالتيمم [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٤٩-٤٥٥

# الجمع بين الصلاتين يجوز لعذر

والجمع بين الصلاتين حيث يشرع في الصلاة في وقتها ليس بمفوت ولا يشترط للقصر ولا للجمع نية عند أكثر العلماء وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وهو إحدى القولين في مذهب أحمد بل عليه يدل كلامه وهو المنصوص عنه والقول الآخر اختيار بعض أصحابه وهو قول الشافعي والجمع بين الصلاتين يجوز لعذر فالمسافر إذا جد به السير جمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء والمسافرون إذا غلب عليهم النعاس وشق عليهم انتظار العشاء جمعوا بينها وبين المغرب ولو كان الإمام لا ينام فصلاته بهم إماما جامعا بين الصلاتين خير من صلاته وحده غير جامع والحراث إذا خاف إن طلب الماء يسرق ماله أو يتعطل عمله الذي يحتاج إليه صلى بالتيمم وإن أمكنه أن يجمع بين الصلاتين بوضوء فهو خير من أن يفرق بينهما وكذلك سائر الأعذار الذين يباح لهم التيمم إذا أمكنهم الجمع بينهما بطهارة الماء فهو خير من التفريق بينهما بطهارة التيمم والجمع بين الصلاتين لمن له عذر كالمطر والريح الشديدة الباردة ولمن به سلس البول والمستحاضة فصلاتهم بطهارة كاملة جمعا بين الصلاتين خير من صلاتهم بطهارة ناقصة مفرقا بينهما والمريض أيضا له أن يجمع بين الصلاتين لا سيما إذا كان مع الجمع صلاته أكمل إما لكمال طهارته وإما لإمكان القيام ولو كانت الصلاتان سواء لكن إذا فرق بينهما زاد مرضه فله الجمع بينهما وقال أحمد بن حنبل يجوز الجمع إذا كان لشغل قال القاضي أبو يعلى الشغل الذي يبيح ترك الجمعة والجماعة وقال الشيخ موفق الدين بن قدامة المقدسي مبينا عن هؤلاء وهو المريض ومن له قريب يخاف موته ومن يدافع أحدا من الأخبثين ومن يحضره طعام وبه حاجة إليه ومن يخاف من سلطان يأخذه أو غريم يلازمه ولا شيء معه يعطيه والمسافر إذا خاف فوات القافلة ومن يخاف ضررا في ماله ومن يرجو وجوده ومن يخاف من غلبة النعاس حتى يفوته الوقت ومن يخاف من شدة البرد وكذلك في الليلة المظلمة إذا كان فيها وحل فهؤلاء يعذروا وإن تركوا الجمعة والجماعة كذا حكاه ابن قدامة في مختصر الهداية فإنه يبيح لهم الجمع بين الصلاتين على ما قاله الإمام أحمد بن حنبل والقاضي أبو يعلى والصناع والفلاحون إذا كان في الوقت الخاص مشقة عليهم مثل أن يكون الماء بعيدا في فعل صلاة وإذا ذهبوا إليه وتطهروا تعطل بعض العمل الذي يحتاجون إليه فلهم أن يصلوا في الوقت المشترك فيجمعوا بين الصلاتين وأحسن من ذلك أن يؤخروا الظهر إلى قريب العصر فيجمعوها ويصلوها مع العصر وإن كان ذلك جمعا

في آخر وقت الظهر وأول وقت العصر ويجوز مع بعد الماء أن يتيمم ويصلي في الوقت الخاص والجمع بطهارة الماء أفضل والحمد لله وحده [١]

## الحائض يرخص لها فيما لا يرخص للجنب فيه لأجل العذر

كل من جاز له الصلاة بالتيمم من جنب أو محدث جاز له أن يقرأ القرآن خارج الصلاة ويمس المصحف ويصلي بالتيمم النافلة والفريضة ويرقي بالقرآن وغير ذلك فإن الصلاة أعظم من القراءة فمن صلى بالتيمم كانت قراءته بالتيمم أولى والقراءة خارج الصلاة أوسع منها في الصلاة فإن المحدث يقرؤه خارج الصلاة وكل ما يفعله بطهارة الماء في الوضوء والغسل يفعله بطهارة التيمم إذا عدم الماء أو خاف الضرر باستعماله وإذا أمكن الجنب الوضوء دون الغسل فتوضأ وتيمم عن الغسل جاز وإن تيمم ولم يتوضأ ففيه قولان قيل يجزيه عن الغسل وهو قول مالك وأبي حنيفة وقيل لا يجزيه وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل وإذا تيمم بالتراب الذي تحت حصير بيته جاز وكذلك إذا كان هناك غبار لاصق ببعض الأشياء وتيمم بذلك التراب اللاصق جاز وأما قراءة الجنب والحائض للقرآن فللعلماء فيه ثلاثة أقوال قيل يجوز لهذا ولهذا وهو مذهب أبي حنيفة والمشهور من مذهب الشافعي وأحمد وقيل لا يجوز للجنب ويجوز للحائض إما مطلقا أو إذا خافت النسيان وهو مذهب مالك وقول في مذهب أحمد وغيره فإن قراءة الحائض القرآن لم يثبت عن النبي فيه شيء غير الحديث المروي عن إسماعيل بن عياش عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر لا تقرأ الحائض ولا الجنب من القرآن شيئا رواه أبو داود وغيره وهو حديث ضعيف باتفاق أهل المعرفة بالحديث وإسماعيل بن عياش ما يرويه عن الحجازيين أحاديث ضعيفة بخلاف روايته عن الشاميين ولم يرو هذا عن نافع أحد من الثقات ومعلوم أن النساء كن يحضن على عهد رسول الله ولم يكن ينههن عن قراءة القرآن كما لم يكن ينههن عن الذكر والدعاء بل أمر الحيض أن يخرجن يوم العيد فيكبرون بتكبير المسلمين وأمر الحائض أن تقضي المناسك كلها إلا الطواف بالبيت تلبي وهي حائض وكذلك بمزدلفة ومنى وغير ذلك من المشاعر وأما الجنب فلم يأمره أن يشهد العيد لا يصلي ولا أن يقضي شيئا من المناسك لأن الجنب

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٥٦-٤٥٨

يمكنه أن يتطهر فلا عذر له في ترك الطهارة بخلاف الحائض فإن حدثها قائم لا يمكنها مع ذلك التطهر ولهذا ذكر العلماء ليس للجنب أن يقف بعرفة ومزدلفة ومنى حتى يطهر وإن كانت الطهارة ليست شرطا في ذلك لكن المقصود أن الشارع أمر الحائض أمر إيجاب أو استحباب بذكر الله ودعائه مع كراهة ذلك للجنب فعلم أن الحائض يرخص لها فيما لا يرخص للجنب فيه لأجل العذر وإن كانت عدتها أغلظ فكذلك قراءة القرآن لم ينهها الشارع عن ذلك وإن قيل إنه نهي الجنب لأن الجنب يمكنه أن يتطهر ويقرأ بخلاف الحائض تبقى حائضا أياما فيفوتها قراءة القرآن تفويت عبادة تحتاج إليها مع عجزها عن الطهارة وليست القراءة كالصلاة فإن الصلاة يشترط لها الطهارة مع الحدث الأكبر والأصغر والقراءة تجوز مع الحدث الأصغر بالنص واتفاق الأئمة والصلاة يجب فيها استقبال القبلة واللباس واجتناب النجاسة والقراءة لا يجب فيها شيء من ذلك بل كان النبي يضع رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها وهي حائض وهو حديث صحيح وفي صحيح مسلم أيضا يقول الله عز وجل للنبي إني منزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائما ويقظانا فتجوز القراءة قائما وقاعدا وماشيا ومضطجعا وراكبا [1]

## رجل أرمد فلحقته جنابة ولا يقدر يتطهر بماء مسخن ولا بارد ويقدر على الوضوء فما يصنع ؟

الحمد لله إذا كان به رمد فإنه يغسل ما استطاع من بدنه وما يضره الماء كالعين وما يقاربها ففيه قولان للعلماء أحدهما يتيمم وهو مذهب الشافعي وأحمد والثاني ليس عليه تيمم وهو مذهب أبي حنيفة ومالك لكن غسل أكثر البدن الذي يمكن غسله واجب باتفاقهم والله أعلم [2]

## رجل باشر امرأته وهو في عافية فهل له أن يصبر بالتطهر إلى أن يتضاحى النهار أم يتيمم ويصلي أفتونا مأجورين؟

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٥٩-٤٦١

الحمد لله لا يجوز له تأخير الصلاة حتى يخرج الوقت بل عليه إن قدر على الاغتسال بماء بارد أو حار أن يغتسل ويصلي في الوقت وإلا تيمم فإن التيمم لخشية البرد جائز باتفاق الأئمة وإذا صلى بالتيمم فلا إعادة عليه لكن إذا تمكن من الاغتسال اغتسل والله أعلم وسئل عن امرأة بها مرض في عينيها وثقل في جسمها من الشحم وليس لها قدرة على الحمام لأجل الضرورة وزوجها لم يدعها تطهر وهي تطلب الصلاة فهل يجوز لها أن تغسل جسمها الصحيح وتتيمم عن رأسها فأجاب نعم إذا لم تقدر على الاغتسال في الماء البارد ولا الحار فعليها أن تصلي في الوقت بالتيمم عند جماهير العلماء لكن مذهب الشافعي وأحمد أنها تغسل ما يمكن وتتيمم للباقي ومذهب أبي حنيفة ومالك إن غسلت الأكثر لم تتيمم وإن لم يمكن إلا غسل الأقل تيممت ولا غسل عليها [١]

## رجل سافر مع رفقة وهو إمامهم ثم احتلم في يوم شديد البرد وخاف على نفسه أن يقتله البرد فتيمم وصلى بهم فهل يجب عليه إعادة وعلى من صلى خلفه أم لا؟

هذه المسألة هي ثلاث مسائل الأولى أن تيممه جائز وصلاته جائزة ولا غسل عليه والحالة هذه وهذا متفق عليه بين الأئمة وقد جاء في ذلك حديث في السنن عن عمرو بن العاص أنه فعل ذلك على عهد رسول الله فصلى بأصحابه بالتيمم في السفر وإن ذلك ذكر للنبي وكذلك هذا معروف عن ابن عباس الثانية أنه هل يؤم المتوضئين فالجمهور على أنه يؤمهم كما أمهم عمرو بن العاص وابن عباس وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد وأصح القولين في مذهب أبي حنيفة ومذهب أبي محمد أنه لا يؤمهم الثالثة في الإعادة فالمأموم لا إعادة عليه بالاتفاق مع صحة صلاته وأما الإمام أو غيره إذا صلى بالتيمم لخشية البرد فقيل يعيد مطلقا كقول الشافعي وقيل يعيد في الحضر فقط دون السفر كقول له ورواية عن أحمد وقيل لا يعيد مطلقا كقول مالك وأحمد في الرواية الأخرى وهذا هو الصحيح لأنه فعل ما قدر عليه فلا

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٦٣

إعادة عليه ولهذا لم يأمر النبي عمرو بن العاص بإعادة ولم يثبت فيه دليل شرعي يفرق بين الأعذار المعتادة وغير المعتادة والله أعلم [1]

## رجل أصابته جنابة ولم يقدر على استعمال الماء من شدة البرد أو الخوف والإنكار عليه فهل إذا تيمم وصلى وقرأ ومس المصحف وتهجد بالليل إماما يجوز له ذلك أم لا وهل يعيد الصلاة أم لا وإلى كم يجوز له التيمم

إذا كان خائفا من البرد إن اغتسل بالماء يمرض أو كان خائفا إن اغتسل أن يرمى بما هو بريء منه ويتضرر بذلك أو كان خائفا بينه وبين الماء عدو أو سبع يخاف ضرره إن قصد الماء فإنه يتيمم ويصلي من الجنابة والحدث الأصغر وأما الإعادة فقد تنازع العلماء في التيمم لخشية البرد هل يعيد في السفر والحضر أو لا يعيد فيهما أو يعيد في الحضر فقط على ثلاثة أقوال والأشبه بالكتاب والسنة أنه لا إعادة عليه بحال ومن جازت له الصلاة جازت له القراءة ومس المصحف والمتيمم يؤم المغتسل عند جمهور العلماء وهو مذهب الأئمة الأربعة إلا محمد بن الحسن والله أعلم [2]

## التيمم إذا كان في يده جراحة وتوضأ وغسل وجهه فهل يلزمه أن يتيمم عند غسل اليدين أم يكمل وضوءه إلى آخره ثم بعد ذلك يتيمم وإن كانت الجراحة مشدودة فهل يلزمه أن يحل الجراح ويغسل جميع الصحيح أم يغسل ما ظهر منها ويترك الشد على حاله ؟

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٦٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٦٦

الحمد لله هذه المسألة فيها نزاع هما قولان في مذهب أحمد وغيره والصحيح أن له أن يؤخر التيمم حتى يفرغ من وضوئه بل هذا الذي ينبغي أن يفعله إذا قيل إنه يجمع بين الوضوء والتيمم فإن مذهب أبي حنيفة ومالك أنه لا يحتاج إلى تيمم [1]

## رجل نام وهو جنب فلم يستيقظ إلا قريب طلوع الشمس وخشي من الغسل بالماء البارد في وقت البرد وإن سخن الماء خرج الوقت فهل يجوز له أن يفوت الصلاة إلى حيث يغتسل أو يتيمم ويصلي

هذه المسألة فيها قولان للعلماء فالأكثر كأبي حنيفة والشافعي وأحمد يأمرونه بطلب الماء وإن صلى بعد طلوع الشمس ومالك يأمره أن يصلي للوقت بالتيمم لأن الوقت مقدم على غيره من واجبات الصلاة بدليل أنه إن استيقظ في الوقت وعلم أنه لا يجد الماء إلا بعد الوقت فإنه يصلي بالتيمم في الوقت بإجماع المسلمين ولا يصلي بعد خروج الوقت بالغسل وأما الأولون فيفرقون بين هذه الصورة ونظائرها وبين صورة السؤال بأنه قال إنما خوطب بالصلاة عند استيقاظه كما قال النبي من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها وإذا كان إنما أمر بها بعد الانتباه فعليه فعلها بحسب ما يمكن من الاغتسال المعتاد فيكون فعلها بعد طلوع الشمس فعلا في الوقت الذي أمر الله بالصلاة فيه والله أعلم [2]

## رجل أجنب واستيقظ وقد طلع الفجر ثم أراد أن يغتسل فخاف أن تطلع الشمس فتوضأ وصلى وبعد الصلاة اغتسل فهل تجزي الصلاة أم لا ؟

إذا أدركته الجنابة فعليه أن يغتسل ويصلي في الوقت وليس له أن يؤخر الغسل فإن كان لم يستيقظ إلا وقت طلوع الشمس فأكثر العلماء يقولون يغتسل ويصلي بعد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٦٦

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٦٨

طلوع الشمس ولا يصلي جنبا وبعضهم قال يصلي في الوقت بالوضوء والتيمم لكن الأول أصح والله أعلم [1]

## الجنب إذا انتبه من نومه وهو في الحضر قبل خروج الوقت بقليل هل يتيمم ويصلي في الوقت أو يغتسل ويصلي بعد خروج الوقت؟

يغتسل ولا يصلي بالتيمم في مثل هذه الصورة عند أكثر العلماء والله أعلم [2]

## إذا دخل وقت الصلاة وهو جنب ويخشى إن اشتغل بفعل الطهارة يفوته الوقت فهل يباح له التيمم ام لا ؟

إذا دخل وقت الصلاة وهو مستيقظ والماء بعيد منه يخاف إن طلبه أن تفوته الصلاة أو كان الوقت باردا يخاف إن سخنه أو ذهب إلى الحمام فاتت الصلاة فإنه يصلي بالتيمم في مذهب أحمد وجمهور العلماء وإن استيقظ آخر الوقت وخاف إن تطهر طلعت الشمس فإنه يصلي هنا بالوضوء بعد طلوع الشمس فإن عند جمهور العلماء اختلافا كإحدى الروايتين عن مالك فإنه هنا إنما خوطب بالصلاة بعد استيقاظه ومن نام عن صلاة صلاها إذا استيقظ وكان ذلك وقتها في حقه [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٦٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٧٠

[3] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٧٠

## أقوام خرجوا من قرية إلى قرية ليصلوا الجمعة فيها فوجدوا الصلاة قد أقيمت وبعضهم على غير وضوء لو ذهب ليتوضأ فاتته الصلاة فهل يتيمم ؟

هذه المسألة فيها نزاع والأظهر أنهم إذا لم تمكنهم صلاة الجمعة إلا بالتيمم صلوا بالتيمم والله أعلم [1]

## المسافر يصل إلى ماء وقد ضاق الوقت فإن تشاغل بتحصيله خرج الوقت فهل له أن يصلي بالتيمم

أما المسافر إذا وصل إلى ماء وقد ضاق الوقت فإنه يصلي بالتيمم على قول جمهور العلماء وكذلك لو كان هناك بئر لكن لا يمكن أن يصنع له حبلا حتى يخرج الوقت أو يمكن حفر الماء ولا يحفر حتى يخرج الوقت فإنه يصلي بالتيمم وقد قال بعض الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد إنه يغتسل ويصلي بعد خروج الوقت لاشتغاله بتحصيل الشرط وهذا ضعيف لأن المسلم أمر أن يصلي في الوقت بحسب الإمكان فالمسافر إذا علم أنه لا يجد الماء حتى يفوت الوقت كان فرضا عليه أن يصلي بالتيمم في الوقت باتفاق الأئمة وليس له أن يؤخر الصلاة حتى يصل إلى الماء وقد ضاق الوقت بحيث لا يمكنه الاغتسال والصلاة حتى يخرج الوقت بل إذا فعل ذلك كان عاصيا بالاتفاق وحينئذ فإذا وصل إلى الماء وقد ضاق الوقت فغرضه إنما هو الصلاة بالتيمم في الوقت وليس هو مأمورا بهذا الاستعمال الذي يفوته معه الوقت بخلاف المستيقظ آخر الوقت والماء حاضر فإن هذا مأمور أن يغتسل ويصلي ووقته من حين يستيقظ لا من حين طلوع الفجر بخلاف من كان يقظانا عند طلوع الفجر أو عند زوالها إما مقيما وإما مسافرا فإن الوقت في حقه من حينئذ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٧١

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٧٢

## التيمم هل يجوز لأحد أن يصلي به السنن الراتبة والفريضة وأن يقتصر عليه إلى أن يحدث أم لا؟

نعم يجوز له في أظهر قولي العلماء أن يصلي بالتيمم كما يصلي بالوضوء فيصلي به الفرض والنفل ويتيمم قبل الوقت وهذا مذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين عنه ولا ينقض التيمم إلا ما ينقض الوضوء والقدرة على استعمال الماء والله أعلم [١]

## الحاقن أيما أفضل يصلي بوضوء محتقنا أو أن يحدث ثم يتيمم لعدم الماء

صلاته بالتيمم بلا احتقان أفضل من صلاته بالوضوء مع الاحتقان فإن هذه الصلاة مع الاحتقان مكروهة منهي عنها وفي صحتها روايتان وأما صلاته بالتيمم فصحيحة لا كراهة فيها بالاتفاق والله أعلم [٢]

## اتفق الأئمة كلهم على أن السنة مسح جميع الرأس

اتفق الأئمة كلهم على أن السنة مسح جميع الرأس كما ثبت في الأحاديث الصحيحة والحسنة عن النبي صلى الله عليه وسلم فإن الذين نقلوا وضوءه لم ينقل عنه أحد منهم أنه اقتصر على مسح بعض رأسه وما يذكره بعض الفقهاء كالقدوري في أول مختصره وغيره أنه توضأ ومسح على ناصيته إنما هو بعض الحديث الذي في الصحيح من حديث المغيرة بن شعبة أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ عام تبوك ومسح على ناصيته ولهذا ذهب طائفة من العلماء إلى جواز مسح بعض الرأس وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وقول في مذهب مالك وأحمد وذهب

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٧٣

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٤٧٣

آخرون إلى وجوب مسح جميعه وهو المشهور من مذهب مالك وأحمد وهذا القول هو الصحيح فإن القرآن ليس فيه ما يدل على جواز مسح بعض الرأس فإن قوله تعالى {وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ} المائدة٦ نظير قوله {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ} النساء٤٣ لفظ المسح في الآيتين وحرف الباء في الآيتين فإذا كانت آية التيمم لا تدل على مسح البعض مع أنه بدل عنه الوضوء وهو مسح بالتراب لا يشرع فيه تكرار فكيف تدل على ذلك آية الوضوء مع كون الوضوء هو الأصل والمسح فيه بالماء المشروع فيه التكرار هذا لا يقوله من يعقل ما يقول ومن ظن أن من قال بإجزاء البعض لأن الباء للتبعيض أو دالة على القدر المشترك فهو خطأ أخطأه على الأئمة وعلى اللغة وعلى دلالة القرآن والباء للإلصاق وهي لا تدخل إلا لفائدة فإذا دخلت على فعل يتعدى بنفسه أفادت قدرا زائدا كما في قوله {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} الإنسان٦ فإنه لو قيل يشرب منها لم تدل على الري فضمن يشرب معنى يروى فقيل يشرب بها فأفاد ذلك أنه شرب يحصل معه الري وباب تضمين الفعل معنى فعل آخر حتى يتعدى بتعديته كقوله {قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ} ص٢٤ وقوله {وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} الأنبياء٧٧ وقوله {وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ} المائدة٤٩ وأمثال ذلك كثير في القرآن وهو يغني عند البصريين من النحاة عما يتكلفونه الكوفيون من دعوى الاشتراك في الحروف وكذلك المسح في الوضوء والتيمم لو قال فامسحوا رؤوسكم أو وجوهكم لم تدل على ما يلتصق بالمسح فإنك تقول مسحت رأس فلان وإن لم يكن بيدك بلل فإذا قيل فامسحوا برؤوسكم وبوجوهكم ضمن المسح معنى الإلصاق فأفاد أنكم تلصقون برؤوسكم وبوجوهكم شيئا بهذا المسح وهذا يفيد في آية التيمم أنه لا بد أن يلتصق الصعيد بالوجه واليد ولهذا قال {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ} النساء٤٣ وإنما مأخذ من جوز البعض الحديث ثم تنازعوا فمنهم من قال يجزىء قدر الناصية كرواية عن أحمد وقول بعض الحنفية ومنهم يجزئ الأكثر كرواية عن أحمد وقول بعض المالكية ومنهم من قال يجزئ الربع ومنهم من قال قدر ثلاث أصابع وهما قولان للحنفية ومنهم من قال ثلاث شعرات أو بعضها ومنهم من قال شعرة أو بعضها وهما قولان للشافعية وأما الذين أوجبوا الاستيعاب كمالك وأحمد في المشهور من مذهبهما فحجتهم ظاهر القرآن وإذا سلم لهم منازعوهم وجوب الاستيعاب في مسح التيمم كان في مسح الوضوء أولى وأحرى لفظا ومعنى ولا يقال التيمم وجب فيه الاستيعاب لأنه بدل عن غسل الوجه واستيعابه واجب لأن البدل إنما يقوم مقام المبدل في حكمه لا في وصفه ولهذا المسح على الخفين بدل عن غسل الرجلين ولا يجب فيه الاستيعاب مع وجوبه في الرجلين وأيضا السنة

المستفيضة من عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما حديث المغيرة بن شعبة فعند أحمد وغيره من فقهاء الحديث يجوز المسح على العمامة للأحاديث الصحيحة الثابتة في ذلك وإذا مسح عنده بناصيته وكمل الباقي بعمامته أجزأه ذلك عنده بلا ريب وأما مالك فلا جواب له عن الحديث إلا أن يحمله على أنه كان معذورا لا يمكنه كشف الرأس فتيمم على العمامة للعذر ومن فعل ما جاءت به السنة من المسح بناصيته وعمامته أجزأه مع العذر بلا نزاع وأجزأه بدون العذر عند الثلاثة ومسح الرأس مرة مرة يكفي بالاتفاق كما يكفي تطهير سائر الأعضاء مرة وتنازعوا في مسحه ثلاثا هل يستحب فمذهب الجمهور أنه لا يستحب كمالك وأبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه وقال الشافعي وأحمد في رواية عنه يستحب لما في الصحيح أنه توضأ ثلاثا ثلاثا وهذا عام وفي سنن أبي داود أنه مسح برأسه ثلاثا ولأنه عضو من أعضاء الوضوء فسن فيه الثلاث كسائر الأعضاء والأول أصح فإن الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يمسح رأسه مرة واحدة ولهذا قال أبو داود السجستاني أحاديث عثمان الصحاح تدل على أنه مسح مرة واحدة وبهذا يبطل ما رواه من مسحه ثلاثا فإنه يبين أن الصحيح أنه مسح رأسه مرة وهذا المفصل يقضي على المجمل وهو قوله توضأ ثلاثا ثلاثا كما أنه لما قال إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول كان هذا مجملا وفسره حديث ابن عمر أنه يقول عند الحيعلة لا حول ولا قوة إلا ب الله فإن الخاص المفسر يقضي على العام المجمل وأيضا فإن هذا مسح والمسح لا يسن فيه التكرار كمسح الخف والمسح في التيمم ومسح الجبيرة وإلحاق المسح بالمسح أولى من إلحاقه بالغسل لأن المسح إذا كرر كان كالغسل وما يفعله الناس من أنه يمسح بعض رأسه بل بعض شعره ثلاث مرات خطأ مخالف للسنة المجمع عليها من وجهين من جهة مسحه بعض رأسه فإنه خلاف السنة باتفاق الأئمة ومن جهة تكراره فإنه خلاف السنة على الصحيح ومن يستحب التكرار كالشافعي وأحمد في قول لا يقولون امسح البعض وكرره بل يقولون امسح الجميع وكرر المسح ولا خلاف بين الأئمة أن مسح جميع الرأس مرة واحدة أولى من مسح بعضه ثلاثا بل إذا قيل إن مسح البعض يجزئ وأخذ رجل بالرخصة كيف يكرر المسح ثم المسلمون متنازعون في جواز الاقتصار على البعض وفي استحباب تكرار المسح فكيف يعدل إلى فعل لا يجزىء عند أكثرهم

ولا يستحب عند أكثرهم ويترك فعل يجزىء عند جميعهم وهو الأفضل عند أكثرهم و الله أعلم [1]

## لا ينبغى ان ينظر الى غلظ المفسدة المقتضية للحظر الا وينظر مع ذلك الى الحاجة الموجبة للإذن بل الموجبة للاستحباب او الايجاب

وقد ثبت عن النبى فى صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنهما انها قالت قال لي رسول الله ناوليني الخمرة من المسجد فقلت إني حائض قال ان حيضتك ليست فى يدك وعن ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت كان رسول الله يضع رأسه فى حجر احدانا يتلو القرآن وهي حائض وتقوم إحدانا بخمرته الى المسجد فتبسطها وهى حائض رواه النسائي وقد روى أبو داود من حديث عائشة عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لا أحل المسجد لجنب ولا حائض رواه ابن ماجه من حديث أم سلمة وقد تكلم فى هذين الحديثين ولهذا ذهب أكثر العلماء كالشافعى وأحمد وغيرهما الى الفرق بين المرور واللبث جمعا بين الاحاديث ومنهم من منعها من اللبث والمرور كأبى حنيفة ومالك ومنهم من لم يحرم المسجد عليها وقد يستدلون على ذلك بقوله تعالى {وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ}النساء٤٣ وأباح أحمد وغيره اللبث لمن يتوضأ لما رواه هو وغيره عن عطاء بن يسار قال رأيت رجالا من أصحاب رسول الله يجلسون في المسجد وهم مجنبون اذا توضؤوا وضوء الصلاة وذلك والله اعلم ان المسجد بيت الملائكة والملائكة لا تدخل بيتا فيه جنب كما جاء ذلك فى السنن عن النبى ولهذا نهى النبى صلى الله عليه وسلم الجنب أن ينام حتى يتوضأ وروى يحيى بن سعيد عن هشام بن عروة قال اخبرنى أبى عن عائشة انها كانت تقول إذا اصاب أحدكم المرأة ثم اراد ان ينام فلا ينام حتى يتوضأ وضوءه للصلاة فانه لا يدرى لعل نفسه تصاب فى نومه وفي حديث آخر فانه اذا مات لم تشهد الملائكة جنازته وقد أمر النبى الجنب بالوضوء عند الاكل والشرب والمعاودة وهذا دليل انه اذا توضأ ذهبت الجنابة عن اعضاء الوضوء فلا

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٥٣-٥٦

تبقى جنابته تامة وان كان قد بقى عليه بعض الحدث كما ان المحدث الحدث الاصغر عليه حدث دون الجنابة وان كان قد حدثه فوق الحدث الاصغر فهو دون الجنب فلا تمتنع الملائكة عن شهوده فلهذا ينام ويلبث فى المسجد وهذا يدل على ان الجنابة تتبعض فتزول عن بعض البدن دون بعض كما عليه جمهور العلماء وأما الحائض فحدثها دائم لا يمكنها طهارة تمنعها عن الدوام فهي معذورة فى مكثها ونومها واكلها وغير ذلك فلا تمنع مما يمنع منه الجنب مع حاجتها اليه ولهذا كان أظهر قولى العلماء انها لا تمنع من قراءة القرآن اذا احتاجت اليه كما هو مذهب مالك وأحد القولين فى مذهب الشافعى ويذكر رواية عن احمد فانها محتاجة اليها ولا يمكنها الطهارة كما يمكن الجنب وان كان حدثها اغلظ من حدث الجنب من جهة انها لا تصوم ما لم ينقطع الدم والجنب يصوم ومن جهة انها ممنوعة من الصلاة طهرت او لم تطهر ويمنع الرجل من وطئها ايضا فهذا يقتضي ان المقتضي للحظر فى حقها اقوى لكن اذا احتاجت الى الفعل استباحت المحظور مع قيام سبب الحظر لاجل الضرورة كما يباح سائر المحرمات مع الضرورة من الدم والميتة ولحم الخنزير وان كان ما هو دونها فى التحريم لا يباح من غير حاجة كلبس الحرير والشرب فى آنية الذهب والفضة ونحو ذلك وكذلك الصلاة الى غير القبلة مع كشف العورة ومع النجاسة فى البدن والثوب هي محرمة أغلظ من غيرها وتباح بل تجب مع الحاجة وغيرها وان كان دونها في التحريم كقراءة القرآن الكريم مع عدم الحاجة لا تباح واذا قدر جنب استمرت به الجنابة وهو لا يقدر على غسل او تيمم فهذا كالحائض فى الرخصة وان كان هذا نادرا وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم الحيض ان يخرجن فى العيد ويشهدن الخير ودعوة المسلمين ويكبرن بتكبير الناس وكذلك الحائض والنفساء امرهما النبى صلى الله عليه وسلم بالاحرام والتلبية وما فيهما من ذكر الله وشهودهما عرفة مع الذكر والدعاء ورمي الجمار مع ذكر الله وغير

ذلك ولا يكره لها ذلك بل يجب عليها والجنب يكره له ذلك حتى يغتسل لانه قادر على الطهارة بخلاف الحائض فهذا أصل عظيم في هذه المسائل ونوعها لا ينبغى ان ينظر الى غلظ المفسدة المقتضية للحظر الا وينظر مع ذلك الى الحاجة الموجبة للإذن بل الموجبة للاستحباب او الايجاب وكل ما يحرم معه الصلاة يجب معه عند الحاجة اذا لم تمكن الصلاة الا كذلك فان الصلاة مع تلك الامور اخف من ترك الصلاة فلو صلى بتيمم مع قدرته على استعمال الماء لكانت الصلاة محرمة ومع عجزه عن استعمال الماء كانت الصلاة بالتيمم واجبة بالوقت وكذلك الصلاة عريانا والى غير القبلة ومع حصول النجاسة وبدون القراءة وصلاة الفرض قاعدا او بدون اكمال الركوع والسجود وأمثال ذلك مما يحرم مع القدرة ويجب مع العجز وكذلك

اكل الميتة والدم ولحم الخنزير يحرم أكلها عند الغنى عنها ويجب اكلها عند الضرورة عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء قال مسروق من اضطر فلم يأكل حتى مات دخل النار وذلك لأنه اعان على قتل نفسه بترك ما يقدر عليه من الاكل المباح له فى هذه الحال فصار بمنزلة من قتل نفسه بخلاف المجاهد بالنفس ومن تكلم بحق عند سلطان جائر فان ذلك قتل مجاهدا ففي قتله مصلحة لدين الله تعالى [١]

## التنبيه على فساد قول من يدعى التناقض فى معانى الشريعة أو ألفاظها

وقد تنازع العلماء فى الوضوء من النجاسة الخارجة من غير لسبيلين كالفصاد والحجامة والجرح والقيء والوضوء من مس النساء لشهوة وغير شهوة والتوضؤ من مس الذكر والتوضؤ من القهقهة فبعض الصحابة كان يتوضأ من مس الذكر كسعد وابن عمر وكثير منهم لم يكن يتوضأ منه والوضوء منه هل هو واجب أو مستحب فيه عن مالك وأحمد روايتان وايجابه قول الشافعى وعدم الايجاب مذهب ابى حنيفة وكذلك مس النساء لشهوة اذا قيل باستحبابه فهذا يتوجه وأما وجوب ذلك فلا يقوم الدليل الا على خلافه ولا يقدر أحد قط أن ينقل عن النبى أنه كان يأمر أصحابه بالوضوء من مس النساء ولا من النجاسات الخارجة لعموم البلوى بذلك وقوله تعالى {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}النساء٤٣ المراد به الجماع كما فسره بذلك ابن عباس وغيره لوجوه متعددة وقوله صلى الله عليه وسلم للمستحاضة انما ذلك عرق وليس بالحيضة تعليل لعدم وجوب الغسل لا لوجوب الوضوء فان وجوب الوضوء لا يختص بدم العروق بل كانت قد ظننت ان ذلك الدم هو دم الحيض الذى يوجب الغسل فبين النبى ان هذا ليس هو دم الحيض الذى يوجب الغسل فان ذلك يرشح من الرحم كالعرق وانما هذا دم عرق انفجر فى الرحم ودماء العروق

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٦ ص: ١٧٨-١٨١

لا توجب الغسل وهذه مسائل مبسوطة فى مواضع أخر والمقصود هنا التنبيه على فساد قول من يدعى التناقض فى معانى الشريعة أو ألفاظها ويزعم ان الشارع يفرق بين المتماثلين بل نبينا محمد بعث بالهدى ودين الحق بالحكمة والعدل والرحمة فلا يفرق بين شيئين فى الحكم الا لافتراق صفاتهما المناسبة للفرق ولايسوى بين شيئين الا لتماثلهما فى الصفات المناسبة للتسوية والاظهر أنه لايجب الوضوء من مس الذكر ولا النساء ولا خروج النجاسات من غير السبيلين ولا القهقهة ولا غسل الميت فانه ليس مع الموجبين دليل صحيح بل الادلة الراجحة تدل على عدم الوجوب لكن الاستحباب متوجه ظاهر فيستحب ان يتوضأ من مس النساء لشهوة ويستحب ان يتوضأ من الحجامة والقيء ونحوهما كما فى السنن ان النبى صلى الله عليه وسلم قاء فتوضأ والفعل انما يدل على الاستحباب ولم يثبت عنه أنه أمر بالوضوء من الحجامة ولا امر أصحابه بالوضوء اذا جرحوا مع كثرة الجراحات والصحابة نقل عنهم فعل الوضوء لا ايجابه وكذلك القهقهة فى الصلاة ذنب ويشرع لكل من أذنب أن يتوضأ وفى استحباب الوضوء من القهقهة وجهان فى مذهب أحمد وغيره وأما الوضوء من الحدث الدائم لكل صلاة ففيه أحاديث متعددة عن النبى قد صحح بعضها غير واحد من العلماء فقول الجمهور الذين يوجبون الوضوء لكل صلاة أظهر وهو مذهب أبى حنيفة والشافعى وأحمد والله أعلم فصل وأما الحجامة فانما اعتقد ان الفطر منها مخالف للقياس من اعتقد ان الفطر مما خرج لا مما دخل وهؤلاء اشكل عليهم القيء والاحتلام ودم الحيض والنفاس وأما من تدبر أصول الشرع ومقاصده فانه رأى الشارع لما أمر بالصوم أمر فيه بالاعتدال حتى كره الوصال وامر بتعجيل الفطر وتاخير السحور وجعل اعدل الصيام وأفضله صيام داود وكان من العدل ان لا يخرج من الانسان ما هو قيام قوته فالقيء يخرج الغذاء والاستمناء يخرج المنى والحيض يخرج الدم وبهذه الامور قوام البدن لكن فرق بين ما يمكن الاحتراز منه وما لا يمكن فالاحتلام لا يمكن الاحتراز منه وكذلك من ذرعه القيء وكذا دم الاستحاضة فانه ليس له وقت معين بخلاف دم الحيض فان له وقتا معينا فالمحتجم اخرج دمه وكذلك المفتصد بخلاف من خرج دمه بغير اختياره كالمجروح فان هذا لا يمكن الاحتراز منه فكانت الحجامة من جنس القيء والاستمناء والحيض وكان خروج دم الجرح من جنس الاستحاضة والاحتلام وذرع القيء فقد تناسبت الشريعة وتشابهت ولم تخرج عن القياس [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٥٢٥-٥٢٨

# النصوص وافية بجمهور احكام أفعال العباد

الصواب الذى عليه جمهور أئمة المسلمين ان النصوص وافية بجمهور احكام أفعال العباد ومنهم من يقول انها وافية بجميع ذلك وإنما انكر ذلك من انكره لأنه لم يفهم معانى النصوص العامة التى هى أقوال الله ورسوله وشمولها لأحكام أفعال العباد وذلك أن الله بعث محمدا بجوامع الكلم فيتكلم بالكلمة الجامعة العامة التى هى قضية كليه وقاعدة عامة تتناول أنواعا كثيرة وتلك الأنواع تتناول أعيانا لا تحصى فبهذا الوجه تكون النصوص محيطة بأحكام أفعال العباد مثال ذلك أن الله حرم الخمر فظن بعض الناس ان لفظ الخمر لا يتناول الا عصير العنب خاصة ثم من هؤلاء من لم يحرم الا ذلك اوحرم معه بعض الأنبذة المسكرة كما يقول ذلك من يقوله من فقهاء الكوفة فان ابا حنيفة يحرم عصير العنب المشتد الزبد وهذا الخمر عنده ويحرم المطبوخ منه ما لم يذهب ثلثاه فاذا ذهب ثلثاه لم يحرمه ويحرم النيء من نبيذ التمر فان طبخ ادنى طبخ حل عنده وهذه المسكرات الثلاثة ليست خمرا عنده مع أنها حرام وما سوى ذلك من الأنبذة فانما يحرم منه ما يسكر وأما محمد بن الحسن فوافق الجمهور فى تحريم كل مسكر قليله وكثيره وبه أفتى المحققون من أصحاب أبى حنيفة وهو اختيار أبى الليث السمرقندى ومن العلماء من حرم كل مسكر بطريق القياس إما فى الاسم وإما فىالحكم وهذه الطريقة التى سلكها طائفة من الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى وأحمد يظنون أن تحريم كل مسكر انما كان بالقياس فى الأسماء أو القياس فى الحكم والصواب الذى عليه الأئمة الكبار أن الخمر المذكورة فى القرآن تناولت كل مسكر فصار تحريم كل مسكر بالنص العام والكلمة الجامعة لا بالقياس وحده وان كان القياس دليلا آخر يوافق النص وثبتت أيضا نصوص صحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم بتحريم كل مسكر ففى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كل مسكر خمر وكل مسكر حرام وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها عن النبى أنه قال كل شراب أسكر فهو حرام وفى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى انه سئل فقيل له عندنا شراب من العسل يقال له البتع وشراب من الذرة يقال له المزر قال وكان قد أوتى جوامع الكلم فقال كل مسكر حرام الى احاديث أخر يطول وصفها وعلى هذا فتحريم ما يسكر من الأشربة والأطعمة كالحشيشة المسكرة ثابت بالنص وكان هذا النص متناولا

لشرب الأنواع المسكرة من أى مادة كانت من الحبوب أو الثمار أو من لبن الخيل أو من غير ذلك ومن ظن أن النص انما يتناول خمر العنب قال انه لم يبين حكم هذه المسكرات التى هى فى الأرض أكثر من خمر العنب بل كان ذلك ثابتا بالقياس وهؤلاء غلطوا فى فهم النص ومما يبين ذلك انه قد ثبت بالأحاديث الكثيرة المستفيضة أن الخمر لما حرمت لم يكن بالمدينة من خمر العنب شىء فان المدينة لم يكن فيها شجر العنب وانما كان عندهم النخل فكان خمرهم من التمر ولما حرمت الخمر اراقوا تلك الأشربة التى كانت من التمر وعلموا أن ذلك الشراب هو خمر محرم فعلم ان لفظ الخمر لم يكن عندهم مخصوصا بعصير العنب وسواء كان ذلك فى لغتهم فتناول أو كانوا عرفوا التعميم ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم فانه المبين عن الله مراده فان الشارع يتصرف فى اللغة تصرف أهل العرف يستعمل اللفظ تارة فيما هو أعم من معناه فى اللغة وتارة فيما هو أخص [١]

قال تعالى {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ}الشورى١٧ فالكتاب هو النص والميزان هو العدل والقياس الصحيح من باب العدل فانه تسوية بين المتماثلين وتفريق بين المختلفين ودلالة القياس الصحيح توافق دلالة النص فكل قياس خالف دلالة النص فهو قياس فاسد ولا يوجد نص يخالف قياسا صحيحا كما لا يوجد معقول صريح يخالف المنقول الصحيح ومن كان متبحرا فى الأدلة الشرعية أمكنه ان يستدل على غالب الأحكام بالنصوص وبالأقيسة فثبت ان كل واحد من النص والقياس دل على هذا الحكم كما ذكرناه من الأمثلة فان القياس يدل على تحريم كل مسكر كما يدل النص على ذلك فان الله حرم الخمر لأنها توقع بيننا العدواة والبغضاء وتصدنا عن ذكر الله وعن الصلاة كما دل القرآن على هذا المعنى وهذا المعنى موجود فى جميع الأشربة المسكرة لافرق فى ذلك بين شراب وشراب فالفرق بين الأنواع المشتركة من هذا الجنس تفريق بين المتماثلين وخروج عن موجب القياس الصحيح كما هو خروج عن موجب النصوص وهم معترفون بان قولهم خلاف القياس لكن يقولون معنا آثار توافقه اتبعناها ويقولون ان اسم الخمر لم يتناول كل مسكر وغلطوا فى فهم النص وإن كانوا مجتهدين مثابين على اجتهادهم ومعرفة عموم الأسماء الموجودة فى النص وخصوصها من معرفة حدود ما أنزل الله على

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٢٨٠-٢٨٣

رسوله وقد قال تعالى {الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ}التوبة٩٧ [1]

## المسح هو إلصاق ماسح بممسوح ويضمن معنى الإلصاق

أمر بمسح الوجه في آية التيمم فأوجب استيعاب الوجه بالتراب قال تعالى {وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ}المائدة٦ والمسح هو إلصاق ماسح بممسوح ويضمن معنى الإلصاق فكأنه قيل الصقوا برؤوسكم فيفهم أن هناك شيئا ملصق بالرأس وهو الماء بخلاف ما لو قيل امسحوا رؤوسكم فإنه لا يدل على الماء لأنه يقال مسحت رأس اليتيم ومسحت الحجر وليس هناك شيء يلصق بالممسوح في غير اليد ولربما توهم أن مجرد مسح الرأس باليد كاف ولهذا والله أعلم دخلت الباء في آية التيمم لتبين وجوب إلصاق التراب بالأيدي والوجوه [2]

## نواقض الوضوء

فمن نواقض الوضوء وهي سبعة الخارج من السبيلين مع كل حال يعني سواء كان نادرا أو معتادا قليلا أو كثيرا نجسا أو طاهرا أما المعتاد فلقوله تعالى {أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أ}المائدة٦ ولقوله عليه الصلاة والسلام في حديث صفوان ولكن من غائط وبول ونوم وقوله في الذي يخيل إليه الشيء في الصلاة لا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا أو كحديث علي في المذي وعن أبي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٢٨٩

[2] شرح العمدة ج: ١ ص: ٢٠١-٢٠٢

هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ فقال رجل من أهل حضرموت ما الحدث يا أبا هريرة فقال فساء أو ضراط متفق عليه أما النادر فكالدود والحصى ودم الاستحاضة وسلس البول والمذي فينقض أيضا لما روى عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المذي الوضوء وفي المني الغسل رواه أحمد وابن ماجة والترمذي وقال حديث حسن صحيح ولم يفرق بين دائمه ومنقطعه وعن عائشة رضي الله عنها قالت جاءت فاطمة بنت أبي حبيش إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إني امرأة استحاض فلا أطهر أفأدع الصلاة قال لا إنما ذاك دم عرق وليست بالحيضة فإذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم وتوضئي لكل صلاة حتى يجيء ذلك الوقت رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وهذه الزيادة قد رويت من قول عروة ولعله أفتى بها مرة وحدث بها أخرى ولعلها كانت عنده عن فاطمة نفسها لا عن عائشة فقد روى عن عروة عن فاطمة بنت أبي حبيش أنها كانت تستحاض فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان دم الحيض فإنه أسود يعرف فإذا كان كذلك فأمسكي عن الصلاة فإذا كان الآخر فتوضئي وصلي فإنما هو دم عرق رواه أبو داود والنسائي وعن عائشة رضي الله عنها قالت جاءت فاطمة بنت أبي حبيش إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت إني امرأة استحاض فلا أطهر أفأدع الصلاة فقال لا اجتنبي الصلاة أيام محيضك ثم اغتسلي وتوضئي لكل صلاة ثم صلى وإن قطر الدم على الحصير رواه أحمد وابن ماجة وعن عدي بن ثابت عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال المستحاضة تدع الصلاة أيام أقرائها ثم تغتسل وتتوضأ عند كل صلاة وتصوم وتصلي رواه أبو داود وابن ماجة والترمذي وقال حديث حسن ولأنه خارج من السبيل فنقض كالمعتاد وأما الطاهر فينقض أيضا في ظاهر المذهب كالمني والريح الخارجة من الدبر أو من قبل المرأة وقبل الرجل في المنصوص المشهور من الوجهين قال أبو بكر لا يحتلف قول أبي عبد الله أن الرجل والمرأة إذا خرجت الريح من قبلهما أنهما يتوضأن وقال القاضي أبو الحسين قياس مذهبنا أن الريح تنقض من قبل المرأة دون الرجل لأن الصائم إذا قطر في إحليله لم يفطر لأنه ليس من الذكر إلى الجوف منفذ بخلاف قبل المرأة وريح الدبر إنما نقضت لأنها تستصحب بخروجها أجزاء لطيفة من النجاسة بدليل نتنها فإن الرائحة صفة لاتقوم إلا بأجزاء من الجسم وكذلك ريح قبل المرأة بدليل نتنها وربما عللوا ذلك بأن هذا لايدرك فتعليق النقض به محال فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الذي يخيل إليه الشيء وهو في الصلاة لا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا وهذه الريح لا تسمع ولا تشم

وإنما تعلم بأن يحس الإنسان في ذكره بدبيب يعتقد قطرة بول فإذا انتهى إلى طرف الذكر فلم يجد له أثرا علم أنها الريح ويلتزم من قال هذا بنجاسة المني وإن الريح تنجس الماء اليسير حيث لم ينقض الطهارة بشئ طاهر ويعتذر عن المني بأنه يوجب الطهارة الكبرى فلا يدخل في نواقض الوضوء إلا أن هذا لا يصح فإن مني الرجل إذا خرج من فرج المرأة بعد اغتسالها أو خرجت من الرجل بقية المني وجب الوضوء دون الغسل والصحيح الأول لأنه خارج من السبيل فنقض كريح الدبر فإنها طاهرة واكتسابها ريح النجاسة لا يضر فإن الريح قد تكتسب من انفصال أجزاء كالحشا المتغيرة والماء بجيفة على جانبه ولو فرضنا انفصال أجزاء من النجاسة فإنما خالطت أجزاء هوائية وذلك لا يوجب التنجس كنا تقدم وقولهم الريح الخبيثة إنما خرجت مستصحبة لأجزاء من النجاسة قلنا بل نادت الرائحة إلى الهواء الخارج من غير أجزاء كما تنادي الحرارة إلى الماء من غير أجزاء من النار والفقه في ذلك أن السبيل هو مظنة خروج النجاسة غالبا فعلق الحكم بهذه المظنة وإن علقناه بنفس خروج النجاسة أيضا وإذا قطر في إحليله دهنا ثم سال أو احتشى في قبله أو بدر قطنا ثم خرج منه شيء لا بلة معه أو كان في وسط القطن ميل فسقط بلا بلة نقض في أشهر الوجوه لأنه خارج من السبيل والثاني لا ينقض لأنه خارج طاهر وجريان الطاهرفي مجرى النجس الباطن لاينجسه مجريان النجاسة في مجرى القيء ومني المرأة في مجرى دمها والثالث ينقض الدهن لأنه لا يخلو من بلة نجسة تصحبه بخلاف القطن والميل فأما إن تحقق خروج شيء من بلة الباطن نقض قولا واحدا وكذلك إن احتقن فخرج شيء من الحقنة أو وطئ الرجل المرأة فدب ماؤه فدخل في فرجها ثم خرج لأن هذا دخل الجوف فحكم بتنجيسه وكذلك لو أدخل الميل ثم أخرجه ولو لم يخرج شيء من الحقنة وماء الرجل لم ينقض كما لو لم يخرج الميل وقيل ينقض لأنه في الغالب لا بد أن يتراجع منه أجزاء يسيره فينقض بوجود المظنة كالنوم ولو استرخت مقعدته فظهرت وعليها بلة لم تنفصل عنها ثم عادت نقض في أشبه الوجهين بكلامه لأنها نجاسة ظهرت إلى ظاهر البدن فأشبهن المتصلة والثاني لا تنقض لأنها لم تفارق محلها من الباطن فأشبهت ما لم تظهر وكذلك لا يحب الاستنجاء منها وكما لو أخرج الصائم لسانه ثم أدخله وعليه ريقه فابتلعه لم يفطر لأنه لم ينفصل [1]

---

[1] شرح العمدة ج: ١ ص: ٢٩٠-٢٩٤

## " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتوضأ بعد الغسل "

مسألة وإذا نوى بغسله الطهارتين أجزأ عنهما وكذلك لو تيمم للحدثين والنجاسة على بدنه أجزأه عن جميعها وإذا نوى بعضها فليس له إلا ما نوى أما المسألة الأولى فظاهر المذهب أنه إذا اغتسل غسلا نوى به الطهارتين الصغرى والكبرى أجزأه وإن لم يتوضأ أو توضأ وضوءا هو بعض الغسل ولم يعد غسل أعضاء الوضوء وإذا نوى الأكبر فقط بقي عليه الأصغر وإن نوى بوضوئه الأصغر فقط بقي عليه الأكبر سواء وجد سبب يختص بالأصغر أو كان سببه سبب الأكبر مثل أن ينظر أو يتفكر فيمني أو يجامع من وراء حائل وينزل أولا ينزل على أحد الوجهين وعنه أنه لا يرتفع الأصغر إلا بوضوء مع الغسل بفعله قبل الغسل أو بعده حتى فيما إذا اتحد السبب مثل أن ينظر فيمني وعلى هذه الرواية هل تجب إعادة أعضاء الوضوء على ما تقدم لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ قبل الغسل وفعله يفسر قوله {وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ}المائدة٦ ولأنهما عبادتان مختلفتا الصفة والقدر والفروض فلم يتداخلا كالطهارة الكبرى والصغرى وقال أبو بكر يتداخلان في القدر المشترك بينهما وعليه أن يأتي بخصائص الوضوء وهي الترتيب والموالاة ومسح الرأس على إحدى الروايتين فعلى قوله إذا غسل وجهه ثم يديه ثم مسح رأسه حتى أفاض عليه الماء ثم غسل رجليه بعد ذلك أجزأه ولم يحتج أن يعيد غسل هذه الأعضاء وبكل حال فإذا توضأ قبل غسله كره له إعادة وضوءه بعد غسله إلا أن ينقض وضوءه لمس فرجه أو غير ذلك والأول أصح لأن الله تعالى قال {وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ}المائدة٦ وفسر التطهير بالاغتسال في الآية الأخرى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ}النساء٤٣ ولا يقال النهي هنا عن قربان مواضع الصلاة وذلك يزول بالاغتسال لأنا نقول هو النهي عن الصلاة وعن مسجدها ولا يجوز حمله على المسجد فقط لأن سبب نزول الآية صلاة من صلى بهم وخلط في القراءة وسبب النزول يجب أن يكون داخلا في الكلام ولأنه أباح القربان للمسافر إذا تيمم والمساجد في الغالب إنما تكون في الأمصار ولا مسافر هناك وكذلك المريض في الغالب لا يمكنه قربان المسجد ولا يحتاج إليه ولأن الصلاة هي الأفعال نفسها فلا يجوز إخراجها من الكلام فإما أن يكون النهي عنها أو عن الصلاة فقط ويكون قوله {إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ}النساء٤٣ استثناء منقطعا وهذا أحسن إن شاء الله كما في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ

مِّنكُمْ}النساء٢٩ وقوله {مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ}النساء١٥٧ ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المني الغسل وقال إذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة وإذا أدبرت فاغتسلي وصلي ولم يذكر الوضوء وسئل جابر بن عبد الله أيتوضأ الجنب بعد ما يغتسل قال يكفيه الغسل وقال عبد الله بن عمر إذا لم يتوضأ الجنب أجزأه الغسل ما لم يمس فرجه رواهما سعيد ولأن الغسل الذي وصفته ميمونة ليس فيه مسح رأسه ولاغسل رجليه مرتين وإنما فعل ذلك مرة واحدة مكملة لغسله مع أن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتوضأ بعد الغسل رواه الخمسة

## أما المسألة الثانية وهي إذا تيمم للحدثين والنجاسة على بدنه فإنه يجزىء عن جميعها

في المشهور وإن نوى بعضها فليس له إلا ما نوى لأن التيمم لا يرفع الحدث وإنما يبيح فعل الصلاة مع قيام مانعها فلا يستبيح فعل الفرض بنية النفل ولأنه اذا اغتسل لأحد الحدثين لم يرتفع الاخر فأن لا يجزىء التيمم لأحدهما عن الآخر أولى وأحرى وإذا اجتمعت عليه أحداث كبرى مثل أن يجامع ويحتلم أو تكون المرأة حائضا جنبا أو صغرى مثل أن ينام ويخرج منه نجاسات ويمس النساء فنوى بطهارته عن جميعها أجزأة وإن نوى بطهارته عن إحداها ارتفعت جميعها عند القاضي وغيره لأنها أحداث توجب طهارة من نوع واحد فكفت النية عن أحدها كما لو تكرر منه الحدث من جنس واحد ونوى عن شيء منه وقال أبو بكر لا يرتفع إلا ما نواه إذا لم يدخل الأصغر في الأكبر بدون النية فالنظير مع النظير أولى مع الظاهر من قوله إنما لكل امرىء ما نوى وقيل إن كان حكم الحدثين واحدا كالبول مع النوم والوطء مع الإنزال تداخلا وإن كان مختلفا كالحيض مع الجنابة لم يتداخلا وإذا تيمم لبعض الأحداث من جنس واحد فعلى قول أبي بكر لا يجزئه إلا عما نواه كالماء وأولى وعلى قول القاضي فيها وجهان أحدهما لا يجزئه أيضا لأن التيمم مسح فلم يبح ما لم ينو والثاني يجزئه كالماء لأن نية التطهير في التيمم تغني عن نية نظيرة ولو تيمم لفرض استباح فرضا آخر ولو تيمم لنفل استباح نفلا آخر لأن ممنوعات أحد الحدثين هي ممنوعات الحدث الآخر بعينة بخلاف الحدث والجنابة

فصل وقد تضمن هذا الكلام جواز التيمم للجنابة كما يجوز للحدث لقوله تعالى {وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً}المائدة٦ إلى آخر الآية وعن عمران بن حصين قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فصلى بالناس فإذا هو برجل معتزل فقال ما منعك أن تصلي قال أصابتني جناية ولا ماء قال

عليك بالصعيد فإنه يكفيك متفق عليه وحديث عمار بن ياسر وعمرو بن العاص وأبي ذر وغيرهم يدل على ذلك وهي في باب التيمم لكن يكره لمن لم يجد الماء أن يطأ زوجته ما لم يخش العنت في إحدى الروايتين لما فيه من إزالة طهارة يمكن إبقاؤها والتعرض لإصابة النجاسة وحملا لما جاء من الرخصة على من يخشى العنت وفي الاخرى لا يكره لأنه مظنة الحاجة في الجملة ولما فيه من الأثر وقد تضمن أيضا جواز التيمم للنجاسة على بدنه إذا عدم ما يزيلها وخشي الضرر بإزالتها كما لو تيمم للحدث وهذا ظاهر المذهب المنصوص فإن صلى بغير تيمم لم يجزئه قال ابن ابي موسى لا يتيمم النجاسة كما لا يتيمم لنجاسة الثوب ونجاسة الاستحاضة وسلس البول ولأن طهارة الجنب بالماء لا تتعدى محلها فأن لا تتعدى طهارة التراب محله أولى ولأن طهارة التراب تعبد قد عجز عن إزالتها وعن التيمم لها وفيه روايتان ووجه الأول أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين فإذا وجد الماء فليمسه بشرته وهذا يعم طهارتي الحدث والجنب المتعلقة بالبدن دون الثوب لقوله فليمسه بشرته ولأنه محل من البدن يجب تطهيره بالماء مع القدرة عليه فوجب بالتراب عند العجز كمواضع الحدث وبدن الميت وهذا لأن التيمم لا يرفع الحدث وإنما يبيح فعل الصلاة معه فكذلك التيمم عن الجنب والمستحاضة يجب عليها غسل النجاسة لكل صلاة كما يجب عليها الوضوء لكل صلاة من غير تيمم في الموضعين وعلى هذا إن كانت النجاسة علي جرح لم يجب تطهيره من الحدث تيمم لها خاصة إن كانت على محل الحدث وهي غير معفو عنها يتيمم عن الحدث والجنب ويجزئه تيمم واحد كما ذكر الشيخ ( أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي رحمه الله تعالى ) في أصح الوجهين كما يجزئه عن الحدثين وكما تتداخل طهارتا الحدث والجنب في الماء وفي الآخر لا يجزئه لأنهما من جنسين ولا إعادة عليه في المشهور من الروايتين لأنه شرط عجز عنه فأشبه ما لو عجز عن التوضئ لمرض وإن عجز عن إزالتها لعدم الماء فقال أبو الخطاب يعيدها لأنه عذر نادر وغيره متصل فأشبه ما لو لم يجد ترابا تيمم به عنها بخلاف نجاسة الجرح فإنها تعم بها البلوى وتطول مدتها والمنصوص المشهور أنه لا إعادة عليه كالتيمم عن الحدث ونجاسة الجرح وهذا بناء على وجوب الإعادة على من عجز عن إزالة النجاسة وعن التيمم لها وهو الرواتين فإذا لم نوجب الإعادة هناك فهاهنا أولى ويجب عليه أن يخفف النجاسة بما أمكنه من مسح أو حك أو نحو ذلك قبل التيمم لأنه المستطاع وتعتبر النية في أصح الوجهين وإن لم تعتبر في مبدله وفي الآخر لا تعتبر له النية كما لا تعتبر لإزالة النجاسة وليس بشيء

## فصل يحرم على المحدث الصلاة والطواف ومس المصحف

فأما الصلاة فيحرم عليه فرضها ونفلها والسجود المجرد كسجود التلاوة والقيام المجرد وهو صلاة الجنازة ولا يصح منه سواء كان عالما بحدثه أو جاهلا به هذا إذا كان قادرا على الطهارة فأما العاجز فيذكر إن شاء الله تعالى في التيمم لما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ متفق عليه وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول رواه الجماعة إلا البخاري وأما الطواف فهو محرم عليه أيضا لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنما الطواف بالبيت صلاة فإذا طفتم فأقلوا الكلام رواه أحمد والنسائي لكن إذا خالف وطاف محدثا فهل يصح طوافه على روايتين أصحهما أنه لا يصح

## عن ابن عمر أنه قال لا تمس المصحف إلا على طهارة

وأما المصحف فإنه لا يمس منه موضع الكتابة ولا حاشيته ولا الجلد أو الدف أو الورق الأبيض المتصل به لا ببطن الكف ولا بظهره ولا شيء من جسده لأن في الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم أن لا يمس القرآن إلا طاهر رواه مالك والأثرم والدارقطني وغيرهم وهو كتاب مشهور عند أهل العلم وقال مصعب بن سعد كنت أمسك المصحف على عهد سعد بن أبي وقاص فاحتككت فقال لعلك مسست ذكرك فقلت نعم فقال قم فتوضأ رواه مالك وذكر الإمام أحمد عن ابن عمر أنه قال لا تمس المصحف إلا على طهارة وعن عبد الرحمن بن يزيد قال كنا مع سلمان فخرج فقضى حاجته ثم جاء فقلت يا أبا عبد الله لو توضأت لعلنا نسألك عن آيات قال إني لست أمسه لا يمسه إلا المطهرون رواه الأثرم والدارقطني وكذلك جاء عن خلق من التابعين من غير خلاف يعرف عن الصحابة والتابعين وهذا يدل على أن ذلك كان معروفا بينهم وقد احتج كثير من أصحابنا على ذلك بقوله تعالى {لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}الواقعة٧٩ كما ذكرنا عن سلمان وبنوا ذلك على أن الكتاب هو المصحف بعينه وأن قوله لا يمسه صيغة خبر في معنى الأمر لئلا يقع الخبر بخلاف مخبره وردوا قول من حمله على الملائكة فإنهم جميعهم مطهرون وإنما يمسه ويطلع عليه بعضهم والصحيح اللوح المحفوظ الذي في السماء مراد من هذه الآية وكذلك الملائكة مرادون من قوله المطهرون لوجوه أحدهما إن هذا تفسير جماهير السلف من الصحابة ومن بعدهم حتى الفقهاء الذين قالوا لا يمس القرآن إلا طاهر من أئمة المذاهب صرحوا بذلك وشبهوا هذه الآية بقوله {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{١١} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{١٢} فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{١٣} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{١٤} بِأَيْدِي سَفَرَةٍ{١٥} كِرَامٍ بَرَرَةٍ{١٦} عبس١١-١٦ وثانيها أنه أخبر أن القرآن

جميعه في كتاب وحين نزلت هذه الآية لم يكن نزل إلا بعض المكي منه ولم يجمع جميعه في المصحف إلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وثالثها أنه قال {فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ} الواقعة٧٨ والمكنون المصون المحرر الذي لا تناله أيدي المضلين فهذه صفة اللوح المحفوظ ورابعها أن قوله {لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} الواقعة٧٩ صفة للكتاب ولو كان معناها الأمر لم يصح الوصف بها وإنما يوصف بالجملة الخبرية وخامسها أنه لو كان معنى الكلام الأمر لقيل فلا يمسه لتوسط الأمر بما قبله وسادسها أنه لو قال المطهرون وهذا يقتضي أن يكون تطهيرهم من غيرهم ولو أريد طهارة بني آدم فقط لقيل المتطهرون كما قال تعالى {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} التوبة١٠٨ وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} البقرة٢٢٢ وسابعها أن هذا مسوق لبيان شرف القرآن وعلوه وحفظه وذلك بالأمر الذي قد ثبت واستقر أبلغ منه بما يحدث ويكون نعم الوجه في هذا والله أعلم أن القرآن الذي في اللوح المحفوظ هو القرآن الذي في المصحف كما أن الذي في هذا المصحف هو الذي في هذا المصحف بعينة سواء كان المحل ورقا أو أديما أو حجرا أو لحافا فإذا كان من حكم الكتاب الذي في السماء أن لا يمسه إلا المطهرون وجب أن يكون الكتاب الذي في الأرض كذلك لأن حرمته كحرمته أو يكون الكتاب اسم جنس يعم كل ما فيه القرآن سواء كان في السماء أو الأرض وقد أوحى إلى ذلك قوله تعالى {رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً {٢} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{٣} البينة٢-٣ وكذلك قوله تعالى {فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{١٣} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{١٤} عبس١٤ فوصفها أنها مطهرة فلا يصلح للمحدث مسها وكذلك لا يجوز أن يمس بعضو عليه نجاسة ولو غسل المتوضىء بعض أعضائه لم يجز له مسها حتى يكمل طهارته ولو كانت النجاسة على عضو جاز مسه بغيره لأن حكم النجاسة لا يتعدى محلها ويجوز بالتيمم حيث يشرع كما يجوز بالتوضؤ فأما إن حملة بعلاقته أو بحائل له منفصل منه لا يتبعه في الوصية والإقرار وغيرهما كغلافه أو حائل مانع للحامل كحمله في كمة من غير مس أو على رأسه أو في ثوبه أو تصفحه بعود أو مسه به جاز في ظاهر المذهب وعنه لا يجوز لأنه إنما منع من مسه تعظيما لحرمته واذا تمكن من ذلك بحائل زال التعظيم وحكى بعض أصحابنا رواية أنه إنما يحرم مسه بكمة وما يتصل به لأن كمه وثيابه متصلة به عادة فأشبهت أعضاءه بخلاف العود والغلاف وحكى الآمدي رواية يجوز حملة بعلاقته وفي غلافه دون تصفحه بكمه أو عود ولنا أنه لم يمسه فيبقى على أصل الإباحة لا سيما ومفهوم قوله صلى الله عليه وسلم لا يمس القرآن إلا طاهر جواز ما سوى المباشرة وليس المس من وراء حائل كالمباشرة بدليل نقض الوضوء وانتشار حرمة المصاهر به والفدية

في الحج وغير ذلك والعلاقة وإن اتصلت به فليست منه إنما يراد لتعليقه وهو مقصود زائد على مقصود المصحف بخلاف الجلد فإنه يراد لحفظ ورق المصحف وصونه وتجوز كتابته من غير مس الصحيفة كتصفحه بعود ولأن الصحابة استكتبوا أهل الحيرة المصاحف وقيل لا يجوز الكتابة وإن أجزنا تقليبه بالعود وقيل يجوز للمحدث دون الجنب كالتلاوة وما فيه شيء من القرآن حكمه حكم المصحف إن كان مفردا فإن كتب مع القرآن غيره فالحكم للأغلب فيجوز مس كتب التفسير والحديث والفقه والرسائل التي فيها شيء من القرآن في المشهور عنه لأنها ليست مصحفا وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل الكتاب بكتاب فيه قرآن وكان يكتب في صدر كتبه إلى أهل النواحي بسم الله الرحمن الرحيم ولأن ما فيها من القرآن لا يثبت لها حرمة المصحف بدليل جواز بيعها وشرائها وعموم الحاجة إلى مسها ويجوز مس ما كتب فيه المنسوخ والتوراة والإنجيل في المشهور من الوجهين وكذلك مس ما فيه الأحاديث المأثورة عن الله تعالى أن ذلك ليس هو القرآن وفي مس الدراهم المكتوب عليها القرآن روايتان وفي مس الصبيان ألواحهم المكتوب فيها القرآن وجهان وقيل روايتان ووجه الرخصة عموم الحاجة إلى ذلك ولا يجوز تمليكه من كافر ولا السفر به إلى بلادهم لما روى عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو رواه أحمد ومسلم ولو ملك الذمي مصحفا بالإرث ألزم بإزالة ملكه عنه لأنهم يتدينون بانتهاكه وانتقاص حرمته

## فصل ويحرم على الجنب ما يحرم على المحدث

وهو في ذلك أشد لأن الصلاة تحرم عليه لأنها صلاة ولأن فيها قراءة وكذلك الطواف يحرم عليه لأنه صلاة ولأنه يحتاج إلى المكث في المسجد الحرام وكذلك مس المصحف ويحرم أيضا عليه قراءة القرآن لما روي عن علي قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحجبه وربما قال لا يحجزه عن قراءة القرآن شيء ليس الجنابة رواه الخمسة وقال الترمذي حديث حسن صحيح ويجوز بعض الآية في إحدى الروايتين اختارها القاضي وغيره لأنه لا يجزىء في الخطبة ولا يحصل به إعجاز فأشبه البسملة والحمد له والثانية لا يجوز وهي أقوى لقول علي إقرأوا القرآن ما لم يصب أحدكم جنابة فإن أصابه جنابة فلا ولا حرفا واحدا رواه الدارقطني واسحاق بن راهويه وقال علي اعلم بها حيث روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ على كل حال إلا الجنابة والحرف من القرآن فهو أعلم بما يرويه وقال ابن عباس الجنب والحائض يذكر ان الله ولا يقرآن من القرآن شيئا قيل ولا ية

قال ولا نصف اية رواه حرب ولأن بعض الآية كالآية في منع المحدث من مس كتابتها فكذلك في منع الجنب من تلاوتها وأما ذكر الله سبحانه ودعاؤه ونحو ذلك فهو جائز لأن عائشة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه رواه الخمسة إلا النسائي وأخرجه البخاري تعليقا ولأن المنع إنما جاء في القرآن وغيره من ذكر الله لا يساويه في الحرمة بدليل أنه لا يمنع المحدث من مس صحيفته ولا تصح الصلاة به إلا عند العجز عن القرآن وإن التلاوة أفضل من الذكر وغير ذلك وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهو من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقال فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله عى خلقه وقال ما تقرب العباد إلى الله بأفضل مما خرج منه فعلى هذا يجوز من الكلام ما يوافق نظمه نظم القرآن إذا لم يقصد به تلاوة القرآن وإن بلغ آية كقول الآكل والمتوضىء بسم الله الرحمن الرحيم وقول الشاكر الحمد لله رب العالمين وقول المستغفر ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا الآية لأن هذا الكلام قد يقصد به القرآن ويقصد به غيره وإن اتفقت ألفاظها ومتى كان شيئا يتميز به القرآن عن غيره فقد قيل لا يجوز قراءته بكل حال لأنه لا يكون إلا قرآنا وقيل يجوز إذا قصد به معنى عين التلاوة لأن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى الروم في رسالة يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا الآية لأنه قصد بها التبليغ لا القراءة والتلاوة ويحرم عليه اللبث في المسجد بغير وضوء فأما العبور فيه فلا بأس لما روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا أحل المسجد لحائض ولا جنب رواه أبو داود وعن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم إن المسجد لا يحل لجنب ولا حائض رواه ابن ماجة ولأن المسجد منزل الملائكة لما فيه من الذكر والملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا جنب ولا تمثال كذلك رواه علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه مسلم وغيره ففي لبث الجنب في المسجد ايذاء للملائكة فأما المرور فيجوز لما روت عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ناوليني الخمرة من المسجد فقلت إني حائض فقال إن حيضتك ليست في يدك رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وقالت ميمونة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على إحدانا وهي حائض فيضع رأسه في حجرها فيقرأ القرآن وهي حائض ثم تقوم إحدانا بخمرته فتضعها في المسجد وهي حائض رواه أحمد والنسائي وقال جابر بن عبد الله كان أحدنا يمر في المسجد جنبا مجتازا رواه سعيد في سننه وقال زيد بن أسلم كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشون في المسجد وهم جنب رواه ابن المنذر وقد احتج أصحابنا على هذه المسألة بقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً

إلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ}النساء٤٣ لأن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما فسروا ذلك بعبور الجنب في المسجد قال جماعة من أصحابنا وغيرهم يكون المراد بالصلاة مواضع الصلاة كما قال تعالى {لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ}الحج٤٠ وقد فسرها آخرون بأن المسافر إذا لم يجد الماء تيمم لأن الصلاة هي الأفعال أنفسها القول على ظاهره ضعيف لأن المسافر قد ذكر في تمام الآية فيكون تكريرا ولأن المسافر لا تجوز له صلاة مع الجنابة إلا في حال عدم الماء وليس في قوله {إلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ}النساء٤٣معترض كذلك ولأنه كما تجوز الصلاة مع الجنابة للمسافر فكذلك للمريض ولم يستثن كما استثني المسافر فلو قصد ذلك ليبين كما بين في آخر الآية المريض والمسافر إذا لم يجد الماء ولأن في حمل الاية على ذلك لزوم التخصيص في قوله تعالى {إلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ}النساء٤٣ ويكون المخصوص أكثر من الباقي فإن واجد الماء أكثر من عادمه ولا قوله {وَلاَ جُنُباً}النساء٤٣ لاستثناء المريض أيضا وفيه تخصيص أحد السببين بالذكر مع استوائهما في الحكم ولأن عبور السبيل حقيقته المرور والاجتياز والمسافر قد يكون لابثا وماشيا فلو أريد المسافر لقيل إلا من سبيل كما في الآيات التي عني بها المسافرين والتوجيه المذكور عن أصحابنا على ظاهره ضعيف أيضا لما تقدم من أن الآية نزلت في قوم صلوا بعد شرب الخمر ولم يكن ذلك في المسجد وإنما كان في بيت رجل من الأنصار ولأنه جوز القربان للمريض والمسافر إذا عدم الماء بشرط التيمم وهذا لا يكون في المساجد غالبا وإنما الوجه في ذلك أن تكون الآية عامة في قربان الصلاة ومواضعها واستثنى من ذلك عبور السبيل وإنما يكون في موضعها خاصة وهذا إنما فيه حمل الفظ على حقيقته ومجازه وذلك جائز عندنا على الصحيح وعلى هذا فتكون الآية دالة على منع اللبث أو تكون الصلاة هي الأفعال ويكون قوله {إلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ}النساء٤٣ اللاستثناء منقطعا ويدل ذلك على منع اللبث اللبث لأن تخصيص العبور بالذكر يوجب اختصاصه بالحكم ولأنه مستثنى من كلام في حكم النفي كأنه قال لا تقربوا الصلاة ولا مواضعها إلا عابري سبيل وإذا توضأ الجنب جاز له اللبث لما روى أبو نعيم ثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون في المسجد وهم على غير وضوء وكان الرجل يكون جنبا فيتوضأ ثم يدخل فيتحدث وقال عطاء بن يسار رأيت رجالا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يجلسون في المسجد وهو مجنبون إذا توضئوا وضوء الصلاة رواه سعيد وهذا لأن الوضوء يرفع الحدثين عن أعضاء الوضوء ويرفع حكم الحدث الأصغر عن سائر البدن فيقارب من عليه الحدث الأصغر فقط ولهذا أمر الجنب إذا أراد النوم والأكل بالوضوء ولولا ذلك لكان مجرد عبث يبين ذلك أنه قد جاء في نهي الجنب أن ينام قبل

أن يتوضأ أن لا يموت فلا تشهد الملائكة جنازته فهذا يدل على أنه إذا توضأ شهدت جنازته ودخلت المكان الذي هو فيه ونهى الجنب عن المسجد لئلا يؤذي الملائكة بالخروج فإذا توضأ أمكن دخول الملائكة المسجد فزال المحذور وهذا العبور إنما يجوز إذا كان لحاجه وغرض وإن لم يكن ضروريا فأما لمجرد العبث فلا فإن اضطر إلى اللبث في المسجد أو إلى الدخول ابتداء أو اللبث فيه لخوف على نفسه وماله جاز ذلك ولزمه التيمم في أحد الوجهين كما يلزم إذا لبث فيه لغير ضرورة وقد عدم الماء والمنصوص عنه أنه لا يلزمه لأنه ملجأ إلى اللبث والمقام غير قاصد له فيكون في حكم العابر المجتاز كامسافر لو حبسه عدو أو سلطان كان فيي حكم المجتاز في رخص السفر ولهذا لو دخل المسجد بنية اللبث أثم وإن لم يلبث اعتبارا بقصد اللبث كما يعتبر قصد الإقامة ولا يكره للجنب أن يحتجم أو يأخذ من شعره أو ظفره أو يختضب نص عليه وكذلك الحائض لأن هذا نظافة فأشبه الوضوء ولا يقال إن الجنابة تبقى على الشعر والظفر لأن حكم الجنابة إنما ثبت لهما ما داما متصلين بالإنسان فإذا انفصلا لحقا بالجمادات [1]

التيمم في اللغة القصد يقال يممت الشيء وتيممته وتأممته أي قصدته ومنه قوله تعالى {وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ}البقرة٢٦٧ فلما قال سبحانه {فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً}النساء٤٣ خص في عرف الخطاب الشرعي تيمم الصعيد لمسح الوجه واليد وغلب حتى صار المسح نفسه يسمى تيمما وغلب على ألسنة الفقهاء تيمم الصعيد بمعنى تمسحت بالصعيد والأصل فيه الكتاب بقوله تعالى {فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ}المائدة٦ في موضعين والسنة المستفيضة وإجماع الأمة وهو مع ذلك من خصائص أمتنا فإن الله لم يجعل التراب طهورا إلا لهذه الأمة مسألة وصفته أن يضرب بيديه على الأرض الصعيد الطيب ضربة واحدة فيمسح بهما وجهه وكفيه لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار إنما يكفيك هكذا وضرب بيديه الأرض فمسح بها وجهه وكفيه وإن تيمم بأكثر من ضربة أو مسح أكثر جاز في هذه المسألة فصول أحدها أن التيمم يجزىء بضربة واحدة يمسح بها وجهه وكفيه لأن الله تعالى قال {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ}المائدة٦ وهذا يحصل بضربة واحدة وتراب واحد فلا يجب أكثر من ذلك ولذلك لما أمكن غسل الفم والأنف بغرفة واحدة ومسح الرأس بماء واحد أجزأ مسح الوجه واليدين

---

[1] شرح العمدة ج: ١ ص: ٣٧٦-٣٩١

بغبار واحد فإذا قيل غبار الضربة الأولى يذهب بمسح الوجه قلنا إنما يجزىء إذا مسح الوجه ببطون الأصابع يبقى بطن الراحة لليد أو يمسح الوجه بالطبقة الأولى من التراب ويبقى على اليد غبار يمسحها به فإذا لم يبق غبار لزمه ضربة ثانية كما إذا لم يبق ماء للاستنشاق ولا بلل للأذن واليد المطلقة في الشرع من مفصل الكوع بدليل آية السرقة والمحاربة وقوله صلى الله عليه وسلم إذا قام أحدكم من نوم الليل فلا يغمس يده وقوله صلى الله عليه وسلم إذا أفضى أحدكم بيده إلى ذكره ولأن اليد إما أن تكون مشتركة بين المفاصل الثلاثة أو حقيقة في البعض مجازا في البعض أو حقيقة في القدر المشترك فإن كان الأول فوجوب المسح إلى الكوع متيقن وما زاد مشكوك فيه يحتاج إلى دليل وإن كان الثاني فينبغي أن يكون حقيقة في اليد إلى مفصل الكوع لئلا يلزم المجاز في الآيات والأحاديث ولا ينعكس ذلك بأنه لم نعن باليد ما هو إلى مفصل الإبط في خطاب الشرع وإنما فعله الصحابة احتياطا وإن كان الثالث فالقدر المشترك هو إلى الكوع ولأن اليد عند الإطلاق خلافها عند التقييد فأما أن يراد بها أقصى ما يسمى يدا أو أقل ما يسمى يدا والأول باطل فيتعين الثاني

فإن قيل هي مطلقة في التيمم مقيدة في الوضوء فيحمل المطلق على المقيد لأنهما من جنس واحد وهو الطهارة ولأن المطلق بدل المقيد فيحكيه قلنا إن سلمناه فإنما يحمل المطلق على المقيد إذا كان نوعا واحدا كالعتق في الظهار والجماع واليمين على العتق في القتل وكذلك الشهادة المطلقة في قوله تعالى {فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ}النساء١٥ هي من نوع الشهادة المفسرة في قوله {مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء}البقرة٢٨٢ والمسح بالتراب ليس هو من جنس الوضوء بالماء ثم قد اختلفا في القدر فهذا في عضوين وذلك في أربعة وفي الصفة فالوضوء شرع في التثليث وهو مكروه في التيمم والوجه في الوضوء يغسل والأنف منه و باطن الفم وباطن الشعر الخفيف ويخلل وذلك كله يكره في التيمم وهذا البدل مبني على التخفيف فكيف يلحق بما هو مبني على الأسباغ ثم البدل الذي هو مسح الخف والعمامة لم يحك مبدله في الاستيعاب مع أنه بالماء فأن لا يحكيه المسح بالتراب أولى ثم يدل على فساد ذلك أن الصحابة لما تيمموا إلى الآباط لم يفهموا حمل المطلق على المقيد هنا وهم أهل الفهم للسان وقد حقق ذلك ما خرجاه في الصحيحين عن عمار بن ياسر قال أجنبت فلم أصب الماء فتمعكت في الصعيد وصليت فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال إنما يكفيك هكذا وضرب النبي صلى الله عليه وسلم بكفيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه وفي لفظ الدارقطني إنما يكفيك أن تضرب بكفيك في التراب ثم تنفخ فيهما ثم تمسح بهما وجهك وكفيك إلى الرسغين وعن عمار

بن ياسر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في التيمم ضربة للوجه والكفين رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه [1]

## أنه يجب استيعاب محل الفرض

لقوله تعالى {بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ}النساء٤٣ ولقول النبي صلى الله عليه وسلم فتمسح بها وجهك وكفيك وهذا يزيح ما لعله يتوهم في الباء من تبعيض فأما ما يشق إيصال التراب إليه كباطن الشعور الخفيفة والكثيفة فلا لما فيه من المشقة ولأن الواجب ضربة أو بعض ضربة للوجه وبذلك لا يصل التراب إلى أثناء الشعر ويجب عليه أن ينقل الصعيد إلى الوجه واليد فإن نسفته الريح بغير قصد العبادة على وجهه ويديه ثم نوى ومسح وجهه بما عليه ويديه بما عليهما لم يجزئه بخلاف مسح الرأس على إحدى الروايتين لأن الله تعالى أمره أن يقصد الصعيد وأن يمسح به ولم يأمره في الوضوء إلا بالمسح فإن نقل ما على الوجه إلى اليد أو بالعكس جاز لأنه تيمم الصعيد ومسح به وسواء نقله بيده أو بخرقة في أقوى الوجهين كما لو نقله غيره بإذنه فإن صمد للريح حتى نسفته كان نقلا في أقوى الوجهين لأنه بقصده انتقل [2]

## وأن التيمم إنما يجوز إذا لم يكن استعمال الماء إما لعدمه حقيقة أو حكما وإما لضرر باستعماله

والأصل في ذلك قوله تعالى {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ}النساء٤٣ فذكر المريض والمسافر العادم فهما أغلب الأعذار وألحق المسافر المحبوس في مصر ونحوه ممن عدم الماء والمريض مثل المجدور والمجروح ممن يتضرر باستعمال الماء وفي معناه من يخاف البرد وأما من يقدر على استعمال الماء لكن لا يقدر عى تحصيله إلا بضرر في نفسه أو ماله كمن بينه وبين الماء سبع أو حريق أو فساق فقد ألحق بالمريض لأنه واجد للماء وإنما يخاف الضرر وربما ألحق بالعادم لأنه لا يخاف الضرر بنفس الاستعمال وإنما يخاف التضرر في تحصيله فصار كالعادم عن تحصيله لا عن استعماله وهذا أحسن فأما من لا ضرر عليه في استعماله وهو واجد له فلا يجوز له التيمم سواء خشي فوت الوقت للصلاة أو لم يخشه إذا كان في الحضر

---

[1]

[2] شرح العمدة ج: ١ ص: ٤٢٠-٤٢١

لأنه واجد للماء ولأنه الوقت الذي يجب فيه أداء الصلاة هو الوقت الذي يمكن فيه فعلها بشروطها إلا الجنازة في إحدى الروايتين لأن ابن عمر فعل ذلك وجاء الإذن فيه عن ابن عباس موقوفا ومرفوعا رواهما الدارقطني ولأنه تيمم لما يكثر ويخاف فوته غالبا فأشبه رد امسلم عليه كما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي جهيم وحديث المهاجر بن قنفذ والأخرى لا يتيمم لها كغيرها وهي المنصورة وأما العيد فلا يتيمم للعيد لأنه يمكن التأهب له قبل الذهاب وأما ما يستحب له الوضوء كرد السلام ونحوه إذا خشي فوته إن توضأ فإنه يتيمم له لأن النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك [١]

## * الفصل الثاني أن العاجز عن استعمال الماء لعدمه قسمان

أحدهما إما يعدم فيه الماء كثيرا وهو السفر والثاني ما يندر فيه عدم الماء فأما المسافر فيتيمم في قصير السفر وطويله في المشهور من المذهب ولا إعادة عليه لقوله تعالى {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ}النساء٤٣ وسواء كان السفر إلى قرية أخرى أو أرض من أعمال مصره كالحراث والحصاد والحطاب وأشباههم إذا حضرت الصلاة ولا ماء معه ولا يمكنه الرجوع إلى المصر إلا بتفويت حاجته وفيه وجه إنه يعيد لأنه في عمل مصره بخلاف من كان في عمل قرية أخرى وسواء أمكنه حمل الماء لوضوئه أو لم يمكنه لأن الاستعداد للوضوء قب وجوبه لا يجب وعنه إنما ذلك إذا لم يمكنه حمل الماء فإن أمكنه حمل ماء لوضوئه وجب عليه ولم يجز له التيمم وسواء كان سفر طاعة أو معصية لأنه عزيمة ولأن التيمم لا يختص بالسفر بل يجب حضرا وسفرا ويخرج أن يجب عليه الإعاددة في سفر المعصية لأن التيمم رخصة من حيث عدم وجوب القضاء عزيمة من حيث وجوب فعل الصلاة فيجمع بين العزيمة ووجوب القضاء المتبقي بسبب الرخصة وهذا يشبه ما إذا عدم الماء بعد الوقت فإنه عدمه بسبب محرم الثاني كالمحبوس في المصر وأهل بلد قطع الماء عدوهم فهذا يصلي بالتيمم وعنه لا يصلي حتى يجد الماء أو يسافر اختارها الخلال لأن الله إنما أذن في التيمم للمسافر والصحيح الأول لما روى أبو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشرسنين فإذا وجد الماء فليمسه بشرته فإن ذلك خير رواه أحمد والترمذي وصححه ولأنه عادم للماء

---

[١] شرح العمدة ج: ١ ص: ٤٢٢

فاشبه المسافر وإنما خص بالذكر لأنه إنما يعدم غالبا فيه والمنطوق إذا خرج على الغالب لم يكن له مفهوم مراد وإذا صلى لم يعد في المشهور من المذهب ومن قال يعيد في الأعذار النادرة مثل عدم الماء والتراب ومن خشي البرد فتيمم قال يعيد هنا لأن القياس يقتضي أن من أخل بشرط من شروط الصلاة أعاد إذا قدر عليه إلا أنه عفي عنه فيما يكثر ويشق كما قلنا إن الحائض تقضي الصوم لأنه لا يتكرر ولا تقضي الصلاة لأنها تتكرر ولأن الصلاة المفعولة على وجه الخلل غير مبرئة للذمة في الأصل وإنما فعلت إقامة لوظيفة الوقت والصحيح الأول لأن الله إنما خاطب بصلاة واحدة يفعلها بحسب الإمكان والشرط المعجوز عنه ساقط بالعجز وفي قوله الصعيد الطيب طهور المسلم وقوله التراب كافيك دليل على أنه يقوم مقام الماء مطقا ولا يكون عادما حتى يطلب الماء بعد دخول الوقت في رحه ورفقته وما قرب منه وعنه لا يجب طلبه إلا إذا غلب على ظنه وجوده أو رأى أمارات وجوده بأن يرى خضرة أو حفرة أو ركبا أو طيرا يتساقط عى مكان لأنه عادم لماء فجاز له التيمم كما لو طلب ولأن الأصل عدم طلب الماء ولا أمارة تزيل حكم الأصل فوجب العمل به كاستصحاب الحال والمشهور أنه يجب الطلب إذا رجا وجود الماء فإن تيقن أن لا ماء فلا يجب الطلب قولا واحدا لأن الله تعالى قال {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء}النساء٤٣ ولا ينفي عنه الوجود إلا بعد سابقه الطلب كما في قوله {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ}البقرة١٩٦ وقوله {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ}المائدة٨٩ ولأن التيمم بدل عن غيره مشروط بعدمه فلم يجز إلا بعد الطلب كالصيام الذي هو بدل عن الرقبة وعن الهدي وعن التكفير بالمال والقياس الذي هو بدل عن النص والميت الذي هو بدل عن المذكى ولأن البدل في مثل هذا إنما أبيح للضرورة وإنما تستيقن الضرورة بعد الطلب وصفته أن يفتش على الماء في رحله ويسأل رفقته عن موارده أو عن ما معهم ليبيعوه أو يبذلوه قال القاضي سواء قالوا لو سألتنا أعطيناك أو منعناك وفي إلزامه سؤالهم البد نظر ويسعى أمامه ووراءه وعن يمينه وعن شماله إلى حيث جرت عادة السفار بالسعي إليه لطلب الماء والمرعى هكذا قال بعض أصحابنا وقال القاضي لا يلزمه المشي في طلبه وعدوله عن طريقه لأنه ليس في تقدير ما يلزمه من المشي توقيف يرجع إليه وليس الميل بأولى من الميلين واحتج اسحاق على ذلك بأن ابن عمر لم يكن يعدل إلى الماء وهو منه غلوة أو غلوتين وحمل القاضي قول أحمد وقد قيل له وعلى كم يطلب الماء فقال إن لم يصرفه عن وجهه نراه الميل والميلين وإن استدل عليه الميلان والثلاثة فلا يطلبه وهذا في السائر فأما النازل فلا تردد أنه يلزمه المشي في طلبه وإذا رأى بشرا أو حائطا قصد ذلك وطلب الماء عنده فإذا لم يجد الماء حينئذ ظهر عجزه

قال القاضي وابن عقيل وغيرهما من أصحابنا وا يعتد بطلبه قبل الوقت بل يلزمه إعادة الطلب في وقت كل صلاة لأن طلب اماء شرط لصحة التيمم فلا يصح في وقت لا يصح فيه التيمم لأنه في وقت كل صلاة مخاطب بقوله {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء}المائدة٦ وذلك لا يلزمه إلا بعد الطلب وهذا إنما يكون مع الطمع بحصول الماء فأما مع اليأس فلا وإذا كان معه ماء فاراقه قبل الوقت صلى بالتيمم لأنه لم يكن وجب عليه الوضوء نص عليه وإن أراقه بعد دخول الوقت أو مر بما في الوقت فلم يتوضأ مع أنه لا يرجو وجود ماء آخر فقد عصى بذلك فيتيمم ويصلي ويعيد في أحد الوجهين لأنه فرط بترك المأمور به ولا يعيد في الآخر كما لو كسر ساقه فعجز عن القيام أو حرق ثوبه فصار عاريا وكذلك لو وهبه بعد دخول الوقت أو باعه لم يصح في أشهر الوجهين لأنه قد تعين صرفه في الطهارة ولا يصح تيممه إلا أن يكون بعد استهلاكه ففيه الوجهان وإذا نسي الماء في رحله وصلى بالتيمم لزمه الإعادة وكذلك إن جهله بموضع ينسب فيه إلى التفريط مثل أن يكون بقربه بئر أعلامه ظاهرة لأنه شرط فعلي يتقدم الصلاة فلم يسقط بالنسيان كالسترة فلأنه تطهير واجب فلم يسقط بالنسيان كما لو نسي بعض أعضائه أو انقضت مدة المسح ولم يشعر وهذا لأن النسيان والجهل إذا كان عن تفريط فإنه قادر على الاحتراز منه في الجملة ولهذا يقال لا تنسى وإن أضل راحلته أو أضل بئرا كان يعرفها ثم وجدها فلا إعادة عليه وقيل يعيد وقيل يعيد في ضلال البئر لأن مكانها واحد وإن كان الماء مع عبده أو وضعه في رحله من حيث لا يشعر أعاد في أقوى الوجهين يصرفه عن وجهه نراه الميل والميلين وإن استدل عليه الميلان والثلاثة فلا يطلبه وهذا في السائر فأما النازل فلا تردد أنه يلزمه المشي في طلبه وإذا رأى بشرا أو حائطا قصد ذلك وطلب الماء عنده فإذا لم يجد الماء حينئذ ظهر عجزه قال القاضي وابن عقيل وغيرهما من أصحابنا وا يعتد بطلبه قبل الوقت بل يلزمه إعادة الطلب في وقت كل صلاة لأن طلب اماء شرط لصحة التيمم فلا يصح في وقت لا يصح فيه التيمم لأنه في وقت كل صلاة مخاطب بقوله {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء}المائدة٦ وذلك لا يلزمه إلا بعد الطلب وهذا إنما يكون مع الطمع بحصول الماء فأما مع اليأس فلا وإذا كان معه ماء فاراقه قبل الوقت صلى بالتيمم لأنه لم يكن وجب عليه الوضوء نص عليه وإن أراقه بعد دخول الوقت أو مر بما في الوقت فلم يتوضأ مع أنه لا يرجو وجود ماء آخر فقد عصى بذلك فيتيمم ويصلي ويعيد في أحد الوجهين لأنه فرط بترك المأمور به ولا يعيد في الآخر كما لو كسر ساقه فعجز عن القيام أو حرق ثوبه فصار عاريا وكذلك لو وهبه بعد دخول الوقت أو باعه لم يصح في أشهر الوجهين لأنه قد تعين صرفه في الطهارة ولا يصح تيممه إلا أن يكون بعد استهلاكه ففيه الوجهان وإذا نسي الماء في رحله

وصلى بالتيمم لزمه الإعادة وكذلك إن جهله بموضع ينسب فيه إلى التفريط مثل أن يكون بقربه بئر أعلامه ظاهرة لأنه شرط فعلي يتقدم الصلاة فلم يسقط بالنسيان كالسترة فلأنه تطهير واجب فلم يسقط بالنسيان كما لو نسي بعض أعضائه أو انقضت مدة المسح ولم يشعر وهذا لأن النسيان والجهل إذا كان عن تفريط فإنه قادر على الاحتراز منه في الجملة ولهذا يقال لا تنسى وإن أضل راحلته أو أضل بئرا كان يعرفها ثم وجدها فلا إعادة عليه وقيل يعيد وقيل يعيد في ضلال البئر لأن مكانها واحد وإن كان الماء مع عبده أو وضعه في رحله من حيث لا يشعر أعاد في أقوى الوجهين [1]

## الفصل الثالث إذا كان واجد الماء يخاف إن استعمله أن يعطش هو أو أحد من رفقته أو بهائمه أو بهائم رفقته المحترمة فإنه يتيمم

قال الإمام أحمد رضي الله عنه عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتيممون ويحبسون الماء لشفاههم فأما البهائم التي يشرع قتلها كالخنزير والكلب الأسود والبهيم والكلب العقور فلا يحبس لها الماء ثم إن كان هو العطشان أو يخاف العطش على نفسه أو بهائمه أو من يلزمه نفقته وجب تقديم الشرب لأنه من الحوائج الأصلية الواجبة فتقدم على العبادات كما تقدم نفقة النفس والأقارب المتعينة على الحج وإن كان العطشان رفقته أو بهائمه فالأفضل حبس الماء لهم وهو واجب في أحد الوجهين اختاره الشريف أبو جعفر وابن عقيل وغيرهما وفي الآخر لا يجب قاله أبو بكر والقاضي لأنه محتاج إليه وقد قال أحمد إذا كان معه إداواة فيها ماء فرأى عطاشا فأحب إلي أن يسقيهم ويتيمم وقد صرح القاضي بأن ذلك لا يجب إلا إن خيف عليهم التلف والصواب أن يحمل كلام أحمد وأبي بكر على عطش لا يخاف معه التلف وقيل إنما الوجهان فيما إذا خيف أو يعطشوا فأما العطش الحاضر فيجب تقديم سقيهم له وجها واحدا ولا فرق بين أن يكون هو العطشان أو لخوف عطش رفيقه المزامل أو أحد من أهل القافلة أو من غيرهم لأن ذلك إنما كان لحرمة الآدميين والبهائم وهي لا تختلف بالمرافقة وعدمها وكذلك البهائم المباحة المحترمة فإن في ساقيها أجرا وثوابا ولو كان معه ماء ان نجس وطاهر وهو

---

[1] شرح العمدة ج: ١ ص: ٤٢٤-٤٢٧

عطشان شرب الطاهر وتيمم ولم يشرب النجس فإن خاف العطش فهل يتوضأ بالطاهر ويحبس النجس أو يتيمم ويحبس الطاهر على وجهين [1]

## لطائف لغوية

١-قوله {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ ِ}الدخان٥٦ ثم قال {إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى}الدخان٥٦ الاستثناء منقطع فهذا منقطع لأنه يحسن أن يقال لا يذقون إلا الموتة الأولى و كذلك قوله تعالى{لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ لأنه يحسن أن يقال لا تأكلوا أموالكم بينكم إلا أن تكون تجارة و قوله {مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ}النساء١٥٧ يصلح أن يقال و ما لهم إلا إتباع الظن [2]

٢- قد قيل في قوله {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}النساء٢٩ أي لا يقتل بعضكم بعضا [3]

٣-{وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً}النساء٣٢ عليم منزه عن الجهل [4]

٤-والقنوت دوام الطاعة لله عز وجل سواء كان فى حال الإنتصاب أو فى حال السجود كما قال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو

---

[1] شرح العمدة ج: ١ ص: ٤٢٨-٤٢٩

[2]

[3] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ١٢٤

[4] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

رَحْمَةَ رَبِّهِ}الزمر٩ وقال تعالى {فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ}النساء٣٤ [١]

٥- {فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ}النساء٣٤ أي مطيعات لأزواجهن [٢]

٦-{إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً}النساء٣٥ عليم منزه عن الجهل [٣]

٧- أن الصحبة فيها عموم وخصوص فيقال صحبة ساعة ويوما وجمعة وشهرا وسنة وصحبة عمره كله وقد قال تعالى {وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ}النساء٣٦ قيل هو الرفيق في السفر وقيل الزوجة وكلاهما تقل صحبته وتكثر وقد سمى الله الزوجة صاحبة في قوله {أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ}الأنعام١٠١ [٤]

٨- اعْبُدُواْ وَلاَ تُشْرِكُواْ ضمير الخطاب كما أن جميع الموجودين في وقت النبي صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة مخاطبون بهذا الكلام لأنه كلام الله وإنما الرسول مبلغ عن الله وهذا مذهب عامة المسلمين وإن كان بعض من تكلم في أصول الفقه اعتمد أن ضمير الخطاب إنما يتناول الموجودين حين تبليغ الرسول وأن سائر الموجودين دخلوا إما بما علمناه بالاضطرار من استواء الحكم كما لو خاطب النبي صلى الله عليه وسلم واحدا من الأمة وإما بالسنة وإما بالاجماع وإما بالقياس [٥]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٥٤٨ و الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٢٢٤ و شرح العمدة ج: ٤ ص: ١٥٧ و مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢٤٠

[٢] شرح العمدة ج: ٤ ص: ١٥٨

[٣] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[٤] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٣٩٠

[٥] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٢٦

٩- أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايفة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبا للآمر مقصودا له كما في قوله {وَاتَّقُواْ اللّهَ}البقرة١٨٩ {وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}المائدة٩٣ وفي قوله {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}التغابن٨ وفي قوله {وَاعْبُدُواْ اللّهَ}النساء٣٦ وفي قوله {فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ}يونس٨٤ فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به [1]

١٠- قال تعالى {وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيماً}النساء٣٩ عليم منزه عن الجهل [2]

١١- وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى ونحو ذلك قال كان ولم يزل ولا يزال [3]

١٢- قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ و نحوه كما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس و رواه ابن أبى حاتم من عدة طرق لما قيل له قوله {وَكَانَ اللّهُ}النساء١٥٨ كأنه كان شيء ثم مضى فقال إبن عباس هو سمى نفسه بذلك ولم يزل كذلك هذا لفظ ابن أبى حاتم من طريق أبى معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فقال ابن عباس كذلك كان ولم يزل ومن رواية عمرو بن أبي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال سمعت الله يقول {وَكَانَ اللّهُ}النساء١٥٨ كأنه شيء كان فقال ابن عباس أما قوله {كَانَ} فإنه لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥١

[2] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[3] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٣٨

والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم   ومن رواية عبدالرحمن بن مغرا عن مجمع بن يحيى عن عمه عن ابن عباس قال قال يهودي إنكم تزعمون أن الله كان عزيزا حكيما فكيف هو اليوم فقال ابن عباس إنه كان فى نفسه عزيزا حكيما     وهذه أقوال ابن عباس تبين أنه لم يزل متصفا بخبر كان  ولا يزال كذلك و أن ذلك حصل له من نفسه فلم يزل متصفا فى نفسه إذا كان من لوازم نفسه و لهذا لا يزال لأنه من نفسه و قال أحمد بن حنبل لم يزل الله عالما متكلما غفورا و قال أيضا لم يزل الله متكلما إذا شاء [1]

١٣- و فى صحيح البخاري تعليقا عن سعيد بن جبير أن رجلا سأل إبن عباس عن قوله {وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء٩٦    {وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١٧ {وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيماً}النساء٣٩ فكأنه كان فمضى فقال إبن عباس قوله    و كان الله و كان الله    فإنه يجل نفسه عن ذلك و سمى نفسه بذلك لم يجله أحد غيره و كان أي لم يزل كذلك رواه عبد بن حميد فى تفسيره مسندا موصولا و رواه إبن المنذر أيضا فى تفسيره و هذا لفظ رواية عبد [2]

١٤- والظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى  بإتفاق المسلمين   وقيل الظلم وضع الشيء فى غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئا قال تعالى   {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً}طه١١٢   قال المفسرون هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه والهضم أن يهضم من حسناته وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً}النساء٤٠ [3]

١٥- {يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ}النساء٤٢ وكذلك لفظ المعصية و الفسوق و الكفر فاذا أطلقت المعصية لله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٣٦٩-٣٧٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٠

[3] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢١٩

ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق كقوله {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ [١]

١٦- ان كل نهى ففيه طلب واستدعاء لما يقصده الناهي فهو أمر فالأمر يتناول هذا وهذا فانه قال فى الحديث الصحيح إذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما أستطعتم وقوله{يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ}النساء٤٢ فالمعصية مخالفة الامر ومخالف النهى عاص فانه مخالف الأمر وفاعل المحظور قد يكون أظهر معصية من تارك المأمور [٢]

١٧- فإن الإطلاق والتقييد فى معانى اللفظ ففرق بين النوعين فإن الناس يغلطون لعدم التفريق بين هذين غلطا كثيرا جدا وذلك ان كل اسم فإما أن يكون مسماه معينا لا يقبل الشركة كأنا وهذا وزيد ويقال له المعين والجزء واما أن يقبل الشركة فهذا الذى يقبل الشركة هو المعنى الكلى المطلق وله ثلاث اعتبارات كما تقدم وأما اللفظ المطلق والمقيد فمثال {تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}المائدة٨٩ و {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء}النساء٤٣ وذلك أن المعنى قد يدخل فى مطلق اللفظ ولا يدخل فى اللفظ المطلق أى يدخل فى اللفظ لا بشرط الإطلاق ولا يدخل فى اللفظ بشرط الإطلاق كما قلنا فى لفظ الماء فإن الماء يطلق على المنى وغيره كما قال {مِن مَّاء دَافِقٍ}الطارق٦ ويقال ماء الورد لكن هذا لا يدخل فى الماء عند الاطلاق لكن عند التقييد فاذا أخذ القدر المشترك بين لفظ الماء المطلق ولفظ الماء المقيد فهو المطلق بلا شرط الإطلاق فيقال الماء ينقسم الى مطلق ومضاف ومورد التقسيم ليس له اسم مطلق لكن بالقرينة يقتضى الشمول والعموم وهو قولنا الماء ثلاثة أقسام فهنا أيضا ثلاثة أشياء مورد التقسيم وهو الماء العام وهو المطلق بلا شرط لكن ليس له لفظ مفرد الا لفظ مؤلف والقسم المطلق وهو اللفظ بشرط اطلاقه والثانى اللفظ المقيد وهو اللفظ بشرط تقييده وانما كان كذلك لان المتكلم باللفظ إما أن يطلقه أو يقيده ليس له حال ثالثة فاذا أطلقه كان له مفهوم واذا

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٧٧

قيده كان له مفهوم ثم اذا قيده إما أن يقيده بقيد العموم أو بقيد الخصوص فقيد العموم كقوله الماء ثلاثة أقسام وقيد الخصوص كقوله ماء الورد [1]

١٨- فاذا قال القائل يشرب بها أن الباء زائدة كان من قبله علمه فان الشارب قد يشرب ولا يروى فاذا قيل يشرب منها لم يدل على الري واذا ضمن معنى الري فقيل يشرب بها كان دليلا على الشرب الذي يحصل به الري وهذا شرب خاص دل عليه لفظ الباء كما دل لفظ الباء فى قوله {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم}المائدة٦ على الصاق المسموح به بالعضو ليس المراد مسح الوجه فمن قال الباء زائدة جعل المعنى امسحوا وجوهكم وليس فى مجرد مسح الوجه الصاق المسموح من الماء والصعيد ومن قرأ {وَأَرْجُلَكُمْ}المائدة٦ فانه عائد على الوجه والأيدي بدليل انه قال {إِلَى الْكَعْبَينِ}المائدة٦ ولو كان عطفا على المحل لفسد المعنى وكان يكون فامسحوا رؤوسكم وايضا فكلهم قرأوا قوله فى التيمم {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ}المائدة٦ {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ}النساء ٤٣ ولفظ الآيتين من جنس واحد فلو كان المعطوف على المجرور معطوفا على المحل لقرأوا ايديكم بالنصب فلما لم يقرأوها كذلك علم ان قوله {وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ}المائدة٦ عطف على الوجوه والايدي [2]

١٩- الأسماء التى علق الله بها الأحكام فى الكتاب والسنة منها ما يعرف حده ومسماه بالشرع فقد بينه الله ورسوله كاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج والايمان والاسلام والكفر والنفاق ومنه ما يعرف حده باللغة كالشمس والقمر والسماء والأرض والبر والبحر ومنه ما يرجع حده الى عادة الناس وعرفهم فيتنوع بحسب عادتهم كاسم البيع والنكاح والقبض والدرهم والدينار ونحو ذلك من الأسماء التى لم يحدها الشارع بحد ولا لها حد واحد يشترك فيه جميع أهل اللغة بل يختلف قدره وصفته باختلاف عادات الناس فما كان من النوع الأول فقد بينه الله ورسوله وما كان من النوع الثانى والثالث فالصحابة والتابعون المخاطبون بالكتاب والسنة قد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٦٤-١٦٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٧٥

عرفوا المراد به لمعرفتهم بمسماه المحدود فى اللغة أو المطلق فى عرف الناس وعادتهم من غير حد شرعى ولا لغوي وبهذا يحصل التفقه فى الكتاب والسنة والاسم اذا بين النبى حد مسماه والاسم اذا بين النبى حد مسماه لم يلزم أن يكون قد نقله عن اللغة أو زاد فيه بل المقصود أنه عرف مراده بتعريفه هو كيف ما كان الأمر فان هذا هو المقصود وهذا كاسم الخمر فانه قد بين أن كل مسكر خمر فعرف المراد بالقرآن وسواء كانت العرب قبل ذلك تطلق لفظ الخمر على كل مسكر أو تخص به عصير العنب لا يحتاج الى ذلك اذ المطلوب معرفة ما أراد الله ورسوله بهذا الاسم وهذا قد عرف ببيان الرسول وبأن الخمر فى لغة المخاطبين بالقرآن كانت تتناول نبيذ التمر وغيره ولم يكن عندهم بالمدينة خمر غيرها وإذا كان الامر كذلك فما أطلقه الله من الأسماء وعلق به الأحكام من الأمر والنهى والتحليل والتحريم لم يكن لأحد أن يقيده لا بدلالة من الله ورسوله فمن ذلك اسم الماء مطلق فى الكتاب السنة ولم يقسمه النبى صلى الله عليه وسلم الى قسمين طهور وغير طهور فهذا التقسيم مخالف للكتاب والسنة وانما قال الله {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء}المائدة٦ وقد بسطنا هذا فى غير هذا الموضع وبينا ان كل ما وقع عليه اسم الماء فهو طاهر طهور سواء كان مستعملا فى طهر واجب أو مستحب أو غير مستحب وسواء وقعت فيه نجاسة أو لم تقع اذا عرف انها قد استحالت فيه واستهلكت واما أن ظهر أثرها فيه فانه يحرم استعماله لأنه استعمال للمحرم [١]

٢٠- وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٢٤٢-٢٤٣

والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد فى الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التى يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال فى لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوى أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعى ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{٩} عَبْداً إِذَا صَلَّى{١٠}العلق٩-١٠ وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبى عن الصلاة وقال لئن رأيته يصلى لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه فإذا قيل {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{٩} عَبْداً إِذَا صَلَّى{١٠}العلق٩-١٠ فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال فى اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبى لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتمون بالنبى فإذا قيل لهم {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال فى ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد [1]

٢١- فإن العموم ثلاثة أقسام عموم الكل لأجزائه وهو ما لا يصدق فيه الاسم العام ولا أفراده على جزئه والثاني عموم الجمع لأفراده وهو ما يصدق فيه أفراد الاسم العام على آحاده والثالث عموم الجنس لأنواعه وأعيانه وهو ما يصدق فيه نفس الاسم العام على أفراده فالأول عموم الكل لأجزائه في الأعيان والأفعال والصفات كما في قوله تعالى {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ}النساء٤٣ فإن اسم الوجه يعم الخد والجبين والجبهة ونحو ذلك وكل واحد من هذه الأجزاء ليس هو الوجه فإذا غسل بعض هذه الأجزاء لم يكن غاسلا للوجه لانتفاء المسمى بانتفاء جزئه [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠٠

[2] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥٢-٥٣

٢٢- {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ}النساء٤٣ الماء يدخل في الاسم المطلق للماء [1]

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧٠

## النساء ٤٤ـ٥٧

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ
وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ{٤٤} وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ
وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً{٤٥} مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن
مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً
بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ
وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ
إِلاَّ قَلِيلاً{٤٦} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا
مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا
لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً{٤٧} إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن
يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى
إِثْماً عَظِيماً{٤٨} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن
يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً{٤٩} انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ
وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً{٥٠} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ
يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ
الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً{٥١} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن
تَجِدَ لَهُ نَصِيراً{٥٢} أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ
نَقِيراً{٥٣} أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا
آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً{٥٤} فَمِنْهُم مَّنْ
آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً{٥٥} إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ
جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً{٥٦} وَالَّذِينَ
آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً{٥٧}

## المؤمنون قالوا {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} عكس قول الأمة الغضبية

قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ{٤٤} وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً{٤٥} مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً{٤٦}النساء٤٤-٤٦

فالمؤمنون قالوا {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}البقرة٢٨٥ فهذا اقرار منهم بركني الايمان الذي لايقوم إلا بهما و هما السمع المتضمن للقبول لامجرد سمع الادراك المشترك بين المؤمنين و الكفار بل سمع الفهم و القبول و الثانى الطاعة المتضمنة لكمال الانقياد و امتثال الأمر و هذا عكس قول الأمة الغضبية { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } فتضمنت هذه الكلمات كمال إيمانهم و كمال قبولهم و كمال انقيادهم[1]

## أصل السماع الذى أمر الله به

أصل السماع الذى أمر الله به هو سماع ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم سماع فقه و قبول و لهذا إنقسم الناس فيه أربعة أصناف صنف معرض ممتنع عن سماعه و صنف سمع الصوت و لم يفقه المعنى و صنف فقهه و لكنه لم يقبله و الرابع الذى سمعه سماع فقه و قبول الأول كالذين قال فيهم {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}فصلت٢٦ و الصنف الثانى من سمع الصوت بذلك لكن لم يفقه المعنى قال تعالى {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}البقرة١٧١ {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}الأنعام٢٥ و قال تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ{٤٢} وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ{٤٣} إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{٤٤} يونس٤٢-٤٤ و قال تعالى {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً {٤٥} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٤٠

وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً{٤٦} نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً{٤٧}الإسراء٤٥-٤٧ و قال تعالى {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً}الكهف٥٧ و قو له أن يفقهوه يتناول من لم يفهم منه تفسير اللفظ كما يفهم بمجرد العربية و من فهم ذلك لكن لم يعلم نفس المراد فى الخارج و هو الأعيان و الأفعال و الصفات المقصودة بالأمر و الخبر بحيث يراها و لا يعلم أنها مدلول الخطاب مثل من يعلم و صفا مذموما و يكون هو متصفا به أو بعضا من جنسه و لا يعلم أنه داخل فيه وقال تعالى {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ {٢٢} وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ{٢٣}الأنفال٢٢-٢٣ قال ذلك بعد قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ{٢٠} وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ{٢١} الانفال٢٠-٢١ فقوله {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ}الأنفال ٢٣ لم يرد به مجرد إسماع الصوت لوجهين أحدهما أن هذا السماع لابد منه و لا تقوم الحجة على المدعوين إلا به كما قال {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ}التوبة٦ و قال {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ}الأنعام١٩ و قال {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ و الثانى أنه و حده لا ينفع فإنه قد حصل لجميع الكفار الذين استمعوا القرآن و كفروا به كما تقدم بخلاف إسماع الفقه فإن ذلك هو الذي يعطيه الله لمن فيه خير و هذا نظير ما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين و هذه الآية و الحديث يدلان على أن من لم يحصل له السماع الذى يفقه معه القول فإن الله لم يعلم فيه خيرا و لم يرد به خيرا و أن من علم الله فيه خيرا أو أراد به خيرا فلا بد أن يسمعه و يفقهه إذ الحديث قد بين أن كل من يرد الله به خيرا يفقهه فالأول مستلزم للثانى و الصيغة عامة فمن لم يفقهه لم يكن داخلا فى العموم فلا يكون الله أراد به خيرا و قد انتفى فى حقه اللازم فينتفي الملزوم و كذلك قوله {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ}الأنفال٢٣ بين أن الأو ل شرط للثانى شرطا نحويا و هو ملزوم و سبب فيقتضى أن كل من علم الله فيه خيرا أسمعه هذا الإسماع فمن لم يسمعه إياه لم يكن قد علم فيه خيرا فتدبر كيف و جب هذا السماع و هذا الفقه و هذا حال المؤمنين بخلاف الذين يقولون بسماع لا فقه معه أو فقه لا سماع معه أعنى هذا السماع و أما قوله {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ}الأنفال٢٣ فقد يشكل على كثير من الناس

لظنهم أن هذا السماع المشروط هو السماع المنفي في الجملة الأولى الذى كان يكون لو علم فيهم خيرا و ليس فى الآية ما يقتضى ذلك بل ظاهرها و باطنها ينافي ذلك فإن الضمير فى قوله {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ}الأنفال٢٣ عائد إلى الضميرين فى قوله {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ}الأنفال٢٣ و هؤلاء قد دل الكلام على أن الله لم يعلم فيهم خيرا فلم يسمعهم إذ لو يدل على عدم الشرط دائما و إذا كان الله ما علم فيهم خيرا فلو أسمعهم لتولوا و هم معرضون بمنزلة اليهود الذين قالوا سمعنا و عصينا و هم الصنف الثالث و دلت الآية على أنه ليس لكل من سمع و فقه يكون فيه خير بل قد يفقه و لا يعمل بعلمه فلا ينتفع به فلا يكون فيه خيرا و دلت أيضا على أن إسماع التفهيم إنما يطلب لمن فيه خير فإنه هو الذى ينتفع به فأما من ليس ينتفع به فلا يطلب تفهيمه و الصنف الثالث من سمع الكلام و فقهه لكنه لم يقبله و لم يطع أمره كاليهود الذين قال الله فيهم {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء٤٦ و قال تعالى {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}البقرة٧٥ إلى قوله {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ}البقرة٧٨ أى تلاوة فهؤلاء من الصنف الأو ل الذين يسمعون و يقرءون و لا يفقهون و يعقلون إلى قوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً}البقرة٨٣ إلى قوله و ل{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ {٨٧} وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ{٨٨}البقرة٨٧-٨٨ كما قال فى تلك الآية {وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء٤٦ و قال فى النساء {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً{١٥٥} وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً{١٥٦} النساء ١٥٥-١٥٦ إلى آخر القصة فأخبر بذنوبهم التى استحقوا بها ما استحقوه و منها قولهم {قُلُوبُنَا غُلْفٌ}البقرة٨٨ {قُلُوبُنَا غُلْفٌ}النساء١٥٥ فعلم أنهم كاذبون فى هذا القول قاصدون به الإمتناع من الواجب و لهذا قال {بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ}البقرة٨٨ و {طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}النساء١٥٥ فهى و إن سمعت الخطاب و فقهته لا تقبله و لا تؤمن به لا تصديقا له و لا طاعة و إن عرفوه كما قال {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ}البقرة١٤٦ ف

غلف جمع أغلف و أما غلف بالتحريك فجمع غلاف و القلب الأغلف بمنزلة الأقلف فهم ادعوا ذلك و هم كاذبون فى ذلك و اللعنة الأبعاد عن الرحمة فلو عملوا به لرحموا و لكن لم يعملوا به فكانوا مغضوبا عليهم ملعونين و هذا جزاء من عرف الحق و لم يتبعه و فقه كلام الرسل و لم يكن موافقا له بالإقرار تصديقا و عملا و الصنف الرابع الذين سمعوا سماع فقه و قبول فهذا هو السماع المأمور به كما قال تعالى {وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ} المائدة٨٣ [1]

## احداث اهل الذمة الطعن في الدين مخالفة بموجب العقد مخالفة تنافي ابتداءه فيجب انفساخ عقدهم بها

فكل ما لا يجوز للامام ان يعاهدهم مع كونه يفعلونه فهو مناف للعقد كما ان ما لا يجوز للمتبايعين والمتناكحين ان يتعاقدا مع وجوده فهو مناف للعقد واظهار الطعن في الدين لا يجوز للامام ان يعاهدهم مع وجوده منهم اعني مع كونهم ممكنين من فعله اذا ارادوا وهذا مما اجمع المسلمون عليه ولهذا بعضهم يعاقبون على فعله بالتعزير واكثرهم يعاقبون عليه بالقتل وهو مما لايشك فيه المسلم ومن شك فيه فقد خلع رقبة الاسلام من عنقه واذا كان العقد لايجوز عليه كان منافيا للعقد ومن خالف شرطا مخالفة تنافي ابتداء العقد فان عقده ينفسخ بذلك بلا ريب فاحداث اهل الذمة الطعن في الدين مخالفة بموجب العقد مخالفة تنافي ابتداءه فيجب انفساخ عقدهم بها وهذا بين لما تامله وهو يوجب انفساخ العقد بما ذكرناه عند جميع الفقهاء ويتبين ان ذلك هو مقتضى قياس الاصول فان قيل فقد قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ}النساء٤٤ الى قوله {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ}النساء٤٦ وقوله{وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ}النساء٤٦ مثل قولهم اسمع لا سمعت واسمع غير مقبول منك لان من لا يقصد اسماعه لايقبل كلامه وقولهم {وَرَاعِنَا}النساء٤٦ قال قتادة وغيره كانت اليهود تقوله استهزاء فكره الله للمؤمنين

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٨-١٣

ان يقولوا مثل قولهم      وقال ايضا كانت اليهود تقول للنبي راعنا سمعك يستهزئون بذلك وكانت في اليهود قبيحة     وروى الامام احمد عن عطية قال كان يأتي ناس من اليهود فيقولون راعنا سمعك حتى قالها ناس من المسلمين فكره الله لهم ما قالت اليهود وقال عطاء الخرساني كان الرجل يقول ارعني سمعك ويلوي بذلك لسانه ويطعن في الدين      وذكر بعض اهل التفسير ان هذه اللفظة كانت سبا قبيحا بلغة اليهود فهؤلاء قد سبوه بهذا الكلام ولووا السنتهم به واستهزؤوا به وطعنوا في الدين ومع ذلك فلم يقتلهم النبي      قلنا عن ذلك اجوبة احداها ان ذلك كان في حال ضعف الاسلام في الحال التي اخبر الله رسوله والمؤمنين انهم يسمعون من الذين اوتوا الكتاب والمشركين اذى كثيرا وامرهم بالصبر والتقوى ثم ان ذلك نسخ عند القوة بالامر بقتالهم{حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}التوبة٢٩ والصاغر لا يفعل شيئا من الاذى في الوجه ومن فعله فليس بصاغر     ثم ان من الناس من يسمي ذلك نسخا لتغير الحكم ومنهم من لا يسميه نسخا لان الله تعالى امرهم بالعفو والصفح الى ان ياتي الله بامره وقد اتى الله بامره من عز الاسلام واظهاره والامر بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون      وهذا مثل قوله تعالى {فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً}النساء١٥ وقال النبي قد جعل الله لهن سبيلا فبعض الناس يسمي ذلك نسخا وبعضهم لا يسميه نسخا والخلاف لفظي      ومن الناس من يقول الامر بالصفح باق عند الحاجة اليه بضعف المسلم عن القتال بان يكون في وقت او مكان لا يتمكن منه وذلك لا يكون منسوخا اذ المنسوخ ما ارتفع في جميع الازمنة المستقبلة     وبالجملة فلا خلاف ان النبي كان مفروضا عليه لما قوي ان يترك ما كان يعامل به اهل الكتاب والمشركين ومظهري النفاق من العفو والصفح الى قتالهم واقامة الحدود عليهم سمي نسخا او لم يسم      الجواب الثاني ان النبي قد كان له ان يعفو عمن سبه وليس للامة ان تعفو عمن سبه كما قد كان يعفو عمن سبه من المسلمين مع انه لا خلاف بين المسلمين في وجوب قتل من سبه من المسلمين      الجواب الثالث ان هذا ليس باظهار للسب وانما هو اخفاء له بمنزلة السام عليكم وبمنزلة ظهور النفاق في لحن القول لانهم كانوا يظهرون انهم يقصدون مسألته ان يسمع كلامهم وان يراعيهم فينضرهم حتى يقضوا كلامهم وحتى يفهموا كلامه وياتونه على هذا الوجه ثم انهم يلوون السنتهم بالكلام وينوون به الاستهزاء والسب والطعن في الدين كما يلوون السنتهم بالسلام وينوون به الدعاء عليه بالموت واليهود امة معروفة بالنفاق والخبث وان تظهر خلاف ما تبطن ولكن ذلك لا يوجب اقامة حد لهم      ولو كان هذا سبا ظاهرا لما كان المسلمون يخاطبون بمثل ذلك قاصدين به الخير حتى نهوا عن التكلم بكلام يحتمل الاستهزاء

ويوهمه بحيث يصير سبا بالنية ودلالة الحال      وذلك ان هذه اللفظة كانت العرب تتخاطب بها تقصد سبا قال عطا كانت لغة في الانصار في الجاهلية وقال ابو العاليه ان مشركي العرب كانوا اذا حدث بعضهم بعضا يقول احدهم لصاحبه ارعني سمعك فنهو عن ذلك وكذلك قال الضحاك وذلك ان العرب تقول ارعيته سمعي ارعاء اذا فرغته لكلامه لانك جعلت السمع يرعى كلامه وتقول راعيته سمعي بهذا المعنى لكن كانت اليهود تعتقدها سبا بينها اما لما فيه من الاشتراك فانها كما تستعمل في استرعاء السمع تستعمل بمعنى المفاعله كانه قيل راعني حتى اراعيك وهذا انما يكون بين الامثال والنظراء ومرتبة الرئيس اعلى من ذلك      او ان اليهود ينوون بها معنى الرعونه او فيها طلب حفظ الكلام والاهتمام به وهذا انما يكون من الاعلى للاسفل لان الرعاية هي الحفظ والكلاءه ومنه استرعاء الشهادة او قد غلبت في عرفهم ولغتهم على معنى رديء كما قد قيل انهم ينوون بها اسمع لا سمعت وبالجملة انما يصير مثل هذا سبا بالنية ولي اللسان ونحوه فنهي المسلمون عنها حسما لمادة التشبه باليهود وتشبه اليهود بهم وجعل ذلك ذريعة الى الاستهزاء به ولما يحتمله لفظها من قلة الادب في مخاطبة الرسول      الجواب الرابع ما ذكره بعض اهل التفسير الذي ذكر انها كانت سبا قبيحا بلغة اليهود قال كان المسلمون يقولون راعنا يارسول الله وارعنا سمعك يعنون من المراعاه وكانت هذه اللفظه سبا قبيحا بلغة اليهود فلما سمعتها اليهود اغتنموها وقالوا فيما بينهم كنا نسب محمدا سرا فأعلنوا له الآن بالشتم وكانوا يأتونه ويقولون راعنا يا محمد ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ ففطن لها وكان يعرف لغتهم فقال لليهود عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده يا معشر اليهود لان سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لاضربن عنقه فقالوا اولستم تقولنها فانزل الله    {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا}البقرة١٠٤لئلا يتخذ اليهود ذلك سبيلا الشتم رسول الله فهذا القول دليل على ان اللفظة مشتركه في لغة العرب ولغة العبرانيين وان المسلمين لم يكونوا يفهمون من اليهود اذا قالوها الا معناها في لغتهم فلما فطنوا لمعناها في اللغة الاخرى نهوهم عن قولها واعلموهم ان ذلك ناقض لعهدهم ومبيح لدمائهم وهذا اوضح دليل على انهم اذا تكلموا بما يفهم منه السب حلت دماؤهم وانما لم يستحلوا دماءهم لان المسلمين لم يكونوا يفهمون السب والكلام في السب الظاهر وهو ما يفهم منه السب      فان قيل اهل الذمة قد اقررناهم على دينهم ومن دينهم استحلال سب النبي فاذا قالوا ذلك لم يقولوا غير ما اقررناهم عليه وهذه نكتة المخالف      قلنا ومن دينهم استحلال قتال المسلمين واخذ اموالهم ومحاربتهم بكل طريق ومع هذا فليس لهم ان يفعلوا ذلك بعد العهد ومتى فعلوه نقضوا العهد وذلك لانا وان كنا نقرهم على ان يعتقدوا ما يعتقدونه ويخفوا ما يخفونه فلم نقرهم

على ان يظهروا ذلك ويتكلموا به بين المسلمين ونحن لا نقول ينتقض عهد الساب حتى نسمعه يقول ذلك او يشهد به المسلمون ومتى حصل ذلك كان قد اظهره واعلنه وتحرير الجواب ان كلتا المقدمتين باطلة اما قوله اقررناهم على دينهم فيقال لو اقررناهم على كل ما يدينون به لكانوا منزلة اهل ملتهم المحاربين ولو اقررناهم على كل ما يدينون به لم يعاقبوا على اظهار دينهم واظهار الطعن في ديننا ولا خلاف انهم يعاقبون على ذلك ولو اقررناهم على دينهم مطلقا لاقررناهم على هدم المساجد واحراق المصاخف وقتل العلماء والصالحين فان ما يدينون به مما يؤذي المسلمين كثيرة ثم لا خلاف انهم لا يقرون على شيء من ذلك وانما اقررناهم كما قال غرفة بن الحارث على ان نخليهم يفعلون بينهم ماشاؤوا مما لا يؤذي المسلمين ولا يضرهم ولا نعترض عليهم في امور لا تظهر فان الخطيئة اذا اخفيت لم تضر الا صاحبها ولكن اذا اعلنت فلم تنكر ضرت العامة وشرطنا عليهم ان لايفعلوا شيئا يؤذينا ولا يضرنا سواء كانوا يستحلونه او لايستحلونه فمتى اذو الله ورسوله فقد نقضوا العهد وشرطنا عليهم التزام حكم الاسلام وان كانوا يرون ان ذلك لا يلزمهم في دينهم وشرطنا عليهم اداء الجزية وان اعتقدوا ان اخذها منهم حرام وشرطنا عليهم اخفاء دينهم فلا يظهرون الاصوات بكتابهم ولا على جنائزهم ولا صوت ناقوس وشرطنا عليهم ان لا يرتفعوا على المسلمين وان يخالفوا بهيئتم هيئة المسلمين على وجهه يتميزون به ويكونون اذلاء في تميزه الى غير ذلك من الشروط التي يعتقدون انها ذا تجب عليهم في دينهم فعلم انا شرطنا عليهم ترك كثير مما يعتقدون دينا لهم اما مباحا او واجبا وفعل كثير مما يعتقدون ليس من دينهم فكيف يقال اقررناهم على دينهم مطلقا واما المقدمة الثانية فنقول هب انا اقررناهم على دينهم فقوله استحلال السب من دينهم جوابه ان يقال اهو من دينهم قبل العهد او من دينهم وان عاهدوا على تركه الاول مسلم لكن لا ينفع لان هؤلاء قد عاهدوا فان لم يكن هذا من دينهم في هذه الحال لم يكن لهم ان يفعلوه لانه من دينهم في حال اخرى وهذا كما ان المسلم من دينه استحلال ديمائهم واموالهم واذاهم بالهجاء والسب اذا لم نعاهدهم وليس من دينه استحلال ذلك اذا عاهدهم فليس لنا ان نؤذيهم ونقول قد عاهدناكم على ديننا ومن ديننا استحلال اذاكم فان المعاهدة التي بين المتحاربين تحرم على كل واحد منهما في دينه ما كان يستحله من ضرر الاخر واذاه قبل العهد واما الثاني فممنوع فانه ليس من دينهم استحلال نقض العهد ولا مخالفة من عاهدوه في شئ مما عاهدوه بل من دين جميع اهل الارض الوفاء بالعهد وان لم يكن هذا معتقدهم فنحن انما عاهدناهم على ان يدينوا بوجوب الوفاء بالعهد فان لم يكن دينهم وجوب الوفاء به فلم نعاهدهم على دين يستحل صاحبه نقض العهد ولو عاهدناهم على هذا الدين لكنا قد

عاهدناهم على ان يدينوا بنقض العهد فينقضوه ونحن موفون بالعهد وبطلان هذا واضح واذا لم يكن فعل ما عاهدوا على تركه من دينهم فنحن قد عاهدناهم على ان يكفوا عن اذانا بالسنتهم وايديهم وان لا يظهروا شيئا من اذى الله ورسوله وان يخفوا دينهم الذي هو باطل في حكم الله ورسوله واذا عاهدوا على ترك هذا واخفاء هذا كان فعله حراما عليهم في دينهم لان ذلك غدر وخيانة وترك للوفاء بالعهد ومن دينهم ان ذلك حرام ولو ان مسلما عاهده قوما من الكفار طائعا غير مكره على ان يمسك عن ذكر صليبهم لوجب عليه في دينه ان يمسك ما دام العهد قائما فقول القائل من دينهم استحلال سب نبيا باطل اذ ذلك مع العهد المقتضي لتركه حرام في دينهم كما يحرم عليهم في دينهم استحلال دمائنا واموالنا لاجل العهد وهم يعتقدون عند انفسهم انهم اذا اذوا الله ورسوله بالستنهم او ضروا المسلمين بعد العهد فقد فعلوا ما هو حرام في دينهم كما ان المسلم يعلم انه اذا اذاهم بعد العهد فقد فعل ما هو حرام في دينه ويعلمون ان ذلك مخالفة للعهد وان ظنوا ان لاعهد بيننا وبينهم وانما هم مغلبون تحت يد الاسلام فذلك ابعد لهم عن العصمة واولى بالانتقام فانه لا عاصم لهم منا الا العهد فان لم يعتقدوا الوفاء بالعهد فلاعاصم اصلا وهذا كله بين لمن تامله يتبين به بعض فقه المسالة ومن الفقهاء من اجاب عن هذا بان اقررناهم على ما يعتقدونه ونحن انما نقول بنقض العهد اذا سبوه بما لا يعتقدونه من القذف ونحوه وهذا التفصيل ليس بمرض وسياتي ان شاء الله تحقيق ذلك فان قيل فهب انهم صولحوا على ان لا يظهروا ذلك لكن مجرد اظهار دينهم كيف ينقض العهد وهل ذلك الا بمثابة ما لو اظهروا اصواتهم بكتابهم او صليبهم او اعيادهم فان ذلك موجب لتنكيلهم وتعزيرهم دون نقض العهد قلنا واي ناقض للعهد اعظم من ان يظهروا كلمة الكفر ويعلوها ويخرجوا عن حد الصغار ويطعنوا في ديننا ويؤذونا اذى هو ابلغ من قتل النفوس واخذ الاموال واما اظهار تلك الاشياء بعد شرط عمر المعروف ففيها وجهان عندنا احدهما ينتقض العهد فلا يلزمنا والاخر لا ينتقض العهد والفرق بينهما من وجهين احدهما ان ظهور تلك الاشياء ليس فيه ظهور كلمة الكفر وعلوها وانما فيه ظهور لدين المشركين وبين البابين فرق فان المسلم لو تكلم بكلمة الكفر كفر ولو لم يفعل الا مجرد مشاركة الكافر في هدية عوقب ولم يكفر وكان ذلك كاظهار المعاصي من المسلم يوجب عقوبته ولا يبطل ايمانه والمتكلم بكلمة الكفر يبطل ايمانه كذلك اهل العهد اذا اظهروا الكفر ونحوه نقضوا امانهم واذا اظهروا زيهم عصوا ولم ينقضوا امانهم وهذا جواب من يقول من اصحابنا وغيرهم انهم لو اظهروا التثليث ونحوه مما هو دينهم نقضوا العهد الجواب الثاني ان ظهور تلك الاشياء ليس فيها ضرر عظيم على المسلمين ولا معرة في دينهم لا طعن في ملتهم وانما فيه

احد امرين اما اشتباه زيهم بزي المسلمين أو إظهار لمنكرات دينهم في دار الاسلام كاظهار الواحد من المسلمين لشرب الخمر ونحوه واما سب الرسول والطعن في الدين ونحوه ذلك فهو مما يضر المسلمين ضررا يفوق ضرر قتل النفس واخذ المال من بعض الوجوه فانه لا ابلغ في اسفال كلمة الله واذلال كتاب الله واهانة كتاب الله من ان يظهر الكافر المعاهد السب والشتم لمن جاء بالكتاب ولاجل هذا الفرق فصل اصحابنا واصحاب الشافعي الامور المحرمة عليهم في العهد الذي بيننا وبينهم الى ما يضر المسلمين في نفس او مالا او دين والى مالا يضر وجعلوا القسم الاول ينقض العهد حيث لاينقضه القسم الثاني لان مجرد العهد ومطلقه يوجب الامساك عما يضر المسلمين ويؤذيهم فحصوله تفويت لمقصود العقد فيفسخه كما لو فات مقصود البيع بتلف العوض قبل القبض او ظهوره مستحقا ونحوه بخلاف غيره ولان تلك المضرات يوجب جنسها عقوبة المسلم بالقتل فلان توجب عقوبة المعاهد بالقتل اولى واحرى لان كليهما ملتزم اما بايمانه او بامانة ان لايفعلها ولان تلك المضرات من جنس المحاربة والقتال وذلك لابقاء العهد معه بخلاف المعاصي التي فيها مراغمة ومصارمة فان قيل فقد اقروا على ما هم عليه من الشرك الذي هو اعظم من سب الرسول فيكون اقرارهم على سب الرسول اولى بل قد اقروا على سب الله تعالى وذلك لان النصارى معتقدون التثليث ونحوه وهو شتم لله تعالى لما روى البخاري في صحيحه عن ابي هريرة قال قال رسول الله قال الله عز وجل كذبني ابن ادم ولم يكن له ذلك وشتمني والم يكن له ذلك فاما تكذيبه اياي فقوله لن يعيدني كما بداني وليس اول الخلق باهون علي من اعادته واما شتمه اياي فقوله اتخذ الله ولدا وانا الاحد الصمد الذي لم الد ولم اولد ولم يكن لي كفوا احد وروى في صحيحه عن ابن عباس عن النبي نحوه وكان معاذ ابن جبل يقول اذا راى النصارى لا ترحموهم فلقد سب الله سبه ما سبه اياها احد من البشر وقد قال الله تعالى {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً{٨٨} لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً{٨٩} تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً{٩٠} أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً{٩١} مريم٨٨-٩١ الاية وقد اقر اليهود على مقالتهم في عيسى عليه السلام وهي من ابلغ القذف قلنا الجواب من وجوه احدها ان هذا السؤال فاسد الاعتبار فان كون الشئ في نفسه اعظم اثما من غيره يظهر اثره في العقوبة عليه في الاخرة لا في الاقرار عليه في الدنيا الا ترى ان اهل الذمة يقرون على الشرك ولا يقرون على الزنى ولا على السرقة ولا على قطع الطرق ولا على قذف المسلم ولا على محاربة المسلمين وهذه الاشياء دون الشرك بل سنة الله في خلقه كذلك فانه عجل لقوم لوط العقوبة وفي الارض مدائن مملوئة بالشرك لم يعاجلهم بالعقوبة لاسيما والمحتج بهذا الكلام يراى

ان قتل الكفار انما هو لمجرد المحاربة سواء كان كفره اصليا او طارئا حتى انه لا يراى قتل المرتد ويقول الدنيا ليست دار الجزاء على الكفر وانما الجزاء على الكفر في الاخرة وانما يقاتل من يقاتل فقت لدفع اذاه     ثم لا يجوز ان يقال اذا اقررناهم على الكفر فلان نقرهم على المحاربة التي هي دون الكفر بطريق الاولى وسبب ذلك ان ما كان من الذنوب يتعدى ضرره فاعله عجلت لصاحبه العقوبة في الدنيا تشريعا وتقديرا ولهذا قال ما من ذنب احرى ان تعجل لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم لان تاخير عقوبته فساد لاهل الارض لخلاف ما لا يتعدى ضرره فاعله فانه قد توخر عقوبته وان كان اعظم كالكفر ونحوه فاذا اقرارهم على الشرك اكثر ما فيه تاخير العقوبة عليه وذلك لا يستلزم تاخير عقوبة ما يضر بالمسلمين لانه دونه كما قدمناه     الوجه الثاني ان يقال لاخلاف انهم اذا اقروا على ما هم عليه من الكفر غير مضارين للمسلمين لايجوز اذاهم لا في دمائهم ولا في ابشارهم ولو اظهروا السب ونحوه عوقبوا على ذلك اما في الدماء او في الابشار     ثم انه لا يقال اذا لم يعاقبوا بالعزير على الشرك لم يعاقبوا على السب الذي هو دونه واذا كان هذا السؤال معترضا على الاجماع لم يجب جوابه كيف والمنازع قد سلم انهم يعاقبون على السب فعلم انه لم يقرهم عليه فلا يقبل منه السؤال والجواب عن هذه الشبه مشترك فلا يجب علينا الانفراد به     الوجه الثالث ان الساب ينضم السب الى شركه الذي عوهد عليه بخلاف المشرك الذي لم يسب ولا يلزم من الإقرار على ذنب مفرد الاقرار عليه مع ذنب اخر وان كان دونه فان اجتماع الذنبين يوجب جرما مغلظا لا يحصل حال الانفراد     الوجه الرابع قوله ما هم عليه من الكفر اعظم من سب الرسول ليس بجيد على الاطلاق وذلك لان اهل الكتاب طائفتان اما اليهود فاصل كفرهم تكذيب الرسول وسبه اعظم من تكذيبه فليس لهم كفر اعظم ةمن سب الرسول فان جميع ما يكفرون به من الكفر بدين الاسلام وبعيسى وبما اخبر الله به من امور الاخرة وغير ذلك متعلق بالرسول فسبه كفر بهذا كله لان ذلك انما علم من جهته وليس عند اهل الارض في وقتنا هذا علم موروث يشهد عليه انه من عند الله الا العلم الموروث عن محمد وما سوى ذلك مما يؤثر عن غيره من الانبياء فقد اشتبه واختلط كثير منه او اكثره والواجب فيما لم نعلم حقيقته منه ان لا يصدق ولا يكذب     واما النصارى فسبهم للرسول طعنا فيما جاء به من التوحيد وانباء الغيب والشرائع وانما ذنبه الاعظم عندهم ان قال ان عيسى عبد الله ورسوله كما ان ذنبه الاعظم عند اليهود ان غير شريعة التوراة والا فانصارى ليس محافظين على شريعة موروثة بل كل برهة من الدهر تبتدع لهم الاحبار شريعة من الدين لم ياذن الله بها ثم لا يرعونه حق رعايتها فسبهم له متضمن للطعن في التوحيد وللشرك وللتكذيب بالانبياء والدين

ومجرد شركهم ليس متضمنا لتكذيب جميع الانبياء ورد جميع الدين فلا يقال ماهم عليه من الشرك اعظم من سب الرسول بل سب الرسول فيه ماهم عليه من الشرك وزياده وبالجملة فينبغي للعاقل ان يعلم ان قيام دين الله في الارض انما هو بواسطة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين فلولا الرسل لما عبد الله وحده ولا شريك له ولما علم الناس اكثر ما يستحقه سبحانه من الاسماء الحسنى والصفات العلى ولا كانت له شريعة في الارض ولا تحسبن ان العقول لو تركت وعلومها التي تستفيدها بمجرد النظر عرفت الله معرفة مفصلة بصفاته واسمائه على وجهه اليقين فان عامة من تكلم في هذا الباب بالعقل فانما تكلم بعد ان بلغه ما جاءت به الرسل واستضاء بذلك واستانس به سواء اظهر الانقياد للرسل او لم يظهر وقد اعترف عامة الرؤوس منهم انه لاينال بالعقل علم جازم في تفاصيل الامور الالهية وانما ينال به الظن والحسبان والقدر الذي يمكن العقل اداركه بنظره فان المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم نبهوا الناس عليه وذكروهم به ودعوهم الى النظر فيه حتى فتحوا اعينا عميا واذانا صما وقلوبا غلفا والقدر الذي تعجز العقول رعن ادراكه علموهم اياه وانباوهم به فالطعن فيهم طعن في توحيد الله واسمائه وصفاته وكلامه ودينه وشرائعه وانبيائه وثوابه وعقابه وعامة الاسباب التي بينه وبين خلقه بل يقال انه ليس في الارض مملكة قائمة الا في بنبوة او اثر نبوة وان كل خير في الارض فمن اثار النبواة ولا يستريبن العاقل في هذا فان الذين درست النبوة فيهم مثل البارهمة والصابئة والمجوس ونحوهم فلا سفتهم وعامتهم قد اعرضوا عن الله وتوحيده واقبلوا على عبادة الكواكب والنيران والاصنام وغير ذلك من الاوثان والطوغين فلم يبق بايديهم لا توحيد ولا غيره وليست امة مستمسكة بالتوحيد الا أتباع الرسل قال الله سبحانه {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}الشورى١٣ فاخبر ان دينه الذي يدعوا اليه المرسلون كبر على المشركين فما الناس الا تابع لهم او مشرك وهذا حق لا ريب فيه فعلم ان سب الرسل والطعن فيهم ينبوع جميع انواع الكفر وجماع جميع الضلالات وكل كفر ففرع منه كما ان تصديق الرسل اصل جميع شعب الايمان وجماع مجموع اسباب الهدى الوجه الخامس ان نقول قد ثبت بالسنة ثبوتا لايمكن دفعه ان النبي كان يامر بقتل من سبه وكان المسلمون يحرضون على ذلك مع الامساك عمن هو مثل هذا الساب في الشرك او هو اسوء منه من محارب او معاهد فلو كانت هذه الحجة مقبولة لتوجه ان يقال اذا امسكوا عن الشرك فالامساك عن الساب اولى وإذا عوهد الذمي على كفره فمعاهدته على السب أولى وهذا لو قبل معارضة لسنة رسول الله

وكل قياس عارضه السنة فهو رد      الوجه السادس ان يقال ما هم عليه من الشرك وان كان سبا لله فهم لا يعتقدونه سبا وانما يعتقدونه تمجيدا وتقديسا فليسواقاصدين به قصد السب والاستهانة بخلاف سب الرسول فلا يلزم من إقرارهم على شئ لا يقصدون به الاستخفاف اقرارهم على ما يقصدون به الاستخفاف وهذا جواب من يقتلهم اذا اظهروا سب الرسول ولا يقتلهم اذا اظهروا ما يعتقدونه من دينهم      الوجه السابع ان اظهار سب الرسول طعن في دين المسلمين واضرار بهم ومجرد التكلم بدينهم ليس فيه اضرار بالمسلمين فصار اظهار سب الرسول بمنزلة المحاربة يعاقبون عليها وان كانت دون الشرك وهذا ايضا جواب هذا القائل      الوجه الثامن منع الحكم في الاصل المقيس عليه فانا نقول متى اظهروا كفرهم واعلنوا به نقضوا العهد بخلاف مجرد رفع الصوت بكتابهم فانه ليس كل ما فيه كفر ولسنا نفقه ما يقولون وانما فيه اظهار شعار الكفر وفرق بين اظهار الكفر وبين اظهار شعار الكفر او نقول متى اظهروا الكفر الذي هو طعن في دين الله نقضوا به العهد بخلاف كفر لا يطعنون به في ديننا وهذا لان العهد انما اقتضى ان يقولوا يفعلوا بينهم ما شاؤوا مما لا يضر المسلمين فاما ان يظهروا كلمة الكفر او ان يؤذوا المسلمين فلم يعاهدوا عليه البته وسياتي ان شاء الله الكلام على هذين القولين والذين قبلهما      قال كثير من فقهاء الحديث واهل المدينة من اصحابنا وغيرهم لم نقرهم على ان يظهروا شيئا من ذلك ومتى اظهروا شيئا من ذلك نقضوا العهد      قال ابو عبد الله في رواية حنبل كل من ذكر شيئا يعرض بذكر الرب تبارك وتعالى فعليه القتل مسلما كان او كافرا وهذا مذهب اهل المدينه      وقال جعفر بن محمد سمعت ابا عبد الله يسال عن يهودي مر بمؤذن وهو يؤذن فقال له كذبت فقال يقتل لانه شتم ومن الناس من فرق بين ما يعتقدونه وما لا يعتقدونه ومن الناس من فرق بين ما يعتقدونه واظهاره يضر بنا لانه قدح في ديننا وبين ما يعتقدونه واظهاره ليس بطعن في نفس ديننا وسياتي ان شاء الله ذلك فان فروع المسالة تظهر ماخذها وقد قدمنا عن عمر رضى الله عنه انه قال بمحضر من المهاجرين والانصار للنصراني الذي قال ان الله لا يضل احدا انا لم نعطك      ما اعطيناك على ان تدخل علينا في ديننا فوالذي نفسي بيده لان عدت لاخذنا الذي فيه عيناك وجميع ما ذكرناه من الايات والاعتبار يجئ ايضا في ذلك فان الجهاد واجب حتى تكون كلمة الله هي العليا وحتى يكون الدين كله لله وحتى يظهر دين الله على الدين كله وحتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون      والنهي عن

اظهار المنكر واجب بحسب القدرة فاذا اظهروا كلمة الكفر واعلنوها خرجوا عن العهد الذي عاهدونا عليه والصغار الذي التزموه وجب علينا ان نجاهد الذي اظهروا كلمة الكفرر وجهادهم بالسيف لانهم كفار لا عهد لهم والله سبحانه اعلم [1]

## ليس في القرآن آية واحدة تدل على اختصاص رسالته بالعرب

وليس في القرآن آية واحدة تدل على اختصاص رسالته بالعرب وإنما فيه إثبات رسالته إليهم كما أن فيه إثبات رسالته إلى قريش وليس هذا مناقضا لهذا وفيه إثبات رسالته إلى أهل الكتاب كقوله تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً} النساء ٤٧ وليس هذا التخصص منافيا لذلك التعميم وفي رسالته خطاب لليهود تارة وللنصارى تارة وليس خطابه لإحدى الطائفتين ودعوته لها مناقضا لخطابه للأخرى ودعوته لها وفي كتابه خطاب للذين آمنوا من أمته في دعوته لهم إلى شرائع دينه وليس في ذلك مناقضة بأن يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم [2]

*وهذا القرآن الذي يعرف كل أحد أنه الكتاب الذي جاء به مملوء من دعوة أهل الكتاب إلى اتباعه ويكفر من لم يتبعه منهم ويذمه ويلعنه والوعيد له كما في تكفير من لم يتبعه من المشركين وذمه والوعيد كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً}النساء٤٧ وفي القرآن من قوله يا أهل الكتاب يا بني اسرائيل ما لا يحصى إلا بكلفة وقال تعالى {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}البينة١ إلى قوله {إِنَّ

---

[1] الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٤٤٢-٤٦٤

[2] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٣٧٥

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} البينة ٧ ومثل هذا في القرآن كثير جدا وقد قال تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}الأعراف١٥٨ وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ}سبأ٢٨ واستفاض عنه فضلت على الأنبياء بخمس ذكر فيها أنه قال كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة بل تواتر عنه أنه بعث إلى الجن والإنسان فإذا علم بالإضطرار بالنقل المتواتر الذي تواتر كما تواتر ظهور دعوته أنه دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به وأنه حكم بكفر من لم يؤمن به منهم وأنه أمر بقتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وأنه قاتلهم بنفسه وسراياه وأنه ضرب الجزية عليهم وقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وغنم أموالهم فحاصر بني قينقاع ثم أجلاهم إلى أذرعات وحاصر بني النضير ثم أجلاهم إلى خيبر وفي ذلك أنزل الله سورة الحشر ثم حاصر بني قريظة لما نقضوا العهد وقتل رجالهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم وقد ذكره الله تعالى في سورة الأحزاب وقاتلأهل خيبر حتى فتحها وقتل من رجالهم وسبى من سبى من حريمهم وقسم أرضهم بين المؤمنين وقد ذكرها الله تعالى في سورة الفتح وضرب الجزية على النصارى وفيهم أنزل الله سورة آل عمران وغزا النصارى عام تبوك وفيها أنزل الله سورة براءة وفي عامة السور المدنية مثل البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وغير ذلك من السور المدنية من دعوة أهل الكتاب وخطابهم مالا تتسع هذه الفتوى لعشره ثم خلفاؤه بعده أبو بكر وعمر ومن معهما من المهاجرين والأنصار الذي يعلم أنهم كانوا أتبع الناس له وأطوعهم لامره وأحفظهم لعهده وقد غزوا الروم كما غزوا فارس وقاتلوا أهل الكتاب كما قاتلوا المجوس فقاتلوا من قاتلهم وضربوا الجزية على من أداها منهم عن يد وهم صاغرون ومن الأحاديث الصحيحة عنه قوله والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار قال سعيد بن جبير تصديق ذلك في كتاب الله تعالى {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ}هود١٧ ومعنى الحديث متواتر عنه معلوم بالإضطرار فإذا كان الامر كذلك لزم بأنه رسول الله إلى كل الطوائف فإنه يقرر بأنه رسول الله لا يكذب ولا يقاتل الناس على طاعته بغير أمر الله ولا يستحل دماءهم وأموالهم وديارهم بغير إذن الله [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢٠٦

## المضاف إلى الله نوعان

والمضاف إلى الله نوعان فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم والقدرة والكلام والحياة وإما أن يكون عينا قائمة بنفسها فالأول إضافة صفة كقوله{وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً}النساء٤٧ فالمضاف في الأول صفة لله قائمة به ليست مخلوقة له بائنة عنه والمضاف في الثاني مملوك لله مخلوق له بائن عنه لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى كما خص ناقة صالح من بين النوق وكما خص بيته بمكة من البيوت وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق [1]

## لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً}النساء٤٧ قد عاتب الله من أسقط الواجبات و استحل المحرمات بالحيل و المخادعات كما ذكر فى سورة ن و فى قصة اهل السبت و فى الحديث عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل و قال أيوب السختيانى يخادعون الله كما يخادعون الصبيان لو أتوا الأمر على و جهه لكان أهون علي [2]

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً}النساء٤٧ وتناول لفظ أهل الكتاب هنا لليهود أظهر من تناوله للنصارى لذكره لعنة أصحاب السبت [3]

---

[1]

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٣٣٦

[3] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٣٥٥

## أنزل الله القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم}النساء٤٧
وقد أوجب الله على عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله وكل نبي من الأنبياء مع إخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن وأنزل القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله وحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض [1]

## الغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم

المحبة التي أمر الله بها هي عبادته وحده لا شريك له وإذا كان كذلك فأصل المحبة المحمودة التي أمر الله بها وخلق خلقه لأجلها هي ما في عبادته وحده لا شريك له إذ العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل والمحبة لما كانت جنسا لأنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر منها في حق الله ما يختص به ويليق به مثل العبادة والإنابة ونحوهما فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده وكذلك الإنابة وقد تذكر المحبة المطلقة لكن تقع فيها الشركة كما قال تعالي {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ}البقرة١٦٥ ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة في المحبة كما أن حب الله أعظم الأنواع المحمودة بل عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها وعبادة إله آخر من دونه هو أصل الشقاء ورأسه الذي لا يبقي في العذاب إلا أهله فأهل التوحيد الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يبقي منهم في العذاب أحد والذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه وعبدوا غيره هم أهل الشرك الذين قال الله تعالي فيهم {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}النساء٤٨ وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها والنهي عن هذه المحبات ولوازمها وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص أهل النوعين وأصل دعوة جميع المرسلين قولهم {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}الأعراف٥٩ وعلي ذلك قاتل من قاتل منهم المشركين كما قال خاتم الرسل أمرت أن أقاتل الناس حتى

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٣٦٩

يشهدوا أن لاإله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله [1]

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل وقال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{٣٠} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ{٣١} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ{٣٢}الروم٣٠ -٣٢ وقد قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا كما قال تعالى {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{٦} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ {٧}فصلت ٦-٧ أي لا يؤتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد والإيمان وكل من لم يحصل له هذا الإخلاص لم يكن من أهل النجاة والسعادة كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}النساء٤٨

الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها [2]

## أعظم الحسنات التوحيد وأعظم السيئات الشرك

فهو سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه لا خالق غيره ولا رب سواه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فكل ما فى الوجود من حركة وسكون فبقضائه وقدره ومشيئته وقدرته وخلقه وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسله ونهى عن معصيته ومعصية

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١١

[2] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٢٩

رسله أمر بالتوحيد والاخلاص ونهى عن الاشراك بالله فأعظم الحسنات التوحيد وأعظم السيئات الشرك قال الله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ وقال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله اى الذنب أعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم اى قال ان تقتل ولدك مخافة ان يطعم معك قلت ثم اى قال ان تزنى بحليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً {٦٨} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً{٦٩} إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٧٠} الفرقان٦٨-٧٠ [1]

التوحيد هو أصل الدين ورأسه الذي لا يقبل الله عملا إلا به ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه وكما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}النساء٤٨ ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظمه فأعظم آية في القرآن آية الكرسي {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}البقرة٢٥٥وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة والإله الذي يألهه القلب عبادة له واستعانة ورجاء له وخشية وإجلالا وإكراما [2]

أن التوحيد جماع الدين والله{لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فهو سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فإذا شفع محمدا حد له ربه حدا فيدخلهم الجنة وذلك بحسب ما يقوم بقلوبهم من التوحيد والإيمان [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص:٢٥١- ٢٥٢ و مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٠٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤٠٠

[3] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢١٣

في الصحيحين عن النبى أنه قال الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان فذكر أعلا شعب الإيمان وهو قول لا إله إلا الله فإنه لا شيء أفضل منها كما فى الموطأ وغيره عن النبى أنه قال أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وفى الترمذي وغيره أنه قال من مات وهو يعلم أن لا اله الا الله دخل الجنة وفى الصحيح عنه أنه قال لعمه عند الموت يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله وقد تظاهرت الدلائل على أن أحسن الحسنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك وهو الذنب الذي لا يغفره الله كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} النساء٤٨ وتلك الحسنة التى لابد من سعادة صاحبها كما ثبت فى الصحيح عنه حديث الموجبتين موجبة السعادة وموجبة الشقاوة فمن مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة وأما من مات يشرك بالله شيئا دخل النار وذكر فى الحديث أنها أعلا شعب الايمان وفى الصحيحين عنه أنه قال لوفد عبدالقيس آمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الايمان بالله شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتؤدوا خمس المغنم فجعل هذه الأعمال من الإيمان وقد جعلها من الإسلام فى حديث جبرائيل الصحيح لما أتاه فى صورة أعرابي وسأله عن الايمان فقال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره وسأله عن الاسلام فقال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت وفى حديث فى المسند قال الإسلام علانية والإيمان فى القلب فأصل الإيمان فى القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد وما كان فى القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح واذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب ايمان القلب ومقتضاه وهى تصديق لما فى القلب ودليل عليه وشاهد له وهى شعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له لكن ما فى القلب هو الأصل لما على الجوارح كما قال أبو هريرة رضي الله عنه أن القلب ملك والاعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده واذا خبث

الملك خبثت جنوده وفى الصحيحين عنه أنه قال ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب [1]

فتوحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة وإستعانة هي قطب رحى الدين وذلك أن العبد بل كل حى بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره والمنفعة للحى هى من جنس النعيم واللذة والمضرة هى من جنس الألم والعذاب فلابد له من أمرين أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذى ينتفع ويلتذ به والثانى هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه وهذان هما الشيئان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء أحدها أمر هو محبوب مطلوب الوجود والثانى أمر مكروه مبغض مطلوب العدم والثالث الوسيلة الى حصول المطلوب المحبوب والرابع الوسيلة الى دفع المكروه فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد بل ولكل حى لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها وأما ما ليس بحى فالكلام فيه على وجه آخر إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه أحدها أن الله تعالى هو الذى يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه وهو المعين على دفع المكروه فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعه دون ما سواه وهذا معنى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة٥ فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب فالأول من معنى الألوهية والثانى من معنى الربوبية إذ الاله هو الذى يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما والرب هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع أحواله من العبادة وغيرها وكذلك قوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}هود٨٨ وقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}هود١٢٣ وقوله {عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}الممتحنة٤ وقوله تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ}الفرقان٥٨ وقوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}الرعد٣٠ وقوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً {٨} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً {٩}المزمل٨-٩ فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين الوجه الثانى ان الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له فبذكره تطمئن قلوبهم وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم ولا شىء يعطيهم فى الآخرة أحب اليهم من النظر

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٤٣-٦٤٤

اليه ولا شيء يعطيهم فى الدنيا أعظم من الإيمان به وحاجتهم اليه فى عبادتهم إياه تألههم كحاجتهم وأعظم فى خلقه لهم وربوبيته إياهم فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم وبذلك يصيرون عاملين متحركين ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال بل {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}طه١٢٤ ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات وكان التوحيد بقول لا إله إلا الله رأس الأمر [١]

## اخلاص الدين لله هو الدين الذى لايقبل الله سواه

إن المحبة لله نوعان محبة له نفسه ومحبة لما منهم من الاحسان وكذلك الحمد له نوعان حمد لله على ما يستحقه بنفسه وحمد على إحسانه لعبده فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة وأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة ففى صحيح مسلم ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وفى الصحيحين عن النبى انه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يجب المرء لايحبه الا الله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول فصل محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده بل هى اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين وكما ان التصديق به اصل كل قول من أقوال الايمان والدين فان كل حركة فى الوجود انما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك فى قاعدة المحبة من القواعد

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢٠

الكبار      فجميع الاعمال الايمانية الدينية لاتصدر الا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لايكون عملا صالحا بل جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه كما ثبت فى الصحيح عن النبى انه قال      يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى فانا منه برئ وهو كله للذى أشرك      وثبت فى الصحيح فى حديث الثلاثة الذين هم اول من تسعر بهم النار      القارئ المرائى والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى      بل اخلاص الدين لله هو الدين الذى لايقبل الله سواه وهو الذى بعث به الأولين والأخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة اهل الايمان وهذا هو خلاصة الدعوةالنبوية وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابليس انه قال   {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٨٢} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٨٣}ص٨٢ -٨٣      وقال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}الحجر٤٢   وقال   {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {٩٩} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{١٠٠}النحل٩٩-١٠٠   فبين ان سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال فى قصة يوسف    {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}يوسف٢٤

واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى  {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}ص٨٥   وقد قال سبحانه  {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨  وهذه الآية فى حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لايغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء واما قوله    {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣   فتلك فى حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها     وقد اخبر سبحانه ان الآولين والآخرين انما امروا بذلك فى غير موضع كالسورة التى قرأها النبى على ابى لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال    {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{٤} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء {٥}  البينة٤-٥ الآية    وهذا حقيقة قول لا اله إلاالله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى   {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٢٥  وقال {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}الزخرف٤٥   وقال تعالى  {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ

وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}النحل٣٦ وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}الأعراف٥٩ وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}[1]

وهذا أول الكلمات العشر التي أنزلها الله على موسى حيث قال أنا الله لا إله إلا انا آلهك الذي أخرجتك من أرض مصر من التعبد لا يكون لك إله غيري لا تتخذ صورا ولا تمثالا ما في السموات من فوق ومن في الأرض من أسفل وما في الماء من تحت الأرض لا تسجد لهن ولا تعبدهن إني إنا ربك العزيز وقد شهد المسيح عليه السلام أن هذا هو أعظم وصية في الناموس فعبادة الله وحده لا شريك له وان يكون الله احب إلى العبد من كل ما سواه هو أعظم وصية وكلمة جاء بها المرسلون كموسى والمسيح ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين وضد هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله تعالى [2]

## "من أحب لله وأبغض لله وأعطي لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان"

وإذا كان أصل الإيمان العملي هو حب الله تعالي ورسوله وحب الله أصل التوحيد العملي وهو أصل التأليه الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له فإن العبادة أصلها أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع وهذا هو الإسلام وأعظم الذنوب عند الله الشرك به وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء والشرك منه جليل ودقيق وخفي وجلي كما في الحديث الشرك في هذه الأمة أخفي من دبيب النمل فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله إذا كان أخفي من دبيب النمل فكيف نصنع به أو كما قال فقال ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم أصل الإشراك العملي بالله الإشراك في المحبة فمعلوم أن أصل الإشراك العملي بالله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥٠-٥١ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٦٠

[2] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٣٠

الإشراك في المحبة قال تعالي {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ}البقرة١٦٥ فأخبر أن من الناس من يشرك بالله فيتخذ أندادا يحبونهم كما يحبون الله وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من هؤلاء والمؤمنون أشد حبا لله من هؤلاء لأندادهم ولله فإن هؤلاء أشركوا بالله في المحبة فجعل المحبة مشتركة بينه وبين الأنداد والمؤمنون أخلصوا دينهم لله الذي أصله المحبة لله فلم يجعلوا لله عدلا في المحبة بل كان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما ومحبة الرسول هي من محبة الله وكذلك كل حب في الله وهو الحب لله المؤمنون يحبون لله ويبغضون لله كما في الصحيحين عن النبي انه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وفي رواية في الصحيح لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار ولهذا في الحديث من أحب لله وأبغض لله وأعطي لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان وفي الأثر ما تحاب رجلان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه لأن هذه المحبة من محبة الله وكل من كانت محبته لله أشد كان أفضل وخير الخلق محمد رسول الله وخير البرية بعده إبراهيم كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح وكل منهما خليل الله والخلة تتضمن كمال المحبة ونهايتها ولهذا لم يصلح لله شريك في الخلة بل قال صلي الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله وفي لفظ أنا أبرأ إلي كل خليل من خلته فمحبة ما يحبه الله لله من الأعيان والأعمال من تمام محبة الله وهو الحب في الله ولله وإن كان كثير من الناس يغلط في معرفة كثير من ذلك أو وجوده فيظن في أنواع من المحبة أنها محبة الله ولا تكون لله ويظن وجود المحبة لله في أمور ولا تكون المحبة لله موجودة بل قد يعتقد وجود المحبة لله وتكون معدومة وقد يعتقد في بعض الحب أنه لله ولا يكون لله كما يعتقد وجود العلم أو العبادة أو غير ذلك من الصفات في بعض الأشخاص والأحوال ولا يكون ثابتا وقد يعتقد في كثير من الأعمال أنه معمول لله ولا يكون لله فمحبة ما يحبه الله من الأعمال الباطنة والظاهرة وهي الواجبات والمستحبات إذا أحببت لله كان ذلك من محبة الله ولهذا يوجب ذلك محبة الله لعبده وكما في الحديث الصحيح عن الله تعالي من عادي لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء

أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه     وكذلك محبة كلام الله وأسمائه وصفاته كما في الحديث الصحيح في الذي كان يصلي بأصحابه فيقرأ     قل هو الله أحد     إما أن يقرأها وحدها أو يقرأ بها مع سورة أخرى فأخبروا بذلك النبي صلي الله عليه وسلم فقال سلوه لم يفعل ذلك فقال لأني أحبها فقال أن حبك إياها أدخلك الجنة     وكذلك محبة ملائكة الله وأنبيائه وعباده الصالحين كما كان عبد الله بن عمر يدعو بالمواقف في حجه فيقول اللهم اجعلني أحبك وأحب ملائكتك وأنبياءك وعبادك الصالحين اللهم حببني إليك وإلي ملائكتك وأنبيائك وعبادك الصالحين   محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات     بل محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات كما قال تعالي{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}آل عمران٣١     فإن اتباع رسوله هو من أعظم ما أوجبه الله تعالي علي عباده وأحبه وهو سبحانه أعظم شيء بغضا لمن لم يتبع رسوله فمن كان صادقا في دعوى محبة الله اتبع رسوله لا محالة وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما   الذنوب تنقص من محبة الله     والذنوب تنقص من محبة الله تعالي بقدر ذلك لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب ولم تكن الذنوب عن نفاق كما في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب حديث حمار الذي كان يشرب الخمر وكان النبي يقيم عليه الحد فلما كثر ذلك منه لعنه رجل فقال النبي لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله وفيه دلالة علي أنا منهيون عن لعنة أحد بعينه وإن كان مذنبا إذا كان يحب الله ورسوله فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات والمعاصي تنقض المحبة وهذا معني قول الشبلى لما سئل عن المحبة فقال ما غنت به جارية فلان تعصي الإله وأنت تزعم حبه     هذا محال في القياس شنيع     لو كان حبك صادقا لأطعته     إن المحب لمن أحب مطيع     وهذا كقوله     لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حيث يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن وقد تكلمنا علي هذا في غير هذا الموضع     والمقصود هنا أن نفرق بين الحب في الله ولله الذي هو داخل في محبة الله وهو من محبته وبين الحب لغير الله الذي فيه شرك في المحبة لله كما قال تعالي   {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ}البقرة١٦٥     فإن هؤلاء يشركون بربهم في الحب عادلون به جاعلون له أندادا وأولئك أخلصوا دينهم لله فكان حبهم الذي هو أصل دينهم كله لله وهذا هو الذي بعث بالله الرسل وأنزل به الكتب وأمر بالجهاد عليه كما قال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ}البقرة١٩٣ وقال تعالي {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا

وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ}التوبة٢٤ وقد علم أن محبة المؤمنين لربهم أشد من محبة هؤلاء المشركين لربهم ولأندادهم ثم إن اتخاذ الأنداد هو من أعظم الذنوب كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي قال ثم أن تزني بحليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ}الفرقان٦٨ فدعاء إله آخر مع الله هو اتخاذ ند من دون الله يحبه كحب الله إذ أصل العبادة المحبة والمحبة وإن كانت جنسا تحته أنواع فالمحبوبات المعظمة لغير الله قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد كقوله في الحديث الصحيح تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش إن أعطي رضي وإن منع سخط فسمي هؤلاء الأربعة الذين إن أعطوا رضوا وإن منعوا سخطوا لأنها محبتهم ومرادهم عبادا لها حيث قال عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد القطيفة وعبد الخميصة [1]

## الشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله

و حقيقة الدين هى عبادة الله وحده لا شريك له وهى حقيقة دين الاسلام وهو ان يستسلم العبد لله رب العالمين لا يستسلم لغيره فمن استسلم له ولغيره كان مشركا والله {لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}النساء٤٨ ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}غافر٦٠ ودين الاسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين وقوله تعالى {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ}آل عمران٨٥عام فى كل زمان ومكان فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الاسلام الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له [2]

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٦١-٦٥ و مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٢٥٦

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢١٩

إعلم رحمك الله أن الشرك بالله أعظم ذنب عصى الله به قال الله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}النساء٤٨ وفى الصحيحين أنه سئل أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك زالند المثل قال تعالى {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}البقرة٢٢ وقال تعالى {وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}الزمر٨ فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الألهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة فإن الله سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته لأنه المألوه المعبود الذى تألهه القلوب وترغب إليه وتفزع إليه عند الشدائد وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية فكيف يصلح أن يكون إلها قال الله تعالى {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ}الزخرف١٥ وقال تعالى {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً}مريم٩٣ وقال الله تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً}النساء١٧٢ وقال تعالى {وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}الذاريات٥١ وقال تعالى {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ}الزمر١١ [1]

ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات الا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا اياه ولا يستعين الا به ولا يتوكل الا عليه ولا يفرح الا بما يحبه ويرضاه ولا يكره الا ما يبغضه الرب ويكرهه ولا يوالي الا من والاه الله ولا يعادى الا من عاداه الله ولا يحب إلا الله ولا يبغض شيئا الا لله ولا يعطى الا الله ولا يمنع الا الله فكلما قوى اخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك والشرك غالب على النصارى والكبر غالب على اليهود قال تعالى فى النصارى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}التوبة٣١ وقال فى اليهود {أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ}البقرة٨٧ وقال تعالى {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٨٧-٨٨

سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً}الأعراف١٤٦ ولما كان الكبر مستلزما للشرك والشرك ضد الاسلام وهو الذنب الذى لا يغفره الله {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}النساء٤٨وقال {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ كان الانبياء جميعهم مبعوثين بدين الاسلام فهو الدين الذى لا يقبل الله غيره لا من الاولين ولا من الآخرين قال فى حق ابراهيم {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {١٣٠} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{١٣١}البقرة١٣٠-١٣١ الى قوله {فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}البقرة١٣٢ [1]

## الشرك منع الاصل فلم يك في النفس استعداد للفلاح فى الاخرة

أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ وذلك هو أصل ما أمرهم به على السن الرسل كما قال نوح وهود وصالح وابراهيم وشعيب {اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ} هود٥٠ وقال{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ}البقرة١٣٠ الى قوله {إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}البقرة١٣٣ لموسي {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}طه١٤وقال المسيح {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}المائدة١١٧ والاسلام هو الاستسلام لله وحده وهو أصل عبادته وحده وذلك يجمع معرفته ومحبته والخضوع له وهذا المعنى الذي خلق الله له الخلق هو أمر وجودي من باب المأمور به ثم الأمر بعد ذلك بما هو كمال ما خلق له واما المنهى عنه فاما مانع من أصل ما خلق له واما من كمال ما خلق له نهوا عن الاشراك لأنه مانع من الاصل وهو ظلم فى الربوبية كما قال تعالى {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}لقمان١٣ ومنعوا عن ظلم بعضهم فى النفوس والاموال والابضاع والاعراض لأنه مانع من كمال ما خلق له فظهر

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص:١٩٨- ١٩٩ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٨٩

ان فعل المأمور به أصل وهو المقصود وان ترك المنهى عنه فرع وهو التابع وقال تعالى{إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ لان الشرك منع الاصل فلم يك في النفس استعداد للفلاح فى الاخرة بخلاف ما دونه فان مع المغفور له أصل الايمان الذي هو سبب السعادة [1]

## المسلمون عبدوا الله وحده بما شرع ولم يعبدوه بالبدع

وجماع الدين شيئان احدهما ان لا نعبد الا الله تعالى والثانى ان نعبده بما شرع لا نعبده بالبدع كما قال تعالى {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} هود٧ قال الفضيل بن عياض أخلصه وأصوبه قيل له ما اخلصه وأصوبه قال إن العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة وكان عمر بن الخطاب يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وهذا هو دين الاسلام الذى ارسل الله به رسله وأنزل به كتبه وهو الاستسلام لله وحده فمن لم يستسلم له كان مستكبرا عن عبادته وقد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر٦٠ ومن استسلم لله ولغيره كان مشركا فقد قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}النساء٤٨ ولهذا كان الله حق لا يشركه فيه احد من المخلوقين فلا يعبد الا الله ولا يخاف الا الله ولا يتقى الا الله ولا يتوكل الا على الله ولا يدعى الا الله كما قال تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{٧} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{٨}الشرح٧-٨ [2]

## ما دون الشرك فهو مع التوبة مغفور وبدون التوبة معلق بالمشيئة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١١٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٣-٢٤ و منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٧١

أن الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها فإن الشرك لا يغفره الله إلا بتوبة كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ في موضعين من القرآن وما دون الشرك فهو مع التوبة مغفور وبدون التوبة معلق بالمشيئة كما قال تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣ فهذا في حق التائبين ولهذا عمم وأطلق وختم أنه يغفر الذنوب جميعا فهذا في حق التائبين وقال في تلك الآية {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فخص ما دون الشرك وعلقه بالمشيئة فإذا كان الشرك لا يغفر إلا بتوبة وأما ما دونه فيغفره الله للتائب وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء فالاعتراف بالخطيئة مع التوحيد إن كان متضمنا للتوبة أوجب المغفرة وإذا غفر الذنب زالت عقوبته فإن المغفرة هي وقاية شر الذنب ومن الناس من يقول الغفر الستر ويقول إنما سمي المغفرة والغفار لما فيه من معنى الستر وتفسير اسم الله الغفار بأنه الستار وهذا تقصير في معنى الغفر فإن المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه وأما مجرد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن ومن عوقب على الذنب باطنا أو ظاهرا فلم يغفر له وإنما يكون غفران الذنب إذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب وأما إذا ابتلي مع ذلك بما يكون سببا في حقه لزيادة أجره فهذا لا ينافي المغفرة وكذلك إذا كان من تمام التوبة أن يأتي بحسنات يفعلها فإن من يشترط في التوبة من تمام التوبة وقد يظن الظان أنه تائب ولا يكون تائبا بل يكون تاركا والتارك غير التائب فإنه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله أو المقتضى لعجزه عنه أو تنتفي إرادته له بسبب غير ديني وهذا ليس بتوبة بل لا بد من أن يعتقد أنه سيئة ويكره فعله لنهي الله عنه ويدعه لله تعالى لا لرغبة مخلوق ولا لرهبة مخلوق فإن التوبة من أعظم الحسنات والحسنات كلها يشترط فيها الإخلاص وموافقة أمره كما قال الفضيل بن عياض في قوله {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}الملك٢ قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وبسط الكلام في التوبة له موضع آخر [1]

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٥٠- ٣٥١ و مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٨٢-٦٨٣ و التحفة العراقية ج: ١

# المغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان

وأما قوله يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا وفي رواية وأنا أغفر الذنوب ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان أحدهما المغفرة لمن تاب كما في قوله تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {٥٣} وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ{٥٤} الزمر٥٣-٥٤ فهذا السياق مع سبب نزول الآية يبين أن المعنى لا ييأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ما كانت فإن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب وقد دخل في هذا العموم الشرك وغيره من الذنوب فإن الله تعالى يغفر ذلك لمن تاب منه قال تعالى {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ} التوبة٥ إلى قوله {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} التوبة٥ وقال في الآية الأخرى {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} التوبة١١ وقال {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ} المائدة٧٣ إلى قوله {أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} المائدة٧٤ وهذا القول الجامع بالمغفرة لكل ذنب للتائب منه كما دل عليه القرآن والحديث هو الصواب عند جماهير أهل العلم وإن كان من الناس من يستثني بعض الذنوب كقول بعضهم إن توبة الداعية إلى البدع لا تقبل باطنا للحديث الإسرائيلي الذي فيه فكيف من أضللت وهذا غلط فإن الله قد بين في كتابه وسنة رسوله أنه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع وقد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} البروج١٠ قال الحسن البصري انظروا إلى هذا الكرم عذبوا أولياءه وفتنوهم ثم وهو يدعوهم إلى التوبة وكذلك توبة القاتل ونحوه وحديث أبي سعيد المتفق عليه في الذي قتل تسعة وتسعين نفسا يدل على قبول توبته وليس في الكتاب والسنة ما ينافي ذلك ولا نصوص الوعيد فيه وفي غيره من الكبائر بمنافية لنصوص قبول التوبة فليست آية الفرقان بمنسوخة بآية النساء إذ لا منافاة بينهما فإنه قد علم يقينا أن كل ذنب فيه وعيد فإن لحوق الوعيد مشروط بعدم التوبة إذ نصوص التوبة

مبنية لتلك النصوص كالوعيد في الشرك وأكل الربا وأكل مال اليتيم والسحر وغير ذلك من الذنوب ومن قال من العلماء توبته غير مقبولة فحقيقة قوله التي تلائم أصول الشريعة أن يراد بذلك أن التوبة المجردة تسقط حق الله من العقاب وأما حق المظلوم فلا يسقط بمجرد التوبة وهذا حق ولا فرق في ذلك بين القاتل وسائر الظالمين فمن تاب من ظلم لم يسقط بتوبته حق المظلوم لكن من تمام توبته أن يعوضه بمثل مظلمته وإن لم يعوضه في الدنيا فلا بد له من العوض في الآخرة فينبغي للظالم التائب أن يستكثر من الحسنات حتى إذا استوفى المظلومون حقوقهم لم يبق مفلسا ومع هذا فإذا شاء الله أن يعوض المظلوم من عنده فلا راد لفضله كما إذا شاء أن يغفر مادون الشرك لمن يشاء ولهذا في حديث القصاص الذي ركب فيه جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس شهرا حتى شافهه به وقد رواه الإمام أحمد وغيره واستشهد به البخاري في صحيحه وهو من جنس حديث الترمذي صحاحه أو حسانه قال فيه إذا كان يوم القيامة فإن الله يجمع الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار قبله مظلمة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة حتى أقصه منه فبين في الحديث العدل والقصاص بين أهل الجنة وأهل النار وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد أن أهل الجنة إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة وقد قال سبحانه لما قال{وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً}الحجرات١٢ والاغتياب من ظلم الأعراض قال {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}الحجرات١٢ فقد نبههم على التوبة من الاغتياب وهو من الظلم وفي الحديث الصحيح من كان عنده لأخيه مظلمة في دم أو مال أو عرض فليأته فليستحل منه قبل أن يأتي يوم ليس فيه درهم ولا دينار إلا الحسنات والسيئات فإن كان له حسنات وإلا أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم يلقى في النار أو كما قال وهذا فيما علمه المظلوم من العوض فأما إذا اغتابه أو قذفه ولم يعلم بذلك فقد قيل من شرط توبته إعلامه وقيل لا يشترط ذلك وهذا قول الأكثرين وهما روايتان عن أحمد لكن قوله مثل هذا أن يفعل مع المظلوم حسنات كالدعاء له والاستغفار وعمل صالح يهدى إليه يقوم مقام اغتيابه وقذفه قال الحسن البصري كفارة الغيبة أن نستغفر لمن اغتبته وأما الذنوب التي يطلق الفقهاء فيها نفي قبول التوبة مثل قول أكثرهم لا تقبل توبة الزنديق وهو المنافق وقولهم إذا تاب المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه حدود الله وكذلك قول الكثير منهم أو أكثرهم

في سائر الجرائم كما هو أحد قولي الشافعي وأصح الروايتين عن أحمد  وقولهم في هؤلاء إذا تابوا بعد الرفع إلى الإمام لم تقبل توبتهم فهذا إنما يريدون به رفع العقوبة المشروعة عنهم أى لا تقبل توبتهم بحيث يخلى بلا عقوبة بل يعاقب إما لأن توبته غير معلومة الصحة بل يظن به الكذب فيها وإما لأن رفع العقوبة بذلك يفضي إلى انتهاك المحارم وسد باب العقوبة على الجرائم ولا يريدون بذلك أن من تاب من هؤلاء توبة صحيحة فإن الله لا يقبل توبته في الباطن إذ ليس هذا قول أحد من أئمة الفقهاء  بل هذه التوبة لا تمنع إلا إذا عاين أمر الآخرة كما  قال تعالى  {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{١٧} وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ {١٨}  النساء ١٧-١٨ الآية  قال أبو العالية  سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقالوا لي كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب  وأما من تاب عند معاينة الموت فهذا كفرعون الذي قال  أنا الله فلما أدركه الغرق {قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ{٩٠} آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ{٩١}يونس٩٠-٩١        وهذا استفهام إنكار بين به أن هذه التوبة ليست هي التوبة المقبولة المأمور بها فإن استفهام الإنكار إما بمعنى النفي إذا قابل الأخبار وإما بمعنى الذم والنهي إذا قابل الإنشاء وهذا من هذا ومثله قوله تعالى {فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{٨٣}  فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ{٨٤} فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا {٨٥}  غافر ٨٣-٨٥      الآية بين أن التوبة بعد رؤية البأس لاتنفع وأن هذه سنة الله التي قد خلت في عباده كفرعون وغيره وفي الحديث       إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر       وروي ما لم يعاين      وقد ثبت في      الصحيحين     أنه صلى الله عليه وسلم عرض على عمه التوحيد في مرضه الذي مات فيه وقد عاد يهوديا كان يخدمه فعرض عليه الإسلام فأسلم فقال       الحمد لله الذي أنقذه بي من النار     ثم قال لأصحابه      آووا أخاكم       ومما يبين أن المغفرة العامة في الزمر هي للتائبين أنه قال في سورة النساء  {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء١١٦  فقيد المغفرة بما دون الشرك وعلقها على المشيئة وهناك أطلق وعمم فدل هذا التقييد والتعليق على أن هذا في حق غير التائب ولهذا استدل أهل السنة بهذه الآية على جواز المغفرة لأهل الكبائر في الجملة خلافا لمن أوجب نفوذ الوعيد بهم من الخوارج والمعتزلة وإن كان المخالفون لهم قد أسرف فريق منهم من المرجئة حتى توقفوا في

لحوق الوعيد بأحد من أهل القبلة كما يذكر عن غلاتهم أنهم نفوه مطلقا ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه ونصوص الكتاب والسنة مع اتفاق سلف الأمة وأئمتها متطابقة على أن من أهل الكبائر من يعذب وأنه لايبقى في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان [1]

وأما جمهور المنتسبين الى السنة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم فيقطعون بان الله يعذب بعض أهل الذنوب بالنار ويعفو عن بعضهم كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}النساء٤٨ فهذا فيه الإخبار بانه يغفر ما دون الشرك وأنه يغفر لمن يشاء لا لكل أحد [2]

## الظلم ثلاثة دواوين

وقوله {أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}الأعراف٢٩ أمر مع القسط بالتوحيد الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له وهذا أصل الدين وضده هو الذنب الذى لايغفر قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ وهو الدين الذى أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به إلى جميع الأمم قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٢٥ وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}الزخرف٤٥ وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}النحل٣٦ وقال تعالى {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}الشورى١٣ وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ {٥١} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ{٥٢}المؤمنون٥١ ـ٥٢ ولهذا ترجم البخارى فى صحيحه باب ما جاء فى أن دين الأنبياء واحد وذكر الحديث الصحيح فى ذلك

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٣٠ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص:١٨٦ـ ١٩٢

[2] النبوات ج: ١ ص: ١٠٦

وهو الإسلام العام الذى إتفق عليه جميع النبين قال نوح عليه السلام {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}يونس٧٢ وقال تعالى فى قصة إبراهيم {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{١٣١} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{١٣٢}البقرة ١٣١-١٣٢ {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ}يونس٨٤ وقال تعالى {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}آل عمران٥٢ وقال فى قصة بلقيس {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}النمل٤٤ وقال {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ}المائدة٤٤ وهذا التوحيد الذى هو اصل الدين هو أعظم العدل وضده وهو الشرك أعظم الظلم كما أخرجاه فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال لما أنزلت هذه الآية {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}الأنعام٨٢ شق ذلك على أصحاب النبى وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم وفى الصحيحين عن إبن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم قال إن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزانى بحليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً}الفرقان٦٨ الآية وقد جاء عن غير واحد من السلف وروى مرفوعا الظلم ثلاثة دواوين فديوان لا يغفر الله منه شيئا وديوان لا يترك الله منه شيئا وديوان لا يعبأ الله به شيئا فأما الديوان الذى لا يغفر الله منه شيئا فهو الشرك فإن الله لا يغفر أن يشرك به وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا فهو ظلم العباد بعضهم بعضا فإن الله لا بد أن ينصف المظلوم من الظالم وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا فهو ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه أى مغفرة هذا الضرب ممكنة بدون رضى الخلق فإن شاء عذب وهذا الظالم لنفسه وإن شاء غفر له وقد بسطنا الكلام في هذه الأبواب الشريفة والأصول الجامعة في القواعد وبينا أنواع الظلم وبينا كيف كان الشرك أعظم أنواع الظلم ومسمى الشرك جليله ودقيقه فقد جاء في الحديث الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل وروي أن هذه الآية نزلت في أهل الرياء {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}الكهف١١٠ وكان شداد بن أوس يقول يا بقايا العرب يا بقايا العرب إنما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية قال أبو داود السجستاني صاحب السنن المشهورة الخفية حب الرياسة وذلك أن حب الرياسة هو أصل البغي والظلم كما أن

الرياء هو من جنس الشرك أو مبدأ الشرك والشرك أعظم الفساد كما أن التوحيد أعظم الصلاح [1]

## الفرق التي كفرت أهل القبلة بالذنوب

لما قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان وسار على بن ابي طالب إلى العراق وحصل بين الأمة من الفتنة والفرقة يوم الجمل ثم يوم صفين ما هو مشهور خرجت الخوارج المارقون على الطائفتين جميعا وكان النبى قد أخبر بهم وذكر حكمهم قال الإمام احمد صح الحديث فى الخوارج من عشرة أوجه وهذه العشرة أخرجها مسلم فى صحيحه موافقة لاحمد وروى البخاري منها عدة أوجه وروى أحاديثهم أهل السنن والمسانيد من وجوه آخر ومن أصح حديثهم حديث علي بن ابي طالب وابي سعيد الخدري ففي الصحيحين عن علي بن ابي طالب أنه قال إذا حدثتكم عن رسول الله حديثا فوالله لأن أخر من السماء إلى الأرض أحب إلي من أن أكذب عليه وإن حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيخرج قوم فى آخر الزمان احداث الاسنان سفهاء الاحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيمتوهم فإقتلوهم فإن في قتلهم اجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة وفي الصحيحين عن ابي سعيد قال بعث علي بن ابي طالب إلى النبى من اليمن بذهيبة فى ادم مقروض لم تحصل من ترابها فقال فقسمها بين أربعة نفر فقال رجل من اصحابه كنا أحق بهذا من هؤلاء قال فبلغ ذلك النبى فقال الا تأمنوني وانا امين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساءا قال فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الازار فقال يا رسول الله اتق الله فقال ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله قال ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد يا رسول الله الا اضرب عنقه فقال لا لعله أن يكون يصلي قال خالد وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه فقال رسول الله اني لم أومر أن انقب عن قلوب الناس ولا اشق بطونهم قال ثم نظر إليه وهو مقف فقال انه يخرج من ضئضىء هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية قال أظنه قال لئن ادركتهم لأقتلنهم قتل عاد اللفظ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص:١٦٠- ١٦٢ و الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤١٥ - ٤١٧

لمسلم ولمسلم في بعض الطرق عن ابي سعيد أن النبى ذكر قوما يكونون فى أمته يخرجون فى فرقة من الناس سيماهم التحليق ثم قال شر الخلق أو من شر الخلق يقتلهم ادنى الطائفتين إلى الحق قال ابو سعيد أنتم قتلتموهم يا اهل العراق وفى لفظ له تقتلهم اقرب الطائفتين إلى الحق وهذا الحديث مع ما ثبت فى الصحيح عن ابي بكرة أن النبى قال للحسن بن علي ان ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين فبين أن كلا الطائفتين كانت مؤمنة وأن اصطلاح الطائفتين كما فعله الحسن كان أحب إلى الله سبحانه ورسوله من اقتتالهما وأن إقتتالهما وإن لم يكن مأمورا به فعلى بن ابي طالب وأصحابه أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه وأن قتال الخوارج مما أمر به صلى الله عليه وسلم ولذلك اتفق على قتالهم الصحابة والأئمة وهؤلاء الخوارج لهم اسماء يقال لهم الحرورية لأنهم خرجوا بمكان يقال له حروراء ويقال لهم أهل النهروان لأن عليا قاتلهم هناك ومن أصنافهم الاباضية أتباع عبدالله بن اباض و الأزارقة اتباع نافع بن الأزرق و النجدات أصحاب نجدة الحروري وهم أول من كفر أهل القبلة بالذنوب بل بما يرونه هم من الذنوب واستحلوا دماء أهل القبلة بذلك فكانوا كما نعتهم النبى يقتلون اهل الاسلام ويدعون اهل الاوثان وكفروا علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان ومن والاهما وقتلوا علي بن ابي طالب مستحلين لقتله قتله عبدالرحمن بن ملجم المرادي منهم وكان هو وغيره من الخوارج مجتهدين فى العبادة لكن كانوا جهالا فارقوا السنة والجماعة فقال هؤلاء ما الناس إلا مؤمن أو كافر والمؤمن من فعل جميع الواجبات وترك جميع المحرمات فمن لم يكن كذلك فهو كافر مخلد فى النار ثم جعلوا كل من خالف قولهم كذلك فقالوا أن عثمان وعليا ونحوهما حكموا بغير ما أنزل الله وظلموا فصاروا كفارا ومذهب هؤلاء باطل بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة فإن الله سبحانه أمر بقطع يد السارق دون قتله ولو كان كافرا مرتدا لوجب قتله لأن النبى قال من بدل دينه فإقتلوه وقال لا يحل دم إمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كفر بعد إسلام وزنا بعد احصان أو قتل نفس يقتل بها وأمر سبحانه أن يجلد الزاني والزانية مائة جلدة ولو كانا كافرين لأمر بقتلهما وأمر سبحانه بأن يجلد قاذف المحصنة ثمانين جلدة ولو كان كافرا لأمر بقتله وكان النبى صلى الله عليه وسلم يجلد شارب الخمر ولم يقتله بل قد ثبت عنه فى صحيح البخارى وغيره أن رجلا كان يشرب الخمر وكان إسمه عبدالله حمارا وكان يضحك النبى وكان كلما أتي به اليه جلده فأتي به إليه مرة فلعنه رجل فقال النبى لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله فنهي عن لعنه بعينه وشهد له بحب الله ورسوله مع أنه قد لعن شارب الخمر عموما وهذا من أجود ما يحتج به على أن الأمر بقتل الشارب فى

الثالثة و الرابعة منسوخ لأن هذا أتي به ثلاث مرات وقد أعيى الأئمة الكبار جواب هذا الحديث ولكن نسخ الوجوب لا يمنع الجواز فيجوز أن يقال يجوز قتله إذا رأى الإمام المصلحة فى ذلك فان ما بين الأربعين إلى الثمانين ليس حدا مقدرا فى أصح قولي العلماء كما هو مذهب الشافعي وأحمد فى إحدي الروايتين بل الزيادة على الأربعين إلى الثمانين ترجع إلى إجتهاد الإمام فيفعلها عند المصلحة كغيرها من أنواع التعزير وكذلك صفة الضرب فانه يجوز جلد الشارب بالجريد والنعال وأطراف الثياب بخلاف الزاني والقاذف فيجوز أن يقال قتله فى الرابعة من هذا الباب و أيضا فإن الله سبحانه قال {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{٩} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{١٠}الحجرات٩ -١٠ فقد وصفهم بالإيمان والأخوة وأمرنا بالاصلاح بينهم فلما شاع فى الأمة أمر الخوارج تكلمت الصحابة فيهم ورووا عن النبى صلى الله عليه وسلم الأحاديث فيهم وبينوا ما في القرآن من الرد عليهم وظهرت بدعتهم فى العامة فجاءت بعدهم المعتزلة الذين اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري وهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزال وأتباعهما فقالوا أهل الكبائر مخلدون فى النار كما قالت الخوارج ولا نسميهم لا مؤمنين ولا كفارا بل فساق ننزلهم منزلة بين منزلتين وأنكروا شفاعة النبى لأهل الكبائر من أمته وأن يخرج من النار بعد أن يدخلها قالوا ما الناس إلا رجلان سعيد لا يعذب أو شقى لا ينعم والشقى نوعان كافر وفاسق ولم يوافقوا الخوارج على تسميتهم كفارا وهؤلاء يرد عليهم بمثل ما ردوا به على الخواج فيقال لهم كما أنهم قسموا الناس إلى مؤمن لا ذنب له وكافر لا حسنة له قسمتم الناس إلى مؤمن لا ذنب له وإلى كافر وفاسق لا حسنة له فلو كانت حسنات هذا كلها محبطة وهو مخلد فى النار لإستحق المعاداة المحضة بالقتل والاسترقاق كما يستحقها المرتد فان هذا قد أظهر دينه بخلاف المنافق وقد قال تعالى فى كتابه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فجعل ما دون ذلك الشرك معلقا بمشيئته ولا يجوز أن يحمل هذا على التائب فإن التائب لا فرق فى حقه بين الشرك وغيره كما قال سبحانه فى الآية الأخرى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ فهنا عمم وأطلق لأن المراد به التائب وهناك خص وعلق وقال تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ{٣٢} جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً

وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ{٣٣} وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ{٣٤}الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ{٣٥} فاطر٣٢-٣٥ فقد قسم سبحانه الأمة التى أورثها الكتاب واصطفاها ثلاثة أصناف ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات وهؤلاء الثلاثة ينطبقون على الطبقات الثلاث المذكورة فى حديث جبريل الاسلام و الايمان و الاحسان كما سنذكره ان شاء الله ومعلوم أن الظالم لنفسه ان أريد به من اجتنب الكبائر والتائب من جميع الذنوب فذلك مقتصد أو سابق فانه ليس أحد من بنى آدم يخلو عن ذنب لكن من تاب كان مقتصدا أو سابقا كذلك من اجتنب الكبائر كفرت عنه السيئات كما قال تعالى {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}النساء٣١ فلابد أن يكون هناك ظالم لنفسه موعود بالجنة ولو بعد عذاب يطهر من الخطايا فان النبى ذكر أن ما يصيب المؤمن فى الدنيا من المصائب مما يجزى به ويكفر عنه خطاياه كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه وفى المسند وغيره أنه لما نزلت هذه الآية {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ قال أبو بكر يا رسول الله جاءت فاطمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللأواء فذلك مما تجزون به وأيضا فقد تواترت الأحاديث عن النبى فى أنه يخرج أقوام من النار بعد ما دخلوها وأن النبى يشفع فى أقوام دخلوا النار وهذه الأحاديث حجة على الطائفتين الوعيدية الذين يقولون من دخلها من أهل التوحيد لم يخرج منها وعلى المرجئة الواقفة الذين يقولون لا ندرى هل يدخل من أهل التوحيد النار أحد أم لا كما يقول ذلك طوائف من الشيعة والأشعرية كالقاضى أبى بكر وغيره وأما ما يذكر عن غلاة المرجئة أنهم قالوا لن يدخل النار من أهل التوحيد أحد فلا نعرف قائلا مشهورا من المنسوبين الى العلم يذكر عنه هذا القول و أيضا فان النبى قد شهد لشارب الخمر المجلود مرات بأنه يحب الله ورسوله ونهى عن لعنته ومعلوم أن من أحب الله ورسوله أحبه الله ورسوله بقدر ذلك وأيضا فان الذين قذفوا عائشة أم المؤمنين كان فيهم مسطح بن اثاثة وكان من أهل بدر وقد أنزل الله فيه لما حلف أبو بكر أن لا يصله {وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}النور٢٢ وان قيل ان مسطحا وأمثاله تابوا لكن الله لم يشرط فى الأمر بالعفو عنهم والصفح والاحسان اليهم التوبة وكذلك حاطب بن أبى بلتعة كاتب المشركين باخبار النبى فلما أراد

عمر قتله قال النبى أنه قد شهد بدرا وما يدريك ان الله قد أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وكذلك ثبت عنه فى الصحيح أنه قال لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة وهذه النصوص تقتضى أن السيئات مغفورة بتلك الحسنات ولم يشترط مع ذلك توبة والا فلا اختصاص لأولئك بهذا والحديث يقتضى المغفرة بذلك العمل واذا قيل ان هذا لأن أحدا من أولئك لم يكن له الا صغائر لم يكن ذلك من خصائصه أيضا وان هذا يستلزم تجويز الكبيرة من هؤلاء المغفور لهم و أيضا قد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب أحدها التوبة وهذا متفق عليه بين المسلمين [1]

## هذه الآية ترد على الوعيدية و على المرجئة الواقفية

فى قوله تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {٥٣} وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ {٥٤} الزمر٥٣-٥٤ و قد ذكرنا فى غير موضع أن هذه الآية فى حق التائبين و أما آيتا النساء قوله {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء١١٦ فلا يجوز أن تكون فى حق التائبين كما يقوله من يقوله من المعتزلة فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضا بنصوص القرآن وإتفاق المسلمين وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد وتلك الآية فيها تعميم و إطلاق هذه خص فيها الشرك بأنه لا يغفره و ما عداه لم يجزم بمغفرته بل علقه بالمشيئة فقال{وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء١١٦ و قد ذكرنا فى غير موضع أن هذه كما ترد على الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فهي ترد أيضا على المرجئة الواقفية الذين يقولون يجوز أن يعذب كل فاسق فلا يغفر لأحد ويجوز أن يغفر للجميع فإنه قد قال {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء١١٦ فأثبت أن ما دون ذلك هو مغفور لكن لمن يشاء فلو كان لا يغفره لأحد بطل قوله{وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ}النساء١١٦ ولو كان يغفره لكل أحد بطل قوله {لِمَن يَشَاءُ}النساء١١٦ فلما أثبت أنه يغفر ما دون ذلك وأن المغفرة هى لمن يشاء دل ذلك على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك لكنها

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٧٩-٤٨٧

لبعض الناس وحينئذ فمن غفر له لم يعذب و من لم يغفر له عذب وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة وهو القطع بأن بعض عصاة الأمة يدخل النار و بعضهم يغفر له لكن هل ذلك على وجه الموازنة و الحكمة أو لا إعتبار بالموازنة فيه قولان للمنتسبين إلى السنة من أصحابنا و غيرهم بناء على أصل الأفعال الإلهية هل يعتبر فيها الحكمة و العدل و أيضا فمسألة الجزاء فيها نصوص كثيرة دلت على الموازنة كما قد بسط فى غير هذا الموضع و المقصود هنا أن قوله {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى و إن عظمت الذنوب و كثرت فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله و إن عظمت ذنوبه و لا أن يقنط الناس من رحمة الله قال بعض السلف أن الفقيه كل الفقيه الذى لا يؤيس الناس من رحمة الله و لا يجريهم على معاصى الله و القنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته و يغفر ذنوبه وإما بان يقول نفسه لا تطاوعه على التوبة بل هو مغلوب معها و الشيطان قد إستحوذ عليه فهو ييأس من توبة نفسه و إن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له و هذا يعترى كثيرا من الناس و القنوط يحصل بهذا تارة و بهذا تارة فالأول كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة و تسعين أن الله لا يغفر له فقتله و كمل به مائة ثم دل على عالم فأتاه فسأله فأفتاه بأن الله يقبل توبته و الحديث فى الصحيحين و الثاني كالذى يرى للتوبة شروطا كثيرة و يقال له لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فييأس من أن يتوب و قد تنازع الناس فى العبد هل يصير فى حال تمتنع منه التوبة إذا أرادها و الصواب الذى عليه أهل السنة و الجمهور أن التوبة ممكنة من كل ذنب و ممكن أن الله يغفره و قد فرضوا فى ذلك من توسط أرضا مغصوبة و من توسط جرحى فكيف ما تحرك قتل بعضهم فقيل هذا لا طريق له إلى التوبة و الصحيح أن هذا إذا تاب قبل الله توبته أما من توسط الأرض المغصوبة فهذا خروجه بنية تخلية المكان و تسليمه إلى مستحقه ليس منهيا عنه ولا محرما بل الفقهاء متفقون على أن من غصب دارا و ترك فيها قماشه و ماله إذا أمر بتسليمها إلى مستحقها فإنه يؤمر بالخروج منها و بإخراج أهله و ماله منها و إن كان ذلك نوع تصرف فيها لكنه لأجل إخلائها و المشرك إذا دخل الحرم أمر بالخروج منه و إن كان فيه مرور فيه و مثل هذا حديث الأعرابى المتفق على صحته لما بال فى المسجد فقام الناس إليه فقال النبى صلى الله عليه و سلم لا تزرموه أي لا تقطعوا عليه بوله و أمرهم أن يصبوا على بوله دلوا من ماء فهو لما بدأ بالبول كان إتمامه خيرا من أن يقطعوه فيلوث ثيابه و بدنه و لو زنا رجل بإمرأة ثم تاب لنزع و لم يكن مذنبا بالنزع و هل هو و طء فيه قولان هما روايتان عن أحمد فلو حلف أن لا يطأ إمرأته بالطلاق

الثلاث فالذين يقولون إنه يقع به الطلاق الثلاث إذا و طئها تنازعوا هل يجوز له وطؤها على قولين هما روايتان عن أحمد أحدهما يجوز كقول الشافعى و الثانى لا يجوز كقول مالك فإنه يقول إذا أجزت الوطء لزم أن يباشرها فى حال النزع و هي محرمة و هذا إنما يجوز للضرورة لا يجوزه إبتداء و ذلك يقول النزع ليس بمحرم و كذلك الذين يقولون إذا طلع عليه الفجر و هو مولج فقد جامع لهم فى النزع قولان فى مذهب أحمد و غيره و أما على ما نصرناه فلا يحتاج إلى شيء من هذه المسائل فإن الحالف إذا حنث يكفر يمينه و لا يلزمه الطلاق الثلاث و ما فعله الناس حال التبين من أكل و جماع فلا بأس به لقوله {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ}البقرة١٨٧ و المقصود أنه لا يجوز أن يقنط أحدا و لا يقنط أحد من رحمة الله فإن الله نهى عن ذلك و أخبر أنه يغفر الذنوب جميعا فإن قيل قوله {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ معه عموم على وجه الإخبار فدل أن الله يغفر كل ذنب و معلوم أنه لم يرد أن من أذنب من كافر و غيره فإنه يغفر له و لا يعذبه لا في الدنيا و لا في الآخرة فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة و التواتر و القرآن و الإجماع إذ كان الله أهلك أمما كثيرة بذنوبها و من هذه الأمة من عذب بذنوبه إما قدرا و إما شرعا فى الدنيا قبل الآخرة و قد قال تعالى {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ و قال {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨}الزلزلة٧-٨ فهذا يقتضى أن هذه الآية ليست على ظاهرها بل المراد أن الله قد يغفر الذنوب جميعا أي ذلك مما قد يفعله أو أنه يغفره لكل تائب لكن يقال فلم أتى بصيغة الجزم و الإطلاق فى موضع التردد و التقييد قيل بل الآية على مقتضاها فإن الله أخبر أنه يغفر جميع الذنوب و لم يذكر أنه يغفر لكل مذنب بل قد ذكر فى غير مو ضع أنه لا يغفر لمن مات كافرا فقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}محمد٣٤ و قال فى حق المنافقين {سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}المنافقون٦ لكن هذا اللفظ العام فى الذنوب هو مطلق فى المذنبين فالمذنب لم يتعرض له بنفي و لا إثبات لكن يجوز أن يكون مغفورا له و يجوز أن لا يكون مغفورا له إن أتى بما يوجب المغفرة غفر له و إن أصر على ما يناقضها لم يغفر له و أما جنس الذنب فإن الله يغفره فى الجملة الكفر و الشرك و غيرهما يغفرها لمن تاب منها ليس فى الوجود ذنب لا يغفره الرب تعالى بل ما من ذنب إلا و الله تعالى يغفره فى الجملة و هذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعا و فيها رد على طوائف رد على من يقول إن الداعى إلى البدعة لا تقبل توبته و يحتجون بحديث إسرائيلى فيه أنه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت و هذا يقوله طائفة ممن ينتسب إلى السنة و الحديث و ليسوا من العلماء

بذلك كأبى علي الأهوازي و أمثاله ممن لا يميزون بين الأحاديث الصحيحة و الموضوعة و ما يحتج به و ما لا يحتج به بل يروون كلما فى الباب محتجين و قد حكى هذا طائفة قولا في مذهب أحمد أو رواية عنه و ظاهر مذهبه مع مذاهب سائر أئمة المسلمين أنه تقبل توبته كما تقبل توبة الداعى إلى الكفر و توبة من فتن الناس عن دينهم و قد تاب قادة الأحزاب مثل أبى سفيان بن حرب و الحارث ابن هشام و سهيل بن عمرو و صفوان بن أمية و عكرمة بن أبى جهل و غيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم من قتل و كانوا من أحسن الناس إسلاما و غفر الله لهم قال تعالى {قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ}الأنفال٣٨ و عمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر و الإيذاء للمسلمين و قد قال له النبى صلى الله عليه و سلم لما أسلم يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجب ما كان قبله و فى صحيح البخارى عن ابن مسعود فى قوله {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}الإسراء٥٧ قال كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم أولئك الجن و الإنس يعبدونهم ففي هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الإسلام لهم و إن كانوا هم أضلوهم أو لا و أيضا فالداعي إلى الكفر و البدعة و إن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه لكونه قبل من هذا و أتبعه و هذا عليه و زره ووزر من إتبعه إلى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم فإذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره و لا ما حمله هو لأجل إضلالهم و أما هم فسواء تاب أو لم يتب حالهم واحد و لكن توبته قبل هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى كما تاب كثير من الكفار و أهل البدع و صاروا دعاة إلى الإسلام و السنة و سحرة فرعون كانوا أئمة فى الكفر ثم أسلموا و ختم الله لهم بخير و من ذلك توبة قاتل النفس و الجمهور على أنها مقبولة و قال إبن عباس لا تقبل و عن أحمد روايتان و حديث قاتل التسعة و التسعين في الصحيحين دليل على قبول توبته و هذه الآية تدل على ذلك و آية النساء إنما فيها وعيد فى القرآن كقوله {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ و مع هذا فهذا إذا لم يتب وكل وعيد فى القرآن فهو مشروط بعدم التوبة بإتفاق الناس فبأي و جه يكون وعيد القاتل لاحقا به و إن تاب هذا فى غاية الضعف و لكن قد يقال لا تقبل توبته بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل بل التوبة تسقط حق الله و المقتول مطالبه بحقه و هذا صحيح فى جميع حقوق الآدميين حتى الدين فإن فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه سلم أنه قال الشهيد يغفر له كل شيء إلا الدين لكن حق الآدمى يعطاه من حسنات القاتل فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات حتى يكون له ما يقابل حق المقتول و لعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد

الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول فلا بد أن يبقى له سيئات يعذب بها و هذا الذى قاله قد يقع من بعض الناس فيبقى الكلام فيمن تاب و أخلص و عجز عن حسنات تعادل حق المظلوم هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يعذب به و هذا مو ضع دقيق على مثله يحمل حديث إبن عباس لكن هذا كله لا ينافى موجب الآية و هو أن الله تعالى يغفر كل ذنب الشرك و القتل و الزنا و غير ذلك من حيث الجملة فهى عامة فى الأفعال مطلقة فى الأشخاص و مثل هذا قوله {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}التوبة٥ عام في الأشخاص مطلق في أحوال الأرجل إذ قد تكون مستورة بالخف و اللفظ لم يتعرض إلى الأحوال و كذلك قوله تعالى {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ}النساء١١ عام فى الأولاد عام فى الأحوال إذ قد يكون الولد موافقا فى الدين ومخالفا وحرا وعبدا واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال و كذلك قوله {يَغْفِرُ الذُّنُوبَ}الزمر٥٣ عام فى الذنوب مطلق في أحوالها فإن الذنب قد يكون صاحبه تائبا منه و قد يكون مصرا و اللفظ لم يتعرض لذلك بل الكلام يبين أن الذنب يغفر في حال دون حال فإن الله أمر بفعل ما تغفر به الذنوب و نهى عما به يحصل العذاب يوم القيامة بلا مغفرة فقال {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ{٥٤} وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ{٥٥} أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ{٥٦} أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ{٥٧} أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ{٥٨} بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ{٥٩}الزمر٥٤-٥٩ فهذا إخبار أنه يوم القيامة يعذب نفوسا لم يغفر لها كالتى كذبت بآياته و إستكبرت و كانت من الكافرين و مثل هذه الذنوب غفرها الله لآخرين لأنهم تابوا منها فإن قيل فقد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ}آل عمران٩٠ و قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً}النساء١٣٧ قيل إن القرآن قد بين توبة الكافر و إن كان قد إرتد ثم عاد إلى الإسلام فى غير موضع كقوله تعالى {كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{٨٦} أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{٨٧} خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ{٨٨} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٨٩}ال عمران٨٦-٨٩ و قوله {كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ}آل عمران٨٦ أى أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين و لهذا قال {وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}آل عمران٨٦ فمن إرتد عن دين الإسلام لم يكن

أن هؤلاء لا يهديهم الله إلا ضالا لا يحصل له الهدى إلى أى دين إرتد و المقصود أن هؤلاء لا يهديهم الله و لا يغفر لهم إلا أن يتوبوا و كذلك قال فى قوله {مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ}النحل١٠٦ و من كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد قال {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}النحل١١٠ و هو سبحانه فى آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم ثم ذكر من لا تقبل توبته و من مات كافرا فقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ{٩٠} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{٩١}ال عمران ٩٠-٩١ و هؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالا قيل لنفاقهم و قيل لأنهم تابوا مما دون الشرك و لم يتوبوا منه و قيل لن تقبل توبتهم بعد الموت و قال الأكثرون كالحسن و قتادة و عطاء الخراساني و السدى لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت فيكون هذا كقوله {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ}النساء١٨ و كذلك قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً}النساء١٣٧ قال مجاهد و غيره من المفسرين إزدادوا كفرا ثبتوا عليه حتى ماتوا قلت و ذلك لأن التائب راجع عن الكفر و من لم يتب فإنه مستمر يزداد كفرا بعد كفر فقوله {ثُمَّ ازْدَادُواْ}آل عمران٩٠ بمنزلة قول القائل ثم أصروا على الكفر و إستمروا على الكفر و داموا على الكفر فهم كفروا بعد إسلامهم ثم زاد كفرهم ما نقص فهؤلاء لا تقبل توبتهم و هي التوبة عند حضور الموت لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب و رجع عن كفره فلم يزدد بل نقص بخلاف المصر إلى حين المعاينة فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلا عن هدمه و فى الآية الأخرى قال {لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ}النساء١٣٧ و ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم إزدادوا كفرا و قيل لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره فإذا كفر بعد ذلك و مات كافرا حبط إيمانه فعوقب بالكفر الأول و الثانى كما فى الصحيحين عن إبن مسعود قال قيل يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية فقال من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية و من أساء فى الإسلام أخذ بالأول و الآخر فلو قال{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ}النساء١٣٧ كان هؤلاء الذين ذكرهم فى آل عمران فقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}آل عمران٩٠ بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا بعد ذلك و هو المرتد التائب فهذا إذا كفر و إزداد كفرا لم يغفر له كفره السابق

أيضا فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد إزدادوا كفرا فلا يدخلون فى الآية و الفقهاء إذا تنازعوا فى قبول توبة من تكررت ردته أو قبول توبة الزنديق فذاك إنما هو فى الحكم الظاهر لأنه لا يوثق بتوبته أما إذا قدر أنه أخلص التوبة لله فى الباطن فإنه يدخل فى قوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣ و نحن حقيقة قولنا أن التائب لا يعذب لا فى الدنيا و لا فى الآخرة لا شرعا و لا قدرا و العقوبات التى تقام من حد أو تعزير إما أن يثبت سببها بالبينة مثل قيام البينة بأنه زنا أو سرق أو شرب فهذا إذا أظهر التوبة لم يوثق بها و لو درىء الحد بإظهار هذا لم يقم حد فإنه كل من تقام عليه البينة يقول قد تبت و إن كان تائبا فى الباطن كان الحد مكفرا و كان مأجورا على صبره و أما إذا جاء هو بنفسه فإعترف وجاء تائبا فهذا لا يجب أن يقام عليه الحد فى ظاهر مذهب أحمد نص عليه فى غير موضع و هي من مسائل التعليق و احتج عليها القاضي بعدة أحاديث و حديث الذى قال أصبت حدا فأقمه على فأقيمت الصلاة يدخل فى هذا لأنه جاء تائبا و إن شهد على نفسه كما شهد به ماعز و الغامدية و اختار إقامة الحد أقيم عليه و إلا فلا كما فى حديث ماعز فهلا تركتموه و الغامدية ردها مرة بعد مرة فالإمام والناس ليس عليهم إقامة الحد على مثل هذا و لكن هو إذا طلب ذلك أقيم عليه كالذى يذنب سرا و ليس على أحد أن يقيم عليه حدا لكن إذا إختار هو أن يعترف و يقام عليه الحد أقيم وإن لم يكن تائبا و هذا كقتل الذى ينغمس فى العدو هو مما يرفع الله به درجته كما قال النبى صلى الله عليه و سلم لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له و هل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله و قد قيل فى ماعز إنه رجع عن الإقرار و هذا هو أحد القولين فيه في مذهب أحمد و غيره و هو ضعيف و الأول أجود و هؤلاء يقولون سقط الحد لكونه رجع عن الإقرار و يقولون رجوعه عن الإقرار مقبول و هو ضعيف بل فرق بين من أقر تائبا و من أقر غير تائب فإسقاط العقوبة بالتوبة كما دلت عليه النصوص أولى من إسقاطها بالرجوع عن الإقرار و الإقرار شهادة منه على نفسه و لو قبل الرجوع لما قام حد بإقرار فإذا لم تقبل التوبة بعد الإقرار مع أنه قد يكون صادقا فالرجوع الذى هو فيه كاذب أولى آخره و الحمد لله رب العالمين و صلى الله على سيدنا محمد و آله و سلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٨-٣٢

# لا يخلد فى النار احد من أهل التوحيد

وقوله {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} فاطر ٣٣ بعد قوله تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} فاطر٣٢ مما يستدل به أهل السنة على انه لا يخلد فى النار احد من أهل التوحيد واما دخول كثير من أهل الكبائر النار فهذا مما تواترت به السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم كما تواترت بخروجهم من النار وشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى اهل الكبائر واخراج من يخرج من النار بشفاعة نبينا وشفاعة غيره فمن قال ان أهل الكبائر مخلدون فى النار وتأول الآية على ان السابقين هم الذين يدخلونها وان المقتصد او الظالم لنفسه لا يدخلها كما تأوله من المعتزلة فهو مقابل بتأويل المرجئة الذين لا يقطعون بدخول احد من أهل الكبائر النار ويزعمون انه اهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة من غير عذاب وكلاهما مخالف للسنة المتواترة عن النبى ولاجماع سلف الأمة وأئمتها وقد دل على فساد قول الطائفتين قول الله تعالى فى آيتين من كتابه وهو قوله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} النساء٤٨ فأخبر تعالى انه لا يغفر الشرك واخبر انه يغفر ما دونه لمن يشاء ولا يجوز ان يراد بذلك التائب كما يقوله من يقوله من المعتزلة لان الشرك يغفره الله لمن تاب وما دون الشرك يغفره الله ايضا للتائب فلا تعلق بالمشيئة ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} الزمر٥٣ فهنا عمم المغفرة واطلقها فان الله يغفر للعبد اى ذنب تاب منه فمن تاب من الشرك غفر الله له ومن تاب من الكبائر غفر الله له واى ذنب تاب العبد منه غفر الله له ففى آية التوبة عمم واطلق وفى تلك الآية خصص وعلق فخص الشرك بأنه لا يغفره وعلق ما سواه على المشيئة ومن الشرك التعطيل للخالق وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب ونبه بالشرك على ما هو اعظم منه كتعطيل الخالق أو يجوز ان لا يعذب بذنب فانه لو كان كذلك لما ذكر انه يغفر البعض دون البعض ولو كان كل ظالم لنفسه مغفورا له بلا توبة ولا حسنات ماحية لم

يعلق ذلك بالمشيئة وقوله تعالى {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ دليل على انه يغفر البعض دون البعض فبطل النفى والوقف العام [1]

## إن أكبر الكبائر الكفر والكبر

جاء فى حديث إن أكبر الكبائر الكفر والكبر وهذا صحيح فإن هذين الذنبين أساس كل ذنب فى الإنس والجن فإن إبليس هو الذى فعل ذلك أو لا وهو أصل ذلك قال الله تعالى {إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}البقرة٣٤ وقال {إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ}ص٧٤ وفى صحيح مسلم عن إبن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ولا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر فجعل الكبر يضاد الإيمان وكذلك الشرك فى مثل قوله {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}النساء٤٨ وقال إبن مسعود قال رسول الله من مات وهو لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قال وأنا أقول من مات وهو يشرك بالله شيئا دخل النار ثم من الناس من يجمع بينهما ومنهم من ينفرد له أحدهما والمؤمن الصالح عافاه الله منهما فإن الإنسان إما أن يخضع لله وحده أو يخضع لغيره مع خضوعه له أو لا يخضع لا لله ولا لغيره فالأول هو المؤمن والثانى هو المشرك والثالث هو المتكبر الكافر وقد لا يكون كافرا فى بعض المواضع والنصارى آفتهم الشرك واليهود آفتهم الكبر كما قال تعالى عن النصارى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}التوبة٣١ وقال عن اليهود {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}الأعراف١٤٦ ولهذا عوقبت اليهود بضرب الذلة والمسكنة عليهم والنصارى بالضلال والبدع والجهالة [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٨٤-١٨٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٣٣٠-٣٣١

# أحاديث الوعيد يذكر فيها السبب وقد يتخلف موجبه لموانع تدفع ذلك

وأحاديث الوعيد يذكر فيها السبب وقد يتخلف موجبه لموانع تدفع ذلك إما بتوبة مقبولة وإما بحسنات ماحية وإما بمصائب مكفرة وإما بشفاعة شفيع مطاع وإما بفضل الله ورحمته ومغفرته فإنه {لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ وما يحصل للمؤمن فى الدنيا والبرزخ والقيامة من الألم التى هى عذاب فإن ذلك يكفر الله به خطاياه كما ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه وفى المسند لما نزلت هذه الآية {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ قال أبو بكر يا رسول الله جاءت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر ألست تحزن ألست يصيبك الأذى فإن الجنة طيبة لا يدخلها إلا طيب كما قال تعالى {طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}الزمر٧٣ وفى الحديث الصحيح أنهم إذا عبروا على الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة [1]

وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين أن الوعيد فى الكتاب والسنة لأهل الكبائر موجود ولكن الوعيد الموجود فى الكتاب والسنة قد بين الله فى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أنه لا يلحق التائب بقوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣ أى لمن تاب وقال فى الآية الأخرى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فهذا فى حق من لم يتب فالشرك لا يغفر وما دون الشرك ان شاء الله غفره وان شاء عاقب عليه وفى الصحيحين عن النبى أنه قال ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه ولهذا لما نزل قوله {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ قال أبو بكر يا رسول الله قد جاءت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللأوى فذلك مما تجزون به فالمصائب فى الدنيا يكفر الله بها من خطايا المؤمن ما به

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ٣٧٥-٣٧٦

يكفر وكذلك الحسنات التى يفعلها قال الله تعالى {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ} هود١١٤ وقال النبى الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر فالله تعالى لا يظلم عبده شيئا كما قال {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨} الزلزلة ٧-٨ فالوعيد ينتفى عنه إما بتوبة وإما بحسنات يفعلها تكافىء سيئاته وإما بمصائب يكفر الله بها خطاياه وأما بغير ذلك وكما أن أحاديث الوعيد تقدم وكذلك أحاديث الوعد فقد يقول لا إله إلا الله ويجحد وجوب الصلاة والزكاة فهذا كافر يجب قتله وقد يكون من أهل الكبائر المستوجبين للنار وهذه مسألة الوعد والوعيد من اكبر مسائل العلم وقد بسطناها فى مواضع [1]

## من الشرك أن يدعو العبد غير الله

وكل من تاب من أى ذنب كان فان الله يتوب عليه كما قال تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {٥٣} وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ{٥٤} وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ{٥٥} الزمر٥٣-٥٥ فقد اخبر الله فى هذه الآية أنه يغفر الذنوب أى لمن تاب وقد قال فى الأخرى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} النساء١١٦ وهذا فى حق من لم يتب فالشرك لا يغفره الله وما دون الشرك أمره إلى الله ان شاء عاقب عليه وان شاء عفا عنه ومن الشرك أن يدعو العبد غير الله كمن يستغيث فى المخلوف والأمراض والفاقات بالأموات والغائبين فيقول يا سيدى الشيخ فلان لشيخ ميت أو غائب فيستغيث به ويستوصيه ويطلب منه ما يطلب من الله من النصر والعافية فان هذا من الشرك الذى حرمه الله ورسوله باتفاق المسلمين [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٤٨-٦٤٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٦٤

# هل الاعتراف بالخطيئة بمجرده مع التوحيد موجب لغفرانها وكشف الكربة الصادرة عنها أم يحتاج الى شىء آخر ؟

ان الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المامور بها فان الشرك لا يغفره الله الا بتوبة كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}النساء٤٨ فى موضعين من القرآن وما دون الشرك فهو مع التوبة مغفور وبدون التوبة معلق بالمشيئة كما قال تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣ فهذا فى حق التائبين ولهذا عمم واطلق وحتم انه يغفر الذنوب جميعا وقال فى تلك الاية {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فخص ما دون الشرك وعلقه بالمشيئة فاذا كان الشرك لا يغفر الا بتوبة وأما ما دونه فيغفره الله للتائب وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء فالاعتراف بالخطيئة مع التوحيد ان كان متضمنا للتوبة أوجب المغفرة واذا غفر الذنب زالت عقوبته فان المغفرة هى وقاية شر الذنب ومن الناس من يقول الغفر الستر ويقول انما سمى المغفرة والغفار لما فيه من معنى الستر وتفسير اسم الله الغفار بانه الستار وهذا تقصير فى معنى الغفر فان المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه واما مجرد ستره فقد يعاقب عليه فى الباطن ومن عوقب على الذنب باطنا أو ظاهرا فلم يغفر له وانما يكون غفران الذنب اذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب وأما اذا ابتلى مع ذلك بما يكون سببا فى حقه لزيادة اجره فهذا لا ينافى المغفرة وكذلك اذا كان من تمام التوبة أن يأتى بحسنات يفعلها فان من يشترط فى التوبة من تمام التوبة وقد يظن الظان أنه تائب ولا يكون تائبا بل يكون تاركا والتارك غير التائب فانه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله أو المقتضى لعجزه عنه أو تنتفى ارادته له بسبب غير دينى وهذا ليس بتوبة بل لابد من ان يعتقد أنه سيئة ويكره فعله لنهى الله عنه ويدعه لله تعالى لا لرغبة مخلوق ولا لرهبة مخلوق فان التوبة من أعظم الحسنات والحسنات كلها يشترط فيها الاخلاص لله وموافقة امره كما قال الفضيل بن عياض فى قوله {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} هود٧ قال أخلصه واصوبه قالوا يا ابا على ما اخلصه واصوبه قال ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب ان يكون على السنة وكان عمر بن الخطاب

رضى اله عنه يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وبسط الكلام فى التوبة له موضع آخر [1]

## الرد على الذين يحتجون بسابق القدر

و أما قو ل الذين يحتجون بسابق القدر و يقولون إنه قد مضى الأمر و الشقى شقى و السعيد سعيد محتجين بقوله صلى الله عليه و سلم من قال لا إله إلا الله دخل الجنة و إن زنى و إن سرق فيقال له لاريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد وقد قال الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ و قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً {٢٩} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً{٣٠}النساء٢٩ -٣٠ و مثل هذا كثير فى الكتاب و السنة و العبد عليه أن يصدق بهذا و بهذا لا يؤمن ببعض و يكفر ببعض فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد و يكذبوا بالوعيد و الحرورية و المعتزلة أرادو ا أن يصدقوا بالوعيد دون الوعد وكلاهما أخطأ والذي عليه أهل السنة و الجماعة الإيمان بالوعد و الوعيد فكما أن ما توعد الله به العبد من العقاب قد بين سبحانه أنه بشروط بأن لا يتوب فإن تاب تاب الله عليه و بأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه فإنَّ{الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} هود١١٤ و بأن لا يشاء الله أن يغفر له {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فهكذا الوعد له تفسير و بيان فمن قال بلسانه لاإله إلا الله و كذب الرسول فهو كافر بإتفاق المسلمين و كذلك إن جحد شيئا مما أنزل الله فلابد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره الى الله إن شاء عذبه و إن شاء غفر له فإن إرتد عن الإسلام و مات مرتدا كان فى النار فالسيئات تحبطها التوبة و الحسنات تحبطها الردة و من كان له حسنات و سيئات فإن الله لا يظلمه بل {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨}الزلزلة ٧-٨ و الله تعالى قد يتفضل عليه و يحسن إليه بمغفرته و رحمته ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد فى النار فالزاني و السارق

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣١٦-٣١٨

لا يخلد فى النار بل لا بد أن يدخل الجنة فإن النار يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان و هؤلاء المسؤول عنهم يسمون القدرية المباحية المشركين و قد جاء فى ذمهم من الآثارما يضيق عنه هذا المكان و الله سبحانه و تعالى أعلم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم و حسبنا الله و نعم الوكيل [١]

## تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى هل هم مسلمون أم لا ؟

وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى هل هم مسلمون أم لا وهو نزاع لفظى فإن الإسلام الخاص الذى بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم المتضمن لشريعة القرآن ليس عليه إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا وأما الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبيا فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبى من الأنبياء ورأس الإسلام مطلقا شهادة أن لا إله إلا الله وبها بعث جميع الرسل وقد قال سبحانه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}النساء٤٨ وقال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ {٧٩} وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{٨٠} آل عمران٧٩ -٨٠ فبيين ان اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر ومعلوم أن أحدا من الخلق لم يزعم أن الأنبياء والاحبار والرهبان والمسيح بن مريم شاركوا الله فى خلق السموات والارض بل ولا زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان فى الصفات والأفعال بل ولا أثبت أحد من بنى آدم الها مساويا لله فى جميع صفاته بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس شريكه مثله بل عامتهم يقرون ان الشريك مملوك له سواء كان ملكا أو نبيا أو كوكبا أو صنما كما كان مشركوا العرب يقولون فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٧١

ملك فأهل رسول الله بالتوحيد وقال لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين فى الملل والنحل والآراء والديانات فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له فى خلق جميع المخلوقات ولا مماثل له فى جميع الصفات بل من أعظم ما نقلوا فى ذلك قول الثنوية الذين يقولون بالأصلين النور و الظلمة وان النور خلق الخير والظلمة خلقت الشر ثم ذكروا لهم فى الظلمة قولين أحدهما أنها محدثة فتكون من جملة المخلوقات له والثانى أنها قديمة لكنها لم تفعل إلا الشر فكانت ناقصة فى ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور وقد أخبر سبحانه عن المشركين من إقرارهم بأن الله خالق المخلوقات ما بينه فى كتابه فقال {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}الزمر٣٨ [1]

## الشخص الواحد يجتمع فيه طاعات ومعاصى

والشخص الواحد يجتمع فيه حسنات وسيئات وطاعات ومعاصى وبر وفجور وشر فيثيبه الله على حسناته ويعاقبه على سيئاته إن شاء أو يغفر له ويحب ما فعله من الخير ويبغض ما فعل من الشر فأما من كانت سيئاته صغائر فقد وافقت المعتزلة على أن الله يغفرها وأما صاحب الكبيرة فسلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة لا يشهدون له بالنار بل يجوزون أن الله يغفر له كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فهذه فى حق من لم يشرك فإنه قيدها بالمشيئة وأما قوله تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ فهذا فى حق من تاب ولذلك أطلق وعم والخوارج والمعتزلة يقولون إن صاحب الكبيرة يخلد فى النار ثم انهم قد يتوهمون فى بعض الأخيار أنه من أهل الكبائر كما تتوهم الخوارج فى عثمان وعلى وأتباعهما أنهم مخلدون فى النار كما يتوهم بعض ذلك فى مثل معاوية وعمرو ابن العاص وأمثالهما ويبنون مذاهبهم على مقدمتين باطلتين إحداهما أن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٩٥-٩٧

فلانا من أهل الكبائر والثانية أن كل صاحب كبيرة يخلد في النار وكلا القولين باطل وأما الثاني فباطل على الإطلاق وأما الأول فقد يعلم بطلانه وقد يتوقف فيه [1]

## الصواب الذى عليه أئمة المسلمين أن كل من تاب تاب الله عليه

الصواب الذى عليه أئمة المسلمين أن كل من تاب تاب الله عليه كما قال الله تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣ فقد ذكر فى هذه الاية أنه يغفر للتائب الذنوب جميعا ولهذا أطلق وعمم وقال فى الاية الاخرى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فهذا فى غير التائب ولهذا قيد وخصص وليس سب بعض الصحابة بأعظم من سب الانبياء أو سب الله تعالى و اليهود والنصارى الذين يسبون نبينا سرا بينهم اذا تابوا واسلموا قبل ذلك منهم باتفاق المسلمين والحديث الذى يروى سب صحابتى ذنب لا يغفر كذب على رسول الله والشرك الذى لا يغفره الله يغفره لمن تاب باتفاق المسلمين وما يقال إن فى ذلك حقا لآدمى يجاب عنه من وجهين أحدهما ان الله أمر بتوبة السارق و الملقب ونحوهما الذنوب التى تعلق بها حقوق العباد كقول {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {٣٨} فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٣٩}المائدة٣٨-٣٩ وقال {وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}الحجرات١١ ومن توبة مثل هذا أن يعوض المظلوم من الاحسان اليه بقدر اساءته اليه الوجه الثانى ان هؤلاء متأولون (يقصد من يقول ان من سب ابي بكر رضي الله عنه لا يغفر الله له وان تاب ) فإذا تاب الرافضى (الذي يسب ويكفر ابي بكر وعمر والصحابة ) من ذلك واعتقد فضل الصحابة واحبهم ودعاهم فقد بدل الله السيئة بالحسنة كغيره من المذنبين [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٤٧٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٥٢٨-٥٢٩

# إن الله لم يجعل شيئا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر

وإن الله لم يجعل شيئا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر كما أنه لم يجعل شيئا يحبط جميع السيئات إلا التوبة و المعتزلة مع الخوارج يجعلون الكبائر محبطة لجميع الحسنات حتى الإيمان قال الله تعالي {وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}البقرة٢١٧ فعلق الحبوط بالموت على الكفر وقد ثبت أن هذا ليس بكافر والمعلق بشرط يعدم عنه عدمه وقال تعالى {وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ}المائدة٥ وقال تعالى لما ذكر الأنبياء {وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٨٧} ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{٨٨}الأنعام٨٧-٨٨ وقال {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}الزمر٦٥ مطابق لقوله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}النساء٤٨ فإن الإشراك إذا لم يغفر وأنه موجب للخلود فى النار لزم من ذلك حبوط حسنات صاحبه ولما ذكر سائر الذنوب غير الكفر لم يعلق بها حبوط جميع الأعمال وقوله{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}محمد٢٨ لأن ذلك كفر وقوله تعالى {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}الحجرات٢ لأن ذلك قد يتضمن فيقتضي الحبوط وصاحبه لا يدري كراهية أن يحبط أو خشية أن يحبط فنهاهم عن ذلك لأنه يفضي إلى الكفر المقتضى للحبوط ولا ريب أن المعصية قد تكون سببا للكفر كما قال بعض السلف المعاصى بريد الكفر فينهى عنها خشية أن تفضي إلى الكفر المحبط كما قال تعالى {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ}النور٦٣ وهي الكفر{أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}النور٦٣ وإبليس خالف أمر الله فصار كافرا وغيره أصابه عذاب أليم وقد إحتجت الخوارج والمعتزلة بقوله تعالى {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}المائدة٢٧ قالوا فصاحب الكبيرة ليس من المتقين فلا يتقبل الله منه عملا فلا يكون له حسنة وأعظم الحسنات الإيمان فلا يكون معه إيمان فيستحق الخلود فى النار وقد أجابتهم المرجئة بأن المراد بالمتقين من يتقى الكفر فقالوا لهم إسم المتقين فى القرآن يتناول المستحقين للثواب كقوله تعالى {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ{٥٤} فِي

مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ {٥٥}القمر ٥٤-٥٥ وأيضا فابنا آدم حين قربا قربانا لم يكن المقرب المردود قربانه حينئذ كافرا وإنما كفر بعد ذلك إذ لو كان كافرا لم يتقرب وأيضا فما زال السلف يخافون من هذه الآية ولو أريد بها من يتقى الكفر لم يخافوا وأيضا فإطلاق لفظ المتقين والمراد به من ليس بكافر لا أصل له فى خطاب الشارع فلا يجوز حمله عليه والجواب الصحيح أن المراد من إتقى الله فى ذلك العمل كما قال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} هود٧ قال أخلصه وأصوبه قيل يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة فمن عمل لغير الله كأهل الرياء لم يقبل منه ذلك كما في الحديث الصحيح يقول الله عز وجل أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيرى فأنا بريء منه وهو كله للذي أشركه وقال فى الحديث الصحيح لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول وقال لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار وقال فى الحديث الصحيح من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد أي فهو مردود غير مقبول فمن إتقى الكفر وعمل عملا ليس عليه أمر النبى صلى الله عليه وسلم لم يقبل منه وإن صلي بغير وضوء لم يقبل منه لأنه ليس متقيا فى ذلك العمل وإن كان متقيا للشرك وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ}المؤمنون٦٠ وفى حديث عائشة عن النبى أنها قالت يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف أن يعذب قال لا يا إبنة الصديق ولكنه الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه وخوف من خاف من السلف أن لا يتقبل منه لخوفه أن لا يكون أتي بالعمل على وجهه المأمور وهذا أظهر الوجوه فى إستثناء من إستثنى منهم فى الإيمان وفى أعمال الإيمان كقول أحدهم أنا مؤمن إن شاء الله وصليت إن شاء الله لخوف أن لا يكون آتى بالواجب على الوجه المأمور به لا على جهة الشك فيما بقلبه من التصديق لا يجوز أن يراد بالآية إن الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقى الذنوب كلها لأن الكافر والفاسق حين يريد أن يتوب ليس متقيا فإن كان قبول العمل مشروطا بكون الفاعل حين فعله لا ذنب له إمتنع قبول التوبة بخلاف ما إذا إشترط التقوى فى العمل فإن التائب حين يتوب يأتي بالتوبة الواجبة وهو حين شروعه فى التوبة منتقل من الشر إلى الخير لم يخلص من الذنب بل هو متق فى حال تخلصه منه و أيضا فلو أتى الإنسان بأعمال البر وهو مصر على كبيرة ثم تاب لوجب أن تسقط سيئاته بالتوبة وتقبل منه تلك الحسنات وهو حين أتى بها كان فاسقا و أيضا فالكافر إذا أسلم وعليه للناس مظالم من قتل

وغصب وقذف وكذلك الذمى إذا أسلم قبل إسلامه مع بقاء مظالم العباد عليه فلو كان العمل لا يقبل إلا ممن لا كبيرة عليه لم يصح إسلام الذمي حتى يتوب من الفواحش والمظالم بل يكون مع إسلامه مخلدا وقد كان الناس مسلمين على عهد رسول الله ولهم ذنوب معروفة وعليهم تبعات فيقبل إسلامهم ويتوبون إلى الله سبحانه من التبعات كما ثبت فى الصحيح أن المغيرة بن شعبة لما أسلم وكان قد رافق قوما فى الجاهلية فغدر بهم وأخذ أموالهم وجاء فأسلم فلما جاء عروة بن مسعود عام الحديبية والمغيرة قائم على رأس النبى صلى الله عليه وسلم بالسيف دفعه المغيرة بالسيف فقال من هذا فقالوا ابن أختك المغيرة فقال يا غدر ألست أسعي فى غدرتك فقال النبي صلي الله عليه وسلم أما الاسلام فأقبله وأما المال فلست منه فى شيء وقد قال تعالى {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ}الأنعام٥٢ وقالوا لنوح {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ{١١١} قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{١١٢} إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ{١١٣} الشعراء ١١١-١١٣ ولا نعرف من المسلمين جاءه ذمي يسلم فقال له لا يصح إسلامك حتى لا يكون عليك ذنب وكذلك سائر أعمال البر من الصلاة والزكاة [1]

## حديث" سب أصحابى ذنب لا يغفر " كذب على رسول الله

كما أن طائفة أخرى زعموا أن من سب الصحابة لا يقبل الله توبته وإن تاب ورووا عن النبي أنه قال سب أصحابي ذنب لا يغفر وهذا الحديث كذب على رسول الله لم يروه أحد من أهل العلم ولا هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة وهو مخالف للقرآن لأن الله قال {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ هذا في حق من لم يتب وقال في حق التائبين {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣ من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم فثبت بكتاب الله وسنة رسوله إن كل من تاب تاب الله عليه ومعلوم أن من سب الرسول من الكفار المحاربين وقال هو ساحر أو شاعر أو مجنون أو معلم أو مفتر

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٩٤-٤٩٨

وتاب تاب الله عليه وقد كان طائفة يسبون النبي من أهل الحرب ثم أسلموا وحسن إسلامهم وقبل النبي منهم منهم أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب بن عم النبي وعبدالله بن سعد بن أبي سرح وكان قد ارتد وكان يكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ويقول أنا كنت أعلمه القرآن ثم تاب وأسلم وبايعه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك وإذا قيل سب الصحابة حق لآدمي قيل المستحل لسبهم كالرافضي يعتقد ذلك دينا كما يعتقد الكافر سب النبي صلى الله عليه وسلم دينا فإذا تاب وصار يحبهم ويثني عليهم ويدعو لهم محا الله سيئاته بالحسنات ومن ظلم إنسانا فقذفه أو اغتابه أو شتمه ثم تاب قبل الله توبته لكن إن عرف المظلوم مكنه من أخذ حقه وإن قذفه أو اغتابه ولم يبلغه ففيه قولان للعلماء هما روايتان عن أحمد أصحهما أنه لا يعلمه أني اغتبتك وقد قيل بل يحسن إليه في غيبته كما أساء إليه في غيبته كما قال الحسن البصري كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته فإذا كان الرجل قد سب الصحابة أو غير الصحابة وتاب فإنه يحسن إليهم بالدعاء لهم والثناء عليهم بقدر ما أساء إليهم والحسنات يذهبن السيئات كما أن الكافر الذي كان يسب النبي ويقول أنه كذاب إذا تاب وشهد أن محمدا رسول الله الصادق المصدوق وصار يحبه ويثني عليه ويصلي عيه كانت حسناته ماحية لسيئاته والله تعالى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون وقد قال تعالى (حم{١} تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٢} غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ{٣} غافر ١-٣ وصلى الله على محمد وصحبه وسلم [1]

## التزكى هو التطهر و التبرك بترك السيئات

فإن التزكي هو التطهر و التبرك بترك السيئات الموجب زكاة النفس كما قال {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى}الاعلى١٤ و لهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء و الزيادة و تارة بالنظافة و الإماطة و التحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين إزالة الشر و زيادة الخير و هذا هو العمل الصالح و هو الإحسان و ذلك لا ينفع إلا بالإخلاص لله و عبادته

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٢٩٠-٢٩٢

و حده لا شريك له الذي هو أصل الإيمان و هو قول {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} الاعلى١٥ فهذه الثلاث قد يقال تشبه الثلاث التى يجمع الله بينها في القرآن فى مواضع مثل قوله في أول البقرة {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{٢} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{٣}البقرة ٢-٣ و مثل قوله {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ}التوبة٥ {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}التوبة١١ و قد يقال تشبه الثنتين المذكورتين في قوله {مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً}البقرة٦٢ و قوله {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ}النساء١٢٥ لكن هنا التزكي فى الآية أعم من الإنفاق فإنه ترك السيئات الذي أصله بترك الشرك فأول التزكي التزكي من الشرك كما قال {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{٦} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{٧} فصلت ٦-٧ و قال {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ}الجمعة٢ و التزكي من الكبائر الذي هو تمام التقوى كما قال {فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}النجم٣٢ و قال {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً}النساء٤٩ فعلم أن التزكية هو الإخبار بالتقوى و منه التزكي بالطهارة و بالصدقة و الإحسان كما قال {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}التوبة١٠٣ [1]

وقوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ}النساء٤٩ وقوله {فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}النجم٣٢ فالتزكية من العباد لأنفسهم هى إخبارهم عن أنفسهم بكونها زاكية وقوله تعالى {فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}النجم٣٢ دليل على أن الزكاة هى التقوى والتقوى تنتظم الأمرين جميعا بل ترك السيئات مستلزم لفعل الحسنات إذ الإنسان حارث همام ولا يدع إرادة السيئات وفعلها إلا بإرادة الحسنات وفعلها إذ النفس لا تخلو عن الإرادتين جميعا بل الإنسان بالطبع مريد فعال وهذا دليل على أن يكون سببه الزكاة والتقوى التى بها يستحق الإنسان الجنة كما فى صحيح البخارى عن النبى أنه قال من تكفل لى بحفظ ما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة ومن تزكى فقد أفلح فيدخل الجنة والزكاة متضمنة حصول الخير وزوال الشر فإذا حصل الخير زال الشر من العلم والعمل حصل له

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص:١٩٨- ٢٠١

نور وهدى ومعرفة غير ذلك والعمل يحصل له محبة وإنابة وخشية وغير ذلك هذا لمن ترك هذه المحظورات وأتى بالمأمورات [1]

## نزلت في كعب بن الاشرف

روى الامام احمد قال ثنا محمد بن ابي عدي عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال لما قدم كعب بن الاشرف مكة قالت قريش الا ترى الى هذا الصنبر المنبتر من قومه يزعم انه خير منا ونحن اهل الحجيج واهل السدانة واهل السقاية قال فنزلت فيهم {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}الكوثر٣ قال وانزلت فيه {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً}النساء٥١ الى قوله {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً}النساء٥٢ وقال ثنا عبد الرازق قال قال معمر اخبرني ايوب عن عكرمة ان كعب بن الاشرف انطلق الى المشركين من كفار قريش فاستجاشهم على النبي وامرهم ان يغزوه وقال لهم انا معكم فقالوا انكم اهل كتاب وهو صاحب كتاب ولا نامن ان يكون مكرا منكم فان اردت ان نخرج معك فاسجد للهذين الصنمين وامن بهما ففعل ثم قالوا له انحن اهدى ام محمد نحن نصل الرحم ونقري الضيف ونطوف بالبيت وننحر الكوم ونسقي اللبن على الماء ومحمد قطع رحمه وخرج من بلده قال بل انتم خير واهدى قال فنزلت فيه {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً}النساء٥١ وقال ثنا عبد الرزاق ثنا اسرائيل عن السدي عن ابي مالك قال ان اهل مكة قالوا لكعب بن الاشرف لما قدم عليهم ديننا خير ام دين محمد قال اعرضوا علي دينكم قالوا نعمر بيت ربنا وننحر الكوماء ونسقي الحاج الماء ونصل الرحم ونقري الضيف قال دينكم خير من دين محمد فانزل الله تعالى هذه الاية قال موسى بن عقبة عن الزهري كان كعب بن الاشرف اليهودي وهو احد بني النضير او هو فيهم قد اذى رسول الله بالهجاء وركب الى قريش فقدم عليهم فاستعان بهم على رسول الله فقال ابو سفيان اناشدك ادييننا احب الى الله ام دين محمد واصحابه واينا اهدى في رايك واقرب الى الحق فانا نطعم الجزور الكوماء ونسقي اللبن على

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص:٣٩١- ٣٩٢

الماء ونطعم ما هبت الشمال قال ابن الاشرف انتم اهدى منهم سبيلا ثم خرج مقبلا حتى اجمع راي المشركين على قتال رسول الله معلنا بعداوة رسول الله وبهجائه فقال رسول الله من لنا من ابن الاشرف فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا قد خرج الى قريش فاجمعهم على قتالنا وقد اخبرني الله بذلك ثم قدم على اخبث ما كان ينتظر قريشا ان تقدم فيقاتلنا معهم ثم قرا رسول الله على المسلمين ما نزل فيه ان كان كذلك والله اعلم قال الله عز وجل {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ}النساء ٥١ الى قوله {سَبِيلاً}النساء ٥١ وايات معها فيه وفي قريش وذكر لنا رسول الله قال اللهم اكفني ابن الاشرف بما شئت فقال له محمد بن مسلمة انا يا رسول الله اقتله وذكر القصة في قتله الى اخرها ثم قال فقتل الله ابن الاشرف بعداوته لله ورسوله وهجائه اياه وتاليبه عليه قريشا واعلانه بذلك وقال محمد بن اسحاق كان من حديث كعب بن الاشرف انه لما اصيب اصحاب بدر وقدم زيد بن حارثه الى اهل السافلة وعبد الله بن رواحة الى اهل العالية بشيرين بعثهما رسول الله الى من بالمدينة من المسلمين بفتح الله تعالى عليه وقتل من قتل من المشركين كما حدثني عبد الله بن المغيث بن ابي بردة الظفري وعبد الله بن ابي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وصالح بن ابي امامه بن سهل كل واحد قد حدثني بعض حديثه قالوا كان كعب بن الاشرف من بني طيء ثم احد بني نبهان وكانت امه من بني النضير فقال حين بلغه الخبر احق هذا اترون ان محمدا قتل هؤلاء الذين سمى هذان الرجلان يعني زيدا وعبد الله بن رواحه فهؤلاء اشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمدا اصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير من ظهرها فلما تيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة و نزل على المطلب بن ابي وداعة السهمي وعنده عاتكة بنت ابي العيص بن اميه فانزلته واكرمته وجعل يحرض على رسول الله وينشد الاشعار ويبكي اصحاب القليب من قريش الذين اصيبوا ببدر وذكر شعرا وما رد عليه حسان بن ثابت وغيره ثم رجع كعب بن الاشرف الى المدينة يشبب بنساء المسلمين حتى اذاهم فقال رسول الله كما حدثني عبد الله بن ابي المغيث من لي من ابن الاشرف فقال محمد بن مسلمة انا لك به يا رسول الله انا اقتله وذكر القصة وقال الواقدي حدثني عبد الحميد بن جعفر عن يزيد بن رومان ومعمر عن الزهري عن ابن كعب بن مالك وابراهيم بن جعفر عن ابيه عن جابر بن عبد الله فكل قد حدثني منه بطائفة فكان الذي اجتمعوا عليه قالوا ابن الاشرف كان شاعرا وكان يهجو النبي واصحابه ويحرض عليهم كفار قريش في شعره وكان رسول الله قدم المدينة واهلها اخلاط منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة الاسلام فيهم اهل الحلقة والحصون ومنهم حلفاء للحيين جميعا الاوس والخزرج فاراد رسول الله حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم وموادعتهم وكان الرجل يكون

مسلما وابوه مشركا فكان المشركون واليهود من اهل المدينة يؤذون رسول الله واصحابه اذى شديدا فامر الله نبيه والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم وفيهم انزل {وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}آل عمران١٨٦ وفيهم انزل الله {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}البقرة١٠٩ الاية فلما ابى ابن الاشرف ان ينزع عن اذى رسول الله واذى المسلمين وقد بلغ منهم فلما قدم زيد بن حارثة بالبشارة من بدر بقتل المشركين واسر من اسر منهم فراى الاسرى مقرنين كبت وذل ثم قال لقومه ويلكم والله لبطن الارض خير لكم من ظهرها اليوم هؤلاء سراة الناس قد قتلوا واسروا فما عندكم قالوا عداوته ما حيينا قال وما انتم وقد وطيء قومه واصابهم ولكني اخرج الى قريش فاحضها وابكي قتلاها لعلهم ينتدبون فاخرج معهم فخرج حتى قدم مكة ووضع رحلة عند ابي وداعة بن ابي صبيرة السهمي وتحته عاتكة بنت اسيد بن ابي العيص فجعل يرثي قريشا وذكر ما رثاهم به من الشعر وما اجابه به حسان فاخبره بنزول كعب على من نزل فقال حسان فذكر شعرا هجا به اهل البيت الذي نزل فيهم قال فلما بلغها هجاؤه نبذت رحلة وقالت ما لنا ولهذا اليهودي الا ترى ما يصنع بنا حسان فتحول فكلما تحول عند قوم دعا رسول الله حسانا فقال ابن الاشرف نزل على فلان فلا يزال يهجوا حتى نبذ رحلة فلما لم يجد ماوى قدم المدينة فلما بلغ النبي قدوم ابن الاشرف قال اللهم اكفيني ابن الاشرف بما شئت في اعلانه الشر وقوله الاشعار وقال رسول الله من لي من ابن الاشرف فقد آذاي فقال محمد بن مسلمة انا يا رسول الله وانا اقتله قال فافعل وذكر الحديث فقد اجتمع لابن الاشرف ذنوب انه رثى قتلى قريش وحضهم على محاربة النبي وواطاهم على ذلك واعانهم على محاربته باخباره ان دينهم خير من دينه وهجا النبي والمؤمنين و ان سفيان بن عيينه روى عن عمرو بن دينار عن عكرمة قال جاء حيي بن اخطب وكعب بن الاشرف الى اهل مكة فقالوا انتم اهل الكتاب واهل العلم فاخبرونا عنا وعن محمد فقالوا ما انتم وما محمد فقالوا نصل الارحام وننحر الكوماء ونسقي الماء على اللبن ونفك العناة ونسقي الحجيج ومحمد صنبور قطع ارحامنا واتبعه سراق الحجيج بنو غفار فنحن خير ام هو فقالوا بل انتم خير واهدى سبيلا فانزل الله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ}النساء٥١ الى قوله {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً}النساء٥٢ وكذلك قال قتادة ذكر لنا ان هذه الاية نزلت في كعب بن الاشرف وحيي بن اخطب رجلين من اليهود من بني النضير لقيا قريشا في الموسم فقال لهما المشركون نحن اهدى ام محمد واصحابه فانا اهل السدانة واهل السقاية واهل الحرم

فقالا انتم اهدى من محمد واصحابه وهما يعلمان انهما كاذبان انما محلهما على ذلك حسد محمد واصحابه فانزل الله تعالى فيهم {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً}النساء٥٢ فلما رجعا الى قومهما قال لهما قومهما ان محمدا يزعم انه قد نزل فيكما كذا وكذا قال صدق والله ما حملنا على ذلك الا حسده وبغضه وهذان مرسلان من وجهين مختلفين فيهما ان كلا الرجلين ذهبا الى مكة وقالا ما قالا ثم انهما قدما فندب النبي الى قتل ابن الاشرف وامسك عن ابن اخطب حتى نقض بنو النضير العهد فاجلاهم النبي فلحق بخيبر ثم جمع عليه الاحزاب فلما انهزموا دخل مع بني قريظة حصنهم حتى قتله الله معهم فعلم ان الامر الذي اتياه بمكة لم يكن هو الموجب للندب الى قتل ابن الاشرف وانما هو ما اختص به ابن الاشرف من الهجاء ونحوه وان كان ما فعله بمكة مؤيدا عاضد لكن مجرد الاذى لله ورسوله موجب للندب الى قتله كما نص عليه النبي بقوله من لكعب بن الاشرف فانه قد آذى الله ورسوله وكما بينه جابر في حديثه ان قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}النساء٥١ نزلت في كعب بن الاشرف بما قاله لقريش وقد اخبر الله سبحانه انه لعنه وان من لعنه فلن تجد له نصيرا وذلك دليل على انه لا عهد له لانه لو كان له عهد لكان يجب نصره على المسلمين فعلم ان مثل هذا الكلام يوجب انتقاض عهده وعدم ناصره فكيف بما هو اغلظ منه من شتم وسب وانما لم يجعله النبي والله اعلم بمجرد ذلك ناقضا للعهد لانه لم يعلن بهذا الكلام ولم يجهر به وانما اعلم الله به رسوله وحيا كما تقدم بالاحاديث ولم يكن النبي لياخذ احدا من المسلمين والمعاهدين الا بذنب ظاهر فلما رجع الى المدينة واعلن الهجاء والعداوة استحق ان يقتل لظهور اذاه وثبوته عند الناس نعم من خيف منه الخيانة فانه ينبذ اليه العهد اما اجراء حكم المحاربة عليه فلا يكون حتى تظهر المحاربة وتثبت عليه [1]

## من أعظم أسباب الشرك

[1] الصارم المسلول ج: ٢ ص: ١٥٠ وص: ١٥٦-١٧٦

فإن من الناس من يسجد للشمس وغيرها من الكواكب ويدعو لها بأنواع الأدعية والتعزيمات ويلبس لها من اللباس والخواتم ما يظن مناسبته لها ويتحرى الأوقات والأمكنة والأبخرة المناسبة لها في زعمه وهذا من أعظم أسباب الشرك الذي ضل به كثير من الأولين والآخرين حتى شاع ذلك في كثير ممن ينتسب إلى الإسلام وصنف فيه بعض المشهورين كتابا سماه السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم على مذهب المشركين من الهند والصابئين والمشركين من العرب وغيرهم مثل طمطم الهندي وملكوشا البابلي وابن وحشية وأبي معشر البلخي وثابت بن قرة وأمثالهم ممن دخل في الشرك وآمن بالجبت والطاغوت وهم منتسبون إلى أهل الإسلام كما قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً}النساء٥١ وقد قال غير واحد من السلف الجبت السحر والطاغوت الأوثان وبعضهم قال الشيطان وكلاهما حق وهؤلاء يجمعون بين الجبت الذي هو السحر و الشرك الذي هو عبادة الطاغوت كما يجمعون بين السحر وعبادة الكواكب وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام بل ودين جميع الرسل أنه شرك محرم بل هذا من أعظم أنواع الشرك الذي بعثت الرسل بالنهي عنه [1]

فرق بين من لعنه الله لعنة مؤبدة عامة ومن لعنه لعنا مطلقا

قيل واللعن انما يستوجبه من هو كافر لكن ليس هذا جيدا على الاطلاق ويؤيده ايضا قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً {٥١} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً{٥٢}النساء٥١-٥٢ ولو كان معصوم الدم يجب على المسلمين نصره لكان له نصير ويوضح ذلك انه قد نزل في شان ابن الاشرف وكان من لعنته ان قتل لانه كان يؤذي الله ورسوله واعلم انه لايرد على هذا انه قد لعن من لا يجوز قتله لوجوه احدها ان هذا قيل فيه لعنه

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٤٠٥ و مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ١٧٩

الله في الدنيا والاخرة فبين انه سبحانه اقصاه عن رحمته في الدارين وسائر الملعونين انما قيل فيهم لعنه الله او عليه لعنة الله وذلك يحصل باقصائه عن الرحمة في وقت من الاوقات وفرق بين من لعنه الله لعنة مؤبدة عامة ومن لعنه لعنا مطلقا الثاني ان سائر الذين لعنهم الله في كتابه مثل الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ومثل الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ومثل من يقتل مؤمنا متعمدا اما كافر او مباح الدم بخلاف بعض من لعن في السنة [١]

## الفتن إنما ظهرت عن الرافضة

الفتن إنما ظهرت عن الرافضة الذين يفترون على الله الكذب ويعظمون الكذابين المفترين كتعظيم العبيديين الملاحدة وتعظيم مسيلمة الكذاب وتعظيم الطوسي الملحد وأمثاله وهم يعظمون هؤلاء الملاحدة علماءهم وولاتهم على أتباع الأنبياء فلكم أوفر نصيب من قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً{٥١} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً{٥٢} النساء ٥١ ـ٥٢ فإن مسيلمة الكذاب من أكابر الأئمة الذين كفروا وكذلك أمثاله من الملاحدة العبيديين وأمثالهم الذين كانوا يدعون الإلهية والنبوة أو يدعى أن الفيلسوف أعظم من الأنبياء ونحو ذلك من مقالات الذين كفروا فإن المبتدعة من الجهمية والرافضة وغيرهم الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا فيحق عليهم ما وعد الله به حيث قال {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً} النساء ٥٢ ومن هؤلاء من يعظم الشرك والسحر والأحوال الشيطانية مما هو من الإيمان بالجبت والطاغوت فإن الجبت هو السحر والطاغوت الشيطان والأوثان [٢]

---

[١] الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٨٩-٩٠

[٢] منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٣٧٧

فإن هؤلاء الإمامية أوتوا نصيبا من الكتاب إذ كانوا مقرين ببعض ما في الكتاب المنزل وفيهم شعبة من الإيمان بالجبت وهو السحر والطاغوت وهو يعبد من دون الله فإنهم يعظمون الفلسفة المتضمنة لذلك ويرون الدعاء والعبادة للموتى واتخاذ المساجد على القبور ويجعلون السفر إليها حجا له مناسك ويقولون مناسك حج المشاهد وحدثني الثقات أن فيهم من يرون الحج إليها أعظم من الحج إلى البيت العتيق فيرون الإشراك بالله أعظم من عبادة الله وهذا من أعظم الإيمان بالطاغوت وهم يقولون لمن يقرون بكفره من القائلين بقدم العالم ودعوة الكواكب والمسوغين للشرك هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا فإنهم فضلوا هؤلاء الملاحدة المشركين على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وليس هذا ببدع من الرافضة فقد عرف من موالاتهم لليهود والنصارى والمشركين ومعاونتهم على قتال المسلمين ما يعرفه الخاص والعام حتى قيل إنه ما اقتتل يهودي ومسلم ولا نصراني ومسلم ولا مشرك ومسلم إلا كان الرافضي مع اليهودي والنصراني والمشرك [1]

## صناعة التنجيم

وصناعة التنجيم التى مضمونها الأحكام والتأثير وهو الاستدلال على الحوادث الأرضيه بالأحوال الفلكية والتمزيج بين القوى الفلكى والقوابل الأرضية صناعة محرمة بالكتاب والسنة واجماع الأمة بل هى محرمة على لسان جميع المرسلين فى جميع الملل قال الله تعالى{وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}طه٦٩ وقال {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}النساء٥١ قال عمر وغيره الجبت السحر وروى ابو داود فى سننه باسناد حسن عن قبيصة بن مخارق عن النبى صلى الله عليه وسلم قال العيافة والطرق والطيرة من الجبت قال عوف راوي الحديث العيافة زجر الطير والطرق الخط يخط في الأرض وقيل بالعكس فاذا كان الخط ونحوه الذى هو من فروع النجامة من الجبت فكيف بالنجامة وذلك أنهم يولدون الأشكال فى الأرض لأن ذلك متولد من اشكال الفلك وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم باسناد صحيح عن إبن عباس قال قال رسول الله

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٤٥١-٤٥٢

صلى الله عليه وسلم من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد فقد صرح رسول الله بان علم النجوم من السحر وقد قال الله تعالى {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}طه٦٩ وهكذا الواقع فإن الاستقرار يدل على ان اهل النجوم لا يفلحون لا فى الدنيا ولا فى الآخرة وروى احمد ومسلم فى الصحيح عن صفية بنت عبيد عن بعض ازواج النبى عن النبى انه قال من اتى عرافا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة اربعين يوما والمنجم يدخل فى اسم العراف عند بعض العلماء وعند بعضهم هو فى معناه فاذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسئول وروى ايضا فى صحيحه عن معاوية بن الحكم السلمى قال قلت يا رسول الله ان قوما منا يأتون الكهان قال فلا تأتوهم فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن اتيان الكهان والمنجم يدخل فى اسم الكاهن عند الخطابى وغيره من العلماء وحكى ذلك عن العرب وعند آخرين هو من جنس الكاهن واسوأ حالا منه فلحق به من جهة المعنى وفى الصحيح عنه انه قال ثمن الكلب خبيث ومهر البغى خبيث وحلوان الكاهن خبيث وحلوانه الذى تسميه بالعامة حلاوته ويدخل فى هذا المعنى ما يعطيه المنجم وصاحب الأزلام التى يستقسم بها مثل الخشبة المكتوب عليها أ ب ج د والضارب بالحصى ونحوهم فما يعطى هؤلاء حرام وقد حكى الاجماع على تحريمه غير واحد من العلماء كالبغوى والقاضى عياض وغيرهما وفى الصحيحين عن زيد بن خالد قال خطبنا رسول الله بالحديبية على اثر سماء كانت من الليل فقال اتدرون ماذا قال ربكم الليلة قلنا الله ورسوله أعلم قال اصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى فمن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب وفى صحيح مسلم عن ابى هريرة عن النبى قال ما انزل الله من السماء من بركة الا اصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الله الغيث ويقولون بكوكب كذا وكذا وفى صحيح مسلم عنه انه قال اربع فى امتى من امر الجاهلية الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب والنياحة والاستسقاء بالأنواء وفيه عن إبن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}الواقعة٨٢ قال هو الاستسقاء بالأنواء أو كما قال والنصوص عن النبى واصحابه وسائر الأئمة بالنهى عن ذلك اكثر من ان يتسع هذا الموضع لذكرها [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ١٩٢-١٩٥

# الطاغوت من تحوكم اليه من حاكم بغير كتاب الله

فان المؤمنين أولياء الله وبعضهم أولياء بعض والكفار أعداء الله وأعداء المؤمنين وقد أوجب الموالاة بين المؤمنين وبين ان ذلك من لوازم الايمان ونهى عن موالاة الكفار وبين ان ذلك منتفا فى حق المؤمنين وبين حال المنافقين فى موالاة الكافرين فأما موالاة المؤمنين فكثيرة كقوله {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ} المائدة٥٥ الى قوله {وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} المائدة٥٦ وقال {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ {٧٩} تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ {٨٠} وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ {٨١} المائدة٧٨ ـ ٨٠ فذم من يتولى الكفار من أهل الكتاب قبلنا وبين أن ذلك ينافى الايمان ومن جنس موالاة الكفار التى ذم الله بها أهل الكتاب والمنافقين الايمان ببعض ما هم عليه من الكفر او التحاكم اليهم دون كتاب الله كما قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً} النساء٥١ وقد عرف أن سبب نزولها شأن كعب بن الأشرف أحد رؤساء اليهود لما ذهب الى المشركين ورجح دينهم على دين محمد واصحابه والقصة قد ذكرناها فى الصارم المسلول لما ذكرنا قول النبى من لكعب بن الأشرف فانه قد آذى الله ورسوله ونظير هذه الآية قوله تعالى عن بعض أهل الكتاب {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ {١٠١} وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ {١٠٢} البقرة١٠١ـ١٠٢ الآية فأخبر أنهم اتبعوا السحر وتركوا كتاب الله كما يفعله كثير من اليهود وبعض المنتسبين الى الاسلام من اتباعهم كتب السحرة أعداء ابراهيم وموسى من المتفلسفة ونحوهم وهو كايمانهم بالجبت والطاغوت فان الطاغوت هو الطاغى من الأعيان والجبت هو من الأعمال والأقوال كما قال عمر بن الخطاب الجبت السحر والطاغوت الشيطان ولهذا قال النبى العيافة والطيرة والطرق من الجبت رواه أبو داود وكذلك ما أخبر عن أهل الكتاب بقوله {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} المائدة٦٠ أى ومن عبد الطاغوت فان أهل الكتاب كان منهم من أشرك وعبد الطواغيت فهنا ذكر عبادتهم للطاغوت وفى البقرة ذكر اتباعهم للسحر وذكر فى النساء أيمانهم بهما

جميعا بالجبت والطاغوت وأما التحاكم الى غير كتاب الله فقد قال {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١}النساء٦٠-٦١ والطاغوت فعلوت من الطغيان كما أن الملكوت فعلوت من الملك والرحموت والرهبوت والرغبوت فعلوت من الرحمة والرهبة والرغبة والطغيان مجاوزة الحد وهو الظلم والبغى فالمعبود من دون الله اذا لم يكن كارها لذلك طاغوت ولهذا سمى النبى الأصنام طواغيت فى الحديث الصحيح لما قال ويتبع من يعبد الطواغيت الطواغيت والمطاع فى معصية الله والمطاع فى اتباع غير الهدى ودين الحق سواء كان مقبولا خبره المخالف لكتاب الله او مطاعا امره المخالف لأمر الله هو طاغوت ولهذا سمى من تحوكم اليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوت وسمى الله فرعون وعادا طغاة وقال فى صيحة ثمود {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}الحاقة٥ فمن كان من الأمة مواليا للكفار من المشركين او اهل الكتاب ببعض انواع الموالاة ونحوها مثل اتيانه أهل الباطل واتباعهم فى شئ من مقالهم وفعالهم الباطل كان له من الذم والعقاب والنفاق بحسب ذلك وذلك مثل متابعتهم فى آرائهم وأعمالهم كنحو أقوال الصائبه وافعالهم من الفلاسفة ونحوهم المخالفة للكتاب والسنة ونحو أقوال اليهود والنصارى وأفعالهم المخالفة للكتاب والسنة ونحو أقوال المجوس والمشركين وأفعالهم المخالفة للكتاب والسنة ومن تولى أمواتهم أو أحياءهم بالمحبة والتعظيم والموافقة فهو منهم كالذين وافقوا أعداء إبراهيم الخليل من الكلدانيين وغيرهم من المشركين عباد الكواكب أهل السحر والذين وافقوا أعداء موسى من فرعون وقومه بالسحر أو ادعى أنه ليس ثم صانع غير الصنعه ولا خالق غير المخلوق ولا فوق السماوات اله كما يقوله الاتحادية وغيرهم من الجهمية والذين وافقوا الصائبة والفلاسفة فيما كانوا يقولونه فى الخالق ورسله أسمائه وصفاته والمعاد وغير ذلك ولا ريب أن هذه الطوائف وان كان كفرها ظاهرا فان كثيرا من الداخلين فى الاسلام حتى من المشهورين بالعلم والعبادة والامارة قد دخل فى كثير من كفرهم وعظمهم ويرى تحكيم ما قرروه من القواعد ونحو ذلك وهؤلاء كثروا فى المستأخرين ولبسوا الحق الذى جاءت به الرسل بالباطل الذى كان عليه أعداؤهم والله تعالى يحب تمييز الخبيث من الطيب والحق من الباطل فيعرف ان هؤلاء الأصناف منافقون أو فيهم نفاق وان كانوا مع المسلمين فان كون الرجل مسلما فى الظاهر لا يمنع أن يكون منافقا فى الباطن فان المنافقين كلهم مسلمون فى الظاهر والقرآن قد بين صفاتهم وأحكامهم واذا كانوا موجودين على عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عزة الاسلام مع ظهور أعلام النبوة ونور الرسالة فهم مع بعدهم عنهما اشد وجودا لاسيما وسبب النفاق هو سبب الكفر وهو المعارض لما جاءت به الرسل [١]

وذكر قول النصارى أن المسيح هو الله وأنه ابن الله وأن الله ثالث ثلاثة ومع هذا فالمشركون الذين يعبدون الملائكة أو غيرها أسوأ حالا من هؤلاء باتفاق المسلمين مع إقرارهم برب العالمين فكيف بتفضيل من يقول أن ملكا هو رب العالمين على طوائف المسلمين واليهود والنصارى الذين يثبتون الصفات ولو فرض أن بعضهم أخطأ في بعض ذلك هذا شبيه ما ذكره الله بقوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً} النساء٦٠ [٢]

## أخبر الله عن اليهود بأنهم عبدوا الطاغوت

و من قال إن اليهود تعبد الله فقد غلط غلطا قبيحا فكل من عبد الله كان سعيدا من أهل الجنة و كان من عباد الله الصالحين قال تعالى {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ {٦١} يس٦٠ -٦١ و فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه و سلم قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن إنك تأتى قوما هم أهل كتاب فأول ما ندعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله و فى رواية فإدعهم إلى عبادة الله فإذا عرفوا الله فأعلمهم فلا يعبد إلا الله بعد أن أرسل محمدا و عرفت رسالته و بلغت و لهذا إتفق العلماء على أن أعمالهم حابطة و لو عبدوا الله لم تحبط أعمالهم فإن الله لا يظلم أحدا و قبل إرسال محمد إنما كان يعبد الله من عبده بما أمر به فأما من ترك عبادته بما أمر به و اتبع هواه فهو لا يعبد الله إنما يعبد الشيطان و يعبد الطاغوت و قد أخبر الله عن اليهود بأنهم عبدوا الطاغوت و أنه لعنهم و

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٩٩-٢٠٢

[٢] بغية المرتاد ج: ١ ص: ٣٦٨

غضب عليهم {وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}المائدة٦٠ و هو إسم جنس يدخل فيه الشيطان و الوثن و الكهان و الدرهم و الدينار و غير ذلك و قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}النساء٥١ و قال {نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{١٠١} وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ {١٠٢} البقرة١٠١-١٠٢ الآية وهم أشد عداوة للمؤمنين من النصارى و كفرهم أغلظ و هم مغضوب عليهم و لهذا قيل إنهم تحت النصارى فى النار و اليهود إن لم يعبدوا المسيح فقد افتروا عليه و على أمه بما هو أعظم من كفر النصارى و لهذا جعل الله النصارى فوقهم إلى يوم القيامة فالنصارى مشركون يعبدون الله و يشركون به و أما اليهود فلا يعبدون الله بل هم معطلون لعبادته مستكبرون عنها كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم إستكبروا ففريقا كذبوا و فريقا يقتلون بل هم متبعون أهواءهم عابدون للشيطان فالنبى و المؤمنون لا يعبدون ما تعبده اليهود و هم و إن وصفوا الله ببعض ما يستحقه فهم يصفونه بما هو منزه عنه و ليس فى قلوبهم عبادة له وحده فإن ذلك لا يكون إلا لمن عبده بما أمره به [١]

## المشرك لا يدخل فى مسمى الإيمان عند الإطلاق

قال تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء و هو كله للذي أشرك و هذا كقوله تعالى {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}يوسف١٠٦ سماه إيمانا مع التقييد و إلا فالمشرك الذي جعل مع الله إلها آخر لا يدخل فى مسمى الإيمان عند الإطلاق و قد قال {يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}النساء٥١ {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}آل عمران٢١ فهذا مع التقييد و مع الإطلاق فالإيمان هو الإيمان بالله و البشارة بالخير [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٦٥-٥٦٦

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٧٣

## "لتتبعن سنن من كان قبلكم"

في القرآن كثير يذكر فيه قول اعداء الرسل وأفعالهم وما أتوه من قوى الإدراكات والحركات التى لم تنفعهم لما خالفوا الرسل وقد ذكر الله سبحانه ما فى المنتسبين إلى أتباع الرسل من العلماء والعباد والملوك من النفاق والضلال فى مثل قال تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}التوبة٣٤ يصدون يستعمل لازما يقال صد صدودا أعرض كقوله {رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً}النساء٦١ ويقال صد غيره يصده والوصفان يجتمعان فيهم ومثل قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}النساء٥١ الآية وفى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها فبين أن فى الذين يقرأون القرآن مؤمنين ومنافقين وإذا كان سعادة الأولين والآخرين هى إتباع المرسلين فمن المعلوم أن أحق الناس بذلك أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذلك فالعالمون بأقوالهم وأفعالهم المتبعون لها هم أهل السعادة فى كل زمان ومكان وهم الطائفة الناجية من أهل كل ملة وهم أهل السنة والحديث من هذه الأمة والرسل عليهم البلاغ المبين وقد بلغوا البلاغ المبين وخاتم الرسل أنزل إليه كتابا مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فهو الأمين على جميع الكتب وقد بلغ أبين البلاغ واتمه واكمله وكان أنصح الخلق لعباد الله وكان بالمؤمنين رؤفا رحيما بلغ الرسالة وادى الأمانة وجاهد فى الله حق جهاده وعبد الله حتى أتاه اليقين فأسعد الخلق وأعظمهم نعيما وأعلاهم درجة أعظمهم إتباعا له وموافقة علما وعملا والله سبحانه وتعالى أعلم [١]

فإذا علم الانسان أن السيئة من نفسه لم يطمع فى السعادة التامة مع ما فيه من الشر بل علم تحقيق قوله {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٦١-٦٢ و مجموع الفتاوى ج: ٩ ص:٤١- ٤٢

ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ}الزلزلة٧ الخ و علم أن الرب عليم حكيم رحيم عدل و أفعاله على قانون العدل و الاحسان كما فى الصحيح يمين الله ملآى إلى قوله و القسط بيده الأخرى و علم فساد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب و العقاب بلا حكمة و لا عدل الى أن قال و من سلك مسلكهم غايته إذا عظم الأمر و النهي أن يقول كما نقل عن الشاذلي يكون الجمع فى قلبك مشهودا و الفرق على لسانك موجودا كما يوجد في كلامه و كلام غيره أقوال و أدعية تستلزم تعطيل الأمر و النهي مما يوجب أن يجوز عنده أن يجعل الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض و يدعون بأدعية فيها اعتداء كما فى حزب الشاذلي و آخرون من عوامهم يجوزون أن يكرم الله بكرامات الأولياء لمن هو فاجر و كافر و يقولون هذه موهبة و يظنونها من الكرامات و هي من الأحوال الشيطانية التى يكون مثلها للسحرة و الكهان كما قال تعالى {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ}البقرة١٠١ إلى قوله {هَارُوتَ وَمَارُوتَ}البقرة١٠٢ و صح قول النبي صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه و المسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن عدل كثير ممن أضله الشيطان من المنتسبين إليهم إلى أن نبذ كتاب الله و راء ظهره و إتبع ما تتلوه الشياطين فلا يعظم من أمر القرآن بموالاته و يعادى من أمر القرآن بمعاداته بل يعظم من رآه يأتى ببعض الخوارق التى تأتي بمثلها السحرة و الكهان بإعانة الشياطين لهم و هي تحصل بما تتلوه الشياطين ثم منهم من يعرف أن هذا من الشياطين و لكن يعظمه لهواه و يفضله على طريقة القرآن و هؤلاء كفار كالذين قال الله تعالى فيهم {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً {٥١} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً {٥٢} النساء٥١-٥٢ و هؤلاء ضاهوا الذين قال الله تعالى فيهم {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{١٠١} وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ {١٠٢}البقرة ١٠١-١٠٢ومنهم من لايعرف أنه من الشياطين و قد يقع فى هذا طوائف من أهل الكلام و العلم و أهل العبادة و التصوف حتى جوزوا عبادة الكواكب و الأصنام لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة التى تعينهم عليها الشياطين لما يحصل بها بعض أغراضهم من الظلم و الفواحش فلم يبالوا بشركهم بالله و بكفرهم به و بكتابه إذا نالوا ذلك و لم يبالوا بتعليم ذلك للناس و تعظيمهم له لرئاسة أو مال ينالونه و إن كانوا قد علموا الكفر و الشرك و دعوا إليه بل حصل عندهم ريب و شك فيما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم و إعتقاد أنه خاطب

الجمهور بمالا حقيقة له فى الباطن للمصلحة كما يقول ذلك من يقوله من الملاحدة الباطنية و دخل في رأي هؤلاء طائفة من هؤلاء هؤلاء و هذا مما ضاهوا به فارس و الروم فإن فارس كانت تعظم الأنوار و تسجد للشمس و للنار و الروم كانوا قبل النصرانية مشركين يعبدون الكواكب و الأصنام فهؤلاء شر من الذين إشبهوا اليهود و النصارى فإن هؤلاء ضاهوا أهل الكتاب فيما بدل أو نسخ و هولاء ضاهوا من لا كتاب له وقال رحمة الله تعالى فالنفوس مفطورة على علم ضروري موجود فيها بالخالق الذي خلق السموات و أنه خلق السموات و الأرض ليس شيء منها خلق الناس كما قال موسى لفرعون لما قال له {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ{٢٣} قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ{٢٤}الشعراء ٢٣-٢٤ و{قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى{٤٩} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى{٥٠} طه ٤٩-٥٠[١]

## كفرهم بها الخضوع لها والدعاء وإتخاذها وسيلة

فإن الله سبحانه قال {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}النساء٥١ وقال {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ}البقرة٢٥٦ فتبين أن الطاغوت يؤمن به ويكفر به ومعلوم أن مجرد التصديق بوجوده وما هو عليه من الصفات يشترك فيه المؤمن والكافر فإن الأصنام والشيطان والسحر يشترك فى العلم بحاله المؤمن والكافر وقد قال الله تعالى فى السحر {حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ}البقرة١٠٢ الى قوله {وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ}البقرة١٠٢ فهؤلاء الذين اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون يعلمون أنه لا خلاق لهم فى الآخرة ومع هذا فيكفرون وكذلك المؤمن بالجبت والطاغوت إذا كان عالما بما يحصل

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص:٢٢٦-٢٢٧ و مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٢٣٣- ٢٣٤ و الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ١١٣

بالسحر من التفريق بين المرء وزوجه ونحو ذلك من الجبت وكان عالما بأحوال الشيطان والأصنام وما يحصل بها من الفتنة لم يكن مؤمنا بها مع العلم بأحوالها ومعلوم أنه لم يعتقد أحد فيها أنها تخلق الأعيان وأنها تفعل ما تشاء ونحو ذلك من خصائص الربوبية ولكن كانوا يعتقدون أنه يحصل بعبادتها لهم نوع من المطالب كما كانت الشياطين تخاطبهم من الأصنام وتخبرهم بأمور وكما يوجد مثل ذلك فى هذه الأزمان فى الأصنام التى يعبدها أهل الهند والصين والترك وغيرهم وكان كفرهم بها الخضوع لها والدعاء والعبادة وإتخاذها وسيلة ونحو ذلك لا مجرد التصديق بما يكون عند ذلك من الآثار فإن هذا يعلمه العالم من المؤمنين ويصدق بوجوده لكنه يعلم ما يترتب على ذلك من الضرر فى الدنيا والآخرة فيبغضه والكافر قد يعلم وجود ذلك الضرر لكنه يحمله حب العاجلة على الكفر يبين ذلك قوله {مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}النحل١٠٦ {مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{١٠٦} ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ{١٠٧} أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ{١٠٨} لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ{١٠٩} النحل ١٠٦-١٠٩ فقد ذكر تعالى من كفر بالله من بعد إيمانه وذكر وعيده فى الآخرة ثم قال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ} النحل ١٠٧ وبين تعالى أن الوعيد إستحقوه بهذا ومعلوم أن باب التصديق والتكذيب والعلم والجهل ليس هو من باب الحب والبغض وهؤلاء يقولون إنما إستحقوا الوعيد لزوال التصديق والإيمان من قلوبهم وان كان ذلك قد يكون سببه حب الدنيا على الآخرة والله سبحانه وتعالى جعل إستحباب الدنيا على الآخرة هو الأصل الموجب للخسران وإستحباب الدنيا على الآخرة قد يكون مع العلم والتصديق بأن الكفر يضر فى الآخرة وبأنه ما له فى الآخرة من خلاق و أيضا فإنه سبحانه إستثني المكره من الكفار ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره لأن الإكراه على ذلك ممتنع فعلم أن التكلم بالكفر كفر لا فى حال الإكراه وقوله تعالى {وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً}النحل١٠٦ أي لإستحبابه الدنيا على الآخرة ومنه قول النبى يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا والآية نزلت فى عمار بن ياسر وبلال بن رباح وأمثالهما من المؤمنين المستضعفين لما أكرههم المشركون على سب النبى ونحو ذلك من كلمات الكفر فمنهم من أجاب بلسانه كعمار ومنهم من صبر على المحنة كبلال ولم يكره أحد منهم

على خلاف ما فى قلبه بل أكرهوا على التكلم فمن تكلم بدون الإكراه لم يتكلم إلا وصدره منشرح به وأيضا فقد جاء نفر من اليهود إلى النبى فقالوا نشهد إنك لرسول ولم يكونوا مسلمين بذلك لأنهم قالوا ذلك على سبيل الاخبار عما فى أنفسهم أي نعلم ونجزم أنك رسول الله قال فلم لا تتبعوني قالوا نخاف من يهود فعلم أن مجرد العلم والاخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للإلتزام والانقياد مع تضمن ذلك الاخبار عما فى أنفسهم فالمنافقون قالوا مخبرين كاذبين فكانوا كفارا فى الباطن وهؤلاء قالوها غير ملتزمين ولا منقادين فكانوا كفارا فى الظاهر والباطن وكذلك أبو طالب قد إستفاض عنه أنه كان يعلم بنبوة محمد وأنشد عنه ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا لكن إمتنع من الإقرار بالتوحيد والنبوة حبا لدين سلفه وكراهة أن يعيره قومه فلما لم يقترن بعلمه الباطن الحب والإنقياد الذي يمنع ما يضاد ذلك من حب الباطل وكراهة الحق لم يكن مؤمنا وأما إبليس وفرعون واليهود ونحوهم فما قام بأنفسهم من الكفر وإرادة العلو والحسد منع من حب الله وعبادة القلب له الذي لا يتم الإيمان إلا به وصار فى القلب من كراهية رضوان الله وإتباع ما أسخطه ما كان كفرا لا ينفع معه العلم [١]

## آتى الله الملك لبعض الكفار كما آتاه لبعض الأنبياء

فإنه سبحانه قد آتى الملك لمن آتاه من الأنبياء كما قال في داود {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}البقرة٢٥١ وقال تعالى {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً}النساء٥٤ وقال تعالى {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ} يوسف٥٤ وقال {وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً}الكهف٧٩وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ}البقرة٢٥٨ فقد آتى الملك لبعض الكفار كما آتاه لبعض الأنبياء [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٥٨-٥٦٢

[٢] منهاج السنة النبوية ج: ١ ص: ١٣٢

## أثنى الله على الناس بإيمانهم وأعمالهم

لم يثن الله على أحد في القرآن بنسبه أصلا لا على ولد نبي ولا على أبي نبي وإنما أثنى على الناس بإيمانهم وأعمالهم وإذا ذكر صنفا وأثنى عليهم فلما فيهم من الإيمان والعمل لا لمجرد النسب ولما ذكر الأنبياء ذكرهم في الأنعام وهم ثمانية عشر قال {وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الأنعام٨٧ فبهذا حصلت الفضيلة باجتبائه سبحانه وتعالى وهدايته إياهم إلى صراط مستقيم لا بنفس القرابة وقد يوجب النسب حقوقا ويوجب لأجله حقوقا ويعلق فيه أحكاما من الإيجاب والتحريم والإباحة لكن الثواب والعقاب والوعد والوعيد على الأعمال لا على الأنساب ولما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}آل عمران٣٣ وقال {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً}النساء٥٤ كان هذا مدحا لهذا المعدن الشريف لما فيهم من الإيمان والعمل الصالح ومن لم يتصف بذلك منهم لم يدخل في المدح كما في قوله تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}الحديد٢٦ وقال تعالى {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ}الصافات١١٣ [١]

## العبد الرسول أفضل عند الله من النبى الملك

قد ذكرت فيما تقدم الكلام على الملك هل هو جائز فى شريعتنا و لكن خلافة النبوة مستحبة وأفضل منه أم خلافة النبوة واجبة و انما تجويز تركها الى الملك للعذر كسائر الواجبات تكلمت على ذلك وأما فى شرع من قبلنا فإن الملك جائز كالغنى يكون للأنبياء تارة و للصالحين أخرى قال الله تعالى فى داود {وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}البقرة٢٥١ و قال عن سليمان {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٢٢٣

مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ}ص٣٥ و قال عن يوسف {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ}يوسف١٠١ فهؤلاء ثلاثة أنبياء أخبر الله أنه آتاهم الملك و قال {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً {٥٤} فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً {٥٥}النساء٥٤ ـ٥٥ فهذا ملك لآل إبراهيم و ملك لآل داود و قد قال مجاهد فى قوله {تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء}آل عمران٢٦ قال النبوة فجعل النبوة نفسها ملكا والتحقيق أن من النبوة مايكون ملكا فإن النبى له ثلاثة أحوال إما أن يكذب و لا يتبع ولايطاع فهو نبي لم يؤت ملكا و إما أن يطاع فنفس كونه مطاعا هو ملك لكن إن كان لايأمر إلا بما أمر به فهو عبد رسول ليس له ملك وإن كان يأمر بما يريده مباحا له ذلك بمنزلة الملك كما قيل لسليمان {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}ص٣٩ فهذا نبي ملك فالملك هنا قسيم العبد الرسول كما قيل للنبى صلى الله عليه و سلم اختر إما عبدا رسولا و إما نبيا ملكا وأما بالتفسير الأول و هو الطاعة والاتباع فقسم من النبوة و الرسالة و هؤلاء أكمل و هو حال نبينا صلى الله عليه و سلم فإنه كان عبدا رسولا مؤيدا مطاعا متبوعا فأعطى فائدة كونه مطاعا متبوعا ليكون له مثل أجر من اتبعه و لينتفع به الخلق و يرحموا به و يرحم بهم ولم يختر أن يكون ملكا لئلا ينقص لما فى ذلك من الاستمتاع بالرياسة و المال عن نصيبه فى الآخرة فإن العبد الرسول أفضل عند الله من النبى الملك و لهذا كان أمر نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم أفضل من داود وسليمان ويوسف حتى إن من أهل الكتاب من طعن فى نبوة داود و سليمان كما يطعن كثير من الناس فى ولاية بعض أهل الرياسة والمال وليس الأمر كذلك وأما الملوك الصالحون فقوله سبحانه {إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {٢٤٧} وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ {٢٤٨}البقرة٢٤٧ ـ٢٤٨ و قوله سبحانه {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً{٨٣} إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً{٨٤} الكهف٨٣ـ٨٤ الآية قال مجاهد ملك الأرض مؤمنان و كافران فالمؤمنان سليمان وذو القرنين و الكافران بختنصر و نمرود و سيملكها خامس من هذه الأمة و قوله تعالى {يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ

فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً}المائدة٢٠ وأما جنس الملوك فكثيرة كقوله {وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً}الكهف٧٩ و قوله {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ}يوسف٤٣ [1]

## العبادة تتضمن كمال الحب وكمال الذل

إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ولهذا جاء فى الحديث الذى فى الترمذى من احب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد إستكمل الإيمان فإنه إذا كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله و دل ذلك على كمال الإيمان وذلك ان كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله وذلك عبادة الله وحده لا شريك له والعبادة تتضمن كمال الحب وكمال الذل والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ولا بد لكل حى من حب وبغض فإذا كانت محبته لمن يحبه الله وبغضه لمن يبغضه الله دل ذلك على صحة الإيمان فى قلبه لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف بما يعارضه من شهوات النفس واهوائها الذى يظهر فى بذل المال الذى هو مادة النفس فإذا كان حبه لله وعطاؤه لله ومنعه لله دل على كمال الإيمان باطنا وظاهرا واصل الشرك فى المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ}البقرة١٦٥ ومن كان حبه لله وبغضه لله لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يعطى إلا لله ولا يمنع إلا لله فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما إفترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن إستعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٣-٣٥

أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار أحدهم يدرك بالله ويتحرك بالله بحيث أن الله يجيب مسألته ويعيذه مما إستعاذ منه وقد ذم فى كتابه من أحب أندادا من دونه قال تعالى {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ}البقرة٩٣ وذم من إتخذ الهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه وهذا قد يكون فعل القلب فقط وقد مدح تعالى وذم فى كتابه فى غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ}البقرة١٦٥ وقال {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ}النساء٥٤ ومثل هذا كثير فى كتاب الله وسنة رسوله وإتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعى القلوب واعمالها مثل قوله فى الحديث الصحيح المتفق عليه لا تباغضوا ولا تحاسدوا بل قول القلب وعمله هو الأصل مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ومنه ما لا يقترن به ذلك الا مع الفعل بالجوارح الظاهرة اذا كانت مقدورة وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل [1]

## الحسد مرض من امراض النفس

ومن امراض القلوب الحسد كما قال بعضهم فى حده انه اذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء فلا يجوز ان يكون الفاضل حسودا لأن الفاضل يجرى على ما هو الجميل وقد قال طائفة من الناس إنه تمنى زوال النعمة عن المحسود وان لم يصر للحاسد مثلها بخلاف الغبطة فانه تمنى ملها من غير حب زوالها عن المغبوط والتحقيق ان الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان احدهما كراهة للنعمة عليه مطلقا فهذا هو الحسد المذموم واذا ابغض ذلك فانه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه فيكون ذلك مرضا فى قلبه ويلتذ بزوال النعمة عنه وان لم يحصل له نفع بزوالها لكن نفعه زوال الألم الذى كان فى نفسه ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه وهو راحة واشده كالمريض الذى عولج بما يسكن وجعه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص:٧٥٤- ٧٥٥ و الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٨٥

والمرض فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض فان تلك النعمة قد تعود على المحسود واعظم منها وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك المحسود والحاسد ليس له غرض فى شئ معين لكن نفسه تكره ما انعم به على النوع ولها قال من قال انه تمنى زوال النعمة فان من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه و النوع الثانى ان يكره فضل ذلك الشخص عليه فيجب أن يكون مثله او افضل منه فهذا حسد وهو الذى سموه الغبطة وقد سماه النبى حسدا فى الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهما انه قال لاحسد الا فى اثنتين رجل اتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها ورجل اتاه الله مالا وسلطه على هلكته فى الحق هذا لفظ ابن مسعود ولفظ ابن عمر رجل اتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ورجل اتاه الله مالا فهو ينفق منه فى الحق آناء الليل والنهار وراه البخارى من حديث أبى هريرة ولفظه لاحسد الا فى اثتين رجل اتاه الله القرآن فهو يتلوه الليل والنهار فسمعه رجل فقال ياليتنى أوتيت مثل ما اوتى هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا ورجل اتاه الله مالا فهو يهلكه فى الحق فقال رجل ياليتنى اوتيت مثل ما اوتى هذا فعملت فيه ما يعمل هذا فهذا الحسد الذى نهى عنه النبى الا فى موضعين هو الذى سماه اولئك الغبطة وهو ان يحب مثل حال الغير ويكره ان يفضل عليه فإن قيل اذا لم سمى حسدا وإنما أحب أن ينعم الله عليه قيل مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته ان يتفضل عليه ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك فلما كان مبدأ ذلك كراهته ان يتفضل عليه الغير كان حسدا لأنه كراهة تتبعها محبة واما من احب ان ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى احوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شئ ولهذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثانى وقد تسمى المنافسة فيتنافس الاثنان فى الأمر المحبوب المطلوب كلاهما يطلب ان يأخذه وذلك لكراهية أحدهما ان يتفضل عليه الآخر كما يكره المستبقان كل منهما ان يسبقه الآخر والتنافس ليس مذموما مطلقا بل هو محمود فى الخير قال تعالى {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{٢٢} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{٢٣} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{٢٤} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{٢٥} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{٢٦} المطففين٢٢-٢٦ فأمر المنافس ان ينافس فى هذا النعيم لا ينافس فى نعيم الدنيا الزائل وهذا موافق لحديث النبى فانه نهى عن الحسد إلا فيمن اوتى العلم فهو يعمل به ويعلمه ومن اوتى المال فهو ينفقه فاما من اوتى علما ولم يعمل به ولم يعلمه او أوتى مالا ولم ينفقه فى طاعة الله فهذا لا يحسد ولا يتمنى مثل حاله فانه ليس فى خير يرغب فيه بل هو معرض للعذاب ومن ولي ولاية فيأتيها بعلم وعدل أدى الأمانات إلى اهلها وحكم بين الناس بالكتاب والسنة فهذا درجته عظيمة لكن هذا فى جهاد

عظيم كذلك المجاهد فى سبيل الله والنفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم فلهذا لم يذكره وإن كان المجاهد فى سبيل الله أفضل من الذى ينفق المال بخلاف المنفق والمعلم فان هذين ليس لهم فى العادة عدو من خارج فان قدر أنهما لهما عدو يجاهدانه فذلك أفضل لدرجتهما وكذلك لم يذكر النبى المصلى والصائم والحاج لأن هذه الأعمال لا يحصل منها فى العادة من نفع الناس الذى يعظمون به الشخص ويسودونه ما يحصل بالتعليم والانفاق والحيد فى الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة وإلا فالعامل لايحسد فى العادة ولو كان تنعمه بالأكل والشرب والنكاح اكثر من غيره بخلاف هذين النوعين فانهما يحسدان كثيرا ولهذا يوجد بين أهل العلم لهم أتباع من الحسد مالا يوجد فيمن ليس كذلك وكذلك فيمن له اتباع بسبب إنفاق ماله فهذا ينفع الناس بقوت القلوب وهذا ينفعهم بقوت الأبدان والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا ولهذا ضرب الله سبحانه مثلين مثلا بهذا ومثلا بهذا فقال {ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{٧٥} وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٧٦} النحل ٧٥-٧٦ والمثلان ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ولما يعبد من دونه فان الأوثان لاتقدر لا على عمل ينفع ولا على كلام ينفع فاذا قدر عبد مملوك لايقدر على شئ وأخر قد رزقه الله رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوى هذا المملوك العاجز عن الاحسان وهذا القادر على الاحسان المحسن إلى الناس سرا وجهرا وهو سبحانه قادر على الاحسان إلى عباده وهو محسن إليهم دائما فكيف يشبه به العاجز المملوك الذى لايقدر على شئ حتى يشرك به معه وهذا مثل الذى اعطاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل والنهار و المثل الثانى إذا قدر شخصان أحدهما ابكم لا يعقل ولا يتكلم ولايقدر على شئ وهو مع هذا كل على مولاة اينما يوجهه لا يأت بخير فليس فيه من نفع قط بل هو كل على من يتولى أمره وآخر عالم عادل يأمر بالعدل ويعمل بالعدل فهو على صراط مستقيم وهذا نظير الذى اعطاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس وقد ضرب ذلك مثلا لنفسه فانه سبحانه عالم عادل قادر يأمر بالعدل وهو قائم بالقسط على صراط مستقيم كما قال تعالى {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}آل عمران١٨ وقال هود {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} هود٥٦ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس كان عبد الله يعلم الناس واخوه يطعم الناس فكانوا يعظمون على ذلك ورأى معاوية الناس يسألون ابن عمر عن

المناسك وهو يفتيهم فقال هذا والله الشرف او نحو ذلك     هذا وعمر بن الخطاب رضى الله عنه نافس ابا بكر رضى الله عنه الانفاق كما ثبت فى الصحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال     امرنا رسول الله ان نتصدق فوافق ذلك مالا عندي فقلت اليوم اسبق ابا بكر ان سبقته يوما قال فجئت بنصف مالى قال فقال لى رسول الله ما ابقيت لاهلك قلت مثله واتى ابو بكر رضى الله عنه بكل ما عنده فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ابقيت لاهلك قال ابقيت لهم الله ورسوله فقلت لا اسابقك الى شئ ابدا          فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة لكن حال الصديق رضى الله عنه افضل منه انه خال من المنافسة مطلقا لا ينظر الى حال غيره وكذلك موسى فى حديث المعراج       حصل له منافسة وغبطة للنبى حتى بكى لما تجاوزه النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له ما يبكيك فقال ابكى لان غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من امته اكثر ممن يدخلها من امتى     اخرجاه فى الصحيحين وروى فى بعض الالفاظ المروية غير الصحيح       مررنا على رجل وهو يقول ويرفع صوته اكرمته وفضلته قال فرفعناه إليه فسلمنا عليه فرد السلام فقال من هذا معك ياجبريل قال هذا احمد قال مرحبا بالنبى الامى الذى بلغ رسالة ربه ونصح لامته قال ثم اندفعنا فقلت من هذا يا جبريل قال هذا موسى ابن عمران قلت ومن يعاتب قال يعاتب ربه فيك قلت ويرفع صوته على ربه قال إن الله عز وجل قد عرف صدقه وعمر رضى الله عنه كان مشبها بموسى ونبينا حاله افضل من حال موسى فانه لم يكن عنده شيء من ذلك      وكذلك كان فى الصحابة ابو عبيدة بن الجراح ونحوه كانوا سالمين من جميع هذه الامور فكانوا ارفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة وإن كان ذلك مباحا ولهذا استحق أبو عبيدة رضي الله عنه أن يكون امين هذه الأمة فإن المؤتمن إذا لم يكن فى نفسه مزاحمة على شئ مما اؤتمن عليه كان احق بالامانة ممن يخاف مزاحمته ولهذا يؤتمن على النساء والصبيان الخصيان ويؤتمن على الولاية الصغرى من يعرف انه لا يزاحم على الكبرى ويؤتمن على المال من يعرف انه ليس له غرض فى اخذ شئ منه وإذا اؤتمن من فى نفسه خيانة شبه بالذئب المؤتمن على الغنم فلا يقدر ان يؤدى الامانة فى ذلك لما فى نفسه من الطلب لما اؤتمن عليه وفى الحديث الذى رواه الامام احمد فى مسنده عن أنس رضى الله عنه     قال كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من اهل الجنة قال فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوء قد علق نعليه فى يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال النبى مثل ذلك فطلع ذلك الرجل على مثل حاله فلما كان اليوم الثالث قال النبى صلى الله عليه وسلم مقالته فطلع ذلك الرجل على مثل حاله فلما قام النبى صلى الله عليه وسلم اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله

عنه فقال انى لاحيت ابى فاقسمت ان لا ادخل عليه ثلاثا فان رأيت ان تؤينى اليك حتى تمضى الثلاث فعلت قال نعم قال أنس رضى الله عنه فكان عبد الله يحدث انه بات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئا غير انه إذا تعار انقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم الى صلاة الفجر فقال عبد الله غير انى لم اسمعه يقول إلا خيرا فلما فرغنا من الثلاث وكدت ان احقر عمله قلت ياعبد الله لم يكن بينى وبين والدى غضب ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله يقول ثلاث مرات يطلع عليكم رجل من اهل الجنة فطلعت انت الثلاث مرات فأردت أن آوى اليك لأنظر ما عملك فاقتدى بذلك فلم أرك تعمل كثير عمل فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله قال ماهو إلا ما رأيت غير اننى لا أجد على احد من المسلمين فى نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه قال عبد الله هذه التى بلغت بك وهى التى لا نطيق فقول عبد الله بن عمرو له هذه التى بلغت بك وهى التى لانطيق يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}الحشر٩ اى مما اوتى اخوانهم المهاجرون قال المفسرون لا يجدون فى صدرهم حاجة اى حسدا وغيظا مما اوتى المهاجرون ثم قال بعضهم من مال الفئ وقيل من الفضل والتقدم فهم لا يجدون حاجة مما اوتوا من المال ولا من الجاه والحسد يقع على هذا وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله احب الآخرون ان يفعلوا نظير ذلك فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله كما قال {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}المطففين٢٦ واما الحسد المذموم كله فقد قال تعالى فى حق اليهود {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}البقرة١٠٩ يودون اى يتمنون ارتدادكم حسدا فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود من بعد ما تبين لهم الحق لأنهم لما رأوا انكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل بل ما لم يحصل لهم مثله حسدوكم وكذلك فى الآية الاخرى {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً{٥٤} فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً{٥٥}النساء٥٤ -٥٥ وقال تعالى {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ{١} مِن شَرِّ مَا خَلَقَ{٢} وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ{٣} وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ{٤} وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ{٥} الفلق١-٥ وقد ذكر طائفة من المفسرين انها نزلت بسبب حسد اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم حتى سحروه سحره لبيد بن الاعصم اليهودى فالحاسد المبغض للنعمة على من انعم الله عليه بها ظالم معتد والكاره لتفضيله المحب لمماثلته منهى عن ذلك إلافيما يقربه الى الله فاذا احب ان

يعطى مثل ما اعطى مما يقربه الى الله فهذا لا بأس به واعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر الى حال الغير افضل ثم هذا الحسد ان عمل بموجبه صاحب كان ظالما معتديا مستحقا للعقوبة الا ان يتوب وكان المحسود مظلوما مأمورا بالصبر والتقوى فيصبر على اذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه كما قال تعالى {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة١٠٩ و ان الحسد مرض من امراض النفس وهو مرض غالب فلا يخلص منه الا قليل من الناس ولهذا يقال ما خلا جسد من حسد لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه وقد قيل للحسن البصرى ايحسد المؤمن فقال ما انساك اخوة يوسف لا ابالك ولكن عمه فى صدرك فانه لا يضرك مالم تعذبه يدا ولسانا فمن وجد فى نفسه حسدا لغيره فعليه ان يستعمل معه التقوى والصبر فيكره ذلك من نفسه وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود فلا يعينون من ظلمه ولكنهم ايضا لا يقومون بما يجب من حقه بل اذا ذمه احد لم يوافقوه على ذمه ولا يذكرون محامده وكذلك لو مدحه احد لسكتوا وهؤلاء مدينون فى ترك المأمور فى حقه مفرطون فى ذلك لا معتدون عليه وجزاؤهم انهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون ايضا فى مواضع ولا ينصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود واما من اعتدى بقول اوفعل فذلك يعاقب ومن اتقى الله وصبر فلم يدخل فى الظالمين نفعه الله بتقواه كما جرى لزينب بنت جحش رضى الله عنها فانها كانت هى التى تسامى عائشة من ازواج النبى وحسد النساء بعضهن لبعض كثير غالب لا سيما المتزوجات بزوج واحد فان المرأة تغار على زوجها لحظها منه فانه بسبب المشاركة يفوت بعض حظها وهكذا الحسد يقع كثيرا بين المتشاركين فى رئاسة او مال اذا اخذ بعضهم قسطا من ذلك وفات الآخر ويكون بين النظراء لكراهةاحدهما ان يفضل الآخر عليه كحسد اخوة يوسف وكحسد انبى آدم احدهما لاخيه فانه حسده لكون ان الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربان هذا فحسده على ما فضله الله من الايمان والتقوى كحسد اليهود للمسلمين وقتله على ذلك ولهذا قيل اول ذنب عصى الله به ثلاثة الحرص والكبر والحسد فالحرص من آدم والكبر من ابليس والحسد من قابيل حيث قتل هابيل وفى الحديث ثلاث لا ينجو منهم احد الحسد والظن والطيرة وسأحدثكم بما يخرج من ذلك اذا حسدت فلا تبغض واذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت وامض رواه ابن ابى الدنيا من حديث ابى هريرة وفى السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم دب اليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء وهى الحالقة لا اقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين فسماه داء كما سمى البخل داء فى قوله وأى داء ادوا من البخل فعلم ان هذا مرض وقد

جاء فى حديث آخر اعوذ بك من منكرات الاخلاق والاهواء والادواء فعطف الأدواء على الاخلاق والاهواء فإن الخلق ما صار عادة للنفس وسجية قال تعالى {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ}القلم٤ قال ابن عباس وابن عيينة واحمد بن حنبل رضى الله عنهم على دين عظيم وفى لفظ عن ابن عباس على دين الاسلام وكذلك قالت عائشة رضى الله عنها كان خلقه القرآن وكذلك قال الحسن البصري أدب القرآن هو الخلق العظيم واما الهوى فقد يكون عارضا والداء هوالمرض وهو تالم القلب والفساد فيه وقرن فى الحديث الاول الحسد بالبغضاء لان الحاسد يكوه اولا فضل الله على ذلك التغير ثم ينتقل الى بغضه فان بعض اللازم يقتضى بغض الملزوم فان نعمة الله اذا كانت لازمة وهو يحب زوالها وهى لاتزول الا بزواله ابغضه واحب عدمه والحسد يوجب البغى كما اخبرالله تعالى عمن قبلنا انهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم فلم يكن اختلافهم لعدم العلم بل علموا الحق ولكن بغى بعضهم على بعض كما يبغى الحاسد على المحسود وفى الصحيحين عن انس بن مالك رضى الله عنه ان النبى قال لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا ولا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيصد هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام وقد قال فى الحديث المتفق على صحته من رواية انس ايضا والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى يحب لآخيه ما يحب لنفسه وقد قال تعالى {وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً {٧٢} وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً{٧٣}النساء٧٢-٧٣ فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لأخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم بل ان اصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم وان اصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها بل أحبوا ان يكون لهم منها حظ فهم لا يفرحون الا بدينا تحصل لهم او شر دنيوى ينصرف عنهم إذا كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة ولوكانوا كذلك لا حبوا اخوانهم واحبوا ماوصل اليهم من فضله وتألموا بما يصيبهم من المصيبة ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوءه ما يسوء المؤمنين فليس منهم ففى الصحيحين عن عامر قال سمعت النعمان بن بشر يخطب ويقول سمعت رسول الله يقول مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه شئ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وفى الصحيحين عن ابى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين اصابعه والشح مرض والبخل مرض والحسد شر من البخل كما فى الحديث الذى رواه ابوداود عن النبى أنه قال الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والصدقة تطفئ الخطيئة

كما يطفئ الماء النار وذلك ان البخيل يمنع نفسه والحسود يكره نعمة الله على عباده وقد يكون فى الرجل اعطاء لمن يعينه على اغراضه وحسد لنظرائه وقد يكون فيه بخل بلا حسد لغيره والشح اصل ذلك وقال تعالى {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الحشر ٩ وفى الصحيحين عن النبى صلىالله عليه وسلم انه قال إياكم والشح فانه اهلك من كان قبلكم امرهم بالبخل فبخلوا وامرهم بالظلم فظلموا وامرهم بالقطيعة فقطعوا وكان عبد الرحمن بن عوف يكثر من الدعاء فى طوافه يقول اللهم قنى شح نفسى فقال له رجل ما اكثر ما تدعو بهذا فقال إذا وقيت شح نفسى وقيت الشح والظلم والقطيعة والحسد يوجب الظلم فصل فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها بل وحبها لما يضرها ولهذا يقرن الحسد بالحقد والغضب [1]

## وصف الله اليهود بالكبر والحسد واتباع الهوى والغي

أن الإنسان يجب عليه أن يعرف الحق وأن يتبعه وهذا هو الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين وهذا هو الصراط الذي أمرنا الله أن نسأله هدايتنا إياه في كل صلاة بل في كل ركعة وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه استكبارا وحسدا وغلوا واتباعا للهوى وهذا هو الغي والنصارى ليس لهم علم بما يفعلونه من العبادة والزهد والأخلاق بل فيهم الجهل والغلو والبدع والشرك جهلا منهم وهذا هو الضلال وإن كان كل من الأمتين فيه ضلال وغي لكن الغي أغلب على اليهود والضلال أغلب على النصارى ولهذا وصف الله اليهود بالكبر والحسد واتباع الهوى والغي وإرادة العلو في الأرض والفساد قال تعالى {أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ} البقرة٨٧ وقال تعالى {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً} النساء٥٤ وقال {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١١١-١٢٩ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ١٩

يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ}الأعراف١٤٦ وقال تعالى {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً}الإسراء٤ ووصف النصارى بالشرك والضلال والغلو والبدع فقال تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}التوبة٣١ وقال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ}المائدة٧٧ وقال تعالى {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}الحديد٢٧وهذا مبسوط في غير هذا الموضع [1]

## لفظ الذوق يستعمل فى كل ما يحس به

قال تعالى {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ}النحل١١٢ فان من الناس من يقول الذوق حقيقة فى الذوق بالفم واللباس بما يلبس على البدن وانما استعير هذا وهذا وليس كذلك بل قال الخليل الذوق فى لغة العرب هو وجود طعم الشىء والاستعمال يدل على ذلك قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء٥٦ و قال تعالى {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ}السجدة٢١ وقال {وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}فصلت٥٠ وقال {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}الدخان٤٩ وقال {فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا}الطلاق٩ وقال{فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ}فاطر٣٧ وقال النبى ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا وفى بعض الادعية أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك فلفظ الذوق يستعمل فى كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته فدعوى المدعى اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم منه لكن ذاك مقيد فيقال ذقت الطعام وذقت هذا الشراب فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم واذا كان الذوق مستعملا فيما يحسه الانسان بباطنه أو بظاهره حتى الماء الحميم يقال ذاقه

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ١٢-١٣

فالشراب اذا كان باردا أو حارا يقال ذقت حره وبرده ولفظ ذوق الجوع والخوف فان هذا اللفظ يدل على الاحساس بالمؤلم واذا أضيف الى الملذ دل على الاحساس به كقوله صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا فان قيل فلم لم يصف نعيم الجنة بالذوق قيل لأن الذوق يدل على جنس الاحساس ويقال ذاق الطعام لمن وجد طعمه وان لم يأكله وأهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيه على الذوق بل استعمل لفظ الذوق فى النفى كما قال عن أهل النار {لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً}النبأ٢٤ أى لا يحصل لهم من ذلك ولا ذوق وقال عن أهل الجنة {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى}الدخان٥٦ [١]

## ان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان

فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الاسلام واخباره أنه دينه الذى ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال ان الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}التوبة٧٢ فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً}النساء٥٧ [٢]

## الثواب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:١١٠- ١١١

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٤٧

قال تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً}النساء٥٧ أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمان هو ما فى القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}البقرة٩٨ وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}الأحزاب٧ وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ}محمد٢ فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا}محمد٢ وهذه نزلت فى الصحابةوغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}البقرة٢٣٨ وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ}البينة٥ والصلاة والزكاة من العبادة فقوله {آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}البقرة٢٧٧ كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ}البينة٥ فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت فى الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل فى العام وقيل بل الأعمال فى الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما فى القلب ولكن هى لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم فى كلام النبى فإذا عطفت عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا

وتنصيصا ليعلم أن الثواب الموعود به فى الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن إدعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه فى غير موضع أن الصادق فى قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان فى هؤلاء يدل على إنتفائه عمن سواهم [1]

## العمل تحقيق لمسمى الإيمان

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن و المرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الايمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع فى أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان و التحقيق أنه تارة يدخل فى الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الاسلام خارجا عنه كما فى حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما فى قوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} النساء٥٧ و {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} البقرة٨٢ فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما فى القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبى العينان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:١٩٨-١٩٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٥٦

قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}التوبة٣٣ فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}النساء٥٧ [١]

## لطائف لغوية

١- قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ}النساء٤٤ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{٧١} الصافات٦٩ -٧١ وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}الأحزاب٦٧ -٦٨ وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}طه١٢٣ ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}النجم٢ وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}الفاتحة٧ وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}القمر٤٧ [٢]

٢- {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} النساء٤٦ تحريف الكلم عن مواضعه كما ذمه الله تعالى فى كتابه وهو إزالة اللفظ عما دل عليه من المعنى [٣]

٣- {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ} النساء٤٦ و الدين يتضمن

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٥٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٧

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٦٥

معنى الخضوع والذل يقال دنته فدان اى ذللته فذل ويقال يدين الله ويدين لله أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له[1]

٤ـ قال تعالى {وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً}النساء٤٧ و لفظ الأمر يراد به المصدر و المفعول فالمفعول مخلوق كما قال {أَتَى أَمْرُ اللّهِ}النحل١ و قال {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً}الأحزاب٣٨ فهنا المراد به المأمور به ليس المراد به أمره الذي هو كلامه و هذه الآية التى إحتج بها هؤلاء تضمنت الشرع و هو الأمر و القدر و قد ضل في هذا الموضع فريقان الجهمية الذين يقولون كلام الله مخلوق و يحتجون بقوله {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً}الأحزاب٣٨و يقولون ما كان مقدورا فهو مخلوق و هؤلاء الحلولية الضالون الذين يجعلون فعل العباد قديما بأنه أمر الله و قدره و أمره و قدره غير مخلوق و مثار الشبهة أن إسم القدر و الأمر و الشرع يراد به المصدر و يراد به المفعو ل ففي قو له {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً}الأحزاب٣٨ المراد به المأمور به المقدور و هذا مخلوق و أما فى قوله {ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ}الطلاق٥ فأمره كلامه إذا لم ينزل إلينا الأفعال التى أمرنا بها و إنما أنزل القرآن و هذا كقوله {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}النساء٥٨ فهذا الأمر هو كلامه[2]

٥ـ وقال تعالى في صفة المغضوب عليهم {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ}النساء٤٦ ووصفهم بأنهم {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ}آل عمران٧٨ والتحريف قد فسر بتحريف التنزيل وبتحريف التأويل فأما تحريف التأويل فكثير جدا وقد ابتليت به طوائف من هذه الأمة وأما تحريف التنزيل فقد وقع فيه كثير من الناس يحرفون ألفاظ الرسول ويروون أحاديث بروايات منكرة وإن كان الجهابذة يدفعون ذلك وربما تطاول بعضهم إلى تحريف التنزيل وإن لم يمكنه ذلك كما قرأ بعضهم {وَكَلَّمَ اللّهَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٥٢

[2] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤١٣

مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ )ملاحظة لم يوضح ما الخطا في القراءة نفس الكتابة بالنسبة لقوله تعالى {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤([1]

٦- والتزكية جعل الشئ زكيا إنما فى ذاته وإما فى الاعتقاد والخبر كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا فى نفسه او فى اعتقاد الناس قال تعالى {فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}النجم٣٢ أى تخبروا بزكاتها وهذا غير قوله {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}الشمس٩ ولهذا قال {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}النجم٣٢ وكان اسم زينب برة فقيل تزكى نفسها فسماها رسول الله زينب واما قوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ}النساء٤٩ اى يجعله زاكيا ويخبر بزكاته كما يزكى المزكى الشهود فيخبر بعدلهم و العدل هو الاعتدال والاعتدال هو صلاح القلب كما أن الظلم فساده ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالما لنفسه والظلم خلاف العدل يعدل على نفسه بل ظلمها فصلاح القلب في العدل وفساده في الظلم وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر[2]

٧- {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}النساء٥١ والطاغوت كل معظم ومتعظم بغير طاعة الله ورسوله من إنسان أو شيطان أو شيء من الأوثان[3]

٨- قال تعالى {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً} النساء٥١ آل فلان إذا أطلق فى الكتاب والسنة دخل فيه فلان كما في قوله {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}آل عمران٣٣ وقوله {إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ}القمر٣٤ وقوله {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}غافر٤٦ وقوله {سَلَامٌ عَلَى إِلْ

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٩٩ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٦-٧

[3] في المحبة ج: ١ ص: ١٩٣

يَاسِينَ} الصافات١٣٠ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبى أوفى وكذلك لفظ أهل البيت كقوله تعالى {رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ} هود٧٣ فإن إبراهيم داخل فيهم وكذلك قوله من سره ان يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل الله صل على محمد النبى الحديث وسبب ذلك أن لفظ الآل أصله أول تحركت الواو وإنفتح ما قبلها فقلبت ألفا فقيل آل ومثله باب وناب وفى الأفعال قال وعاد ونحو ذلك ومن قال أصله أهل فقلبت الهاء الفا فقد غلط فإنه قال مالا دليل عليه وإدعى القلب الشاذ بغير حجة مع مخالفته للأصل وأيضا فإن لفظ الأهل يضيفونه إلى الجماد وإلى غير المعظم كما يقولون أهل البيت وأهل المدينة واهل الفقير وأهل المسكين وإما الآل فإنما يضاف إلى معظم من شأنه أن يؤول غيره أو يسوسه فيكون مآله إليه ومنه الإيالة وهى السياسة فآل الشخص هم من يؤوله ويؤول إليه ويرجع إليه ونفسه هى أول وأولى من يسوسه ويؤول إليه فلهذا كان لفظ آل فلان متناولا له ولا يقال هو مختص به بل يتناوله ويتناول من يؤوله [١]

٩- قال تعالى {إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء٥٦ فهو المسمى نفسه بأسمائه الحسنى كما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس انه لما سئل عن قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ غفورا رحيما فقال هو سمى نفسه بذلك وهو لم يزل كذلك فأثبت قدم معانى أسمائه الحسنى وأنه هو الذى سمى نفسه بها [٢]

*قال تعالى {لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ}النساء٥٦ ولفظ الذوق وان كان قد يظن انه فى الاصل مختص بذوق اللسان فاستعماله فى الكتاب والسنة يدل على انه اعم من ذلك مستعمل فى الاحساس بالملائم والمنافر كما ان لفظ الاحساس فى عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس بل وبالباطن واما فى اللغة فأصلة الرؤية كما قال {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ}مريم٩٨ و المقصود لفظ الذوق قال تعالى {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ}النحل١١٢ فجعل الخوف والجوع مذوقا واضاف اليهما اللباس ليشعر انه لبس الجائع والخائف فشمله واحاط

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٤٦٣

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٠٥

به احاطة اللباس باللابس بخلاف من كان الالم لا لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع وقال تعالى {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ}الصافات٣٨ وقال تعالى {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}الدخان٤٩ وقال تعالى {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}القمر٤٨ وقال {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ}الدخان٥٦ وقال تعالى {لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً{٢٤} إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً{٢٥}النبأ٢٤ ـ٢٥ وقال {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ}السجدة٢١ وقد قال النبى ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا فاستعمال لفظ الذوق في ادراك الملائم والمنافر كثير [1]

١٠- {إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء٥٦ عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب حكيم منزه عن السفه [2]

١١- {سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}النساء٥٧ قوله تعالى {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}البقرة٢٥ فيقال النهر كالقرية والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة فى السكان فى مثل قوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا}يوسف٨٢ وتارة فى المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣٣٤-٣٣٥ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٦١

[2] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[3] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٦٤

## النساء٥٨-٧٠

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ
النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً
بَصِيراً{٥٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي
الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً{٥٩} أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ
أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ
أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ
وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١} فَكَيْفَ إِذَا
أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا
إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{٦٢} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{٦٣} وَمَا
أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ
جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً
رَّحِيماً{٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ
لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥} وَلَوْ
أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ
قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ
تَثْبِيتاً{٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ
صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨} وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ
وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً{٦٩} ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ
عَلِيماً{٧٠}

## "الحكمة معرفة الدين والعمل به"

قال مالك رحمه الله الحكمة معرفة الدين والعمل به ولذلك قال ابن قتيبة الحكمة عند العرب العلم و العمل و الحكمة العملية عندهم و عند غيرهم تتضمن علم الأخلاق

وسياسة المنزل وسياسة المدنية وبنى ذلك كله على هذه القضايا المشهورة بل وكل عمل يؤمر به فلا بد فيه من العدل فالعدل مأمور به في جميع الأعمال والظلم منهى عنه نهيا مطلقا ولهذا جاءت أفضل الشرائع والمناهج بتحقيق هذا كله وتكلميه فأوجب الله العدل لكل أحد على كل أحد في كل حال كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ}النساء١٣٥ و قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}المائدة٨ وقال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}الحديد٢٥ وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}النحل٩٠ ومثل هذا كثير وكذلك تحريم الظلم بمجموع أنواعه كثير في النصوص الالهية حتى في الحديث الالهى حديث ابي ذر الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال يا عبادي إنى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ولا أبالي فاستغفروني اغفر لكم يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى يا عبادي لو ان أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكى شيئا يا عبادي لو ان أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا يا عبادي لو أن اولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط يا عبادي إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم اوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه [1]

---

[1] الرد على المنطقيين ج: ١ ص:٤٢٥- ٤٢٦

# أهل الإيمان والعلم إنما يحكمون بكتاب الله وسنة رسوله

فيما جعل الله للحاكم أن يحكم فيه ومالم يجعل لواحد من المخلوقين الحكم فيه بل الحكم فيه على جميع الخلق لله تعالى ولرسوله ليس لأحد من الحكام أن يحكم فيه على غيره ولو كان ذلك الشخص من آحاد العامة وهذا مثل الأمور العامة الكلية التى أمر الله جميع الخلق أن يؤمنوا بها ويعملوا بها وقد بينها فى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بما أجمعت عليه الأمة أو تنازعت الأمة فيه إذا وقع فيه نزاع بين الحكام وبين آحاد المسلمين من العلماء أو الجند أو العامة أو غيرهم لم يكن للحاكم أن يحكم فيها على من ينازعه ويلزمه بقوله ويمنعه من القول الآخر فضلا عن أن يؤذيه أو يعاقبه مثل أن يتنازع حاكم أو غير حاكم فى قوله {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}النساء٤٣ هل المراد به الجماع كما فسره إبن عباس وغيره وقالوا إن مس المرأة لا ينقض الوضوء لا لشهوة ولا لغير شهوة أو المراد به اللمس بجميع البشرة إما لشهوة وإما مطلقا كما نقل الأول عن إبن عمر والثالث قاله بعض العلماء وللعلماء فى هذا ثلاثة أقوال والأظهر هو القول الأول وإن الوضوء لا ينتقض بمس النساء مطلقا وما زال المسلمون يمسون نساءهم ولم ينقل أحد قط عن النبى أنه كان يأمر المسلمين بالوضوء من ذلك ولا نقل عن الصحابة على حياته أنه توضأ من ذلك ولا نقل عنه قط أنه توضأ من ذلك بل قد نقل عنه فى السنن أنه كان يقبل بعض نسائه ولا يتوضأ وقد إختلف فى صحة هذا الحديث لكن لا خلاف أنه لم ينقل عنه أنه توضأ من المس وكذلك تنازع المسلمون فى الوضوء من خروج الدم بالفصاد والحجامة والجرح والرعاف وفى القئ وفيه قولان مشهوران وقد نقل عن النبى أنه توضأ من ذلك وعن كثير من الصحابة لكن لم يثبت قط أن النبى أوجب الوضوء من ذلك بل كان أصحابه يخرجون فى المغازى فيصلون ولا يتوضئون ولهذا قال طائفة من العلماء إن الوضوء من ذلك مستحب غير واجب وكذلك قال فى الوضوء من مس الذكر و مس المرأة لشهوة إنه يستحب الوضوء من ذلك ولا يجب وكذلك قالوا فى الوضوء من القهقهة و مما مست النار إن الوضوء من ذلك يستحب ولا يجب فمن توضأ فقد أحسن ومن لم يتوضأ فلا شيء عليه وهذا أظهر الأقوال وليس المقصود ذكر هذه المسائل بل المقصود ضرب المثل بها وكذلك تنازعوا فى كثير من مسائل الفرائض كالجد والمشركة وغيرهما وفى كثير من مسائل الطلاق والإيلاء وغير ذلك وفى كثير من مسائل العبادات فى الصلاة والصيام والحج وفى مسائل زيارات القبور منهم من كرهها مطلقا ومنهم من أباحها ومنهم من إستحبها إذا كانت على الوجه المشروع وهو قول أكثرهم وتنازعوا فى السلام على النبى هل يسلم عليه فى المسجد وهو

مستقبل القبلة أو مستقبل الحجرة وهل يقف بعد السلام يدعو له أم لا وتنازعوا أى المسجدين أفضل المسجد الحرام أو مسجد النبى وإتفقوا على أنهما أفضل من المسجد الأقصى وإتفقوا على أنه لا يستحب السفر إلى بقعة للعبادة فيها غير المساجد الثلاثة وإتفقوا على أنه لو نذر الحج أو العمرة لزمه الوفاء بنذره وإتفق الأئمة الأربعة والجمهور على أنه لو نذر السفر إلى غير المساجد الثلاثة لم يلزمه الوفاء بنذره وتنازعوا فيما إذا نذر السفر إلى المسجدين إلى أمور أخرى يطول ذكرها وتنازعوا فى بعض تفسير الآيات وفى بعض الأحاديث هل ثبتت عن النبى أو لم تثبت فهذه الامور الكلية ليس لحاكم من الحكام كائنا من كان ولو كان من الصحابة ان يحكم فيها بقوله على من نازعه فى قوله فيقول الزمته ان لايفعل ولا يفتى الابالقول الذي يوافق لمذهبى بل الحكم فى هذه المسائل لله ورسوله والحاكم واحد من المسلمين فان كان عنده علم تكلم بما عنده واذا كان عند منازعه علم تكلم به فان ظهر الحق فى ذلك وعرف حكم الله ورسوله وجب على الجميع اتباع حكم الله ورسوله وان خفى ذلك اقر كل واحد على قوله اقر قائل هذا القول على مذهبه وقائل هذا القول على مذهبه ولم يكن لاحدهما ان يمنع الاخر الابلسان العلم والحجة والبيان فيقول ماعنده من العلم وأما باليد والقهر فليس له أن يحكم إلا فى المعينة التى يتحاكم فيها إليه مثل ميت مات وقد تنازع ورثته فى قسم تركته فيقسمها بينهم إذا تحاكموا إليه واذا حكم هنا بأحد قولى العلماء الزم الخصم بحكمه ولم يكن له أن يقول أنا لا أرضى حتى يحكم بالقول الآخر وكذلك اذا تحاكم اليه اثنان فدعوى يدعيها أحدهما فصل بينهما كما أمر الله ورسوله وألزم المحكوم عليه بما حكم به وليس له أن يقول انت حكمت علي بالقول الذى لاأختاره فان الحاكم عليه ان يجتهد كما قال النبى اذا اجتهد الحاكم فاصاب فله اجران واذا اجتهد فأخطأ فله اجر وقد يخص الله بعض الأنبياء والعلماءوالحكام بعلم دون غيره كما قال تعالى {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ{٧٨} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً {٧٩}الانبياء٧٨-٧٩ وعلى الحكام ان لا يحكموا الا بالعدل والعدل هو ما أنزل الله كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً} النساء٥٨ ثم قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ فأوجب الله طاعة أولى الأمر مع طاعة الرسول وأوجب على الأمة إذا تنازعوا ان يردوا ما تنازعوا الى الله ورسوله الى كتاب الله وسنه رسوله فان الله سبحانه وتعالى هو الحكم الذى يحكم بين عباده

والحكم له وحده وقد أنزل اللة الكتب وارسل الرسل ليحكم بينهم فمن اطاع الرسول كان من أوليائه المتقين وكانت له سعادة الدنيا والآخرة ومن عصى الرسول كان من اهل الشقاء والعذاب قال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}البقرة٢١٣ وفى صحيح مسلم عن عائشة أن النبى كان إذا قام يصلى من الليل يقول اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدنى لما إختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم وقال تعالى {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ}آل عمران١٩ فبين سبحانه وتعالى أنه هداهم وبين لهم الحق لكن بعضهم يبغى على بعض مع معرفته بالحق فيتبع هواه ويخالف أمر الله وهو الذى يعرف الحق ويزيغ عنه كما قال تعالى {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ{١٧٥} وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{١٧٦} الاعراف١٧٥-١٧٦ فقد بين سبحانه وتعالى أنه بعث الرسل وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما إختلفوا فيه وقال تعالى {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}الشورى١٠ وقال يوسف {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ{٣٩} مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{٤٠}يوسف٣٩-٤٠ فالحكم لله وحده ورسله يبلغون عنه فحكمهم حكمه وأمرهم أمره وطاعتهم طاعته فما حكم به الرسول وأمرهم به وشرعه من الدين وجب على جميع الخلائق إتباعه وطاعته فإن ذلك هو حكم الله على خلقه والرسول يبلغ عن الله قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً{٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥} النساء٦٤-٦٥ فعلى جميع الخلق أن يحكموا رسول الله خاتم النبيين وأفضل المرسلين وأكرم الخلق على الله ليس لأحد أن يخرج عن حكمه فى شيء سواء كان من العلماء أو الملوك أو الشيوخ أو غيرهم ولو أدركه موسى أو عيسى

وغيرهما من الرسل كان عليهم إتباعه كما قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ}آل عمران٨١ وروى عن غير واحد من السلف على وابن عباس وغيرهما قالوا لم يبعث عهد نوح إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وهو سبحانه أخذ الميثاق على النبى المتقدم أن يصدق من يأتى بعده وعلى النبى المتأخر أن يصدق من كان قبله ولهذا لم تختلف الأنبياء بل دينهم واحد كما قال النبى فى الحديث الصحيح إنا معشر الأنبياء ديننا واحد وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ{٥١} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ{٥٢} المؤمنون٥١-٥٢ أى ملتكم ملة واحدة كقولهم {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ}الزخرف٢٣ أى ملة وقال تعالى {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}الشورى١٣ فدين الأنبياء واحد وهو دين الإسلام كلهم مسلمون مؤمنون كما قد بين الله فى غير موضع من القرآن لكن بعض الشرائع تتنوع فقد يشرع فى وقت أمرا لحكمه ثم يشرع فى وقت آخر أمرا آخر لحكمه كما شرع فى أول الإسلام الصلاة إلى بيت المقدس ثم نسخ ذلك وأمر بالصلاة إلى الكعبة فتنوعت الشريعة والدين واحد وكان إستقبال الشام ذلك الوقت من دين الإسلام وكذلك السبت لموسى من دين الإسلام ثم لما نسخ صار دين الإسلام هو الناسخ وهو الصلاة إلى الكعبة فمن تمسك بالمنسوخ دون الناسخ فليس هو على دين الإسلام ولا هو متبع لأحد من الأنبياء ومن بدل شرع الأنبياء وإبتدع شرعا فشرعه باطل لايجوز إتباعه كما قال {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ}الشورى٢١ ولهذا كفر اليهود والنصارى لأنهم تمسكوا بشرع مبدل منسوخ والله أوجب على جميع الخلق أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله ومحمد خاتم الرسل فعلى جميع الخلق إتباعه وإتباع ما شرعه من الدين وهو ما أتى به من الكتاب والسنة فما جاء به الكتاب والسنة وهو الشرع الذى يجب على جميع الخلق إتباعه وليس لأحد الخروج عنه وهو الشرع الذى يقاتل عليه المجاهدون وهو الكتاب والسنة وسيوف المسلمين تنصر هذا الشرع وهو الكتاب والسنة كما قال جابر إبن عبد الله أمرنا رسول الله أن نضرب بهذا يعنى السيف من خرج عن هذا يعنى المصحف قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ

بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}الحديد٢٥ فبين سبحانه وتعالى أنه أنزل الكتاب وأنزل العدل وما به يعرف العدل ليقوم الناس بالقسط وأنزل الحديد فمن خرج عن الكتاب والميزان قوتل بالحديد فالكتاب والعدل متلازمان والكتاب هو المبين للشرع فالشرع هو العدل والعدل هو الشرع ومن حكم بالعدل فقد حكم بالشرع ولكن كثيرا من الناس ينسبون ما يقولونه إلى الشرع وليس من الشرع بل يقولون ذلك إما جهلا وإما غلطا وإما عمدا وإفتراء وهذا هو الشرع المبدل الذى يستحق أصحابه العقوبة ليس هو الشرع المنزل الذى جاء به جبريل من عند الله إلى خاتم المرسلين فإن هذا الشرع المنزل كله عدل ليس فيه ظلم ولا جهل قال تعالى {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}المائدة٤٢ وقال تعالى {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ}المائدة٤٩ فالذى أنزل الله هو القسط والقسط هو الذى أنزل الله وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ وقال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ}النساء١٠٥ فالذى أراه الله فى كتابه هو العدل وقد يقول كثير من علماء المسلمين أهل العلم والدين من الصحابة والتابعين وسائر إئمة المسلمين كالأربعة وغيرهم أقوالا بإجتهادهم فهذه يسوغ القول بها ولا يجب على كل مسلم أن يلتزم إلا قول رسول الله فهذا شرع دخل فيه التأويل والإجتهاد وقد يكون فى نفس الأمر موافقا للشرع المنزل فيكون لصاحبه أجران وقد لا يكون موافقا له لكن لا يكلف الله نفسا إلا وسعها فإذا إتقى العبد الله ما إستطاع آجره الله على ذلك وغفر له خطأه ومن كان هكذا لم يكن لأحد أن يذمه ولا يعيبه ولا يعاقبه ولكن إذا عرف الحق بخلاف قوله لم يجز ترك الحق الذى بعث الله به رسوله لقول أحد من الخلق وذلك هو الشرع المنزل من عند الله وهو الكتاب والسنة وهو دين الله ورسوله لتكون كلمة الله هى العليا ويكون الدين كله لله لا يجاهدون على قول عالم ولا شيخ ولا متأول بل يجاهدون ليعبد الله وحده ويكون الدين له كما فى المسند عن إبن عمر قال قال النبى صلى الله عليه وسلم بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم وقال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ}الأنفال٣٩ وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال قيل يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأى ذلك فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله فالمقصود بالجهاد أن لا يعبد أحد إلا الله فلا يدعو غيره ولا يصلى لغيره ولا يسجد لغيره ولا يصوم لغيره ولا يعتمر ولا يحج إلا إلى بيته ولا

يذبح القرابين إلا له ولا ينذر إلا له ولا يحلف إلا به ولا يتوكل إلا عليه ولا يخاف إلا إياه ولا يتقى إلا إياه فهو الذى لا يأتى بالحسنات إلا هو ولا يدفع السيئات إلا هو ولا يهدى الخلق إلا هو ولا ينصرهم إلا هو ولا يرزقهم إلا هو ولا يغنيهم إلا هو ولا يغفر ذنوبهم إلا هو قال تعالى {وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ{٥١} وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ{٥٢} وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ{٥٣} ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ{٥٤} لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ{٥٥}النحل٥١-٥٥ والله تعالى قد حرم الشرك كله وإن يجعل له ندا فلا يدعى غيره لا الملائكة ولا الأنبياء ولا الصالحون ولا الشمس ولا القمر ولا الكواكب ولا الأوثان ولا غير ذلك بل قد بين ان من إتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر قال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ {٧٩} وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{٨٠}آل عمران٧٩ -٨٠ وقال تعالى {قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً{٥٦} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً{٥٧}الاسراء٥٦-٥٧ ذم الله سبحانه وتعالى لمن يدعو الملائكة والأنبياء وغيرهم من الصالحين وبين أن هؤلاء الذين يدعونهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله وأنهم يتقربون إلى الله بالوسيلة وهى الأعمال الصالحة ويرجون رحمته ويخافون عذابه فكيف يدعون المخلوقين ويذرون الخالق وقال تعالى {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً}الكهف١٠٢ وهو سبحانه وتعالى عليم بأحوال عباده رحيم بهم كما فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه رأى إمرأة من السبى إذا رأت ولدا ألصقته ببطنها فقال أترون هذه واضعة ولدها فى النار قالوا لا يا رسول الله قال لله أرحم بعباده من هذه بولدها وهو سبحانه سميع قريب قال الله تعالى {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}سبأ٥٠ وهو تعالى رحيم ودود و الود اللطف والمحبة فهو يود عباده المؤمنين ويجعل لهم الود فى القلوب كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً}مريم٩٦ قال إبن عباس وغيره يحبهم ويحببهم إلى عباده وهو سبحانه لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين بل يحب من يدعوه ويتضرع إليه ويبغض من لايدعوه قال النبى من لا يسأل الله يغضب عليه

وقال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر٦٠ وقال تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} البقرة١٨٦ قال بعض الصحابة يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه أو بعيد فنناديه فأنزل الله هذه الآية وهو سبحانه وتعالى ليس كالمخلوقين الذين ترفع إليهم الحوائج بالحجاب بل فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدى فإذا قال الرحمن الرحيم قال الله أثنى علي عبدى فإذا قال مالك يوم الدين قال الله مجدنى عبدى فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال الله هذه الآية وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل وهو سبحانه يتولى كلام عباده يوم القيامة كما جاء فى الصحيح عن عدى بن حاتم أنه قال قال رسول الله ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه عز وجل ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئا قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئا قدمه وينظر أمامه فتستقبله النار فمن إستطاع منكم أن يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل فإن لم يجد فبكلمه طيبة وهو سبحانه قريب ممن دعاه يتقرب ممن عبده وأطاعه كما فى الحديث الصحيح عن النبى أنه قال يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم وإن تقرب إلى شبرا تقربت منه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة والله سبحانه يولى عباده إحسانا وجودا وكرما لا لحاجة إليهم كما قال تعالى {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً} الإسراء١١١ ولا يحاسب العباد إلا هو وحده وهو الذى يجازيهم بأعمالهم {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨} الزلزلة٧-٨ وهو الذى يرزقهم ويعافيهم وينصرهم ويهديهم لا أحد غيره يفعل ذلك قال تعالى {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ{٢٠} أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ{٢١} الملك٢٠-٢١ وقال تعالى {قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ} الأنبياء٤٢ وأصح القولين فى الآية أن معناه من ذا الذى يكلؤكم بدلا من الله من الذى يدفع الآفات عنكم التى تخافونها من الإنس والجن والرسول هو الواسطة والسفير بينهم وبين الله عز وجل فهو الذى

يبلغهم أمر الله ونهيه ووعده ووعيده وتحليله وتحريمه فالحلال ما حلله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله وليس لأحد أن يخرج عن شيء مما شرعه الرسول وهو الشرع الذى يجب على ولاة الأمر إلزام الناس به ويجب على المجاهدين الجهاد عليه ويجب على كل واحد إتباعه ونصره وليس المراد بالشرع اللازم لجميع الخلق حكم الحاكم ولو كان الحاكم أفضل أهل زمانه بل حكم الحاكم العالم العادل يلزم قوما معينين تحاكموا إليه فى قضية معينة لا يلزم جميع الخلق ولا يجب على عالم من علماء المسلمين أن يقلد حاكما لا فى قليل ولا فى كثير إذا كان قد عرف ما أمر الله به ورسوله بل لا يجب على آحاد العامة تقليد الحاكم فى شيء بل له أن يستفتى من يجوز له إستفتاؤه وإن لم يكن حاكما ومتى ترك العالم ما علمه من كتاب الله وسنة رسوله واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله كان مرتدا كافرا يستحق العقوبة فى الدنيا والآخرة قال تعالى {المص{١} كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{٢} اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ{٣} الاعراف١-٣ ولو ضرب وحبس و أوذى بأنواع الأذى ليدع ما علمه من شرع الله ورسوله الذى يجب إتباعه وإتبع حكم غيره كان مستحقا لعذاب الله بل عليه أن يصبر وإن أوذى فى الله فهذه سنة الله فى الأنبياء وأتباعهم قال الله تعالى {الم{١} أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ{٢} وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ{٣} العنكبوت١-٣ وقال تعالى {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}محمد٣١ وقال تعالى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}البقرة٢١٤ وهذا إذا كان الحاكم قد حكم فى مسألة إجتهادية قد تنازع فيها الصحابة والتابعون فحكم الحاكم بقول بعضهم وعند بعضهم سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم تخالف ما حكم به فعلى هذا أن يتبع ما علم من سنة رسول الله ويأمر بذلك ويفتى به ويدعو إليه ولا يقلد الحاكم هذا كله باتفاق المسلمين وإن ترك المسلم عالما كان أو غير عالم ما علم من أمر الله ورسوله لقول غيره كان مستحقا للعذاب قال تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}النور٦٣ وإن كان ذلك الحاكم قد خفى عليه هذا النص مثل كثير من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم تكلموا فى مسائل بإجتهادهم وكان فى ذلك سنة لرسول الله تخالف إجتهادهم فهم معذورون لكونهم إجتهدوا و {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا}البقرة٢٨٦ ولكن

من علم سنة رسول الله لم يجز له أن يعدل عن السنة إلى غيرها قال تعالى {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً}الأحزاب٣٦ ومن اتبع ما بعث الله به رسوله كان مهديا منصورا بنصرة الله فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}غافر٥١ وقال تعالى {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ{١٧١} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ{١٧٢} وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ{١٧٣} الصافات١٧١-١٧٣ واذا اصابت العبد مصيبة كانت بذنبه لا باتباعه للرسول بل باتباعه للرسول صلى الله عليه وسلم يرحم وينصر وبذنوبه يعذب ويخذل قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٠ ولهذا لما انهزم المسلمون يوم احد وكانوا مع النبى واستظهر عليهم العدو بين الله لهم أن ذلك بذنوبهم قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}آل عمران١٥٥ وقال تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}آل عمران١٦٥ وبين سبحانه حكمة ابتلائهم فقال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ{١٣٧} هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ{١٣٨} وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{١٣٩} إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{١٤٠} وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ{١٤١} ال عمران ١٣٧-١٤١ وقال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ والله قدرها وقدر كل شىء لكن ما أصاب العبد من عافية ونصر ورزق فهو من انعام الله عليه واحسانه اليه فالخير كله من الله وليس للعبد من نفسه شىء بل هو فقير لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولاحياة ولا نشورا وما اصابه من مصيبة فبذنوبه والله تعالى يكفر ذنوب المؤمنين بتلك المصائب ويؤجرهم على الصبر عليها ويغفر لمن استغفر ويتوب على من تاب قال النبى ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه ولما انزل الله تعالى قوله {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ قال ابو بكر يا رسول الله قد جاءت قاصمة الظهر واينا لم يعمل سوءا قال يا ابا بكر الست تنصب الست تحزن الست تصيبك اللاواء فذلك ما تجزون به وقد قص الله علينا فى القرآن اخبار الانبياء وما اصابهم وما أصاب اتباعهم المؤمنين من الاذى فى الله ثم انه تعالى

نصرهم وجعل العاقبة لهم وقص علينا ذلك لنعتبر به قال تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}يوسف١١١ فالشرع الذى يجب على كل مسلم ان يتبعه ويجب على ولاة الامر نصره والجهاد عليه هو الكتاب والسنة واما حكم الحاكم فذاك يقال له قضاء القاضى ليس هو الشرع الذى فرض الله على جميع الخلق طاعته بل القاضى العالم العادل يصيب تارة ويخطىء تارة ولو حكم الحاكم لشخص بخلاف

الحق فى الباطن لم يجز له اخذه ولو كان الحاكم سيد الاولين والاخرين كما فى الصحيحين عن ام سلمة قالت قال رسول الله انكم تختصمون الى ولعل بعضكم الحن بحجته من بعض فاقضى له بنحو مما اسمع فمن قضيت له من حق اخيه شيئا فلا ياخذه فانما اقطع له قطعة من النار فهذا سيد الحكام والامراء والملوك يقول اذا حكمت لشخص بشىء يعلم انه لا يستحقه فلا يأخذه وقد اجمع المسلمون على ان حكم الحاكم بالاملاك المرسلة لا ينفذ فى الباطن فلو حكم لزيد بمال عمرو وكان مجتهدا متحريا للحق لم يجز له اخذه واما فى العقود والفسوخ مثل ان يحكم بنكاح او طلاق او بيع او فسخ بيع ففيه نزاع معروف وجمهورهم يقولون لا ينفذ ايضا وهي مسألة معروفة وهذا اذا كان الحاكم عالما عادلا وقد حكم فى أمر دنيوى و القضاة ثلاثة انواع كما فى السنن عن النبى قال القضاة ثلاثة قاضيان فى النار وقاض فى الجنة رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار فالقاضى الذى هو من اهل الجنة اذا حكم للانسان بما يعلم أنه غير حق لم يحل له أخذه لسنة رسول الله وإجماع المسلمين فكيف إذا حكم فى الدين الذى ليس له أن يحكم فيه بل هو فيه واحد من المسلمين إن كان له علم تكلم وإلا سكت مثل أن يحكم بأن السفر إلى غير المساجد الثلاثة مشروع مستحب يثاب فاعله وأن من قال إنه لا يستحب يؤذى ويعاقب أو يحبس فهذا الحكم باطل بإجماع المسلمين لا يحل لمن عرف دين الإسلام أن يتبعه ولا لولي أمر أن ينفذه ومن نفذ مثل هذا الحكم ونصره كان له حكم أمثاله إن قامت عليه الحجه التى بعث الله بها رسوله وخالفها إستحقوا العقاب وكذلك أن ألزم بمثل هذا جهلا وإلزم الناس بما لايعلم فإنه مستحق للعقاب فإن كان مجتهدا مخطئا عفى عنه وقد فرض الله على ولاة أمر المسلمين إتباع الشرع الذى هو الكتاب والسنة وإذا تنازع بعض المسلمين فى شىء من مسائل الدين ولو كان المنازع من آحاد طلبة العلم لم يكن لولاة الأمور أن يلزموه بإتباع حكم حاكم بل عليهم أن يبينوا له الحق كما يبين الحق للجاهل المتعلم فإن تبين له الحق الذى بعث

الله به رسوله وظهر وعانده بعد هذا إستحق العقاب وأما من يقول إن الذى قلته هو قولى أو قول طائفة من العلماء المسلمين وقد قلته إجهادا أو تقليدا فهذا بإتفاق المسلمين لا تجوز عقوبته ولو كان قد أخطأ خطأ مخالفا للكتاب والسنة ولو عوقب هذا لعوقب جميع المسلمين فإنه ما منهم من أحد إلا وله أقوال إجتهد فيها أو قلد فيها وهو مخطىء فيها فلو عاقب الله المخطىء لعاقب جميع الخلق بل قد قال الله تعالى فى القرآن {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ{٢٨٥} لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{٢٨٦} البقرة٢٨٥-٢٨٦ وقد ثبت فى الصحيح عن النبى إن الله إستجاب هذا الدعاء ولما قال المؤمنون ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا قال الله قد فعلت وكذلك فى سائر الدعاء وقال النبى صلى الله عليه وسلم إن الله تجاوز لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه فالمفتى والجندى والعامى إذا تكلموا بالشيء بحسب إجتهادهم إجتهادا أو تقليدا قاصدين لإتباع الرسول بمبلغ علمهم لايستحقون العقوبة بإجماع المسلمين وإن كانوا قد أخطأوا خطأ مجمعا عليه وإذا قالوا إنا قلنا الحق وإحتجوا بالأدلة الشرعية لم يكن لأحد من الحكام أن يلزمهم بمجرد قوله ولا يحكم بأن الذى قاله هو الحق دون قولهم بل يحكم بينه وبينهم الكتاب والسنة والحق الذى بعث الله به رسوله لا يغطى بل يظهر فإن ظهر رجع الجميع إليه وإن لم يظهر سكت هذا عن هذا وسكت هذا عن هذا كالمسائل التى تقع يتنازع فيها أهل المذاهب لا يقول أحد إنه يجب على صاحب مذهب أن يتبع مذهب غيره لكونه حاكما فإن هذا ينقلب فقد يصير الآخر حاكما فيحكم بأن قوله هو الصواب فهذا لا يمكن أن يكون كل واحد من القولين المتضادين يلزم جميع المسلمين إتباعه بخلاف ما جاء به الرسول فإنه من عند الله حق وهدى وبيان ليس فيه خطأ قط ولا إختلاف ولا تناقض قال تعالى {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ وعلى ولاة الأمر أن يمنعوهم من التظالم فإذا تعد بعضهم على بعض منعوهم العدوان وهم قد ألزموا بمنع ظلم أهل الذمة وأن يكون اليهودى والنصرانى فى بلادهم إذا قام بالشروط المشروطة عليهم لا يلزمه أحد بترك دينه مع العلم بأن دينه يوجب العذاب فكيف يسوغ لولاة الأمور أن يمكنوا طوائف المسلمين من إعتداء بعضهم على بعض وحكم بقوله ومذهبه هذا مما يوجب تغير الدول وإنتقاضها فإنه لا صلاح للعباد على مثل هذا وهذا إذا كان الحاكم قد

حكموا فى مسألة فيها اجتهاد ونزاع معروف فإذا كان القول الذى قد حكموا به لم يقل به أحد من أئمة المسلمين ولا هو مذهب أئمتهم الذين ينتسبون إليهم ولا قاله أحد من الصحابة والتابعين ولا فيه آية من كتاب الله وسنة رسوله بل قولهم يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأئمة فكيف يحل مع هذا أن يلزم علماء المسلمين باتباع هذا القول وينفذ فيه هذا الحكم المخالف للكتاب والسنة والإجماع وأن يقال القول الذى دل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف لا يقال ولا يفتى به بل يعاقب ويؤذى من أفتى به ومن تكلم به وغيرهم ويؤذى المسلمون فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم لكونهم اتبعوا ما علموه من دين الاسلام وان كان قد خفى على غيرهم وهم يعذرون من خفى عليه ذلك ولا يلزمون باتباعهم ولا يعتدون عليه فكيف يعان من لا يعرف الحق بل يحكم بالجهل والظلم ويلزم من عرف ما عرفه من شريعة الرسول ان يترك ماعلمه من شرع الرسول لأجل هذا لاريب ان هذا امر عظيم عند الله تعالى وعند ملائكته وانبيائه وعباده والله لايغفل عن مثل هذا وليس الحق فى هذا لأحد من الخلق فان الذين اتبعوا ما علموه من شرع الرسول لم يظلموا احدا فى دم ولا مال ولا عرض ولا لأحد عليهم دعوى بل هم قالوا نحن نتبع ماعرفناه من دين الاسلام وما جاء به الكتاب والسنة من توحيد الله وعبادته لا شريك له فلا نعبد الا الله وحده ونعبده بما أمر به رسوله وشرعه من الدين فما دعانا اليه الرسول وامرنا به اطعناه وما جعله الرسول دينا وقربة وطاعة وحسنة وعملا صالحا وخيرا سمعنا واطعنا لله ورسوله واعتقدناه قربة وطاعة وفعلناه واحببنا من يفعل به ودعونا اليه وما نهانا عنه الرسول انتهينا عنه وان كان غيرنا يعتقد ان ذلك قربة فنحن علينا ان نطيع الرسول ليس علينا ان نطيع من خالفه وان كان متأولا ومعلوم ان اهل الكتاب واهل البدع يتعبدون تعبدات كثيرة يرونها قربة وطاعة وقد نهى عنها رسول الله فمن قال انا اطيع الرسول ولا اتعبد بهذه العبادات بل انهى عما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يسوغ ان يعارض بل لو كان مخطئا مع اجتهاده لم يستحق العقوبة باجماع المسلمين ولا يجب عليه إتباع حكم أحد بإجماع المسلمين وليس للحاكم أن يحكم بأن هذا أمر به رسول الله وأن هذا العمل طاعة أو قربة أو ليس بطاعة ولا قربة ولا بأن السفر إلى المساجد والقبور وقبر النبى يشرع أولا يشرع ليس للحاكم فى هذا مدخل إلا كما يدخل فيه غيرهم من المسلمين بل الكلام فى هذا لجميع أمة محمد فمن كان عنده علم تكلم بما عنده من العلم وليس لأحد أن يحكم على عالم بإجماع المسلمين بل يبين له أنه قد أخطأ فإن بين له بالأدلة الشرعية التى يجب قبولها أنه قد أخطأ وظهر خطؤه للناس ولم يرجع بل أصر على إظهار ما يخالف الكتاب والسنة والدعاء إلى ذلك وجب أن يمنع من ذلك ويعاقب إن لم يمتنع وأما إذا لم يبين له ذلك بالأدلة

الشرعية لم تجز عقوبته بإتفاق المسلمين ولا منعه من ذلك القول ولا الحكم عليه بأنه لا يقوله إذا كان يقول أن هذا هو الذى دل عليه الكتاب والسنة كما قاله فلان وفلان من علماء المسلمين فهذا إذا إجتهد فأخطأ لم يحكم عليه إلا بالكتاب والسنة والمنازع له يتكلم بلا علم والحكم الذى حكم به لم يقله أحد من علماء المسلمين فعلماء المسلمين الكبار لو قالوا بمثل قول الحكام لم يكن لهم الزام الناس بذلك إلا بحجة شرعية لابمجرد حكمهم فإن الله إنما أوجب على الناس إتباع الرسول وطاعته وإتباع حكمه وأمره وشرعه ودينه وهو حجة الله على خلقه وهو الذى فرق الله به بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغى وطريق الجنة وطريق النار وبه هدى الله الخلق قال الله تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{١٦٣} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{١٦٤} رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ {١٦٥} النساء١٦٣-١٦٥ وفى الصحيح عن النبى أنه قال ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين فالحجة على الخلق تقوم بالرسل وما جاء به الرسول هو الشرع الذى يجب على الخلق قبوله وإلى الكتاب والسنة يتحاكم جميع الخلق ولهذا كان من أصول السنة والجماعة أن من تولى بعد رسول الله كالخلفاء الراشدين وغيرهم لا يجب أن ينفرد واحد منهم بعلم لا يعلمه غيره بل علم الدين الذى سنة الرسول يشترك المسلمون فى معرفته وإذا كان عند بعضهم من الحديث ما ليس عند بعض بلغة هؤلاء لألئك ولهذا كان الخلفاء يسألون الصحابة فى بعض الأمور هل عندكم علم عن النبى صلى الله عليه وسلم فإذا تبين لهم سنة الرسول حكموا بها كما سألهم أبو بكر الصديق عن ميراث الجدة لما أتته فقال مالك فى كتاب الله من شىء وما علمت لك فى سنة رسول الله شيئا ولكن حتى أسأل الناس فسألهم فأخبره محمد بن مسلمة وغيره أن رسول الله أعطاها السدس وكذلك عمر بن الخطاب لما سألهم عن الجنين إذا قتل قام بعض الصحابة فأخبره أن النبى قضى فيه بغرة عبد أو أمة أى من قتل جنينا ضمنه بمملوك أو جارية لورثته فقضى بذلك قالوا وتكون قيمته بقدر عشر ديه أمة وعمر بن الخطاب قد قال النبى فيه إنه قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر وروى أنه ضرب الحق على لسانه وقلبه وقال لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر ومع هذا فما كان يلزم أحدا بقوله ولا يحكم فى الأمور العامة بل كان يشاور الصحابة ويراجع فتارة يقوله قولا فترده عليه أمرأة فيرجع إليها كما أراد أن يجعل الصداق محدودا لا يزاد على صداقات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم

وقال من زاد جعلت الزيادة فى بيت المال وكان المسلمون يعجلون الصداق قبل الدخول لم يكونوا يؤخرونه إلا أمرا نادرا فقالت إمرأة يا أمير المؤمنين لم تحرمنا شيئا أعطانا الله إياه فى كتابه فقال وأين فقالت فى قوله تعالى {وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً}النساء٢٠ فرجع عمر إلى قولها وقال إمرأة أصابت ورجل أخطأ وكان فى مسائل النزاع مثل مسائل الفرائض والطلاق يرى رأيا ويرى على إبن أبى طالب رأيا ويرى عبد الله بن مسعود رأيا ويرى زيد بن ثابت رأيا فلم يلزم أحدا أن يأخذ بقوله بل كل منهم يفتى بقوله وعمر رضى الله عنه إمام الأمة كلها وأعلمهم وأدينهم وأفضلهم فكيف يكون واحد من الحكام خيرا من عمر هذا إذا كان قد حكم فى مسألة إجتهاد فكيف إذا كان ما قاله لم يقله أحد من أئمة المسلمين لا الأربعة ولامن قبلهم من الصحابة والتابعين وإنما يقوله مثله وأمثاله ممن لا علم لهم بالكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة وإنما يحكمون بالعادات التى تربوا عليها كالذين قالوا {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ}الزخرف٢٣ وكما تحكم الأعراب بالسوالف التى كانت لهم وهى عادات كما يحكم التتر بالياساق الذى جرت به عاداتهم وأما أهل الإيمان والإسلام والعلم والدين فإنما يحكمون بكتاب الله وسنة رسوله كما قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ وقال تعالى {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}المائدة٥٠ والله سبحانه لم يرض بحكم واحد بين الزوجين إذا خيف الشقاق بينهما فإنه لا يعلم أيهما الظالم وليس بينهما بينة بل أمر بحكمين وإن لا يكونا متهمين بل حكما من أهل الرجل وحكما من أهل المرأة كما قال تعالى {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً}النساء٣٥ أى الحكمين {يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا}النساء٣٥ أى بين الزوجين فإن رأيا المصلحة أن يجمعا بين الزوجين جمعا وإن رأيا المصلحة أن يفرقا بينهما فرقا إما بعوض تبذله المرأة فتكون الفرقة خلعا إن كانت هى الظالمة وإن كان الزوج هو الظالم فرق بينهما بغير إختياره وأكثر العلماء على أن هذين حكمان كما سماهما الله حكمين يحكمان بغير توكيل الزوجين وهذا قول مالك والشافعى والإمام أحمد فى أحد قوليهما وقيل هما وكيلان كقول أبى حنيفة والقول الآخر فى المذهبين فهنا لما إشتبه الحق لم يجعل الله الحكم لواحد وهو فى قضية معينة بين زوجين ولو حكم كاكم واحد بين الزوجين فى أمر ظاهر لم ينفذ حكمه بإتفاق المسلمين فكيف بأمور الدين والعبادات التى يشترك فيها جميع المسلمين وقد إشتبهت على كثير من الناس هذا بإجماع المسلمين لا يحكم فيه إلا الله ورسوله فمن كان عنده علم مما جاء به الرسول

صلى الله عليه وسلم بينه وأوضحه للمسلمين والمسلمون إذا عرفوا شرع نبيهم لم يعدلوا عنه وإن كان كل قوم يقولون عندنا علم من الرسول ولم يكن هناك أمر ظاهر يجمعون فيما تنازعوا فيه كان أحد الحزبين لهم أجران والآخرون لهم أجر واحد كما قال تعالى {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ {٧٨} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً {٧٩} لأنبياء٧٨ -٧٩ وولى الأمر إن عرف ما جاء به الكتاب والسنة حكم بين الناس به وإن لم يعرفه وأمكنه أن يعلم ما يقول هذا وما يقول هذا حتى يعرف الحق حكم به وإن لم يمكنه لا هذا ولا هذا ترك المسلمين على ماهم عليه كل يعبد الله على حسب إجتهاده وليس له أن يلزم أحدا بقبول قول غيره وإن كان حاكما وإذا خرج ولاة الأمور عن هذا فقد حكموا بغير ما أنزل الله ووقع بأسهم بينهم قال النبى ما حكم قوم بغير ما أنزل الله إلا وقع بأسهم بينهم وهذا من أعظم أسباب تغيير الدول كما قد جرى مثل هذا مرة بعد مرة فى زماننا وغير زماننا ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره فيسلك مسلك من أيده الله ونصره ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه فإن الله يقول فى كتابه {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ {٤٠} الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {٤١}الحج٤٠ -٤١ فقد وعد الله بنصر من ينصره ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ويتكلم بما لا يعلم فإن الحاكم إذا كان دينا لكنه حكم بغير علم كان من أهل النار وإن كان عالما لكنه حكم بخلاف الحق الذى يعلمه كان من أهل النار وإذا حكم بلا عدل ولا علم كان أولى أن يكون من أهل النار وهذا إذا حكم فى قضية معينة لشخص وأما إذا حكم حكما عاما فى دين المسلمين فجعل الحق باطلا والباطل حقا والسنة بدعة والبدعة سنة والمعروف منكرا والمنكر معروفا ونهى عما أمر الله به ورسوله وأمر بما نهى الله عنه ورسوله فهذا لون آخر يحكم فيه رب العالمين وإله المرسلين مالك يوم الدين الذى له الحمد فى الأولى وفى الآخرة وله الحكم وإليه ترجعون الذى أرسل رسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٥٧-٣٨٨

## حكم الله تبارك وتعالى شامل لجميع الخلائق

فإن حكم الله تبارك وتعالى شامل لجميع الخلائق وعلى كل من ولى أمر الأمة أو حكم بين إثنين أن يحكم بالعدل والقسط وأن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله وهذا هو الشرع المنزل من عندالله قال الله تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ قال الله تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}الحديد٢٥ وقال تعالى{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ وقال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ}النساء١٠٥ وقال تعالى {فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ}المائدة٤٨ [1]

## "لا تنكح البكر حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر"

المرأة البالغ لا يزوجها غير الأب والجد بغير إذنها باتفاق الأئمة بل وكذلك لا يزوجها الأب إلا بإذنها في أحد قولي العلماء بل في أصحهما وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين كما قال النبي لا تنكح البكر حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر قالوا يا رسول الله فإن البكر تستحي قال إذنها صماتها وفي لفظ يستأذنها أبوها وإذنها صماتها و أما العم والأخ فلا يزوجانها بغير إذنها باتفاق العلماء وإذا رضيت رجلا وكان كفؤا لها وجب على وليها كالأخ ثم العم أن يزوجها به فإن عضلها وامتنع من تزويجها زوجها الولي الأبعد منه أو الحاكم بغير إذنه باتفاق العلماء فليس للولي أن يجبرها على نكاح من لا ترضاه ولا يعضلها عن نكاح من ترضاه إذا كان كفؤا باتفاق الأئمة وإنما يجبرها ويعضلها أهل الجاهلية والظلمة الذين يزوجون نساءهم لمن يختارونه لغرض لا لمصلحة المرأة ويكرهونها على ذلك أو يخجلونها حتى تفعل ويعضلونها عن نكاح من يكون كفؤا لها لعداوة أو غرض وهذا كله من عمل الجاهلية والظلم والعدوان وهو مما حرمه الله ورسوله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٨٨-٣٨٩

واتفق المسلمون على تحريمه وأوجب الله على أولياء النساء أن ينظروا في مصلحة المرأة لا في أهواءهم كسائر الأولياء والوكلاء ممن تصرف لغيره فإنه يقصد مصلحة من تصرف له لا يقصد هواه فإن هذا من الأمانة التي أمر الله أن تؤدي إلى أهلها فقال {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ وهذا من النصيحة الواجبة وقد قال النبي الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم [1]

## العدل وشرعه متلازمين

فإن من العلماء من قال قولا برأيه وخالفه فيه آخرون وليس معه شرع منزل من عند الله بل الأدلة الشرعية قد تدل على نقيض قوله وقد يتفق أن من يحكم بذلك يزيد ذلك ظلما بجهله وظلمه ويتفق أن كل أهل ظلم وشر يزيدون الشر شرا وينسبون هذا الظلم كله إلى شرع من نزهه الله عن الظلم وبعثه بالعدل والحكمة والرحمة وجعل العدل المحض الذى لا ظلم فيه هو شرعه ولهذا كان العدل وشرعه متلازمين قال الله تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ وقال تعالى {فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}المائدة٤٢ وقال تعالى {فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ}المائدة٤٨ فما أنزل عليه والقسط متلازمان فليس فيما أنزل الله عليه ظلم قط بل قد قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}الحديد٢٥ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ٥٢

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٣٥٥

# وجوب طاعة الله ورسوله فى كل حال على كل أحد

فهذه قاعدة مختصرة فى وجوب طاعة الله ورسوله فى كل حال على كل أحد و أن ما أمر الله به ورسوله من طاعة الله وولاة الأمور ومناصحتهم واجب وغير ذلك من الواجبات قال الله تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً} النساء٥٨ و قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ فأمر الله المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر منهم كما أمرهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل وأمرهم إذا تنازعوا فى شيء أن يردوه الى الله والرسول قال العلماء الرد الى الله هو الرد الى كتابه و الرد الى الرسول بعد موته هو الرد الى سنته قال الله تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} البقرة٢١٣ فجعل الله الكتاب الذى أنزله هو الذى يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه و فى صحيح مسلم و غيره عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه و سلم كان إذا قام يصلي بالليل يقول اللهم رب جبرائيل و ميكائيل وإسرافيل فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم وفى صحيح مسلم عن تميم الداري رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة قالوا لمن يارسول الله قال لله و لكتابه و لرسوله ولأئمة المسلمين و عامتهم وفى صحيح مسلم أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم قال إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئا و أن تعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا و أن تناصحوا من ولاه الله أمركم و فى السنن من حديث إبن مسعود رضى الله عنه و زيد بن ثابت رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم قال نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه الى من لم يسمعه فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه و رب حامل فقه غير فقيه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله و مناصحة ولاة الأمور و لزوم

جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم و يغل بالفتح هو المشهور و يقال غلى صدره فغل إذا كان ذا غش و ضغن و حقد أي قلب المسلم لا يغل على هذه الخصال الثلاثة و هى الثلاثة المتقدمة فى قوله إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئا و أن تعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا و أن تناصحوا من ولاه الله أمركم فإن الله إذا كان يرضاها لنا لم يكن قلب المؤمن الذي يحب ما يحبه الله يغل عليها يبغضها و يكرهها فيكون فى قلبه عليها غل بل يحبها قلب المؤمن و يرضاها وفى صحيح البخارى و مسلم و غيرهما عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال بايعنا رسول الله صلى الله عليه و سلم على السمع و الطاعة فى العسر و اليسر و المنشط و المكره و على أثرة علينا و على أن لا ننازع الأمر أهله و على أن نقول أو نقوم بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم و فى الصحيحين أيضا عن عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال على المرء المسلم السمع و الطاعة فيما أحب و كره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع و لا طاعة و فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم عليك بالسمع و الطاعة فى عسرك و يسرك و منشطك و مكرهك و أثرة عليك و معنى قوله و أثرة عليك و أثرة علينا أي و إن إستأثر و لاة الأمور عليك فلم ينصفوك و لم يعطوك حقك كما فى الصحيحين عن أسيد بن حضير رضي الله عنه أن رجلا من الأنصار خلا برسول الله صلى الله عليه و سلم فقال ألا تستعملني كما استعملت فلانا فقال إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض وهذا كما فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إنها تكون بعدي أثرة و أمور تنكرونها قالوا يارسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك قال تؤدون الحق الذي عليكم و تسألون الله الذى لكم و فى صحيح مسلم عن وائل بن حجر رضي الله عنه قال سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال يارسول الله إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم و يمنعون حقنا فما تأمرنا فأعرض عنه ثم سأله فأعرض ثم سأله فى الثانية أو فى الثالثة فحدثه الأشعث بن قيس قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إسمعوا و أطيعوا فإنما عليهم ما حملوا و عليكم ماحملتم فذلك ما أمر الله به و رسوله من طاعة ولاة الأمور و مناصحتهم هو واجب على المسلم وإن استأثروا عليه و ما نهى الله عنه ورسوله من معصيتهم فهو محرم عليه و إن أكره عليه فصل وما أمر الله به و رسوله من طاعة ولاة الأمور و مناصحتهم و اجب على الإنسان و إن لم يعاهدهم عليه و إن لم يحلف لهم الأيمان المؤكدة كما يجب عليه الصلوات الخمس و الزكاة و الصيام وحج البيت و غير ذلك مما أمر الله به و رسوله

من الطاعة فإذا حلف على ذلك كان ذلك توكيدا وتثبيتا لما أمر الله به و رسوله من طاعة ولاة الأمور و مناصحتهم فالحالف على هذه الأمور لا يحل له أن يفعل خلاف المحلوف عليه سواء حلف بالله أو غير ذلك من الأيمان التي يحلف بها المسلمون فإن ما أوجبه الله من طاعة ولاة الأمور و مناصحتهم واجب وإن لم يحلف عليه فكيف إذا حلف عليه و ما نهى الله و رسوله عن معصيتهم و غشهم محرم و إن لم يحلف على ذلك وهذا كما أنه إذا حلف ليصلين الخمس و ليصومن شهر رمضان أو ليقضين الحق الذي عليه ويشهدن بالحق فإن هذا واجب عليه وإن لم يحلف عليه فكيف إذا حلف عليه و ما نهى الله عنه ورسوله من الشرك و الكذب و شرب الخمر و الظلم و الفواحش وغش و لاة الأمور والخروج عما أمر الله به من طاعتهم هو محرم و إن لم يحلف عليه فكيف إذا حلف عليه و لهذا من كان حالفا على ما أمر الله به و رسوله من طاعة ولاة الأمور و مناصحتهم أو الصلاة أو الزكاة أو صوم رمضان أو أداء الأمانة و العدل و نحو ذلك لا يجوز لأحد أن يفتيه بمخالفة ما حلف عليه والحنث فى يمينه و لا يجوز له أن يستفتي فى ذلك و من أفتى مثل هؤلاء بمخالفة ما حلفوا عليه والحنث فى أيمانهم فهو مفتر على الله الكذب مفت بغير دين الإسلام بل لو أفتى آحاد العامة بأن يفعل خلاف ما حلف عليه من الوفاء فى عقد بيع أو نكاح أو إجارة أوغير ذلك مما يجب عليه الوفاء به من العقود التى يجب الوفاء بها و إن لم يحلف عليها فإذا حلف كان أوكد فمن أفتى مثل هذا بجواز نقض هذه العقود و الحنث فى يمينه كان مفتريا على الله الكذب مفتيا بغير دين الإسلام فكيف إذا كان ذلك فى معاقدة ولاة الأمور التى هى أعظم العقود التى أمر الله بالوفاء بها وهذا كما أن جمهور العلماء يقولون يمين المكره بغير حق لا ينعقد سواء كان بالله أو النذر أو الطلاق أو العتاق وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد ثم إذا أكره و لي الأمر الناس على مايجب عليهم من طاعته و مناصحته و حلفهم على ذلك لم يجز لأحد أن يأذن لهم فى ترك ما أمر الله به و رسوله من ذلك و يرخص لهم فى الحنث فى هذه الأيمان لأن ما كان و اجبا بدون اليمين فاليمين تقويه لا تضعفه و لو قدر أن صاحبها أكره عليها و من أراد أن يقول بلزوم المحلوف مطلقا فى بعض الأيمان لأجل تحليف و لاة الأمور أحيانا قيل له و هذا يرد عليك فيما تعتقده فى يمين المكره فإنك تقول لايلزم و إن حلف بها و لاة الأمور و يرد عليك فى أمور كثيرة تفتى بها فى الحيل مع ما فيه من معصية الله تعالى و رسوله وولاة الأمور وأما أهل العلم و الدين و الفضل فلا يرخصون لأحد فيما نهى الله عنه من معصية و لاة الأمور و غشهم والخروج عليهم بوجه من الوجوه كما قد عرف من عادات أهل السنة و الدين قديما و حديثا و من سيرة غيرهم وقد ثبت فى الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال

ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند أسته بقدر غدره قال و إن من أعظم الغدر يعنى بإمام المسلمين و هذا حدث به عبد الله بن عمر لما قام قوم من أهل المدينة يخرجون عن طاعة و لي أمرهم ينقضون بيعته و فى صحيح مسلم عن نافع قال جاء عبد الله بن عمر الى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية فقال اطرحوا لأبي عبد الرحمن و سادة فقال إنى لم آتك لأجلس أتيتك لأحدثك حديثا سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول من خلع يدا لقي الله يوم القيامة و لا حجة له و من مات و ليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية و فى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فإنه ليس أحد من الناس يخرج من السلطان شبرا فمات عليه إلامات ميتة جاهلية و فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال من خرج من الطاعة و فارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية و من قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو الى عصبية أو ينصر عصبية فقتل فقتله جاهلية و فى لفظ ليس من أمتى من خرج على أمتى يضرب برها و فاجرها و لا يتحاشا من مؤمنها و لا يوفي لذي عهدها فليس منى و لست منه فالأول هو الذي يخرج عن طاعة و لي الأمر و يفارق الجماعة والثانى هو الذي يقاتل لأجل العصبية و الرياسة لا فى سبيل الله كأهل الأهواء مثل قيس و يمن والثالث مثل الذى يقطع الطريق فيقتل من لقيه من مسلم و ذمي ليأخذ ماله و كالحروية المارقين الذين قاتلهم علي بن أبى طالب الذى قال فيهم النبى صلى الله عليه و سلم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم و صيامه مع صيامهم و قراءته مع قراتهم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة وقد أمر النبى صلى الله عليه و سلم بطاعة و لي الأمر و إن كان عبدا حبشيا كما فى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه و سلم قال اسمعوا و أطيعوا و إن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة و عن أبى ذر قال أوصانى خليلى أن اسمعوا و أطيعوا و لو كان حبشيا مجدع الأطراف و عن البخارى و لو لحبشي كان رأسه زبيبة و فى صحيح مسلم عن أم الحصين رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم بحجة الوداع و هو يقول و لو استعمل عبدا يقودكم بكتاب الله اسمعوا و أطيعوا و فى رواية عبد حبشي مجدعا وفى صحيح مسلم عن عوف بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال خيار أئمتكم الذين تحبونهم و يحبونكم و تصلون عليهم و يصلون عليكم و شرار أئمتكم الذين تبغضونهم و يبغضونكم و تلعنونهم و يلعنونكم قلنا يارسول الله

أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك قال لا ما أقاموا فيكم الصلاة لا ما أقاموا فيكم الصلاة ألا من و لي عليه و آل فرآه يأتي شيئا من معصية فليكره ما يأتي من معصية الله و لا ينزعن يدا من طاعة وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن و كلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم و أهليهم و ما و لوا و فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول اللهم من و لي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه و من و لي من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به وفى الصحيحين عن الحسن البصري قال عاد عبد الله بن زياد معقل بن يسار فى مرضه الذى مات فيه فقال له معقل إنى محدثك حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه و سلم إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت و هو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة و فى رواية لمسلم ما من أمير يلي من أمر المسلمين شيئا ثم لا يجهد لهم و ينصح إلا لم يدخل معهم الجنة وفى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال ألا كلكم راع و كلكم مسئوول عن رعيته و الرجل راع على أهل بيته و هو مسئوول عنهم و المرأة راعية على بيت بعلها و هي مسئوولة عنه و العبد راع على مال سيده و هو مسئوول عنه ألا كلكم راع و كلكم مسئوول عن رعيته و فى الصحيحين عن علي رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه و سلم بعث جيشا و أمر عليهم رجلا فأوقد نارا فقال ادخلوها فأراد الناس أن يدخلوها و قال الآخرون إنا فررنا منها فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه و سلم فقال للذين أرادوا أن يدخلوها لو دخلتموها لم تزالوا فيها الى يوم القيامة و قال للآخرين قولا حسنا و قال لا طاعة فى معصية الله إنما الطاعة فى المعروف فصل قال الله تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ و قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}النساء٨٠ و قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ و قال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}آل عمران٣١ و قال تعالى {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا {٦٦} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}الأحزاب٦٦ -٦٨ و قال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ

رَفِيقاً}النساء٦٩ فطاعة الله و رسوله واجبة على كل أحد و طاعة ولاة الأمور و اجبة لأمر الله بطاعتهم فمن أطاع الله و رسوله بطاعة ولاة الأمر لله فأجره على الله و من كان لايطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية و المال فإن أعطوه أطاعهم و إن منعوه عصاهم فماله فى الآخرة من خلاق و قد روى البخارى و مسلم عن أبى هريرة رضى الله عن النبى صلى الله عليه و سلم قال ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة و لاينظر إليهم و لا يزكيهم و لهم عذاب أليم رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل و رجل بايع رجلا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا و كذا فصدقه و هو غير ذلك و رجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدينا فإن أعطاه منها و فا و إن لم يعطه منها لم يف [1]

## جوامع من السياسة الالهية والايات النبوية

فهذه رسالة مختصرة فيها جوامع من السياسة الالهية والايات النبوية لا يستغنى عنها الراعى والرعية اقتضاها من اوجب الله نصحه من ولاة الامور كما قال النبى فيما ثبت عنه من غير وجه فى صحيح مسلم وغيره إن الله يرضى لكم ثلاثا ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وان تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وان تناصحوا من ولاه الله امركم

### وهذه الرسالة مبنية على آيتين فى كتاب الله

وهى قوله تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً {٥٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً{٥٩}النساء٥٨ ـ٥٩ قال العلماء نزلت الآية الأولى فى ولاة الأمور عليهم ان يؤدوا الأمانات الى اهلها واذا حكموا بين الناس ان يحكموا بالعدل ونزلت الثانية فى الرعية من الجيوش وغيرهم عليهم ان يطيعوا أولى الأمر الفاعلين لذلك فى قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك إلا ان يأمروا بمعصية الله فاذا امروا بمعصية الله فلا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٦-١٧

طاعة لمخلوق فى معصية الخالق فان تنازعوا فى شئ ردوه الى كتاب الله وسنة رسوله وان لم تفعل ولاة الامر ذلك اطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله ورسوله لان ذلك من طاعة الله ورسوله وأديت حقوقهم اليهم كما امر الله ورسوله قال تعالى {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} المائدة٢ واذا كانت الآية قد اوجبت أداء الأمانات الى اهلها والحكم بالعدل فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة

## فصل اما أداء الامانات

ففيه نوعان احدهما الولايات وهو كان سبب نزول الآية فان النبى صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة وتسلم مفاتيح الكعبة من بنى شيبة طلبها منه العباس ليجمع له بين سقاية الحاج وسدانة البيت فأنزل الله هذه الآية فدفع مفاتيح الكعبة الى بنى شيبة فيجب على ولى الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل قال النبى صلى الله عليه وسلم من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله وفى رواية من ولى رجلا على عصابة وهو يجد فى تلك العصابة من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين رواه الحاكم فى صحيحة وروى بعضهم أنه من قول عمر لابن عمر روى ذلك عنه وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة او قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين وهذا واجب عليه فيجب عليه البحث عن المسحفين للولايات من نوابه على الأمصار من الأمراء الذين هم نواب ذى السلطان والقضاة ونحوهم ومن أمراء الأجناد ومقدمى العساكر الصغار والكبار وولاة الأموال من الوزراء والكتاب والشادين والسعاة على الخراج والصدقات وغير ذلك من الأموال التى للمسلمين وعلى كل واحد من هؤلاء ان يستنيب ويستعمل أصلح من يجده وينتهى ذلك الى ائمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين وأمراء الحاج والبرد والعيون الذين هم القصاد وخزان الاموال وحراس الحصون والحدادين الذين هم البوابون على الحصون والمدائن ونقباء العساكر الكبار والصغار وعرفاءالقبائل والاسواق ورؤساء القرئ الذين هم الدهاتين فيجب على كل من ولى شيئا من أمر المسلمين من هؤلاء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده فى كل موضع أصلح من يقدر عليه ولايقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو سبق فى الطلب بل يكون ذلك سببا للمنع فان فى الصحيح عن النبى أن قوما دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال إنا لانولى امرنا هذا من طلبه وقال لعبد الرحمن بن سمرة ياعبد الرحمن لاتسأل الامارة فانك إن

أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن اعطيتها عن مسألة وكلت اليها أخرجاه فى الصحيحين وقال من طلب القضاء واستعان عليه وكل اليه ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده رواه اهل السنن فان عدل عن الأحق الأصلح الى غيره لأجل قرابة بينهما او ولاء عتاقة أو صداقة او مرافقة فى بلد او مذهب او طريقة او جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية أو لرشوة يأخذها منه من مال او منفعة أو غير ذلك من الأسباب او لضغن فى قلبه على الأحق او عداوة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه فى قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}الأنفال٢٧ ثم قال {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}الأنفال٢٨ فان الرجل لحبه لولده أو لعتيقه قد يؤثره فى بعض الولايات او يعطيه مالا يستحقه فيكون قد خان أمانته وكذلك قد يؤثره زيادة فى ماله أو حفظه بأخذ مالا يستحقه او محاباة من يداهنه فى بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته ثم إن المؤدى للأمانة مع مخالفة هواه يثبته الله فيحفظه فى أهله وماله بعده والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده فيذل أهله ويذهب ماله وفى ذلك الحكاية المشهورة أن بعض خلفاء بنى العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عما أدرك فقال أدركت عمر بن عبد العزيز قيل له يا أمير المؤمنين أقفرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لاشئ لهم وكان فى مرض موته فقال أدخلوهم على فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكرا ليس فيهم بالغ فلما رآهم ذرفت عيناه ثم قال لهم يابنى والله ما منعتكم حقا هو لكم ولم أكن بالذى آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم وإنما انتم احد رجلين إما صالح فالله يتولى الصالحين وإما غير صالح فلا اخلف له ما يستعين به على معصية الله قوموا عنى قال فلقد رأيت بعض بنيه حمل على مائه فرس فى سبيل الله يعنى أعطاها لمن يغزو عليها قلت هذا وقد كان خليفة المسلمين من أقصى المشرق بلاد الترك إلى أقصى المغرب بلاد الأندلس وغيرها ومن جزائر قبرص وثغور الشام والعواصم كطرسوس ونحوها إلى اقصى اليمن وإنما أخذ كل واحد من أولاده من تركته شيئا يسيرا يقال اقل من عشرين درهما قال وحضرت بعض الخلفاء وقد اقتسم تركته بنوه فأخذ كل واحد منهم ستمائه ألف دينار ولقد رأيت بعضهم يتكفف الناس اى يسألهم بكفه وفى هذا الباب من الحكايات والوقائع المشاهدة فى الزمان والمسموعة عما قبله ما فيه عبرة لكل ذى لب وقد دلت سنة رسول الله على أن الولاية امانة يجب أداؤها فى مواضع مثل ماتقدم ومثل قوله لأبى ذر رضى الله عنه فى الامارة إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها رواه مسلم وروى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة

رضى الله عنه ان النبى قال إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قيل يارسول الله وما إضاعتها قال إذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة وقد أجمع المسلمون على معنى هذا فان وصي اليتيم وناظر الوقف ووكيل الرجل فى ماله عليه أن يتصرف له بالأصلح فالأصلح كما قال الله تعالى {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}الأنعام١٥٢ ولم يقل إلا بالتى هى حسنة وذلك لأن الوالى راع على الناس بمنزلة راعى الغنم كما قال النبى كلكم راع وكلكم مسئول عن رعتيه فالامام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئوله عن رعيتها والولد راع فى مال ابيه وهو مسئول عن رعيته والعبد راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته أخرجاه فى الصحيحين وقال ما من راع يسترعيه الله رعيه يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه رائحة الجنة رواه مسلم ودخل أبو مسلم الخولانى على معاوية بن أبى سفيان فقال السلام عليك أيها الأجير فقالوا قل السلام عليك أيها الأمير فقال السلام عليك أيها الأجير فقالوا قل السلام عليك ايها الأمير فقال السلام عليك أيها الأجير فقالوا قل السلام عليك أيها الأمير فقال السلام عليك ايها الأجير فقال معاوية دعو أبا مسلم فانه اعلم بما يقول فقال إنما أنت اجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها فان انت هنأت جرباها وداويت مرضاها وحبست اولاها على أخراها وفاك سيدها أجرك وإن أنت لم تهنأ جرباها ولم تداو مرضاها ولم تحبس أولاها على أخراها عاقبك سيدها وهذا ظاهر فى الاعتبار فان الخلق عباد الله والولاة نواب الله على عباده وهم وكلاء العباد على نفوسهم بمنزلة احد الشريكين مع الآخر ففيهم معنى الولاية والوكالة ثم الولى والوكيل متى استناب فى أموره رجلا وترك من هو أصلح للتجارة او العقار منه وباع السلعة بثمن وهو يجد من يشتريها بخير من ذلك الثمن فقد خان صاحبه لاسيما إن كان بين من حاباه وبينه مودة أو قرابة فان صاحبه يبغضه ويذمه ويرى انه قد خانه وداهن قريبه او صديقه

## فصل إذا عرف هذا فليس عليه ان يستعمل إلا أصلح الموجود

وقد لايكون فى موجوده من هو اصلح لتلك الولاية فيختار الأمثل فالأمثل فى كل منصب بحسبه وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام وأخذه للولاية بحقها فقد أدى الأمانة وقام بالواجب فى هذا وصار فى هذا الموضع من أئمة العدل المقسطين عند الله وان اختل بعض الأمور بسبب من غيره إذا لم يمكن إلا ذلك فان الله يقول{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ ويقول {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا}البقرة٢٨٦ وقال فى الجهاد فى سبيل الله {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ

الْمُؤْمِنِينَ}النساء ٨٤ وقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}المائدة١٠٥ فمن أدى الواجب المقدور عليه فقد اهتدى وقال النبى صلى الله عليه وسلم إذا امرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم أخرجاه فى الصحيحين لكن إن كان منه عجز بلا حاجة اليه او خيانة عوقب على ذلك وينبغى ان يعرف الأصلح فى كل منصب فان الولاية لها ركنان القوة والأمانة كما قال تعالى{إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}القصص٢٦ وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ}يوسف٥٤ وقال تعالى فى صفة جبريل {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{١٩} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{٢٠} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{٢١}التكوير ١٩-٢١ والقوة فى كل ولاية بحسبها فالقوة فى إمارة الحرب ترجع الى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها فان الحرب خدعة والى القدرة على انواع القتال من رمى وطعن وضرب وركوب وكر وفر ونحو ذلك كما قال الله تعالى {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ}الأنفال٦٠ وقال النبى ارموا واركبوا وان ترموا أحب إلى من ان تركبوا ومن تعلم الرمى ثم نسيه فليس منا وفى رواية فهى نعمة جحدها رواه مسلم والقوة فى الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذى دل عليه الكتاب والسنة والى القدرة على تنفيذ الأحكام والآمانة ترجع الى خشية الله وألا يشترى بآياته ثمنا قليلا وترك خشية الناس وهذه الخصال الثلاث التى اخذها الله على كل من حكم على الناس فى قوله تعالى {فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}المائدة٤٤ ولهذا قال النبى القضاة ثلاثة قاضيان فى النار وقاض فى الجنة فرجل علم الحق وقضى بخلافة فهو فى النار ورجل قضى بين الناس على جهل فهو فى النار ورجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة رواه أهل السنن والقاضى اسم لكل من قضى بين اثنين وحكم بينهما سواء كان خليفة او سلطانا او نائبا او واليا او كان منصوبا ليقضى بالشرع او نائبا له حتى من يحكم بين الصبيان فى الخطوط إذا تخايروا هكذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر

## فصل اجتماع القوة والأمانة فى الناس قليل

ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول اللهم اشكو اليك جلد الفاجر وعجز الثقة فالواجب فى كل ولاية الأصلح بحسبها فاذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر اعظم قوة قدم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضررا فيها فيقدم فى إمارة الحروب الرجل القوى الشجاع وان كان فيه فجور على الرجل الضعيف العاجز وإن

كان أمينا كما سئل الامام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو واحدهما قوى فاجر والآخر صالح ضعيف مع ايهما يغزى فقال أما الفاجر القوى فقوته للمسلمين وفجورة على نفسه وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين فيغزى مع القوى الفاجر وقد قال النبى إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وروى بأقوام لا خلاق لهم وان لم يكن فاجرا كان أولى بامارة الحرب ممن هو أصلح منه فى الدين إذا لم يسد مسده ولهذا كان النبى يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم وقال ان خالدا سيف سله الله على المشركين مع انه أحيانا قد كان يعمل ما ينكره النبى حتى إنه مرة قام ثم رفع يديه الى السماء وقال اللهم إنى أبرأ اليك مما فعل خالد لما ارسله إلى بنى جذيمة فقتلهم واخذ اموالهم بنوع شبهة ولم يكن يجوز ذلك وانكره عليه بعض من معه من الصحابة حتى وداهم النبى صلى الله عليه وسلم وضمن اموالهم ومع هذا فما زال يقدمه فى إمارة الحرب لأنه كان اصلح فى هذا الباب من غيره وفعل ما فعل بنوع تأويل وكان ابو ذر رضى الله عنه اصلح منه فى الأمانة والصدق ومع هذا فقال له النبى يأبا ذر انى اراك ضعيفا وانى احب لك ما احب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم رواه مسلم نهى ابا ذر عن الامارة والولاية لأنه رآه ضعيفا مع انه قد روى ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء اصدق لهجة من ابى ذر وأمر النبى صلى عليه وسلم مرة عمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل استعطافا لاقاربه الذين بعثه اليهم على من هم افضل منه وامر اسامة بن زيد لأجل طلب ثأر ابيه وكذلك كان يستعمل الرجل لمصلحة راجحة مع انه قد كان يكون مع الأمير من هو افضل منه فى العلم والايمان وهكذا ابو بكر خليفة رسول الله رضى الله عنه ما زال يستعمل خالدا فى حرب اهل الردة وفى فتوح العراق والشام وبدت منه هفوات كان له فيها تأويل وقد ذكر له عنه انه كان له فيها هوى فلم يعزله من أجلها بل عاتبه عليها لرجحان المصلحة على المفسدة فى بقائه وأن غيره لم يكن يقوم مقامه لأن المتولى الكبير اذا كان خلقه يميل الى اللين فينبغى ان يكون خلق نائبه يميل الى الشدة واذا كان خلقه يميل الى الشدة فينبغى ان يكون خلق نائبه يميل الى اللين ليعتدل الأمر ولهذا كان ابو بكر الصديق رضى الله عنه يؤثر استنابة خالد وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يؤثر عزل خالد واستنابة ابى عبيدة بن الجراح رضي الله عنه لأن خالدا كان شديدا كعمر ابن الخطاب وابا عبيدة كان لينا كأبى بكر وكان الأصلح لكل منهما ان يولى من ولاة ليكون امره معتدلا ويكون بذلك من خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى هو معتدل حتى قال النبى انا نبى الرحمة انا نبى الملحمة وقال انا الضحوك القتال وامته وسط قال الله تعالى فيهم {أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ

رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً}الفتح٢٩ وقال تعالى{أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}المائدة٥٤ ولهذا لما تولى ابو بكر وعمر رضى الله عنهما صارا كاملين فى الولاية واعتدل منهما ما كان ينسبان فيه الى احد الطرفين فى حياة النبى من لين احدهما وشدة الآخر حتى قال فيهما النبى اقتدوا باللذين من بعدى ابى بكر وعمر وظهر من ابى بكر من شجاعةالقلب فى قتال أهل الردة وغيرهم ما برز به على عمر وسائر الصحابة رضى الله عنهم اجمعين واذا كانت الحاجة فى الولاية الى الامانة أشد قدم الأمين مثل حفظ الاموال ونحوها فاما استخراجها وحفظها فلا بد فيه من قوة وأمانة فيولى عليها شاد قوى يستخرجها بقوته وكاتب امين يحفظها بخبرته وامانته وكذلك فى إمارة الحرب اذا امر الأمير بمشاورة اهل العلم والدين جمع بين المصلحتين وهكذا فى سائر الولايات اذا لم تتم المصلحة برجل واحد جمع بين عدد فلا بد من ترجيح الأصلح او تعدد المولى اذا لم تقع الكفاية بواحد تام ويقدم فى ولاية القضاء الأعلم الأورع الأكفأ فان كان احدهما اعلم والآخر أورع قدم فيما قد يظهر حكمه ويخاف فيه الهوى الاورع وفيما يدق حكمه ويخاف فيه الاشتباه الاعلم ففى الحديث عن النبى انه قال ان الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات ويقدمان على الأكفأ ان كان القاضى مؤيدا تأييدا تاما من جهة والى الحرب او العامة ويقدم الأكفأ ان كان القضاء يحتاج الى قوة واعانة للقاضى اكثر من حاجته الى مزيد العلم والورع فان القاضى المطلق يحتاج ان يكون عالما عادلا قادرا بل وكذلك كل وال للمسلمين فأى صفة من هذه الصفات نقصت ظهر الخلل بسببه والكفاءة إما بقهر ورهبة وإما باحسان ورغبة وفى الحقيقة فلا بد منهام وسئل بعض العلماء اذا لم يوجد من يولى القضاء إلا عالم فاسق او جاهل دين فايهما يقدم فقال ان كانت الحاجة الى الدين اكثر لغلبة الفساد قدم الدين وان كانت الحاجة الى العلم اكثر لخفاء الحكومات قدم العالم واكثر العلماء يقدمون ذا الدين فان الأئمة متفقون على أنه لابد فى المتولى من أن يكون عدلا أهلا للشهادة واختلفوا فى اشتراط العلم هل يجب أن يكون مجتهدا او يجوز أن يكون مقلدا او الواجب تولية الامثل فالامثل كيفما تيسر على ثلاثة أقوال وبسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع ومع أنه يجوز تولية غير الأهل للضرورة إذا كان اصلح الموجود فيجب مع ذلك السعى فى إصلاح الأحوال حتى يكمل فى الناس مالا بد لهم منه من أمور الولايات والامارات ونحوها كما يجب على المعسر السعى فى وفاء دينه وان كان فى الحال لا يطلب منه الا ما يقدر عليه وكما يجب الاستعداد للجهاد باعداد القوة ورباط الخيل فى وقت سقوطه للعجز فان ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب بخلاف الاستطاعة فى

الحج ونحوها فانه لا يجب تحصيلها لأن الوجوب هنا لا يتم الا بها        واهم ما فى هذا الباب معرفة الأصلح وذلك إنما يتم بمعرفة مقصود الولاية ومعرفة طريق المقصود فاذا عرفت المقاصد والوسائل تم الامر فلهذا لما غلب على أكثر الملوك قصد الدنيا دون الدين قدموا فى ولايتهم من يعينهم على تلك المقاصد وكان من يطلب رئاسة نفسه يؤثر تقديم من يقيم رئاسته وقد كانت السنة أن الذى يصلى بالمسلمين الجمعةوالجماعة ويخطب بهم هم أمراء الحرب الذين هم نواب ذى السلطان على الأجناد ولهذا لما قدم النبى أبا بكر فى صلاة قدمه المسلمون فى إمارة وغيرها وكان النبى اذا بعث أميرا على حرب كان هو الذى يؤمره للصلاة بأصحابه وكذلك اذا استعمل رجلا نائبا على مدينة كما استعمل عتاب بن أسيد على مكة وعثمان بن أبى العاص على الطائف وعليا ومعاذا وأبا موسى على اليمن وعمرو بن حزم على نجران كان نائبه هو الذى يصلى بهم ويقيم فيهم الحدود وغيرها مما يفعله أمير الحرب وكذلك خلفاؤه بعده ومن بعدهم من الملوك الامويين وبعض العباسيين وذلك لأن أهم أمر الدين الصلاة والجهاد ولهذا كانت أكثر الأحاديث عن النبى في الصلاة والجهاد وكان اذا عاد مريضا يقول      اللهم اشف عبدك يشهد لك صلاة وينكأ لك عدوا        ولما بعث النبى معاذ إلى اليمن قال     يا معاذ إن أهم امورك عندى الصلاة        وكذلك كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكتب الى عماله ان أهم أموركم عندى الصلاة فمن حافظ عليها وحفظها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة        وذلك لأن النبى قال     الصلاة عماد الدين فاذا اقام المتولى عماد الدين فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وهى التى تعين الناس على ما سواها من الطاعات كما قال الله تعالى {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} البقرة٤٥     وقال سبحانه وتعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} البقرة١٥٣   وقال لنبي{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}طه١٣٢  وقال تعالى{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ{٥٦} مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ{٥٧} إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ{٥٨}        الذاريات ٥٦-٥٨ فالمقصود الواجب بالولايات إصلاح دين الخلق الذى متى فاتهم خسروا خسرانا مبينا ولم ينفعهم ما نعموا به فى الدنيا واصلاح مالا يقوم الدين الا به من أمر دنياهم وهو نوعان قسم المال بين مستحقيه وعقوبات المعتدين فمن لم يعتد أصلح له دينه ودنياه ولهذا كان عمر بن خطاب يقول    انما بعثت عمالى اليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ويقسموا بينكم فيئكم    فلما تغيرت الرعية من وجه والرعاة من وجه تناقضت الأمور فإذا اجتهد الراعى فى اصلاح دينهم ودنياهم بحسب الامكان كان من افضل

اهل زمانه وكان من أفضل المجاهدين فى سبيل الله فقد روى يوم من امام عادل افضل من عبادة ستين سنة وفى مسند الامام احمد عن النبى انه قال احب الخلق الى الله امام عادل وأبغضهم اليه امام جائر وفى الصحيحين عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلىالله عليه وسلم سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشا فى طاعة الله ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل دعته إمراة ذات منصب وجمال فقال إنى اخاف الله رب العالمين ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضىالله عنه قال قال رسول الله اهل الجنة ثلاث ذو سلطان مقسط ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ورجل غنى عفيف متصدق وفى السنن عنه أنه قال الساعى على الصدقة بالحق كالمجاهد فى سبل الله وقد قال الله تعالى لما أمر بالجهاد {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه}الأنفال٣٩ وقيل للنبى يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأى ذلك فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله أخرجاه فى الصحيحين فالمقصود أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الله اسم جامع لكلماته التى تضمنها كتابه وهكذا قال الله تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}الحديد٢٥ فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط فى حقوق الله وحقوق خلقه ثم قال تعالى {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ}الحديد٢٥ فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف وقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نضرب بهذا يعنى السيف من عدل عن هذا يعنى المصحف فاذا كان هذا المقصود فانه يتوسل اليه بالأقراب فالأقرب وينظر إلى الرجلين أيهما كان أقرب إلى المقصود ولى فاذا كانت الولاية مثلا إمامة صلاة فقط قدم من قدمه النبى حيث قال يؤم القوم اقرؤهم لكتاب الله فان كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فان كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة فان كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سنا ولا يؤمن الرجل الرجل فى سلطانه ولا يجلس فى بيته على تكرمته إلا باذنه رواه مسلم فاذا تكأفا رجلان وخفى أصلحهما أقرع بينهما كما أقرع سعد بن أبى وقاص بين الناس يوم القادسية لما تشاجروا على الأذان متابعة لقوله لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ثم لم

يجدوا إلا ان يستهموا عليه لاستهموا فاذا كان التقديم بأمر الله إذا ظهر وبفعله وهو ما يرجحه بالقرعة إذا خفى الأمر كان المتولى قد أدى الأمانات فى الولايات إلى أهلها

## فصل القسم الثانى من الأمانات الأموال

كما قال تعالى فى الديون {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ}البقرة٢٨٣ ويدخل فى هذا القسم الأعيان والديون الخاصة والعامة مثل رد الودائع ومال الشريك والموكل والمضارب ومال المولى من اليتيم وأهل الوقف ونحو ذلك وكذلك وفاء الديون من أثمان المبيعات وبدل القرض وصدقات النساء وأجور المنافع ونحو ذلك وقد قال الله تعالى {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{١٩} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{٢٠} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{٢١} إِلَّا الْمُصَلِّينَ{٢٢} الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ{٢٣} وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ{٢٤} لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ{٢٥} المعارج١٩-٢٥ إلى قوله {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ{٣٢} المعارج٣٢ وقال تعالى{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً}النساء١٠٥ أى لاتخاصم عنهم وقال النبى اد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك وقال النبى المؤمن من امنه المسلمون على دمائهم وأموالهم والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله وهو حديث صحيح بعضه فى الصحيحين وبعضه فى سنن الترمذى وقال من أخذ اموال الناس يريد اداءها أداها الله عنه ومن اخذها يريد إتلافها اتلفه الله رواه البخارى وإذا كان الله قد اوجب أداء الأمانات التى قبضت بحق ففيه تنبيه على وجوب اداء الغصب والسرقة والخيانة ونحو ذلك من المظالم وكذلك أداء العارية وقد خطب النبى فى حجة الوداع وقال فى خطبته العارية مؤداة والمنحة مردودة والدين مقضى والزعيم غارم إن الله قد اعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث وهذا القسم يتناول الولاة والرعية فعلى كل منهما أن يؤدى الى الآخر ما يجب اداؤه إليه فعلى ذى السلطان ونوابه فى العطاء أن يؤتوا كل ذى حق حقه وعلى جباة الأموال كأهل الديوان أن يؤدوا إلى ذى السلطان ما يجب إيتاؤه إليه وكذلك على الرعية الذين تجب عليهم الحقوق وليس للرعية ان يطلبوا من ولاة الأموال مالا يستحقونه فيكونون من جنس من قال الله تعالى فيه {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ {٥٨} وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ{٥٩}التوبة٥٨ -٥٩ ثم بين سبحانه لمن تكون بقوله {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء

وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}التوبة٦٠ ولا لهم أن يمنعوا السلطان ما يجب دفعه اليه من الحقوق وإن كان ظالما كما أمر النبى لما ذكر جور الولاة فقال أدوا اليهم الذى لهم فان الله سائلهم عما استرعاهم ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى قال كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى وانه لا نبى بعدى وسيكون خلفاء ويكثرون قالوا فما تأمرنا فقال اوفوا ببيعة الأول فالأول ثم أعطوهم حقهم فان الله سائلهم عما استرعاهم وفيهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله انكم سترون بعدى أثرة وأمورا تنكرونها قالوا فما تأمرنا به يارسول الله قال ادوا اليهم حقهم واسألوا الله حقكهم وليس لولاة الأمور ان يقسموها بحسب أهوائهم كما يقسم المالك ملكه فانما هم امناء ونواب ووكلاء ليسوا ملا كا كما قال رسول الله إنى والله لاأعطى أحدا ولا أمنع أحدا وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت رواه البخارى وعن أبى هريرة رضى الله عنه نحوه فهذا رسول رب العالمين قد أخبر أنه ليس المنع والعطاء بارادته واختياره كما يفعل ذلك المالك الذى أبيح له التصرف فى ماله وكما يفعل ذلك الملوك الذين يعطون من أحبوا ويمنعون من ابغضوا وإنما هو عبد الله يقسم المال بأمره فيصنعه حيث امره الله تعالى وهكذا قال رجل لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين لو وسعت على نفسك فى النفقة من مال الله تعالى فقال له عمر أتدرى ما مثلى ومثل هؤلاء كمثل قوم كانوا فى سفر فجمعوا منهم مالا وسلموه إلى واحد ينفقه عليهم فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من اموالهم وحمل مرة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه مال عظيم من الخمس فقال إن قوما أدوا الأمانة فى هذا لأمناء فقال له بعض الحاضرين إنك اديت الأمانة إلى الله تعالى فأدوا إليك الأمانة ولو رتعت لرتعوا وينبغى ان يعرف أن اولى الأمر كالسوق ما نفق فيه جلب اليه هكذا قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فان نفق فيه الصدق والبر والعدل والأمانة جلب اليه ذلك وان نفق فيه الكذب والفجور والجور والخيانة جلب إليه ذلك والذى على ولى الأمر أن يأخذ المال من حله ويضعه فى حقه ولا يمنعه من مستحقه وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه إذا بلغه أن بعض نوابه ظلم يقول اللهم إنى لم آمرهم أن يظلموا خلقك ولا يتركوا حقك

## فصل الأموال السلطانية التى أصلها فى الكتاب والسنة ثلاثة أصناف

الغنيمة والصدقة والفئ فأما الغنيمة فهى المال المأخوذ من الكفار بالقتال ذكرها الله فى سورة الأنفال التى أنزلها فى غزوة بدر وسماها انفالالأنها زيادة فى أموال المسلمين فقال {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ}الأنفال١ إلى قوله {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}الأنفال٤١ الآية وقال{فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}الأنفال٦٩ وفى الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ان النبى قال أعطيت خمسا لم يعطهن نبى قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى واعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة وقال النبى بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم رواه أحمد فى المسند عن ابن عمر واستشهد به البخارى فالوجب فى المغنم تخميسه وصرف الخمس الى من ذكره الله تعالى وقسمة الباقى بين الغانمين قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الغنيمة لمن شهد الوقعة وهم الذين شهدوها للقتال قاتلوا أو لم يقاتلوا ويجب قسمها بينهم بالعدل فلا يحابى أحد لا لرياسته ولا لنسبه ولا لفضله كما كان النبى وخلفاؤه ويقسمونها وفى صحيح البخارى أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه رأى له فضلا على من دونه فقال النبى هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم وفى مسند احمد عن سعد بن ابى وقاص قال قلت يا رسول الله الرجل يكون حامية القوم يكون سهمه وسهم غيره سواء قال ثكلتك أمك ابن أم سعد وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم وما زالت الغنائم تقسم بينا الغائمين فى دولة بنى أمية ودولة بنى العباس لما كان المسلمون يغزون الروم والترك والبربر لكن يجوز للأمام أن ينفل من ظهر منه زيادة نكاية كسرية تسرت من الجيش او رجل صعد حصنا عاليا ففتحه او حمل على مقدم العدو فقتله فهزم العدو ونحو ذلك لأن النبى وخلفاءه كانوا ينفلون لذلك وكان ينفل السرية فى البداية الربع بعد الخمس وفى الرجعة الثلث بعد الخمس وهذا النفل قال العلماء انه يكون من الخمس وقال بعضهم إنه يكون من خمس الخمس لئلا يفضل بعض الغانمين على بعض والصحيح انه يجوز من أربعة الاخماس وان كان فيه تفضيل بعضهم على بعض لمصلحة دينية لا لهوى النفس كما فعل رسول الله غير مرة وهذا قول فقهاء الشام وابى حنيفة واحمد وغيرهم وعلى هذا فقد قيل إنه ينفل الربع والثلث بشرط وغير شرط وينفل الزيادة على ذلك بالشرط مثل ان يقول من دلنى على قلعة فله كذا

او من جاءنى براس فله كذا ونحو ذلك وقيل لا ينفل زيادة على الثلث ولا ينفله الا بالشرط وهذان قولان لأحمد وغيره وكذلك على القول الصحيح للامام ان يقول من أخذ شيئا فهو له كما روى ان النبى كان قد قال ذلك فى غزوة بدر اذا رأى ذلك مصلحة راجحة على المفسدة واذا كان الامام يجمع الغنائم ويقسمها لم يجز لأحد ان يغل منها شيئا وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} آل عمران١٦١ فان الغلول خيانة ولا تجوز النهبة فان النبى نهى عنها فاذا ترك الامام الجمع والقسمة واذن فى الأخذ إذنا جائزا فمن اخذ شيئا بلا عدوان حل له بعد تخميسه وكل ما دل على الاذن فهو إذن وأما إذا لم يأذن أو أذن إذنا غير جائز جاز للانسان ان يأخذ مقدار ما يصيبه بالقسمة متحريا للعدل فى ذلك ومن حرم على المسلمين جمع الغنائم والحال هذه واباح للامام ان يفعل ما فيها يشاء فقد تقابل القولان تقابل الطرفين ودين الله وسط والعدل فى القسمة ان يقسم للراجل سهم وللفارس ذى الفرس العربى ثلاثة اسهم سهم له وسهمان لفرسه هكذا قسم النبى صلى الله عليه وسلم عام خيبر ومن الفقهاء من يقول للفارس سهمان والأول هو الذى دلت عليه السنة الصحيحة ولأن الفرس يحتاج الى مئونة نفسه وسائسه ومنفعة الفارس به اكثر من منفعة راجلين ومنهم من يقول يسوى بين الفرس العربى والهجين فى هذا ومنهم من يقول بل الهجين يسهم له سهم واحد كما روى عن النبى واصحابه والفرس الهجين الذى تكون امة نبطية ويسمى البرذون وبعضهم يسميه التترى سواء كان حصانا او خصيا ويسمى الأكديش او رمكة وهى الحجر كان السلف يعدون للقتال والحصان لقوته وحدته واللاغارة والبيات الحجر لأنه ليس لها صهيل ينذر العدو فيحترزون وللسير الخصى لأنه اصبر على السير واذا كان المغنوم مالا قد كان للمسلمين قبل ذلك من عقار اومنقول وعرف صاحبه قبل القسمة فانه يرد اليه باجماع المسلمين وتفاريع المغانم واحكامها فيها آثار واقوال اتفق المسلمون على بعضها وتنازعوا فىبعض ذلك وليس هذا موضعها وانما الغرض ذكر الجمل الجامعة

## فصل واما الصدقات

فهى لمن سمى الله تعالى فى كتابه فقد روى عن النبى ان رجلا سأله من الصدقة فقال ان الله لم يرض فى الصدقة بقسم نبى ولا غيره ولكن جزأها ثمانية اجزاء فان كنت من تلك الاجزاء اعطيتك فالفقراء والمساكين يجمعهما معنى الحاجة الى الكفاية فلا تحل الصدقة لغنى ولا لقوى مكتسب والعاملين عليه هم الذين يجبونها ويحفظونها ويكتبونها ونحو ذلك والمؤلفة قلوبهم فنذكرهم ان شاء الله تعالى فى مال الفىء وفى الرقاب يدخل فيه اعانة المكاتبين وافتداء الأسرى وعتق الرقاب هذا

اقوى الاقوال فيها والغارمين هم الذين عليهم ديون لا يجدون وفاءها فيعطون وفاء ديونهم ولو كان كثيرا الا ان يكونوا غرموه فى معصية الله تعالى فلا يعطون حتى يتوبوا وفى سبيل الله وهم الغزاة الذين لا يعطون من مال الله ما يكفيهم لغزوهم فيعطون ما يغزون به او تمام ما يغزون به من خيل وسلاح ونفقة واجرة والحج من سبيل الله كما قال النبى وابن السبيل هو المجتاز من بلد الى بلد فصل وأما الفيء فأصله ما ذكره الله تعالى فى سورة الحشر التى انزلها الله فى غزوة بنى النضير بعد بدر من قوله تعالى {وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ}الحشر٦ {وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٦} مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{٧} لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ{٨} وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{٩} وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{١٠}الحشر ٦-١٠ فذكر سبحانه وتعالى المهاجرين والأنصار والذين جاءوا من بعدهم على ما وصف فدخل فى الصنف الثالث كل من جاء على هذا الوجه الى يوم القيامة كما دخلوا فى قوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ}الأنفال٧٥ وفى قوله {وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ}التوبة١٠٠ وفى قوله {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}الجمعة٣ ومعنى قوله {فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ}الحشر٦ اى ما حركتم ولا سقتم خيلا ولا ابلا ولهذا قال الفقهاء ان الفيء هو ما أخذ من الكفار بغير قتال لأن ايجاف الخيل والركاب هومعنى القتال وسمى فيئا لأن الله افاءه على المسلمين اى رده عليهم من الكفار فان الأصل ان الله تعالى انما خلق الاموال اعانة على عبادته لأنه خلق انما الخلق لعبادته فالكافرون به اباح انفسهم التى لم يعبدوه بها واموالهم التى لم يستعينوا بها على عبادته لعبادة المؤمنين الذين يعبدونه وافاء اليهم ما يستحقونه كما يعاد على الرجل ما غصب من ميراثه وان لم يكن قبضه قبل ذلك وهذا مثل الجزية التى على اليهود والنصارى والمال الذى يصالح عليه العدو او يهدونه الى سلطان المسلمين

كالحمل الذى يحمل من بلاد النصارى ونحوهم وما يؤخذ من تجار اهل الحرب وهو العشر ومن تجار اهل الذمة اذا اتجروا فى غير بلادهم وهو نصف العشر هكذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأخذ وما يؤخذ من اموال من ينقض العهد منهم والخراج الذي كان مضروبا فى الأصل عليهم وان كان قد صار بعضه على بعض المسلمين ثم انه يجتمع من الفىء جميع الأموال السلطانية التى لبيت مال المسلمين كالأموال التى ليس لها مالك معين مثل من مات من المسلمين وليس له وارث معين وكالغصوب والعواري والودائع التى تعذر معرفة اصحابها وغير ذلك من اموال المسلمين العقار والمنقول فهذا ونحوه مال المسلمين وانما ذكر الله تعالى فى القرآن الفىء فقط لأن النبى ما كان يموت على عهده ميت الا وله وارث معين لظهور الأنساب فى اصحابه وقد مات مرة رجل من قبيلة فدفع ميراثه إلى اكبر رجل من تلك القبيلة اى أقربهم نسبا الى جدهم وقد قال بذلك طائفة من العلماء كأحمد في قول منصوص وغيره ومات رجل لم يخلف إلا عتيقا له فدفع ميراثه الى عتيقه وقال بذلك طائفة منأ صحاب احمد وغيرهم ودفع ميراث رجل الى رجل من أهل قريته وكان هو وخلفاؤه يتوسعون فى دفع ميراث الميت الى من بينه وبينه نسب كما ذكرناه ولم يكن يأخذ من المسلمين الا الصدقات وكان يأمرهم ان يجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم كما امر الله به فى كتابه ولم يكن للأموال المقبوضة والمقسومة ديوان جامع على عهد رسول الله وابي بكر رضى الله عنه بل كان يقسم المال شيئا فشيئا فلما كان فى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثر المال واتسعت البلاد وكثر الناس فجعل ديوان العطاء للمقاتلة وغيرهم وديوان الجيش فى هذا الزمان مشتمل على أكثره وذلك الديوان هو اهم دواوين المسلمين وكان للأمصار دواوين الخراج والفىء وما يقبض من الاموال وكان النبي وخلفاؤه يحاسبون العمال على الصدقات والفىء وغير ذلك فصارت الأموال فى هذا الزمان وما قبله ثلاثة أنواع نوع يستحق الإمام قبضه بالكتاب والسنة والاجماع كما ذكرناه ونوع يحرم اخذه بالاجماع كالجبايات التى تؤحذ من اهل القرية لبيت المال لأجل قتيل قتل بينهم وان كان له وارث او على حد ارتكبه وتسقط عنه العقوبة بذلك وكالمكوس التى لا يسوغ وضعها اتفاقا ونوع فيه اجتهاد وتنازع كمال من له ذو رحم وليس بذى فرض ولا عصبة ونحو ذلك وكثيرا ما يقع الظلم من الولاة والرعية هؤلاء يأخذون ما لا يحل وهؤلاء يمنعون مايجب كما قد يتظالم الجند والفلاحون وكما قد يترك بعض الناس من الجهاد ما يجب ويكنز الولاة من مال الله مالا يحل كنزه وكذلك العقوبات على أداء الأموال فانه قد يترك منها ما يباح او يجب وقد يفعل ما لا يحل والأصل فى ذلك ان كل من عليه مال يجب أداؤه كرجل عنده وديعة أو مضاربة أو شركة أو

مال لموكله أومال يتيم أو مال وقف أو مال لبيت المال او عنده دين وهو قادر على أدائه فانه اذا امتنع من أداء الحق الواجب من عين او دين وعرف انه قادر على أدائه فانه يستحق العقوبة حتى يظهر المال او يدل على موضعه فاذا عرف المال وصبر على الحبس فانه يستوفى الحق من المال ولا حاجة الى ضربه وان امتنع من الدلالة على ماله ومن الايفاء ضرب حتى يؤدى الحق او يمكن من ادائه وكذلك لو امتنع من اداء النفقة الواجبة عليه مع القدرة عليها لما روى عمرو بن الشريد عن ابيه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لى الواجد يحل عرضه وعقوبته رواه اهل السنن وقل صلى الله عليه وسلم مطل لغني ظلم أخرجاه فى الصحيحين و اللي هو المطل والظالم يستحق العقوبة والتعزير وهذا أصل متفق عليه ان كل من فعل محرما او ترك واجبا ستحق العقوبة فان لم تكن مقدرة بالشرع كان تعزيزا يجتهد فيه ولي الأمر فيعاقب لغنى المماطل بالحبس فان اصر عوقب بالضرب حتى يؤدى الواجب وقد نص على ذلك الفقهاء من اصحاب مالك والشافعى واحمد وغيرهم رضى الله عنهم ولا اعلم فيه خلافا وقد روى البخارى فى صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم لما صالح اهل خيبر على الصفراء والبيضاء والسلاح سأل بعض اليهود وهو سعية عم حيي بن أخطب عن كنز مال حيي بن أخطب فقال اذهبته النفقات والحروب فقال العهد قريب والمال اكثر من ذلك فدفع النبى سعيه الى الزبير فمسه بعذاب فقال قد رأيت حييا يطوف فى خربة ههنا فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك فىالخربة وهذا الرجل كان ذميا والذمي لا تحل عقوبته الا بحق وكذلك كل من كتم ما يجب اظهاره من دلالة واجبة ونحو ذلك يعاقب على ترك الواجب وما اخذه العمال وغيرهم من مال المسلمين بغير حق فلولي الأمر العادل استخراجه منهم كالهدايا التى يأخذونها بسبب العمل قال ابو سعيد الخدري رضى الله عنه هدايا العمال غلول وروى ابراهيم الحربي فى كتاب الهدايا عن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى قال هدايا الأمراء غلول وفي الصحيحين عن ابي حميد الساعدى رضى الله عنه قال استعمل النبى صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبيه على الصدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا اهدى الى فقال النبى مابال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا اهدى الى فهلا جلس فى بيت بيه و بيت امه فينظر ايهدى اليه ام لا والذى نفسى بيده لا يأخذ منه شيئا الا جاء به يوم القيامة يحمله رقبته ان كان بعيرا له رغاء او بقرة لها خوار او شاه تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى ابطيه ثم قال اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت ثلاثا وكذلك محاباه الولاة فى المعاملة من المبايعة والمؤاجرة والمضاربة والمساقاه والمزارعة ونحو ذلك هو من نوع الهدية ولهذا

شاطر عمر ابن الخطاب رضى الله عنه من عماله من كان له فضل ودين لا يتهم بخيانة وانما شاطرهم لما كانوا خصوا به لأجل الولاية من محاباة وغيرها وكان الأمر يقتضى ذلك لأنه كان امام عدل يقسم بالسوية فلما تغير الامام والرعية كان الواجب على كل انسان ان يفعل من الواجب ما يقدر عليه ويترك ما حرم عليه ولا يحرم عليه ما اباح الله له وقد يبتلى الناس من الولاة بمن يمتنع من الهدية ونحوها ليتمكن بذلك من استيفاء المظالم منهم ويترك ما اوجبه الله من قضاء حوائجهم فيكون من اخذ منهم عوضا على كف ظلم وقضاء حاجة مباحة احب اليهم من هذا فان الأول قد باع آخرته بدنيا غيره وأخسر الناس صفقة من باع آخرته بدنيا غيره وانما الواجب كف الظلم عنهم بحسب القدرة وقضاء حوائجهم التى لا تتم مصلحة الناس الا بها من تبليغ ذى السلطان حاجاتهم وتعريفه بأمورهم ودلالته على مصالحهم وصرفه عن مفاسدهم بأنواع الطرق اللطيفة وغير اللطيفة كما يفعل ذووا الاغراض من الكتاب ونحوهم فى اغراضهم ففى حديث هند بن ابى هالة رضى الله عنه عن النبى صلىالله عليه وسلم انه كان يقول ابلغونى حاجة من لا يستطيع ابلاغها فانه من ابلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع ابلاغها ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام وقد روى الامام احمد وابو داود فى سننه عن ابى امامه الباهلى رضىالله عنه قال قال رسول الله من شفع لاخية شفاعة فأهدى له عليها هديه فقبلها فقد اتى بابا عظيما من ابواب الربا وروى ابراهيم الحربى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال السحت ان يطلب الحاجة للرجل فتقضى له فيهدى اليه هدية فيقبلها وروى ايضا عن مسروق انه كلم ابن زياد فى مظلمة فردها فأهدى له صاحبها وصيفا فرده عليه وقال سمعت ابن مسعود يقول من رد عن مسلم مظلمة فرزأه عليها قليلا او كثيرا فهو سحت فقلت يا ابا عبد الرحمن ما كنا نرى السحت الا الرشوة فى الحكم قال ذاك كفر فاما اذا كان ولي الأمر يستخرج من العمال ما يريد ان يختص به هو وذووه فلا ينبغى اعانة واحد منهماذ كل منهما ظالم كلص سرق من لص وكالطائفتين المقتتلتين على عصبية ورئاسة ولا يحل للرجل ان يكون عونا على ظلم فان التعاون نوعان الأول تعاون على البر والتقوى من الجهاد وإقامة الحدود واستيفاء الحقوق واعطاء المستحقين فهذا مما امر الله به ورسوله ومن امسك عنه خشية ان يكون من اعوان الظلمة فقد ترك فرضا على الأعيان او على الكفاية متوهما انه متورع وما اكثر ما يشتبه الجبن والفشل بالورع إذ كل منهما كف وامساك والثانى تعاون على الاثم والعدوان كالاعانة على دم معصوم أو أخذ مال معصوم أو ضرب من لا يستحق الضرب ونحو ذلك فهذا الذي حرمه الله ورسوله نعم اذا كانت الأموال قد أخذت بغير حق وقد تعذر ردها الى اصحابها ككثير من الأحوال

السلطانية فالاعانة على صرف هذه الأموال فى مصالح المسلمين كسداد الثغور ونفقة المقاتلة ونحو ذلك من الاعانة على البر والتقوى اذ الواجب على السلطان فى هذه الاموال اذا لم يمكن معرفة اصحابها وردها عليهم ولا على ورثتهم ان يصرفها مع التوبة ان كان هوالظالم الى مصالح المسلمين هذا هو قول جمهور العلماء كمالك وابى حنيفة واحمد وهو منقول عن غير واحد من الصحابة وعلى ذلك دلت الأدلة الشرعية كما هو منصوص فى موضع آخر وان كان غيره قد اخذها فعليه هو ان يفعل بها ذلك وكذلك لو امتنع السلطان من ردها كانت الاعانة على انفاقها فى مصالح اصحابها اولى من تركها بيد من يضيعها على اصحابها وعلى المسلمين فان مدار الشريعة على قوله تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ المفسر لقوله {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}آل عمران١٠٢ وعلى قول النبى إذا امرتكم فاتوا منه ما استطعتم اخرجاه فى الصحيحين وعلى ان الواجب تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فاذا تعارضت كان تحصيل اعظم المصلحتين بتفويت ادناهما ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال ادناهما هو المشروع والمعين على الأثم والعدوان من أعان الظالم على ظلمه أما من أعان المظلوم على تخفيف الظلم عنه او على اداء المظلمة فهو وكيل المظلوم لا وكيل الظالم بمنزلة الذى يقرضه او الذى يتوكل فى حمل المال له الى الظالم مثال ذلك ولي اليتيم والوقف اذا طلب ظالم منه ما لا فاجتهد فى دفع ذلك بمال اقل منه اليه او الى غيره بعد الاجتهاد التام فى الدفع لا فهو محسن وما على المحسنين من سبيل وكذلك وكيل المالك من المنادين والكتاب وغيرهم الذى يتوكل لهم فىالعقد والقبض ودفع ما يطلب منهم لا يتوكل للظالمين فى الأخذ ل وكذلك لو وضعت مظلمة على اهل قرية او درب او سوق او مدينة فتوسط رجل منهم محسن فى الدفع عنهم بغاية الامكان و قسطها بينهم على قدر طاقتهم من غير محاباة لنفسه ولا لغيره ولا ارتشاء بل توكل لهم فى الدفع عنهم والاعطاء كان محسنا لكن الغالب ان من يدخل فى ذلك يكون وكيل الظالمين محابيا مرتشيا مخفرا لمن يريد وآخذا ممن يريد وهذا من اكبر الظلمة الذين يحشرون فى توابيت من نار هم واعوانهم واشباههم ثم يقذفون فى النار

## واما المصارف فالواجب ان يبدأ فى القسمة بالأهم فالأهم

من مصالح المسلمين العامة كعطاء من يحصل للمسلمين به منفعة عامة فمنهم المقاتلة الذين هم اهل النصرة والجهاد وهم احق الناس بالفىء فانه لا يحصل الا بهم حتى اختلف الفقهاء فى مال الفىء هل هو مختص بهم او مشترك فى جميع المصالح واما سائر الأموال السلطانية فلجميع المصالح وفاقا الا ما خص به نوع

كالصدقات والمغنم       ومن المستحقين ذوو الولايات عليهم كالولاة والقضاه والعلماء والسعاه على المال جمعا وحفظا وقسمة ونحو ذلك حتى ائمة الصلاة والمؤذنين ونحو ذلك       وكذا صرفه فى الأثمان والأجور لما يعم نفعه من سداد الثغور بالكراع والسلاح وعمارة ما يحتاج الى عمارته من طرقات الناس كالجسور والقناطر وطرقات المياه كالأنهار     ومن المستحقين ذوو الحاجات فان الفقهاء قد اختلفوا هل يقدمون

فى غير الصدقات من الفىء ونحوه على غيرهم على قولين فى مذهب احمد وغيره منهم من قال يقدمون ومنهم من قال المال استحق بالاسلام فيشتركون فيه كما يشترك الورثة فى الميراث والصحيح انهم يقدمون فان النبى كان يقدم ذوى الحاجات كما قدمهم فى مال بني النضير وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليس احد احق بهذا المال من احد انما هو الرجل وسابقته والرجل وغناؤه والرجل وبلاؤه والرجل وحاجته      فجعلهم عمر رضي الله عنه اربعةاقسام      الأول ذوو السوابق الذين بسابقتهم حصل المال الثانى من يغنى عن المسلمين فى جلب المنافع لهم كولاة الأمور والعلماء الذين يجتلبون لهم منافع الدين والدنيا      الثالث من يبلى بلاء حسنا فى دفع الضرر عنهم كالمجاهدين في سبيل الله من الأجناد والعيون من القصاد والناصحين ونحوهم     الرابع ذوو الحاجات واذا حصل من هؤلاء متبرع فقد اغنى الله به والا اعطى ما يكفيه او قدر عمله واذا عرفت ان العطاء يكون بحسب منفعة الرجل وبحسب حاجته فى مال المصالح وفى الصدقات ايضا فما زاد على ذلك لايستحقه الرجل إلا كما يستحقه نظراؤه مثل أن يكون شريكا فى غنيمة او ميراث ولا يجوز للامام ان يعطى احدا ما لا يستحقه لهوى نفسه من قرابة بينهما اومودة ونحو ذلك فضلا عن ان يعطيه لأجل منفعة محرمة منه كعطية المخنثين من الصبيان المردان الأحرار والمماليك ونحوهم والبغايا والمغنين والمساخر ونحو ذلك او إعطاء العرافين من الكهان والمنجمين ونحوهم     لكن يجوز بل يجب الأعطاء لتأليف من يحتاج الى تأليف قلبه وأن كان هو لا يحل له أخذ ذلك كما أباح الله تعالى فى القرآن العطاء للمؤلفة قلوبهم من الصدقات وكما كان النبى صلى الله عليه وسلم يعطى المؤلفة قلوبهم من الفىء ونحوه وهم السادة المطاعون فى عشائرهم كما كان النبى يعطى الأقرع بن حابس سيد بنى تميم وعيينة بن حصن سيد بني فزاره وزيد الخير الطائى سيد بني نبهان وعلقمة بن علاثة العامرى سيد بني كلاب ومثل سادات قريش من الطلقاء كصفوان بن أمية وعكرمة بن ابي جهل وابي سفيان ابن حرب وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وعدد كثير      ففى الصحيحين عن ابي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال بعث علي وهو باليمن بذهيبة فى تربتها الى رسول الله فقسمها

رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اربعة الأقرع بن حابس الحنظلى وعيينة بن حصن الفزارى وعلقمة بن علاثة العامرى سيد بني كلاب وزيد الخير الطائى سيد بني نبهان قال فغضبت قريش والأنصار فقالوا يعطى صناديد نجد ويدعنا فقال رسول الله إنى إنما فعلت ذلك لتأليفهم فجاء رجل كث اللحية مشرف الوجنتين غائر العينين ناتىء الجبين محلوق الرأس فقال اتق الله يا محمد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يتق الله إن عصيته أيأمننى على أهل الأرض ولا تأمنونى قال ثم أدبر الرجل فإستأذن رجل من القوم فى قتله ويرون أنه خالد بن الوليد فقال رسول الله إن من ضئضىء هذا قوما يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الاوثان يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية لئن ادركتهم لأقتلنهم قتل عاد وعن رافع بن خديج رضى الله عنه قال اعطى رسول الله ابا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل انسان منهم مائة من الأبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى المجمع وما وكنت دون امرىء منهما ومن يخفض اليوم لا يرفع قال فأتم له رسول الله مائة رواه مسلم و العبيد اسم فرس له والمؤلفة قلوبهم نوعان كافر ومسلم فالكافر اما أن يرجى بعطيته منفعة كاسلامه أو دفع مضرته اذا لم يندفع الا بذلك والمسلم المطاع يرجى بعطيته المنفعة ايضا كحسن إسلامه اواسلام نظيره او جباية المال ممن لايعطيه الا لخوف او النكاية فى العدو او كف ضره عن المسلمين اذا لم ينكف الا بذلك وهذا النوع من العطاء وان كان ظاهره اعطاء الرؤساء وترك الضعفاء كما يفعل الملوك فالأعمال بالنيات فاذا كان القصد بذلك مصلحة الدين واهله كان من جنس عطاء النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه وان كان المقصود العلو فى الأرض والفساد كان من جنس عطاء فرعون وانما ينكره ذوو الدين الفاسد كذى الخويصرة الذى انكره على النبى حتى قال فيه ما قال وكذلك حزبه الخوارج انكروا على امير المؤمنين على رضى الله عنه ما قصد به المصلحة من التحكيم ومحو اسمه وما تركه من سبي نساء المسلمين وصبيانهم وهؤلاء امر النبى بقتالهم لأن معهم دينا فاسدا لا يصلح به دنيا ولا آخرة وكثيرا مايشتبه الورع الفاسد بالجبن والبخل فان كلاهما فيه ترك فيشتبه ترك الفساد لخشية الله تعالى بترك مايؤمر به من الجهاد والنفقة جبنا وبخلا وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع قال الترمذى حديث صحيح وكذلك قد يترك الانسان العمل ظنا أو إظهارا أنه ورع وإنما هو كبر وإرادة للعلو وقول النبى إنما الأعمال بالنيات كلمة جامعة كاملة فان النية

للعمل كالروح للجسد وإلا فكل واحد من الساجد لله والساجد للشمس والقمر قد وضع جبهته على الأرض فصورتهما واحدة ثم هذا أقرب الخلق إلى الله تعالى وهذا أبعد الخلق عن الله وقد قال الله تعالى {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}البلد١٧ وفى الأثر أفضل الايمان السماحة والصبر فلا تتم رعاية الخلق وسياستهم إلا بالجود الذى هو العطاء والنجدة التى هى الشجاعة بل لايصلح الدين والدنيا إلا بذلك ولهذا كان من لايقوم بهما سلبه الأمر ونقله إلى غيره كما قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ{٣٨} إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٣٩} التوبة٣٨-٣٩ وقال تعالى {هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}محمد٣٨ وقد قال الله تعالى {لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} الحديد١٠ فعلق الأمر بالانفاق الذى هو السخاء والقتال الذى هو الشجاعة وكذلك قال الله تعالى فى غير موضع{وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ}التوبة٤١ وبين أن البخل من الكبائر فى قوله تعالى {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}آل عمران١٨٠ وفى قوله {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}التوبة٣٤ الآية وكذلك الجبن فى مثل قوله تعالى {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}الأنفال١٦ وفى قوله تعالى {وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ}التوبة٥٦ وهو كثير فى الكتاب والسنة وهو مما اتفق عليه أهل الأرض حتى إنهم يقولون فى الأمثال العامية لاطعنة ولا جفنة ويقولون لافارس الخيل ولاوجه العرب ولكن افترق الناس هنا ثلاث فرق فريق غلب عليهم حب العلو فى الأرض والفساد فلم ينظروا فى عاقبة المعاد ورأوا أن السلطان لايقوم إلا بعطاء وقد لايتأتى العطاء إلا باستخراج أموال من غير حلها فصاروا نهابين وهابين وهؤلاء يقولون لا يمكن أن يتولى على الناس إلا من يأكل ويطعم فانه إذا تولى العفيف الذى لا يأكل ولا يطعم سخط عليه الرؤساء وعزلوه ان لم يضروه فى نفسه وماله وهؤلاء نظروا فى عاجل دنياهم وأهملوا الآجل من دنياهم وآخرتهم فعاقبتهم عاقبة رديئة فى الدنيا والآخرة ان لم يحصل لهم ما يصلح عاقبتهم من توبة ونحوها وفريق عندهم خوف من الله تعالى

ودين يمنعهم عما يعتقدونه قبيحا من ظلم الخلق وفعل المحارم فهذا حسن واجب ولكن قد يعتقدون مع ذلك أن السياسة لاتتم الا بما يفعله أولئك من الحرام فيمتنعون عنها مطلقا وربما كان فى نفوسهم جبن او بخل او ضيق خلق ينضم الى ما معهم من الدين فيقعون احيانا فى ترك واجب يكون تركه اضر عليهم من بعض المحرمات او يقعون فى النهى عن واجب يكون النهى عنه من الصد عن سبيل الله وقد يكونون متأولين وربما اعتقدوا ان انكار ذلك واجب ولا يتم الا بالقتال فيقاتلون المسلمين كما فعلت الخوارج وهؤلاء لا تصلح بهم الدنيا ولا الدين الكامل لكن قد يصلح بهم كثير من أنواع الدين وبعض امور الدنيا وقد يعفى عنهم فيما اجتهدوا فيه فأخطأوا ويغفر لهم قصورهم وقد يكونون من الأخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وهذه الطريقة من لا يأخذ لنفسه ولا يعطى غيره ولا يرى انه يتألف الناس من الكفار والفجار لا بمال ولا بنفع ويرى ان اعطاء المؤلفة قلوبهم من نوع الجور والعطاء المحرم الفريق الثالث الأمة الوسط وهم اهل دين محمد وخلفائه على عامة الناس وخاصتهم الى يوم القيامة وهو انفاق المال والمنافع للناس وان كانوا رؤساء بحسب الحاجة الى صلاح الاحوال ولاقامة الدين والدنيا التى يحتاج اليها الدين وعفته فى نفسه فلا يأخذ مالا يستحقه فيجمعون بين التقوى والاحسان {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} النحل١٢٨ ولا تتم السياسة الدينية الابهذا ولا يصلح الدين والدنيا الا بهذه الطريقة وهذا هو الذي يطعم الناس مايحتاجون الى طعامه ولا يأكل هو إلا الحلال الطيب ثم هذا يكفيه من الانفاق اقل مما يحتاج اليه الاول فان الذي يأخذ لنفسه تطمع فيه النفوس مالا تطمع فى العفيف ويصلح به الناس فى دينهم ما لا يصلحون بالثانى فان العفة مع القدرة تقوى حرمة الدين وفى الصحيحين عن ابى سفيان ابن حرب ان هرقل ملك الروم سأله عن النبى بماذا يأمركم قال يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وفى الأثر ان الله أوحى الى ابراهيم الخليل عليه السلام يا ابراهيم اتدرى لم اتخذتك خليلا لأنى رأيت العطاء احب اليك من الأخذ وهذا الذي ذكرناه فى الرزق والعطاء الذى هو السخاء وبذل المنافع نظيره فى الصبر والغضب الذي هوالشجاعة ودفع المضار فان الناس ثلاثة اقسام قسم يغضبون لنفوسهم ولربهم وقسم لايغضبون لنفوسهم ولا لربهم والثالث وهو الوسط الذي يغضب لربه لا لنفسه كما فى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت ماضرب رسول الله بيده خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط الا ان يجاهد فى سبيل الله ولا نيل منه شي فانتقم بنفسه قط الا أن تنتهك حرمات الله فاذا انتهكت حرمات الله لميقم لغضبه شىء حتى ينتقم لله فأما من يغضب لنفسه لا لربه أو يأخذ لنفسه ولا يعطى غيره فهذا القسم الرابع شر الخلق لايصلح بهم

دين ولا دنيا كما أن الصالحين ارباب السياسة الكاملة هم الذين قاموا بالواجبات وتركوا المحرمات وهم الذين يعطون ما يصلح الدين بعطائه ولا يأخذون الا ما ابيح لهم ويغضبون لربهم اذا انتهكت محارمه ويعفون عن حقوقهم وهذه اخلاق رسول الله فى بذله ودفعة وهي اكمل الأمور وكلما كان اليها اقرب كان افضل فليجتهد المسلم فى التقرب اليها بجهده ويستغفر الله بعد ذلك من قصوره او تقصيره بعد ان يعرف كمال ما بعث الله تعالى به محمدا صلىالله عليه وسلم من الدين فهذا في قول الله سبحانه وتعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}النساء٥٨ والله اعلم

## وأما قوله تعالى{وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ فان الحكم بين الناس يكون فى الحدود والحقوق

وهما قسمان فالقسم الأول الحدود والحقوق التى ليست لقوم معينين بل منفعتها لمطلق المسلمين او نوع منهم وكلهم محتاج اليها وتسمى حدود الله وحقوق الله مثل حد قطاع الطريق والسراق والزناة ونحوهم ومثل الحكم فى الاموال السلطانية والوقوف والوصايا التى ليست لمعين فهذه من اهم امور الولايات ولهذا قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لابد للناس من إمارة برة كانت او فاجرة فقيل ياامير المؤمنين هذه البرة قد عرفناها فما بال الفاجرة فقال يقام بها الحدود وتأمن بها السبل ويجاهد بها العدو ويقسم بها الفيء وهذا القسم يجب على الولاة البحث عنه واقامته من غير دعوى احد به وكذلك تقام الشهادة فيه من غير دعوى احد به وكذلك تقام الشهادة فيه من غير دعوى احد به وان كان الفقهاء قد اختلفوا فى قطع يد السارق هل يفتقر الى مطالبة المسروق بماله على قولين فى مذهب احمد وغيره لكنهم متفقون على انه لا يحتاج الى مطالبة المسروق بالحد وقد اشترط بعضهم المطالبة بالمال لئلا يكون للسارق فيه شبهة وهذا القسم يجب اقامته على الشريف والوضيع والضعيف ولا يحل تعطيله لا بشفاعة ولا بهدية ولا بغيرهما ولا تحل الشفاعة فيه ومن عطله لذلك وهو قادر على اقامته فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولاعدلا وهو ممن اشترى بآيات الله ثمنا قليلا وروى ابو داود فى سننه عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في امره ومن خاصم فى باطل وهو يعلم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ومن قال فى مسلم دين ما ليس فيه حبس فى ردغة الخبال حتى يخرج مما قال قيل يا رسول الله وما ردغة الخبال قال عصارة اهل النار فذكر النبى الحكماء والشهداء والخصماء وهؤلاء اركان الحكم وفى الصحيحين

عن عائشة رضي الله عنها ان قريشا اهمهم شأن المخزومية التى سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله فقالوا ومن يجترىء عليه الا اسامة بن زيد فقال يا أسامة اتشفع فى حد من حدود الله انما هلك بنو اسرائيل انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد والذى نفس محمد بيده لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ففى هذه القصة عبرة فان اشرف بيت كان فى قريش بطنان بنو مخزوم وبنو عبد مناف فلما وجب على هذه القطع بسرقتها التى هي جحود العارية على قول بعض العلماء او سرقة اخرى غيرها على قول آخرين وكانت من اكبر القبائل واشرف البيوت وشفع فيها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم اسامة غضب رسول الله فأنكر عليه دخوله فيما حرمه الله وهو الشفاعة فى الحدود ثم ضرب المثل بسيدة نساء العالمين وقد برأها الله من ذلك فقال لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها وقد روى ان هذه المرأة التى قطعت يدها تابت وكانت تدخل بعد ذلك على النبى فيقضى حاجتها فقد روى ان السارق إذا تاب سبقته يده الى الجنة وان لم يتب سبقته يده الى النار وروى مالك فى المؤطا أن جماعة أمسكوا لصا ليرفعوه الى عثمان رضى الله عنه فتلقاهم الزبير فشفع فيه فقالوا اذا رفع الى عثمان فاشفع فيه عنده فقال إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع يعنى الذى يقبل الشفاعة وكان صفوان بن أمية نائما على رداء له فى مسجد رسول الله فجاء لص فسرقه فأخذه فأتى به النبى فأمر بقطع يده فقال يارسول الله أعلى ردائى تقطع يده أنا أهبه له فقال فهلا قبل أن تأتينى به ثم قطع يدع رواه أهل السنن يعنى أنك لو عفوت عنه قبل أن تأتينى به لكان فأما بعد أن رفع إلى فلا فلا يجوز تعطيل الحد لا بعفو ولا بشفاعة ولا بهبة ولا غير ذلك ولهذا اتفق العلماء فيما أعلم على أن قاطع الطريق واللص ونحوهما إذا رفعوا إلى ولى الأمر ثم تابوا بعد ذلك لم يسقط الحد عنهم بل تجب إقامته وإن تابوا فان كانوا صادقين فى التوبة كان الحد كفارة لهم وكان تمكينهم من ذلك من تمام التوبة بمنزلة رد الحقوق الى أهلها والتمكين من استيفاء القصاص فى حقوق الآدميين وأصل هذا فى قوله تعالى {مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً}النساء٨٥ فان الشفاعة إعانة الطالب حتى يصير معه شفعا بعد أن كان وترا فان أعانه على بر وتقوى كانت شفاعة حسنة وإن أعانة على إثم وعدوان كانت شفاعة سيئة والبر ما أمرت به والأثم ما نهيت عنه وإن كانوا كاذبين فان الله لايهدى كيد الخائنين وقد قال تعالى {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ

عَذَابٌ عَظِيمٌ {٣٣} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٣٤}المائدة٣٣ فاستثنى التائبين قبل القدرة عليهم فقط فالتائب بعد القدرة عليه باق فيمن وجب عليه الحد للعموم والمفهوم والتعليل هذا إذا كان قد ثبت بالبينة فأما إذا كان باقرار وجاء مقرا بالذنب تائبا فهذا فيه نزاع مذكور فى غير هذا الموضع وظاهر مذهب احمد انه لاتجب إقامة الحد فى مثل هذه الصورة بل إن طلب إقامة الحد عليه أقيم وإن ذهب لم يقم عليه حد وعلى هذا حمل حديث ماعز بن مالك لما قال فهلا تركتموه وحديث الذى قال أصبت حدا فأقمه مع آثار أخر وفى سنن أبى داود والنسائى عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله قال تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب وفى سنن النسائى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى قال حد يعمل به فى الأرض خير لأهل الأرض من ان يمطروا أربعين صباحا وهذا لأن المعاصى سبب لنقص الرزق والخوف من العدو كما يدل عليه الكتاب والسنة فأذا فأذا أقيمت الحدود ظهرت طاعة الله ونقصت معصية الله تعالى فحصل الرزق والنصر ولايجوز أن يؤخذ من الزانى أو السارق او الشارب او قاطع الطريق ونحوهم مال تعطل به الحدود لالبيت المال ولا لغيره وهذا المال المأخوذ لتعطيل الحد سحت خبيث وإذا فعل ولى الأمر ذلك فقد جمع فسادين عظيمين احدهما تعطيل الحد و الثانى أكل السحت فترك لواجب وفعل المحرم قال الله تعالى {لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ}المائدة٦٣ وقال الله تعالى عن اليهود{سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ}المائدة٤٢ لأنهم كانوا يأكلون السحت من الرشوة التى تسمى البرطيل وتسمى أحيانا الهدية وغيرها ومتى أكل السحت ولى الأمر احتاج ان يسمع الكذب من شهادة الزور وغيرها وقد لعن رسول الله الراشى والمرتشى والرائش الواسطة الذى بينهما رواه أهل السنن وفى الصحيحين أن رجلين اختصما إلى النبى فقال أحدهما يارسول الله اقض بيننا بكتاب الله فقال صاحبه وكان أفقه منه نعم يارسول الله اقض بيننا بكتاب الله وائذن لى فقال قل فقال إن ابنى كان عسيفا فى أهل هذا يعنى اجيرا فزنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة وخادم وانى سألت رجالا من أهل العلم فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام وان على امرأة هذا الرجم فقال والذى نفسى بيده لأفضين بينكما بكتاب الله المائة والخادم رد عليك وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام واغد يا أنيس على امرأة هذا فاسألها فان اعترفت فارجمها فسألها فاعترفت فرجمها ففى هذا الحديث انه لما بذل عن المذنب هذا المال لدفع الحد عنه أمر النبى بدفع المال إلى صاحبه وامر باقامة الحد ولم ياخذ المال للمسلمين من المجاهدين والفقراء وغيرهم وقد اجمع

المسلمون على ان تعطيل الحد بمال يؤخذ او غيره لايجوز واجمعوا على ان المال المأخوذ من الزانى والسارق والشارب والمحارب وقاطع الطريق ونحو ذلك لتعطيل الحد مال سحت خبيث وكثير مما يوجد من فساد امور الناس إنما هو لتعطيل الحد بمال او جاه وهذا من اكبر الأسباب التى هى فساد أهل البوادى والقرى والأمصار من الأعراب والتركمان والأكراد والفلاحين وأهل الأهواء كقيس ويمن وأهل الحاضرة من رؤساء الناس وأغنيائهم وفقرائهم وامراء الناس ومقدميهم وجندهم وهو سبب سقوط حرمة المتولى وسقوط قدره من القلوب وانحلال أمره فاذا ارتشى وتبرطل على تعطيل حد ضعفت نفسه ان يقيم حد آخر وصار من جنس اليهود الملعونين وأصل البرطيل هو الحجر المستطيل سميت به الرشوة لأنها تلقم المرتشى عن التكلم بالحق كما يلقمه الحجر الطويل كما قد جاء فى الأثر إذا دخلت الرشوة من الباب خرجت الأمانة من الكوة وكذلك إذا أخذا مال للدولة على ذلك مثل هذا السحت الذى يسمى التأديبات ألا ترى ان الأعراب المفسدين أخذوا لبعض الناس ثم جاءوا إلى ولى الأمر فقادوا اليه خيلا يقدمونها له او غير ذلك كيف يقوى طمعهم فى الفساد وتنكسر حرمة الولاية والسلطنة وتفسد الرعية وكذلك الفلاحون وغيرهم وكذلك شارب الخمر اذا اخذ فدفع بعض ماله كيف يطمع الخمارون فيرجون اذا امسكوا ان يفتدوا ببعض اموالهم فيأخذها ذلك الوالى سحتا لايبارك فيها والفساد قائم وكذلك ذوو الجاه اذا حموا احدا ان يقام عليه الحد مثل ان يرتكب بعض الفلاحين جريمة ثم يأوى الى قرية نائب السلطان او اميره فيحمى على الله ورسوله فيكون ذلك الذى حماه ممن لعنه الله ورسوله فقد روى مسلم فى صحيحه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله لعن الله من احدث حدثا او آوى محدثا فكل من آوى محدثا من هؤلاء المحدثين فقد لعنه الله ورسوله واذا كان النبى قد قال إن من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى امره فكيف بمن منع الحدود بقدرته ويده واعتاض عن المجرمين بسحت من المال يأخذه لاسيما الحدود على سكان البر فان من اعظم فسادهم حماية المعتدين منهم بجاه او مال سواء كان المال المأخوذ لبيت المال او للوالى سرا او علانية فذلك جميعه محرم باجماع المسلمين وهو مثل تضمين الحانات والخمر فان من مكن من ذلك او أعان احد عليه بمال يأخذه منه فهو من جنس واحد والمال المأخوذ على هذا يشبه مايؤخذ من مهر البغى وحلوان الكاهن وثمن الكلب وأجرة المتوسط فى الحرام الذى يسمى القواد قال النبى ثمن الكلب خبيث ومهر البغى خبيث وحلوان الكاهن خبيث رواه البخارى فمهر البغى الذى يسمى حدور القحاب وفى معناه مايعطاه المخنثون الصبيان من المماليك او الأحرار على الفجور بهم وحلوان الكاهن مثل حلاوة المنجم

ونحوه على ما يخبر به من الأخبار المبشرة بزعمه ونحو ذلك          وولى الأمر اذا ترك انكار المنكرات وإقامة الحدود عليها بمال يأخذه كان بمنزلة مقدم الحرامية الذى يقاسم المحاربين على الأخيذة وبمنزلة القواد الذى يأخذ ما يأخذه ليجمع بين اثنين على فاحشة وكان حاله شبيها بحال عجوز السوء امرأة لوط التى كانت تدل الفجار على ضيفه التى قال الله تعالى فيها {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} الأعراف٨٣ وقال تعالى {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ} هود٨١ فعذب الله عجوز السوء القوادة بمثل ما عذب قوم السوء الذين كانوا يعملون الخبائث وهذا لأن هذا جميعه اخذ مال للأعانة على الاثم والعدوان وولى الأمر إنما نصب ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهذا هو مقصود الولاية فاذا كان الوالى يمكن من المنكر بمال يأخذه كان قد أتى بضد المقصود مثل من نصبته ليعينك على عدوك فأعان عدوك عليك وبمنزلة من أخذ مالا ليجاهد به فى سبيل الله فقاتل به المسلمين يوضح ذلك ان صلاح العباد بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأن صلاح المعاش والعباد فى طاعة الله ورسوله ولا يتم ذلك الا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس قال الله تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} آل عمران١١٠ وقال تعالى {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} آل عمران١٠٤ وقال تعالى {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} التوبة٧١ وقال تعالى عن بنى اسرائيل {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} المائدة٧٩ وقال تعالى {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} الأعراف١٦٥ فأخبر الله تعالى ان العذاب لما نزل نجى الذين ينهون عن السوء وأخذ الظالمين بالعذاب الشديد وفى الحديث الثابت ان ابا بكر الصديق رضى الله عنه خطب الناس على منبر رسول الله فقال ايها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها فى غير موضعها {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} المائدة١٠٥ وانى سمعت رسول الله يقول إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك ان يعمهم الله بعقاب من عنده وفى حديث آخر ان المعصية اذا خفيت لم تضر الا صاحبها ولكن اذا ظهرت فلم تنكر ضرت العامة وهذا القسم الذى ذكرناه من الحكم فى حدود الله وحقوقه مقصوده الأكبر هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فالأمر بالمعروف مثل الصلاة والزكاة والصيام والحج والصدق والأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام وحسن العشرة مع الأهل والجيران

ونحو ذلك فالواجب على ولى الأمر أن يأمر بالصلوات المكتوبات جميع من يقدر على أمره ويعاقب التارك باجماع المسلمين فان كان التاركون طائفة ممتنعة قوتلوا على تركها باجماع المسلمين وكذلك يقاتلون على ترك الزكاة والصيام وغيرهما وعلى استحلال المحرمات الظاهرة المجمع عليها كنكاح ذوات المحارم والفساد فى الأرض ونحو ذلك فكل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الاسلام الظاهرة المتواترة يجب جهادها حتى يكون الدين كله لله باتفاق العلماء وإن كان التارك للصلاة واحدا فقد قيل إنه يعاقب بالضرب والحبس حتى يصلى وجمهور العلماء على انه يجب قتله إذا امتنع من الصلاة بعد أن يستتاب فان تاب وصلى والا قتل وهل يقتل كافرا او مسلما فاسقا فيه قولان واكثر السلف على انه يقتل كافرا وهذا كله مع الاقرار بوجوبها اما اذا جحد وجوبها فهو كافر باجماع المسلمين وكذلك من جحد سائر الواجبات المذكورات والمحرمات التى يجب القتال عليها فالعقوبة على ترك الواجبات وفعل المحرمات هى مقصود الجهاد فى سبيل الله وهو واجب على الأمة بالاتفاق كما دل عليه الكتاب والسنة وهو من افضل الأعمال قال رجل يارسول الله دلنى على عمل يعدل الجهاد فى سبيل الله قال لاتستطيعه او لا تطيقه قال أخبرنى به قال هل تستطيع اذا خرج المجاهد ان تصوم ولا تفطر وتقوم ولا تفتر قال ومن يستطيع ذلك قال فذلك الذى يعدل الجهاد فى سبيل الله وقال إن فى الجنة لمئة درجة بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين فى سبيله كلاهما فى الصحيحين وقال النبى رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله وقال الله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}الحجرات١٥ وقال تعالى {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {١٩} الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{٢٠} يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ{٢١} خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ{٢٢}التوبة١٩-٢٢ [١]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٤٥-٣٠٩

فاذا اختصم رجلان بقول أو فعل وجب ان يقام فى امرهما بالقسط قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ}النساء١٣٥ وقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ}المائدة٨ وقال {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ}الحجرات٩ الآية وقد روى ان اقتتالهما كان بالجريد والنعال وقد قال تعالى {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ}النساء١١٤ الآية وقال {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء٥٨ وقال {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}الشورى٤٠ وقال {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ}النحل١٢٦ الآية فإن كان الشخصان قد اختصما نظر أمرهما فان تبين ظلم أحدهما كان المظلوم بالخيار بين الاستيفاء والعفو والعفو أفضل فان كان ظلمه بضرب أو لطم فله أن يضربه أو يلطمه كما فعل به عند جماهير السلف وكثير من الأئمة وبذلك جاءت السنة وقد قيل انه يؤدب ولا قصاص فى ذلك وان كان قد سبه فله أن يسبه مثل ما سبه إذا لم يكن فيه عدوان على حق محض لله أو على غير الظالم فاذا لعنه او سماه باسم كلب ونحوه فله أن يقول له مثل ذلك فاذا لعن اباه لم يكن له أن يلعن اباه لأنه لم يظلمه وان افترى عليه كذبا لم يكن له ان يفترى عليه كذبا لأن الكذب حرام لحق الله كما قال كثير من العلماء فى القصاص فى البدن أنه اذا جرحه أو خنقه أو ضربه ونحو ذلك يفعل به كما فعل فهذا أصح قولى العلماء الا ان يكون الفعل محرما لحق الله كفعل الفاحشة أو تجريعه الخمر فقد نهى عن مثل هذا أكثرهم وان كان بعضهم سوغه بنظير ذلك واذا اعترف الظالم بظلمه وطلب من المظلوم ان يعفو عنه ويستغفر الله له فهذا حسن مشروع كما ثبت فى الصحيح عن أبى الدرداء انه كان بين أبى بكر وعمر كلام وان أبا بكر طلب من عمر ان يستغفر له فأبى عمر ثم ندم فطلب أبا بكر فوجده قد سبقه إلى النبى وذكر له ذلك فقال النبى يغفر الله لك يا أبا بكر ثم قال ايها الناس انى قد جئت إليكم فقلت انى رسول الله فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت فهل انتم تاركوا لى صاحبى واذا طلب من المظلوم العفو بعد اعتراف الظالم فأجاب كان من المحسنين الذين اجرهم على الله وان أبى الا طلب حقه لم يكن ظالما لكن يكون قد ترك الأفضل الأحسن فليس لأحد ان يخرجه عن أهل الطريق بمجرد ذلك كما قد يفعله كثير من الناس قال الله تعالى {وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ{٤١} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى

الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ{٤٢} وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ{٤٣}الشورى ٤١-٤٣ فانه لو كان من ترك الاحسان الذى لا يجب عليه يحسب خارجا عن الطريق خرج عنه جمهور أهله و أولياء الله على صنفين مقربين سابقين وأصحاب يمين مقتصدين كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى قال يقول الله تعالى من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه ثم أكثر هؤلاء الذين يذمون تارك العفو إنما يذمونه لأهوائهم لكون الظالم صديق أحدهم أو وريثه أو قرينه ونحو ذلك والله سبحانه أوجب على عباده العدل فى الصلح كما أوجبه فى الحكم فقال تعالى {فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}الحجرات٩ وقيد الاصلاح الذى يثيب عليه بالاخلاص فقال تعالى {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}النساء١١٤ اذ كثير من الناس يقصدون الاصلاح إما لسمعة وإما لرياء ومن العدل أن يمكن المظلوم من الانتصاف ثم بعد ذلك الشفاعة إلى المظلوم فى العفو ويصالحه الظالم وترغيبه فى ذلك فان الله تعالى إذا ذكر فى القرآن حقوق العباد التى فيها وزر الظالم ندب فيها إلى العفو كقوله سبحانه {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ}المائدة٤٥ وقوله {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}الشورى٤٠ وعن أنس قال ما رفع إلى رسول الله صلى عليه وسلم شىء فى القصاص الا أمر فيه بالعفو وليس من شرط طلب العفو من المظلوم ان الظالم يقوم على قدميه ولا يضع نعليه على رأسه ونحو ذلك مما قد يلتزمه بعض الناس وإنما شرطه التمكين من نفسه حتى يستوفى منه الحق فاذا أمكن المظلوم من استيفاء حقه فقد فعل ما وجب عليه ثم المستحق بالخيار ان شاء عفى وان شاء استوفى وللمظلوم أن يهجره ثلاثا وأما بعد الثلاث فليس له أن يهجره على ظلمه إياه لقوله صلى الله عليه وسلم لا يحل لمسلم ان يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام واما إذا كان الذنب لحق الله كالكذب والفواحش والبدع المخالفة للكتاب والسنة أو اضاعة الصلاة بالتفريط وواجباتها ونحو ذلك فهذا لابد فيه من التوبة وهل يشترط مع التوبة اظهار الاصلاح فى العمل على قولين للعلماء وإذا كان

لهم شيخ مطاع فان له ان يعزر العاصى بحسب ذنبه تعزيرا يليق بمثله أن يفعله بمثله مثل هجره مدة كما هجر النبى صلى الله عليه وسلم الثلاثة المخلفين وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون يسوسون الناس فى دينهم ودنياهم ثم بعد ذلك تفرقت الأمور فصار امراء الحرب يسوسون الناس فى أمر الدنيا والدين الظاهر وشيوخ العلم والدين يسوسون الناس فيما يرجع اليهم فيه من العلم والدين وهؤلاء أولوا أمر تجب طاعتهم فيما يأمرون به من طاعة الله التى هم أولوا أمرها وهو كذلك فسر أولوا الأمر فى قوله {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ بأمراء الحرب من الملوك ونوابهم وبأهل العلم والدين الذين يعلمون الناس دينهم ويأمرونهم بطاعة الله فان قوام الدين بالكتاب والحديد كما قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}الحديد٢٥ وإذا كان ولاة الحرب عاجزين ومفرطين عن تقويم المنتسبين إلى الطريق كان تقويمهم على رؤسائهم وكان لهم من تعزيزهم وتأديبهم ما يتمكنون منه إذا لم يقم به غيرهم كما قال النبى صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وهو اضعف الايمان وقد يكون تعزيره بنفيه عن وطنه مدة كما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينفى من شرب الخمر وكما نفى نصر بن حجاج إلى البصرة لخوف فتنة النساء به وقد مضت سنة رسول الله بالنفى فى الزنا ونفى المخنث [1]

"اول ما تفقدون من دينكم الامانه واخر ما تفقدون من دينكم الصلاة"

والدين القائم بالقلب من الايمان علما وحالا هو الاصل والاعمال الظاهرة هي الفروع وهي كمال الايمان فالدين اول ما يبنى من اصوله ويكمل بفروعه كما انزل الله بمكة اصوله من التوحيد والامثال التى هي المقاييس العقلية والقصص والوعد والوعيد ثم انزل بالمدينة لما صار له قوة فروعه الظاهرة من الجمعه والجماعة والاذن والاقامة والجهاد والصيام وتحريم الخمر والزنا والميسر وغير ذلك من واجباته ومحرماته فأصوله تمد فروعة وتثبتها وفروعه تكمل اصوله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص:٥٤٦- ٥٥٢

وتحفظها فاذا وقع فيه نقص ظاهر فانما يقع ابتداء من جهة فروعة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم اول ما تفقدون من دينكم الامانه واخر ما تفقدون من دينكم الصلاة وروى عنه انه قال اول ما يرفع الحكم بالامانه والحكم وهو عمل الامراء وولاة الامور كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ وأما الصلاة فهي اول فرض وهي من اصول الدين والايمان مقرونة بالشهادتين فلا تذهب فى الاخر كما قال بدا الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء [١]

## الله سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له

فان الله تعالى سمى نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات سمى نفسه حيا عليما حكيما قديرا سميعا بصيرا غفورا رحيما الى سائر أسمائه الحسنى قال الله تعالى {إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء٥٨ وامثال ذلك فالقول فى بعض هذه الصفات كالقول فى بعض ومذهب سلف الأمة وأئمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فلا يجوز نفى صفات الله تعالى التى وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}الشورى١١ ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله وقال نعيم بن حماد الخزاعى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها ومذهب السلف بين مذهبين وهدى بين ضلالتين اثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات فقوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}الشورى١١ رد على أهل التشبيه والتمثيل وقوله {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}الشورى١١ رد على أهل النفى والتعطيل فالممثل اعشى والمعطل أعمى الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما وقد اتفق جميع اهل الاثبات على ان الله حى حقيقة عليم حقيقة قدير حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة مريد حقيقة متكلم حقيقة حتى المعتزلة النفاة للصفات قالوا ان الله متكلم حقيقة كما قالوا مع سائر المسلمين ان الله عليم حقيقة قدير حقيقة بل ذهب طائفة منهم كأبى العباس الناشى الى أن هذه الاسماء حقيقة لله مجاز للخلق

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣٥٥-٣٥٦

واما جمهور المعتزلة مع المتكلمة الصفاتية من الاشعرية الكلابية والكرامية والسالمية واتباع الائمة الاربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وأهل الحديث والصوفية فانهم يقولون ان هذه الاسماء حقيقة للخالق سبحانه وتعالى وان كانت تطلق على خلقه حقيقة أيضا ويقولون ان له علما حقيقة وقدرة حقيقة وسمعا حقيقة وبصرا حقيقة [1]

ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{١٨٠} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{١٨١} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{١٨٢} الصافات١٨٠-١٨٢ فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن و قوله سبحانه {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً} النساء٥٨ [2]

وللناس في إثبات كونه سميعا بصيرا طرق أحدها السمع كما ذكره وهو ما في الكتاب والسنة من وصفه بأنه سميع بصير ولا يجوز أن يراد بذلك مجرد العلم بما يسمع ويرى لأن الله فرق بين العلم وبين السمع والبصر وفرق بين السمع والبصر وهو لا يفرق بين علم وعلم لتنوع

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٩٧

[2] العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ٩ و مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٣٢

المعلومات _وفي السنن عن النبي  صلى الله عليه وسلم أنه قرأ على المنبر{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء٥٨  ووضع إبهامه على أذنه وسبابته على عينه ولا ريب أن مقصوده بذلك تحقيق الصفة لا تمثيل الخالق بالمخلوق فلو كان السمع والبصر العلم لم يصح ذلك [١]

سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأ سماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مسماهما عند الاضافة والتخصيص    فقد سمى الله نفسه حيا فقال   {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}البقرة٢٥٥    وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}الروم١٩وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به   وقوله{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}الروم١٩   اسم للحى المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطق مسمى موجود فى الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق    ولا بد من هذا فى جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق فى شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمى الله نفسه  سميعا بصيرا فقال  {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء٥٨  وسمى بعض عباده سميعا بصيرا فقال   {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً}الإنسان٢   وليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير [٢]

---

[١] العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ١٠٣

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١١

## "من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجل وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله"

قال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء٥٨ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة وتسلم مفاتيح الكعبة من بني شيبة طلبها منه العباس ليجمع له بين سقاية الحاج وسدانة البيت فأنزل الله هذه الاية بدفع مفاتيح الكعبة إلى بني شيبة فيجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل قال النبي صلى الله عليه وسلم من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجل وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله وفي رواية من قلد رجلا عملا على عصابة وهو يجد في تلك العصابة أرضى منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين رواه الحاكم في صحيحه وروى بعضهم أنه من قول عمر لابن عمر روى ذلك عنه وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين وهذا واجب عليه فيجب عليه البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار من الأمراء الذين هم نواب ذي السلطا والقضاة ومن أمراء الاجناد ومقدمي العساكر الصغار والكبار وولاة الأموال من الوزراء والكتاب والشادين والسعاة على الخراج والصدقات وغير ذلك من الأموال التي للمسلمين وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده وينتهي ذلك إلى أئمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين وأمير الحاج والبرد والعيون الذين هم القصاد وخزان الأموال وحراس الحصون والحدادين الذين هم البوابون على الحصون والمدائن ونقباء العساكر الكبار والصغار وعرفاء القبائل والأسواق ورؤساء القرى الذي هم الدهاقين فيجب على كل من ولي شيئا من أمر المسلمين من هؤلاء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو سبق في الطلب بل ذلك سبب المنع فإن في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أن قوما دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال إنا لا نولي أمرنا هذا من طلبه وقال لعبد الرحمن بن سمرة يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت اليها أخرجاه في الصحيحين وقال صلى الله عليه وسلم من طلب القضاء واستعان عليه وكل إليه ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله اليه ملكا يسدده رواه أهل السنن فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لأجل قرابة بينهما أو ولاء عتاقة أو صداقة أو موافقة

في بلد أو مذهب أو طريقة او جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية أو لرشوة يأخذها منه من مال او منفعة أو غير ذلك من الأسباب أو لضغن في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهي عنه في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}الأنفال٢٧ [١]

## أرباب السياسة الكاملة

أن الصالحين أرباب السياسة الكاملة هم الذين قاموا بالواجبات وتركوا المحرمات وهم الذين يعطون ما يصلح الدين بعطائه ولا يأخذون إلا ما أبيح لهم ويغضبون لربهم إذا انتهكت محارمه ويعفون عن حظوظهم وهذه أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم في بذله ودفعه وهي اكمل الأمور وكلما كان إليها أقرب كان أفضل فليجتهد المسلم في التقرب إليها بجهد ويستغفر الله بعد ذلك من قصوره أو تقصيره بعد أن يعرف كمال ما بعث الله تعالى به محمدا صلى الله عليه وسلم من الدين فهذا في قول الله سبحانه وتعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}النساء٥٨ [٢]

## إن الحكم بين الناس يكون في الحدود والحقوق

وأما قوله تعالى{وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ فإن الحكم بين الناس يكون في الحدود والحقوق وهما قسمان فالقسم الأول الحدود والحقوق التي ليست لقوم معينين بل منفعتها لمطلق المسلمين أو نوع منهم وكلهم محتاج إليها وتسمى حدود الله وحقوق الله مثل حد قطاع الطريق والسراق والزناة ونحوهم ومثل الحكم في الأمور السلطانية والوقوف والوصايا التي ليست لمعين فهذه من أهم أمور

---

[١] السياسة الشرعية ج: ١ ص: ٩-١١

[٢] السياسة الشرعية ج: ١ ص: ٥٣

الولايات ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لا بد للناس من إمارة برة كانت او فاجرة فقيل يا امير المؤمنين هذه البرة قد عرفناها فما بال الفاجرة فقال تقام بها الحدود وتأمن بها السبل ويجاهد بها العدو ويقسم بها الفيء وهذا القسم يجب على الولاة البحث عنه وإقامته من غير دعوى أحد به وكذلك تقام الشهادة فيه من غير دعوى أحد به وإن كان الفقهاء قد اختلفوا في قطع يد السارق هل يفتقر إلى مطالبة المسروق بماله على قولين في مذهب أحمد وغيره لكنهم يتفقون على انه لا يحتاج إلى مطالبة المسروق وقد اشترط بعضهم المطالبة بالمال لئلا يكون للسارق فيه شبهة وهذا القسم يجب إقامته على الشريف والوضيع والضعيف ولا يحل تعطيله لا بشفاعة ولا بهدية ولا بغيرهما ولا تحل الشفاعة فيه ومن عطله لذلك وهو قادر على إقامته فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا وهو ممن اشترى بآيات الله ثمنا قليلا روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضار الله في أمره ومن خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع ومن قال في مسلم دين ما ليس فيه حبس في ردعة الخبال حتى يخرج مما قال قيل يا رسول الله وما ردعة الخبال قال عصارة أهل النار فذكر النبي صلى الله عليه وسلم الحكام والشهداء والخصماء وهؤلاء أركان الحكم وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد فقال يا اسامة أتشفع في حد من حدود الله إنما هلك بنو إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ففي هذه القصة عبرة فإن أشرف بيت كان في قريش بطنان بنو مخزوم وبنو عبد مناف فلما وجب على هذه القطع بسرقتها التي هي جحود العارية على قول بعض العلماء أو سرقة أخرى غير هذه على قول آخرين وكانت من أكبر القبائل وأشرف البيوت وشفع فيها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكر عليه دخوله فيما حرمه الله وهو الشفاعة في الحدود ثم ضرب المثل بسيدة نساء العالمين وقد برأها الله من ذلك فقال لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها وقد روي أن المرأة التي قطعت يدها تابت وكانت تدخل بعد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فيقضي حاجتها فقد روي أن السارق إذا تاب سبقته يده إلى الجنة وإن لم يتب سبقته يده إلى النار وروى مالك في الموطأ أن جماعة أمسكوا لصا ليرفعوه إلى عثمان رضي الله عنه فتلقاهم الزبير فشفع فيه فقالوا إذا رفع إلى عثمان فاشفع فيه عنده فقال إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله

الشافع والمشفع يعني الذي يقبل الشفاعة وكان صفوان بن أمية نائما على رداء له في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء لص فسرقه فأخذه فاتى به النبي صلى الله عليه وسلم فأمر بقطع يده فقال يا رسول الله أعلى ردائي تقطع يده أنا أهبه له فقال فهلا قبل أن تأتيني به ثم قطع يده رواه أهل السنن يعني صلى الله عليه وسلم أنك لو عفوت عنه قبل أن تأتيني به به لكان فاما بعد أن رفع إلي فلا يجوز تعطيل الحد لا بعفو ولا بشفاعة ولا بهبة ولا غير ذلك ولهذا اتفق العلماء فيما أعلم على ان قاطع الطريق واللص ونحوهما إذا رفعوا إلى ولي الأمر ثم تابوا بعد ذلك لم يسقط الحد عنهم بل تجب إقامته وإن تابوا فإن كانوا صادقين في التوبة كان الحد كفارة لهم وكان تمكينهم وذلك من تمام التوبة بمنزلة رد الحقوق إلى أهلها والتمكين من استيفاء القصاص في حقوق الآدميين [1]

## كل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل

والعدل مما اتفق أهل الأرض على مدحه ومحبته والثناء على أهله ومحبتهم والظلم مما اتفقوا على بغضه وذمه وتقبيحه وذم أهله وبغضهم وليس المقصود الكلام في التحسين والتقبيح العقلي فقد تكلمنا عليه في غير هذا الموضوع في مصنف مفرد ولكن المقصود أن العدل محمود محبوب باتفاق أهل الأرض وهو محبوب في النفوس مركوز حبه في القلوب تحبه القلوب وتحمده وهو من المعروف الذي تعرفه القلوب والظلم من المنكر الذي تنكره القلوب فتبغضه وتذمه والله تعالى أرسل الرسل ليقوم الناس بالقسط قال الله تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}الحديد٢٥ وقال تعالى {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ}الشورى١٧وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ وقال {فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}المائدة٤٢ وقال {فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ}المائدة٤٨ فأمره أن يحكم بالقسط وأن يحكم بما أنزل

---

[1] السياسة الشرعية ج: ١ ص: ٥٥-٥٨

الله فدل ذلك على أن القسط هو ما أنزل الله فما أنزل الله هو القسط والقسط هو ما أنزل الله ولهذا وجب على كل من حكم بين أثنين أن يحكم بالعدل لقوله تعالى {وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ فليس لحاكم أن يحكم بظلم أبدا والشرع الذي يجب على حكام المسلمين الحكم به عدل كله ليس في الشرع ظلم أصلا بل حكم الله أحسن الأحكام والشرع هو ما أنزل الله فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل لكن العدل قد يتنوع بتنوع الشرائع والمناهج فيكون العدل في كل شرعة بحسبها ولهذا قال تعالى {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{٤٢} وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ{٤٣} إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ{٤٤} المائدة ٤٢- ٤٤ إلى قوله {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{٤٧} وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{٤٨} وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ{٤٩} أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ{٥٠}المائدة ٤٧- ٥٠ ذكر سبحانه حكم التوراة والإنجيل ثم ذكر أنه أنزل القرآن وأمر نبيه أن يحكم بينهم بالقرآن ولا يتبع أهواءهم عما جاءه من الكتاب وأخبر أنه جعل لكل واحد من الأنبياء شرعة ومنهاجا فجعل لموسى وعيسى ما في التوراة والإنجيل من الشرعة والمنهاج وجعل للنبي صلى الله عليه وسلم ما في القرآن من الشرعة والمنهاج وأمره أن يحكم بما أنزل الله وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله وأخبره أن ذلك هو حكم الله ومن ابتغى غيره فقد ابتغى حكم الجاهلية وقال {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}المائدة٤٤ ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر فإنه من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله سبحانه وتعالى كسوالف البادية وكأوامر المطاعين فيهم ويرون أن هذا هو الذي

ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة وهذا هو الكفر فإن كثيرا من الناس أسلموا ولكن مع هذا لا يحكمون إلا بالعادات الجارية لهم التي يأمر بها المطاعون فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز الحكم إلا بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار وإلا كانوا جهالا كمن تقدم أمرهم وقد أمر الله المسلمين كلهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ وقال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} النساء٦٥ فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن وأما من كان ملتزما لحكم الله ورسوله باطنا وظاهرا لكن عصى واتبع هواه فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة وهذه الآية مما يحتج بها الخوارج على تكفير ولاة الأمر الذين لا يحكمون بما أنزل الله ثم يزعمون أن اعتقادهم هو حكم الله وقد تكلم الناس بما يطول ذكره هنا وما ذكرته يدل عليه سياق الآية والمقصود أن الحكم بالعدل واجب مطلقا في كل زمان ومكان على كل أحد ولكل أحد والحكم بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم هو عدل خاص وهو أكمل أنواع العدل وأحسنها والحكم به واجب على النبي صلى الله عليه وسلم وكل من اتبعه ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر وهذا واجب على الأمة في كل ما تنازعت فيه من الأمور الإعتقادية والعملية قال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ} البقرة٢١٣ وقال تعالى {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} الشورى١٠ وقال {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ} النساء٥٩ فالأمور المشتركة بين الأمة لا يحكم فيها إلا الكتاب والسنة ليس لأحد أن يلزم الناس بقول عالم ولا أمير ولا شيخ ولا ملك ومن اعتقد أنه يحكم بين الناس بشيء من ذلك ولا يحكم بينهم بالكتاب والسنة فهو كافر وحكام المسلمين يحكمون في الأمور المعينة لا يحكمون في الأمور الكلية وإذا حكموا في المعينات فعليهم أن يحكموا بما في كتاب الله فإن لم يكن فبما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن لم يجدوا اجتهد الحاكم برأيه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة فمن علم الحق وقضى به فهو في الجنة ومن علم الحق وقضى بخلافة فهو في النار ومن قضى للناس على جهل فهو في النار وإذا حكم بعلم

وعدل فإذا اجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر كما ثبت ذلك في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجهين [1]

## علق الحكم بالوصف

قال تعالى {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ}الطلاق٢ لم يقل من علمتم انهم ذوو عدل منكم وكما قال {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}النساء٥٨ لم يقل إلى من علمتم انهم أهلها وكما قال {وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ لم يقل بما علمتم انه عدل لكن علق الحكم بالوصف ونحن علينا الاجتهاد بحسب الإمكان في معرفة الصدق والعدالة وأهل الأمانة والعدل ولسنا مكلفين في ذلك بعلم الغيب كما أن النبي صلى الله عليه وسلم المأمور أن يحكم بالعدل قال إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ان يكون الحن بحجته من بعض و إنما اقضي بنحو مما اسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما اقطع له من النار [2]

## القرآن يوجب الأمر باتباع الحكمة

قد أمرنا الله تعالى بإتباع ما أنزل إلينا من ربنا وبإتباع ما يأتى منه من الهدى وقد أنزل علينا الكتاب والحكمة كما قال تعالى {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ}البقرة٢٣١ والحكمة من الهدى قال تعالى {وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}النور٥٤ والأمر باتباع الكتاب والقرآن يوجب الأمر باتباع الحكمة التى بعث بها الرسول وباتباعه وطاعته مطلقا وقال تعالى واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة وقال تعالى {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}البقرة١٢٩ وقال تعالى {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٢٧-١٣٣

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٢٧١

رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ}البقرة١٥١ وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ}آل عمران١٦٤ وقال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٢} وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٣}الجمعة٢-٣ وقد أمر بطاعة الرسول في نحو أربعين موضعا كقوله تعالى {قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}آل عمران٣٢ وقوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً{٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥} النساء٦٤-٦٥ وقوله تعالى {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً{٢٧} يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً{٢٨} لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً{٢٩}الفرقان٢٧-٢٩ فهذه النصوص توجب اتباع الرسول وإن لم نجد ما قاله منصوصا بعينه فى الكتاب كما أن تلك الآيات توجب اتباع الكتاب وان لم نجد ما فى الكتاب منصوصا بعينه فى حديث عن الرسول غير الكتاب فعلينا ان نتبع الكتاب وعلينا أن نتبع الرسول واتباع أحدهما هو اتباع الآخر فإن الرسول بلغ الكتاب والكتاب أمر بطاعة الرسول ولا يختلف الكتاب والرسول ألبتة كما لا يخالف الكتاب بعضه بعضا قال تعالى {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ والأحاديث كثيرة عن النبى فى وجوب اتباع الكتاب وفى وجوب اتباع سنته كقوله لا الفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من امري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم هذا القرآن فما وجدنا فيه من حلال حللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه آلا واني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا وانه مثل القرآن أو أعظم هذا الحديث فى السنن والمسانيد مأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم من عدة جهات من حديث أبي ثعلبة وأبى رافع وأبي هريرة وغيرهم وفى صحيح مسلم عنه من حديث جابر أنه قال فى خطبة الوداع وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده كتاب الله تعالى وسنة نبيه وفى الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قيل له هل أوصى رسول الله قال لا قيل فكيف كتبه على الناس الوصية قال أوصى بكتاب الله وسنة رسول الله تفسر القرآن كما فسرت أعداد الصلوات وقدر القراءة فيها والجهر والمخافتة وكما فسرت فرائض الزكاة ونصبها وكما فسرت المناسك وقدر الطواف بالبيت والسعي ورمي الجمار ونحو ذلك

وهذه السنة إذا ثبتت فإن المسلمين كلهم متفقون على وجوب اتباعها وقد يكون من سنته ما يظن أنه مخالف لظاهر القرآن وزيادة عليه كالسنة المفسرة لنصاب السرقة والموجبة لرجم الزاني المحصن فهذه السنة أيضا مما يجب اتباعه عند الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر طوائف المسلمين إلا من نازع فى ذلك من الخوارج المارقين الذين قال فيهم النبى يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرأون القرآن لايجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجرا عند الله لمن قاتلهم يوم القيامة وقد استفاضت الأحاديث الصحيحة فى وصفهم وذمهم والأمر بقتالهم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أحمد بن حنبل صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه وقد روى مسلم في صحيحه حديثهم من عشرة أوجه كأنها هي التى أشار إليها احمد بن حنبل فإن مسلما أخذ عن أحمد وقد روى البخاري حديثهم من عدة أوجه وهؤلاء أولهم قال للنبى يا محمد اعدل فانك لم تعدل فمن جوز عليه أن يظلمه فلا يعدل كمن يوجب طاعته فيما ظلم فيه لكنهم يوجبون اتباع مابلغه عن الله وهذا من جهلهم وتناقضهم ولهذا قال النبى ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل وقال لقد خبت وخسرت إن لم أعدل أي إن اتبعت من هو غير عادل فأنت خائب خاسر وقال أيأمنني من في السماء ولا تأمنوني يقول إذا كان الله قد ائتمننى على تبليغ كلامه أفلا تأمنوني على أن أؤدي الأمانة إلى الله قال تعالى {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ} آل عمران١٦١ وفى الجملة فالقرآن يوجب طاعته فى حكمه وفي قسمه ويذم من يعدل عنه فى هذا أو هذا كما قال تعالى فى حكمه {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} النساء٦٥ وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{٦٢} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{٦٣} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً{٦٤} النساء٦٠-٦٤ وقال فى قسمه للصدقات والفىء قال فى الصدقات {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ {٥٨} وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ

رَاغِبُونَ{٥٩}التوبة٥٨-٥٩ وقال فى الفيء {مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ {٧} لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ {٨}الحشر٧-٨ الآيات الثلاث فالطاعن فى شيء من حكمه أو قسمه كالخوارج طاعن في كتاب الله مخالف لسنة رسول الله مفارق لجماعة المسلمين وكان شيطان الخوارج مقموعا لما كان المسلمون مجتمعين في عهد الخلفاء الثلاثة أبى بكر وعمر وعثمان فلما إفترقت الأمة فى خلافة علي رضي الله عنه وجد شيطان الخوارج موضع الخروج فخرجوا وكفروا عليا ومعاوية ومن والاهما فقاتلهم أولى الطائفتين بالحق علي بن أبى طالب كما ثبت فى الصحيح عن النبى أنه قال تمرق مارقة على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحق ولهذا لما ناظرهم من ناظرهم كابن عباس وعمر بن عبد العزيز وغيرهما بينوا لهم بطلان قولهم بالكتاب والميزان كما بين لهم ابن عباس حيث أنكروا على علي بن أبي طالب قتاله لأهل الجمل ونهيه عن اتباع مدبرهم والاجهاز على جريحهم وغنيمة أموالهم وذراريهم وكانت حجة الخوارج أنه ليس فى كتاب الله الا مؤمن أو كافر فإن كانوا مؤمنين لم يحل قتالهم وإن كانوا كفارا أبيحت دماؤهم وأموالهم وذراريهم فأجابهم ابن عباس بأن القرآن يدل على أن عائشة أم المؤمنين وبين أن أمهات المؤمنين حرام فمن أنكر أمومتها فقد خالف كتاب الله ومن استحل فرج أمه فقد خالف كتاب الله وموضع غلطهم ظنهم ان من كان مؤمنا لم يبح قتاله بحال وهذا مما ضل به من ضل من الشيعة حيث ظنوا أن من قاتل عليا كافر فإن هذا خلاف القرآن قال تعالى {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ {٩} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ {١٠} الحجرات٩ -١٠ فأخبر سبحانه أنهم مؤمنون مقتتلون وأمر إن بغت احداهما على الأخرى ان تقاتل التى تبغى فانه لم يكن امر بقتال أحدهما ابتداء ثم أمر إذا فاءت إحداهما بالاصلاح بينهما بالعدل وقال {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} الحجرات١٠ فدل القرآن على إيمانهم واخوتهم مع وجود الأقتتال والبغي وأنه يأمر بقتال الباغية حيث أمر الله به وكذلك عمر بن عبدالعزيز لما ناظرهم وأقروا بوجوب الرجوع الى ما نقله الصحابة عن الرسول من فرائض الصلاة بين لهم عمر أنه كذلك يجب الرجوع الى ما نقلوه عنه من فريضة الرجم ونصاب الزكاة وان الفرق بينهما فرق بين المتماثلين فرجعوا الى ذلك وكذلك ابن عباس ناظرهم لما أنكروا تحكيم الرجال بأن الله قال فى الزوجين إذا خيف

شقاق بينهما أن يبعث حكما من أهله وحكما من أهلها وقال {إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا} النساء٣٥ وأمر ايضا أن يحكم في الصيد يجزاء {مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ} المائدة ٩٥ فمن أنكر التحكيم مطلقا فقد خالف كتاب الله تعالى وذكر إبن عباس ان التحكيم في أمر أميرين لأجل دماء الأمة أولى من التحكيم في أمر الزوجين والتحكيم لأجل دم الصيد وهذا استدلال من إبن عباس بالاعتبار وقياس الأولى وهو من الميزان فاستدل عليهم بالكتاب والميزان قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ أمر سبحانه بطاعته وطاعه رسوله وأولي الأمر منا وأمر إن تنازعنا فى شيء أن نرده الى الله والرسول فدل هذا على ان كل ما تنازع المؤمنون فيه من شيء فعليهم ان يردوه الى الله والرسول والمعلق بالشرط يعدم عند عدم الشرط فدل ذلك على أنهم اذا لم يتنازعوا لم يكن هذا الأمر ثابتا وكذلك إنما يكون لأنهم إذا لم يتنازعوا كانوا على هدى وطاعة لله ورسوله فلا يحتاجوا حينئذ ان يأمروا بما هم فاعلون من طاعة الله والرسول ودل ذلك على أنهم إذا لم يتنازعوا بل اجتمعوا فانهم لايجتمعون على ضلالة ولو كانوا قد يجتمعون على ضلالة لكانوا حينئذ أولى بوجوب الرد الى الله والرسول منهم اذا تنازعوا فقد يكون احد الفريقين مطيعا لله والرسول فإذا كانوا مأمورين في هذا الحال بالرد الى الله والرسول ليرجع الى ذلك فريق منهم خرج عن ذلك فلأن يؤمروا بذلك إذا قدر خروجهم كلهم عنه بطريق الأولى والأحرى أيضا فقد قال لهم {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا} آل عمران١٠٣ فلما نهاهم عن التفرق مطلقا دل ذلك على أنهم لايجتمعون على باطل إذ لو اجتمعوا على باطل لوجب اتباع الحق المتضمن لتفرقهم وبين أنه ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا كما قال {هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ{٦٢} وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ {٦٣} الانفال ٦٢-٦٣ فإذا كانت قلوبهم متألفة غير مختلفة على أمر من الأمور كان ذلك من تمام نعمة الله عليهم ومما من به عليهم فلم يكن ذلك اجتماعا على باطل لأن الله تعالى أعلم بجميع الأمور [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٨٣-٩٢

# "من يطع الله ورسوله فقد رشد "

وقال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ وقد أوجب السعادة لمن أطاعه بقوله {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ وعلق السعادة والشقاوة بطاعته ومعصيته في قوله {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤} النساء١٣ ـ١٤ وكان صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئا وجميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وتقواه وخشيته وإلى طاعتهم كما قال نوح عليه السلام {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ}نوح٣ وقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}النور٥٢ وقال كل من نوح والنبيين {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}الشعراء١٣١ وطاعة الرسول فيما أمرنا به هو الأصل الذي على كل مسلم أن يعتمده وهو سبب السعادة كما أن ترك ذلك سبب الشقاوة وطاعته في أمره أولى بنا من موافقته في فعل لم يأمرنا بموافقته فيه باتفاق المسلمين ولم يتنازع العلماء أن أمره أوكد من فعله فإن فعله قد يكون مختصا به وقد يكون مستحبا وأما أمره لنا فهو من دين الله الذي أمرنا به ومن أفعاله ما قد علم أنه أمرنا أن نفعل مثله كقوله صلوا كما رأيتموني أصلي وقوله لما صلى بهم على المنبر إنما فعلت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي وقوله لما حج خذوا عني مناسككم وأيضا فقد ثبت بالكتاب والسنة أن ما فعله على وجه العادة فهو مباح لنا إلا أن يقوم دليل على اختصاصه به كما قال سبحانه وتعالى{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً}الأحزاب٣٧ فأباح له أن يتزوج امرأة دعيه ليرفع الحرج عن المؤمنين في أزواج أدعيائهم فعلم أن ما فعله كان لنا مباحا أن نفعله ولما خصه ببعض الأحكام قال {وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}الأحزاب٥٠ فلما أحل له أن ينكح الموهوبة بين أن ذلك خالص له من دون المؤمنين فليس لأحد أن ينكح امرأة بلا مهر غيره صلى الله عليه وسلم وفي صحيح مسلم أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيقبل الصائم فقال له سل هذه لأم سلمة فأخبرتهم أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فقال يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال له أما و الله إنني لأتقاكم لله وأخشاكم له فلما أجابه صلى الله عليه وسلم بفعله دل ذلك على أنه يباح للأمة ما أبيح له ولهذا كان جمهور علماء الأمة على أن الله إذا أمره بأمر أو نهاه عن شيء كانت أمته أسوة له في ذلك ما لم يقم دليل على اختصاصه بذلك فمن خصائصه ما كان من خصائص نبوته ورسالته فهذا ليس لأحد أن يقتدي به فيه فإنه لا نبي بعده وهذا مثل كونه يطاع في كل ما يأمر به وينهى عنه وإن لم يعلم جهة أمره حتى يقتل كل من أمر بقتله وليس هذا لأحد بعده فولاة الأمور من العلماء والأمراء يطاعون إذا لم يأمروا بخلاف أمره ولهذا جعل الله طاعتهم في ضمن طاعته قال الله تعالى {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ فقال {وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ لأن أولي الأمر يطاعون طاعة تابعة لطاعته فلا يطاعون استقلالا ولا طاعة مطلقة وأما الرسول فيطاع طاعة مطلقة مستقلة فإنه {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}النساء٨٠ فقال تعالى {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ}النساء٥٩ فإذا أمرنا الرسول كان علينا أن نطيعه وإن لم نعلم جهة أمره وطاعته طاعة الله لا تكون طاعته بمعصية الله قط بخلاف غيره وقد ذكر الناس من خصائصه فيما يجب عليه ويحرم عليه ويكرم به ما ليس هذا موضع تفصيله وبعد ذلك متفق عليه وبعضه متنازع فيه وقد كان صلى الله عليه وسلم إمام الأمة وهو الذي يقضي بينهم وهو الذي يقسم وهو الذي يغزو بهم وهو الذي يقيم الحدود وهو الذي يستوفي الحقوق وهو الذي يصلي بهم فالاقتداء به في كل مرتبة بحسب تلك المرتبة فإمام الصلاة والحج يقتدي به في ذلك وأمير الغزو يقتدي به في ذلك والذي يقيم الحدود يقتدي به في ذلك والذي يقضي أو يفتي يقتدي به في ذلك وقد تنازع الناس في أمور فعلها هل هي من خصائصه أم للأمة فعلها كدخوله في الصلاة إماما بعد أن صلى بالناس غيره وكتركه الصلاة على الغال والقاتل وأيضا فإذا فعل فعلا لسبب وقد علمنا ذلك السبب أمكننا أن نقتدي به فيه فأما إذا لم نعلم السبب أو كان السبب أمرا اتفاقيا فهذا مما يتنازع فيه الناس مثل نزوله في مكان في سفره فمن العلماء من يستحب أن ينزل حيث نزل كما كان ابن عمر يفعل وهؤلاء يقولون نفس موافقته في الفعل هو حسن وإن كان فعله هو اتفاقا ونحن فعلناه لقصد التشبه به ومن العلماء من يقول إنما تستحب المتابعة إذا فعلناه على الوجه الذي فعله فأما إذا فعله اتفاقا لم يشرع لنا أن نقصد ما لم يقصده ولهذا كان أكثر المهاجرين والأنصار لا يفعلون كما كان ابن عمر يفعل وأيضا فالاقتداء به يكون تارة نوع الفعل وتارة في جنسه فإنه قد يفعل الفعل لمعنى يعم ذلك النوع وغيره لا لمعنى يخصه فيكون المشروع هو الأمر العام مثال ذلك احتجامه صلى الله عليه

وسلم فإن ذلك كان لحاجته إلى إخراج الدم الفاسد ثم التأسي هل هو مخصوص بالحجامة أو المقصود إخراج الدم على الوجه النافع ومعلوم أن التأسي هو المشروع فإذا كان البلد حارا يخرج فيه الدم إلى الجلد كانت الحجامة هي المصلحة وإن كان البلد باردا يغور فيه الدم إلى العروق كان إخراجه بالفصد هو المصلحة وكذلك ادهانه صلى الله عليه وسلم هل المقصود خصوص الدهن أو المقصود ترجيل الشعر فإن كان البلد رطبا وأهله يغتسلون بالماء الحار الذي يغنيهم عن الدهن والدهن يؤذي شعورهم وجلودهم يكون المشروع في حقهم ترجيل الشعر بما هو أصلح لهم ومعلوم أن الثاني هو الأشبه وكذلك لما كان يأكل الرطب والتمر وخبز الشعير ونحو ذلك من قوت بلده فهل التأسي به أن يقصد خصوص الرطب والتمر والشعير حتى يفعل ذلك من يكون في بلاد لا ينبت فيها التمر ولا يقتاتون الشعير بل يقتاتون البر أو الرز أو غير ذلك ومعلوم أن الثاني هو المشروع والدليل على ذلك أن الصحابة لما فتحوا الأمصار كان كل منهم يأكل من قوت بلده ويلبس من لباس بلده من غير أن يقصد أقوات المدينة ولباسها ولو كان هذا الثاني هو الأفضل في حقهم لكانوا أولى باختيار الأفضل لكل أحد أن يرتدي ويأتزر ولو مع القميص أو الأفضل أن يلبس مع القميص السراويل من غير حاجة إلى الإزار والرداء هذا أيضا مما تنازع فيه العلماء والثاني أظهر وهذا باب واسع وهذا النوع ليس مخصوصا بفعله وفعل أصحابه بل وبكثير مما أمرهم به ونهاهم عنه وهذا سمته طائفة من الناس تنقيح المناط وهو أن يكون الحكم قد ثبت في عين معينة وليس مخصوصا بها بل الحكم ثابت فيها وفي غيرها فيحتاج أن يعرف مناط الحكم مثال ذلك أنه قد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن فأرة وقعت في سمن فقال ألقوها وما حولها وكلوا سمنكم فإنه متفق على أن الحكم ليس مختصا بتلك الفأرة وذلك السمن بل الحكم ثابت فيما هو أعم منهما فبقي المناط الذي علق به الحكم ما هو فطائفة من أهل العلم يزعمون أن الحكم مختص بفأرة وقعت في سمن فينجسون ما كان كذلك مطلقا ولا ينجسون السمن إذا وقع فيه الكلب والبول والعذرة ولا ينجسون الزيت ونحوه إذا وقعت فيه الفأرة وهذا القول خطأ قطعا وليس هذا مبنيا على كون القياس حجة فإن القياس الذي يكون النزاع فيه هو تخريج المناط وهو أن يجوز اختصاص مورد النص بالحكم فإذا جاز اختصاصه وجاز أن يكون الحكم مشتركا بين مورد النص وغيره احتاج معتبر القياس إلى أن يعلم أن المشترك بين الأصل والفرع هو مناط الحكم كما في قوله لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل ولا تبيعوا الفضة بالفضة إلا مثلا بمثل ولا تبيعوا الشعير بالشعير إلا مثلا بمثل ولا تبيعوا الملح بالملح إلا مثلا بمثل فلما نهى عن التفاضل في مثل هذه الأصناف أمكن أن يكون النهي

لمعنى مشترك ولمعنى مختص ولما سئل عن فأرة وقعت في سمن فأجاب عن تلك القضية المعينة ولا خفاء أن الحكم ليس مختصا بها وكذلك سائر قضايا الأعيان كالأعرابي الذي قال له إني وقعت على أهلي في رمضان فأمره أن يعتق رقبة أو يصوم شهرين متتابعين أو يطعم ستين مسكينا فإن الحكم ليس مخصوصا بذلك الأعرابي باتفاق المسلمين لكن هل أمره بذلك لكونه أفطر أو جامع في رمضان أو أفطر فيه بالجماع أو أفطر بالجنس الأعلى هذا مما تنازع فيه العلماء وكذلك لما سأله سائل عمن أحرم بالعمرة وعليه جبة وهو متضمخ بالخلوق فقال انزع عنك الجبة واغسل عنك أثر الخلوق واصنع في عمرتك ما كنت صانعا في حجتك فهل أمره بغسل الخلوق لكونه طيبا حتى يؤمر المحرم بغسل كل طيب كان عليه أو لكونه خلوقا لرجل وقد نهى أن يتزعفر الرجل فينهى عن الخلوق للرجل سواء كان محرما أو غير محرم وكذلك لما عتقت بريرة فخيرها فاختارت نفسها عند من يقول إن زوجها كان عبدا فإن المسلمين اتفقوا على أن الحكم لا يختص بها لكن هل التخيير لكونها عتقت تحت عبد فكملت تحت ناقص ولا تخير إذا عتقت تحت الحر أو الحكم لكونها ملكت نفسها فتخير سواء كان الزوج حرا أو عبدا هذا مما تنازعوا فيه وهذا باب واسع وهو متناول لكل حكم تعلق بعين معينة مع العلم بأنه لا يختص بها فيحتاج أن يعرف المناط الذي يتعلق به الحكم وهذا النوع يسميه بعض الناس قياسا وبعضهم لا يسميه قياسا ولهذا كان أبو حنيفة وأصحابه يستعملونه في المواضع التي لا يستعملون فيها القياس والصواب أن هذا ليس من القياس الذي يمكن فيه النزاع كما أن تحقيق المناط ليس مما يقبل النزاع باتفاق العلماء وهذه الأنواع الثلاثة تحقيق المناط و تنقيح المناط و تخريج المناط هي جماع الاجتهاد فالأول أن يعمل بالنص والاجماع فإن الحكم معلق بوصف يحتاج في الحكم على المعين إلى أن يعلم ثبوت ذلك الوصف فيه كما يعلم أن الله أمرنا بإشهاد ذوي عدل منا وممن نرضى من الشهداء ولكن لا يمكن تعيين كل شاهد فيحتاج أن يعلم في الشهود المعينين هل هم من ذوي العدل المرضيين أم لا وكما أمر الله بعشرة الزوجين بالمعروف وقال النبي صلى الله عليه وسلم للنساء رزقهن وكسوتهن بالمعروف ولم يكن تعيين كل زوج فيحتاج أن ينظر في الأعيان ثم من الفقهاء من يقول إن نفقة الزوجة مقدرة بالشرع والصواب ما عليه الجمهور أن ذلك مردود إلى العرف كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لهند خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف وكما قال تعالى {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}الأنعام١٥٢ ويبقى النظر في تسليمه إلى هذا التاجر بجزء من الربح هل هو من التي هي أحسن أم لا وكذلك قوله {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ}التوبة٦٠ يبقى هذا الشخص المعين هل هو من الفقراء المساكين

المذكورين في القرآن أم لا وكما حرم الله الخمر والربا عموما يبقى الكلام في الشراب المعين هل هو خمر أم لا وهذا النوع مما اتفق عليه المسلمون بل العقلاء بأنه لا يمكن أن ينص الشارع على حكم كل شخص إنما يتكلم بكلام عام وكان نبينا صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم وأما النوع الثاني الذي يسمونه تنقيح المناط بأن ينص على حكم أعيان معينة لكن قد علمنا أن الحكم لا يختص بها فالصواب في مثل هذا أنه ليس من باب القياس لاتفاقهم على النص بل المعين هنا نص على نوعه ولكنه يحتاج إلى أن يعرف نوعه ومسألة الفارة في السمن من هذا الباب فإن الحكم ليس مخصوصا بتلك الفأرة وذلك السمن ولا بفأر المدينة وسمنها ولكن السائل سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن فأرة وقعت في سمن فأجابه لا أن الجواب يختص به ولا بسؤاله كما أجاب غيره ولفظ الفأرة والسمن ليست من كلام النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكون هو الذي علق الحكم بها بل من كلام السائل الذي أخبر بما وقع له كما قال له الأعرابي إنه وقع على امرأته ولو وقع على سريته لكان الأمر كذلك وكما قال له الآخر رأيت بياض خلخالها في القمر فوثبت عليها ولو وطئها بدون ذلك كان الحكم كذلك فالصواب في هذا ما عليه الأئمة المشهورون أن الحكم في ذلك معلق بالخبيث الذي حرمه الله إذا وقع في السمن ونحوه من المائعات لأن الله أباح لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث فإذا علقنا الحكم بهذا المعنى كنا قد اتبعنا كتاب الله فإذا وقع الخبيث في الطيب ألقي الخبيث وما حوله وأكل الطيب كما أكل النبي صلى الله عليه وسلم وليس هذا جواب موضع بسط مثل هذه المسائل ولكن نبهنا على هذا لأن الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أفعاله يتعلق بهذا وحينئذ هذا مما يتعلق باجتهاد الناس واستدلالهم وما يؤتيهم الله من الفقه والحكمة والعلم وأحق الناس بالحق من علق الأحكام بالمعاني التي علقها بها الشارع وهذا موضع تفاوت فيه الناس وتنازعوا هل يستفاد ذلك من خطاب الشارع أو من المعاني القياسية فقوم زعموا أن أكثر أحكام أفعال العباد لا يتناولها خطاب الشارع بل تحتاج إلى القياس وقوم زعموا أن جميع أحكامها ثابتة بالنص وأسرفوا في تعلقهم بالظاهر حتى أنكروا فحوى الخطاب وتنبيهه كقوله تعالى {فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ}الإسراء٢٣ وقالوا إن هذا لا يدل إلا على النهي عن التأفيف لا يفهم منه النهي عن الضرب والشتم وانكروا تنقيح المناط وادعوا في الألفاظ من الظهور ما لا تدل عليه وقوم يقدمون القياس تارة لكون دلالة النص غير تامة أو لكونه خبر الواحد وأقوام يعارضون بين النص والقياس ويقدمون النص ويتناقضون ونحن قد بينا في غير هذا الموضع أن الأدلة الصحيحة لا تتناقض فلا تتناقض الأدلة الصحيحة العقلية والشرعية ولا تتناقض دلالة القياس إذا كانت صحيحة ودلالة الخطاب إذا كانت

صحيحة فإن القياس الصحيح حقيقة التسوية بين المتماثلين وهذا هو العدل الذي أنزل الله به الكتب وأرسل به الرسل والرسول لا يأمر بخلاف العدل ولا يحكم في شيئين متماثلين بحكمين مختلفين ولا يحرم الشيء ويحل نظيره وقد تأملنا عامة المواضع التي قيل إن القياس فيها عارض النص وإن حكم النص فيها على خلاف القياس فوجدنا ما خصه الشارع بحكم عن نظائره فإنما خصه به لاختصاصه بوصف أوجب اختصاصه بالحكم كما خص العرايا بجواز بيعها بمثلها خرصا لتعذر الكيل مع الحاجة إلى البيع والحاجة توجب الانتقال إلى البدل عند تعذر الأصل فالخرص عند الحاجة قام مقام الكيل كما يقوم التراب مقام الماء والميتة مقام المذكى عند الحاجة وكذلك قول من قال القرض أو الإجارة أو القراض أو المساقاة أو المزارعة ونحو ذلك على خلاف القياس إن أراد به أن هذه الأفعال اختصت بصفات أوجبت أن يكون حكمها مخالفا لحكم ما ليس مثلها فقد صدق وهذا هو مقتضى القياس وإن أراد أن الفعلين المتماثلين حكم فيهما بحكمين مختلفين فهذا خطأ ينزه عنه من هو دون الأنبياء صلوات الله عليهم ولكن هذه الأقيسة المعارضة هي الفاسدة كقياس الذين قالوا {إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}البقرة٢٧٥ وقياس الذين قالوا أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله يعنون الميتة وقال تعالى {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}الأنعام١٢١ ولعل من رزقه الله فهما وآتاه من لدنه علما يجد عامة الأحكام التي تعلم بقياس شرعي صحيح يدل عليها الخطاب الشرعي كما أن غاية ما يدل عليه الخطاب الشرعي هو موافق للعدل الذي هو مطلوب القياس الصحيح وإذا كان الأمر كذلك فالكلام في أعيان أحوال الرجل السالك يحتاج إلى نظر خاص واستهداء من الله و الله قد أمر العبد أن يقول في كل صلاة {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة ٦-٧ فعلى العبد أن يجتهد في تحقيق هذا الدعاء ليصير من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا [١]

## لا نجاة في المعاد الا باتباع رسوله

---

[١] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٥٠٩-٥١٧ و مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٣٢٠-٣٢٤

فإنه لا سعادة للعباد ولا نجاة في المعاد الا باتباع رسوله {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤}النساء١٣ ـ١٤ فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ وإنما تعبدهم بطاعته وطاعة رسوله فلا عبادة الا ما هو واجب أو مستحب في دين الله وما سوى ذلك فضلال عن سبيله ولهذا قال صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد أخرجاه في الصحيحين وقال صلى الله عليه وسلم في حديث العرباض بن ساريه الذي رواه أهل السنن وصححه الترمذي أنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثان الأمور فإن كل بدعة ضلالة وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه في نحو من أربعين موضعا من القرآن كقوله تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً}النساء٨٠ وقوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً {٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥} النساء٦٤ ـ٦٥ وقوله تعالى {قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}آل عمران٣٢ وقال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}آل عمران٣١ فجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول وجعل متابعة الرسول سببا لمحبة الله عبده وقد قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الشورى٥٢ فما أوحاه الله إليه يهدى الله به به من يشاء من عباده كما أنه بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}سبأ٥٠ وقال تعالى {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{١٥}يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}المائدة١٥ـ١٦ فبمحمد تبين الكفر من الايمان والربح من الخسران والهدي من الضلال والنجاة من الوبال والغي من الرشاد والزيغ من السداد وأهل

الجنة من أهل النار والمتقون من الفجار وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من سبيل المغضوب عليهم والضالين فالنفوس أحوج الى معرفة ما جاء به واتباعه منها الى الطعام والشراب فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا وذاك إذا مات حصل العذاب فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار النعيم والطريق الى ذلك الرواية والنقل إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل بل كما أن نور العين لا يرى الا مع ظهرو نور قدامه فكذلك نور العقل لا يهتدي الا إذا طلعت عليه شمس الرسالة فلهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الاسلام وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجبا على جميع الأنام والله سبحانه بعث محمدا بالكتاب والسنة وبهما أتم على أمته الأمة قال تعالى {وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{١٥٠} كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ{١٥١} فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ{١٥٢} البقرة ١٥٠-١٥٢ وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}آل عمران١٦٤ قال تعالى {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ}البقرة٢٣١ وقال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}الجمعة٢ وقال تعالى عن الخليل {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}البقرة١٢٩ وقال تعالى {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}الأحزاب٣٤ وقد قال غير واحد من العلماء منهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي وغيرهم الحكمة هي السنة لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة والكتاب القرآن وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة وأبي ثعلة وغيرهما أنه قال لا ألفين أحدكم متكا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم القرآن فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه وفي رواية ألا وإنه مثل الكتاب ولما كان القرآن متميزا بنفسه لما خصه الله به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}الإسراء٨٨ وكان منقولا بالتواتر لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه وكان طمع الشيطان أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به بعض العباد فأقام الله تعالى الجهابذة النقاد أهل الهدي والسداد فدحروا حزب

الشيطان وفرقوا بين الحق من البهتان وانتدبوا لحفظ السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان وقام كل من علماء الدين بما أنعم به عليه وعلى المسلمين مقام أهل الفقه الذين فقهوا معاني القرآن والحديث بدفع ما وقع في ذلك من الخطأ في القديم والحديث وكان من ذلك الظاهر الجلي الذي لا يسوغ عنه العدول ومنه الخفى الذي يسوغ فيه الاجتهاد للعماء العدول وقام علماء النقل والنقاد بعلم الرواية والاسناد فسافروا في ذلك الى البلاد وهجروا فيه لذيذ الرقاد وفارقوا الأموال والأولاد وأنفقوا فيه الطارف والتلاد وصبروا فيه على النوائب وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة والقصص المأثورة ما هو عند أهله معلوم ولمن طلب معرفته معروف مرسوم بتوسد أحدهم التراب وتركهم لذيذ الطعام والشراب وترك معاشرة الأهل والأصحاب والتصبر على مرارة الإغتراب ومقاساة الأهوال الصعاب أمر حببه الله إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين الله كما جعل البيت مثابة للناس وأمنا يقصدونه من كل فج عميق ويتحملون فيه أمورا مؤلمة تحصل في الطريق وكما حببب الى أهل القتال الجهاد بالنفس والمال حكمة من الله يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين ويظهر به الهدي ودين الحق الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون فمن كان مخلصا في أعمال الدين يعملها لله كان من أولياء الله المتقين أهل النعيم المقيم كما قال تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٦٤} يونس٦٢-٦٤ وقد فسر النبي البشرى في الدنيا بنوعين أحدهما ثناء المثنين عليه الثاني الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له فقيل يا رسول الله الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن وقال البراء بن عازب سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله لهم البشرى في الحياة الدنيا فقال هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله الربان الحافظون له من الزيادة والنقصان هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين بل لهم مزية على غيرهم من أهل الايمان والأعمال الصالحات كما قال تعالى {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}المجادلة١١ قال ابن عباس يرفع الله وعلم الاسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد وجعله سلما الى الدراية فأهل الكتاب لا إسناد له يأثرون به المنقولات وهكذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات وإنما الاسناد لمن أعظم الله عليه المنة أهل الاسلام والسنة يفرقون به بين الصحيح والسقيم والمعوج والقويم وغيرهم من أهل البدع والكفار إنما عندهم منقولات يأثرونها بغير إسناد وعليها من دينهم الإعتماد وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل ولا

الحالي من العاطل وأما هذه الأمة المرحومة وأصحاب هذه الأمة المعصومة فإن أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين فظهر لهم الصدق من المين كما يظهر الصبح لذي عينين عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ في دين الله معقول أو منقول وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه الى الله والرسول كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ فإذا اجتمع أهل الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقا وإذا اجتمع أهل الحديث على تصحيح حديث لم يكن الا صدقا ولكل من الطائفتين من الاستدلال على مطلوبهم بالجلي والخفي ما يعرف به من هو بهذا الأمر حفي والله تعالى يليهم الصواب في هذه القضية كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية فإن الله كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه لما صدقوا في موالاة الله ورسوله ومعاداة من عدل عنه قال تعالى {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} المجادلة٢٢ وأهل العلم المأثور عن الرسول أعظمن الناس قياما بهه الأصول لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم ولا يصدهم عن سبيل الله العظائم بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه ويتكلم في أحب الناس إليه عملا بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} النساء١٣٥ وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} المائدة٨ ولهم من التعديل والتجريح والتضعيف والتصحيح من السعي المشكور والعمل المبرور ما كان من أسباب حفظ الدين وصيانته عن إحداث المفترين وهم في ذلك على درجات منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية ومنهم أهل الفقه فيه والمعرفة بمعانيه وقد أمر النبي الأمة أن يبلغ عنه من شهد لم غاب ودعا للمبلغين بالدعاء المتجاب فقال في الحديث الصحيح بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بين اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي منعمدا فليتبوأ مقعده من النار وقال أيضا في خطبته في حجة الوداع الا ليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع وقال أيضا نصر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه الى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم اخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم

تحيط من روائهم وفي هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وإن لم يكن فقيها ودعاء لمن بلغه وإن كان المستمع أفقه من المبلغ لما أعطى المبلغون من النضرة ولهذا قال سفيان بن عيينة لا تجد أحد من أهل الحديث الا وفي وجهه نضرة لدعوة النبي يقال نضر ونضر والفتح أفصح ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعظون نقلة الحديث حتى قال الشافعي رضي الله عنه إذا رأيت رجلا من أهل الحديث فكأني رأيت رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليهم وسلم وإنما قال الشافعي هذا لأنهم في مقام الصحابة من تبليغ حديث النبي وقال الشافعي أيضا أهل الحديث حفظوا فلهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا أه [1]

## من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل و لا يشقى

أن الله بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا وأنه أكمل له ولأمته الدين كما قال تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً}المائدة٣ وأنه بشر بالسعادة لمن أطاعه والشقاوة لمن عصاه فقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ وقال تعالى {وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً}الجن٢٣ وأمر الخلق أن يردوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلى ما بعثه به كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٤-١١

أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ [1]

قال الامام أحمد في خطبته فى الرد على الجهمية و الزنادقة الحمد لله الذي جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدي و يصبرون منهم على الأذي يحيون بكتاب الله الموتى و يبصرون بنوره أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد احيوه و كم ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس و أقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين و إنتحال المبطلين و تأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة و أطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون فى الكتاب مخالفون للكتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب يقولون على الله و فى الله و فى الكتاب بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام و يخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتن المضلين والثانية طريقة هشام و أتباعه يحكى عنهم أنهم أثبتوا ما قد نزه الله نفسه عنه من إتصافه بالنقائص و مماثلته للمخلوقات فأجابهم الإمام أحمد بطريقة الأنبياء و اتباعهم و هو الإعتصام بحبل الله الذي قال الله فيه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{١٠٢} وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ {١٠٣}آل عمران١٠٢ -١٠٣ و قال {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} البقرة٢١٣ وقال تعالى {المص{١} كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{٢} اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ{٣} الاعراف١-٣ و قال تعالى {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{١٢٣} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{١٢٤} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{١٢٥} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{١٢٦}طه١٢٣-١٢٦ و قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٢١ و العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٥٠ و العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ١٧ و مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٠٧

كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ و قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ{٢}الحجرات١-٢ وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{٦٢} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{٦٣} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً{٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥}النساء٦٠-٦٥ و قوله تعالى {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}الأنعام١٥٣ و قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ}الأنعام١٥٩ و قوله تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{٣٠} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ{٣١} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ{٣٢}الروم٣٠-٣٢ و قوله {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}الشورى١٣ فهذه النصوص و غيرها تبين أن الله أرسل الرسل و أنزل الكتب لبيان الحق من الباطل و بيان ما اختلف فيه الناس و أن الواجب على الناس اتباع ما أنزل اليهم من ربهم و رد ما تنازعوا فيه الى الكتاب و السنة و ان من لم يتبع ذلك كان منافقا و ان من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل و لا يشقى و من أعرض عن ذلك حشر أعمى ضالا شقيا معذبا و أن الذين فرقوا دينهم قد برىء الله و رسوله منهم فاتبع الإمام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة و الجماعة المعتصمين بالكتاب و السنة المتبعين ما أنزل الله اليهم من ربهم و ذلك أن ننظر فما و جدنا الرب قد أثبته لنفسه فى كتابه أثبتناه و ما و جدناه قد نفاه عن نفسه نفيناه و كل لفظ و جد فى الكتاب و السنة بالإثبات أثبت ذلك اللفظ و كل لفظ و جد منفيا نفي ذلك اللفظ و أما الألفاظ التى لا توجد فى الكتاب و السنة بل و لا فى كلام الصحابة و التابعين لهم

باحسان و سائر أئمة المسلبمين لا إثباتها و لا نفيها و قد تنازع فيها الناس فهذه الألفاظ لا تثبت و لا تنفى إلا بعد الإستفسار عن معانيها فان و جدت معانيها مما أثبته الرب لنفسه أثبت و ان و جدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت و ان و جدنا اللفظ أثبتت به حق و باطل أو نفى به حق و باطل أو كان مجملا يراد به حق و باطل و صاحبه أراد به بعضها لكنه عند الاطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد و غير ما أراد فهذه الألفاظ لا يطلق اثباتها و لا نفيها كلفظ الجوهر و الجسم و التحيز و الجهة و نحو ذلك من الألفاظ التى تدخل فى هذا المعنى فقل من تكلم بها نفيا أو إثباتا إلا و أدخل فيها باطلا و أن أراد بها حقا و السلف و الأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث لاشتماله على باطل و كذب و قول على الله بلا علم و كذلك ذكر أحمد فى رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه و يقولون عليه بغير علم و كل ذلك مما حرمه الله و رسوله و لم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية و لا كرهوا الإستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب و السنة و لا يخالف الكتاب و السنة إلا ما هو باطل لا يصح بعقل و لا سمع ولهذا لما سئل أبو العباس ابن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين و قال و أما توحيد أهل الباطل فهو الخوض فى الجواهر و الأعراض و إنما بعث الله النبى صلى الله عليه و سلم بانكار ذلك و لم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين فإنهما لم يكونا قد أحدثا فى زمنه و إنما أراد إنكار ما يعنى بهما من المعاني الباطلة فإن أول من أحدثهما الجهمية و المعتزلة و قصدهم بذلك إنكار صفات الله تعالى أو أن يرى أو أن يكون له كلام يتصف به و أنكرت الجهمية أسماءه أيضا و أول من عرف عنه إنكار ذلك الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبدالله القسري بواسط و قال يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فانى مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا و لم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه و كلام السلف و الأئمة فى ذم هذا الكلام و أهله مبسوط فى غير هذا الموضع [1]

## السنة تفسر القرآن و تبينه و تدل عليه و تعبر عن مجمله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص:٣٠٠- ٣٠٢ و درء التعارض ج: ١ ص: ٢٥٨

وقد قال تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ و أول النزاع النزاع في معاني القرآن فإن لم يكن الرسول عالما بمعانيه إمتنع الرد إليه و قد إتفق الصحابة و التابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن و تبينه و تدل عليه و تعبر عن مجمله و أنها تفسر مجمل القرآن من الأمر و الخبر [1]

يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبى فما جاء به القرآن العزيز أو السنة المعلومة وجب على الخلق الاقرار به جملة وتفصيلا عند العلم بالتفصيل فلا يكون الرجل مؤمنا حتى يقر بما جاء به النبى وهو تحقيق شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فمن شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فان هذا حقيقة الشهادة بالرسالة اذ الكاذب ليس برسول فيما يكذبه وقد قال الله تعالى {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ{٤٤} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ{٤٥} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ{٤٦} الحاقة٤٤-٤٦ و بالجملة فهذا معلوم بالاضطرار من دين الاسلام لا يحتاج الى تقريره هنا وهو الاقرار بما جاء به النبى وهو ما جاء به من القرآن والسنة كما قال الله تعالى {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ}البقرة١٥١ وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ [2]

فان الله انزل الكتاب والميزان وأرى الناس آياته فى الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم ان القرآن حق وأما العمليات وما يسميه ناس الفروع والشرع والفقه فهذا قد بينه الرسول أحسن بيان فما شىء مما أمر الله به أو نهى عنه أو حلله أو حرمه الا بين ذلك وقد قال تعالى {تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {٦٣} وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{٦٤} النحل٦٣ -٦٤ فقد بين سبحانه أنه ما أنزل عليه الكتاب إلا ليبين لهم الذى أختلفوا فيه كما بين أنه أنزل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٤٣٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٥٥ و الاستقامة ج: ١ ص: ٣٨٦

جنس الكتاب مع النبيين ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وقال تعالى {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}الشورى١٠ وقال تعالى {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ}التوبة١١٥ فقد بين للمسلمين جميع ما يتقونه وقال تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ وهو الرد الى كتاب الله أو الى سنة الرسول بعد موته وقوله {فَإِن تَنَازَعْتُمْ}النساء٥٩ شرط والفعل نكرة فى سياق الشرط فاى شيء تنازعوا فيه ردوه الى الله والرسول ولو لم يكن بيان الله والرسول فاصلا للنزاع لم يؤمروا بالرد اليه والرسول أنزل الله عليه الكتاب والحكمة كما ذكر ذلك فى غير موضع وقد علم أمته الكتاب والحكمة كما قال {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}البقرة١٢٩ وكان يذكر فى بيته الكتاب والحكمة وأمر أزواج نبيه بذكر ذلك فقال {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}الأحزاب٣٤ فآيات الله هى القرآن اذ كان نفس القرآن يدل على انه منزل من الله فهو علامة ودلالة على منزله و الحكمة قال غير واحد من السلف هى السنة وقال أيضا طائفة كمالك وغيره هى معرفة الدين والعمل به وقيل غير ذلك وكل ذلك حق فهى تتضمن التمييز بين المأمور والمحظور والحق و الباطل وتعليم الحق دون الباطل وهذه السنة التى فرق بها بين الحق والباطل وبين الأعمال الحسنة من القبيحة والخير من الشر وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم انه قال تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي الا هالك وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلام نحو هذا وهذا كثير فى الحديث والآثار يذكرونه فى الكتب التى تذكر فيها هذه الآثار كما يذكر مثل ذلك غير واحد فيما يصنفونه فى السنة مثل ابن بطة واللالكائى والطلمنكى وقبلهم المصنفون فى السنة كاصحاب احمد مثل عبد الله والاثرم وحرب الكرماني وغيرهم ومثل الخلال وغيره والمقصود هنا تحقيق ذلك وان الكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين وأما اجماع الأمة فهو في نفسه حق لا تجتمع الأمة على ضلالة وكذلك القياس الصحيح حق فان الله بعث رسله بالعدل وأنزل الميزان مع الكتاب والميزان يتضمن العدل وما يعرف به العدل وقد فسروا انزال ذلك بأن ألهم العباد معرفة ذلك والله ورسوله يسوى بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين وهذا هو القياس الصحيح وقد ضرب الله فى القرآن من كل مثل وبين القياس الصحيح وهى الأمثال المضروبة ما بينه من الحق لكن القياس الصحيح يطابق النص فان الميزان يطابق الكتاب والله أمر نبيه أن يحكم بما أنزل وأمره أن يحكم بالعدل فهو أنزل الكتاب وانما أنزل الكتاب بالعدل قال تعالى {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ}المائدة٤٩ {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ}المائدة٤٢ واما اجماع الأمة فهو حق لا تجتمع الأمة

ولله الحمد على ضلالة كما وصفها الله بذلك فى الكتاب والسنة فقال تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ}آل عمران١١٠ وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر كما وصف نبيهم بذلك فى قوله {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ}الأعراف١٥٧ وبذلك وصف المؤمنين فى قوله {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}التوبة٧١ فلو قالت الامة فى الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف فى ذلك ولم تنه عن المنكر فيه وقال تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}البقرة١٤٣ والوسط العدل الخيار وقد جعلهم الله شهداء على الناس وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول وقد ثبت فى الصحيح أن النبى مر عليه بجنازة فاثنوا عليها خيرا فقال وجبت وجبت ثم مر عليه بجنازة فاثنوا عليها شرا فقال وجبت وجبت قالوا يارسول الله ما قولك وجبت وجبت قال هذه الجنازة أثنيتم عليها خيرا فقلت وجبت لها الجنة وهذه الجنازة أثنيتم عليها شرا فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله فى الأرض فاذا كان الرب قد جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل فاذا شهدوا ان الله أمر بشىء فقد أمر به واذا شهدوا أن الله نهى عن شىء فقد نهى عنه ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطأ لم يكونوا شهداء الله فى الأرض بل زكاهم الله فى شهادتهم كما زكى الأنبياء فيما يبلغون عنه أنهم لا يقولون عليه إلا الحق وكذلك الأمة لا تشهد على الله الا بالحق وقال تعالى {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}لقمان١٥ والأمة منيبة الى الله فيجب اتباع سبيلها وقال تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ}التوبة١٠٠ فرضي عمن اتبع السابقين الى يوم القيامة فدل على ان متابعهم عامل بما يرضى الله والله لا يرضى الا بالحق لا بالباطل وقال تعالى {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً}النساء١١٥ وكان عمر بن عبد العزيز يقول كلمات كان مالك يأثرها عنه كثيرا قال سن رسول الله وولاة الأمر من بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستعمال لطاعة الله ومعونة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا النظر فى رأى من خالفها فمن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله تعالى ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا والشافعى رضى الله عنه لما جرد الكلام فى أصول الفقه احتج بهذه الآية على الاجماع كما كان هو وغيره ومالك ذكر عن عمر ابن عبد العزيز والآية دلت على أن متبع غير سبيل المؤمنين مستحق للوعيد كما أن مشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى مستحق للوعيد ومعلوم أن هذا

الوصف يوجب الوعيد بمجرده فلو لم يكن الوصف الآخر يدخل فى ذلك لكان لا فائدة فى ذكره وهنا للناس ثلاثة أقوال قيل اتباع غير سبيل المؤمنين هو بمجرد مخالفة الرسول المذكورة فى ألآية وقيل بل مخالفة الرسول مستقلة بالذم فكذلك اتباع غير سبيلهم مستقل بالذم وقيل بل اتباع غير سبيل المؤمنين يوجب الذم كما دلت عليه الآية لكن هذا لا يقتضى مفارقة الأول بل قد يكون مستلزما له فكل متابع غير سبيل المؤمنين هو فى نفس الأمر مشاق للرسول وكذلك مشاق الرسول متبع غير سبيل المؤمنين وهذا كما في طاعة الله والرسول فان طاعة الله واجبة وطاعة الرسول واجبة وكل واحد من معصية الله ومعصية الرسول موجب للذم وهما متلازمان فانه من يطع الرسول فقد أطاع الله وفى الحديث الصحيح عن النبى قال من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصانى فقد عصى الله ومن عصى أميرى فقد عصانى وقال انما الطاعة فى المعروف يعنى اذا أمر اميرى بالمعروف فطاعته من طاعتى وكل من عصى الله فقد عصى الرسول فان الرسول يأمر بما أمر الله به [١]

## ان الله تعالى جعل محبة الله ورسوله وطاعة الله ورسوله شيئا واحدا

أن الواجب على المسلمين الإعتصام بالكتاب والسنة كما أمرهم الله تعالى بذلك في قوله {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ}آل عمران١٠٣ وقوله تعالى {المص{١} كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{٢} اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ{٣} الأعراف ١-٣ وقوله {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{١٢٣} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{١٢٤} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{١٢٥} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٧٤-١٧٩

تُنسَى{١٢٦} طه ١٢٣- ١٢٦ قال ابن عباس رضي الله عنهما تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية ومثل هذا كثير من الكتاب والسنة وهذا مما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها [1]

ان الله تعالى جعل محبة الله ورسوله وارضاء الله ورسوله وطاعة الله ورسوله شيئا واحدا كما قرن طاعته بطاعته فقال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ}التوبة٢٤ وقال {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ}آل عمران١٣٢ في مواضع متعددة وقال أيضا {وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ}التوبة٦٢ فوحد الضمير وقال ايضا {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ}الفتح١٠ وقال ايضا {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}الأنفال١ وجعل شقاق الله ورسوله ومحادة الله ورسوله واذى الله ورسوله ومعصية الله ورسوله شيئا واحدا فقال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}الحشر٤ وقال {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}المجادلة٥ و المجادلة٢٠ وقال تعالى {أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ}التوبة٦٣ وقال {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين وان جهة حرمه الله ورسوله جهة واحدة فمن اذى الرسول فقد اذى الله ومن اطاعه فقد اطاع الله لان الامة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم الا بواسطة الرسول ليس لاحد منهم طريق غيره ولا سبب سواه وقد اقامه الله مقام نفسه في امره ونهيه واخباره وبيانه فلا يجوز ان يفرق بين الله ورسوله في شئ من هذه الامور [2]

## الشريعة هي كتاب الله وسنة رسوله واتباع سبيل المؤمنين

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ٥٥٤

[2] الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٨٦-٨٧

الشريعة هي كتاب الله وسنة رسوله واتباع سبيل المؤمنين المنظومة في قوله تعالى {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ وقوله {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ}المائدة٥٥ [1]

فى أصول العلم والدين قال الله تعالى {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ}المائدة٥٥ الى قوله {وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}المائدة٥٦ وقال تعالى {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}المنافقون٨ وقال تعالى {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ وفى التشهد التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك ايها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وهذه الاصول التى امر بها عمر بن الخطاب لشريح حيث قال اقض بما فى كتاب الله فان لم يكن فبما فى سنة رسول الله فان لم يكن فبما اجتمع عليه الناس وفى رواية فبما قضى به الصالحون وكذلك قال ابن مسعود من سئل عن شيء فليفت بما فى كتاب الله فان لم يكن فبما فى سنة رسول الله فان لم يكن فبما اجتمع عليه الناس وكذلك روى نحوه عن ابن عباس وغيره ولذلك قال العلماء الكتاب والسنة والاجماع وذلك أنه أوجب طاعتهم اذا لم يكن نزاع ولم يأمر بالرد الى الله والرسول الا اذا كان نزاع فدل من وجهين من جهة وجوب طاعتهم ومن جهة ان الرد الى الكتاب والسنة انما وجب عند النزاع فعلم أنه عند عدم النزاع لا يجب وان جاز لأن اتفاقهم دليل على موافقة الكتاب والسنة وأمر بموالاتهم والموالاة تقتضى الموافقة والمتابعة كما أن المعاداة تقتضى المخالفة والمجانبة فمن وافقته مطلقا فقد واليته مطلقا ومن وافقته فى غالب الأمور فقد واليته فى غالبها ومورد النزاع لم توالـه فيه وان لم تعاده فأما الأمر باتباع الكتاب والسنة فكثير جدا كقوله {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ}الأعراف٣ {وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ}الأنعام١٥٥ {وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ}الأعراف١٥٧ و {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ}الأعراف١٥٧ {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ}المائدة٩٢ {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}النساء٦٥ الاية {فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ}الأنعام١٥٣ {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا}الحشر٧ {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٥٣٥

اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً}الأحزاب٣٦ {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}النور٦٣ وهذا كثير واما السلف فآيات احدها ما تقدم مثل قوله {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ}النساء٨٣ وقوله {فَإِن تَنَازَعْتُمْ}النساء٥٩ وقوله {وَلِلْمُؤْمِنِينَ}المنافقون٨ وقوله {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}المنافقون٨ ولو خرج المؤمنون عن الحق والهدى لما كانت لهم العزة اذ ذاك من تلك الجهة لآن الباطل والضلال ليس من الايمان الذى يستحق به العزة والعزة مشروطة بالايمان لقوله {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}آل عمران١٣٩ ومنها قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة٦-٧ أمر بسؤاله الهداية الى صراطهم وقال {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ الآية وفيها الدلالة ومنها قوله {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}لقمان١٥ والسلف المؤمنون منيبون اى فيجب اتباع سبيلهم ومنها قوله {اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ}يس٢١ والسلف كذلك ومنها قوله{وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ}النساء١١٥ ومن خرج عن اجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم ومنها قوله {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}البقرة١٤٣ وقوله {لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}الحج٧٨ وقال قوم عيسى {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}آل عمران٥٣ {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}المائدة٨٣ فى ال عمران والمائدة لان لنا الشاهدة ولهم العبادة بلا شهادة والامة الوسط العدل الخيار والشهداء على الناس لابد أن يكونوا عالمين عادلين كالرسول ولهذا قال فى الجنازة وجبت وجبت وقال أنتم شهداء الله فى الارض وقال توشكوا ان تعلموا أهل الجنة من أهل النار بالثناء الحسن والثناء السيء فعلم أن شهادتهم مقبولة فيما يشهدون عليه من الاشخاص والأفعال ولو كانوا قد يشهدون بما ليس بحق لم يكونوا شهداء مطلقا ومنها قوله {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ}آل عمران١١٠ وفيها أدلة مثل قوله {خَيْرَ أُمَّةٍ}آل عمران١١٠ ومثل قوله {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}آل عمران١١٠ فلابد ان يامروا بكل معروف وينهوا عن كل منكر والصواب فى الاحكام معروف والخطأ منكر ومنها قوله {اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ}التوبة١١٩ ومنها قول الخليل {رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي

بِالصَّالِحِينَ}الشعراء٨٣ وقول يوسف {تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}يوسف١٠١ ومنها قوله {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ}التوبة١٠٠ والرضوان لا يكون مع اتفاقهم واصرارهم على ذنب او خطأ فان ذلك مقتضاه العفو ومنها قوله ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}فاطر٣٢ وقوله {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى}النمل٥٩ فانه يدل من وجهين من جهة ان الاصطفاء يقتضى التصفية وذلك لا يكون مع الاتفاق والاصرار على الذنب والخطأ والثانى التسليم عليهم وذلك يقتضى سلامتهم من العيوب كما سلم على المرسلين وعلى نوح وعلى المسيح ومنها قوله{أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}يونس٦٢ ومنها قوله {فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ}البقرة٢١٣ فانه يدل على انه هدى فى كل شىء وقوله {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ}البقرة٢٥٧ فانه يقتضى اخراجهم من كل ظلمة ومنها قوله {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}الأحزاب٤٣ وقوله {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}الحديد٩ ومنها قوله {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ}آل عمران١٠٣ وما كان نحوها من الامر بالجماعة والنهى عن الفرقة [1]

## أن الله سبحانه إنما أرسل رسوله رحمة للعالمين

المقالة الصحيحة لأهل السنة والجماعة والحق الذي يجب اعتقاده أن الله سبحانه إنما أرسل رسوله رحمة للعالمين وان إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة عامة للخلق أعظم من إنزال المطر وإطلاع البذر وإن يحصل بهذه الرحمة ضرر لبعض النفوس ثم إنه سبحانه كما قال قتادة وغيره من السلف لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه بل أمرهم بما فيه صلاحهم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٩٨-٥٠٣ و مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٣٠٩ و مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٤٢ و الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٤٠

ونهاهم عما فيه فسادهم وفي الحديث الصحيح حديث أبي ذر عن النبي يا عبادي إني حرمت الظلم علي نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علي أتقي قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علي أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد يسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط غمسة واحدة يا عبادي إنما هي أعمالكم ترد عليكم فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه

وقال تعالي في وصف النبي الأمي {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ}الأعراف١٥٧ وقال تعالي لما ذكر الوضوء {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}المائدة٦ فأخبر أنه لا يريد أن يجعل علينا من حرج فيما أمرنا به وهذه نكرة مؤكدة بحرف من فهي تنفي كل حرج وأخبر أنه إنما يريد تطهيرنا وإتمام نعمته علينا وقال تعالي في الآية الأخرى {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ}الحج٧٨ فقد أخبر أنه ما جعل علينا في الدين من حرج نفيا عاما مؤكدا فمن اعتقد أن فيما أمر الله به مثقال ذرة من حرج فقد كذب الله ورسوله فكيف بمن اعتقد أن المأمور به قد يكون فسادا وضررا لا منفعة فيه ولا مصلحة لنا ولهذا لما لم يكن فيما أمر الله ورسوله حرج علينا لم يكن الحرج من ذلك إلا من النفاق كما قال تعالي {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ وقال الله تعالي فيما أمر به من الصيام {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥ فإذا كان لا يريد فيما أمرنا به ما يعسر علينا فكيف يريد ما يكون ضررا وفسادا لنا بما أمرنا به إذا أطعناه فيه ثم إنه يكون قد أخبر أن الإيمان والطاعة خير من الكفر والمعصية للعبد في الدنيا والآخرة وإن كان لجهله يظن أن ذلك خير له في الدنيا كما يقوله هؤلاء الذين فيهم جهل ونفاق الذين قد يقولون إن المأمور به قد لا يكون فيه للعبد مصلحة ولا منفعة طول عمره بل يكون ذلك في المنهي عنه فقال تعالي {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ

شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}البقرة٢١٦ وقال تعالي عن الذين {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}البقرة١٠٢ إلي قوله {مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}البقرة١٠٢ فأخبر أنهم يعلمون أن هذه الأمور لا تنفع بعد الموت بل لا يكون لصاحبها نصيب في الآخرة وإنما طلبوا بها منفعة الدنيا وقد يسمون ذلك العقل المعيشي أي العقل الذي يعيش به الإنسان في الدنيا عيشة طيبة فقال تعالي {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}البقرة١٠٣ فاخبر أن أولياءه الذين آمنوا وكانوا يتقون ينبههم على أن في ذلك ما هو خير لهم مما طلبوه في الدنيا لو كانوا يعلمون فيحصل لهم في الآخرة من الخير الذي هو المنفعة ودفع المضرة ما هو أعظم مما يحصلوه بذلك من خير الدنيا كما قال تعالى {وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}يوسف٥٦ ثم قال {وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ}يوسف٥٧ وقال تعالى {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{١٤٧} فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{١٤٨}آل عمران١٤٨ وقال عن إبراهيم {وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}النحل١٢٢ وقد قال تعالي ما يبين به أن فعل المكروه من المأمور خير من تركه في الدنيا أيضا قال تعالى {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨}النساء٦٦ -٦٨ وهذا في سياق حال {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء٦٠ وهؤلاء منافقون من أهل الكتاب والمشركون حالهم أيضا شبيه بحال الذين نبذوا كتاب الله وراءهم ظهريا كأنهم لا يعلمون {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}البقرة١٠٢ فإن أولئك عدلوا عما في كتاب الله إلي اتباع الجبت والطاغوت والسحر والشيطان وهذه حال الذين أوتوا نصيبا من الكتاب الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت وحال الذين يتحاكمون إلي الطاغوت من المظهرين للإيمان بالله ورسله فيها من حال هؤلاء والطاغوت كل معظم ومتعظم بغير طاعة الله ورسوله من إنسان أو شيطان أو شيء من الأوثان وهذه حال كثير ممن يشبه اليهود من المتفقهه والمتكلمة وغيرهم ممن فيه نوع نفاق من هذه الأمة الذين يؤمنون بما خالف كتاب الله وسنة رسوله من أنواع الجبت والطاغوت والذين يريدون

أن يتحاكموا إلى غير كتاب الله تعالي وسنة رسوله وقال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً {٦١} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{٦٢} النساء٦١ -٦٢ أي هؤلاء لم يقصدوا ما فعلوه من العدل عن طاعة الله ورسوله إلي اتباع ما اتبعوه من الطاغوت إلا لما ظنوه من جلب منفعة لهم ودفع مضرة عنهم مثل طلب علم وتحقيق كما يوجد في صنف المتكلمة ومثل طلب أذواق ومواجيد كما يوجد في صنف المتعبدة ومثل طلب شهوات ظاهرة وباطنة كما يوجد في صنف الذين يريدون العلو والذين يتبعون شهوات الغي قال تعالي {وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً} النساء٦٠ أي ضلوا عن مطلوبهم الذي هو جلب المنفعة ودفع المضرة فإن ذلك إنما هو في طاعة الله ورسوله دون اتباع الطاغوت فإذا عاقبهم الله بنقيض مقصودهم في الدنيا فأصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم قالوا ما أردنا بما فعلناه إلا إحسانا أي أردنا الإحسان إلي نفوسنا لا ظلمها وتوفيقا أو جمعا بين هذا وهذا لتجتمع الحقائق والمصالح قال تعالي {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} النساء٦٣ من الاعتقادات الفاسدة والإرادات الفاسدة الظن وما تهوي الأنفس {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً} النساء٦٣ ثم قال تعالي {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً} النساء٦٤ فدعاهم سبحانه بعد ما فعلوه من النفاق إلى التوبة وهذا من كمال رحمته بعباده يأمرهم قبل المعصية بالطاعة وبعد المعصية بالاستغفار وهو رحيم بهم في كلا الأمرين بأمره لهم بالطاعة أولا برحمته وأمرهم بالاستغفار من رحمته فهو سبحانه رحيم بالمؤمنين الذين أطاعوه أولا والذين استغفروه ثانيا فإذا كان رحيما بمن يطيعه والرحمة توجب إيصال ما ينفعهم إليهم ودفع ما يضرهم عنهم فكيف يكون المأمور به مشتملا علي ضررهم دون منفعتهم معني المجيء إلي الرسول بعد مماته وقوله فجاؤوك المجيء إليه في حضوره معلوم كالدعاء إليه وأما في مغيبه ومماته فالمجيء إليه كالدعاء إليه والرد إليه قال تعالي {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ} النساء٦١ وقال تعالي {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ} النساء٥٩ وهو الرد والمجيء إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة وكذلك المجيء إليه لمن ظلم نفسه هو الرجوع إلى ما أمره به فإذا رجع إلي ما أمره به فإن الجائي إلى الشيء في حياته ممن ظلم نفسه يجيء إليه داخلا في طاعته راجعا عن معصيته كذلك في مغيبه ومماته واستغفار الله موجود في كل مكان وزمان وأما استغفار الرسول فإنه أيضا يتناول الناس في مغيبه و بعد مماته فإنه أمر بأن

يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وهو مطيع لله فيما أمره به والتائب داخل في الإيمان إذ المعصية تنقص الإيمان والتوبة من المعصية تزيد في الإيمان بقدرها فيكون له من استغفار النبي بقدر ذلك فأما مجيء الإنسان إلي الرسول عند قبره وقوله استغفر لي أو سل لي ربك أو ادعو لي أو قوله في مغيبه يا رسول الله ادع لي أو استغفر لي أو سل لي ربك كذا وكذا فهذا لا أصل له ولم يأمر الله بذلك ولا فعله واحد من سلف الأمة المعروفين في القرون الثلاثة ولا كان ذلك معروفا بينهم ولو كان هذا مما يستحب لكان السلف يفعلون ذلك ولكان ذلك معروفا فيهم بل مشهورا بينهم ومنقولا عنهم فإن مثل هذا إذا كان طريقا إلي غفران السيئات وقضاء الحاجات لكان مما تتوفر الهمم والدواعي علي فعله وعلي نقله لا سيما فيمن كانوا أحرص الناس علي الخير فإذا لم يعرف أنهم كانوا يفعلون ذلك ولا نقله أحد عنهم علم أنه لم يكن مما يستحب ويؤمر به بل المنقول الثابت عنه ما أمر الله به النبي من نهيه عن اتخاذ قبره عيدا ووثنا وعن اتخاذ القبور مساجد وأما ما ذكره بعض الفقهاء من حكاية العتبي عن الأعرابي الذي أتي قبر النبي وقال يا خير البرية إن الله يقول ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم وإني قد جئت وأنه رأي النبي في المنام وأمره أن يبشر الأعرابي فهذه الحكاية ونحوها مما يذكر في قبر النبي وقبر غيره من الصالحين فيقع مثلهما لمن في إيمانه ضعف وهو جاهل بقدر الرسول وبما امر به فإن لم يعف عن مثل هذا لحاجته وإلا اضطرب إيمانه وعظم نفاقه فيكون في ذلك بمنزلة المؤلفة بالعطاء في حياة النبي كما قال إني لأتألف رجالا بما في قلوبهم من الهلع والجزع وأكل رجالا إلي ما جعل الله في قلوبهم من الغني والخير مع أن أخذ ذلك المال مكروه لهم فهذه أيضا مثل هذه الحاجات وأما المشروع الذي وردت به سنته فهو دعاء المسلم ربه متوسلا به لا دعاؤه في مماته ومغيبه وهو أن يفعل كما في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه أن النبي علم رجلا أن يقول اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد يا نبي الله إني أتوسل بك إلي ربي في حاجتي ليقضيها اللهم شفعه في وذلك أن الله يقول {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} البقرة٢٥٥ وقال تعالي {مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ} السجدة٤ ثم قال تعالي {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} النساء٦٥ فأقسم بنفسه علي أنه نفي إيمان من لم يجمع أمرين تحكيمه فيما شجر بينهم ثم أن لا يجد في نفسه حرجا وهذا يوجب أنه ليس في أمره ونهيه ما يوجب الحرج لمن امتثل ذلك فإن حكمه لا بد فيه من أمر ونهي وإن كان فيه إباحة أيضا فلو كان المأمور به والمنهي عنه مضرة للعبد ومفسدة وألما بلا لذة راجحة لم يكن العبد ملوما علي وجود الحرج فيما هو مضرة له ومفسدة علي

المؤمن أن يحب ما أحب الله ويبغض ما أبغضه الله ويرضي بما قدره الله ولهذا لم يتنازع العلماء أن الرضا بما أمر الله به ورسوله واجب محبب لا يجوز كراهة ذلك وسخطه وأن محبة ذلك واجبة بحيث يبغض ما أبغضه الله ويسخط ما أسخطه الله من المحظور ويحب ما أحبه ويرضي ما رضيه الله من المأمور وإنما تنازعوا في الرضا بما يقدره الحق من الألم بالمرض والفقر فقيل هو واجب وقيل هو مستحب وهو أرجح والقولان في أصحاب الإمام احمد وغيرهم وأما الصبر علي ذلك فلا نزاع أنه واجب وقد قال تعالي في الأول {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ{٥٨} وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ{٥٩}التوبة٥٨-٥٩ فجعل من المنافقين من سخط فيما منعه الله إياه ورسوله وحضهم بأن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله والذي آتاه الله ورسوله يتناول ما أباحه دون ما حظره ويدخل في المباح العام ما أوجبه وما أحبه وإذا كان الصبر على الضراء ونحو ذلك مما أوجبه الله واحبه كما أوجب الشكر على النعماء وأحبه كان كل من الصبر والشكر مما يجب محبته وعمله فيكون ما قدر للمؤمن من سراء معها شكر وضراء معها صبرا خيرا له كما قال النبي لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن أن أصابته سراء فشكر كان خيرا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا و إذا له وإذا كان خيرا فالخير هو المنفعة والمصلحة الذي فيه النيعم وال كما تقدم فيكون كل مقدور قدر للعبد إذا عمل فيه بطاعة الله ورسوله خيرا له وإنما يكون شرا لمن عمل بمعصية الله ورسوله ومثل ذلك فهو بحسبه ونيته بلاء قد يعمل فيه بطاعة الله وقد يعمل فيه بمعصية الله فلا يوصف بواحد من الأمرين [١]

## الصحابة قد اجتمع بهم التابعون وتعلموا منهم

وقد علم كل من له علم بأحوال الصحابة والتابعين ان الصحابة قد اجتمع بهم التابعون وتعلموا منهم وتأدبوا بهم واستفادوا منهم وتخرجوا على أيديهم وصحبوا من صحبوه منهم وكانوا يستفيدون من جميع الصحابة وأصحاب ابن مسعود كانوا

---

[١] قاعدة في المحبة ج: ١ ص:١٨٤- ١٨٨

يأخذون من عمر وعلي وأبي الدرداء وغيرهم وكذلك أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه كانوا يأخذون عن ابن مسعود وغيره وكذلك أصحاب ابن عباس يأخذون عن ابن عمر وأبي هريرة وغيرهما وكذلك أصحاب زيد بن ثابت يأخذون عن أبي هريرة وغيره وقد انتفع بكل منهم من نفعه الله وكلهم متفقون على دين واحد وطريق واحدة وسبيل واحدة يعبدون الله ويطيعون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ومن بلغهم من الصادقين عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قبلوه ومن فهم من القرآن والسنة ما دل عليه القرآن والسنة استفادوه ومن دعاهم إلى الخير الذي يحبه الله ورسوله أجابوه ولم يكن أحد منهم يجعل شيخه ربا يستغيث به كالإله الذي يسأله ويرغب إليه ويعبده ويتوكل عليه ويستغيث به حيا وميتا ولا كالنبي الذي تجب طاعته في كل ما أمر فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه فإن هذا ونحوه دين النصارى الذين قال الله فيهم {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}التوبة٣١ وكانوا متعاونين على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان متواصين بالحق متواصين بالصبر والإمام والشيخ ونحوهما عندهم بمنزلة الإمام في الصلاة وبمنزلة دليل الحاج فالإمام يقتدى به المأمومون فيصلون بصلاته لا يصلى عنهم وهو يصلى بهم الصلاة التي أمر الله ورسوله بها فإن عدل عن ذلك سهوا أو عمدا لم يتبعوه ودليل الحاج يدل الوفد على طريق البيت ليسلكوه ويحجوه بأنفسهم فالدليل لا يحج عنهم وإن أخطأ الدلالة لم يتبعوه وإذا اختلف دليلان وإمامان نظر أيهما كان الحق معه اتبع فالفاصل بينهم الكتاب والسنة قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ وكل من الصحابة الذين سكنوا الأمصار أخذ عنه الناس الإيمان والدين[١]

## الإمام هو الذي يؤتم به

الإمام هو الذي يؤتم به وذلك على وجهين أحدهما أن يرجع إليه في العلم والدين بحيث يطاع باختيار المطيع لكونه عالما بأمر الله عز وجل آمرا به فيطيعه المطيع

---

[١]منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص:٤٨- ٤٩

لذلك وإن كان عاجزا عن إلزامه الطاعة والثاني أن يكون صاحب يد وسيف بحيث يطاع طوعا وكرها لكونه قادرا على إلزام المطيع بالطاعة وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ قد فسر بالأمراء بذوي القدرة كأمراء الحرب وفسر بأهل العلم والدين وكلاهما حق وهذان الوصفان كانا كاملين في الخلفاء الراشدين فإنهم كانوا كاملين في العلم والعدل والسياسة والسلطان وإن كان بعضهم أكمل في ذلك من بعض فأبو بكر وعمر أكمل في ذلك من عثمان وعلي وبعدهم لم يكمل أحد في هذه الأمور إلا عمر بن عبد العزيز بل قد يكون الرجل أكمل في العلم والدين ممن يكون له سلطان وقد يكون أكمل في السلطان ممن هو أعلم منه وأدين [1]

## جعل طاعة أولي الأمر داخلة في طاعة الرسول

وقال تعالى {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً{٢٧} يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً{٢٨} لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً{٢٩} الفرقان ٢٧ -٢٩ فالرسول وجبت طاعته لأنه من يطع الرسول فقد أطاع الله فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه ومن سوى الرسول من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك إنما تجب طاعتهم إذا كانت طاعتهم طاعة لله وهو إذا أمر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخلة في طاعة الرسول قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ فلم يقل وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولي الأمر منكم بل جعل طاعة أولي الأمر داخلة في طاعة الرسول وطاعة الرسول طاعة لله وأعاد الفعل في طاعة الرسول دون طاعة أولي الأمر فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله فليس لأحد إذا أمره الرسول بأمر أن ينظر هل أمر الله به أم لا بخلاف أولي الأمر فإنهم قد يأمرون بمعصية الله فليس كل من أطاعهم مطيعا لله بل لا بد فيما يأمرون به أن يعلم أنه ليس معصية لله وينظر هل أمر الله به أم لا سواء كان أولي الأمر من العلماء أو الأمراء ويدخل في هذا تقليد العلماء وطاعة أمراء السرايا وغير ذلك وبهذا يكون الدين كله قال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه}الأنفال٣٩

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ١٠٧

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ثم إن كثيرا من الناس يحب خليفة أو عالما أو شيخا أو أميرا فيجعله ندا لله وإن كان قد يقول إنه يحبه لله فمن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه وإن خالف أمر الله ورسوله فقد جعله ندا وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح ويدعوه ويستغيث به ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه مع إيجابه طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه ويقيمه مقام الله ورسوله فهذا من الشرك الذي يدخل أصحابه في قوله تعالى{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ}البقرة١٦٥ فالتوحيد والإشراك يكون في أقوال القلب ويكون في أعمال القلب ولهذا قال الجنيد التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب أراد بذلك التوحيد الذي هو التصديق فإنه لما قرنه بالتوكل جعله أصله وإذا أفرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله والتوكل من تمام التوحيد وهذا كلفظ الإيمان فإنه إذا أفرد دخلت فيه الأعمال الباطنة والظاهرة وقيل الإيمان قول وعمل أي قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها قول لاإله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان ومنه قوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}الحجرات١٥ وقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {٣} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً {٤} الأنفال٣-٤ وقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ}النور٦٢ [1]

## "صنفان إذا صلحوا صلح الناس "

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٢١-٣٢٢ و مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٢٦٦-٢٦٨ و مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣١٦

قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}الحديد٢٥ فأخبر أنه أرسل الرسل وأنزل الكتاب والميزان لأجل قيام الناس بالقسط وذكر أنه أنزل الحديد الذي به ينصر هذا الحق فالكتاب يهدي والسيف ينصر وكفى بربك هاديا ونصيرا ولهذا كان قوام الناس بأهل الكتاب وأهل الحديد كما قال من قال من السلف صنفان إذا صلحوا صلح الناس الأمراء والعلماء وقالوا في قوله تعالى {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ أقوالا تجمع العلماء والأمراء ولهذا نص الإمام أحمد وغيره على دخول الصنفين في هذه الآية إذ كل منهما تجب طاعته فيما يقوم به من طاعة الله وكان نواب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته كعلي ومعاذ وأبي موسى وعتاب بن أسيد وعثمان بن أبي العاص وأمثالهم يجمعون الصنفين وكذلك خلفاؤه من بعده كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونوابهم ولهذا كانت السنة أن الذي يصلي بالناس صاحب الكتاب وهو الذي يقوم بالجهاد صاحب الحديد إلى أن تفرق الأمر بعد ذلك فإذا تفرق صار كل من قام بأمر الحرب من جهاد الكفار وعقوبات الفجار يجب أن يطاع فيما أمر به من طاعة الله في ذلك وكذلك من قام بجمع الأموال وقسمها يجب أن يطاع فيما يأمر به من طاعة الله في ذلك وكذلك من قام بالكتاب بتبليغ أخباره وأوامره وبيانها يجب أن يصدق ويطاع فيما أخبر به من الصدق في ذلك وفيما يأمر به من طاعة الله في ذلك والمقصود هنا أن المقصود بذلك كله هو أن يقوم الناس بالقسط ولهذا لما كان المشركون يحرمون أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ويأمرون بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان أنزل الله في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما يذمهم على ذلك وذكر ما أمر به هو وما حرمه هو فقال {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}الأعراف٢٩ وقال تعالى {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}الأعراف٣٣ وهذه الآية تجمع أنواع المحرمات كما قد بيناه في غير هذا الموضع وتلك الآية تجمع أنواع الواجبات كما بيناه أيضا وقوله {أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}الأعراف٢٩ أمر مع القسط بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وهذا أصل الدين وضده هو الذنب الذي لا يغفر قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن

يَشَاءُ}النساء٤٨ وهو الدين الذي أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به إلى جميع الأمم [1]

واذا كان الامر والنهي من لوازم وجود بني آدم فمن لم يأمر بالمعروف الذي امر الله به ورسوله وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله ويؤمر بالمعروف الذي امر الله به ورسوله وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله وإلا فلا بد من ان يأمر وينهى ويؤمر وينهى اما بما يضاد ذلك واما بما يشترك فيه الحق الذي انزله الله بالباطل الذي لم ينزله الله واذا اتخذ ذلك دينا كان دينا مبتدعا ضالا باطلا وهذا كما ان كل بشر فإنه حي متحرك بإرادته همام حارث فمن لم تكن نيته صالحة وعمله عملا صالحا لوجه الله والا كان عملا فاسدا او لغير وجه الله وهو الباطل كما قال تعالى {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}الليل٤ وهذه الاعمال كلها باطلة من جنس أعمال الكفار {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً}الفرقان٢٣ وقد امر الله تعالى في كتابه بطاعته وطاعة رسوله وطاعة اولي الأمر من المؤمنين كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ وأولوا الامر اصحاب الامر وذووه وهم الذين يأمرون الناس وينهونهم وذلك يشترك فيه اهل اليد والقدرة واهل العلم والكلام فلهذا كان اولو الامر صنفين العلماء والامراء فاذا صلحوا صلح الناس واذا فسدوا فسد الناس كما قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه للأحمسية لما سألته ما بقاؤنا على هذا الامر الصالح قال ما استقامت لكم ائمتكم ويدخل فيهم الملوك والمشايخ واهل الديوان وكل من كان متبوعا فإنه من اولى الامر وعلى كل واحد من هؤلاء ان يأمر بما امر الله به وينهى عن ما نهى الله عنه وعلى كل واحد ممن عليه طاعته ان يطيعه في طاعة الله ولا يطيعه في معصية الله كما قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه حين تولى امر المسلمين وخطبهم فقال في خطبته ايها الناس القوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق والضعيف فيكم القوي عندي حتى آخذ له الحق اطيعوني ما اطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم [2]

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤١٤-٤١٥ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٥٧-١٥٩

[2] الاستقامة ج: ٢ ص: ٢٩٥-٢٩٧ و مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٧٠

# ليس احد معصوما الا رسول الله

إنما يجب على الناس طاعة الله والرسول وهؤلاء أولوا الأمر الذين أمر الله بطاعتهم فى قوله {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ إنما تجب طاعتهم تبعا لطاعة الله ورسوله لا استقلالا ثم قال {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ وإذا نزلت بالمسلم نازلة فانه يستفتى من اعتقد أنه يفتيه بشرع الله ورسوله من أي مذهب كان ولا يجب على أحد من المسلمين تقليد شخص بعينه من العلماء فى كل ما يقول ولا يجب على أحد من المسلمين التزام مذهب شخص معين غير الرسول في كل ما يوجبه ويخبر به بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباع شخص لمذهب شخص بعينه لعجزه عن معرفة الشرع من غير جهته إنما هو مما يسوغ له ليس هو مما يجب على كل أحد اذا أمكنه معرفة الشرع بغير ذلك الطريق بل كل أحد عليه أن يتقى الله ما استطاع ويطلب علم ما أمر الله به ورسوله فيفعل المأمور ويترك المحظور والله أعلم و قد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع أن الله سبحانه وتعالى فرض على الخلق طاعته وطاعة رسوله ولم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه فى كل ما يأمر به وينهى عنه الا رسول الله حتى كان صديق الأمة وأفضلها بعد نبيها يقول أطيعونى ما أطعت الله فاذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم واتفقوا كلهم على أنه ليس احد معصوما فى كل ما يأمر به وينهى عنه الا رسول الله ولهذا قال غير واحد من الأئمة كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهؤلاء الائمة الاربعة رضى الله عنهم قد نهوا الناس عن تقليدهم فى كل ما يقولونه وذلك هو الواجب عليهم فقال ابو حنيفة هذا رأيى وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأى خير منه قبلناه ولهذا لما اجتمع أفضل أصحابه ابو يوسف بمالك فسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضروات ومسألةالأجناس فاخبره مالك بما تدل عليه السنة فى ذلك فقال رجعت الى قولك يا أبا عبدالله ولو رأى صاحبى ما رايت لرجع الى قولك كما رجعت ومالك كان يقول انما انا بشر اصيب واخطىء فاعرضوا قولى على الكتاب والسنة أوكلاما هذا معناه والشافعى كان يقول اذا صح الحديث فاضربوا بقولى الحائط واذا رايت الحجة موضوعه على الطريق فهى قولى وفى

مختصر المزنى مما ذكر أنه اختصره من مذهب الشافعى لمن اراد معرفة مذهبه قال مع اعلامه نهيه وعن تقليده وتقليد غيره من العلماء والامام احمد كان يقول لا تقلدونى ولا تقلدوا مالكا ولا الشافعى ولا الثورى وتعلموا كما تعلمنا وكان يقول من قلة علم الرجل ان يقلد دينه الرجال وقال لا تقلد دينك الرجال فانهم لن يسلموا من ان يغلطوا وقد ثبت فى الصحيح عن النبى أنه قال من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ولازم ذلك أن من لم يفقهه الله في الدين لم يرد به خيرا فيكون التفقه فى الدين فرضا والتفقه فى الدين معرفة الاحكام الشرعية بأدلتها السمعية فمن لم يعرف ذلك لم يكن متفقها فى الدين لكن من الناس من قد يعجز عن معرفة الأدلة التفصلية فى جمبيع أموره فيسقط عنه ما يعجز عن معرفته لا كل ما يعجز عنه من التفقه ويلزمه ما يقدر عليه وأما القادر على الاستدلال فقيل يحرم عليه التقليد مطلقا وقيل يجوز مطلقا وقيل يجوز عند الحاجة كما اذا ضاق الوقت عن الاستدلال وهذا القول أعدل الأقوال والاجتهاد ليس هو أمرا واحدا لا يقبل التجزي والانقسام بل قد يكون الرجل مجتهدا فى فن أو باب أو مسألة دون فن وباب ومسألة وكل أحد فاجتهاده بحسب وسعه فمن نظر فى مسألة تنازع العلماء فيها ورأى مع أحد القولين نصوصا لم يعلم لها معارضا بعد نظر مثله فهو بين أمرين إما أن يتبع قول القائل الآخر لمجرد كونه الامام الذى اشتغل على مذهبه ومثل هذا ليس بحجة شرعية بل مجرد عادة يعارضها عادة غيره واشتغال على مذاهب إمام آخر وإما أن يتبع القول الذي ترجح فى نظره بالنصوص الدالة عليه وحينئذ فتكون موافقته لامام يقاوم ذلك الامام وتبقى النصوص سالمة فى حقه عن المعارض بالعمل فهذا هو الذي يصلح وانما تنزلنا هذا التنزيل لانه قد يقال إن نظر هذا قاصر وليس اجتهاده قائما فى هذه المسأله لضعف آلة الاجتهاد فى حقه أما اذا قدر على الاجتهاد التام الذي يعتقد معه أن القول الآخر ليس معه ما يدفع به النص فهذا يجب عليه اتباع النصوص وان لم يفعل كان متبعا للظن وما تهوى الانفس وكان من اكبر العصاة لله ولرسوله بخلاف من يقول قد يكون للقول الآخر حجة راجحة على هذا النص وأنا لا أعلمها فهذا يقال له قد قال الله تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ وقال النبى صلى الله عليه وسلم إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم والذي تستطيعه من العلم والفقه فى هذه المسألة قد دلك على أن هذا القول هو الراجح فعليك أن تتبع ذلك ثم إن تبين لك فيما بعد أن للنص معارضا راجحا كان حكمك في ذلك حكم المجتهد المستقل اذا تغير اجتهاده وانتقال الانسان من قول الى قول لأجل ما تبين له من الحق هو محمود فيه بخلاف إصراره على قولا لا حجة معه عليه وترك القول الذي وضحت حجته أو الانتقال عن قول الى قول لمجرد عادة واتباع هوى فهذا مذموم واذا كان الامام المقلد قد

سمع الحديث وتركه لا سيما إذا كان قد رواه أيضا فمثل هذا وحده لا يكون عذرا فى ترك النص فقد بينا فيما كتبناه فى رفع الملام عن الأئمة الأعلام نحو عشرين عذرا للأئمة فى ترك العمل ببعض الحديث وبينا أنهم يعذرون فى الترك لتلك الأعذار وأما نحن فمعذرون فى تركها لهذا القول فمن ترك الحديث لاعتقاده أنه لم يصح أو أن روايه مجهول ونحو ذلك ويكون غيره قد علم صحته وثقة رواية فقد زال عذر ذلك فى حق هذا ومن ترك الحديث لاعتقاده أن ظاهر القرآن يخالفه أو القياس أو عمل لبعض الأمصار وقد تبين للآخر أن ظاهر القرآن لا يخالفه وان نص الحديث الصحيح مقدم على الظواهر ومقدم على القياس والعمل لم يكن عذر ذلك الرجل عذرا فى حقه فان ظهور المدارك الشرعية للأذهان وخفاءها عنها أمر لا ينضبط طرفاه لا سيما اذا كان التارك للحديث معتقدا أنه قد ترك العمل به المهاجرون والأنصار وأهل المدينة النبوية وغيرها الذين يقال انهم لا يتركون الحديث الا لاعتقادهم أنه منسوخ أو معارض براجح وقد بلغ من بعده أن المهاجرين والأنصار لم يتركوه بل عمل به طائفه منهم أو من سمعه منهم ونحو ذلك مما يقدح فى هذا المعارض للنص وإذا قيل لهذا المستهدي المسترشد أنت أعلم أم الامام الفلاني كانت هذه معارضة فاسدة لأن الامام الفلاني قد حالفه فى هذه المسألة من هو نظيره من الأئمة ولست أعلم من هذا ولا هذا ولكن نسبة هؤلاء الى الأئمة كنسبة أبى بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي ومعاذ ونحوهم الى الأئمة وغيرهم فكما أن هؤلاء الصحابة بعضهم لبعض اكفاء فى موارد النزاع وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه الى الله والرسول وان كان بعضهم قد يكون أعلم في مواضع آخر فكذلك موارد النزاع بين الأئمة وقد ترك الناس قول عمر وابن مسعود في مسألة تيمم الجنب وأخذوا بقول من هو دونهما كأبى موسى الأشعري وغيره لما احتج بالكتاب والسنة وتركوا قول عمر في دية الأصابع وأخذوا بقول معاوية لما كان معه من السنة أن النبى قال هذه وهذه سواء وقد كان بعض الناس يناظر ابن عباس فى المتعة فقال له قال أبو بكر وعمر فقال ابن عباس يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول قال رسول الله وتقولون قال أبو بكر وعمر وكذلك ابن عمر لما سألوه عنها فأمر بها فعارضوا بقول عمر فتبين لهم أن عمر لم يرد ما يقولونه فألحوا عليه فقال لهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن يتبع أم أمر عمر مع علم الناس أن أبا بكر وعمر أعلم ممن هو فوق ابن عمر وابن عباس ولو فتح هذا الباب لوجب أن يعرض عن أمر الله ورسوله ويبقى كل امام فى اتباعه بمنزلة النبى صلى الله عليه وسلم فى أمته وهذا تبديل للدين يشبه ما عاب الله به النصارى فى قوله {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً

وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}التوبة٣١   والله سبحانه وتعالى أعلم والحمد لله وحده [1]

ان المذكور عن سلف الأمة وأئمتها من المنقولات ينبغى للانسان ان يميز بين صحيحه وضعيفه كما ينبغى مثل ذلك فى المعقولات والنظريات وكذلك فى الأذواق والمواجيد والمكاشفات والمخاطبات فان كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة فيها حق وباطل ولا بد من التمييز فى هذا وهذا      وجماع ذلك أن ما وافق كتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه وما كان عليه أصحابه فهو حق وما خالف ذلك فهو باطل فان الله يقول   {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩   وقال تعالى   {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}البقرة٢١٣ وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله      كان إذا قام من الليل يقول اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم [2]

## "فإن استقمت فأعينوني وإن زغت فقوموني"

قال الرافضي (الرافضي (صاحب كتاب منهاج الكرامة في معرفة الإمامة)) أن الكلبي صنف كتابا في المثالب وقد ذكر غيره منها أشياء كثيرة ونحن نذكر منها شيئا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٢٠٨-٢١٦ و مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٢٥١ و منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٣٨١ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٤٦١

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥٨٢

يسيرا منها ما رووه عن أبي بكر أنه قال على المنبر إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتصم بالوحي وإن لي شيطانا يعتريني فإن استقمت فأعينوني وإن زغت فقوموني وكيف يجوز إمامة من يستعين بالرعية على تقويمه مع أن الرعية تحتاج إليه والجواب أن يقال هذا الحديث من أكبر فضائل الصديق رضي الله عنه وأدلها على أنه لم يكن يريد علوا في الأرض ولا فسادا فلم يكن طالب رياسة ولا كان ظالما وإنه إنما كان يأمر الناس بطاعة الله ورسوله فقال لهم إن استقمت على طاعة الله فأعينوني عليها وإن زغت عنها فقوموني كما قال أيضا أيها الناس أطيعوني ما أطعت الله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم والشيطان الذي يعتريه يعترى جميع بني آدم فإنه ما من أحد إلا وقد وكل الله به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من أحد إلا وقد وكل الله به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن قيل وأنت يا رسول الله قال وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير وفي الصحيح عنه قال لما مر به بعض الأنصار وهو يتحدث مع صفية ليلا قال على رسلكما إنها صفية بنت حيي ثم قال إني خشيت أن يقذف الشيطان في قلوبكما شيئا إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ومقصود الصديق بذلك إني لست معصوما كالرسول صلى الله عليه وسلم وهذا حق وقول القائل كيف تجوز إمامة من يستعين على تقويمه بالرعية كلام جاهل بحقيقة الإمامة فإن الإمام ليس هو ربا لرعيته حتى يستغني عنهم ولا هو رسول الله إليهم حتى يكون هو الواسطة بينهم وبين الله وإنما هو والرعية شركاء يتعاونون هم وهو على مصلحة الدين والدنيا فلا بد له من إعانتهم ولا بد لهم من إعانته كأمير القافلة الذي يسير بهم في الطريق إن سلك بهم الطريق اتبعوه وإن أخطأ عن الطريق نبهوه وأرشدوه وإن خرج عليهم صائل يصول عليهم تعاون هو وهم علي دفعه لكن إذا كان أكملهم علما وقدرة ورحمة كان ذلك أصلح لأحوالهم وكذلك إمام الصلاة إن استقام صلوا بصلاته وإن سها سبحوا به فقوموه إذا زاغ وكذلك دليل الحاج إن مشى بهم في الطريق مشوا خلفه وإن غلط قوموه والناس بعد الرسول لا يتعلمون الدين من الإمام بل الأئمة والأمة كلهم يتعلمون الدين من الكتاب والسنة ولهذا لم يأمر الله عند التنازع برد الأمر إلى الأئمة بل قال تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ فأمر بالرد عند التنازع إلى الله والرسول لا إلى الأئمة وولاة الأمور وإنما أمر بطاعة ولاة الأمور تبعا لطاعة الرسول ولهذا

قال النبي صلى الله عليه وسلم إنما الطاعة في المعروف وقال لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وقال من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه [١]

## الإجماع دليل على النص

ما من حكم اجتمعت الأمة عليه إلا وقد دل عليه النص فالإجماع دليل على نص موجود معلوم عند الأئمة ليس مما درس علمه والناس قد اختلفوا في جواز الإجماع عن اجتهاد ونحن نجوز أن يكون بعض المجمعين قال عن اجتهاد لكن لا يكون النص خافيا على جميع المجتهدين وما من حكم يعلم أن فيه إجماعا إلا وفي الأمة من يعلم أن فيه نصا وحينئذ فالإجماع دليل على النص ولهذا قال تعالى {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً}النساء١١٥ فعلق الوعيد بمشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين مع العلم بأن مجرد مشاقة الرسول توجد الوعيد ولكن هما متلازمان فلهذا علقه بهما كما كما يعلقه بمعصية الله ورسوله وهما متلازمان أيضا فنحن نذكر بعض ما يستدل به على الإجماع مطلقا ويستدل به على من يقول قد لا يكون معه نص كقوله تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}آل عمران١١٠ فهذا يقتضي أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر ومن المعلوم أن إيجاب ما أوجبه الله وتحريم ما حرمه الله هو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل هو نفسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيجب أن يوجبوا كل ما أوجبه الله ورسوله ويحرموا كل ما حرمه الله ورسوله وحينئذ فيمتنع أن يوجبوا حراما ويحرموا واجبا بالضرورة فإنه لا يجوز عليهم السكوت عن الحق في ذلك فكيف نجوز السكوت عن الحق والتكلم بنقيضه من الباطل ولو فعلوا ذلك لكانوا قد أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف وهو خلاف النصر وأيضا فقوله تعالى {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}التوبة٧١ والاستدلال به كما تقدم وأيضا فقوله تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}البقرة١٤٣ وقوله {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٤٦١

عَلَى النَّاسِ}الحج٧٨ ومن جعلهم الرب شهداء على الناس فلا بد أن يكونوا عالمين بما يشهدون به ذوي عدل في شهادتهم فلو كانوا يحللون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ويوجبون ما عفا الله عنه ويسقطون ما أوجبه الله لم يكونوا كذلك وكذلك إذا كانوا يجرحون الممدوح ويمدحون المجروح فإذا شهدوا أن أبا بكر أحق بالإمامة وجب أن يكونوا صادقين في هذه الشهادة عالمين بما شهدوا به وكذلك إذا شهدوا أن هذا مطيع لله وهذا عاص لله وهذا فعل ما يستحق عليه الثواب وهذا فعل ما يستحق عليه العقاب وجب قبول شهادتهم فإن الشهادة على الناس تتناول الشهادة بما فعلوه من مذموم ومحمود والشهادة بأن هذا مطيع وهذا عاص هي تتضمن الشهادة بأفعالهم وأحكام أفعالهم وصفاتهم وهو المطلوب وفي الصحيحين عن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال وجبت ومر عليه بجنازة فأثنوا عليها شرا فقال وجبت فقيل يا رسول الله ما قولك وجبت قال هذه الجنازة أثنيتم عليها خيرا فقلت وجبت لها الجنة وهذه الجنازة أثنيتم عليها شرا فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله في الأرض وأيضا فقوله {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً}النساء١١٥فإنه توعد على المشاقة للرسول واتباع غير سبيل المؤمنين وذلك يقتضي أن كلا منهما مذموم فإن مشاقة الرسول وحدها مذمومة بالإجماع فلو لم يكن الآخر مذموما لكان قد رتب الوعيد على وصفين مذموم وغير مذموم وهذا لا يجوز ونظير هذا قوله تعالى {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً{٦٨} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً{٦٩} الفرقان ٦٨ -٦٩ فإنه يقتضي أن كل واحد من الخصال الثلاثة مذموم شرعا وحينئذ فإذا كان المؤمنون قد أوجبوا أشياء وحرموا أشياء فخالفهم مخالف وقال إن ما أوجبوه ليس بواجب وما حرموه ليس بحرام فقد اتبع غير سبيلهم لأن المراد بسبيلهم اعتقاداتهم وأفعالهم وإذا كان كذلك كان مذموما ولو لم يكن سبيلهم صوابا وحقا لم يكن المخالف لهم مذموما وأيضا فقوله تعالى {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ فجعل وجوب الرد إلى الله والرسول معلقا بالتنازع والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدمه فعلم أنه عند انتفاء التنازع لا يجب الرد إلى الله ورسوله فدل على أن إجماعهم إنما يكون على حق وصواب فإنه لو كان على باطل وخطأ لم يسقط عنهم وجوب الرد الى الكتاب والسنة لأجل باطلهم وخطئهم ولأن أمر الله ورسوله حق حال إجماعهم ونزاعهم فإذا لم يجب الرد عليه عند الإجماع دل على أن الإجماع موافق له لا مخالف له فلما كان المستدل بالإجماع متبعا له في نفس

الأمر لم يحتج إلى الرد إليه وأيضا قوله تعالى {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ}آل عمران١٠٣ أمرهم بالاجتماع ونهاهم عن الافتراق فلو كان في حال الاجتماع قد يكونون مطيعين لله تارة وعاصين له أخرى لم يجز أن يأمر به إلا إذا كان اجتماعا على طاعة والله أمر به مطلقا ولأنه لو كان كذلك لم يكن فرق بين الإجتماع والإفتراق لأن الإفتراق إذا كان معه طاعة كان مأمورا به مثل أن يكون الناس نوعين نوع يطيع الله ورسوله ونوع يعصيه فإنه يجب أن يكون مع المطيعين وإن كان في ذلك فرقة فلما أمرهم بالاجتماع دل على أنه مستلزم لطاعة الله [١]

## الله سبحانه عصم هذه الأمة ولم يعصم آحادها

وهنا أصل يجب اعتماده وذلك أن الله سبحانه عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ولم يعصم آحادها من الخطأ لا صديقا ولا غير صديق لكن إذا وقع بعضها في خطأ فلا بد أن يقيم الله فيها من يكون على الصواب في ذلك الخطأ لأن هذه الأمة شهداء على الناس وهم شهداء الله في الارض وهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فلا بد أن تأمر بكل معروف وتنهى عن كل منكر فإذا كان فيها من يأمر بمنكر متأولا فلا بد أن يكون فيها من يأمر بذلك المعروف فأما الاحتجاج بفعل طائفة من الصديقين في مسألة نازعهم فيها أعدائهم فباطل بل لو كان المنازع لهم أقل منهم عددا وأدنى منزلة لم تكن الحجة مع أحدهما إلا بكتاب الله وسنة رسوله فإنه بذلك أمرت الامة كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ فإذا تنازعت الأمة وولاه الأمور من الصديقين وغيرهم فعليهم جميعهم أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله [٢]

## أبطل الرد الى امام مقلد أو قياس عقلى فاضل

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص:٣٤٥- ٣٤٩

[٢] الاستقامة ج: ١ ص: ٣٠٠

في الإكتفاء بالرسالة والإستغناء بالنبى عن إتباع ما سواه إتباعا عاما وأقام الله الحجة على خلقه برسله فقال تعالى{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}النساء١٦٣ الى قوله {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ فدلت هذه الآية على أنه لا حجة لهم بعد الرسل بحال وأنه قد يكون لهم حجة قبل الرسل ف الأول يبطل قول من أحوج الخلق الى غير الرسل حاجة عامة كالأئمة و الثانى يبطل قول من أقام الحجة عليهم قبل الرسل من المتفلسفة والمتكلمة وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ فأمر بطاعة أولي الأمر من العلماء والأمراء إذا لم يتنازعوا وهو يقتضى أن إتفاقهم حجة وأمرهم بالرد عند التنازع الى الله والرسول فأبطل الرد الى امام مقلد أو قياس عقلى فاضل وقال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ}البقرة٢١٣ فبين أنه بالكتاب يحكم بين أهل الأرض فيما اختلفوا فيه وقال تعالى {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}الشورى١٠ وقال تعالى {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ}العنكبوت٥١ فزجر من لم يكتف بالكتاب المنزل وقال تعالى {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي}الأنعام١٣٠ الآيات وقال تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ وقال تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}الزمر٧١ الآيات وقال تعالى {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ {٨} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{٩}الملك٨ -٩ فدلت هذه الآيات على أن من أتاه الرسول فخالفه فقد وجب عليه العذاب وإن لم يأته إمام ولا قياس وأنه لا يعذب أحد حتى يأتيه الرسول وإن أتاه إمام أو قياس وقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤}النساء١٣-١٤ الآية وقد ذكر سبحانه هذا المعنى فى غير موضع فبين أن طاعة الله ورسوله موجبة للسعادة وان معصية الله موجبة للشقاوة وهذا يبين أن مع طاعة الله ورسوله لا يحتاج الى طاعة إمام أو قياس ومع معصية الله ورسوله لا ينفع طاعة إمام أو قياس ودليل هذا الأصل كثير فى

الكتاب والسنة وهو أصل الاسلام شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله وهو متفق عليه بين الذين أوتوا العلم والايمان قولا واعتقادا وإن خالفه بعضهم عملا وحالا فليس عالم من المسلمين يشك فى أن الواجب على الخلق طاعة الله ورسوله وان ما سواه إنما تجب طاعته حيث أوجبها الله ورسوله وفى الحقيقة فالواجب في الأصل إنما هو طاعة الله لكن لا سبيل إلى العلم بمأموره وبخبره كله إلا من جهة الرسل والمبلغ عنه اما مبلغ امره وكلماته فتجب طاعته وتصديقه فى جميع ما أمر وأخبر وأما ماسوى ذلك فإنما يطاع في حال دون حال كالأمراء الذين تجب طاعتهم فى محل ولايتهم ما لم يأمروا بمعصية الله والعلماء الذين تجب طاعتهم على المستفتى والمأمور فيما أوجبوه عليه مبلغين عن الله أو مجتهدين اجتهادا تجب طاعتهم فيه على المقلد ويدخل فى ذلك مشائخ الدين ورؤساء الدنيا حيث أمر بطاعتهم كاتباع أئمة الصلاة فيها وأتباع أئمة الحج فيه واتباع امراء الغزو فيه واتباع الحكام في احكامهم واتباع المشايخ المهتدين فى هديهم ونحو ذلك والمقصود بهذا الأصل أن من نصب إماما فأوجب طاعته مطلقا اعتقادا أو حالا فقد ضل فى ذلك كائمة الضلال الرافضة الامامية حيث جعلوا في كل وقت إماما معصوما تجب طاعته فإنه لا معصوم بعد الرسول ولا تجب طاعة أحد بعده فى كل شيء والذين عينوهم من أهل البيت منهم من كان خليفة راشدا تجب طاعته كطاعة الخلفاء قبله وهو علي ومنهم أئمة فى العلم والدين يجب لهم ما يجب لنظرائهم من أئمة العلم والدين كعلى بن الحسين وأبى جعفر الباقر وجعفر إبن محمد الصادق ومنهم دون ذلك وكذلك من دعا لاتباع شيخ من مشايخ الدين فى كل طريق من غير تخصيص ولا استثناء وأفرده عن نظرائه كالشيخ عدي والشيخ أحمد والشيخ عبد القادر والشيخ حيوة ونحوهم وكذلك من دعا إلى اتباع امام من أئمة العلم فى كل ما قاله وأمر به ونهى عنه مطلقا كالأئمة الأربعة وكذلك من أمر بطاعة الملوك والأمراء والقضاة والولاة فى كل ما يأمرون وينهون عنه من غير تخصيص ولا استثناء لكن هؤلاء لا يدعون العصمة لمتبوعيهم الاعالية اتباع المشايخ كالشيخ عدي وسعد المديني بن حمويه ونحوهما فإنهم يدعون فيهم نحوا مما تدعيه الغالية فى أئمة بني هاشم من العصمة ثم من الترجيح على النبوة ثم من دعوى الالهية وأما كثير من أتباع أئمة العلم ومشايخ الدين فحالهم وهواهم بضاهي حال من يوجب اتباع متبوعه لكنه لا يقول ذلك بلسانه ولا يعتقده علما فحاله يخالف اعتقاده بمنزلة العصاة أهل الشهوات وهؤلاء أصلح ممن يرى وجوب ذلك ويعتقده وكذلك اتباع الملوك والرؤساء هم كما أخبر الله عنهم بقوله {إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا}الأحزاب٦٧ فهم مطيعون حالا وعملا وانقيادا وأكثرهم من غير عقيدة دينية

وفيهم من يقرن بذلك عقيدة دينية ولكن طاعة الرسول إنما تمكن مع العلم بما جاء به والقدرة على العمل به فإذا ضعف العلم والقدرة صار الوقت وقت فترة في ذلك الأمر فكان وقت دعوة ونبوة فى غيره فتدبر هذا الأصل فإنه نافع جدا والله أعلم وكذا من نصب القياس أو العقل أو الذوق مطلقا من أهل الفلسفة والكلام والتصوف أو قدمه بين يدي الرسول من أهل الكلام والرأي والفلسفة والتصوف فإنه بمنزلة من نصب شخصا فالاتباع المطلق دائر مع الرسول وجودا وعدما [١]

## "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"

يجب طاعة الله ورسوله وطاعة أولي الأمر إذا أمروا بطاعة الله فإذا أمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق هكذا دل عليه الكتاب والسنة واتفق عليه أئمة الأمة قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ وقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال لا طاعة لمخلوق في معصية الله إنما الطاعة في المعروف وأن أصبر على جور الأئمة وأن لا أخرج عليهم في فتنة لما في الصحيح عن ابن عباس قال قال رسول الله من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فمات فميتته جاهلية ومأمور أيضا مع ذلك أن أقول أو أقوم بالحق حيث ما كنت لا أخاف في الله لومة لائم كما أخرجا في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في يسرنا وعسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقول أو نقوم بالحق حيث ما كنا لا نخاف في الله لومة لائم فبايعهم على هذه الأصول الثلاثة الجامعة وهي الطاعة في طاعة الله وإن كان الآمر ظالما وترك منازعة الأمر أهله والقيام بالحق بلا مخافة من الخلق والله سبحانه قد أمر في كتابه عند تنازع الأمة بالرد إلى الله ورسوله لم يأمر عند التنازع إلى شيء معين أصلا وقد قال الأئمة إن أولي الأمر صنفان العلماء والأمراء وهذا يدخل فيه مشائخ الدين وملوك المسلمين كل منهم يطاع فيما إليه من الأمر كما يطاع هؤلاء بما يؤمرون به من العبادات ويرجع إليهم في معاني القرآن والحديث

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٦٧-٧١ و الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ١٦٠

والإخبار عن الله وكما يطاع هؤلاء في الجهاد وإقامة الحد وغير ذلك مما يباشرونه من الأفعال التي أمرهم الله بها وإذا اتفق هؤلاء على أمر فإجماعهم حجة قاطعة فإن أمة محمد لا تجتمع على ضلالة وإن تنازعوا فالمرد إلى الكتاب والسنة [١]

وأولوا الأمر هم العلماء والأمراء فإذا أمروا بما أمر الله به ورسوله وجبت طاعتهم وإن تنازع الناس في شيء وجب رده إلى الله والرسول لا يرد إلى أحد دون الرسل الذين أرسلهم الله ومن أرسله رسول الله وجبت طاعته على الناس فيما يبلغه عن رسول الله كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى أميري فقد عصاني فبين أن أميره إنما تجب طاعته في المعروف الذي أمر الله به ورسوله لا في كل ما يأمر به ففي الصحيحين عن علي أن رسول الله بعث جيشا وأمر عليهم رجلا وأمرهم أن يسمعوا ويطيعوا فأغضبوه فقال اجمعوا لي حطبا فجمعوا له ثم قال أوقدوا نارا فأوقدوا نارا ثم قال ألم يأمركم رسول الله أن تسمعوا لي وتطيعوا قالوا بلى قال فادخلوها فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا إنما فررنا إلى رسول الله من النار فكانوا كذلك حتى سكن غضبه فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله وقال لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا وقال لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف وفي الصحيحين عن عبدالله بن عمر عن النبي أنه قال على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع وطاعة [٢]

فمن أوجب طاعة أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما يأمر به وأوجب تصديقه في كل ما يخبر به وأثبت عصمته أو حفظه في كل ما يأمر به ويخبر من الدين فقد جعل فيه من المكافأة لرسول الله والمضاهأة له في خصائص الرسالة بحسب ذلك سواء جعل ذلك المضاهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة أو بعض القرابة أو بعض الأئمة والمشايخ أو الأمراء من الملوك وغيرهم وقد قال الله في كتابه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٢٤٩ و مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣١٦

[٢] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٣٨

تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ فغاية المطاع بإذن الله أن يكون من أولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم من العلماء والأمراء ومن يدخل في ذلك من المشايخ والملوك وكل متبوع فإن الله تعالى أمر بطاعتهم مع طاعة رسوله كما قال أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فلم يقل وأطيعوا أولي الأمر ليبين أن طاعتهم فيما كان طاعة للرسول أيضا إذا اندراج الرسول في طاعة الله أمر معلوم فلم يكن تكرير لفظ الطاعة فيه مؤذنا بالفرق بخلاف ما لو قيل أطيعوا الرسول وأطيعوا أولى الأمر منكم فإنه قد يوهم طاعة كل منهما على حياله وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال إنما الطاعة في المعروف وقال لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وقال على المرء المسلم الطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة ولهذا قال سبحانه بعد ذلك {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ فلم يأمر عند التنازع إلى بالرد إلى الله والرسول دون الرد لى أولى الأمر ولهذا كان أولو الأمر إذا اجتمعوا لا يجتمعون على ضلالة فإذا تنازعوا فالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله لا إلى غير ذلك من عالم أو أمير ومن يدخل في ذلك من المشايخ والملوك وغيرهم ولو كان غير الرسول معصوما أو محفوظا فيما يأمر به ويخبر به لكان ممن يرد إليه مواقع النزاع كما يرده القائلون بإمام معصوم إليه وكما جرت عادة كثير من الأتباع أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الإمام والقدوة الذي يقلدونه [١]

## الرافضة موصوفون بالغلو عند الأمة

فإن الرافضي يجيء إلى أشخاص ظهر بصريح المعقول وصحيح المنقول أن بعضهم أكمل سيرة من بعض فيجعل الفاضل مذموما مستحقا للقدح ويجعل المفضول معصوما مستحقا للمدح كما فعلت النصارى يجيئون إلى الأنبياء صلوات الله عليهم وقد فضل الله بعضهم على بعض فيجعلون المفضول إلها والفاضل منقوصا دون الحواريين الذين صحبوا المسيح فيكون ذلك قلبا للحقائق وأعجب من ذلك أنهم يجعلون الحواريين الذين ليسوا أنبياء معصومين عن الخطأ ويقدحون في بعض الأنبياء كسليمان وغيره ومعلوم أن إبراهيم ومحمدا أفضل من نفس المسيح صلوات الله وسلامه عليهم بالدلائل الكثيرة بل وكذلك موسى فكيف يجعل الذين صحبوا المسيح أفضل من إبراهيم ومحمد وهذا من الجهل والغلو الذي نهاهم الله

---

[١] رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٧٣-٢٧٥ و منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٣٨٧-٣٨٨

عنه قال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ وكذلك الرافضة موصوفون بالغلو عند الأمة فإن فيهم من أدعى الإلهية في علي وهؤلاء شر من النصارى وفيهم من أدعى النبوة فيه ومن أثبت نبيا بعد محمد فهو شبيه بأتباع مسيلمة الكذاب وأمثاله من المتنبئين إلا أن عليا رضي الله عنه بريء من هذه الدعوة بخلاف من أدعى النبوة لنفسه كمسيلمة وأمثاله وهؤلاء الإمامية يدعون ثبوت إمامته بالنص وأنه كان معصوما هو وكثير من ذريته وأن القوم ظلموه وغصبوه ودعوى العصمة تضاهي المشاركة في النبوة فإن المعصوم يجب اتباعه في كل ما يقول لا يجوز أن يخالف في شيء وهذه خاصة الأنبياء ولهذا أمرنا أن نؤمن بما أنزل اليهم فقال تعالى {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}البقرة١٣٦ فأمرنا أن نقول آمنا بما أوتي النبيون وقال تعالى {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}البقرة٢٨٥ وقال تعالى {وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}البقرة١٧٧ فالإيمان بما جاء به النبيون مما أمرنا أن نقوله ونؤمن به وهذا مما اتفق عليه المسلمون أنه يجب الإيمان بكل نبي ومن كفر بنبي واحد فهو كافر ومن سبه وجب قتله باتفاق العلماء وليس كذلك من سوى الأنبياء سواء سموا أولياء أو أئمة أو حكماء أو علماء أو غير ذلك فمن جعل بعد الرسول معصوما يجب الإيمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة وإن لم يعطه لفظها ويقال لهذا ما الفرق بين هذا وبين أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا مأمورين باتباع شريعة التوراة وكثير من الغلاة في المشايخ يعتقد أحدهم في شيخه نحو ذلك ويقولون الشيخ محفوظ ويأمرون باتباع الشيخ في كل ما يفعل لا يخالف في شيء أصلا وهذا من جنس غلو الرافضة والنصارى والإسماعيلية تدعى في أئمتها أنهم كانوا معصومين وأصحاب ابن تومرت الذي ادعى أنه المهدى يقولون إنه معصوم ويقولون في خطبة الجمعة الإمام المعصوم والمهدي المعلوم ويقال إنهم قتلوا بعض من أنكر أن يكون معصوما ومعلوم أن كل هذه الأقوال مخالفة لدين الإسلام للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها فإن الله تعالى يقول {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ فلم يأمرنا بالرد عند التنازع إلا إلى الله والرسول فمن أثبت شخصا معصوما غير الرسول أوجب رد ما تنازعوا فيه إليه لأنه لا يقول عنده إلا الحق كالرسول وهذا

خلاف القرآن وأيضا فإن المعصوم تجب طاعته مطلقا بلا قيد ومخالفة يستحق الوعيد والقرآن إنما أثبت هذا في حق الرسول خاصة قال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩وقال {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ فدل القرآن في غير موضع على أن من أطاع الرسول كان من أهل السعادة ولم يشترط في ذلك طاعة معصوم آخر ومن عصى الرسول كان من أهل الوعيد وإن قدر أنه أطاع من ظن أنه معصوم فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي فرق الله به بين أهل الجنة وأهل النار وبين الأبرار والفجار وبين الحق والباطل وبين الغي والرشاد والهدى والضلال وجعله القسيم الذي قسم الله به عباده إلى شقى وسعيد فمن اتبعه فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقى وليست هذه المرتبة لغيره ولهذا اتفق أهل العلم أهل الكتاب والسنة على أن كل شخص فإنه يجب تصديقه في كل ما أخبر وطاعته في كل أمر فإنه المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهو الذي يسأل الناس عنه يوم القيامة كما قال تعالى {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ}الأعراف٦ وهو الذي يمتحن به الناس في قبورهم فيقال لأحدهم من ربك وما دينك ومن نبيك ويقال ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فيقول هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه ولو ذكر بدل الرسول من ذكره من الصحابة والأئمة والتابعين والعلماء لم ينفعه ذلك ولا يمتحن في قبره بشخص غير الرسول [١]

## "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل"

فان القوم كلما بعدوا عن اتباع الرسل والكتب المنزلة كان أعظم في تفرقهم واختلافهم فانهم يكونوا أضل كما في الحديث الذي رواه الترمذي عن ابي امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم قرأ قوله {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}الزخرف٥٨ إذ لا يحكم بين الناس فيما تنازعوا فيه إلا كتاب منزل ونبي مرسل كما قال تعالى {كَانَ النَّاسُ

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ١٨٧-١٩١

أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} البقرة٢١٣ ولهذا قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ [1]

## ما تنازع فيه السلف والخلف وجب رده الى الكتاب والسنة

وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ فأمر المؤمنين عند تنازعهم برد ما تنازعوا فيه الى الله والرسول فما تنازع فيه السلف والخلف وجب رده الى الكتاب والسنة [2]

وقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} النور٥٢ فالطاعة لله والرسول والخشية والتقوى لله وحده وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ} التوبة٥٩ فالرغبة الى الله وحده والتحسب بالله وحده وأما الايتاء فلله والرسول كما قال تعالى {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} الحشر٧ فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه فليس لأحد من المشايخ والملوك والعلماء والامراء والمعلمين وسائر الخلق خروج عن ذلك بل على جميع الخلق ان يدينوا بدين الاسلام الذي بعث الله به رسله ويدخلوا به كلهم فى دين خاتم الرسل وسيد ولد آدم وامام المتقين خير الخلق وأكرمهم على الله محمد عبده ورسوله تسليما وكل من أمر بأمر كائنا من كان عرض على الكتاب والسنة

---

[1] الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٣٣٢-٣٣٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣٣ ص: ١٧

فان وافق قبل ذلك والا رد كما جاء فى الصحيحين عنه انه قال من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد أى فهو مردود فاذا كان المشايخ والعلماء فى احوالهم وأقوالهم المعروف والمنكر والهدى والضلال والرشاد والغى وعليهم أن يردوا ذلك الى الله والرسول فيقبلوا ما قبله الله ورسوله ويردوا ما رده الله ورسوله فكيف بالمعلمين وأمثالهم وقد قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ وقد قال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}البقرة٢١٣ فنسأل الله تعالى أن يهدينا وسائر اخواننا إلى صراطه المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا والله سبحانه أعلم [1]

والأصل فى هذا انه لايحرم على الناس من المعاملات التى يحتاجون اليها إلا ما دل الكتاب والسنة على تحريمه كما لا يشرع لهم من العبادات التى يتقربون بها إلى الله الا ما دل الكتاب والسنة على شرعه إذ الدين ما شرعه الله والحرام ما حرمه الله بخلاف الذين ذمهم الله حيث حرموا من دين الله مالم يحرمه الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانا وشرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله اللهم وفقنا لأن نجعل الحلال ماحللته والحرام ما حرمته والدين ما شرعته لاغنى لولى الأمر عن المشاورة فان الله تعالى امر بها نبيه فقال تعالى {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}آل عمران١٥٩ وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال لم يكن احد اكثر مشاورة لأصحابه من رسول وقد قيل ان الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه وليقتدى به من بعده وليستخرج بها منهم الرأى فيما لم ينزل فيه وحى من امر الحروب والأمور الجزئية وغير ذلك فغيره اولى بالمشورة وقد اثنى الله على المؤمنين بذلك فى قوله {وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{٣٦} وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ{٣٧} وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٥

وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{٣٨}الشورى٣٦-٣٧ واذا استشارهم فان بين له بعضهم ما يجب اتباعه من كتاب الله او سنة رسوله او إجماع المسلمين فعليه اتباع ذلك ولا طاعة لأحد فى خلاف ذلك وإن كان عظيما فى الدين والدنيا قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ وإن كان أمرا قد تنازع فيه المسلمون فينبغى ان يستخرج من كل منهم رأيه ووجه رأيه فأى الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله عمل به كما قال تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ وأولو الأمر صنفان الأمراء والعلماء وهم الذين إذا صلحوا صلح لناس فعلى كل منهما أن يتحرى بما يقوله ويفعله طاعه لله ورسوله واتباع كتاب الله ومتى امكن فى الحوادث المشكله معرفه ما دل عليه الكتاب والسنه كان هو الواجب وان لم يمكن ذلك لضيق الوقت او عجز الطالب او تكافؤ الأدلة عنده او غير ذلك فله أن يقلد من يرتضى علمه ودينه هذا أقوى الأقوال وقد قيل ليس له التقليد بكل حال وقيل له التقليد بكل حال والأقوال الثلاثه فى مذهب احمد غيره وكذلك ما يشترط فى القضاة والولاة من الشروط يجب فعله بحسب الامكان [1]

## {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ}

ومحمد خاتم المرسلين لا نبى بعده وأمته خير أمة أخرجت للناس وقد بعثه الله بأفضل الكتب وأفضل الشرائع وأكمل له ولأمته الدين وأتم عليه النعمة ورضى لهم الإسلام دينا وهو قد دعا إلى الصراط المستقيم كما قال تعالى {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {٥٢} صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأمُورُ{٥٣} الشورى٥٢-٥٣ وقد أمرنا الله أن نتبع هذا الصراط المستقيم ولا نعدل عنه إلى السبل المبتدعة فقال تعالى {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}الأنعام١٥٣ وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه خط لنا رسول الله خطا وخط خطوطا عن يمينه وشماله ثم قال هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٨٦ -٣٨٨ و السياسة الشرعية ج: ١ ص: ١٣٣-١٣٥

قرأ {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}الأنعام١٥٣ ولهذا أمرنا الله ان نقول فى صلاتنا {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة٦-٧ وقال النبى اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وهو لم يمت حتى بين الدين وأوضح السبيل وقال تركتكم على البيضاء النقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك وقال ما تركت من شىء يقربكم من الجنة إلا وقد حدثتكم به ولا من شىء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به وقال أنه من يعش منكم بعدى فسيرى إختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة قال الترمذى حديث صحيح ولهذا كان أئمة المسلمين لا يتكلمون فى الدين بأن هذا واجب او مستحب او حرام أو مباح إلا بدليل شرعى من الكتاب أو السنة وما دلا عليه وما إتفق عليه المسلمون فهو حق جاء به الرسول فإن أمته ولله الحمد لا تجتمع على ضلالة كما اخبر هو فقال إن الله أجاركم على لسان نبيكم أن تجتمعوا على ضلالة وما تنازعوا فيه ردوه إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ كما كان السلف يفعلون فقد يكون عند هذا حديث سمعه أو معنى فهمه خفى على الآخر والآخر مأجور على إجتهاده أيضا ولا إثم عليه فيما خفى عليه بعد إجتهاده كما فى الصحيحين عن النبى أنه قال إذا إجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا إجتهد فأخطأ فله أجر ولو صلى أربعة أنفس إلى أربع جهات إذا أغيمت السماء كل بإجتهاده فكلهم مطيع لله عز وجل وتبرأ ذمته لكن الذى أصاب جهة الكعبة واحد وله أجران وقد قال تعالى {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ{٧٨} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً {٧٩}الانبياء٧٨-٧٩ فأثنى تعالى على النبيين جميعا مع أنه خص أحدهما بفهم تلك الحكومة والدين كله مأخوذ عن الرسول ليس لأحد بعده أن يغير من دينه شيئا هذا دين المسلمين بخلاف النصارى فإنهم يجوزون لعلمائهم وعبادهم أن يشرعوا شرعا يخالف شرع الله قال تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}التوبة٣١ قال النبى إنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم عليهم الحلال فأطاعوهم فكانت تلك عبادتهم إياهم ولهذا كان أئمة المسلمين لا يتكلمون فى شىء أنه عبادة وطاعة وقربة إلا بدليل شرعى

وإتباع لمن قبلهم لا يتكلمون فى الدين بلا علم فإن الله حرم ذلك بقوله تعالى {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}الأعراف٣٣ [1]

واجب على كل أحد إذا تبين له حكم الله ورسوله فى أمر إن لا يعدل عنه ولا يتبع أحدا فى مخالفة الله وسوله فان الله فرض طاعة رسوله على كل أحد فى كل حال وقال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ وقال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}آل عمران٣١ وقال تعالى {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً}الأحزاب٣٦ وقد صنف الامام أحمد كتابا فى طاعة الرسول وهذا متفق عليه بين أئمة المسلمين فطاعة الله ورسوله وتحليل ما حلله الله ورسوله وتحريم ما حرمه الله ورسوله وإيجاب ما أوجبه الله ورسوله واجب على جميع الثقلين الانس والجن واجب على كل أحد فى كل حال سرا وعلانية لكن لما كان من الأحكام مالا يعرفه كثير من الناس رجع الناس فى ذلك الى من يعلمهم ذلك لأنه أعلم بما قاله الرسول وأعلم بمراده فأئمة المسلمين الذين اتبعوهم وسائل وطرق وأدلة بين الناس وبين الرسول يبلغونهم ما قاله ويفهمونهم مراده بحسب اجتهادهم واستطاعتهم وقد يخص الله هذا العالم من العلم والفهم ما ليس عند الآخر وقد يكون عند ذلك فى مسألة أخرى من العلم ما ليس عند هذا وقد قال تعالى {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ{٧٨} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً {٧٩} الانبياء٧٨-٧٩ فهذان نبيان كريمان حكما فى قضية واحدة فخص الله أحدهما بالفهم وأثنى على كل منهما والعلماء ورثة الأنبياء واجتهاد العلماء فى الأحكام كاجتهاد المستدلين على جهة الكعبة فاذا صلى أربعة أنفس كل واحد منهم بطائفة الى أربع جهات لاعتقادهم أن القبلة هناك فان صلاة الأربعة صحيحة والذي صلى الى جهة الكعبة واحد وهو المصيب الذي له أجران كما فى الصحيح عن النبى أنه قال إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر وأكثر الناس إنما التزموا المذاهب بل الأديان بحكم ما تبين لهم فان الانسان ينشأ على دين أبيه أو سيده أو أهل بلده كما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٣٧٢-٣٧٤

يتبع الطفل فى الدين أبويه وسابيه وأهل بلده ثم إذا بلغ الرجل فعليه أن يقصد طاعة الله ورسوله حيث كانت ولا يكون ممن {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا}البقرة١٧٠ فكل من عدل عن اتباع الكتاب واالسنة وطاعة الله والرسول الى عادته وعادة أبيه وقومه فهو من أهل الجاهلية المستحقين للوعيد وكذلك من تبين له فى مسألة من مسائل الحق الذي بعث الله به رسوله ثم عدل عنه الى عادته فهو من أهل الذم والعقاب وأما من كان عاجزا عن معرفة حكم الله ورسوله وقد اتبع فيها من هو من أهل العلم والدين ولم يتبين له أن قول غيره أرجح من قوله فهو محمود يثاب لا يذم على ذلك ولا يعاقب وإن كان قادرا على الاستدلال ومعرفة ما هو الراجح وتوقى بعض المسائل فعدل عن ذلك الى التقليد فهو قد اختلف فى مذهب أحمد المنصوص عنه والذي عليه أصحابه أن هذا آثم أيضا وهو مذهب الشافعي وأصحابه وحكى عن محمد بن الحسن وغيره أنه يجوز له التقليد مطلقا وقيل يجوز تقليد الأعلم وحكى بعضهم هذا عن أحمد كما ذكره أبو إسحق فى اللمع وهو غلط على أحمد فان أحمد إنما يقول هذا فى أصحابه فقط على اختلاف عنه فى ذلك وأما مثل مالك والشافعي وسفيان ومثل إسحاق بن راهويه وأبى عبيد فقد نص فى غير موضع على أنه لا يجوز للعالم القادر على الاستدلال أن يقلدهم وقال لا تقلدوني ولا تقلدوا مالكا ولا الشافعي ولا الثورى وكان يحب الشافعى ويثنى عليه ويحب إسحاق ويثنى عليه ويثني على مالك والثوري وغيرهما من الأئمة ويأمر العامي أن يستفتى إسحاق وأبا عبيد وأبا ثور وأبا مصعب وينهى العلماء من أصحابه كأبى داود وعثمان بن سعيد وإبراهيم الحربي وأبى بكر الأثرم وأبي زرعة وأبى حاتم السجستاني ومسلم وغيرهم أن يقلدوا أحدا من العلماء ويقول عليكم بالأصل بالكتاب والسنة [1]

## الفرقة الناجية هم المستمسكون بسنته

والحديث المشهور عنه صلى الله عليه وسلم فى السنن وغيرها انه قال تفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحدة قيل يا رسول الله ومن هي قال من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى وفى رواية هى الجماعة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٢٢٣-٢٢٥

وفى رواية يد الله على الجماعة فوصف الفرقة الناجية بأنهم المستمسكون بسنته وأنهم هم الجماعة وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا فى الأمر اتبعوا أمر الله تعالى فى قوله {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ وكانوا يتناظرون فى المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة وربما اختلف قولهم فى المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة واخوة الدين نعم من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافا لا يعذر فيه فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع [1]

## اول بدعة ظهرت تكفير المسلمين بالذنوب

ان الله أخبر أن سنته لن تبدل ولن تتحول وسنته عادته التى يسوى فيها بين الشيء وبين نظيره الماضى وهذا يقتضى أنه سبحانه يحكم فى الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة ولهذا قال {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ}القمر٤٣ وقال {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}الصافات٢٢ أى أشباههم ونظراءهم وقال {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}التكوير٧ قرن النظير بنظيره وقال {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم}البقرة٢١٤ وقال {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}التوبة١٠٠ فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ}الأنفال٧٥ وقال تعالى والذين جاءوا من بعدهم يقولون وقال تعالى {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ١٧٢

اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}الحشر ١٠ وقال تعالى{وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}الجمعة٣ فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم وهم خير الناس بعد الانبياء فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس وأولئك خير أمة محمد كما ثبت فى الصحاح من غير وجه ان النبى قال خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ولهذا كان معرفة أقوالهم فى العلم والدين وأعمالهم خيرا وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم فى جميع علوم الدين وأعماله كالتفسير وأصول الدين وفروعه والزهد والعبادة والأخلاق والجهاد وغير ذلك فإنهم أفضل ممن بعدهم كما دل عليه الكتاب والسنة فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم ومعرفة اجماعهم ونزاعهم فى العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من اجماع غيرهم ونزاعهم وذلك أن اجماعهم لا يكون الا معصوما واذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم فيمكن طلب الحق فى بعض أقاويلهم ولا يحكم بخطأ قول من اقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ وأما المتأخرون الذين لم يتحروا متابعتهم وسلوك سبيلهم ولا لهم خبرة بأقوالهم وأفعالهم بل هم فى كثير مما يتكلمون به فى العلم ويعملون به لا يعرفون طريق الصحابة والتابعين فى ذلك من اهل الكلام والرأى والزهد والتصوف فهؤلاء تجد عمدتهم فى كثير من الأمور المهمة فى الدين انما هو عما يظنونه من الاجماع وهم لا يعرفون فى ذلك أقوال السلف ألبتة أو عرفوا بعضها ولم يعرفوا سائرها فتارة يحلون الاجماع ولا يعلمون الا قولهم وقول من ينازعهم من الطوائف المتأخرين طائفة أو طائفتين أو ثلاث وتارة عرفوا أقوال بعض السلف والأول كثير فى مسائل أصول الدين وفروعه كما تجد كتب أهل الكلام مشحونة بذلك يحكون اجماعا ونزاعا ولا يعرفون ما قال السلف فى ذلك ألبتة بل قد يكون قول السلف خارجا عن أقوالهم كما تجد ذلك فى مسائل أقوال الله وأفعاله وصفاته مثل مسألة القرآن والرؤية والقدر وغير ذلك وهم اذا ذكروا اجماع المسلمين لم يكن لهم علم بهذا الاجماع فإنه لو أمكن العلم باجماع المسلمين لم يكن هؤلاء من أهل العلم به لعدم علمهم بأقوال السلف فكيف اذا كان المسلمون يتعذر القطع باجماعهم فى مسائل النزاع بخلاف السلف فإنه يمكن العلم باجماعهم كثيرا وإذا ذكروا نزاع المتأخرن لم يكن بمجرد ذلك أن يجعل هذه من مسائل الاجتهاد التى يكون كل قول من تلك الأقوال سائغا لم يخالف اجماعا لأن كثيرا من اصول المتأخرين محدث مبتدع فى الإسلام مسبوق باجماع

السلف على خلافه والنزاع الحادث بعد اجماع السلف خطأ قطعا كخلاف الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة ممن قد اشتهرت لهم اقوال خالفوا فيها النصوص المستفيضة المعلومة واجماع الصحابة بخلاف ما يعرف من نزاع السلف فإنه لا يمكن أن يقال أنه خلاف الاجماع وانما يرد بالنص واذا قيل قد أجمع التابعون على أحد قوليهم فارتفع النزاع فمثل هذا مبنى على مقدمتين إحداهما العلم بأنه لم يبق فى الأمة من يقول بقول الاخر وهذا متعذر الثانية أن مثل هذا هل يرفع النزاع مشهور فنزاع السلف يمكن القول به اذا كان معه حجة اذ على خلافه ونزاع المتأخرين لا يمكن لأن كثيرا منه قد تقدم الاجماع على خلافه كما دلت النصوص على خلافه ومخالفة اجماع السلف خطأ قطعا و ايضا فلم يبق مسألة فى الدين الا وقد تكلم فيها السلف فلابد أن يكون لهم قول يخالف ذلك القول أو يوافقه وقد بسطنا فى غير هذا الموضع أن الصواب فى أقوالهم أكثر وأحسن وان خطأهم أخف من خطأ المتأخرين وان المتأخرين أكثر خطأ وأفحش وهذا فى جميع علوم الدين ولهذا أمثلة كثيرة يضيق هذا الموضع عن استقصائها والله سبحانه أعلم ومما ينبغى أن يعلم أن القرآن والحديث اذا عرف تفسيره من جهة النبى لم يحتج فى ذلك الى أقوال أهل اللغة فإنه قد عرف تفسيره وما اريد بذلك من جهة النبى لم يحتج فى ذلك الى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ولهذا قال الفقهاء الأسماء ثلاثة انواع نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف فى قوله {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}النساء١٩ وكان من اعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم باحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق وان القرآن يهدى للتى هى أقوم فيه نبأ من قبلهم وخبر ما بعدهم وحكم بينهم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الاهواء ولا تلتبس به الألسن فلا يستطيع أن يزيغه الى هواه ولا يحرف به لسانه ولا يخلق عن كثرة الترداد فاذا ردد مرة بعد مرة لم يخلق ولم يمل كغيره من الكلام ولا تنقضى عجائبه ولا تشبع منه العلماء من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعى اليه هدى الى صراط مستقيم فكان القرآن هو الامام الذى يقتدى به ولهذا لا يوجد فى كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأى وقياس ولا بذوق ووجد ومكاشفة ولا قال قط قد تعارض فى هذا

العقل والنقل فضلا عن أن يقول فيجب تقديم العقل والنقل يعنى القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين اما أن يفوض واما أن يؤول ولا فيهم من يقول ان له ذوقا أو وجدا أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث فضلا عن أن يدعى أحدهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذى يأتى الرسول وأنه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد والانبياء كلهم يأخذون عن مشكاته أو يقول الولى أفضل من النبى ونحو ذلك من مقالات أهل الالحاد فإن هذه الأقوال لم تكن حدثت بعد فى المسلمين وانما يعرف مثل هذه أما عن ملاحدة اليهود والنصارى فإن فيهم من يجوز أن غير النبى أفضل من النبى كما قد يقوله فى الحواريين فإنهم عندهم رسل وهم يقولون أفضل من داود وسليمان بل ومن ابراهيم وموسى وان سموهم أنبياء الى أمثال هذه الأمور ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية الا بآية أخرى تفسرها وتنسخها او بسنة الرسول تفسرها فإن سنة رسول الله تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخا لها فالنسخ عندهم اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية على معنى باطل وان كان ذلك المعنى لم يرد بها وان كان لا يدل عليه ظاهر الآية بل قد لا يفهم منها وقد فهمه منها قوم فيسمون ما رفع ذلك الابهام والافهام نسخا و هذه التسمية لا تؤخذ عن كل واحد منهم واصل ذلك من القاء الشيطان ثم يحكم الله آياته فما القاه الشيطان فى الأذهان من ظن دلالة الآية على معنى لم يدل عليه سمى هؤلاء ما يرفع ذلك الظن نسخا كما سموا قوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} التغابن١٦ ناسخا لقوله {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} آل عمران١٠٢ وقوله {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا} البقرة٢٨٦ ناسخا لقوله {وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ} البقرة٢٨٤ وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه اذ المقصود أنهم كانوا متفقين على أن القرآن لا يعارضه الا قرآن لا رأى ومعقول وقياس ولا ذوق ووجد والهام ومكاشفة وكانت البدع الاولى مثل بدعة الخوارج انما هى من سوء فهمهم للقرآن لم يقصدوا معارضته لكن فهموا منه ما لم يدل عليه فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب اذ كان المؤمن هو البر التقى قالوا فمن لم يكن برا تقيا فهو كافر وهو مخلد فى النار ثم قالوا وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله فكانت بدعتهم لها مقدمتان الواحدة أن من خالف القرآن بعمل أو برأى أخطأ فيه فهو كافر والثانية أن عثمان وعليا ومن والاهما كانوا كذلك ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا فإنه اول بدعة ظهرت فى الاسلام فكفر أهلها المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم وقد ثبت عن النبى أحاديث صحيحة فى ذمهم والأمر بقتالهم قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه صح فيهم الحديث من عشرة

أوجه ولهذا قد أخرجها مسلم فى صحيحه وأفرد البخارى قطعة منها وهم مع هذا الذم انما قصدوا اتباع القرآن فكيف بمن تكون بدعته معارضة القرآن والاعراض عنه وهو مع ذلك يكفر المسلمين كالجهمية ثم الشيعة لما حدثوا لم يكن الذى ابتدع التشيع قصده الدين بل كان غرضه فاسدا وقد قيل أنه كان منافقا زنديقا فاصل بدعتهم مبنية على الكذب على رسول الله وتكذيب الأحاديث الصحيحة ولهذا لا يوجد فى فرق الأمة من الكذب أكثر مما يوجد فيهم بخلاف الخوارج فإنه لا يعرف فيهم من يكذب والشيعة لا يكاد يوثق برواية أحد منهم من شيوخهم لكثرة الكذب فيهم ولهذا أعرض عنهم أهل الصحيح فلا يروى البخارى ومسلم أحاديث على الا عن أهل بيته كاولاده مثل الحسن والحسين ومثل محمد بن الحنفية وكاتبه عبيدالله بن أبى رافع أو أصحاب ابن مسعود وغيرهم مثل عبيدة السلمانى والحارث التيمى وقيس بن عباد وأمثالهم اذ هؤلاء صادقون فيما يروونه عن على فلهذا أخرج أصحاب الصحيح حديثهم وهاتان الطائفتان الخوارج والشيعة حدثوا بعد مقتل عثمان وكان المسلمون فى خلافة أبى بكر وعمر وصدرا من خلافة عثمان فى السنة الأولى من ولايته متفقين لا تنازع بينهم ثم حدث فى أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعا من التفرق وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمان فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان ولما اقتتل المسلمون بصفين واتفقوا على تحكيم حكمين خرجت الخوارج على أميرالمؤمنين علي بن أبى طالب وفارقوه وفارقوا جماعة المسلمين الى مكان يقال له حروراء فكف عنهم أمير المؤمنين وقال لكم علينا أن لا نمنعكم حقكم من الفىء ولا نمنعكم المساجد الى أن استحلوا دماء المسلمين وأموالهم فقتلوا عبدالله بن خباب وأغاروا على سرح المسلمين فعلم على أنهم الطائفة التى ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية آيتهم فيهم رجل مخدج اليد عليها بضعة عليها شعرات وفى رواية يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الأوثان فخطب الناس وأخبرهم بما سمع من رسول الله وقال هم هؤلاء القوم قد سفكوا الدم الحرام وأغاروا على سرح الناس فقاتلهم ووجد العلامة بعد ان كاد لا يوجد فسجد لله شكرا وحدث فى أيامه الشيعة لكن كانوا مختفين بقولهم لا يظهرونه لعلى وشيعته بل كانوا ثلاث طوائف طائفة تقول انه إله وهؤلاء لما ظهر عليهم احرقهم بالنار وخدلهم أخاديد عند باب مسجد بنى كندة وقيل أنه أنشد لما رأيت الأمر أمرا منكرا أججت نارى ودعوت قنبرا وقد روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس قال أتى علي بزنادقة فحرقهم بالنار ولو كنت أنا لم

أحرقهم لنهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يعذب بعذاب الله ولضربت أعناقهم لقوله من بدل دينه فاقتلوه وهذا الذى قاله ابن عباس هو مذهب أكثر الفقهاء وقد روى أنه أجلهم ثلاثا والثانية السابة وكان قد بلغه عن أبى السوداء أنه كان يسب أبا بكر وعمر فطلبه قيل أنه طلبه ليقتله فهرب منه والثالثة المفضلة الذين يفضلونه على أبى بكر وعمر فتواتر عنه أنه قال خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر وروى ذلك البخارى فى صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه من خير الناس بعد رسول الله فقال ابو بكر قال ثم من قال عمر وكانت الشيعة الأولى لا يتنازعون فى تفضيل أبى بكر وعمر وانما كان النزاع فى علي وعثمان ولهذا قال شريك بن عبدالله أن أفضل الناس بعد رسول الله أبو بكر وعمر فقيل له تقول هذا وأنت من الشيعة فقال كل الشيعة كانوا على هذا وهو الذى قال هذا على أعواد منبره أفنكذبه فيما قال ولهذا قال سفيان الثورى من فضل عليا على أبى بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار وما أرى يصعد له الى الله عز وجل عمل وهو كذلك رواه أبو داود فى سننه وكأنه يعرض بالحسن بن صالح بن حى فإن الزيدية الصالحة وهم أصلح طوائف الزيدية ينسبون اليه ولكن الشيعة لم يكن لهم فى ذلك الزمان جماعة ولا امام ولا دار ولا سيف يقاتلون به المسلمين وانما كان هذا للخوارج تميزوا بالامام والجماعة والدار وسموا دارهم دار الهجرة وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب وكلا الطائفتين تطعن بل تكفر ولاة المسلمين وجمهور الخوارج يكفرون عثمان وعليا ومن تولاهما والرافضة يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان ومن تولاهما ولكن الفساد الظاهر كان فى الخوارج من سفك الدماء وأخذ الأموال والخروج بالسيف فلهذا جاءت الأحاديث الصحيحة بقتالهم والأحاديث فى ذمهم والأمر بقتالهم كثيرة جدا وهى متواترة عند أهل الحديث مثل أحاديث الرؤية وعذاب القبر وفتنته وأحاديث الشفاعة والحوض [1]

## المؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر

قال تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ ومن الناس من آمن ببعض ما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٢٣-٣٥

جاءت به الرسل وكفر ببعض كمن آمن ببعض المرسلين دون بعض واليهود والنصارى حيث آمنوا بموسى أو موسى والمسيح معه دون محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا يخاطب الله فى القرآن الأميين الذين لم يتبعوا رسولا وأهل الكتاب المصدقين ببعض الرسل كما فى قوله {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ}آل عمران٢٠ وفى قوله {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ}البينة١ وكمن آمن ببعض صفات الرسالة وكفر ببعض من الصابئين الفلاسفة ونحوهم الذين قد يقرون بأصل الرسالة لكن يجعلون الرسول بمنزلة الملك العادل الذى قد وضع قانونا لقومه أو يقولون أن الرسالة للعامة دون الخاصة أو فى الامور العملية دون العلمية أو فى الامور التى يشترك فيها الناس دون الخصائص التى يمتاز بها الكمل ويقرون برسالة محمد من حيث الجملة ويعظمونه ويقولون اتفق فلاسفة العالم على أنه لم يرد الى الأرض ناموس أعظم من ناموسه لكنهم مع هذا يكفرون ببعض ما جاء به مثل أن يسوغوا اتباع غير دينه من اليهودية والنصرانية وقد يسوغون الشرك أيضا للعامة أو للخاصة مثل أن يسوغوا دعوة الكواكب وعبادتها والسجود لها وقد يكذبون في الباطن باشياء مما أخبر بها ويزعمون أن ما أخبر به من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هي أمثال مضروبة لتفهيم العامة مالا يجوز إظهاره وإبانة حقيقته وذلك أنهم بزعمهم وقد يزعمون أن حقيقة العلم بالله تؤخذ من غير ما جاء به الرسول وان من الناس من يكون أعلم بالله منه أو أفضل منه ونحو ذلك من المقالات وهذا الضرب ما زال موجودا لا سيما مع القرامطة الباطنية من الاسماعيلية والنصيرية والملوك العبيدية الذين كانوا يدعون الخلافة ومع الخرمية والمزدكية وأمثالهم من الطوائف وهؤلاء خواصهم أكفر من اليهود والنصارى ومن الغالية الذين يقولون بالهية على ونحوه من البشر أو نبوته وهم منافقون زنادقة لكن فى كثير من اتباعهم من يظن أنه مؤمن بالكتب والرسل لما لبسوا عليه أصل قولهم أو وافقهم فى قول بعضهم دون بعض وأكثر هؤلاء يميلون إلى الرافضة ومنهم من ينتسب إلى التصوف ومنهم من ينتسب إلى الكلام ومنهم من يدخل مع الفقهاء فى مذاهبهم وهذا الضرب يكثر فى الدول الجاهلية البعيدين عن معرفة الاسلام والتزامه كما كانوا كثيرين فى دولة الديلم والعبيديين ونحوهم وكما يكثرون فى دولة الجهال من الترك ونحوهم من الجهال الذين آمنوا بالرسالة من حيث الجملة من غير علم بتفاصيل ما جاء به الرسول لأن الجهال من الترك وغيرهم بهذا الضرب أشبه منهم بغيرهم فان هؤلاء لا يوجبون اتباع الرسول على جميع أهل الأرض لكنهم قديرون اتباعه أحسن من اتباع غيره فيتبعونه على سبيل الاستحباب أو يتبعون بعض ما جاء به أو لا يتبعونه بحال وهم فى ذلك مقرون له ولأتباعه

والمؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر أيضا كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٥١} وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{١٥٢}النساء١٥٠-١٥٢ فذم الذين أوتوا قسطا من الكتاب لما آمنوا بما خرج عن الرسالة وفضلوا الخارجين عن الرسالة على المؤمنين بها كما يفضل ذلك بعض من يفضل الصابئة من الفلاسفة والدول الجاهلية جاهلية الترك والديلم والعرب والفرس وغيرهم على المؤمنين بالله وكتابه ورسوله [١]

## ذم الذين يتبعون الظن وما تهوى الأنفس

وإنما يفصل بين الناس فيما تنازعوا فيه الكتاب المنزل من السماء والرسول المؤيد بالأنباء كما قال تعالى {ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}الأحقاف٤ وقال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ}البقرة٢١٣ وقال تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ وقال تعالى {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}الشورى١٠ بل على الناس أن يلتزموا الأصول الجامعة الكلية التي اتفق عليها سلف الأمة وأئمتها فيؤمنون بما وصف الله به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل وليس لأحد ان يكفر أحدا من المسلمين وان أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك بل لا يزول الا بعد إقامة الحجة وازالة الشبهة وأما تكفير قائل هذا القول فهو مبنى على أصل لا بد من التنبيه عليه فإنه بسبب عدم ضبطه اضطربت الأمة اضطرابا كثيرا في تكفير أهل البدع والأهواء كما اضطربوا قديما وحديثا في سلب الايمان عن أهل الفجور والكبائر وصار كثير من أهل البدع مثل الخوارج والروافض والقدرية والجهمية والممثلة يعتقدون اعتقادا هو ضلال يرونه هو الحق ويرون كفر من خالفهم في ذلك فيصير فيهم شوب قوي من

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص:٣٣٦- ٣٣٩

أهل الكتاب في كفرهم بالحق وظلمهم للخلق ولعل اكثر هؤلاء المكفرين يكفر المقالة التي لا تفهم حقيقتها ولا تعرف حجتها وبازاء هؤلاء المكفرين بالباطل أقوام لا يعرفون اعتقاد أهل السنة والجماعة كما يجب أو يعرفون بعضه ويجهلون بعضه وما عرفوه منه قد لا يبينونه للناس بل يكتمونه ولا ينهون عن البدع المخالفة للكتاب والسنة ولا يذمون أهل البدع ويعاقبوهم بل لعلهم يذمون الكلام في السنة وأصول الدين ذما مطلقا لا يفرقون فيه بين ما دل عليه الكتاب والسنة والاجماع وما يقوله أهل البدعة والفرقة أو يقرون الجميع على مذاهبهم المختلفة كما يقر العلماء في مواضع الاجتهاد التي يسوغ فيها النزاع وهذه الطريقة قد تغلب على كثير من المرجئة وبعض المتفقهة والمتصوفة والمتفلسفة كما تغلب الأولى على كثير من أهل الأهواء والكلام وكلا هاتين الطريقتين منحرفة خارجة عن الكتاب والسنة وإنما الواجب بيان ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه وتبليغ ما جاءت به الرسل عن الله والوفاء بميثاق الله الذي أخذه على العلماء فيجب أن يعلم ما جاءت به الرسل ويؤمن به ويبلغه ويدعو إليه ويجاهد عليه ويزن جميع ما خاض الناس فيه من أقوال وأعمال في الأصول والفروع الباطنة والظاهرة بكتاب الله وسنة رسوله غير متبعين لهوى من عادة أو مذهب أو طريقة أو رئاسة أو سلف ولا متبعين لظن من حديث ضعيف أو قياس فاسد سواء كان قياس شمول أو قياس تمثيل أو تقليد لمن لا يجب اتباع قوله وعمله فإن الله ذم في كتابه الذين يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ويتركون اتباع ما جاءهم من ربهم من الهدى [1]

## رد موارد النزاع إلى الله وإلى الرسول خير وأحسن تأويلا

أن رد موارد النزاع إلى الله وإلى الرسول خير وأحسن تأويلا وأحسن عاقبة في الدنيا والآخرة [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٤٦٦-٤٦٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦

فان القوم كلما بعدوا عن اتباع الرسل والكتب كان اعظم فى تفرقهم واختلافهم فانهم يكونون اضل كما في الحديث الذي رواه الترمذي عن ابى امامة عن النبى انه قال ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا اوتوا الجدل ثم قرأ قوله تعالى {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}الزخرف٥٨ اذ لا يحكم بين الناس فيما تنازعوا فيه الا كتابا منزل ونبى مرسل كما قال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ}البقرة٢١٣ الآية وقال {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}الحديد٢٥ وقال {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ الآية وقد بين الله في كتابه من الامثال المضروبة والمقاييس العقلية ما يعرف به الحق والباطل وأمر الله بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف واخبران أهل الرحمة لا يختلفون فقال {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ{١١٨} إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ {١١٩} هود ١١٨-١١٩ ولهذا يوجد اتبع الناس للرسول اقل اختلافا من جميع الطوائف المنتسبة للسنة وكل من قرب للسنة كان اقل اختلافا ممن بعد عنها كالمعتزلة والرافضة فنجدهم اكثر الطوائف اختلافا [1]

والذى على السلطان فى مسائل النزاع بين الامة أحد أمرين إما ان يحملهم كلهم على ما جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الامة لقوله تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ وإذا تنازعوا فهم كلامهم ان كان ممن يمكنه فهم الحق فإذا تبين له ما جاء به الكتاب والسنة دعى الناس اليه وان يقر الناس على ما هم عليه كما يقرهم على مذاهبهم العملية فأما إذا كانت البدعة ظاهرة تعرف العامة أنها مخالفة للشريعة كبدعة الخوارج والروافض والقدرية والجهمية فهذه على السلطان إنكارها لأن علمها عام كما عليه الإنكار على من يستحل الفواحش والخمر وترك الصلاة ونحو ذلك ومع هذا فقد يكثر أهل هذه الأهواء بعض الامكنة والأزمنة حتى يصير بسبب كثرة كلامهم مكافئا عند الجهال لكلام أهل العلم والسنة حتى يشتبه الامر على من يتولى أمر هؤلاء فيحتاج حينئذ الى من يقوم بإظهار حجة الله وتبيينها حتى تكون العقوبة بعد الحجة وإلا فالعقوبة قبل الحجة ليست مشروعة قال تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ ولهذا قال الفقهاء فى البغاة إن الامام يراسلهم فإن ذكروا شبهة بينها وإن ذكروا مظلمة أزالها

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٣٠

كما أرسل على ابن عباس الى الخوارج فناظرهم حتى رجع منهم أربعة آلاف وكما طلب عمر بن عبد العزيز دعاة القدرية والخوارج فناظرهم حتى ظهر لهم الحق وأقروا به ثم بعد موته نقض غيلان القدرى التوبة فصلب وأما إلزام السلطان فى مسائل النزاع بالتزام قول بلا حجة من الكتاب والسنة فهذا لا يجوز باتفاق المسلمين ولا يفيد حكم حاكم بصحة قول دون قول فى مثل ذلك إلا اذا كان معه حجة يجب الرجوع اليها فيكون كلامه قبل الولاية وبعدها سواءا وهذا بمنزلة الكتب التى يصنفها فى العلم نعم الولاية قد تمكنه من قول حق ونشر علم قد كان يعجز عنه بدونها وباب القدرة والعجز غير باب الاستحقاق وعدمه نعم للحاكم إثبات ما قاله زيد أو عمرو ثم بعد ذلك ان كان ذلك القول مختصا به كان مما يحكم فيه الحكام وإن كان من الأقوال العامة كان من باب مذاهب الناس فأما كون هذا القول ثابت عند زيد ببينة أو اقرار أو خط فهذا يتعلق بالحكام [1]

## الشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها

والشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فهي تأمر بما تترجح مصلحته وإن كان فيه مفسدة مرجوحة كالجهاد وتنهى عما ترجحت مفسدته وإن كان فيه مصلحة مرجوحة كتناول المحرمات من الخمر وغيره ولهذا أمر تعالى أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا فالأحسن إما واجب وإما مستحب قال تعالى {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}الأعراف١٤٥ وقال {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم}الزمر٥٥ فأمر باتباع الأحسن والأخذ به وقال تعالى {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ}الزمر١٨ فاقتضى أن غيرهم لم يهده وهذا يقتضي وجوب الأخذ بالأحسن وهو مشكل وقد تكلم الناس فيه ونظيره قوله تعالى {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إ}الإسراء٥٣ وقد يقال هذا نظير قوله تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ ونظائر هذا كثيرة مما يذكر فيه أن المأمور به خير وأحسن من المنهي عنه وإن كان الأول واجبا والثاني محرما وذلك لأن المأمور به قد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٢٣٩-٢٤٠

يشتمل على مفسدة مرجوحة والمنهي عنه يشتمل على مصلحة مرجوحة فيكون باعتبار ذلك في هذا خير وحسن وفي هذا شر وسيىء لكن هذا خير وأحسن وإن كان واجبا فقوله تعالى {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم}الزمر٥٥ هو أمر بالأحسن من فعل المأمور أو ترك المحظور وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب فإن كلاهما أحسن من المحرم والمكروه لكن يكون الأمر أمر إيجاب وأمر استحباب كما امر بالإحسان في قوله تعالى {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}البقرة١٩٥ والإحسان منه واجب ومنه مستحب [١]

## تقديم العقل على الشرع مزيد من الاختلاف والشك

فلو قيل بتقديم العقل على الشرع وليست العقول شيئا واحدا بينا بنفسه ولا عليه دليل معلوم للناس بل فيها هذا الإختلاف والإضطراب لوجب أن يحال الناس على شيء لا سبيل إلى ثبوته ومعرفته ولا اتفاق للناس عليه وأما الشرع فهو في نفسه قول الصادق وهذه صفة لازمة له لا تختلف باختلاف أحوال الناس والعلم بذلك ممكن ورد الناس إليه ممكن ولهذا نجاء التنزيل برد الناس عند التنازع إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ فأمر الله تعالى المؤمنين عند التنازع بالرد إلى الله والرسول وهذا يوجب تقديم السمع وهذا هو الواجب إذ لو ردوا إلى غير ذلك من عقول الرجال وآرائهم ومقاييسهم وبراهينهم لم يزدهم هذا الرد إلا اختلافا واضطرابا وشكا وارتيابا [٢]

## العلماء ورثة الأنبياء

وقال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ وقال تعالى {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ١٧-١٨

[٢] درء التعارض ج: ١ ص: ١٤٦-١٤٧

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}الحشر١٠ اذا كان الله تعالى قد أمرنا بطاعة الله وطاعة رسوله وأولى الامر منا وامرنا عند التنازع فى شىء أن نرده الى الله والى الرسول وامرنا بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف وأمرنا أن نستغفر لمن سبقنا بالايمان وسمانا المسلمين وأمرنا ان ندوم عليه الى الممات فهذه النصوص وما كان فى معناها توجب علينا الاجتماع فى الدين كاجتماع الأنبياء قبلنا فى الدين وولاة الأمور فينا هم خلفاء الرسول قال النبى فى الحديث الصحيح إن بنى اسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى قام نبى و إنه لا نبى بعدى وسيكون خلفاء ويكثرون قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال اوفوا ببيعة الأول فالأول وأدوا لهم الذى لهم فان الله سائلهم عما استرعاهم وقال ايضا العلماء ورثة الأنبياء وروى عنه أنه قال وددت أنى قد رأيت خلفائى قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سنتى يعلمونها الناس فهؤلاء هم ولاة الأمر بعده وهم الأمراء والعلماء وبذلك فسرها السلف ومن تبعهم من الأئمة كالامام احمد وغيره وهو ظاهر قد قررناه فى غير هذا الموضع فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والاجماع هى بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خروج عنها ومن دخل فيها كان من أهل الاسلام المحض وهم أهل السنة والجماعة [1]

## ضلال و نفاق من يحاكم إلى غير الكتاب والسنة

وقد امر الله بطاعة الله وطاعة الرسول والتحاكم إلى الله والرسول ورد ما تنازع فيه الناس إلى الله وإلى الرسول وذم الذين يتحاكمون ويردون ما تنازعوا فيه إلى غير الله والرسول فكانت تلك الآيات تبيينا للإيمان بالله وبالرسول ولهذا قال فيها {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ وهذا جهاد عما جاء به الرسول وقد قال تعالى

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص:١١٦- ١١٧

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}الحجرات١٥ [١]

قال تعالى {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{١٥٥} أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ{١٥٦} أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ{١٥٧} الأنعام ١٥٥-١٥٧ وقوله سبحانه أنه سيجزي الصادف عن آياته مطلقا سواء كان مكذبا أو لم يكن سوء العذاب بما كانوا يصدفون يبين ذلك أن كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر سواء اعتقد كذبه أو استكبر عن الإيمان به أو أعرض عنه اتباعا لما يهواه أو ارتاب فيما جاء به فكل مكذب بما جاء به فهو كافر وقد يكون كافرا من لا يكذبه اذا لم يؤمن به ولهذا أخبر الله في غير موضع من كتابه بالضلال والعذاب لمن ترك إتباع ما أنزله وإن كان له نظر وجدل واجتهاد في عقليات وأمور غير ذلك وجعل ذلك من نعوت الكفار والمنافقين قال تعالى {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون}الأحقاف٢٦ وقال تعالى {فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{٨٣} فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ{٨٤} فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ{٨٥} غافر ٨٣ -٨٥ وقال تعالى {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا}غافر٣٥ وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ}غافر٥٦ والسلطان هو الحجة المنزلة من عند الله كما قال تعالى {أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ}الروم٣٥ وقال تعالى {أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ{١٥٦} فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{١٥٧} الصافات١٥٦ -١٥٧ وقال تعالى {أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ}الأعراف٧١ وقد طالب سبحانه لمن اتخد دينا بقوله

---

[١] الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ١٧

{ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ}الأحقاف٤ فالكتاب الكتاب والإثارة كما قال من قال من السلف هي الرواية والإسناد وقالوا هي الخط أيضا إذ الرواية والإسناد يكتب بالخط وذلك لأن الإثارة فالعلم الذي يقوله من يقبل قوله يؤثر بالإسناد ويقيد بالخط فيكون كل ذلك من آثاره وقال تعالى في نعت المنافقين {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً{٥٩} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{٦٢} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{٦٣} النساء٦٠ -٦٣ وفي هذه الآيات أنواع من العبر من الدلالة على ضلال من يحاكم إلى غير الكتاب والسنة وعلى نفاقه وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية وبين ما يسميه هو عقليات من الأمور المأخوذة عن بعض الطواغيت من المشركين وأهل الكتاب وغير ذلك من أنواع الاعتبار فمن كان خطأه لتفريطه فيما يجب عليه من اتباع القرآن والإيمان مثلا أو لتعديه حدود الله بسلوك السبل التي نهى عنها أو لإتباع هواه بغير هدى من الله فهو الظالم لنفسه وهو من أهل الوعيد بخلاف المجتهد في طاعة الله ورسوله باطنا وظاهرا الذي يطلب الحق باجتهاده كما أمره الله ورسوله فهذا مغفور له خطأه كما قال تعالى {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ}البقرة٢٨٥ إلى قوله {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}البقرة٢٨٦ وقد ثبت في صحيح مسلم أن الله قال قد فعلت وكذلك ثبت فيه من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ان من يقرأ بحرف من هاتين الآيتين ومن سورة الفاتحة إلا أعطي ذلك فهذا يبين إستجابة هذا الدعاء للنبي والمؤمنين وأن الله لا يؤاخذهم إن نسوا أو أخطأوا [1]

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٥٨ و مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣١٧ و درء التعارض ج: ١ ص: ٥٨-

# لا يحل لأحد أن يتكلم فى الدين بلا علم

ومن أصر على فعل شيء من البدع وتحسينها فإنه ينبغي أن يعزر تعزيرا يردعه وأمثاله عن مثل ذلك ومن نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الباطل خطأ فإنه يعرف فإن لم ينته عوقب ولا يحل لأحد أن يتكلم في الدين بلا علم ولا يعين من تكلم في الدين بلا علم أو أدخل في الدين ما ليس منه وأما قول القائل كل يعمل في دينه الذي يشتهي فهي كلمة عظيمة يجب أن يستتاب منها وإلا عوقب بل الإصرار على مثل هذه الكلمة يوجب القتل فليس لأحد أن يعمل في الدين إلا ما شرعه الله ورسوله دون ما يشتهيه ويهواه قال الله تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ َ}القصص٥٠ وقال تعالى {وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ}الأنعام١١٩ {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}ص٢٦ وقال {وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ}المائدة٧٧ وقال تعالى {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً{٤٣} أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً{٤٤}الفرقان٤٣-٤٤ وقال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً {٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١}النساء٦٠ -٦١ وقال تعالى {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ}الشورى٢١ وقال تعالى {المص{١} كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{٢} اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ{٣}الأعراف١-٣ وقال تعالى {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ}المؤمنون٧١ وأمثال هذا في

القرآن كثير فتبين أن على العبد أن يتبع الحق الذي بعث الله به رسوله ولا يجعل دينه تبعا لهواه و الله أعلم [1]

## سمى من تحوكم اليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوت

فان الطاغوت هو الطاغى من الأعيان والجبت هو من الأعمال والأقوال كما قال عمر بن الخطاب الجبت السحر والطاغوت الشيطان ولهذا قال النبى العيافة والطيرة والطرق من الجبت رواه أبو داود وكذلك ما أخبر عن أهل الكتاب بقوله {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}المائدة٦٠ أى ومن عبد الطاغوت فان أهل الكتاب كان منهم من أشرك وعبد الطواغيت فهنا ذكر عبادتهم للطاغوت وفى البقرة ذكر اتباعهم للسحر وذكر فى النساء أيمانهم بهما جميعا بالجبت والطاغوت وأما التحاكم الى غير كتاب الله فقد قال {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١}النساء٦٠-٦١ والطاغوت فعلوت من الطغيان كما أن الملكوت فعلوت من الملك والرحموت والرهبوت والرغبوت فعلوت من الرحمة والرهبة والرغبة والطغيان مجاوزة الحد وهو الظلم والبغى فالمعبود من دون الله اذا لم يكن كارها لذلك طاغوت ولهذا سمى النبى الأصنام طواغيت فى الحديث الصحيح لما قال ويتبع من يعبد الطواغيت الطواغيت والمطاع فى معصية الله والمطاع فى اتباع غير الهدى ودين الحق سواء كان مقبولا خبره المخالف لكتاب الله او مطاعا امره المخالف لأمر الله هو طاغوت ولهذا سمى من تحوكم اليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوت وسمى الله فرعون وعادا طغاة وقال فى صيحة ثمود {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}الحاقة٥ فمن كان من الأمة مواليا للكفار من المشركين او اهل الكتاب ببعض انواع الموالاة ونحوها مثل اتيانه أهل الباطل واتباعهم فى شئ من مقالهم وفعالهم الباطل كان له من الذم والعقاب والنفاق بحسب ذلك وذلك مثل

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤ و مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٢٤١

متابعتهم فى آرائهم وأعمالهم كنحو أقوال الصائبه وافعالهم من الفلاسفة ونحوهم المخالفة للكتاب والسنة ونحو أقوال اليهود والنصارى وأفعالهم المخالفة للكتاب والسنة ونحو أقوال المجوس والمشركين وأفعالهم المخالفة للكتاب والسنة ومن تولى أمواتهم أو أحياءهم بالمحبة والتعظيم والموافقة فهو منهم كالذين وافقوا أعداء إبراهيم الخليل من الكلدانيين وغيرهم من المشركين عباد الكواكب أهل السحر والذين وافقوا أعداء موسى من فرعون وقومه بالسحر أو ادعى أنه ليس ثم صانع غير الصنعه ولا خالق غير المخلوق ولا فوق السماوات اله كما يقوله الاتحادية وغيرهم من الجهمية والذين وافقوا الصائبة والفلاسفة فيما كانوا يقولونه فى الخالق ورسله أسمائه وصفاته والمعاد وغير ذلك ولا ريب أن هذه الطوائف وان كان كفرها ظاهرا فان كثيرا من الداخلين فى الاسلام حتى من المشهورين بالعلم والعبادة والامارة قد دخل فى كثير من كفرهم وعظمهم ويرى تحكيم ما قرروه من القواعد ونحو ذلك وهؤلاء كثروا فى المستأخرين ولبسوا الحق الذى جاءت به الرسل بالباطل الذى كان عليه أعداؤهم والله تعالى يحب تمييز الخبيث من الطيب والحق من الباطل فيعرف ان هؤلاء الأصناف منافقون أو فيهم نفاق وان كانوا مع المسلمين فان كون الرجل مسلما فى الظاهر لا يمنع أن يكون منافقا فى الباطن فان المنافقين كلهم مسلمون فى الظاهر والقرآن قد بين صفاتهم وأحكامهم واذا كانوا موجودين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عزة الاسلام مع ظهور أعلام النبوة ونور الرسالة فهم مع بعدهم عنهما اشد وجودا لاسيما وسبب النفاق هو سبب الكفر وهو المعارض لما جاءت به الرسل [1]

وذكر بعضهم ان رجلا من المنافقين خاصم رجلا من اليهود الى النبي فقضى رسول الله لليهودي فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال انطلق بنا الى عمر بن الخطاب فاقبل الى عمر فقال اليهودي اختصمت انا وهذا الى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم انه مخاصم اليك وتعلق بي فجئت معه فقال عمر للمنافق اكذلك قال نعم فقال عمر لهما رويداكما حتى اخرج اليكما فدخل عمر البيت فاخذ السيف واشتمل عليه ثم خرج اليهما فضرب به المنافق حتى برد فقال هكذا اقضي بين من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله فنزل قوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ} النساء٦٠ الاية وقال جبريل ان عمر فرق بين الحق والباطل فسمي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٠٠- ٢٠٢

الفاروق وقد تقدمت هذه القصة مروية من وجهين      ففي هذه الاحاديث دلالة على ان قتل المنافق كان جائزا اذ لولا ذلك لانكر النبي على من استأذنه في قتل المنافق ولانكر على عمر اذ قتل من قتل من المنافقين والاخبرب النبي ان الدم معصوم بالاسلام ولم يعلل ذلك بكراهية غضب عشائر المنافقين لهم وان يتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه وان يقول القائل لما ظفر باصحابه اقبل يقتلهم [١]

## لا طريق الى الله عز وجل الا بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهرا

فان اصل الأصول تحقيق الايمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فلابد من الايمان بالله ورسوله وبما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فلابد من الايمان بأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جميع الخلق انسهم وجنهم وعربهم وعجمهم علمائهم وعبادهم ملوكهم وسوقتهم وانه لا طريق الى الله عز وجل لأحد من الخلق الا بمتابعته باطنا وظاهرا حتى لو ادركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم اتباعه كما قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ {٨١} فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{٨٢}آل عمران٨١ ـ٨٢    قال ابن عباس رضى الله عنهما ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه وامره ان يأخذ على امته الميثاق لئن بعث محمد وهم احياء ليؤمنن به ولينصرنه وقد قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً {٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{٦٢} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{٦٣} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً{٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ

---

[١] الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٦٧٢

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥}النساء٦٠ ـ٦٥ وكل من خالف شيئا مما جاء به الرسول مقلدا فى ذلك لمن يظن انه ولى الله فانه بنى امره على انه ولى لله وان ولى الله لا يخالف فى شىء ولو كان هذا الرجل من اكبر اولياء الله كأكابر الصحابة والتابعين لهم باحسان لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة فكيف اذا لم يكن كذلك وتجد كثيرا من هؤلاء عمدتهم فى اعتقاد كونه وليا لله انه قد صدر عنه مكاشفة فى بعض الأمور أو بعض التصرفات الخارقة للعادة مثل ان يشير إلى شخص فيموت او يطير فى الهواء الى مكة او غيرها او يمشى على الماء احيانا أو يملأ ابريقا من الهواء أو ينفق بعض الأوقات من الغيب أو ان يختفى احيانا عن اعين الناس أو ان بعض الناس استغاث به وهو غائب او ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته أو يخبر الناس بما سرق لهم أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك من الأمور وليس فى شىء من هذه الأمور ما يدل على ان صاحبها ولى لله بل قد اتفق اولياء الله على ان الرجل لو طار فى الهواء او مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله وموافقته لأمره ونهيه وكرامات اولياء الله تعالى اعظم من هذه الأمور وهذه الأمور الخارقة للعادة وان كان قد يكون صاحبها وليا لله فقد يكون عدوا لله فان هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين وتكون لأهل البدع وتكون من الشياطين فلا يجوز ان يظن ان كل من كان له شىء من هذه الأمور انه ولى لله بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التى دل عليها الكتاب والسنة ويعرفون بنور الإيمان والقرآن وبحقائق الايمان الباطنة وشرائع الاسلام الظاهرة مثال ذلك ان هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد فى أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلى الصلوات المكتوبة بل يكون ملابسا للنجاسات معاشرا للكلاب يأوى الى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل رائحته خبيثة لا يتطهر الطهارة الشرعية ولا يتنظف وقد قال النبى لا تدخل الملائكة بيتا فيه جنب ولا كلب وقال عن هذه الاخلية ان هذه الحشوش محتضرة أى يحضرها الشيطان وقال من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربن مسجدنا فان الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم وقال ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وقال ان الله نظيف يحب النظافة وقال خمس من الفواسق يقتلن فى الحل والحرم الحية والفأرة والغراب والحدأة والكلب العقور وفى رواية الحية والعقرب وامر صلوات الله وسلامه عليه بقتل الكلاب وقال من اقتنى كلبا لا يغنى عنه زرعا ولا ضرعا نقص من عمله كل يوم قيراط وقال لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب وقال اذا ولغ الكلب فى اناء احدكم فليغسله سبع مرات احداهن بالتراب وقال تعالى {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ

كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ {١٥٦} الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{١٥٧} قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{١٥٨} الأعراف١٥٦-١٥٨ فإذا كان الشخص مباشرا للنجاسات والخبائث التى يحبها الشيطان او يأوى إلى الحمامات والحشوش التى تحضرها الشياطين أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير وإذ ان الكلاب التى هى خبائث وفواسق او يشرب البول ونحوه من النجاسات التى يحبها الشيطان أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها أو يسجد إلى ناحية شيخه ولا يخلص الدين لرب العالمين او يلابس الكلاب او النيران او يأوى إلى المزابل والمواضع النجسة أو يأوى إلى المقابر ولا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى او المشركين أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغانى والاشعار ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن فهذه علامات اولياء الشيطان لا علامات اولياء الرحمن قال ابن مسعود رضى الله عنه لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله وان كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل وقال ابن مسعود الذكر ينبت الايمان فى القلب كما ينبت الماء البقل والغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل [1]

## ذم الله تعالى من عدل عن اتباع الرسل الى ما نشأ عليه من دين آبائه

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢١٣-٢١٦

قد ذم الله تعالى فى القرآن من عدل عن اتباع الرسل الى ما نشأ عليه من دين آبائه وهذا هو التقليد الذى حرمه الله ورسوله وهو أن يتبع غير الرسول فيما خالف فيه الرسول وهذا حرام باتفاق المسلمين على كل أحد فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق والرسول طاعته فرض على كل أحد من الخاصة والعامة فى كل وقت وكل مكان فى سره وعلانيته وفى جميع أحواله وهذا من الايمان قال الله تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ وقال {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}النور٥١ وقال {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً}الأحزاب٣٦ وقال {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}النور٦٣ وقال {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ}آل عمران٣١ وقد أوجب الله طاعة الرسول على جميع الناس فى قريب من أربعين موضعا من القرآن وطاعته طاعة الله وهى عبادة الله وحده لا شريك له وذلك هو دين الله وهو الاسلام وكل من أمر الله بطاعته من عالم وأمير ووالد وزوج فلان طاعته طاعة لله وإلآ فاذا أمر بخلاف طاعة الله فانه لا طاعة له وقد يأمر الوالد والزوج بمباح فيطاع وكذلك الامير إذا أمر عالما يعلم أنه معصية لله والعالم إذا أفتى المستفتى بما لم يعلم المستفتى أنه مخالف لأمر الله فلا يكون المطيع لهؤلاء عاصيا واما إذا علم أنه مخالف لأمر الله فطاعته فى ذلك معصية لله ولهذا نقل غير واحد الاجماع على أنه لا يجوز للعالم أن يقلد غيره إذا كان قد اجتهد واستدل وتبين له الحق الذى جاء به الرسول فهنا لا يجوز له تقليد من قال خلاف ذلك بلا نزاع ولكن هل يجوز مع قدرته على الاستدلال أنه يقلد هذا فيه قولان فمذهب الشافعى وأحمد وغيرهما لا يجوز وحكى عن محمد بن الحسن جوازه والمسألة معروفة وحكى بعض الناس ذلك عن أحمد ولم يعرف هذا الناقل قول أحمد كما هو مذكور فى غير هذا الموضع وتقليد العاجز عن الاستدلال للعالم يجوز عند الجمهور وفى صفة من يجوز له التقليد تفصيل ونزاع ليس هذا موضعه والمقصود هنا ان التقليد المحرم بالنص والاجماع أن يعارض قول الله ورسوله بما يخالف ذلك كائنا من كان المخالف لذلك قال الله تعالى {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً {٢٧} يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً{٢٨} لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً{٢٩} وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً{٣٠}الفرقان٢٧ ـ ٣٠ وقال تعالى {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا

{٦٦} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}الأحزاب٦٦ -٦٧ وقال تعالى {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ}البقرة١٦٦ إلى قوله {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}البقرة١٧١ فذكر براءة المتبوعين من اتباعهم فى خلاف طاعة الله ذكر هذا بعد قوله {وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ}البقرة ١٦٣ فالاله الواحد هو المعبود والمطاع فمن أطاع متبوعا فى خلاف ذلك فله نصيب من هذا الذم قال تعالى {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ}لقمان١٤ الى قوله {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}لقمان١٥ متبوعا فى خلاف ذلك فله نصيب من هذا الذم قال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن الى قوله وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ثم خاطب الناس بأكل ما فى الأرض حلالا طيبا وأن لا يتبعوا خطوات الشيطان فى خلاف ذلك فانه إنما يأمر بالسوء والفحشاء وأن يقولوا على الله مالا يعلمون فيقولوا هذا حرام وهذا حلال أو غير ذلك مما يقولونه على الله فى الأمور الخبرية والعملية بلا علم كما قال تعالى {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ}النحل١١٦ ثم إن هؤلاء الذين يقولون على الله بغير علم إذا قيل لهم {اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا}البقرة١٧٠ فليس عندهم علم بل عندهم اتباع سلفهم وهو الذى اعتادوه وتربوا عليه ثم خاطب المؤمنين خصوصا فقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ {١٧٢} إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ {١٧٣}البقرة١٧٢-١٧٣ فأمرهم بأكل الطيبات مما رزقهم لأنهم هم المقصودون بالرزق ولم يشترط الحل هنا لأنه إنما حرم ما ذكر فما سواه حلال لهم والناس إنما أمرهم بأكل ما فى الأرض حلالا طيبا وهو إنما أحل للمؤمنين والكفار لم يحل لهم شيئا فالحل مشروط بالايمان ومن لم يستعن برزقه على عبادته لم يحل له شيئا وإن كان أيضا لم يحرمه فلا يقال إن الله أحله لهم ولا حرمه وإنما حرم على الذين هادوا ما ذكره فى سورة الأنعام ولهذا أنكر فى سورة الأنعام وغيرها على من حرم ما لم يحرمه كقوله {قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ}الأنعام١٤٣ ثم قال {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ}الأنعام١٤٦ ثم قال تعالى {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}الأنعام١٥١ الآيات وقال فى سورة النحل {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ

وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}النحل١١٨ الآية وأخبر أنه حرم ذلك ببغيهم فقال {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}النساء١٦٠ وقال {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ}الأنعام١٤٦ وهذا كله يدل على أصح قولى العلماء وهو أن هذا التحريم باق عليهم بعد مبعث محمد لا يزول إلا بمتابعته لأنه تحريم عقوبة على ظلمهم وبغيهم وهذا لم يزل بل زاد وتغلظ فكانوا أحق بالعقوبة وايضا فان الله تعالى أخبر بهذا التحريم بعد مبعث محمد ليبين أنه لم يحرم إلا هذا وهذا فلو كان ذلك التحريم قد زال لم يستثنه وأيضا فان التحريم لا يزول الا بتحليل منه وهو انما أحل أكل الطيبات للمؤمنين بقوله {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ}المائدة٩٣ الآية وقوله {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ}المائدة١وقوله {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ}المائدة٤ الى قوله {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ}المائدة٥ وهذا خطاب للمؤمنين ولهذا قال {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ}المائدة٥ ثم قال {وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ}المائدة٥ فلو كان ما أحل لنا حلا لهم لم يحتج الى هذا وقوله {وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ}المائدة٥ لا يدخل فيه ما حرم عليهم كما أن قوله {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ}المائدة٥ لا يدخل فيه ما حرم علينا مما يستحلونه هم كصيد الحرم وما أهل به لغير الله وهل يدخل فى طعامهم الذى احل لنا ما حرم عليهم ولم يحرم علينا مثل ما اذا ذكوا الابل هذا فيه نزاع معروف فالمشهور من مذهب مالك هو أحد القولين فى مذهب أحمد تحريمه ومذهب ابى حنيفة والشافعى والقول الآخر فى مذهب أحمد حله وهل العلة انهم لم يقصدوا ذكاته أو العلة انه ليس من طعامهم فيه نزاع وإذا ذبحوا للمسلم فهل هو كما اذا ذبحوا لأنفسهم فيه نزاع وفى جواز ذبحهم النسك اذا كانوا ممن يحل ذبحهم قولان هما روايتان عن أحمد فالمنع مذهب مالك والجواز مذهب ابى حنيفة والشافعى فاذا كان الذابح يهوديا صار فى الذبح علتان وليس هذا موضع هذه المسائل ثم إنه سبحانه لما ذكر حال من يقول على الله بلا علم بل تقليدا لسلفه ذكر حال من يكتم ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس فى الكتاب فقال {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}البقرة١٧٤ فهذا حال من كتم علم الرسول وذاك حال من عدل عنها الى خلافها والعادل عنها الى خلافها يدخل فيه من قلد أحدا من الأولين والآخرين فيما يعلم أنه خلاف قول الرسول سواء كان صاحبا أو تابعا أو أحد الفقهاء المشهورين الأربعة أو غيرهم وأما من ظن أن الذين قلدهم موافقون للرسول فيما قالوه فان كان قد سلك فى ذلك طريقا علميا فهو مجتهد له حكم

أمثاله وإن كان متكلما بلا علم فهو من المذمومين ومن إدعى إجماعا يخالف نص الرسول من غير نص يكون موافقا لما يدعيه واعتقد جواز مخالفة أهل الاجماع للرسول برأيهم وأن الاجماع ينسخ النص كما تقوله طائفة من أهل الكلام والرأى فهذا من جنس هؤلاء وأما إن كان يعتقد أن الاجماع يدل على نص لم يبلغنا يكون ناسخا للأول فهذا وإن كان لم يقل قولا سديدا فهو مجتهد فى ذلك يبين له فساد ما قاله كمن عارض حديثا صحيحا بحديث ضعيف اعتقد صحته فان قوله وإن لم يكن حقا لكن يبين له ضعفه وذلك بان يبين له عدم الاجماع المخالف للنص او يبين له انه لم تجتمع الأمة على مخالفة نص إلا ومعها نص معلوم يعلمون أنه الناسخ للأول فدعوى تعارض النص والاجماع باطلة ويبين له أن مثل هذا لا يجوز فان النصوص معلومة محفوظة والأمة مأمورة بتتبعها واتباعها وأما ثبوت الاجماع على خلافها بغير نص فهذا لا يمكن العلم بان كل واحد من علماء المسلمين خالف ذلك النص والاجماع نوعان قطعى فهذا لا سبيل الى أن يعلم اجماع قطعى على خلاف النص واما الظنى فهوالاجماع الاقرارى والاستقرائى بأن يستقرىء أقوال العلماء فلا يجد فى ذلك خلافا او يشتهر القول فى القرآن ولا يعلم احدا أنكره فهذا الاجماع وإن جاز الاحتجاج به فلا يجوز أن تدفع النصوص المعلومة به لأن هذا حجة ظنية لا يجزم الانسان بصحتها فانه لا يجزم بانتفاء المخالف وحيث قطع بانتفاء المخالف فالاجماع قطعى وأما إذا كان يظن عدمه ولا يقطع به فهو حجة ظنية والظنى لا يدفع به النص المعلوم لكن يحتج به ويقدم على ما هو دونه بالظن ويقدم عليه الظن الذى هو أقوى منه فمتى كان ظنه لدلالة النص أقوى من ظنه بثبوت الاجماع قدم دلالة النص ومتى كان ظنه للإجماع أقوى قدم هذا والمصيب فى نفس الأمر واحد وإن كان قد نقل له فى المسألة فروع ولم يتعين صحته فهذا يوجب له أن لا يظن الاجماع إن لم يظن بطلان ذلك النقل وإلا فمتى جوز ان يكون ناقل النزاع صادقا وجوز أن يكون كاذبا يبقى شاكا فى ثبوت الاجماع ومع الشك لا يكون معه علم ولا ظن بالاجماع ولا تدفع الأدلة الشرعية بهذا المشتبه مع أن هذا لا يكون فلا يكون قط إجماع يجب اتباعه مع معارضته لنص آخر لا مخالف له ولا يكون قط نص يجب اتباعه وليس فى الأمة قائل به بل قد يخفى القائل به على كثير من الناس قال الترمذى كل حديث فى كتابى قد عمل به بعض أهل العلم إلا حديثين حديث الجمع وقتل الشارب ومع هذا فكلا الحديثين قد عمل به طائفة وحديث الجمع قد عمل به أحمد وغيره ولكن من ثبت عنده نص ولم يعلم قائلا به وهو لا يدرى أجمع على نقيضه أم لا فهو بمنزلة من رأى دليلا عارضه آخر وهو بعد لم يعلم رجحان أحدهما فهذا يقف الى ان يتبين له رجحان هذا أو هذا فلا يقول قولا بلا علم ولا يتبع نصا مع ظن نسخه وعدم نسخه عنده سواء

لما عارضه عنده من نص آخر أو ظن اجماع ولا عاما ظن تخصيصه وعدم تخصيصه عنده سواء فلا بد أن يكون الدليل سالما عن المعارض المقاوم فيغلب على ظنه نفى المعارض المقاوم وإلا وقف وأيضا فمن ظن أن مثل هذا الاجماع يحتج به فى خلاف النص إن لم يترجح عنده ثبوت الاجماع أو يكون معه نص آخر ينسخ الأول وما يظنه من الاجماع معه وأكثر مسائل أهل المدينة التى يحتجون فيها بالعمل يكون معهم فيها نص فالنص الذى معه العمل مقدم على الآخر وهذا هو الصحيح فى مذهب أحمد وغيره كتقديم حديث عثمان لا ينكح المحرم على حديث ابن عباس وأمثال ذلك وأما رد النص بمجرد العمل فهذا باطل عند جماهير العلماء وقد تنازع الناس فى مخالف الاجماع هل يكفر على قولين والتحقيق أن الاجماع المعلوم يكفر مخالفه كما يكفر مخالف النص بتركه لكن هذا لا يكون إلا فيما علم ثبوت النص به وأما العلم بثبوت الاجماع فى مسألة لا نص فيها فهذا لا يقع وأما غير المعلوم فيمتنع تكفيره وحينئذ فالاجماع مع النص دليلان كالكتاب والسنة وتنازعوا فى الاجماع هل هو حجة قطعية أو ظنية والتحقيق أن قطعية قطعى وظنية ظنى والله أعلم وقد ذكر نظير هذه الآية فى سورة المائدة وذكر فى سورة الزخرف قوله {أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ}الزخرف٢٤ وهذا يتناول من بين له أن القول الآخر هو أهدى من القول الذى نشأ عليه فعليه أن يتبعه كما قال {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم}الزمر٥٥ وقال {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا}الأعراف١٤٥ وقال {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}الزمر١٨ والواجب فى الاعتقاد أن يتبع أحسن القولين ليس لأحد أن يعتقد قولا وهو يعتقد أن القول المخالف له أحسن منه وما خير فيه بين فعلين وأحدهما أفضل فهو أفضل وإن جاز له فعل المفضول فعليه أن يعتقد أن ذلك أفضل ويكون ذاك أحب اليه من هذا وهذا اتباع للأحسن وإذا نقل عالم الاجماع ونقل آخر النزاع إما نقلا سمى قائله وإما نقلا بخلاف مطلقا ولم يسم قائله فليس لقائل أن يقول نقلا لخلاف لم يثبت فانه مقابل بأن يقال ولا يثبت نقل الاجماع بل ناقل الاجماع ناف للخلاف وهذا مثبت له والمثبت مقدم على النافى وإذا قيل يجوز فى ناقل النزاع أن يكون قد غلط فيما أثبته من الخلاف إما لضعف الاسناد أو لعدم الدلالة قيل له ونافى النزاع غلطه أجوز فانه قد يكون فى المسألة أقوال لم تبلغه أو بلغته وظن ضعف اسنادها وكانت صحيحة عند غيره أو ظن عدم الدلالة وكانت دالة فكلما يجوز على المثبت من الغلط يجوز على النافى مع زيادة عدم العلم بالخلاف وهذا يشترك فيه عامة الخلاف فان عدم العلم ليس علما بالعدم لا سيما فى أقوال علماء أمة محمد التى لا يحصيها الا رب العالمين ولهذا قال أحمد وغيره من العلماء من ادعى

الاجماع فقد كذب هذه دعوى المريسى والأصم ولكن يقول لا أعلم نزاعا والذين كانوا يذكرون الاجماع كالشافعى وأبى ثور وغيرهما يفسرون مرادهم بأنا لا نعلم نزاعا ويقولون هذا هو الاجماع الذى ندعيه فتبين أن مثل هذا الاجماع الذى قوبل بنقل نزاع ولم يثبت واحد منهما لا يجوز أن يحتج به ومن لم يترجح عنده نقل مثبت النزاع على نافيه ولا نافيه على مثبته فليس له أيضا أن يقدمه على النص ولا يقدم النص عليه بل يقف لعدم رحجان أحدهما عنده فان ترجح عنده المثبت غلب على ظنه ان النص لم يعارضه إجماع يعمل به وينظر فى ذلك الى مثبت الاجماع والنزاع فمن عرف منه كثرة ما يدعيه من الاجماع والأمر بخلافه ليس بمنزله من لم يعلم منه اثبات اجماع علم انتفاؤه وكذلك من علم منه فى نقل النزاع أنه لا يغلط الا نادرا ليس بمنزلة من علم منه كثرة الغلط واذا تظافرعلى نقل النزاع اثنان لم يأخذ احدهما عن صاحبه فهذا يثبت به النزاع بخلاف دعوى الاجماع فانه لو تظافر عليه عدد لم يستفد بذلك إلا عدم علمهم بالنزاع وهذا لمن أثبت النزاع فى جمع الثلاث ومن نفى النزاع مع أن عامة من أثبت النزاع يذكر نقلا صحيحا لا يمكن دفعه وليس مع النافى ما يبطله وكثير من الفقهاء المتأخرين أو أكثرهم يقولون انهم عاجزون عن تلقى جميع الأحكام الشرعية من جهة الرسول فيجعلون نصوص أئمتهم بمنزلة نص الرسول ويقلدونهم ولا ريب ان كثيرا من الناس يحتاج الى تقليد العلماء فى الأمور العارضة التى لا يستقل هو بمعرفتها ومن سالكى طريق الارادة والعبادة والفقر والتصوف من يجعل شيخه كذلك بل قد يجعله كالمعصوم ولا يتلقى سلوكه الا عنه ولا يتلقى عن الرسول سلوكه مع أن تلقى السلوك عن الرسول أسهل من تلقى الفروع المتنازع فيها فان السلوك هو بالطريق التى أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق وهذا كله مبين فى الكتاب والسنة فان هذا بمنزلة الغذاء الذى لابد للمؤمن منه ولهذا كان جميع الصحابة يعلمون السلوك بدلالة الكتاب والسنة والتبليغ عن الرسول لا يحتاجون فى ذلك الى فقهاء الصحابة ولم يحصل بين الصحابة نزاع فى ذلك كما تنازعوا فى بعض مسائل الفقه التى خفيت معرفتها على أكثر الصحابة وكانوا يتكلمون فى الفتيا والاحكام طائفة منهم يستفتون فى ذلك وأما ما يفعله من يريد التقرب الى الله من واجب ومستحب فكلهم يأخذه عن الكتاب والسنة فان القرآن والحديث مملوء من هذا وإن تكلم أحدهم فى ذلك بكلام لم يسنده هو يكون هو أو معناه مسندا عن الله ورسوله وقد ينطق أحدهم بالكلمة من الحكمة فتجدها مأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم وهذا كما قيل فى تفسير قوله نور على نور ولكن كثير من أهل العبادة والزهادة أعرض عن طلب العلم النبوى الذى يعرف به طريق الله ورسوله فإحتاج لذلك الى تقليد شيخ وفى السلوك مسائل تنازع فيها

الشيوخ لكن يوجد فى الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب فى ذلك ما يفهمه غالب السالكين فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة فى الكتاب والسنة وانما إختلف أهل الكلام لما أعرضوا عن الكتاب والسنة فلما دخلوا فى البدع وقع الاختلاف وهكذا طريق العبادة عامة ما يقع فيه من الاختلاف انما هو بسبب الاعراض عن الطريق المشروع فيقعون فى البدع فيقع فيهم الخلاف وهكذا الفقه إنما وقع فيه الاختلاف لما خفى عليهم بيان صاحب الشرع ولكن هذا إنما يقع النزاع فى الدقيق منه وأما الجليل فلا يتنازعون فيه والصحابة أنفسهم تنازعوا فى بعض ذلك ولم يتنازعوا فى العقائد ولا فى الطريق الى الله التى يصير بها الرجل من أولياء الله الأبرار المقربين ولهذا كان عامة المشايخ اذا احتاجوا فى مسائل الشرع مثل مسائل النكاح والفرائض والطهارة وسجود السهو ونحو ذلك قلدوا الفقهاء لصعوبة أخذ ذلك عليهم من النصوص وأما مسائل التوكل والاخلاص والزهد ونحو ذلك فهم يجتهدون فيها فمن كان منهم متبعا للرسول أصاب ومن خالفه أخطأ ولا ريب أن البدع كثرت فى باب العبادة والارادة اعظم مما كثرت فى باب الاعتقاد والقول لأن الارادة يشترك الناس فيها اكثر مما يشتركون فى القول فان القول لا يكون الا بعقل والنطق من خصائص الانسان وأما جنس الارادة فهو مما يتصف به كل الحيوان فما من حيوان الا وله ارادة وهؤلاء اشتركوا فى ارادة التأله لكن افترقوا فى المعبود وفى عبادته ولهذا وصف الله فى القرآن رهبانية النصارى بأنهم ابتدعوها وذم المشركين فى القرآن على ما ابتدعوه من العبادات والتحريمات وذلك اكثر مما ابتدعوه من الاعتقادات فان الاعتقادات كانوا فيها جهالا فى الغالب فكانت بدعهم فيها أقل ولهذا كلما قرب الناس من الرسول كانت بدعهم أخف فكانت فى الأقوال ولم يكن فى التابعين وتابعيهم من تعبد بالرقص والسماع كما كان فيهم خوارج ومعتزلة وشيعة وكان فيهم من يكذب بالقدر ولم يكن فيهم من يحتج بالقدر فالبدع الكثيرة التى حصلت فى المتأخرين من العباد والزهاد والفقراء والصوفية لم يكن عامتها فى زمن التابعين وتابعيهم بخلاف أقوال اهل البدع القولية فانها ظهرت فى عصر الصحابة والتابعين فعلم أن الشبهة فيها أقوى وأهلها أعقل وأما بدع هؤلاء فاهلها اجهل وهم أبعد عن متابعة الرسول ولهذا يوجد فى هؤلاء من يدعى الالهية والحلول والاتحاد ومن يدعى أنه أفضل من الرسول وأنه مستغن عن الرسول وأن لهم الى الله طريقا غير طريق الرسول وهذا ليس من جنس بدع المسلمين بل من جنس بدع الملاحدة من المتفلسفة ونحوهم وأولئك قد عرف الناس أنهم ليسوا مسلمين وهؤلاء يدعون أنهم أولياء الله مع هذه الأقوال التى لا يقولها الا من هو أكفر من اليهود والنصارى وكثير منهم أو أكثرهم لا يعرف ان ذلك مخالفة للرسول بل عند

طائفة منهم أن أهل الصفة قاتلوا الرسول وأقرهم على لذك وعند آخرين أن الرسول أمر أن يذهب ليسلم عليهم ويطلب الدعاء منهم وانهم لم يأذنوا له وقالوا اذهب الى من ارسلت اليهم وانه رجع الى ربه فأمره ان يتواضع ويقول خويدمكم جاء ليسلم عليكم فجبروا قلبه وأذنوا له بالدخول فمع اعتقادهم هذا الكفر العظيم الذى لا يعتقده يهودى ولا نصرانى يقر بانه رسول الله الى الأميين يقولون ان الرسول أقرهم على ذلك واعترف به واعترف انهم خواص الله وأن الله يخاطبهم بدون الرسول لم يحوجهم اليه كبعض خواص الملك مع وزرائه ويحتجون بقصة الخضر مع موسى وهى حجة عليهم لا لهم من وجوه كثيرة قد بسطت فى موضع آخر والضلال والجهل فى جنس العباد والمبتدعة أكثر منه فى جنس اهل الأقوال لكن فيهم من الزهد والعبادة والأخلاق مالا يوجد فى اولئك وفى أولئك من الكبر والبخل والقسوة ما ليس فيهم فهؤلاء فيهم شبه من النصارى وهؤلاء فيهم شبه من اليهود والله تعالى أمرنا ان نقول {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة٦-٧ ولهذا آل الأمر بكثير من اكابر مشايخهم الى انهم شهدوا توحيد الربوبية والايمان بالقدر وذلك شامل لجميع الكائنات فعدوا الفناء فى هذا بزوال الفرق بين الحسنات والسيئات غاية المقامات وليس بعده الا ما سموه توحيدا وهو من جنس الحلول والاتحاد الذى تقوله النصارى ولكنهم يهابون الافصاح عن ذلك ويجعلونه من الأسرار المكتومة ومنهم من يقول ان الحلاج هذا كان مشهده وانما قتل لأنه باح بالسر الذى ما ينبغى البوح به واذا انضم الى ذلك ان يكون أحدهم قد أخذ عمن يتكلم فى إثبات القدر من أهل الكلام أو غيرهم ويجعل الجميع صادرا عن ارادة واحدة وليس هنا حب ولا بغض ولا رضا ولا سخط ولا فرح ولكن المرادات متنوعة فما كان ثوابا سمى تعلق الارادة به رضا وما كان عقابا سمى سخطا فيجنئذ مع هذا المشهد لا يبقى عنده تمييز ويسمون هذا الجمع والاصطلام وكان الجنيد قدس الله روحه لما وصل أصحابه كالثورى وأمثاله الى هذا المقام امرهم بالفرق الثانى وهو ان يفرقوا بين المأمور والمحظور ومحبوب الله ومرضيه ومسخوطه ومكروهه وهو مشهد الالهية الذى جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وهو حقيقة قول لا اله الا الله فمنهم من انكر على الجنيد ومنهم من توقف ومنهم من وافق والصواب ما قاله الجنيد من ذكر هذه الكلمة فى الفرق بين المأمور والمحظور والكلمة الاخرى فى الفرق بين الرب والعبد وهو قوله التوحيد إفراد الحدوث عن القدم فهذا رد على الاتحادية والحلولية منهم وتلك رد على من يقف عند الحقيقة الكونية منهم وما اكثر من ابتلى بهذين منهم ثم من الناس من يقوم بهذا الفرق لكن لنفسه وهواه لا عبادة وطاعة لله فهذا مثل من يجاهد ويأمر بالمعروف وينهى عن

المنكر لهواه كالمقاتل شجاعة وحمية ورياء وذاك بمنزلة من لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ولا يجاهد هذا شبيه بالراهب وذاك شبيه بمن لم يطلب الا الدنيا ذاك مبتدع وهذا فاجر وقد كثر فى المتزهدة والمتفقرة البدع وفى المعرضين عن ذلك طلب الدنيا وطلاب الدنيا لا يعارضون تاركها الا لأغراضهم وإن كانوا مبتدعة وأولئك لا يعارضون ابناء الدنيا الا لأغراضهم فتبقى المنازعات للدنيا لا لتكون كلمة الله هى العليا ولا ليكون الدين لله بخلاف طريقة السلف رضى الله عنهم أجمعين وكلاهما خارج عن الصراط المستقيم نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفقيا آخره والحمد لله رب العالمين [١]

## يجب تحكيم الرسول فى كل ما شجر بين الناس

وإذا كانت الشهادتان هي أصل الدين وفرعه وسائر دعائمه وشعبه داخلة فيهما فالعبادة متعلقة بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}النور٥٢ وتحكيم الله ورسوله كقوله {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ}النساء٦١ [٢]

قال تعالى {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}البقرة٨٥ أنه ينبغى للمسلم أن يقدر قدر كلام الله ورسوله بل ليس لأحد أن يحمل كلام أحد من الناس الا على ما عرف أنه أراده لا على ما يحتمله ذلك اللفظ فى كلام كل أحد فان كثيرا من الناس يتأول النصوص المخالفة لقوله يسلك مسلك من يجعل التأويل كأنه ذكر ما يحتمله اللفظ وقصده به دفع ذلك المحتج عليه بذلك النص وهذا خطأ بل جميع ما قاله الله ورسوله يجب الايمان به فليس لنا أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض وليس الاعتناء بمراده فى أحد النصين دون الآخر بأولى من العكس فاذا كان النص الذى

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٢٦٠-٢٧٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٤٢

وافقه يعتقد أنه اتبع فيه مراد الرسول فكذلك النص الآخر الذى تأوله فيكون أصل مقصوده معرفة ما أراده الرسول بكلامه وهذا هو المقصود بكل ما يجوز من تفسير وتأويل عند من يكون اصطلاحه تغاير معناهما وأما من يجعلهما بمعنى واحد كما هو الغالب على اصطلاح المفسرين فالتأويل عندهم هو التفسير وأما التأويل فى كلام الله ورسوله فله معنى ثالث غير معناه فى اصطلاح المفسرين وغير معناه فى اصطلاح متأخرى الفقهاء والأصوليين كما بسط فى موضعه والمقصود هنا ان كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة كاسم الايمان والاسلام والدين والصلاة والصيام والطهارة والحج وغير ذلك فانما يكون لترك واجب من ذلك المسمى ومن هذا قوله تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ فلما نفى الايمان حتى توجد هذه الغاية دل على أن هذه الغاية فرض على الناس فمن تركها كان من أهل الوعيد لم يكن قد أتى بالايمان الواجب الذى وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب فان الله انما وعد بذلك من فعل ما أمر به واما من فعل بعض الواجبات وترك بعضها فهو معرض للوعيد ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول فى كل ما شجر بين الناس في أمر دينهم ودنياهم فى أصول دينهم وفروعه وعليهم كلهم اذا حكم بشىء أن لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما حكم ويسلموا تسليما قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً {٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١}النساء٦٠-٦١ وقوله {إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ{٦١}النساء ٦١ وقد أنزل الله الكتاب والحكمة وهى السنة قال تعالى {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ}البقرة٢٣١ وقال تعالى {وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً}النساء١١٣ والدعاء الى ما أنزل يستلزم الدعاء الى الرسول والدعاء الى الرسول يستلزم الدعاء الى ما أنزله الله وهذا مثل طاعة الله والرسول فانهما متلازمان فمن يطع الرسول فقد أطاع الله ومن أطاع الله فقد أطاع الرسول وكذلك قوله تعالى {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ}النساء١١٥ فانهما متلازمان فكل من شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وكل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فان كان يظن أنه متبع سبيل المؤمنين وهو مخطىء فهو بمنزلة من ظن أنه متبع للرسول وهو مخطىء وهذه الآية تدل على أن

اجماع المؤمنين حجة من جهة أن مخالفتهم مستلزمة لمخالفة الرسول وان كل ما أجمعوا عليه فلابد أن يكون فيه نص عن الرسول فكل مسألة يقطع فيها بالاجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين فانها مما بين الله فيه الهدى ومخالف مثل هذا الاجماع يكفر كما يكفر مخالف النص البين وأما اذا كان يظن الاجماع ولا يقطع به فهنا قد لا يقطع أيضا بأنها مما تبين فيه الهدى من جهة الرسول ومخالف مثل هذا الاجماع قد لا يكفر بل قد يكون ظن الاجماع خطأ والصواب فى خلاف هذا القول وهذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به من مخالفة الاجماع وما لا يكفر و الاجماع هل هو قطعى الدلالة أو ظنى الدلالة فان من الناس من يطلق الاثبات بهذا أو هذا ومنهم من يطلق النفى لهذا ولهذا والصواب التفصيل بين ما يقطع به من الاجماع ويعلم يقينا أنه ليس فيه منازع من المؤمنين أصلا فهذا يجب القطع بأنه حق وهذا لابد أن يكون مما بين فيه الرسول الهدى كما قد بسط هذا فى موضع آخر ومن جهة أنه اذا وصف الواجب بصفات متلازمة دل على أن كل صفة من تلك الصفات متى ظهرت وجب اتباعها وهذا مثل الصراط المستقيم الذى أمرنا الله بسؤال هدايته فانه قد وصف بأنه الاسلام ووصف بأنه اتباع القرآن ووصف بأنه طاعة الله ورسوله ووصف بأنه طريق العبودية ومعلوم أن كل اسم من هذه الأسماء يجب اتباع مسماه ومسماها كلها واحد وان تنوعت صفاته فأى صفة ظهرت وجب اتباع مدلولها فانه مدلول الأخرى وكذلك أسماء الله تعالى وأسماء كتابه وأسماء رسوله هى مثل أسماء دينه وكذلك قوله تعالى {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ}آل عمران١٠٣ قيل حبل الله هو دين الاسلام وقيل القرآن وقيل عهده وقيل طاعته وأمره وقيل جماعة المسلمين وكل هذا حق وكذلك اذا قلنا الكتاب والسنة والاجماع فمدلول الثلاثة واحد فان كل ما فى الكتاب فالرسول موافق له والأمة مجمعة عليه من حيث الجملة فليس فى المؤمنين الا من يوجب اتباع الكتاب وكذلك كل ما سنه الرسول فالقرآن يأمر باتباعه فيه والمؤمنون مجمعون على ذلك وكذلك كل ما أجمع عليه المسلمون فانه لا يكون الا حقا موافقا لما فى الكتاب والسنة لكن المسلمون يتلقون دينهم كله عن الرسول وأما الرسول فينزل عليه وحى القرآن ووحى آخر هو الحكمة كما قال ألا انى أوتيت الكتاب ومثله معه وقال حسان بن عطية كان جبريل ينزل على النبى بالسنة فيعلمه اياها كما يعلمه القرآن فليس كل ما جاءت به السنة يجب أن يكون مفسرا فى القرآن بخلاف ما يقوله أهل الاجماع فانه لابد أن يدل عليه الكتاب والسنة فان الرسول هو الواسطة بينهم وبين الله فى أمره ونهيه وتحليله وتحريمه والمقصود ذكر الايمان ومن هذا الباب قول النبى صلى الله عليه وسلم لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر وقوله آية الايمان حب الأنصار

وآية النفاق بغض الأنصار فان من علم ما قامت به الأنصار من نصر الله ورسوله من أول الأمر وكان محبا لله ولرسوله أحبهم قطعا فيكون حبه لهم علامة الايمان الذى فى قلبه ومن أبغضهم لم يكن فى قلبه الايمان الذى أوجبه الله عليه وكذلك من لم يكن فى قلبه بغض ما يبغضه الله ورسوله من المنكر الذى حرمه الله ورسوله من الكفر والفسوق والعصيان لم يكن فى قلبه الايمان الذى أوجبه الله عليه فان لم يكن مبغضا لشىء من المحرمات أصلا لم يكن معه ايمان أصلا كما سنبينه ان شاء الله تعالى وكذلك من لا يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه لم يكن معه ما أوجبه الله عليه من الايمان فحيث نفى الله الايمان عن شخص فلا يكون الا لنقص ما يجب عليه من الايمان ويكون من المعرضين للوعيد ليس من المستحقين للوعد المطلق وكذلك قوله من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا كله من هذا الباب لا يقوله الا لمن ترك ما أوجب الله عليه أو فعل ما حرمه الله ورسوله فيكون قد ترك من الايمان المفروض عليه ما ينفى عنه الاسم لأجله فلا يكون من المؤمنين المستحقين للوعد السالمين من الوعيد وكذلك قوله تعالى {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ{٤٧} وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ{٤٨} وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ{٤٩} أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{٥٠}النور ٤٧-٥٠ {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{٥١} النور٤٧-٥١ فهذا حكم اسم الايمان اذا أطلق فى كلام الله ورسوله فانه يتناول فعل الواجبات وترك المحرمات ومن نفى الله ورسوله عنه الايمان فلابد ان يكون قد ترك واجبا أو فعل محرما فلا يدخل فى الاسم الذى يستحق أهله الوعد دون الوعيد بل يكون من أهل الوعيد [1]

## لكل فريق طواغيت يريدون أن يتحاكموا اليهم

ومن الناس من يقر بالرسل في الجملة لكن لا يؤمن بما يجب من حقيقة إرسالهم كالملاحدة وأهل البدع الذين يعظمون الأنبياء مع اعتقادهم في الباطن ما يناقض

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٧-٤٢

بعض ما جاءوا به لشبهات انعقدت في قلوبهم ظنوها علوما عقلية وهي مناقضة لما أخبرت به الرسل فيحتاجون إلى ان يوفقوا بينهما وهؤلاء يشبهون الذين قال الله فيهم ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{٦٢} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{٦٣} النساء ٦٠ ـ٦٣ [١]

لئن كان ما يقوله هؤلاء المتكلمون المتكلفون هو الاعتقاد الواجب وهم مع ذلك أحيلوا فى معرفته على مجرد عقولهم وان يدفعوا بما اقتضى قياس عقولهم ما دل عليه الكتاب والسنة نصا أو ظاهرا لقد كان ترك الناس بلا كتاب ولا سنة أهدى لهم وأنفع على هذا التقدير بل كان وجود الكتاب والسنة ضررا محضا فى أصل الدين فإن حقيقة الأمر على ما يقوله هؤلاء أنكم يا معشر العباد لا تطلبوا معرفة الله عز وجل وما يستحقه من الصفات نفيا واثباتا لا من الكتاب ولا من السنة ولا من طريق سلف الأمة ولكن انظروا أنتم فما وجدتموه مستحقا له من الصفات فصفوه به سواء كان موجودا فى الكتاب والسنة أو لم يكن وما لم تجدوه مستحقا له فى عقولكم فلا تصفوه به ثم هم ههنا فريقان اكثرهم يقولون ما لم تثبته عقولكم فانفوه ومنهم من يقول بل توقفوا فيه وما نفاه قياس عقولكم الذى أنتم فيه مختلفون ومضطربون اختلافا أكثر من جميع من على وجه الأرض فانفوه واليه عند التنازع فارجعوا فإنه الحق الذى تعبدتكم به وما كان مذكورا فى الكتاب والسنة مما يخالف قياسكم هذا أو يثبت ما لم تدركه عقولكم على طريقة أكثرهم فاعلموا انى امتحنكم بتنزيله لا لتأخذوا الهدى منه لكن لتجتهدوا فى تخريجه على شواذ اللغة ووحشى الالفاظ وغرائب الكلام أو ان تسكتوا عنه مفوضين علمه الى الله مع نفى دلالته على شيء من الصفات هذا حقيقة الأمر على رأى هؤلاء المتكلمين وهذا الكلام قد رأيته صرح بمعناه طائفة منهم وهو لازم لجماعتهم لزوما لا محيد عنه ومضمونه أن كتاب الله لا يهتدى به فى معرفة الله وأن الرسول معزول عن التعليم والإخبار بصفات من أرسله وان الناس عند التنازع لا يردون ما تنازعوا فيه الى الله

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٥١٨

والرسول بل الى مثل ما كانوا عليه فى الجاهلية والى مثل ما يتحاكم إليه من لا يؤمن بالأنبياء كالبراهمة والفلاسفة وهم المشركون والمجوس وبعض الصابئين وان كان هذا الرد لا يزيد الأمر الا شدة ولا يرتفع الخلاف به اذ لكل فريق طواغيت يريدون أن يتحاكموا اليهم وقد أمروا أن يكفروا بهم وما اشبه حال هؤلاء المتكلمين بقوله سبحانه وتعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً {٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً {٦١} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً {٦٢} النساء٦٠ -٦٢ فان هؤلاء إذا دعوا الى ما أنزل الله من الكتاب والى الرسول والدعاء اليه بعد وفاته هو الدعاء الى سنته أعرضوا عن ذلك وهم يقولون انا قصدنا الإحسان علما وعملا بهذه الطريق التى سلكناها والتوفيق بين الدلائل العقلية والنقلية ثم عامة هذه الشبهات التي يسمونها دلائل انما تقلدوا أكثرها عن طاغوت من طواغيت المشركين أو الصابئين أو بعض ورثتهم الذين أمروا أن يكفروا بهم مثل فلان وفلان أو عمن قال كقولهم لتشابه قلوبهم قال الله تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} البقرة٢١٣ [١]

كان كثير من المنافقين يتحاكمون إلى بعض الكهان دون النبي صلى الله عليه وسلم ويجعلونه نظير النبي وكان في العرب عدة من هؤلاء وكان بالمدينة منهم أبو برزة الاسلمي قبل أن يسلم كان كاهنا وقد قيل ان الذي أنزل الله تعالى فيه {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء٦٠ وقد ذكر قصته غير واحد من المفسرين ولما كان الذين يعارضون

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٦

آيات الانبياء من السحرة والكهان لا يأتون بمثل آياتهم بل يكون بينهما شبه كشبه الشعر بالقرآن ولهذا قالوا في النبي إنه ساحر وكاهن وشاعر مجنون [١]

## لا بد من الإقرار بما جاء به الرسول

فإذا علم أنه نبي كيف ما كان لزم أن يكون ما أخبر به عن الله حقا وإذا كان رسول الله وجبت طاعته في كل ما يأمر به كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ وإذا أخبر أنه رسول الله إلى أهل الكتاب وأنه تجب عليهم طاعته كان ذلك حقا [٢]

أنه لا بد من الإقرار بما جاء به الرسول وأنه هو الذي يوافق صريح المعقول وأن من خالفه فهو ممن لا يسمع ولا يعقل وهو أسوأ حالا ممن فر من الملك العادل الذي يلزمه بطعام امرأته وأولاده والزكاة الشرعية إلى بلاد ملكها ظالم ألزمه باخراج أضعاف ذلك لخنايزه وكلابه مع قلة الكسب في بلاده وبمنزلة من فر من معاشرة أقوام أهل صلاح وعدل ألزموه ما يلزم واحدا منهم من الأمور المشتركة إذا كانوا مقيمين أو مسافرين أن يخرج مثلما يخرجه الواحد منهم فكره هذا وفر إلى بلد فألزمه أهلها بأن ينفق عليهم ويخدمهم وإلا قتلوه وما أمكنه الهرب منهم فمن فر من حكم الله ورسوله أمرا وخبرا أو ارتد عن الاسلام أو بعض شرائعه خوفا من محذور في عقله أو علمه أو دينه أو دنياه كان ما يصيبه من الشر أضعاف ما ظنه شرا في اتباع الرسول قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ

---

[١] النبوات ج: ١ ص: ٢٢٢

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢٠٦

جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{٦٢} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{٦٣} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً{٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥} النساء٦٠ ـ٦٥ [١]

## عامة السور المدنية يذكر فيها المنافقين

والقرآن يذكر المؤمنين والمنافقين فى غير موضع كما ذكرهم فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وسورة العنكبوت والأحزاب وكان هؤلاء فى اهل المدينة والبادية كما قال تعالى {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ}التوبة١٠١ وكان فى المنافقين من هو فى الأصل من المشركين وفيهم من هو فى الأصل من اهل الكتاب وسورة الفتح والقتال والحديد والمجادلة والحشر والمنافقين بل عامة السور المدنية يذكر فيها المنافقين قال تعالى فى سورة النساء {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً {٦٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{٦١} النساء٦٠ ـ٦١ الى قوله {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥} النساء٦٥ [٢]

## إنكار كثير من أهل البدع لما يعلمه أهل السنة من الآثار النبوية

---

[١] النبوات ج: ١ ص: ٩٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٦٤

لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانعا من قيام حجة الله تعالى عليهم وكذلك إعراضهم عن استماع المنقول عن الأنبياء وقراءة الآثار المأثورة عنهم لا يمنع الحجة إذ المكنة حاصلة فلذلك قال تعالى {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}لقمان٧ وقال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً}النساء٦١ ومن هذا الباب إنكار كثير من أهل البدع والكلام والفلسفة لما يعلمه أهل الحديث والسنة من الآثار النبوية والسلفية المعلومة عندهم بل المتواترة عندهم عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين لهم باحسان فان هؤلاء يقولون هذه غير معلومة لنا كما يقول من يقول من الكفار إن معجزات الأنبياء غير معلومة لهم وهذا لكونهم لم يطلبوا السبب الموجب للعلم بذلك وإلا فلو سمعوا ما سمع اولئك وقرأوا الكتب المصنفة التي قرأها أولئك تحصل لهم من العلم ما حصل لأولئك وعدم العلم ليس علما بالعدم وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود فهم إذا لم يعلموا ذلك لم يكن هذا علما منهم بعدم ذلك ولا بعدم علم غيرهم به بل هم كما قال الله تعالى {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}يونس٣٩ وتكذيب من كذب بالجن هو هذا الباب وإلا فليس عند المتطبب والمتفلسف دليل عقلي ينفي وجودهم لكن غايته أنه ليس في صناعته ما يدل على وجودهم وهذا إنما يفيد عدم العلم لا العلم بالعدم وقد اعترف بهذا حذاق الأطباء والفلاسفة كأبقراط وغيره[١]

## {رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً}

فإن حال الكافر لا تخلو من أن يتصور الرسالة أولا فإن لم يتصورها فهو فى غفلة عنها وعدم إيمان بها كما قال {فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ}الأعراف١٣٦ لكن الغفلة المحضة لا تكون إلا لمن لم تبلغه الرسالة والكفر المعذب علية لا يكون الا بعد بلوغ الرسالة فلهذا قرن

---

[١] الرد على المنطقيين ج: ١ ص:٩٩- ١٠٠

التكذيب بالغفلة وإن تصور ما جاء به الرسول وانصرف فهو معرض عنه كما قال تعالى {رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً}النساء ٦١ [١]

## سيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال

ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته فى الآفاق وفى انفسنا وبما شهد به فى كتابه أن المعاصى سبب المصائب فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال وان الطاعة سبب النعمة فاحسان العمل سبب لاحسان الله قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ}آل عمران١٥٥ وقال {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}آل عمران١٦٥وقال {أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٤ [٢]

أن الحسنات وهي المسار الظاهرة التي يبتلي بها العبد تكون عن طاعات فعلها العبد فكذلك السيئات وهي المكاره التي يبتلي بها العبد تكون عن معاصي فعلها العبد كما قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ وقال تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}آل عمران١٦٥ وقال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٠ وقال تعالى {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ}النساء٦٢ وقال تعالى {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ}الشورى٤٨ ثم تلك المسار التي هي من ثواب طاعته إذا عصي الله فيها كانت سببا لعذابه والمكاره التي هي عقوبة معصيته إذا أطاع الله فيها كانت سببا لسعادته فتدبر هذا لتعلم أن الأعمال بخواتيمها وأن ما

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٧٨

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٣٨

ظاهره نعمة هو لذة عاجلة قد تكون سببا للعذاب وما ظاهره عذاب وهو ألم عاجل قد يكون سببا للنعيم وما هو طاعه فيما يري الناس قد يكون سببا لهلاك العبد برجوعه عن الطاعة إذا ابتلي في هذه الطاعة وما هو معصية فيما يري الناس قد يكون سببا لسعادة العبد بتوبته منه وتصبره على المصيبة التي هي عقوبة ذلك الذنب فالأمر والنهي يتعلق بالشيء الحاصل فيؤمر العبد بالطاعة مطلقا وينهي عن المعصية مطلقا ويؤمر بالشكر على كل ما يتنعم به وأما القضاء والقدر وهو علم الله وكتابه وما طابق ذلك من مشيئته وخلقه فهو باعتبار الحقيقة الآجلة فالأعمال بخواتيمها والمنعم عليهم في الحقيقة هم الذين يموتون على الإيمان [1]

## ليست الفصاحة التشدق في الكلام والسجع

وليست الفصاحة التشدق في الكلام والتقعير في الكلام ولا سجع الكلام ولا كان في خطبة علي ولا سائر خطباء العرب من الصحابة وغيرهم تكلف الأسجاع ولا تكلف التحسين الذي يعود إلى مجرد اللفظ الذي يسمى علم البديع كما يفعله المتأخرون من أصحاب الخطب والرسائل والشعر وما يوجد في القرآن من مثل قوله {وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً}الكهف١٠٤ و {إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ}العاديات١١ ونحو ذلك فلم يتكلف لأجل التجانس بل هذا تابع غير مقصود بالقصد الأول كما يوجد في القرآن من أوزان الشعر ولم يقصد به الشعر كقوله تعالى {وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ}سبأ١٣ وقوله {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الحجر٤٩ {وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ{٢} الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ{٣}الشرح ٢- ٣ ونحو ذلك وإنما البلاغة المأمور بها في مثل قوله تعالى {وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً}النساء٦٣ هي علم المعاني والبيان فيذكر من المعاني ما هو أكمل مناسبة للمطلوب ويذكر من الألفاظ ما هو أكمل في بيان تلك المعاني فالبلاغة بلوغ غاية المطلوب أو غاية الممكن من المعاني بأتم ما يكون من البيان فيجمع صاحبها بين تكميل المعاني المقصودة وبين تبيينها بأحسن وجه ومن الناس من تكون همته إلى المعاني ولا يوفيها حقها من الألفاظ المبينة ومن الناس من يكون مبينا لما في نفسه من المعاني لكن لا تكون تلك المعاني محصلة للمقصود المطلوب في ذلك المقام

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص:١٦٨- ١٦٩

فالمخبر مقصودة تحقيق المخبر به فإذا بينه وبين ما يحقق ثبوته لم يكن بمنزلة الذي لا يحقق ما يخبر به أو لا يبين ما يعلم به ثبوته والأمر مقصودة تحصيل الحكمة المطلوبة فمن أمر ولم يحكم ما أمر به أو لم يبين الحكمة في ذلك لم يكن بمنزلة الذي أمر بما هو حكمة وبين وجه الحكمة فيه وأما تكلف الأسجاع والأوزان والجناس والتطبيق ونحو ذلك مما تكلفه متأخروا الشعراء والخطباء والمترسلين والوعاظ فهذا لم يكن من دأب خطباء الصحابة والتابعين والفصحاء منهم ولا كان ذلك مما يهتم به العرب وغالب من يعتمد ذلك يزخرف اللفظ بغير فائدة مطلوبة من المعاني كالمجاهد الذي يزخرف السلاح وهو جبان [1]

وقد ذكر الله فى كتابه الفرق بين الارادة و الأمر و القضاء و الاذن و التحريم و البعث و الارسال و الكلام و الجعل بين الكونى الذى خلقه وقدره وقضاه وان كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثبت اصحابه ولا يجعلهم من أوليائه المتقين وبين الدينى الذى امر به وشرعه واثاب عليه واكرمهم وجعلهم من اوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين وهذا من أعظم الفروق التى يفرق بها بين اولياء الله واعدائه فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من اوليائه ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من اعدائه ف الارادة الكونية هى مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة فى مشيئته وارادته الكونية والارادة الدينية هى المتضمنة لمحبته ورضاه المتناولة لما امر به وجعله شرعا ودينا وهذه مختصة بالايمان والعمل الصالح واما الاذن فقال فى الكونى لما ذكر السحر {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ}البقرة١٠٢ اى بمشيئته وقدرته والا فالسحر لم يبحه الله عز وجل وقال فى الاذن الدينى {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ}الشورى٢١ وقال تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً{٤٥} وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ{٤٦} الاحزاب٤٥-٤٦ وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ وقال تعالى {مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ}الحشر٥ [2]

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص:٥٣- ٥٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٦٧-٢٦٨

## ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب

قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً}النساء٦٤ والتحقيق أن ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب وفى الصحيحين أن أبا بكر قال يا رسول الله علمنى دعاءا أدعو به فى صلاتى فقال قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم وفى صحيح مسلم وغيره أن النبى كان يقول فى استفتاحه اللهم أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق فانه لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها فانه لا يصرف عنى سيئها إلا أنت وقد قال أبوالبشر وزوجته {قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}الأعراف٢٣ وقال موسى {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي}القصص١٦ وقال ذوالنون يونس {لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}الأنبياء٨٧ وقالت بلقيس {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}النمل٤٤ وقد قال عن أهل القرى المعذبين {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} هود١٠١ [١]

ظلم النفس فانه اذا أطلق تناول جميع الذنوب فانها ظلم العبد نفسه قال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ}النساء٦٤ [٢]

## لا تكون العبادة والخشية والتقوى إلا لله وحده

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٩٣

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٢

ان العلماء متفقون كلهم على أنه لا تكون العبادة إلا لله وحده ولا يكون التوكل إلا عليه وحده ولا تكون الخشية والتقوى إلا لله وحده والرسول صلى الله عليه وسلم له حق لا يشركه فيه احد من الأمة مثل وجوب طاعته فى كل ما يوجب ويأمر قال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}النساء٨٠ وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ ولهذا كانت مبايعته مبايعة لله كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ}الفتح١٠ فإنهم عاقدوه على أن يطيعوه فى الجهاد ولا يفروا وإن ماتوا وهذه الطاعة له هى طاعة لله وعلينا أن يكون الرسول أحب إلينا من أنفسنا وآبائنا وأبنائنا وأهلنا وأموالنا كما فى الحديث الصحيح عن النبى أنه قال والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين رواه البخارى ومسلم وفى لفظ لمسلم وأهله وماله وفى البخارى عن عبدالله بن هشام أنه قال كنا مع النبى وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسى فقال النبى لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال له عمر فإنك الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى فقال النبى الآن يا عمر وقد قال تعالى{قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}التوبة٢٤ وقد قال تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ}الأحزاب٦ وفى الصحيحين عنه أنه قال أنا أولى بكل مؤمن من نفسه وذلك أنه لا نجاة لأحد من عذاب الله ولا وصول له إلى رحمة الله إلا بواسطة الرسول بالإيمان به ومحبته وموالاته وأتباعه وهو الذى ينجيه الله به من عذاب الدنيا والآخرة وهو الذى يوصله إلى خير الدنيا والآخرة فأعظم النعم وأنفعها نعمة الإيمان ولا تحصل إلا به وهو أنصح وأنفع لكل احد من نفسه وماله فإنه الذى يخرج الله به من الظلمات إلى النور لا طريق له إلا هو وأما نفسه وأهله فلا يغنون عنه من الله شيئا وهو دعا الخلق إلى الله بإذن الله كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً{٤٥} وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً{٤٦}الاحزاب٤٥-٤٦ والمخالف له يدعو إلى غير الله بغير إذن الله ومن إتبع الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه إنما يدعو إلى الله ورسوله وقوله تعالى {بِإِذْنِهِ}الاحزاب ٤٦ أى بأمره وما أنزله من العلم كما قال تعالى {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي}يوسف١٠٨ فمن إتبع الرسول دعا إلى الله على بصيرة أى على بينة وعلم يدعو إليه بمنزل من الله بخلاف الذى يأمر بما لا يعلم

أو بما لم ينزل به وحيا كما قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} الحج ٧١ [١]

وقد قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله فالله هو الذي يتوكل عليه ويستعان به ويستغاث به ويخاف ويرجى ويعبد وتنيب القلوب إليه لا حول ولا قوة إلا به ولا منجى منه إلا إليه والقرآن كله يحقق هذا الأصل والرسول صلى الله عليه وسلم يطاع ويحب ويرضى به ويسلم إليه حكمه ويعزر ويوقر ويتبع ويؤمن به وبما جاء به قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} النساء ٦٤ وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم قال ثلاث من كن فيه وجد حلاة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار [٢]

## بعث الله رسوله محمدا بأفضل المناهج والشرائع

كل من وجبت طاعته من المخلوقين فإنما وجبت لأن ذلك طاعة لله تعالى فالرسل يبلغون عن الله أمره فمن أطاعهم فقد أطاع الله ومن بايعهم فقد بايع الله قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} النساء ٦٤ [٣]

ومن لم تكن له بصيرة يدرك بها الفساد الناشيء عما نهى عنه عندها فيكفيه أن يقلد الرسول صلى الله عليه وسلم كما نهى عن الصلاة في الأوقات الثلاثة وعن صوم يومي العيدين و كما حرم الخمر فإنه لولا أن فسادها غالب على ما فيها من المنفعة لما حرمها وكذلك تحريم القطرة منها ولولا غلبة الفساد فيها على الصلاح لما حرمها

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٤٢٥-٤٢٧

[٢] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٤٤٩

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣١٦

وليس على المؤمن ولا له أن يطالب الرسل بتبيين وجوه المفاسد وإنما عليه طاعتهم قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ وقال {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}النساء٨٠ وإنما حقوق الأنبياء في تعزيرهم وتوقيرهم ومحبتهم محبة مقدمة على النفس والمال والأهل وإيثار طاعتهم ومتابعة سننهم ونحو ذلك من الحقوق التي من قام بها لم يقم بعبادتهم والإشراك بهم كما أن عامة من يشرك بهم شركا أكبر أو أصغر يترك ما يجب عليه من طاعتهم بقدر مابتدعه من الإشراك بهم وكذلك حقوق الصديقين المحبة والإجلال ونحو ذلك من الحقوق التي جاء بها الكتاب والسنة وكان عليها سلف الأمة [1]

ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لا نبي بعده فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة ولهذا كان إجماعهم حجة كما كان الكتاب والسنة حجة ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة والسنة والجماعة عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله وعما مضت عليه جماعة المسلمين فإن الله أمر في كتابه باتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولزوم سبيله وأمر بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ [2]

واذا كان لابد من طاعة آمر وناه فمعلوم أن دخول المرء فى طاعة الله ورسوله خير له وهو الرسول النبى الأمي المكتوب فى التوراة والانجيل الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث وذلك هو الواجب على جميع الخلق قال الله تعالى{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً {٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥}النساء٦٤ -٦٥ وقال {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ وقال {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٣٣٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٦٨

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤}النساء١٣ ـ١٤
وكان النبى يقول فى خطبته للجمعة ان خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكان يقول فى خطبة الحاجة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فانه لا يضر الا نفسه ولن يضر الله شيئا وقد بعث الله رسوله محمدا بأفضل المناهج والشرائع وأنزل عليه أفضل الكتب فأرسله الى خير أمة أخرجت للناس وأكمل له ولأمته الدين وأتم عليهم النعمة وحرم الجنة الا على من آمن به وبما جاء به ولم يقبل من أحد الا الاسلام الذى جاء به فمن ابتغى غيره دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين [1]

يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبى فما جاء به القرآن العزيز أو السنة المعلومة وجب على الخلق الاقرار به جملة وتفصيلا عند العلم بالتفصيل فلا يكون الرجل مؤمنا حتى يقر بما جاء به النبى وهو تحقيق شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فمن شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فان هذا حقيقة الشهادة بالرسالة اذ الكاذب ليس برسول فيما يكذبه وقد قال الله تعالى {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ{٤٤} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ{٤٥} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ{٤٦} الحاقة٤٤ـ٤٦ و بالجملة فهذا معلوم بالاضطرار من دين الاسلام لا يحتاج الى تقريره هنا وهو الاقرار بما جاء به النبى وهو ما جاء به من القرآن والسنة كما قال الله تعالى {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ} البقرة١٥١ وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ} النساء٦٤ [2]

## "إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة"

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٦٣ـ٦٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٥٤

وما رواه البخاري عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وابوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات في يومه دخل الجنة ومن قالها إذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة فالعبد دائما بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر وذنب منه يحتاج فيه إلى أستغفار وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائما فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله وآلائه ولا يزال محتاجا إلى التوبة والاستغفار ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين يستغفر في جميع الأحوال وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة وقال عبد الله بن عمر كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد يقول رب أغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة وقال إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم اثنتين وسبعين مرة وفي صحيح مسلم أنه قال إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة ولهذا شرع الاستغفار في خواتيم الأعمال وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام قال الله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً}النساء٦٤ ولهذا جاء في الحديث يقول الشيطان أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار وكفارة المجلس التي كان يختم بها المجلس والوضوء سبحانك الله وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك والله أعلم وصلى الله على محمد وسلم [١]

والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور كما قال تعالى فى قصة يوسف {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}يوسف٩٠ فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال الله تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}غافر٥٥ فأمره مع الاستغفار بالصبر فإن العباد لابد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم قال النبى فى الحديث الصحيح يا أيها الناس توبوا الى

---

[١] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٨٠

ربكم فوالذى نفسى بيده إنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وقال انه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة وكان يقول اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى خطئى وعمدى وهزلى وجدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر وقد ذكر عن آدم أبى البشر انه استغفر ربه وتاب اليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهداه وعن ابليس أبى الجن لعنه الله أنه أصر متعلقا بالقدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبه أباه ومن أشبه أباه فما ظلم ولهذا قرن الله سبحانه بين التوحيد والإستغفار فى غير آية كما قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}محمد١٩ وفى الحديث الذى رواه ابن أبى عاصم وغيره يقول الشيطان أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا [١]

## الإرادة و الأرسال ينقسم إلى نوعين

ومن المعلوم ان الله تعالى ارسل الرسل وانزل الكتب لتصدق الرسل فيما اخبرت وتطاع فيما امرت كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ وقال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}النساء٨٠ والايمان بالقدر من تمام ذلك [٢]

الإرادة و الاذن و الكتاب و الحكم و القضاء والتحريم و غيرها كالأمر والبعث و الأرسال ينقسم فى كتاب الله إلى نوعين أحدهما ما يتعلق بالأمور الدينية التى يحبها الله تعالى و يرضاها و يثيب أصحابها و يدخلهم الجنة و ينصرهم فى الحياة

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٢١

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٠٨

الدنيا و فى الآخرة و ينصر بها العباد من أوليائه المتقين و حز به المفلحين و عباده الصالحين و الثانى ما يتعلق بالحوادث الكونية التى قدرها الله و قضاها مما يشترك فيها المؤمن و الكافر و البر و الفاجر و أهل الجنة و أهل النار و أولياء الله و أعداؤه و أهل طاعته الذين يحبهم و يحبونه و يصلى عليهم هو و ملائكته و أهل معصيته الذين يبغضهم و يمقتهم و يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون فمن نظر إليها من هذا الوجه شهد الحقيقة الكونية الوجودية فرأى الأشياء كلها مخلوقة لله مدبرة بمشيئته مقهورة بحكمته فما شاءالله كان و إن لم يشأ الناس و ما لم يشأ لم يكن و إن شاء الناس لا معقب لحكمه و لا راد لأمره و رأى أنه سبحانه رب كل شىء و مليكه له الخلق و الأمر و كل ما سواه مربوبا له مدبر مقهور لا يملك لنفسه ضرا و لا نفعا و لاموتا و لا حياة و لا نشورا بل هو عبد فقير إلى الله تعالى من جميع الجهات و الله غنى عنه كما أنه الغني عن جميع المخلوقات و هذا الشهود فى نفسه حق لكن طائفة قصرت عنه و هم القدرية المجوسية و طائفة و قفت عنده و هم القدرية المشركية أما الأولون فهم الذين زعموا أن فى المخلوقات ما لا تتعلق به قدرة الله و مشيئته و خلقه كأفعال العباد و غلاتهم أنكروا علمه القديم و كتابه السابق و هؤلاء هم أول من حدث من القدرية فى هذه الأمة فرد عليهم الصحابة و سلف الأمة و تبرؤا منهم وأما الطائفة الثانية فهم شر منهم و هم طوائف من أهل السلوك و الإرادة و التأله و التصوف و الفقر و نحوهم يشهدون هذه الحقيقة و رأوا أن الله خالق المخلوقات كلها فهو خالق أفعال العباد و مريد جميع الكائنات و لم يميزوا بعد ذلك بين إيمان و كفر و لا عرفان و لا نكر و لاحق و لا باطل و لا مهتدى و لا ضال و لا راشد و لا غوي و لا نبى و لا متنبىء و لا و لي لله و لا عدو و لا مرضي لله و لا مسخوط و لا محبوب لله و لا ممقوت و لا بين العدل و الظلم و لا بين البر و العقوق و لا بين أعمال أهل الجنة و أعمال أهل النار و لا بين الأبرار و الفجار حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق و المشيئة النافذة و القدرة الشاملة و الخلق العام فشهدوا المشترك بين المخلوقات و عموا عن الفارق بينهما و صاروا ممن يخاطب بقوله تعالى {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ{٣٥} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{٣٦}القلم٣٥-٣٦ و بقوله تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}ص٢٨ و بقوله تعالى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ}الجاثية٢١ {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ}الأعراف١٣٧ و منه قول النبى صلى الله عليه و سلم أعوذ بكلمات الله التامات التى لايتجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق و ذرأ و برأ

و من شر ما ينزل من السماء و ما يعرج فيها و من شر ما ذرأ فى الأرض و ما يخرج منها و من شر فتن الليل و النهار و من شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يارحمن فالكلمات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ليست هي أمره و نهيه الشرعيين فإن الفجارعصوا أمره و نهيه بل هى التى بها يكون الكائنات و أما الكلمات الدينية المتضمنة لأمره و نهيه الشرعيين فمثل الكتب الإلهية التوراة والأنجيل و الزبور و القرآن وقال تعالى {وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا}التوبة٤٠ وقال صلى الله عليه و سلم و استحللتم فروجهن بكلمة الله و أما قوله تعالى {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً}الأنعام١١٥ فإنه يعم النوعين وأما الإرسال بالمعنى الأول ففي مثل قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً}مريم٨٣ و قوله تعالى {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ}الحجر٢٢ وبالمعنى الثانى فى مثل قوله تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ}نوح١ و قوله تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً}البقرة١١٩ و قوله تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا}الزخرف٤٥ و قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ و قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٢٥ و قوله تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً {١٥} فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً{١٦}المزمل١٥-١٦ [١]

و التوحيد فى العبادات المتضمن للإيمان بالشرع والقدر جميعا فنقول لا بد من الإيمان بخلق الله وأمره فيجب الإيمان بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وأنه على كل شيء قدير وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد علم ما سيكون قبل أن يكون وقدر المقادير وكتبها حيث شاء كما قال تعالى {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}الحج٧٠ وفى الصحيح عن النبى أنه قال إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له كما خلق الجن والإنس لعبادته وبذلك أرسل رسله وأنزل كتبه وعبادته تتضمن كمال الذل والحب له وذلك يتضمن كمال طاعته من يطع

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٥٨- ٦١

الرسول فقد أطاع الله وقد قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ} النساء ٦٤ [١]

## لا يكون مؤمنا به إلا من عبده بطاعة رسله

فإن هذا يعني به الإرسال الديني الذي يحبه تعالى ويرضاه الذي هدى به من اتبعهم وأدخله في رحمته وعاقب من عصاهم وجعله من المستوجبين للعذاب وهو الإرسال الذي أوجب الله به طاعة من أرسله كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً} النساء ٦٤ [٢]

الرسول المبلغ عن الله فإنه لا يأمر الا بطاعة الله وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً} النساء ٦٤ فنبي الله هو الذي ينبئه الله لا غيره ولهذا أوجب الله الايمان بما أوتيه النبيون [٣]

وكان من سنة الله تبارك وتعالى مواترة الرسل وتعميم الخلق بهم بحيث يبعث في كل أمة رسولا ليقيم هداه وحجته وكان دينه الذي ارتضاه الله لنفسه هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل ولا يقبل من أحد دينا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين وهو دين الأنبياء وأتباعهم كما أخبر الله تعالى بذلك عن نوح ومن بعده إلى الحواريين فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام وهو عبادة الله وحده لا شريك له وعبادته تعالى في كل زمان ومكان

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٩٠

[٢] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٤٧

[٣] النبوات ج: ١ ص: ١٧٨

بطاعة رسله عليهم السلام فلا يكون عابدا له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله كالذين قال فيهم {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٢١}الشورى الآية ٢١ فلا يكون مؤمنا به إلا من عبده بطاعة رسله ولا يكون مؤمنا به ولا عابدا له إلا من آمن بجميع رسله وأطاع من أرسل إليه فيطاع كل رسول إلى أن يأتي الذي بعده فتكون الطاعة للرسول الثاني قال تعالى{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً} النساء ٦٤ [1]

## الدعاء من جملة الأسباب التى قدرها الله سبحانه وتعالى

وكل داع شافع دعا الله سبحانه وتعالى وشفع فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته وهو الذى يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة فهو الذى خلق السبب والمسبب والدعاء من جملة الأسباب التى قدرها الله سبحانه وتعالى وإذا كان كذلك فالإلتفات الى الأسباب شرك فى التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع بل العبد يجب أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته الى الله سبحانه وتعالى والله يقدر له من الأسباب من دعاء الخلق وغيرهم ما شاء والدعاء مشروع أن يدعو الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبى فى الإستسقاء ويطلبون منه الدعاء بل وكذلك بعده استسقى عمر والمسلمون بالعباس عمه والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء ومحمد وهو سيد الشفعاء وله شفاعات يختص بها ومع هذا فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه قال إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون ذلك العبد فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة وقد قال لعمر لما أراد أن يعتمر وودعه يا أخى لا تنسنى من دعائك فالنبى قد طلب من أمته أن يدعوا له ولكن ليس ذلك من باب سؤالهم بل أمره بذلك

---

[1] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٨٤

لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التى يثابون عليها مع أنه له مثل أجورهم فى كل ما يعملونه فإنه قد صح عنه أنه قال من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من إتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا وهو داعى الأمة الى كل هدى فله مثل أجورهم فى كل ما اتبعوه فيه وكذلك إذا صلوا عليه فإن الله يصلى على أحدهم عشرا وله مثل أجورهم مع ما يستجيبه من دعائهم له فذلك الدعاء قد أعطاهم الله أجرهم عليه وصار ما حصل له به من النفع نعمة من الله عليه وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به آمين ولك مثل ذلك وفى حديث آخر أسرع الدعاء دعوة غائب لغائب فالدعاء للغير ينتفع به الداعى والمدعو له وإن كان الداعى دون المدعو له فدعاء المؤمن لأخيه ينتفع به الداعى والمدعو له فمن قال لغيره ادع لى وقصد انتفاعهما جميعا بذلك كان هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى فهو نبه المسؤل وأشار عليه بما ينفعهما والمسؤل فعل ما ينفعهما بمنزلة من يأمر غيره ببر وتقوى فيثاب المأمور على فعله والآمر أيضا يثاب مثل ثوابه لكونه دعا اليه لا سيما ومن الأدعية ما يؤمر بها العبد كما قال تعالى {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ}محمد١٩ فأمره بالإستغفار ثم قال {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً}النساء٦٤ فذكر سبحانه إستغفارهم وإستغفار الرسول لهم إذ ذاك مما أمر به الرسول حيث أمره أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ولم يأمر الله مخلوقا أن يسأل مخلوقا شيئا لم يأمر الله المخلوق به بل ما أمر الله العبد أمر إيجاب أو استحباب ففعله هو عباده لله وطاعة وقربة الى الله وصلاح لفاعله وحسنة فيه وإذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان الله اليه وإنعامه عليه بل أجل نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان والإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة والحسنات وكلما ازداد العبد عملا للخير إزداد إيمانه هذا هو الإنعام الحقيقى المذكور فى قوله {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}الفاتحة٧ وفى قوله {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٣٣

## المؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون

و قد ذكر فيها طاعة الله و طاعة الرسول و التحاكم الى الله و إلى الرسول و رد ما تنازع فيه الناس إلى الله و إلى الرسول و ذم الذين يتحاكمون و يردون ما تنازعوا فيه الى غير الله و الرسول فكانت تبيينا للايمان بالله و بالرسول و لهذا قال فيها {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ وهذا جهاد عما جاء به الرسول و قد قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}الحجرات١٥ و قال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}التوبة٢٤ و قال {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{١٩} الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{٢٠}التوبة١٩ ـ٢٠ [1]

فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه وما أعده لأوليائه من كرامته وما وعد به أعداءه من عذابه ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التى تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك الا بالرسل الذين أرسلهم الله الى عباده فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى ويرفع درجاتهم ويكرمهم فى الدنيا والآخرة وأما المخالفون للرسل فإنهم ملعونون وهم عن ربهم ضالون محجوبون قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ومثل هذا فى القرآن كثير وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى فإنهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده وهم الرسل الذين بلغوا عن الله أمره وخبره قال تعالى {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٣٧

بَصِيرٌ}الحج٧٥ ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل والسور التى أنزلها الله بمكة مثل الأنعام والأعراف وذوات الر و حم و طس ونحو ذلك هى متضمنة لأصول الدين كالإيمان بالله ورسله واليوم الآخر وقد قص الله قصص الكفار الذين كذبوا الرسل وكيف أهلكهم ونصر رسله والذين آمنوا قال تعالى {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ{١٧١} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ{١٧٢} وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ{١٧٣} الصافات ١٧١-١٧٣ وقال {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} غافر٥١ فهذه الوسائط تطاع وتتبع ويقتدى بها كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ [1]

## خطاب الأنبياء عند قبورهم من أعظم أنواع الشرك

ومنهم من يتأول قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً}النساء٦٤ ويقولون إذا طلبنا منه الإستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الإستغفار من الصحابة ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين فإن أحدا منهم لم يطلب من النبى بعد موته أن يشفع له ولا سأله شيئا ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين فى كتبهم وإنما ذكر ذلك من ذكره من متأخرى الفقهاء وحكوا حكاية مكذوبة على مالك رضى الله عنه سيأتى ذكرها وبسط الكلام عليها إن شاء الله تعالى فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفى مغيبهم وخطاب تماثيلهم هو من أعظم أنواع الشرك الموجود فى المشركين من غير أهل الكتاب وفى مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات مالم يأذن به الله تعالى قال الله تعالى {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ}الشورى٢١ فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفى مغيبهم وسؤالهم والإستغاثة بهم والإستشفاع بهم فى هذه الحال ونصب تماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم هو من الدين الذى لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولا ولا أنزل به كتابا وليس

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٢٣

هو واجبا ولا مستحبا باتفاق المسلمين ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين [1]

## ليس من المخلوقين من أمره حتم على الإطلاق إلا الرسل

وقد اتفق المسلمون على أنه ليس من المخلوقين من أمره حتم على الإطلاق إلا الرسل الذين قال الله تعالى فيهم {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ وأما من دونهم فيطاع إذا أمر بما أمروا به وأما إذا أمربخلاف ذلك لم يطع كما في الصحيحين عن النبي أنه قال من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى أميري فقد عصاني وفي الصحيحين أيضا عن عبد الله بن عمر عن النبي أنه بعث أميرا على سرية قال على المرء السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية الله فإذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة وقد قال الصديق رضي الله عنه لما تولى أيها الناس القوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق والضعيف فيكم القوي عندي حتى آخذ له الحق وقال أطيعوني ما أطعت الله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم [2]

## توحيد الله وإخلاص الدين له

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٥٩

[2] بغية المرتاد ج: ١ ص: ٤٩٥-٤٩٦

أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} النحل٣٦ وقال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء٢٥ وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} الزخرف٦٣ فجعل العبادة والتقوى لله وجعل له أن يطاع كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ} النساء٦٤ [١]

## إن الله أمر باتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأمر بالجماعة

ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لا نبي بعده فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة ولهذا كان إجماعهم حجة كما كان الكتاب والسنة حجة ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة والسنة والجماعة عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله وعما مضت عليه جماعة المسلمين فإن الله أمر في كتابه باتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولزوم سبيله وأمر بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} النساء٦٥ [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٧٢

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٦٨

## "والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به"

إذا قال {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ فإذا كان هؤلاء لا يؤمنون فالذين لا يحكمونه ويردون حكمه ويجدوا حرجا مما قضى لاعتقادهم أن غيره أصح منه أو أنه ليس بحكم سديد أشد وأعظم [1]

يحتاج العبد ان ينفى عنه شيئين الآراء الفاسدة والآهواء الفاسدة فيعلم ان الحكمة والعدل فيما اقتضاه علم الله وحكمته لا فيما اقتضاه علم العبد وحكمته ويكون هواه تبعا لما امرالله به فلا يكون له مع امر الله وحكمه هوى يخالف ذلك قال الله تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ وقد روى عنه انه قال والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به رواه ابو حاتم فى صحيحه وفى الصحيح ان عمر قال له يارسول الله والله لأنت احب الى من نفسى قال الآن يا عمر وفى الصحيح عنه انه قال لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين وقال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ}التوبة٢٤ فإذا كان الايمان لا يحصل حتى يحكم العبد رسوله ويسلم له ويكون هواه تبعا لما جاء به ويكون الرسول والجهاد فى سبيله مقدما على حب الانسان نفسه وماله واهله فكيف فى تحكيمه الله تعالى والتسليم له [2]

## من الايات الدالة على كفر الشاتم لرسوله وقتله او على احدهما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٢٠٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٢٨٨ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٦١

واما الايات الدالة على كفر الشاتم لرسوله وقتله او على احدهما اذا لم يكن معاهدا وان كان مظهرا للاسلام فكثيرة مع ان هذا مجمع عليه كما تقدم حكاية الاجماع عن غير واحد منها قوله تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ اقسم سبحانه بنفسه انهم لا يؤمنون حتى يحكموه في الخصومات التي بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم ضيقا من حكمه بل يسلموا لحكمه ظاهرا وباطنا ابراهيم بن دحيم في تفسيره حدثنا شعيب بن شعيب حدثنا ابو المغيرة حدثنا عتبة بن ضمرة حدثني ابي ان رجلين اختصما الى النبي فقضى للمحق على المبطل فقال المقضي عليه لا ارضى فقال صاحبه فما تريد قال ان نذهب الى ابي بكر الصديق فذهبا اليه فقال الذي قضي له قد تخاصمنا الى النبي فقضى لي عليه فقال ابو بكر فانتما على ما قضى به النبي فابى صاحبه ان يرضى قال ناتي عمر بن الخطاب فاتياه فقال المقضي له قد اختصمنا الى النبي فقضى لي عليه فابى ان يرضى ثم اتينا ابا بكر الصديق فقال انتما على ما قضى به النبي فابى ان يرضى فساله عمر فقال كذلك فدخل عمر منزله فخرج والسيف بيده قد سله فضرب به راس الذي ابى ان يرضى فقتله فانزل الله تبارك وتعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}النساء٦٥ وهذا المرسل له شاهد من وجه اخر يصلح للاعتبار قال ابن دحيم حدثنا الجوزجاني حدثنا ابو الاسود حدثنا ابن لهيعة عن ابي الاسود عن عروة بن الزبير قال اختصم الى رسول الله رجلان فقضى لاحداهما فقال الذي قضى عليه ردنا الى عمر فقال رسول الله نعم انطلقوا الى عمر فانطلقا فلما اتيا عمر قال الذي قضي له يا ابن الخطاب ان رسول الله قضى لي وان هذا قال ردنا الى عمر فردنا اليك رسول الله فقال عمر اكذلك للذي قضي عليه قال نعم فقال عمر مكانك حتى اخرج فاقضي بينكما فخرج مشتملا على سيفه فضرب الذي قال ردنا الى عمر فقتله وادبر الاخر الى رسول الله فقال يا رسول الله قتل عمر صاحبي ولولا ما اعجزته لقتلني فقال رسول الله ما كنت اظن ان عمر يجتري على قتل مؤمن فانزل الله تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}النساء٦٥ فبرا الله عمر من قتله وقد رويت هذه القصة من غير هذين الوجهين قال ابو عبد الله احمد بن حنبل ما اكتب حديث ابن لهيعة الا للاعتبار والاستدلال وقد اكتب حديث هذا الرجل على هذا المعنى كاني استدل به مع غيره يشده لا انه حجة اذا انفرد [1]

---

[1] الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٨١-٨٥

فان الرجل يتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن ان تبلغ ما بلغت يهوي بها في النار ابعد مما بين المشرق والمغرب ومن قال ما هو سب وتنقص له فقد اذى الله ورسوله وهو ماخوذ بما يؤذي به الناس من القول الذي هو في نفسه اذى وان لم يقصد اذاهم الم تسمع الى الذين قالوا {إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ}التوبة٦٥ فقال الله تعالى {أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ{٦٥} لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ{٦٦}التوبة٦٥-٦٦ {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ وهذا مثل من يغضب فيذكر له حديث عن النبي او حكم من حكمه او يدعى لما سنه فيلعن ويقبح ونحو ذلك وقد قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ فأقسم سبحانه بنفسه انهم لايؤمنون حتى يحكموه ثم لايجدون في نفوسهم حرجا من حكمه فمن شاجر غيره في أمره وحرج لذكر رسول الله حتى افحش في منطقة فهو كافر بنص التنزيل ولا يعذر بان مقصوده رد الخصم فان الرجل لايؤمن حتى يكون الله ورسوله احب اليه ممن سواهما وحتى يكون الرسول احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين ومن هذا الباب قول القائل ان هذه لقسمة ماريد بها وجه الله وقول الاخر اعدل فانك لم تعدل وقول ذلك الانصاري ان كان ابن عمتك فان هذا كفر محض حيث زعم ان النبي انما حكم للزبير لانه ابن عمته ولذلك انزل الله تعالى هذه الاية واقسم انهم لايؤمنون حتى لا يجدوا في انفسهم حرجا من حكمه وانما عفا عنه النبي كما عفا عن الذي قال ان هذه لقسمة ما اريد بها وجه الله وعن الذي قال اعدل فانك لم تعدل وقد ذكرنا عن عمر رضي الله عنه انه قتل رجلا لم يرض بحكم النبي فنزل القرن بموافقته فكيف بمن طعن في حكمه وقد ذكر طائفة من الفقهاء منهم ابن عقيل وبعض اصحاب الشافعي ان هذا كان عقوبته التعزير ثم منهم من قال لم يعزره النبي لان التعزير غير واجب ومنهم من قال عفا عنه لان الحق له ومنهم من قال عاقبه بان امر الزبير ان يسقي ثم يحبس الماء حتى يرجع الى الجدر وهذه كلها اقوال ردية لا يستريب من تأمل في ان هذا كان يستحق القتل بعد نص القران ان من هو بمثل حاله ليس بمؤمن فان قيل ففي رواية صحيحة انه كان من اهل بدر وفي الصحيحين عن علي عن النبي انه قال وما يدريك لعل الله اطلع على اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ولو كان هذا القول كفرا للزم ان يغفر الكفر والكفر لايغفر ولا يقال عن بدري انه كفر فقيل هذه الزيادة ذكرها ابو اليمان عن شعيب ولم يذكرها اكثر الرواة فيمكن

انهم وهم كما وقع في حديث كعب وهلال بن امية انهما من اهل بدر ولا يختلف اهل المغازي والسير انهما لم يشهدا بدرا وكذلك لم يذكره ابن اسحاق في روايته عن الزهري لكن الظاهر صحتها فنقول ليس في الحديث ان هذه القصة كانت بعد بدر فلعلها كانت قبل بدر وسمي الرجل بدريا لان عبد الله بن الزبير حدث بالقصة بعد ان صار الرجل بدريا فعن عبد الله بن الزبير عن ابيه ان رجلا من الانصار خاصم الزبير عند رسول الله في شراج الحرة التي يسقون بها النخل فقال الانصاري سرح الماء يمر فأبى عليه فاختصما عند رسول الله فقال رسول الله للزبير اسق يازبير ثم ارسل الماء الى جارك فغضب الانصاري ثم قال يارسول الله ان كان ابن عمتك فتلون وجه النبي ثم قال للزبير اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع اللى الجدر فقال الزبير والله لاني احسب هذه الاية نزلت في ذلك {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ متفق عليه وفي رواية للبخاري من حديث عروة قال فاستوعى رسول الله حينئذ للزبير حقه وكان رسول الله قبل ذلك قد اشار على الزبير براي اراد فيه سعة له وللانصاري فلما احفظ الانصاري رسول الله استوعى رسول الله للزبير حقه في صريح الحكم وهذا يقوي ان القصة متقدمة قبل بدر لان النبي قضى في سيل مهزور ان الأعلى يسقى ثم يحبس حتى يبلغ الماء الى الكعبين فلو كانت قصة الزبير بعد هذا القضاء لكان قد علم وجه الحكم فيه وهذا القضاء الظاهر انه متقدم من حين قدم النبي لان الحاجة الى الحكم فيه من حين قدم ولعل قصة الزبير اوجبت هذا القضاء وايضا فان هؤلاء الايات قد ذكر غير واحد ان اولها نزل لما اراد بعض المنافقين ان يحاكم يهوديا الى ابن الاشرف وهذا انما كان قبل بدر لان ابن الاشرف ذهب عقب بدر الى مكة فلما رجع قتل فلم يستقر بعد بدر بالمدينة استقرار يتحاكم اليه وان كانت القصة بعد بدر فان القائل لهذه الكلمة يكون قد تاب واستغفر وقد عفا له النبي عن حقه فغفر له والمضمون لأهل بدر انما هو المغفرة اما بان يستغفروا ان كان الذنب مما لا يغفر الا بالاستغفار او لم يكن كذلك واما بدون ان يستغفروا الا ترى ان قدامة بن مظعون وكان بدريا تأول في خلافة عمر ما تأول في استحلال الخمر من قوله تعالى {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ}المائدة٩٣ حتى اجمع رأي عمر واهل الشورى ان يستتاب هو اصحابه فان اقروا بالتحريم جلدوا وان لم يقروا به كفروا ثم انه تاب وكاد ييلس لعظم ذنبه في

نفسه حتى ارسل اليه عمر رضي الله عنه بأول سورة غافر فعلم ان المضمون للبدريين ان خاتمتهم حسنة وانهم يغفر لهم وان جاز ان يصدر عنهم قبل ذلك ما عسى ان يصدر فان التوبة تجب ما قبلها [1]

## {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

قال الامام احمد في رواية الفضل بن زياد نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول في ثلاثة وثلاثين موضعا ثم جعل يتلوا {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}النور٦٣الاية وجعل يكررها ويقول وما الفتنة الشرك لعله اذى رد بعض قوله ان يقع في قلبه شئ من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه وجعل يتلوا هذه الاية {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}النساء٦٥ وقال ابو طالب المشكاني وقيل له ان قوما يدعون الحديث ويذهبون الى راي سفيان وغيره فقال اعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الاسناد وصحته يدعونه ويذهبون الى راي سفيان وغيره قال الله {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}النور٦٣ وتدري ما الفتنة الكفر قال الله تعالى {وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ}البقرة٢١٧ فيدعون الحديث عن رسول الله وتغلبهم اهواؤهم الى الراي فاذا كان المخالف عن امره قد حذر من الكفر والشرك او من العذاب الاليم دل على انه قد يكون مفضيا الى الكفر او الى العذاب الاليم ومعلوما ان افضاءه الى العذاب هو مجرد فعل المعصية فافضاؤه الى الكفر انما هو لما قد يقترن به من استخفاف بحق الامر كما فعل ابليس فكيف لما هو اغلظ من ذلك كالسب والانتقاص ونحوه وهذا باب واسع مع انه بحمد الله مجمع عليه لكن اذا تعددت الدلالات تعاضدت على غلظ كفر الساب وعظم عقوبته وظهر ان ترك الاحترام للرسول وسوء الادب معه مما يخاف معه الكفر المحبط كان ذلك ابلغ فيما قصدنا له [2]

---

[1] الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٩٨٤-٩٩٢

[2] الصارم المسلول ج: ٢ ص:١١٦- ١١٧

والمنقول عنه معصوم {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{٣} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى{٤}النجم ٣-٤ قد أوجب الله تعالى على جميع الخلق طاعته وإتباعه قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ وقال تعالى {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}النور٦٣ [١]

## لم يكن الحرج من ذلك إلا من النفاق

المقالة الصحيحة لأهل السنة والجماعة والحق الذي يجب اعتقاده أن الله سبحانه إنما أرسل رسوله رحمة للعالمين وان إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة عامة للخلق أعظم من إنزال المطر وإطلاع البذر وإن يحصل بهذه الرحمة ضرر لبعض النفوس ثم إنه سبحانه كما قال قتادة وغيره من السلف لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه بل أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم وفي الحديث الصحيح حديث أبي ذر عن النبي يا عبادي إني حرمت الظلم علي نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علي أتقي قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علي أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد يسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط غمسة واحدة يا عبادي إنما هي أعمالكم ترد عليكم فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٢٥٥

وقال تعالي في وصف النبي الأمي {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ}الأعراف١٥٧ وقال تعالي لما ذكر الوضوء {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}المائدة٦ فأخبر أنه لا يريد أن يجعل علينا من حرج فيما أمرنا به وهذه نكرة مؤكدة بحرف من فهي تنفي كل حرج وأخبر أنه إنما يريد تطهيرنا وإتمام نعمته علينا وقال تعالي في الآية الأخرى {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ}الحج٧٨ فقد أخبر أنه ما جعل علينا في الدين من حرج نفيا عاما مؤكدا فمن اعتقد أن فيما أمر الله به مثقال ذرة من حرج فقد كذب الله ورسوله فكيف بمن اعتقد أن المأمور به قد يكون فسادا وضررا لا منفعة فيه ولا مصلحة لنا ولهذا لما لم يكن فيما أمر الله ورسوله حرج علينا لم يكن الحرج من ذلك إلا من النفاق كما قال تعالي {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ [1]

## رجع عمر إلى قول إمرأة

وعمر بن الخطاب قد قال النبى فيه إنه قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر وروى أنه ضرب الحق على لسانه وقلبه وقال لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر ومع هذا فما كان يلزم أحدا بقوله ولا يحكم فى الأمور العامة بل كان يشاور الصحابة ويراجع فتارة يقوله قولا فترده

عليه أمرأة فيرجع إليها كما أراد أن يجعل الصداق محدودا لا يزاد على صداقات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وقال من زاد جعلت الزيادة فى بيت المال وكان المسلمون يعجلون الصداق قبل الدخول لم يكونوا يؤخرونه إلا أمرا نادرا فقالت إمرأة يا أمير المؤمنين لم تحرمنا شيئا أعطانا الله إياه فى كتابه فقال وأين فقالت فى قوله تعالى {وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً}النساء٢٠ فرجع عمر إلى قولها وقال إمرأة أصابت ورجل أخطأ وكان فى

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٨٣-١٨٥

مسائل النزاع مثل مسائل الفرائض والطلاق يرى رأيا ويرى على إبن أبى طالب رأيا ويرى عبد الله بن مسعود رأيا ويرى زيد بن ثابت رأيا فلم يلزم أحدا أن يأخذ بقوله بل كل منهم يفتى بقوله وعمر رضى الله عنه إمام الأمة كلها وأعلمهم وأدينهم وأفضلهم فكيف يكون واحد من الحكام خيرا من عمر هذا إذا كان قد حكم فى مسألة إجتهاد فكيف إذا كان ما قاله لم يقله أحد من أئمة المسلمين لا الأربعة ولامن قبلهم من الصحابة والتابعين وإنما يقوله مثله وأمثاله ممن لا علم لهم بالكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة وإنما يحكمون بالعادات التى تربوا عليها كالذين قالوا {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} الزخرف٢٣ وكما تحكم الأعراب بالسوالف التى كانت لهم وهى عادات كما يحكم التتر بالياساق الذى جرت به عاداتهم وأما أهل الإيمان والإسلام والعلم والدين فإنما يحكمون بكتاب الله وسنة رسوله كما قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} النساء٦٥ وقال تعالى {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} المائدة٥٠ والله سبحانه لم يرض بحكم واحد بين الزوجين إذا خيف الشقاق بينهما فإنه لا يعلم أيهما الظالم وليس بينهما بينة بل أمر بحكمين وإن لا يكونا متهمين بل حكما من أهل الرجل وحكما من أهل المرأة كما قال تعالى {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً} النساء٣٥ أى الحكمين {يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا} النساء٣٥ أى بين الزوجين فإن رأيا المصلحة أن يجمعا بين الزوجين جمعا وإن رأيا المصلحة أن يفرقا بينهما فرقا إما بعوض تبذله المرأة فتكون الفرقة خلعا إن كانت هى الظالمة وإن كان الزوج هو الظالم فرق بينهما بغير إختياره وأكثر العلماء على أن هذين حكمان كما سماهما الله حكمين يحكمان بغير توكيل الزوجين وهذا قول مالك والشافعى والإمام أحمد فى أحد قوليهما وقيل هما وكيلان كقول أبى حنيفة والقول الآخر فى المذهبين فهنا لما إشتبه الحق لم يجعل الله الحكم لواحد وهو فى قضية معينة بين زوجين ولو حكم حاكم واحد بين الزوجين فى أمر ظاهر لم ينفذ حكمه بإتفاق المسلمين فكيف بأمور الدين والعبادات التى يشترك فيها جميع المسلمين وقد إشتبهت على كثير من الناس هذا بإجماع المسلمين لا يحكم فيه إلا الله ورسوله فمن كان عنده علم مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وأوضحه للمسلمين والمسلمون إذا عرفوا شرع نبيهم لم يعدلوا عنه وإن كان كل قوم يقولون عندنا علم من الرسول ولم يكن هناك أمر ظاهر يجمعون فيما تنازعوا فيه كان أحد الحزبين لهم أجران والآخرون لهم أجر واحد كما قال تعالى {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ {٧٨} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً

وَعِلْماً {٧٩} لأنبياء٧٨ ـ٧٩ وولى الأمر إن عرف ما جاء به الكتاب والسنة حكم بين الناس به وإن لم يعرفه وأمكنه أن يعلم ما يقول هذا وما يقول هذا حتى يعرف الحق حكم به وإن لم يمكنه لا هذا ولا هذا ترك المسلمين على ماهم عليه كل يعبد الله على حسب إجتهاده وليس له أن يلزم أحدا بقبول قول غيره وإن كان حاكما [١]

## ليس لأحد أن يحكم بين أحد إلا بحكم الله ورسوله

ليس لأحد أن يحكم بين أحد من خلق الله لابين المسلمين ولا الكفار ولا الفتيان ولا رماة البندق ولا الجيش ولا الفقراء ولا غير ذلك إلا بحكم الله ورسوله ومن إبتغى غير ذلك تناوله قوله تعالى {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}المائدة٥٠ وقوله تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ فيجب على المسلمين أن يحكموا الله ورسوله فى كل ما شجر بينهم ومن حكم بحكم البندق وشرع البندق أو غيره مما يخالف شرع الله ورسوله وحكم الله ورسوله وهو يعلم ذلك فهو من جنس التتار الذين يقدمون حكم الياساق على حكم الله ورسوله ومن تعمد ذلك فقد قدح فى عدالته ودينه والله أعلم [٢]

## أقسم الله بنفسه المقدسة أنه لا يؤمن حتى يرضى بحكم رسول الله

وقد قال تعالى فى كتابه {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ فكل من خرج عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشريعته فقد أقسم الله بنفسه المقدسة أنه لا

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٨٤-٣٨٧

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٤٠٨

يؤمن حتى يرضى بحكم رسول الله فى جميع ما يشجر بينهم من أمور الدين والدنيا وحتى لا يبقى فى قلوبهم حرج من حكمه ودلائل القرآن على هذا الأصل كثيرة [1]

فإن عليه ان يرضى بما امر الله به ويسلم لله ومن ذلك التسليم لرسوله كما قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ [2]

ما توجبه قواعد الإسلام فإن الحق أحق أن يتبع والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين و النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم [3]

وقال تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}الأحزاب٦ وقال صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين وقال له عمر والله يارسول الله لأنت أحب الى من كل أحد إلا من نفسى فقال لا يا عمر حتى أكون أحب اليك من نفسك فقال فأنت أحب الى من نفسى قال الآن يا عمر فقد بين الله فى كتابه حقوق الرسول من الطاعة له ومحبته وتعزيره وتوقيره ونصره وتحكيمه والرضى بحكمه والتسليم له وإتباعه والصلاة والتسليم عليه وتقديمه على النفس والأهل والمال ورد ما يتنازع فيه اليه وغير ذلك من الحقوق [4]

ومن تحقيق التوحيد ان يعلم أن الله تعالى أثبت له حقا لا يشركه فيه مخلوق كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوى وأما حق الرسول فعلينا ان نؤمن به ونطيعه ونتبعه ونرضيه ونحبه ونسلم لحكمه وأمثال ذلك قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٤٧٩

[2] الاستقامة ج: ٢ ص: ٣١

[3] العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ١٧

[4] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٦٨

يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ [١]

يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبى فما جاء به القرآن العزيز أو السنة المعلومة وجب على الخلق الاقرار به جملة وتفصيلا عند العلم بالتفصيل فلا يكون الرجل مؤمنا حتى يقر بما جاء به النبى وهو تحقيق شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فمن شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فان هذا حقيقة الشهادة بالرسالة اذ الكاذب ليس برسول فيما يكذبه وقد قال الله تعالى {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ{٤٤} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ{٤٥} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ{٤٦} الحاقة٤٤-٤٦ و بالجملة فهذا معلوم بالاضطرار من دين الاسلام لا يحتاج الى تقريره هنا وهو الاقرار بما جاء به النبى وهو ما جاء به من القرآن والسنة كما قال الله تعالى {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ}البقرة١٥١ وقال تعالى{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ [٢]

## الرضا بما امر الله به أصله واجب

وينبغي أن الإنسان إذا ابتلى فعليه أن يصبر ويثبت ولا يكل حتى يكون من الرجال الموفين القائمين بالواجبات ولا بد في جميع ذلك من الصبر ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يخرج والصبر عن اتباع أهواء النفس فيما نهى الله عنه وأما الرضا فقد تنازع العلماء والمشائخ من اصحاب الامام احمد وغيرهم فى الرضا بالقضاء هل هو واجب او مستحب على قولين فعلى الأول يكون من أعمال

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١١٠

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٥٤

المقتصدين وعلى الثانى يكون من أعمال المقربين قال عمر بن عبد العزيز الرضا عزيز ولكن الصبر معول المؤمن وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لابن عباس إن استطعت ان تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل فان لم تستطع فان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ولهذا لم يجئ فى القرآن الا مدح الراضين لا ايجاب ذلك وهذا فى الرضا بما يفعله الرب بعبده من المصائب كالمرض والفقر والزلزال كما قال تعالى {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ}البقرة١٧٧ وقال تعالى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ}البقرة٢١٤ فالبأساء فى الأموال والضراء فى الأبدان والزلزال فى القلوب وأما الرضا بما امر الله به فأصله واجب وهو من الايمان كما قال النبى فىالحديث الصحيح ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا وهو من توابع المحبة كما سنذكره ان شاء الله تعالى قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ}التوبة٥٩ الآية وقال تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}محمد٢٨ وقال تعالى {وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ}التوبة٥٤ ومن النوع الأول ما رواه احمد والترمذى وغيرهما عن سعد عن النبى أنه قال من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته لله وسخطه بما يقسم الله له وأما الرضا بالمنهيات من الكفر والفسوق والعصيان فأكثر العلماء يقولون لا يشرع الرضا بها كما لا تشرع محبتها فان الله سبحانه لايرضاها ولا يحبها وان كان قدرها وقضاها كما قال سبحانه {وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ}البقرة٢٠٥ وقال تعالى {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}الزمر٧ وقال تعالى {وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ}النساء١٠٨ بل يسخطها كما قال الله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}محمد٢٨ وقالت طائفة ترضى من جهة كونها مضافة الى الله خلقا وتسخط من جهة كونها الى العبد فعلا وكسبا وهذا القول لا ينافى الذى قبله بل هما يعودان الى اصل واحد وهو سبحانه انما قدر الأشياء لحكمة فهى باعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية وقد تكون فى نفسها مكروهة ومسخوطة إذ الشئ الواحد يجتمع فيه وصفان يجب من احدهما ويكره من الآخر كما فى الحديث الصحيح ما ترددت عن شئ انا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه وأما من

قال بالرضا بالقضاء الذى هو وصف الله وفعله لا بالمقتضى الذى هو مفعوله فهو خروج منه عن مقصود الكلام فان الكلام ليس فى الرضا فيما يقوم بذات الرب تعالى من صفاته وافعاله وانما الكلام فالرضا بمفعولاته والكلام فيما يتعلق بهذا قد بيناه فى غير هذا الموضع والرضا وان كان من اعمال القلوب فكماله هو الحمد حتى ان بعضهم فسرالحمد بالرضا ولهذا جاء فى الكتاب والسنة حمد الله على كل حال وذلك يتضمن الرضا بقضائه وفى الحديث اول من يدعى الى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله فى السراء والضراء وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان إذا اتاه الأمر يسره قال الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات واذا اتاه الأمر الذى يسوءه قال الحمد لله على كل حال وفى مسند الامام احمد عن ابى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال إذا قبض ولد العبد يقول الله لملائكته اقبضتم ولد عبدى فيقولون نعم فيقول اقبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقول ماذا قال عبدى فيقولون حمدك واسترجع فيقول ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو صاحب لواء الحمد وامته هم الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء والحمد على الضراء يوجبه مشهدان احدهما علم العبد بأن الله سبحانه مستوجب لذلك مستحق له لنفسه فانه احسن كل شئ خلقه واتقن كل شئ وهو العليم الحكيم الخبير الرحيم

و الثانى علمه بأن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه كما روى مسلم فى صحيحه وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده لا يقتضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم ان كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذى يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له قال تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}إبراهيم٥ وذكرهما فى اربعة مواضع من كتابه فأما من لايصبر على البلاء ولا يشكر على الرخاء فلا يلزم ان يكون القضاء خيرا له [١]

اما قول السائل فيما و رد من الأخبار و الآيات فى الرضا بقضاء الله فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله فهو محال و قدح فى التوحيد و إن كانت بقضاءالله تعالى

---

[١]مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤١-٤٤ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٥٥ و التحفة العراقية ج: ١ ص: ٥٥

فكراهتها و بغضها كراهة و بغض لقضاء الله تعالى فيقال ليس فى كتاب الله و لا فى سنة رسول الله آية و لا حديث يأمر العباد أن يرضوا بكل مقضى مقدر من أفعال العباد حسنها و سيئها فهذا أصل يجب أن يعتنى به و لكن على الناس أن يرضوا بما أمر الله به فليس لأحد أن يسخط ما أمر الله به قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ و قال تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}محمد٢٨ و قال {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ}التوبة٥٩ و ذكر الرسول هنا يبين أن الإيتاء هو الإيتاء الدينى الشرعى لا الكونى القدرى و قال صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا و بالاسلام دينا و بمحمد نبيا وينبغي للإنسان أن يرضى مما يقدره الله عليه من المصائب التى ليست ذنوبا مثل أن يبتليه بفقر أو مرض أو ذل و أذى الخلق له فإن الصبر على المصائب و اجب و أما الرضا بها فهو مشروع لكن هل هو و اجب أو مستحب على قولين لأصحاب أحمد و غيرهم أصحهما أنه مستحب ليس بواجب ومن المعلوم أن أوثق عرى الإيمان الحب فى الله و البغض فى الله و قد أمرنا الله أن نأمر بالمعروف و نحبه و نرضاه و نحب أهله و نهى عن المنكر و نبغضه و نسخطه و نبغض أهله و نجاهدهم بأيدينا و ألسنتنا و قلوبنا فكيف نتوهم أنه ليس فى المخلوقات ما نبغضه و نكرهه و قد قال تعالى لما ذكر ما ذكر من المنهيات {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيٍّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً}الإسراء٣٨ فإذا كان الله يكرهها و هو المقدر لها فكيف لا يكرهها من أمر الله أن يكرهها و يبغضها و هو القائل {وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}الحجرات٧ و قال تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}محمد٢٨ و قد قال تعالى {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ}الزخرف٥٥ و قال تعالى {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ}الفتح٦ و قال تعالى {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ}النساء١٠٨ فأخبر أن من القول الواقع مالا يرضاه وقال تعالى {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}النور٥٥ و قال تعالى {وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً}المائدة٣ و قال {وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}الزمر٧ فبين أنه يرضى الدين الذي أمر به فلو كان يرضى كل شيءلما كان له خصيصة و فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لا أحد أغير من الله أن يزنى عبده أوتزنى أمته و قال إن الله يغار و المؤمن يغار و غيرة

الله أن يأتى العبد ما حرم عليه و لابد فى الغيرة من كراهة ما يغار منه و بغضه و هذا باب واسع [1]

## "ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد "

فى الصحيحين عن النبى أنه قال الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان فذكر أعلا شعب الإيمان وهو قول لا إله إلا الله فإنه لا شيء أفضل منها كما فى الموطأ وغيره عن النبى أنه قال أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وفى الترمذي وغيره أنه قال من مات وهو يعلم أن لا اله الا الله دخل الجنة وفى الصحيح عنه أنه قال لعمه عند الموت يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله وقد تظاهرت الدلائل على أن أحسن الحسنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك وهو الذنب الذي لا يغفره الله كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء١١٦ وتلك الحسنة التى لابد من سعادة صاحبها كما ثبت فى الصحيح عنه حديث الموجبتين موجبة السعادة وموجبة الشقاوة فمن مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة وأما من مات يشرك بالله شيئا دخل النار وذكر فى الحديث أنها أعلا شعب الايمان وفى الصحيحين عنه أنه قال لوفد عبدالقيس آمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الايمان بالله شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتؤدوا خمس المغنم فجعل هذه الأعمال من الإيمان وقد جعلها من الإسلام فى حديث جبرائيل الصحيح لما أتاه فى صورة أعرابي وسأله عن الايمان فقال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره وسأله عن الاسلام فقال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت وفى حديث فى المسند قال الإسلام علانية والإيمان فى القلب فأصل الإيمان فى القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد وما كان فى القلب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٩٠-١٩٢

فلابد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح واذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب ايمان القلب ومقتضاه وهى تصديق لما فى القلب ودليل عليه وشاهد له وهى شعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له لكن ما فى القلب هو الأصل لما على الجوارح كما قال أبو هريرة رضي الله عنه أن القلب ملك والاعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده واذا خبث الملك خبثت جنوده وفى الصحيحين عنه أنه قال ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب ولهذا ظن طوائف من الناس أن الايمان انما هو فى القلب خاصة وما على الجوارح ليس داخلا فى مسماه ولكن هو من ثمراته ونتائجه الدالة عليه حتى ال الامر بغلاتهم كجهم وأتباعه الى أن قالوا يمكن ان يصدق بقلبه ولا يظهر بلسانه الا كلمة الكفر مع قدرته على اظهارها فيكون الذي فى القلب إيمانا نافعا له فى الآخرة وقالوا حيث حكم الشارع بكفر أحد بعمل أو قول فلكونه دليلا على إنتفاء ما فى القلب وقولهم متناقض فانه اذا كان ذلك دليلا مستلزما لانتفاء الايمان الذي فى القلب امتنع أن يكون الإيمان ثابتا فى القلب مع الدليل المستلزم لنفيه وان لم يكن دليلا لم يجز الاستدلال به على الكفر الباطن والله سبحانه فى غير موضع يبين أن تحقيق الايمان وتصديقه بما هو من الأعمال الظاهرة والباطنة كقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {٢} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{٣} الأنفال٢-٣وقال {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}الحجرات١٥ وقال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ}النور٦٢ وقال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ فإذا قال القائل هذا يدل على أن الايمان ينتفي عند انتفاء هذه الأمور لا يدل على أنها من الايمان قيل هذا إعتراف بأنه ينتفي الإيمان الباطن مع عدم مثل هذه الأمور الظاهرة فلا يجوز أن يدعي أنه يكون فى القلب إيمان ينافى الكفر بدون أمور ظاهرة لا قول ولا عمل وهو المطلوب وذلك تصديق وذلك لأن القلب اذا تحقق ما فيه أثر فى الظاهر ضرورة لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر فالإرادة الجازمة للفعل مع القدرة التامة توجب وقوع المقدور فاذا كان فى القلب حب الله ورسوله ثابتا استلزم موالاة أوليائه ومعاداة أعدائه {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}المجادلة٢٢ {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا

أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء}المائدة٨١ فهذا التلازم أمر ضرورى ومن جهة ظن انتفاء التلازم غلط غالطون كما غلط آخرون فى جواز وجود إرادة جازمة مع القدرة التامة بدون الفعل حتى تنازعوا هل يعاقب على الإرادة بلا عمل وقد بسطنا ذلك فى غير هذا الموضع وبينا أن الهمة التى لم يقترن بها فعل ما يقدر عليه الهام ليست إرادة جازمة وان الارادة الجازمة لابد أن يوجد معها ما يقدر عليه العبد والعفو وقع عمن هم بسيئة ولم يفعلها لا عن من أراد وفعل المقدور عليه وعجز عن حصول مراده كالذي أراد قتل صاحبه فقاتله حتى قتل أحدهما فان هذا يعاقب لأنه أراد وفعل المقدور من المراد ومن عرف الملازمات التى بين الأمور الباطنة والظاهرة زالت عنه شبهات كثيرة فى مثل هذه المواضع التى كثر اختلاف الناس فيها بقي أن يقال فهل اسم الإيمان للأصل فقط أوله ولفروعه والتحقيق أن الإسم المطلق يتناولهما وقد يخص الإسم وحده بالإسم مع الإقتران وقد لا يتناول إلا الأصل اذا لم يخص إلا هو كإسم الشجرة فإنه يتناول الأصل والفرع إذا وجدت ولو قطعت الفروع لكان إسم الشجرة يتناول الأصل وحده وكذلك اسم الحج هو اسم لكل ما يشرع فيه من ركن وواجب ومستحب وهو حج أيضا تام بدون المستحبات وهو حج ناقص بدون الواجبات التى يجبرها دم والشارع لا ينفي الايمان عن العبد لترك مستحب لكن لترك واجب بحيث ترك ما يجب من كماله وتمامه لا بإنتفاء ما يستحب فى ذلك ولفظ الكمال والتمام قد يراد به الكمال الواجب والكمال المستحب كما يقول بعض الفقهاء الغسل ينقسم الى كامل ومجزئ فاذا قال النبى لا إيمان لمن لا أمانة له و لا يزنى الزانى حين يزني وهو مؤمن ونحو ذلك كان لانتفاء بعض ما يجب فيه لا لإنتفاء الكمال المستحب والايمان يتبعض ويتفاضل الناس فيه كالحج والصلاة ولهذا قال يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ومثقال شعيرة من إيمان وأما إذا استعمل إسم الإيمان مقيدا كما فى قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}البقرة٢٧٧ وقوله {الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ}يونس٦٣ وقول النبى صلى الله عليه وسلم الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ونحو ذلك فهنا قد يقال إنه متناول لذلك وان عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى {وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}البقرة٩٨ وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}الأحزاب٧ [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:٦٤٣- ٦٤٧

# ما جاء من نفى الأعمال فإنما هو لإنتفاء بعض واجباته

فما جاء من نفى الأعمال فى الكتاب والسنة فإنما هو لإنتفاء بعض واجباته كقوله تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ وقوله تعالى {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}النور٤٧ وقوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا}الحجرات١٥ الآية وقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ}النور٦٢ الآية ونظائر ذلك كثيرة ومن ذلك قوله لا إيمان لمن لا أمانه له و لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ولا صلاة إلا بوضوء[١]

ومن لم يلحظ المعاني من خطاب الله ورسوله ولا يفهم تنبيه الخطاب وفحواه من أهل الظاهر كالذين يقولون إن قوله {فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا}الإسراء٢٣ لا يفيد النهي عن الضرب وهو إحدى الروايتين عن داود واختاره ابن حزم وهذا في غاية الضعف بل وكذلك قياس الأولى وإن لم يدل عليه الخطاب لكن عرف أنه أولى بالحكم من المنطوق بهذا فإنكاره من بدع الظاهرية التي لم يسبقهم بها أحد من السلف فما زل السلف يحتجون بمثل هذا وهذا كما إنه إذا قال في الحديث الصحيح والذي نفسي بيده لا يؤمن كررها ثلاثا قالوا من يا رسول الله قال من لا يأمن جاره بوائقه فإذا كان هذا بمجرد الخوف من بوائقه فكيف فعل البوائق مع عدم أمن جاره منه كما في الصحيح عنه أنه قيل له أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قيل ثم ماذا قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قيل ثم أي قال أن تزاني بحليلة جارك ومعلوم أن الجار لا يعرف هذا في العادة فهذا أولى بسلب الإيمان ممن لا تؤمن بوائقه ولم يفعل مثل هذا إذا قال {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ فإذا كان هؤلاء لا يؤمنون فالذين يحكمونه ويرون حكمه وإن لم

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٥٣١ و القواعد النورانية ج: ١ ص: ٢٧

يجدوا حرجا مما قضى لاعتقادهم أن غيره أصح منه أو أنه ليس بحكم سديد أشد وأعظم وكذلك إذا قال {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} المجادلة٢٢ فإذا كان بموادة المحاد لا يكون مؤمنا فأن لا يكون مؤمنا إذا حاد بطريق الأولى والأحرى [١]

## للرغبة والرهبة تأثير عظيم في معاونة الإعتقاد

فللرغبة والرهبة تأثير عظيم في معاونة الإعتقاد كما للإعتقاد تأثير عظيم في الفعل والترك فكل واحد من العلم والعمل من الإعتقاد والإرادة يتعاونان فالعلم والإعتقاد يدعو إلى العمل بموجبه والإرادة رغبة ورهبة والعمل بموجبها يؤيد النظر والعلم الموافق لتلك الإرادة والعمل كما قال من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم وفي القرآن شواهد هذا متعددة في مثل قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً{٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨} النساء ٦٦ ٦٨ [٢]

والقرآن جاء بالبينات والهدى بالآيات البينات وهى الدلائل اليقينيات وقد قال الله تعالى لرسوله {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} النحل١٢٥ والمتفلسفة يفسرون ذلك بطرقهم المنطقية فى البرهان والخطابة والجدل وهو ضلال من وجوه قد بسطت فى غير هذا الموضع بل الحكمة هي معرفة الحق والعمل به فالقلوب التى لها فهم وقصد تدعى بالحكمة فيبين لها الحق علما وعملا فتقبله وتعمل به وآخرون يعترفون بالحق لكن لهم أهواء تصدهم عن اتباعه فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب فى الحق والترهيب من الباطل والوعظ أمر ونهى بترغيب وترهيب كما قال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ} النساء٦٦ وقال تعالى {يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ

---

[١] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٣٢٧-٣٢٨

[٢] رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٣٨

أَبَداً}النور ١٧ فالدعوة بهذين الطريقين لمن قبل الحق ومن لم يقبله فانه يجادل بالتى هي أحسن [1]

## طريقان مبتدعان للناس فى طلب العلم والدين وطريق شرعى

قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥} وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً{٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨} النساء ٦٥- ٦٨ والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي فالطريق الشرعي هو النظر فيما جاء به الرسول والإستدلال بأدلته والعمل بموجبها فلا بد من علم بما جاء به وعمل به لا يكفي أحدهما وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية فإن الرسول بين بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه والرسل بينوا للناس العقليات التي يحتاجون إليها كما ضرب الله في القرآن من كل مثل وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته وأما الطريقان المبتدعان فأحدهما طريق أهل الكلام البدعي والرأي البدعي فإن هذا فيه باطل كثير وكثير من أهله يفرطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة والثاني طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة فإن هؤلاء يقولون إذا صفى الإنسان نفسه على الوجه الذي يذكرونه فاضت عليه العلوم بلا تعلم وكثير من هؤلاء تكون عبادته مبتدعة بل مخالفة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فيبقون في فساد من جهة العمل وفساد من نقص العلم حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسول وكثير ما يقع من هؤلاء وهؤلاء وتقدح كل طائفة في الأخرى وينتحل كل منهم اتباع الرسول والرسول ليس ما جاء به موافقا لما قال هؤلاء ولا هؤلاء {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}آل عمران٦٧ وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه على طريقة أهل البدع من أهل الكلام والرأي ولا على طريقة أهل البدع من أهل العبادة والتصوف بل كان على ما بعثه الله من الكتاب والحكمة وكثير من أهل النظر يزعمون أنه بمجرد النظر يحصل العلم بلا عبادة ولا دين ولا تزكية للنفس وكثير من أهل الإرادة يزعمون أن طريق الرياضة بمجرده تحصل المعارف بلا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٦٦

تعلم ولا نظر ولا تدبر للقرآن والحديث وكلا الفريقين غالط بل لتزكية النفس والعمل بالعلم وتقوى الله تأثير عظيم في حصول العلم لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك إلا بنظر وتدبر وفهم لما بعث الله به الرسول ولو تعبد الإنسان ما عسى أن يتعبد لم يعرف ما خص الله به محمدا صلى الله عليه وسلم إن لم يعرف ذلك من جهته وكذلك لو نظر واستدل ماذا عسى أن ينظر لم يحصل له المطلوب إلا بالتعلم من جهته ولا يحصل التعلم المطابق النافع إلا مع العمل به وإلا فقد قال الله تعالى{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}الصف٥ وقال {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ {١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠}الأنعام١٠٩-١١٠ [1]

## صلاح بنى آدم الإيمان والعمل الصالح

أن العمل إما بمعرفة الحق وإتباعه فى العلم والعمل جميعا صلاح القول والعمل العلم والإرادة والعلم أصل العمل و أصل الإرادة والمحبة وغير ذلك وهو مستلزم له مالم يحصل له معارض مانع فالعلم بالحق يوجب إتباعه إلا لمعارض راجح مثل إتباع الهوى بالإستكبار ونحوه كحال الذين قال الله فيهم {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً}الأعراف١٤٦ وقال {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً}النمل١٤ وقال {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ}الأنعام٣٣ ولهذا قال {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}ص٢٦ ونحو ذلك فإن أصل الفطرة التى فطر الناس عليها إذا سلمت من الفساد إذا رأت الحق إتبعته وأحبته إذ الحق نوعان حق موجود فالواجب معرفته والصدق فى الإخبار عنه وضد ذلك الجهل والكذب وحق مقصود وهو النافع للإنسان فالواجب إرادته والعمل به وضد ذلك إرادة الباطل وإتباعه ومن المعلوم أن الله خلق فى النفوس محبة العلم دون الجهل ومحبة الصدق دون الكذب ومحبة النافع دون الضار وحيث دخل ضد ذلك فلمعارض من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك كما انه فى صالح الجسد خلق الله فيه محبة الطعام والشراب الملائم له دون الضار

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص:٤٢٨- ٤٣٠

فإذا إشتهى ما يضره أن كره ما ينفعه فلمرض فى الجسد وكذلك أيضا إذا إندفع عن النفس المعارض من الهوى والكبر والحسد وغير ذلك أحب القلب ما ينفعه من العلم النافع والعمل الصالح كما أن الجسد إذا إندفع عنه المرض أحب ما ينفعه من الطعام والشراب فكل واحد من وجود المقتضى وعدم الدافع سبب للآخر وذلك سبب لصلاح حال الإنسان وضدهما سبب لضد ذلك فإذا ضعف العلم غلبه الهوى الإنسان وإن وجد العلم والهوى وهما المقتضى والدافع فالحكم للغالب وإذا كان كذلك فصلاح بنى آدم الإيمان والعمل الصالح ولا يخرجهم عن ذلك إلا شيئان أحدهما الجهل المضاد للعلم فيكونون ضلالا والثانى إتباع الهوى والشهوة اللذين فى النفس فيكونون غواة مغضوبا عليهم ولهذا قال {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{١} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{٢} النجم ١-٢ وقال عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ فوصفهم بالرشد الذى هو خلاف الغى وبالهدى الذى هو خلاف الضلال وبهما يصلح العلم والعمل جميعا ويصير الإنسان عالما عادلا لا جاهلا ولا ظالما وهم فى الصلاح على ضربين تارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له إتبعه وعمل به فهذا هو الذى يدعى الحكمة وهو الذى يتذكر وهو الذى يحدث له القرآن ذكرا والثانى ان يكون له من الهوى والمعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذى ينهى النفس عن الهوى فهذا يدعى بالموعظة الحسنة وهذا هو القسم الثانى المذكور فى قوله {أَوْ يَخْشَى}طه٤٤ وفى قوله {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}طه١١٣ وقد قال فى السورة فى قصة فرعون {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{١٧} فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{١٨} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{١٩} النازعات ١٧-١٩ فجمع بين التزكى والهدى والخشية كما جمع بين العلم والخشية فى قوله {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء}فاطر٢٨ وفى قوله {وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ}الأعراف١٥٤ وفى قوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً{٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨} النساء٦٦-٦٨ وذلك لما ذكرنا من أن كل واحد من العلم بالحق الذى يتضمنه التذكر والذكر الذى يحدثه القرآن ومن الخشية المانعة من إتباع الهوى سبب لصلاح حال الإنسان وهو مستلزم للآخر إذا قوى على ضده فإذا قوى العلم والتذكر دفع الهوى وإذا إندفع الهوى بالخشية أبصر القلب وعلم وهاتان هما الطريقة العلمية والعملية كل منهما إذا صحت تستلزم ما تحتاج إليه من الأخرى وصلاح العبد ما يحتاج إليه ويجب عليه منهما جميعا ولهذا كان فساده بإنتفاء كل منهما فإذا إنتفى العلم الحق كان ضالا غير مهتد وإذا إنتفى إتباعه كان غاويا

مغضوبا عليه ولهذا قال {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}الفاتحة٧ [1]

## الجهاد تمام الايمان وسنام العمل

والجهاد تمام الايمان وسنام العمل كما قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}الحجرات١٥ وقال {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}آل عمران١١٠ الآية وقال {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ}التوبة١٩ الآية فكذلك يكون هذا الجزاء فى حق المجاهدين كما قال تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}العنكبوت٦٩ فهذا فى العلم والنور وقال {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً{٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨}النساء٦٨ فقتل النفوس هو قتل بعضهم بعضا وهو من الجهاد والخروج من ديارهم هو الهجرة ثم اخبر أنهم اذا فعلوا ما يوعظون به من الهجرة والجهاد كان خيرا لهم واشد تثبيتا ففى الآية أربعة امور الخير المطلق والتثبيت المتضمن للقوة والمكنة والاجر العظيم وهداية الصراط المستقيم وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}محمد٧ وقال {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ}الحج٤٠ إلى قوله {وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}الحج٤١ وقال {يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ}المائدة٥٤ [2]

## وجوب الأخذ بالأحسن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص:٢٤٠- ٢٤٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٤٠٠-٤٠٢

والشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فهي تأمر بما تترجح مصلحته وإن كان فيه مفسدة مرجوحة كالجهاد وتنهى عما ترجحت مفسدته وإن كان فيه مصلحة مرجوحة كتناول المحرمات من الخمر وغيره ولهذا أمر تعالى أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا فالأحسن إما واجب وإما مستحب قال تعالى {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}الأعراف١٤٥ وقال {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم}الزمر٥٥ فأمر باتباع الأحسن والأخذ به وقال تعالى {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ}الزمر١٨ فاقتضى أن غيرهم لم يهده وهذا يقتضي وجوب الأخذ بالأحسن وهو مشكل وقد تكلم الناس فيه ونظيره قوله تعالى {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ}الإسراء٥٣ وقد يقال هذا نظير قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً}النساء٦٦ ونظائر هذا كثيرة مما يذكر فيه أن المأمور به خير وأحسن من المنهي عنه وإن كان الأول واجبا والثاني محرما وذلك لأن المأمور به قد يشتمل على مفسدة مرجوحة والمنهي عنه يشتمل على مصلحة مرجوحة فيكون باعتبار ذلك في هذا خير وحسن وفي هذا شر وسيىء لكن هذا خير وأحسن وإن كان واجبا فقوله تعالى {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم}الزمر٥٥ هو أمر بالأحسن من فعل المأمور أو ترك المحظور وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب فإن كلاهما أحسن من المحرم والمكروه لكن يكون الأمر أمر إيجاب وأمر استحباب كما امر بالإحسان في قوله تعالى {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}البقرة١٩٥ والإحسان منه واجب ومنه مستحب [1]

## من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم

فإن الجزاء أبدا من جنس العمل كما قال الراحموان يرحمهم الرحمن إرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء وقال من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى

[1] الجواب الصحيح ج: ٦ ص:١٧- ١٨

عون أخيه وقال من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار وقد قال تعالى {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}النور ٢٢ وقال تعالى {إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً}النساء١٤٩ وأمثال هذا كثير فى الكتاب والسنة ولهذا أيضا يجزى الرجل فى الدنيا على ما فعله من خير الهدى بما يفتح عليه من هدى آخر ولهذا قيل من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم وقد قال {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨}النساء٦٦ -٦٨وقال {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{١٥} يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ {١٦}}المائدة١٥ -١٦ وقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ}الحديد٢٨ وقال {إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً}الأنفال٢٩ فسروه بالنصر والنجاة كقوله يوم الفرقان وقد قيل نور يفرق به بين الحق والباطل ومثله قوله {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ {٣}}الطلاق٢-٣ وعد المتقين بالمخارج من الضيق وبرزق المنافع ومن هذا الباب قوله {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ}محمد١٧ وقوله {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى}الكهف١٣ ومنه قوله {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{١} لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٢} وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً{٣} الفتح ١-٣ وبإزاء ذلك أن الضلال والمعاصي تكون بسبب الذنوب المتقدمة كما قال الله {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}الصف٥ وقال {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}النساء١٥٥ وقال {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً}المائدة١٣ وقال {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠} الانعام١٠٩-١١٠ وهذا باب واسع ولهذا قال من قال من السلف إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وأن من عقوبة السيئة السيئة بعدها [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٧٦ و الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٢٥

وقد قال النبى      لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وهذا كثير فليس كل ما فضل به الفاضل يكون مقدورا لمن دونه فكذلك من حقائق الإيمان ما لا يقدر عليه كثير من الناس بل ولا أكثرهم فهؤلاء يدخلون الجنة وان لم يكونوا ممن تحققوا بحقائق الايمان التى فضل الله بها غيرهم ولا تركوا واجبا عليهم وان كان واجبا على غيرهم ولهذا كان من الايمان ما هو من المواهب والفضل من الله فانه من جنس العلم والاسلام الظاهر من جنس العمل وقد قال تعالى  {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ}محمد١٧   وقال  {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى}مريم٧٦   وقال  {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ}الفتح٤  ومثل هذه السكينة قد لا تكون مقدورة ولكن الله يجعل ذلك فى قلبه فضلا منه وجزاء على عمل سابق كما قال  {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨}النساء٦٦ ـ٦٨  كما قال   {اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}الحديد٢٨ وكما قال  {أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ}المجادلة٢٢  ولهذا قيل من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم وهذا الجنس غير مقدور للعباد وان كان ما يقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو أيضا بفضل الله وإعانته واقداره لهم لكن الأمور قسمان منه ما جنسه مقدور لهم لاعانة الله لهم كالقيام والقعود ومنه ما جنسه غير مقدور لهم اذا قيل ان الله يعطى من اطاعه قوة فى قلبه وبدنه يكون بها قادرا على ما لا يقدر عليه غيره فهذا أيضا حق وهو من جنس هذا المعنى قال تعالى  {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ}الأنفال١٢ وقد قال  {إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ}الأنفال٤٥   فأمرهم بالثبات وهذا الثبات يوحى إلى الملائكة أنهم يفعلونه بالمؤمنين والمقصود أنه قد يكون من الايمان ما يؤمر به بعض الناس ويذم على تركه ولا يذم عليه بعض الناس ممن لا يقدر عليه ويفضل الله ذاك بهذا الايمان وان لم يكن المفضول ترك واجبا فيقال وكذلك فى الأعمال الظاهرة يؤمر القادر على الفعل بما لا يؤمر به العاجز عنه ويؤمر بعض الناس بما لا يؤمر به غيره لكن الأعمال الظاهرة قد يعطى الانسان مثل أجر العامل اذا كان يؤمن بها ويريدها جهده ولكن بدنه عاجز كما قال النبى فى الحديث الصحيح   إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم   قالوا وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر   وكما قال تعالى  {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً}النساء٩٥   فإستثنى أولى الضرر   وفى

الصحيحين عن النبى أنه قال من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا وفى حديث أبى كبشة الأنمارى هما فى الأجر سواء وهما فى الوزر سواء رواه الترمذى وصححه ولفظه إنما الدنيا لأربعة رجل آتاه الله علما ومالا فهو يتقى فى ذلك المال ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول لو ان لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما يخبط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء ولفظ ابن ماجه مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه فى ماله ينفقه فى حقه ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل قال رسول الله فهما فى الأجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يختبط فى ماله ينفقه فى غير حقه ورجل لم يؤته علما ولا مالا وهو يقول لو كان لى مثل مال هذا عملت مثل الذى يعمل فهما فى الوزر سواء كالشخصين إذا تماثلا فى ايمان القلوب معرفة وتصديقا وحبا وقوة وحالا ومقاما فقد يتماثلان وإن كان لأحدهما من أعمال البدن ما يعجز عنه بدن الآخر كما جاء فى الأثر أن المؤمن قوته فى قلبه وضعفه فى جسمه والمنافق قوته فى جسمه وضعفه فى قلبه ولهذا قال النبى فى الحديث الصحيح ليس الشديد ذو الصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب وقد قال رأيت كأنى أنزع على قليب فأخذها ابن أبى قحافة فنزع ذنوبا أو ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له فأخذها ابن الخطاب فاستحالت فى يده غربا فلم أر عبقريا يفرى فريه حتى صدر الناس بعطن فذكر أن أبا بكر أضعف وسواء أراد قصر مدته أو أراد ضعفه عن مثل قوة عمر فلا ريب أن أبا بكر أقوى ايمانا من عمر وعمر أقوى عملا منه كما قال ابن مسعود ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر وقوة الايمان أقوى وأكمل من قوة العمل وصاحب الايمان يكتب له اجر عمل غيره وما فعله عمر فى سيرته مكتوب مثله لأبى بكر فانه هو الذى استخلفه وفى المسند من وجهين عن النبى صلى الله عليه وسلم أن النبي وزن بالامة فرجح ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح ثم وزن عمر بالامة فرجح وكان فى حياة النبى وبعد موته يحصل لعمر بسبب أبى بكر من الإيمان والعلم ما لم يكن عنده فهو قد دعاه الى فعله من خير واعانه عليه بجهده والمعين على الفعل اذا كان يريده ارادة جازمة كان كفاعله كما ثبت فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله

عليه وسلم أنه قال من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا وقال من دل على خير فله مثل أجر فاعله وقال من فطر صائما فله مثل أجره وقد روى الترمذى من عزى مصابا فله مثل أجره وهذا وغيره مما يبين أن الشخصين قد يتماثلان فى الأعمال الظاهرة بل يتفاضلان ويكون المفضول فيها أفضل عند الله من الآخر لأنه أفضل فى الإيمان الذى فى القلب وأما إذا تفاضلا فى إيمان القلوب فلا يكون المفضول فيها أفضل عند الله ألبتة وإن كان المفضول لم يهبه الله من الايمان ما وهبه للفاضل ولا أعطى قلبه من الأسباب التى بها ينال ذلك الايمان الفاضل ما أعطى المفضول ولهذا فضل الله بعض النبيين على بعض وان كان الفاضل أقل عملا من المفضول كما فضل الله نبينا ومدة نبوته بضع وعشرون سنة على نوح وقد لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وفضل أمة محمد وقد عملوا من صلاة العصر الى المغرب على من عمل من أول النهار إلى صلاة الظهر وعلى من عمل من صلاة الظهر الى العصر فأعطى الله أمة محمد أجرين وأعطى كلا من أولئك أجرا أجرا لأن الايمان الذى فى قلوبهم كان أكمل وأفضل وكان أولئك أكثر عملا وهؤلاء أعظم أجرا وهو فضله يؤتيه من يشاء بالأسباب التى تفضل بها عليهم وخصهم بها وهكذا سائر من يفضله الله تعالى فانه يفضله بالأسباب التى يستحق بها التفضيل بالجزاء كما يخص أحد الشخصين بقوة ينال بها العلم وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والاخلاص وغير ذلك مما يفضله الله به وانما فضله فى الجزاء بما فضل به من الايمان كما يخص أحد الشخصين بقوة ينال بها العلم وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والاخلاص وغير ذلك مما يفضله الله به وانما فضله فى الجزاء بما فضل به من الايمان كما قال تعالى {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٧٢}وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}آل عمران٧٢-٧٣ وقال فى الآية الأخرى {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}الأنعام١٢٤ وقال {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ}الحج٧٥ وقال {فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ}البقرة٢٨٤ وقد بين فى مواضع أسباب المغفرة وأسباب العذاب وكذلك يرزق من يشاء بغير حساب وقد عرف أنه قد يخص من يشاء بأسباب الرزق [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٣٩-٣٤٣

فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه واتباعهم ما يحبه ما لا يفتح به على غيرهم وهذا كما قال على الا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه وفى الأثر من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وقد دل القرآن على ذلك فى غير موضع كقوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨} النساء٦٦-٦٨ فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به يهديه الله صراطا مستقيما وقال تعالى {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ}المائدة١٦ وقال تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ}محمد١٧ وقال {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى}الكهف١٣ وقال تعالى {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}البقرة٢ وقال تعالى {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}الجاثية٢٠ وقال تعالى {هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}الأعراف٢٠٣ وأخبر أن اتباع ما يكرهه يصرف عن العلم والهدى كقوله {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}الصف٥ وقوله {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ}الأنعام١٠٩ وقوله {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ {١٠٩}وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠}الأنعام١٠٩-١١٠ أى وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون بها ونقلب أفئدتهم أى يتركون الايمان ونحن نقلب أفئدتهم لكونهم لم يؤمنوا أول مرة أى ما يدريكم أنه لا يكون هذا وهذا حينئذ [1]

فمن يتبع من الحق ما علمه يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق فمن عمل بما علم اورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ}محمد١٧ وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨} النساء٦٦ -٦٨ وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٢٤٥-٢٤٦

رَّحِيمٌ}الحديد٢٨ وقال تعالى {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ}البقرة٢٥٧ وقال تعالى {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{١٥} يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{١٦}المائدة١٥- ١٦ وشواهد هذا كثيرة فى الكتاب والسنة وكذلك من اعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعا لهواه فان ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن االحق الواضح كما قال تعالى {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}الصف٥ وقال تعالى {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً}البقرة١٠ وقال تعالى {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠}الأنعام١١٠ وهذا استفهام نفى وانكار اي وما يدريكم انها اذا جاءت لا يؤمنون وانا نقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة على قراءة من قرأ انها بالكسر تكون جزما بأنها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ولهذا قال من قال من السلف كسعيد بن جبير ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وان من عقوبة السيئة السيئة بعدها وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبى انه قال عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر وان البر يهدى الى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور وان الفجور يهدى الى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا فأخبر النبى ان الصدق اصل يستلزم البر وان الكذب يستلزم الفجور [1]

## الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى

والمعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى فتكون من سيئات الجزاء مع أنها من سيئات العمل قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث المتفق على صحته عن إبن مسعود رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى الى البر و البر يهدى الى الجنة و لا يزال الرجل يصدق و يتحرى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٠-١١ و رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٢٨-٢٢٩

الصدق حتى يكتب عند الله صديقا و إياكم و الكذب فان الكذب يهدى الى الفجور و الفجور يهدى الى النار و لا يزال الرجل يكذب و يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا      وقد ذكر فى غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى و كذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى  قال تعالى    {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً}النساء٦٦ [١]

## أول التوبة العلم بأن فعله سيء

أن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه أو أنه ترك حسنا مأمورا به أمر إيجاب أو أمر استحباب ليتوب ويفعله فما دام يرى فعله حسنا وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب ولكن التوبة ممكنة وواقعه بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف أهل البدع والضلال وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى{وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً{٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨} وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً{٦٩}النساء٦٦-٦٩ [٢]

فإن العمل بموجب العلم يثبته ويقرره ومخالفته تضعفه بل قد تذهبه قال الله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً}النساء٦٦ الى قوله تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً{٦٩}النساء ٦٩ [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٤٣ و الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ٢٥

[٢] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٣٩ و التحفة العراقية ج: ١ ص: ٣٩

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٣٣

# اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله

فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحد وأسد عقلا وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال وكذلك أهل السنة والحديث تجدهم كذلك متمتعين وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوى الإدراك ويصححه قال تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ}محمد١٧ وقال {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً{٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨} النساء٦٦ ـ٦٨ وهذا يعلم تارة بموارد النزاع بينهم وبين غيرهم فلا تجد مسألة خولفوا فيها إلا وقد تبين أن الحق معهم وتارة بإقرار مخالفيهم ورجوعهم إليهم دون رجوعهم إلى غيرهم أو بشهادتهم على مخالفيهم بالضلال والجهل وتارة بشهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله في الأرض وتارة بأن كل طائفة تعتصم بهم فيما خالفت فيه الأخرى وتشهد بالضلال على كل من خالفها أعظم مما تشهد به عليهم فأما شهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله في الأرض فهذا أمر ظاهر معلوم بالحسن والتواتر لكل من سمع كلام المسلمين لا تجد في الأمة عظم أحد تعظيما أعظم مما عظموا به ولا تجد غيرهم يعظم إلا بقدر ما وافقهم فيه كما لا ينقص إلا بقدر ما خالفهم [1]

ان للدين علما وعملا اذا صح فلا بد ان يوجب خرق العادة اذا احتاج إلى ذلك صاحب قال الله تعالى {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ{٣}الطلاق٢-٣ وقال تعالى {إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً}الأنفال٢٩ وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨}النساء٦٦ ـ٦٨ وقال تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ{٦٤} يونس٦٢-٦٤ وقال رسول الله اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ قوله تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ}الحجر٧٥ رواه الترمذى وحسنه من رواية أبى سعيد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ١٠

وقال الله تعالى فيما روى عنه رسول الله من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبي يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بي لاعيذنه وما ترددت فى شىء انا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بدله منه فهذا فيه محاربة الله لمن حارب وليه وفيه ان محبوبه به يعلم سمعا وبصرا وبه يعمل بطشا وسعيا وفيه انه يجيبه إلى ما يطلبه منه من المنافع ويصرف عنه ما يستعيذ به من المضار وهذا باب واسع [1]

## الله تعالى يعظم ما هو عظيم

وقول القائل التعجب استعظام للمتعجب منه فيقال نعم وقد يكون مقرونا بجهل بسبب التعجب وقد يكون لما خرج عن نظائره والله تعالى بكل شىء عليم فلا يجوز عليه ان لا يعلم سبب ما تعجب منه بل يتعجب لخروجه عن نظائره تعظيما له والله تعالى يعظم ما هو عظيم اما لعظمة سببه او لعظمته فانه وصف بعض الخير بأنه عظيم ووصف بعض الشر بأنه عظيم فقال تعالى {رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}النمل٢٦ وقال {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}الحجر٨٧ وقال {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} النساء٦٦ -٦٧ وقال {وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}النور١٦ وقال {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}لقمان١٣ ولهذا قال تعالى {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ}الصافات١٢ على قراءة الضم فهنا هو عجب من كفرهم مع وضوح الأدلة وقال النبى للذى آثر هو وامرأته ضيفهما لقد عجب الله وفى لفظ فى الصحيح لقد ضحك الله الليلة من صنعكما البارحة وقال ان الرب ليعجب من عبده اذا قال رب اغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا أنت يقول علم عبدى انه لا يغفر الذنوب الا انا وقال

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٣٣١

عجب ربك من شاب ليست له صبوة وقال عجب ربك من راعى غنم على رأس شظية يؤذن ويقيم فيقول الله انظروا الى عبدى أو كما قال ونحو ذلك [1]

## جميع الحسنات لا بد فيها من شيئين

واذا كانت جميع الحسنات لا بد فيها من شيئين أن يراد بها وجه الله وان تكون موافقة للشريعة فهذا فى الأقوال والأفعال فى الكلم الطيب والعمل الصالح في الأمور العلمية والأمور العبادية ولهذا ثبت فى الصحيح عن النبى ان أول ثلاثة تسجر بهم جهنم رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن وأقرأه ليقول الناس هو عالم وقارئ ورجل قاتل وجاهد ليقول الناس هو شجاع وجرئ ورجل تصدق واعطى ليقول الناس جواد سخى فان هؤلاء الثلاثة الذين يريدون الرياء والسمعة هم بازاء الثلاثة الذين بعد النبيين من الصديقين والشهداء والصالحين فان من تعلم العلم الذى بعث الله به رسله وعلمه لوجه الله كان صديقا ومن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا وقتل كان شهيدا ومن تصدق يبتغى بذلك وجه الله كان صالحا ولهذا يسأل المفرط فى ماله الرجعة وقت الموت كما قال ابن عباس من اعطى مالا فلم يحج منه ولم يزك منه سأل الرجعة وقت الموت وقرأ قوله تعالى {وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ} المنافقون ١٠ فهذه الأمور العلمية الكلامية يحتاج المخبر بها ان يكون ما يخبر به عن الله واليوم الاخر وما كان وما يكون حقا صوابا وما يأمر به وينهى عنه كما جاءت به الرسل عن الله فهذا هو الصواب الموافق للسنة والشريعة المتبع لكتاب لله وسنة رسوله كما ان العبادات التى يتعبد العباد بها إذا كانت مما شرعه الله وأمر الله به ورسوله كانت حقا صوابا موافقا لما بعث الله به رسله وما لم يكن كذلك من القسمين كان من الباطل والبدع المضلة والجهل وان كان يسميه من يسميه علوما ومعقولات وعبادات ومجاهدات وأذواقا ومقامات ويحتاج ايضا ان يؤمر بذلك لامر الله وينهى عنه لنهى الله ويخبر بما اخبر الله به لأنه حق وايمان وهدى كما أخبرت به الرسل كما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٢٤

تحتاج العبادة ان يقصد بها وجه الله فاذا قيل ذلك لاتباع الهوى والحمية أو لاظهار العلم والفضيلة أو لطلب السمعة والرياء كان بمنزلة المقاتل شجاعة وحمية ورياء ومن هنا يتبين لك ما وقع فيه كثير من أهل العلم والمقال وأهل العبادة والحال فكثيرا ما يقول من هؤلاءالأقوال ما هو خلاف الكتاب والسنة ووفاقها وكثيرا ما يتعبد هؤلاء بعبادات لم يأمر الله بها بل قد نهى عنها أو ما يتضمن مشروعا محظورا وكثيرا ما يقاتل هؤلاء قتالا مخالفا للقتال المأمور به او متضمنا لمأمور محظور ثم كل من الاقسام الثلاثة المأمور والمحظور والمشتمل على الأمرين قد يكون لصاحبه نية حسنة وقد يكون متبعا لهواه وقد يجتمع له هذا وهذا [1]

## أجل نعمة الهداية للإيمان

ما أمر الله العبد أمر إيجاب أو استحباب ففعله هو عباده لله وطاعة وقربة الى الله وصلاح لفاعله وحسنة فيه وإذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان الله اليه وإنعامه عليه بل أجل نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان والإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة والحسنات وكلما ازداد العبد عملا للخير إزداد إيمانه هذا هو الإنعام الحقيقى المذكور فى قوله {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} الفاتحة٧ وفى قوله {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً} النساء٦٩ بل نعم الدنيا بدون الدين هل هى من نعمة أم لا فيه قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم والتحقيق أنها نعمة من وجه وإن لم تكن نعمة تامة من وجه وأما الإنعام بالدين الذى ينبغى طلبه فهو ما أمر الله به من واجب ومستحب فهو الخير الذى ينبغى طلبه بإتفاق المسلمين وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة إذ عندهم أن الله هو الذى أنعم بفعل الخير [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٧١-١٧٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٣٣

# لا سعادة للعباد ولا نجاة فى المعاد الا باتباع رسوله

فإنه لا سعادة للعباد ولا نجاة في المعاد الا باتباع رسوله {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤}النساء١٣ -١٤ فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ وإنما تعبدهم بطاعته وطاعة رسوله فلا عبادة الا ما هو واجب أو مستحب في دين الله وما سوى ذلك فضلال عن سبيله ولهذا قال صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد أخرجاه في الصحيحين وقال صلى الله عليه وسلم في حديث العرباض بن ساريه الذي رواه أهل السنن وصححه الترمذي أنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثان الأمور فإن كل بدعة ضلالة وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه في نحو من أربعين موضعا من القرآن كقوله تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً}النساء٨٠ وقوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً {٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥} النساء٦٤ -٦٥ وقوله تعالى {قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}آل عمران٣٢ وقال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}آل عمران٣١ فجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول وجعل متابعة الرسول سببا لمحبة الله عبده وقد قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الشورى٥٢ فما أوحاه الله إليه يهدى الله به به من يشاء من عباده كما أنه بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}سبأ٥٠ وقال تعالى {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{١٥}يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}المائدة١٥-١٦ فبمحمد تبين الكفر من الايمان والربح من الخسران والهدي

من الضلال والنجاة من الوبال والغي من الرشاد والزيغ من السداد وأهل الجنة من أهل النار والمتقون من الفجار وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من سبيل المغضوب عليهم والضالين فالنفوس أحوج الى معرفة ما جاء به واتباعه منها الى الطعام والشراب فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا وذاك إذا مات حصل العذاب فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار النعيم والطريق الى ذلك الرواية والنقل إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل بل كما أن نور العين لا يرى الا مع ظهورنور قدامه فكذلك نور العقل لا يهتدي الا إذا طلعت عليه شمس الرسالة فلهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الاسلام وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجبا على جميع الأنام والله سبحانه بعث محمدا بالكتاب والسنة وبهما أتم على أمته الأمة قال تعالى {وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{١٥٠} كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ{١٥١} فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ{١٥٢} البقرة ١٥٠-١٥٢ وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}آل عمران١٦٤ قال تعالى {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ}البقرة٢٣١ وقال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}الجمعة٢ وقال تعالى عن الخليل {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}البقرة١٢٩ وقال تعالى {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}الأحزاب٣٤ وقد قال غير واحد من العلماء منهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي وغيرهم الحكمة هي السنة لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة والكتاب القرآن وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة وأبي ثعلة وغيرهما أنه قال لا ألفين أحدكم متكا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم القرآن فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه وفي رواية ألا وإنه مثل الكتاب ولما كان القرآن متميزا بنفسه لما خصه الله به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}الإسراء٨٨ وكان منقولا بالتواتر لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه وكان طمع الشيطان أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به

بعض العباد          فأقام الله تعالى الجهابذة النقاد أهل الهدي والسداد فدحروا حزب الشيطان وفرقوا بين الحق من البهتان وانتدبوا لحفظ السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان       وقام كل من علماء الدين بما أنعم به عليه وعلى المسلمين مقام أهل الفقه الذين فقهوا معاني القرآن والحديث بدفع ما وقع في ذلك من الخطأ في القديم والحديث وكان من ذلك الظاهر الجلي الذي لا يسوغ عنه العدول ومنه الخفى الذي يسوغ فيه الاجتهاد للعماء العدول       وقام علماء النقل والنقاد بعلم الرواية والاسناد فسافروا في ذلك الى البلاد وهجروا فيه لذيذ الرقاد وفارقوا الأموال والأولاد وأنفقوا فيه الطارف والتلاد وصبروا فيه على النوائب وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة والقصص المأثورة ما هو عند أهله معلوم ولمن طلب معرفته معروف مرسوم بتوسد أحدهم التراب وتركهم لذيذ الطعام والشراب وترك معاشرة الأهل والأصحاب والتصبر على مرارة الإغتراب ومقاساة الأهوال الصعاب أمر حببه الله إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين الله كما جعل البيت مثابة للناس وأمنا يقصدونه من كل فج عميق ويتحملون فيه أمورا مؤلمة تحصل في الطريق وكما حببب الى أهل القتال الجهاد بالنفس والمال حكمة من الله يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين ويظهر به الهدي ودين الحق الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون فمن كان مخلصا في أعمال الدين يعملها لله كان من أولياء الله المتقين أهل النعيم المقيم كما قال تعالى    {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٦٤} يونس٦٢-٦٤       وقد فسر النبي البشرى في الدنيا بنوعين     أحدهما ثناء المثنين عليه     الثاني الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له فقيل يا رسول الله الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن وقال البراء بن عازب سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله لهم البشرى في الحياة الدنيا فقال هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله الربان الحافظون له من الزيادة والنقصان هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين بل لهم مزية على غيرهم من أهل الايمان والأعمال الصالحات كما قال تعالى   {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}المجادلة١١   قال ابن عباس يرفع الله      وعلم الاسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد وجعله سلما الى الدراية فأهل الكتاب لا إسناد له يأثرون به المنقولات وهكذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات وإنما الاسناد لمن أعظم الله عليه المنة أهل الاسلام والسنة يفرقون به بين الصحيح والسقيم والمعوج والقويم       وغيرهم من أهل البدع والكفار إنما عندهم منقولات يأثرونها

بغير إسناد وعليها من دينهم الإعتماد وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل ولا الحالي من العاطل وأما هذه الأمة المرحومة وأصحاب هذه الأمة المعصومة فإن أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين فظهر لهم الصدق من المين كما يظهر الصبح لذي عينين عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ في دين الله معقول أو منقول وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه الى الله والرسول كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ فإذا اجتمع أهل الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقا وإذا اجتمع أهل الحديث على تصحيح حديث لم يكن الا صدقا ولكل من الطائفتين من الاستدلال على مطلوبهم بالجلي والخفي ما يعرف به من هو بهذا الأمر حفي والله تعالى يليهم الصواب في هذه القضية كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية فإن الله كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه لما صدقوا في موالاة الله ورسوله ومعاداة من عدل عنه قال تعالى {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} المجادلة٢٢ وأهل العلم المأثور عن الرسول أعظمن الناس قياما بهه الأصول لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم ولا يصدهم عن سبيل الله العظائم بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه ويتكلم في أحب الناس إليه عملا بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} النساء١٣٥ وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} المائدة٨ ولهم من التعديل والتجريح والتضعيف والتصحيح من السعي المشكور والعمل المبرور ما كان من أسباب حفظ الدين وصيانته عن إحداث المفترين وهم في ذلك على درجات منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية ومنهم أهل الفقه فيه والمعرفة بمعانيه وقد أمر النبي الأمة أن يبلغ عنه من شهد لم غاب ودعا للمبلغين بالدعاء المتجاب فقال في الحديث الصحيح بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بين اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي منعمدا فليتبوأ مقعده من النار وقال أيضا في خطبته في حجة الوداع الا ليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع وقال أيضا نصر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه الى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب

مسلم اخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من روائهم وفي هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وإن لم يكن فقيها ودعاء لمن بلغه وإن كان المستمع أفقه من المبلغ لما أعطى المبلغون من النضرة ولهذا قال سفيان بن عيينة لا تجد أحد من أهل الحديث الا وفي وجهه نضرة لدعوة النبي يقال نضر ونضر والفتح أفصح ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعظون نقلة الحديث حتى قال الشافعي رضي الله عنه إذا رأيت رجلا من أهل الحديث فكأني رأيت رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليهم وسلم وإنما قال الشافعي هذا لأنهم في مقام الصحابة من تبليغ حديث النبي وقال الشافعي أيضا أهل الحديث حفظوا فلهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا أه [1]

## الذى ينفع الناس طاعة الله ورسوله

أن الله بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا وأنه أكمل له ولأمته الدين كما قال تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} المائدة٣ وأنه بشر بالسعادة لمن أطاعه والشقاوة لمن عصاه فقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً} النساء٦٩ وقال تعالى {وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً} الجن٢٣ وأمر الخلق أن يردوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلى ما بعثه به كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء٥٩ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٤-١١

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٢١

الذى ينفع الناس طاعة الله ورسوله وأما ما سوى ذلك فإنه لا ينفعهم لا قرابة ولا مجاورة ولا غير ذلك كما ثبت عنه فى الحديث الصحيح أنه قال يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئا يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا يا عباس عم رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا قال إن آل أبى فلان ليسوا لى بأولياء إنما ولى الله وصالح المؤمنين وقال إن أوليائى المتقون حيث كانوا ومن كانوا وقد قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}الحج٣٨ فهو تبارك وتعالى يدافع عن المؤمنين حيث كانوا فالله هو الدافع والسبب هو الإيمان وكان النبى صلى الله عليه و سلم يقول فى خطبته من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئا قال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ [1]

فطاعة الله ورسوله قطب السعادة وعليها تدور إن الله قد ضمن السعادة لمن أطاعه وأطاع رسوله وتوعد بالشقاء لمن لم يفعل ذلك فمناط السعادة طاعة الله ورسوله كما قال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ وأمثال ذلك وإذا كان كذلك والله تعالى يقول {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ فمن اجتهد في طاعة الله ورسوله بحسب استطاعته كان من أهل الجنة [2]

فقد بين الله في القرآن أن من أطاع الله ورسوله كان سعيدا في الآخرة ومن عصى الله ورسوله وتعدى حدوده كان معذبا فهذا هو الفرق بين السعداء والأشقياء [3]

فإنه سبحانه أوجب الجنة لمن اطاع الله ورسوله في غير موضع كقوله تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٤٣٥

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٥٠٥ و مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٤٣٧

[3] منهاج السنة النبوية ج: ١ ص: ٩٨

وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ وقوله {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}النساء١٣ [١]

قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ وقد أوجب طاعته وطاعة رسوله فى آى كثير من القرآن وحرم معصيته ومعصية رسوله ووعد برضوانه ومغفرته ورحمته وجنته على طاعته وطاعة رسوله وأوعد بضد ذلك على معصيته ومعصية رسوله فعلى كل أحد من عالم أو أمير أو عابد أو معامل أن يطيع الله ورسوله فيما هو قائم به من علم أو حكم أو أمر أو نهى أو عمل أو عبادة أو غير ذلك [٢]

وإذا كانت الشهادتان هي أصل الدين وفرعه وسائر دعائمه وشعبه داخلة فيهما فالعبادة متعلقة بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ [٣]

أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله فى أمره ونهيه ووعده ووعيده فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله فعلينا أن نحب الله ورسوله ونطيع الله ورسوله ونرضى الله ورسوله وفى الصحيحين عن أنس قال قال رسول الله ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب اليه ممن سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار [٤]

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ١ ص: ٨٧

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٣٠٩

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٤١

[٤] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٠٧

## مع طاعة الله ورسوله لا يحتاج الى طاعة إمام أو قياس

في الإكتفاء بالرسالة والإستغناء بالنبى عن إتباع ما سواه إتباعا عاما وأقام الله الحجة على خلقه برسله فقال تعالى{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}النساء١٦٣ الى قوله {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ فدلت هذه الآية على أنه لا حجة لهم بعد الرسل بحال وأنه قد يكون لهم حجة قبل الرسل ف الأول يبطل قول من أحوج الخلق الى غير الرسل حاجة عامة كالأئمة و الثانى يبطل قول من أقام الحجة عليهم قبل الرسل من المتفلسفة والمتكلمة وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ فأمر بطاعة أولي الأمر من العلماء والأمراء إذا لم يتنازعوا وهو يقتضى أن إتفاقهم حجة وأمرهم بالرد عند التنازع الى الله والرسول فأبطل الرد الى امام مقلد أو قياس عقلى فاضل وقال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ}البقرة٢١٣ فبين أنه بالكتاب يحكم بين أهل الأرض فيما اختلفوا فيه وقال تعالى {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ}العنكبوت٥١ فزجر من لم يكتف بالكتاب المنزل وقال تعالى {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي}الأنعام١٣٠ الآيات وقال تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ وقال تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}الزمر ٧١ الآيات وقال تعالى {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ {٨} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ {٩}الملك٨-٩ فدلت هذه الآيات على أن من أتاه الرسول فخالفه فقد وجب عليه العذاب وإن لم يأته إمام ولا قياس وأنه لا يعذب أحد حتى يأتيه الرسول وإن أتاه إمام أو قياس وقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ

وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤}النساء١٣-١٤ الآية وقد ذكر سبحانه هذا المعنى فى غير موضع فبين أن طاعة الله ورسوله موجبة للسعادة وان معصية الله موجبة للشقاوة وهذا يبين أن مع طاعة الله ورسوله لا يحتاج الى طاعة إمام أو قياس ومع معصية الله ورسوله لا ينفع طاعة إمام أو قياس ودليل هذا الأصل كثير فى الكتاب والسنة وهو أصل الاسلام شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله وهو متفق عليه بين الذين أوتوا العلم والايمان قولا واعتقادا وإن خالفه بعضهم عملا وحالا فليس عالم من المسلمين يشك فى أن الواجب على الخلق طاعة الله ورسوله وان ما سواه إنما تجب طاعته حيث أوجبها الله ورسوله وفى الحقيقة فالواجب في الأصل إنما هو طاعة الله لكن لا سبيل إلى العلم بمأموره وبخبره كله إلا من جهة الرسل والمبلغ عنه اما مبلغ امره وكلماته فتجب طاعته وتصديقه فى جميع ما أمر وأخبر وأما ماسوى ذلك فإنما يطاع في حال دون حال كالأمراء الذين تجب طاعتهم فى محل ولايتهم ما لم يأمروا بمعصية الله والعلماء الذين تجب طاعتهم على المستفتى والمأمور فيما أوجبوه عليه مبلغين عن الله أو مجتهدين اجتهادا تجب طاعتهم فيه على المقلد ويدخل فى ذلك مشائخ الدين ورؤساء الدنيا حيث أمر بطاعتهم كاتباع أئمة الصلاة فيها وأتباع أئمة الحج فيه واتباع امراء الغزو فيه واتباع الحكام في احكامهم واتباع المشايخ المهتدين فى هديهم ونحو ذلك والمقصود بهذا الأصل أن من نصب إماما فأوجب طاعته مطلقا اعتقادا أو حالا فقد ضل فى ذلك كأئمة الضلال الرافضة الامامية حيث جعلوا في كل وقت إماما معصوما تجب طاعته فإنه لا معصوم بعد الرسول ولا تجب طاعة أحد بعده فى كل شيء والذين عينوهم من أهل البيت منهم من كان خليفة راشدا تجب طاعته كطاعة الخلفاء قبله وهو علي ومنهم أئمة فى العلم والدين يجب لهم ما يجب لنظرائهم من أئمة العلم والدين كعلى بن الحسين وأبى جعفر الباقر وجعفر إبن محمد الصادق ومنهم دون ذلك وكذلك من دعا لاتباع شيخ من مشايخ الدين فى كل طريق من غير تخصيص ولا استثناء وأفرده عن نظرائه كالشيخ عدي والشيخ أحمد والشيخ عبد القادر والشيخ حيوة ونحوهم وكذلك من دعا إلى اتباع امام من أئمة العلم فى كل ما قاله وأمر به ونهى عنه مطلقا كالأئمة الأربعة وكذلك من أمر بطاعة الملوك والأمراء والقضاة والولاة فى كل ما يأمرون وينهون عنه من غير تخصيص ولا استثناء لكن هؤلاء لا يدعون العصمة لمتبوعيهم الاعالية اتباع المشايخ كالشيخ عدي وسعد المديني بن حمويه ونحوهما فإنهم يدعون فيهم نحوا مما

تدعيه الغالية فى أئمة بني هاشم من العصمة ثم من الترجيح على النبوة ثم من دعوى الالهية وأما كثير من أتباع أئمة العلم ومشايخ الدين فحالهم وهواهم بضاهي حال من يوجب اتباع متبوعه لكنه لا يقول ذلك بلسانه ولا يعتقده علما فحاله يخالف اعتقاده بمنزلة العصاة أهل الشهوات وهؤلاء أصلح ممن يرى وجوب ذلك ويعتقده وكذلك اتباع الملوك والرؤساء هم كما أخبر الله عنهم بقوله {إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا}الأحزاب٦٧ فهم مطيعون حالا وعملا وانقيادا وأكثرهم من غير عقيدة دينية وفيهم من يقرن بذلك عقيدة دينية ولكن طاعة الرسول إنما تمكن مع العلم بما جاء به والقدرة على العمل به فإذا ضعف العلم والقدرة صار الوقت وقت فترة في ذلك الأمر فكان وقت دعوة ونبوة فى غيره فتدبر هذا الأصل فإنه نافع جدا والله أعلم وكذا من نصب القياس أو العقل أو الذوق مطلقا من أهل الفلسفة والكلام والتصوف أو قدمه بين يدي الرسول من أهل الكلام والرأي والفلسفة والتصوف فإنه بمنزلة من نصب شخصا فالاتباع المطلق دائر مع الرسول وجودا وعدما [1]

تكلم طائفة من الصوفية فى خاتم الأولياء وعظموا أمره كالحكيم الترمذى وهو من غلطاته فان الغالب على كلامه الصحة بخلاف ابن عربى فانه كثير التخليط لا سيما فى الاتحاد وابن عربى وغيرهم وادعى جماعة كل واحد انه هو كابن عربى وربما قيده بأنه ختم الولاية المحمدية أو الكاملة أو نحو ذلك لئلا يلزمه ان لا يخلق بعده لله ولى وربما غلوا فيه كما فعل ابن عربى فى فصوصه فجعلوه ممدا فى الباطن لخاتم الأنبياء تبعا لغلوهم الباطل حيث قد يجعلون الولاية فوق النبوة وموافقة لغلاة المتفلسفة الذين قد يجعلون الفيلسوف الكامل فوق النبى وكذلك جهال القدرية والأحمدية واليونسية قد يفضلون شيخهم على النبى أو غيره من الأنبياء وربما ادعوا فى شيخهم نوعا من الألهية وكذلك طائفة من السعدية يفضلون الولى على النبى وقال بعضهم يقلد الشافعى ولا يقلد أبو بكر وعمر وكذلك غالية الرافضة والذين قد يجعلون الامام كان ممدا للنبى فى الباطن كما قد يجعلونه إلها فأما الغلو فى ولى غير النبى حتى يفضل على النبى سواء سمى وليا أو إماما أو فيلسوفا وانتظارهم للمنتظر الذى هو محمد بن الحسن أو اسماعيل ابن جعفر ونظير إرتباط الصوفية على الغوث وعلى خاتم الأولياء فبطلانه ظاهر بما علم من نصوص الكتاب والسنة وما عليه إجماع الأمة فان الله جعل الذين أنعم عليهم أربعة النبيين

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص:٦٧- ٧١

والصديقين والشهداء والصالحين فغاية من بعد النبى ان يكون صديقا كما كان خير هذه الأمة بعد نبيها صديقا ولهذا كانت غاية مريم ذلك فى قوله {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ}المائدة٧٥ وبهذا استدللت على ما ذكره طائفة كالقاضى ابى يعلى وغيره من أصحابنا وابى المعالى وأظن الباقلانى من الاجماع على انها لم تكن نبية ليقرروا كرامات الأولياء بما جرى على يديها فان بعض الناس زعم أنها كانت نبية فاستدللت بهذه الآية ففرح مخاطبى بهذه الحجة فان الله ذكر ذلك فى بيان غاية فضلها دفعا لغلو النصارى فيها كما يقال لمن ادعى فى رجل أنه ملك من الملوك أو غنى من الأ غنياء ونحو ذلك فيقال ما هو إلا رئيس قرية أو صاحب بستان فيذكر غاية ماله من الرئاسة والمال فلو كان للمسيح مرتبة فوق الرسالة أولها مرتبة فوق الصديقية لذكرت ولهذا كان أصل الغلو فى النصارى ويشابههم فى بعضه غالية المتصوفة والشيعة ومن انضم إليهم من الصابئة المتفلسفة فالرد عليهم من جهة واحدة وقال النبى فى أبى بكر وعمر هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين فهذه المسألة لشرحها موضع غير هذا وهى ان كل من سوى الانبياء دونهم وإنما الكلام هنا فيما يذكرونه من خاتم الأولياء فنقول هذه تسمية باطلة ولا أصل لها فى كتاب ولا سنة ولا كلام مأثور عمن هو مقبول عند الأمة قبولا عاما لكن يعلم من حيث الجملة ان آخر من بقى من المؤمنين المتقين فى العالم فهو آخر اولياء الله ونقول ثانيا أن آخر الاولياء أو خاتمهم سواء كان المحقق أو فرض مقدر ليس يجب أن يكون أفضل من غيره من الاولياء فضلا عن ان يكون أفضلهم وإنما نشأ هذا من مجرد القياس على خاتم الأنبياء لما رأوا خاتم الانبياء هو سيدهم وتوهموا من ذلك قياسا بمجرد الاشتراك فى لفظ خاتم فقالوا خاتم الاولياء أفضلهم وهذا خطأ فى الاستدلال فان فضل خاتم الانبياء عليهم لم يكن لمجرد كونه خاتما بل لادلة اخرى دلت على ذلك ثم نقول بل اول الأولياء فى هذه الأمة وسابقهم هو أفضلهم فان أفضل الأمة خاتم الانبياء وأفضل الاولياء سابقهم إلى خاتم الأنبياء وذلك لان الولى مستفيد من النبى وتابع له فكلما قرب من النبى كان أفضل وكلما بعد عنه كان بالعكس بخلاف خاتم الانبياء فان استفادته إنما هى من الله فليس فى تأخره زمانا ما يوجب تأخر مرتبته بل قد يجمع الله له ما فرقه فى غيره من الانبياء فهذا الامر الذى ذكرناه من ان السابقين من الاولياء هم خيرهم هو الذى دل عليه الكتاب والسنن المتواترة واجماع السلف ويتصل بهذا ظن طوائف ان من المتأخرين من قد يكون أفضل من أفاضل الصحابة ويوجد هذا فى المنتسبين إلى العلم وإلى العبادة وإلى الجهاد والامارة والملك حتى فى المتفقهة من قال أبو حنيفة افقه من على وقال بعضهم يقلد الشافعى

ولا يقلد ابو بكر وعمر     ويتمسكون تارة بشبه عقلية أو ذوقية من جهة ان متأخرى كل فن يحكمونه أكثر من المتقدمين فانهم يستفيدون علوم الاولين مع العلوم التى اختصوا بها كما هو موجود فى أهل الحساب والطبائعيين والمنجمين وغيرهم ومن جهة الذوق وهو ما وجدوه لأواخر الصالحين من المشاهدات العرفانية والكرامات الخارقة مالم ينقل مثله عن السلف وتارة يستدلون بشبه نقلية مثل قوله    للعامل منهم أجر خمسين منكم     وقوله     أمتى كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره     وهذا خلاف السنن المتواترة عن النبى من حديث ابن مسعود وعمران بن حصين و مما هو فى الصحيحين أو احدهما من قوله     خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم     وقوله     والذى نفسى بيده لو انفق احدكم مثل احد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه     وغير ذلك من الأحاديث     وخلاف اجماع السلف كقول ابن مسعود     إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب اصحابه خير قلوب العباد وقول حذيفة     يا معشر القراء استقيموا وخذوا سبيل من كان قبلكم فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقا بعيدا     ولئن اخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا وقول ابن مسعود     من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات أولئك اصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوبا  واعمقها علما واقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه واقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم     وقول جندب وغيره مما هو كثير مكتوب فى غير هذا الموضع بل خلاف نصوص القرآن فى مثل قوله {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ}التوبة١٠٠ الآية وقوله {لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا}الحديد١٠ الآية وقوله {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ}الحشر١٠ الآية وغير ذلك فانه لم يكن الغرض بهذا الموضع هذه المسئلة وإنما الغرض الكلام على خاتم الأولياء     ومما يشبه هذا ظن طائفة كابن هود وابن سبعين والنفرى والتلمسانى ان الشىء المتأخر ينبغى ان يكون أفضل من المتقدم لاعتقادهم ان العالم متنقل من الابتداء إلى الانتهاء كالصبى الذى يكبر بعد صغره والنبات الذى ينمو بعد ضعفه ويبنون على ذلك ان المسيح أفضل من موسى ويبعدون ذلك إلى ان يجعلوا بعد محمد واحد من البشر أكمل منه كما تقوله الاسماعيلية والقرامطة والباطنية فليس على هذا دليل أصلا ان كل من تأخر زمانه من نوع يكون أفضل ذلك النوع فلا هو مطرد ولا منعكس بل ابراهيم الخليل قد ثبت بقول النبى     أنه خير البرية     اى بعد النبى وكذلك قال الربيع بن خيثم     لا أفضل على نبينا احدا  ولا أفضل على ابراهيم بعد نبينا احدا وبعده جميع

الأنبياء المتبعين لملته مثل موسى وعيسى وغيرهما وكذلك أنبياء بنى اسرائيل كلهم بعد موسى وقد اجمع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى على ان موسى أفضل من غيره من أنبياء بنى اسرائيل إلا ما يتنازعون فيه من المسيح والقرآن قد شهد فى آيتين لأولى العزم فقال فى قوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}الأحزاب٧ وقال {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى}الشورى١٣ فهؤلاء الخمسة اولوا العزم وهم الذين قد ثبت فى احاديث الشفاعة الصحاح أنهم يترادون الشفاعة فى أهل الموقف بعد آدم فيجب تفضيلهم على نبيهم وفيه تفضيل لمتقدم على متأخر ولمتأخر على متقدم وأصل الغلط فى هذا الباب ان تفضيل الأنبياء أو الأولياء أو العلماء او الأمراء بالتقدم فى الزمان أو التأخر أصل باطل فتارة يكون الفضل فى متقدم النوع وتارة فى متأخر النوع ولهذا يوجد فى أهل النحو والطب والحساب ما يفضل فيه المتقدم كبطليموس وسيبويه وبقراط وتارة بالعكس وأما توهمهم ان متأخرى كل فن أحذق من متقدميه لأنهم كملوه فهذا منتقض أولا ليس بمطرد فان كتاب سيبويه فى العربية لم يصنف بعده مثله بل وكتاب بطليموس بل نصوص بقراط لم يصنف بعدها أكمل منها ثم نقول هذا قد يسلم فى الفنون التى تنال بالقياس والرأى والحيلة أما الفضائل المتعلقة باتباع الأنبياء فكل من كان الى الأنبياء اقرب مع كمال فطرته كان تلقيه عنهم أعظم وما يحسن فيه هو من الفضائل الدينية المأخوذة عن الأنبياء ولهذا كان من يخالف ذلك هو من المبتدعة الخارج عن سنن الأنبياء المعتقد ان له نصيبا من العلوم والأحوال خارجا عن طور الأنبياء فكل من كان بالنبوة وقدرها أعظم كان رسوخه فى هذه المسألة أشد وأما الأذواق والكرامات فمنها ما هو باطل والحق منه كان للسلف أكمل وأفضل بلا شك وخرق العادة تارة يكون لحاجة العبد الى ذلك وقد يكون أفضل منه لا تخرق له تلك العادة فان خرقها له سبب وله غاية فالكامل قد يرتقى عن ذلك السبب وقد لا يحتاج إلى تلك الغاية المقصودة بها ومع هذا فما للمتأخرين كرامة الا وللسلف من نوعها ما هو أكمل منها وأما قوله لهم أجر خمسين منكم لأنكم تجدون على الخير اعوانا ولا يجدون على الخير أعوانا فهذا صحيح إذا عمل الواحد من المتأخرين مثل عمل عمله بعض المتقدمين كان له أجر خمسين لكن لا يتصور ان بعض المتأخرين يعمل مثل عمل بعض أكابر السابقين كأبى بكر وعمر فانه ما بقى يبعث نبى مثل محمد يعمل معه مثلما عملوا مع محمد وأما قوله امتى كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره مع ان لينا فمعناه فى المتأخرين من يشبه المتقدمين ويقاربهم حتى يبقى لقوة المشابهة والمقارنة لا يدرى الذى ينظر إليه اهذا خير أم هذا وإن كان

أحدهما فى نفس الامر خيرا فهذا فيه بشرى للمتأخرين بأن فيهم من يقارب السابقين كما جاء فى الحديث الآخر خير امتى اولها وآخرها وبين ذلك ثبج أو عوج وددت انى رأيت اخوانى قالوا أو لسنا إخوانك قال أنتم اصحابى هو تفضيل للصحابة فان لهم خصوصية الصحبة التى هى أكمل من مجرد الاخوة وكذلك قوله اى الناس اعجب إيمانا إلى قوله قوم يأتون بعدى يؤمنون بالورق المعلق هو يدل على ان إيمانهم عجب أعجب من إيمان غيرهم ولا يدل على انهم أفضل فان فى الحديث أنهم ذكروا الملائكة والأنبياء ومعلوم ان الأنبياء أفضل من هؤلاء الذين يؤمنون بالورق المعلق ونظيره كون الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء فانه لا يدل على أنهم بعد الدخول يكونون ارفع مرتبة من جميع الاغنياء وإنما سبقوا لسلامتهم من الحساب وهذا باب التفضيل بين الانواع فى الاعيان والاعمال والصفات أو بين اشخاص النوع باب عظيم يغلط فيه خلق كثير والله يهدينا سواء الصراط [1]

## المنعم عليهم هم الذين أمر الله عباده أن يسألوا هداية صراطهم

المنعم عليهم الذين ذكرهم الله في قوله تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ فهؤلاء هم الذين أمر الله عباده أن يسألوا هداية صراطهم قال تعالى {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة ٧ [2]

*فقد بين الله فى كتابه حقوق الرسول من الطاعة له ومحبته وتعزيره وتوقيره ونصره وتحكيمه والرضى بحكمه والتسليم له وإتباعه والصلاة والتسليم عليه وتقديمه على النفس والأهل والمال ورد ما يتنازع فيه اليه وغير ذلك من الحقوق وأخبر أن طاعته طاعته فقال {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}النساء٨٠ وقرن بين

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٣٦٣-٣٧٢

[2] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١٦٧

إسمه وإسمه فى المحبة فقال {أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ}التوبة٢٤ وفى الطاعة والمعصية فقال {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ}النساء٦٩ [1]

ونحن علينا أن نتبع ما أنزل الينا من ربنا من الكتاب والحكمة ونلزم الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ونعتصم بحبل الله جميعا ولا نتفرق ونأمر بما أمر الله به وهو المعروف وننهى عما نهى عنه وهو المنكر وأن نتحرى الاخلاص لله فى أعمالنا فان هذا هو دين الإسلام قال الله تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}البقرة١١٢ [2]

## "خير القرون قرنى الذين بعثت فيهم "

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على ان الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب فقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ وفى الحديث ما طلعت الشمس ولا غربت على احد بعد النبيين والمرسلين افضل من أبى بكر وأفضل الامم امة محمد قال تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}آل عمران١١٠ وقال تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}فاطر٣٢وقال النبى فى الحديث الذى فى المسند انتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها واكرمها على الله وأفضل أمة محمد القرن الأول وقد ثبت عن النبى من غير وجه انه قال خير القرون القرن الذى بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وهذا ثابت فى الصحيحين من غير وجه وفى الصحيحين ايضا عنه انه قال لا تسبوا اصحابى فو الذى نفسى بيده لو انفق احدكم مثل احد ذهبا ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٦٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٥١٤

والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار أفضل من سائر الصحابة قال تعالى {لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا}الحديد١٠ وقال تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ}التوبة١٠٠ والسابقون الأولون الذين انفقوا من قبل الفتح وقاتلوا والمراد بالفتح صلح الحديبية فانه كان أول فتح مكة وفيه انزل الله تعالى {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{١} لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ {٢} الفتح١-٢ فقالوا يا رسول الله أو فتح هو قال نعم وافضل السابقين الأولين الخلفاء الأربعة وافضلهم أبو بكر ثم عمر وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة الأمة وجماهيرها وقد دلت على ذلك دلائل بسطناها فى منهاج أهل السنة النبوية فى نقض كلام أهل الشيعة والقدرية وبالجملة اتفقت طوائف السنة والشيعة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحد من الخلفاء ولا يكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة وأفضل اولياء الله تعالى اعظمهم معرفة بما جاء به الرسول واتباعا له كالصحابة الذين هم أكمل الامة فى معرفة دينه واتباعه وأبو بكر الصديق اكمل معرفة بما جاء به وعملا به فهو أفضل اولياء الله إذ كانت أمة محمد أفضل الامم وافضلهااصحاب محمد صلى الله عليه و سلم وافضلهم أبو بكر رضى الله عنه [1]

فإن أفضل أولياء الله من هذه الأمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وأمثالهم من السابقين الأولين من المهاجرين والانصار كما ثبت ذلك بالنصوص المشهورة وخير القرون قرنه كما فى الحديث الصحيح خير القرون قرنى الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وفى الترمذى وغيره أنه قال فى أبى بكر وعمر هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين الا النبيين والمرسلين قال الترمذى حديث حسن وفى صحيح البخارى عن على رضى الله عنه انه قال له ابنه يا أبت من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا بنى أبو بكر قال ثم من قال ثم عمر وروى بضع وثمانون نفسا عنه انه قال خير هذه الأمة بعد نبيها ابو بكر ثم عمر وهذا باب واسع وقد قال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ وهذه الاربعة هى مراتب العباد أفضلهم الانبياء ثم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٢١

الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون وقد نهى النبى أن يفضل أحد منا نفسه على يونس بن متى مع قوله {وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى}القلم٤٨ وقوله {وَهُوَ مُلِيمٌ}الصافات١٤٢ تنبيها على أن غيره أولى أن لا يفضل أحد نفسه عليه ففى صحيح البخارى عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يقولن أحدكم انى خير من يونس ابن متى وفى صحيح البخارى أيضا أنه قال قال رسول الله ما ينبغى لعبد أن يكون خيرا من يونس بن متى [1]

## الشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ

وكذلك لفظ الصالح و الشهيد و الصديق يذكر مفردا فيتناول النبيين قال تعالى فى حق الخليل {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}العنكبوت٢٧ وقال {وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}النحل١٢٢ وقال الخليل {رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}الشعراء٨٣ وقال يوسف {تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}يوسف١٠١ وقال سليمان {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}النمل١٩ وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح المتفق على صحته لما كانوا يقولون فى آخر صلاتهم السلام على الله قبل عباده السلام على فلان فقال لنا رسول الله ذات يوم ان الله هو السلام فاذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فاذا قالها أصابت كل عبد صالح لله فى السماء والأرض الحديث وقد يذكر الصالح مع غيره كقوله تعالى {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ قال الزجاج وغيره الصالح القائم بحقوق الله وحقوق عباده ولفظ الصالح خلاف الفاسد فاذا أطلق فهو الذى أصلح جميع امره فلم يكن فيه شيء من الفساد فاستوت سريرته وعلانيته وأقواله وأعماله على ما يرضى ربه وهذا يتناول النبيين ومن دونهم وكذلك الشهيد قد جعل هنا قرين الصديق والصالح وقد قال {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٢٢٣-٢٢٤

بِالْحَقِّ}الزمر٦٩ ولما قيدت الشهادة على الناس وصفت به الأمة كلها فى قوله {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}البقرة١٤٣ فهذه شهادة مقيدة بالشهادة على الناس كالشهادة المذكورة فى قوله {لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء}النور١٣ وقوله {وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ}البقرة٢٨٢ وليست هذه الشهادة المطلقة فى الآيتين بل ذلك كقوله {وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}آل عمران١٤٠[1]

## "احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون"

فعلى كل مسلم ان ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله وما نهى الله عنه ورسوله فيتركه هذا هو طريق الله وسبيله ودينه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهذا الصراط المستقيم يشتمل على علم وعمل علم شرعى وعمل شرعى فمن علم ولم يعمل بعلمه كان فاجرا ومن عمل بغير علم كان ضالا وقد امرنا الله سبحانه ان نقول {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة٦-٧ قال النبى اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وذلك ان اليهود عرفوا الحق ولم يعملوا به والنصارى عبدوا الله بغير علم ولهذا كان السلف يقولون احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون وكانوا يقولون من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى فمن دعا إلى العلم دون العمل المأمور به كان مضلا ومن دعا الى العمل دون العلم كان مضلا واضل منهما من سلك فى العلم طريق أهل البدع فيتبع امورا تخالف الكتاب والسنة يظنها علوما وهى جهالات وكذلك من سلك فى العبادة طريق أهل البدع فيعمل أعمالا تخالف الأعمال المشروعة يظنها عبادات وهي ضلالات فهذا وهذا كثير فى المنحرف المنتسب إلى فقه أو فقر يجتمع فيه انه يدعو إلى العلم دون العمل والعمل دون العلم ويكون ما يدعو إليه فيه بدع تخالف الشريعة وطريق

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٧-٥٨

الله لا تتم إلا بعلم وعمل يكون كلاهما موافقا الشريعة فالسالك طريق الفقر والتصوف والزهد والعبادة ان لم يسلك بعلم يوافق الشريعة والا كان ضالا عن الطريق وكان ما يفسده اكثر مما يصلحه والسالك من الفقه والعلم والنظر والكلام ان لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه والا كان فاجرا ضالا عن الطريق فهذا هو الأصل الذى يجب اعتماده على كل مسلم وأما التعصب لأمر من الامور بلا هدى من الله فهو من عمل الجاهلية {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ} القصص٥٠ [1]

## لطائف لغوية

١- قال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً} النساء ٥٨ والوعظ في القران هو الامر والنهي والترغيب والترهيب كقوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨} النساء٦٦ -٦٨ فقوله {مَا يُوعَظُونَ بِهِ} النساء٦٦ أي ما يؤمرون به وقال{يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} النور١٧ أي ينهاكم عن ذلك [2]

٢- و لفظ الأمر يراد به المصدر و المفعول فالمفعول مخلوق كما قال {أَتَى أَمْرُ اللّهِ} النحل١ و قال {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً} الأحزاب٣٨ فهنا المراد به المأمور به ليس المراد به أمره الذي هو كلامه و هذه الآية التى إحتج بها هؤلاء تضمنت الشرع و هو الأمر و القدر و قد ضل في هذا الموضع فريقان الجهمية الذين يقولون كلام الله مخلوق و يحتجون بقوله {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً} الأحزاب٣٨و يقولون

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٦-٢٨

[2] الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٤٦٨ و مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٥ و الجواب الصحيح ج: ٦ ص:

ما كان مقدورا فهو مخلوق و هؤلاء الحلولية الضالون الذين يجعلون فعل العباد قديما بأنه أمر الله و قدره و أمره و قدره غير مخلوق و مثار الشبهة أن إسم القدر و الأمر و الشرع يراد به المصدر و يراد به المفعو ل ففي قو له {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً}الأحزاب٣٨ المراد به المأمور به المقدور و هذا مخلوق و أما فى قوله {ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ}الطلاق٥ فأمره كلامه إذا لم ينزل إلينا الأفعال التى أمرنا بها و إنما أنزل القرآن و هذا كقوله {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}النساء٥٨ فهذا الأمر هو كلامه [1]

٣- وقد ذكر الله فى كتابه الفرق بين الارادة و الأمر و القضاء و الاذن و التحريم و البعث و الارسال و الكلام و الجعل بين الكونى الذى خلقه وقدره وقضاه وان كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثبت اصحابه ولا يجعلهم من أوليائه المتقين وبين الدينى الذى امر به وشرعه واثاب عليه واكرمهم وجعلهم من اوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين وهذا من أعظم الفروق التى يفرق بها بين اولياء الله واعدائه فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من اوليائه ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من اعدائه ف الارادة الكونية هى مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة فى مشيئته وارادته الكونية والارادة الدينية هى المتضمنة لمحبته ورضاه المتناولة لما امر به وجعله شرعا ودينا وهذه مختصة بالايمان والعمل الصالح وأما الأمر فقال فى الامر الكونى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}يس٨٢ وقال تعالى {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}القمر٥٠ وقال تعالى {أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ}يونس٢٤ واما الامر الدينى فقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}النحل٩٠ وقال تعالى{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء٥٨ [2]

---

[1] ٣مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤١٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٦٧ و مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١

٤ـ أن الإرادة فى كتاب الله نوعان إرادة دينية شرعية وإرادة كونية قدرية فالأول كقوله تعالى {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥ وأما الإرادة الكونية القدرية فمثل قوله تعالى {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء}الأنعام١٢٥ ومثل قول المسلمين ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن فجميع الكائنات داخلة فى هذه الإرادة والإشاءة لا يخرج عنها خير ولا شر ولا عرف ولا نكر وهذه الإرادة والإشاءة تتناول ما لا يتناوله الأمر الشرعى وأما الإرادة الدينية فهى مطابقة للأمر الشرعى لا يختلفان وهذا التقسيم الوارد فى إسم الإرادة يرد مثله فى إسم الأمر والكلما والحكم والقضاء والكتاب والبعث والإرسال ونحوه فإن هذا كله ينقسم إلى كونى قدرى وإلى دينى شرعى وكذلك الأمر الدينى كقوله تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}النساء٥٨ والكونية{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً}يس٨٢ [١]

٥ـقال تعالى{إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء٥٨ سميع بصير منزه عن الصم والعمى [٢]

٦ـ أن التأويل هو الحقيقة التى يؤول الكلام اليها وان وافقت ظاهره فتأويل ما أخبر الله به فى الجنة من الأكل والشرب واللباس والنكاح وقيام الساعة وغير ذلك هو الحقائق الموجودة أنفسها لا ما يتصور من معانيها فى الاذهان ويعبر عنه باللسان وهذا هو التأويل فى لغة القرآن كما قال تعالى عن يوسف أنه قال {يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً}يوسف١٠٠ وقال تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}الأعراف٥٣ وقال تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ وهذا التأويل هو الذى لا يعلمه الا الله وتأويل الصفات هو الحقيقة التى انفرد الله تعالى

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٣٣ و مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤١١ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٤٦ و الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٥٢ و التحفة العراقية ج: ١ ص: ٤٦

[٢] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

بعلمها وهو الكيف المجهول الذى قال فيه السلف كمالك وغيره الإستواء معلوم والكيف مجهول فالاستواء معلوم يعلم معناه ويفسر ويترجم بلغة اخرى وهو من التأويل الذى يعلمه الراسخون فى العلم وأما كيفية ذلك الاستواء فهو التأويل الذى لا يعلمه الا الله تعالى وقد روى عن ابن عباس ما ذكره عبدالرزاق وغيره فى تفسيرهم عنه أنه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله عز وجل فمن ادعى علمه فهو كاذب [1]

٧-قال تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ قال مجاهد و قتادة جزاء و ثوابا و قال السدي و إبن زيد و إبن قتيبة و الزجاج عاقبة و عن إبن زيد أيضا تصديقا كقوله {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ}يوسف١٠٠ و كل هذه الأقوال صحيحة و المعنى و احد و هذا تفسير السلف أجمعين و منه قوله {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً}الكهف٧٨ فلما ذكر له ما ذكر قال {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً}الكهف٨٢ و هذا تأويل فعله ليس هو تأويل قوله و المراد به عاقبة هذه الأفعال بما يؤول إليه ما فعلته من مصلحة أهل السفينة و مصلحة أبوي الغلام و مصلحة أهل الجدار وأما قوله بعضهم ردكم إلى الله و الرسول أحسن من تأويلكم فهذا قد ذكره الزجاج عن بعضهم و هذا من جنس ما ذكر فى تلك الآية فى لفظ التأويل و هو تفسير له بالإصطلاح الحادث لا بلغة القرآن فأما قدماء المفسرين فلفظ التأويل و التفسير عندهم سواء كما يقول إبن جرير القول في تأويل هذه الآية أي فى تفسيرها و لما كان هذا معنى التأويل عند مجاهد و هو إمام التفسير جعل الوقف على قوله {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}آل عمران٧ فإن الراسخين فى العلم يعلمون تفسيره و هذا القول إختيار إبن قتيبة و غيره من أهل السنة و كان إبن قتيبة يميل الى مذهب أحمد و إسحاق و قد بسط الكلام على ذلك في كتابه فى المشكل [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٣٧ و الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٧٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٣٧٣

٨-قالوا أحسن عاقبة ومصيرا فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذى هو الرد الى الكتاب والسنة [١]

٩-وكذلك من لم يفعل المأمور فعل بعض المحظور ومن فعل المحظور لم يفعل جميع المأمور فلا يمكن الانسان أن يفعل جميع ما أمر به مع فعله لبعض ما حظر ولا يمكنه ترك كل ما حظر مع تركه لبعض ما أمر فان ترك ما حظر من جملة ما أمر به فهو مأمور ومن المحظور ترك المأمور فكل ما شغله عن الواجب فهو محرم وكل ما لا يمكن فعل الواجب الا به فعليه فعله ما حظر ولا يمكنه ترك كل ما حظر مع تركه لبعض ما أمر فان ترك ما حظر من جملة ما أمر به فهو مأمور ومن المحظور ترك المأمور فكل ما شغله عن الواجب فهو محرم وكل ما لا يمكن فعل الواجب الا به فعليه فعله ولهذا كان لفظ الأمر اذا أطلق يتناول النهى واذا قيد بالنهى كان النهى نظير ما تقدم فاذا قال تعالى عن الملائكة {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ}التحريم٦ دخل فى ذلك أنه اذا نهاهم عن شىء اجتنبوه ومنه قوله {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ}النساء٥٩ أى أصحاب الأمر ومن كان صاحب الأمر كان صاحب النهى ووجبت طاعته فى هذا وهذا فالنهى داخل فى الأمر [٢]

١٠-قال سبحانه {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}البقرة٤٢ ولم يقل لا تكتموا الحق فلم ينه عن كل منهما لتلازمهما وليست هذه واو الجمع التى يسميها الكوفيون واو الصرف كما قد يظنه بعضهم فانه كان يكون المعنى لا تجمعوا بينهما فيكون أحدهما وحده غير منهى عنه و أيضا فتلك انما تجىء اذا ظهر الفرق كقوله {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}آل عمران١٤٢ وقوله {أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ {٣٤} وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ{٣٥} الشورى٣٤ ومن عطف الملزوم قوله تعالى {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ فانهم اذا أطاعوا الرسول فقد أطاعوا الله كما قال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٣٠٠

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧٥

اللَّهَ}النساء٨٠ واذا أطاع الله من بلغته رسالة محمد فانه لابد أن يطيع الرسول فانه لا طاعة لله الا بطاعته [1]

١١-قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء ٦٠ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق و التقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{٧١} الصافات٦٩ -٧١ وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}الأحزاب٦٧ -٦٨ وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}طه١٢٣ ثم يقرن بالغى و الغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}النجم٢ وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}الفاتحة٧ وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}القمر٤٧ [2]

١٢- قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}التوبة٣٤ يستعمل لازما يقال صد صدودا اى اعرض كما قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً}النساء٦١ ويقال صد غيره يصده والوصفان يجتمعان فيهم [3]

١٣- قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً}النساء٦١ وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٧

[3] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٦١ و مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٤٢

باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وكذلك لفظ الكفر مقيدا ولكن لفظ النفاق قد قيل أنه لم تكن العرب تكلمت به لكنه مأخوذ من كلامهم فان نفق يشبه خرج ومنه نفقت الدابة اذا ماتت ومنه نافقاء اليربوع والنفق فى الأرض قال تعالى {فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ}الأنعام٣٥ فالمنافق هو الذى خرج من الايمان باطنا بعد دخوله فيه ظاهرا وقيد النفاق بأنه نفاق من الايمان ومن الناس من يسمى من خرج عن طاعة الملك منافقا عليه لكن النفاق الذى فى القرآن هو النفاق على الرسول فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الاسماء كخطاب الناس بغيرها وهو خطاب مقيد خاص لا مطلق يحتمل أنواعا [1]

١٤- قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ فإن الإذن نوعان إذن لمعنى المشيئة والخلق وإذن بمعنى الإباحة والإجازة [2]

١٥- و التثبيت هو التثبت كقوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً}النساء٦٦ كقوله {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً}المزمل٨ و يشبه والله أعلم أن يكون هذا من باب قدم و تقدم كقوله {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}الحجرات١ فتبتل و تثبت لازم بمعنى ثبت لأن التثبت هو القوة و المكنة و ضده الزلزلة والرجفة فإن الصدقة من جنس القتال فالجبان يرجف و الشجاع يثبت و لهذا قال النبى صلى الله عليه و سلم و اما الخيلاء التى يحبها الله فاختيال الرجل بنفسه عند الحرب و

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠٠

[2] الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٣٢

اختياله بنفسه عند الصدقة لأنه مقام ثبات و قوة فالخيلاء تناسبه و انما الذي لايحبه الله المختال الفخور البخيل الآمر بالبخل فاما المختال مع العطاء أو القتال فيحبه [1]

١٦- والوعظ في القران هو الامر والنهي والترغيب والترهيب كقوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨}النساء٦٦ ـ٦٨ فقوله {مَا يُوعَظُونَ بِهِ}النساء٦٦ أي ما يؤمرون به وقال{يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}النور١٧ أي ينهاكم عن ذلك [2]

١٧- قال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨}النساء٦٦ ـ٦٨ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}الفاتحة٦ والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}البقرة٢ والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا}الأعراف٤٣ وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله {وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الأنعام٨٧ وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ}النحل١٢١ {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ}الشورى١٣ وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ}التوبة٣٣ والهدى هنا هو الايمان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٩٤-٩٥

[2] الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٤٦٨ و الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٤٢٨ و مجموع الفتاوى ج: ٢ ص:

ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا [1]

١٨- {ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيماً} النساء٧٠_عليم منزه عن الجهل [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦

[2] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

## النساء ٧١ـ٨٤

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ
جَمِيعاً{٧١} وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ
اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً{٧٢} وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله
لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ
فَوْزاً عَظِيماً{٧٣} فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً
عَظِيماً{٧٤} وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ
الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيراً{٧٥} الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً{٧٦} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا
الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ
لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً{٧٧} أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ
كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ
وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا
لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً{٧٨} مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ
فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً
وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً{٧٩} مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى
فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً{٨٠} وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ
عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{٨١} أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ
الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً{٨٢}
وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى
الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ

**فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً{٨٣} فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً{٨٤}**

## أمر سبحانه بالجهاد وذم المثبطين وذكر ما يصيب المؤمنين

قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً}النساء٧٧ فأمر سبحانه بالجهاد وذم المثبطين وذكر ما يصيب المؤمنين تارة من المصيبة فيه وتارة من فضل الله فيه كما اصابهم يوم احد مصيبة فقال {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}آل عمران١٦٥ واصابهم يوم بدر فضل من الله بنصره لهم وتاييده كما قال تعالى {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ}آل عمران١٢٣ [١]

## الإنكار بالقلب واللسان قبل الإنكار باليد

والله سبحانه قد أمرنا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والأمر بالشىء مسبوق بمعرفته فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه النهى عنه وقد أوجب الله علينا فعل المعروف وترك المنكر فإن حب الشىء وفعله وبغض ذلك وتركه لا يكون إلا بعد العلم بهما حتى يصح القصد إلى فعل المعروف وترك المنكر فإن ذلك مسبوق بعلمه فمن لم يعلم الشىء لم يتصور منه حب له ولا بغض ولا فعل ولا ترك لكن فعل الشىء و الأمر به يقتضى أن يعلم علما مفصلا يمكن معه فعله والأمر به إذا أمر به مفصلا ولهذا أوجب الله على الإنسان معرفة ما أمر به من الواجبات مثل صفة الصلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا أمر بأوصاف فلا بد من العلم بثبوتها فكما أنا لا تكون مطيعين إذا علمنا عدم الطاعة فلا نكون مطيعين إلا إذا لم نعلم وجودها بل الجهل بوجودها كالعلم بعدمها وكون كل

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١١٧

منهما معصية فإن الجهل بالتساوى كالعلم بالتفاضل فى بيع الأموال الربوية بعضها بجنسه فإن لم نعلم المماثلة كان كما لو علمنا المفاضلة وأما معرفة ما يتركه وينهى عنه فقد يكتفى بمعرفته فى بعض المواضع مجملا فالإنسان يحتاج إلى معرفة المنكر وإنكاره وقد يحتاج إلى الحجج المبنية لذلك وإلى الجواب عما يعارض به اصحابها من الحجج وإلى دفع أهوائهم وإرادتهم وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة وقدرة على ذلك وذلك لا يكون إلا بالصبر كما قال تعالى{وَالْعَصْرِ{١} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{٢} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{٣} العصر ١-٣ وأول ذلك أن تذكر الأقوال والأفعال على وجه الذم لها والنهى عنها وبيان ما فيها من الفساد فإن الإنكار بالقلب واللسان قبل الإنكار باليد وهذه طريقة القرآن فيما يذكره تعالى عن الكفار والفساق والعصاة من اقوالهم وأفعالهم يذكر ذلك على وجه الذم والبغض لها ولأهلها وبيان فسادها وضدها والتحذير منها كما أن فيما يذكره عن أهل العلم والإيمان ومن فيهم من أنبيائه وأوليائه على وجه المدح والحب وبيان صلاحه ومنفعته والترغيب فيه وذلك نحو قوله تعالى {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ}الأنبياء٢٦ {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً{٨٨} لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً{٨٩} تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً{٩٠} أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً{٩١} وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً{٩٢} إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً{٩٣} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً{٩٤} وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً{٩٥} مريم ٨٨-٩٥ {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}التوبة٣٠ الآيات وهذا كثير جدا فالذى يحب أقوالهم وأفعالهم هو منهم إما كافر وإما فاجر بحسب قوله وفعله وليس منهم من هو بعكسه وليس عليه عذاب فى تركه لكنه لا يثاب على مجرد عدم ذلك وإنما يثاب على قصده لترك ذلك وإرادته وذلك مسبوق بالعلم بقبح ذلك وبغضه لله وهذا العلم والقصد والبغض هو من الإيمان الذى يثاب عليه وهو ادنى الإيمان كما قال النبى من رأى منكم منكرا فليغيره بيده إلى آخره وتغيير القلب يكون بالبغض لذلك وكراهته وذلك لا يكون إلآ بعد العلم به وبقبحه ثم بعد ذلك يكون الإنكار باللسان ثم يكون باليد والنبى قال وذلك أضعف الإيمان فيمن رأى المنكر فأما إذا رآه فلم يعلم أنه منكر ولم يكرهه ولم يكن هذا الإيمان موجودا فى القلب فى حال وجوده ورؤيته بحيث يجب بغضه وكراهته والعلم بقبحه يوجب جهاد الكفار والمنافقين إذا وجدوا وإذا لم يكن المنكر موجودا لم يجب ذلك ويثاب من أنكره عند وجوده ولا يثاب من لم يوجد عنده حتى ينكره وكذلك ما يدخل فى ذلك من الأقوال والأفعال المنكرات قد

يعرض عنها كثير من الناس إعراضهم عن جهاد الكفار والمنافقين وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهؤلاء وإن كانوا من المهاجرين الذين هجروا السيئات فليسوا من المجاهدين الذين يجاهدون فى إزالتها حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فتدبر هذا فإنه كثيرا ما يجتمع فى كثير من الناس هذان الأمران بغض الكفر وأهله وبغض الفجور وأهله وبغض نهيهم وجهادهم كما يحب المعروف وأهله ولا يحب أن يأمر به ولا يجاهد عليه بالنفس والمال وقد قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} الحجرات١٥ وقال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} التوبة٢٤ وقوله {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} المجادلة٢٢ وكثير من الناس بل أكثرهم كراهتهم للجهاد على المنكرات اعظم من كراهتهم للمنكرات لا سيما إذا كثرت المنكرات وقويت فيها الشبهات والشهوات فربما مالوا إليها تارة وعنها أخرى فتكون نفس أحدهم لوامة بعد أن كانت أمارة ثم إذا إرتقى إلى الحال الأعلى فى هجر السيئات وصارت نفسه مطمئنة تاركة للمنكرات والمكروهات لا تحب الجهاد ومصابرة العدو على ذلك وإحتمال ما يؤذيه من الأقوال والأفعال فإن هذا شىء آخر داخل فى قوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} النساء٧٧ الآيات إلى قوله {وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً} النساء٨٥ والشفاعة الإعانة إذ المعين قد صار شفيعا للمعان فكل من أعان على بر أو تقوى كان له نصيب منه ومن أعان على الإثم والعدوان كان له كفل منه وهذا حال الناس فيما يفعلونه بقلوبهم وألسنتهم وأيديهم من الإعانة على البر والتقوى والإعانة على الإثم والعدوان ومن ذلك الجهاد بالنفس والمال على ذلك من الجانبين كما قال تعالى قبل ذلك {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً} النساء٧١ إلى قوله {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً} النساء٧٦ [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٣٧-٣٤١

# بيان حال الناكلين عن الجهاد

فقوله تعالى {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً{٧٨} مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ{٧٩}النساء٧٨-٧٩ ليس المراد بالحسنات والسيئات في هذه الآية الطاعة والمعاصي كما يظنه كثير من الناس حتى يحرف بعضهم القرآن ويقرأ فمن نفسك ومعلوم أن معنى هذه القراءة يناقض القراءة المتواترة وحتى يضمر بعضهم القول على وجه الإنكار له وهو قول الله الحق فيجعل قول الله الصدق الذي يحمد ويرضى قولا للكفار يكذب به ويذم ويسخط بالإضمار الباطل الذي يدعيه من غير أن يكون في السياق ما يدل عليه ثم أن من جهل هؤلاء ظنهم أن في هذه الآية حجة للقدرية واحتجاج بعض القدرية بها وذلك أنه لا خلاف بين الناس في أن الطاعات والمعاصي سواء من جهة القدر فمن قال إن العبد هو الموجد لفعله دون الله أو هو الخالق لفعله وأن الله لم يخلق أفعال العباد فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية ومن أثبت خلق الأفعال وأثبت الجبر أو نفاه أو أمسك عن نفيه وإثباته مطلقا وفصل المعنى أو لم يفصله فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية فتبين أن إدخال هذه الآية في القدر في غاية الجهالة وذلك أن الحسنات والسيئات في الآية المراد بها المسار والمضار دون الطاعات والمعاصي كما في قوله تعالى {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}الأعراف١٦٨ وهو الشر والخير في قوله {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}الأنبياء٣٥ وكذلك قوله {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا و}آل عمران١٢٠ وقوله تعالى{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ}هود١٠وقوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ{٩٤} ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ{٩٥} الأعراف٩٤-٩٥ وقوله تعالى{فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ}الأعراف١٣١ فهذه حال فرعون وملئه مع موسى ومن معه كحال الكفار والمنافقين والظالمين مع محمد وأصحابه إذا أصابهم نعمة وخير قالوا لنا هذه أو قالوا هذه من عند الله وإن أصابهم عذاب وشر تطيروا بالنبي والمؤمنين وقالوا هذه بذنوبهم وإنما هي بذنوب أنفسهم لا بذنوب المؤمنين وهو سبحانه ذكر هذا في بيان حال الناكلين عن الجهاد الذين يلومون المؤمنين على الجهاد فإذا أصابهم نصر ونحوه

قالوا  هذا من عند الله وإن أصابتهم محنة قالوا  هذه من عند الذي جاءنا بالأمر والنهي والجهاد قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ}النساء٧١ إلى قوله {وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً}النساء٧٢ إلى قوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}النساء٧٧ إلى قوله{أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ}النساء٧٨ أي هؤلاء المذمومين {يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ}النساء٧٨ أي بسبب أمرك ونهيك قال الله تعالى {فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً {٧٨} مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ {٧٩}النساء٧٨ - ٧٩ أي من نعمة {فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} أي فبذنبك كما قال {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}الشورى٣٠ وقال {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}الروم٣٦ [1]

## المبطئون

وفى الصحيحين عن انس بن مالك رضى الله عنه ان النبى قال  لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا ولا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيصد هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام  وقد قال فى الحديث المتفق على صحته من رواية انس ايضا  والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه  وقد قال تعالى {وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً {٧٢} وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً{٧٣}النساء٧٢-٧٣ فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لأخوانهم المؤمنين ما

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٤٠-٤٤٢ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٢٠٥-٢٠٨

يحبون لأنفسهم بل ان اصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم وان اصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها بل أحبوا ان يكون لهم منها حظ فهم لا يفرحون الا بدينا تحصل لهم او شر دنيوى ينصرف عنهم إذا كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة ولو كانوا كذلك لاحبوا اخوانهم واحبوا ماوصل اليهم من فضله وتألموا بما يصيبهم من المصيبة ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوءه ما يسوء المؤمنين فليس منهم ففى الصحيحين عن عامر قال سمعت النعمان بن بشر يخطب ويقول سمعت رسول الله يقول مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه شئ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وفى الصحيحين عن ابى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله المؤمن للمؤمن كالبنيان يبشد بعضه بعضا وشبك بين اصابعه والشح مرض والبخل مرض والحسد شر من البخل كما فى الحديث الذى رواه ابوداود عن النبى أنه قال الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وذلك ان البخيل يمنع نفسه والحسود يكره نعمة الله على عباده وقد يكون فى الرجل اعطاء لمن يعينه على اغراضه وحسد لنظرائه وقد يكون فيه بخل بلا حسد لغيره والشح اصل ذلك وقال تعالى {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}الحشر٩ وفى الصحيحين عن النبى صلىالله عليه وسلم انه قال إياكم والشح فانه اهلك من كان قبلكم امرهم بالبخل فبخلوا وامرهم بالظلم فظلموا وامرهم بالقطيعة فقطعوا وكان عبد الرحمن بن عوف يكثر من الدعاء فى طوافه يقول اللهم قنى شح نفسى فقال له رجل ما اكثر ما تدعو بهذا فقال إذا وقيت شح نفسى وقيت الشح والظلم والقطيعة والحسد يوجب الظلم فصل فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها بل وحبها لما يضرها ولهذا يقرن الحسد بالحقد والغضب [1]

## "المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله "

وثبت عنه أنه قال المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصى ويدعو اليها وهو الى جهاد نفسه أحوج فإن هذا فرض عين وذاك فرض كفاية والصبر فى هذا من أفضل الأعمال فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد كما قال والمهاجر من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص:١٢٧- ١٢٩ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٢٣

هجر السيئات ثم هذا لا يكون محمودا فيه إلا إذا غلب بخلاف الأول فإنه من {فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}النساء٧٤ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة إلخ وذلك لأن الله أمر الإنسان أن ينهى النفس عن الهوى وأن يخاف مقام ربه فحصل له من الإيمان ما يعينه على الجهاد فإذا غلب لكان لضعف إيمانه فيكون مفرطا بترك المأمور بخلاف العدو الكافر فإنه قد يكون بدنه أقوى فالذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممتثلة لما أمرت به ومع إمتثال المأمور لا تفعل المحظور فإنهما ضدان قال تعالى {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}يوسف٢٤ الآية وقال {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}الحجر٤٢ فعباد الله مخلصون لا يغويهم الشيطان و الغى خلاف الرشد وهو إتباع الهوى فمن مالت نفسه الى محرم فليأت بعبادة الله كما أمر الله مخلصا له الدين فإن ذلك يصرف عنه السوء الفحشاء خشية ومحبة والعبادة له وحده وهذا يمنع من السئيات [1]

## العاجزون عن إقامة دينهم فقد سقط عنهم ما عجزو عنه

وقد اخرجا في الصحيحين عن خباب بن الارت قال شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسط بردة له في ظل الكعبة فقلنا يا رسول الا تستنصر لنا الا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الارض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب فما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تعجلون ومعلوم ان هذا انما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في معرض الثناء على اولئك لصبرهم وثباتهم وليكون ذلك عزة للمؤمنين من هذه الامة وهكذا اخبار هذه الأمة من السلف والخلف كالممتحنين من السابقين الاولين والتابعين لهم بإحسان مثل الذين انزل الله فيهم القرآن حيث قال {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص:٦٣٦- ٦٣٧

الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً} النساء٧٥ [١]

كما أنه قد كان بمكة جماعة من المؤمنين يستخفون بإيمانهم وهم عاجزون عن الهجرة قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً{٩٧} إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً{٩٨} فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً{٩٩} النساء ٩٧ ـ٩٩ فعذر سبحانه المستضعف العاجز عن الهجرة وقال تعالى {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً} النساء٧٥ فأولئك كانوا عاجزين عن إقامة دينهم فقد سقط عنهم ما عجزو عنه [٢]

## المكره هو من يدفع الفساد الحاصل بإحتمال أدناهما

وفى صحيح مسلم عن عمران ابن حصين حديث المرأة التى لعنت ناقة لها فأمر النبى صلى الله عليه وسلم فأخذ ما عليها وأرسلت وقال لا تصحبنا ناقة ملعونة وفى الصحيحين عنه أنه لما إجتاز بديار ثمود قال لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لئلا يصيبكم ما اصابهم فنهى عن عبور ديارهم إلا على وجه الخوف المانع من العذاب وهكذا السنة فى مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصى لا ينبغى لأحد أن يقارنهم ولا يخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل وأقل ذلك أن

---

[١] الاستقامة ج: ٢ ص: ٣٣٤

[٢] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٢٦

يكون منكرا لظلمهم ماقتا لهم شانئا ما هم فيه بحسب الإمكان كما فى الحديث من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الإيمان وقال تعالى {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ}التحريم١١ الآية وكذلك ما ذكره عن يوسف الصديق وعمله على خزائن الأرض لصاحب مصر لقوم كفار وذلك ان مقارنة الفجار إنما يفعلها المؤمن فى موضعين أحدهما أن يكون مكرها عليها والثانى أن يكون ذلك فى مصلحة دينية راجحة على مفسدة المقارنة أو أن يكون فى تركها مفسدة راجحة فى دينه فيدفع أعظم المفسدتين بإحتمال أدناهما وتحصل المصلحة الراجحة بإحتمال لمفسدة المرجوحة وفى الحقيقة فالمكره هو من يدفع الفساد الحاصل بإحتمال أدناهما وهو الأمر الذى أكره عليه قال تعالى {إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}النحل١٠٦ وقال تعالى {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء}النور٣٣ ثم قال {وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}النور٣٣ وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً{٩٧} إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً{٩٨} فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً{٩٩} النساء٩٧-٩٩ وقال {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ}النساء٧٥ الآية [1]

## إسلام الولد صحيح

قد يستدل بقوله {لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ}التوبة٢٣على أن الولد يكون مؤمنا بإيمان والده لأنه لم يذكر الولد في استحبابه الكفر على الإيمان مع أنه أولى بالذكر وما ذاك إلا أن حكمه مخالف لحكم الأب والأخ وهو الفرق بين المحجور عليه لصغره وجنونه وبين المستقل كما استدل سفيان بن عيينة وغيره بقوله {وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ}النور٦١ أن بيت الولد مندرج فى بيوتكم لأنه وماله لأبيه ويستدل بقوله {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٢٤-٣٢٥

يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا}النساء٧٥ على إسلام الولد صحيح لأنه جعله من جملة القائلين قول من يطلب الهجرة وطلب الهجرة لا يصح إلا بعد الإيمان وإذا كان له قول فى ذلك معتبر كان أصلا في ذلك ولم يكن تابعا بخلاف الطفل الذي لا تمييز له فإنه تابع لاقول له [١]

## الحكمة من ذكر الولدان بالاسم الخاص

أن الاسم الواحد ينفي ويثبت بحسب الاحكام المتعلقة به فلا يجب إذا اثبت أو نفي فى حكم أن كذلك فى سائر الأحكام وهذا فى كلام العرب وسائر الأمم لأن المعنى مفهوم وكذلك كل ما يكون له مبتدأ وكمال ينفي تارة باعتبار انتقاء كماله ويثبت تارة باعتبار ثبوت مبدئه فلفظ الرجال يعم الذكور وإن كانوا صغارا فى مثل قوله {وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١٧٦ ولا يعم الصغار فى مثل قوله {وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا}النساء٧٥ فإن باب الهجرة والجهاد عمل يعمله القادرون عليه فلو اقتصر على ذكر المستضعفين من الرجال لظن أن الولدان غير داخلين لأنهم ليسوا من اهله وهم ضعفاء فذكرهم بالاسم الخاص ليبين عذرهم فى ترك الهجرة ووجوب الجهاد [٢]

## كثرة الوسواس بحسب كثرة الشبهات والشهوات

وأما زوال العارض فهو الاجتهاد في دفع ما يشغل القلب من تفكر الانسان فيما لا يعنيه وتدبر الجواذب التي تجذب القلب عن مقصود الصلاة وهذا في كل عبد بحسبه فإن كثرة الوسواس بحسب كثرة الشبهات والشهوات وتعليق القلب بالمحبوبات التي ينصرف القلب إلى طلبها والمكروهات التي ينصرف القلب إلى دفعها والوساوس إما من قبيل الحب من أن يخطر بالقلب ما قد كان أو من قبيل الطلب

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٤٦

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٢٢

وهو أن يخطر في القلب ما يريد أن يفعله ومن الوساوس ما يكون من خواطر الكفر والنفاق فيتألم لها قلب المؤمن تألما شديدا كما قال الصحابة يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يخر من السماء أحب إليه من أن يتكلم به فقال أوجدتموه قالوا نعم قال ذلك صريح الإيمان وفي لفظ إن أحدنا ليجد في نفسه ما يتعاظم أن يتكلم به فقال الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة قال كثير من العلماء فكراهة ذلك وبغضه وفرار القلب منه هو صريح الإيمان والحمد لله الذي كان غاية كيد الشيطان الوسوسة فإن شيطان الجن إذا غلب وسوس وشيطان الإنس إذا غلب كذب والوسواس يعرض لكل من توجه إلى الله تعالى بذكر أو غيره لا بد له من ذلك فينبغي للعبد أن يثبت ويصبر ويلازم ما هو فيه من الذكر والصلاة ولا يضجر فإنه بملازمة ذلك ينصرف عنه كيد الشيطان {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً} النساء٧٦ وكلما أراد العبد توجها إلى الله تعالى بقلبه جاء من الوسواس أمور أخرى فإن الشيطان بمنزلة قاطع الطريق كلما أراد العبد أن يسير إلى الله تعالى أراد قطع الطريق عليه ولهذا قيل لبعض السلف إن اليهود والنصارى يقولون لا نوسوس فقال صدقوا وما يصنع الشيطان بالبيت الخراب وتفاصيل ما يعرض للسالكين طويل موضعه وأما ما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قوله إني لأجهز جيشي وأنا في الصلاة فذاك لأن عمر كان مأمورا بالجهاد وهو أمير المؤمنين فهو أمير الجهاد فصار بذلك من بعض الوجوه بمنزلة المصلي الذي يصلي صلاة الخوف حال معاينة العدو إما حال القتال وإما غير حال القتال فهو مأمور بالصلاة ومأمور بالجهاد فعليه أن يؤدي الواجبين بحسب الإمكان وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ} الأنفال٤٥ ومعلوم أن طمأنينة القلب حال الجهاد لا تكون كطمأنينته حال الأمن فإذا قدر أنه نقص من الصلاة شيء لأجل الجهاد لم يقدح هذا في كمال إيمان العبد وطاعته ولهذا تخفف صلاة الخوف عن صلاة الأمن ولما ذكر سبحانه وتعالى صلاة الخوف قال {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً} النساء١٠٣ فالإقامة المأمور بها حال الطمأنينة لا يؤمر بها حال الخوف ومع هذا فالناس متفاوتون في ذلك فإذا قوي إيمان العبد كان حاضر القلب في الصلاة مع تدبره للأمور بها وعمر قد ضرب الله الحق على لسانه وقلبه وهو المحدث المكلم فلا ينكر لمثله أن يكون له مع تدبيره جيشه في الصلاة من الحضور ما ليس لغيره لكن لا ريب أن حضوره مع عدم ذلك يكون أقوى ولا ريب أن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حال أمنه كانت أكمل من صلاته حال الخوف في الأفعال الظاهرة فإذا كان الله قد عفا حال الخوف عن بعض الواجبات الظاهرة فكيف بالباطنة وبالجملة فتفكر المصلي في الصلاة في أمر

يجب عليه قد يضيق وقته ليس كتفكره فيما ليس بواجب أو فيما لم يضق وقته وقد يكون عمر لم يمكنه التفكر في تدبير الجيش إلا في تلك الحال وهو إمام الأمة والواردات عليه كثيرة ومثل هذا يعرض لكل أحد بحسب مرتبته والإنسان دائما يذكر في الصلاة ما لا يذكره خارج الصلاة ومن ذلك ما يكون من الشيطان كما يذكر أن بعض السلف ذكر له رجل أنه دفن مالا وقد نسى موضعه فقال قم فصل فقام فصلى فذكره فقيل له من أين علمت ذلك قال علمت أن الشيطان لا يدعه في الصلاة حتى يذكره بما يشغله ولا أهم عنده من ذكر موضع الدفن لكن العبد الكيس يجتهد في كمال الحضور مع كمال فعل بقية المأمور ولا حول ولا قوة إلا ب الله العلي العظيم [1]

## ان لله أولياء من الناس وللشيطان أولياء

والطاغوت فعلوت من الطغيان كما أن الملكوت فعلوت من الملك والرحموت والرهبوت والرغبوت فعلوت من الرحمة والرهبة والرغبة والطغيان مجاوزة الحد وهو الظلم والبغى فالمعبود من دون الله اذا لم يكن كارها لذلك طاغوت ولهذا سمى النبى الأصنام طواغيت فى الحديث الصحيح لما قال ويتبع من يعبد الطواغيت الطواغيت والمطاع فى معصية الله والمطاع فى اتباع غير الهدى ودين الحق سواء كان مقبولا خبره المخالف لكتاب الله او مطاعا امره المخالف لأمر الله هو طاغوت ولهذا سمى من تحوكم اليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوت وسمى الله فرعون وعادا طغاة وقال فى صيحة ثمود {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}الحاقة٥ [2]

وقد بين سبحانه وتعالى فى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ان لله أولياء من الناس وللشيطان أولياء ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء كما فرق الله ورسوله بينهما فأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٢٦-٢٨

اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣} يونس٦٢-٦٣ وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال يقول الله من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة أو فقد آذنته بالحرب وما تقرب ألي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وهذا أصح حديث يروي في الأولياء فبين النبي أنه من عادى وليا لله فقد بارز الله بالمحاربة وفي حديث آخر وإني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب أي آخذ ثأرهم ممن عادهم كما يأخذ الليث الحرب ثأره وهذا لأن أولياء الله هم الذين أمنوا به ووالوه فأحبوا ما يحب وأبغضوا ما يبغض ورضوا بما يرضى وسخطوا بما يسخط وأمروا بما أمر ونهو عما نهى وأعطوا لمن يحب أن يعطى ومنعوا من يحب أن يمنع كما في الترمذي وغيره عن النبي أنه قال أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وفي حديث آخر رواه أبو داود قال ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان و الولاية ضد العداوة وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة البغض والبعد وقد قيل أن الولى سمى وليا من موالاته للطاعات اى متابعته لها والأول اصح والولى القريب فيقال هذا يلى هذا أى يقرب منه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ألحقوا الفرائض بأهلها فما ابقت الفرائض فلأولى رجل ذكر أى لأقرب رجل إلى الميت واكده بلفظ الذكر ليبين انه حكم يختص بالذكور ولا يشترك فيها الذكور والاناث كما قال فى الزكاة فابن لبون ذكر فاذا كان ولى الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه كان المعادى لوليه معاديا له كما قال تعالى {لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ} الممتحنة١ فمن عادى اولياء الله فقد عاداه ومن عاداه فقد حاربه فلهذا قال ومن عادى لي وليا فقد بارزنى بالمحاربة [1]

فذكر أحوال الكفار والفجار وغير ذلك مما فيه ترغيب فى معصية الله وصد عن سبيل الله ومن هذا الباب سماع كلام أهل البدع والنظر فى كتبهم لمن يضره ذلك

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٥٨

ويدعوه إلى سبيلهم وإلى معصية الله فهذا الباب تجتمع فيه الشبهات والشهوات والله تعالى ذم هؤلاء فى مثل قوله {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً}الأنعام١١٢ وفى مثل قوله {وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}الشعراء٢٢٤ ومثل قوله {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً}لقمان٦ وقوله {مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ}المؤمنون٦٧ ومثل قوله {وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً}الأعراف١٤٦ ومثل قوله {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}الأنعام١١٦ الآية ومثل هذا كثير فى القرآن فأهل المعاصى كثيرون فى العالم بل هم أكثر كما قال تعالى {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}الأنعام١١٦ الآية وفى النفوس من الشبهات المذمومة والشهوات قولا وعملا ما لا يعلمه إلا الله وأهلها يدعون الناس إليها ويقهرون من يعصيهم ويزينونها لمن يطيعهم فهم أعداء الرسل وأندادهم فرسل الله يدعون الناس إلى طاعة الله ويأمرونهم بها بالرغبة والرهبة ويجاهدون عليها وينهونهم عن معاصى الله ويحذرونهم منها بالرغبة والرهبة ويجاهدون من يفعلها وهؤلاء يدعون الناس إلى معصية لله ويأمرونهم بها بالرغبة والرهبة قولا وفعلا ويجاهدون على ذلك قال تعالى {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}التوبة٦٧ ثم قال {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ}التوبة٧١ وقال تعالى {الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ}النساء٧٦ [1]

## العبادة تعم جميع الطاعات

وقد بين الله التوحيد فى كتابه وحسم مواد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله ولا يرجو سواه ولا يتوكل الا عليه [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص:٣٣٦- ٣٣٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٣٥

قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}النساء٧٧ أن كل عبادة من العبادات فإن الصلاة مقرونة بها فإن العبادة تعم جميع الطاعات و قد خصت الصلاة بذلك الأمر و الاصطبار عليها فإذا ذكرت الزكاة قيل {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ}البقرة٤٣ و إذا ذكرت المناسك قيل {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}الكوثر٢ {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}الأنعام١٦٢ و إن ذكر الصوم قيل {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ}البقرة٤٥ فان الصبر المعدود في المثاني هو الصوم قال صلى الله عليه و سلم صوم شهر الصبر و ثلاثة أيام من كل شهر [١]

## كان القران ينسخ بعضه بعضا

لم يرض الله بغير دين الإسلام وهو الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرض الله ولا رسوله من أحد من الخلق بغير هذا الدين قط وإن كان لم يأمر بجهادهم في أول الأمر لعجز المسلمين وقلتهم ولهذا لما استأذن الأنصار النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة لما بايعوه في الجهاد قال إني لم أومر بذلك بعد [٢]

نهى المسلمون فى أول الإسلام عن القتال كما ذكره بقوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ}النساء٧٧ وكما كان النبى وأصحابه مأمورين بالصبر على أذى المشركين والمنافقين والعفو والصفح عنهم حتى يأتى الله بأمره [٣]

---

[١] شرح العمدة ج: ٤ ص: ٨٩

[٢] الصفدية ج: ٢ ص: ٣٢٣

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٤٤٣

ان المسلمين كانوا ممنوعين قبل الهجرة وفي اوائل الهجرة من الابتداء بالقتال وكان قتل الكفار حينئذ محرما وهو من قتل النفس بغير حق كما قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ}النساء٧٧ الى قوله {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ}النساء٧٧ ولهذا اول ما انزل من القران فيه نزل بالاباحة بقوله {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ}الحج٣٩ وهذا من العلم العام بين اهل المعرفة بسيرة رسول الله لايخفى على احد منهم انه كان قبل الهجرة وبعيدها ممنوعا عن ابتداء القتل والقتال ولهذا قال للانصار الذين بايعوه ليلة العقبة لما استاذنوه في ان يميلوا على اهل منى انه لم يؤذن لي في القتال وكان في ذلك حينئذ بمنزلة الانبياء الذين لم يؤمروا بالقتال كنوح وهود وصالح وابراهيم وعيسى بل كاكثر الانبياء غير انبياء بني اسرائيل ثم انه لما هاجر لم يقاتل احدا من اهل المدينة ولم يامر بقتل احد من رؤوسهم الذين كانوا يجمعونهم على الكفر ولا من غيرهم والايات التي نزلت اذ ذاك انما تامر بقتال الذين اخرجوهم وقاتلوهم ونحو ذلك وظاهر هذا انه لم يؤذن لهم اذ ذاك في ابتداء قتل الكافرين من اهل المدينة فان دوام امساكهم عنهم يدل على استحباحة او وجوبه وهو في الوجوب اظهر لما ذكرنا لان الامساك كان واجبا والمغير لحاله لم يشمل اهل المدينة فبقوا على الوجوب المتقدم مع فعله قال موسى بن عقبة عن الزهري كانت سيرة رسول الله في عدوه قبل ان تنزل براءة يقاتل من قاتله ومن كف يده وعاهده كف عنه قال الله تعالى {فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً}النساء٩٠ وكان القران ينسخ بعضه بعضا فاذا نزلت اية نسخت التي قبلها وعمل بالتي انزلت وبلغت الاولى منتهى العمل بها وكان ما قد عمل بها قبل ذلك طاعة لله حتى نزلت براءة [١]

فإن النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضا للحكم المنسوخ كمناقضة قوله لهم كفوا أيديكم عن القتال لقوله قاتلوهم فأمره لهم بالقتال ناسخ لأمره لهم بكف أيديهم عنهم [٢]

---

[١] الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٢٠٨-٢١٠

[٢] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٢١٨

## ذم من يخاف العدو و يطلب الحياة ضمن آيات الجهاد

قال تعالى {وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}آل عمران١٤٣ وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ{٢} كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ{٣} إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ{٤}الصف٢-٤ وفي الترمذي أن بعض الصحابة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم لو علمنا أي العمل أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}النساء٧٧ فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه فلما ابتلوا به كرهوه وفروا منه وأين ألم الجهاد من ألم النار وعذاب الله الذي لا طاقة لأحد به [1]

قد ذكر تعالى فى ضمن آيات الجهاد ذم من يخاف العدو و يطلب الحياة و بين أن ترك الجهاد لايدفع عنهم الموت بل أينما كانوا أدركهم الموت و لو كانوا فى بروج مشيدة فلا ينالون بترك الجهاد منفعة بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا و الآخرة فقال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}النساء٧٧ وهذا الفريق قد قيل إنهم منافقون و قيل نافقوا لما كتب عليهم القتال و قيل بل حصل منهم جبن و فشل فكان فى قلوبهم مرض كما قال تعالى {فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ {٢٠} طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ{٢١} الآيةمحمد٢٠-٢١ و قال تعالى {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٢٤٣

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً}الأحزاب١٢ والمعنى متناول لهؤلاء و لهؤلاء و لكل من كان بهذه الحال [١]

## الحض على الجهاد وذم الناكلين عنه ذم للجبن

جاء الكتاب والسنة بذم البخل والجبن ومدح الشجاعة والسماحة فى سبيله دون ما ليس فى سبيله فقال النبى شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع وقال من سيدكم يا بنى سلمة فقالوا الجد بن قيس على أنه نزنه بالبخل فقال وأى داء أدوا من البخل وفى رواية ان السيد لا يكون بخيلا بل سيدكم الأبيض الجعد البراء بن معرور والبخل جنس تحته أنواع كبائر وغير كبائر قال تعالى {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}آل عمران١٨٠ وما فى القرآن من الأمر بالايتاء والاعطاء وذم من ترك ذلك كله ذم للبخل وكذلك ذمه للجبن كثير مثل قوله عن المنافقين {وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ {٥٦} لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ{٥٧}التوبة٥٦ -٥٧ وقوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}النساء٧٧ وما فى القرآن من الحض على الجهاد والترغيب فيه وذم الناكلين عنه والتاركين له كله ذم للجبن [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٣٢-٢٣٣

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٥٧ و الاستقامة ج: ٢ ص: ٢٦٩

# العزم قد يدوم وقد ينفسخ

فالعزم قد يدوم وقد ينفسخ وما أكثر إنفساخ العزائم خصوصا عزائم الصوفية ولهذا قيل لبعضهم بماذا عرفت ربك قال بفسخ العزائم ونقض الهمم وقد قال تعالى لمن هو أفضل من هؤلاء المشائخ {وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}آل عمران١٤٣ وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ{٢} كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ{٣} إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ{٤} الصف٢-٤ وفى الترمذى أن بعض الصحابة قالوا للنبى لو علمنا أى العمل أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ}النساء٧٧ الآية فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه لما إبتلوا به كرهوه وفروا منه وأين ألم الجهاد من ألم النار وعذاب الله الذى لا طاقة لأحد به ومثل هذا ما يذكرونه عن سمنون المحب أنه كان يقول وليس فى سواك حظ فكيفما شئت فإختبرنى فأخذه العسر من ساعته أى حصر بوله فكان يدور على المكاتب ويفرق الجوز على الصبيان ويقول أدعوا لعمكم الكذاب وحكى أبو نعيم الأصبهانى عن أبى بكر الواسطى انه قال سمنون يارب قد رضيت بكل ما تقضيه على فإحتبس بوله أربعة عشر يوما فكان يتلوى كما تتلوى الحية يتلوى يمينا وشمالا فلما أطلق بوله قال رب قد تبت إليك قال أبو نعيم فهذا الرضا الذى إدعى سمنون ظهر غلطه فيه بأدنى بلوى مع أن سمنونا هذا كان يضرب به المثل وله فى المحبة مقام مشهور حتى روى عن إبراهيم إبن فاتك أنه قال رأيت سمنونا يتكلم على الناس فى المسجد الحرام فجاء طائر صغير فلم يزل يدنو منه حتى جلس على يده ثم لم يزل يضرب بمنقاره الأرض حتى سقط منه دم ومات الطائر وقال رأيته يوما يتكلم فى المحبة فإصطفقت قناديل المسجد وكسر بعضها بعضا وقد ذكر القشيرى فى باب الرضا عن رويم المقرى رفيق سمنون حكاية تناسب هذا حيث قال قال رويم إن الراضى لو جعل جهنم عن يمينه ما سأل الله أن يحولها عن يساره فهذا يشبه قول سمنون فكيف ما شئت فإمتحنى وإذا لم يطق الصبر على عسر البول أفيطيق أن تكون النار عن يمينه والفضيل بن عياض كان أعلى طبقة من هؤلاء وإبتلى بعسر البول فغلبه الألم حتى قال بحبى لك إلا فرجت عنى ففرج عنه و رويم وإن كان من رفقاء الجنيد فليس هو عندهم من هذه الطبقة بل الصوفية يقولون أنه رجع إلى الدنيا وترك التصوف حتى روى عن جعفر الخلدى صاحب الجنيد أنه قال من أراد أن يستكتم

سرا فليفعل كما فعل رويم كتم حب الدنيا أربعين سنة فقيل وكيف يتصور ذلك قال ولى إسماعيل بن إسحق القاضى قضاء بغداد وكان بينهما مودة أكيدة فجذبه إليه وجعله وكيلا على بابه فترك لبس التصوف ولبس الخز والقصب والديبقى وأكل الطيبات وبنى الدور وإذا هو كان يكتم حب الدنيا ما لم يجدها فلما وجدها أظهر ما كان يكتم من حبها هذا مع أنه رحمه الله كان له من العبادات ما هو معروف وكان على مذهب داود وهذه الكلمات التى تصدر عن صاحب حال لم يفكر فى لوازم أقواله وعواقبها لا تجعل طريقة ولا تتخذ سبيلا ولكن قد يستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة ونحو ذلك وما معه من التقصير فى معرفة حقوق الطريق وما يقدر عليه من التقوى والصبر وما لا يقدر عليه من التقوى والصبر والرسل صلوات الله عليهم أعلم بطريق سبيل الله وأهدى وأنصح فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصا مخطئا محروما وإن لم يكن عاصيا او فاسقا او كافرا ويشبه هذا الأعرابى الذى دخل عليه النبى وهو مريض كالفرخ فقال هل كنت تدعو الله بشىء قال كنت أقول اللهم ما كنت معذبنى به فى الآخرة فإجعله فى الدنيا فقال سبحان الله لا تستطيعه ولا تطيقه هلا قلت ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فهذا أيضا حمله خوفه من عذاب النار ومحبته لسلامة عاقبته على أن يطلب تعجيل ذلك فى الدنيا وكان مخطئا فى ذلك غالطا والخطأ والغلط مع حسن القصد وسلامته وصلاح الرجل وفضله ودينه وزهده وورعه وكراماته كثيرا جدا جدا فليس من شرط ولى الله أن يكون معصوما من الخطأ والغلط بل ولا من الذنوب وأفضل اولياء الله بعد الرسل أبوبكر الصديق رضى الله عنه وقد ثبت عن النبى أنه قال له لما عبر الرؤيا أصيب بعضا وأخطأت بعضا [1]

## جاء ذكر الصلاة في القرآن مجملا فبينه الرسول

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٩١-٦٩٣ و الاستقامة ج: ٢ ص: ٨٨ و الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٢٢

قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ}النساء٧٧ جعل الله الاسلام مبينا على أركان خمسة ومن آكدها الصلاة وهي خمسة فروض وقرن معها الزكاة فمن آكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة ففي الصلاة عبادته وفي الزكاة الاحسان الى خلقه فكرر فرض الصلاة في القرآن في غير آيه ولم يذكرها إلا قرن معها الزكاة من ذلك قوله تعالى {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ}البقرة٤٣ وقال {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}التوبة١١ وقال {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}البينة٥ وفي الصحيحين من حديث أبى هريرة رواه مسلم من حديث عمر أن جبريل سأل النبى عن الاسلام فقال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وعنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فاذا فعلوا ذلك عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ولما بعث معاذا الى اليمن قال له إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوك لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب

فصل وجاء ذكر الصلاة في القرآن مجملا فبينه الرسول وان بيانه أيضا من الوحي لأنه سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة قال حسان بن عطية كان جبريل ينزل على النبي بالسنة يعلمه إياها كما يعلمه القرآن فقد سمى الله الزكاة صدقة وزكاة ولفظ الزكاة في اللغة يدل على النمو والزرع يقال فيه زكا إذا نما ولا ينموا إلا إذا خلص من الدغل فلهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}الشمس٩ {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى}الأعلى١٤ نفس المتصدق تزكو وماله يزكو يطهر ويزيد في المعنى[1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص:٦-٨

## عماد الدين الذي لا يقوم إلا به

قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ}النساء٧٧ وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة [1]

## إقامة الصلاة تتضمن إتمامها بحسب الإمكان

قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ}النساء٧٧ فى بيان ما أمر الله به ورسوله من إقام الصلاة وإتمامها والطمأنينة فيها قال الله تعالى فى غير موضع من كتابه {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ}البقرة٤٣ وقال تعالى {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}البقرة٢٣٨ وسيأتى بيان الدلالة فى هذه الآيات وقد أخرج البخارى ومسلم فى الصحيحين وأخرج أصحاب السنن أبوداود والترمذى والنسائى وإبن ماجه وأصحاب المسانيد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤٣٠

كمسند أحمد وغير ذلك من اصول الإسلام عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبى فرد رسول الله عليه السلام وقال إرجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان يصلي ثم سلم عليه فقال رسول الله وعليك السلام ثم قال إرجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل والذى بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمنى قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم إركع حتى تطمئن راكعا ثم إرفع حتى تعتدل قائما ثم إسجد حتى تطمئن ساجدا ثم إجلس حتى تطمئن جالسا ثم إفعل ذلك فى صلاتك كلها وفى رواية للبخارى إذا قمت إلى الصلاة فإسبغ الوضوء ثم إستقبل القبلة فكبر وإقرأ بما تيسر من القرآن ثم إركع حتى تطمئن راكعا ثم إرفع رأسك حتى تعتدل قائما ثم إسجد حتى تطمئن ساجدا ثم إرفع حتى تستوى وتطمئن جالسا ثم إسجد حتى تطمئن ساجدا ثم إرفع حتى تستوى قائما ثم إفعل ذلك فى صلاتك كلها وفى رواية له ثم إركع حتى تطمئن راكعا ثم إرفع حتى تستوى قائما وباقيه مثله وفى رواية وإذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك وما انتقصت من هذا فإنما إنتقصته من صلاتك وعن رفاعة بن رافع رضى الله عنه أن رجلا دخل المسجد فذكر الحديث وقال فيه فقال النبى صلى الله عليه وسلم إنه لاتتم صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ فيضع الوضوء مواضعه ثم يكبر ويحمد الله عز وجل ويثنى عليه ويقرأ بما شاء من القرآن ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن راكعا ثم يقول الله اكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوى قائما ثم يسجد حتى يطمئن ساجدا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوى قاعدا ثم يقول الله أكبر ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل ذلك فقد تمت صلاته وفى رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز وجل فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله ويحمده ثم يقرأ من القرآن ما أذن له وتيسر وذكر نحو اللفظ الأول وقال ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه وربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله وتسترخى ثم يكبر فيستوى قاعدا على مقعدته ويقيم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم صلاة لأحدكم حتى يفعل ذلك رواه أهل السنن أبوداود والنسائى وإبن ماجه والترمذى وقال حديث حسن والروايتان لفظ أبى داود وفى رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم إقرأ بأم القرآن وبما شاء الله أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك عى ركبتيك وإمدد ظهرك وقال إذا سجدت فمكن لسجودك فإذا رفعت فإقعد على فخذك اليسرى وفى رواية أخرى قال إذا أنت قمت فى صلاتك فكبر الله عز وجل ثم إقرأ ما تيسر عليك من القرآن وقال فيه فإذا جلست فى وسط الصلاة فإطمئن وإفترش فخذك

اليسرى ثم تسهد ثم غذا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ من صلاتك وفى رواية أخرى قال فتوضا كما أمر الله ثم تشهد فأتم ثم كبر فإن كان معك قرآن فإقرأ به وإلا فإحمد الله عز وجل وكبره وهلله وقال فيه وإن إنتقصت منه شيئا إنتقصت من صلاتك فالنبى أمر ذلك المسىء فى صلاته بأن يعيد الصلاة وامر الله ورسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب وأمره

إذا قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع والسجود وأمره المطلق على الإيجاب وأيضا قال له فإنك لم تصل فنفى أن يكون عمله الأول صلاة والعمل لا يكون منفيا إلا إذا إنتفى شىء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجبه الله عز وجل فإنه لا يصح نفيه لإنتفاء شىء من المستحبات التى ليست بواجبة وأما ما يقوله بعض الناس إن هذا نفى للكمال كقوله لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد فيقال له نعم هو لنفى الكمال لكن لنفى كمال الواجبات أو لنفى كمال المستحبات فأما الأول فحق وأما الثانى فباطل لا يوجد مثل ذلك فى كلام الله عز وجل ولا فى كلام رسوله قط وليس بحق فإن الشىء إذا كملت واجباته فكيف يصح نفيه وأيضا فلو جاز لجاز نفى صلاة عامة الأولين والآخرين لأن كمال المستحبات من أندرالأمور وعلى هذا فما جاء من نفى الأعمال فى الكتاب والسنة فإنما هو لإنتفاء بعض واجباته كقوله تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}وقوله تعالى {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}النور٤٧ وقوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا}الحجرات١٥ الآية وقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ}النور٦٢ الآية ونظائر ذلك كثيرة ومن ذلك قوله لا إيمان لمن لا أمانه له و لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ولا صلاة إلا بوضوء [١]

أن الله سبحاته وتعالى أمر فى كتابه بإقامة الصلاة وذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى فى غير موضع {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}البقرة٤٣ وإقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتى فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٥٢٨-٥٣١ و القواعد النورانية ج: ١ ص: ٢٥-٢٦

قال أقيموا الركوع والسجود فإنى أراكم من بعدى ظهرى وفى رواية أتموا الركوع والسجود فإن الله تعالى قال {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً}النساء١٠٣ والموقوت قد فسره السلف بالمفروض وفسروه بماله وقت المفروض هو المقدر المحدد فإن التوقيت والتقدير والتحديد والفرض ألفاظ متقاربة وذلك وجب أن الصلاة مقدرة محددة موقوتة وذلك فى زمانها وأفعالها وكما أن زمانها محدود فأفعالها أولى أن تكون محدودة موقوتة وهو يتناول تقدير عددها بأن جعله خمسا وجعل بعضها أربعا فى الحضر وإثنتين فى السفر وبعضها ثلاثا وبعضها إثنتين فى الحضر والسفر وتقدير عملها أيضا ولذا يجوز عند العذر الجمع المتضمن لنوع من التقديم والتأخير فى الزمان كما يجوز أيضا القصر من عددها ومن صفتها بحسب ما جاءت به الشريعة وذلك أيضا مقدر عند العذر كما هو مقدر عند غير العذر ولهذا فليس للجامع بين الصلاتين أن يؤخر صلاة النهار إلى الليل أو صلاة الليل إلى النهار وصلاتى النهار الظهر والعصر وصلاتى الليل المغرب والعشاء وكذلك اصحاب الأعذار الذين ينقصون من عددها وصفتها وهو موقون محدود ولا بد أن تكون الأفعال محدودة الإبتداء والإنتهاء فالقيام محدود بالإنتصاب بحيث لو خرج عن حد المنتصب إلى حد المنحنى الراكع بإختياره لم يكن قد أتى بحد القيام ومن المعلوم أن ذكر القيام الذى هو القراءة أفضل من ذكر الركوع والسجود ولكن نفس عمل الركوع والسجود أفضل من عمل القيام ولهذا كان عبادة بنفسه ولم يصح فى شرعنا إلا لله بوجه من الوجوه وغير ذلك من الأدلة المذكورة فى غير هذا الموضع وإذا كان كذلك فمن المعلوم أن هذه الأفعال مقدرة محدودة بقدر التمكن منها فالساجد عليه أن يصل إلى الأرض وهو غاية التمكن ليس له غاية دون ذلك إلا لعذر وهو من حين نحنائه أخذ فى السجود سواء سجد من قيام أو من قعود فينبغى أن يكون إبتداء السجود مقدرا بذلك بحيث يسجد من قيام أو قعود لا يكون سجوده من إنحناء فإن ذلك يمنع كونه مقدرا محدودا بحسب الإمكان ومتى وجب ذلك وجب الإعتدال فى الركوع وبين السجدتين وأيضا ففى ذلك إتمام الركوع والسجود وأيضا فأفعال الصلاة إذا كانت مقدرة وجب أن يكون لها قدر وذلك هو الطمأنينة فإن من نقر نقر الغراب لم يكن لفعله قدر أصلا فإن قدر الشىء ومقداره فيه زيادة على أصل وجوده ولهذا يقال للشيء الدائم ليس له قدر فإن القدر لا يكون لأدنى حركة بل لحركة ذات إمتداد وأيضا فإن الله عز وجل أمرنا بإقامتها والإقامة أن تجعل قائمة والشىء القائم هو المستقيم المعتدل فلا بد أن تكون أفعال الصلاة مستقرة معتدلة وذلك إنما يكون بثبوت أبعاضها وإستقرارها وهذا يتضمن الطمأنينة فإن من نقر نقر الغراب لم يقم السجود ولا يتم سجوده إذا لم يثبت ولم يستقر

وكذلك الراكع يبين ذلك ما جاء فى الصحيحين عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنهما قال قال رسول الله سووا صفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة وأخرجاه من حديث عبدالعزيز بن صهيب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله أتموا الصفوف فإنى أراكم من خلف ظهرى وفى لفظ أقيموا الصفوف وروى البخارى من حديث حميد عن أنس قال أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقيموا صفوفكم وتراصوا فإنى أراكم من وراء ظهرى وكان أحدنا يلصق منكبه بمنكب صاحبه وبدنه ببدنه فإذا كان تقويم الصف وتعديله من تمامها وإقامتها بحيث لو خرجوا عن الإستواء والإعتدال بالكلية حتى يكون رأس هذا عند النصف الأسفل من هذا لم يكونوا مصطفين ولكانوا يؤمرون بالإعادة وهم بذلك أولى من الذى صلى خلف الصف وحده فأمره النبى أن يعيد صلاته فكيف بتقويم أفعالها وتعديلها بحيث لا يقيم صلبه فى الركوع والسجود ويدل على ذلك وهو دليل مستقل فى المسألة ما اخرجاه فى الصحيحين عن شعبة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه عن النبى قال أقيموا الركوع والسجود فوالله إنى لأراكم من بعدى وفى رواية من بعد ظهرى إذا ركعتم وسجدتم وفى رواية للبخارى عن همام عن قتادة عن أنس رضى الله عنه أنه سمع النبى يقول أتموا الركوع والسجود فوالذى نفسى بيده انى لأراكم من بعد ظهرى إذا ما ركعتم وإذا ما سجدتم ورواه مسلم من حديث هشام الدستوائى وإبن أبى عروبة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه أن نبى الله قال أتموا الركوع والسجود ولفظ إبن أبي عروبة أقيموا الركوع والسجود فإنى أراكم وذكره فهذا يبين أن إقامة الركوع والسجود توجب إتمامها كما فى اللفظ الآخر وأيضا فأمره لهم بإقامة الركوع والسجود يتضمن السكون فيهما إذ من المعلوم أنهم كانوا يأتون بالإنحناء فى الجملة بل الأمر بالإقامة يقتضى أيضا الإعتدال فيهما وإتمام طرفيهما وفى هذا رد على من زعم أنه لا يجب الرفع فيهما وذلك أن هذا أمر للمأمومين خلفه ومن المعلوم أنه لم يكن يمكنهم الإنصراف قبله وأيضا فقوله تعالى{حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}البقرة٢٣٨أمر بالقنوت فى القيام لله والقنوت دوام الطاعة لله عز وجل سواء كان فى حال الإنتصاب أو فى حال السجود [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٥٤٢-٥٤٦

# من ترك واجبا من واجبات الصلاة عمدا فعليه إعادة الصلاة

قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}النساء٧٧ كان جمهور العلماء على أن من ترك واجبا من واجبات الصلاة عمدا فعليه إعادة الصلاة ما دام يمكن فعلها وهو إعادتها في الوقت هذا مذهب مالك والشافعي وأحمد لكن مالك وأحمد يقولان قد يجب فيها ما يسقط بالسهو ويكون سجود السهو عوضا عنه وسجود السهو واجب عندهما وأما الشافعي فيقول كل ما وجب بطلت الصلاة بتركه عمدا أو سهوا وسجود السهو عنده ليس بواجب فإن ما صحت الصلاة مع السهو عنه لم يكن واجبا ولا مبطلا والأكثرون يوجبون سجود السهو كمالك وأبي حنيفة وأحمد ويقولون قد أمر به النبي صلى الله عليه وسلم والأمر يقتضي الإيجاب ويقولون الزيادة في الصلاة لو فعلها عمدا بطلت الصلاة بالإتفاق مثل أن يزيد ركعة خامسة عمدا أو يسلم عمدا قبل إكمال الصلاة ثم إذا فعله سهوا سجد للسهو بالسنة والإجماع فهذا سجود لما تصح الصلاة مع سهوة دون عمده وكذلك ما نقصه منها فإن السجود يكون للزيادة تارة وللنقص أخرى كسجود النبي صلى الله عليه وسلم لما ترك التشهد الأول ولو فعل ذلك أحد عمدا بطلت صلاته عند مالك وأحمد وأما أبو حنيفة فيوجب في الصلاة ما لا تبطل بتركه لا عمدا ولا سهوا ويقول هو مسيء بتركه كالطمأنينة وقراءة الفاتحة وهذا مما نازعه فيه الأكثرون وقالوا من ترك الواجب عمدا فعليه الإعادة الممكنة لأنه لم يفعل ما أمر به وهو قادر على فعله فلا يسقط عنه وقد أخرجا في الصحيحين حديث المسيء في صلاته لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم ارجع فصل فإنك لم تصل وأمره بالصلاة التي فيها طمأنينة فدل هذا الحديث الصحيح على أن من ترك الواجب لم يكن ما فعله صلاة بل يؤمر بالصلاة والشارع صلى الله عليه وسلم لا ينفي الإسم إلا لانتفاء بعض واجباته فقوله فإنك لم تصل لأنه ترك بعض واجباتها ولم تكن صلاته تامة مقامة الإقامة المأمور بها في قوله تعالى {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}النساء١٠٣ فقد أمر بإتمامها ولهذا لما أمر بإتمام الحج والعمره بقوله {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ}البقرة١٩٦ ألزم الشارع فيهما فعل جميع الواجبات فإذا ترك بعضها فلا بد من الجبران فعلم أنه إن لم يأت بالمأمور به تاما التمام الواجب وإلا فعليه ما يمكن من إعادة أو جبران وكذلك أمر الذي رآه يصلي خلف الصف وحده أن يعيد وقال لا صلاة لفذ خلف الصف وقد صححه أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وابن حزم وغيرهم من علماء الحديث فإن قيل ففي حديث المسيء الذي

رواه أهل السنن من حديث رفاعة بن رافع أنه جعل ما تركه من ذلك يؤاخذ بتركه فقط ويحسب له ما فعل ولا يكون كمن لم يصل قيل وكذلك نقول من فعلها وترك بعض واجباتها لم يكن بمنزلة من لم يأت بسيء منها بل يثاب على ما فعل ويعاقب على ما ترك وإنما يؤمر بالإعادة لدفع عقوبة ما ترك وترك الواجب سبب للعقاب فإذا كان يعاقب على ترك البعض لزمه أن يفعلها فإن كان له جبران أو أمكن فعله وحده وإلا فعله مع غيره فإنه لا يمكن فعله مفردا فإن قيل فإذا لم يكن فعله مفردا طاعة لم يثب عليه أولا قيل هو أولى فعله ولم يكن يعلم أنه لا يجوز أو كان ساهيا كالذي يصلي بلا وضوء أو يسهو عن القراءة والسجود المفروض فيثاب على ما فعل ولا يعاقب بنسيانه وخطئه لكن يؤمر بالإعادة لأنه لم يفعل ما أمر به أولا كالنائم إذا استيقظ في الوقت فإنه يؤمر بالصلاة لأنها واجبة عليه في وقتها إذا أمكن وإلا صلاها أي وقت استيقظ فإنه حينئذ يؤمر بها وأما إذا أمر بالإعادة فقد علم أنه لا يجوز فعل ذلك مفردا فلا يؤمر به مفردا فإن قيل فلو تعمد أن يفعلها مع ترك الواجبات التي يعلم وجوبها قيل هذا مستحق للعقاب فإنه عاص بهذا الفعل وهذا قد يكون إثمه كإثم التارك وإن قدر أن هذا قد يثاب فإنه لا يثاب عليه ثواب من فعله مع غيره كما أمر به بل أكثر ما يقال إن له عليه ثوابا بحسبه لكن الذي يعرف أنه إذا لم يكن يعرف أن هذا واجب أو منهي عنه فإنه يثاب على ما فعله قال الله تعالى {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨} الزلزلة٧-٨ والقرآن وذكر الله ودعاؤه خير وإلا فالمسلم لا يصلى إلى غير قبلة أو بغير وضوء أو ركوع أو سجود ومن فعل ذلك كان مستحقا للذم والعقاب ومع هذا فقد يمكن إذا فعل ذلك مع اعترافه بأنه مذنب لا على طريق الإستهانة والإستهزاء والإستخفاف بل على طريق الكسل أن يثاب على ما فعله كمن ترك واجبات الحج المجبورة بدم لكن لا يكون ثوابه كما إذا فعل ذلك مع غيره على الوجه المأمور به [١]

## بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٢٠٠-٢٠٤ (ملاحظة التوسع في هذا الموضوع موجود في تفسير النساء١٠٣))

وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثاني الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا جمع الله بين الصلاة والصبر وأما قرانه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جدا قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ}النساء٧٧ فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة يدخل في الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه وفي الزكاة بالإحسان إلى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كل معروف صدقة فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة ففي الصحيحين عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئا قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئا قدمه فينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل فإن لم يجد فبكلمة طيبة وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي [١]

## حرم الله الظلم على نفسه ونفاه عن نفسه

حرم الله الظلم على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ} هود١٠١ وقوله {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً}الكهف٤٩ وقوله{قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}النساء٧٧وقوله {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}فصلت٤٦وقوله {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}النساء٤٠ وقوله {قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}النساء٧٧ ونفى إرادته بقوله {وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ}آل عمران١٠٨ وقوله {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ}غافر٣١ونفى خوف العباد له بقوله {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا

[١] السياسة الشرعية ج: ١ ص: ١١٢

هَضْماً}طه١١٢   فإن الناس تنازعوا في معنى هذا الظلم تنازعا صاروا فيه بين طرفين متباعدين ووسط بينهما وخيار الأمور أوساطها وذلك بسبب البحث في القدر ومجامعته للشرع إذ الخوض في ذلك بغير علم تام أوجب ضلال عامة الأمم ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن التنازع فيه فذهب المكذبون بالقدر القائلون بأن الله لم يخلق أفعال العباد ولم يرد أن يكون إلا ما أمر بأن يكون وغلاتهم المكذبون بتقدم علم الله وكتابه بما سيكون من أفعال العباد من المعتزلة وغيرهم إلا أن الظلم منه هو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض وشبهوه ومثلوه في الأفعال بأفعال العباد حتى كانوا هم ممثلة الأفعال وضربوا لله الأمثال ولم يجعلوا له المثل الأعلى بل أوجبوا عليه وحرموا ما رأوا أنه يجب على العباد ويحرم بقياسه على العباد وإثبات الحكم في الأصل بالرأي وقالوا عن هذا  إذا أمر العبد ولم يعنه بجميع ما يقدر عليه من وجوه الإعانة كان ظالما له والتزموا أنه لا يقدر أن يهدي ضالا كما قالوا  إنه لا يقدر أن يضل مهتديا وقالوا عن هذا  إذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما بإعانته على فعل المأمور كان ظالما إلى أمثال ذلك من الأمور التي هي من باب الفضل والإحسان جعلوا تركه لها ظلما  وكذلك ظنوا أن التعذيب لمن كان فعله مقدرا ظلم له ولم يفرقوا بين التعذيب لمن قام به سبب استحقاق ذلك ومن لم يقم وإن كان ذلك الاستحقاق خلقه لحكمه أخرى عامة أو خاصة  وهذا الموضع زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام فعارض هؤلاء آخرون من أهل الكلام المثبتين للقدر فقالوا  ليس للظلم منه حقيقة يمكن وجودها بل هو من الأمور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدورا ولا يقال  إنه هو تارك له باختياره ومشيئته وإنما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد في مكانين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما وإلا فمهما قدر في الذهن وكان وجوده ممكنا و الله قادرعليه فليس بظلم منه سواء فعله أولم يفعله  وتلقى هذا القول عن هؤلاء طوائف من أهل الإثبات من الفقهاء وأهل الحديث من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ومن شراح الحديث ونحوهم وفسروا هذا الحديث بما ينبني على هذا القول وربما تعلقوا بظاهر من أقوال مأثورة كما رويناه عن إياس بن معاوية أنه قال  ما ناظرت بعقلي كله أحدا إلا القدرية قلت لهم  ما الظلم قالوا  أن تأخذ ما ليس لك أو أن تتصرف فيما ليس لك قلت  فلله كل شيء وليس هذا من إياس إلا ليبين أن التصرفات الواقعة هي في ملكه فلا يكون ظلما بموجب حدهم وهذا مما لا نزاع بين أهل الإثبات فيه فإنهم متفقون مع أهل الإيمان بالقدر على أن كل ما فعله الله هو عدل  وفي حديث الكرب الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال  قال رسول الله صلى الله عليه وسلم     ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال  اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في

حكمك عدل في قضائك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحا قالوا يا رسول الله أفلا نتعلمهن قال بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن فقد بين أن كل قضائه في عبده عدل ولهذا يقال كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ويقال أطعتك بفضلك والمنة لك وعصيتك بعلمك أو بعدلك والحجة لك فأسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتى إلا ما غفرت لي وهذه المناظرة من إياس كما قاله ربيعة بن أبي عبد الرحمن لغيلان حين قال له غيلان نشدتك الله أترى الله يحب أن يعصى فقال نشدتك الله أترى يعصى قسرا يعني قهرا فكأنما ألقمه حجرا فإن قوله يحب أن يعصى لفظ فيه إجمال وقد لا يتأتى في المناظرة تفسير المجملات خوفا من لدد الخصم فيؤتى بالواضحات فقال أفتراه يعصى قسرا فإن هذا إلزام له بالعجز الذي لازم للقدرية ولمن هو شر منهم من الدهرية الفلاسفية وغيرهم وكذلك إياس رأى أن هذا الجواب المطابق لحدهم خاصم لهم ولم يدخل معهم في التفصيل الذي يطول وبالجملة فقوله تعالى {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً}طه١١٢ قال أهل التفسير من السلف لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم فينقص من حسناته ولا يجوز أن يكون هذا الظلم هو شيء ممتنع غير مقدور عليه فيكون التقدير لا يخاف ما هو ممتنع لذاته خارج عن الممكنات والمقدورات فإن مثل هذا إذا لم يكن وجوده ممكنا حتى يقولوا إنه غير مقدور وأراده كخلق المثل له فكيف يعقل وجوده فضلا أن يتصور خوفه حتى ينفي خوفه ثم أي فائدة في نفي خوف هذا وقد علم من سياق الكلام أن المقصود بيان أن هذا للعامل المحسن لا يجزى على إحسانه بالظلم والهضم فعلم أن الظلم والهضم المنفي يتعلق بالجزاء كما ذكره أهل التفسير وأن الله لا يجزيه إلا بعمله ولهذا كان الصواب الذي دلت عليه النصوص إن الله لا يعذب في الآخرة إلا من أذنب كما قال{لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}ص٨٥ فلو دخلها أحد من غير أتباعه لم تمتلىء منهم ولهذا ثبت في الصحيحين في حديث تحاج الجنة والنار من حديث أبي هريرة وأنس أن النار تمتلىء ممن كان ألقي فيها حتى ينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعد قولها هل من مزيد وأما الجنة فيبقى فيها فضل عمن يدخلها من أهل الدنيا فينشىء الله لها خلقا آخر ولهذا كان الصواب الذي عليه الأئمة فيمن لم يكلف في الدنيا من أطفال المشركين ونحوهم ما صح به الحديث وهو أن الله أعلم بما كانوا عاملين فلا نحكم لكل منهم بالجنة ولا لكل منهم بالنار بل هم ينقسمون بحسب ما يظهر من العلم فهم إذا كلفوا يوم القيامة في العرصات كما جاءت

بذلك الآثار وكذلك قوله تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}فصلت٤٦ يدل الكلام على أنه لا يظلم محسنا فينقصه من إحسانه أو يجعله لغيره ولا يظلم مسيئا فيجعل عليه سيئات غيره بل لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وهذا كقوله{أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى{٣٦} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى{٣٧} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى{٣٨} وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى{٣٩} النجم ٣٦-٣٩ فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعاه وكلا القولين حق على ظاهره فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعاه وكلا القولين حق على ظاهره وإن ظن بعض الناس أن تعذيب الميت ببكاء أهله عليه ينافي الأول فليس كذلك إذ ذلك النائح يعذب بنوحه لا يحمل الميت وزره ولكن الميت يناله ألم من فعل هذا كما يتألم الإنسان من أمور خارجة عن كسبه وإن لم يكن جزاء الكسب والعذاب أعم من العقاب كما قال صلى الله عليه وسلم السفر قطعة من العذاب وكذلك ظن قوم أن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي ينافي قوله {وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} النجم ٣٩ فليس الأمر كذلك فإن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالعبادات المالية ومن ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الآخر فقوله ظاهر الفساد بل ذلك بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة وقد بينا في غير هذا الموضع نحوا من ثلاثين دليلا شرعيا يبين انتفاع الإنسان بسعي غيره إذ الآية إنما نفت استحقاق السعي وملكه وليس كل ما لا يستحقه الإنسان ولا يملكه لا يجوز أن يحسن إليه مالكه ومستحقه بما ينتفع به منه فهذا نوع وهذا نوع وكذلك ليس كل ما لا يملكه الإنسان لا يحصل له من جهته منفعة فإن هذا كذب في الأمور الدينية والدنيوية وهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل في الجزاء وأنه لا يبخس عامل عمله وكذلك قوله فيمن عاقبهم {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ}هود١٠١ وقوله {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}الزخرف٧٦ بين أن عقاب المجرمين عدلا لذنوبهم لا لأنا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب والحديث الذي في السنن لو عذب الله أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم يبين أن العذاب لو وقع لكان لاستحقاقهم ذلك لا لكونه بغير ذنب وهذا يبين أن من الظلم المنفي عقوبة من لم يذنب وكذلك قوله تعالى {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ{٣٠} مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ{٣١} غافر٣٠-٣١ يبين أن هذا العقاب لم يكن ظلما لاستحقاقهم ذلك وأن الله لا يريد الظلم والأمر الذي لا يمكن القدرة عليه لا

يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته وإنما يكون المدح بترك الأفعال إذا كان الممدوح قادرا عليها فعلم أن الله قادر على ما نزه نفسه عنه من الظلم وأنه لا يفعله [1]

## الأسماء الشرعية باقية على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها

قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ}النساء٧٧ وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها مثل الزكاة هى اسم لما تزكو به النفس وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها والإحسان الى الناس من أعظم ما تزكو به النفس كما قال تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}التوبة١٠٣ وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به قال تعالى {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً}النور٢١ وأصل زكاتها بالتوحيد واخلاص الدين لله قال تعالى {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{٦} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ{٧}فصلت ٦-٧ وهى عند المفسرين التوحيد وقد بين النبى مقدار الواجب وسماها الزكاة المفروضة فصار لفظ الزكاة اذا عرف باللام ينصرف اليها لأجل العهد ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٠٢

والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد فى الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التى يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال فى لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوى أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعى ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{٩} عَبْداً إِذَا صَلَّى{١٠}العلق٩-١٠ وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبى عن الصلاة وقال لئن رأيته يصلى لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه فإذا قيل {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{٩} عَبْداً إِذَا صَلَّى{١٠}العلق٩-١٠ فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال فى اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبى لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتمون بالنبى فإذا قيل لهم {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال فى ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد [1]

## {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً}

قال الله تعالى {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً}الأحزاب١٦ فأخبر الله ان الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون ولذلك قال النبى اذا وقع بارض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه والفرار من القتل كالفرار من الجهاد وحرف لن ينفى الفعل فى الزمن المستقبل والفعل نكرة والنكرة فى سياق النفى تعم جميع افرادها

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٩٩-٣٠٠

فاقتضى ذلك ان الفرار من الموت اوالقتل ليس فيه منفعة ابدا وهذا خبر الله الصادق فمن اعتقد ان ذلك ينفعه فقد كذب الله فى خبره ثم قال تعالى {وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً}الأحزاب١٦ يقول لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ثم تموتون فإن الموت لابد منه وقد حكى عن بعض الحمقى أنه قال فنحن نريد ذلك القليل وهذا جهل منه بمعنى الآية فإن الله لم يقل إنهم يمتعون بالفرار قليلا لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه ابدا ثم ذكر جوابا ثانيا أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل ثم ذكر جوابا ثالثا وهو أن الفار يأتيه ما قضى له من المضرة ويأتى الثابت ما قضى له من المسرة فقال {قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً}الأحزاب١٧ ونظيره قوله فى سياق آيات الجهاد {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ}النساء٧٨ الآية وقول {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِـي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}آل عمران١٥٦ فمضمون الأمر أن المنايا محتومة فكم ممن حضر الصفوف فسلم وكم ممن فر من المنية فصادفته كما قال خالد بن الوليد لما إحتضر لقد حضرت كذا وكذا صفا وإن ببدنى بضعا وثمانين ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء [1]

## الحسنات والسيئات المراد بها هنا النعم والمصائب

وقال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ مع قوله فيما تقدم {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ فالحسنات والسيئات المراد بها هنا النعم والمصائب ولهذا قال ما أصابك ولم يقل ما أصبت كما في قوله {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا}آل عمران١٢٠ وقوله {إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ}التوبة٥٠ فبين أن النعم والمصائب من عند الله فالنعمة من الله ابتداء والمصيبة بسبب من نفس الإنسان وهي معاصيه كما قال في

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص:٤٥٤- ٤٥٦

الآية الأخرى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٠ وقال في الآية الأخرى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}آل عمران١٦٥ وهذا لأن الله محسن عدل كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل فهو محسن إلى العبد بلا سبب منه تفضلا وإحسانا ولا يعاقبه إلا بذنبه وإن كان قد خلق الأفعال كلها لحكمة له في ذلك فإنه حكيم عادل يضع الأشياء مواضعها ولا يظلم ربك أحدا وإذا كان غير الله يعاقب عبده على ظلمه وإن كان مقرا بأن الله خالق أفعال العباد وليس ذلك ظلما منه فالله أولى أن لا يكون ذلك ظلما منه وإذا كان الإنسان قد يفعل مصلحة اقتضتها حكمته لا تحصل إلا بتعذيب حيوان ولا يكون ذلك ظلما منه فالله أولى أن لا يكون ذلك ظلما منه [1]

## { مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ }

قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ}النساء٧٩ الآية بعد قوله {كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ لو اقتصر عن الجمع اعرض العاصى عن ذم نفسه والتوبة من الذنب والاستعاذة من شره وقام بقلبه حجة ابليس فلم تزده الا طردا كما زادت المشركين ضلالا حين قالوا {لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا}الأنعام١٤٨ ولو اقتصر على الفرق لغابوا عن التوحيد والايمان بالقدر واللجاء الى الله فى الهداية كما فى خطبته صلى الله عليه وسلم الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره فيشكره ويستعينه على طاعته ويستغفره من معصيته ويحمده على احسانه ثم قال ونعوذ بالله من شرور أنفسنا الى آخره لما استغفر من المعاصى استعاذه من الذنوب التى لم تقع ثم قال ومن سيئات اعمالنا اى ومن عقوباتها ثم قال من يهد الله فلا مضل له الخ شهادة بأنه المتصرف فى خلقه ففيه اثبات القضاء الذى هو نظام التوحيد هذا كله مقدمة بين يدى الشهادتين فانما يتحققان بحمد الله واعانته واستغفاره واللجاء اليه والايمان باقداره فهذه الخطبة عقد نظام الاسلام والايمان

## وقال كون الحسنات من الله والسيئات من النفس له وجوه

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ١٤٧-١٤٨

الاول أن النعم تقع بلا كسب الثانى أن عمل الحسنات من احسان الله الى عبده فخلق الحياة وارسل الرسل وحبب اليهم الايمان واذا تدبرت هذا شكرت الله فزادك واذا علمت ان الشر لا يحصل الا من نفسك تبت فزال الثالث ان الحسنة تضاعف الرابع ان الحسنة يحبها ويرضاها فيحب ان ينعم ويحب ان يطاع ولهذا تأدب العارفون فأضافوا النعم اليه والشر الى محله كما قال امام الحنفاء {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ}الشعراء٧٨ الى قوله {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}الشعراء٨٠ الخامس ان الحسنة مضافة اليه لأنه أحسن بها بكل اعتبار واما السيئة فما قدرها الا لحكمة السادس ان الحسنات امور وجودية متعلقة بالرحمة والحكمة لانها اما فعل مامور او ترك محظور والترك امر وجودى فتركه لما عرف انه ذنب وكراهته له ومنع نفسه منه امور وجودية وانما يثاب على الترك على هذا الوجه وقد جعل النبى البغض فى الله من اوثق عرى الايمان وهو أصل الترك وجعل المنع لله من كمال الايمان وهو اصل الترك وكذلك براءة الخليل من قومه المشركين ومعبوديهم ليست تركا محضا بل صادرا عن بغض وعداوة واما السيئات فمنشأها من الظلم والجهل وفى الحقيقة كلها ترجع الى الجهل والا فلو تم العلم بها لم يفعلها فان هذا خاصة العقل وقد يغفل عن هذا كله بقوة وارد الشهوة والغفلة والشهوة اصل الشر كما قال تعالى {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}الكهف٢٨ الآية السابع أن ابتلاءه له بالذنوب عقوبة له على عدم فعل ما خلق له و فطر عليه الثامن أنما يصيبه من الخير و النعم لاتنحصر أسبابه من إنعام الله عليه فيرجع فى ذلك إلى الله و لايرجو إلا هو فهو يستحق الشكر التام الذي لا يستحقه غيره و انما يستحق من الشكر جزاء على مايسره الله على يديه و لكن لا يبلغ أن يشكر بمعصية الله فانه المنعم بما لايقدر عليه مخلوق و نعم المخلوق منه أيضا و جزاؤه على الشكر و الكفر لايقدر أحد على مثله فاذا عرف أن {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ}فاطر٢ صار توكله و رجاؤه الى الله و حده و إذا عرف ما يستحقه من الشكر الذي يستحقه صار له و الشر انحصر سببه فى النفس فعلم من أين يؤتى فتاب و استعان بالله كما قال بعض السلف لا يرجون عبد إلا ربه و لا يخاف إلا ذنبه وقد تقدم قول السلف ابن عباس و غيره انما أصابهم يوم أحد مطلقا كان بذنوبهم لم يستثن أحد و هذا من فوائد تخصيص الخطاب لئلا يظن أنه عام مخصوص التاسع أن السيئة إذا كانت من النفس و السيئة خبيثة كما قال تعالى {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ}النور٢٦ الآية قال جمهور السلف الكلمات الخبيثات للخبيثين و قال {وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ}إبراهيم٢٦ و قال {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}فاطر١٠ و

الأقوال و الأفعال صفات للقائل الفاعل فإذا اتصفت النفس بالخبث فمحلها ما يناسبها فمن أراد أن يجعل الحيات بعاشرن الناس كالسنانير لم يصلح بل إذا كان فى النفس خبث طهرت حتى تصح للجنة كما فى حديث أبي سعيد الذي فى الصحيح و فيه حتى إذا هذبوا و نقوا أذن لهم فى دخول الجنة فإذا علم الانسان أن السيئة من نفسه لم يطمع فى السعادة التامة مع ما فيه من الشر بل علم تحقيق قوله {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ}الزلزلة٧ الخ و علم أن الرب عليم حكيم رحيم عدل و أفعاله على قانون العدل و الاحسان كما فى الصحيح يمين الله ملآى إلى قوله و القسط بيده الأخرى و علم فساد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب و العقاب بلا حكمة و لا عدل الى أن قال و من سلك مسلكهم غايته إذا عظم الأمر و النهي أن يقول كما نقل عن الشاذلي يكون الجمع فى قلبك مشهودا و الفرق على لسانك موجودا كما يوجد في كلامه و كلام غيره أقوال و أدعية تستلزم تعطيل الأمر و النهي مما يوجب أن يجوز عنده أن يجعل الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض و يدعون بأدعية فيها اعتداء كما فى حزب الشاذلي و آخرون من عوامهم يجوزون أن يكرم الله بكرامات الأولياء لمن هو فاجر و كافر و يقولون هذه موهبة و يظنونها من الكرامات و هي من الأحوال الشيطانية التى يكون مثلها للسحرة و الكهان كما قال تعالى {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ}البقرة١٠١ إلى قوله {هَارُوتَ وَمَارُوتَ}البقرة١٠٢ و صح قوله لتتبعن سنن من كان قبلكم فعدل كثير من المنتسبين إلى الاسلام الى أن نبذ القرآن وراء ظهره و اتبع ما تتلوا الشياطين فلا يعظم أمر القرآن و نهيه ولا يوالي من أمر القرآن بموالاته و لايعادي من أمر القرآن بمعاداته بل يعظم من يأتي ببعض الخوارق ثم منهم من يعرف أنه من الشياطين لكن يعظمه لهواه و يفضله على طريقة القرآن و هؤلاء كفار قال الله تعالى فيهم {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}النساء٥١

## قال و فى قوله تعالى {فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ من الفوائد

أن العبد لا يطمئن إلى نفسه و لا يشتغل بملام الناس و ذمهم بل يسأل الله أن يعينه على طاعته و لهذا كان أنفع الدعاء و أعظمه دعاء الفاتحة و هو محتاج إلى الهدى كل لحظة ويدخل فيه من أنواع الحاجات مالا يمكن حصره و يبينه أن الله سبحانه لم يقص علينا قصة فى القرآن إلا لنعتبر و إنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول فلولا أن فى النفوس مافي نفوس المكذبين للرسل لم يكن بنا حاجة الى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ولكن الأمر كما قال تعالى {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ

لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ}فصلت٤٣ و قوله {أَتَوَاصَوْا بِهِ}الذاريات٥٣ و قوله {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ}البقرة١١٨ و لهذا فى الحديث لتسلكن سنن من كان قبلكم وقد بين القرآن أن السيئات من النفس وأعظم السيئات جحود الخالق و الشرك به و طلب أن يكون شريكا له و كلا هذين و قع و قال بعضهم ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون و ذلك أن الانسان إذا اعتبر و تعرف أحوال الناس رأى ما يبغض نظيره وأتباعه حسدا كما فعلت اليهود لما بعث الله من يدعو الى مثل ما دعا اليه موسى و لهذا أخبر عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون فى قوله تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ و بعض ما تضمنته من الحكم العظيمة هذه الآية ذكرها الله في سياق الأمر بالجهاد و ذم الناكثين عنه قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً}النساء٧١ الآيات إلى أن ذكر صلاة الخوف و قد ذكر قبلها طاعة الله و طاعة الرسول و التحاكم الى الله و إلى الرسول و رد ما تنازع فيه الناس إلى الله و إلى الرسول و ذم الذين يتحاكمون و يردون ما تنازعوا فيه الى غير الله و الرسول فكانت تلك الآيات تبيينا للايمان بالله و بالرسول و لهذا قال فيها {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}النساء٦٥ وهذا جهاد عما جاء به الرسول و قد قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}الحجرات١٥ و قال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}التوبة٢٤ و قال {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{١٩} الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{٢٠} يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ{٢١} التوبة١٩-٢١ الآية وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ {١٠} تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{١١} يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٢} وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ{١٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ

مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ{١٤} الصف١٠ -١٤ وذكر بعد آيات الجهاد إنزال الكتاب على رسول الله ليحكم بين الناس بما أراه الله و نهيه عن ضد ذلك و ذكره فضل الله عليه و رحمته فى حفظه و عصمته من إضلال الناس له و تعليمه مالم يكن يعلم و ذم من شاق الرسول و اتبع غير سبيل المؤمنين و تعظيم أمر الشرك و شديد خطره و أن الله لا يغفره و لكن يغفر ما دونه لمن يشاء إلى أن بين ان أحسن الأديان دين من يعبد الله و حده لايشرك به شيئا بشرط أن تكون عبادته بفعل الحسنات التى شرعها لا بالبدع و الأهواء و هم أهل ملة إبراهيم الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ فكان في الأمر بطاعة الرسول و الجهاد عليها اتباع التوحيد ملة ابراهيم و هو اخلاص الدين لله و ان يعبد الله بما أمر به على ألسن رسله من الحسنات و قد ذكر تعالى فى ضمن آيات الجهاد ذم من يخاف العدو و يطلب الحياة و بين أن ترك الجهاد لايدفع عنهم الموت بل أينما كانوا أدركهم الموت و لو كانوا فى بروج مشيدة فلا ينالون بترك الجهاد منفعة بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا و الآخرة فقال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}النساء٧٧ وهذا الفريق قد قيل إنهم منافقون و قيل نافقوا لما كتب عليهم القتال و قيل بل حصل منهم جبن و فشل فكان فى قلوبهم مرض كما قال تعالى {فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ}محمد٢٠ {٢٠} طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ{٢١} الآيةمحمد٢٠-٢١ و قال تعالى {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً}الأحزاب١٢ والمعنى متناول لهؤلاء و لهؤلاء و لكل من كان بهذه الحال ثم قال {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً}النساء٧٨ فالضمير فى قوله {وَإِن تُصِبْهُمْ}النساء٧٨ يعود إلى من ذكر و هم الذين{يَخْشَوْنَ النَّاسَ}النساء٧٧ أو يعود الى معلوم و إن لم يذكر كما في مواضع كثيرة وقد قيل إن هؤلاء كانوا كفارا من اليهود و قيل كانوا منافقين و قيل بل كانوا من هؤلاء و هؤلاء و المعنى يعم كل من كان كذلك و لكن تناوله لمن أظهر الاسلام و أمر بالجهاد أولى ثم إذا تناول الذم هؤلاء فهو للكفار الذين لايظهرون الاسلام أولى وأحرى والذي عليه عامة المفسرين أن الحسنة و

السيئة يراد بهما النعم و المصائب ليس المراد مجرد ما يفعله الانسان باختياره باعتباره من الحسنات أو السيئات ولفظ الحسنات و السيئات فى كتاب الله يتناول هذا و هذا قال الله تعالى عن المنافقين {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً}آل عمران١٢٠ و قال تعالى {إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ}التوبة٥٠ و قال تعالى {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}الأعراف١٦٨ و قال تعالى {وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ}الشورى٤٨ و قال تعالى في حق الكفار المتطيرين بموسى و من معه {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ}الأعراف١٣١ ذكر هذا بعد قوله {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}الأعراف١٣٠ وأما الأعمال المأمور بها و المنهى عنها ففي مثل قوله تعالى {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا}الأنعام١٦٠ و قوله تعالى {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}هود١١٤ و قوله تعالى {فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}الفرقان٧٠ وهنا قال {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ و لم يقل وما فعلت و ما كسبت كما قال {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}الشورى٣٠ و قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ}المائدة٤٩ و قال تعالى {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا}التوبة٥٢ و قال تعالى {وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ}الرعد٣١ و قال تعالى {فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ}المائدة١٠٦ و قال تعالى {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ {١٥٥} الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ{١٥٦}البقرة١٥٥ -١٥٦ فلهذا كان قول {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ}النساء٧٩ و {مِن سَيِّئَةٍ}النساء٧٩ متناول لما يصيب الانسان و يأتيه من النعم التى تسره و من المصائب التى تسوءه فالآية متناولة لهذا قطعا و كذلك قال عامة المفسرين قال أبو العالية {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ}النساء ٧٨ قال هذه في السراء {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ}النساء٧٨ قال و هذه فى الضراء وقال السدى {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ}النساء٧٨ قالوا و الحسنة الخصب ينتج خيولهم و أنعامهم و مواشيهم و يحسن حالهم و تلد نساؤهم الغلمان قالوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة قالوا و السيئة الضرر فى أموالهم تشائما بمحمد قالوا {هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ}النساء٧٨

يقولون بتركنا ديننا و اتباعنا محمدا أصابنا هذا البلاء فأنزل الله {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ الحسنة و السيئة {فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً}النساء٧٨ قال القرآن وقال الوالبى عن ابن عباس ما أصابك من حسنة فمن الله قال ما فتح الله عليك يوم بدر و كذلك قال الضحاك وقال الوالبي أيضا عن ابن عباس من حسنة قال ما أصاب من الغنيمة و الفتح فمن الله قال و السيئة ماأصابه يوم أحد إذ شج في و جهه و كسرت رباعيته و قال أما الحسنة فأنعم الله بها عليك و أما السيئة فابتلاك الله بها و روى أيضا عن حجاج عن عطية عن ابن عباس {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ}النساء٧٩ قال هذا يوم بدر {وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ قال هذا يوم أحد يقول ما كان من نكبة فمن ذنبك و أنا قدرت ذلك عليك و كذلك روى ابن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبى صالح {فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ قال فبذنبك و أنا قدرتها عليك روى هذه الآثار ابن إبى حاتم و غيره وروى أيضا عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال ما تريدون من القدر أما تكفيكم هذه الآية التى فى سورة النساء {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ}النساء٧٨ أي من نفسك و الله ما وكلوا إلى القدر و قد أمروا به و اليه يصيرون وكذلك فى تفسير أبى صالح عن ابن عباس {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ}النساء٧٨ الخصب و المطر {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ}النساء٧٨ الجدب و البلاء وقال ابن قتيبة {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ قال الحسنة النعمة و السيئة البلية وقد ذكر أبو الفرج فى قوله ماأصابك من حسنة و من سيئة ثلاثة أقوال أحدهما أن الحسنة مافتح الله عليهم يوم بدر و السيئة ما أصابهم يوم أحد قال رواه بن أبى طلحة و هو الوالبى عن ابن عباس قال والثاني الحسنة الطاعة و السيئة المعصية قاله أبو العالية والثالث الحسنة النعمة و السيئة البلية قاله ابن منبه قال و عن أبى العالية نحوه و هو أصح قلت هذا هو القول المعروف بالاسناد عن أبي العالية كما تقدم من تفسيره المعروف الذي يروى عنه هو و غيره و من طريق أبى جعفر الدارى عن الربيع بن أنس عنه و أمثاله وأما الثانى فهو لم يذكر إسناده و لكن ينقل من كتب المفسرين الذين يذكرون أقوال السلف بلا إسناد و كثير منها ضعيف بل كذب لايثبت عمن نقل عنه و عامة المفسرين المتأخرين أيضا يفسرونه على مثل أقوال السلف و طائفة منهم تحملها على الطاعة و المعصية فأما الصنف الأول فهي تتناوله قطعا كما يدل عليه لفظها و سياقها و معناها و أقوال السلف وأما المعنى الثانى فليس مرادا دون الأول قطعا و لكن قد يقال إنه مراد مع الأول باعتبار أن ما يهديه الله اليه من

الطاعة هو نعمة في حقه من الله أصابته و ما يقع منه من المعصية هو سيئة أصابته و نفسه التى عملت السيئة و إذا كان الجزاء من نفسه فالعمل الذي أوجب الجزاء أولى أن يكون من نفسه فلا منافاة أن تكون سيئة العمل و سيئة الجزاء من نفسه مع أن الجميع مقدر كما تقدم و قد روى عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان يقرأ فمن نفسك و انا قدرتها عليك والمعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى فتكون من سيئات الجزاء مع أنها من سيئات العمل قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث المتفق على صحته عن إبن مسعود رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى الى البر و البر يهدى الى الجنة و لا يزال الرجل يصدق و يتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا و إياكم و الكذب فان الكذب يهدى الى الفجور و الفجور يهدى الى النار و لا يزال الرجل يكذب و يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا وقد ذكر فى غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى و كذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى قال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً {٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً {٦٨} النساء٦٦ ـ٦٨ و قال تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} العنكبوت٦٩ و قال تعالى {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ {٤} سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ {٥} وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ {٦} محمد٤ ـ٦ و قال تعالى {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى} الروم١٠ و قال تعالى {كِتَابٌ مُّبِينٌ {١٥} يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ {١٦} المائدة١٥ـ١٦ و قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ} الحديد٢٨ و قال تعالى {وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} الأعراف١٥٤ و قال تعالى {هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} آل عمران١٣٨ و قال تعالى {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} فصلت٤٤ و قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ {٢٠١} وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ {٢٠٢} الأعراف٢٠١ ـ٢٠٢ و قال تعالى {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} يوسف٢٤و قال تعالى {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} يوسف٢٢ و قال تعالى {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} القصص١٤ و قال تعالى {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ {١} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ

وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ{٢} ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ{٣} محمد١-٣ و قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً {٧٠} يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ {٧١}الأحزاب٧٠ -٧١ و قال تعالى {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}النور٥٤ قال أبو عثمان النيسابوري من أمر السنة على نفسه قولا و فعلا نطق بالحكمة و من أمر الهوى على نفسه قولا و فعلا نطق بالبدعة لأن الله تعالى يقول {وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}النور٥٤ قلت و قد قال فى آخر السورة {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}النور٦٣ وقال تعالى {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠}الأنعام١٠٩-١١٠ و قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ}آل عمران١٥٥ و قال تعالى {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}الصف٥ الى قوله{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}الصف٧ و قال تعالى {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ}البقرة٨٨ و قال تعالى أيضا {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٥٥ و قال تعالى{فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}البقرة٢٥٨ و قال تعالى {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ{٢٥} ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ{٢٦}التوبة٢٥ و قال تعالى فى النوعين {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}الأنفال١٢ و قال تعالى فى النوعين {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ {١٢} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ {١٣} الأنفال١٢-١٣ وقال تعالى {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ}آل عمران١٥١ و قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا

وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ{٢} وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ{٣} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{٤}الحشر٢-٤ و قال تعالى {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ{١١١} ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ{١١٢} ال عمران١١١-١١٢ و قال تعالى {تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ {٨٠} وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{٨١}المائدة٨٠ -٨١ و قال تعالى {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ}المائدة٨٢ و قال تعالى {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}محمد٢٢ {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ{٢٢} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ{٢٣} أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا{٢٤} إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ{٢٥} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ{٢٦}محمد٢٢-٢٦ و قال تعالى {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ{٧٥} فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ{٧٦} فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ{٧٧}التوبة٧٥-٧٧ و قال تعالى {فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ}التوبة٨٣ و قال تعالى فى ضد هذا {وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً}الفتح٢٠ الى قوله {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً{٢٢} سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً{٢٣}الفتح٢٢-٢٣و توليتهم الأدبار ليس مما نهوا عنه و لكن هو من جزاء أعمالهم و هذا باب واسع واذا كانت السيئات التى يعملها الانسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت و هي مضرة جاز أن يقال هي مما أصابه من السيئات و هي بذنوب تقدمت وعلى كل تقدير فالذنوب التى يعملها هى من نفسه و ان كانت مقدرة عليه فانه اذا كان الجزاء الذى هو مسبب عنها من

نفسه فعمله الذى هو ذلك الجزاء من نفسه بطريق الأولى و كان النبى صلى الله عليه و سلم يقول فى خطبته نعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا وقال له أبو بكر رضي الله عنه علمني دعاء فقال قل اللهم فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة رب كل شيء و مليكه أشهد ان لا اله الا أنت أعوذ بك من شر نفسي و شر الشيطان و شركه و أن أقترف على نفسى سوءا أو أجره الى مسلم قله اذا أصبحت و اذا أمسيت و اذا أخذت مضجعك فقد بين ان قوله {فَمِن نَّفْسِكَ} النساء٧٩ وليس للقدرية أن يحتجوا بالآية لوجوه منها أنهم يقولون فعل العبد حسنة كان أو سيئة هو منه لا من الله بل الله قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات و السيئات لكن هذا عندهم أحدث ارادة فعل بها الحسنات و هذا أحدث ارادة فعل بها السيئات و ليس واحد منهما من احداث الرب عندهم والقرآن قد فرق بين الحسنات و السيئات و هم لا يفرقون فى الأعمال بين الحسنات و السيئات الا من جهة الأمر لا من جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات بل هو عندهم لم يخلق لا هذا و لا هذا لكن منهم من يقول بانه يحدث من الأعمال الحسنة و السيئة ما يكون جزاءا كما يقوله أهل السنة لكن على هذا فليست عندهم كل الحسنات من الله و لا كل السيئات بل بعض هذا و بعض هذا الثانى أنه قال {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} النساء٧٨ فجعل الحسنات من عند الله كما جعل السيئات من عند الله و هم لا يقولون بذلك فى الأعمال بل فى الجزاء و قوله بعد هذا {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ} النساء٧٩ و {مِن سَيِّئَةٍ} النساء٧٩ مثل قوله {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ} النساء٧٨ و قوله {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ} النساء٧٨ الثالث أن الآية أريد بها النعم و المصائب كما تقدم و ليس للقدرية المجبرة أن تحتج بهذه الآية على نفي أعمالهم التى استحقوا بها العقاب فان قوله {كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} النساء٧٨ هو النعم و المصائب و لأن قوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} النساء٧٩ حجة عليهم و بيان أن الانسان هو فاعل السيئات و انه يستحق عليها العقاب و الله ينعم عليه بالحسنات عملها و جزائها فانه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله فالنعم من الله سواء اء كانت ابتداء أو كانت جزاء و إذا كانت جزاء و هى من الله فالعمل الصالح الذى كان سببها هو أيضا من الله أنعم بهما الله على العبد و إلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه و الله تعالى قد فرق بين النوعين فى الكتاب و السنة كما فى الحديث الصحيح الالهي عن الله يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن و جد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه و قال تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} آل عمران١٦٥ و قال تعالى

{وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ}الروم٣٦ و قال تعالى {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}الروم٤١ و قال تعالى {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} هود١٠١ و قال تعالى {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}الزخرف٧٦ و قال تعالى {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}ص٨٥ و قال تعالى للمؤمنين {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}الحجرات٧ و قد أمروا أن يقولوا فى الصلاة {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة٦-٧ وقد ظن طائفة أن فى الآية إشكالا أو تناقضا فى الظاهر حيث قال {كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ ثم فرق بين الحسنات و السيئات فقال {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ و هذا من قلة فهمهم و عدم تدبرهم الآية و ليس فى الآية تناقض لا فى ظاهرها و لا فى باطنها لا فى لفظها و لا معناها فانه ذكر عن المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض الناكصين عن الجهاد ما ذكره بقوله {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ}النساء٧٨ هذا يقولونه لرسول الله صلى الله عليه و سلم أى بسبب ما أمرتنا به من دينك و الرجوع عما كنا عليه أصابتنا هذه السيئات لأنك أمرتنا بما أوجبها فالسيئات هى المصائب والأعمال التى ظنوا أنها سبب المصائب هو أمرهم بها و قولهم {مِنْ عِندِكَ}النساء٧٨ تتناول مصائب الجهاد التى توجب الهزيمة لأنه أمرهم بالجهاد و تتناول أيضا مصائب الرزق على جهة التشاؤم و التطير أي هذا عقوبة لنا بسبب دينك كما كان قوم فرعون يتطيرون بموسى و بمن معه و كما قال أهل القرية للمرسلين {إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ}يس١٨ و كما قال الكفار من ثمود لصالح و لقومه {اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ}النمل٤٧ فكانوا يقولون عما يصيبهم من الحرب و الزلزال و الجراح و القتل و غير ذلك مما يحصل من العدو هو منك لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك و يقولون عن هذا و عن المصائب السمائية إنها منك أي بسبب طاعتنا لك و اتباعنا لدينك أصابتنا هذه المصائب كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}الحج١١ فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول و فعل ما بعث به مسببا لشر أصابه إما من السماء و إما من آدمي و هؤلاء كثيرون لم يقولوا {هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ}النساء٧٨ بمعنى أنك أنت الذى أحدثتها فانهم يعلمون أن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يحدث شيئا من

ذلك و لم يكن قولهم {مِنْ عِندِكَ}النساء٧٨ خطابا من بعضهم لبعض بل هو خطاب للرسول صلى الله عليه و سلم و من فهم هذا تبين له أن قوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ لا يناقض قوله {كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ بل هو محقق له لأنهم هم و من أشبههم الى يوم القيامة يجعلون ما جاء به الرسول و العمل به سببا لما قد يصيبهم من مصائب و كذلك من أطاعه إلى يوم القيامة و كانوا تارة يقدحون فيما جاء به و يقولون ليس هذا مما أمر الله به و لو كان مما أمر الله به لما جرى على أهله هذا البلاء وتارة لا يقدحون فى الأصل لكن يقدحون فى القضية المعينة فيقولون هذا بسوء تدبير الرسول كما قال عبدالله بن أبي بن سلول يوم أحد إذ كان رأيه مع رأي النبى صلى الله عليه و سلم أن لا يخرجوا من المدينة فسأله صلى الله عليه و سلم ناس ممن كان لهم رغبة فى الجهاد أن يخرج فوافقهم و دخل بيته و لبس لأمته فلما لبس لأمته ندموا و قالوا للنبى صلى الله عليه و سلم أنت أعلم فان شئت أن لانخرج فلا نخرج فقال ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن ينزعها حتى يحكم الله بينه و بين عدوه يعنى أن الجهاد يلزم بالشروع كما يلزم الحج لا يجوز ترك ما شرع فيه منه الا عند العجز بالاحصار فى الحج والمفسرون ذكروا فى قوله {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ}النساء٧٨ هذا و هذا فعن ابن عباس و السدى وغيرهما أنهم يقولون هذا تشاؤما بدينه وعن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال بسوء تدبيرك يعني كما قاله عبدالله بن أبي و غيره يوم أحد و هم كالذين {قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا}آل عمران١٦٨ فبكل حال قولهم {مِنْ عِندِكَ}النساء٧٨ هو طعن فيما أمر الله به و رسوله من الايمان و الجهاد و جعل ذلك هو الموجب للمصائب التى تصيب المؤمنين المطيعين كما أصابتهم يوم أحد و تارة تصيب عدوهم فيقول الكافرون هذا بشؤم هؤلاء كما قال أصحاب القرية للمرسلين {إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ}يس١٨ و كما قال تعالى عن آل فرعون {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}الأعراف١٣١ و قال تعالى عن قوم صالح {قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ}النمل٤٧ ولما قال أهل القرية {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٨} قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ{١٩}يس١٨-١٩ قال الضحاك فى قوله {أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ}الأعراف١٣١ يقول الأمر من قبل الله ما أصابكم من أمر فمن الله بما كسبت أيديكم و قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس معايبكم وقال قتادة عملكم عند الله و فى رواية غير على عملكم عند الله و لكنكم{قَوْمٌ تُفْتَنُونَ}النمل٤٧ أي

تبتلون بطاعة الله و معصيته رواهما ابن أبي حاتم و غيره و عن ابن إسحاق قال قالت الرسل {طَائِرُكُمْ مَعَكُم}يس١٩ أي أعمالكم فقد فسروا الطائر بالأعمال و جزائها لأنهم كانوا يقولون إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل و أتباعهم فبين الله سبحانه أن طائرهم و هو الأعمال و جزاؤها هو عند الله و هو معهم فهو معهم لأن أعمالهم و ما قدر من جزائها معهم كما قال تعالى و {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ}الإسراء١٣ و هو من الله لأن الله تعالى قدر تلك المصائب بأعمالهم فمن عنده تتنزل عليهم المصائب جزاء على أعمالهم لا بسبب الرسل و أتباعهم و فى هذا يقال إنهم إنما يجزون بأعمالهم لا بأعمال غيرهم و لذلك قال فى هذه الآية لما كان المنافقون و الكفار و من فى قلبه مرض يقول هذا الذي أصابنا هو بسبب ما جاء به محمد عقوبة دينية وصل إلينا بين سبحانه أن ما أصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم ففى هذا رد على من أعرض عن طاعة الرسول صلى الله عليه و سلم لئلا تصيبه تلك المصائب و على من انتسب الى الايمان بالرسول و نسبها إلى فعل ما جاء به الرسول و على من أصابته مع كفره بالرسول و نسبها إلى ما جاء به الرسول والمقصود أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم ليس سببا لشيء من المصائب و لا تكون طاعة الله و رسوله قط سببا لمصيبة بل طاعة الله و الرسول لا تقتضى إلا جزاء أصحابها بخيري الدنيا و الآخرة و لكن قد تصيب المؤمنين بالله و رسوله مصائب بسبب ذنوبهم لا بما اطاعوا فيه الله و الرسول كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم لا بسبب طاعتهم الله و رسوله صلى الله عليه و سلم و كذلك ما ابتلوا به فى السراء و الضراء و الزلزال ليس هو بسبب نفس إيمانهم و طاعتهم لكن امتحنوا به ليتخلصوا مما فيهم من الشر و فتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ليتميز طيبه من خبيثه و النفوس فيها شر و الامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذى فى نفسه قال تعالى {وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {١٤٠} وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ{١٤١}آل عمران١٤٠ -١٤١و قال تعالى {وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ}آل عمران١٥٤ و لهذ قال صالح عليه السلام لقومه {طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ}النمل٤٧ و لهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين و بالصبر عليها ترتفع درجاتهم و ما أصابهم فى الجهاد من مصائب بأيدي العدو فانه يعظم أجرهم بالصبر عليها و فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم قال ما من غازية يغزون فى سبيل الله فيسلمون و يغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم و إن أصيبوا و أخفقوا تم لهم أجرهم و أما ما يلحقهم من الجوع و العطش و التعب فذاك يكتب لهم به عمل صالح كما قال تعالى

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}التوبة١٢٠ و شواهد هذا كثيرة والمقصود أن قوله {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ فانهم جعلوا ما يصيبهم من المصائب بسبب ما جاءهم به الرسول و كانوا يقولون النعمة التى تصيبنا هى من عند الله و المصيبة من عند محمد أي بسبب دينه و ما أمر به فقال تعالى قل هذا و هذا من عند الله لامن عند محمد محمد لا يأتي لا بنعمة و لا بمصيبة ولهذا قال بعد هذا {فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً}النساء٧٨قال السدى و غيره هو القرآن فان القرآن إذا هم فقهوا ما فيه تبين لهم أنه إنما أمرهم بالخير و العدل و الصدق و التوحيد لم يأمرهم بما يكون سببا للمصائب فانهم إذا فهموا ما فى القرآن علموا أنه لا يكون سببا للشر مطلقا وهذا مما يبين أن ما أمر الله به يعلم بالأمر به حسنه و نفعه و أنه مصلحة للعباد و ليس كما يقول من يقول قد يأمر الله العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه بل فيه مضرة لهم فانه لو كان كذلك لكان قد يصدقه المتطيرون بالرسل و أتباعهم ومما يوضح ذلك أنه لما قال {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء ٧٩ قال بعدها {وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً}النساء٧٩ فانه شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات و المعجزات و إذا شهد الله له كفى به شهيدا و لم يضره جحد هؤلاء لرسالته بما ذكروه من الشبه التى هى عليهم لا لهم بما أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم و عقوباتهم حجة على إ بطال رسالته و الله تعالى قد شهد له أنه أرسله للناس رسولا فكان ختم الكلام بهذا إبطالا لقولهم إن المصائب من عند الرسول و لهذا قال بعد هذا {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً}النساء٨٠ وكان فيما ذكره ابطال لقول الجهمية المجبرة و نحوهم ممن يقول ان الله قد يعذب العباد بلا ذنب و أنه قد يأمر العباد بما لا ينفعهم بل بما يضرهم فان فعلوا ما أمرهم به حصل لهم الضرر و ان لم يفعلوه عاقبهم يقولون هذا و مثله و يزعمون أن هذا لأنه يفعل ما يشاء والقرآن يرد على هؤلاء من و جوه كثيرة كما يرد على المكذبين بالقدر فالآية ترد على هؤلاء و هؤلاء كما تقدم مع احتجاج الفريقين بها و هى حجة على الفريقين فان قال نفاة القدر انما قال فى الحسنة هى من الله و في السيئة هى من نفسك لأنه يأمر بهذا و ينهى عن هذا باتفاق المسلمين قالوا و نحن نقول المشيئة ملازمة للأمر فما أمر به فقد شاءه و ما لم يأمر به لم يشأه فكانت مشيئته و أمره حاضة على الطاعة دون المعصية فلهذا كانت هذه منه دون هذه قيل أما الآية فقد تبين أن الذين قالوا الحسنة من عند

الله و السيئة من عندك أرادوا من عندك يامحمد أي بسبب دينك فجعلوا رسالة الرسول هي سبب المصائب و هذا غير مسألة القدر وإذا كان قد أريد ان الطاعة و المعصية مما قد قيل كان قوله {كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ حجة عليكم كما تقدم وقوله بعد هذا {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ لا ينافي ذلك بل الحسنة أنعم الله بها و بثوابها و السيئة هي من نفس الانسان ناشئة و ان كانت بقضائه و قدره كما قال تعالى {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ}الفلق٢ فمن المخلوقات ماله شر و ان كان بقضائه و قدره وانتم تقولون الطاعة و المعصية هما من احداث الانسان بدون أن يجعل الله هذا فاعلا و هذا فاعلا و بدون أن يخص الله المؤمن بنعمة و رحمة أطاعه بها و هذا مخالف للقرآن فان قيل إذا كانت الطاعات و المعاصي مقدرة و النعم و المصائب مقدرة فلم الفرق بين الحسنات التى هي النعم و السيئات التى هي المصائب فجعل هذه من الله و هذه من نفس الانسان قيل لفروق بينهما الفرق الأول ان نعم الله و احسانه الى عباده يقع ابتداء بلا سبب منهم أصلا فهو ينعم بالعافية و الرزق و النصر و غير ذلك على من لم يعمل خيرا قط و ينشىء للجنة خلقا يسكنهم فضول الجنة و قد خلقهم في الآخرة لم يعملوا خيرا و يدخل أطفال المؤمنين و مجانينهم الجنة برحمته بلا عمل و أما العقاب فلا يعاقب أحدا إلا بعمله الفرق الثانى أن الذي يعمل الحسنات إذا عملها فنفس عمله الحسنات هو من إحسان الله و بفضله عليه بالهداية و الايمان كما قال أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ}الأعراف٤٣ وفى الحديث الصحيح ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه فنفس خلق الله لهم أحياء و جعله لهم السمع و الأبصار و الأفئدة هو من نعمته و نفس إرسال الرسول إليهم و تبليغه البلاغ المبين الذي اهتدوا به هو من نعمته وإلهامهم الايمان و هدايتهم إليه و تخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الايمان دون الكافرين هو من نعمته كما قال تعالى {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ{٧} فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً {٨} الحجرات٧ -٨ فجميع ما يتقلب فيه العالم من خيرى الدنيا و الآخرة هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقا و لا حول و لاقوة لهم من أنفسهم إلا به و هو خالق نفوسهم وخالق أعمالها الصالحة و خالق الجزاء فقوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ}النساء٧٩ حق من كل وجه ظاهرا و باطنا على مذهب أهل السنة وأما السيئة فلا تكون إلا بذنب العبد و ذنبه من نفسه و هو لم يقل إني لم أقدر ذلك و لم أخلقه بل ذكر للناس ما ينفعهم فصل فاذا تدبر العبد علم أن ما هو فيه من

الحسنات من فضل الله فشكر الله فزاده الله من فضله عملا صالحا و نعما يفيضها عليه وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه استغفر و تاب فزال عنه سبب الشر فيكون العبد دائما شاكرا مستغفرا فلا يزال الخير يتضاعف له و الشر يندفع عنه كما كان النبى صلى الله عليه و سلم يقول في خطبته الحمد لله فيشكر الله ثم يقول نستعينه و نستغفره نستعينه على الطاعة و نستغفره من المعصية ثم يقول و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا فيستعيذ به من الشر الذي في النفس و من عقوبة عمله فليس الشر إلا من نفسه و من عمل نفسه فيستعيذ الله من شر النفس أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا ثم إذا عمل استعاذ بالله من سيئات عمله و من عقوبات عمله فاستعانه على الطاعة و أسبابها و استعاذ به من المعصية و عقابها فعلم العبد بأن ما أصابه من حسنة فمن الله و ما أصابه من سيئة فمن نفسه يوجب له هذا و هذا فهو سبحانه فرق بينهما هنا بعد أن جمع بينهما في قوله {كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ فبين أن الحسنات و السيئات النعم و المصائب و الطاعات و المعاصي على قول من أدخلها فى {مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ ثم بين الفرق الذي ينتفعون به و هو أن هذا الخير من نعمة الله فاشكروه يزدكم و هذا الشر من ذنوبكم فاستغفروه يدفعه عنكم قال الله تعالى {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}الأنفال٣٣ و قال تعالى {الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ{١} أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ{٢} وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ {٣} هود١-٣ والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسى بالسعداء من الأنبياء و المؤمنين كآدم و غيره و إذا أصر و احتج بالقدر فقد تأسى بالأشقياء كابليس و من اتبعه من الغاوين فكان من ذكره أن السيئة من نفس الانسان بذنوبه بعد أن ذكر أن الجميع من عند الله تنبيها على الاستغفار و التوبة و الاستعاذة بالله من شر نفسه و سيئات عمله و الدعاء بذلك فى الصباح و المساء و عند المنام كما أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بذلك أبا بكر الصديق أفضل الأمة حيث علمه أن يقول اللهم فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان و شركه و أن أقترف على نفسي سوءا و أو أجره إلى مسلم فيستغفر مما مضى و يستعيذ مما يستقبل فيكون من حزب السعداء وإذا علم أن الحسنة من الله الجزاء و العمل سأله أن يعينه على فعل الحسنات بقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة٥ و بقوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}الفاتحة٦ و قوله {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا}آل عمران٨ و نحو ذلك وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط و لم يذكر الفرق فانه يحصل من هذا التسوية

فأعرض العاصي و المذنب عن ذم نفسه و عن التوبة من ذنوبها و الأستعاذة من شرها بل و قام فى نفسه أن يحتج على الله بالقدر و تلك حجة داحضة لا تنفعه بل تزيده عذابا و شقاء كما زادت إبليس لما {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ}الأعراف١٦ و قال {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}الحجر٣٩ و كالذين يقولون يوم القيامة {لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}الزمر٥٧ وكالذين قالوا {لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ك}الأنعام١٤٨ فمن احتج بالقدر على ما فعله من ذنوبه و أعرض عما أمر الله به من التوبة و الاستغفار و الاستعانة بالله و الاستعاذة به و استهدائه كان من أخسر الناس فى الدنيا و الآخرة فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجمع الفرق الثالث أن الحسنة يضاعفها الله و ينميها و يثيب على الهم بها و السيئة لا يضاعفها و لا يؤاخذ على الهم بها فيعطى صاحب الحسنة من الحسنات فوق ما عمل و صاحب السيئة لا يجزيه إلا بقدر عمله قال تعالى {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}الأنعام١٦٠ الفرق الرابع أن الحسنة مضافة إليه لأنه أحسن بها من كل وجه كما تقدم فما من و جه من و جوهها إلا و هو يقتضي الاضافة إليه وأما السيئة فهو إنما يخلقها بحكمة و هى باعتبار تلك الحكمة من احسانه فان الرب لا يفعل سيئة قط بل فعله كله حسن و حسنات و فعله كله خير ولهذا كان النبى صلى الله عليه و سلم يقول فى دعاء الاستفتاح و الخير بيديك و الشر ليس اليك فإنه لا يخلق شرا محضا بل كل ما يخلقه ففيه حكمة هو باعتبارها خير و لكن قد يكون فيه شر لبعض الناس و هو شر جزئي اضافي فإما شر كلي أوشر مطلق فالرب منزه عنه و هذا هوالشر الذي ليس اليه وأما الشر الجزئى الاضافى فهوخير باعتبار حكمته و لهذا لا يضاف الشر إليه مفردا قط بل اما أن يدخل فى عموم المخلوقات كقوله {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}الأنعام١٠١ {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}الفرقان٢ واما أن يضاف الى السبب كقوله {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ}الفلق٢ واما أن يحذف فاعله كقول الجن {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً}الجن١٠ وهذا الموضع ضل فيه فريقان من الناس الخائضين فى القدر بالباطل فرقة كذبت بهذا و قالت انه لا يخلق أفعال العباد و لا يشاء كل ما يكون لأن الذنوب قبيحة و هولا يفعل القبيح و ارادتها قبيحة و هولا يريد القبيح وفرقة لما رأت أنه خالق هذا كله و لم تؤمن أنه خلق هذا لحكمة بل قالت إذا كان يخلق هذا فيجور أن يخلق كل شر و لا يخلق شيئا لحكمة وما ثم فعل تنزه عنه بل كل ما كان ممكنا جاز أن يفعله وجوزوا أن يأمر بكل كفر و معصية و ينهى عن كل ايمان و طاعة و صدق و عدل و أن يعذب الأنبياء و ينعم الفراعنة و المشركين و غير ذلك و

لم يفرقوا بين مفعول و مفعول و هذا منكر من القول و زور كالأول قال تعالى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ}الجاثية٢١ و قال تعالى {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ{٣٥} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{٣٦}القلم٣٥ -٣٦ و قال تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}ص٢٨ و نحو ذلك مما يوجب أنه يفرق بين الحسنات و السيئات و بين المحسن و المسيء و أن من جوز عليه التسوية بينهما فقد أتى بقول منكر و زور ينكر عليه وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لايكون فيه حكمة بل فيه من الحكمة و الرحمة ما يخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله وليس إذا و قع فى المخلوقات ما هو شر جزئي بالاضافة يكون شرا كليا عاما بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيرا و مصلحة للعباد كالمطر العام و كارسال رسول عام وهذا مما يقتضى أنه لا يجوز أن يؤيد الله كذابا عليه بالمعجزات التى أيد بها أنبياءه الصادقين فان هذا شر عام للناس يضلهم و يفسد عليهم دينهم و دنياهم و آخرتهم وليس هذا كالملك الظالم و العدو فإن الملك الظالم لابد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه وقد قيل ستون سنة بامام ظالم خير من ليلة و احدة بلا إمام وإذا قدر كثرة ظلمه فذاك ضرر في الدين كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم و يثابون عليها و يرجعون فيها إلى الله و يستغفرونه و يتوبون اليه و كذلك ما يسلط عليهم من العدو و أما من يكذب على الله و يقول أي يدعى أنه نبى فلو أيده الله تأييد الصادق للزم أن يسوى بينه و بين الصادق فيستوى الهدى و الضلال و الخير و الشر و طريق الجنة و طريق النار و يرتفع التمييز بين هذا و هذا و هذا مما يوجب الفساد العام للناس فى دينهم و دنياهم و آخرتهم ولهذا أمر النبى صلى الله عليه و سلم بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع كالخوارج و أمر بالصبر على جور الأئمة و نهى عن قتالهم و الخروج عليهم و لهذا قد يمكن الله كثيرا من الملوك الظالمين مدة وأما المتنبؤن الكذابون فلا يطيل تمكينهم بل لابد أن يهلكهم لأن فسادهم عام في الدين و الدينا و الآخرة قال تعالى {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ{٤٤} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ{٤٥} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ{٤٦} الحاقة٤٤-٤٦ و قال تعالى {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}الشورى٢٤ فأخبر أنه بتقدير الافتراء لابد أن يعاقب من افترى عليه وهذا الموضع مما اضطرب فيه الناس فاستدلت القدرية النفاة و المجبرة على أنه إذا جاز أن يضل شخصا جاز أن يضل كل الناس و إذا جاز أن يعذب حيوانا بلا ذنب و لا عوض جاز أن يعذب كل حي بلا ذنب و لا عوض و إذا

جاز عليه أن لا يعين و احدا ممن أمره على طاعة أمره جاز أن لا يعين كل الخلق فلم يفرق الطائفتان بين الشر الخاص و العام و بين الشر الاضافي و الشر المطلق و لم يجعلوا فى الشر الاضافى حكمة يصير بها من قسم الخير ثم قال النفاة و قد علم أنه منزه عن تلك الأفعال فانا لو جوزنا عليه هذا لجوزنا عليه تأييد الكذاب بالمعجزات و تعذيب الأنبياء و إكرام الكفار و غير ذلك مما يستعظم العقلاء إضافته إلى الله تعالى فقالت المثبتة من الجهمية المجبرة بل كل الأفعال جائزة عليه كما جاز ذلك الخاص و إنما يعلم أنه لا يفعل بما لا يفعل أويفعل ما يفعل بالخبر خبر الأنبياء عنه و إلا فمهما قدر جاز أن يفعله و جاز أن لا يفعله ليس فى نفس الأمر سبب و لا حكمة و لا صفة تقتضي التخصيص ببعض الأفعال دون بعض بل ليس إلا مشيئة نسبتها إلى جميع الحوداث سواء ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح فقيل لهم فيجوز تأييد الكذاب بالمعجز فلا يبقى المعجز دليلا على صدق الأنبياء فلا يبقى خبر نبى يعلم به الفرق فيلزم مع الكفر بالأنبياء أن لا يعلم الفرق لا بسمع و لا بعقل فاحتالوا للفرق بين المعجزات و غيرها بأن تجويز إتيان الكذاب بالمعجزات يستلزم تعجيز الباري تعالى عما به يفرق بين الصادق و الكاذب أولأن دلالتها على الصدق معلوم بالاضطرار كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع و بين خطأ الطائفتين و أن هؤلاء الذين اتبعوا جهما في الجبر و نفوا حكمة الله و رحمته و الأسباب التى بها يفعل و ما خلقه من القوى و غيرها هم مبتدعة مخالفون للكتاب و السنة و إجماع السلف مع مخالفتهم لصريح المعقول كما أن القدرية النفاة مخالفون للكتاب و السنة و إجماع السلف مع مخالفتهم لصريح المعقول والمقصود هنا الكلام على قوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} النساء٧٩ و أن هذا يقتضي أن العبد لا يزال شاكرا مستغفرا وقد ذكر أن الشر لا يضاف إلى الله إلا على أحد الوجوه الثلاثة و قد تضمنت الفاتحة للأقسام الثلاثة هو سبحانه الرحمن الذي و سعت رحمته كل شيء و فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد سبقت و غلبت رحمته غضبه و هو الغفور الودود الحليم الرحيم فارادته أصل كل خير و نعمة و كل خير و نعمة فمنه {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ} النحل٥٣ وقد قال سبحانه {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} الحجر٤٩ ثم قال {وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ} الحجر٥٠ و قال تعالى {اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} المائدة٩٨ فالمغفرة و الرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه فهي من موجب نفسه المقدسة و مقتضاها و لوازمها وأما العذاب فمن مخلوقاته الذي خلقه بحكمة هو باعتبارها حكمة و رحمة فالانسان لا يأتيه الخير إلا من ربه و إحسانه و جوده و

لا يأتيه الشر إلا ممن نفسه فما أصابه من حسنة فمن الله و م أصابه من سيئة فمن نفسه وقوله و {مَّا أَصَابَكَ}النساء٧٩ إما أن تكون كاف الخطاب له صلى الله عليه و سلم كما قال ابن عباس و غيره و هو الأظهر لقوله بعد ذلك {وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً}النساء٧٩ وإما أن تكون لكل و احد و احد من الآدميين كقوله يأيها الانسان ماغرك بربك الكريم لكن هذا ضعيف فانه لم يتقدم هنا ذكر الانسان و لا مكانه و إنما تقدم ذكر طائفة قالوا ماقالوه فلو أريد ذكرهم لقيل ما أصابهم من حسنة فمن الله و ما أصابهم من سيئة لكن خوطب الرسول بهذا لأنه سيد ولد آدم و إذا كان هذا حكمه كان هذا حكم غيره بطريق الأولى و الأحرى كما فى مثل قوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}الأحزاب١ و قوله تعالى {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}الزمر٦٥ و قوله {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ}يونس٩٤ ثم هذا الخطاب نوعان نوع يختص لفظه به لكن يتناول غيره بطريق الأولى كقوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ}التحريم١ ثم قال {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}التحريم٢ ونوع قد يكون خطابه خطابا به لجميع الناس كما يقول كثير من المفسرين الخطاب له و المراد غيره وليس المعنى أنه لم يخاطب بذلك بل هو المقدم فالخطاب له خطاب لجميع الجنس البشري و إن كان هو لا يقع منه ما نهى عنه و لا يترك ما أمر به بل هذا يقع من غيره كما يقول ولي الأمر للأمير سافر غدا إلى المكان الفلاني أى أنت و من معك من العسكر و كما ينهى أعز من عنده عن شيء فيكون نهيا لمن دونه و هذا معروف من الخطاب فقوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ الخطاب له صلى الله عليه و سلم و جميع الخلق داخلون فى هذا الخطاب بالعموم و بطريق الأولى بخلاف قوله {وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً}النساء٧٩ فان هذا له خاصة و لكن من يبلغ عنه يدخل في معنى الخطاب كما قال صلى الله عليه و سلم بلغوا عني و لو آية و قال نضر الله امراء سمع منا حديثا فبغله إلى من لم يسمعه و قال ليبلغ الشاهد الغائب و قال إن العلماء ورثة الأنبياء و قد قال تعالى فى القرآن {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ}الأنعام١٩ والمقصود هنا أن الحسنة مضافة اليه سبحانه من كل و جه و السيئة مضافة اليه لأنه خلقها كما خلق الحسنة فلهذا قال {كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ ثم إنه إنما خلقها لحكمة و لا تضاف اليه من جهة أنها سيئة بل تضاف إلى النفس التى تفعل الشر بها لا لحكمة فتستحق أن يضاف الشر و السيئة اليها فانها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيرا يكون فعله لأجله أرجح بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات و لهذا

كان فعل الله حسنا لا يفعل قبيحا و لا سيئا قط وقد دخل فى هذا سيئات الجزاء و العمل لأن المراد بقوله ما أصابك من حسنة و من سيئة النعم و المصائب كما تقدم لكن إذا كانت المصيبة من نفسه لأنه أذنب فالذنب من نفسه بطريق الأولى فالسيئات من نفسه بلا ريب و إنما جعلها منه مع الحسنة بقوله {كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ كما تقدم لأنها لا تضاف إلى الله مفردة بل إما فى العموم كقوله {كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ وكذلك الأسماء التى فيها ذكر الشر لاتذكر إلا مقرونة كقولنا الضار النافع المعطي المانع المعز المذل أو مقيدة كقوله {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ}السجدة٢٢ و كل ما خلقه مما فيه شر جزئي إضافى ففيه من الخير العام و الحكمة و الرحمة أضعاف ذلك مثل إرسال موسى إلى فرعون فانه حصل به التكذيب و الهلاك لفرعون و قومه و ذلك شر بالاضافة اليهم لكن حصل به من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة و الاعتبار بقصة فرعون ما هو خير عام فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استبصر به كما قال تعالى {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ{٥٥} فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ{٥٦} الزخرف٥٥-٥٦ و قال تعالى بعد ذكر قصته {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى}النازعات٢٦ وكذلك محمد صلى الله عليه و سلم شقي برسالته طائفة من مشركي العرب و كفار أهل الكتاب و هم الذين كذبوه و أهلكهم الله تعالى بسببه و لكن سعد بها أضعاف هؤلاء ولذلك من شقى به من أهل الكتاب كانوا مبدلين محرفين قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه و سلم فأهلك الله بالجهاد طائفة و اهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك و الذين أذلهم الله من أهل الكتاب بالقهر و الصغار أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصغار فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم لئلا يعظم كفرهم و يكثر شرهم ثم بعدهم حصل من الهدى و الرحمة لغيرهم مالا يحصيهم إلا الله و هم دائما يهتدى منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة و اليد فالمصلحة بارساله و إعزازه و إظهار دينه فيها من الرحمة التى حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ماحصل بذلك لبعض الناس من شر جزئي إضافى لما فى ذلك من الخير و الحكمة أيضا إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شر محض أصلا بل هو شر بالاضافة الفرق الخامس أن ما يحصل للانسان من الحسنات التى يعملها كلها أمور وجودية أنعم الله بها عليه و حصلت بمشيئة الله و رحمته و حكمته و قدرته و خلقه ليس فى الحسنات أمر عدمي غير مضاف إلى الله بل كلها أمر وجودي و كل موجود و حادث فالله هو الذي يحدثه و ذلك أن الحسنات إما فعل مأمور به أو ترك منهى عنه و الترك أمر و جودي فترك الانسان لما نهى عنه و معرفته بأنه ذنب قبيح و بأنه سبب للعذاب و بغضه و كراهته له و منع نفسه منه إذا هويته و اشتهته و طلبته كل هذه أمور وجودية كما أن معرفته

بأن الحسنات كالعدل و الصدق حسنة و فعله لها أمور وجودية ولهذا إنما يثاب الانسان على فعل الحسنات إذا فعلها محبا لها بنية و قصد فعلها ابتغاء وجه ربه و طاعة لله و لرسوله و يثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها و الامتناع منها قال تعالى {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}الحجرات٧ و قال تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى {٤٠} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{٤١}النازعات٤٠-٤١ و قال تعالى{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}العنكبوت٤٥ وفى الصحيحين عن أنس عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله و رسوله أحب إليه مما سواهما و من كان يحب المرء لا يحبه إلا لله و من كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذا أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار وفى السنن عن البراء بن عازب عن النبى صلى الله عليه و سلم أوثق عرى الايمان الحب فى الله و البغض فى الله وفيها عن أبي أمامة عن النبى صلى الله عليه و سلم من أحب لله و أبغض لله و أعطى لله و منع لله فقد استكمل الايمان وفى الصحيح عن أبى سعيد الخدري عن النبى صلى الله عليه و سلم قال من رأي منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه و ذلك أضعف الايمان وفى الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه لما ذكر الخلوف قال من جاهدهم بيده فهو مؤمن و من جاهدهم بلسانه فهو مؤمن و من جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل و قد قال تعالى {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}الممتحنة٤ وقال على لسان الخليل {إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{٢٦} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{٢٧} الزخرف ٢٦-٢٧ و {قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{٧٥} أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ{٧٦} فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ{٧٧}الشعراء٧٥-٧٧ و قال {فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ{٧٨} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{٧٩}}الأنعام٧٨-٧٩ وهذا البغض و العداوة و البراءة مما يعبد من دون الله و من عابديه هي أمور موجودة فى القلب و على اللسان و الجوارح كما أن حب الله و موالاته و موالاة أوليائه أمور موجودة فى القلب و على اللسان و الجوارح و هى تحقيق قول لا إله إلا الله و هو إثبات تأليه القلب لله حبا خالصا و ذلا صادقا و منع تأليهه لغير الله وبغض ذلك وكراهته فلا يعبد الا الله ويحب أن يعبده ويبغض

عبادة غيره و يحب التوكل عليه و خشيته و دعاءه و يبغض التوكل على غيره و خشيته و دعاءه فهذه كلها أمور موجودة فى القلب وهى الحسنات التى يثيب الله عليها وأما مجرد عدم السيئات من غير أن يعرف أنها سيئة و لا يكرهها بل لا يفعلها لكونها لم تخطر بباله أو تخطر كما تخطر الجمادات التى لا يحبها و لا يبغضها فهذا لا يثاب على عدم ما يفعله من السيئات و لكن لا يعاقب أيضا على فعلها فكأنه لم يفعلها فهذا تكون السيئات فى حقه بمنزلتها فى حق الطفل و المجنون و البهيمة لا ثواب و لا عقاب ولكن إذا قامت عليه الحجة بعلمه تحريمها فان لم يعتقد تحريمها و يكرهها و الا عوقب على ترك الايمان بتحريمها وقد تنازع الناس في الترك هل هو أمر و جودي أو عدمي و الأكثرون على أنه وجودي و قالت طائفة كأبي هاشم بن الجبائي إنه عدمي و أن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل لا على ترك يقوم بنفسه و يسمون المذمية لأنهم رتبوا الذم على العدم المحض والأكثرون يقولون الترك أمر وجودي فلا يثاب من ترك المحظور إلا على ترك يقوم بنفسه و تارك المأمور إنما يعاقب على ترك يقوم بنفسه و هو أن يأمره الرسول صلى الله عليه و سلم بالفعل فيمتنع فهذا الامتناع أمر وجودي و لذلك فهو يشتغل عما أمر به بفعل ضده كما يشتغل عن عبادة الله و حده بعبادة غيره فيعاقب على ذلك ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده فلابد أن يكون عابدا لغيره يعبد غيره فيكون مشركا و ليس في بني آدم قسم ثالث بل إما موحد أو مشرك أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل النصارى و من أشبههم من الضلال المنتسبين الى الاسلام قال الله تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ{٩٨} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{٩٩} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{١٠٠}النحل٩٨-١٠٠ و قد قال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}الحجر٤٢ لما قال إبليس {لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠}الحجر٣٩-٤٠ قال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}الحجر٤٢ فابليس لا يغوي المخلصين و لا سلطان له عليهم إنما سلطانه على الغاوين و هم الذين يتولونه و هم الذين به مشركون وقوله {إِ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ}النحل١٠٠ صفتان لموصوف واحد فكل من تولاه فهو به مشرك و كل من أشرك به فقد تولاه قال تعالى {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١}يس٦٠-٦١ وكل من عبد غير الله فانما يعبد الشيطان و ان كان يظن أنه يعبد الملائكة و الأنبياء و قال تعالى {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ {٤٠}

قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ{٤١}سبأ٤٠-٤١ و لهذا تتمثل الشياطين لمن يعبد الملائكة و الأنبياء و الصالحين و يخاطبونهم فيظنون أن الذى خاطبهم ملك أو نبى أو ولي و انما هو شيطان جعل نفسه ملكا من الملائكة كما يصيب عباد الكواكب و أصحاب العزائم و الطلسمات يسمون أسماء يقولون هي أسماء الملائكة مثل منططرون و غيره وانما هي أسماء الجن وذلك الذين يدعون المخلوقين من الأنبياء و الأولياء و الملائكة قد يتمثل لأحدهم من يخاطبه فيظنه النبى أو الصالح الذي دعاه و انما هو شيطان تصور فى صورته أو قال أنا هو لمن لم يعرف صورة ذلك المدعو وهذا كثير يجري لمن يدعو المخلوقين من النصارى و من المنتسبين الى الاسلام يدعونهم عند قبورهم أو مغيبهم و يستغيثون بهم فيأتيهم من يقول انه ذلك المستغاث به فى صورة آدمي اما راكبا و اما غير راكب فيعتقد المستغيث أنه ذلك النبى و الصالح أو انه سره أو روحانيته أو رقيقته أو المعنى تشكل أو يقول انه ملك جاء على صورته و انما هو شيطان يغويه لكونه أشرك بالله و دعا غيره الميت فمن دونه فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك فظن أنه يدعو النبى أو الصالح أو الملك و أنه هو الذي شفع له أو هو الذي أجاب دعوته و انما هو الشيطان ليزيده غلوا فى كفره و ضلاله فكل من لم يعبد الله مخلصا له الدين فلابد أن يكون مشركا عابدا لغير الله و هو فى الحقيقة عابد للشيطان فكل واحد من بني آدم اما عابد للرحمن واما عابد للشيطان قال تعالى {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ {٣٦} وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ{٣٧} حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ{٣٨} وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ{٣٩}الزخرف٣٦ -٣٩ و قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}الحج١٧ فبنو آدم منحصرون فى الأصناف الستة و بسط هذا له موضع آخر والمقصود هنا أن الثواب و العقاب إنما يكون على عمل وجودي بفعل الحسنات كعبادة الله وحده و ترك السيئات كترك الشرك أمر وجودي و فعل السيئات مثل ترك التوحيد و عبادة غير الله أمر و جودي قال تعالى {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}القصص٨٤ و قال تعالى {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}الإسراء٧ و قال تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا}فصلت٤٦ و قال تعالى {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {٢٦} وَالَّذِينَ كَسَبُواْ

السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{٢٧}يونس٢٦-٢٧ و قال تعالى {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون}الروم١٠ فأما عدم الحسنات و السيئات فجزاؤه عدم الثواب و العقاب وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملا و بقي مدة لا يفعل كثيرا من المحرمات و لا سمع أنها محرمة فلم يعتقد تحريمها مثل من آمن و لم يعلم أن الله حرم الميتة و الدم و لحم الخنزير و لا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف و لاحرم بالمصاهرة أربعة أصناف حرم على كل من الزوجين أصول الآخر و فروعه فاذا آمن و لم يفعل هذه المحرمات و لا اعتقد تحريمها لأنه لم يسمع ذلك فهذا لا يثاب و لا يعاقب ولكن إذا علم التحريم فاعتقده أثيب على اعتقاده و إذا ترك ذلك مع دعاء النفس إليه أثيب ثوابا آخر كالذي تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها كالصائم الذي تشتهي نفسه الأكل و الجماع فينهاها و الذي تشتهي نفسه شرب الخمر و الفواحش فينهاها فهذا يثاب ثوابا آخر بحسب نهيه لنفسه و صبره على المحرمات و اشتغاله بالطاعات التى هي ضدها فاذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات و إذا تبين هذا فالحسنات التى يثاب عليها كلها وجودية نعمة من الله تعالى و ما أحبته النفس من ذلك و كرهته من السيئات فهو الذي حبب الايمان إلى المؤمنين و زينه في قلوبهم و كره اليهم الكفر و الفسوق و العصيان وأما السيئات فمنشؤها الجهل و الظلم فان أحدا لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة أو لهواه و ميل نفسه إليها ولا يترك حسنة و اجبة إلا لعدم علمه بوجوبها أو لبغض نفسه لها وفى الحقيقة فالسيئات كلها ترجع الجهل و إلا فلو كان عالما علما نافعا بأن فعل هذا يضره ضررا راجحا و لم يفعله فان هذا خاصية العاقل و لهذا إذا كان من الحسنات ما يعلم أنه يضره ضرارا راجحا كالسقوط من مكان عال أو في نهر يغرقه أو المرور بجنب حائط مائل أو دخول نار متأججة أو رمي ماله فى البحر و نحو ذلك لم يفعله لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه و من لم يعلم أن هذا يضره كالصبى و المجنون و الساهي و الغافل فقد يفعل ذلك و من أقدم على مايضره مع علمه بما فيه من الضرر عليه فلظنه أن منفعته راجحة فاما أن يجزم بضرر مرجوح أو يظن أن الخير راجح فلابد من رجحان الخير إما فى الظن و إما فى المظنون كالذي يركب البحر و يسافر الأسفار البعيدة للربح فإنه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر لما سافر لكنه يترجح عنده السلامة و الربح و إن كان مخطئا فى هذا الظن وكذلك الذنوب إذا جزم السارق بأنه يؤخذ و يقطع لم يسرق و كذلك الزاني إذا جزم بأنه يرجم لم يزن و الشارب يختلف حاله فقد يقدم على جلد أربعين و ثمانين و يديم الشرب مع ذلك و لهذا

كان الصحيح أن عقوبة الشارب غير محدودة بل يجوز أن تنتهي إلى القتل إذا لم ينته إلا بذلك كما جاءت بذلك الأحاديث كما هو مذكور فى غير هذا الموضع وكذلك العقوبات متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله بل إما أن لا يكون جازما بتحريمه أو يكون غير جازم بعقوبته بل يرجو العفو بحسنات أو توبة أو بعفو الله أو يغفل عن هذا كله و لا يستحضر تحريما و لا وعيدا فيبقى غافلا غير مستحضر للتحريم و الغفلة من أضداد العلم فالغفلة و الشهوة أصل الشر قال تعالى {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}الكهف٢٨ و الهوى و حده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل و إلا فصاحب الهوى إذا علم قطعا أن ذلك يضره ضررا راجحا انصرفت نفسه عنه بالطبع فان الله تعالى جعل فى النفس حبا لما ينفعها و بغضا لما يضرها فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضررا راجحا بل متى فعلته كان لضعف العقل ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل و ذو نهى و ذو حجى ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان لامن مجرد النفس فان الشيطان يزين لها السيئات و يأمرها بها و يذكر لها ما فيها من المحاسن التى هي منافع لامضار كما ابليس بآدم و حواء فقال {يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى {١٢٠} فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا {١٢١}طه١٢٠-١٢١ {وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}الأعراف٢٠ ولهذا قال تعالى {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ {٣٦} وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ{٣٧}الزخرف٣٦ -٣٧ و قال تعالى {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً}فاطر٨ و قال تعالى {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}الأنعام١٠٨ وقوله {زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}الأنعام١٠٨ هو بتوسيط تزيين الملائكة و الأنبياء و المؤمنين للخير و تزيين شياطين الجن و الانس للشر قال تعالى {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}الأنعام١٣٧ فأصل ما يوقع الناس فى السيئات الجهل و عدم العلم بكونها تضرهم ضررا راجحا أو ظن أنها تنفعهم نفعا راجحا و لهذا قال الصحابة رضي الله عنهم كل من عصى الله فهو جاهل و فسروا بذلك قوله تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ}النساء١٧ كقوله {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}الأنعام٥٤ و لهذا يسمى حال فعل السيئات الجاهلية فانه يصاحبها حال من حال جاهلية قال ابو

العالية سألت اصحاب محمد صلى الله عليه و سلم عن هذه الآية {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ}النساء١٧ فقالوا كل من عصى الله فهو جاهل و من تاب قبيل الموت فقد تاب من قريب وعن قتادة قال اجمع اصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم على ان كل من عصى ربه فهو فى جهالة عمدا كان او لم يكن و كل من عصى الله فهو جاهل و كذلك قال التابعون و من بعدهم قال مجاهد من عمل ذنبا من شيخ أو شاب فهو بجهالة و قال من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته و قال ايضا هو إعطاء الجهالة العمد و قال مجاهد أيضا من عمل سوءا خطأ أو إثما عمدا فهو جاهل حتى ينزع منه رواهن ابن أبي حاتم ثم قال و روى عن قتادة و عمرو بن مرة و الثوري و نحو ذلك ذلك خطأ أو عمدا وروى عن مجاهد و الضحاك قالا ليس من جهالته أن لا يعلم حلالا و لا حراما و لكن من جهالته حين دخل فيه و قال عكرمة الدنيا كلها جهالة وعن الحسن البصري أنه سئل عنها فقال هم قوم لم يعلموا مالهم مما عليهم قيل له أرأيت لو كانوا قد علموا قال فليخرجوا منها فانها جهالة قلت و مما يبين ذلك قوله تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}فاطر٢٨ و كل من خشيه و أطاعه و ترك معصيته فهو عالم كما قال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}الزمر٩ و قال رجل للشعبى أيها العالم فقال إنما العالم من يخشى الله و قوله تعالى تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}فاطر٢٨ يقتضي أن كل من خشى الله فهو عالم فإنه لا يخشاه إلا عالم رضي الله عنه ويقتضي أيضا أن العالم من يخشى الله كما قال السلف قال ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار جهلا ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين حصر الأول في الثاني وهو مطرد وحصر الثاني في الأول نحو قوله {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ}يس١١ وقوله {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا}النازعات٤٥ وقوله {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ {١٥} تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ {١٦} لسجدة١٥ -١٦ وذلك أنه أثبت الخشية للعلماء ونفاها عن غيرهم وهذا كالاستثناء فإنه من النفي إثبات عند جمهور العلماء كقولنا لا إله إلا الله وقوله تعالى {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}الأنبياء٢٨ وقوله {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}سبأ٢٣ وقوله {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً}الفرقان٣٣ وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه لم يثبت له ما ذكر ولم ينف عنه وهؤلاء يقولون ذلك في صيغة الحصر بطريق الأولى فيقولون نفى الخشية عن غير العلماء

ولم يثبتها لهم و الصواب قول الجمهور أن هذا كقوله {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}الأعراف٣٣ فانه ينفي التحريم عن غير هذه الأصناف و يثبتها لها لكن أثبتها للجنس أو لكل و احد و احد من العلماء كما يقال إنما يحج المسلمون و لايحج إلا مسلم و ذلك أن المستثنى هل هو مقتض أو شرط ففي هذه الآية و أمثالها هو مقتض فهو عام فان العلم بما أنذرت به الرسل يوجب الخوف فاذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات و ترك السيئات و كل عاص فهو جاهل ليس بتام العلم يبين ما ذكرنا من أن أصل السيئات الجهل و عدم العلم و إذا كان كذلك فعدم العلم ليس شيئا موجودا بل هو مثل عدم القدرة و عدم السمع و البصر و سائر الاعدام والعدم لا فاعل له و ليس هو شيئا و إنما الشيء الموجود و الله تعالى خالق كل شيء فلا يجوز أن يضاف العدم المحض الى الله لكن قد يقترن به ما هو موجود فاذا لم يكن عالما بالله لا يدعوه الى الحسنات و ترك السيئات والنفس بطبعها متحولة فانها حية و الارادة و الحركة الارادية من لوازم الحياة و لهذا قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح أصدق الأسماء حارث و همام فكل آدمي حارث و همام أي عامل كاسب و هو همام أي يهم و يريد فهو متحرك بالارادة وقد جاء فى الحديث مثل القلب مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة و للقلب أشد تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانا فلما كانت الارادة و العمل من لوازم ذاتها فاذا هداها الله علمها ما ينفعها و ما يضرها فأرادت ما ينفعها و تركت ما يضرها والله سبحانه قد تفضل على بنى آدم بأمرين هما أصل السعادة أحدهما أن كل مولود يولد على الفطرة كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو نصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة اقرأوا إن شئتم {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}الروم٣٠ قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}الروم٣٠ وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبى صلى الله عليه و سلم قال يقول الله تعالى خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين و حرمت عليهم ما أحللت لهم و أمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالالهية محبة له تعبده لا تشرك به شيئا و لكن يفسدها ما يزين لها شياطين الانس و الجن بما يوحى بعضهم إلى بعض من الباطل قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ {١٧٢} أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً

مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ{١٧٣}الأعراف١٧٢ -١٧٣ وتفسير هذه الآية مبسوط فى غير هذا الموضع الثاني أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة و أسباب العلم و بما أنزل إليهم من الكتب و أرسل إليهم من الرسل قال تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{١} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{٤} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{٥}العلق ١-٥ و قال تعالى {الرَّحْمَنُ{١} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{٢} خَلَقَ الْإِنسَانَ{٣} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{٤} الرحمن١-٤ وقال تعالى {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{١} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{٢} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{٣}الاعلى١-٣ و قال تعالى {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}البلد١٠ ففي كل أحد ما يقتضي معرفته بالحق و محبته له وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى و الآخرة وجعل فى فطرته محبه لذلك لكن قد يعرض الانسان بجاهليته و غفلته عن طلب علم ما ينفعه و كونه لا يطلب ذلك و لايريده أمر عدمي لا يضاف إلى الله تعالى فلا يضاف إلى الله لاعدم علمه بالحق و لا عدم إرادته للخير لكن النفس كما تقدم الارادة و الحركة من لوازمها فانها حية حياة طبيعية لكن سعادتها و نجاتها إنما تتحقق بأن تحى الحياة النافعة الكاملة و كان مالها من الحياة الطبيعية موجبا لعذابها فلا هي حية متنعمة بالحياة و لا هي ميتة مستريحة من العذاب قال تعالى {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى{٩} سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{١٠} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{١١} الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى{١٢} ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى{١٣}الاعلى٩-١٣ فالجزاء من جنس العمل لما كان فى الدنيا ليس بحي الحياة النافعة التى خلق لأجلها بل كانت حياته من جنس حياة البهائم و لم يكن ميتا عديم الاحساس كان في الآخرة كذلك فان مقصود الحياة هو حصول ما ينتفع به الحي و يستلذ به و الحى لابد له من لذة أو ألم فاذا لم تحصل له اللذة لم يحصل له مقصود الحياة فان الألم ليس مقصودا كمن هو حي فى الدنيا و به أمراض عظيمة لا تدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به الأحياء فهذا يبقى طول حياته يختار الموت و لا يحصل له فلما كان من طبع النفس الملازم لها و جود الارادة و العمل إذ هو حارث همام فان عرفت الحق و أرادته و أحبته و عبدته فذلك من تمام إنعام الله عليها وإلا فهي بطبعها لابد لها من مراد معبود غير الله و مرادات سيئة تضرها فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله و لم تعبده و هذا عدم لا يضاف إلى فاعل و من كونها بطبعها لا بد لها من مراد معبود فعبدت غيره و هذا هو الشر الذي تعذت عليه و هو من مقتضى طبعها مع عدم هداها والقدرية يعترفون بهذا جميعه و بأن الله خلق الانسان مريدا لكن يجعلون المخلوق كونه مريدا بالقوة و القبول أي قابلا لأن يريد هذا و هذا و أما كونه مريدا لهذا المعين و هذا المعين

فهذا عندهم ليس مخلوقا لله و غلطوا فى ذلك غلطا فاحشا فان الله خالق هذا كله وإرادة النفس لما يريده من الذنوب و فعلها هو من جملة مخلوقات الله تعالى فان الله خالق كل شيء و هو الذي ألهم النفس التى سواها فجورها و تقواها وكان النبى صلى الله عليه و سلم يقول فى دعائه اللهم آت نفسي تقواها و زكها أنت خير من زكاها أنت و ليها و مولاها وهو سبحانه جعل إبراهيم و آله ائمة يهدون بأمره و جعل فرعون و آله أئمة يدعون الى النار و يوم القيامة لا ينصرون لكن هذا لا يضاف مفردا إلى الله تعالى لوجهين من جهة علته الغائية و من جهة سببه و علته الفاعلية أما الغائية فان الله إنما خلقه لحكمة هو باعتبارها خير لاشر و إن كان شرا إضافيا فاذا أضيف مفردا توهم المتوهم مذهب جهم أن الله يخلق الشر المحض الذي لاخير فيه لأحد لا لحكمة و لا رحمة و الاخبار و السنة و الاعتبار تبطل هذا المذهب كما أنه إذا قيل محمد و أمته يسفكون الدماء و يفسدون فى الأرض كان هذا ذما لهم و كان باطلا و إذا قيل يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا و يكون الدين كله لله و يقتلون من منعهم من ذلك كان هذا مدحا لهم و كان حقا فاذا قيل ان الرب تبارك و تعالى حكيم رحيم أحسن كل شيء خلقه و أتقن ما صنع و هو أرحم الراحمين أرحم بعباده من الوالدة بولدها والخير كله بيديه و الشر ليس إليه بل لا يفعل الا خيرا و ما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمومة فله فيها حكمة عظيمة و نعمة جسيمة كان هذا حقا و هو مدح للرب و ثناء عليه وأما إذا قيل إنه يخلق الشر الذي لا خير فيه و لا منفعة لأحد و لا له فيها حكمة و لا رحمة و يعذب الناس بلاذنب لم يكن هذا مدحا للرب و لا ثناء عليه بل كان بالعكس ومن هؤلاء من يقول إن الله تعالى أضر على خلقه من إبليس و بسط القول فى بيان فساد قول هؤلاء له موضع آخر وقد بينا بعض ما فى خلق جهنم و إبليس و السيئات من الحكمة و الرحمة و ما لم نعلم أعظم مما علمناه فتبارك الله أحسن الخالقين و أرحم الراحمين و خير الغافرين و مالك يوم الدين الأحد الصمد الذى لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد الذي لا يحصى العباد ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه الذي له الحمد فى الأولى و الآخرة و له الحكم و إليه ترجعون الذي يستحق الحمد و الحب و الرضا لذاته و لا حسانه الى عباده سبحانه و تعالى يستحق أن يحمد لما له فى نفسه من المحامد و الاحسان إلى عباده هذا حمد شكر و ذاك حمد مطلقا و قد ذكرنا فى غير هذا الموضع ماقيل من أن كل ما خلقه الله فهو نعمة على عبادة المؤمنين يستحق أن يحمدوه و يشكروه عليه و هو من آلائه و لهذا قال فى آخر سورة النجم {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكَ تَتَمَارَى}النجم٥٥ و فى سورة الرحمن يذكر {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}الرحمن٢٦ و نحو ذلك ثم يقول عقب ذلك {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ}الرحمن٢٨ وقال آخرون منهم الزجاج و أبو الفرج بن الجوزي {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}الرحمن١٣ أي من هذه الأشياء المذكورة لأنها كلها ينعم بها عليكم فى دلالتها إياكم على و حدانيته و في رزقه إياكم ما به قوامكم و هذا قالوه فى سورة الرحمن وقالوا فى قوله {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكَ تَتَمَارَى}النجم٥٥ فبأي نعم ربك التى تدل على و حدانيته تتشكك و قيل تشك و تجادل قال ابن عباس تكذب قلت قد ضمن {تَتَمَارَى}النجم٥٥ معنى تكذب و لهذا عداه بالتاء فان التماري تفاعل من المرء يقال تمارينا فى الهلال و المراء فى القرآن كفر و هو يكون تكذيب و تشكيك وقد يقال لما كان الخطاب لهم قال تتمارى أي يتمارون و لم يقل تميرا فان التفاعل يكون بين اثنين تماريا قالوا و الخطاب للانسان قيل للوليد بن المغيرة فانه قال {أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى{٣٦} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى{٣٧} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى{٣٨}النجم ٣٦-٣٨ ثم التفت إليه فقال {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكَ تَتَمَارَى}النجم٥٥ تكذب كما قال {خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ {١٤} وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ{١٥} فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{١٦}الرحمن١٤-١٦ ففي كل ما خلقه الله إحسان إلى عباده يحمد عليه حمد شكر و له فيه حكمة تعود اليه يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمدا يستحقه لذاته فجميع المخلوقات فيها إنعام على العباد كالثقلين المخاطبين بقوله {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} من جهة أنها آيات للرب يحصل بها هدايتهم و إيمانهم الذى يسعدون به فى الدنيا و الآخرة فيدلهم عليه و على و حدانيته و قدرته و علمه و حكمته و رحمته والآيات التى بعث بها الأنبياء و أيدهم بها و نصرهم و إهلاك عدوهم كما ذكره في سورة النجم {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى{٥٠} وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى{٥١} وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى{٥٢} وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى{٥٣} فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى{٥٤} النجم ٥٠-٥٤ تدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمر و النهي و الوعد و الوعيد ما بشروا به و أنذروا به ولهذا قال عقيب ذلك {هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى}النجم٥٦ قيل هو محمد و قيل هو القرآن فان الله سمى كلا منهما بشيرا و نذيرا فقال فى رسول الله {إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}الأعراف١٨٨ و قال تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً}الفتح٨ و قال تعالى فى القرآن {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{٣} بَشِيراً وَنَذِيراً {٤} و هما متلازمان وكل من هذين المعنيين مراد يقال هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل و الكتب الأولى و قوله {مِّنَ النُّذُرِ}النجم٥٦أي من جنسها أي رسول من الرسل المرسلين ففي المخلوقات نعم من جهة حصول الهدى و الايمان و الاعتبار و الموعظة بها و هذه أفضل النعم فأفضل النعم نعمة الايمان و كل مخلوق من المخلوقات فهو

الآيات التى يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة قال تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ}يوسف١١١ و قال تعالى {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ}ق٨ وما يصيب الانسان إن كان يسره فهو نعمة بينة و إن كان يسوءه فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه و يثاب بالصبر عليه و من جهة أن فيه حكمة و رحمة لا يعلمها {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ}البقرة٢١٦ وقد قال فى الحديث و الله لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان الرسل المرسلين ففي المخلوقات نعم من جهة حصول الهدى و الايمان و الاعتبار و الموعظة بها و هذه أفضل النعم فأفضل النعم نعمة الايمان و كل مخلوق من المخلوقات فهو الآيات التى يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة قال تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ}يوسف١١١ و قال تعالى {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ}ق٨ وما يصيب الانسان إن كان يسره فهو نعمة بينة و إن كان يسوءه فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه و يثاب بالصبر عليه و من جهة أن فيه حكمة و رحمة لا يعلمها {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ}البقرة٢١٦ وقد قال فى الحديث و الله لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وإذا كان هذا و هذا فكلاهما من نعم الله عليه وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر أما نعمة الضراء فاحتياجها إلى الصبر ظاهر و أما نعمة السراء فتحتاج الى الصبر على الطاعة فيها فان فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء كما قال بعض السلف ابتلينا بالضراء فصبرنا و ابتلينا بالسراء فلم نصبر و فى الحديث أعوذ بك من فتنة الفقر و شر فتنة الغنى والفقر يصلح عليه خلق كثير و الغنا لايصلح عليه إلا أقل منهم ولهذا قال عقيب ذلك {هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى}النجم٥٦ قيل هو محمد و قيل هو القرآن فان الله سمى كلا منهما بشيرا و نذيرا فقال فى رسول الله {إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}الأعراف١٨٨ و قال تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً}الفتح٨ و ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين لأنه فتنة الفقر أهون و كلاهما يحتاج إلى الصبر و الشكر لكن لما كان في السراء اللذة و فى الضراء الألم اشتهر ذكر الشكر فى السراء و الصبر في الضراء قال تعالى {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ{٩} وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ{١٠} إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَـئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ{١١}هود٩-١١ و لأن صاحب السراء أحوج إلى الشكر و صاحب الضراء أحوج إلى الصبر فان صبر هذا وشكر هذا واجب إذا تركه استحق

العقاب       وأما صبر صاحب السراء فقد يكون مستحبا إذا كان عن فضول الشهوات و قد يكون و اجبا و لكن لاتيانه بالشكر الذي هو حسنات يغفر له ما يغفر من سيئاته وكذلك صاحب الضراء لايكون الشكر فى حقه مستحبا إذا كان شكرا يصير به من السابقين المقربين و قد يكون تقصيره فى الشكر مما يغفر له لما يأتى به من الصبر فان اجتماع الشكر و الصبر جميعا يكون مع تألم النفس و تلذذها يصبر على الألم و يشكر على النعم و هذا حال يعسر على كثير من الناس و بسط هذا له موضع آخر والمقصود هنا أن الله تعالى منعم بهذا كله و إن كان لا يظهر الانعام به فى الابتداء لأكثر الناس فان الله يعلم و أنتم لا تعلمون فكل مايفعله الله فهو نعمة منه       وأما ذنوب الانسان فهي من نفسه و مع هذا فهي مع حسن العاقبة نعمة و هي نعمة على غيرة بما يحصل له بها من الاعتبار و الهدى و الايمان و لهذا كان من أحسن الدعاء قوله       اللهم لا تجعلني عبرة لغيري و لاتجعل أحدا أسعد بما علمتني منى وفى دعاء القرآن       {رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} يونس٨٥ {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا} الممتحنة٥       كما فيه {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً} الفرقان٧٤ أي فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا و يأتم و لا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا و يشقى       و الآلاء       فى اللغة هى النعم و هي تتضمن القدرة       قال ابن قتيبة لما عدد الله في هذه السورة سورة الرحمن نعماءه و ذكر عبادة آلاءه و نبههم على قدرته جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ليفهم النعم و يقررهم بها       وقد روى الحاكم فى صحيحه و الترمذي عن جابر عن النبى صلى الله عليه و سلم قال       قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم الرحمن حتى ختمها ثم قال مالي أراكم سكوتا للجن كانوا أحسن منكم ردا ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} الرحمن١٣ إلا قالوا و لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد والله تعالى يذكر فى القرآن بآياته الدالة على قدرته و ربوبيته و يذكر بآياته التى فيها نعمه و إحسانه إلى عباده و يذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى و هي كلها متلازمة       فكل ما خلق فهو نعمة و دليل على قدرته و على حكمته       لكن نعمة الرزق و الانتفاع بالمآكل و المشارب و المساكن و الملابس ظاهرة لكل أحد فلهذا يستدل بها كما فى سورة النحل و تسمى سورة النعم كما قاله قتادة و غيره       وعلى هذا فكثير من الناس يقول الحمد أعم من الشكر من جهة أسبابه فانه يكون على نعمة و على غير نعمة و الشكر أعم من جهة أنواعه فانه يكون بالقلب و اللسان و اليد       فاذا كان كل مخلوق فيه نعمة لم يكن الحمد إلا على نعمة و الحمد لله على كل حال لأنه ما من حال يقضيها إلا و هي نعمة على عبادة لكن هذا فهم من عرف ما فى المخلوقات من النعم و الجهمية و الجبرية بمعزل عن هذا       وكذلك كل ما يخلقه ففيه له حكمة فهو

محمود عليه باعتبار تلك الحكمة و الجهمية أيضا بمعزل عن هذا     وكذلك القدرية الذين يقولون لاتعود الحكمة اليه بل ماثم إلا نفع الخلق فما عندهم إلا شكر كما ليس عند الجهمية إلا قدرة والقدرة المجردة عن نعمة و حكمة لا يظهر فيها و صف حمد كالقادر الذي يفعل مالا ينتفع به و لا ينفع به أحدا فهذا لايحمد     فحقيقة قول الجهمية أتباع جهم أنه لايستحق الحمد فله عندهم ملك بلا حمد مع تقصيرهم فى معرفة ملكه     كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام إذ كان عندهم يشاء مالا يكون و يكون مالا يشاء و تحدث حوادث بلا قدرته وعلى مذهب السلف له الملك و له الحمد تامين و هو محمود     على حكمته كما هو محمود على قدرته و رحمته وقد قال     {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}آل عمران١٨     فله الوحدانية في إلهيته و له العدل و له العزة و الحكمة     وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف و أتباعهم فمن قصر عن معرفة السنة فقد نقص الرب بعض حقه     والجهمي الجبري لا يثبت عدلا و لا حكمة و لا توحيد إلهية بل توحيد ربوبيته     والمعتزلي أيضا لا يثبت فى الحقيقة توحيد إلهية و لا عدلا فى الحسنات و السيئات و لا عزة و لا حكمة فى الحقيقة و إن قال إنه يثبت الحكمة بما معناها يعود إلى غيره و تلك لا يصلح أن تكون حكمة من فعل لا لأمر يرجع اليه بل لغيره هو عند العقلاء قاطبة بها ليس بحكيم بل سفيه     وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة فقد ثبت أنه رأس الشكر فهو أول الشكر و الحمد و إن كان على نعمته و على حكمته فالشكر بالأعمال_هو على نعمته و هو عبادة له لالهيته التى تتضمن حكمته فقد صار مجموع الأمور داخلا فى الشكر     ولهذا عظم القرآن أمر الشكر و لم يعظم أمر الحمد مجردا إذ كان نوعا من الشكر     وشرع الحمد الذي هو الشكر المقول أمام كل خطاب مع التوحيد     ففي الفاتحة الشكر و التوحيد و الخطب الشرعية لابد فيها من الشكر و التوحيد و الباقيات الصالحات نوعان فسبحان الله و بحمده فيها الشكر و التنزيه و التعظيم و لا إله إلا الله و الله أكبر فيها التوحيد و التكبير     وقد قال تعالى {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} غافر٦٥   و هل الحمد على كل ما يحمد به الممدوح و إن لم يكن باختياره أولا يكون الحمد إلا على الأمور الاختيارية كما قيل فى الذم فيه نظر ليس هذا موضعه     وفى الصحيح     أن النبى صلى الله عليه و سلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول     ربنا و لك الحمد ملء السماء و ملء الأرض و ملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء و المجد أحق ما قال العبد و كلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت و لا معطي لما منعت و لا ينفع ذا الجد منك الجد     هذا لفظ الحديث     أحق     أفعل التفضيل     وقد غلط فيه طائفة من المصنفين فقالوا     حق ما قال العبد     وهذا

ليس لفظ الرسول و ليس هو بقول سعيد فان العبد يقول الحق و الباطل بل حق ما يقوله الرب كما قال تعالى فالحق و الحق أقول ولكن لفظه أحق ما قال العبد خبر مبتدا محذوف أي الحمد أحق ما قال العبد أو هذا و هو الحمد أحق ما قال العبد ففيه بيان أن الحمد لله أحق ما قاله العباد و لهذا أوجب قوله في كل صلاة و أن تفتتح به الفاتحة و أوجب قوله في كل خطبة و فى كل أمر ذي بال والحمد ضد الذم و الحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له فاذا قيل إنه سبحانه يفعل الخير و الحسنات و هو حكيم رحيم بعباده أرحم بعباده من الوالدة بولدها أوجب ذلك أن يحبه عباده و يحمدوه وأما إذا قيل بل يخلق ما هو شر محض لانفع فيه و لا رحمة و لا حكمة لأحد و إنما يتصف بارادة ترجح مثلا على مثل لا فرق عنده بين أن يرحم أو يعذب و ليست نفسه و لا إرادته مرجحة للاحسان الى الخلق بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده و هو مع هذا يخلق ما يخلق لمجرد العذاب و الشر و يفعل ما يفعل لا لحكمة و نحو ذلك مما يقوله الجهمية لم يكن هذا موجبا لأن يحبه العباد و يحمدوه بل هو موجب للعكس ولهذا فان كثيرا من هؤلاء ينطقون بالذم و الشتم و الطعن و يذكرون ذلك نظما و نثرا وكثير من شيوخ هؤلاء و علمائهم من يذكر فى كلامه مايقتضي هذا و من لم يقله بلسانه فقلبه ممتلىء به لكن يرى أن ليس فى ذكره منفعة أو يخاف من عموم المسلمين وفي شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا و هؤلاء يقيمون حجج إبليس و أتباعه على الله و يجعلون الرب ظالما لهم وهو خلاف ما وصف الله به نفسه في قوله تعالى {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}الزخرف٧٦ و قوله {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ}هود١٠١ و قوله {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}فصلت٤٦ كيف يكون ظالما و هم فيما بينهم لو أساء بعضهم الى بعض أو قصر فى حقه لكان يؤاخذه و يعاقبه و ينتقم منه و يكون ذلك عدلا إذا لم يعتد عليه ولو قال إن الذي فعلته قدر علي فلا ذنب لي فيه لم يكن هذا عذرا له عندهم باتفاق العقلاء فاذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه احتجاجا بالقدر فكيف يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجا بالقدر وهو سبحانه الحكم العدل الذي لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً}النساء٤٠و هذا مبسوط فى غير هذا الموضع فقوله أحق ما قال العبد يقتضي أن حمد الله أحق ما قاله العبد فله الحمد على كل حال لأنه لا يفعل إلا الخير والاحسان الذي يستحق الحمد عليه سبحانه و تعالى و إن كان العباد لا يعلمون وهو سبحانه خلق الانسان و خلق نفسه متحركة بالطبع حركة لابد فيها من الشر لحكمة بالغة و رحمة سابغة فاذا قيل فلم لم يخلقها على غير هذا الوجه قيل

كان يكون ذلك خلقا غير الانسان و كانت الحكمة التى خلقها بخلق الانسان لا تحصل و هذا سؤال الملائكة حيث قالوا {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء}البقرة٣٠ و ما لم تعلمه الملائكة فكيف يعلمه آحاد الناس ونفس الانسان خلقت كما قال الله تعالى {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً {١٩} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{٢٠} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{٢١}المعارج١٩-٢١ و قال تعالى {خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ}الأنبياء٣٧ فقد خلقت خلقة تستلزم وجود ما وجد منها لحكمة عظيمة و رحمة عميمة فكان ذلك خيرا و رحمة و إن كان فيه شر إضافي كما تقدم فهذا من جهة الغاية مع أنه لا يضاف الشر إلى الله و أما الوجة الثاني من جهة السبب فان هذا الشر إنما وجد لعدم العلم و الارادة التى تصلح النفس فانها خلقت بفطرتها تقتضي معرفة الله و محبته و قد هديت الى علوم و أعمال تعينها على ذلك و هذا كله من فضل الله و احسانه لكن النفس المذنبة لما لم يحصل لها من يكملها بل حصل لها من زين لها السيئات من شياطين الانس و الجن مالت الى ذلك و فعلت السيئات فكان فعلها للسيئات مركبا من عدم ما ينفع و هو الأفضل و وجود هؤلاء الذين حيروها و العدم لايضاف الى الله وهؤلاء القول فيهم كالقول فيها خلقهم لحكمة فلما كان عدم ما تعمل به و تصلح هو أحد السببين و كان الشر المحض الذي لا خير فيه هو العدم المحض و العدم لا يضاف الى الله فانه ليس شيئا و الله خالق كل شيء كانت السيئات منها باعتبار أن ذاتها فى نفسها مستلزمة للحركة الارادية التى تحصل منها مع عدم ما يصلحها تلك السيئات والعبد إذا اعترف و أقر بأن الله خالق أفعاله كلها فهو على وجهين إن اعترف به اقرارا بخلق الله كل شيء بقدرته و نفوذ مشيئته و إقرارا بكلماته التامات التى لا يجاوزهن بر و لا فاجر و اعترافا بفقره و حاجته الى الله و أنه إن لم يهده فهو ضال و ان لم يتب عليه فهو مصر و ان لم يغفر له فهو هالك خضع لعزته و حكمته وفهذا حال المؤمنين الذين يرحمهم الله و يهديهم و يوفقهم لطاعته و ان قال ذلك احتجاجا على الرب و دفعا للأمر و النهي عنه و اقامة لعذر نفسه فهذا ذنب أعظم من الأول و هذا من أتباع الشيطان و لا يزيده ذلك الا شرا و قد ذكرنا أن الرب سبحانه محمود لنفسه و لاحسانه الى خلقه و لذلك هو يستحق المحبة لنفسه و لاحسانه الى عباده و يستحق أن يرضى العبد بقضائه لأن حكمه عدل لا يفعل الا خيرا و عدلا و لأنه لايقضى للمؤمن قضاء الا كان خيرا له ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له و ان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له فالمؤمن يرضى بقضائه لما يستحقه الرب لنفسه من الحمد و الثناء و لأنه محسن الى المؤمن وما تسأله طائفة من الناس و هو أنه صلى الله عليه و سلم قال لايقضي الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له و قد قضى عليه بالسيئات الموجبة

للعقاب فكيف يكون ذلك خيرا وعنه جوابان أحدهما أن أعمال العباد لم تدخل فى الحديث انما دخل فيه ما يصيب الانسان من النعم و المصائب كما فى قوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ و لهذا قال ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له و ان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له فجعل القضاء ما يصيبه من سراء و ضراء هذا ظاهر لفظ الحديث فلا اشكال عليه الوجه الثانى أنه اذا قدر أن الأعمال دخلت فى هذا فقد قال النبى صلى الله عليه و سلم من سرته حسنته و ساءته سيئته فهو مؤمن فاذا قضى له بأن يحسن فهذا مما يسره فيشكر الله عليه و اذا قضى عليه بسيئة فهي إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها إذا لم يتب منها فان تاب أبدلت بحسنة فيشكر الله عليها و ان لم يتب ابتلى بمصائب تكفرها فصبر عليها فيكون ذلك خيرا له و الرسول صلى الله عليه و سلم قال لايقضي الله للمؤمن و المؤمن هو الذي لا يصر على ذنب بل يتوب منه فيكون حسنة كما قد جاء في عدة آيات ان العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله لا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة والذنب يوجب ذل العبد و خضوعه و دعاء الله و استغفاره اياه و شهوده بفقرة و حاجته اليه و أنه لا يغفر الذنوب إلا هو فيحصل للمؤمن بسبب الذنب من الحسنات مالم يكن يحصل بدون ذلك فيكون هذا القضاء خيرا له فهو فى ذنوبه بين أمرين إما أن يتوب فيتوب الله عليه فيكون من التوابين الذين يحبهم الله و إما أن يكفر عنه بمصائب تصيبه ضراء فيصبر عليها فيكفر عنه السيئات بتلك المصائب و بالصبر عليها ترتفع درجاته وقد جاء فى بعض الأحاديث يقول الله تعالى أهل ذكرى أهل مجالستى و أهل شكرى أهل زيادتى و أهل طاعتى أهل كرامتى و أهل معصيتى لا أؤيسهم من رحمتى إن تابوا فأنا حبيبهم أي محبهم فان {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}البقرة٢٢٢ و ان لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب وفى قوله تعالى {فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ من الفوائد أن العبد لا يركن إلى نفسه و لايسكن إليها فان الشر لايجيء إلا منها و لا يشتغل بملام الناس و لا ذمهم إذا أساءوا إليه فان ذلك من السيئات التى أصابته و هي إنما أصابته بذنوبه فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها و يستعيذ بالله من شر نفسه و سيئات عمله و يسأل الله أن يعينه على طاعته فبذلك يحصل له كل خير و يندفع عنه كل شر ولهذا كان أنفع الدعاء و أعظمه و أحكمه دعاء الفاتحة {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة٦-٧ فانه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته و ترك معصيته فلم يصبه شر لا في الدنيا و لا فى الآخرة لكن الذنوب هي من لوازم نفس الانسان و هو محتاج إلى الهدى في كل لحظة و هو إلى

الهدى أحوج منه إلى الأكل و الشرب ليس كما يقوله طائفة من المفسرين إنه قد هداه فلماذا يسأل الهدى وأن المراد بسؤال الهدى الثبات أو مزيد الهداية بل العبد محتاج إلى أن يعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله و إلى ما يتولد من تفاصيل الأمور فى كل يوم و إلى أن يلهم أن يعمل ذلك فانه لا يكفى مجرد علمه إن لم يجعله الله مريدا للعمل بعلمه و إلا كان العلم حجة عليه و لم يكن مهتديا و العبد محتاج إلى أن يجعله الله قادرا على العمل بتلك الارادة الصالحة فانه لايكون مهتديا إلى الصراط المستقيم صراط {الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ}النساء٦٩ إلا بهذه العلوم و الارادات و القدرة على ذلك ويدخل فى ذلك من أنواع الحاجات مالا يمكن إحصاؤه ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة لفرط حاجتهم اليه فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء و إنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبر أحوال نفسه و نفوس الانس و الجن و المأمورين بهذا الدعاء و رأى ما فى النفوس من الجهل و الظلم الذي يقتضي شقاءها فى الدنيا و الآخرة فيعلم أن الله بفضله و رحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير المانعة من الشر و مما يبين ذلك أن الله تعالى لم يقص علينا فى القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها لما فى الاعتبار بها من حاجتنا اليه و مصلحتنا و إنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثانى بالأول و كانا مشتركين في المقتضى للحكم فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان فى نفوس المكذبين للرسل فرعون و من قبله لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لانشبهه قط و لكن الأمر كما قال تعالى {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ}فصلت٤٣ و كما قال تعالى {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}الذاريات٥٢ و قال تعالى {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ}البقرة١١٨ و قال تعالى {يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ}التوبة٣٠ و لهذا قال النبى صلى الله عليه و سلم لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا اليهود و النصارى قال فمن وقال لتأخذن أمتى مأخذ الأمم قبلها شبرا بشبر و ذراعا بذراع قيل يارسول الله فارس و الروم قال فمن و كلا الحديثين فى الصحيحين و لما كان فى غزوة حنين كان للمشركين شجرة يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم و ينوطونها بها و يستظلون بها متبركين فقال بعض الناس يارسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال الله أكبر قلتم كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم وقد بين القرآن أن السيئات من النفس و إن كانت بقدر الله فأعظم السيئات جحود الخالق و الشرك به و طلب النفس أن

تكون شريكه و ندا له أو أن تكون إلها من دونه و كلا هذين وقع فان فرعون طلب أن يكون إلها معبودا دون الله تعالى و قال {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} القصص٣٨ و قال {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} النازعات٢٤ و قال لموسى {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} الشعراء٢٩ و {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} الزخرف٥٤ و إبليس يطلب أن يعبد و يطاع من دون الله فيريد أن يعبد و يطاع هو و لا يعبد الله و لا يطاع وهذا الذى فى فرعون و إبليس هو غاية الظلم و الجهل وفى نفوس سائر الانسن و الجن شعبة من هذا و هذا إن لم يعن الله العبد و يهديه و إلا وقع فى بعض ما وقع فيه إبليس و فرعون بحسب الامكان قال بعض العارفين ما من نفس إلا و فيها ما فى نفس فرعون غير أن فرعون قدر فأظهر و غيره عجز فأضمر وذلك أن الانسان إذا اعتبر و تعرف نفسه و الناس و سمع أخبارهم رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع و تعلو بحسب قدرته فالنفس مشحونة بحب العلو و الرياسة بحسب إمكانها فتجد أحدهم يوالى من يوافقه على هواه و يعادى من يخالفه فى هواه و إنما معبوده ما يهواه و يريده قال تعالى {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً} الفرقان٤٣ و الناس عنده فى هذا الباب كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك و غيرهم يقولون يارباعى أي صديق و عدو فمن وافق هواهم كان وليا و إن كان كافرا مشركا و من لم يوافق هواهم كان عدوا و إن كان من أولياء الله المتقين و هذه هى حال فرعون و الواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون من دعوى الالهية و جحود الصانع و هؤلاء و إن كانوا يقرون بالصانع لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته و طاعته المتضمنة ترك طاعتهم فقد يعادونه كما عادى فرعون موسى وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل و إيمان لايطلب هذا الحد بل يطلب لنفسه ما هو عنده فان كان مطاعا مسلما طلب أن يطاع فى أغراضه و إن كان فيها ما هو ذنب و معصية لله و يكون من أطاعه في هواه أحب اليه و أعز عنده ممن أطاع و خالف هواه وهذه شعبة من حال فرعون و سائر المكذبين للرسل وإن كان عالما أو شيخا أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره حتى لو كانا يقرآن كتابا واحدا كالقرآن أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها كالصلوات الخمس فانه يحب من يعظمه بقبول قوله و الاقتداء به اكثر من غيره و ربما أبغض نظيره و أتباعه حسدا و بغيا كما فعلت اليهود لما بعث الله محمدا صلى الله عليه و سلم يدعو إلى مثل ما دعا اليه موسى قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ} البقرة٩١ و قال تعالى {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} البينة٤ و قال تعالى {وَمَا تَفَرَّقُوا

إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ}الشورى١٤ ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون و سلط عليهم من انتقم به منهم فقال تعالى عن فرعون {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}القصص٤ و قال تعالى عنهم {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً}الإسراء٤ و لهذا قال تعالى {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً}القصص٨٣ والله سبحانه و تعالى إنما خلق الخلق لعبادته ليذكروه و يشكروه و يعبدوه و أرسل الرسل و أنزل الكتب ليعبدوا الله وحده و ليكون الدين كله لله و لتكون كلمة الله هي العليا كما أرسل كل رسول بمثل ذلك قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٢٥ و قال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}الزخرف٤٥ و قد أمر الله الرسل كلهم بهذا و أن لا يتفرقوا فيه فقال {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٩٢ و قال تعالى {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ{٥١} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ{٥٢} فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ{٥٣} المؤمنون٥١-٥٣ قال قتادة أى دينكم دين واحد و ربكم رب واحد و الشريعة مختلفة و كذلك قال الضحاك عن ابن عباس ˝{وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} المؤمنون٥٢ أي دينكم دين واحد قال ابن أبي حاتم و روى عن سعيد ابن جبير و قتادة و عبد الرحمن بن زيد نحو ذلك و قال الحسن بين لهم ما يتقون و ما يأتون ثم قال إن هذه سنتكم سنة واحدة وهكذا قال جمهور المفسرين و الأمة الملة و الطريقة كما قال تعالى {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ}الزخرف٢٢ مقتدون كما يسمى الطريق إماما لأن السالك فيه يأتم به فكذلك السالك يؤمه و يقصده و الأمة أيضا معلم الخير الذي يأتم به الناس كما أن الامام هو الذي يأتم به الناس و إبراهيم عليه السلام جعله الله إماما و أخبر أنه {كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}النحل١٢٠ وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم و دينهم و احدا لا يتفرقون فيه كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال انا معشر الأنبياء ديننا واحد و قد قال الله تعالى {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا}الشورى١٣ و لهذا كان جميع رسل الله و أنبيائه يصدق بعضهم بعضا لا يختلفون مع تنوع شرائعهم فمن كان من المطاعين من العلماء و المشايخ و الأمراء و الملوك متبعا للرسل أمر بما أمروا

به و دعا الى ما دعوا اليه و أحب من دعا الى مثل ما دعا اليه فان الله يحب ذلك فيحب ما يحبه الله تعالى و هذا قصده فى نفس الأمر أن تكون العبادة لله تعالى وحده و أن يكون الدين كله لله وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو الى ذلك فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود فله نصيب من حال فرعون و أشباهه فمن طلب أن يطاع دون الله فهذا حال فرعون و من طلب ان يطاع مع الله فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله و الله سبحانه و تعالى أمر أن لايعبد الا اياه و أن لا يكون الدين إلا له و أن تكون الموالاة فيه و المعاداة فيه و أن لا يتوكل إلا عليه و لا يستعان إلا به فالمؤمن المتبع للرسل يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ليكون الدين كله لله لا له و إذا أمر أحد غيره بمثل ذلك أحبه و أعانه و سر بوجود مطلوبه وإذا أحسن إلى الناس فانما يحسن اليهم ابتغاء و جه ربه الأعلى و يعلم أن الله قد من عليه بأن جعله محسنا و لم يجعله مسيئا فيرى أن عمله لله و أنه بالله وهذا مذكور فى فاتحة الكتاب التى ذكرنا أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم الى أي شيء ولهذا فرضت عليهم قراءتها فى كل صلاة دون غيرها من السور و لم ينزل فى التوارة و لا في الانجيل و لا فى الزبور و لا في القرآن مثلها فان فيها إياك نعبد و إياك نستعين فالمؤمن يرى أن عمله لله لأنه إياه يعبد و أنه بالله لأنه إياه يستعين فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء و لا شكورا لأنه إنما عمل له ما عمل لله كما قال الأبرار {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً}الإنسان٩ و لايمن عليه بذلك و لا يؤذيه فإنه قد علم أن الله هو المان عليه إذ استعمله فى الأحسان و أن المنة لله عليه و على ذلك الشخص فعليه هو أن يشكر الله إذ يسره لليسرى وعلى ذلك أن يشكر الله إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق أو علم أو نصر أو غير ذلك ومن الناس من يحسن الى غيره ليمن عليه أو يرد الأحسان له بطاعته إليه و تعطيمة أو نفع آخر و قد يمن عليه فيقول أنا فعلت بك كذا فهذا لم يعبد الله و لم يستعنه و لا عمل لله و لا عمل بالله فهو المرائى وقد أبطل الله صدقة المنان و صدقة المرائي قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ{٢٦٤} وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{٢٦٥}البقرة٢٦٤ -٢٦٥ قال قتادة {وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ {٢٦٥}البقرة٢٦٥ احتسابا من أنفسهم و قال الشعبى يقينا وتصديقا من أنفسهم و كذلك قال الكلبي قيل يخرجون الصدقة طيبة بها أنفسهم على يقين بالثواب و

تصديق بوعد الله يعلمون أن ما أخرجوه خير لهم مما تركوه      قلت إذا كان المعطى محتسبا للأجر عند الله مصدقا بوعد الله له طالب من الله لا من الذي أعطاه فلا يمن عليه كما لو قال رجل لآخر أعط مماليكك هذا الطعام و أنا أعطيك ثمنه لم يمن على المماليك لا سيما إذا كان يعلم أن الله قد أنعم عليه بالاعطاء   فصل     الفرق السادس أن يقال إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية و إن كانت خلقا لله فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له و فطره عليه فان الله إنما خلقه لعبادته و حده لا شريك له و دله على الفطرة كما قال النبى صلى الله عليه و سلم     كل مولود يولد على الفطرة    و قال تعالى  {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}الروم٣٠      فهو لما لم يفعل ما خلق له و ما فطر عليه و ما أمر به من معرفة الله و حده وعبادته و حده عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك و المعاصي      قال تعالى للشيطان {اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً}الإسراء٦٣ الى قوله  {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً}الإسراء٦٥    و قال تعالى {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {٩٩} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{١٠٠} النحل٩٩-١٠٠      و قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ {٢٠١} وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ{٢٠٢}الأعراف٢٠١-٢٠٢ فقد تبين أن إخلاص الدين لله يمنع من تسلط الشيطان و من ولاية الشيطان التى توجب العذاب كما قال تعالى      {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}يوسف٢٤      فاذا أخلص العبد لربه الدين كان هذا مانعا له من فعل ضد ذلك و من إيقاع الشيطان له فى ضد ذلك و إذا لم يخلص لربه الدين و لم يفعل ما خلق له و فطر عليه عوقب على ذلك و كان من عقابه    تسلط الشيطان عليه حتى يزين له فعل السيئات و كان إلهامه لفجوره عقوبة له على كونه لم يتق الله      وعدم فعله للحسنات ليس أمرا وجوديا حتى يقال إن الله خلقه بل هو أمر عدمي لكن يعاقب عليه لكونه عدم ما خلق له و ما أمر به و هذا يتضمن العقوبة على أمر عدمى لكن بفعل السيئات لا بالعقوبات التى يستحقها بعد إقامة الحجة عليه بالنار و نحوها وقد تقدم أن مجرد عدم المأمور هل يعاقب عليه فيه قولان      والأكثرون يقولون لايعاقب عليه لأنه عدم محض و يقولون إنما يعاقب على الترك و هذا أمر وجودي و طائفة منهم أبو هاشم قالوا بل يعاقب على هذا العدم بمعنى أنه يعاقب عليه كما يعاقب على فعل الذنوب بالنار و نحوها    و ما ذكر فى هذا الوجه هو أمر و سط و هو أن يعاقبه على هذا العدم بفعل السيئات لا بالعقوبة عليها و لا يعاقبه عليها حتى

يرسل إليه رسوله فاذا عصى الرسول استحق حينئذ العقوبة التامة و هو أولا إنما عوقب بما يمكن أن ينجو من شره بأن يتوب منه أو بأن لا تقوم عليه الحجة و هو كالصبى الذي لا يشتغل بما ينفعه بل بما هو سبب لضرره و لكن لا يكتب عليه قلم الاثم حتى يبلغ فاذا بلغ عوقب ثم ما تعوده من فعل السيئات قد يكون سببا لمعصيته بعد البلوغ و هو لم يعاقب إلا على ذنبه و لكن العقوبة المعروفة إنما يستحقها بعد قيام الحجة عليه و أما اشتغاله بالسيئات فهو عقوبة عدم عمله للحسنات وعلى هذا فالشر ليس الى الله بوجه من الوجوه فانه و ان كان الله خالق أفعال العباد فخلقه للطاعات نعمة و رحمة و خلقه للسيئات له فيه حكمة و رحمة و هو مع هذا عدل منه فما ظلم الناس شيئا و لكن الناس ظلموا أنفسهم وظلمهم لأنفسهم نوعان عدم عملهم بالحسنات فهذا ليس مضافا إليه و عملهم للسيئات خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التى خلقهم لها و أمرهم بها فكل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل ومن تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر و المعاصي يجعله جزاء لذلك العمل كقوله تعالى{فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}الأنعام١٢٥ و قال تعالى {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}الصف٥ و قال تعالى {وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{٨} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{٩} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{١٠} الليل ٨-١٠ وهذا و أمثاله بذلوا فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محظور و ترك مأمور وتلك الأمور إنما كانت منهم و خلقت فيهم لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له و لابد لهم من حركة و إرادة فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات عدلا من الله حيث وضع ذلك موضعه فى محله القابل له و هو القلب الذي لا يكون الا عاملا فاذا لم يعمل الحسنة استعمل فى عمل السيئة كما قيل نفسك إن لم تشغلها شغلتك وهذا الوجه إذا حقق يقطع مادة كلام القدرية المكذبة و المجبرة الذين يقولون إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله و يجعلون خلقها و التعذيب عليها ظلما و الذين يقولون إنه خلق كفر الكافرين و معصيتهم و عاقبهم على ذلك لا لسبب و لا لحكمة

فاذا قيل لأولئك إنه إنما أوقعهم فى تلك الذنوب و طبع على قلوبهم عقوبة لهم على عدم فعلهم ما أمرهم به فما ظلمهم و لكن هم ظلموا أنفسهم يقال ظلمته إذا نقصته حقه قال تعالى {كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً}الكهف٣٣ وكثير من أولئك يسلمون أن الله خلق للعبد من الأعمال ما يكون جزاء له على عمل منه متقدم و يقولون إنه خلق طاعة المطيع فلا ينازعون فى نفس خلق أفعال العباد لكن يقولون ما خلق شيئا من الذنوب ابتداء بل إنما خلقها جزاء لئلا يكون ظالما

فنقول أول ما يفعله العبد من الذنوب هو أحدثه لم يحدثه الله ثم ما يكون جزاء على ذلك فالله محدثه و هم لا ينازعون في مسألة خلق الأفعال الا من هذه الجهة وهذا الذى ذكرناه يوافقون عليه لكن يقولون أول الذنوب لم يحدثه الله بل يحدثه العبد لئلا يكون الجزاء عليه ظلما وما ذكرناه يوجب أن الله خالق كل شيء فما حدث شيء الا بمشيئته و قدرته لكن أول الذنوب الوجودية هو المخلوق و ذاك عقوبة على عدم فعل العبد لما خلق له و لما كان ينبغي له أن يفعله وهذا العدم لا يجوز إضافته الى الله و ليس بشيء حتى يدخل فى قولنا الله خالق كل شيء و ما أحدثه من الذنوب الوجودية فأولها عقوبة للعبد على هذا العدم و سائرها قد يكون عقوبة للعبد على ما وجد و قد يكون عقوبة له على استمراره على العدم فما دام لا يخلص لله العمل فلا يزال مشركا و لا يزال الشيطان مسلطا عليه ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه بأن استعمله ابتداء فيما خلق له و هذا لم يستعمله هو تخصيص منه بفضله و رحمته و لهذا يقول الله {وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}البقرة١٠٥ و لذلك حكمة و رحمة هو أعلم بها كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد في غيرها و بسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض وجودية و غير ذلك من حكمته وبتحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب و الله أعلم بالصواب ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الايمان قوله تعالى {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}الأنعام١١٠ وهذا من تمام قوله {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ{١١٠}الانعام ١٠٩-١١٠ الآية فذكر أن هذا التقليب إنما حصل لقلوبهم لما لم يؤمنوا به أول مرة و هذا عدم الايمان لكن يقال إنما كان هذا بعد دعوة الرسول لهم و هم قد تركوا الايمان و كذبوا الرسول و هذه أمور وجودية لكن الموجب للعذاب هو عدم الايمان و ما ذكر شرط فى التعذيب بمنزلة إرسال الرسول فإنه قد يشتغل عن الايمان بما جنسه مباح من أكل و شرب و بيع و سفر و غير ذلك و هذا الجنس لايستحق عليه العقوبة إلا لأنه شغله عن الايمان الواجب عليه ومن الناس من يقول ضد الايمان هو تركه ومو أمر وجودي لا ضد له إلا ذلك الفرق السابع من الحسنات و السيئات التى تتناول الأعمال و الجزاء في كون هذه تضاف إلى النفس و تلك تضاف إلى الله أن السيئات التى تصيب الانسان و هي مصائب الدنيا و الآخرة ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو من نفسه فانحصرت فى نفسه وأما ما يصيبه من الخير و النعم فانه لا تنحصر أسبابه لأن ذلك من فضل الله و احسانه يحصل بعمله و بغير عمله و عمله نفسه من إنعام الله عليه و هو سبحانه لا يجزي بقدر العمل بل يضاعفه له و لا يقدر العبد على ضبط أسبابها لكن يعلم أنها من فضل

الله و إنعامه فيرجع فيها إلى الله فلا يرجو إلا الله و لا يتوكل إلا عليه و يعلم أن النعم كلها من الله و أن كل ماخلقه فهو نعمة كما تقدم فهو يستحق الشكر المطلق العام التام الذي لايستحقه غيره ومن الشكر ما يكون جزاء على مايسره على يديه من الخير كشكر الوالدين و شكر من أحسن اليك من غيرهما فانه من لايشكر الناس لا يشكر الله لكن لا يبلغ من حق أحد و إنعامه أن يشكر بمعصية الله أو أن يطاع بمعصية الله فان الله هو المنعم بالنعم العظيمة التى لايقدر عليها مخلوق و نعمة المخلوق إنما هي منه أيضا قال تعالى {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ} النحل٥٣ و قال تعالى {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ} الجاثية١٣ و جزاوه سبحانه على الطاعة و المعصية و الكفر لا يقدر أحد على مثله فلهذا لم يجز أن يطاع مخلوق في معصية الخالق كما قال تعالى {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} العنكبوت٨ و قال في الآية الأخرى {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} لقمان١٥ و قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح على المرء المسلم السمع و الطاعة فى عسره و يسره و منشطه مكرهه مالم يؤمر بمعصية فاذا أمر بمعصية فلا سمع و لا طاعة و فى الصحيحين عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال إنما الطاعة فى المعروف وقال من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه و قال لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع والمقصود هنا أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله و أنه لا يقدر أن يأتى بها إلا الله فلا يأتى بالحسنات إلا هو و لا يذهب السيئات إلا هو و أنه {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ} فاطر٢ صار توكله و رجاؤه و دعاؤه للخالق و حده وكذلك إذا علم مايستحقه الله من الشكر الذي لا يستحقه غيره صار علمه بأن الحسنات من الله يوجب له الصدق في شكر الله و التوكل عليه ولو قيل إنها من نفسه لكان غلطا لأن منها ما ليس لعمله فيه مدخل و ما كان لعمله فيه مدخل فان الله هو المنعم به فانه لا حول و لا قوة إلا بالله و لا ملجا و لامنجى منه إلا إليه وعلم أن الشر قد انحصر سببه فى النفس فضبط ذلك و علم من أين يؤتى فاستغفر ربه مما فعل و تاب و استعان الله و استعاذ به مما لم يعمل بعد كما قال من قال من السلف لايرجون عبد إلا ربه و لا يخافن عبد إلا ذنبه وهذا يخالف قول الجهمية و من اتبعهم الذين يقولون إن الله يعذب بلا ذنب و يعذب أطفال الكفار و غيرهم عذابا دائما أبدا بلا ذنب فان هؤلاء يقولون يخاف الله خوفا مطلقا سواء كان له ذنب أو لم يكن له ذنب و يشبهون خوفه بالخوف من الأسد و من الملك القاهر الذي لا ينضبط فعله و لا سطوته بل قد

يقهر و يعذب من لاذنب له من رعيته فاذا صدق العبد بقوله تعالى {وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ علم بطلان هذا القول و أن الله لا يعذبه و يعاقبه إلا بذنوبه حتى المصائب التى تصيب العبد كلها بذنوبه و قد تقدم قوم السلف ابن عباس و غيره أن ما أصابهم يوم أحد من الغم و الفشل إنما كان بذنوبهم لم يستثن من ذلك أحد وهذا من فوائد تخصيص الخطاب لئلا يظن أنه عام مخصوص وفى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال مايصيب المؤمن من وصب و لا نصب و لا هم و لا حزن و لاغم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه الفرق الثامن أن السيئة إذا كانت من النفس و السيئة خبيثة مذمومة و صفها بالخبث فى مثل قوله {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ}النور٢٦ قال جمهور السلف الكلمات الخبيثة للخبيثين و من كلام بعضهم الأقوال و الأفعال الخبيثة للخبيثين وقد قال تعالى {ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً}إبراهيم٢٤{وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ}إبراهيم٢٦ و قال الله {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}فاطر١٠ و الأقوال و الافعال صفات القائل الفاعل فاذا كانت النفس متصفة بالسوء و الخبث لم يكن محلها ينفعه إلا ما يناسبها فمن أراد أن يجعل الحيات و العقارب يعاشرون الناس كالسنانير لم يصلح ومن أراد أن يجعل الذى يكذب شاهدا على الناس لم يصلح وكذلك من أراد أن يجعل الجاهل معلما للناس مفتيا لهم أو يجعل العاجز الجبان مقاتلا عن الناس أو يجعل الأحمق الذي لا يعرف شيئا سائسا للناس أو للدواب فمثل هذا يوجب الفساد في العالم و قد يكون غير ممكن مثل من أراد أن يجعل الحجارة تسبح على وجه الماء كالسفن أو تصعد الى السماء كالريح و نحو ذلك فالنفوس الخبيثة لاتصلح أن تكون في الجنة الطيبة التى ليس فيها من الخبث شيء فان ذلك موجب للفساد أو غير ممكن بل إذا كان فى النفس خبث طهرت و هذبت حتى تصلح لسكنى الجنة كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم إن المؤمنين إذا نجوا من النار أي عبروا الصراط و قفوا على قنطرة بين الجنة و النار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا فاذا هذبوا و نقوا أذن لهم فى دخول الجنة وهذا مما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة و النار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا و نقوا أذن لهم فى دخول الجنة فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزلة كان في الدنيا والتهذيب التخليص كما يهذب الذهب فيخلص من الغش فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب و التنقية من بقايا الذنوب فكيف بمن

لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط     و أيضا فاذا كان سببها ثابتا فالجزاء كذلك بخلاف الحسنة فانها من إنعام الحي القيوم الباقى الأول الآخر فسببها دائم فيدوم بدوامه     وإذا علم الانسان أن السيئة من نفسه لم يطمع فى السعادة التامة مع ما فيه من الشر بل علم تحقيق قوله تعالى     {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣   و قوله {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨} الزلزلة ٧-٨     وعلم أن الرب عليم حليم رحيم عدل و أن أفعاله جارية على قانون العدل و الاحسان و كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل     وفي الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال    يمين الله ملأى لا يغضيها نفقة سخاء الليل و النهار أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات و الأرض فانه لم يغض ما فى يمينه و القسط بيده الأخرى يخفض و يرفع        وعلم فساد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب و العقاب بلا حكمة و لا عدل و لا وضع للأشياء مواضعها فيصفون الرب بما يوجب الظلم و السفه و هو سبحانه قد شهد    {أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}آل عمران١٨  و لهذا يقولون لاندري ما يفعل بمن فعل السيئات بل يجوز عندهم أن يعفو عن الجميع و يجوز عندهم أن يعذب الجميع و يجوز أن يعذب و يغفر بلا موازنة بل يعفو عن شر الناس و يعذب خير الناس على سيئة صغيرة و لا يغفرها له    وهم يقولون السيئة لا تمحى لا بتوبة و لا حسنات ماحية و لا غير ذلك و قد لايفرقون بين الصغائر و الكبائر    قالوا لأن هذا كله إنما يعلم بالسمع و الخبر خبر الله و رسوله قالوا و ليس في الكتاب و السنة مايبين ما يفعل الله بمن كسب السيئات إلا الكفر و تأولوا قوله تعالى  {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً}النساء٣١   بأن المراد بالكبائر قد يكون هو الكفر وحده كما قال تعالى    {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}النساء٤٨ و قد ذكر هذه الأمور القاضي أبو بكر ابن الباقلاني و غيره ممن يقول بمثل هذه الأقوال ممن سلك مسلك جهم بن صفوان في القدر و فى الوعيد و هؤلاء قصدوا مناقضة المعتزلة فى القدر و الوعيد     فأولئك لما قالوا إن الله لم يخلق أفعال العباد و أنه يشاء مالا يكون و يكون مالا يشاء و سلكوا مسلك نفاة القدر فى هذا و قالوا في الوعيد بنحو قول الخوارج قالوا إن من دخل النار لا يخرج منها لا بشفاعة و لا غيرها بل يكون عذابه مؤبدا فصاحب الكبيرة أو من رجحت سيئاته عندهم لا يرحمه الله أبدا بل يخلده في النار فخالفوا السنة المتواترة و إجماع الصحابة فيما قالوه فى القدر و ناقضهم جهم فى هذا و هذا    وسلك هؤلاء مسلك جهم مع انتسابهم إلى أهل السنة و الحديث واتباع السلف و كذلك سلكوا فى الايمان و الوعيد مسلك المرجئة الغلاة كجهم و أتباعه     وجهم اشتهر عنه نوعان من البدعة نوع فى الأسماء و

الصفات فغلا فى نفي الأسماء و الصفات ووافقه على ذلك ملاحدة الباطنة و الفلاسفة و نحوهم و وافقه المعتزلة فى نفي الصفات دون الأسماء والكلابية و من وافقهم من السالمية و من سلك مسلكهم من الفقهاء و أهل الحديث و الصوفية وافقوه على نفي الصفات الاختيارية دون نفي أصل الصفات والكرامية و نحوهم و افقوه على أصل ذلك و هو امتناع دوام مالا يتناهى و أنه يمتنع أن يكون الله لم يزل متكلما إذا شاء و فعالا لما يشاء إذا شاء لامتناع حوادث لا أول لها و هو عن هذا الأصل الذي هو نفى و جود مالا يتناهى فى المستقبل قال بفناء الجنة والنار وقد و افقه أبو الهذيل إمام المعتزلة على هذا لكن قال بتناهى الحركات فالمعتزلة فى الصفات مخانيث الجهمية و اما الكلابية فيثبتون الصفات في الجملة و كذلك الأشعريون و لكنهم كما قال الشيخ أبو اسماعيل الانصاري الجهمية الاناث و هم مخانيث المعتزلة ومن الناس من يقول المعتزلة مخانيث الفلاسفة وقد ذكر الأشعري و غيره هذا لأن قائله لم يعلم أن جهما سبق هؤلاء إلى هذا الأصل أو لأنها مخانيثهم من بعض الوجوه و إلا فان مخالفتهم للفلاسفة كبيرة جدا والشهر ستاني ستانى يذكر عن شيوخهم أنهم أخذوا ما أخذوا عن الفلاسفة لأن الشهرستانى إنما يرى مناظرة أصحابه الأشعرية فى الصفات و نحوها مع المعتزلة بخلاف أئمة السنة و الحديث فان مناظرتهم إنما كانت مع الجهمية و هم المشهورون عند السلف و الأمة بنفى الصفات وأهل النفي للصفات و التعطيل لها هم عند السلف يقال لهم الجهمية و بهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف وأما المعتزلة فامتازوا بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين لما أحدث ذلك عمرو بن عبيد و كان هو و أصحابه يجلسون معتزلين للجماعة فيقول قتادة و غيره أولئك المعتزلة و كان ذلك بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية وبعدهم حدثت الجهمية و كان القدر قد حدث أهله قبل ذلك في خلافة عبد الله بن الزبير بعد موت معاوية و لهذا تكلم فيهم إبن عمر و ابن عباس رضي الله عنهم و غيرهما وابن عباس مات قبل ابن الزبير و ابن عمر مات عقب موته و عقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع و سبعين فبقي الناس يخوضون فى القدر بالحجاز و الشام و العراق و أكثره كان بالشام و العراق بالبصرة و أقله كان بالحجاز ثم لما حدثت المعتزلة بعد موت الحسن و تكلم فى المنزلة بين المنزلتين و قالوا بانفاذ الوعيد و خلود أهل التوحيد فى النار و أن النار لا يخرج منها من دخلها و هذا تغليظ على أهل الذنوب ضموا إلى ذلك القدر فان به يتم التغليظ على أهل الذنوب و لم يكن الناس إذ ذاك قد أحدثوا شيئا من نفي الصفات إلى أن ظهر الجعد بن درهم و هو أولهم فضحى به خالد بن عبد الله القسري و قال أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإنى مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ

إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه و هذا كان بالعراق ثم ظهر جهم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ و منها ظهر رأي جهم ولهذا كان علماء السنة و الحديث بالمشرق أكثر كلاما فى رد مذهب جهم من أهل الحجاز و الشام و العراق مثل ابراهيم بن طهمان و خارجة بن مصعب و مثل عبد الله بن المبارك و أمثالهم و قد تكلم فى ذمهم و ابن الماجشون و غيرهما و كذلك الأوزاعي و حماد بن زيد و غيرهم وإنما اشتهرت مقالتهم من حين محنة الامام أحمد بن حنبل و غيره من علماء السنة فانهم فى امارة المأمون قووا و كثروا فانه كان قد أقام بخراسان مدة و اجتمع بهم ثم كتب بالمحنة من طرسوس سنة ثماني عشرة و مائتين و فيها مات و ردوا أحمد بن حنبل الى الحبس ببغداد الى سنة عشرين و فيها كانت محنته مع المعتصم و مناظرته لهم في الكلام فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه و بين أن لا حجة لهم في شيء من ذلك و أن طلبهم من الناس أن يوافقوهم و إمتحانهم اياهم جهل و ظلم و أراد المعتصم إطلاقه فأشار عليه من أشار بأن المصلحة ضر به حتى لاتنكسر حرمة الخلافة مرة بعد مرة فلما ضربوه قامت الشناعة عليهم فى العامة و خافوا الفتنة فأطلقوه وكان أحمد بن أبي دؤاد قد جمع له نفاة الصفات القائلين بخلق القرآن من جميع الطوائف فجمع له مثل أبى عيسى محمد بن عيسى برغوث و من أكابر النجارية أصحاب حسين النجار وأئمة السنة كابن المبارك و احمد بن اسحاق و البخاري و غيرهم يسمون جميع هؤلاء جهمية وصار كثير من المتأخرين من اصحاب احمد و غيرهم يظنون أن خصومه كانوا المعتزلة ويظنون أن بشر بن غياث المريسي و إن كان قد مات قبل محنة أحمد و ابن ابى دؤاد و نحوهما كانوا معتزلة و ليس كذلك بل المعتزلة كانوا نوعا من جملة من يقول القرآن مخلوق و كانت الجهمية أتباع جهم و النجارية أتباع حسين النجار و الضرارية أتباع ضرار بن عمرو و المعتزلة هؤلاء يقولون القرآن مخلوق و بسط هذا له موضع آخر والمقصود هنا أن جهما اشتهر عنه نوعان من البدعة أحدهما نفي الصفات و الثاني الغلو فى القدر و الارجاء فجعل الايمان مجرد معرفة القلب و جعل العباد لافعل لهم و لا قدرة وهذان مما غلت المعتزلة فى خلافه فيهما وأما الأشعري فوافقه على أصل قوله و لكن قد ينازعه منازعات لفظية وجهم لم يثبت شيئا من الصفات لا الارادة و لا غيرها فهو إذا قال إن الله يحب الطاعات و يبغض المعاصي فمعنى ذلك عنده الثواب و العقاب وأما الأشعري فهو يثبت الصفات كالارادة فاحتاج حينئذ أن يتكلم في الارادة هل هي المحبة أم لا و أن المعاصي هل يحبها الله أم لا فقال إن المعاصي يحبها الله و ٤ يرضاها كما يريدها وذكر أبو المعالي الجويني أنه أول من قال ذلك و أن أهل السنة قبله كانوا يقولون إن

الله لا يحب المعاصي وذكر الأشعري في الموجز أنه قد قال ذلك قبله طائفة سماهم أشك فى بعضهم وشاع هذا القول فى كثير من الصوفية و مشايخ المعرفة و الحقيقة فصاروا يوافقون جهما في مسائل الأفعال و القدر و إن كانوا مكفرين له فى مسائل الصفات كأبي إسماعيل الأنصاري الهروي صاحب كتاب ذم الكلام فانه من المبالغين فى ذم الجهمية لنفيهم الصفات و له كتاب تكفير الجهمية و يبالغ فى ذم الأشعرية مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلى السنة و الحديث و ربما كان يلعنهم وقد قال له بعض الناس بحضرة نظام الملك أتلعن الأشعرية فقال ألعن من يقول ليس فى السموات إله و لا فى المصحف قرآن و لا فى القبر نبى و قام من عنده مغضبا ومع هذا فهو فى مسألة إرادة الكائنات و خلق الأفعال أبلغ من الأشعرية لايثبت سببا و لا حكمة بل يقول إن مشاهدة العارف الحكم لاتبقى له استحسان حسنة و لا استقباح سيئة والحكم عنده هي المشيئة لأن العارف المحقق عنده هو من يصل إلى مقام الفناء فيفنى عن جميع مراداته بمراد الحق و جميع الكائنات مرادة له و هذا هو الحكم عنده و الحسنة و السيئة يفترقان فى حظ العبد لكونه ينعم بهذه و يعذب بهذه و الالتفات إلى هذا هو من حظوظ النفس و مقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق وهذه المسألة و قعت في زمن الجنيد كما ذكر ذلك فى غير موضع و بين لهم الجنيد الفرق الثانى و هم أنهم مع مشاهدة المشيئة العامة لابد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به و ما ينهى عنه و هو الفرق بين ما يحبه و ما يبغضه و بين لهم الجنيد كما قال فى التوحيد هو إفراد الحدوث عن القدم فمن سلك مسلك الجنيد من أهل التصوف و المعرفة كان قد اهتدى و نجا و سعد ومن لم يسلك فى القدر مسلكه بل سوى بين الجميع لزمه أن لايفرق بين الحسنات و السيئات و بين الأنبياء و الفساق فلا يقول إن الله يحب هؤلاء و هذه الأعمال و لا يبغض هؤلاء و هذه الأعمال بل جميع الحوادث هو يحبها كما يريدها كما قاله الأشعري و إنما الفرق أن هؤلاء ينعمون و هؤلاء يعذبون والأشعري لما أثبت الفرق بين هذا و هذا بالنسبة إلى المخلوق كان أعقل منهم فان هؤلاء يدعون أن العارف الواصل إلى مقام الفناء لايفرق بين هذا و هذا

وهم غلطوا فى حق العبد و حق الرب أما في حق العبد فيلزمهم أن تستوى عنده جميع الحوداث و هذا محال قطعا و هم قد تمر عليهم أحوال يفنون فيها عن أكثر الأشياء أما الفناء عن جميعها فممتنع فانه لابد أن يفرق كل حي بين ما يؤلمه و بين ما يلذه فيفرق بين الخبز و التراب و الماء و الشراب فهؤلاء عزلوا الفرق الشرعي الايمانى الرحمانى الذي به فرق الله بين أوليائه و أعدائه و ظنوا أنهم مع الجمع القدري وعلى هذا فان تسوية العبد بين جميع الحوداث ممتنع لذاته بل

لابد للعبد من أن يفرق فان لم يفرق بالفرق الشرعي فيفرق بين محبوب الحق و مكروهه و بين ما يرضاه و ما يسخطه و إلا فرق بالفرق الطبعي بهواه و شيطانه فيحب ما تهواه نفسه و ما يأمر به شيطانه ومن هنا وقع منهم خلق كثير فى المعاصي وآخرون فى الفسوق و آخرون فى الكفر حتى جوزوا عبادة الأصنام ثم كثير منهم من ينتقل إلى وحدة الوجود و هم الذين خالفوا الجنيد و أئمة الدين في التوحيد فلم يفرقوا بين القديم و المحدث وهؤلاء صرحوا بعبادة كل موجود كما قد بسط الكلام عليهم فى غير هذا الموضع و هو قول أهل الوحدة كابن عربي الحاتمي و ابن سبعين و القونوي و التلمسانى و البليانى و ابن الفارض و أمثالهم المقصود هنا الكلام على من نفى الحكم و العدل و الأسباب فى القدر من أهل الكلام و المتصوفة الذين وافقوا جهما فى هذا الأصل و هو بدعته الثانية التى اشتهرت عنه بخلاف الارجاء فانه منسوب إلى طوائف غيرة فهؤلاء يقولون إن الرب يجوز أن يفعل كل مايقدر عليه و يمكن فعله من غير مراعاة حكمة و لا رحمة و لا عدل و يقولون إن مشيئته هي محبته ولهذا تجد من اتبعهم غير معظم للأمر و النهي و الوعد و الوعيد بل هو منحل عن الأمر الشرعي كله أو عن بعضه أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه فانهم أرادوا أن الجميع بالنسبة إلى الرب سواء و أن كل ماشاء فقد أحبه و أنه يحدث ما يحدثه بدون أسباب يخلقه بها و لا حكمة يسوقه إليها بل غايته أنه يسوق المقادير إلى المواقيت لم يبق عندهم فرق في نفس الأمر بين المأمور و المحظور بل وافقوا جهما و من قال بقوله كالأشعري فى أنه فى نفس الأمر لاحسن و لاسيء و إنما الحسن و القبح مجرد كونه مأمورا به و محظورا و ذلك فرق يعود إلى حظ العبد و هؤلاء يدعون الفناء عن الحظوظ فتارة يقولون فى امتثال الأمر و النهي أنه من مقام التلبيس أو ما يشبه هذا كما يوجد فى كلام أبي إسماعيل الهروي صاحب منازل السائرين وتارة يقولون يفعل هذا لأهل المارستان أي العامة كما يقوله الشيخ المغربى إلى أنواع ليس هذا موضع بسطها ومن يسلك مسلكهم غايته إذا عظم الأمر و النهي أن يقول كما نقل عن الشاذلي يكون الجمع فى قلبك مشهودا و الفرق على لسانك موجودا ولهذا يوجد فى كلامه و كلام غيره أقوال و أدعية و أحزاب تستلزم تعطيل الأمر و النهي مثل أن يدعو أن يعطيه الله إذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه و نحو هذا مما يوجب أنه يجوز عنده أن يجعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا و عملوا الصالحات بل أفضل منهم و يدعون بأدعية فيها اعتداء كما يوجد فى جواب الشاذلي و قد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع وآخرون من عوام هؤلاء يجوزون أن يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء من يكون فاجرا بل كافرا و يقولون هذه موهبة و عطية يعطيها الله من يشاء ماهي متعلقة لا

بصلاة و لا بصيام و يظنون أن تلك من كرامات الأولياء و تكون كراماتهم من الأحوال الشيطانية التى يكون مثلها للسحرة و الكهان قال الله تعالى {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{١٠١} وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ{١٠٢} البقرة١٠١-١٠٢ وقد قال النبى صلى الله عليه و سلم لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن عدل كثير منهم ممن أضله الشيطان من المنتسبين إلى الاسلام إلى أن نبذ كتاب الله و راء ظهره و اتبع ماتتلوه الشياطين فلا يعظم أمر القرآن و لا نهيه و لا يوالى من أمر القرآن بموالاته ولايعادي من أمر القرآن بمعاداته بل يعظم من رآه يأتى ببعض خوارقهم التى يأتى بمثلها السحرة و الكهان باعانة الشياطين و هي تحصل بما تتلوه الشياطين ثم منهم من يعرف أن هذا من الشيطان و لكن يعظم ذلك لهواه و يفضله على طريق القرآن ليصل به الى تقديس العامة و هؤلاء كفار كالذين قال الله تعالى فيهم {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً {٥١} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً{٥٢}النساء٥١ وهؤلاء ضاهوا الكفار الذين قال الله تعالى فيهم {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{١٠١} وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ{١٠٢} الآية البقرة١٠١-١٠٢ ومنهم من لايعرف أن هذا من الشياطين وقد يقع فى مثل هذا طوائف من أهل الكلام و العلم وأهل العبادة و التصوف حتى جوزوا عبادة الكواكب و الأصنام و لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة التى تعينهم عليها الشياطين لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم من الظلم و الفواحش فلا يبالون بشركهم بالله و لاكفرهم به و بكتابه إذا نالوا ذلك و لم يبالوا بتعليم ذلك للناس و تعظيمهم لهم لرياسة ينالونها أو مال ينالونه و إن كانوا قد علموا أنه الكفر و الشرك عملوه و دعوا إليه بل حصل عندهم ريب و شك فيما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم أو اعتقاد أن الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقة له في الباطن لأجل مصلحة الجمهور كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة و الملاحدة و الباطنية وقد دخل فى رأي هؤلاء طائفة من هؤلاء و هؤلاء و هذا مما ضاهوا به فارس و الروم و غيرهم فان فارس كانت تعظم الأنوار و تسجد للشمس و للنار و

الروم كانوا قبل النصرانية مشركين يعبدون الكواكب و الأصنام فهؤلاء الذين أشبهوا فارس و الروم شر من الذين أشبهوا اليهود و النصارى فان اولئك ضاهوا أهل الكتاب فيما بدل أونسخ و هؤلاء ضاهوا من لا كتاب له من المجوس و المشركين فارس و الروم و من دخل في ذلك من الهند و اليونان ومذهب الملاحدة الباطنية مأخوذ من قول المجوس بالأصلين و من قول فلاسفة اليونان بالعقول و النفوس وأصل قول المجوس يرجع إلى أن تكون الظلمةالمضاهية للنور هي إبليس و قول الفلاسفة بالنفس فأصل الشر عبادة النفس و الشيطان و جعلهما شريكان للرب و أن يعدلا به و نفس الانسان تفعل الشر بأمر الشيطان و قد علم النبى صلى الله عليه و سلم أبا بكر رضي الله عنه أن يقول إذا أصبح و إذا أمسى و إذا أخذ مضجعه اللهم رب جبريل و ميكائيل و إسرافيل فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ مع قوله تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}الحجر٤٢ و قوله {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}ص٨٥ وقد ظهرت دعوى النفس الالهية في فرعون و نحوه ممن ادعى أنه إله مع الله أو من دونه و ظهرت فيمن ادعى إلهية بشر مع الله كالمسيح و غيره واصل الشرك فى بنى آدم كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين فانهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم فهذا اول شرك كان فى بني آدم و كان فى قوم نوح فانه اول رسول بعث إلى اهل الأرض يدعوهم إلى التوحيد و ينهاهم عن الشرك كما قال تعالى {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً}نوح٢٣ و هذه اسماء قوم صالحين كانوا فى قوم نوح فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ثم ذهبت هذه الأصنام لما اغرق الله اهل الأرض ثم صارت الى العرب كما ذكر ذلك ابن عباس و غيره ان لم تكن اعيانها و إلا فهي نظائرها واما الشرك بالشيطان فهذا كثير فمتى لم يؤمن الخلق بأنه لاإله إلا الله بمعنى أنه المعبود المستحق للعبادة دون ما سواه و انه يحب أن يعبد و انه امر ان يعبد و انه لايعبد إلا بما أحبه مما شرع من و جب و مستحب فلابد أن يقعوا في الشرك و غيره فالذين جعلوا الأقوال و الأفعال كلها بالنسبة الى الله سواء لايحب فالذين جعلوا الأقوال و الأفعال كلها بالنسبة الى الله سواء لايحب شيئا دون شيء فلا فرق عنده بين من يعبده وحده لا يشرك به شيئا و بين من يعبد معه آلهة اخرى و جعلوا الأمر معلقا بمشيئة ليس معها حكمة و لا رحمة و لا عدل و لا فرق فيها بين الحسنات و السيئات طمعت النفس فى

نيل ما تريده بدون طاعة الله و رسوله ثم إذا جوزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح و لم يقيدوا الصلاح بالعلم الصحيح و الايمان الصادق و التقوى بل جعلوا علامة الصلاح هذه الخوارق و جوزوا الخوارق مطلقا و حكوا فى ذلك مكاشفات و قالوا اقوالا منكرة فقال بعضهم إن الولي يعطى قول كن و قال بعضهم إنه لا يمتنع على الولي فعل ممكن كما لا يمتنع على الله تعالى فعل محال وهذا قاله ابن عربى و الذين اتبعوه قالوا إن الممتنع لذاته مقدور عليه ليس عندهم ما يقال إنه غير مقدور عليه للولي حتى و لا الجمع بين الضدين و لا غير ذلك و زاد ابن عربى أن الولي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات و الذي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات هو الله و حده فهذا تصريح منهم بأن الولي مثل الله إن لم يكن هو الله وصرح بعضهم بأنه يعلم كل ما يعلمه الله و يقدر على كل ما يقدر الله عليه وادعوا أن هذا كان للنبى ثم انتقل الى الحسن بن علي ثم من الحسن الى ذريته واحدا بعد واحد حتى انتهى ذلك الى ابي الحسن الشاذلي ثم الى ابنه خاطبني بذلك من هو من أكابر أصحابهم وحدثني الثقة من أعيانهم أنهم يقولون إن محمدا هو الله وحدثني بعض الشيوخ الذين لهم سلوك و خبرة أنه كان هو و ابن هود في مكة فدخلا الكعبة فقال له ابن هود و أشار الى وسط الكعبة هذا مهبط النور الأول و قال له لو قال لك صاحب هذا البيت أريد أن أجعلك إلها ماذا كنت تقول له قال فقف شعري من هذا الكلام و انخنست أو كما قال ومن الناس من يحكي عن سهل بن عبد الله أنه لما دخل الزنج البصرة قيل له فى ذلك فقال هاه إن ببلدكم هذا من لو سألوا الله أن يزيل الجبال عن أماكنها لأزالها و لو سألوه أن لا يقيم القيامة لما أقامها لكنهم يعلمون مواضع رضاه فلا يسألونه إلا ما يحب وهذه الحكاية إما كذب على سهل و هو الذي نختار أن يكون حقا أو تكون غلطا منه فلا حول و لا قوة إلا بالله و ذلك أن ما أخبر الله أن يكون فلابد أن يكون و لو سأله أهل السموات و الأرض أن لايكون لم يجبهم مثل إقامة القيامة و أن لا يملا جهنم من الجنة و الناس أجمعين و غير ذلك بل كل ما علم الله أنه يكون فلا يقبل الله دعاء أحد فى أن لا يكون لكن الدعاء سبب يقضي الله به ما علم الله أنه سيكون بهذا السبب كما يقضي بسائر الأسباب ماعلم أنه سيكون بها وقد سأل الله تعالى من هو أفضل من كل من في البصرة بكثير ماهو دون هذا فلم يجابوا لما سبق الحكم بخلاف ذلك كما سأله ابراهيم عليه الصلاة و السلام أن يغفر لأبيه و كما سأله نوح عليه السلام سأله نجاة ابنه فقيل له {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} هود٤٦ وأفضل الخلق محمد صلى الله عليه و سلم قيل له فى شأن عمه أبي طالب {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى} التوبة١١٣ و قيل

له فى المنافقين {سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}المنافقون٦ و قد قال تعالى عموما {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ}البقرة٢٥٥ و قال {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}سبأ٢٣ فمن هذا الذي لو سأل الله مايشاؤه هو أعطاه إياه وسيد الشفعاء محمد صلى الله عليه و سلم يوم القيامة أخبر أنه يسجد تحت العرش و يحمد ربه و يثنى عليه فيقال له أي محمد ارفع رأسك و قل يسمع و سل تعط و اشفع تشفع قال فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة و قد قال تعالى {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}الأعراف٥٥ وأي اعتداء أعظم و أشنع من أن يسأل العبد ربه أن لايفعل ما قد أخبر أنه لا بد أن يفعله أو أن يفعل ماقد أخبر أنه لايفعله و هو سبحانه كما أخبر عن نفسه {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}البقرة١٨٦ و قال {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}غافر٦٠ وفي الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال ما من داع يدعو الله بدعوة ليس فيها ظلم و لا قطيعة رحم إلا أعطاه الله به احدى خصال ثلاث اما أن يعجل له دعوته و اما أن يدخر له من الخير مثلها واما أن يصرف عنه من الشر مثلها فالدعوة التى ليس فيها اعتداء يحصل بها المطلوب أو مثله و هذا غاية الاجابة فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعا أو مفسدا للداعى أو لغيره و الداعى جاهل لايعلم ما فيه المفسدة عليه و الرب قريب مجيب و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و الكريم الرحيم إذا سئل شيئا بعينه و علم أنه لا يصلح للعبد إعطاؤه أعطاه نظيره كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له فانه يعطيه من ماله نظيره و لله المثل الأعلى وكما فعل النبى صلى الله عليه و سلم لما طلبت منه طائفة من بني عمه أن يوليهم و لاية لا تصلح لهم فأعطاهم من الخمس ماأغناهم عن ذلك و زوجهم كما فعل بالفضل بن عباس و ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وقد روى في الحديث ليس شيء أكرم على الله من الدعاء و هذا حق ولما كان الأمر كما أخبر الله به فى قوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ أوجب هذا أن لا يطلب العبد الحسنات و الحسنات تدخل فيها كل نعمة إلا من الله و أن يعلم أنها من الله و حده فيستحق الله عليها الشكر الذي لايستحقه غيره و يعلم أنه لا إله إلا هو كما قال تعالى{وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ}النحل٥٣ فهذا يوجب على العبد شكره و عبادته وحده حده ثم قال {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ}النحل٥٣ و هذا إخبار عن حالهم و الجؤار يتضمن رفع الصوت والانسان إنما يجأر إذا أصابه الضر و أما في حال النعمة فهو ساكن إما شاكرا و إما كفورا {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ}النحل٥٣ ثم

إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون وهذا المعنى قد ذكره الله في غير موضع يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه و إسباغ النعماء عليه فيضيف العبد بعد ذلك الانعام الى غيره و يعبد غيره تعالى و يجعل المشكور غيره على النعم كما قال تعالى {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ{٣٣} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ{٣٤} الروم ٣٣-٣٤ و قال تعالى {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{٦٣} قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ{٦٤}الأنعام٦٣ -٦٤ و قال تعالى {وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}الزمر٨ وقوله {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ}الزمر٨ أي نسى الضر الذي كان يدعو الله لدفعه عنه كما قال في سورة الأنعام {قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٤٠} بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ{٤١}الانعام٤٠-٤١ فذم الله سبحانه حزبين حزبا لايدعونه فى الضراء و لا يتوبون إليه و حزبا يدعونه و يتضرعون إليه و يتوبون اليه فاذا كشف الضر عنهم أعرضوا عنه و أشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه فهذا الحزب نوعان كالمعطلة و المشركة حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعوالله و لم يتضرعوا إليه و لم يتوبوا إليه كما قال {وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ {٤٢} فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{٤٣}الأنعام٤٢-٤٣ و قال تعالى {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ}المؤمنون٧٦ و قال تعالى {أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ}التوبة١٢٦ و قال تعالى {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}السجدة٢١ و حزب يتضرعون اليه فى حال الضراء و يتوبون اليه فاذا كشفها عنهم أعرضوا عنه كما قال تعالى {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}يونس١٢ و قال تعالى {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ}فصلت٥١ و قال تعالى {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً}الإسراء٦٧ و قال فى المشركين ماتقدم {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ {٥٣}

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ{٥٤}النحل٥٣ ـ٥٤
والممدوح هو القسم الثالث و هم الذين يدعونه و يتوبون اليه و يثبتون على عبادته و التوبة اليه في حال السراء فيعبدونه و يطيعونه في السراء و الضراء و هم أهل الصبر و الشكر كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام فقال تعالى {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ {٨٧} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ{٨٨}الأنبياء٨٧ ـ٨٨ و قال تعالى {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ {٣٤} قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ{٣٥}ص٣٤ ـ٣٥ و قال تعالى {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ{٢١} إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاء الصِّرَاطِ{٢٢} إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ{٢٣} قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ{٢٤} فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ{٢٥}ص٢١-٢٥ و قال تعالى عن آدم و حواء {فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ {٢٢} قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ{٢٣}الأعراف٢٢ ـ٢٣
و قال {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}البقرة٣٧
وقال تعالى عن المؤمنين الذين قتل نبيهم {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ{١٤٦} وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{١٤٧} فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{١٤٨} آل عمران١٤٦ـ١٤٨ وقوله {قَاتَلَ}آل عمران١٤٦ أي النبى قتل هذا أصح القولين و قوله {مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ}آل عمران١٤٦ جملة فى موضع الخبر صفة للنبى صفة بعد صفة أي كم من نبى معه ربيون كثير قتل و لم يقتلوا معه فانه كان يكون المعنى أنه قتل و هم معه و المقصود أنه كان معه ربيون كثير و قتل فى الجملة و أولئك الربيون {فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}آل عمران١٤٦
و الربيون الجموع الكثيرة و هم الألوف الكثيرة وهذا المعنى هو الذي

يناسب سبب النزول و هو ما أصابهم يوم أحد لما قيل إن محمدا قد قتل و قد قال قبل ذلك {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ} آل عمران١٤٤ و هى التى تلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم مات النبى صلى الله عليه و سلم و قال من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات و من كان يعبد الله فان الله حي لايموت فانه عند قتل النبى و موته تحصل فتنة عظيمة للناس المؤمنين و الكافرين و تحصل ردة و نفاق لضعف قلوب أتباعه لموته و لما يلقيه الشيطان فى قلوب الكافرين إن هذا قد انقضى أمره و ما بقى يقول دينه و انه لو كان نبيا لما قتل و غلب و نحو ذلك فأخبر الله تعالى أنه كم من نبى قتل فان بنى اسرائيل كثيرا من الأنبياء و النبى معه ربيون كثير أتباع له و قد يكون قتله فى غير حرب و لا قتال بل يقتل و قد اتبعه ربيون كثير فما و هن المؤمنون لما أصابهم بقتله و ما ضعفوا و ما استكانوا و الله يحب الصابرين و لكن استغفروا لذنوبهم التى بها تحصل المصائب فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم و سألوا الله أن يغفر لهم و أن يثبت أقدامهم فيثبتهم على الايمان و الجهاد لئلا يرتابوا و لا ينكلوا عن الجهاد قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} الحجرات١٥ و سألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين سألوا ربهم ما يفعل لهم فى أنفسهم من التثبيت و ما يعطيهم من عنده من النصر فانه هو الناصر و حده و ما النصر إلا من عند الله و كذا أنزل الملائكة عونا لهم قال تعالى لما أنزل الملائكة {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} الأنفال١٠ و قال تعالى {فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} آل عمران١٤٨ و هذا مبسوط في موضع آخر المقصود هنا أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى والمصائب من نفس الانسان و ان كانت بقضاء الله و قدره وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه و أن يستغفره من ذنوبه و أن لا يتوكل إلا عليه وحده فلا يأتى بالحسنات إلا هو فأوجب ذلك للعبد توحيده و التوكل عليه وحده و الشكر له وحده و الاستغفار من الذنوب وهذه الأمور كان النبى صلى الله عليه و سلم يجمعها في الصلاة كما ثبت عنه فى الصحيح أنه صلى الله عليه و سلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول ربنا و لك الحمد ملء السماء و ملء الأرض و ملء ما بينهما و ملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء و المجد أحق ما قال العبد و كلنا لك عبد فهذا حمد و هو شكر لله تعالى و بيان أن حمده أحق ما قاله العبد ثم يقول بعد ذلك اللهم لامانع لما أعطيت و لا معطي لما منعت و لا ينفع ذا الجد منك الجد وهذا تحقيق

لوحدانيته لتوحيد الربوبية خلقا و قدرا و بداية و هداية هو المعطي المانع لامانع لما أعطى و لا معطى لما منع و لتوحيد الالهية شرعا و أمرا و نهيا و هو أن العباد و إن كانوا يعطون ملكا و عظمة و بختا و رياسة في الظاهر أو في الباطن كأصحاب المكاشفات و التصرفات الخارقة فلا ينفع ذا الجد منك الجد أي لاينجيه و لا يخلصه من سؤالك و حسابك حظه و عظمته و غناه ولهذا قال لاينفعه منك و لم يقل لاينفعه عندك فانه لو قيل ذلك أوهم أنه لا يتقرب به اليك لكن قد لايضره فيقول صاحب الجد إذا سلمت من العذاب فى الآخرة فما أبالي كالذين أوتوا النبوة و الملك لهم ملك فى الدنيا و هم من السعداء فقد يظن ذو الجد الذي لم يعمل بطاعة الله من بعده أنه كذلك فقال ولا ينفع ذا الجد منك ضمن ينفع معنى ينجى و يخلص فبين أن جده لا ينجيه من العذاب بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله و لا ينفعه جده منك فلا ينجيه و لا يخلصه فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد و تحقيق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة٥ و قوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}هود١٢٣ و قوله {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}هود٨٨ و قوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً{٨} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً{٩} المزمل ٨-٩ فقوله لامانع لما أعطيت و لا معطى لما منعت توحيد الربوبية الذي يقتضى أنه سبحانه هو الذي يسأل و يدعى و يتوكل عليه وهو سبب لتوحيد الالهية و دليل عليه كما يحتج به فى القرآن على المشركين فان المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد توحيد الربوبية و مع هذا يشركون بالله فيجعلون له أندادا يحبونهم كحب الله و يقولون إنهم شفعاؤنا عنده و إنهم يتقربون بهم اليه فيتخذونهم شفعاء و قربانا كما قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ}يونس١٨ و قال تعالى {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}الزمر٣ و قال تعالى {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٢٧} فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ{٢٨}الأحقاف٢٧-٢٨ وهذا التوحيد هو عبادة الله و حده لاشريك له و أن لانعبده إلا بما أحبه و ما رضيه و هو ما أمر به و شرعه على ألسن رسله صلوات الله عليهم فهو متضمن لطاعته و طاعة رسوله و موالاة أوليائه و معاداة أعدائه و أن يكون الله و رسوله أحب الى العبد من كل ما سواهما وهو يتضمن أن يحب الله حبا لا يماثله و لا يساويه فيه غيره بل يقتضى أن يكون رسوله صلى الله عليه و سلم أحب اليه من نفسه فاذا كان الرسول لأجل أنه رسول الله يجب أن يكون أحب الى المؤمن من نفسه فكيف بربه سبحانه و تعالى وفى صحيح البخاري أن عمر قال يارسول الله و الله إنك

لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال لايا عمر حتى أكون أحب اليك من نفسك قال فو الذي بعثك بالحق إنك لأحب إلي من نفسي قال الآن ياعمر وقد قال تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ}الأحزاب٦ و قال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}التوبة٢٤ فان لم يكن الله و رسوله و الجهاد فى سبيله أحب إلى العبد من الأهل و المال على اختلاف أنواعه فانه داخل تحت هذا الوعيد فهذا التوحيد توحيد الالهية يتضمن فعل المأمور و ترك المحظور ومن ذلك الصبر على المقدور كما أن الأول يتضمن الاقرار بأنه لا خالق و لا رازق معطي و لا مانع إلا الله و حده فيقتضى أن لا يسأل العبد غيره و لا يتوكل إلا عليه و لا يستعين إلا به كما قال تعالى فى النوعين {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة٥ و قال {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}هود١٢٣ وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين و المشركين و عليه يقع الجزاء و الثواب فى الأولى و الآخرة فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين فان الله لايغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء أما توحيد الربوبية فقد أقر به المشركون و كانوا يعبدون مع الله غيره و يحبونهم كما يحبونه فكان ذلك التوحيد الذي هو توحيد الربوبية حجة عليهم فاذا كان الله هو رب كل شيء و مليكه و لا خالق و لا رازق إلا هو فلماذا يعبدون غيره معه و ليس له عليهم خلق و لا رزق و لا بيده لهم منع و لا عطاء بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضرا و لانفعا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا فان قالوا ليشفع فقد قال الله {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ}البقرة٢٥٥ فلا يشفع من له شفاعة من الملائكة و النبيين إلا باذنه و أما قبورهم و ما نصب عليها من قباب و أنصاب أو تماثيلهم التى مثلت على صورهم مجسدة أو مرقومة فجعل الاستشفاع بها استشفاعا بهم فهذا باطل عقلا و شرعا فانها لاشفاعة لها بحال و لا لسائر الأصنام التى عملت للكواكب و الجن و الصالحين و غيرهم وإذا كان الله لايشفع أحد عنده إلا باذنه و لايشفعون إلا لمن ارتضى فما بقي الشفعاء شركاء كشفاعة المخلوق عند المخلوق فان المخلوق يشفع عنده نظيره أو من هو أعلى منه أو دونه بدون إذن المشفوع اليه و يقبل المشفوع إليه و لابد شفاعته إما لرغبته إليه أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه ما يخشاه و إما لرهبته منه وإما لمحبته إياه و إما للمعاوضة بينهما و المعاونة و إما لغير ذلك من الأسباب وتكون شفاعة الشفيع هي التى حركت إرادة المشفوع إليه و جعلته مريدا للشفاعة بعد أن لم يكن مريدا لها كأمر الآمر الذي يؤثر في المأمور فيفعل ما أمره به بعد أن لم يكن مريدا لفعله و كذلك سؤال المخلوق

للمخلوق فانه قد يكون محركا له إلى فعل ما سأله فالشفيع كما أنه شافع للطالب شفاعته فى الطلب فهو أيضا قد شفع المشفوع إليه فبشفاعته صار المشفوع اليه فاعلا للمطلوب فقد شفع الطالب و المطلوب والله تعالى وتر لايشفعه أحد فلا يشفع عنده أحد إلا باذنه فالأمر كله إليه و حده فلا شريك له بوجه و لهذا ذكر سبحانه نفى ذلك فى آية الكرسي التى فيها تقرير التوحيد فقال {لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ}البقرة٢٥٥ وسيد الشفعاء صلى الله عليه و سلم يوم القيامة إذ سجد و حمد ربه يقال له ارفع راسك و قل يسمع وسل تعطه و اشفع تشفع فيحد له حدا فيدخلهم الجنة فالأمر كله لله كما قال {قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}آل عمران١٥٤ و قال لرسوله {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ}آل عمران١٢٨ و قال {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}الأعراف٥٤ فاذا كان لا يشفع عند الله أحد إلا باذنه فهو يأذن لمن يشاء و لكن يكرم الشفيع بقبول الشفاعة كما قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح اشفعوا تؤجروا و يقضى الله على لسان نبيه ما شاء وإذا دعاه الداعى و شفع عنده الشفيع فسمع الدعاء و قبل الشفاعة لم يكن هذا مؤثرا فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق فانه سبحانه هو الذي جعل هذا يدعو و هذا يشفع و هو الخالق لأفعال العباد فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها و هو الذي و فقه للعمل ثم أثابه عليه و هو الذي و فقه للدعاء ثم أجابه فما يؤثر فيه شيء من المخلوقات بل هو سبحانه الذي جعل ما يفعله سببا لما يفعله و هذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر و أن الله خالق كل شيء و أنه ما شاء كان و مالم يشأ لم يكن و لا يكون شيء إلا بمشيئته و هو خالق أفعال العباد كما هو خالق سائر المخلوقات قال يحيى بن سعيد القطان مازلت أسمع أصحابنا يقولون إن الله خالق أفعال العباد ولكن هذا يناقض قول القدرية فانهم إذا جعلوا العبد هو الذي يحدث و يخلق أفعاله بدون مشيئة الله و خلقه لزمهم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلا لما لم يكن فاعلا له فبدعائه جعله مجيبا له و بتوبته جعله قابلا للتوبة و بشفاعته جعله قابلا للشفاعة وهذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه فان الاذن نوعان إذن بمعنى المشيئة و الخلق و إذن بمعنى الاباحة و الاجازة فمن الأول قوله فى السحر {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ}البقرة١٠٢ فان ذلك بمشيئة الله و قدرته و إلا فهو لم يبح السحر والقدرية تنكر هذا الاذن و حقيقة قولهم إن السحر يضر بدون إذن الله وكذلك قوله {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ}آل عمران١٦٦ فان الذي أصابهم من القتل و الجراح و التمثيل و الهزيمة إذا كان باذنه فهو خالق لأفعال الكفار و لأفعال المؤمنين والنوع الثاني قوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً{٤٥} وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً

مُّنِيراً{٤٦} الاحزاب ٤٥-٤٦ و قوله{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ}الحشر٥ فان هذا يتضمن اباحته لذلك و اجازته له و رفع الجناح و الحرج عن فاعله مع كونه بمشيئته و قضائه فقوله {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ}البقرة٢٥٥ هو هذا الاذن الكائن بقدره و شرعه و لم يرد بمجرد المشيئة و القدر فان السحر و انتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الاذن فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقا لها و قادرا عليها و مشيئا لها فعنده كل شافع و داع قد فعل ما فعل بدون خلق الله و قدرته و ان كان قد أباح الشفاعة وأما الكفر و السحر و قتال الكفار فهو عندهم بغير اذنه لاهذا الاذن و لا هذا الاذن فانه لم يبح ذلك باتفاق المسلمين و عندهم أنه لم يشأه و لم يخلقه بل كان بدون مشيئته و خلقه والمشركون المقرون بالقدر يقولون ان الشفعاء يشفعون بالاذن القدري و ان لم يأذن لهم أباحة و جوازا ومن كان مكذبا بالقدر مثل كثير من النصارى يقولون ان شفاعة الشفعاء بغير اذن لا قدري و لا شرعى والقدرية من المسلمين يقولون يشفعون بغير اذن قدري و من سأل الله بغير اذنه الشرعى فقد شفع عنده بغير اذن قدري و لا شرعى فالداعي المأذون له فى الدعاء مؤثر فى الله عندهم لكن باباحته والداعي غير المأذون له إذا أجاب دعاءه فقد أثر فيه عندهم لا بهذا الاذن و لا بهذا الاذن كدعاء بلعام بن باعوراء و غيره و الله تعالى يقول {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ}البقرة٢٥٥ فان قيل فمن الشفعاء من يشفع بدون اذن الله الشرعى و ان كان خالقا لفعله كشفاعة نوح لابنه و شفاعة ابراهيم لأبيه و شفاعة النبى صلى الله عليه و سلم لعبد الله بن ابي بن سلول حين صلى عليه بعد موته و قوله {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ}البقرة٢٥٥ قد قلتم أنه يعم النوعين فانه لو أراد الاذن القدري لكان كل شفاعة داخلة في ذلك كما يدخل فى ذلك كل كفر و سحر و لم يكن فرق بين ما يكون باذنه و ما لا يكون باذنه و لو اراد الاذن الشرعي فقط لزم قول القدرية و هؤلاء قد شفعوا بغير اذن شرعي قيل المنفى من الشفاعة بلا اذن هي الشفاعة التامة و هي المقبولة كما فى قول المصلي سمع الله لمن حمده اي استجاب له و كما فى قوله تعالى {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}البقرة٢ و قوله {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا}النازعات٤٥ و قوله {فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ}ق٤٥ و نحو ذلك فان الهدى و الانذار و التذكير و التعليم لابد فيه من قبول المتعلم فاذا تعلم حصل له التعليم المقصود و الا قيل علمته فلم يتعلم كما قيل {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}فصلت١٧ فكذلك الشفاعة فالشفاعة مقصودها قبول المشفوع اليه و هي الشفاعة التامة فهذه هي التى لا تكون الا باذنه و اما اذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته كانت كعدمها و كان على صاحبها التوبة و الاستغفار منها كما

قال نوح {رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ} هود٤٧ و كما نهى الله النبى صلى الله عليه و سلم عن الصلاة على المنافقين و قال له {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ} التوبة٨٤ و قال له {سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} المنافقون٦ و لهذا قال على لسان المشركين {فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ{١٠٠} وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ{١٠١} الشعراء ١٠٠-١٠١ فالشفاعة المطلوبة هي شفاعة المطاع الذي تقبل شفاعته و هذه ليست لأحد عند الله إلا باذنه قدرا و شرعا فلابد أن يأذن فيها و لابد أن يجعل العبد شافعا فهو الخالق لفعله و المبيح له كما في الداعي هو الذي أمره بالدعاء و هو الذي يجعل الداعي داعيا فالأمر كله لله خلقا و أمرا كما قال {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} الأعراف٥٤ وقد روي فى حديث ذكره ابن أبى حاتم و غيره أنه قال فمن يثق به فليدعه أي فلم يبق لغيره لا خلق و لا أمر ولما كان المراد بالشفاعة المثبتة هي الشفاعة المطلقة و هي المقصود بالشفاعة و هي المقبولة بخلاف المردودة فان أحدا لا يريدها لا الشافع و لا المشفوع له و لا المشفوع إليه و لو علم الشافع و المشفوع له أنها ترد لم يفعلوها و الشفاعة المقبولة هي النافعة بين ذلك في مثل قوله {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} سبأ٢٣ و قوله {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً} طه١٠٩ فنفى الشفاعة المطلقة و بين أن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له و هو الاذن الشرعي بمعنى أباح له ذلك و أجازه كما قال تعالى {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} الحج٣٩ و قوله {لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ} الأحزاب٥٣ و قوله {لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} النور٥٨ و نحو ذلك وقوله {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ} طه١٠٩ هو إذن للمشفوع له فلا يأذن فى شفاعة مطلقة لأحد بل إنما يأذن فى أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعة فيه قال تعالى {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً{١٠٨} يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً{١٠٩} طه ١٠٨-١٠٩ و فيه قولان قيل إلا شفاعة من أذن له الرحمن وقيل لاتنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن فهو الذي تنفعه الشفاعة وهذا هو الذى يذكره طائفة من المفسرين لايذكرون غيره لأنه لم يقل لاتنفع إلا من أذن له و لا قال لاتنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له بل قال لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له فهي لا تنفع و لا ينتفع بها و لا تكون نافعة إلا للمأذون لهم كما قال تعالى فى الآية الأخرى {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} سبأ٢٣ ولا يقال لا تنفع إلا لشفيع مأذون له بل لو أريد هذا لقيل لا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له و إنما قال {إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} سبأ٢٣

و هو المشفوع له الذي تنفعه الشفاعة وقوله {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ}سبأ٢٣ لم يعد الى الشفعاء بل عاد إلى المذكورين فى قوله {وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ{٢٢}سبا ٢٢ ثم قال {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ}سبأ٢٣ ثم بين أن هذا منتف {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ {٢٣} سبا ٢٣ فلا يعلمون ماذا قال حتى يفزع عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع فهذا الاذن هو الاذن المطلق بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط فانه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له إذ قد يأذن له إذنا خاصا وهكذا قال غير واحد من المفسرين قالوا و هذا يدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا المؤمنين و كذلك قال السلف فى هذه الآية قال قتادة فى قوله {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً}طه١٠٩ قال كان أهل العلم يقولون إن المقام المحمود الذي قال تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا هو شفاعته يوم القيامة و قوله {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً}طه١٠٩ إن الله يشفع المؤمنين بعضهم في بعض قال البغوي {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ}طه١٠٩ أذن الله له أن يشفع له {وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً}طه١٠٩ أي و رضى قوله قال ابن عباس يعنى قال لا إله إلا الله قال البغوي فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن وقد ذكروا القولين في قوله تعالى {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}سبأ٢٣ و قدم طائفة هناك أن المستثنى هو الشافع دون المشفوع له بخلاف ما قدموه هنا منهم البغوي فانه لم يذكر هنا في الاستثناء إلا المشفوع له و قال هناك {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}سبأ٢٣ فى الشفاعة قاله تكذيبا لهم حيث قالوا {هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ}يونس١٨ قال و يجوز أن يكون المعنى إلا لمن أذن له أن يشفع له وكذلك ذكروا القولين فى قوله {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ}الزخرف٨٦ و سنتكلم على هذه الآية إن شاء الله تعالى و نبين أن الاستثناء فيها يعم الطائفتين و أنه منقطع و معنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية و هو يعم النوعين و ذلك أنه سبحانه قال {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً}طه١٠٩ و الشفاعة مصدر شفع شفاعة و المصدر يضاف الى الفاعل تارة و الى محل الفعل تارة و يماثله الذي يسمى لفظه المفعول به تارة كما يقال أعجبني دق الثوب و دق القصار و ذلك مثل لفظ العلم يضاف تارة الى العلم و تارة الى المعلوم فالأول كقوله {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}البقرة٢٥٥ و قوله {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء١٦٦ و قوله {أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ}هود١٤ و نحو ذلك والثاني كقوله {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}لقمان٣٤ فالساعة هنا معلومة لاعالمة و قوله حين قال فرعون {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ

الْأُولَى}طه٥١ قال موسى {عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى}طه٥٢ و مثل هذا كثير فالشفاعة مصدر لابد لها من شافع و مشفوع له و الشفاعة تعم شفاعة كل شافع و كل شفاعة لمشفوع له فاذا قال {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ}طه١٠٩ نفى النوعين شفاعة الشفعاء و الشفاعة للمذنبين فقوله {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ}طه١٠٩ يتناول النوعين من أذن له الرحمن و رضى له قولا من الشفعاء و من أذن له الرحمن و رضى له قولا من المشفوع له و هي تنفع المشفوع له متخلصه من العذاب و تنفع الشافع فتقبل منه و يكرم بقبولها و يثاب عليه والشفاعة يؤمئذ لا تنفع لا شافعا و لا مشفوعا له {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً}النبأ٣٨ فهذا الصنف المأذون لهم المرضى قولهم هم الذين يحصل لهم نفع الشفاعة و هذا موافق لسائر الآيات فانه تارة يشترط فى الشفاعة اذنه كقوله {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ}البقرة٢٥٥ و تارة يشترط فيها الشهادة بالحق كقوله {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}الزخرف٨٦ ثم قال {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}الزخرف٨٦ وهنا اشترط الأمرين أن يأذن له الرحمن و أن يقول صوابا و المستثنى يتناول مصدر الفاعل و المفعول كما تقول لا ينفع الزرع إلا في وقته فهو يتناول زرع الحارث و زرع الأرض لكن هنا قال {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ}طه١٠٩ و الاستثناء مفرغ فانه لم يتقدم قبل هذا من يستثنى منه هذا و إنما قال {لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ}طه١٠٩ فاذا لم يكن فى الكلام حذف كان المعنى لاتنفع الشفاعة الا هذا النوع فانهم تنفعهم الشفاعة و يكون المعنى أنها تنفع الشافع و المشفوع له و ان جعل فيه حذف تقديره لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن كان المصدر مضافا الى النوعين كل واحد بحسبه يضاف الى بعضهم لكونه شافعا و الى بعضهم لكونه مشفوعا له و يكون هذا كقوله {وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ}البقرة١٧٧ أي من يؤمن و {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ}البقرة١٧١ أى مثل داعي الذين كفروا كمثل الناعق أو مثل الذين كفروا كمثل منعوق به أي الذي ينعق به و المعنى في ذلك كله ظاهر معلوم فلهذا كان من أفصح الكلام إيجازه دون الاطناب فيه و قوله {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ}طه١٠٩ إذا كان من هذا الباب لم يحتج ان الشافع تنفعه الشفاعة و ان لم يكرمه كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة وفى الآية الآخرى {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}سبأ٢٣ من هؤلاء و هؤلاء لكن قد يقال التقدير لا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له أن يشفع فيه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه فيكون الاذن للطائفتين و النفع للمشفوع له كأحد الوجهين أو و لا تنفع الا لمن أذن له من هؤلاء و هؤلاء فكما أن الاذن للطائفتين فالنفع أيضا للطائفتين فالشافع ينتفع بالشفاعة و قد يكون انتفاعه بها أعظم

من انتفاع المشفوع له و لهذا قال النبى صلى الله عليه و سلم في الحديث الصحيح اشفعوا تؤجروا و يقضى الله على لسان نبيه ما شاء ولهذا كان من أعظم ما يكرم به الله عبده محمدا صلى الله عليه و سلم هو الشفاعة التى يختص بها و هي المقام المحمود الذي يحمده به الأولون و الآخرون و على هذا لا تحتاج الآية الى حذف بل يكون معناها يومئذ لا تنفع الشفاعة لاشافعا و لا مشفوعا {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً}النبأ٣٨ ولذلك جاء فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه و سلم قال يابني عبد مناف لا أملك لكم من الله من شيء يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه و سلم لا أملك لك من الله من شيء ياعباس عم رسول الله لا أملك لك من الله من شيء وفى الصحيح أيضا لا ألفين أحدكم يأتى يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو شاة لها يعار أو رقاع تخفق فيقول أغثني أغثنى فأقول قد أبلغتك لا أملك لك من الله من شيء فيعلم من هذا أن قوله {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}الزخرف٨٦ و {لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً}النبأ٣٧ على مقتضاه و أن قوله فى الآية {لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ}النبأ٣٧ كقوله صلى الله عليه و سلم لا أملك لكم من الله من شيء و هو كقول ابراهيم لأبيه {وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ُ}الممتحنة٤ وهذه الآية تشبه قوله تعالى {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً{٣٧} يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً{٣٨}النبأ ٣٧-٣٨ فان هذا مثل قوله {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً}طه١٠٩ ففي الموضعين اشترط اذنه فهناك ذكر القول الصواب و هنا ذكر أن يرضى قوله و من قال الصواب رضي الله قوله فان الله إنما يرضى بالصواب وقد ذكروا في تلك الآية قولين أحدهما أنه الشفاعة أيضا كما قال ابن السائب لا يملكون شفاعة الا باذنه والثانى لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا باذنه قال مقاتل كذلك قال مجاهد {لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً} النبا٣٧ قال كلاما هذا من تفسيره الثابت عنه و هو من أعلم أو أعلم التابعين بالتفسير قال الثوري إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به و قال عرضت المصحف على ابن عباس أقفه عند كل آية و اسأله عنها و عليه اعتمد الشافعي و أحمد و البخاري في صحيحه و هذا يتناول الشفاعة أيضا وفى قوله {لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً} النبا٣٧ لم يذكر استثناء فان أحدا لايملك من الله خطابا مطلقا إذ المخلوق لا يملك شيئا يشارك فيه الخالق كما قد ذكرناه فى قوله {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}الزخرف٨٦ أن هذا عام مطلق فان أحدا ممن يدعى من دونه لايملك الشفاعة بحال و لكن الله اذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوك لهم و كذلك قوله {لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً}

النبا٣٧ هذا قول السلف و جمهور المفسرين و قال بعضهم هؤلاء هم الكفار لايملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم قال ابن عطية قوله {لَا يَمْلِكُونَ} النبا٣٧ الضمير للكفار أي لايملكون من إفضاله و إكماله أن يخاطبوه بمعذرة و لا غيرها و هذا مبتدع و هو خطأ محض والصحيح قول الجمهور و السلف أن هذا عام كما قال في آية أخرى {وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً}طه١٠٨ و في حديث التجلي الذي فى الصحيح لما ذكر مرورهم على الصراط قال صلى الله عليه و سلم و لا يتكلم أحد إلا الرسل و دعوى الرسل اللهم سلم سلم فهذا في و قت المرور على الصراط و هو بعد الحساب و الميزان فكيف بما قبل ذلك وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل و أولى العزم و كل يقول إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله و لن يغضب بعده مثله و اني فعلت كذا و كذا نفسي نفسي نفسي فاذا كان هؤلاء لا يتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة فكيف بغيرهم وأيضا فان هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين و أهل الجنة و بعد أن ذكر الكافرين فقال {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً{٣١} حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً{٣٢} وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً{٣٣} وَكَأْساً دِهَاقاً{٣٤} لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً{٣٥} جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً{٣٦} رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً{٣٧} النبا٣١-٣٧ ثم قال {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً{٣٨}النبا٣٨ فقد أخبر أن الروح و الملائكة يقومون صفا لايتكلمون و هذا هو تحقيق قوله {لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً} و العرب تقول ما أملك من أمر فلان أو من فلان شيئا أي لا أقدر من أمره على شيء و غاية ما يقدر عليه الانسان من أمر غيره خطابه و لو بالسؤال فهم فى ذلك الموطن لايملكون من الله شيئا و لا الخطاب فانه لا يتكلم أحد إلا باذنه و لايتكلم{إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً{٣٨} النبا٣٨ قال تعالى {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ}الممتحنة٤ فقد أخبر الخليل أنه لا يملك لأبيه من الله من شيء فكيف غيره وقال مجاهد أيضا {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً}النبأ٣٨ قال حقا في الدنيا و عملا به رواه و الذي قبله عبد بن حميد و روى عن عكرمة {وَقَالَ صَوَاباً}النبأ٣٨ قال الصواب قول لا إله إلا الله فعلى قول مجاهد يكون المستثنى من أتى بالكلم الطيب و العمل الصالح قوله فى سورة طه {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً}طه١٠٩ فاذا جعلت هذه مثل تلك فتكون الشفاعة هي الشفاعة المطلقة و هي الشفاعة فى الحسنات و فى دخول الجنة كما فى الصحيحين أن الناس يهتمون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا على ربنا حتى يرحنا من مقامنا هذا فهذا طلب الشفاعة للفصل بينهم و فى حديث الشفاعة

أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن فهذه شفاعة في أهل الجنة و لهذا قيل إن هاتين الشفاعتين مختصتان بمحمد صلى الله عليه و سلم و يشفع غيره فى العصاة فقوله {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً}طه١٠٩ يدخل فيها الشفاعة في أهل الموقف عموما و فى أهل الجنة و في المستحقين للعذاب و هو سبحانه فى هذه و تلك لم يذكر العمل انما قال {وَقَالَ صَوَاباً}النبأ٣٨ وقال {وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً}طه١٠٩ لكن قد دل الدليل على أن القول الصواب المرضي لايكون صاحبه محمودا إلا مع العمل الصالح لكن نفس القول مرضي فقد قال الله {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}فاطر١٠ وقد ذكر البغوي و أبو الفرج ابن الجوزي و غيرهما في قوله {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}الزخرف٨٦ قولين أحدهما أن المستثنى هو الشافع و محل من الرفع والثاني هو المشفوع له قال أبو الفرج في معنى الآية قولان أحدهما أنه أراد ب {الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ}الزخرف٨٦ آلهتهم ثم استثنى عيسى و عزيرا و الملائكة فقال {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ}الزخرف٨٦ و هو شهادة أن لا إله إلا الله {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}الزخرف٨٦ بقلوبهم ماشهدوا به بألسنتهم قال و هذا مذهب الأكثرين منهم قتادة والثانى أن المراد ب {الَّذِينَ يَدْعُونَ}الزخرف٨٦ عيسى و عزيرا و الملائكة الذين عبدهم المشركون لايملك هؤلاء الشفاعة لأحد {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ}الزخرف٨٦ و هي كلمة الاخلاص {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}الزخرف٨٦ أن الله خلق عيسى و عزيرا و الملائكة و هذا مذهب قوم منهم مجاهد وقال البغوي {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ}الزخرف٨٦ هم عيسى و عزير و الملائكة فانهم عبدوا من دون الله و لهم الشفاعة و على هذا تكون من فى محل رفع و قيل من فى محل خفض و أراد بالذين يدعون عيسى و عزيرا و الملائكة يعنى أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق قال و الأول أصح قلت قد ذكر جماعة قول مجاهد و قتادة منهم ابن أبى حاتم روى باسناده المعروف على شرط الصحيح عن مجاهد قوله {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}الزخرف٨٦ عيسى و عزير و الملائكة يقول لايشفع عيسى و عزير و الملائكة {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ}الزخرف٨٦ يعلم الحق هذا لفظه جعل شفع متعديا بنفسه و كذلك لفظ و على هذا فيكون منصوبا لا يكون مخفوضا كما قاله البغوي فان الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم و يكون على هذا يقال شفعته و شفعت له كما يقال نصحته و نصحت له و شفع أي صار شفيعا للطالب أى لايشفعون طالبا و لا يعينون طالبا {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}الزخرف٨٦ أن الله ربهم وروى باسناده عن قتادة {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ

وَهُمْ يَعْلَمُونَ}الزخرف٨٦ الملائكة و عيسى و عزير أي انهم قد عبدوا من دون الله و لهم شفاعة عند الله و منزلة قلت كلا القولين معناه صحيح لكن التحقيق في تفسير الآية أن الاستثناء منقطع و لا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقا لا يستثنى من ذلك أحد عند الله فانه لم يقل و لا يشفع أحد و لا قال لايشفع لأحد بل قال {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}الزخرف٨٦ و كل من دعى من دون الله لايملك الشفاعة ألبتة والشفاعة باذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله وسيد الشفعاء صلى الله عليه و سلم لم يعبد كما عبد المسيح و هو مع هذا له شفاعة ليست لغيره فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دعى من دون الله دون من لم يدع فمن جعل الاستثناء متصلا فان معنى كلامه أن من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة إلا أن يشهد بالحق و هو يعلم أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق و هو يعلم و يبقى الذين لم يدعوا من دون الله لم تذكر شفاعتهم لأحد و هذا المعنى لا يليق بالقرآن و لا يناسبه و سبب نزول الآية يبطله أيضا وأيضا فقوله {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}الزخرف٨٦ يتناول كل معبود من دونه و يدخل فى ذلك الأصنام فانهم كانوا يقولون هم يشفعون لنا قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}يونس١٨ فاذا قيل إنه استثنى الملائكة و الأنبياء كان فى هذا اطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم و هذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة فانه إذا كان المعنى أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء كان فى هذا إثبات شفاعة المعبودين لمن عبدوهم إذا كانوا صالحين و القرآن كله يبطل هذا المعنى و لهذا قال تعالى {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى}النجم٢٦ و قال تعالى {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ{٢٦} لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ{٢٧} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ{٢٨}}الأنبياء٢٨ فبين أنهم لايشفعون إلا لمن ارتضى الرب فعلم أنه لابد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه و أنهم لايؤذن لهم إذن مطلق وأيضا فان في القرآن إذا نفى الشفاعة من دونه نفاها مطلقا فان قوله {مِن دُونِهِ}الزخرف٨٦ إما أن يكون متصلا بقوله يملكون أو بقوله يدعون أو بهما فالتقدير لايملك الذين يدعونهم الشفاعة من دونه أولايملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا و هذا أظهر لأنه قال {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}الزخرف٨٦ فأخر {الشَّفَاعَةَ}الزخرف٨٦ و قدم {مِن دُونِهِ}الزخرف٨٦ ومثل هذا كثير فى القرآن {الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ

اللّهِ}يونس٦٦ و {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ}يونس١٨ كقوله {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ}يونس١٨ و قوله {وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ}يونس١٠٦ بخلاف ما إذا قيل لايملك الذين يدعون الشفاعة من دونه فان هذا لا نظير له في القرآن و اللفظ المستعمل فى مثل هذا أن يقال لايملك الذين يدعون الشفاعة إلا باذنه أو لمن ارتضى و نحو ذلك لايقال فى هذا المعنى من دونه فان الشفاعة هي من عنده فكيف تكون من دونه لكن قد تكون باذنه و قد تكون بغير إذنه وأيضا فاذا قيل {الَّذِينَ يَدْعُونَ}الزخرف٨٦ مطلقا دخل فيه الرب تعالى فانهم كانوا يدعون الله و يدعون معه غيره و لهذا قال {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ}الفرقان٦٨ والتقدير الثالث لايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه و هذا أجود من الذي قبله لكن يرد عليه ما يرد على الأول ومما يضعفهما أن الشفاعة لم تذكر بعدها صلة لها بل قال {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}الزخرف٨٦ فنفى ملكهم الشفاعة مطلقا و هذا هو الصواب و ان كل من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة فان المالك للشيء هو الذي يتصرف فيه بمشيئته و قدرته و الرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا باذنه فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال و لايقال فى هذا إلا باذنه إنما يقال ذلك فى الفعل فيقال {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ}البقرة٢٥٥ وأما فى الملك فلا يمكن أن يكون غيره مالكا لها فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال و لايتصور أن يكون نبى فمن دونه مالكا لها بل هذا ممتنع كما يمتنع أن يكون خالقا و ربا و هذا كما قال {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ}سبأ٢٢ فنفى الملك مطلقا ثم قال {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}سبأ٢٣ فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناه لم يثبت أن مخلوقا يملك الشفاعة بل هو سبحانه له الملك و له الحمد و لاشريك له فى الملك قال تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً{١} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً{٢}الفرقان١-٢ ولهذا لما نفى الشفعاء من دونه نفاهم نفيا مطلقا بغير استثناء و إنما يقع الاستثناء إذا لم يقيدهم بأنهم من دونه كما قال تعالى {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}الأنعام٥١ و كما قال تعالى {و وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ}الأنعام٧٠ و كما قال تعالى {مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ}السجدة٤ فلما قال من دونه نفى الشفاعة مطلقا و إذا ذكر باذنه لم يقل من دونه كقوله {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ}البقرة٢٥٥ و

قوله {مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ}يونس٣ فمن تدبر القرآن تبين له أنه كما قال تعالى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ}الزمر٢٣ يشبه بعضه بعضا و يصدق بعضه بعضا ليس بمختلف و لا بمتناقض {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ وهو {مَّثَانِيَ}الزمر٢٣ يثني الله فيه الأقسام و يستوفيها والحقائق إما متماثلة و هى المتشابه و إما مماثلة و هي الأصناف و الأقسام و الأنواع و هي المثانى و التثني يراد بها جنس التعديد من غير اقتصار على اثنين فقط كما فى قوله تعالى {ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ}الملك٤ يراد به مطلق العدد كما تقول قلت له مرة بعده مرة تريد جنس العدد و تقول هو يقول كذا و يقول كذا و ان كان قد قال مرات كقول حذيفة ابن اليمان رضي الله عنهما عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه جعل يقول بين السجدتين رب اغفر لي رب اغفر لي لم يرد أن هذا قاله مرتين فقط كما يظنه بعض الناس الغالطين بل يريد أنه جعل يثنى هذا القول و يردده و يكرره كما كان يثنى لفظ التسبيح و قد قال حذيفة رضي الله عنه فى الحديث الصحيح الذي رواه مسلم إنه ركع نحوا من قيامه يقول فى ركوعه سبحان ربى العظيم سبحان ربي العظيم و ذكر أنه سجد نحوا من قيامه يقول فى سجوده رب اغفر لي رب اغفر لي وقد صرح فى الحديث الصحيح أنه أطال الركوع و السجود بقدر البقرة و النساء و آل عمران فإنه قام بهذه السور كلها و ذكر أنه كان يقول سبحان ربى العظيم سبحان ربي العظيم سبحان ربي الأعلى و سبحان ربي الأعلى فعلم أنه أراد بتثنية اللفظ جنس التعداد و التكرار لا الاقتصار على مرتين فان الاثنين أول العدد الكثير فذكر أول الأعداد يعنى أنه عدد هذا اللفظ لم يقتصر على مرة احدة فالتثنية التعديد و التعديد يكون للأقسام المختلفة وليس في القرآن تكرار محض بل لابد من فوائد في كل خطاب المتشابه فى النطائر المتماثلة و المثاني فى الأنواع و تكون التثنية فى المتشابه أي هذا المعنى قد ثنى فى القرآن لفوائد أخر المثانى تعم هذا و هذا و فاتحة الكتاب هي السبع المثانى لتضمنها هذا و هذا و بسط هذا له موضع آخر والمقصود هنا أن قوله {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}الزخرف٨٦ قد تم الكلام هنا فلا يملك أحد من المعبودين من دون الله الشفاعة ألبتة ثم استثنى {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}الزخرف٨٦ فهذا استثناء منقطع و المنقطع يكون فى المعنى الشسترك بين المذكورين فلما نفى ملكم الشفاعة بقيت الشفاعة بلا مالك لها كأنه قد قيل فاذا لم يملكوها هل يشفعون في أحد فقال نعم من شهد بالحق و هم يعلمون وهذا يتناول الشافع و المشفوع له فلا يشفع {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}الزخرف٨٦ فالملائكة و الأنبياء و

الصالحون و إن كانوا لا يملكون الشفاعة لكن إذا أذن الرب لهم شفعوا و هم لا يؤذن لهم إلا في الشفاعة للمؤمنين الذين يشهدون أن لا إله إلا الله فيشهدون بالحق و هم يعلمون لا يشفعون لمن قال هذه الكلمة تقليدا للآباء و الشيوخ كما جاء الحديث الصحيح إن الرجل يسأل فى قبره ما تقول في هذا الرجل فأما المؤمن فيقول هو عبد الله و رسوله جاءنا بالبينات و الهدى و أما المرتاب فيقول هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته فلهذا قال {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} الزخرف٨٦ وقد تقدم قول ابن عباس يعنى من قال لا إله إلا الله يعنى خالصا من قلبه والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين أن الشفاعة إنما تكون فى أهل لا إله إلا الله وقد ثبت فى صحيح البخاري أن أبا هريرة قال لرسول الله صلى الله عليه و سلم من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة قال يا أبا هريرة لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه فبين أن المخلص لها من قبل نفسه هو أسعد بشفاعته صلى الله عليه و سلم من غيره ممن يقولها بلسانه و تكذبها أقواله و أعماله فهؤلاء هم الذين شهدوا بالحق شهدوا أن لا إله إلا الله كما شهد الله لنفسه بذلك و ملائكته و أولوا العلم شهد الله إنه لا إله {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران١٨ فاذا شهدوا و هم يعملون كانوا من أهل الشفاعة شافعين و مشفوعا لهم فان المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم فى بعض كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم قال في الحديث الطويل حديث التجلي و الشفاعة حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله فى استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لاخوانهم الذين فى النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا و يصلون و يحجون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار و ذكر تمام الحديث وسبب نزول الآية على ما ذكروه مؤيد لما ذكره قال أبو الفرج ابن الجوزى سبب نزولها أن النضر بن الحارث و نفرا معه قالوا إن كان ما يقول محمد حقا فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من محمد فنزلت هذه الآية قاله مقاتل وعلى هذا فيقصد أن الملائكة و غيرهم لا يمكون الشفاعة فليس توليكم إياهم و استشفاعكم بهم بالذي يوجب أن يشفعوا لكم فان أحدا ممن يدعى من دون الله لا يملك الشفاعة و لكن {مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} الزخرف٨٦ فان الله يشفع فيه فالذي تنال به الشفاعة هى الشهادة

بالحق و هي شهادة أن لا إله إلا الله لاتنال بتولى غير الله لا الملائكة و لا الأنبياء و لا الصالحين فمن والى أحدا من هؤلاء و دعاه و حج إلى قبره أو موضعه و نذر له و حلف به و قرب له القرابين ليشفع له لم يغن ذلك عنه من الله شيئا و كان من أبعد الناس عن شفاعته و شفاعة غيره فان الشفاعة إنما تكون لأهل توحيد الله و إخلاص القلب و الدين له و من تولى أحد من دون الله فهو مشرك فهذا القول و العبادة الذي يقصد به المشركون الشفاعة يحرم عليهم الشفاعة فالذين عبدوا الملائكة و الأنبياء و الأولياء و الصالحين ليشفعوا لهم كانت عبادتهم إياهم و إشراكهم بربهم الذي به طلبوا شفاعتهم به حرموا شفاعتهم و عوقبوا بنقيض قصدهم لأنهم أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وكثير من أهل الضلال يظن أن الشفاعة تنال بهذه الأمور التى فيها شرك أو هي شرك خالص كما ظن ذلك المشركون الأولون و كما يظنه النصارى و من ضل من المنتسبين إلى الاسلام الذين يدعون غير الله و يحجون إلى قبره أو مكانه و ينذرون له و يحلفون به و يظنون أنه بهذا يصير شفيعا لهم قال تعالى {قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً{٥٦} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً{٥٧}الإسراء٥٦-٥٧ قال طائفة من السلف كان أقوام يعبدون المسيح و العزير و الملائكة فبين الله أنهم لا يملكون كشف الضر عنهم و لا تحويله كما بين أنهم لا يملكون الشفاعة و هذا لا استثناء فيه و إن كان الله يجيب دعاءهم ثم قال {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً{٥٧}الاسراء٥٧ فبين أن هؤلاء المزعومين الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله و يخافون عذابه و يتقربون إليه بالأعمال الصالحة كسائر عباده المؤمنين و قد قال تعالى {وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ}آل عمران٨٠ وللناس فى الشفاعة أنواع من الضلال قد بسطت في غير هذا الموضع

فكثير منهم يظن أن الشفاعة هي بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له كما ذكر ذلك ابو حامد الغزالى و غيره و يقولون من كان أكثر صلاة على النبى صلى الله عليه و سلم كان أحق بالشفاعة من غيره و كذلك من كان أحسن ظنا بشخص و أكثر تعظيما له كان أحق بشفاعته وهذا غلط بل هذا هو قول المشركين الذين قالوا نتولى الملائكة ليشفعوا لنا يظنون أن من أحب أحدا من الملائكة و الأنبياء و الصالحين و تولاه كان ذلك سببا لشفاعته له و ليس الأمر كذلك بل الشفاعة سببها توحيد الله و إخلاص الدين و العبادة بجميع أنواعها له فكل من كان

أعظم اخلاصا كان أحق بالشفاعة كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة فان الشفاعة من الله مبدؤها و على الله تمامها فلا يشفع أحد إلا باذنه و هو الذي يأذن للشافع و هو الذي يقبل شفاعته فى المشفوع له وإنما الشفاعة سبب من الأسباب التى بها يرحم الله من يرحم من عباده و أحق الناس برحمته هم أهل التوحيد و الاخلاص له فكل من كان أكمل فى تحقيق إخلاص لاإله إلا الله علما و عقيدة و عملا و براءة و موالاة و معاداة كان أحق بالرحمة والمذنبون الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم فخفت موازينهم فاستحقوا النار من كان منهم من أهل لا إله إلا الله فإن النار تصيبه بذنوبه و يميته الله فى النار إماتة فتحرقه النار إلا موضع السجود ثم يخرجه الله من النار بالشفاعة و يدخله الجنة كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة فبين أن مدار الأمر كله على تحقيق كلمة الاخلاص و هي لا إله إلا الله لاعلى الشرك بالتعلق بالموتى و عبادتهم كما ظنه الجاهليون وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع والمقصود هنا أن النبى صلى الله عليه و سلم كان يجمع بين الحمد الذي هو رأس الشكر و بين التوحيد و الاستغفار إذا رفع رأسه من الركوع فيقول ربنا و لك الحمد ملء السموات و ملء الأرض و ملء مابينهما وملء ماشئت من شيء بعد أهل الثناء و المجد أحق ما قال العبد و كلنا لك عبد لامانع لما أعطيت و لا معطى لما منعت و لا ينفع ذا الجد منك الجد ثم يقول اللهم طهرني بالثلج و البرد و الماء البارد اللهم طهرنى من الذنوب و الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس كما رواه مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا رفع رأسه من الركوع قال اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات و ملء الأرض و ملء ماشئت من شيء بعد أهل الثناء و المجد أحق ما قال العبد و كلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت و لا معطى لما منعت و لا ينفع ذا الجد منك الجد وروى مسلم أيضا عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا رفع رأسه من الركوع قال سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات و ملء الأرض وملء ماشئت من شيء بعد اللهم طهرنى بالثلج و البرد و الماء البارد اللهم طهرني من الذنوب و الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ و قد روى مسلم فى صحيحه أيضا عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه كان يقول اللهم لك الحمد و قال و ملء الأرض و ملء ما بينهما ولم يذكر فى بعض الروايات لأن السموات و الأرض قد يراد بهما العلو و السفل مطلقا فيدخل فى ذلك الهواء و غيره فانه عال بالنسبة إلى ما تحته و سافل بالنسبة إلى ما فوقه فقد يجعل من السماء كما يجعل السحاب سماء و السقف سماء و كذا قال فى القرآن{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} الحديد٤ و لم يقل و ما بينهما كما يقول {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} السجدة٤ فتارة يذكر قوله و ما بينهما فيما خلقه فى ستة أيام و تارة لا يذكره و هو مراد فإن ذكره كان إيضاحا و بيانا و إن لم يذكره دخل في لفظ السموات و الأرض و لهذا كان النبى صلى الله عليه و سلم تارة يقول ملء السموات و ملء الأرض و لا يقول و ما بينهما و تارة يقول و ما بينهما و فيها كلها و ملء ما شئت من شيء بعد و فى رواية أبى سعيد أحق ما قال العبد إلى آخره و في رواية ابن أبي أوفى الدعاء بالطهارة من الذنوب ففي هذا الحمد رأس الشكر و الاستغفار فان ربنا غفور شكور فالحمد بازاء النعمة و الاستغفار بازاء الذنوب وذلك تصديق قوله تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} النساء٧٩ ففي سيد الاستغفار أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبى و فى حديث أبي سعيد الحمد رأس الشكر و التوحيد كما جمع بينهما في أم القرآن فأولها تحميد و أوسطها توحيد و آخرها دعاء و كما في قوله {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} غافر٦٥ وفى حديث الموطأ أفضل ما قلت أنا و النبيون من قبلى لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك و له الحمد و هو على كل شيء قدير من قالها كتب الله له الف حسنة و حط عنه ألف سيئة و كانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك و لم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها أو زاد عليه و من قال فى يوم مائة مرة سبحان الله و بحمده حطت خطاياه و لو كانت مثل زبد البحر وفضائل هذه الكلمات فى أحاديث كثيره و فيها التوحيد و التحميد فقوله لا إله إلا الله وحده لا شريك له توحيد و قوله له الملك و له الحمد تحميد و فيها معان أخرى شريفة وقد جاء الجمع بين التوحيد و التحميد و الاستغفار فى مواضع مثل حديث كفارة المجلس سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك و أتوب إليك فيه التسبيح و التحميد والتوحيد و الاستغفار من قالها فى مجلس إن كان مجلس لغط كانت كفارة له و إن كان مجلس ذكر كانت كالطابع له و فى حديث أيضا إن هذا يقال عقب الوضوء ففى الحديث الصحيح فى مسلم و غيره من حديث عقبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له و أشهد أن محمدا عبده و رسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء و في حديث آخر أنه يقول سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لاإله إلا أنت أستغفرك و أتوب إليك وقد روى عن طائفة من السلف فى

الكلمات التى تلقاها آدم من ربه نحو هذه الكلمات روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال اللهم لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي أنك خير الغافرين اللهم لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك رب إنى ظلمت نفسي فارحمني فأنت خير الراحمين لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك رب إني ظلمت نفسي فتب علي إنك انت التواب الرحيم فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء و خاتمة الوضوء فيها التسبيح و التحميد و التوحيد و الاستغفار فالتسبيح و التحميد و التوحيد لله فانه لا يأتي بالحسنات الا هو الاستغفار من ذنوب النفس التى منها تأتى السيئات وقد قرن الله فى كتابه بين التوحيد و الاستغفار فى غير موضع كقوله {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}محمد١٩ و فى قوله {أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ {٢} وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ {٣} هود٢-٣ و فى قوله {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ}فصلت٦ وفى حديث رواه ابن أبى عاصم و غيره يقول الشيطان أهلكت الناس بالذنوب و أهلكونى بالاستغفار و بلا إله إلا الله فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون لايستغفرون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا و لاإله إلا الله تقتضي الاخلاص و التوكل و الاخلاص يقتضي الشكر فهي أفضل الكلام و هي أعلى شعب الايمان كما ثبت في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال الايمان بضع وستون أو بضع و سبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله و أدناها إماطة الأذى عن الطريق و الحياء شعبة من الايمان لاإله إلاالله هي قطب رحى الايمان و إليها يرجع الأمر كله والكتب المنزلة مجموعة في قوله تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة٥ و هي معنى لا إله إلا الله و لاحول و لا قوة إلا بالله هي من معنى لاإله إلا الله و الحمد لله فى معناها و سبحان الله و الله أكبر من معناها لكن فيها تفصيل بعد إجمال وقد ظن بعض المتأخرين أن معنى قوله {فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ أي أفمن نفسك و أنه استفهام على سبيل الانكار و معنى كلامه إن الحسنات و السيئات كلها من الله لا من نفسك وهذا القول يباين معنى الآية فإن الآية بينت أن السيئات من نفس الانسان أى بذنوبه و هؤلاء يقولون ليست السيئات من نفسه و ممن ذكر ذلك أبو بكر بن فورك فانه قال معناه أفمن نفسك يدل عليه قول الشاعر ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد الرمل و الحصى و التراب قلت و إضمار الاستفهام إذا دل عليه الكلام لا يقتضى جواز إضماره فى الخبر المخصوص من غير دلالة فان هذا يناقض المقصود و يستلزم أن كل من اراد أن ينفي ما أخبر الله به يقدر أن ينفيه بأن يقدر فى خبره استفهاما و يجعله استفهام إنكار و هذا من جهة العربية نظير

ما زعمه بعضهم في قول إبراهيم عليه السلام {هَـذَا رَبِّي}الأنعام٧٨ أهذا ربي قال ابن الانباري هذا القول شاذ لأن حرف الاستفهام لا يضمر إذا كان فارقا بين الاخبار و الاستخبار و هؤلاء استشهدوا بقوله {أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ}الأنبياء٣٤ و هذا لا حجة فيه لأنه قد تقدم الاستفهام فى أول الجملة فى الجملة الشرطية {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ}الأنبياء٣٤ فلم يحتج إلى ذكره ثانية بل ذكره يفسد الكلام و مثله قوله {أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ}آل عمران١٤٤ و قوله {أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ}البقرة٨٧ و قوله {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم}البقرة١٠٠ و هذا من فصيح الكلام و بليغه و استشهدوا بقوله لعمرك لا أدري و إن كنت داريا بسبع رمين الجمر أم بثمان وقوله كذبتك عينك أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا تقديره أكذبتك عينك و هذا لا حجة فيه لأن قوله فيما بعد أم بثمان و أم رأيت يدل على الألف المحذوفة فى البيت الأول و أما الثانى فان كانت أم هي المتصلة فكذلك وإن كانت هي المنفصلة فالخبر على بابه و هؤلاء مقصودهم أن النفس لا تأثير لها فى و جود السيئات و ليست سببا فيها بل قد يقولون أن المعاصي علامة محضة على العقوبة لاقترانها بها لا أنها سبب لها و هذا مخالف للكتاب و السنة و إجماع السلف و للعقل و القرآن يبين فى غير موضع أن الله لم يهلك أحدا و لم يعذبه الا بذنب فقال هنا {وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ و قال لهم فى شأن احد {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}آل عمران١٦٥ و قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٠ و قال تعالى في سورة الشورى أيضا {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ}الشورى٤٨ و قال تعالى {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ}يونس٥٠ و قال تعالى {وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ {٢٠٨} ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ{٢٠٩}الشعراء٢٠٨-٢٠٩ و قال تعالى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}القصص٥٩ و قال تعالى {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}الروم٤١ و قال تعالى {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}السجدة٢١ و قال تعالى {أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٤ و قال تعالى في سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لما أهلكها بذلك {كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ}القلم٣٣ و قال تعالى {مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}آل عمران١١٧ و قال تعالى عن اهل سبأ {فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ}سبأ١٦ الى قوله {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ}سبأ١٧ و قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}هود١٠٢ و قال تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ وفى الحديث الصحيح الالهي ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وفى سيد الاستغفار أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبي و قال تعالى {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}الطور٤٧ والحمد لله و حده و صلى الله على عبد الله و رسوله محمدا وصحبه وسلم ورضى الله عن الصحابة أجمعين و آله التابعين لهم باحسان إلى يوم الدين [١]

## لا تحصل النعمة إلا برحمة الله ولا يندفع الشر إلا بمغفرته

فالإنسان وكل مخلوق فقير الى الله بالذات وفقره من لوازم ذاته يمتنع أن يكون إلا فقيرا إلى خالقه وليس أحد غنيا بنفسه إلا الله وحده فهو الصمد الغنى عما سواه وكلما سواه فقير اليه فالعبد فقير الى الله من جهة ربوبيته ومن جهة الهيته كما قد بسط هذا فى مواضع والإنسان يذنب دائما فهو فقير مذنب وربه تعالى يرحمه ويغفر له وهو الغفور الرحيم فلولا رحمته وإحسانه لما وجد خير أصلا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ولولا مغفرته لما وقى العبد شر ذنوبه وهو محتاج دائما الى حصول النعمة ودفع الضر والشر ولا تحصل النعمة إلا برحمته ولا يندفع الشر إلا بمغفرته فإنه لا سبب للشر إلا ذنوب العباد كما قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ والمراد بالسيئات ما يسوء العبد من المصائب وبالحسنات ما يسره من النعم كما قال {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}الأعراف١٦٨ فالنعم والرحمة والخير كله من الله فضلا وجودا من غير أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه حق وإن كان تعالى عليه حق لعباده فذلك الحق هو

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٢٢-٤٢٥ و الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ١٧-١٦٢

أحقه على نفسه وليس ذلك من جهة المخلوق بل من جهة الله كما قد بسط هذا فى مواضع والمصائب بسبب ذنوب العباد وكسبهم كما قال {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٠ والنعم وإن كانت بسبب طاعات يفعلها العبد فيثيبه عليها فهو سبحانه المنعم بالعبد وبطاعته وثوابه عليها فإنه سبحانه هو الذى خلق العبد وجعله مسلما طائعا كما قال الخليل {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ}الشعراء٧٨ وقال {وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ}البقرة١٢٨ { وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ}البقرة١٢٨ وقال {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ}إبراهيم٤٠وقال {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}السجدة٢٤ فسأل ربه أن يجعله مسلما وأن يجعله مقيم الصلاة وقال {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ}الحجرات٧ الآية قال فى آخرها {فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً}الحجرات٨ وفى سنن أبى داود صحيح ابن حبان إهدنا سبل السلام ونجنا من الظلمات الى النور واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتممها علينا وفى الفاتحة {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}الفاتحة٦ وفى الدعاء الذى رواه الطبرانى عن ابن عباس قال مما دعا به رسول الله عشية عرفة اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرى وعلانيتى ولا يخفى عليك شىء من أمرى أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المقر بذنبه أسألك مسئلة المسكين وأبتهل اليك إبتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير من خضعت لك رقبته وذل لك جسده ورغم لك أنفه اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رؤوفا رحيما يا خير المسئولين ويا خير المعطين [1]

وما روى مسلم فى صحيحه وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده لا يقتضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم ان كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذى يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له قال تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}إبراهيم٥ وذكرهما فى اربعة مواضع من كتابه فأما من لايصبر على البلاء ولا يشكر على الرخاء فلا يلزم ان يكون القضاء خيرا له ولهذا اجيب من اورد هذا على ما يقضى على المؤمن من المعاصى بجوابين احدهما ان هذا انما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٤٢-٤٣

يتناول ما اصاب العبد لا ما فعله العبد كما فى قوله تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ}النساء٧٩ اى من سراء {وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ اى من ضراء وكقوله تعالى {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}الأعراف١٦٨ اى بالسراء والضراء كما قال تعالى {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}الأنبياء٣٥ وقال تعالى {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً}آل عمران١٢٠ فالحسنات والسيئات يراد بها المسار والمضار ويراد بها الطاعات والمعاصى والجواب الثانى ان هذا فى حق المؤمن الصبار الشكور والذنوب تنقض الايمان فاذا تاب العبد أحبه الله وقد ترتفع درجته بالتوبة قال بعض السلف كان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة فمن قضى له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير أن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار وان العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة وذلك انه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب اليه منها وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الاعمال بالخواتيم والمؤمن اذا فعل سيئة فان عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب أن يتوب فيتوب الله عليه فان التائب من الذنب كمن لاذنب له او يستغفر فيغفرا له او يعمل حسنات تمحوها فان الحسنات يذهبن السيئات او يدعو له اخوانه المؤمنون ويستغفرون له حيا وميتا او يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به او يشفع فيه نبيه محمد او يبتليه الله تعالى فى الدينا بمصائب تكفر عنه او يبتليه فى البرزخ بالصعقة فيكفر بها عنه او يبتليه فى عرصات القيامة من اهوالها بما يكفر عنه او يرحمه ارحم الراحمين [1]

## الشر لم يضف إلى الله وحده

قالت طوائف من المسلمين و أهل الكلام و الفقه و غيرهم من الحنفية و الحنبلية و غيرهم و من الكرامية و الصوفية و كثير من المتفلسفة جميع ما يحدثه الله عز وجل فى الوجود من الضرر فلا بد فيه من حكمة قال الله تعالى {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}النمل٨٨ و قال {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}السجدة٧ و الضرر الذي يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شرا مطلقا و إن كان شرا بالنسبة إلى من تضرر

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٤-٤٥ و التحفة العراقية ج: ١ ص: ٥٧

به و لهذا لايجيء في كلام الله تعالى و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم إضافة الشر و حده إلى الله بل لا يذكر الشر إلا على أحد و جوه ثلاثة إما أن يدخل فى عموم المخلوقات فإنه إذا دخل فى العموم أفاد عموم القدرة و المشيئة و الخلق و تضمن ما إشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم و إما أن يضاف إلى السبب الفاعل و إما أن يحذف فاعله فالأول كقوله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}الزمر٦٢ و نحو ذلك و من هذا الباب أسماء الله المقترنة كالمعطي المانع و الضارالنافع المعز المذل الخافض الرافع فلا يفرد الإسم المانع عن قرينه و لا الضارعن قرينه لإن إقترانهما يدل على العموم و كل مافى الوجود من رحمة و نفع و مصلحة فهو من فضله تعالى و ما فى الوجود من غير ذلك فهو من عدله فكل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل و النهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات و الأرض فإنه لم يغض ما فى يمينه و بيده الأخرى القسط يخفض و يرفع فأخبر أن يده اليمنى فيها الإحسان إلى الخلق و يده الأخرى فيها العدل و الميزان الذى به يخفض و يرفع فحفضه و رفعه من عدله و إحسانه إلى خلقه من فضله وأما حذف الفاعل فمثل قول الجن {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً}الجن١٠ و قوله تعالى في سورة الفاتحة {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}الفاتحة٧ و نحو ذلك و إضافته إلى السبب كقوله {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ}الفلق٢ و قوله {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا}الكهف٧٩ مع قوله {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا}الكهف٨٢ و قوله تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ و قوله {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا}الأعراف٢٣ و قوله تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}آل عمران١٦٥ و أمثال ذلك [1]

قال تعالى{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}الشعراء٨٠ {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً}الجن١٠ و ما شاكل ذلك من أن الشر إما أن يحذف فاعله أو يضاف إلى الأسباب أو يندرج فى العموم و أما إفراده بالذكر مضافا إلى خالق كل شيء فلا يقتضيه كلام حكيم لما توجبه الحقيقة المقتضية للأدب المؤسس لا لمحض متميز وهنا يعرف سبب دخول خلق كثير الجنة بلا عمل إنشاء

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٩٤- ٩٥

خلق لها و أما النار فلا تدخل إلا بعمل و لن يدخلها إلا أهل الدنيا و يعرف حقيقة {وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}الشورى٣٠ مع أن السيئة من القدر و قول الصديق و غيره من الصحابة إن يكن صوابا فمن الله و إن يكن خطئا فمني و من الشيطان الى غير ذلك مما فيه ما قد لحظ كل ناظر منه شعبة من الحق و تعلق بسبب من الصواب و ما يتبع و جوه الحق و يؤمن بالكتاب كله إلا أولوا الألباب و قليل ما هم فهذه إشارة يسيرة إلى كلى التقدير [١]

وإذا قيل إن الله سبحانه هو خالق الخير والشر فالمراد ما هو شر من غيره وفيه أذى لبعض الناس ولكن خلقه لحكمة وما خلق لحكمة مطلوبة محبوبة فوجوده خير من عدمه فلم يخلق شيئا يكون شرا أي يكون وجوده شرا من عدمه لكن يخلق ما هو شر من غيره وغيره خير منه للحكمة المطلوبة وما فيه أذى لبعض الناس للحكمة المطلوبة وهو سبحانه لا يعذب أحدا إلا بذنبه بمقتضى الحكمة والعدل وفي تعذيبه أنواع الحكمة والرحمة وهذا ظاهر فيما يبتلى به المؤمنين في الدنيا من المصائب التي هي جزاء سيئاتهم فإن في ذلك من الحكمة والرحمة والعدل ما هو بين لمن تأمله ولا يعاقب أحدا إلا بذنبه قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ [٢]

وذلك أن الانسان بل و جميع المخلوقات عباد لله تعالى فقراء إليه مماليك له و هو ربهم و مليكهم و إلههم لا إله إلا هو فالمخلوق ليس له من نفسه شيء أصلا بل نفسه و صفاته و أفعاله و ما ينتفع به أو يستحقه و غير ذلك إنما هو من خلق الله و الله عزوجل رب ذلك كله و مليكه و بارئه و خالقه و مصوره وإذا قلنا ليس له من نفسه إلا العدم فالعدم ليس هو شيئا يفتقر إلى فاعل موجود بل العدم ليس بشيء و بقاؤه مشروط بعدم فعل الفاعل لا أن عدم الفاعل يوجبه و يقتضيه كما يوجب الفاعل المفعول الموجود بل قد يضاف عدم المعلول الى عدم العلة و بينهما فرق و ذلك أن المفعول الموجود إنما خلقه و أبدعه الفاعل و ليس المعدوم أبدعه عدم الفاعل فإنه يقضي الى التسلسل و الدور ولأنه ليس اقتضاء أحد العدمين للآخر بأولى من العكس فإنه ليس أحد العدمين مميزا لحقيقة استوجب بها أن يكون فاعلا وان كان يعقل أن

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٠١

[٢] رسالة في معنى كون الرب عادلا ج: ١ ص: ١٣٤

عدم المقتضى أولى بعدم الأثر من العكس فهذا لأنه لما كان و جود المقتضى هو المفيد لوجود المقتضى صار العقل يضيف عدمه الى عدمه إضافة لزومية لأن عدم الشيء إما ان يكون لعدم المقتضى أو لوجود المانع و بعد قيام المقتضى لايتصور أن يكون العدم إلا لأجل هاتين الصورتين أو لحالتين فلما كان الشيء الذي انعقد سبب و جوده يعوقه و يمنعه المانع المنافى و هو أمر موجود و تارة لا يكون سببه قد انعقد صار عدمه تارة ينسب إلى عدم مقتضيه و تارة الى و جود مانعه و منافيه و هذا معنى قول المسلمين ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن إذ مشيئته هي الموجبة وحدها لا غيرها فيلزم من انتفائها انتفاؤه لا يكون شيء حتى تكون مشيئته لايكون شيء بدونها بحال فليس لنا سبب يقتضى وجود شيء حتى تكون مشيئته مانعة من وجوده بل مشيئته هي السبب الكامل فمع وجودها لامانع و مع عدمها لا مقتضى {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ}فاطر٢ {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ}يونس١٠٧ {قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}الزمر٣٨ وإذا عرف أن العبد ليس له من نفسه خير أصلا بل ما بنا من نعمة فمن الله و إذا مسنا الضر فإليه نجأر والخير كله بيديه كما قال {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ و قال {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}آل عمران١٦٥ و قال النبى صلى الله عليه و سلم فى سيد الاستغفار الذى فى صحيح البخارى اللهم أنت ربي لاإله إلا أنت خلقتني و أنا عبدك و أنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت وقال فى دعاء الاستفتاح الذى فى صحيح مسلم لبيك و سعديك والخير بيديك و الشر ليس إليك تباركت ربنا و تعاليت وذلك أن الشر إما أن يكون موجودا أو معدوما فالمعدوم سواء كان ذات عدم أو عدم صفة من صفات كمالها أو فعل من أفعالها مثل عدم الحياة أو العلم أو السمع أو البصر أو الكلام أو العقل أو لعمل الصالح على تنوع أصنافه مثل معرفة الله و محبته و عبادته و التوكل عليه و الإنابة إليه و رجائه و خشيته وإمتثال أوامره وإجتناب نواهيه و غير ذلك من الأمور المحمودة الباطنة و الظاهرة من الأقوال والأفعال فإن هذه الأمور كلها خيرات و حسنات و عدمها شر و سيئات لكن هذا العدم ليس بشيء أصلا حتى يكون له بارىء و فاعل فيضاف إلى الله و إنما هو من لوازم النفس التى هى حقيقة الإنسان قبل أن تخلق و بعد أن خلقت فإنها قبل أن تخلق عدم مستلزم لهذا العدم و بعد أن خلقت وقد

خلقت ضعيفة ناقصة فيها النقص و الضعف و العجز فإن هذه الأمور عدمية فأضيف إلى النفس من باب إضافة عدم المعلول إلى عدم علته و عدم مقتضيه و قد تكون من باب إضافته إلى وجود منافيه من و جه آخر سنبينه إن شاء الله تعالى و نكتة الأمر أن هذا الشر و السيئات العدمية ليست موجودة حتى يكون الله خالقها فإن الله خالق كل شيء والمعدومات تنسب تارة إلى عدم فاعلها و تارة إلى و جود مانعها فلا تنسب إليه هذه الشرور العدمية على الوجهين أما الأول فلأنه الحق المبين فلا يقال عدمت لعدم فاعلها و مقتضيها وأما الثانى وهو وجود المانع فلأن المانع إنما يحتاج إليه إذا وجد المقتضى و لو شاء فعلها لما منعه مانع وهو سبحانه لايمنع نفسه ما شاء فعله بل هو فعال لما يشاء و لكن الله قد يخلق هذا سببا و مقتضيا و مانعا فإن جعل السبب تاما لم يمنعه شيء و إن لم يجعله تاما منعه المانع لضعف السبب و عدم إعانة الله له فلا يعدم أمر إلا لأنه لم يشأه كما لايوجد أمر إلا لأنه يشاؤه و إنما تضاف هذه السيئات العدمية إلى العبد لعدم السبب منه تارة و لوجود المانع منه أخرى أما عدم السبب فظاهر فإنه ليس منه قوة و لا حول و لا خير و لا سبب خير أصالة و لو كان منه شيء لكان سببا فأضيف إليه لعدم السبب و لأنه قد صدرت منه أفعال كان سببا لها بإعانة الله له فما لم يصدر منه كان لعدم السبب وأما و جود المانع المضاد له المنافى فلأن نفسه قد تضيق و تضعيف و تعجز أن تجمع بين أفعال ممكنة في نفسها متنافية فى حقه فإذا إشتغل بسمع شيء أو بصره أو الكلام فى شيء أو النظر فيه أو إرادته أو اشتغلت جوارحه بعمل كثير اشتغلت عن عمل آخر و إن كان ذلك خيرا لضيقه و عجزه فصار قيام احدى الصفات والأفعال به مانعا و صادا عن آخر والضيق و العجز يعود الى عدم قدرته فعاد إلى العدم الذي هو منه و العدم المحض ليس بشيء حتى يضاف إلى الله تعالى و أما إن كان الشيء موجودا كالألم و سبب الألم فينبغي أن يعرف أن الشر الموجود ليس شرا على الاطلاق و لا شرا محضا و إنما هو شر فى حق من تألم به و قد تكون مصائب قوم عند قوم فوائد ولهذا جاء فى الحديث الذي رويناه مسلسلا آمنت بالقدر خيره و شره و حلوه و مره وفى الحديث الذي رواه أبو داود لو أنفقت ملء الأرض ذهبا لما قبله منك حتى تؤمن بالقدر خيره و شره و تعلم أن ما اصابك لم يكن ليخطئك و ما اخطأك لم يكن ليصيبك فالخير و الشر هما بحسب العبد المضاف اليه كالحلو و المر سواء و ذلك ان من لم يتألم بالشيء ليس في حقه شرا و من تنعم به فهو في حقه خير كما كان النبى صلى الله عليه و سلم يعلم من قص عليه أخوه رؤيا أن يقول خيرا تلقاه و شرا توقاه خيرا لنا و شرا لأعدائنا فإنه إذا أصاب العبد شر سر قلب عدوه فهو خير لهذا و شر لهذا و من لم يكن له وليا ولاعدوا فليس في حقه

لا خيرا و لاشرا و ليس فى مخلوقات الله ما يؤلم الخلق كلهم دائما و لا ما يؤلم جمهورهم دائما بل مخلوقاته إما منعمة لهم أو لجمهورهم فى أغلب الأوقات كالشمس و العافية فلم يكن في الموجودات التى خلقها الله ما هو شر مطلقا عاما فعلم أن الشر المخلوق الموجود شر مقيد خاص و فيه وجه آخر هو به خير و حسن و هو أغلب وجهيه كما قال تعالى {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}السجدة٧ و قال تعالى{صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}النمل٨٨ و قال تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ}الحجر٨٥ و قال {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً}آل عمران١٩١ وقد علم المسلمون أن الله لم يخلق شيئا ما إلا لحكمة فتلك الحكمة وجه حسنه و خيره و لا يكون فى المخلوقات شر محض لا خير فيه و لا فائدة فيه بوجه من الوجوه و بهذا يظهر معنى قوله و الشر ليس إليك و كون الشر لم يضف إلى الله وحده بل إما بطريق العموم أو يضاف إلى السبب أو يحذف فاعله فهذا الشر الموجود الخاص المقيد سببه إما عدم و إما وجود فالعدم مثل عدم شرط أو جزء سبب إذ لا يكون سببه عدما محضا فإن العدم المحض لايكون سببا تاما لوجود و لكن يكون سبب الخير و اللذة قد انعقد و لا يحصل الشرط فيقع الألم و ذلك مثل عدم فعل الواجبات الذي هو سبب الذم و العقاب و مثل عدم العلم الذي هو سبب ألم الجهل و عدم السمع و البصر و النطق الذي هو سبب الألم بالعمى و الصمم و البكم و عدم الصحة و القوة الذي هو سبب الألم و المرض و الضعف فهذه المواضع ونحوها يكون الشر ايضا مضافا إلى العدم المضاف إلى العبد حتى يتحقق قول الخليل {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}الشعراء٨٠ فإن المرض و إن كان ألما موجودا فسببه ضعف القوة و انتفاء الصحة الموجودة و ذلك عدم هو من الانسان المعدوم بنفسه ولا يتحقق قول الحق {وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ و قوله {قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}آل عمران١٦٥ و نحو ذلك فيما كان سببه عدم فعل الواجب و كذلك قول الصحابي و إن يكن خطأ فمني و من الشيطان يبين ذلك أن المحرمات جميعها من الكفر و الفسوق و العصيان إنما يفعلها العبد لجهله أو لحاجته فإنه إذا كان عالما بمضرتها و هو غني عنها امتنع أن يفعلها و الجهل أصله عدم و الحاجة أصلها العدم فأصل وقوع السيئات منه عدم العلم و الغنى و لهذا يقول فى القرآن {مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ}هود٢٠ {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ}يس٦٢ {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ{٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠}الصافات٦٩-٧٠ إلى نحو هذه المعاني وأما الموجود الذي هو سبب الشر الموجود الذي هو خاص كالآلام مثل الأفعال المحرمة من الكفر الذي هو تكذيب أو استكبار و الفسوق الذي هو فعل المحرمات و نحو ذلك فإن ذلك سبب الذم

و العقاب و كذلك تناول الأغذية الضارة و كذلك الحركات الشديدة المورثة للألم فهذا الوجود لايكون و جودا تاما محضا إذ الوجود التام المحض لا يورث إلا خيرا كما قلنا إن العدم المحض لايقتضي و جودا بل يكون و جودا ناقصا إما فى السبب و إما في المحل كما يكون سبب التكذيب عدم معرفة الحق و الاقرار به و سبب عدم هذا العلم والقول عدم أسبابه من النظر التام و الاستماع التام لآيات الحق و أعلامه وسبب عدم النظر و الاستماع إما عدم المقتضى فيكون عدما محضا و إما وجود مانع من الكبر أو الحسد فى النفس {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} الحديد٢٣ و هو تصور باطل و سببه عدم غنى النفس بالحق فتعتاض عنه بالخيال الباطل و الحسد أيضا سببه عدم النعمة التى يصير بها مثل المحسود أو أفضل منه فإن ذلك يوجب كراهة الحاسد لأن يكافئه المحسود أو يتفضل عليه وكذلك الفسوق كالقتل والزنا و سائر القبائح إنما سببها حاجة النفس إلى الاشتفاء بالقتل و الالتذاذ بالزنا و إلا فمن حصل غرضه بلا قتل أو نال اللذة بلا زنا لا يفعل ذلك و الحاجة مصدرها العدم و هذا يبين إذا تدبره الانسان ان الشر الموجود إذا أضيف الى عدم أو وجود فلا بد أن يكون وجودا ناقصا فتارة يضاف إلى عدم كمال السبب أو فوات الشرط و تارة يضاف إلى وجود و يعبر عنه تارة بالسبب الناقص و المحل الناقص و سبب ذلك إما عدم شرط أو وجود مانع و المانع لا يكون مانعا إلا لضعف المقتضى و كل ما ذكرته واضح بين إلا هذا الموضع ففيه غموض بتبين عند التأمل و له طرفان أحدهما أن الموجود لا يكون سببه عدما محضا و الثاني أن الموجود لايكون سببا للعدم المحض و هذا معلوم بالبديهة أن الكائنات الموجودة لا تصدر إلا عن حق موجود ولهذا كان معلوما بالفطرة أنه لابد لكل مصنوع من صانع كما قال تعالى {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} الطور٣٥ يقول أخلقوا من غير خالق خلقهم أم هم خلقوا أنفسهم ومن المتكلمين من استدل على هذا المطلوب بالقياس و ضرب المثال والاستدلال عليه ممكن ودلائله كثيرة و الفطرة عند صحتها أشد إقرارا به و هو لها أبده و هي إليه أشد اضطرارا من المثال الذي يقاس به وقد اختلف أهل الأصول فى العلة الشرعية هل يجوز تعليل الحكم الوجودي بالوصف العدمى فيها مع قولهم إن العدمي يعلل بالعدمي فمنهم من قال يعلل به و منهم من أنكر ذلك و منهم من فصل بين مالا يجوز أن يكون علة للوجود فى قياس العلة و يجوز أن تكون علته له في قياس الدلالة فلا يضاف إليه فى قياس الدلالة و هذا فصل الخطاب و هو أن قياس الدلالة يجوز أن يكون العدم فيه علة و جزءا من علة لأن عدم الوصف قد يكون دليلا على و صف و جودي يقتضي الحكم وأما قياس العلة فلا يكون العدم فيه علة تامة لكن يكون جزءا من العلة التامة و شرطا

للعلة المقتضية التى ليست بتامة و قلنا جزء من العلة التامة و هو معنى كونه شرطا في اقتضاء العلة الوجودية وهذا نزاع لفظي فإذا حققت المعاني ارتفع فهذا في بيان أحد الطرفين و هو أن الموجود لا يكون سببه عدما محضا وأما الطرف الثاني وهو أن الموجود لايكون سببا لوجود يستلزم عدما فلأن العدم المحض لا يفتقر الى سبب موجود بل يكفي فيه عدم السبب الموجود ولأن السبب الموجود إذا أثر فلابد أن يؤثر شيئا و العدم المحض ليس بشيء فالأثر الذي هو عدم محض بمنزلة عدم الأثر بل إذا أثر الاعدام فالاعدام أمر وجودي فيه عدم فإن جعل الموجود معدوما و المعدوم موجودا أمر معقول أما جعل المعدوم معدوما فلا يعقل إلا بمعنى الابقاء على العدم و الابقاء على العدم يكفي فيه عدم الفاعل و الفرق معلوم بين عدم الفاعل و عدم الموجب فى عدم العلة و بين فاعل العدم و موجب العدم و علة العدم و العدم لا يفتقر إلى الثاني بل يكفى فيه الأول فتبين بذلك الطرفان و هو أن العدم المحض الذي ليس فيه شوب وجود لا يكون وجودا ما لاسببا و لا مسببا و لا فاعلا و لا مفعولا أصلا فالوجود المحض التام الذي ليس فيه شوب عدم لا يكون سببا لعدم أصلا و لا مسببا عنه و لا فاعلا له و لا مفعولا أما كونه ليس مسببا عنه و لا مفعولا له فظاهر و أما كونه ليس سببا له فإن كان سببا لعدم محض فالعدم المحض لا يفتقر الى سبب موجود و إن كان لعدم فيه وجود فذاك الوجود لابد له من سبب و لو كان سببه تاما و هو قابل لما دخل فيه عدم فإنه إذا كان السبب تاما والمحل قابلا وجب وجود المسبب فحيث كان فيه عدم فلعدم ما في السبب أو فى المحل فلا يكون وجودا محضا فظهر أن السبب حيث تخلف حكمه إن كان لفوات شرط فهو عدم و إن كان لوجود مانع فإنما صار مانعا لضعف السبب و هو أيضا عدم قوته و كماله فظهر أن الوجود ليس سبب العدم المحض و ظهر بذلك القسمة الرباعية و هي أن الوجود المحض لايكون إلا خيرا يبين ذلك أن كل شرفى العالم لا يخرج عن قسمين إما ألم و إما سبب الألم وسبب والألم مثل الأفعال السيئة المقتضية للعذاب والألم الموجود لايكون إلا لنوع عدم فكما يكون سببه تفرق الاتصال و تفرق الاتصال هو عدم التأليف والاتصال الذى بينهما و هو الشر و السفاد وأما سبب الألم فقد قررت فى قاعدة كبيرة أن أصل الذنوب هو عدم الواجبات لافعل المحرمات و أن فعل المحرمات إنما و قع لعدم الواجبات فصار أصل الذنوب عدم الواجبات و أصل الألم عدم الصحة و لهذا كان النبى صلى الله عليه و سلم يعلمهم فى خطبة الحاجة أن يقولوا و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا فيستعيذ من شر النفس الذي نشأ عنها من ذنوبها وخطاياها و يستعيذ من سيئات الأعمال التى هي عقوباتها و آلامها فإن قوله و من سيئات أعمالنا قد يراد به السيئات فى

الأعمال و قد يراد به العقوبات فإن لفظ السيئات فى كتاب الله يراد به ما يسوء الإنسان من الشر و قد يراد به الأعمال السيئة قال تعالى {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا}آل عمران١٢٠ وقال تعالى {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ}الشورى٤٨ ومعلوم أن شر النفس هو الأعمال السيئة فتكون سيئات الأعمال هى الشر و العقوبات الحاصلة بها فيكون مستعيذا من نوعى السيئات الأعمال السيئة و عقوباتها كما فى الاستعاذة المأمور بها فى الصلاة أعوذ بك من عذاب جهنم و من عذاب القبر و من فتنة المحيا و الممات و من فتنة المسيح الدجال فأمرنا بالاستعاذة من العذاب عذاب الآخرة و عذاب البرزخ و من سبب العذاب و من فتنة المحيا و الممات و فتنة المسيح الدجال و ذكر الفتنة الخاصة بعد الفتنة العامة فتنة المسيح الدجال فإنها أعظم الفتن كما فى الحديث الصحيح مامن خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة المسيح الدجال [1]

## الله سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت

ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته فى الآفاق وفى انفسنا وبما شهد به فى كتابه أن المعاصى سبب المصائب فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال وان الطاعة سبب النعمة فاحسان العمل سبب لاحسان الله قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٠ وقال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ}آل عمران١٥٥ وقال {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}آل عمران١٦٥وقال {أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٤ [2]

والجزاء يكون في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت وهو قائم بالقسط والجميع مستسلمون لحكمه قانتون له في جزائهم على أعمالهم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص:١٥- ٢٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٣٨

والمصائب التي يصيبهم في الدنيا جزاء لهم قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} النساء٧٩ [١]

## المؤمن يصبر على المصائب و يستغفر من الذنوب و المعايب

أن الله رب كل شيء و خالقه و مليكه لارب غيره و لا خالق سواه و إنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن لا حول و لا قوة إلا به و لا ملجأ منه إلا إليه و أنه على كل شيء قدير فجميع ما فى السموات و الأرض من الأعيان و صفاتها و حركاتها فهي مخلوقة له مقدورة له مصرفة بمشيئته لا يخرج شيء منها عن قدرته و ملكه و لا يشركه فى شيء من ذلك غيره بل هو سبحانه لا إله إلا هو و حده لا شريك له له الملك و له الحمد و هو على كل شيء قدير فالعبد فقير الى الله فى كل شيء يحتاج إليه فى كل شيء لا يستغنى عن الله طرفة عين فمن يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له فنقول إذا ألهم العبد أن يسأل الله الهداية و يستعينه على طاعته أعانه و هداه و كان ذلك سبب سعادته فى الدنيا و الآخرة و إذا خذل العبد فلم يعبد الله و لم يستعن به و لم يتوكل عليه و كل الى حوله و قوته فيوليه الشيطان و صد عن السبيل و و شقي فى الدنيا و الآخرة و كل ما يكون في الوجود هو بقضاء الله و قدره لا يخرج أحد عن القدر المقدور ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المحفوظ ليس لأحد على الله حجة بل {فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} الأنعام١٤٩ كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل و على العبد أن يؤمن بالقدر و ليس له أن يحتج به على الله فالإيمان به هدى و الإحتجاج به على الله ضلال وغي بل الإيمان بالقدر يو جب أن يكون العبد صبارا شكورا صبورا على البلاء شكورا على الرخاء إذا أصابته نعمة علم أنها من عند الله فشكره سو اء كانت النعمة حسنة فعلها أو كانت خيرا حصل بسبب سعيها فإن الله هو الذي يسر عمل الحسنات و هو الذي تفضل بالثواب عليها فله الحمد فى ذلك كله و إذا أصابته مصيبة صبر عليها و إن كانت تلك المصيبة قد جرت على يد غيره فالله هو الذي سلط ذلك الشخص و هو الذي خلق أفعاله و كانت مكتوبة على العبد كما قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ

---

[١] رسالة في قنوت الأشياء ج: ١ ص: ٢٧

فَخُورٍ{٢٣}الحديد٢٢-٢٣ و قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}التغابن١١ قالو ا هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم و عليه إذا أذنب أن يستغفر و يتوب و لا يحتج على الله بالقدر و لا يقول أي ذنب لي و قد قدر علي هذا الذنب بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب و إن كان ذلك كله بقضاءالله و قدره و مشيئته إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته و خلقه لكن العبد هو الذي أكل الحرام و فعل الفاحشة

و هو الذي ظلم نفسه كما أنه هو الذي صلى و صام و حج و جاهد فهو الموصوف بهذه الأفعال وهو المتحرك بهذه الحركات و هو الكاسب بهذه المحدثات له ما كسب و عليه ما إكتسب و الله خالق ذلك و غيره من الأشياء لما له فى ذلك من الحكمة البالغة بقدرته التامة و مشيئته النافذة قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ}غافر٥٥ فعلى العبد أن يصبر على المصائب و أن يستغفر من المعائب و الله تعالى لا يأمر بالفحشاء و لا يرضى لعباده الكفر و لايحب الفساد و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن فمن يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له و مشيئة العبد للخير والشر موجودة فإن العبد له مشيئة للخير و الشر وله قدرة على هذا و هذا و هو العامل لهذا و هذا و الله خالق ذلك كله و ربه و مليكه لا خالق غيره ولا رب سواه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و قد أثبت الله المشيئتين مشيئة الرب و مشيئة العبد و بين أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب فى قوله تعالى {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{٢٩} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{٣٠} الانسان ٢٩-٣٠ و قال تعالى {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{٢٧} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{٢٨} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{٢٩} التكوير٢٧-٢٩ و قد قال تعالى {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً{٧٨} مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً{٧٩}النساء٧٨-٧٩ وبعض الناس يظن أن المراد هنا بالحسنات و السيئات الطاعات و المعاصي فيتنازعون هذا يقول قل كل من عند الله و هذا يقول الحسنة من الله و السيئة من نفسك و كلاهما أخطأ في فهم الآية فإن المراد هنا بالحسنات و السيئات النعم و المصائب كما في قوله {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}الأعراف١٦٨ أي إمتحناهم و إختبرناهم بالسراء و الضراء ومعنى الآية فى المنافقين كانوا إذا اصابتهم حسنة مثل النصر و الرزق و العافية قالوا هذا من الله و إذا أصابتهم سيئة مثل ضرب و مرض و خوف من

العدو قالوا هذا من عندك يامحمد أنت الذي جئت بهذا الدين الذي عادانا لأجله الناس و إبتلينا لأجله بهذه المصائب فقال الله تعالى {فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً}النساء٧٨ أنت إنما أمرتهم بالمعروف و نهيتهم عن المنكر و ما أصابك من نعمة نصر و عافية و رزق فمن الله نعمة أنعم الله بها عليك و ما أصابك من سيئة فقر و ذل و خوف و مرض و غير ذلك فمن نفسك و ذنوبك و خطاياك كما قال فى الآية الأخرى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}الشورى٣٠ وقال تعالى{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}آل عمران١٦٥ و قال تعالى {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ}الشورى٤٨ فالإنسان إذا أصابته المصائب بذنوبه و خطاياه كان هو الظالم لنفسه فإذا تاب و استغفر جعل الله له من كل هم فرجا و من كل ضيق مخرجا و رزقه من حيث لا يحتسب و الذنوب مثل أكل السم فهو إذا أكل السم مرض أو مات فهو الذي يمرض و يتألم و يتعذب و يموت و الله خالق ذلك كله و إنما مرض بسبب أكله و هو الذي ظلم نفسه بأكل السم فإن شرب الترياق النافع عافاه الله فالذنوب كأكل السم و الترياق النافع كالتوبة النافعة و العبد فقير الى الله تعالى فى كل حال فهو بفضله و رحمته يلهمه التوبة فإذا تاب تاب عليه فإذا سأله العبد و دعاه إستجاب دعاءه كما قال {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}البقرة١٨٦ ومن قال لا مشيئة له فى الخير و لا فى الشر فقد كذب و من قال أنه يشاء شيئا من الخير أو الشر بدون مشيئة الله فقد كذب بل له مشيئة لكل ما يفعله بإختياره من خير و شر و كل ذلك إنما يكون بمشيئة الله و قدرته فلا بد من الإيمان بهذا وهذا ليحصل الإيمان بالأمر والنهي والوعد والوعيد والإيمان بالقدر خيره وشره وأنما أصاب العبد لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه

ومن إحتج بالقدر على المعاصي فحجته داحضة و من إعتذر به فعذره غير مقبول بل هؤلاء الضالون كما قال فيهم بعض العلماء أنت عند الطاعة قدري و عند المعصية جبري أي مذهب و افق هواك تمذهبت به فإن هؤلاء إذا ظلمهم ظالم بل لو فعل الإنسان ما يكرهونه و إن كان حقا لم يعذروه بالقدر بل يقابلوه بالحق و الباطل فإن كان القدر حجة لهم فهو حجة لهؤلاء و إن لم يكن حجة لهؤلاء لم يكن حجة لهم و إنما يحتج أحدهم بالقدر عند هواه و معصية مولاه لا عند ما يؤذيه الناس و يظلمونه وأما المؤمن فهو بالعكس فى ذلك إذا آذاه الناس نظر الى القدر فصبر و احتسب وإذا أساء هو تاب و استغفر كما قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ}غافر٥٥ فالمؤمن يصبر على المصائب و يستغفر من الذنوب و المعايب و

المنافق بالعكس لا يستغفر من ذنبه بل يحتج بالقدر و لا يصبر على ما أصابه فلهذا يكون شقيا فى الدنيا و الآخرة و المؤمن سعيدا فى الدينا و الآخرة و الله سبحانه أعلم [1]

## السعداء يتبعون أباهم آدم والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس

إعلم أن الله خالق كل شيء و ربه و مليكه لارب غيره و لا خالق سواه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و هو على كل شيء قدير و بكل شيء عليم و العبد مأمور بطاعة الله و طاعة رسوله منهي عن معصية الله و معصية رسوله فإن أطاع كان ذلك نعمة من الله أنعم بها عليه و كان له الأجر و الثواب بفضل الله و رحمته و إن عصى كان مستحقا للذم و العقاب و كان لله عليه الحجة البالغة و لا حجة لأحد على الله و كل ذلك كائن بقضاءالله و قدره و مشيئته و قدرته لكنه يجب الطاعة و يأمر بها و يثيب أهلها عليها و يكرمهم و يبغض المعصية و ينهي عنها و يعاقب أهلها عليها و يهينهم و ما يصيب العبد من النعم فإن الله أنعم بها عليه و ما يصيبه من الشر فبذنوبه و معاصيه كما قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}الشورى٣٠ و قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ أي ما أصابك من خصب و نصر وهدى فالله أنعم بها عليك و ما أصابك من جدب و ذل و شر فبذنوبك و خطاياك و كل الأشياء كائنة بمشيئته و قدرته و خلقه فلابد أن يؤمن العبد بقضاء الله و قدره و أن يؤمن بشرع الله و أمره فمن نظر الى الحقيقة القدرية و أعرض عن الأمر و النهي و الوعد و الوعيد كان مشابها للمشركين و من نظر الى الأمر و النهي و كذب بالقضاء والقدر كان مشابها للمجوسيين و من آمن بهذا و هذا و إذا أحسن حمد الله و إذا أساء إستغفر الله و علم أن ذلك كله بقضاء الله و قدره فهو من المؤمنين فإن آدم علية السلام لما أذنب تاب فاجتباه ربه و هداه و إبليس أصر و استكبر و إحتج بالقدر فلعنه و أقصاه فمن تاب كان آدميا و من أصر و إحتج بالقدر كان إبليسا فالسعداء يتبعون أباهم آدم و الأشيقاء يتبعون عدوهم إبليس فنسأل الله العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٣٧-٢٤١ و الاستقامة ج: ٢ ص: ٢٣٤ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٥٧ و الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٦٨

صراط الذين أنعم عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و الله أعلم و حديث علي رضي الله عنه المخرج فى الصحيح لما طرقه النبى صلى الله عليه و سلم و فاطمة و هما نائمان فقال ألا تصليان فقال على يا رسول الله إنما انفسنا بيد الله إن شاء أن يمسكها و إن شاء أن يرسلها فولى النبى صلى الله عليه و سلم و هو يضرب بيده على فخذه و هو يقول وكان الإنسان أكثر شيء جدلا هذا الحديث نص فى ذم من عارض الأمر بالقدر فإن قوله إنما أنفسنا بيد الله الى آخره إستناد الى القدر فى ترك إمتثال الأمر و هي فى نفسها كلمة حق لكن لا تصلح لمعارضة الأمر بل معارضة الأمر فيها من باب الجدل المذموم الذي قال الله فيه {وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً} الكهف٥٤ و هؤلاء أحد أقسام القدرية و قد و صفهم الله فى غير هذا الموضع بالمجادلة الباطلة [١]

## الفوائد من قوله تعالى {فَمِن نَّفْسِكَ}

ما جاء فى عدة آثار إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة يعلمه فلا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة و الذنب يوجب ذل العبد و خضوعه و إستغفاره و شهوده لفقره و فاقته إليه سبحانه وفى قوله {فَمِن نَّفْسِكَ} النساء٧٩ من الفوائد أن العبد لا يطمئن إلى نفسه فإن الشر لايجيء إلا منها و لا يشتغل بملام الناس و ذمهم و لكن يرجع الى الذنوب فيتوب منها و يستعيذ بالله من شر نفسه و سيئات عمله و يسأل الله أن يعينه على طاعته فبذلك يحصل له الخير و يدفع عنه الشر لهذا كان أنفع الدعاء و أعظمه و أحكمه دعاء الفاتحة {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة ٦-٧ فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته و ترك معصيته فلم يصبه شر لا فى الدنيا ولا فى الآخرة والذنوب من لوازم النفس وهو محتاج الى الهدى كل لحظة وهو الى الهدى أحوج منه الى الأكل والشرب ويدخل فى ذلك من أنواع الحاجات مالا يمكن إحصاؤه و لهذا أمر به فى كل صلاة لفرط الحاجة اليه و إنما يعرف بعض قدره من إعتبر أحوال نفسه و نفوس الإنس و الجن المأمورين بهذا الدعاء و رأى ما فيها من الجهل و الظلم الذي يقتضى شقاءها في

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٦٣-٦٤ و ص: ٢٤٢

الدنيا و الآخرة فيعلم أن الله تعالى بفضله و رحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير المانعة من الشر ومما يبين ذلك أن الله تعالى لم يقص علينا فى القرآن قصة أحد إلا لنعتبرها و إنما يكون الإعتبار إذا قسنا الثاني بالأول و كانا مشتركين فى المقتضى و الحكم فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان فى نفوس المكذبين للرسل فرعون و من قبله لم يكن بنا حاجة الى الإعتبار بمن لا نشبهه قط لكن الأمر كما قال تعالى {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ}فصلت٤٣ و قال {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}الذاريات٥٢ و قال تعالى {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ}البقرة١١٨ و قال {يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ}التوبة٣٠ و لهذا قال صلى الله عليه و سلم لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يارسول الله اليهود و النصارى قال فمن و قال لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبرا بشبر و ذراعا بذراع قالوا يا رسول الله فارس و الروم قال فمن و كلا الحديثين في الصحيحين ولما كان فى غزوة حنين كان للمشركين سدرة يعلقون عليها أسلحتهم فقال بعض الناس يا رسول الله إجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال صلى الله عليه و سلم الله أكبر قلتم و الذي نفسي بيده كما قال أصحاب موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة إنها سنن لتركبن سنن من كان قبلكم وقد بين القرآن أن السيئات من النفس وإن كانت بقدر الله فأعظمها جحود الخالق و الشرك به و طلب النفس أن تكون شريكة له سبحانه أو إلها من دونه و كل هذين و قع فإن فرعون و إبليس كل و احد منهما يطلب أن يعبد و يطاع من دون الله و هذا الذي فى فرعون و إبليس غاية الظلم و الجهل و فى نفوس سائر الإنس و الجن شعبة من هذا و هذا إن لم يعن الله العبد و يهده و إلا و قع فى بعض ما و قع فيه فرعون و إبليس بحسب الإمكان قال بعض العارفين ما من نفس إلا و فيها ما فى نفس فرعون إلا أنه قدر فأظهر و غيره عجز فأضمر وذلك أن الإنسان إذا إعتبر و تعرف نفسه و الناس رأى الواحد يريد نفسه أن تطاع و تعلو بحسب الإمكان و النفوس مشحونة بحب العلو و الرئاسة بحسب إمكانها فتجده يوالي من يوافقه على هواه و يعادي من يخالفه في هواه و إنما معبوده ما يهواه و يريده قال تعالى {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً}الفرقان٤٣ و الناس عنده كما هم عند ملوك الكفار من الترك و غيرهم يال ياغي أي صديقى و عدوي فمن و افق هواهم كان و ليا و إن كان كافرا و إن لم يوافقه كان عدوا و أن كان من المتقين و هذه حال فرعون والواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون من دعوى الإلهية و جحود

الصانع و هؤلاء و إن أقروا بالصانع فإذا جاءهم من يدعوهم الى عبادة الله المتضمنة ترك طاعتهم عادوه كما عادى فرعون موسى عليه السلام و كثير من الناس عنده عقل و إيمان لايطلب هذا الحد بل تطلب نفسه ما هو عنده فإذا كان مطاعا مسلما طلب أن يطاع فى اغراضه و أن كان فيها ما هو ذنب و معصية لله و يكون من أطاعه أحب إليه و أعز عنده ممن أطاع الله و خالف هواه و هذه شعبة من حال فرعون و سائر المكذبين للرسل وإن كان عالما أو شيخا أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره و ربما أبغض نظيره حسدا و بغيا كما فعلت اليهود لما بعث الله تعالى من يدعو الى مثل مادعى إليه موسى قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا}البقرة٩١ الآية و قال {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ}البينة٤ و قال {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ}الشورى١٤ و لهذا أخبر عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون و سلط عليهم من إنتقم به منهم فقال تعالى عن فرعون {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ}القصص٤ الآية و لهذا قال تعالى {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}القصص٨٣ والله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته ليذكروه و يشكروه و يعبدون و أرسل الرسل و أنزل الكتب ليعبدوه و حده و يكون الدين كله لله و تكون كلمة الله هي العليا قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٢٥ [١]

## "تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا "

قال أبو عبدالرحمن السلمى لقد حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا وقد قام عبدالله بن عمر وهو من أصاغر الصحابة فى

---

[١] الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ٨٣ و مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٢١٦- ٢١٨

تعلم البقرة ثمانى سنين وانما ذلك لأجل الفهم والمعرفة وهذا معلوم من وجوه أحدها أن العادة المطردة التى جبل الله عليها بنى آدم توجب اعتناءهم بالقرآن المنزل عليهم لفظا ومعنى بل أن يكون اعتناءهم بالمعنى أوكد فانه قد علم أنه من قرأ كتابا فى الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أو غير ذلك فانه لابد أن يكون راغبا فى فهمه وتصور معانيه فكيف بمن قرؤا كتاب الله تعالى المنزل اليهم الذى به هداهم الله وبه عرفهم الحق والباطل والخير والشر والهدى والضلال والرشاد والغى فمن المعلوم أن رغبتهم فى فهمه وتصور معانيه أعظم الرغبات بل اذا سمع المتعلم من العالم حديثا فانه يرغب فى فهمه فكيف بمن يسمعون كلام الله من المبلغ عنه بل ومن المعلوم أن رغبة الرسول فى تعريفهم معانى القرآن أعظم من رغبته فى تعريفهم حروفه فان معرفة الحروف بدون المعانى لا تحصل المقصود اذا اللفظ انما يراد للمعنى الوجه الثانى أن الله سبحانه وتعالى قد حضهم على تدبره وتعقله واتباعه فى غير موضع كما قال تعالى {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ}ص٢٩ وقال تعالى {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}محمد٢٤ وقال تعالى {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ}المؤمنون٦٨ وقال تعالى {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ فاذا كان قد حض الكفار والمنافقين على تدبره علم أن معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها فكيف لا يكون ذلك ممكنا للمؤمنين وهذا يبين أن معانيه كانت معروفة بينة لهم الوجه الثالث أنه ذم من لا يفهمه فقال تعالى {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً {٤٥} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً{٤٦} الإسراء٤٥ -٤٦ وقال تعالى {فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً}النساء٧٨ فلو كان المؤمنون لا يفقهونه أيضا لكانوا مشاركين للكفار والمنافقين فيما ذمهم الله تعالى به [1]

## أن القرآن في أعلا درجات البيان والبلاغة

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٥٨

فاحتجاج هؤلاء بالآيات التي ظنوا دلالتها على أن نبوته خاصة بالعرب تدل على أنهم ليسوا ممن يجوز لهم الاستدلال بكلام أحد على مقصوده ومراده وأنهم ممن قيل فيه{أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً} النساء ٧٨ فليسوا أهلا أن يحتجوا بالتوراة والإنجيل والزبور على مراد الأنبياء وسائر الكلام المنقول عن الأنبياء على مراد الأنبياء عليهم السلام بل ولا يحتجون بكلام الأطباء والفلاسفة والنحاة وعلم أهل الحساب والهيئة على مقاصدهم فإن الناس كلهم متفقون على أن لغة العرب من أفصح لغات الآدميين وأوضحها ومتفقون على أن القرآن في أعلا درجات البيان والبلاغة والفصاحة وفي القرآن من الدلالات الكثيرة على مقصود الرسول صلى الله عليه وسلم التي يذكر فيها أن الله تعالى أرسله إلى أهل الكتاب وغيرهم مالا يحصى إلا بكلفة ثم مع ذلك من [١]

## المقصود من اصول الفقه

لا يدل شيء من الالفاظ الا مقرونا بغيره من الالفاظ وبحال المتكلم الذي يعرف عادته بمثل ذلك الكلام والا فنفس استماع بدون المعرفة للمتكلم وعادته لا يدل على شيء اذا كانت دلالتها دلالة قصدية إرادية تدل على ما أراد المتكلم أن يدل بها عليه لا تدل بذاتها فلابد أن تعرف ما يجب أن يريده المتكلم بها ولهذا لا يعلم بالسمع بل بالعقل مع السمع ولهذا كانت دلالة الألفاظ على معانيها سمعية عقلية تسمى الفقه ولهذا يقال لمن عرفها هو يفقه ولمن لم يعرفها لا يفقه قال تعالى {فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً}النساء٧٨ {وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً}الكهف٩٣ وقال {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}الإسراء٤٤ ولهذا كان المقصود من اصول الفقه ان يفقه مراد الله ورسوله بالكتاب والسنة [٢]

---

[١] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٣٧١

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٩٦-٤٩٧

## القدر يؤمن به و لا يحتج به

الأمور التي يجعل الشر الواقع فيها بسبب ما جاء به الرسول فإن هذا كله باطل وهو من كلام الكفار قال تعالى عن الكفار الذين قالوا لرسلهم {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٨} قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ{١٩} يس ١٨- ١٩ وقال عن قوم فرعون {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} الأعراف١٣١ وقال لما ذكر الأمر بالجهاد وأن من الناس من يبطىء عنه {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً{٧٨} مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ{٧٩} النساء ٧٨- ٧٩ والمراد بالحسنات والسيئات هنا النعم والمصائب كما قد سمى الله ذلك حسنات وسيئات في غير هذا الموضع من القرآن كقوله {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ} الأعراف١٦٨ وقوله {إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ} التوبة٥٠ ولهذا قال {وَمَا أَصَابَكَ} النساء ٧٩ ولم يقل ما أصبت وهكذا قال السلف ففي رواية أبي صالح عن ابن عباس أن الحسنة الخصب والمطر والسيئة الجدب والغلاء وفي رواية الوالبي عنه أن الحسنة الفتح والغنيمة والسيئة والهزيمة والجراح ونحو ذلك وقال في هذه الرواية ما أصابك من حسنة ما فتح الله عليه يوم بدر والسيئة ما أصابه يوم أحد وكذلك قال ابن قتيبة الحسنة الغنيمة والنعمة والسيئة البلية وروى ذلك عن أبي العالية وروى عنه أن الحسنة الطاعة والسيئة المعصية وهذا يظنه طائفة من المتأخرين ثم اختلف هؤلاء فقال مثبتة القدر هذا حجة لنا لقوله سبحانه {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} النساء ٧٨ وقال نفاته بل هو حجة لنا لقوله {وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} النساء ٧٩ وحجة كل فريق تدل على فساد قول الآخر والقولان باطلان في هذه الآية فإن المراد النعم والمصائب ولهذا قال {وَإِن تُصِبْهُمْ} النساء٧٨ والضمير قد قيل إنه يعود على المنافقين وقيل على اليهود وقيل على الطائفتين والتحقيق أنه يعود على من قال هذا من أي صنف كان ولهذا قيل هذا لا يعين قائله لأنه دائما يقوله بعض

الناس فكل من قاله تناولته الآية فإن الطاعنين فيما جاء به الرسول من كافر ومنافق بل ومن في قلبه مرض أو عنده جهل يقول مثل ذلك وكثير من الناس يقول ذلك في بعض ما جاء به الرسول ولا يعلم أنه جاء به لظنه خطأ صاحبه ويكون هو المخطىء فإذا أصابهم نصر ورزق قالوا هذا من عند الله لا يضيفه إلى ما جاء به الرسول وإن كان سببا له وإن أصابهم نقص رزق وخوف من العدو وظهوره قالوا هذا من عندك لأنه أمر بالجهاد فجرى ما جرى وأنهم تطيروا بما جاء به كما تطير قوم فرعون بما جاء به موسى والسلف ذكروا المعنيين فعن ابن عباس قال بشؤمك وعن ابن زيد قال بسوء تدبيرك قال تعالى {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ وعن ابن عباس الحسنة والسيئة أما الحسنة فأنعم بها عليك وأما السيئة فابتلاك بها{فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً}النساء٧٨ وقد قيل في مثل هذا لم يفقهوه ولم يكادوا وأن النفي مقابل الإثبات وقيل بل معناه فقهوه بعد أن كادوا لا يفقهونه كقوله {فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ}البقرة٧١ فالمنفي بها مثبت والمثبت بها منفي وهذا هو المشهور وعليه عامة الاستعمال وقد يقال يراد بها هذا تارة وهذا تارة فإذا صرحت بإثبات الفعل فقد وجد فإذا لم يؤت إلا بالنفي المحض كقوله {لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا}النور٤٠ و {لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً}النساء٧٨ فهذا نفي مطلق ولا قرينة معه تدل على الإثبات فيفرق بين مطلقها ومقيدها وهذه الأقوال الثلاثة للنحاة وقال بكل قول طائفة وقد وصف الله تعالى المنافقين بعدم الفقه في مثل قوله تعالى {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ}المنافقون٧ وفي مثل قوله {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ}محمد١٦ فدل على أنهم لم يكونوا يفقهون القرآن لكن قوله {حَدِيثاً}النساء٧٨ نكرة في سياق النفي فتعم كما قال في الكهف {وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً}الكهف٩٣ ومعلوم أنهم لا بد أن يفقهوا بعض الأقوال وإلا فلا يعيش الإنسان بدون ذلك فعلم أن المراد أنهم يفقهون بعد أن كادوا لم يفقهوه وكذلك في الرواية وهذا أظهر أقوال النحاة وأشهرها والمقصود أن هؤلاء لو فقهوا القرآن لعلموا أنك ما أمرتهم إلا بخير وما نهيتهم إلا عن شر وأنه لم تكن المصيبة الحاصلة لهم بسببك بل بسبب ذنوبهم ثم قال الله تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ قال ابن عباس وأنا كتبتها عليك وقيل إنها في حرف عند الله وأنا قدرتها عليك وهذا كقوله {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٠ وقوله {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}آل عمران١٦٥وقوله

{وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ}الشورى٤٨ وأما رواية كردم عن يعقوب فمن نفسك فمعناها يناقض القراءة المتواترة فلا يعتمد عليها ومعنى هذه الآية كما في الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ومعنى هذه الآية متناول لكل من نسب ما أصابه من المصيبة إلى ما أمر الله به ورسوله كائنا من كان فمن قال إنه بسبب تقديمه لأبي بكر وعمر واستخلافه في الصلاة أو بسبب ولايتهما حصل لهم مصيبة قيل مصيبتكم بسبب ذنوبكم {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً {٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ {٣}الطلاق٢ - ٣ بل هذا كله من أذى المؤمنين بغير ما اكتسبوا وقد قال تعالى{وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً}الحجرات١٢ وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الغيبة ذكرك أخاك بما يكره قيل أرأيت إن كان في أخي ما أقول قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته فمن رمى أحدا بما ليس فيه فقد بهته فكيف إذا كان ذلك في لصحابة ومن قال عن مجتهد إنه تعمد الظلم وتعمد معصية الله ورسوله ومخالفة الكتاب والسنة ولم يكن كذلك فقد بهته وإذا كان فيه ذلك فقد اغتابه [1]

قال تعالى {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً {٧٨} مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً {٧٩}النساء٧٨-٧٩ فان هذه الاية تنازع فيها كثير من مثبتى القدر ونفاته هؤلاء يقولون الافعال كلها من الله لقوله تعالى {كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ وهؤلاء يقولون الحسنة من الله والسيئة من نفسك لقوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ{٧٩}النساء ٧٩ وقد يجيبهم الاولون بقراءة مكذوبة فمن نفسك بالفتح على معنى الاستفهام وربما قدر بعضهم تقديرا اى افمن نفسك وربما قدر بعضهم القول فى قوله تعالى {مَا أَصَابَكَ {٧٩}النساء ٧٩ فيقولون تقدير الآية {فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً}النساء٧٨ يقولون فيحرفون لفظ القرآن ومعناه ويجعلون ما هو من قول الله قول الصدق من

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٣٨-١٤٣

قول المنافقين الذين انكر الله قولهم ويضمرون فى القرآن ما لا دليل على ثبوته بل سياق الكلام ينفيه فكل من هاتين الطائفتين جاهلة بمعنى القرآن وبحقيقة المذهب الذى تنصره وأما القرآن فالمراد منه هذا بالحسنات والسيئات النعم والمصائب ليس المراد الطاعات والمعاصى وهذا كقوله تعالى {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً}آل عمران١٢٠ وكقوله {إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ {٥٠} قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{٥١}التوبة٥٠ ـ٥١ الآية ومنه قوله تعالى {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}الأعراف١٦٨ كما قال تعالى {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}الأنبياء٣٥ اى بالنعم والمصائب وهذا بخلاف قوله {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا}الأنعام١٦٠ وأمثال ذلك فان المراد بها الطاعة والمعصية وفى كل موضع ما يبين المراد باللفظ فليس فى القرآن العزيز بحمد الله تعالى اشكال بل هو مبين وذلك انه اذا قال ما اصابك وما مسك ونحو ذلك كان من فعل غيرك بك كما قال {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ وكما قال تعالى {إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ}التوبة٥٠ وقال تعالى {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}الشورى٤٨ وإذا قال {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ}الأنعام١٦٠ كانت من فعله لانه هو الجائى بها فهذا يكون فيما فعله العبد لا فيما فعل به وسياق الاية يبين ذلك فانه ذكر هذا فى سياق الحض على الجهاد وذم المتخلفين عنه فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً {٧١} وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً{٧٢} وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً{٧٣}النساء٧١ ـ٧٣ فأمر سبحانه بالجهاد وذم المثبطين وذكر ما يصيب المؤمنين تارة من المصيبة فيه وتارة من فضل الله فيه كما اصابهم يوم احد مصيبة فقال {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}آل عمران١٦٥ واصابهم يوم بدر فضل من الله بنصره لهم وتاييده كما قال تعالى {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ}آل عمران١٢٣ ثم انه سبحانه قال {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً {٧٤} وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ {٧٥} النساء٧٤ـ٧٥ الى قوله{أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ

{٧٨}النساء٧٨ فهذا من كلام الكفار والمنافقين اذا اصابهم نصر وغيره من النعم قالوا هذا من عند الله وان اصابهم ذل وخوف وغير ذلك من المصائب قالوا هذا من عند محمد بسبب الذى جاء به فإن الكفار يضيفون ما اصابهم من المصائب الى فعل اهل الايمان وقد ذكر نظير ذلك فى قصة موسى وفرعون قال تعالى {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ{١٣٠} فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ {١٣١}الأعراف١٣٠-١٣١ ونظيره قوله تعالى فى سورة يس {قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ{١٦} وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ{١٧} قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٨} يس١٦-١٨ فاخبر الله تعالى ان الكفار كانوا يتطيرون بالمؤمنين فاذا اصابهم بلاء جعلوه بسبب اهل الايمان وما اصابهم من الخير جعلوه لهم من الله عز وجل فقال تعالى {فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً}النساء٧٨ والله تعالى نزل احسن الحديث فلو فهموا القرآن لعلموا ان الله امرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر امر بالخير ونهى عن الشر فليس فيما بعث الله به رسله ما يكون سببا للشر بل الشر حصل بذنوب العباد فقال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ}النساء٧٩ اى ما اصابك من نصر ورزق وعافية فمن الله نعمة انعم بها عليك وان كانت بسبب اعمالك الصالحة فهو الذى هداك واعانك ويسرك لليسرى ومن عليك بالايمان وزينه فى قلبك وكره اليك الكفر والفسوق والعصيان وفى اخر الحديث الصحيح الالهى حديث ابى ذر عن النبى فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى يا عبادى انما هى اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه وفى الحديث الصحيح سيد الاستغفار ان يقول العبد اللهم انت ربى لا اله الا انت خلقتنى وانا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت اعوذ بك من شر ما صنعت ابوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب الا انت من قالها اذا اصبح موقنا بها فمات من يومه ذلك دخل الجنة ومن قالها اذا امسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة ثم قال تعالى {وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ}النساء٧٩من ذل و خوف و هزيمة كما أصابهم يوم أحد {فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ أي بذنوبك و خطاياك و أن كان ذلك مكتوبا مقدرا عليك فإن القدر ليس حجة لأحد لا على الله و لا على خلقه و لو جاز لأحد أن يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات لم يعاقب ظالم و لم يقاتل مشرك و لم يقم حد و لم يكف أحد عن ظلم أحد و هذا من الفساد في الدين و الدنيا المعلوم ضرورة فساده للعالم بصريح المقول المطابق لما جاء به الرسول فالقدر يؤمن به و لا يحتج به فمن لم يؤمن بالقدر ضارع المجوس و من إحتج به

ضارع المشركين و من أقر بالأمر و القدر و طعن فى عدل الله و حكمته كان شبيها بإبليس فإن الله ذكر عنه أنه طعن في حكمته و عارضه برأيه و هواه و أنه قال {بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ}الحجر٣٩ وقد ذكر طائفة من أهل الكتاب و بعض المصنفين فى المقالات كالشهر ستانى أنه ناظر الملائكة فى ذلك معارضا لله تعالى في خلقه و أمره لكن هذه الناظرة بين إبليس و الملائكة التى ذكرها الشهر ستانى فى أول المقالات و نقلها عن بعض أهل الكتاب ليس لها إسناد يعتمد عليه ولو و جدناها فى كتب أهل الكتاب لم يجز أن نصدقها لمجرد ذلك فإن النبى صلى الله عليه وسلم ثبت عنه فى الصحيح أنه قال إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم و لا تكذبوهم فأما ان يحدثوكم بحق فنكذبونه و أما ان يحدثوكم بباطل فتصدقونه ويشبه و الله أعلم أن تكون تلك المناظرة من و ضع بعض المكذبين بالقدر إما من أهل الكتاب و إما من المسلمين و الشهر ستانى نقلها من كتب المقالات و المصنفون في المقالات ينقلون كثيرا من المقالات من كتب المعتزلة كما نقل الأشعرى و غيره مانقله فى المقالات من كتب المعتزلة فإنهم من أكثر الطوائف و أولها تصنيفا فى هذا الباب و لهذا توجد المقالات منقولة بعباراتهم فوضعوا هذه المناظرة على لسان إبليس كما رأينا كثيرا منهم يضع كتابا أو قصيدة على لسان بعض اليهود أو غيرهم و مقصودهم بذلك الرد على المثبتين للقدر يقولون أن حجة الله على خلقه لاتتم إلا بالتكذيب بالقدر كما و ضعوا في مثالب إبن كلاب أنه كان نصرانيا لأنه أثبت الصفات و عندهم من أثبت الصفات فقد أشبه النصارى و تتلقى أمثال هذه الحكايات بالقبول من المنتسبين إلى السنة ممن لم يعرف حقيقة أمرها والمقصود هنا أن الآية الكريمة حجة على هؤلاء و هؤلاء حجة على من يحتج بالقدر فإن الله تعالى أخبر أنه عذبهم بذنوبهم فلو كانت حجتهم مقبولة لم يعذبهم بذنوبهم و حجة على من كذب بالقدر فإنه سبحانه أخبر أن الحسنة من الله و أن السيئة من نفس العبد والقدرية متفقون على أن العبد هو المحدث للمعصية كما هو المحدث للطاعة و الله عندهم ما أحدث لا هذا و لا هذا بل أمر بهذا و نهي عن هذا وليس عندهم لله نعمة أنعمها على عباده المؤمنين فى الدين إلا و قد أنعم بمثلها على الكفار فعندهم أن على بن أبى طالب رضى الله عنه و أبا لهب مستويان فى نعمة الله الدينية إذ كل منهما أرسل إليه الرسول و أقدر على الفعل و أزيحت علته لكن هذا فعل الإيمان بنفسه من غير أن يخصه بنعمة آمن بها و هذا فعل الكفر بنفسه من غير أن يفضل الله عليه ذلك المؤمن و لا خصه بنعمة آمن لأجلها و عندهم أن الله حبب الإيمان إلى الكفار كأبي لهب و أمثاله كما حببه إلى المؤمنين كعلي رضي الله عنه و أمثاله و زينه فى قلوب الطائفتين و كره الكفر و الفسوق و العصيان إلى الطائفتين سواء لكن هؤلاء كرهوا

ما كرهه الله إليهم بغير نعمة خصهم بها و هؤلاء لم يكرهوا ما كرهه الله إليهم ومن توهم عنهم أو من نقل عنهم أن الطاعة من الله و المعصية من العبد فهو جاهل بمذهبهم فإن هذا لم يقله أحد من علماء القدرية و لا يمكن أن يقوله فإن أصل قولهم أن فعل العبد للطاعة كفعله للمعصية كلاهما فعله بقدرة تحصل له من غير أن يخصه الله بإرادة خلقها فيه و لا قوة جعلها فيه تختص بأحدهما فإذا إحتجوا بهذه الآية على مذهبهم كانوا جاهلين بمذهبهم و كانت الآية حجة عليهم لالهم لأنه تعالى قال {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ و عندهم ليس الحسنات المفعولة و لا السيئات المفعولة من عند الله بل كلاهما من العبد و قول تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ مخالف لقولهم فإن عندهم الحسنة المفعولة و السيئة المفعولة من العبد لا من الله سبحانه وكذلك من إحتج من مثبتة القدر بالآية على إثباته إذا احتج بقوله تعالى {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ كان مخطئا فإن الله ذكر هذه الآية ردا على من يقول الحسنة من الله و السيئة من العبد و لم يقل أحد من طوائف الناس أن الحسنة المفعولة من الله و السيئة المفعولة من العبد وأيضا فإن نفس فعل العبد و إن قال أهل الإثبات أن الله خلقه و هو مخلوق له و مفعول له فإنهم لا ينكرون أن العبد هو المتحرك بالأفعال و به قامت و منه نشأت و إن كان الله خلقها و أيضا فإن قوله بعد هذا {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ يمتنع أن يفسر بالطاعة و المعصية فإن أهل الأثبات لا يقولون أن الله خالق إحداهما دون الأخرى بل يقولون أن الله خالق لجميع الأفعال و كل الحوادث [1]

قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٠ وقال تعالى {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً {٧٨} مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ {٧٩}النساء٧٨ -٧٩ فإن كثيرا من الناس يظن أن المراد بالحسنات والسيئات فى هذه الآية الطاعات والمعاصي ثم المثبتة للقدر يحتجون بقوله {كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ فيعارضهم قوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ {٧٩} النساء ٧٩و

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١١٠-١١٧

نفاة القدر يحتجون بهذه الثانية مع غلطهم فى ذلك فإن مذهبهم أن العبد يخلق جميع أعماله ويعارضهم قوله {كُلَّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ وإنما غلط كلا الفريقين لما تقدم من ظنهم أن الحسنات والسيئات هي الطاعات والمعاصي وإنما الحسنات والسيئات فى هذه الآية النعم والمصائب كما فى قوله تعالى {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}الأعراف١٦٨ وقوله تعالى {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ}الأعراف١٣١ وقوله تعالى {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا}آل عمران١٢٠ وقوله تعالى {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ} غافر٩ ونحو ذلك وهذا كثير وهذه الآية ذم الله بها المنافقين الذين ينكلون عما أمر الله به من الجهاد وغيره فإذا نالهم رزق ونصر وعافية قالوا {هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ}النساء٧٨ وإن نالهم فقر وذل ومرض قالوا {هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ}النساء٧٨ يامحمد بسبب الدين الذي أمرتنا به كما قال قوم فرعون لموسى وذكر الله ذلك عنهم بقوله تعالى {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ}الأعراف١٣١ وكما قال الكفار لرسل عيسى {إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ}يس١٨ فالكفار والمنافقون إذا أصابتهم المصائب بذنوبهم تطيروا بالمؤمنين فبين الله سبحانه أن الحسنة من الله ينعم بها عليهم وأن السيئة أنا تصيبهم بذنوبهم ولهذا قال تعالى {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}الأنفال٣٣ فأخبر أنه لا يعذب مستغفرا لأن الإستغفار يمحو الذنب الذي هو سبب العذاب فيندفع العذاب كما فى سنن أبى داود وإبن ماجه عن النبى أنه قال من أكثر الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب وقد قال تعالى {أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ{٢} وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ{٣} هود٢-٣ فبين أن من وحده واستغفره متعه متاعا حسنا إلى أجل مسمى ومن عمل بعد ذلك خيرا زاده من فضله وفى الحديث يقول الشيطان أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والإستغفار فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ولهذا قال تعالى {فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ}الأنعام٤٢ أي فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا فحقهم عند مجيء البأس التضرع وقال تعالى {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ}المؤمنون٧٦ قال عمر بن عبد العزيز ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة ولهذا قال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}آل عمران١٧٣ {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ

النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {١٧٣} فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ{١٧٤} إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{١٧٥}آل عمران١٧٣-١٧٥ فنهي المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان وأمرهم بخوفه وخوفه يوجب فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه والإستغفار من الذنوب وحينئذ يندفع البلاء وينتصر على الأعداد فلهذا قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يخافن عبد إلا ذنبه وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه فليخف الله وليتب من ذنوبه التى ناله بها ما ناله كما فى الأثر يقول الله أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدى من اطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة فلا تشتغلوا بسب الملوك وأطيعوني أعطف قلوبهم عليكم وأما قول علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه فإن الراجي يطلب حصول الخير ودفع الشر ولا يأتى بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ}يونس١٠٧ {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ}فاطر٢ والرجاء مقرون بالتوكل فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة والتوكل لا يجوز إلا على الله كما قال تعالى {وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}المائدة٢٣ وقال {وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}إبراهيم١٢ [1]

## أصل الشر عبادة النفس والشيطان

فأصل الشر عبادة النفس والشيطان وجعلهما شريكين للرب وأن يعدلا به ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر الشيطان وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٦١-١٦٤

وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً} النساء٧٩ مع قوله تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} الحجر٤٢ [١]

## {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}

## ١ ـ الأعمال تفضل بنيات أصحابها وطاعتهم لله تعالى

والأعمال تفضل بنيات أصحابها وطاعتهم لله تعالى وما فى قلوبهم من الإيمان بطاعتهم لله كما ثبت فى الصحيح ان النبى قال إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم وبذلك يثابون وعلى ترك ما فرضه الله يعاقبون وبذلك يندفع عنهم بلاء الدنيا والآخرة وما اصابهم من المصائب فبذنوبهم قال تعالى {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} الإسراء٧ وقال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} النساء٧٩ قال العلماء أى ما اصابك من نصر ورزق وعافية فهو من نعم الله عليك وما اصابك من المصائب فبذنوبك كما قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} الشورى٣٠ [٢]

## ٢ ـباتباعه للرسول صلى الله عليه وسلم يرحم وينصر وبذنوبه يعذب ويخذل

ومن اتبع ما بعث الله به رسوله كان مهديا منصورا بنصرة الله فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} غافر٥١ وقال تعالى {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ{١٧١} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ{١٧٢} وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ{١٧٣} الصافات١٧١-١٧٣ واذا

---

[١] الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ١١٤-١١٥

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٤٢٤-٤٢٥

اصابت العبد مصيبة كانت بذنبه لا باتباعه للرسول بل باتباعه للرسول صلى الله عليه وسلم يرحم وينصر وبذنوبه يعذب ويخذل قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٠ ولهذا لما انهزم المسلمون يوم احد وكانوا مع النبى واستظهر عليهم العدو بين الله لهم أن ذلك بذنوبهم قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}آل عمران١٥٥ وقال تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}آل عمران١٦٥ وبين سبحانه حكمة ابتلائهم فقال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ{١٣٧} هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ{١٣٨} وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{١٣٩} إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{١٤٠} وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ{١٤١} ال عمران ١٣٧-١٤١ وقال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ والله قدرها وقدر كل شىء لكن ما أصاب العبد من عافية ونصر ورزق فهو من انعام الله عليه واحسانه اليه فالخير كله من الله وليس للعبد من نفسه شىء بل هو فقير لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولاحياة ولا نشورا وما اصابه من مصيبة فبذنوبه والله تعالى يكفر ذنوب المؤمنين بتلك المصائب ويؤجرهم على الصبر عليها ويغفر لمن استغفر ويتوب على من تاب قال النبى ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه[1]

## ٣- العذاب إنما يكون على الذنوب والإستغفار يدفع النقم

في قوله تعالى {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}الأنفال٣٣ والكلام عليها من وجهين أحدهما فى الاستغفار الدافع للعذاب والثانى فى العذاب المدفوع بالإستغفار أما الأول

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٧٤-٣٧٧

فإن العذاب إنما يكون على الذنوب والإستغفار يوجب مغفرة الذنوب التى هي سبب العذاب فيندفع العذاب كما قال تعالى {الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ{١} أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ{٢} وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ{٣} هود ١-٣ فبين سبحانه أنهم إذا فعلوا ذلك متعوا متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤتي كل ذي فضل فضله فبين سبحانه أنهم إذا فعلوا ذلك متعوا متاعا حسنا إلى أجل مسمى ثم إن كان لهم فضل اوتوا الفضل وقال تعالى {اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ} هود٥٢ وذلك أنه قد قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} النساء٧٩ [١]

قال بعض السلف إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وفى الحديث عن النبى من أكثر الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب وقد أخبر الله تعالى أن الحسنات يذهبن السيئات والإستغفار سبب للرزق والنعمة وأن المعاصي سبب للمصائب والشدة فقال تعالى {الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} هود١ إلى قوله {وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} هود٣ وقال تعالى {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً}نوح١٠ إلى قوله {وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً}نوح١٢ وقال تعالى {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً {١٦} لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ{١٧} الجن١٦-١٧ وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} الأعراف٩٦ وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم} المائدة٦٦ وقال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} الشورى٣٠ وقال تعالى {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ} هود٩ وقال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} النساء٧٩ وقال تعالى {فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ{٤٢} فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{٤٣} الأنعام٤٢-٤٣ وقد أخبر الله تعالى فى

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٤١-٤٢

كتابه أنه يبتلي عباده بالحسنات والسيئات فالحسنات هي النعم والسيئات هى المصائب ليكون العبد صبارا شكورا وفى الصحيح عن النبى أنه قال والذي نفسى بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له [1]

كل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة ان ربى لطيف لما يشاء انه هو القوى العزيز العليم الحكيم ولا يدخل على واحد ضرر الا من ذنوبه {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} النساء٧٩ فالعبد عليه ان يشكر الله ويحمده دائما على كل حال ويستغفر من ذنوبه فالشكر يوجب المزيد من النعم والاستغفار يدفع النقم ولا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر وأن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له [2]

## ٤ـالشكر يوجب المزيد من النعم

في الصحيحين أن النبى صلى الله عليه و سلم قام حتى تورمت قدماه فقيل له أتفعل هذا و قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا و قال صلى الله عليه و سلم لا يتمنين أحدكم الموت إما محسن فيزداد إحسنا و إما مسيئا فلعله أن يستعتب فالمؤمن دائما فى نعمة من ربه تقتضي شكرا و فى ذنب يحتاج إلى إستغفار و هو في سيد الإستغفار يقول أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبى فإغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت و قد علم تحقيق قوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} النساء٧٩ فما أصابه من الحسنات هي نعم الله فتقتضي شكرا و ما أصابه من المصائب فبذنوبه تقتضى تذكرا لذنوبه يوجب توبة و إستغفارا و قد جعل الله {اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ} الفرقان٦٢ فيتوب و يستغفر من ذنوبه {أَوْ أَرَادَ شُكُوراً} الفرقان٦٢ لربه على نعمه و كل ما يفعله الله بالعبد من نعمة و كل ما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٤٨

يخلفه الله فهو نعمة الله عليه فكلما نظر إلى ما فعله ربه شكر و إذا نظر إلى نفسه إستغفر [1]

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه والقسط بيده الأخرى يقبض ويبسط فبين أنه سبحانه يحسن ويعدل ولا يخرج فعله عن العدل والإحسان ولهذا قيل كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ولهذا يخبر أنه تعالى يعاقب الناس بذنوبهم وأن إنعامه عليهم إحسان منه كما في الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وقد قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً}النساء٧٩ أي ما أصابك من نعم تحبها كالنصر والرزق فالله أنعم بذلك عليك وما أصابك من نقم تكرهها فبذنوبك وخطاياك فالحسنات والسيئات هنا أراد بها النعم والمصائب كما قال تعالى {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}الأعراف١٦٨ وكما قال تعالى {إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ}التوبة٥٠ وقوله تعالى {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا}آل عمران١٢٠ ومثل هذا قوله تعالى {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ}الروم٣٦ فأخبر أن ما يصيب به الناس من الخير فهو رحمة منه أحسن بها إلى عباده وما أصابهم به من العقوبات فبذنوبهم وتمام الكلام على هذا مبسوط في مواضع أخر [2]

## ٥ـالأعمال بخواتيمها

أن الحسنات وهي المسار الظاهرة التي يبتلي بها العبد تكون عن طاعات فعلها العبد فكذلك السيئات وهي المكاره التي يبتلي بها العبد تكون عن معاصي فعلها العبد كما قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ وقال تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}آل عمران١٦٥ وقال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٨٧-١٨٨

[2] منهاج السنة النبوية ج: ١ ص:١٣٩- ١٤٠

كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٠ وقال تعالى {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ}النساء٦٢ وقال تعالى {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ}الشورى٤٨ ثم تلك المسار التي هي من ثواب طاعته إذا عصي الله فيها كانت سببا لعذابه والمكاره التي هي عقوبة معصيته إذا أطاع الله فيها كانت سببا لسعادته فتدبر هذا لتعلم أن الأعمال بخواتيمها وأن ما ظاهره نعمة هو لذة عاجلة قد تكون سببا للعذاب وما ظاهره عذاب وهو ألم عاجل قد يكون سببا للنعيم وما هو طاعه فيما يري الناس قد يكون سببا لهلاك العبد برجوعه عن الطاعة إذا ابتلي في هذه الطاعة وما هو معصية فيما يري الناس قد يكون سببا لسعادة العبد بتوبته منه وتصبره على المصيبة التي هي عقوبة ذلك الذنب فالأمر والنهي يتعلق بالشيء الحاصل فيؤمر العبد بالطاعة مطلقا وينهي عن المعصية مطلقا ويؤمر بالشكر على كل ما يتنعم به وأما القضاء والقدر وهو علم الله وكتابه وما طابق ذلك من مشيئته وخلقه فهو باعتبار الحقيقة الآجلة فالأعمال بخواتيمها والمنعم عليهم في الحقيقة هم الذين يموتون على الإيمان [١]

## وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما يوجب ويأمر

ان العلماء متفقون كلهم على أنه لا تكون العبادة إلا لله وحده ولا يكون التوكل إلا عليه وحده ولا تكون الخشية والتقوى إلا لله وحده والرسول صلى الله عليه وسلم له حق لا يشركه فيه احد من الأمة مثل وجوب طاعته فى كل ما يوجب ويأمر قال تعالى {م مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً{٨٠} وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{٨١}النساء٨٠-٨١ وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ ولهذا كانت مبايعته مبايعة لله كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ}الفتح١٠ فإنهم عاقدوه على أن يطيعوه فى الجهاد ولا يفروا وإن ماتوا وهذه الطاعة له هى طاعة لله وعلينا أن يكون الرسول أحب إلينا من أنفسنا وآبائنا وأبنائنا وأهلنا وأموالنا كما فى الحديث الصحيح عن النبى أنه قال والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون

[١] قاعدة في المحبة ج: ١ ص:١٦٨- ١٦٩

أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين رواه البخارى ومسلم وفى لفظ لمسلم وأهله وماله وفى البخارى عن عبدالله بن هشام أنه قال كنا مع النبى وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسى فقال النبى لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال له عمر فإنك الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى فقال النبى الآن يا عمر وقد قال تعالى{قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}التوبة٢٤ وقد قال تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ}الأحزاب٦ وفى الصحيحين عنه أنه قال أنا أولى بكل مؤمن من نفسه وذلك أنه لا نجاة لأحد من عذاب الله ولا وصول له إلى رحمة الله إلا بواسطة الرسول بالإيمان به ومحبته وموالاته وأتباعه وهو الذى ينجيه الله به من عذاب الدنيا والآخرة وهو الذى يوصله إلى خير الدنيا والآخرة فأعظم النعم وأنفعها نعمة الإيمان ولا تحصل إلا به وهو أنصح وأنفع لكل احد من نفسه وماله فإنه الذى يخرج الله به من الظلمات إلى النور لا طريق له إلا هو وأما نفسه وأهله فلا يغنون عنه من الله شيئا وهو دعا الخلق إلى الله بإذن الله كما قال تعالى قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً{٤٥} وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً{٤٦}الاحزاب٤٥-٤٦ والمخالف له يدعو إلى غير الله بغير إذن الله ومن إتبع الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه إنما يدعو إلى الله ورسوله وقوله تعالى {بِإِذْنِهِ}الاحزاب ٤٦ أى بأمره وما أنزله من العلم كما قال تعالى {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي}يوسف١٠٨ فمن إتبع الرسول دعا إلى الله على بصيرة أى على بينة وعلم يدعو إليه بمنزل من الله بخلاف الذى يأمر بما لا يعلم أو بما لم ينزل به وحيا كما قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ}الحج٧١ [1]

## "من يطع الله ورسوله فقد رشد "

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٤٢٥

والله تبارك وتعالى يأمر عباده فيطيعونه وكل من وجبت طاعته من المخلوقين فإنما وجبت لأن ذلك طاعة لله تعالى فالرسل يبلغون عن الله أمره فمن أطاعهم فقد أطاع الله ومن بايعهم فقد بايع الله قال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ} النساء٨٠ [1]

فإنه لا سعادة للعباد ولا نجاة في المعاد الا باتباع رسوله {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤} النساء١٣ ـ١٤ فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات٥٦ وإنما تعبدهم بطاعته وطاعة رسوله فلا عبادة الا ما هو واجب أو مستحب في دين الله وما سوى ذلك فضلال عن سبيله ولهذا قال صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد أخرجاه في الصحيحين وقال صلى الله عليه وسلم في حديث العرباض بن ساريه الذي رواه أهل السنن وصححه الترمذي أنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثان الأمور فإن كل بدعة ضلالة وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه في نحو من أربعين موضعا من القرآن كقوله تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً} النساء٨٠ وقوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً {٦٤} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥} النساء٦٤ ـ٦٥ وقوله تعالى {قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} آل عمران٣٢ وقال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} آل عمران٣١ فجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول وجعل متابعة الرسول سببا لمحبة الله عبده وقد قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٠٧ وص: ٣١٦

أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الشورى٥٢ فما أوحاه الله إليه يهدى الله به به من يشاء من عباده كما أنه بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}سبأ٥٠ وقال تعالى {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{١٥}يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}المائدة١٥-١٦ فبمحمد تبين الكفر من الايمان والربح من الخسران والهدي من الضلال والنجاة من الوبال والغي من الرشاد والزيغ من السداد وأهل الجنة من أهل النار والمتقون من الفجار وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من سبيل المغضوب عليهم والضالين فالنفوس أحوج الى معرفة ما جاء به واتباعه منها الى الطعام والشراب فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا وذاك إذا مات حصل العذاب فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار النعيم والطريق الى ذلك الرواية والنقل إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل بل كما أن نور العين لا يرى الا مع ظهورنور قدامه فكذلك نور العقل لا يهتدي الا إذا طلعت عليه شمس الرسالة فلهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الاسلام وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجبا على جميع الأنام والله سبحانه بعث محمدا بالكتاب والسنة وبهما أتم على أمته الأمة قال تعالى {وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{١٥٠} كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ{١٥١} فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ{١٥٢} البقرة ١٥٠-١٥٢ وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}آل عمران١٦٤ قال تعالى {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ}البقرة٢٣١ وقال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}الجمعة٢ وقال تعالى عن الخليل {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}البقرة١٢٩ وقال تعالى {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}الأحزاب٣٤ وقد قال غير واحد من العلماء منهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي وغيرهم الحكمة هي السنة لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة والكتاب القرآن وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة وأبي ثعلة وغيرهما أنه قال لا ألفين أحدكم متكا على أريكته يأتيه الأمر من

أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم القرآن فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه وفي رواية ألا وإنه مثل الكتاب ولما كان القرآن متميزا بنفسه لما خصه الله به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}الإسراء٨٨ وكان منقولا بالتواتر لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه وكان طمع الشيطان أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به بعض العباد فأقام الله تعالى الجهابذة النقاد أهل الهدي والسداد فدحروا حزب الشيطان وفرقوا بين الحق من البهتان وانتدبوا لحفظ السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان وقام كل من علماء الدين بما أنعم به عليه وعلى المسلمين مقام أهل الفقه الذين فقهوا معاني القرآن والحديث بدفع ما وقع في ذلك من الخطأ في القديم والحديث وكان من ذلك الظاهر الجلي الذي لا يسوغ عنه العدول ومنه الخفى الذي يسوغ فيه الاجتهاد للعماء العدول وقام علماء النقل والنقاد بعلم الرواية والاسناد فسافروا في ذلك الى البلاد وهجروا فيه لذيذ الرقاد وفارقوا الأموال والأولاد وأنفقوا فيه الطارف والتلاد وصبروا فيه على النوائب وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة والقصص المأثورة ما هو عند أهله معلوم ولمن طلب معرفته معروف مرسوم بتوسد أحدهم التراب وتركهم لذيذ الطعام والشراب وترك معاشرة الأهل والأصحاب والتصبر على مرارة الإغتراب ومقاساة الأهوال الصعاب أمر حببه الله إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين الله كما جعل البيت مثابة للناس وأمنا يقصدونه من كل فج عميق ويتحملون فيه أمورا مؤلمة تحصل في الطريق وكما حببب الى أهل القتال الجهاد بالنفس والمال حكمة من الله يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين ويظهر به الهدي ودين الحق الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون فمن كان مخلصا في أعمال الدين يعملها لله كان من أولياء الله المتقين أهل النعيم المقيم كما قال تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٦٤} يونس٦٢-٦٤ وقد فسر النبي البشرى في الدنيا بنوعين أحدهما ثناء المثنين عليه الثاني الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له فقيل يا رسول الله الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن وقال البراء بن عازب سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله لهم البشرى في الحياة الدنيا فقال هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله الربان الحافظون له من الزيادة

والنقصان هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين بل لهم مزية على غيرهم من أهل الايمان والأعمال الصالحات كما قال تعالى {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}المجادلة١١ قال ابن عباس يرفع الله وعلم الاسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد وجعله سلما الى الدراية فأهل الكتاب لا إسناد له يأثرون به المنقولات وهكذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات وإنما الاسناد لمن أعظم الله عليه المنة أهل الاسلام والسنة يفرقون به بين الصحيح والسقيم والمعوج والقويم وغيرهم من أهل البدع والكفار إنما عندهم منقولات يأثرونها بغير إسناد وعليها من دينهم الإعتماد وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل ولا الحالي من العاطل وأما هذه الأمة المرحومة وأصحاب هذه الأمة المعصومة فإن أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين فظهر لهم الصدق من المين كما يظهر الصبح لذي عينين عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ في دين الله معقول أو منقول وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه الى الله والرسول كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}النساء٥٩ فإذا اجتمع أهل الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقا وإذا اجتمع أهل الحديث على تصحيح حديث لم يكن الا صدقا ولكل من الطائفتين من الاستدلال على مطلوبهم بالجلي والخفي ما يعرف به من هو بهذا الأمر حفي والله تعالى يليهم الصواب في هذه القضية كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية فإن الله كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه لما صدقوا في موالاة الله ورسوله ومادأة من عدل عنه قال تعالى {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ}المجادلة٢٢ وأهل العلم المأثور عن الرسول أعظمن الناس قياما بهه الأصول لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم ولا يصدهم عن سبيل الله العظائم بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه ويتكلم في أحب الناس إليه عملا بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٣٥ وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}المائدة٨ ولهم من التعديل والتجريح والتضعيف والتصحيح من السعي المشكور والعمل المبرور ما كان من أسباب حفظ الدين وصيانته عن إحداث المفترين وهم في ذلك

على درجات منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية ومنهم أهل الفقه فيه والمعرفة بمعانيه وقد أمر النبي الأمة أن يبلغ عنه من شهد لم غاب ودعا للمبلغين بالدعاء المتجاب فقال في الحديث الصحيح بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بين اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي منعمدا فليتبوأ مقعده من النار وقال أيضا في خطبته في حجة الوداع الا ليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع وقال أيضا نصر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه الى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم اخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من روائهم وفي هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وإن لم يكن فقيها ودعاء لمن بلغه وإن كان المستمع أفقه من المبلغ لما أعطى المبلغون من النضرة ولهذا قال سفيان بن عيينة لا تجد أحد من أهل الحديث الا وفي وجهه نضرة لدعوة النبي يقال نضر ونضر والفتح أفصح ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعظون نقلة الحديث حتى قال الشافعي رضي الله عنه إذا رأيت رجلا من أهل الحديث فكأني رأيت رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليهم وسلم وإنما قال الشافعي هذا لأنهم في مقام الصحابة من تبليغ حديث النبي وقال الشافعي أيضا أهل الحديث حفظوا فلهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا أه [1]

وقال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ وقد أوجب السعادة لمن أطاعه بقوله {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ وعلق السعادة والشقاوة بطاعته ومعصيته في قوله {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤} النساء١٣ ـ١٤ وكان صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئا وجميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وتقواه وخشيته وإلى طاعتهم كما قال نوح عليه السلام {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ}نوح٣ وقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}النور٥٢ وقال كل من نوح والنبيين {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}الشعراء١٣١

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٤-١١

وطاعة الرسول فيما أمرنا به هو الأصل الذي على كل مسلم أن يعتمده وهو سبب السعادة كما أن ترك ذلك سبب الشقاوة وطاعته في أمره أولى بنا من موافقته في فعل لم يأمرنا بموافقته فيه باتفاق المسلمين ولم يتنازع العلماء أن أمره أوكد من فعله فإن فعله قد يكون مختصا به وقد يكون مستحبا وأما أمره لنا فهو من دين الله الذي أمرنا به ومن أفعاله ما قد علم أنه أمرنا أن نفعل مثله كقوله صلوا كما رأيتموني أصلي وقوله لما صلى بهم على المنبر إنما فعلت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي وقوله لما حج خذوا عني مناسككم وأيضا فقد ثبت بالكتاب والسنة أن ما فعله على وجه العادة فهو مباح لنا إلا أن يقوم دليل على اختصاصه به كما قال سبحانه وتعالى{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً}الأحزاب٣٧ فأباح له أن يتزوج امرأة دعيه ليرفع الحرج عن المؤمنين في أزواج أدعيائهم فعلم أن ما فعله كان لنا مباحا أن نفعله ولما خصه ببعض الأحكام قال {وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}الأحزاب٥٠ فلما أحل له أن ينكح الموهوبة بين أن ذلك خالص له من دون المؤمنين فليس لأحد أن ينكح امرأة بلا مهر غيره صلى الله عليه وسلم وفي صحيح مسلم أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيقبل الصائم فقال له سل هذه لأم سلمة فأخبرتهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فقال يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال له أما و الله إنني لأتقاكم لله وأخشاكم له فلما أجابه صلى الله عليه وسلم بفعله دل ذلك على أنه يباح للأمة ما أبيح له ولهذا كان جمهور علماء الأمة على أن الله إذا أمره بأمر أو نهاه عن شيء كانت أمته أسوة له في ذلك ما لم يقم دليل على اختصاصه بذلك فمن خصائصه ما كان من خصائص نبوته ورسالته فهذا ليس لأحد أن يقتدي به فيه فإنه لا نبي بعده وهذا مثل كونه يطاع في كل ما يأمر به وينهى عنه وإن لم يعلم جهة أمره حتى يقتل كل من أمر بقتله وليس هذا لأحد بعده فولاة الأمور من العلماء والأمراء يطاعون إذا لم يأمروا بخلاف أمره ولهذا جعل الله طاعتهم في ضمن طاعته قال الله تعالى {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ فقال {وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ لأن أولي الأمر يطاعون طاعة تابعة لطاعته فلا يطاعون استقلالا ولا طاعة مطلقة وأما الرسول فيطاع طاعة مطلقة مستقلة فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله فقال تعالى {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ}النساء٥٩ فإذا أمرنا الرسول كان علينا أن نطيعه وإن لم نعلم جهة أمره وطاعته طاعة الله لا تكون طاعته بمعصية الله قط بخلاف

غيره وقد ذكر الناس من خصائصه فيما يجب عليه ويحرم عليه ويكرم به ما ليس هذا موضع تفصيله وبعد ذلك متفق عليه وبعضه متنازع فيه وقد كان صلى الله عليه وسلم إمام الأمة وهو الذي يقضي بينهم وهو الذي يقسم وهو الذي يغزو بهم وهو الذي يقيم الحدود وهو الذي يستوفي الحقوق وهو الذي يصلي بهم فالاقتداء به في كل مرتبة بحسب تلك المرتبة فإمام الصلاة والحج يقتدي به في ذلك وأمير الغزو يقتدي به في ذلك والذي يقيم الحدود يقتدي به في ذلك والذي يقضي أو يفتي يقتدي به في ذلك وقد تنازع الناس في أمور فعلها هل هي من خصائصه أم للأمة فعلها كدخوله في الصلاة إماما بعد أن صلى بالناس غيره وكتركه الصلاة على الغال والقاتل وأيضا فإذا فعل فعلا لسبب وقد علمنا ذلك السبب أمكننا أن نقتدي به فيه فأما إذا لم نعلم السبب أو كان السبب أمرا اتفاقيا فهذا مما يتنازع فيه الناس مثل نزوله في مكان في سفره فمن العلماء من يستحب أن ينزل حيث نزل كما كان ابن عمر يفعل وهؤلاء يقولون نفس موافقته في الفعل هو حسن وإن كان فعله هو اتفاقا ونحن فعلناه لقصد التشبه به ومن العلماء من يقول إنما تستحب المتابعة إذا فعلناه على الوجه الذي فعله فأما إذا فعله اتفاقا لم يشرع لنا أن نقصد ما لم يقصده ولهذا كان أكثر المهاجرين والأنصار لا يفعلون كما كان ابن عمر يفعل وأيضا فالاقتداء به يكون تارة نوع الفعل وتارة في جنسه فإنه قد يفعل الفعل لمعنى يعم ذلك النوع وغيره لا لمعنى يخصه فيكون المشروع هو الأمر العام مثال ذلك احتجامه صلى الله عليه وسلم فإن ذلك كان لحاجته إلى إخراج الدم الفاسد ثم التأسي هل هو مخصوص بالحجامة أو المقصود إخراج الدم على الوجه النافع ومعلوم أن التأسي هو المشروع فإذا كان البلد حارا يخرج فيه الدم إلى الجلد كانت الحجامة هي المصلحة وإن كان البلد باردا يغور فيه الدم إلى العروق كان إخراجه بالفصد هو المصلحة وكذلك ادهانه صلى الله عليه وسلم هل المقصود خصوص الدهن أو المقصود ترجيل الشعر فإن كان البلد رطبا وأهله يغتسلون بالماء الحار الذي يغنيهم عن الدهن والدهن يؤذي شعورهم وجلودهم يكون المشروع في حقهم ترجيل الشعر بما هو أصلح لهم ومعلوم أن الثاني هو الأشبه وكذلك لما كان يأكل الرطب والتمر وخبز الشعير ونحو ذلك من قوت بلده فهل التأسي به أن يقصد خصوص الرطب والتمر والشعير حتى يفعل ذلك من يكون في بلاد لا ينبت فيها التمر ولا يقتاتون الشعير بل يقتاتون البر أو الرز أو غير ذلك ومعلوم أن الثاني هو المشروع والدليل على ذلك أن الصحابة لما فتحوا الأمصار كان كل منهم يأكل من قوت بلده ويلبس من لباس بلده من غير أن يقصد أقوات المدينة ولباسها ولو كان هذا الثاني هو الأفضل في حقهم لكانوا أولى باختيار الأفضل لكل أحد أن يرتدي ويأتزر ولو مع القميص أو الأفضل أن يلبس مع القميص السراويل

من غير حاجة إلى الإزار والرداء هذا أيضا مما تنازع فيه العلماء والثاني أظهر وهذا باب واسع وهذا النوع ليس مخصوصا بفعله وفعل أصحابه بل وبكثير مما أمرهم به ونهاهم عنه وهذا سمته طائفة من الناس تنقيح المناط وهو أن يكون الحكم قد ثبت في عين معينة وليس مخصوصا بها بل الحكم ثابت فيها وفي غيرها فيحتاج أن يعرف مناط الحكم مثال ذلك أنه قد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن فأرة وقعت في سمن فقال ألقوها وما حولها وكلوا سمنكم فإنه متفق على أن الحكم ليس مختصا بتلك الفأرة وذلك السمن بل الحكم ثابت فيما هو أعم منهما فبقي المناط الذي علق به الحكم ما هو فطائفة من أهل العلم يزعمون أن الحكم مختص بفأرة وقعت في سمن فينجسون ما كان كذلك مطلقا ولا ينجسون السمن إذا وقع فيه الكلب والبول والعذرة ولا ينجسون الزيت ونحوه إذا وقعت فيه الفأرة وهذا القول خطأ قطعا وليس هذا مبنيا على كون القياس حجة فإن القياس الذي يكون النزاع فيه هو تخريج المناط وهو أن يجوز اختصاص مورد النص بالحكم فإذا جاز اختصاصه وجاز أن يكون الحكم مشتركا بين مورد النص وغيره احتاج معتبر القياس إلى أن يعلم أن المشترك بين الأصل والفرع هو مناط الحكم كما في قوله لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل ولا تبيعوا الفضة بالفضة إلا مثلا بمثل ولا تبيعوا الشعير بالشعير إلا مثلا بمثل ولا تبيعوا الملح بالملح إلا مثلا بمثل فلما نهى عن التفاضل في مثل هذه الأصناف أمكن أن يكون النهي لمعنى مشترك ولمعنى مختص ولما سئل عن فأرة وقعت في سمن فأجاب عن تلك القضية المعينة ولا خفاء أن الحكم ليس مختصا بها وكذلك سائر قضايا الأعيان كالأعرابي الذي قال له إني وقعت على أهلي في رمضان فأمره أن يعتق رقبة أو يصوم شهرين متتابعين أو يطعم ستين مسكينا فإن الحكم ليس مخصوصا بذلك الأعرابي باتفاق المسلمين لكن هل أمره بذلك لكونه أفطر أو جامع في رمضان أو أفطر فيه بالجماع أو أفطر بالجنس الأعلى هذا مما تنازع فيه العلماء وكذلك لما سأله سائل عمن أحرم بالعمرة وعليه جبة وهو متضمخ بالخلوق فقال انزع عنك الجبة واغسل عنك أثر الخلوق واصنع في عمرتك ما كنت صانعا في حجتك فهل أمره بغسل الخلوق لكونه طيبا حتى يؤمر المحرم بغسل كل طيب كان عليه أو لكونه خلوقا لرجل وقد نهى أن يتزعفر الرجل فينهى عن الخلوق للرجل سواء كان محرما أو غير محرم وكذلك لما عتقت بريرة فخيرها فاختارت نفسها عند من يقول إن زوجها كان عبدا فإن المسلمين اتفقوا على أن الحكم لا يختص بها لكن هل التخيير لكونها عتقت تحت عبد فكملت تحت ناقص ولا تخير إذا عتقت تحت الحر أو الحكم لكونها ملكت نفسها فتخير سواء كان الزوج حرا أو عبدا هذا مما تنازعوا فيه وهذا باب واسع وهو

متناول لكل حكم تعلق بعين معينة مع العلم بأنه لا يختص بها فيحتاج أن يعرف المناط الذي يتعلق به الحكم وهذا النوع يسميه بعض الناس قياسا وبعضهم لا يسميه قياسا ولهذا كان أبو حنيفة وأصحابه يستعملونه في المواضع التي لا يستعملون فيها القياس والصواب أن هذا ليس من القياس الذي يمكن فيه النزاع كما أن تحقيق المناط ليس مما يقبل النزاع باتفاق العلماء وهذه الأنواع الثلاثة تحقيق المناط و تنقيح المناط و تخريج المناط هي جماع الاجتهاد فالأول أن يعمل بالنص والاجماع فإن الحكم معلق بوصف يحتاج في الحكم على المعين إلى أن يعلم ثبوت ذلك الوصف فيه كما يعلم أن الله أمرنا بإشهاد ذوي عدل منا وممن نرضى من الشهداء ولكن لا يمكن تعيين كل شاهد فيحتاج أن يعلم في الشهود المعينين هل هم من ذوي العدل المرضيين أم لا وكما أمر الله بعشرة الزوجين بالمعروف وقال النبي صلى الله عليه وسلم للنساء رزقهن وكسوتهن بالمعروف ولم يكن تعيين كل زوج فيحتاج أن ينظر في الأعيان ثم من الفقهاء من يقول إن نفقة الزوجة مقدرة بالشرع والصواب ما عليه الجمهور أن ذلك مردود إلى العرف كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لهند خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف وكما قال تعالى {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}الأنعام١٥٢ ويبقى النظر في تسليمه إلى هذا التاجر بجزء من الربح هل هو من التي هي أحسن أم لا وكذلك قوله {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ}التوبة٦٠ يبقى هذا الشخص المعين هل هو من الفقراء المساكين المذكورين في القرآن أم لا وكما حرم الله الخمر والربا عموما يبقى الكلام في الشراب المعين هل هو خمر أم لا وهذا النوع مما اتفق عليه المسلمون بل العقلاء بأنه لا يمكن أن ينص الشارع على حكم كل شخص إنما يتكلم بكلام عام وكان نبينا صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم وأما النوع الثاني الذي يسمونه تنقيح المناط بأن ينص على حكم أعيان معينة لكن قد علمنا أن الحكم لا يختص بها فالصواب في مثل هذا أنه ليس من باب القياس لاتفاقهم على النص بل المعين هنا نص على نوعه ولكنه يحتاج إلى أن يعرف نوعه ومسألة الفارة في السمن من هذا الباب فإن الحكم ليس مخصوصا بتلك الفأرة وذلك السمن ولا بفأر المدينة وسمنها ولكن السائل سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن فأرة وقعت في سمن فأجابه لا أن الجواب يختص به ولا بسؤاله كما أجاب غيره ولفظ الفأرة والسمن ليست من كلام النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكون هو الذي علق الحكم بها بل من كلام السائل الذي أخبر بما وقع له كما قال له الأعرابي إنه وقع على امرأته ولو وقع على سريته لكان الأمر كذلك وكما قال له الآخر رأيت بياض خلخالها في القمر فوثبت عليها ولو وطئها بدون ذلك كان الحكم كذلك فالصواب في هذا ما عليه الأئمة المشهورون أن

الحكم في ذلك معلق بالخبيث الذي حرمه الله إذا وقع في السمن ونحوه من المائعات لأن الله أباح لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث فإذا علقنا الحكم بهذا المعنى كنا قد اتبعنا كتاب الله فإذا وقع الخبيث في الطيب ألقي الخبيث وما حوله وأكل الطيب كما أكل النبي صلى الله عليه وسلم وليس هذا جواب موضع بسط مثل هذه المسائل ولكن نبهنا على هذا لأن الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أفعاله يتعلق بهذا وحينئذ هذا مما يتعلق باجتهاد الناس واستدلالهم وما يؤتيهم الله من الفقه والحكمة والعلم وأحق الناس بالحق من علق الأحكام بالمعاني التي علقها بها الشارع وهذا موضع تفاوت فيه الناس وتنازعوا هل يستفاد ذلك من خطاب الشارع أو من المعاني القياسية فقوم زعموا أن أكثر أحكام أفعال العباد لا يتناولها خطاب الشارع بل تحتاج إلى القياس وقوم زعموا أن جميع أحكامها ثابتة بالنص وأسرفوا في تعلقهم بالظاهر حتى أنكروا فحوى الخطاب وتنبيهه كقوله تعالى {فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ}الإسراء٢٣ وقالوا إن هذا لا يدل إلا على النهي عن التأفيف لا يفهم منه النهي عن الضرب والشتم وانكروا تنقيح المناط وادعوا في الألفاظ من الظهور ما لا تدل عليه وقوم يقدمون القياس تارة لكون دلالة النص غير تامة أو لكونه خبر الواحد وأقوام يعارضون بين النص والقياس ويقدمون النص ويتناقضون ونحن قد بينا في غير هذا الموضع أن الأدلة الصحيحة لا تتناقض فلا تتناقض الأدلة الصحيحة العقلية والشرعية ولا تتناقض دلالة القياس إذا كانت صحيحة ودلالة الخطاب إذا كانت صحيحة فإن القياس الصحيح حقيقة التسوية بين المتماثلين وهذا هو العدل الذي أنزل الله به الكتب وأرسل به الرسل والرسول لا يأمر بخلاف العدل ولا يحكم في شيئين متماثلين بحكمين مختلفين ولا يحرم الشيء ويحل نظيره وقد تأملنا عامة المواضع التي قيل إن القياس فيها عارض النص وإن حكم النص فيها على خلاف القياس فوجدنا ما خصه الشارع بحكم عن نظائره فإنما خصه به لاختصاصه بوصف أوجب اختصاصه بالحكم كما خص العرايا بجواز بيعها بمثلها خرصا لتعذر الكيل مع الحاجة إلى البيع والحاجة توجب الانتقال إلى البدل عند تعذر الأصل فالخرص عند الحاجة قام مقام الكيل كما يقوم التراب مقام الماء والميتة مقام المذكى عند الحاجة وكذلك قول من قال القرض أو الإجارة أو القراض أو المساقاة أو المزارعة ونحو ذلك على خلاف القياس إن أراد به أن هذه الأفعال اختصت بصفات أوجبت أن يكون حكمها مخالفا لحكم ما ليس مثلها فقد صدق وهذا هو مقتضى القياس وإن أراد أن الفعلين المتماثلين حكم فيهما بحكمين مختلفين فهذا خطأ ينزه عنه من هو دون الأنبياء صلوات الله عليهم ولكن هذه الأقيسة المعارضة هي الفاسدة كقياس الذين قالوا {إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}البقرة٢٧٥ وقياس الذين قالوا أتأكلون ما

قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله يعنون الميتة وقال تعالى {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}الأنعام١٢١ ولعل من رزقه الله فهما وآتاه من لدنه علما يجد عامة الأحكام التي تعلم بقياس شرعي صحيح يدل عليها الخطاب الشرعي كما أن غاية ما يدل عليه الخطاب الشرعي هو موافق للعدل الذي هو مطلوب القياس الصحيح وإذا كان الأمر كذلك فالكلام في أعيان أحوال الرجل السالك يحتاج إلى نظر خاص واستهداء من الله و الله قد أمر العبد أن يقول في كل صلاة {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة ٦-٧ فعلى العبد أن يجتهد في تحقيق هذا الدعاء ليصير من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا [١]

## "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين"

من تحقيق التوحيد ان يعلم أن الله تعالى أثبت له حقا لا يشركه فيه مخلوق كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوى وقد قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله فالله هو الذي يتوكل عليه ويستعان به ويستغاث به ويخاف ويرجى ويعبد وتنيب القلوب إليه لا حول ولا قوة إلا به ولا منجى منه إلا إليه والقرآن كله يحقق هذا الأصل والرسول صلى الله عليه

---

[١] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٥٠٩-٥١٧ و مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٣٢٠-٣٢٤ و مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٣٠٩ و مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧٧

وسلم يطاع ويحب ويرضى به ويسلم إليه حكمه ويعزر ويوقر ويتبع ويؤمن به وبما جاء به قال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ} النساء٨٠ [١]

والله سبحانه وتعالى أمرنا أن نطيع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ} النساء٨٠ وأمرنا أن نتبعه فقال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ} آل عمران٣١ وأمرنا أن نعزره ونوقره وننصره وجعل له من الحقوق ما بينه فى كتابه وسنة رسوله حتى أوجب علينا أن يكون أحب الناس إلينا من أنفسنا وأهلينا فقال تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ} الأحزاب٦ وقال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} التوبة٢٤ وقال صلى الله عليه وآله وسلم والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين وقال له عمر رضى الله عنه يا رسول الله لانت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسى فقال لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك قال فلأنت أحب إلي من نفسى قال الآن يا عمر وقال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار [٢]

قال تعالى {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} يوسف١٠٨ وقال ان آل أبى فلان ليسوا لي بأولياء انما ولي الله وصالح المؤمنين وهو أولى بكل مؤمن من نفسه وهو الواسطة بين الله وبين خلقه فى تبليغ امره ونهيه ووعده ووعيده فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه والله هو المعبود المسئول المستعان به الذى يخاف ويرجى ويتوكل عليه قال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} النور٥٢ فجعل الطاعة

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١١٠ و اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٤٤٩ و دقائق التفسير ج: ٢ ص: ٢٠١

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٦٨ وزيارة القبور ج: ١ ص: ٧٦ و مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ١٠٤ و مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣١٦ والجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٢٦٦ و العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٢١٦

لله والرسول كما قال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}النساء٨٠ وجعل الخشية والتقوى لله وحده لا شريك له فقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ}التوبة٥٩ فاضاف الايتاء الى الله والرسول كما قال تعالى {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا}الحشر٧ فليس لاحد ان يأخذ الا ما اباحه الرسول وان كان الله آتاه ذلك من جهة القدرة والملك فانه يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ولهذا كان يقول فى الاعتدال من الركوع وبعد السلام اللهم لا مانع لما اعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد أى من آتيته جدا وهو البخت والمال والملك فإنه لا ينجيه منك الا الإيمان والتقوى وأما التوكل فعلى الله وحده والرغبة فاليه وحده كما قال تعالى {وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ}التوبة٥٩ولم يقل ورسوله وقالوا {إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ}التوبة٥٩ ولو يقولوا هنا ورسوله كما قال فى الايتاء بل هذا نظير قوله{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{٧} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{٨}الشرح ٧-٨ وقال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}آل عمران١٧٣ وفى صحيح البخاري عن ابن عباس انه قال حسبنا الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}الأنفال٦٤ اي الله وحده حسبك وحسب المؤمنين الذين اتبعوك ومن قال ان الله والمؤمنين حسبك فقد ضل بل قوله من جنس الكفرة فإن الله وحده هو حسب كل مؤمن به والحسب الكافي كما قال تعالى {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}الزمر٣٦ ولله تعالى حق لا يشركه فيه مخلوق كالعبادات والاخلاص والتوكل والخوف والرجاء والحج والصلاة والزكاة والصيام والصدقة والرسول له حق كالايمان به وطاعته واتباع سنته وموالاة من يواليه ومعاداة من يعاديه وتقديمه فى المحبة على الأهل والمال والنفس كما قال والذي نفسي بيده لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين بل يجب تقديم الجهاد الذي أمر به على هذا كله كما قال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ

الْفَاسِقِينَ}التوبة٢٤ وقال تعالى {وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ}التوبة٦٢ [١]

ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لا نبي بعده فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة ولهذا كان إجماعهم حجة كما كان الكتاب والسنة حجة ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة والسنة والجماعة عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله وعما مضت عليه جماعة المسلمين فإن الله أمر في كتابه باتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولزوم سبيله وأمر بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}النساء٨٠ [٢]

ومن لم تكن له بصيرة يدرك بها الفساد الناشيء عما نهى عنه عندها فيكفيه أن يقلد الرسول صلى الله عليه وسلم كما نهى عن الصلاة في الأوقات الثلاثة وعن صوم يومي العيدين و كما حرم الخمر فإنه لولا أن فسادها غالب على ما فيها من المنفعة لما حرمها وكذلك تحريم القطرة منها ولولا غلبة الفساد فيها على الصلاح لما حرمها وليس على المؤمن ولا له أن يطالب الرسل بتبيين وجوه المفاسد وإنما عليه طاعتهم قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ وقال {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ}النساء٨٠ وإنما حقوق الأنبياء في تعزيرهم وتوقيرهم ومحبتهم محبة مقدمة على النفس والمال والأهل وإيثار طاعتهم ومتابعة سننهم ونحو ذلك من الحقوق التي من قام بها لم يقم بعبادتهم والإشراك بهم كما أن عامة من يشرك بهم شركا أكبر أو أصغر يترك ما يجب عليه من طاعتهم بقدر ماابتدعه من الإشراك بهم وكذلك حقوق الصديقين المحبة والإجلال ونحو ذلك من الحقوق التي جاء بها الكتاب والسنة وكان عليها سلف الأمة [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٦ ص: ١٥٧-١٥٩ و منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ٤٤٧

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٦٨

[٣] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٣٣٥

# المؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون

و التوحيد فى العبادات المتضمن للإيمان بالشرع والقدر جميعا فنقول لا بد من الإيمان بخلق الله وأمره فيجب الإيمان بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وأنه على كل شيء قدير وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد علم ما سيكون قبل أن يكون وقدر المقادير وكتبها حيث شاء كما قال تعالى {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} الحج٧٠ وفى الصحيح عن النبى أنه قال إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له كما خلق الجن والإنس لعبادته وبذلك أرسل رسله وأنزل كتبه وعبادته تتضمن كمال الذل والحب له وذلك يتضمن كمال طاعته من يطع الرسول فقد أطاع الله وقد قال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً} النساء٨٠ [1]

ومن المعلوم ان الله تعالى ارسل الرسل وانزل الكتب لتصدق الرسل فيما اخبرت وتطاع فيما امرت كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ} النساء٦٤ وقال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ} النساء٨٠ والايمان بالقدر من تمام ذلك [2]

الرسول المبلغ عن الله فإنه لا يأمر الا بطاعة الله قال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً} النساء٨٠ فنبي الله هو الذي ينبئه الله لا غيره ولهذا أوجب الله الايمان بما أوتيه النبيون [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٩٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٠٨

[3] النبوات ج: ١ ص: ١٧٨

فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه وما أعده لأوليائه من كرامته وما وعد به أعداءه من عذابه ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التى تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك الا بالرسل الذين أرسلهم الله الى عباده فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى ويرفع درجاتهم ويكرمهم فى الدنيا والآخرة وأما المخالفون للرسل فإنهم ملعونون وهم عن ربهم ضالون محجوبون قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ومثل هذا فى القرآن كثير وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى فإنهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده وهم الرسل الذين بلغوا عن الله أمره وخبره قال تعالى {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}الحج٧٥ ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل والسور التى أنزلها الله بمكة مثل الأنعام والأعراف وذوات الر و حم و طس ونحو ذلك هى متضمنة لأصول الدين كالإيمان بالله ورسله واليوم الآخر وقد قص الله قصص الكفار الذين كذبوا الرسل وكيف أهلكهم ونصر رسله والذين آمنوا قال تعالى {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ{١٧١} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ{١٧٢} وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ{١٧٣} الصافات ١٧١-١٧٣ وقال {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} غافر ٥١ فهذه الوسائط تطاع وتتبع ويقتدى بها كما قال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً} النساء ٨٠ [1]

قال تعالى {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى{١٥} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى{١٦} الليل ١٥-١٦ أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون {فَكَذَّبَ وَعَصَى}النازعات٢١ وقال عن جنس الكافر {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{٣١} وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{٣٢}القيامة ٣١-٣٢ فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما اخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً{١٥} فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً{١٦} المزمل١٥-١٦ ولفظ التولى بمعنى التولى عن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٢٣

الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن كقوله {سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً} الفتح١٦ وذمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة وذم المتولى عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ {١٦} المزمل ١٦ [1]

## الفلاسفة لم يميزوا بين حلول مثال المعلوم وبين حلول ذاته

ومن هذا الباب ما يرويه النبي عن ربه قال يقول الله أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه فأخبر أن شفتيه تتحرك به أي باسمه وكذلك قوله في الحديث الصحيح عبدي مرضت فلم تعدني فيقول العبد رب كيف أعودك وأنت رب العالمين فيقول أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلو عدته لوجدتني عنده

فقال لوجدتني عنده ولم يقل لوجدتني إياه وهو عنده أي في قلبه والذي في قلبه المثال العلمي وقال تعالى عبدي جعت فلم تطعمني فيقول وكيف أطعمك وأنت رب العالمين فيقول أما علمت أن عبدي فلانا جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي ولم يقل لوجدتني قد أكلته وكذلك قوله في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي قال يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وفي رواية فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولإن سألني لأعطينه ولإن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته وهذا الحديث قد يحتج به القائلون بالحلول العام أو الاتحاد العام أو وحدة الوجود وقد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:٥٩- ٦٠

يحتج به من يقول بالخاص من ذلك كأشباه النصارى والحديث حجة على الفريقين فإنه قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب فأثبت ثلاثة وليا له وعدوا يعادي وليه وميز بين نفسه وبين وليه وعدو وليه فقال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ولكن دل ذلك على أن وليه الذي والاه فصار يحب ما يحب ويبغض ما يبغض ويوالي من يوالي ويعادي من يعادي فيكون الرب مؤذنا بالحرب لمن عاداه بأنه معاد لله ثم قال تعالى وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ففرق بين العبد المتقرب والرب المتقرب إليه ثم قال ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فبين أنه يحبه بعد تقربه بالنوافل والفرائض ثم قال فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وعند أهل الحلول والاتحاد العام أو الوحدة هو صدره وبطنه وظهره ورأسه وشعره وهو كل شيء أو في كل شيء قبل التقرب وبعده وعند الخاص وأهل الحلول صار هو وهو كالنار والحديد والماء واللبن لا يختص بذلك آلة الإدراك والفعل ثم قال تعالى فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي وعلى قول هؤلاء الرب هو الذي يسمع ويبصر ويبطش ويمشي والرسول إنما قال فبي ثم قال ولئن سألني لأعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه فجعل العبد سائلا مستعيذا والرب مسؤولا مستعاذا به وهذا يناقض الاتحاد وقوله فبي يسمع مثل قوله ما تحركت بي شفتاه يريد به المثال العلمي وقول الله فيكون الله في قلبه أي معرفته ومحبته وهداه وموالاته وهو المثل العلمي فبذاك الذي في قلبه يسمع ويبصر ويبطش ويمشي والمخلوق إذا أحب المخلوق أو عظمه أو أطاعه يعبر عنه بمثل هذا فيقول أنت في قلبي وفي فؤادي وما زلت بين عيني ومنه قول القائل مثالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب وقول الآخر ومن عجبي أني أحن إليهم وأسأل عنهم من لقيت وهم معي وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي ومثل هذا كثير مع علم العقلاء أن نفس المحبوب المعظم هو في نفسه ليست ذاته في عين محبه ولا في قلبه ولكن قد يشتبه هذا بهذا حتى يظن الغالطون أن نفس المحبوب المعبود في ذات المحب العابد ولذلك غلط بعض الفلاسفة حتى ظنوا أن ذات المعلوم المعقول يتحد بالعالم العاقل فجعلوا المعقول والعقل والعاقل شيئا واحدا ولم يميزوا بين حلول مثال المعلوم وبين حلول ذاته وهذا يكون لضعف العقل وقوة سلطان المحبة والمعرفة فيغيب الإنسان

بمعبوده عن عبادته وبمحبوبه عن محبته وبمشهوده عن شهادته وبمعروفه عن معرفته فيفنى من لم يكن عن شهود العبد لا أنه نفسه يعدم ويفنى في من لم يزل في شهوده [1]

وليس ذلك لأن الرسول هو الله ولا لأن نفسه حال في الرسول بل لأن الرسول يأمر بما أمر الله به وينهى عما ينهى الله عنه ويحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله قال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً}النساء٨٠ فمن بايعه على السمع والطاعة فإنما بايع الله على السمع والطاعة ومن أطاعه فإنما أطاع الله فينبغي أن يعرف هذا النوع من الكلام فإنه تنحل به إشكالات كثيرة فإن هذا موجود في كلام الله ورسله وكلام المخلوقين في عامة الطوائف مع ظهور المعنى ومعرفة المتكلم والمخاطب أنه ليس المراد أن ذات أحدهما اتحدت بذات الآخر بل أبلغ من ذلك يطلق لفظ الحلول والاتحاد ويراد به معنى صحيح كما يقال فلان وفلان بينهما اتحاد إذا كانا متفقين فيما يحبان ويبغضان ويواليان ويعاديان فلما اتحد مرادهما ومقصودهما صار يقال هما متحدان وبينهما اتحاد ولا يعني بذلك أن ذات هذا اتحدت بذات الآخر كاتحاد النار والحديد والماء واللبن أو النفس والبدن وكذلك لفظ الحلول والسكنى والتخلل وغير ذلك [2]

## التوكل فلله وحده لا شريك له

فالتوكل فلله وحده لا شريك له كما قال {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً}النساء٨١ [3]

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٣٣٣-٣٣٧

[2] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٣٤٢-٣٤٣

[3] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٦٩

ما ورد من النصوص ومعانيها فان بعضه يصدق بعضا

ما جاء به الرسول فإنه من عند الله حق وهدى وبيان ليس فيه خطأ قط ولا إختلاف ولا تناقض قال تعالى {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} النساء٨٢ [1]

وان ما ورد من النصوص ومعانيها فان بعضه يصدق بعضا ويوافقه {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} النساء٨٢ [2]

قوله {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} هود١ و في قوله {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} الزمر٢٣ فوصفه هنا كله بأنه متشابه أي متفق غير مختلف يصدق بعضه بعضا و هو عكس المتضاد المختلف المذكوة فى قوله {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} النساء٨٢ و قوله {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ{٨} يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ{٩} الذاريات٨-٩ فإن هذا التشابه يعم القرآن كما أن إحكام آياته تعمه كله [3]

## ذم الله من لا يعقل القرآن و لا يفقهه و لا يتدبره

و قال تعالى {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} محمد٢٤ و قال {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} النساء٨٢ و قال تعالى {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ} المؤمنون٦٨ و قال تعالى {فَبَشِّرْ عِبَادِ{١٧} الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ{١٨} الزمر١٧-١٨ و قال {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٨٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص: ٢٥٨

[3] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٣٩٠

صُمّاً وَعُمْيَاناً}الفرقان٧٣ و قال {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}يوسف٢ و قال {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}هود١ و قال {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {٣} بَشِيراً وَنَذِيراً {٤}فصلت٣-٤ الى قوله {وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}فصلت٥ فإذا كان كثير من القرآن أو أكثره مما لا يفهم احد معناه لم يكن المتدبر المعقول إلا بعضه و هذا خلاف ما دل عليه القرآن لا سيما عامة ما كان المشركون ينكرونه كالآيات الخبرية و الأخبار عن اليوم الآخر أو الجنة و النار و عن نفي الشركاء و الأولاد عن الله و تسميته بالرحمن فكان عامة إنكارهم لما يخبرهم به من صفات الله نفيا و إثباتا و ما يخبرهم به عن اليوم الآخر و قد ذم الله من لا يعقل ذلك و لا يفقهه و لا يتدبره فعلم أن الله يأمر بعقل ذلك و تدبره و قد قال تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ{٤٢} وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ{٤٣} يونس٤٢-٤٣ و قال {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً}الأنعام٢٥ الآية و قال تعالى {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً {٤٥} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً {٤٦}الإسراء٤٥ -٤٦ الآية [1]

وقد أمر الله بتدبر كتابه فقال تعالى {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}ص٢٩ ولم يقل بعض آياته وقال {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}محمد٢٤ وقال {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ}المؤمنون٦٨وأمثال ذلك في النصوص التي تبين أن الله يحب أن يتدبر الناس القرآن كله وأنه جعله نورا وهدى لعباده ومحال أن يكون ذلك مما لا يفهم معناه [2]

## النبى صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٤٣٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٧١

يجب أن يعلم أن النبي بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه فقوله تعالى {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}النحل٤٤ يتناول هذا وهذا وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة وقال أنس كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل فى أعيننا وأقام إبن عمر على حفظ البقرة عدة سنين قيل ثمان سنين ذكره مالك وذلك أن الله تعالى قال{كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}ص٢٩ وقال {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}النساء٨٢ وقال {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ}المؤمنون٦٨ وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن وكذلك قال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}يوسف٢ وعقل الكلام متضمن لفهمه ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد الفاظه فالقرآن أولى بذلك وايضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا فى فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم ولهذا كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليلا جدا وهو وان كان فى التابعين أكثر منه فى الصحابة فهو قليل بالنسبة الى من بعدهم وكلما كان العصر اشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة كما قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها ولهذا قال الثورى اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى وغيرهما من أهل العلم وكذلك الامام أحمد وغيره ممن صنف فى التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة وان كانوا قد يتكلمون فى بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال كما يتكلمون فى بعض السنن بالاستنباط والاستدلال [1]

## أن نفى الاختلاف عنه لا يكون الا بتدبره كله

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٣٣٢-٣٣٣

فما أعلم أحدا من الخارجين عن الكتاب والسنة من جميع فرسان الكلام والفلسفة الا ولابد أن يتناقض فيحيل ما اوجب نظيره ويوجب ما أحال نظيره اذ كلامهم من عند غير الله وقد قال الله تعالى {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ والصواب ما عليه أئمة الهدى وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث ويتبع فى ذلك سبيل السلف الماضين أهل العلم والايمان والمعانى المفهومة من الكتاب والسنة لا ترد بالشبهات فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه ولا يعرض عنها فيكون من باب {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً}الفرقان٧٣ولا يترك تدبر القرآن فيكون من باب الذين{لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ}البقرة٧٨ أن نفى علم التأويل ليس نفيا لعلم المعنى ونزيده تقريرا أن الله سبحانه يقول {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{٢٧} قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{٢٨}الزمر ٢٧-٢٨ وقال تعالى {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ{١} إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{٢}يوسف١-٢ فأخبر أنه أنزله ليعقلوه وأنه طلب تذكرهم وقال أيضا {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}الحشر ٢١ فحض على تدبره وفقهه وعقله والتذكر به والتفكر فيه ولم يستثن من ذلك شيئا بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه مثل قوله {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}محمد٢٤ وقوله{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ ومعلوم أن نفى الاختلاف عنه لا يكون الا بتدبره كله والا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفى مخالفه ما لم يتدبر لما تدبر[١]

قد مدح الله العلم والعقل والفقه وهذا كثير في القرآن يأمر ويمدح التفكر والتدبر والتذكر والنظر والاعتبار والفقه والعلم والعقل والسمع والبصر والنطق ونحو ذلك من انواع العلم واسبابه وكماله ويذم اضداد ذلك [٢]

فأمر بتدبر الكتاب كله وقد قال تعالى {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٣٠٥-٣٠٧

[٢] الاستقامة ج: ٢ ص: ١٥٨

تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ}آل عمران٧ وجمهور سلف الأمة وخلفها على ان الوقف على قوله {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}آل عمران٧ وهذا هو المأثور عن أبي بن كعب وإبن مسعود إبن عباس وغيرهم وقد روى عن ابن عباس ما ذكره عبدالرزاق وغيره فى تفسيرهم عنه أنه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله عز وجل فمن ادعى علمه فهو كاذب وهذا كما قال تعالى {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}السجدة١٧ وقال النبى يقول الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وكذلك علم وقت الساعة ونحو ذلك فهذا من التأويل الذى لا يعلمه الا الله تعالى وقد روى عن مجاهد وطائفة أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويله وقد قال مجاهد عرضت المصحف على إبن عباس من فاتحته الى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عن تفسيرها ولا منافاة بين القولين عند التحقيق وان كنا نفهم معانى ما خوطبنا به ونفهم من الكلام ما قصد إفهامنا اياه كما قال تعالى {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ وقال {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ}المؤمنون٦٨ فأمر بتدبر القرآن كله لا بتدبر بعضه وقال أبو عبدالرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرءوننا القرآن عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبى عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا [1]

## " فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا "

فإن الله تعالى إنما نزل القرآن ليهتدى به لا ليختلف فيه والهدى إنما يكون إذا عرفت معانيه فإذا حصل الإختلاف المضاد لتلك المعانى التى لا يمكن الجمع بينه وبينها لم يعرف الحق ولم تفهم الآية ومعناها ولم يحصل به الهدى والعلم الذي هو المراد بإنزال الكتاب قال أبو عبدالرحمن السلمى حدثنا الذين كانوا يقرئوننا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٣٧ و مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٥٦

القرآن عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرها أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا وقال الحسن البصري ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيها اذا نزلت وماذا عني بها وقد قال تعالى {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}النساء٨٢ وتدبر الكلام إنما ينتفع به إذا فهم وقال {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}الزخرف٣ فالرسل تبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم وعليهم أن يبلغوا الناس البلاغ المبين والمطلوب من الناس ان يعقلوا ما بلغه الرسل والعقل يتضمن العلم والعمل فمن عرف الخير والشر فلم يتبع الخير ويحذر الشر لم يكن عاقلا ولهذا لا يعد عاقلا إلا من فعل ما ينفعه واجتنب ما يضره فالمجنون الذي لا يفرق بين هذا وهذا قد يلقى نفسه فى المهالك وقد يفر مما ينفعه [١]

قال أبو عبدالرحمن السلمى لقد حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا وقد قام عبدالله بن عمر وهو من أصاغر الصحابة فى تعلم البقرة ثمانى سنين وانما ذلك لأجل الفهم والمعرفة وهذا معلوم من وجوه أحدها أن العادة المطردة التى جبل الله عليها بنى آدم توجب اعتناءهم بالقرآن المنزل عليهم لفظا ومعنى بل أن يكون اعتناءهم بالمعنى أوكد فانه قد علم أنه من قرأ كتابا فى الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أو غير ذلك فانه لابد أن يكون راغبا فى فهمه وتصور معانيه فكيف بمن قرؤا كتاب الله تعالى المنزل اليهم الذى به هداهم الله وبه عرفهم الحق والباطل والخير والشر والهدى والضلال والرشاد والغى فمن المعلوم أن رغبتهم فى فهمه وتصور معانيه أعظم الرغبات بل اذا سمع المتعلم من العالم حديثا فانه يرغب فى فهمه فكيف بمن يسمعون كلام الله من المبلغ عنه بل ومن المعلوم أن رغبة الرسول فى تعريفهم معانى القرآن أعظم من رغبته فى تعريفهم حروفه فان معرفة الحروف بدون المعانى لا تحصل المقصود اذا اللفظ انما يراد للمعنى الوجه الثانى أن الله سبحانه وتعالى قد حضهم على تدبره وتعقله واتباعه فى غير موضع كما قال تعالى {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ}ص٢٩ وقال تعالى {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ١٠٨ و دقائق التفسير ج: ٢ ص: ٢٢٧

قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}محمد٢٤ وقال تعالى {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ}المؤمنون٦٨ وقال تعالى {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ فاذا كان قد حض الكفار والمنافقين على تدبره علم أن معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها فكيف لا يكون ذلك ممكنا للمؤمنين وهذا يبين أن معانيه كانت معروفة بينة لهم [1]

## {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}

والتناقض هو أن يكون أحد الدليلن يناقض مدلول الآخر إما بأن ينفى أحدهما عين ما يثبته الآخر وهذا هو التناقض الخاص الذي يذكره أهل الكلام والمنطق وهو اختلاف قضيتين بالسلب والإيجاب على وجه يلزم من صدق أحداهما كذب الأخرى وأما التناقض المطلق فهو أن يكون موجب أحد الدليلين ينافي موجب الآخر إما بنفسه وإما بلازمه مثل أن ينفي أحدهما لازم الآخر أو يثبت ملزومه فإن انتفاء لازم الشيء يقتضي انتفاءه وثبوت ملزومه يقتضي ثبوته ومن هذا الباب الحكم على الشيئين المتماثلين من كل وجه مؤثر في الحكم بحكمين مختلفين فإن هذا تناقض أيضا إذ حكم الشيء حكم مثله فإذا حكم على مثله بنقيض حكمه كان كما لو حكم عليه بنقيض حكمه وهذا التناقض العام هو الإختلاف الذي نفاه الله تعالى عن كتابه بقوله عز وجل {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ [2]

فأخباره عن الماضي والمستقبل يصدق بعضها بعضا والذي يأمر به هو الطريق الأقوم والكتاب الذي جاء به كتاب متشابه مثاني يشبه بعضه بعضا في الصدق قال تعالى {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ فإنه لو كان من عند غير الله لوجب أن يكون فيه تناقض لامتناع

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٥٨

[2] درء التعارض ج: ١ ص: ٢٧٤

قدرة البشر على أن تخبر بهذه الأخبار وما فيها من الغيوب ويأمر بهذه الأوامر مع سلامة ذلك من التناقض [1]

قال الله تعالى {الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} هود١ فأخبر أنه أحكم آياته كلها وقال تعالى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ}الزمر٢٣ فأخبر انه كله متشابه والحكم هو الفصل بين الشيئين فالحاكم يفصل بين الخصمين والحكم فصل بين المتشابهات علما وعملا اذا ميز بين الحق والباطل والصدق والكذب والنافع والضار وذلك يتضمن فعل النافع وترك الضار فيقال حكمت السفيه وأحكمته اذا أخذت على يديه وحكمت الدابة وأحكمتها اذا جعلت لها حكمة وهو ما أحاط بالحنك من اللجام واحكام الشيء اتقانه فإحكام الكلام إتقانه بتمييز الصدق من الكذب فى أخباره وتمييز الرشد من الغى فى أوامره والقرآن كله محكم بمعنى الإتقان فقد سماه الله حكيما بقوله {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}لقمان٢ فالحكيم بمعنى الحاكم كما جعله يقص بقوله {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}النمل٧٦ وجعله مفتيا فى قوله {قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ}النساء١٢٧ أى ما يتلى عليكم يفتيكم فيهن وجعله هاديا ومبشرا فى قوله {إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً}الإسراء٩ وأما التشابه الذى يعمه فهو ضد الإختلاف المنفى عنه فى قوله ولو كان {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ وهو الاختلاف المذكور فى قوله {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ {٨} يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ{٩} الذاريات٨-٩ فالتشابه هنا هو تماثل الكلام وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضا فاذا أمر بأمر لم يأمر بنقيضه فى موضع آخر بل يأمر به أو بنظيره أو بملزوماته واذا نهى عن شيء لم يأمر به فى موضع آخر بل ينهى عنه أو عن نظيره أو عن ملزوماته إذا لم يكن هناك نسخ وكذلك إذا اخبر بثبوت شيء لم يخبر بنقيض ذلك بل يخبر بثبوته أو بثبوت ملزوماته واذا اخبر بنفى شيء لم يثبته بل ينفيه أو ينفى لوازمه بخلاف القول المختلف الذى ينقض بعضه بعضا فيثبت الشيء تارة وينفيه أخرى أو يأمر به وينهى عنه فى وقت واحد ويفرق بين المتماثلين فيمدح أحدهما ويذم الآخر فالأقوال المختلفة هنا هى المتضادة والمتشابهة هى المتوافقة وهذا التشابه يكون فى المعانى وان اختلفت

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٥١-٥٢

الألفاظ فاذا كانت المعانى يوافق بعضها بعضا ويعضد بعضها بعضا ويناسب بعضها بعضا ويشهد بعضها لبعض ويقتضى بعضها بعضا كان الكلام متشابها بخلاف الكلام المتناقض الذى يضاد بعضه بعضا فهذا التشابه العام لا ينافى الإحكام العام بل هو مصدق له فإن الكلام المحكم المتقن يصدق بعضه بعضا لا يناقض بعضه بعضا [1]

الأمور المشاهدة لا بد أن يظهر فيه كذب الكاذب فما الظن بمن يخبر عن الأمور الغائبة التي تطلب منه ومن لوازم النبي التي لا بد منها الإخبار عن الغيب الذي أنبأ الله تعالى به فإن من لم يخبر عن غيب لا يكون نبيا فإذا أخبرهم المتنبىء عن الأمور الغائبة عن حواسهم من الحاضرات والمستقبلات والماضيات فلا بد أن يكذب فيها ويظهر لهم كذبه وإن كان قد يصدق أحيانا في شيء كما يظهر كذب الكهان والمنجمين ونحوهم وكذب المدعين للدين والولاية والمشيخة بالباطل فإن الواحد من هؤلاء وإن صدق في بعض الوقائع فلا بد أن يكذب في غيرها بل يكون كذبه أغلب من صدقه بل تتناقض أخباره وأوامره وهذا أمر جرت به سنة الله التي لن تجد لها تبديلا قال تعالى {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ وأما النبي الصادق المصدوق فهو يخبر به عن الغيوب توجد أخباره صادقة مطابقة وكلما زادت أخباره ظهر صدقه وكلما قويت مباشرته وامتحانه ظهر صدقه كالذهب الخالص الذي كلما سبك خلص وظهر جوهره بخلاف المغشوش فإنه عند المحنة ينكشف ويظهر أن باطنه خلاف ظاهره ولهذا جاء في النبوات المتقدمة أن الكذاب لا يدوم أمره أكثر من مدة قليلة أما ثلاثين سنة وأما أقل فلا يوجد مدعي النبوة كذابا إلا ولا بد أن ينكشف ستره ويظهر أمره والأنبياء الصادقون لا يزال يظهر صدقهم [2]

أنه إذا كان ما جاء به متناقضا لم يكن رسول الله فإن ما جاء به من عند الله لا يكون مختلفا متناقضا وإنما يتناقض ما جاء من عند غير الله قال تعالى {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً{٨٢} سورة النساء الآية ٨٢ فكل كتاب ليس من عند الله لا بد أن يكون فيه تناقض وما كان من عند الله لا يتناقض وحينئذ فإن كان متناقضا لم يجز لهم الاحتجاج بشيء منه فإنه ليس من عند

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٦٠-٦٢

[2] العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ١٨٨

الله وإن لم يكن متناقضا ثبت أن ما فيه من عموم رسالته وأنه رسول إليهم فليس فيه شيء يناقضه فإن ما جاء من عند الله لا يتناقض [1]

لا ريب أنه يجب الإيمان بكل ما أخبر به الرسول و تصديقه فيما أخبر به و إن كان الشخص لم يفقه بالعربية ما قال ولا فهم من الكلام شيئا فضلا عن العرب فلا يشترط فى الإيمان المجمل العلم بمعنى كل ما أخبر به هذا لا ريب فيه فكل من اشتبه عليه آية من القرآن و لم يعرف معناها و جب عليه الإيمان بها و أن يكل علمها إلى الله فيقول الله أعلم و هذا متفق عليه بين السلف و الخلف فما زال كثير من الصحابة يمر بآية و لفظ لا يفهمه فيؤمن به و إن لم يفهم معناه لكن هل يكون فى القرآن ما لا يفهمه أحد من الناس بل و لا الرسول عند من يجعل التأويل هو معنى الآية و يقول إنه لا يعلمه إلا الله فيلزم أن يكون في القرآن كلام لا يفهمه لا الرسول و لا أحد من الأمة بل ولا جبريل هذا هو الذي يلزم على قول من يجعل معانى هذه الآيات لا يفهمه أحد من الناس وليس هذا بمنزلة ما ذكر فى الملائكة و النبيين و الجنة فإنا قد فهمنا الكلام الذي خوطبنا به و أنه يدل على أن هناك نعيما لا نعلمه و هذا خطاب مفهوم و فيه إخبارنا أن من المخلوقات ما لا نعلمه و هذا حق كقوله {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}المدثر٣١ و قوله لما سألوه عن الروح {وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً}الإسراء٨٥ فهذا فيه إخبارنا بأن لله مخلوقات لا نعلمها أو نعلم جنسهم و لا نعلم قدرهم أو نعلم بعض صفاتهم دون بعض و كل هذا حق لكن ليس فيه أن الخطاب المنزل الذي أمرنا بتدبره لا يفقه و لا يفهم معناه لا الرسول و لا المؤمنون فهذا هو المنكر الذي أنكره العلماء فإن الله قال {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}الزخرف٣ و قال {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}محمد٢٤ و قال {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ}المؤمنون٦٨ و قال {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ}محمد١٦ و فرق بين ما لم يخبر به أو أخبرنا ببعض صفاته دون بعض فما لم يخبر به لا يضرنا أن لا نعلمه و بين ما أخبرنا به وهو الكلام العربي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٧٩ و النبوات ج: ١ ص: ١١١

الذي جعل هدى و شفاء للناس و قال الحسن ما أنزل الله آية إلا و هو يحب أن يعلم فيما أنزلت و ما عنى بها [1]

## الذين اعرضوا عن طريق الرسول وقعوا فى الضلال

أن الذين اعرضوا عن طريق الرسول في العلم والعمل وقعوا في الضلال والزلل وأن أولئك لما أوجبوا النظر الذي ابتدعوه صارت فروعه فاسدة اذ قالوا ان من لم يسلكها كفر أو عصى فقد عرف بالاضطرار من دين الاسلام أن الصحابة والتابعين لهم باحسان لم يسلكوا طريقهم وهم خير الامة وإن قالوا ان من قاله ليس عنده علم ولا بصيرة بالايمان بل قاله تقليدا محضا من غير معرفة يكون مؤمنا فالكتاب والسنة يخالف ذلك ولو أنهم سلكوا طريقة الرسول لحفظهم الله من هذا التناقض فان ما جاء به الرسول جاء من عند الله وما ابتدعوه جاءوا به من عند غير الله وقد قال تعالى {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ وهؤلاء بنوا دينهم على النظر بينما صفوة الامة وخيارها المتبعون للرسول علما وعملا يدعون إلى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والأدلة والبراهين التي بعث الله بها رسوله وتدبر القرآن وما فيه من البيان ويدعون إلى المحبة والارادة الشرعية وهي محبة الله وحده وارادة عبادته وحده لا شريك له بما أمر به على لسان رسوله فهم لا يعبدون إلا الله ويعبدونه بما شرع وأمر ويستمعون ما أحب استماعه [2]

## الأمر باتباع السلف

فالأمر باتباع الكتاب والسنة فكثير جدا كقوله {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ}الأعراف٣ {وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ}الأنعام١٥٥ واما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٤١٠-٤١٢

[2] النبوات ج: ١ ص: ٥٠

السلف مثل قوله {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء٨٣ [١]

وكذلك من لم يفعل المأمور فعل بعض المحظور ومن فعل المحظور لم يفعل جميع المأمور فلا يمكن الانسان أن يفعل جميع ما أمر به مع فعله لبعض ما حظر ولا يمكنه ترك كل ما حظر مع تركه لبعض ما أمر فان ترك ما حظر من جملة ما أمر به فهو مأمور ومن المحظور ترك المأمور فكل ما شغله عن الواجب فهو محرم وكل ما لا يمكن فعل الواجب الا به فعليه فعله ما حظر ولا يمكنه ترك كل ما حظر مع تركه لبعض ما أمر فان ترك ما حظر من جملة ما أمر به فهو مأمور ومن المحظور ترك المأمور فكل ما شغله عن الواجب فهو محرم وكل ما لا يمكن فعل الواجب الا به فعليه فعله ولهذا كان لفظ الأمر اذا أطلق يتناول النهى واذا قيد بالنهى كان النهى نظير ما تقدم فاذا قال تعالى عن الملائكة {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ}التحريم٦ دخل فى ذلك أنه اذا نهاهم عن شيء اجتنبوه ومنه قوله {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ}النساء٥٩ أى أصحاب الأمر ومن كان صاحب الأمر كان صاحب النهى ووجبت طاعته فى هذا وهذا فالنهى داخل فى الأمر [٢]

يجوز أن يعود الإستثناء إلى الجملة الأولى فقط إذا دل على ذلك دليل ويجوز للمتكلم أن ينوى ذلك ويقصده فإنه لو قال قاتل أهل الكتاب وعادهم وأبغضهم إلا ان يعطوا الجزية كان الإستثناء عائدا إلى الجملة الأولى فقط وقد قال سبحانه {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً}آل عمران٢٨ وهذا الإستثناء فى الظاهر عائد إلى الجملة الأولى وقال سبحانه {بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ{١} فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ {٢} التوبة ١-٢ إلى قوله {إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ {٤}

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٥٠٤

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧٥

التوبة ٣-٤ وليس هذا مستثنى مما يليه بل من أول الكلام وقد قال جماعة من أهل العلم فى قوله {لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء٨٣ إن قليلا عائد إلى قوله {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ}النساء٨٣ إلا قليلا وهذا الإستثناء عائد إلى جملة بينها وبين الإستثناء جمل أخرى والمقدم فى القرآن والمؤخر باب من العلم وقد صنف فيه العلماء منهم الإمام أحمد وغيره وهو متضمن هذا وشبهه أن يكون الإستثناء مؤخرا فى اللفظ مقدما فى النية ثم التقديم والتأخير فى لغة العرب والفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجملة معترضة وبين غيرهما لا ينكره إلا من لم يعرف اللغة وقد قال سبحانه {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٧٢} وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ {٧٣}آل عمران٧٣ فقوله {أَن يُؤْتَى}آل عمران٧٣ من تمام قول أهل الكتاب أى كراهة أن يؤتى فهو مفعول تؤمنوا وقد فصل بينهما بقوله {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ}آل عمران٧٣ وهى جملة أجنبية ليست من كلام أهل الكتاب فأيما أبلغ الفصل بين الفعل والمفعول أو بين المستثنى والمستثنى منه وإذا لم يكن عود الاستثناء إلى الأخيرة مقطوعا به لم يجب عود الإستثناء إليها بل ربما كان فى سياقه ما يقتضى أن عوده إلى الأولى أوكد [1]

## اختيار الأمثل فالأمثل

اختيار الأمثل فالأمثل إذا عرف هذا فليس عليه أن يستعمل إلا الأصلح الموجود وقد لا يكون في موجوده من هو صالح لتلك الولاية فيختار الأمثل فالأمثل في كل منصب بحسبه وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام وأخذه للولاية بحقها فقد أدى الأمانة وقام بالواجب في هذا وصار في هذا الموضع من أئمة العدل والمقسطين عند الله وإن اختل بعض الأمور بسبب من غيره وإذا لم يمكن إلا ذلك فإن الله يقول{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ ويقول {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا}البقرة٢٨٦ وقال فى الجهاد فى سبيل الله {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ}النساء ٨٤ وقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}المائدة١٠٥ فمن أدى الواجب المقدور عليه فقد اهتدى وقال النبى صلى الله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ١٦٢-١٦٣

عليه وسلم إذا امرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم أخرجاه فى الصحيحين لكن إن كان منه عجز بلا حاجة اليه او خيانة عوقب على ذلك وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب فمن أدى الواجب المقدور عليه فقد اهتدى [1]

قد أمر الله ورسوله بأفعال واجبة ومستحبة وإن كان الواجب مستحبا وزيادة ونهى عن أفعال محرمة او مكروهة والدين هو طاعته وطاعة رسوله وهو الدين والتقوى والبر والعمل الصالح والشرعة والمناهج وإن كان بين هذه الأسماء فروق وكذلك حمد أفعالا هي الحسنات ووعد عليها وذم أفعالا هي السئات وأوعد عليها وقيد الأمور بالقدرة والاستطاعة و الوسع والطاقة فقال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ وقال تعالى {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}البقرة٢٨٦وقال تعالى{وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا}الطلاق٧ وكل من الآيتين وإن كانت عامه فسبب الأولى المحاسبه على ما فى النفوس وهو من جنس أعمال القلوب وسبب الثانيه الاعطاء الواجب وقال {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ}النساء٨٤ [2]

وقد قال تعالى {هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ}الأنفال٦٢ وقال {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ}النساء٨٤ وعلى الرسول أن يحرضهم على الجهاد ويقاتل بهم عدوه بدعائهم ورأيهم وفعلهم وغير ذلك مما يمكن الاستعانة به على الجهاد [3]

## {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}

---

[1] السياسة الشرعية ج: ١ ص:١٤ـ ١٥ و مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٥٢ـ٢٥٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٩

[3] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٥٣٨

ان الله لا يجعل الذنب ذنبا لمن لم يفعله فانه هو القائل {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}الأنعام١٦٤ فمن الممتنع ان يضاف الى محمد صلى الله عليه وسلم ذنب آدم او امته او غيرهما وقد قال تعالى {فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ}النور٥٤ وقال تعالى {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ}النساء٨٤ [1]

## جاء ذكر التكليف فى موضع النفى

أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان وكما دل عليه القرآن لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم إن عبادته تكليف ومشقة وخلاف مقصود القلب لمجرد الإمتحان والإختبار أو لأجل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزله وغيرهم فإنه وإن كان فى الأعمال الصالحه ما هو على خلاف هوى النفس والله سبحانه يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة كما قال تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}التوبة١٢٠ الآيه وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة أجرك على قدر نصبك فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعى وإنما وقع ضمنا وتبعا لأسباب ليس هذا موضعها وهذا يفسر فى موضعه ولهذا لم يجى فى الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح أنه تكليف كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقه وإنما جاء ذكر التكليف فى موضع النفى كقوله {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا}البقرة٢٨٦ {لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ}النساء٨٤ {لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا}البقرة٢٣٣ {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا}الطلاق٧ أي وإن وقع فى الأمر تكليف فلا يكلف إلا قدر الوسع لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفا مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب ولذات الأرواح وكمال النعيم وذلك لإرادة وجه الله والإنابة اليه وذكره وتوجه الوجه اليه فهو الإله الحق الذى تطمئن اليه القلوب ولا يقوم غيره

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣١٨

مقامه فى ذلك أبدا قال الله تعالى {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً}مريم٦٥ [١]

## لطائف لغوية

١-قال تعالى {وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً}النساء٧٣ وهذه اللام الأولى تسمى اللام الموطئة للقسم واللام الثانية تسمى لام جواب القسم والكلام إذا إجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط والقسم [٢]

٢- قال تعالى {الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ}النساء٧٦ والطاغوت كل معظم ومتعظم بغير طاعة الله ورسوله من إنسان أو شيطان أو شيء من الأوثان [٣]

٣- فإن الصلاة أيضا تعم الصلاة المفروضة والتطوع وقد يدخل فيها كل ذكر الله إما لفظا وإما معنى قال ابن مسعود رضي الله عنه ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق وقال معاذ بن جبل مدارسة العلم التسبيح فإن الزكاة وإن كانت قد صارت حقيقة شرعية في الزكاة المفروضة فإنها اسم لكل نفع للخلق من نفع بدني أو مالي [٤]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢٦

[٢] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٢١

[٣] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٩٣

[٤] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٣٦

٤- ولفظ السيئة والحسنة يراد به الطاعة والمعصية ويراد به النعمة والمصيبة كقوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ وقوله {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا}آل عمران١٢٠ [١]

٥- لفظ الإصابة قد يقال أصابه بخير وأصابه بشر قال تعالى {وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}يونس١٠٧ وقال تعالى {فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}الروم٤٨ وقال تعالى {وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء}يوسف٥٦ وقد قال تعالى أيضا {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً {٧٨} مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ {٧٩}النساء٧٨ -٧٩ [٢]

٦- و قوله {اقْرَأْ}العلق١ و إن كان خطابا للنبى صلى الله عليه و سلم أو لا فهو خطاب لكل أحد سواء كان قوله {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ}العلق٣ هو خطاب للإنسان مطلقا و النبى صلى الله عليه و سلم أول من سمع هذا الخطاب أو من النوع أو هو خطاب النبى صلى الله عليه و سلم خصوصا كما قد قيل فى نظائر ذلك مثل قوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ قيل خطاب له و قيل خطاب للجنس و أمثال ذلك فإنه و إن قيل أنه خطاب له فقد تقرر أن ما خوطب به من أمر و نهي فالأمة مخاطبة به ما لم يقم دليل التخصيص [٣]

٧- وحرف من لإبتداء الغاية وما يستعمل فيه حرف ابتداء الغاية فيقال هو من الله على نوعين فإنه أما أن يكون من الصفات التى لا تقوم بنفسها ولا بمخلوق

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٧٠

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٤٥

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٣٢٥

فهذا يكون صفة له وما كان عينا قائمة بنفسها أو بمخلوق فهي مخلوقة فالأول كقوله {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي}السجدة١٣ وقوله {يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ}الأنعام١١٤ كما قال السلف القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدا وإليه يعود والنوع الثانى كقوله {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ}الجاثية١٣ وقوله {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ}النحل٥٣ و {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ}النساء٧٩ [1]

٨- قوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ}النساء٧٩ فقد دخل فى ذلك نعم الدنيا كلها كالعافية والرزق والنصر وتلك حسنات يبتلى الله العبد بها كما يبتليه بالمصائب هل شكر أم لا وهل يصبر أم لا كما قال تعالى {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}الأعراف١٦٨ وقال {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}الأنبياء٣٥ {فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{١٥} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{١٦}الفجر١٥ -١٦ الآيات [2]

٩- قال تعالى {وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً}النساء٧٩ فهو ذكر لسائر الناس [3]

١٠- فإن هذا يعني به الإرسال الديني الذي يحبه تعالى ويرضاه الذي هدى به من اتبعهم وأدخله في رحمته وعاقب من عصاهم وجعله من المستوجبين للعذاب وهو الإرسال الذي أوجب الله به طاعة من أرسله كما قال تعالى{مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً} النساء ٨٠ [4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٩٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ١٠٠

[3] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٤٤٣

[4] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٤٧

١١-أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايفة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبا للآمر مقصودا له كما في قوله {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً} النساء٨١ وفي قوله {وَاتَّقُواْ اللّهَ} البقرة ١٨٩ وفي قوله {وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} المائدة٩٣ وفي قوله {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} التغابن٨ وفي قوله {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ} نوح٣ فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به [1]

١٢- ولفظ الاختلاف فى القرآن يراد به التضاد والتعارض لا يراد به مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار ومنه قوله {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} النساء٨٢ وقوله {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ {٨} يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ {٩} الذاريات٨ -٩ وقوله {وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ} البقرة٢٥٣ [2]

١٣-قال تعالى {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً} النساء٨٣ ورحمته اسم جامع لكل خيرودار الرحمة الخالصة هى الجنة [3]

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥١

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ١٩

[3] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥

## النساء٨٥-٩١

**{مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً{٨٥} وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً{٨٦} اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً{٨٧} فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً{٨٨} وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{٨٩} إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً{٩٠} سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً{٩١}**

## الشفاعة إعانة الطالب حتى تصير معه شفعا بعد أن كان وترا

وفي الصحيح أن أبا هريرة قال لرسول الله أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة قال يا أبا هريرة لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه فبين صلى الله عليه وسلم أن أسعد الناس بشفاعته في الآخرة أعظمهم إخلاصا لله وتوحيدا له في الدين وذلك أنه من يشفع عنده بغير إذنه كان الشافع شريكا له في العقل ولهذا سمي الشفيع شفيعا لأنه يشفع للطالب كما قال تعالى {مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً}النساء٨٥ فكل من أعان غيره على أمر فهو شافع له

والشافع عند غيره تؤثر فيه حركة تغير اختياره ويكون شريكا له في المطلوب والله منزه عن ذلك كله وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فأسعد الناس بالمغفرة التي تنال بالشفاعة وغير الشفاعة أعظمهم إخلاصا له لا من كان فيه شرك يرجو غير الله ويسأل غير الله ويعبد غير الله كما يفعل المشركون الذين اتخذوا من دون الله شفعاء سواء كانوا ملائكة أو أنبياء أو صالحين أو من يظن فيهم الصلاح فيسألونهم ويستغيثون بهم إما في مغيبهم وإما عند قبورهم[١]

ولهذا اتفق العلماء فيما أعلم على ان قاطع الطريق واللص ونحوهما إذا رفعوا إلى ولي الأمر ثم تابوا بعد ذلك لم يسقط الحد عنهم بل تجب إقامته وإن تابوا فإن كانوا صادقين في التوبة كان الحد كفارة لهم وكان تمكينهم وذلك من تمام التوبة بمنزلة رد الحقوق إلى أهلها والتمكين من استيفاء القصاص في حقوق الآدميين وأصل هذا في قوله تعالى {مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً}النساء٨٥ فإن الشفاعة إعانة الطالب حتى تصير معه شفعا بعد أن كان وترا فإن اعانه على بر وتقوى كانت شفاعة حسنة وإن أعانه على إثم وعدوان كانت شفاعة سيئة والبر ما أمرت به والإثم ما نهيت عنه وإن كانوا كاذبين فإن الله لا يهدي كيد الخائنين وفي سنن أبي داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب وفي سنن النسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال حد يعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا وهذا لأن المعاصي سبب لنقص الرزق والخوف من العدو كما يدل عليه الكتاب والسنة فإذا أقيمت الحدود ظهرت طاعة الله ونقصت معصية الله تعالى فحصل الرزق والنصر ولا يجوز أن يؤخذ من الزاني او السارق او الشارب او قاطع الطريق ونحوهم مال تعطل به الحدود لا لبيت المال ولا لغيره وهذا المال المأخوذ لتعطيل الحد سحت خبيث وإذا فعل ولي الأمر ذلك فقد جمع فسادين عظيمين أحدهما تعطيل الحد والثاني أكل السحت فترك الواجب وفعل المحرم [٢]

---

[١] الصفدية ج: ٢ ص: ٢٩١-٢٩٢

[٢] السياسة الشرعية ج: ١ ص: ٥٨-٦٠

# الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها

ولا خلاف بين علماء السنة أنهم يقاتلون مع أئمة العدل مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكن هل يقاتلون مع أئمة الجور فنقل عن مالك أنهم لا يقاتلون وكذلك قال فيمن نقض العهد من أهل الذمة لا يقاتلون مع أئمة الجور ونقل عنه أنه قال ذلك في الكفار وهذا منقول عن مالك وبعض أصحابه ونقل عنه خلاف ذلك وهو قول الجمهور وأكثر أصحابه خالفوه في ذلك وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد وقالوا يغزى مع كل أمير برا كان أو فاجرا إذا كان الغزو الذي يفعله جائزا فإذا قاتل الكفار أو المرتدين أو ناقضي العهد أو الخوارج قتالا مشروعا قوتل معه وإن قاتل قتالا غير جائز لم يقاتل معه فيعاون على البر والتقوى ولا يعاون على الإثم والعدوان كما أن الرجل يسافر مع من يحج ويعتمر وإن كان في القافلة من هو ظالم فالظالم لا يجوز أن يعاون على الظلم لأن الله تعالى يقول {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ}المائدة٢ وقال موسى {رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ}القصص١٧ وقال تعالى {وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ}هود١١٣ وقال تعالى {مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا}النساء٨٥ والشفيع المعين فكل من أعان شخصا على أمر فقد شفعه فيه فلا يجوز أن يعان أحد لا ولي أمر ولا غيره على ما حرمه الله ورسوله وأما إذا كان للرجل ذنوب وقد فعل برا فهذا إذا أعين على البر لم يكن هذا محرما كما لو أراد مذنب أن يؤدى زكاته أو يحج أو يقضى ديونه أو يرد بعض ما عنده من المظالم أو يوصى على بناته فهذا إذا أعين عليه فهو إعانة على بر وتقوى ليس إعانة على إثم وعدوان فكيف الأمور العامة والجهاد لا يقوم به إلا ولاة الأمور فإن لم يغز معهم لزم أن أهل الخير الأبرار لا يجاهدون فتفتر عزمات أهل الدين عن الجهاد فإما أن يتعطل وإما أن ينفرد به الفجار فيلزم من ذلك استيلاء الكفار أو ظهور الفجار لأن الدين لمن قاتل عليه وهذا الرأي من أفسد الآراء وهو رأي أهل البدع من الرافضة والمعتزلة وغيرهم حتى قيل لبعض شيوخ الرافضة إذا جاء الكفار إلى بلادنا فقتلوا النفوس وسبوا الحريم وأخذوا الأموال هل نقاتلهم فقال لا المذهب أنا لا نغزو إلا مع المعصوم فقال ذلك المستفتى مع عاميته والله إن هذا لمذهب نجس فإن هذا المذهب يفضي إلى فساد الدين والدنيا وصاحب هذا القول

تورع فيما يظنه ظلما فوقع في أضعاف ما تورع عنه بهذا الورع الفاسد وأين ظلم بعض ولاة الأمور من استيلاء الكفار بل من استيلاء من هو أظلم منه فالأقل ظلما ينبغي أن يعاون على الأكثر ظلما فإن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين حتى يقدم عند التزاحم خير الخيرين ويدفع شر الشرين ومعلوم أن شر الكفار والمرتدين والخوارج أعظم من شر الظالم وأما اذا لم يكونوا يظلمون المسلمين والمقاتل لهم يريد أن يظلمهم فهذا عدوان منه فلا يعاون على العدوان [1]

## أعوان الظلمة من أعانهم ولو أنهم لاق لهم دواة أو برى لهم قلما

وفي الأثر المروى اذا كان يوم القيامة قيل أين الظلمة وأعوانهم أو قال وأشباههم فيجمعون فى توابيت من نار ثم يقذف بهم فى النار وقد قال غير واحد من السلف أعوان الظلمة من أعانهم ولو أنهم لاق لهم دواة أو برى لهم قلما ومنهم من كان يقول بل من يغسل ثيابهم من أعوانهم وأعوانهم هم من أزواجهم المذكورين فى الآية فان المعين على البر والتقوى من أهل ذلك والمعين على الاثم والعدوان من أهل ذلك قال تعالى {مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا} النساء٨٥ والشافع الذى يعين غيره فيصير معه شفعا بعد ان كان وترا ولهذا فسرت الشفاعة الحسنة باعانة المؤمنين على الجهاد و الشفاعة السيئة باعانة الكفار على قتال المؤمنين كما ذكر ذلك ابن جرير وابو سليمان وفسرت الشفاعة الحسنة بشفاعة الانسان للانسان ليجتلب له نفعا أو يخلصه من بلاء كما قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد فالشفاعة الحسنة اعانة على خير يحبه الله ورسوله من نفع من يستحق النفع ودفع الضر عمن يستحق دفع الضرر عنه و الشفاعة السيئة اعانته على ما يكرهه الله ورسوله كالشفاعة التى فيها ظلم الانسان أو منع الاحسان الذى يستحقه وفسرت الشفاعة الحسنة بالدعاء للمؤمنين والسيئة بالدعاء عليهم وفسرت الشفاعة الحسنة بالاصلاح بين اثنين وكل هذا صحيح فالشافع زوج المشفوع له اذ المشفوع عنده من الخلق اما ان يعينه على بر وتقوى

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ١١٧-١١٩

واما أن يعينه على اثم وعدوان وكان النبى اذا أتاه طالب حاجة قال لأصحابه اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء [1]

## القسط الذي أرسل الله له الرسل

القسط الذي أرسل الله له الرسل و أنزل له الكتب و هو مقابلة الحسنة بمثلها و السيئة بمثلها كما قال تعالى {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}الرحمن٦٠ و قال {وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}النساء٨٦ و قال {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}الشورى٤٠ وقال {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى}البقرة١٧٨ و قال {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}البقرة١٩٤ و قال{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ}النحل١٢٦ لكن مقابلة الحسنة بمثلها عدل و اجب و الزيادة إحسان مستحب و النقص ظلم محرم و مقابلة السيئة بمثلها عدل جائز و الزيادة محرم و النقص إحسان مستحب فالظلم للظالم و العدل للمقتصد و الاحسان المستحب للسابق بالخيرات و الأمة ثلاثة ظالم لنفسه و مقتصد و سابق بالخيرات [2]

ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات وقد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٤-٦٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٥٢١

دخل في هذه الجملة قوله سبحانه {اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً}النساء٨٧ [1]

## الله موصوف بصفات الكمال

أن الله موصوف بصفات الكمال وأن كل كمال ثبت لموجود فهو أحق به وكل نقص تنزه عنه موجود فهو أحق بالتنزيه عنه ونحن نعلم أن الحياة والعلم القدرة صفات كمال فالرب تعالى أحق أن يتصف بها من العباد وكذلك الصدق هو صفة كمال فهو أحق بالاتصاف به من كل من اتصف به كما قال تعالى {اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً}النساء٨٧ وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته إن أصدق الكلام كلام الله [2]

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}الشورى١١ فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{١٨٠} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{١٨١} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{١٨٢}الصافات١٨٠ -١٨٢ فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء

---

[1] العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ١٧

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٢٢٢

به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً}النساء٨٧ [1]

## كلام الله ليس بمخلوق

فان السلف وائمة السنة والحديث يقولون يتكلم بمشيئته وقدرته وكلامه ليس بمخلوق بل كلامه صفة له قائمة بذاته وائمة السنة كعبدالله بن المبارك واحمد بن حنبل والبخارى وعثمان بن سعيد الدارمى ومن لا يحصى من الائمة وذكره حرب بن اسماعيل الكرمانى عن سعيد بن منصور واحمد بن حنبل واسحق بن ابراهيم وسائر اهل السنة والحديث متفقون على أنه متكلم بمشيئته وانه لم يزل متكلما اذا شاء وكيف شاء وقد سمى الله القرآن العزيز حديثا فقال {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ}الزمر٢٣ وقال {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً}النساء٨٧ وقال {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ}الأنبياء٢ وقال النبى ان الله يحدث من أمره ما يشاء وهذا مما احتج به البخارى فى صحيحه وفى غير صحيحه واحتج به غير البخارى كنعيم بن حماد وحماد بن زيد ومن المشهور عن السلف ان القرآن العزيز كلام الله غير مخلوق منه بدأ واليه يعود وأما الجهمية و المعتزلة فيقولون ليس له كلام قائم بذاته بل كلامه منفصل عنه مخلوق عنه و المعتزلة يطلقون القول بأنه يتكلم بمشيئته ولكن مرادهم بذلك انه يخلق كلاما منفصلا عنه و الكلابية والسالمية يقولون انه لا يتكلم بمشيئته وقدرته بل كلامه قائم بذاته بدون قدرته ومشيئته مثل حياته وهم يقولون الكلام صفة ذات لا صفة فعل يتعلق بمشيئته وقدرته واولئك يقولون هو صفة فعل لكن الفعل عندهم هو المفعول المخلوق بمشيئته وقدرته وأما السلف وأئمة السنة وكثير من أهل الكلام كالهشامية والكرامية واصحاب ابى معاذ التومنى وزهير اليامى وطوائف غير هؤلاء يقولون انه صفة ذات وفعل هو يتلكم بمشيئته وقدرته كلاما قائما بذاته وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم فكل من وصف بالكلام كالملائكة والبشر والجن وغيرهم فكلامهم لابد ان يقوم بأنفسهم وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم والكلام

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٣٠-١٣١

صفة كمال لا صفة نقص ومن تكلم بمشيئته اكمل ممن لا يتكلم بمشيئته فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق [١]

## العبد فقير الى الله فى كل شيء

أن الله رب كل شيء و خالقه و مليكه لارب غيره و لا خالق سواه و إنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن لا حول و لا قوة إلا به و لا ملجأ منه إلا إليه و أنه على كل شيء قدير فجميع ما فى السموات و الأرض من الأعيان و صفاتها و حركاتها فهي مخلوقة له مقدورة له مصرفة بمشيئته لا يخرج شيء منها عن قدرته و ملكه و لا يشركه فى شيء من ذلك غيره بل هو سبحانه لا إله إلا هو و حده لا شريك له له الملك و له الحمد و هو على كل شيء قدير فالعبد فقير الى الله فى كل شيء يحتاج إليه فى كل شيء لا يستغنى عن الله طرفة عين فمن يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له قال تعالى {أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً} النساء٨٨ [٢]

إن كل ما فى الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و مالم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدى و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد فى السماء و هو يقلب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاغه و هو الذى حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينه فى قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون وهو الذي جعل المسلم مسلما و المصلي مصليا قال الخليل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ} البقرة١٢٨ و قال {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢١٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٣٦

ذُرِّيَّتِي}إبراهيم٤٠ و قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا}السجدة٢٤ و قال عن آل فرعون {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ}القصص٤١ و قال تعالى {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{١٩} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{٢٠} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{٢١} المعارج١٩-٢١ و قال {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا}هود٣٧ و قال {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ}هود٣٨ والفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبرالله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}يس٤٢ و قال {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ}النحل٨٠ الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم وقال تعالى {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ{٩٥} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{٩٦}الصافات٩٥ -٩٦ فما بمعنى الذي و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبنى دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً}الكهف١٧ و قال {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}الأنعام١٢٥ و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما بفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}النمل٨٨ و قد خلق الله سبحانه تعالى الأشياء بأسباب كما قال تعالى {وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}البقرة١٦٤ و قال {فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ}الأعراف٥٧ و قال تعالى {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ}المائدة١٦ [1]

## أثبت الله المشيئتين مشيئة الرب و مشيئة العبد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٧٨-٨٠

قال تعالى {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً} النساء٨٨

فنقول إذا ألهم العبد أن يسأل الله الهداية و يستعينه على طاعته أعانه و هداه و كان ذلك سبب سعادته فى الدنيا و الآخرة و إذا خذل العبد فلم يعبد الله و لم يستعن به و لم يتوكل عليه و كل الى حوله و قوته فيوليه الشيطان و صد عن السبيل و و شقي فى الدنيا و الآخرة و كل ما يكون في الوجود هو بقضاء الله و قدره لا يخرج أحد عن القدر المقدور ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المحفوظ ليس لأحد على الله حجة بل {فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} الأنعام١٤٩ كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل و على العبد أن يؤمن بالقدر و ليس له أن يحتج به على الله فالإيمان به هدى و الإحتجاج به على الله ضلال وغي بل الإيمان بالقدر يو جب أن يكون العبد صبارا شكورا صبورا على البلاء شكورا على الرخاء إذا أصابته نعمة علم أنها من عند الله فشكره سو اء كانت النعمة حسنة فعلها أو كانت خيرا حصل بسبب سعيها فإن الله هو الذي يسر عمل الحسنات و هو الذي تفضل بالثواب عليها فله الحمد فى ذلك كله و إذا أصابته مصيبة صبر عليها و إن كانت تلك المصيبة قد جرت على يد غيره فالله هو الذي سلط ذلك الشخص و هو الذي خلق أفعاله و كانت مكتوبة على العبد كما قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {٢٣} الحديد٢٢-٢٣ و قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} التغابن١١ قالو ا هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم و عليه إذا أذنب أن يستغفر و يتوب و لا يحتج على الله بالقدر و لا يقول أي ذنب لي و قد قدر علي هذا الذنب بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب و إن كان ذلك كله بقضاءالله و قدره و مشيئته إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته و خلقه لكن العبد هو الذي أكل الحرام و فعل الفاحشة و هو الذي ظلم نفسه كما أنه هو الذي صلى و صام و حج و جاهد فهو الموصوف بهذه الأفعال وهو المتحرك بهذه الحركات و هو الكاسب بهذه المحدثات له ما كسب و عليه ما إكتسب و الله خالق ذلك و غيره من الأشياء لما له فى ذلك من الحكمة البالغة بقدرته التامة و مشيئته النافذة قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ} غافر٥٥ فعلى العبد أن يصبر على المصائب و أن يستغفر من المعائب و الله تعالى لا يأمر بالفحشاء و لا يرضى لعباده الكفر و لايحب الفساد و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن فمن يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له و مشيئة العبد

للخير والشر موجودة فإن العبد له مشيئة للخير و الشر وله قدرة على هذا و هذا و هو العامل لهذا و هذا و الله خالق ذلك كله و ربه و مليكه لا خالق غيره ولا رب سواه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و قد أثبت الله المشيئتين مشيئة الرب و مشيئة العبد و بين أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب فى قوله تعالى {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{٢٩} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{٣٠} الانسان ٢٩-٣٠ و قال تعالى {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{٢٧} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{٢٨} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{٢٩} التكوير٢٧-٢٩ و قد قال تعالى {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً{٧٨} مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً{٧٩}النساء٧٨-٧٩ [1]

## المنافق

قال تعالى {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ}النساء٨٨ وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وكذلك لفظ الكفر مقيدا ولكن لفظ النفاق قد قيل أنه لم تكن العرب تكلمت به لكنه مأخوذ من كلامهم فان نفق يشبه خرج ومنه نفقت الدابة اذا ماتت ومنه نافقاء اليربوع والنفق فى الأرض قال تعالى {فَإِن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٣٧-٢٣٨

اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ}الأنعام٣٥ فالمنافق هو الذى خرج من الايمان باطنا بعد دخوله فيه ظاهرا وقيد النفاق بأنه نفاق من الايمان ومن الناس من يسمى من خرج عن طاعة الملك منافقا عليه لكن النفاق الذى فى القرآن هو النفاق على الرسول فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الاسماء كخطاب الناس بغيرها وهو خطاب مقيد خاص لا مطلق يحتمل أنواعا [1]

## موالاة كل قوم لموافقيهم ومعاداتهم لمخالفيهم

ان كثيرا من اهل المنكر يحبون من يوافقهم على ما هم فيه ويبغضون من لا يوافقهم وهذا ظاهر في الديانات الفاسدة من موالاة كل قوم لموافقيهم ومعاداتهم لمخالفيهم وكذلك في امور الدنيا والشهوات كثيرا ما يختار اهلها ويؤثرون من يشاركهم في امورهم وشهواتهم اما للمعاونة على ذلك كما في المتغلبين من اهل الرياسات وقطاع الطريق ونحو ذلك واما لتلذذهم بالموافقة كما في المجتمعين على شرب الخمر مثلا فإنهم يحبون ان يشرب كل من حضر عندهم واما لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير اما حسدا له على ذلك وما لئلا يعلو عليهم بذلك ويحمد دونهم وإما لئلا يكون له عليهم حجة وإما لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه او بمن يرفع ذلك اليهم ولئلا يكونوا تحت منته وحظره ونحو ذلك من الاسباب قال الله تعالى {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}البقرة١٠٩ وقال تعالى فى المنافقين {وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً}النساء٨٩ وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه ودت الزانية لو زنى النساء كلهن والمشاركة قد يختارونها فى نفس الفجور كالاشتراك فى الشرب والكذب والاعتقاد الفاسد وقد يختارونها فى النوع كالزانى الذى يود أن غيره يزنى والسارق الذى يود أن غيره يسرق أيضا لكن فى غير العين التى زنى بها أو سرقها وأما الداعي الثاني فقد يأمرون الشخص بمشاركتهم فيما هم عليه من المنكر فإن شاركهم والا عادوه وآذوه على وجه قد ينتهي الى حد الاكراه او لا ينتهي الى حد الاكراه ثم ان هؤلاء الذين يختارون مشاركة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠٠

الغير لهم في قبيح فعلهم او يأمرونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه متى شاركهم وعاونهم واطاعهم انتقصوه واستخفوا به وجعلوا ذلك حجة عليه في امور اخرى وان لم يشاركهم عادوه وآذوه وهذه حال غالب الظالمين القادرين [1]

## كتب عليهم قتال من لم يسالمهم فأما من سالمهم فلم يؤمروا بقتاله

أن الله لم يأمر نبيه بمكة بالقتال بل إنما أمره بالقتال بالمدينة وأول آية نزلت في القتال قوله {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}الحج٣٩ أذن الله لهم أولا فيه ثم كتب عليهم ثانيا فقال {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}البقرة٢١٦ وكتب عليهم قتال من لم يسالمهم فأما من سالمهم فلم يؤمروا بقتاله كما قال تعالى {وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}الأنفال٦١ وقال {إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً}النساء٩٠ ولهذا كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين كثير من المشركين عهود مطلقة ومؤقتة فالمؤقتة كانت لازمة والمطلقة لم تكن لازمة بل لكل منهما فسخها فلما فتح الله مكة وغزا النبي صلى الله عليه وسلم تبوك سنة تسع من الهجرة وهي آخر غزواته أمر فيها بغزو أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون بقوله تعالى {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}التوبة٢٩ [2]

---

[1] الاستقامة ج: ٢ ص: ٢٥٧-٢٥٨ و مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٥١

[2] الصفدية ج: ٢ ص: ٣١٨

ان المسلمين كانوا ممنوعين قبل الهجرة وفي اوائل الهجرة من الابتداء بالقتال وكان قتل الكفار حينئذ محرما وهو من قتل النفس بغير حق كما قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ}النساء٧٧ الى قوله {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ}النساء٧٧ ولهذا اول ما انزل من القران فيه نزل بالاباحة بقوله {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ}الحج٣٩ وهذا من العلم العام بين اهل المعرفة بسيرة رسول الله لايخفى على احد منهم انه كان قبل الهجرة وبعيدها ممنوعا عن ابتداء القتل والقتال ولهذا قال للانصار الذين بايعوه ليلة العقبة لما استاذنوه في ان يميلوا على اهل منى انه لم يؤذن لي في القتال وكان في ذلك حينئذ بمنزلة الانبياء الذين لم يؤمروا بالقتال كنوح وهود وصالح وابراهيم وعيسى بل كاكثر الانبياء غير انبياء بني اسرائيل ثم انه لما هاجر لم يقاتل احدا من اهل المدينة ولم يامر بقتل احد من رؤوسهم الذين كانوا يجمعونهم على الكفر ولا من غيرهم والايات التي نزلت اذ ذاك انما تامر بقتال الذين اخرجوهم وقاتلوهم ونحو ذلك وظاهر هذا انه لم يؤذن لهم اذ ذاك في ابتداء قتل الكافرين من اهل المدينة فان دوام امساكهم عنهم يدل على استحباحة او وجوبه وهو في الوجوب اظهر لما ذكرنا لان الامساك كان واجبا والمغير لحاله لم يشمل اهل المدينة فبقوا على الوجوب المتقدم مع فعله قال موسى بن عقبة عن الزهري كانت سيرة رسول الله في عدوه قبل ان تنزل براءة يقاتل من قاتله ومن كف يده وعاهده كف عنه قال الله تعالى {فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً}النساء٩٠ وكان القران ينسخ بعضه بعضا فاذا نزلت اية نسخت التي قبلها وعمل بالتي انزلت وبلغت الاولى منتهى العمل بها وكان ما قد عمل بها قبل ذلك طاعة لله حتى نزلت براءة وقال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}الحجر٩٤ {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ}الغاشية٢٢ {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ}المائدة١٣ {وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا}التغابن١٤ {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ}البقرة١٠٩ {قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ}الجاثية١٤ ونحو هذا في القران مما امر الله به المؤمنين بالعفو والصفح عن المشركين فانه نسخ ذلك كله قوله تعالى {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}التوبة٥ وقوله تعالى {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ}التوبة٢٩ الى قوله {وَهُمْ صَاغِرُونَ}التوبة٢٩ فنسخ هذا عفوه عن المشركين وكذلك روى الامام احمد وغيره عن قتادة قال امر الله نبيه ان يعفوا عنهم ويصفح حتى ياتي الله بامره وقضائه ثم انزل الله عز وجل براءة فاتى الله بامره وقضائه فقال تعالى {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى

يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}التوبة٢٩ الاية قال فنسخت هذه الاية ما كان قبلها وامر الله فيها بقتال اهل الكتاب حتى يسلموا او يقروا بالجزية صغارا ونقمة لهم وكذلك ذكر موسى بن عقبة عن الزهري ان النبي لم يكن يقاتل من كف عن قتاله لقوله تعالى {فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً}النساء ٩٠ الى ان نزلت براءة وجملة ذلك انه لما نزلت براءة امر ان يبتدي جميع الكفار بالقتال وثنيهم وكتابيهم سواء كفوا عنه او لم يكفوا وان ينبذ اليهم تلك العهود المطلقة التي كانت بينه وبينهم وقيل له فيها {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ}التوبة٧٣ بعد ان كان قد قيل له {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ}الأحزاب٤٨ ولهذا قال زيد بن اسلم نسخت هذه الاية ما كان قبلها فاما قبل براءة وقبل بدر فقد كان مامورا بالصبر على اذاهم والعفو عنهم واما بعد بدر وقبل براءة فقد كان يقاتل من يؤذيه ويمسك عمن سالمه كما فعل بابن الاشرف وغيره ممن كان يؤذيه فبدر كانت اساس عز الدين وفتح مكة كانت كمال عز الدين فكانوا قبل بدر يسمعون الاذى الظاهر ويؤمرون بالصبر عليه وبعد بدر يؤذون في السر من جهة المنافقين وغيرهم فيؤمرون بالصبر عليه وفي تبوك امروا بالاغلاظ للكفار والمنافقين فلم يتمكن بعدها كافر ولا منافق من اذاهم في مجلس خاص ولا عام بل مات بغيظه لعلمه بانه يقتل اذا تكلم وقد كان بعد بدر لليهود استطالة واذى للمسلمين الى ان قتل كعب بن الاشرف قال محمد بن اسحاق في حديثه عن محمد بن مسلمة قال فاصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله فليس بها يهودي الا وهو يخاف على نفسه وروى باسناده عن محيصة ان رسول الله قال من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه فوثب محيصة بن مسعود على ابن سليمة رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله وكان حويصة ابن مسعود اذ ذاك لم يسلم وكان اسن من محيصة فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول اي عدو الله قتلته اما والله لرب شحم في بطنك من ماله فوالله ان كان اسلام حويصة فقال محيصة فقلت له والله لقد امرني بقتله من لو امرني بقتلك لضربت عنقك فقال لو امرك محمد بقتلي لقتلتني فقال محيصة نعم والله فقال حويصة والله ان دينا بلغ هذا منك لعجب وذكر غير ابن اسحاق ان اليهود حذرت وذلت وخافت من يوم قتل ابن الاشرف فلما اتى الله بامره الذي وعده من ظهور الدين وعز المؤمنين امر رسوله بالبراءة الى المعاهدين وبقتال المشركين كافة وبقتال اهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون فكان ذلك عاقبة الصبر والتقوى الذين امر الله بهما في اول الامر وكان اذ ذاك لايؤخذ من احد من اليهود الذين بالمدينة ولا غيرهم جزية وصارت تلك الايات في حق كل مؤمن مستضعف لا يمكنه نصر الله ورسوله بيده ولا بلسانه فينتصر بما يقدر عليه من

القلب ونحوه وصارت اية الصغار على المعاهدين في حق كل مؤمن قوي يقدر على نصر الله ورسوله بيده او لسانه وبهذه الاية ونحوها كان المسلمون يعملون في اخر عمر رسول الله وعلى عهده خلفائه الراشدين وكذلك هو الى قيام الساعة لاتزال طائفة من هذه الامة قائمين على الحق ينصرون الله ورسوله النصر التام فمن كان من المؤمنين بارض هو فيها مستضعف او في وقت هو فيه مستضعف فليعمل باية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله من الذين اوتوا الكتاب والمشركين واما اهل القوة فانما يعملون باية قتال ائمة الكفر الذين يطعنون في الدين وباية قتال الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون [1]

لم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم بل قال{وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{٨٩} إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إَلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً{٩٠} النساء ٨٩- ٩٠ وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله وإن كانت الهدنة عقدا جائزا غير لازم ثم أنزل في براءة الأمر بنبذ العهود وأمرهم بقتال المشركين كافة وأمرهم بقتال أهل الكتاب إذا لم يسلموا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ولم يبح لهم ترك قتالهم وإن سالموهم وهادنوهم هدنة مطلقة مع إمكان جهادهم فإن قال آية السيف التي نسخت المجادلة هي آية الأذن قيل فآية الأذن نزلت في أول مقدمه المدينة قبل أن يبعث شيئا من السرايا وقد جادل بعد هذا الكفار وكذلك إن قيل آيات فرض القتال قيل فقوله {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} البقرة ٢١٦ نزلت في أول الأمر قبل بدر ولا ريب أن الجهاد كان واجبا والخندق وفتح خيبر ومكة وقد ذكر الله آيات فرض الجهاد في هؤلاء المغازي كما ذكر ذلك في سورة آل عمران والأحزاب وإن قيل بل الجدال إنما نسخ لما أمر بجهاد من سالم ومن لم يسالم قيل هذا باطل فإن الجدال إن كان منافيا للجهاد فهو مناف لإباحته ولإيجابه ولو للمسالم وإن لم يناف الجهاد لم يناف إيجاب الجهاد للمسالمين كما لم يناف إيجاب جهاد غيرهم فإن المسالم قد لا يجادل

---

[1] الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٢٠٨-٢١٤

ولا يجالد وقد يجادل ولا يجالد كما أن غيره قد يجالد و يجادل وقد يفعل أحدهما فإن كان إيجابه لجهاد المحارب المبتدئ بالقتال لا ينافي مجادلته فلأن يكون جهاد من لا يبدأ القتال لا ينافي مجادلته أولى وأحرى فإن من كان أبعد عن القتال كانت مجادلته أقل منافاة للقتال ممن يكون أعظم قتالا يبين هذا الوجه الخامس وهو أن يقال المنسوخ هو الاقتصار على الجدال فكان النبي صلى الله عليه وسلم في أول الأمر مأمورا أن يجاهد الكفار بلسانه لا بيده فيدعوهم ويعظهم ويجادلهم بالتي هي أحسن ويجاهدهم بالقرآن جهادا كبيرا قال تعالى في سورة الفرقان وهي مكية {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً{٥١} فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً{٥٢} الفرقان ٥١- ٥٢ وكان مأمورا بالكف عن قتالهم لعجزه وعجز المسلمين عن ذلك ثم لما هاجر إلى المدينة وصار له بها أعوان أذن له في الجهاد ثم لما قووا كتب عليهم القتال ولم يكتب عليهم قتال من سالمهم لأنهم لم يكونوا يطيقون قتال جميع الكفار فلما فتح الله مكة وانقطع قتال قريش ملوك العرب ووفدت إليه وفود العرب بالإسلام أمره الله تعالى بقتال الكفار كلهم إلا من كان له عهد مؤقت وأمره بنبذ العهود المطلقة فكان الذي رفعه ونسخه ترك القتال وأما مجاهدة الكفار باللسان فما زال مشروعا من أول الأمر إلى آخره فإنه إذا شرع جهادهم باليد فباللسان أولى وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم وكان ينصب لحسان منبرا في مسجدا يجاهد فيه المشركين بلسانه جهاد هجو وهذا كان بعد نزول آيات القتال وأين منفعة الهجو من منفعة إقامة الدلائل والبراهين على صحة الإسلام وإبطال حجج الكفار من المشركين وأهل الكتاب الوجه السادس أنه من المعلوم أن القتال إنما شرع للضرورة ولو أن الناس آمنوا بالبرهان والآيات لما احتيج إلى القتال فبيان آيات الإسلام وبراهينه واجب مطلقا وجوبا أصليا وأما الجهاد فمشروع للضرورة فكيف يكون هذا مانعا من ذلك فإن قيل الإسلام قد ظهرت أعلامه وآياته فلم يبق حاجة إلى إظهار آياته وإنما يحتاج إلى السيف قيل معلوم أن الله وعد بإظهاره على الدين كله ظهور علم وبيان وظهور سيف وسنان فقال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون} الصف ٩ وقد فسر العلماء ظهوره بهذا وهذا ولفظ الظهور يتناولهما فإن ظهور الهدي بالعلم والبيان وظهور الدين باليد والعمل والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ومعلوم أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال فإن النبي صلى الله عليه وسلم مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين فآمنت به المهاجرون والأنصار طوعا واختيارا بغير سيف لما بان لهم من الآيات البينات

والبراهين والمعجزات ثم أظهره بالسيف فإذا وجب علينا جهاد الكفار بالسيف ابتداء ودفعا فلأن يجب علينا بيان الإسلام وإعلامه ابتداء ودفعا لمن يطعن فيه بطريق الأولى والأحرى فإن وجوب هذا قبل وجوب ذاك ومنفعته قبل منفعته ومعلوم أنه يحتاج كل وقت إلى السيف فكذلك هو محتاج إلى العلم والبيان وإظهاره بالعلم والبيان من جنس إظهاره بالسيف وهو ظهور مجمل علا به على كل دين مع أن كثيرا من الكفار لم يقهره سيفه فكذلك كثير من الناس لم يظهر لهم آياته وبراهينه بل قد يقدحون فيه ويقيمون الحجج على بطلانه لا سيما والمقهور بالسيف فيهم منافقون كثيرون فهؤلاء جهادهم بالعلم والبيان دون السيف والسنان يؤكد هذا الوجه السابع وهو أن القتال لا يكون إلا لظالم فإن من قاتل المسلمين لم يكن إلا ظالما معتديا ومن قامت عليه الحجة فشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين لم يكن إلا ظالما وأما المجادلة فقد تكون لظالم إما طاعن في الدين بالظلم وإما من قامت عليه الحجة الظاهرة فامتنع من قبولها وقد تكون لمسترشد طالب حق لم يبلغه وإما من بلغه بعض أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته ولكن عورض ذلك عنده بشبهات تنافي ذلك فاحتاج إلى جواب تلك المعارضات وإما طالب لمعرفة دلائل النبوة على الوجه الذي يعلم به ذلك فإذا كان القتال الذي لا يكون إلا لدفع ظلم المقاتل مشروعا فالمجادلة التي تكون لدفع ظلمه ولانتفاعه وانتفاع غيره مشروعة بطريق الأولى قال مجاهد قوله تعالى {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} العنكبوت ٤٦ الذين ظلموا من قاتلك ولم يعطك الجزية وفي لفظ آخر عنه قال الذين ظلموا منهم أهل الحرب من لا عهد لهم المجادلة لهم بالسيف وفي رواية عنه قال لا تقاتل إلا من قاتلك ولم يعطك الجزية وفي رواية عنه قال من أدى منهم الجزية فلا تقولوا له إلا خيرا وعن مجاهد إلا بالتي هي أحسن فإن قالوا شرا فقولوا خيرا فهذا مجاهد لا يجعلها منسوخة وهي قول أكثر المفسرين قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله تعالى {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}العنكبوت ٤٦ ليست منسوخة ولكن عن قتادة قال نسختها اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ولا مجادلة اشد من السيف والأول أصح لأن هؤلاء من الذين ظلموا فلا نسخ ومما يعجب منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناء على ظهور دلائل النبوة نجده هو ومن يعظمه من شيوخه الذين يعتمد في أصول الدين على نظرهم ومناظرتهم ويزعمون أنهم قرروا دلائل النبوة قد أوردوا من الشبهات والشكوك والمطاعن على دلائل النبوة ما يبلغ

نحو ثمانين سؤالا وأجابوا عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون جوابا في المسائل الظنية بل هي إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين      وهم كما مثلهم الغزالي وغيره بمن يضرب شجرة ضربا يزلزلها به وهو يزعم أنه يريد أن يثبتها وكثير من أئمة هؤلاء مضطرب في الإيمان بالنبوة اضطرابا ليس هذا موضع بسطه وهم مع ذلك يدعون أنه قد ظهر عند أهل الكتاب مالم يظهر عند شيوخ هؤلاء النظار وينهون عن إظهار آيات الله وبراهينه التي هي غاية مطالب مشايخهم وهم لم يعطوها حقها إما عجزا وإما تفريطا      الوجه الثامن أن كثيرا من أهل الكتاب يزعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته إنما أقاموا دينهم بالسيف لا بالهدى والعلم والآيات فإذا طلبوا العلم والمناظرة فقيل لهم ليس لكم جواب إلا السيف كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام وأنه ليس دين رسول من عند الله وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف      الوجه التاسع أنه من المعلوم أن السيف لا سيما سيف المسلمين وأهل الكتاب هو تابع للعلم والحجة بل وسيف المشركين هو تابع لآرائهم واعتقادهم والسيف من جنس العمل والعمل أبدا تابع للعلم والرأي      وحينئذ فبيان دين الإسلام بالعلم وبيان أن ما خالفه ضلال وجهل هو تثبيت لأصل دين الإسلام واجتناب لأصل غيره من الأديان التي يقاتل عليها أهلها ومتى ظهر صحته وفساد غيره كان الناس أحد رجلين      إما رجل تبين له الحق فاتبعه فهذا هو المقصود الأعظم من إرسال الرسل      وإما رجل لم يتبعه فهذا قامت عليه الحجة إما لكونه لم ينظر في أعلام الإسلام أو نظر وعلم فاتبع هواه أو قصر      وإذا قامت عليه الحجة كان أرضى لله ولرسوله وأنصر لسيف الإسلام وأذل لسيف الكفار وإذا قدر أن فيهم من يعجز عن فهم الحجة فهذا إذا لم يكن معذورا مع عدم قيامها فهو مع قيامها أولى أن لا يعذر وإن كان معذورا مع قيامها فهو مع عدمها أعذر فعلى التقديرين قيام الحجة أنصر وأعذر وقد قال تعالى {مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} الإسراء ١٥      وقال تعالى {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً} النساء ١٦٥ وقال تعالى {فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً{٥} عُذْراً أَوْ نُذْراً{٦} المرسلات ٥-٦      وقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين [١]

---

[١] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٢٣٤ -٢٤٦

# لطائف لغوية

١- قال تعالى {مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً}النساء٨٥ فان الشفاعة إعانة الطالب حتى يصير معه شفعا بعد أن كان وترا فان أعانه على بر وتقوى كانت شفاعة حسنة وإن أعانة على إثم وعدوان كانت شفاعة سيئة والبر ما أمرت به والأثم ما نهيت عنه [1]

٢- قال تعالى {وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً}النساء٨٥ و فى صحيح البخاري تعليقا عن سعيد بن جبير أن رجلا سأل إبن عباس عن قوله و كان الله غفورا رحيما و كان الله عزيزا حكيما و كان الله سميعا بصيرا فكأنه كان فمضى فقال إبن عباس قوله و كان الله و كان الله فإنه يجل نفسه عن ذلك و سمى نفسه بذلك لم يجله أحد غيره و كان أي لم يزل كذلك رواه عبد بن حميد فى تفسيره مسندا موصولا و رواه إبن المنذر أيضا فى تفسيره و هذا لفظ رواية عبد [2]

٣- وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى {وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء٩٦ {وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١٧ {وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً}النساء٨٥ ونحو ذلك قال كان ولم يزل ولا يزال [3]

٤- قال تعالى {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً}النساء٨٨ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٠١

[2] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٠

[3] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٣٨

{٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{٧١} الصافات٦٩ -٧١ وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}الأحزاب٦٧ -٦٨ وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}طه١٢٣ ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}النجم٢ وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}الفاتحة٧ وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}القمر٤٧ [١]

٥-قال تعالى {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ}النساء٨٨ أن الكسب هو الفعل الذى يعود على فاعله بنفع أو ضر كما قال تعالى {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}البقرة٢٨٦ فبين سبحانه أن كسب النفس لها أوعليها و الناس يقولون فلان كسب مالا أو حمدا أو شرفا كما أنه ينتفع بذلك [٢]

٦- قال الله تعالى {وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء}النساء٨٩ و التسوية جعل الشيئين سواء [٣]

٧- قال تعالى {إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً}النساء٩٠ اتفق المسلمو ن وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أى فى مواضع كثيرة جدا وأن الشيء إسم لما يو جد فى الأعيان و لما يتصور فى الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكو ن هو شيء فى التقدير و العلم و الكتاب و أن لم يكن شيئا فى الخارج و منه قو له {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}يس٨٢ و لفظ الشيء فى الآية يتناو ل هذا و هذا فهو على كل شئ ما و جد و كل ما تصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون موجودا قدير لا يستثنى من ذلك

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٧

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٨٧

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٣٣

شيء و لا يزاد عليه شئ كما قال تعالى {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ}القيامة٤ و قال {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ}المؤمنون١٨ قال المفسرون لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشا وتهلك مواشيكم وتخرب أراضيكم ومعلوم أنه لم يذهب به و هذا كقوله {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ}الواقعة٦٨ إلى قوله و{وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}الواقعة٨٢ و هذا يدل على أنه قادر على مالا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجا و هو لم يفعله و مثل هذا و {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا}السجدة١٣ {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ}يونس٩٩ {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ}البقرة٢٥٣ فإنه أخبر فى غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء و هو لم يفعلها فلو لم يكن قادرا عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها [1]

٨- والسلطان هو الوحي المنزل من عند الله كما ذكر ذلك فى غير موضع كقوله {أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ}الروم٣٥ وقوله {مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ}الأعراف٧١ وقال ابن عباس كل سلطان فى القران فهو الحجة ذكره البخارى فى صحيحه قال تعالى {سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً}النساء٩١ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٤٢ و الاستقامة ج: ١ ص: ٢٢ و مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣١٦

## النساء ٩٢ـ١٠٤

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ
مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن
لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً
حَكِيماً{٩٢} وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا
وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً{٩٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ
السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ
كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيراً{٩٤} لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي
الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ
الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ
الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً{٩٥}
دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٩٦} إِنَّ الَّذِينَ
تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ
فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ
مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً{٩٧} إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً{٩٨}
فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً{٩٩} وَمَن
يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن
يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ
أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{١٠٠} وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي
الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن
يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً{١٠١} وَإِذَا
كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ
أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ

**يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٠٢} فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً{١٠٣} وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{١٠٤}**

## لفظ الخطا وأخطا عند الاطلاق

ولفظ الخطأ يستعمل في العمد وفى غيرالعمد قال تعالى {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً}الإسراء٣١ والا كثرون يقرؤون خطأ على وزن ردأ وعلما وقرأ ابن عامر خط على وزن عملا كلفظ الخطأ فى قوله {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً}النساء٩٢ وقرا إبن كثير خطاء على وزن هجاء وقرا ابن رزين خطاء على وزن شرابا وقرأ الحسن وقتادة خطا على وزن قتلا وقرأ الزهرى خطا بلا همز على وزن عدى قال الاخفش خطى يخطأ بمعنى أذنب وليس معنى أخطأ لان اخطأ في ما لم يصنعه عمدا يقول فيما اتيته عمدا خطيت وفيما لم يتعمده أخطأت وكذلك قال أبو بكر إبن الانباري الخطأ الاثم يقال قد خطا يخطا اذا اثم وأخطأ يخطىء اذا فارق ا لصواب وكذلك قال ابن الانبارى فى قوله {قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ}يوسف٩١ فان المفسرين كابن عباس وغيره قالوا لمذنبين آثمين فى أمرك وهو كما قالوا فانهم قالوا {قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ}يوسف٩٧ وكذلك قال العزيز لامرأته {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ}يوسف٢٩ قال ابن الانباري ولهذا اختير خاطئين على مخطئين وان كان اخطأ على ألسن الناس اكثر من خطا يخطى لان معنى خطا يخطى فهو خاطىء آثم ومعنى أخطأ يخطىء ترك الصواب ولم ياثم قال عبادك يخطئون وأنت رب تكفل المنايا والحتوم وقال الفراء الخطأ الاثم الخطا والخطا ممدود ثلاث اللغات قلت يقال في العمد خطأ كما يقال في غير العمد على قراءة ابن عامر فيقال لغير المتعمد أخطأت كما يقال له خطيت ولفظ الخطيئة من هذا ومنه قوله تعالى {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا}نوح٢٥ وقول السحرة {إِنَّا نَطْمَعُ

أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ}الشعراء٥١ ومنه قوله في الحديث الصحيح الالهي يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم وفي الصحيحين عن أبى موسى عن النبي أنه كان يقول في دعائه اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي أنه قال أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول قال أقول اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من خطاياي كما ينقي الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد والذين قالوا كل مجتهد مصيب والمجتهد لا يكون على خطأ وكرهوا أن يقال للمجتهد إنه أخطأ هم وكثير من العامة يكره أن يقال عن إمام كبير إنه أخطأ وقوله أخطأ لأن هذا اللفظ يستعمل في الذنب كقراءة بن عامر إنه كان خطأ كبيرا ولأنه يقال في العامد أخطأ يخطىء كما قال يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم فصار لفظ الخطا والخطأ قد يتناول النوعين كما يخض غير العامل وأما لفظ الخطيئة فلا يستعمل إلا في الاثم والمشهور أن لفظ الخطأ يفارق العمد كما قال تعالى {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ}النساء٩٢ الاية ثم قال بعد ذلك {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ}النساء٩٣ وقد بين الفقهاء أن الخطأ ينقسم إلى خطأ في الفعل وإلى خطأ فى القصد فالأول أن يقصد الرمى إلى ما يجوز رميه من صيد وهدف فيخطىء بها وهذا فيه الكفارة والدية والثانى أن يخطى فى قصده لعدم العلم كما أخطأ هناك لضعف القوة وهو أن يرمى من يعتقده مباح الدم ويكون معصوم الدم كمن قتل رجلا فى صفوف الكفار ثم تبين أنه كان مسلما والخطأ فى العلم هو من هذا النوع ولهذا قيل في أحد القولين إنه لا دية فيه لأنه مأمور به بخلاف الأول وأيضا فقد قال تعالى {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ}الأحزاب٥ ففرق بين النوعين وقال تعالى {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}البقرة٢٨٦ وقد ثبت في الصحيح ان الله تعالى قال قد فعلت فلفظ الخطا وأخطا عند الاطلاق يتناول غير العامد واذا ذكر مع النسيان أو ذكر فى مقابلة العامد كان نصا فيه وقد يراد به مع القرينة العمد أو العمد والخطأ جميعا كما في قراءة ابن عامر وفى الحديث الالهي إن كان لفظه كما يرويه عامة المحدثين تخطئون بالضم واما اسم الخاطىء فلم يجيء فى القرآن الا للاثم بمعنى الخطيئة كقوله {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ}يوسف٢٩ وقوله {قَالُواْ

تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ}يوسف٩١ وقوله {قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ}يوسف٩٧ وقوله {لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ}الحاقة٣٧ [١]

## سماه مؤمنا من كان عاجزا عن اقامة دينه

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ}النساء٩٢ فقد يكون الرجل في الظاهر من الكفار وهو في الباطن مؤمن فمن يؤمن بالنبي في بلاد الحرب ولا يتمكن من الهجرة إلى دار الإسلام ولا يمكنه العمل بشرائع الإسلام الظاهرة بل يعمل ما يمكنه ويسقط عنه ما يعجز عنه [٢]

قال تعالى في المقتول خطأ {فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ}النساء٩٢ فهو من العدو ولكن هو كان قد آمن وما أمكنه الهجرة وإظهار الإيمان والتزام شرائعه فسماه مؤمنا لأنه فعل من الإيمان ما يقدر عليه وهذا كما أنه قد كان بمكة جماعة من المؤمنين يستخفون بإيمانهم وهم عاجزون عن الهجرة قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً{٩٧} إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً{٩٨} فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً{٩٩} النساء ٩٧ ـ٩٩ فعذر سبحانه المستضعف العاجز عن الهجرة وقال تعالى {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً}النساء٧٥ فأولئك كانوا عاجزين عن إقامة دينهم فقد سقط عنهم ما عجزو

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٢٠-٢٤

[٢] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٠٣

عنه فإذا كان هذا فيمن كان مشركا وآمن فما الظن بمن كان من أهل الكتاب وآمن وقوله {فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ}النساء٩٢ قيل هو الذي يكون عليه لباس أهل الحرب مثل أن يكون في صفهم فيعذر القاتل لأنه مأمور بقتاله فتسقط عند الدية وتجب الكفارة وهو قول الشافعي وأحمد في أحد القولين وقيل بل هو من أسلم ولم يهاجر كما يقوله أبو حنيفة لكن هذا قد أوجب فيه الكفارة وقيل إذا كان من أهل الحرب لم يكن له وارث فلا يعطى أهل الحرب ديته بل تجب الكفارة فقط وسواء عرف أنه مؤمن وقتل خطأ أو ظن أنه كافر وهذا ظاهر الآية [١]

## سمى إسقاط الدية صدقة

والله سبحانه دائما يأمر بالصلاة والزكاة وهى الصدقة وقد ثبت فى الصحيح عن النبى من غير وجه أنه قال كل معروف صدقة وذلك نوعان أحدهما اتصال نفع إليه الثانى دفع ضرر عنه فإذا كان المظلوم يستحق عقوبة الظلم ونفسه تدعوه إليه فكف نفسه عن ذلك ودفع عنه ما يدعوه إليه من إضراره فهذا إحسان منه إليه وصدقة عليه والله تعالى{يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ}يوسف٨٨ و{لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}التوبة١٢٠ فكيف يسقط أجر العافى وهذا عام فى سائر ما للعبد من الحقوق على الناس ولهذا إذا ذكر الله فى كتابه حقوق العباد وذكر فيه العدل ندب فيها إلى الإحسان فإنه سبحانه يأمر بالعدل والإحسان كما قال تعالى {وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}البقرة٢٨٠ فجعل الصدقة على المدين المعسر بإسقاط الدين عنه خيرا للمتصدق من مجرد إنظاره وقال تعالى {وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ}النساء٩٢ فسمى إسقاط الدية صدقة [٢]

## الحد مع التوبة يشتمل على مصلحتين عظيمتين

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص:١١٥- ١١٦ و مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٢٢٠-٢٢١

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص:٣٦٥- ٣٦٦

واما القاتل والقاذف فلا اعلم مخالفا ان توبتهم لا تسقط عنهم حق الادمي بمعنى انه اذا طالب بالقود وحد القذف فله ذلك وان كانوا قد تابوا قبل ذلك [1]

ان الاسلام والتوبة لا يسقط شيئا من الحدود الواجبة قبل ذلك اذا كانت التوبة بعد الثبوت والرفع الى الامام بالاتفاق وقد دل القران ان حد قاطع الطريق والزاني والسارق والقاذف لا يسقط بالتوبة بعد التمكن من اقامة الحد ودلت السنة على مثل ذلك في الزاني وغيره ولم يختلف المسلمون فيما علمناه ان المسلم اذا زنى او سرق او قطع الطريق او شرب الخمر فرفع الى السلطان وثبت عليه الحد ببينة ثم تاب من ذلك انه تجب اقامة الحد عليه الا ان يظن احد في ذلك خلافا شاذا لا يعتد به فهذه حدود الله تعالى وكذلك لو وجب عليه قصاص او حد قذف او عقوبة سب لمسلم او معاهد ثم تاب من ذلك لم تسقط عنه العقوبة وكذلك ايضا لم يختلفوا فيما علمناه ان الذمي لو وجب عليه حد قطع الطريق او حد السرقة او قصاص او حد قذف او تعزير ثم اسلم وتاب من ذلك لم تسقط عنه عقوبة ذلك وكذلك ايضا لو زنى فانه اذا وجب عليه حد الزنى ثم اسلم لم يسقط عنه بل يقام عليه حد الزنى عند من يقول بوجوبه قبل الاسلام ويقتل حتما عند الامام احمد ان كان زنى انتقض به عهده هذا مع ان الاسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما قبلها فيغفر للتائب ذنبه مع اقامة الحد عليه تطهيرا له وتنكيلا للناس عن مثل تلك الجريمة فتحصل باقامة الحد المصلحة العامة وهي زجر الملتزمين للاسلام او الصغار عن فعل مثل ذلك الفساد فانه لو لم يقم الحد عند اظهار التوبة لم يتات اقامة حد في الغالب فانه لا يشاء المفسد في الارض اذا اخذ ان يظهر التوبة الا اظهرها ويوشك كل من هم بعظيمة من العظائم من الاقوال والافعال ان يرتكبها ثم اذا احيط به قال اني تائب ومعلوم أن ذلك لو درا الحد الواجب لتعطلت الحدود وظهر الفساد في البر والبحر ولم يكن في شرع العقوبات والحدود كبير مصلحة وهذا ظاهر لاخفاء به ثم الجاني ان تاب توبة نصوحا فذلك نافعه فيما بينه وبين الله يغفر له ما اسلف ويكون الحد تطهيرا له وتكفيرا لسيئته وهو من تمام التوبة كما قال ماعز بن مالك للنبي طهرني وقد جاء تائبا وقال تعالى لما ذكر كفارة قتل الخطا {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء٩٢ وقال تعالى في كفارة الظهار {ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ}المجادلة٣ فيشتمل الحد مع التوبة على مصلحتين عظيمتين مصلحة زجر النفوس عن مثل

---

[1] الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٩٤٢

تلك الجريمة وهي اهم المصلحتين فان الدنيا في الحقيقة ليست دار كمال الجزاء وانما كمال الجزاء في الاخرة وانما الغالب في العقوبات الشرعية الزجر والنكال وان كان فيها مقاصد اخر كما ان غالب مقصود العدة براءة الرحم وان كان فيها مقاصد اخر ولهذا كانت هذه المصلحة مقصودة في كل عقوبة مشروعة والمصلحة الثانية تطهير الجاني وتكفير خطيئته ان كان له عند الله خير او عقوبته والانتقام منه ان لم يكن كذلك وقد يكون زيادة في ثوابه ورفعه في درجاته ونظير ذلك المصائب المقدرة في النفس والاهل والمال فانها تارة تكون كفارة وطهورا وتارة تكون زيادة في الثواب وعلوا في الدرجات وتارة تكون عقابا وانتقاما لكن اذا اساء الانسان سرا فان الله يقبل توبته سرا ويغفر له من غير احواج له الى ان يظهر ذنبه حتى يقام حده عليه اما اذا اعلن الفساد بحيث يراه الناس ويسمعونه حتى شهدوا به عند السلطان او اعترف هو به عند السلطان فانه لا يطهره مع التوبة بعد القدرة الا اقامته عليه الا ان في التوبة اذا كان الحد لله وثبت بإقراره خلافا سنذكره ان شاء الله تعالى ولهذا قال تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب وقال لما شفع اليه في السارقة تطهر خيرا لها وقال من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في امره وقال من ابتلى من هذه القاذورات بشيء فاليستتر بستر الله فانه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله [1]

## ما ثبت من المؤقتات بشرع او شرط فالهلال ميقات له

قال الله تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}البقرة١٨٩ فاخبر انها مواقيت للناس وهذا عام فى جميع أمورهم وخص الحج بالذكر تمييزا له ولان الحج تشهده الملائكة وغيرهم ولانه يكون في آخر شهور الحول فيكون علما على الحول كما ان الهلال علم على الشهر ولهذا يسمون الحول حجة فيقولون له سبعون حجة واقمنا حجج فجعل الله الاهلة مواقيت للناس فى الاحكام الثابتة بالشرع ابتداء او سببا من العبادة وللاحكام التى تثبت بشروط العبد فما ثبت من المؤقتات بشرع او شرط فالهلال ميقات له وهذا يدخل فيه الصيام والحج ومدة الايلاء والعدة وصوم الكفارة وهذه الخمسة فى القرآن قال الله تعالى {شَهْرُ

---

[1] الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٨١٩-٨٢٤

رَمَضَانَ}البقرة١٨٥ وقال تعالى {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ}البقرة١٩٧ وقال تعالى {لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ}البقرة٢٢٦ وقال تعالى {فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ}النساء٩٢ وكذلك قوله {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}التوبة٢ وكذلك صوم النذر وغيره وكذلك الشروط من الاعمال المتعلقة بالثمن ودين السلم والزكاة والجزية والعقل والخيار والايمان واجل الصداق ونجوم الكتابة والصلح عن القصاص وسائر ما يؤجل من دين وعقد وغيرهما [1]

## العقود تصح بكل ما دل على مقصودها

قال تعالى{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء٩٢

هذه القاعدة الجامعة التي ذكرناها من أن العقود تصح بكل ما دل على مقصودها من قول أو فعل هي التى تدل عليها أصول الشريعة وهي التى تعرفها القلوب و ذلك أن الله سبحانه و تعالى قال {فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء٣ و قال {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ}النور٣٢ و قال {وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ}البقرة٢٧٥و قال {فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً}النساء٤ و قال {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ و قال {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}الطلاق٦ و قال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ}البقرة٢٨٢ إلى قوله {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {٢٨٢} وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ {٢٨٣}البقرة٢٨٢-٢٨٣ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص: ١٣٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص:١٤- ١٥

## الترتيب واجب في صوم الشهرين

قال تعالى{فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء٩٢

فالترتيب واجب في صوم الشهرين بنص القرآن والسنة والاجماع ثم اتفق المسلمون على أنه اذا قطع لعذر لا يمكن الاحتراز منه كالحيض فانه لا يقطع التتابع الواجب ومذهب أحمد في هذا أوسع من مذهب غيره فعنده اذا قطع التتابع لعذر شرعي لا يمكن مع امكان الاحتراز منه مثل أن يتخلل الشهرين صوم شهر رمضان أو يوم الفطر أو يوم النحر أو أيام منى أو مرض أو نفاس ونحو ذلك فانه لا يمنع التتابع الواجب ولو أفطر لعذر مبيح كالسفر فعلى وجهين [١]

{فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ}النساء٩٢ ولا ينفي عنه الوجود إلا بعد سابقه الطلب [٢]

## الدية في الخطأ مقدرة بالشرع تقديرا عاما للأمة

قال تعالى{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء٩٢ الأسماء التى علق الله بها الأحكام فى الكتاب والسنة منها ما يعرف حده ومسماه بالشرع فقد بينه الله ورسوله كاسم الصلاة والزكاة والصيام

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ١٣٨

[٢] شرح العمدة ج: ١ ص: ٤٢٦

والحج والايمان والاسلام والكفر والنفاق ومنه ما يعرف حده باللغة كالشمس والقمر والسماء والأرض والبر والبحر ومنه ما يرجع حده الى عادة الناس وعرفهم فيتنوع بحسب عادتهم كاسم البيع والنكاح والقبض والدرهم والدينار ونحو ذلك من الأسماء التى لم يحدها الشارع بحد ولا لها حد واحد يشترك فيه جميع أهل اللغة بل يختلف قدره وصفته باختلاف عادات الناس فما كان من النوع الأول فقد بينه الله ورسوله وما كان من النوع الثانى والثالث فالصحابة والتابعون المخاطبون بالكتاب والسنة قد عرفوا المراد به لمعرفتهم بمسماه المحدود فى اللغة أو المطلق فى عرف الناس وعادتهم من غير حد شرعى ولا لغوي وبهذا يحصل التفقه فى الكتاب والسنة والاسم اذا بين النبى حد مسماه لم يلزم أن يكون قد نقله عن اللغة أو زاد فيه بل المقصود أنه عرف مراده بتعريفه هو كيف ما كان الأمر فان هذا هو المقصود ومن ذلك لفظ الجزية و الدية فانها فعلة من جزى يجزى إذا قضى وأدى ومنه قول النبى تجزي عنك ولا تجزي عن أحد بعدك وهى فى الاصل جزا جزية كما يقال وعد عدة ووزن زنة وكذلك لفظ الدية هو من ودى يدى دية كما يقال وعد بعد عدة والمفعول يسمى باسم المصدر كثيرا فيسمى المودى دية والمجزى المقضى جزية كما يسمى الموعود وعدا فى قوله {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٢٥} قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{٢٦} فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً {٢٧}الملك ٢٥-٢٧ وانما رأوا ما وعدوه من العذاب وكما يسمى مثل ذلك الاتاوة لأنه تؤتى أى نعطى وكذلك لفظ الضريبة لما يضرب على الناس فهذه الألفاظ كلها ليس لها حد فى اللغة ولكن يرجع الى عادات الناس فان كان الشرع قد حد لبعض حدا كان اتباعه واجبا ولهذا اختلف الفقهاء فى الجزية هل هى مقدرة بالشرع أو يرجع فيها الى اجتهاد الأئمة وكذلك الخراج والصحيح أنها ليست مقدرة بالشرع وأمر النبى لمعاذ أن يأخذ من كل حالم دينارا او عدله معافريا قضية فى عين لم يجعل ذلك شرعا عاما لكل من تؤخذ منه الجزية الى يوم القيامة بدليل أنه صالح لأهل البحرين على حالم ولم يقدره هذا التقدير وكان ذلك جزية وكذلك صالح أهل نجران على أموال غير ذلك ولا مقدرة بذلك فعلم أن المرجع فيها الى ما يراه ولي الأمر مصلحة وما يرضى به المعاهدون فيصير ذلك عليهم حقا يجزونه أى يقصدونه ويؤدونه وأما الدية ففى العمد برجع فيها الى رضى الخصمين وأما فى الخطأ فوجبت عينا بالشرع فلا يمكن الرجوع فيها الى تراضيهم بل قد يقال هى مقدرة بالشرع تقديرا عاما للأمة كتقدير الصلاة والزكاة وقد تختلف باختلاف أقوال الناس فى جنسها وقدرها وهذا أقرب القولين وعليه تدل الآثار وان النبى انما جعلها مائة لاقوام كانت أموالهم الابل ولهذا جعلها على أهل الذهب ذهبا وعلى أهل الفضة فضة

وعلى أهل الشاء شاءا وعلى أهل الثياب ثيابا وبذلك مضت سيرة عمر بن الخطاب وغيره والنبى صلى الله عليه وسلم قضى بالدية على العاقلة وهم الذين ينصرون الرجل ويعينونه وكانت العاقلة على عهده هم عصبته فلما كان فى زمن عمر جعلها على أهل الديوان ولهذا اختلف فيها الفقهاء فيقال أصل ذلك أن العاقلة هم محدودون بالشرع او هم من ينصره ويعينه من غير تعيين فمن قال بالأول لم يعدل عن الأقارب فانهم العاقلة على عهده ومن قال بالثانى جعل العاقلة فى كل زمان ومكان من ينصر الرجل ويعينه فى ذلك الزمان والمكان فلما كان في عهد النبى انما ينصره ويعينه أقاربه كانوا هم العاقلة إذ لم يكن على عهد النبى ديوان ولا عطاء فلما وضع عمر الديوان كان معلوما أن جند كل مدينة ينصر بعضه بعضا ويعين بعضه بعضا وان لم يكونوا أقارب فكانوا هم العاقلة وهذا أصح القولين وانها تختلف باختلاف الاحوال والا فرجل قد سكن بالمغرب وهناك من ينصره ويعينه كيف تكون عاقلته من بالمشرق فى مملكة أخرى ولعل أخباره قد انقطعت عنهم والميراث يمكن حفظه للغائب فان النبى قضى فى المرأة القاتلة ان عقلها على عصبتها وان ميراثها لزوجها وبنيها فالوارث غير العاقلة وكذلك تأجليها ثلاث سنين فان النبى لم يؤجلها بل قضى بها حالة وعمر اجلها ثلاث سنين فكثير من الفقهاء يقولون لا تكون إلا مؤجله كما قضى به عمر ويجعل ذلك بعضهم اجماعا وبعضهم قال لا تكون إلا حالة والصحيح ان تعجيلها وتأجيلها بحسب الحال والمصلحة فان كانوا مياسير ولا ضرر عليهم فى التعجيل أخذت حالة وان كان فى ذلك مشقة جعلت مؤجلة وهذا هو المنصوص عن أحمد ان التأجيل ليس بواجب كما ذكر كثير من أصحابه انه واجب موافقة لمن ذكر ذلك من أصحاب ابى حنيفة والشافعى ومالك وغيرهم فان هذا القول فى غاية الضعف وهو يشبه قول من يجعل الأمة يجوز لها نسخ شريعة نبيها كما يقوله بعض الناس من ان الاجماع ينسخ وهذا من انكر الأقوال عند أحمد فلا تترك سنة ثابتة إلا بسنة ثابتة ويمتنع انعقاد الاجماع على خلاف سنة إلا ومع الاجماع سنة معلومة نعلم انها ناسخة للأولى [1]

**{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ}**

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٢٥٣-٢٥٧

قال تعالى{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ و هذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعا و فيها رد على طوائف رد على من يقول إن الداعى إلى البدعة لا تقبل توبته و يحتجون بحديث إسرائيلى فيه أنه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت و هذا يقوله طائفة ممن ينتسب إلى السنة و الحديث و ليسوا من العلماء بذلك كأبى علي الأهوازي و أمثاله ممن لا يميزون بين الأحاديث الصحيحة و الموضوعة و ما يحتج به و ما لا يحتج به بل يروون كلما فى الباب محتجين و قد حكى هذا طائفة قولا في مذهب أحمد أو رواية عنه و ظاهر مذهبه مع مذاهب سائر أئمة المسلمين أنه تقبل توبته كما تقبل توبة الداعى إلى الكفر و توبة من فتن الناس عن دينهم و قد تاب قادة الأحزاب مثل أبى سفيان بن حرب و الحارث ابن هشام و سهيل بن عمرو و صفوان بن أمية و عكرمة بن أبى جهل و غيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم من قتل و كانوا من أحسن الناس إسلاما و غفر الله لهم قال تعالى {قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ}الأنفال٣٨ و عمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر و الإيذاء للمسلمين و قد قال له النبى صلى الله عليه و سلم لما أسلم يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجب ما كان قبله و فى صحيح البخارى عن ابن مسعود فى قوله {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}الإسراء٥٧ قال كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم أولئك الجن و الإنس يعبدونهم ففي هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الإسلام لهم و إن كانوا هم أضلوهم أولا و أيضا فالداعي إلى الكفر و البدعة و إن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه لكونه قبل من هذا و أتبعه و هذا عليه و زره ووزر من إتبعه إلى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم فإذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره و لا ما حمله هو لأجل إضلالهم و أما هم فسواء تاب أو لم يتب حالهم واحد و لكن توبته قبل هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى كما تاب كثير من الكفار و أهل البدع و صاروا دعاة إلى الإسلام و السنة و سحرة فرعون كانوا أئمة فى الكفر ثم أسلموا و ختم الله لهم بخير و من ذلك توبة قاتل النفس و الجمهور على أنها مقبولة و قال إبن عباس لا تقبل و عن أحمد روايتان و حديث قاتل التسعة و التسعين في الصحيحين دليل على قبول توبته و هذه الآية تدل على ذلك و آية النساء إنما فيها وعيد فى القرآن كقوله {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً} النساء٩٣ و مع هذا فهذا إذا لم يتب وكل وعيد فى القرآن فهو مشروط بعدم التوبة بإتفاق الناس فبأي و جه

يكون وعيد القاتل لاحقا به و إن تاب هذا فى غاية الضعف و لكن قد يقال لا تقبل توبته بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل بل التوبة تسقط حق الله و المقتول مطالبه بحقه و هذا صحيح فى جميع حقوق الآدميين حتى الدين فإن فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه سلم أنه قال الشهيد يغفر له كل شيء إلا الدين لكن حق الآدمى يعطاه من حسنات القاتل فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات حتى يكون له ما يقابل حق المقتول و لعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول فلا بد أن يبقى له سيئات يعذب بها و هذا الذى قاله قد يقع من بعض الناس فيبقى الكلام فيمن تاب و أخلص و عجز عن حسنات تعادل حق المظلوم هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يعذب به و هذا موضع دقيق على مثله يحمل حديث إبن عباس لكن هذا كله لا ينافى موجب الآية و هو أن الله تعالى يغفر كل ذنب الشرك و القتل و الزنا و غير ذلك من حيث الجملة فهى عامة فى الأفعال مطلقة فى الأشخاص [1]

## لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد

إذا قتل مسلم مسلما على دين الإسلام مثل ما يقاتل النصراني المسلمين على دينهم فهذا كافر شر من الكافر المعاهد فإن هذا كافر محارب بمنزلة الكفار الذين يقاتلون النبي وأصحابه وهؤلاء مخلدون في جهنم كتخليد غيرهم من الكفار وأما إذا قتله قتلا محرما لعداوة أو مال أو خصومة ونحو ذلك فهذا من الكبائر ولا يكفر بمجرد ذلك عند أهل السنة والجماعة وإنما يكفر بمثل هذا الخوارج ولا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد عند أهل السنة والجماعة خلافا للمعتزلة الذين يقولون بتخليد فساق الملة {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}النساء٩٣ وجوابهم على أنها محمولة على المتعمد لقتله على إيمانه وأكثر الناس لم يحملوها على هذا بل قالوا هذا وعيد مطلق قد فسره قوله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ وفي ذلك حكاية عن بعض أهل السنة أنه كان في مجلس فيه عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة فقال عمرو يؤتى بي يوم القيامة فيقال لي يا عمرو من أين قلت إني لا أغفر لقاتل فأقول أنت يا رب قلت{وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا}النساء٩٣ قال فقلت له فإن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص:٢٣- ٢٥

قال لك فإني قلت {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فمن أين علمت أني لا أشاء أن أغفر لهذا فسكت عمرو بن عبيد وقتل الخطأ لا يجب فيه إلا الدية والكفارة ولا إثم فيه وأما القاتل عمدا فعليه الإثم فإذا عفى عنه أولياء المقتول أو أخذوا الدية لم يسقط بذلك حق المقتول في الآخرة وإذا قتلوه ففيه نزاع في مذهب أحمد والأظهر أن لا يسقط لكن القاتل إذا كثرت حسناته أخذ منه بعضها ما يرضي به المقتول أو يعوضه من عنده إذا تاب القاتل توبة نصوحا وقاتل الخطأ تجب عليه الدية بنص القرآن واتفاق الأمة والدية تجب للمسلم والمعاهد كما قد دل عليه القرآن وهو قول السلف والأئمة ولا يعرف فيه خلاف متقدم لكن بعض متأخري الظاهرية زعم أنه الذي لا دية له وأما القاتل عمدا ففيه القود فإن اصطلحوا على الدية جاز لك بالنص والإجماع فكانت الدية من مال القاتل بخلاف الخطأ فإن ديته على عاقلته وأما الكفارة فجمهور العلماء يقولون قتل العمد أعظم من أن يكفر وكذلك قالوا في اليمين الغموس هذا مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه كما اتفقوا كلهم على أن الزنا أعظم من أن يكفر فإنما وجبت الكفارة بوطء في رمضان وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى بل تجب الكفارة في العمد واليمين الغموس واتفقوا على أن الإثم لا يسقط بمجرد الكفارة وأما القاتل خطأ فلا يؤخذ منه قصاص لا في الدنيا ولا في الآخرة لكن الواجب في ذلك الكفارة ودية مسلمة إلى أهل القتيل إلا أن يصدقوا وأما القاتل عمدا إذا اقتص منه في الدنيا فهل للمقتول أن يستوفي حقه في الآخرة فيه قولان في مذهب أحمد وكذلك غيره فيما أظن من يقول لا حق له عليه لأن الذي عليه استوفى منه في الدنيا ومنهم من يقول بل عليه حق فإن حقه لم يسقط بقتل الورثة كما لم يسقط حق الله بذلك وكما لا يسقط حق المظلوم الذي غصب ماله وأعيد إلى ورثته بل له أن يطالب الظالم بما حرمه من الإنتفاع به في حياته والله أعلم [1]

## قاتل النفس بغير حق عليه حقان

قال تعالى{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ١٣٧-١٤٠

وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء٩٢ قاتل النفس بغير حق عليه حقان حق لله بكونه تعدى حدود الله وانتهك حرماته فهذا الذنب يغفره الله بالتوبة الصحيحة كما قال تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ أى لمن تاب وقال {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً{٦٨} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً{٦٩} إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٧٠} الفرقان٦٨-٧٠ وفى الصحيحين وغيرهما عن أبى سعيد عن النبى صلى الله علية وسلم إن رجلآ قتل تسعة وتسعين رجلآ ثم سال عن اعلم أهل الارض فدل علية فسألة هل من توية فقال أبعد تسعة وتسعين تكون لك توبة فقتلة فكمل بة مائة ثم مكث ما شاء الله ثم سال عن اعلم أهل الارض فدل علية فسالة هل لى من توبة قال ومن يحول بينك وبين التوبة ك ولكن ائت قرية كذا فان فيها قوما صالحين فاعبد الله معهم فادركه الموت فى الطريق فاختصمت فية ملائكة الرحمة وملآئكة العذاب فبعث الله ملكا يحكم بينهم فامر ان يقاس فإلى أي القريتين كان اقرب الحق بة فوجدوة أقرب الى القرية الصالحة فغفر الله لة والحق الثانى حق الآدميين فعلى القاتل ان يعطى اولياء المقتول حقهم فيمكنهم من القصاص أو يصالحهم بمال أو يطلب منهم العفو فاذا فعل ذلك فقد أدى ما عليه من حقهم وذلك من تمام التوبة وهل يبقى للمقتول عليه حق يطالبه به يوم القيامة على قولين للعلماء فى مذهب أحمد وغيره ومن قال يبقى له فانه يستكثر القاتل من الحسنات حتى يعطى المقتول من حسناته بقدر حقه ويبقى له ما يبقى فاذا استكثر القاتل التائب من الحسنات رجيت له رحمة الله وأنجاه من النار ولا يقنط من رحمة الله الا القوم الفاسقون [1]

## فساق اهل الملة ليسوا مخلدين فى النار

الناس فى الفاسق من أهل الملة مثل الزانى والسارق والشارب ونحوهم ثلاثة أقسام طرفين ووسط أحد الطرفين أنه ليس بمؤمن بوجه من الوجوه ولا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ١٧٢-١٧٣

يدخل فى عموم الأحكام المتعلقة بإسم الإيمان ثم من هؤلاء من يقول هو كافر كاليهودى والنصرانى وهو قول الخوارج ومنهم من يقول ننزله منزلة بين المنزلتين وهى منزلة الفاسق وليس هو بمؤمن ولا كافر وهم المعتزلة وهؤلاء يقولون أن أهل الكبائر يخلدون فى النار وان أحدا منهم لا يخرج منها وهذا من مقالات أهل البدع التى دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان على خلافها قال الله تعالى {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا}الحجرات٩ إلى قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}الحجرات١٠ فسماهم مؤمنين وجعلهم اخوة مع الاقتتال وبغي بعضهم على بعض وقال الله تعالى {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ}النساء٩٢ ولو اعتق مذنبا اجزأ عتقه باجماع العلماء ولهذا يقول علماء السلف فى المقدمات الاعتقادية لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ولا نخرجه من الاسلام بعمل وقد ثبت الزنا والسرقة وشرب الخمر على أناس فى عهد النبى ولم يحكم فيهم حكم من كفر ولا قطع الموالاة بينهم وبين المسلمين بل جلد هذا وقطع هذا وهو فى ذلك يستغفر لهم ويقول لا تكونوا أعوان الشيطان على أخيكم وأحكام الإسلام كلها مرتبة على هذا الأصل الطرف الثانى قول من يقول إيمانهم باق كما كان لم ينقص بناء على أن الايمان هو مجرد التصديق والاعتقاد الجازم وهو لم يتغير وانما نقصت شرائع الاسلام وهذا قول المرجئة والجهمية ومن سلك سبيلهم وهو أيضا قول مخالف للكتاب والسنة واجماع السابقين والتابعين لهم باحسان قال الله تعالى{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}الأنفال٢وقال {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}الحجرات١٥ وقال {فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ}آل عمران١٧٣ وقال {لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ}الفتح٤ وقال {فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}التوبة١٢٤ وقال النبى الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق وقال لوفد عبدالقيس آمركم بالايمان بالله أتدرون ما الايمان بالله شهادة أن لا إله إلا الله وأن تؤدوا خمس ما غنمتم وأجمع السلف أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب ثم قول اللسان وعمل الجوارح فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويدخل فيه الايمان بكل ما جاء به الرسول ثم الناس فى هذا على أقسام منهم من صدق به جملة ولم يعرف التفصيل ومنهم من صدق جملة وتفصيلا ثم منهم من يدوم استحضاره وذكره لهذا التصديق ومنهم من يغفل عنه ويذهل ومنهم من استبصر فيه بما قذف الله فى قلبه من النور والإيمان

ومنهم من جزم به لدليل قد تعترض فيه شبهة أو تقليد جازم وهذا التصديق يتبعه عمل القلب وهو حب الله ورسوله وتعظيم الله ورسوله وتعزير الرسول وتوقيره وخشية الله والانابة اليه والاخلاص له والتوكل عليه الى غير ذلك من الأحوال فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان وهى مما يوجبها التصديق والاعتقاد ايجاب العلة المعلول ويتبع الإعتقاد قول اللسان ويتبع عمل القلب الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك

وعند هذا فالقول الوسط الذي هو قول أهل السنة والجماعة أنهم لا يسلبون الاسم على الاطلاق ولا يعطونه على الإطلاق فنقول هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن عاص أو مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته ويقال ليس بمؤمن حقا أو ليس بصادق الإيمان وكل كلام أطلق فى الكتاب والسنة فلابد أن يقترن به ما يبين المراد منه والأحكام منها ما يترتب على أصل الإيمان فقط كجواز العتق فى الكفارة وكالموالاة والموارثة ونحو ذلك ومنها ما يترتب على أصله وفرعه كإستحقاق الحمد والثواب وغفران السيئات ونحو ذلك اذا عرفت هذه القاعدة فالذي فى الصحيح قوله لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن والزيادة التى رواها أبو داود والترمذى صحيحة وهى مفسرة للرواية المشهورة فقول السائل هل حمل الحديث على ظاهره أحد من الأئمة لفظ مشترك فان عنى بذلك أن ظاهره أن الزانى يصير كافرا وأنه يسلب الإيمان بالكلية فلم يحمل الحديث على هذا أحد من الأئمة ولا هو أيضا ظاهر الحديث لأن قوله خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة دليل على أن الايمان لا يفارقه بالكلية فان الظلة تظلل صاحبها وهى متعلقة ومرتبطة به نوع ارتباط واما ان عنى بظاهره ما هو المفهوم منه كما سنفسره إن شاء الله فنعم فإن عامة علماء السلف يقرون هذه الأحاديث ويمرونها كما جاءت ويكرهون أن تتأول تأويلات تخرجها عن مقصود رسول الله وقد نقل كراهة تأويل أحاديث الوعيد عن سفيان وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم وجماعة كثيرة من العلماء ونص أحمد على أن مثل هذا الحديث لا يتأول تأويلا يخرجه عن ظاهره المقصود به وقد تأوله الخطابى وغيره تأويلات مستكرهة مثل قولهم لفظه لفظ الخبر ومعناه النهى أي ينبغي للمؤمن أن لا يفعل ذلك وقولهم المقصود به الوعيد والزجر دون حقيقة النفى وانما ساغ ذلك لما بين حاله وحال من عدم الايمان من المشابهة والمقاربة وقولهم إنما عدم كمال الإيمان وتمامه أو شرائعه وثمراته ونحو ذلك وكل هذه التأويلات لا يخفى حالها على من أمعن النظر فالحق أن يقال نفس التصديق المفرق بينه وبين

الكافر لم يعدمه لكن هذا التصديق لو بقي على حاله لكان صاحبه مصدقا بأن الله حرم هذه الكبيرة وأنه توعد عليها بالعقوبة العظيمة وانه يرى الفاعل ويشاهده وهو سبحانه وتعالى مع عظمته وجلاله وعلوه وكبريائه يمقت هذا الفاعل فلو تصور هذا حق التصور لامتنع صدور الفعل منه ومتى فعل هذه الخطيئة فلابد من أحد ثلاثة أشياء إما إضطراب العقيدة بأن يعتقد بأن الوعيد ليس ظاهره كباطنه وانما مقصوده الزجر كما تقوله المرجئة أو ان هذا انما يحرم على العامة دون الخاصة كما يقوله الاباحية أو نحو ذلك من العقائد التى تخرج عن الملة واما الغفلة والذهول عن التحريم وعظمة الرب وشدة بأسه واما فرط الشهوة بحيث يقهر مقتضى الإيمان ويمنعه موجبه بحيث يصير الاعتقاد مغمورا مقهورا كالعقل فى النائم والسكران وكالروح فى النائم ومعلوم أن الإيمان الذي هو الايمان ليس باقيا كما كان اذ ليس مستقرا ظاهرا فى القلب واسم المؤمن عند الإطلاق إنما ينصرف إلى من يكون إيمانه باقيا على حاله عاملا عمله وهو يشبه من بعض الوجوه روح النائم فانه سبحانه يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فالنائم ميت من وجه حى من وجه وكذلك السكران والمغمى عليه عاقل من وجه وليس بعاقل من وجه فاذا قال قائل السكران ليس بعاقل فاذا صحا عاد عقله اليه كان صادقا مع العلم بأنه ليس بمنزلة البهيمة اذ عقله مستور وعقل البهيمة معدوم بل الغضبان ينتهى به الغضب إلى حال يعزب فيها عقله ورأيه وفى الأثر اذا أراد الله نفاذ قضائه وقدره سلب ذوى العقول عقولهم فاذا أنفذ قضاءه وقدره رد عليهم عقولهم ليعتبروا فالعقل الذي به يكون التكليف لم يسلب وإنما سلب العقل الذي به يكون صلاح الأمور فى الدنيا والآخرة كذلك الزانى والسارق والشارب والمنتهب لم يعدم الإيمان الذي به يستحق أن لا يخلد فى النار وبه ترجى به الشفاعة والمغفرة وبه يستحق المناكحة والموارثة لكن عدم الإيمان الذي به يستحق النجاة من العذاب ويستحق به تكفير السيئات وقبول الطاعات وكرامة الله ومثوبته وبه يستحق أن يكون محمودا مرضيا وهذا يبين أن الحديث على ظاهره الذي يليق به والله أعلم

وقول القائل إن المسلمين يدخلون الجنة بالاسلام فيقال له ليس كل المسلمين يدخلون الجنة بلا عذاب بل أهل الوعيد يدخلون النار ويمكثون فيها ما شاء الله مع كونهم ليسوا كفارا فالرجل الذي معه شيء من الإيمان وله كبائر قد يدخل النار ثم يخرج منها اما بشفاعة النبى واما بغير ذلك كما قال صلى الله عليه وسلم شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى وكما فى الصحيح أنه قال أخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان وهكذا الوعيد فى قاتل النفس والزانى وشارب الخمر وآكل مال اليتيم وشاهد الزور وغير هؤلاء من أهل الكبائر فان هؤلاء وإن لم يكونوا كفارا

لكنهم ليسوا من المستحقين للجنة الموعودين بها بلا عقاب ومذهب أهل السنة والجماعة أن فساق اهل الملة ليسوا مخلدين فى النار كما قالت الخوارج والمعتزلة وليسوا كاملين فى الدين والإيمان والطاعة بل لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب وبهذا الثواب وهذا مبسوط فى موضعه والله أعلم [1]

ومن أصول أهل السنة ان الدين والأيمان قول وعمل قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصى والكبائر كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصى كما قال سبحانه وتعالى فى آية القصاص {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ}البقرة١٧٨ وقال {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ {٩} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{١٠}الحجرات٩-١٠ ولا يسلبون الفاسق الملى اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه فى النار كما تقوله المعتزلة بل الفاسق يدخل فى اسم الايمان فى مثل قوله تعالى {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ}النساء٩٢ وقد لا يدخل فى اسم الإيمان المطلق كما فى قوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}الأنفال٢ وقوله صلى الله عليه وسلم لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن ويقولون هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم بكبيرته [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٧٠-٦٧٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٥١-١٥٢ و العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ٤٠

## فرق بين من لعنه الله لعنة مؤبدة عامة ومن لعنه لعنا مطلقا

قال تعالى {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}النساء٩٣

قيل واللعن انما يستوجبه من هو كافر لكن ليس هذا جيدا على الاطلاق ويؤيده ايضا قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً {٥١} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً{٥٢}النساء٥١-٥٢ ولو كان معصوم الدم يجب على المسلمين نصره لكان له نصير ويوضح ذلك انه قد نزل في شان ابن الاشرف وكان من لعنته ان قتل لانه كان يؤذي الله ورسوله واعلم انه لايرد على هذا انه قد لعن من لا يجوز قتله لوجوه احدها ان هذا قيل فيه لعنه الله في الدنيا والاخرة فبين انه سبحانه اقصاه عن رحمته في الدارين وسائر الملعونين انما قيل فيهم لعنه الله او عليه لعنة الله وذلك يحصل باقصائه عن الرحمة في وقت من الاوقات وفرق بين من لعنه الله لعنة مؤبدة عامة ومن لعنه لعنا مطلقا الثاني ان سائر الذين لعنهم الله في كتابه مثل الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ومثل الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ومثل من يقتل مؤمنا متعمدا اما كافر او مباح الدم بخلاف بعض من لعن في السنة [1]

## الشريعة الكاملة تجمع العدل والفضل

والقرآن جمع بين العدل والفضل على غاية الكمال فالقرآن بين أن السعداء أهل الجنة وهم أولياء الله نوعان أبرار مقتصدون ومقربون سابقون فالدرجة الأولى تحصل بالعدل وهي أداء الواجبات وترك المحرمات والثانية لا تحصل إلا بالفضل وهو أداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات فالشريعة الكاملة تجمع العدل والفضل كقوله تعالى {وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ}النساء٩٢فهذا عدل

---

[1] الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٨٩-٩٠

واجب من خرج عنه استحق العقوبة في الدنيا والآخرة ثم قال {إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ}النساء٩٢ فهذا فضل مستحب مندوب إليه من فعله أثابه الله ورفع درجته ومن تركه لم يعاقبه وقال أنس ما رفع للنبي أمر فيه القصاص إلا أمر فيه بالعفو فكان يأمر بالعفو ولا يلزم الناس به ولهذا لما عتقت بريرة وكان لها أن تفسخ النكاح وطلب زوجها أن لا تفارقه شفع إليها أن لا تفارقه فقالت أتأمرني قال لا إنما أنا شافع فلم يوجب عليها قبول شفاعته[1]

## القتل ثلاثة أنواع

وأما الحدود والحقوق التى لآدمى معين فمنها النفوس قال الله تعالى {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}الأنعام١٥١ وقال تعالى {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً}النساء٩٢ الى قوله {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}النساء٩٣ وقال تعالى {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً}المائدة٣٢ وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء فالقتل ثلاثة أنواع أحدها العمد المحض وهو ان يقصد من يعلمه معصوما بما يقتل غالبا سواء كان يقتل بحده كالسيف ونحوه او بثقله كالسندان وكوذين القصار او بغير ذلك كالتحريق والتغريق والالقاء من مكان شاهق والخنق إمساك الخصيتين حتى تخرج الروح وغم الوجه حتى يموت وسقى السموم ونحو ذلك من الأفعال فهذا إذا فعله وجب فيه القود وهو ان يمكن أولياء المقتول من القاتل فإن أحبوا قتلوا وإن أحبوا عفوا وان أحبوا أخذوا الدية وليس لهم ان يقتلوا غير قاتله قال الله تعالى {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً}الإسراء٣٣ قيل فى التفسير لايقتل غير قاتله وروى عن أبى شريح

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ٦٠ و ص: ١٠٦-١٠٧

الخزاعى رضى الله عنه قال قال رسول الله من أصيب بدم او خبل الخبل الجراح فهو بالخيار بين إحدى ثلاث فان أراد الرابعة فخذوا على يديه ان يقتل او يعفو او يأخذ الدية فمن فعل شيئا من ذلك فعاد فان له جهنم خالدا فيها أبدا رواه أهل السنن قال الترمذى حديث حسن صحيح فمن قتل بعد العفو او أخذ الدية فهو أعظم جرما ممن قتل ابتداء حتى قال بعض العلماء انه يجب قتله حدا ولا يكون أمره لأولياء المقتول قال الله تعالى {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}البقرة١٧٨ قال العلماء إن أولياء المقتول تغلى قلوبهم بالغيظ حتى يؤثروا ان يقتلوا القاتل وأولياءه ربما لم يرضوا بقتل القاتل بل يقتلون كثيرا من أصحاب القاتل كسيد القبيلة ومقدم الطائفة فيكون القاتل قد اعتدى فى الابتداء وتعدى هؤلاء فى الاستيفاء كما كان يفعله أهل الجاهلية الخارجون عن الشريعة فى هذه الأوقات من الأعراب والحاضرة وغيرهم وقد يستعظمون قتل القاتل لكونه عظيما أشرف من المقتول فيفضى ذلك إلى أن أولياء المقتول يقتلون من قدروا عليه من أولياء القاتل ربما حالف هؤلاء قوما واستعانوا بهم وهؤلاء قوما فيفضى الى الفتن والعداوات العظيمة وسبب ذلك خروجهم عن سنن العدل الذى هو القصاص فى القتلى فكتب الله علينا القصاص وهو المساواة والمعادلة فى القتلى وأخبر ان فيه حياة فانه يحقن دم غير القاتل من أولياء الرجلين وأيضا فاذا علم من يريد القتل أنه يقتل كف عن القتل وقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم ألا لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده رواه أحمد وأبو داود وغيرهما من أهل السنن فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المسلمين تتكافأ دماؤهم أى تتساوى وتتعادل فلا يفضل عربى على عجمى ولا قرشى او هاشمى على غيره من المسلمين ولا حر اصلى على مولى عتيق ولا عالم او أمير على أمى او مأمور وهذا متفق عليه بين المسلمين بخلاف ما كان عليه أهل الجاهلية وحكام اليهود فانه كان بقرب مدينة النبى صلى لله عليه وسلم صنفان من اليهود قريظة والنضير وكانت النضير تفضل على قريظة فى الدماء فتحاكموا الى النبى فى ذلك وفى حد الزنا فانهم كانوا قد غيروه من الرجم إلى التحميم وقالوا إن حكم بينكم بذلك كان لكم حجة والا فأنتم قد تركتم حكم التوراة فأنزل الله تعالى {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ}المائدة٤١ إلى قوله {فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ

عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} المائدة٤٢ إلى قوله {فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ{٤٤} وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ{٤٥} المائدة٤٤-٤٥ فبين سبحانه وتعالى أنه سوى بين نفوسهم ولم يفضل منهم نفسا على أخرى كما كانوا يفعلونه إلى قوله {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً} المائدة٤٨ الى قوله {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} المائدة٥٠ فحكم الله سبحانه فى دماء المسلمين أنها كلها سواء خلاف ما عليه أهل الجاهلية وأكثر سبب الأهواء الواقعة بين الناس فى البوادى والحواضر إنما هو البغى وترك العدل فان إحدى الطائفتين قد يصيب بعضها بعضا من لأخرى دما او مالا او تعلو عليهم بالباطل ولا تنصفها ولا تقتصر الأخرى على استيفاء الحق فالواجب فى كتاب الله الحكم بين الناس فى الدماء والأموال وغيرها بالقسط الذى أمر الله به ومحو ما كان عليه كثير من الناس من حكم الجاهلية وإذا أصلح مصلح بينهما فليصلح بالعدل كما قال الله تعالى {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ {٩} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ {١٠} الحجرات٩ -١٠ وينبغى أن يطلب العفو من أولياء المقتول فانه أفضل لهم كما قال تعالى {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ} المائدة٤٥ قال أنس رضى الله عنه ما رفع إلى رسول الله أمر فيه القصاص إلا أمر فيه بالعفو رواه أبو داود وغيره وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله وهذا الذى ذكرناه من التكافؤ هو فى المسلم الحر مع المسلم الحر فأما الذمى فجمهور العلماء على أنه ليس بكفء للمسلم كما أن المستأمن الذى يقدم من بلاد الكفار رسولا او تاجرا ونحو ذلك ليس بكفء له وفاقا ومنهم من يقول بل هو كفء له وكذلك النزاع فى قتل الحر بالعبد والنوع الثانى الخطأ الذى يشبه العمد قال النبى ألا إن فى قتل الخطأ شبه العمد ما كان فى السوط والعصا مائة من الابل منها أربعون خلفة فى بطونها أولادها سماه شبه العمد لأنه قصد العدوان عليه بالضرب لكنه لايقتل غالبا فقد تعمد العدوان ولم يتعمد ما يقتل والثالث الخطأ المحض وما يجرى مجراه مثل أن يرمى صيدا أو هدفا

فيصيب إنسانا بغير علمه ولا قصده فهذا ليس فيه قود وإنما فيه الدية والكفارة وهنا مسائل كثيرة معروفة فى كتب أهل العلم وبينهم [1]

## قد يذكر الله وعيد الذنوب في موضع ويذكر جزاءها في الدنيا في موضع اخر

وقوله {وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ}المائدة٩٥ فتوعد قاتل الصيد القاتل بالانتقام منه وذلك لا يمنع وجوب الجزاء عليه كما قال {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا}النساء٩٣ ولم يمنع ذلك وجوب الدية والقود وقوله {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا}المائدة٣٨ وقوله في المحاربين {ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}المائدة٣٣ ولم يمنع ذلك وجوب رد المسروق إن كان باقيا وقيمته إن كان تالفا وقوله {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ}النور٢ لم يمنع ذلك وجوب رجم ونفى وهذا كثير قد يذكر الله وعيد الذنوب في موضع ويذكر جزاءها في الدنيا في موضع اخر ثم يقال من جملة الانتقام وجوب الجزاء عليه[2]

## أن الله يحب بعض الأمور المخلوقة ويسخط بعض الأمور ويمقتها

والجهمية والقدرية إنما لم تفرق بين ما يشاؤه وما يحبه لأنهم لا يثبتون لله محبة لبعض الأمور المخلوقة دون بعض وفرحا بتوبة التائب وكان أول من أنكر هذا الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبد الله القسرى وقال ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما ولا اتخذ إبراهيم خليلا تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علوا كبيرا ثم نزل عن المنبر فذبحه فإنه الخلة من توابع المحبة فمن كان من أصله أن الله لا يحب ولا يحب لم يكن للخلة عنده معنى والرسل صلوات الله عليهم أجمعين إنما جاءوا بإثبات هذا الأصل وهو أن الله يحب بعض الأمور المخلوقة ويرضاها ويسخط بعض الأمور ويمقتها وأن أعمال العباد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٧٣-٣٧٨ و السياسة الشرعية ج: ١ ص: ١٢٢-١٢٣

[2] شرح العمدة ج: ٣ ص: ٣٨٩

ترضية تارة وتسخطه أخرى      قال تعالى   {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}محمد٢٨      وقال تعالى    {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ}الفتح١٨        وقال   {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ}الزخرف٥٥ عن أبن عباس أغضبونا قال ابن قتيبة الأسف الغضب يقال أسفت أسفا أي غضبت       وقال الله تعالى   {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}النساء٩٣        و قد ثبت في الصحيح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لله أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته بارض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فطلبها فلم يجدها فقال تحت شجرة ينتظر الموت فاستيقظ فإذا هو بدابته عليها طعامه وشرابه فالله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته      والفرح إنما يكون بحصول المحبوب والمذنب كالعبد الآبق من مولاه الفار منه فإذا تاب فهو كالعائد إلى مولاه وإلى طاعته وهذا المثل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم يبين من محبة الله وفرحه بتوبة العبد ومن كراهته لمعاصيه ما يبين أن ذلك أعظم من التمثيل بالعبد الآبق فإن الإ نسان إذا فقد الدابة التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة فإنه يحصل عنده ما الله به عليم من التأذي من جهة فقد الطعام والشراب والمركب وكون الأرض مفازة لا يمكن الخلاص منها وإذا طلبها فلم يجدها يئس واطمأن إلى الموت وإذا استيقظ فوجدها كان عنده من الفرح ما لا يمكن التعبير عنه بوجود ما يحبه  ويرضاه بعد الفقد المنافي لذلك        وهذا يبين من محبة الله للتوبة المتضمنة للإيمان والعمل الصالح ومن كراهته لخلاف ذلك ما يرد على منكر الفرق من الجهمية والقدرية [1]

الرضا بالمصائب كالفقر والمرض والذل فهذا الرضا مستحب في احد قولي العلماء وليس بواجب وقد قيل انه واجب والصحيح ان الواجب هو الصبر كما قال الحسن البصري رحمه الله الرضا عزيز ولكن الصبرمعول المؤمن     وقد روى في حديث ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له ان استطعت ان تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك فإن الله لا يرضاه كما قال {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}الزمر٧      وقال    {وَاللَّهُ لاَ

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٣٢٢-٣٢٤

يُحِبُّ الفَسَادَ} البقرة٢٠٥ وقال تعالى {فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} التوبة٩٦ وقال تعالى {فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً} النساء٩٣ وقال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} محمد٢٨ وقال تعالى {وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ} التوبة٦٨ وقال تعالى {لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ} المائدة٨٠ وقال تعالى {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ} الزخرف٥٥ فإذا كان الله سبحانه لا يرضى لهم ما عملوه بل يسخطه ذلك وهو يسخط عليهم ويغضب عليهم فكيف يشرع للمؤمن أن يرضى ذلك وأن لا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه [1]

فأولياء الله ضد أعدائه يقربهم منه ويدنيهم إليه ويتولاهم ويتولونه ويحبهم ويرحمهم ويكون عليهم منه صلاة وأعداؤه يبعدهم ويلعنهم وهو إبعاد منه ومن رحمته ويبغضهم ويغضب عليهم وهذا شأن المتوالين والمتعادين فالصلاة ضد اللعنة والرحمة والرضوان ضد الغضب والسخط والعذاب ضد النعيم قال تعالى في حق الصابرين {أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} البقرة١٥٧ وقال تعالى في حق المنافقين {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً} الفتح٦ وقال تعالى في حق المجاهدين {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ} التوبة٢١ وقال تعالى في قاتل المؤمن متعمدا {فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً} النساء٩٣ [2]

## لم يجيء اعداد العذاب المهين فى القران الا فى حق الكفار

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٢٤١ و الاستقامة ج: ٢ ص: ٧٦ و الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١١٦

[2] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٩٩

لم يجيء إعداد العذاب المهين فى القرآن إلا فى حق الكفار كقوله {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء٣٧ وقوله {وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء١٠٢وقوله {أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء١٥١ وقوله {فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}البقرة٩٠ {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}آل عمران١٧٨ {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}الحج٥٧ {وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}الجاثية٩ {وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}المجادلة٥ {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}المجادلة١٦ {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ فهى والله أعلم فيمن جحد الفرائض وإستخف بها على أنه لم يذكر ان العذاب أعد له وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيدا للمؤمنين فى قوله {لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}الأنفال٦٨ وقوله {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}النور١٤ وفى المحارب {ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}المائدة٣٣ وفي القاتل {وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}النساء٩٣ وقوله {وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}النحل٩٤ وقد قال سبحانه {وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}الحج١٨ وذلك لأن الإهانة اذلال وتحقير وخزى وذلك قدر زائد على ألم العذاب فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان [1]

وقد قيل ان التأبيد لم يذكر فى القرآن الا فى وعيد الكفار ولهذا قال {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}النساء٩٣ وقال فيمن يجور فى المواريث {وَمَن يَعْصِ اللّهَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص:٣٦٦- ٣٦٧ و الصارم المسلول ج: ٢ ص: ١١٢

وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} النساء١٤ فهنا قيد المعصية بتعدى حدوده فلم يذكرها مطلقة [١]

## لا ينفون عن الله سبحانه ما وصف به نفسه

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{١٨٠} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{١٨١} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{١٨٢} الصافات١٨٠ -١٨٢ فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ} النساء٩٣ [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٠

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص:١٣٠- ١٣١ و العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ١٠

فالله سبحانه وتعالى قد فرق بين غضبه وعقابه بقوله {فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}النساء٩٣ وقوله {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً}الفتح٦ وفى الحديث الذى رواه الامام أحمد عن النبى أنه كان يقول أعوذ لكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وان يحضرون [1]

فان الله تعالى سمى نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات سمى نفسه حيا عليما حكيما قديرا سميعا بصيرا غفورا رحيما الى سائر أسمائه الحسنى قال الله تعالى {وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ}النساء٩٣وامثال ذلك فالقول فى بعض هذه الصفات كالقول فى بعض ومذهب سلف الأمة وأئمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فلا يجوز نفى صفات الله تعالى التى وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}الشورى١١ ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله وقال نعيم بن حماد الخزاعى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها ومذهب السلف بين مذهبين وهدى بين ضلالتين اثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات فقوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}الشورى١١ رد على أهل التشبيه والتمثيل وقوله {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}الشورى١١ رد على أهل النفى والتعطيل فالممثل اعشى والمعطل أعمى الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما وقد اتفق جميع اهل الاثبات على ان الله حى حقيقة عليم حقيقة قدير حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة مريد حقيقة متكلم حقيقة حتى المعتزلة النفاة للصفات قالوا ان الله متكلم حقيقة كما قالوا مع سائر المسلمين ان الله عليم حقيقة قدير حقيقة بل ذهب طائفة منهم كأبى العباس الناشى الى أن هذه الاسماء حقيقة لله مجاز للخلق واما جمهور المعتزلة مع المتكلمة الصفاتية من الاشعرية الكلابية والكرامية والسالمية واتباع الائمة الاربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وأهل الحديث والصوفية فانهم يقولون ان هذه الاسماء حقيقة للخالق سبحانه وتعالى وان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٦٢

كانت تطلق على خلقه حقيقة أيضا ويقولون ان له علما حقيقة وقدرة حقيقة وسمعا حقيقة وبصرا حقيقة [1]

## الأمر بالتبين والتثبت في الجهاد

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء٩٤ وهذه الآية نزلت في الذين وجدوا رجلا في غنيمة له فقال أنا مسلم فلم يصدقوه وأخذوا غنمه فأمرهم الله سبحانه وتعالى بالتثبت والتبين ونهاهم عن تكذيب مدعي الإسلام طمعا في دنياه [2]

وفي القراءة الأخرى فتثبتوا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء٩٤ فأمرهم بالتبين والتثبت في الجهاد وأن لا يقولوا للمجهول حاله لست مؤمنا يبتغون عرض الحياة الدنيا فيكون إخبارهم عن كونه ليس مؤمنا خبرا بلا دليل بل لهوى أنفسهم ليأخذوا ماله وإن كان ذلك في دار الحرب إذا ألقى السلم وفي القراءة الأخرى السلام فقد يكون مؤمنا يكتم إيمانه كما كنتم أنتم من قبل مؤمنين تكتمون إيمانكم فإذا ألقى المسلم السلام فذكر أنه مسالم لكم لا محارب فتثبتوا وتبينوا لا تقتلوه ولا تأخذوا ماله حتى تكشفوا أمره هل هو صادق أو كاذب وهذا خبر يتضمن دعوى له فإن المدعي مخبر والمنكر مخبر والشاهد مخبر والمقر مخبر وكما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٩٧

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٢٣٤

نهاهم عن تكذيب المدعي بلا علم نهاهم عن تصديق المنكر المتهم ورمي البريء بلا حجة وتبرئته وتزكيته بلا علم [1]

أخطأ أسامة بن زيد في الذي قتله بعد أن قال لا إله إلا الله وقتل السرية لصاحب الغنيمة الذي قال أنا مسلم فقتلوه وأخذوا غنمه وأنزل الله في ذلك {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء٩٤ وفي صحيح مسلم وغيره عن أسامة بن زيد قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقات من جهينة فصبحنا القوم فهزمناهم قال ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناه قال لا إله إلا الله فكف عنه الأنصاري وطعنته برمحي حتى قتلته فلما قدمنا المدينة بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله قال قلت يا رسول الله إنما قالها متعوذا قال فقتله بعد أن قال لا إله إلا الله فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم [2]

ثم يقال غاية ما يقال في قصة مالك ابن نويرة إنه كان معصوم الدم وإن خالدا قتله بتأويل وهذا لا يبيح قتل خالد كما أن أسامة ابن زيد لما قتل الرجل الذي قال لا إله إلا الله وقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله فأنكر عليه قتله ولم يوجب عليه قودا ولا دية ولا كفارة وقد روى محمد بن جرير الطبري وغيره عن ابن عباس وقتادة أن هذه الآية قوله تعالى {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً}النساء٩٤ نزلت في شأن مرداس رجل من غطفان بعث النبي صلى الله عليه وسلم جيشا إلى قومه عليهم غالب الليثي ففر أصحابه ولم يفر قال إني مؤمن فصبحته الخيل فسلم عليهم فقتلوه وأخذوا غنمه فأنزل الله هذه الآية وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برد أمواله إلى أهله وبديته إليهم ونهى المؤمنين عن مثل ذلك وكذلك خالد بن الوليد قد قتل بني جذيمة متأولا ورفع النبي صلى

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٤٥٦-٤٥٧

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٤٨٨

الله عليه وسلم يديه وقال اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ومع هذا فلم يقتله النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان متأولا [1]

روى ابو سعيد في حديث ذي الخويصرة التميمي الذي اعترض على النبي في القسمة فقال خالد بن الوليد يارسول الله الا اضرب عنقه فقال لا لعله ان يكون يصلي قال خالد وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه فقال رسول الله لم اومر ان انقب عن قلوب الناس ولا اشق بطونهم رواه مسلم وقال لاسامة في الرجل الذي قتله بعد ان قال لا اله الا الله كيف قتلته بعد ان قال لا اله الا الله قال انما قالها تعوذا قال فهلا شققت عن قلبه وكذلك في حديث المقداد نحو هذا وفي ذلك نزل قوله تعالى{وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}النساء٩٤ ولا خلاف بين المسلمين ان الحربي اذا اسلم عند رؤية السيف وهو مطلق او مقيد يصح اسلامه وتقبل توبته من الكفر وان كانت دلالة الحال تقضي ان باطنه بخلاف ظاهره وايضا فان النبي كان يقبل من المنافقين علانيتهم ويكل سرائرهم الى الله مع اخبار الله له انهم اتخذوا ايمانهم جنة وانهم {يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ }التوبة٧٤ [2]

## رأس الأمر وعموده وذروة سنامه

قال النبى المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله أما الحديث الذى يرويه بعضهم انه قال فى غزوة تبوك رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر فلا أصل له ولم يروه احد من أهل المعرفة بأقوال النبى وافعاله وجهاد الكفار من أعظم الأعمال بل هو أفضل ما تطوع به الانسان قال الله تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٥١٨

[2] الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٦١٨-٦١٩

عَظِيماً}النساء٩٥ وقال تعالى {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {١٩} الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{٢٠} يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ{٢١} خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ{٢٢} التوبة١٩-٢٢ وثبت فى صحيح مسلم وغيره عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال كنت عند النبى فقال رجل ماابالى ألا أعمل عملا بعد الإسلام الا ان اسقى الحاج قال آخر ما ابالى ان اعمل عملا بعد الإسلام إلا ان اعمر المسجد الحرام وقال على ابن أبى طالب الجهاد فى سبيل الله أفضل مما ذكرتما فقال عمر لا ترفعوا اصواتكم عند منبر رسول الله ولكن إذا قضيت الصلاة سألته فسأله فأنزل الله تعالى هذه الآية وفى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله أى الأعمال أفضل عند الله عز وجل قال الصلاة على وقتها قلت ثم اى قال بر الوالدين قلت ثم اى قال الجهاد فى سبيل الله قال حدثنى بهن رسول الله ولو استزدته لزادنى وفى الصحيحين عنه انه سئل أى الأعمال أفضل قال إيمان بالله وجهاد فى سبيله قيل ثم ماذا قال حج مبرور وفى الصحيحين ان رجلا قال له يا رسول الله اخبرنى بعمل يعدل الجهاد فى سبيل الله قال لا تستطيعه او لا تطيقه قال فأخبرنى به قال هل تستطيع إذا خرج المجاهد ان تصوم ولا تفطر وتقوم ولا تفتر وفى السنن عن معاذ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه وصاه لما بعثه إلى اليمن فقال يا معاذ اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن وقال يا معاذ إنى لأحبك فلا تدع ان تقول فى دبر كل صلاة اللهم اعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وقال له وهو رديفه يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا اتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال حقهم عليه الا يعذبهم وقال أيضا لمعاذ رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله وقال يا معاذ الا أخبرك بأبواب البر الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وقيام الرجل فى جوف الليل ثم قرأ {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ {١٦} فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{١٧}السجدة١٦ -١٧ ثم قال يا معاذ الا اخبرك بملاك ذلك كله قلت بلى فقال امسك عليك لسانك هذا فأخذ بلسانه قال يا رسول الله وانا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك امك يا معاذ وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم

وتفسير هذا ما ثبت فى الصحيحين عنه انه قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه والصمت عن الشر خير من التكلم به فاما الصمت الدائم فبدعة منهى عنها وكذلك الامتناع عن اكل الخبز واللحم وشرب الماء فذلك من البدع المذمومة ايضا كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى رأى رجلا قائما فى الشمس فقال ما هذا فقالوا أبو اسرائيل نذر ان يقوم فى الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال النبى مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه [1]

## الجهاد جنس تحته انواع متعددة

قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}الحجرات١٥ يبين أن الجهاد واجب وترك الارتياب واجب والجهاد وان كان فرضا على الكفاية فجميع المؤمنين يخاطبون به ابتداء فعليهم كلهم اعتقاد وجوبه والعزم على فعله اذا تعين ولهذا قال النبى من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة نفاق رواه مسلم فأخبر أنه من لم يهم به كان على شعبة نفاق وايضا فالجهاد جنس تحته انواع متعددة ولابد ان يجب على المؤمن نوع من انواعه [2]

فأما الواجبات والمحرمات الظاهرة والمستفيضة فيقاتل عليها بالاتفاق حتى يلتزموا أن يقيموا الصلوات المكتوبات ويؤدوا الزكاة ويصوموا شهر رمضان ويحجوا البيت ويتلزموا ترك المحرمات من نكاح الأخوات وأكل الخبائث والاعتداء على المسلمين في النفوس والأموال ونحو ذلك وقتال هؤلاء واجب ابتداء بعد بلوغ دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم بها يقاتلون عليه فأما بدؤوا المسلمين فيتأكد قتالهم كما ذكرناه في قتال الممتنعين من المعتدين قطاع الطرق وأبلغ الجهاد الواجب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٩٧-٢٠٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦

للكفار والممتنعين عن بعض الشرائع كمانعى الزكاة والخوارج ونحوهم يجب ابتداء ودفعا فاذا كان ابتداء فهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقين وكان الفضل لمن قام به كما قال الله تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً}النساء٩٥ الآية فأما إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين فانه يصير دفعه واجبا على المقصودين كلهم وعلى غير المقصودين لاعانتهم كما قال الله تعالى {وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ}الأنفال٧٢ وكما امر النبى بنصر المسلم وسواء كان الرجل من المرتزقه للقتال او لم يكن وهذا يجب بحسب الامكان على كل احد بنفسه وماله مع القله والكثره والمشى والركوب كما كان المسلمون لما قصدهم العدو عام الخندق لم يأذن الله فى تركه لأحد كما أذن فى ترك الجهاد ابتداء لطلب العدو الذى قسمهم فيه إلى قاعد وخارج بل ذم الذين يستأذنون النبى {يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً}الأحزاب١٣ فهذا دفع عن الدين والحرمة والأنفس وهو قتال اضطرار وذلك قتال اختيار للزيادة فى الدين وإعلائه ولارهاب العدو كغزاة تبوك ونحوها فهذا النوع من العقوبة هو للطوائف الممتنعة [1]

## الجهاد بالمال مقدم على الجهاد بالنفس

والجهاد بالمال مقدم على الجهاد بالنفس كما في قوله تعالى {وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}التوبة٤١ وقوله {الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ}التوبة٢٠ الآية وقوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}الأنفال٧٢وذلك لأن الناس يقاتلون دون أموالهم فإن المجاهد بالمال قد أخرج ماله حقيقة لله والمجاهد بنفسه لله يرجو النجاة لا

---

[1] السياسة الشرعية ج: ١ ص: ١٠٨-١٠٩ و مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٥٨-٣٥٩

يوافق أنه يقتل في الجهاد ولهذا أكثر القادرين على القتال يهون على أحدهم أن يقاتل ولا يهون عليه إخراج ماله [1]

## الخارجون يفضلون على القاعدين

في الغزو لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يأمر جميع الناس بالخروج في السرايا ولا يعين من يخرج بأسمائهم وأعيانهم بل يندبهم فيخرج من يختار الغزو ولهذا كان الخارجون يفضلون على القاعدين ولو كان الخروج معينا لكان كل منهم مطيعا لأمره بل قال تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً {٩٥} دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٩٦}النساء٩٥ - ٩٦ [2]

## المريد إرادة جازمة مع فعل المقدور هو بمنزلة العامل الكامل

فالمريد إرادة جازمة مع فعل المقدور هو بمنزلة العامل الكامل وإن لم يكن إماما وداعيا كما قال سبحانه {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً {٩٥} دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٩٦}النساء٩٥ - ٩٦ فالله تعالى نفى المساواة بين المجاهد والقاعد الذى ليس بعاجز ولم ينف المساواة بين المجاهد وبين القاعد العاجز بل يقال دليل الخطاب يقتضى مساوته إياه

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٢٣٠

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٢٨٢

ولفظ الآية صريح إستثنى أولو الضرر من نفى المساواة فالإستثناء هنا هو من النفى وذلك يقتضى أن أولى الضرر قد يساوون القاعدين لم يساووهم فى الجميع ويوافقه ما ثبت عن النبى أنه قال فى غزوة تبوك إن بالمدينة رجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم قالوا وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر فأخبر أن القاعد بالمدينة الذى لم يحبسه إلا العذر هو مثل من معهم فى هذه الغزوة ومعلوم أن الذى معه فى الغزوة يثاب كل واحد منهم ثواب غاز على قدر نيته فكذلك القاعدون الذين لم يحبسهم إلا العذر ومن هذا الباب ما ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى أنه قال إذا مرض العبد او سافر كتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم فإنه إذا كان يعمل فى الصحة والإقامة عملا ثم لم يتركه إلا لمرض أو سفر ثبت أنه إنما ترك لوجود العجز والمشقة لا لضعف النية وفتورها فكان له من الإرادة الجازمة التى لم يتخلف عنها الفعل إلا لضعف القدرة ما للعامل والمسافر وإن كان قادرا مع مشقة كذلك بعض المرض إلا أن القدرة الشرعية هى التى يحصل بها الفعل من غير مضرة راجحة كما فى قوله تعالى {وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً}آل عمران٩٧ وقوله {فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً}المجادلة٤ ونحو ذلك ليس المعتبر فى الشرع القدرة اى يمكن وجود الفعل بها على أى وجه كان بل لا بد أن تكون المكنة خالية عن مضرة راجحة بل أو مكافية ومن هذا الباب ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم انه قال من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا وقوله من فطر صائما فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شىء فإن الغزو يحتاج إلى جهاد بالنفس وجهاد بالمال فإذا بذل هذا بدنه وهذا ماله مع وجود الإرادة الجازمة فى كل منهما كان كل منهما مجاهدا بإرادته الجازمة ومبلغ قدرته وكذلك لابد للغازى من خليفة فى الأهل فإذا خلفه فى أهله خير فهو أيضا غاز وكذلك الصيام لا بد فيه من إمساك ولا بد فيه من العشاء الذى به يتم الصوم وإلا فالصائم الذى لا يستطيع العشاء لا يتمكن من الصوم وكذلك قوله فى الحديث الصحيح إذا انفقت المرأة من مال زوجها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها مثل ذلك لا ينقص بعضهم من أجور بعض شيئا وكذلك قوله فى حديث أبى موسى الخازن الأمين الذى يعطى ما امر به كاملا موفرا طيبة به نفسه أحد المتصديقين أخرجاه وذلك ان اعطاء الخازن الأمين الذى يعطى ما أمر به موفرا طيبة به نفسه لا يكون إلا مع الإرادة الجازمة الموافقة لإرادة الآمر وقد فعل مقدوره وهو الإمتثال فكان أحد المتصديقين ومن هذا الباب حديث أبى كبشة الأنمارى الذي رواه احمد وابن ماجه عن النبى قال إنما الدنيا لأربعة رجل آتاه الله علما ومالا فهو يعمل فيه بطاعة الله فقال رجل لو أن لى مثل فلان لعملت

بعمله فقال النبى فهما فى الأجر سواء وقد رواه الترمذى مطولا وقال حديث صحيح فهذا التساوى مع الأجر والوزر هو فى حكاية حال من قال ذلك وكان صادقا فيه وعلم الله منه إرادة جازمة لا يتخلف عنها الفعل إلا لفوات القدرة فلهذا إستويا فى الثواب والعقاب وليس هذه الحال تحصل لكل من قال لو أن لى ما لفلان لفعلت مثل ما يفعل إلا إذا كانت إرادته جازمة يجب وجود الفعل معها إذا كانت القدرة حاصلة وإلا فكثير من الناس يقول ذلك عن عزم لو إقترنت به القدرة لأنفسخت عزيمته كعامة الخلق يعاهدون وينقضون وليس كل من عزم على شىء عزما جازما قبل القدرة عليه و عدم الصوارف عن الفعل تبقى تلك الإرادة عند القدرة المقارنة للصوارف كما قال تعالى {وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}آل عمران١٤٣ وكما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}الصف٢ وكما قال {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ{٧٥} فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ{٧٦}التوبة٧٥ -٧٦ وحديث أبى كبشة فى النيات مثل حديث البطاقة فى الكلمات وهو الحديث الذى رواه الترمذى وغيره عن عبدالله بن عمرو عن النبى أن رجلا من أمة النبي ينشر الله له يوم القيامة تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مدى البصر ويقال له هل تنكر من هذا شيئا هل ظلمتك فيقول لا يارب فيقال له لا ظلم عليك اليوم فيؤتى ببطاقة فيها التوحيد فتوضع فى كفة والسجلات فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فهذا لما إقترن بهذه الكلمة من الصدق والإخلاص والصفاء وحسن النية إذ الكلمات والعبادات وإن إشتركت فى الصورة الظاهرة فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتا عظيما ومثل هذا الحديث الذى فى حديث المرأة البغى التى سقت كلبا فغفر الله لها فهذا لما حصل فى قلبها من حسن النية والرحمة إذ ذاك ومثله قوله صلى الله عليه وسلم إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة [1]

*قاعدة الشريعة أن من كان عازما على الفعل عزما جازما وفعل ما يقدر عليه منه كان بمنزلة الفاعل فهذا الذى كان له عمل فى صحته واقامته عزمه أنه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٧٣١-٧٣٥ و الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٦٠-١٦١

يفعله وقد فعل فى المرض والسفر ما أمكنه فكان بمنزلة الفاعل كما جاء فى السنن فيمن تطهر فى بيته ثم ذهب الى المسجد يدرك الجماعة فوجدها قد فاتت أنه يكتب له أجر صلاة الجماعة وكما ثبت فى الصحيح من قوله إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم قالوا وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر وقد قال تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً{٩٥} دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٩٦}النساء٩٥ - ٩٦ فهذا ومثله يبين أن المعذور يكتب له مثل ثواب الصحيح اذا كانت نيته أن يفعل وقد عمل ما يقدر عليه وذلك لا يقتضى أن يكون نفس عمله مثل عمل الصحيح فليس فى الحديث أن صلاة المريض نفسها فى الأجر مثل صلاة الصحيح ولا أن صلاة المنفرد المعذور فى نفسها مثل صلاة الرجل فى الجماعة وانما فيه أن يكتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم كما يكتب له أجر صلاة الجماعة اذا فاتته مع قصده لها وأيضا فليس كل معذور يكتب له مثل عمل الصحيح وانما يكتب له اذا كان يقصد عمل الصحيح ولكن عجز عنه فالحديث يدل على أنه من كان عادته الصلاة فى جماعة والصلاة قائما ثم ترك ذلك لمرضه فانه يكتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم وكذلك من تطوع على الراحلة فى السفر وقد كان يتطوع فى الحضر قائما يكتب له ما كان يعمل فى الاقامة فأما من لم تكن عادته الصلاة فى جماعة ولا الصلاة قائما اذا مرض فصلى وحده وصلى قاعدا فهذا لا يكتب له مثل صلاة المقيم الصحيح [١]

## أن {أُوْلِي الضَّرَرِ} فى الآية نوعان

و قد قال تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً{٩٥} دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٩٦}النساء٩٥ -

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٣ ص: ٢٣٦ و الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ١٢٢

٩٦ وفصل الخطاب فى الآية أن {أُوْلِي الضَّرَرِ}النساء٩٥ نوعان نوع لهم عزم تام على الجهاد و لو تمكنوا لما قعدوا و لا تخلفوا و إنما اقعدهم العذر فهم كما قال النبى صلى الله عليه و سلم ان بالمدينة رجالا ما سرتم مسيرا و لا قطعتم واديا إلا كانوا معكم قالوا و هم بالمدينة قال و هم بالمدينة حبسهم العذر و هم أيضا كما قال فى حديث أبى كبشة الأنماري هما فى الأجر سواء و كما فى حديث أبى موسى إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحا مقيما فأثبت له مثل ذلك العمل لأن عزمه تام و إنما منعه العذر و النوع الثاني من أولى الضرر الذين ليس لهم عزم على الخروج فهؤلاء يفضل عليهم الخارجون المجاهدون و أولوا الضرر العازمون عزما جازما على الخروج و قوله تعالى {غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ}النساء٩٥ سواء كان استثناء أو صفة دل على أنهم لا يدخلون مع القاعدين فى نفي الاستواء فإذا فصل الأمر فيهم بين العازم و غير العازم بقيت الآية على ظاهرها و لو جعل قوله فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة عاما فى أهل الضرر و غيرهم لكان ذلك مناقضا لقوله {غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ}النساء٩٥ فإن قوله {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ}النساء٩٥ {وَالْمُجَاهِدُونَ}النساء٩٥ انما فيها نفي الاستواء فإن كان أهل الضرر كلهم كذلك لزم بطلان قوله {غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ}النساء٩٥ و لزم أنه لايساوي المجاهدين قاعد و لو كان من أولي الضرر و هذا خلاف مقصود الآية و أيضا فالقاعدون إذا كانوا من غير أولي الضرر و الجهاد ليس بفرض عين فقد حصلت الكفاية بغيرهم فإنه لا حرج عليهم فى القعود بل هم موعودون بالحسنى كاولي الضرر و هذا مثل قوله {لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}الحديد١٠ الآية فالوعد بالحسنى شامل لأولي الضرر و غيرهم فإن قيل قد قال فى الأولى فى فضلهم درجة ثم قال في فضلهم {دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً} النساء٩٦ كما قال {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {١٩} الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{٢٠} يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ{٢١}التوبة١٩-٢١ فقوله {أَعْظَمُ دَرَجَةً}التوبة ٢٠ كما قال فى السابقين {أَعْظَمُ دَرَجَةً}الحديد١٠ و هذا نصب على التمييز أى درجتهم أعظم درجة و هذا يقتضي تفضيلا مجملا يقال منزلة هذا أعظم و اكبر كذلك قوله {فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً}النساء٩٥ الآيات ليس المراد به أنهم لم يفضلوا عليهم الا

بدرجة فإن فى الحديث الصحيح الذي يرويه أبو سعيد و ابو هريرة ان في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله مابين كل درجتين كما بين السماء و الأرض الحديث و فى حديث أبى سعيد من رضى بالله ربا و بالاسلام دينا وبمحمد نبيا وجبت له الجنة فعجب لها أبو سعيد فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم و اخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء و الأرض فقال و ماهي يارسول الله قال الجهاد فى سبيل الله فهذا الحديث الصحيح بين أن المجاهد يفضل على القاعد الموعود بالحسنى من غير اولي الضرر مائة درجة و هو يبطل قول من يقول أن الوعد بالحسنى و التفضيل بالدرجة مختص باولى الضرر فهذا القول مخالف للكتاب و السنة وقد يقال أن درجة منصوب على التمييز كما قال أعظم درجة أي فضل درجتهم على درجتهم أفضل كما يقال فضل هذا على هذا منزلا و مقاما و قد يراد بالدرجة جنس الدرج و هي المنزلة و المستقر لايراد به درجة واحدة من العدد و قوله {وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً {٩٥} دَرَجَاتٍ}النساء٩٥ ـ٩٦ درجات منصوب بفضل لأن التفضيل زيادة للمفضل فالتقدير زادهم عليهم اجرا عظيما درجات منه و مغفرة و رحمة فهذا النزاع في العازم الجازم إذا فعل مقدوره هل يكون كالفاعل في الأجر و الوزر أم لا و أما فى استحقاق الأجر و الوزر فلا نزاع فى ذلك و قوله إذا التقى المسلمان بسيفيهما فيه حرص كل واحد منهما على قتل صاحبه و فعل مقدوره فكلاهما مستحق للنار

ويبقى الكلام فى تساوي القعودين بشيء آخر وهكذا حال المقتتلين من المسلمين فى الفتن الواقعة بينهم فلا تكون عاقبتهما إلا عاقبة سوء الغالب و المغلوب فإنه لم يحصل له دنيا و لا آخرة كما قال الشعبى أصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقيا و لا فجرة أشقياء و أما الغالب فانه يحصل له حظ عاجل ثم ينتقم منه في الآخرة و قد يعجل الله له الانتقام فى الدنيا كما جرى لعامة الغالبين فى الفتن فانهم اصيبوا في الدنيا كالغالبين فى الحرة و فتنة أبي مسلم الخراسانى و نحو ذلك وأما من قال إنه لا يؤاخذ بالعزم القلبى فاحتجوا بقوله صلى الله عليه و سلم ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها و هذا ليس فيه أنه عاف لهم عن العزم بل فيه أنه عفى عن حديث النفس الى أن يتكلم أو يعمل فدل على أنه مالم يتكلم أو يعمل لا يؤاخذ و لكن ظن من ظن أن ذلك عزما و ليس كذلك بل مالم يتكلم أو يعمل لا يكون عزما فان العزم لابد أن يقترن به المقدور و إن لم يصل العازم الى المقصود فالذى يعزم على القتل أو الزنا أو نحوه عزما جازما لابد أن يتحرك و لو برأسه أو يمش أو يأخذ آلة أو يتكلم كلمة أو يقول أو يفعل شيئا فهذا كله ما يؤاخذ به كزنا العين و اللسان و

الرجل فان هذا يؤاخذ به و هو من مقدمات الزنا التام بالفرج و إنما و قع العفو عما ما لم يبرز خارجا بقول أو فعل و لم يقترن به أمر ظاهر قط فهذا يعفى عنه لمن قام بما يجب على القلب من فعل المأمور به سواء كان المأمور به في القلب و موجبة فى الجسد أو كان المأمور به ظاهرا فى الجسد و في القلب معرفته و قصده فهؤلاء إذا حدثوا أنفسهم بشيء كان عفوا مثل هم ثابت بلا فعل و مثل الوسواس الذي يكرهونه و هم يثابون على كراهته و على ترك ما هموا به و عزموا عليه لله تعالى و خوفا منه [١]

وليس توبة هذا وحاله كحال من كان عاجزا عن الفعل ثم قدر عليه كالمريض الذي لا يطيق القيام إذا قدر عليه بعد ذلك وكالخائف إذا أمن وكالمصلي بتيمم ونحو هؤلاء وذلك أن هؤلاء إذا كانت إرادتهم للفعل المأمور به على وجهة الكمال ثابتة في قلوبهم وقد عملوا ما يقدرون عليه من المراد وإنما تركوا تمامه لعجزهم كان لهم مثل ثواب الفاعل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم العذر وقد قال تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ}النساء٩٥ فهؤلاء لهم علم بالمأمور به الكامل واعتقاد الأمر به وإرادة فعله بحسب الإمكان وهذا كله من أدائهم للمأمور به فإذا تجددت لهم قدرة لم يتجدد رغبة في الفعل الكامل وإنما يتجدد العمل بتلك الرغبة المتقدمة وإن كان لا بد لهذا الفعل من إرادة تخصه ولم يكن هؤلاء مأمورين بذلك إلا في هذه الحال فقط كما تؤمر المرأة بالصلاة عند انقضاء الحيض وكما يؤمر الصبي بما يجب عليه عند بلوغه وكما يؤمر المزكى بالزكاة بعد ملك النصاب والحول والمصلي بالصلاة بعد دخول الوقت وأما الناسي والمخطىء فإنه لم يكن قد أتى بالعلم والإعتقاد والإرادة فلا يثاب على هذه الأمور التي لم تكن له بل يكون الذي حصل له ذلك أفضل منه بها [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص:١٢٤ـ ١٢٨

[٢] رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٤١ـ٢٤٢

# "المؤمن القوى خير واحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير"

ومن الناس من يؤمن بالرسل ايمانا مجملا واما الايمان المفصل فيكون قد بلغه كثير مما جاءت به الرسل ولم يبلغه بعض ذلك فيؤمن بما بلغه عن الرسل وما لم يبلغه لم يعرفه ولو بلغه لآمن به ولكن آمن بما جاءت به الرسل ايمانا مجملا فهذا اذا عمل بما علم ان الله امره به مع ايمانه وتقواه فهو من اولياء الله تعالى له من ولاية الله بحسب ايمانه وتقواه وما لم تقم عليه الحجة فان الله تعالى لم يكلفه معرفته والايمان المفصل به فلا يعذبه على تركه لكن يفوته من كمال ولاية الله بحسب ما فاته من ذلك فمن علم بما جاء به الرسل وآمن به ايمانا مفصلا وعمل به فهو أكمل ايمانا وولاية لله ممن لم يعلم ذلك مفصلا ولم يعمل به وكلاهما ولى لله تعالى والجنة درجات متفاضلة تفاضلا عظيما واولياء الله المؤمنون المتقون فى تلك الدرجات بحسب ايمانهم وتقواهم قال تبارك وتعالى {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً{١٨} وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً{١٩} كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً{٢٠} انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً{٢١} الاسراء١٨-٢١ فبين الله سبحانه وتعالى انه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه وان عطاءه ما كان محظورا من بر ولا فاجر ثم قال تعالى {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً{٢١} الاسراء٢١ فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس فى الدنيا وان درجاتها أكبر من درجات الدنيا وقد بين تفاضل انبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين فقال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}البقرة٢٥٣ وقال تعالى {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً}الإسراء٥٥وفى صحيح مسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن القوى خير واحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وان اصابك شىء فلا تقل لو انى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدرالله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان وفى الصحيحين عن أبى هريرة وعمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى انه قال إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران وإذا اجتهد فأخطأ فله اجر وقد قال الله تعالى {لَا يَسْتَوِي مِنكُم

مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}الحديد١٠ وقال تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً {٩٥} دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٩٦} النساء٩٥-٩٦ وقال تعالى {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {١٩} الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{٢٠} يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ{٢١} خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ{٢٢} التوبة١٩-٢٢ وقال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ}الزمر٩ وقال تعالى {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}المجادلة١١ [1]

## من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم

فى الحديث الصحيح عن النبى أنه قال المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير وقد قال الله تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ}النساء٩٥ الآية فدرجة المؤمن القوى فى الجنة أعلى وإن كان كل منهما كمل ما وجب عليه

وقد قال النبى لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وهذا كثير فليس كل ما فضل به الفاضل يكون مقدورا لمن دونه فكذلك من حقائق الإيمان ما لا يقدر عليه كثير من الناس بل ولا أكثرهم فهؤلاء يدخلون الجنة وان لم يكونوا ممن تحققوا بحقائق الايمان التى فضل الله بها غيرهم ولا تركوا واجبا عليهم وان كان واجبا على غيرهم ولهذا كان من الايمان ما هو من المواهب والفضل من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص:١٨٧- ١٩٠

الله فانه من جنس العلم والاسلام الظاهر من جنس العمل وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ}محمد١٧ وقال {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى}مريم٧٦ وقال {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ}الفتح٤ ومثل هذه السكينة قد لا تكون مقدورة ولكن الله يجعل ذلك فى قلبه فضلا منه وجزاء على عمل سابق كما قال {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨}النساء٦٦ -٦٨ كما قال {اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}الحديد٢٨ وكما قال {أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ}المجادلة٢٢ ولهذا قيل من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم وهذا الجنس غير مقدور للعباد وان كان ما يقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو أيضا بفضل الله وإعانته واقداره لهم لكن الأمور قسمان منه ما جنسه مقدور لهم لاعانة الله لهم كالقيام والقعود ومنه ما جنسه غير مقدور لهم اذا قيل ان الله يعطى من اطاعه قوة فى قلبه وبدنه يكون بها قادرا على ما لا يقدر عليه غيره فهذا أيضا حق وهو من جنس هذا المعنى قال تعالى {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ}الأنفال١٢ وقد قال {إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ}الأنفال٤٥ فأمرهم بالثبات وهذا الثبات يوحى إلى الملائكة أنهم يفعلونه بالمؤمنين والمقصود أنه قد يكون من الايمان ما يؤمر به بعض الناس ويذم على تركه ولا يذم عليه بعض الناس ممن لا يقدر عليه ويفضل الله ذاك بهذا الايمان وان لم يكن المفضول ترك واجبا فيقال وكذلك فى الأعمال الظاهرة يؤمر القادر على الفعل بما لا يؤمر به العاجز عنه ويؤمر بعض الناس بما لا يؤمر به غيره لكن الأعمال الظاهرة قد يعطى الانسان مثل أجر العامل اذا كان يؤمن بها ويريدها جهده ولكن بدنه عاجز كما قال النبى فى الحديث الصحيح إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم قالوا وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر وكما قال تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً}النساء٩٥ فإستثنى أولى الضرر وفى الصحيحين عن النبى أنه قال من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا وفى حديث أبى كبشة الأنمارى هما فى الأجر سواء وهما فى الوزر سواء رواه الترمذى وصححه ولفظه إنما الدنيا لأربعة رجل آتاه الله علما ومالا فهو يتقى فى ذلك المال

ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول لو ان لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما يخبط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء ولفظ ابن ماجه مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه فى ماله ينفقه فى حقه ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل قال رسول الله فهما فى الأجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يختبط فى ماله ينفقه فى غير حقه ورجل لم يؤته علما ولا مالا وهو يقول لو كان لى مثل مال هذا عملت مثل الذى يعمل فهما فى الوزر سواء كالشخصين إذا تماثلا فى ايمان القلوب معرفة وتصديقا وحبا وقوة وحالا ومقاما فقد يتماثلان وإن كان لأحدهما من أعمال البدن ما يعجز عنه بدن الآخر كما جاء فى الأثر أن المؤمن قوته فى قلبه وضعفه فى جسمه والمنافق قوته فى جسمه وضعفه فى قلبه ولهذا قال النبى فى الحديث الصحيح ليس الشديد ذو الصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب وقد قال رأيت كأنى أنزع على قليب فأخذها ابن أبى قحافة فنزع ذنوبا أو ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له فأخذها ابن الخطاب فاستحالت فى يده غربا فلم أر عبقريا يفرى فريه حتى صدر الناس بعطن فذكر أن أبا بكر أضعف وسواء أراد قصر مدته أو أراد ضعفه عن مثل قوة عمر فلا ريب أن أبا بكر أقوى ايمانا من عمر وعمر أقوى عملا منه كما قال ابن مسعود ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر وقوة الايمان أقوى وأكمل من قوة العمل وصاحب الايمان يكتب له اجر عمل غيره وما فعله عمر فى سيرته مكتوب مثله لأبى بكر فانه هو الذى استخلفه وفى المسند من وجهين عن النبى صلى الله عليه وسلم أن النبي وزن بالامة فرجح ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح ثم وزن عمر بالامة فرجح وكان فى حياة النبى وبعد موته يحصل لعمر بسبب أبى بكر من الإيمان والعلم ما لم يكن عنده فهو قد دعاه الى فعله من خير واعانه عليه بجهده والمعين على الفعل اذا كان يريده ارادة جازمة كان كفاعله كما ثبت فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا وقال من دل على خير فله مثل أجر فاعله وقال من فطر صائما فله مثل أجره وقد روى الترمذى من عزى مصابا فله مثل أجره وهذا وغيره مما يبين أن الشخصين قد يتماثلان فى الأعمال الظاهرة بل يتفاضلان ويكون المفضول فيها أفضل عند الله من الآخر لأنه أفضل فى الإيمان الذى فى القلب وأما إذا تفاضلا

فى إيمان القلوب فلا يكون المفضول فيها أفضل عند الله ألبتة وإن كان المفضول لم يهبه الله من الايمان ما وهبه للفاضل ولا أعطى قلبه من الأسباب التى بها ينال ذلك الايمان الفاضل ما أعطى المفضول ولهذا فضل الله بعض النبيين على بعض وان كان الفاضل أقل عملا من المفضول كما فضل الله نبينا ومدة نبوته بضع وعشرون سنة على نوح وقد لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وفضل أمة محمد وقد عملوا من صلاة العصر الى المغرب على من عمل من أول النهار إلى صلاة الظهر وعلى من عمل من صلاة الظهر الى العصر فأعطى الله أمة محمد أجرين وأعطى كلا من أولئك أجرا أجرا لأن الايمان الذى فى قلوبهم كان أكمل وأفضل وكان أولئك أكثر عملا وهؤلاء أعظم أجرا وهو فضله يؤتيه من يشاء بالأسباب التى تفضل بها عليهم وخصهم بها وهكذا سائر من يفضله الله تعالى فانه يفضله بالأسباب التى يستحق بها التفضيل بالجزاء كما يخص أحد الشخصين بقوة ينال بها العلم وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والاخلاص وغير ذلك مما يفضله الله به وانما فضله فى الجزاء بما فضل به من الايمان كما قال تعالى {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٧٢}وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}آل عمران٧٢-٧٣ وقال فى الآية الأخرى {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}الأنعام١٢٤ وقال {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ}الحج٧٥ وقال {فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ}البقرة٢٨٤ وقد بين فى مواضع أسباب المغفرة وأسباب العذاب وكذلك يرزق من يشاء بغير حساب وقد عرف أنه قد يخص من يشاء بأسباب الرزق [1]

## أن الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم ووعد السائلين بأن يجيبهم

قال تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً{٩٥}

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٣٨-٣٤٤

دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٩٦}النساء٩٥-٩٦ فلا ريب أن الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم ووعد السائلين بأن يجيبهم وهو الصادق الذى لا يخلف الميعاد وهو الذى أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته فهذا مما يجب وقوعه بحكم الوعد باتفاق المسلمين [١]

## "خير القرون "

وكذلك في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم سئل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وقال خير القرون القرن الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم فالعلم والجهاد كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يدخل في ذلك هو واجب على الكفاية من المؤمنين فمن قام به كان أفضل ممن لم يقم به وإذا ترك ذلك من تعين عليه كان مذنبا مسيئا فيكون ذلك سيئة له إذا تركه وحسنة مفضلة له على غيره إذا فعله وإن كان القيام بالواجبات بدون ذلك من حسنات من لم يكن قادرا على ذلك فحسنات هؤلاء الأبرار وهي الإقتصار على ذلك سيئات أولئك المقربين وكذلك السابقون الأولون من هذه الأمة فيما فعلوه من الجهاد والهجرة لو تركوا ذلك واقتصروا على ما دون كان ذلك من أعظم سيئاتهم قال النبي صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا كان الإقتصار على مجرد ذلك من حسنات الأبرار الذين ليسوا من أولئك السابقين وكذلك المرسلون لهم مأمورات لو تركوها كان ذلك سيئات وإن كان فعل ما دونها حسنات لغيرهم ممن لم يؤمر بذلك إلى نظائر ذلك مما يؤمر فيه العبد بفعل لم ؤمر به من هو دونه فيكون ترك ذلك سيئة في حقهه وهو من المقربين إذا فعله ويكون فعل ما دون ذلك حسنات لمن دونه وذلك أن الإنسان يفضل على غيره إما بفعل مستحب في حقهما وإما بما يؤمر به أحدهما دون الآخر فيفعله وتخصيصه بفعله قد يكون لقدرته وقد يكون لامتحانه بسببه كمن له والدان فإنه يؤمر ببرهما ويكون بذلك أفضل ممن لم يعمل مثل عمله كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حق المتصدقين بفضول أموالهم المشاركين لغيرهم في الأعمال البدنية

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢١٩

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فهؤلاء المفضلون الإقتصار على ما دون هذه الأمور سيئات في حقهم وحسنات لمن ليس مثلهم في ذلك [1]

## الايمان بعضه أفضل من بعض

ان الأمور المذمومة في الشريعة كما ذكرناه هو ما ترجح فساده على صلاحه كما أن الأمور المحمودة ما ترجح صلاحه على فساده فالحسنات تغلب فيها المصالح والسيئات تغلب فيها المفاسد والحسنات درجات بعضها فوق بعض والسيئات بعضها أكبر من بعض فكما أن أهل الحسنات ينقسمون إلى الأبرار المقتصدين والسابقين المقربين فأهل السيئات ينقسمون إلى الفجار الظالمين والكفار المكذبين وكل من هؤلاء هم درجات عند الله ومن المعلوم أن الحسنات كلما كانت أعظم كان صاحبها أفضل فإذا انتقل الرجل من حسنة إلى أحسن منها كان في مزيد التقريب وإن انتقل إلى ما هو دونها كان في التأخر والرجوع وكذلك السيئات كلما كانت أعظم كان صاحبها أولى بالغضب واللعنة والعقاب وقد وقال تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً}النساء٩٥ [2]

أن الكفر بعضه أغلظ من بعض فالكافر المكذب أعظم جرما من الكافر غير المكذب فانه جمع بين ترك الايمان المأمور به وبين التكذيب المنهى عنه ومن كفر وكذب وحارب الله ورسوله والمؤمنين بيده أو لسانه أعظم جرما ممن اقتصر على مجرد الكفر والتكذيب ومن كفر وقتل وزنا وسرق وصد وحارب كان اعظم جرما كما أن الايمان بعضه أفضل من بعض والمؤمنون فيه متفاضلون تفاضلا عظيما وهم عند الله درجات كما أن أولئك دركات فالمقتصدون فى الايمان افضل من ظالمي انفسهم والسابقون بالخيرات افضل من المقتصدين {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

---

[1] رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٥٢-٢٥٤

[2] الاستقامة ج: ١ ص: ٤٦٢

غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ}النساء٩٥ الآيات {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ}التوبة١٩ وانما ذكرنا أن أصل الايمان مأمور به وأصل الكفر نقيضه وهو ترك هذا الايمان المأمور به [١]

## مذهب أهل السنة أنهم لا يكفرون احدا من أهل القبلة بذنب

انه قد تقرر من مذهب أهل السنة والجماعة ما دل عليه الكتاب والسنة أنهم لا يكفرون احدا من أهل القبلة بذنب ولا يخرجونه من الاسلام بعمل إذا كان فعلا منهيا عنه مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر ما لم يتضمن ترك الايمان واما إن تضمن ترك ما أمر الله بالايمان به مثل الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت فانه يكفر به وكذلك يكفر بعدم اعتقاد وجوب الواجبات الظاهرة المتواترة وعدم تحريم المحرمات الظاهرة المتواترة فان قلت فالذنوب تنقسم الى ترك مأمور به وفعل منهى عنه قلت لكن المأمور به إذا تركه العبد فاما ان يكون مؤمنا بوجوبه أولا يكون فان كان مؤمنا بوجوبه تاركا لادائه فلم يترك الواجب كله بل ادى بعضه وهو الايمان به وترك بعضه وهو العمل به وكذلك المحرم إذا فعله فاما أن يكون مؤمنا بتحريمه أولا يكون فان كان مؤمنا بتحريمه فاعلا له فقد جمع بين اداء واجب وفعل محرم فصار له حسنة وسيئة والكلام إنما هو فيما لا يعذر بترك الايمان بوجوبه وتحريمه من الامور المتواترة واما من لم يعتقد ذلك فيما فعله أو تركه بتأويل أو جهل يعذر به فالكلام فى تركه هذا الاعتقاد كالكلام فيما فعله أو تركه بتأول أو جهل يعذر به واما كون ترك الايمان بهذه الشرائع كفرا وفعل المحرم المجرد ليس كفرا فهذا مقرر فى موضعه وقد دل على ذلك كتاب الله فى قوله {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}التوبة١١ اذ الاقرار بها مراد بالاتفاق وفى ترك الفعل نزاع وكذلك قوله {وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}آل عمران٩٧ فان عدم الايمان بوجوبه وتركه كفر والايمان بوجوبه وفعله يجب أن يكون مرادا من هذا النص كما قال من قال من السلف هو من لا يرى حجه برا ولا تركه اثما وأما الترك المجرد ففيه نزاع وأيضا حديث ابى بردة بن نيار لما بعثه النبى الى من تزوج امرأة ابيه

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٨٨

فامرة ان يضرب عنقه ويخمس ماله فإن تخميس المال دل على أنه كان كافر لا فاسقا وكفره بأنه لم يحرم ما حرم الله ورسوله وكذلك الصحابة مثل عمر وعلي وغيرهما لما شرب الخمر قدامة ابن عبد الله وكان بدريا وتأول انها تباح للمؤمنين المصلحين وانه منهم بقوله {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}المائدة٩٣ الآية فاتفق الصحابة على أنه إن أصر قتل وان تاب جلد فتاب فجلد واما الذنوب ففي القرآن قطع السارق وجلد الزاني ولم يحكم بكفرهم وكذلك فيه اقتتال الطائفتين مع بغي احداهما على الأخرى والشهادة لهما بالايمان والاخوة وكذلك فيه قاتل النفس الذي يجب عليه القصاص جعله أخا وقد قال الله فيه {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ}البقرة١٧٨ فسماه اخا وهو قاتل وقد ثبت فى الصحيحين حديث ابى ذر لما قال له النبى صلى الله فيه وسلم عن جبريل من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وان زنا وان سرق وان شرب الخمر على رغم انف ابي ذر وثبت فى الصحاح حديث ابى سعيد وغيره فى الشفاعة فى أهل الكبائر وقوله اخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال برة من ايمان مثقال حبة من ايمان مثقال ذرة من إيمان فهذه النصوص كما دلت على أن ذا الكبيرة لا يكفر مع الايمان وانه يخرج من النار بالشفاعة خلافا للمبتدعة من الخوارج فى الاولى ولهم وللمعتزلة فى الثانية نزاع فقد دلت على أن الايمان الذي خرجوا به من النار هو حسنة مأمور بها وأنه لا يقاومها شيء من الذنوب وأما القاتل والزانى والمحارب فهؤلاء انما يقتلون لعدوانهم على الخلق لما فى ذلك من الفساد المتعدي ومن تاب قبل القدرة عليه سقط عنه حد الله ولا يكفر احد منهم وأيضا فالمرتد يقتل لكفره بعد ايمانه وان لم يكن محاربا [1]

## قيد الله الايجاب بالاستطاعة والوسع

ان الله سبحانه أمرنا بالمعروف وهو طاعته وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر ونهى عن المنكر وهو معصيته ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور وقيد الايجاب بالاستطاعة والوسع واباح مما حرم ما يضطر المرء اليه غير باغ ولا عاد فقال تعالى {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}آل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص:٩١- ٩٤

عمران١٠٢ وقال {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه واذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم فأوجب مما امر به ما يستطاع وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث اخر انكم لن تحصوا او تستطيعوا كل ما امرتم به ولكن وقال ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا وهذا العام المجمل فصله قال {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ} النساء ٩٥ [١]

## ليس كل مكره على فعل محرم يأثم به

وعلى من اكره على الخروج في العساكر الظالمة مثل ان يكره المستضعفون من المؤمنين على الخروج مع الكافرين لقتال المؤمنين كما اخرج المشركون عام بدر معهم طائفة من المستضعفين فهؤلاء اذا امكنهم ترك الخروج بالهجرة او بغيرها والا فهم مفتونون وفيهم نزل قوله تعالى{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً}النساء٩٧ لأنهم فعلوا المحرم مع القدرة على تركه وقد روى البخاري في صحيحه عن ابي الاسود قال قطع على اهل المدينة بعث فاكتتبت فيه فلقيت عكرمة فأخبرته فنهاني اشد النهي ثم قال اخبرني ابن عباس ان اناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتى السهم فيرمي به فيصيب احدهم فيقتله او يضربه فيقتله فأنزل الله {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ}النساء٩٧ واما اذا كانوا غير قادرين على الترك بحيث لو لم يخرجوا لقتلهم المشركون ونحو ذلك فهؤلاء غير مأثومين في الاخرة لما روى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يغزو هذا البيت جيش من الناس فبينما هم ببيداء من الارض اذ خسف بهم فقالت ام سلمة ففيهم المكره يا رسول الله قال يحشرون على نياتهم وفي الصحيح عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ستكون فتنة القاعد فيها خير من الساعي من تشرف لها تستشرفه فمن

---

[١] الاستقامة ج: ٢ ص: ٣١٤

وجد ملجأ او معاذا فليعذ به وفي رواية فإذا وقعت فمن كان له ابل فليلحق بإبله ومن كان له غنم فليلحق بغنمه ومن كانت له ارض فليلحق بأرضه فقال رجل يا رسول الله أرأيت ان اكرهت حتى ينطلق بي الى احد الصفين يضربني رجل بسيفه ويجئ سهم فيقتلني قال يبوء بإثمه وإثمك ويكون من اصحاب النار فقد امر صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى حيث لا يقاتل وبإفساد السلاح الذي يقاتل به في الفتنة واخبر ان المكره لا اثم عليه ولما كان القتال في الفتنة كان قاتله قاتلا له بغير حق فباء بإثمه واثم صاحبه واما المكره الذي يقاتل طائفة بحق كالذي يكون في صف الكفار والمرتدين والمارقين من الاسلام فلا اثم على من قتله بل هو مثاب على الجهاد وان افضى الى قتله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس اما ظاهرك فكان علينا واما سريرتك فإلى الله وقد اخرجا في الصحيحين عن ابن عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا انزل الله بقوم عذابا اصاب العذاب من كان فيهم ثم يبعثون على نياتهم فهذا ايضا دليل على ان المكره على تكثير سواد المقاتلين بغير حق وان اصابة عذاب الدنيا فإنه يحشر في الاخرة على نياته فهذا كله يدل على انه ليس كل مكره على فعل محرم يأثم به كأشهر الروايتين وهو الذي عليه جمهور العلماء ومن ذلك مقام المسلمين بين المشركين مستضعفين وقد دل القرآن على هذا وعلى هذا ومنه استئسار المسلم اذا اكرهه الكافر وقال ان لم تستأسر والا قتلتك فإن دخوله في اسره محرم لولا الاكراه وقد فعل ذلك خبيب بن عدي وغيره وهم في ذلك كالمستضعفين [1]

واما قوله لا يقبل الله توبة عبد اشرك بعد اسلامه فقد رواه ابن ماجة من هذا الوجه ولفظه لايقبل الله من مشرك اشرك بعد اسلامه عملا حتى يفارق المشركين الى المسلمين وهذا دليل على قبول اسلامه اذا رجع الى المسلمين وبيان ان معنى الحديث ان توبته لاتقبل ما دام مقيما بين ظهراني المشركين مكثرا لسوادهم كحال اللذين قتلوا ببدر ومعناه ان من اظهر الاسلام ثم فتن عن دينه حتى ارتد فانه لا تقبل توبته وعمله حتى يهاجر الى المسلمين وفي مثل هؤلاء نزل قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ

---

[1] الاستقامة ج: ٢ ص: ٣٣٩-٣٤٢

أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً}النساء٩٧ [1]

## مقارنة الفجار إنما يفعلها المؤمن فى موضعين

وفى صحيح مسلم عن عمران ابن حصين حديث المرأة التى لعنت ناقة لها فأمر النبى صلى الله عليه وسلم فأخذ ما عليها وأرسلت وقال لا تصحبنا ناقة ملعونة وفى الصحيحين عنه أنه لما إجتاز بديار ثمود قال لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لئلا يصيبكم ما اصابهم فنهى عن عبور ديارهم إلا على وجه الخوف المانع من العذاب وهكذا السنة فى مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصى لا ينبغى لأحد أن يقارنهم ولا يخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل وأقل ذلك أن يكون منكرا لظلمهم ماقتا لهم شانئا ما هم فيه بحسب الإمكان كما فى الحديث من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الإيمان وقال تعالى {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ}التحريم١١ الآية وكذلك ما ذكره عن يوسف الصديق وعمله على خزائن الأرض لصاحب مصر لقوم كفار وذلك ان مقارنة الفجار إنما يفعلها المؤمن فى موضعين أحدهما أن يكون مكرها عليها والثانى أن يكون ذلك فى مصلحة دينية راجحة على مفسدة المقارنة أو أن يكون فى تركها مفسدة راجحة فى دينه فيدفع أعظم المفسدتين بإحتمال أدناهما وتحصل المصلحة الراجحة بإحتمال لمفسدة المرجوحة وفى الحقيقة فالمكره هو من يدفع الفساد الحاصل بإحتمال أدناهما وهو الأمر الذى أكره عليه قال تعالى {إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}النحل١٠٦ وقال تعالى {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ}النور٣٣ ثم قال {وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}النور٣٣ وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً{٩٧} إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً{٩٨} فَأُوْلَـئِكَ عَسَى

---

[1] الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٦١١

اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً{٩٩} النساء٩٧-٩٩ وقال {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ}النساء٧٥ الآية [١]

وقد اخرجا في الصحيحين عن خباب بن الارت قال شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسط بردة له في ظل الكعبة فقلنا يا رسول الا تستنصر لنا الا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الارض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب فما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تعجلون ومعلوم ان هذا انما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في معرض الثناء على اولئك لصبرهم وثباتهم وليكون ذلك عزة للمؤمنين من هذه الامة وهكذا اخبار هذه الأمة من السلف والخلف كالممتحنين من السابقين الاولين والتابعين لهم بإحسان وفي الهجرة قال {إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً{٩٨} فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً{٩٩}النساء٩٨-٩٩ وفي الصحيحين عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو في صلاته اللهم انج عياش بن ابي ربيعة وسلمه بن هشام اللهم انج الوليد بن الوليد اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف وفي الصحيح ايضا في حديث الحديبية قصة ابي جندل بن سهيل بن عمرو لما جاء يوسف في قيوده ورده النبي صلى الله عليه وسلم اليهم وقصة ابي بصير وغيرهما من المستضعفين وكذلك في الصحيح عن سعيد بن زيد انه قال لقد رأيتني وان عمر موثقي على الاسلام ولو انقض احد مما عملتم بعثمان كان محقوقا ان ينقض فهؤلاء كلهم اختاروا القيد والحبس على النطق بكلمة الكفر وقد اوذى النبي صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعمر وغيرهما بأنواع من الاذى بالضرب وغيره وصبروا على ذلك ولم ينطق احد منهم بكلمة كفر

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٢٤-٣٢٥

بل قد سعوا في قتل النبي صلى الله عليه وسلم بأنواع مما قدروا عليه من السعي وهو صابر لأمر الله كما امره الله تعالى [1]

## القرآن قد بين النعيم والعذاب في البرزخ

أن الذين أنكروا عذاب القبر والبرزخ مطلقا زعموا أنه لم يدل على ذلك القرآن وهو غلط بل القرآن قد بين في غير موضع بقاء النفس بعد فراق البدن وبين النعيم والعذاب في البرزخ وهو سبحانه تعالى في السورة الواحدة يذكر القيامة الكبرى وأن الناس يكونون أزواجا ثلاثة كما قال تعالى (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ{١} لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ{٢} خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ{٣} إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً{٤} وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً{٥} فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً{٦} وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً{٧} الواقعة١-٧ ثم إنه في آخرها القيامة الصغرى بالموت وأنهم ثلاثة أصناف بعد الموت فقال {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ{٨٣} وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ{٨٤} وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ{٨٥} تُبْصِرُونَ{٨٥} فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ{٨٦} تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٨٧} فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ{٨٨} فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ{٨٩} وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ{٩٠} فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ{٩١} وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ{٩٢} فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ{٩٣} وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ{٩٤} إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ{٩٥} فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ{٩٦} الواقعة ٨٣-٩٦ فهذا فيه أن النفس تبلغ الحلقوم وأنهم لا يمكنهم رجعها وبين حال المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين حينئذ وفي سورة القيامة ذكر أيضا القيامتين فقال ( لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ{١} القيامة١ ثم قال {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ{٢} القيامة٢ وهي نفس الإنسان وقد قيل إن النفس تكون لوامة وغير لوامة وليس كذلك بل نفس كل إنسان لوامة فإنه ليس بشر إلا يلوم نفسه ويندم إما في الدنيا وأما في الآخرة فهذا إثبات النفس ثم ذكر معاد البدن فقال {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ{٣} بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ{٤} بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ{٥} يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ{٦} القيامة٣-٦ ووصف حال القيامة إلى قوله {تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ{٢٥} القيامة٢٥ ثم ذكر الموت فقال {كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ{٢٦} القيامة٢٦ وهذا إثبات للنفس

---

[1] الاستقامة ج: ٢ ص: ٣٣٤-٣٣٦

وأنها تبلغ التراقي كما قال هناك {بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ}الواقعة٨٣ والتراقي متصلة بالحلقوم ثم قال {وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ{٢٧} القيامة٢٧ يرقيها وقيل من صاعد يصعد بها إلى الله والاول أظهر لان هذا قبل الموت فإنه قال {وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ{٢٨} القيامة٢٨ فدل على أنهم يرجونه ويطلبون له راقيا يرقيه وأيضا فصعدوا لا يفتقر إلى طلب من يرقى بها فإن لله ملائكة يفعلون ما يؤمرون والرقية أعظم الأدوية فإنها دواء روحاني ولهذا قال النبي في صفة المتوكلين لا يسترقون والمراد أنه يخاف الموت ويرجو الحياة بالراقي ولهذا قال {وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ{٢٨} القيامة ٢٨ ثم قال {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ{٢٩} إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ{٣٠} القيامة٢٩-٣٠ فدل على نفس موجودة قائمة بنفسها تساق إلى ربها والعرض القائم بغيره لا يساق ولا بدن الميت فهذا نص في إثبات نفس تفارق البدن تساق إلى ربها كما نطقت بذلك الأحاديث المستفيضة في قبض روح المؤمن وروح الكافر ثم ذكر بعد هذا صفة الكافر بقوله مع هذا الوعيد الذي قدمه {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{٣١}القيامة٣١ وليس المراد أن كل نفس من هذه النفوس كذلك وكذلك سورة ق هي في ذكر وعيد القيامة ومع هذا قال فيها {وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ}ق١٩ ثم قال بعد ذلك {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ}ق٢٠ فذكر القيامتين الصغرى والكبرى وقوله {وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ}ق١٩ أي جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب وهو الحق الذي أخبرت به الرسل ليس مراده أنها جاءت بالحق الذي هو الموت فإن هذا مشهور لم ينازع فيه ولم يقل أحد إن الموت باطل حتى يقال جاءت بالحق وقوله {ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ}ق١٩ فلإنسان وإن كره الموت فهو يعلم أنه تلاقية ملائكته وهذا كقوله {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}الحجر٩٩ واليقين ما بعد الموت كما قال النبى أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه وإلا فنفس الموت مجرد عما بعده أمر مشهور لم ينازع فيه احد حتى يسمى يقينا وذكر عذاب القيامة والبرزخ معا فى غير موضع ذكره فى قصة آل فرعون فقال وحاق بآل فرعون سوء العذاب {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ{٤٥} النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ{٤٦} غافر٤٥-٤٦ وقال فى قصة فوم نوح {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً}نوح٢٥ مع إخبار نوح لهم بالقيامة فى قوله {وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً{١٧} ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً{١٨} نوح١٧-١٨ وقد ذكرنا فى غير موضع أن الرسل قبل محمد أنذروا بالقيامة الكبرى تكذيبا لمن نفى ذلك من المتفلسفة وقال عن المنافقين {سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}التوبة١٠١ قال غير واحد من العلماء

المرة الأولى فى الدنيا والثانية فى البرزخ ثم يردون الى عذاب عظيم فى الآخرة وقال تعالى فى الأنعام {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ {٩٣} وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ {٩٤}الأنعام٩٣ -٩٤ وهذه صفة حال الموت وقوله {أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ} الانعام ٩٣ دل على وجود النفس التى تخرج من البدن وقوله {الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ} الانعام ٩٣ دل على وقوع الجزاء عقب الموت وقال تعالى فى الأنفال {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ {٥٠} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ{٥١} الأنفال٥٠-٥١ وهذا ذوق له بعد الموت وقال تعالى {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}محمد٢٧ وقد ثبت فى الصحيحين من غير وجه أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أتى المشركين يوم بدر فى القليب ناداهم يافلان يا فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا وهذا دليل على وجودهم وسماعهم وإنهم وجدوا ما وعدوه بعد الموت من العذاب وأما نفس قتلهم فقد علمه الأحياء منهم وقال تعالى فى سورة النساء {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً}النساء٩٧ وهذا خطاب لهم اذا توفتهم الملائكة وهم لا يعاينون الملائكة إلا وقد يئسوا من الدنيا ومعلوم أن البدن لم يتكلم لسانه بل هو شاهد يعلم أن الذى يخاطب الملائكة هو النفس والمخاطب لايكون عرضا [1]

وأما ما أخبرت به الرسل من الغيب فليس هو معقولا مجردا في النفس ولا هو موجود في الخارج لا يحس به بحال بل هو مما يحس به كما أخبرت بالملائكة والجن وغير ذلك وكل ذلك مما يجوز رؤيته والإحساس به وكذلك ما أخبرت به من الجنة والنار هو مما يحس به وكذلك الرب تبارك وتعالى وتقدس وتعظم تجوز رؤيته بل يرى بالأبصار في الآخرة في عرصات القيامة وفي الجنة كما تواترت بذلك النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين ولهذا فرقت الرسل بين هذا وذاك فإن هذا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢٦٣-٢٦٧

شهادة أي مشهود لنا محسوس الآن وذاك غيب أي غائب عنا الآن لا نشهده وهذا فرق إضافي باعتبار حالنا في شهوده الآن وعدم شهوده فإذا متنا صار الغيب شهادة وشهدنا ما كانت الرسل أخبرت به وكان غيبا عنا وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً{٩٧} إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً{٩٨} فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً{٩٩} النساء ٩٧ ٩٩ [1]

## إثبات الملائكة وأفعالها وكلامها وتأثيرها في العالم

قال تعالى{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً{النساء٩٧ فهذه الآيات يخبر فيها بتوفي الملائكة للأنفس وخطابهم للموتى إما بخير وإما بشر وفعلهم ما يفعلونه بهم من نعيم وعذاب فهذه النصوص وأمثالها صريحة بإثبات الملائكة وأفعالها وكلامها وتأثيرها في العالم بالقول والفعل وهذا يبطل قولهم (قول الفلاسفة )إن المؤثر في العالم هو القوى النفسانية أو القوى الطبيعية فإن الملائكة خارجة عن هذا وهذا وحينئذ فما يحصل من خوارق العادات بأفعال الملائكة أعظم مما يحصل بمجرد القوى النفسانية والأنبياء أحق الناس بمعاونة الملائكة لهم وتأييد الله تعالى لهم [2]

## صلاة العصر هي السبب في نزول صلاة الخوف

---

[1] الصفدية ج: ٢ ص: ٢٨٥

[2] الصفدية ج: ١ ص: ٢٠٦

و هو ما رواه الجماعة من الصحابة منهم ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس و مثلكم و مثل أهل الكتابين كمثل رجل استأجر أجراء فقال من يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط فعملت اليهود ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر فعملت النصارى ثم قال من يعمل لي من العصر إلى مغيب الشمس على قيراطين فأنتم هم فغضبت اليهود و النصارى قالوا كنا اكثر عملا و اقل عطاء قال هل نقصتكم من حقكم قالوا لا قال فذلك فضلي أوتيه من أشاء رواه احمد والبخاري و الترمذي و صححه و ذلك إنما استحققنا الأجربين بحفظ ما ضيعوه و هو صلاة العصر و لأن المسلمين كانوا يعرفون فضلها على غيرها من الصلوات حتى علم منهم الكفار و لهذا لما صلى النبي صلى الله عليه و سلم بأصحابه صلاة الظهر بعسفان قال المشركون قد كانوا على حالة لو أصبنا غرتهم قالوا يأتي عليهم الآن صلاة هي احب إليهم من أبنائهم و أنفسهم فأنزل الله عز و جل صلاة الخوف فكانت صلاة العصر هي السبب في نزول صلاة الخوف اليسير لما خافوا من تفويتها في الجماعة و لأن في تفويتها من الوعيد ما ليس في غيرها فروى ابن عمر إن النبي صلى الله عليه و سلم قال الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله و ماله رواه الجماعة و عن أبي بكرة إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال من ترك صلاة العصر حبط عمله رواه [1]

## مسائل فقهية

### ١-فان نفي الجناح لبيان الحكم وإزالة الشبهة لا يمنع ان يكون القصر هو السنة

وأما قوله تعالى {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ}النساء١٠١ فهنا علق القصر بسببين الضرب فى الأرض والخوف من فتنة الذين كفروا لأن القصر المطلق يتناول قصر عددها وقصر عملها واركانها مثل الإيماء بالركوع والسجود فهذا القصر إنما يشرع بالسببين كلاهما كل سبب له قصر فالسفر يقتضى قصر العدد والخوف يقتضى قصر

---

[1] شرح العمدة ج: ٤ ص: ١٥٩

الأركان ولو قيل إن القصر المعلق هو قصر الأركان فإن صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر لكان وجيها ولهذا قال {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} النساء١٠٣ فقد ظهر بهذا ان القصر لا يسوى بالجمع فإنه سنة رسول الله وشرعته لأمته بل الإتمام فى السفر أضعف من الجمع فى السفر فإن الجمع قد ثبت عنه انه كان يفعله فى السفر أحيانا وأما الإتمام فيه فلم ينقل عنه قط وكلاهما مختلف فيه بين الأمة فإنهم مختلفون فى جواز الإتمام وفى جواز الجمع متفقون على جواز القصر وجواز الإفراد فلا يشبه بالسنة المتواترة أن النبى كان يداوم عليه فى أسفاره وقد إتفقت الأمة عليه إلى أن ما فعله فى سفره مرات متعددة وقد تنازعت فيه الأمة [١]

قوله {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} النساء١٠١ فإنه أراد بالقصر قصر العدد وقصر الأركان وهذا القصر الجامع للنوعين متعلق بالسفر والخوف ولا يلزم من الاختصاص المجموع بالأمرين أن لا يثبت أحدهما مع أحد الأمرين [٢]

فعل كل صلاة في وقتها أفضل إذا لم يكن به حاجة إلى الجمع فإن غالب صلاة النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يصليها في السفر إنما يصليها في أوقاتها وإنما كان الجمع منه مرات قليلة وفرق كثير من الناس بين الجمع والقصر وظنهم أن هذا يشرع كما يشرع هذا غلط بالسنة المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم بإجماع الأمة فإن القصر سنة ثابتة والجمع رخصة عارضة وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم في جميع أسفاره كان يصلي الرباعية ركعتين ولم ينقل أحد أنه صلى في سفره الرباعية أربعا بل وكذلك أصحابه معه والحديث الذي يروى عن عائشة أنها أتمت معه وأفطرت حديث ضعيف بل قد ثبت عنها في الصحيح أن الصلاة أول ما فرضت كانت ركعتين ركعتين ثم زيد في صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر وثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب أنه قال صلاة السفر ركعتان وصلاة الجمعة ركعتان وصلاة الأضحى ركعتان وصلاة الفطر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم وأما قوله تعالى {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٨٢-٨٣

[٢] منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٧٢

جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ}النساء١٠١ فإن نفي الجناح لبيان الحكم وإزالة الشبهة لا يمنع أن يكون القصر هو السنة كما قال {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا}البقرة١٥٨ نفي الجناح لأجل الشبهة التي عرضت لهم من الطواف بينهما لأجل ما كانوا عليه في الجاهلية من كراهة بعضهم للطواف بينهما والطواف بينهما مأمور به باتفاق المسلمين وهو إما ركن وإما واجب وإما سنة مؤكدة وهو سبحانه ذكر الخوف والسفر لأن القصر يتناول قصر العدد وقصر الأركان فالخوف يبيح قصر الأركان والسفر يبيح قصر العدد فإذا اجتمعا أبيح القصر بالوجهين وإن انفرد السفر أبيح أحد نوعي القصر والعلماء متنازعون في المسافة هل فرضه الركعتان ولا يحتاج قصره إلى نية أم لا يقصر إلا بنية على قولين والأول قول أكثرهم كأبي حنيفة ومالك وهو أحد القولين في مذهب أحمد اختاره أبو بكر وغيره والثاني قول الشافعي وهو القول الآخر في مذهب أحمد اختاره الخرقي وغيره والأول هو الصحيح الذي تدل عليه سنة النبي صلى الله عليه وسلم فإنه كان يقصر بأصحابه ولا يعلمهم قبل الدخول في الصلاة أنه يقصر ولا يأمرهم بنية القصر ولهذا لما سلم من ركعتين ناسيا قال له ذو اليدين أقصرت الصلاة أم نسيت فقال لم أنس ولم تقصر قال بلى قد نسيت وفي رواية لو كان شيء لأخبرتكم به ولم يقل لو قصرت لأمرتكم أن تنووا القصر وكذلك لما جمع بهم لم يعلمهم أنه جمع قبل الدخول بل لم يكونوا يعلمون أنه يجمع حتى يقضي الصلاة الأولى فعلم أيضا أن الجمع لا يفتقر إلى أن ينوي حين الشروع في الأولى كقول الجمهور والمنصوص عن أحمد يوافق ذلك وقد تنازع العلماء في التربيع في السفر هل هو حرام أو مكروه أو ترك الأولى أو هو الراجح فمذهب أبي حنيفة وقول في مذهب مالك أن القصر واجب وليس له أن يصلي أربعا ومذهب مالك في الرواية الأخرى وأحمد في أحد القولين بل أنصهما أن الإتمام مكروه ومذهبه في الرواية الأخرى ومذهب الشافعي في أظهر قوليه أن القصر هو الأفضل والتربيع ترك الأولى وللشافعي قول أن التربيع أفضل وهذا أضعف الأقوال وقد ذهب بعض الخوارج إلى أنه لا يجوز القصر إلا مع الخوف ويذكر هذا قولا للشافعي وما أظنه يصح عنه فإنه قد ثبت بالسنة المتواترة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي بأصحابه بمنى ركعتين ركعتين آمن ما كان الناس وكذلك بعده أبو بكر وكذلك بعده عمر وإذا كان كذلك فكيف يسوي بين الجمع والقصر وفعل كل صلاة في وقتها أفضل إذا لم يكن حاجة عند الأئمة كلهم وهو مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد في ظاهر مذهبيهما بل تنازعوا في جواز الجمع على ثلاثة أقوال فمذهب أبي حنيفة أنه لا يجمع إلا بعرفة ومزدلفة ومذهب

مالك وأحمد في إحدى الروايتين أنه لا يجمع المسافر إذا كان نازلا وإنما يجمع إذا كان سائرا بل عند مالك إذا جد به السير ومذهب الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى أنه يجمع المسافر وإن كان نازلا وسبب هذا النزاع ما بلغهم من أحاديث الجمع فإن أحاديث الجمع قليلة فالجمع بعرفة ومزدلفة متفق عليه وهو منقول بالتواتر فلم يتنازعوا فيه وأبو حنيفة لم يقل بغيره لحديث ابن مسعود الذي في الصحيح أنه قال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى صلاة لغير وقتها إلا صلاة الفجر بمزدلفة وصلاة المغرب ليلة جمع وأراد بقوله في الفجر لغير وقتها التي كانت عادته أن يصليها فيه فإنه جاء في الصحيح عن جابر أنه صلى الفجر بمزدلفة بعد أن برق الفجر وهذا متفق عليه بين المسلمين أن الفجر لا يصلى حتى يطلع الفجر لا بمزدلفة ولا غيرها لكن بمزدلفة غلس بها تغليسا شديدا وأما أكثر الأئمة فبلغتهم أحاديث في الجمع صحيحة كحديث أنس وابن عباس وابن عمر ومعاذ وكلها من الصحيح ففي الصحيحين عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر ثم نزل فصلاهما جميعا وإذا ارتحل بعد أن تزيغ الشمس صلى الظهر والعصر ثم ركب وفي لفظ في الصحيح كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يجمع بين الصلاتين في السفر أخر الظهر حتى يدخل أول وقت العصر ثم يجمع بينهما وفي الصحيحين عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا عجل به السير جمع بين المغرب والعشاء وفي لفظ في الصحيح أن ابن عمر كان إذا جد به السير جمع بين المغرب والعشاء بعد أن يغيب الشفق ويقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا جد به السير جمع بين المغرب والعشاء وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع بين الصلاتين في سفرة سافرها في غزوة تبوك فجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء قال سعيد بن جبير قلت لابن عباس ما حمله على ذلك قال أراد أن لا يحرج أمته وكذلك في صحيح مسلم عن أبي الطفيل عن معاذ بن جبل قال جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء قال فقلت ما حمله على ذلك قال أراد أن لا يحرج أمته بل قد ثبت عنه أنه جمع في المدينة كما في الصحيحين عن ابن عباس قال صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر جميعا من غير خوف ولا سفر وفي لفظ في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بالمدينة سبعا وثمانية جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء قال أيوب لعله في ليلة مطيرة وكان أهل المدينة يجمعون في الليلة المطيرة بين المغرب والعشاء ويجمع معهم عبد الله بن عمر وروي ذلك مرفوعا إلى النبي

صلى الله عليه وسلم وهذا العمل من الصحابة وقولهم أراد أن لا يحرج أمته يبين أنه ليس المراد بالجمع تأخير الأولى إلى آخر وقتها وتقديم الثانية في أول وقتها فإن مراعاة مثل هذا فيه حرج عظيم ثم إن هذا جائز لكل أحد في كل وقت ورفع الحرج إنما يكون عند الحاجة فلا بد أن يكون قد رخص لأهل الأعذار فيما يرفع به عنهم الحرج دون غير أرباب الأعذار وهذا ينبني على أصل كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن المواقيت لأهل الأعذار ثلاثة ولغيرهم خمسة فإن الله تعالى قال {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ} هود١١٤ فذكر ثلاثة مواقيت والطرف الثاني يتناول الظهر والعصر والزلف يتناول المغرب والعشاء وكذلك قال {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً}الإسراء٧٨ والدلوك هو الزوال في أصح القولين يقال دلكت الشمس وزالت وزاغت ومالت فذكر الدلوك والغسق وبعد الدلوك يصلى الظهر والعصر وفي الغسق تصلى المغرب والعشاء ذكر أول الوقت وهو الدلوك وآخر الوقت وهو الغسق والغسق اجتماع الليل وظلمته ولهذا قال الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وغيره إن المرأة الحائض إذا طهرت قبل طلوع الفجر صلت المغرب والعشاء وإذا طهرت قبل غروب الشمس صلت الظهر والعصر وهذا مذهب جمهور الفقهاء كمالك والشافعي وأحمد وأيضا فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بعرفة ومزدلفة يدل على جواز الجمع بغيرهما للعذر فإنه قد كان من الممكن أن يصلي الظهر ويؤخر العصر إلى دخول وقتها ولكن لأجل النسك والاشتغال بالوقوف قدم العصر ولهذا كان القول المرضي عند جماهير العلماء أنه يجمع بمزدلفة وعرفة من كان أهله على مسافة القصر ومن لم يكن أهله كذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما صلى صلى معه جميع المسلمين أهل مكة وغيرهم ولم يأمر أحدا منهم بتأخير العصر ولا بتقديم المغرب فمن قال من أصحاب الشافعي وأحمد إن أهل مكة لا يجمعون فقوله ضعيف في غاية الضعف مخالف للسنة البينة الواضحة التي لا ريب فيها وعذرهم في ذلك أنهم اعتقدوا أن سبب الجمع هو السفر الطويل والصواب أن الجمع لا يختص بالسفر الطويل بل يجمع للمطر ويجمع للمرض كما جاءت بذلك السنة في جمع المستحاضة فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمرها بالجمع في حديثين وأيضا فكون الجمع يختص بالطويل فيه قولان للعلماء وهما وجهان في مذهب أحمد أحدهما يجمع في القصير وهو المشهور ومذهب الشافعي لا والأول أصح لما تقدم و الله أعلم [1]

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ١٤٥-١٤٩ و مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ١٩-٢٢

## ٢-الفرق بين السفر الطويل والقصير لا أصل له في كتاب الله ولا في سنة رسوله

الفرق بين السفر الطويل والقصير فيقال هذا الفرق لا أصل له فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله بل الأحكام التى علقها الله بالسفر علقها به مطلقا كقوله تعالى فى آية الطهارة {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ}المائدة٦ وقوله تعالى فى آية الصيام {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}البقرة١٨٤ وقوله تعالى {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ}النساء١٠١ وقول النبى إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة وقول عائشة فرضت الصلاة ركعتين فأقرت صلاة السفر وزيدت فى الحضر وقول عمر صلاة الأضحى ركعتان وصلاة الفطر ركعتان وصلاة السفر ركعتان وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم وقوله صلى الله عليه وسلم يمسح المقيم يوما وليلة والمسافر ثلاثة أيام ولياليهن وقول صفوان بن عسال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا سفرا أو مسافرين أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة ولكن من غائط أو بول أو نوم وقول النبى صلى الله عليه وسلم إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم وقوله السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليتعجل الرجوع إلى أهله فهذه النصوص وغيرها من نصوص الكتاب والسنة ليس فيها تفريق بين سفر طويل وسفر قصير فمن فرق بين هذا وهذا فقد فرق بين ما جمع الله بينه فرقا لا أصل له فى كتاب الله ولا سنة رسوله وهذا الذى ذكر من تعليق الشارع الحكم بمسمى الاسم المطلق وتفريق بعض الناس بين نوع ونوع من غير دلالة شرعية له نظائر منها أن الشارع علق الطهارة بمسمى الماء فى قوله {فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً}النساء٤٣ ولم يفرق بين ماء وماء ولم يجعل الماء نوعين طاهرا وطهورا ومنها أن الشارع علق المسح بمسمى الخف ولم يفرق بين خف وخف فيدخل فى ذلك المفتوق والمخروق وغيرهما من غير تحديد ولم يشترط أيضا أن يثبت بنفسه ومن ذلك أنه أثبت الرجعة فى مسمى الطلاق بعد الدخول ولم يقسم طلاق المدخول بها إلى طلاق بائن ورجعى ومن ذلك أنه

أثبت الطلقة الثالثة بعد طلقتين وافتداء والافتداء الفرقة بعوض وجعلها موجبة للبينونة بغير طلاق يحسب من الثلاث وهذا الحكم معلق بهذا المسمى لم يفرق فيه بين لفظ ولفظ ومن ذلك أنه علق الكفارة بمسمى أيمان المسلمين فى قوله تعالى {ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ}المائدة٨٩ وقوله {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}التحريم٢ولم يفرق بين يمين ويمين من أيمان المسلمين فجعل أيمان المسلمين المنعقدة تنقسم إلى مكفرة وغير مكفرة مخالف لذلك ومن ذلك أنه علق التحريم بمسمى الخمر وبين أن الخمر هى المسكر فى قوله كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ولم يفرق بين مسكر ومسكر ومن ذلك أنه علق الحكم بمسمى الإقامة كما علقه بمسمى السفر ولم يفرق بين مقيم ومقيم فجعل المقيم نوعين نوعا تجب عليه الجمعة بغيره ولا تنعقد به ونوعا تنعقد به لا أصل له بل الواجب أن هذه الأحكام لما علقها الشارع بمسمى السفر فهى تتعلق بكل سفر سواء كان ذلك السفر طويلا أو قصيرا ولكن ثم أمور ليست من خصائص السفر بل تشرع فى السفر والحضر فإن المضطر إلى أكل الميتة لم يخص الله حكمه بسفر لكن الضرورة أكثر ما تقع به فى السفر فهذا لا فرق فيه بين الحضر والسفر الطويل والقصير فلا يجعل هذا معلقا بالسفر وأما الجمع بين الصلاتين فهل يجوز فى السفر القصير فيه وجهان فى مذهب أحمد أحدهما لا يجوز كمذهب الشافعى قياسا على القصر و الثانى يجوز كقول مالك لأن ذلك شرع فى الحضر للمرض والمطر فصار كأكل الميتة إنما علته الحاجة لا السفر وهذا هو الصواب فإن الجمع بين الصلاتين ليس معلقا بالسفر وإنما يجوز للحاجة بخلاف القصر وأما الصلاة على الراحلة فقد ثبت فى الصحيح بل استفاض عن النبى انه كان يصلى على راحلته فى السفر قبل أى وجه توجهت به ويوتر عليها غير انه لا يصلى عليها المكتوبة وهل يسوغ ذلك فى الحضر فيه قولان فى مذهب أحمد وغيره فإذا جوز فى الحضر ففى القصر أولى وأما إذا منع فى الحضر فالفرق بينه وبين القصر والفطر يحتاج إلى دليل المقام الثانى حد السفر الذى علق الشارع به الفطر والقصر وهذا مما اضطرب الناس فيه قيل ثلاثة أيام وقيل يومين قاصدين وقيل أقل من ذلك حتى قيل ميل والذين حددوا ذلك بالمسافة منهم من قال ثمانية وأربعون ميلا وقيل ستة وأربعون وقيل خمسة وأربعون وقيل أربعون وهذه أقوال عن مالك وقد قال أبو محمد المقدسى لا أعلم لما ذهب إليه الأئمة وجها وهو كما قال رحمه الله فإن التحديد بذلك ليس ثابتا بنص ولا إجماع ولا قياس وعامة هؤلاء يفرقون بين السفر الطويل والقصير ويجعلون ذلك حدا للسفر الطويل ومنهم من لا يسمى سفرا إلا ما بلغ هذا الحد وما دون ذلك لا يسميه سفرا فالذين قالوا ثلاثة أيام احتجوا بقوله يمسح المسافر ثلاثة أيام ولياليهن وقد ثبت عنه فى

الصحيحين أنه قال لا تسافر امرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا ومعها ذو محرم وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال مسيرة يومين وثبت فى الصحيح مسيرة يوم وفى السنن بريدا فدل على أن ذلك كله سفر وإذنه له فى المسح ثلاثة أيام إنما هو تجويز لمن سافر ذلك وهو لا يقتضى أن ذلك أقل السفر كما أذن للمقيم أن يمسح يوما وليلة وهو لا يقتضى أن ذلك أقل الاقامة والذين قالوا يومين اعتمدوا على قول إبن عمر وإبن عباس والخلاف فى ذلك مشهور عن الصحابة حتى عن إبن عمر وإبن عباس وما روى يا أهل مكة لا تقصروا فى أقل من أربعة برد من مكة إلى عسفان إنما هو من قول إبن عباس ورواية إبن خزيمة وغيره له مرفوعا إلى النبى باطل بلا شك عند أئمة أهل الحديث وكيف يخاطب النبى أهل مكة بالتحديد وإنما أقام بعد الهجرة زمنا يسيرا وهو بالمدينة لا يحد لأهلها حدا كما حده لأهل مكة وما بال التحديد يكون لأهل مكة دون غيرهم من المسلمين وأيضا فالتحديد بالأميال والفراسخ يحتاج إلى معرفة مقدار مساحة الأرض وهذا أمر لا يعلمه إلا خاصة الناس ومن ذكره فإنما يخبر به عن غيره تقليدا وليس هو مما يقطع به والنبى لم يقدر الأرض بمساحة أصلا فكيف يقدر الشارع لأمته حدا لم يجر له ذكر فى كلامه وهو مبعوث إلى جميع الناس فلابد أن يكون مقدار السفر معلوما علما عاما وذرع الأرض مما لا يمكن بل هو إما متعذر وإما متعسر لأنه إذا أمكن الملوك ونحوهم مسح طريق فإنما يمسحونه على خط مستو أو خطوط منحنية انحناء مضبوطا ومعلوم أن المسافرين قد يعرفون غير تلك الطريق وقد يسلكون غيرها وقد يكون فى المسافة صعود وقد يطول سفر بعضهم لبطء حركته ويقصر سفر بعضهم لسرعة حركته والسبب الموجب هو نفس السفر لا نفس مساحة الأرض والموجود فى كلام النبى والصحابة فى تقدير الأرض بالأزمنة كقوله فى الحوض طوله شهر وعرضه شهر وقوله بين السماء والأرض خمسمائة سنة وفى حديث آخر إحدى أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة فقيل الأول بالسير المعتاد سير الإبل والاقدام والثانى سير البريد فانه فى العادة يقطع بقدر المعتاد سبع مرات وكذلك الصحابة يقولون يوم تام ويومان ولهذا قال من حده بثمانية وأربعين ميلا مسيرة يومين قاصدين بسير الابل والاقدام لكن هذا لا دليل عليه وإذا كان كذلك فنقول كل اسم ليس له حد فى اللغة ولا فى الشرع فالمرجع فيه إلى العرف فما كان سفرا فى عرف الناس فهو

السفر الذى علق به الشارع الحكم وذلك مثل سفر أهل مكة إلى عرفة فإن هذه المسافة بريد وهذا سفر ثبت فيه جواز القصر والجمع بالسنة والبريد هو نصف يوم بسير الإبل والأقدام وهو ربع مسافة يومين وليلتين وهو الذى قد يسمى مسافة القصر

وهو الذى يمكن الذاهب إليها أن يرجع من يومه وأما ما دون هذه المسافة إن كانت مسافة القصر محدودة بالمساحة فقد قيل يقصر فى ميل وروى عن إبن عمر أنه قال لو سافرت ميلا لقصرت قال إبن حزم لم نجد أحدا يقصر فى أقل من ميل ووجد إبن عمر وغيره يقصرون فى هذا القدر ولم يحد الشارع فى السفر حدا فقلنا بذلك اتباعا للسنة المطلقة ولم نجد أحدا يقصر بما دون الميل ولكن هو على أصله وليس هذا اجماعا فإذا كان ظاهر النص يتناول ما دون ذلك لم يضره أن لا يعرف أحدا ذهب إليه كعادته فى أمثاله وأيضا فليس فى قول إبن عمر أنه لا يقصر فى أقل من ذلك وأيضا فقد ثبت عن إبن عمر أنه كان لا يقصر فى يوم أو يومين فإما أن تتعارض أقواله أو تحمل على اختلاف الاحوال والكلام فى مقامين المقام الأول أن من سافر مثل سفر أهل مكة إلى عرفات يقصر وأما إذا قيل ليست محدودة بالمسافة بل الاعتبار بما هو سفر فمن سافر ما يسمى سفرا قصر وإلا فلا وقد يركب الرجل فرسخا يخرج به لكشف أمر وتكون المسافة أميالا ويرجع فى ساعة أو ساعتين ولا يسمى مسافرا وقد يكون غيره فى مثل تلك المسافة مسافرا بأن يسير الإبل والأقدام سيرا لا يرجع فيه ذلك اليوم إلى مكانه والدليل على ذلك من وجوه أحدها أنه قد ثبت بالنقل الصحيح المتفق عليه بين علماء أهل الحديث أن النبى فى حجة الوداع كان يقصر الصلاة بعرفة ومزدلفة وفى أيام منى وكذلك أبو بكر وعمر بعده وكان يصلى خلفهم أهل مكة ولم يأمروهم بإتمام الصلاة ولا نقل أحد لا باسناد صحيح ولا ضعيف أن النبى قال لأهل مكة لما صلى بالمسلمين ببطن عرنة الظهر ركعتين قصرا وجمعا ثم العصر ركعتين يا أهل مكة أتموا صلاتكم ولا أمرهم بتأخير صلاة العصر ولا نقل أحد أن أحدا من الحجيج لا أهل مكة ولا غيرهم صلى خلف النبى خلاف ما صلى بجمهور المسلمين أو نقل أن النبى أو عمر قال فى هذا اليوم يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر فقد غلط وإنما نقل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال هذا فى جوف مكة لأهل مكة عام الفتح وقد ثبت أن عمر بن الخطاب قاله لأهل مكة لما صلى فى جوف مكة ومن المعلوم أنه لو كان أهل مكة قاموا فاتموا وصلوا أربعا وفعلوا ذلك بعرفة ومزدلفة وبمنى أيام منى لكان مما تتوفر الهمم والدواعى على نقله بالضرورة بل لو أخروا صلاة العصر ثم قاموا دون سائر الحجاج فصلوها قصرا لنقل ذلك فكيف إذا أتموا الظهر أربعا دون سائر المسلمين وأيضا فإنهم إذا أخذوا فى إتمام الظهر والنبى قد شرع فى العصر لكان إما أن ينتظرهم فيطيل القيام وإما أن يفوتهم معه بعض العصر بل أكثرها فكيف إذا كانوا يتمون الصلوات وهذا حجة على كل أحد وهو على من يقول إن أهل مكة جمعوا معه أظهر وذلك أن العلماء تنازعوا فى أهل مكة هل يقصرون ويجمعون بعرفة على

ثلاثة أقوال فقيل لا يقصرون ولا يجمعون وهذا هو المشهور عند أصحاب الشافعى وطائفة من أصحاب أحمد كالقاضى فى المجرد وإبن عقيل فى الفصول لاعتقادهم أن ذلك معلق بالسفر الطويل وهذا قصير والثانى أنهم يجمعون ولا يقصرون وهذا مذهب أبى حنيفة وطائفة من أصحاب أحمد ومن أصحاب الشافعى والمنقولات عن أحمد توافق هذا فإنه أجاب فى غير موضع بأنهم لا يقصرون ولم يقل لا يجمعون وهذا هو الذى رجحه أبو محمد المقدسى فى الجمع وأحسن فى ذلك والثالث أنهم يجمعون ويقصرون وهذا مذهب مالك وإسحاق بن راهويه وهو قول طاووس وإبن عيينة وغيرهما من السلف وقول طائفة من أصحاب أحمد والشافعى كأبى الخطاب فى العبادات الخمس وهو الذى رجحه أبو محمد المقدسى وغيره من أصحاب أحمد فإن أبا محمد وموافقيه رجحوا الجمع للمكى بعرفة وأما القصر فقال أبو محمد الحجة مع من أباح القصر لكل مسافر إلا أن ينعقد الاجماع على خلافه والمعلوم أن الاجماع لم ينعقد على خلافه وهو اختيار طائفة من علماء أصحاب أحمد كان بعضهم يقصر الصلاة فى مسيرة بريد وهذا هو الصواب الذى لا يجوز القول بخلافه لمن تبين السنة وتدبرها فإن من تأمل الأحاديث فى حجة الوداع وسياقها علم علما يقينا أن الذين كانوا مع النبى من أهل مكة وغيرهم صلوا بصلاته قصرا وجمعا ولم يفعلوا خلاف ذلك ولم ينقل أحد قط عن النبى أنه قال لا بعرفة ولا مزدلفة ولا منى يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر وإنما نقل أنه قال ذلك فى نفس مكة كما رواه أهل السنن عنه وقوله ذلك فى داخل مكة دون عرفة ومزدلفة ومنى دليل على الفرق وقد روى من جهة أهل العراق عن عمر أنه كان يقول بمنى يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر وليس له إسناد وإذا ثبت ذلك فالجمع بين الصلاتين قد يقال أنه لأجل النسك كما تقوله الحنفية وطائفة من أصحاب أحمد وهو مقتضى نصه فإنه يمنع المكى من القصر بعرفة ولم يمنعه من الجمع وقال فى جمع المسافر أنه يجمع فى الطويل كالقصر عنده وإذا قيل الجمع لأجل النسك ففيه قولان أحدهما لا يجمع إلا بعرفة ومزدلفة كما تقوله الحنفية والثانى أنه يجمع لغير ذلك من الأسباب المقتضية للجمع وإن لم يكن سفرا وهو مذهب الثلاثة مالك والشافعى وأحمد وقد يقال لأن ذلك سفر قصير وهو يجوز الجمع فى السفر القصير كما قال هذا وهذا بعض الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى وأحمد فان الجمع لا يختص بالسفر والنبى صلى الله عليه وسلم لم يجمع فى حجته إلا بعرفة ومزدلفة ولم يجمع بمنى ولا فى ذهابه وإيابه ولكن جمع قبل ذلك فى غزوة تبوك والصحيح أنه لم يجمع بعرفة لمجرد السفر كما قصر للسفر بل لاشتغاله باتصال الوقوف عن النزول ولاشتغاله بالمسير إلى مزدلفة وكان جمع عرفة لأجل

العبادة وجمع مزدلفة لأجل السير الذى جد فيه وهو سيره إلى مزدلفة وكذلك كان يصنع فى سفره كان إذا جد به السير أخر الأولى إلى وقت الثانية ثم ينزل فيصليهما جميعا كما فعل بمزدلفة وليس فى شريعته ما هو خارج عن القياس بل الجمع الذى جمعه هناك يشرع أن يفعل نظيره كما يقوله الأكثرون ولكن أبو حنيفة يقول هو خارج عن القياس وقد علم أن تخصيص العلة إذا لم تكن لفوات شرط أو وجود مانع دل على فسادها وليس فيما جاء من عند الله اختلاف ولا تناقض بل حكم الشىء حكم مثله والحكم إذا ثبت بعلة ثبت بنظيرها وأما القصر فلا ريب أنه من خصائص السفر ولا تعلق له بالنسك ولا مسوغ لقصر أهل مكة بعرفة وغيرها إلا أنهم بسفر وعرفة عن المسجد بريد كما ذكره الذين مسحوا ذلك وذكره الأزرقى فى أخبار مكة فهذا قصر فى سفر قدره بريد وهم لما رجعوا إلى منى كانوا فى الرجوع من السفر وإنما كان غاية قصدهم بريدا وأى فرق بين سفر أهل مكة إلى عرفة وبين سفر سائر المسلمين إلى قدر ذلك من بلادهم والله لم يرخص فى الصلاة ركعتين إلا لمسافر فعلم أنهم كانوا مسافرين والمقيم إذا اقتدى بمسافر فإنه يصلى أربعا كما قال النبى لأهل مكة فى مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر وهذا مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم من العلماء ولكن فى مذهب مالك نزاع الدليل الثانى أنه قد نهى أن تسافر المرأة إلا مع ذى محرم أو زوج تارة يقدر وتارة يطلق وأقل ما روى فى التقدير بريد فدل ذلك على أن البريد يكون سفرا كما أن الثلاثة الأيام تكون سفرا واليومين تكون سفرا واليوم يكون سفرا هذه الأحاديث ليس لها مفهوم بل نهى عن هذا وهذا وهذا الدليل الثالث أن السفر لم يحده الشارع وليس له حد فى اللغة فرجع فيه إلى ما يعرفه الناس ويعتادونه فما كان عندهم سفرا فهو سفر والمسافر يريد أن يذهب إلى مقصده ويعود إلى وطنه وأقل ذلك مرحلة يذهب فى نصفها ويرجع فى نصفها وهذا هو البريد وقد حدوا بهذه المسافة الشهادة على الشهادة و كتاب القاضى إلى القاضى و العدو على الخصم و الحضانة وغير ذلك مما هو معروف فى موضعه وهو أحد القولين فى مذهب أحمد فلو كانت المسافة محدودة لكان حدها بالبريد أجود لكن الصواب أن السفر ليس محددا بمسافة بل يختلف فيكون مسافرا فى مسافة بريد وقد يقطع أكثر من ذلك ولا يكون مسافرا الدليل الرابع أن المسافر رخص الله له أن يفطر فى رمضان وأقل الفطر يوم ومسافة البريد يذهب إليها ويرجع فى يوم فيحتاج إلى الفطر فى شهر رمضان ويحتاج أن يقصر الصلاة بخلاف ما دون ذلك فإنه قد لا يحتاج فيه إلى قصر ولا فطر إذا سافر أول النهار ورجع قبل الزوال وإذا كان غدوه يوما ورواحه يوما فإنه يحتاج إلى القصر والفطر وهذا قد يقتضى أنه قد يرخص له أن يقصر ويفطر فى بريد وإن كان

قد لا يرخص له فى أكثر منه إذا لم يعد مسافرا      الدليل الخامس أنه ليس تحديد من حد المسافة بثلاثة أيام بأولى ممن حدها بيومين ولا اليومان بأولى من يوم فوجب أن لا يكون لها حد بل كل ما يسمى سفرا يشرع وقد ثبت بالسنة القصر فى مسافة بريد فعلم أن فى الاسفار ما قد يكون بريدا وأدنى ما يسمى سفرا فى كلام الشارع البريد وأما ما دون البريد كالميل فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يأتى قباء كل سبت وكان يأتيه راكبا وماشيا     ولا ريب    أن    أهل قباء وغيرهم من أهل العوالى كانوا يأتون إلى النبى بالمدينة ولم يقصر الصلاة هو ولا هم وقد كانوا يأتون الجمعة من نحو ميل وفرسخ ولا يقصرون الصلاة والجمعة على من سمع النداء والنداء قد يسمع من فرسخ وليس كل من وجبت عليه الجمعة أبيح له القصر والعوالى بعضها من المدينة وإن كان إسم المدينة يتناول جميع المساكن كما قال تعالى     {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ}التوبة١٠١   وقال  {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ}التوبة١٢٠    وأما ما نقل عن إبن عمر فينظر فيه هل هو ثابت أم لا فإن ثبت فالرواية عنه مختلفة وقد خالفه غيره من الصحابة ولعله أراد إذا قطعت من المسافة ميلا ولا ريب أن قباء من المدينة أكثر من ميل وما كان إبن عمر ولا غيره يقصرون الصلاة إذا ذهبوا إلى قباء فقصر أهل مكة الصلاة بعرفة وعدم قصر أهل المدينة الصلاة إلى قباء ونحوها مما حول المدينة دليل على الفرق والله أعلم والصلاة على الراحلة إذا كانت مختصة بالسفر لا تفعل إلا فيما يسمى سفرا ولهذا لم يكن النبى يصلى على راحلته فى خروجه إلى مسجد قباء مع أنه كان يذهب إليه راكبا وماشيا ولا كان المسلمون الداخلون من العوالى يفعلون ذلك وهذا لأن هذه المسافة قريبة كالمسافة فى المصر واسم    المدينة    يتناول المساكن كلها فلم يكن هناك إلا أهل المدينة والأعراب كما دل عليه القرآن فمن لم يكن من الأعراب كان من أهل المدينة وحينئذ فيكون مسيره إلى قباء كأنه فى المدينة فلو سوغ ذلك سوغت الصلاة فى المصر على الراحلة وإلا فلا فرق بينهما      والنبى صلى الله عليه وسلم لما كان يصلى بأصحابه جمعا وقصرا لم يكن يأمر أحدا منهم بنية الجمع والقصر بل خرج من المدينة إلى مكة يصلى ركعتين من غير جمع ثم صلى بهم الظهر بعرفة ولم يعلمهم أنه يريد أن يصلى العصر بعدها ثم صلى بهم العصر ولم يكونوا نووا الجمع وهذا جمع تقديم وكذلك لما خرج من المدينة صلى بهم بذى الحليفة العصر ركعتين ولم يأمرهم بنية قصر وفى الصحيح أنه لما صلى أحدى صلاتى العشى وسلم من اثنتين قال له ذو اليدين أقصرت الصلاة أم نسيت قال    لم أنس ولم تقصر    قال بلى قد نسيت قال    أكما يقول ذو اليدين    قالوا نعم فأتم الصلاة ولو كان القصر لا

يجوز إلا إذا نووه لبين ذلك ولكانوا يعلمون ذلك والامام أحمد لم ينقل عنه فيما أعلم أنه اشترط النية فى جمع ولا قصر ولكن ذكره طائفة من أصحابه كالخرقى والقاضى وأما أبو بكر عبد العزيز وغيره فقالوا إنما يوافق مطلق نصوصه وقالوا لا يشترط للجمع ولا للقصر نية وهو قول الجمهور من العلماء كمالك وأبى حنيفة وغيرهما بل قد نص أحمد على أن المسافر له أن يصلى العشاء قبل مغيب الشفق وعلل ذلك بأنه يجوز له الجمع كما نقله عنه أبو طالب والمروذى وذكر ذلك القاضى فى الجامع الكبير فعلم أنه لا يشترط فى الجمع نية ولا تشترط أيضا المقارنة فإنه لما أباح أن تصلى العشاء قبل مغيب الشفق وعلله بأنه يجوز له الجمع لم يجز أن يراد به الشفق الأبيض لأن مذهبه المتواتر عنه أن المسافر يصلى العشاء بعد مغيب الشفق الأحمر وهو أول وقتها عنده وحينئذ يخرج وقت المغرب عنده فلم يكن مصليا لها فى وقت المغرب بل فى وقتها الخاص وأما فى الحضر فاستحب تأخيرها إلى أن يغيب الأبيض قال لأن الحمرة قد تسترها الحيطان فيظن أن الأحمر قد غاب ولم يغب فإذا غاب البياض تيقن مغيب الحمرة فالشفق عنده فى الموضعين الحمرة لكن لما كان الشك فى الحضر لاستتار الشفق بالحيطان احتاط بدخول الأبيض فهذا مذهبه المتواتر من نصوصه الكثيرة وقد حكى بعضهم رواية عنه أن الشفق فى الحضر الأبيض وفى السفر الأحمر وهذه الرواية حقيقتها كما تقدم وإلا فلم يقل أحمد ولا غيره من علماء المسلمين أن الشفق فى نفس الأمر يختلف بالحضر والسفر وأحمد قد علل الفرق فلو حكى عنه لفظ مجمل كان المفسر من كلامه يبينه وقد حكى بعضهم رواية عنه أن الشفق مطلق البياض وما أظن هذا إلا غلطا عليه وإذا كان مذهبه أن أول الشفق إذا غاب فى السفر خرج وقت المغرب ودخل وقت العشاء وهو يجوز للمسافر أن يصلى العشاء قبل مغيب الشفق وعلل ذلك بأنه يجوز له الجمع علم أنه صلاها قبل مغيبها لا بعد مغيب الأحمر فانه حينئذ لا يجوز التعليل بجواز الجمع [١]

الأسماء التى علق الله بها الأحكام فى الكتاب والسنة منها ما يعرف حده ومسماه بالشرع فقد بينه الله ورسوله كاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج والايمان والاسلام والكفر والنفاق ومنه ما يعرف حده باللغة كالشمس والقمر والسماء والأرض والبر والبحر ومنه ما يرجع حده الى عادة الناس وعرفهم فيتنوع بحسب عادتهم كاسم البيع

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ٣٤-٥٢

والنكاح والقبض والدرهم والدينار ونحو ذلك من الأسماء التى لم يحدها الشارع بحد ولا لها حد واحد يشترك فيه جميع أهل اللغة بل يختلف قدره وصفته باختلاف عادات الناس فما كان من النوع الأول فقد بينه الله ورسوله وما كان من النوع الثانى والثالث فالصحابة والتابعون المخاطبون بالكتاب والسنة قد عرفوا المراد به لمعرفتهم بمسماه المحدود فى اللغة أو المطلق فى عرف الناس وعادتهم من غير حد شرعى ولا لغوي وبهذا يحصل التفقه فى الكتاب والسنة والاسم اذا بين النبى حد مسماه لم يلزم أن يكون قد نقله عن اللغة أو زاد فيه بل المقصود أنه عرف مراده بتعريفه هو كيف ما كان الأمر فان هذا هو المقصود ومن ذلك علق الله ورسوله القصر والفطر بمسمى السفر ولم يحده بمسافة ولافرق بين طويل وقصير ولو كان للسفر مسافة محدودة لبينه الله ورسوله ولا له فى اللغة مسافة محدودة فكلما يسميه أهل اللغة سفرا فانه يجوز فيه القصر والفطر كما دل عليه الكتاب والسنة وقد قصر أهل مكة مع النبى الى عرفات وهى من مكة بريد فعلم ان التحديد بيوم أو يومين أو ثلاثة ليس حدا شرعيا عاما وما نقل فى ذلك عن الصحابة قد يكون خاصا كان فى بعض الأمور لايكون السفر الا كذلك ولهذا اختلفت الرواية عن كل منهم كابن عمر وابن عباس وغيرهما فعلم انهم لم يجعلوا للمسافر ولا الزمان حدا شرعيا عاما كمواقيت الصوم والصلاة بل حدوه لبعض الناس بحسب ما رأوه سفرا لمثله فى تلك الحال وكما يحد الحاد الغنى والفقير فى بعض الصور بحسب ما يراه لا لأن الشرع جعل للغنى والفقير مقدارا من المال يستوى فيه الناس كلهم بل قد يستغنى الرجل بالقليل وغيره لا يغنيه اضعافه لكثرة عياله وحاجاته وبالعكس وبعض الناس قد يقطع المسافة العظيمة ولا يكون مسافرا كالبريد إذا ذهب من البلد لتبليغ رسالة أو أخذ حاجة ثم كر راجعا من غير نزول فان هذا لا يسمى مسافر بخلاف ما إذا تزود المسافر وبات هناك فانه يسمى مسافرا وتلك المسافة يقطعها غيره فيكون مسافرا يحتاج ان يتزود لها ويبيت بتلك القرية ولا يرجع إلا بعد يوم أو يومين فهذا يسميه الناس مسافرا وذلك الذى ذهب إليها طردا وكر راجعا على عقبه لا يسمونه مسافرا والمسافة واحدة فالسفر حال من أحوال السير لا يحد بمسافة ولا زمان وكان النبى صلى الله عليه وسلم يذهب الى قباء كل سبت راكبا وماشيا ولم يكن مسافرا وكان الناس يأتون الجمعة من العوالى والعقيق ثم يدركهم الليل فى أهلهم ولا يكونون مسافرين وأهل مكة لما خرجوا الى منى وعرفة كانوا مسافرين يتزودون لذلك ويبيتون خارج البلد ويتأهبون أهبة السفر بخلاف من خرج لصلاة الجمعة أو غيرها من الحاجات ثم رجع من يومه ولو قطع بريدا فقد لايسمى مسافرا وما زال الناس يخرجون من مساكنهم الى البساتين التى حول مدينتهم ويعمل الواحد فى بستانه

اشغالا من غرس وسقى وغير ذلك كما كانت الأنصار تعمل فى حيطانهم ولا يسمون مسافرين ولو أقام أحدهم طول النهار ولو بات فى بستانه وأقام فيه أياما ولو كان البستان ابعد من بريد فان البستان من توابع البلد عندهم والخروج اليه كالخروج الى بعض نواحى البلد والبلد الكبير الذى يكون اكثر من بريد متى سار من أحد طرفيه الى الآخر لم يكن مسافرا فالناس يفرقون بين المتنقل فى المساكن وما يتبعها وبين المسافر الراحل عن ذلك كله كما كان أهل مدينة النبى يذهبون الى حوائطهم ولا يكونون مسافرين والمدينة لم يكن لها سور بل كانت قبائل قبائل ودورا دورا وبين جانبيها مسافة كبيرة فلم يكن الراحل من قبيلة الى قبيلة مسافرا ولو كان كل قبيلة حولهم حيطانهم ومزارعهم فان اسم المدينة كان يتناول هذا كله ولهذا قال تعالى {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ}التوبة١٠١ فجعل الناس قسمين أهل بادية هم الاعراب وأهل المدينة فكان الساكنون كلهم فى المدر أهل المدينة وهذا يتناول قباء وغيرها ويدل على أن اسم المدينة كان يتناول ذلك كله فانه لم يكن لها سور كما هى اليوم والأبواب تفتح وتغلق وانما كان لها انقاب وتلك الاتقاب وان كانت داخل قباء وغيرها لكن لفظ المدينة قد يعم حاضر البلد وهذا معروف فى جميع المدائن يقول القائل ذهبت الى دمشق أو مصر أو بغداد أو غير ذلك وسكنت فيها واقمت فيها مدة ونحو ذلك وهو انما كان ساكنا خارج السور فاسم المدينة يعم تلك المساكن كلها وان كان الداخل المسور أخص بالاسم من الخارج وكذلك مدينة رسول الله كان لها داخل وخارج تفصل بينهما الانقاب واسم المدينة يتناول ذلك كله فى كتاب الله تعالى ولهذا كان هؤلاء كلهم يصلون الجمعة والعيدين خلف النبى وخلفائه لم تكن تقام جمعة ولا عيدان لا بقباء ولا غيرها كما كانوا يصلون الصلوات الخمس فى كل قبيلة من القبائل ومن هذا الباب قول النبى ان بالمدينة لرجالا هو يعم جميع المساكن وكذلك لفظ القرى الشامل للمدائن كقوله {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا}الأعراف٤ وقوله{لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا}الشورى٧ وقوله {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}القصص٥٩ وقوله {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ}هود١٠٠ فان هذا يتناول المساكن الداخلية والخارجية وان فصل بينهما سور ونحوه فان البعث والاهلاك وغير ذلك لم يخص بعضهم دون بعض وعامة المدائن لها داخل وخارج ولفظ الكعبة هو فى الأصل اسم لنفس البينة ثم فى القرآن قد استعمل فيها حولها كقوله {هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ}المائدة٩٥ وكذلك لفظ المسجد الحرام يعبر به عن المسجد وعما حوله من الحرم وكذلك لفظ بدر هو اسم للبئر ويسمى به ما حولها وكذلك أحد اسم

للجبل ويتناول ما حوله فيقال كانت الوقعة بأحد وانما كانت تحت الجبل وكذلك يقال لمكان العقبة ولمكان القصر والعقيبة تصغير العقبة والقصير تصغير قصر ويكون قد كان هناك قصر صغير أو عقبة صغيرة ثم صار الاسم شاملا لما حول ذلك مع كبره فهذا كثير غالب فى اسماء البقاع والمقصود أن المتردد فى المساكن لا يسمى مسافرا وإذا كان الناس يعتادون المبيت فى بساتينهم ولهم فيها مساكن كان خروجهم اليها كخروجهم الى بعض نواحى مساكنهم فلا يكون المسافر مسافرا حتى يسفر فيكشف ويظهر للبرية الخارجة عن المساكن التى لا يسير السائر فيها بل يظهر فيها وينكشف فى العادة والمقصود أن السفر يرجع فيه الى مسماه لغة وعرفا [1]

## ٣-الجمهور يجوزون القصر فى السفر الذى يجوز فيه الفطر

السفر فى كتاب الله وسنة رسوله فى القصر والفطر مطلق ثم قد تنازع الناس فى جنس السفر وقدره أما جنسه فاختلفوا فى نوعين أحدهما حكمه فمنهم من قال لا يقصر الا فى حج أو عمرة أو غزو وهذا قول داود وأصحابه إلا ابن حزم قال ابن حزم وهو قول جماعة من السلف كما روينا من طريق إبن أبى عدى حدثنا جرير عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن الأسود عن ابن مسعود قال لا يقصر الصلاة إلا حاج أو مجاهد وعن طاوس انه كان يسأل عن قصر الصلاة فيقول إذا خرجنا حجاجا أو عمارا صلينا ركعتين وعن إبراهيم التيمى أنه كان لا يرى القصر إلا فى حج أو عمرة أو جهاد وحجة هؤلاء انه ليس معنا نص يوجب عموم القصر للمسافر فإن القرآن ليس فيه الا قصر المسافر إذا خاف أن يفتنه الذين كفروا وهذا سفر الجهاد وأما السنة فإن النبى قصر فى حجه وعمره وغزواته فثبت جواز هذا والأصل فى الصلاة الإتمام فلا تسقط إلا حيث أسقطتها السنة ومنهم من قال لا يقصر الا فى سفر يكون طاعة فلا يقصر فى مباح كسفر التجارة وهذا يذكر رواية عن أحمد والجمهور يجوزون القصر فى السفر الذى يجوز فيه الفطر وهو الصواب لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال أن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة رواه عنه أنس بن مالك الكعبى وقد رواه أحمد وغيره باسناد جيد وأيضا فقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن يعلى بن أمية أنه قال لعمر بن الخطاب {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٢٤٢-٢٤٧

أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ}النساء١٠١ فقد أمن الناس فقال عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله عن ذلك فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته وهذا يبين أن سفر الأمن يجوز فيه قصر العدد وإن كان ذلك صدقة من الله علينا امرنا بقبولها وقد قال طائفة من أصحاب الشافعى وأحمد ان شئنا قبلناها وان شئنا لم نقبلها فإن قبول الصدقة لا يجب ليدفعوا بذلك الأمر بالركعتين وهذا غلط فان النبى صلى الله عليه وسلم امرنا ان نقبل صدقة الله علينا والأمر للايجاب وكل احسانه الينا صدقة علينا فان لم نقبل ذلك هلكنا وأيضا فقد ثبت عن عمر بن الخطاب أنه قال صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم وقد خاب من افترى كما قال صلاة الجمعة ركعتان وصلاة الأضحى ركعتان وصلاة الفطر ركعتان وهذا نقل عن النبى أنه سن للمسلمين الصلاة فى جنس السفر ركعتين كما سن الجمعة والعيدين ولم يخص ذلك بسفر نسك أو جهاد وأيضا فقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة أنها قالت فرضت الصلاة ركعتين فزيد فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر وهذا يبين أن المسافر لم يؤمر بأربع قط وحينئذ فما أوجب الله على المسافر أن يصلى أربعا وليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله لفظ يدل على أن المسافر فرض عليه أربع وحينئذ فمن أوجب على مسافر أربعا فقد أوجب مالم يوجبه الله ورسوله

فإن قيل قوله وضع يقتضى أنه كان واجبا قبل هذا كما قال إنه وضع عنه الصوم ومعلوم أنه لم يجب على المسافر صوم رمضان قط لكن لما انعقد سبب الوجوب فأخرج المسافر من ذلك سمى وضعا ولأنه كان واجبا فى المقام فلما سافر وضع بالسفر كما يقال من أسلم وضعت عنه الجزية مع أنها لا تجب على مسلم بحال وأيضا فقد قال صفوان بن محرز قلت لإبن عمر حدثنى عن صلاة السفر قال اتخشى أن يكذب علي قلت لا قال ركعتان من خالف السنة كفر وهذا معروف رواه أبو التياح عن مورق العجل عنه وهو مشهور فى كتب الآثار وفى لفظ صلاة السفر ركعتان ومن خالف السنة كفر وبعضهم رفعه إلى النبى فبين أن صلاة السفر ركعتان وإن ذلك من السنة التى من خالفها فاعتقد خلافها فقد كفر وهذه الأدلة دليل على أن من قال انه لا يقصر الا فى سفر واجب فقوله ضعيف ومنهم من قال لا يقصر فى السفر المكروه ولا المحرم ويقصر فى المباح وهذا أيضا رواية عن أحمد وهل يقصر فى سفر النزهة فيه عن أحمد روايتان وأما السفر المحرم فمذهب الثلاثة مالك والشافعى وأحمد لا يقصر فيه وأما أبو حنيفة وطوائف من السلف والخلف فقالوا يقصر فى جنس الأسفار وهو قول ابن حزم وغيره وأبو حنيفة وابن حزم وغيرهما يوجبون القصر فى كل سفر وإن كان محرما كما يوجب الجميع

التيمم إذا عدم الماء فى السفر المحرم وابن عقيل رجح فى بعض المواضع القصر والفطر فى السفر المحرم والحجة مع من جعل القصر والفطر مشروعا فى جنس السفر ولم يخص سفرا من سفر وهذا القول هو الصحيح فإن الكتاب والسنة قد أطلقا السفر قال تعالى {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} البقرة١٨٤ كما قال فى آية التيمم {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ} النساء٤٣ الآية وكما تقدمت النصوص الدالة على أن المسافر يصلي ركعتين ولم ينقل قط أحد عن النبى أنه خص سفرا من سفر مع علمه بأن السفر يكون حراما ومباحا ولو كان هذا مما يختص بنوع من السفر لكان بيان هذا من الواجبات ولو بين ذلك لنقلته الأمة وما علمت عن الصحابة فى ذلك شيئا وقد علق الله ورسوله أحكاما بالسفر كقوله تعالى فى التيمم {وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ} النساء٤٣ وقوله فى الصوم فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} البقرة١٨٤ وقوله {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} النساء١٠١ وقول النبى يمسح المسافر ثلاثة أيام ولياليهن وقوله لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر إلا مع زوج أو ذى محرم وقوله ان الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ولم يذكر قط فى شيء من نصوص الكتاب والسنة تقييد السفر بنوع دون نوع فكيف يجوز أن يكون الحكم معلقا بأحد نوعى السفر ولا يبين الله ورسوله ذلك بل يكون بيان الله ورسوله متناولا للنوعين وهكذا فى تقسيم السفر إلى طويل وقصير وتقسيم الطلاق بعد الدخول إلى بائن ورجعى وتقسيم الأيمان إلى يمين مكفرة وغير مكفرة وأمثال ذلك مما علق الله ورسوله الحكم فيه بالجنس المشترك العام فجعله بعض الناس نوعين نوعا يتعلق به ذلك الحكم ونوعا لا يتعلق من غير دلالة على ذلك من كتاب ولا سنة لا نصا ولا استنباطا والذين قالوا لا يثبت ذلك فى السفر المحرم عمدتهم قوله تعالى فى الميتة {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} البقرة١٧٣ وقد ذهب طائفة من المفسرين إلى أن الباغي هو الباغى على الإمام الذى يجوز قتاله و العادى هو العادى على المسلمين وهم المحاربون قطاع الطريق قالوا فإذا ثبت أن الميتة لا تحل لهم فسائر الرخص أولى وقالوا اذا اضطر العاصى بسفره أمرناه أن يتوب ويأكل ولاتبيح له اتلاف نفسه وهذا القول معروف عن أصحاب الشافعى وأحمد وأما أحمد ومالك فجوزا له أكل الميتة دون القصر والفطر قالوا ولأن السفر المحرم معصية والرخص للمسافر إعانة على ذلك فلا تجوز الإعانة على المعصية وهذه حجج ضعيفة أما الآية فأكثر المفسرين قالوا المراد بالباغي الذى يبغي المحرم من الطعام مع قدرته على الحلال والعادى الذى يتعدى القدر الذى يحتاج إليه وهذا

التفسير هو الصواب دون الأول لأن الله أنزل هذا فى السور المكية الأنعام والنحل وفى المدينة ليبين ما يحل وما يحرم من الاكل والضرورة لا تختص بسفر ولو كانت فى سفر فليس السفر المحرم مختصا بقطع الطريق والخروج على الإمام ولم يكن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم امام يخرج عليه ولا من شرط الخارج أن يكون مسافرا والبغاة الذين أمر الله بقتالهم فى القرآن لا يشترط فيهم أن يكونوا مسافرين ولا كان الذين نزلت الآية فيهم أولا مسافرين بل كانوا من أهل العوالى مقيمين واقتتلوا بالنعال والجريد فكيف يجوز أن تفسر الآية بما لا يختص بالسفر وليس فيها كل سفر محرم فالمذكور فى الآية لو كان كما قيل لم يكن مطابقا للسفر المحرم فانه قد يكون بلا سفر وقد يكون السفر المحرم بدونه وأيضا فقوله {غَيْرَ بَاغٍ}البقرة١٧٣ حال من {اضْطُرَّ}البقرة١٧٣ فيجب أن يكون حال اضطراره وأكله الذى يأكل فيه غير باغ ولا عاد فإنه قال {فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ}البقرة١٧٣ ومعلوم أن الإثم انما ينفى عن الأكل الذى هو الفعل لا عن نفس الحاجة اليه فمعنى الآية فمن اضطر فأكل غير باغ ولا عاد وهذا يبين ان المقصود أنه لا يبغي فى أكله ولا يتعدى والله تعالى يقرن بين البغي والعدوان فالبغى ما جنسه ظلم والعدوان مجاوزة القدر المباح كما قرن بين الاثم والعدوان فى قوله {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}المائدة٢ فالإثم جنس الشر والعدوان مجاوزة القدر المباح فالبغى من جنس الإثم قال تعالى {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ}آل عمران١٩ وقال تعالى {فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ}البقرة١٨٢ فإثم جنس لظلم الورثة إذا كان مع العمد وأما الجنف فهو الجنف عليهم بعمد وبغير عمد لكن قال كثير من المفسرين الجنف الخطأ والإثم العمد لأنه لما خص الإثم بالذكر وهو العمد بقى الداخل فى الجنف الخطأ ولفظ العدوان من باب تعدى الحدود كما قال تعالى {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}البقرة٢٢٩ ونحو ذلك ومما يشبه هذا قوله {ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا}آل عمران١٤٧ والإسراف مجاوزة الحد المباح وأما الذنوب فما كان جنسه شر وإثم وأما قولهم إن هذا إعانة على المعصية فغلط لأن المسافر مأمور بأن يصلي ركعتين كما هو مأمور أن يصلى بالتيمم وإذا عدم الماء فى السفر المحرم كان عليه أن يتيمم ويصلى وما زاد على الركعتين ليست طاعة ولا مأمورا بها احد من المسافرين وإذ فعلها المسافر كان قد فعل منهيا عنه فصار صلاة الركعتين مثل أن يصلي المسافر الجمعة خلف مستوطن فهل يصليها الا ركعتين وان كان عاصيا بسفره وان كان إذا صلى وحده صلى أربعا وكذلك صومه فى السفر ليس برا ولا مأمورا به فإن النبى ثبت عنه أنه قال ليس من البر الصيام فى السفر

وصومه إذا كان مقيما أحب إلى الله من صيامه فى سفر محرم ولو أراد أن يتطوع على الراحلة فى السفر المحرم لم يمنع من ذلك وإذا اشتبهت عليه القبلة أما كان يتحرى ويصلى ولو أخذت ثيابه أما كان يصلي عريانا فإن قيل هذا لا يمكنه إلا هذا قيل والمسافر لم يؤمر إلا بركعتين والمشروع فى حقه أن لا يصوم وقد اختلف الناس لو صام هل يسقط الفرض عنه واتفقوا على أنه إذا صام بعد رمضان أجزأه وهذه المسألة ليس فيها احتياط فإن طائفة يقولون من صلى أربعا أو صام رمضان فى السفر المحرم لم يجزئه ذلك كما لو فعل ذلك فى السفر المباح عندهم وطائفة يقولون لا يجزيه إلا صلاة أربع وصوم رمضان وكذلك أكل الميتة واجب على المضطر سواء كان فى السفر أو الحضر وسواء كانت ضرورته بسبب مباح أو محرم فلو ألقى ماله فى البحر واضطر إلى أكل الميتة كان عليه أن يأكلها ولو سافر سفرا محرما فأتعبه ولو قاتل قتالا محرما حتى أعجزته الجراح عن القيام صلى قاعدا فإن قيل فلو قاتل قتالا محرما هل يصلى صلاة الخوف قيل يجب عليه ان يصلى ولا يقاتل فإن كان لا يدع القتال المحرم فلا نبيح له ترك الصلاة بل إذا صلى صلاة خائف كان خيرا من ترك الصلاة بالكلية ثم هل يعيد هذا فيه نزاع ثم إن أمكن فعلها بدون هذه الأفعال المبطلة فى الوقت وجب ذلك عليه لأنه مأمور بها وأما إن خرج الوقت ولم يفعل ذلك ففى صحتها وقبولها بعد ذلك نزاع

النوع الثانى من موارد النزاع أن عثمان كان لا يرى مسافرا الا من حمل الزاد والمزاد دون من كان نازلا فكان لا يحتاج فيه إلى ذلك كالتاجر والتانى والجابى الذين يكونون فى موضع لا يحتاجون فيه إلى ذلك ولم يقدر عثمان للسفر قدرا بل هذا الجنس عنده ليس بمسافر وكذلك قيل إنه لم ير نفسه والذين معه مسافرين بمنى لما صارت منى معمورة وذكر ابن أبى شيبة عن ابن سيرين أنه قال كانوا يقولون السفر الذى تقصر فيه الصلاة الذى يحمل فيه الزاد والمزاد ومأخذ هذا القول والله أعلم أن القصر إنما كان فى السفر لا فى المقام والرجل إذا كان مقيما فى مكان يجد فيه الطعام والشراب لم يكن مسافرا بل مقيما بخلاف المسافر الذى يحتاج أن يحمل الطعام والشراب فإن هذا يلحقه من المشقة ما يلحق المسافر من مشقة السفر وصاحب هذا القول كأنه رأى الرخصة إنما تكون للمشقة والمشقة إنما تكون لمن يحتاج إلى حمل الطعام والشراب وقد نقل عن غيره كلام يفرق فيه بين جنس وجنس روى ابن أبى شيبة عن على بن مسهر عن ابى اسحاق الشيباني عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عبد الله بن مسعود قال لا يغرنكم سوادكم هذا من صلاتكم فإنه من مصركم فقوله من مصركم يدل على انه جعل السواد بمنزلة المصر لما كان تابعا له وروى عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن إبراهيم

التيمى عن أبيه قال كنت مع حذيفة بالمدائن فاستاذنته أن آتى أهلى بالكوفة فأذن لى وشرط على ان لا أفطر ولا أصلى ركعتين حتى أرجع إليه وبينهما نيف وستون ميلا عن حذيفة أن لا يقصر إلى السواد وبين الكوفة والسواد تسعون ميلا وعن معاذ بن جبل وعقبة بن عامر لا يطأ أحدكم بماشية أحداب الجبال أو بطون الأودية وتزعمون أنكم سفر لا ولاكرامة إنما التقصير فى السفر من الباءات من الأفق إلى الأفق قلت هؤلاء لم يذكروا مسافة محدودة للقصر لا بالزمان ولا بالمكان لكن جعلوا هذا الجنس من السير ليس سفرا كما جعل عثمان السفر ما كان فيه حمل زاد ومزاد فإن كانوا قصدوا ما قصده عثمان من ان هذا لا يزال يسير فى مكان يحمل فيه الزاد والمزاد فهو كالمقيم فقد وافقوا عثمان لكن ابن مسعود خالف عثمان فى اتمامه بمنى وإن كان قصدهم ان اعمال البلد تبع له كالسواد مع الكوفة وإنما المسافر من خرج من عمل إلى عمل كما فى حديث معاذ من أفق إلى افق فهذا هو الظاهر ولهذا قال ابن مسعود عن السواد فإنه من مصركم وهذا كما أن ما حول المصر من البساتين والمزارع تابعة له فهم يجعلون ذلك كذلك وإن طال ولا يحدون فيه مسافة وهذا كما ان المخاليف وهى الأمكنة التى يستخلف فيها من هو خليفة عن الأمير العام بالمصر الكبير وفى حديث معاذ من خرج من مخلاف إلى مخلاف يدل على ذلك ما رواه محمد بن بشار حدثنا أبو عامر العقدى حدثنا شعبة سمعت قيس بن عمران بن عمير يحدث عن أبيه عن جده أنه خرج مع عبد الله بن مسعود وهو رديفه على بغلة له مسيرة أربعة فراسخ فصلى الظهر ركعتين قال شعبة أخبرنى بهذا قيس بن عمران وأبوه عمران بن عمير شاهد وعمير مولى ابن مسعود فهذا يدل على ان ابن مسعود لم يحد السفر بمسافة طويلة ولكن اعتبر أمرا آخر كالأعمال وهذا أمر لا يحد بمسافة ولا زمان لكن بعموم الولايات وخصوصها مثل من كان بدمشق فاذا سافر إلى ما هو خارج عن أعمالهم كان مسافرا وأصحاب هذه الأقوال كأنهم رأوا ما رخص فيه للمسافر إنما رخص فيه للمشقة التى تلحقه فى السفر واحتياجه إلى الرخصة وعلموا أن المنتقل فى المصر الواحد من مكان إلى مكان ليس بمسافر وكذلك الخارج إلى ما حول المصر كما كان النبى يخرج إلى قباء كل سبت راكبا وماشيا ولم يكن يقصر وكذلك المسلمون كانوا ينتابون الجمعة من العوالى ولم يكونوا يقصرون فكان المنتقل فى العمل الواحد بهذه المثابة عندهم وهؤلاء يحتج عليهم بقصر أهل مكة مع النبى صلى الله عليه وسلم بعرفة ومزدلفة ومنى مع أن هذه تابعة لمكة ومصافة إليها وهى أكثر تبعا لها من السواد للكوفة وأقرب إليها منها فإن بين باب بنى شيبة وموقف الامام بعرفة عند الصخرات التى فى اسفل جبل الرحمة بريد بهذه المسافة وهذا السير وهم مسافرون وإذا قيل المكان الذى يسافرون إليه ليس بموضع مقام قيل بل

كان هناك قرية نمرة والنبى لم ينزل بها وكان بها أسواق وقريب منها عرنة التى تصل واديها بعرفة ولأنه لا فرق بين السفر الى بلد يقام فيه وبلد لا يقام فيه إذا لم يقصد الإقامة فإن النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين سافروا إلى مكة وهى بلد يمكن الإقامة فيه وما زالوا مسافرين فى غزوهم وحجهم وعمرتهم وقد قصر النبى الصلاة فى جوف مكة عام الفتح وقال يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر وكذلك عمر بعده فعل ذلك رواه مالك بإسناد صحيح ولم يفعل ذلك رسول الله ولا ابو بكر ولا عمر بمنى ومن نقل ذلك عنهم فقد غلط وهذا بخلاف خروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى قباء كل سبت راكبا وماشيا وخروجه إلى الصلاة على الشهداء فإنه قبل أن يموت بقليل صلى عليهم وبخلاف ذهابه إلى البقيع وبخلاف قصد أهل العوالي المدينة ليجمعوا بها فإن هذا كله ليس بسفر فإن اسم المدينة متناول لهذا كله وإنما الناس قسمان الأعراب وأهل المدينة ولأن الواحد منهم يذهب ويرجع إلى أهله فى يومه من غير أن يتاهب لذلك أهبة السفر فلا يحمل زادا ولا مزادا لا فى طريقه ولا فى المنزل الذى يصل إليه ولهذا لا يسمى من ذهب إلى ربض مدينته مسافرا ولهذا تجب الجمعة على من حول المصر عند أكثر العلماء وهو يقدر بسماع النداء وبفرسخ ولو كان ذلك سفرا لم تجب الجمعة على من ينشىء لها سفرا فإن الجمعة لا تجب على مسافر فكيف يجب أن يسافر لها وعلى هذا فالمسافر لم يكن مسافرا لقطعه مسافة محدودة ولا لقطعه أياما محدودة بل كان مسافرا لجنس العمل الذى هو سفر وقد يكون مسافرا من مسافة قريبة ولا يكون مسافرا من أبعد منها مثل أن يركب فرسا سابقا ويسير مسافة بريد ثم يرجع من ساعته إلى بلده فهذا ليس مسافرا وان قطع هذه المسافة فى يوم وليلة ويحتاج فى ذلك إلى حمل زاد ومزاد كان مسافرا كما كان سفر أهل مكة إلى عرفة ولو ركب رجل فرسا سابقا إلى عرفة ثم رجع من يومه إلى مكة لم يكن مسافرا يدل على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قال يمسح المسافر ثلاثة أيام ولياليهن والمقيم يوما وليلة فلو قطع بريدا فى ثلاثة أيام كان مسافرا ثلاثة أيام ولياليهن فيجب أن يمسح مسح سفر ولو قطع البريد فى نصف يوم لم يكن مسافرا فالنبى إنما اعتبر أن يسافر ثلاثة أيام سواء كان سفره حثيثا أو بطيئا سواء كانت الأيام طوالا أو قصارا ومن قدره بثلاثة أيام أو يومين جعلوا ذلك بسير الإبل والإقدام وجعلوا المسافة الواحدة حدا يشترك فيه جميع الناس حتى لو قطعها فى يوم جعلوه مسافرا ولو قطع ما دونها فى عشرة أيام لم يجعلوه مسافرا وهذا مخالف لكلام النبى وأيضا فالنبى صلى الله عليه وسلم فى ذهابه إلى قباء والعوالى واحد ومجىء أصحابه من تلك المواضع إلى المدينة إنما كانوا يسيرون فى عمران بين الأبنية والحوائط التى هى النخيل وتلك مواضع الإقامة لا مواضع السفر

والمسافر لا بد ان يسفر أى يخرج إلى الصحراء فإن لفظ السفر يدل على ذلك يقال سفرت المرأة عن وجهها إذا كشفته فإذا لم يبرز إلى الصحراء التى ينكشف فيها من بين المساكن لا يكون مسافرا قال تعالى {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ}التوبة١٠١ وقال تعالى {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ}التوبة١٢٠ فجعل الناس قسمين أهل المدينة والأعراب والأعراب هم أهل العمود وأهل المدينة هم أهل المدر فجميع من كان ساكنا فى مدر كان من أهل المدينة ولم يكن للمدينة سور يتميز به داخلها من خارجها بل كانت محال محال وتسمى المحلة دارا والمحلة القرية الصغيرة فيها المساكن وحولها النخل والمقابر ليست أبنية متصلة فبنو مالك بن النجار فى قريتهم حوالى دورهم أموالهم ونخيلهم وبنو عدى بن النجار دارهم كذلك وبنو مازن بن النجار كذلك وبنو سالم كذلك وبنو ساعدة كذلك وبنو الحارث بن الخزرج كذلك وبنو عمرو بن عوف كذلك وبنو عبد الاشهل كذلك وسائر بطون الأنصار كذلك كما قال النبى خير دور الأنصار دار بنى النجار ثم دار بنى عبد الاشهل ثم دار بنى الحارث دار بنى ساعدة وفى كل دور الانصار خير وكان النبى قد نزل فى بنى مالك بن النجار وهناك بنى مسجده وكان حائطا لبعض بنى النجار فيه نخل وخرب وقبور فأمر بالنخل فقطعت وبالقبور فنبشت وبالخرب فسويت وبنى مسجده هناك وكانت سائر دور الأنصار حول ذلك قال ابن حزم ولم يكن هناك مصر قال وهذا أمر لا يجهله أحد بل هو نقل الكوافى عن الكوافى وذلك كله مدينة واحدة كما جعل الله الناس نوعين أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب فمن ليس من الأعراب فهو من أهل المدينة لم يجعل للمدينة داخلا وخارجا وسورا وربضا كما يقال مثل ذلك فى المدائن المسورة وقد جعل النبى حرم المدينة بريدا فى بريد والمدينة بين لابتين واللابة الأرض التى ترابها حجارة سود قال ما بين لابتيها حرم فما بين لابتيها كله من المدينة وهو حرم فهذا بريد لا يكون الضارب فيه مسافرا وان كان المكى إذا خرج إلى عرفات مسافرا فعرفة ومزدلفة ومنى صحارى خارجة عن مكة ليست كالعوالي من المدينة وهذا أيضا مما يبين أنه لا اعتبار بمسافة محدودة فإن المسافر فى المصر الكبير لو سافر يومين أو ثلاثة لم يكن مسافرا والمسافر عن القرية الصغيرة إذا سافر مثل ذلك كان مسافرا فعلم أنه لابد أن يقصد بقعة يسافر من مكان إلى مكان فإذا كان ما بين المكانين صحراء لا مساكن فيها يحمل فيها الزاد والمزاد فو مسافر وان وجد الزاد والمزاد بالمكان الذى يقصده وكان عثمان جعل حكم المكان الذى يقصده حكم طريقه فلابد ان يعدم فيه الزاد والمزاد وخالفه أكثر علماء الصحابة وقولهم أرجح فإن النبى قصر

بمكة عام فتح مكة وفيها الزاد والمزاد وإذا كانت منى قرية فيها زاد ومزاد فبينها وبين مكة صحراء يكون مسافرا من يقطعها كما كان بين مكة وغيرها ولكن عثمان قد تأول فى قصر النبى بمكة انه كان خائفا لأنه لما فتح مكة والكفار كثيرون وكان قد بلغه أن هوازن جمعت له وعثمان يجوز القصر لمن كان بحضرة عدو وهذا كما يحكى عن عثمان أنه يعنى النبى إنما أمرهم بالمتعة لأنهم كانوا خائفين وخالفه على وعمران بن حصين وابن عمر وابن عباس وغيرهم من الصحابة وقولهم هو الراجح فإن النبى فى حجة الوداع كان آمنا لا يخاف إلا الله وقد أمر أصحابه بفسخ الحج إلى العمرة والقصر وقصر العدد إنما هو معلق بالسفر ولكن إذا اجتمع الخوف والسفر ابيح قصر العدد وقصر الركعات وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم هو وعمر بعده لما صليا بمكة يا أهل مكة أتموا صلاتكم فانا قوم سفر بين أن الواجب لصلاتهم ركعتين مجرد كونهم سفرا فلهذا الحكم تعلق بالسفر ولم يعلقه بالخوف فعلم أن قصر العدد لا يشترط فيه خوف بحال وكلام الصحابة أو أكثرهم فى هذا الباب يدل على أنهم لم يجعلوا السفر قطع مسافة محدودة أو زمان محدود يشترك فيه جميع الناس بل كانوا يجيبون بحسب حال السائل فمن رأوه مسافرا أثبتوا له حكم السفر وإلا فلا ولهذا اختلف كلامهم فى مقدار الزمان والمكان فروى وكيع عن الثورى عن منصور بن المعتمر عن مجاهد عن ابن عباس قال إذا سافرت يوما إلى العشاء فإن زدت فاقصر ورواه الحجاج إبن منهال ثنا أبو عوانة عن منصور بن المعتمر عن مجاهد عن ابن عباس قال لا يقصر المسافر فى مسيرة يوم إلى العتمة إلا فى أكثر من ذلك وروى وكيع عن شعبة عن شبيل عن أبى جمرة الضبعي قال قلت لابن عباس أقصر إلى الأيلة قال تذهب وتجىء فى يوم قلت نعم قال لا إلا يوم تام فهنا قد نهى أن يقصر إذا رجع إلى أهله فى يوم وهذه مسيرة بريد وأذن فى يوم وفى الأول نهاه أن يقصر إلا فى أكثر من يوم وقد روى نحو الأول عن عكرمة مولاه قال إذا خرجت من عند أهلك فاقصر فإذا أتيت أهلك فأتمم وعن الأوزاعى لا قصر إلا فى يوم تام وروى وكيع عن هشام بن ربيعة بن الغاز الجرشي عن عطاء بن أبى رباح قلت لابن عباس أقصر إلى عرفة قال لا ولكن إلى الطائف وعسفان فذلك ثمانية وأربعون ميلا وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء قلت لإبن عباس اقصر إلى منى أو عرفة قال لا ولكن إلى الطائف أو جدة أو عسفان فإذا وردت على ماشية لك أو أهل فأتم الصلاة وهذا الاثر قد اعتمده أحمد والشافعى قال ابن حزم من عسفان إلى مكة بسير الخلفاء الراشدين ٢ اثنان وثلاثون ميلا قال واخبرنا الثقاة ان من جدة إلى مكة أربعين ميلا قلت نهيه عن القصر إلى منى وعرفة قد يكون لمن يقصد ذلك لحاجة ويرجع من يومه إلى مكة حتى يوافق ذلك ما تقدم من الروايات عنه ويؤيد ذلك أن

ابن عباس لا يخفى عليه أن أهل مكة كانوا يقصرون خلف النبى وأبى بكر وعمر فى الحج إذا خرجوا إلى عرفة ومزدلفة ومنى وابن عباس من أعلم الناس بالسنة فلا يخفى عليه مثل ذلك وأصحابه المكيون كانوا يقصرون فى الحج إلى عرفة ومزدلفة كطاووس وغيره وبن عيينة نفسه الذى روى هذا الأثر عن ابن عباس كان يقصر إلى عرفة فى الحج وكان أصحاب ابن عباس كطاووس يقول أحدهم أترى الناس يعنى أهل مكة صلوا فى الموسم خلاف صلاة رسول الله وهذه حجة قاطعة فإنه من المعلوم أن أهل مكة لما حجوا معه كانوا خلقا كثيرا وقد خرجوا معه إلى منى يصلون خلفه وإنما صلى بمنى أيام منى قصرا والناس كلهم يصلون خلفه أهل مكة وسائر المسلمين لم يأمر أحدا منهم ان يتم صلاته ولم ينقل ذلك احد لإباسناد صحيح ولا ضعيف ثم أبو بكر وعمر بعده كانا يصليان فى الموسم بأهل مكة وغيرهم كذلك ولا يأمران أحدا باتمام مع انه قد صح عن عمر بن الخطاب انه لما صلى بمكة قال يا أهل مكة اتموا صلاتكم فإنا قوم سفر وهذا مروى عن النبى فى أهل مكة عام الفتح لا فى حجة الوداع فإنه فى حجة الوداع لم يكن يصلي فى مكة بل كان يصلي بمنزله وقد رواه أبو داود وغيره وفى اسناده مقال والمقصود أن من تدبر صلاة النبى بعرفة ومزدلفة ومنى بأهل مكة وغيرهم وانه لم ينقل مسلم قط عنه أنه أمرهم بإتمام علم قطعا أنهم كانوا يقصرون خلفه وهذا من العلم العام الذى لا يخفى على ابن عباس ولا غيره ولهذا لم يعلم أحد من الصحابة أمر أهل مكة ان يتموا خلف الإ إذا صلى ركعتين فدل هذا على ان ابن عباس إنما أجاب به من سأله إذا سافر إلى منى أو عرفة سفرا لا ينزل فيه بمنى وعرفة بل يرجع من يومه فهذا لا يقصر عنده لأنه قد بين أن من ذهب ورجع من يومه لا يقصر وإنما يقصر من سافر يوما ولم يقل مسيرة يوم بل اعتبر أن يكون السفر يوما وقد استفاض عنه جواز القصر إلى عسفان وقد ذكر ابن حزم انها اثنان وثلاثون ميلا وغيره يقول أربعة برد ثمانية وأربعون ميلا والذين حدوها ثمانية وأربعين ميلا عمدتهم قول ابن عباس وابن عمر وأكثر الروايات عنهم تخالف ذلك فلو لم يكن إلا قولهما لم يجز أن يؤخذ ببعض أقوالهما دون بعض بل أما أن يجمع بينهما وإما أن يطلب دليل آخر فكيف والآثار عن الصحابة أنواع أخر ولهذا كان المحددون بستة عشر فرسخا من أصحاب مالك والشافعى وأحمد إنما لهم طريقان بعضهم يقول لم أجد أحدا قال بأقل من القصر فيما دون هذا فيكون هذا إجماعا وهذه طريقة الشافعى وهذا أيضا منقول عن الليث بن سعد فهذان الامامان بينا عذرهما أنهما لم يعلما من قال بأقل من ذلك وغيرهما قد علم من قال بأقل من ذلك والطريقة الثانية أن يقولوا هذا قول إبن عمر و ابن عباس ولا مخالف لهما من الصحابة فصار إجماعا وهذا باطل فإنه نقل عنهما هذا وغيره وقد ثبت عن غيرهما

من الصحابة ما يخالف ذلك وثم طريقة ثالثة سلكها بعض أصحاب الشافعى وأحمد وهى أن هذا التحديد مأثور عن النبى كما رواه ابن خزيمة فى مختصر المختصر عن ابن عباس عن النبى أنه قال يا أهل مكة لا تقصروا فى أقل من أربعة برد مكة الى عسفان وهذا ما يعلم أهل المعرفة بالحديث أنه كذب على النبى صلى الله عليه وسلم ولكن هو من كلام ابن عباس أفترى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما حد مسافة القصر لأهل مكة دون أهل المدينة التى هى دار السنة والهجرة والنصرة ودون سائر المسلمين وكيف يقول هذا وقد تواتر عنه أن أهل مكة صلوا خلفه بعرفة ومزدلفة ومنى ولم يحد النبى صلى الله عليه وسلم قط السفر بمسافة لا بريد ولا غير بريد ولا حدها بزمان ومالك قد نقل عنه أربعة برد كقول الليث والشافعى وأحمد وهو المشهور عنه قال فإن كانت أرض لا أميال فيها فلا يقصرون فى أقل من يوم وليلة للثقل قال وهذا أحب ما تقصر فيه الصلاة إلى وقد ذكر عنه لاقصر إلا فى خمسة وأربعين ميلا فصاعدا وروى عنه لا قصر إلا فى اثنين وأربعين ميلا فصاعدا وروى عنه لا قصر إلا فى أربعين ميلا فصاعدا وروى عنه إسماعيل بن أبى أويس لا قصر إلا فى ستة وأربعين ميلا قصدا وذكر هذه الروايات القاضى إسماعيل بن إسحاق فى كتابه المبسوط ورأى لأهل مكة خاصة أن يقصروا الصلاة فى الحج خاصة إلى منى فما فوقها وهى أربعة أميال وروى عنه ابن القاسم أنه قال فيمن خرج ثلاثة أميال كالرعاء وغيرهم فتأول فأفطر فى رمضان لا شىء عليه إلا القضاء فقط وروى عن الشافعى أنه لا قصر فى أقل من ستة وأربعين ميلا بالهاشمى والآثار عن ابن عمر أنواع فروى محمد بن المثنى حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سفيان الثورى سمعت جبلة بن سحيم يقول سمعت ا بن عمر يقول لو خرجت ميلا لقصرت الصلاة وروى إبن أبى شيبة حدثنا وكيع حدثنا مسعر عن محارب بن زياد سمعت ابن عمر يقول انى لأسافر الساعة من النهار فأقصر يعنى الصلاة محارب قاضى الكوفة من خيار التابعين أحد الأئمة ومسعر أحد الأئمة وروى ابن أبى شيبة حدثنا على بن مسهر عن أبى إسحاق الشيبانى عن محمد بن زيد بن خليدة عن إبن عمر قال تقصر الصلاة فى مسيرة ثلاثة أميال قال ابن حزم محمد إبن زيد هو طائى ولاه محمد بن أبى طالب القضاء بالكوفة مشهور من كبار التابعين وروى مالك عن نافع عن ابن عمر انه قصر إلى ذات النصب قال وكنت أسافر مع ابن عمر البريد فلا يقصر قال عبد الرزاق ذات النصب من المدينة على ثمانية عشر ميلا فهذا نافع يخبر عنه أنه قصر فى ستة فراسخ وانه كان يسافر بريدا وهو أربعة فراسخ فلا يقصر وكذلك روى عنه ما ذكره غندر حدثنا شعبة عن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص ابن عاصم بن عمر بن الخطاب قال خرجت مع عبد الله

بن عمر بن الخطاب إلى ذات النصب وهى من المدينة على ثمانية عشر ميلا فلما أتاها قصر الصلاة وروى معمر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر انه كان يقصر الصلاة فى مسيرة أربعة برد وما تقدم من الروايات يدل على انه كان يقصر فى هذا وفى ما هو أقل منه وروى وكيع عن سعيد بن عبيد الطائى عن على بن ربيعة الوالبى الاسدى قال سألت ابن عمر عن تقصير الصلاة قال حاج أو معتمرأو غاز فقلت لا ولكن أحدنا يكون له الضيعة فى السواد فقال تعرف السويداء فقلت سمعت بها ولم أرها قال فإنها ثلاث وليلتان وليلة للمسرع إذا خرجنا اليها قصرنا قال ابن حزم من المدينة إلى السويداء اثنان وسبعون ميلا أربعة وعشرون فرسخا قلت فهذا مع ما تقدم يبين أن ابن عمر لم يذكر ذلك تحديدا لكن بين بهذا جواز القصر فى مثل هذا لأنه كان قد بلغه أن أهل الكوفة لا يقصرون فى السواد فأجابه ابن عمر بجواز القصر وأما ما روى من طريق ابن جريج أخبرنى نافع أن ابن عمر كان أدنى ما يقصر الصلاة إليه مال له بخيبر وهى مسيرة ثلاث قواصد لم يقصر فيما دونه وكذلك ما رواه حماد بن سلمة عن أيوب بن حميد كلاهما عن نافع عن ابن عمر انه كان يقصر الصلاة فيما بين المدينة وخيبر وهى بقدر الأهواز من البصرة لا يقصر فيما دون ذلك قال ابن حزم بين المدينة وخيبر كما بين البصرة والأهواز وهى مائة ميل غير أربعة أميال قال وهذا مما اختلف فيه على ابن عمر ثم على نافع أيضا عن ابن عمر قلت هذا النفى وهو انه لم يقصر فيما دون ذلك غلط قطعا ليس هذا حكاية عن قوله حتى يقال انه اختلف اجتهاده بل نفى لقصره فيما دون ذلك وقد ثبت عنه بالرواية الصحيحة من طريق نافع وغيره انه قصر فيما دون ذلك فهذا قد يكون غلطا فمن روى عن أيوب ان قدر أن نافعا روى هذا فيكون حين حدث بهذا قد نسى أن ابن عمر قصر فيما دون ذلك فإنه قد ثبت عن نافع عنه أنه قصر فيما دون ذلك وروى حماد بن زيد حدثنا أنس بن سيرين قال خرجت مع أنس بن مالك إلى أرضه وهى على رأس خمسة فراسخ فصلى بنا العصر فى سفينة وهى تجرى بنا فى دجلة قاعدا على بساط ركعتين ثم سلم ثم صلى بنا ركعتين ثم سلم وهذا فيه أنه إنما خرج إلى أرضه المذكورة ولم يكن سفره إلى غيرها حتى يقال كانت من طريقه فقصر فى خمسة فراسخ وهى بريد وربع وفى صحيح مسلم حدثنا ابن ابى شيبة وابن بشار كلاهما عن غندر عن شعبة عن يحيى بن يزيد الهنائى سألت أنس بن مالك عن قصر الصلاة فقال كان رسول الله إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ شعبة شك صلى ركعتين ولم ير أنس أن يقطع من المسافة الطويلة هذا لأن السائل سأله عن قصر الصلاة وهو سؤال عما يقصر فيه ليس سؤالا عن أول صلاة يقصرها ثم انه لم يقل أحد إن أول صلاة لا يقصرها إلافى ثلاثة أميال أو أكثر من ذلك فليس فى هذا

جواب لو كان المراد ذلك ولم يقل ذلك أحد فدل على أن أنسا أراد انه من سافر هذه المسافة قصر ثم ما أخبر به عن النبى صلى الله عليه وسلم فعل من النبى لم يبين هل كان ذلك الخروج هو السفر أو كان ذلك هو الذى قطعه من السفر فإن كان اراد به ان ذلك كان سفره فهو نص وان كان ذلك الذى قطعه من السفر فانس بن مالك استدل بذلك على انه يقصر إليه إذا كان هو السفر يقول انه لا يقصر الا فى السفر فلولا ان قطع هذه المسافة سفر لما قصر وهذا يوافق قول من يقول لا يقصر حتى يقطع مسافة تكون سفرا لايكفى مجرد قصده المسافة التى هى سفر وهذ قول ابن حزم وداود وأصحابه وابن حزم يحد مسافة القصر بميل لكن داود وأصحابه يقولون لا يقصر إلا فى حج أو عمرة أو غزو وابن حزم يقول إنه يقصر فى كل سفر وابن حزم عنده انه لا يفطر إلا فى هذه المسافة وأصحابه يقولون إنه يفطر فى كل سفر بخلاف القصر لأن القصر ليس عندهم فيه نص عام عن الشارع وإنما فيه فعله انه قصر فى السفر ولم يجدوا احدا قصر فيما دون ميل ووجدوا الميل منقولا عن ابن عمر وابن حزم يقول السفر هو البروز عن محلة الاقامة لكن قد علم أن النبى خرج إلى البقيع لدفن الموتى وخرج إلى الفضاء للغائط والناس معه فلم يقصروا ولم يفطروا فخرج هذا عن أن يكون سفرا ولم يجدوا أقل من ميل يسمى سفرا فان ابن عمر قال لو خرجت ميلا لقصرت الصلاة فلما ثبت أن هذه المسافة جعلها سفرا ولم نجد أعلا منها يسمى سفرا جعلنا هذا هو الحد قال وما دون الميل من آخر بيوت قريته له حكم الحضر فلا يقصر فيه ولا يفطر وإذا بلغ الميل فحينئذ صار له سفر يقصر فيه الصلاة ويفطر فيه فمن حينئذ يقصر ويفطر وكذلك إذا رجع فكان على أقل من ميل فإنه يتم ليس فى سفر يقصر فيه قلت جعل هؤلاء السفر محدودا فى اللغة قالوا وأقل ما سمعنا أنه يسمى سفرا هو الميل وأولئك جعلوه محدودا بالشرع وكلا القولين ضعيف أما الشارع فلم يحده وكذلك أهل اللغة لم ينقل أحد عنهم أنهم قالوا الفرق بين ما يسمى سفرا وما لا يسمى سفرا هو مسافة محدوة بل نفس تحديد السفر بالمسافة باطل فى الشرع واللغة ثم لو كان محدودا بمسافة ميل فإن أريد أن الميل يكون من حدود القرية المختصة به فقد كان النبى يخرج أكثر من ميل من محله فى الحجاز ولايقصر ولا يفطر وإن أراد من المكان المجتمع الذى يشمله اسم مدينة ميلا قيل له فلا حجة لك فى خروجه إلى المقابر والغائط لأن تلك لم تكن خارجا عن آخر حد المدينة ففى الجملة كان يخرج إلى العوالى وإلى أحد كما كان يخرج إلى المقابر والغائط وفى ذلك ما هو أبعد من ميل وكان النبى وأصحابه يخرجون من المدينة إلى أكثر من ميل ويأتون إليها أبعد من ميل ولا يقصرون كخروجهم إلى قباء والعوالى وأحد ودخولهم للجمعة وغيرها من هذه الأماكن وكان كثير من مساكن المدينة

عن مسجده أبعد من ميل فإن حرم المدينة بريد فى بريد حتى كان الرجلان من أصحابه لبعد المكان يتناوبان الدخول يدخل هذا يوماوهذا يوما كما كان عمر بن الخطاب وصاحبه الأنصارى يدخل هذا يوما وهذا يوما وقول ابن عمر لو خرجت ميلا قصرت الصلاة هو كقوله إنى لأسافر الساعة من النهار فأقصر وهذا إما أن يريد به ما يقطعه من المسافة التى يقصدها فيكون قصده إنى لا أؤخر القصر إلى أن أقطع مسافة طويلة وهذا قول جماهير العلماء إلا من يقول إذا سافر نهارا لم يقصر إلى الليل وقد احتج العلماء على هؤلاء بأن النبى صلى الله عليه وسلم صلى الظهر بالمدينة أربعا والعصر بذى الحليفة ركعتين وقد يحمل حديث أنس على هذا لكن فعله يدل على المعنى الأول أو يكون مراد ابن عمر من سافر قصر ولو كان قصده هذه المسافة إذا كان فى صحراء بحيث يكون مسافرا لا يكون متنقلا بين المساكن فإن هذا ليس بمسافر باتفاق الناس وإذا قدر أن هذا مسافر فلو قدر أنه مسافر أقل من الميل بعشرة أذرع فهو أيضا مسافر فالتحديد بالمسافة لا أصل له فى شرع ولا لغة ولا عرف ولا عقل ولا يعرف عموم الناس مساحة الأرض فلا يجعل ما يحتاج إليه عموم المسلمن معلقا بشىء لا يعرفونه ولم يمسح أحد الأرض على عهد النبى ولا قدر النبى الأرض لا بأميال ولا فراسخ والرجل قد يخرج من القرية إلى صحراء لحطب يأتى به فيغيب اليومين والثلاثة فيكون مسافرا وإن كانت المسافة أقل من ميل بخلاف من يذهب ويرجع من يومه فإنه لا يكون فى ذلك مسافرا فإن الأول يأخذ الزاد والمزاد بخلاف الثانى فالمسافة القريبة فى المدة الطويلة تكون سفرا والمسافة البعيدة فى المدة القليلة لا تكون سفرا فالسفر يكون بالعمل الذى سمى سفرا لأجله والعمل لا يكون إلا فى زمان فإذا طال العمل وزمانه فاحتاج إلى ما يحتاج إليه المسافر من الزاد والمزاد سمى مسافرا وإن لم تكن المسافة بعيدة وإذا قصر العمل والزمان بحيث لا يحتاج إلى زاد ومزاد لم يسم سفرا وإن بعدت المسافة فالأصل هو العمل الذى يسمى سفرا ولايكون العمل الا فى زمان فيعتبر العمل الذى هو سفر ولا يكون ذلك إلا فى مكان يسفر عن الأماكن وهذا مما يعرفه الناس بعاداتهم ليس له حد فى الشرع ولا اللغة بل ما سموه سفرا فهو سفر [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ١٠٥-١٣٥

## ٤-فى المتعارض يرجح الأرجح من منفعة الحسنة ومضرة السيئة

قد أمر الله ورسوله بأفعال واجبة ومستحبة وإن كان الواجب مستحبا وزيادة ونهى عن أفعال محرمة او مكروهة والدين هو طاعته وطاعة رسوله وهو الدين والتقوى والبر والعمل الصالح والشرعة والمناهج وإن كان بين هذه الأسماء فروق وكذلك حمد أفعالا هي الحسنات ووعد عليها وذم أفعالا هي السيئات وأوعد عليها وقيد الأمور بالقدرة والاستطاعة و الوسع والطاقة فقال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ وقال تعالى {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}البقرة٢٨٦وقال تعالى{وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا}الطلاق٧ وكل من الآيتين وإن كانت عامه فسبب الأولى المحاسبه على ما فى النفوس وهو من جنس أعمال القلوب وسبب الثانيه الاعطاء الواجب وقال فى المتعارض {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ}النساء١٠١ {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ}النساء١٠٢ الى قوله {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ}النساء١٠٢ ونقول إذا ثبت أن الحسنات لها منافع وإن كانت واجبة كان فى تركها مضار والسيئات فيها مضار وفى المكروه بعض حسنات فالتعارض إما بين حسنتين لا يمكن الجمع بينهما فتقدم أحسنهما بتفويت المرجوح وإما بين سيئتين لا يمكن الخلو منهما فيدفع اسوأهما باحتمال أدناهما واما بين حسنة وسيئة لا يمكن التفريق بينهما بل فعل الحسنه مستلزم لوقوع السيئة وترك السيئة مستلزم لترك الحسنة فيرجح الأرجح من منفعة الحسنة ومضرة السيئة [1]

## ٥-سنة رسول الله تفسر مجمل القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه وهى مفسرة له لا مخالفة لظاهره

ان الله سبحانه أمرنا بالمعروف وهو طاعته وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر ونهى عن المنكر وهو معصيته ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور وقيد الايجاب بالاستطاعة والوسع واباح مما حرم ما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٥٠

يضطر المرء اليه غير باغ ولا عاد فقال تعالى اتقوا الله حق تقاته سورة آل عمران ١٠٢ وقال {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه واذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم فأوجب مما امر به ما يستطاع وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث اخر انكم لن تحصوا او تستطيعوا كل ما امرتم به ولكن وقال ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا وهذا العام المجمل فصله فقال {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً}النساء١٠١ [1]

ومما يشبه هذه الآية فى العموم والجمع وإن إشتبه معناها قوله تعالى {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ}النساء١٠١ فإنه أباح القصر بشرطين الضرب فى الأرض وخوف الكفار ولهذا إعتقد كثير من الناس أن القصر مجرد قصر العدد أشكل عليهم فمن أهل البدع من قال لا يجوز قصر الصلاة إلا فى حال الخوف حتى روى الصحابة السنن المتواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى القصر فى سفر الأمن وقال إبن عمر صلاة السفر ركعتان من خالف السنة فقد كفر فإن من الخوارج من يرد السنة المخالفة لظاهر القرآن مع علمه بأن الرسول سنها وقال حارثه بن وهب صلينا مع رسول الله آمن ما كان ركعتين وقال عبدالله بن مسعود صلينا خلف رسول الله بمنى ركعتين وخلف أبى بكر ركعتين وخلف عمر ركعتين وقال عمر ليعلى بن أمية لما سأله عن الآية فقال عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقة تصدق بها عليكم فإقبلوا صدقته فأخبر النبى أن القصر فى سفر الأمن صدقة من الله ولم يقل إنها مخالفة لظاهر القرآن فنقول القصر الكامل المطلق هو قصر العدد وقصر الأركان فقصر العدد جعل الرباعية ركعتين وقصر الأركان هو قصر القيام والركوع والسجود كما فى صلاة الخوف الشديد وصلاة الخوف اليسير فالسفر سبب قصر العدد والخوف سبب قصر الأركان فإذا إجتمع الأمران قصر العدد والأركان وإن إنفرد أحد السببين إنفرد قصره فقوله سبحانه {أن

---

[1] الاستقامة ج: ٢ ص: ٣١٦

تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ}النساء١٠١ مطلق فى هذا القصر وهذا القصر وسنة رسول الله تفسر مجمل القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه وهى مفسرة له لا مخالفة لظاهره ونظير هذا أيضا ما قرىء به فى قوله {وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ}المائدة٦ من أن المسح مطلق يدخل فيه المسح بإسالة وهو الغسل والمسح بغير إسالة وهو المسح بلا غسل فالقرآن أمر بمسح مطلق والسنة تثبت أن المسح فى الرأس بغير إسالة والمسح على الرجلين بإساله فهى مفسرة له لا مخالفة لظاهره فينبغى تدبر القرآن ومعرفة وجوهه فإن أكثر ما يتوهم الناس أنه قد خولف ظاهره وليس كذلك وإنما له دلالات يعرفها من أعطاه الله فهما فى كتابه ويستفيد بذلك خمسة فوائد أحدها تقرير الأحكام بدلائل القرآن والثانى بيان إتفاق الكتاب والسنة والثالث بيان أن السنة مفسرة له لا منافية له والرابع بيان المعانى والبيان التى فى القرآن والخامس الإجماع موافق للكتاب والسنة والله أعلم [1]

## ٦-لا يجوز تأخير صلاة النهار إلى الليل ولا تأخير صلاة الليل إلى النهار

وقد اتفق المسلمون على أنه لا يجوز تأخير صلاة النهار إلى الليل ولا تأخير صلاة الليل إلى النهار لا لمسافر ولا لمريض ولا غيرهما لكن يجوز عند الحاجة أن يجمع المسلم بين صلاتي النهار وهي الظهر والعصر في وقت إحداهما ويجمع بين صلاتي الليل وهي المغرب والعشاء في وقت إحداهما وذلك لمثل المسافر والمريض وعند المطر ونحو ذلك من الأعذار وقد أوجب الله على المسلمين أن يصلوا بحسب طاقتهم كما قال الله تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ فعلى الرجل أن يصلي بطهارة كاملة وقراءة كاملة وركوع وسجود كامل فإن كان عادما للماء أو يتضرر باستعماله لمرض أو برد أو غير ذلك وهو محدث أو جنب يتيمم الصعيد الطيب وهو التراب يمسح به وجهه ويديه ويصلي ولا يؤخرها عن وقتها باتفاق العلماء وكذلك إذا كان محبوسا أو مقيدا أو زمنا أو غير ذلك صلى على حسب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٩٠-٩٢

حاله وإذا كان بإزاء عدوه صلى أيضا صلاة الخوف قال الله تعالى {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً{١٠١} وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ {١٠٢} النساء ١٠١-١٠٢ إلى قوله {وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ {١٠٢} النساء١٠٢ إلى قوله {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً{١٠٣} النساء١٠٣ ويجب على أهل القدرة من المسلمين أن يأمروا بالصلاة كل أحد من الرجال والنساء حتى الصبيان قال النبي مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع [١]

و لا يحل تأخيرها عن وقتها إلا لناو جمعها أو مشتغل عنها بشرطها أما فعلها في الوقت المضروب لها ففرض و تأخيرها عنه عمدا من الكبائر لقوله تعالى {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى}البقرة٢٣٨ و المحافظة عليها فعلها في الوقت لأن سبب نزول الآية تأخيرالصلاة يوم الخندق دون تركها لأن السلف فسروها بذلك و لأن المحافظة خلاف الإهمال و الإضاعة و من أخرها عن وقتها فقد أهملها و لم يحافظ عليها و قوله تعالى {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً}مريم٥٩ و أضاعتها تأخيرها عن وقتها كذلك فسرها ابن مسعود و إبراهيم و القاسم بن محمد و الضحاك و غيرهم من غير مخالف لهم قال ابن مسعود إضاعتها صلاتها لغير وقتها لأن الشيء الضائع ليس هو معدوما إنما هو مهمل غير محفوظ و قوله تعالى {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{٥} الماعون ٤-٥ والمشهور منها إضاعة الوقت كذلك فسر هذه المواضع جماهير الصحابة و التابعين و هو معقول من الكلام و قال تعالى {إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً}النساء١٠٣ و أمر سبحانه الخائف إن يصلي مع الإخلال بكثير من الأركان و كذلك المتيمم و نحوه و لو جاز التأخير لما احتاج ذلك إلى شيء من ذلك وسائر الآيات الموجبة فعلها في الوقت المحدود مثل قوله {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى}طه١٣٠ وقوله تعالى {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ}الإسراء٧٨ دليل مفصل على ذلك وكذلك الأحاديث عن أبي ذر رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا أبا ذر إنها ستكون عليكم أئمة

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤٢٩

يميتون الصلاة فان ادركتموهم فصلوا الصلاة لوقتها واجعلوا صلاتكم معهم نافلة رواه احمد ومسلم وعن أبي قتادة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس في النوم تفريط إنما التفريط في اليقظة إن يؤخر صلاة إلى وقت الصلاة الأخرى رواه مسلم والنصوص في ذلك كثيرة و هو مجمع عليه [١]

## ٧-من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها أشد إضاعة

ان الصلاة هى أعرف المعروف من الأعمال وهى عمود الاسلام وأعظم شرائعة وهى قرينة الشهادتين وانما فرضها الله ليلة المعراج وخاطب بها الرسول بلا واسطة لم يبعث بها رسولا من الملائكة وهى آخر ما وصى به النبى أمته وهى المخصوصة بالذكر فى كتاب الله تخصيصا بعد تعميم كقوله تعالى {وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ}الأعراف١٧٠ وقوله {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ}العنكبوت٤٥ وهى المقرونه بالصبر وبالزكاة وبالنسك وبالجهاد فى مواضع من كتاب الله كقوله تعالى {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ}البقرة٤٥ وقوله {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ}البقرة٤٣وقوله {إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي}الأنعام١٦٢ وقوله {أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً}الفتح٢٩ وقوله {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ}النساء١٠٢ الى وقوله {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً}النساء١٠٣ وأمرها أعظم من ان يحاط به فاعتناء ولاة الامر بها يجب أن يكون فوق اعتنائهم بجميع الاعمال ولهذا كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكتب الى عماله ان أهم أمركم عندى الصلاة من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها أشد إضاعة رواه مالك وغيره [٢]

---

[١] شرح العمدة ج: ٤ ص: ٥٣-٥٤

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٧٠

## ٨-إقامة الصلاة تتضمن إتمامها بحسب الإمكان

فى بيان ما أمر الله به ورسوله من إقام الصلاة وإتمامها والطمأنينة فيها قال الله تعالى فى غير موضع من كتابه {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ}البقرة٤٣ وقال تعالى {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}البقرة٢٣٨ وسيأتى بيان الدلالة فى هذه الآيات وقد أخرج البخارى ومسلم فى الصحيحين وأخرج أصحاب السنن أبوداود والترمذى والنسائى وإبن ماجه وأصحاب المسانيد كمسند أحمد وغير ذلك من اصول الإسلام عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبى فرد رسول الله عليه السلام وقال إرجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان يصلي ثم سلم عليه فقال رسول الله وعليك السلام ثم قال إرجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل والذى بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمنى قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم إركع حتى تطمئن راكعا ثم إرفع حتى تعتدل قائما ثم إسجد حتى تطمئن ساجدا ثم إجلس حتى تطمئن جالسا ثم إفعل ذلك فى صلاتك كلها وفى رواية للبخارى إذا قمت إلى الصلاة فإسبغ الوضوء ثم إستقبل القبلة فكبر وإقرأ بما تيسر من القرآن ثم إركع حتى تطمئن راكعا ثم إرفع رأسك حتى تعتدل قائما ثم إسجد حتى تطمئن ساجدا ثم إرفع حتى تستوى وتطمئن جالسا ثم إسجد حتى تطمئن ساجدا ثم إرفع حتى تستوى قائما ثم إفعل ذلك فى صلاتك كلها وفى رواية له ثم إركع حتى تطمئن راكعا ثم إرفع حتى تستوى قائما وباقيه مثله وفى رواية وإذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك وما انتقصت من هذا فإنما إنتقصته من صلاتك وعن رفاعة بن رافع رضى الله عنه أن رجلا دخل المسجد فذكر الحديث وقال فيه فقال النبى صلى الله عليه وسلم إنه لاتتم صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ فيضع الوضوء مواضعه ثم يكبر ويحمد الله عز وجل ويثنى عليه ويقرأ بما شاء من القرآن ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن راكعا ثم يقول الله اكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوى قائما ثم يسجد حتى يطمئن ساجدا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوى قاعدا ثم يقول الله أكبر ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل ذلك فقد تمت صلاته وفى رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز وجل فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله ويحمده ثم يقرأ من القرآن ما أذن له وتيسر وذكر نحو اللفظ الأول وقال ثم يكبر فيسجد فيمكن

وجهه وربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله وتسترخى ثم يكبر فيستوى قاعدا على مقعدته ويقيم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم صلاة لأحدكم حتى يفعل ذلك رواه أهل السنن أبوداود والنسائى وإبن ماجه والترمذى وقال حديث حسن والروايتان لفظ أبى داود وفى رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم إقرأ بأم القرآن وبما شاء الله أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك عى ركبتيك وإمدد ظهرك وقال إذا سجدت فمكن لسجودك فإذا رفعت فإقعد على فخذك اليسرى وفى رواية أخرى قال إذا أنت قمت فى صلاتك فكبر الله عز وجل ثم إقرأ ما تيسر عليك من القرآن وقال فيه فإذا جلست فى وسط الصلاة فإطمئن وإفترش فخذك اليسرى ثم تسهد ثم غذا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ من صلاتك وفى رواية أخرى قال فتوضا كما أمر الله ثم تشهد فأتم ثم كبر فإن كان معك قرآن فإقرأ به وإلا فإحمد الله عز وجل وكبره وهلله وقال فيه وإن إنتقصت منه شيئا إنتقصت من صلاتك فالنبى أمر ذلك المسىء فى صلاته بأن يعيد الصلاة وامر الله ورسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب وأمره إذا قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع والسجود وأمره المطلق على الإيجاب وأيضا قال له فإنك لم تصل فنفى أن يكون عمله الأول صلاة والعمل لا يكون منفيا إلا إذا إنتفى شىء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجبه الله عز وجل فإنه لا يصح نفيه لإنتفاء شىء من المستحبات التى ليست بواجبة وأما ما يقوله بعض الناس إن هذا نفى للكمال كقوله لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد فيقال له نعم هو لنفى الكمال لكن لنفى كمال الواجبات أو لنفى كمال المستحبات فأما الأول فحق وأما الثانى فباطل لا يوجد مثل ذلك فى كلام الله عز وجل ولا فى كلام رسوله قط وليس بحق فإن الشىء إذا كملت واجباته فكيف يصح نفيه وأيضا فلو جاز لجاز نفى صلاة عامة الأولين والآخرين لأن كمال المستحبات من أندرالأمور وعلى هذا فما جاء من نفى الأعمال فى الكتاب والسنة فإنما هو لإنتفاء بعض واجباته كقوله تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}وقوله تعالى {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}النور٤٧ وقوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا}الحجرات١٥ الآية وقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ

يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ}النور٦٢ الآية ونظائر ذلك كثيرة ومن ذلك قوله لا إيمان لمن لا أمانه له و لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ولا صلاة إلا بوضوء [1]

## ٩-أن الصلاة مقدرة محددة موقوتة وذلك فى زمانها وأفعالها

أن الله سبحانه وتعالى أمر فى كتابه بإقامة الصلاة وذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى فى غير موضع {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}البقرة٤٣ وإقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتى فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال أقيموا الركوع والسجود فإنى أراكم من بعدى ظهرى وفى رواية أتموا الركوع والسجود وسيأتى تقرير دلالة ذلك والدليل على ذلك من القرآن أنه سبحانه وتعالى قال {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ}النساء١٠١ فأباح الله القصر من عددها والقصر من صفتها ولهذا علقه بشرطين والسفر والخوف فالسفر يبيح قصر العدد فقط كما قال النبى إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ولهذا كانت سنة رسول الله المتواترة عنه التى إتفقت الأمة على نقلها عنه أنه كان يصلى الرباعية فى السفر ركعتين ولم يصلها فى السفر أربعا قط ولا أبو بكر ولا عمر رضى الله عنهما لا فى الحج ولا فى العمرة ولا فى الجهاد والخوف يبيح قصر صفتها كما قال الله فى تمام الكلام {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ}النساء١٠٢ فذكر صلاة الخوف وهى صلاة ذات الرقاع إذا كان العدو فى جهة القبلة وكان فيها أنهم كانوا يصلون خلفه فإذا قام إلى الثانية فارقوا وأتموا لأنفسهم الركعة الثانية ثم ذهبوا إلى مصاف أصحابهم كما قال {فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ}النساء١٠٢ فجعل السجود لهم خاصة فعلم أنهم يفعلونه منفردين ثم قال {وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ}النساء١٠٢ فعلم أنهم يفعلونه وفى هذه الصلاة تفريق المأمومين ومفارقة الأولين للإمام وقيام الآخرين قبل سلام الإمام ويتمون لأنفسهم ركعة ثم قال

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص:٥٢٧- ٥٣١

تعالى {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}النساء١٠٣ فأمرهم بعد الأمن بإقامة الصلاة وذلك يتضمن الإتمام وترك القصر منها الذى أباحه الخوف والسفر فعلم أن الأمر بالإقامة يتضمن الأمر بإتمامها بحسب الإمكان وأما قوله فى صلاة الخوف {فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ}النساء١٠٢ فتلك اقامة وإتمام في حال الإقامة كما أن الركعتين فى السفر إقامة وإتمام كما ثبت فى الصحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال صلاة السفر ركعتان وصلاة الجمعة ركعتان وصلاة لافطر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم وهذا يبين ما رواه مسلم وأهل السنن عن يعلى بن أمية قال قلت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إقصار الناس الصلاة اليوم وإنما قال الله عز وجل {إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ}النساء١٠١ وقد ذهب ذلك اليوم فقال عجبت مما عجبت منه فذكرت ذلك لرسول الله فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته فإن المتعجب ظن أن القصر مطلقا مشروط بعدم الأمن فبينت السنة أن القصر نوعان كل نوع له شرط وثبتت السنة أن الصلاة مشروعة فى السفر تامة لأنه بذلك أمر الناس ليست مقصورة فى الأجر والثواب وإن كانت مقصورة فى الصفة والعمل إذ المصلى يؤمر بالإطالة تارة ويؤمر بالإقتصار تارة وأيضا فإن الله تعالى قال {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً}النساء١٠٣ والموقوت قد فسره السلف بالمفروض وفسروه بماله وقت المفروض هو المقدر المحدد فإن التوقيت والتقدير والتحديد والفرض ألفاظ متقاربة وذلك وجب أن الصلاة مقدرة محددة موقوتة وذلك فى زمانها وأفعالها وكما أن زمانها محدود فأفعالها أولى أن تكون محدودة موقوتة وهو يتناول تقدير عددها بأن جعله خمسا وجعل بعضها أربعا فى الحضر وإثنتين فى السفر وبعضها ثلاثا وبعضها إثنتين فى الحضر والسفر وتقدير عملها أيضا ولذا يجوز عند العذر الجمع المتضمن لنوع من التقديم والتأخير فى الزمان كما يجوز أيضا القصر من عددها ومن صفتها بحسب ما جاءت به الشريعة وذلك أيضا مقدر عند العذر كما هو مقدر عند غير العذر ولهذا فليس للجامع بين الصلاتين أن يؤخر صلاة النهار إلى الليل أو صلاة الليل إلى النهار وصلاتى النهار الظهر والعصر وصلاتى الليل المغرب والعشاء وكذلك اصحاب الأعذار الذين ينقصون من عددها وصفتها وهو موقون محدود ولا بد أن تكون الأفعال محدودة الإبتداء والإنتهاء فالقيام محدود بالإنتصاب بحيث لو خرج عن حد المنتصب إلى حد المنحنى الراكع بإختياره لم يكن قد أتى بحد القيام ومن المعلوم أن ذكر القيام الذى هو القراءة أفضل من ذكر الركوع والسجود ولكن نفس عمل الركوع والسجود أفضل من عمل القيام ولهذا كان عبادة بنفسه ولم يصح

فى شرعنا إلا لله بوجه من الوجوه وغير ذلك من ألأدلة المذكورة فى غير هذا الموضع وإذا كان كذلك فمن المعلوم أن هذه الأفعال مقدرة محدودة بقدر التمكن منها فالساجد عليه أن يصل إلى الأرض وهو غاية التمكن ليس له غاية دون ذلك إلا لعذر وهو من حين نحنائه أخذ فى السجود سواء سجد من قيام أو من قعود فينبغى أن يكون إبتداء السجود مقدرا بذلك بحيث يسجد من قيام أو قعود لا يكون سجوده من إنحناء فإن ذلك يمنع كونه مقدرا محدودا بحسب الإمكان ومتى وجب ذلك وجب الإعتدال فى الركوع وبين السجدتين وأيضا ففى ذلك إتمام الركوع والسجود وأيضا فأفعال الصلاة إذا كانت مقدرة وجب أن يكون لها قدر وذلك هو الطمأنينة فإن من نقر نقر الغراب لم يكن لفعله قدر أصلا فإن قدر الشىء ومقداره فيه زيادة على أصل وجوده ولهذا يقال للشيء الدائم ليس له قدر فإن القدر لا يكون لأدنى حركة بل لحركة ذات إمتداد وأيضا فإن الله عز وجل أمرنا بإقامتها والإقامة أن تجعل قائمة والشىء القائم هو المستقيم المعتدل فلا بد أن تكون أفعال الصلاة مستقرة معتدلة وذلك إنما يكون بثبوت أبعاضها وإستقرارها وهذا يتضمن الطمأنينة فإن من نقر نقر الغراب لم يقم السجود ولا يتم سجوده إذا لم يثبت ولم يستقر وكذلك الراكع يبين ذلك ما جاء فى الصحيحين عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنهما قال قال رسول الله سووا صفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة وأخرجاه من حديث عبدالعزيز بن صهيب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله أتموا الصفوف فإنى أراكم من خلف ظهرى وفى لفظ أقيموا الصفوف وروى البخارى من حديث حميد عن أنس قال أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقيموا صفوفكم وتراصوا فإنى أراكم من وراء ظهرى وكان أحدنا يلصق منكبه بمنكب صاحبه وبدنه ببدنه فإذا كان تقويم الصف وتعديله من تمامها وإقامتها بحيث لو خرجوا عن الإستواء والإعتدال بالكلية حتى يكون رأس هذا عند النصف الأسفل من هذا لم يكونوا مصطفين ولكانوا يؤمرون بالإعادة وهم بذلك أولى من الذى صلى خلف الصف وحده فأمره النبى أن يعيد صلاته فكيف بتقويم أفعالها وتعديلها بحيث لا يقيم صلبه فى الركوع والسجود ويدل على ذلك وهو دليل مستقل فى المسألة ما اخرجاه فى الصحيحين عن شعبة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه عن النبى قال أقيموا الركوع والسجود فوالله إنى لأراكم من بعدى وفى رواية من بعد ظهرى إذا ركعتم وسجدتم [١]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٥٤١-٥٤٦ و القواعد النورانية ج: ١ ص: ٣٤

ما يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه من قوله إنى لأجهز جيشى وأنا فى الصلاة فذاك لأن عمر كان مأمورا بالجهاد وهو أمير المؤمنين فهو أمير الجهاد فصار بذلك من بعض الوجوه بمنزلة المصلى الذى يصلى صلاة الخوف حال معاينة العدو إما حال القتال وإما غير حال القتال فهو مأمور بالصلاة ومامور بالجهاد فعليه أن يؤدى الواجبين بحسب الإمكان وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ}الأنفال٤٥ ومعلوم أن طمأنينة القلب حال الجهاد لا تكون كطمأنينتة حال الأمن فإذا قدر أنه نقص من الصلاة شىء لأجل الجهاد لم يقدح هذا فى كمال إيمان العبد وطاعته ولهذا تخفف صلاة الخوف عن صلاة الأمن ولما ذكر سبحانه وتعالى صلاة الخوف قال {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً}النساء١٠٣ فالإقامة المأمور بها حال الطمأنينة لا يؤمر بها حال الخوف ومع هذا فالناس متفاوتون فى ذلك فإذا قوى إيمان العبد كان حاضر القلب فى الصلاة مع تدبره للأمور بها وعمر قد ضرب الحق على لسانه وقلبه وهو المحدث الملهم فلا ينكر لمثله أن يكون له مع تدبيره جيشه فى الصلاة من الحضور ماليس لغيره لكن لا ريب أن حضوره مع عدم ذلك يكون أقوى ولا ريب أن صلاة رسول الله حال أمنه كانت أكمل من صلاته حال الخوف فى الأفعال الظاهرة فإذا كان الله قد عفا حال الخوف عن بعض الواجبات الظاهرة فكيف بالباطنة وبالجملة فتفكر المصلى فى الصلاة فى أمر يجب عليه قد يضيق وقته ليس كتفكره فيما ليس بواجب أو فيما لم يضق وقته وقد يكون عمر لم يمكنه التفكر فى تدبير الجيش إلا فى تلك الحال وهو أمام الأمة والواردات عليه كثيرة ومثل هذا يعرض لكل أحد بحسب مرتبته والإنسان دائما يذكر فى الصلاة مالا يذكره خارج الصلاة ومن ذلك ما يكون من الشيطان كما يذكر أن بعض السلف ذكر له رجل أنه دفن ما لا وقد نسى موضعه فقال قم فصل فقام فصلى فذكره فقيل له من أين علمت ذلك قال علمت أن الشيطان لا يدعه في الصلاة حتى يذكره بما يشغله ولا أهم عنده من أن ذكر موضع الدفن لكن العبد الكيس يجتهد فى كمال الحضور مع كمال فعل بقية المأمور ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٦٠٩-٦١٠

## ١٠-المراد بالسجود الركعة التى يفعلونها و حدهم بعد مفارقتهم للامام

والصلاة أفضل الأعمال و هي مؤلفة من كلم طيب و عمل صالح أفضل كلمها الطيب وأوجبه القرآن و أفضل عملها الصالح وأوجبه السجود كما جمع بين الأمرين في أول سورة أنزلها على رسوله حيث افتتحها بقوله تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}العلق١ و ختمها بقوله {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}العلق١٩ فوضعت الصلاة على ذلك أولها القراءة و آخرها السجود ولهذا قال سبحانه فى صلاة الخوف {فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ}النساء١٠٢ و المراد بالسجود الركعة التى يفعلونها و حدهم بعد مفارقتهم للامام و ما قبل القراءة من تكبير و استفتاح و استعاذة هي تحريم للصلاة و مقدمة لما بعده أول ما يبتدىء به كالتقدمة و ما يفعل بعد السجود من قعود و تشهد فيه التحية لله و السلام على عباده الصالحين و الدعاء و السلام على الحاضرين فهو تحليل للصلاة و معقبة لما قبله قال النبى صلى الله عليه و سلم مفتاح الصلاة الطهور و تحريمها التكبير و تحليلها التسليم [١]

## ١١-صلاة الجماعة واجبة على الأعيان

وأما الجماعة فقد قيل انها سنة وقيل انها واجبة على الكفاية وقيل انها واجبة على الأعيان وهذا هو الذى دل عليه الكتاب والسنة فان الله أمر بها فى حال الخوف ففى حال الأمن أولى وآكد وأيضا فقد قال تعالى {وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ}البقرة٤٣ وهذا أمر بها وأيضا فقد ثبت فى الصحيح أن ابن أم مكتوم سأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يرخص له أن يصلى فى بيته فقال هل تسمع النداء قال نعم قال فأجب وفى رواية ما أجد لك رخصة وابن أم مكتوم كان رجلا صالحا وفيه نزل قوله تعالى {عَبَسَ وَتَوَلَّى{١} أَن جَاءهُ الْأَعْمَى{٢} عبس١-٢ وكان من المهاجرين ولم يكن من المهاجرين من يتخلف عنها الا منافق فعلم أنه لا رخصة لمؤمن فى تركها وأيضا فقد ثبت عنه فى الصحاح أنه قال لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلا يصلى بالناس ثم أنطلق معى برجال معهم حزم من حطب الى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار وفى رواية لولا ما فى البيوت من النساء والذرية فبين أنه انما يمنعه من تحريق المتخلفين عن الجماعة

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٦

من فى البيوت من النساء والأطفال فان تعذيب أولئك لا يجوز لأنه لا جماعة عليهم ومن قال إن هذا كان فى الجمعة أو كان لأجل نفاقهم فقوله ضعيف فان المنافقين لم يكن النبى يقتلهم لأجل النفاق بل لا يعاقبهم الا بذنب ظاهر فلولا أن التخلف عن الجماعة ذنب يستحق صاحبه العقاب لما عاقبهم والحديث قد بين فيه التخلف عن صلاة العشاء والفجر وقد تقدم حديث ابن أم مكتوم وانه لم يرخص له فى التخلف عن الجماعة وأيضا فان الجماعة يترك لها أكثر واجبات الصلاة فى صلاة الخوف وغيرها فلولا وجوبها لم يؤمر بترك بعض الواجبات لها لأنه لا يؤمر بترك الواجبات لما ليس بواجب [1]

*أن أئمة المسلمين متفقون على أن إقامة الصلوات الخمس في المساجد هي من أعظم العبادات وأجل القربات ومن فضل تركها عليها إيثارا للخلوة والانفراد على الصلوات الخمس في الجماعات أو جعل الدعاء والصلاة في المشاهد أفضل من ذلك في المساجد فقد انخلع من ربقة الدين واتبع غير سبيل المؤمنين {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً}النساء١١٥ لكن تنازع العلماء بعد ذلك في كونها واجبة على الأعيان أو على الكفاية أو سنة مؤكدة على ثلاثة أقوال فقيل هي سنة مؤكدة فقط وهذا هو المعروف عن أصحاب أبي حنيفة وأكثر أصحاب مالك وكثير من أصحاب الشافعي ويذكر رواية عن أحمد وقيل هي واجبة على الكفاية وهذا هو المرجح في مذهب الشافعي لكن تنازع العلماء بعد ذلك في كونها واجبة على الأعيان أو على الكفاية أو سنة مؤكدة على ثلاثة أقوال فقيل هي سنة مؤكدة فقط وهذا هو المعروف عن أصحاب أبي حنيفة وأكثر أصحاب مالك وكثير من أصحاب الشافعي ويذكر رواية عن أحمد وقيل هي واجبة على الكفاية وهذا هو المرجح في مذهب الشافعي وقول بعض أصحاب مالك وقول في مذهب أحمد وقيل هي واجبة على الأعيان وهذا هو المنصوص عن أحمد وغيره من أئمة السلف وفقهاء الحديث وغيرهم وهؤلاء تنازعوا فيما إذا صلى منفردا لغير عذر هل تصح صلاته على قولين أحدهما لا تصح وهو قول طائفة من قدماء أصحاب أحمد ذكره القاضي أبو يعلى في شرح المذهب عنهم وبعض متأخريهم كابن عقيل وهو قول طائفة من السلف واختاره ابن حزم وغيره والثاني تصح مع إثمه بالترك وهذا هو المأثور عن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٣ ص: ٢٣٩-٢٤٠

أحمد وقول أكثر أصحابه والذين نفوا الوجوب احتجوا بتفضيل النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الجماعة على صلاة الرجل وحده قالوا ولو كانت واجبة لم تصح صلاة المنفرد ولم يكن هناك تفضيل وحملوا ما جاء من هم النبي صلى الله عليه وسلم بالتحريق على من ترك الجمعة أو على المنافقين الذين كانوا يتخلفون عن الجماعة مع النفاق وأن تحريقهم كان لأجل النفاق لا لأجل ترك الجماعة مع الصلاة في البيوت وأما الموجبون فاحتجوا بالكتاب والسنة والآثار أما الكتاب فقوله تعالى {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ}النساء١٠٢ الآية وفيها دليلان أحدهما أنه أمرهم بصلاة الجماعة معه في صلاة الخوف وذلك دليل على وجوبها حال الخوف وهو يدل بطريق الأولى على وجوبها حال الأمن الثاني أنه سن صلاة الخوف جماعة وسوغ فيها ما لا يجوز لغير عذر كاستدبار القبلة والعمل الكثير فإنه لا يجوز لغير عذر بالاتفاق وكذلك مفارقة الإمام قبل السلام عند الجمهور وكذلك التخلف عن متابعة الإمام كما يتأخر الصف المؤخر بعد ركوعه مع الإمام إذا كان العدو أمامهم قالوا وهذه الأمور تبطل الصلاة لو فعلت لغير عذر فلو لم تكن الجماعة واجبة بل مستحبة لكان قد التزم فعل محظور مبطل للصلاة وتركت المتابعة الواجبة في الصلاة لأجل فعل مستحب مع أنه قد كان من الممكن أن يصلوا وحدانا صلاة تامة فعلم أنها واجبة وأيضا فقول تعالى {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ}البقرة٤٣ إما أن يراد به المقارنة بالفعل وهي الصلاة جماعة وإما أن يراد به ما يراد بقوله {وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ}التوبة١١٩ فإن أريد الثاني لم يكن فرق بين قوله صلوا مع المصلين وصوموا مع الصائمين واركعوا مع الراكعين والسياق يدل على اختصاص الركوع بذلك فإن قيل فالصلاة كلها تفعل مع الجماعة قيل خص الركوع بالذكر لأنه تدرك به الصلاة فمن أدرك الركعة فقد أدرك السجدة فأمر بما يدرك به الركعة كما قال لمريم {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}آل عمران٤٣ فإنه لو قيل اقنتي مع القانتين لدل على وجوب إدراك القيام ولو قيل اسجدي لم يدل على وجوب إدراك الركوع بخلاف قوله {وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}آل عمران٤٣ فإنه يدل على الأمر بإدراك الركوع وما بعده دون ما قبله وهو المطلوب وأما السنة فالأحاديث المستفيضة في الباب مثل حديث أبي هريرة المتفق عليه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلا فيصلي بالناس ثم انطلق إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار فهم بتحريق من لم يشهد الصلاة وفي لفظ قال أثقل الصلاة على

المنافقين صلاة العشاء والفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام الحديث وفي المسند وغيره لولا ما في البيوت من النساء والذرية لأمرت أن تقام الصلاة الحديث فبين أنه هم بتحريق البيوت على من لم يشهد الصلاة وبين أنه إنما منعه من ذلك من فيها من النساء والذرية فإنهم لا يجب عليهم شهود الصلاة وفي تحريق البيوت قتل من لا يجوز قتله وكان ذلك بمنزلة إقامة الحد على الحبلى وقد قال سبحانه وتعالى {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً}الفتح٢٥ ومن حمل ذلك على ترك شهود الجمعة فسياق الحديث يبين ضعف قوله حيث ذكر صلاة العشاء والفجر ثم أتبع ذلك بهمه بتحريق من لم يشهد الصلاة وأما من حمل العقوبة على النفاق لا على ترك الصلاة فقوله ضعيف لأوجه أحدها أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يقيل المنافقين إلا على الأمور الباطنة وإنما يعاقبهم على ما يظهر منهم من ترك واجب أو فعل محرم فلولا أن في ذلك ترك واجب لما حرقهم الثاني أنه رتب العقوبة على ترك شهود الصلاة فيجب ربط الحكم بالسبب الذي ذكره الثالث أنه سيأتي إن شاء الله حديث ابن أم مكتوم حيث استأذنه أن يصلي في بيته فلم يأذن له وابن أم مكتوم رجل مؤمن من خيار المؤمنين أثنى عليه القرآن وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستخلفه على المدينة وكان يؤذن للنبي صلى الله عليه وسلم الرابع أن ذلك حجة على وجوبها أيضا كما ثبت قي صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود أنه قال من سره أن يلقى الله غدا مسلما فليصل هذه الصلوات الخمس في المساجد التي ينادى بهن من سنن الهدى وإنكم لو صليتم في بيوتكم كما صلى هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف فقد أخبر عبد الله بن مسعود أنه لم يكن يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق وهذا دليل على استقرار وجوبها عند المؤمنين ولم يعلموا ذلك إلا من جهة النبي صلى الله عليه وسلم إذ لو كانت عندهم مستحبة كقيام الليل والتطوعات التي مع الفرائض وصلاة الضحى ونحو ذلك كان منهم من يفعلها ومنهم من لا يفعلها مع إيمانه كما قال له الأعرابي والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص منه فقال أفلح أن صدق ومعلوم أن كل أمر كان لا يتخلف عنه إلا منافق كان واجبا على الأعيان كخروجهم إلى غزوة تبوك فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر به المسلمين جميعا لم يأذن لأحد في التخلف إلا من ذكر أن له عذرا فأذن له لأجل عذره ثم لما رجع كشف الله أسرار المنافقين وهتك أستارهم وبين أنهم تخلفوا لغير عذر والذين

تخلفوا لغير عذر بالإيمان عوقبوا بالهجر حتى هجران نسائهم لهم حتى تاب الله عليهم فإن قيل فأنتم اليوم تحكمون بنفاق من تخلف عنها وتجوزون تحريق البيوت عليه إذا لم يكن فيها ذرية قيل له من الأفعال ما يكون واجبا ولكن تأويل المتأول يسقط الحد عنه وقد صار اليوم كثير ممن هو مؤمن لا يراها واجبة عليه فيتركها متأولا وفي زمن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن لأحد تأويل لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد باشرهم بالإيجاب وأيضا كما ثبت في الصحيح و السنن أن أعمى استأذن النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي في بيته فأذن له فلما ولى دعاه فقال هل تسمع النداء قال نعم قال فأجب فأمره بالإجابة إذا سمع النداء وفي لفظ في السنن أن ابن أم مكتوم قال يا رسول الله إني رجل شاسع الدار وإن المدينة كثيرة الهوام ولي قائد لا يلائمني فهل تجد لي رخصة أن أصلي في بيتي فقال هل تسمع النداء قال نعم قال لا أجد لك رخصة وهذا نص في الإيجاب للجماعة مع كون الرجل مؤمنا وأما احتجاجهم بتفضيل صلاة الرجل في الجماعة على صلاته وحده فعنه جوابان مبنيان على صحة صلاة المنفرد لغير عذر فمن صحح صلاته قال الجماعة واجبة وليست شرطا في الصحة كالوقت فإنه لو أخر العصر إلى وقت الاصفرار كان آثما مع كون الصلاة صحيحة بل وكذلك لو أخرها إلى أن يبقى مقدار ركعة كما ثبت في الصحيح من أدرك ركعة من العصر فقد أدرك العصر قال والتفضيل لا يدل على أن المفضول جائز فقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} الجمعة٩ فجعل السعي إلى الجمعة خيرا من البيع والسعي واجب والبيع حرام وقال تعالى {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ} النور ٣٠ ومن قال لا تصح صلاة المنفرد إلا لعذر احتج بأدلة الوجوب قال وما ثبت وجوبه في الصلاة كان شرطا في الصحة كسائر الواجبات وأما الوقت فإنه لا يمكن تلافيه فإذا فات لم يكن فعل الصلاة فيه فنظير ذلك فوت الجمعة وفوت الجماعة التي لا يمكن استداركها فإذا فوت الجمعة الواجبة كان آثما وعليه الظهر إذ لا يمكن سوى ذلك وكذلك من فوت الجماعة الواجبة التي يجب عليه شهودها وليس هناك جماعة أخرى فإنه يصلي منفردا لغير عذر ثم أقيمت الجماعة فهذا عندهم عليه أن يشهد الجماعة كمن صلى الظهر قبل الجمعة عليه أن يشهد الجمعة واستدلوا على ذلك بحديث أبي هريرة الذي في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم من سمع النداء ثم لم يجب من غير عذر فلا صلاة له ويؤيد ذلك قوله لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد فإن هذا معروف من كلام علي وعائشة وأبي هريرة وابن عمر وقد رواه الدارقطني

مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقوى ذلك بعض الحفاظ قالوا ولا يعرف في كلام الله ورسوله حرف النفي دخل على فعل شرعي إلا لترك واجب فيه كقوله لا صلاة إلا بأم القرآن و لا إيمان لمن لا أمانة له ونحو ذلك وأجاب هؤلاء عن حديث التفضيل بأن قالوا هو محمول على المعذور كالمريض ونحوه فإن هذا بمنزلة قوله صلى الله عليه وسلم صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم وصلاة النائم على النصف من صلاة القاعد وأن تفضيله صلاة الرجل في جماعة على صلاته وحده كتفضيله صلاة القائم على صلاة القاعد ومعلوم أن القيام واجب في صلاة الفرض دون النفل كما أن الجماعة واجبة في صلاة الفرض دون النفل وتمام الكلام في ذلك أن العلماء تنازعوا في هذا الحديث وهو هل المراد بهما المعذور أو غيره على قولين فقالت طائفة المراد بهما غير المعذور قالوا لأن المعذور أجره تام بدليل ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمله وهو صحيح مقيم قالوا فإذا كان المريض والمسافر يكتب لهما ما كانا يعملان في

الصحة والإقامة فكيف تكون صلاة المعذور قاعدا أو منفردا دون صلاته في الجماعة قاعدا وحمل هؤلاء تفضيل صلاة القائم على النفل دون الفرض لأن القيام في الفرض واجب ومن قال هذا القول لزمه أن يجوز تطوع الصحيح مضطجعا لأنه قد ثبت أنه قال ومن صلى قاعدا فله نصف أجر القائم وقد طرد هذا الدليل طائفة من متأخري أصحاب الشافعي وأحمد وجوزوا أن يتطوع الرجل مضطجعا لغير عذر لأجل هذا الحديث ولتعذر حمله على المريض كما تقدم ولكن أكثر العلماء أنكروا ذلك وعدوه بدعة وحدثا في الإسلام وقالوا لا يعرف أن أحدا قط صلى في الإسلام على جنبه وهو صحيح ولو كان هذا مشروعا لفعله المسلمون على عهد نبيهم صلى الله عليه وسلم أو بعده ولفعله النبي صلى الله عليه وسلم ولو مرة لتبيين الجواز فقد كان يتطوع قاعدا ويصلي على راحلته قبل أي وجه توجهت ويوتر عليها غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة فلو كان هذا سائغا لفعله ولو مرة أو لفعله أصحابه وهؤلاء الذين أنكروا هذا مع ظهور حجتهم قد تناقض من لم يوجب الجماعة منهم حيث حملوا قوله تفضل صلاة الجماعة على صلاة الرجل وحده بخمس وعشرين درجة على أنه أراد غير المعذور فيقال لهم لم كان التفضيل هنا في حق غير المعذور والتفضيل هناك في حق المعذور وهل هذا إلا تناقض وأما من أوجب الجماعة وحمل التفضيل على المعذور فطرد دليله وحينئذ فلا يكون في الحديث حجة على صحة صلاة المنفرد لغير عذر وأما ما احتج به منازعهم من قوله إذا مرض

العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمله وهو صحيح مقيم فجوابهم عنه أن هذا الحديث دليل على أنه يكتب له مثل الثواب الذي كان يكتب له في حال الصحة والإقامة لأجل نيته له وعجزه عنه بالعذر وهذه قاعدة الشريعة أن من كان عازما على الفعل عزما جازما وفعل ما يقدر عليه منه كان بمنزلة الفاعل فهذا الذي كان له عمل في صحته وإقامته عزمه أن يفعله وقد فعل في المرض والسفر ما أمكنه فكان بمنزلة الفاعل كما جاء في السنن فيمن تطهر في بيته ثم ذهب إلى المسجد يدرك الجماعة فوجدها قد فاتت أنه يكتب له أجر صلاة الجماعة وكما ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم قالوا وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر وقد قال تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً}النساء٩٥ الآية فهذا ومثله يبين أن المعذور يكتب له مثل ثواب الصحيح إذا كانت نيته أن يفعل وقد عمل ما يقدر عليه وذلك لا يقتضي أن يكون نفس عمله مثل عمل الصحيح فليس في الحديث أن صلاة المريض نفسها في الأجر مثل صلاة الصحيح ولا أن صلاة المنفرد المعذور في نفسها مثل صلاة الرجل في الجماعة وإنما فيه أن يكتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم كما يكتب له أجر صلاة الجماعة إذا فاتته مع قصده لها وأيضا فليس كل معذور يكتب له مثل عمل الصحيح وإنما يكتب له إذا كان يقصد عمل الصحيح ولكن عجز عنه فالحديث يدل على أنه من عادته الصلاة في جماعة والصلاة قائما ثم ترك ذلك لمرضه فإنه يكتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم وكذلك من تطوع على الراحلة في السفر وقد كان يتطوع في الحضر قائما يكتب له ما كان يعمل في الإقامة فأما من لم تكن عادته الصلاة في جماعة ولا الصلاة قائما إذا مرض فصلى وحده أو صلى قاعدا فهذا لا يكتب له مثل صلاة المقيم الصحيح ومن حمل الحديث على غير المعذور يلزمه أن يجعل صلاة هذا قاعدا مثل صلاة القائم وصلاته منفردا مثل الصلاة في جماعة وهذا قول باطل لم يدل عليه نص ولا قياس ولا قاله أحد وأيضا فيقال تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم لصلاة الجماعة على صلاة المنفرد ولصلاة القائم على القاعد والقاعد على المضطجع إنما دل على فضل هذه الصلاة على هذه الصلاة حيث يكون كل من الصلاتين صحيحة أما كون هذه الصلاة المفضولة تصح حيث تصح تلك أو لا تصح فالحديث لم يدل عليه بنفي ولا إثبات ولا سيق الحديث لأجل بيان صحة الصلاة وفاسدها بل وجوب القيام والقعود وسقوط ذلك ووجوب الجماعة وسقوطها يتلقى من

أدلة أخر وكذلك أيضا كون هذا المعذور يكتب له تمام عمله أو لا يكتب له لم يتعرض له هذا الحديث بل يتلقى من أحاديث أخر وقد بينت سائر النصوص أن تكميل الثواب هو لمن كان يعمل العمل الفاضل وهو صحيح مقيم لا لكل أحد وتثبت نصوص أخر وجوب القيام في الفرض كقوله صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب وبين جواز التطوع قاعدا لما رآهم وهم يصلون قعودا فأقرهم على ذلك وكان يصلي قاعدا مع كونه كان يتطوع على الراحلة في السفر كذلك تثبت نصوص أخر وجوب الجماعة فيعطي كل حديث حقه فليس بينها تعارض ولا تناف وإنما يظن التعارض التنافي من حملها ما لا تدل عليه ولم يعطها حقها بسوء نظره وتأويله والله أعلم [١]

## لم يجيء اعداد العذاب المهين في القران الا في حق الكفار

لم يجيء إعداد العذاب المهين فى القرآن إلا فى حق الكفار كقوله {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء٣٧ وقوله {وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء١٠٢وقوله {أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء١٥١ وقوله {فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}البقرة٩٠ {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}آل عمران١٧٨ {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}الحج٥٧ {وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}الجاثية٩ {وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}المجادلة٥ {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}المجادلة١٦ {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ فهى والله أعلم فيمن جحد الفرائض وإستخف بها على أنه لم يذكر ان العذاب أعد له وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيدا للمؤمنين فى قوله {لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}الأنفال٦٨ وقوله {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا

---

[١] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ١١٤-١٢٢ و مجموع الفتاوى ج: ٢٣ ص: ٢٢٧-٢٢٩ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص:٤٣٠- ٤٤٠

وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}النور١٤ وفى المحارب {ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}المائدة٣٣ وفي القاتل {وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}النساء٩٣ وقوله {وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}النحل٩٤ وقد قال سبحانه {وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}الحج١٨ وذلك لأن الإهانة اذلال وتحقير وخزى وذلك قدر زائد على ألم العذاب فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان [١]

## ما فعل الله بأسباب يمكن طلبه بطلب الأسباب

و أما قول القائل أن الغذاء و القوام هو من فعل الله فلا يمكن طلبه كالحياة فليس كذلك هو بل ما فعل الله بأسباب يمكن طلبه بطلب الأسباب كما مثله فى الحياة و الموت فإن الموت يمكن طلبه و دفعه بالأسباب التى قدرها الله فإذا أردنا أن يموت عدو الله سعينا فى قتله و إذا أردنا دفع ذلك عن المؤمنين دفعناه بما شرع الله الدفع به قال تعالى فى داود عليه السلام {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ}الأنبياء٨٠ و قال تعالى {فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ}النساء١٠٢ و هذا مثل دفع الحر و البرد عنا هو من فعل الله فاللباس و الإكتساب و مثل دفع الجوع و العطش هو من فعل الله بالطعام و الشراب و هذا كما أن إزهاق الرو ح هو من فعل الله و يمكن طلبه بالقتل و حصول العلم و الهدى فى القلب هو من فعل الله و يمكن طلبه بأسبابه المأمور بها و بالدعاء [٢]

## " لن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا "

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٦٦-٣٦٧ و الصارم المسلول ج: ٢ ص: ١٠٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٥٣٣

ان الله سبحانه أمرنا بالمعروف وهو طاعته وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر ونهى عن المنكر وهو معصيته ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور وقيد الايجاب بالاستطاعة والوسع واباح مما حرم ما يضطر المرء اليه غير باغ ولا عاد فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}آل عمران١٠٢ وقال {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه واذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم فأوجب مما امر به ما يستطاع وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث اخر انكم لن تحصوا او تستطيعوا كل ما امرتم به ولكن وقال ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا وهذا العام المجمل فصله فقال في محظورات العبادات كالصلاة الخوف قال {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء١٠٢ [1]

## الحسنات المقبوله تكفر السيئات

والحسنات المقبوله تكفر السيئات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر ولو كفر الجميع بالخمس لم يحتج إلى الجمعة لكن التكفير بالحسنات المقبولة وغالب الناس لا يكتب له من الصلاة إلا بعضها فيكفر ذلك بقدره والباقي يحتاج إلى تكفير ولهذا جاء من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من أعماله الصلاة فإن أكملت وإلا قيل انظروا هل له من تطوع فإن كان له تطوع أكملت به الفريضة ثم يصنع في سائر

---

[1] الاستقامة ج: ٢ ص: ٣١٩

الأعمال كذلك وتكميل الفرائض بالتطوع مطلق فإنه يكون يوم القيامة يوم الجزاء فإنه إذا ترك بعض الواجبات استحق العقوبة فإذا كان له من جنسه تطوع سد مسده فلا يعاقب وإن كان ثوابه ناقصا وله تطوع سد مسده فكمل ثوابه وهو في الدنيا يؤمر بأن يعيد حيث تمكن إعادة ما فعله ناقصا من الواجبات أو يجبره بما ينجبر به كسجدتي السهو في الصلاة وكالدم الجابر لما تركه من الواجبات الحج ومثل صدقة الفطر التي فرضت طهرة للصائم من اللغو والرفث وذلك لأنه إذا أمكنه أن يأتي بالواجب كان ذلك عليه ولم يكن قد برئ من عهدته بل هو مطلوب به كما لو لم يفعله بخلاف ما إذا تعذر فعله يوم الجزاء فإنه لم يبق هناك إلا الحسنات ولهذا كان جمهور العلماء على أن من ترك واجبا من واجبات الصلاة عمدا فعليه إعادة الصلاة ما دام يمكن فعلها وهو إعادتها في الوقت هذا مذهب مالك والشافعي وأحمد لكن مالك وأحمد يقولان قد يجب فيها ما يسقط بالسهو ويكون سجود السهو عوضا عنه وسجود السهو واجب عندهما وأما الشافعي فيقول كل ما وجب بطلت الصلاة بتركه عمدا أو سهوا وسجود السهو عنده ليس بواجب فإن ما صحت الصلاة مع السهو عنه لم يكن واجبا ولا مبطلا والأكثرون يوجبون سجود السهو كمالك وأبي حنيفة وأحمد ويقولون قد أمر به النبي صلى الله عليه وسلم والأمر يقتضي الإيجاب ويقولون الزيادة في الصلاة لو فعلها عمدا بطلت الصلاة بالإتفاق مثل أن يزيد ركعة خامسة عمدا أو يسلم عمدا قبل إكمال الصلاة ثم إذا فعله سهوا سجد للسهو بالسنة والإجماع فهذا سجود لما تصح الصلاة مع سهوة دون عمده وكذلك ما نقصه منها فإن السجود يكون للزيادة تارة وللنقص أخرى كسجود النبي صلى الله عليه وسلم لما ترك التشهد الأول ولو فعل ذلك أحد عمدا بطلت صلاته عند مالك وأحمد وأما أبو حنيفة فيوجب في الصلاة ما لا تبطل بتركه لا عمدا ولا سهوا ويقول هو مسيء بتركه كالطمأنينة وقراءة الفاتحة وهذا مما نازعه فيه الأكثرون وقالوا من ترك الواجب عمدا فعليه الإعادة الممكنة لأنه لم يفعل ما أمر به وهو قادر على فعله فلا يسقط عنه وقد أخرجا في الصحيحين حديث المسيء في صلاته لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم ارجع فصل فإنك لم تصل وأمره بالصلاة التي فيها طمأنينة فدل هذا الحديث الصحيح على أن من ترك الواجب لم يكن ما فعله صلاة بل يؤمر بالصلاة والشارع صلى الله عليه وسلم لا ينفي الإسم إلا لانتفاء بعض واجباته فقوله فإنك لم تصل لأنه ترك بعض واجباتها ولم تكن صلاته تامة مقامة الإقامة المأمور بها في قوله تعالى {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}النساء١٠٣ فقد أمر بإتمامها ولهذا لما أمر بإتمام الحج والعمره بقوله {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ}البقرة١٩٦ ألزم الشارع فيهما فعل جميع الواجبات فإذا ترك بعضها فلا بد من الجبران فعلم أنه إن لم يأت بالمأمور به تاما

التمام الواجب وإلا فعليه ما يمكن من إعادة أو جبران وكذلك أمر الذي رآه يصلي خلف الصف وحده أن يعيد وقال لا صلاة لفذ خلف الصف وقد صححه أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وابن حزم وغيرهم من علماء الحديث فإن قيل ففي حديث المسيء الذي رواه أهل السنن من حديث رفاعة بن رافع أنه جعل ما تركه من ذلك يؤاخذ بتركه فقط ويحسب له ما فعل ولا يكون كمن لم يصل قيل وكذلك نقول من فعلها وترك بعض واجباتها لم يكن بمنزلة من لم يأت بسيء منها بل يثاب على ما فعل ويعاقب على ما ترك وإنما يؤمر بالإعادة لدفع عقوبة ما ترك وترك الواجب سبب للعقاب فإذا كان يعاقب على ترك البعض لزمه أن يفعلها فإن كان له جبران أو أمكن فعله وحده وإلا فعله مع غيره فإنه لا يمكن فعله مفردا فإن قيل فإذا لم يكن فعله مفردا طاعة لم يثب عليه أولا قيل هو أولى فعله ولم يكن يعلم أنه لا يجوز أو كان ساهيا كالذي يصلي بلا وضوء أو يسهو عن القراءة والسجود المفروض فيثاب على ما فعل ولا يعاقب بنسيانه وخطئه لكن يؤمر بالإعادة لأنه لم يفعل ما أمر به أولا كالنائم إذا استيقظ في الوقت فإنه يؤمر بالصلاة لأنها واجبة عليه في وقتها إذا أمكن وإلا صلاها أي وقت استيقظ فإنه حينئذ يؤمر بها وأما إذا أمر بالإعادة فقد علم أنه لا يجوز فعل ذلك مفردا فلا يؤمر به مفردا فإن قيل فلو تعمد أن يفعلها مع ترك الواجبات التي يعلم وجوبها قيل هذا مستحق للعقاب فإنه عاص بهذا الفعل وهذا قد يكون إثمه كإثم التارك وإن قدر أن هذا قد يثاب فإنه لا يثاب عليه ثواب من فعله مع غيره كما أمر به بل أكثر ما يقال إن له عليه ثوابا بحسبه لكن الذي يعرف أنه إذا لم يكن يعرف أن هذا واجب أو منهي عنه فإنه يثاب على ما فعله قال الله تعالى {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨} الزلزلة٧-٨ والقرآن وذكر الله ودعاؤه خير وإلا فالمسلم لا يصلى إلى غير قبلة أو بغير وضوء أو ركوع أو سجود ومن فعل ذلك كان مستحقا للذم والعقاب ومع هذا فقد يمكن إذا فعل ذلك مع اعترافه بأنه مذنب لا على طريق الإستهانة والإستهزاء والإستخفاف بل على طريق الكسل أن يثاب على ما فعله كمن ترك واجبات الحج المجبورة بدم لكن لا يكون ثوابه كما إذا فعل ذلك مع غيره على الوجه المأمور به وبهذا يتبين الجواب عن شبهة أهل البدع من الخوارج والمرجئة وغيرهم ممن يقول إن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل ولا ينقص قالوا لأنه إذا ذهب منه جزء ذهب كله لأن الشيء المركب من أجزاء متى ذهب منه جزء ذهب كله كالصلاة إذا ترك منها واجبا بطلت ومن هذا الأصل تشعبت بهم الطرق وأما الصحابة وأهل السنة والحديث فقالوا إنه يزيد وينقص كما قال النبي صلى الله عليه وسلم يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان وعلى هذا فنقول إذا نقص شيء من واجباته فقد ذهب ذلك

الكمال والتمام ويجوز نفي الإسم إذا أريد به نفي ذلك الكمال وعليه أن يأتي بذلك الجزء إن كان ترك واجبا فعله أو كان ذنبا استغفر منه وبذلك يصير من المؤمنين المستحقين لثواب الله المحض الخالص عن العقاب وأما إذا ترك واجبا منه أو فعل محرما فإنه يستحق العقاب على ذلك ويستحق الثواب على ما فعل والمنفي إنما هو المجموع لا كل جزء من أجزائه كما إذا ذهب واحد من العشرة لم تبق العشرة عشرة لكن بقي أكثر أجزائها وكذلك جاءت السنة في سائر الأعمال كالصلاة وغيرها أنه يثاب على ما فعله منها ويعاقب على الباقي حتى إنه إن كان له تطوع جبر ما ترك بالتطوع ولو كان ما فعل باطلا وجوده كعدمه لا يثاب عليه لم يجبر بالنوافل شيء وعلى ذلك دل حديث المسيء الذي في السنن أنه إذا نقص منها شيئا أثيب على ما فعله فإن قلت فالفقهاء يطلقون أنه قد بطلت صلاته وصومه وحجه إذا ترك منه ركنا قيل لأن الباطل في عرفهم ضد الصحيح والصحيح في عرفهم ما حصل به مقصوده وترتب عليه حكمه وهو براءة الذمة ولهذا يقولون الصحيح ما أسقط القضاء فصار قولهم بطلت بمعنى وجب القضاء لا بمعنى أنه لا يثاب عليها بشيء في الآخرة وهكذا جاء النفي في كلام الله ورسوله كقوله صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وقوله لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له وقوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}الأنفال٢وقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}الحجرات١٥ فإن نفي الإيمان عمن ترك واجبا منه أو فعل محرما فيه كنفي غيره كقوله لا صلاة إلا بأم القرآن وقوله للمسيء ارجع فصل فإنك لم تصل وقوله للمنفرد خلف الصف لما أمره بالإعادة لا صلاة لفذ خلف الصف وقوله من سمع النداء ثم لم يجب من غير عذر فلا صلاة له ومن قال من الفقهاء إن هذا لنفي الكمال قيل له إن أردت الكمال المستحب فهذا باطل لوجهين أحدهما أن هذا لا يوجد قط في لفظ الشارع أنه ينفي عملا فعله العبد على الوجه الذي وجب عليه ثم ينفيه لترك بعض المستحبات بل الشارع لا ينفي عملا إلا إذا لم يفعله العبد كما وجب عليه الثاني أنه لو نفى بترك مستحب لكان عامة الناس لا صلاة لهم ولا صيام فإن الكمال المستحب متفاوت ولا أحد يصلي كصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفكل من لم يكملها كتكميل الرسول يقال لا صلاة له فإن قيل فهؤلاء الذين يتركون فرضا من الصلاة أو غيرها يؤمرون بإعادة الصلاة والإيمان إذا ترك بعض فرائضه لا يؤمر باعادته قيل ليس الأمر بالإعادة مطلقا بل يؤمر بالممكن فإن أمكن الإعادة أعاد وإن لم يمكن أمر أن يفعل حسنات غير ذلك كما لو ترك الجمعة فإنه وإن أمر بالظهر فلا تسد مسد

الجمعة بل الإثم الحاصل يترك الجمعة لايزول جميعه بالظهر وكذلك من ترك واجبات الحج عمدا فإنه يؤمر بها ما دام يمكن فعلها في الوقت فإذا فات الوقت أمر بالدم الجابر ولم يكن ذلك مسقطا عنه إثم التفويت مطلقا بل هذا الذي يمكنه من البدل وعليه أن يتوب توبة تغسل إثم التفويت كمن فعل محرما فعليه أن يتوب منه توبة تغسل إثمه ومن ذلك أن يأتي بحسنات تمحوه وكذلك من فوت واجبا لا يمكنه استدراكه وأما إذا أمكنه استدراكه فعله بنفسه وهكذا نقول فيمن ترك بعض واجبات الإيمان بل كل مأمور تركه فقد ترك جزءا من إيمانه فيستدركه بحسب الإمكان فإن فات وقته تاب وفعل حسنات أخر غيره ولهذا كان الذي اتفق عليه العلماء أنه يمكن إعادة الصلاة في الوقت الخاص والمشترك كما يصلي الظهر بعد دخول العصر ويؤخر العصر إلى الإصفرار فهذا تصح صلاته وعليه إثم التأخير وهو من المذمومين في قوله تعالى {٣} فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{٥} الماعون ٤ -٥ وقوله {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً}مريم٥٩ فإن تأخيرها عن الوقت الذي يجب فعلها فيه هو إضاعة لها وسهو عنها بلا نزاع أعلمه بين العلماء وقد جاءت الآثار بذلك عن الصحابة والتابعين وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها صلوا الصلاة لوقتها واجعلوا صلاتكم معهم نافلة وهم إنما كانوا يؤخرون الظهر إلى وقت العصر والعصر إلى وقت الإصفرار وذلك مما هم مذمومون عليه ولكن ليسوا كمن تركها أو فوتها حتى غابت الشمس فإن هؤلاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم ونهى عن قتال أولئك فإنه لما ذكر أنه سيكون أمراء ويفعلون قالوا أفلا نقاتلهم قال لا ما صلوا وقد أخبر عن هذه الصلاة التي يؤخرونها وأمر أن تصلى في الوقت وتعاد معهم نافلة فدل على صحة صلاتهم ولو كانوا لم يصلوا لأمر بقتالهم وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال من أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر مع قوله أيضا في الحديث الصحيح تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا

وثبت عنه في الصحيحين أنه قال من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله وثبت عنه في الصحيحين أنه قال من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله وقال أيضا إن هذه الصلاة عرضت على من كان قبلكم فضيعوها فمن حافظ عليها كان له الأجر مرتين وقد اتفق العلماء على ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم من قوله من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها فاتفقوا على أن النائم يصلي إذا استيقظ والناسي إذا ذكر وعليه قضاء الفائتة على الفور عند جمهورهم

كمالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرهم وأما الشافعي فيجعل قضاء النائم والناسي على التراخي ومن نسي بعض واجباتها فهو كمن نسيها فلو صلى ثم ذكر بعد خروج الوقت أنه كان على غير وضوء أعاد كما أعاد عمر وعثمان وغيرهما لما صلوا بالناس ثم ذكروا بعد الصلاة أنهم كانوا جنبا فأعادوا ولم يأمروا المؤمومين بالإعادة وفي حديث عمر أنه لم يذكر إلا بعد طلوع الشمس وكذلك إذا أخرها تأخيرا يرى أنه جائز كما أخرها النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب وصلاها بعد مغيب الشمس فإن ذلك التأخير إما أن يكون لنسيان منه أو لأنه كان جائزا إذا كانوا مشغولين بقتال العدو أن يؤخروا الصلاة والعلماء لهم في ذلك ثلاثة أقوال قيل يصلي حال القتال ولا يؤخر الصلاة وتأخير الخندق منسوخ وهذا مذهب مالك والشافعي والإمام أحمد في المشهور عنه وقيل يخير بين تقديمها وتأخيرها لأن الصحابة لما أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة كانت طائفة منهم أخرت الصلاة فصلوا بعد غروب الشمس وكانت منهم طائفة قالوا لم يرد منا إلا المبادرة إلى العدو لا تفويت الصلاة فصلوا في الطريق فلم يعنف النبي صلى الله عليه وسلم أحدا من الطائفتين والحديث في الصحيحين من حديث ابن عمر وهذا قول طائفة من الشاميين وغيرهم وهو إحدى الروايتين عن أحمد وقيل بل يؤخرونها كما فعل يوم الخندق وهو مذهب أبي حنيفة ففي الجملة كل من أخرها تأخيرا يعذر به إما لنسيان أو لخطأ في الاجتهاد فإنه يصليها بعد الوقت كمن ظن أن الشمس لم تطلع فآخرها حتى طلعت أو ظن أن وقت العصر باق فأخرها حتى غربت فإن هذا يصلى وعلى قول الأكثرين ما بقى تأخيرها جائزا حتى تغرب الشمس ومن قال إنه يجوز التأخير فإنه يصليها ولو أخرها باجتهاده فإنه يصليها وإن قيل إنه أخطأ في اجتهاده وليس هذا من أهل الوعيد المذكور في قوله من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله فإن هذا مجتهد متأول مخطىء وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وهو حديث حسن وقد دل عليه القرآن والحديث الصحيح وأما من فوتها عمدا عالما بوجوبها أو فوت بعض واجباتها الذي يعلم وجوبه منها فهذا مما تنازع فيه العلماء فقيل في الجميع يصح أن يصليها بعد التفويت ويجب ذلك عليه ويثاب على ما فعل ويعاقب على التفويت كمن أخر الظهر إلى وقت العصر والمغرب والعشاء إلى آخر الليل من غير عذر وهذا قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد يقولون هو في كل صلاة وجب إعادتها في الوقت فيجب إعادتها بعد الوقت وأما مالك وغيره من أهل المدينة فيفرقون بين ما يعاد في الوقت وما يعاد بعد خروج الوقت فما لم يكن فرضا بل واجبا وهو الذي يسمونه سنة أمروا بإعادة الصلاة إذا تركه في الوقت كمن صلى بالنجاسة وأما ما كان فرضا

كالركوع والسجود والطهارة فإنه بمنزلة من لم يصل فيعيد بعد الوقت وقد أنكر عليهم كثير من الناس التفريق بين الإعادة في الوقت وبعده وصنف المزني مصنفا رد فيه على مالك ثلاثين مسألة منها هذه وقد رد على المزني الشيخ أبو بكر الأبهري وصاحبه القاضي عبد الوهاب وعمدتهم أن الصلاة إن فعلت كما أمر بها العبد فلا إعادة عليه في الوقت ولا بعده وإن لم تفعل كما أمر بها العبد فهي في ذمته فيعيدها في الوقت وبعده وأهل المدينة يقولون فعلها في الوقت واجب ليس لأحد قط أن يؤخرها عن الوقت فإن كان الوقت أوكد مما ترك لم يعد بعد الوقت لأنه ما بقي بعد الوقت يمكنه تلافيها فإن الصلاة مع النجاسة أو عريانا خير من الصلاة بلا نجاسة بعد الوقت فلو أمرناه أن يعيدها بعد الوقت لكنا نأمره بأنقص مما صلى وهذا لا يأمر به الشارع وهذا بخلاف من ترك ركنا منها فذاك بمنزلة من لم يصل فيعيد بعد الوقت وهذا الفرق مبني على أن الصلاة من واجباتها ما هو ركن لا تتم إلا به ومنها ما هو واجب تتم بدونه إما مع السهو وإما مطلقا وهذا قول الجمهور وأبو حنيفة يوجب فيها ما لا يجب بتركه الإعادة بحال فإذا أوجب أهل المدينة فيها ما يجب بتركه الإعادة في الوقت كان أقرب إلى الشرع وأحمد مع مالك يوجبان فيها ما يسقط بالسهو ويجبر بالسجود ثم ذلك الواجب إذا تركه عمدا أمره أحمد في ظاهر مذهبه بالإعادة كما لو ترك فرضا وأما مالك ففي مذهبه قولان فيمن ترك ما يجب السجود لتركه سهوا كترك التشهد الأول وترك تكبيرتين فصاعدا أو قراءة السورة والجهر والمخافتة في موضعهما وقد اتفق الجميع على أن واجبات الحج منها ما يجبر الحج مع تركه ومنها ما يفوت الحج مع تركه فلا يجبر كالوقوف بعرفة فكذلك الصلاة وقالت طائفة ثالثة ما أمر الله به في الوقت إذا ترك لغير عذر حتى فات وقته لم يمكن فعله بعد الوقت كالجمعة والوقوف بعرفة ورمي الجمار فإن الفعل بعد الوقت عبادة لا تشرع إلا إذا شرعها الشارع فلا تكون مشروعة إلا بشرعه ولا واجبة إلا بأمره وقد اتفق المسلمون على أن من فاته الوقوف بعرفة لعذر أو لغيره لا يقف بعرفة بعد طلوع الفجر وكذلك رمي الجمار لا ترمى بعد أيام منى سواء فاتته لعذر أو لغير عذر كذلك الجمعة لا يقضيها الإنسان سواء فاتته بعذر أو بغير عذر وكذلك لو فوتها أهل المصر كلهم لم يصلوها يوم السبت وأما الصلوات الخمس فقد ثبت أن المعذور يصليها إذا أمكنه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها لا كفارة لها إلا ذلك وكذلك صوم رمضان أمر الله المسافر والمريض والحائض أن يصوموا نظيره في أيام أخر والوقت المشترك بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقت لجواز فعلهما جميعا عند العذر وإن فعلتا لغير عذر ففاعلهما آثم لكن هذه قد فعلت في وقت هو وقتها في الجملة وقد

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة خلف الأمراء الذين يؤخرون الصلاة ونهى عن قتالهم مع ذمهم وظلمهم وأولئك كانوا يؤخرون الظهر إلى العصر فجاءت طائفة من الشيعة فصاروا يجمعون بين الصلاتين في وقت الأولى دائما من غير عذر فدخل في الوقت المشترك من جواز الجمع للعذر من تأويل الولاة وتصحيح الصلاة مع إثم التفويت ما لم يدخل في التفويت المطلق كمن يفطر شهر رمضان عمدا ويقول أنا أصوم في شوال أو يؤخر الظهر والعصر عمدا ويقول أصليهما بعد المغرب ويؤخر المغرب والعشاء ويقول أصليهما بعد الفجر أو يؤخر الفجر ويقول أصليها بعد طلوع الشمس فهذا تفويت محض بلا عذر وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله وقال من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله فلو كان يمكنه الإستدراك لم يحبط عمله وقوله وتر أهله وماله أي صار وترا لا أهل له ولا مال ولو كان فعلها ممكنا بالليل لم يكن موتورا وقال من أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك فلو كان فعلها بعد المغرب صحيحا مطلقا لكان مدركا سواء أدرك ركعة أو لم يدرك فإنه لم يرد أن من أدرك ركعة صحت صلاته بلا إثم بل يأثم بتعمد ذلك كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة فإنه أمر بأن تصلى الصلاة لوقتها الذي حده وأن لا يؤخر العصر إلى ما بعد الإصفرار ففعلها قبل الاصفرار واجب بأمره وقوله صلوا الصلاة لوقتها فعلم أن هذا الإدراك لا يرفع الإثم عن غير المعذور بل يكون قد صلاها مع الإثم فلو كانت أيضا تصلى بعد المغرب مع الإثم لم يكن فرق بين من يصليها عند الاصفرار أو يصليها بعد الغروب إلا أن يقال ذاك أعظم إثما ومعلوم أنه كلما أخرها كان أعظم إثما فحيث جاز القضاء مع وجوب التقديم كلما أخر القضاء كان أعظم لإثمه ومن نام عن صلاة أو نسيها فعليه أن يصليها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها وإذا أخرها من غير عذر أثم كما يأثم من أخر الواجب على الفور ويصح فعلها بعد ذلك فلو كانت العصر بعد المغرب بهذه المنزلة لم يكن لتحديد وقتها بغروب الشمس وقوله من أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فائدة بل كانت تكون كالواجب على الفور إذا أخره أو كانت تكون كالمغرب إذا أخرها إلى وقت العشاء ومعلوم أن هذا قد يجوز بل يسن كما في ليلة المزدلفة كما يسن تقديم العصر إلى وقت الظهر يوم عرفة بالسنة المتواترة واتفاق المسلمين

وأما فعل العصر بعد المغرب فلم يؤذن فيه قط لغير المعذور كما لم يؤذن في صلاة المغرب قبل غروب الشمس قال هؤلاء والصلاة في الوقت واجبة على أي حال بترك جميع الواجبات لأجل الوقت فإذا أمكنه أن يصلي في الوقت بالتيمم أو بلا قراءة أو بلا إتمام ركوع وسجود أو إلى غير القبلة أو يصلي عريانا أو كيفما أمكن

وجب ذلك عليه ولم يكن له أن يصلي بعد الوقت مع تمام الأفعال وهذا مما ثبت بالكتاب والسنة وعامته مجمع عليه فعلم أن الوقت مقدم على جميع الواجبات وحينئذ فمن صلى في الوقت بلا قراءة أو عريانا متعمدا ونحو ذلك إذا أمر أن يصلي بعد الوقت بقراءة وسترة كان ما أمر به دون ما فعله ولهذا إذا لم يمكن إلا أحدهما وجب أن يصلي في الوقت بلا قراءة ولا سترة ولا يؤخرها ويصلي بعد الوقت بقراءة وسترة فعلم أن ذلك التفويت ما بقي استدراكه ممكنا وأما المعذور فلله تعالى جعل الوقت في حقه متى أمكنه فمن نسي الصلاة أو بعض واجباتها صلاها متى ذكرها وكان ذلك هو الوقت في حقه وإذا قيل صلاته في الوقت كانت أكمل قيل نعم لكن تلك لم تجب عليه لعجزه بالنوم والنسيان وإنما وجب عليه أن يصلى إذا استيقظ وذكر كما نقول في الحائض إذا طهرت في وقت العصر فهي حينئذ مأمورة بالظهر والعصر وتكون مصلية للظهر في وقتها أداء وكذلك إذا طهرت آخر الليل صلت المغرب والعشاء وكانت المغرب في حقها أداء كما أمرها بذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف وابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهم ولم ينقل عن صحابي خلافه وهذا يدل على أن هذا من السنة التي كان الصحابة يعرفونها فإن مثل هذا يقع على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه وقد دل على ذلك الكتاب والسنة حيث جعل الله المواقيت ثلاثة في حق المعذور وهذه معذورة وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وهو يدل على أن الوقت مشترك في حق المعذور فلا يحتاج أن ينوي الجمع كما هو قول الأكثرين أبي حنيفة ومالك والإمام أحمد وقدماء أصحابه لكن الشافعي وطائفة من أصحاب أحمد كالخرقي ومن وافقه قالوا تجب النية في القصر والجمع وجمهور العلماء على أنه لا تجب النية لا لهذا ولا لهذا وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد وقدماء أصحابه وهو الصواب كما بسط في غير هذا الموضع وقضية الحائض مما يبين أن فعل الصلاة في غير وقتها الذي أمر بها فيه غير ممكن فإن ذلك لو كان ممكنا لكانت الحائض تؤمر بقضاء الصلاة أمر إيجاب أو أمر استحباب فإذا قيل يسقط القضاء عنها تخفيفا قيل فلو أرادت أن تصلي قضاء لتحصل ثواب الصلاة التي فاتتها لم يكن هذا مشروعا باتفاق العلماء وكان لها أن تصلى من النوافل ما شاءت فإن تلك الصلاة لم تكن مأمورة بها في وقتها والصلاة المكتوبة لا يمكن فعلها إلا في الوقت الذي أمر به العبد فلم يجز فعلها بعد ذلك وكل من كان معذورا من نائم وناس ومخطىء فهؤلاء مأمورون بها في الوقت الثاني فلم يصلوا إلا في وقت الأمر كما أمرت الحائض والمسافر والمريض بقضاء رمضان وقيل في المتعمد لفطره لا يجزيه صيام الدهر ولو صامه قالوا والناسي إنما أمر بالصلاة إذا ذكرها لم يؤمر بها قبل ذلك وذلك

هو الوقت في حقه فلم يصل إلا في وقتها وكذلك النائم إذا استيقظ إنما صلى في الوقت قالوا ولم يجوز الله لأحد أن يصلي الصلاة لغير وقتها ولا يقبلها منه في غير وقتها ألبتة وكذلك شهر رمضان وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أفطر يوما من رمضان لم يقضه صيام الدهر وإن صامه قالوا وإنما يقبل الله صيامه في غير الشهر من المعذور كالمريض والمسافر والحائض ومن اشتبه عليه الشهر فتحرى فصام بعد ذلك فإنه يجزيه الصيام أما المعتمد للفطر فلا قالوا ولهذا لم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي جامع أهله في رمضان بصوم بل أمره بالكفارة فقط وقد جاء ذكر أمره بالقضاء في حديث ضعيف ضعفه العلماء أحمد بن حنبل وغيره وكذلك جاء في الذي يستقيء عمدا أنه يعيد وهذا لم يثبت رفعه وإنما ثبت أنه موقوف على أبي هريرة وبتقدير صحته فيكون المراد به المعذور الذي اعتقد أنه يجوز له الإستقاء أو المريض الذي احتاج إلى أن يستقيء فاستقاء فإن الإستقاءة لا تكون في العادة إلا لعذر وإلا فلا يقصد العاقل أن يستقيء بلا حاجة فيكون المستقيء متداويا بالاستقاءة كما يتداوى بالأكل وهذا يقبل منه القضاء ويؤمر به وهذا الحديث ثابت عن أبي هريرة وإنما اختلف في رفعه وبكل حال هذا معناه فإن أبا هريرة هو الذي روى حديث الأعرابي وحديث من أفطر يوما من رمضان لم يقضه صيام الدهر فتحمل أحاديثه على الإتفاق لا على الإختلاف وهذا قول طائفة من السلف والخلف وهو قول أبي عبد الرحمن صاحب الشافعي وهو قول داود بن علي وابن حزم وغيرهم قالوا والمنازعون لنا ليس لهم قط حجة يرد اليها عند التنازع وأكثرهم يقولون لا يجب القضاء إلا بأمر ثان وليس معهم هنا أمر ونحن لا ننازع في وجوب القضاء فقط بل ننازع في قبول القضاء منه وصحة الصلاة في غير وقتها فنقول الصلوات الخمس في غير وقتها المختص والمشترك المضيق والموسع كالجمعة في غير وقتها وكالحج في غير وقته وكرمي الجمار في غير وقتها والوقت صفة للفعل وهو من آكد واجباته فكيف تقبل العبادة بدون صفاتها الواجبة فيها وهو لو صلى إلى غير القبلة بغير عذر لم تكن صلاته إلا باطلة وكذلك إذا صلى قبل الوقت المشترك لغير عذر مثل أن يصلي الظهر قبل الزوال والمغرب قبل المغيب ولو فعل ذلك متأولا مثل الأسير إذا ظن دخول شهر رمضان فصام ومثل المسافر في يوم الغيم وغيرهما إذا اجتهدوا فصلوا الظهر قبل الزوال أو المغرب قبل الغروب فهؤلاء في وجوب الإعادة عليهم قولان معروفان للعل والنزاع في ذلك في مذهب مالك والشافعي والمعروف من مذهب أحمد أنه لا يجزئهم ولو فعلوا ذلك في الوقت المشترك كصلاة العصر في وقت الظهر والعشاء قبل مغيب الشفق فقياس الصحيح من مذهب أحمد أن ذلك يجزىء فإنه جمع لعذر وهو لا يشترط النية وقد نص على

أن المسافر إذا صلى العشاء قبل مغيب الشفق أجزأه لجواز الجمع له وإن كان لم يصلها مع المغرب ولهذا يستحب له مع أمثاله تأخير الظهر وتقديم العصر وتأخير المغرب وتقديم العشاء كما نقل عن السلف فدل على أن الثانية إذا فعلت هنا قبل الوقت الخاص أجزأته قالوا فالنزاع في صحة مثل هذه الصلاة كالنزاع في رمي الجمار لا يفعل بعد الوقت قال لهم الأولون ما قستم عليه من الجمعة الحج ورمى الجمار لا يفعل بعد الوقت المحدود في الشرع بحال لا لمعذور ولا لغير معذور فعلم أن هذه الأفعال مختصة بزمان كما هي مختصة بمكان وأما الصلوات الخمس فيجوز فعلها للمعذور بعد إنقضاء الأوقات فعلم أنه يصح فعلها في غير الوقت وأن الوقت ليس شرطا فيها كما هو شرط في تلك العبادات قال الآخرون الجواب من وجهين أحدهما أن يقال هب أنه يجوز فعل الصلاة بعد وقتها للمعذور توسعة من الله ورحمة وأما النائم والناسي فلا ذنب لهما فوسع الله لهما عند الذكر والانتباه إذا كان لا يمكنهما الصلاة إلا حينئذ فأي شيء في هذا مما يدل على جواز ذلك لمرتكب الكبيرة الذي لا عذر له في تفويتها والحج إذا فاته في عام أمكنه أن يحج في عام قابل ورمي الجمار إذا فاته جعل له بدل عنها وهو النسك والجمعة إذا فايت صلى الظهر فكان المعذور إذا فاتته هذه العبادات المؤقتة شرع له أن يأتي ببدلها ولا إثم عليه رحمة من الله في حقه وأما غير المعذور فجعل له البدل أيضا في الحج لأن الحج يقبل النيابة فإذا مات الإنسان جاز أن يحج عنه وإن كان مفرطا فإذا جاز أن يحج عنه غيره فلأن يجوز أن يأتي هو بالبدل بطريق الأخرى والأولى فإن الدم الذي يخرجه هو أولى من فعل غيره عنه وأما الجمعة إذا فاتته فإنما يصلي الظهر لأنها الفرض المعتاد في كل يوم لا لأنها بدل عن الجمعة بل الواجب على كل أحد إما

الجمعة وإما الظهر فإذا أمكنه الجمعة وجبت عليه وإن لم يمكن صلى الظهر فإذا فاتت الجمعة أمكنه أن يصلي الظهر فوجب عليه صلاة الظهر ولهذا لا يجوز فعلها عند أكثر العلماء إلا إذا فاتت الجمعة وأما الصلاة المكتوبة فلا تدخلها النيابة بحال وكذلك صوم رمضان إن كان قادرا عليه وإلا سقط عنه الصوم وأطعم هو عن كل يوم مسكينا عند الأكثرين وعند مالك لا شيء عليه وأما ما وردت به السنة من صيام الإنسان عن وليه فذاك في النذر كما فسرته الصحابة الذين رووه بهذا كما يدل عليه لفظه فإنه قال من مات وعليه صيام صام عنه وليه والنذر في ذمته وهو عليه وأما صوم رمضان فليس في ذمته ولا هو عليه بل هو ساقط عن العاجز عنه فلما كانت الصلوات الخمس وصيام رمضان لا يفعله أحد عن أحد أصلا لم يكن لهما بدل بخلاف الحج وغيره فلهذا وسع الشارع في قضائهما للمعذور لحاجته به إلى ذلك

توسعة منه ورحمة وغيرهما لم يوسع في قضائه لأحد لأنه لا حاجة إلى قضائه لما شرع من البدل

إما عبادة أخرى كالظهر عن الجمعة والدم عن واجبات الحج وإما فعل الغير كالحج عن المغضوب والميت فهذا يبين الفرق بين الصلاة والصوم وغيرهما وبين المعذور وغيره ويبين أن من وسع فيهما لغير المعذور كما يوسع للمعذور فقد أخطأ القياس الجواب الثاني أنا لم نفس قياسا استفدنا به حكم الفرع من الأصل فإن ما ذكرناه ثابت بالأدلة الشرعية التي لا تحتاج إلى القياس معها كما تقدم لكن ذكرنا القياس ليتصور الإنسان ما جاء به الشرع في هذا كما يضرب الله الأمثال للتفهيم والتصوير لا لأن ذلك هو الدليل الشرعي والمراد بهذا القياس أن يعرف أن فعل الصلاة بعد الوقت حيث حرم الله ورسوله تأخيرها بمنزلة فعل هذه العبادات والمقصود تمثيل الحكم بالحكم لا تمثيل الفعل بالفعل فيعرف أن المقصود أن الصلاة ما بقيت تقبل ولا تصح كما لا تقبل هذه ولا تصح فإن من الجهال من يتوهم أن المراد بذلك تهوين أمر الصلاة وأن من فوتها سقط عنه القضاء فيدعو ذلك السفهاء إلى تفويتها وهذا لا يقوله مسلم بل من قال إن من فوتها فلا إثم عليه فهو كافر مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل ولكن تفويت الصلاة عمدا مثل تفويت شهر رمضان عمدا بإجماع المسلمين فأجمع المسلمون كلهم من جميع الطوائف على أن من قال لا أصلي صلاة النهار إلا بالليل فهو كمن قال لا أصوم رمضان إلا في شوال فإن كان يستجيز تأخيرها ويرى ذلك جائزا له فهو كمن يرى تأخير رمضان جائزا وهذا وهذا يجب استتابتهما باتفاق العلماء فإن تابا واعتقدا وجوب فعل الصلاة والصوم في وقتهما وإلا قتلا وكثير من العامة والجهال يعتقدون جواز تأخيرها إلى الليل بأدنى شغل ويرى أن صلاتها بالليل خير من أن يصليها بالنهار مع الشغل وهذا باطل بإجماع المسلمين بل هذا كفر وكثير منهم لا يرى جوازها في الوقت إلا مع كمال الأفعال وأنه إذا صلاها بعد الوقت مع كمال الأفعال كان أحسن وهذا باطل بل كفر باتفاق العلماء ومن أسباب هذه الإعتقادات الفاسدة تجويز القضاء لغير المعذور وقول القائل إنها تصح وتقبل وإن أثم بالتأخير فجعلوا فعلها بعد الغروب كفعل العصر بعد الإصفرار وذلك جمع بين ما فرق الله ورسوله بينه فلو علمت العامة أن تفويت الصلاة كتفويت شهر رمضان باتفاق المسلمين لاجتهدوا في فعلها في الوقت ومن جملة أسباب ذلك أن رمضان يشترك في صومه جميع الناس والوقت مطابق للعبادة لا يفصل عنها وليس له شروط كالصلاة والصلاة وقتها موسع فيصلي بعض الناس في أول الوقت وبعضهم في آخره وكلاهما جائز وفيها واجبات يظن الجهال أنه لا يجوز فعلها إلا مع تلك الواجبات مطلقا فيقولون نفعلها بعد الوقت فهو خير من فعلها

في الوقت بدون تلك الواجبات فهذا الجهل أوجب تفويت الصلاة التفويت المحرم بالإجماع ولا يجوز أن يقال لمن فوتها لا شيء عليك أو تسقط عنك الصلاة وإن قال هذا فهو كافر ولكن يبين له أنك بمنزلة من زنى وقتل النفس وبمنزلة من أفطر رمضان عمدا إذ أذنبت ذنبا ما بقي له جبران يقوم مقامه فإنه من الكبائر بل قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجمع بين الصلاتين من غير عذر من الكبائر فإذا كان هذا في الجمع من غير عذر فكيف بالتفويت من غير عذر وحينئذ فعليك بالتوبة والإجتهاد في أعمال صحالحة أكثر من قضائها فصل صلوات كثيرة لعله أن يكفر بها عنك ما فوته وأنت مع ذلك على خطر وتصدق فإن بعض الصحابة ألهاه بستانه عن صلاة المغرب فتصدق ببستانه وسليمان بن داود لما فاتته صلاة العصر بسبب الخيل طفق مسحا بالسوق والأعناق فعقرها كفارة لما صنع فمن فوت صلاة واحدة عمدا فقد أتى كبيرة عظيمة فليستدرك بما أمكن من توبة وأعمال صالحة ولو قضاها لم يكن مجرد القضاء رافعا إثم ما فعل بإجماع المسلمين والذين يقولون لا يقبل منه القضاء يقولون نأمره بأضعاف القضاء لعل الله أن يعفو عنه وإذا قالوا لا يجب القضاء إلا بأمر جديد فلأن القضاء تخفيف ورحمة كما في حق المريض والمسافر في رمضان والرحمة والتخفيف تكون للمعذور والعاجز لا تكون لأصحاب الكبائر المتعمدين لها المفرطين في عمود الإسلام والصلاة عمود الإسلام ألا ترى إلى ما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه لما سئل عمن وجب عليه الحج فعجز عنه أو نذر صياما أو حجا فمات هل يفعل عنه فقال أرأيت لو كان على أبيك أو أمك دين فقضيته أما كان يجزي عنه قال بلى قال فالله أحق بالقضاء ومراده بذلك أن الله أحق بقبول القضاء عن المعذور من بني آدم فإن الله أرحم وأكرم فإذا كان الآدميون يقبلون القضاء عمن مات فالله أحق بقبوله أيضا لم يرد بذلك أن الله يحب أن تقضى حقوقه التي كانت على الميت وهي أوجب ما يقضى من الدين فإن دين الميت لا يجب على الورثة قضاؤه لكن يقضى من تركته ولا يجب على أحد فعل ما وجب على الميت من نذر والسائل إنما سأل عن الإجزاء والقبول لم يسأل عن الوجوب فلا بد أن يجاب عن سؤاله فعلم أن الأمر بقضاء العبادات وقبول القضاء من باب الإحسان والرحمة وذلك مناسب للمعذور وأما صاحب الكبيرة المفوت عمدا فلا يستحق تخفيفا ولا رحمة لكن إذا تاب فله أسوة بسائر التائبين من الكبائر فيجتهد في طاعة الله وعباداته بما أمكن والذين أمروه بالقضاء من العلماء لا يقولون إنه بمجرد القضاء يسقط عنه الإثم بل يقولون بالقضاء يخف عنه الإثم وأما إثم التفويت وتأخير الصلاة عن وقتها فهو كسائر الذنوب التي تحتاج إما إلى توبة وإما إلى حسنات ماحية وإما غير ذلك مما يسقط به العقاب

وهذه المسائل لبسطها موضع آخر والمقصود هنا أن ما كان من الشيطان مما لا يدخل تحت الطاقة فهو معفو عنه كالنوم والنسيان والخطأ في الإجتهاد ونحو ذلك وأن كل من مدح من الأمة أولهم وآخرهم على شيء أثابه الله عليه ورفع به قدره فهو مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فالثواب على ما جاء به الرسول والنصرة لمن نصره والسعادة لمن اتبعه وصلوات الله وملائكته على المؤمنين به والمعلمين للناس دينه والحق يدور معه حيثما دار وأعلم الخلق بالحق وأتبعهم له أعلمهم بسنته وأتبعهم لها وكل قول خالف قوله فهو إما دين منسوخ وإما دين مبدل لم يشرع قط وقد قال علي رضي الله عنه في مفاوضة جرت بينه وبين عثمان رضي الله عنه خيرنا أتبعنا لهذا الدين وعثمان يوافقه على ذلك وسائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين [1]

## شيئان يحركان القلوب الى الله

قال تعالى {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً{١٠٣} وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{١٠٤} النساء١٠٣ ـ١٠٤

ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب الى الله عز وجل فتعتصم به فتقل آفاتها أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته فنقول إعلم أن محركات القلوب الى الله عز وجل ثلاثة المحبة والخوف والرجاء وأقواها المحبة وهى مقصودة تراد لذاتها لأنها تراد فى الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول فى الآخرة قال الله تعالى{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}الأحقاف١٣ والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق فالمحبة تلقى العبد فى السير الى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب والرجاء يقوده فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكل أحد يجب أن يكون عبدا لله لا لغيره فإن قيل فالعبد فى بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه فأى

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٩٨-٢٣٣

شيء يحرك القلوب قلنا يحركها شيئان أحدهما كثرة الذكر للمحبوب لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً {٤١} وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً{٤٢}الأحزاب٤١ -٤٢ الآية والثانى مطالعة آلائه ونعمائه قال الله تعالى {فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}الأعراف٦٩ وقال تعالى {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ}النحل٥٣ وقال تعالى {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً}لقمان٢٠ وقال تعالى {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا}النحل١٨ فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره فلابد أن يثير ذلك عنده باعثا وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد فى الرجاء والكلام فى التوحيد واسع وإنما الغرض مبلغ التنبيه على تضمنه الإستغناء بأدنى إشارة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم [١]

## لطائف لغوية

١- اذا قال العلماء مطلق ومقيد انما يعنون به مطلقا عن ذلك القيد ومقيد بذلك القيد كما يقولون الرقبة مطلقة فى آية كفارة اليمين {أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}المائدة٨٩ومقيدة فى آية القتل أى مطلقة عن قيد الايمان والا فقد قيل {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}النساء٩٢ فقيدت بأنها رقبة واحدة وأنها موجودة وأنها تقبل التحرير [٢]

٢-كما أنهم يسمون الإنسان بإبعاضه اللآزمة له فيسمونه رقبة ورأسا ووجها ونحو ذلك كما فى قوله تعالى {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}النساء٩٢ [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٩٥

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٠٧

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٥٥١

٣- قال {كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ}المائدة٦٤ فهذا اللفظ اصله ان المحاربين يوقدون نارا يجتمع اليها اعوانهم وينصرون وليهم على عدوهم فلا تتم محاربتهم الا بها فاذا طفئت لم يجتمع امرهم ثم صار هذا كما تستعمل الامثال في كل محارب بطل كيده كما يقال يداك اوكتا و فوك نفخ ومعناه انت الجانى على نفسك وكما يقال الصيف ضيعت اللبن معناه فرطت وقت الامكان وهذه الالفاظ كان لها معنى خاص نقلت بعرف الاستعمال الى معنى اعم من ذلك وصار يفهم منها ذلك عند الاطلاق لغلبة الاستعمال ولا يفهم منها خصوص معناها الاول كسائر الالفاظ التى نقلها اهل العرف الى اعم من معناها مثل لفظ الرقبة والراس فى قوله {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}النساء٩٢ وقد يقال ان هذا من باب دلالة اللزوم فان تحرير العنق يستلزم تحرير سائر البدن ولهذا تنازع الفقهاء اذا قال يدك حر ان دخلت الدار فقطعت يده ثم دخل الدار هل يعتق على وجهين بناء على انه من باب السراية او من باب العبادة والصحيح انه من باب العبادة ومعناه انت حر ان فعلت كذا والحقيقة العرفية والشرعية معلومة في اللغة [1]

٤- وأخبرت الرسل بتقدم أسمائه وصفاته كما فى قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ {وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء١٣٤ {وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء٩٦ وامثال ذلك قال إبن عباس كان ولم يزل ولا يزال ولم يقيد كونه بوقت دون وقت [2]

قال تعالى {وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء٩٢ {وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١٠٠ {وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً}النساء٩٩

* فهو المسمى نفسه بأسمائه الحسنى كما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس انه لما سئل عن قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ {وَكَانَ اللّهُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٧٢

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٢٣٣ و مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٣٨

غَفُوراً رَّحِيماً}النساء٩٦ فقال هو سمى نفسه بذلك وهو لم يزل كذلك فأثبت قدم معانى أسمائه الحسنى وأنه هو الذى سمى نفسه بها [1]

*قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ و نحوه كما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس و رواه ابن أبى حاتم من عدة طرق لما قيل له قوله {وَكَانَ اللّهُ}النساء١٥٨ كأنه كان شيء ثم مضى فقال إبن عباس هو سمى نفسه بذلك ولم يزل كذلك هذا لفظ ابن أبى حاتم من طريق أبى معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فقال ابن عباس كذلك كان ولم يزل ومن رواية عمرو بن أبي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال سمعت الله يقول {وَكَانَ اللّهُ}النساء١٥٨ كأنه شيء كان فقال ابن عباس أما قوله {كَانَ} فإنه لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ومن رواية عبدالرحمن بن مغرا عن مجمع بن يحيى عن عمه عن ابن عباس قال قال يهودي إنكم تزعمون أن الله كان عزيزا حكيما فكيف هو اليوم فقال ابن عباس إنه كان فى نفسه عزيزا حكيما وهذه أقوال ابن عباس تبين أنه لم يزل متصفا بخبر كان ولا يزال كذلك و أن ذلك حصل له من نفسه فلم يزل متصفا فى نفسه إذا كان من لوازم نفسه و لهذا لا يزال لأنه من نفسه و قال أحمد بن حنبل لم يزل الله عالما متكلما غفورا و قال أيضا لم يزل الله متكلما إذا شاء [2]

*و فى صحيح البخاري تعليقا عن سعيد بن جبير أن رجلا سأل إبن عباس عن قوله و كان الله غفورا رحيما و كان الله عزيزا حكيما و كان الله سميعا بصيرا فكأنه كان فمضى فقال إبن عباس قوله و كان الله و كان الله فإنه يجل نفسه عن ذلك و سمى نفسه بذلك لم يجله أحد غيره و كان أي لم يزل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٠٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٣٧٠ و مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٣٧٠ و مجموع الفتاوى ج: ٥ ص:

كذلك رواه عبد بن حميد فى تفسيره مسندا موصولا و رواه إبن المنذر أيضا فى تفسيره و هذا لفظ رواية عبد[1]

٥- والقتل إذا أطلق في لسان الشرع فإنه يقتضي الفعل المزهق للروح كما قال تعالى {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً}النساء٩٢ {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ}النساء٩٣ إلى غير ذلك من ذكر قتل الآدمى[2]

٦- قال تعالى{وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء٩٢ عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه[3]

٧- قال تعالى {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً}النساء٩٢ وهذا يسمى استثناء منقطعا[4]

٨- قال تعالى {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}التوبة٥ وقال {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً}النساء٩٣ فأثبت القتل ولأن القتل هو الفعل الصالح للإزهاق ليس هو الزهوق بخلاف الإماتة[5]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٠

[2] شرح العمدة ج: ٣ ص: ١٥٤

[3] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[4] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٩٢

[5] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٤٠

٩- وجواب الشرط مع الشرط كالسبب مع مسببه وقال تعالى {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}النساء٩٣ [١]

١٠- قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}النساء٩٤ ولفظ العرض فى اللغة له معنى وهو ما يعرض ويزول كما قال تعالى {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأدْنَى}الأعراف١٦٩ [٢]

١١- قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}النساء٩٤ وأما لقنته القول ولقيته فتلقاه فذلك إذا أردت أن تحفظه بخلاف ما إذا ألقيته إليه فإن هذا يقوله فيما يخاطبه به وإن لم يحفظه كمن ألقيت إليه القول بخلاف القول إنكم لكاذبون وألقوا إليهم السلام وليس هنا إلا خطاب سمعوه لم يحصل نفس صفة المتكلم في المخاطب [٣]

١٢- قال تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ}النساء٩٥ التسوية جعل الشيئين سواء [٤]

١٣- قال تعالى {دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً} النساء٩٦ ورحمته اسم جامع لكل خيرودار الرحمة الخالصة هى الجنة [٥]

---

[١] العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٦٦

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٣٠٠

[٣] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٧٥

[٤] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٣٦

[٥] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥

١٤- الحيلة     ووزنها فعلة بالكسر وهى النوع المختص من الحول كما يقال الجلسة والقعدة واللبسة والاكلة والضجعة ونحو ذلك بالكسر هى النوع الخاص وهو بالفتح المرة الواحدة فالحيلة أصلها حولة لكن لما جاءت الواو الساكنة بعد كسرة قلبت ياء كما فى لفظ ميزان وميقات وميعاد وزنه مفعال وقياسه موزان وموقات لكن لما جاءت الواو الساكنة بعد كسرة قلبت ياء قال تعالى     {إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً}النساء٩٨   من الحيل فانها نكرة فى سياق النفى فتعم جميع أنواع الحيل[١]

١٥- والحكم إذا تعقب الوصف بحرف الفاء علم أنه علة نعم هذه الصفة لا تستعمل إلا فيما يتوهم حظره كقوله     {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ}النساء١٠١     وقوله     {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ}البقرة١٧٣     وقوله     {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ}المائدة٩٣     الاية فإن المحرم للميتة موجود حال الاضطرار والموجب للصلاة موجود حال السفر [٢]

١٦- قال تعالى {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً} النساء١٠٣ *وبسبب الكلام فى     مسألة الايمان     تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى إسم     الصلاة     و     الزكاة     و     الصيام     و     الحج     إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة     والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ     الايمان     أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ     الإسلام     بالإستسلام لله رب العالمين     وقد بين

---

[١]مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٧٥

[٢]شرح العمدة ج: ٣ ص: ٦٢٨

الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد فى الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التى يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال فى لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوى أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعى ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{٩} عَبْداً إِذَا صَلَّى{١٠}العلق٩-١٠ وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبى عن الصلاة وقال لئن رأيته يصلى لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه فإذا قيل {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{٩} عَبْداً إِذَا صَلَّى{١٠}العلق٩-١٠ فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال فى اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبى لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتمون بالنبى فإذا قيل لهم {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال فى ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد [1]

١٧- قال تعالى {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ}النساء١٠٣ فإن الله تعالى سمى فعل العبادة في وقتها قضاء كما قال في الجمعة {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ}الجمعة١٠ وقال تعالى {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ}البقرة٢٠٠ مع أن هذين يفعلان في الوقت والقضاء في لغة العرب هو إكمال الشيء وإتمامه كما قال تعالى {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ}فصلت١٢ إي أكملهن وأتمهن فمن فعل العبادة كاملة فقد قضاها وإن فعلها في وقتها [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠٠

[2] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٥٥ و مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٣٧

*لفظ القضاء فانه فى كلام الله وكلام الرسول المراد به إتمام العبادة وإن كان ذلك فى وقتها كما قال تعالى {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}الجمعة١٠ وقوله {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ}البقرة٢٠٠ ثم اصطلح طائفة من الفقهاء فجعلوا لفظ القضاء مختصا بفعلها فى غير وقتها ولفظ الأداء مختصا بما يفعل فى الوقت وهذا التفريق لا يعرف قط فى كلام الرسول ثم يقولون قد يستعمل لفظ القضاء فى الأداء فيجعلون اللغة التى نزل القرآن بها من النادر ولهذا يتنازعون فى مراد النبى فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاقضوا وفى لفظ فأتموا فيظنون ان بين اللفظين خلافا وليس الأمر كذلك بل قوله فاقضوا كقوله فأتموا لم يرد باحدهما الفعل بعد الوقت بل لا يوجد فى كلام الشارع أمر بالعبادة فى غير وقتها لكن الوقت وقتان وقت عام ووقت خاص لأهل الأعذار كالنائم والناسى إذا صليا بعدالاستيقاظ والذكر فانما صليا فى الوقت الذى أمر الله به فان هذا ليس وقتا فى حق غيرهما ومن أعظم أسباب الغلط فى فهم كلام الله ورسوله ان ينشأ الرجل على اصطلاح حادث فيريد أن يفسر كلام الله بذلك الاصطلاح ويحمله على تلك اللغة التى اعتادها [١]

١٨- قال تعالى {وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١٠٤عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه [٢]

١٩- وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى {وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١٠٠ {وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١٠٤ {وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً}النساء٩٩ ونحو ذلك قال كان ولم يزل ولا يزال [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ١٠٦-١٠٧

[٢] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٣٨

# النساء١٠٥-١٢٦

{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ
تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً{١٠٥} وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً
رَّحِيماً{١٠٦} وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ
مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً{١٠٧} يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ
اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطاً{١٠٨} هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً{١٠٩}
وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً
رَّحِيماً{١١٠} وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ
عَلِيماً حَكِيماً{١١١} وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ
احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً{١١٢} وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ
لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ
مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ
وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً{١١٣} لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ
مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ
ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً{١١٤} وَمَن يُشَاقِقِ
الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ
مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً{١١٥} إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن
يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلاَلاً بَعِيداً{١١٦} إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ
شَيْطَاناً مَّرِيداً{١١٧} لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً
مَّفْرُوضاً{١١٨} وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ
الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن
دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً{١١٩} يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ
الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً{١٢٠} أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا
مَحِيصاً{١٢١} وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً{١٢٢} لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{١٢٣} وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً{١٢٤} وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً{١٢٥} وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً{١٢٦}

## سبب نزول قوله تعالى{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}

ففى الصحيحين عنه أنه قال إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضى بنحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار وقد ادعى قوم من أهل الخير على ناس من أهل الشر يقال لهم بنو أبيرق أنهم سرقوا لهم طعاما ودروعا فجاء قوم فبرأوا أولئك المتهمين فظن النبي صلى الله عليه وسلم صدق أولئك المبرئين لهم حتى أنزل الله تعالى عليه {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً{١٠٥} وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{١٠٦} وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً{١٠٧}النساء ١٠٥ - ١٠٧ [١]

## الكتاب والعدل متلازمان

قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}الحديد٢٥ فبين سبحانه وتعالى أنه أنزل الكتاب وأنزل

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٤١٣

العدل وما به يعرف العدل ليقوم الناس بالقسط وأنزل الحديد فمن خرج عن الكتاب والميزان قوتل بالحديد فالكتاب والعدل متلازمان والكتاب هو المبين للشرع فالشرع هو العدل والعدل هو الشرع ومن حكم بالعدل فقد حكم بالشرع ولكن كثيرا من الناس ينسبون ما يقولونه إلى الشرع وليس من الشرع بل يقولون ذلك إما جهلا وإما غلطا وإما عمدا وإفتراء وهذا هو الشرع المبدل الذى يستحق أصحابه العقوبة ليس هو الشرع المنزل الذى جاء به جبريل من عند الله إلى خاتم المرسلين فإن هذا الشرع المنزل كله عدل ليس فيه ظلم ولا جهل قال تعالى {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} المائدة٤٢ وقال تعالى {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ} المائدة٤٩ فالذى أنزل الله هو القسط والقسط هو الذى أنزل الله وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ} النساء٥٨ وقال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ} النساء١٠٥ فالذى أراه الله فى كتابه هو العدل وقد يقول كثير من علماء المسلمين أهل العلم والدين من الصحابة والتابعين وسائر إئمة المسلمين كالأربعة وغيرهم أقوالا بإجتهادهم فهذه يسوغ القول بها ولا يجب على كل مسلم أن يلتزم إلا قول رسول الله فهذا شرع دخل فيه التأويل والإجتهاد وقد يكون فى نفس الأمر موافقا للشرع المنزل فيكون لصاحبه أجران وقد لا يكون موافقا له لكن لا يكلف الله نفسا إلا وسعها فإذا إتقى العبد الله ما إستطاع آجره الله على ذلك وغفر له خطأه ومن كان هكذا لم يكن لأحد أن يذمه ولا يعيبه ولا يعاقبه ولكن إذا عرف الحق بخلاف قوله لم يجز ترك الحق الذى بعث الله به رسوله لقول أحد من الخلق وذلك هو الشرع المنزل من عند الله وهو الكتاب والسنة وهو دين الله ورسوله لتكون كلمة الله هى العليا ويكون الدين كله لله لا يجاهدون على قول عالم ولا شيخ ولا متأول بل يجاهدون ليعبد الله وحده ويكون الدين له كما فى المسند عن إبن عمر قال قال النبى صلى الله عليه وسلم بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم وقال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ} الأنفال٣٩ وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال قيل يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأى ذلك فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص:٣٦٦- ٣٦٧

فإن حكم الله تبارك وتعالى شامل لجميع الخلائق وعلى كل من ولى أمر الأمة أو حكم بين إثنين أن يحكم بالعدل والقسط وأن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله وهذا هو الشرع المنزل من عند الله قال الله تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}الحديد٢٥ وقال تعالى{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ وقال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ}النساء١٠٥ وقال تعالى {فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ}المائدة٤٨ [١]

قال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً{١٠٥} وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{١٠٦} وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً{١٠٧} يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً{١٠٨} هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً{١٠٩} وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً{١١٠} وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{١١١} وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً{١١٢} وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً{١١٣} النساء ١٠٥-١١٣ وهذا خبر يتضمن دعوى له فإن المدعي مخبر والمنكر مخبر والشاهد مخبر والمقر مخبر وكما نهاهم عن تكذيب المدعي بلا علم نهاهم عن تصديق المنكر المتهم ورمي البريء بلا حجة وتبرئته وتزكيته بلا علم [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٨٩

[٢] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٤٥٧

## "أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك"

من الأمانات الأموال كما قال الله تعالى في الديون {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ}البقرة٢٨٣ ويدخل في هذا القسم الأعيان والديون الخاصة والعامة مثل رد الودائع ومال الشريك والموكل والمضارب ومال المولى من اليتيم وأهل الوقف ونحو ذلك وكذلك وفاء الديون من أثمان المبيعات وبدل القرض وصدقات النساء وأجور المنافع ونحو ذلك وقد قال الله تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً}النساء١٠٥ خصيما أي لا تخاصم عنهم وقال النبي صلى الله عليه وسلم أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك وقال النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن من أمنه المسلمون على دمائهم وأموالهم والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله وهو حديث صحيح بعضه في الصحيحين وبعضه في سنن الترمذي وقال صلى الله عليه وسلم من أخذ أموال الناس يريد أداءها أداها الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله رواه البخاري وإذا كان الله قد أوجب أداء الأمانات التي قبضت بحق ففيه تنبيه على وجوب أداء الغصب والسرقة والخيانة ونحو ذلك من المظالم وكذلك أداء العارية وقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وقال في خطبته العارية مؤداة والمنحة مردودة الدين مقضي والزعيم غارم إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث وهذا القسم يتناول الولاة والرعية فعلى كل منهما أن يؤدي إلى الآخر ما يجب أداؤه اليه فعلى ذي السلطان ونوابه في العطاء أن يؤتوا كل ذي حق حقه وعلى جباة الأموال كأهل الديون أن يؤدوا إلى ذي السطان ما يجب إيتاؤه إليه وكذلك على الرعية الذين يجب عليهم الحقوق [1]

قال الله تعالى {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ{١} الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ{٢} وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ{٣}المطففين١-٣ وقال فى قصة شعيب {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ{١٨١} وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ{١٨٢} وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ{١٨٣}الشعراء١٨١-١٨٣ وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً}النساء١٠٧ وقال {وَأَنَّ اللّهَ لاَ

---

[1] السياسة الشرعية ج: ١ ص: ٢٦-٢٧ و مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٦٥-٢٦٦

يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ}يوسف٥٢ وفى الصحيحين عن حكيم بن حزام قال قال رسول الله البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعها وان كتما وكذبا محقت بركة بيعهما وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال ما هذا يا صاحب الطعام فقال أصابته السماء يا رسول الله قال أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس من غشنا فليس منا وفى رواية من غشنى فليس منى فقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ان الغاش ليس بداخل فى مطلق اسم أهل الدين والايمان كما قال لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن فسلبه حقيقة الايمان التى بها يستحق حصول الثواب والنجاة من العقاب وان كان معه أصل الايمان الذى يفارق به الكفار ويخرج به من النار [1]

## حكم النبى بالقسامة فى الدماء

قد أنزل على نبيه فى قصة كانت تهمة فى سرقة قوله تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً{١٠٥} وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{١٠٦} وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً{١٠٧} يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً{١٠٨} هَاأَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً{١٠٩} النساء١٠٥-١٠٩ إلى آخر الآيات وكان سبب ذلك أن قوما يقال لهم بنو أبيرق سرقوا لبعض الأنصار طعاما ودرعين فجاء صاحب المال يشتكى الى رسول الله فجاء قوم يزكون المتهمين بالباطل فكان النبى ظن صدق المزكيين فلام صاحب المال فأنزل الله هذه الآية ولم يقل النبى صلى الله عليه وسلم لصاحب المال أقم البينة ولا حلف المتهمين لأن أولئك المتهمين كانوا معروفين بالشر وظهرت الريبة عليهم وهكذا حكم النبى بالقسامة فى الدماء اذا كان هناك لوث يغلب على الظن صدق المدعين فان هذه الأمور من الحدود فى المصالح العامة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٧١

ليست من الحقوق الخاصة فلولا القسامة فى الدماء لأفضى الى سفك الدماء فيقتل الرجل عدوه خفية ولا يمكن أولياء المقتول اقامة البينة واليمين على القاتل والسارق والقاطع سهلة فان من يستحل هذه الأمور لا يكترث باليمين وقول النبى لو يعطى الناس بدعواهم لا دعى قوم دماء قوم وأموالهم ولكن اليمين على المدعى عليه هذا فيما لا يمكن من المدعى حجة غير الدعوى فانه لا يعطى بها شيئا ولكن يحلف المدعى عليه فأما إذا أقام شاهدا بالمال فان النبى قد حكم فى المال بشاهد ويمين وهو قول فقهاء الحجاز وأهل الحديث كمالك والشافعى وأحمد وغيرهم واذا كان فى دعوى الدم لوث فقد قال النبى للمدعين أتحلفون خمسين يمينا وتستحقون دم صاحبكم [1]

## " كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن "

قال الامام أبو عبدالله محمد بن ادريس الشافعى كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن قال الله تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً}النساء١٠٥ وقال تعالى {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}النحل٤٤ وقال تعالى {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}النحل٦٤ ولهذا قال رسول الله الا انى أوتيت القرآن ومثله معه يعنى السنة والسنة أيضا تنزل عليه بالوحى كما ينزل القرآن لا أنها تتلى كما يتلى وقد استدل الامام الشافعى وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ٢٣٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٣٦٣

## لا يمتنع على الأنبياء أن يظنوا شيئا فيكون الأمر بخلاف ما ظنوه

لا يمتنع على الأنبياء أن يظنوا شيئا فيكون الأمر بخلاف ما ظنوه فقد يظنون فيما وعدوه تعيينا وصفات ولا يكون كما ظنوه فييأسون مما ظنوه فى الوعد لا من تعيين الوعد كما قال النبى صلى الله عليه وسلم رأيت أن أبا جهل قد أسلم فلما اسلم خالد ظنوه فلما أسلم عكرمة علم أنه هو وروى مسلم فى صحيحه أن النبى مر بقوم يلقحون فقال لو لم تفعلوا هذا لصلح قال فخرج سبتا فمر بهم فقال ما لفحلكم قالوا قلت كذا وكذا قال أنتم اعلم بأمر دنياكم وروى أيضا عن موسى بن طلحة عن أبيه طلحة ابن عبيد الله قال مررت مع رسول الله بقوم على رؤوس النخل فقال ما يصنع هؤلاء فقال يلحقونه يجعلون الذكر فى الأنثى فتلقح فقال رسول الله ما أظن يغنى ذلك شيئا فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله صلى عليه وسلم بذلك فقال إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإننى ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإنى لنا أكذب على الله فإذا كان النبى يأمرنا إذا حدثنا بشىء عن الله أن نأخذ به فإنه لن يكذب على الله فهو أتقانا لله وأعلمنا بما يتقى وهو أحق أن يكون آخذا بما يحدثنا عن الله فإذا أخبره الله بوعد كان علينا أن نصدق به وتصديقه هو به أعظم من تصديقنا ولم يكن لنا أن نشك فيه وهو بأبى أولى وأحرى أن لا يشك فيه لكن قد يظن ظنا كقوله إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن وإن كان أخبره به مطلقا فمستنده ظنون كقوله فى حديث ذى اليدين ما قصرت الصلاة ولا نسيت وقد يظن الشىء ثم يبين الله الأمر على جليته كما وقع مثل ذلك فى أمور كقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}الحجرات٦ نزلت فى الوليد ابن عقبة لما إستعمله النبى وهم أن يغزوهم لما ظن صدقه حتى أنزل الله هذه الآية وكذلك فى قصة بنى أبيرق التى أنزل الله فيها {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً}النساء١٠٥ وذلك لما جاء قوم تركوا السارق الذى كان يسرق وأخرجوا البرىء فظن النبى صدقهم حتى تبين الأمر بعد ذلك وقال فى حديث قصر الصلاة لم أنس ولم تقصر فقالوا بلى قد نسيت وكان قد نسى فأخبر عن موجب ظنه وإعتقاده حتى تبين الأمر بعد ذلك [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص:١٨٦- ١٨٨

## لا يمكن أن ينص الشارع على كل معينة

والرافضي(الرافضي (صاحب كتاب منهاج الكرامة في معرفة الإمامة)) إن زعم أن الإمام يكون منصوصا عليه وهو معصوم فليس هو أعظم من الرسول ونوابه وعماله ليسوا معصومين ولا يمكن أن ينص الشارع على كل معينة ولا يمكن النبي ولا الإمام أن يعلم الباطن في كل معينة بل قد كان النبي صلى الله عليه وسلم يولى الوليد بن عقبة ثم ينزل الله فيه {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ}الحجرات٦ وقد كان يظن أن الحق في قضيته مع بني أبيرق ثم ينزل الله {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً{١٠٥} وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{١٠٦} وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً{١٠٧}النساء١٠٥ -١٠٧ وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض وإنما أقضى بنحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له ƒقطعة من النار فحكمه في القضية المعينة إنما هو باجتهاده ولهذا نهى المحكوم له أن يأخذ ما حكم له به إذا كان الباطن بخلاف ما ظهر للحاكم [1]

## العابد لله فى كل لحظة يزداد علما بالله

قال تعالى{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً{١٠٥} وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{١٠٦} وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً{١٠٧}النساء١٠٥ -١٠٧ الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب من العمل الناقص الى العمل التام ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل فان العابد لله والعارف بالله فى كل يوم بل فى كل ساعة بل فى كل لحظة يزداد علما بالله وبصيرة فى دينه وعبوديته بحيث يجد ذلك فى طعامه وشرابه ونومه ويقظته وقوله وفعله ويرى تقصيره فى حضور قلبه فى المقامات العالية واعطائها حقها فهو يحتاج

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ١٤٠

إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار بل هو مضطر إليه دائما فى الأقوال والأحوال فى الغوائب والمشاهد لما فيه من المصالح وجلب الخيرات ودفع المضرات وطلب الزيادة فى القوة فى الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الايمانية وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد واقترانها بشهادة أن لا إله إلا الله من أولهم إلى آخرهم ومن آخرهم إلى أولهم ومن الأعلى إلى الأدنى وشمول دائرة التوحيد والاستغفار للخلق كلهم وهم فيها درجات عند الله ولكل عامل مقام معلوم فشهادة أن لا إله إلا الله بصدق ويقين تذهب الشرك كله دقه وجله خطأه وعمده أوله وآخره وسره وعلانيته وتأتى على جميع صفاته وخفاياه ودقائقه والاستغفار يمحو ما بقى من عثراته ويمحو الذنب الذى هو من شعب الشرك فان الذنوب كلها من شعب الشرك فالتوحيد يذهب أصل الشرك والاستغفار يمحو فروعه فابلغ الثناء قول لا إله إلا الله وأبلغ الدعاء قول أستغفر الله فأمره بالتوحيد والاستغفار لنفسه ولأخوانه من المؤمنين وقال إياك والنظر فى كتب أهل الفلسفة الذين يزعمون فيها أنه كلما قوى نور الحق وبرهانه فى القلوب خفى عن المعرفة كما يبهر ضوء الشمس عيون الخفافيش بالنهار فاحذر مثل هؤلاء وعليك بصحبة أتباع الرسل المؤيدين بنور الهدى وبراهين الايمان أصحاب البصائر فى الشبهات والشهوات الفارقين بين الواردات الرحمانية والشيطانية العالمين العاملين {أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} المجادلة٢٢ وقال التوبة من أعظم الحسنات والحسنات كلها مشروط فيها الاخلاص لله وموافقة أمره باتباع رسوله والاستغفار من أكبر الحسنات وبابه واسع فمن أحس بتقصير فى قوله أو عمله أو حاله أو رزقه أو تقلب قلب فعليه بالتوحيد والاستغفار ففيهما الشفاء إذا كانا بصدق وإخلاص وكذلك إذا وجد العبد تقصيرا فى حقوق القرابة والأهل والأولاد والجيران والاخوان فعليه بالدعاء لهم والاستغفار قال حذيفة بن اليمان للنبى صلى الله عليه وسلم إن لى لسانا ذربا على أهلى فقال له أين أنت من الاستغفار إنى لأستغفر الله فى اليوم أكثر من سبعين مرة [١]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٩٦-٦٩٧

## "أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة"

قال تعالى{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً{١٠٥} وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{١٠٦} وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً{١٠٧}النساء١٠٥ - ١٠٧ والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور كما قال تعالى في قصة يوسف {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}يوسف٩٠ فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال الله تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}غافر٥٥ فأمره مع الاستغفار بالصبر فإن العباد لابد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم قال النبى فى الحديث الصحيح يا أيها الناس توبوا الى ربكم فوالذى نفسى بيده إنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وفي صحيح مسلم انه قال انه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة وكان يقول اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى خطئى وعمدى وهزلى وجدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر وقد ذكر عن آدم أبى البشر انه استغفر ربه وتاب اليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهداه وعن ابليس أبى الجن لعنه الله أنه أصر متعلقا بالقدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبه أباه ومن أشبه أباه فما ظلم ولهذا قرن الله سبحانه بين التوحيد والإستغفار فى غير آية كما قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}محمد١٩ [١]

وما رواه البخاري عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وابوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات في يومه دخل الجنة ومن قالها إذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة فالعبد

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٢١

دائما بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر وذنب منه يحتاج فيه إلى أستغفار وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائما فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله وآلائه ولا يزال محتاجا إلى التوبة والاستغفار ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين يستغفر في جميع الأحوال وقال عبد الله بن عمر كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد يقول رب أغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة وقال إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم اثنتين وسبعين مرة ولهذا شرع الاستغفار في خواتيم الأعمال وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام قال الله تعالى {وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١٠٦ ولهذا جاء في الحديث الذى رواه ابن أبى عاصم وغيره يقول الشيطان أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وكفارة المجلس التي كان يختم بها المجلس والوضوء سبحانك الله وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك والله أعلم وصلى الله على محمد وسلم [1]

## لفظ الخيانة لا يستعمل إلا فيما خفي عن المخون

في قولة تعالى {وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً}النساء١٠٧ فقولة {يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ}النساء١٠٧ مثل قوله فى سورة البقرة {عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ}البقرة١٨٧ قال ابن قتيبة و طائفة من المفسرين معناه تخونون أنفسكم زاد بعضهم تظلمونها فجعلوا الأنفس مفعول تختانون و جعلوا الانسان قد خان نفسه أي ظلمها بالسرقة كما فعل ابن أبيرق أو بجماع امرأته ليلة الصيام كما فعل بعض الصحابة و هذا القول فيه نظر فان كل ذنب يذنبه الانسان فقد ظلم فيه نفسه سواء فعله سرا أو علانية وإذا كان اختيان النفس هو ظلمها أو ارتكاب ما حرم عليها كان كل مذنب مختانا لنفسه و ان جهر بالذنوب و كان كفر الكافرين وقتالهم للأنبياء و للمؤمنين اختيانا لأنفسهم و كذلك قطع الطريق و المحاربة و كذلك الظلم الظاهر و كان ما فعله قوم نوح و هود

---

[1] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٨٠

و صالح و شعيب اختيانا لأنفسهم ومعلوم أن هذا اللفظ لم يستعمل فى هذه المعاني كلها و إنما استعمل فى خاص من الذنوب مما يفعل سرا و حتى قال ابن عباس في قوله {تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ}البقرة١٨٧ عنى بذلك فعل عمر فانه روى أنه لما جاء الأنصاري فشكى أنه بات تلك الليلة و لم يتعش لما نام قبل العشاء و كان من نام قبل الأكل حرم عليه الأكل فيستمر صائما فأصبح يتقلب ظهرا لبطن فلما شكا حاله الى النبى صلى الله عليه و سلم قال عمر يارسول الله انى أردت أهلي الليلة فقالت انها قد نامت فظننتها لم تنم فواقعتها فأخبرتنى أنها كانت قد نامت قالوا فأنزل الله فى عمر {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ َ}البقرة١٨٧ وقد قيل إن الجماع ليلة الصيام كانوا منهيين عنه مطلقا بخلاف الأكل فانه كان مباحا قبل النوم و قد روى أن عمر جامع امرأته بعد العشاء قبل النوم و أنه لما فعل أخذ يلوم نفسه فأتى النبى صلى الله عليه و سلم فقال يارسول الله أعتذر الى الله من نفسي هذه الخائنة إنى رجعت الى أهلي بعد ما صليت العشاء وجدت رائحة طيبة فسولت لي نفسي فجامعت أهلي فقال النبى صلى الله عليه و سلم ما كنت جديرا بذلك ياعمر و جاء طائفة من الصحابة فذكروا مثل ذلك فأنزل الله هذه الآية فهذا فيه أن نفسه الخاطئة سولت له ذلك و دعته إليه و أنه أخذ يلومها بعد الفعل فالنفس هنا هي الخائنة الظالمة و الانسان تدعوه نفسه فى السر إذا لم يره أحد إلى أفعال لا تدعو اليها علانية و عقله ينهاه عن تلك الأفعال و نفسه تغلبه عليها ولفظ الخيانة حيث استعمل لا يستعمل إلا فيما خفي عن المخون كالذي يخون أمانته فيخون من ائتمنه إذا كان لا يشاهده و لو شاهده لما خانه قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}الأنفال٢٧ و قال تعالى {وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ}المائدة١٣ و قالت امرأة العزيز {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ}يوسف٥٢ و قال تعالى {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}غافر١٩ وقال النبى صلى الله عليه و سلم لما قام أما فيكم رجل يقوم الى هذا فيضرب عنقه فقال له رجل هلا أو مضت إلي فقال ما ينبغي لنبى أن تكون له خائنة الأعين قال تعالى {وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً{١٠٧} يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ{١٠٨}النساء١٠٧-١٠٨ و في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب و إذا وعد أخلف و اذا اؤتمن خان و فى حديث آخر على كل خلق يطبع المؤمن إلا الخيانة و الكذب و مثل هذا كثير وإذا كان كذلك فالانسان كيف يخون نفسه و هو لا يكتمها ما يقوله و يفعله سرا عنها كما يخون من لا يشهده من

الناس كما يخون الله و الرسول إذا لم يشاهده فلا يكون ممن يخاف الله بالغيب و لم خصت هذه الأفعال بأنها خيانة للنفس دون غيرها فالأشبه و الله أعلم أن يكون قوله {تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ}البقرة١٨٧ مثل قوله {إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ}البقرة١٣٠ والبصريون يقولون فى مثل هذا أنه منصوب على أنه مفعول له و يخرجون قوله {سَفِهَ}البقرة١٣٠ عن معناه فى اللغة فانه فعل لازم فيحتاجون أن ينقلوه من اللزوم الى التعدية بلا حجة وأما الكوفيون كالفراء و غيره و من تبعهم فعندهم أن هذا منصوب على التمييز و عندهم أن المميز قد يكون معرفة كما يكون نكرة و ذكروا لذلك شواهد كثيرة من كلام العرب مثل قولهم ألم فلان رأسه و وجع بطنه و رشد أمره و كان الأصل سفهت نفسه و رشد أمره و منه قولهم غبن رأيه و بطرت نفسه فقوله تعالى {بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا}القصص٥٨ من هذا الباب فالمعيشة نفسها بطرت فلما كان الفعل نصبه على التمييز قال تعالى {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ}الأنفال٤٧ فقوله {سَفِهَ نَفْسَهُ}البقرة١٣٠ معناه إلا من سفهت نفسه أي كانت سفيهة فلما أضاف الفعل إليه نصبها على التمييز كما فى قوله {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً}مريم٤ و نحو ذلك و هذا اختيار ابن قتيبة و غيره لكن ذاك نكرة و هذا معرفة وهذا الذي قاله الكوفيون أصح فى اللغة و المعنى فان الانسان هو السفيه نفسه كما قال تعالى {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ}البقرة١٤٢ {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء}النساء٥ فكذلك قوله {تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ}البقرة١٨٧ أي تختان أنفسكم فالأنفس هي التى اختانت كما انها هي السفيهة و قال اختانت و لم يقل خانت لأن الافتعال فيه زيادة فعل على ما فى مجرد الخيانة قال عكرمة و المراد بالذين يختانون أنفسهم ابن أبيرق الذي سرق الطعام و القماش و جعل هو و قومه يقولون إنما سرق فلان لرجل آخر فهؤلاء اجتهدوا فى كتمان سرقة السارق و رمي غيره بالسرقة كما قال تعالى {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ}النساء١٠٨ فكانوا خائنين للصاحب و الرسول و قد اكتسبوا الخيانة وكذلك الذين كانوا يجامعون بالليل و هم يجتهدون فى أن ذلك لا يظهر عنهم حين يفعلونه و إن أظهروه فيما بعد عند التوبة أما عند الفعل فكانوا يحتاجون من ستر ذلك و إخفائه ما لا يحتاج إليه الخائن وحده أو يكون قوله {تَخْتانُونَ أَنفُسَكُم}البقرة١٨٧ اي يخون بعضكم بعضا كقوله {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}البقرة٥٤ و قوله {ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ}البقرة٨٥ و قوله {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً}النور١٢ فان السارق و أقواما خانوا اخوانهم المؤمنين والمجامع إن كان جامع امرأته و هي لا تعلم أنه حرام فقد خانها والأول أشبه و الصيام مبناه على الأمانه فإن الصائم يمكنه

الفطر و لا يدري به أحد فاذا أفطر سرا فقد خان أمانته و الفطر بالجماع المستور خيانة كما أن أخذ المال سرار و اخبار الرسول و المظلوم ببراءة السقيم و سقيم البريء خيانة فهذا كله خيانه و النفس هي التى خانت فانها تحب الشهوة و المال و الرئاسة و خان و اختان مثل كسب و اكتسب فجعل الانسان مختانا ثم بين أن نفسه هي التى تختان كما أنها هي التى تضر لأن مبدأ ذلك من شهوتها ليس هو مما يأمر به العقل و الرأي و مبدأ السفه منها لخفتها و طيشها و الانسان تأمره نفسه فى السر بأمور ينهاها عنه العقل و الدين فتكون نفسه اختانته و غلبته و هذا يوجد كثيرا فى أمر الجماع و المال و لهذا لا يؤتمن على ذلك أكثر الناس و يقصد بالائتمان من لا تدعوه نفسه الى الخيانة فى ذلك قال سعيد بن المسيب لو ائتمنت على بيت مال لأديت الأمانة و لو ائتمنت على امرأة سوداء لخفت أن لا أؤدي الأمانة فيها و كذلك المال لايؤتمن عليه أصحاب الأنفس الحريصة على أخذه كيف اتفق وهذا كله مما يبين أن النفس تخون أمانتها و إن كان الرجل ابتداء لا يقصد الخيانة فتحمله على الخيانة بغير أمره و تغلبه على رأية و لهذا يلوم المرء نفسه على ذلك و يذمها و يقول هذه النفس الفاعلة الصانعة فانها هي التى اختانت ودل قوله {وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ}النساء١٠٧ أنه لا يجوز الجدال عن الخائن و لا يجوز للانسان أن يجادل عن نفسه إذا كانت خائنة لها في السر أهواء و أفعال باطنة تخفى على الناس فلا يجوز المجادلة عنها قال تعالى {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}غافر١٩ و قال تعالى {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ}الأنعام١٢٠ وقال تعالى {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}الأعراف٣٣ و قد قال تعالى {بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ{١٤} وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ{١٥} القيامة١٤-١٥ فإنه يعتذر عن نفسه بأعذار و يجادل عنها و هو يبصرها بخلاف ذلك و قال تعالى {كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً}الإسراء١٤ و قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ}البقرة٢٠٤ وقد قال النبى صلى الله عليه و سلم أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم فهو يجادل عن نفسه بالباطل و فيه لدد أي ميل و اعوجاج عن الحق و هذا على نوعين أحدهما أن تكون مجادلته و ذبه عن نفسه مع الناس و الثاني فيما بينه و بين ربه بحيث يقيم أعذار نفسه و يظنها محقة و قصدها حسنا و هي خائنة ظالمة لها أهواء خفية قد كتمتها حتى لايعرف بها الرجل حتى يرى و ينظر قال شداد بن أوس إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية قال أبو دواد هي حب الرياسة وهذا من شأن النفس حتى أنه يوم القيامة يريد أن يدفع عن نفسه و يجادل الله بالباطل قال تعالى {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ

وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ{١٨} اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ{١٩}المجادلة١٨-١٩ و قال تعالى {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ {٢٢} ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ{٢٣} انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{٢٤}الأنعام٢٢-٢٤ وقد جاءت الأحاديث بأن الانسان يجحد أعماله يوم القيامة حتى يشهد عليه سمعه و بصره و جوارحه و قال تعالى {وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ}فصلت٢٢ ومن عادة المنافقين المجادلة عن أنفسهم بالكذب و الأيمان الفاجرة وصفهم الله بذلك فى غير موضع و فى قصة تبوك لما رجع النبى صلى الله عليه و سلم و جاء المنافقون يعتذرون إليه فجعل يقبل علانيتهم و يكل سرائرهم إلى الله فلما جاء كعب قال و الله يارسول الله لو قعدت بين يدي ملك من ملوك الأرض لقدرت أن أخرج من سخطه إنى أوتيت جدلا و لكن أخاف إن حدثتك حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك علي و لئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله لاوالله ما كان لي من عذر و الله ما كنت أقوى قط و لا أيسر مني حين تخلفت عنك فقال النبى صلى الله عليه و سلم أما هذا فقد صدق يعنى و الباقي يكذبون ثم إنه هجره مدة ثم تاب الله عليه ببركة صدقة فالاعتذار عن النفس بالباطل و الجدال عنها لا يجوز بل إن أذنب سرا بينه و بين الله اعترف لربه بذنبه و خضع له بقلبه و سأله مغفرته و تاب إليه فانه غفور رحيم تواب و إن كانت السيئة ظاهرة تاب ظاهرا و إن أظهر جميلا و أبطن قبيحا تاب فى الباطن من القبيح فمن أساء سرا أحسن سرا و من أساء علانية أحسن علانية {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} هود١١٤ [1]

## الإرادة نوعان

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٤٣٨-٤٤٧

قد أخبر الله تعالى أنه لا يرضى بأمور مع أنها مخلوقة قال تعالى {إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ}النساء١٠٨ [١]

أن المحققين من أهل السنة يقولون إن الإرادة نوعان إرادة الخلق وإرادة الأمر فإرادة الأمر أن يريد من المأمور فعل ما أمر به وإرادة الخلق أن يريد هو خلق ما يحدثه من أفعال العباد وغيرها والأمر مستلزم للإرادة الأولى دون الثانية والله تعالى أمر الكافر بما أراده منه بهذا الاعتبار وهو ما يحبه ويرضاه ونهاه عن المعصية التي لم يردها منه أي لم يحبها ولم يرضها بهذا الاعتبار فإنه لا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد وقد قال تعالى {إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ}النساء١٠٨ وإرادة الخلق هي المشيئة المستلزمة لوقوع المراد فهذه الإرادة لا تتعلق إلا بالموجود فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وفرق بين أن يريد هو أن يفعل فإن هذا يكون لا محالة لأنه قادر على ما يريده فإذا اجتمعت الإرادة والقدرة وجب وجود المراد وبين أن يريد من غيره أن يفعل ذلك الغير فعلا لنفسه فإن هذا لا يلزم أن يعينه عليه [٢]

## الله لا يحب الكفر والفسوق والعصيان

وجهم ومن وافقه من المعتزلة إشتركوا فى أن مشيئة الله ومحبته ورضاه بمعنى واحد ثم قالت المعتزلة وهو لا يحب الكفر والفسوق والعصيان فلا يشاؤه فقالوا إنه يكون بلا مشيئة وقالت الجهمية بل هو يشاء ذلك فهو يحبه ويرضاه وأبو الحسن وأكثر أصحابه وافقوا هؤلاء فذكر أبو المعالي الجويني أن أبا الحسن أول من خالف السلف فى هذه المسألة ولم يفرق بين المشيئة والمحبة والرضا وأما سلف الأمة و أئمتها وأكابر أهل الفقه والحديث والتصوف وكثير من طوائف النظار كالكلابية والكرامية وغيرهم فيفرقون بين هذا وهذا ويقولون أن الله يحب الإيمان والعمل

---

[١]منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٢٠٥

[٢]منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ١٨٠

الصالح ويرضى به كما لايأمر ولا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان ولا يحبه كما لا يأمر به وإن كان قد شاءه ولهذا كان حملة الشريعة من الخلف والسلف متفقين على أنه لو حلف ليفعلن واجبا أو مستحبا كقضاء دين يضيق وقته أو عبادة يضيق وقتها وقال إن شاء الله ثم لم يفعله لم يحنث وهذا يبطل قول القدرية ولو قال إن كان الله يحب ذلك ويرضاه فإنه يحنث كما لو قال إن كان يندب الى ذلك ويرغب فيه أو يأمر به أمر إيجاب أو إستحباب وهذا يرد على الجهمية ومن إتبعهم كأبى الحسن الأشعري و من و افقه من المتأخرين و بسط هذه الأمور له موضع آخر والمقصود هنا جواب هذه المسألة فإن هذه الإشكالات المذكورة إنما ترد على قول جهم ومن وافقه من المتأخرين من أصحاب أبى الحسن الأشعري وغيرهم وطائفة من متأخري أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأما أئمة اصحاب مالك والشافعى وأحمد وعامة اصحاب ابى حنفية فانهم لا يقولون بقول هؤلاء بل يقولون بما اتفق عليه السلف من انه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ويثبتون الفرق بين مشيئته وبين محبته ورضاة فيقولون ان الكفر والفسوق والعصيان وان وقع بمئشئتة فهو لا يحبه ولا يرضاه بل بسخطه ويبغضه ويقولون ارادة الله فى كتابه نوعان نوع بمعنى المشيئة لما خلق كقوله {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء}الأنعام١٢٥ ونوع بمعنى محبته ورضاه لما امر به وإن لم يخلقه كقوله {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥ مايريد الله ليجعل علكيم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته علكيم لعلكم تشكرون {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {٢٦} وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً{٢٧} يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً{٢٨}النساء٢٦-٢٨ وبهذا يفضل النزاع في مسألة الامر هل هو مستلزم للارادة ام لا فان القدرية تزعم انه مستلزم للمشيئة فيكون قد شاء المأمور به ولم يكن والجهمية قالوا انه غير مستلزم لشيء من الإرادة لا لحبه له ولا رضاه به الا اذا وقع فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وكذلك عندهم ما احبه ورضيه كان وما يحبه لم يرضه لم يكن وتأولوا قوله {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}الزمر٧ على ان المراد ممن لم يقع منه الكفر او لا يرضاه دينا كما يقولون لم يشاه ممن لم يقع منه او لا يشاءه دينا اذا كانوا موافقين للجهمية والقدرية فى انه لا فرق بين المحبة والمشيئة وقد قال الله تعالى {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}الزمر٧ فاخبر انه اذا وقع الكفر من عباده لم يرضه لعباده كما قال {إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ}النساء١٠٨ وقال {وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ}البقرة٢٠٥

مع قوله {وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}الأنعام١٢٥ و فصل الخطاب ان الأمر ليس مستلزما لمشية ان يخلق الرب الآمر الفعل المامور به ولا ارادة ان يفعله بل قد يأمر بما لا يخلقه وذلك متسلوم لمحبه الرب ورضاه من العبد ان يفعله بمعنى انه اذا فعل ذلك احبه ورضيه وهو يريد منه ارادة الآمر من المأمور بما امره به لمصلحته وان لم يريد ان يخلقه وان يعينه عليه لما له فى ترك ذلك من الحكمة فان له حكمه بالغة فيما خلقه وفيما لم يخلقه وفرق بين ان يريد ان يخلق هو الفعل ويجعل غيره فاعلا يحسن اليه ويتفضل عليه بالإعانه له على مصلحته وبين ان يأمر غيره بما يصلحة ويبين له ما بنفعة اذا فعله وان كان لا يريد هو نفسه ان يعينه لما فى ترك اعانته من الحكمة لكون الاعانه قد متسزم مايناقض حكمتة والمنهى عنه الذي خلقة هو يبغضه ويمقته كما يمقت ما خلقه من الاعيان الخبيثة كالشياطين والخبائث ولكنه خلقها لحكمه يحبها ويرضاها ونحن نعلم ان العبد يريد ان يفعل ما لا يحبه لافضائه الى ما يحبه كما يشرب المريض الدواء الكريه لافضائه الى ما يحبه من العافية ويفعل ما يكرهه من الاعمال لافضائه الى مطلوبه المحبوب له ولا منافاة بين كون الشيء بغيضا اليه مع كونه مخلوقا له لحكمه يحبها وكذلك لا منافاة بين ان يحبه اذا كان ولا يفعله لان فعله قد يستلزم تفويت ما هو احب اليه منه او وجود ما هو ابغض اليه من عدمه [١]

فإن قيل إنما نفينا الرحمة والمحبة والرضا والغضب ونحو ذلك من الصفات لأنه لايعقل لها حقيقة تليق بالخالق إلا الإرادة فالمحبة والرضا إرادة الإحسان والغضب إرادة العقاب منه فالفرق بينهما بحسب تعلقاتها لأن هذا في نفسها ليست عده قيل هذا باطل فإن نصوص الكتاب والسنة والإجماع مع الأدلة العقلية تبين الفرق فإن الله سبحانه يقول {إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ}النساء١٠٨ فبين أنه لا يرضى هذه المحرمات مع أن كل شيء كائن بسببه وقال تعالى {وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ}البقرة٢٠٥ وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام وبإجماع سلف الأمة قبل حدوث أقوال النفاة من الجهمية ونحوهم إن الله يحب الإيمان والعمل الصالح ولا يحب الكفر والفسوق والعصيان وإنه يرضى هذا ولا يرضى هذا والجميع بمشيئته وقدرته والذين لم يفرقوا لهم تأويلات تارة يقولون لا يرضاه لعباده المؤمنين فهم يقولون لا يحب الإيمان والعمل الصالح ممن لم يفعله كما لم يرده ممن لم يفعله ويقولون إنه يحب الكفر والفسوق والعصيان ممن فعله كما

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٧٥-٤٧٨

أراده ممن فعله وفساد هذا القول مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام مع دلالة الكتاب والسنة وإجماع السلف على فساده [1]

## الرضا يشرع بما يرضي الله به

الرضا يشرع بما يرضي الله به والله قد أخبر أنه {وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ}البقرة٢٠٥ {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}الزمر٧ وقد قال تعالى {إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ}النساء١٠٨ وهذا أمر موجود من أقوال العباد وقد أخبر الله أنه لا يرضاه فإذا لم يرضه كيف يأمر العبد بأن يرضاه بل الواجب أن العبد يسخط ما يسخطه الله ويبغض ما يبغضه الله ويرضى بما يرضاه الله قال الله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}محمد٢٨ فذم من اتبع مساخطه وكره مراضيه ولم يذم من كره مساخطه [2]

ومن المعلوم أن أوثق عرى الإيمان الحب فى الله و البغض فى الله و قد أمرنا الله أن نأمر بالمعروف و نحبه و نرضاه و نحب أهله و نهى عن المنكر و نبغضه و نسخطه و نبغض أهله و نجاهدهم بأيدينا و ألسنتنا و قلوبنا فكيف نتوهم أنه ليس فى المخلوقات ما نبغضه و نكرهه و قد قال تعالى لما ذكر ما ذكر من المنهيات {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً}الإسراء٣٨ فإذا كان الله يكرهها و هو المقدر لها فكيف لا يكرهها من أمر الله أن يكرهها و يبغضها و هو القائل {وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}الحجرات٧ و قال تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}محمد٢٨ و قد قال تعالى {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ}الزخرف٥٥ و قال تعالى {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ}الفتح٦ و قال تعالى {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ}النساء١٠٨ فأخبر أن من القول الواقع مالا يرضاه وقال تعالى {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}النور٥٥ و قال تعالى {وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً}المائدة٣ و قال {وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ

---

[1] العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٢٩

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٢٠٦

لَكُمْ}الزمر٧ فبين أنه يرضى الدين الذي أمر به فلو كان يرضى كل شيء لما كان له خصيصة و فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لا أحد أغير من الله أن يزنى عبده أوتزنى أمته و قال إن الله يغار و المؤمن يغار و غيرة الله أن يأتى العبد ما حرم عليه و لابد فى الغيرة من كراهة ما يغار منه و بغضه و هذا باب و سع [1]

## ظلم النفس اذا أطلق

ظلم النفس فانه اذا أطلق تناول جميع الذنوب فانها ظلم العبد نفسه قال آدم عليه السلام {قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}الأعراف٢٣ ثم قد يقرن ببعض الذنوب كقوله تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ و}آل عمران١٣٥ وقوله {وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١١٠ [2]

الظالم لنفسه اذا تاب تاب الله عليه لقوله {وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١١٠ فهو اذا استغفره غفر له و رحمه و حينئذ يكون من المتقين فيدخل فى قوله {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ {٣}}الطلاق٢-٣ [3]

## المسلم اذا اتى الفاحشة لا يكفر

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٩١-١٩٢

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٢

[3] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٤٢١

قد حرم الله سبحانه وتعالى الفواحش ما ظهر منها وما بطن وان اتي هذه الفواحش معتقدا تحريمها فهو من المسلمين الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابي ذر من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة وان زنا وان سرق فإن المسلم الذي يأتي بفاحشة اما ان يتوب الى الله ويستغفره فيدخل في قوله {وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١١٠ والمسلم اذا اتى الفاحشة لا يكفر وان كان كمال الايمان الواجب قد زال عنه كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليه فيها ابصارهم وهو مؤمن فأصل الايمان معه وهو قد يعود الى المعصية ولكنه يكون مؤمنا اذا فارق الدنيا كما في الصحيح عن عمر ان رجلا كان يدعي حمارا وكان يشرب الخمر وكان كلما اتي به الى النبي صلى الله عليه وسلم امر بجلده فقال رجل لعنه الله ما اكثر ما يؤتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله فشهد له بأنه يحب الله ورسوله ونهى عن لعنته كما تقدم في الحديث الاخر الصحيح وان زنا وان سرق وذلك ان معه اصل الاعتقاد ان الله حرم ذلك ومعه خشيه عقاب الله ورجاء رحمة الله وايمانه بأن الله يغفر الذنب ويأخذ به فيغفر الله له به كما في الصحيح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال اذنب عبد ذنبا فقال أي رب اني اذنبت ذنبا فاغفر لي فقال ربه علم عبدي ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم اذنب ذنبا اخر فقال أي رب اذنبت ذنبا فاغفره لي فقال ربه علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ثم أذنب ذنبا آخر فقال أي رب قد اذنبت ذنبا فاغفره لي فقال علم عبدي ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء وكذلك في الصحاح من غير وجه حديث الذي لم يعمل خيرا قط وقال لأهله اذا انا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم ريح الحديث فقال الله له ما حملك على ما فعلت قال خشيتك يا رب فغفر الله له بتلك الخشية وكذلك من افضل اعمال المؤمن التوبة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للغامديه التي اقرت بالزنا حتى رجمها لقد تابت توبة لو تابها مكس لغفر له وهل وجدت توبة افضل من ان جادت بنفسها لله وحديث صلاة التوبة محفوظ في السنن عن علي عن ابي بكر الصديق عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من مسلم يذنب ذنبا فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله الا غفر له وقرأ هذه الاية {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ}آل عمران١٣٥ وهذا باب واسع فان الذنوب التي يبتلى بها العباد يسقط عنهم وهو

مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليه فيها ابصارهم وهو مؤمن فأصل الايمان معه وهو قد يعود الى المعصية ولكنه يكون مؤمنا اذا فارق الدنيا كما في الصحيح عن عمر ان رجلا كان يدعي حمارا وكان يشرب الخمر وكان كلما اتي به الى النبي صلى الله عليه وسلم امر بجلده فقال رجل لعنه الله ما اكثر ما يؤتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله فشهد له بأنه يحب الله ورسوله ونهى عن لعنته كما تقدم في الحديث الاخر الصحيح وان زنا وان سرق وذلك ان معه اصل الاعتقاد ان الله حرم ذلك ومعه خشيه عقاب الله ورجاء رحمة الله وايمانه بأن الله يغفر الذنب ويأخذ به فيغفر الله له به كما في الصحيح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم الذنب كما يقوله الخوارج ولا انه يخرج من الايمان بالكلية كما يقوله المعتزلة لكن ينقص الايمان ويمنع كماله الواجب وان كانت المرجئة تزعم ان الايمان لا ينقص ايضا فمذهب اهل السنة المتبعون للسلف الصالح ان الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فأما استحلال ما حرم الله ورسوله من الفواحش وغيرها فهو كفر وبمثله اهلك الله قوم لوط الذين استحلوا الفاحشة وفعلوها معلنين بها مستحلين لها قال تعالى فلما جاء امرنا جعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد سوة هود ٨٢ ٨٣ وقد روى عن قتادة من الظالمين من هذه الامة وقد روى انه يكون فيها خسف وقذف ومسخ [١]

## جعل جزاء مؤذي المؤمنين انه احتمل بهتانا واثما مبينا

قال تعالى {وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{١١١} وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً{١١٢}النساء١١١-١١٢ أن الكسب هو الفعل الذى يعود على فاعله بنفع أو ضر كما قال تعالى {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}البقرة٢٨٦ فبين سبحانه

---

[١] الاستقامة ج: ٢ ص: ١٨٠-١٨٦

أن كسب النفس لها أوعليها والناس يقولون فلان كسب مالا أو حمدا أو شرفا كما أنه ينتفع بذلك [1]

جعل جزاء مؤذي المؤمنين انه احتمل بهتانا واثما مبينا [2]

## السنة المتواترة وهي الحكمة التي أنزلها الله عليه غير القرآن

فإن الله بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا وأنزل عليه الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه وأكمل له ولأمته الدين وأتم عليهم النعمة وجعلهم خير أمة أخرجت للناس فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله وجعلهم أمة وسطا أي عدلا خيارا ولذلك جعلهم شهداء على الناس هداهم لما بعث به رسله جميعهم من الدين الذي شرعه لجميع خلقه ثم خصهم بعد ذلك بما ميزهم به وفضلهم من الشرعة والمنهاج الذي جعله لهم فما أنزله الله في السور المدنية من شرائع دينه وما سنه الرسول لأمته فإن الله سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة وأمتن على المؤمنين بذلك [3]

لفظ الحكمة تارة يقرن ب الكتاب كما في قوله {وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}النساء١١٣ وتارة يفرد الكتاب كقوله {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}الكهف١ وإذا افرد دخلت الحكمة في معناه وكذلك في لفظ القرآن والايمان قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٨٧

[2] الصارم المسلول ج: ٢ ص: ١١٢

[3] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٦٦

مُّسْتَقِيمٍ}الشورى٥٢ وإذا أفرد لفظ القرآن فهو يدل على الايمان كما الايمان يدل على القرآن فهما متلازمان [1]

قال تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ وهو الرد الى كتاب الله أو الى سنة الرسول بعد موته وقوله {فَإِن تَنَازَعْتُمْ}النساء٥٩ شرط والفعل نكرة فى سياق الشرط فاى شىء تنازعوا فيه ردوه الى الله والرسول ولو لم يكن بيان الله والرسول فاصلا للنزاع لم يؤمروا بالرد اليه والرسول أنزل الله عليه الكتاب والحكمة كما ذكر ذلك فى غير موضع وقد علم أمته الكتاب والحكمة كما قال {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}البقرة١٢٩ وكان يذكر فى بيته الكتاب والحكمة وأمر أزواج نبيه بذكر ذلك فقال {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}الأحزاب٣٤ فآيات الله هى القرآن اذ كان نفس القرآن يدل على انه منزل من الله فهو علامة ودلالة على منزله و الحكمة قال غير واحد من السلف هى السنة وقال أيضا طائفة كمالك وغيره هى معرفة الدين والعمل به وقيل غير ذلك وكل ذلك حق فهى تتضمن التمييز بين المأمور والمحظور والحق و الباطل وتعليم الحق دون الباطل وهذه السنة التى فرق بها بين الحق والباطل وبين الأعمال الحسنة من القبيحة والخير من الشر وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم انه قال تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي الا هالك وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلام نحو هذا وهذا كثير فى الحديث والآثار يذكرونه فى الكتب التى تذكر فيها هذه الآثار كما يذكر مثل ذلك غير واحد فيما يصنفونه فى السنة مثل ابن بطة واللالكائى والطلمنكى وقبلهم المصنفون فى السنة كاصحاب احمد مثل عبد الله والاثرم وحرب الكرماني وغيرهم ومثل الخلال وغيره [2]

وليس من شرط المنقول المتواتر أن يكون في القرآن بل كما تواتر عنه في شريعته ما ليس في القرآن وهو من الحكمة التي أنزلها الله عليه كذلك وتواتر عنه من دلائل نبوته ما ليس في القرآن وهو من براهينه وآياته وقد قال تعالى في غير موضع {وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}النساء١١٣ فالحكمة نزلت عليه وهي منقولة في غير القرآن وقد تواتر عنه كون الصلوات خمسا والفجر ركعتين والمغرب ثلاثا والباقي اربعا والرباعية في السفر ركعتان وتواتر عنه سجود السهو كذلك

---

[1] الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٣٣٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٧٤-١٧٦

متواتر عنه أنواع من المعجزات والأخبار المتواترة في أصناف آياته وبراهينه كثيرة جدا لا يمكن إحصاؤها وهي مشتملة على جنسي العلم والقدرة على انواع من الإخبار بالغيوب المستقبلة مفصلة كأنما رآها بعينه لم يأت منها خبر إلا كما أخبر به وهذا أمر لم يكن قط إلا لنبي [1]

فكل ما أجمع المسلمون عليه من دينهم إجماعا ظاهرا معروفا عندهم فهو منقول عن الرسول نقلا متواترا بل معلوما بالاضطرار من دينه فإن الصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان وحج البيت العتيق ووجوب العدل والصدق وتحريم الشرك والفواحش والظلم بل وتحريم الخمر والميسر والربا وغير ذلك منقول عن النبي نقلا متواترا كنقل ألفاظ القرآن الدالة على ذلك ومن هذا الباب عموم رسالته وأنه مبعوث إلى جميع الناس أهل الكتاب وغير أهل الكتاب بل إلى الثقلين الإنس والجن وأنه كان يكفر اليهود والنصارى الذين لم يتبعوا ما أنزل الله عليه كما كان يكفر غيرهم ممن لم يؤمن بذلك وأنه جاهدهم وأمر بجهادهم فالمسلمون عندهم منقولا عن نبيهم نقلا متواترا ثلاثة أمور لفظ القرآن ومعانيه التي أجمع المسلمون عليها والسنة المتواترة وهي الحكمة التي أنزلها الله عليه غير القرآن قال تعالى {وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً}النساء١١٣ وقال ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه فالمسلمون عندهم نقل متواتر عن نبيهم بألفاظ القرآن ومعانيه المتفق عليها وبالسنة المتواترة عنه مثل كون الظهر والعصر والعشاء أربعا وكون المغرب ثلاث ركعات وكون الصبح ركعتين ومثل الجهر في العشائين والفجر والمخافتة في الظهر والعصر ومثل كون الركعة فيها سجدتين وكون الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة سبعا ورمي الجمرات كل واحدة سبع حصيات وأمثال ذلك وأيضا فالمسلمون يحفظون القرآن في صدورهم حفظا يستغنون به عن المصاحف كما ثبت في الصحيح الذي رواه مسلم عن النبي أنه قال إن ربي قال لي إني منزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائما ويقظانا يقول ولو غسل بالماء من المصاحف لم يغسل من القلوب كالكتب التقدمة فإنه لو عدمت نسخها لم يوجد من ينقلها نقلا متواترا محفوظة في الصدور والقرآن ما زال محفوظا في الصدور نقلا متواترا أن القرآن قد ثبت بالنقل المتواتر المعلوم بالضرورة للموافق والمخالف أن محمدا كان يقول إنه كلام الله لا كلامه وأنه مبلغ له

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٦٨-٦٩

عن الله وكان يفرق بين القرآن وبين ما يتكلم به من السنة وإن كان ذلك مما يجب اتباعه فيه تصديقا وعملا فإن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة وعلم أمته الكتاب والحكمة كما قال تعالى {وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً}النساء١١٣ [١]

## {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ}

قال تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{١} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{٤} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{٥} العلق١-٥ أطلق الخلق ثم خص الإنسان وأطلق التعليم ثم خص التعليم بالقلم والخلق يتضمن فعله والتعليم يتضمن قوله فإنه يعلم بتكليمه وتكليمه بالإيحاء وبالتكليم من وراء حجاب وبإرسال رسول يوحى بإذنه ما يشاء قال تعالى {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ}النساء١١٣ وقال تعالى {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ}آل عمران٦١ وقال تعالى {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً}طه١١٤ وقال تعالى {الرَّحْمَنُ{١} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{٢} خَلَقَ الْإِنسَانَ{٣} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{٤} الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ{٥} الرحمن١-٥ [٢]

فلا تأتي الرسل صلوات الله عليهم بما يعلم نقيضه ولكن قد تأتي بما لم يكن يعلم وكذلك الوحي النازل على الأنبياء يعلمهم ما لم يكونوا يعلمون لا يأتيهم بما يعلمون خلافه قال تعالى {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً} النساء١١٣ [٣]

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١١-١٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٢٢٩

[٣] العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٨٢

## كل كلام ابن آدم عليه لا له الا ذكرا لله تعالى

قال الله تعالى{لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}النساء١١٤ و قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى}المجادلة٩ وفى السنن عن النبى انه قال كل كلام ابن آدم عليه لا له الا امرا بمعروف او نهيا عن منكر او ذكرا لله تعالى[1]

## {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ}

ففى صفات العبادات الظاهرة التى حصل فيها تنازع بين الأمة فى الرواية والرأى مثل الأذان والجهر بالسملة والقنوت فى الفجر والتسليم فى الصلاة ورفع الأيدى فيها ووضع الأكف فوق الأكف ومثل التمتع والإفراد والقران فى الحج ونحو ذلك فإن التنازع فى هذه العبادات الظاهرة والشعائر أوجب أنواعا من الفساد الذى يكرهه الله ورسوله وعباده المؤمنون احدها التفرق والإختلاف المخالف للإجتماع والإئتلاف حتى يصير بعضهم يبغض بعضا ويعاديه ويحب بعضا ويواليه على غير ذات الله وحتى يفضى الأمر ببعضهم إلى الطعن واللعن والهمز واللمز وببعضهم إلى الإقتتال بالأيدى والسلاح وببعضهم إلى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلى بعضهم خلف بعض وهذا كله من أعظم الأمور التى حرمها الله ورسوله والإجتماع والأئتلاف من أعظم الأمور التى أوجبها الله ورسوله قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{١٠٢} وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ {١٠٣}آل عمران١٠٢-١٠٣إلى قوله {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{١٠٥} يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ {١٠٦} ال عمران ١٠٥-١٠٦ قال إبن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وكثير من هؤلاء يصير من أهل البدعة بخروجه عن السنة التى شرعها رسول الله لأمته ومن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص: ٢٩٤

أهل الفرقة بالفرقة المخالفة للجماعة التى أمر الله بها ورسوله قال تعالى {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ}البقرة٢١٣ وقال تعالى {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ}الأنفال١ وقال {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}الحجرات١٠ وقال {إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ}النساء١١٤ وهذا الأصل العظيم وهو الإعتصام بحبل الله جميعا وأن لا يتفرق هو من أعظم أصول الإسلام ومما عظمت وصية الله تعالى به فى كتابه ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم ومما عظمت به وصية النبى فى مواطن عامة وخاصة مثل قوله عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة وقوله فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد وقوله من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وقوله ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قالوا بلى يا رسول الله قال صلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هى الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين وقوله من جاءكم وامركم على رجل واحد منكم يريد أن يفرق جماعتكم فإضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان وقوله يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم وإن أخطأوا فلكم وعليهم وقوله ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة ناجية وإثنتان وسبعون فى النار وقيل ومن الفرقة الناجية قال هى الجماعة يد الله على الجماعة و باب الفساد الذى وقع فى هذه الأمة بل وفى غيرها هو التفرق والإختلاف فإنه وقع بين امرائها وعلمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم وإن كان بعض ذلك مغفورا لصاحبه لإجتهاده الذى يغفر فيه خطؤه أو لحسناته الماحية أو توبته أو لغير ذلك لكن يعلم أن رعايته من اعظم أصول الإسلام ولهذا كان إمتياز أهل النجاة عن أهل العذاب من هذه الأمة بالسنة والجماعة ويذكرون فى كثير من السنن والآثار فى ذلك ما يطول ذكره وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة الذى يجب تقديم العمل به هو الإجماع فإن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة [1]

## من اعتز بالظلم فقد أذل نفسه وأهانها

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٣٥٩-٣٦٠

الواجب تمييز الحق من الباطل وهذا يقع كثيرا في الرؤساء من أهل البادية والحاضرة إذا استجار بهم مستجير او كان بينهما قرابة أو صداقة فإنهم يرون الحمية الجاهلية والعزة بالإثم والسمعة عند الأوباش أنهم ينصرونه ويحمونه وإن كان ظالما مبطلا على المحق المظلوم ولا سيما إن كان المظلوم رئيسا يناديهم ويناوئهم فيرون في تسليم المتسجير بهم إلى من يناوئهم ذلا أو عجزا وهذا على الإطلاق جاهلية محضة وهم من أكبر أسباب فساد الدين والدنيا وقد ذكر انه إنما كان سبب حروب من حروب الأعراب كحرب البسوس التي كانت بين بني بكر وتغلب إلى نحو هذا وكذلك سبب دخول الترك المغول دار الإسلام واستيلاؤهم على ملوك ما وراء النهر وخراسان كان سببه نحو هذا ومن أذل نفسه لله فقد أعزها ومن بذل الحق من نفسه فقد اكرم نفسه فإن أكرم الخلق عند الله اتقاهم ومن اعتز بالظلم من منع الحق وفعل الإثم فقد أذل نفسه وأهانها وإنما الواجب على من استجار به مستجير إن كان مظلوما ينصره ولا يثبت أنه مظلوم بمجرد دعواه فطالما اشتكى الرجل وهو ظالم بل يكشف خبره من خصمه وغيره فإن كان ظاملا رده عن الظلم بالرفق إن أمكن إما من صلح أو حكم بالقسط وإلا فبالقوة وإن كان كل منهم ظالما مظلوما كأهل الأهواء من قيس ويمن ونحوهم واكثر المتداعين من اهل الأمصار والبوادي أو كانا جميعا غير ظالمين لشبهة أو تأويل او غلط وقع فيما بينهما سعى بينهما بالإصلاح أو الحكم كما قال الله تعالى{لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}النساء١١٤ وقد روى أبو داود في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قيل له أمن العصبية أن ينصر الرجل الرجل قومه في الحق قال لا قال ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه في الباطل وقال خيركم الدافع عن قومه مالم يأثم وقال مثل الذي ينصر قومه بالباطل كبعير تردى في بئر فهو يجر بذنبه وقال من سمعتموه يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه هن أبيه ولا تكنوا وكل ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن من سنب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية [1]

الواجب على من استجار به مستجير إن كان مظلوما ينصره ولا يثبت أنه مظلوم بمجرد دعواه فطالما اشتكى الرجل وهو ظالم بل يكشف خبره من خصمه وغيره فان كان ظالما رده عن الظلم بالرفق إن أمكن إما من صلح او حكم بالقسط وإلا فبالقوة

---

[1] السياسة الشرعية ج: ١ ص: ٨٠-٨٢

وإ ن كان كل منهم ظالما مظلوما كأهل الأهواء من قيس ويمن ونحوهم واكثر المتداعين من اهل الأمصار والبوادى أو كانا جميعا غير ظالمين لشبهة او تأويل او غلط وقع فيما بينهما سعى بينهما بالاصلاح او الحكم كما قال الله تعالى {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ {٩} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{١٠}الحجرات٩ -١٠وقال تعالى {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}النساء١١٤ وقد روى ابو داود فى السنن عن النبى أنه قيل له أمن العصبية ان ينصر الرجل قومه فى الحق قال لا قال ولكن من العصبية ان ينصر الرجل قومه فى الباطل وقال خيركم الدافع عن قومه مالم يأثم وقال مثل الذى ينصر قومه بالباطل كبعير تردى فى بئر فهو يجر بذنبه وقال من سمعتموه يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا وكل ما خرج عن دعوة الأسلام والقرآن من نسب أو بلد او جنس او مذهب او طريقة فهو من عزاء الجاهلية بل لما اختصم رجلان من المهاجرين والأنصار فقال المهاجرى ياللمهاجرين وقال الانصارى ياللأنصار قال النبى أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وغضب لذلك غضبا شديدا[١]

## قيد الاصلاح الذى يثيب عليه بالاخلاص

فاذا اختصم رجلان بقول أو فعل وجب ان يقام فى امرهما بالقسط قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ}النساء١٣٥ وقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ}المائدة٨ وقال {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ}الحجرات٩ الآية وقد روى ان اقتتالهما كان بالجريد والنعال

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص:٣٢٧- ٣٢٩

وقد قال تعالى {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ}النساء١١٤ الآية وقال {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء٥٨ وقال {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}الشورى٤٠ وقال {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ}النحل١٢٦ الآية فإن كان الشخصان قد اختصما نظر أمرهما فان تبين ظلم أحدهما كان المظلوم بالخيار بين الاستيفاء والعفو والعفو أفضل فان كان ظلمه بضرب أو لطم فله أن يضربه أو يلطمه كما فعل به عند جماهير السلف وكثير من الأئمة وبذلك جاءت السنة وقد قيل انه يؤدب ولا قصاص فى ذلك وان كان قد سبه فله أن يسبه مثل ما سبه إذا لم يكن فيه عدوان على حق محض لله أو على غير الظالم فاذا لعنه او سماه باسم كلب ونحوه فله أن يقول له مثل ذلك فاذا لعن اباه لم يكن له أن يلعن اباه لأنه لم يظلمه وان افترى عليه كذبا لم يكن له ان يفترى عليه كذبا لأن الكذب حرام لحق الله كما قال كثير من العلماء فى القصاص فى البدن أنه اذا جرحه أو خنقه أو ضربه ونحو ذلك يفعل به كما فعل فهذا أصح قولى العلماء الا ان يكون الفعل محرما لحق الله كفعل الفاحشة أو تجريعه الخمر فقد نهى عن مثل هذا أكثرهم وان كان بعضهم سوغه بنظير ذلك واذا اعترف الظالم بظلمه وطلب من المظلوم ان يعفو عنه ويستغفر الله له فهذا حسن مشروع كما ثبت فى الصحيح عن أبى الدرداء انه كان بين أبى بكر وعمر كلام وان أبا بكر طلب من عمر ان يستغفر له فأبى عمر ثم ندم فطلب أبا بكر فوجده قد سبقه إلى النبى وذكر له ذلك فقال النبى يغفر الله لك يا أبا بكر ثم قال ايها الناس انى قد جئت إليكم فقلت انى رسول الله فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت فهل انتم تاركوا لى صاحبى واذا طلب من المظلوم العفو بعد اعتراف الظالم فأجاب كان من المحسنين الذين اجرهم على الله وان أبى الا طلب حقه لم يكن ظالما لكن يكون قد ترك الأفضل الأحسن فليس لأحد ان يخرجه عن أهل الطريق بمجرد ذلك كما قد يفعله كثير من الناس قال الله تعالى {وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ{٤١} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ{٤٢} وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ{٤٣}الشورى ٤١-٤٣ فانه لو كان من ترك الاحسان الذى لا يجب عليه يحسب خارجا عن الطريق خرج عنه جمهور أهله و أولياء الله على صنفين مقربين سابقين وأصحاب يمين مقتصدين كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى قال يقول الله تعالى من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما

افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه ثم أكثر هؤلاء الذين يذمون تارك العفو إنما يذمونه لأهوائهم لكون الظالم صديق أحدهم أو وريثه أو قرينه ونحو ذلك والله سبحانه أوجب على عباده العدل فى الصلح كما أوجبه فى الحكم فقال تعالى {فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}الحجرات٩ وقيد الاصلاح الذى يثيب عليه بالاخلاص فقال تعالى {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}النساء١١٤ اذ كثير من الناس يقصدون الاصلاح إما لسمعة وإما لرياء ومن العدل أن يمكن المظلوم من الانتصاف ثم بعد ذلك الشفاعة إلى المظلوم فى العفو ويصالحه الظالم وترغيبه فى ذلك فان الله تعالى إذا ذكر فى القرآن حقوق العباد التى فيها وزر الظالم ندب فيها إلى العفو كقوله سبحانه {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ}المائدة٤٥ وقوله {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}الشورى٤٠ وعن أنس قال ما رفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء فى القصاص الا أمر فيه بالعفو وليس من شرط طلب العفو من المظلوم ان الظالم يقوم على قدميه ولا يضع نعليه على رأسه ونحو ذلك مما قد يلتزمه بعض الناس وإنما شرطه التمكين من نفسه حتى يستوفى منه الحق فاذا أمكن المظلوم من استيفاء حقه فقد فعل ما وجب عليه ثم المستحق بالخيار ان شاء عفى وان شاء استوفى وللمظلوم أن يهجره ثلاثا وأما بعد الثلاث فليس له أن يهجره على ظلمه إياه لقوله صلى الله عليه وسلم لا يحل لمسلم ان يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام واما إذا كان الذنب لحق الله كالكذب والفواحش والبدع المخالفة للكتاب والسنة أو اضاعة الصلاة بالتفريط وواجباتها ونحو ذلك فهذا لابد فيه من التوبة وهل يشترط مع التوبة اظهار الاصلاح فى العمل على قولين للعلماء وإذا كان لهم شيخ مطاع فان له ان يعزر العاصى بحسب ذنبه تعزيرا يليق بمثله أن يفعله بمثله مثل هجره مدة كما هجر النبى صلى الله عليه وسلم الثلاثة المخلفين وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون يسوسون الناس فى دينهم ودنياهم ثم بعد ذلك تفرقت الأمور فصار امراء الحرب يسوسون الناس فى أمر الدنيا والدين الظاهر وشيوخ العلم والدين يسوسون الناس فيما يرجع اليهم فيه من العلم والدين وهؤلاء أولوا أمر تجب طاعتهم فيما يأمرون به من طاعة الله التى هم أولوا أمرها

وهو كذلك فسر أولوا الأمر فى قوله {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}النساء٥٩ بأمراء الحرب من الملوك ونوابهم وبأهل العلم والدين الذين يعلمون الناس دينهم ويأمرونهم بطاعة الله فان قوام الدين بالكتاب والحديد كما قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}الحديد٢٥ وإذا كان ولاة الحرب عاجزين ومفرطين عن تقويم المنتسبين إلى الطريق كان تقويمهم على رؤسائهم وكان لهم من تعزيزهم وتأديبهم ما يتمكنون منه إذا لم يقم به غيرهم كما قال النبى صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وهو اضعف الايمان وقد يكون تعزيره بنفيه عن وطنه مدة كما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينفى من شرب الخمر وكما نفى نصر بن حجاج إلى البصرة لخوف فتنة النساء به وقد مضت سنة رسول الله بالنفى فى الزنا ونفى المخنث [1]

## " عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين "

وقد أنزل الله الكتاب والحكمة وهى السنة قال تعالى {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ}البقرة٢٣١ وقال تعالى {وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً}النساء١١٣ والدعاء الى ما أنزل يستلزم الدعاء الى الرسول والدعاء الى الرسول يستلزم الدعاء الى ما أنزله الله وهذا مثل طاعة الله والرسول فانهما متلازمان فمن يطع الرسول فقد أطاع الله ومن أطاع الله فقد أطاع الرسول وكذلك قوله تعالى {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ}النساء١١٥ فانهما متلازمان فكل من شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وكل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فان كان يظن أنه متبع سبيل المؤمنين وهو مخطىء

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص:٥٤٦- ٥٥٢

فهو بمنزلة من ظن أنه متبع للرسول وهو مخطىء وهذه الآية تدل على أن اجماع المؤمنين حجة من جهة أن مخالفتهم مستلزمة لمخالفة الرسول وان كل ما أجمعوا عليه فلابد أن يكون فيه نص عن الرسول فكل مسألة يقطع فيها بالاجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين فانها مما بين الله فيه الهدى ومخالف مثل هذا الاجماع يكفر كما يكفر مخالف النص البين وأما اذا كان يظن الاجماع ولا يقطع به فهنا قد لا يقطع أيضا بأنها مما تبين فيه الهدى من جهة الرسول ومخالف مثل هذا الاجماع قد لا يكفر بل قد يكون ظن الاجماع خطأ والصواب فى خلاف هذا القول وهذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به من مخالفة الاجماع وما لا يكفر و الاجماع هل هو قطعى الدلالة أو ظنى الدلالة فان من الناس من يطلق الاثبات بهذا أو هذا ومنهم من يطلق النفى لهذا ولهذا والصواب التفصيل بين ما يقطع به من الاجماع ويعلم يقينا أنه ليس فيه منازع من المؤمنين أصلا فهذا يجب القطع بأنه حق وهذا لابد أن يكون مما بين فيه الرسول الهدى كما قد بسط هذا فى موضع آخر ومن جهة أنه اذا وصف الواجب بصفات متلازمة دل على أن كل صفة من تلك الصفات متى ظهرت وجب اتباعها وهذا مثل الصراط المستقيم الذى أمرنا الله بسؤال هدايته فانه قد وصف بأنه الاسلام ووصف بأنه اتباع القرآن ووصف بأنه طاعة الله ورسوله ووصف بأنه طريق العبودية ومعلوم أن كل اسم من هذه الأسماء يجب اتباع مسماه ومسماها كلها واحد وان تنوعت صفاته فأى صفة ظهرت وجب اتباع مدلولها فانه مدلول الأخرى وكذلك أسماء الله تعالى وأسماء كتابه وأسماء رسوله هى مثل أسماء دينه وكذلك قوله تعالى {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ}آل عمران١٠٣ قيل حبل الله هو دين الاسلام وقيل القرآن وقيل عهده وقيل طاعته وأمره وقيل جماعة المسلمين وكل هذا حق وكذلك اذا قلنا الكتاب والسنة والاجماع فمدلول الثلاثة واحد فان كل ما فى الكتاب فالرسول موافق له والأمة مجمعة عليه من حيث الجملة فليس فى المؤمنين الا من يوجب اتباع الكتاب وكذلك كل ما سنه الرسول فالقرآن يأمر باتباعه فيه والمؤمنون مجمعون على ذلك وكذلك كل ما أجمع عليه المسلمون فانه لا يكون الا حقا موافقا لما فى الكتاب والسنة لكن المسلمون يتلقون دينهم كله عن الرسول وأما الرسول فينزل عليه وحى القرآن ووحى آخر هو الحكمة كما قال ألا انى أوتيت الكتاب ومثله معه وقال حسان بن عطية كان جبريل ينزل على النبى بالسنة فيعلمه اياها كما يعلمه القرآن فليس كل ما جاءت به السنة يجب أن

يكون مفسرا فى القرآن بخلاف ما يقوله أهل الاجماع فانه لابد أن يدل عليه الكتاب والسنة فان الرسول هو الواسطة بينهم وبين الله فى أمره ونهيه وتحليله وتحريمه [1]

قال عمر بن عبد العزيز سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر بعده اشياء الأخذ بها تصديق الكتاب الله واستعمال لطاعة الله وقوة على طاعة الله ليس لأحد تغييرها ولا النظر فى رأى من خالفها من اهتدى بها فهو مهتد ومن استنصر بها فهو منصور ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى واصلاه جهنم وساءت مصيرا وقد قال اوصيكم بالسمع والطاعة فانه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة والواجب على ولاة الأمور وغيرهم من المسلمين العمل من ذلك بما عليهم كما قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}التغابن١٦ وقال النبى اذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه [2]

## اجماع المؤمنين حجة

ما من حكم اجتمعت الأمة عليه إلا وقد دل عليه النص فالإجماع دليل على نص موجود معلوم عند الأئمة ليس مما درس علمه والناس قد اختلفوا في جواز الإجماع عن اجتهاد ونحن نجوز أن يكون بعض المجمعين قال عن اجتهاد لكن لا يكون النص خافيا على جميع المجتهدين وما من حكم يعلم أن فيه إجماعا إلا وفي الأمة من يعلم أن فيه نصا وحينئذ فالإجماع دليل على النص ولهذا قال تعالى {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً}النساء١١٥ فعلق الوعيد بمشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين مع العلم بأن مجرد مشاقة الرسول توجد الوعيد ولكن هما متلازمان فلهذا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:٣٧- ٤٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٥٦١ و مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٤٠

علقه بهما كما كما يعلقه بمعصية الله ورسوله وهما متلازمان أيضا فنحن نذكر بعض ما يستدل به على الإجماع مطلقا ويستدل به على من يقول قد لا يكون معه نص كقوله تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}آل عمران١١٠ فهذا يقتضي أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر ومن المعلوم أن إيجاب ما أوجبه الله وتحريم ما حرمه الله هو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل هو نفسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيجب أن يوجبوا كل ما أوجبه الله ورسوله ويحرموا كل ما حرمه الله ورسوله وحينئذ فيمتنع أن يوجبوا حراما ويحرموا واجبا بالضرورة فإنه لا يجوز عليهم السكوت عن الحق في ذلك فكيف نجوز السكوت عن الحق والتكلم بنقيضه من الباطل ولو فعلوا ذلك لكانوا قد أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف وهو خلاف النصر وأيضا فقوله تعالى {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}التوبة٧١ والاستدلال به كما تقدم وأيضا فقوله تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}البقرة١٤٣ وقوله {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}الحج٧٨ ومن جعلهم الرب شهداء على الناس فلا بد أن يكونوا عالمين بما يشهدون به ذوي عدل في شهادتهم فلو كانوا يحللون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ويوجبون ما عفا الله عنه ويسقطون ما أوجبه الله لم يكونوا كذلك وكذلك إذا كانوا يجرحون الممدوح ويمدحون المجروح فإذا شهدوا أن أبا بكر أحق بالإمامة وجب أن يكونوا صادقين في هذه الشهادة عالمين بما شهدوا به وكذلك إذا شهدوا أن هذا مطيع لله وهذا عاص لله وهذا فعل ما يستحق عليه الثواب وهذا فعل ما يستحق عليه العقاب وجب قبول شهادتهم فإن الشهادة على الناس تتناول الشهادة بما فعلوه من مذموم ومحمود والشهادة بأن هذا مطيع وهذا عاص هي تتضمن الشهادة بأفعالهم وأحكام أفعالهم وصفاتهم وهو المطلوب وفي الصحيحين عن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال وجبت ومر عليه بجنازة فأثنوا عليها شرا فقال وجبت فقيل يا رسول الله ما قولك وجبت قال هذه الجنازة أثنيتم عليها خيرا فقلت وجبت لها الجنة وهذه الجنازة أثنيتم عليها شرا فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله في الأرض وأيضا فقوله {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً}النساء١١٥فإنه توعد على المشاقة للرسول واتباع غير سبيل المؤمنين وذلك يقتضي أن كلا منهما مذموم فإن مشاقة الرسول وحدها مذمومة بالإجماع فلو لم يكن الآخر مذموما لكان قد رتب الوعيد على وصفين مذموم وغير مذموم وهذا لا يجوز

ونظير هذا قوله تعالى {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً{٦٨} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً{٦٩} الفرقان ٦٨ -٦٩ فإنه يقتضي أن كل واحد من الخصال الثلاثة مذموم شرعا وحينئذ فإذا كان المؤمنون قد أوجبوا أشياء وحرموا أشياء فخالفهم مخالف وقال إن ما أوجبوه ليس بواجب وما حرموه ليس بحرام فقد اتبع غير سبيلهم لأن المراد بسبيلهم اعتقاداتهم وأفعالهم وإذا كان كذلك كان مذموما ولو لم يكن سبيلهم صوابا وحقا لم يكن المخالف لهم مذموما وأيضا فقوله تعالى {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ فجعل وجوب الرد إلى الله والرسول معلقا بالتنازع والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدمه فعلم أنه عند انتفاء التنازع لا يجب الرد إلى الله ورسوله فدل على أن إجماعهم إنما يكون على حق وصواب فإنه لو كان على باطل وخطأ لم يسقط عنهم وجوب الرد الى الكتاب والسنة لأجل باطلهم وخطئهم ولأن أمر الله ورسوله حق حال إجماعهم ونزاعهم فإذا لم يجب الرد عليه عند الإجماع دل على أن الإجماع موافق له لا مخالف له فلما كان المستدل بالإجماع متبعا له في نفس الأمر لم يحتج إلى الرد إليه وأيضا قوله تعالى {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ}آل عمران١٠٣ أمرهم بالاجتماع ونهاهم عن الافتراق فلو كان في حال الاجتماع قد يكونون مطيعين لله تارة وعاصين له أخرى لم يجز أن يأمر به إلا إذا كان اجتماعا على طاعة والله أمر به مطلقا ولأنه لو كان كذلك لم يكن فرق بين الإجتماع والإفتراق لأن الإفتراق إذا كان معه طاعة كان مأمورا به مثل أن يكون الناس نوعين نوع يطيع الله ورسوله ونوع يعصيه فإنه يجب أن يكون مع المطيعين وإن كان في ذلك فرقة فلما أمرهم بالاجتماع دل على أنه مستلزم لطاعة الله وأيضا فإنه قال {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ}المائدة٥٥ فجعل موالاتهم كموالاة الله ورسوله وموالاة الله ورسوله لا تتم إلا بطاعة أمره وكذلك المؤمنون لا تتم موالاتهم إلا بطاعة أمرهم وهذا لا يكون إلا إذا كان أمرهم أمرا متفقا فإن أمر بعضهم بشيء وأمر آخر بضده لم يكن موالاة هذا بأولى من موالاة هذا فكانت الموالاة في حال النزاع بالرد إلى الله والرسول وأيضا فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة متعددة الأمر بالاعتصام بالجماعة والمدح لها وذم الشذوذ وأن الخير والهدى والرحمة مع الجماعة وأن الله لم يكن ليجمع هذه الأمة على ضلالة وأنه لن يزال فيها طائفة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم ولا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم فيه بطاعة الله وأن خير هذه الأمة القرن الأول ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وقد روى الحاكم وغيره

عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يجمع الله أمتي على الضلالة أبدا ويد الله على الجماعة وعن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالف جماعة المسلمين شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتى يراجعه ومن مات وليس عليه إمام جماعة فإن ميتته ميتة جاهلية وعن الحارث الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمركم بخمس كلمات أمرني الله بهن الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فمن خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من رأسه إلا أن يرجع وعن معاوية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من فارق الجماعة شبرا دخل النار وعن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من فارق أمته أو عاد أعرابيا بعد هجرته فلا حجة له وعن ربعي قال أتيت حذيفة ليالي سار الناس إلى عثمان فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من فارق الجماعة واستبدل الإمارة لقي الله ولا حجة له وعن فضالة بن عبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة لا يسأل عنهم رجل فارق الجماعة وعصى إمامه فمات عاصيا فذكر الحديث وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة المكتوبة إلى التي بعدها كفارة لما بينهما والجمعة إلى الجمعة والشهر إلى الشهر يعني رمضان كفارة لما بينهما قال بعد ذلك إلا من ثلاث فعرفت أن ذلك من أمر حدث فقال إلا من الإشراك بالله ونكث الصفقة وترك السنة وأن تبايع رجلا بيمينك ثم تخالف تقاتله بسيفك وترك السنة الخروج من الجماعة وعن النعمان بن بشير قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال نضر الله وجه امريء سمع مقالتي فحملها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل إلى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة ألأمر ولزوم جماعة المسلمين روى هذه الأحاديث الحاكم في المستدرك وذكر أنها على شرط الصحيح وذلك يقتضي أن اجتماع الأمة لا يكون إلا على حق وهدى وصواب وأن أحق الأمة بذلك هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [1]

والله أمر نبيه أن يحكم بما أنزل وأمره أن يحكم بالعدل فهو أنزل الكتاب وانما أنزل الكتاب بالعدل قال تعالى {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ} المائدة٤٩ {وَإِنْ

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٣٤٥

حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ}المائدة٤٢ واما اجماع الأمة فهو حق لا تجتمع الأمة ولله الحمد على ضلالة كما وصفها الله بذلك فى الكتاب والسنة فقال تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ}آل عمران١١٠ وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر كما وصف نبيهم بذلك فى قوله {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ}الأعراف١٥٧ وبذلك وصف المؤمنين فى قوله {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}التوبة٧١ فلو قالت الامة فى الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف فى ذلك ولم تنه عن المنكر فيه وقال تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}البقرة١٤٣ والوسط العدل الخيار وقد جعلهم الله شهداء على الناس وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول وقد ثبت فى الصحيح أن النبى مر عليه بجنازة فاثنوا عليها خيرا فقال وجبت وجبت ثم مر عليه بجنازة فاثنوا عليها شرا فقال وجبت وجبت قالوا يارسول الله ما قولك وجبت وجبت قال هذه الجنازة أثنيتم عليها خيرا فقلت وجبت لها الجنة وهذه الجنازة أثنيتم عليها شرا فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله فى الأرض فاذا كان الرب قد جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل فاذا شهدوا ان الله أمر بشىء فقد أمر به واذا شهدوا أن الله نهى عن شىء فقد نهى عنه ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطأ لم يكونوا شهداء الله فى الأرض بل زكاهم الله فى شهادتهم كما زكى الأنبياء فيما يبلغون عنه أنهم لا يقولون عليه إلا الحق وكذلك الأمة لا تشهد على الله الا بالحق وقال تعالى {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}لقمان١٥ والأمة منيبة الى الله فيجب اتباع سبيلها وقال تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ}التوبة١٠٠ فرضي عمن اتبع السابقين الى يوم القيامة فدل على ان متابعهم عامل بما يرضى الله والله لا يرضى الا بالحق لا بالباطل وقال تعالى {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً}النساء١١٥ وكان عمر بن عبد العزيز يقول كلمات كان مالك يأثرها عنه كثيرا قال سن رسول الله وولاة الأمر من بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستعمال لطاعة الله ومعونة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا النظر فى رأى من خالفها فمن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله تعالى ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا والشافعى رضى الله عنه لما جرد الكلام فى أصول الفقه احتج بهذه الآية على الاجماع كما كان هو وغيره ومالك ذكر عن عمر ابن عبد العزيز والآية دلت على أن متبع غير سبيل المؤمنين مستحق

للوعيد كما أن مشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى مستحق للوعيد ومعلوم أن هذا الوصف يوجب الوعيد بمجرده فلو لم يكن الوصف الآخر يدخل فى ذلك لكان لا فائدة فى ذكره وهنا للناس ثلاثة أقوال قيل اتباع غير سبيل المؤمنين هو بمجرد مخالفة الرسول المذكورة فى ألآية وقيل بل مخالفة الرسول مستقلة بالذم فكذلك اتباع غير سبيلهم مستقل بالذم وقيل بل اتباع غير سبيل المؤمنين يوجب الذم كما دلت عليه الآية لكن هذا لا يقتضى مفارقة الأول بل قد يكون مستلزما له فكل متابع غير سبيل المؤمنين هو فى نفس الأمر مشاق للرسول وكذلك مشاق الرسول متبع غير سبيل المؤمنين وهذا كما في طاعة الله والرسول فان طاعة الله واجبة وطاعة الرسول واجبة وكل واحد من معصية الله ومعصية الرسول موجب للذم وهما متلازمان فانه من يطع الرسول فقد أطاع الله وفى الحديث الصحيح عن النبى قال من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصانى فقد عصى الله ومن عصى أميرى فقد عصانى وقال انما الطاعة فى المعروف يعنى اذا أمر اميرى بالمعروف فطاعته من طاعتى وكل من عصى الله فقد عصى الرسول فان الرسول يأمر بما أمر الله به [١]

ان الرسول بين جميع الدين بالكتاب والسنة وأن الاجماع اجماع الأمة حق فانها لا تجتمع على ضلالة وكذلك القياس الصحيح حق يوافق الكتاب والسنة والآية المشهورة التى يحتج بها على الاجماع قوله {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً} النساء١١٥ ومن الناس من يقول انها لا تدل على مورد النزاع فان الذم فيها لمن جمع الامرين وهذا لا نزاع فيه أو لمن اتبع غير سبيل المؤمنين التى بها كانوا مؤمنين وهي متابعة الرسول وهذا لا نزاع فيه أو أن سبيل المؤمنين هو الاستدلال بالكتاب والسنة وهذا لا نزاع فيه فهذا ونحوه قول من يقول لا تدل على محل النزاع وآخرون يقولون بل تدل على وجوب اتباع المؤمنين مطلقا وتكلفوا لذلك ما تكلفوه كما قد عرف من كلامهم ولم يجيبوا عن أسئلة أولئك باجوبة شافية والقول الثالث الوسط انها تدل على وجوب اتباع سبيل المؤمنين وتحريم اتباع غير سبيلهم ولكن مع تحريم مشاقة الرسول من بعد ما تبين له الهدى وهو يدل على ذم كل من هذا وهذا كما تقدم لكن لا ينفى تلازمهما كما ذكر فى طاعة الله والرسول وحينئذ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص:١٧٦- ١٧٩

نقول الذم اما أن يكون لاحقا لمشاقة الرسول فقط أو باتباع غير سبيلهم فقط أو أن يكون الذم لا يلحق بواحد منهما بل بهما إذا اجتمعا أو يلحق الذم بكل منهما وان انفرد عن الآخر أو بكل منهما لكونه مستلزما للآخر والأولان باطلان لأنه لو كان المؤثر احدهما فقط كان ذكر الآخر ضائعا لا فائدة فيه وكون الذم لا يلحق واحد منهما باطل قطعا فان مشاقة الرسول موجبة للوعيد مع قطع النظر عمن اتبعه ولحوق الذم بكل منهما وان انفرد عن الآخر لا تدل عليه الآية فان الوعيد فيها انما هو على المجموع بقي القسم الآخر وهو ان كلا من الوصفين يقتضى الوعيد لأنه مستلزم للآخر كما يقال مثل ذلك فى معصية الله والرسول ومخالفة القرآن والاسلام فيقال من خالف القرآن والاسلام أو من خرج عن القرآن والاسلام فهو من أهل النار ومثله قوله {وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١٣٦فان الكفر بكل من هذه الاصول يستلزم الكفر بغيره فمن كفر بالله كفر بالجميع ومن كفر بالملائكة كفر بالكتب والرسل فكان كافرا بالله إذ كذب رسله وكتبه وكذلك إذا كفر باليوم الآخر كذب الكتب والرسل فكان كافرا وكذلك قوله {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}آل عمران٧١ ذمهم على الوصفين وكل منهما مقتض للذم وهما متلازمان ولهذا نهى عنهما جميعا في قوله {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}البقرة٤٢ فانه من لبس الحق بالباطل فغطاه به فغلط به لزم أن يكتم الحق الذى تبين أنه باطل إذ لو بينه زال الباطل الذي لبس به الحق فهكذا مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين ومن شاقه فقد اتبع غير سبيلهم وهذا ظاهر ومن اتبع غير سبيلهم قد شاقه ايضا فانه قد جعل له مدخلا فى الوعيد فدل على أنه وصف مؤثر فى الذم فمن خرج عن اجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم قطعا والآية توجب ذم ذلك وإذا قيل هي انما ذمته مع مشاقة الرسول قلنا لأنهما متلازمان وذلك لأن كل ما أجمع عليه المسلمون فانه يكون منصوصا عن الرسول فالمخالف لهم مخالف للرسول كما أن المخالف للرسول مخالف لله ولكن هذا يقتضى ان كل ما أجمع عليه قد بينه الرسول وهذا هو الصواب فلا يوجد قط مسألة مجمع عليها إلا وفيها بيان من الرسول ولكن قد يخفى ذلك على بعض الناس ويعلم الاجماع فيستدل به كما أنه يستدل بالنص من لم يعرف دلالة النص وهو دليل ثان مع النص كالأمثال المضروبة فى القرآن وكذلك الاجماع دليل آخر كما يقال قد دل على ذلك الكتاب والسنة والاجماع وكل من هذ الاصول يدل على الحق مع تلازمها فان ما دل عليه الاجماع فقد دل عليه الكتاب والسنة وما دل عليه القرآن فعن الرسول أخذ فالكتاب والسنة كلاهما مأخوذ عنه ولا يوجد مسألة يتفق الاجماع عليها الا وفيها نص وقد كان بعض الناس يذكر مسائل فيها اجماع

بلا نص كالمضاربة وليس كذلك بل المضاربة كانت مشهورة بينهم فى الجاهلية لا سيما قريش فان الأغلب كان عليهم التجارة وكان أصحاب الاموال يدفعونها الى العمال ورسول الله قد سافر بمال غيره قبل النبوة كما سافر بمال خديجة والعير التى كان فيها أبو سفيان كان اكثرها مضاربة مع أبى سفيان وغيره فلما جاء الاسلام أقرها رسول الله وكان أصحابه يسافرون بمال غيرهم مضاربة ولم ينه عن ذلك والسنة قوله وفعله واقراره فلما اقرها كانت ثابتة بالسنة والاثر المشهور فيها عن عمر الذي رواه مالك فى الموطأ ويعتمد عليه الفقهاء لما أرسل أبو موسى بمال أقرضه لابنيه واتجرا فيه وربحا وطلب عمر أن يأخذ الربح كله للمسلمين لكونه خصهما بذلك دون سائر الجيش فقال له أحدهما لو خسر المال كان علينا فكيف يكون لك الربح وعلينا الضمان فقال له بعض الصحابة اجعله مضاربا فجعله مضاربة وانما قال ذلك لأن المضاربة كانت معروفة بينهم والعهد بالرسول قريب لم يحدث بعده فعلم انها كانت معروفة بينهم على عهد الرسول كما كانت الفلاحة وغيرها من الصناعات كالخياطة والجزارة وعلى هذا فالمسائل المجمع عليها قد تكون طائفة من المجتهدين لم يعرفوا فيها نصا فقالوا فيها باجتهاد الرأى الموافق للنص لكن كان النص عند غيرهم وابن جرير وطائفة يقولون لا ينعقد الاجماع إلا عن نص نقلوه عن الرسول مع قولهم بصحة القياس ونحن لا نشترط أن يكونوا كلهم علموا النص فنقلوه بالمعنى كما تنقل الأخبار لكن استقرأنا موارد الاجماع فوجدناها كلها منصوصة وكثير من العلماء لم يعلم النص وقد وافق الجماعة كما أنه قد يحتج بقياس وفيها اجماع لم يعلمه فيوافق الاجماع وكما يكون فى المسألة نص خاص وقد استدل فيها بعضهم بعموم كاستدلال ابن مسعود وغيره بقوله {وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}الطلاق٤ وقال ابن مسعود سورة النساء القصرى نزلت بعد الطولى أي بعد البقرة وقوله {أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}الطلاق٤ يقتضى انحصار الأجل فى ذلك فلو أوجب عليها أن تعتد بأبعد الأجلين لم يكن أجلها أن تضع حملها وعلي وابن عباس وغيرهما أدخلوها فى عموم الآيتين وجاء النص الخاص في قصة سبيعة الاسلمية بما يوافق قول ابن مسعود وكذلك لما تنازعوا فى المفوضة إذا مات زوجها هل لها مهر المثل أفتى ابن مسعود فيها برأيه أن لها مهر المثل ثم رووا حديث بروع بنت واشق بما يوافق ذلك وقد خالفه علي وزيد وغيرهما فقالوا لا مهر لها فثبت أن بعض المجتهدين قد يفتى بعموم أو قياس ويكون فى الحادثة نص خاص لم يعلمه فيوافقه ولا يعلم مسألة واحدة اتفقوا على انه لا نص فيها بل عامة ما تنازعوا فيه كان بعضهم يحتج فيه بالنصوص أولئك احتجوا بنص كالمتوفى عنها الحامل وهؤلاء احتجوا بشمول الآيتين لها والآخرين قالوا إنما يدخل فى آية الحمل

فقط وإن آية الشهور في غير الحامل كما أن آية القروء فى غير الحامل وكذلك لما تنازعوا فى الحرام احتج من جعله يمينا بقوله {لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {١} قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ {٢}التحريم١-٢وكذلك لما تنازعوا فى المبتوتة هل لها نفقة أو سكنى احتج هؤلاء بحديث فاطمة وبان السكنى التى فى القرآن للرجعية وأولئك قالوا بل هي لهما ودلالات النصوص قد تكون خفية فيخص الله يفهمهن بعض الناس كما قال علي الا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه وقد يكون النص بينا ويدهل المجتهد عنه كتيمم الجنب فانه بين فى القرآن فى آيتين ولما احتج ابو موسى على ابن مسعود بذلك قال الحاضر ما درى عبد الله ما يقول إلا أنه قال لو أرخصنا لهم فى هذا لأوشك أحدهم إذا وجد المرء البرد أن يتيمم وقد قال ابن عباس وفاطمة بنت قيس وجابر ان المطلقة فى القرآن هي الرجعية بدليل قوله {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً}الطلاق١ وأى أمر يحدثه بعد الثلاثة وقد احتج طائفة على وجوب العمرة بقوله {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ}البقرة١٩٦ واحتج بهده الآية من منع الفسخ وآخرون يقولون إنما أمر بالاتمام فقط وكذلك أمر الشارع أن يتم وكذلك في الفسخ قالوا من فسخ العمرة الى غير حج فلم يتمها أما إذا فسخها ليحج من عامه فهذا قد أتى بما تم مما شرع فيه فانه شرع فى حج مجرد فأتى بعمرة في الحج ولو لم يكن هذا إتماما لما أمر به النبى أصحابه عام حجة الوداع وتنازعوا فى الذي بيده عقدة النكاح وفي قوله {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء}النساء٤٣ ونحو ذلك مما ليس هذا موضع استقصائه وأما مسألة مجردة اتفقوا على أنه لا يستدل فيها بنص جلى ولا خفى فهذا ما لا أعرفه والجد لما قال أكثرهم انه أب استدلوا على ذلك بالقرآن بقوله {كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ}الأعراف٢٧ وقال ابن عباس لو كانت الجن تظن ان الانس تسمى أبا الاب جدا لما قالت {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا}الجن٣ يقول إنما هو أب لكن أب أبعد من أب وقد روى عن على وزيد أنهما احتجا بقياس فمن ادعى إجماعهم على ترك العمل بالرأى والقياس مطلقا فقد غلط ومن ادعى ان من المسائل ما لم يتكلم فيها أحد منهم إلا بالرأى والقياس فقد غلط بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها ومن رأى دلالة الميزان ذكرها والدلائل الصحيحة لا تتناقض لكن قد يخفى وجه اتفاقها أو ضعف أحدها على بعض العلماء وللصحابة فهم فى القرآن يخفى على أكثر المتأخرين كما أن لهم معرفة بأمور من السنة وأحوال الرسول لا يعرفها أكثر المتأخرين فانهم شهدوا الرسول والتنزيل وعاينوا الرسول وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله مما يستدلون به على مرادهم ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك فطلبوا الحكم مما اعتقدوه من إجماع أو قياس

ومن قال من المتأخرين إن الاجماع مستند معظم الشريعة فقد أخبر عن حاله فانه لنقص معرفته بالكتاب والسنة احتاج الى ذلك وهذا كقولهم ان أكثر الحوادث يحتاج فيها إلى القياس لعدم دلالة النصوص عليها فانما هذا قول من لا معرفة له بالكتاب والسنة ودلالتهما على الاحكام وقد قال الامام أحمد رضي الله عنه إنه ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو في نظيرها فانه لما فتحت البلاد وانتشر الاسلام حدثت جميع أجناس الاعمال فتكلموا فيها بالكتاب والسنة وإنما تكلم بعضهم بالرأي فى مسائل قليلة والاجماع لم يكن يحتج به عامتهم ولا يحتاجون إليه إذ هم أهل الاجماع فلا اجماع قبلهم لكن لما جاء التابعون كتب عمر الى شريح اقض بما فى كتاب الله فان لم تجد فبما فى سنة رسول الله فان لم تجد فبما به قضى الصالحون قبلك وفي رواية فبما أجمع عليه الناس وعمر قدم الكتاب ثم السنة وكذلك ابن مسعود قال مثل ما قال عمر قدم الكتاب ثم السنة ثم الاجماع وكذلك ابن عباس كان يفتى بما فى الكتاب ثم بما فى السنة ثم بسنة أبي بكر وعمر لقوله اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر وهذه الآثار ثابتة عن عمر وابن مسعود وابن عباس وهم من أشهر الصحابة بالفتيا والقضاء وهذا هو الصواب ولكن طائفة من المتأخرين قالوا يبدأ المجتهد بان ينظر أولا فى الاجماع فان وجده لم يلتفت إلى غيره وإن وجد نصا خالفه اعتقد انه منسوخ بنص لم يبلغه وقال بعضهم الاجماع نسخه والصواب طريقة السلف وذلك لأن الاجماع إذا خالفه نص فلا بد أن يكون مع الاجماع نص معروف به أن ذلك منسوخ فأما ان يكون النص المحكم قد ضيعته الأمة وحفظت النص المنسوخ فهذا لا يوجد قط وهو نسبة الأمة الى حفظ ما نهيت عن اتباعه واضاعة ما أمرت باتباعه وهي معصومة عن ذلك ومعرفة الاجماع قد تتعذر كثيرا أو غالبا فمن ذا الذي يحيط بأقوال المجتهدين بخلاف النصوص فان معرفتها ممكنة متيسرة وهم إنما كانوا يقضون بالكتاب اولا لأن السنة لا تنسخ الكتاب فلا يكون فى القرآن شيء منسوخ بالسنة بل إن كان فيه منسوخ كان فى القرآن ناسخه فلا يقدم غير القرآن عليه ثم إذا لم يجد ذلك طلبه فى السنة ولا يكون فى السنة شيء منسوخ إلا والسنة نسخته لا ينسخ السنة اجماع ولا غيره ولا تعارض السنة باجماع واكثر الفاظ الآثار فان لم يجد فالطالب قد لا يجد مطلوبه في السنة مع انه فيها وكذلك في القرآن فيجوز له إذا لم يجده فى القرآن أن يطلبه فى السنة واذا كان في السنة لم يكن

ما في السنة معارضا لما فى القرآن وكذلك الاجماع الصحيح لا يعارض كتابا ولا سنة ثم بحمد الله وعونه وصلواته على خير بريته محمد وآله وسلم [١]

## دلالة الكتاب على خصوص الأعمال إنما يقع بطريق الإجمال

لما كان الكلام في المسألة الخاصة قد يكون مندرجا في قاعدة عامة بدأنا بذكر بعض ما دل من الكتاب والسنة والإجماع على الأمر بمخالفة الكفار والنهي عن مشابهتهم في الجملة سواء كان ذلك عاما في جميع الأنواع المخالفة أو خاصا ببعضها وسواء كان أمر إيجاب أو أمر استحباب ثم أتبعنا ذلك بما يدل على النهي عن مشابهتهم في أعيادهم خصوصا وهنا نكتة قد نبهت عليها في هذا الكتاب وهي أن الأمر بموافقة قوم أو بمخالفتهم قد يكون لأن نفس قصد موافقتهم أو نفس موافقتهم مصلحة وكذلك نفس قصد مخالفتهم أو نفس مخالفتهم مصلحة بمعنى أن ذلك الفعل يتضمن مصلحة للعبد أو مفسدة وإن كان ذلك الفعل الذي حصلت به الموافقة أو المخالفة لو تجرد عن الموافقة والمخالفة لم يكن فيه تلك المصلحة أو المفسدة ولهذا نحن ننتفع بنفس متابعتنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والسابقين من المهاجرين والأنصار في أعمال لولا أنهم فعلوها لربما قد كان لا يكون لنا فيها مصلحة لما يورث ذلك من محبتهم وائتلاف قلوبنا بقلوبهم وإن كان ذلك يدعونا إلى موافقتهم في أمور أخرى إلى غير ذلك من الفوائد كذلك قد نتضرر بموافقتنا الكافرين في أعمال لولا أنهم يفعلونها لم نتضرر بفعلها وقد يكون الأمر بالموافقة والمخالفة لأن ذلك الفعل الذي يوافق العبد فيه أو يخالف متضمن للمصلحة والمفسدة ولو لم يفعلوه لكن عبر عنه بالموافقة والمخالفة على سبيل الدلالة والتعريف فتكون موافقتهم دليلا على المفسدة ومخالفتهم دليلا على المصلحة واعتبار الموافقة والمخالفة على هذا التقدير من باب قياس الدلالة وعلى الأول من باب قياس العلة وقد يجتمع الأمران أعني الحكمة الناشئة من نفس الفعل الذي وافقناهم أو خالفناهم فيه ومن نفس مشاركتهم فيه وهذا هو الغالب على الموافقة والمخالفة المأمور بهما والمنهي عنهما فلا بد من التفطن لهذا المعنى فان به يعرف معنى نهي الله لنا عن اتباعهم وموافقتهم

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٩٢-٢٠٢

مطلقا ومقيدا      واعلم أن دلالة الكتاب على خصوص الأعمال وتفاصيلها إنما يقع بطريق الإجمال والعموم أو الاستلزام وإنما السنة هي التي تفسر الكتاب وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه      فنحن نذكر من آيات الكتاب ما يدل على أصل هذه القاعدة في الجملة ثم نتبع ذلك الأحاديث المفسرة لمعاني ومقاصد الآيات بعدها      ومن هذا الباب قوله سبحانه      لموسى وهرون {فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ}يونس٨٩ وقال سبحانه      {وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}الأعراف١٤٢      وقال تعالى   {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً}النساء١١٥ إلى غير ذلك من الآيات      وما هم عليه من الهدى والعمل هو من سبيل غير المؤمنين بل من سبيل المفسدين والذين لا يعلمون وما يقدر عدم اندراجه في العموم فالنهي ثابت عن جنسه فيكون مفارقة الجنس بالكلية أقرب إلى ترك المنهي عنه ومقاربته في مظنة وقوع المنهي عنه   ومتابعتهم في هديهم هي من اتباع ما يهوونه أو مظنة لا تباع ما يهوونه وتركها معونة على ترك ذلك وحسم لمادة متابعتهم فيما يهوونه      واعلم أن في كتاب الله من النهي عن مشابهة الأمم الكافرة وقصصهم التي فيها عبرة لنا بترك ما فعلوه كثير مثل قوله لما ذكر ما فعله بأهل الكتاب من المثلات      {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}الحشر٢ وقوله    {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ}يوسف١١١    وأمثال ذلك ومنه ما يدل على مقصودنا ومنه ما فيه إشارة وتتميم للمقصود      ثم متى كان المقصود بيان أن مخالفتهم في عامة أمورهم أصلح لنا فجميع الآيات دالة على ذلك وإن كان المقصود أن مخالفتهم واجبة علينا فهذا إنما يدل عليه بعض الإيات دون بعض      ونحن ذكرنا ما يدل على أن مخالفتهم مشروعة في الجملة إذا كان هذا هو المقصود هنا      وأما تمييز دلالة الوجوب أو الواجب عن غيرها وتمييز الواجب عن غيره فليس هو الغرض هنا   وسنذكر إن شاء الله أن مشابهتهم في أعيادهم من الأمور المحرمة فإنه هو المسألة المقصودة هنا بعينها وسائر المسائل سواها إنما جلبها إلى هنا تقرير القاعدة الكلية العظيمة المنفعة [1]

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ١٦-١٩

# من خرج عن اجماع المؤمنين فقد اتبع غير سبيلهم

فالأمر باتباع الكتاب والسنة فكثير جدا كقوله {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ}الأعراف٣ {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ}الأنعام١٥٥ واما السلف مثل قوله {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ}النساء٨٣ وقوله {فَإِن تَنَازَعْتُمْ}النساء٥٩ وقوله {وَلِلْمُؤْمِنِينَ}المنافقون٨ وقوله {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}المنافقون٨ ولو خرج المؤمنون عن الحق والهدى لما كانت لهم العزة اذ ذاك من تلك الجهة لآن الباطل والضلال ليس من الايمان الذى يستحق به العزة والعزة مشروطة بالايمان لقوله {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}آل عمران١٣٩ ومنها قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة٦-٧ أمر بسؤاله الهداية الى صراطهم وقال {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ الآية وفيها الدلالة ومنها قوله {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}لقمان١٥ والسلف المؤمنون منيبون اى فيجب اتباع سبيلهم ومنها قوله{وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ}النساء١١٥ ومن خرج عن اجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم[١]

قال الله تعالى {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً}النساء١١٥ وقد شهد الله لأصحاب نبيه ومن تبعهم بإحسان بالإيمان فعلم قطعا أنهم المراد بالآية الكريمة فقال تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}التوبة١٠٠ وقال تعالى {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}الفتح١٨ فحيث تقرر أن من اتبع غير سبيلهم ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم فمن سبيلهم في الإعتقاد الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بها نفسه وسمى بها نفسه في كتابه وتنزيله أو على لسان رسوله من غير زيادة عليها ولا نقص منها ولا تجاوز

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٥٠٤

لها ولا تفسير لها ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين ولا سمات المحدثين بل أمروها كما جاءت وردوا علمها إلى قائلها ومعناها إلى المتكلم بها [1]

أن أئمة المسلمين متفقون على أن إقامة الصلوات الخمس في المساجد هي من أعظم العبادات وأجل القربات ومن فضل تركها عليها إيثارا للخلوة والانفراد على الصلوات الخمس في الجماعات أو جعل الدعاء والصلاة في المشاهد أفضل من ذلك في المساجد فقد انخلع من ربقة الدين واتبع غير سبيل المؤمنين {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً} النساء١١٥ [2]

## "ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها"

وعطف الشيء على الشيء فى القرآن وسائر الكلام يقتضى مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فى الحكم الذى ذكر لهما والمغايرة على مراتب أعلاها أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولا جزأه ولا يعرف لزومه له كقوله {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} الفرقان٥٩ ونحو ذلك وقوله {وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} البقرة٩٨ وقوله {وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ{٣}مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} آل عمران٣-٤ وهذا هو الغالب ويليه أن يكون بينهما لزوم كقوله {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ} البقرة٤٢ وقوله {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} النساء١١٥ وقوله {وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} النساء١٣٦ فان من كفر بالله فقد كفر بهذا كله فالمعطوف لازم للمعطوف عليه وفى الآية التى قبلها المعطوف عليه لازم فانه من يشاقق الرسول من بعد ما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢

[2] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ١١٤

تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وفى الثانى نزاع وقوله {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ}البقرة٤٢ هما متلازمان فان من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به خفى من الحق بقدر ما ظهر من الباطل فصار ملبوسا ومن كتم الحق احتاج ان يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلابد أن يظهر باطلا وهكذا أهل البدع لا تجد أحدا ترك بعض السنة التى يجب التصديق بها والعمل الا وقع فى بدعة ولا تجد صاحب بدعة الا ترك شيئا من السنة كما جاء فى الحديث ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها رواه الامام أحمد وقد قال تعالى {فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء}المائدة١٤ فلما تركوا حظا مما ذكروا به اعتاضوا بغيره فوقعت بينهم العداوة والبغضاء وقال تعالى {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}الزخرف٣٦ أى عن الذكر الذى أنزله الرحمن وقال تعالى {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{١٢٣} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{١٢٤}طه١٢٣-١٢٤ وقال {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ}الأعراف٣ فأمر باتباع ما أنزل ونهى عما يضاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه فمن لم يتبع احدهما اتبع الآخر ولهذا قال {وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ}النساء١١٥ قال العلماء من لم يكن متبعا سبيلهم كان متبعا غير سبيلهم فاستدلوا بذلك على أن اتباع سبيلهم واجب فليس لأحد أن يخرج عما أجمعوا عليه وكذلك من لم يفعل المأمور فعل بعض المحظور ومن فعل المحظور لم يفعل جميع المأمور فلا يمكن الانسان أن يفعل جميع ما أمر به مع فعله لبعض[1]

واما التكفير فالصواب انه من اجتهد من أمة محمد وقصد الحق فاخطأ لم يكفر بل يغفر له خطأه ومن تبين له ما جاء به الرسول فشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين فهو كافر ومن اتبع هواه وقصر فى طلب الحق وتكلم بلا علم فهو عاص مذنب ثم قد يكون فاسقا وقد تكون له حسنات ترجح على سيئاته فالتكفير يختلف بحسب اختلاف حال الشخص فليس كل مخطىء ولا مبتدع ولا جاهل ولا ضال يكون كافرا بل ولا فاسقا بل ولا عاصيا فإذا اجتهد الرجل فى متابعة الرسول والتصديق بما جاء به واخطأ فى المواضع الدقيقة التى تشتبه على

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:١٧٢-١٧٣

أذكياء المؤمنين غفر الله له خطاياه تحقيقا لقوله {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}البقرة٢٨٦ وقد ثبت فى الصحيح ان الله قال قد فعلت [١]

## الغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم

المحبة التي أمر الله بها هي عبادته وحده لا شريك له وإذا كان كذلك فأصل المحبة المحمودة التي أمر الله بها وخلق خلقه لأجلها هي ما في عبادته وحده لا شريك له إذ العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل والمحبة لما كانت جنسا لأنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر منها في حق الله ما يختص به ويليق به مثل العبادة والإنابة ونحوهما فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده وكذلك الإنابة وقد تذكر المحبة المطلقة لكن تقع فيها الشركة كما قال تعالي {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ}البقرة١٦٥ ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة في المحبة كما أن حب الله أعظم الأنواع المحمودة بل عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها وعبادة إله آخر من دونه هو أصل الشقاء ورأسه الذي لا يبقي في العذاب إلا أهله فأهل التوحيد الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يبقي منهم في العذاب أحد والذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه وعبدوا غيره هم أهل الشرك الذين قال الله تعالي فيهم {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها والنهي عن هذه المحبات ولوازمها وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص أهل النوعين وأصل دعوة جميع المرسلين قولهم {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}الأعراف٥٩ وعلي ذلك قاتل من قاتل منهم المشركين كما قال خاتم الرسل أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص:١٨٧-١٨٨

[٢] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١١

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل وقال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{٣٠} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ{٣١} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ{٣٢}الروم٣٠ -٣٢ وقد قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا كما قال تعالى {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{٦} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ {٧}فصلت ٦-٧ أي لا يؤتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد والإيمان وكل من لم يحصل له هذا الإخلاص لم يكن من أهل النجاة والسعادة كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦

الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها [١]

## أعظم الحسنات التوحيد وأعظم السيئات الشرك

فهو سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه لا خالق غيره ولا رب سواه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فكل ما فى الوجود من حركة وسكون فبقضائه وقدره ومشيئته وقدرته وخلقه وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسله ونهى عن معصيته ومعصية رسله أمر بالتوحيد والاخلاص ونهى عن الاشراك بالله فأعظم الحسنات التوحيد وأعظم السيئات الشرك قال الله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ وقال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله اى الذنب

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٢٩

أعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم اى قال ان تقتل ولدك مخافة ان يطعم معك قلت ثم اى قال ان تزنى بحليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً {٦٨} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً{٦٩} إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٧٠} الفرقان٦٨-٧٠ [١]

التوحيد هو أصل الدين ورأسه الذي لا يقبل الله عملا إلا به ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه وكما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظمه فأعظم آية في القرآن آية الكرسي {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}البقرة٢٥٥وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة والإله الذي يألهه القلب عبادة له واستعانة ورجاء له وخشية وإجلالا وإكراما [٢]

أن التوحيد جماع الدين والله{لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فهو سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فإذا شفع محمدا حد له ربه حدا فيدخلهم الجنة وذلك بحسب ما يقوم بقلوبهم من التوحيد والإيمان [٣]

فى الصحيحين عن النبى أنه قال الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان فذكر أعلا شعب الإيمان وهو قول لا إله إلا الله فإنه لا شيء أفضل منها كما فى الموطأ وغيره عن النبى أنه قال أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص:٢٥١- ٢٥٢ و مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٠٥

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤٠٠

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢١٣

على كل شيء قدير وفى الترمذي وغيره أنه قال من مات وهو يعلم أن لا اله الا الله دخل الجنة وفى الصحيح عنه أنه قال لعمه عند الموت يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله وقد تظاهرت الدلائل على أن أحسن الحسنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك وهو الذنب الذي لا يغفره الله كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ وتلك الحسنة التى لابد من سعادة صاحبها كما ثبت فى الصحيح عنه حديث الموجبتين موجبة السعادة وموجبة الشقاوة فمن مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة وأما من مات يشرك بالله شيئا دخل النار وذكر فى الحديث أنها أعلا شعب الايمان وفى الصحيحين عنه أنه قال لوفد عبدالقيس آمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الايمان بالله شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتؤدوا خمس المغنم فجعل هذه الأعمال من الإيمان وقد جعلها من الإسلام فى حديث جبرائيل الصحيح لما أتاه فى صورة أعرابي وسأله عن الايمان فقال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره وسأله عن الاسلام فقال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت وفى حديث فى المسند قال الإسلام علانية والإيمان فى القلب فأصل الإيمان فى القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد وما كان فى القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح واذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب ايمان القلب ومقتضاه وهى تصديق لما فى القلب ودليل عليه وشاهد له وهى شعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له لكن ما فى القلب هو الأصل لما على الجوارح كما قال أبو هريرة رضي الله عنه أن القلب ملك والاعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده واذا خبث الملك خبثت جنوده وفى الصحيحين عنه أنه قال ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب [1]

فتوحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة وإستعانة هي قطب رحى الدين وذلك أن العبد بل كل حى بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج الى جلب ما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٤٣-٦٤٤

ينفعه ودفع ما يضره والمنفعة للحى هى من جنس النعيم واللذة والمضرة هى من جنس الألم والعذاب فلابد له من أمرين أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذى ينتفع ويلتذ به والثانى هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه وهذان هما الشيئان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء أحدها أمر هو محبوب مطلوب الوجود والثانى أمر مكروه مبغض مطلوب العدم والثالث الوسيلة الى حصول المطلوب المحبوب والرابع الوسيلة الى دفع المكروه فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد بل ولكل حى لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها وأما ما ليس بحى فالكلام فيه على وجه آخر إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه أحدها أن الله تعالى هو الذى يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه وهو المعين على دفع المكروه فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعه دون ما سواه وهذا معنى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة٥ فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب فالأول من معنى الألوهية والثانى من معنى الربوبية إذ الاله هو الذى يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما والرب هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع أحواله من العبادة وغيرها وكذلك قوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}هود٨٨ وقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}هود١٢٣ وقوله {عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}الممتحنة٤ وقوله تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ}الفرقان٥٨ وقوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}الرعد٣٠ وقوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً {٨} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً {٩}المزمل٨-٩ فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين الوجه الثانى ان الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له فبذكره تطمئن قلوبهم وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم ولا شىء يعطيهم فى الآخرة أحب اليهم من النظر اليه ولا شىء يعطيهم فى الدنيا أعظم من الإيمان به وحاجتهم اليه فى عبادتهم إياه تألههم كحاجتهم وأعظم فى خلقه لهم وربوبيته إياهم فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم وبذلك يصيرون عاملين متحركين ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال بل {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}طه١٢٤ ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء

ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات وكان التوحيد بقول لا إله إلا الله رأس الأمر [1]

## اخلاص الدين لله

إن المحبة لله نوعان محبة له نفسه ومحبة لما منهم من الاحسان وكذلك الحمد له نوعان حمد لله على ما يستحقه بنفسه وحمد على إحسانه لعبده فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة وأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة ففى صحيح مسلم ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وفى الصحيحين عن النبى انه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يجب المرء لايحبه الا الله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول فصل محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده بل هى اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين وكما ان التصديق به اصل كل قول من أقوال الايمان والدين فان كل حركة فى الوجود انما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك فى قاعدة المحبة من القواعد الكبار فجميع الاعمال الايمانية الدينية لاتصدر الا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لايكون عملا صالحا بل جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه كما ثبت فى الصحيح عن النبى انه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى فانا منه برئ وهو كله للذى أشرك وثبت فى الصحيح فى حديث الثلاثة الذين هم اول من تسعر بهم النار القارئ المرائى والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى بل اخلاص الدين لله هو الدين الذى لايقبل الله سواه وهو الذى بعث به الأولين والأخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة اهل الايمان وهذا هو خلاصة الدعوةالنبوية وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢٠

وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابليس انه قال {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٨٢} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٨٣}ص٨٢ -٨٣ وقال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}الحجر٤٢ وقال {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {٩٩} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{١٠٠}النحل٩٩-١٠٠ فبين ان سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال فى قصة يوسف {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}يوسف٢٤

واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}ص٨٥ وقد قال سبحانه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ وهذه الآية فى حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لايغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء واما قوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ فتلك فى حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الأولين والآخرين انما امروا بذلك فى غير موضع كالسورة التى قرأها النبى على ابى لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{٤} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء {٥} البينة٤-٥ الآية وهذا حقيقة قول لا اله إلاالله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٢٥ وقال {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}الزخرف٤٥ وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}النحل٣٦ وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}الأعراف٥٩ وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}[1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥٠-٥١ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٦٠

وهذا أول الكلمات العشر التي أنزلها الله على موسى حيث قال أنا الله لا إله إلا انا آلهك الذي أخرجتك من أرض مصر من التعبد لا يكون لك إله غيري لا تتخذ صورا ولا تمثالا ما في السموات من فوق ومن في الأرض من أسفل وما في الماء من تحت الأرض لا تسجد لهن ولا تعبدهن إني إنا ربك العزيز وقد شهد المسيح عليه السلام أن هذا هو أعظم وصية في الناموس فعبادة الله وحده لا شريك له وان يكون الله احب إلى العبد من كل ما سواه هو أعظم وصية وكلمة جاء بها المرسلون كموسى والمسيح ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين وضد هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله تعالى[١]

## "من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان"

وإذا كان أصل الإيمان العملي هو حب الله تعالي ورسوله وحب الله أصل التوحيد العملي وهو أصل التأليه الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له فإن العبادة أصلها أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع وهذا هو الإسلام وأعظم الذنوب عند الله الشرك به وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء والشرك منه جليل ودقيق وخفي وجلي كما في الحديث الشرك في هذه الأمة أخفي من دبيب النمل فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله إذا كان أخفي من دبيب النمل فكيف نصنع به أو كما قال فقال ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم أصل الإشراك العملي بالله الإشراك في المحبة فمعلوم أن أصل الإشراك العملي بالله الإشراك في المحبة قال تعالي {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ}البقرة١٦٥ فأخبر أن من الناس من يشرك بالله فيتخذ أندادا يحبونهم كما يحبون الله وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من هؤلاء والمؤمنون أشد حبا لله من هؤلاء لأندادهم ولله فإن هؤلاء أشركوا بالله في المحبة فجعل المحبة مشتركة بينه وبين الأنداد والمؤمنون أخلصوا دينهم لله الذي أصله المحبة لله فلم يجعلوا لله عدلا في المحبة بل كان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما ومحبة الرسول هي من محبة الله وكذلك كل حب في الله وهو الحب لله المؤمنون يحبون لله ويبغضون لله كما في الصحيحين عن النبي انه قال ثلاث من كن فيه

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٣٠

وجد حلاوة الإيمان وفي رواية في الصحيح لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار ولهذا في الحديث من أحب لله وأبغض لله وأعطي لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان وفي الأثر ما تحاب رجلان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه لأن هذه المحبة من محبة الله وكل من كانت محبته لله أشد كان أفضل وخير الخلق محمد رسول الله وخير البرية بعده إبراهيم كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح وكل منهما خليل الله والخلة تتضمن كمال المحبة ونهايتها ولهذا لم يصلح لله شريك في الخلة بل قال صلي الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله وفي لفظ أنا أبرأ إلي كل خليل من خلته فمحبة ما يحبه الله لله من الأعيان والأعمال من تمام محبة الله وهو الحب في الله ولله وإن كان كثير من الناس يغلط في معرفة كثير من ذلك أو وجوده فيظن في أنواع من المحبة أنها محبة الله ولا تكون لله ويظن وجود المحبة لله في أمور ولا تكون المحبة لله موجودة بل قد يعتقد وجود المحبة لله وتكون معدومة وقد يعتقد في بعض الحب أنه لله ولا يكون لله كما يعتقد وجود العلم أو العبادة أو غير ذلك من الصفات في بعض الأشخاص والأحوال ولا يكون ثابتا وقد يعتقد في كثير من الأعمال أنه معمول لله ولا يكون لله فمحبة ما يحبه الله من الأعمال الباطنة والظاهرة وهي الواجبات والمستحبات إذا أحببت لله كان ذلك من محبة الله ولهذا يوجب ذلك محبة الله لعبده وكما في الحديث الصحيح عن الله تعالي من عادي لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وكذلك محبة كلام الله وأسمائه وصفاته كما في الحديث الصحيح في الذي كان يصلي بأصحابه فيقرأ قل هو الله أحد إما أن يقرأها وحدها أو يقرأ بها مع سورة أخرى فأخبروا بذلك النبي صلي الله عليه وسلم فقال سلوه لم يفعل ذلك فقال لأني أحبها فقال أن حبك إياها أدخلك الجنة وكذلك محبة ملائكة الله وأنبيائه وعباده الصالحين كما كان عبد الله بن عمر يدعو بالمواقف في حجه فيقول اللهم اجعلني أحبك وأحب ملائكتك وأنبياءك وعبادك الصالحين اللهم حببني إليك وإلي ملائكتك وأنبيائك وعبادك الصالحين محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات بل

محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات كما قال تعالي{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}آل عمران٣١ فإن اتباع رسوله هو من أعظم ما أوجبه الله تعالي علي عباده وأحبه وهو سبحانه أعظم شيء بغضا لمن لم يتبع رسوله فمن كان صادقا في دعوى محبة الله اتبع رسوله لا محالة وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما الذنوب تنقص من محبة الله والذنوب تنقص من محبة الله تعالي بقدر ذلك لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب ولم تكن الذنوب عن نفاق كما في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب حديث حمار الذي كان يشرب الخمر وكان النبي يقيم عليه الحد فلما كثر ذلك منه لعنه رجل فقال النبي لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله وفيه دلالة علي أنا منهيون عن لعنة أحد بعينه وإن كان مذنبا إذا كان يحب الله ورسوله فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات والمعاصي تنقض المحبة وهذا معني قول الشبلى لما سئل عن المحبة فقال ما غنت به جارية فلان تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا محال في القياس شنيع لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع وهذا كقوله لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حيث يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن وقد تكلمنا علي هذا في غير هذا الموضع والمقصود هنا أن نفرق بين الحب في الله ولله الذي هو داخل في محبة الله وهو من محبته وبين الحب لغير الله الذي فيه شرك في المحبة لله كما قال تعالي {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ}البقرة١٦٥ فإن هؤلاء يشركون بربهم في الحب عادلون به جاعلون له أندادا وأولئك أخلصوا دينهم لله فكان حبهم الذي هو أصل دينهم كله لله وهذا هو الذي بعث بالله الرسل وأنزل به الكتب وأمر بالجهاد عليه كما قال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ}البقرة١٩٣ وقال تعالي {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ}التوبة٢٤ وقد علم أن محبة المؤمنين لربهم أشد من محبة هؤلاء المشركين لربهم ولأندادهم ثم إن اتخاذ الأنداد هو من أعظم الذنوب كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي قال ثم أن تزني بحليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ}الفرقان٦٨ فدعاء إله آخر مع الله هو اتخاذ ند من دون الله يحبه كحب الله

إذ أصل العبادة المحبة والمحبة وإن كانت جنسا تحته أنواع فالمحبوبات المعظمة لغير الله قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد كقوله في الحديث الصحيح تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش إن أعطي رضي وإن منع سخط فسمي هؤلاء الأربعة الذين إن أعطوا رضوا وإن منعوا سخطوا لأنها محبتهم ومرادهم عبادا لها حيث قال عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد القطيفة وعبد الخميصة [1]

## الشرك ضد الإسلام وهو الذنب الذي لا يغفره الله

و حقيقة الدين هى عبادة الله وحده لا شريك له وهى حقيقة دين الاسلام وهو ان يستسلم العبد لله رب العالمين لا يستسلم لغيره فمن استسلم له ولغيره كان مشركا والله {لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}النساء٤٨ ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر٦٠ ودين الاسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين وقوله تعالى {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ}آل عمران٨٥عام فى كل زمان ومكان فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الاسلام الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له [2]

إعلم رحمك الله أن الشرك بالله أعظم ذنب عصى الله به قال الله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ وفى الصحيحين أنه سئل أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك زالند المثل قال تعالى {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}البقرة٢٢ وقال تعالى {وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}الزمر٨ فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الألهية

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٦١-٦٥ و مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٢٥٦

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢١٩

والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة فإن الله سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته لأنه المألوه المعبود الذى تألهه القلوب وترغب إليه وتفزع إليه عند الشدائد وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية فكيف يصلح أن يكون إلها قال الله تعالى {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ}الزخرف١٥ وقال تعالى {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً}مريم٩٣ وقال الله تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً}النساء١٧٢ وقال تعالى {وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}الذاريات٥١ وقال تعالى {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ}الزمر١١ [١]

ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات الا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا اياه ولا يستعين الا به ولا يتوكل الا عليه ولا يفرح الا بما يحبه ويرضاه ولا يكره الا ما يبغضه الرب ويكرهه ولا يوالي الا من والاه الله ولا يعادى الا من عاداه الله ولا يحب إلا الله ولا يبغض شيئا الا لله ولا يعطى الا الله ولا يمنع الا الله فكلما قوى اخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك والشرك غالب على النصارى والكبر غالب على اليهود قال تعالى فى النصارى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}التوبة٣١ وقال فى اليهود {أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ}البقرة٨٧ وقال تعالى {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً}الأعراف١٤٦ ولما كان الكبر مستلزما للشرك والشرك ضد الاسلام وهو الذنب الذى لا يغفره الله {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}النساء٤٨وقال {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ كان الانبياء جميعهم مبعوثين بدين الاسلام فهو الدين الذى لا يقبل الله غيره لا من الاولين ولا من الآخرين قال فى حق ابراهيم {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {١٣٠} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

---

١

الْعَالَمِينَ{١٣١}البقرة١٣٠-١٣١ الى قوله {فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}البقرة١٣٢ [1]

## الشرك منع الاصل فلم يك فى النفس استعداد للفلاح

أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ وذلك هو أصل ما أمرهم به على السن الرسل كما قال نوح وهود وصالح وابراهيم وشعيب {اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}هود٥٠ وقال{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ}البقرة١٣٠ الى قوله {إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}البقرة١٣٣ لموسى {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}طه١٤وقال المسيح {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}المائدة١١٧ والاسلام هو الاستسلام لله وحده وهو أصل عبادته وحده وذلك يجمع معرفته ومحبته والخضوع له وهذا المعنى الذي خلق الله له الخلق هو أمر وجودي من باب المأمور به ثم الأمر بعد ذلك بما هو كمال ما خلق له واما المنهى عنه فاما مانع من أصل ما خلق له واما من كمال ما خلق له نهوا عن الاشراك لأنه مانع من الاصل وهو ظلم فى الربوبية كما قال تعالى {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}لقمان١٣ ومنعوا عن ظلم بعضهم فى النفوس والاموال والابضاع والاعراض لأنه مانع من كمال ما خلق له فظهر ان فعل المأمور به أصل وهو المقصود وان ترك المنهى عنه فرع وهو التابع وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ لان الشرك منع الاصل فلم يك في النفس استعداد للفلاح فى الاخرة بخلاف ما دونه فان مع المغفور له أصل الايمان الذي هو سبب السعادة [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص:١٩٨- ١٩٩ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٨٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١١٥

## المسلمون عبدوا الله وحده بما شرع ولم يعبدوه بالبدع

وجماع الدين شيئان احدهما ان لا نعبد الا الله تعالى والثانى ان نعبده بما شرع لا نعبده بالبدع كما قال تعالى {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} هود٧ قال الفضيل بن عياض أخلصه وأصوبه قيل له ما اخلصه وأصوبه قال إن العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة وكان عمر بن الخطاب يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وهذا هو دين الاسلام الذى ارسل الله به رسله وأنزل به كتبه وهو الاستسلام لله وحده فمن لم يستسلم له كان مستكبرا عن عبادته وقد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر٦٠ ومن استسلم لله ولغيره كان مشركا فقد قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} النساء١١٦ ولهذا كان الله حق لا يشركه فيه احد من المخلوقين فلا يعبد الا الله ولا يخاف الا الله ولا يتقى الا الله ولا يتوكل الا على الله ولا يدعى الا الله كما قال تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{٧} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{٨} الشرح٧-٨ [1]

## ما دون الشرك فهو مع التوبة مغفور وبدون التوبة معلق بالمشيئة

أن الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها فإن الشرك لا يغفره الله إلا بتوبة كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} النساء٤٨ في موضعين من القرآن وما دون الشرك فهو مع التوبة مغفور وبدون التوبة معلق بالمشيئة كما قال تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} الزمر٥٣ فهذا في حق التائبين ولهذا عمم وأطلق وختم أنه يغفر الذنوب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٣-٢٤ و منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٧١

جميعا فهذا في حق التائبين وقال في تلك الآية {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} النساء١١٦ فخص ما دون الشرك وعلقه بالمشيئة فإذا كان الشرك لا يغفر إلا بتوبة وأما ما دونه فيغفره الله للتائب وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء فالاعتراف بالخطيئة مع التوحيد إن كان متضمنا للتوبة أوجب المغفرة وإذا غفر الذنب زالت عقوبته فإن المغفرة هي وقاية شر الذنب ومن الناس من يقول الغفر الستر ويقول إنما سمي المغفرة والغفار لما فيه من معنى الستر وتفسير اسم الله الغفار بأنه الستار وهذا تقصير في معنى الغفر فإن المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه وأما مجرد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن ومن عوقب على الذنب باطنا أو ظاهرا فلم يغفر له وإنما يكون غفران الذنب إذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب وأما إذا ابتلي مع ذلك بما يكون سببا في حقه لزيادة أجره فهذا لا ينافي المغفرة وكذلك إذا كان من تمام التوبة أن يأتي بحسنات يفعلها فإن من يشترط في التوبة من تمام التوبة وقد يظن الظان أنه تائب ولا يكون تائبا بل يكون تاركا والتارك غير التائب فإنه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله أو المقتضى لعجزه عنه أو تنتفي إرادته له بسبب غير ديني وهذا ليس بتوبة بل لا بد من أن يعتقد أنه سيئة ويكره فعله لنهي الله عنه ويدعه لله تعالى لا لرغبة مخلوق ولا لرهبة مخلوق فإن التوبة من أعظم الحسنات والحسنات كلها يشترط فيها الإخلاص وموافقة أمره كما قال الفضيل بن عياض في قوله {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} الملك٢ قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وبسط الكلام في التوبة له موضع آخر [١]

## المغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان

---

[١] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص:٣٥٠- ٣٥١ و مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٨٢-٦٨٣ و التحفة العراقية ج: ١ ص: ٦٠

وأما قوله يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا وفي رواية وأنا أغفر الذنوب ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان أحدهما المغفرة لمن تاب كما في قوله تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {٥٣} وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ{٥٤} الزمر٥٣-٥٤ فهذا السياق مع سبب نزول الآية يبين أن المعنى لا ييأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ما كانت فإن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب وقد دخل في هذا العموم الشرك وغيره من الذنوب فإن الله تعالى يغفر ذلك لمن تاب منه قال تعالى {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ}التوبة٥ إلى قوله {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}التوبة٥ وقال في الآية الأخرى {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}التوبة١١ وقال {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ}المائدة٧٣ إلى قوله {أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}المائدة٧٤ وهذا القول الجامع بالمغفرة لكل ذنب للتائب منه كما دل عليه القرآن والحديث هو الصواب عند جماهير أهل العلم وإن كان من الناس من يستثني بعض الذنوب كقول بعضهم إن توبة الداعية إلى البدع لا تقبل باطنا للحديث الإسرائيلي الذي فيه فكيف من أضللت وهذا غلط فإن الله قد بين في كتابه وسنة رسوله أنه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع وقد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}البروج١٠ قال الحسن البصري انظروا إلى هذا الكرم عذبوا أولياءه وفتنوهم ثم وهو يدعوهم إلى التوبة وكذلك توبة القاتل ونحوه وحديث أبي سعيد المتفق عليه في الذي قتل تسعة وتسعين نفسا يدل على قبول توبته وليس في الكتاب والسنة ما ينافي ذلك ولا نصوص الوعيد فيه وفي غيره من الكبائر بمنافية لنصوص قبول التوبة فليست آية الفرقان بمنسوخة بآية النساء إذ لا منافاة بينهما فإنه قد علم يقينا أن كل ذنب فيه وعيد فإن لحوق الوعيد مشروط بعدم التوبة إذ نصوص التوبة مبنية لتلك النصوص كالوعيد في الشرك وأكل الربا وأكل مال اليتيم والسحر وغير ذلك من الذنوب ومن قال من العلماء توبته غير مقبولة فحقيقة قوله التي تلائم أصول الشريعة أن يراد بذلك أن التوبة المجردة تسقط حق الله من العقاب وأما حق المظلوم فلا يسقط بمجرد التوبة وهذا حق ولا فرق في ذلك بين القاتل وسائر الظالمين فمن تاب من ظلم لم يسقط بتوبته حق المظلوم لكن من تمام توبته أن يعوضه بمثل مظلمته وإن لم يعوضه في الدنيا فلا بد له من العوض في الآخرة

فينبغي للظالم التائب أن يستكثر من الحسنات حتى إذا استوفى المظلومون حقوقهم لم يبق مفلسا ومع هذا فإذا شاء الله أن يعوض المظلوم من عنده فلا راد لفضله كما إذا شاء أن يغفر مادون الشرك لمن يشاء ولهذا في حديث القصاص الذي ركب فيه جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس شهرا حتى شافهه به وقد رواه الإمام أحمد وغيره واستشهد به البخاري في صحيحه وهو من جنس حديث الترمذي صحاحه أو حسانه قال فيه إذا كان يوم القيامة فإن الله يجمع الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار قبله مظلمة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة حتى أقصه منه فبين في الحديث العدل والقصاص بين أهل الجنة وأهل النار وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد أن أهل الجنة إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة وقد قال سبحانه لما قال{وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً}الحجرات١٢ والاغتياب من ظلم الأعراض قال {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}الحجرات١٢ فقد نبههم على التوبة من الاغتياب وهو من الظلم وفي الحديث الصحيح من كان عنده لأخيه مظلمة في دم أو مال أو عرض فليأته فليستحل منه قبل أن يأتي يوم ليس فيه درهم ولا دينار إلا الحسنات والسيئات فإن كان له حسنات وإلا أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم يلقى في النار أو كما قال وهذا فيما علمه المظلوم من العوض فأما إذا اغتابه أو قذفه ولم يعلم بذلك فقد قيل من شرط توبته إعلامه وقيل لا يشترط ذلك وهذا قول الأكثرين وهما روايتان عن أحمد لكن قوله مثل هذا أن يفعل مع المظلوم حسنات كالدعاء له والاستغفار وعمل صالح يهدى إليه يقوم مقام اغتيابه وقذفه قال الحسن البصري كفارة الغيبة أن نستغفر لمن اغتبته وأما الذنوب التي يطلق الفقهاء فيها نفي قبول التوبة مثل قول أكثرهم لا تقبل توبة الزنديق وهو المنافق وقولهم إذا تاب المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه حدود الله وكذلك قول الكثير منهم أو أكثرهم في سائر الجرائم كما هو أحد قولي الشافعي وأصح الروايتين عن أحمد وقولهم في هؤلاء إذا تابوا بعد الرفع إلى الإمام لم تقبل توبتهم فهذا إنما يريدون به رفع العقوبة المشروعة عنهم أى لا تقبل توبتهم بحيث يخلى بلا عقوبة بل يعاقب إما لأن توبته غير معلومة الصحة بل يظن به الكذب فيها وإما لأن رفع العقوبة بذلك يفضي إلى انتهاك المحارم وسد باب العقوبة على الجرائم ولا يريدون بذلك أن من تاب من هؤلاء توبة صحيحة فإن الله لا يقبل توبته في الباطن إذ ليس هذا قول أحد من أئمة

الفقهاء بل هذه التوبة لا تمنع إلا إذا عاين أمر الآخرة كما قال تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{١٧} وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ {١٨} النساء ١٧-١٨ الآية قال أبو العالية سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقالوا لي كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وأما من تاب عند معاينة الموت فهذا كفرعون الذي قال أنا الله فلما أدركه الغرق {قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ{٩٠} آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ{٩١}يونس٩٠-٩١ وهذا استفهام إنكار بين به أن هذه التوبة ليست هي التوبة المقبولة المأمور بها فإن استفهام الإنكار إما بمعنى النفي إذا قابل الأخبار وإما بمعنى الذم والنهي إذا قابل الإنشاء وهذا من هذا ومثله قوله تعالى {فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{٨٣} فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ{٨٤} فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا {٨٥} غافر ٨٣-٨٥ الآية بين أن التوبة بعد رؤية البأس لاتنفع وأن هذه سنة الله التي قد خلت في عباده كفرعون وغيره وفي الحديث إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر وروي ما لم يعاين وقد ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم عرض على عمه التوحيد في مرضه الذي مات فيه وقد عاد يهوديا كان يخدمه فعرض عليه الإسلام فأسلم فقال الحمد لله الذي أنقذه بي من النار ثم قال لأصحابه آووا أخاكم ومما يبين أن المغفرة العامة في الزمر هي للتائبين أنه قال في سورة النساء {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء١١٦ فقيد المغفرة بما دون الشرك وعلقها على المشيئة وهناك أطلق وعمم فدل هذا التقييد والتعليق على أن هذا في حق غير التائب ولهذا استدل أهل السنة بهذه الآية على جواز المغفرة لأهل الكبائر في الجملة خلافا لمن أوجب نفوذ الوعيد بهم من الخوارج والمعتزلة وإن كان المخالفون لهم قد أسرف فريق منهم من المرجئة حتى توقفوا في لحوق الوعيد بأحد من أهل القبلة كما يذكر عن غلاتهم أنهم نفوه مطلقا ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه ونصوص الكتاب والسنة مع اتفاق سلف الأمة

وأئمتها متطابقة على أن من أهل الكبائر من يعذب وأنه لايبقى في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان [1]

وأما جمهور المنتسبين الى السنة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم فيقطعون بان الله يعذب بعض أهل الذنوب بالنار ويعفو عن بعضهم كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ فهذا فيه الإخبار بانه يغفر ما دون الشرك وأنه يغفر لمن يشاء لا لكل أحد [2]

## الظلم ثلاثة دواوين

وقوله {أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}الأعراف٢٩ أمر مع القسط بالتوحيد الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له وهذا أصل الدين وضده هو الذنب الذى لايغفر قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ وهو الدين الذى أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به إلى جميع الأمم قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٢٥ وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}الزخرف٤٥ وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}النحل٣٦ وقال تعالى {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}الشورى١٣ وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ {٥١} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ{٥٢}المؤمنون٥١ ـ٥٢ ولهذا ترجم البخارى فى صحيحه باب ما

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٣٠ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص:١٨٦ـ ١٩٢

[2] النبوات ج: ١ ص: ١٠٦

جاء فى أن دين الأنبياء واحد وذكر الحديث الصحيح فى ذلك وهو الإسلام العام الذى إتفق عليه جميع النبين قال نوح عليه السلام {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}يونس٧٢ وقال تعالى فى قصة إبراهيم {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{١٣١} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{١٣٢}البقرة ١٣١-١٣٢ {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ}يونس٨٤ وقال تعالى {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}آل عمران٥٢ وقال فى قصة بلقيس {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}النمل٤٤ وقال {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ}المائدة٤٤ وهذا التوحيد الذى هو اصل الدين هو أعظم العدل وضده وهو الشرك أعظم الظلم كما أخرجاه فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال لما أنزلت هذه الآية {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}الأنعام٨٢ شق ذلك على أصحاب النبى وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم وفى الصحيحين عن إبن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم قال إن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزانى بحليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً}الفرقان٦٨ الآية وقد جاء عن غير واحد من السلف وروى مرفوعا الظلم ثلاثة دواوين فديوان لا يغفر الله منه شيئا وديوان لا يترك الله منه شيئا وديوان لا يعبأ الله به شيئا فأما الديوان الذى لا يغفر الله منه شيئا فهو الشرك فإن الله لا يغفر أن يشرك به وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا فهو ظلم العباد بعضهم بعضا فإن الله لا بد أن ينصف المظلوم من الظالم وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا فهو ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه أى مغفرة هذا الضرب ممكنة بدون رضى الخلق فإن شاء عذب وهذا الظالم لنفسه وإن شاء غفر له وقد بسطنا الكلام في هذه الأبواب الشريفة والأصول الجامعة في القواعد وبينا أنواع الظلم وبينا كيف كان الشرك أعظم أنواع الظلم ومسمى الشرك جليله ودقيقه فقد جاء في الحديث الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل وروي أن هذه الآية نزلت في أهل الرياء {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}الكهف١١٠ وكان شداد بن أوس يقول يا بقايا العرب يا بقايا العرب إنما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية قال أبو داود السجستاني صاحب السنن المشهورة الخفية حب الرياسة وذلك أن حب الرياسة هو أصل البغي

والظلم كما أن الرياء هو من جنس الشرك أو مبدأ الشرك والشرك أعظم الفساد كما أن التوحيد أعظم الصلاح [1]

## الفرق التى كفرت أهل القبلة بالذنوب بل بما يرونه هم من الذنوب

لما قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان وسار على بن ابي طالب إلى العراق وحصل بين الأمة من الفتنة والفرقة يوم الجمل ثم يوم صفين ما هو مشهور خرجت الخوارج المارقون على الطائفتين جميعا وكان النبى قد أخبر بهم وذكر حكمهم قال الإمام احمد صح الحديث فى الخوارج من عشرة أوجه وهذه العشرة أخرجها مسلم فى صحيحه موافقة لاحمد وروى البخاري منها عدة أوجه وروى أحاديثهم أهل السنن والمسانيد من وجوه آخر ومن أصح حديثهم حديث علي بن ابي طالب وابي سعيد الخدري ففي الصحيحين عن علي بن ابي طالب أنه قال إذا حدثتكم عن رسول الله حديثا فوالله لأن أخر من السماء إلى الأرض أحب إلي من أن أكذب عليه وإن حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيخرج قوم فى آخر الزمان احداث الاسنان سفهاء الاحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيمتوهم فإقتلوهم فإن في قتلهم اجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة وفي الصحيحين عن ابي سعيد قال بعث علي بن ابي طالب إلى النبى من اليمن بذهيبة فى ادم مقروض لم تحصل من ترابها فقال فقسمها بين أربعة نفر فقال رجل من اصحابه كنا أحق بهذا من هؤلاء قال فبلغ ذلك النبى فقال الا تأمنوني وانا امين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساءا قال فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الازار فقال يا رسول الله اتق الله فقال ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله قال ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد يا رسول الله الا اضرب عنقه فقال لا لعله أن يكون يصلي قال خالد وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه فقال رسول الله اني لم أومر أن انقب عن قلوب الناس ولا اشق بطونهم قال ثم نظر إليه وهو مقف فقال انه يخرج من ضئضىء هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم يمرقون من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٦٠- ١٦٢ و الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤١٥ - ٤١٧

الدين كما يمرق السهم من الرمية قال أظنه قال لئن ادركتهم لأقتلنهم قتل عاد اللفظ لمسلم ولمسلم في بعض الطرق عن ابي سعيد أن النبى ذكر قوما يكونون فى أمته يخرجون فى فرقة من الناس سيماهم التحليق ثم قال شر الخلق أو من شر الخلق يقتلهم ادنى الطائفتين إلى الحق قال ابو سعيد أنتم قتلتموهم يا اهل العراق وفى لفظ له تقتلهم اقرب الطائفتين إلى الحق وهذا الحديث مع ما ثبت فى الصحيح عن ابي بكرة أن النبى قال للحسن بن علي ان ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين فبين أن كلا الطائفتين كانت مؤمنة وأن اصطلاح الطائفتين كما فعله الحسن كان أحب إلى الله سبحانه ورسوله من اقتتالهما وأن إقتتالهما وإن لم يكن مأمورا به فعلى بن ابي طالب وأصحابه أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه وأن قتال الخوارج مما أمر به صلى الله عليه وسلم ولذلك اتفق على قتالهم الصحابة والأئمة وهؤلاء الخوارج لهم اسماء يقال لهم الحرورية لأنهم خرجوا بمكان يقال له حروراء ويقال لهم أهل النهروان لأن عليا قاتلهم هناك ومن أصنافهم الاباضية أتباع عبدالله بن اباض و الأزارقة اتباع نافع بن الأزرق و النجدات أصحاب نجدة الحروري وهم أول من كفر أهل القبلة بالذنوب بل بما يرونه هم من الذنوب واستحلوا دماء أهل القبلة بذلك فكانوا كما نعتهم النبى يقتلون اهل الاسلام ويدعون اهل الاوثان وكفروا علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان ومن والاهما وقتلوا علي بن ابي طالب مستحلين لقتله قتله عبدالرحمن بن ملجم المرادي منهم وكان هو وغيره من الخوارج مجتهدين فى العبادة لكن كانوا جهالا فارقوا السنة والجماعة فقال هؤلاء ما الناس إلا مؤمن أو كافر والمؤمن من فعل جميع الواجبات وترك جميع المحرمات فمن لم يكن كذلك فهو كافر مخلد فى النار ثم جعلوا كل من خالف قولهم كذلك فقالوا أن عثمان وعليا ونحوهما حكموا بغير ما أنزل الله وظلموا فصاروا كفارا ومذهب هؤلاء باطل بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة فإن الله سبحانه أمر بقطع يد السارق دون قتله ولو كان كافرا مرتدا لوجب قتله لأن النبى قال من بدل دينه فإقتلوه وقال لا يحل دم إمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كفر بعد إسلام وزنا بعد احصان أو قتل نفس يقتل بها وأمر سبحانه أن يجلد الزاني والزانية مائة جلدة ولو كانا كافرين لأمر بقتلهما وأمر سبحانه بأن يجلد قاذف المحصنة ثمانين جلدة ولو كان كافرا لأمر بقتله وكان النبى صلى الله عليه وسلم يجلد شارب الخمر ولم يقتله بل قد ثبت عنه فى صحيح البخارى وغيره أن رجلا كان يشرب الخمر وكان إسمه عبدالله حمارا وكان يضحك النبى وكان كلما أتي به اليه جلده فأتي به إليه مرة فلعنه رجل فقال النبى لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله فنهي عن لعنه بعينه وشهد له بحب الله ورسوله مع أنه قد لعن شارب

الخمر عموما وهذا من أجود ما يحتج به على أن الأمر بقتل الشارب فى الثالثة و الرابعة منسوخ لأن هذا أتي به ثلاث مرات وقد أعيى الأئمة الكبار جواب هذا الحديث ولكن نسخ الوجوب لا يمنع الجواز فيجوز أن يقال يجوز قتله إذا رأى الإمام المصلحة فى ذلك فان ما بين الأربعين إلى الثمانين ليس حدا مقدرا فى أصح قولي العلماء كما هو مذهب الشافعي وأحمد فى إحدي الروايتين بل الزيادة على الأربعين إلى الثمانين ترجع إلى إجتهاد الإمام فيفعلها عند المصلحة كغيرها من أنواع التعزير وكذلك صفة الضرب فانه يجوز جلد الشارب بالجريد والنعال وأطراف الثياب بخلاف الزاني والقاذف فيجوز أن يقال قتله فى الرابعة من هذا الباب و أيضا فإن الله سبحانه قال {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{٩} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{١٠}الحجرات٩ -١٠ فقد وصفهم بالإيمان والأخوة وأمرنا بالاصلاح بينهم فلما شاع فى الأمة أمر الخوارج تكلمت الصحابة فيهم ورووا عن النبى صلى الله عليه وسلم الأحاديث فيهم وبينوا ما في القرآن من الرد عليهم وظهرت بدعتهم فى العامة فجاءت بعدهم المعتزلة الذين اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري وهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزال وأتباعهما فقالوا أهل الكبائر مخلدون فى النار كما قالت الخوارج ولا نسميهم لا مؤمنين ولا كفارا بل فساق ننزلهم منزلة بين منزلتين وأنكروا شفاعة النبى لأهل الكبائر من أمته وأن يخرج من النار بعد أن يدخلها قالوا ما الناس إلا رجلان سعيد لا يعذب أو شقى لا ينعم والشقى نوعان كافر وفاسق ولم يوافقوا الخوارج على تسميتهم كفارا وهؤلاء يرد عليهم بمثل ما ردوا به على الخواج فيقال لهم كما أنهم قسموا الناس إلى مؤمن لا ذنب له وكافر لا حسنة له قسمتم الناس إلى مؤمن لا ذنب له وإلى كافر وفاسق لا حسنة له فلو كانت حسنات هذا كلها محبطة وهو مخلد فى النار لإستحق المعاداة المحضة بالقتل والاسترقاق كما يستحقها المرتد فان هذا قد أظهر دينه بخلاف المنافق وقد قال تعالى فى كتابه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فجعل ما دون ذلك الشرك معلقا بمشيئته ولا يجوز أن يحمل هذا على التائب فإن التائب لا فرق فى حقه بين الشرك وغيره كما قال سبحانه فى الآية الأخرى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ فهنا عمم وأطلق لأن المراد به التائب وهناك خص وعلق وقال تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ

الْفَضْلُ الْكَبِيرُ{٣٢} جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ{٣٣} وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ{٣٤}الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ{٣٥} فاطر٣٢-٣٥ فقد قسم سبحانه الأمة التى أورثها الكتاب واصطفاها ثلاثة أصناف ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات وهؤلاء الثلاثة ينطبقون على الطبقات الثلاث المذكورة فى حديث جبريل الاسلام و الايمان و الاحسان كما سنذكره ان شاء الله ومعلوم أن الظالم لنفسه ان أريد به من اجتنب الكبائر والتائب من جميع الذنوب فذلك مقتصد أو سابق فانه ليس أحد من بنى آدم يخلو عن ذنب لكن من تاب كان مقتصدا أو سابقا كذلك من اجتنب الكبائر كفرت عنه السيئات كما قال تعالى {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}النساء٣١ فلابد أن يكون هناك ظالم لنفسه موعود بالجنة ولو بعد عذاب يطهر من الخطايا فان النبى ذكر أن ما يصيب المؤمن فى الدنيا من المصائب مما يجزى به ويكفر عنه خطاياه كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه وفى المسند وغيره أنه لما نزلت هذه الآية {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ قال أبو بكر يا رسول الله جاءت فاطمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللأواء فذلك مما تجزون به وأيضا فقد تواترت الأحاديث عن النبى فى أنه يخرج أقوام من النار بعد ما دخلوها وأن النبى يشفع فى أقوام دخلوا النار وهذه الأحاديث حجة على الطائفتين الوعيدية الذين يقولون من دخلها من أهل التوحيد لم يخرج منها وعلى المرجئة الواقفة الذين يقولون لا ندرى هل يدخل من أهل التوحيد النار أحد أم لا كما يقول ذلك طوائف من الشيعة والأشعرية كالقاضى أبى بكر وغيره وأما ما يذكر عن غلاة المرجئة أنهم قالوا لن يدخل النار من أهل التوحيد أحد فلا نعرف قائلا مشهورا من المنسوبين الى العلم يذكر عنه هذا القول و أيضا فان النبى قد شهد لشارب الخمر المجلود مرات بأنه يحب الله ورسوله ونهى عن لعنته ومعلوم أن من أحب الله ورسوله أحبه الله ورسوله بقدر ذلك وأيضا فان الذين قذفوا عائشة أم المؤمنين كان فيهم مسطح بن اثاثة وكان من أهل بدر وقد أنزل الله فيه لما حلف أبو بكر أن لا يصله {وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}النور٢٢ وان قيل ان مسطحا وأمثاله تابوا لكن الله لم يشرط فى الأمر بالعفو عنهم والصفح والاحسان

اليهم التوبة وكذلك حاطب بن أبى بلتعة كاتب المشركين باخبار النبى فلما أراد عمر قتله قال النبى أنه قد شهد بدرا وما يدريك ان الله قد أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وكذلك ثبت عنه فى الصحيح أنه قال لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة وهذه النصوص تقتضى أن السيئات مغفورة بتلك الحسنات ولم يشترط مع ذلك توبة والا فلا اختصاص لأولئك بهذا والحديث يقتضى المغفرة بذلك العمل واذا قيل ان هذا لأن أحدا من أولئك لم يكن له الا صغائر لم يكن ذلك من خصائصه أيضا وان هذا يستلزم تجويز الكبيرة من هؤلاء المغفور لهم و أيضا قد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب أحدها التوبة وهذا متفق عليه بين المسلمين [1]

## هذه الآية ترد على الوعيدية وعلى المرجئة

فى قوله تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {٥٣} وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ {٥٤} الزمر٥٣-٥٤ و قد ذكرنا فى غير موضع أن هذه الآية فى حق التائبين و أما آيتا النساء قوله {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ فلا يجوز أن تكون فى حق التائبين كما يقوله من يقوله من المعتزلة فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضا بنصوص القرآن وإتفاق المسلمين وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد وتلك الآية فيها تعميم و إطلاق هذه خص فيها الشرك بأنه لا يغفره و ما عداه لم يجزم بمغفرته بل علقه بالمشيئة فقال{وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء١١٦ و قد ذكرنا فى غير موضع أن هذه كما ترد على الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فهي ترد أيضا على المرجئة الواقفية الذين يقولون يجوز أن يعذب كل فاسق فلا يغفر لأحد ويجوز أن يغفر للجميع فإنه قد قال {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء١١٦ فأثبت أن ما دون ذلك هو مغفور لكن لمن يشاء فلو كان لا يغفره لأحد بطل قوله{وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ}النساء١١٦ ولو كان يغفره لكل أحد بطل قوله {لِمَن يَشَاءُ}النساء١١٦ فلما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٧٩-٤٨٧

أثبت أنه يغفر ما دون ذلك وأن المغفرة هى لمن يشاء دل ذلك على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك لكنها لبعض الناس وحينئذ فمن غفر له لم يعذب و من لم يغفر له عذب وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة وهو القطع بأن بعض عصاة الأمة يدخل النار و بعضهم يغفر له لكن هل ذلك على وجه الموازنة و الحكمة أو لا إعتبار بالموازنة فيه قولان للمنتسبين إلى السنة من أصحابنا و غيرهم بناء على أصل الأفعال الإلهية هل يعتبر فيها الحكمة و العدل و أيضا فمسألة الجزاء فيها نصوص كثيرة دلت على الموازنة كما قد بسط فى غير هذا الموضع و المقصود هنا أن قوله {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى و إن عظمت الذنوب و كثرت فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله و إن عظمت ذنوبه و لا أن يقنط الناس من رحمة الله قال بعض السلف أن الفقيه كل الفقيه الذى لا يؤيس الناس من رحمة الله و لا يجريهم على معاصى الله و القنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته و يغفر ذنوبه وإما بان يقول نفسه لا تطاوعه على التوبة بل هو مغلوب معها و الشيطان قد إستحوذ عليه فهو ييأس من توبة نفسه و إن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له و هذا يعترى كثيرا من الناس و القنوط يحصل بهذا تارة و بهذا تارة فالأول كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة و تسعين أن الله لا يغفر له فقتله و كمل به مائة ثم دل على عالم فأتاه فسأله فأفتاه بأن الله يقبل توبته و الحديث فى الصحيحين و الثاني كالذى يرى للتوبة شروطا كثيرة و يقال له لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فييأس من أن يتوب و قد تنازع الناس فى العبد هل يصير فى حال تمتنع منه التوبة إذا أرادها و الصواب الذى عليه أهل السنة و الجمهور أن التوبة ممكنة من كل ذنب و ممكن أن الله يغفره و قد فرضوا فى ذلك من توسط أرضا مغصوبة و من توسط جرحى فكيف ما تحرك قتل بعضهم فقيل هذا لا طريق له إلى التوبة و الصحيح أن هذا إذا تاب قبل الله توبته أما من توسط الأرض المغصوبة فهذا خروجه بنية تخلية المكان و تسليمه إلى مستحقه ليس منهيا عنه ولا محرما بل الفقهاء متفقون على أن من غصب دارا و ترك فيها قماشه و ماله إذا أمر بتسليمها إلى مستحقها فإنه يؤمر بالخروج منها و بإخراج أهله و ماله منها و إن كان ذلك نوع تصرف فيها لكنه لأجل إخلائها و المشرك إذا دخل الحرم أمر بالخروج منه و إن كان فيه مرور فيه و مثل هذا حديث الأعرابى المتفق على صحته لما بال فى المسجد فقام الناس إليه فقال النبى صلى الله عليه و سلم لا تزرموه أي لا تقطعوا عليه بوله و أمرهم أن يصبوا على بوله دلوا من ماء فهو لما بدأ بالبول كان إتمامه خيرا من أن يقطعوه فيلوث ثيابه و بدنه و لو زنا رجل بإمرأة ثم تاب لنزع و

لم يكن مذنبا بالنزع و هل هو و طء فيه قولان هما روايتان عن أحمد فلو حلف أن لا يطأ إمرأته بالطلاق الثلاث فالذين يقولون إنه يقع به الطلاق الثلاث إذا و طئها تنازعوا هل يجوز له وطؤها على قولين هما روايتان عن أحمد أحدهما يجوز كقول الشافعى و الثانى لا يجوز كقول مالك فإنه يقول إذا أجزت الوطء لزم أن يباشرها فى حال النزع و هي محرمة و هذا إنما يجوز للضرورة لا يجوزه إبتداء و ذلك يقول النزع ليس بمحرم و كذلك الذين يقولون إذا طلع عليه الفجر و هو مولج فقد جامع لهم فى النزع قولان فى مذهب أحمد و غيره و أما على ما نصرناه فلا يحتاج إلى شيء من هذه المسائل فإن الحالف إذا حنث يكفر يمينه و لا يلزمه الطلاق الثلاث و ما فعله الناس حال التبين من أكل و جماع فلا بأس به لقوله {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ}البقرة١٨٧ و المقصود أنه لا يجوز أن يقنط أحدا و لا يقنط أحد من رحمة الله فإن الله نهى عن ذلك و أخبر أنه يغفر الذنوب جميعا فإن قيل قوله {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ معه عموم على وجه الإخبار فدل أن الله يغفر كل ذنب و معلوم أنه لم يرد أن من أذنب من كافر و غيره فإنه يغفر له و لا يعذبه لا في الدنيا و لا في الآخرة فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة و التواتر و القرآن و الإجماع إذ كان الله أهلك أمما كثيرة بذنوبها و من هذه الأمة من عذب بذنوبه إما قدرا و إما شرعا فى الدنيا قبل الآخرة و قد قال تعالى {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ و قال {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨}الزلزلة٧-٨ فهذا يقتضى أن هذه الآية ليست على ظاهرها بل المراد أن الله قد يغفر الذنوب جميعا أي ذلك مما قد يفعله أو أنه يغفره لكل تائب لكن يقال فلم أتى بصيغة الجزم و الإطلاق فى موضع التردد و التقييد قيل بل الآية على مقتضاها فإن الله أخبر أنه يغفر جميع الذنوب و لم يذكر أنه يغفر لكل مذنب بل قد ذكر فى غير مو ضع أنه لا يغفر لمن مات كافرا فقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}محمد٣٤ و قال فى حق المنافقين {سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}المنافقون٦ لكن هذا اللفظ العام فى الذنوب هو مطلق فى المذنبين فالمذنب لم يتعرض له بنفي و لا إثبات لكن يجوز أن يكون مغفورا له و يجوز أن لا يكون مغفورا له إن أتى بما يوجب المغفرة غفر له و إن أصر على ما يناقضها لم يغفر له و أما جنس الذنب فإن الله يغفره فى الجملة الكفر و الشرك و غيرهما يغفرها لمن تاب منها ليس فى الوجود ذنب لا يغفره الرب تعالى بل ما من ذنب إلا و الله تعالى يغفره فى الجملة و هذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعا و فيها رد على طوائف رد على من يقول إن الداعى إلى البدعة لا تقبل توبته و يحتجون بحديث إسرائيلى فيه أنه قيل لذلك الداعية فكيف بمن

أضللت و هذا يقوله طائفة ممن ينتسب إلى السنة و الحديث و ليسوا من العلماء بذلك كأبى علي الأهوازي و أمثاله ممن لا يميزون بين الأحاديث الصحيحة و الموضوعة و ما يحتج به و ما لا يحتج به بل يروون كلما فى الباب محتجين و قد حكى هذا طائفة قولا في مذهب أحمد أو رواية عنه و ظاهر مذهبه مع مذاهب سائر أئمة المسلمين أنه تقبل توبته كما تقبل توبة الداعى إلى الكفر و توبة من فتن الناس عن دينهم و قد تاب قادة الأحزاب مثل أبى سفيان بن حرب و الحارث ابن هشام و سهيل بن عمرو و صفوان بن أمية و عكرمة بن أبى جهل و غيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم من قتل و كانوا من أحسن الناس إسلاما و غفر الله لهم قال تعالى {قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ}الأنفال٣٨ و عمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر و الإيذاء للمسلمين و قد قال له النبى صلى الله عليه و سلم لما أسلم يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجب ما كان قبله و فى صحيح البخارى عن ابن مسعود فى قوله {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}الإسراء٥٧ قال كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم أولئك الجن و الإنس يعبدونهم ففي هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الإسلام لهم و إن كانوا هم أضلوهم أو لا و أيضا فالداعي إلى الكفر و البدعة و إن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه لكونه قبل من هذا و أتبعه و هذا عليه و زره ووزر من إتبعه إلى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم فإذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره و لا ما حمله هو لأجل إضلالهم و أما هم فسواء تاب أو لم يتب حالهم واحد و لكن توبته قبل هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى كما تاب كثير من الكفار و أهل البدع و صاروا دعاة إلى الإسلام و السنة و سحرة فرعون كانوا أئمة فى الكفر ثم أسلموا و ختم الله لهم بخير و من ذلك توبة قاتل النفس و الجمهور على أنها مقبولة و قال إبن عباس لا تقبل و عن أحمد روايتان و حديث قاتل التسعة و التسعين في الصحيحين دليل على قبول توبته و هذه الآية تدل على ذلك و آية النساء إنما فيها وعيد فى القرآن كقوله {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}النساء١٠ و مع هذا فهذا إذا لم يتب وكل وعيد فى القرآن فهو مشروط بعدم التوبة بإتفاق الناس فبأي و جه يكون وعيد القاتل لاحقا به و إن تاب هذا فى غاية الضعف و لكن قد يقال لا تقبل توبته بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل بل التوبة تسقط حق الله و المقتول مطالبه بحقه و هذا صحيح فى جميع حقوق الآدميين حتى الدين فإن فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه سلم أنه قال الشهيد يغفر له كل شيء إلا الدين لكن حق الآدمى يعطاه من حسنات القاتل فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات

حتى يكون له ما يقابل حق المقتول و لعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول فلا بد أن يبقى له سيئات يعذب بها و هذا الذى قاله قد يقع من بعض الناس فيبقى الكلام فيمن تاب و أخلص و عجز عن حسنات تعادل حق المظلوم هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يعذب به و هذا مو ضع دقيق على مثله يحمل حديث إبن عباس لكن هذا كله لا ينافى موجب الآية و هو أن الله تعالى يغفر كل ذنب الشرك و القتل و الزنا و غير ذلك من حيث الجملة فهى عامة فى الأفعال مطلقة فى الأشخاص و مثل هذا قوله {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}التوبة٥ عام في الأشخاص مطلق في أحوال الأرجل إذ قد تكون مستورة بالخف و اللفظ لم يتعرض إلى الأحوال و كذلك قوله تعالى {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ}النساء١١ عام فى الأولاد عام فى الأحوال إذ قد يكون الولد موافقا فى الدين ومخالفا وحرا وعبدا واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال و كذلك قوله {يَغْفِرُ الذُّنُوبَ}الزمر٥٣ عام فى الذنوب مطلق في أحوالها فإن الذنب قد يكون صاحبه تائبا منه و قد يكون مصرا و اللفظ لم يتعرض لذلك بل الكلام يبين أن الذنب يغفر في حال دون حال فإن الله أمر بفعل ما تغفر به الذنوب و نهى عما به يحصل العذاب يوم القيامة بلا مغفرة فقال {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ{٥٤} وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ{٥٥} أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ{٥٦} أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ{٥٧} أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ{٥٨} بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ{٥٩}الزمر٥٤-٥٩ فهذا إخبار أنه يوم القيامة يعذب نفوسا لم يغفر لها كالتى كذبت بآياته و إستكبرت و كانت من الكافرين و مثل هذه الذنوب غفرها الله لآخرين لأنهم تابوا منها فإن قيل فقد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ}آل عمران٩٠ و قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً}النساء١٣٧ قيل إن القرآن قد بين توبة الكافر و إن كان قد إرتد ثم عاد إلى الإسلام فى غير موضع كقوله تعالى {كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{٨٦} أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{٨٧} خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ{٨٨} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٨٩}ال عمران٨٦-٨٩ و قوله {كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ}آل عمران٨٦ أى أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين و لهذا

قال {وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}آل عمران٨٦ فمن إرتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالا لا يحصل له الهدى إلى أى دين إرتد و المقصود أن هؤلاء لا يهديهم الله و لا يغفر لهم إلا أن يتوبوا و كذلك قال فى قوله {مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ}النحل١٠٦ و من كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد قال {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}النحل١١٠ و هو سبحانه فى آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم ثم ذكر من لا تقبل توبته و من مات كافرا فقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ{٩٠} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{٩١}ال عمران ٩٠-٩١ و هؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالا قيل لنفاقهم و قيل لأنهم تابوا مما دون الشرك و لم يتوبوا منه و قيل لن تقبل توبتهم بعد الموت و قال الأكثرون كالحسن و قتادة و عطاء الخراساني و السدى لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت فيكون هذا كقوله {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ}النساء١٨ و كذلك قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً}النساء١٣٧ قال مجاهد و غيره من المفسرين إزدادوا كفرا ثبتوا عليه حتى ماتوا قلت و ذلك لأن التائب راجع عن الكفر و من لم يتب فإنه مستمر يزداد كفرا بعد كفر فقوله {ثُمَّ ازْدَادُواْ}آل عمران٩٠ بمنزلة قول القائل ثم أصروا على الكفر و إستمروا على الكفر و داموا على الكفر فهم كفروا بعد إسلامهم ثم زاد كفرهم ما نقص فهؤلاء لا تقبل توبتهم و هي التوبة عند حضور الموت لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب و رجع عن كفره فلم يزدد بل نقص بخلاف المصر إلى حين المعاينة فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلا عن هدمه و فى الآية الأخرى قال {لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ}النساء١٣٧ و ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم إزدادوا كفرا و قيل لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره فإذا كفر بعد ذلك و مات كافرا حبط إيمانه فعوقب بالكفر الأول و الثانى كما فى الصحيحين عن إبن مسعود قال قيل يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية فقال من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية و من أساء فى الإسلام أخذ بالأول و الآخر فلو قال{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ}النساء١٣٧ كان هؤلاء الذين ذكرهم فى آل عمران فقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}آل عمران٩٠ بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم

آمنوا بعد ذلك و هو المرتد التائب فهذا إذا كفر و إزداد كفرا لم يغفر له كفره السابق أيضا فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد إزدادوا كفرا فلا يدخلون فى الآية و الفقهاء إذا تنازعوا فى قبول توبة من تكررت ردته أو قبول توبة الزنديق فذاك إنما هو فى الحكم الظاهر لأنه لا يوثق بتوبته أما إذا قدر أنه أخلص التوبة لله فى الباطن فإنه يدخل فى قوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣ و نحن حقيقة قولنا أن التائب لا يعذب لا فى الدنيا و لا فى الآخرة لا شرعا و لا قدرا و العقوبات التى تقام من حد أو تعزير إما أن يثبت سببها بالبينة مثل قيام البينة بأنه زنا أو سرق أو شرب فهذا إذا أظهر التوبة لم يوثق بها و لو درىء الحد بإظهار هذا لم يقم حد فإنه كل من تقام عليه البينة يقول قد تبت و إن كان تائبا فى الباطن كان الحد مكفرا و كان مأجورا على صبره و أما إذا جاء هو بنفسه فإعترف وجاء تائبا فهذا لا يجب أن يقام عليه الحد فى ظاهر مذهب أحمد نص عليه فى غير موضع و هي من مسائل التعليق و احتج عليها القاضي بعدة أحاديث و حديث الذى قال أصبت حدا فأقمه على فأقيمت الصلاة يدخل فى هذا لأنه جاء تائبا و إن شهد على نفسه كما شهد به ماعز و الغامدية و اختار إقامة الحد أقيم عليه و إلا فلا كما فى حديث ماعز فهلا تركتموه و الغامدية ردها مرة بعد مرة فالإمام والناس ليس عليهم إقامة الحد على مثل هذا و لكن هو إذا طلب ذلك أقيم عليه كالذى يذنب سرا و ليس على أحد أن يقيم عليه حدا لكن إذا إختار هو أن يعترف و يقام عليه الحد أقيم وإن لم يكن تائبا و هذا كقتل الذى ينغمس فى العدو هو مما يرفع الله به درجته كما قال النبى صلى الله عليه و سلم لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له و هل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله و قد قيل فى ماعز إنه رجع عن الإقرار و هذا هو أحد القولين فيه في مذهب أحمد و غيره و هو ضعيف و الأول أجود و هؤلاء يقولون سقط الحد لكونه رجع عن الإقرار و يقولون رجوعه عن الإقرار مقبول و هو ضعيف بل فرق بين من أقر تائبا و من أقر غير تائب فإسقاط العقوبة بالتوبة كما دلت عليه النصوص أولى من إسقاطها بالرجوع عن الإقرار و الإقرار شهادة منه على نفسه و لو قبل الرجوع لما قام حد بإقرار فإذا لم تقبل التوبة بعد الإقرار مع أنه قد يكون صادقا فالرجوع الذى هو فيه كاذب أولى

آخره و الحمد لله رب العالمين و صلى الله على سيدنا محمد و آله وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين [1]

## انه لا يخلد فى النار احد من أهل التوحيد

وقوله {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} فاطر ٣٣ بعد قوله تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} فاطر٣٢ مما يستدل به أهل السنة على انه لا يخلد فى النار احد من أهل التوحيد واما دخول كثير من أهل الكبائر النار فهذا مما تواترت به السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم كما تواترت بخروجهم من النار وشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى اهل الكبائر واخراج من يخرج من النار بشفاعة نبينا وشفاعة غيره فمن قال ان أهل الكبائر مخلدون فى النار وتأول الآية على ان السابقين هم الذين يدخلونها وان المقتصد او الظالم لنفسه لا يدخلها كما تأوله من المعتزلة فهو مقابل بتأويل المرجئة الذين لا يقطعون بدخول احد من أهل الكبائر النار ويزعمون انه اهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة من غير عذاب وكلاهما مخالف للسنة المتواترة عن النبى ولاجماع سلف الأمة وأئمتها وقد دل على فساد قول الطائفتين قول الله تعالى فى آيتين من كتابه وهو قوله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} النساء٤٨ فأخبر تعالى انه لا يغفر الشرك واخبر انه يغفر ما دونه لمن يشاء ولا يجوز ان يراد بذلك التائب كما يقوله من يقوله من المعتزلة لان الشرك يغفره الله لمن تاب وما دون الشرك يغفره الله ايضا للتائب فلا تعلق بالمشيئة ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} الزمر٥٣ فهنا عمم المغفرة واطلقها فان الله يغفر للعبد اى ذنب تاب منه فمن تاب من الشرك غفر الله له ومن تاب من الكبائر غفر الله له واى ذنب تاب العبد منه غفر الله له ففى آية التوبة عمم واطلق وفى تلك الآية خصص وعلق فخص الشرك بأنه لا يغفره وعلق ما سواه على المشيئة ومن الشرك التعطيل للخالق وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب ونبه بالشرك على ما هو اعظم منه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٨-٣٢

كتعطيل الخالق أو يجوز ان لا يعذب بذنب فانه لو كان كذلك لما ذكر انه يغفر البعض دون البعض ولو كان كل ظالم لنفسه مغفورا له بلا توبة ولا حسنات ماحية لم يعلق ذلك بالمشيئة وقوله تعالى {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء١١٦ دليل على انه يغفر البعض دون البعض فبطل النفى والوقف العام [١]

## إن أكبر الكبائر الكفر والكبر

جاء فى حديث إن أكبر الكبائر الكفر والكبر وهذا صحيح فإن هذين الذنبين أساس كل ذنب فى الإنس والجن فإن إبليس هو الذى فعل ذلك أو لا وهو أصل ذلك قال الله تعالى {إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}البقرة٣٤ وقال {إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ}ص٧٤ وفى صحيح مسلم عن إبن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ولا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر فجعل الكبر يضاد الإيمان وكذلك الشرك فى مثل قوله {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}النساء١١٦ وقال إبن مسعود قال رسول الله من مات وهو لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قال وأنا أقول من مات وهو يشرك بالله شيئا دخل النار ثم من الناس من يجمع بينهما ومنهم من ينفرد له أحدهما والمؤمن الصالح عافاه الله منهما فإن الإنسان إما أن يخضع لله وحده أو يخضع لغيره مع خضوعه له أو لا يخضع لا لله ولا لغيره فالأول هو المؤمن والثانى هو المشرك والثالث هو المتكبر الكافر وقد لا يكون كافرا فى بعض المواضع والنصارى آفتهم الشرك واليهود آفتهم الكبر كما قال تعالى عن النصارى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}التوبة٣١ وقال عن اليهود {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}الأعراف١٤٦ ولهذا عوقبت اليهود بضرب الذلة والمسكنة عليهم والنصارى بالضلال والبدع والجهالة [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٨٤-١٨٥

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٣٣٠-٣٣١

# أحاديث الوعيد يذكر فيها السبب وقد يتخلف موجبه

وأحاديث الوعيد يذكر فيها السبب وقد يتخلف موجبه لموانع تدفع ذلك إما بتوبة مقبولة وإما بحسنات ماحية وإما بمصائب مكفرة وإما بشفاعة شفيع مطاع وإما بفضل الله ورحمته ومغفرته فإنه {لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ وما يحصل للمؤمن فى الدنيا والبرزخ والقيامة من الألم التى هى عذاب فإن ذلك يكفر الله به خطاياه كما ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه وفى المسند لما نزلت هذه الآية {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ قال أبو بكر يا رسول الله جاءت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر ألست تحزن ألست يصيبك الأذى فإن الجنة طيبة لا يدخلها إلا طيب كما قال تعالى {طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}الزمر٧٣ وفى الحديث الصحيح أنهم إذا عبروا على الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة [1]

وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين أن الوعيد فى الكتاب والسنة لأهل الكبائر موجود ولكن الوعيد الموجود فى الكتاب والسنة قد بين الله فى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أنه لا يلحق التائب بقوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣ أى لمن تاب وقال فى الآية الأخرى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فهذا فى حق من لم يتب فالشرك لا يغفر وما دون الشرك ان شاء الله غفره وان شاء عاقب عليه وفى الصحيحين عن النبى أنه قال ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه ولهذا لما نزل قوله {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ قال أبو بكر يا رسول الله قد جاءت قاصمة الظهر وأينا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ٣٧٥-٣٧٦

لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللأوى فذلك مما تجزون به فالمصائب فى الدنيا يكفر الله بها من خطايا المؤمن ما به يكفر وكذلك الحسنات التى يفعلها قال الله تعالى {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ} هود١١٤ وقال النبى الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر فالله تعالى لا يظلم عبده شيئا كما قال {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨}الزلزلة ٧-٨ فالوعيد ينتفى عنه إما بتوبة وإما بحسنات يفعلها تكافىء سيئاته وإما بمصائب يكفر الله بها خطاياه وأما بغير ذلك وكما أن أحاديث الوعيد تقدم وكذلك أحاديث الوعد فقد يقول لا إله إلا الله ويجحد وجوب الصلاة والزكاة فهذا كافر يجب قتله وقد يكون من أهل الكبائر المستوجبين للنار وهذه مسألة الوعد والوعيد من اكبر مسائل العلم وقد بسطناها فى مواضع [1]

## من الشرك أن يدعو العبد غير الله

وكل من تاب من أى ذنب كان فان الله يتوب عليه كما قال تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {٥٣} وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ{٥٤} وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ{٥٥}الزمر٥٣-٥٥ فقد اخبر الله فى هذه الآية أنه يغفر الذنوب أى لمن تاب وقد قال فى الأخرى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ وهذا فى حق من لم يتب فالشرك لا يغفره الله وما دون الشرك أمره إلى الله ان شاء عاقب عليه وان شاء عفا عنه ومن الشرك أن يدعو العبد غير الله كمن يستغيث فى المخلوف والأمراض والفاقات بالأموات والغائبين فيقول يا سيدى الشيخ فلان لشيخ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٤٨-٦٤٩

ميت أو غائب فيستغيث به ويستوصيه ويطلب منه ما يطلب من الله من النصر والعافية فان هذا من الشرك الذى حرمه الله ورسوله باتفاق المسلمين [1]

## هل الاعتراف بالخطيئة بمجرده مع التوحيد موجب لغفرانها وكشف الكربة الصادرة عنها أم يحتاج الى شيء آخر ؟

ان الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المامور بها فان الشرك لا يغفره الله الا بتوبة كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}النساء٤٨ فى موضعين من القرآن وما دون الشرك فهو مع التوبة مغفور وبدون التوبة معلق بالمشيئة كما قال تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣ فهذا فى حق التائبين ولهذا عمم واطلق وحتم انه يغفر الذنوب جميعا وقال فى تلك الاية {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء١١٦ فخص ما دون الشرك وعلقه بالمشيئة فاذا كان الشرك لا يغفر الا بتوبة وأما ما دونه فيغفره الله للتائب وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء فالاعتراف بالخطيئة مع التوحيد ان كان متضمنا للتوبة أوجب المغفرة واذا غفر الذنب زالت عقوبته فان المغفرة هى وقاية شر الذنب ومن الناس من يقول الغفر الستر ويقول انما سمى المغفرة والغفار لما فيه من معنى الستر وتفسير اسم الله الغفار بانه الستار وهذا تقصير فى معنى الغفر فان المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه واما مجرد ستره فقد يعاقب عليه فى الباطن ومن عوقب على الذنب باطنا أو ظاهرا فلم يغفر له وانما يكون غفران الذنب اذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب وأما اذا ابتلى مع ذلك بما يكون سببا فى حقه لزيادة اجره فهذا لا ينافى المغفرة وكذلك اذا كان من تمام التوبة أن يأتى بحسنات يفعلها فان من يشترط فى التوبة من تمام التوبة وقد يظن الظان أنه تائب ولا يكون تائبا بل يكون تاركا والتارك غير التائب فانه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله أو المقتضى لعجزه عنه أو تنتفى ارادته له بسبب غير دينى وهذا ليس بتوبة بل لابد من ان يعتقد أنه سيئة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٦٤

ويكره فعله لنهى الله عنه ويدعه لله تعالى لا لرغبة مخلوق ولا لرهبة مخلوق فان التوبة من أعظم الحسنات والحسنات كلها يشترط فيها الاخلاص لله وموافقة امره كما قال الفضيل بن عياض فى قوله {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} هود٧ قال أخلصه واصوبه قالوا يا ابا على ما اخلصه واصوبه قال ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب ان يكون على السنة وكان عمر بن الخطاب رضى اله عنه يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وبسط الكلام فى التوبة له موضع آخر [1]

## الرد على الذين يقولون إنه قد مضى الأمر و الشقى شقى و السعيد سعيد

و أما قو ل الذين يحتجون بسابق القدر و يقولون إنه قد مضى الأمر و الشقى شقى و السعيد سعيد محتجين بقوله صلى الله عليه و سلم من قال لا إله إلا الله دخل الجنة و إن زنى و إن سرق فيقال له لاريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد وقد قال الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً} النساء١٠ و قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً {٢٩} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً {٣٠} النساء٢٩ ـ٣٠ و مثل هذا كثير فى الكتاب و السنة و العبد عليه أن يصدق بهذا و بهذا لا يؤمن ببعض و يكفر ببعض فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد و يكذبوا بالوعيد و الحرورية و المعتزلة أرادو ا أن يصدقوا بالوعيد دون الوعد وكلاهما أخطأ والذي عليه أهل السنة و الجماعة الإيمان بالوعد و الوعيد فكما أن ما توعد الله به العبد من العقاب قد بين سبحانه أنه بشروط بأن لا يتوب فإن تاب تاب الله عليه و بأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه فإنَّ {الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ} هود١١٤ و بأن لا يشاء الله أن يغفر له {إِنَّ اللّهَ لاَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣١٦-٣١٨

يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ فهكذا الوعد له تفسير و بيان فمن قال بلسانه لاإله إلا الله و كذب الرسول فهو كافر بإتفاق المسلمين و كذلك إن جحد شيئا مما أنزل الله فلابد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره الى الله إن شاء عذبه و إن شاء غفر له فإن إرتد عن الإسلام و مات مرتدا كان فى النار فالسيئات تحبطها التوبة و الحسنات تحبطها الردة و من كان له حسنات و سيئات فإن الله لا يظلمه بل {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨}الزلزلة ٧-٨ و الله تعالى قد يتفضل عليه و يحسن إليه بمغفرته و رحمته ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد فى النار فالزاني و السارق لا يخلد فى النار بل لا بد أن يدخل الجنة فإن النار يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان و هؤلاء المسؤول عنهم يسمون القدرية المباحية المشركين و قد جاء فى ذمهم من الآثارما يضيق عنه هذا المكان و الله سبحانه و تعالى أعلم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم و حسبنا الله و نعم الوكيل[١]

## تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى هل هم مسلمون أم لا ؟

وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى هل هم مسلمون أم لا وهو نزاع لفظى فإن الإسلام الخاص الذى بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم المتضمن لشريعة القرآن ليس عليه إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا وأما الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبيا فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبى من الأنبياء ورأس الإسلام مطلقا شهادة أن لا إله إلا الله وبها بعث جميع الرسل وقد قال سبحانه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ وقال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٧١

لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ {٧٩} وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{٨٠} آل عمران٧٩ ـ٨٠ فبيين ان اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر ومعلوم أن أحدا من الخلق لم يزعم أن الأنبياء والاحبار والرهبان والمسيح بن مريم شاركوا الله فى خلق السموات والارض بل ولا زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان فى الصفات والأفعال بل ولا أثبت أحد من بنى آدم الها مساويا لله فى جميع صفاته بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس شريكه مثله بل عامتهم يقرون ان الشريك مملوك له سواء كان ملكا أو نبيا أو كوكبا أو صنما كما كان مشركوا العرب يقولون فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك فأهل رسول الله بالتوحيد وقال لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين فى الملل والنحل والآراء والديانات فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له فى خلق جميع المخلوقات ولا مماثل له فى جميع الصفات بل من أعظم ما نقلوا فى ذلك قول الثنوية الذين يقولون بالأصلين النور و الظلمة وان النور خلق الخير والظلمة خلقت الشر ثم ذكروا لهم فى الظلمة قولين أحدهما أنها محدثة فتكون من جملة المخلوقات له والثانى أنها قديمة لكنها لم تفعل إلا الشر فكانت ناقصة فى ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور وقد أخبر سبحانه عن المشركين من إقرارهم بأن الله خالق المخلوقات ما بينه فى كتابه فقال {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}الزمر٣٨ [١]

## الشخص الواحد يجتمع فيه بر وفجور

والشخص الواحد يجتمع فيه حسنات وسيئات وطاعات ومعاصى وبر وفجور وشر فيثيبه الله على حسناته ويعاقبه على سيئاته إن شاء أو يغفر له ويحب ما فعله من الخير ويبغض ما فعل من الشر فأما من كانت سيئاته صغائر فقد وافقت المعتزلة على أن الله يغفرها وأما صاحب الكبيرة فسلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة لا يشهدون له بالنار بل يجوزون أن الله يغفر له كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً

---

١

بَعِيداً}النساء١١٦ فهذه فى حق من لم يشرك فإنه قيدها بالمشيئة وأما قوله تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ فهذا فى حق من تاب ولذلك أطلق وعم والخوارج والمعتزلة يقولون إن صاحب الكبيرة يخلد فى النار ثم انهم قد يتوهمون فى بعض الأخيار أنه من أهل الكبائر كما تتوهم الخوارج فى عثمان وعلى وأتباعهما أنهم مخلدون فى النار كما يتوهم بعض ذلك فى مثل معاوية وعمرو ابن العاص وأمثالهما ويبنون مذاهبهم على مقدمتين باطلتين إحداهما أن فلانا من أهل الكبائر والثانية أن كل صاحب كبيرة يخلد في النار وكلا القولين باطل وأما الثاني فباطل على الإطلاق وأما الأول فقد يعلم بطلانه وقد يتوقف فيه [1]

## كل من تاب تاب الله عليه

الصواب الذى عليه أئمة المسلمين أن كل من تاب تاب الله عليه كما قال الله تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣ فقد ذكر فى هذه الاية أنه يغفر للتائب الذنوب جميعا ولهذا أطلق وعمم وقال فى الاية الاخرى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ فهذا فى غير التائب ولهذا قيد وخصص وليس سب بعض الصحابة بأعظم من سب الانبياء أو سب الله تعالى و اليهود والنصارى الذين يسبون نبينا سرا بينهم اذا تابوا واسلموا قبل ذلك منهم باتفاق المسلمين والحديث الذى يروى سب صحابتى ذنب لا يغفر كذب على رسول الله والشرك الذى لا يغفره الله يغفره لمن تاب باتفاق المسلمين وما يقال إن فى ذلك حقا لآدمى يجاب عنه من وجهين أحدهما ان الله أمر بتوبة السارق و الملقب ونحوهما الذنوب التى تعلق بها حقوق العباد كقول {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {٣٨} فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٣٩}المائدة٣٨-٣٩ وقال {وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}الحجرات١١ ومن توبة مثل هذا أن يعوض المظلوم من الاحسان اليه بقدر

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٤٧٥

اساءته اليه الوجه الثانى ان هؤلاء متأولون (يقصد من يقول ان من سب ابي بكر رضي الله عنه لا يغفر الله له وان تاب ) فإذا تاب الرافضى (الذي يسب ويكفر ابي بكر وعمر والصحابة ) من ذلك واعتقد فضل الصحابة واحبهم ودعاهم فقد بدل الله السيئة بالحسنة كغيره من المذنبين [1]

## الإشراك إذا لم يغفر موجب للخلود فى النار

وإن الله لم يجعل شيئا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر كما أنه لم يجعل شيئا يحبط جميع السيئات إلا التوبة و المعتزلة مع الخوارج يجعلون الكبائر محبطة لجميع الحسنات حتى الإيمان قال الله تعالي {وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}البقرة٢١٧ فعلق الحبوط بالموت على الكفر وقد ثبت أن هذا ليس بكافر والمعلق بشرط يعدم عنه عدمه وقال تعالى {وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ}المائدة٥ وقال تعالى لما ذكر الأنبياء {وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٨٧} ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{٨٨}الأنعام٨٧-٨٨ وقال {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}الزمر٦٥ مطابق لقوله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ فإن الإشراك إذا لم يغفر وأنه موجب للخلود فى النار لزم من ذلك حبوط حسنات صاحبه ولما ذكر سائر الذنوب غير الكفر لم يعلق بها حبوط جميع الأعمال وقوله{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}محمد٢٨ لأن ذلك كفر وقوله تعالى {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}الحجرات٢ لأن ذلك قد يتضمن فيقتضي الحبوط وصاحبه لا يدري كراهية أن يحبط أو خشية أن يحبط فنهاهم عن ذلك لأنه يفضي إلى الكفر المقتضى للحبوط ولا ريب أن المعصية قد تكون سببا للكفر كما قال بعض السلف المعاصى بريد الكفر فينهى عنها خشية أن تفضي إلى الكفر المحبط كما قال تعالى

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٥٢٨-٥٢٩

{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ}النور٦٣ وهي الكفر{أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}النور٦٣ وإبليس خالف أمر الله فصار كافرا وغيره أصابه عذاب أليم وقد إحتجت الخوارج والمعتزلة بقوله تعالى {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}المائدة٢٧ قالوا فصاحب الكبيرة ليس من المتقين فلا يتقبل الله منه عملا فلا يكون له حسنة وأعظم الحسنات الإيمان فلا يكون معه إيمان فيستحق الخلود فى النار وقد أجابتهم المرجئة بأن المراد بالمتقين من يتقى الكفر فقالوا لهم إسم المتقين فى القرآن يتناول المستحقين للثواب كقوله تعالى {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ{٥٤} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ{٥٥}القمر ٥٤-٥٥ وأيضا فابنا آدم حين قربا قربانا قربانا لم يكن المقرب المردود قربانه حينئذ كافرا وإنما كفر بعد ذلك إذ لو كان كافرا لم يتقرب وأيضا فما زال السلف يخافون من هذه الآية ولو أريد بها من يتقى الكفر لم يخافوا وأيضا فإطلاق لفظ المتقين والمراد به من ليس بكافر لا أصل له فى خطاب الشارع فلا يجوز حمله عليه والجواب الصحيح أن المراد من إتقى الله فى ذلك العمل كما قال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}هود٧ قال أخلصه وأصوبه قيل يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة فمن عمل لغير الله كأهل الرياء لم يقبل منه ذلك كما في الحديث الصحيح يقول الله عز وجل أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيرى فأنا بريء منه وهو كله للذي أشركه وقال فى الحديث الصحيح لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول وقال لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار وقال فى الحديث الصحيح من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد أي فهو مردود غير مقبول فمن إتقى الكفر وعمل عملا ليس عليه أمر النبى صلى الله عليه وسلم لم يقبل منه وإن صلي بغير وضوء لم يقبل منه لأنه ليس متقيا فى ذلك العمل وإن كان متقيا للشرك وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ}المؤمنون٦٠ وفى حديث عائشة عن النبى أنها قالت يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف أن يعذب قال لا يا إبنة الصديق ولكنه الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه وخوف من خاف من السلف أن لا يتقبل منه لخوفه أن لا يكون أتي بالعمل على وجهه المأمور وهذا أظهر الوجوه فى إستثناء من إستثنى منهم فى الإيمان وفى أعمال الإيمان كقول أحدهم أنا مؤمن إن شاء الله وصليت إن شاء الله لخوف أن لا يكون آتى بالواجب على الوجه المأمور به لا على جهة الشك فيما بقلبه من التصديق لا يجوز أن يراد بالآية إن الله لا

يقبل العمل إلا ممن يتقى الذنوب كلها لأن الكافر والفاسق حين يريد أن يتوب ليس متقيا فإن كان قبول العمل مشروطا بكون الفاعل حين فعله لا ذنب له إمتنع قبول التوبة بخلاف ما إذا إشترط التقوى فى العمل فإن التائب حين يتوب يأتي بالتوبة الواجبة وهو حين شروعه فى التوبة منتقل من الشر إلى الخير لم يخلص من الذنب بل هو متق فى حال تخلصه منه و أيضا فلو أتى الإنسان بأعمال البر وهو مصر على كبيرة ثم تاب لوجب أن تسقط سيئاته بالتوبة وتقبل منه تلك الحسنات وهو حين أتى بها كان فاسقا و أيضا فالكافر إذا أسلم وعليه للناس مظالم من قتل وغصب وقذف وكذلك الذمى إذا أسلم قبل إسلامه مع بقاء مظالم العباد عليه فلو كان العمل لا يقبل إلا ممن لا كبيرة عليه لم يصح إسلام الذمي حتى يتوب من الفواحش والمظالم بل يكون مع إسلامه مخلدا وقد كان الناس مسلمين على عهد رسول الله ولهم ذنوب معروفة وعليهم تبعات فيقبل إسلامهم ويتوبون إلى الله سبحانه من التبعات كما ثبت فى الصحيح أن المغيرة بن شعبة لما أسلم وكان قد رافق قوما فى الجاهلية فغدر بهم وأخذ أموالهم وجاء فأسلم فلما جاء عروة بن مسعود عام الحديبية والمغيرة قائم على رأس النبى صلى الله عليه وسلم بالسيف دفعه المغيرة بالسيف فقال من هذا فقالوا ابن أختك المغيرة فقال يا غدر ألست أسعي فى غدرتك فقال النبي صلي الله عليه وسلم أما الاسلام فأقبله وأما المال فلست منه فى شيء وقد قال تعالى {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ}الأنعام٥٢ وقالوا لنوح {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ{١١١} قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{١١٢} إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ{١١٣} الشعراء ١١١-١١٣ ولا نعرف من المسلمين جاءه ذمي يسلم فقال له لا يصح إسلامك حتى لا يكون عليك ذنب وكذلك سائر أعمال البر من الصلاة والزكاة [1]

## حديث" سب أصحابي ذنب لا يغفر " كذب على رسول الله

كما أن طائفة أخرى زعموا أن من سب الصحابة لا يقبل الله توبته وإن تاب ورووا عن النبي أنه قال سب أصحابي ذنب لا يغفر وهذا الحديث كذب على رسول

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٩٤-٤٩٨

الله لم يروه أحد من أهل العلم ولا هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة وهو مخالف للقرآن لأن الله قال {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ هذا في حق من لم يتب وقال في حق التائبين {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣ من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم فثبت بكتاب الله وسنة رسوله إن كل من تاب تاب الله عليه ومعلوم أن من سب الرسول من الكفار المحاربين وقال هو ساحر أو شاعر أو مجنون أو معلم أو مفتر وتاب تاب الله عليه وقد كان طائفة يسبون النبي من أهل الحرب ثم أسلموا وحسن إسلامهم وقبل النبي منهم منهم أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب بن عم النبي وعبدالله بن سعد بن أبي سرح وكان قد ارتد وكان يكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ويقول أنا كنت أعلمه القرآن ثم تاب وأسلم وبايعه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك وإذا قيل سب الصحابة حق لآدمي قيل المستحل لسبهم كالرافضي يعتقد ذلك دينا كما يعتقد الكافر سب النبي صلى الله عليه وسلم دينا فإذا تاب وصار يحبهم ويثني عليهم ويدعو لهم محا الله سيئاته بالحسنات ومن ظلم إنسانا فقذفه أو اغتابه أو شتمه ثم تاب قبل الله توبته لكن إن عرف المظلوم مكنه من أخذ حقه وإن قذفه أو اغتابه ولم يبلغه ففيه قولان للعلماء هما روايتان عن أحمد أصحهما أنه لا يعلمه أني اغتبتك وقد قيل بل يحسن إليه في غيبته كما أساء إليه في غيبته كما قال الحسن البصري كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته فإذا كان الرجل قد سب الصحابة أو غير الصحابة وتاب فإنه يحسن إليهم بالدعاء لهم والثناء عليهم بقدر ما أساء إليهم والحسنات يذهبن السيئات كما أن الكافر الذي كان يسب النبي ويقول أنه كذاب إذا تاب وشهد أن محمدا رسول الله الصادق المصدوق وصار يحبه ويثني عليه ويصلي عيه كانت حسناته ماحية لسيئاته والله تعالى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون وقد قال تعالى ( حم{١} تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٢} غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ{٣} غافر ١-٣ وصلى الله على محمد وصحبه وسلم [١]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٢٩٠-٢٩٢

لفظ الدعاء والدعوة يتناول معنيين

لفظ الدعاء والدعوة فى القرآن يتناول معنيين دعاء العبادة ودعاء المسألة قال الله تعالى {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ}الشعراء٢١٣ وقال تعالى {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}المؤمنون١١٧ وقال تعالى {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}القصص٨٨ وقال {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً}الجن١٩ وقال {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً}النساء١١٧ ولفظ الصلاة فى اللغه اصله الدعاء وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء وهو العبادة والمسألة وفى الصحيحين عن النبى انه قال ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له فذكر اولا لفظ الدعاء ثم ذكر السؤال والاستغفار والمستغفر سائل كما ان السائل داع لكن ذكر االسائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير وذكرهما جميعا بعد ذكر الداعى الذى يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام وقال تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}البقرة١٨٦ وكل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول وكل عابد له فهو ايضا راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه فكل عابد سائل وكل سائل عابد فاحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ولكن اذا جمع بينهما فانه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الامر وان لم يكن فى ذلك صيغ سؤال والعابد الذي يريد وجه الله والنظر اليه هو ايضا راج خائف راغب راهب يرغب فى حصول مراده ويرهب من فواته قال تعالى {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً}الأنبياء٩٠ وقال تعالى {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً}السجدة١٦ ولا يتصور ان يخلو داع لله دعاء عبادة او دعاء مسألة من الرغب والرهب من الخوف والطمع [1]

قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ}الحج٧٣ الآية وقوله {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً}النساء١١٧ الآية وقوله

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٠٥ ومجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٢٣٨ و دقائق التفسير ج: ٢ ص: ٣٥٨

{وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ}فصلت٤٨ الآية وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأوثانهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة فهو فى دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة أحدهما أنهم قالوا {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}الزمر٣ فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم عبادتهم لهم الثانى إن الله تعالى فسر هذا الدعاء فى موضع آخر كقوله تعالى{وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{٩٢} مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ{٩٣}الشعراء٩٢-٩٣ وقوله تعالى {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}الأنبياء٩٨ وقوله تعالى {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}الكافرون٢ فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم الثالث أنهم كانوا يعبدونها فى الرخاء فإذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده وتركوها ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة [1]

## الشرك في بني آدم أكثره عن أصلين

وكانت اليونان والروم مشركين كما ذكر يعبدون الشمس والقمر والكواكب ويبنون لها هياكل في الارض ويصورون لها اصناما يجعلون لها طلاسم من جنس شرك النمرود بن كنعان وقومه الذين بعث اليهم ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه وبقايا هذا الشرك في بلاد الشرق في بلاد الخطا والترك يصنعون الاصنام على صورة النمرود ويكون الصنم كبيرا جدا ويعلقون السبح في اعناقهم ويسبحون باسم النمرود ويشتمون ابراهيم الخليل وكان من النفر القادمين الى دمشق سنة ٦٩٩ تسع وتسعين وستمائة بعض هؤلاء وهو يجمع بين أن يصلي الصلوات الخمس وبين ان يسبح باسم نمرود وهذا ايضا مذهب كثير من هؤلاء المتفلسفة وعلمائهم وعبادهم يصلون الصلوات الخمس ويعبدون الشمس والقر او غيرهما من الكواكب ومن هؤلاء طوائف موجودون في الشام ومصر والعراق وغير ذلك وسبب ذلك انه يحصل لهم احيانا من جنس ما يظهر للمشركين الذين كانو يعبدون الكواكب والاصنام فأنه كانت من الشياطين تدخل في الصنم وتكلم عابديه فتخبرهم بأمور

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ١٣

مكاشفة لهم وتأمرهم بأمور يطلبون منهم قضاء حوائجهم قال الله تعالى {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً}النساء١١٧ قال ابن عباس كان في كل صنم شيطان يتراءى للسدنة فيكلمهم وقال ابي بن كعب مع كل صنم جنية ولهذا لما ارسل النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد الى العزى وكانت العزى عند عرفات خرجت منها عجوز ناشرة شعرها وقال النبي صلى الله عليه وسلم هذه شيطانة العزى وقد يئست العزى ان تعبد بأرض العرب وكان خالد يقول يا عزى كفرانك لا سبحانك اني رايت الله قد اهانك وأما اللات فكانت عند الطائف ومناة الثالثة الاخرى كانت حذو قديد بالساحل فان المدائن التي للمشركين بأرض الحجاز كانت ثالاثة مكة والمدينة والطائف وكان لكل أهل مدينة طاغوت من هذه الثلاثة ولهذا خصصها سبحانه بالذكر في قوله {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى{١٩} وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى{٢٠} أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى{٢١} تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى{٢٢} إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ {٢٣} النجم١٩-٢٣ فانهم كانوا يجعلون لله أولادا إناثا وشركاء إناثا فقال {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى{٢١} تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى{٢٢} النجم١٩-٢٢ اصل الشرك من تعظيم القبور وعبادة الكواكب والشرك في بني آدم أكثره عن أصلين أولهما تعظيم قبور الصالحين وتصوير تماثيلهم للتبرك بها وهذا اول الاسباب التي بها ابتدع الادميون الشرك وهو شرك قوم نوح قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ان نوحا اول رسول بعث الى اهل الارض ولهذا لم يذكر الله في القرآن قبله رسولا فان الشرك إنما ظهر في زمانه وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس وذكره اهل التفسير والسير من غير واحد من السلف في قوله تعالى {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً}نوح٢٣ أن هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم وأن هذه الاصنام صارت الى العرب وذكر ابن عباس قبائل العرب التي كانت فيهم مثل هذه الاصنام

والسبب الثاني عبادة الكواكب فكانوا يصنعون للاصنام طلاسم للكواكب ويتحرون الوقت المناسب لصنعة ذلك الطلسم ويصنعونه من مادة تناسب ما يرونه من طبيعة ذلك الكوكب ويتكلمون عليها بالشرك والكفر فتأتي الشياطين فتكلمهم وتقضي بعض حوائجهم ويسمونها روحانية الكواكب وهي الشيطان او الشيطانة التي تضلهم والكتاب الذي صنفه بعض الناس وسماه السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم فان هذا كان شرك الكلدانيين والكشدانيين وهم الذين بعث إليهم الخليل صلوات الله عليه وهذا أعظم انواع السحر ولهذا قال النبي صلى الله عليه

وسلم في الحديث الذي رواه ابو داود وغيره من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد [1]

## أصل الولاية المحبة والقرب

قال تعالى{وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً}النساء١١٩ وقد بين سبحانه وتعالى فى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ان لله أولياء من الناس وللشيطان أولياء ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء كما فرق الله ورسوله بينهما فأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣} يونس٦٢-٦٣ وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال يقول الله من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة أو فقد آذنته بالحرب وما تقرب ألي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وهذا أصح حديث يروي في الأولياء فبين النبي أنه من عادى وليا لله فقد بارز الله بالمحاربة وفي حديث آخر وإني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب أي آخذ ثأرهم ممن عادهم كما يأخذ الليث الحرب ثأره وهذا لأن أولياء الله هم الذين أمنوا به ووالوه فأحبوا ما يحب وأبغضوا ما يبغض ورضوا بما يرضى وسخطوا بما يسخط وأمروا بما أمر ونهو عما نهى وأعطوا لمن يحب أن يعطى ومنعوا من يحب أن يمنع كما في الترمذي وغيره عن النبي أنه قال أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وفي حديث آخر رواه أبو داود قال ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان و الولاية ضد العداوة وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة البغض والبعد وقد قيل أن الولى سمى وليا من موالاته

[1] الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٢٨٣-٢٨٦

للطاعات اى متابعته لها والأول اصح والولى القريب فيقال هذا يلى هذا أى يقرب منه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ألحقوا الفرائض بأهلها فما ابقت الفرائض فلأولى رجل ذكر أى لأقرب رجل إلى الميت واكده بلفظ الذكر ليبين انه حكم يختص بالذكور ولا يشترك فيها الذكور والاناث كما قال فى الزكاة فابن لبون ذكر فاذا كان ولى الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه كان المعادى لوليه معاديا له كما قال تعالى {لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ} الممتحنة١ فمن عادى اولياء الله فقد عاداه ومن عاداه فقد حاربه فلهذا قال ومن عادى لي وليا فقد بارزنى بالمحاربة [1]

## الشيطان تارة يحدث وسواس الشر وتارة ينسى الخير

فان الشيطان يعد أولياءه و يمنيهم كما قال تعالى{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ} الأنفال٤٨ و قال تعالى {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً} النساء١٢٠ و لكن الكفار يلقي الله في قلوبهم الرعب من المؤمنين و الشيطان لا يختار ذلك قال تعالى {لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ} الحشر١٣ [2]

قد قال صلى الله عليه و سلم إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به و هو نوعان خبر و إنشاء فالخبر إما عن ماض و إما عن مستقبل فالماضي يذكره به و المستقبل يحدثه بأن يفعل هو أمورا أو أن أمورا ستكون بقدر الله أو فعل غيره فهذه الأماني و المواعيد الكاذبة و الإنشاء امر و نهي و إباحة والشيطان تارة يحدث و سواس الشر و تارة ينسي الخير و كان ذلك بما يشغله به من حديث النفس قال تعالى في النسيان{وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٥٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٠٦

الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}الأنعام٦٨ وقال فتى موسى {فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ}الكهف٦٣ و قال تعالى{فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ}يوسف٤٢ و ثبت في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان و له ضراط حتى لا يسمع التأذين فإذا قضي التأذين أقبل فإذا ثوب بالصلاة أدبر فإذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء و نفسه فيقول أذكر كذا أذكر كذا لما لم يذكر حتى يظل الرجل لم يدر كم صلى فالشيطان ذكره بأمور ماضية حدث بها نفسه مما كانت فى نفسه من أفعاله و من غير أفعاله فبتلك الأمور نسي المصلي كم صلى و لم يدر كم صلى فإن النسيان أزال ما في النفس من الذكر و شغلها بأمر آخر حتى نسي الأول و أما إخباره بما يكون فى المستقبل من المواعيد و الأماني فكقوله {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم}إبراهيم٢٢ و فى هذه الآية أمره و وعده و قال تعالى {وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً{١١٩} يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً{١٢٠} أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً{١٢١}النساء١١٩-١٢١ [1]

## الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم

قال تعالى{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً}النساء١٢٢ فلا ريب أن الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم ووعد السائلين بأن يجيبهم وهو الصادق الذى لا يخلف الميعاد وهو الذى أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٥٢٤-٥٢٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢١٨

# اصل الإيمان

قال تعالى{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}النساء١٢٢ أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمان هو ما فى القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}البقرة٩٨ وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}الأحزاب٧ وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ}محمد٢ فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا}محمد٢ وهذه نزلت فى الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}البقرة٢٣٨ وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ}البينة٥ والصلاة والزكاة من العبادة فقوله {آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}البقرة٢٧٧ كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ}البينة٥ فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت فى الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل فى العام وقيل بل الأعمال فى الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما فى القلب ولكن هى لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم فى كلام النبى فإذا عطفت عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنصيصا ليعلم أن الثواب الموعود به فى

الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن إدعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه فى غير موضع أن الصادق فى قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان فى هؤلاء يدل على إنتفائه عمن سواهم [١]

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن و المرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الايمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع فى أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان و التحقيق أنه تارة يدخل فى الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الاسلام خارجا عنه كما فى حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما فى قوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} البقرة٨٢ فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما فى القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبى العينان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه [٢]

## الوعد بالجنة علق باسم الايمان

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:١٩٨-١٩٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٥٦

فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الاسلام واخباره أنه دينه الذى ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال ان الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار} التوبة٧٢ فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً} النساء١٢٢ الآيات فى هذا المعنى كثيرة فالوعد بالجنة والرحمة فى الآخرة وبالسلامة من العذاب علق باسم الايمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح ونحو ذلك وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ولم يعلق باسم الإسلام فلو كان من اتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلما لا مؤمنا لكان من اهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلما وان لم يسم مؤمنا وليس الأمر كذلك بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان وهذا أيضا مما إستدل به من قال إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة اذ لو كان الأمر كذلك لكان وعد الجنة معلقا باسم الإسلام كما علق بإسم الايمان وكما علق بإسم التقوى واسم البر فى مثل قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} القمر٥٤ وقوله {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} الانفطار١٣ وباسم أولياء الله كقوله {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٦٤} يونس٦٢-٦٤ فلما لم يجر إسم الإسلام هذا المجرى علم أن مسماه ليس ملازما لمسمى الايمان كما يلازمه اسم البر والتقوى وأولياء الله وأن إسم الإسلام يتناول من هو من أهل الوعيد وان كان الله يثيبه على طاعته مثل أن يكون فى قلبه ايمان ونفاق يستحق به العذاب فهذا يعاقبه الله ولا يخلده فى النار لأن فى قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من إيمان [1]

## الهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٤٧-٣٤٨

قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}التوبة٣٣ فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}النساء١٢٢ [١]

## من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{١٨٠} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{١٨١} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{١٨٢}الصافات١٨٠ ـ١٨٢ فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً}النساء١٢٢ [٢]

## ان الله جارية أفعاله على قانون العدل و الإحسان

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٥٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٣٦ و العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ١٧

فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء فإن ذلك موجب للفساد أو غير ممكن بل إذا كان في النفس خبث طهرت وهذبت حتى تصلح لسكنى الجنة كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إن المؤمنين إذا نجوا من النار أي عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة والتهذيب التخليص كما يهذب الذهب فيخلص من الغش فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب فكيف بمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط وأيضا فإذا كان سببها ثابتا فالجزاء كذلك بخلاف الحسنة فإنها من إنعام الحي القيوم الباقي الأول الآخر فسببها دائم فيدوم بدوامه وإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه لم يطمع في السعادة التامة مع ما فيه من الشر بل علم تحقيق قوله تعالى {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً}النساء١٢٣ [١]

أن السيئة إذا كانت من النفس و السيئة خبيثة مذمومة و وصفها بالخبث في مثل قوله {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ}النور٢٦ قال جمهور السلف الكلمات الخبيثة للخبيثين و قال بعضهم الأقوال و الأفعال الخبيثة للخبيثين و قال تعالى {ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً}إبراهيم٢٤ الى قوله {وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ}إبراهيم٢٦ و قال{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}فاطر١٠ و الأقوال و الأفعال صفات القائل الفاعل فإذا كانت النفس متصفة بالسوء و الخبث لم يكن محلها إلا ما يناسبها فمن أراد أن يجعل الحيات و العقارب يعاشرون الناس كالسنانير لم يصلح و من أراد أن يجعل الكذاب شاهدا لم يصلح و كذلك من أراد أن يجعل الجاهل معلما أو الأحمق سائسا فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة بل إذا كان فى النفس خبث طهرت و هذبت كما فى الصحيح إن المؤمنين إذا نجوا من النار و قفوا على قنطرة الحديث وإذا علم أن السيئة من نفسه لم يطمع في السعادة التامة مع ما فيه من الشر بل علم تحقيق قوله {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ و قوله {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨}الزلزلة ٧-٨ و علم أن الرب جارية أفعاله على قانون العدل و الإحسان و كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل وفي الصحيحين عن النبى صلى الله عليه

---

[١] الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ١٠٢

و سلم أنه قال    يمين الله ملأى لا يغضيها نفقة سخاء الليل والنهار أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات و الأرض فانه لم يغض ما فى يمينه و القسط بيده الأخرى يخفض و يرفع  وعلم فساد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة وهو سبحانه قد شهد أن لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط [1]

## الذنوب عواقبها مذمومة مطلقا

أن الذنوب عواقبها مذمومة مطلقا    وقوله{مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ و  {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨} الزلزلة٧-٨  قول حق و قال تعالى فى قصة قوم لوط  {وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}الذاريات٣٧  فما من أحد يبتلى بجنس عملهم إلا ناله شيء من العذاب الأليم حتى تعمد النظر يورث القلب علاقة يتعذب بها الانسان و ان قويت حتى صارت غراما و عشقا زاد العذاب الأليم سواء قدر أنه قادر على المحبوب أو عاجز عنه فإن كان عاجزا فهو فى عذاب أليم من الحزن و الهم و الغم و أن كان قادرا فهو فى عذاب اليم من خوف فراقه و من السعي في تأليفه و أسباب رضاه فإن نزل به الموت أو افتقر تضاعف عليه العذاب و ان صار الى غيره استبدالا به أو مشاركة قوى عذابه فإن هذا الجنس يحصل فيه من العذاب مالا يحصل فى عشق البغايا و ما يحصل مثله فى الحلال و ان حصل فى الحلال نوع عذاب كان أخف من نظيره و كان ذلك سبب ذنوب أخرى [2]

ان الله لم يغفر ذنوب جميع امة محمد صلى الله عليه وسلم بل قد ثبت  من امته من يعاقب بذنوبه اما فى الدنيا واما فى الآخرة وهذا مما تواتر به النقل واخبر به الصادق المصدوق واتفق عليه سلف الامة وائمتها وشوهد فى الدنيا من ذلك مالا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٢٧ و مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٢٦ و مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٣٤٦-٣٤٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٥٦-١٥٧

يحصية الا الله وقد قال الله تعالى {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ [1]

## " المصائب حطة تحط الخطايا عن صاحبها "

وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين أن الوعيد فى الكتاب والسنة لأهل الكبائر موجود ولكن الوعيد الموجود فى الكتاب والسنة قد بين الله فى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أنه لا يلحق التائب بقوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣ أى لمن تاب وقال فى الآية الأخرى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ فهذا فى حق من لم يتب فالشرك لا يغفر وما دون الشرك ان شاء الله غفره وان شاء عاقب عليه إن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه أخرجاه في الصحيحين وفى المسند أنه لما نزل قوله تعالى {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ قال أبو بكر يا رسول الله قد جاءت قاصمة الظهر فقال ألست تحزن ألست تنصب ألست تصيبك اللأواء فهو مما تجزون به رواه أحمد وغيره وفيه أيضا المصائب حطة تحط الخطايا عن صاحبها كما تحط الشجرة القائمة ورقها فالمصائب فى الدنيا يكفر الله بها من خطايا المؤمن ما به يكفر وكذلك الحسنات التى يفعلها قال الله تعالى {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ} هود١١٤ وقال النبى الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر فالله تعالى لا يظلم عبده شيئا كما قال {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨}الزلزلة ٧-٨ فالوعيد ينتفى عنه إما بتوبة وإما بحسنات يفعلها تكافىء سيئاته وإما بمصائب يكفر الله بها خطاياه وأما بغير ذلك وكما أن أحاديث الوعيد تقدم وكذلك أحاديث الوعد فقد يقول لا إله إلا الله ويجحد وجوب الصلاة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١١٦

والزكاة فهذا كافر يجب قتله وقد يكون من أهل الكبائر المستوجبين للنار وهذه مسألة الوعد والوعيد من اكبر مسائل العلم وقد بسطناها فى مواضع [1]

وفي الحديث الحدود كفارات لأهلها وفي الصحيحين عن عبادة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له فإذا كانت المصائب السماوية التي تجري بغير فعل بشر مما يكفر الله بها الخطايا فما يجري من أذى الخلق والمظالم بطريق الأولى كما يصيب المجاهدين من أذى الكفار وكما يصيب الأنبياء من أذى من يكذبهم وكما يصيب المظلوم من أذى الظالم [2]

والدلائل على أن المصائب كفارات كثيرة إذا صبر عليها أثيب على صبره فالثواب والجزاء إنما يكون على العمل وهو الصبر وأما نفس المصيبة فهى من فعل الله لا من فعل العبد وهى من جزاء الله للعبد على ذنبه وتكفيره ذنبه بها وفى المسند أنهم دخلوا على أبى عبيدة بن الجراح وهو مريض فذكروا أنه يؤجر على مرضه فقال مالى من الأجر ولا مثل هذه ولكن المصائب حطة فبين لهم أبو عبيدة رضى الله عنه أن نفس المرض لا يؤجر عليه بل يكفر به عن خطاياه وكثيرا ما يفهم من الأجر غفران الذنوب فيكون فيه أجر بهذا الإعتبار ومن الناس من يقول لابد فيه من التعويض والأجر والإمتنان وقد يحصل له ثواب بغير عمل كما يفعل عنه من أعمال البر [3]

المحرفون للفطرة المغيرون للقلب عن استقامته هم ممرضون للقلوب مسقمون لها وقد أنزل الله كتابه شفاء لما في الصدور وما يصيب المؤمن في الدنيا من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٤٨-٦٤٩

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٢٦٢

[3] مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٣٧٠

المصائب بمنزلة ما يصيب الجسم من الألم يصح به الجسم وتزول أخلاطه الفاسدة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياه وذلك تحقيق لقوله {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً}النساء١٢٣ ومن لم يطهر في هذه الدنيا من هذه الأمراض فيئوب صحيحا وإلا احتاج إلى أن يطهر منها في الآخرة فيعذبه الله كالذي اجتمعت فيه أخلاطه ولم يستعمل الأدوية لتخفيفها عنه فتجتمع حتى يكون هلاكه بها [١]

ومن اتبع ما بعث الله به رسوله كان مهديا منصورا بنصرة الله فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} غافر٥١ وقال تعالى {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ{١٧١} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ{١٧٢} وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ{١٧٣} الصافات١٧١-١٧٣ واذا اصابت العبد مصيبة كانت بذنبه لا باتباعه للرسول بل باتباعه للرسول صلى الله عليه وسلم يرحم وينصر وبذنوبه يعذب ويخذل قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}الشورى٣٠ ولهذا لما انهزم المسلمون يوم احد وكانوا مع النبى واستظهر عليهم العدو بين الله لهم أن ذلك بذنوبهم قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} آل عمران١٥٥ وقال تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}آل عمران١٦٥ وبين سبحانه حكمة ابتلائهم فقال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ{١٣٧} هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ{١٣٨} وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{١٣٩} إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{١٤٠} وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ{١٤١} ال عمران ١٣٧-١٤١ وقال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ والله قدرها وقدر كل شىء لكن ما أصاب العبد من عافية ونصر ورزق فهو من انعام الله عليه واحسانه اليه فالخير كله من الله وليس للعبد من نفسه شىء بل هو فقير لا

---

[١] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٣٢

يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولاحياة ولا نشورا وما اصابه من مصيبة فبذنوبه والله تعالى يكفر ذنوب المؤمنين بتلك المصائب ويؤجرهم على الصبر عليها ويغفر لمن استغفر ويتوب على من تاب قال النبى ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه ولما انزل الله تعالى قوله {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ قال ابو بكر يا رسول الله قد جاءت قاصمة الظهر واينا لم يعمل سوءا قال يا ابا بكر الست تنصب الست تحزن الست تصيبك اللاواء فذلك ما تجزون به وقد قص الله علينا فى القرآن اخبار الانبياء وما اصابهم وما أصاب اتباعهم المؤمنين من الاذى فى الله ثم انه تعالى نصرهم وجعل العاقبة لهم وقص علينا ذلك لنعتبر به قال تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}يوسف١١١ [1]

## الظلم ثلاثة أنواع

فالظلم ثلاثة أنواع فالظلم الذى هو شرك لا شفاعة فيه وظلم الناس بعضهم بعضا لابد فيه من اعطاء المظلوم حقه لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم كما قد يغفر لظالم نفسه بالشفاعة فالظالم المطلق ما له من شفيع مطاع وأما الموحد فلم يكن ظالما مطلقا بل هو موحد مع ظلمه لنفسه وهذا انما نفعه فى الحقيقة اخلاصه لله فبه صار من أهل الشفاعة وأما الظلم المقيد فقد يختص بظلم الانسان نفسه وظلم الناس بعضهم بعضا كقول آدم عليه السلام وحواء {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا}الأعراف٢٣ وقول موسى {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي}القصص١٦ وقوله تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ}آل عمران١٣٥ لكن قول آدم وموسى إخبار عن واقع لا عموم فيه وذلك قد عرف ولله الحمد أنه ليس كفرا واما قوله {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ}آل عمران١٣٥ فهو نكرة فى سياق الشرط يعم كل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص:٣٤٧- ٣٧٧

ما فيه ظلم الانسان نفسه وهو اذا أشرك ثم تاب تاب الله عليه وقد تقدم ان ظلم الانسان لنفسه يدخل فيه كل ذنب كبير أو صغير مع الاطلاق وقال تعالى{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ}فاطر٣٢ فهذا ظلم لنفسه مقرون بغيره فلا يدخل فيه الشرك الأكبر وفى الصحيحين عن ابن مسعود أنه لما أنزلت هذه الآية {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}الأنعام٨٢ شق ذلك على أصحاب النبى وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال النبى انما هو الشرك ألم تسمعوا الى قول العبد الصالح {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}لقمان١٣ والذين شق ذلك عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه وأنه لا يكون الأمن والاهتداء الا لمن يظلم نفسه فشق ذلك عليهم فبين النبى لهم ما دلهم على أن الشرك ظلم فى كتاب الله تعالى وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء الا لمن لم يلبس ايمانه بهذا الظلم ومن لم يلبس ايمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}فاطر٣٢ الى قوله {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا {٣٣} فاطر٣٣ وهذا لا ينفى أن يؤاخذ أحدهم بظلم نفسه اذا لم يتب كما قال تعالى {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨} الزلزلة ٧-٨ وقال تعالى {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ وقد سأل أبو بكر النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال يا رسول الله وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللأواء فذلك ما تجزون به فبين أن المؤمن الذى اذا تاب دخل الجنة قد يجزى بسيئاته فى الدنيا بالمصائب التى تصيبه كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تقومها تارة وتمليها أخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة وفى الصحيحين عنه أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه وفى حديث سعد بن أبى وقاص قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء قال الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه وان كان فى دينه رقة خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة رواه أحمد والترمذى وغيرهما وقال المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها والأحاديث فى هذا الباب كثيرة فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة كان له الأمن التام والاهتداء التام ومن لم يسلم من ظلمه نفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقا بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك فى الآية الأخرى وقد هداه الى الصراط المستقيم الذى تكون

عاقبته فيه الى الجنة ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من ايمانه بظلمه نفسه وليس مراد النبى صلى الله عليه وسلم بقوله انما هو الشرك ان من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام فان أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف لم يحصل لهم الامن التام ولا الاهتداء التام الذى يكونون به مهتدين الى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم بل معهم أصل الاهتداء الى هذا الصراط ومعهم أصل نعمة الله عليهم ولابد لهم من دخول الجنة وقول النبى صلى الله عليه وسلم انما هو الشرك ان أراد به الشرك الأكبر فمقصوده ان من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة وهو مهتد الى ذلك وان كان مراده جنس الشرك فيقال ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب هو شرك أصغر وحبه ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك فهذا صاحبه قد فاته من الأمن والاهتداء بحسبه ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب فى هذا الظلم بهذا الاعتبار [1]

## الأمة التى أورثها الكتاب واصطفاها ثلاثة أصناف

قال تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ{٣٢} جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ{٣٣} وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ{٣٤}الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ{٣٥} فاطر ٣٢-٣٥ فقد قسم سبحانه الأمة التى أورثها الكتاب واصطفاها ثلاثة أصناف ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات وهؤلاء الثلاثة ينطبقون على الطبقات الثلاث المذكورة فى حديث جبريل الاسلام و الايمان و الاحسان كما سنذكره ان شاء الله ومعلوم أن الظالم لنفسه ان أريد به من اجتنب الكبائر والتائب من جميع الذنوب فذلك مقتصد أو سابق فانه ليس أحد من بنى آدم يخلو عن ذنب لكن من تاب كان مقتصدا أو سابقا كذلك من اجتنب الكبائر كفرت عنه السيئات كما قال تعالى {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} النساء ٣١ فلابد أن يكون هناك ظالم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٧٩-٨٢

لنفسه موعود بالجنة ولو بعد عذاب يطهر من الخطايا فان النبى ذكر أن ما يصيب المؤمن فى الدنيا من المصائب مما يجزى به ويكفر عنه خطاياه كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه وفى المسند وغيره أنه لما نزلت هذه الآية {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ قال أبو بكر يا رسول الله جاءت فاطمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللأواء فذلك مما تجزون به و أيضا فقد تواترت الأحاديث عن النبى فى أنه يخرج أقوام من النار بعد ما دخلوها وأن النبى يشفع فى أقوام دخلوا النار [1]

## الله يحب المتقين والمحسنين

وقال تعالى {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء ١٢٣ وسيد المحبين المحبوبين خاتم الرسل وقد قال إني أعلمكم بالله واشدكم خشية له وهو سبحانه لا يحب إلا الحسنات ولا يحب السيئات وهو يحب المتقين والمحسنين والصابرين والتوابين والمتطهرين ولا يحب كل مختال فخور ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر فإذا أحب عبدا وأذنب كان من التوابين المتطهرين وبعض الناس يقول الشاب التائب حبيب الله والشيخ التائب عتيقه وليس كذلك بل كل من تاب فهو حبيب الله سواء كان شيخا أو شابا وقد روى أهل ذكرى أهل مجالستي وأهل شكري أهل زيادتي وأهل طاعتي أهل كرامتي وأهل معصيتي لا أويسهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب وهذا فعله مع عباده إذا أذنبوا إما أن يتوب عليهم وإما أن يبتليهم بما يطهرهم [2]

وما يصيب المؤمن فى الدنيا من المصائب هى بمنزلة ما تصيب االجسم من الألم يصح بها الجسم وتزول اخلاطه الفاسدة كما قال النبى ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولاهم ولا خرن ولا غم ولا اذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها خطاياه وذلك تحقيق لقوله {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ ومن لم يطهر فى هذه الدنيا من هذه الأمراض فيؤب صحيحا والا احتاج ان يطهر منها فى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٨٥-٤٨٦

[2] رسالة في تحقيق الشكر ج: ١ ص: ١١٥

الآخرة فيعذبه الله كالذى اجتمعت فيه اخلاطه ولم يستعمل الأدوية لتخفيفها عنه فتجتمع حتى يكون هلاكه بها ولهذا جاء فى الأثر اذا قالوا للمريض اللهم ارحمه يقول الله كيف أرحمه من شئ به أرحمه وقال النبى المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها وكما ان امراض الجسم ما إذا مات الانسان منه كان شهيدا كالمطعون والمبطون وصاحب ذات الجنب وكذلك الميت بغرق او حرق او هدم فمن أمراض النفس ما اذا اتقى العبد ربه فيه وصبر عليه حتى مات كان شهيدا كالجبان الذى يتقى الله ويصبر للقتال حتى يقتل فان البخل والجبن من امراض النفوس ان اطاعة أوجب له الألم وان عصاه تألم كامراض الجسم وكذلك العشق فقد روى من عشق فعف وكتم وصبر ثم مات مات شهيدا فانه مرض فى النفس يدعو الى ما يضر النفس كما يدعو الى تناول ما يضر فان اطاع هواه عظم عذابه فى الآخرة وفى الدنيا ايضا وان عصى الهوى بالعفة الكتمان صار فى نفسه من الألم والسقم ما فيها فاذا مات من ذلك المرض كان شهيدا هواه يدعوه الى النار فيمنعه كالجبان تمنعه نفسه عن الجنة فيقدمها فهذه الأمراض إذا كان معها ايمان وتقوى كانت كما قال النبى لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له ان اصابته سراء فشكر كان خيرا له وان اصابته ضراء فصبر خيرا له والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين وسلم تسليما [1]

## الظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى

والظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى بإتفاق المسلمين وقيل الظلم وضع الشىء فى غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئا قال تعالى {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً}طه١١٢ قال المفسرون هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه والهضم أن يهضم من حسناته [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٤٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢١٩

## من اتقى الله فى عمل تقبله منه وان كان عاصيا فى غيره

تنازع الناس فى قوله {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}المائدة٢٧ فعلى قول الخوارج والمعتزلة لاتقبل حسنة الا ممن اتقاه مطلقا فلم يأت كبيرة وعند المرجئة انما يتقبل ممن اتقى الشرك فجعلوا اهل الكبائر داخلين في اسم المتقين وعند اهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصا لله موافقا لأمر الله فمن اتقاه في عمل تقبله منه وان كان عاصيا فى غيره ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وان كان مطيعا في غيره والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المامور بها دون بعض اذا لم يكن المتروك شرطا في صحة المفعول كالايمان المشروط فى غيره من الاعمال كما قال الله تعالى {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً}الإسراء١٩ وقال تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}النحل٩٧ {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ}النساء١٢٤ وقال {وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}البقرة٢١٧ [1]

## الفضيلة الدائمة فى الإيمان والعمل الصالح

وأما الفضيلة الدائمة فى كل وقت ومكان ففى الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{١١١} بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{١١٢} البقرة١١١-١١٢ وإسلام الوجه لله تعالى هو إخلاص القصد والعمل له والتوكل عليه كما قال تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣٢٢

وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة٥ وقال {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود١٢٣ وقال تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} هود٨٨ [١]

وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة الا فى محبة الله والتقرب اليه بما يحبه ولا تمكن محبته الا بالاعراض عن كل محبوب سواه وهذا حقيقة لا إله إلا الله وهى ملة ابراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين وكان النبى يقول لأصحابه قولوا أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين والحنيف للسلف فيه ثلاث عبارات قال محمد ابن كعب مستقيما وقال عطاء مخلصا وقال آخرون متبعا فهو مستقيم القلب الى الله دون ما سواه قال الله تعالى {فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ} فصلت٦ وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} الأحقاف١٣ قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فلم يلتفتوا عنه يمنه ولا يسرة فلم يلتفتوا بقلوبهم الى ما سواه لا بالحب ولا بالخوف ولا بالرجاء ولا بالسؤال ولا بالتوكل عليه بل لا يحبون الا الله ولا يحبون معه أندادا ولا يحبون الا اياه لا لطلب منفعة ولا لدفع مضرة ولا يخافون غيره كائنا من كان ولا يسالون غيره ولا يتشرفون بقلوبهم الى غيره [٢]

وقد يقال إن الإيمان أرجح من الكفر إذا احتيج إلى المفاضلة عند من يظن أن ذلك أرجح وكذلك يقال في الخير والشر وأما في جانب التفضيل فقال تعالى {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{١٢٣} وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً{١٢٤} وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً{١٢٥} النساء ١٢٣ - ١٢٥ [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٤٦

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٣

[٣] منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ٤٨١

## نفى أن يكون دين احسن من هذا الدين

قال الله تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ فنفى أن يكون دين احسن من هذا الدين و انكر على من اثبت دينا احسن منه لأن هذا استفهام انكار و هو انكار نهي و ذم لمن جعل دينا أحسن من هذا قال قتادة و الضحاك و غيرهما ان المسلمين و اهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم و كتابنا قبل كتابكم و نحن أولى بالله منكم و قال المسلمون نحن أولى بالله تعالى منكم و نبينا خاتم النبيين و كتابنا يقضي على الكتب التى كانت قبله فأنزل الله تعالى {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً}النساء١٢٣ الآية وروى سفيان عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال لما نزلت هذه الآية {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ قال أهل الكتاب نحن و أنتم سواء حتى نزلت {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً}النساء١٢٤ و نزلت فيهم أيضا {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله}النساء١٢٥ الآية وقد روى عن مجاهد قال قالت قريش لا نبعث أولا نحاسب و قال أهل الكتاب {لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}البقرة٨٠ فأنزل الله عز وجل{لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ}النساء١٢٣ و هذا يقتضي أنها خطاب للكفار من الأميين و أهل الكتاب لاعتقادهم أنهم لا يعذبون العذاب الدائم و الأول أشهر في النقل و اظهر فى الدليل لأن السورة مدنية بالاتفاق فالخطاب فيها مع المؤمنين كسائر السور المدنية وأيضا فانه قد استفاض من وجوه متعددة أنه لما نزل قوله تعالى {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ شق ذلك على أصحاب النبى صلى الله عليه و سلم حتى بين لهم النبى صلى الله عليه و سلم أن مصائب الدنيا من الجزاء و بها يجزي المؤمن فعلم انهم مخاطبون بهذه الآية لا مجرد الكفار وأيضا قوله بعد هذا {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً}النساء١٢٤ و قوله {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً}النساء١٢٥ يدل على أن هناك

تنازعا في تفضيل الأديان لا مجرد انكار عقوبة بعد الموت و أيضا فما قبلها و ما بعدها خطاب مع المؤمنين و جواب لهم فكان المخاطب فى هذه الآية هو المخاطب فى بقية الأيات فان قيل الآية نص فى نفي دين أحسن من دين هذا المسلم لكن من أين أنه ليس دين مثله فان الاقسام ثلاثة إما أن يكون ثم دين أحسن منه أو دونه أو مثله و قد ثبت أنه لاأحسن منه فمن أين فى الآية أنه لا دين مثله و نظيرها قوله {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} فصلت٣٣ قيل لو قلنا فى هذا المقام إن الآية لم تدل إلا على نفي الأحسن لم يضر هذا فان الخطاب له مقامات قد يكون الخطاب تارة باثبات صلاح الدين إذا كان المخاطب يدعى أو يظن فساده ثم في مقام بأن يقع النزاع فى التفاضل فيبين أن غيره ليس أفضل منه ثم فى مقام ثالث يبين أنه أفضل من غيره و هكذا إذا تكلمنا فى أمر الرسول ففي مقام نبين صدقه و صحة رسالته و في مقام بأن نبين أن غيره ليس أفضل منه و فى مقام ثالث نبين أنه سيد ولد آدم و ذلك أن الكلام يتنوع بحسب حال المخاطب ثم نقول يدل على أن هذا الدين أحسن وجوه أحدها أن هذه الصيغة و ان كانت فى أصل اللغة لنفي الأفضل لدخول النفي على أفعل فانه كثيرا ما يضمر بعرف الخطاب يفضل المذكور المجرور بمن مفضلا عليه في الاثبات فانك إذا قلت هذا الدين أحسن من هذا كان المجرور بمن مفضلا عليه و الأول مفضلا فاذا قلت لاأحسن من هذا أو من أحسن من هذا أو ليس فيهم أفضل من هذا أو ما عندي أعلم من زيد أو ما فى القوم أصدق من عمرو أو ما فيهم خير منه فان هذا التأليف يدل على أنه أفضلهم و أعلمهم و خيرهم بل قد صارت حقيقة عرفية فى نفي فضل الداخل في أفعل و تفضيل المجرور على الباقين و أنها تقتضي نفي فضلهم و اثبات فضله عليهم و ضمنت معنى الاستثناء كأنك قلت ما فيهم أفضل إلا هذا أو ما فيهم المفضل إلا هذا كما أن إن إذا كفت بما النافية صارت متضمنة للنفي و الاثبات وكذلك الاستثناء و ان كان فى الأصل للاخراج من الحكم فانه صار حقيقة عرفية فى مناقضة المستثنى منه فالاستثناء من النفي اثبات ومن الاثبات نفي و اللفظ يصير بالاستعمال له معنى غير ما كان يقتضيه أصل الوضع وكذلك يكون في الاسماء المفردة تارة و يكون في تركيب الكلام أخرى و يكون فى الجمل المنقولة كالأمثال السائرة جملة فيتغير الاسم المفرد بعرف الاستعمال عما كان عليه فى الأصل إما بالتعميم و اما بالتخصيص و اما بالتحويل كلفظ الدابة و الغائط و الرأس و يتغير التركيب بالاستعمال عما كان يقتضيه نظائره كما فى زيادة حرف النفي فى الجمل السلبية و زيادة النفي فى كاد و بنقل الجملة عن معناها الأصلي إلى غيره كالجمل المتمثل بها كما فى قولهم يداك أو كتا و فوك نفخ و عسى الغوير بؤسا الوجه الثاني أنه إذا كان

لا دين أحسن من هذا فالغير اما أن يكون مثله أو دونه و لا يجوز أن يكون مثله لأن الدين إذا ماثل الدين و ساواه فى جميع الوجوه كان هو اياه وان تعدد الغير لكن النوع واحد فلا يجوز أن يقع التماثل و التساوي بين الدينين المختلفين فان اختلافهما يمنع تماثلهما إذ الاختلاف ضد التماثل فكيف يكونان مختلفين متماثلين و اختلافهما اختلاف تضاد لا تنوع فان أحد الدينين يعتقد فيه أمور على أنها حق و اجب و الآخر يقول إنها باطل محرم فمن المحال استواء هذين الاعتقادين وكذلك الاقتصادات فإن هذا يقصد المعبود بأنواع من المقاصد و الأعمال و الآخرة يقصده بما يضاد ذلك و ينافيه و ليس كذلك تنوع طرق المسلمين و مذاهبهم فان دينهم واحد كل منهم يعتقد ما يعتقده الآخر و يعبده بالدين الذي يعبده و يسوغ أحدهما للآخر أن يعمل بما تنازع فيه من الفروع فلم يختلفا بل نقول أبلغ من هذا أن القدر الذي يتنازع فيه المسلمون من الفروع لابد أن يكون أحدهما أحسن عند الله فان هذا مذهب جمهور الفقهاء الموافقين لسلف الأمة على أن المصيب عند الله واحد في جميع المسائل فذاك الصواب هو أحسن عند الله و ان كان احدهما يقر الآخر فالاقرار عليه لا يمنع أن يكون مفضولا مرجوحا و انما يمنع أن يكون محرما و إذا كان هذا فى دق الفروع فما الظن بما تنازعوا فيه من الأصول فانه لا خلاف بين المسلمين و لا بين العقلاء أن المصيب فى نفس الأمر واحد و إنما تنازعوا فى المخطىء هل يغفر له أولا يغفر و هل يكون مصيبا بمعنى أداء الواجب و سقوط اللوم لا بمعنى صحة الاعتقاد فان هذا لا يقوله عاقل أن الاعتقادين المتناقضين من كل وجه يكون كل منهما صوابا فتلخيص الأمر أن هذا المقام انما فيه تفضيل قول و عمل على قول و عمل فالأقوال و الأعمال المختلفة لابد فيها من تفضيل بعضها على بعض عند جمهور الأمة بل و من قال بأن كل مجتهد مصيب قد لا ينازع أن احدهما أحسن و أصوب و لا يدعى تماثلهما و ان ادعاه فلم يدعه إلا فى دق الفروع مع أن قوله ضعيف مخالف للكتاب و السنة و اجماع السلف و اما الحل فلم يدع مدع تساوي الاقسام فيه و هذا بخلاف التنوع المحض مثل قراءة سورة و قراءة سورة أخرى و صدقة بنوع و صدقة بنوع آخر فان هذا قد يتماثل لأن الدين واحد في ذلك من كل وجه و انما كلامنا فى الأديان المختلفة و ليس هنا خلاف بحال وإذا ثبت أن الدينين المختلفين لايمكن تماثلهما لم يحتج الى نفي هذا فى اللفظ لانتفائه بالعقل و كذلك لما سمعوا قوله {وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ}القلم٤٨ كان فى هذا ما يخاف انتقاصهم اياه هذا مع أن نصوص الكتاب و السنة و اجماع الأمة شاهدة بتفضيل النبيين على بعض و بعض الرسل على بعض قاضية لأولى العزم بالرجحان شاهدة بأن محمدا صلى الله عليه و سلم سيد ولد آدم و أكرم الخلق على ربه لكن

تفضيل الذين الحق أمر لابد من اعتقاده و لهذا ذكره الله فى الآية     واما تفضيل الاشخاص فقد لا يحتاج اليه فى كل و قت فالدين الواجب لابد من تفضيله إذا الفضل يدخل فى الوجوب و إذا وجب الدين به دون خلافه فلأن يجب اعتقاد فضله أولى وأما الدين المستحب فقد لايشرع اعتقاد فعله الا فى حق من شرع له فعل ذلك المستحب و الا فمن الناس من يضره إذا سلك سبيلا من سبل السلام الاسلامية أن يرى غيره أفضل منها لأنه يتشوف الى الأفضل فلا يقدر عليه و المفضول يعرض عنه     وكما أنه ليس من مصلحته أن يعرف أفضل من طريقته إذا كان يترك طريقته و لا يسلك تلك فليس أيضا من الحق أن يعتقد أن طريقته افضل من غيرها بل مصلحته أن يسلك تلك الطريقة المفضية به الى رحمة الله تعالى فان بعض المتفقهة يدعون الرجل الى ما هو أفضل من طريقته عندهم و قد يكونون مخطئين فلا سلك الأول و لا الثاني و بعض المتصوفة المريد يعتقد أن شيخه أكمل شيخ على وجه الأرض و طريقته أفضل الطرق و كلاهما انحراف بل يؤمر كل رجل أن يأتي من طاعة الله و رسوله بما استطاعه و لا ينقل من طاعة الله و رسوله بطريقته و ان كان فيها نوع نقص أو خطأ و لا يبين له نقصها إلا إذا نقل الى ما هو أفضل منها و الا فقد ينفر قلبه عن الأولى بالكلية حتى يترك الحق الذي لايجوز تركه و لا يتمسك بشيء آخر

وهذا باب واسع ليس الغرض هنا استقصاؤه و هو مبني على أربعة أصول أحدها     معرفة مراتب الحق و الباطل و الحسنات و السيئات و الخير و الشر ليعرف خير الخيرين و شر الشرين     الثاني     معرفة ما يجب من ذلك و مالا يجب و ما يستحب من ذلك و مالا يستحب     الثالث     معرفة شروط الوجوب و الاستحباب من الامكان و العجز و أن الوجوب و الاستحباب قد يكون مشروطا بامكان العلم و القدرة     الرابع     معرفة أصناف المخاطبين و أعيانهم ليؤمر كل شخص بما يصلحه أو بما هو الاصلح له من طاعة الله و رسوله و ينهي عما ينفع نهيه عنه و لا يؤمر بخير يوقعه فيما هو شر من المنهي عنه مع الاستغناء عنه وهذا القدر الذي دلت عليه هذه الآية من أن دين من أسلم وجهه لله و هو محسن و اتبع ملة ابراهيم هو أحسن الأديان أمر متفق عليه بين المسلمين معلوم بالاضطرار من دين الاسلام بل من يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه و هو فى الآخرة من الخاسرين{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران٨٥     ولكن كتاب الله هو حاكم بين أهل الأرض فيما اختلفوا فيه و مبين وجه الحكم فانه بين بهذه الآية وجه التفضيل بقوله     {أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله}النساء١٢٥     و بقوله     {وَهُوَ مُحْسِنٌ}النساء١٢٥     فان الأول بيان نيته و

قصده و معبوده و إلهه و قوله {وَهُوَ مُحْسِنٌ}النساء١٢٥ فانتفى بالنص نفي ما هو أحسن منه و بالعقل ما هو مثله فثبت أنه أحسن الأديان الوجه الثالث أن النزاع كان بين الأمتين أي الدينين أفضل فلم يقل لهما أن الدينين سواء و لا نهوا عن تفضيل أحدهما لكن حسمت مادة الفخر و الخيلاء و الغرور الذي يحصل من تفضيل أحد الدينين فان الانسان إذا استشعر فضل نفسه أو فضل دينه يدعوه ذلك الى الكبر و الخيلاء و الفخر فقيل للجميع {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}النساء١٢٣ سواء كان دينه فاضلا أو مفضولا فان النهي عن السيئات و الجزاء عليها و اقع لا محالة قال تعالى {وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً{١} الذاريات١ الى قوله {وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ{٦} الذاريات٦ فلما استشعر المؤمنون أنهم مجزيون على السيئات و لا يغنى عنهم فضل دينهم و فسر لهم النبى صلى الله عليه و سلم أن الجزاء قد يكون فى الدنيا بالمصائب بين بعد ذلك فساد دين الكفار من المشركين و أهل الكتاب بقوله {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى}النساء١٢٤ الآية فبين أن العمل الصالح إنما يقع الجزاء عليه في الآخرة مع الايمان و ان كان قد يجزى به صاحبه في الدينا بلا ايمان فوقع الرد على الكفار من جهة جزائهم بالسيئات و من جهة أن حسناتهم لا يدخلون بها الجنة الا مع الايمان ثم بين بعد هذا فضل الدين الاسلامي الحنفي بقوله {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً}النساء١٢٥ فجاء الكلام فى غاية الاحكام ومما يشبه هذا من بعض الوجوه نهى النبى صلى الله عليه و سلم أن يفضل بين الأنبياء التفضيل الذي فيه انتقاص المفضول و الغض منه كما قال صلى الله عليه و سلم لاتفضلوا بين الأنبياء و قال لاتفضلوني على موسى بيان لفضله و بهذين يتم الدين فاذا كان الله هو المعبود و صاحبه قد أخلص له و انقاد و عمله فعل الحسنات فالعقل يعلم أنه لا يمكن أن يكون دين أحسن من هذا بخلاف دين من عند غير الله و أسلم وجهه له أو زعم أنه يعبد الله لا باسلام وجهه جهه بل يتكبر كاليهود و يشرك كالنصارى أولم يكن محسنا بل فاعلا للسيئات دون الحسنات و هذا الحكم عدل محض و قياس و قسط دل القرآن العقلاء على وجه البرهان فيه وهكذا غالب ما بينه القرآن فانه يبين الحق و الصدق و يذكر أدلته و براهينه ليس يبينه بمجرد الاخبار عن الأمر كما قد يتوهمه كثير من المتكلمة و المتفلسفة أن دلالته سمعية خبرية و أنها واجبة لصدق المخبر بل دلالته أيضا عقلية برهانية و هو مشتمل من الأدلة و البراهين على أحسنها و أتمها بأحسن بيان لمن كان له فهم و عقل بحيث إذا أخذ ما فى القرآن من ذلك و

بين لمن لم يعلم أنه كلام الله أو لم يعلم صدق الرسول أو يظن فيه ظنا مجردا عن ما يجب من قبول قول المخبر كان فيه ما يبين صدقه و حقه و يبرهن عن صحته [1]

## الشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها

والشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فهي تأمر بما تترجح مصلحته وإن كان فيه مفسدة مرجوحة كالجهاد وتنهى عما ترجحت مفسدته وإن كان فيه مصلحة مرجوحة كتناول المحرمات من الخمر وغيره ولهذا أمر تعالى أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا فالأحسن إما واجب وإما مستحب قال تعالى {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}الأعراف١٤٥ وقال {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم}الزمر٥٥ فأمر باتباع الأحسن والأخذ به وقال تعالى {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ}الزمر١٨ فاقتضى أن غيرهم لم يهده وهذا يقتضي وجوب الأخذ بالأحسن وهو مشكل وقد تكلم الناس فيه ونظيره قوله تعالى {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ}الإسراء٥٣ وقد يقال هذا نظير قوله تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ ونظائر هذا كثيرة مما يذكر فيه أن المأمور به خير وأحسن من المنهي عنه وإن كان الأول واجبا والثاني محرما وذلك لأن المأمور به قد يشتمل على مفسدة مرجوحة والمنهي عنه يشتمل على مصلحة مرجوحة فيكون باعتبار ذلك في هذا خير وحسن وفي هذا شر وسيىء لكن هذا خير وأحسن وإن كان واجبا فقوله تعالى {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم}الزمر٥٥ هو أمر بالأحسن من فعل المأمور أو ترك المحظور وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب فإن كلاهما أحسن من المحرم والمكروه لكن يكون الأمر أمر إيجاب وأمر استحباب كما امر

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٤٢٦-٤٣٧

بالإحسان في قوله تعالى {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} القصص٧٧والإحسان منه واجب ومنه مستحب [١]

ونحن علينا أن نتبع ما أنزل الينا من ربنا من الكتاب والحكمة ونلزم الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ونعتصم بحبل الله جميعا ولا نتفرق ونأمر بما أمر الله به وهو المعروف وننهى عما نهى عنه وهو المنكر وأن نتحرى الاخلاص لله فى أعمالنا فان هذا هو دين الإسلام قال الله تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} النساء١٢٥ [٢]

## دين الإسلام هو دين الله الذي جاء به أنبياؤه

فقوله تعالى {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ} آل عمران٨٥ عام في الأولين والآخرين بأن دين الإسلام هو دين الله الذي جاء به أنبياؤه وعليه عبادة المؤمنون كما ذكر الله ذلك في كتابه من أول رسول بعثه إلى أهل الأرض نوح وإبراهيم وإسرائيل وموسى وسليمان وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين قال الله تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} النساء١٢٥ [٣]

ان أحسن الأديان دين من يعبد الله و حده لايشرك به شيئا بشرط أن تكون عبادته بفعل الحسنات التى شرعها لا بالبدع و الأهواء و هم أهل ملة إبراهيم الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} النساء١٢٥ فكان في الأمر بطاعة

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ١٧-١٨

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٥١٥

[٣] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٤٥١ و الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٣٢

الرسول و الجهاد عليها اتباع التوحيد ملة ابراهيم و هو اخلاص الدين لله و ان يعبد الله بما أمر به على ألسن رسله من الحسنات [1]

وشرع من قبلنا شرع لنا لا سيما شرع إبراهيم فإنا مأمورون باتباع ملته بقوله تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} النساء١٢٥ [2]

ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} الزمر٢٩ فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة قولنا لا إله إلا الله فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر٦٠ وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان فقيل له يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذلك قال لا إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس بطر الحق جحده ودفعه وغمط الناس ازدراؤهم واحتقارهم [3]

دين الإسلام الذي بعث الله به جميع الرسل وهو عبادة الله وحده لا شريك له فإن هذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين دينا غيره وكذلك الإسلام العام قال تعالى {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{١١١} بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{١١٢} البقرة١١١- ١١٢

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٣١

[2] شرح العمدة ج: ٢ ص: ٢٠١

[3] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٤٥٤

وقال ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾{١٢٥} النساء ١٢٥ وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي ولهذا ترجم البخاري على ذلك باب من جاء في أن دين الأنبياء واحد [1]

## صار الناس فى مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال

وقد صار الناس فى مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال قيل هو الإيمان وهما إسمان لمسمى واحد وقيل هو الكلمة وهذان القولان لهما وجه سنذكره لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبى صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والايمان ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة والايمان بالإيمان بالاصول الخمسة فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والايمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبى وأما اذا أفرد اسم الايمان فانه يتضمن الاسلام واذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمنا بلا نزاع وهذا هو الواجب وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن قد تقدم الكلام فيه وكذلك هل يستلزم الاسلام للايمان هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه والوعد الذى فى القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب إنما هو معلق باسم الايمان وأما اسم الاسلام مجردا فما علق به فى القرآن دخول الجنة لكنه فرضه واخبر أنه دينه الذى لا يقبل من أحد سواه وبالاسلام بعث الله جميع النبيين قال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾آل عمران١٩ وكذلك أخبر عن ابراهيم أن دينه الاسلام فقال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾النساء١٢٥ وبمجموع هذين الوصفين علق السعادة فقال ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾البقرة١١٢ كما علقه بالايمان باليوم الاخر والعمل الصالح فى قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾البقرة٦٢ وهذا يدل على أن الاسلام الذى هو اخلاص الدين لله مع الاحسان وهو العمل الصالح الذى أمر الله به

---

[1] الصفدية ج: ٢ ص: ٣٠٥

هو والايمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان فان الوعد على الوصفين وعد واحد وهو الثواب وانتفاء العقاب [1]

ولفظ الاسلام يتضمن الاسلام ويتضمن إخلاصه لله وقد ذكر ذلك غير واحد حتى أهل العربية كأبي بكر بن الأنباري وغيره ومن المفسرين من يجعلهما قولين كما يذكر طائفة منهم البغوي أن المسلم هو المستسلم لله وقيل هو المخلص والتحقيق أن المسلم يجمع هذا وهذا فمن لم يستسلم له لم يكن مسلما ومن استسلم لغيره كما يستسلم له لم يكن مسلما ومن استسلم له وحده فهو المسلم كما في القرآن {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ والاستسلام له يتضمن الاستسلام لقضائه وأمره ونهيه فيتناول فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}يوسف٩٠ قال ابن أبي حاتم حدثنا عصام بن وراد حدثنا آدم عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله بلى من أسلم وجهه لله يقول من أخلص لله قال ابن أبي حاتم وروى عن الربيع نحو ذلك وقال ذكر عن يحيى بن آدم حدثنا ابن المبارك عن حيوة بن شريح عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير من أسلم وجهه لله من أسلم أخلص وجهه قال دينه وقال أبو الفرج أسلم بمعنى أخلص وفي الوجه قولان أحدهما أنه الدين والثاني العمل وقال البغوي من أسلم وجهه لله أخلص دينه لله وقيل أخلص عبادته لله وقيل خضع وتواضع لله وأصل الاسلام الاستسلام والخضوع وخص الوجه لأنه إذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه وهو محسن في عمله قيل مؤمن وقيل مخلص قلت قول من قال خضع وتواضع لربه هو داخل في قول من قال أخلص دينه أو عمله أو عبادته لله فان هذا إنما يكون اذا خضع له وتواضع له دون غيره فان العبادة والدين والعمل له لا يكون الا مع الخضوع له والتواضع له وهو مستلزم لذلك ولكن أولئك ذكروا مع هذا أن يكون هذا الاسلام لله وحده فذكروا المعنيين الاستلزام وأن يكون لله وقول من قال خضع وتواضع لله يتضمن أيضا أنه أخلص عبادته ودينه لله فان ذلك يتضمن الخضوع والتواضع لله دون غيره وأما ذكر التوجه فقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع وتبين أن الله ذكر إسلام الوجه له في قوله فأقم وجهك للدين وذكر توجيه الوجه له في قوله {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً}الأنعام٧٩

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٥٩-٢٦١

لان الوجه إنما يتوجه الى حيث توجه القلب والقلب هو الملك فاذا توجه الوجه نحو جهة كان القلب متوجها اليها ولا يمكن الوجه أن يتوجه بدون القلب فكان إسلام الوجه وإقامته وتوجيهه مستلزما لاسلام القلب وإقامته وتوجيهه وذلك يستلزم اسلام كله لله وتوجيه كله لله وإقامة كله لله وبسط الكلام على ما يناسب ذلك [١]

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم انا معاشر الانبياء ديننا واحد وهو الاسلام وهو الاستسلام لله لا لغيره بأن تكون العبادة والطاعة له والذل وهو حقيقة لا اله الا الله ولا ريب أن ما سوى هذا لا يقبل وهو سبحانه يطاع فى كل زمان بما امر به فى ذلك الزمان فلا اسلام بعد مبعث محمد الا فيما جاء به وطاعته وهى ملة ابراهيم التى لا يرغب عنها الا من سفه نفسه وهو الأمة الذى يؤتم به كما أن القدوة هو الذى يقتدى به وهو الامام كما فى قوله {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً}البقرة١٢٤ وهو القانت والقنوت دوام الطاعة وهو الذى يطيع الله دائما والحنيف المستقيم الى ربه دون ما سواه [٢]

فإن الحى لابد له من ارادة فلا يمكن حيا أن لا تكون له إرادة فإن الإرادة التى يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر إستحباب لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاص إن كانت واجبة وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركا لما هو خير له والله تعالى وصف الأنبياء والصديقين بهذه الإرادة فقال تعالى {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}الأنعام٥٢ وقال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ ولا عبادة إلا بإرادة الله ولما أمر به وقال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ}البقرة١١٢ أى أخلص قصده لله [٣]

---

[١] النبوات ج: ١ ص: ٧٤

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢٣٩

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٩٥

# {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}

قال تعالى {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{١١١} بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{١١٢} البقرة ١١١- ١١٢ وقال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ قال المفسرون وأهل اللغة معنى الآية أخلص دينه وعمله لله وهو محسن في عمله وقال الفراء في قوله {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ}آل عمران٢٠ أخلصت عملي وقال الزجاج قصدت بعبادتي إلى الله وهو كما قالوا كما قد ذكر توجيهه في موضع آخر وهذا المعنى يدور عليه القرآن فإن الله تعالى أمر أن لا يعبد إلا إياه وعبادته فعل ما أمر وترك ما حظر والأول هو إخلاص الدين والعمل لله والثاني هو الإحسان وهو العمل الصالح ولهذا كان عمر يقول في دعائه اللهم أجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وهذا هو الخالص الصواب كما قال الفضيل بن عياض في قوله {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}هود٧ قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة والأمر بالسنة والنهي عن البدعة هو أمر بمعروف ونهي عن منكر وهو من أفضل الأعمال الصالحة فيجب أن يبتغي به وجه الله وإن يكون مطابقا للأمر وفي الحديث من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فينبغي أن يكون عليما بما يأمر به عليما بما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه فالعلم قبل الأمر والرفق مع الأمر والحلم بعد الأمر فإن لم يكن عالما لم يكن له أن يقفو ما ليس له به علم وإن كان عالما ولم يكن رفيقا كان كالطبيب الذي لا رفق فيه فيغلظ على المريض

وانما ينجو العبد بملازمة امر الله الذي بعث به رسوله في كل وقت كما قال الزهري كان من مضى من سلفنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة وذلك ان السنة كما قال مالك رحمه الله مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك الاسماء مقصودها واحد ولها اصلان احدهما الا يعبد الا الله و الثاني اني يعبد بما امر وشرع لا

بغير ذلك من البدع قال تعالى {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}الكهف١١٠ وقال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}البقرة١١٢ وقال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ فالعمل الصالح هو الاحسان وهو فعل الحسنات و الحسنات هي ما احبه الله ورسوله وهو ما امر به امر ايجاب او استحباب فما كان من البدع في الدين التى ليست مشروعة فان الله لا يحبها ولا رسوله فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح كما ان يعمل مالا يجوز كالفواحش والظلم ليس من الحسنات ولا من العمل الصالح [1]

وقوله إنما الأعمال بالنيات إلخ يبين العمل الباطن وإن التقرب إلى الله إنما يكون بالإخلاص فى الدين لله كما قال الفضيل فى قوله تعالى {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}هود٧ قال أخلصه وأصوبه قال فإن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا لم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وعلى هذا دل قوله تعالى {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}الكهف١١٠ فالعمل الصالح هو ما أمر الله به ورسوله أمر إيجاب أو أمر إستحباب وأن لا يشرك العبد بعبادة ربه أحدا وهو إخلاص الدين لله وكذلك قوله تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}البقرة١١٢ الآية وقوله {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً}النساء١٢٥ وقوله {وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}لقمان٢٢ فإن إسلام الوجه لله يتضمن إخلاص العمل لله والإحسان هو إحسان العمل لله وهو فعل ما أمر به فيه كما قال تعالى كما قال تعالى {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}الكهف١١٠ فإن الإساءة فى العمل الصالح تتضمن الإستهانة بالأمر به والإستهانة بنفس العمل والإستهانة بما وعده الله من الثواب فإذا اخلص العبد دينه لله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٧٣ -١٧٤ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٧٥ و النبوات ج: ١ ص: ٩٣

وأحسن العمل له كان ممن أسلم وجهه لله وهو محسن فكان من الذين لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون [1]

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا ومنه قوله تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة١١٢ وقال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} النساء١٢٥ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري فاني منه بريء وهو كله للذي أشرك به وفي السنن عن العرباض بن سارية قال وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يا رسول الله كأنها موعظة مودع فماذا تعهد إلينا فقال أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد وفي لفظ من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد وفي صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبته إن أحسن الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة [2]

والله تعالى فطر العباد على الإقرار به ومحبته وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء أخرجاه في الصحيحين وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٢٥٠

[2] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٤٨ و مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ١٨٨-١٨٩

وتعالى إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا [1]

أن دين الله الذى أنزل به كتبه وبعث به رسله ما تقدم من إرادة الله وحده بالعمل الصالح وهذا هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد غيره قال تعالى {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}آل عمران٨٥ وقال تعالى {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {١٨} إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ {١٩} آل عمران١٨-١٩ والاسلام يجمع معنيين أحدهما الاستسلام والانقياد فلا يكون متكبرا والثانى الاخلاص من قوله تعالى{وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ}الزمر٢٩ فلا يكون مشركا وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين كما قال تعالى {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ{١٣٠} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{١٣١} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{١٣٢} البقرة ١٣٠-١٣٢وقال تعالى {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{١٦١} قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{١٦٢} لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ{١٦٣}الاتعام ١٦١-١٦٣والاسلام يستعمل لا زما معدى بحرف اللام مثل ما ذكر فى هذه الآيات ومثل قوله تعالى {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ}الزمر٥٤ ومثل قوله تعالى {قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}النمل٤٤ ومثل قوله {أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} آل عمران٨٣ ومثل قوله {قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {٧١} وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ{٧٢}الأنعام٧١ - ٧٢ ويستعمل متعديا مقرونا بالاحسان كقوله تعالى{وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{١١١} بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ

---

[1] الصفدية ج: ٢ ص:٢٦٢- ٢٦٣

يَحْزَنُونَ{١١٢}البقرة١١١-١١٢ وقوله {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ فقد انكر أن يكون دين أحسن من هذا الدين وهو اسلام الوجه لله مع الاحسان وأخبر ان كل من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون أثبتت هذه الكلمة الجامعة والقضية العامة ردا لم زعم من زعمه أن لا يدخل الجنة الا متهود او متنصر وهذان الوصفان وهما اسلام الوجه لله والاحسان هما الأصلان المتقدمان وهما كون العمل خالصا لله صوابا موافقا للسنة والشريعة وذلك ان اسلام الوجه لله هو متضمن للقصد ونيه لله كما قال بعضهم استغفر الله ذنبا لست محصيه رب العباد اليه الوجه والعمل وقد استعمل هنا أربعة ألفاظ إسلام الوجه واقامة الوجه كقوله تعالى{وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ}الأعراف٢٩ وقوله {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}الروم٣٠ وتوجيه الوجه كقول الخليل {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}الأنعام٧٩ وكذلك كان النبى يقول فى دعاء الاستفتاح فى صلاته وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين وفى الصحيحين عن البراء بن عازب عن النبى صلى الله عليه وسلم مما يقول اذا أوى الى فراشه اللهم اسلمت نفسى اليك ووجهت وجهى اليك فالوجه يتناول المتوجه اليه ويتناول المتوجه نحوه كما يقال أى وجه تريد أى أى وجهة وناحية تقصد وذلك أنهما متلازمان فحيث توجه الأسنان توجه وجهه ووجهه مستلزم لتوجهه وهذا فى باطنه وظاهره جميعا فهذه أربعة أمور والباطن هو الأصل والظاهر هو الكمال والشعار فاذا توجه قلبه الى شئ تبعه وجهه الظاهر فاذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه الى الله فهذا اصلاح ارادته وقصده فاذا كان مع ذلك محسنا فقد اجتمع أن يكون عمله صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وهو قول عمر رضى الله عنه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا والعمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات وهو ما أمر الله به والذى أمر الله به هو الذى شرعه الله وهو الموافق لسنة الله وسنة رسوله فقد أخبر الله تعالى انه من أخلص قصده لله وكان محسنا فى عمله فانه مستحق للثواب سالم من العقاب ولهذا كان أئمة السلف يجمعون هذين الأصلين كقول الفضيل ابن عياض فى قوله تعالى {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}هود٧ قال أخلصه وأصوبه فقيل يا أبا على ما اخلصه وأصوبه فقال ان العمل اذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل واذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وقد روى ابن شاهين

واللالكائى عن سعيد بن جبير قال لا يقبل قول وعمل الا بنية ولا يقبل قول وعمل ونية الا بموافقة السنة ورويا عن الحسن البصرى مثله ولفظه لا يصلح مكان يقبل وهذا فيه رد على المرجئة الذين يجعلون مجرد القول كافيا فأخبر أنه لابد من قول وعمل اذ الايمان قول وعمل لا بد من هذين كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع وبينا أن مجرد تصديق القلب واللسان مع البغض والاستكبار لا يكون ايمانا باتفاق المؤمنين حتى يقترن بالتصديق عمل وأصل العمل عمل القلب وهو الحب والتعظيم المنفى للبغض ولاستكبار ثم قالوا ولا يقبل قول وعمل الا بنية وهذا ظاهر فان القول والعمل اذا لم يكن خالصا لله تعالى لم يقبله الله تعالى ثم قالوا ولا يقبل قول وعمل ونية الا بموافقة السنة وهى الشريعة وهى ما أمر الله به ورسوله لأن القول والعمل والنية الذى لا يكون مسنونا مشروعا قد أمر الله به يكون بدعة ليس مما يحبه الله فلا يقبله الله ولا يصلح مثل أعمال المشركين وأهل الكتاب ولفظ السنة فى كلام السلف يتناول السنة فى العبادات وفى الإعتقادات وان كان كثير ممن صنف فى السنة يقصدون الكلام فى الاعتقادات وهذا كقول ابن مسعود وأبى بن كعب وابى بن كعب وابى الدرداء رضى الله عنهم اقتصاد فى سنة خير من اجتهاد من اجتهاد فى بدعة وأمثال ذلك والحمد لله رب العالمين وصلواته على محمد وآله الطاهرين وأصحابة أجمعين [1]

فإن التزكي هو التطهر و التبرك بترك السيئات الموجب زكاة النفس كما قال {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى}الاعلى١٤ و لهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء و الزيادة و تارة بالنظافة و الإماطة و التحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين إزالة الشر و زيادة الخير و هذا هو العمل الصالح و هو الإحسان و ذلك لا ينفع إلا بالإخلاص لله و عبادته و حده لا شريك له الذي هو أصل الإيمان و هو قول {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} الاعلى١٥ فهذه الثلاث قد يقال تشبه الثلاث التى يجمع الله بينها في القرآن فى مواضع مثل قوله في أول البقرة {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{٢} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{٣}البقرة ٢-٣ و مثل قوله {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ}التوبة٥ {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}التوبة١١ و قد يقال تشبه الثنتين المذكورتين في قوله {مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً}البقرة٦٢ و قوله {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص:١٧٣- ١٧٦ و الاستقامة ج: ٢ ص: ٣٠٤-٣١١

وَهُوَ مُحْسِنٌ}النساء١٢٥ فإن إبراهيم صاحب الملة و إمام الأمة قال الله تعالى {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}النحل١٢٣ و قال{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ}البقرة١٣٠ وقال {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ و قال {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً}النحل١٢٠ و قال {جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً}البقرة١٢٤ وقيل في إبراهيم {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ و أصل الخلة عبادة الله و حده و العبادة غاية الحب و الذل [١]

## الله سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية

واما محبة الرب سبحانه لعبده فقال تعالى {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ وقال تعالى {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}المائدة٥٤ وقال تعالى {وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}البقرة١٩٥ {وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}الحجرات٩ {فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}التوبة٤ {فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}التوبة٧ {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ}الصف٤ {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}آل عمران٧٦ واما الأعمال التى يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة وكذلك حبه لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة والذى عليه سلف الأمة وأئمتها واهل السنة والحديث وجميع مشائخ الدين المتبعون وائمة التصوف ان الله سبحانه محبوب لذاته محبة حقيقية بل هى اكمل محبة فانها كما قال تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ}البقرة١٦٥ وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية وانكرت الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين زعما منهم ان المحبة لا تكون الا لمناسبة بين

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٩٨-٢٠١

المحب والمحبوب وانه لامناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة وكان اول من ابتدع هذا فى الاسم هو الجعد بن درهم فى اوائل المائة الثانية فضحى به خالد ين بن عبد الله القسرى امير العراق والمشرق بواسط خطب الناس يوم الأضخى فقال ايها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فانى مضح بالجعد بن ردهم انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ثم نزل فذبحه وكان قد اخذ هذا المذهب عنه الجهم بن صفوان فأظهره وناظر عليه واليه اضيف قول الجهمية فقتله سلم بن احوز امير خراسان بها ثم انتقل ذلك الى المعتزلة اتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم اثناء خلافة المأمون حتى امتحن ائمة الاسلام ودعوا الى الموافقة لهم على ذلك واصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة اهل الكتاب الذين يزعمون ان الرب ليس له صفة ثبوتية اصلا وهؤلاء هم اعداء ابراهيم الخليل عليه السلام وهم يعبدون الكواكب ويبنون الهياكل للعقول والنجوم وغيرها وهم ينكرون فى الحقيقة ان يكون ابراهيم خليلا وموسى كليما لأن الخلة هى المحبة المستغرقة للمحب كما قيل قد تخللت مسلك الروح منى وبذا سمى الخليل خليلا ويشهد لهذا ما ثبت فى الصحيح عن ابى سعيد عن النبى انه قال لوكنت متخذا من اهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله يعنى نفسه وفى رواية انى أبرأ الى كل خليل من خلته ولو كنت متخذا من اهل الارض خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا وفى رواية ان الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا فبين انه لايصلح له ان يتخذ من المخلوقين خليلا وانه لو امكن ذلك لكان احق الناس بها ابو بكر الصديق رضى الله عنه مع انه صلى الله عليه وسلم قد وصف نفسه بانه يحب اشخاصا كما قال لمعاذ والله انى لأحبك وكذلك قوله للانصار وكان زيد بن حارثة حب رسول الله عليه وسلم وكذلك ابنه اسامة حبه وامثال ذلك وقال له عمرو بن العاص أى الناس احب اليك قال عائشة قال فمن الرجال قال ابوها وقال لفاطمة ابنته رضى الله عنها ألا تحبين ما احب قالت بلى قال فأحبى عائشة وقال للحسن اللهم انى احبه فأحبه وأحب من يحبه وامثال هذا كثير فوصف نفسه بمحبة اشخاص وقال انى ابرأ الى كل خليل من خلته ولو كنت متخذا من اهل الارض خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا فعلم أن الخلة اخص من مطلق المحبة بحيث هى من كمالها وتخللها المحب حتى يكون المحبوب بها محبوبا لذاته لالشئ آخر إذ المحبوب لشئ غيره هو مؤخر فى الحب عن ذلك الغير ومن كمالها لاتقبل الشركة والمزاحمة لتخللها المحب ففيها كمال التوحيد وكمال الحب فالخلة تنافى المزاحمة وتقدم الغير بحيث يكون المحبوب محبوبا لذاته محبة لا يزاحمه فيها غيره وهذه محبه لاتصلح الا لله فلا يجوز ان يشركه غيره فيما يستحقه من المحبة وهو محبوب لذاته

وكل ما يحب غيره إذا كان محبوبا بحق فانما يحب لاجله وكل ما احب لغيره فمحبته باطلة فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ما كان لله تعالى واذا كانت الخلة كذلك فمن المعلوم ان من انكر ان يكون الله محبوبا لذاته ينكر مخاللته وكذلك ايضا ان انكر محبته لاحد من عباده فهو ينكر ان يتخذه خليلا بحيث يحب الرب ويحبه العبد على اكمل ما يصلح للعباد وكذلك تكليمه لموسى انكروه لانكارهم ان تقوم به صفة من الصفات او فعل من الافعال فكما ينكرون ان يتصف بحياة او قدرة او اعلم او ان يستوى اوان يجئ فكذلك ينكرون ان يتكلم او يكلم فهذا حقيقة قولهم كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم لكن لما كان الاسلام ظاهرا والقرآن متلوا لا يمكن جحده لمن اظهر الاسلام اخذوا يلحدون فى اسماء الله ويحرفون الكلم عن مواضعه فتأولوا محبة العباد له بمجرد محبتهم لطاعته او التقرب اليه وهذا جهل عظيم فان محبة المتقرب الى المتقرب اليه تابع لمحبته وفرع عليه فمن لا يحب الشيء لا يحب التقرب إليه إذ التقرب وسيلة ومحبة الوسيلة تبع لمحبة المقصود فيمتنع ان تكون الوسيلة الى الشئ المحبوب دون الشئ المقصود بالوسيلة [1]

## ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان

قال تعالى{وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ أن أهل الايمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الايمان ما يناسب هذه المحبة ولهذا علق النبي صلى الله عليه وسلم ما يجدونه بالمحبة فقال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه الا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار ومن ذلك ما يجدونه من ثمرة التوحيد والاخلاص والتوكل والدعاء لله وحده فإن الناس في هذا الباب على ثلاث درجات منهم من علم ذلك سماعا واستدلالا ومنهم من شاهد وعاين ما يحصل لهم ومنهم من وجد حقيقة الاخلاص والتوكل على الله والالتجاء اليه والاستعانة به وقطع التعلق بما سواه وجرب من نفسه أنه اذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٦-٦٩ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٦٨ و التحفة العراقية ج: ١ ص: ٦٧

يدفعوا عنه مضرة فإنه يخذل من جهتهم ولا يحصل مقصوده بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته اليهم فلا ينفعونه اما لعجزهم واما لانصارف قلوبهم عنه واذا توجه الى الله بصدق الافتقار اليه واستغاث به مخلصا له الدين أجاب دعاءه وأزال ضرره وفتح له أبواب الرحمة فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء لله ما لم يدق غيره وكذلك من ذاق طعم إخلاص لله وارادة وجهه دون ما سواه يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك بل من اتبع هواه في مثل طلب الرئاسة والعلو وتعلقه بالصور الجميلة أو جمعه للمال يجد في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيف الصدر ما لا يعبر عنه وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى ولا يحصل له ما يسره بل هو في خوف وحزن دائما ان كان طالبا لما يهواه فهو قبل ادراكه حزين متألم حيث لم يحصل فإذا أدركه كان خائفا من زواله وفراقه وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فإذا ذاق هذا أو غيره حلاوة الاخلاص لله والعبادة وحلاوة ذكره ومناجاته وفهم كتابه وأسلم وجهه لله وهو محسن بحيث يكون عمله صالحا ويكون لوجه الله خالصا فإنه يجد من السرور واللذة والفرح ما هو أعظم مما يجده الداعي المتوكل الذي نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا أو اندفع عنه ما يضره فإن حلاوة ذلك هي بحسب ما حصل له من المنفعة أو اندفع عنه من المضرة ولا أنفع للقلب من التوحيد واخلاص الدين لله ولا أضر عليه من الاشراك فإذا وجد حقيقة الاخلاص التي هي حقيقة اياك نعبد مع حقيقة التوكل التي هي حقيقة اياك نستعين كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هذا والله أعلم [1]

## الخلة هى كمال المحبة المستلزمة

قال تعالى{وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ قال الإمام أبو عبدالله محمد بن خفيف فى كتابه الذى سماه اعتقاد التوحيد باثبات الاسماء والصفات ونعتقد أن الله تعالى اتخذ ابراهيم خليلا واتخذ نبينا محمدا خليلا وحبيبا والخلة لهما منه على خلاف ما قاله المعتزلة ان الخلة الفقر والحاجة الى أن قال والخلة والمحبة صفتان لله هو موصوف بهما ولا تدخل أوصافه تحت التكييف والتشبيه وصفات الخلق من المحبة

---

١

والخلة جائز عليها الكيف فأما صفاته تعالى فمعلومة فى العلم وموجودة فى التعريف قد انتفى عنهما التشبيه فالايمان به واجب واسم الكيفية عن ذلك ساقط [1]

قال تعالى{وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات الا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا اياه ولا يستعين الا به ولا يتوكل الا عليه ولا يفرح الا بما يحبه ويرضاه ولا يكره الا ما يبغضه الرب ويكرهه ولا يوالي الا من والاه الله ولا يعادى الا من عاداه الله ولا يحب إلا الله ولا يبغض شيئا الا لله ولا يعطى الا الله ولا يمنع الا الله فكلما قوى اخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك والشرك غالب على النصارى والكبر غالب على اليهود قال تعالى فى النصارى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}التوبة٣١ وقال فى اليهود {أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ}البقرة٨٧ وقال تعالى {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً}الأعراف١٤٦ ولما كان الكبر مستلزما للشرك والشرك ضد الاسلام وهو الذنب الذى لا يغفره الله {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}النساء٤٨ وقال {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١١٦ كان الانبياء جميعهم مبعوثين بدين الاسلام فهو الدين الذى لا يقبل الله غيره لا من الاولين ولا من الآخرين قال فى حق ابراهيم {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {١٣٠} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{١٣١}البقرة١٣٠-١٣١ الى قوله {فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}البقرة١٣٢ وقال {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ}آل عمران٨٥ وقال تعالى {أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}آل عمران٨٣ فذكر اسلام الكائنات طوعا وكرها لان المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد العام سواء اقر المقر بذلك او انكره وهم مدينون

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٨٠

مدبرون فهم مسلمون له طوعا وكرها ليس لاحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره ولا حول ولا قوة الا به وهو رب العالمين ومليكهم يصرفهم كيف يشاء وهو خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم وكل من سواه فهو مربوب مصنوع ومفطور فقير محتاج معبد مقهور وهو الواحد القهار الخالق البارى المصور وهو ان كان قد خلق ما خلقه بأسباب فهو خالق السبب والمقدر له وهو مفتقر اليه كافتقار هذا وليس فى المخلوقات سبب مستقل بفعل ولا دفع ضرر بل كل ما هو سبب فهو محتاج الى سبب اخر يعاونه والى ما يدفع عنه الضد الذي يعارضه ويمانعه وهو سبحانه وحده الغنى عن كل ما سواه ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه ويعارضه قال تعالى وقال تعالى {قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}الزمر٣٨ وقال تعالى {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ}الأنعام١٧ وقال تعالى عن الخليل {يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ{٧٨} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{٧٩} وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً{٨٠}الانعام٧٨-٨٠ الى قوله تعالى {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ{٨٢}الانعام٨٢ وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه ان هذه الاية لما نزلت شق ذلك على اصحاب النبى وقالوا يا رسول الله اينا لم يلبس ايمانا بظلم فقال انما هو الشرك الم تسمعوا الى قول العبد الصالح {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}لقمان١٣ وابراهيم الخليل امام الحنفاء المخلصين حيث بعث وقد طبق الارض دين المشركين قال الله تعالى {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}البقرة١٢٤ فبين ان عهده بالامامة لا يتناول الظالم فلم يأمر الله سبحانه ان يكون الظالم اماما واعظم الظلم الشرك وقال تعالى {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}النحل١٢٠ و الامة هو معلم الخير الذي يؤتم به كما ان القدوة الذي يقتدى به والله تعالى جعل فى ذريته النبوة والكتاب وانما بعث الانبياء بعده بملته قال تعالى {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}النحل١٢٣ وقال تعالى {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}آل عمران٦٨ وقال تعالى {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}آل عمران٦٧ وقال تعالى {وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {١٣٥} قُولُواْ آمَنَّا

بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ{١٣٦}البقرة١٣٥-١٣٦ وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ان ابراهيم خير البرية فهو افضل الانبياء بعد النبى وهو خليل الله تعالى وقد ثبت فى الصحيح عن النبى من غير وجه انه قال ان الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا وقال لو كنت متخذا من اهل الارض خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله يعنى نفسه وقال لا يبقين فى المسجد خوخة الا سدت الا خوخة ابى بكر وقال ان من كان قبلكم يتخذون القبور مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى انهاكم عن ذلك وكل هذا فى الصحيح وفيه انه قال ذلك قبل موته بايام وذلك من تمام رسالته فإن في ذلك تحقيق تمام مخالته لله التى اصلها محبة الله تعالى للعبد ومحبة العبد لله خلافا للجهمية وفي ذلك تحقيق توحيد الله ان لا يعبدوا الا اياه ورد على اشباه المشركين وفيه رد على الرافضة الذين يبخسون الصديق حقه وهم اعظم المنتسبين الى القبلة اشراكا بالبشر و الخلة هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب فانهم يقولون قلب متيم اذا كان متعبدا للمحبوب والمتيم المتعبد وتيم الله عبده وهذا على الكمال حصل لابراهيم ومحمد ولهذا لم يكن له ان اهل الارض خليل اذ الخلة لاتحتمل الشركة فانه كما قيل فى المعنى قد تخللت مسلك الروح منى وبذا سمى الخليل خليلا بخلاف اصل الحب فانه قد قال فى الحديث الصحيح فى الحسن واسامة اللهم انى احبهما فأحبهما واحب من يحبهما وسأله عمرو بن العاص اي الناس احب اليك قال عائشة قال فمن الرجال قال ابوها وقال لعلي رضي الله عنه لاعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله وامثال ذلك كثير وقد اخبر تعالى انه يحب المتقين ويحب المحسنين ويحب المقسطين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وقال {فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}المائدة٥٤ فقد اخبر بمحبته لعباده المؤمنين ومحبة المؤمنين له حتى قال {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ}البقرة١٦٥واما الخلة فخاصة وقول بعض الناس ان محمدا حبيب الله وابراهيم خليل الله وظنه ان المحبة فوق الخلة قول ضعيف فان محمدا ايضا خليل الله كما ثبت ذلك فى الاحاديث الصحيحة المستفيضة وما يروى ان العباس يحشر بين حبيب وخليل وامثال ذلك فاحاديث موضوعة لا تصلح ان يعتمد عليها

وان من محبة الله تعالى محبة ما احب كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله ومن كان يكره ان يرجع فالكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار اخبرالنبى ان هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان لان وجد الحلاوة بالشئ يتبع المحبة له فمن احب شيئا او اشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك واللذة امر يحصل عقب ارداك الملائم الذى هو المحبوب او المشتهى ومن قال ان اللذة إدراك الملائم كما يقوله من المتفلسفة والأطباء فقد غلط فى ذلك غلطا بينا فان الادراك يتوسط بين المحبة واللذة فإن الإنسان مثلا يشتهى الطعام فإذا كله حصل له عقيب ذلك اللذة فاللذة تتبع النظر إلى الشيء فإذا نظر إليه التذ فاللذة تتبع النظر ليست نفس النظر وليست هى رؤية الشئ بل تحصل عقيب رؤيته وقال تعالى {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ} الزخرف٧١ وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات والآلام من فرح وحزن ونحو ذلك يحصل بالشعور بالمحبوب أو الشعور بالمكروه وليس نفس الشعور هو والفرح ولا الحزن فحلاوة الايمان المتضمنة من اللذة به والفرح ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الايمان تتبع كمال محبة العبد لله وذلك بثلاثة أمور تكميل هذه المحبة وتفريعها ودفع ضدها فتكميلها أن يكون الله ورسوله احب إليه مما سواهما فان محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها باصل الحب بل لا بد ان يكون الله ورسوله احب إليه مما سواهما كما تقدم و تفريعها أن يحب المرء لا يحبه الا لله و دفع ضدها ان يكره ضد الايمان اعظم من كراهته الالقاء فىالنار فاذا كانت محبة الرسول والمؤمنين من محبة الله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب المؤمنين الذين يحبهم الله أنه اكمل الناس محبةلله واحقهم بأن يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله و الخلة ليس لغير الله فيها نصيب بل قال لوكنت متخذا من اهل الأرض خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا علم مزيد مرتبة الخلة على مطلق المحبة والمقصود هو ان ا لخلة و المحبة لله تحقيق عبوديته وانما يغلط من يغلط فى هذه من حيث يتوهمون ان العبودية مجرد ذل وخضوع فقط لا محبة معه او ان المحبة فيها انبساط فى الأهواء او ادلال لا تحتمله الربوبية ولهذا يذكر عن ذى النون انهم تكلموا عنده فى مسألة المحبة فقال امسكوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها وكره من كره من اهل المعرفة والعلم مجالسة اقوام يكثرون الكلام فى المحبة بلا خشية وقال من قال من السلف من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ومن عبده بالحب والخوف والرجاء

فهو مؤمن موحد ولهذا وجد فى المستأخرين من انبسط فى دعوى المحبة حتى اخرجه ذلك الى نوع من الرعونة والدعوى التى تنافى العبودية وتدخل العبد فى نوع من الربوبية التى لا تصلح الا الله ويدعى احدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين او يطلبون من الله ما لا يصلح بكل وجه الا الله لا يصلح للأنبياء والمرسلين وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ وسببه ضعف تحقيق العبودية التى بينتها الرسل وحررها الامر والنهى الذى جاؤا به بل ضعف العقل الذى به يعرف العبد حقيقته واذا ضعف العقل وقل العلم بالدين وفى النفس محبة انبسطت النفس بحمقها فى ذلك كما ينبسط الانسان فى محبة الانسان مع حمقه وجهله ويقول انا محب فلا أؤاخذ بما افعله من انواع يكون فيها عدوان وجهل فهذا عين الضلال وهو شبيه بقول اليهود والنصارى {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}المائدة١٨ قال الله تعالى {قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ}المائدة١٨ فان تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضى انهم غير محبوبين ولا منسوبين اليه بنسبه البنوة بل يقتضى انهم مربوبون مخلوقون فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه محبوبه لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان ومن فعل الكبائر واصر عليها ولم يتب منها فان الله يبغض منه ذلك كما يحب منه ما يفعله من الخير اذ حبه للعبد بحسب ايمانه وتقواه ومن ظن ان الذنوب لا تضره يكون الله يحبه مع اصراره عليها كان بمنزلة من زعم ان تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تداويه منه بصحة مزاجه ولو تدبر الاحمق ما قص الله فى كتابه من قصص انبيائه وما جرى لهم من التوبه والاستغفار وماصيبوا به من انواع البلاء الذى فيه تمحيص لهم وتطهير بحسب احوالهم على بعض ضرر الذنوب باصحابها ولو كان ارفع الناس مقاما فان المحب للمخلوق اذا لم يكن عارفا بمصلحته ولا مريدا لها بل يعمل بمقتضى الحب وان كان جهلا وظلما كان ذلك سببا لبغض المحبوب له ونفوره عنه بل لعقوبته وكثير من السالكين سلكوا فى دعوى حب الله انواعا من أمور الجهل بالدين اما من تعدى حدود الله واما من تضييع حقوق الله واما من ادعاء الدعاوى الباطلة التى لا حقيقة لها كقول بعضهم اى مريد لى ترك فى النار احدا فأنا منه برىء فقال الآخر اى مريد لى ترك احدا من المؤمنين يدخل النار فأنا منه برىء فالأول جعل مريده يخرج كل من فى النار والثانى جعل مريده يمنع اهل الكبائر من دخول النار ويقول بعضهم اذا كان يوم القيامة نصبت خيمتى على جهنم حتى لا يدخلها احد وامثال ذلك من الاقوال التى تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين وهى اما كذب عليهم اما غلط منهم ومثل هذا قد يصدر فى حال سكر وغلبة وفناء يسقط فيها تمييز الانسان او يضعف حتى لا يدرى ما قال والسكر هو لذة مع عدم تمييز

ولهذا كان بين هؤلاء من اذا صحا استغفر من ذلك الكلام والذين توسعوا من الشيوخ فى سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام كان هذا اصل مقصدهم ولهذا انزل الله للمحبة محنة يمتحن بها المحب فقال قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله فلا يكون محبا لله الا من يتبع رسوله وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية وكثير ممن يدعى المحبة يخرج عن شريعته وسنته ويدعى من الخيالات ما لا يتسع هذا الموضع لذكره حتى قد يظن احدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسنته وطاعته بل قد جعل محبة الله ومحبة رسول الجهاد فى سبيله والجهاد يتضمن كمال محبة ما امر الله به وكمال بغض ما نهى الله عنه ولهذا قال فى صفة من يحبهم ويحبونه {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ}المائدة٥٤ ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله اكمل من محبة من قبلها وعبوديتهم لله اكمل من عبودية من قبلهم واكمل هذه الأمة فى ذلك اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ومن كان بهم اشبه كان ذلك فيه اكمل فأين هذا من قوم يدعون المحبة

و فى كلام بعض الشيوخ المحبة نار تحرق فى القلب ما سوى مرادا لمحبوب وارادوا ان الكون كله قد اراد الله وجوده فظنوا ان كمال المحبة ان يحب العبد كل شىء حتى الكفر والفسوق والعصيان ولا يمكن احدا ان يحب كل موجود بل يحب ما يلائمه وينفعه وببغض ما ينافيه ويضره ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع اهوائهم فهم يحبون ما يهونه كالصور والرئاسة وفضول المال والبدع المضلة زاعمين ان هذا من محبة الله ومن محبة الله بغض ما ببغضه الله ورسوله وجهاد اهله بالنفس والمال واصل ضلالهم ان هذا القائل الذى قال ان المحبة نار تحرق ما سوى مراد المحبوب قصد بمراد الله تعالى الارادة الدينية الئشرعية التى هى بمعنى محبته ورضاه فكأنه قال تحرق من القلب ما سوى المحبوب لله وهذا معنى صحيح فان من تمام الحب ان لا يحب الا ما يحبه الله فاذا احببت ما لا يحب كانت المحبة ناقصة واما قضاؤه وقدره فهو يبغضه ويكرهه ويسخطه وينهى عنه فان لم اوافقه فى بغضه وكراهته وسخطه لم اكن محبا له بل محبا لما يبغضه فاتباع الشريعة والقيام بالجهاد من اعظم الفروق بين اهل محبة الله واوليائه الذين يحبهم ويحبونه وبين من يدعى محبة اللهم ناظرا الى عموم ربوبيته او متبعا لبعض البدع المخالفة لشريعته فإن دعوى هذه المحبة لله من جنس دعوى اليهود والنصارى المحبة لله بل قد تكون دعوى هؤلاء شرا من دعوى اليهود والنصارى لما فيهم من النفاق الذين هم به في الدرك الاسفل من النار كما قد تكون دعوى اليهود والنصارى شرا من دعواهم اذا لم يصلوا الى مثل كفرهم وفى التوراة والانجيل من محبة الله ماهم متفقون عليه حتى

كذلك عندهم اعظم وصايا الناموس ففى الانجيل ان المسيح قال اعظم وصايا المسيح ان تحب الله بكل قلبك وعقلك ونفسك والنصارى يدعون قيامهم بهذه المحبة وان ماهم فيه صل الزهد والعبادة هو من ذلك وهم برآء من محبة الله اذ لم يتبعوا ما احبه بل {اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}محمد٢٨ والله يبغض الكافرين ويمقتهم ويلعنهم وهو سبحانه يحب من يحبه لا يمكن ان يكون العبد محبا لله والله تعالى غير محب له بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له وان كان جزاء الله لعبده اعظم كما فى الحديث الصحيح الالهى عن الله تعالى انه قال من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت إليه باعا ومن اتانى يمشى اتيته هرولة وقد اخبر سبحانه انه يحب المتقين والمحسنين والصابرين ويحب التوابين ويحب التوابين ويحب المتطهرين بل هو يحب من فعل ما امر به من واجب ومستحب كما فى الحديث الصحيح لايزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به الحديث وكثير من المخطئين الذين اتبعوا اشياخا فى الزهد والعبادة وقعوا فى بعض ما وقع فيه النصارى من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته وترك المجاهدة في سبيله ونحو ذلك ويتمسكون فى الدين الذى يتقربون به الى الله بنحو ما تمسك به النصارى من الكلام المتشابه والحكايات التى لايعرف صدق قائلها معصوما فيجعلون متبوعيهم لهم دينا كما جعل النصارى قسيسيهم ورهبانهم شارعين لهم دينا ثم انهم ينتقصون العبودية ويدعون ان الخاصة يتعدونها كما يدعى النصارى فى المسيح ويثبتون للخاصة من المشاركة فى الله من جنس ما تثبته النصارى فى المسيح وامه الى انواع اخر يطول شرحها فى هذا الموضع وانما دين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا وكلما كان فى القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك وكل محبة لاتكون لله فهى باطلة وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله وانما دين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا وكلما كان فى القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك وكل محبة لاتكون لله فهى باطلة وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله ولا يكون لله الا ما أحبه الله ورسوله وهو المشروع فكل عمل أريد به غير الله لم

يكن لله وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله بل لا يكون لله الا ما جمع الوصفين ان يكون لله وان يكون موافقا لمحبة الله ورسوله وهو الواجب والمستحب كما قال {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً} الكهف١١٠ فلا بد من العمل الصالح وهو الواجب والمستحب ولا بد ان يكون خالصا لوجه الله تعالى كما قال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة١١٢ وقال النبى صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد وقال النبى انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه وهذا الأصل هو اصل الدين وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين وبه ارسل الله الرسل وانزل الكتب واليه دعا الرسول وعليه جاهد وبه امر وفيه رغب وهو قطب الدين الذى تدور عليه رحاه والشرك غالب على النفوس وهو كما جاء فى الحديث وهو فى هذه الأمة احفى من دبيب النمل وفى حديث آخر قال ابو بكر يارسول الله كيف ننجو منه وهو اخفى من دبيب النمل فقال النبى لأبى بكر الا اعلمك كلمة اذا قلتها نجوت من دقة وجلة قل اللهم انى اعوذ بك ان اشرك بك وانا اعلم واستغفرك لما لا اعلم وكان عمر يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك ولا تجعل لأحد فيه شيئا وكثيرا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها وعبوديتها له وإخلاص دينها كما قال شداد بن اوس يابقايا العرب ان اخوف ما اخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية قيل لأبى داود السجستانى وما الشهوة الخفية قال حب الرئاسة وعن كعب بن مالك عن النبى انه قال ما ذئبان جائعان ارسلا زريبة غنم بافسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه قال الترمذى حديث حسن صحيح فبين ان الحرص على المال والشرف فى فساد الدين لا ينقص عن فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم وذلك بين فان الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص وذلك ان القلب اذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له لم يكن شىء احب اليه من ذلك حتى يقدمه عليه وبذلك يصرف عن اهل الاخلاص لله السوء والفحشاء كما قال تعالى {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} يوسف٢٤ فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره اذ ليس عند القلب لا احلى ولا الذ ولا اطيب ولا ألين ولا انعم من حلاوة الايمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له واخلاصه الدين له وذلك يقتضى انجذاب القلب الى الله فيصير القلب منيبا الى الله خائفا منه راغبا راهبا كما قال تعالى {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا

لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}يوسف٢٤ اذ المحب يخاف من زوال مطلوبة وحصول مرغوبة فلا يكون عبد الله ومحبة الا بين خوف ورجاء قال تعالى {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً}الإسراء٥٧ واذا كان العبد مخلص له اجتباه ربه فيحي قلبه واجتذبه اليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء ويخاف من حصول ضد ذلك بخلاف القلب الذى لم يخلص لله فانه فى طلب وارادة وحب مطلق فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه كالغصن اى نسيم مر بعطفه اماله فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة فيبقى اسيرا عبدا لمن لو اتخذه هو عبدا له لكان ذلك عيبا ونقصا وذما وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل ويعادى من يذمه ولو بالحق وتارة يستعبده الدرهم والدينار وامثال ذلك من الأمور التى تستعبد القلوب والقلوب تهواها فيتخذ الهه هواه ويتبع هواه بغير هدى من الله ومن لم يكن خاصا لله عبدا له قد صار قلبه معبدا لربه وحده لا شريك له بحيث يكون الله احب اليه من كل ما سواه ويكون ذليلا له خاضعا والا استعبدته الكائنات واستولت على قلبه الشياطين وكان من الغاوين اخوان الشياطين وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه الا الله وهذا امر ضرورى ولا حيلة فيه فالقلب ان لم يكن حنيفا مقبلا على الله معرضا عما سواه والا كان مشركا قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}الروم٣٠ الى قوله {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}الروم٣٢ وقد جعل الله سبحانه ابراهيم وآل ابراهيم أئمة لهؤلاء الحنفاء المخلصين اهل المحبة لله وعبادته واخلاص الدين له كما جعل فرعون وآل فرعون أئمة المشركين المتبعين اهواءهم قال تعالى فى ابراهيم {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ {٧٢} وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ{٧٣}الأنبياء٧٢-٧٣ وقال فى فرعون وقومه {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ{٤١} وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ{٤٢}القصص٤١-٤٢ ولهذا يصير اتباع فرعون اولا الى ان لا يميزوا بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما قدر الله وقضاه بل ينظرون الى المشيئة المطلقة الشاملة ثم فى آخر الأمر لا يميزون بين الخالق والمخلوق بل يجعلون وجود هذا وجود هذا ويقول محققوهم الشريعة فيها طاعة ومعصية والحقيقة فيها معصية بلا طاعة والتحقيق ليس فيه طاعة ولا معصية وهذا تحقيق مذهب فرعون وقومه الذين انكروا الخالق وانكروا تكليمه لعبده موسى

وما ارسله به من الأمر والنهى وما ابراهيم وآل ابراهيم الحنفاء والأنبياء فهم يعلمون انه لا بد من الفرق بين الخالق والمخلوق ولابد من الفرق بين الطاعة والمعصية وان العبد كلما ازداد تحقيقا ازدادت محبته لله وعبوديته له وطاعته له واعراضه عن عبادة غيره ومحبة غيره وطاعة غيره وهؤلاء المشركون الضالون يسوون بين الله وبين خلقه والخليل يقول {قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{٧٥} أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ{٧٦}فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ{٧٧}الشعراء ٧٥-٧٧ [١]

## الإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله

وأما الإحسان فقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قد قيل أن الإحسان هو الإخلاص والتحقيق أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}البقرة١١٢ وقال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ فذكر إحسان الدين أولا ثم ذكر الإحسان ثانيا فإحسان الدين هو والله أعلم الإحسان المسئول عنه فى حديث جبريل فإنه سأله عن الإسلام والإيمان ففي قد ذكرت فيما تقدم من القواعد أن الإسلام الذي هو دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين فيستسلم لله وحده لا شريك له ويكون سالما له بحيث يكون متألها له غير متأله لما سواه كما بينته أفضل الكلام ورأس الإسلام وهو شهادة أن لا إله إلا الله وله ضدان الكبر والشرك ولهذا روى أن نوحا عليه السلام أمر بنيه بلا إله إلا الله وسبحان الله ونهاهم عن الكبر والشرك فى حديث قد ذكرته فى غير هذا الموضع فإن المستكبر عن عبادة الله لا يعبده فلا يكون مستسلما له والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركا به فلا يكون سالما له بل يكون له فيه شرك ولفظ الإسلام يتضمن الإستسلام والسلامة التى هى الإخلاص وقد علم أن الرسل جميعهم بعثوا بالإسلام العام المتضمن لذلك كما قال تعالى {يَحْكُمُ بِهَا

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٩٨-٢١٨ و مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٤ و مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٥٢ و الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٣٢٢

النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ}المائدة٤٤ وقال موسى {إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ}يونس٨٤ وقال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}البقرة١١٢ وقال الخليل لما قال له ربه {أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {١٣١} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{١٣٢}البقرة١٣١-١٣٢ وقال يوسف {تَوَفَّنِي مُسْلِماً}يوسف١٠١ ونظائره كثيرة وعلم أن إبراهيم الخليل هو إمام الحنفاء المسلمين بعده كما جعله أمة وإماما وجاءت الرسل من ذريته بذلك فابتدعت اليهود والنصارى ما ابتدعوه مما خرج بهم عن دين الله الذي أمروا به وهو الاسلام العام ولهذا أمرنا أن نقول {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة ٦-٧ وقد ثبت عن النبى أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وكل من هاتين الأمتين خرجت عن الاسلام وغلب عليها أحد ضديه فاليهود يغلب عليهم الكبر ويقل فيهم الشرك والنصارى يغلب عليهم الشرك ويقل فيهم الكبر وقد بين الله ذلك في كتابه فقال فى اليهود {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ}البقرة٨٣ وهذا هو أصل الإسلام إلى قوله {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ}البقرة٨٧ وهذا اللفظ الذي هو لفظ الإستفهام هو انكار لذلك عليهم وذم لهم عليه وإنما يذمون على ما فعلوه فعلم أنهم كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا فيقتلون فريقا من الأنبياء ويكذبون فريقا وهذا حال المستكبر الذي لا يقبل ما لا يهواه فإن النبى قد فسر الكبر فى الحديث الصحيح بأنه بطر الحق وغمط الناس ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله لا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ولا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذاك فقال لا إن الله جميل يحب الجمال ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس وبطر الحق جحده ودفعه وغمط الناس إحتقارهم وازدراؤهم وكذلك ذكر الله الكبر فى قوله بعد أن قال {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ}الأعراف١٤٥ الى أن قال {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً}الأعراف١٤٦ وهذا حال الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه وهو الغاوى كما قال {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ {١٧٥} وَلَوْ شِئْنَا

لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ {١٧٦} الأعراف١٧٥ الآية وهذا مثل علماء السوء وقد قال لما رجع موسى اليهم {وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ}الأعراف١٥٤ فالذين يرهبون ربهم خلاف الذين يتبعون أهواءهم كما قال تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى {٤٠} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{٤١}النازعات٤٠-٤١ فأولئك المستكبرون المتبعون أهواءهم مصروفون عن آيات الله لا يعلمون ولا يفهمون لما تركوا العمل بما علموه إستكبارا وإتباعا لأهوائهم عوقبوا بأن منعوا الفهم والعلم فان العلم حرب للمتعالى كما أن السيل حرب للمكان العالي والذين يرهبون ربهم عملوا بما علموه فأتاهم الله علما ورحمة إذ من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم [1]

## توجيه الوجه توجيه قصده وارادته وعبادته

وأما قول بعض الفقهاء ان الوجه مشتق من المواجهة فلا دليل عليه بل قد عارضه من قال هو مشتق من الوجاهة وكلاهما ضعيف وإنما المواجهة مشتق من الوجه كما أن المشافهة مشتق من الشفة والمناظرة بمعنى المقابلة مشتقة من النظر والمعاينة من العين وأما اشتقاق الوجه الذى هو المتوجه من الوجه الذى هو التوجه فهذا اشبه لأن توجهه هو فعله المختص به الذى لا يفتقر فيه الى غيره بخلاف المواجهة فإنها تستدعى اثنين والانسان هو حارث همام وهمه هو توجهه وإنما يتوجه بهذا العضو الى أى شيء أراده وتوجه اليه ومن هذا الباب قوله تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ}البقرة١١٢ وقوله تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً}النساء١٢٥ وقول الخليل ونبينا والمؤمنين فى الصلاة {وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}الأنعام٧٩ وقوله تعالى {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}الأعراف٢٩ وقول الرسول صلى الله عليه وسلم للذي علمه دعاء النوم اللهم أسلمت نفسى اليك ووجهت وجهى اليك وقال زيد بن عمرو بن نفيل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٢٢

أسلمت وجهى لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا فهذه ثلاثة ألفاظ أسلم وجهه ووجه وجهه وأقام وجهه قال قدماء المفسرين فى قوله تعالى {أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله}النساء١٢٥أى أخلص فى دينه وعمله لله وقال بعضهم فوض امره الى الله وقد قيل خضع وتواضع لله وهذا الثالث يليق بالإسلام اللازم فان وجهه هو قصده وتوجهه الذى هو أصل عمله وهو عمل قلبه الذى هو ملك بدنه فاذا توجه قلبه تبعه أيضا توجه وجهه فاستتبع القصد الذى هو الأصل من القلب الذى هو الاصل للعمل الذى هو تبع من الوجه وسائر البدن الذى هو تبع فيكون قد أسلم عمله الباطن والظاهر وأعضاءه الباطنة والظاهرة لله أى سلمه له وأخلصه لله كما فى الاسلام اللازم وهو قوله {إَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}البقرة١٣١ وقوله عن بلقيس {قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}النمل٤٤ وقوله عن ابراهيم واسماعيل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ}البقرة١٢٨ أى منقادة مخلصة وكذلك توجيه الوجه للذى فطر السموات والارض توجيه قصده وارادته وعبادته وذلك يستتبع الوجه وغيره والا فمجرد توجيه العضو من غير عمل القلب لا يفيد شيئا [1]

## أول الإسلام وآخره

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارج له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٣٠-٤٣١

اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}النحل٣٦ وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥ [١]

## لطائف لغوية

١- قال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً}النساء١٠٥ وفي إرساله حكم أخرى ففي أنزاله تبشير وإنذار وأمر ونهي ووعد ووعيد ) ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضع من مناسبته وهذا كالمناسبة في قوله{لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}يس ٦ فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم [٢]

٢-فهو المسمى نفسه بأسمائه الحسنى كما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس انه لما سئل عن قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}الفتح٧ {إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١٠٦فقال هو سمى نفسه بذلك وهو لم يزل كذلك فأثبت قدم معانى أسمائه الحسنى وأنه هو الذى سمى نفسه بها [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٧٢

[٢] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٤٣٧

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٠٥

٣- وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى {وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١٠٠ {وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١٠٤{وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً}النساء١٠٨ {وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١١١ ونحو ذلك قال كان ولم يزل ولا يزال[١]

*و فى صحيح البخاري تعليقا عن سعيد بن جبير أن رجلا سأل إبن عباس عن قوله و كان الله غفورا رحيما و كان الله عزيزا حكيما و كان الله سميعا بصيرا فكأنه كان فمضى فقال إبن عباس قوله و كان الله و كان الله فإنه يجل نفسه عن ذلك و سمى نفسه بذلك لم يجله أحد غيره و كان أي لم يزل كذلك رواه عبد بن حميد فى تفسيره مسندا موصولا و رواه إبن المنذر أيضا فى تفسيره و هذا لفظ رواية عبد[٢]

٤- إنه من باب عطف الخاص على العام الذي يخص بالذكر لامتيازه وتخصيصه يقتضي ذلك ومثل هذا يقال إنه داخل في العام ثم ذكر بخصوصه ويقال بل ذكره خاصا يمنع دخوله في العام وهذا يجيء في العطف بأو وأما بالواو فمثل قوله تعالى {وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}البقرة٩٨ وأما في أو ففي مثل قوله تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ}آل عمران١٣٥ وقوله {وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١١٠ وقوله {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً}النساء١١٢ [٣]

٥-قال تعالى {وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١١١عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه [٤]

---

١

[٢]مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٠

[٣]مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣٨٧-٣٨٨

[٤]الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

٦- قال تعالى {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً} أن الكسب هو الفعل الذى يعود على فاعله بنفع أو ضر كما قال تعالى {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}البقرة٢٨٦ فبين سبحانه أن كسب النفس لها أو عليها و الناس يقولون فلان كسب مالا أو حمدا أو شرفا كما أنه ينتفع بذلك [١]

٧- قال تعالى {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ} النساء١١٣ ورحمته اسم جامع لكل خيرودار الرحمة الخالصة هى الجنة [٢]

٨-قال تعالى{لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ}النساء١١٤ والمعروف اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح [٣]

٩-عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد مثال ذلك اسم المعروف و المنكر اذا أطلق كما فى قوله تعالى {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}آل عمران١٠٤ وقوله {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ}الأعراف١٥٧ وقوله {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}آل عمران١١٠ وقوله {وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}آل عمران١١٤ وقوله{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}التوبة٧١ يدخل فى المعروف كل خير وفى المنكر كل شر ثم قد يقرن بما هو أخص منه كقوله {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ}النساء١١٤ فغاير بين المعروف وبين الصدقة والاصلاح بين الناس وكذلك قوله تعالى {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}العنكبوت٤٥ غاير

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٨٧

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥

[٣] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٣٦

بينهما وقد دخلت الفحشاء فى المنكر فى قوله {وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}التوبة٧١ ثم ذكر مع المنكر اثنين فى قوله {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ}النحل٩٠ جعل البغى هنا مغايرا لهما وقد دخل فى المنكر فى ذلك

الموضعين [١]

١٠-وقال تعالى عن نبيه {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}الأعراف١٥٧ وقال عن أمته {يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}آل عمران١١٤ وذكر مثل ذلك فى مواضع كثيرة فتارة يخص إسم المنكر بالنهى وتارة يقرنه بالفحشاء وتارة يقرن معهما البغى وكذلك المعروف تارة يخصه بالأمر وتارة يقرن به غيره كما فى قوله تعالى {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ}النساء١١٤ وذلك لأن الأسماء قد يكون عمومها وخصوصها بحسب الإفراد والتركيب كلفظ الفقير والمسكين فإن أحدهما إذا أفرد كان عاما لما يدلان عليه عند الإقتران بخلاف إقترانهما فإنه يكون معنى كل منهما هو معنى الآخر بل أخصه من معناه عند الإفراد وأيضا فقد يعطف على الإسم العام بعض أنواعه على سبيل التخصيص ثم قد قيل إن ذلك المخصص يكون مذكورا بالمعنى العام والخاص فإذا عرف هذا فإسم المنكر يعم كل ما كرهه الله ونهى عنه وهو المبغض وإسم المعروف يعم كل ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به [٢]

١١-قال تعالى {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً}النساء ١١٥ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}الفاتحة٦ والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}البقرة٢ والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٢-١٦٣ و الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١١٧

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٤٧-٣٤٨

ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا}الأعراف٤٣ وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله {وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الأنعام٨٧ وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ}النحل١٢١ {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ}الشورى١٣ وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ}التوبة٣٣ والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا و هذا [1]

١٢- و الدعاء قصد المدعو و التوجه إليه إما على وجه المسألة و إما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء هو طلبه و إرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه و من ذلك قوله تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} غافر٦٠ فإنه فسر بالمسألة و بالعبادة و قوله تعالى {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً}النساء١١٧ [2]

١٣- قال تعالى {وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً}النساء١١٩ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{٧١} الصافات٦٩ -٧١ وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}الأحزاب٦٧ -٦٨ وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}طه١٢٣ ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦

[2] شرح العمدة ج: ٤ ص: ٢٨

غَوَى} النجم٢ وفى قوله {غيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} الفاتحة٧ وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} القمر٤٧ [١]

١٤- قال تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً} النساء١٢٢ قوله تعالى {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} فيقال النهر كالقرية والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة فى السكان فى مثل قوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا} يوسف٨٢ وتارة فى المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال [٢]

١٥- والضمير يعود تارة إلى لفظ من وتارة الى معناها كقوله {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} الأنعام٢٥ {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} يونس٤٢ {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى} النساء١٢٤ {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} النحل٩٧ الآية [٣]

١٦- قال تعالى {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ} النساء١٢٤ ان الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم واعلى ما فيها النظر الى وجه الله وهو من النعيم الذى ينالونه فى الجنة كما اخبرت به النصوص وكذلك اهل النار فانهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار [٤]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٧

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٦٤

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٨٤

١٧- لفظ الإسلام يستعمل على وجهين متعديا كقوله {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ}النساء١٢٥ وقوله {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ}آل عمران٢٠ الآية وقوله فى دعاء المنام أسلمت نفسي إليك ويستعمل لازما كقوله {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}البقرة١٣١ وقوله {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}آل عمران٨٣ وقوله عن بلقيس {وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}النمل٤٤ وهو يجمع معنيين أحدهما الإنقياد والإستسلام و الثاني إخلاص ذلك وإفراده كقوله {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ}الزمر٢٩ وعنوانه قول لا إله إلا الله وله معنيان أحدهما الدين المشترك وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذي بعث به جميع الأنبياء كما دل على إتحاد دينهم نصوص الكتاب والسنة والثانى ما إختص به محمد من الدين والشرعة والمنهاج وهو الشريعة والطريقة والحقيقة وله مرتبتان أحدهما الظاهر من القول والعمل وهي المبانى الخمس والثاني أن يكون ذلك الظاهر مطابقا للباطن [١]

١٨- قال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً}النساء١٢٥ اسم الوجه فى الكتاب والسنة إنما يذكر فى سياق العبادة له والعمل له والتوجه إليه فهو مذكور فى تقرير ألوهيته وعبادته وطاعته لا فى تقرير وحدانية كونه خالقا وربا وذلك المعنى هو العلة الغائية وهذا هو العلة الفاعلية والعلة الغائية هى المقصودة التى هى أعلى وأشرف بل هى علة فاعلية للعلة الفاعلية ولهذا قدمت فى مثل قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة٥ وفى مثل قوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}هود١٢٣ [٢]

١٩- قال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٣٥-٦٣٦

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٣٠

{اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء}الأعراف٣ وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}طه١٢٣ وقوله {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}الأنعام١٥٣ وقد يقرن به غيره كقوله {وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}الأنعام١٥٥ وقوله {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}الأنعام١٠٦ وقوله {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}يونس١٠٩ [1]

٢٠- قال تعالى {وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً}النساء١٢٦و قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ و نحوه كما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس و رواه ابن أبى حاتم من عدة طرق لما قيل له قوله {وَكَانَ اللّهُ}النساء١٥٨ كأنه كان شيء ثم مضى فقال إبن عباس هو سمى نفسه بذلك ولم يزل كذلك هذا لفظ ابن أبى حاتم من طريق أبى معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فقال ابن عباس كذلك كان ولم يزل ومن رواية عمرو بن أبي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال سمعت الله يقول {وَكَانَ اللّهُ}النساء١٥٨ كأنه شيء كان فقال ابن عباس أما قوله {كَانَ} فإنه لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ومن رواية عبدالرحمن بن مغرا عن مجمع بن يحيى عن عمه عن ابن عباس قال قال يهودي إنكم تزعمون أن الله كان عزيزا حكيما فكيف هو اليوم فقال ابن عباس إنه كان فى نفسه عزيزا حكيما وهذه أقوال ابن عباس تبين أنه لم يزل متصفا بخبر كان ولا يزال كذلك و أن ذلك حصل له من نفسه فلم يزل متصفا فى نفسه إذا كان من لوازم نفسه و لهذا لا يزال لأنه من نفسه و قال أحمد بن حنبل لم يزل الله عالما متكلما غفورا و قال أيضا لم يزل الله متكلما إذا شاء [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٣٦٩-٣٧٠ و مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٣٨ و مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٠

# النساء ١٢٧-١٣٥

{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي
الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ
أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى
بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً{١٢٧} وَإِنِ
امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن
يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن
تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{١٢٨} وَلَن
تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ
فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً
رَّحِيماً{١٢٩} وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً
حَكِيماً{١٣٠} وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا
الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً{١٣١} وَلِلّهِ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{١٣٢} إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً{١٣٣}
مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ
سَمِيعاً بَصِيراً{١٣٤} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ
شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ
فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ
تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{١٣٥}

الله سبحانه يصف كلامه بأنه يحكم ويقص ويفتي

أسماء القرآن القرآن الفرقان الكتاب الهدى النور الشفاء البيان الموعظة الرحمة بصائر البلاغ الكريم المجيد العزيز المبارك التنزيل المنزل الصراط المستقيم حبل الله الذكر الذكرى تذكرة [1]

فإن الله أخبر بشهادته لرسوله فى غير موضع وسمى ما أنزله شهادة منه فى قوله {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ}البقرة١٤٠ فدل على أن كلام الله الذي أنزله وأخبر فيه بما أخبر شهادة منه وهو سبحانه يحكم ويشهد ويفتى ويقص ويبشر ويهدى بكلامه ويصف كلامه بأنه يحكم ويفتى ويقص ويهدى ويبشر وينذر كما قال {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء}النساء١٢٧ أي وما يتلى عليكم يفتيكم فيهن وقال{قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ}النساء١٧٦ وقال {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}النمل٧٦ وقال {هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ}الجاثية٢٩ وقال {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ}يوسف٣ وقال {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}الأنعام٥٧ وقال {إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً}الإسراء٩ وقوله {وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ}البقرة٢١٣ وإذا أضيف الحكم والقصص والإفتاء إلى القرآن الذي هو كلام الله فالله هو الذي حكم به وأفتى به وقص به كما أضاف ذلك إلى نفسه في غير موضع وكذلك سمى الرسول هاديا فقال {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الشورى٥٢ كما سماه بشيرا ونذيرا وسمى القرآن بشيرا ونذيرا فكذلك لما كان هو يشهد للرسول وكان والمؤمنين بكلامه الذي أنزله وكان كلامه شهادة منه كان كلامه شاهدا منه كما كان يحكم ويفتى ويقص ويبشر وينذر [2]

وأما على قول جمهور أهل السنة الذين يقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له إذا فعله ما قام به والفعل عندهم غير المفعول فيقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له وإنها فعل للعبد كما يقولون في قدرة العبد إنها قدرة للعبد مقدورة للرب لا أنها نفس قدرة الرب وكذلك إرادة العبد هي إرادة للعبد مرادة للرب وكذلك سائر صفات العبد هي صفات له وهي مفعولة للرب مخلوقة له ليست بصفات له ومما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢

يبين ذلك أن الله تعالى قد أضاف كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته إما أن يضيف عينه أو نظيره كقوله تعالى {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}الزمر٤٢ وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ}الأنعام٦٠ مع قوله تعالى {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ}السجدة١١ وقوله {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ}الأنعام٦١ وقال {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ}النساء١٢٧ أي ما يتلى عليكم في الكتاب يفتيكم فيهن [1]

## مسائل فقهية

### بنت يتيمة ولها من العمر عشر سنين ولم يكن لها أحد وهي مضطرة إلى من يكفلها فهل يجوز لأحد أن يتزوجها بإذنها أم لا ؟

هذه يجوز تزويجها بكفؤ لها عند أكثر السلف والفقهاء وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في ظاهر مذهبه وغيرهما وقد دل على ذلك الكتاب والسنة كقوله تعالى {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء}النساء١٢٧ الآية وقد أخرجا تفسير هذه الآية في الصحيحين عن عائشة وهو دليل في اليتيمة وزوجها من يعدل عليها في المهر لكن تنازع هؤلاء هل تزوج بإذنها أم لا فذهب أبو حنيفة أنها تزوج بغير إذنها ولها الخيار إذا بلغت وهي رواية عن أحمد وظاهر مذهب أحمد أنها تزوج بغير إذنها إذا بلغت تسع سنين ولا خيار لها إذا بلغت لما في السنن عن النبي أنه قال اليتيمة تستأذن في نفسها فإن سكتت فقد أذنت وأن أبت فلا جواز عليها وفي لفظ لا تنكح اليتمية حتى تستأذن فإن سكتت فقد أذنت وإن أبت فلا جواز عليها [2]

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٢٤٢

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ٤٣

## صغيرة دون البلوغ مات أبوها هل يجوز للحاكم أو نائبه أن يزوجها أم لا وهل يثبت لها الخيار إذا بلغت أم لا؟

إذا بلغت تسع سنين فإنه يزوجها الأولياء من العصبات والحاكم ونائبه في ظاهر مذهب أحمد وهو مذهب أبي حنيفة وغيرهما كما دل على ذلك الكتاب والسنة في مثل قوله تعالى {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ}النساء١٢٧ وأخرجا في الصحيحين عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله عز وجل {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ}النساء٣ قالت يا ابن أختي هذه اليتيمة في حجر وليها تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها فيعطيها فثل ما يعطيها غيره فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن على سنتهن في الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن قال عروة قالت عائشة ثم إن الناس استفتوا رسول الله بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله عز وجل {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ}النساء١٢٧ الآية قالت عائشة والذي ذكر الله أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قالها الله عز وجل {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء٣ قالت عائشة وقول الله عز وجل في الآية الأخرى {وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ}النساء١٢٧ رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجرة حيث تكون قليلة المال والحال وفي لفظ آخر إذا كانت ذات مال وجمال رغبوا في نكاحها في إكمال الصداق وإذا كانت مرغوبا عنها في قلة المال والجمال رغبوا عنها وأخذوا غيرها من النساء قال فكما يتركونها حتى يرغبوا عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها ويعطوها حقها من الصداق فهذا يبين إن الله أذن لهم أن يزوجوا اليتامى من النساء إذا فرضوا لهن صداق مثلهن ولم يأذن لهم في تزويجهن بدون صداق المثل لأنها ليست من أهل التبرع ودلائل ذلك متعددة ثم الجمهور الذين جوزوا انكاحها لهم قولان أحدهما وهو قول أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين إنها تزوج بدون اذنها ولها الخيار إذا بلغت والثاني وهو المشهور في مذهب أحمد وغيره إنها لا تزوج إلا بإذنها ولا خيار لها إذا بائت وهذا هو الصحيح الذي دلت عليه السنة كما روى أبو هريرة قال قال رسول الله تستأذن اليتيمة في نفسها فإن سكتت فهو إذنها وإن أبت فلا جواز عليها رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله قال تستأمر

اليتيمة في نفسها فإن سكتت فقد أذنت وإن أبت فلا جواز عليها فهذه السنة نص في القول الثالث الذي هو أعدل الأقوال أنها تزوج خلافا لمن قال إنها لا تزوج حتى تبلغ فلا تصير يتيمة والكتاب والسنة صريح في دخول اليتيمة قبل البلوغ في ذلك إذ البالغة التي لها أمر في مالها يجوز لها أن ترضى بدون صداق المثل ولأن ذلك مدلول اللفظ وحقيقته ولأن ما بعد البلوغ وإن سمي صاحبه يتيما مجازا فغايته أن يكون داخلا في العموم وإما أن يكون المراد باليتيمة البالغة دون التي لم تبلغ فهذا لا يسوغ حمل اللفظ عليه بحال والله أعلم

## بنت يتيمة ليس لها أب ولا لها ولي إلا أخوها وسنها اثنا عشر سنة ولم تبلغ الحلم وقد عقد عليها أخوها بإذنها فهل يجوز ذلك أم لا ؟

هذا العقد صحيح في مذهب أحمد المنصوص عنه في أكثر أجوبته الذي عليه عامة أصحابه ومذهب أبي حنيفة أيضا لكن أحمد في المشهور عنه يقول إذا زوجت بإذنها وإذن أخيها لم يكن لها الخيار إذا

بلغت وأبو حنيفة وأحمد في رواية يقول تزوج بلا إذنها ولها الخيار إذا بلغت وهذا أحد القولين في مذهب مالك أيضا ثم عنه رواية إن دعت حاجة إلى نكاحها ومثلها يوطأ جاز وقيل تزوج ولها الخيار إذا بلغت وقال ابن بشير اتفق المتأخرون إنه يجوز نكاحها إذا خيف عليها الفساد والقول الثالث وهو قول الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى إنها لا تزوج حتى تبلغ إذا لم يكن لها أب وجد قالوا لأنه ليس لها ولي يجبر وهي في نفسها لا إذن لها قبل البلوغ فتعذر تزويجها بإذنها وإذن وليها والقول الأول أصح بدلالة الكتاب والسنة والإعتبار فإن الله تعالى يقول {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً}النساء١٢٧ وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها إن هذه الآية نزلت في اليتيمة تكون في حجر وليها فإن كان لها مال وجمال تزوجها ولم يقسط في صداقها فإن لم يكن لها مال لم يتزوجها فنهى أن يتزوجها حتى يقسط في صداقها من أجل رغبته عن نكاحها إذا لم يكن لها مال وقوله {قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ}النساء١٢٧ يفتيكم ونفتيكم في المستضعفين فقد أخبرت عائشة في هذا الحديث الصحيح الذي اخرجه البخاري ومسلم إن هذه الآية نزلت في اليتيمة تكون في حجر وليها وإن الله أذن له في تزويجها إذا أقسط في صداقها وقد اخبر أنها في حجرة فدل على أنها محجور عليها وايضا فقد ثبت في السنن من حديث أبي موسى وأبي هريرة عن النبي صلى

الله عليه وسلم أنه قال لا تنكح اليتيمة حتى تستأذن فإن سكتت فقد أذنت وإن ابت فلا جواز عليها فيجوز تزويجها بإذنها ومنعه بدون إذنها وقد قال لا يتم بعد احتلاك ولو أريد باليتيم ما بعد البلوغ فبطريق المجاز فلا بد أن يعم ما قبل البلوغ وما بعده أما تخصيص لفظ اليتيم بما بعد البلوغ فلا يحتمله اللفظ بحال ولأن الصغير المميز يصح لفظه مع إذن وليه كما يصح إحرامه بالحج بإذن الولي وكما يصح تصرفه في البيع وغيره بإذن وليه عند أكثر العلماء كما دل على ذلك القرآن بقوله {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ}النساء٦ الآية فأمر بالابتلاء قبل البلوغ وذلك قد لا يأتي إلا بالبيع ولا تصح وصيته وتدبيره عند الجمهور وكذلك إسلامه كما يصح صومه وصلاته وغير ذلك لما له في ذلك من المنفعة فإذا زوجها الولي بإذنها من كفؤ جاز وكان هذا تصرفا بإذنها وهو مصلحة لها وكل واحد من هذين مصحح لتصرف المميز والله أعلم [١]

## بنت دون البلوغ وحضر من يرغب في تزويجها فهل يجوز للحاكم أن يزوجها أم لا؟

الحمد لله إذا كان الخاطب لها كفؤا جاز تزويجها في اصح قولي العلماء وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه ثم منهم من يقول تزوج بلا أمرها ولها الخيار كمذهب أبي حنيفة ورواية عن أحمد ومنهم من يقول إذا بلغت تسع سنين زوجت بإذنها ولا خيار لها إذا بلغت وهو ظاهر مذهب أحمد لقول النبي لا تنكح اليتيمة حتى تستأذن فإن سكتت فقد أذنت وإن أبت فلا جواز عليها رواه أبو داود والنسائي وغيرهما وتزويج اليتيمة ثابت بالكتاب والسنة قال تعالى {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللَّاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ}النساء١٢٧ وقد ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها نزلت في اليتيمة التي يرغب وليها أن ينكحها إذا كان لها مال ولا ينكحها إذا لم يكن لها مال فنهوا عن نكاحهن حتى يقسطوا لهن في الصداق فقد أذن الله للولي أن ينكح اليتيمة إذا أصدقها صداق المثل والله أعلم [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ٤٤-٤٨

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ٤٩

# الظلم نوعان

والظلم نوعان تفريط فى الحق وتعد للحد فالأول ترك ما يجب للغير مثل ترك قضاء الديون وسائر الأمانات وغيرها من الأموال والثانى الاعتداء عليه مثل القتل واخذ المال وكلاهما ظلم لهذا قال النبى فى الحديث المتفق عليه مطل الغنى ظلم واذا اتبع احدكم على ملئ فليتبع فجعل مجرد المطل الذى هو تأخير الاداء مع القدرة ظلما فكيف بالترك رأسا وقد قال تعالى {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ}النساء١٢٧الى قوله {وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ}النساء١٢٧ قالت عائشة رضى الله عنها هى اليتيمة تكون فى حجر اليها فيريد ان يتزوجها بدون يقسط لها فى مهرها فسمى تكميل المهر قسطا وضده الظلم [١]

والعدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال وإنما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط [٢]

قال تعالى {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٢٨ النشوز فى قوله تعالى {تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ}النساء٣٤ هو أن تنشز عن زوجها فتنفر عنه بحيث لا تطيعه إذا دعاها للفراش أو تخرج من منزله بغير اذنه و نحو ذلك مما فيه امتناع عما يجب عليها من طاعته و أما النشوز فى قوله {وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا}المجادلة١١ فهو النهوض و القيام و الارتفاع و أصل هذه المادة هو الارتفاع و الغلظ و منه النشز من الأرض و هو المكان المرتفع الغليظ و منه قوله تعالى {وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا}البقرة٢٥٩ أي نرفع بعضها الى بعض

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٨٤

[٢] الصفدية ج: ٢ ص: ٣٢٨

و من قرأ ننشرها أراد نحييها فسمى المرأة العاصية ناشزا لما فيها من الغلظ و الارتفاع عن طاعة زوجها و سمى النهوض نشوزا لأن القاعد يرتفع عن الأرض و الله أعلم [1]

## صحة القلب وصلاحه فى العدل

و العدل هو الاعتدال والاعتدال هو صلاح القلب كما أن الظلم فساده ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالما لنفسه والظلم خلاف العدل فلم يعدل على نفسه بل ظلمها فصلاح القلب في العدل وفساده في الظلم وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر قال تعالى {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}البقرة٢٨٦ و العمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها قال تعالى فصلت من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وقال تعالى الإسراء {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}الإسراء٧ قال بعض السلف إن للحسنة لنورا في القلب وقوة في البدن وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق كما أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه والمرض إنما هو انحراف المزاج مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه ولكن الأمثل فالأمثل فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف والعدل المحض في كل شيء متعذر علما وعملا ولكن الأمثل فالأمثل ولهذا يقال هذا أمثل ويقال للطريقة السلفية الطريقة المثلى وقال تعالى {وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ}النساء١٢٩ [2]

صحة القلب وصلاحه فى العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف والعدل المحض فى كل شئ متعذر علما وعملا ولكن الامثل فالأمثل ولهذا يقال هذا أمثل ويقال للطريقة السلفية الطريقة المثلى وقال تعالى {وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢١١

[2] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٧

النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ}النساء١٢٩ وقال تعالى {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}الأنعام١٥٢ والله تعالى بعث الرسل وانزل الكتب ليقوم الناس بالقسط واعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ثم العدل على الناس فى حقوقهم ثم العدل على النفس والظلم ثلاثة أنواع والظلم كله من امراض القلوب والعدل صحتها وصلاحها قال احمد بن حنبل لبعض الناس لو صححت لم تخف احدا أى خوفك من المخلوق هو من مرض فيك كمرض الشرك والذنوب [1]

قال تعالى {وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ}النساء٢٧ وهم الغاوون {أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً}النساء٢٧ يعدل بكم عن الصراط المستقيم إلى إتباع الشهوات عدولا عظيما فإن أصل الميل العدول فلا بد منه للذين يتبعون الشهوات كما قال إستقيموا ولن تحصوا وإعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن رواه أحمد وإبن ماجه من حديث ثوبان فأخبر أنا لا نطيق الإستقامة أو ثوابها إذا إستقمنا وقال {وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ}النساء١٢٩ فقوله كل الميل أى يريد نهاية الميل يريد الزيغ عن الطريق والعدول عن سواء الصراط إلى نهاية الشر بل إذا بليت بذلك فتوسط وعد إلى الطريق بالتوبة كما فى الحديث عن النبى ميل المؤمن كميل الفرس فى أخيته يحول ثم يرجع إلى أخيته كذلك المؤمن يحول ثم يرجع إلى ربه [2]

## " شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع "

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٩٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥٧٠ و الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٢

قال تعالى {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٢٨ وتحقيق معنى الشح أنه شدة المنع التى تقوم فى النفس كما يقال شحيح بدينه وضنين بدينه فهو خلق فى النفس والبخل من فروعه كما فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وكذلك فى حديث عبدالرحمن بن عوف أنه كان يقول فى طوافه رب قنى شح نفسى فقيل له ما أكثر ما تستعيذ من ذلك فقال إذا وقيت شح نفسى وقيت الظلم والبخل والقطيعة أو كما قال ولهذا بين الكتاب والسنة أن الشح والحسد من جنس واحد فى قوله {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}الحشر٩ فأخبر عنهم بأنهم يبذلون ما عندهم من الخير مع الحاجة وأنهم لا يكرهون ما أنعم به على إخوانهم وضد الأول البخل وضد الثانى الحسد ولهذا كان البخل والحسد من نوع واحد فإن الحسد يكره عطاء غيره والباخل لا يحب عطاء نفسه ثم قال {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}الحشر٩ فإن الشح أصل البخل واصل للحسد وهو ضيق النفس وعدم إرادتها وكراهتها للخير على الغير فيتولد عن ذلك إمتناعه من النفع وهو البخل وإضرار المنعم عليه وهو الظلم وإذ كان فى الأقارب كان قطيعة ولهذا فى حديث أبى هريرة الذى رواه النسائى من حديث محمد بن عجلان عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريره رضى الله عنه أن رسول الله قال لا يجتمع فى النار مسلم قتل كافر ثم سدد وقارب ولا يجتمعان فى جوف مؤمن غبار فى سبيل الله وفيح جهنم ولا يجتمعان فى قلب عبد الإيمان والحسد ورواه النسائى أيضا من حديث جماعة عن سهيل بن أبى يزيد عن القعقاع واللحلاح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبدا ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبدا فانظر كيف ذكر الشح فى الروايات المشهورة وفى الآخرى والحسد واللفظ الأول أجمع وكيف قرن فى الحديث السماحة والشجاعة كما قال فى الحديث الآخر شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع فمدح الشجاعة فى سبيل الله وذم الشح ونظير هذا قوله إن من الخيلاء ما يحبها الله وهو احتيال الرجل بنفسه عند الحرب وعند

الصدقة وقصد من الحديث قوله {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} التغابن١٦ فحصر المفلحين فيمن يوق شح نفسه والشحيح الذى لا يحب فعل الخير والذى يضر نفسه ويكره النعمة على غيره [1]

## " إتق الله حيثما كنت "

فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها وإتبعها قال تعالى {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ} النساء١٣١ ووصى النبى معاذا لما بعثه إلى اليمن فقال يا معاذ إتق الله حيثما كنت وإتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن وكان معاذا رضى الله عنه من النبى بمنزلة علية فإنه قال له يا معاذ والله إنى لأحبك وكان يردفه وراءه وروى فيه أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام وأنه يحشر إمام العلماء برتوة أى بخطوة ومن فضله أنه بعثه النبى مبلغا عنه داعيا ومفقها ومفتيا وحاكما إلى أهل اليمن وكان يشبهه بإبراهيم الخليل عليه السلام وإبراهيم إمام الناس وكان إبن مسعود رضى الله عنه يقول إن معاذا كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين تشبيها له بإبراهيم ثم إنه وصاه هذه الوصية فعلم أنها جامعة وهى كذلك لمن عقلها مع أنها تفسير الوصية القرآنية أما بيان جمعها فلأن العبد عليه حقان حق لله عز وجل وحق لعباده ثم الحق الذى عليه لا بد أن يخل ببعضه أحيانا إما بترك مأمور به أو فعل منهى عنه فقال النبى إتق الله حيثما كنت وهذه كلمة جامعة وفى قوله حيثما كنت تحقيق لحاجته إلى التقوى فى السر والعلانية ثم قال وإتبع السيئة الحسنة تمحها فإن الطبيب متى تناول المريض شيئا مضرا أمره بما يصلحه والذنب للعبد كأنه أمر حتم فالكيس هو الذى لا يزال يأتى من الحسنات بما يمحو السيئات وإنما قدم فى لفظ الحديث السيئة وإن كانت مفعولة لأن المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة فصار كقوله فى بول الأعرابى صبوا عليه ذنوبا من ماء وينبغى أن تكون الحسنات من جنس السيئات فإنه أبلغ فى المحو والذنوب يزول موجبها بأشياء أحدها التوبة و الثانى الإستغفار من غير توبة فإن الله تعالى قد يغفر له

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص:٣٣٣- ٣٣٥

إجابة لدعائه وإن لم يتب فإذا إجتمعت التوبة والإستغفار فهو الكمال الثالث الأعمال الصالحة المكفرة [1]

فلما قضى بهاتين الكلمتين حق الله من عمل الصالح وإصلاح الفاسد قال وخالق الناس بخلق حسن وهو حق الناس وجماع الخلق الحسن مع الناس أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والإستغفار والثناء عليه والزيارة له وتعطى من حرمك من التعليم والمنفعة والمال وتعفو عمن ظلمك فى دم أو مال أو عرض وبعض هذا واجب وبعضه مستحب وأما الخلق العظيم الذى وصف الله به محمدا فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقا هكذا قال مجاهد وغيره وهو تأويل القرآن كما قالت عائشة رضى الله عنها كان خلقه القرآن وحقيقته المبادرة إلى إمتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وإنشراح صدر وأما بيان أن هذا كله فى وصية الله فهو أن إسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابا وإستحبابا وما نهى عنه تحريما وتنزيها وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد لكن لما كان تارة يعنى بالتقوى خشية العذاب المقتضية للإنكفاف عن المحارم جاء مفسرا فى حديث معاذ وكذلك فى حديث أبى هريرة رضى الله عنهما الذى رواه الترمذى وصححه قيل يا رسول الله ما أكثر ما يدخل الناس الجنة قال تقوى الله وحسن الخلق قيل وما أكثر ما يدخل الناس النار قال الأجوفان الفم والفرج وفى الصحيح عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا فجعل كمال الإيمان فى كمال حسن الخلق ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضوع فإنها الدين كله لكن ينبوع الخير وأصله إخلاص العبد لربه عبادة وإستعانة كما فى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة٥ وفى قوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}هود١٢٣ وفى قوله {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}هود٨٨ وفى قوله {فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ}العنكبوت١٧ بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين إنتفاعا بهم أو عملا لأجلهم ويجعل همته ربه تعالى وذلك بملازمة الدعاء له فى كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك والعمل لله بكل محبوب [2]

---

[1] الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٨٦-٨٧ و مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥٤-٦٥٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥٨-٦٥٩ و الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٩١-٩٢

## "التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله "

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل فى طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة فى طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما فى قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ{٥٤} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ{٥٥} القمر ٥٤ -٥٥ وقد يقرن بها اسم آخر كقوله {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً {٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ{٣}الطلاق٢ -٣ وقوله {فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً}النساء٩ وقوله {اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ}التوبة١١٩ وأمثال ذلك فقوله {فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً}النساء٩ مثل قوله {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ}الحديد٧ وقوله {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}البقرة٢٨٥ فعطف قولهم على الايمان كما عطف القول السديد على التقوى ومعلوم أن التقوى اذا أطلقت دخل فيها القول السديد وكذلك الايمان اذا أطلق دخل فيه السمع والطاعة لله وللرسول وكذلك قوله {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}الحديد٧ واذا أطلق الايمان بالله فى حق أمة محمد دخل فيه الايمان بالرسول وكذلك قوله {كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ}البقرة٢٨٥ واذا أطلق الايمان بالله دخل فيه الايمان بهذه التوابع وكذلك قوله {والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ}البقرة٤ وقوله {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ}البقرة١٣٦ الآية واذا قيل {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ}الأعراف١٥٨ دخل فى الايمان برسوله الايمان بجميع الكتب والرسل والنبيين وكذلك اذا قيل {وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ}الحديد٢٨ واذا قيل {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ}الحديد٧ دخل فى الايمان بالله ورسوله الايمان بذلك كله والانفاق يدخل فى قوله فى الآية الأخرى {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ}الأعراف١٥٨ كما يدخل القول السديد

فى مثل قوله {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ} النساء ١٣١ [1]

## أن الله غنى عن الخلق

أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه ألم أفعل كذا يمن عليه بما يفعله معه وإن لم يقله بلسانه كان ذلك فى نفسه وتخيل مثل هذا فى حق الله تعالى من جهل الإنسان وظلمه ولهذا بين سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غنى عن الخلق كما قال تعالى {وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً} النساء ١٣١ [2]

## يجب إختصاص الخالق بالعبادة والتوكل عليه

ويجب إختصاص الخالق بالعبادة والتوكل عليه فلا يعمل إلا له ولا يرجى إلا هو هو سبحانه الذى ابتدأك بخلقك والانعام عليك بنفس قدرته عليك ومشيئته ورحمته من غير سبب منك أصلا وما فعل بك لا يقدر عليه غيره ثم إذا احتجت اليه فى جلب رزق أو دفع ضرر فهو الذى يأتى بالرزق لا يأتى به غيره وهو الذى يدفع الضرر لا يدفعه غيره كما قال تعالى {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ{٢٠} أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ{٢١} الملك ١٩-٢١ وهو سبحانه ينعم عليك ويحسن اليك بنفسه فإن ذلك موجب ما تسمى به ووصف به نفسه إذ هو الرحمن الرحيم الودود المجيد وهو قادر

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢١٥

بنفسه وقدرته من لوازم ذاته وكذلك رحمته وعلمه وحكمته لا يحتاج الى خلقه بوجه من الوجوه بل هو الغنى عن العالمين {وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}لقمان١٢ {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ {٧} وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}إبراهيم٧-٨ {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً}النساء١٣١ وفى الحديث الصحيح الإلهى يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ولو كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ولو قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى شيئا الى آخر الحديث فالرب سبحانه غنى بنفسه وما يستحقه من صفات الكمال ثابت له بنفسه واجب له من لوازم نفسه لا يفتقر فى شىء من ذلك الى غيره بل أفعاله من كماله كمل ففعل وإحسانه وجوده من كماله لا يفعل شيئا لحاجة الى غيره بوجه من الوجوه بل كلما يريده فعله فإنه فعال لما يريد وهو سبحانه بالغ أمره فكلما يطلب فهو يبلغه ويناله ويصل اليه وحده لا يعينه أحد ولا يعوقه أحد لا يحتاج فى شىء من أموره الى معين وما له من المخلوقين ظهير وليس له ولى من الذل [1]

## إخلاص الدين لله فى عبادته وإستعانته

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٧-٣٨

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}النحل٣٦ وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}الزخرف٦٣ فجعل العبادة والتقوى لله وجعل له أن يطاع وكذلك فى مواضع كثيرة جدا من القرآن اتقوا الله اتقوا الله {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ}النساء١٣١ [١]

## الحمد نوعان

قال تعالى {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً {١٣١} وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{١٣٢}النساء١٣١-١٣٢ اخبر ان له الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد فى الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد و الحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو فى نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهى امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ومعلوم ان كل ما يحمد فانما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذى منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد فثبت انه المستحق للمحامد الكاملة وهو احق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٧٢

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٨٤

ان الذى علم بالعقل والسمع أنه يمتنع ان يكون الرب تعالى فقيرا الى خلقه بل هو الغنى عن العالمين وقد علم أنه حى قيوم بنفسه وان نفسه المقدسة قائمة بنفسه وموجودة بذاته وأنه أحد صمد غنى بنفسه ليس ثبوته وغناه مستفادا من غيره وانما هو بنفسه لم يزل ولا يزال حقا صمدا قيوما [1]

## الاسماء مختصة بالله اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره

سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مسماهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمى الله نفسه حيا فقال {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}البقرة٢٥٥ وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}الروم١٩وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}الروم١٩ اسم للحى المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطق مسمى موجود فى الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا فى جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق فى شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمى الله نفسه سميعا بصيرا فقال {مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء١٣٤ وسمى بعض عباده سميعا بصيرا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٣٤٨

فقال {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً}الإنسان٢ وليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير [١]

## يوصف الله من غير تحريف ولا تعطيل

فان الله تعالى سمى نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات سمى نفسه حيا عليما حكيما قديرا سميعا بصيرا غفورا رحيما الى سائر أسمائه الحسنى قال الله تعالى{وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء١٣٤ وامثال ذلك فالقول فى بعض هذه الصفات كالقول فى بعض ومذهب سلف الأمة وأئمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فلا يجوز نفى صفات الله تعالى التى وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}الشورى١١ ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله وقال نعيم بن حماد الخزاعى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها ومذهب السلف بين مذهبين وهدى بين ضلالتين اثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات فقوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ُ}الشورى١١ رد على أهل التشبيه والتمثيل وقوله {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}الشورى١١ رد على أهل النفى والتعطيل فالممثل اعشى والمعطل أعمى الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما وقد اتفق جميع اهل الاثبات على ان الله حى حقيقة عليم حقيقة قدير حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة مريد حقيقة متكلم حقيقة حتى المعتزلة النفاة للصفات قالوا ان الله متكلم حقيقة كما قالوا مع سائر المسلمين ان الله عليم حقيقة قدير حقيقة بل ذهب طائفة منهم كأبى العباس الناشى الى أن هذه الاسماء حقيقة لله مجاز للخلق واما جمهور المعتزلة مع المتكلمة الصفاتية من الاشعرية الكلابية والكرامية والسالمية واتباع الائمة الاربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وأهل الحديث والصوفية فانهم يقولون ان هذه الاسماء حقيقة للخالق سبحانه وتعالى وان

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١١

كانت تطلق على خلقه حقيقة أيضا ويقولون ان له علما حقيقة وقدرة حقيقة وسمعا حقيقة وبصرا حقيقة [1]

وأخبرت الرسل بتقدم أسمائه وصفاته كما فى قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ {وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء١٣٤ {وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء٩٦ وامثال ذلك قال إبن عباس كان ولا يزال ولم يقيد كونه بوقت دون وقت [2]

## أوجب الله العدل

قال مالك رحمه الله الحكمة معرفة الدين والعمل به ولذلك قال ابن قتيبة الحكمة عند العرب العلم و العمل و الحكمة العملية عندهم و عند غيرهم تتضمن علم الأخلاق وسياسة المنزل وسياسة المدنية وبنى ذلك كله على هذه القضايا المشهورة بل وكل عمل يؤمر به فلا بد فيه من العدل فالعدل مأمور به في جميع الأعمال والظلم منهى عنه نهيا مطلقا ولهذا جاءت أفضل الشرائع والمناهج بتحقيق هذا كله وتكلميه فأوجب الله العدل لكل أحد على كل أحد في كل حال كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ}النساء١٣٥ و قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}المائدة٨ وقال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}الحديد٢٥ وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}النحل٩٠ ومثل هذا كثير

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٩٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٢٣٣

وكذلك تحريم الظلم بمجموع أنواعه كثير في النصوص الالهية حتى في الحديث الالهى حديث ابي ذر الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال يا عبادي إنى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ولا أبالي فاستغفروني اغفر لكم يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى يا عبادي لو ان أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكى شيئا يا عبادي لو ان أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا يا عبادي لو أن اولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط يا عبادي إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم اوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه [1]

ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال انصر أخاك ظالما او مظلوما قيل يا رسول الله أنصره مظلوما فكيف انصره ظالما قال تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه واذا وقع بين معلم ومعلم او تلميذ وتلميذ او معلم وتلميذ خصومة ومشاجرة لم يجز لأحد ان يعين أحدهما حتى يعلم الحق فلا يعاونه بجهل ولا بهوى بل ينظر فى الأمر فاذا تبين له الحق أعان المحق منهما على المبطل سواء كان المحق من أصحابه او أصحاب غيره وسواء كان المبطل من أصحابه او أصحاب غيره فيكون المقصود عبادة الله وحده وطاعة رسوله واتباع الحق والقيام بالقسط قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٣٥ يقال لوى يلوي لسانه فيخبر بالكذب والاعراض ان يكتم الحق فان الساكت عن الحق شيطان أخرس ومن مال صاحبه سواء كان الحق له او عليه فقد حكم بحكم الجاهلية وخرج عن حكم الله ورسوله والواجب على جميعهم ان يكونوا يدا واحدة مع

---

[1] الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٤٢٥ -٤٢٦ و الصفدية ج: ٢ ص: ٣٢٨

الحقى على المبطل فيكون المعظم عندهم من عظمه الله ورسوله والمقدم عندهم من قدمه الله ورسوله والمحبوب عندهم من أحبه الله ورسوله والمهان عندهم من أهانه الله بحسب ما يرضى الله ورسوله لا بحسب الأهواء فانه من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فانه لا يضر إلا نفسه فهذا هو الأصل الذى عليهم اعتماده وحينئذ فلا حاجة الى تفرقهم وتشيعهم فان الله تعالى يقول {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}الأنعام١٥٩ وقال تعالى {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ}آل عمران١٠٥ [1]

## القائم بالقسط هو القائم بالعدل

فإن القائم بالقسط هو القائم بالعدل كما فى قوله {كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ}النساء١٣٥ فالقيام بالقسط يكون فى القول و هو القول العدل و يكون في الفعل فإذا قيل شهد {قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ}آل عمران١٨ أي متكلما بالعدل مخبرا به آمرا به كان هذا تحقيقا لكون الشهادة شهادة عدل و قسط وهى أعدل من كل شهادة كما أن الشرك أظلم من كل ظلم و هذه الشهادة أعظم الشهادات وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية ما يوافق ذلك فذكر إبن السائب أن حبرين من أحبار الشام قدما على النبى صلى الله عليه و سلم فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبى الذي يخرج فى آخر الزمان فلما دخلا على النبى صلى الله عليه و سلم عرفاه بالصفة فقالا أنت محمد قال نعم قالا و أحمد قال نعم قالا نسألك عن شهادة فإن اخبرتنا بها آمنا بك فقال سلاني فقالا أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله فنزلت هذه الآية ولفظ القيام بالقسط كما يتناول القول يتناول العمل فيكون التقدير يشهد و هو قائل بالقسط عامل به لا بالظلم فإن هذه الشهادة تضمنت قولا و عملا فانها تضمنت أنه هو الذي يستحق العبادة وحده فيعبد و أن غيره لايستحق العبادة و أن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء و أن المشركين به في النار فإذا شهد قائما بالعدل المتضمن جزاء المخلصين بالجنة و جزاء المشركين

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٦

بالنار كان هذا من تمام تحقيق موجب هذه الشهادة و كان قوله {قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ}آل عمران١٨ تنبيها على جزاء المخلصين و المشركين كما فى قوله {أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}الرعد٣٣ [1]

قالت عائشة أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم وهذا من القسط الذي أمر الله به وأنزل به كتبه وبعث به رسوله قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٣٥ [2]

فاذا اختصم رجلان بقول أو فعل وجب ان يقام فى امرهما بالقسط قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ}النساء١٣٥ وقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ}المائدة٨ وقال {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ}الحجرات٩ الآية وقد روى ان اقتتالهما كان بالجريد والنعال وقد قال تعالى {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ}النساء١١٤ الآية وقال {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء٥٨ وقال {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}الشورى٤٠ وقال {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ}النحل١٢٦ الآية فإن كان الشخصان قد اختصما نظر أمرهما فان تبين ظلم أحدهما كان المظلوم بالخيار بين الاستيفاء والعفو والعفو أفضل فان كان ظلمه بضرب أو لطم فله أن يضربه أو يلطمه كما فعل به عند جماهير السلف وكثير من الأئمة وبذلك جاءت السنة وقد قيل انه يؤدب ولا قصاص فى ذلك وان كان قد سبه فله أن يسبه مثل ما سبه إذا لم يكن فيه عدوان على حق محض لله أو على غير الظالم فاذا لعنه او سماه باسم كلب ونحوه فله أن يقول له مثل ذلك فاذا لعن اباه لم يكن له أن يلعن اباه لأنه لم يظلمه وان افترى عليه كذبا لم يكن له ان يفترى عليه كذبا لأن الكذب حرام لحق الله كما قال كثير من العلماء فى القصاص فى البدن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٧٦

[2] العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٨١

أنه اذا جرحه أو خنقه أو ضربه ونحو ذلك يفعل به كما فعل فهذا أصح قولى العلماء الا ان يكون الفعل محرما لحق الله كفعل الفاحشة أو تجريعه الخمر فقد نهى عن مثل هذا أكثرهم وان كان بعضهم سوغه بنظير ذلك واذا اعترف الظالم بظلمه وطلب من المظلوم ان يعفو عنه ويستغفر الله له فهذا حسن مشروع كما ثبت فى الصحيح عن أبى الدرداء انه كان بين أبى بكر وعمر كلام وان أبا بكر طلب من عمر ان يستغفر له فأبى عمر ثم ندم فطلب أبا بكر فوجده قد سبقه إلى النبى وذكر له ذلك فقال النبى يغفر الله لك يا أبا بكر ثم قال ايها الناس انى قد جئت إليكم فقلت انى رسول الله فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت فهل انتم تاركوا لى صاحبى واذا طلب من المظلوم العفو بعد اعتراف الظالم فأجاب كان من المحسنين الذين اجرهم على الله وان أبى الا طلب حقه لم يكن ظالما لكن يكون قد ترك الأفضل الأحسن فليس لأحد ان يخرجه عن أهل الطريق بمجرد ذلك كما قد يفعله كثير من الناس قال الله تعالى {وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ{٤١} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ{٤٢} وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ{٤٣}الشورى ٤١-٤٣ فانه لو كان من ترك الاحسان الذى لا يجب عليه يحسب خارجا عن الطريق خرج عنه جمهور أهله و أولياء الله على صنفين مقربين سابقين وأصحاب يمين مقتصدين كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى قال يقول الله تعالى من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه ثم أكثر هؤلاء الذين يذمون تارك العفو إنما يذمونه لأهوائهم لكون الظالم صديق أحدهم أو وريثه أو قرينه ونحو ذلك والله سبحانه أوجب على عباده العدل فى الصلح كما أوجبه فى الحكم فقال تعالى {فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}الحجرات٩ وقيد الاصلاح الذى يثيب عليه بالاخلاص فقال تعالى {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}النساء١١٤ اذ كثير من الناس يقصدون الاصلاح إما لسمعة وإما لرياء ومن العدل أن يمكن المظلوم من الانتصاف ثم بعد ذلك الشفاعة إلى المظلوم فى العفو ويصالحه الظالم وترغيبه فى ذلك فان الله تعالى إذا ذكر فى القرآن حقوق العباد التى فيها وزر الظالم ندب فيها إلى العفو كقوله سبحانه {وَالْجُرُوحَ

قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ} المائدة٤٥ وقوله {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} الشورى٤٠ وعن أنس قال ما رفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء فى القصاص الا أمر فيه بالعفو وليس من شرط طلب العفو من المظلوم ان الظالم يقوم على قدميه ولا يضع نعليه على رأسه ونحو ذلك مما قد يلتزمه بعض الناس وإنما شرطه التمكين من نفسه حتى يستوفى منه الحق فاذا أمكن المظلوم من استيفاء حقه فقد فعل ما وجب عليه ثم المستحق بالخيار ان شاء عفى وان شاء استوفى وللمظلوم أن يهجره ثلاثا وأما بعد الثلاث فليس له أن يهجره على ظلمه إياه لقوله صلى الله عليه وسلم لا يحل لمسلم ان يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام واما إذا كان الذنب لحق الله كالكذب والفواحش والبدع المخالفة للكتاب والسنة أو اضاعة الصلاة بالتفريط وواجباتها ونحو ذلك فهذا لابد فيه من التوبة وهل يشترط مع التوبة اظهار الاصلاح فى العمل على قولين للعلماء وإذا كان لهم شيخ مطاع فان له ان يعزر العاصى بحسب ذنبه تعزيرا يليق بمثله أن يفعله بمثله مثل هجره مدة كما هجر النبى صلى الله عليه وسلم الثلاثة المخلفين وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون يسوسون الناس فى دينهم ودنياهم ثم بعد ذلك تفرقت الأمور فصار امراء الحرب يسوسون الناس فى أمر الدنيا والدين الظاهر وشيوخ العلم والدين يسوسون الناس فيما يرجع اليهم فيه من العلم والدين وهؤلاء أولوا أمر تجب طاعتهم فيما يأمرون به من طاعة الله التى هم أولوا أمرها وهو كذلك فسر أولوا الأمر فى قوله {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ} النساء٥٩ بأمراء الحرب من الملوك ونوابهم وبأهل العلم والدين الذين يعلمون الناس دينهم ويأمرونهم بطاعة الله فان قوام الدين بالكتاب والحديد كما قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} الحديد٢٥ وإذا كان ولاة الحرب عاجزين ومفرطين عن تقويم المنتسبين إلى الطريق كان تقويمهم على رؤسائهم وكان لهم من تعزيزهم وتأديبهم ما يتمكنون منه إذا لم يقم به غيرهم كما قال النبى صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وهو اضعف الايمان وقد يكون تعزيره بنفيه عن وطنه مدة كما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينفى من شرب الخمر وكما نفى نصر بن

حجاج إلى البصرة لخوف فتنة النساء به وقد مضت سنة رسول الله بالنفى فى الزنا ونفى المخنث [1]

## مقابلة الحسنة بمثلها عدل واجب

القسط الذي أرسل الله له الرسل و أنزل له الكتب و هو مقابلة الحسنة بمثلها و السيئة بمثلها كما قال تعالى {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}الرحمن٦٠ و قال {وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}النساء٨٦ و قال {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}الشورى٤٠ وقال {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى}البقرة١٧٨ و قال {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}البقرة١٩٤ و قال{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ}النحل١٢٦ لكن مقابلة الحسنة بمثلها عدل و اجب و الزيادة إحسان مستحب و النقص ظلم محرم و مقابلة السيئة بمثلها عدل جائز و الزيادة محرم و النقص إحسان مستحب فالظلم للظالم و العدل للمقتصد و الاحسان المستحب للسابق بالخيرات و الأمة ثلاثة ظالم لنفسه و مقتصد و سابق بالخيرات [2]

أن المشايخ العارفين اتفقوا على ان أساس الطريق الى الله هو الصدق والاخلاص كما جمع الله بينهما فى قوله {وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ{٣٠} حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ {٣١} الحج ٣٠-٣١ ونصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة دال على ذلك فى مواضع كقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ}التوبة١١٩وقوله تعالى{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ{٣٢} وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ{٣٣}الزمر ٣٢-٣٣ وقال تعالى لما بين الفرق بين النبى والكاهن والساحر {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ{١٩٢} نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{١٩٣} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ{١٩٤} بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ{١٩٥}وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ{١٩٦}الشعراء١٩٢-١٩٦ الى قوله {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص:٥٤٦-٥٥٢

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٥٢١

الشَّيَاطِينُ{٢٢١} تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ{٢٢٢} يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ{٢٢٣}الشعراء٢٢١-٢٢٣ وقال تعالى {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ}الأنعام٩٣ وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ}النساء١٣٥ [1]

أن عامة السيئات يدخل فى الظلم وأن الحسنات غالبها عدل وأن القسط هو المقصود بارسال الرسل وإنزال الكتب والقسط والعدل هو التسوية بين الشيئين فان كان بين متماثلين كان هو العدل الواجب المحمود وإن كان بين الشيء وخلافه كان من باب قوله{ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ}الأنعام١ كما قالوا {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٩٧} إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{٩٨}الشعراء٩٧-٩٨ فهذا العدل والتسوية والتمثيل والاشراك هو الظلم العظيم وإذا عرف أن مادة العدل والتسوية والتمثيل والقياس والاعتبار والتشريك والتشبيه والتنظير من جنس واحد فيستدل بهذه الأسماء على القياس الصحيح العقلي والشرعي ويؤخذ من ذلك تعبير الرؤيا فان مداره على القياس والاعتبار والمشابهة التى بين الرؤيا وتأويلها ويؤخذ من ذلك ما فى الأسماء واللغات من الاستعارة والتشبيه إما فى وضع اللفظ بحيث يصير حقيقة فى الاستعمال وإما فى الاستعمال فقط مع القرينة اذا كانت الحقيقة أحرى فان مسميات الأسماء المتشابهة متشابهة ويؤخذ من ذلك ضرب الأمثال للتصوير تارة وللتصديق أخرى وهو نافعة جدا وذلك أن أدرك النفس لعين الحقائق قليل وما لم يدركه فإنما يعرفه بالقياس على ما عرفته فاذا كان هذا فى المعرفة ففي التعريف ومخاطبة الناس أولى وأحرى ثم التماثل والتعادل يكون بين الوجودين الخارجين وبين الوجودين العلميين الذهنيين وبين الوجود الخارجي والذهني فالأول يقال هذا مثل هذا والثانى يقال فيه مثل هذا كمثل هذا والثالث يقال فيه هذا كمثل هذا فالمثل إما أن يذكر مره أو مرتين أو ثلاث مرات إذا كان التمثيل بالحقيقة الخارجية كما فى قوله {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً}البقرة١٧ فهذا باب المثل وأما باب العدل فقد قال تعالى {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}الأنعام١٥٢وقال تعالى {كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ}النساء١٣٥ الآية وقال {كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٧٨

بِالْقِسْطِ}المائدة٨ وقال {شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ}المائدة١٠٦ {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ}الطلاق٢ فهذا العدل والقسط فى هذه المواضع هو الصدق المبين وضده الكذب والكتمان وذلك أن العدل هو الذي يخبر بالأمر على ما هو عليه لا يزيد فيكون كاذبا ولا ينقص فيكون كاتما والخبر مطابق للمخبر كما تطابق الصورة العلمية والذهنية للحقيقة الخارجية ويطابق اللفظ للعلم ويطابق الرسم للفظ فاذا كان العلم يعدل المعلوم لا يزيد ولا ينقص والقول يعدل العلم لا يزيد ولا ينقص والرسم يعدل القول كان ذلك عدلا والقائم به قائم بالقسط وشاهد بالقسط وصاحبه ذو عدل ومن زاد فهو كاذب ومن نقص فهو كاتم ثم قد يكون عمدا وقد يكون خطأ فتدبر هذا فانه عظيم نافع جدا [1]

## بخس الميزان من الأعمال التى أهلك الله بها قوم شعيب

أما بخس المكيال و الميزان فهو من الأعمال التى أهلك الله بها قوم شعيب و قص علينا قصتهم فى غير موضع من القرآن لنعتبر بذلك و الاصرار على ذلك من أعظم الكبائر و صاحبه مستوجب تغليظ العقوبة و ينبغي أن يؤخذ منه ما بخسه من أموال المسلمين على طول الزمان و يصرف فى مصالح المسلمين اذا لم يمكن إعادته الى أصحابه والكيال و الوزان الذي يبخس الغير هو ضامن محروم مأثوم و هو من أخسر الناس صفقة اذ باع آخرته بدنيا غيره ولا يحل أن يجعل بين الناس كيالا أو و زانا يبخس أو يحابي كما لا يحل أن يكون بينهم مقوم يحابى بحيث يكيل أو يزن أو يقوم لمن يرجوه أو يخاف من شره أو يكون له جاه و نحوه بخلاف ما يكيل أو يزن أو يقوم لغيرهم أو يظلم من يبغضه و يزيد من يحبه قال الله تعالى {وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا}الأنعام١٥٢ و قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٣٥و الله أعلم [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٨٣-٨٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٤٧٤

# الشهادة لابد فيها من شروط

أن المخلوق إذا كانت عنده شهادة لم يبينها بل كتمها لم ينتفع أحد بها و لم تقم بها حجة ولهذا ذم سبحانه من كتم العلم الذي أنزله و ما فيه من الشهادة كما قال تعالى {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ}البقرة١٤٠ أي عنده شهادة من الله و كتمها و هوالعلم الذي بينه الله فإنه خبر من الله و شهادة منه بما فيه وقد ذم من كتمه كما كتم بعض أهل الكتاب ماعندهم من الخبر و الشهادة لابراهيم و أهل بيته و كتموا إسلامهم و ما عندهم من الأخبار بمثل ما أخبر به محمد صلى الله عليه و سلم و بصفته و غير ذلك قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ}البقرة١٥٩ وقال تعالى {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}البقرة١٤٦ و الشهادة لابد فيها من علم الشاهد و صدقه و بيانه لايحصل مقصود الشهادة إلا بهذه الأمور و لهذا ذم من يكتم و يحرف فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٣٥ وفى الصحيحين عن حكيم بن حزام عن النبى صلى الله عليه و سلم قال البيعان بالخيار مالم يتفرقا فأن صدقا و بينا بورك لهما فى بيعهما و ان كذبا و كتما محقت بركة بيعهما [١]

والكلام يجب ان يكون بالعلم والقسط فمن تكلم فى الدين بغير علم دخل فى قوله تعالى {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}الإسراء٣٦ وفى قوله تعالى {وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}الأعراف٣٣ ومن تكلم بقسط وعدل دخل فى قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ}النساء١٣٥ وفى قوله تعالى {وَإِذَا

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٨٧

قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ}الأنعام١٥٢ وفى قوله تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}الحديد٢٥ [1]

فلا يحل للرجل ان يقفو ما ليس له به علم ولا يحل له ان يتكلم فى هذا الباب الا قاصدا بذلك وجه الله تعالى وان تكون كلمة الله هى العليا وان يكون الدين كله لله فمن تكلم فى ذلك بغير علم او بما يعلم خلافه كان آثما وكذلك القاضى والشاهد والمفتى كما قال النبى صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة قاضيان فى النار وقاض فى الجنة رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار ورجل علم الحق فقضى بخلاف ذلك فهو فى النار وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٣٥ و اللى هو الكذب و الاعراض كتمان الحق ومثله ما فى الصحيحين عن النبى انه قال البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وان كذبا وكتما محقت بركة بيعهما ثم القائل فى ذلك بعلم لابد له من حسن النية فلو تكلم بحق لقصد العلو فى الارض او الفساد كان بمنزلة الذى يقاتل حمية ورياء ان تكلم لأجل الله تعالى مخلصا له الدين كان من المجاهدين فى سبيل الله من ورثة النبياء خلفاء الرسل وليس هذا الباب مخالفا لقوله الغيبة ذكرك اخاك بما يكره فان الأخ هو المؤمن والأخ المؤمن إن كان صادقا فى ايمانه لم يكره ما قلته من هذا الحق الذى يحبه الله ورسوله وان كان فيه شهادة عليه وعلى ذويه بل عليه أن يقوم بالقسط ويكون شاهدا لله ولو على نفسه او والديه او اقربيه ومتى كره هذا الحق كان ناقصا فى ايمانه ينقص من اخوته بقدر ما نقص من ايمانه فلم يعتبر كراهته من الجهه التى نقص منها ايمانه اذ كراهته لما لا يحبه الله ورسوله توجب تقديم محبة الله ورسوله كما قال تعالى {وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ}التوبة٦٢ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٤٤١

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص:٢٣٤- ٢٣٨

الذي يدل عليه القرآن فى سورة المائدة فى آية الشهادة فى قوله {فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً}المائدة١٠٦ أي بقولنا {وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}المائدة١٠٦ حذف ضمير كان لظهوره اي و لو كان المشهود له كما فى قوله {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}الأنعام١٥٢ و كما في قوله {كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ}النساء١٣٥ إلى قوله {إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً}النساء١٣٥ اي المشهود عليه و نحو ذلك لأن العادة أن الشهادة المزورة يعتاض عليها و إلا فليس احد يشهد شهادة مزورة بلا عوض و لو مدح أو اتخاذ يد و آفة الشهادة إما اللي و اما الاعراض الكذب و الكتمان [1]

## شهادة المرء على نفسه هي إقراره

والرجل قد يكون حاكما على نفسه إذا كان الحق لله لأنه مؤتمن على حقوق الله كما يرجع إليه في تقويم قيمة المثل إذا أراد أن يخرج الطعام وفي تقويم عروض التجارة والدليل على ذلك ما احتج به أبو بكر من قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ}النساء١٣٥ فأمر الله الرجل أن يقوم بالقسط ويشهد لله على نفسه [2]

وفى الصحيحين عن ابن عباس قال شهد عندي رجال مرضيون و أرضاهم عندى عمر أن النبى صلى الله عليه و سلم نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس و بعد العصر حتى تغرب الشمس و هؤلاء حدثوه أنه نهى عن ذلك و لم يقولوا نشهد عندك فإن الصحابة لم يكونوا يلتزمون هذا اللفظ فى التحديث و ان كان أحدهم قد ينطق به و منه قولهم في ماعز فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه النبى صلى الله عليه و سلم و لفظه كان إقرارا و لم يقل أشهد ومنه قوله تعالى {يَا أَيُّهَا

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٤٨٤

الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ}النساء١٣٥ و شهادة المرء على نفسه هي إقراره و هذه لا يشترط فيه لفظ الشهادة باتفاق العلماء [1]

## مدار باب الشهادة

قال تعالى {مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء}البقرة٢٨٢ وقال فى آية الوصية {اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ}المائدة١٠٦ وقال فى آية الرجعة {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ}الطلاق٢ فقد أمرنا الله سبحانه بأن نحمل الشهادة المحتاج إليها لأهل العدل والرضا وهؤلاء هم الممتثلون ما أمرهم الله به بقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ}النساء١٣٥ الآية وفى قوله تعالى {وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ}البقرة٢٨٣ وقوله {وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ}البقرة٢٨٢ وقوله {وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ}المعارج٣٣ فهم يقومون بالشهادة بالقسط لله فيحصل مقصود الذى إستشهده الوجه الثانى أن كون شهادتهم مقبولة مسموعة لأنهم أهل العدل والرضى فدل على وجوب ذلك فى القبول والأداء وقد نهى سبحانه عن قبول شهادة الفاسق بقوله {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}الحجرات٦ الآية لكن هذا نص فى أن الفاسق الواحد يجب التبين فى خبره وأما الفاسقان فصاعدا فالدلالة عليه يحتاج إلى مقدمة أخرى وما ذكروه من عدد الشهود لا يعتبر فى الحكم بإتفاق العلماء فى مواضع وعند جمهورهم قد يحكم بلا شهود فى مواضع عند النكول والرد ونحو ذلك ويحكم بشاهد ويمين رواه أبوداود وغيره من حديث أبى هريرة ورواه مسلم من حديث ابن عباس أن رسول الله قضى بشاهد ويمين ورواه غيرهما [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٧٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٥٨

وأما تفسير العدالة المشروطة فى هؤلاء الشهداء فانها الصلاح فى الدين والمروءة والصلاح فى أداء الواجبات وترك الكبيرة والاصرار على الصغيرة و الصلاح فى المروءة استعمال ما يجمله ويزينه واجتناب ما يدنسه ويشينه فاذا وجد هذا فى شخص كان عدلا فى شهادته وكان من الصالحين الأبرار وأما انه لا يستشهد أحد فى وصية أو رجعة فى جميع الأمكنة والأزمنة حتى يكون بهذه الصفة فليس فى كتاب الله وسنة رسوله ما يدل على ذلك بل هذا صفة المؤمن الذى اكمل ايمانه بأداء الواجبات وإن كان المستحبات لم يكملها ومن كان كذلك كان من أولياء الله المتقين ثم ان القائلين بهذا قد يفسرون الواجبات بالصلوات الخمس ونحوها بل قد يجب على الانسان من حقوق الله وحقوق عباده ما لا يحصيه الا الله تعالى مما يكون تركه أعظم إثما من شرب الخمر والزنا ومع ذلك لم يجعلوه قادحا فى عدالته إما لعدم استشعار كثرة الواجبات وإما لإلتفاتهم الى ترك السيئات دون فعل الواجبات وليس الأمر كذلك فى الشريعة وبالجملة هذا معتبر فى بانى الثواب و العقاب والمدح والذم والموالاة والمعاداة وهذا أمر عظيم وأما قول من يقول الأصل فى المسلمين العدالة فهو باطل بل الاصل فى بنى آدم الظلم والجهل كما قال تعالى {وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} الأحزاب٧٢ ومجرد التكلم بالشهادتين لايوجب انتقال الانسان عن الظلم والجهل الى العدل و باب الشهادة مداره على ان يكون الشهيد مرضيا أو يكون ذا عدل يتحرى القسط والعدل فى أقواله وأفعاله والصدق فى شهادته وخبره وكثيرا ما يوجد هذا مع الاخلال بكثير من تلك الصفات كما أن الصفات التى اعتبروها كثيرا ما توجد بدون هذا كما قد رأينا كل واحد من الصنفين كثيرا لكن يقال أن ذلك مظنة الصدق والعدل والمقصود من الشهادة ودليل عليها وعلامة لها فان النبى صلى الله عليه وسلم قال فى الحديث المتفق على صحته عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر والبر يهدى الى الجنة الحديث الى آخره فالصدق مستلزم للبر كما أن الكذب مستلزم للفجور فاذا وجد الملزوم وهو تحرى الصدق وجد اللازم وهو البر واذا انتقى اللازم وهو البر انتفى الملزوم وهو الصدق واذا وجد الكذب وهو الملزوم وجد الفجور وهو اللازم وإذا انتفى اللازم وهو الفجور انتفى الملزوم وهو الكذب فلهذا استدل بعدم بر الرجل على كذبه وبعدم فجوره على صدقه فالعدل الذى ذكره الفقهاء من انتفى فجوره وهو إتيان الكبيرة والاصرار على الصغيرة واذا انتفى ذلك فيه انتفى كذبه الذى يدعوه الى هذا الفجور والفاسق هو من

عدم بره واذا عدم بره عدم صدقه ودلالة هذا الحديث مبنية على أن الداعى الى البر يستلزم البر والداعى الى الفجور يستلزم الفجور فالخطأ كالنسيان والعمد كالكذب والله أعلم [1]

## " إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره "

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٣٥ واللي هو تغيير الشهادة والإعراض كتمانها والله تعالى قد أمر بالصدق والبيان ونهى عن الكذب والكتمان فيما يحتاج إلى معرفته وإظهاره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه البيعان بالخيار مالم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}المائدة٨ ومن أعظم الشهادات ما جعل الله آمة محمد شهداء عليه حيث قال {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}البقرة١٤٣ سورة البقرة ١٤٣ وقال تعالى {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}الحج٧٨ والمعنى عند الجمهور أن الله سماهم المسلمين من قبل نزول القرآن وفي القرآن وقال تعالى{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ}البقرة١٤٠ وقال تعالى {وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ}آل عمران١٨٧ وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ {١٥٩} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{١٦٠} البقرة١٥٩ -١٦٠ لا سيما الكتمان إذا لعن آخر هذه الأمة أولها كما في الأثر إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٥٦-٣٥٨

الله على محمد وذلك أن أول هذه الأمة هم الذين قاموا بالدين تصديقا وعلما وعملا وتبليغا فالطعن فيهم طعن في الدين موجب للإعراض عما بعث الله به النبين وهذا كان مقصود أول من أظهر بدعة التشيع فإنما كان قصده الصد عن سبيل الله وإبطال ما جاءت به الرسل عن الله ولهذا كانوا يظهرون ذلك بحسب ضعف الملة فظهر في الملاحدة حقيقة هذه البدع المضلة لكن راج كثير منها على من ليس من المنافقين الملحدين لنوع من الشبهة والجهالة المخلوطة بهوى فقبل معه الضلالة وهذا أصل كل باطل قال الله تعالى{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{١} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{٢} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{٣} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى{٤} النجم ١-٤ إلى قوله {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى{١٩} وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى{٢٠} أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى{٢١} تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى{٢٢} إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى{٢٣}النجم١٩-٢٣ فنزه الله رسوله عن الضلال والغي والضلال عدم العلم والغي اتباع الهوى [1]

وأهل العلم المأثور عن الرسول أعظمن الناس قياما بهه الأصول لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم ولا يصدهم عن سبيل الله العظائم بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه ويتكلم في أحب الناس إليه عملا بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٣٥ وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}المائدة٨ ولهم من التعديل والتجريح والتضعيف والتصحيح من السعي المشكور والعمل المبرور ما كان من أسباب حفظ الدين وصيانته عن إحداث المفترين وهم في ذلك على درجات منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية ومنهم أهل الفقه فيه والمعرفة بمعانيه [2]

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ١ ص: ١٦-١٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٠

## المحبة المحمودة

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة وهي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه وهو السعادة والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره وهو الشقاء ومعلوم أن الحي العالم لا يختار أن يحب ما يضره لكن يكون ذلك عن جهل وظلم فإن النفس قد تهوي ما يضرها ولا ينفعها وذلك ظلم منها لها وقد تكون جاهلة بحالها به بأن تهوي الشيء وتحبه بلا علم منها بما في محبته من المنفعة والمضرة وتتبع هواها وهذا حال من اتبع هواه بغير علم وقد يكون عن اعتقاد فاسد وهو حال من اتبع الظن وما تهوي نفسه وكل ذلك من أمور الجاهلية وإن كان كل من جهلها وظلمها لا يكاد يخلو عن شبهة يشتبه بها الحق وشهوه هي في الأصل محمودة إذا وضعت في محلها كحال الذي يحب لقاء قريبه فإن هذا محمود وهو أصل صلة الرحم التي هي شجنة من الرحمن لكن إذا اتبع هواه حتى خرج عن العدل بين ذوي القربى وغيرهم كان هذا ظلما كما قال تعالي {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}الأنعام١٥٢ وقال تعالي {كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ}النساء١٣٥ وكذلك الذي يحب الطعام والشراب والنساء فإن هذا محمود وبه يصلح حال بني آدم ولولا ذلك لما استقامت نفس الأنساب ولا وجدت الذرية ولكن يجب العدل والقصد في ذلك كما قال تعالي {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ}الأعراف٣١ وكما قال تعالي {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ{٦} فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ{٧} المؤمنون٦-٧ فإذا تجاوز حد العدل وهو المشروع صار ظالما عاديا بحسب ظلمه وعدوانه وقد ذكرنا في مواضع أن المشروع والنافع والصالح والعدل والحق والحسن أسماء متكافئة مسماها واحد بالذات وإن تنوعت صفاته بمنزلة أسماء الله الحسني فأسماؤه تعالي وأسماء كتابه ودينه ونبيه مسمي كل صنف من ذلك واحد وإن تنوعت صفاته فكل عمل صالح هو نافع لصاحبه وبالعكس وكل نافع صالح فهو مشروع وبالعكس وكل ما كان صالحا مشروعا فهو حق وعدل وبالعكس أعلم الناس من كان رأيه واستصلاحه واستحسانه وقياسه موافقا للنصوص كما قال مجاهد أفضل العبادة الرأي الحسن وهو اتباع السنة ولهذا قال تعالي {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ

الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}سبأ٦ ولهذا كان السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسنة والشريعة في مسائل الاعتقاد الخبرية ومسائل الأحكام العملية أهل الأهواء لأن الرأي المخالف للسنة جهل لا علم فصاحبه ممن اتبع هواه بغير علم ولهذا يذكر الله في القرآن من يتبع هواه بغير علم ويذم من يتبع هواه بغير هدي من الله كما قال تعالي {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ}القصص٥٠ وقال تعالي {وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ}الأنعام١١٩ وكل من اتبع هواه اتبعه بغير علم إذ لا علم بذلك إلا بهدي الله الذي بعث الله به رسله كما قال تعالي {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{١٢٣} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{١٢٤} طه١٢٣-١٢٤ ولهذا ذم الله الهوى في مواضع من كتابه واتباع الهوى يكون في الحب والبغض كقوله تعالي {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}ص٢٦ فهنا يكون اتباع الهوى هو ما يخالف الحق في الحكم قال تعالي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٣٥ فهنا يكون اتباع الهوى فيما يخالف القسط من الشهادة وغيرها والحق هو العدل واتباع الهوى في خلاف ذلك هو من الظلم [١]

## {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}

قد تنازع كثير من متأخرى المسلمين فى الغنى الشاكر والفقير الصابر ايهما أفضل فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد ورجح هذا طائفة من العلماء والعباد وقد حكى فى ذلك عن الامام احمد روايتان وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عنهم تفضيل احد الصنفين على الآخر وقال طائفة ثالثة ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلا بالتقوى فأيهما كان اعظم إيمانا وتقوى كان أفضل وان استويا فى ذلك استويا فى الفضيلة وهذا أصح الأقوال لأن الكتاب والسنة إنما تفضل بالايمان والتقوى وقد قال

---

[١] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٧-٢٠

الله تعالى {إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا} النساء١٣٥ قد كان فى الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل من أكثر الفقراء وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر الأغنياء والكاملون يقومون بالمقامين فيقومون بالشكر والصبر على التمام كحال نبينا وحال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس انفع من الغنى والغنى انفع لآخرين كما تكون الصحة لبعضهم انفع كما فى الحديث الذى رواه البغوى وغيره ان من عبادى من لا يصلحه الا الغنى ولو افقرته لافسده ذلك وان من عبادى من لايصلحه إلا الفقر ولو اغنيته لافسده ذلك وان من عبادى من لا يصلحه الا السقم ولو أصححته لافسده ذلك إنى إدبر عبادى إنى بهم خبير بصير وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال إن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وفى الحديث الآخر لما علم الفقراء الذكر عقب الصلوات سمع بذلك الأغنياء فقالوا مثل ما قالوا فذكر ذلك الفقراء للنبى فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فالفقراء متقدمون فى دخول الجنة لخفة الحساب عليهم والأغنياء مؤخرون لأجل الحساب ثم إذا حوسب احدهم فان كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته فى الجنة فوقه وإن تأخر فى الدخول كما أن السبعين الفا يدخلون الجنة بغير حساب ومنهم عكاشة بن محصن وقد يدخل الجنة بحساب من يكون أفضل من احدهم وصلى الله وسلم على محمد قد كثر تنازع الناس ايهما افضل الفقير الصابر او الغنى الشاكر وأكثر كلامهم فيها مشوب بنوع من الهوى أو بنوع من قلة المعرفة والنزاع فيها بين الفقهاء والصوفية والعامة والرؤساء وغيرهم وقد ذكر القاضى ابو الحسين بن القاضى أبى يعلى فى كتاب التمام لكتاب الروايتين والوجهين لأبيه فيها عن أحمد روايتين احداهما إن الفقير الصابر أفضل وذكر انه اختار هذه الرواية أبو إسحاق بن شاقلا ووالده القاضى ابو يعلى ونصرها هو و الثانية أن الغنى الشاكر أفضل اختاره جماعة منهم ابن قتيبة و القول الأول يميل إليه كثير من أهل المعرفة والفقه والصلاح من الصوفية والفقراء ويحكى هذا القول عن الجنيد وغيره و القول الثانى يرجحه طائفة منهم كأبى العباس بن عطاء وغيره وربما حكى بعض الناس فى ذلك اجماعا وهو غلط وفى المسألة قول ثالث وهو الصواب انه ليس هذا أفضل من هذا مطلقا ولا هذا أفضل من هذا مطلقا بل أفضلهما اتقاهما كما قال تعالى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} الحجرات١٣ وقال عمر بن الخطاب الغنى والفقر مطيتان لا أبالى ايتهما ركبت وقد قال تعالى {إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا} النساء١٣٥ وهذا القول اختيار طائفة منهم الشيخ ابن حفص السهروردى وقد يكون هذا أفضل لقوم وفى بعض الأحوال وهذا أفضل لقوم وفى بعض الأحوال

فان استويا فى سبب الكرامة استويا فى الدرجة وإن فضل احدهما الآخر فى سببها ترجح عليه هذا هو الحكم العام والفقر والغنى حالان يعرضان للعبد باختياره تارة وبغير اختياره اخرى كالمقام والسفر والصحة والمرض والامارة والائتمار والامامة والائتمام وكل جنس من هذه الأجناس لا يجوز إطلاق القول بتفضيله على الآخر بل قد يكون هذا أفضل فى حال وهذا فى حال وقد يستويان فى حال كما فى الحديث المرفوع فى شرح السنة للبغوى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تعالى وان من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو افقرته لأفسده ذلك وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو اغنيته لأفسده ذلك وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الصحة ولو اسقمته لأفسده ذلك وإن من عبادى من لا يصلحه إلا السقم ولو اصححته لأفسده ذلك انى ادبر عبادى إنى بهم خبير بصير وفى هذا المعنى ما يروى إن الله يحمى عبده المؤمن الدنيا كما يحمى احدكم مريضه الطعام والشراب ويروى فى مناجاة موسى نحو هذا ذكره احمد فى الزهد فهذا فيمن يضره الغنى ويصلحه الفقر كما فى الحديث الآخر نعم المال الصالح للرجل الصالح وكما ان الأقوال فى المسألة ثلاثة فالناس ثلاثة أصناف غنى وهو من ملك ما يفضل عن حاجته وفقير وهو من لا يقدر على تمام كفايته وقسم ثالث وهو من يملك وفق كفايته ولهذا كان فى اكابر الأنبياء والمرسلين والسابقين الاولين من كان غنيا كابراهيم الخليل وأيوب وداود وسليمان وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن معاذ واسيد بن الحضير واسعد بن زرارة وأبى أيوب الأنصارى وعبادة بن الصامت ونحوهم ممن هو من أفضل الخلق من النبيين والصديقين وفيهم من كان فقيرا كالمسيح عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا وعلى بن أبى طالب وأبى ذر الغفارى ومصعب بن عمير وسلمان الفارسى ونحوهم ممن هو من أفضل الخلق من النبيين والصديقين وقد كان فيهم من اجتمع له الأمران الغنى تارة والفقر أخرى واتى باحسان الأغنياء وبصبر الفقراء كنبينا صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر والنصوص الواردة فى الكتاب والسنة حاكمة بالقسط فان الله فى القرآن لم يفضل احدا بفقر ولا غنى كما لم يفضل أحدا بصحة ولا مرض ولا إقامة ولا سفر ولا امارة ولا ائتمار ولا امامة ولا ائتمام بل قال {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}الحجرات١٣ وفضلهم بالأعمال الصالحة من الايمان ودعائمه وشعبه كاليقين والمعرفة ومحبة الله والانابة إليه والتوكل عليه ورجائه وخشيته وشكره والصبر له وقال فى آية العدل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ}النساء١٣٥ ولذلك كان النبى

وخلفاؤه يعدلون بين المسلمين غنيهم وفقيرهم فى امورهم ولما طلب بعض الأغنياء من النبى ابعاد الفقراء نهاه الله عن ذلك وأثنى عليهم بأنهم يريدون وجهه فقال {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم}الأنعام٥٢ الآية وقال {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم}الكهف٢٨ ولما طلب بعض الفقراء من النبى مالا يصلح له نهاه عن ذلك وقال يا أبا ذر انى اراك ضعيفا وانى احب لك ما احب لنفسى لاتأمرن على اثنين و لا تولين مال يتيم وكانوا يستوون فى مقاعدهم عنده وفى الاصطفاف خلفه وغير ذلك ومن اختص منهم بفضل عرف النبى له ذلك الفضل كما قنت للقراء السبعين وكان يجلس مع أهل الصفة وكان ايضا لعثمان وطلحة والزبير وسعد بن معاذ واسيد بن الحضير وعباد بن بشر ونحوهم من ساداة المهاجرين والأنصار والأغنياء منزلة ليست لغيرهم من الفقراء وهذه سيرة المعتدلين من الأئمة فى الأغنياء والفقراء وهذا هو العدل والقسط الذى جاء به الكتاب والسنة وهى طريقة عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد وابن المبارك ومالك وأحمد بن حنبل وغيرهم فى معاملتهم للأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء وفى الأئمة كالثورى ونحوه من كان يميل إلى الفقراء ويميل على الأغنياء مجتهدا فى ذلك طالبا به رضا الله حتى عتب عليه ذلك فى آخر عمره ورجع عنه [1]

## لطائف لغوية

١- قال تعالى{فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً}النساء١٢٧عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه [2]

٢- قال تعالى{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٢٠-١٢٦

[2] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

بِهِ عَلِيماً}النساء١٢٧ اليتيم في الآدميين من فقد أباه لأن أباه هو الذى يهذبه ويرزقه وينصره بموجب الطبع المخلوق ولهذا كان تابعا فى الدين لوالده وكان نفقته عليه وحضانته عليه والانفاق هو الرزق و الحضانة هى النصر لأنها الايواء ودفع الأذى فإذا عدم أبوه طمعت النفوس فيه لأن الانسان ظلوم جهول والمظلوم عاجز ضعيف فتقوى جهة الفساد من جهة قوة المقتضى ومن جهة ضعف المانع ويتولد عنه فسادان ضرر اليتيم الذى لا دافع عنه ولا يحسن اليه وفجور الآدمى الذى لا وازع له فلهذا أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه فى آيات كثيرة مثل قوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ}البقرة٨٣ وقوله {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ}البقرة١٧٧ الى قوله {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ}البقرة١٧٧ وقوله {قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ}البقرة٢١٥ [1]

٣- قال تعالى {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٢٨ النشوز فى قوله تعالى {تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ}النساء٣٤ هو أن تنشز عن زوجها فتنفر عنه بحيث لا تطيعه إذا دعاها للفراش أو تخرج من منزله بغير اذنه و نحو ذلك مما فيه امتناع عما يجب عليها من طاعته و أما النشوز فى قوله {وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا}المجادلة١١ فهو النهوض و القيام و الارتفاع و أصل هذه المادة هو الارتفاع و الغلظ و منه النشز من الأرض و هو المكان المرتفع الغليظ و منه قوله تعالى {وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا}البقرة٢٥٩ أي نرفع بعضها الى بعض و من قرأ ننشرها أراد نحييها فسمى المرأة العاصية ناشزا لما فيها من الغلظ و الارتفاع عن طاعة زوجها و سمى النهوض نشوزا لأن القاعد يرتفع عن الأرض و الله أعلم [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ١١٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢١١

٤-قال تعالى {وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ}النساء٢٧ وهم الغاوون {أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً}النساء٢٧ يعدل بكم عن الصراط المستقيم إلى إتباع الشهوات عدولا عظيما فإن أصل الميل العدول فلا بد منه للذين يتبعون الشهوات كما قال إستقيموا ولن تحصوا وإعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن رواه أحمد وإبن ماجه من حديث ثوبان فأخبر أنا لا نطيق الإستقامة أو ثوابها إذا إستقمنا وقال {وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ}النساء١٢٩ فقوله كل الميل أى يريد نهاية الميل يريد الزيغ عن الطريق والعدول عن سواء الصراط إلى نهاية الشر بل إذا بليت بذلك فتوسط وعد إلى الطريق بالتوبة كما فى الحديث عن النبى ميل المؤمن كميل الفرس فى أخيته يحول ثم يرجع إلى أخيته كذلك المؤمن يحول ثم يرجع إلى ربه [١]

٥- قال تعالى {فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٢٨ وقال {فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً} النساء١٢٩وقال {وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً}النساء١٣٠وقال{وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً}النساء١٣١ فهو المسمى نفسه بأسمائه الحسنى كما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس انه لما سئل عن قوله {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}الفتح٧ فقال هو سمى نفسه بذلك وهو لم يزل كذلك فأثبت قدم معانى أسمائه الحسنى وأنه هو الذى سمى نفسه بها [٢]

٦- وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى {وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً}النساء١٣٠ وقال {وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً}النساء١٣٣ ونحو ذلك قال كان ولم يزل ولا يزال[٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥٧٠ و الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٢

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٠٥

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٣٨

٧-و فى صحيح البخاري تعليقا عن سعيد بن جبير أن رجلا سأل إبن عباس عن قوله و كان الله غفورا رحيما و كان الله عزيزا حكيما و كان الله سميعا بصيرا فكأنه كان فمضى فقال إبن عباس قوله و كان الله و كان الله فإنه يجل نفسه عن ذلك و سمى نفسه بذلك لم يجله أحد غيره و كان أي لم يزل كذلك رواه عبد بن حميد فى تفسيره مسندا موصولا و رواه إبن المنذر أيضا فى تفسيره و هذا لفظ رواية عبد [١]

٨- قال تعالى {وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً}النساء١٣٠ والرب تعالى واسع حكيم وسع سمعه الاصوات كلها وعطاؤه الحاجات كلها [٢]

٩- قال تعالى {وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً}النساء١٣٠ حكيم منزه عن السفه [٣]

١٠- أن المفسرة التى تأتى بعد فعل من معنى القول لا من لفظه كما فى قوله {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ}النحل١٢٣ {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ}النساء١٣١ والمعنى قلنا لهم اتقوا الله [٤]

١١- قال تعالى{وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً}النساء١٣٣ قدير منزه عن العجز والضعف [٥]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٠

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢٤٦

[٣] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[٤] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢٠

[٥] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

١٢- وأخبرت الرسل بتقدم أسمائه وصفاته كما فى قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ {وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء١٣٤ {وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء٩٦ وامثال ذلك قال إبن عباس كان ولا يزال ولم يقيد كونه بوقت دون وقت [١]

١٣- قال تعالى {وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء١٣٤سميع بصير منزه عن الصم والعمى [٢]

١٤- قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}النساء١٣٥ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين واذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير واذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر فالأول كقوله {وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ}البقرة٢٧١ وقوله {فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ}المائدة٨٩ والثانى كقوله {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ}التوبة٦٠ و هذه الأسماء التى تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة يكونان اذا أفرد أحدهما أعم من الآخر كاسم الايمان و المعروف مع العمل ومع الصدق و المنكر مع الفحشاء ومع البغى ونحو ذلك وتارة يكونان متساويين فى العموم والخصوص كلفظ الايمان و البر و التقوى ولفظ الفقير و المسكين فأيها أطلق تناول ما يتناوله الآخر [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٢٣٣

[٢] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:١٦٦- ١٦٧

## النساء١٣٦-١٤٩

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى
رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً{١٣٦} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ
ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ
وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً{١٣٧} بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً
أَلِيماً{١٣٨} الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً{١٣٩} وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ
فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ
مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً{١٤٠} الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ
فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ
نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
سَبِيلاً{١٤١} إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ
إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ
قَلِيلاً{١٤٢} مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن
يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً{١٤٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ
الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ
سُلْطَاناً مُّبِيناً{١٤٤} إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن
تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً{١٤٥} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ
وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ
أَجْراً عَظِيماً{١٤٦} مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ
شَاكِراً عَلِيماً{١٤٧} لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن
ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً{١٤٨} إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ
تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً{١٤٩}

## أصول الإيمان الخبرية العلمية

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١٣٦

أن يقال أن هذه العقيدة اشتملت على الكلام في الإيمان بالله سبحانه وبرسله واليوم الآخر ولا ريب أن هذه الأصول الثلاثة هي أصول الإيمان الخبرية العلمية وهي جميعها داخلة في كل ملة وفي إرسال كل رسول فجميع الرسل اتفقت عليها كما اتفقت على أصول الإيمان العملية أيضا مثل إيجاب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وإيجاب الصدق والعدل وبر الوالدين وتحريم الكذب والظلم والفواحش فإن هذه الأصول الكلية علما وعملا هي الأصول التي اتفقت عليها الرسل كلهم والسور التي انزلها الله تعالى على نبيه عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة التي يقال لها السور المكية تضمنت تقرير هذه الأصول كسورة الأنعام والأعراف وذوات ألر وحم وطس ونحو ذلك والإيمان بالرسل يتضمن الإيمان بالمكتوب وبمن نزل بها من الملائكة وهذه الخمسة هي أصول الإيمان المذكورة في قوله تعالى ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا وهي التي أجاب بها النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه جبريل في صورة أعرابي وسأله عن الإيمان فقال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره والحديث قد أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب وهو من أصح الأحاديث فتلك الثلاثة تتضمن هذه الخمسة [١]

قوله تعالى {وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١٣٦ فان الكفر بكل من هذه الاصول يستلزم الكفر بغيره فمن كفر بالله كفر بالجميع ومن كفر بالملائكة كفر بالكتب والرسل فكان كافرا بالله إذ كذب رسله وكتبه وكذلك إذا كفر باليوم الآخر كذب الكتب والرسل فكان كافرا [٢]

الأنبياء عليهم السلام معصومون

---

[١] العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٢١١

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٩٢

الأنبياء عليهم السلام فإنهم معصومون لا يجوز أن يستقر فيما يبلغونه خطأ ولهذا أوجب الله الإيمان بهم ومن كفر بواحد منهم فهو كافر ومن يسب واحدا منهم وجب قتله في شرع الإسلام كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} النساء١٣٦ [١]

وأصل الايمان هو الايمان بالغيب كما قال تعالى {الم{١} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{٢} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ {٣} البقرة١-٣ والغيب الذى يؤمن به ما أخبرت به الرسل من الأمور العامة ويدخل فى ذلك الايمان بالله وأسمائه وصفاته وملائكته والجنة والنار فالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر يتضمن الايمان بالغيب فان وصف الرسالة هو من الغيب وتفصيل ذلك هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كما ذكر الله تعالى ذلك فى قوله {وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} البقرة١٧٧ وقال {وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} النساء١٣٦ [٢]

## ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها

وعطف الشيء على الشيء فى القرآن وسائر الكلام يقتضى مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فى الحكم الذى ذكر لهما والمغايرة على مراتب أعلاها أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولا جزأه ولا يعرف لزومه له كقوله {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} الفرقان٥٩ ونحو ذلك وقوله {وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} البقرة٩٨ وقوله {وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ{٣}مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} آل عمران٣-٤ وهذا هو الغالب ويليه أن يكون بينهما لزوم كقوله {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٨٤

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٢٣٣

الْحَقَّ}البقرة٤٢ وقوله {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ}النساء١١٥ وقوله {وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ}النساء١٣٦ فان من كفر بالله فقد كفر بهذا كله فالمعطوف لازم للمعطوف عليه وفى الآية التى قبلها المعطوف عليه لازم فانه من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وفى الثانى نزاع وقوله {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ}البقرة٤٢ هما متلازمان فان من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به خفى من الحق بقدر ما ظهر من الباطل فصار ملبوسا ومن كتم الحق احتاج ان يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلابد أن يظهر باطلا وهكذا أهل البدع لا تجد أحدا ترك بعض السنة التى يجب التصديق بها والعمل الا وقع فى بدعة ولا تجد صاحب بدعة الا ترك شيئا من السنة كما جاء فى الحديث ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها رواه الامام أحمد[1]

## الكفر يتبعض ويزيد وينقص

النفاق يتبعض والكفر يتبعض ويزيد وينقص كما ان الايمان يتبعض ويزيد وينقص قال الله تعالى {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ}التوبة٣٧ وقال {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ{١٢٤} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ{١٢٥}التوبة١٢٤-١٢٥ وقال {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً}المائدة٦٨ وقال{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً}البقرة١٠ وقال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً}النساء١٣٧ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٨٨

## " إزدادوا كفرا : ثبتوا عليه حتى ماتوا "

فإن قيل فقد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ}آل عمران٩٠ و قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً}النساء١٣٧ قيل إن القرآن قد بين توبة الكافر و إن كان قد إرتد ثم عاد إلى الإسلام فى غير موضع كقوله تعالى{كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{٨٦} أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{٨٧} خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ{٨٨} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٨٩}ال عمران٨٦-٨٩ و قوله {كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ}آل عمران٨٦ أى أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين و لهذا قال {وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}آل عمران٨٦ فمن إرتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالا لا يحصل له الهدى إلى أى دين إرتد و المقصود أن هؤلاء لا يهديهم الله و لا يغفر لهم إلا أن يتوبوا و كذلك قال فى قوله {مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ}النحل١٠٦ و من كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد قال {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}النحل١١٠ و هو سبحانه فى آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم ثم ذكر من لا تقبل توبته و من مات كافرا فقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ{٩٠} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{٩١}ال عمران ٩٠-٩١ و هؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالا قيل لنفاقهم و قيل لأنهم تابوا مما دون الشرك و لم يتوبوا منه و قيل لن تقبل توبتهم بعد الموت و قال الأكثرون كالحسن و قتادة و عطاء الخراساني و السدى لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت فيكون هذا كقوله {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ}النساء١٨ و كذلك قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً}النساء١٣٧ قال مجاهد و غيره من المفسرين إزدادوا كفرا ثبتوا عليه حتى ماتوا قلت و ذلك لأن التائب راجع عن الكفر و من لم يتب فإنه مستمر يزداد كفرا بعد كفر فقوله {ثُمَّ ازْدَادُواْ}آل عمران٩٠ بمنزلة قول القائل

ثم أصروا على الكفر و إستمروا على الكفر و داموا على الكفر فهم كفروا بعد إسلامهم ثم زاد كفرهم ما نقص فهؤلاء لا تقبل توبتهم و هي التوبة عند حضور الموت لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب و رجع عن كفره فلم يزدد بل نقص بخلاف المصر إلى حين المعاينة فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلا عن هدمه و فى الآية الأخرى قال {لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ}النساء١٣٧ و ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم إزدادوا كفرا و قيل لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره فإذا كفر بعد ذلك و مات كافرا حبط إيمانه فعوقب بالكفر الأول و الثانى كما فى الصحيحين عن إبن مسعود قال قيل يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية فقال من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية و من أساء فى الإسلام أخذ بالأول و الآخر فلو قال{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ}النساء١٣٧ كان هؤلاء الذين ذكرهم فى آل عمران فقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}آل عمران٩٠ بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا بعد ذلك و هو المرتد التائب فهذا إذا كفر و إزداد كفرا لم يغفر له كفره السابق أيضا فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد إزدادوا كفرا فلا يدخلون فى الآية والفقهاء إذا تنازعوا فى قبول توبة من تكررت ردته أو قبول توبة الزنديق فذاك إنما هو فى الحكم الظاهر لأنه لا يوثق بتوبته أما إذا قدر أنه أخلص التوبة لله فى الباطن فإنه يدخل فى قوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}الزمر٥٣ ونحن حقيقة قولنا أن التائب لا يعذب لا فى الدنيا ولا فى الآخرة لا شرعا ولا قدرا والعقوبات التى تقام من حد أو تعزير إما أن يثبت سببها بالبينة مثل قيام البينة بأنه زنا أو سرق أو شرب فهذا إذا أظهر التوبة لم يوثق بها و لو درىء الحد بإظهار هذا لم يقم حد فإنه كل من تقام عليه البينة يقول قد تبت وإن كان تائبا فى الباطن كان الحد مكفرا و كان مأجورا على صبره و أما إذا جاء هو بنفسه فإعترف وجاء تائبا فهذا لا يجب أن يقام عليه الحد فى ظاهر مذهب أحمد نص عليه فى غير موضع و هي من مسائل التعليق و احتج عليها القاضي بعدة أحاديث و حديث الذى قال أصبت حدا فأقمه على فأقيمت الصلاة يدخل فى هذا لأنه جاء تائبا وإن شهد على نفسه كما شهد به ماعز و الغامدية و اختار إقامة الحد أقيم عليه و إلا فلا كما فى حديث ماعز فهلا تركتموه و الغامدية ردها مرة بعد مرة فالإمام والناس ليس عليهم إقامة الحد على مثل هذا ولكن هو إذا طلب ذلك أقيم عليه كالذى يذنب سرا وليس على أحد أن يقيم عليه حدا لكن إذا إختار هو أن يعترف و يقام عليه الحد أقيم وإن لم يكن تائبا وهذا كقتل الذى ينغمس فى العدو هو مما يرفع

الله به درجته كما قال النبى صلى الله عليه و سلم لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له و هل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله وقد قيل فى ماعز إنه رجع عن الإقرار وهذا هو أحد القولين فيه في مذهب أحمد وغيره وهو ضعيف والأول أجود و هؤلاء يقولون سقط الحد لكونه رجع عن الإقرار و يقولون رجوعه عن الإقرار مقبول وهو ضعيف بل فرق بين من أقر تائبا ومن أقر غير تائب فإسقاط العقوبة بالتوبة كما دلت عليه النصوص أولى من إسقاطها بالرجوع عن الإقرار والإقرار شهادة منه على نفسه و لو قبل الرجوع لما قام حد بإقرار فإذا لم تقبل التوبة بعد الإقرار مع أنه قد يكون صادقا فالرجوع الذى هو فيه كاذب أولى آخره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين [1]

فمن يقولون إن حب الله و بغضه و رضاه و سخطه و ولايته و عداوته إنما يتعلق بالموافاة فقط فالله يحب من علم أنه يموت مؤمنا و يرضى عنه و يواليه بحب قديم و موالاة قديمة و يقولون إن عمر حال كفره كان و ليا لله و هذا القول معروف عن ابن كلاب و من تبعه كالأشعرى و غيره و أكثر الطوائف يخالفونه في هذا فيقولون بل قد يكون الرجل عدوا لله ثم يصير و ليا لله و يكون الله يبغضه ثم يحبه و هذا مذهب الفقهاء و العامة و هو قول المعتزلة و الكرامية و الحنفية قاطبة و قدماء المالكية و الشافعية و الحنبلية و على هذا يدل القرآن كقوله {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ} آل عمران٣١ {وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} الزمر٧ و قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ} النساء١٣٧ فوصفهم بكفر بعد إيمان و إيمان بعد كفر و أخبر عن الذين كفروا أنهم كفار و أنهم إن إنتهوا يغفر لهم ما قد سلف و قال {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ} الزخرف٥٥ و قال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} محمد٢٨ و فى الصحيحين فى حديث الشفاعة تقول الأنبياء إن ربى قد غضب غضبا لم يغضب قبله مثله و لن يغضب بعده مثله و فى دعاء الحجاج عند الملتزم عن ابن عباس و غيره فإن كنت رضيت عنى فأزدد عنى رضا و إلا فمن الآن فارض عني و بعضهم حذف فارض عني فظن بعض الفقهاء أنه فمن الأن أنه من المن و هو تصحيف و إنما هو من حروف الجر كما فى تمام الكلام و إلا فمن الآن فارض

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص:٢٨- ٣٢

عنى فبين أنه يزداد رضا و أنه يرضى فى و قت محدود و شواهد هذا كثيرة و هو مبسوط فى مواضع [1]

## قيد النفاق بأنه نفاق من الايمان

وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وكذلك لفظ الكفر مقيدا ولكن لفظ النفاق قد قيل أنه لم تكن العرب تكلمت به لكنه مأخوذ من كلامهم فان نفق يشبه خرج ومنه نفقت الدابة اذا ماتت ومنه نافقاء اليربوع والنفق فى الأرض قال تعالى {فَإِن اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ}الأنعام٣٥ فالمنافق هو الذى خرج من الايمان باطنا بعد دخوله فيه ظاهرا وقيد النفاق بأنه نفاق من الايمان ومن الناس من يسمى من خرج عن طاعة الملك منافقا عليه لكن النفاق الذى فى القرآن هو النفاق على الرسول فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الاسماء كخطاب الناس بغيرها وهو خطاب مقيد خاص لا مطلق يحتمل أنواعا [2]

لفظ الكفر و النفاق فالكفر اذا ذكر مفردا فى وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله {وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}المائدة٥ وأمثال هذه النصوص كثير فى القرآن فهذه كلها يدخل فيها

---

[1]

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠٠

المنافقون الذين هم فى الباطن كفار ليس معهم من الايمان شىء كما يدخل فيها الكفار المظهرون للكفر بل المنافقون فى الدرك الأسفل من النار كما أخبر الله بذلك فى كتابه ثم قد يقرن الكفر بالنفاق فى مواضع ففى أول البقرة ذكر أربع آيات فى صفة المؤمنين وآيتين فى صفة الكافرين وبضع عشرة آية فى صفة المنافقين فقال تعالى {إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً}النساء١٤٠[1]

## {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}

ومن أذل نفسه لله فقد أعزها ومن بذل الحق من نفسه فقد اكرم نفسه فان اكرم الخلق عند الله اتقاهم ومن اعتز بالظلم من منع الحق وفعل الاثم فقد أذل نفسه وأهانها قال الله تعالى {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً}فاطر١٠ وقال تعالى عن المنافقين {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}المنافقون٨ وقال {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً {١٣٨} الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً{١٣٩}النساء١٣٨ -١٣٩ وقال الله تعالى فى صفة هذا الضرب{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ{٢٠٤} وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ{٢٠٥} وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ{٢٠٦} البقرة٢٠٤-٢٠٦ [2]

قال تعالى {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{١٣} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{١٤} الانفطار١٣-١٤ ووعد أهل الإيمان والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة ووعد الكفار بالعذاب التام في الدار الآخرة أعظم من أن يذكر هنا وهذا مما لم ينازع فيه أحد من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٢٧ و السياسة الشرعية ج: ١ ص: ٨٠

أهل الإسلام من الخطأ الظن بأن نعيم الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ولكن تذكر هنا نكتة نافعة وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيرا من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من المصائب وما يصيب كثيرا من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلا وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين علي المؤمنين وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين وأن العاقبة للتقوى وقول الله تعالى {وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} الصافات١٧٣ وهو ممن يصدق بالقرآن حمل هذه الآيات علي الدار الآخرة فقط وقال أما الدنيا فما نري بأعيننا إلا أن الكفار والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين ولهم العزة والنصرة والقرآن لا يرد بخلاف المحسوس ويعتمد علي هذا فيما إذا أديل أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى فيرى أن صاحب الباطل قد علا

على صاحب الحق فيقول أنا علي الحق وأنا مغلوب وإذا ذكره إنسان بما وعده الله من حسن العاقبة للمتقين قال هذا في الآخرة فقط وإذا قيل له كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور قال يفعل ما يشاء وربما قال بقلبه أو لسانه أو كان حاله يقتضى أن هذا نوع من الظلم وربما ذكر قول بعضهم ما علي الخلق أضر من الخالق لكن يقول يفعل الله ما يشاء وإذا ذكر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا أنه يفعل ما يشاء فلا يعتقدون أن صاحب الحق والتقوى منصور مؤيد بل يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء وهذه الأقوال مبنية علي مقدمتين إحداهما حسن ظنه بدين نفسه نوعا أو شخصا واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه وتارك ما نهي عنه في الدين الحق واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك أن دينه باطل نوعا أو شخصا لأنه ترك المأمور وفعل المحظور والمقدمة الثانية أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا فلا ينبغى الاغترار بهذا المؤمن يطلب نعيم الدنيا والنعيم التام في الآخرة ومن المعلوم أن العبد وإن أقر بالآخرة فهو يطلب حسن عاقبة الدنيا فقد يطلب ما لا بد منه من دفع الضرر وجلب المنفعة وقد يطلب من زيادة النفع ودفع الضرر ما يظن أنه مباح فإذا اعتقد أن الدين الحق قد ينافي ذلك لزم من ذلك إعراض القلب عن الرغبة في كمال الدين الحق وفي حال السابقين والمقربين بل قد يعرض عن حال المقتصدين أصحاب اليمين فيدخل مع الظالمين بل قد يكفر ويصير من المرتدين المنافقين أو المعلنين بالكفر وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من أصوله وفروعه كما قال النبى يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا وذلك إذا اعتقد أن الدين لا يحصل إلا

بفساد دنياه ولذلك فإنه يفرح بحصول الضرر له ويرجو ثواب ضياع ما لا بد له من المنفعة وهذه الفتنة التى صدت أكثر بنى آدم عن تحقيق الدين وأصلها الجهل بحقيقة الدين وبحقيقة النعيم الذي هو مطلوب النفوس في كل وقت إذ قد ذكرنا أن كل عمل فلا بد فيه من إرادة به لطلب ما ينعم فهناك عمل يطلب به النعيم ولا بد أن يكون المرء عارفا بالعمل الذى يعمله وبالنعيم الذي يطلبه ثم إذا علم هذين الأصلين فلابد أن تكون فيه إرادة جازمة علي العمل بذلك وإلا فالعلم بالمطلوب وبطريقه لا يحصلان المقصود إلا مع الإرادة الجازمة والارادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر ولهذا قال سبحانه وتعالى {وَالْعَصْرِ{١} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{٢} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{٣} العصر ١-٣ وقال تعالي {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}السجدة٢٤ فاليقين هو العلم الثابت المستقر والصبر لابد منه لتحقيق الإرادة الجازمة والمقدمتان اللتان التي بنيت عليهما هذه البلية مبناهما علي الجهل بأمر الله ونهيه وبوعده ووعيده فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور تارك للمحظور وهو على العكس من ذلك وهذا يكون من جهله بالدين الحق وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين ولأهل الفجور علي أهل البر فهذا من جهله بوعد الله تعالى من الخطأ الاعتقاد أن الله ينصر الكفار في الدنيا ولا ينصر المؤمنين أما الأول فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه وأنه خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ولا يكون الأمر كذلك بل يكون معه نوع من الباطل والظلم ومع خصمه نوع من الحق والعدل وحبك الشيء يعمي ويصم والإنسان مجبول على محبة نفسه فهو لا يرى إلا محاسنها ومبغض لخصمه فلا يرى إلا مساوئه وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم فإن الإنسان ظلوم جهول وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم وتقليدهم في التصديق والتكذيب والحب والبغض والموالاة والمعاداة كما قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}لقمان٢١ وقال تعالى {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا {٦٦} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} الأحزاب٦٦ -٦٧ وقال تعالى{وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ

مُرِيبٍ}الشورى١٤ وأما الثاني فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه بخلاف من فارقهم إلي طاعة أخري وسبيل آخر ويكذب بوعد الله بنصرهم والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}غافر٥١ وقال تعالى في كتابه {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ{١٧١} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ{١٧٢} وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ{١٧٣}}الصافات١٧١ -١٧٣ وقال تعالى في كتابه {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}المجادلة٥ وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ {٢٠} كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ{٢١}المجادلة٢٠ -٢١ وقال تعالى في كتابه {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ {٥٥} وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ{٥٦}المائدة٥٥ -٥٦ وذم من يطلب النصرة بولاء غير هؤلاء فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{٥١} فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ{٥٢} وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ{٥٣}المائدة ٥١-٥٣ وقال تعالى في كتابه {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{١٣٨} الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً{١٣٩}النساء١٣٨-١٣٩ وقال تعالى في كتابه {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}المنافقون٨ وقال تعالى في كتابه {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ}فاطر١٠ وقال في كتابه {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً}الفتح٢٨ وقال تعالى في كتابه {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ{٩} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{١٠} تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{١١} يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٢} وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ{١٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ

قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآَمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ{١٤} الصف٩-١٤ وقال تعالى في كتابه {يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}آل عمران٥٥ وقال تعالى في كتابه {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً {٢٢} سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً{٢٣}الفتح٢٢ -٢٣ وقال تعالى في كتابه {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}الحشر٢ إلي قوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}الحشر٤ وقال تعالى {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}آل عمران١٣٩ وقال تعالى لما قص قصة نوح وهى نصرة علي قومه في الدنيا فقال تعالى {تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}هود٤٩ وقال تعالى {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}طه١٣٢ وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً}آل عمران١١٨ إلي قوله {وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}آل عمران١٢٠ وقال تعالى {بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ}آل عمران١٢٥ وقال يوسف وقد نصره الله في الدنيا لما دخل عليه إخوته {قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}يوسف٩٠ وقال تعالى في كتابه {يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}الأنفال٢٩ وقال تعالى {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً{٣} الطلاق٢-٣ وقد روي عن أبى ذر عن النبي أنه قال لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم [١]

---

[١] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٣٧-١٤٦ ملاحظة (تكملة الموضوع موجود في تفسير غافر٥١ وتفسير الصافات١٧١-١٧٣ نفس المرجع))

## الموالاة بين المؤمنين من لوازم الايمان

فان المؤمنين أولياء الله وبعضهم أولياء بعض والكفار أعداء الله وأعداء المؤمنين وقد أوجب الموالاة بين المؤمنين وبين ان ذلك من لوازم الايمان ونهى عن موالاة الكفار وبين ان ذلك منتفا فى حق المؤمنين وبين حال المنافقين فى موالاة الكافرين فأما موالاة المؤمنين فكثيرة كقوله {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ}المائدة٥٥ الى قوله {وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}المائدة٥٦ وقال {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ {٧٩} تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ{٨٠} وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{٨١}المائدة٧٨ ـ٨٠ فذم من يتولى الكفار من أهل الكتاب قبلنا وبين أن ذلك ينافى الايمان {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً {١٣٨} الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً{١٣٩}النساء١٣٨ ـ١٣٩ الى قوله {وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} النساء١٤١ وقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً{١٤٤} إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً{١٤٥}النساء١٤٤ ـ١٤٥ [١]

## حاضر المنكر مثل فاعله

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٩٢

وجعل مجالس فاعل المنكر مثله قوله تعالى {إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ}النساء١٤٠ وهو زوج له وقد قال تعالى {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}الصافات٢٢ أى عشراءهم وقرناءهم وأشباههم ونظراءهم ولهذا يقال المستمع شريك المغتاب [1]

قال تعالى {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٦٨} وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{٦٩} الأنعام٦٨ -٦٩ وقال تعالى {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ}النساء١٤٠ فجعل القاعد المستمع من غير إنكار بمنزلة الفاعل ولهذ يقال المستمع شريك المغتاب وفى الأثر من شهد المعصية وكرهها كان كمن غاب عنها ومن غاب عنها ورضيها كان كمن شهدها فإذا شهدها لحاجة أو لإكراه أنكرها بقلبه لقوله النبى صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان فلو كان الرجل مارا فسمع القرآن من غير أن يستمع إليه لم يؤجر على ذلك وإنما يؤجر على الإستماع الذى يقصد كما قال تعالى {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}الأعراف٢٠٤ وقال لموسى {فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}طه١٣ [2]

أن الله سبحانه وتعالى لا يأمر باستماع كل قول بإجماع المسلمين بل من القول ما يحرم استماعه ومنه ما يكره كما قال النبي ص من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة وقد قال تعالى {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً} النساء ١٤٠ فجعل الله المستمع لهذا الحديث مثل قائله فإذا كان هذا فى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣١٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٢١٣

المجالسة والعشرة العارضة حين فعلهم للمنكر يكون مجالسهم مثلا لهم فكيف بالعشرة الدائمة [1]

قال النبي صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن ب الله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر وقد رفع إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قوم يشربون الخمر فأمر بضربهم فقيل له إن فيهم صائما فقال ابدأوا به ثم قال أما سمعت قوله تعالى {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ}النساء١٤٠ فاستدل عمر بالآية لأن الله تعالى جعل حاضر المنكر مثل فاعله بل إذا كان من دعا إلى دعوة مباحة كدعوة العرس لا تجاب دعوته إذا اشتملت على منكر حتى يدعه مع أن إجابة الدعوة حق فكيف بشهود المنكر من غير حق يقتضي ذلك [2]

## الهجر الشرعى نوعان

الهجر الشرعى نوعان أحدهما بمعنى الترك للمنكرات و الثانى بمعنى العقوبة عليها فالأول هو المذكور فى قوله تعالى {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}الأنعام٦٨ وقوله تعالى {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً}النساء١٤٠ فهذا يراد به أنه لا يشهد المنكرات لغير حاجة مثل قوم يشربون الخمر يجلس عندهم وقوم دعوا الى وليمة فيها خمر وزمر لا يجيب دعوتهم

---

[1] الاستقامة ج: ١ ص: ٢١٧ و الاستقامة ج: ١ ص: ٤٠٣

[2] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٢٦

وأمثال ذلك بخلاف من حضر عندهم للانكار عليهم او حضر بغير اختياره ولهذا يقال حاضر المنكر كفاعله وفى الحديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر وهذا الهجر من جنس هجر الانسان نفسه عن فعل المنكرات كما قال المهاجر من هجر ما نهى الله النوع الثانى الهجر على وجه التاديب وهو هجر من يظهر المنكرات يهجر حتى يتوب منها كما هجر النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر ولم يهجر من أظهر الخير وان كان منافقا فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير [١]

وأما تارك الصلاة ونحوه من المظهرين لبدعة أو فجور فحكم المسلم يتنوع كما تنوع الحكم فى حق رسول الله فى حق مكة وفى المدينة فليس حكم القادر على تعزيرهم بالهجرة حكم العاجز ولا هجرة من لا يحتاج الى مجالستهم كهجرة المحتاج والأصل ان هجرة الفجار نوعان هجرة ترك وهجرة تعزير أما الأولى فقد دل عليها قوله تعالى {وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً}المزمل١٠ وقوله {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ}النساء١٤٠ ومن هذا الباب هجرة المسلم من دار الحرب فالمقصود بهذا ان يهجر المسلم السيئات ويهجر قرناء السوء الذين تضره صحبتهم الا لحاجة او مصلحة راجحة وأما هجر التعزير فمثل هجر النبى وأصحابه الثلاثة الذين خلفوا وهجر عمر والمسلمين لصبيغ فهذا من نوع العقوبات فاذا كان يحصل بهذا الهجر حصول معروف او اندفاع منكر فهى مشروعة وان كان يحصل بها من الفساد ما يزيد على فساد الذنب فليست مشروعة والله أعلم [٢]

ولا يجوز لأحد ان يحضر مجالس المنكر باختياره لغير ضرورة كما فى الحديث انه قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر ورفع لعمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر فامر بجلدهم فقيل له ان فيهم صائما فقال ابداوا به اما سمعتم الله يقول{وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٠٣-٢٠٤

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢١٦-٢١٧

سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ}النساء١٤٠ بين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ان الله جعل حاضر المنكر كفاعله ولهذا قال العلماء اذا دعى الى وليمة فيها مكر كالخمر والزمر لم يجز حضورها وذلك ان الله تعالى قد أمرنا بانكار المنكر بحسب الامكان فمن حضر باختياره ولم ينكره فقد عصى الله ورسوله بترك ما امره به من بغض انكاره والنهى عنه واذا كان كذلك فهذا الذى يحضر مجالس الخمر باختياره من غير ضرورة ولا ينكر المنكر كما امره الله هو شريك الفساق فى فسقهم فيلحق بهم [١]

## لفظ النفاق

ولفظ النفاق فانه فى الشرع اظهار الدين وابطان خلافه وهذا المعنى الشرعى اخص من مسمى النفاق فى اللغة فانه فى اللغة اعم من اظهار الدين ثم ابطان ما يخالف الدين اما ان يكون كفرا أو فسقا فاذا أظهر انه مؤمن وابطن التكذيب فهذا هو النفاق الأكبر الذى اوعد صاحبه بأنه فى الدرك الاسفل من النار وان أظهر انه صادق أو موف أو أمين وابطن الكذب والغدر والخيانة ونحو ذلك فهذا هو النفاق الاصغر الذى يكون صاحبه فاسقا فاطلاق النفاق عليهما فى الاصل بطريق التواطؤ وعلى هذا فالنفاق اسم جنس تحته نوعان ثم انه قد يراد به النفاق فى أصل الدين مثل قوله {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}النساء١٤٥و {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}المنافقون١ والمنافق هنا الكافر وقد يراد به النفاق فى فروعه مثل قوله آية المنافق ثلاث وقوله أربع من كن فيه كان منافقا خالصا وقول ابن عمر فيمن يتحدث عند الامراء بحديث ثم يخرج فيقول بخلافه كنا نعد هذا على عهد النبى نفاقا إذا قال الرجل جاء القاضى وعنى به قاضى بلده لكون اللام للعهد كما قال سبحانه {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ}المزمل١٦ ان اللام هى أوجبت قصر الرسول على موسى لا نفس لفظ رسول واما ان يكون لغلبة الاستعمال عليه فيصير مشتركا بين اللفظ العام والمعنى الخاص فكذلك قوله {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ}المنافقون١ فان تخصيص هذا اللفظ بالكافر إما أن يكون لدخول اللام التى تفيد العهد والمنافق المعهود هو الكافر أو تكون لغلبة هذا الاسم فى الشرع على

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٢١-٢٢٢

نفاق الكفر وقوله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه كان منافقا يعنى به منافقا بالمعنى العام وهو إظهاره من الدين خلاف ما يبطن فاطلاق لفظ النفاق على الكافر وعلى الفاسق إن اطلقته باعتبار ما يمتاز به عن الفاسق كان إطلاقه عليه وعلى الفاسق باعتبار الاشتراك وكذلك يجوز أن يراد به الكافر خاصة ويكون متواطئا إذا كان الدال على الخصوصية غير لفظ منافق بل لام التعريف وهذا البحث الشريف جار فى كل لفظ عام استعمل فى بعض أنواعه إما لغلبة الاستعمال أو لدلالة لفظية خصته بذلك النوع مثل تعريف الاضافة أو تعريف اللام فان كان لغلبة الاستعمال صح أن يقال إن اللفظ مشترك وإن كان لدلالة لفظية كان اللفظ باقيا على مواطأته فلهذا صح أن يقال النفاق اسم جنس تحته نوعان لكون اللفظ فى الأصل عاما متواطئا وصح ان يقال هو مشترك بين النفاق فى اصل الدين وبين مطلق النفاق فى الدين لكونه فى عرف الاستعمال الشرعى غلب على نفاق الكفر [1]

## المنافقون هم فى الظاهر مسلمون

و المنافقون هم فى الظاهر مسلمون وقد كان المنافقون على عهد النبى يلتزمون احكام الإسلام الظاهرة لا سيما فى آخر الأمر ما لم يلتزمه كثير من المنافقين الذين من بعدهم لعز الإسلام وظهوره إذ ذاك بالحجة والسيف تحقيقا لقوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً}الفتح٢٨ ولهذا قال حذيفة بن اليمان وكان من أعلم الصحابة بصفات المنافقين واعيانهم وكان النبى قد اسر إليه عام تبوك اسماء جماعة من المنافقين بأعيانهم فلهذا كان يقال هو صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ويروى أن عمر بن الخطاب لم يكن يصلى على أحد حتى يصلى عليه حذيفة لئلا يكون من المنافقين الذين نهى عن الصلاة عليهم قال حذيفة رضي الله عنه النفاق اليوم اكثر منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رواية كانوا على عهد النبى يسرونه واليوم يظهرونه وذكر البخارى فى صحيحه عن ابن ابي مليكة قال أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه وقد اخبر الله عن المنافقين أنهم يصلون ويزكون وأنه لا يقبل ذلك منهم وقال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٤٣

خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٤٢ وقال تعالى {قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ{٥٣} وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ{٥٤}}التوبة٥٣-٥٤ وقد كانوا يشهدون مع النبى مغازيه كما شهد عبدالله بن ابي بن سلول وغيره من المنافقين الغزوة التى قال فيها عبدالله بن ابي {لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ}المنافقون٨ وأخبر بذلك زيد بن أرقم النبى وكذبه قوم حتى أنزل الله القرآن بتصديقه [1]

## علامات المنافقين

### ١-المنافقون قد يصومون ويصلون ويتصدقون ولكن لا يتقبل منهم

من اعتقد أنه بمجرد تلفظ الإنسان بهذه الكلمة ( لا إله إلا الله)يدخل الجنة ولا يدخل النار بحال فهو ضال مخالف للكتاب والسنة وإجماع المؤمنين فإنه قد تلفظ بها المنافقون الذين هم في الدرك الأسفل من النار وهم كثيرون بل المنافقون قد يصومون ويصلون ويتصدقون ولكن لا يتقبل منهم قال الله تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٤٢ وقال تعالى {قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ{٥٣} وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ{٥٤}التوبة٥٣ -٥٤ وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً}النساء١٤٠ وقال تعالى {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٢} يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ{١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٧٠

وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ{١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{١٥} الحديد١٢-١٥وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان ولمسلم وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم وفي الصحيحين عنه أنه قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر ولكن إن قال لا إله إلا الله خالصا صادقا من قلبه ومات على ذلك فإنه لا يخلد في النار إذ لا يخلد في النار من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان كما صحت بذلك الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم لكن من دخلها من فساق أهل القبلة من أهل السرقة والزنا وشرب الخمر وشهادة الزور وأكل الربا وأكل مال اليتيم وغير هؤلاء فإنهم إذا عذبهم فيها عذبهم على قدر ذنوبهم كما جاء في الأحاديث الصحيحة منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ومنهم من تأخذه إلى حقويه ومكثوا فيها ما شاء الله أن يمكثوا أخرجوا بعد ذلك كالحمم فيلقون في نهر يقال له الحياة فينبتون فيه كما تنبت الحبة في حميل السيل ويدخلون الجنة مكتوب على رقابهم هؤلاء الجهنميون عتقاء الله من النار وتفصيل هذه الجملة طويل لا يحتمله هذا الموضع و الله أعلم [١]

فالذي يقصد العمل المعين من غير أن يقصد طاعة الله و عبادته كمن يدفع زكاة ماله إلى السلطان لئلا يضرب عنقه أو ينقص حرمته أو يأخذ ماله أو قام يصلي خوفا على دمه أو ماله أو عرضه و هذه حال المنافقين عموما و المرائين فى بعض الأعمال خصوصا كما قال تعالى {وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ}النساء١٤٢ و قال {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{٥} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{٦} وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ{٧}الماعون٤-٧ و قال تعالى {وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ}التوبة٥٤ [٢]

## ٢-إن مراءاة الناس فى العبادات المختصة من أعظم الذنوب

---

[١] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٢١٤ و مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٢٠٢-٢٠٣

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٦ ص: ٢٨

وقد ذكر الله تعالى الإخلاص فى كتابه فى غير موضع كقوله تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}البينة٥ وقوله {فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{٢} أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ {٣}الزمر٢-٣ وقوله {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي}الزمر١٤ وغير ذلك من الآيات وإخلاص الدين هو أصل دين الإسلام ولذلك ذم الرياء فى مثل قوله{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{٥} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{٦}الماعون ٤-٦ وقوله {وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٤٢ وقال تعالى {كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ}البقرة٢٦٤ الآية وقوله تعالى {وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قِرِيناً}النساء٣٨ الآية[١]

فانما الأعمال بالنيات و انما لكل امرىء مانوى و النية هي مما يخفيه الانسان فى نفسه فإن كان قصده ابتغاء وجه ربه الأعلى استحق الثواب و ان كان قصده رياء الناس استحق العقاب كما قال تعالى {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{٥} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{٦} الماعون٤-٦ و قال {وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ}النساء١٤٢ وفى حديث أبى هريرة الصحيح فى الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار فى الذي تعلم و علم ليقال عالم قاريء و الذي قاتل ليقال جريء و شجاع و الذي تصدق ليقال جواد و كريم فهؤلاء انما كان قصدهم مدح الناس لهم و تعظيمهم لهم و طلب الجاه عندهم لم يقصدوا بذلك وجه الله و ان كانت صور أعمالهم صورا حسنة فهؤلاء إذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب كما فى الحديث من طلب العلم ليباهي به العلماء أو ليماوى به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فله من عمله النار و فى الحديث الآخر من طلب علما مما يبتغى به وجه الله لايطلبه الا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة و ان ريحها ليوجد من مسيرةخمسمائة عام و في الجملة القلب هو الاصل كما قال أبو هريرة القلب ملك الأعضاء و الاعضاء جنوده فاذا طاب الملك طابت جنوده و إذا خبث خبثت جنوده و هذا كما في حديث النعمان بن بشير المتفق عليه أن النبى صلى الله عليه و سلم قال ان فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد و إذا فسدت فسد لها سائر الجسد الا و هي القلب فصلاحه و فساده يستلزم صلاح

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٢٥٧

الجسد و فساده فيكون هذا مما أبداه لا مما أخفاه      وكلما أوجبه الله على العباد لابد أن يجب على القلب فانه الاصل و ان وجب على غيره تبعا فالعبد المأمور المنهي انما يعلم بالأمر و النهي قلبه و انما يقصد الطاعة و الامتثال القلب و العلم بالمأمور و الامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به كالصلاة و الزكاة و الصيام و إذا كان العبد قد أعرض عن معرفة الأمر وقصد الامتثال كان أول المعصية منه بل كان هو العاصي و غيره تبع له فى ذلك و لهذا قال فى حق الشقي{فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{٣١} وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{٣٢} القيامة٣١-٣٢ الآيات و قال فى حق السعداء   {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}البقرة٢٧٧   فى غير موضع [1]

فإن مراءاة الناس فى العبادات المختصة كالصلاة والصيام والذكر وقراءة القرآن من أعظم الذنوب قال الله تعالى{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{٥} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{٦} وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ{٧} الماعون٤-٧   وقال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٤٢          فأما المرائى بالفرائض فكل أحد يعلم قبح حاله وأن الله يعاقبه لكونه لم يعبده مخلصا له الدين والله تعالى يقول {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}البينة٥  وقال تعالى{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ}الزمر٢   فهذا فى القرآن كثير        وأما المرائى بنوافل الصلاة والصوم والذكر وقراءة القرآن فلا يظن الظان أنه يكتفى فيه بحبوط عمله فقط بحيث يكون لا له ولا عليه بل هو مستحق للذم والعقاب على قصده شهرة عبادة غير الله إذ هى عبادات مختصة ولا تصح إلا من مسلم ولا يجوز إيقاعها على غير وجه التقرب بخلاف ما فيه نفع العبد كالتعليم والإمامة فهذا فى الإستئجار عليه نزاع بين العلماء والله أعلم [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١١٣-١١٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٥٠٧

وكذلك سماع القرآن وغيره قد يكون رياء وسمعة وقد يكون بلا قلب ولا حضور ولا تدبر ولا فهم ولا ذوق وقد أخبر الله عن المنافقين أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى والصلاة مشتملة على السماع الشرعي [1]

## ٣-أن المنافق يضيع وقت الصلاة و فعلها وينقرها

قال الله تعالى {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{٥} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{٦} وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ{٧} الماعون٤-٧ وقال تعالى {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً}مريم٥٩ فقد ذم الله تعالى في كتابه الذين يصلون إذا سهوا عن الصلاة وذلك على وجهين أحدهما أن يؤخرها عن وقتها الثانى أن لا يكمل واجباتها من الطهارة والطمأنينة والخشوع وغير ذلك كما ثبت فى الصحيح أن النبى قال تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق ثلاث مرار يترقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا فجعل النبى صلاة المنافقين التأخير وقلة ذكر إسم الله سبحانه وقد قال تعالى{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٤٢ وقال {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً{١٤٥} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً{١٤٦} النساء١٤٥-١٤٦ وأما قوله سبحانه وتعالى {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً}مريم٥٩ فقد قال بعض السلف إضاعتها تأخيرها عن وقتها وإضاعة حقوقها قالوا وكانوا يصلون ولو تركوها لكانوا كفارا فإنه قد صح عن النبى أنه قال ليس بين العبد وبين الشرك إلا ترك الصلاة وقال العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر وفى الحديث أن العبد إذا كمل الصلاة صعدت ولها برهان كبرهان الشمس وتقول حفظك الله كما حفظتنى وإن لم يكملها فإنها تلف كما يلف الثوب ويضرب بها وجه صاحبها وتقول ضيعك الله كما ضيعتنى وفى السنن عن النبى صلى الله عليه أنه قال أن العبد لينصرف من صلاته ولم

---

[1] الاستقامة ج: ١ ص: ٤٠٠

يكتب له إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها إلا خمسها إلا سدسها حتى قال إلا عشرها وقال ابن عباس ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها وقوله {وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ}مريم٥٩ الذى يشتغل به عن إقامة الصلاة كما أمر الله تعالى ورسوله بنوع من أنواع الشهوات كالرقص والغناء وأمثال ذلك وفى الصحيحين أن رجلا دخل المسجد فصلى ركعتين ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسلم عليه فقال وعليك السلام ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع فصلى ثم اتاه فسلم عليه فقال وعليك السلام إرجع فصل فإنك لم تصل مرتين أو ثلاثا فقال والذى بعثك بالحق ما أحسن غيرها فعلمنى ما يجزئنى فى الصلاة فقال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم إقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم إركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم اجلس حتى تطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها وفى السنن عنه أنه قال لا تقبل صلاة من لم يقم صلبه فى الركوع والسجود [1]

فعن عبد الرحمن بن شبل رضي الله عنه قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقرة الغراب و افتراش السبع و أن يوطن الرجل المكان في المسجد كما يوطن البعير أخرجه أبو داود و النسائي و ابن ماجة و إنما جمع بين الأفعال الثلاثة و إن كانت مختلفة الأجناس لأنه يجمعها مشابهة البهائم في الصلاة فنهى عن مشابهة فعل الغراب و عما يشبه فعل السبع و عما يشبه فعل البعير و إن كان نقر الغراب أشد من ذينك الأمرين لما فيه من أحاديث أخر و في الصحيحين عن قتادة عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال اعتدلوا في الركوع و السجود ولا يبسطن أحدكم ذراعيه انبساط الكلب لا سيما وقد بين في حديث آخر أنه من صلاة المنافقين و الله تعالى أخبر في كتابه أنه لن يقبل عمل المنافقين فروى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تلك صلاة المنافق يمهل حتى إذا كانت الشمس بين قرني شيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا فأخبر أن المنافق يضيع وقت الصلاة المفروضة و يضيع فعلها و ينقرها فدل ذلك على ذم هذا و هذا و إن كان كلاهما تاركا للواجب و ذلك حجة واضحة في أن نقر الصلاة غير جائز و أنه من فعل من فيه نفاق و النفاق كله حرام و هذا الحديث حجة مستقلة بنفسها وهو مفسر لحديث قبله و قال الله تعالى {إِنَّ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص:٢٣- ٢٦ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٧-٨

الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} النساء١٤٢ و هذا وعيد شديد لمن ينقر في صلاته فلا يتم ركوعه و سجوده بالاعتدال و الطمأنينة و المثل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم من أحسن الأمثال فإن الصلاة قوت القلوب كما أن الغذاء قوت الجسد فإذا كان الجسد لا يتغذى باليسير من الأكل فالقلب لا يقتات بالنقر في الصلاة بل لا بد من صلاة تامة تقيت القلوب و أما ما يرويه طوائف من العامة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلا ينقر في صلاته فنهاه عن ذلك فقال لو نقر الخطاب من هذه نقرة لم يدخل النار فسكت عنه عمر فهذا لا أصل له و لم يذكره أحد من أهل العلم فيما بلغني لا في الصحيح و لا في الضعيف و الكذب ظاهر عليه فإن المنافقين قد نقروا أكثر من ذلك وهم في الدرك الأسفل من النار و أيضا فعن أبي عبد الله الأشعري الشامي قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه ثم جلس في طائفة منهم فدخل رجل فقام يصلي فجعل يركع و ينقر في سجوده و رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه فقال ترون هذا لو مات مات على غير ملة محمد ينقر صلاته كما ينقر الغراب الرمة إنما مثل الذي يصلي ولا يتم ركوعه و ينقر في سجوده كالجائع لا يأكل إلا تمرة أو تمرتين لا تغنيان عنه شيئا فأسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار و أتموا الركوع و السجود قال أبو صالح فقلت لأبي عبد الله الأشعري من حدثك بهذا الحديث قال أمراء الأجناد خالد بن الوليد و عمرو بن العاص و شرحبيل بن حسنة و يزيد بن أبي سفيان كل هؤلاء يقولون سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه أبو بكر بن خزيمة في صحيحه بكماله و روى ابن ماجة بعضه و أيضا ففي صحيح البخاري عن أبي وائل عن زيد بن وهب أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه رأى رجلا لا يتم ركوعه و لا سجوده فلما قضى صلاته دعاه و قال له حذيفة ما صليت و لو مت مت على غير الفطرة التي فطر الله عليها محمدا صلى الله عليه وسلم و لفظ أبي وائل ما صليت و أحسبه قال لو مت مت على غير سنة محمد صلى الله عليه وسلم و هذا الذي لم يتم صلاته إنما ترك الطمأنينة أو ترك الاعتدال أو ترك كلاهما فإنه لا بد أن يكون قد ترك بعض ذلك إذ نقر الغراب و الفصل بين السجدتين بحد السيف و الهبوط من الركوع إلى السجود لا يمكن أن ينقص منه مع الإيتان بما قد يقال إنه ركوع أو سجود و هذا الرجل كان يأتي بما قد يقال له ركوع وسجود لكنه لم يتمه و مع هذا قال له حذيفة ما صليت فنفى عنه الصلاة ثم قال لو مت مت على غير الفطرة التي فطر الله عليها محمدا صلى الله عليه وسلم و على غير السنة و كلاهما المراد به هنا الدين و الشريعة ليس المراد به فعل المستحبات فإن هذا لا يوجب هذا الذم و التهديد فلا يكاد أحد يموت على كل ما فعله

النبي صلى الله عليه وسلم من المستحبات و لأن لفظ الفطرة و السنة في كلامهم هو الدين و الشريعة و إن كان بعض الناس اصطلحوا على أن لفظ السنة يراد به ما ليس بفرض إذ قد يراد بها ذلك كما في قوله صلى الله عليه و سلم إن الله فرض عليكم صيام رمضان و سننت لكم قيامه فهي تتناول ما سنه من الواجبات أعظم مما سنه من التطوعات كما في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال إن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى و إن هذه الصلوات في جماعة من سنن الهدى و إنكم لو صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم و لقد رأينا و ما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق و منه قوله صلى الله عليه وسلم عليكم بسنتي و سنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها و عضوا عليها بالنواجذ ولأن الله سبحانه و تعالى أمر في كتابه بإقامة الصلاة و ذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى في غير موضع {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}البقرة٤٣ و إقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان [1]

## ٤-أساس النفاق الذي بني عليه الكذب

أن الصدق والكذب هو المميز بين المؤمن والمنافق كما جاء فى الأثر أساس النفاق الذي بني عليه الكذب وفى الصحيحين عن أنس عن النبى أنه قال آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان وفى حديث آخر على كل خلق يطبع المؤمن ليس الخيانة والكذب ووصف الله المنافقين فى القرآن بالكذب فى مواضع متعددة ومعلوم أن المؤمنين هم أهل الجنة وان المنافقين هم أهل النار في الدرك الأسفل من النار [2]

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبى انه قال عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر وان البر يهدى الى الجنة ولا يزال الرجل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٥٣٧-٥٣٩ و القواعد النورانية ج: ١ ص: ٣١-٣٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٧٧

يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور وان الفجور يهدى الى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا فأخبر النبى ان الصدق اصل يستلزم البر وان الكذب يستلزم الفجور وقد قال تعالى {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{١٣} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{١٤} الانفطار١٣-١٤ ولهذا كان بعض المشائخ اذا امر بعض متبعيه بالتوبة واحب ان لا ينفره ولا يشعب قلبه امره بالصدق ولهذا كان يكثر فى كلام مشائخ الدين وائمته ذكر الصدق والاخلاص حتى يقولون قل لمن لا يصدق لا يتبعني ويقولون الصدق سيف الله فى الارض وما وضع على شيء الا قطعه ويقول يوسف بن اسباط وغيره ما صدق الله عبد الا صنع له وأمثال هذا كثير والصدق والاخلاص هما فى الحقيقة تحقيق الايمان والاسلام فان المظهرين الاسلام ينقسمون الى مؤمن ومنافق والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق فان اساس النفاق الذي يبنى عليه هو الكذب ولهذا اذا ذكر الله حقيقة الايمان نعتة بالصدق كما فى قوله تعالى {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا}الحجرات١٤ الى قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}الحجرات١٥ وقال تعالى {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}الحشر٨ فأخبر ان الصادقين فى دعوى الايمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب ايمانهم ريبة وجاهدوا فى سبيله باموالهم وانفسهم وذلك ان هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين كما قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ}آل عمران٨١ قال ابن عباس ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وامره ان يأخذ الميثاق على امته لئن بعث محمد وهم احياء ليؤمنن به ولينصرنه وقال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}الحديد٢٥ فذكر تعالى انه انزل الكتاب والميزان وانه انزل الحديد لاجل القيام بالقسط وليعلم الله من ينصره ورسله ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدى وسيف ينصر وكفى بربك هاديا ونصيرا والكتاب والحديد وان اشتركا فى الانزال فلا يمنع ان يكون احدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر حيث نزل الكتاب من الله كما قال تعالى {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}الجاثية٢ وقال تعالى {الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ

حَكِيمٍ خَبِيرٍ} هود١ وقال تعالى {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} النمل٦ والحديد أنزل من الجبال التي خلق فيها وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الدين في قوله تعالى {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} البقرة١٧٧ الي قوله {أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} البقرة١٧٧ وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب في آيات متعددة كقوله تعالى {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} البقرة١٠ وقوله تعالى {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} المنافقون١ وقوله تعالى {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ} التوبة٧٧ ونحو ذلك في القرآن كثير ومما ينبغي ان يعرف ان الصدق والتصديق يكون في الاقوال وفى الاعمال كقول النبى وآله وسلم فى الحديث الصحيح كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليدان تزنيان وزناهما البطش والرجلان تزنيان وزناهما المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك او يكذبه ويقال حملوا على العدو حملة صادقة اذا كانت ارادتهم للقتال ثابتة جازمة ويقال فلان صادق الحب والمودة و نحو ذلك ولهذا يريدون بالصادق الصادق فى ارادته وقصده وطلبه وهو الصادق فى عمله ويريدون الصادق في خبره وكلامه والمنافق ضد المؤمن الصادق وهو الذي يكون كاذبا فى خبره او كاذبا فى عمله كالمرائي فى عمله قال الله تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً {١٤٢} مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً{١٤٣} النساء١٤٢ -١٤٣ [1]

## ٥-المنافقون هم في الباطن شر من الكفار

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص:١٠-١٤ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٤١ و التحفة العراقية ج: ١ ص: ٤١

فإن الله منذ بعث محمدا وأنزل عليه القرآن وهاجر إلى المدينة صار الناس ثلاثة أصناف مؤمن به وكافر به مظهر الكفر ومنافق مستخف بالكفر ولهذا ذكر الله هذه الأصناف الثلاثة في أول سورة البقرة ذكر أربع آيات في نعت المؤمنين وآيتين في الكفار وبضع عشر آية في المنافقين وقد ذكر الله الكفار والمنافقين في غير موضع من القرآن كقوله {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}الأحزاب٤٨ وقوله {إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً}النساء١٤٠ وقوله {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}الحديد١٥ وعطفهم على الكفار ليميزهم عنهم بإظهار الإسلام وإلا فهم في الباطن شر من الكفار كما قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}النساء١٤٥ وكما قال {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ}التوبة٨٤ وكما قال {قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ{٥٣}وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ {٥٤}التوبة٥٣-٥٤ وإذا كان كذلك فأهل البدع فيهم المنافق الزنديق فهذا كافر ويكثر مثل هذا في الرافضة والجهمية فإن رؤساءهم كانوا منافقين زنادقة وأول من ابتدع الرفض كان منافقا وكذلك التجهم فإن أصله زندقة ونفاق ولهذا كان الزنادقة المنافقون من القرامطة الباطنية المتفلسفة وأمثالهم يميلون إلى الرافضة والجهمية لقربهم منهم ومن أهل البدع من يكون فيه إيمان باطنا وظاهرا لكن فيه جهل وظلم حتى أخطأ ما أخطأ من السنة فهذا ليس بكافر ولا منافق ثم قد يكون منه عدوان وظلم يكون به فاسقا أو عاصيا وقد يكون مخطئا متأولا مغفورا له خطأه وقد يكون مع ذلك معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه [١]

## ٦- سقط من قلوب المنافقين تعظيم فرائض الله وتحريم محارمه

وأما الشريعة وما أمر الله به ونهى عنه وأحله وحرمه ففيهم من المخالفة لذلك بل من الاستخفاف بمن يتمسك به ما الله به عليم حتى سقط من قلوبهم تعظيم كثير من فرائض الله وتحريم كثير من محارمه فكثيرا ما يضيعون فرائضه ويستحلون محارمه ويتعدون حدوده تارة اعتقادا وتارة عملا وكثير من خيارهم الذين هم مؤمنون يقعون في كثير من فروع ذلك وإن

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٥٣-٣٥٤

كانوا مستمسكين بأصول الإسلام      وأما غير هؤلاء فيصرحون بسقوط الفرائض كالصلوات الخمس وغيرها وبحل الخبائث من الخمر والفواحش او الظلم أو البغي أو غير ذلك لهم وتزول عن قلوبهم المحبة لكثير مما يحبه الله ورسوله كالمحبة التامة التي هي كمال الإيمان بل لا بد أن ينقص في قلوبهم حب ما أحبه الله ورسوله فلا يبقى للقرآن والصلاة ونحو ذلك في قلوبهم من المحبة والحلاوة والطيب وقرة العين ما هو المعروف لاهل كمال الإيمان بل قد يكرهون بعض ذلك ويستثقلونه كما هو من نعت المنافقين الذين قال الله فيهم      {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٤٢ وقد يهجرون القرآن الذي ما تقرب العباد إلى الله بأحب إليه منه بل قد يستثقلون سماعه وقراءته لما اعتاضوا عنه من السماع وقد يقومون ببعض هذه العبادات الشرعية صورا ورسما كما يفعله المنافقون لا محبة وحقيقة ووجدا كما يفعله المؤمنون      وأما الجهاد في سبيل الله فالغالب عليهم أنهم ابعد عنه من غيرهم حتى نجد في عوام المؤمنين من الحب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحبة والتعظيم لأمر الله والغضب والغيرة لمحارم الله وقوة المحبة والموالاة لأولياء الله وقوة البغض والعداوة لأعداء الله ما لا يوجد فيهم بل يوجد فيهم ضد ذلك      ومعلوم أن أهل الإيمان والصلاح منهم لا يفقدون هذا بالكلية [1]

## ٧-"مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين "

المذبذب المذموم الذي لا يكون مع المؤمنين ولا مع الكفار بل يأتي المؤمنين بوجه ويأتي الكافرين بوجه كما قال تعالى في حق المنافقين {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ}النساء١٤٢ إلى قوله   {مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً}النساء١٤٣   وقال النبي صلى الله عليه وسلم      مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هؤلاء مرة وإلى هؤلاء مرة      فهؤلاء المنافقون المذبذبون هم الذين ذمهم الله ورسوله وقال في حقهم {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}المنافقون١ {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}المجادلة١٤  فهؤلاء المنافقون الذين يتولون اليهود الذين غضب الله عليهم ما هم من اليهود ولا هم منا مثل من أظهر الإسلام من اليهود والنصارى

---

[1] الاستقامة ج: ١ ص: ٢٦٨

والتتر وغيرهم وقلبه مع طائفته فلا هو مؤمن محض ولا هو كافر ظاهرا وباطنا فهؤلاء هم المذبذبون الذين ذمهم الله ورسوله وأوجب على عباده أن يكونوا مؤمنين لا كفارا ولا منافقين بل يحبون لله ويبغضون لله ويعطون لله ويمنعون لله قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}المائدة٥١ إلى قوله {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ{٥٥} وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ{٥٦} المائدة ٥٥- ٥٦ وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ}الممتحنة١ الآية وقال تعالى {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ}المجادلة٢٢ وقال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم}الحجرات١٠ وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم قال المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم قال المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه وفي الصحيحين أنه قال والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه وقال والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاجتماع والإئتلاف ونهاهم عن الإفتراق والإختلاف فقال تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{١٠٢} وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ{١٠٣}آل عمران١٠٢- ١٠٣ إلى قوله {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} آل عمران١٠٢ إلى قوله {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} آل عمران ١٠٦ قال ابن عباس رضي الله عنهما تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة فأئمة الدين هم على منهاج الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين والصحابة كانوا مؤتلفين متفقين وإن تنازعوا في بعض فروع الشريعة في الطهارة أو الصلاة أو الحج أو الطلاق أو الفرائض أو غير ذلك فإجماعهم حجة قاطعة ومن تعصب لواحد بعينه من الأئمة دون الباقين فهو بمنزلة من تعصب لواحد بعينه من الصحابة دون الباقين كالرافضي الذي يتعصب لعلي دون الخلفاء الثلاثة وجمهور الصحابة وكالخارجي الذي يقدح في عثمان وعلي

رضي الله عنهما فهذه طرق أهل البدع والأهواء الذين ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنهم مذمومون خارجون عن الشريعة والمنهاج الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم فمن تعصب لواحد من الأئمة بعينه ففيه شبه من هؤلاء سواء تعصب لمالك أو الشافعي أو أبي حنيفة أو أحمد أو غيرهم ثم غاية المتعصب لواحد منهم أن يكون جاهلا بقدره في العلم والدين وبقدر الآخرين فيكون جاهلا ظالما و الله يأمر بالعلم والعدل وينهى عن الجهل والظلم قال تعالى {وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً {٧٢} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٧٣} الأحزاب٧٢ -٧٣وهذا أبو يوسف ومحمد أتبع الناس لأبي حنيفة وأعلمهم بقوله وهما قد خالفاه في مسائل لا تكاد تحصى لما تبين لهما من السنة والحجة ما وجب عليهما اتباعه وهما مع ذلك معظمان لإمامهما لا يقال فيهما مذبذبان بل أبو حنيفة وغيره من الأئمة يقول القول ثم تتبين له الحجة في خلافه فيقول بها ولا يقال له مذبذب فإن الإنسان لا يزال يطلب العلم والإيمان فإذا تبين له من العلم ما كان خافيا عليه اتبعه وليس هذا مذبذبا بل هذا مهتد زاده الله هدى وقد قال تعالى {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً}طه١١٤ فالواجب على كل مؤمن موالاة المؤمنين وعلماء المؤمنين وإن يقصد الحق ويتبعه حيث وجده ويعلم أن من اجتهد منهم فأصاب فله أجران ومن اجتهد منهم فأخطأ فله أجر لاجتهاده وخطؤه مغفور له وعلى المؤمنين أن يتبعوا أمامهم إذا فعل ما يسوغ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنما جعل الإمام ليؤتم به[1]

## ٨-أهل إرادات فاسدة مذمومة

الذين زهدوا فى الإرادات حتى فيما يحبه الله ورسوله من الإرادات بازائهم طائفتان طائفة رغبت فيما كره الله ورسوله الرغبة فيه من الكفر والفسوق والعصيان و طائفة رغبت فيما أمر الله ورسوله لكن لهواء أنفسهم لا لعبادة الله تعالى وهؤلاء الذين يأتون بصور الطاعات مع فساد النيات كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قيل له يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأى ذلك فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٤٤٩-٤٥١ و مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٢٤٩-٢٥٠

قَلِيلاً} النساء١٤٢ وهؤلاء أهل إرادات فاسدة مذمومة فهم مع تركهم الواجب فعلوا المحرمات وهم يشبهون اليهود كما يشبه أؤلئك النصارى قال تعالى {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} آل عمران١١٢ وقال تعالى {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً} الأعراف١٤٦ وقال تعالى وإتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فإنسلخ منها فإتبعه الشيطان فكان من الغاوين {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ{١٧٥} وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا{١٧٦} الأعراف١٧٦إلى قوله تعالى {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} الأعراف١٧٦ فهؤلاء يتبعون أهواءهم غيا مع العلم بالحق وأولئك يتبعون اهواءهم مع الضلال والجهل بالحق كما قال تعالى {وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ} المائدة٧٧ وكلا الطائفتي تاركة ما أمر الله ورسوله به من الإرادات والأعمال الصالحة مرتكبة لما نهى الله ورسوله عنه من الإرادات والأعمال الفاسدة [١]

## الفساد في ترك إظهار المشروع أعظم من الفساد في إظهاره رياء

ومن كان له ورد مشروع من صلاة الضحى أو قيام ليل أو غير ذلك فإنه يصليه حيث كان ولا ينبغي له أن يدع ورده المشروع لأجل كونه بين الناس إذا علم الله من قلبه أنه يفعله سرا لله مع اجتهاده في سلامته من الرياء ومفسدات الإخلاص ولهذا قال الفضيل بن عياض ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك وفعله في مكانه الذي تكون فيه معيشته التي يستعين بها على عبادة الله خير له من أن يفعله حيث تتعطل معيشته ويشتغل قلبه بسبب ذلك فإن الصلاة كلما كانت أجمع للقلب وأبعد من الوسواس كانت أكمل ومن نهى عن أمر مشروع بمجرد زعمه أن ذلك

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥١٤ ـ٥١٥

رياء فنهيه مردود عليه من وجوه أحدها إن الأعمال المشروعة لا ينهى عنها خوفا من الرياء بل يؤمر بها وبالإخلاص فيها ونحن إذا رأينا من يفعلها أقررناه وإن جزمنا أنه يفعلها رياء فالمنافقون الذين قال الله فيهم {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٤٢ فهؤلاء كان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون يقرونهم على ما يظهرونه من الدين وإن كانوا مرائين ولا ينهونهم عن الظاهر لأن الفساد في ترك إظهار المشروع أعظم من الفساد في إظهاره رياء كما أن فساد ترك إظهار الإيمان والصلوات أعظم من الفساد في إظهار ذلك رياء ولأن الإنكار إنما يقع على الفساد في إظهار ذلك رئاء الناس الثاني لأن الإنكار إنما يقع على ما أنكرته الشريعة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أن أشق بطونهم وقد قال عمر بن الخطاب من أظهر لنا خيرا أجبناه وواليناه عليه وإن كانت سريرته بخلاف ذلك ومن أظهر لنا شرا أبغضناه عليه وإن زعم أن سريرته صالحة الثالث أن تسويغ مثل هذا يفضي إلى أن أهل الشرك والفساد ينكرون على أهل الخير والدين إذا رأوا من يظهر أمرا مشروعا مسنونا قالوا هذا مراء فيترك أهل الصدق والإخلاص إظهار الأمور المشروعة حذرا من لمزهم وذمهم فيتعطل الخير ويبقى لأهل الشرك شوكة يظهرون الشر ولا أحد ينكر عليهم وهذا من أعظم المفاسد الرابع إن مثل هذا من شعائر المنافقين وهو يطعن على من يظهر الأعمال المشروعة قال الله تعالى{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}التوبة٧٩ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما حض على الإنفاق عام تبوك جاء بعض الصحابة بصرة كادت يده تعجز من حملها فقالوا هذا مراء وجاء بعضهم بصاع فقالوا لقد كان الله غنيا عن صاع فلان فلمزوا هذا وهذا فأنزل الله ذلك وصار عبرة فيمن يلمز المؤمنين المطيعين لله ورسوله و الله أعلم [١]

## "ليس بين العبد وبين الشرك إلا ترك الصلاة"

---

[١] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ١٣٩-١٤٠ و مجموع الفتاوى ج: ٢٣ ص: ١٧٤-١٧٥

وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة [1]

الذين يتكلمون بالشهادتين اصناف منهم منافقون فى الدرك الأسفل من النار كما قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً{١٤٥} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ {١٤٦} النساء١٤٥-١٤٦ الآية وقال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى}النساء١٤٢ الآية وفى صحيح مسلم عن النبى انه قال تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر اربعا لا يذكر الله فيها الا قليلا فبين النبى ان الذى يؤخر الصلاة وينقرها منافق فكيف بمن لا يصلى وقد قال تعالى {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{٥}الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{٦} الماعون٤-٦ قال العلماء الساهون عنها الذين يؤخرونها عن وقتها والذين يفرطون فى واجباتها فاذا كان هؤلاء المصلون الويل لهم فكيف بمن لا يصلى وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه يعرف أمته بأنهم غر محجلون من آثار الوضوء وإنما تكون الغرة والتحجيل لمن توضأ وصلى فابيض وجهه بالوضوء وابيضت يداه ورجلاه بالوضوء فصلى أغر محجلا فمن لم يتوضأ ولم يصل لم يكن أغر ولا محجلا فلا يكون عليه سيما المسلمين التي هي الرنك للنبي مثل الرنك الذي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤٣٠

يعرف به المقدم أصحابه ولا يكن هذا من أمة محمد وثبت في الصحيح أن النار تأكل من ابن آدم كل شيء إلا آثار السجود فمن لم يكن من أهل السجود للواحد المعبود الغفور الودود ذو العرش المجيد أكلته النار وفي الصحيح عن النبي أنه قال ليس بين العبد وبين الشرك إلا ترك الصلاة العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر وقال أول ما يحاسب عليه العبد من عمله الصلاة [1]

روى عن ابن مسعود وابن عباس أن فى الصلاة منتهى ومزدجرا عن معاصى الله فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بصلاته من الله الا بعدا وقوله لم يزدد الا بعدا اذا كان ما ترك من الواجب منها أعظم مما فعله أبعده ترك الواجب الأكثر من الله أكثر مما قربه فعل الواجب الأقل وهذا

كما فى الصحيح عن النبى أنه قال تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها الا قليلا وقد قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٤٢ وفى السنن عن عمار عن النبى أنه قال ان العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها الا نصفها الا ثلثها حتى قال الا عشرها وعن ابن عباس قال ليس لك من صلاتك الا ما عقلت منها وهذا وان لم يؤمر باعادة الصلاة عند أكثر العلماء لكن يؤمر بأن يأتى من التطوعات بما يجبر نقص فرضه ومعلوم أن من حافظ على الصلوات بخشوعها الباطن وأعمالها الظاهرة وكان يخشى الله الخشية التى أمره بها فانه يأتى بالواجبات ولا يأتى كبيرة ومن أتى الكبائر مثل الزنا أو السرقة أو شرب الخمر وغير ذلك فلابد أن يذهب ما فى قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور وان بقى أصل التصديق فى قلبه وهذا من الايمان الذى ينزع منه عند فعل الكبيرة كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن فان المتقين كما وصفهم الله بقوله {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}الأعراف٢٠١ فاذا طاف بقلوبهم طائف من الشيطان تذكروا فيبصرون قال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله فيكظم الغيظ وقال ليث عن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ١٠٦-١٠٧

مجاهد هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه والشهوة والغضب مبدأ السيئات فاذا أبصر رجع ثم قال {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ}الأعراف٢٠٢ أى واخوان الشياطين تمدهم الشياطين فى الغى ثم لا يقصرون قال ابن عباس لا الانس تقصر عن السيئات ولا الشياطين تمسك عنهم فاذا لم يبصر بقى قلبه فى غى والشيطان يمده فى غيه وان كان التصديق فى قلبه لم يكذب فذلك النور والابصار وتلك الخشية والخوف يخرج من قلبه وهذا كما أن الانسان يغمض عينيه فلا يرى شيئا وان لم يكن أعمى فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق وان لم يكن أعمى كعمى الكافر وهكذا جاء فى الآثار قال أحمد بن حنبل فى كتاب الايمان حدثنا يحيى عن أشعث عن الحسن عن النبى قال ينزع منه الايمان فان تاب أعيد اليه وقال حدثنا يحيى عن عوف قال قال الحسن يجانبه الايمان ما دام كذلك فان راجع راجعه الايمان [1]

## لا يجوز لأحد أن يؤخر صلاة النهار إلى الليل

لا يجوز لأحد أن يؤخر صلاة النهار إلى الليل ولا يؤخر صلاة الليل إلى النهار لشغل من الأشغال لا لحصد ولا لحرث ولا لصناعة ولا لجنابة ولا نجاسة ولا صيد ولا لهو ولا لعب ولا لخدمة أستاذ ولا غير ذلك بل المسلمون كلهم متفقون على أن عليه أن يصلي الظهر والعصر بالنهار ويصلى الفجر قبل طلوع الشمس ولا يترك ذلك لصناعة من الصناعات ولا للهو ولا لغير ذلك من الأشغال وليس للمالك أن يمنع مملوكه ولا للمستأجر أن يمنع الأجير من الصلاة فى وقتها ومن أخرها لصناعة أو صيد أو خدمة أستاذ أو غير ذلك حتى تغيب الشمس وجبت عقوبته بل يجب قتله عند جمهور العلماء بعد أن يستتاب فإن تاب والتزم أن يصلي في الوقت ألزم بذلك وان قال لا أصلي إلا بعد غروب الشمس لاشتغاله بالصناعة والصيد أو غير ذلك فانه يقتل وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله وفي الصحيحين عنه أنه قال من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠-٣٢

فاتته صلاة العصر فقد حبط عمله وفى وصية أبى بكر الصديق لعمر بن الخطاب أنه قال إن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار وحقا بالنهار لا يقبله بالليل والنبى كان أخر صلاة العصر يوم الخندق لاشتغاله بجهاد الكفار ثم صلاها بعد المغرب فأنزل الله تعالى {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ} البقرة٢٣٨

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الصلاة الوسطى صلاة العصر فلهذا قال جمهور العلماء إن ذلك التأخير منسوخ بهذه الآية فلم يجوزوا تأخير الصلاة حال القتال بل أوجبوا عليه الصلاة فى الوقت حال القتال وهذا مذهب مالك والشافعى واحمد فى المشهور عنه وعن أحمد رواية أخرى أنه يخير حال القتال بين الصلاة وبين التأخير ومذهب أبى حنيفة يشتغل بالقتال ويصلى بعد الوقت وأما تأخير الصلاة لغير الجهاد كصناعة أو زراعة أو صيد أو عمل من الأعمال ونحو ذلك فلا يجوزه أحد من العلماء بل قد قال تعالى {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{٥} الماعون٤-٥ قال طائفة من السلف هم الذين يؤخرونها عن وقتها وقال بعضهم هم الذين لا يؤدونها على الوجه المأمور به وإن صلاها فى الوقت فتأخيرها عن الوقت حرام باتفاق العلماء فان العلماء متفقون على أن تأخير صلاة الليل إلى النهار وتأخير صلاة النهار إلى الليل بمنزلة تأخير صيام شهر رمضان إلى شوال فمن قال أصلي الظهر والعصر بالليل فهو باتفاق العلماء بمنزلة من قال أفطر شهر رمضان وأصوم شوال وإنما يعذر بالتأخير النائم والناسى كما قال النبى من نام عن صلاة أو نسيها فليصليها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها لا كفارة لها الا ذلك فلا يجوز تأخير الصلاةعن وقتها لجنابة ولا حدث ولا نجاسة ولا غير ذلك بل يصلى فى الوقت بحسب حاله فان كان محدثا وقد عدم الماء أو خاف الضرر باستعماله تيمم وصلى وكذلك الجنب يتيمم ويصلى إذا عدم الماء أو خاف الضرر بإستعماله لمرض أو لبرد وكذلك العريان يصلى فى الوقت عريانا ولا يؤخر الصلاة حتى يصلي بعد الوقت فى ثيابه وكذلك إذا كان عليه نجاسة لا يقدر أن يزيلها فيصلى فى الوقت بحسب حاله وهكذا المريض يصلي على حسب حاله فى الوقت كما قال النبى لعمران بن حصين صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب فالمريض باتفاق العلماء يصلى فى الوقت قاعدا أو على جنب اذا كان القيام يزيد فى مرضه ولا يصلى بعد خروج الوقت قائما وهذا كله لأن فعل الصلاة فى وقتها فرض والوقت اوكد فرائض الصلاة كما أن صيام شهر رمضان واجب فى وقته ليس لأحد أن يؤخره عن وقته ولكن يجوز الجمع بين الظهر والعصر بعرفة وبين المغرب والعشاء بمزدلفة باتفاق المسلمين وكذلك يجوز الجمع بين صلاة المغرب والعشاء وبين الظهر والعصر عند كثير من العلماء للسفر والمرض ونحو

ذلك من الأعذار وأما تأخير صلاة النهار إلى الليل وتأخير صلاة الليل إلى النهار فلا يجوز لمرض ولا لسفر ولا لشغل من الأشغال ولا لصناعة باتفاق العلماء بل قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجمع بين صلاتين من غير عذر من الكبائر لكن المسافر يصلى ركعتين ليس عليه أن يصلى أربعا بل الركعتان تجزىء المسافر فى سفر القصر باتفاق العلماء ومن قال أنه يجب على كل مسافر أن يصلي أربعا فهو بمنزلة من قال إنه يجب على المسافر أن يصوم شهر رمضان وكلاهما ضلال مخالف لاجماع المسلمين يستتاب قائله فان تاب وإلا قتل والمسلمون متفقون على أن المسافر إذا صلى الرباعية ركعتين والفجر ركعتين والمغرب ثلاثا وأفطر شهر رمضان وقضاه أجزأه ذلك وأما من صام فى السفر شهر رمضان أو اصلى أربعا ففيه نزاع مشهور بين العلماء منهم من قال لا يجزئه ذلك فالمريض له أن يؤخر الصوم بإتفاق المسلمين وليس له أن يؤخر الصلاة بإتفاق المسلمين والمسافر له أن يؤخر الصيام بإتفاق المسلمين وليس له أن يؤخر الصلاة بإتفاق المسلمين وهذا مما يبين أن المحافظة على الصلاة فى وقتها أوكد من الصوم فى وقته قال تعالى {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ}مريم٥٩ قال طائفة من السلف إضاعتها تأخيرها عن وقتها ولو تركوها لكانوا كفارا وقال النبى سيكون بعدى أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة رواه مسلم عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف بك إذا كان عليك امراء يؤخرون الصلاة عن وقتها وينسؤن الصلاة عن وقتها قلت فماذا تأمرنى قال صل الصلاة لوقتها فان أدركتها معهم فصل فإنها لك نافلة وعن عبادة ابن الصامت عن النبى قال سيكون عليكم أمراء تشغلهم أشياء عن الصلاة لوقتها حتى يذهب وقتها فصلوا الصلاة لوقتها وقال رجل أصلي معهم قال نعم ان شئت واجعلوها تطوعا رواه أحمد وأبو داود ورواه عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله عليه وسلم كيف بكم اذا كان عليكم أمراء يصلون الصلاة لغير ميقاتها قلت فما تأمرنى ان ادركنى ذلك يا رسول الله قال صل الصلاة لوقتها واجعل صلاتك معهم نافلة ولهذا اتفق العلماء على أن الرجل اذا كان عريانا مثل أن تنكسر بهم السفينة أو تسلبه القطاع ثيابه فانه يصلي فى الوقت عريانا والمسافر إذا عدم الماء يصلي بالتيمم فى الوقت باتفاق العلماء وان كان يجد الماء بعد الوقت وكذلك الجنب المسافر إذا عدم الماء تيمم وصلى ولا إعادة عليه بإتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم وكذلك إذا كان البرد شديدا فخاف ان اغتسل أن يمرض فإنه يتيمم ويصلي في الوقت ولا يؤخر الصلاة حتى يصلى بعد الوقت باغتسال وقد قال النبى الصعيد الطيب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر سنين فإذا وجدت الماء

فامسسه بشرتك فان ذلك خير وكل ما يباح بالماء يباح بالتيمم فاذا تيمم لصلاة فريضة قرأ القرآن داخل الصلاة وخارجها وإن كان جنبا ومن امتنع عن الصلاة بالتيمم فإنه من جنس اليهود والنصارى فان التيمم لأمة محمد خاصة كما قال النبى فى الحديث الصحيح فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لي الأرض مسجدا وجعلت تربتها طهورا و أحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وفى لفظ جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره [1]

## إيجاب القضاء على المنافق تنفير عظيم عن التوبة

واختلف الناس فيمن ترك الصلاة والصوم عامدا هل يقضيه فقال الأكثرون يقضيه وقال بعضهم لا يقضيه ولا يصح فعله بعد وقته كالحج وقد ثبت عن النبى انه قال عن الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها واجعلوا صلاتكم معهم نافلة ودل الكتاب والسنة وإتفاق السلف على الفرق بين من يضيع الصلاة فيصليها بعد الوقت والفرق بين من يتركها ولو كانت بعد الوقت لا تصح بحال لكان الجميع سواء لكن المضيع لوقتها كان ملتزما لوجوبها وإنما ضيع بعض حقوقها وهو الوقت وأتى بالفعل فأما من لم يعلم وجوبها عليه جهلا وضلالا أو علم الإيجاب ولم يلتزمه فهذا إن كان كافرا فهو مرتد وفى وجوب القضاء عليه الخلاف المتقدم لكن هذا شبيه بكفر النفاق فالكلام فى هذا متصل بالكلام فيمن أقام الصلاة وآتى الزكاة نفاقا أو رياء فإن هذا يجزئه فى الظاهر ولا يقبل منه فى الباطن قال الله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}محمد٩ وقال {وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ}التوبة٥٤ وقال تعالى{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{٥} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{٦} وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ{٧}الماعون٤-٧ وقال تعالى {وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٢٧-٣٣

قَلِيلاً}النساء١٤٢ وقد إختلف أصحابنا فى الإمام إذا أخذ الزكاة قهرا هل تجزئه فى الباطن على وجهين مع أنها لا تستعاد منه أحدهما لا تجزيه لعدم النية مع القدرة عليها والثانى أن نية الإمام تقوم مقام نية الممتنع لأن الإمام نائب المسلمين فى اداء الحقوق الواجبة عليهم والأول أصح فإن النبى كان يأخذها منهم بإعطائهم إياها وقد صرح القرآن بنفى قبولها لأنهم ينفقون وهم كارهون فعلم أنه ان أنفق مع كراهة الإنفاق لم تقبل منه كمن صلى رياء لكن لو تاب المنافق والمرائى فهل تجب عليه فى الباطن الإعادة أو تنعطف توبته على ما عمله قبل ذلك فيثاب عليه أو لا يعيد ولا يثاب أما الإعادة فلا تجب على المنافق قطعا لأنه قد تاب من المنافقين جماعة عن النفاق على عهد رسول الله ولم يأمر أحدا منهم بالإعادة وقد قال تعالى {وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}التوبة٧٤ وايضا فالمنافق كافر فى الباطن فإذا آمن فقد غفر له ما قد سلف فلا يجب عليه القضاء كما لا يجب على الكافر المعلن إذا أسلم وأما ثوابه على ما تقدم مع التوبة فيشبه الكافر إذا عمل صالحا فى كفره ثم أسلم هل يثاب عليه ففى الصحيحين أن النبى قال لحكيم بن حزام أسلمت على ما سلف لك من خير وأما المرائي إذا تاب من الرياء مع كونه كان يعتقد الوجوب فهو شبيه بالمسألة التى نتكلم فيها وهى مسألة من لم يلتزم أداء الواجب وإن لم يكن كافرا فى الباطن ففى إيجاب القضاء عليه تنفير عظيم عن التوبة فإن الرجل قد يعيش مدة طويلة لا يصلي ولا يزكي وقد لا يصوم أيضا ولا يبالي من أين كسب المال أمن حلال أم من حرام ولا يضبط حدود النكاح والطلاق وغير ذلك فهو فى جاهلية إلا أنه منتسب إلى الإسلام فإذا هداه الله و تاب عليه فإن أوجب عليه قضاء جميع ما تركه من الواجبات وأمر برد جميع ما إكتسبه من الأموال والخروج عما يحبه من الإبضاع إلى غير ذلك صارت التوبة فى حقه عذابا وكان الكفر حينئذ أحب إليه من ذلك الإسلام الذى كان عليه فإن توبته من الكفر رحمة وتوبته وهو مسلم عذاب وأعرف طائفة من الصالحين من يتمنى أن يكون كافرا ليسلم فيغفر له ما قد سلف لأن التوبة عنده متعذرة عليه أو متعسرة على ما قد قيل له وإعتقده من التوبة ثم هذا منفر لأكثر أهل الفسوق عن التوبة وهو شبيه بالمؤيس للناس من رحمة الله ووضع الآصار ثقيلة والأغلال عظيمة على التائبين الذين هم أحباب الله فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين والله أفرح بتوبة عبده من الواجد لماله الذى به قوامه بعد اليأس منه فينبغى لهذا المقام أن يحرر فإن كفر الكافر لم يسقط عنه ما تركه من الواجبات وما فعله من المحرمات لكون الكافر كان معذورا بمنزلة المجتهد فإنه لا يعذر بلا خلاف

وإنما غفر له لأن الإسلام توبة والتوبة تجب ما قبلها والتوبة توبة من ترك تصديق وإقرار وترك عمل وفعل فيشبه والله أعلم أن يجعل حال هؤلاء فى جاهليتهم كحال غيرهم [١]

## فى الظاهر تجرى على المنافقين أحكام أهل الإيمان

أن الإيمان الظاهر الذى تجرى عليه الأحكام فى الدنيا لا يستلزم الإيمان فى الباطن الذى يكون صاحبه من اهل السعادة فى الآخرة فان المنافقين الذين قالوا {آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ} البقرة٨ هم فى الظاهر مؤمنون يصلون مع الناس ويصومون ويحجون ويغزون والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على عهد رسول الله ولم يحكم النبى صلى الله عليه وسلم فى المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر لا فى مناكحتهم ولا موارثتهم ولا نحو ذلك بل لما مات عبدالله بن أبى بن سلول وهو من اشهر الناس بالنفاق ورثه ابنه عبدالله وهو من خيار المؤمنين وكذلك سائر من كان يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون واذا مات لأحدهم وارث ورثوه مع المسلمين وقد تنازع الفقهاء فى المنافق الزنديق الذى يكتم زندقته هل يرث ويورث على قولين والصحيح أنه يرث ويورث وإن علم فى الباطن أنه منافق كما كان الصحابة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم لأن الميراث مبناه على الموالاة الظاهرة لا على المحبة التى فى القلوب فإنه لو علق بذلك لم تمكن معرفته والحكمة اذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها وهو ما أظهره من موالاة المسلمين فقول النبى لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم لم يدخل فيه المنافقون وان كانوا فى الآخرة فى الدرك الأسفل من النار بل كانوا يورثون ويرثون وكذلك كانوا فى الحقوق والحدود كسائر المسلمين وقد أخبر الله عنهم أنهم يصلون ويزكون ومع هذا

لم يقبل ذلك منهم فقال {وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ} التوبة٥٤ وقال {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص:١٩- ٢٢

يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٤٢ وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا وكانوا يخرجون مع النبى فى المغازى كما خرج إبن أبى فى غزوة بنى المصطلق وقال فيها {لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}المنافقون٨ وفى الصحيحين عن زيد بن أرقم قال خرجنا مع النبى فى سفر اصاب الناس فيها شدة فقال عبدالله بن أبى لأصحابه لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله وقال {لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}المنافقون٨ فأتيت النبى فأخبرته فأرسل الى عبدالله بن ابى فسأله فإجتهد يمينه ما فعل وقالوا كذب زيد يا رسول الله فوقع فى نفسى مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقى فى {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ}المنافقون١ فدعاهم النبى ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم وفى غزوة تبوك استنفرهم النبى كما إستنفر غيرهم فخرج بعضهم معه وبعضهم تخلفوا وكان فى الذين خرجوا معه من هم بقتله فى الطريق هموا بحل حزام ناقته ليقع فى واد هناك فجاءه الوحى فأسر الى حذيفة أسماءهم ولذلك يقال هو صاحب السر الذى لا يعلمه غيره كما ثبت ذلك فى الصحيح ومع هذا ففى الظاهر تجرى عليهم أحكام أهل الإيمان وبهذا يظهر الجواب عن شبهات كثيرة تورد فى هذا المقام فإن كثيرا من المتأخرين ما بقى فى المظهرين للإسلام عندهم إلا عدل أو فاسق وأعرضوا عن حكم المنافقين والمنافقون ما زالوا ولا يزالون الى يوم القيامة والنفاق شعب كثيرة وقد كان الصحابة يخافون النفاق على أنفسهم ففى الصحيحين عن النبى قال آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وفى لفظ مسلم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم وفى الصحيحين عن عبدالله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا ائتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر وكان النبى صلى الله عليه وسلم أولا يصلى عليهم ويستغفر لهم حتى نهاه الله عن ذلك فقال {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ}التوبة٨٤ وقال {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ}التوبة٨٠ فلم يكن يصلى عليهم ولا يستغفر لهم ولكن دماؤهم وأموالهم معصومة لا يستحل منهم ما يستحله من الكفار الذين لا يظهرون أنهم مؤمنون بل يظهرون الكفر دون الإيمان فإنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ولما قال

لأسامة بن زيد اقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله قال إنما قالها تعوذا قال هلا شققت عن قلبه وقال إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا اشق بطونهم وكان إذا استؤذن فى قتل رجل يقول أليس يصلى أليس يتشهد فإذا قيل له أنه منافق قال ذاك فكان حكمه فى دمائهم وأموالهم كحكمه فى دماء غيرهم لا يستحل منها شيئا إلا بامر ظاهر مع أنه كان يعلم نفاق كثير منهم وفيهم من لم يكن يعلم نفاقه قال تعالى {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}التوبة١٠١ وكان من مات منهم صلى عليه المسلمون الذين لا يعلمون أنه منافق ومن علم أنه منافق لم يصل عليه وكان عمر إذا مات ميت لم يصل عليه حتى يصلى عليه حذيفة لأن حذيفة كان قد علم أعيانهم [1]

## النية اصل جميع الاعمال

النية لها ركنان احدهما ان ينوي العبادة و العمل و الثاني ان ينوي المعبود المعمول له فهو المقصود بذلك العمل و المراد به الذي عمل العمل من اجله كما بينه النبي صلى الله عليه و سلم بقوله إنما الاعمال بالنيات و إنما لكل امرء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله و رسوله و من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر اليه فميز صلى الله عليه و سلم بين من كان عمله لله و من كان عمله لمال أو نكاح و الذي يجب ان يكون العمل له هو الله سبحانه وحده لا شريك له فان هذه النية فرض في جميع العبادات بل هذه النية اصل جميع الاعمال و منزلتها منها منزلة القلب من البدن و لا بد في جميع العبادات ان تكون خالصة لله سبحانه كما قال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{٢} أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ{٣} الزمر٢-٣ و قال تعالى {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ}الزمر١١ تعالى {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي}الزمر١٤ و قال تعالى {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}غافر١٤ و قال سبحانه {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢١٠-٢١٣

الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} غافر٦٥ و قال {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} الصافات٤٠ في عدة مواضع و قال تعالى {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً} النساء١٤٦ و قال تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} البينة٥ و هذه الآيات كما دلت على فرض العبادة ففرضت العبادة و ان تكون لله خالصة و هذه حقيقة الاسلام و ما في القران من قوله اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا و قوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات٥٦ و قوله تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة٥ إلى غير ذلك من الآيات كلها تدل على هذا الاصل بل جماع مقصود الكتاب و الرسالة هو هذا و هو معنى قول لا اله الا الله و هو دين الله الذي بعث به جميع المرسلين و ضد هذه النية الرياء و السمعة و هو ارادة ان يرى الناس عمله و ان يسمعوا ذكره و هؤلاء الذين ذمهم الله تعالى في قوله {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{٥} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{٦} الماعون ٤-٦ و قال {وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ} النساء١٤٢ و من صلى بهذه النية فعمله باطل يجعله الله هباء منثورا و كذلك من ادى شيئا من الفرائض و الكلام في هذه النية و تفاصيلها لا يختص بعبادة دون عبادة اذ الفعل بدون هذه النية ليس عبادة اصلا الركن الثاني ان ينوي ما تتميز به عبادة عن عبادة فينوي الصلاة لتتميز عن سائر اجناس العبادات وينوي صلاة الظهر مثلا لتتميز عن صلوات سائر الاوقات و هكذا في كل ما يميز تلك العبادة من غيرها سواء كانت مفروضة ام مستحبة و هذه النية هي التي يتكلم عليها في هذه المواضع اذ الكلام هنا في فروع الدين و شرائعه و تلك النية متعلقة باصل الدين و جماعه و الفقه في شرائع الدين و فروعه إنما هو بعد تحقيق اصوله اذ الفروع كمال الاصول و اتمامها [1]

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن

---

[1] شرح العمدة ج: ٤ ص: ٥٧٦-٥٧٨

تناصحوا من ولاه الله أمركم وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الشرك دقه وجله وحقيره وكبيره [1]

## {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً}

أن الله رب كل شيء و خالقه و مليكه لارب غيره و لا خالق سواه و إنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن لا حول و لا قوة إلا به و لا ملجأ منه إلا إليه و أنه على كل شيء قدير فجميع ما فى السموات و الأرض من الأعيان و صفاتها و حركاتها فهي مخلوقة له مقدورة له مصرفة بمشيئته لا يخرج شيء منها عن قدرته و ملكه و لا يشركه فى شيء من ذلك غيره بل هو سبحانه لا إله إلا هو و حده لا شريك له له الملك و له الحمد و هو على كل شيء قدير فالعبد فقير الى الله فى كل شيء يحتاج إليه فى كل شيء لا يستغنى عن الله طرفة عين فمن يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له [2]

قال تعالى {مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً} النساء١٤٣

*إن كل ما فى الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و مالم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدى و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد فى السماء و هو يقلب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاغه و هو الذى حبب إلى المؤمنين الإيمان

---

[1] زيارة القبور ج: ١ ص: ٥٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٤٠

و زينه فى قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون وهو الذي جعل المسلم مسلما و المصلي مصليا قال الخليل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ}البقرة١٢٨ و قال {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي}إبراهيم٤٠ و قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا}السجدة٢٤ و قال عن آل فرعون {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ}القصص٤١ و قال تعالى {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{١٩} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{٢٠} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{٢١} المعارج١٩-٢١ و قال {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا}هود٣٧ و قال {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ}هود٣٨ والفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبرالله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}يس٤٢ و قال {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ}النحل٨٠ الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم وقال تعالى {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ{٩٥} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{٩٦}الصافات٩٥ -٩٦ فما بمعنى الذي و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبنى دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً}الكهف١٧ و قال {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}الأنعام١٢٥ و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما بفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}النمل٨٨ و قد خلق الله سبحانه تعالى الأشياء بأسباب كما قال تعالى {وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}البقرة١٦٤ و قال {فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ}الأعراف٥٧ و قال تعالى {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ}المائدة١٦ [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٧٨-٨٠

# الله سبحانه يأمر بموالاة المؤمنين حقا

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً}النساء١٤٤ وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}الأنفال٧٢ونظائر هذا في غير موضع من القرآن يأمر سبحانه بموالاة المؤمنين حقا الذين هم حزبه وجنده ويخبر أن هؤلاء لا يوالون الكافرين ولا يوادونهم والموالاة والموادة وإن كانت متعلقة بالقلب لكن المخالفة في الظاهر أهون على المؤمن من مقاطعة الكافرين ومباينتهم ومشاركتهم في الظاهر إن لم تكن ذريعة أو سببا قريبا أو بعيدا إلى نوع ما من الموالاة والموادة فليس فيها مصلحة المقاطعة والمباينة مع أنها تدعو إلى نوع ما من المواصلة كما توجبه الطبيعة وتدل عليه العادة ولهذا كان السلف رضي الله عنهم يستدلون بهذه الآيات على ترك الاستعانة بهم في الولايات فروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قلت لعمر رضي الله عنه إن لي كاتبا نصرانيا قال مالك قاتلك الله أما سمعت الله يقول {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}المائدة٥١ ألا اتخذت حنيفا قال قلت يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه قال لا أكرمهم إذ أهانهم الله ولا أعزهم إذ أذلهم الله ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله ولما دل عليه معنى الكتاب وجاءت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين التي أجمع الفقهاء عليها بمخالفتهم وترك التشبه بهم ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم أمر بمخالفتهم وذلك يقتضي أن يكون جنس مخالفتهم أمرا مقصودا للشارع لأنه إن كان الأمر بجنس المخالفة حصل المقصود وإن كان الأمر بالمخالفة في تغيير الشعر فقط فهو لأجل ما فيه من المخالفة فالمخالفة إما علة مفردة أو علة أخرى أو بعض علة وعلى جميع التقديرات تكون مأمورا بها مطلوبة للشارع لأن الفعل المأمور به إذا عبر عنه بلفظ مشتق من معنى أعم من ذلك الفعل فلا بد أن يكون ما منه الاشتقاق أمرا مطلوبا لا سيما إن ظهر لنا أن

المعنى المشتق منه معنى مناسب للحكمة كما لو قيل للضيف أكرمه بمعنى أطعمه وللشيخ الكبير وقره بمعنى اخفض صوتك له أو نحوه [١]

## نطق القران بكفر المنافقين

وقد نطق القران بكفر المنافقين في غير موضع وجعلهم أسوأ حالا من الكافرين وانهم في الدرك الاسفل من النار وانهم يوم القيامة يقولون للذين امنوا {انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ}الحديد١٣ الاية الى قوله {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}الحديد١٥ وامر نبيه في اخر الامر بان لايصلي علي احد منهم واخبر انه لن يغفر لهم وامره بجهادهم والاغلاظ عليهم واخبر انهم ان لم ينتهوا ليغرين الله نبيه بهم حتى يقتلوا في كل موضع [٢]

وقد نهى الله نبيه عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم وقال له {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ}التوبة٨٠ وقال{وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ}التوبة٨٤ وقد أخبر أنهم كفروا بالله ورسوله [٣]

وأيضا فلفظ الزندقة لا يوجد في كلام النبي كما لا يوجد في القرآن وهو لفظ أعجمي معرب أخذ من كلام الفرس بعد ظهور الإسلام وعرب وقد تكلم به السلف والأئمة في توبة الزنديق ونحو ذلك فأما الزنديق الذي تكلم الفقهاء في قبول توبته في الظاهر فالمراد به عندهم المنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر وإن كان مع ذلك يصلي ويصوم ويحج ويقرأ القرآن وسواء كان في باطنه يهوديا أو نصرانيا أو مشركا أو وثنيا وسواء كان معطلا للصانع وللنبوة أو

---

[١] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥٠

[٢] الصارم المسلول ج: ٢ ص:٧٩-٨٠

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٥٦

للنبوة فقط أو لنبوة نبينا فقط فهذا زنديق وهو منافق وما في القرآن والسنة من ذكر المنافقين يتناول مثل هذا بإجماع المسلمين ولهذا كان هؤلاء مع تظاهرهم بالإسلام قد يكونون أسوأ حالا من الكافر المظهر كفره من اليهود والنصارى مثلا كما قال تعالى قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً {١٤٥} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً{١٤٦}النساء١٤٥-١٤٦ ومثل هؤلاء المنافقين كفار في الباطن باتفاق المسلمين وإن كانوا مظهرين للشهادتين والإقرار بما جاء به الرسول ومؤدين للواجبات الظاهرة فإن ذلك لا ينفعهم في الآخرة إذ لم يكونوا مؤمنين بقلوبهم باتفاق أئمة المسلمين[١]

المنافقون في الدرك الأسفل من النار ويكون كثير من اليهود والنصارى أخف عذابا في الآخرة منهم [٢]

## كل شىء فى اسفل مذموما

وجدنا كل شىء فى اسفل مذموما يقول جل ثناؤه {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}النساء١٤٥ وقال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ}فصلت٢٩ [٣]

## محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده

ففى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا وفى الصحيحين عن النبى انه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما

---

[١] بغية المرتاد ج: ١ ص: ٣٣٨-٣٣٩

[٢] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٤٠

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٣١٠

ومن كان يحب المرء لايحبه الا الله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده بل هى اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين وكما ان التصديق به اصل كل قول من أقوال الايمان والدين فان كل حركة فى الوجود انما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك فى قاعدة المحبة من القواعد الكبار فجميع الاعمال الايمانية الدينية لاتصدر الا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لايكون عملا صالحا بل جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه كما ثبت فى الصحيح عن النبى انه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى فانا منه برئ وهو كله للذى أشرك وثبت فى الصحيح فى حديث الثلاثة الذين هم اول من تسعر بهم النار القارئ المرائى والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى بل اخلاص الدين لله هو الدين الذى لايقبل الله سواه وهو الذى بعث به الأولين والأخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة اهل الايمان وهذا هو خلاصة الدعوةالنبوية وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابليس انه قال {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٨٢} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٨٣}ص٨٢ -٨٣ وقال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}الحجر٤٢ وقال {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {٩٩} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{١٠٠}النحل٩٩-١٠٠ فبين ان سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال فى قصة يوسف {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}يوسف٢٤ واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}ص٨٥ وقد قال سبحانه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ وهذه الآية فى حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لايغفر الشرك لمن لم يتب منه وما دونه يغفره لمن يشاء واما قوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}الزمر٥٣ فتلك فى حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الآولين والآخرين انما امروا بذلك فى غير موضع كالسورة التى قرأها النبى على ابى لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة

إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{٤} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء {٥} البينة٤-٥ الآية وهذا حقيقة قول لا اله إلاالله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٢٥ وقال {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}الزخرف٤٥ وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}النحل٣٦ وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}الأعراف٥٩ وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول {اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ} لاسيما افضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا ابراهيم ومحمدا عليهما السلام فان هذا الاصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فابراهيم هوالامام الذى قال الله فيه {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً}البقرة١٢٤ وفى ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{٢٦} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{٢٧} وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٢٨} الزخرف٢٦-٢٨ فهذه الكلمة هى كلمة الاخلاص لله وهى البراءة من كل معبود الا من الخالق الذى فطرنا ونبينا صلى الله عليه وسلم هو الذى اقام الله به الدين الخالص لله دين التوحيد وقمع به المشركين من كان مشركا فى الأصل ومن الذين كفروا من اهل الكتب وقال فيما رواه الامام أحمد وغيره بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف امرى ومن تشبه بقوم منهم وقد تقدم بعض ما انزل الله عليه من الآيات المتضمنة للتوحيد وقال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً{١٤٥} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً{١٤٦}النساء١٤٥ -١٤٦ وفى الجملة فهذا الأصل فى سورة الأنعام والأعراف والنور وآل طسم وآل حم وآل المر وسور المفصل وغير ذلك من السور المكية ومواضع من السور المدنية كثير ظاهر فهو اصل الأصول وقاعدة الدين حتى فى سورتى الاخلاص قل يا ايها الكافرون وقل هوالله أحد وهاتان السورتان

كان النبى يقرأ بهما فى صلاة التطوع كركعتى الطواف وسنة الفجر وهما متضمنتان للتوحيد [1]

## قلب الإيمان

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارج له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصرى ما يقوله فى قصائده فى مدح الرسول من الإستغاثة به مثل قوله بك أستغيث وأستعين وأستنجد ونحو ذلك وكذلك ما يفعله كثير من الناس من استنجاد الصالحين والمتشبهين بهم والإستعانة بهم أحياء وأمواتا فإنى أنكرت ذلك فى مجالس عامة وخاصة وبينت للناس التوحيد ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}النحل٣٦ وقال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٢٥ وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥٣-٥٤

أن لا يعذبهم     وقال لابن عباس     إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله [1]

إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه فهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل وانزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة أهل الإيمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه وهذا حقيقة قول لا إله إلا الله وبذلك بعث جميع الرسل وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل صالح هود وشعيب هود عليهم السلام وغيرهم كل يقول اعبدوا الله ما لكم من إله غيره لا سيما أفضلا الرسل اللذين اتخذ الله كلاهما خليلا إبراهيم ومحمدا عليهما السلام فإن هذا الأصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما  فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص لله وهي البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذي فطرنا وقال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً{١٤٥} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً{١٤٦} النساء ١٤٥-١٤٦ [2]

## أن الانسان قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان وشعبة من شعب النفاق

فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الاسلام واخباره أنه دينه الذى ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال ان الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله     {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار} التوبة٧٢ فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً} النساء١٢٢ الآيات فى هذا المعنى كثيرة     فالوعد بالجنة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٧١

[2] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٦٢

والرحمة فى الآخرة وبالسلامة من العذاب علق باسم الايمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح ونحو ذلك وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ولم يعلق باسم الإسلام فلو كان من اتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلما لا مؤمنا لكان من اهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلما وان لم يسم مؤمنا وليس الأمر كذلك بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان وهذا أيضا مما إستدل به من قال إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة اذ لو كان الأمر كذلك لكان وعد الجنة معلقا باسم الإسلام كما علق بإسم الايمان وكما علق بإسم التقوى واسم البر فى مثل قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ}القمر٥٤ وقوله {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ}الانفطار١٣ وباسم أولياء الله كقوله {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٦٤} يونس٦٢-٦٤ فلما لم يجر إسم الإسلام هذا المجرى علم أن مسماه ليس ملازما لمسمى الايمان كما يلازمه اسم البر والتقوى وأولياء الله وأن إسم الإسلام يتناول من هو من أهل الوعيد وان كان الله يثيبه على طاعته مثل أن يكون فى قلبه ايمان ونفاق يستحق به العذاب فهذا يعاقبه الله ولا يخلده فى النار لأن فى قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من إيمان وهكذا سائر أهل الكبائر إيمانهم ناقص واذا كان فى قلب أحدهم شعبة نفاق عوقب بها اذا لم يعف الله عنه ولم يخلد فى النار فهؤلاء مسلمون وليسوا مؤمنين ومعهم ايمان لكن معهم أيضا ما يخالف الايمان من النفاق فلم تكن تسميتهم مؤمنين بأولى من تسميتهم منافقين لا سيما ان كانوا للكفر أقرب منهم للإيمان وهؤلاء يدخلون فى إسم الإيمان فى أحكام الدنيا كما يدخل المنافق المحض وأولى لأن هؤلاء معهم ايمان يدخلون به فى خطاب الله ب يا أيها الذين آمنوا لأن ذلك أمر لهم بما ينفعهم ونهى لهم عما يضرهم وهم محتاجون الى ذلك ثم أن الإيمان الذى معهم ان إقتضى شمول لفظ الخطاب لهم فلا كلام والا فليسوا بأسوأ حالا من المنافق المحض وذلك المنافق يخاطب بهذه الأعمال وتنفعه فى الدنيا ويحشر بها مع المؤمنين يوم القيامة ويتميز بها عن سائر الملل يوم القيامة كما تميز عنهم بها فى الدنيا لكن وقت الحقيقة يضرب {بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ{١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ{١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{١٥} الحديد١٣-١٥ وقد قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً {١٤٥} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ

بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً{١٤٦}النساء١٤٥-١٤٦ فاذا عمل العبد صالحا لله فهذا هو الإسلام الذى هو دين الله ويكون معه من الإيمان ما يحشر به مع المؤمنين يوم القيامة ثم ان كان معه من الذنوب ما يعذب به عذب وأخرج من النار اذا كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان وان كان معه نفاق ولهذا قال تعالى فى هؤلاء {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً}النساء١٤٦ فلم يقل أنهم مؤمنون بمجرد هذا اذ لم يذكر الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله بل هم معهم وانما ذكر العمل الصالح وإخلاصه لله وقال {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}النساء١٤٦ فيكون لهم حكمهم وقد بين تفاضل المؤمنين فى مواضع اخر وأنه من أتى بالايمان الواجب استحق الثواب ومن كان فيه شعبة نفاق وأتى بالكبائر فذاك من اهل الوعيد وايمانه ينفعه الله به ويخرجه به من النار ولو أنه مثقال حبة خردل لكن لا يستحق به الإسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب وتمام هذا أن الناس قد يكون فيهم من معه شعبة من شعب الايمان وشعبة من شعب الكفر أو النفاق ويسمى مسلما كما نص عليه أحمد وتمام هذا أن الانسان قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان وشعبة من شعب النفاق وقد يكون مسلما وفيه كفر دون الكفر الذى ينقل عن الإسلام بالكلية كما قال الصحابة ابن عباس وغيره كفر دون كفر وهذا قول عامة السلف وهو الذى نص عليه أحمد وغيره ممن قال فى السارق والشارب ونحوهم ممن قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم أنه ليس بمؤمن أنه يقال لهم مسلمون لا مؤمنون واستدلوا بالقرآن والسنة على نفى اسم الايمان مع إثبات إسم الإسلام وبأن الرجل قد يكون مسلما ومعه كفر الظاهر يجرى على المنافقين لأنهم استسلموا ظاهرا واتوا بما آتوا به من الأعمال الظاهرة بالصلاة الظاهرة والزكاة الظاهرة والحج الظاهر والجهاد الظاهر كما كان النبى يجرى عليهم أحكام الإسلام الظاهر واتفقوا على أنه من لم يكن معه شيء من الإيمان فهو كما قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} النساء ١٤٥ وفيها قراءتان درك ودرك قال ابو الحسين ابن فارس الجنة درجات والنار دركات قال الضحاك الدرج إذا كان بعضها فوق بعض والدرك إذا كان بعضها اسفل من بعض فصار المظهرون للاسلام بعضهم فى أعلى درجة فى الجنة وهو رسول الله كما قال فى الحديث الصحيح إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم سلوا الله لى الوسيلة فانها درجة فى الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة وقوله وأرجو أن أكون مثل قوله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله واعلمكم بحدوده ولا ريب أنه أخشى الأمة لله وأعلمهم بحدوده وكذلك قوله اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم

القيامة فهى نائلة ان شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا وقوله إنى لأرجو أن تكونوا نصف اهل الجنة وأمثال هذه النصوص وكان يستدل به أحمد وغيره على الإستثناء فى الإيمان كما نذكره فى موضعه والمقصود أن خير المؤمنين فى أعلى درجات الجنة والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار وان كانوا فى الدنيا مسلمين ظاهرا تجرى عليهم أحكام الاسلام الظاهرة فمن كان فيه إيمان ونفاق يسمى مسلما اذ ليس هو دون المنافق المحض واذا كان نفاقه أغلب لم يستحق اسم الإيمان بل إسم المنافق أحق به فان ما فيه بياض وسواد وسوداه أكثر من بياضه هو بإسم الأسود أحق منه بإسم الأبيض كما قال تعالى {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ}آل عمران١٦٧ وأما اذا كان ايمانه أغلب ومعه نفاق يستحق به الوعيد لم يكن أيضا من المؤمنين الموعودين بالجنة [١]

فإن الله منذ بعث محمدا وأنزل عليه القرآن وهاجر إلى المدينة صار الناس ثلاثة أصناف مؤمن به وكافر به مظهر الكفر ومنافق مستخف بالكفر ولهذا ذكر الله هذه الأصناف الثلاثة في أول سورة البقرة ذكر أربع آيات في نعت المؤمنين وآيتين في الكفار وبضع عشر آية في المنافقين وقد ذكر الله الكفار والمنافقين في غير موضع من القرآن كقوله {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}الأحزاب٤٨ وقوله {إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً}النساء١٤٠ وقوله {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}الحديد١٥ وعطفهم على الكفار ليميزهم عنهم بإظهار الإسلام وإلا فهم في الباطن شر من الكفار كما قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}النساء١٤٥ وكما قال {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ}التوبة٨٤ وكما قال {قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ{٥٣}وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ {٥٤}التوبة٥٣-٥٤ وإذا كان كذلك فأهل البدع فيهم المنافق الزنديق فهذا كافر ويكثر مثل هذا في الرافضة والجهمية فإن رؤساءهم كانوا منافقين زنادقة وأول من ابتدع الرفض كان منافقا وكذلك التجهم فإن أصله زندقة ونفاق ولهذا كان الزنادقة المنافقون من القرامطة الباطنية المتفلسفة وأمثالهم يميلون إلى الرافضة والجهمية لقربهم منهم ومن أهل البدع من يكون فيه إيمان باطنا وظاهرا لكن فيه جهل وظلم

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٤٩-٣٥١

حتى أخطأ ما أخطأ من السنة فهذا ليس بكافر ولا منافق ثم قد يكون منه عدوان وظلم يكون به فاسقا أو عاصيا وقد يكون مخطئا متأولا مغفورا له خطأه وقد يكون مع ذلك معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه [١]

وقوله {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}النساء١٤٦يدل على موافقتهم فى الايمان وموالاتهم [٢]

## الدين الحق هو طاعة الله وعبادته

قال تعالى {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}النساء١٤٦

الدين هو التعاهد والتعاقد وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها علي أنفسهم والأمور التي تضرهم يحتاجون أن يحرموها علي نفوسهم وذلك دينهم وذلك لا يكون إلا باتفاقهم علي ذلك وهو التعاهد والتعاقد ولهذا جاء في الحديث لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم من التزام واجبات ومحرمات وهو الوفاء والعهد وهذا قد يكون باطلا فاسدا إذا كان فيه مضرة لهم راجحة علي منفعته وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة كما قال تعالي {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{١} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{٢} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{٣} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{٤} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{٥} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{٦}الكافرون١-٦ وقال تعالي {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ}يوسف٧٦ وقال تعالي{قَاتِلُواْ

---

[١]مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٥٣-٣٥٤

[٢]مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢٣٢

الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ} التوبة٢٩ الدين الحق هو طاعة الله وعبادته والدين الحق هو طاعة الله وعبادته كما بينا أن الدين هو الطاعة المعتادة التي صارت خلقا وبذلك يكون المطاع محبوبا مرادا إذ أصل ذلك المحبة والإرادة ولا يستحق أحد أن يعبد ويطاع علي الإطلاق إلا الله وحده لا شريك له ورسله وأولو الأمر أطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله كما قال النبي في الحديث المتفق عليه من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصي الله ومن عصي أميري فقد عصاني وأما العبادة فلله وحده ليس فيها واسطة فلا يعبد العبد إلا الله وحده كما قد بينا ذلك في مواضع وبينا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح باطل غير حق أي لاينفع صاحبه وقد قال سبحانه {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} البينة٥ وقال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ} البقرة١٩٣ وقال تعالي {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ} التوبة٣٦ وقال تعالي {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} الأنعام١٦١ وقال تعالي {فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ} التوبة١٢٢ وفي الصحيحين عن النبي انه قال من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وقال تعالى {وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} البقرة٢١٧ وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} المائدة٥٤ وهو الدين الحق الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله دينا غيره كما قال تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} آل عمران١٩ وقال تعالى {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران٨٥ وقال تعالى {أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} آل عمران٨٣ وقال تعالي {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} الشورى١٣ وقال تعالي {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} الأنعام١٥٩ كل دين سوي الإسلام باطل فإذا كان لا بد لكل آدمي من اجتماع ولا بد في كل اجتماع من طاعة ودين وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل

فكل دين سوي الإسلام فهو باطل وأيضا فلا بد لكل حي من محبوب هو منتهى محبته وإرادته وإليه تكون حركة باطنه وظاهره وذلك هو إلهه ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له فكل ما سوي الإسلام فهو باطل والمتفرقون أيضا فيه الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه وافترقت أهواؤهم قد بريء الله ورسوله منهم لا بد في كل دين من شيئين العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة ولا بد في كل دين وطاعة ومحبة من شيئين أحدهما الدين المحبوب المطاع وهو المقصود المراد والثاني نفس صورة العمل التي تطاع ويعبد بها وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالي {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} هود٧ قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون علي السنة فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين المعبود والعبادة والمعبود اله واحد والعبادة طاعته وطاعة رسوله فهذا هو دين الله الذي ارتضاه كما قال تعالي{وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} المائدة٣ وهو دين المؤمنين من الأولين والآخرين وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره لأنه دين فاسد باطل كمن عبد من لا تصلح عبادته أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به [1]

فالاعتصام بالله يكون بالاعتصام بالقرآن والاسلام كما قال تعالى{إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً} النساء١٤٦ [2]

## أن الأمن من عذاب الله إنما هو بطاعته تعالى

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص:٣٦- ٤٠

[2] النبوات ج: ١ ص: ٢٣٥

أن الأمن من عذاب الله وحصول السعادة إنما هو بطاعته تعالى لقوله {مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ}النساء١٤٧ وقال تعالى {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ}الفرقان٧٧ أى لو لم تدعوه كما أمر فتطيعوه فتعبدوه وتطيعوا رسله فانه لا يعبأ بكم شيئا[1]

قال تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ}البينة٥ و قوله {وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً}التوبة٣١ و هذا إختيار الزجاج و غيره و هذا هو المعروف عن مجاهد بالإسناد الثابت قال إبن أبى حاتم ثنا أبو سعيد الأشج {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}الذاريات٥٦ لآمرهم و أنهاهم كذلك روي عن الربيع بن أنس قال ما خلقتهما إلا للعبادة و يدل على هذا مثل قوله {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى}القيامة٣٦ يعنى لايؤمر و لا ينهي و قوله {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ}الفرقان٧٧ أي لولا عبادتكم و قوله {مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ}النساء١٤٧ و قوله {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا}الأنعام١٣٠ إلى قوله {وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ}الأنعام١٣١ و قوله {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١}يس٦٠-٦١ الآيات وما بعدها و قالت الجن لما سمعوا القرآن {يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ {٣٠} يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ{٣١}الأحقاف٣٠-٣١ الآية و ما بعدها و قالت الجن {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً}الجن١٤ الآية و ما بعدها وقد قال فى القرآن فى غيرموضع {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ}البقرة٢١ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ}النساء١ فقد أمرهم بما خلقهم له و أرسل الرسل إلى الإنس و الجن و محمد أرسل إلى الثقلين و قرأ القرآن على الجن و قد روى أنه لما قرأ عليهم سورة الرحمن و جعل يقرأ {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}الرحمن١٣ يقولون و لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد فهذا هو المعنى الذى قصد بالآية قطعا و هو الذي تفهمه جماهير المسلمين و يحتجون بالآية عليه و يعترفون بأن الله خلقهم ليعبدوه لا ليضيعوا حقه و فى الصحيحين عن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه و سلم قال له يامعاذ أتدري ما حق الله على عبادة قال الله و رسوله أعلم قال فإن حق الله على

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٤٣٣

عبادة أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله و رسوله أعلم قال فإن حقهم عليه أن لا يعذبهم و فى المسند عن إبن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله و حده لا شريك له و جعل رزقى تحت ظل رمحي جعل الذل و الصغار على من خالف أمرى و من تشبه بقوم فهو منهم [1]

## المظلوم له استيفاء حقه

والمظلوم له استيفاء حقه إما في الدنيا وإما في الآخرة قال الله تعالى{لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ}النساء١٤٨ [2]

وأما الشخص المعين فيذكر ما فيه من الشر فى مواضع منها المظلوم له ان يذكر ظالمه بما فيه إما على وجه دفع ظلمه واستيفاء حقه كما قالت هند يا رسول الله ان ابا سفيان رجل شحيح وانه ليس يعطينى من النفقة ما يكفينى وولدى فقال لها النبى خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف كما قال لى الواجد يحل عرضه وعقوبته وقال وكيع عرضه شكايته وعقوبته حبسه وقال تعالى {لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً} النساء١٤٨ وقد روى انها نزلت فى رجل نزل بقوم فلم يقروه فاذا كان هذا فيمن ظلم بترك قراه الذى تنازع الناس فى وجوبه وان كان الصحيح انه واجب فكيف بمن ظلم بمنع حقه الذى اتفق المسلمون على استحقاقه إياه او يذكر ظالمه على وجه القصاص من غير عدوان ولا دخول فى كذب ولا ظلم الغير وترك ذلك أفضل [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٥٢- ٥٣

[2] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٢٠٧

[3] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٢٩-٢٣٠

قال تعالى{وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً}الحجرات١٢ وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الغيبة ذكرك أخاك بما يكره قيل أرأيت إن كان في أخي ما أقول قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته فمن رمى أحدا بما ليس فيه فقد بهته فكيف إذا كان ذلك في لصحابة ومن قال عن مجتهد إنه تعمد الظلم وتعمد معصية الله ورسوله ومخالفة الكتاب والسنة ولم يكن كذلك فقد بهته وإذا كان فيه ذلك فقد اغتابه لكن يباح من ذلك ما أباحه الله ورسوله وهو ما يكون على وجه القصاص والعدل وما يحتاج إليه لمصلحة الدين ونصيحة المسلمين فالأول كقول المشتكى المطلوب فلان ضربني وأخذ مالي ومنعني حقي ونحو ذلك قال تعالى {لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ}النساء١٤٨وقد نزلت فيمن ضاف قوما فلم يقروه لأن قرى الضيف واجب كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة فلما منعوه حقه كان له ذكر ذلك وقد أذن له النبي صلى الله عليه وسلم أن يعاقبهم بمثل قراه في زرعهم ومالهم وقال نصره واجب على كل مسلم لأنه قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال أنصر أخاك ظالما أو مظلوما قلت يا رسول الله أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما قال تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه وأما الحاجة فمثل استفتاء هند بنت عتبة كما ثبت في الصحيح أنها قالت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني وبني ما يكفيني بالمعروف فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف أخرجاه في الصحيحين من حديث عائشة فلم ينكر عليها قولها وهو من جنس قول المظلوم وأما النصيحة فمثل قوله صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس لما استشارته فيمن خطبها فقالت خطبني أبو جهم ومعاوية فقال أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه وفي لفظ يضرب النساء أنكحي أسامه فلما استشارته حتى تتزوج ذكر ما تحتاج إليه وكذلك من استشار رجلا فيمن يعامله والنصيحة مأمور بها ولو لم يشاوره فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الدين النصيحة الدين النصيحة ثلاثا قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وكذلك بيان أهل العلم لمن غلط في رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أو تعمد الكذب عليه أو على من ينقل عنه العلم وكذلك بيان من غلط في رأي رآه في أمر الدين من المسائل العلمية والعملية فهذا إذا تكلم فيه الإنسان بعلم وعدل وقصد النصيحة فالله تعالى يثيبه على ذلك لا سيما إذا كان المتكلم فيه داعيا إلى بدعة فهذا يجب بيان أمره للناس فإن دفع شره عنهم أعظم من دفع شر قاطع الطريق وحكم المتكلم باجتهاده في العلم والدين حكم أمثاله من المجتهدين ثم قد يكون مجتهدا مخطئا أو مصيبا وقد يكون كل من الرجلين المختلفين باللسان أو اليد مجتهدا يعتقد الصواب معه وقد يكونان جميعا

مخطئين مغفورا لهما كما ذكرنا نظير ذلك مما كان يجري بين الصحابة ولهذا ينهى عما شجر بين هؤلاء سواء كانوا من الصحابة أو ممن بعدهم فإذا تشاجر مسلمان في قضية ومضت ولا تعلق للناس بها ولا يعرفون حقيقتها كان كلامهم فيها كلاما بلا علم ولا عدل يتضمن أذاهما بغير حق ولو عرفوا أنهما مذنبان أو مخطئان لكان ذكر ذلك من غير مصلحة راجحة من باب الغيبة المذمومة لكن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أعظم حرمة وأجل قدرا وأنزه أعراضا وقد ثبت من فضائلهم خصوصا وعموما ما لم يثبت لغيرهم فلهذا كان كلام الذي فيه ذمهم على ما شجر بينهم أعظم إثما من الكلام في غيرهم [١]

## الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل

الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل فى قدر الله وفى شرعه فان هذا من العدل الذى تقوم به السماء والأرض كما قال الله تعالى {إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً}النساء١٤٩ وقال {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}النور٢٢ وقال النبى من لا يرحم ولا يرحم وقال ان الله وتر يحب الوتر وقال ان الله جميل يحب الجمال وقال ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وقال إن الله نظيف يحب النظافة ولهذا شرع قطع يد السارق وشرع قطع يد المحارب ورجله وشرع القصاص فى الدماء والأموال والأبشار فاذا أمكن ان تكون العقوبة من جنس المعصية كان ذلك هو المشروع بحسب الامكان مثل ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى شاهد الزور انه أمر باركابه دابة مقلوبا وتسويد وجهه فانه لما قلب الحديث قلب وجهه ولما سود وجهه بالكذب سود وجهه وهذا قد ذكره فى تعزير شاهد الزور طائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم [٢]

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٤٤-١٤٧

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١١٩-١٢٠

قيل الهدى أربعة أقسام أحدها الهدى في الآخرة كما قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ{٢٣} وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ{٢٤} الحج ٢٤-٢٣ وقال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}يونس٩ فقوله {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ}يونس٩ كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ}الطور٢١ على أحد القولين في الآية وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا وكما أن قصد الشر في الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق النار كما قال تعالى{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ{٢٢} مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ{٢٣} الصافات ٢٣-٢٢ وقال {وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً}الإسراء٧٢ وقال {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{١٢٣} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{١٢٤} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{١٢٥} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{١٢٦} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى{١٢٧} طه١٢٣-١٢٧ وقال {وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً}الإسراء٩٧ فأخبر أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عميا وبكما وصما فإن الجزاء أبدا من جنس العمل كما قال صلى الله عليه وسلم الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء وقال من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل له الله به طريقا إلى الجنة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة و الله في عون العبد ماكان العبد في عون أخيه وقال من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار وقد قال تعالى {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}النور٢٢ وقال {إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً}النساء١٤٩ وأمثال هذا كثير في الكتاب والسنة ولهذا أيضا يجزى الرجل في الدنيا على ما فعله من خير الهدى بما يفتح عليه من هدى آخر ولهذا قيل من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم وقد قال {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً{٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨}النساء٦٦ -

٦٨وقال {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{١٥} يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ {١٦}}المائدة١٥ -١٦ وقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ}الحديد٢٨ وقال {إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً}الأنفال٢٩ فسروه بالنصر والنجاة كقوله يوم الفرقان وقد قيل نور يفرق به بين الحق والباطل ومثله قوله {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ {٣}}الطلاق٢-٣ وعد المتقين بالمخارج من الضيق وبرزق المنافع ومن هذا الباب قوله {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ}محمد١٧ [١]

وكما قال من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه وفى الحديث الصحيح الالهى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ومن تقرب الى شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت منه باعا ومن اتانى يمشى اتيته هرولة وقال من كان له لسانان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة وقال من استمع الى حديث (يبدو هنا شيء ناقص في تصوير الكتاب يجب التاكد منها ) لا تزال المسألة بالرجل حتى يجىء يوم القيامة وليس فى وجهه مزعة لحم وقال تعالى {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}النور٢٢ وقال تعالى {إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً}النساء١٤٩ ومثل هذا فى الكتاب والسنة كثير يبين فيهما أن الجزاء من جنس العمل وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى أنه قال يقول الله من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب الى عبدى بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى

---

[١] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٢٤-٤٢٥ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٧٦

المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولابد له منه فبين سبحانه ان العبد اذا تقرب اليه بمحابه من النوافل بعد الفرائض أحبه الرب كما وصف [1]

## الحلم والصبر افضل اخلاق اهل الدنيا والاخرة

كان النبي وغيره من الانبياء عليهم السلام يعفون ويصفحون عمن قاله امتثالا لقوله تعالى {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}الأعراف١٩٩ ولقوله تعالى {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ}المؤمنون٩٦ وقوله {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ {٣٤} وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ{٣٥}فصلت٣٤ ـ٣٥ ولقوله تعالى {وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ}آل عمران١٥٩ ولقوله تعالى {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ}الأحزاب٤٨ ذلك لان درجة الحلم والصبر على الاذى والعفو عن الظلم افضل اخلاق اهل الدنيا والاخرة يبلغ الرجل بها ما لا يبلغه بالصيام والقيام قال تعالى {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}آل عمران١٣٤ وقال تعالى {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}الشورى٤٠ وقال تعالى {إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً}النساء١٤٩

وقال {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ}النحل١٢٦ والاحاديث في هذا الباب كثيرة مشهورة ثم الانبياء احق الناس بهذه الدرجة لفضلهم واحوج الناس اليها لما ابتلوا به من دعوة الناس ومعالجتهم وتغيير ما كانوا عليه من العادات هو امر لم يات به احد الا عودي فالكلام الذي يؤذيهم يكفر به الرجل فيصير به محاربا ان كان ذا عهد ومرتدا او منافقا ان كان ممن يظهر الاسلام ولهم فيه ايضا حق الادمي فجعل الله لهم ان يعفوا عن مثل هذا النوع ووسع عليهم ذلك لما فيه من حق الادمي تغليبا لحق الادمي على حق الله كما جعل لمستحق القود وحد القذف ان يعفو عن القاتل والقاذف واولى لما في جواز

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٤٨٢-٤٨٤

عفو الانبياء ونحوهم من المصالح العظيمة المتعلقة بالنبي والامة وبالدين وهذا معنى قول عائشة رضي الله عنها ما ضرب رسول الله بيده خادما له ولا امراة ولا دابه ولا شيئا قط الا ان يجاهد في سبيل الله ولا انتقم لنفسه قط وفي لفظ ما نيل منه شئ فانتقم من صاحبه الا ان تنتهك محارم الله فاذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبة شئ حتى ينتقم لله متفق عليه ومعلوم ان النيل منه اعظم من انتهاك المحارم لكن لما دخل فيها حقه كان الامر اليه في العفو او الانتقام فكان يختار العفو وربما امر بالقتل اذا راى المصلحة في ذلك بخلاف ما لاحق له فيه من زنى او سرقة او ظلم لغيره فانه يجب عليه القيام به وقد كان اصحابه اذا راوا من يؤذيه ارادوا قتله لعلمهم بانه يستحق القتل فيعفو هو عنه ويبين لهم ان عفوه اصلح مع اقراره لهم على جواز قتله ولو قتله قاتل قبل عفو النبي لم يعرض له النبي لعلمه بانه قد انتصر لله ورسوله بل يحمده على ذلك ويثني عليه كما قتل عمر رضي الله عنه الرجل الذي لم يرضى بحكمه وكما قتل رجل بنت مروان واخر اليهودية السابه فاذا تعذر عفوه بموته بقي حقا محضا لله ولرسوله وللمؤمنين لم يعف عنه مستحقه فتجب اقامتة ويبين ذلك ما روى ابراهيم بن الحكم بن ابان حدثني ابي عن عكرمه عن ابي هريرة رضي الله عنه ان اعرابيا جاء الى النبي يستعينه في شئ فاعطاه شيئا ثم قال احسنت اليك قال الاعرابي لا ولا اجملت قال فغضب المسلمون وقامو اليه فأشار اليهم ان كفوا ثم قام فدخل منزله ثم ارسل الى الاعرابي فدعاه الى البيت يعني فاعطاه فرضي فقال انك جئتنا فسالتنا فاعطيناك فقلت ما قلت وفي انفس المسلمين شئ من ذلك فان احببت فقل بين ايديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك قال نعم فلما كان الغد او العشي جاء قال رسول الله ان صاحبكم هذا جاء فسالنا فاعطيناه فقال ما قال وانا دعوناه الى البيت فاعطيناه فزعم انه قد رضي اكذلك قال الاعرابي نعم فجزاك الله من اهل وعشيرة خيرا فقال النبي الا ان مثلي ومثل هذا الاعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفورا فناداهم صاحب الناقه خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها فتوجه لها صاحب الناقه بين يديها فاخذ لها من قمام الارض فجاءت فاستناحت فشد عليها رحلها واستوى عليها واني لوتركتكم حين قال ارجل ما قال فقتلتموه دخل النار ورواه ابو احمد العسكري بهذا الاسناد قال جاء اعرابي الى النبي فقال يا محمد اعطني فانك لا تعطي من مالك ولا من مال ابيك فاغلظ للنبي فوثب اليه اصحابه فقالوا يا عدو الله تقول هذا لرسول الله وذكره فهذا يبين لك ان قتل ذلك الرجل لاجل قوله ما قال كان جائزا قبل الاستتابة وانه صار كافرا بتلك الكلمة ولولا ذلك لما كان يدخل النار اذا قتل على مجرد تلك الكلمة بل كان يدخل الجنة لانه مظلوم شهيد وكان قاتله يدخل النار لانه

قتل مؤمنا متعمدا ولكان النبي يبين ان قتله لم يحل لان سفك الدم بغير حق من اكبر الكبائروهذا الاعرابي كان مسلما ولهذا قال صاحبكم ولهذا جاءه الاعرابي يستعينه ولو كان كافرا محاربا له لما جاء يستعينه في شئ ولو كان النبي اعطاه ليسلم لذكر في الحديث انه اسلم فلما لم يجر للاسلام ذكر دل على انه كان ممن دخل الاسلام وفيه جفاء الاعراب وممن دخل في قوله تعالى {فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}التوبة٥٨ ومما يوضح ذلك انه كان يعفو عن المنافقين الذين لا يشك في نفاقهم حتى قال لو اعلم اني لو زدت على السبعين غفر له لزدت حتى نهاه الله عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم وامره بالاغلاظ عليهم فكثير مما كان يحتمله من المنافقين من الكلام وما يعاملهم من الصفح والعفو والاستغفار كان قبل نزول براءة لما قيل له {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ}الأحزاب٤٨ لاحتياجه اذ ذاك الى استعطافهم وخشية نفور العرب عنه اذا قتل احدا منهم وقد صرح لما قال ابن ابي {لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}المنافقون٨ ولما قال ذو الخويصرة اعدل فانك لم تعدل وعند غير هذه القضية انه انما لم يقتلهم لئلا يتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه فان الناس ينظرون الى ظاهر الامر فيرون واحدا من الصحابة قد قتل فيظن الظان انه يقتل بعض اصحابه على غرض او حقد او نحو ذلك فينفر الناس عن الدخول في الاسلام واذا كان من شريعته ان يتألف الناس على الاسلام بالاموال العظيمة ليقوم دين الله وتعلو كلمته فلان يتألفهم بالعفو اولى واحرى فلما انزل الله براءة ونهاه عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم وامره ان يجاهد الكفار والمنافقين ويغلظ عليهم نسخ جميع ما كان المنافقون يعاملون به من العفو كما نسخ ما كان الكفار يعاملون به من الكف عمن سالم ولم يبقى الا اقامة الحدود واعلاء كلمة الله في حق الانسان[1]

## الله سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات

---

[1] الصارم المسلول ج: ٢ ص:٤٣٤- ٤٤١

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{١٨٠} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{١٨١} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{١٨٢}الصافات١٨٠ -١٨٢ فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه وقوله{إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً}النساء١٤٩ [1]

## لطائف لغوية

١- قال تعالى {وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١٣٦ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{٧١} الصافات٦٩ -٧١ وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٣٤ و العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ١٣

وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}الأحزاب٦٧ -٦٨ وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}طه١٢٣ ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}النجم٢ وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}الفاتحة٧ وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}القمر٤٧ [1]

٢- لفظ الكفر و النفاق فالكفر اذا ذكر مفردا فى وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله {وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١٣٦ وأمثال هذه النصوص كثير فى القرآن فهذه كلها يدخل فيها المنافقون الذين هم فى الباطن كفار ليس معهم من الايمان شىء كما يدخل فيها الكفار المظهرون للكفر بل المنافقون فى الدرك الأسفل من النار كما أخبر الله بذلك فى كتابه ثم قد يقرن الكفر بالنفاق فى مواضع ففى أول البقرة ذكر أربع آيات فى صفة المؤمنين وآيتين فى صفة الكافرين وبضع عشرة آية فى صفة المنافقين فقال تعالى {إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً}النساء١٤٠ [2]

٣-أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايفة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبا للآمر مقصودا له كما في قوله {وَاتَّقُواْ اللّهَ}البقرة١٨٩ {وَأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}المائدة٩٣ وفي قوله {آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ}النساء١٣٦ وفي قوله {اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}المائدة٧٢ وفي قوله {فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ}يونس٨٤ فإن نفس التقوى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٣

والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به [1]

٤- قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً}النساء١٣٧ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}الفاتحة٦ والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}البقرة٢ والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا}الأعراف٤٣ وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله {وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الأنعام٨٧ وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ}النحل١٢١ {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ}الشورى١٣ وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ}التوبة٣٣ والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا [2]

٥- وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥١

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦

لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد فى الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التى يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال فى لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوى أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعى ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{٩} عَبْداً إِذَا صَلَّى{١٠}العلق٩-١٠ وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبى عن الصلاة وقال لئن رأيته يصلى لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه فإذا قيل {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{٩} عَبْداً إِذَا صَلَّى{١٠}العلق٩-١٠ فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال فى اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبى لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتمون بالنبى فإذا قيل لهم {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال فى ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد [1]

٦- قال تعالى {مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً}النساء١٤٣ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{٧١} الصافات٦٩ -٧١ وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}الأحزاب٦٧ -٦٨ وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}طه١٢٣ ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠٠

صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}النجم٢ وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}الفاتحة٧ وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}القمر٤٧ [1]

٧- قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً}النساء١٤٤ والسلطان هو الوحي المنزل من عند الله كما ذكر ذلك فى غير موضع كقوله {أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ}الروم٣٥ وقوله {مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ}الأعراف٧١ وقال ابن عباس كل سلطان فى القران فهو الحجة ذكره البخارى فى صحيحه [2]

*وقد بين في غير موضع ان السلطان هو الحجة وهو الكتاب المنزل [3]

٨- ولفظ النفاق فانه فى الشرع اظهار الدين وابطان خلافه وهذا المعنى الشرعى اخص من مسمى النفاق فى اللغة فانه فى اللغة اعم من اظهار الدين ثم ابطان ما يخالف الدين اما ان يكون كفرا أو فسقا فاذا أظهر انه مؤمن وابطن التكذيب فهذا هو النفاق الأكبر الذى اوعد صاحبه بأنه فى الدرك الاسفل من النار وان أظهر انه صادق أو موف أو أمين وابطن الكذب والغدر والخيانة ونحو ذلك فهذا هو النفاق الاصغر الذى يكون صاحبه فاسقا فاطلاق النفاق عليهما فى الاصل بطريق التواطؤ وعلى هذا فالنفاق اسم جنس تحته نوعان ثم انه قد يراد به النفاق فى أصل الدين مثل قوله {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}النساء١٤٥و {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}المنافقون١ والمنافق هنا الكافر وقد يراد به النفاق فى فروعه مثل قوله آية المنافق ثلاث وقوله أربع من كن فيه كان منافقا خالصا وقول ابن عمر فيمن يتحدث عند الامراء بحديث ثم يخرج فيقول بخلافه كنا نعد هذا على عهد النبى نفاقا إذا قال الرجل جاء القاضى وعنى به قاضى بلده لكون اللام

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٤٢ و مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣١٦

[3] الاستقامة ج: ١ ص: ٢٢

للعهد كما قال سبحانه {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ}المزمل١٦ ان اللام هى أوجبت قصر الرسول على موسى لا نفس لفظ رسول واما ان يكون لغلبة الاستعمال عليه فيصير مشتركا بين اللفظ العام والمعنى الخاص فكذلك قوله {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ}المنافقون١ فان تخصيص هذا اللفظ بالكافر إما أن يكون لدخول اللام التى تفيد العهد والمنافق المعهود هو الكافر أو تكون لغلبة هذا الاسم فى الشرع على نفاق الكفر وقوله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه كان منافقا يعنى به منافقا بالمعنى العام وهو إظهاره من الدين خلاف ما يبطن فاطلاق لفظ النفاق على الكافر وعلى الفاسق إن اطلقته باعتبار ما يمتاز به عن الفاسق كان إطلاقه عليه وعلى الفاسق باعتبار الاشتراك وكذلك يجوز أن يراد به الكافر خاصة ويكون متواطئا إذا كان الدال على الخصوصية غير لفظ منافق بل لام التعريف وهذا البحث الشريف جار فى كل لفظ عام استعمل فى بعض أنواعه إما لغلبة الاستعمال أو لدلالة لفظية خصته بذلك النوع مثل تعريف الاضافة أو تعريف اللام فان كان لغلبة الاستعمال صح أن يقال إن اللفظ مشترك وإن كان لدلالة لفظية كان اللفظ باقيا على مواطأته فلهذا صح أن يقال النفاق اسم جنس تحته نوعان لكون اللفظ فى الأصل عاما متواطئا وصح ان يقال هو مشترك بين النفاق فى اصل الدين وبين مطلق النفاق فى الدين لكونه فى عرف الاستعمال الشرعى غلب على نفاق الكفر [1]

٩- أن لفظ مع في لغة العرب إنما تدل على المصاحبة والموافقة والاقتران ولا تدل على أن الأول مختلط بالثاني في عامة موارد الإستعمال كقوله تعالى {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ}الفتح٢٩ لم يرد أن ذواتهم مختلطة بذاته وقوله {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}النساء١٤٦ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٤٣

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٣٩٠

١٠- وقوله {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}النساء١٤٦يدل على موافقتهم فى الايمان وموالاتهم [1]

١١- قال تعالى {وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً}النساء١٤٧ عليم منزه عن الجهل [2]

١٢- قال تعالى {وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً}النساء١٤٧ وقال {وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً}النساء١٤٨ قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ و نحوه كما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس و رواه ابن أبى حاتم من عدة طرق لما قيل له قوله {وَكَانَ اللّهُ}النساء١٥٨ كأنه كان شيء ثم مضى فقال إبن عباس هو سمى نفسه بذلك و لم يزل كذلك هذا لفظ ابن أبى حاتم من طريق أبى معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فقال ابن عباس كذلك كان و لم يزل و من رواية عمرو بن أبي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال سمعت الله يقول {وَكَانَ اللّهُ}النساء١٥٨ كأنه شيء كان فقال ابن عباس أما قوله {كَانَ} فإنه لم يزل و لا يزال و هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكل شيء عليم و من رواية عبدالرحمن بن مغرا عن مجمع بن يحيى عن عمه عن ابن عباس قال قال يهودي إنكم تزعمون أن الله كان عزيزا حكيما فكيف هو اليوم فقال ابن عباس إنه كان فى نفسه عزيزا حكيما و هذه أقوال ابن عباس تبين أنه لم يزل متصفا بخبر كان و لا يزال كذلك و أن ذلك حصل له من نفسه فلم يزل متصفا فى نفسه إذا كان من لوازم نفسه و لهذا لا يزال لأنه من نفسه و قال أحمد بن حنبل لم يزل الله عالما متكلما غفورا و قال أيضا لم يزل الله متكلما إذا شاء [3]

و فى صحيح البخاري تعليقا عن سعيد بن جبير أن رجلا سأل إبن عباس عن قوله و كان الله غفورا رحيما و كان الله عزيزا حكيما و كان الله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢٣٢ و مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٢٧

[2] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[3] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٣٦٩-٣٧٠ و مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٣٨

سميعا بصيرا فكأنه كان فمضى فقال إبن عباس قوله و كان الله و كان الله فإنه يجل نفسه عن ذلك و سمى نفسه بذلك لم يجله أحد غيره و كان أي لم يزل كذلك رواه عبد بن حميد فى تفسيره مسندا موصولا و رواه إبن المنذر أيضا فى تفسيره و هذا لفظ رواية عبد [1]

١٣- قال تعالى {لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً} النساء١٤٨

سميع منزه عن الصم عليم منزه عن الجهل [2]

١٤- قال تعالى{إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً}النساء١٤٩ قدير منزه عن العجز والضعف [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٠

[2] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[3] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

## النساء ١٥٠ـ١٧٠

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ
وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ
بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
عَذَاباً مُّهِيناً{١٥١} وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{١٥٢}
يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ
مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ
بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ
وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً{١٥٣} وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ
وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا
مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً{١٥٤} فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ
وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا
بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً{١٥٥} وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ
بُهْتَاناً عَظِيماً{١٥٦} وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ
فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ
يَقِيناً{١٥٧} بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{١٥٨} وَإِن
مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ
شَهِيداً{١٥٩} فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ
لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً{١٦٠} وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ
عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً
أَلِيماً{١٦١} لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ
بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً
عَظِيماً{١٦٢} إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن
بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ
وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ

**زَبُوراً{١٦٣} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{١٦٤} رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{١٦٥} لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً{١٦٦} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً{١٦٧} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً{١٦٨} إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً{١٦٩} يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{١٧٠}**

## دين الأنبياء واحد

دين الإسلام الذي بعث الله به جميع الرسل و هو عبادة الله وحده لا شريك له فإن هذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين دينا غيره وكذلك الإسلام العام وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي ولهذا ترجم البخاري على ذلك باب من جاء في أن دين الأنبياء واحد وقال تعالى {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ{١٣} الشورى ١٣ فقد أمر الرسل أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه وقال تعالى في الآية الأخرى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٥١} النساء١٥٠-١٥١ فذم الذين تفرقوا على الأنبياء فآمن هؤلاء ببعض وهؤلاء ببعض وهم الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا [1]

---

[1] الصفدية ج: ٢ ص: ٣٠٦

و التوحيد فى العبادات المتضمن للإيمان بالشرع والقدر جميعا   فنقول لا بد من الإيمان بخلق الله وأمره فيجب الإيمان بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وأنه على كل شيء قدير وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله    وقد علم ما سيكون قبل أن يكون وقدر المقادير وكتبها حيث شاء كما قال تعالى {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}الحج٧٠ وفى الصحيح عن النبى أنه قال إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء    ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له كما خلق الجن والإنس لعبادته وبذلك أرسل رسله وأنزل كتبه وعبادته تتضمن كمال الذل والحب له وذلك يتضمن كمال طاعته من يطع الرسول فقد أطاع الله    وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ{٥١} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ{٥٢} المؤمنون٥١-٥٢  فأمر الرسل بإقامة الدين وأن لا يتفرقوا فيه    ولهذا قال النبى فى الحديث الصحيح انا معاشر الأنبياء ديننا واحد والأنبياء أخوة لعلات وان أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بينى وبينه نبى    وهذا الدين هو دين الإسلام الذى لا يقبل الله دينا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام فالإسلام يتضمن الإستسلام لله وحده فمن إستسلم له ولغيره كان مشركا ومن لم يستسلم له كان مستكبرا عن عبادته والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر والإستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده    فهذا دين الإسلام الذى لا يقبل الله غيره وذلك إنما يكون بأن يطاع فى كل وقت بفعل ما أمر به فى ذلك الوقت فاذا أمر فى أول الأمر بإستقبال الصخرة ثم أمرنا ثانيا باستقبال الكعبة كان كل من الفعلين حين امر به داخلا فى الإسلام    فالدين هو الطاعة والعبادة له فى الفعلين وإنما تنوع بعض صور الفعل وهو وجه المصلى فكذلك الرسل دينهم واحد وإن تنوعت الشرعة والمنهاج والوجه والمنسك فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحدا كما لم يمنع ذلك فى شريعة الرسول الواحد    والله تعالى جعل من دين الرسل أن أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به وآخرهم يصدق بأولهم ويؤمن به قال الله تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ}آل عمران٨١   قال ابن عباس لم يبعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمتة لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وقال تعالى    {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ

أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً} المائدة٤٨ وجعل الإيمان متلازما وكفر من قال أنه أمن ببعض وكفر ببعض قال الله تعالى{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً} النساء١٥٠ [1]

يجب تصديق الانبياء في كل ما أخبروا به من الغيب وطاعتهم في كل ما أمروا به وأوجب الله الإيمان بما أوتوه ولهذا اتفق المسلمون على أن من كذب نبيا معلوم النبوة فهو كافر مرتد ومن سب نبيا وجب قتله بل يجب الإيمان بجميع ما أوتيه النبيون كلهم وأن لا نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعض ونكفر ببعض قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً {١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٥١} وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{١٥٢} النساء١٥٠-١٥٢ [2] فالرهبان قد آمنوا بكثير مما جاء به الرسول وجمهورهم يعظمون الرسول ويعظمون أتباعه ولكنهم لم يؤمنوا بجميع ما جاء به بل آمنوا ببعض وكفروا ببعض فصاروا بذلك كافرين كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً {١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٥١} وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{١٥٢} النساء١٥٠-١٥٢ [3]

## مواترة الرسل وتعميم الخلق بهم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٩٣

[2] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٣٤٥ الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٣٧٠ و الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٣٨٣ و الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٤٣٦

[3] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٢٦٦ و مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٣٥

وكان من سنة الله تبارك وتعالى مواترة الرسل وتعميم الخلق بهم بحيث يبعث في كل أمة رسولا ليقيم هداه وحجته وكان دينه الذي ارتضاه الله لنفسه هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل ولا يقبل من أحد دينا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين وهو دين الأنبياء وأتباعهم كما أخبر الله تعالى بذلك عن نوح ومن بعده إلى الحواريين فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام وهو عبادة الله وحده لا شريك له وعبادته تعالى في كل زمان ومكان بطاعة رسله عليهم السلام فلا يكون عابدا له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله كالذين قال فيهم {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}الشورى ٢١ فلا يكون مؤمنا به إلا من عبده بطاعة رسله ولا يكون مؤمنا به ولا عابدا له إلا من آمن بجميع رسله وأطاع من أرسل إليه فيطاع كل رسول إلى أن يأتي الذي بعده فتكون الطاعة للرسول الثاني قال تعالى{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً} سورة النساء الآية ٦٤ ومن فرق بين رسله فآمن ببعض وكفر ببعض كان كافرا كما قال تعالى{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٥١} وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{١٥٢} النساء ١٥٠ ـ ١٥٢ [١]

## الإيمان بجميع الكتب والرسل

إن الله تعالى لم يبعث محمدا بإهمال ما يجب من حق المسيح عليه السلام بل أمره بالإيمان بالمسيح وبما جاء به كما أمره بالإيمان بموسى وبما جاء به وكما أمر المسيح بالإيمان بموسى وبما جاء به ولكنه أمر بإهمال ما ابتدع من الدين الذي لم يشرعه الله على لسان المسيح عليه السلام وما نسخه الله من شرعه على لسان محمد فيهمل المبدل والمنسوخ كما أمر الله المسيح أن يهمل ما ابتدعته اليهود من الدين

---

[١] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٨٤

الذين لم يشرعه وما نسخه من شرع موسى فكما أمر المسيح أن يهمل المبدل والمنسوخ من التوراة التي جاء بها موسى عليه السلام ولم يكن في ذلك إهمال لما يجب من حق التوراة وموسى عليه السلام فكذلك إذا أهمل المبدل والمنسوخ من دين أهل الإنجيل لم يكن في ذلك إهمال لما يجب من حق الإنجيل والمسيح بل ما جاء به محمد يتضمن الإيمان بجميع الكتب والرسل وأن لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون كما قال تعالى {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة١٣٦ والنصارى كاليهود آمنوا ببعض وكفروا ببعض فأيما هو اللائق عند أولي الألباب أن نؤمن بجميع كتب الله ورسله أو نؤمن ببعض ونكفر ببعض وأيما هو اللائق عند أولي الألباب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ونعبده بما شرعه على لسان رسوله أو نبتدع من الشرك والعبادات المبتدعة ما لم ينزل به الله كتابا ولا بعث به رسولا ونضاهي المشركين عباد الأوثان قال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} التوبة٣٠ وقال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران٦٤ فالمسلمون لم يهملوا روح القدس وكلمة الله وقد قال تعالى عن كلمة الله {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً{١٥٩} النساء ١٥٩ بل هم الذين اتبعوا دينه ودين الرسل قبله فإن دين الأنبياء عليهم السلام جميعهم واحد كما ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد [1]

## الأصول الثلاثة هى امور متلازمة

أن التوحيد والايمان بالرسل متلازمان وكذلك الايمان باليوم الآخر هو والايمان بالرسل متلازمان فالثلاثة متلازمة ولهذا يجمع بينها فى مثل قوله {وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} الأنعام١٥٠ ولهذا

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١٣٠-١٣٢

أخبر ان الذين لا يؤمنون بالآخرة مشركون فقال تعالى {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}الزمر٤٥ وأخبر عن جميع الأشقياء ان الرسل انذرتهم باليوم الآخر كما قال تعالى {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ {٨} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{٩} وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ{١٠} فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ{١١}الملك٨ -١١١ فأخبر ان الرسل أنذرتهم وانهم كذبوا بالرسالة وقال تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى}الزمر٧١ فأخبر عن اهل النار انهم قد جاءتهم الرسالة وانذروا باليوم الآخر وقال تعالى {وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ {١٢٨} وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{١٢٩} يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ{١٣٠}الأنعام١٢٨-١٣٠فأخبر عن جميع الجن والانس ان الرسل بلغتهم رسالة الله وهى آياته وأنهم انذروهم اليوم الآخر وكذلك قال {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً{١٠٣} الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا {١٠٤} الكهف ١٠٣-١٠٤ الى قوله {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ} الكهف١٠٥ فأخبر انهم كفروا بآياته وهى رسالته وبلقائه وهو اليوم الآخر وقد اخبر ايضا فى غير موضع بأن الرسالة عمت بنى آدم وان الرسل جاءوا مبشرين ومنذرين كما قال تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ}فاطر٢٤ وقال تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}النساء١٦٣ الى قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء ١٦٥ وقال تعالى {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٤٨} وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ{٤٩}الانعام ٤٨-٤٩ فأخبر ان من آمن بالرسل واصلح من الأولين والآخرين فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقال تعالى {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}البقرة٣٨ ومثل ذلك قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}البقرة٦٢ فذكر ان المؤمنين بالله وباليوم الآخر

من هؤلاء هم اهل النجاة والسعادة وذكر فى تلك الآية الايمان بالرسل وفى هذه الايمان باليوم الآخر لأنهما متلازمان وكذلك الا يمان بالرسل كلهم متلازم فمن آمن بواحد منهم فقد آمن بهم كلهم ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلهم كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ}النساء١٥٠ الى قوله {أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً}النساء١٥١ الآيه والتى بعدها فأخبر ان المؤمنين بجميع الرسل هم اهل السعادة وان المفرقين بينهم بالايمان ببعضهم دون بعض هم الكافرون حقا وقال تعالى {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً{١٣} اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً{١٤} مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً{١٥} الإسراء١٣-١٥ فهذة الأصول الثلاثة توحيد الله والايمان برسله وباليوم الآخر هى امور متلازمة والحاصل ان توحيد الله والايمان برسله واليوم الآخر هى امور متلازمة مع العمل الصالح فأهل هذا الايمان والعمل الصالح هم اهل السعادة من الأولين والآخرين والخارجون عن هذا الايمان مشركون اشقياء فكل من كذب الرسل فلن يكون الا مشركا وكل مشرك مكذب للرسل وكل مشرك وكافر بالرسل فهو كافر باليوم الآخر وكل من كفر باليوم الآخر فهو كافر بالرسل وهو مشرك [1]

## انقسم الناس في الرسل ثلاثة أقسام

انقسم الناس في الرسل ثلاثة أقسام قوم انكروا توسطهم بتبليغ الرسالة فكذبوا بالكتب والرسل مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون وغيرهم ممن يخبر الله أنهم كذبوا المرسلين فإنهم كذبوا جنس الرسل لم يؤمنوا ببعضهم دون بعض ومن هؤلاء منكروا النبوات من البراهمة وفلاسفة الهند المشركين وغيرهم من المشركين وكل من كذب الرسل لا يكون إلا مشركا وكذلك من كذب ببعضهم دون بعض كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً{١٥١}النساء١٥٠-١٥١ فكل من كذب محمدا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص:٢٩- ٣٤

أو المسيح أو داود أو سليمان أو غيرهم من الأنبياء الذين بعثوا بعد موسى فهو كافر [1]

والأنبياء كلهم دينهم واحد وتصديق بعضهم مستلزم تصديق سائرهم وطاعة بعضهم تستلزم طاعة سائرهم وكذلك التكذيب والمعصية لا يجوز ان يكذب نبى نبيا بل ان عرفه صدقه والا فهو يصدق بكل ما أنزل الله مطلقا وهو يأمر بطاعة من أمر الله بطاعته ولهذا كان من صدق محمدا فقد صدق كل نبى ومن أطاعه فقد أطاع كل نبى ومن كذبه فقد كذب كل نبى ومن عصاه فقد عصى كل نبى قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً {١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً{١٥١} النساء١٥٠-١٥١ وقال تعالى {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} البقرة٨٥ ومن كذب هؤلاء تكذيبا بجنس الرسالة فقد صرح بأنه يكذب الجميع ولهذا يقول تعالى {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} الشعراء١٠٥ ولم يرسل اليهم قبل نوح أحدا وقال تعالى {وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ} الفرقان٣٧ وكذلك من كان من الملاحدة والمتفلسفة طاعنا فى جنس الرسل كما قدمنا بأن يزعم أنهم لم يعلموا الحق أو لم يبينوه فهو مكذب لجميع الرسل كالذين قال فيهم {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٧٠} إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ{٧١} فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ{٧٢} غافر٧٠-٧٢ وقال تعالى {فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{٨٣} فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ{٨٤} فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ{٨٥} غافر٨٣-٨٥ وقال تعالى عن الوليد {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{١٨} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{١٩} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{٢٠} ثُمَّ نَظَرَ{٢١} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{٢٢} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{٢٣} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{٢٤} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{٢٥} المدثر١٨-٢٥ وأهل الكتاب منهم من يؤمن بجنس الرسالة لكن يكذب بعض الرسل كالمسيح ومحمد فهؤلاء لما آمنوا ببعض وكفروا ببعض كانوا كافرين حقا وكثير من الفلاسفة والباطنية وكثير من أهل

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٢٨١

الكلام والتصوف لا يكذب الرسل تكذيبا صريحا ولا يؤمن بحقيقة النبوة والرسالة بل يقر بفضلهم في الجملة مع كونه يقول ان غيرهم أعلم منهم أو انهم لم يبينوا الحق او لبسوه او ان النبوة هي فيض يفيض على النفوس من العقل الفعال من جنس ما يراه النائم ولا يقر بملائكة مفضلين ولا بالجن ونحو ذلك فهؤلاء يقرون ببعض صفات الأنبياء دون بعض وبما أوتوه دون بعض ولا يقرون بجميع ما أوتيه الأنبياء وهؤلاء قد يكون أحدهم شرا من اليهود والنصارى الذين أقروا بجميع صفات النبوة لكن كذبوا ببعض الأنبياء فان الذي أقر به هؤلاء مما جاءت به الأنبياء أعظم واكثر اذ كان هؤلاء يقرون بأن الله خلق السموات والأرض فى ستة ايام ويقرون بقيام القيامة ويقرون بأنه تجب عبادته وحده لا شريك له ويقرون بالشرائع المتفق عليها وأولئك يكذبون بهذا وانما يقرون ببعض شرع محمد ولهذا كان اليهود والنصارى أقل كفرا من الملاحدة الباطنية والمتفلسفة ونحوهم لكن من كان من اليهود والنصارى قد دخل مع هؤلاء فقد جمع نوعى الكفر اذ لم يؤمن بجميع صفاتهم ولا بجميع أعيانهم وهؤلاء موجودون فى دول الكفار كثيرا كما يوجد أيضا فى المنتسبين الى الاسلام من هؤلاء وهؤلاء اذ كانوا فى دولة المسلمين [١]

فإن اليهود و النصارى يؤمنون بالأمر و النهي و الوعد و الوعيد و الثواب و العقاب لكن حرفوا و بدلوا و آمنوا ببعض و كفروا ببعض كما قال الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً {١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٥١} وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{١٥٢}النساء ١٥٠ -١٥٢ فإذا كان من آمن ببعض و كفر ببعض فهو كافر حقا فكيف بمن كفر بالجميع و لم يقر بأمر الله و نهيه و وعده و وعيده بل ترك ذلك محتجا بالقدر فهو أكفر ممن آمن ببعض و كفر ببعض [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٨٥-١٨٧

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٦٢-٢٦٣ و دقائق التفسير ج: ٢ ص: ٣٦٧

ومن الناس من آمن ببعض ما جاءت به الرسل وكفر ببعض كمن آمن ببعض المرسلين دون بعض واليهود والنصارى حيث آمنوا بموسى أو موسى والمسيح معه دون محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا يخاطب الله فى القرآن الأميين الذين لم يتبعوا رسولا وأهل الكتاب المصدقين ببعض الرسل كما فى قوله {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ}آل عمران٢٠ وفى قوله {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ}البينة١ وكمن آمن ببعض صفات الرسالة وكفر ببعض من الصابئين الفلاسفة ونحوهم الذين قد يقرون بأصل الرسالة لكن يجعلون الرسول بمنزلة الملك العادل الذى قد وضع قانونا لقومه أو يقولون أن الرسالة للعامة دون الخاصة أو فى الامور العملية دون العلمية أو فى الامور التى يشترك فيها الناس دون الخصائص التى يمتاز بها الكمل ويقرون برسالة محمد من حيث الجملة ويعظمونه ويقولون اتفق فلاسفة العالم على أنه لم يرد الى الأرض ناموس أعظم من ناموسه لكنهم مع هذا يكفرون ببعض ما جاء به مثل أن يسوغوا اتباع غير دينه من اليهودية والنصرانية وقد يسوغون الشرك أيضا للعامة أو للخاصة مثل أن يسوغوا دعوة الكواكب وعبادتها والسجود لها وقد يكذبون في الباطن باشياء مما أخبر بها ويزعمون أن ما أخبر به من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هي أمثال مضروبة لتفهيم العامة مالا يجوز إظهاره وإبانة حقيقته وذلك أنهم بزعمهم وقد يزعمون أن حقيقة العلم بالله تؤخذ من غير ما جاء به الرسول وان من الناس من يكون أعلم بالله منه أو أفضل منه ونحو ذلك من المقالات وهذا الضرب ما زال موجودا لا سيما مع القرامطة الباطنية من الاسماعيلية والنصيرية والملوك العبيدية الذين كانوا يدعون الخلافة ومع الخرمية والمزدكية وأمثالهم من الطوائف وهؤلاء خواصهم أكفر من اليهود والنصارى ومن الغالية الذين يقولون بالهية على ونحوه من البشر أو نبوته وهم منافقون زنادقة لكن فى كثير من اتباعهم من يظن أنه مؤمن بالكتب والرسل لما لبسوا عليه أصل قولهم أو وافقهم فى قول بعضهم دون بعض وأكثر هؤلاء يميلون إلى الرافضة ومنهم من ينتسب إلى التصوف ومنهم من ينتسب إلى الكلام ومنهم من يدخل مع الفقهاء فى مذاهبهم وهذا الضرب يكثر فى الدول الجاهلية البعيدين عن معرفة الاسلام والتزامه كما كانوا كثيرين فى دولة الديلم والعبيديين ونحوهم وكما يكثرون فى دولة الجهال من الترك ونحوهم من الجهال الذين آمنوا بالرسالة من حيث الجملة من غير علم بتفاصيل ما جاء به الرسول لأن الجهال من الترك وغيرهم بهذا الضرب أشبه منهم بغيرهم فان هؤلاء لا يوجبون اتباع الرسول على جميع أهل الأرض لكنهم قديرون اتباعه أحسن من اتباع غيره فيتبعونه على سبيل الاستحباب أو يتبعون بعض ما جاء به أو لا يتبعونه بحال وهم فى ذلك مقرون له ولأتباعه

والمؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر أيضا كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٥١} وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{١٥٢}النساء١٥٠-١٥٢ فذم الذين أوتوا قسطا من الكتاب لما آمنوا بما خرج عن الرسالة وفضلوا الخارجين عن الرسالة على المؤمنين بها كما يفضل ذلك بعض من يفضل الصابئة من الفلاسفة والدول الجاهلية جاهلية الترك والديلم والعرب والفرس وغيرهم على المؤمنين بالله وكتابه ورسوله وكما ذم المدعين الايمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله كما يصيب ذلك كثيرا ممن يدعى الاسلام وينتحله فى تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعةالاسلام من ملوك الترك وغيرهم وإذا قيل لهم تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضا وإذا أصابتهم مصيبة فى عقولهم ودينهم ودنياهم بالشبهات والشهوات أو فى نفوسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم قالوا إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق ونوفق بين الدلائل الشرعية و القواطع العقلية التى هي فى الحقيقة ظنون وشبهات أو الذوقية التى هى فى الحقيقة أوهام وخيالات {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{٦٣}النساء٦٣ إلى قوله {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{٦٥}النساء٦٥ وقال تعالى {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ{٤٧} وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ{٤٨} النور٤٧-٤٨ إلى قوله {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}النور ٥١ [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٣٣٦-٣٤٠

فان الطعن في واحد من الانبياء طعن في جميع الانبياء كما قال سبحانه وتعالى {أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً}النساء١٥١ [١]

## الايمان بالرسل يجب أن يكون جامعا عاما

والايمان بالرسل يجب أن يكون جامعا عاما مؤتلفا لا تفريق فيه ولا تبعيض ولا اختلاف بأن يؤمن بجميع الرسل وبجميع ما أنزل اليهم فمن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض أو آمن ببعض ما أنزل الله وكفر ببعض فهو كافر وهذا حال من بدل وكفر من اليهود والنصارى والصابئين فان هؤلاء فى أصلهم قد يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحا فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}البقرة٦٢ ونحوه فى المائدة ومنهم من فرق فآمن ببعض وكفر ببعض كما قال تعالى عن اليهود {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ}البقرة٩١ الآيات وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً {١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً {١٥١} النساء ١٥٠-١٥١ التفريق والتبعيض قد يكون فى القدر تارة وقد يكون فى الوصف إما فى الكم و إما فى الكيف كما قد يكون فى التنزيل تارة وفى التأويل أخرى فإن الموجود له حقيقة موصوفة وله مقدار محدود فما أنزل الله على رسله قد يقع التفريق والتبعيض فى قدره وقد يقع فى وصفه فالأول مثل قول اليهود نؤمن بما أنزل على موسى دون ما أنزل على عيسى ومحمد وهكذا النصارى فى إيمانهم بالمسيح دون محمد فمن آمن ببعض الرسل والكتب دون بعض فقد دخل فى هذا فإنه لم يؤمن بجميع المنزل وكذلك من كان من المنتسبين إلى هذه الأمة يؤمن ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض فان البدع مشتقة من الكفر واما الوصف فمثل اختلاف اليهود والنصارى فى المسيح هؤلاء قالوا إنه عبد مخلوق لكن جحدوا نبوته وقدحوا فى نسبه وهؤلاء أقروا بنبوته ورسالته ولكن قالوا هو الله فاختلف الطائفتان فى وصفه وصفته كل طائفة بحق وباطل ومثل الصابئة

---

[١] الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٨٢٥

الفلاسفة الذين يصفون إنزال الله على رسله بوصف بعضه حق وبعضه باطل مثل أن يقولوا ان الرسل تجب طاعتهم ويجوز أن يسمى ما أتوا به كلام الله لكنه إنما أنزل على قلوبهم من الروح الذى هو العقل الفعال فى السماء الدنيا لا من عند الله وهكذا ما ينزل على قلوب غيرهم أيضا كذلك وليس بكلام الله فى الحقيقة وإنما هذا فى الحقيقة كلام النبى وانه سمى كلام الله مجازا فهؤلاء أيضا مبعضين مفرقين حيث صدقوا ببعض صفات ما أنزل الله وبعض صفات رسله دون بعض وربما كان ما كفروا به من الصفات اكثر مما آمنوا به كما ان ما كفر به اليهود من الكتاب أكثر وأعظم مما آمنوا به لكن هؤلاء اكفر من اليهود من وجه وان كان اليهود أكفر منهم من وجه آخر فان من كان من هؤلاء يهوديا أو نصرانيا فهو كافر من الجهتين ومن كان منهم لا يوجب اتباع خاتم الرسل بل يجوز التدين باليهودية والنصرانية فهو أيضا كافر من الجهتين فقد يكون أحدهم أكفر من اليهود والنصارى الكافرين بمحمد والقرآن وقد يكون اليهود والنصارى أكفر ممن آمن منهم بأكثر صفات ما بعث الله به محمدا لكنهم فى الأصل أكفر من جنس اليهود والنصارى فان أولئك مقرون فى الأصل بكمال الرسالة والنبوة وهؤلاء ليسوا مقرين بكمال الرسالة والنبوة كما أن من كان قديما مؤمنا من اليهود والنصارى صالحا فهو أفضل ممن كان منهم مؤمنا صالحا وكذلك من كان من المنتسبين إلى الإسلام مؤمنا ببعض صفات القرآن وكلام الله وتنزيله على رسله وصفات رسله دون بعض فنسبته إلى هؤلاء كنسبة من آمن ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض إلى اليهود والنصارى ومن هنا تتبين الضلالات المبتدعة فى هذه الأمة حيث هى من الايمان ببعض ما جاء به الرسول دون بعض وإما ببعض صفات التكليم والرسالة والنبوة دون بعض وكلاهما إما فى التنزيل وإما فى التأويل والسبب الذى أوقع هؤلاء فى الكفر ببعض ما أنزله هو من جنس ما أوقع الأولين فى الكفر بجميع ما أنزل الله فى كثير من المواضع فان من تأمل وجد شبه اليهود والنصارى ومن تبعهم من الصابئين فى الكفر بما أنزل الله على محمد هي من جنس شبه المشركين والمجوس ومن معهم من الصابئين فى الكفر بجنس الكتاب وبما أنزل الله على رسله فى كثير من المواضع فانهم يعترضون على آياته وعلى الكتاب الذي أنزل معه وعلى الشريعة التى بعث بها وعلى سيرته بنحو مما اعترض به على سائر الرسل مثل موسى وعيسى كما قال الله تعالى في جميعهم {٤} كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ {٥} غافر ٤-٥ إلى قوله {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ {٣٤} الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ {٣٥} غافر ٣٤-٣٥ كما

قال الله تعالى في جميعهم {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ{٤} كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ {٥}غافر ٤-٥ إلى قوله {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ{٣٤} الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ{٣٥} غافر ٣٤-٣٥ وفى الآية الأخرى {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} غافر٥٦ إلى قوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ{٦٩} الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٧٠} غافر ٦٩-٧٠ هذا مع أن السلطان الذى أيد الله به رسوله من أنواع الحجج المعجزات وأنواع القدر الباهرات أعظم مما أيد به غيره ونبوته هى التى طبق نورها مشارق الأرض ومغاربها وبه ثبتت نبوات من تقدمه وتبين الحق من الباطل والا فلولا رسالته لكان الناس فى ظلمات بعضها فوق بعض وأمر مريج يؤفك عنه من أفك الكتابيون منهم والأميون وجماع شبه هؤلاء الكفار أنهم قاسوا الرسول على من فرق الله بينه وبينه وكفروا بفضل الله الذى اختص به رسله فأتوا من جهة القياس الفاسد ولا بد فى القياس من قدر مشترك بين المشبه والمشبه به مثل جنس الوحى والتنزيل فان الشياطين ينزلون على أوليائهم ويوحون إليهم كقوله {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ}الأنعام١٢١ وقال سبحانه {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ{٢٢١} تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ{٢٢٢} يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ{٢٢٣} الشعراء٢٢١-٢٢٣ [1]

## الحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله

وانما اولياء الله الذين وصفهم الله تعالى بولايته بقوله {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣}يونس٦٢-٦٣ ولابد فى الايمان من ان يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويؤمن بكل رسول أرسله الله وكل كتاب انزله الله كما قال تعالى {وقُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ١٢

وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ{١٣٦} فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{١٣٧} البقرة١٣٦-١٣٧ وقال تعالى {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ}البقرة٢٨٥الآخر فى الأخبار المحضة فهذا مما لم يختلف المسلمون أنه لا نفرق بين أحد من رسله إلى آخر السورة وقال فى أول السورة {الم{١} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{٢} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{٣} والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ{٤} أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{٥} البقرة١-٥ فلابد فى الايمان من ان تؤمن ان محمدا خاتم النبيين لا نبى بعده وان الله ارسله الى جميع الثقلين الجن والانس فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن فضلا عن ان يكون من اولياء الله المتقين ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ليس بمؤمن كما قال الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٥١} وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{١٥٢}النساء١٥٠-١٥٢ ومن الايمان به الايمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه فى تبليغ امره ونهيه ووعده ووعيده وحلاله وحرامه فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله فمن اعتقد ان لاحد من الأولياء طريقا الى الله من غير متابعة محمد فهو كافر من اولياء الشيطان واما خلق الله تعالى للخلق ورزقه اياهم واجابته لدعائهم وهدايته لقلوبهم ونصرهم على اعدائهم وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضار فهذا لله وحده يفعله بما يشاء من الأسباب لا يدخل فى مثل هذا وساطة الرسل [١]

## دين المسلمين هو الحق دون اليهود والنصارى

فإذا علم أنه نبي كيف ما كان لزم أن يكون ما أخبر به عن الله حقا وإذا كان رسول الله وجبت طاعته في كل ما يأمر به كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص:١٦٩- ١٧١

إلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ}النساء٦٤ وإذا أخبر أنه رسول الله إلى أهل الكتاب وأنه تجب عليهم طاعته كان ذلك حقا ومن أقر بأنه رسول الله وأنكر أن يكون مرسلا إلى أهل الكتاب بمنزلة من يقول أن موسى كان رسولا ولم يكن يجب أن يدخل أرض الشام ولا يخرج بني إسرائيل من مصر وأن الله لم يأمره بذلك وأن الله يأمره بالسبت ولا أنزل عليه التوراة ولا كلمه على الطور ومن يقول إن عيسى كان رسول الله لم يبعث إلى بني اسرائيل ولا كان يجب على بني اسرائيل طاعته وأنه ظلم اليهود وأمثال ذلك من المقالات التي هي أكفر المقالات ولهذا قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}النساء١٥٠ إلى قوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١٥٢وقال لبني اسرائيل {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}البقرة٨٥ فهذه الطريقة الواضحة البينة القاطعة يبين بها لكل مسلم ويهودي ونصراني أن دين المسلمين هو الحق دون اليهود والنصارى فإنها مبنية على مقدمتين أحداهما أن نبوة محمد ورسالته وهدى أمته أبين وأوضح تعلم بكل طريق تعلم نبوة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام وزيادة فلا يمكن القول بأنهما نبيين دونه لأجل ذلك وإن شاء الرجل استدل على ذلك بنفس الدعوة وما جاء به وإن شاء بالكتاب الذي بعث به وإن شاء بما عليه أمته وإن شاء بما بعث به من المعجزات فكل طريق من هذه الطريق إذا تبين بها نبوة موسى وعيسى كانت نبوة محمد بها أبين وأكمل والمقدمة الثانية أنه أخبر أن رسالته عامة إلى أهل الأرض من المشركين وأهل الكتاب وأنه لم يكن مرسلا إلى بعض الناس دون بعض وهذا أمر معلوم بالضرورة والنقل المتواتر والدلائل القطعية وأما اليهود والنصارى فأصل دينهم حق كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}البقرة٦٢ لكن كل من الدينين مبدل منسوخ فإن اليهود بدلوا وحرفوا ثم نسخ بقية شريعتهم بالمسيح ونفس الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى مثل نبوة الأنبياء وهي أكثر من عشرين نبوة وغيرها تبين أنهم بدلوا وأن شريعتهم تنسخ وتبين صحة رسالة محمد فإن فيها من الأعلام والدلائل على نبوة خاتم المرسلين ما قد صنف فيه العلماء مصنفات وفيها أيضا من التناقص والإختلاف ما بين أيضا وقوع التبديل وفيها من الأخبار من نحو بعدها ما بين أنها منسوخة فعندهم ما يدل على هذه المطالب وقد ناظرنا غير واحد من أهل الكتاب وبينالهم ذلك

وأسلم من علمائهم وخيارهم طوائف وصاروا يناظرون أهل دينهم ويبينون ما عندهم من الدلائل على نبوة محمد ولكن هذه الفتيا لا تحتمل غير ذلك وهذا من الحكمة في إبقاء أهل الكتاب بالجزية إذ عندهم من الشواهد والدلائل على نبوة محمد وعندهم من الشواهد على ما أخبر به من الإيمان بالله واليوم الآخر ما يبين أن محدا جاء بالدين الذي بعث به الرسل قبله وأخبر من توحيد الله وصفاته بمثل ما اخبرت به الأنبياء [1]

ومعلوم بالإضطرار من دين المسلمين وبإتفاق جميع المسلمين أن من سوغ إتباع غير دين الإسلام أو إتباع شريعة غير شريعة محمد فهو كافر وهو ككفر من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض الكتاب كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً {١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٥١} النساء١٥٠-١٥١ واليهود والنصارى داخلون فى ذلك وكذلك المتفلسفة يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ومن تفلسف من اليهود والنصارى يبقى كفره من وجهين [2]

يبقى أن يقال فالبعض الآخر قد يكون شرطا فى ذلك البعض وقد لا يكون شرطا فيه فالشرط كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه أو آمن ببعض الرسل وكفر ببعضهم كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً {١٥١} النساء ١٥٠-١٥١ وقد يكون البعض المتروك ليس شرطا فى وجود الآخر ولا قبوله [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢٠٧-٢٠٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٥٢٤

[3] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٢١

## من أقر بالقدر دون الأمر والنهى فهو أكفر من اليهود والنصارى

فمن أقر بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين فهو أكفر من اليهود والنصارى فإن أولئك يقرون بالملائكة والرسل الذي جاءوا بالأمر والنهي الشرعيين لكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض كما قال تعالى( إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٥١} وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{١٥٢} النساء ١٥٠-١٥٢ وأما الذي يشهد الحقيقة الكونية وتوحيد الربوبية الشامل للخليقة ويقر أن العباد كلهم تحت القضاء والقدر ويسلك هذه الحقيقة فلا يفرق بين المؤمنين والمتقين الذين أطاعوا أمر الله الذي بعث به رسله وبين من عصى الله ورسوله من الكفار والفجار فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى لكن من الناس من قد لمحوا الفرق في بعض الأمور دون بعض بحيث يفرق بين المؤمن والكافر ولا يفرق بين البر والفاجر أو يفرق بين بعض الأبرار وبين بعض الفجار ولا يفرق بين آخرين اتباعا لظنه وما يهواه فيكون ناقص الايمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار ويكون معه من الايمان بدين الله تعالى الفرق بحسب ما فرق به بين أوليائه وأعدائه ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر كان من القدرية كالمعتزلة وغيرهم الذين هم مجوس هذه الأمة فهؤلاء يشبهون المجوس وولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضا فهو من أتباع ابليس الذي اعترض على الرب سبحانه وخاصمه كما نقل ذلك عنه فهذا التقسيم في القول والاعتقاد أقسام الناس في العبادة وكذلك هم في الأحوال والأفعال فالصواب منها حالة المؤمن الذي يتقي الله فيفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على ما يصيبه من المقدور فهو عند الأمر والنهي والدين والشريعة ويستعين بالله على ذلك كما قال تعالى اياك نعبد واياك نستعين واذا أذنب استغفر وتاب لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات ولا يرى للمخلوق حجة على رب الكائنات بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به كما في الحديث الصيحيح الذي فيه سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا اله الا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب الا أنت فيقر بنعمة الله عليه في الحسنات ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها وفي الحديث الصحيح الالهي يا عبادي انما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه وهذا له تحقيق مبسوط

في غير هذا الموضع وآخرون قد يشهدون الأمر فقط فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر وآخرون يشهدون القدر فقط فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله واتباع شريعته وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه والذين من قبلهم يريدون أن يعبدوه ولا يستعينوه والمؤمن يعبده ويستعينة والقسم الرابع شر الأقسام وهو من لا يعبده ولا يستعينة فلا هو مع الشريعة الأمرية ولا مع القدر الكوني وانقسامهم الى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل وقوع المقدور من توكل واستعانة ونحو ذلك وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلك فهم في التقوى وهي طاعة الأمر الديني والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام أقسام الناس في التقوى والصبر أحدها أهل التقوى والصبر وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة والثاني الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ويتركون المحرمات لكن اذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو في ماله أو في عرضه أو ابتلي بعدو يخيفه عظم جزعه وظهر هلعه والثالث قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصبيهم في مثل أهوائهم كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها أكثر الناس وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون في مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام وهؤلاء هم الذين يريدون علوا في الأرض أو فسادا من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان والاستمتاع بالصور المحرمة نظرا أو مباشرة وغير ذلك يصبرون على أنواع من المكروهات ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور وفعلوه من المحظور وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب كالمرض والفقر وغير ذلك ولا يكون فيه تقوى اذا قدر وأما القسم الرابع فهو شر الأقسام لا يتقون اذا قدروا ولا يصبرون اذا ابتلوا بل هم كما قال الله تعالى {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{١٩} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{٢٠} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{٢١}الانسان١٩-

٢١ فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم اذا قدروا ومن أذل الناس وأجزعهم اذا قهروا [١]

## سمي أهل البدع أهل الشبهات

فالباطل المحض لا يشتبه على أحد ولهذا سمي أهل البدع أهل الشبهات وقيل فيهم إنهم يلبسون الحق بالباطل وهكذا أهل الكتاب معهم حق وباطل ولهذا قال تعالى لهم {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}البقرة٤٢ وقال {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}البقرة٨٥ وقال عنهم {وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}النساء١٥٠ وقال عنهم وقال عنهم {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ}البقرة٩١ وذلك لأنهم ابتدعوا بدعا خلطوها بما جاءت به الرسل وفرقوا دينهم وكانوا شيعا فصار في كل فريق منهم حق وباطل وهم يكذبون بالحق الذي مع الفريق الآخر ويصدقون بالباطل الذي معهم وهذا حال أهل البدع كلهم فإن معهم حقا وباطلا فهم فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل فريق يكذب بما مع الآخر من الحق ويصدق بما معه من الباطل كالخوارج والشيعة فهؤلاء يكذبون بما ثبت من فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويصدقون بما روي في فضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويصدقون بما ابتدعوه من تكفيره وتكفير من يتولاه ويحبه وهؤلاء يصدقون بما روي في فضائل علي بن أبي طالب ويكذبون بما روي في فضائل أبي بكر وعمر ويصدقون بما ابتدعوه من التكفير والطعن في أبي بكر وعمر وعثمان ودين الإسلام وسط بين الأطراف المتجاذبة [٢]

## لم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار

---

[١] الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٠٣-١٠٦

[٢] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٦٧-١٦٨

قال تعالى( إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{١٥٠} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{١٥١} النساء ١٥٠-١٥١ لم يجيء إعداد العذاب المهين فى القرآن إلا فى حق الكفار كقوله {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء٣٧ وقوله {وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء١٠٢وقوله {أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}النساء١٥١ وقوله {فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}البقرة٩٠ {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}آل عمران١٧٨ {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}الحج٥٧ {وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}الجاثية٩ {وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}المجادلة٥ {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}المجادلة١٦ {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}النساء١٤ فهى والله أعلم فيمن جحد الفرائض وإستخف بها على أنه لم يذكر ان العذاب أعد له وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيدا للمؤمنين فى قوله {لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}الأنفال٦٨ وقوله {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}النور١٤ وفى المحارب {ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}المائدة٣٣ وفي القاتل {وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}النساء٩٣ وقوله {وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}النحل٩٤ وقد قال سبحانه {وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}الحج١٨ وذلك لأن الإهانة اذلال وتحقير وخزى وذلك قدر زائد على ألم العذاب فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان [١]

## أن الانسان هو فاعل السيئات

---

[١]مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص:٣٦٦- ٣٦٨ و الصارم المسلول ج: ٢ ص: ١٠٩

قال تعالى {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً{١٥٣} وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً{١٥٤} فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً{١٥٥} وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً{١٥٦}النساء١٥٣ -١٥٦أن الانسان هو فاعل السيئات و انه يستحق عليها العقاب و الله ينعم عليه بالحسنات عملها و جزائها فانه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله فالنعم من الله سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء و إذا كانت جزاء و هى من الله فالعمل الصالح الذى كان سببها هو أيضا من الله أنعم بهما الله على العبد و إلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه و الله تعالى قد فرق بين النوعين فى الكتاب و السنة كما فى الحديث الصحيح الالهي عن الله يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن و جد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه و قد أمروا أن يقولوا فى الصلاة {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة٦-٧[1]

## طريقة القرآن فى بيان امكان المعاد

قال تعالى {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً}النساء١٥٣وليس كل ما فرضه الذهن أمكن وجوده فى الخارج وهذا الذى يسمى الامكان الذهني فان الامكان على وجهين ذهني وهو ان يعرض الشيء على الذهن فلا يعلم امتناعه بل يقول يمكن هذا لا لعلمه بإمكانه بل لعدم علمه بامتناعه مع ان ذلك الشيء قد يكون ممتنعا في الخارج و خارجي وهو ان يعلم امكان الشيء فى الخارج وهذا يكون بأن يعلم وجوده فى الخارج او وجود نظيره او وجوده ما هو ابعد عن الوجود

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٤٨

منه فاذا كان الابعد عن قبول الوجود موجودا ممكن الوجود فالأقرب الى الوجود منه أولى وهذه طريقة القرآن فى بيان امكان المعاد فقد بين ذلك بهذه الطريقة فتارة يخبر عمن اماتهم ثم احياهم كما اخبر عن قوم موسى الذين قالوا {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}البقرة٥٥ قال {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ {٥٥} ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{٥٦}البقرة٥٥ -٥٦ وعن{الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ}البقرة٢٤٣ وعن {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ}البقرة٢٥٩ وعن ابراهيم اذ قال {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى}البقرة٢٦٠ القصة وكما أخبر عن المسيح أنه كان يحيى الموتى باذن الله وعن اصحاب الكهف أنهم بعثوا بهد ثلاثمائة سنة وتسع سنين وتارة يستدل على ذلك بالنشأة الاولى فان الاعادة اهون من الابتداء كما فى قوله {إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ}الحج٥ الآية وقوله {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}يس٧٩ {قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}الإسراء٥١ {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}الروم٢٧ وتارة يستدل على ذلك بخلق السموات والارض فإن خلقهما اعظم من اعادة الانسان كما فى قوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}الأحقاف٣٣ وتارة يستدل على امكانه بخلق النبات كما فى قوله {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً}الأعراف٥٧ الى قوله {كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى}الأعراف٥٧ فقد تبين ان ما عند أئمة النظار اهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية على المطالب الالهية فقد جاء القرآن الكريم بما فيها من الحق وما هو ابلغ واكمل منها على احس وجه مع تنزهه عن الاغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء فان خطأهم فيها كثيرا جدا ولعل ضلالهم اكثر من هداهم وجهلهم أكثر من علمهم ولهذا قال ابو عبد الله الرازي فى آخر عمره في كتابه اقسام الذات لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}طه٥ {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}فاطر١٠ واقرأ في النفى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}الشورى١١ {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً}طه١١٠ ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٢٤-٢٢٥

فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتى على يد موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل أعظم ممن أحياهم على يد المسيح[1]

## أن الذي يجادل في جميع آيات الله لا يجادل بسلطان

وقد بين في غير موضع ان السلطان هو الحجة وهو الكتاب المنزل كما قال تعالى {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً} النساء١٥٣

وإذا كان كذلك ففي هذا بيان أنه لا يجوز لأحد أن يعارض كتاب الله بغير كتاب فمن عارض كتاب الله وجادل فيه بما يسميه معقولات وبراهين وأقيسة أو ما يسميه مكاشفات ومواجيد وأذواق من غير أن يأتي على ما يقوله بكتاب منزل فقد جادل في آيات الله بغير سلطان هذه حال الكفار الذين قال فيهم ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا سورة غافر ٤ فهذه حال من يجادل في آيات الله مطلقا ومن المعلوم أن الذي يجادل في جميع آيات الله لا يجادل بسلطان [2]

## عدم انزال الآيات الموجبة لعذاب الاستئصال أعظم رحمة وحكمة

{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً{١٥٣} وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً{١٥٤} فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً{١٥٥} وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً{١٥٦} وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ١٩

[2] الاستقامة ج: ١ ص: ٢٢

لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً{١٥٧} بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{١٥٨} وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً{١٥٩} فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً{١٦٠} وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{١٦١} النساء ١٥٣- ١٦١ بين سبحانه أن المشركين سألوه إنزال كتاب وأن أهل الكتاب سألوه ذلك وبين سبحانه أن الطائفتين لا تؤمن إذا جاءهم ذلك وإنما سألوه تعنتا فقال عن المشركين {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ}الأنعام٧ وذكر عن أهل الكتاب أنهم سألوا موسى أكبر من ذلك وهو رؤية الله جهرة فقال {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً{١٥٣} وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً{١٥٤}النساء فهم مع هذا نقضوا الميثاق وكفروا بآيات الله وقتلوا النبيين بغير حق إلى أمثال ذلك وأنه سبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله حرم عليهم طيبات أحلت لهم فكان في هذا من الاعتبار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن هذه الأمة المكذبة بك الذين لا يهتدون إذا جاءتهم الآيات المقترحة التي اقترحوها لم يك في مجيئها منفعة لهم بل فيها ما يوجب استحقاقهم عقوبة الاستئصال إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها وتغليظ الأمر عليهم فكان أن لا ينزل مثل هذه الآيات الموجبة لعذاب الاستئصال أعظم رحمة وحكمة وقد عرض الله على محمد صلى الله عليه وسلم أن يهلك قومه لما كذبوه فقال بل استأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا كما في الصحيحين عن عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد فقال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذا عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما اردت فانطلقت على وجهي وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فغذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي وقال إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك وقد بعثني إليك لتأمرني بما

شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا أخرجاه [1]

## ترك الواجب يكون سببا لفعل المحرم

قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا} آل عمران٨١ الآية قال ابن عباس ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه وامر أن يأخذ الميثاق على أمته ان بعث محمد وهم احياء ليؤمنن به ولينصرنه ومعلوم أن محمدا اذا بعثه الله برسالة عامة وجب الايمان به ونصرته على كل من بلغته دعوته وان لم يكن قد أخذ عليه ميثاق بذلك وقد أخذ عليهم الميثاق بما هو واجب بامر الله بلا ميثاق وقوله تعالى {فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ} النساء١٥٣ الى قوله {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً {١٥٤} فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ {١٥٥} النساء١٥٤ ـ١٥٥ الآيات فهذا ميثاق أخذه الله [2]

قال تعالى {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} المائدة١٤ فهذا نص فى أنهم تركوا بعض ما أمروا به فكان تركه سببا لوقوع العداوة والبغضاء المحرمين وكان هذا دليلا على أن ترك الواجب يكون سببا لفعل المحرم كالعداوة والبغضاء والسبب أقوى من المسبب وكذلك قال فى اليهود {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ} المائدة١٣ فنقض الميثاق ترك ما أمروا به فان الميثاق يتضمن واجبات وهي قوله {وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٤٣٨ـ٤٤١

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٥٨

وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ {١٢} فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ{١٣} المائدة١٢-١٣ الآيات فقد أخبر تعالى انه بترك ما أوجبه عليهم من الميثاق وان كان واجبا بالأمر حصلت لهم هذه العقوبات التى منها فعل هذه المحرمات من قسوة القلوب وتحريف الكلم عن مواضعه وانهم نسوا حظا مما ذكروا به [1]

## لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل

و قد عاتب الله من أسقط الواجبات و استحل المحرمات بالحيل و المخادعات كما ذكر فى سورة ن و فى قصة اهل السبت و فى الحديث عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل و قال أيوب السختيانى يخادعون الله كما يخادعون الصبيان لو أتوا الأمر على و جهه لكان أهون علي [2]

## السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله

قال تعالى{وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً}النساء١٥٤ والسجود هو الخضوع قال تعالى {وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ}البقرة٥٨ قال أهل اللغة السجود في اللغة هو الخضوع وقال غير واحد من المفسرين أمروا أن يدخلوا ركعا منحنين فان الدخول مع وضع الجبهة على الأرض لا يمكن وقد قال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ}الحج١٨ وقال تعالى {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}الرعد١٥ ومعلوم أن سجود كل شيء بحسبه ليس سجود

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص:١٠٩- ١١٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٣٣٦

هذه المخلوقات وضع جباهها على الأرض وقد قال النبي في حديث أبي ذر لما غربت الشمس إنها تذهب فتسجد تحت العرش رواه البخاري ومسلم      فعلم ان السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله وأعز ما في الإنسان وجهه فوضعه على الأرض لله غاية خضوعه ببدنه وهو غاية ما يقدر عليه من ذلك ولهذا قال النبي أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وقال تعالى {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}العلق١٩ [١]

والركوع هو سجود خفيف كما قال تعالى {وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً}البقرة٥٨ قالوا ركعا [٢]

## الناس لهم فى طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعى

والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي فالطريق الشرعي هو النظر فيما جاء به الرسول والإستدلال بأدلته والعمل بموجبها فلا بد من علم بما جاء به وعمل به لا يكفي أحدهما      وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية فإن الرسول بين بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه والرسل بينوا للناس العقليات التي يحتاجون إليها كما ضرب الله في القرآن من كل مثل وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته      وأما الطريقان المبتدعان فأحدهما طريق أهل الكلام البدعي والرأي البدعي فإن هذا فيه باطل كثير وكثير من أهله يفرطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة      والثاني طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة فإن هؤلاء يقولون إذا صفى الإنسان نفسه على الوجه الذي يذكرونه فاضت عليه العلوم بلا تعلم وكثير من هؤلاء تكون عبادته مبتدعة بل مخالفة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فيبقون في فساد من جهة العمل وفساد من نقص العلم حيث لم يعرفوا

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٢٨٤ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٧٣

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٢٨٩ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٧٣

ما جاء به الرسول وكثير ما يقع من هؤلاء وهؤلاء وتقدح كل طائفة في الأخرى وينتحل كل منهم اتباع الرسول والرسول ليس ما جاء به موافقا لما قال هؤلاء ولا هؤلاء {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}آل عمران٦٧ وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه على طريقة أهل البدع من أهل الكلام والرأي ولا على طريقة أهل البدع من أهل العبادة والتصوف بل كان على ما بعثه الله من الكتاب والحكمة وكثير من أهل النظر يزعمون أنه بمجرد النظر يحصل العلم بلا عبادة ولا دين ولا تزكية للنفس وكثير من أهل الإرادة يزعمون أن طريق الرياضة بمجرده تحصل المعارف بلا تعلم ولا نظر ولا تدبر للقرآن والحديث

وكلا الفريقين غالط بل لتزكية النفس والعمل بالعلم وتقوى الله تأثير عظيم في حصول العلم لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك إلا بنظر وتدبر وفهم لما بعث الله به الرسول ولو تعبد الإنسان ما عسى أن يتعبد لم يعرف ما خص الله به محمدا صلى الله عليه وسلم إن لم يعرف ذلك من جهته وكذلك لو نظر واستدل ماذا عسى أن ينظر لم يحصل له المطلوب إلا بالتعلم من جهته ولا يحصل التعلم المطابق النافع إلا مع العمل به وإلا فقد قال الله تعالى{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}الصف٥ وقال {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ {١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠}الأنعام١٠٩-١١٠ وقال {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٥٥ [1]

## من عقوبة السيئة السيئة بعدها

والمعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى فتكون من سيئات الجزاء مع أنها من سيئات العمل قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث المتفق على صحته عن إبن مسعود رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم عليكم بالصدق فإن

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص:٤٢٨- ٤٣٠

الصدق يهدى الى البر و البر يهدى الى الجنة و لا يزال الرجل يصدق و يتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا و إياكم و الكذب فان الكذب يهدى الى الفجور و الفجور يهدى الى النار و لا يزال الرجل يكذب و يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا وقد ذكر فى غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى و كذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى قال تعالى {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٥٥ [١]

*فإن الجزاء أبدا من جنس العمل كما قال صلى الله عليه وسلم الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء وقال من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل له الله به طريقا إلى الجنة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة و الله في عون العبد ماكان العبد في عون أخيه وقال من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار وقد قال تعالى {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}النور٢٢ وقال {إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً}النساء١٤٩ وأمثال هذا كثير في الكتاب والسنة ولهذا أيضا يجزى الرجل في الدنيا على ما فعله من خير الهدى بما يفتح عليه من هدى آخر ولهذا قيل من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم وقد قال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً}النساء٦٦ إلى قوله {وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً}النساء٦٨ وقال {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{١٥} يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{١٦} المائدة ١٥-١٦ وقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ}الحديد٢٨ وقال {إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً}الأنفال٢٩ فسروه بالنصر والنجاة كقوله {يَوْمَ الْفُرْقَانِ}الأنفال٤١ وقد قيل نور يفرق به بين الحق والباطل ومثله قوله {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ{٣}الطلاق٢-٣ وعد المتقين بالمخارج من الضيق وبرزق المنافع ومن هذا الباب قوله {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ}محمد١٧ وقوله {إِنَّهُمْ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٤٣ و الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ٢٧

فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى}الكهف١٣ ومنه قوله {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{١} لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٢} وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً{٣} الفتح ١-٣ وبإزاء ذلك أن الضلال والمعاصي تكون بسبب الذنوب المتقدمة كما قال الله {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}الصف٥ وقال {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}النساء١٥٥ وقال {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً}المائدة١٣ وقال {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠} الانعام١٠٩-١١٠ وهذا باب واسع ولهذا قال من قال من السلف إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وأن من عقوبة السيئة السيئة بعدها [١]

## مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى و العلم النافع

والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى و العلم النافع كقوله {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ}البقرة٨٨ و قال {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}النساء١٥٥ و قال {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠}الأنعام١٠٩-١١٠ و قال {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً}البقرة١٠ و قال {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}الصف٥ [٢]

قال تعالى {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}الزخرف٣٦ وذكر الرحمن هو الذي أنزله وهو الكتاب والسنة اللذان قال الله فيهما {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم

---

[١] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٢٥ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٧٧

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٥٢

بِهِ}البقرة٢٣١ وقال تعالى{لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}آل عمران١٦٤ وهو الذكر الذي قال الله فيه {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}الحجر٩ فمن أعرض عن هذا الذكر وهو الكتاب والسنة قيض له قرين من الشياطين فصار من أولياء الشيطان بحسب ما تابعه وإن كان مواليا للرحمن تارة وللشيطان أخرى كان فيه من الإيمان وولاية الله بحسب ما والى فيه الرحمن وكان فيه من عداوة الله والنفاق بحسب ما والى فيه الشيطان كما قال حذيفة بن اليمان القلوب أربعة قلب أجرد فيه السراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أغلف فذلك قلب الكافروالأغلف قلب يلف عليه غلاف كما قال تعالى عن اليهود {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}النساء١٥٥ وقد تقدم قوله صلى الله عليه وسلم من ترك ثلاث جمع طبع الله على قلبه وقلب منكوس فذلك قلب المنافق وقلب فيه مادتتان مادة تمده للإيمان ومادة تمده للنفاق فأيهما غلب كان الحكم له وقد روي هذا في مسند الإمام أحمد مرفوعا وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر[1]

قال تعالى {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى{٩} سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{١٠} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{١١} الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى{١٢} الاعلى ٩-١٢ فأخبر ان من يخشاه يتذكر والتذكر هنا مستلزم لعبادته قال الله تعالى {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ}غافر١٣ وقال {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ}ق٨ ولهذا قالوا فى قوله {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى}الأعلى١٠ سيتعظ بالقرآن من يخشى الله وفى قوله {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ}غافر١٣ انما يتعظ من يرجع الى الطاعة وهذا لان التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره فان تذكر محبوبا طلبه وان تذكر مرهوبا هرب منه ومنه قوله تعالى {وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}يس١٠ وقال سبحانه {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ}يس١١ فنفى الانذار عن غير هؤلاء مع قوله {وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}يس١٠ فأثبت لهم الانذار من وجه ونفاه عنهم من وجه فان

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٢٧٥ و مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٥٣

الانذار هو الاعلام بالمخوف فالانذار مثل التعليم والتخويف فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه وآخر يقول علمته فلم يتعلم وكذلك من خوفته فخاف فهذا هو الذى تم تخويفه واما من خوف فما خاف فلم يتم تخويفه وكذلك من هديته فاهتدى تم هداه ومنه قوله تعالى {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}البقرة٢ ومن هديته فلم يهتد كما قال {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}فصلت١٧ فلم يتم هداه كما تقول قطعته فانقطع وقطعته فما انقطع فالمؤثر التام يستلزم اثره فمتى لم يحصل اثره لم يكن تاما والفعل اذا صادف محلا قابلا تم والا لم يتم والعلم بالمحبوب يورث طلبه والعلم بالمكروه يورث تركه ولهذا يسمى هذا العلم الداعى ويقال الداعى مع القدرة يستلزم وجود المقدور وهو العلم بالمطلوب المستلزم لارادة المعلوم المراد وهذا كله انما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها وأما مع فسادها فقد يحس الانسان باللذيذ فلا يجد له لذة بل يؤلمه وكذلك يلتذ بالمؤلم الفساد الفطرة و الفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعا كالممرور الذى يجد العسل مرأ فانه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التى مازجته وكذلك من فسد باطنه قال تعالى {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ {١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠}الأنعام١٠٩ وقال تعالى {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}الصف٥ وقال {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}النساء١٥٥ وقال فى الآية الأخرى {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ}البقرة٨٨ و الغلف جمع أغلف وهو ذو الغلاف الذى فى غلاف مثل الأقلف كأنهم جعلوا المانع خلقة أى خلقت القلوب وعليها أغطية فقال الله تعالى {بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ}البقرة٨٨ و {طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٥٥ وقال تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ}محمد١٦ وكذلك قالوا {قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ}هود٩١ قال {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ}الأنفال٢٣ أى لأفهمهم ما سمعوه ثم قال ولو أفهمهم مع هذه الحال التى هم عليها {لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ}الأنفال٢٣ فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا ولو فهموا لم يعملوا فنفى عنهم صحة القوة العلمية وصحة القوة العملية وقال {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}الفرقان٤٤ سبيلا وقال {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}الأعراف١٧٩ وقال {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ

يَعْقِلُونَ}البقرة١٧١ وقال عن المنافقين {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}البقرة١٨ ومن الناس من يقول لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق جعلوا صما بكما عمليا أو لما أعرضوا عن السمع والبصر والنطق صاروا كالصم العمى البكم وليس كذلك بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت كما قال الله تعالى {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}الحج٤٦ والقلب هو الملك والأعضاء جنوده واذا صلح صلح سائر الجسد واذا فسد فسد سائر الجسد فيبقى يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم والمعنى لا يفقهه وان فقه بعض الفقه لم يفقه فقها تاما فان الفقه التام يستلزم تأثيره فى القلب محبة المحبوب وبغض المكروه فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلا [١]

## من كان تركه للمأمور بذنب منه لم يكن ذلك مانعا من ذمه وعقابه

فإن أحدا من النصارى لم يشاهد الصلب وإنما حضره بعض اليهود وعلقوا المصلوب وهم يعتقدون أنه المسيح ولهذا جعله الله من ذنوبهم وإن لم يكونوا صلبوه لكنهم قصدوا هذا الفعل وفرحوا به قال تعالى {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً{١٥٦} وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً{١٥٧} بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ{١٥٨}النساء١٥٦-١٥٨ [٢]

ومن كان تركه للمأمور بذنب منه أو ضرورته إلى المحظور بذنب منه لم يكن ذلك مانعا من ذمه وعقابه وقال تعالى {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}النساء١٥٥ [٣]

كما قال في اليهود {بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}النساء١٥٥ وقد وصفهم بنحو مما وصف عدوهم فرعون {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٣٩٠

[٣] رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٤٦

مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً}الإسراء٤ فوصفهم بالفساد في الأرض والعلو كما {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}القصص٤وختم السورة بقوله {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}القصص٨٣ [١]

## من أكل أموال الناس بالباطل

قال الله تعالى فى كتابه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ وقال تعالى {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}البقرة١٨٨ وقال تعالى فيما ذم به بنى إسرائيل {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ}النساء١٥٥ إلى قوله {وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ}النساء١٦١ ومن أكل أموال الناس بالباطل أخذ أحد العوضين بدون تسليم العوض الآخر لأن المقصود بالعهود والعقود المالية هوالتقابض فكل من العاقدين يطلب من الآخر تسليم ما عقد عليه ولهذا قال تعالى {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ}النساء١ أي تتعاهدون وتتعاقدون وهذا هو موجب العقود ومقتضاها لأن كلا من المعتاقدين أوجب على نفسه بالعقد ما طلبه الآخر وسأله منه فالعقود موجبة للقبوض والقبوض هى المسؤولة المقصودة المطلوبة ولهذا تتم العقود بالتقابض من الطرفين حتى لو أسلم الكافران بعد التقابض فى العقود التى يعتقدون صحتها أو تحاكما إلينا لم نتعرض لذلك لانقضاء العقود بموجباتها ولهذا نهى عن بيع الكاليء بالكاليء لأنه عقد وإيجاب على النفوس بلا حصول مقصود لأحد الطرفين ولا لهما ولهذا حرم الله الميسر الذى منه بيع الغرر [٢]

---

[١] الاستقامة ج: ١ ص: ١٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٢٦٥

## " يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا وإماما مقسطا "

فذم الله اليهود بأشياء منها قولهم على مريم بهتانا عظيما حيث زعموا أنها بغي ومنها قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله قال تعالى {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً}النساء١٥٧ وأضاف هذا القول إليهم وذمهم عليه ولم يذكر النصارى لأن الذين تولوا صلب المصلوب المشبه به هم اليهود ولم يكن أحد من النصارى شاهدا هذا معهم بل كان الحواريون خائفين غائبين فلم يشهد أحد منهم الصلب وإنما شهده اليهود وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح والذين نقلوا أن المسيح صلب من النصارى وغيرهم إنما نقلوه عن أولئك اليهود وهم شرط من أعوان الظلمة لم يكونوا خلقا كثيرا يمتنع تواطؤهم على الكذب قال تعالى {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ}النساء١٥٧ فنفى عنه القتل ثم قال {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً} النساء ١٥٩ وهذا عند اكثر العلماء معناه قبل موت المسيح وقد قيل قبل موت اليهودي وهو ضعيف كما قيل أنه قبل موت محمد وهو أضعف فإنه لو آمن به قبل الموت لنفعه إيمانه به فإن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر وإن قيل المراد به الإيمان الذي يكون بعد الغرغرة لم يكن في هذا فائدة فإن كل أحد بعد موته يؤمن بالغيب الذي كان يجحده فلا اختصاص للمسيح به ولأنه قال قبل موته ولم يقل بعد موته ولأنه لا فرق بين إيمانه بالمسيح وبمحمد صلوات الله عليهما وسلامه واليهودي الذي يموت على اليهودية يموت كافرا بمحمد والمسيح عليهما الصلاة والسلام ولأنه قال وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته وقوله لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ فعل مقسم عليه وهذا إنما يكون في المستقبل فدل ذلك على أن هذا الإيمان بعد إخبار الله بهذا ولو أريد به قبل موت الكتابي لقال وإن من أهل الكتاب إلا من يؤمن به لم يقل لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وأيضا فإنه قال وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وهذا يعم اليهود والنصارى فدل ذلك على أن جميع أهل الكتاب اليهود والنصارى يؤمنون بالمسيح قبل موت المسيح وذلك إذا نزل آمنت اليهود والنصارى بأنه رسول الله ليس كاذبا كما تقول اليهود ولا هو الله كما تقوله النصارى والمحافظة على هذا العموم أولى من أن يدعى أن كل كتابي ليؤمنن به

قبل أن يموت الكتابي فإن هذا يستلزم إيمان كل يهودي ونصراني وهذا خلاف الواقع وهو لما قال {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} النساء١٥٩ دل على أن المراد بإيمانهم قبل أن يموت هو علم أنه أريد بالعموم عموم من كان موجودا حين نزوله أي لا يتخلف منهم أحد عن الإيمان به لا إيمان من كان منهم ميتا وهذا كما يقال إنه لا يبقى بلد إلا دخله الدجال الا مكة والمدينة أي من المدائن الموجودة حينئذ وسبب إيمان أهل الكتاب به حينئذ ظاهر فإنه يظهر لكل أحد أنه رسول مؤيد ليس بكذاب ولا هو رب العالمين فالله تعالى ذكر إيمانهم به إذا نزل إلى الأرض فإنه تعالى لما ذكر رفعه إلى الله بقوله إني متوفيك ورافعك إلي وهو ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ويموت حينئذ أخبر بإيمانهم به قبل موته كما قال تعالى في آية أخرى {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ{٥٩} وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ{٦٠} وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٢} وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{٦٣} إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦٤} فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ{٦٥} الزخرف ٥٩-٦٥ وفي الصحيحين عن النبي أنه قال يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا وإماما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية وقوله تعالى {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً}النساء١٥٧ بيان أن الله رفعه حيا وسلمه من القتل وبين أنهم يؤمنون به قبل أن يموت وكذلك قوله {وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}آل عمران٥٥ ولو مات لم يكن فرق بينه وبين غيره ولفظ التوفي في لغة العرب معناه الاستيفاء والقبض وذلك ثلاثة أنواع أحدها توفي النوم والثاني توفي الموت والثالث توفي الروح والبدن جميعا فإنه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الذين يحتاجون إلى الأكل والشرب واللباس والنوم ويخرج منهم الغائط والبول والمسيح عليه السلام توفاه الله وهو في السماء الثانية إلى أن ينزل إلى الأرض ليست حاله كحالة أهل الأرض في الأكل والشرب واللباس والنوم والغائط والبول ونحو ذلك وقوله في الآية الأخرى {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً{١٥٧} بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ {١٥٨}النساء١٥٧-١٥٨هو تكذيب لليهود في قولهم {إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ} النساء١٥٧ واليهود قد زعموا أنهم قتلوه فقال تعالى {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً{١٥٧} بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ {١٥٨} النساء١٥٧-١٥٨ فأثبت رفع الذي قالوا إنهم قتلوه وقوله تعالى {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً} النساء ١٥٧ معناه أن نفي قتله هو يقين

لا ريب فيه بخلاف الذين اختلفوا فإنهم في شك منه من قتله وغير قتله فليسوا مستيقنين أنه قتل إذ لا حجة معهم بذلك ولذلك كانت طائفة من النصارى يقولون لم يصلب فإن الذين صلبوا المصلوب هم اليهود وكان قد اشتبه عليهم المسيح بغيره كما دل عليه القرآن وكذلك عند أهل الكتاب أنه اشتبه بغيره فلم يعرفوا من هو المسيح من أولئك حتى قال لهم بعض الناس أنا أعرفه فعرفوه وقول من قال معنى الكلام ما قتلوه علما بل ظنا قول ضعيف [١]

## من عجائب النصارى

النصارى ادعوا في المسيح الإلهية وأنه رب كل شيء ومليكه وهو على كل شيء قدير ثم يجعلون أعداءه صفعوه ووضعوا الشوك على رأسه وصلبوه وأنه جعل يستغيث فلا يغيثوه فلا افلحوا بدعوى تلك القدرة القاهرة ولا بإثبات هذه الذلة التامة وأن قالوا كان هذا برضاه قيل فالرب أنما يرضى بأن يطاع لا بأن يعصى فإن كان قتله وصلبه برضاه كان ذلك عبادة وطاعة لله فيكون اليهود الذين صلبوه عابدين لله مطيعين في ذلك فيمدحون على ذلك لا يذمون وهذا من اعظم الجهل والكفر [٢]

قول النصارى إن الإله تجسد ونزل وإنه أنزل ابنه ليصلب ويكون الصلب مغفره لذنب آدم ليدفع الشيطان بذلك لهم فقيل لهم إذا كان قتله وصلبه وتكذيبه من أعظم الشر والمعصية فيكون قد أراد أن يزيل ذنبا صغيرا بذنب هو أكبر منه وهو مع ذلك لم يغير الشر بل زاد على ما كان فكيف يفعل شيئا لمقصود والحاصل إنما هو ضد المقصود [٣]

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٣٣-٣٤

[٢] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٢٠٨-٢٠٩

[٣] منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٣٩٩

ومن عجائب النصارى أنهم يدعون فيه الإلهية مع ادعائهم فيه غاية العجز حتى صلب وأما المسلمون فيقولون هو رسول مؤيد لم يصلب وهذه سنة الله سبحانه في رسله فإنه يؤيدهم وينصرهم على عدوهم كما نصر نوحا وإبراهيم ومحمدا صلوات الله عليهم وسلامه فإذا كان لا يجوز أن يكون رسولا مغلوبا فكيف يكون ربا مغلوبا مصلوبا [١]

ففي المسيح اليهود يقولون هو ولد زنا وهو ابن يوسف النجار ويقولون عن مريم إنها بغى بعيسى كما قال تعالى {وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً} النساء ١٥٦ ويقولون هو ساحر كذاب والنصارى يقولون هو الله ويقولون أيضا هو ابن الله وهو إله تام وإنسان تام وأما المسلمون فيقولون هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه وهو وجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويصفونه بما وصفه الله به في كتابه لا يغلون فيه غلو النصارى ولا يقصرون في حقه تقصير اليهود وكذلك قولهم في سائر الأنبياء والمرسلين وفي أولياء الله فاليهود قتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ومع هذا فقد شارك النصارى اليهود في نقص حق كثير من الأنبياء فيقولون أن سليمان لم يكن نبيا ويقولون إن الحواريين مثل موسى وإبراهيم ويقولون إن من عمل بوصايا الله من غير الأنبياء صار مثل الأنبياء وكان له أن يشرع شريعة وبعض اليهود غلوا في العزير حتى قالوا إنه ابن الله ولهذا قال نبينا في الحديث الصحيح لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبدالله فقولوا عبدالله ورسوله [٢]

## إن اتباع الظن جهل

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٢٣

[٢] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٤٤ و الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١١١

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة وهي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه وهو السعادة والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره وهو الشقاء ومعلوم أن الحي العالم لا يختار أن يحب ما يضره لكن يكون ذلك عن جهل وظلم فإن النفس قد تهوي ما يضرها ولا ينفعها وذلك ظلم منها لها وقد تكون جاهلة بحالها به بأن تهوي الشيء وتحبه بلا علم منها بما في محبته من المنفعة والمضرة وتتبع هواها وهذا حال من اتبع هواه بغير علم وقد يكون عن اعتقاد فاسد وهو حال من اتبع الظن وما تهوي نفسه وكل ذلك من أمور الجاهلية [1]

والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح ولم يشهد أحد منهم صلبه فان الذى صلب انما صلبه اليهود ولم يكن أحد من أصحاب المسيح حاضرا وأولئك اليهود الذين صلبوه قد اشتبه عليهم المصلوب بالمسيح وقد قيل أنهم عرفوا أنه ليس هوالمسيح ولكنهم كذبوا وشبهوا على الناس والأول هو المشهور وعليه جمهور الناس وحينئذ فليس عند النصارى خبر عمن يصدقونه بأنه صلب لكن عمدتهم على ذلك الشخص الذى جاء بعد أيام وقال أنا المسيح وذاك شيطان وهم يعترفون بأن الشياطين كثيرا ما تجيء ويدعى أحدهم أنه نبى أو صالح ويقول أنا فلان النبى أو الصالح ويكون شيطانا وفى ذلك حكايات متعددة مثل حكاية الراهب الذى جاءه جاء وقال أنا المسيح جئت لاهديك فعرف أنه الشيطان فقال أنت قد بلغت الرسالة ونحن نعمل بها فان جئت اليوم بشيء يخالف ذلك لم نقبل منك فليس عند النصارى واليهود علم بأن المسيح صلب كما قال تعالى {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ}النساء١٥٧ وأضاف الخبر عن قتله الى اليهود بقوله {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ}النساء١٥٧فانهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة اذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح ومن جوز قتله فهو كمن قتله فهم فى هذا القول كاذبون وهم آثمون وإذا قالوه فخرا لم يحصل لهم الفخر لأنهم لم يقتلوه وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك وسعيهم فيه وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال انه كان حريصا على قتل صاحبه وقوله {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ}النساء١٥٧ قيل هم اليهود وقيل النصارى والآية تعم الطائفتين وقوله لفى

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٦ و مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٤٨

شك منه قيل من قتله وقيل منه أى فى شك منه هل صلب أم لا كما اختلفوا فيه فقالت اليهود هو ساحر وقالت النصارى انه اله فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا وهم فى شك من ذلك {مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ}النساء١٥٧ فاذا كان هذا فى الصلب فكيف فى الذى جاء بعد الرفع وقال أنه هو المسيح فإن قيل اذا كان الحواريون الذين أدركوه قد حصل هذا فى ايمانهم فأين المؤمنون به الذين قال فيهم {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}آل عمران٥٥ وقوله {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}الصف١٤ قيل ظن من ظن منهم أنه صلب لا يقدح فى ايمانه اذا كان لم يحرف ما جاء به المسيح بل هو مقر بأنه عبدالله ورسوله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فاعتقاده بعد هذا أنه صلب لا يقدح فى ايمانه فان هذا اعتقاده موته على وجه معين وغاية الصلب أن يكون قتلا له وقتل النبى لا يقدح فى نبوته وقد قتل بنو اسرائيل كثيرا من الانبياء وقال تعالى {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ}آل عمران١٤٦ الآية وقال تعالى {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ}آل عمران١٤٤ وكذلك اعتقاد من اعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع وكلمهم هو مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين أن النبى جاءهم فى اليقظة فانهم لا يكفرون بذلك بل هذا كان يعتقده من هو من أكثر الناس اتباعا للسنة واتباعا له وكان فى الزهد والعبادة أعظم من غيره وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله فهذا غلط منه لا يوجب كفره فكذلك ظن من ظن من الحواريين ان ذلك هو المسيح لا يوجب خروجهم عن الايمان بالمسيح ولا يقدح فيما نقلوه عنه وعمر لما كان يعتقد أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يمت ولكن ذهب الى ربه كما ذهب موسى وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه لم يكن هذا قادحا فى ايمانه وإنما كان غلطا ورجع عنه وقوله تعالى فى هذه {مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ}النساء١٥٧ هو ذم لهم على اتباع الظن بلا علم وكذلك قوله {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى}النجم٢٣ وكذلك قوله {وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً}النجم٢٨ وقوله تعالى {وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ}يونس٦٦ وقوله {أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{٣٥} وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ{٣٦}يونس٣٥-٣٦ فهذه عدة مواضع يذم الله فيها الذين لا يتبعون الا الظن وكذلك قوله {قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا

إن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ {١٤٨} قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ {١٤٩}الأنعام١٤٨ -١٤٩ مطالبة بالعلم وذم لمن يتبع الظن وما عنده علم [1]

أن ما عليه النصارى من اعتقاد دين النصرانية لا علم لهم ولا دليل لهم على صحته بل هم فيه متبعون لآبائهم كاتباع اليهود والمشركين لآبائهم ولا ريب أن هذا حال النصارى ولهذا سماهم الله ضلالا في قوله {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ}المائدة٧٧ وقال تعالى {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً}النساء١٥٧ [2]

## لما ذكر الله المسيح فى القرآن قال ابن مريم بخلاف سائر الأنبياء

قال تعالى {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{٣} الاخلاص٣ فهذا نفى كونه سبحانه والدا لشىء أو متخذا لشىء ولدا بأى وجه من وجوه الولادة أو اتخاذ الولد أيا كان وأما نفى كونه مولودا فيتضمن نفى كونه متولدا بأى نوع من التوالد من أحد من البشر وسائر ما تولد من غيره فهو رد على من قال المسيح هو الله ورد على الدجال الذى يقول انه الله ورد على من قال فى بشر أنه الله من غالية هذه الأمة فى على وبعض أهل البيت فقوله سبحانه {وَلَمْ يُولَدْ}الإخلاص٣ نفى لهذا كله فان هؤلاء كلهم مولودون والله لم يولد ولهذا لما ذكر الله المسيح فى القرآن قال ابن مريم بخلاف سائر الأنبياء كقوله {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ}النساء١٥٧ وفي ذلك

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ١٠٧-١٠٩ و الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٥٦

[2] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٥١

فائدتان إحداهما بيان أنه مولود والله لم يولد والثانية نسبته الى مريم بأنه ابنها ليس هو ابن الله [1]

## المضاف الى الله سبحانه لا يخلو من ثلاثة أقسام

المضاف الى الله سبحانه فى الكتاب والسنة سواء كانت اضافة اسم الى اسم او نسبة فعل الى اسم او خبر باسم عن اسم لا يخلو من ثلاثة أقسام أحدها اضافة الصفة الى الموصوف كقوله تعالى {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}البقرة٢٥٥ وقوله {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ}الذاريات٥٨ وفى حديث الاستخارة اللهم انى استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وفى الحديث الاخر اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق فهذا فى الاضافة الاسمية واما بصيغة الفعل فكقوله {عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ}البقرة١٨٧ وقوله {عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ}المزمل٢٠ واما الخبر الذى هو جملة اسمية فمثل قوله {وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}البقرة٢٨٢ {وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}البقرة٢٨٤ وذلك لان الكلام الذى توصف به الذوات اما جملة او مفرد فالجملة اما اسمية كقوله {وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}البقرة٢٨٢ او فعلية كقوله {عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ}المزمل٢٠ اما المفرد فلابد فيه من اضافة الصفة لفظا او معنى كقوله {بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}البقرة٢٥٥ وقوله {هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً}فصلت١٥ او اضافة الموصوف كقوله {ذُو الْقُوَّةِ}الذاريات٥٨ و القسم الثانى اضافة المخلوقات كقوله {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا}الشمس١٣ وقوله {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ}الحج٢٦ وقوله {رَسُولَ اللّهِ}النساء١٥٧ و {عِبَادَ اللَّهِ}الصافات٤٠ وقوله {ذُو الْعَرْشِ}غافر١٥ وقوله {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}البقرة٢٥٥ فهذا القسم لا خلاف بين المسلمين فى انه مخلوق كما ان القسم الاول لم يختلف اهل السنة والجماعة فى انه قديم وغير مخلوق وقد خالفهم بعض اهل الكلام فى ثبوت الصفات لا فى أحكامها وخالفهم بعضهم فى قدم العلم واثبت

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٤٨-٤٤٩

بعضهم حدوثه وليس الغرض هنا تفصيل ذلك الثالث ما فيه معنى الصفة والفعل مثل قوله {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ وقوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}يس٨٢ [1]

## الله سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{١٨٠} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{١٨١} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{١٨٢}الصافات١٨٠ ـ١٨٢ فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه {بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}النساء١٥٨ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٤٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٣٦

قال تعالى {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ{16} أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ{17} الملك ١٦-١٧ ما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجارية معاوية بن الحكم أين الله قالت في السماء قال من أنا قالت أنت رسول الله قال أعتقها فإنها مؤمنة وليس المراد بذلك أن السماء تحصر الرب وتحويه كما تحوي الشمس والقمر وغيرهما فإن هذا لا يقوله مسلم ولا يعتقده عاقل فقد قال سبحانه وتعالى {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}البقرة٢٥٥ والسموات في الكرسي كحلقة ملقاة في أرض فلاة والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة والرب سبحانه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته وقال تعالى {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}طه٧١ وقال {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ}التوبة٢ وقال {يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ}المائدة٢٦ وليس المراد أنهم في جوف النخل وجوف الأرض بل معنى ذلك أنه فوق السموات وعليها بائن من المخلوقات كما أخبر في كتابه عن نفسه أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وقال {يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}آل عمران٥٥ وقال تعالى {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}المعارج٤ وقال {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ}النساء١٥٨ وأمثال ذلك في الكتاب والسنة [1]

## أجمعت الامة على أن الله رفع عيسى الى السماء

عيسى عليه السلام حى وقد ثبت فى الصحيح عن النبى انه قال ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا وإماما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية وثبت فى الصحيح عنه انه ينزل على المنارة البيضاء شرقى دمشق وانه يقتل الدجال ومن فارقت روحه جسده لم ينزل جسده من السماء واذا أحيى فانه يقوم من قبره وأما قوله تعالى {إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}آل عمران٥٥ فهذا دليل على انه لم يعن بذلك الموت اذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى فى ذلك كسائر المؤمنين فان الله يقبض أرواحهم ويعرج بها

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٨٣ و مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢٧٢ و مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٩٦

الى السماء فعلم أن ليس فى ذلك خاصية وكذلك قوله {وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}آل عمران٥٥ ولو كان قد فارقت روحه جسده لكان بدنه فى الارض كبدن سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء وقد قال تعالى فى الآية الاخرى {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً {١٥٧} بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ{١٥٨} النساء١٥٧ -١٥٨ فقوله هنا {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ{١٥٨} النساء ١٥٨ يبين انه رفع بدنه وروحه كما ثبت فى الصحيح انه ينزل بدنه وروحه إذ لو أريد موته لقال وما قتلوه وما صلبوه بل مات فقوله {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ} النساء ١٥٨ يبين انه رفع بدنه وروحه كما ثبت فى الصحيح انه ينزل بدنه وروحه ولهذا قال من قال من العلماء{إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}آل عمران٥٥ أى قابضك أى قابض روحك وبدنك يقال توفيت الحساب واستوفيته ولفظ التوفى لا يقتضى نفسه توفى الروح دون البدن ولا توفيهما جميعا الا بقرينة منفصلة وقد يراد به توفى النوم كقوله تعالى {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}الزمر٤٢ وقوله {حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ}الأنعام٦١ وقد ذكروا فى صفة توفى المسيح ما هو مذكور فى موضعه والله تعالى أعلم [1]

قال ابن تيمية ولما اجتمعنا بدمشق وأحضر فيمن أحضر كتب أبى الحسن الأشعرى مثل المقالات و الابانة وأئمة أصحابه كالقاضى أبى بكر وابن فورك والبيهقى وغيرهم واحضر كتاب الابانة وما ذكر ابن عساكر فى كتاب تبيين كذب المفترى فيما نسب الى الأشعرى وقد نقله بخطه أبو زكريا النووى وقال فيه فإن قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذى به تقولون قيل له قولنا التمسك بكتاب الله وسنة رسوله وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته واجزل مثوبته قائلون ولما خالف قول مجانبون لأنه الامام الفاضل الذى أبان الله به الحق عند ظهور الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين وذكر الإعتقاد الذى ذكره فى المقالات عن أهل السنة ثم احتج على أبواب الأصول مثل مسألة القرآن والرؤية والصفات ثم قال باب ذكر الإستواء فإن قال قائل ما تقولون فى الاستواء قيل بأن الله مستو على عرشه كما قال سبحانه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٣٢٢

{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}طه٥ وقال {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}فاطر١٠ وقال سبحانه {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ}النساء١٥٨ وقال فرعون {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ{٣٦} أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً {٣٧} غافر ٣٦-٣٧ كذب موسى فى قوله إن الله فوق السموات وقال {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ}الملك١٦ فالسموات فوقها العرش وكل ما علا فهو سماء وليس اذا قال {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء}الملك١٦ يعنى جميع السموات وانما أراد العرش الذى هو أعلا السموات ألا ترى أن الله ذكر السموات فقال {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً}نوح١٦ لم يرد أن القمر يملأهن جميعا وأنه فيهن جميعا ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم اذا دعوا نحو العرش قال وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية إنم معنى قوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}طه٥ أى استولى وملك وقهر والله فى كل مكان وجحدوا أن يكون الله على عرشه كما قاله أهل الحق قال ولو كان كما قالوا كان لا فرق بين العرش وبين الأرض السابعة السفلى لأن الله قادر على كل شىء وقدر ذلك وساق الكلام الى أن قال ومما يؤكد لكم أن الله مستو على عرشه دون الاشياء كلها ما نقله أهل الرواية عن رسول الله من قوله ينزل الله الى سماء الدنيا كل ليلة فيقول هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فاغفر له حتى يطلع الفجر ثم ذكر الاحاديث وقال تعالى {إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}آل عمران٥٥ قال وأجمعت الامة على أن الله رفع عيسى الى السماء وذكر دلائل الى أن قال كل ذلك يدل على أن الله ليس فى خلقه ولا خلقه فيه وانه عز وجل مستو على عرشه جل وعز وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا جل عما يقول الذين لم يثبتوا له فى وصفهم له حقيقة ولا أوجبوا له بذكرهم إياه وحدانية إذ كان كلامهم يؤل الى التعطيل وجميع أوصافهم على النفى فى التأويل يريدون بذلك فيما زعموا التنزيه ونفى التشبيه فنعوذ بالله من تنزيه يوجب النفى والتعطيل وهذا باب واسع لا يحصر فيه كلام العلماء من جميع الطوائف وما فى ذلك من الدلائل العقلية والنقلية [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٢٢٦ و مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٨٦-١٨٧

# أن الله سبحانه وتعالى هو العلى الأعلى

فهذا كتاب الله من أوله الى آخره وسنة رسوله من أولها الى آخرها ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو اما نص واما ظاهر فى أن الله سبحانه وتعالى هو العلى الأعلى وهو فوق كل شىء وهو على كل شىء وأنه فوق العرش وأنه فوق السماء مثل قوله تعالى {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}فاطر١٠ {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}آل عمران٥٥ {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ {١٦} أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ{١٧}الملك١٦ -١٧ {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ}النساء١٥٨ {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}المعارج٤ {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}السجدة٥ {يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ}النحل٥٠ {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}الأعراف٥٤ فى ستة مواضع {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}طه٥ {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ {٣٦} أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً {٣٧}غافر٣٦-٣٧ {تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}فصلت٤٢ {وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ}الرعد١ الى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى الا بكلفة وفى الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى الا بالكلفة مثل قصة معراج الرسول الى ربه ونزول الملائكة من عند الله وصعودها اليه وقوله فى الملائكة الذين يتعاقبون فيكم بالليل والنهار فيعرج الذين باتوا فيكم الى ربهم فيسالهم وهو أعلم بهم وفى الصحيح فى حديث الخوارج الا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء يأتينى خبر السماء صباحا ومساء وفى حديث الرقية الذى رواه ابو داود وغيره ربنا الله الذى فى السماء تقدس اسمك أمرك فى السماء والأرض كما رحمتك فى السماء اجعل رحمتك فى الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع قال رسول الله إذا اشتكى أحد منكم أو اشتكى أخ له فليقل ربنا الله الذى فى السماء

وقال أبو عبدالله محمد بن أبى زمنين الامام المشهور من أئمة المالكية فى كتابه الذى صنفه فى أصول السنة قال ومن قول أهل السنة أن الله ينزل الى سماء الدنيا ويؤمنون بذلك من غير أن يحدوا فيه حدا وذكر الحديث من طريق مالك وغيره الى أن قال وأخبرنى وهب عن ابن وضاح عن الزهرى عن ابن عباد قال ومن أدركت من المشائخ مالك وسفيان وفضيل بن عياض وعيسى بن المبارك ووكيع كانوا يقولون ان النزول حق قال ابن وضاح وسألت يوسف بن عدى عن

النزول قال نعم أومن به ولا أحد فيه حدا وسألت عنه ابن معين فقال نعم أقربه ولا أحد فيه حدا قال محمد وهذا الحديث يبين أن الله عز وجل على العرش فى السماء دون الأرض وهو ايضا بين فى كتاب الله وفى غير حديث عن رسول الله قال تعالى {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}السجدة٥ وقال تعالى {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ{١٦} أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ{١٧} الملك ١٦-١٧ وقال تعالى {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}فاطر١٠ وقال {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}الأنعام٦١ وقال تعالى {يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}آل عمران٥٥ وقال {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ}النساء١٥٨ وذكر من طريق مالك قول النبى للجارية أين الله قالت فى السماء قال من أنا قالت أنت رسول الله قال فاعتقها قال والأحاديث مثل هذا كثيرة جدا فسبحان من علمه بما فى السماء كعلمه بما فى الأرض لا اله الا هو العلى العظيم [1]

وقال الامام أبو عبدالله الحارث بن اسماعيل بن أسد المحاسبى فى كتابه المسمى فهم القرآن قال فى كلامه على الناسخ والمنسوخ وأن النسخ لا يجوز فى الأخبار قال لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وصفاته ولا أسماءه يجوز أن ينسخ منها شىء إلى أن قال وكذلك لا يجوز اذا أخبر أن صفاته حسنة عليا أن يخبر بذلك أنها دنية سفلى فيصف نفسه بأنه جاهل ببعض الغيب بعد أن أخبر أنه عالم بالغيب وأنه لا يبصر ما قد كان ولا يسمع الاصوات ولا قدره له ولا يتكلم ولا كلام كان منه وأنه تحت الأرض لا على العرش جل وعلا عن ذلك فاذا عرفت ذلك واستيقنته علمت ما يجوز عليه النسخ وما لا يجوز فان تلوت آية فى ظاهر تلاوتها تحسب أنها ناسخة لبعض اخباره وكذلك قوله تعالى {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}الأنعام١٨ وقوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}طه٥ وقوله {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء}الملك١٦ وقوله {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}فاطر١٠ وقال {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}السجدة٥ وقال {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}المعارج٤ وقال لعيسى {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}آل عمران٥٥ الآية وقال {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ}النساء١٥٨ وقال {إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ}الأعراف٢٠٦ وذكر الآلهة أن لو

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٦

كان آلهة لابتغوا الى ذى العرش سبيلا حيث هو فقال {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً}الإسراء٤٢ أى طلبه وقال {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}الأعلى١ قال أبو عبدالله فلن ينسخ ذلك لهذا أبدا كذلك قوله {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}الزخرف٨٤ وقوله {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}ق١٦ وقوله {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ}الأنعام٣ وقوله {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ}المجادلة٧ الآية فليس هذا بناسخ لهذا ولا هذا ضد لذلك وأعلم أن هذه الآيات ليس معناها أن الله أراد الكون بذاته فيكون فى أسفل الأشياء أو ينتقل فيها لانتقالها ويتبعض فيها على أقدارها ويزول عنها عند فنائها جل وعز عن ذلك وقد نزع بذلك بعض أهل الضلال فزعموا أن الله تعالى فى كل مكان بنفسه كائنا كما هو على العرش لا فرقان بين ذلك ثم أحالوا فى النفى بعد تثبيت ما يجوز عليه فى قولهم ما نفوه لأن كل من يثبت شيئا فى المعنى ثم نفاه بالقول لم يغن عنه نفيه بلسانه واحتجوا بهذه الآيات أن الله تعالى فى كل شىء بنفسه كائنا ثم نفوا معنى ما أثبتوه فقالوا لا كالشىء فى الشىء قال ابو عبدالله لنا قوله {حَتَّى نَعْلَمَ}محمد٣١ {وَسَيَرَى اللّهُ}التوبة٩٤ {إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ}الشعراء١٥ فانما معناه حتى يكون الموجود فيعلمه موجودا ويسمعه مسموعا ويبصره مبصرا لا على استحداث علم ولا سمع ولا بصر وأما قوله {وَإِذَا أَرَدْنَا}الإسراء١٦ اذا جاء وقت كون المراد فيه وان قوله {عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}طه٥ {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}الأنعام١٨ الآية {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء}الملك١٦ {إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً}الإسراء٤٢ فهذا وغيره مثل قوله {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}المعارج٤ {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}فاطر١٠ هذا منقطع يوجب أنه فوق العرش فوق الأشياء كلها منزه عن الدخول فى خلقه لا يخفى عليه منهم خافية لأنه أبان فى هذه الآيات أنه أراد أنه بنفسه فوق عباده لأنه قال {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ}الملك١٦ يعنى فوق العرش والعرش على السماء لأن من قد كان فوق كل شىء على السماء فى السماء وقد قال مثل ذلك فى قوله {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ}التوبة٢ يعنى على الأرض لا يريد الدخول فى جوفها وكذلك قوله {يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ}المائدة٢٦ يعنى على الأرض لا يريد الدخول فى جوفها وكذلك قوله {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}طه٧١ يعنى فوقها عليها وقال {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء}الملك١٦ ثم فصل فقال {أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ}الملك١٦ ولم يصل فلم يكن لذلك معنى اذا فصل قوله {مَّن فِي السَّمَاء}الملك١٦ ثم استأنف التخويف بالخسف إلا أنه على عرشه فوق السماء

وقال تعالى {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ} السجدة٥ وقال {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} المعارج٤ فبين عروج الأمر وعروج الملائكة ثم وصف وقت صعودها بالارتفاع صاعدة اليه فقال {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} المعارج٤ فقال صعودها إليه وفصله من قوله إليه كقول القائل اصعد الى فلان فى ليلة أو يوم وذلك أنه فى العلو وان صعودك إليه فى يوم فاذا صعدوا الى العرش فقد صعدوا الى الله عز وجل وان كانوا لم يروه ولم يساووه فى الإرتفاع فى علوه فإنهم صعدوا من الأرض وعرجوا بالأمر الى العلو قال تعالى {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ} النساء١٥٨ ولم يقل عنده[1]

## الأدلة التي تدل على علو الله تعالى عن سائر مخلوقاته

أما علو الله تعالى عن سائر مخلوقاته وأنه كامل الأسماء الحسنى والصفات العلى فالذى يدل عليه منها الكتاب قوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{٥} طه ٥ وقوله {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ} النساء١٥٨ والذى يدل عليه من السنة قصة معراج الرسول الى ربه ونزول الملائكة من عند الله وصعودها اليه وقوله فى الملائكة الذين يتعاقبون فى الليل والنهار فيعرج الذين باتوا فيكم الى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم وفى حديث الخوارج الا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء وفى حديث الرقية ربنا الله الذى فى السماء تقدس اسمك وفى حديث الأوعال والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه وفى حديث قبض الروح حتى يعرج بها الى السماء التى فيها الله وفى سنن أبى داود عن جبير بن مطعم قال أتى رسول الله أعرابى فقال يا رسول الله جهدت الانفس وجاع العيال وهلك المال فادع الله لنا فانا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك فسبح رسول الله حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه وقال ويحك أتدرى ما الله ان الله لا يستشفع به على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ان الله على عرشه وان عرشه على سمواته وأرضه كهكذا وقال بأصابعه مثل القبة وفى الصحيح عن جابر بن عبدالله ان رسول الله لما خطب خطبة عظيمة يوم عرفات فى أعظم جمع حضره رسول الله جعل يقول الا هل بلغت فيقولون نعم فيرفع اصبعه الى السماء وينكبها اليهم ويقول اللهم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٦٩

اشهد غير مرة وحديث الجارية لما سألها أين الله قالت فى السماء فأمر بعتقها وعلل ذلك بايمانها وأمثاله كثيرة وأما الذى يدل عليه من الاجماع ففى الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كانت زينب تفتخر على أزواج النبى تقول زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سماواته وروى عبدالله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن ابن المبارك أنه قيل له بم نعرف ربنا قال بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ولا نقول كما قالت الجهمية أنه هاهنا فى الأرض وباسناد صحيح عن سليمان بن حرب الامام سمعت حماد بن زيد وذكر الجهمية فقال انما يحاولون أن يقولوا ليس فى السماء شىء وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن عامر الضبعى امام أهل البصرة علما ودينا أنه ذكر عنده الجهمية فقال هم أشر قولا من اليهود والنصارى وقد اجتمع أهل الأديان مع المسلمين على أن الله تعالى على العرش وقالوا هم ليس على العرش شىء وقال محمد بن اسحاق بن خزيمة امام الأئمة من لم يقل ان الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه وجب أن يستتاب فان تاب والا ضربت عنقه ثم ألقى على مزبلة لئلا يتأذى به اهل القبلة ولا أهل الذمة وروى الامام أحمد قال أنا شريح بن النعمان قال سمعت عبدالله بن نافع الصائغ قال سمعت مالك بن أنس يقول الله فى السماء وعلمه فى كل مكان لا يخلو من علمه مكان وحكى الأوزاعى أحد الأئمة الأربعة فى عصر تابعى التابعين الذين هم مالك امام أهل الحجاز والأوزاعى امام أهل الشام والليث امام أهل البصرة والثورى امام أهل العراق حكى شهرة القول فى زمن التابعين بالايمان بأن الله تعالى فوق العرش وبصفاته السمعية وانما قاله بعد ظهور جهم المنكر لكون الله فوق عرشه النافى لصفاته ليعرف الناس أن مذهب السلف خلافه وروى الخلال بأسانيد كلهم أئمة عن سفيان بن عيينة قال سئل ربيعة بن أبى عبدالرحمن عن قوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{٥}طه ٥ كيف استوى قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة ومن الرسول البلاغ وعلينا التصديق وهذا مروى عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة بن أبى عبدالرحمن أو نحوه وقال الشافعى خلافة أبى بكر حق قضاه الله تعالى فى سمائه وجمع عليه قلوب عباده ولو يجمع ما قاله الشافعى فى هذا الباب لكان فيه كفاية ومن أصحاب الشافعى عبدالعزيز بن يحيى الكنانى المكى له كتاب الرد على الجهمية وقرر فيه مسئلة العلو وأن الله تعالى فوق عرشه والأئمة فى الحديث والفقه والسنة والتصوف المائلون الى الشافعى ما من أحد منهم الا له كلام فيما يتعلق بهذا الباب ما هو معروف يطول ذكره وفى كتاب الفقه الأكبر المشهور عن أبى حنيفة يروونه بأسانيد عن أبى مطيع الحكم بن عبدالله قال سألت أبا حنيفة عن الفقه الأكبر فقال لا

تكفرن أحدا بذنب الى أن قال عمن قال لا أعرف ربى فى السماء أم فى الأرض فقد كفر لأن الله يقول {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{٥} طه ٥ وعرشه فوق سبع سموات قلت فان قال أنه على العرش ولكن لا أدرى العرش فى السماء أم فى الأرض قال هو كافر وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل وسئل على بن المدينى عن قوله {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ} المجادلة٧ قال اقرأ ما قبله {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} المجادلة٧ الآية وروى عن ابن عيسى الترمذى قال هو على العرش كما وصف فى كتابه وعلمه وقدره وسلطانه فى كل مكان وأبو يوسف لما بلغه عن المريسي انه ينكر الصفات الخيرية وان الله فوق عرشه أراد ضربه فهرب فضرب رفيقه ضربا بشعا وعن اصحاب ابى حنيفة فى هذا الباب ما لا يحصى [١]

## رد الامام أحمد على الجهمية والزنادقة

قال الامام أحمد فى كتابه الذى كتبه فى الرد على الجهمة والزنادقة بيان ما أنكرت الجهمية الضلال أن يكون الله على العرش وقد قال تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}طه٥ وقال {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} الأعراف٥٤ فقالوا هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش فهو على العرش وفى السموات وفى الأرض وفى كل مكان لا يخلو منه مكان ولا يكون فى مكان دون مكان ويتلون آيات من القرآن {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} الأنعام٣ قلنا قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظيم الرب شيء فقالوا أى شيء قلنا أحشاءكم واجوافكم واجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظيم الرب شيء وقد أخبرنا أنه فى السماء فقال {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} الملك١٦ وقد قال جل ثناؤه {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} فاطر١٠ وقال تعالى {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} آل عمران٥٥ وقال تعالى {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ} النساء١٥٨ وقال تعالى {وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ} الأنبياء١٩ وقال تعالى {يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ} النحل٥٠ وقال تعالى {ذِي الْمَعَارِجِ{٣} تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ {٤} المعارج ٣-٤ وقال

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٣٦-١٤٠

تعالى {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}الأنعام١٨ وقال تعالى {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}الشورى٤ قال فهذا خبر الله أنه فى السماء ووجدنا كل شىء فى اسفل مذموما يقول جل ثناؤه {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}النساء١٤٥ وقال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ}فصلت٢٩ وقلنا لهم أليس تعلمون ان ابليس مكانه مكان والشياطين مكانهم مكان فلم يكن الله ليجتمع هو وابليس فى مكان واحد ولكن معنى قوله عز وجل {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ}الأنعام٣ يقول هو اله من فى السموات واله من فى الأرض وهو الله على العرش وقد أحاط علمه بما دون العرش لا يخلو من علم الله مكان ولا يكون علم الله فى مكان دون مكان وذلك قوله {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً}الطلاق١٢ وقال من الاعتبار فى ذلك لو أن رجلا كان فى يده قدح من قوارير صاف وفيه شىء صاف لكان نظر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم فى القدح والله وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون فى شىء من خلقه وخصلة أخرى لو أن رجلا بنى دارا بجميع مرافقها ثم اغلق بابها وخرج كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيت فى داره وكم سعة كل بيت من غير أن يكون صاحب الدار فى جوف الدار فالله عز وجل وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع ما خلق وعلم كيف هو وما هو من غير أن يكون فى شىء مما خلق [1]

## المسلمون وسط في عيسى بن مريم

المسلمون والنصارى يقولون مسيح الهدى هو عيسى بن مريم وإن الله أرسله ثم يأتي مرة ثانية لكن المسلمون يقولون إنه ينزل قبل يوم القيامة فيقتل مسيح الضلالة ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ولا يبقى دين إلا دين الإسلام ويؤمن به أهل الكتاب اليهود والنصارى كما قال تعالى {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً}النساء١٥٩ والقول الصحيح الذي عليه الجمهور قبل موت المسيح وقال تعالى {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ}الزخرف٦١ وأما النصارى فتظن أنه الله وأنه يأتي يوم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٣١٠

القيامة لحساب الخلائق وجزائهم وهذا مما ضلوا فيه واليهود تعترف بمجيء مسيح هدى يأتي لكن يزعمون أن عيسى عليه السلام لم يكن مسيح هدى لظنهم أنه جاء بدين النصارى المبدل ومن جاء به فهو كاذب وهم ينتظرون المسيحين [١]

قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا وإماما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية وأخبر في الحديث الصحيح أنه إذا خرج مسيح الضلالة الأعور الكذاب نزل عيسى بن مريم على المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعا يديه على منكبي ملكين فإذا رآه الدجال انماع كما ينماع الملح في الماء فيدركه فيقتله بالحربة عند باب لد الشرقي على بضع عشرة خطوات منه وهذا تفسير قوله تعالى {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} النساء١٥٩ أي يؤمن بالمسيح قبل أن يموت حين نزوله إلى الأرض وحينئذ لا يبقى يهودي ولا نصراني ولا يبقى إلا دين الإسلام وهذا موجود في نعته عند أهل الكتاب ولكن النصارى ظنوا مجيئه بعد قيام القيامة وأنه هو الله فغلطوا في ذلك كما غلطوا في مجيئه الأول حيث ظنوا أنه هو الله واليهود أنكروا مجيئه الأول وظنوا أن الذي بشر به ليس إياه وليس هو الذي يأتي آخرا وصاروا ينتظرون غيره وإنما هو بعث إليهم أولا فكذبوه وسيأتيهم ثانيا فيؤمن به كل من على وجه الأرض من يهودي ونصراني إلا من قتل أو مات ويظهر كذبا هؤلاء الذين كذبوه ورموا أمه بالفرية وقالوا إنه ولد زنا وهؤلاء الذين غلوا فيه وقالوا إنه الله ولما كان المسيح عليه السلام نازلا في أمة محمد صار بينه وبين محمد من الاتصال ما ليس بينه وبين غير محمد ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح إن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي وروي كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها [٢]

## من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه

ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٢ ص:٣٣٦- ٣٣٧

وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات وقد دخل في هذه الجملة قوله سبحانه {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ [1]

## أصل الدين العدل الذى بعث الله الرسل بإقامته

من قال من العلماء أنه حرم على جميع المسلمين ما تستخبثه العرب وأحل لهم ما تستطيبه فجمهور العلماء على خلاف هذا القول كمالك وأبى حنيفة وأحمد وقدماء أصحابه ولكن الخرقى وطائفة منهم وافقوا الشافعى على هذا القول وأما أحمد نفسه فعامة نصوصه موافقة لقول جمهور العلماء وما كان عليه الصحابة والتابعون أن التحليل والتحريم لا يتعلق بإستطابة العرب ولا بإستخباثهم بل كانوا يستطيبون أشياء حرمها الله كالدم والميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكيلة السبع وما أهل به لغير الله وكانوا بل خيارهم يكرهون أشياء لم يحرمها الله حتى لحم الضب كان النبى يكرهه وقال لم يكن بأرض قومي فأجدنى أعافه وقال مع هذا أنه ليس بمحرم وأكل على مائدته وهو ينظر وقال فيه لا آكله ولا أحرمه وقال جمهور العلماء الطيبات التى أحلها الله ما كان نافعا لآكلة فى دينه والخبيث ما كان ضارا له فى دينه وأصل الدين العدل الذى بعث الله الرسل بإقامته فما أورث الآكل بغيا وظلما حرمه كما حرم كل ذى ناب من السباع لأنها باغية عادية والغاذى شبيه بالمغتذى فإذا تولد اللحم منها صار فى الإنسان خلق البغى والعدوان وكذلك الدم يجمع قوى النفس من الشهوة والغضب فإذا إغتذى منه زادت شهوته وغضبه على المعتدل ولهذا لم يحرم منه الا المسفوح بخلاف القليل فانه لا يضر ولحم الخنزير يورث عامة الأخلاق الخبيثة إذ كان أعظم الحيوان فى أكل كل شيء لا يعاف شيئا والله لم يحرم على أمة محمد شيئا من الطيبات وإنما حرم ذلك على أهل الكتاب كما قال تعالى {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}النساء١٦٠ وقال تعالى {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ

---

[1] العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ١٦

شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ}الأنعام١٤٦ وأما المسلمون فلم يحرم عليهم الا الخبائث كالدم المسفوح فاما غير المسفوح كالذى يكون فى العروق فلم يحرمه بل ذكرت عائشة أنهم كانوا يضعون اللحم فى القدر فيرون آثار الدم فى القدر ولهذا عفى جمهور الفقهاء عن الدم اليسير فى البدن والثياب إذا كان غير مسفوح وإذا عفى عنه فى الأكل ففى اللباس والحمل أولى أن يعفى عنه [١]

## "الأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع "

قال تعالى {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}النساء١٦٠

منهم (الرافضة) يتركون الأسباب الدنيوية ويجعلون وجود السبب كعدمه ومنهم قوم يتركون الأسباب الأخروية فيقولون إن سبق العلم والحكم أنا سعداء فنحن سعداء وإن سبق أنا أشقياء فنحن أشقياء فلا فائدة في العمل ومنهم من يترك الدعاء بناء على هذا الأصل الفاسد ولا ريب أن هذا الأصل الفاسد مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة الدين ومخالف لصريح المعقول ومخالف للحس والمشاهدة وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن إسقاط الأسباب نظرا إلى القدر فرد ذلك كما ثبت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب فقال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي الصحيح أيضا أنه قيل له يا رسول الله أرأيت ما يكدح الناس فيه اليوم ويعملون أشيء قضى عليهم ومضى أم فيما يستقبلون مما أتاهم فيه الحجة فقال بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا فقال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قيل له أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وقد قال تعالى في كتابه {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}الأعراف٥٧ وقال تعالى {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ}فاطر٩ وفي الصحيحين عن

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٢٥

النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لسعد عسى أن تخلف فينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون فكيف يمكن أن يشهد أن الله لم ينصب على توحيده دليلا ولا جعل للنجاة من عذابه وسيلة ولا جعل لما يفعله المتوكل من عباده سببا وهو مسبب الأسباب وخالق كل شيء بسبب منه لكن الأسباب كما قال فيها أبو حامد وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهما الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع [١]

## الايجاب والتحريم قد يكون نعمة وقد يكون عقوبة وقد يكون محنة

الأصل فى المعاصي أنها لا تكون سببا لنعمة الله و رحمته و الاباحة من نعمة الله و رحمته و ان كانت قد تكون سببا للاملاء و لفتح أبواب الدنيا لكن ذلك قدر ليس بشرع بل قد يكون سببا لعقوبة الله تعالى و الايجاب و التحريم قد يكون عقوبة كما قال تعالى {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}النساء١٦٠ و إن كان قد يكون رحمة ايضا كما جاءت شريعتنا الحنيفية [٢]

الايجاب والتحريم قد يكون نعمة وقد يكون عقوبة وقد يكون محنة فالأول كايجاب الايمان والمعروف وتحريم الكفر والمنكر وهو الذى أثبته القائلون بالحسن والقبح العقليين والعقوبة كقوله {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}النساء١٦٠ وقوله {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا}الأنعام١٤٦الى قوله {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ}الأنعام١٤٦وقوله {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}الأعراف١٥٧ فسماها آصارا وأغلالا والآصار فى الايجاب والأغلال فى التحريم وقوبه {وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ}البقرة٢٨٦ ويشهد له قوله {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٣٦٥

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ١٦٢

حَرَجٍ}الحج٧٨ وقوله {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ}المائدة٦ فان هذا النفي العام ينفي كل ما يسمى حرجا والحرج الضيق فما أوجب الله ما يضيق ولا حرم ما يضيق وضده السعة والحرج مثل الغل وهو الذى لا يمكنه الخروج منه مع حاجته الى الخروج وأما المحنة فمثل قوله {إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ}البقرة٢٤٩ الآية ثم ذلك قد يكون بانزال الخطاب وهذا لا يكون الا فى زمن الأنبياء وقد انقطع وقد يكون باظهار الخطاب لمن لم يكن سمعه ثم سمعه وقد يكون باعتقاد نزول الخطاب أو معناه وإن كان إعتقادا مخطئا لأن الحكم الظاهر تابع لاعتقاد المكلف فالتكليف الشرعى إما أن يكون باطنا وظاهرا مثل الذي تيقن أنه منزل من عند الله وإما أن يكون ظاهرا مثل الذي يعتقد أن حكم الله هو الايجاب أو التحريم إما اجتهادا وإما تقليدا وإما جهلا مركبا بأن نصب سبب يدل على ذلك ظاهرا دون ما يعارضه تكليف ظاهر إذ المجتهد المخطىء مصيب فى الظاهر لما أمر به وهو مطيع فى ذلك هذا من جهة الشرع وقد يكون من جهة الكون بأن يخلق سبحانه ما يقتضى وجود التحريم الثابت بالخطاب والوجوب الثابت بالخطاب كقوله {واَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}الأعراف١٦٣ فأخبر أنه بلاهم بفسقهم حيث أتى بالحيتان يوم التحريم ومنعها يوم الاباحة كما يؤتى المحرم المبتلى بالصيد يوم إحرامه ولا يؤتى به يوم حله أو يؤتى بمن يعامله ربا ولا يؤتى بمن يعامله بيعا ومن ذلك مجيء الاباحة والاسقاط نعمة وهذا كثير كقوله {الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ}الأنفال٦٦ وقد تقدم نظائرها [1]

والمحرمات لا تكون سببا محضا للإكرام والإحسان بل هي سبب للعقوبات إذا لم يتقوا الله تبارك وتعالى كما قال تعالى {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}النساء١٦٠ وقال تعالى {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ}الأنعام١٤٦ إلى قوله تبارك وتعالى {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ}الأنعام١٤٦ وكذلك ما ذكره تعالى في قصة البقرة من كثرة سؤالهم وتوقفهم عن امتثال أمره كان سببا لزيادة الايجاب ومنه قوله تعالى {لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ}المائدة١٠١ وحديث النبي إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته ولما سألوه عن الحج أفي كل عام قال

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٩٩-٢٠١

لا ولو قلت نعم لوجب ولو وجب لم تطيقوه ذروني ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم [1]

فما زال الصحابة رضي الله عنهم على عهد النبي يأخذون اللحم فيطبخونه ويأكلونه بغير غسله وكانوا يرون الدم في القدر خطوطا وذلك أن الله إنما حرم عليهم الدم المسفوح أي المصبوب المهراق فأما ما يبقى في العروق فلم يحرمه ولكن حرم عليهم أن يتبعوا العروق كما تفعل اليهود الذين بظلم منهم حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً}النساء١٦٠ والله سبحانه إنما حرم علينا الخبائث تنزيها لنا عن المضار وأباح لنا الطيبات كلها لم يحرم علينا شيئا من الطيبات كما حرم على أهل الكتاب بظلمهم طيبات أحلت لهم ومن استقرأ الشريعة في مواردها ومصادرها واشتمالها على مصالح العباد في المبدأ والمعاد تبين له من ذلك ما يهديه الله إليه {وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ}النور٤٠ [2]

## ان السيئات سبب للتحريم دينا وكونا

أن الحسنات سبب للتحليل دينا وكونا والسيئات سبب للتحريم دينا وكونا فان التحريم قد يكون حمية وقد يكون عقوبة والاحلال قد يكون سعة وقد يكون عقوبة وفتنة قال تعالى {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}المائدة٩٣ الآية وهي بينة فى الاصلاح والتقوى والاحسان موجبة لرفع الحرج وان المؤمن العامل الصالحات المحسن لا حرج عليه ولا جناح فيما طعم فان فيه عونا له وقوة على الايمان والعمل الصالح والاحسان ومن سواهم على الحرج

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ٨٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٥٢٣

والجناح لان النعم إنما خلقها الله ليستعان بها على الطاعة والآية مدنية وهي من آخر ما نزل من القرآن وقال تعالى عن إبراهيم{وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}البقرة١٢٦ واما الطرف الآخر فقال تعالى {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً {١٦٠} وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ{١٦١}النساء١٦٠ ـ١٦١ [1]

قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}البقرة١٦٨ خاطب الناس بأكل ما فى الأرض حلالا طيبا وأن لا يتبعوا خطوات الشيطان فى خلاف ذلك فانه إنما يأمر بالسوء والفحشاء وأن يقولوا على الله مالا يعلمون فيقولوا هذا حرام وهذا حلال أو غير ذلك مما يقولونه على الله فى الأمور الخبرية والعملية بلا علم كما قال تعالى {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ}النحل١١٦ ثم إن هؤلاء الذين يقولون على الله بغير علم إذا قيل لهم {اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا}البقرة١٧٠ فليس عندهم علم بل عندهم اتباع سلفهم وهو الذى اعتادوه وتربوا عليه ثم خاطب المؤمنين خصوصا فقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ {١٧٢} إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ {١٧٣}البقرة١٧٢ـ١٧٣ فأمرهم بأكل الطيبات مما رزقهم لأنهم هم المقصودون بالرزق ولم يشترط الحل هنا لأنه إنما حرم ما ذكر فما سواه حلال لهم والناس إنما أمرهم بأكل ما فى الأرض حلالا طيبا وهو إنما أحل للمؤمنين والكفار لم يحل لهم شيئا فالحل مشروط بالايمان ومن لم يستعن برزقه على عبادته لم يحل له شيئا وإن كان أيضا لم يحرمه فلا يقال إن الله أحله لهم ولا حرمه وإنما حرم على الذين هادوا ما ذكره فى سورة الأنعام ولهذا أنكر فى سورة الأنعام وغيرها على من حرم ما لم يحرمه كقوله {قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ}الأنعام١٤٣ ثم قال {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ}الأنعام١٤٦ ثم قال تعالى {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}الأنعام١٥١ الآيات وقال فى سورة النحل {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}النحل١١٨ الآية وأخبر أنه حرم ذلك ببغيهم فقال {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}النساء١٦٠

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٥٤

وقال {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ}الأنعام١٤٦ وهذا كله يدل على أصح قولى العلماء وهو أن هذا التحريم باق عليهم بعد مبعث محمد لا يزول إلا بمتابعته لأنه تحريم عقوبة على ظلمهم وبغيهم وهذا لم يزل بل زاد وتغلظ فكانوا أحق بالعقوبة وايضا فان الله تعالى أخبر بهذا التحريم بعد مبعث محمد ليبين أنه لم يحرم إلا هذا وهذا فلو كان ذلك التحريم قد زال لم يستثنه وأيضا فان التحريم لا يزول الا بتحليل منه وهو انما أحل أكل الطيبات للمؤمنين بقوله {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ}المائدة٩٣ الآية وقوله {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ}المائدة١وقوله {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ}المائدة٤ الى قوله {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ}المائدة٥ وهذا خطاب للمؤمنين ولهذا قال {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ}المائدة٥ ثم قال {وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ}المائدة٥ فلو كان ما أحل لنا حلا لهم لم يحتج الى هذا وقوله {وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ}المائدة٥ لا يدخل فيه ما حرم عليهم كما أن قوله {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ}المائدة٥ لا يدخل فيه ما حرم علينا مما يستحلونه هم كصيد الحرم وما أهل به لغير الله [1]

## أغلب ما أوقع الناس في الحيل إما ذنوب وإما مبالغة في التشديد

و لقد تأملت أغلب ما أوقع الناس في الحيل فوجدته أحد شيئين إما ذنوب جوزوا عليها بتضييق فى أمورهم فلم يستطيعوا دفع هذا الضيق إلا بالحيل فلم تزدهم الحيل إلا بلاء كما جرى لأصحاب السبت من اليهود كما قال تعالى {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}النساء١٦٠ و هذا الذنب ذنب عملي و إما مبالغة في التشديد لما اعتقدوه من تحريم الشارع فاضطرهم هذا الاعتقاد الى الاستحلال بالحيل و هذا من خطأ الاجتهاد و إلا فمن اتقي الله و أخذ ما أحل له و أدى ما و جب عليه فإن الله لا يحوجه الى الحيل المبتدعة أبدا فإنه سبحانه لم يجعل علينا فى الدين من حرج و إنما بعث نبينا صلى الله عليه و سلم بالحنيفية السمحة فالسبب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص:٢٦٤- ٢٦٥

الأول هو الظلم و السبب الثانى هو عدم العلم و الظلم و الجهل هما و صف للانسان المذكور في قوله {وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}الأحزاب٧٢ [١]

## ملة الإسلام وسط فى الملل والمؤمنون وسط فى شرائع دين الله

-

أن ملة الإسلام وسط في الملل والمؤمنون وسط في شرائع دين الله ومن ذلك أمر الحلال والحرام فإن اليهود كما قال الله تعالى {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً}النساء١٦٠ فلا يأكلون ذوات الظفر مثل الإبل والبط ولا شحم الثرب والكليتين ولا الجدي في لبن أمه إلى غير ذلك مما حرم عليهم من الطعام واللبسا وغيرهما حتى قيل إن المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعا والواجب عليهم مئتان وثمانية وأربعون أمرا وكذلك شدد عليهم في النجاسات حتى لا يؤاكلوا الحائض ولا يجامعوها في البيوت وأما النصارى فاستحلوا الخبائث وجميع المحرمات وباشروا جميع النجاسات وإنما قال لهم المسيح {وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}آل عمران٥٠ ولهذا قال تعالى {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}التوبة٢٩ وأما المؤمنون فكما نعتهم الله به في قوله {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ{١٥٦} الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{١٥٧} الاعراف ١٥٦-١٥٧ [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٤٥-٤٦

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٧٢-٣٧٣

# الطيبات التى أباحها هى المطاعم النافعة للعقول والأخلاق

و قد قال تعالى {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}النساء١٦٠ فعلم أن الطيب و صف للعين و أن الله قد يحرمها مع ذلك عقوبة للعباد كما قال تعالى لما ذكر ما حرمه على بنى إسرائيل {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ}الأنعام١٤٦ و قال تعالى {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ}المائدة٤ فلو كان معنى الطيب هو ما أحل كان الكلام لا فائدة فيه فعلم أن الطيب و الخبيث و صف قائم بالأعيان و ليس المراد به مجرد التذاذ الأكل فإن الإنسان قد يلتذ بما يضره من السموم و ما يحميه الطبيب منه و لا المراد به إلتذاذ طائفة من الأمم كالعرب و لا كون العرب تعودته فإن مجرد كون أمة من الأمم أكله و طاب لها أو كرهته لكونه ليس فى بلادها لا يوجب أن يحرم الله على جميع المؤمنين ما لم تعتده طباع هؤلاء و لا أن يحل لجميع المؤمنين ما تعودوه كيف و قد كانت العرب قد إعتادت أكل الدم و الميتة و غير ذلك و قد حرمه الله تعالى و قد قيل لبعض العرب ما تأكلون قال ما دب و درج إلا أم حبين فقال ليهن أم حبين العافية و نفس قريش كانوا يأكلون خبائث حرمها الله و كانوا يعافون مطاعم لم يحرمها الله و في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قدم له لحم ضب فرفع يده و لم يأكل فقيل أحرام هو يا رسول الله قال لا و لكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه فعلم كراهة قريش و غيرها لطعام من الأطعمة لا يكون موجبا لتحريمه على المؤمنين من سائر العرب و العجم و أيضا فإن النبى صلى الله عليه و سلم و أصحابه لم يحرم احد منهم ما كرهته العرب و لم يبح كل ما أكلته العرب و قوله تعالى {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ}الأعراف١٥٧ إخبار عنه أنه سيفعل ذلك فأحل النبى صلى الله عليه و سلم الطيبات و حرم الخبائث مثل كل ذي ناب من السباع و كل ذي مخلب من الطير فإنها عادية باغية فإذا أكلها الناس و الغاذي شبيه بالمغتذي صار في أخلاقهم شوب من أخلاق هذه البهائم و هو البغي و العدوان كما حرم الدم المسفوح لأنه مجمع قوى النفس الشهوية الغضبية و زيادته توجب طغيان هذه القوى و هو مجرى الشيطان من البدن كما قال النبى صلى الله عليه و سلم إن الشيطان يجري من إبن آدم مجرى الدم و لهذا كان شهر رمضان إذا دخل صفدت الشياطين لأن الصوم جنة فالطيبات التى أباحها هي المطاعم النافعة للعقول و الأخلاق و الخبائث هي الضارة للعقول و الأخلاق كما أن الخمر أم الخبائث لأنها تفسد العقول و الأخلاق فأباح الله للمتقين الطيبات التى يستعينون بها على عبادة ربهم التى خلقوا لها و حرم عليهم الخبائث التى تضرهم في المقصود الذي خلقوا له و أمرهم مع أكلها بالشكر و نهاهم عن تحريمها فمن أكلها و

لم يشكر ترك ما أمر الله به و إستحق العقوبة و من حرمها كالرهبان فقد تعدى حدود الله فإستحق العقوبة قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}البقرة١٧٢ و فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إن الله ليرضي عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها و يشرب الشربة فيحمده عليها و فى حديث آخر الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر و قال تعالى {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}التكاثر٨ أي عن شكره فإنه لا يبيح شيئا و يعاقب من فعله و لكن يسأله عن الواجب الذي أوجبه معه و عما حرمه عليه هل فرط بترك مأمور أو فعل محظور كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}المائدة٨٧ [1]

## أن الله حرم فى كتابه أكل أموالنا بيننا بالباطل

قال تعالى {وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً} النساء١٦١ أن الله حرم فى كتابه أكل أموالنا بيننا بالباطل و ذم الأحبار و الرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل و ذم اليهود على أخذهم الربا و قد نهوا عنه و أكلهم أموال الناس بالباطل و هذا يعم كل ما يؤكل بالباطل فى المعاوضات و التبرعات و ما يؤخذ بغير رضا المستحق و الاستحقاق و أكل المال بالباطل فى المعاوضة نوعان ذكرهما الله في كتابه هما الربا و الميسر فذكر تحريم الربا الذي هو ضد الصدقة في آخر سورة البقرة و سورة آل عمران و الروم و المدثر و ذم اليهود عليه في سورة النساء و ذكر تحريم الميسر فى سورة المائدة و أما الربا فتحريمه فى القرآن أشد و لهذا قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٢٧٨} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ{٢٧٩}البقرة ٢٧٨-٢٧٩ و ذكره النبى صلى الله عليه و سلم فى الكبائر كما خرجاه فى الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه و ذكر الله أنه حرم على الذين هادوا طيبات أحلت لهم بظلمهم و صدهم عن سبيل الله و أخذهم الربا و اكلهم أموال الناس بالباطل و أخبر سبحانه أنه يمحق الربا كما يربى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ١٧٨-١٨١

الصدقات و كلاهما أمر مجرب عند الناس و ذلك أن الربا أصله إنما يتعامل به المحتاج و إلا فالموسر لا يأخذ ألفا حالة بألف و مائتين مؤجلة اذا لم يكن له حاجة لتلك الألف و إنما يأخذ المال بمثله و زيادة الى أجل من هو محتاج إليه فتقع تلك الزيادة ظلما للمحتاج بخلاف الميسر فإن المظلوم فيه غير مفتقر و لا هو محتاج الى العقد و قد تخلو بعض صوره عن الظلم إذا و جد فى المستقبل المبيع على الصفة التى ظناها و الربا فيه ظلم محقق للمحتاج و لهذا كان ضد الصدقة فإن الله لم يدع الأغنياء حتى أوجب عليهم إعطاء الفقراء فإن مصلحة الغنى و الفقير فى الدين و الدنيا لا تتم إلا بذلك فاذا أربى معه فهو بمنزلة من له على رجل دين فمنعه دينه و ظلمه زيادة أخرى و الغريم محتاج الى دينه فهذا من أشد أنواع الظلم و لعظمته لعن النبى صلى الله عليه و سلم آكله و هو الآخذ و موكله و هو المحتاج المعطى للزيادة و شاهديه و كاتبه لاعانتهم عليه ثم إن النبى صلى الله عليه و سلم حرم أشياء مما يخفى فيها الفساد لافضائها الى الفساد المحقق كما حرم قليل الخمر لأنه يدعو الى كثيرها مثل ربا الفضل فإن الحكمة فيه قد تخفى اذ العاقل لا يبيع درهما بدرهمين إلا لاختلاف الصفات مثل كون الدرهم صحيحا و الدرهمين مكسورين أو كون الدرهم مصوغا أو من نقد نافق و نحو ذلك و لذلك خفيت حكمة تحريمه على ابن عباس و معاوية و غيرهما فلم يروا به بأسا حتى أخبرهم الصحابة الأكابر كعبادة بن الصامت و أبي سعيد و غيرهما بتحريم النبى صلى الله عليه و سلم لربا الفضل [1]

## المرابات حرام بالكتاب و السنة و الاجماع

قال تعالى {لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً}النساء١٦٢ المرابات حرام بالكتاب و السنة و الاجماع و قد لعن رسول الله صلى الله عليه و سلم آكل الربا و موكله و كاتبه و شاهديه و لعن المحلل و المحلل له قال الترمذي حديث صحيح فالاثنان ملعونان و ان كان أصل الربا فى الجاهلية أن الرجل يكون له على الرجل المال المؤجل فاذا حل الأجل قال له أتقضى أم تربى فان وفاه و إلا زاد هذا فى الأجل وزاد هذا فى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٢٢-٢٥

المال فيتضاعف المال و الأصل و احد و هذا الربا حرام باجماع المسلمين و أما اذا كان هذا هو المقصود و لكن توسلوا بمعاملة أخرى فهذا تنازع فيه المتأخرون من المسلمين و أما الصحابة فلم يكن بينهم نزاع أن هذا محرم فانما الأعمال بالنيات و الآثار عنهم بذلك كثيرة مشهورة و الله تعالى حرم الربا لما فيه من ضرر المحتاجين و أكل المال بالباطل و هو موجود فى المعاملات الربوية و أما اذا حل الدين و كان الغريم معسرا لم يجز باجماع المسلمين أن يقلب بالقلب لا بمعاملة و لا غيرها بل يجب إنظاره و إن كان موسرا كان عليه الوفاء فلا حاجة الى القلب لا مع يساره و لا مع إعساره و الواجب على و لاة الأمور بعد تعزير المتعاملين بالمعاملة الربوية بأن يأمروا المدين أن يؤدي رأس المال و يسقطوا الزيادة الربوية فان كان معسرا و له مغلات يوفي منها و في دينه منها بحسب الامكان و الله أعلم [١]

## النصوص وافية بجمهور احكام أفعال العباد

قال تعالى {لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً}النساء١٦٢ الصواب الذى عليه جمهور أئمة المسلمين ان النصوص وافية بجمهور احكام أفعال العباد ومنهم من يقول انها وافية بجميع ذلك وإنما انكر ذلك من انكره لأنه لم يفهم معانى النصوص العامة التى هى أقوال الله ورسوله وشمولها لأحكام أفعال العباد وذلك أن الله بعث محمدا بجوامع الكلم فيتكلم بالكلمة الجامعة العامة التى هى قضية كليه وقاعدة عامة تتناول أنواعا كثيرة وتلك الأنواع تتناول أعيانا لا تحصى فبهذا الوجه تكون النصوص محيطة بأحكام أفعال العباد ومن هذا الباب لفظ الربا فانه يتناول كل ما نهى عنه من ربا النسأ وربا الفضل والقرض الذى يجر منفعة وغير ذلك فالنص متناول لهذا كله لكن يحتاج فى معرفة دخول الأنواع والأعيان فى النص الى ما يستدل به على ذلك وهذا الذى يسمى تحقيق المناط [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٤١٨-٤١٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص:٢٨٣- ٢٨٤

## أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون

قال تعالى {لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً}النساء١٦٢ المقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون [١]

## العلم يدل على الايمان

وصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء بالعلم والايمان والاخبات فى قوله {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ{٥٤}الحج٥٤ دليل على أن العلم يدل على الايمان ليس أن أهل العلم ارتفعوا عن درجة الايمان كما يتوهمه طائفة من المتكلمة بل معهم العلم والايمان كما قال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ}الروم٥٦ [٢]

فيقال اسم الايمان تارة يذكر مفردا غير مقرون باسم الاسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما وتارة يذكر مقرونا اما بالاسلام كقوله فى حديث جبرائيل ما الاسلام وما الايمان وكقوله تعالى {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}الأحزاب٣٥ وكذلك ذكر الايمان مع العمل الصالح وذلك فى مواضع من القرآن كقوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}البقرة٨٢ واما مقرونا بالذين أوتوا العلم كقوله تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ}الروم٥٦ وقوله {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}المجادلة١١ وحيث ذكر الذين آمنوا فقد دخل فيهم الذين أوتوا العلم فانهم خيارهم قال تعالى {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ}آل عمران٧

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٣٥٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٢٧٨

وقال {لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} النساء١٦٢ [١]

## الشارع استعمل الأسماء الشرعية مقيدة لا مطلقة

قال تعالى {لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} النساء١٦٢ وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها مثل الزكاة هى اسم لما تزكو به النفس وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها والإحسان الى الناس من أعظم ما تزكو به النفس كما قال تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا} التوبة١٠٣ وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به قال تعالى {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً} النور٢١ وأصل زكاتها بالتوحيد واخلاص الدين لله قال تعالى {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{٦} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ{٧} فصلت ٦-٧ وهى عند المفسرين التوحيد وقد بين النبى مقدار الواجب وسماها الزكاة المفروضة فصار لفظ الزكاة اذا عرف باللام ينصرف اليها لأجل العهد ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد فى

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٤

الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التى يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال فى لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوى أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعى ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{٩} عَبْداً إِذَا صَلَّى{١٠}العلق٩-١٠ وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبى عن الصلاة وقال لئن رأيته يصلى لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه فإذا قيل {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{٩} عَبْداً إِذَا صَلَّى{١٠}العلق٩-١٠ فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال فى اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبى لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتمون بالنبى فإذا قيل لهم {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال فى ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد [1]

فإن الصلاة أيضا تعم الصلاة المفروضة والتطوع وقد يدخل فيها كل ذكر الله إما لفظا وإما معنى قال ابن مسعود رضي الله عنه ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق وقال معاذ بن جبل مدارسة العلم التسبيح فإن الزكاة وإن كانت قد صارت حقيقة شرعية في الزكاة المفروضة فإنها اسم لكل نفع للخلق من نفع بدني أو مالي [2]

## إقامة الصلاة تتضمن إتمامها بحسب الإمكان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٩٩-٣٠٠

[2] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٣٦

وان الله سبحانه و تعالى أمر في كتابه بإقامة الصلاة و ذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى في غير موضع {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}و إقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتي في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال أقيموا الركوع و السجود فإني أراكم من بعد ظهري و في رواية أتموا الركوع و السجود و سيأتي تقرير دلالة ذلك وقد أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين وأخرج أصحاب السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأصحاب المسانيد كمسند احمد وغير ذلك من أصول الإسلام عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ثم سلم عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليك السلام ثم قال ارجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم اجلس حتى تطمئن جالسا ثم افعل ذلك في صلاتك كلها وفي رواية للبخاري إذا قمت إلى الصلاة فاسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر واقرأ بما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تستوي وتطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تستوى قائما ثم افعل ذلك في صلاتك كلها و في رواية له ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تستوي قائما و باقيه مثله و في رواية و إذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك و ما انتقصت من هذا فإنما انتقصته من صلاتك وعن رفاعة بن رافع رضي الله عنه أن رجلا دخل المسجد فذكر الحديث و قال فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه لا تتم صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ فيضع الوضوء مواضعه ثم يكبر و يحمد الله عز و جل و يثني عليه و يقرأ بما شاء من القرآن ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن راكعا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قائما ثم يسجد حتى يطمئن ساجدا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قاعد ثم يقول الله أكبر ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل ذلك فقد تمت صلاته و في رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز و جل فيغسل وجهه و يديه إلى المرفقين و يمسح برأسه و رجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله و يحمده ثم يقرأ من القرآن ما أذن له و تيسر و ذكر نحو اللفظ الأول و قال ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه و ربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله و تسترخي ثم يكبر فيستوي قاعدا على مقعدته و يقيم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ

ثم قال لا تتم صلاة لأحدكم حتى يفعل ذلك رواه أهل السنن أبو داود و النسائي و ابن ماجه و الترمذي و قال حديث حسن و الروايتان لفظ أبي داود و في رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم اقرأ بأم القرآن و بما شاء الله أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك على ركبتيك و امدد ظهرك و قال إذا سجدت فمكن لسجودك فإذا رفعت فاقعد على فخذك اليسرى وفي رواية أخرى قال إذا أنت قمت في صلاتك فكبر الله عز و جل ثم اقرأ ما تيسر عليك من القرآن و قال فيه فإذا جلست في وسط الصلاة فاطمئن و افترش فخذك اليسرى ثم تشهد ثم إذا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ من صلاتك وفي رواية أخرى قال فتوضأ كما أمرك الله ثم تشهد فأتم ثم كبر فإن كان معك قرآن فاقرأ به و إلا فاحمد الله عز و جل و كبره و هلله و قال فيه و إن انتقصت منه شيئا انتقصت من صلاتك فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر ذلك المسيء في صلاته بأن يعيد الصلاة و أمر الله و رسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب و أمره إذا قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع و السجود و أمره المطلق على الإيجاب و أيضا قال له فإنك لم تصل فنفى أن يكون عمله الأول صلاة و العمل لا يكون منفيا إلا إذا انتفى شيء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجبه الله عز و جل فإنه لا يصح نفيه لانتفاء شيء من المستحبات التي ليست بواجبة [١]

## الصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال

وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر

---

١

الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة [1]

فالصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال و تبين ذلك من وجوه نذكر بعضها مما انتزعه الإمام احمد و غيره منها أن كل عبادة من العبادات فإن الصلاة مقرونة بها فإن العبادة تعم جميع الطاعات و قد خصت الصلاة بذلك الأمر و الاصطبار عليها فإذا ذكرت الزكاة قيل {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}النساء١٦٢ و إذا ذكرت المناسك قيل {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}الكوثر٢ {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}الأنعام١٦٢ و إن ذكر الصوم قيل {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ}البقرة٤٥فان الصبر المعدود في المثاني هو الصوم قال صلى الله عليه و سلم صوم شهر الصبر و ثلاثة أيام من كل شهر [2]

جعل الله الاسلام مبينا على أركان خمسة ومن آكدها الصلاة وهي خمسة فروض وقرن معها الزكاة فمن آكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة ففي الصلاة عبادته وفي الزكاة الاحسان الى خلقه فكرر فرض الصلاة في القرآن في غير آيه ولم يذكرها إلا قرن معها الزكاة من ذلك قوله تعالى {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ}البقرة٤٣ وقال {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}التوبة١١ وقال {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}البينة٥ وفي الصحيحين من حديث أبى هريرة رواه مسلم من حديث عمر أن جبريل سأل النبى عن الاسلام فقال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وعنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فاذا فعلوا ذلك عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ولما بعث معاذا الى اليمن قال له إنك تقدم على

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤٣٠

[2] شرح العمدة ج: ٤ ص: ٩٠

قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوك لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب

فصل وجاء ذكر الصلاة في القرآن مجملا فبينه الرسول وان بيانه أيضا من الوحي لأنه سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة قال حسان بن عطية كان جبريل ينزل على النبي بالسنة يعلمه إياها كما يعلمه القرآن فقد سمى الله الزكاة صدقة وزكاة ولفظ الزكاة في اللغة يدل على النمو والزرع يقال فيه زكا إذا نما ولا ينموا إلا إذا خلص من الدغل فلهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا} الشمس٩ {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى} الأعلى١٤ نفس المتصدق تزكو وماله يزكو يطهر ويزيد في المعنى[١]

## بالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية

وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثاني الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا جمع الله بين الصلاة والصبر وأما قرانه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جدا قال تعالى {لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً} النساء١٦٢ فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة يدخل في الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه وفي الزكاة بالإحسان إلى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كل معروف صدقة فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة ففي الصحيحين عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال قال النبي

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص:٦- ٨

صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئا قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئا قدمه فينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل فإن لم يجد فبكلمة طيبة وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقبي [1]

## الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والقدوة

وقد ثبت فى الصحيح عن عثمان أنه قال إن القرآن نزل بلغة قريش وقال للرهط القرشيين الذين كتبوا المصحف هم وزيد إذا إختلفتم إلا فى حرف وهو التابوت فرفعوه إلى عثمان فأمر أن يكتب بلغة قريش رواه البخارى فى صحيحه وعن انس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة إختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب إختلاف اليهود والنصارى فأرسل إلى حفصة ان أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبدالله ابن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا إختلفتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فإكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق وهذه الصحيفة التى أخذها من عند حفصة هى التى أمر أبوبكر وعمر بجمع القرآن فيها لزيد بن ثابت وحديثه معروف فى الصحيحين وغيرهما وكانت بخطه فلهذا أمر عثمان أن يكون هو أحد من ينسخ المصاحف من تلك الصحف ولكن جعل معه ثلاثة من قريش ليكتب بلسانهم فلم يختلف لسان قريش والأنصار إلا فى لفظ التابوه و التابوت فكتبوه التابوت بلغة قريش وهذا يبين أن المصاحف التى نسخت كانت مصاحف متعددة وهذا معروف مشهور وهذا مما يبين غلط من قال فى بعض الألفاظ إنه غلط

---

[1] السياسة الشرعية ج: ١ ص: ١١٢

من الكاتب أو نقل ذلك عن عثمان فإن هذا ممتنع لوجوه منها تعدد المصاحف وإجتماع جماعة على كل مصحف ثم وصول كل مصحف إلى بلد كبير فيه كثير من الصحابة والتابعين يقرؤون القرآن ويعتبرون ذلك بحفظهم والإنسان إذا نسخ مصحفا غلط فى بعضه عرف غلطه بمخالفة حفظه القرآن وسائر المصاحف فلو قدر أنه كتب كاتب مصحفا ثم نسخ سائر الناس منه من غير إعتبار للأول والثانى أمكن وقوع الغلط فى هذا وهنا كل مصحف إنما كتبه جماعة ووقف عليه خلق عظيم ممن يحصل التواتر بأقل منهم ولو قدر أن الصحيفة كان فيها لحن فقد كتب منها جماعة لا يكتبون إلا بلسان قريش ولم يكن لحنا فامتنعوا ان يكتبوه إلا بلسان قريش فكيف يتفقون كلهم على أن يكتبوا {إِنْ هَذَانِ}طه٦٣ وهم يعلمون أن ذلك لحن لا يجوز فى شيء من لغاتهم أو {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ}النساء١٦٢ وهم يعلمون أن ذلك لحن كما زعم بعضهم قال الزجاج فى قوله {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ}النساء١٦٢ قول من قال إنه خطأ بعيد جدا لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والقدوة فكيف يتركون شيئا يصلحه غيرهم فلا ينبغى أن ينسب هذا إليهم وقال ابن الأنبارى حديث عثمان لا يصح لأنه غير متصل ومحال أن يؤخر عثمان ليصلحه من بعده قلت ومما يبين كذب ذلك أن عثمان لو قدر ذلك فيه فإنما رأى ذلك فى نسخة واحدة فأما أن تكون جميع المصاحف إتفقت على الغلط وعثمان قد رآه فى جميعا وسكت فهذا ممتنع عادة وشرعا من الذين كتبوا ومن عثمان ثم من المسلمين الذين وصلت إليهم المصاحف رأوا ما فيها وهم يحفظون القرآن ويعلمون أن فيه لحنا لا يجوز فى اللغة فضلا عن التلاوة وكلهم يقر هذا المنكر لا يغيره أحد فهذا مما يعلم بطلانه عادة ويعلم من دين القوم الذين لا يجتمعون على ضلالة بل يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر أن يدعوا فى كتاب الله منكرا لا يغيره أحد منهم مع أنهم لا غرض لأحد منهم فى ذلك ولو قيل لعثمان مر الكاتب أن يغيره لكان تغييره من أسهل الأشياء عليه فهذا ونحوه مما يوجب القطع بخطأ من زعم أن فى المصحف لحنا أو غلطا وإن نقل ذلك عن بعض الناس ممن ليس قوله حجة فالخطأ جائز عليه فيما قاله بخلاف الذين نقلوا ما فى المصحف وكتبوه وقرأوه فإن الغلط ممتنع عليهم فى ذلك وكما قال عثمان إذا إختلفتم فى شيء فاكتبوه بلغة قريش وكذلك قال عمر لابن مسعود أقرىء الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل فإن القرآن لم ينزل بلغة هذيل وقوله تعالى فى القرآن

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ}إبراهيم٤ يدل على ذلك فإن قومه هم قريش كما قال{وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ}الأنعام٦٦ [١]

## اسم الوحى والكلام فيهما عموم وخصوص

فإنه سبحانه قال {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ} النساء ١٦٣إلى قوله {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ ففضل موسى بالتكليم على غيره ممن اوحى اليهم وهذا يدل على أمور على ان الله يكلم عبده تكليما زائدا عن الوحى الذى هو قسيم التكليم الخاص فان لفظ التكليم والوحى كل منهما ينقسم إلى عام وخاص فالتكليم هو المقسوم فى قوله {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً}الشورى٥١ والتكليم المطلق هو قسيم الوحى الخاص ليس هو قسما منه وكذلك لفظ الوحى قد يكون عاما فيدخل فيه التكليم الخاص كما فى قوله لموسى {فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}طه١٣ وقد يكون قسيم التكليم الخاص كما فى سورة الشورى وهذا يبطل قول من يقول الكلام معنى واحد قائم بالذات فانه حنيئذ لا فرق بين التكليم الذى خص به موسى والوحى العام الذى يكون لآحاد العباد ومثل هذا قوله فى الآية الآخرى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}الشورى٥١ فانه فرق بين الايحاء وبين التكليم من وراءالحجاب وبين ارسال رسول يوحى بإذنه ما يشاء فدل على ان التكليم من وراء حجاب كما كلم موسى أمر غير الايحاء وأيضا فقوله {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}الجاثية٢ وقوله {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}غافر٢ وقوله {تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}فصلت٢ وأمثال ذلك يدل على انه منزل من الله لا من غيره وكذلك قوله {بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}المائدة٦٧ فانه يدل على اثبات أن ما أنزل اليه من ربه وانه مبلغ مأمور بتبليغ ذلك وأيضا فهم يقولون انه معنى واحد فان كان موسى سمع جميع المعنى فقد سمع جميع كلام الله وان سمع بعضه فقد تبعض وكلاهما ينقض قولهم فانهم يقولون انه

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٢٥١- ٢٥٣

معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض فان كان ما يسمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل منهم علم جميع كلام الله وكلامه متضمن لجميع خبره وجميع أمره فيلزم أن يكون كل واحد ممن كلمه الله أو أنزل عليه شيئا من كلامه عالما بجميع أخبار الله وأوامره وهذا معلوم الفساد بالضرورة وان كان الواحد من هؤلاء انما يسمع بعضه فقد تبعض كلامه وذلك يناقض قولهم وايضا فقوله {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ وقوله {وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}الأعراف١٤٣ وقوله {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً}مريم٥٢ وقوله {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى{١١} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{١٢} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى{١٣}طه ١١-١٣ الآيات دليل على تكليم سمعه موسى والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة ومن قال انه يسمع فهو مكابر ودليل على انه ناداه والنداء لا يكون الا صوتا مسموعا ولا يعقل فى لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع لا حقيقة ولا مجازا وأيضا فقد قال تعالى {فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}النمل٨ وقوله {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}القصص٣٠ وقال {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{١٥} إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{١٦}النازعات١٥-١٦ وقال {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى{١١} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ {١٢} طه ١١-١٢ وفى هذا دليل على انه حينئذ نودى ولم يناد قبل ذلك ولما فيها من معنى الظرف [1]

وعلم باجماع الامة ما استفاضت به السنن عن النبى من تخصيص موسى بتكليم الله اياه دل ذلك على أن الذى حصل له ليس من جنس الالهامات وما يدرك بالقلوب انما هو كلام مسموع بالآذان ولا يسمع بها الا ما هو صوت وأن مفسرى القرآن واهل السنن والآثار واتباعهم من السلف كلهم متفقون على أن الله كلم موسى بصوت كما فى الآثار المعروفة عنهم فى الكتب المأثورة عن السلف مثل ما ذكره ابن جرير وأمثاله فى تفسير قوله {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}سبأ٢٣ وتفسير كلام الله لموسى وغير ذلك وكما ذكره

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ١٢٨-١٣١ و مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص:٢٢٤- ٢٢٥ و مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٥٥٩ و مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٤٧٧ و مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٥٣٢ و مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٣٩-٤٠

عبدالله بن أحمد والخلال والطبرانى وأبو الشيخ وغيرهم فى كتب السنة وكما ذكره الامام أحمد وغيره فى كتب الزهد وقصص الأنبياء [1]

## تكليم الله لعباده على ثلاثة أوجه

ومن تأمل نصوص الامام أحمد فى هذا الباب (القران كلام الله غير مخلوق )وجدها من أسد الكلام وأتم البيان ووجد كل طائفة منتسبة إلى السنة قد تمسكت منها بما تمسكت ثم قد يخفى عليها من السنة فى مواضع آخر ما ظهر لبعضها فتنكره ومنشأ النزاع بين أهل الأرض والاضطراب العظيم الذى لا يكاد ينضبط فى هذا الباب يعود إلى أصلين مسألة تكلم الله بالقرآن وسائر كلامه و مسألة تكلم العباد بكلام الله وسبب ذلك أن التكلم والتكليم له مراتب ودرجات وكذلك تبليغ المبلغ لكلام غيره له وجوه وصفات من الناس من يدرك من هذه الدرجات والصفات بعضها وربما لم يدرك إلا أدناها ثم يكذب بأعلاها فيصيرون مؤمنين ببعض الرسالة كافرين ببعضها ويصير كل من الطائفتين مصدقة بما أدركته مكذبة بما مع الآخرين من الحق وقد بين الله فى كتابه وسنة رسوله ذلك فقال تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}الشورى٥١ وقال تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{١٦٣} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{١٦٤}النساء١٦٣-١٦٤ وقال {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}البقرة٢٥٣ ففى هذه الآية خص بالتكليم بعضهم وقد صرح فى الآية الأخرى بأنه كلم موسى تكليما واستفاضت الآثار بتخصيص موسى بالتكليم فهذا التكليم الذى خص به موسى على نوح وعيسى ونحوهما ليس هو التكليم العام الذى قال فيه{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}الشورى٥١ فإن هذه الآية قد جمع فيها جميع

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٥٣٢

درجات التكليم كما ذكر ذلك السلف فروينا فى كتاب الابانة لأبى نصر السجزى وكتاب البيهقى وغيرهما عن عقبة قال سئل إبن شهاب عن هذه الآية {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}الشورى٥١ قال بن شهاب نزلت هذه الآية تعم من أوحى الله إليه من البشر فكلام الله الذى كلم به موسى من وراء حجاب والوحى ما يوحى الله إلى النبى من أنبيائه عليهم السلام ليثبت الله عز وجل ما أراد من وحيه فى قلب النبى ويكتبه وهو كلام الله ووحيه ومنه ما يكون بين الله وبين رسله ومنه ما يتكلم به الأنبياء ولا يكتبونه لأحد ولا يأمرون بكتابته ولكنهم يحدثون به الناس حديثا ويبينونه لهم لأن الله أمرهم أن يبينوه للناس ويبلغوهم إياه ومن الوحى ما يرسل الله به من يشاء ممن اصطفاه من ملائكته فيكلمون به انبياءه من الناس ومن الوحى ما يرسل الله به من يشاء من الملائكة فيوحيه وحيا فى قلب من يشاء من رسله قلت فالأول الوحى وهو الاعلام السريع الخفى إما فى اليقظة وإما فى المنام فان رؤيا الأنبياء وحى ورؤيا المؤمنين جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة كما ثبت ذلك عن النبى فى الصحاح وقال عبادة بن الصامت ويروى مرفوعا رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام وكذلك فى اليقظة فقد ثبت فى الصحيح عن النبى أنه قال قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فان يكن فى أمتى فعمر وفى رواية فى الصحيح مكلمون وقد قال تعالى {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي}المائدة١١١ وقال تعالى {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ}القصص٧ بل قد قال تعالى {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا}فصلت١٢ وقال تعالى{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ}النحل٦٨ فهذا الوحى يكون لغيرالأنبياء ويكون يقظة ومناما وقد يكون بصوت هاتف يكون الصوت فى نفس الانسان ليس خارجا عن نفسه يقظة ومناما كما قد يكون النور الذى يراه أيضا فى نفسه فهذه الدرجة من الوحى التى تكون فى نفسه من غير ان يسمع صوت ملك فى أدنى المراتب وآخرها وهى أولها باعتبار السالك وهى التى أدركتها عقول الالهيين من فلاسفة الاسلام الذين فيهم اسلام وصبوء فآمنوا ببعض صفات الأنبياء والرسل وهو قدر مشترك بينهم وبين غيرهم ولكن كفروا بالبعض فتجد بعض هؤلاء يزعم أن النبوة مكتسبة أو أنه قد استغنى عن الرسول أو ان غير الرسول قد يكون أفضل منه وقد يزعمون أن كلام الله لموسى كان من هذا النمط وأنه إنما كلمه من سماء عقله وان الصوت الذى سمعه كان فى نفسه أو أنه سمع المعنى فائضا من العقل الفعال أو أن أحدهم قد يصل إلى مقام موسى ومنهم من يزعم أنه يرتفع فوق موسى ويقولون إن موسى سمع الكلام بواسطة ما فى نفسه من الأصوات ونحن نسمعه

مجردا عن ذلك ومن هؤلاء من يزعم أن جبريل الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الخيال النورانى الذى يتمثل فى نفسه كما يتمثل فى نفس النائم ويزعمون أن القرآن أخذه محمد عن هذا الخيال المسمى بجبريل عندهم ولهذا قال ابن عربى صاحب الفصوص و الفتوحات المكية أنه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول وزعم أن مقام النبوة دون الولاية وفوق الرسالة فان محمدا بزعمهم الكاذب يأخذ عن هذا الخيال النفسانى الذى سماه ملكا وهو يأخذ عن العقل المجرد الذى أخذ منه هذا الخيال ثم هؤلاء لا يثبتون لله كلاما اتصف به فى الحقيقة ولا يثبتون أنه قصد إفهام أحد بعينه بل قد يقولون لا يعلم أحدا بعينه إذ علمه وقصده عندهم إذا اثبتوه لم يثبتوه إلا كليا لا يعين أحدا بناء على أنه يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات إلا على وجه كلى وقد يقرب أو يقرب من مذهبهم من قال باسترسال علمه على أعيان الأعراض وهذا الكلام مع أنه كفر باتفاق المسلمين فقد وقع فى كثير منه من له فضل فى الكلام والتصوف ونحو ذلك ولولا أنى أكره التعيين فى هذا الجواب لعينت أكابر من المتأخرين وقد يكون الصوت الذى يسمعه خارجا عن نفسه من جهة الحق تعالى على لسان ملك من ملائكته أو غير ملك وهو الذى أدركته الجهمية من المعتزلة ونحوهم واعتقدوا أنه ليس لله تكليم إلا ذلك وهو لا يخرج عن قسم الوحى الذى هو أحد أقسام التكليم أو قسيم التكليم بالرسول وهو القسم الثانى حيث قال تعالى {أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}الشورى٥١ فهذا إيحاء الرسول وهو غيرالوحى الأول من الله الذى هو أحد أقسام التكليم العام وإيحاء الرسول أيضا أنواع ففى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هاشم سأل النبى كيف يأتيك الوحى قال أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فاعى ما يقول قالت عائشة رضى الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا فأخبر أن نزول الملك عليه تارة يكون فى الباطن بصوت مثل صلصلة الجرس وتارة يكون متمثلا بصورة رجل يكلمه كما كان جبريل يأتى فى صورة دحية الكلبى وكما تمثل لمريم بشرا سويا وكما جاءت الملائكة لابراهيم وللوط فى صورة الآدميين كما أخبر الله بذلك فى غير موضع وقد سمى الله كلا النوعين إلقاء الملك وخطابه وحيا لما فى ذلك من الخفاء فانه إذا رآه يحتاج أن يعلم أنه ملك وإذا جاء فى مثل صلصلة الجرس يحتاج إلى فهم ما فى الصوت و القسم الثالث التكليم من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام ولهذا سمى الله هذا نداء و نجاء فقال تعالى {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً}مريم٥٢ وقال تعالى

{فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى{١١} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{١٢} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى{١٣} طه١١-١٣ وهذا التكليم مختص ببعض الرسل كما قال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ}البقرة٢٥٣ وقال تعالى {وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}الأعراف١٤٣ وقال بعد ذكر إيحائه إلى الأنبياء {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ فمن جعل هذا من جنس الوحى الأول كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة ومن تكلم فى التصوف على طريقهم كما فى مشكاة الأنوار وكما فى كتاب خلع النعلين وكما فى كلام الاتحادية كصاحب الفصوص وأمثاله فضلاله ومخالفته للكتاب والسنة والاجماع بل وصريح المعقول من أبين الأمور وكذلك من زعم أن تكليم الله لموسى إنما هو من جنس الالهام والوحى وان الواحد منا قد يسمع كلام الله كما سمعه موسى كما يوجد مثل ذلك فى كلام طائفة من فروخ الجهمية الكلابية ونحوهم فهذا أيضا من أعظم الناس ضلالا وقد دل كتاب الله على أن اسم الوحى والكلام فى كتاب الله فيهما عموم وخصوص فإذا كان أحدهما عاما اندرج فيه الآخر كما اندرج الوحى فى التكليم العام فى هذه الآية واندرج التكليم فى الوحى العام حيث قال تعالى {فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}طه١٣ واما التكليم الخاص الكامل فلا يدخل فيه الوحى الخاص الخفى الذى يشترك فيه الأنبياء وغيرهم كما أن الوحى المشترك الخاص لا يدخل فيه التكليم الخاص الكامل كما قال تعالى لزكريا {آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً}مريم١٠ ثم قال تعالى {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ}مريم١١ فالايحاء ليس بتكليم ولا يناقض الكلام وقوله تعالى فى الآية الأخرى {أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً}آل عمران٤١ أن جعل معنى الاستثناء منقطعا اتفق معنى التكليم فى الآيتين وان جعل متصلا كان التكليم مثل التكليم فى سورة الشورى وهو التكليم العام وقد تبين أنه إنما كلم موسى تكليما خاصا كاملا بقوله {مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ}البقرة٢٥٣ مع العلم بأن الجميع أوحى إليهم وكلمهم التكليم العام وبأنه فرق بين تكليمه وبين الايحاء إلى النبيين وكذا التكليم بالمصدر وبأنه جعل التكليم من وراء حجاب قسما غير إيحائه وبما تواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من تكليمه الخاص لموسى منه إليه وقد ثبت أنه كلمه بصوت سمعه موسى كما جاءت الآثار بذلك عن سلف الأمة وأئمتها موافقة لما دل عليه الكتاب والسنة وغلطت هنا الطائفة الثالثة الكلابية فاعتقدت أنه إنما أوحى إلى موسى عليه السلام معنى مجردا عن صوت واختلف هل يسمع ذلك فقال بعضهم يسمع ذلك المعنى بلطيفة خلقها فيه قالوا أن السمع والبصر والشم والذوق واللمس معان تتعلق بكل موجود كما قال ذلك الأشعرى وطائفة وقال بعضهم

لم يسمع موسى كلام الله فانه عنده معنى والمعنى لا يسمع كما قال ذلك القاضى أبو بكر وطائفة وهذا الذى أثبتوه فى جنس الوحى العام الذى فرق الله عز وجل بينه وبين تكليمه لموسى عليه السلام حيث قال {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}النساء١٦٣ إلى قوله {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ وفرق بين إيحائه وبين تكليمه من وراء حجاب حيث قال {إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ}الشورى٥١ وحيث فرق بين الرسول المكلم وغيره بقوله تعالى {مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ}البقرة٢٥٣ لكن هؤلاء يثبتون أن لله كلاما هو معنى قائم بنفسه هو متكلم به وبهذا صاروا خيرا ممن لا يثبت له كلاما إلا ما أوحى فى نفس النبى من المعنى أو ما سمعه من الصوت المحدث ولكن لفرط ردهم على هؤلاء زعموا أنه لا يكون كلاما لله بحال إلا ما قام به فانه لا يقوم به إلا المعنى فانكروا أن تكون الحروف كلام الله وأن يكون القرآن العربى كلام الله وجاءت الطائفة الرابعة فردوا على هؤلاء دعواهم أن يكون الكلام مجرد المعنى فزعم بعضهم أن الكلام ليس إلا الحرف أو الصوت فقط وإن المعانى المجردة لا تسمى كلاما أصلا وليس كذلك بل الكلام المطلق اسم للمعانى والحروف جميعا وقد يسمى أحدهما كلاما مع التقييد كما يقول النحاة الكلام اسم وفعل وحرف فالمقسوم هنا اللفظ وكما قال الحسن البصرى ما زال أهل العلم يعودون بالتكلم على التفكر وبالتفكر على التدبر ويناطقون القلوب حتى نطقت وكما قال الجنيد التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب فجعلوا للقلب نطقا وقوة كما جعل النبى للنفس حديثا فى قوله إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ثم قال ما لم تتكلم به أو تعمل به فعلم أن الكلام المطلق هو ما كان بالحروف المطابقة للمعنى وإن كان مع التقييد قد يقع بغير ذلك حتى إنهم قد يسمون كل إفهام ودلالة يقصدها الدال قولا سواء كانت باللفظ أو الاشارة أو العقد عقد الاصابع وقد يسمون أيضا الدلالة قولا وإن لم تكن بقصد من الدال مثل دلالة الجامدات كما يقولون قالت اتساع بطنه وامتلأ الحوض وقال قطنى قطنى رويدا قد ملأت بطنى وقالت له العينان سمعا وطاعة ويسمى هذا لسان الحال ودلالة الحال ومنه قولهم سل الأرض من فجر أنهارك وسقى ثمارك وغرس أشجارك فان لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا ومنه قولهم تخبرنى العينان مالقلب كاتم ولا خير فى الحيا والنظر الشرز ومنه قولهم سألت الدار تخبرنى عن الأحباب ما فعلوا فقا لي أناخ القوم أياما وقد رحلوا وقد يسمى شهادة وقد زعم طائفة ان ما ذكر فى القرآن من تسبيح المخلوقات هو من هذا الباب وهو دلالتها على الخالق تعالى ولكن الصواب ان ثم تسبيحا آخر زائدا على ما فيها من الدلالة كما قد سبق فى موضع آخر لكن هذا كله يكون مع التقيد والقرينة

ولهذا يصح سلب الكلام والقول عن هذه الأشياء كما قال تعالى{أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً}الأعراف١٤٨وقال تعالى{أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً}طه٨٩ وقال الخليل عليه السلام {فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ}الأنبياء٦٣ وقال تعالى {هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ{٣٥} وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ{٣٦}المرسلات وقال تعالى {لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ}النبأ٣٨ وقال تعالى {لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}الأنبياء٢٧ وهذا معلوم بالضرورة والتواتر وهو سلب القول والكلام عن الحى الساكت والعاجز فكيف عن الموات وقد علم ان الله تعالى موصوف بغاية صفات الكمال وان الرسل قد أثبتوا أنه متكلم بالكلام الكامل التام فى غاية الكمال فمن لم يجعل كلامه إلا مجرد معنى أو مجرد حروف أو مجرد حروف وأصوات فما قدر الله حق قدره ومن لم يجعل كلامه إلا ما يقوم بغيره فقد سلبه الكمال وشبهه بالموت وكذلك من لم يجعله يتكلم بمشيئته أو جعله يتكلم بمشيئته وقدرته ولكن جعل الكلام من جملة المخلوقات وجعله يوصف بمخلوقاته أو جعله يتكلم بعد أن لم يكن متكلما فكل من هذه الأقوال وإن كان فيه إثبات بعض الحق ففيه رد لبعض الحق ونقص لما يستحقه الله من الكمال وكل من هؤلاء أدرك من درجات الكلام وأنواعه بعض الحق [1]

والرسول إذا بلغه إلى الناس وبلغه الناس عنه كان مسموعا سماعا مقيدا بواسطة المبلغ كما قال تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ}التوبة٦ فهو مسموع مبلغ عنه بواسطة المخلوق بخلاف سماع موسى عليه السلام وان كان العبد يسمع كلام الرسول من المبلغين عنه فليس ذلك كالسماع منه فأمر الله تعالى أعظم ولهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها على ان القرآن الذى يقرأه المسلمون كلام الله تعالى ولم يقل أحد منهم أن اصوات العباد ولا مداد المصاحف قديم مع اتفاقهم على ان المثبت بين لوحى المصحف كلام الله وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم فالكلام الذى يقرؤه المسلمون كلام الله والأصوات التى يقرؤون بها أصواتهم والله أعلم [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص:٣٩٥- ٤٠٧ و الصفدية ج: ١ ص: ٢٠٤ و مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٢٢٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٥٥٩

## ان الله سبحانه لم يزل متكلما إذا شاء وانه يتكلم بمشيئته وقدرته

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه فجميعه كلام الله فلا يقال بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله وهو سبحانه نادى موسى بصوت سمعه موسى فانه قد أخبر انه نادى موسى فى غير موضع من القرآن كما قال تعالى {هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{١٥} إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{١٦} النازعات١٥-١٦ والنداء لا يكون إلا صوتا باتفاق أهل اللغة وقد قال تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً {١٦٣} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{١٦٤}النساء١٦٣-١٦٤ فقد فرق الله بين إيحائه إلى النبيين وبين تكليمه لموسى فمن قال ان موسى لم يسمع صوتا بل ألهم معناه لم يفرق بين موسى وغيره وقد قال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}البقرة٢٥٣ وقال تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ}الشورى٥١ فقد فرق بين الايحاء والتكلم من وراء حجاب كما كلم الله موسى فمن سوى بين هذا وهذا كان ضالا وقد قال الامام أحمد رضى اله عنه وغيره من الأئمة لم يزل الله متكلما إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشىء بعد شىء كما قال تعالى {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى}طه١١ فناداه حين أتاها ولم يناده قبل ذلك وقال تعالى {فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ}الأعراف٢٢ فهو سبحانه ناداهما حين أكلا منها ولم ينادهما قبل ذلك وكذلك قال تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}الأعراف١١ بعد أن خلق آدم وصوره ولم يأمرهم قبل ذلك وكذا قوله {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}آل عمران٥٩ فأخبر انه قال له كن فيكون بعد أن خلقه من تراب ومثل هذا الخبر فى القرآن كثير يخبر انه تكلم فى وقت معين ونادى فى وقت معين وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ}البقرة١٥٨ وقال نبدأ بما بدأ الله به فأخبر ان الله بدأ بالصفا قبل المروة والسلف اتفقوا على ان كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود فظن بعض الناس ان مرادهم انه قديم العين ثم قالت طائفة هو معنى واحد هو الأمر بكل مأمور والنهى عن كل

منهى والخبر بكل مخبر إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة وإن عبر عنه بالسريانية كان انجيلا وهذا القول مخالف للشرع والعقل وقالت طائفة هو حروف وأصوات قديمة الاعيان لازمة لذات الله لم تزل لازمة لذاته وإن الباء والسين والميم موجودة مقترنة بعضها ببعض معا أزلا وأبدا لم تزل ولا تزال لم يسبق منها شىء شيئا وهذا أيضا مخالف للشرع والعقل وقالت طائفة ان الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته وانه فى الأزل كان متكلما بالنداء الذى سمعه موسى وإنما تجدد استماع موسى لا أنه ناداه حين أتى الوادى المقدس بل ناداه قبل ذلك بما لا يتناهى ولكن تلك الساعة سمع النداء وهؤلاء وافقوا الذين قالوا ان القرآن مخلوق فى أصل قولهم فان أصل قولهم ان الرب لا تقوم به الامور الاختيارية فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته وقالوا هذه حوادث والرب لا تقوم به الحوادث فخالفوا صحيح المنقول وصريح المعقول واعتقدوا أنهم بهذا يردون على الفلاسفة ويثبتون حدوث العالم وأخطأوا فى ذلك فلا للاسلام نصروا ولاللفلاسفة كسروا وادعوا ان الرب لم يكن قادرا فى الازل على كلام يتكلم به ولا فعل يفعله وانه صار قادرا بعد ان لم يكن قادرا بغير أمر حدث أو يغيرون العبارة فيقولون لم يزل قادرا لكن يقولون ان المقدور كان ممتنعا وإن الفعل صار ممكنا له بعد أن صار ممتنعا عليه من غير تجدد شىء وقد يعبرون عن ذلك بأن يقولوا كان قادرا فى الأزل على ما يمكن فيما لا يزال لا على مالا يمكن فى الأزل فيجمعون بين النقيضين حيث يثبتونه قادرا فى حال كون المقدور عليه ممتنعا عندهم ولم يفرقوا بين نوع الكلام والفعل وبين عينه كما لم يفرق الفلاسفة بين هذا وهذا بل الفلاسفة ادعوا ان مفعوله المعين قديم بقدمه فضلوا فى ذلك وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول فإن الادلة لا تدل على قدم شىء بعينه من العالم بل تدل على ان ما سوى الله مخلوق حادث بعد ان لم يكن إذ هو فاعل بقدرته ومشيئته كما تدل على ذلك الدلائل القطعية والفاعل بمشيئته لا يكون شىء من مفعوله لازما لذاته بصريح العقل وإتفاق عامة العقلاء بل وكل فاعل لا يكون شىء من مفعوله لازما لذاته ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين له ولو قدر أنه فاعل بغير ارادة فكيف بالفاعل بالارادة وما يذكر بأن المعلول يقارن علته انما يصح فيما كان من العلل يجرى مجرى الشروط فان الشرط لا يجب ان يتقدم على المشروط بل قد يقارنه كما تقارن الحياة العلم وأما ما كان فاعلا سواء سمى علة أو لم يسم علة فلا بد ان يتقدم على الفعل المعين والفعل المعين لا يجوز ان يقارنه شىء من مفعولاته ولا يعرف العقلاء فاعلا قط يلزمه مفعول معين وقول القائل حركت يدى فتحرك الخاتم هو من باب الشرط لا من باب الفاعل ولأنه لو كان العالم قديما لكان فاعله موجبا بذاته فى الأزل ولم يتأخر عنه موجبه ومقتضاه ولو

كان كذلك لم يحدث شيء من الحوادث وهذا خلاف المشاهدة وإن كان هو سبحانه لم يزل قادرا على الكلام والفعل بل لم يزل متكلما إذ شاء فاعلا لما يشاء ولم يزل موصوفا بصفات الكمال منعوتا بنعوت الجلال ولاكرام والعالم فيه من الاحكام والاتقان ما دل على علم الرب وفيه من الاختصاص مادل على مشيئته وفيه من الإحسان ما دل عل رحمته وفيه من العواقب الحميدة ما دل على حكمته وفيه من الحوادث ما دل على قدرة الرب تعالى مع ان الرب مستحق لصفات الكمال لذات فإنه مستحق لكل كمال ممكن الوجود لا نقص فيه منزه عن كل نقص وهو سبحانه ليس له كفؤ فى شيء من أموره فهو موصوف بصفات الكمال على وجه التفصيل منزه فيها عن التشبيه والتمثيل ومنزه عن النقائص مطلقا فان وصفه بها من أعظم الاباطيل وكماله من لوازم ذاته المقدسة لا يستفيده من غيره بل هو المنعم عل خلقه بالخلق والإنشاء وما جعله فيهم من صفات الأحياء وخالق صفات الكمال أحق بها ولا كفؤ له فيها وأصل اضطراب الناس فى مسألة كلام الله ان الجهمية والمعتزلة لما ناظرت الفلاسفة فى مسألة حدوث العالم اعتقدوا أن ما يقوم به من الصفات والأفعال المتعاقبة لا يكون إلا حادثا بناء على أن مالا يتناهى لا يمكن وجوده والتزموا ان الرب كان فى الأزل غير قادر على الفعل والكلام بل كان ذلك ممتنعا عليه وكان معطلا عن ذلك وقد يعبرون عن ذلك بانه كان قادرا فى الأزل على الفعل فيما لا يزال مع إمتناع الفعل عليه فى الأزل فيجمعون بين النقيضين حيث يصفونه بالقدرة فى حال امتناع المقدور لذاته إذ كان الفعل يستلزم أن يكون له أول والأزل لا أول له والجمع بين اثبات الأولية ونفيها جمع بين النقيضين ولم يهتدوا إلى الفرق بين ما يستلزم الأولية والحدوث وهو الفعل المعين والمفعول المعين وبين ما لا يستلزم ذلك وهو نوع الفعل والكلام بل هذا يكون دائما وإن كان كل من آحاده حادثا كما يكون دائما فى المستقبل وإن كان كل من آحاده فانيا بخلاف خالق يلزمه مخلوقة المعين دائما فان هذا هو الباطل فى صريح العقل وصحيح النقل ولهذا اتفقت فطر العقلاء على إنكار ذلك لم ينازع في إلا شرذمة من المتفلسفة كابن سينا وأمثاله الذين زعموا أن الممكن المفعول قد يكون قديما واجب الوجود بغيره فخالفوا فى ذلك جماهير العقلاء مع مخالفتهم لسلفهم أرسطو وأتباعه فانهم لم يكونوا يقولون ذلك وإن قالوا بقدم الأفلاك وأرسطو أول من قال بقدمها من الفلاسفة المشائين بناء على إثبات علة غائية لحركة الفلك يتحرك الفلك للتشبه بها لم يثبتوا له فاعلا مبدعا ولم يثبتوا ممكنا قديما واجبا بغيره وهم وإن كانوا أجهل بالله واكفر من متأخريهم فهم يسلمون لجمهور العقلاء ان ما كان ممكنا بذاته فلا يكون إلا محدثا مسبوقا بالعدم فاحتاجوا أن يقولوا كلامه مخلوق منفصل عنه وطائفة وافقتهم على إمتناع وجود ما لا نهاية له

لكن قالوا تقوم به الأمور الإختيارية فقالوا انه فى الأزل لم يكن متكلما بل ولا كان الكلام مقدورا له ثم صار متكلما بلا حدوث حادث بكلام يقوم به وهو قول الهاشمية والكرامية وغيرهم وطائفة قالت إذا كان القرآن غير مخلوق فلا يكون الا قديم العين لازما لذات الرب فلا يتكلم بمشيئته وقدرته ثم منهم من قال هو معنى واحد قديم فجعل آية الكرسى وآية الدين وسائر آيات القرآن والتوراة والإنجيل وكل كلام يتكلم الله به معنى واحدا لا يتعدد ولا يتبعض ومنهم من قال انه حروف وأصوات مقترنة لازمة للذات وهؤلاء أيضا وافقوا الجهمية والمعتزلة فى أصل قولهم انه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته وأنه لا تقوم به الأمور الإختيارية وأنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض ولا يأتى يوم القيامة ولم يناد موسى حين ناداه ولا تغضبه المعاصى ولا ترضيه الطاعات ولا تفرحه توبة التائبين وقالوا فى قوله {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}التوبة١٠٥ ونحو ذلك إنه لا يراها إذا وجدت بل إما أنه لم يزل رائيا لها وإما أنه لم يتجدد شىء موجود بل تعلق معدوم إلى أمثال هذه المقالات التى خالفوا فيها نصوص الكتاب والسنة مع مخالفة صريح العقل والذى الجأهم لذلك موافقتهم للجهمية على أصل قولهم فى أنه سبحانه لا يقدر فى الأزل على الفعل والكلام وخالفوا السلف والأئمة فى قولم لم يزل الله متكلما إذا شاء ثم افترقوا أحزابا أربعة كما تقدم الخلقية والحدوثية والإتحادية والاقترانية وشر من هؤلاء الصائبة والفلاسفة الذين يقولون إن الله لم يتكلم لا بكلام قائم بذاته ولا بكلام يتكلم به بمشيئته وقدرته ولا قديم النوع ولا قديم العين ولا حادث ولا مخلوق بل كلامه عندهم ما يفيض على نفوس الأنبياء ويقولون إنه كلم موسى من سماء عقله وقد يقولون أنه تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات فانه إنما يعلمها على وجه كلي ويقولون مع ذلك انه يعلم نفسه ويعلم ما يفعله وقولهم يعلم نفسه ومفعولاته حق كما قال تعالى {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}الملك١٤ولكن قولهم مع ذلك انه لا يعلم الأعيان المعينة جهل وتناقض فان نفسه المقدسة معينة والافلاك معينة وكل موجود معين فان لم يعلم المعينات لم يعلم شيئا من الموجودات إذ الكليات إنما تكون كليات فى الأذهان لا فى الأعيان فمن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئا من الموجودات تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كثيرا وهم إنما ألجأهم إلى هذا الالحاد فرارهم من تجدد الأحوال للبارى تعالى مع ان هؤلاء يقولون ان الحوادث تقوم بالقديم وان الحوادث لا أول لها لكن نفوا ذلك عن الباري لاعتقادهم انه لا صفة له بل هو وجود مطلق وقالوا ان العلم نفس عين العالم والقدرة نفس عين القادر والعلم والعالم شىء واحد والمريد والارادة شىء واحد فجعلوا هذه لصفة هى الأخرى وجعلوا الصفات هى الموصوف ومنهم من يقول بل العلم كل

المعلوم كما يقوله الطوسي صاحب شرح الإشارات فانه أنكر على ابن سينا إثباته لعلمه بنفسه وما يصدر عن نفسه وإبن سينا أقرب إلى الصواب لكنه تناقض مع ذلك حيث نفى قيام الصفات به وجعل الصفة عين الموصوف وكل صفة هي الاخرى ولهذا كان هؤلاء هم أوغل فى الاتحاد ولالحاد ممن يقول معانى الكلام شىء واحد لكنهم ألزموا قولهم لأولئك فقالوا إذا جاز أن تكون المعانى المتعددة شيئا واحدا جاز أن يكون العلم هو القدرة والقدرة هى الارادة فاعترف حذاق أولئك بأن هذا الالزام لا جواب عنه ثم قالوا وإذا جاز أن تكون هذه الصفة هى الأخرى جاز ان تكون الصفة هى الموصوف فجاء ابن عربى وابن سبعين والقونوى ونحوهم من الملاحدة فقلوا إذا جاز أن تكون هذه الصفة هى الأخرى والصفة هى الموصوف جاز أن يكون الموجود الواجب القديم الخالق هو الموجود الممكن المحدث المخلوق فقالوا إن وجود كل مخلوق هو عين وجود الخالق وقالوا الوجود واحد ولم يفرقوا بين الواحد بالنوع والواحد بالعين كما لم يفرق أولئك بين الكلام الواحد بالعين والكلام الواحد بالنوع وكان منتهى أمر أهل الالحاد فى الكلام إلى هذا التعطيل والكفر والاتحاد الذى قاله أهل الوحدة والحلول والاتحاد فى الخالق والمخلوقات كما ان الذين لم يفرقوا بين نوع الكلام وعينه وقالوا هو يتكلم بحرف وصوت قديم قالوا أولا أنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ولا تسبق الباء السين بل لما نادى موسى فقال {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}طه١٤ إنى أنا الله رب العالمين كانت الهمزة والنون وما بينهما موجودات فى الأزل يقارن بعضها بعضا لم تزل ولا تزال لازمة لذات الله تعالى ثم قال فريق منهم ان ذلك القديم هو نفس الأصوات المسموعة من القراء وقال بعضهم بل المسموع صوتان قديم ومحدث وقال بعضهم أشكال المداد قديمة أزلية وقال بعضهم محل المداد قديم أزلى وحكى عن بعضهم أنه قال المداد قديم أزلى وأكثرهم يتكلمون بلفظ القديم ولايفهمون معناه بل منهم من يظن ان معناه انه قديم فى علمه ومنهم من يظن ان معناه متقدم على غيره ومنهم من يظن ان معنى اللفظ انه غير مخلوق ومنهم من لا يميز بين ما يقول فصار هؤلاء حلولية اتحادية فى الصفات ومنهم من يقول بالحلول والاتحاد فى

الذات والصفات وكان منتهى أمر هؤلاء وهؤلاء إلى التعطيل والصواب فى هذا الباب وغيره مذهب سلف الأمة وأئمتها انه سبحانه لم يزل متكلما إذا شاء وانه يتكلم بمشيئته وقدرته وان كلماته لا نهاية لها وانه نادى موسى بصوت سمعه موسى وإنما ناداه حين أتى لم يناده قبل ذلك وان صوت الرب لا يماثل أصوات العباد كما ان علمه لا يماثل علمهم وقدرته لا تماثل قدرتهم وانه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته وصفاته القائمة بذاته ولا فى ذاته

شيء من مخلوقاته وان أقوال أهل التعطيل والاتحاد الذين عطلوا الذات أو الصفات أو الكلام أو الأفعال باطلة وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول فى الذات أو الصفات باطلة وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع وقد بسطناها فى الواجب الكبير والله أعلم بالصواب [1]

## حقيقة مذهب غلاة الجهمية يقتضى تعطيل الرسالة و التوحيد

فالذي قال لا أكذب بلفظ القرآن وهو قوله {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء ١٦٤ بل أقر بأن هذا اللفظ حق لكن أنفي معناه وحقيقته فإن هؤلاء هم الجهمية الذين اتفق السلف والأئمة على أنهم من شر أهل الأهواء والبدع حتى أخرجهم كثير من الأئمة عن الاثنين وسبعين فرقة وأول من قال هذه المقالة في الإسلام كان يقال له جعد بن درهم فضحى به خالد بن عبد الله القسري يوم أضحى فإنه خطب الناس فقال في خطبته ضحوا أيها الناس يقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يلكم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه وكان ذلك في زمن التابعين فشكروا ذلك وأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان وقتله بخراسان سلمة بن أحوز وإليه نسبت هذه المقالة التي تسمى مقالة الجهمية وهي نفي صفات الله تعالى فإنهم يقولون إن الله لا يرى في الآخرة ولا يكلم عباده وإنه ليس له علم ولا حياة ولا قدرة ونحو ذلك من الصفات ويقولون القرآن مخلوق ووافق الجهم على ذلك المعتزلة أصحاب عمرو بن عبيد وضموا إليها أخرى في القدر وغيره لكن عند المعتزلة أنهم يقولون إن الله كلم موسى حقيقة وتكلم حقيقة لكن حقيقة ذلك عندهم أنه خلق كلاما في غيره إما في شجرة وإما هواء وإما في غير ذلك من غير أن يقوم بذات الله عندهم كلام ولا علم ولا قدرة ولا رحمة ولا مشيئة ولا حياة ولا شيء من الصفات والجهمية تارة يبوحون بحقيقة القول فتقول إن الله لم يكلم موسى ولا يتكلم وتارة لا يظهرون هذا اللفظ لما فيه من الشناعة المخالفة لدين الإسلام واليهود والنصارى فيقرون باللفظ ولكن يقولون بأنه خلق في غيره كلاما وأئمة الدين كلهم متفقون على ما جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة من أن الله كلم موسى تكليما وأن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة كما تواترت به الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأن علما وقدرة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٥٨٧-٥٩٧

ونحو ذلك ونصوص الأئمة في ذلك مشهورة متواترة حتى أن أبا القاسم الطبري الحافظ لما ذكر في كتابه في شرح أصول السنة مقالات السلف والأئمة في الأصول ذكر من قال القرآن كلام الله غير مخلوق وقال هؤلاء خمسمائة وخمسون نفسا أو أكثر من التابعين والأئمة المرضيين سوى الصحابة على اختلاف الأعصار ومضي السنين والأعوام وفيهم نحو من مائة إمام من أخذ الناس بقولهم وتمذهبوا بمذاهبهم ولو اشتغلت بنقل قول أهل الحديث لبلغت أسماءهم ألوفا لكني اختصرت فنقلت عن هؤلاء عصرا بعد عصر لا ينكر عليهم منكر ومن أنكر قولهم استتابوه أو أمروا بقتله أو نفيه أو حبسه قال ولا خلاف بين الأمة أن أول من قال القرآن مخلوق جعد بن درهم في سني نيف وعشرين ومائة ثم جهم بن صفوان فأما جعد فقتله خالد بن عبد الله القسري وأما جهم فقتل بمرو في خلافة هشام بن عبد الملك وروى بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من وجهين أنهم قالوا له يوم صفين حكمت رجلين فقال ما حكمت مخلوقا ما حكمت إلا القرآن وعن عكرمة قال كان ابن عباس في جنازة فلما وضع الميت في لحده قام رجل وقال اللهم رب القرآن اغفر لي فوثب إليه ابن عباس فقال مه القرآن منه وعن عبد الله بن مسعود قال من حلف بالقرآن فعليه بكل آية يمين وهذا ثابت عن ابن مسعود وعن سفيان بن عيينة قال سمعت عمرو بن دينار يقول أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود وفي لفظ يقولون القرآن كلام الله غير مخلوق وقال حرب الكرماني حدثنا إسحاق بن إبراهيم يعني ابن راهويه عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال أدركت الناس منذ سبعين سنة أدركت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فمن دونهم يقولون الله الخالق وما سواه مخلوق إلا القرآن فإنه كلام الله منه خرج وإليه يعود وهذا قد رواه عن ابن عيينة إسحاق وإسحاق إما أن يكون قد سمعه منه أو من يعض أصحابه عنه وعن جعفر بن محمد وهو مشهور عنه أنهم سألوه عن القرآن أخالق هو أم مخلوق فقال ليس بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام الله وهكذا روي عن الحسن البصري وأيوب السختياني وسليمان التيمي وخلق من التابعين وعن مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان الثوري وابن أبي ليلى وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأمثال هؤلاء من الأئمة وكلام هؤلاء الأئمة وأتباعهم في ذلك كثير مشهور بل اشتهر عن أئمة السلف تكفير من قال القرآن مخلوق وأنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كما ذكروا ذلك عن مالك بن أنس وغيره ولذلك قال الشافعي لحفص الفرد وكان من أصحاب ضرار بن عمرو ممن يقول القرآن مخلوق فلما ناظر الشافعي وقال له القرآن مخلوق قال له الشافعي كفرت ب الله العظيم ذكره ابن أبي حاتم في الرد على الجهمية قال كان في

كتابي عن الربيع بن سليمان قال حضرت الشافعي أو حدثني أبو شعيب إلا أني أعلم حضر عبد الله بن عبد الحكم ويوسف بن عمرو بن يزيد فسأل حفص عبد الله قال ما تقول في القرآن فأبى أن يجيبه فسأل يوسف بن عمرو فلم يجبه وكلاهما أشار إلى الشافعي فسأل الشافعي فاحتج عليه وطالت فيه المناظرة فقال الشافعي بالحجة بأن القرآن كلام الله غير مخلوق وكفر حفصا الفرد قال الربيع فلقيت حفصا في المسجد بعد هذا فقال أراد الشافعي قتلي وأما مالك بن أنس فنقل عنه من غير وجه الرد على من يقول القرآن مخلوق واستتابته وهذا المشهور عنه متفق عليه بين أصحابه وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد ذكر أبو جعفر الطحاوي في الاعتقاد الذي قال في أوله ذكر بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة بن ثابت الكوفي وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني قال فيه وأن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولا وأنزله على نبيه وحيا وصدقه المؤمنون على ذلك حقا وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر وقد ذمه الله وعابه وأوعده عذابه وتواعده حيث قال {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ}المدثر٢٦ فلما أوعد الله سقر لمن قال {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ}المدثر٢٥ علمنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر وأما أحمد بن حنبل فكلامه في مثل هذا مشهور متواتر وهو الذي اشتهر بمحنة هؤلاء الجهمية فإنهم أظهروا القول بإنكار صفات الله تعالى وحقائق أسمائه وأن القرآن مخلوق حتى صار حقيقة قولهم تعطيل الخالق سبحانه وتعالى ودعوا الناس إلى ذلك وعاقبوا لمن لم يجبهم إما بالقتل وإما بقطع الرزق وإما بالعزل عن الولاية وإما بالحبس أو الضرب وكفروا من خالفهم فثبت الله تعالى الإمام أحمد حتى أظهر الله به باطلهم ونصر أهل الإيمان والسنة عليهم وأذلهم بعد العز وأخملهم بعد الشهرة واشتهر عند خواص الأمة وعوامها أن القرآن كلام الله غير مخلوق وإطلاق القول بأن من قال إنه مخلوق فقد كفر وأما إطلاق القول بأن الله لم يكلم موسى فهذه مناقضة لنص القرآن فهو أعظم من القول بأن القرآن مخلوق وهذا بلا ريب يستتاب فإن تاب وإلا قتل فإنه أنكر نص القرآن وبذلك أفتى الأئمة والسلف في مثله والذي يقول القرآن مخلوق هو في معنى موافق له فلذلك كفره السلف قال البخاري في كتاب خلق الأفعال قال سفيان الثوري من قال القرآن مخلوق فهو كافر قال وقال عبد الله بن المبارك من قال {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا}طه١٤ مخلوق فهو كافر ولا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك قال وقال ابن المبارك لا تقول كما قالت الجهمية إنه في الأرض ههنا بل على العرش استوى وقيل له كيف نعرف ربنا قال فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه وقال من قال لا إله إلا الله مخلوق فهو كافر

وإنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية قال وقال علي بن عاصم أما الذين قالوا إن لله ولدا أكفر من الذين قالوا إن الله لا يتكلم قال البخاري وكان إسماعيل بن أبي إدريس يسميهم زنادقة العراق وقيل له سمعت أحد يقول القرآن مخلوق فقال هؤلاء الزنادقة قال وقال أبو الوليد سمعت يحيى بن سعيد وذكر له أن قوما يقولون القرآن مخلوق فقال كيف يصنعون بقل هو الله أحد كيف يصنعون بقوله {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا}طه١٤ قال وقال أبو عبيد القاسم بن سلام نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس فما رأيت قوما أضل في كفرهم منهم وأني لأستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم قال وقال سليمان بن داود الهاشمي من قال القرآن مخلوق فهو كافر وإن كان القرآن مخلوقا كما زعموا فلم صار فرعون أولى بأن يخلد في النار إذ قال {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}النازعات٢٤ وزعموا أن هذا مخلوق والذي قال {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}طه١٤ هذا أيضا قد ادعى ما ادعى فرعون فلم صار فرعون أولى أن يخلد في النار من هذا وكلاهما عنده مخلوق فأخبر بذلك أبو عبيد فاستحسنه وأعجبه ومعنى كلام هؤلاء السلف رضي الله عنهم أن من قال إن كلام الله مخلوق خلقه في الشجرة أو غيرها كما قال هذا الجهمي المعتزلي المسؤول عنه كان حقيقة قوله إن الشجرة هي التي قالت لموسى {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا}طه١٤ ومن قال إن مخلوقا قال ذلك فهذا المخلوق عنده كفرعون الذي قال {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}النازعات٢٤ كلاهما مخلوق وكلاهما قال ذلك فإن كان قول فرعون كفرا فقول هؤلاء أيضا كفر ولا ريب أن قول هؤلاء يؤول إلى قول فرعون وإن كانوا لا يفهمون ذلك فإن فرعون كذب موسى فيما أخبر به من أن ربه هو الأعلى وأنه كلمه كما قال تعالى {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ{٣٦} أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً {٣٧}غافر٣٦-٣٧ وهو قد كذب موسى في أن الله كلمه ولكن هؤلاء يقولون إذا خلق كلاما في غيره صار هو المتكلم به وذلك باطل وضلال من وجوه كثيرة أحدها أن الله سبحانه أنطق الأشياء نطقا معتادا ونطقا خارجا عن المعتاد قال تعالى {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}يس٦٥ وقال تعالى {حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٢٠} وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢١}فصلت٢٠- ٢١ وقد قال تعالى {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}النور٢٤ وقد قال تعالى {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ}ص١٨ وقد ثبت أن الحصا كان يسبح في يد النبي صلى الله عليه وسلم وأن الحجر كان يسلم عليه وأمثال

ذلك من إنطاق الجمادات فلو كان إذا خلق كلاما في غيره كان هو المتكلم به فإن هذا كله كلام الله تعالى ويكون قد كلم من سمع هذا الكلام كما كلم موسى بن عمران بل قد ثبت أن الله خالق أفعال العباد فكل ناطق فالله خالق نطقه وكلامه فلو كان متكلما بما خلقه من الكلام لكان كل كلام في الوجود كلامه حتى كلام إبليس والكفار وغيرهم وهذا يقوله غلاة الجهمية كابن عربي وأمثاله يقولون وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه وهكذا أشباه هؤلاء من غلاة المشبهة الذين يقولون إن كلام الآدميين غير مخلوق فإن كل واحد من الطائفتين يجعلون كلام المخلوق بمنزلة كلام الخالق فأولئك يجعلون الجميع مخلوقا وأن الجميع كلام الله وهؤلاء يجعلون الجميع كلام الله وهو غير مخلوق ولهذا كان قد حصل اتصال بين شيخ الجهمية الحلولية وشيخ المشبهة الحلولية وبسبب هذه البدع وأمثالها من المنكرات المخالفة لدين الإسلام سلط الله أعداء الدين فإن الله يقول {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ {٤٠} الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ{٤١}الحج٤٠ -٤١ وأي معروف أعظم من الإيمان بالله وأسمائه وآياته وأي منكر أعظم من الإلحاد في أسمائه وآياته الوجه الثاني أن يقال لهؤلاء الضالين ما خلقه الله في غيره من الكلام وسائر الصفات فإنما يعود حكمه على ذلك المحل لا على غيره فإذا خلق الله في بعض الأجسام حركة أو طعما أو لونا أو ريحا كان ذلك الجسم هو المتحرك المتلون المتروح المطعوم وإذا خلق بمحل حياة أو علما أو قدرة أو إرادة أو كلاما كان ذلك المحل هو الحي العالم القادر المريد المتكلم فإذا خلق كلاما في الشجرة أو في غيرها من الأجسام كان ذلك الجسم هو المتكلم بذلك الكلام كما لو خلق فيه إرادة وحياة أو علما ولا يكون الله هو المتكلم به كما أنه إذا خلق فيه حياة أو قدرة أو سمعا أو بصرا فإن ذلك المحل هو الحي به والقادر به والسميع به والبصير به فكما أنه سبحانه لا يجوز أن يكون متصفا بما خلقه من الصفات المشروطة بالحياة وغير المشروطة بالحياة فلا يكون هو المتحرك بما خلقه في غيره من الحركات ولا المصوت بما خلقه في غيره من الأصوات ولا سمعه ولا بصره وقدرته ما خلقه في غيره من السمع والبصر والقدرة فكذلك لا يكون كلامه ما خلقه ما في غيره من الكلام ولا يكون متكلما بذلك الكلام الوجه الثالث أن الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون ذلك المعنى فإن اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعال التفضيل يمنع ثبوت معناها دون ثبوت معنى المصدر التي هي مشتقة منه والناس متفقون على أنه لا يكون متحرك ولا متكلم إلا بحركة وكلام فلا يكون مريد إلا بإرادة وكذلك لا يكون عالم إلا بعلم ولا قادر إلا بقدرة ونحو ذلك ثم هذه الأشياء المشتقة من المصدر إنما

يسمى بها من قام به مسمى المصدر فإنه يسمى بالحي من قامت به الحياة وبالمتحرك من قامت به الحركة وبالعالم من قام به العلم وبالقادر من قامت به القدرة فأما من لم يقم به مسمى المصدر فيمتنع أن يسمى باسم بالفاعل ونحوه من الصفات وهذا معلوم بالاعتبار في جميع النظائر وذلك أن اسم الفاعل ونحوه من المشتقات هو مركب يدل على الذات وعلى الصفة والمركب يمتنع تحققه بدون تحقق مفرداته وهذا كما أنه ثابت في الأسماء المشتقة فكذلك في الأفعال مثل تكلم وكلم ويتكلم ويكلم وعلم يعلم وسمع ويسمع ورأى ويرى ونحو ذلك سواء قيل إن الفعل مشتق من المصدر أم المصدر مشتق من الفعل لا نزاع بين الناس أن فاعل الفعل هو فاعل المصدر فإذا قيل كلم وعلم أو تكلم أو تعلم ففاعل التكليم والتعليم هو المكلم والمعلم وكذلك التعلم والتكلموالفاعل هو الذي قام به المصدر الذي هو التكليم والتعليم والتكلم والتعلم فإذا قيل تكلم فلان أو كلم فلان فلانا ففعلان هو المتكلم والمكلم فقوله تعالى{وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ وقوله {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}البقرة٢٥٣ وقوله {وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّه}الأعراف١٤٣ يقتضي أن الله هو المكلم فكما يمتنع أن يقال هو متكلم بكلام قائم بغيره يمتنع أن يقال كلم بكلام قائم بغيره فهذه ثلاثة أوجه أحدها أنه يلزم الجهمية على قولهم أن يكون كل كلام خلقه الله كلاما له إذ لا معنى لكون القرآن كلام الله إلا كونه خلقه وكل من فعل كلاما ولو في غيره كان متكلما به عندهم وليس للكلام عندهم مدلول يقوم بذات الرب تعالى لو كان مدلول قائما يدل لكونه خلق صوتا في محل والدليل يجب طرده فيجب أن يكون كل صوت بخلقه له كذلك وهم يجوزون أن يكون الصوت المخلوق على جميع الصفات فلا يبقى فرق بين الصوت الذي هو كلام الله على قولهم والصوت الذي ليس هو بكلام الثاني أن الصفة إذا قامت بمحل كالعلم والقدرة والكلام والحركة عاد حكمه إلى ذلك المحل ولا يعود حكمه إلى غيره الثالث أن مشتق المصدر منه اسم الفاعل والصفة المشبهة به ونحو ذلك ولا يشتق ذلك لغيره وهذا كله ظاهر بين وهو ما يبين قول السلف والأئمة أن من قال إن الله خلق كلاما في غيره لزمه أن يكون حكم التكلم عائدا إلى ذلك المحل لا إلى الله الرابع أن الله وكد تكليم موسى بالمصدر فقال {تَكْلِيماً}النساء١٦٤ قال غير واحد من العلماء التوكيد بالمصدر ينفي المجاز لئلا يظن أنه أرسل غيره ممن لم يكلمه وقال {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ}الشورى٥١ الآية فكان تكليم موسى من وراء حجاب وقال {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي}الأعراف١٤٤ وقال {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}النساء١٦٣ إلى قوله {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى

تَكْلِيماً}النساء١٦٤ والوحي هو ما نزله على قلوب الأنبياء بلا واسطة فلو كان تكليمه لموسى إنما هو صوت خلقه في الهواء لكان وحي الأنبياء أفضل منه لأن أولئك عرفوا المعنى المقصود بلا واسطة وموسى إنما عرفه بواسطة ولهذا كان غلاة الجهمية من الإتحادية ونحوهم يدعون أن ما يحصل لهم من الإلهام أفضل مما حصل لموسى بن عمران وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين ولما فهم السلف حقيقة مذهب هؤلاء وأنه يقتضي تعطيل الرسالة فإن الرسل إنما بعثوا ليبلغوا كلام الله بل يقتضي تعطيل التوحيد فإن من لا يتكلم ولا يقوم به علم ولا حياة هو كالموات بل من لا يقوم به الصفات فهو عدم محض إذ ذات لا صفة لها إنما يمكن تقديرها في الذهن لا في الخارج كتقدير وجود مطلق لا يتعين ولايتخصص فكان قول هؤلاء مضاهيا لقول المتفلسفة الدهرية الذين يجعلون وجود الرب وجودا مطلقا بشرط الإطلاق لا صفة له وقد علم أن المطلق بشرط الإطلاق لا يوجد إلا في الذهن وهؤلاء الدهرية ينكرون أيضا حقيقة تكليمه لموسى ويقولون إنما هو فيض فاض عليه من العقل الفعال وهكذا يقولون في الوحي إلى جميع الأنبياء وحقيقة قولهم إن القرآن قول البشر لكنه صدر عن نفس صافية شريفة وإذا كان المعتزلة خيرا من هؤلاء وقد كفر السلف من يقول بقولهم فكيف هؤلاء وكلام السلف والأمة في مثل هؤلاء لا يحصى قال حرب بن إسماعيل الكرماني سمعت إسحاق بن راهويه يقول ليس بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق وكيف يكون شيء من الرب عز ذكره مخلوقا ولو كان كما قالوا لزمهم أن يقولوا علم الله وقدرته ومشيئته مخلوقة فإن قالوا ذلك لزمهم أن يقولوا كان الله تبارك اسمه ولا علم ولا قدرة ولا مشيئة وهو الكفر المحض الواضح لم يزل الله عالما متكلما له المشيئة والقدرة في خلقه والقرآن كلام الله وليس بمخلوق فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر وقال وكيع بن الجراح من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أن شيئا من الله مخلوق فقيل له من أين قلت هذا قال لأن الله يقول {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي}السجدة١٣ ولا يكون من الله شيء مخلوق وهذا القول قاله غير واحد من السلف وقال أحمد بن حنبل كلام الله من الله ليس ببائن منه وهذا معنى قول السلف القرآن كلام الله منه بدأ ومنه خرج وإليه يعود كما في الحديث الذي رواه أحمد وغيره عن جبير بن نفير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه يعني القرآن وقد روي أيضا عن أبي أمامة مرفوعا وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لأصحاب مسيلمة الكذاب لما سمع قرآن مسليمة ويحكم أين يذهب بعقولكم إن هذا كلام لم يخرج من آن أي من رب وليس معنى قول السلف والأئمة أنه منه خرج ومنه بدأ أنه فارق ذاته وحل بغيره فإن كلام المخلوق إذا تكلم به لا يفارق ذاته ويحل

بغيره فكيف يكون كلام الله قال تعالى {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً}الكهف٥ فقد أخبر أن الكلمة تخرج من أفواههم ومع هذا فلم تفارق ذاتهم وأيضا فالصفة لا تفارق الموصوف وتحل بغيره لا صفة الخالق ولا صفة المخلوق والناس إذا سمعوا كلام النبي صلى الله عليه وسلم ثم بلغوه عنه كان الكلام الذي بلغوه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بلغوه بحركاتهم وأصواتهم فالقرآن أولى بذلك فالكلام كلام الباري والصوت صوت القارئ قال تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ}التوبة٦ وقال صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم ولكن مقصود السلف الرد على هؤلاء الجهمية فإنهم زعموا أن القرآن خلقه الله في غيره فيكون قد ابتدأ وخرج من ذلك المحل الذي خلق فيه لا من الله كما يقولون كلامه لموسى خرج من الشجرة فبين السلف والأئمة أن القرآن من الله بدأ وخرج وذكروا قوله {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي}السجدة١٣ فأخبر أن القول منه لا من غيره من المخلوقات ومن هي لابتداء الغاية فإن كان المجرور بها عينا يقوم بنفسه لم يكن صفة لله كقوله {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ}الجاثية١٣ وقوله في المسيح {وَرُوحٌ مِّنْهُ} النساء١٧١ وكذلك ما يقوم بالأعيان كقوله {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ}النحل٥٣ وأما إذا كان المجرور بها صفة ولم يذكر لها محل كان صفة لله كقوله {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي}السجدة١٣ ولذلك قد أخبر في غير موضع من القرآن نزل منه وأنه نزل به جبريل منه رد على هذا المبتدع المفتري وأمثاله ممن يقول إنه لم ينزل منه قال تعالى {أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}الأنعام١١٤ وقال تعالى {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}النحل١٠٢ وروح القدس هو جبريل كما قال في الآية الأخرى{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{١٩٣} عَلَى قَلْبِكَ {١٩٤} الشعراء ١٩٣-١٩٤ وقال {قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ}البقرة٩٧ وقال هنا {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}النحل١٠٢ فبين أن جبريل نزله من الله لا من هواه ولا من لوح ولا من غير ذلك وكذلك سائر آيات القرآن كقوله {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}الزمر١وقوله {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}غافر٢ وقوله {تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}فصلت٢ وقوله {تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}السجدة٢ وقوله {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}المائدة٦٧ فقد بين في غير موضع أنه منزل من الله فمن قال أنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح أو الهواء فهو مفتر على الله مكذب لكتاب الله متبع لغير سبيل المؤمنين ألا ترى أن الله فرق بين ما نزل منه وما نزله من بعض

المخلوقات كالمطر بأنه قال {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}الأنعام٩٩ فذكر المطر في غير موضع وأخبر أنه نزله من السماء والقرآن أخبر أنه منزل منه وأخبر بتنزيل مطلق في مثل قوله {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ}الحديد٢٥ لأن الحديد ينزل من رؤوس الجبال لا ينزل من السماء وكذلك أنزل الحيوان فإن الذكر ينزل الماء في الإناث فلم يقل فيه من السماء ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ لكان اليهود أكرم على الله من أمة محمد لأنه قد ثبت بالنقل الصحيح أن الله كتب لموسى التوراة وأنزلها مكتوبة فيكون بنو إسرائيل قد قرأوا الألواح التي كتبها الله وأما المسلمون فأخذوه عن محمد ومحمد أخذه عن جبريل عن اللوح فيكون بنو إسرائيل بمنزلة جبريل وتكون منزلة بني إسرائيل أرفع من منزلة محمد صلى الله عليه وسلم على قول هؤلاء الجهمية و الله سبحانه جعل من فضائل أمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه أنزل عليهم كتابا لا يغسله الماء وأنه أنزله عليه تلاوة لا كتابة وفرقه عليهم لأجل ذلك فقال {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً}الإسراء١٠٦ وقال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً}الفرقان٣٢ ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجده مكتوبا كانت العبارة عبارة جبريل وكان القرآن كلام جبريل ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاما ولم يقدر أن يتكلم به وهذا خلاف دين المسلمين وإن احتج محتج بقوله{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{١٩} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{٢٠} التكوير ١٩-٢٠ قيل له فقد قال في الآية الأخرى {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{٤٠} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{٤١} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{٤٢} الحاقة٤٠-٤٢ فالرسول في هذه الآية جبريل والرسول في الآية الأخرى محمد فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث ولهذا قال {لَقَوْلُ رَسُولٍ} ولم يقل ملك ولا نبي ولا ريب أن الرسول بلغه كما قال{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}المائدة٦٧ فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي ولما أنزل الله {الم{١} غُلِبَتِ الرُّومُ{٢} الروم ١-٢ خرج أبو بكر الصديق فقرأها على الناس فقالوا هذا كلامك أم كلام صاحبك فقال ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ولكنه كلام الله وإن احتج بقوله {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ}الأنبياء٢قيل له هذه الآية حجة عليك فإنه لما قال {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ}الأنبياء٢ علم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث لأن النكرة إذا وصفت ميزتها بين الموصوف وغيره كما لو قال ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته وما آكل إلا

طعاما حلالا ونحو ذلك ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي أنزل جديدا فإن الله كان ينزل القرآن شيئا بعد شيء فالمنزل أولا هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب كما قال {كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}يس٣٩ وقال {قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ}يوسف٩٥ وقال {وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ}الأحقاف١١ وقال {قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{٧٥} أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ{٧٦} الشعراء ٧٥-٧٦ وكذلك قوله {جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً}الزخرف٣ لم يقل جعلناه فقط حتى يظن أنه بمعنى خلقناه ولكن قال {جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً}الزخرف٣ أي صيرناه عربيا لأنه قد كان قادرا على أن ينزله عجميا وينزله عربيا فلما أنزله عربيا كان قد جعله عربيا دون عجمي وهذه المسألة من أصول أهل الإيمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم والكلام عليها مبسوط في غير هذا الموضع و الله أعلم [1]

## حكم من قال ان الله لم يكلم موسى تكليما

اما من قال ان الله لم يكلم موسى تكليما فهذا ان كان لم يسمع القرآن فانه يعرف ان هذا نص القرآن فان أنكره بعد ذلك استتيب فان تاب والا قتل ولا يقبل منه ان كان كلامه بعد ان يجحد نص القرآن بل لو قال ان معنى كلامي انه خلق صوتا فى الهواء فأسمعه موسى كان كلامه أيضا كفرا وهو قول الجهمية الذين كفرهم السلف وقالوا يستتابون فان تابوا والا قتلوا لكن من كان مؤمنا بالله ورسوله مطلقا ولم يبلغه من العلم ما يبين له الصواب فانه لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التى من خالفها كفر إذ كثير من الناس يخطىء فيما يتأوله من القرآن ويجهل كثيرا مما يرد من معانى الكتاب والسنة والخطأ والنسيان مرفوعان عن هذه الأمة والكفر لا يكون إلا بعد البيان والأئمة الذين امروا بقتل مثل هؤلاء الذين ينكرون رؤية الله فى الآخرة ويقولون القرآن مخلوق ونحو ذلك قيل انهم امروا بقتلهم لكفرهم وقيل لأنهم إذا دعوا الناس إلى بدعتهم أضلوا الناس فقتلوا لاجل الفساد فى الأرض وحفظا لدين الناس ان يضلوهم وبالجملة فقد اتفق سلف الامة وأئمتها على ان الجهمية من شر طوائف أهل البدع حتى أخرجهم كثير عن الثنتين والسبعين فرقة ومن الجهمية المتفلسفة

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٢٩١-٣٠٣ و مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٥١٥-٥١٧

والمعتزلة الذين يقولون ان كلام الله مخلوق وان الله إنما كلم موسى بكلام مخلوق خلقه فى الهواء وانه لا يرى فى الآخرة وانه ليس مباينا لخلقه وأمثال هذه المقالات التى تستلزم تعطيل الخالق وتكذيب رسله وإبطال دينه وأما قول الجهمى ان قلت كلمه فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت والحرف والصوت محدث ومن قال ان الله كلم موسى بحرف وصوت فهو كافر فيقال لهذا الملحد أنت تقول انه كلمه بحرف وصوت لكن تقول بحرف وصوت خلقه فى الهواء وتقول أنه لا يجوز أن تقوم به الحروف والاصوات لانها لا تقوم الا بمتحيز والبارى ليس بمتحيز ومن قال انه متحيز فقد كفر ومن المعلوم ان من جحد ما نطق به الكتاب والسنة كان أولى بالكفر ممن أقر بما جاء به الكتاب والسنة وإن قال الجاحد لنص الكتاب والسنة ان العقل معه قال له الموافق للنصوص بل العقل معى هو موافق للكتاب والسنة فهذا يقول انه معه السمع والعقل وذاك انما يحتج لقوله بما يدعيه من العقل الذى يبين منازعه فساده ولو قدر أن العقل معه والكفر هو من الأحكام الشرعية وليس كل من خالف شيئا علم بنظر العقل يكون كافرا ولو قدر انه جحد بعض صرائح العقول لم يحكم بكفره حتى يكون قوله كفرا فى الشريعة وأما من خالف ما علم أن الرسول جاء به فهو كافر بلا نزاع وذلك أنه ليس في الكتاب والسنة ولا في قول أحد من سلف الأمة وأئمتها الاخبار عن الله بإنه متحيز أو أنه ليس بمتحيز ولا في الكتاب والسنة ان من قال هذا وهذا يكفر وهذا اللفظ مبتدع والكفر لا يتعلق بمجرد اسماء مبتدعة لا أصل لها في الكتاب والسنة بل يستفسر هذا القائل إذا قال غن الله متحيزا أو ليس بمتحيز فإن قال أعني بقولي إنه متحيز انه دخل في المخلوقات وإن المخلوقات قد حازته وأحاطت به فهذا باطل وان قال اعني به انه منحاز عن المخلوقات مباين لها فهذا حق وكذلك قوله ليس بمتحيز ان أراد به ان المخلوق لا يجوز الخالق فقد أصاب وان قال الخالق لا يباين المخلوق وينفصل عنه فقد أخطأ وإذا عرف ذلك فالناس فى الجواب عن حجته الداحضة وهى قوله لو قلت انه كلمه فالكلام لا يكون الا بحرف وصوت والحرف والصوت محدث ثلاثة أصناف صنف منعوه المقدمة الأولى وصنف منعوه المقدمة الثانية وصنف لم يمنعوه المقدمتين بل استفسروه وبينوا ان ذلك لا يمنع ان يكون الله كلم موسى تكليما ف الصنف الأول أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وابو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ومن اتبعهما قالوا لا نسلم ان الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت بل الكلام معنى قائم بذات المتكلم والحروف والاصوات عبارة عنه وذلك المعنى القائم بذات الله تعالى يتضمن الامر بكل ما أمر به والخبر عن كل ما أخبر عنه ان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا وقالوا انه اسم الكلام حقيقة فيكون اسم الكلام مشتركا أو مجازا فى كلام الخالق

وحقيقة فى كلام المخلوق و الصنف الثانى سلموا لهم ان الكلام لا يكون الا بحرف وصوت ومنعوهم المقدمة الثانية وهو ان الحرف والصوت لا يكون إلا محدثا وصنف قالوا إن المحدث كالحادث سواء كان قائما بنفسه أو بغيره وهو يتكلم بكلام لا يكون قديما وهو بحرف وصوت وهذا قول من يقول القرآن قديم وهو بحرف وصوت كأبى الحسن بن سالم وأتباعه السالمية وطوائف ممن اتبعه وقال هؤلاء فى الحرف والصوت نظير ما قاله الذين قبلهم فى المعانى وقالوا كلام لا بحرف ولا صوت لا يعقل ومعنى يكون أمرا ونهيا وخبرا ممتنع فى صريح العقل ومن ادعى ان معنى التوراة والانجيل والقرآن واحد وإنما اختلفت العبارات الدالة عليه فقوله معلوم الفساد بالاضطرار عقلا وشرعا وإخراج الحروف عن مسمى الكلام مما يعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات وإن جاز أن يقال ان الحروف والأصوات المخلوقة فى غير كلام الله حقيقة أمكن حينئذ أن يكون كلم موسى بكلام مخلوق فى غيره وقالوا لاخوانهم الأولين إذا قلتم ان الكلام هو مجرد المعنى وقد خلق عبارة بيان فان قلتم ان تلك العبارة كلامه حقيقة بطلت حجتكم على المعتزلة فان أعظم حجتكم عليهم قولكم انه يمتنع أن يكون متكلما بكلام يخلقه فى غيره كما يمتنع أن يعلم بعلم قائم بغيره وأن يقدر بقدرة قائمة بغيره وأن يريد بارادة قائمة بغيره وإن قلتم هى كلام مجازا لزم أن يكون الكلام حقيقة فى المعنى مجازا فى اللفظ وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات و الصنف الثالث الذين لم يمنعوا المقدمتين ولكن استفسروهم وبينوا أن هذا لا يستلزم صحة قولكم بل قالوا إن قلتم إن الحرف والصوت محدث بمعنى انه يجب أن يكون مخلوقا منه منفصلا عنه فهذا دليل على فساد قولكم وتناقضه وهذا قول ممنوع وإن قلتم بمعنى انه لا يكون قديما فهو مسلم لكن هذه التسمية محدثة وهؤلاء صنفان صنف قالوا ان المحدث هو المخلوق المنفصل عنه فاذا قلنا الحرف والصوت لا يكون إلا محدثا كان بمنزلة قولنا لا يكون إلا مخلوقا وحينئذ فيكون هذا المعتزلى أبطل قوله بقوله حيث زعم أنه يتكلم بحرف وصوت مخلوق ثم استدل على ذلك بما يقتضى انه يتكلم لا يتكلم بكلام مخلوق فيه تلبيس ونحن لا نقول كلم موسى بكلام قديم ولا بكلام مخلوق بل هو سبحانه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء كما انه سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش وأنه سبحانه استوى إلى السماء وهى دخان وأنه سبحانه يأتى فى ظلل من الغمام والملائكة كما قال {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً}الفجر٢٢ وقال {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}الأنعام١٥٨ وقال تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}يس٨٢ وقال تعالى {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ

وَالْمُؤْمِنُونَ}التوبة١٠٥ وأمثال ذلك فى القرآن والحديث كثير يبين الله سبحانه أنه إذا شاء فعل ما أخبر عنه من تكليمه وأفعاله القائمة بنفسه وما كان قائما بنفسه هو كلامه لا كلام غيره والمخلوق لا يكون قائما بالخالق ولا يكون الرب محلا للمخلوقات بل هو سبحانه يقوم به ما شاء من كلماته وأفعاله وليس من ذلك شىء مخلوقا وإنما المخلوق ما كان بائنا عنه وكلام الله من الله ليس ببائن منه ولهذا قال السلف القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود فقالوا منه بدأ أى هو المتكلم به لا أنه خلقه فى بعض الأجسام المخلوقة وهذا الجواب هو جواب أئمة أهل الحديث والتصوف والفقه وطوائف من أهل الكلام من أئمتهم من الهشامية والكرامية وغيرهم وأتباع الأئمة الأربعة أصحاب أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد منهم من يختار جواب الصنف الأول وهم الذين يرتضون قول بن كلاب فى القرآن وهم طوائف من متأخري أصحاب مالك والشافعى وأحمد وأبى حنيفة ومنهم من يختار جواب الصنف الثانى وهم الطوائف الذين ينكرون قول ابن كلاب ويقولون ان القرآن قديم كلسالمية وطوائف من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وأبى حنيفة ومنهم من يختار جواب الطائفة الثالثة وهم الذين ينكرون قول الطائفتين المتقدمتين الكلابية والسالمية ثم من هؤلاء من يقول بقول الكرامية والكرامية ينتسبون إلى أبى حنيفة ومنهم من لا يختار قول الكرامية أيضا لما فيه من تناقض آخر بل يقول بقول أئمة الحديث كالبخارى وعثمان بن سعيد الدرامى ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ومن قبلهم من السلف كأبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ومحمد بن كعب القرظي والزهرى عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وإسحاق ابن راهويه وما نقل من ذلك عن الصحابة والتابعين وفى ذلك آثار كثيرة معروفة فى كتب السنن والآثار تضيق عنها هذه الورقة وبين الأصناف الثلاثة منازعات ودقائق تضيق عنها هذه الورقة وقد بسطنا الكلام عليها فى مواضع وبينا حقيقة كل قول وما هو القول الصواب فى صريح المعقول وصحيح المنقول لكن هؤلاء الطوائف كلهم متفقون على تضليل من يقول أن كلام الله مخلوق والأمة متفقة على أن من قال ان كلام الله مخلوق لم يكلم موسى تكليما يستتاب فان تاب والا يقتل والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما كثيرا[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٥٢٣-٥٣١

القائل الذى قال إن الله كلم موسى تكليما كما أخبر فى كتابه مصيب وأما الذى قال كلم الله موسى بواسطة فهذا ضال مخطىء بل قد نص الأئمة على ان من قال ذلك فانه يستتاب فان تاب وإلا قتل فان هذا الكلام إنكار لما قد علم بالاضطرار من دين الاسلام ولما ثبت بالكتاب والسنة والاجماع قال الله تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ}الشورى٥١ الآية ففرق بين تكليمه من وراء حجاب كما كلم موسى وبين تكليمه بواسطة رسول كما أوحى إلى غير موسى قال الله تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}النساء١٦٣ إلى قوله {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ والأحاديث بذلك كثيرة فى الصحيحين والسنن وفى الحديث المحفوظ عن النبى حديث التقى آدم وموسى قال آدم أنت موسى الذى كلمك الله تكليما لم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه وسلف الأمة وأئمتها كفروا الجهمية الذين قالوا إن الله خلق كلاما فى بعض الأجسام سمعه موسى وفسر التكليم بذلك وأما قوله إن الله كتب التوارة بيده فهذا قد روى فى الصحيحين فمن أنكر ذلك فهو مخطىء ضال وإذا أنكره بعد معرفة الحديث الصحيح يستحق العقوبة وأما قوله ناولها بيده إلى يده فهذا مأثور عن طائفة من التابعين وهو هكذا عند أهل الكتاب لكن لا أعلم غير هذا اللفظ مأثورا عن النبى فالمتكلم به إن أراد ما يخالف ذلك فقد أخطأ والله أعلم [1]

## المضاف الى الله سبحانه

المضاف الى الله سبحانه فى الكتاب والسنة سواء كانت اضافة اسم الى اسم او نسبة فعل الى اسم او خبر باسم عن اسم لا يخلو من ثلاثة أقسام أحدها اضافة الصفة الى الموصوف كقوله تعالى {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}البقرة٢٥٥ وقوله {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ}الذاريات٥٨ وفى حديث الاستخارة اللهم انى استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وفى الحديث الاخر اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق فهذا فى الاضافة الاسمية واما بصيغة الفعل فكقوله {عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ}البقرة١٨٧ وقوله {عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ}المزمل٢٠ واما الخبر الذى هو جملة اسمية فمثل قوله {وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}البقرة٢٨٢ {وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}البقرة٢٨٤

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٥٣٢-٥٣٣

وذلك لان الكلام الذى توصف به الذوات اما جملة او مفرد فالجملة اما اسمية كقوله {وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}البقرة٢٨٢ او فعلية كقوله {عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ}المزمل٢٠ اما المفرد فلابد فيه من اضافة الصفة لفظا او معنى كقوله {بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}البقرة٢٥٥ وقوله {هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً}فصلت١٥ او اضافة الموصوف كقوله {ذُو الْقُوَّةِ}الذاريات٥٨ و القسم الثانى اضافة المخلوقات كقوله {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا}الشمس١٣ وقوله {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ}الحج٢٦ وقوله {رَسُولَ اللّهِ}النساء١٥٧ و {عِبَادَ اللَّهِ}الصافات٤٠ وقوله {ذُو الْعَرْشِ}غافر١٥ وقوله {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}البقرة٢٥٥ فهذا القسم لا خلاف بين المسلمين فى انه مخلوق كما ان القسم الاول لم يختلف اهل السنة والجماعة فى انه قديم وغير مخلوق وقد خالفهم بعض اهل الكلام فى ثبوت الصفات لا فى أحكامها وخالفهم بعضهم فى قدم العلم واثبت بعضهم حدوثه وليس الغرض هنا تفصيل ذلك الثالث ما فيه معنى الصفة والفعل مثل قوله {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ وقوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}يس٨٢ وقوله {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّيَ}الكهف١٠٩ وقوله {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ}الفتح١٥ {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ}البقرة٧٥ {حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ}التوبة٦وقوله {إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}المائدة١ {فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}هود١٠٧ وفى الاحاديث شىء كثير كقوله فى حديث الشفاعة ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وقوله ضحك الله الى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة وقوله ينزل ربنا الى سماء الدنيا الحديث واشباه هذا وهو باب واسع قوله اذا تكلم الله بالوحى سمع اهل السموات فالناس فيه على قولين أحدهما وهو قول المعتزلة والكلابية والاشعرية وكثير من الحنبلية ومن اتبعهم من الفقهاء والصوفية وغيرهم ان هذا القسم لابد ان يلحق بأحد القسمين قبله فيكون اما قديما قائما به عند من يجوز ذلك وهم الكلابية واما مخلوقا منفصلا عنه ويمتنع ان يقوم به نعت او حال او فعل او شىء ليس بقديم ويسمون هذه المسألة مسألة حلول الحوادث بذاته ويقولون يمتنع ان تحل الحوادث بذاته كما يسميها قوم آخرون فعل الذات بالذات او فى الذات ورأوا ان تجويز ذلك يستلزم حدوثه لأن الدليل الذى دلهم على حدوث الاجسام قيام الحوادث بها فلو قامت به لزم احد الامرين اما حدوثه او بطلان العلم بحدوث العالم ومن خالفهم فى ذلك قال دليل حدوث العالم امتناع خلوه عن الحوادث وكونه لا يسبقها واما اذا جاز ان يسبقها لم يكن فى قيامها به ما يدل على الحدوث ويقول آخرون انه ليس هذا هو الدليل على حدوث العالم بل هو

ضعيف ولهم مآخذ اخر ثم هم فريقان أحدهما من يرى امتناع قيام الصفات به أيضا لاعتقاده ان الصفات اعراض وان قيام العرض به يقتضى حدوثه ايضا وهؤلاء نفاة الصفات من المعتزلة فقالوا حينئذ ان القرآن مخلوق وانه ليس لله مشيئة قائمة به ولا حب ولا بغض ونحو ذلك وردوا جميع ما يضاف الى الله الى اضافة خلق او اضافة وصف من غير قيام معنى به والثاني مذهب الصفاتية أهل السنة وغيرهم الذين يرون قيام الصفات به فيقولون له مشيئة قديمة وكلام قديم واختلفوا فى حبه وبغضه ورحمته واسفه ورضاه وسخطه ونحو ذلك هل هو بمعنى المشيئة او صفات اخرى غير المشيئة على قولين وهذا الاختلاف عند الحنبلية والاشعرية وغيرهم ويقولون ان الخلق ليس هو شيئا غير المخلوق وغير الصفات القديمة من المشيئة والكلام ثم يقولون للمتكلمين فى الخلق هل هو المخلوق أربعة أقوال أحدها ان الخلق هو المخلوق والثانى انه قائم بالمخلوق والثالث انه معنى قائم بنفسه والرابع انه قائم بالخالق قال القاضى ابو يعلى الصغير من اصحابنا من قال الخلق هو المخلوق ومنهم من قال الخلق غير المخلوق فالخلق صفة قائمة بذاته والمخلوق الموجود المخترع وهذا بناء على اصلنا وان الصفات الناشئة عن الافعال موصوف بها فى القدم وان كانت المفعولات محدثة قال وهذا هو الصحيح ويقولون فى الاستواء والنزول والمجىء وغير ذلك من انواع الافعال التى هى انواع جنس الحركة أحد قولين اما ان يجعلوها من باب النسب و الاضافات المحضة بمعنى ان الله خلق العرش بصفة التحت فصار مستويا عليه وانه يكشف الحجب التى بينه وبين خلقه فيصير جائيا اليهم ونحو ذلك وان التكليم اسماع المخاطب فقط وهذا قول اهل السنة من اهل هذا القول من الحنبلية ومن وافقهم فيه او فى بعضه من الاشعرية وغيرهم أو يقول ان هذه افعال محضة فى المخلوقات من غير اضافة ولا نسبة فهذا اختلاف بينهم هل تثبت لله هذه النسب والاضافات مع اتفاق الناس على انه لابد من حدوث نسب و اضافات لله تعالى كالمعية ونحوها ويسمى ابن عقيل هذه النسب الاحوال لله وليست هو الاحوال التى تنازع فيها المتكلمون مثل العالمية والقادرية بل هذه النسب والاضافات يسميها الاحوال ويقول ان حدوث هذه الاحوال ليس هو حدوث الصفات فان هذه الاحوال نسب بين الله وبين الخلق فان ذلك لا يوجب ثبوت معنى قائم بالمنسوب اليه كما ان الانسان يصعد الى السطح فيصير فوقه ثم يجلس عليه فيصير تحته والسطح متصف تارة بالفوقية والعلو وتارة بالتحتية والسفول من غير قيام صفة فيه ولا تغير وكذلك اذا ولد للانسان مولود فيصير اخوه عما وابوه جدا وابنه اخا واخو زوجته خالا وتنسب لهم هذه النسب والاضافات من غير تغير فيهم

والقول الثانى وهو قول الكرامية وكثير من الحنبلية واكثر اهل الحديث ومن اتبعهم من الفقهاء والصوفية وجمهور المسلمين واكثر كلام السلف ومن حكى مذهبهم حتى الاشعرى يدل على هذا القول ان هذه الصفات الفعلية ونحوها المضافة الى الله قسم ثالث ليست من المخلوقات المنفصلة عنه وليست بمنزلة الذات والصفات القديمة الواجبة التى لا تتعلق بها مشيئته لا بانواعها ولا بأعيانها وقد يقول هؤلاء انه يتكلم اذا شاء ويسكت اذا شاء ولم يزل متكلما بمعنى انه لم يزل يتكلم اذا شاء ويسكت اذا شاء وكلامه منه ليس مخلوقا وكذلك يقولون وان كان له مشيئة قديمة يريد اذا شاء ويغضب ويمقت ويقر هؤلاء او اكثرهم ما جاء من النصوص على ظاهره مثل قوله {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}الأعراف٥٤ انه استوى عليه بعد ان لم يكن مستويا عليه وانه يدنو الى عباده ويقرب منهم وينزل الى سماء الدنيا ويجيىء يوم القيامة بعد ان لم يكن جائيا سقط من هؤلاء من قد يقول تحل الحوادث بذاته ومنهم من لا يطلق هذا اللفظ اما لعدم ورود الاثر به واما لايهام معنى فاسد من ان ذلك كحلول الاعراض بالمخلوقات كما يمتنع جمهور المتكلمين من تسمية صفاته اعراضا وان كانت صفات قائمة بالموصوف كالاعراض وزعم ابن الخطيب ان اكثر الطوائف والعقلاء يقرون بهذا القول فى الحقيقة وان انكروه بألسنتهم حتى الفلاسفة والمعتزلة والاشعرية أما الفلاسفة فان عندهم ان الاضافات موجودة فى الاعيان والله موجود مع كل حادث و المعية صفة حادثة فى ذاته وقد صرح ابو البركات البغدادى صاحب المعتبر بحدوث علوم وارادات جزئية فى ذاته المعينة وقال انه لا يتصور الاعتراف بكونه الها لهذا العالم الا مع القول بذلك ثم قال الاجلال من هذا الاجلال واجب والتنزيه من هذا التنزيه لازم واما المعتزلة فان البصريين كأبى علي وأبي هاشم يقولون بحدوث المرئى والمسموع وبه تحدث صفة السمعية والبصرية لله وابو الحسين البصرى يقول بتجدد علوم فى ذاته بتجدد المعلومات والاشعرية ايضا يقولون بأن المعدومات لم تكن مسموعة ولا مرئية ثم صارت مسموعة مرئية بعد وجودها وليس السمع والبصر عندهم مجرد نسبة بل هو صفة قائمة بذات السميع البصير وقد يلزمون بقولهم بأن النسخ هو رفع الحكم او انتهاؤه وقولهم علمه بالجزئيات وكذلك بانقطاع تعلق القدرة والارادة منه والتحقيق ان التصريح بالخلاف فى هذا الاصل موجود فى عامة الطوائف ليس مخصوصا بأهل الحديث ثم النفاة قد يقال ان هذا القول يلزمهم اذا اثبتوا لله نعوتا غير قديمة فيصير هذا الاصل متفقا عليه وهم قد يعتذرون عن تلك اللوازم تارة بأعذار صحيحة فلا يكون لازما لهم وتارة بأعذار غير صحيحة فيكون لازما لهم وهذا لا ريب فيه واما نصوص الكتاب والسنة فلا

ريب ان ظاهرها موافق لهذا القول لكن الاولون قد يتأولونها او يفرضونها واما هؤلاء فيقولون ان فيها نصوصا لا تقبل التأويل وان ما قبل التأويل قد انضم اليه من القرائن والضمائم ما يعلم قطعا ان الله ورسوله اراد ذلك او ان هذا مفهوم ويقولون ليس للنفاة دليل معتمد وانما معهم التقليد لاسلافهم بالشناعة والتهويل على المخاطبين الذين لم يعرفوا دقيق الكلام وان هذا مذهب عامة اهل الملل وخواص عباد الله وانما خالف ذلك اهل البدع فى الملل والاولون قد يقولون هذا خلاف الاجماع وهذا كفر وهذا يستلزم التغير والحدوث وقد رأيت للناس فى هذا الاصل عجائب وقال الامام أحمد فى الجزء الذى فيه الرد على الجهمية والزنادقة وكذلك الله تكلم كيف شاء من غير ان نقول جوف ولا فم ولا شفتان وقال بعد ذلك بل نقول ان الله لم يزل متكلما اذا شاء ولا نقول انه كان ولا يتكلم حتى خلق وكلامه فيه طول قال باب ما انكرت الجهمية من ان الله كلم موسى فقلنا لم انكرتم ذلك قالوا ان الله لم يتكلم ولا يتكلم انما كون شيئا فعبر عن الله وخلق صوتا فأسمعه وزعموا ان الكلام لا يكون الا من جوف ولسان وشفتين فقلنا هل يجوز ان يكون لمكون غير الله ان يقول يا موسى {يَا مُوسَى{١١} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ{١٢}طه١١-١٢ او يقول {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}طه١٤ فمن زعم ان ذلك غير الله فقد ادعى الربوبية ولو كان كما زعم الجهمى ان الله كون شيئا كان يقول ذلك المكون يا موسى ان الله رب العالمين ولا يجوز ان يقول انى انا الله رب العالمين وقد قال جل ثناؤه {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ وقال {وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}الأعراف١٤٣ وقال {إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي}الأعراف١٤٤ فهذا منصوص القرآن واما ما قالوا ان الله لم يتكلم ولا يكلم فكيف يصنعون بحديث الاعمش عن خيثمة عن عدى بن حاتم الطائى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من احد الا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان واما قولهم ان الكلام لا يكون الا من جوف وفم وشفتين ولسان فنقول اليس الله قال للسموات والارض {ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}فصلت١١ أتراها انها قالت بجوف وفم وشفتين ولسان وقال {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ}الأنبياء٧٩ اتراها انها يسبحن بجوف وفم ولسان وشفتين ولكن الله انطقها كيف شاء وكذلك الله تكلم كيف شاء من غير ان نقول جوف ولا فم ولا شفتان ولا لسان فلما خنقته الحجج قال ان الله كلم موسى الا ان كلامه غيره فقلنا وغيره مخلوق قال نعم قلنا هذا مثل قولكم الاول الا انكم تدفعون عن انفسكم الشنعة وحديث الزهرى قال لما سمع موسى كلام ربه قال يا رب هذا الذى سمعته هو كلامك قال

نعم يا موسى هو كلامى وانما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولى قوة الالسن كلها وانا اقوى من ذلك وانما كلمتك على قدر ما يطيق بدنك ولو كلمتك بأكثر من ذلك لمت قال فلما رجع موسى الى قومه قالوا له صف لنا كلام ربك فقال سبحان الله وهل استطيع ان اصفه لكم قالوا فشبهه قال سمعتم اصوات الصواعق التى تقبل فى احلى حلاوة سمعتموها فكأنه مثله وقلنا للجهمية من القائل يوم القيامة {يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ}المائدة١١٦ اليس الله هو القائل قالوا يكون الله شيئا فيعبر عن الله كما كونه فعبر لموسى قلنا فمن القائل {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ{٦} فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ {٧} الأعراف٦-٧ اليس الله هو الذى يسأل قالوا هذا كله انما يكون شيئا فيعبر عن الله فقلنا قد اعظمتم على الله الفرية حين زعمتم انه لا يتكلم فشبهتموه بالاصنام التى تعبد من دون الله لان الاصنام لا تتكلم ولا تتحرك ولا تزول من مكان الى مكان فلما ظهرت عليه الحجة قال ان الله قد يتكلم لكن كلامه مخلوق قلنا قد شبهتم الله بخلقه حين زعمتم ان كلامه مخلوق ففى مذهبكم قد كان فى وقت من الاوقات لا يتكلم وكذلك بنو آدم كانوا ولا يتكلمون حتى خلق لهم كلاما فقد جمعتم بين كفر وتشبيه فتعالى الله عن هذه الصفة علوا كبيرا بل نقول ان الله لم يزل متكلما اذا شاء ولا نقول انه كان ولا يتكلم حتى خلق كلاما ولا نقول انه قد كان لا يعلم حتى خلق علما ولا نقول انه قد كان ولا قدرة حتى خلق لنفسه قدرة ولا نقول انه قد كان ولا نور له حتى خلق لنفسه نورا ولا نقول انه قد كان ولا عظمة حتى خلق لنفسه عظمة وذكر كلاما طويلا فى تقرير الصفات وانها لا تنافى التوحيد

ومما يشبه هذا ان الصفات التى هى من جنس الحركة كالاتيان والمجىء والنزول هل تتأول بمعنى مجىء قدرته وامره على روايتين احداهما هى بمعنى مجىء قدرته وهى رواية حنبل فى المحنة والثانية تمر كسائر الصفات وهى ظاهر المذهب المشهور عند اصحابنا ثم منهم من غلط حنبل ومنهم من قال قاله احمد الزاما لهم ومنهم من جعله رواية خاصة كابن الزاغونى وعمم ابن عقيل ذلك فى سائر الصفات وهذا الاصل يتفرع فى اكثر مسائل الصفات لا سيما مسألة الكلام والارادة والصفات المتعلقة بالمشيئة كالنزول والاستواء وهو كان سبب وقوع النزاع بين امام الائمة محمد بن اسحاق بن خزيمة وبين طائفة من فضلاء اصحابه قال القاضى قال أحمد فى رواية حنبل لم يزل الله متكلما عالما غفورا وقال فى رواية عبدالله لم يزل الله متكلما اذا شاء ووجدتها فى المحنة رواية حنبل لما سأله عبدالرحمن بن اسحاق قاضى المعتصم فلامه فقال ما تقول فى القرآن قال فقلت ما تقول فى العلم فسكت فقلت

لعبدالرحمن القرآن من علم الله ومن زعم ان علم الله مخلوق فقد كفر بالله قال فسألت عبدالرحمن فلم يرد على شيئا وقال لى عبدالرحمن كان الله ولا قرآن فقلت كان الله ولا علم فأمسك ولو زعم ان الله كان ولا علم لكفر بالله ثم قال ابو عبدالله لم يزل الله عالما متكلما يعبد الله بصفاته غير محدودة ولا معلومة الا بما وصف به نفسه ونرد القرآن الى عالمه الى الله فهو اعلم به منه بدأ واليه يعود وقال فى موضع أخر سمعت ابا عبدالله يقول لم يزل الله متكلما والقرآن كلام الله غير مخلوق وعلى كل جهة ولا يوصف الله بشيء اكثر مما وصف به نفسه [1]

وقال ابو بكر عبدالعزيز فى الجزء الأول من كتاب السنة فى المقنع لما سألوه انكم اذا قلتم لم يزل متكلما كان ذلك عبثا فقال لأصحابنا قولان أحدهما لم يزل متكلما كالعلم لأن ضد الكلام الخرس كما ان ضد العلم الجهل قال ومن اصحابنا من قال قد أثبت لنفسه أنه خالق ولم يجز أن يكون خالقا فى كل حال بل قلنا انه خالق فى وقت ارادته ان يخلق وإن لم يكن خالقا فى كل حال ولم يبطل أن يكون خالقا كذلك وان لم يكن متكلما فى كل حال لم يبطل أن يكون متكلما بل هو متكلم خالق وان لم يكن خالقا فى كل حال ولا متكلما فى كل حال قال القاضى أبو يعلى فى كتاب إيضاح البيان فى مسئلة القرآن لما أورد عليه هذا السؤال فقال نقول إنه لم يزل متكلما وليس بمكلم ولا مخاطب ولا آمر ولا ناه نص عليه أحمد فى رواية حنبل وساق الكلام الى ان ذكر عن أبى بكر ما حكاه فى المقنع ثم قال لعل هذا القائل من أصحابنا يذهب الى قول أحمد بن حنبل فى رواية عبدالله لم يزل متكلما اذا شاء قال والقائل بهذا قائل بحدوث القرآن وقد تأولنا كلام أحمد يتكلم اذا شاء فى أول المسئلة ولا يشبه هذا وصفه بالخلق والرزق لأن تلك الصفات يجب أن تقدر فيها ذلك وذلك لأننا لو قدرنا وجود الفعل فيما لم يزل أفضى الى قدم العالم فأما الكلام فهو كالعلم وقال القاضى فى أول المسألة قول أحمد لم يزل غفورا بيان أن جميع الصفات قديمة سواء كانت مشتقة من فعل كالغفران والخلق والرزق او لم تكن مشتقة وقوله لم يزل متكلما اذا شاء معناه اذا شاء ان يسمعه قلت وطريقة القاضى هذه

---

[1] )) ملاحظة لم انقل تفسير النساء١٦٤ لباقي الايات التي ذكرت معها في نفس الصفحةص: ١٤٥و ١٤٦وقوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}يس٨٢ وقوله {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّيَ}الكهف١٠٩ وقوله يريدون ان يبدلوا كلام الله {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ}البقرة٧٥ {حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ}التوبة٦وقوله {إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}المائدة١ {فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}هود١٠٧ ٠٠٠الخ((

هى طريقة اصحابه واصحابهم وغيرهم كإبن عقيل وابن الزاغونى وأما أكثر أهل الحديث من أصحاب أحمد وغيرهم وكثير من أهل الكلام أيضا فيخالفونه فى ذلك ويقولون فى الفعل أحد قولين أحدهما وهو القول الآخر للقاضى الذى هو الصحيح عند أصحابنا اما ان الفعل قديم والمفعول مخلوق كما نسلم ذلك لهم فى الارادة والقول المكون اى الارادة قديمة والمراد محدث وكما ان المنازع يقول التكوين قديم فالمكون مخلوق والثانى ان الفعل نفسه عندهم كالقول كلاهما غير مخلوق مع أنه يكون فى حال دون حال اذ هو قائم بالله والمخلوق لا يكون الا منفصلا عن الله ويقولون ان قول أحمد موافق لما قلناه لأنه قال لم يزل متكلما اذا شاء ولم يقل لم يزل مكلما اذا شاء والمتعلق بالمشيئة عند من يقول انه قديم واجب انما هو التكليم الذى هو فعل جائز لا التكلم فبين ذلك أن أحمد رضى الله عنه قال فى الموضع الاخر لم يزل الله متكلما عالما غفورا فذكر الصفات الثلاث الصفة التى هى قديمة واجبة وهى العلم والتى هى جائزة متعلقة بالمشيئة وهى المغفرة فهذان متفق عليهما وذكر أيضا التكلم وهو القسم الثالث الذى فيه نزاع وهو يشبه العلم من حيث هو وصف قائم به لا يتعلق بالمخلوق ويشبه المغفرة من حيث هو متعلق بمشيئته كما فسره فى الموضع الآخر فعلم ان قدمه عنده أنه لم يزل اذا شاء تكلم واذا شاء سكت لم يتجدد له وصف القدرة على الكلام التى هى صفة كمال كما لم يتجدد له وصف القدرة على المغفرة وان كان الكمال هو أن يتكلم اذا شاء ويسكت اذا شاء وأما قول القاضى ان هذا قول بحدوثه فيجيبون عنه بجوابين أحدهما الا يسمى محدثا ان يسمى حديثا إذ المحدث هو المخلوق المنفصل واما الحديث فقد سماه الله حديثا وهذا قول الكرامية وأكثر أهل الحديث والحنبلية والثانى أنه يسمى محدثا كما فى قوله {مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ}الأنبياء٢ وليس بمخلوق وهذا قول كثير من الفقهاء وأهل الحديث والكلام أنه يسمى محدثا كما فى قوله {مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ}الأنبياء٢ وليس بمخلوق وهذا قول كثير من الفقهاء وأهل الحديث والكلام كداود بن على الأصبهانى صاحب المذهب لكن المنقول عن أحمد إنكار ذلك وقد يحتج به لأحد قولى أصحابنا قال المروذى قال أبو عبدالله من داود بن على الأصبهانى لا فرج الله عنه جاءنى كتاب محمد بن يحيى النسابورى ان داود الاصبهانى قال كذبا ان القرآن محدث وذكر أبو بكر الخلال هذه الرواية فى كتاب السنة وقال عبدالله بن أحمد إستأذن داود على ابى فقال من هذا داود لا جبر ود الله قلبه ودود الله قبره فمات مدودا والاطلاقات قد توهم خلاف المقصود فيقال إن أردت بقولك محدث انه مخلوق منفصل عن الله كما يقوله الجهمية والمعتزلة والنجارية فهذا باطل لا نقوله وان أردت بقولك أنه كلام تكلم الله به بمشيئته بعد أن لم

يتكلم به بعينه وإن كان قد تكلم بغيره قبل ذلك مع أنه لم يزل متكلما إذا شاء فانا نقول بذلك وهو الذى دل عليه الكتاب والسنة وهو قول السلف وأهل الحديث وإنما ابتدع القول الآخر الكلابية والأشعرية ولكن أهل هذا القول لهم قولان أحدهما أنه تكلم بعد أن لم يكن متكلما وإن كان قادرا على الكلام كما أنه خلق السموات والأرض بعد أن لم يكن خلقهما وان كان قادرا على الخلق وهذا قول الكرامية وغيرهم ممن يقول انه تحله الحوادث بعد ان لم تكن تحله وقول من قال أنه محدث يحتمل هذا القول وإنكار أحمد يتوجه إليه والثانى انه لم يزل متكلما يتكلم اذا شاء وهذا هو الذى يقوله من يقوله من أهل الحديث وأصحاب هذا القول قد يقولون ان كلامه قديم وانه ليس بحادث ولا محدث فيريدون نوع الكلام اذ لم يزل يتكلم اذا شاء وان كان الكلام العينى يتكلم به اذا شاء ومن قال ليست تحل ذاته الحوادث فقد يريد به هذا المعنى بناء على انه لم يحدث نوع الكلام فى كيفية ذاته وقال أبو عبدالله بن حامد فى أصوله ومما يجب الايمان به والتصديق ان الله يتكلم وان كلامه قديم وأنه لم يزل متكلما فى كل أوقاته بذلك موصوفا وكلامه قديم غير محدث كالعلم والقدرة وقد يجىء على المذهب أن يكون الكلام صفة متكلم لم يزل موصوفا بذلك ومتكلما كلما شاء واذا شاء ولا نقول أنه ساكت فى حال ومتكلم فى حال من حين حدوث الكلام والدليل على اثباته متكلما على ما وصفناه كتاب الله وسنة نبيه واجماع اهل الحق الا طائفة الضلال المعتزلة وغيرهم من المتكلمين فانهم أبو أن يكون الله متكلما وذكر بعض أدلة الكتاب والسنة ثم قال بعد ذلك ولا خلاف عن أبى عبدالله ان الله كان متكلما بالقرآن قبل أن يخلق الخلق وقبل كل الكائنات موجودا وان الله فيما لم يزل متكلما كيف شاء وكما شاء واذا شاء أنزل كلامه واذا شاء لم ينزله وأبى ذلك المعتزلة فقالوا حادث بعد وجود المخلوقات قلت فقد حكى القولين ابن حامد أيضا مع أنه يذكر الاتفاق عنه على أنه لم يزل متكلما كيف شاء وكما شاء لكنه نفى على القولين ان يقال هو هو ساكت فى حال ومتكلم فى حال فأثبت ان يقال هو متكلم كلما شاء واذا شاء ولا يقال أنه ساكت فى حال

وعبدالعزيز بن يحيى الكنانى صاحب الحيدة و الرد على الجهمية والقدرية كلامه فى الحيدة والرد على الجهمية يحتمل ذلك فان مضمون الحيدة انه ابطل احتجاج بشر المريسى بقوله الله خالق كل شىء وقوله انا جعلناه قرآنا عربيا ثم أنه احتج على المريسى بثلاث حجج الأولى أنه قال اذا كان مخلوقا فاما ان تقول خلقه فى نفسه او خلقه فى غيره او خلقه قائما بنفسه وذاته قال فان قال خلق كلامه فى نفسه فهذا محال ولا تجد السبيل الى القول به من قياس ولا نظر ولا معقول لأن الله لا يكون مكانا للحوادث ولا يكون فيه شىء مخلوق ولا

يكون ناقصا فيزيد فيه شيء اذا خلقه تعالى الله عن ذلك وجل وتعظم وان قال خلقه فى غيره فيلزمه فى النظر والقياس ان كل كلام خلقه الله فى غيره فهو كلام الله لا يقدر أن يفرق بينهما أفيجعل الشعر كلاما لله ويجعل قول القذر كلاما لله ويجعل كلام الفحش والكفر كلاما لله وكل قول ذمه الله وذم قائله كلاما لله وهذا محال لا يجد السبيل اليه ولا الى القول به لظهور الشناعة والفضيحة والكفر على قائله وان قال خلقه قائما بذاته ونفسه فهذا هو المحال الباطل الذى لا يجد الى القول به سبيلا فى قياس ولا نظر ولا معقول لأنه لا يكون الكلام الا من متكلم كما لا تكون الارادة الا من مريد ولا العلم الا من عالم ولا القدرة الا من قدير ولا رؤى ولا يرى قط كلام قط قائم بنفسه يتكلم بذاته فلما استحال من هذه الجهات الثلاث ان يكون مخلوقا ثبت أنه صفة لله وصفات الله كلها غير مخلوقة [1]

## القرآن كلام الله غير مخلوق

وأما قول القائل أنتم تعتقدون أن موسى سمع كلام الله منه حقيقة من غير واسطة وتقولون أن الذى تسمعونه كلام الله حقيقة وتسمعونه من وسائط بأصوات مختلفة فما الفرق بين ذلك فيقال له بين هذا وهذا من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق فإن كل عاقل يفرق بين سماع كلام النبى صلى الله عليه وسلم منه بغير واسطة كسماع الصحابة منه وبين سماعه منه بواسطة المبلغين عنه كأبى هريرة وأبي سعيد وابن عمر وابن عباس وكل من السامعين سمع كلام النبى حقيقة وكذلك من سمع شعر حسان بن ثابت أو عبد الله بن رواحة أو غيرهما من الشعراء منه بلا واسطة ومن سمعه من الرواة عنه يعلم الفرق بين هذا وهذا وهو فى الموضعين شعر حسان لا شعر غيره والانسان إذا تعلم شعر غيره فهو يعلم ان ذلك الشاعر انشأ معانيه ونظم حروفه بأصواته المقطعة وان كان المبلغ يرويه حركة نفسه وأصوات نفسه فإذا كان هذا الفرق معقولا فى كلام المخلوقين بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وسماعه بواسطة الراوى عنه أو المبلغ عنه فكيف لا يعقل ذلك فى سماع كلام الله وقد تقدم أن من ظن أن المسموع من القراء هو صوت الرب فهو إلى تأديب المجانين أقرب منه إلى خطاب العقلاء وكذلك من توهم أن الصوت قديم أو أن المداد قديم فهذا لا يقوله ذو حس سليم بل ما بين لوحي المصحف كلام الله وكلام الله ثابت

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٤٤-١٦٣

فى مصاحف المسلمين لا كلام غيره فمن قال ان الذى فى المصحف ليس كلام الله بل كلام غيره فهو ملحد مارق ومن زعم أن كلام الله فارق ذاته وانتقل إلى غيره كما كتب فى المصاحف أو أن المداد قديم أزلى فهو أيضا ملحد مارق بل كلام المخلوقين يكتب فى الأوراق وهو لم يفارق ذواتهم فكيف لايعقل مثل هذا فى كلام الله تعالى و الشبهة تنشأ فى مثل هذا من جهة أن بعض الناس لا يفرق بين المطلق من الكلام والمقيد مثال ذلك أن الانسان يقول رأيت الشمس والقمر والهلال اذا رآه بغير واسطة وهذه الرؤية المطلقة وقد يراه فى ماء أو مرآة فهذه رؤية مقيدة فإذا أطلق قوله رأيته أو ما رأيته حمل على مفهوم اللفظ المطلق وإذا قال لقد رأيت الشمس فى الماء والمرآة فهو كلام صحيح مع التقييد واللفظ يختلف معناه بالاطلاق والتقييد فإذا وصل بالكلام ما يغير معناه كالشرط والاستثناء ونحوهما من التخصيصات المتصلة كقوله {أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً}العنكبوت١٤ كان هذا المجموع دالا على تسعمائة وخمسين سنة بطريق الحقيقة عند جماهير الناس ومن قال أن هذا مجاز فقد غلط فان هذا المجموع لم يستعمل فى غير موضعه وما يقترن باللفظ من القرائن اللفظية الموضوعة هي من تمام الكلام ولهذا لا يحتمل الكلام معها معنيين ولا يجوز نفى مفهومهما بخلاف استعمال لفظ الأسد فى الرجل الشجاع مع ان قول القائل هذا اللفظ حقيقة وهذا مجاز نزاع لفظى وهو مستند من انكر المجاز فى اللغة أو فى القرآن ولم ينطق بهذا أحد من السلف والأئمة ولم يعرف لفظ المجاز فى كلام أحد من الأئمة إلا فى كلام الامام أحمد فانه قال فيما كتبه من الرد على الزنادقة والجهمية هذا من مجاز القرآن وأول من قال ذلك مطلقا أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه الذي صنفه فى مجاز القرآن ثم أن هذا كان معناه عند الأولين مما يجوز فى اللغة ويسوغ فهو مشتق عندهم من الجواز كما يقول الفقهاء عقد لازم وجائز وكثير من المتأخرين جعله من الجواز الذى هو العبور من معنى الحقيقة إلى معنى المجاز ثم أنه لا ريب أن المجاز قد يشيع ويشتهر حتى يصير حقيقة والمقصود أن القائل إذا قال رأيت الشمس أو القمر أو الهلال أو غير ذلك فى الماء والمرآة فالعقلاء متفقون على الفرق بين هذه الرؤية وبين رؤية ذلك بلا واسطة وإذا قال قائل ما رأى ذلك بل رأى مثاله أو خياله أو رأى الشعاع المنعكس أو نحو ذلك لم يكن هذا ما نعا لما يعلمه الناس ويقولونه من انه رآه فى الماء أو المرآة وهذه الرؤية فى الماء أو المرآة حقيقة مقيدة وكذلك قول النبى من رآنى فى المنام فقد رآنى حقا فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى هو كما قال رآه فى المنام حقا فمن قال ما رآه فى المنام حقا فقد أخطأ ومن قال أن رؤيته فى اليقظة بلا واسطة كالرؤية بالواسطة المقيدة بالنوم فقد أخطأ ولهذا يكون لهذه تأويل وتعبير دون تلك

وكذلك ما سمعه منه من الكلام فى المنام هو سماع منه فى المنام وليس هذا كالسماع منه فى اليقظة وقد يرى الرائى فى المنام أشخاصا ويخاطبونه والمرئيون لا شعور لهم بذلك وإنما رأى مثالهم ولكن يقال رآهم فى المنام حقيقة فيحترز بذلك عن الرؤيا التى هي حديث النفس فإن الرؤيا ثلاثة أقسام رؤيا بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه فى اليقظة فيراه فى المنام وقد ثبت هذا التقسم فى الصحيح عن النبى ولكن الرؤيا يظهر لكل احد من الفرق بينها وبين اليقظة مالا يظهر فى غيرها فكما أن الرؤية تكون مطلقة وتكون مقيدة بواسطة المرآة والماء أو غير ذلك حتى ان المرئي يختلف باختلاف المرآة فإذا كانت كبيرة مستديرة رأى كذلك وان كانت صغيرة أو مستطيلة رأى كذلك فكذلك فى السماع يفرق بين من سمع كلام غيره منه ومن سمعه بواسطة المبلغ ففي الموضعين المقصود سماع كلامه كما أن هناك فى الموضعين يقصد رؤية نفس النبى لكن إذا كان بواسطة اختلف باختلاف الواسطة فيختلف باختلاف أصوات المبلغين كما يختلف المرئى باختلاف المرايا قال تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ}الشورى٥١ فجعل التكليم ثلاثة أنواع الوحي المجرد والتكليم من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام والتكليم بواسطة ارسال الرسول كما كلم الرسل بإرسال الملائكة وكما نبأنا الله من أخبار المنافقين بإرسال محمد والمسلمون متفقون على أن الله أمرهم بما أمرهم به فى القرآن ونهاهم عما نهاهم عنه فى القرآن وأخبرهم بما أخبرهم به فى القرآن فامره ونهيه واخباره بواسطة الرسول فهذا تكليم مقيد بالارسال وسماعنا لكلامه سماع مقيد بسماعه من المبلغ لا منه وهذا القرآن كلام الله مبلغا عنه مؤدا عنه وموسى سمع كلامه مسموعا منه لا مبلغا عنه ولا مؤدا عنه وإذا عرف هذا المعنى زاحت الشبهة والنبى يروى عن ربه ويخبر عن ربه ويحكى عن ربه فهذا يذكر ما يذكره عن ربه من كلامه الذى قاله راويا حاكيا عنه فلو قال من قال إن القرآن حكاية أن محمدا حكاه عن الله كما يقال بلغه عن الله واداه عن الله لكان قد قصد معنى صحيحا لكن يقصدون ما يقصده القائل بقوله فلانا يحكى فلانا أي يفعل مثل فعله وهو أنه يتكلم بمثل كلام الله فهذا باطل قال الله تعالى {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}الإسراء٨٨ ونكتة الامر ان العبرة بالحقيقة المقصودة لا بالوسائل المطلوبة لغيرها فلما كان مقصود الرائى ان يرى الوجه مثلا فرآه فى المرآة حصل مقصوده وقال رأيت الوجه وان كان ذلك بواسطة انعكاس الشعاع فى المرآة وكذلك من كان مقصوده ان يسمع القول الذى قاله غيره الذى ألف الفاظه وقصد معانيه فاذا سمعه منه أو من غيره

حصل هذا المقصود وان كان سماعه من غيره هو بواسطة صوت ذلك الغير الذى يختلف باختلاف الصآبئين والقلوب انما تشير الى المقصود لا الى ما ظهر به المقصود كما فى الاسم والمسمى فان القائل اذا قال جاء زيد وذهب عمرلم يكن مقصوده الا الاخبار بالمجىء عن المسمى ولكن بذكر الاسم أظهر ذلك فمن ظن أن الموصوف بالمجىء والاتيان هو لفظ زيد أو لفظ عمرو كان مبطلا فكذلك إذا قال القائل هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق فالمقصود هنا الكلام نفسه من حيث هو هو وإن كان إنما ظهر وسمع بواسطة حركة التالى وصوته فمن ظن أن المشار إليه هو صوت القارىء وحركته كان مبطلا ولهذا لما قرأ أبو طالب المكي على الامام أحمد رضى الله عنه قل هو الله احد وسأله هل هذا كلام الله وهل هو مخلوق فأجابه بأنه كلام الله وأنه غير مخلوق فنقل عنه أبو طالب خطأ منه أنه قال لفظى بالقرآن غير مخلوق فاستدعاه وغضب عليه وقال أنا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق قال لا ولكن قرأت عليك قل هو الله أحد وقلت لك هذا غير مخلوق فقلت نعم قال فلم تحك عنى مالم أقل لا تقل هذا فإن هذا لم يقله عالم وقصته مشهورة حكاها عبد الله وصالح وحنبل والمروذى وفوران وبسطها الخلال فى كتاب السنة وصنف المروذى فى مسألة اللفظ مصنفا ذكر فيه أقوال الأئمة وهذا الذى ذكره أحمد من أحسن الكلام وأدقه فان الاشارة إذا أطلقت انصرفت إلى المقصود وهو كلام الله الذى تكلم به لا إلى ما وصل به إلينا من أفعال العباد وأصواتهم فإذا قيل لفظى جعل نفس الوسائط غير مخلوقة وهذا باطل كما أن من رأى وجها فى مرآة فقال أكرم الله هذا الوجه وحياه أو قبحه كان دعاؤه على الوجه الموجود فى الحقيقة الذى رأى بواسطة المرآة لا على شعاع المنعكس فيها وكذلك إذا رأى القمر الذى فى الماء فقال قد أبدر أو لم يبدر فإنما مقصوده القمر الذى فى السماء لا خياله وكذلك من سمعه يذكر رجلا فقال هذا رجل صالح أو رجل فاسق علم أن المشار إليه هو الشخص المسمى بالاسم لا نفس الصوت المسموع من الناطق فلو قال هذا الصوت أو صوتى بفلان صالح أو فاسق فسد المعنى وكان بعضهم يقول لفظى بالقرآن مخلوق فرأى فى منامه وضارب يضربه وعليه فروة فأوجعه بالضرب فقال له لاتضربنى فقال أنا ماأضربك وانما اضرب الفروة فقال إنما يقع الضرب على فقال هكذا إذا قلت لفظى بالقرآن مخلوق فالخلق إنما يقع على القرآن يقول كما أن المقصود بالضرب بدنك واللباس واسطة فهكذا المقصود بالتلاوة كلام الله وصوتك واسطة فإذا قلت مخلوق وقع ذلك على المقصود كما إذا سمعت قائلا يذكر رجلا فقلت أنا أحب هذا وأنا أبغض هذا انصرف الكلام إلى المسمى المقصود بالاسم لا إلى

صوت الذاكر ولهذا قال الأئمة القرآن كلام الله غير مخلوق كيفما تصرف بخلاف افعال العباد وأصواتهم فإنه من نفى عنها الخلق كان مبتدعا ضالا [1]

وبين الامام أحمد أن كلام الآدميين مخلوق فضلا عن أعمالهم فقال بيان ما أنكرت الجهمية من أن يكون الله كلم موسى فقلنا لم أنكرتم ذلك قالوا إن الله لم يتكلم و لا يتكلم إنما كون شيئا فعبر عن الله و خلق صوتا فأسمع و زعموا أن الكلام لا يكون إلا من جوف و لسان و شفتين فقلنا فهل يجوز لمكون غير الله أن يقول{يَا مُوسَى{١١} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ {١٢}طه ١١-١٢ أو يقول {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي{١٤}طه ١٤ فمن زعم أن ذلك غير الله فقد إدعى الربوبية و لو كان كما زعم الجهمي أن الله كون شيئا كان يقول ذلك المكون ياموسى ان الله رب العالمين لا يجوز له أن يقول إني أنا الله رب العالمين و قد قال الله تعالى{وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ و قال{وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}الأعراف١٤٣و قال {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي}الأعراف١٤٤ فهذا منصوص القرآن فأما ما قالوا أن الله لا يتكلم و لا يكلم فكيف يصنعون بحديث الأعمش عن خيثمة عن عدي بن حاتم الطائي قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ما منكم من أحد إلا سيكلم ربه ليس بينه و بينه ترجمان و بسط الكلام عليهم إلى أن قال قد أعظمتم على الله الفرية حين زعمتم أنه لا يتكلم فشبهتموه بالأصنام التى تعبد من دون الله لأن الأصنام لا تتكلم و لا تتحرك و لا تزول من مكان إلى مكان فلما ظهرت عليه الحجة قال أن الله قد يتكلم و لكن كلامه مخلوق قلنا و كذلك بنوا آدم كلامهم مخلوق فقد شبهتم الله بخلقه حين زعمتم أن كلامه مخلوق ففي مذهبكم قد كان فى و قت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق التكلم فقد جمعتم بين كفر و تشبيه فتعالى الله عن هذه الصفة بل نقول إن الله لم يزل متكلما إذا شاء و لا نقول أنه كان و لا يتكلم حتى خلق و ذكر تمام كلامه فقد بين أن كلام الآدميين مخلوق خلقه الله و ذلك أبلغ من نصه على أن أفعال العباد مخلوقة مع نصه على الأمرين و قال إذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله حين زعم أنه في كل مكان و لا يكون فى مكان دون مكان فقل أليس الله كان و لا شيء فيقول نعم فقل له حين خلق خلقه خلقه فى نفسه أو خارجا عن نفسه فإنه يصير إلى ثلاثة أقاويل و احدة منها إن زعم أن الله خلق الخلق في نفسه كفر حين زعم أن الجن و الإنس و الشياطين

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٢٧٥-٢٨٣

في نفسه و إن قال خلقهم خارجا من نفسه ثم دخل فيهم كان هذا أيضا كفرا حين زعم أنه دخل في مكان و حش قذر رديء و إن قال خلقهم خارجا من نفسه ثم لم يدخل فيهم رجع عن قوله أجمع و هو قول أهل السنة فقد بين أحمد كلام الآدميين مخلوق و نص فى غير موضع على أن أفعالهم مخلوقة و النص على كلامهم أبلغ فإن الشبه فيه أظهر فمن قال أن كلام الآدميين أو أفعالهم قديمة فهو مبتدع مخالف للكتاب و السنة و إجماع سلف الأمة و أئمتها [1]

## القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود

}وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{النساء١٦٤

وأما ما يوصف به الرب من الكلام والإرادة فقد دلت عليه أسماؤه الحسنى وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله تعالى متكلم بكلام قائم به وإن كلامه غير مخلوق وأنه مريد بإرادة قائمة به وإن إرادته ليست مخلوقة وأنكروا على الجهمية من المعتزلة وغيرهم الذين قالوا إن كلام الله مخلوق خلقه في غيره وإنه كلم موسى بكلام خلقه في الهواء واتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود ومعنى قولهم منه بدأ أي هو المتكلم به لم يخلقه في غيره كما قالت الجهمية من المعتزلة وغيرهم أنه بدأ من بعض المخلوقات وأنه سبحانه لم يقم به كلام ولم يرد السلف أنه كلام فارق ذاته فإن الكلام وغيره من الصفات لا تفارق الموصوف بل صفة المخلوق لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فكيف تكون صفة الخالق تفارقه وتنتقل إلى غيره ولهذا قال الإمام أحمد كلام الله من الله ليس ببائن منه ورد بذلك على الجهمية المعتزلة وغيرهم الذين يقولون كلام الله بائن منه خلقه في بعض الأجسام ومعنى قول السلف إليه يعود ما جاء في الآثار إن القرآن يسري به حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في القلوب منه آية وقد قال الله تعالى عن المخلوق {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً}الكهف٥ ومع هذا فكلمة المخلوق لا تفارق ذاته وتنتقل إلى غيره وما جاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين لهم بإحسان وغيرهم من أئمة المسلمين كالحديث الذي رواه أحمد في مسنده وكتبه إلى المتوكل في رسالته التي أرسل بها إليه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤١٩-٤٢٠

ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه يعني القرآن وفي لفظ بأحب إليه مما خرج منه وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما سمع كلام مسيلمة إن هذا كلام لم يخرج من إل أي من رب وقول ابن عباس لما سمع قائلا يقول لميت لما وضع في لحده اللهم رب القرآن اغفر له فالتفت إليه ابن عباس فقال مه القرآن كلام الله ليس بمربوب منه خرج وإليه يعود وهذا الكلام معروف عن ابن عباس      وقول السلف القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود كما استفاضت الآثار عنهم بذلك كما هو مذكور عنهم في الكتب المنقولة عنهم بالأسانيد المشهورة لا يدل على أن الكلام يفارق المتكلم ويتنقل إلى غيره ولكن هذا دليل على أن الله هو المتكلم بالقرآن ومنه سمع لا أنه خلقه في غيره كما فسره بذلك أحمد وغيره من الأئمة قال أبو بكر الأشتر سئل أحمد عن قوله القرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود فقال أحمد منه خرج هو المتكلم به وإليه يعود ذكره الخلال في كتاب السنة عن عبد الله بن أحمد وما جاءت به الآثار مثل قول خباب بن الأرت تقرب إلى الله بما استطعت فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه مما خرج منه وروي ذلك مرفوعا ونحو ذلك أولى أن لا يدل على أن الكلام يفارق المتكلم وينتقل إلى غيره ولكن هذا دليل على أن الله هو المتكلم بالقرآن ومنه سمع لا أنه خلقه في غيره وقد بين السلف والأئمة وأتباعهم فساد قول الجهمية وأتباعهم الذين يقولون كلامه مخلوق بوجوه كثيرة مثل قولهم لو كان مخلوقا في غيره لكان صفة لذلك المحل ولاشتق لذلك المحل منه اسم كما في سائر الصفات مثل العلم والقدرة والسمع والبصر والحياة_وكما في الحركة والسكون والسواد والبياض وسائر الصفات التي تشترط لها الحياة فإنها إذا قامت بمحل كانت صفة لذلك المحل دون غيره واشتق لذلك المحل منها اسم دون غيره فإن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل دون غيره وسمى بالاسم المشتق منها ذلك المحل دون غيره وطرد هذا عند السلف وجمهور أهل الإثبات في أسماء الأفعال كالخالق والعادل وغير ذلك

وأما من لم يطرد ذلك بل زعم أنه يوصف بصفات الأفعال وهي عنده المفعولات المباينة له ويشقق له منها اسم فقوله متناقض ولهذا نقضت المعتزلة قول هؤلاء بما سلموه لهم وبسط هذا له موضع آخر      والمقصود هنا التنبيه على الفرق بين المتكلم والمريد وغيرهما حيث جاءت النصوص باسم العليم والقدير والسميع والبصير ولم تأت باسم المريد والمتكلم بما يدل على مطلق الإرادة والكلام وإنما جاءت بما يدل على الكلام المحمود والإرادة المحمودة لا باسم يشترك فيه المحمود والمذموم وأن الكلام والإرادة مما يقوم بالرب تعالى ويوصف به ليس ذلك أمرا منفصلا عنه كما تزعم الجهمية والتنبيه على أنه لو كان كلام الله مخلوقا في محل لكان ذلك المحل هو المتكلم به وكانت الشجرة مثلا هي القائلة لموسى      إنني أنا الله لا إله إلا أنا_فاعبدني      ولوجب أن يكون ما أنطق الله به بعض مخلوقاته كلاما له وقد قال تعالى____وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء      وقد كان النبي_صلى الله عليه وسلم يسلم عليه الحجر وقال إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن وقد سبح الحصى

بيديه حتى سمع تسبيحه وأمثال ذلك كثير والله هو الذي أنطق هذه الأجسام فلو كان ما يخلقه من النطق والكلام كلاما له لكان ذلك كلام الله كما أن القرآن كلام وكان لا فرق بين أن ينطق هو وبين أن ينطق غيره من المخلوقات وهذا ظاهر الفساد وكان قدماء الجهمية تنكر أن يكون الله يتكلم فإن حقيقة مذهبهم أن الله لا يتكلم ولهذا قتل المسلمون أول من أظهر هذه البدعة في الإسلام الجعد ابن درهم ضحى به خالد بن عبد الله القسري في يوم النحر وقال ضحوا أيها الناس تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه ثم إنهم صاروا يقولون إنه متكلم مجازا ثم أظهروا القول بأنه متكلم حقيقة وفسروا ذلك بأنه خالق للكلام في غيره وكان هذا من التلبيس على الناس فإن المتكلم عند الناس من قام به الكلام لا من أحدثه في غيره كما أن المريد والرحيم والسميع والبصير والعالم والقادر من قامت به الإرادة والرحمة والسمع والبصر والعلم والقدرة لا من أحدث ذلك في غيره وكذلك الإرادة ومن الجهمية والمعتزلة وغيرهم من يقول أنه لا إرادة له كما يقوله من يقوله من المعتزلة البغداديين ومنهم من يقول له إرادة أحدثها لا في محل كما يقوله البصريون منهم والشيعة المتأخرون وافقوهم على ذلك ولهم قولان كالمعتزلة وهو من أفسد الأقوال من وجهين من جهة إثباتهم صفة لا في محل ومن جهة إثباتهم حادثا أحدثه لا بإرادة [١]

وكذلك تكليمه لموسى أنكروه لإنكارهم أن يقوم به صفة من الصفات أو فعل من الأفعال فكما ينكرون أن يتصف بحياة أو قدرة أو علم أو أن يستوى أو أن يجيء فكذلك ينكرون أن يتكلم أو يكلم فهذا حقيقة قولهم{كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} البقرة١١٨ لكن لما كان الإسلام ظاهرا والقرآن متلوا لا يمكن جحده لمن أظهر الإسلام أخذوا يلحدون في أسماء الله ويحرفون الكلم عن مواضعه [٢]

## أن الله تعالى كلم موسى بصوت

قال الخلال وأن محمد ابن علي بن بحر أن يعقوب بن بحتان حدثهم أن أبا عبد الله (ابا حنيفه ) سئل عمن زعم أن الله لم يتكلم بصوت قال بلى تكلم بصوت وهذه الأحاديث كما جاءت نرويها لكل حديث وجه يريدون أن يموهوا على الناس إن من زعم أن الله لم يكلم موسى فهو كافر

---

[١] العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٢٠-٢٣

[٢] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٦٩

وأخبرنا المروزي سمعت أبا عبد الله وقيل له أن عبد الوهاب قد تكلم وقال من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمي عدو الله وعدو الإسلام فتبسم أبو عبد وقال ما أحسن ما قال عافاه الله وعن عبد الله بن أحمد أيضا سألت أبي عن قوم يقولون لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت فقال أبي بل تكلم تبارك وتعالى بصوت وهذه الأحاديث نرويها كما جاءت وحديث ابن مسعود إذا تكلم الله بالوحي سمع له صوت كجر السلسلة على الصفوان قال أبي والجهمية تنكره قال أبي وهؤلاء كفار يريدون أن يموهوا على الناس إن من زعم أن الله لم يتكلم فهو كافر قلت قد بين الإمام أحمد وغيره من السلف أن الصوت الذي تكلم الله تعالى به ليس هو الصوت المسموع وسئل أحمد عن قوله صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن قال هو الرجل يرفع صوته به هذا معناه وقال في قوله صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم يحسنه بصوته وقال البخاري في كتاب خلق الأفعال ويذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب وليس هذا لغير الله قال البخاري وفي هذا دليل على أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق لأن صوت الله يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب وأن الملائكة يصعقون من صوته فإذا ينادي الملائكة لم يصعقوا قال تعالى فلا تجعلوا لله أندادا فليس لصفة الله ند ولا مثل ولا يوجد شيء من صفاته في المخلوقين ثم روى بإسناده حديث عبد الله بن أنيس قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وواحد من أهل النار يطلبه بمظلمة [1]

## المتبعون للرسل هم المهتدون

قال الله تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{١٦٣} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{١٦٤} رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ {١٦٥}النساء١٦٣-١٦٥ فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه وما أعده لأوليائه من كرامته وما وعد به أعداءه من عذابه ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التى تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك الا بالرسل الذين أرسلهم الله الى عباده

---

[1] العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٥٣

فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى ويرفع درجاتهم ويكرمهم فى الدنيا والآخرة وأما المخالفون للرسل فإنهم ملعونون وهم عن ربهم ضالون محجوبون قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة [١]

فإن الله إنما أوجب على الناس إتباع الرسول وطاعته وإتباع حكمه وأمره وشرعه ودينه وهو حجة الله على خلقه وهو الذى فرق الله به بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغى وطريق الجنة وطريق النار وبه هدى الله الخلق قال الله تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{١٦٣} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{١٦٤} رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ {١٦٥}النساء١٦٣-١٦٥ وفى الصحيح عن النبى أنه قال ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين فالحجة على الخلق تقوم بالرسل وما جاء به الرسول هو الشرع الذى يجب على الخلق قبوله وإلى الكتاب والسنة يتحاكم جميع الخلق [٢]

## التوحيد والايمان بالرسل متلازمان

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وقال الله تعالى له {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}سبأ٥٠ وتقرير الحجة فى

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٢١-١٢٢

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٨٣

القرآن بالرسل كثير كقوله {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٦٥ [1]

أن التوحيد والايمان بالرسل متلازمان وكذلك الايمان باليوم الآخر هو والايمان بالرسل متلازمان فالثلاثة متلازمة ولهذا يجمع بينها فى مثل قوله {وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}الأنعام١٥٠ ولهذا أخبر ان الذين لا يؤمنون بالآخرة مشركون فقال تعالى {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}الزمر٤٥ وأخبر عن جميع الأشقياء ان الرسل انذرتهم باليوم الآخر كما قال تعالى {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ{٨} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{٩} وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ{١٠} فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ{١١}الملك٨ -١١١ فأخبر ان الرسل أنذرتهم وانهم كذبوا بالرسالة وقال تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى}الزمر٧١ فأخبر عن اهل النار انهم قد جاءتهم الرسالة وانذروا باليوم الآخر وقال تعالى {وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ{١٢٨} وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{١٢٩} يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ{١٣٠}الأنعام١٢٨-١٣٠فأخبر عن جميع الجن والانس ان الرسل بلغتهم رسالة الله وهى آياته وأنهم انذروهم اليوم الآخر وكذلك قال {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً{١٠٣} الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا {١٠٤} الكهف ١٠٣-١٠٤ الى قوله {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ} الكهف١٠٥ فأخبر انهم كفروا بآياته وهى رسالته وبلقائه وهو اليوم الآخر وقد اخبرايضا فى غير موضع بأن الرسالة عمت بنى آدم وان الرسل جاءوا مبشرين ومنذرين كما قال تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ}فاطر٢٤ وقال

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤

تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{١٦٣} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{١٦٤} رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{١٦٥}النساء١٦٣ـ ١٦٥ [١]

## من سنة الله تبارك وتعالى مواترة الرسل

فالدين دين رسل الله دين واحد كما بينه الله في كتابه وكما ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وأن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي أن الرسل تتناول قطعا الرسل الذين ذكرهم الله في القرآن ويتناول أيضا اسم الرسل من لم يسمهم بأعيانهم في القرآن [٢]

فإن الله تبارك وتعالى جعل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأكمل له ولأمته الدين وبعثه على حين فترة من الرسل وظهور الكفر وانطماس السبل فأحيا به ما درس من معالم الإيمان وقمع به أهل الشرك من عباد الأوثان والنيران والصلبان وأذل به كفار أهل الكتاب أهل الشك والأرتياب وأقام به منار دينه الذي ارتضاه وشاد به ذكر من اجتباه من عباده واصطفاه وأظهر به ما كان مخفيا عند أهل الكتاب وأبان به ما عدلوا فيه عن منهج الصواب وحقق به صدق التوراة الزبور والإنجيل وأماط به عنها ما ليس بحقها من باطل التحريف والتبديل وكان من سنة الله تبارك وتعالى مواترة الرسل وتعميم الخلق بهم بحيث يبعث في كل أمة رسولا ليقيم هداه وحجته كما قال تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{١٦٣} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٩ـ٣٤

[٢] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٣٤٧

نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{١٦٤} رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{١٦٥} النساء ١٦٣-١٦٥ [١]

فإن هذا يعني به الإرسال الديني الذي يحبه تعالى ويرضاه الذي هدى به من اتبعهم وأدخله في رحمته وعاقب من عصاهم وجعله من المستوجبين للعذاب وهو الإرسال الذي أوجب الله به طاعة من أرسله وهذه الرسالة التي أقام بها الحجة على الخلق كما قال تعالى{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{١٦٣} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{١٦٤} رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{١٦٥} النساء ١٦٣-١٦٥ [٢]

أن النبي مرسل ولا يسمى رسولا عند الاطلاق لانه لم يرسل الى قوم بما لا يعرفونه بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعلم ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة فان داود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة قال تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً}وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{١٦٤} النساء١٦٣-١٦٤ [٣]

---

[١] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٧٩

[٢] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٤٧

[٣] النبوات ج: ١ ص: ١٨٦

## موسى صاحب الكتاب و الكلام والشريعة

موسى صاحب الكتاب و الكلام والشريعة الذي لم ينزل من السماء كتاب أهدى منه و من القرآن ولهذا قرن بينهما في مواضع كقوله {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً}الأنعام٩١ إلى قوله {وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ}الأنعام٩٢ و قوله {قَالُوا سِحْرَانِ}القصص٤٨ إلى قوله {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ}القصص٤٩ و قول الجن {إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}الأحقاف٣٠و قوله{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ}الأحقاف١٠ و قول النجاشي إن هذا و الذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة و قيل في موسى {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ صاحب الكتاب و الكلام [١]

## رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يعرف أكثر الأنبياء

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيد ولد آدم إنما عرف الذين لم يكن رآهم من أمته بسيما الوضوء وهو الغرة والتحجيل ومن هؤلاء من أولياء الله من لا يحصيه إلا الله عز وجل وأنبياء الله الذين هو إمامهم وخطيبهم لم يكن يعرف أكثرهم بل قال الله تعالى {وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ وموسى لم يكن يعرف الخضر والخضر لم يكن يعرف موسى بل لما سلم عليه موسى قال له الخضر وأنى بأرضك السلام فقال له أنا موسى قال موسى بني إسرائيل قال نعم وقد كان بلغه اسمه وخبره ولم يكن يعرف عينه ومن قال إنه نقيب الأولياء أو أنه يعلمهم كلهم فقد قال الباطل [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٢٠٢

[٢] زيارة القبور ج: ١ ص: ٦٩

## يوصف الله بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل

فان الله تعالى سمى نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات سمى نفسه حيا عليما حكيما قديرا سميعا بصيرا غفورا رحيما الى سائر أسمائه الحسنى قال الله تعالى {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ وامثال ذلك فالقول فى بعض هذه الصفات كالقول فى بعض ومذهب سلف الأمة وأئمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فلا يجوز نفى صفات الله تعالى التى وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}الشورى١١ ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله وقال نعيم بن حماد الخزاعى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها ومذهب السلف بين مذهبين وهدى بين ضلالتين اثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات فقوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}الشورى١١رد على أهل التشبيه والتمثيل وقوله {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}الشورى١١ رد على أهل النفى والتعطيل فالممثل اعشى والمعطل أعمى الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما وقد اتفق جميع اهل الاثبات على ان الله حى حقيقة عليم حقيقة قدير حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة مريد حقيقة متكلم حقيقة حتى المعتزلة النفاة للصفات قالوا ان الله متكلم حقيقة كما قالوا مع سائر المسلمين ان الله عليم حقيقة قدير حقيقة بل ذهب طائفة منهم كأبى العباس الناشى الى أن هذه الاسماء حقيقة لله مجاز للخلق واما جمهور المعتزلة مع المتكلمة الصفاتية من الاشعرية الكلابية والكرامية والسالمية واتباع الائمة الاربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وأهل الحديث والصوفية فانهم يقولون ان هذه الاسماء حقيقة للخالق سبحانه وتعالى وان كانت تطلق على خلقه حقيقة أيضا ويقولون ان له علما حقيقة وقدرة حقيقة وسمعا حقيقة وبصرا حقيقة [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٩٧ و العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ١٧ و بغية المرتاد ج: ١ ص: ٣٨١ و مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٤١ ( ملاحظة لم اعرض كل الحجج التي رد فيها على من انكر الصفات الاختيارية مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٤١ )

ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{١٨٠} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{١٨١} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{١٨٢}الصافات١٨٠ ـ١٨٢ فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه{وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ [١]

قال أحمد بن حنبل لا يوصف الله الا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يثبتون له ما اثبته لنفسه من الاسماء الحسنى والصفات العليا ويعلمون أنه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}الشورى١١ لا فى صفاته ولا فى ذاته ولا فى أفعاله الى أن قال وهو {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً}الفرقان٥٩ وهو الذى كلم موسى تكليما وتجلى للجبل فجعله دكا ولا يماثله شىء من الأشياء فى شىء من صفاته فليس كعلمه علم أحد ولا كقدرته قدرة أحد ولا كرحمته رحمة أحد ولا كاستوائه استواء أحد ولا كسمعه وبصره سمع أحد ولا بصره ولا كتكليمه تكليم أحد ولا كتجليه تجلى أحد والله سبحانه قد أخبرنا أن فى الجنة لحما ولبنا وعسلا وماء وحريرا وذهبا وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما ليس فى الدنيا مما فى الآخرة الا الاسماء فاذا كانت هذه المخلوقات الغائبة ليست مثل هذه المخلوقات المشاهدة مع اتفاقها فى الأسماء فالخالق أعظم علوا ومباينة لخلقه من مباينة المخلوق للمخلوق وان اتفقت الأسماء وقد سمى نفسه حيا عليما سميعا بصيرا وبعضها رؤوفا رحيما وليس الحى كالحى ولا العليم كالعليم ولا السميع كالسميع ولا البصير كالبصير ولا الرؤوف كالرؤوف ولا الرحيم كالرحيم وقال فى سياق حديث الجارية المعروف أين الله قالت فى السماء لكن ليس معنى

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٣٠-١٣١

ذلك ان الله فى جوف السماء وان السموات تحصره وتحويه فان هذا لم يقله أحد من سلف الأمة وأئمتها بل هم متفقون على أن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ليس فى مخلوقاته شيء من ذاته ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته [1]

سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأ سماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مسماهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمى الله نفسه حيا فقال {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}البقرة٢٥٥ وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}الروم١٩وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}الروم١٩ اسم للحى المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطق مسمى موجود فى الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا فى جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق فى شيء من خصائصه سبحانه وتعالى

وكذلك سمى صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فوصف نفسه بالتكليم فى قوله {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ ووصف عبده بالتكليم فى قوله {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ}يوسف٥٤ وليس التكليم كالتكليم [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢٥٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٤

وقال أبو عبدالله محمد بن أبى زمنين الامام المشهور من أئمة المالكية فى كتابه الذى صنفه فى أصول السنة قال فيه فى الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه قال وأعلم بأن أهل العلم بالله وبما جاءت به انبياؤه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به عن نفسه علما والعجز عن ما لم يدع اليه ايمانا وأنهم انما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه الى حيث انتهى فى كتابه على لسان نبيه وقد قال وهو اصدق القائلين {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ومثل هذا فى القرآن كثيرفهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض كما أخبر عن نفسه وله وجه ونفس وغير ذلك مما وصف به نفسه ويسمع ويرى ويتكلم هو الأول لا شىء قبله والآخر الباقى الى غير نهاية ولا شىء بعده والظاهر العالى فوق كل شىء والباطن بطن علمه بخلقه فقال {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}البقرة٢٩ قيوم حى لا تأخذه سنة ولا نوم وذكر أحاديث الصفات وذكر أحاديث الصفات ثم قال فهذه صفات ربنا التى وصف بها نفسه فى كتابه ووصفه بها نبيه وليس فى شىء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}الشورى١١ لم تره العيون فتحده كيف هو ولكن رأته القلوب فى حقائق الايمان [1]

فان وصفه سبحانه وتعالى بالاستواء الى السماء وهى دخان كوصفه بأنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم إستوى على العرش ووصفه بالاتيان والمجىء فى مثل قوله تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ}البقرة٢١٠ وقوله {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}الأنعام١٥٨ وقوله {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً}الفجر٢٢ وكذلك قوله تعالى {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}الأعراف٥٤ وقوله {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}الذاريات٤٧ وقوله {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}الروم٤٠ وقوله {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}السجدة٥ وأمثال ذلك من الأفعال التي وصف الله تعالى بها نفسه التى تسميها النحاة أفعالا متعدية وهى غالب ما ذكر فى القرآن أو يسمونها لازمة لكونها لا تنصب المفعول به بل لا تتعدى اليه الا بحرف الجر كالاستواء الى السماء وعلى العرش والنزول الى السماء الدنيا ونحو ذلك فان الله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٧

وصف نفسه بهذه الأفعال ووصف نفسه بالأقوال اللازمة والمتعدية فى مثل قوله {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ}ص٧١ وقوله {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}النساء١٦٤ وقوله تعالى {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا}الأعراف٢٢ وقوله {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}القصص٦٥ ونحو ذلك مما وصف به نفسه فى كتابه وما صح عن رسوله فان القول فى جميع ذلك من جنس واحد ومذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله فى النفى والاثبات والله سبحانه وتعالى قد نفى عن نفسه مماثلة المخلوقين فقال الله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{١} اللَّهُ الصَّمَدُ{٢} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{٣} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{٤} فبين أنه لم يكن أحد كفوا له وقال تعالى {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً}مريم٦٥ فأنكر أن يكون له سمى وقال تعالى {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً}البقرة٢٢ وقال تعالى {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ}النحل٧٤ وقال تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}الشورى١١ ففيما أخبر به عن نفسه من تنزيهه عن الكفؤ والسمى والمثل والند وضرب الأمثال له بيان أن لا مثل له فى صفاته ولا أفعاله [١]

## السلطان نوعان

أن السلطان نوعان سلطان الحجة والعلم وهو أكثر ما سمى فى القرآن سلطانا حتى روى عن ابن عباس أن كل سلطان فى القرآن فهو الحجة والثانى سلطان القدرة والعمل الصالح لا يقوم الا بالسلطانين فاذا ضعف سلطان الحجة كان الأمر بقدره واذا ضعف سلطان القدرة كان الأمر بحسبه والأمر مشروط بالقدرة على السلطانين فالاثم ينتفى عن الأمر بالعجز عن كل منهما وسلطان الله فى العلم هوالرسالة وهو حجة الله على خلقه كما قال تعالى {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ وقال تعالى {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ}النجم٢٣ وقال {أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ}الروم٣٥ ونظائره متعددة [٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٣٢٣

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص:١٢٥- ١٢٨

# أقام الله الحجة على خلقه برسله

في الإكتفاء بالرسالة والإستغناء بالنبى عن إتباع ما سواه إتباعا عاما وأقام الله الحجة على خلقه برسله فقال تعالى{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}النساء١٦٣ الى قوله {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ فدلت هذه الآية على أنه لا حجة لهم بعد الرسل بحال وأنه قد يكون لهم حجة قبل الرسل ف الأول يبطل قول من أحوج الخلق الى غير الرسل حاجة عامة كالأئمة و الثانى يبطل قول من أقام الحجة عليهم قبل الرسل من المتفلسفة والمتكلمة وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ فأمر بطاعة أولي الأمر من العلماء والأمراء إذا لم يتنازعوا وهو يقتضى أن إتفاقهم حجة وأمرهم بالرد عند التنازع الى الله والرسول فأبطل الرد الى امام مقلد أو قياس عقلى فاضل وقال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ}البقرة٢١٣ فبين أنه بالكتاب يحكم بين أهل الأرض فيما اختلفوا فيه وقال تعالى {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}الشورى١٠ وقال تعالى {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ}العنكبوت٥١ فزجر من لم يكتف بالكتاب المنزل وقال تعالى {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي}الأنعام١٣٠ الآيات وقال تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ وقال تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}الزمر٧١ الآيات وقال تعالى {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ {٨} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ {٩}الملك٨ -٩ فدلت هذه الآيات على أن من أتاه الرسول فخالفه فقد وجب عليه العذاب وإن لم يأته إمام ولا قياس وأنه لا يعذب أحد حتى يأتيه الرسول وإن أتاه إمام أو قياس وقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً}النساء٦٩ {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٤}النساء١٣-١٤ الآية وقد ذكر سبحانه هذا المعنى فى غير موضع فبين أن طاعة الله ورسوله موجبة للسعادة وان معصية الله موجبة للشقاوة وهذا يبين أن مع طاعة الله ورسوله لا يحتاج الى طاعة إمام أو قياس ومع معصية الله ورسوله لا ينفع طاعة إمام أو قياس ودليل هذا الأصل كثير فى الكتاب والسنة وهو أصل الاسلام شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله وهو متفق عليه بين الذين أوتوا العلم والايمان قولا واعتقادا وإن خالفه بعضهم عملا وحالا فليس عالم من المسلمين يشك فى أن الواجب على الخلق طاعة الله ورسوله وان ما سواه إنما تجب طاعته حيث أوجبها الله ورسوله وفى الحقيقة فالواجب في الأصل إنما هو طاعة الله لكن لا سبيل إلى العلم بمأموره وبخبره كله إلا من جهة الرسل والمبلغ عنه اما مبلغ امره وكلماته فتجب طاعته وتصديقه فى جميع ما أمر وأخبر وأما ماسوى ذلك فإنما يطاع في حال دون حال كالأمراء الذين تجب طاعتهم فى محل ولايتهم ما لم يأمروا بمعصية الله والعلماء الذين تجب طاعتهم على المستفتى والمأمور فيما أوجبوه عليه مبلغين عن الله أو مجتهدين اجتهادا تجب طاعتهم فيه على المقلد ويدخل فى ذلك مشائخ الدين ورؤساء الدنيا حيث أمر بطاعتهم كاتباع أئمة الصلاة فيها وأتباع أئمة الحج فيه واتباع امراء الغزو فيه واتباع الحكام في احكامهم واتباع المشايخ المهتدين فى هديهم ونحو ذلك والمقصود بهذا الأصل أن من نصب إماما فأوجب طاعته مطلقا اعتقادا أو حالا فقد ضل فى ذلك كأئمة الضلال الرافضة الامامية حيث جعلوا في كل وقت إماما معصوما تجب طاعته فإنه لا معصوم بعد الرسول ولا تجب طاعة أحد بعده فى كل شيء والذين عينوهم من أهل البيت منهم من كان خليفة راشدا تجب طاعته كطاعة الخلفاء قبله وهو علي ومنهم أئمة فى العلم والدين يجب لهم ما يجب لنظرائهم من أئمة العلم والدين كعلى بن الحسين وأبى جعفر الباقر وجعفر إبن محمد الصادق ومنهم دون ذلك وكذلك من دعا لاتباع شيخ من مشايخ الدين فى كل طريق من غير تخصيص ولا استثناء وأفرده عن نظرائه كالشيخ عدي والشيخ أحمد والشيخ عبد القادر والشيخ حيوة ونحوهم وكذلك من دعا إلى اتباع امام من أئمة العلم فى كل ما قاله وأمر به ونهى عنه مطلقا كالأئمة الأربعة وكذلك من أمر بطاعة الملوك والأمراء والقضاة والولاة فى كل ما يأمرون وينهون عنه من غير تخصيص ولا استثناء لكن هؤلاء لا يدعون العصمة لمتبوعيهم الاعالية اتباع المشايخ كالشيخ عدي وسعد المديني بن حمويه ونحوهما فإنهم يدعون فيهم نحوا مما تدعيه الغالية فى أئمة بني هاشم من العصمة ثم من الترجيح على النبوة ثم من دعوى الالهية وأما كثير من

أتباع أئمة العلم ومشايخ الدين فحالهم وهواهم بضاهي حال من يوجب اتباع متبوعه لكنه لا يقول ذلك بلسانه ولا يعتقده علما فحاله يخالف اعتقاده بمنزلة العصاة أهل الشهوات وهؤلاء أصلح ممن يرى وجوب ذلك ويعتقده وكذلك اتباع الملوك والرؤساء هم كما أخبر الله عنهم بقوله {إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا}الأحزاب٦٧ فهم مطيعون حالا وعملا وانقيادا وأكثرهم من غير عقيدة دينية وفيهم من يقرن بذلك عقيدة دينية ولكن طاعة الرسول إنما تمكن مع العلم بما جاء به والقدرة على العمل به فإذا ضعف العلم والقدرة صار الوقت وقت فترة في ذلك الأمر فكان وقت دعوة ونبوة فى غيره فتدبر هذا الأصل فإنه نافع جدا والله أعلم وكذا من نصب القياس أو العقل أو الذوق مطلقا من أهل الفلسفة والكلام والتصوف أو قدمه بين يدي الرسول من أهل الكلام والرأي والفلسفة والتصوف فإنه بمنزلة من نصب شخصا فالاتباع المطلق دائر مع الرسول وجودا وعدما [١]

ومعلوم أن في إرسال الرسل سعادة من آمن بهم وغيرها حكم أخرى غير دفع حجة الخلق على الله

وفي ذلك حكم أخرى ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضع من مناسبته وهذا كالمناسبة في قوله{لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} يس ٦ فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم [٢]

فإنه أخبر أن وحي محمد كوحي النبيين وأيضا فمن خصائص الأنبياء أن من سب نبيا من الأنبياء قتل باتفاق الأئمة وكان مرتدا كما أن من كفر به وبما جاء به كان مرتدا فإن الإيمان لا يتم إلا بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٦٦-٧١ و منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٧٦

[٢] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٤٣٠

[٣] الصفدية ج: ١ ص: ٢٦١

## ان الله تعالى اخبر انه لا يعذب احدا إلا بعد بلوغ الرسالة

واذا كان اولياء الله عز وجل هم المؤمنون المتقون والناس يتفاضلون فى الايمان والتقوى فهم متفاضلون فى ولاية الله بحسب ذلك كما انهم لما كانوا متفاضلين فى الكفر والنفاق كانوا متفاضلين فى عداوة الله بحسب ذلك واصل الايمان والتقوى الايمان برسل الله وجماع ذلك الايمان بخاتم الرسل محمد فالايمان به يتضمن الايمان بجميع كتب الله ورسله واصل الكفر والنفاق هو الكفر بالرسل وبما جاءوا به فان هذا هو الكفر الذى يستحق صاحبه العذاب فى الآخرة فان الله تعالى اخبر فى كتابه انه لا يعذب احدا إلا بعد بلوغ الرسالة قال الله تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ و قال تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{١٦٣} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{١٦٤} رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{١٦٥}النساء١٦٣-١٦٥ وقال تعالى عن أهل النار {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ{٨} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{٩} الملك ٨-٩ فأخبر انه كلما القى فى النار فوج اقروا بأنهم جاءهم النذير فكذبوه فدل ذلك على انه لا يلقى فيها فوج الا من كذب النذير وقال تعالى فى خطابه لا بليس {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}ص٨٥ فاخبر انه يملؤها بابليس ومن اتبعه فاذا ملئت بهم لم يدخلها غيرهم فعلم انه لا يدخل النار الا من تبع الشيطان وهذا يدل على انه لا يدخلها من لا ذنب له فانه ممن لم يتبع الشيطان ولم يكن مذنبا وما تقدم يدل على انه لا يدخلها الا من قامت عليه الحجة بالرسل [1]

فإن الكتاب والسنة قد دل على ان الله لا يعذب أحدا إلا بعد إبلاغ الرسالة فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأسا ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٨٦

إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية وذلك مثل قوله تعالى {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ وقوله {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي}الأنعام١٣٠ [1]

ان الاحكام الشرعية التى نصبت عليها ادلة قطعية معلومة مثل الكتاب والسنة المتواترة والاجماع الظاهر كوجوب الصلاة والزكاة والحج والصيام وتحريم الزنا والخمر والربا اذا بلغت هذه الأدلة للمكلف بلاغا يمكنه من اتباعها فخالفها تفريطا فى جنب الله وتعديا لحدود الله فلا ريب انه مخطىء آثم وان هذا الفعل سبب لعقوبه الله فى الدنيا والآخرة فان الله أقام حجته على خلقه بالرسل الذين بعثهم اليهم{مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ قال تعالى عن أهل النار {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ{٨} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{٩}الملك ٨-٩ وقال تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}الزمر٧١ فهذا إخبار منه بأن كل فوج يلقى في النار وقد جاءهم نذير كما قال تعالى {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٦٥ [2]

وقد ثبت في الصحيح عن عياض بن حمار عن النبي أنه قال إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب فأخبر أنه مقتهم إلا هؤلاء البقايا والمقت هو البغض بل أشد البغض ومع هذا فقد أخبر في القرآن أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا فقال {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ وقال {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى}طه١٣٤ فدل ذلك على أن المقتضي لعذابهم قائم ولكن شرط العذاب هو بلوغ الرسالة ولهذا قال {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ وفي الصحيحين عن النبي أنه قال

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٤٩٣ و الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٩١

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٤٢ و الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٣٤

ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب وفي رواية من أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين وما أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه وما أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن [1]

## أن ما عليه الكفار هو شر قبل الرسل

قال تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ وقد قال طائفة من أهل الكلام والرأى إن هذا فى الواجبات الشرعية غير العقلية كما يقوله من يقوله من المعتزلة وغيرهم من أصحاب أبى حنيفة وغيرهم مثل أبى الخطاب وغيره على ان الآية عامة لا يعذب الله أحدا إلا بعد رسول وفيهما دليل على أنه لا يعذب إلا بذنب خلافا لما يقوله المجبرة أتباع جهم أنه تعالى يعذب بلا ذنب وقد تبعه طائفة تنسب إلى السنة كالأشعرى وغيره وهو قول القاضى أبى يعلى وغيره وقالوا إن الله يجوز أن يعذب الأطفال فى الآخرة عذابا لا نهاية له من غير ذنب فعلوه وهؤلاء يحتجون بالآية على ابطال قول من يقول إن العقل يوجب عذاب من لم يفعل والآية حجة عليهم أيضا حيث يجوزون العذاب بلا ذنب فهى حجة على الطائفتين ولها نظائر فى القرآن كقوله {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا}القصص٥٩ وقوله تعالى{لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ وقوله {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ{٨} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{٩} الملك٨-٩ وما فعلوه قبل مجيء الرسل كان سيئا وقبيحا وشرا لكن لا تقوم عليهم الحجة إلا بالرسول وهذا قول الجمهور وقيل إنه لا يكون قبيحا إلا بالنهى وهو قول من لا يثبت حسنا ولا قبيحا إلا الأمر والنهى كقوله جهم والاشعرى ومن تابعه من المنتسبين إلى السنة وأصحاب مالك والشافعى وأحمد كالقاضى أبى يعلى وأبى الوليد الباجى وأبى المعالى الجوينى وغيرهم والجمهور من السلف والخلف على أن ما كانوا فيه قبل مجيء الرسول من الشرك والجاهلية شيئا قبيحا وكان شرا لكن لا يستحقون العذاب إلا بعد مجيء الرسول ولهذا كان للناس فى الشرك والظلم والكذب والفواحش ونحو ذلك ثلاثة أقوال قيل إن قبحهما

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٣٠٦

معلوم بالعقل وأنهم يستحقون العذاب على ذلك فى الآخرة وإن لم يأتهم الرسول كما يقوله المعتزلة وكثير من أصحاب أبي حنيفة وحكوه عن أبى حنيفة نفسه وهو قول ابى الخطاب وغيره و قيل لاقبح ولا حسن ولا شر فيهما قبل الخطاب وإنما القبيح ما قيل فيه لا تفعل والحسن ما قيل فيه افعل أو ما أذن فى فعله كما تقوله الأشعرية ومن وافقهم من الطوائف الثلاثة وقيل إن ذلك سيء وشر وقبيح قبل مجيء الرسول لكن العقوبة إنما تستحق بمجى الرسول وعلى هذا عامة السلف وأكثر المسلمين وعليه يدل الكتاب والسنة فان فيهما بيان أن ما عليه الكفار هو شر وقبيح وسيء قبل الرسل وإن كانوا لا يستحقون العقوبة إلا بالرسول وفى الصحيح أن حذيفة قال يا رسول الله انا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر قال نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها وقد أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول كقوله لموسى {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{١٧} فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{١٨} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{١٩}النازعات ١٧-١٩ وقال {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ{٤} وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ{٥}وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ {٦}القصص٤-٦ فهذا خبر عن حاله قبل أن يولد موسى وحين كان صغيرا قبل أن يأتيه برسالة انه كان طاغيا مفسدا وقال تعالى {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى{٣٧} إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى{٣٨} أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي{٣٩} طه٣٧-٣٩ وهو فرعون فهو إذ ذاك عدو لله ولم يكن جاءته الرسالة بعدى و أيضا أمر الله الناس أن يتوبوا ويستغفروا مما فعلوه فلو كان كالمباح المستوى الطرفين والمعفو عنه وكفعل الصبيان والمجانين ما أمر بالاستغفار والتوبة فعلم أنه كان من السيئات القبيحة لكن الله لا يعاقب الا بعد إقامة الحجة وهذا كقوله تعالى {الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ{١} أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ{٢} وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ{٣} هود١-٣ [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٧٥-٦٧٨

# الحكمة منشؤها من نفس الأمر

و الفقهاء و جمهور المسلمين يقولون الله حرم المحرمات فحرمت و أوجب الواجبات فوجبت فمعنا شيئان إيجاب و تحريم و ذلك كلام الله و خطابه و الثاني و وجوب و حرمة و ذلك صفة للفعل و الله تعالى عليم حكيم علم بما تتضمنه الأحكام من المصالح فأمر و نهى لعلمه بما فى الأمر و النهي و المأمور و المحظور من مصالح العباد و مفاسدهم و هو أثبت حكم الفعل و أما صفته فقد تكون ثابتة بدون الخطاب و قد ثبت بالخطاب والحكمة الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع أحدها أن يكون الفعل مشتملا على مصلحة أو مفسدة و لو لم يرد الشرع بذلك كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم و الظلم يشتمل على فسادهم فهذا النوع هو حسن و قبيح و قد يعلم بالعقل و الشرع قبح ذلك لا أنه أثبت للفعل صفة لم تكن لكن لا يلزم من حصول هذا القبح أن يكون فاعله معاقبا في الآخرة إذا لم يرد شرع بذلك و هذا مما غلط فيه غلاة القائلين بالتحسين و التقبيح فإنهم قالوا إن العباد يعاقبون على أفعالهم القبيحة و لو لم يبعث إليهم رسولا و هذا خلاف النص قال تعالى{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ و قال تعالى {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥و قال تعالى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}القصص٥٩ و قال تعالى {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ{٨} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{٩} وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ{١٠}الملك ٨-١٠ وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال ما أحد أحب إليه العذر من الله و من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين و منذرين و النصوص الدالة على أن الله لا يعذب إلا بعد الرسالة كثيرة ترد على من قال من أهل التحسين و التقبيح أن الخلق يعذبون فى الأرض بدون رسول أرسل إليهم النوع الثاني أن الشارع إذا أمر بشيء صار حسنا و إذا نهى عن شيء صار قبيحا و إكتسب الفعل صفة الحسن و القبح بخطاب الشارع و النوع الثالث أن يأمر الشارع بشيء ليمتحن العبد هل يطيعه أم يعصيه و لا يكون المراد فعل المأمور به كما أمر إبراهيم بذبح إبنه{فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ}الصافات١٠٣حصل المقصود ففداه بالذبح و كذلك حديث أبرص و أقرع و أعمى لما بعث الله إليهم من سألهم الصدقة فلما أجاب الأعمى قال الملك أمسك عليك مالك فإنما إبتليتم فرضي عنك و سخط على صاحبيك فالحكمة منشؤها من نفس الأمر لا من نفس المأمور به و هذا النوع و الذي قبله لم يفهمه المعتزلة و زعمت أن الحسن و القبح لا يكون إلا لما هو متصف بذلك بدون أمر الشارع و

الأشعرية إدعوا أن جميع الشريعة من قسم الإمتحان و أن الأفعال ليست لها صفة لا قبل الشرع و لا بالشعر و أما الحكماء و الجمهور فأثبتوا الأقسام الثلاثة و هو الصواب [1]

## "ما أحد أحب إليه العذر من الله "

قال كثير من أهل السنة و الحديث و النظار الظلم هو و ضع الشيء فى غير موضعه و من ذلك أن يبخس المحسن شيئا من حسنائه أو يحمل عليه من سيئات غيره و هذا من الظلم الذي نزه الله نفسه عنه كقوله تعالى {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً}طه١١٢ قال غير و احد من السلف الهضم أن يهضم من حسناته و الظلم أن يزاد فى سيئاته و قد قال تعالى {أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى{٣٦} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى{٣٧} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى{٣٨} وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى{٣٩} النجم ٣٦-٣٩ و قال {قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ {٢٨} مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ{٢٩} ق٢٨-٢٩ وفى حديث البطاقة الذي رواه الترمذي و غيره و حسنه و رواه الحاكم فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال يجاء يوم القيامة برجل من أمتى على رؤوس الخلائق فينشر له تسعة و تسعون سجلا كل سجل منها مد البصر ثم يقول الله تعالى له أتنكر من هذا شيئا فيقول لا يارب فيقول الله عز وجل ألك عذرا أو حسنة فيهاب الرجل فيقول لايارب فيقول الله تعالى بلى إن لك عندنا حسنات و أنه لا ظلم عليك فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول أنك لا تظلم قال فتوضع السجلات فى كفة و البطاقة فى كفة فطاشت السجلات و ثقلت البطاقة وقال تعالى {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} غافر١٧ و قال تعالى {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} الزخرف٧٦ و قال {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}النحل١١٨ و مثل هذه النصوص كثيرة و معلوم أن الله تعالى لم ينف بها الممتنع الذى لايقبل الوجود كالجمع بين الضدين فإن هذا لم يتوهم أحد و جوده و ليس فى مجرد نفيه ما يحصل به

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٤٣٤- ٤٣٧

مقصود الخطاب فإن المراد بيان عدل الله و أنه لا يظلم أحدا كما قال تعالى {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً}الكهف٤٩ بل يجازيهم بأعمالهم و لا يعاقبهم إلا بعد إقامه الحجة عليهم كما قال الله تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ و قال {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ و قال تعالى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}القصص٥٩ و فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الرسل و أنزل الكتب [1]

فالعلم بالأعمال النافعة في الدار الآخرة والأعمال الضارة أكثر غيب عن عقول الخلق و كذلك مصير العباد و منقلبهم بعد فراق هذه الدار فبعث الله سبحانه و تعالى رسله و أنزل كتبه مبشرين و منذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل [2]

## الخطاب لا يثبت فى حق أحد قبل التمكن من سماعه

فلا يحكم بكفر احد حتى تقوم عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة كما قال تعالى {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ وقال تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم ان الصلاة واجبة عليه أو يعلم ان الخمر يحرم لم يكفر بعدم اعتقاد ايجاب هذا وتحريم هذا بل ولم يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية بل قد اختلف العلماء فيمن أسلم بدار الحرب ولم يعلم ان الصلاة واجبة ثم علم هل يجب عليه قضاء ما تركه فى حال الجهل على قولين فى مذهب الامام أحمد وغيره أحدهما لا يجب عليه القضاء وهو مذهب أبي حنيفة و الثانى يجب عليه القضاء وهو المشهور عند أصحاب الشافعى بل النزاع بين العلماء فى كل من ترك واجبا قبل بلوغ الحجة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٥٠٧- ٥٠٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٩٨

مثل ترك الصلاة عند عدم الماء يحسب ان الصلاة لا تصح بتيمم أو من أكل حتى تبين له الخيط الابيض من الخيط الأسود ويحسب ان ذلك هو المراد بالآية كما جرى ذلك لبعض الصحابة أو مس ذكره أو أكل لحم الابل ولم يتوضأ ثم تبين له وجوب ذلك وامثال هذه المسائل هل يجب عليه القضاء على قولين فى مذهب احمد وغيره وأصل ذلك هل يثبت حكم الخطاب فى حق المكلف قبل التمكن من سماعه على ثلاثة أقوال فى مذهب أحمد وغيره قيل يثبت مطلقا وقيل لا يثبت مطلقا وقيل يفرق بين الخطاب الناسخ والخطاب المبتدأ كأهل القبلة والصحيح الذى تدل عليه الادلة الشرعية أن الخطاب لا يثبت فى حق أحد قبل التمكن من سماعه فان القضاء لا يجب عليه فى الصور المذكورة ونظائرها مع اتفاقهم على إنتفاء الاثم لأن الله عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان فإذا كان هذا فى التأثيم فكيف فى التكفير وكثير من الناس قد ينشأ فى الأمكنة والأزمنة الذى يندرس فيها كثير من علوم النبوات حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة فلا يعلم كثيرا مما يبعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك ومثل هذا لا يكفر ولهذا اتفق الأئمة على ان من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والايمان وكان حديث العهد بالاسلام فأنكر شيئا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فانه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول ولهذا جاء فى الحديث يأتى على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صوما ولا حجا إلا الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يقول ادركنا آباءنا وهم يقولون لا إله إلا الله وهم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا حجا فقال ولا صوم ينجيهم من النار وقد دل على هذا الأصل ما اخرجاه فى الصحيحين عن أبى هريرة ان رسول الله قال قال رجل لم يعجل حسنة قط لأهله اذا مات فحرقوه ثم اذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبنه أحدا من العالمين فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم فأمر الله البر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه ثم قال لم فعلت هذا قال من خشيتك يا رب وأنت أعلم فغفر الله له وفى لفظ آخر اسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال إذا انامت فأحرقونى ثم اسحقونى ثم أذرونى فى البحر فوالله لئن قدر على ربى ليعذبنى عذابا ما عذبه أحدا قال ففعلوا ذلك به فقال للأرض أد ما اخذت فاذا هو قائم فقال له ما حملك على ما صنعت قال خشيتك يا رب أو قال مخافتك فغفر له بذلك وفى طريق آخر قال الله لكل شىء اخذ منه شيئا أد ما اخذت منه وقد أخرج البخارى هذه القصة من حديث حذيفة وعقبة بن عمرو أيضا عن حذيفة عن النبى قال كان رجل فيمن كان قبلكم كان يسىء الظن بعمله فقال لأهله إذا أنامت فخذونى فذرونى فى البحر فى يوم صائف ففعلوا فجمعه الله ثم قال ما حملك على الذى فعلت فقال ما حملنى الا مخافتك

فغفر له        وفى طريق آخر    ان رجلا حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله أذا انامت فاجمعوا لى حطبا كثيرا واوقدوا فيه نارا حتى إذا أكلت لحمى ووصلت الى عظمى فامتحشت فخذوها فاطحنوها ثم أنظروا يوما فذرونى فى اليم فجمعه الله فقال له لم فعلت ذلك قال من خشيتك فغفر الله له    قال عقبة بن عمرو أنا سمعته يعنى النبى يقول ذلك وكان نباشا فهذا الرجل ظن ان الله لا يقدر عليه اذا تفرق هذا التفرق فظن انه لا يعيده اذا صار كذلك وكل واحد من انكار قدرة الله تعالى وانكار معاد الابدان وان تفرقت كفر لكنه كان مع إيمانه بالله وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلا بذلك ضالا فى هذا الظن مخطئا فغفر الله له ذلك والحديث صريح فى ان الرجل طمع ان لا يعيده إذا فعل ذلك وأدنى هذا ان يكون شاكا فى المعاد وذلك كفر إذا قامت حجة النبوة على منكره حكم بكفره هو بين فى عدم ايمانه بالله تعالى ومن تأول قوله لئن قدر الله على بمعنى قضى أو بمعنى ضيق فقد أبعد النجعة وحرف الكلم عن مواضعه فانه إنما امر بتحريقه وتفريقه لئلا يجمع ويعاد وقال إذا انامت فأحرقونى ثم اسحقونى ثم ذرونى فى الريح فى البحر فوالله لئن قدر على ربى ليعذبنى عذابا ما عذبه أحدا    فذكر هذه الجملة الثانية بحرف الفاء عقيب الاولى يدل على انه سبب لها وانه فعل ذلك لئلا يقدر الله عليه اذا فعل ذلك فلو كان مقرا بقدرة الله عليه اذا فعل ذلك كقدرته عليه اذا لم يفعل لم يكن فى ذلك فائدة له ولان التقدير عليه والتضيق موافقان للتعذيب وهو قد جعل تفريقه مغايرا لان يقدر الرب قال فوالله لئن قدر الله على ليعذبنى عذابا ما عذبه احدا من العالمين فلا يكون الشرط هو الجزاء ولانه لو كان مراده ذلك لقال فوالله لئن جازانى ربى أو لئن عاقبنى ربى ليعذبنى عذابا كما هو الخطاب المعروف فى مثل ذلك ولان لفظ    قدر    بمعنى ضيق لا أصل له فى اللغة    ومن استشهد على ذلك بقوله    وقدر فى السرد وقوله   {وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ}الطلاق٧    فقد استشهد بمالا يشهد له فان اللفظ كان بقوله    {وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}سبأ١١ أى اجعل ذلك بقدر ولا تزد ولا تنقص وقوله {وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ}الطلاق٧   أى جعل رزقه قدر ما يغنيه من غير فضل إذ لو ينقص الرزق عن ذلك لم يعش    واما    قدر    بمعنى قدر أى اراد تقدير الخير والشر فهو لم يقل إن قدر على ربى العذاب بل قال لئن قدر على ربى والتقدير يتناول النوعين فلا يصح ان يقال لئن قضى الله على لأنه قد مضى وتقرر عليه ما ينفعه وما يضره ولأنه لو كان المراد التقدير او التضييق لم يكن ما فعله مانعا من ذلك فى ظنه ودلائل فساد هذا التحريف كثيرة ليس هذا موضع بسطها فغاية ما فى هذا انه كان رجلا لم يكن عالما بجميع ما يستحقه الله من الصفات وبتفصيل انه القادر وكثير من المؤمنين قد يجهل مثل ذلك فلا يكون كافرا    ومن تتبع الاحاديث الصحيحة وجد

فيها من هذا الجنس ما يوافقه كما روى مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت الا احدثكم عنى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا بلى قالت لما كانت ليلتى التى النبى فيها عندى انقلب فوضع رداءه وخلع نعليه فوضعها عند رجليه وبسط طرف إزاره على فراشه واضطجع فلم يثبت الا ريثما ظن انى رقدت فأخذ رداءه رويدا وانتقل رويدا وفتح الباب رويدا فخرج ثم اجافه رويدا فجعلت درعى فى رأسى واختمرت وتقنعت ازارى ثم انطلقت على أثره حتى جاء البقيع فقام فأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات ثم انحرف فانحرفت واسرع فأسرعت فهرول وهرولت وأحضر وأحضرت فسبقته فدخلت فليس الا ان اضطجعت فقال مالك يا عائشة حشيى رابية قالت لا شىء قال لتخبرينى أو ليخبرنى اللطيف الخبير قالت قلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى فأخبرته قال فأنت السواد الذى رأيت أمامى قلت نعم فلهزنى فى صدرى لهزة اوجعتنى ثم قال أظننت ان يحيف الله عليك ورسوله قالت قلت مهما يكتم الناس يعلمه الله قال نعم قال فان جبريل عليه السلام أتانى حين رأيت فنادانى فأخفاه منك فأجبته واخفيته منك ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك وظننت انك رقدت وكرهت ان أوقظك وخشيت ان تستوحشى فقال ان ربك يأمرك ان تأتى أهل البقيع فتستغفر لهم قلت كيف أقول يا رسول الله قال قولى السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وانا ان شاء الله للاحقون فهذه عائشة أم المؤمنين سألت النبى هل يعلم الله كل ما يكتم الناس فقال لها النبى نعم وهذا يدل على انها لم تكن تعلم ذلك ولم تكن قبل معرفتها بأن الله عالم بكل شىء يكتمه الناس كافرة وان كان الاقرار بذلك بعد قيام الحجة من أصول الايمان وانكار علمه بكل شىء كانكار قدرته على كل شىء هذا مع انها كانت ممن يستحق اللوم على الذنب ولهذا لهزها النبى وقال أتخافين ان يحيف الله عليك ورسوله وهذا الأصل مبسوط فى غير هذا الموضع [1]

أما تارك الصلاة فهذا إن لم يكن معتقدا لوجوبها فهو كافر بالنص والإجماع لكن إذا اسلم ولم يعلم أن الله أوجب عليه الصلاة أو وجوب بعض أركانها مثل أن يصلي بلا وضوء فلا يعلم ان الله أوجب عليه الوضوء أو يصلي مع الجنابة فلا يعلم أن الله أوجب عليه غسل الجنابة فهذا ليس بكافر إذا لم يعلم لكن إذا علم الوجوب هل يجب عليه القضاء فيه قولان للعلماء فى مذهب أحمد ومالك وغيرهما قيل يجب عليه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٤٠٦-٤١٢

القضاء وهو المشهور عن أصحاب الشافعى وكثير من اصحاب أحمد وقيل لا يجب عليه القضاء وهذا هو الظاهر وعن أحمد فى هذا الأصل روايتان منصوصتان فيمن صلى فى معاطن الإبل ولم يكن علم بالنهى ثم علم هل يعيد على روايتين ومن صلى ولم يتوضأ من لحوم الإبل ولم يكن علم بالنهي ثم علم هل يعيد على روايتين منصوصتين وقيل عليه الإعادة إذا ترك الصلاة جاهلا بوجوبها فى دار الإسلام دون دار الحرب وهو المشهور من مذهب أبى حنيفة والصائم إذا فعل ما يفطر به جاهلا بتحريم ذلك فهل عليه الإعادة على قولين فى مذهب أحمد وكذلك من فعل محظورا فى الحج جاهلا وأصل هذا أن حكم الخطاب هل يثبت فى حق المكلف قبل أن يبلغه فيه ثلاثة اقوال فى مذهب أحمد وغيره قيل يثبت وقيل لا يثبت وقيل يثبت المبتدأ دون الناسخ والأظهر أنه لا يجب قضاء شيء من ذلك ولا يثبت الخطاب إلا بعد البلاغ لقوله تعالى {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ}الأنعام١٩ وقوله {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ ولقوله {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ ومثل هذا فى القرآن متعدد بين سبحانه أنه لا يعاقب أحدا حتى يبلغه ما جاء به الرسول ومن علم ان محمدا رسول الله فآمن بذلك ولم يعلم كثيرا مما جاء به لم يعذبه الله على ما لم يبلغه فإنه إذا لم يعذبه على ترك الإيمان بعد البلوغ فإنه لا يعذبه على بعض شرائطه إلا بعد البلاغ أولى وأحرى وهذه سنة رسول الله المستفيضة عنه فى أمثال ذلك فإنه قد ثبت فى الصحاح أن طائفة من اصحابه ظنوا أن قوله تعالى {الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ}البقرة١٨٧ هو الحبل الأبيض من الحبل الأسود فكان أحدهم يربط فى رجله حبلا ثم يأكل حتى يتبين هذا من هذا فبين النبى أن المراد بياض النهار وسواد الليل ولم يأمرهم بالإعادة وكذلك عمر بن الخطاب وعمار أجنبا فلم يصل عمر حتى أدرك الماء وظن عمار أن التراب يصل إلى حيث يصل الماء فتمرغ كما تمرغ الدابة ولم يأمر واحدا منهم بالقضاء وكذلك أبوذر بقى مدة جنبا لم يصل ولم يأمره بالقضاء بل أمره بالتيمم فى المستقبل وكذلك المستحاضة قالت أنى استحاض حيضة شديدة تمنعنى الصلاة والصوم فأمرها بالصلاة زمن دم الإستحاضة ولم يأمرها بالقضاء ولما حرم الكلام فى الصلاة تكلم معاوية بن الحكم السلمى فىؤالصلاة بعد التحريم جاهلا بالتحريم فقال له أن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الآدميين ولم يأمره بإعادة الصلاة ولما زيد فى الصلاة الحضر حين هاجر إلى المدينة كان من كان بعيدا عنه مثل من كان بمكة وبأرض الحبشة يصلون ركعتين ولم يأمرهم النبى بإعادة الصلاة ولما فرض شهر رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ولم يبلغ الخبر إلى من كان بأرض الحبشة من المسلمين حتى فات ذلك الشهر لم يأمرهم بإعادة الصيام وكان بعض

الأنصار لما ذهبوا إلى النبى من المدينة إلى مكة قبل الهجرة قد صلى إلى الكعبة معتقدا جواز ذلك قبل أن يؤمر بإستقبال الكعبة وكانوا حينئذ يستقبلون الشام فلما ذكر ذلك للنبى أمره بإستقبال الشام ولم يأمره بإعادة ما كان صلى وثبت عنه فى الصحيحين أنه سئل وهو بالجعرانة عن رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وهو متضمخ بالخلوف فلما نزل عليه الوحى قال له إنزع عنك جبتك وإغسل عنك أثر الخلوق وإصنع فى عمرتك ما كنت صانعا فى حجك وهذا قد فعل محظورا فى الحج وهو لبس الجبة ولم يأمره النبى على ذلك بدم ولو فعل ذلك مع العلم للزمه دم وثبت عنه فى الصحيحين انه قال للأعرابي المسىء فى صلاته صل فإنك لم تصل مرتين او ثلاثا فقال والذى بعثك بالحق ما احسن غير هذا فعلمنى ما يجزينى فى الصلاة فعلمه الصلاة المجزية ولم يأمره بإعادة ما صلى قبل ذلك مع قوله ما احسن غير هذا وإنما أمره أن يعيد تلك الصلاة لأن وقتها باق فهو مخاطب بها والتى صلاها لم تبرأ بها الذمة ووقت الصلاة باق ومعلوم أنه لو بلغ صبى أو أسلم كافر أو طهرت حائض او أفاق مجنون والوقت باق لزمتهم الصلاة أداء لا قضاء وإذا كان بعد خروج الوقت فلا إثم عليهم فهذا المسيء الجاهل إذا علم بوجوب الطمأنينة فى أثناء الوقت فوجبت عليه الطمأنينة حينئذ ولم تجب عليه قبل ذلك فلهذا أمره بالطمأنينة فى صلاة تلك الوقت دون ما قبلها وكذلك أمره لمن صلى خلف الصف أن يعيد ولمن ترك لمعة من قدمه أن يعيد الوضوء والصلاة وقوله اولا صل فإنك لم تصل تبين أن ما فعله لم يكن صلاة ولكن لم يعرف أنه كان جاهلا بوجوب الطمأنينة فلهذا أمره بالإعادة إبتداء ثم علمه إياها لما قال والذى بعثك بالحق لا أحسن غير هذا فهذه نصوصه فى محظورات الصلاة والصيام والحج مع الجهل فيمن ترك واجباتها مع الجهل واما أمره لمن صلى خلف الصف أن يعيد فذلك انه لم يأت بالواجب مع بقاء الوقت فثبت الوجوب فى حقه حين أمره النبى لبقاء وقت الوجوب لم يأمره بذلك مع مضي الوقت وأما أمره لمن ترك لمعة فى رجله لم يصبها الماء بالإعادة فلأنه كان ناسيا فلم يفعل الواجب كمن نسي الصلاة وكان الوقت باقيا فإنها قضية معينة بشخص لا يمكن أن يكون فى الوقت وبعده أعنى انه رآى فى رجل رجل لمعة لم يصيبها الماء فأمره أن يعيد الوضوء والصلاة رواه أبوداود وقال احمد بن حنبل حديث جيد وأما قوله ويل للأعقاب من النار ونحوه فإنما يدل على وجوب تكميل الوضوء ليس فى ذلك أمر بإعادة شىء ومن كان أيضا يعتقد أن الصلاة تسقط عن العارفين أو عن المشائخ الواصلين أو عن بعض أتباعهم أو أن الشيخ يصلي عنهم أو أن لله عبادا اسقط عنهم الصلاة كما يوجد كثير من ذلك فى كثير من المنتسبين إلى الفقر والزهد وإتباع بعض المشائخ

والمعرفة فهؤلاء يستتابون بإتفاق الأئمة فإن أقروا بالوجوب وإلا قوتلوا وإذا أصروا على جحد الوجوب حتى قتلوا كانوا من المرتدين ومن تاب منهم وصلى لم يكن عليه إعادة ما ترك قبل ذلك فى أظهر قولي العلماء فإن هؤلاء إما ان يكونوا مرتدين وإما ان يكونوا مسلمين جاهلين للوجوب فإن قيل إنهم مرتدون عن الإسلام فالمرتد إذا أسلم لا يقضي ما تركه حال الردة عن جمهور العلماء كما لا يقضي الكافر إذا أسلم ما ترك حال الكفر بإتفاق العلماء ومذهب مالك وابى حنيفة وأحمد فى أظهر الروايتين عنه والأخرى يقضي المرتد كقول الشافعى والأول اظهر فإن الذين إرتدوا على عهد رسول الله كالحارث إبن قيس وطائفة معه أنزل الله فيهم {كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ}آل عمران٨٦ الآية والتى بعدها وكعبد الله بن أبى سرح والذين خرجوا مع الكفار يوم بدر وأنزل فيهم {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}النحل١١٠ فهؤلاء عادوا إلى الإسلام وعبدالله بن ابى سرح عاد إلى الإسلام عام الفتح وبايعه النبى ولم يأمر أحدا منهم بإعادة ما ترك حال الكفر فى الردة كما لم يكن يأمر سائر الكفار إذا أسلموا وقد إرتد فى حياته خلق كثير إتبعوا الأسود العنسي الذى تنبأ بصنعاء اليمن ثم قتله الله وعاد أولئك إلى الإسلام ولم يؤمروا بالإعادة وتنبأ مسليمة الكذاب وأتبعه خلق كثير قاتلهم الصديق والصحابة بعد موته حتى أعادوا من بقى منهم إلى الإسلام ولم يأمر أحدا منهم بالقضاء وكذلك سائر المرتدين بعد موته وكان اكثر البوادي قد إرتدوا ثم عادوا إلى الإسلام ولم يأمر أحدا منهم بقضاء ما ترك من الصلاة وقوله تعالى {قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ}الأنفال٣٨ يتناول كل كافر وإن قيل إن هؤلاء لم يكونوا مرتدين بل جهالا بالوجوب وقد تقدم أن الأظهر فى حق هؤلاء أنهم يستأنفون الصلاة على الوجه المأمور ولا قضاء عليهم فهذا حكم من تركها غير معتقد لوجوبها [1]

## "الشبهة التي يسقط بها الحد شبهة اعتقاد أو شبهة ملك"

وكان عمر بن الخطاب يشاور الصحابة رضي الله عنهم في الحوادث يشاور عثمان وعليا وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وزيد بن ثابت وغيرهم حتى كان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٤٠-٤٤

يشاور ابن عباس وهذا كان من كمال فضله وعقله ودينه ولهذا كان من أسد الناس رأيا وكان يرجع تارة إلى رأي هذا وتارة إلى رأى هذا وقد أتى بامرأة قد أقرت بالزنا فاتفقوا على رجمها وعثمان ساكت فقال مالك لا تتكلم فقال أراها تستهل به استهلال من لا يعلم أن الزنا محرم فرجع فاسقط الحد عنها لما ذكر له عثمان ومعنى كلامه أنها تجهر به وتبوح به كما يجهر الإنسان ويبوح بالشيء الذي لا يراه قبيحا مثل الأكل والشرب والتزوج والتسرى والاستهلال رفع الصوت ومنه استهلال الصبي وهو رفعه صوته عند الولادة وإذا كانت لا تعلمه قبيحا كانت جاهلة بتحريمه والحد لا يجب إلا على من بلغه التحريم فإن الله تعالى يقول {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ وقال تعالى {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ ولهذا لا يجوز قتال الكفار الذين لم تبلغهم الدعوة حتى يدعوا إلى الإسلام ولهذا من أتى شيئا من المحرمات التي لم يعلم تحريمها لقرب عهده بالإسلام أو لكونه نشأ بمكان جهل لم يقم عليه الحد ولهذا لم يعاقب النبي صلى الله عليه وسلم من أكل من أصحابه حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود لأنهم أخطأوا في التأويل ولم يعاقب أسامة بن زيد لما قتل الرجل الذي قال لا إله إلا الله لأنه ظن جواز قتله لما اعتقد أنه قالها تعوذا وكذلك السرية التي قتلت الرجل الذي قال إنه مسلم وأخذت ماله لم يعاقبها لأنها كانت متأولة وكذلك خالد بن الوليد لما قتل بني جذيمة لما قالوا صبأنا لم يعاقبه لتأويله وكذلك الصديق لم يعاقب خالدا على قتل مالك بن نويرة لأنه كان متأولا وكذلك الصحابة لما قال هذا لهذا أنت منافق لم يعاقبه النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان متأولا ولهذا قال الفقهاء الشبهة التي يسقط بها الحد شبهة اعتقاد أو شبهة ملك فمن تزوج نكاحا اعتقد أنه جائز ووطىء فيه لم يحد وإن كان حراما في الباطن وأما إذا علم التحريم ولم يعلم العقوبة فإنه يحد كما حد النبي صلى الله عليه وسلم ماعز بن مالك إذ كان قد علم تحريم الزنا ولكنه لم يكن يعلم أن الزاني المحصن يرجم فرجمه النبي صلى الله عليه وسلم لعلمه بتحريم الفعل وإن لم يعلم أنه يعاقب بالرجم [1]

*وفى أوقات الفترات وأمكنة الفترات يثاب الرجل على ما معه من الايمان القليل ويغفر الله فيه لمن لم تقم الحجة عليه مالا يغفر به لمن قامت الحجة عليه كما فى الحديث المعروف ياتى على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولاصياما ولاحجا

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٨٨-٨٩

ولاعمرة الا الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة ويقولون ادركنا آباءنا وهم يقولون لا اله الا الله فقيل لحذيفة بن اليمان ما تغنى عنهم لا اله الا الله فقال تنجيهم من النار وأصل ذلك ان المقالة التي هي كفر بالكتاب والسنة والاجماع يقال هى كفر قولا يطلق كما دل على ذلك الدلائل الشرعية فان الايمان من الاحكام المتلقاة عن الله ورسوله ليس ذلك مما يحكم فيه الناس بظنونهم وأهوائهم ولا يجب ان يحكم فى كل شخص قال ذلك بانه كافر حتى يثبت فى حقه شروط التكفير وتنتفى موانعه مثل من قال ان الخمر او الربا حلال لقرب عهده بالاسلام او لنشوئه فى بادية بعيدة او سمع كلاما أنكره ولم يعتقد انه من القرآن ولا انه من احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان بعض السلف ينكر اشياء حتى يثبت عنده ان النبى قالها وكما كان الصحابة يشكون في اشياء مثل رؤية الله وغير ذلك حتى يسألوا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومثل الذى قال اذا أنا مت فاسحقونى وذروني فى اليم لعلي اضل عن الله ونحو ذلك فان هؤلاء لا يكفرون حتى تقوم عليهم الحجة بالرسالة كما قال الله تعالى {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ وقد عفى الله لهذه الامة عن الخطأ والنسيان[١]

## أحكام الكفر و التأديب لا تثبت إلا بعد بلوغ الرسالة

وقد اختلف العلماء في خطاب الله ورسوله هل يثبت حكمه في حق العبيد قبل البلاغ على ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره قيل يثبت وقيل لا يثبت وقيل يثبت المبتدأ دون الناسخ والصحيح ما دل عليه القرآن في قوله تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ وقوله {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ وفي الصحيحين عن النبي ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين فالمتأول والجاهل المعذور ليس حكمه حكم المعاند والفاجر بل قد جعل الله لكل شيء قدرا[٢]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ١٦٥

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٢٨٨

فمن جحد وجوبها(الصلاة ) بجهله عرف ذلك و إن جحدها عنادا كفر هذا اصل مضطرد في مباني الإسلام الخمسة و في الأحكام الظاهرة المجمع عليها من مكلف إن كان الجاحد لذلك معذورا مثل إن يكون حديث عهد بالإسلام أو قد نشأ ببادية هي مظنة الجهل بذلك لم يكفر حتى يعرف إن هذا دين الإسلام لأن أحكام الكفر و التأديب لا تثبت إلا بعد بلوغ الرسالة لا سيما فيما لا يعلم بمجرد العقل قال الله تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ و قال تعالى {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ و قال تعالى {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً}طه١٣٤ و قال تعالى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا}القصص٥٩ و قال تعالى {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ}الأنعام١٩ فالإنذار لمن بلغه القرآن بلفظه أو معناه فإذا بلغته الرسالة بواسطة أو بغير واسطة قامت عليه الحجة و انقطع عذره[1]

قيام الحجة أنصر وأعذر وقد قال تعالى {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{١٦٥} النساء الآية ١٦٥ وقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين [2]

## "اذا قل العلم ظهر الجفاء و اذا قلت الآثار ظهرت الأهواء"

قال مالك بن أنس اذا قل العلم ظهر الجفاء و اذا قلت الآثار ظهرت الأهواء ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم و لهذا قال أحمد فى خطبته الحمد لله الذي جعل فى كل زمان فترة بقايا من أهل العلم فالهدي الحاصل لأهل الأرض انما هو من نور النبوة كما قال تعالى {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}طه١٢٣ فأهل الهدي و الفلاح هم المتبعون للأنبياء و هم المسلمون

---

[1] شرح العمدة ج: ٤ ص: ٥١

[2] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٢٤٦

المؤمنون فى كل زمان و مكان و أهل العذاب و الضلال هم المكذبون للأنبياء يبقى أهل الجاهلية الذين لم يصل اليهم ما جاءت به الأنبياء فهؤلاء فى ضلال و جهل و شرك و شر لكن الله يقول {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}الإسراء١٥ و قال {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ و قال {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}القصص٥٩ فهؤلاء لا يهلكهم الله و يعذبهم حتى يرسل اليهم رسولا و قد رويت آثار متعددة فى أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا فإنه يبعث اليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة وقد زعم بعضهم أن هذا يخالف دين المسلمين فإن الآخرة لا تكليف فيها و ليس كما قال انما ينقطع التكليف إذا دخلوا دار الجزاء الجنة أو النار و الا فهم فى قبورهم ممتحنون و مفتونون يقال لأحدهم من ربك و ما دينك و من نبيك و كذلك فى عرصات القيامة يقال ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس و من كان يعبد القمر القمر و من كان يعبد الطواغيت الطواغيت و تبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله فى صورة غير الصورة التى رأوه فيها أول مرة و يقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا و فى رواية فيسألهم و يثبتهم و ذلك امتحان لهم هل يتبعون غير الرب الذي عرفوا أنه الله الذي تجلى لهم أول مرة فيثبتهم الله تعالى عند هذه المحنة كما يثبتهم فى فتنة القبر فاذا لم يتبعوه لكونه أتى فى غير الصورة التى يعرفون أتاهم حينئذ فى الصورة التى يعرفون فيكشف عن ساق فاذا رأوه خروا له سجدا الا من كان منافقا فانه يريد السجود فلا يستطيعه يبقى ظهره مثل الطبق و هذا المعنى مستفيض عن النبى صلى الله عليه و سلم فى عدة أحاديث ثابتة من حديث أبي هريرة و أبى سعيد و قد أخرجاهما فى الصحيحين و من حديث جابر و قد رواه مسلم من حديث ابن مسعود و أبى موسى و هو معروف من رواية أحمد و غيره فدل

ذلك على أن المحنة انما تنقطع إذا دخلوا دار الجزاء و أما قبل دار الجزاء امتحان و ابتلاء [1]

## إنما الهدى فيما جاء به الرسول

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص:٣٠٨-٣١٠

فإن الناس فى باب خلق الرب و أمره و لم فعل ذلك على طرفين و وسط فالقدرية من المعتزلة و غيرهم قصدوا تعظيم الرب و تنزيهه عما ظنوه قبيحا من الأفعال و ظلما فأنكروا عموم قدرته و مشيئته و لم يجعلوه خالقا لكل شيء و لا أنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن بل قالوا يشاء ما لا يكون و يكون ما لا يشاء ثم إنهم و ضعوا لربهم شريعة فيما يجب عليه و يحرم بالقياس على أنفسهم و تكلموا في التعديل و التجويز بهذا القياس الفاسد الذي شبهوا فيه الخالق بالمخلوق فضلوا و أضلوا و قابلهم الجهمية الغلاة في الجبر فأنكروا حكمة الله و رحمته و قالوا لم يخلق لحكمة و لم يأمر بحكمة و ليس فى القرآن لام كي لا في خلقه و لا فى أمره وزعموا أن قوله {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ}الجاثية١٣ و {خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً}البقرة٢٩ و قوله {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}النجم٣١ و قوله {وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ}البقرة١٨٥ و قوله {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ و أمثال ذلك إنما اللام فيه لام العاقبة كقوله {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً}القصص٨ و قول القائل لدوا للموت و ابنوا للخراب و لم يعلموا أن لام العاقبة إنما تصح ممن يكون جاهلا بعاقبة فعله كفرعون الذي لم يكن يدري ما ينتهي إليه أمر موسى أو ممن يكون عاجزا عن رد عاقبة فعله كعجز بني آدم عن دفع الموت عن أنفسهم و الخراب عن ديارهم فأما من هو بكل شيء عليم و على كل شيء قدير و هو مريد لكل ما خلق فيمتنع فى حقه لام العاقبة التى تتضمن نفى العلم أو نفى القدرة و أنكر هؤلاء محبة الله و رضاه لبعض الموجودات دون بعض و قالوا المحبة و الرضا هو من معنى الإردة و الله مريد لكل ما خلقه فهو راض بذلك محب له و زعموا أن ما فى القرآن من نفي حبه و رضاه بالكفر و المعاصي كقوله {وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ}البقرة٢٠٥ {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}الزمر٧ محمول على عباده الذين لم يقع ذلك منهم أو أنه لم يرده دينا يثيبهم عليه و زعموا أن الله لا يحب و لا يرضي ما أمر به من العبادات إلا إذا و قع فيريده كما يريد حينئذ ما و قع من الكفر و المعاصي إلى غير ذلك من قوالهم المبسوطة فى غير هذا الموضع و كثير من المتأخرين يظن أن هذا قول أهل السنة و هذا مما لم يقله أحد من سلف الأمة و أئمتها بل جميع مثبتة القدر المتقدمين كانوا يفرقون بين المحبة و الرضا و بين الإرادة و لكن أبو الحسن الأشعري إتبع جهما فى ذلك قال أبو المعالي الجوينى و مما إختلف أهل الحق فى إطلاقه و عدم إطلاقه المحبة و الرضا فصار المتقدمون إلى أنه سبحانه لا يحب الكفر و لا يرضاه و كذلك كل معصية و قال شيخنا أبو الحسن المحبة هي الإرادة نفسها و كذلك الرضا و

الإصطفاء و هو سبحانه يريد الكفر و يرضاه كفرا معاقبا عليه و هو كما قال أبو المعالى فإن المتقدمين من جميع أهل السنة على ما دل عليه الكتاب و السنة من أنه سبحانه لا يرضي ما نهى عنه ولا يحبه وعلى ذلك قدماء أصحاب الأئمة الأربعة أصحاب أبى حنيفة و مالك و الشافعي أحمد كأبي بكر عبدالعزيز و غيره من قدمائهم و لكن من المتأخرين من سوى بين الجميع كما قاله أبو الحسن و هو فى الأصل قول لجهم فهو الذي قال فى القدر بالجبر و بما يخالف أهل السنة وانكر رحمة الله تعالى و كان يخرج إلى الجذمى فيقول أرحم الراحمين يفعل هذا فنفى أن يكون الله أرحم الراحمين و قد قال الصادق المصدوق لله أرحم بعباده من الوالدة بولده و هذه مسائل عظيمة ليس هذا موضع بسطها و إنما المقصود هنا التنبيه على الجمل فإن كثيرا من الناس يقرأ كتبا مصنفة فى أصول الدين و أصول الفقه بل في تفسير القرآن و الحديث و لا يجد فيها القول الموافق للكتاب و السنة الذي عليه سلف الأمة و أئمتها و هو الموافق لصحيح المنقول و صريح المعقول بل يجد أقوالا كل منها فيه نوع من الفساد و التناقض فيحار ما الذي يؤمن به فى هذا الباب و ما الذي جاء به الرسول و ما هو الحق و الصدق إذ لم يجد في تلك الأقول ما يحصل به ذلك و إنما الهدى فيما جاء به الرسول الذي قال الله فيه {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٥٢} صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأمُورُ{٥٣} الشورى٥٢-٥٣ [١]

أن الله يرسل الرسل إلى الناس تأمرهم و تنهاهم يرسلهم مبشرين و منذرين كما قال تعالى {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ}الأنعام٤٨ ينذرون الذين أساؤا عقوبات أعمالهم و يبشرون الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالنعيم المقيم و {أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً{٢} مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً{٣} الكهف ٢-٣ [٢]

---

[١]مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص:٩٩- ١٠٢

[٢]مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٠١

## إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى

قال تعالى {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ ومعلوم أن في مبعث الخلق يوم القيامة مقاصد غير بيان المختلف في علم هؤلاء ومما يبين ذلك أنه قال في الآية التي احتجوا بها {لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} يس ٦ ومعلوم أنه لم يبعث لمجرد الإنذار بل وليبشر من آمن به ولأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث وغير ذلك من مقاصد الرسل وفي ذلك حكم أخرى ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضع من مناسبته وهذا كالمناسبة في قوله{لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} يس ٦ فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم [1]

## شهادته بأن الله أنزله منه و أنه أنزله بعلمه

{لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً}النساء١٦٦ فان شهادته بما أنزل اليه هي شهادته بأن الله أنزله منه و أنه أنزله بعلمه فما فيه من الخبر هو خبر عن علم الله ليس خبرا عمن دونه و هذا كقوله {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ} هود١٤ و ليس معنى مجرد كونه

---

[1] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٤٣٢

أنزله أنه هو معلوم له فان جميع الأشياء معلومه له و ليس فى ذلك ما يدل على أنها حق لكن المعنى أنزله فيه علمه كما يقال فلان يتكلم بعلم و يقول بعلم فهو سبحانه أنزله بعلمه كما قال {قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}الفرقان٦ و لم يقل تكلم به بعلمه لأن ذلك لا يتضمن نزوله إلى الأرض اذا قال {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء١٦٦ تضمن أن القرآن المنزل الى الأرض فيه علم الله كما قال {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ}آل عمران٦١ و ذلك يتضمن أنه كلام الله نفسه منه نزل و لم ينزل من عند غيره لأن غير الله لا يعلم ما فى نفس الله من العلم و نفسه هي ذاته المقدسة إلا أن يعلمه الله بذلك كما قال المسيح عليه السلام {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ}المائدة١١٦ و قالت الملائكة {لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا}البقرة٣٢ و قال {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء}البقرة٢٥٥ و قال {فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً {٢٦} إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ {٢٧}الجن٢٦-٢٧ فغيبه الذي اختص به لا يظهر عليه أحدا إلا من ارتضى من رسول و الملائكة لا يعلمون غيب الرب الذي اختص به و أما ما أظهره لعباده فانه يعلمه من شاء و ما تتحدث به الملائكة فقد تسترق الشياطين بعضه لكن هذا ليس من غيبه و علم نفسه الذي يختص به بل هذا قد أظهر عليه من شاء من خلقه و هو سبحانه قال {لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء١٦٦ فشهد أنه أنزله بعلمه بالآيات و البراهين التى تدل على أنه كلامه و أن الرسول صادق وكذلك قال فى هود {فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}هود١٣ لما تحداهم بالاتيان بمثله في قوله {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ}الطور٣٤ ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا عن ذا و ذاك ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا فان الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله و لا بسورة مثله و إذا كان الخلق كلهم عاجزين عن الاتيان بسورة مثله و محمد منهم علم أنه منزل من الله نزله بعلمه لم ينزله بعلم مخلوق فما فيه من الخبر فهو خبر عن علم الله وقوله {قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}الفرقان٦ لأن فيه من الأسرار التى لايعلمها الا الله ما يدل على أن الله أنزله فذكره ذلك يستدل به تارة على أنه حق منزل من الله لكن تضمن من الاخبار عن أسرار السموات و الأرض و الدنيا و الأولين و الآخرين و سر الغيب مالا يعلمه الا الله فمن هنا نستدل بعلمنا بصدق أخباره أنه من الله و إذا ثبت أنه أنزله بعلمه تعالى استدللنا بذلك على أن خبره حق و إذا كان خبرا بعلم الله فما فيه من الخبر يستدل به عن الأنبياء و أممهم و تارة عن يوم القيامة و ما فيها و الخبر الذي يستدل به لابد أن نعلم صحته من غير جهته و ذلك كاخباره بالمستقبلات فوقعت كما أخبر و كأخباره بالأمم الماضية بما يوافق ماعند

أهل الكتاب من غير تعلم منهم و إخباره بأمور هي سر عند أصحابها كما قال {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً}التحريم٣ الى قوله {نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ}التحريم٣ فقوله {قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}الفرقان٦ استدلال باخباره و لهذا ذكره تكذيبا لمن قال هو {إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً}الفرقان٤ و قوله {أنزَلَهُ}النساء١٦٦ استدلال على أنه حق و أن الخبر الذي فيه عن الله حق و لهذا ذكر ذلك بعد ثبوت التحدي و ظهور عجز الخلق عن الاتيان بمثله عليه قوم آخرون و قوله أنزله استدلال على أنه حق و أن الخبر الذي فيه عن الله حق و لهذا ذكر ذلك بعد ثبوت التحدي و ظهور عجز الخلق عن الاتيان بمثله ومن شهادته ما يجعله في القلوب من العلم و ما تنطق به الألسن من ذلك كما في الصحيح أن النبى صلى الله عليه و سلم مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال وجبت وجبت و مر عليه بجنازة فأثنوا عليها شرا فقال و جبت و جبت قالوا يارسول الله ما قولك و جبت و جبت قال هذه الجنازة أثنيقم عليها خيرا فقلت وجبت لها الجنة و هذه الجنازة أثنيتم عليها شرا فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله فى الأرض فقوله شهداء الله أضافهم الى الله تعالى و الشهادة تضاف تارة الى من يشهد له و الى من يشهد عنده فتقبل شهادته كما يقال شهود القاضي و شهود السلطان و نحو ذلك من الذين تقبل شهادتهم و قد يدخل فى ذلك من يشهد عليه بما تحمله من الشهادة ليؤديها عند غيره كالذين يشهد الناس عليهم بعقودهم أو أقاريرهم فشهداء الله الذين يشهدون له بما جعله و فعله و يؤدون الشهادة عنه فانهم إذا رأوا من جعله الله برا تقيا يشهدون أن الله جعله كذلك و يؤدون عنه الشهادة فهم شهداء الله فى الأرض و هو سبحانه الذي أشهدهم بأن جعلهم يعلمون ما يشهدون به و ينطقون به و إعلامه لهم بذلك هو شهادة منه بذلك فهذا أيضا من شهادته وقد قال تعالى {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ}يونس٦٤ و فسر النبى صلى الله عليه و سلم البشرى بالرؤيا الصالحة و فسرها بثناء الناس و حمدهم و البشرى خبر بما يسر و الخبر شهادة بالبشرى من شهادة الله تعالى و الله سبحانه أعلم [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٩٦-٢٠٠

# القرآن متضمن لعلم الله

وذلك أن ما جاء به الرسول هو من علم الله فما أخبر به عن الله فالله أخبر به و هو سبحانه يخبر بعلمه يمتنع أن يخبر بنقيض علمه و ما أمر به فهو من حكم الله و الله عليم حكيم قال تعالى {لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً}النساء١٦٦ و قال تعالى {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ {١٣} فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{١٤} هود١٣ -١٤ و قوله {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء١٦٦ قال الزجاج أنزله و فيه علمه و قال أبو سليمان الدمشقي أنزله من علمه و هكذا ذكر غيرهما و هذا المعنى مأثور عن السلف كما روى ابن أبى حاتم عن عطاء ابن السائب قال أقرأني أبو عبدالرحمن القرآن و كان إذا أقرأ أحدنا القرآن قال قد أخذت علم الله فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل ثم يقرأ {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً}النساء١٦٦ و كذلك قالوا فى قوله تعالى {فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ}هود١٤ قالوا أنزله و فيه علمه قلت الباء قد تكون للمصاحبة تقول جاء بأسياده و أولاده فقد أنزله متضمنا لعلمه مستصحبا لعلمه فما فيه من الخبر هو خبر بعلم الله و ما فيه من الأمر فهو أمر بعلم الله بخلاف الكلام المنزل من عند غير الله فإن ذلك قد يكون كذبا و ظلما كقرآن مسيلمة و قد يكون صدقا لكن إنما فيه علم المخلوق الذي قاله فقط لم يدل على علم الله تعالى إلا من جهة اللزوم وهو أن الحق يعلمه الله و أما القرآن فهو متضمن لعلم الله إبتداء فإنما أنزل بعلمه لا بعلم غيره و لا هو كلام بلا علم و إذا كان قد أنزل بعلمه فهو يقتضى أنه حق من الله و يقتضى أن الرسول رسول من الله الذي بين فيه علمه قال الزجاج الشاهد المبين لما شهد به و الله يبين ذلك و يعلم مع ذلك أنه حق قلت قوله {لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ}النساء١٦٦ شهادته هو بيانه و إظهاره دلالته و إخباره فالآيات البينات التى بين بها صدق الرسول تدل عليه و منها القرآن هو شهادة بالقول وهو فى نفسه آية و معجزة تدل على الصدق كما تدل سائر الآيات و الآيات كلها شهادة من الله كشهادة بالقول و قد تكون أبلغ و لهذا ذكر هذا فى سورة هود لما تحداهم بالإتيان بالمثل فقال {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{١٣} فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{١٤} هود١٣-١٤ فإن عجز أولئك عن المعارضة دل على عجز غيرهم بطريق الأولى و تبين أن جميع الخلق عاجزون عن معارضته وأنه آية بينة تدل على الرسالة و على التوحيد و كذلك قوله

{لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ}النساء١٦٦ بعد قوله {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}النساء١٦٣ إلى قوله{لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ و قد ذكروا أن من الكفار من قال لا نشهد لمحمد بالرسالة فقال تعالى {لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ}النساء١٦٦ و أحسن من هذا أنه لما قال {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}النساء١٦٥ نفي حجة الخلق على الخالق فقال لكن حجة الله على الخلق قائمة بشهادته بالرسالة فإنه يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه فما للخلق على الله حجة بل له الحجة البالغة و هو الذي هدى عباده بما أنزله و على ما تقدم فقوله {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء١٦٦ أي فيه علمه بما كان و سيكون و ما أخبر به و هو أيضا مما يدل على أنه حق فإنه إذا أخبر بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله دل على أن الله أخبره به كقوله {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً {٢٦} إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ {٢٧}الجن٢٦ -٢٧ الآية وقد قيل أنزله و هو عالم به و بك قال ابن جرير الطبري فى آية النساء أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه و ذكر الزجاج فى آية هود قولين أحدهما أنزله و هو عالم بإنزاله و عالم أنه حق من عنده و الثانى أنه أنزله بما أخبرفيه من الغيوب ودل على ما سيكون و ما سلف قلت هذا الوجه هو الذي تقدم و أما الأول فهو من جنس قول إبن جرير فإنه عالم به و بمن أنزل إليه و عالم بأنه حق و أن الذي أنزل عليه أهل لما اصطفاه الله له و يكون هذا كقوله{وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}الدخان٣٢ و قول من قال {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ}القصص٧٨ أي على علم من الله بإستحقاقي قلت و هذا الوجه يدخل في معنى الأول فإنه إذا نزل الكلام بعلم الرب تضمن أن كل ما فيه فهو من علمه و فيه الإخبار بحاله و حال الرسول و هذا الوجه هو الصواب و عليه الأكثرون و منهم من لم يذكر غيره والأول و إن كان معناه صحيحا فهو جزء من هذا الوجه و أما كون الثانى هو المراد بالآية فغلط لأن كون الرب سبحانه يعلم الشيء لا يدل على أنه محمود و لا مذموم و هو سبحانه بكل شيء عليم فلا يقول أحد إنه أنزله و هو لا يعلمه لكن قد يظن أنه أنزل بغير علمه أي و ليس فيه علمه و أنه من تنزيل الشيطان كما قال تعالى {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ {٢٢١} تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ{٢٢٢}الشعراء٢٢١-٢٢٢ و الشياطين هو يرسلهم و ينزلهم لكن الكلام الذي يأتون به ليس منزلا منه و لا هو منزل بعلم الله بل منزل بما تقوله الشياطين من كذب و غيره ولهذا هو سبحانه إذا ذكر نزول القرآن قيده بأن نزوله منه كقوله {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ}الزمر١ {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}الأنعام١١٤ {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}النحل١٠٢ و هذا مما إستدل به الإمام أحمد و غيره من أئمة السنة على أن

القرآن كلام الله ليس بمخلوق خلقه فى محل غيره فإنه كان يكون منزلا من ذلك المحل لا من الله و قال إنه نزل بعلم الله و إنه من علم الله و علم الله غير مخلوق و قال أحمد كلام الله من الله ليس شيئان منه ولهذا قال السلف القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ و إليه يعود فقالوا منه بدأ لم يبدأ من غيره كما تقوله الجهمية يقولون بدأ من المحل الذي خلق فيه و هذا مبسوط فى مواضع والمقصود أنه إذا كان فيه علمه فهو حق و الكلام الذي يعارضه به خلاف علم الله فهو باطل كالشرك الذي قال الله تعالى فيه {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}يونس١٨ وهذا الذي ذكرته من أنه يجب الرجوع فى أصول الدين إلى الكتاب و السنة كما بينته من أن الكتاب بين الأدلة العقلية التى بها تعرف المطالب الإلهية و بين ما يدل على صدق الرسول فى كل ما يقوله هو يظهر الحق بأدلته السمعية والعقلية [1]

قال تعالى {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ}هود١٣ الى قوله {فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ}هود١٤ فلما تحداهم بالاتيان بعشر سور مثله مفتريات هم و جميع من يستطيعون من دونه كان فى مضمون تحديه ان هذا لا يقدر أحد على الاتيان بمثله من دون الله كما قال {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}الإسراء٨٨ و حينئذ فعلم ان ذلك من خصائص من أرسله الله و ما كان ومن بين الجنس خاتمهم لا يمكن أن يأتى به غيره و كان ذلك برهانا بينا على أن الله أنزله و أنه نزل بعلم الله هو الذى أخبر بخبره و أمر بما أمر به كما قال {لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء١٦٦ الآية و ثبوت الرسالة ملزوم لثبوت التوحيد و أنه لا إله إلا الله من جهة أن الرسول أخبر بذلك و من جهة أنه لا يقدر احد على الأتيان بهذا القرآن إلا الله فإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله إلى غير ذلك من وجوه البيان فيه كما قد بسط ونبه عليه فى غير هذا الموضوع [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٤٦٤-٤٦٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص:١٠٦- ١٠٧

## القرآن كلام الله فله به اختصاص على غيره

والقرآن كلام الله وفيه الدعوة والحجة فله به اختصاص على غيره كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة والقرآن يظهر كونه آية وبرهانا له من وجوه جملة وتفصيلا أما الجملة فإنه قد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم علما متواترا أنه هو الذي أتى بهذا القرآن وتواترت بذلك الأخبار أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم والقرآن نفسه فيه تحدي الأمم بالمعارضة والتحدي هو أن يحدوهم أي يدعوهم فيبعثهم إلى أن يعارضوه فيقال فيه حداني على هذا الأمر أي بعثني عليه ومنه سمي حادي العيس لأنه بحداه يبعثها على السير وقد يريد بعض الناس بالتحدي دعوى النبوة ولكنه أصله الأول قال تعالى في سورة الطور {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ{٣٣} فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ{٣٤} الطور ٣٣-٣٤ فهنا قال {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ{٣٤} الطور ٣٤ في أنه تقوله فإنه إذا كان محمد قادرا على أن يتقوله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر كان هذا ممكنا للناس الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله ثم إنه تحداهم بعشر سور مثله فقال تعالى {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} هود١٣ ثم تحداهم بسورة واحدة منه فقال تعالى {وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{٣٧} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٣٨} يونس٣٧-٣٨ فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات هم وكل من استطاعوا من دون الله ثم تحداهم بسورة واحدة هم ومن استطاعوا قال {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} هود١٤ وهذا أصل دعوته وهو الشهادة بأنه لا إله إلا الله والشهادة بأن محمدا رسول الله وقال تعالى {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} هود١٤ كما قال {لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً} النساء١٦٦ أي هو يعلم أنه منزل لا يعلم أنه مفترى كما قال {وَمَا كَانَ

هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}يونس٣٧ [١]

فجبريل لم يقل شيئا من تلقاء نفسه بل هو الذي بلغ القرآن عن الله وجبريل يشهد أن القرآن منزل من الله وأنه حق [٢]

أما من أيقن أنه من عند الله فانه يمتنع أن يقصد معارضته لعلمه بان الخلق عاجزون عن ذلك والله تعالى شهد لمحمد بما أظهره من الآيات فادعوا من يشهد لكم وهؤلاء يشهدون من دون الله لا يشهدون بما شهد الله به فتكون شهادتهم مضادة لشهادة الله كما قال {لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً}النساء١٦٦ [٣]

## من العلم ما لا يعلمه إلا الله ومنه مما علمه بعض عباده

و قد إستدل بعضهم بأن الله لم ينف عن غيره علم شيء إلا كان منفردا به كقوله {قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ}النمل٦٥ و قوله {لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ}الأعراف١٨٧ و قوله {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}المدثر٣١ فيقال ليس الأمر كذلك بل هذا بحسب العلم المنفى فإن كان مما إستأثر الله به قيل فيه ذلك و إن كان مما علمه بعض عباده ذكر ذلك كقوله {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء}البقرة ٢٥٥ و قوله {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً}الجن٢٦ الى قوله {إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ٤٢٤

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٦٨

[٣] النبوات ج: ١ ص: ٢٣١

وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً}الجن٢ وقوله {قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}الرعد٤٣ و قوله{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ}آل عمران١٨ و قوله {لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء١٦٦ الى قوله {وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً}النساء١٦٦ و قوله {قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ}الكهف٢٢ و قال للملائكة {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}البقرة٣٠ و قالت الملائكة{لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا}البقرة٣٢ و فى كثير من كلام الصحابة الله و رسوله أعلم و فى الحديث المشهور أسألك بكل إسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو إستأثرت به فى علم الغيب عندك وقد قال تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}النساء٥٩ و أول النزاع النزاع في معاني القرآن فإن لم يكن الرسول عالما بمعانيه إمتنع الرد إليه و قد إتفق الصحابة و التابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن و تبينه و تدل عليه و تعبر عن مجمله و أنها تفسر مجمل القرآن من الأمر و الخبر [1]

## الله سبحانه له علم وقدرة ورحمة ومشيئة وعزة

الحمد لله الذى دل عليه الكتاب والسنة أن الله سبحانه له علم وقدرة ورحمة ومشيئة وعزة وغير ذلك لقوله تعالى {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}البقرة٢٥٥ وقوله {لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء١٦٦ وقوله {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}الذاريات٥٨ وقوله {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}المنافقون٨ وقوله {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً}غافر٧ وفى حديث الاستخارة الذى فى الصحيح اللهم أنى استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك واسألك من فضلك العظيم وفى حديث شداد بن أوس الذى فى السنن عن النبى اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى وفى الحديث الصحيح لا وعزتك وهذا كثير وفى الصحيح أيضا عن النبى سأل الذى كان يقرأ بقل هو الله أحد فى كل ركعة وهو امام فقال انى احبها لأنها صفة الرحمن فقال أخبروه أن الله يحبه فأقره النبى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٤٣٠-٤٣١

صلى الله عليه وسلم على تسميتها صفة الرحمن وفى هذا المعنى أيضا آثار متعددة فثبت بهذه النصوص أن الكلام الذى يخبر به عن الله صفة له ان الوصف هو الاظهار والبيان للبصر أو السمع كما يقول الفقهاء ثوب يصف البشرة او لا يصف البشرة وقال تعالى {سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ}الأنعام١٣٩ وقال {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ}الأنعام١٠٠ وقال لا تنعت المرأة المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر اليها والنعت الوصف ومثل هذا كثير و الصفة مصدر وصفت الشيء أصفه وصفا وصفة مثل وعد وعدا وعدة ووزن وزنا وزنة وهم يطلقون اسم المصدر على المفعول كما يسمون المخلوق خلقا ويقولون درهم ضرب الامير فاذا وصف الموصوف بأنه وسع كل شيء رحمة وعلما سمى المعنى الذى وصف به بهذا الكلام صفة فيقال للرحمة والعلم والقدرة صفة بهذا الاعتبار هذا حقيقة الامر [1]

والاعتقاد الذى يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من اتباع الأئمة الأربعة وغيرهم كما يذكره أئمة الحنيفة والمالكية والشافعية والحنبلية وأهل الكلام من الكلابية والأشعرية والكرامية وغيرهم ومشائخ التصوف والزهد وعلماء أهل الحديث فان هؤلاء كلهم متفقون على ان الله تعالى حى عالم بعلم قادر بقدرة كما قال تعالى {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء}البقرة٢٥٥وقال تعالى {لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء١٦٦ وقال تعالى {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ}فصلت٤٧ وقال تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً}فصلت١٥ وقال تعالى {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}الذاريات٤٧ أى بقوة وفى الصحيح عن النبى انه كان يعلم أصحابه الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن يقول إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إنى استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا اقدر وتعلم ولا اعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم ان هذا الأمر ويسميه باسمه خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة امري فأقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه وان كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة امرى فأصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص:٣٣٩- ٣٤٠

الخير حيث كان ثم رضنى به والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على ان الله تعالى يرى فى الآخرة وأن القرآن كلام الله [1]

و ذكر أهل الكلام الذين ينقلون مقالات الناس مقالة أهل السنة وأهل الحديث كما ذكره أبو الحسن الأشعرى فى كتابه الذى صنفه فى اختلاف المصلين ومقالات الاسلاميين فذكر فيه أقوال الخوارج والروافض والمعتزلة والمرجئة وغيرهم ثم قال ذكر مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث وجملة قولهم الاقرار بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء من عند الله وبما رواه الثقات عن رسول الله لا يردون من ذلك شيئا الى أن قال وان الله على عرشه كما قال {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}طه٥ وان له يدين بلا كيف كما قال تعالى {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}ص٧٥وأقروا أن لله علما كما قال {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء١٦٦ {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ}فصلت٤٧ وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة وقالوا أنه لا يكون فى الأرض من خير ولا شر الا ما شاء الله وأن الأشياء تكون بمشيئة الله كما قال {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}التكوير٢٩ الى أن قال ويقولون ان القرآن كلام الله غير مخلوق ويصدقون بالأحاديث التى جاءت عن رسول الله مثل ان الله ينزل الى سماء الدنيا فيقول هل من مستغفر فاغفر له كما جاء فى الحديث ويقرون أن الله يجىء يوم القيامة كما قال {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً}الفجر٢٢ وان الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}ق١٦ وذكر أشياء كثيرة الى أن قال فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول واليه نذهب [2]

وقال أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى المتكلم صاحب الطريقة المنسوبة اليه فى الكلام فى كتابه الذى صنفه فى اختلاف المصلين ومقالات الاسلاميين وذكر فرق الروافض والخوارج والمرجئة والمعتزلة وغيرهم ثم قال مقالة اهل السنة وأصحاب الحديث جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٤٨٥-٤٨٦

[2] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٨٥

الاقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء عن الله تعالى وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يردون شيئا من ذلك وان الله واحد احد فرد صمد لا اله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وان محمدا عبده ورسوله وان الجنة حق وان النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور وأقروا أن لله علما كما قال {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء١٦٦ وكما قال {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ}فاطر١١ [1]

فاسم العلم يستعمل مطلقا ويستعمل مضافا الى العبد كقوله {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}آل عمران١٨ ويستعمل مضافا الى الله كقوله {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء}البقرة٢٥٥ فاذا اضيف العلم الى المخلوق لم يصلح أن يدخل فيه علم الخالق سبحانه ولم يكن علم المخلوق كعلم الخالق واذا أضيف الى الخالق كقوله {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء١٦٦ لم يصلح أن يدخل فيه علم المخلوقين ولم يكن علمه كعلمهم [2]

## "ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاغه"

قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً{١٦٧} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً{١٦٨} إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً{١٦٩} النساء١٦٧-١٦٩ إن كل ما فى الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و مالم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدى و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد فى السماء و هو يقلب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٩٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢٠٠

القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاغه و هو الذى حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينه فى قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون وهو الذي جعل المسلم مسلما و المصلي مصليا قال الخليل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ}البقرة١٢٨ و قال {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي}إبراهيم٤٠ و قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا}السجدة٢٤ و قال عن آل فرعون {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ}القصص٤١ و قال تعالى {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{١٩} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{٢٠} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{٢١} المعارج١٩-٢١ و قال {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا}هود٣٧ و قال {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ}هود٣٨ والفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبرالله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}يس٤٢ و قال {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ}النحل٨٠ الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم وقال تعالى {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ{٩٥} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{٩٦}الصافات٩٥ -٩٦ فما بمعنى الذي و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبنى دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً}الكهف١٧ و قال {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}الأنعام١٢٥ و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما بفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}النمل٨٨ و قد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى {وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}البقرة١٦٤ و قال {فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ

الثَّمَرَاتِ}الأعراف٥٧ و قال تعالى {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ}المائدة١٦ [١]

## الله غنى عن الخلق

أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه ألم أفعل كذا يمن عليه بما يفعله معه وإن لم يقله بلسانه كان ذلك فى نفسه وتخيل مثل هذا فى حق الله تعالى من جهل الإنسان وظلمه ولهذا بين سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غنى عن الخلق كما قال تعالى {وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١٧٠ [٢]

## لطائف لغوية

١- وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى {وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١٥٢ {وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١١١{وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً}النساء١٤٨ ونحو ذلك قال كان ولم يزل ولا يزال[٣]

٢-و فى صحيح البخاري تعليقا عن سعيد بن جبير أن رجلا سأل إبن عباس عن قوله و كان الله غفورا رحيما و كان الله عزيزا حكيما و كان الله سميعا بصيرا فكأنه كان فمضى فقال إبن عباس قوله و كان الله و كان

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٧٨-٨٠

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢١٥

الله    فإنه يجل نفسه عن ذلك و سمى نفسه بذلك لم يجله أحد غيره و كان أي لم يزل كذلك رواه عبد بن حميد فى تفسيره مسندا موصولا و رواه إبن المنذر أيضا فى تفسيره و هذا لفظ رواية عبد [١]

فهو المسمى نفسه بأسمائه الحسنى كما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس انه لما سئل عن قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}الفتح٧ {غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١٥٢فقال هو سمى نفسه بذلك وهو لم يزل كذلك فأثبت قدم معانى أسمائه الحسنى وأنه هو الذى سمى نفسه بها [٢]

٣- والسلطان هو الوحي المنزل من عند الله كما ذكر ذلك فى غير موضع كقوله {أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ}الروم٣٥ وقوله {مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ}الأعراف٧١ وقال ابن عباس كل سلطان فى القران فهو الحجة ذكره البخارى فى صحيحه [٣]

٤-قوله {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ}الدخان٥٦ ثم قال {إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى}الدخان٥٦ الاستثناء منقطع فهذا منقطع لأنه يحسن أن يقال لا يذوقون إلا الموتة الأولى و كذلك قوله تعالى{لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}النساء٢٩ لأنه يحسن أن يقال لا تأكلوا أموالكم بينكم إلا أن تكون تجارة و قوله {مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ}النساء١٥٧ يصلح أن يقال و ما لهم إلا إتباع الظن [٤]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٠

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٠٥

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٤٢ و مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣١٦

[٤] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٤٣٠

٥- قال تعالى {مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ}النساء١٥٧ استثناء منقطعا [١]

٦-وأخبرت الرسل بتقدم أسمائه وصفاته كما فى قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ {وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً}النساء١٣٤ {وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء٩٦ وامثال ذلك قال إبن عباس كان ولا يزال ولم يقيد كونه بوقت دون وقت [٢]

٧- قال تعالى{رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٦٥ فهو المسمى نفسه بأسمائه الحسنى كما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس انه لما سئل عن قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ {غَفُوراً رَّحِيماً}النساء٩٦ فقال هو سمى نفسه بذلك وهو لم يزل كذلك فأثبت قدم معانى أسمائه الحسنى وأنه هو الذى سمى نفسه بها [٣]

٨-قال تعالى {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب حكيم منزه عن السفه [٤]

٩- قوله {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{٢} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{٣}الاعلى٢-٣ العطف يقتضي إشتراك المعطوف و المعطوف عليه فيما ذكر و أن بينهما مغايرة إما فى الذات و إما فى الصفات و هو في الذات كثير كقوله{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا}الحج١٧ و أما فى الصفات فمثل هذه الآية فإن الذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى لكن هذا الإسم و الصفة ليس هو ذاك الإسم و الصفة و مثله قوله {لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ

---

[١] شرح العمدة ج: ١ ص: ٣٧٧ و الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٩١

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٢٣٢ و مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٣٨

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٠٥

[٤] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}النساء١٦٢ [١]

١٠- قوله {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٥٨ و نحوه كما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس و رواه ابن أبى حاتم من عدة طرق لما قيل له قوله {وَكَانَ اللّهُ}النساء١٥٨ كأنه كان شيء ثم مضى فقال إبن عباس هو سمى نفسه بذلك ولم يزل كذلك هذا لفظ ابن أبى حاتم من طريق أبى معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فقال ابن عباس كذلك كان ولم يزل ومن رواية عمرو بن أبي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال سمعت الله يقول {وَكَانَ اللّهُ}النساء١٥٨ كأنه شيء كان فقال ابن عباس أما قوله {كَانَ} فإنه لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ومن رواية عبدالرحمن بن مغرا عن مجمع بن يحيى عن عمه عن ابن عباس قال قال يهودي إنكم تزعمون أن الله كان عزيزا حكيما فكيف هو اليوم فقال ابن عباس إنه كان فى نفسه عزيزا حكيما وهذه أقوال ابن عباس تبين أنه لم يزل متصفا بخبر كان ولا يزال كذلك و أن ذلك حصل له من نفسه فلم يزل متصفا فى نفسه إذا كان من لوازم نفسه و لهذا لا يزال لأنه من نفسه و قال أحمد بن حنبل لم يزل الله عالما متكلما غفورا و قال أيضا لم يزل الله متكلما إذا شاء [٢]

١١- قال تعالى{رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٦٥ و فى صحيح البخاري تعليقا عن سعيد بن جبير أن رجلا سأل إبن عباس عن قوله و كان الله غفورا رحيما و كان الله عزيزا حكيما و كان الله سميعا بصيرا فكأنه كان فمضى فقال إبن عباس قوله و كان الله و كان الله فإنه يجل نفسه عن ذلك و سمى نفسه بذلك لم

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٢٧

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص:٣٦٩- ٣٧٠

يجله أحد غيره و كان أي لم يزل كذلك رواه عبد بن حميد فى تفسيره مسندا موصولا و رواه إبن المنذر أيضا فى تفسيره و هذا لفظ رواية عبد[1]

١٢- والحجة هي ما يحتج به الخصم وإن كان باطلا فليس من شرط لفظ الحجة أن تكون حقا بل إذا كانت حقا سميت بينة وبرهانا ودليلا ولهذا قال تعالى {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٦٥[2]

١٣- قال تعالى{رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٦٥ عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب حكيم منزه عن السفه[3]

١٤-لفظ العلم يضاف تارة إلى العلم وتارة إلى المعلوم فالأول كقوله {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء١٦٦[4]

١٥- قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً}النساء١٦٧ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{٧١} الصافات٦٩ -٧١ وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}الأحزاب٦٧ -٦٨ وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٠

[2] الصفدية ج: ٢ ص: ٣١٦

[3] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[4] الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ١٣٧

يَشْقَى}طه١٢٣ ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}النجم٢ وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}الفاتحة٧ وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}القمر٤٧ [١]

١٦-قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً}النساء١٦٨ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}الفاتحة٦ والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}البقرة٢ والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا}الأعراف٤٣ وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله {وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الأنعام٨٧ وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ}النحل١٢١ {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ}الشورى١٣ وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ}التوبة٣٣ والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا [٢]

١٧-قال تعالى {وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١٧٠

عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٧

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦

[٣] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

١٨- وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى {وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}النساء١٥٢ {وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}النساء١٧٠ {وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}النساء١٦٥ ونحو ذلك قال كان ولم يزل ولا يزال [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٣٨

## النساء ١٧١-١٧٦

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{١٧١} لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً{١٧٢} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{١٧٣} يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً{١٧٤} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{١٧٥} يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{١٧٦}

## إن النصارى أعظم ضلالا من اليهود وأكثر شركا

فإن النصارى أعظم ضلالا من اليهود وأكثر شركا وأبعد عن تحريم ما حرم الله ورسوله وقد وصفهم الله بالشرك الذي ابتدعوه كما وصف اليهود بالكبر الذي هووه فقال تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}التوبة٣١ وقال تعالى {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}المائدة١١٦ الى قوله {أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ {١١٧}المائدة١١٧ الآية وقد ذكر الله

قولهم أن الله هو المسيح بن مريم وأن الله ثالث ثلاثة وقولهم اتخذ الله ولدا فى مواضع من كتابه وبين عظيم فريتهم وشتمهم لله وقولهم الاد الذي {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً}مريم٩٠ ولهذا يدعوهم فى غير موضع الى أن لا يعبدوا إلا إلها واحدا كقوله {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ}النساء١٧١ إلى قوله {وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ}النساء١٧١ الى قوله {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً}النساء١٧٢ وهذا لأن المشركين بمخلوق من البشر أو غيرهم يصيرون هم مشركون ويصير الذي أشركوا به من الانس والجن مستكبرا كما قال {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً}الجن٦ فأخبر الله أن عباده لا يستكبرون عن عبادته وإن أشرك بهم المشركون وكذلك قال تعالى {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ}المائدة٧٣ الى قوله {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}المائدة٧٥ الآية وقال تعالى {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}المائدة٧٢ فأخبر أنه أمرهم بالتوحيد ونهاهم عن أن يشركوا به أو بغيره كما فعلوه ولما كان أصل دين اليهود الكبر عاقبهم بالذلة {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ}آل عمران١١٢ ولما كان أصل دين النصارى الإشراك لتعديد الطرق إلى الله أضلهم عنه فعوقب كل من الأمتين على ما إجترمه بنقيض قصده {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}فصلت٤٦ [1]

جهال العوام المبتدعين المضاهين للمشركين والنصارى فإنهم يجعلون من قال الحق فى المخلوق سابا له شاتما وهم يسبون الله ويشتمونه ويؤذونه ولا يخافون من سب الخالق وشتمه وأشرك به ما يخافونه من قول الحق فى حق المخلوق كما قال الخليل لهم {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{٨١} الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ{٨٢} الانعام٨١-٨٢ وكما قال تعالى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:٦٢٧- ٦٢٨

عن المشركين {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ}الأنبياء٣٦ فلا يغضبون من ذكر الرحمن بالباطل كما يغضبون من ذكر آلهتهم بالحق وقال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{١٧١} لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ {١٧٢} النساء ١٧١-١٧٢ وقد ذكر أهل التفسير أن النصارى نصارى نجران لما قدموا على النبى قالوا يا محمد لم تذكر صاحبنا قال ومن صاحبكم قالوا عيسى قال وأى شيء أقول له هو عبدالله قالوا بل هو الله فقال إنه ليس بعار عليه أن يكون عبدا لله فقالوا بلى فأنزل الله هذه الآية وفى الصحيحين عن النبى قال ما أحد اصبر على أذى يسمعه من الله يجعلون له ولدا وشريكا وهو يعافيهم ويرزقهم وفى الصحيحين أيضا أنه قال يقول الله شتمنى إبن آدم وما ينبغى له ذلك وكذبنى ابن آدم وما ينبغى له ذلك فأما شتمه إياى فقوله إنى إتخذت ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد وأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من إعادته وكان معاذ بن جبل يقول عن النصارى لا ترحموهم فلقد سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر فهؤلاء ينتقصون الخالق ويأنفون أن يذكر المخلوق بما يستحقه ويجعلون ذلك تنقيصا له وإنما هو إعطاؤه حقه وخفض له عن درجة الإلهية التى لا يستحقها إلا الله وهذه حال من أشبههم من بعض الوجوه ومنها ظنه أن كل ما كان قربة جاز التوسل إليه بكل وسيلة [1]

## الرد على كذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى

١-نهى الله سبحانه النصارى عن التثليث والاتحاد

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٢٣٩-٢٤١ و بغية المرتاد ج: ١ ص: ٥٠٢-٥٠٣

وقال تعالى {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} المائدة٧٢

وقال تعالى {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} المائدة٧٣

وقال تعالى {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} المائدة١٧

وقال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} التوبة٣٠

والنصارى قالت الأقوال الثلاثة فذكر الله عنهم هذه الأقوال لكن من الناس من يظن أن هذا قول طائفة منهم وهذا قول طائفة منهم كما ذكره طائفة من المفسرين كابن جرير الطبري والثعلبي وغيرهما ثم تارة يحكون عن اليعقوبية أن عيسى هو الله وعن النسطورية أنه ابن الله وعن المريوسية أنه ثالث ثلاثة وتارة يحكون عن النسطورية انه ثالث ثلاثة وعن الملكية انه الله ويفسرون قولهم ثالث ثلاثة بالأب والإبن وروح القدس والصواب ان هذه الأقوال جميعها قول طوائف النصارى المشهورة الملكية واليعقوبية والنسطورية فإن هذه الطوائف كلها تقول بالأقانيم الثلاثة الآب والإبن وروح القدس فتقول عن الله ثالث ثلاثة وتقول عن المسيح إنه الله وتقول أنه إبن الله وهم متفقون على إتحاد اللاهوت والناسوت وأن المتحد هو الكلمة وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التي تتضمن ذلك وهو قولهم نؤمن بإله واحد اب ضابط الكل خالق السموات والأرض كل ما يرى وما لا يرى وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق وأما قوله تعالى {وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ} النساء١٧١ وقوله {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ} المائدة٧٣ فقد فسروه بالتثليث المشهور عنهم المذكور في أمانتهم ومن الناس من يقول إن الله هو المسيح ابن مريم قول اليعقوبية وقولهم ثالث ثلاثة هو قول النصارى الذين يقولون بالآب والإبن والروح القدس وهم قد جعلوا الله فيها ثالث ثلاثة وسموا كل واحد من الثلاثة بالإله والرب وقد فسره طائفة بجعلهم عيسى وأمه إلهين يعبدان من

دون الله قال السدي في قوله تعالى {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ}المائدة٧٣ قال قالت النصارى إن الله هو المسيح وأمه فذلك قوله {أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ}المائدة١١٦ وقد قيل قول ثالث أغرب من ذلك عن أبي صخر قال {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ}المائدة٧٣ قال هو قول اليهود عزيز ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة وهذا ضعيف وقد ذكر سعيد بن البطريق في أخبار النصارى ان منهم طائفة يقال لهم المريميون يقولون إن مريم إله وإن عيسى إله وأما الأول فمتوجه فإن النصارى المتفقين على الأمانة كلهم يقولون إن الله ثالث ثلاثة والله تعالى قد نهاهم عن أن يقولوا ذلك فقال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً}النساء١٧١ فذكر سبحانه في هذه الآية التثليث والاتحاد ونهاهم عنهما وبين أن المسيح إنما هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وقال {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ}النساء١٧١ ثم قال {وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً}النساء١٧١ لم يذكر هنا أمه وقوله تعالى {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ قال معمر عن قتادة {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ هو قوله كن فكان وكذلك قال قتادة ليس الكلمة صار عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى وكذلك قال الإمام أحمد في مصنفه الذي صنفه في كتابه في الرد على الجهمية وذكره عنه الخلال والقاضي أبو يعلى قال أحمد

ثم إن الجهم ادعى أمرا فقال إنا وجدنا في كتاب الله آية تدل على أن القرآن مخلوق قلنا أي آية قال قول الله إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته فقلنا إن الله منعكم الفهم في القرآن عيسى عليه السلام تجري عليه ألفاظ لا تجري على القرآن لأن عيسى يجري عليه نسمة ومولود وطفل وصبي وغلام يأكل ويشرب وهو يخاطب بالأمر والنهي يجري عليه الوعد والوعيد هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم ولا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال عيسى ولكن المعنى في قوله جل ثناؤه إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له كن فكان عيسى ب كن وليس عيسى هو الكن ولكن بالكن كان فالكن من الله قوله وليس الكن مخلوقا وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى وذلك

أن الجهمية قالوا عيسى روح الله وكلمته لأن الكلمة مخلوقة وقالت النصارى روح الله من ذات الله وكلمة الله من ذات الله كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب وقلنا نحن إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة قال أحمد وأما قوله جل ثناؤه {وَرُوحٌ مِّنْهُ} النساء١٧١ يقول من أمره كان الروح فيه كقوله {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ} الجاثية١٣ يقول من أمره وتفسير روح الله إنما معناها أنها روح بكلمة الله خلقهم الله كما يقال عبدالله وسماء الله وفي نسخة روح يملكها الله خلقها الله والمعنى أن عيسى خلق من الروح وهو جبريل روح القدس سمي روحا كما سمي كلمة لأنه خلق بالكلمة والنصارى يقولون في أمانتهم تجسد من مريم ومن روح القدس لأنه كذلك في الكتب المتقدمة لكن ظنوا أن روح القدس هو صفة لله وجعلوها حياته وقدرته وهو رب وهذا غلط منهم فإنه لم يسم أحد من الأنبياء حياة الله ولا قدرته ولا شيئا من صفاته روح القدس بل روح القدس في غير موضع من كلام الأنبياء عليهم السلام يراد بها ما ينزله الله على قلوب الأنبياء كالوحي والهدى والتأييد ويراد بها الملك وهكذا في تفسير ابن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس أن عيسى بن مريم استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قالوا قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فقذفوه وأمه فلما سمع عيسى ذلك قال اللهم أنت ربي وأنا من روحك خرجت وبكلمتك خلقتني ولم آتهم من تلقاء نفسي وذكر تمام الحديث وقد قال تعالى {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ} الأنبياء٩١ وقال تعالى {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} التحريم١٢ فهذا يوافق قوله تعالى {فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً {١٧} قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً{١٨} قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً{١٩} مريم١٧ -١٩ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك والمقصود هنا أنهم سواء صدقوا محمدا أو كذبوه فإنه يلزم بطلان دينهم على التقديرين فإنه إن كان نبيا صادقا فقد بلغ عن الله في هذا الكتاب كفر النصارى في غير موضع ودعاهم إلى الإيمان به وأمر بجهادهم فمن علم أنه نبي ولو إلى طائفة معينة يجب تصديقه في كل ما أخبر به وقد أخبر بكفر النصارى وضلالهم وإذا ثبت هذا لم يغن عنهم الاحتجاج بشيء من الكتب[1]

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١١-٢٢

قال تعالى ُ{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{٣} الاخلاص٣ فهذا نفى كونه سبحانه والدا لشىء أو متخذا لشىء ولدا بأى وجه من وجوه الولادة أو اتخاذ الولد أيا كان وأما نفى كونه مولودا فيتضمن نفى كونه متولدا بأى نوع من التوالد من أحد من البشر وسائر ما تولد من غيره فهو رد على من قال المسيح هو الله ورد على الدجال الذى يقول انه الله ورد على من قال فى بشر أنه الله من غالية هذه الأمة فى على وبعض أهل البيت فقوله سبحانه {وَلَمْ يُولَدْ}الإخلاص٣ نفى لهذا كله فان هؤلاء كلهم مولودون والله لم يولد ولهذا لما ذكر الله المسيح فى القرآن قال ابن مريم بخلاف سائر الأنبياء كقوله {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}الحديد٢٧ وفي ذلك فائدتان إحداهما بيان أنه مولود والله لم يولد والثانية نسبته الى مريم بأنه ابنها ليس هو ابن الله وأما قوله {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ}النساء١٧٢ الآية وقوله {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ}التوبة٣٠ فإنه حكى قولهم الذى قالوه وهم قد نسبوه الى الله أنه ابنه فلم يضمنوا ذلك قولهم المسيح بن مريم وقوله {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ}الإخلاص٤ نفى للشركاء والأنداد يدخل فيه كل من جعل شيئا كفوا لله فى شىء من خواص الربوبية مثل خلق الخلق والالهية كالعبادة له ودعائه ونحو ذلك فهذه نكت تبين اشتمال كتاب الله على ابطال قول من يعتقد فى أحد من البشر الإلهية باتحاد أو حلول أو غير ذلك [1]

فكمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه او ان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق واضلهم وقال تعالى فى المسيح {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}الزخرف٥٩ وقال تعالى {وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ {١٩} يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ{٢٠}الأنبياء١٩ -٢٠ قال تعالى {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ {٢٦} لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ{٢٧}الأنبياء٢٦-٢٧ إلى قوله {وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} الانبياء ٢٨ وقال تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٤٩

يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً}النساء١٧٢ الى قوله {وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً}النساء١٧٣ وهذا ونحوه مما فيه وصف اكابر المخلوقات بالعبادة وذم من خرج عن ذلك متعدد فى القرآن وقد اخبر انه ارسل جميع الرسل بذلك [١]

والرب تعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد والنصارى يقولون إنه يلد وأنه يولد وأن له كفوا كما قد بين في موضع آخر وقد أخبر بعبودية المسيح في غير موضع كقوله تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً}النساء١٧١ قد علم بالاضطرار من دين محمد وبالنقل المتواتر عنه وبإجماع أمته إجماعا يستندون فيه إلى النقل عنه وبكتابه المنزل عليه وسنته المعروفة عنه أنه كان يقول أن المسيح عبد الله ورسوله ليس هو إلا رسول وأنه يكفر النصارى الذين يقولون هو الله وهو ابن الله والذين يقولون ثالث ثلاثة وأمثال ذلك [٢]

ففي العلم الظاهر المتواتر أن محمدا كفرهم في الكتاب الذي أنزل عليه وضللهم وجاهدهم بنفسه وأمر بجهادهم [٣]

قال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{١٧١} لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٧٦-١٧٧ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٧٧

[٢] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٧٣

[٣] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٢٦٣

إِلَيهِ جَمِيعاً{١٧٢} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{١٧٣}النساء١٧٧١-١٧٣ فقد نهى النصارى عن الغلو في دينهم وأن يقولوا على الله غير الحق وبين أن المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسله فبين أنه رسولة ونهاهم أن يقولوا ثلاثة وقال{انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ} النساء١٧١ وهذا تكذيب لقولهم في المسيح أنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه ثم قال {سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ} النساء١٧١ فنزه نفسه وعظمها أن يكون له ولد كما تقوله النصارى ثم قال له ما في السماوات وما في الأرض فأخبر أن ذلك ملك له ليس فيه شيء من ذاته ثم قال{لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} النساء١٧٢ أي لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لله تبارك وتعالى فمع هذا البيان الواضح الجلي هل يظن ظان أن مراده بقوله وكلمته أنه إله خالق أو أنه صفة لله قائمة به وأن قوله {وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ المراد به أنه حياته أو روحه منفصلة عن ذاته ثم نقول أيضا أما قوله {وَكَلِمَتُهُ}النساء١٧١ فقد بين مراده أنه خلقه بكن وفي لغة العرب التي نزل بها القرآن أن يسمى المفعول باسم المصدر فيسمى المخلوق خلقا لقوله هذا خلق الله ويقال درهم ضرب الأمير أي مضروب الأمير ولهذا يسمى المأمور به أمرا والمقدور قدرة وقدرا والمعلوم علما والمرحوم به رحمة كقوله تعالى {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً}الأحزاب٣٨ وقوله {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}النحل١ [١]

## ٢-روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها

قال تعالى{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً}الإسراء٨٥ روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزي الإمام المشهور الذي هو أعلم أهل زمانه بالإجماع

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٦٥ و دقائق التفسير ج: ١ ص: ٣٢٥

والإختلاف أو من أعلمهم وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال في كتاب اللقط لما تكلم على خلق الروح قال النسم الارواح قال واجمع الناس على أن الله خالق الجثة وباريء النسمة أي خالق الروح وقال أبو اسحاق بن شاقلا فيما أجاب به في هذه المسألة سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة أو غير مخلوقة قال هذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب إلى أن قال والروح من الاشياء المخلوقة وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء المشائخ وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده في ذلك كتابا كبيرا في الروح والنفس وذكر فيه من الأحاديث والآثار شيئا كثيرا وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره والشيح أبو يعقوب الخراز وأبو يعقوب النهر جوري والقاضي ابو يعلى وغيرهم وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد نكيرهم على من يقول ذلك في روح عيسى بن مريم لا سيما في روح غيره كما ذكره أحمد في كتابه في الرد على الزنادقة والجهمية فقال في أوله الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه وكم من ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح اثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا الوية البدعة وأطلقوا عقال الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتن المضلين وتكلم على ما يقال إنه متعارض من القرآن إلى أن قال وكذلك الجهم وشيعته دعوا الناس إلى المتشابه من القرآن والحديث وأضلوا بشرا كثيرا فكان مما بلغنا من أمر الجهم عدو الله أنه كان من أهل خراسان من أهل الترمذ وكان صاحب خصومات وكلام كان أكثر كلامه في الله فلقى أناسا من المشركين يقال لهم السمنية فعرفوا الجهم فقالوا له نكلمك فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا ألست تزعم أن لك إلها قال الجهم نعم فقالوا له فهل رأيت إلهك قال لا قالوا فهل سمعت كلامه قال لا قالوا فهل شممت له رائحته قال لا قالوا له فوجدت له مجسا قال لا قالوا فما يدريك أنه اله قال فتحير الجهم فلم يدر من يعبد أربعين يوما ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو روح الله من ذاته فإذا أراد أن يحدث امرا دخل في بعض خلقه فتكلم على لسان خلقه فيأمر بما شاء وينهى عما شاء وهو شاء وهو روح غائب عن الأبصار فاستدرك الجهم الجهم حجة مثل هذه

الحجة فقال للسمني ألست تزعم أن فيك روحا قال نعم قال فهل رأيت روحك قال لا قال فهل سمعت كلامه قال لا قال فوجدت له حسا ومجسا قال لا قال كذلك الله لا يرى له وجه ولا يسمع له صوت ولا يشم له رائحة وهو غائب عن الأبصار ولا يكون في مكان دون مكان وساق الإمام أحمد الكلام في القرآن والرؤية وغير ذلك إلى ان قال ثم إن الجهم ادعى أمرا فقال إنا وجدنا آية في كتاب الله تدل على القرآن أنه مخلوق فقلنا أي أية قال قول الله {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ وعيسى مخلوق فقلنا إن الله منعك الفهم في القرآن عيسى تجري عليه ألفاظ لا تجري على القرآن لأنه يسميه مولودا وطفلا وصبيا وغلاما يأكل ويشرب وهو مخاطب بالأمر والنهى يجري عليه الوعد والوعيد ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية ابراهيم ولا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى ولكن المعنى في قول عيسى هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى ولكن المعنى في قول الله {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له كن فكان عيسى بكن وليس عيسى هو الكن ولكن بالكن كان فالكن من الله قول وليس الكن مخلوقا وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى وذلك أن الجهمية قالوا عيسى روح الله وكلمته إلا أن الكلمة مخلوقة وقالت النصارى عيسى روح الله من ذات الله وكلمة الله من ذات الله كما يقال إن هذه الخرقة من هذا الثوب وأجاب أحمد وغيره بأن المسيح نفسه ليس هو كلاما فإن المسيح إنسان وبشر مولود من امرأة وكلام الله ليس بإنسان ولا بشر ولا مولود من امرأة ولكن المسيح خلق بالكلام وأما القرآن فهو نفسه كلام الله فأين هذا من هذا وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء وما من عاقل إذا سمع قوله تعالى في المسيح عليه السلام إنه كلمته ألقاها الى مريم إلا يعلم أن المراد لا أن المسيح نفسه كلام الله ولا أنه صفة لله ولا خالق ثم يقال للنصارى فلو قدر أن المسيح نفس الكلام ليس بخالق فإن القرآن كلام الله وليس بخالق والتوراة كلام الله وليست بخالقة وكلمات الله كثيرة وليس منها شيء خالق فلو كان المسيح نفس الكلام لم يجز أن يكون خالقا فكيف وليس هو الكلام وإنما خلق بالكلمة وخص باسم الكلمة فإنه لم يخلق على الوجه المعتاد الذي خلق العادة فخلق بالكلمة من غير السنة المعروفة بالبشر وقلنا نحن إن عيسى بالكلمة كان وليس كان وليس هو الكلمة قال وقول الله {وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١يقول من أمره كان الروح فيه كقوله {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ}الجاثية١٣ يقول من أمره وتفسير روح الله أنها روح بكلمة الله خلقها الله كما يقال عبد الله وسماء الله فقد ذكر

الإمام أحمد أن زنادقة النصارى هم الذي يقولون ان روح عيسى من ذات الله وبين أن إضافة الروح إليه إضافة ملك وخلق كقولك عبد الله وسماء الله لا اضافة صفة إلى موصوف فكيف بارواح سائر الادميين وبين أن هؤلاء الزنادقة الحلولية يقولون بأن الله إذا أراد ان يحدث أمرا دخل في بعض خلقه وقال الشيخ أبو سعيد الخراز أحد اكابر المشائخ الإئمة من أقران الجنيد فيما صنفه في أن الارواح مخلوقة وقد احتج بأمور منها لو لم تكن مخلوقة لما أقرت بالربوبية وقد قال لهم حين أخذ الميثاق وهم أرواح في أشباح كالذر {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا}الأعراف١٧٢ وإنما خاطب الروح مع الجسد وهل يكون الرب إلا لمربوب قال ولانها لو لم تكن مخلوقة ما كان على النصارى لوم في عبادتهم عيسى ولا حين قالوا إنه ابن الله وقالوا هو الله قال ولأنه لو كان الروح غير مخلوق ما دخلت النار ولأنها لو كانت غير مخلوقة لما حجبت عن الله ولا غيبت في البدن ولا ملكها ملك الموت ولما كانت صورة توصف ولانها لو لم تكن مخلوقة لم تحاسب ولم تعذب ولم تتعبد ولم تخف ولم ترج ولأن أرواح المؤمنين تتلألأ وأرواح الكفار سود مثل الحمم وقال أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترتع في الجنة وتأوي في فناء العرش وأرواح الكفار في برهوت وقال الشيخ أبو يعقوب النهر جوري هذه الأرواح من أمر الله مخلوقة خلقها الله من الملكوت كما خلق آدم من التراب وكل عبد نسب روحه إلى ذات الله أخرجه ذلك إلى التعطيل والذين نسبوا الأرواح إلى ذات الله هم أهل الحلول الخارجون إلى الإباحة وقالوا إذا صفت أرواحنا من أكدار نفوسنا فقد اتصلنا وصرنا أحرارا ووضعت عنا العبودية وأبيح لنا كل شيء من اللذات من النساء والاموال وغير ذلك وهم زنادقة هذه الامة وذكر عدة مقالات لها وللزنادقة قلت واعلم أن القائلين بقدر الروح صنفان صنف من الصائبة الفلاسفة يقولون هي قديمة أزلية لكن ليست من ذات الرب كما يقولون ذلك في العقول والنفوس الفلكية ويزعم من دخل من أهل الملل فيهم انها هي الملائكة وصنف من زنادقة هذه الامة وضلالها من المتصوفة والمتكلمة والمحدثة يزعمون أنها من ذات الله وهؤلاء اشر قولا من أولئك وهؤلاء جعلوا الآدمي نصفين نصف لاهوت وهو روحه ونصف ناسوت وهو جسده نصفه رب ونصفه عبد وقد كفر الله النصارى بنحو من هذا القول في المسيح فكيف بمن يعم ذلك في كل احد حتى في فرعون وهامان وقارون وكلما دل على أن الإنسان عبد مخلوق مربوب وأن الله ربه وخالقه ومالكه وإلهه فهو يدل على أن روحه مخلوقة فإن الإنسان عبارة عن البدن والروح معا بل هو بالروح أخص منه بالبدن وإنما البدن مطية للروح كما قال أبو الدرداء إنما بدني مطيتي فإن رفقت بها بلغتني وإن لم ارفق بها لم تبلغني وقد رواه ابن منده وغيره عن ابن عباس قال لا

تزال الخصومة يوم القيامة بين الخلق حتى تختصم الروح والبدن فتقول الروح للبدن أنت عملت السيئات فيقول البدن للروح أنت أمرتني فيبعث الله ملكا يقضي بينهما فيقول إنما مثلكما كمثل مقعد و أعمى دخلا بستانا فرأى المقعد فيه ثمرا معلقا فقال للأعمى إني أرى ثمرا ولكن لا أستطيع النهوض إليه وقال الأعمى لكني أستطيع النهوض إليه ولكني لا أراه فقال له المقعد تعال فاحملني حتى أقطفه فحمله وجعل يأمره فيسير به إلى حيث يشاء فقطع الثمرة قال الملك فعلى أيهما العقوبة فقالا عليهما جميعا قال فكذلك أنتما وأيضا فقد استفاضت الأحاديث عن النبي بأن الأرواح تقبض وتنعم وتعذب ويقال لها أخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب أخرجي أيتها الروح الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ويقال للاولى ابشري بروح وريحان ويقال للثانية أبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أوزاج وأن أرواح المؤمنين تعرج إلى السماء وإن أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن شقيق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال إذا خرجت روح المؤمن تلقاه ملكان يصعدان بها قال حماد فذكر من طيب ريحها وذكر المسك قال فيقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه فينطلق به إلى ربه ثم يقول انطلقوا به لى آخر الأجل قال وأن الكافر إذا خرجت روحه قال حماد وذكر من نتنها وذكر لعنا فيقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الارض قال فيقال انطلقوا به إلى آخر الاجل قال أبو هريرة رضي الله عنه فلما ذكر رسول الله النتن رد على أنفه ريطة كانت عليه

وفي حديث المعراج الصحيح أن النبي رأى آدم وأرواح بنيه عن يمينه وشماله قال رسول الله فلما علونا السماء فإذا رجل عن يمينه اسودة وعن شماله اسودة قال فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى بكى قال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والاسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى وقد ثبت أيضا أن أرواح المؤمنين والشهداء وغيرهم في الجنة قال الإمام أحمد في رواية حنبل أرواح الكفار في النار وأرواح المؤمنين في الجنة والابدان في الدنيا يعذب الله من يشاء ويرحم بعفوه من يشاء وقال عبد الله بن أحمد سألت أبي عن أرواح الموتى أتكون في أفنية قبورها أم في حواصل طير أم تموت كما تموت الأجساد فقال قد روى عن النبي أنه قال نسمة المؤمن إذا مات طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه وقد روى عن عبد الله بن عمر وأنه قال أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر كالزرازير يتعارفون فيها ويرزقون من ثمرها قال بعض الناس أرواح

الشهداء في أجواف طير خضر تأوى إلى قناديل في الجنة معلقة بالعرش وقد روى مسلم في صحيحه عن مسرور قال سألنا عبد الله يعني ابن مسعود عن هذه الآية {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}آل عمران١٦٩ فقال إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله فقال إن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث تشاء ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلاعه فقال هل تشتهون شيئا فقالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث نشاء ففعل بهم ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا وقد قال الله تعالى {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{٢٧} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{٢٨} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي{٢٩} وَادْخُلِي جَنَّتِي{٣٠} الفجر ٢٧-٣٠ فخاطبها بالرجوع إلى ربها وبالدخول في عباده ودخول جنته وهذا تصريح بأنها مربوبة والنفس هنا هي الروح التي تقبض وإنما تتنوع صفاتها كما قال النبي في الحديث الصحيح لما ناموا عن صلاة الفجر في السفر قال إن الله قبض أروحنا حيث شاء وردها حيث شاء وفي رواية قبض أنفسنا حيث شاء وقال تعالى{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ}الزمر٤٢ والمقبوض المتوفى هي الروح كما في صحيح مسلم عن أم سلمة قالت دخل رسول الله على ابي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال إن الروح إذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله فقال لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون ثم قال اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهدين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه ٢ وروى مسلم أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله ألم تروا أن الإنسان إذا مات شخص بصره قالوا بلى قال فكذلك حين يتبع بصره نفسه فسماه تارة روحا وتارة نفسا وروى أحمد بن حنبل وابن ماجة عن شداد بن أوس قال قال رسول الله إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر فإن البصر يتبع الروح وقولوا خيرا فإنه يؤمن على ما يقول أهل الميت ودلائل هذا الأصل وبيان مسمى الروح والنفس وما فيه من الإشتراك كثير لا يحتمله هذا الجواب وقد بسطناه في غير هذا الموضع أن لفظة من في اللغة قد تكون لبيان الجنس كقولهم باب من حديد وقد تكون لابتداء الغاية كقولهم خرجت من مكة فقوله تعالى {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}الإسراء٨٥ ليس نصا في أن الروح بعض الامر ومن جنسه بل قد تكون لابتداء الغاية إذا كونت بالأمر وصدرت عنه هذا معنى جواب الإمام أحمد في قوله وروح منه حيث قال {وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ يقول من أمره كان الروح منه كقوله

{وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ}الجاثية١٣ ونظير هذا أيضا قوله {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ}النحل٥٣ فإذا كانت المسخرات والنعم من الله ولم تكن بعض ذاته بل منه صدرت لك يجب أن يكون معنى قوله في المسيح روح منه أنها بعض ذات الله ومعلوم أن قوله {وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ أبلغ من قوله الروح أمر ربي فإذا كان قوله وروح منه لا يمنع أن يكون مخلوقا ولا يوجب أن يكون بعضا له فقوله {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}الإسراء٨٥ أولى بأن لا يمنع أن يكون مخلوقا ولا يوجب أن يكون ذلك بعضا له بل ولا بعضا من أمره وهذا الوجه يتوجه إذا كان الامر هو الامر الذي هو صفة من صفات الله فهذان الجوابان كل منهما مستقل ويمكن أن يجعل منهما جواب مركب فيقال قوله {الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}الإسراء٨٥ إما أن يراد بالامر المأمور به أو صفة لله تعالى وأن أريد به الأول أمكن أن تكون الروح بعض ذلك فتكون مخلوقة وأن أريد بالأمر صفة الله كان قوله {الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}الإسراء٨٥ كقوله{وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ وقوله جميعا منه ونحو ذلك[١]

## ٣ـاضافة الروح الى الله إضافة ملك لا إضافة وصف

المضاف الى الله سبحانه فى الكتاب والسنة كان منه اضافة المخلوقات كقوله {نَاقَةُ اللّهِ}هود٦٤ وقوله {أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ}البقرة١٢٥ وقوله {رَسُولُ اللّهِ}النساء١٧١و {عِبَادَ اللَّهِ}الصافات٤٠ وقوله {ذُو الْعَرْشِ}غافر١٥ وقوله {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}البقرة٢٥٥ فهذا القسم لا خلاف بين المسلمين فى انه مخلوق[٢]

قال النبى الريح من روح الله اي من الروح التى خلقها الله فاضافة الروح الى الله إضافة ملك لا إضافة وصف إذ كل ما يضاف إلى الله ان كان عينا قائمة

---

[١]مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢١٦-٢٢٩ و مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤١٧ و دقائق التفسير ج: ١ ص:



[٢]مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٤٤

بنفسها فهو ملك له وان كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به فهو صفة لله فالاول كقوله {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا}الشمس١٣ وقوله {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا}مريم١٧وهو جبريل {فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً {١٧} قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً{١٨} قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً{١٩} مريم١٧-١٩ وقال {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}التحريم١٢ وقال عن آدم {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}الحجر٢٩ والثانى كقولنا علم الله وكلام الله وقدرة الله وحياة الله وامر الله لكن قد يعبر بلفظ المصدر عن المفعول به فيسمى المعلوم علما والمقدور قدرة والمأمور به أمرا والمخلوق بالكلمة كلمة فيكون ذلك مخلوقا كقوله {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ}النحل١ وقوله {إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}آل عمران٤٥ وقوله {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ ومن هذا الباب قوله إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة وامسك عنده تسعة وتسعين رحمة فاذا كان يوم القيامة جمع هذه الى تلك فرحم بها عباده ومنه قوله فى الحديث الصحيح للجنة انت رحمتى ارحم بك من اشاء من عبادي كما قال للنار انت عذابي اعذب بك من اشاء ولكل واحدة منكما ملؤها[1]

وقوله تعالى {وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ ليس فيه أن بعض الله صار في عيسى بل من لإبتداء الغاية كما قال {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ}الجاثية١٣ وقال {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ}النحل٥٣ وما أضيف إلى الله أو قيل هو منه فعلى وجهين إن كان عينا قائما بنفسها فهو مملوك له ومن لابتداء الغاية كما قال تعالى {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا}مريم١٧ وقال في المسيح {وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ وما كان صفة لا يقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صغة له كما يقال كلام الله وعلم الله وكما قال تعالى {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}النحل١٠٢ وقال {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}الأنعام١١٤ و ألفاظ المصادر يعبر بها عن المفعول فيسمى المأمور به أمرا و المقدور قدرة و المرحوم به رحمة و المخلوق بالكلمة كلمة فإذا قيل فى المسيح أنه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٩١

كلمة الله فالمراد به أنه خلق بكلمة قوله كن و لم يخلق على الوجه المعتاد من البشر و إلا فعيسى بشر قائم بنفسه ليس هو كلاما صفة للمتكلم يقوم به و كذلك إذا قيل عن المخلوق أنه أمر الله فالمراد أن الله كونه بأمره كقوله {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ}النحل١ و قوله {فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ} هود٨٢ فالرب تعالى أحد صمد لا يجوز أن يتبعض و يتجزأ فيصير بعضه فى غيره سواء سمى ذلك روحا أو غيره فبطل ما يتوهمه النصارى من كونه ابنا له و تبين أنه عبد من عباد الله [١]

وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ}الممتحنة١ وأما لقنته القول ولقيته فتلقاه فذلك إذا أردت أن تحفظه بخلاف ما إذا ألقيته إليه فإن هذا يقوله فيما يخاطبه به وإن لم يحفظه كمن ألقيت إليه القول بخلاف القول إنكم لكاذبون وألقوا إليهم السلام وليس هنا إلا خطاب سمعوه لم يحصل نفس صفة المتكلم في المخاطب فكذلك مريم إذا ألقى الله كلمته إليها وهي قول كن لم يلزم أن تكون نفس صفته القائمة به حلت في مريم كما لم يلزم أن تكون صفته القائمة به حلت في سائر من ألقى إليه كلامه كما لا تحصل صفة كل متكلم فيمن يلقى إليه كلامه [٢]

وقد علم بالإضطرار من دين الإسلام أنه لا إله إلا الله وأن الله خالق كل شئ وكل ما سواه مخلوق و {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً}مريم٩٣ وقال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ}النساء١٧١ [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٢٨٥

[٢] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٧٥

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٨٠

## ٤-الرد على دعوى النصارى لقوله تعالى{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ}

{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ}دعوى النصارى في المسيح قالوا وقال أيضا في موضع آخر {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} فأعنى بقوله مثل عيسى إشارة إلى الناسوت المؤخوذ من مريم الطاهرة لأنه لم يذكر هنا اسم المسيح إنما ذكر عيسى فقط وكما أن آدم خلق من غير جماع ومباضعة فكذلك جسد المسيح خلق من غير جماع ولا مباضعة وكما أن جسد آدم ذاق الموت فكذلك جسد المسيح ذاق الموت وقد يبرهن بقوله أيضا قائلا إن الله ألقى كلمته إلى مريم وذلك حسب قولنا معشر النصارى إن كلمة الله الخالقة حلت في مريم وتجسدت بإنسان كامل وعلى هذا المثال نقول في السيد المسيح طبيعتان طبيعة لاهوتية التي هي طبيعة كلمة الله وروحه وطبيعة ناسوتية التي اخذت من مريم العذراء واتحدت به ولما تقدم به القول من الله تعالى على لسان موسى النبي إذ يقول أليس هذا الأب الذي خلقك وبرأك واقتناك قيل وعلى لسان داود النبي روحك القدس لا تنزع مني وأيضا على لسان داود النبي بكلمة الله تشددت السموات وبروح فاه جميع أفواههن وليس يدل هذا القول على ثلاثة خالقين بل خالق واحد الأب ونطقه أي كلمته وروحه أي حياته الرد عليهم حقيقة القول في عيسى والجواب من وجوه أحدها أن قوله تعالى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} كلام حق فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى كما قال وخلق منها زوجها وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح فإن حواء خلقت من ضلع آدم وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم وخلق آدم أعجب من هذا وهذا وهو أصل خلق حواء فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح فإذا كان سبحانه قادرا أن يخلقه من تراب والتراب ليس من جنس بدن الإنسان أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان وهو سبحانه خلق آدم من تراب ثم قال له كن فيكون لما نفخ فيه من روحه فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه وقال له كن فيكون ولم يكن آدم بما نفخ فيه من روحه لاهوتا وناسوتا بل كله ناسوت فكذلك المسيح كله ناسوت والله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارى لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وناظروه في المسيح وأنزل الله فيه ما أنزل فبين قول الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى فكذب الله الطائفتين هؤلاء في غلوهم فيه وهؤلاء في ذمهم له وقال عقب هذه الآية

{فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ{٦١} إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٦٢} فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ{٦٣} قُلْ يَا أَهْلَ

الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ{٦٤} آل عمران ٦١-٦٤ وقد امتثل النبي صلى الله عليه وسلم قول الله فدعاهم إلى المباهلة فعرفوا أنهم إن باهلوه أنزل الله عليهم لعنته فأقروا بالجزية وهم صاغرون ثم كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل ملك الروم بقوله تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ} آل عمران ٦٤ إلى آخرها وكان أحيانا يقرأ بها في الركعة الثانية من ركعتي الفجر ويقرأ في الأولى بقوله {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}البقرة١٣٦ وهذا كله يبين أن المسيح عبد ليس بإله وأنه مخلوق كما خلق آدم وقد أمر أن يباهل من قال أنه إله فيدعو كل من المتباهلين أبناءه ونساءه وقريبه المختص به ثم يبتهل هؤلاء وهؤلاء ويدعون الله أن يجعل لعنته على الكاذبين فإن كان النصارى كاذبين في قولهم هو الله حقت اللعنة عليهم وإن كان من قال ليس هو الله بل عبد الله كاذبا حقت اللعنة عليه وهذا إنصاف من صاحب يقين يعلم أنه على الحق والنصارى لما لم يعلموا أنهم على الحق نكلوا عن المباهلة وقد قال عقب ذلك {إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ اللّهُ} آل عمران ٦٢ تكذيبا للنصارى الذين يقولون هو إله حق من إله حق فكيف يقال أنه أراد أن المسيح فيه لاهوت وناسوت وأن هذا هو الناسوت فقط دون اللاهوت وبهذا ظهر الجواب عن قولهم قال في موضع آخر إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم فأعنى بقوله عيسى أشار الى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة لأنه لم يذكر الناسوت ها هنا اسم المسيح إنما ذكر عيسى فقط فإنه يقال عيسى هو المسيح بدليل أنه قال {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ}المائدة٧٥ فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولا ليس هو بإله وأنه ابن مريم والذي هو ابن مريم هو الناسوت وقال {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً}النساء١٧١ [1]

## ٥-النصارى حيارى متناقضون فى الأقانيم

فالنصارى حيارى متناقضون فى الأقانيم فإنهم يقولون الأب والابن وروح القدس ثلاثة آلهة وهى إله واحد والمتدرع بناسوت المسيح هو الابن ويقولون هى

---

[1] دقائق التفسير ج: ١ ص: ٣١٩-٣٢١ و الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٥٨

الوجود والعلم والحياة والقدرة فيقال لهم إن كانت هذه صفات فليست آلهة ولا يتصور أن يكون المتدرع بالمسيح إلها الا أن يكون هو الآب وان كانت جواهر وجب أن لا تكون إلها واحدا لأن الجواهر الثلاثة لا تكون جوهرا واحدا وقد يمثلون ذلك بقولنا زيد العالم القادر الحى فهو بكونه عالما ليس هو بكونه قادرا فإذا قيل لهم هذا كله لا يمنع أن يكون ذاتا واحدة لها صفات متعددة وأنتم لا تقولون ذلك وأيضا فالمتحد بالمسيح اذا كان الها امتنع أن يكون صفة وانما يكون هو الموصوف وأنتم لا تقولون بذاك فما هو الحق لا تقولونه وما تقولونه ليس بحق وقد قال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً}النساء١٧١ فالنصارى حيارى متناقضون إن جعلوا الأقنوم صفة امتنع أن يكون المسيح إلها وان جعلوه جوهرا امتنع أن يكون الها واحدا وهم يريدون أن يجعلوا المسيح الله ويجعلوه ابن الله ويجعلوا الآب والابن وروح القدس الها واحدا ولهذا وصفهم الله فى القرآن بالشرك تارة وجعلهم قسما غير المشركين تارة لأنهم يقولون الأمرين وان كانوا متناقضين [١]

وقد اتفق أهل الملل على أن القول على الله بغير علم حرام والله سبحانه نهاهم أن يقولوا على الله إلا الحق فكان هذا نهيا أن يقولوا الباطل سواء علموا أنه باطل أو لم يعلموا فإنهم إن لم يعلموا أنه باطل فلم يعلموا أنه حق أيضا إذ الباطل يمتنع أن يعلم أنه حق وإن اعتقد معتقد اعتقادا فاسدا أنه حق فذلك ليس بعلم فلا تقولوا على الله ما لا تعلمون وإن علموا أنه باطل فهو أجدر أن لا يقولوه وعامة النصارى ضلال لا يعلمون أن ما يقولونه حق بل يقولون على الله ما لا يعلمون والمقصود أن الباطل في كلامهم كثير كقولهم فهو بتوحيد ذلك القوام الواحد قوام لكلمة الله الخالقة والمسيح عندهم اسم للاهوت والناسوت جميعا اسم للخالق والمخلوق وأحدهما متحد بالآخر فهو بتوحيد ذلك القوام قوام لكلمة الله الخالقة وسواء أريد بذلك أن الناسوت واللاهوت قوام للاهوت أو أن الناسوت قوام للاهوت وهم يمثلون

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٨٤

ذلك بالروح والجسد والنار والحديد فيكون كما لو قيل إن الجسد والروح أو الجسد قوام للروح أو النار والحد [1]

قال تعالى{اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة ٦-٧ وقد صح عن النبى أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وكتاب الله يدل على ذلك فى مواضع مثل قوله تعالى{وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ}آل عمران١١٢ وقال فى النصارى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ [2]

## ٦-الألفاظ المتشابهة التي يحتجون بها على اتحاد اللاهوت بالناسوت موجودة عندهم في حق غير المسيح

أن يقال لفظ الابن وروح القدس قد جاء في حق غير المسيح عندكم حتى الحواريين عندكم يقولون إن المسيح قال لهم إن الله أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم ويقولون إن روح القدس تحل فيهم وفيما عندكم من التوراة أن الرب قال لموسى اذهب إلى فرعون فقل له يقول لك الرب إسرائيل ابني بكري أرسله يعبدني فإن أبيت أن ترسل ابني بكري قتلت ابنك بكرك فلما لم يرسل فرعون بني إسرائيل كما قال الله قتل اللة أبكار فرعون وقومه من بكر فرعون الجالس على السرير إلى الأول من أولاد الآدميين إلى ولد الحيوان إليهم فهذه التوراة تسمي بني إسرائيل كلهم أبناء الله وأبكاره وتسمي أبناء أهل مصر أبناء فرعون فتوسع بتسمية سخال الحيوان أولاد المالك للحيوان وفي مزامير داود يقول أنت ابني سلني أعطك وفي الإنجيل يقول عن المسيح أنا ذاهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم وقال إذا صليتم فقولوا يا أبانا الذي في السماء قدوس اسمك افعل بنا كذا وكذا ويقولون عن القديسين إن روح القدس

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٢٩٤-٢٩٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٦٤

يحل فيهم وكذلك حلت في داود وغيره من الأنبياء بل عندهم إن الله يحل في الصديقين كلهم فإن كان الابن وروح القدس يقتضي اتحاد اللاهوت بالناسوت وجب أن يكون كل من الحواريين لاهوتا وناسوتا وكذلك الأنبياء فيكون النبي لاهوتا وناسوتا لأنه قد سمي عندكم ابن الله ونطقت فيه روح القدس لا سيما وأنتم قلتم في الأمانة إنه روح ممجد مسجود له ناطق في الأنبياء فإن كان هذا يوجب حلول اللاهوت في الناسوت أو اتحاده لزم أن يكون غير المسيح من الأنبياء بل والحواريين بل وأبناء إسرائيل لاهوتا وناسوتا إذ كان الذي جعلتموه اللاهوت حل بغير المسيح واتحد به أو سكن فيه أو احتجب به أو ما قلتم من الألفاظ التي استدللتم بها على أن اللاهوت حل في المسيح كلفظ الابن وروح القدس موجود عندكم في غير حق المسيح والمعجزات التي احتججتم بها للمسيح قد وجدت لغير المسيح ولو قدر أن المسيح أفضل من بعض أولئك فلا ريب أن المسيح عليه السلام أفضل من جمهور الأنبياء أفضل من داود وسليمان وأصحاب النبوات الموجودة عندكم وأفضل من الحواريين لكن مزيد الفضل يقتضي الفضيلة في النبوة والرسالة كفضيلة إبراهيم وموسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه وذلك لا يقتضي خروجه عن جنس الرسل كما قال تعالى {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ{٧٥} سورة المائدة ٧٥ وقال تعالى {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ{٧٢} لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٧٣} أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٧٤} مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ{٧٥} سورة المائدة من الآيات ٧٢ ٧٥ وجماع هذا الجواب أن ما يوصف به المسيح عندهم من كونه ابن الله وكون الله حل فيه أو ظهر أو سكن وكون روح القدس أو روح الله حلت فيه وكونه مسيحا كل ذلك موجود عندهم في حق غير المسيح فليس للمسيح اختصاص بشيء من هذه الألفاظ وإنما يوجد اختصاصه بلفظ الكلمة وكونه تجسد من روح القدس وهذا هو الذي خصه به القرآن فإن الله قال { إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ} النساء ١٧١ وفي الصحيحين عن عبادة بن الصامت عن النبي أنه قال من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه أدخله الله الجنة على ما كان من عمل

فهذا الذي خصه به القرآن هو الذي خصته الكتب المتقدمة إذ كان القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه وأما سائر ما يوصف به ويدعون اختصاصه به من كونه ابنا لله وكونه مسيحا فغيره أيضا في كتب الله يسمى ابنا لله ومسيحا ولذلك ما يذكر من الألفاظ التي يحتجون بها على الحلول مثل كون الرب ظهر فيه أو حل أو سكن فإن هذه الألفاظ موجودة عندهم في حق غير المسيح بخلاف لفظ الاتحاد فإنه لا يوجد عندهم عن الأنبياء لا في حق المسيح ولا غيره كما لا يوجد عندهم عن الأنبياء لفظ الأقانيم ولا لفظ التثليث ولا اللاهوت والناسوت ولا تسمية الله جوهرا بل هذا كله مما ابتدعوه كما ابتدعوا أيضا تسمية صفات الله ابنا وروح القدس فهم ابتدعوا ألفاظا لم ينطق بها الأنبياء أثبتوا لها معاني وابتدعوا استعمال ألفاظ الأنبياء في غير مرادهم وحملوا مرادهم عليها والألفاظ المتشابهة التي يحتجون بها على اتحاد اللاهوت بالناسوت موجودة عندهم في حق غير المسيح فليس للمسيح خاصة في كلام الأنبياء توجب أن يكون هو الله أو ابن الله وتلك الألفاظ قد عرف باتفاقهم واتفاق المسلمين أن المراد بها حلول الإيمان بالله ومعرفته وهداه ونوره ومثاله العلمي في قلوب عباده الصالحين كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع وقد تقدم [١]

## ٧-كلمات الله نوعان كونية ودينية

والكلمة عندهم هي جوهر وهي رب لا يخلق بها الخالق بل هي الخالقة لكل شيء كما قالوا في كتابهم إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت في مريم والله تعالى قد أخبر أنه سبحانه ألقاها إلى مريم والرب سبحانه هو الخالق والكلمة التي ألقاها ليست خالقة إذ الخالق لا يلقيه شيء بل هو يلقي غيره وكلمات الله نوعان كونية ودينية فالكونية كقوله للشيء كن فيكون والدينية أمره وشرعه الذي جاءت به الرسل وكذلك أمره وإرادته وإذنه وإرساله وبعثه ينقسم إلى هذين القسمين وقد ذكر الله تعالى إلقاء القول في غير هذا وقد قال تعالى {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} النساء٩٤ وقال تعالى {وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ} النحل٨٦ [٢]

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٩١-٤٩٦

[٢] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٧٤

## ٨-الفائدة من ذكر الله المسيح فى القرآن بقوله ابن مريم بخلاف سائر الأنبياء

قال تعالىُ {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{٣} الاخلاص٣ فهذا نفى كونه سبحانه والدا لشىء أو متخذا لشيء ولدا بأى وجه من وجوه الولادة أو اتخاذ الولد أيا كان وأما نفى كونه مولودا فيتضمن نفى كونه متولدا بأى نوع من التوالد من أحد من البشر وسائر ما تولد من غيره فهو رد على من قال المسيح هو الله ورد على الدجال الذى يقول انه الله ورد على من قال فى بشر أنه الله من غالية هذه الأمة فى على وبعض أهل البيت فقوله سبحانه {وَلَمْ يُولَدْ}الإخلاص٣ نفى لهذا كله فان هؤلاء كلهم مولودون والله لم يولد ولهذا لما ذكر الله المسيح فى القرآن قال ابن مريم بخلاف سائر الأنبياء كقوله {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ}النساء١٧١ وفي ذلك فائدتان إحداهما بيان أنه مولود والله لم يولد والثانية نسبته الى مريم بأنه ابنها ليس هو ابن الله [١]

## ٩-أن هؤلاء الذين قيل فيهم إنهم أولاد هم عباد له مطيعون

وقال الله تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}النساء١٧٢ فلما قال تعالى في البقرة {وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ}البقرة١١٦ والذين قالوا اتخذ الله ولدا جعله إما من الملائكة وإما من الآدميين كالمسيح والعزير فقوله تعالى {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ}البقرة١١٦ يبين أن هؤلاء الذين قيل فيهم إنهم أولاد هم عباد له مطيعون كما ذكر في الأنبياء وغيرها [٢]

فمن اعتقد أنه لا بد من واسطة فى جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة فى رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك ويرجون اليه فيه فهذا من أعظم الشرك الذى كفر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها حتى قال {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}الأنعام٥١ وقال ً{قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٤٨-٤٤٩

[٢] رسالة في قنوت الأشياء ج: ١ ص: ٢٢

عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً{٥٦} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً{٥٧} الإسراء٥٦-٥٧ وقالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة فبين الله لهم أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا وأنهم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه وقال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ{٧٩} وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{٨٠}آل عمران٧٩ -٨٠ فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنب وهداية القلوب وتفريج الكروب وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين قال تعالى{لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً}النساء١٧٢ [1]

## دين الإسلام وسط بين الأطراف المتجاذبة

والكتب الإلهية قد نزهت الرب عز وجل عن الأفعال المذمومة كما نزهته عن صفات النقص وفي الصحيح عن النبي أنه قال يقول الله تعالى كذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وشتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله أنى يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله أني اتخذت ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وفي الصحيح عن النبي أنه قال ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم ليجعلون له ولدا وشريكا وهو يرزقهم ويعافيهم ولهذا كان معاذ بن جبل يقول لا ترحموا النصارى فإنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر فجاءت هذه الشريعة الحنيفية القرآنية وحرمت أن يتكلم في حق الله باسم ابن أو ولد سدا للذريعة كما منعت أن يسجد أحد لغير الله وإن كان على وجه التحية كما منعت أن يصلي أحد عند طلوع الشمس وغروبها لئلا يشبه عباد الشمس والقمر فكانت بسدها للأبواب التي تجعل لله فيها الشريك والولد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٢٥

أكمل من غيرها من الشرائع كما سدت غير ذلك من الذرائع مثل تحريمها قليل المسكر لأنه يجر إلى كثيره فإن أصول المحرمات التي قال الله فيها {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}الأعراف٣٣ [١]

ودين الإسلام وسط بين الأطراف المتجاذبة فالمسلمون وسط في التوحيد بين اليهود والنصارى فاليهود تصف الرب بصفات لنقص التي يختص بها المخلوق ويندبهون الخالق بالمخلوق كما قالوا إنه بخيل وإنه فقير وإنه لما خلق السموات والأرض تعب وهو سبحانه الجواد الذي لا يبخل والغني الذي لا يحتاج إلى غيره والقادر الذي لا يمسه لغوب والقدرة والإرادة والغنى عما سواه هي صفات الكمال التي تستلزم سائرها والنصارى يصفون المخلوق بصفات الخالق التي يختص بها ويشبهون المخلوق بالخالق حيث قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وإن الله ثالث ثلاثة وقالوا المسيح ابن الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم {وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}التوبة٣١ واتخذوا الملائكة والنبيين أربابا وصوروا تماثيل المخلوقات واتخذوهم شفعاء يشفعون لهم عند الله كما فعل عباد الأوثان كما قال الله تعالى {يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}يونس١٨ والمسلمون وسط يصفون الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل يصفونه بصفات الكمال وينزهونه عن النقائص التي تمتنع على الخالق ولا يتصف بها إلا المخلوق فيصفونه بالحياة والعلم والقدرة والرحمة والعدل والإحسان وينزهونه عن الموت والنوم والجهل والعجز والظلم والفناء ويعلمون مع ذلك أنه لا مثيل له في شيء من صفات الكمال فلا أحد يعلم كعلمه ولا يقدر كقدرته ولا يرحم كرحمته ولا يسمع كسمعه ولا يبصر كبصره ولا يخلق كخلقه ولا يستوي كاستوائه ولا يأتي كإتيانه ولا ينزل كنزوله كما قال تعالى قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ولا يصفون أحدا من المخلوقين بخصائص الخالق جل جلاله بل كل ما سواه من الملائكة والأنبياء وسائر الخلق فقير إليه عبد له وهو الصمد الذي يحتاج إليه كل شيء ويسأله كل أحد وهو غني بنفسه لا يحتاج إلى أحد في شيء من الأشياء كما قال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ

---

[١]الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ١٥٢

سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{١٧١} لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً{١٧٢} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{١٧٣}النساء ١٧١-١٧٣ [١]

## " فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين"

وأما انكار الباطل فقد نزه الله نفسه عن الوالد والولد وكفر من جعل له ولدا أو والدا أو شريكا فقال تعالى فى السورة التى تعدل ثلث القرآن التى هى صفة الرحمن ولم يصح عن النبى فى فضل سورة من القرآن ما صح فى فضلها حتى أفرد الحفاظ مصنفات فى فضلها كالدارقطني وأبى نعيم وأبى محمد الخلال وأخرج أصحاب الصحيح فيها أحاديث متعددة قال فيها (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{١} اللَّهُ الصَّمَدُ{٢} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{٣} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{٤} الاخلاص ١-٤ وعلى هذه السورة اعتماد الأئمة فى التوحيد كالإمام أحمد والفضيل بن عياض وغيرهما من الأئمة قبلهم وبعدهم فنفى عن نفسه الأصول والفروع والنظراء وهى جماع ما ينسب اليه المخلوق من الآدميين والبهائم والملائكة والجن بل والنبات ونحو ذلك فإنه ما من شىء من المخلوقات الا ولابد أن يكون له شىء يناسبه اما أصل واما فرع واما نظير أو اثنان من ذلك أو ثلاثة وهذا فى الآدميين والجن والبهائم ظاهر وأما الملائكة فانهم وان لم يتوالدوا بالتناسل فلهم الامثال والاشباه ولهذا قال سبحانه {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ {٤٩} فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ {٥٠}الذاريات٤٩-٥٠ قال بعض السلف لعلكم تتذكرون فتعلمون أن خالق الازواج واحد ولهذا كان فى هذه السورة الرد على من كفر من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين فإن قوله {لَمْ يَلِدْ {٣}الاخلاص٣ رد لقول من يقول ان له بنين وبنات من الملائكة أو البشر مثل من يقول الملائكة بنات الله أو يقول المسيح أو عزير ابن الله كما قال تعالى عنهم {وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٦٩ و الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٤٣-١٤٤

وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ} الأنعام١٠٠ وقال تعالى {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ{١٩} الزخرف ١٩ وهذا القدر الذى عابه الله على من جعل الملائكة بناته من العرب مع كراهتهم أن يكون لهم بنات فنظيره فى النصارى فانهم يجعلون لله ولدا وينزهون اكابر أهل دينهم عن أن يكون لأحدهم صاحبة أو ولدا فيجعلون لله ما يكرهونه لأكابر دينهم وقال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{١٧١} لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً {١٧٢} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{١٧٣} النساء ١٧١-١٧٣ فنهى أهل الكتاب عن الغلو فى الدين وعن أن يقولوا على الله إلا الحق وذكر القول الحق فى المسيح ثم قال لهم {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ {١٧١} النساء ١٧١ لأنهم كفروا بالله بتثليثهم وكفروا برسله بالاتحاد والحلول فكفروا بأصلى الاسلام العام التى هى الشهادة لله بالواحدانية فى الألوهية والشهادة للرسل بالرسالة وذكر أن المسيح والملائكة لا يستنكفون عن عبادته لأن من الناس من جعل الملائكة أولاده كالمسيح وعبدوا الملائكة والمسيح ولهذا قال {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ{٧٩} وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{٨٠} آل عمران٧٩-٨٠ فذكر الملائكة والنبيين جميعا [١]

كل من أظهر مقالة تخالف الكتاب والسنة فإن ذلك من المنكر الذي أمر الله بالنهي عنه كما قال تعالى {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} آل عمران١٠٤ وهو من الأثم الذي قال الله فيه {لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ} المائدة٦٣ وكل من أثبت

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٣٨-٤٤٢

لله ما نفاه عن نفسه أو نفى عن الله ما أثبته لنفسه من العطلة والممثلة فإنه قال على الله غير الحق وذلك مما زجر الله عنه بقوله للنصارى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ}النساء١٧١ وبقوله {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ}المائدة٧٧ فإن من قال غير الحق فقد قال على الله ما لا يعلم فإن الباطل لا يعلم إلا إذا علم بطلانه فأما اعتقاد أنه الحق فهو جهل لا علم فمن قاله فقد قال ما لا يعلم وكذلك من تبع في هذه الأبواب وغيرها من أبواب الدين آباءه وأسلافه من غير اعتصام منه بالكتاب والسنة والاجماع فإنه ممن ذمه الله في كتابه [1]

فإذا كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين قد انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة حتى أمر النبي بقتالهم فيعلم أن المنتسب إلى الإسلام أو السنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضا من الإسلام والسنة حتى يدعى السنة من ليس من أهلها بل قد مرق منها وذلك بأسباب منها الغلو الذي ذمه الله تعالى في كتابه حيث قال {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ}النساء١٧١ وقال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ}المائدة٧٧ وقال النبي صلى الله عليه وسلم إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين وهو حديث صحيح ومنها التفرق والاختلاف الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز ومنها أحاديث تروى عن النبي وهي كذب عليه باتفاق أهل المعرفة يسمعها الجاهل بالحديث فيصدق بها لموافقة ظنه وهواه [2]

وأما تطاول بعضهم إلى السنة بما يظن أنه من عند الله فكوضع الوضاعين الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إقامة ما يظن أنه حجة في الدين وليس بحجة وهذا الضرب من نوع أخلاق اليهود وذمها في النصوص كثير لمن تدبر في كتاب الله وسنة رسوله ثم نظر بنور الإيمان إلى ما وقع في الأمة من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٤٦٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٨٣

الأحداث وقال سبحانه عن النصارى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ}النساء١٧١ وقال {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}المائدة١٧ إلى غير ذلك من المواضع ثم إن الغلو في الأنبياء والصالحين قد وقع في طوائف من ضلال المتعبدة والمتصوفة حتى خالط كثيرا منهم من مذاهب الحلول والاتحاد ما هو أقبح من قول النصارى أو مثله أو دونه [1]

## "لا تطروني كما اطرت النصارى عيسى بن مريم "

أن الذي يغلو في الأنبياء والرسل يكون غلوه عيبا وغضا بالألوهية في الصحيحين عنه أنه قال لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسول وقد قال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ}النساء١٧١ والله قد جعل له حقا لا يشركه فيه مخلوق فلا تصلح العبادة إلا له ولا الدعاء إلا له ولا التوكل الا عليه ولا الرغبة الا إليه ولا الرهبة إلا منه ولا ملجأ ولا منجأ منه إلا اليه ولا يأتى بالحسنات الا هو ولا يذهب السيئات الا هو ولا حول ولا قوة إلا به {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}سبأ٢٣ {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ}البقرة٢٥٥ {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً{٩٣} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً{٩٤} وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً{٩٥} مريم٩٣-٩٥ وقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}النور٥٢ فجعل الطاعة لله وللرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده وكذلك فى قوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ}التوبة٥٩ فالايتاء لله والرسول وأما التوكل فعلى الله وحده والرغبة إلى الله وحده [2]

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٩٨ و بغية المرتاد ج: ١ ص: ٥٠٢-٥٠٣

# الرافضة موصفون بالغلو

وأصل هذه المقالة وهو دعوى العصمة في المؤمنين وما يشبه ذلك هو من أقوال الغالية من النصارى وغالية هذه الأمة وابتدعها في الملتين منافقوها قال الله تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ}النساء١٧١ وقال تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}التوبة٣١ وقد روى في حديث عدي بن حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قلت يا رسول الله ما عبدوهم قال أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فتلك عبادتهم إياهم وهذا الغلو الذي في النصارى حتى اتخذوا المسيح وأمه إلهين من دون الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قد ذكروا أن أول من ابتدعه لهم بولص الذي كان يهوديا فأسلم واتبع المسيح نفاقا ليلبس على النصارى دينهم فأحدث لهم مقالات غالية وكثرت البدع في النصارى في اعتقاداتهم وعباداتهم [1]

ومن عبد الله بغير علم بل بالغلو والشرك أشبه النصارى الذين قال الله فيهم {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ}المائدة٧٧ فالأول من الغاوين والثانى من الضالين فإن الغى اتباع الهوى والضلال عدم الهدى [2]

فإن الرافضي يجيء إلى أشخاص ظهر بصريح المعقول وصحيح المنقول أن بعضهم أكمل سيرة من بعض فيجعل الفاضل مذموما مستحقا للقدح ويجعل المفضول معصوما مستحقا للمدح كما فعلت النصارى يجيئون إلى الأنبياء صلوات الله عليهم وقد فضل الله بعضهم على بعض فيجعلون المفضول إلها والفاضل منقوصا دون الحواريين الذين صحبوا المسيح فيكون ذلك قلبا للحقائق وأعجب من ذلك أنهم يجعلون الحواريين الذين ليسوا أنبياء معصومين عن الخطأ ويقدحون في بعض

---

[1] رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٥٩-٢٦٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٩٨

الأنبياء كسليمان وغيره ومعلوم أن إبراهيم ومحمدا أفضل من نفس المسيح صلوات الله وسلامه عليهم بالدلائل الكثيرة بل وكذلك موسى فكيف يجعل الذين صحبوا المسيح أفضل من إبراهيم ومحمد وهذا من الجهل والغلو الذي نهاهم الله عنه قال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ} النساء١٧١ وكذلك الرافضة موصوفون بالغلو عند الأمة فإن فيهم من أدعى الإلهية في علي وهؤلاء شر من النصارى وفيهم من أدعى النبوة فيه ومن أثبت نبيا بعد محمد فهو شبيه بأتباع مسيلمة الكذاب وأمثاله من المتنبئين إلا أن عليا رضي الله عنه بريء من هذه الدعوة بخلاف من أدعى النبوة لنفسه كمسيلمة وأمثاله وهؤلاء الإمامية يدعون ثبوت إمامته بالنص وأنه كان معصوما هو وكثير من ذريته وأن القوم ظلموه وغصبوه ودعوى العصمة تضاهي المشاركة في النبوة فإن المعصوم يجب اتباعه في كل ما يقول لا يجوز أن يخالف في شيء وهذه خاصة الأنبياء ولهذا أمرنا أن نؤمن بما أنزل اليهم فقال تعالى {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة١٣٦ فأمرنا أن نقول آمنا بما أوتي النبيون وقال تعالى {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} البقرة٢٨٥ وقال تعالى {وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} البقرة١٧٧ فالإيمان بما جاء به النبيون مما أمرنا أن نقوله ونؤمن به وهذا مما اتفق عليه المسلمون أنه يجب الإيمان بكل نبي ومن كفر بنبي واحد فهو كافر ومن سبه وجب قتله باتفاق العلماء وليس كذلك من سوى الأنبياء سواء سموا أولياء أو أئمة أو حكماء أو علماء أو غير ذلك فمن جعل بعد الرسول معصوما يجب الإيمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة وإن لم يعطه لفظها ويقال لهذا ما الفرق بين هذا وبين أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا مأمورين باتباع شريعة التوراة وكثير من الغلاة في المشايخ يعتقد أحدهم في شيخه نحو ذلك ويقولون الشيخ محفوظ ويأمرون باتباع الشيخ في كل ما يفعل لا يخالف في شيء أصلا وهذا من جنس غلو الرافضة والنصارى والإسماعيلية تدعى في أئمتها أنهم كانوا معصومين وأصحاب ابن تومرت الذي ادعى أنه المهدى يقولون إنه معصوم ويقولون في خطبة الجمعة الإمام المعصوم والمهدي المعلوم ويقال إنهم قتلوا بعض من أنكر أن يكون معصوما ومعلوم أن كل هذه الأقوال مخالفة لدين الإسلام للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها فإن الله تعالى يقول {أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ

الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ} النساء٥٩ فلم يأمرنا بالرد عند التنازع إلا إلى الله والرسول فمن أثبت شخصا معصوما غير الرسول أوجب رد ما تنازعوا فيه إليه لأنه لا يقول عنده إلا الحق كالرسول وهذا خلاف القرآن وأيضا فإن المعصوم تجب طاعته مطلقا بلا قيد ومخالفة يستحق الوعيد والقرآن إنما أثبت هذا في حق الرسول خاصة قال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً} النساء٦٩ وقال {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} النساء١٤ فدل القرآن في غير موضع على أن من أطاع الرسول كان من أهل السعادة ولم يشترط في ذلك طاعة معصوم آخر ومن عصى الرسول كان من أهل الوعيد وإن قدر أنه أطاع من ظن أنه معصوم فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي فرق الله به بين أهل الجنة وأهل النار وبين الأبرار والفجار وبين الحق والباطل وبين الغي والرشاد والهدى والضلال وجعله القسيم الذي قسم الله به عباده إلى شقى وسعيد فمن اتبعه فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقى وليست هذه المرتبة لغيره ولهذا اتفق أهل العلم أهل الكتاب والسنة على أن كل شخص فإنه يجب تصديقه في كل ما أخبر وطاعته في كل أمر فإنه المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهو الذي يسأل الناس عنه يوم القيامة كما قال تعالى {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} الأعراف٦ وهو الذي يمتحن به الناس في قبورهم فيقال لأحدهم من ربك وما دينك ومن نبيك ويقال ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فيقول هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه ولو ذكر بدل الرسول من ذكره من الصحابة والأئمة والتابعين والعلماء لم ينفعه ذلك ولا يمتحن في قبره بشخص غير الرسول [1]

فيقال لاريب أن تسمية هذه أربابا هو كلام اليونانيين وأمثالهم من المشركين فأنهم يصرحون في كتبهم بتسمية هذه المجردات التي يقولون أنها الملائكة أربابا وآلهة ويقولون هي الأرباب الصغرى والآلهة الصغرى وهؤلاء المتفلسفة الصابئة يعبدون الملائكة والكواكب وأما الرسل وأتباعهم الموحدون فقد قال الله تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ١٨٧-١٩١

فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{١٧١} لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً{١٧٢} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{١٧٣}النساء ١٧١-١٧٣ [١]

## اصل الدين وقاعدته

كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه امركم وعبادة الله تتضمن كمال محبة الله وكمال الذل لله فاصل الدين وقاعدته يتضمن أن يكون الله هو المعبود الذى تحبه القلوب وتخشاه ولا يكون لها إله سواه و والإله ما تألهه القلوب بالمحبة والتعظيم والرجاء والخوف والإجلال والإعظام ونحو ذلك والله سبحانه وتعالى أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو فتخلو القلوب عن محبة ما سواه بمحبته وبرجائه وعن سؤال ما سواه بسؤاله وعن العمل لما سواه بالعمل له وعن الإستعانة بما سواه بالإستعانة به ولهذا كان وسط الفاتحة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}الفاتحة٥ قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى فإذا قال الرحمن الرحيم قال أثنى على عبدى وإذا قال مالك يوم الدين قال مجدنى عبدى وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذه الآية بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل وإذا قال إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل فوسط السورة إياك نعبد وإياك نستعين فالدين أن لا يعبد إلا الله ولا يستعان إلا إياه والملائكة والأنبياء وغيرهم عباد الله كما قال الله تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً{١٧٢} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ

---

[١] بغية المرتاد ج: ١ ص: ٣٧٦

أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{١٧٣} النساء١٧٢-١٧٣ فالحب لغير الله كحب النصارى للمسيح وحب اليهود لموسى وحب الرافضة لعلى وحب الغلاة لشيوخهم وأئمتهم مثل من يوالى شيخا أو إماما وينفر عن نظيره وهما متقاربان أو متساويان فى الرتبة فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ويعادون بعضهم وحال أهل العصبية من المنتسبين إلى فقه وزهد الذين يوالون الشيوخ والأئمة دون البعض وإنما المؤمن من يوالى جميع أهل الإيمان قال الله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}الحجرات١٠ وقال النبى صلى الله عليه وسلم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه [١]

## النهى عن القول على الله بلا علم

فالذي جاء به الكتاب والسنة النهي عن أمور منها القول على الله بلا علم كقوله {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}الأعراف٣٣ وقوله {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}الإسراء٣٦ ومنها أن يقال عليه غير الحق كقوله{أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ}الأعراف١٦٩ وقوله {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ}النساء١٧١ [٢]

والنصارى ضالون لهم عبادة ورحمة ورهبانية لكن بلا علم ولهذا يتبعون أهواءهم بلا علم قال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٣٢٠ و مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥٢٥

[٢] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٥٣ و مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٠٩ و درء التعارض ج: ١ ص: ٤٧

الْحَقِّ}النساء١٧١ وقال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ}المائدة٧٧ أي وسط الطريق وهي السبيل القصد الذي قال الله فيها {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ}النحل٩ وهي الصراط المستقيم فأخبر بتقدم ضلالهم ثم ذكر صفة ضلالهم والأهواء هي إرادات النفس بغير علم فكل من فعل ما تريده نفسه بغير علم يبين أنه مصلحة فهو متبع هواه والعلم بالذي هو مصلحة العبد عند الله في الآخرة هو العلم الذي جاءت به الرسل قال تعالى {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ}القصص٥٠ وقال تعالى {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}البقرة١٢٠ وقال تعالى {فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ}المائدة٤٨ وقال تعالى {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}الجاثية١٨ [1]

## أدلة الحق لا تتناقض

{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}الأعراف٣٣ وقال تعالى {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}البقرة١٦٩ وقال تعالى {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}الإسراء٣٦ وقال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ}النساء١٧١ وقال تعالى {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ}الأعراف١٦٩ وكما أن الانسان لا يجوز له أن يثبت شيئا الا بعلم فلا يجوز له أن ينفى شيئا الا بعلم ولهذا كان النافى عليه الدليل كما ان المثبت عليه الدليل ومما يجب ان يعرف أن أدلة الحق لا تتناقض فلا يجوز اذا اخبر الله بشيء سواء كان الخبر اثباتا أو نفيا ان يكون فى اخباره ما يناقض ذلك الخبر الاول ولا يكون فيما يعقل بدون الخبر ما يناقض ذلك الخبر المعقول فالادلة المقتضية

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٣٣٠

للعلم لايجوز أن تتناقض سواء كان الدليلان سمعيين أو عقليين أو كان أحدهما سمعيا والآخر عقليا ولكن التناقض قد يكون فيما يظنه بعض الناس دليلا وليس بدليل كمن يسمع خبرا فيظنه صحيحا ولا يكون كذلك او يفهم منه ما لا يدل عليه او تقوم عنده شبهه يظنها دليلا عقليا وتكون باطلة التبس عليه فيها الحق بالباطل فيكذب بها ما أخبر الله به ورسوله وهذا من اسباب ضلال من ضل من مكذبى الرسل اما مطلقا كالذين كذبوا جميع الرسل كقوم نوح وثمود وعاد ونحوهم واما من آمن ببعض وكفر ببعض كمن آمن من اهل الكتاب ببعض الرسل دون بعض ومن آمن من الفلاسفة ببعض ما جاءت به الرسل دون بعض ومن أهل البدع من أهل الملل المسلمين واليهود والنصارى من اتوا من هذا الوجه فانه قامت عندهم شبهات ظنوا انها تنفى ما أخبرت به الرسل من اسماء الله تعالى وصفاته وظنوا ان الواجب حينئذ تقديم ما رأوه على النصوص لشبهات قد بسط الكلام عليها فى غير هذا الموضع وبين ضلال من ضل من الجهمية المتفلسفة والمعتزلة ومن وافقهم من بعض ضلالهم [١]

## في القرآن من دعوة أهل الكتاب ما لا يحصى إلا بكلفة

وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان وجميع الإنس والجن ما لا يحصى إلا بكلفة وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام فكيف يقال إنه لم يذكر أنه بعث إلا إلى العرب خاصة وهذه دعوته ورسله وجهاده لليهود والنصارى والمجوس بعد المشركين وهذه سيرته صلى الله عليه وسلم فيهم وأيضا فالكتاب المتواتر عنه وهو القرآن يذكر فيه دعاءه لأهل الكتاب إلى الإيمان به في مواضع كثيرة جدا [٢]

فقد علم أن محمد صلى الله عليه وسلم دعا اهل الكتاب وجميع أهل الأرض إلى الإيمان به وطاعته كما دعا المسيح وموسى وغيرهما من الرسل وأنه أبطل ما هم

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٥١٤

[٢] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٣٣٨ و الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٣٧٧

عليه من الاتحاد وغيره وكفرهم في غير موضع ولهذا كان مجرد التصديق بأن محمدا رسول الله ولو إلى العرب يوجب بطلان دين النصارى واليهود وكل دين يخالف دينه فإن من كان رسولا لله فإنه لا يكذب على الله ومحمد قد علم منه أنه دعا النصارى واليهود إلى الإيمان به وطاعته كما دعا غيرهم وأنه كفر من لم يؤمن به ووعده النار وهذا متواتر عنه تواترا تعلمه العامة والخاصة وفي القرآن من ذلك ما يكثر ذكره كما قال تعالى وقال تعالى {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{١٨} إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ{١٩} فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ{٢٠} ال عمران ١٨-٢٠ وقد ذكر كفر اليهود والنصارى في غير موضع كقوله تعالى عن النصارى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{١٧١} لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً{١٧٢} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{١٧٣} يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً{١٧٤} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{١٧٥}النساء ١٧١-١٧٥ [١]

## النصارى يعبدون بلا علم

فالنصارى بعد النسخ والتبديل فهم من الضالين لا من المنعم عليهم عند الله ورسوله كما قال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٩

أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ}المائدة ٧٧ وقد قال النبي اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون رواه الإمام أحمد والترمذي عن عدي بن حاتم عن النبي وقال الترمذي هذا حديث صحيح وسبب ذلك أن اليهود يعرفون الحق ولا يعملون به والنصارى يعبدون بلا علم وقد وصف الله اليهود بأعمال والنصارى بأعمال فوصف اليهود بالكبر والبخل والجبن والقسوة وكتمان العلم وسلوك سبيل الغي وهو سبيل الشهوات والعدوان وذكر عن النصارى الغلو والبدع في العبادات والشرك والضلال واستحلال محارم الله [1]

فالكفر والفسوق والعصيان لم ينحصر في ذنوب اليهود فإن لم يعمل النصارى مثل أعمالهم فلهم من الأقوال والأعمال ما بعضه أعظم من كفر اليهود وإن كانوا ألين من اليهود وأقرب مودة فأنهم أيضا أجهل وأضل من اليهود [2]

ولما قص تعالى قصة المسيح قال {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ}مريم٣٤ أي يشكون ويتمارون كتماري اليهود والنصارى ثم قال تعالى {فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ}مريم٣٧ فاختلف اليهود والنصارى فيه ثم اختلفت النصارى فيه وصاروا أحزابا كثيرة جدا كالنسطوري واليعقوبية والملكية والباروبية والمريمانية والسمياطية وأمثال هذه الطوائف كما سنذكر إن شاء الله كثيرا من طوائفهم واختلافهم في مجامعهم كما حكى ذلك عنهم أحد أكابرهم سعيد بن البطريق وغيره فإنه ليس في الأمم أكثر اختلافا في رب العالمين منهم فويل للذين كفروا من هذه الطوائف كلها من مشهد يوم عظيم {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}مريم٣٨ يقول تعالى ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم كالنصارى الذين ظلموا بإفكهم وشركهم في ضلال مبين ضلوا عن الحق في المسيح وقد وصف الله النصارى بالضلال في مثل قوله تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١٦٧

[2] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٩٩

إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً}النساء١٧١ لأن الغالب عليهم الجهل بالدين وأنهم يتكلمون بكلام لا يعقلون معناه ليس منقولا عن الأنبياء حتى يسلم لقائله بل هم ابتدعوه وإذا سألتهم عن معناه قالوا هذا لا يعرف بالعقول فيبتدعون كلاما يعرفون بأنهم لا يعقلونه وهو كلام متناقض ينقض أوله آخره ولهذا لا تجدهم يتفقون على قول واحد في معبودهم حتى قال بعض الناس لو اجتمع عشرة نصارى افترقوا على أحد عشر قولا [1]

## الملائكة عبيد مدبرون

فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله كما قال تعالى {جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً}فاطر١ فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة فإنه قال {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ}الحج٧٥ وملائكة الله لا يحصي عددهم إلا الله ومن المعلوم أن الملائكة لهم من العلوم والأحوال والإرادات والأعمال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال ووصفهم في القرآن بالتسبيح والعبادة لله أكثر من أن يذكر هنا وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة عن النبي قال ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها قال يتمون الصف الأول ويتراصون في الصف وفي الصحيحين عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة في حديث المعراج عن النبي لما ذكر صعوده إلى السماء السابعة قال فرفع لي البيت المعمور فسألت جبريل فقال هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليهم وقال البخاري وقال همام عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي أنه قال إذا أمن القارىء فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه وفي الرواية الأخرى في الصحيحين إذا قال آمين فإن الملائكة الملائكة في السماء تقول آمين وفي الصحيح أيضا عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله قال إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا اللهم ربنا ولك الحمد فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه وفي

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٦٦

الصحيح عن عروة عن عائشة زوج النبي أنها سمعت رسول الله يقول أن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضى في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي قال أن لله ملائكة سيارة فضلاء يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء فيسألهم الله وهو أعلم من أين جئتم فيقولون جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك قال وما يسألوني قالوا يسألونك جنتك قال وهل رأوا جنتي قالوا لا أي رب قال فكيف لو رأوا جنتي قالوا ويستجيرونك قال ومم يستجيرونني قالوا من نارك قال وهل رأوا ناري قالوا يا رب لا قال فكيف لو رأوا ناري قالوا ويستغفرونك قال فيقول قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا قال يقولون رب فيهم فلان عبد خطاء إنما مر فجلس معهم قال فيقول وله قد غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم وفي الصحيحين عن عروة عن عائشة حدثته أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا وأمثال هذه الأحاديث الصحاح مما فيها ذكر الملائكة الذين في السموات وملائكة الهواء والجبال وغير ذلك كثيرة وكذلك الملائكة المتصرفون في أمور بني آدم مثل قوله في الحديث المتفق عليه حديث الصادق المصدوق إذ يقول ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال اكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح وفي الصحيح حديث البراء بن عازب قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان اهجهم أو هاجهم وجبريل معك وفي الصحيح أيضا أن النبي قال له أجب عني اللهم أيده بروح القدس وفي الصحيح عن أنس قال كأني أنظر إلى غبار ساطع في سكة بني غنم موكب جبريل وفي الصحيحين عن عائشة أن الحارث بن هشام قال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي قال أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول

وإتيان جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم تارة في صورة أعرابي وتارة في صورة دحية الكلبي ومخاطبته وإقراؤه إياه كثيرا أعظم من أن يذكر هنا وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال النبي يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر والعصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون وفي الصحيحين عن عائشة قالت حشوت للنبي وسادة فيها تماثيل كأنها نمرقة فجاء فقام وجعل يتغير وجهه فقلت ما لنا يا رسول الله قال ما بال هذه الوسادة قالت وسادة جعلتها لك لتضطجع عليها قال أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة إن من صنع الصور يعذب يوم القيامة يقال أحيوا ما خلقتم وفي الصحيحين عن ابن عباس قال سمعت أبا طلحة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة تماثيل وكذلك في الصحيحين عن عبدالله بن عمر قال وعد النبي جبريل فقال إنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي قال إن الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه اللهم اغفر له اللهم ارحمه ما لم يحدث وأمثال هذه النصوص التي يذكر فيها من أصناف الملائكة وأوصافهم وأفعالهم ما يمنع أن تكون على ما يذكرونه من العقول والنفوس أو أن يكون جبريل هو العقل الفعال وتكون ملائكة الآدميين هي القوى الصالحة والشياطين هي القوى الفاسدة كما يزعم هؤلاء وأيضا فزعمهم أن العقول والنفوس التي جعلوها الملائكة وزعموا أنها معلولة عن الله صادرة عن ذاته صدور المعلول عن علته هو قول بتولدها عن الله وأن الله ولد الملائكة وهذا مما رده الله ونزه نفسه عنه وكذب قائله وبين كذبه بقوله {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{٣} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{٤}الاخلاص ٣-٤ وقال تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}النساء١٧٢ فأخبر أنهم معبدون أي مذللون مصرفون مدينون مقهورون ليسوا كالمعلول المتولد تولدا لازما لا يتصور أن يتغير عن ذلك وأخبر أنهم عباد لله لا يشبهون به كما يشبه المعلول بالعلة والولد بالوالد كما يزعمه هؤلاء الصابئون وقال تعالى {وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ{١١٦} بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ{١١٧}البقرة١١٧ -١١٨ فأخبر أنه يقتضي كل شيء بقوله كن لا بتولد المعلول عنه [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص:١٢٣- ١٢٨

وإنما يقوم الدليل على أن الحوادث تصدر عن حركات حي مختار وتلك هي الملائكة التي أخبرت بها الأنبياء وليست الملائكة هي العقول التي يثبتها هؤلاء فإن العقل الأول عند هؤلاء (الفلاسفة ) هو المبدع لكل ما سوى الله والعقل الفعال عندهم هو المبدع لكل ما تحت فلك القمر وأهل الملل يعلمون بالاضطرار من دين الرسل أنه ليس عندهم أحد غير الله يخلق جميع المبدعات ولا أنهم أثبتوا ملكا من الملائكة أبدع كل ما تحت السماء بل الملائكة عندهم عباد لله ليس فيهم من هو مستقل بإحداث جميع الحوادث فضلا عن أن يكون مبدعا لكل ما سوى الله وسواه كما يقوله هؤلاء الفلاسفة في العقل الأول قال الله تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً{١٧٢} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{١٧٣} النساء ١٧٢ ١٧٣ [١]

الذى عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة وحتى عزرائيل ملك الموت وروى فى ذلك حديث مرفوع إلى النبى والمسلمون واليهود والنصارى متفقون على إمكان ذلك وقدرة الله عليه وإنما يخالف فى ذلك طوائف من المتفلسفة اتباع أرسطو وأمثالهم ومن دخل معهم من المنتسبين إلى الإسلام أو اليهود والنصارى كأصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم ممن زعم أن الملائكة هى العقول والنفوس وأنه لا يمكن موتها بحال بل هى عندهم آلهه وأرباب لهذا العالم و القرآن و سائر الكتب تنطق بأن الملائكة عبيد مدبرون كما قال سبحانه {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً}النساء١٧٢ و قال تعالى {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ{٢٦} لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ{٢٧} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى{٢٨} الانبياء٢٦-٢٨ و قال تعالى {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى}النجم٢٦ و الله سبحانه و تعالى قادر على أن يميتهم ثم يحييهم

---

[١] الصفدية ج: ١ ص: ١٥٧

كما هو قادر على إماتة البشر و الجن ثم إحيائهم و قد قال سبحانه {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}الروم٢٧ [١]

## عبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلاهيته سبحانه وتعالى

قال تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً {١٧٢} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{١٧٣} النساء١٧٢-١٧٣ ولما كانت كل حركة وعمل في العالم فأصلها المحبة والإرادة وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهي باطلة فاسدة كان كل عمل لا يراد به وجهه باطلا فأعمال الثقلين الجن والإنس منقسمة منهم من يعبد الله ومنهم من لا يعبده بل قد يجعل معه إلها آخر وأما الملائكة فهم عابدون لله وجميع الحركات الخارجة عن مقدور بني آدم والجن والبهائم فهي من عمل الملائكة وتحريكها لما في السماء والأرض وما بينهما فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله متضمنة لمحبته وإرادته وقصده وجميع المخلوقات عابدة لخالقها إلا ما كان من مردة الثقلين وليست عبادتها إياه قبولها لتدبيره وتصريفه وخلقه فإن هذا عام لجميع المخلوقات حتى كفار بني آدم فلا يخرج أحد عن مشيئته وتدبيره وذلك بكلمات الله التي كان النبي يستعيذ بها فيقول أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر وهذا من عموم ربو بيته وملكه وهذا الوجه هو الذي أدركه كثير من أهل النظر والكلام حتى فسروا ما في القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها وتسبيحها بذلك وهم غالطون في هذا التخصيص شرعا وعقلا أيضا فإن المعقول الذي لهم يعرفهم أن كل شيء وكل متحرك وأن كان له مبدأ فلا بد له من غاية ومنتهى كما يقولون لها علتان فاعلية وغائية والذي ذكروه إنما هو من جهة العلة الفاعلية وبعض المخلوقين كذلك يجعلونه من جهة العلة الغائية وهذا غلط فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ولا يصدر شيء في الآثار إلا عن اثنين

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢٥٩-٢٦٠ و مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص:٣٤- ٣٥

من المخلوقات كما قد بينا هذا في غير هذا الموضوع وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة إذ ليس في شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء فالمخلوقات بأسرها يجتمع فيها هذان النقصان أحدهما أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علة تامة لا فاعلية ولا غائية والثاني أن ما كان فيها علة فله علة سواء كان علة فاعلية أو غائية فالله سبحانه رب كل شيء ومليكه وهو رب العالمين لا رب لشيء من الأشياء إلا هو وهو إله كل شيء وهو في السماء إله وفي الأرض إله وهو الله في السموات وفي الأرض لو كان فيهما إلهة إلا الله لفسدتا وما من إله إلا الله سبحانه وتعالي عما يقول الظالمون علوا كبيرا فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلاهيته سبحانه وتعالي وهو الغاية المقصودة منها ولها وأما في الشرع فإن الله فصل بين هذا وبين هذا فقال تعالي {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} الحج١٨ فهذا السجود الذي فصل بين كثير من الناس الذي يفعلونه وكثير من الناس الذين لا يفعلونه طوعا وهم الذين حق عليهم العذاب ليس هو ما يشترك فيه جميع الناس من خلق الله وربوبيه الله تعالي إياهم وتدبيرهم وكذلك فصل بين الصنفين في قوله تعالي {أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} آل عمران٨٣ وكذلك في قوله {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} الرعد١٥ وهو سبحانه ذكر في الآية الأخرى سجود المخلوقات إلا الكثير من الناس لأنه ذكر الطوع فقط كما ذكر في التي قبلها أديان الناس فقال تعالي {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} الحج١٧ فتضمنت هذه الآية حال المخلوقات إلا الجن فإنهم لم يذكروا باللفظ الخاص لكنهم يندرجون في الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين فإنهم كما قالوا {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً} الجن١١ وقد ذكر طائفة من أهل العربية أنهم يدخلون في لفظ الناس أيضا وقال سبحانه {أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ {٤٨} وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ{٤٩} يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ{٥٠} النحل٤٨ -٥٠ وفي الصحيحين حديث أبي ذر في سجود الشمس تحت العرش إذا غابت وقال تعالي {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} النور ٤١

وقال تعالي {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}الحديد١ {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}الجمعة١ قال تعالي {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً}الإسراء٤٤ [1]

## تقرب العبد الى الله نطقت له نصوص متعددة

وقوله من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة فقرب الشيء من الشيء مستلزم لقرب الآخر منه لكن قد يكون قرب الثانى هو اللازم من قرب الاول ويكون منه ايضا قرب بنفسه فالاول كمن تقرب الى مكة أو حائط الكعبة فكلما قرب منه قرب الآخر منه من غير أن يكون منه فعل والثانى كقرب الانسان الى من يتقرب هو اليه كما تقدم فى هذا الاثر الالهى فتقرب العبد الى الله وتقريبه له نطقت له نصوص متعددة مثل قوله {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}الإسراء٥٧ {فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ}الواقعة٨٨ {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}المطففين٢٨ {وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}النساء١٧٢ {وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}آل عمران٤٥ وما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه الحديث وفى الحديث اقرب ما يكون العبد من ربه فى جوف الليل الآخر وقد بسطنا الكلام على هذه الاحاديث ومقالات الناس فى هذا المعنى فى جواب الاسئلة المصرية على الفتيا الحموية فهذا قرب الرب نفسه الى عبده وهو مثل نزوله الى السماء الدنيا وفى الحديث الصحيح ان الله يدنو عشية عرفة الحديث فهذا القرب كله خاص وليس فى الكتاب والسنة قط قرب ذاته من جميع المخلوقات فى كل حال فعلم بذلك بطلان قول الحلولية فانهم عمدوا الى الخاص المقيد فجعلوه عاما مطلقا كما جعل اخوانهم الاتحادية ذلك فى مثل قوله كنت سمعه وفى قوله فيأتيهم فى صورة غير صورته وان الله قال على لسان نبيه سمع الله لمن حمده وكل هذه النصوص حجة عليهم فاذا فصل تبين ذلك فالداعى والساجد يوجه روحه الى الله والروح لها عروج يناسبها فتقرب من الله تعالى بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب فكون الله عز وجل منها

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٢٧

قريبا قربا يلزم من قربها ويكون منه قرب آخر كقربه عشية عرفة وفى جوف الليل والى من تقرب منه شبرا تقرب منه ذراعا وفى الزهد لأحمد عن عمران القصير ان موسى عليه السلام قال يا رب اين أبغيك قال أبغنى عند المنكسرة قلوبهم انى أدنو منهم كل يوم باعا لولا ذلك لانهدموا فقد يشبه هذا قوله قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين الى آخره وظاهر قوله {فَإِنِّي قَرِيبٌ}البقرة١٨٦ يدل على أن القرب نعته ليس هو مجرد ما يلزم من قرب الداعى والساجد ودنوه عشية عرفة هو لما يفعله الحاج ليلتئذ من الدعاء والذكر والتوبة والا فلو قدر أن أحدا لم يقف بعرفة لم يحصل منه سبحانه ذلك الدنو اليهم فانه يباهى الملائكة بأهل عرفة فاذا قدر أنه ليس هناك أحد لم يحصل فدل ذلك على قربه منهم بسبب قربه تقربهم منهم كما دل عليه الحديث الآخر والناس فى آخر الليل يكون فى قلوبهم من التوجه والتقرب والرقة ما لا يوجد فى غير ذلك الوقت وهذا مناسب لنزوله الى السماء الدنيا وقوله هل من داع هل من سائل هل من تائب ثم ان هذا النزول هل هو كدنوه عشية عرفة معلق بأفعال فان فى بلاد الكفر ليس فيهم من يقوم الليل فلا يحصل لهم هذا النزول كما ان دنوه عشية عرفة لا يحصل لغير الحجاج فى سائر البلاد اذ ليس لها وقوف مشروع ولا مباهاة الملائكة وكما أن تفتيح ابواب الجنة وتغليق ابواب النار وتصفيد الشياطين اذا دخل شهر رمضان انما هو للمسلمين الذين يصومونه لا الكفار الذين لا يرون له حرمة وكذلك اطلاعه يوم بدر وقوله لهم اعملوا ما شئتم كان مختصا بأولئك أم هو عام فيه كلام ليس هذا موضعه والكلام فى هذا القرب من جنس الكلام فى نزوله كل ليلة ودنوه عشية عرفة وتكليمه لموسى من الشجرة وقوله ان بورك من فى النار ومن حولها وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع وذكرنا ما قاله السلف فى ذلك كحماد بن زيد واسحاق وغيرهما من أنه ينزل الى السماء الدنيا ولا يخلو منه العرش وبينا أن هذا هو الصواب وان كان طائفة ممن يدعى السنة يظن خلو العرش منه وقد صنف أبو القاسم عبدالرحمن بن منده فى ذلك مصنفا وزيف قول من قال انه ينزل ولا يخلو منه العرش وضعف ما نقل فى ذلك عن أحمد فى رسالة مسدد وقال انها مكذوبة على أحمد وتكلم على راويها البردعى أحمد بن محمد وقال انه مجهول لا يعرف فى اصحاب أحمد وطائفة تقف لا تقول يخلو ولا لا يخلو وتنكر على من يقول ذلك منهم الحافظ عبدالغنى المقدسى واما من يتوهم أن السموات تنفرج ثم تلتحم فهذا من أعظم الجهل وان وقع فيه طائفة من الرجال وأما من لا يعتقد أن الله فوق العرش فهو لا يعتقد نزوله لا بخلو ولا بغير خلو وقال بعض أكابرهم لبعض المثبتين ينزل أمره فقال من عند من ينزل أنت ليس عندك هناك أحد أثبت أنه هناك ثم قل ينزل أمره وهذا نظير

قول اسحاق بن راهوية بحضرة الامير عبدالله بن طاهر والصواب قول السلف أنه ينزل ولا يخلو منه العرش وروح العبد فى بدنه لا تزال ليلا ونهارا الى أن يموت ووقت النوم تعرج وقد تسجد تحت العرش وهى لم تفارق جسده وكذلك اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وروحه فى بدنه وأحكام الارواح مخالف لأحكام الأبدان فكيف بالملائكة فكيف برب العالمين والليل يختلف فيكون ثلثه بالمشرق قبل أن يكون ثلثه بالمغرب ونزوله الذى أخبر به رسوله الى سماء هؤلاء فى ثلث ليلهم والى سماء هؤلاء فى ثلث ليلهم لا يشغله شأن عن شأن وكذلك قربه من الداعى المتقرب اليه والساجد لكل واحد بحسبه حيث كان واين كان والرجلان يسجدان فى موضع واحد ولكل واحد قرب يخصه لا يشركه فيه الآخر [1]

## الرد على من يقول الانتقال من المسيح إلى الملائكة دليل على فضل الملائكة على البشر

وها نحن نذكر ما احتجوا به الحجة الأولى قوله تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}النساء١٧٢ والذي يريد إثبات ذل إلا عاصم وانقياد إلا كابر إنما يبدأ فالأدنى مترقيا إلى الأعلى فالأعلى ليرقى المخاطب في فهم عظمة من انقيد له وأطيع درجة درجة وإلا فلو فوجىء بانقياد الأعظم ابتداء لما حصل تبين مراتب العظمة ولوقع ذكر الادنى بعد ذلك ضائعا بل يكون رجوعا ونقصا ولهذا جرت فطرة الخلق أن يقال فلان لا يأتيني وفلان يأتينى أى كيف يستنكف عن الإيتان إلي وفلان أكرم منه وأعظم وهو يأتيني ولا يقال لا يأبى فلان أن يكرمك ولا من هو فرقة فالانتقال من المسيح إلى الملائكة دليل على فضلهم كيف وقد نعتوا بالقرب الذي هو عين الفضائل والجواب زعم القاضى أن هذا ليس من عطف الأعلى على الأدنى وإنما هو عطف ساذج قال وذلك أن قوما عبدوا المسيح وزعموا أنه ابن الله سبحانه وقوما عبدوا الملائكة وزعمةا انها بنات الله كما حكى الله تعالى عن الفريقين فبين الله تعالى في هذه أن هؤلاء الذين عبدتموهم من دونى هم عبادى لن يستنكفوا عن عبادتى وأنهما لو استنكفا عن عبادتى لعذبتهما عذابا أليما والمسيح هو الظاهر وهو من نوع البشر وهذا الكلام فيه نظر والله أعلم بحقيقته ثم نقول إن كان هذا هو المراد فلا كلام وإن أريد أن الإنتقال من الأدنى إلى الأعلى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢٤١-٢٤٣

فاعلم نور الله قلبك وشرح صدرك للإسلام إن للملائكة خصائص ليست للبشر لا سيما في الدنيا هذا ما لا يستريب فيه لبيب أنهم اليوم على مكان وأقرب إلى الله وأظهر جسوما وأعظم خلقا وأجمل صورا وأطول أعمارا وأيمن آثارا إلى غير ذلك من الخصال الحميدة مما نعلمه وللبشر أيضا خصائص ومزايا لكن الكلام في مجموع كل واحدة من المزيتين أيهما أفضل هذا طريق ممهد لهذه الآية وما بعدها وهو وراء ذلك فحيث جرى ما يوجب تفضيل الملك فلما تميزوا به واختصوا به من الأمور التى لا تنبغى لمن دونهم فيها أن يتفضل عليهم فيما هو من أسبابها وذلك أن المسيح لو فرض استنكافه عن عبادة الله فإنما هو لما أيده الله من الآيات كما أبرا الأكمة والابرص وأحيا الموتى وغير ذلك ولأنه خرج في خلقه عن بنى آدم وفي عزوفه عن الدنيا وما فيها أعطى الزهد وما من صفة من هذه الصفات إلا والملائكة أظهر منه فيها فإنهم كلهم خلقوا من غير أبوين ومن غير أم وقد كان فرس جبريل يحيى به التراب الذي يمر عليه وعلم ما يدخر العباد في بيوتهم على الملائكة سهل وفي حديث أبرص وأقرع وأعمى أن الملك مسح عليهم فبرؤا فهذه الأمور التى من أجلها عبد المسيح وجعل ابن الله عز وجل للملائكة منها أوفر نصيب وأعلى منها وأعظم مما للمسيح وهم لا يستنكفون عن عبادته فهو أحق خلق أن لا يستنكف وأما القرب من الله والزلفى لديه فأمور وراء هذه الآيات وأيضا فأقصى ما فيها تفضيلهم على المسيح إذ هو في هذه الحياة الدنيا وأما إذا استقر في الآخرة وكان ما كان مما لست أذكر فمن أين يقال إنهم هناك أفضل منه [1]

## الشرك بالله أعظم ذنب عصى الله به

إعلم رحمك الله أن الشرك بالله أعظم ذنب عصى الله به قال الله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}النساء٤٨ وفى الصحيحين أنه سئل أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك زالند المثل قال تعالى {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}البقرة٢٢ وقال تعالى {وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}الزمر٨ فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الألهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة فإن الله سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته لأنه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٣٨٠

المألوه المعبود الذى تألهه القلوب وترغب إليه وتفزع إليه عند الشدائد وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية فكيف يصلح أن يكون إلها قال الله تعالى {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ}الزخرف١٥ وقال تعالى {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً}مريم٩٣ وقال الله تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً}النساء١٧٢ وقال تعالى {وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}الذاريات٥١ وقال تعالى {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ}الزمر١١ [١]

و جاه المخلوق عند الخالق تعالى ليس كجاه المخلوق عند المخلوق فانه لا يشفع عنده أحد الا بإذنه والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير اذنه فهو شريك له فى حصول المطلوب والله تعالى لا شريك له كما قال سبحانه {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ{٢٢} وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ{٢٣} سبأ ٢٢-٢٣ [٢]

## لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب

قال الله تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً}النساء١٧٢ ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن احب شيئا ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٨٨

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٢٠

بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا [١]

## الهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن و المرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الايمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع فى أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان و التحقيق أنه تارة يدخل فى الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الاسلام خارجا عنه كما فى حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما فى قوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} البقرة٨٢ {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} النساء١٧٣ فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما فى القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبى العينان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه [٢]

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٣١

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٥٦

أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمان هو ما فى القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} البقرة٩٨ وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} الأحزاب٧ وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ} محمد٢ فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا} محمد٢ وهذه نزلت فى الصحابةوغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ} البقرة٢٣٨ وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة٥ والصلاة والزكاة من العبادة فقوله {آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} البقرة٢٧٧ كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة٥ فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت فى الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل فى العام وقيل بل الأعمال فى الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما فى القلب ولكن هى لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم فى كلام النبى فإذا عطفت عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنصيصا ليعلم أن

الثواب الموعود به فى الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن إدعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه فى غير موضع أن الصادق فى قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان فى هؤلاء يدل على إنتفائه عمن سواهم [1]

قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}التوبة٣٣ فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}النساء١٧٣ ما حظر ولا يمكنه ترك كل ما حظر مع تركه لبعض ما أمر فان ترك ما حظر من جملة ما أمر به فهو مأمور ومن المحظور ترك المأمور فكل ما شغله عن الواجب فهو محرم وكل ما لا يمكن فعل الواجب الا به فعليه فعله [2]

## ان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان

فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الاسلام واخباره أنه دينه الذى ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال ان الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار}التوبة٧٢ فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ}النساء١٧٣وقوله {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً}النساء١٧٥ [3]

## أسماء القرآن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٠٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٥٩

[3] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٤٧

أسماء القرآن      القرآن الفرقان الكتاب الهدى النور الشفاء البيان الموعظة الرحمة بصائر البلاغ الكريم المجيد العزيز المبارك التنزيل المنزل الصراط المستقيم حبل الله الذكر الذكرى تذكرة   المتشابه المثاني {مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ}الزمر٢٣  البرهان {قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً}النساء١٧٤ [١]

قيل    البرهان    هو محمد وقيل هو الحجة والدليل وقيل القرآن والحجة والدليل تتناول الآيات التى بعث بها محمد [٢]

قال تعالى{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً}النساء١٧٤  فالنور المبين المنزل يتناول القرآن [٣]

فإن الله أخبر بشهادته لرسوله فى غير موضع وسمى ما أنزله شهادة منه فى قوله {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ}البقرة١٤٠ فدل على أن كلام الله الذي أنزله وأخبر فيه بما أخبر شهادة منه وهو سبحانه يحكم ويشهد ويفتي ويقص ويبشر ويهدى بكلامه ويصف كلامه بأنه يحكم ويفتي ويقص ويهدى ويبشر وينذر كما قال {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء}النساء١٢٧ أي وما يتلى عليكم يفتيكم فيهن    {قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ}النساء١٧٦ وقال    {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}النمل٧٦ وقال  {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ}يوسف٣   وقال {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}الأنعام٥٧   وقال   {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}الإسراء٩ وقوله {وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ}البقرة٢١٣    وإذا أضيف الحكم والقصص والإفتاء إلى القرآن الذي هو كلام الله فالله هو الذي حكم به وأفتى به وقص به كما أضاف ذلك إلى نفسه في غير

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ١١

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٨٤

موضع وكذلك سمى الرسول هاديا فقال {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الشورى٥٢ كما سماه بشيرا ونذيرا وسمى القرآن بشيرا ونذيرا فكذلك لما كان هو يشهد للرسول وكان والمؤمنين بكلامه الذي أنزله وكان كلامه شهادة منه كان كلامه شاهدا منه كما كان يحكم ويفتى ويقص ويبشر وينذر [١]

## البرهان يطلق على ما يفيد العلم واليقين

والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد كثيرة متنوعة وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسميها من يسميها من النظار معجزات وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجودا في الكتاب والسنة وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان كما قال تعالى في حق محمد {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً}النساء١٧٤ [٢]

فإن البرهان في القرآن و غيره يطلق على ما يفيد العلم و اليقين كقوله تعالى {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}البقرة١١١ و قال تعالى {أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}النمل٦٤ فالصادق لا بد له من برهان على صدقه و الصدق المجزوم بأنه صدق هو المعلوم [٣]

## هل تكون صفة الإيمان نورا يوقعه الله فى قلب العبد ويعرف العبد عند وقوعه فى قلبه الحق من الباطل؟

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٦٨ و منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ٢٥٥

[٢] الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ٤١٢

[٣] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٨

وأما قول القائل هل تكون صفة الإيمان نورا يوقعه الله فى قلب العبد ويعرف العبد عند وقوعه فى قلبه الحق من الباطل فيقال له قد قال الله تعالى {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ}النور٣٥ قال أبي بن كعب وغيره مثل نوره فى قلب المؤمن الى قوله {وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ}النور٤٠ وقال تعالى {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ}الأنعام١٢٢ فالإيمان الذي يهبه الله لعبده سماه نورا وسمى الوحى النازل من السماء الذي به يحصل الإيمان {نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا}الشورى٥٢ وقال تعالى {فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ}الأعراف١٥٧ وأمثال ذلك ولا ريب أن المؤمن يفرق بين الحق والباطل بل يفرق بين أعظم الحق لكن لا يمكن أن يقال بأن كل من له إيمان يفرق بمجرد ما أعطيه من الإيمان بين كل حق وكل باطل [١]

## الاعتصام بالله يكون بالاعتصام بالقرآن والاسلام

فالاعتصام بالله يكون بالاعتصام بالقرآن والاسلام كما قال تعالى {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً}النساء١٧٥ [٢]

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الشرك دقه وجله وحقيره وكبيره [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٤٩

[٢] النبوات ج: ١ ص: ٢٣٥

[٣] زيارة القبور ج: ١ ص: ٥٨

## {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ}

إن كل ما فى الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و مالم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدى و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد فى السماء و هو يقلب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاغه و هو الذى حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينه فى قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون وهو الذي جعل المسلم مسلما و المصلي مصليا قال الخليل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ}البقرة١٢٨ و قال {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي}إبراهيم٤٠ و قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا}السجدة٢٤ و قال عن آل فرعون {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ}القصص٤١ و قال تعالى {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{١٩} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{٢٠} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{٢١} المعارج١٩-٢١ و قال {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا}هود٣٧ و قال {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ}هود٣٨ والفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبرالله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}يس٤٢ و قال {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ}النحل٨٠ الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم وقال تعالى {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ{٩٥} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{٩٦}الصافات٩٥ -٩٦ فما بمعنى الذي و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبنى دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً}الكهف١٧ و قال {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}الأنعام١٢٥ و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما بفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}النمل٨٨ و قد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى {وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَا}البقرة١٦٤ و قال {فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ}الأعراف٥٧ و قال تعالى {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ}المائدة١٦ وقال تعالى {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً}النساء١٧٥ [١]

## عمومات الكتاب والسنة لا تختص بشخص معين

وقول المفسرين هذه الآية نزلت فى كذا لا سيما ان كان المذكور شخصا كأسباب النزول المذكورة فى التفسير كقولهم ان آية الظهار نزلت فى امرأة أوس بن الصامت وان آية اللعان نزلت فى عويمر العجلانى أو هلال بن أمية وأن آية الكلالة نزلت فى جابر بن عبدالله وأن قوله {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ}المائدة٤٩ نزلت فى بنى قريظة والنضير وان قوله {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ}الأنفال١٦ نزلت فى بدر وان قوله {شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ}المائدة١٠٦ نزلت فى قضية تميم الدارى وعدى بن بداء وقول أبى ايوب ان قوله {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}البقرة١٩٥ نزلت فينا معشر الأنصار الحديث ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة أو فى قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى أو فى قوم من المؤمنين فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الاعيان دون غيرهم فان هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الاطلاق والناس وان تنازعوا فى اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا فلم يقل أحد من علماء المسلمين ان عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين وانما غاية ما يقال أنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ والآية التى لها سبب معين ان كانت أمرا ونهيا فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته وان كانت خبرا بمدح أو ذم فهى متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضا ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٧٨-٨٠

العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ولهذا كان أصح قولى الفقهاء أنه اذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع الى سبب يمينه وما هيجها وأثارها [١]

## النصوص شاملة لجميع الأحكام

أن النصوص شاملة لجميع الأحكام ونحن نبين ذلك فيما هو من أشكل الأشياء لننبه به على ما سواه والفرائض من أشكلها فنقول النص والقياس وهما الكتاب والميزان دلا على أن الثلث يختص به ولد الأم كما هو قول على ومن وافقه وهو مذهب أبى حنيفة وأحمد فى المشهور عنه وروى حرب التشريك وهو قول زيد ومن وافقه وقول مالك والشافعى واختلف فى ذلك عن عمر وعثمان وغيرهما من الصحابة حتى قيل إنه اختلف فيها عن جميع الصحابة إلا عليا وزيدا فإن عليا لم يختلف عنه أنه لم يشرك وزيد لم يختلف عنه أنه يشرك قال العنبرى القياس ما قال على والاستحسان ما قال زيد قال العنبرى هذه وساطة مليحة وعبارة صحيحة فيقال النص والقياس دلا على ما قال على أما النص فقوله تعالى {فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ}النساء١٢ والمراد به ولد الأم وإذا أدخلنا فيهم ولد الأبوين لم يشتركوا فى الثلث بل زاحمهم غيرهم وإن قيل إن ولد الأبوين منهم وأنهم من ولد الأم فهو غلط والله تعالى قال {وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ}النساء١٢ الآية وفى قراءة سعد وابن مسعود من الأم والمراد به ولد الأم بالاجماع ودل على ذلك قوله {فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ}النساء١٢ وولد الأبوين والأب فى آية فى قوله {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ}النساء١٧٦ ثم قال {وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١٧٦ وهذا حكم ولد الأبوين لا الأم باتفاق المسلمين فدل ذكره تعالى لهذا الحكم فى هذه الآية وكذلك الحكم فى تلك الآية على أن أحد الصنفين غير الآخر وإذا كان النص قد أعطى ولد الأم الثلث فمن نقصهم منه فقد ظلمهم وولد الأبوين جنس آخر وقد قال النبى الحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٣١٨-٣١٩

ذكر وهذا يقتضى أنه إذا لم تبق الفرائض شيئا لم يكن للعصبة شىء وهنا لم تبق الفرائض شيئا

وأما قول القائل إن أباهم كان حمارا فقد اشتركوا فى الأم فقول فاسد حسا وشرعا أما الحس فلأن الأب لو كان حمارا لكانت الأم أتانا ولم يكونوا من بنى آدم وإذا قيل مراده أن وجوده كعدمه فيقال هذا باطل فإن الوجود لا يكون معدوما وأما الشرع فلأن الله حكم فى ولد الأبوين بخلاف حكمه فى ولد الأم وإذا قيل فالأب إذا لم ينفعهم لم يضرهم قيل بلى قد يضرهم كما ينفعهم بدليل ما لو كان ولد الأم واحدا وولد الأبوين كثيرين فإن ولد الأم وحده يأخذ السدس والباقى يكون لهم كله ولولا الأب لتشاركوا هم وذاك الواحد فى الثلث وإذا جاز أن يكون وجود الأب ينفعهم جاز أن يحرمهم فعلم أنه يضرهم وأيضا فأصول الفرائض مبنية على أن القرابة المتصلة ذكر وأنثى لا تفرق أحكامها فالاخ من الأبوين لا يكون كأخ من أب ولا كأخ من أم ولا يعطى بقرابة الأم وحدها كما لا يعطى بقرابة الأب وحده بل القرابة المشتركة من الأبوين وإنما يفرد إذا كان قرابة لأم منفردا مثل ابنى عم أحدهما أخ لأم فهنا ذهب الجمهور إلى أن للأخ لأم السدس ويشتركان فى الباقى وهو مأثور عن على وروى عن شريح أنه جعل الجميع للأخ من الأم كما لو كان إبن عم لأبوين والجمهور يقولون كلاهما فى بنوة العم سواء هما إبن عم من أبوين أو من أب والأخوة من الأم مستقلة ليست مقترنة حتى يجعل كأبن عم لأبوين ومما يبين الحكم فى مسألةالمشركة أن لو كان فيهن أخوات من أب لفرض لهن الثلثان وعالت الفريضة فلو كان معهن أخوهن سقطن ويسمى الأخ المشؤوم فلما صرن بوجوده يصرن عصبة صار تارة ينفعهن وتارة يضرهن ولم يجعل وجوده كعدمه فى حالة الضر كذلك قرابة الأب لما الأخوة بها عصبة صار ينفعم تارة ويضرهم أخرى فهذا مجرى العصوبة فان العصبة تارة يحوز المال كله وتارة يحوز أكثره وتارة أقله وتارة لا يبقى له شىء وهو إذا أستغرقت الفرائض المال فمن جعل العصبة تأخذ مع استغراق الفرائض المال فقد خرج عن الأصول المنصوصة فى الفرائض وقول القائل هو استحسان يقال هذا استحسان يخالف الكتاب والميزان فإنه ظلم للأخوة من الأم حيث يؤخذ حقهم فيعطاه غيرهم والمنازعون فى هذه المسألة ليس معهم حجة إلا أنه قول زيد فقد روى عن عمر أنه حكم بها فعمل بذلك من عمل من أهل المدينة وغيرها كما عملوا بمثل ذلك فى ميراث الجد والأخوة وعملوا بقول زيد فى غير ذلك من الفرائض تقليدا له وإن كان النص والقياس مع من خالفه وبعضهم يحتج لذلك بقوله أفرضكم زيد وهو حديث ضعيف لا أصل له ولم يكن زيد على عهد النبى معروفا بالفرائض حتى أبو عبيدة لم يصح فيه إلا

قوله لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح وكذلك إتباعهم لزيد فى الجد مع أن جمهور الصحابة على خلافه فجمهور الصحابة موافقون للصديق فى أن الجد كالأب يحجب الأخوة وهو مروى عن بضعة عشر من الصحابة ومذهب أبى حنيفة واحد الوجهين فى مذهب الشافعى وأحمد اختاره أبو حفص البرمكى من أصحابه وحكاه بعضهم رواية عن أحمد وأما المورثون للأخوة مع الجد فهم على وإبن مسعود وزيد ولكل واحد قول انفرد به وعمر بن الخطاب كان متوفقا فى أمره والصواب بلا ريب قول الصديق لأدلة متعددة ذكرناها فى غير هذا الموضع وأما العمريتان فليس فى القرآن ما يدل على أن للأم الثلث مع الأب والزوج بل إنما أعطاها الله الثلث إذ ورثت المال هى والأب فكان القرآن قد دل على أن ما ورثته هى والأب تأخذ ثلثه والأب ثلثيه واستدل بهذا أكابر الصحابة كعمر وعثمان وعلى وإبن مسعود وزيد وجمهور العلماء على أن ما يبقى بعد فرض الزوجين يكونان فيه أثلاثا قياسا على جميع المال إذا اشتركا فيه وكما يشتركان فيما يبقى بعد الدين والوصية ومفهوم القرآن ينفى أن تأخذ الأم الثلث مطلقا فمن أعطاها الثلث مطلقا حتى مع الزوجة فقد خالف مفهوم القرآن وأما الجمهور فقد عملوا بالمفهوم فلم يجعلوا ميراثها إذا ورثه أبوه كميراثها إذا لم يرث بل إن ورثه أبوه فلأمه الثلث مطلقا وأما إذا لم يرثه أبوه بل ورثه من دون الأب كالجد والعم والأخ فهى بالثلث أولى فإنها إذا أخذت الثلث مع الأب فمع غيره من العصبة أولى فدل القرآن على أنه إذا لم يرثه إلا الأم والأب أو عصبة غير الأب سوى الابن فلأمه الثلث وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى وأما الابن فإنه أقوى من الأب فلها معه السدس وإذا كان مع العصبة ذو فرض فالبنات والأخوات قد أعطوا الأم معهن السدس والأخت الواحدة إذا كانت هى والأم فالأم تأخذ الثلث مع الذكر من الأخوة فمع الأنثى أولى وإنما الحجب عن الثلث إلى السدس بالأخوة والواحد ليس إخوة فإذا كانت مع الأخ الواحد تأخذ الثلث فمع العم وغيره بطريق الأولى وفى الجد نزاع يروى عن إبن مسعود والجمهور على أنها مع الجد تأخذ ثلث المال وهو الصواب لأن الجد أبعد منها وهو محجوب بالأب فلا يحجبها عن شىء من حقها ومحض القياس أن الأب مع الأم كالبنت مع الأبن والأخت مع الأخ لأنهما ذكر وأنثى من جنس واحد هما عصبة وقد أعطيت الزوجة نصف ما يعطاه الزوج لأنهما ذكر وأنثى من جنس وأما دلالة الكتاب على ميراث الأم فإن الله يقول {وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ}النساء١١ فالله تعالى فرض لها بشرطين أن لا يكون له ولد وأن يرثه أبوه فكان فى هذا دلالة على أنها لا تعطى الثلث مطلقا مع عدم الولد وهذا مما يدل على صحة قول أكابر الصحابة والجمهور

الذين يقولون لا تعطى فى العمريتين زوج وأبوان وزوجة وأبوان ثلث جميع المال قال إبن عباس وموافقوه فانها لو أعطيت الثلث هنا لكانت تعطاه مع عدم الولد مطلقا وهو خلاف ما دل عليه القرآن وقد روى عنه أنه قال لزيد أفى كتاب الله ثلث ما بقى أى ليس فى كتاب الله إلا سدس وثلث فيقال وليس فى كتاب الله إعطاؤها الثلث مطلقا فكيف يعطيها مع الزوجين الثلث بل فى كتاب الله ما يمنع إعطاؤها الثلث مع الأب وأحد الزوجين فإنه لو كان كذلك كان يقول فإن لم يكن له ولد فلأمه الثلث فإنها على هذا التقدير تستحق الثلث مطلقا فلما خص الثلث ببعض الحال علم أنها لا تستحق مطلقا فهذا مفهوم المخالفة الذى يسمى دليل الخطاب يدل على بطلان قول من أعطاها الثلث إلا العمريتين ولا وجه لاعطائها الثلث مع مخالفته للاجماع إلى أن قال فإن قوله {وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ}النساء١١ دل على أن لها الثلث والباقى للأب بقوله ورثه أبواه فإنه لما جعل الميراث ميراثا بينهما ثم أخرج نصيبها دل على أن الباقى نصيبه وإذا أعطى الأب الباقى معها لم يلزم أن يعطى غيره مثل ما أعطى وإنما أعطينا سائر العصبة بقوله {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ}الأنفال٧٥ وبقوله {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ}النساء٣٣ وبقول النبى الحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر فصل وأما ميراث الأخوات مع البنات وانهن عصبة كما قال وله أخت الذى هو قول جمهور الصحابة والعلماء فقد دل عليه القرآن والسنة أيضا فان قوله تعالى {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ}النساء١٧٦ فدل على أن الأخت ترث النصف مع عدم الولد وأنه هو يرث المال كله مع عدم ولدها وذلك يقتضى أن الأخت مع الولد لا يكون لها النصف مما ترك إذ لو كان كذلك لكان لها النصف سواء كان له ولد أو لم يكن له فكان ذكر الولد تدليسا وعبثا مضرا وكلام الله منزه عن ذلك ومن هذا قوله تعالى {لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ}النساء١٧٦ وقوله {فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ}النساء١١ وإذا علم أنها مع الولد لا ترث النصف فالولد إما ذكر وإما أنثى أما الذكر فانه يسقطها كما يسقط الأخ بطريق الأولى بدليل قوله {وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ}النساء١٧٦ فلم يثبت له الإرث المطلق إلا إذا لم يكن لها ولد والأرث المطلق هو حوز جميع المال فدل ذلك على أنه إذا كان لها ولد لم يحز المال بل إما أن يسقط وإما أن يأخذ بعضه فيبقى إذا كان لها ولد فأما بن وإما بنت والقرآن قد بين أن البنت إنما تأخذ النصف فدل على أن البنت لا تمنعه النصف الآخر إذا لم يكن الا بنت وأخ ولما كان فتيا الله إنما هو فى الكلالة والكلالة من لا والد له ولا ولد علم أن من ليس له

ولد ووالد ليس هذا حكمه ولما كان قد بين تعالى أن الأخ يحوز المال مال الأخت فيكون لها عصبة كان الأب أن يكون له عصبة بطريق الأولى وإذا كان الأب والأخ عصبة فالابن بطريق الأولى وقد قال تعالى {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ}النساء٣٣ ودل أيضا قول النبى ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر أن ما بقى بعد الفرائض لا يرثه إلا العصبة وقد علم أن الابن أقرب ثم الأب ثم الجد ثم الأخوة وقضى النبى صلى الله عليه وسلم أن أولاد بنى الأم يتوارثون دون بنى العلاقات فالأخ للأبوين أولى من الأخ للأب وإبن الابن يقوم مقام الابن وكذلك كل بنى أب أدناهم أقرب من بنى الأب الذى هو أعلى منه وأقربهم إلى الأب الأعلى فهو أقرب إلى الميت وإذا استوى فى الدرجة فمن كان لأبوين أولى ممن كان للأب فما دل القرآن على أن للأخت النصف مع عدم الولد وأنه مع ذكور ولد يكون الابن عاصبا يحجب الأخت كما يحجب أخاها بقى الأخت مع إناث الولد ليس فى القرآن ما ينفى ميراث الأخت فى هذه الحال بقى مع البنت إما أن تسقط وإما أن يكون لها النصف وإما أن تكون عصبة ولا وجه لسقوطها فإنها لا تزاحم البنت وأخوها لا يسقط فلا تسقط هى ولو سقطت بمن هو أبعد منها من الأقارب والبعيد لا يسقط القريب ولأنها كانت تساوى البنت مع اجتماعهما والبنت أولى منها فلا تساوى بها فإنه لو فرض لها النصف لنقصت البنت عن النصف كزوج وبنت فلو فرض لها النصف لعالت فنقصت البنت عن النصف والأخوة لا يزاحمون الأولاد بفرض ولا تعصيب فإن الأولاد أولى منهم والله إنما أعطاها النصف إذا كان الميت كلالة فلما بطل سقوطها وفرضها لم يبق إلا أن تكون عصبة أولى من البعيد كالعم وابن العم وهذا قول الجمهور وقد دل عليه حديث البخارى عن بن مسعود لما ذكر له أن أبا موسى وسلمان بن ربيعة قالا فى بنت وبنت بن وأخت للبنت النصف وللأخت النصف وائت بن مسعود فانه سيتابعنا فقال لقد ضللت إذا وما أنا من المهندين لأقضين فيها بقضاء رسول الله للبنت النصف وبنت الابن السدس تكملة الثلثين وما بقى للأخت فدل ذلك على أن الأخوات مع البنات عصبة والأخت تكون عصبة بغيرها وهو أخوها فلا يمتنع أن تكون عصبة مع البنت وقوله الحقوا الفرائض بأهلها الخ فهذا عام خص منه المعتقة والملاعنة والملتقطة لقوله تحوز المرأة ثلاث مواريث عتيقها ولقيطها وولدها الذى لاعنت عليه وإذا كان عاما مخصوصا خصت منه هذه الصورة بما ذكر من الأدلة فصل وأما ميراث البنتين فقد قال تعالى {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ}النساء١١ فدل القرآن على أن البنت لها مع أخيها الذكر الثلث ولها

وحدها النصف ولما فوق اثنتين الثلثان بقيت البنت إذا كان لها مع الذكر الثلث لا الربع فأن يكون لها مع الأنثى الثلث لا الربع أولى وأحرى ولأنه قال {وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ}النساء١١ فقيد النصف بكونها واحدة فدل بمفهومه على أنه لا يكون لها إلا مع هذا الوصف بخلاف قوله {فَإِن كُنَّ نِسَاء}النساء١١ ذكر ضمير كن و ونساء وذلك جمع لم يمكن أن يقال اثنتين لأن ضمير الجمع لا يختص باثنتين ولأن الحكم لا يختص باثنتين فلزم أن يقال فوق اثنتين لأنه قد عرف حكم الثنتين وعرف حكم الواحدة وإذا كانت واحدة فلها النصف ولما فوق الثنتين الثلثان امتنع أن يكون للبنتين أكثر من الثلثين فلا يكون لهما جميع المال لكل واحدة النصف فإن الثلاث ليس لهن إلا الثلثان فكيف الثلاثة ولا يكفيها النصف لأنه لها بشرط أن تكون واحدة فلا يكون لها إذا لم تكن واحدة وهذه الدلالة تظهر من قراءة النصب {وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً}النساء١١ فإن هذا خبر كان تقديره فإن كانت بنتا واحدة أى مفردة ليس معها غيرها {فَلَهَا النِّصْفُ}النساء١١ فلا يكون لها ذلك إذا كان معها غيرها فانتفى النصف وانتفى الجميع فلم يبق إلا الثلثان وهذه دلالة من الآية وأيضا فإن الله لما قال فى الأخوات {فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ}النساء١٧٦ كان دليلا على أن البنتين أولى بالثلثين من الأختين وأيضا فسنة رسول الله لما أعطى ابنتى سعد بن الربيع الثلثين وأمهما الثمن والعم ما بقى وهذا إجماع لا يصح فيه خلاف عن إبن عباس ودلت آية الولد على أن حكم ما فوق الاثنين حكم الاثنتين فكذلك قال فى الأخوات {فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ}النساء١٧٦ ولم يذكر ما فوقهما فإنه إذا كانت الثنتان يستحقان الثلثين فما فوقهما بطريق الأولى والأحرى بخلاف آية البنات فإنه لم يدل قوله{لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١١ إلا على أن لها الثلث مع أخيها وإذا كن اثنتين لم يستحقوا الثلث فصار بيانه فى كل من الآيتين من أحسن البيان لما دل الكلام الأول عل ميراث البنتين دون ما زاد على ذلك بين بعد ذلك ميراث ما زاد على البنتين فى آية الصيف لما دل الكلام على ميراث الأختين وكان ذلك دال بطريق الأولى على ميراث الثلاثة أو الأربعة وما زاد لم يحتج أن يذكر ما زاد على الأختين فهناك ذكر ما فوق البنتين دون البنتين وفى الآية الأخرى ذكر البنتين دون ما فوقهما لما يقتضيه حسن البيان فى كل موضوع ولما بين حكم الأخت الواحدة والأخ الواحد وحكم الأختين فصاعدا بقى بيان الابنتين فصاعدا من الصنفين ليكون البيان مستوعبا للاقسام ولفظ الأخوة وسائر جميع ألفاظ الجمع قد يعنى به الجنس من غير قصد القدر منه فيتناول الاثنين فصاعدا وقد يعنى به الثلاثة فصاعدا وفى هذه الآية إنما عنى به العدد مطلقا لأنه بين الواحدة قبل ذلك ولأن ما ذكره من الأحكام فى الفرائض فرق فيه بين

الواحد والعدد وسوى فيه بين مراتب العدد الاثنين والثلاثة وقد صرح بذلك فى قوله {وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ}النساء١٢ إلى قوله {فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ}النساء١٢ فقوله {كَانُوَاْ}النساء١٢ضمير جمع وقوله {أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ}النساء١٢ أي من أخ وأخت ثم قال {فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ}النساء١٢ فذكرهم بصيغة الجمع المضمر وهو قوله فهم والمظهر وهو قوله شركاء فدل على أن صيغة الجمع فى آيات الفرائض تناولت العدد مطلقا الأثنين فصاعدا لقوله {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ}النساء١١ وقوله {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ}النساء١١ وقوله {وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء}النساء١٧٦ [1]

## لما كانت اللام للتمليك وجب استيعاب الأصناف والتسوية بينهم

أن الله لما قال في الفرائض {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١١ وقال {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ}النساء١٢ الى قوله {وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ}النساء١٢ وقال {وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١٧٦ لما كانت اللام للتمليك وجب استيعاب الأصناف المذكورين وأفراد كل صنف والتسوية بينهم فإذا كان لرجل أربع زوجات وأربعة بنين أو بنات أو أخوات أو أخوة وجب العموم والتسوية في الإفراد لأنه استحق بالنسب وهم مستوون فيه [2]

## اثبات الاسباب والحكم خلقا وامرا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ٣٣٩-٣٥٢

[2] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ١٠٢ و مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص: ٧٨

فالسلف والائمة متفقون على اثبات الاسباب والحكم خلقا وامرا ففي الامر ما يقول الفقهاء الاسباب المثبتة للارث ثلاثة نسب ونكاح وولاء عتق واختلفوا فى المحالفة والاسلام على يديه وكونهما من اهل الديوان منهم من يجعل ذلك سببا للارث كأبى حنيفة ومنهم من لا يجعله سببا كمالك والشافعى وعن احمد روايتان ومثل ما يقولون ملك النصاب سبب لوجوب الزكاة والقتل العمد العدوان المحض سبب للقود والسرقة سبب للقطع ومذهب الفقهاء ان السبب له تأثير فى مسببه ليس علامة محضة وانما يقول انه علامة محضة طائفة من اهل الكلام الذين بنوا على قول جهم وقد يطلق ما يطلقونه طائفة من الفقهاء وجمهور من يطلق ذلك من الفقهاء يتناقضون تارة يقولون بقول السلف والائمة وتارة يقولون بقول هؤلاء [1]

## البيان بيان القلب واللسان

قال تعالى {يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}النساء١٧٦ ان الله علم الانسان البيان كما قال تعالى{الرَّحْمَنُ{١} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{٢} خَلَقَ الْإِنسَانَ{٣} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{٤}الرحمن ١-٤ وقال تعالى {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}البقرة٣١ وقال {عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}العلق٥ والبيان بيان القلب واللسان كما أن العمى والبكم يكون في القلب واللسان كما قال تعالى {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}البقرة١٨ وقال {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}البقرة١٧١ وقال النبي هلا سألوا إذا لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال وفي الاثر العي عي القلب لا عي اللسان أو قال شر العي عي القلب وكان مسعود يقول إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه وسيأتي عليكم زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه وتبين الأشياء للقلب ضد اشتباهها عليه كما قال الحلال بين والحرام بين وبينهما امور مشتبهات الحديث وقد قرىء قوله {وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}الأنعام٥٥ بالرفع والنصب أي ولتتبين انت سبيلهم فالانسان يستبين الأشياء وهم يقولون قد بان الشيء وبينته وتبين الشيء وتبينته واستبان الشيء واستبنته كل هذا يستعمل لازما ومتعديا ومنه قوله تعالى {إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}الحجرات٦ هو هنا معتد ومنه قوله {بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}النساء١٩ أي متبينة فهنا هو لازم والبيان كالكلام

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٨٥

يكون مصدر بان الشيء بيانا ويكون اسم مصدر لبين كالكلام والسلام لسلم وبين فيكون البيان بمعنى تبين الشيء ويكون بمعنى بينت الشيء أي اوضحته وهذا هو الغالب عليه ومنه قوله ان من البيان لسحرا والمقصود ببيان الكلام حصول البيان لقلب المستمع حتى يتبين له الشيء ويستبين كما قال تعالى {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ} آل عمران١٣٨ الآية ومع هذا فالذي لا يستبين له كما قال تعالى {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} فصلت٤٤ وقال {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} النحل٤٤ وقال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} إبراهيم٤ وقال {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} النور٥٤ وقال {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ} التوبة١١٥ وقال {يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} النساء١٧٦ وقال {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي} الأنعام٥٧ الآية وقال {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ} هود١٧ وقال {وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} البقرة٩٩ وقال {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} النور٦١ فأما الأشياء المعلومة التي ليس في زيادة وصفها إلا كثرة كلام وتفيهق وتشدق وتكبر والافصاح بذكر الأشياء التي يستقبح ذكرها فهذا مما ينهى عنه كما جاء في الحديث أن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها وفي الحديث الحياء والعي شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق ولهذا قال إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه وفي حديث سعد لما سمع ابنه أو لما وجد ابنه يدعو وهو يقول اللهم أني اسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها واغلالها وكذا وكذا قال يا بني إني سمعت رسول الله يقول سيكون قوم يعتدون في الدعاء فاياك ان تكون منهم إنك إن أعطيت الجنة اعطيتها وما فيها من الخير وان اعذت من النار أعذت منها وما فيها من الشر [1]

## لطائف لغوية

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٦٣-٦٥

١ـ أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايفة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبا للآمر مقصودا له كما في قوله {وَاتَّقُواْ اللّهَ}البقرة١٨٩ {وَأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}المائدة٩٣ وفي قوله {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ}النساء١٧١ وفي قوله {اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}المائدة٧٢ وفي قوله {فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ}يونس٨٤ فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به [١]

٢ـ المضاف الى الله سبحانه فى الكتاب والسنة كان منه اضافة المخلوقات كقوله {نَاقَةُ اللّهِ}هود٦٤ وقوله {أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ}البقرة١٢٥ وقوله {رَسُولَ اللّهِ}النساء١٧١و {عِبَادَ اللَّهِ}الصافات٤٠ وقوله {ذُو الْعَرْشِ}غافر١٥ وقوله {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}البقرة٢٥٥ فهذا القسم لا خلاف بين المسلمين فى انه مخلوق [٢]

٣ـ قال تعالى {وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً}النساء١٧١ والأمر بتسبيحه يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضي التنزيه و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التى يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده [٣]

٤ـ وقال الله تعالى {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً}النساء١٧٢ لفظ

---

[١] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥١

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٤٤

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٢٦

العبد فى القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبده فلا يطلق عليه لفظ عبده ونحو هذا كثير وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها [1]

٥- قال تعالى{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً}النساء١٧٥ ورحمته اسم جامع لكل خيرودار الرحمة الخالصة هى الجنة [2]

٦- قال تعالى{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً}النساء١٧٥ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}الفاتحة٦ والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}البقرة٢ والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا}الأعراف٤٣ وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله {وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}الأنعام٨٧ وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ}النحل١٢١ {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ}الشورى١٣ وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ}التوبة٣٣ والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا [3]

٧- قال تعالى {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٤٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥

[3] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦

مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}النساء١٧٦ عليم منزه عن الجهل [1]

٨- أن الله لما قال في الفرائض {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١١ وقال {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ}النساء١٢ الى قوله {وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ}النساء١٢ وقال {وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١٧٦ لما كانت اللام للتمليك وجب استيعاب الأصناف المذكورين وأفراد كل صنف والتسوية بينهم فإذا كان لرجل أربع زوجات وأربعة بنين أو بنات أو أخوات أو أخوة وجب العموم والتسوية في الإفراد لأنه استحق بالنسب وهم مستوون فيه [2]

٩- المضاف الى الله سبحانه فى الكتاب والسنة كانت اضافة اسم الى اسم او نسبة فعل الى اسم او خبر باسم عن اسم واما الخبر الذى هو جملة اسمية فمثل قوله {وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}البقرة٢٨٤ وقوله تعالى {وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}النساء١٧٦ وذلك لان الكلام الذى توصف به الذوات اما جملة او مفرد فالجملة اما اسمية كقوله {وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}البقرة٢٨٢ او فعلية كقوله {عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ}المزمل٢٠ اما المفرد فلابد فيه من اضافة الصفة لفظا او معنى كقوله {بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}البقرة٢٥٥ وقوله {هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً}فصلت١٥ او اضافة الموصوف كقوله {ذُو الْقُوَّةِ}الذاريات٥٨ [3]

١٠- أن الاسم الواحد ينفي ويثبت بحسب الاحكام المتعلقة به فلا يجب إذا اثبت أو نفي فى حكم أن كذلك فى سائر الأحكام وهذا فى كلام العرب وسائر الأمم لأن

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[2] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ١٠٢

[3] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٤٤

المعنى مفهوم وكذلك كل ما يكون له مبتدأ وكمال ينفي تارة باعتبار انتقاء كماله ويثبت تارة باعتبار ثبوت مبدئه فلفظ الرجال يعم الذكور وإن كانوا صغارا فى مثل قوله {وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ}النساء١٧٦ ولا يعم الصغار فى مثل قوله {وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا}النساء٧٥ فإن باب الهجرة والجهاد عمل يعمله القادرون عليه فلو اقتصر على ذكر المستضعفين من الرجال لظن أن الولدان غير داخلين لأنهم ليسوا من اهله وهم ضعفاء فذكرهم بالاسم الخاص ليبين عذرهم فى ترك الهجرة ووجوب الجهاد [١]

١١- قال تعالى {يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{٧١} الصافات٦٩ -٧١ وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}الأحزاب٦٧ -٦٨ وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}طه١٢٣ ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}النجم٢ وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}الفاتحة٧ وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}القمر٤٧ [٢]

## تم بحمد الله وبفضله فله الشكر والحمد

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٢٢

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٧

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

###